بسم الله الرحمن الرحيم

« ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَٰفِرِينَ ۞ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ »

دعوةُ الأستاذ الإمام

حكيم الإسلام الشيخ محمد عبده رحمه الله

لمؤلف « وحى القلم » فى أول عهده بالأدب

ولدنا الأديب الفاضل مصطفى أفندى صادق الرافعى زاده الله أدبا

لله ما أثمر أدبك ولله ما ضمن لى قلبك لا أقارضك ثناء بثناء فليس ذلك
شأن الآباء مع الأبناء ولكنى أعدك من خلص الأولياء وأقدم صفك على صف
الأقرباء وأسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفا يمحق الباطل وأن يقيمك
فى الأواخر مقام حسان فى الأوائل والسلام

محمد عبده

٥ شوال ١٣٢١

نَصُّ كتاب الأستاذ الإمام

ولدنا الأديب الفاضل مصطفى افندى صادق الرافعى : زاده الله أدبا

لله ما أثمرَ أدَبُك ، ولله ماضَمِنَ لى قلبُك ، لاأقارِضُك ثناءً بثناء ، فليس ذلك شأنَ الآباءِ مع الأبناء ، ولكنى أُعدُّك من خُلَّصِ الأولياء ، وأُقدِّمُ صفَّك على صفِّ الأقرباء .

وأسألُ اللهَ أن يجعلَ للحق من لسانك سيفا يمحقُ الباطل ، وأن يُقيمَك فى الأواخرِ مقَامَ حسَّان فى الأوائل . والسلام ؟

٥ شوال سنة ١٣٢١ (*) محمد عبده

(*) يوافق هذا التاريخ ٢٥ من ديسمبر سنة ١٩٠٣ للميلاد .

تصـــــدير

محمد سعيد العريان

« ربما عابوا السموّ الأدبي بأنه قليل ، ولكن الخير كذلك ؛ وبأنه مخالف ، ولكن الحق كذلك : وبأنه محير ، ولكن الحسن كذلك ؛ وبأنه كثير التكاليف ، ولكن الحرية كذلك ! »

الرافعي

هذا كتابٌ آخِرُ كتاب أنشأه الرافعي ؛ ففيه النَّفْحةُ الأخيرة من أنفاسه ، والنَّبْضةُ الأخيرة من قلبه ، والوَمْضةُ الأخيرة من وجدانه... ؛ أفرأيتَ الليلَ المطبِق كيف تتروَّح نسماتُه الأخيرةُ بعبير الشجر ، وتتندَّى أزهارُه في نسيم السحر ؟

ألَا وإنه إلى ذلك أوَّلُ كتاب أنشأه على أسلوبه وطريقته ، فقد عاش الرافعي ماعاش يكتب مايكتب لنفسه وينشره لنفسه ، لايعنيه مما يكتب وينشر إلا أن يُحيل فكرةً في رأسه أو لمحةً في خاطره أو خَفْقةً في قلبه — إلى تعبير في لسانه أو معنًى في ديوانه : ولا عليه بعد ذلك أن يتأدَّى معناه إلى قارئه كما أراده أو يُغلَقَ دونَه ؛ فلما اتصل سببُه بمجلة « الرسالة »(١) رأى لقارئِه عليه حقا أكثر من حقِّ نفسه ، فكان أسلوبُه

(١) اتصل الرافعي بمجلة الرسالة قبيل موته بثلاث سنين ، وكان ذلك أول اشتغاله بالصحافة ، فلم يكن له قبلها صلة ، ثابتة ، بجريدة من الجرائد أو مجلة من المجلات ، وقد كان لذلك أثره في أسلوبه من قبل زمن بعد ، إلى أسباب أخرى . وانظر الصفحات ١٧٠ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٩١ ، ٢٤٧ من كتابنا « حياة الرافعي »

الجديدُ الذى أنشأ به هذا الكتاب .

على أن هذا الكتاب ـ وشأنُه ما قدَّمْت ـ يجمع كل خصائص الرافعى الأدبية متميِّزةً بوضوح ؛ فمن شاء فليقرأه دون سائر كتبه ، فسينكشف له الرافعى فى سائر كتبه . والأديبُ الحقُّ تَستعلِن نفسُه بطريقتها الخاصة فى كل زمان ومكان على اختلاف أحواله وما يحيط به

* * *

والرافعى عند طائفةٍ من قراء العربية أديبٌ عَسِرُ الهضم ، وهو عند كثير من هذه الطائفة متكلِّفٌ لا يُصدِر عن طبع ، وعند بعضِهم غامضٌ مُعَمًّى لا تَخلص إليه النفس ؛ ولكنه عند الكثرة من أهل الأدب وذوى الذوق البيانى الخالص ، أديبُ الأمة العربية المسلمة ، يعبِّر بلسانها وينطق عن ذات نفسها ؛ فما يعيب عليه عائبٌ إلا مِن نقصٍ فى وسائله ، أو كدرةٍ فى طبعه ؛ أو لأن بينه وبين طبيعة النفس العربية المسلمة التى ينطق الرافعى بلسانها ـ حجابا يُباعِدُ بينه وبين ما يقرأ روحًا ومعنى !

فمن شاء أن يقرأ ما كتب الرافعى ليتذوّق أدبه فيأخذ عنه أو يحكم عليه ، فليستوثقْ من نفسه قبلُ ويستكملْ وسائلَه ؛ فإن اجتمعت له أداتُه من اللغة والذوق البيانى ، وأحسّ إحساسَ النفس العربية المسلمة فيما تحبُّ وما تكره وما يخطر فى أمانيها ـ فذوْقُه ذوقٌ وحُكمه حُكم ؛

وإلا فليُسقِط الرافعيّ من عداد من يقرأ لهم ، أو فليُسقِط نفسَه من عداد هذه الأمة !

* * *

على أنه إذا حق لنا أن نرتِّبَ كُتبَ الرافعى ترتيبا يُعين قارئه على تذوُّقه أو دراسة أدبه ، فإن « وحى القلم » فى رأس هذا الثبت . هو آخِر ما أنشأ ولكنه أولُ ما ينبغى أن يُقرأ له ؛ وإن البدء به لحقيقٌ أن يعوِّد قارئَه أسلوبَ الرافعى فيَسْلَس له صَعْبُه وينقاد !

* * *

ذلك مجمل الرأى فى أسلوب هذا الكتاب ؛ على أن قارئه قد يقف منه عندْ مواضع فيسأل نفسه : كيف تأتَّى للرافعى أن يعالج موضوعه على هذا الوجه ؟ وكيف تهيَّأ له ذلك المعنى ؟ وأين ومتى اجتمعت له هذه الخواطر ؟ وفى أىِّ أحواله كان يكتب ؟ وعلى أىِّ نسق كان يؤلف موضوعه ويجمع أشتاته ويحشد خواطره ويصنِّف عبارتَه ؟ ...

... ولست أرى من حق أن أطيل القولَ هنا فى هذا الباب وقد ذكرتُه هناك (١) ، وإن موضوع الكتاب لَهُوَ الحقيق بالدرس والعناية .

والكتاب كما قد يُشعِر به عنوانُه ، هو مجموعة فصول ومقالات وقصص ، من وحى القلم وفيض الخاطر فى ظروف متباينة ، وأكثره مما كتبه لمجلة الرسالة بين سنتى ١٩٣٤ و ١٩٣٧ ؛ ولكل فصل أو مقالة

---

(١) انظر الصفحات ١٨٠ — ٢٤٧ من كتابنا « حياة الرافعى »

أو قصة من هذه المجموعة ، سببٌ أوحى إليه موضوعَها وأملى عليه القولَ فيها ؛ ولقد كنت على أن أثبِتَ (في هذه الطبعة) عند رأس كل موضوعٍ منها باعِثَه وحادثتَه ، لعلَّ من ذلك نوراً يكشف عن معنى مغلَق ، أو يوضِّح فكرة يكتنفها بعضُ الغموض ؛ ولكن بعضَ الضرورات قد ألزمتْنى أن أقتصد في البيان هنا اكتفاءً بما بيّنتُه في موضعه وأشرتُ إليه في هامش موضوعه

ولقد يقرأ القارئ بعض القِصص في هذا الكتاب ، فيسأل عند بعضها : أهذا حقٌّ يرويه أم باطل يدّعيه ؟ ويسأل عند بعضها : أهذا مما ينقل من مأثورات الأدب والتاريخ القديم ، أم إنشاءٌ مما يُبدعه الخيال وتُوَشِّيه الصنعة ؟ ثم يقرأ رأيَ الرافعي في القصة وكُتَّاب القصة [1] فيقول : أين رأيه من حقيقته وأين عمله مِن دَعْواه ؟

ولهذه القصص حديثٌ يطول ؛ ولكن حسْبي أن أقول إن الرافعي وإن هجر القصة ولم يحفل بها زمانًا ، فقد كانت القصة في أدبه وفي طبعه [2] .

* * *

وكما قلت من قبل : إن هذا الكتاب يجمع كل خصائص الرافعي الأدبية متميّزةً بوضوح في أسلوبه — كذلك أقول هنا إنه يجمع كل

(١) الجزء الثالث من وحي القلم

(٢) انظر الصفحات ١٧٠ و ٢٠٤ - ٢٠٨ « حياة الرافعي »

خصائصه العقلية والنفسية متميِّزة بوضوح فى موضوعه ؛ ففيه خُلُقه ودِينُه ، وفيه شبابُه وعاطفتُه ، وفيه تَزَمُّتُه ووقارُه ، وفيه فكاهتُه ومَرَحُه ، وفيه غضبُه وسخطه ؛ فمن شاء أن يعرف الرافعى عِرفانَ الرأى والفكرة والمعاشَرة فليعرفْه فى هذا الكتاب .

* * *

وهذه هى الطبعة الثانية لهذا الكتاب فى جزأيه الأول والثانى ، أتولاَّهما كما تولَّيْتُ الطبعةَ الأولى فى حياة المؤلف .

أما الجزء الثالث فهذه طبعته الأولى ؛ كان قصاصات من صحف وصفحاتٍ من كتب ومجلاتٍ فعاد كتاباً بين دفَّتين ؛ وقد رتّبتُ فصولَه على مابدا لى ؛ إذ لم أجدْ فيما خلّفَ المؤلّف من أوراق مايشير إلى رأيه فى ترتيبه ، ولكنه جمع أكثر موادّه فى غلافٍ وأودعه درجَ مكتبه إلى ميعاد ، ثم عاجلتْه منيّتُه ! وقد جمعتُ ماقدرتُ عليه بعدُ فأضفتُه إلى ماجَمع المؤلِّف ، ورتّبتُ كل ذلك وهيّأتُه للمطبعة ؛ فإن كان قد فاتنى شيء مما ينبغى إضافتُه إلى ذلك الجزء ، أو قصَّر بى الجهدُ عن ترتيبه على الوجه الأمثل ، فمعذرة إلى قارئه ؛ ولعلنى ـ بمعونة القراء ـ أستدرك فى الطبعة الثانية ـ إن شاء الله ـ ما فاتنى فى الأولى .

* * *

وللمؤلف فى ذيل بعض الصحائف تعليقات ، ولى تعليقاتٌ غيرُها اقتضاها مكانُها وموضوعُها ؛ فإذا رأى القارئ رمزَ التعليق فى الصلب

وفى الهامش رقما (١) ـ (٢) فهو مما علَّقتُه ؛ وإن كان الرمز نجما (*) أو نجوما (**) ـ (***) فهو مما علّقه المؤلِّف (رحمه الله) لبيان معنى أو تفسير كلمة .

* * *

وإن فى الكتاب لَفَنًّا وفكرا وبيانا ، وإن فيه لَمواضعَ تقتضى البسط والتطويل فى الحديث ، وإن فيه لمذاهبَ فى الإنشاء حقيقةً بالدرس والنظر ، ولكنى أجتزئ من ذلك كله بالعَرْضِ دون البيان ، لأدع لقارئه أن يقول مايشاء ويحكم ؛ ثم لأفسح المكان لمنشئ الكتاب أن يتحدث عن مذهبه فى البيان وهو عليه أقدر !؟

القاهرة فى ١١ من شوال سنة ١٣٦٠
٣١ من أكتوبر سنة ١٩٤١

محمد سعيد العريان

صدرُ الكتاب (١)

البيان

لا وُجودَ للمقالة البيانيةِ إلا فى المعانى التى اشتملتْ عليها ، يُقيمها الكاتبُ على حُدودٍ ويُديرها على طريقة ، مُصيبا بألفاظه مَواقعَ الشعور ، مُثيراً بها مَكامِنَ الخيال ، آخِذاً بوَزْنٍ تاركا بوَزْنٍ ، لتأخذَ النفسُ كما تشاءُ وتترك .

ونقلُ حقائقِ الدنيا نقلاً صحيحا إلى الكتابة أو الشعر ، هو انتزاعُها من الحياة فى أسلوب وإظهارُها للحياة فى أسلوبٍ آخرَ يكون أوفى وأدقّ وأجملَ ، لوضعه كلَّ شىء فى خاصِّ معناه ، وكَشْفِهِ حقائقَ الدنيا كَشْفَةً تحت ظاهرها المُلْتَبِس ؛ وتلك هى الصناعةُ الفنّيةُ الكاملة ؛ تَسْتَدْرِكُ النقصَ فتُتِمُّه ، وتتناولُ السرَّ فتُعلِنُه ، وتلمِسُ المقيَّدَ فتُطْلِقُه ، وتأخذ المطلَقَ فتَحُدُّه ، وتكشفُ الجمال فتُظهره ، وترفع الحياة درجةً فى المعنى ، وتجعل الكلامَ كأنه وَجد لنفسه عقلا يعيش به .

فالكاتبُ الحقُّ لا يكتبُ ليكتب ، ولكنه أداةٌ فى يد القوة المصوِّرة لهذا الوجود ، تُصوِّرُ به شيئاً من أعمالها فنّا من التصوير .

(١) مقدمة الطبعة الأولى : للمؤلف

الحكمةُ الغامضةُ تُريدُه على التفسير، تفسير الحقيقة؛ والخطأُ الظاهرُ يريده على التبيين، تبيينِ الصواب؛ والفَوضى المائجةُ تسأله الإقرار، إقرارَ التناسب؛ وما وراء الحياة، يتخذ من فكره صلةً بالحياة؛ والدنيا كلها تنتقل فيه مَرْحَلةً نفسيةً لتعلوَ به أو تنزل. ومن ذلك لا يُخلق المُلْهَمُ أبداً إلا وفيه أعصابُه الكهربائية، وله في قلبه الرقيقِ مواضعُ مُهيَّأةٌ للاحتراق، تنفذ إليها الأشعةُ الروحانيةُ وتتساقط منها بالمعاني.

وإذا آختير الكاتبُ لرسالةٍ ما، شعر بقوةٍ تفرض نفسَها عليه: منها سِنادُ رأيه، ومنها إقامةُ برهانه، ومنها جمالُ ما يأتي به، فيكون إنسانا لأعماله وأعمالها جميعا، له بنفسه وجودٌ، وله بها وجودٌ آخر، ومن ثَمّ يُصبح عالَمًا بعناصره للخير أو الشر كما يُوجَّه؛ ويُلقَى فيه مِثلُ السر الذي يُلقَى في الشجرة لإخراج ثمرها بعملٍ طبيعيّ يُرَى سهلا كلَّ السهل حين يتمّ، ولكنه صعبٌ أيُّ صعبٍ حين يَبدأ.

هذه القوة هي التي تجعل اللفظةَ المُفْرَدَةَ في ذهنه مَعنًى تامًّا، وتحوّل الجملةَ الصغيرة إلى قصة، وتنتهي باللمحة السريعة إلى كشفٍ عن حقيقة؛ وهي تُخرجه من حكم أشياءَ ليحكمَ عليها، وتُدْخله في حكم أشياءَ غيرِها لتحكم عليه؛ وهي هي التي تميز طريقتَه وأسلوبَه؛ وكما خُلق الكونُ من الإشعاع تضع الإشعاعَ في بيانه (*)

(*) ثبت أن الاشعاع هو المادة التي صنع منها الكون.

ولا بد من البيان فى الطبائع الملهَمة ليتسِعَ به التصرُّف ، إذ الحقائقُ أسمى وأدقّ من أن تُعرفَ بيقين الحاسة أو تنحصرَ فى إدراكها ؛ فلو حُدَّت الحقيقةُ لما بقيت حقيقة، ولو تَلَبَّسَ الملائكةُ بهذا اللحمِ والدمِ لبطل أن يكونوا ملائكة ؛ ومن ثَمَّ فكثرةُ الصوَر البيانيةِ الجميلة ، للحقيقة الجميلة ، هى كل مايمكن أو يَتَسَنَّى من طريقةِ تعريفِها للإنسانية .

وأىُّ بيانٍ فى خُضرة الربيع عند الحيوان من آكِلِ العُشْبِ ، إلا بيانُ الصورة الواحدةِ فى معِدتهِ ؟ غير أن صُوَرَ الربيع فى البيان الإنسانىّ على اختلاف الأرض والأمم ، تكاد تكون بعدد أزهاره ، ويكاد الندى يُنضِّرُها حُسْناً كما ينضّره .

ولهذا ستبقى كل حقيقة من الحقائق الكبرى ، كالإيمان ، والجمال ، والحب ، والخير ، والحق — ستبقى محتاجةً فى كل عصر إلى كتابة جديدة من أذهانٍ جديدة .

* * *

وفى الكتَّاب الفضلاءِ باحثون مفكرون تأتى ألفاظُهم ومعانيهم فنًّا عقليا غايتُه صحةُ الأداء وسلامةُ النَّسَقِ ، فيكونُ البيانُ فى كلامهم على نَدْرَةٍ كوَخزِ الخُضرةِ فى الشجرة اليابسة هنا وهنا ؛ ولكن الفنَّ البيانى يرتفع على ذلك بأن غايته قوةُ الأداء مع الصحة ، وسموُّ التعبير مع الدقة ، وإبداعُ الصورة زائداً جمالَ الصورة ؛ أولئك فى الكتابة كالطير له

جناحٌ يجرى به ويَدِفُّ ولا يطير ؛ وهؤلاء كالطير الآخر له جناح يطير به ويجرى . ولو كتَبَ الفريقان فى معنى واحدٍ لرأيتَ المنطقَ فى أحد الأسلوبين وكأنه يقول : أنا هنا فى معانٍ وألفاظ . وترى الإلهامَ فى الأسلوب يُطالِعُك أنه هنا فى جلال وجمال ، وفى صُوَر وألوان .

ودَوْرَةُ العبارة الفنية فى نفس الكاتب البيانى ، دورةُ خلق وتركيب ، تخرج بها الألفاظ أكبرَ مما هى ، كأنها شَبَّتْ فى نفسه شبابا ؛ وأقوى مما هى ، كأنما كسَبَتْ من روحه قوة ؛ وأدلَّ مما هى ، كأنما زاد فيها بصناعته زيادة : فالكاتب العلمىُّ تمرُّ اللغةُ منه فى ذاكرةٍ وتخرج كما دخلت ، عليها طابعُ واضعيها ؛ ولكنها من الكاتب البيانى تمر فى مصنع ، وتخرج عليها طابعُه هو : أولئك أزاحوا اللغة عن مرتبةٍ سامية ، وهؤلاء عَلَوْا بها إلى أسمى مراتبها ؛ وأنت مع الأولين بالفكر ، ولا شىء إلا الفكرُ والنظرُ والحكم ، غير أنك مع ذى الحاسَّة البيانية لا تكون إلا بمجموع ما فيك من قوة الفكر والخيال والإحساس والعاطفة والرأى .

وللكتابة التامةِ المفيدة مثلُ الوجهين فى خلْق الناس : ففى كل الوجوه تركيبٌ تامٌّ تقوم به منفعةُ الحياة ، ولكن الوجه المنفردَ يجمع إلى تمام الخَلْق جمالَ الخَلق ، ويزيد على منفعة الحياة لذّةَ الحياة ، وهو لذلك ، وبذلك ، يُرى ويؤثّر ويُعشَق .

وربما عابوا السموَّ الادبى بأنه قليل ، ولكنَّ الخير كذلك ؛ وبأنه

مخالف ، ولكن الحق كذلك ؛ وبأنه مُحيِّر ، ولكن الحسن كذلك ؛ وبأنه كثير التكاليف ، ولكن الحرية كذلك .

إن لم يكن البحرُ فلا تنتظر اللؤلؤ ، وإن لم يكن النجمُ فلا تنتظر الشعاع ، وإن لم تكن شجرةُ الورد فلا تنتظر الورد ، وإن لم يكن الكاتبُ البيانيُّ فلا تنتظر الأدب ؟

مصطفى صادق الرافعى

اليمامتان[1]

جاء فى تاريخ الواقدى

« أن المُقَوْقِسَ عظيمَ القِبْطِ فى مِصر ، زوّج بنتَه أرمانوسةَ من قسطنطين ابن هِرَقْل ، وجهّزها بأموالها وحَشَمِها لتسيرَ إليه ، حتى يَبْنِىَ عليها فى مدينة قَيْسارِيّةَ ؛ فخرجت إلى بُلْبَيْسَ وأقامتْ بها (*) . . وجاء عَمْرُو بن العاص إلى بلبيس فحاصرها حِصاراً شديداً ، وقاتلَ مَن بها ، وقتل منهم زُهاءَ ألفِ فارس ، وانهزم مَن بقى إلى المقوقس ، وأُخِذت أرمانوسةُ وجميعُ مالها ، وأُخِذ كلُّ ماكان للقبط فى بلبيس ؛ فأحبَّ عمرٌو ملاطفةَ المقوقس ، فسيّر إليـــه ابنتَه مكرَّمةً فى جميع مالهـا . مع قَيْس بنِ أبى العاص السَّهْمى ؛ فسُرَّ بقدومها . . . »

✡ ✡ ✡

هـذا ماأثبتَه الواقدى فى روايته ، ولم يكن مَعْنِيًّا إلا بأخبار المَغازى والفُتوح ، فكان يقتصر عليها فى الرواية : أما ماأغفله فهو مانقُصُّه نحن :

كانت لأرمانوسةَ وصيفةٌ مُوَلَّدةٌ تُسَمَّى مارِيَة ، ذاتُ جمالٍ يونانىٍّ أتمَّته مصرُ ومَسَحَتْه بسحرها ، فزاد جمالُها على أن يكون مصريًّا ، ونَقَصَ الجمالُ اليونانىّ أن يكونَه ، فهو أجملُ منهما ؛ ولمصرَ طبيعةٌ خاصة فى الحسن ، فهى قد تُهْمِلُ شيئًا فى جمال نسائها ، أو تُشَعِّث منه ، وقد لاتوفّيه جهدَ محاسنها الرائعة ؛ ولكن متى نشأ فيها جمالٌ ينْزِعُ إلى أصلٍ أجنبى ، أفرغتْ فيـه

---

(١) انظر حديث القصة فى أدب الرافعى ص ٢٠٤ - ٢٠٨ « حياة الرافعى » ، ثم انظر الحديث عن قصة « اليمامتان » ص ٢٢٨ - ٢٢٩ منه

(*) قيسارية : بلدة بفلسطين . وبلبيس : هى المدينة المعروفة بمديرية الشرقية بمصر

سحرَها إفراغا ، وأبتْ إلا أن تكون الغالبةَ عليه ، وجعلته آيتَها فى المقابلةِ بينه فى طابَعِهِ المصرىّ ، وبين أصله فى طبيعة أرضه كائنةً ما كانت ؛ تغارُ على سحرها أن يكون إلا الأعلى !

وكانت ماريةُ هذه مسيحيةً قويةَ الدينِ والعقل ، اتخذها المقوقِسُ كنيسةً حيّةً لابنته ، وهو كان والياً وبَطْرِيَرْكًا على مصر من قِبَلِ هِرَقْل ؛ وكان من عجائب صُنْع الله أن الفتحَ الإسلامىّ جاء فى عهده ، فجعل اللهُ قلبَ هذا الرجل مِفتاحَ القُفْل القبطىّ ، فلم تكن أبوابُهم تُدافِعُ إلا بمقدار ماتُدفَع : تُقاتل شيئا من قتالٍ غيرِ كبير ؛ أما الأبوابُ الروميّةُ فبقيتْ مستغلِقةً حصينة لاتُذْعِنُ إلا للتحطيم ، ووراءها نحوُ مائة ألفِ رومىٍّ يقاتلون المعجزةَ الإسلاميَّةَ التى جاءتهم من بلاد العرب أوّلَ ماجاءت فى أربعة آلاف رجل ، ثم لم يزيدوا آخِرَ مازادوا على اثنى عشر ألفا . كان الروم مائة ألف مُقاتلٍ بأسلحتهم ، ولم تكن المدافع معروفة ، ولكن رُوح الإسلام جعلت الجيش العربىّ كأنه اثنا عشر ألف مِدْفع بقنابلها ، لايقاتِلون بقوّة الإنسان ، بل بقوّة الروح الدينية التى جعلها الإسلامُ مادةً مُنفجرةً تُشْبِه الدِّيناميتَ قبل أن يُعْرَفَ الدِّيناميت !

ولما نزل عمْرو بجيشه على بُلبيس ، جَزِعتْ ماريةُ جزعًا شديدا ؛ إذ كان الروم قد أرجفوا أن هؤلاء العربَ قومٌ جياعٌ ، يَنْفُضهم الجدْبُ على البلاد نَفْضَ الرمالِ على الأعين فى الريح العاصف ، وأنهم جرادٌ إنسانىّ لايغزو إلا لِبَطْنِه ، وأنهم غِلاظُ الأكباد كالإبل التى يمتطونها ، وأن النساء عندهم كالدّوابّ يُرْتَبَطْنَ على خَسْف ، وأنهم لاعهدَ لهم ولا وفاء ، ثَقُلت مطامعُهم ، وخَفَّت أماناتُهم ؛ وأن قائدَهم عَمْرَو بنَ العاص كان جزّارا فى الجاهليّة ، فما تَدَعُه روحُ الجزّار ولا طبيعتُه ، وقد جاء بأربعة آلاف سالخٍ من أخلاط الناس وشُذّاذِهم ،

لأربعةِ آلاف مقاتلٍ من جيشٍ له نظامُ الجيش

وتوهّمتْ ماريةُ أوهامَها ، وكانت شاعرةً قد درست هي وأرمانوسةُ أدبَ يونانَ وفلسفتَهم ، وكان لها خيالٌ مشبوبٌ متوقِّد يُشعِرُها كلَّ عاطفةٍ أكبرَ مما هي ، ويضاعف الأشياءَ في نفسها ، وينزِعُ إلى طبيعته المؤنَّثة ، فيبالغُ في تهويل الحزنِ خاصّة ، ويجعل من بعض الألفاظ وَقُودا على الدم . . .

ومن ذلك استُطِيرَ قلبُ مارية وأفزعتها الوساوس ، فجعلت تَنْدُبُ نفسها ، وصنعت في ذلك شعراً هذه ترجمتُه :

« جاءكِ أربعةُ آلافِ جزّارٍ أيَّتها الشاةُ المِسكينة !

« ستذوق كلُّ شعرةٍ منكِ ألمَ الذبح قبل أن تُذبحي !

« جاءكِ أربعةُ آلافِ خاطفٍ أيتها العذراءُ المسكينة !

« ستموتين أربعةَ آلافِ مِيتةٍ قبل الموت !

« قَوِّني يا إلهي ، لأغمِدَ في صدري سِكّينا يردُّ عني الجزّارين !

« يا إلهي ! قَوِّ هذه العذراءَ ، لتتزوَّج الموتَ قبل أن يتزوجها العربي . . ! »

✡ ✡ ✡

وذهبت تتلو شِعرَها على أرمانوسةَ في صوتٍ حزينٍ يتوجَّع ، فضحكتْ هذه وقالت : أنتِ واهمةٌ يا مارية ؛ أنسيتِ أن أبي قد أهدَى إلى نبيهِّم بنتَ (أنصِنا) (*) ، فكانت عنده في مملكةٍ بعضُها السماءُ وبعضُها القلب ؟ لقد أخبرني أبي أنه بَعَثَ بها لتكشفَ له عن حقيقةِ هذا الدين وحقيقةِ هذا النبيّ ؛ وأنها أنفذتْ إليه دَسِيسا يُعلمُه أن هؤلاء المسلمين هم العقلُ الجديدُ الذي سيضع في العالم تمييزَه بين الحق والباطل ، وأن نبيهَّم أطهرُ من السحابة

(*) هي مارية القبطية التي أهداها المقوقس إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكانت من أنصنا ، بالوجه القبلي

فى سمائها . وأنهم جميعا ينبعثون من حُدود دينهم وفضائله ، لا من حدود أنفسهم وشهواتِها ، وإذا سَلُّوا السيفَ سَلُّوه بقانون ، وإذا أغمدوه أغمدوه بقانون . وقالت عن النساء : لَأَنْ تخاف المرأةُ على عفتها من أبيها ، أقربُ من أن تخافَ عليها من أصحاب هذا النبىّ ؛ فإنهم جميعا فى واجبات القلب وواجبات العقل ، ويكاد الضميرُ الإسلامىُّ فى الرجل منهم يكون حاملاً سلاحاً يَضرِبُ صاحبَه إذا همّ بمخالفته .

وقال أبى : إنهم لا يُغِيرُون على الأمم ، ولا يحاربونها حرب المُلك ؛ وإنما تلك طبيعةُ الحركة للشريعة الجديدة . تتقدَّم فى الدنيا حاملةً السلاحَ والأخلاق ، قوية فى ظاهرها وباطنها ، فمن وراء أسلحتهم أخلاقُهم ؛ وبذلك تكون أسلحتُهم نفسُها ذاتَ أخلاق !

وقال أبى : إن هذا الدينَ سيندفعُ بأخلاقِه فى العالَم اندفاعَ العُصارة الحيّةِ فى الشجرةِ الجرداء : طبيعةٌ تعملُ فى طبيعة ، فليس يَمضى غيرُ بعيدٍ حتى تَخْضَرّ الدنيا وترمىَ ظِلالَها ؛ وهو بذلك فوق السياسات التى تُشْبه فى عملها الظاهرِ الملفَّقِ ما يُعدُّ كطلاءِ الشجرة الميتةِ الجرداء بلونٍ أخضر ... ! شَتَّانَ بين عملٍ وعمل ، وإن كان لونٌ يشبه لونا ...

فاسترْوَحتْ ماريةُ واطمأنت باطمئنان أرمانوسة ، وقالت : فلا ضَيْرَ علينا إذا فتحوا البلد ، ولا يكون ما نَسْتَضِرُّ به ؟

قالت أرمانوسة : لا ضيرَ يامارية ، ولا يكون إلا ما نُحِبُّ لأنفسنا ؛ فالمسلمون ليسوا كهؤلاء العُلوج من الروم ، يفهمون متاعَ الدنيا بفكرة الحرص عليه ، والحاجةِ إلى حلاله وحرامه ، فهم القُساةُ الغِلاظُ المُستكلِبون كالبهائم ؛ ولكنهم يفهمون متاعَ الدنيا بفكرة الاستغناءِ عنه ، والتمييزِ بين حلاله وحرامه ، فهم الإنسانيّون الرُّحماءُ المتعففون

قالت مارية : وأبيك يا أرمانوسةُ إن هذا لعَجيب ! فقد مات سقراط وأفلاطونُ وأرِسْطو وغيرُهم من الفلاسفة والحكماء، وما استطاعوا أن يؤدِّبوا بحكمتهم وفلسفتهم إلا الكتبَ التى كتبوها ... ! فلم يُخرِجوا للدنيا جماعةً تامةَ الإنسانيـة ، فضلا عن أمةٍ كما وصفتِ أنتِ من أمر المسلمين؛ فكيف استطاع نبيُّهم أن يُخرِجَ هـذه الأمةَ ، وهم يقولون إنه كان أميا ؟ أفتَسْخَرُ الحقيقة من كِبار الفلاسفةِ والحكماءِ وأهل السياسة والتدبير، فندعهم يعملون عَبَثًا أو كالعبث ، ثم تستسلم الرجل الأُمِّيّ الذى لم يكتُب ولم يقرأ ولم يدرُس ولم يتعلم ؟

قالت أرنوماسة : إن العلماء بهيئةِ السماء وأجرامِها وحسابِ أفلاكها، ليسوا هم الذين يَشُقُّون الفجر ويُطلِعون الشمس، وأنا أرى أنه لابد من أمة طبيعيةٍ بفطرتها، يكونُ عملُها فى الحياة إيجادَ الأفكار العمليّة الصحيحةِ التى يسير بها العالَم، وقد درستُ المسيحَ وعملَه وزمنَه فكان طِيلةَ عمره يحاول أن يوجِد هذه الأمة، غير أنه أوجدها مُصغَّرةً فى نفسه وحوارييِّه، وكان عملُه كالبدءِ فى تحقيق الشيء العسير : حَسْبُه أن يُثبِتَ معنى الإمكان فيه

وظهورُ الحقيقة من هذا الرجل الأُمِّيّ ، هو تنبيهُ الحقيقة إلى نفسها ، وبرهانُها القاطعُ أنها بذلك فى مظهرها الإلهيّ : والعجيبُ يامارية ، أن هذا النبي قد خذله قومُه وناكَروه وأجمعوا على خِلافه ، فكان فى ذلك كالمسيح ، غير أن المسيحَ انتهى عند ذلك . أما هذا فقد ثبتَ ثَباتَ الواقع حين يقع : لايرتدُّ ولا يتغير؛ وهاجرَ من بلده ، فكان ذلك أولَ خُطا الحقيقةِ التى أعلنت أنها ستمشى فى الدنيا، وقد أخذتْ من يومئذ تمشى (*) .

ولو كانت حقيقة المسيح قد جاءت للدنيا كلِّها لهاجرتْ به كذلك ؛ فهذا

(*) انظر المقالات النبوية فى الجزء الثانى من هذا الكتاب

فرقٌ آخر بينهما .

والفرقُ الثالثُ أن المسيح لم يأت إلا بعبادةٍ واحدةٍ ، هى عبادةُ القلب ؛ أما هذا الدينُ فعلمتُ من أبى أنه ثلاثُ عباداتٍ يشدُّ بعضها بعضا : إحداها للأعضاء ، والثانيةُ للقلب ، والثالثةُ للنفس ؛ فعبادةُ الأعضاء طهارتُها واعتيادُها الضبط ، وعبادةُ القلبِ طهارتُه وحبُّه الخير ؛ وعبادةُ النفسِ طهارتُها وبذلُها فى سبيل الإنسانية ؛ وعند أبى أنهم بهذه الأخيرة سيملكون الدنيا ، فإن تنهرأُمةٌ عقيدتُها أن الموتَ أوسعُ الجانبين وأسعدُهما .

قالت مارية : إن هذا والله لسِرٌّ إلٰهِىٌّ يدلُّ على نفسه ، فمن طبيعة الإنسان ألا تنبعثَ نفسُه غيرَ مباليةٍ الحياةَ والموتَ إلا فى أحوالٍ قليلة تكون طبيعة الإنسان فيها عمياء : كالغضب الأعمى ، والحبِّ الأعمى ، والتكبُّرِ الأعمى ؛ فإذا كانت هذه الأمَّةُ الإسلاميةُ كما قلتِ منبعثةً هذا الانبعاث ، ليس فيها إلا الشعورُ بذاتيتها العالية ، فما بعد ذلك دليلٌ على أن هذا الدينَ هو شعورُ الإنسان بسموِّ ذاتيّتِه ، وهذه هى نهايةُ النهاياتِ فى الفلسفة والحكمة .

قالت أرمانوسة : وما بعد ذلك دليلٌ على أنكِ تهيئين أن تكونى مسلمة يا مارية . . . !

فاستَضحكَتا معًا ، وقالت مارية : إنما ألقيتِ كلاما جاريتُكِ فيه بحَسَبِه ، فأنا وأنتِ فكرتان ، لا مسلمتان .

* * *

قال الراوى : وانهزم الرومُ عن بُلبيس ، وارتدُّوا إلى المقوقس فى مَنْف ، وكان وحىُ أرمانوسةَ فى ماريةَ مدةَ الحِصار — وهى نحو الشهر — كأنه فكرٌ سكَنَ فكرا وتمدَّد فيه ؛ فقد مرّ ذلك الكلامُ بما فى عقلها من حقائق النظر فى الأدب والفلسفة ، فصنع ما يصنعُ المؤلفُ بكتابٍ ينقّحه ، وأنشأ لها أخيلَةَ

تُجادلها وتدفعها إلى التسليم بالصحيح لأنه صحيح ، والمؤكَّدِ لأنه مؤكَّد

ومن طبيعة الكلام إذا أثر فى النفس ، أن ينتظم فى مثل الحقائق الصغيرة التى تُلْقَى للحفظ ؛ فكان كلامُ أرمانوسة فى عقل مارية هكذا :

« المسيحُ بَدْءٌ وللبدء تَكْمِلة ، مامن ذلك بدّ »

« لاتكون خدمةُ الإنسانية إلا بذاتٍ عالية لاتبالى غيرَ سموِّها »

« الأمةُ التى تبذل كلَّ شىء وتستمسكُ بالحياة جُبْنا وحرصا ، لاتأخذ شيئا ؛ والتى تبذل أرواحَها فقط ، تأخذ كل شىء . »

وجعلتْ هذه الحقائقُ الإسلاميةُ وأمثالُها تُدرِّب هذا العقلَ اليونانى ، فلما أراد عمرو بن العاص توجيهَ أرمانوسةَ إلى أبيها ، وانتهى ذلك إلى ماريةَ ، قالت لها : لا يَجْمُلُ بمن كانت مثلَكِ فى شرفها وعقلها أن تكون كالأخيذة ، تَتَوَجَّه حيث يُسارُ بها ، والرأى أن تبدئى هذا القائدَ قبل أن يبدأكِ ؛ فأرسلى إليه فأعلميه أنك راجعةٌ إلى أبيك ، وآسأليه أن يُصحِبَكِ بعضَ رجاله ؛ فتكونى الآمرةَ حتى فى الأسْر ، وتصنعى صُنْعَ بناتِ الملوك !

قالت أرمانوسة : فلا أجد لذلك خيرا منك فى لسانكِ ودَهائك ، فاذهبى إليه من قِبَلى ، وسيَصحبُك الراهبُ (شطا) ، وخُذى معك كوكبةً من فرساننا . . .

✡ ✡ ✡

. . . قالت ماريةُ وهى تقصُّ على سيِّدتها :

لقد أدَّيتُ إليه رسالتَكِ فقال : كيف ظنُّها بنا ؟ قلت : ظنُّها بفعلِ رجلٍ كريمٍ يأمره اثنان : كرمُه ، ودينُه . فقال : أبلغيها أن نبينا صلى الله عليه وسلم قال : « آستوْصُوا بالقبط خيرا فإن لهم فيكم صِهْرًا وذِمة . » وأعلميها أننا لسنا على غارة نُغِيرُها ، بل على نفوسٍ نُغيِّرُها .

قالت : فَصِفيهِ لى يامارية .

قالت : كان آتيا فى جماعةٍ من فرسانه على خيولهم العِراب ، كأنها شياطينُ تحمل شياطينَ من جنسٍ آخر ، فلما صار بحيث أتبيّنُه أَوْمَأَ إليه التَّرْجُمانُ — وهو وَرْدَانُ مولاه — فنظرتُ . فإذا هو على فرس كُمَيْت أحمّ (*) لم يخلُص للأسْوَدِ ولا للأحمر طويلِ العنق يُشرِف له ذُؤابةٌ أعلى ناصيتِه كطُرَّةِ المرأة ، ذيَّال يتبختر بفارسه ويُحَمْحِمُ كأنه يريد أن يتكلم ، مُطهَّم . . .

فقطعت أرمانوسة عليها وقالت : ماسألتُكِ صفةَ جوادِه . . .

قالت مارية : أما سلاحُه . . .

قالت : ولا سِلاحِه ، صِفيه كيف رأيته : هو . . . !

قالت : رأيتُه قصيرَ القامةِ ، علامةَ قوة وصلابة ؛ وافرَ الهامةِ ، علامةَ عقل وإرادة ، أدعج العينين . . .

فضحكت أرمانوسة وقالت : علامة ماذا ؟ . . .

. . . أبلجَ يُشرِقُ وجهُه كأن فيه لألاءَ الذهبِ على الضوء ، أَيِّداً اجتمعتْ فيه القوَّةُ حتى لتكادُ عيناه تأمران بنظرهما أمرا . . داهيةً كُتِبَ دَهاؤه على جبهته العريضةِ يجعل فيها معنى يأخذ من يراه ؛ وكلما حاولتُ أن أتفرَّسَ فى وجهِه رأيتُ وجهَه لايُفسِّرُهُ إلا تكرارُ النظر إليه . . .

وتضرَّجتْ وجنتاها ، فكان ذلك حديثا بينها وبين عينَيْ أرمانوسة . . .

وقالت هذه : كذلك كلُّ لذة لايفسرها للنفس إلا تكرارُها . . . !

فغضَّت ماريةُ من طَرْفِها وقالت : هو والله ماوَصَفْتُ ، وإنى ماملأْتُ عينى منه ، وقد كدتُ أنكر أنه إنسان لما اعترانى من هَيبته . . .

(*) الكميت الأحم : هو الأحمر الضارب للسواد ، لايخلص لأحد اللونين ، فإذا كان أحمر خالصاً قيل فيه : كيت مدمى (بتشديد الميم الثانية وفتحها)

قالت أرمانوسة : من هيئته أم من عيايه الدجاوين . . . !

* * *

. . . ورجعتْ بنتُ المقوقس إلى أبيها فى صحبة قيس ، فلما كانوا فى الطريق وَجَبَتْ الظُّهر ، فنزل قيسٌ يُصَلِّى بمن معه والفنانان تنظران ؛ فلما صاحوا : « الله أكبر . . . ! » ارتعش قلبُ مارية ، وسألت الراهبَ شطا : ماذا يقولون ؟ قال : إن هذه كلمةٌ يَدخلون بها صلاتَهم ، كأنما يخاطِبون بها الزمنَ أنهم الساعةَ فى وقت ليس منه ولا من دنياهم ، وكأنهم يُعلنون أنهم بين يدىْ من هو أكبرُ من الوجود ؛ فإذا أعلنوا انصرافَهم عن الوقت ونزاعِ الوقت وشَهَواتِ الوقت ، فذلك هو دخولُهم فى الصلاة ؛ كأنهم يَمْحُون الدنيا من النفس ساعة أو بعضَ ساعة ، ومَحْوُها من أنفسهم هو ارتفاعُهم بأنفسهم عليها : انظرى ، ألا تَرَيْنَ هذه الكلمة قد سَحَرَتهم سِحْرا ، فهم لا يلتفتون فى صلاتهم إلى شىء ، وقد شملتهم السكينة وَرَجَعوا غيرَ مَن كانوا ، وخشعوا خُشوعَ أعظم الفلاسفةِ فى تأمُّلِهم ؟ (*)

قالت مارية : ماأجملَ هذه الفطرةَ الفلسفيّة ! لقد تَعِبَت الكتبُ لتجعلَ أهلَ الدنيا يستقرُّون ساعةً فى سكينةِ الله عليهم ، فما أفلحتْ ؛ وجاءت الكنيسة فهوّلت على المصلِّين بالزخارف والصُّوَر والتماثيل والألوان ، لتُوحِىَ إلى نفوسهم ضربا من الشعور بسكينة الجمال وتقديسِ المعنى الدِّينِىِّ ، وهى بذلك تحتال فى نقلهم من جوِّهم إلى جوِّها ؛ فكانت كساقى الخمر : إن لم يُعطك الخمرَ عَجزَ عن إعطائك النَّشْوة ؛ ومن ذا الذى يستطيع أن يحملَ معه كنيسةً على جوادٍ أو حمار ؟

قالت أرمانوسة : نعم إن الكنيسةَ كالحديقة ؛ هى حديقةٌ فى مكانها ، وقلما

(*) انظر مقالة (حقيقة المسلم) فى الجزء الثانى

تُوحِى شيئاً إلا فى موضعها ، فالكنيسةُ هى الجدرانُ الأربعة ؛ أما هؤلاء فمعبدُهم بين جهات الأرض الأربع .

قال الراهب شطا : ولكن هؤلاء المسلمين متى فُتِحَتْ عليهم الدنيا وافتتنوا بها وانغمسوا فيها ، فستكون هذه الصلاةُ بعينها ليس فيها صلاةٌ يومئذ .

قالت مارية : وهل تُفتَح عليهم الدنيا ؛ وهل لهم قُوّاد كثيرون كعَمْرو .. ؟

قال : كيف لا تُفتح الدنيا على قوم لا يُحاربون الأممَ ، بل يحاربون مافيها من الظلم والكفر والرذيلة ؛ وهم خارجون من الصحراء بطبيعةٍ قويةٍ كطبيعة المَوْج فى المدّ المرتفع : ليس فى داخلها إلا أنفُسٌ مندفعةٌ إلى الخارج عنها ثم يقاتلون بهذه الطبيعة أمما ليس فى الداخل منها إلا النفوسُ المستعدّةُ أن تهربَ إلى الداخل ... !

قالت مارية : والله لكأننا ثلاثتنا على دِين عَمرو ....

* * *

وانفتل قيسٌ من الصلاة ، وأقبل يترحّل ، فلما حاذَى مارِيَة كان عندها كأنما سافر ورجع ، وكانت ماتزال فى أحلام قلبها ، وكانت من الحلم فى عالَمٍ أخذَ يتلاشى إلا من عَمرٍو ومايتصل بعمرو .

وفى هذه الحياةِ أحوالٌ « ثلاثٌ » يغيب فيها الكونُ بحقائقه : فيغيبُ عن السكران ، والمخبول ، والنائم ؛ وفيها حالةٌ رابعة يتلاشى فيها الكون إلا من حقيقةٍ واحدةٍ تتمثّل فى إنسان محبوب .

وقالت مارية للراهب شطا : سَلْهُ : ماأرَبُهم من هذه الحرب ؟ وهل فى سياستهم أن يكونَ القائدُ الذى يفتح بلدا ، حاكما على هذا البلد ... ؟

قال قيس : حَسْبُكِ أن تعلمى أن الرجل المسلم ليس إلا رجلًا عاملاً فى

تحقيق كلمةِ الله ، أما حظُّ نفسِه فهو فى غيرِ هذه الدنيا .

وترجَمَ الراهبُ كلامَه هكذا : أما الفاتحُ فهو فى الأكثر الحاكم المقيم ، وأما الحربُ فهى عندنا الفكرةُ المُصْلِحَةُ تريد أن تضربَ فى الأرض وتعمل ، وليس حظُّ النفس شيئاً يكون من الدنيا ؛ وبهذا تكون النفسُ أكبر من غرائزها ، وتنقلب معها الدنيا برُعوناتها وحماقاتها وشهواتها كالطفل بين يدَىْ رجل : فيهما قوةُ ضبطِه وتصريفِه ؛ ولو كان فى عقيدتنا أن ثوابَ أعمالنا فى الدنيا ، لانعكس الأمر .

قالت مارية : فسَلْهُ : كيف يصنعُ عمرٌو بهذه القِلَّةِ التى معهُ ، والرومُ لا يُحصَى عَدَدُهم ؟ فإذا أخفقَ عمرو فمَن عسى أن يستبدلوه منه ؟ وهل هو أكبرُ قُوَّادِهم أو فيهم أكبرُ منه ؟

قال الراوى : ولكن فَرَسَ قيس تمطّر وأسرع فى لحاق الخيل على المقدَّمة كأنه يقول : لَسْنا فى هذا . . . !

☆ ☆ ☆

وفُتحتْ مصرُ صُلحا بين عمرٍو والقِبط ، وولَّى الرومُ مُصْعِدين إلى الإسكندرية ؛ وكانت ماريةُ فى ذلك تستقرئُ أخبارَ الفاتح تطوفُ منها على أطلالٍ من شخصٍ بعيد ، وكان عمرو من نفسها كالمملكة الحصينة من فاتح لا يملكُ إلا حُبَّهُ أن يأخذَها . وجعلتْ تذوِى ، وشَحَبَ لونُها ، وبدأت تنظر النظرةَ التائهة ، وبان عليها أثرُ الرُّوح الظَّمْأَى ، وحاطها اليأسُ بجوِّه الذى يُحرق الدم ، وبَدَت مجروحةَ المعانى ؛ إذ كان يتقاتلُ فى نفسها الشعوران العَدُوَّان : شعورُ أنها عاشقة . وشعورُ أنها يائسة !

ورَقَّتْ لها أرمانوسة ، وكانت هى أيضا تتعلق فتًى رومانيًّا ، فسَهِرَتا ليلةً تُديران الرأىَ فى رسالةٍ تحملها ماريةُ من قِبلها إلى عمرو كى تصلَ إليه ، فإذا

وصلتْ بلّغت بعينيها رسالةَ نفسها ...

واستقرّ الأمرُ أن تكون المسألةُ عن ماريةَ القبطيةِ وخبرِها ونسلِها وما يتعلّقُ بها : مما يطول الإخبارُ به إذا كان السؤالُ من امرأة عن امرأة ؛ فلما أصبحتا وقع إليهما أن عمرا قد سار إلى الإسكندرية لقتال الروم ، وشاع الخبرُ أنه لما أمر بفُسْطاطه أن يُقوَّض أصابوا يمامة قد باضت فى أعلاه ، فأخبروه ، فقال : « قد تحرَّمتْ فى جوارنا ، أقِرُّوا الفسطاط حتى تطيرَ فِراخُها ! » فأقرّوه !

✡ ✡ ✡

ولم يمض غيرُ طويل حتى قضت ماريةُ نحبها ، وحفِظت عنها أرمانوسةُ هذا الشعر الذى أسمته : نشيد اليمامة :

على فُسطاطِ الأميرِ يمامةٌ جاثمةٌ تحضن بَيْضَها .
تركها الأميرُ تَصنعُ الحياة ، وذهب هو يَصنعُ الموت !
هى كأسعدِ امرأة ، ترى وتلمسُ أحلامَها .
إن سعادةَ المرأة أولُها وآخِرُها بعضُ حقائقَ صغيرة كهذا البيض

✡ ✡ ✡

على فسطاط الأمير يمامةٌ جاثمةٌ تحضن بيضَها .
لو سُئِلَتْ عن هذا البيض لقالتْ : هذا كَنْزى .
هى كأهنإ امرأة ، ملَكتْ مِلْكها من الحياةِ ولم تفتقِر .
هل أُكلِّف الوجودَ شيئا كثيرا إذا كلّفْتُه رجُلا واحدا أُحِبُّه

✡ ✡ ✡

على فسطاط الأمير يمامةٌ جاثمةٌ تحضن بيضَها .
الشمسُ والقمرُ والنجوم ، كلُّها أصغرُ فى عينها من هذا البيضِ

هي كأرقِّ امرأة ، عرفت الرِّقَّةَ مرتين : في الحبّ ، والولادة .
هل أُكلِّف الوجود شيئا كثيرا إذا أردتُ أن أكون كهذه اليمامة .

* * *

على فسطاط الأمير يمامةٌ جاثمة تحضن بيضَها .
تقول اليمامة : إن الوجودَ يُحب أن يُرى بلونين في عين الأنثى :
مرةً حبيبا كبيرا في رَجُلها ، ومرة حبيبا صغيرا في أولادها .
كلُّ شيء خاضعٌ لقانونه ، والأنثى لاتريد أن تخضع إلا لقانونها ...

* * *

أيتها اليمامة : لم تعرفى الأميرَ وتركَ لكِ فسطاطَه !
هكذا الحظّ : عدلٌ مضاعفٌ في ناحية ؛ وظلمٌ مضاعفٌ في ناحية أخرى
آحدى اللهَ أيتها اليمامة ، أنْ ليس عندكم لغاتٌ وأديان ،
عندكم فقط : الحبُّ ، والطبيعةُ ، والحياة !

* * *

على فسطاط الأمير يمامةٌ جاثمة تحضن بيضَها ،
يمامةٌ سعيدة ، ستكون في التاريخ كهُدْهُد سليمان ؛
نُسِبَ الهدهدُ إلى سليمان ، وستُنسب اليمامةُ إلى عمرو .
واهًا لكَ ياعمرو ! ماضَرّ لو عرفْتَ اليمامة الأخرى .. !

اجتلاء العيد

جاء يوم العيد ؛ يومُ الخروج من الزمن إلى زمنٍ وحدَهُ لا يستمرُّ أكثرَ من يوم .

زمنٌ قصيرٌ ظريفٌ ضاحك ، تفرضُهُ الأديانُ على الناس ، ليكونَ لهم بين الحينِ والحينِ يومٌ طبيعيٌّ في هذه الحياة التي انتقلت عن طبيعتها .

يومُ السلام ، والبِشْر ، والضّحك ، والوفاء ، والإخاء ، وقولِ الإنسانِ للإنسان : وأنتم بخير .

يومُ الثيابِ الجديدة على الكل إشعارا لهم بأن الوجهَ الإنسانيَّ جديدٌ في هذا اليوم .

يومُ الزينة التي لا يراد منها إلا إظهارُ أثرِها على النفس ليكونَ الناسُ جميعا في يوم حب .

✡ ✡ ✡

يومُ العيد ؛ يومُ تقديم الحَلوى إلى كل فم لتحلوَ الكلماتُ فيه . . .

يوم تعُمُّ فيه الناسَ ألفاظ الدعاءِ والتهنئةِ مرتفعةً بقوةٍ إلهية فوق منازَعات الحياة .

ذلك اليومُ الذي ينظر فيه الإنسانُ إلى نفسه نظرةً تلمح السعادة ، وإلى أهلهِ نظرةً تُبصر الإعزاز ، وإلى داره نظرةً تدرك الجمال ، وإلى الناس نظرةً ترى الصداقة .

ومن كل هذه النظرات تستوِي له النظرةُ الجميلةُ إلى الحياة والعالَم ؛ فتبتهِجُ نفسُه بالعالم والحياة .

وما أسماها نظرةً تكشفُ للإنسان أن الكلَّ جمالُه في الكل !

✡ ✡ ✡

وخرجتُ أجتلي العيدَ في مظهره الحقيقيِّ على هؤلاء الأطفالِ السعداء .

على هذه الوجوهِ النَّضِرَةِ التي كَبِرَتْ فيها ابتساماتُ الرَّضاع فصارت ضَحِكات .

وهذه العيونِ الحالمةِ التي إذا بكت بكت بدموع لا ثِقْلَ لها .

وهذه الأفواهِ الصغيرة التي تنطق بأصوات لاتزال فيها نَبرَاتُ الحَنان من تعليد لغةِ الأمّ .

وهذه الأجسامِ الغَضَّةِ القريبةِ العهدِ بالضَّمات واللَّثَمات فلا يزال حولها جوُّ القلب .

✡ ✡ ✡

على هؤلاء الأطفال السعداء الذين لا يعرفون قياسا للزمن إلا بالسرور .

وكلٌّ منهم مَلِكٌ في مملكة ؛ وظَرفُهم هو أمرُهم الملوكي .

هؤلاء المجتمعين في ثيابهم الجديدة المصَبَّغةِ اجتماعَ قَوسِ قُزَحَ في ألوانه .

ثيابٌ عَمِلتْ فيها المصانعُ والقلوب ، فلا يتم جمالُها إلا بأن يراها الأبُ والأمُّ على أطفالهما .

ثيابٌ جديدةٌ يلبسونها فيكونون هم أنفسُهم ثوبا جديدا على الدنيا .

✡ ✡ ✡

هؤلاء السَّحرةُ الصغارُ الذين يُخرِجون لأنفسهم معنى الكنز الثمين من قرشين . . .

ويَسْحَرون العيدَ فإذا هو يومٌ صغيرٌ مثلُهم جاء يدعوهم إلى اللَّعِب .

ويلتبهون فى هذا اليوم مع الفجر ، فيبقى الفجرُ على قلوبهم إلى غُروب الشمس .
ويُلقُون أنفُسهم على العالَم المنظورِ ، فيبنون كلَّ شىء على أحد المعنيين الثابتين فى نفس الطفل : الحبِّ الخالص ، واللّهْو الخالص .
ويبتعدون بطبيعتهم عن أكاذيب الحياة ، فيكونُ هـذا بعينه هو قُرْبَهم من حقيقتها السعيدة .

✡ ✡ ✡

هؤلاء الأطفالُ الذين هم السهولة قبل أن تتعقَّد .
والذين يَرَون العالَم فى أول ماينمو الخيالُ ويتجاوز ويمتدّ .
يُفتِّشون الأقدارَ من ظاهرها ؛ ولا يَسْتَبْطِنُون كيلا يتألموا بلا طائل .
ويأخذون من الأشياء لأنفسهم فيفرحون بها ، ولا يأخذون من أنفسهم للأشياء كيلا يُوجِدوا لها الهمّ .

✡ ✡ ✡

قانعون يكتفون بالثَّمرة ، ولا يحاوِلون اقتلاعَ الشجرة التى تحمِلُها .
ويعرفون كُنْهَ الحقيقة ، وهى أن العِبرَةَ بروح النعمة لا بمقدارها .
فيجدون من الفرح فى تغيير ثوبٍ للجسم ، أكثرَ مما يجده القائدُ الفاتحُ فى تغيير ثوب المملكة .

✡ ✡ ✡

هؤلاء الحكماءُ الذين يُشْبِه كل منهم آدمَ أولَ مجيئهِ إلى الدنيا حين لم تكن بين الأرضِ والسماءِ خليقةٌ ثالثةٌ معقَّدةٌ من صُنع الإنسان المتحضِّر .
حِكْمتُهم العُليا : أن الفكرَ السامىَ هو جعلُ السرورِ فكرا وإظهارُه فى العمل .

وشِعْرهم البديعُ : أن الجمالَ والحبَّ ليسا فى شىء إلا فى تجميل النفس وإظهارها عاشقة للفرح

✡ ✡ ✡

هؤلاء الفلاسفةُ الذين تقوم فلسفتُهم على قاعدة عملية ، وهى أن الأشياء الكثيرةَ لا تكثُرُ فى النفس المطمئِنَّة

وبذلك تعيشُ النفسُ هادئةً مستريحةً كأنْ ليس فى الدنيا إلا أشياؤُها الْمُيَسَّرة .

أما النفوسُ المضطربةُ بأطماعها وشهواتها فهى التى تُبْتَلَى بهموم الكثرة الخيالية ،

ومثَلُها فى الهمّ مَثَلُ طُفَيْلِيّ مغفَّلٍ يحزنُ لأنه لا يأكل فى بَطنين .

✡ ✡ ✡

وإذا لم تكثُرِ الأشياءُ الكثيرةُ فى النفس ، كَثُرت السعادةُ ولو من قِلَّة ،

فالطفلُ يقلِّب عينيه فى نساءٍ كثيرات ، ولكنّ أمّه هى أجملُهن وإن كانت شَوْهاء ،

فأمُّه وحدَها هى أمُّ قلبِه ، ثم لا معنى للكثرة فى هذا القلب ،

هذا هو السرُّ ؛ خذوه أيها الحكماءُ عن الطفل الصغير

✡ ✡ ✡

وتأملتُ الأطفالَ وأثرَ العيدِ على نفوسهم التى وَسِعَتْ من البشاشة فوقَ مِلْئها

فإذا لسانُ حالهم يقولُ للكبار : أيتُها البهائم اخلعى أرسانَكِ ولو يوما ،

أيها الناس ، انطلقوا فى الدنيا انطلاقَ الأطفالِ يُوجِدون حقيقتَهم البريئةَ الضاحكة

لا كما تصنعون إذ تنطلقون انطلاقَ الوحش يُوجِد حقيقتَه المفترِسَة

أحرارٌ حرِّيَّةَ نشاطِ الكون ينبعث كالفَوْضَى ، ولكن فى أدقِّ النواميس .
يُثيرون السخط بالضَّجيج والحركة ، فيكونون مع الناس على خِلاف ، لأنهم
على وِفاقٍ مع الطبيعة .
وتَحتدمُ بينهم المعارك ، ولكن لا تتحطَّم فيها إلا اللُّعَب . . .
أما الكبارُ فيصنعون المِدْفَعَ الضخمَ من الحديد ، للجسمِ اللّيِّنِ من العَظْم .
أيتها البهائمُ ، اخلعى أرسانَكِ ولو يوما . . .

✡ ✡ ✡

لا يفرح أطفالُ الدار كفرحهم بطفلٍ يُولد : فهم يستقبلونه كأنه محتاجٌ إلى
عقولهم الصغيرة
ويملؤهم الشعورُ بالفرح الحقيق الكامنِ فى سر الخَلْقِ ، لقُرْبهم من هذا السر
وكذلك تحمل السَّنَةُ ثم تلد للأطفال يومَ العيد ؛ فيستقبلونه كأنه محتاج إلى
لهوِهم الطبيعى .
ويملؤهم الشعورُ بالفرح الحقيق الكامنِ فى سر العالم ، لقربهم من هذا السر .

✡ ✡ ✡

فيا أسَفا علينا نحن الكبار ، ما أبعَدَنا عن سرِّ الخَلْقِ بآثام العمر !
وما أبعدنا عن سرِّ العالَم ، بهذه الشهوات الكافرة التى لا تؤمن إلا بالمادة
يا أسَفَا علينا نحن الكبار ! ما أبعدنا عن حقيقة الفرح !
تكاد آثامُنا واللهِ تجعلُ لنا فى كل فَرْحَة خَجْلَة . . .

✡ ✡ ✡

أيتها الرياضُ المنوَّرَةُ بأزهارها
أيتها الطيورُ المغردةُ بألحانها
أيتها الأشجارُ المصفِّقةُ بأغصانها

أيتها النجوم المتلألئة بالنور الدائم
أنتِ شتَّى ؛ ولكنكِ جميعا فى هؤلاء الأطفال يوم العيد

المعنى السياسي فى العيد

ماأشدَّ حاجتَنا نحن المسلمين إلى أن نفهم أعيادَنا فهما جديدا ، نتلقاها به ونأخذُها من ناحيته ، فتجىء أياما سعيدة عاملةً ، تنبّه فينا أوصافَها القوية ، وتجدِّد نفوسَنا بمعانيها ، لا كما تجىء الآن كالحةً عاطلةً ممسوحةً من المعنى ، أكبرُ عملها تجديدُ الثياب ، وتجديدُ الفراغ ، وزيادةُ ابتسامةٍ على النفاق . . . .

فالعيدُ إنما هو المعنى الذى يكون فى اليومِ لااليومُ نفسُه ، وكما يفهمُ الناس هذا المعنى يتلقون هذا اليوم ؛ وكان العيدُ فى الإسلام هو عيدَ الفكرة العابدة ، فأصبح عيدَ الفكرة العابثة ؛ وكانت عبادةُ الفكرة جمْعَها الأمةَ فى إرادةٍ واحدة على حقيقة عملية ، فأصبح عَبَثُ الفكرة جَمْعَها الأمةَ على تقاليدٍ بغير حقيقة ، له مظهرُ المنفعة وليس له معناها

كان العيدُ إثباتَ الأمة وجودَها الروحانىَّ فى أجمل معانيه ، فأصبح إثباتَ الأمةِ وجودَها الحيوانىَّ فى أكثر معانيه ؛ وكان يومَ استرواحِ القوةِ من جِدِّها ، فعاد يومَ استراحةِ الضعفِ من ذُله ؛ وكان يومَ المبدأ ، فرجع يومَ المادة !

* * *

ليس العيدُ إلاّ إشعارَ هذه الأمة بأن فيها قوةَ تغيير الأيام ، لاإشعارَها بأن الأيام تتغير ؛ وليس العيدُ للأمة إلاّ يوما تَعرض فيه جمالَ نظامِها الاجتماعى ، فيكون يومَ الشعور الواحد فى نفوس الجميع ، والكلمةِ الواحدة فى ألسنة الجميع ؛

يومَ الشعور بالقدرة على تغيير الأيام ، لا القدرةِ على تغيير الثياب ... كأنما العيدُ هو استراحةُ الأسلحة يوما في شعبها الحربي .

وليس العيدُ إلاّ تعليمَ الأمة كيف تتسع روحُ الجِوار وتمتدّ حتى يرجعَ البلدُ العظيمُ وكأنه لأهله دارٌ واحدة يتحقق فيها الإخاءُ بمعناه العَملى ، وتظهرُ فضيلةُ الإخلاص مُسْتَعْلِنةً للجميع . ويُهدِى الناسُ بعضُهم إلى بعضٍ هدايا القلوب المخلصة المحِبة ؛ وكأنما العيدُ هو إطلاقُ روح الأُسْرَةِ الواحدة في الأمة كلها .

وليس العيدُ إلاّ إظهارَ الذاتية الجميلة للشعب مهزوزةً من نشاط الحياة ؛ ولا ذاتيةَ للأمم الضعيفة ؛ ولا نشاطَ للأمم المستَعبَدة ، فالعيدُ صوتُ القوة يهتف بالأمة : أخرجى يومَ أفراحك ، أخرجى يوما كأيام النصر !

وليس العيدُ إلاّ إبرازَ الكُتلة الاجتماعية للأمة متميزةً بطابَعِها الشّعبى ، مفصولة من الأجانب لابسة من عمل أيديها ، معلنة بِعيدها استقلالَين فى وجودها وصناعتها ، ظاهرةً بقوتين فى إيمانها وطبيعتها ، مبتهجةً بفرَحين فى دُورها وأسواقها ؛ فكأن العيدَ يومٌ يفرح فيه الشعبُ كله بخصائصه .

وليس العيدُ إلاّ التقاءَ الكبارِ والصغارِ فى معنى الفرح بالحياة الناجحة المتقدمةِ فى طريقها ، وتركَ الصغارِ يُلقون دَرسَهم الطبيعىَّ فى حماسة الفرح والبهجة ، ويعلّمون كبارَهم كيف تُوضَع المعانى فى بعض الألفاظ التى فَرَغتْ عندهم من معانيها ، ويُبَصِّرُونهم كيف ينبغى أن تعملَ الصفاتُ الإنسانيةُ فى الجموع عملَ الحَليفِ لحليفه ، لا عملَ المُنابِذ لمُنابِذه ؛ فالعيدُ يومُ تسلُّطِ العنصر الحىّ على نفسية الشعب .

وليس العيدُ إلاّ تعليمَ الأمة كيف توجّه بقوتها حركةَ الزمن إلى معنى واحد كلما شاءت ؛ فقد وضع لها الدينُ هذه القاعدةَ لتُخرِّجَ عليها الأمثلة ، فتجعلَ

للوطن عيدا ماليا اقتصاديا تبتسم فيه الدراهم بعضها إلى بعض، وتخترع للصناعة عيدَها، وتوجد للعلم عيدَه، وتبتدعُ للفن تجالِيَ زينته؛ وبالجملة تُنشئ لنفسها أياما تعمل عمل القُوَّاد العسكريين في قيادة الشعب، يقودُه كلٌّ يوم منها إلى معنى من معاني النصر.

* * *

هذه المعاني السياسيةُ القوية هي التي من أجلها فُرض العيدُ ميراثا دهريا في الإسلام، ليستخرجَ أهلُ كل زمن من معاني زمنهم فيُضيفوا إلى المِثال أمثلةً مما يُبدعه نشاطُ الأمة ويحققه خيالُها وتقتضيه مصالحُها.

وما أحسب الجمعةَ قد فُرِضت على المسلمين عيدا أسبوعيا يُشترط فيه الخطيبُ والمِنبر والمسجدُ الجامع — إلا تهيئةً لذلك المعنى وإعدادا له؛ ففي كل سبعة أيامٍ مسلمةٍ يومٌ يجيءُ فيُشعِرُ الناسَ معنى القائد الحربي للشعب كله.

ألا ليت المنابر الإسلاميةَ لا يخطب عليها إلا رجالٌ فيهم أرواحُ المدافع، لا رجالٌ في أيديهم سيوف من خشب (*)

(*) انظر (قصة الأيدي المتوضئة) في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

الربيع

خرجتُ أشهدُ الطبيعةَ كيف تُصبِح كالمعشوق الجميل لا يقدِّم لعاشقه إلا أسبابَ حبِّه !

وكيف تكونُ كالحبيب يزيد فى الجسم حاسَّةَ لمسِ المعانى الجميلة !

وكنتُ كالقلب المهجور الحزين وجد السماءَ والأرض ولم يجد فيهما سماءَه وأرضَه !

ألا كم من آلافِ السنينَ وآلافِها قد مضت منذُ أُخرج آدمُ من الجنة !

ومع ذلك فالتاريخُ يعيد نفسَه فى القلب ؛ لا يَحزنُ هذا القلبُ إلا شعَر كأنه طُرِدَ من الجنة ساعته !

✡ ✡ ✡

يقف الشاعرُ بإزاءِ جمال الطبيعة فلا يملك إلا أن يتدفَّقَ ويهتزَّ ويطرَب ، لأن السرَّ الذى انْبَثَقَ هنا فى الأرض يريد أن ينبثقَ هناك فى النفس ؛

والشاعرُ نبيُّ هـذه الديانة الرقيقة التى من شريعتها إصلاحُ النـاس بالجمال والخير

وكلُّ حُسنٍ يلتمس النظرةَ الحيةَ التى تراه جميلا لتُعْطِيَه معناه ؛

وبهذا تقف الطبيعة مُحْتَفِلَةً أمام الشاعرِ كوقوف المرأة الحسناءِ أمامَ المصوِّر !

✡ ✡ ✡

لاحت لى الأزهارُ كأنها ألفاظ حب رقيقةٌ مُغَشَّاةٌ باستعارات ومَجازات ،

والنسيم حولها كثوب الحسناء على الحسناء ، فيه تعبيرٌ من لابِسَتِه ،

وكلُّ زهرةٍ كابتسامة ، تحتها أسرارٌ وأسرارٌ من معانى القلب المعقَّدة
أهى لغةُ الضوء الملوَّنِ من الشمس ذاتِ الألوان السبعة ،
أم لغةُ الضوء الملوَّنِ من الخد والشفة والصدر والنحر والدِّيباج والحِلَى...؟

✡ ✡ ✡

وماذا يفهم العشاقُ من رموز الطبيعة فى هذه الأزاهر الجميلة ؟
أتشير لهم بالزهر إلى أن عُمرَ اللذة قصير كأنها تقول : على مقدار هذا !
أتعلمهم أن الفرق بين جميلٍ وجميل كالفرق بين اللونِ واللون وبين الرائحة والرائحة !
أتناجيهم بأن أيامَ الحب صُوَرُ أيام لاحقائقُ أيام !
أم تقولُ الطبيعة : إن كلَّ هـذا لأنكِ أيتها الحشراتُ لاتنخدعين إلا بكل هذا (*) . . . !

✡ ✡ ✡

فى الربيع تظهر ألوانُ الأرض على الأرض ، وتظهر ألوانُ النفس على النفس ،
ويصنع الماءُ صُنْعَه فى الطبيعة فتُخْرِجُ تهاويلَ النبات ، ويصنع الدمُ صنعَه فيُخرج تهاويلَ الأحلام ،
ويكون الهواءُ كأنه من شِفاهٍ متحابَّةٍ يتنفَّس بعضُها على بعض ،
ويعود كلُّ شيء يلتمع لأن الحياةَ كلَّها يَنْبِضُ فيها عِرْقُ النور ،
ويرجع كل حىّ يُغَنِّى لأن الحبَّ يُريد أن يرفع صوته .

(*) ثبت أن ألوان الأزهار وعطرها ومافى ظاهرها وباطنها ، كل ذلك لاجتذاب الحشرات إليها كى تنقل اللقاح من زهرة إلى زهرة .

✡ ✡ ✡

رفى الربيع لا يضىءُ النورُ فى الأعين وحدها ولكن فى القلوب أيضا ،
ولا ينفذُ الهواء إلى الصدور فقط ولكن إلى عواطفها كذلك .
ويكون للشمس حرارتان إحداهما فى الدم ،
ويطغَى فيضانُ الجمال كأنما يراد من الربيع تجرِبةُ منظرٍ من مناظر الجنة فى الأرض ؛
والحيوانُ الأعجمُ نفسُه تكونُ له لفتاتٌ عقليةٌ فيها إدراك فلسفةِ السرور والمرَح .

✡ ✡ ✡

وكانت الشمسُ فى الشتاء كأنها صورةٌ معلّقةٌ فى السحاب ،
وكان النهارُ كأنه يضىء بالقمر لا بالشمس ،
وكان الهواء مع المطر كأنه مطرٌ غيرُ سائل ،
وكانت الحياه تضع فى أشياء كثيرةٍ معنى عُبوس الجوّ ؛
فلما جاء الربيع كان فرحُ جميع الأحياءِ بالشمس كفرح الأطفالِ رجعت أمُّهم من السفَر !

✡ ✡ ✡

وينظر الشبابُ فتظهرُ له الأرض شابّة ،
ويشعر أنه موجودٌ فى معانى الذات أكثرَ مما هو موجودٌ فى معانى العالَم ،
وتمتلىء له الدنيا بالأزهار ومعانى الأزهار ووحْى الأزهار ،
وتخرج له أشعةُ الشمس ربيعا وأشعةُ قلبِه ربيعا آخر ؛
ولا تنسى الحياةُ عجائزَها ، فيبعُهم ضوءُ الشمس !

* * *

ما أعجبَ سرَّ الحياة ! كلُّ شجرة فى الربيع جمالٌ هندسىٌّ مستقل ،
ومهما قطعتَ منها وغيّرتَ من شكلها أبرزتها الحياةُ فى جمال هندسىّ جديدٍ
كأنك أصلحتَها ،
ولو لم يبق منها إلا جِذرٌ حىٌّ أسرعَت الحياةُ فجعلت له شكلاً من غصون
وأوراق ؛
الحياة الحياة ، إذا أنت لم تُفسدها جاءتك دائما هداياها
وإذا آمنتَ لم تَعُدْ بمقدار نفسك ، ولكن بمقدار القوة التى أنت بها مؤمن

* * *

« فانظر إلى آثار رحمةِ الله كيف يُحيي الأرضَ بعد موتها » ،
وانظر كيف يخلُق فى الطبيعة هذه المعانىَ التى تُبهج كلَّ حىّ بالطريقة
التى يفهمُها كلُّ حىّ ،
وانظر كيف يجعلُ فى الأرض معنى السرور وفى الجو معنى السعادة ،
وانظر إلى الحشَرة الصغيرة كيف تؤمن بالحياة التى تملؤُها وتطمئن ؛
أُنظر انظر ! أليس كل ذلك ردًّا على اليأس بكلمة : لا . . . ؟

عرش الورد (1)

كانت جَلوَةُ العَروس كأنها تصنيفٌ من حُلم توافَتْ عليه أخيلةُ السعادة فأبدعت إبداعَها فيه ، حتى إذا اتَّسقَ وتمّ نقلته السعادةُ إلى الحياة فى يوم من أيامها الفَرْدَةِ التى لايتفق منها فى العمر الطويل إلا العددُ القليل ، لتُحقّقَ للحىّ وجودَ حياته بسحرها وجمالها ، وتعطيَه فيما يُنسَى مالا يُنسَى

خرج الحُلم السعيدُ من تحت النوم إلى اليقظة ، وبرز من الخيال إلى العين ، وتمثّـلَ قصيـدةً بارعةً جعلتْ كلّ مافى المكان يحيا حياةَ الشعر ؛ فالأنوارُ نِساء ، والنساء أنوار ، والأزهار أنوار ونساء ، والموسيق بين ذلك تتمم من كل شيء معناه ، والمكانُ وما فيـه وزْن فى وزن ، ونَغَم فى نغم ، وسحرٌ فى سحر .

* * *

ورأيتُ كأنما سُحِرَتْ قطعةٌ من سماء الليـل ، فيها دَارةُ القمر ، وفيها نَـثْرَةٌ من النجوم الزُّهْر فنزلتْ فحلّت فى الدار يتوضّحن ويأتلِقن من الجمال والشعاع وفى حُسن كل منهن مادةُ فجـرٍ طالع . فكنّ نساءَ الجلوة وعَروسَها

ورأيتُ كأنمـا سُحر الربيع فاجتمع فى عرشٍ أخضر قد رُصّع بالورد الأحمر وأُقيم فى صدر البَهْوِ ليكون مِنَصة للعروس ، وقد نُسقَت الأزهارُ فى سمائه وحواشيه على نَظْمين : منهما مُفَصَّلٌ ترى فيـه بين الزَّهرتين من

---

(1) يصف المؤلف فى هذه القطعة زفاف ابنته وهيبة إلى ابن عمها ، وهى أول من تزوج من ولده . وانظر ص ١٩٦ - ١٩٧ « حياة الرافعى »

اللون الواحد زهرةً تخالف لونَهما ، ومنهما مُكَدَّس بعضُه فوق بعض ؛ من لونٍ متشابهٍ أو متقارب ؛ فبدا كأنه عُشُّ طائرٍ مَلَكِيّ من طيور الجنة أبدع فى نَسْجه وترصيعِه بأشجار سقَى الكَوْثَرُ أغصانَها

وقامت فى أرض العرش تحت أقدام العروسين ، رَبْوَتان من أفانينِ الزهر المختلفةِ ألوانُه ، يحملُهما خَمْلٌ من ناعم النَّسيج الأخضر على غصونه اللُّدْن تَتَهافَتُ من رقتها ونُعومتها

وعُقِدَ فوق هـذا العرش تاجٌ كبيرٌ من الورد النادر ، كأنما نُزِع عن مَفْرِق مَلِك الزمن الربيعى ؛ وتنظر إليـه يسطَع فى النور بجماله الساحر سُطوعا يخيِّل إليك أن أشعة من الشمس التى رَبَّتْ هذا الوردَ لاتزال عالِقةً به ؛ وتراه يزدهى جَلالا كأنمـا أدرك أنه فى موضعه رمزُ مملكة إنسانية جديدة تألفتْ من عروسين كريمين . ولاح لى مرارا أن هذا التاجَ يضحكُ ويستحي ويتدلّل ، كأنما عرف أنه وحدَه بين هذه الوجوه الحسانِ يمثّل وجهَ الوَرد

ونُصَّ على العرش كرسيان يتوهج لونُ الذهب فوقهما ، ويكسوهما طِرازٌ أخضرُ تلمع نَضارتُه بِشرا ، حتى لتحسب أنه هو أيضا قد نالته من هذه القلوب الفرِحةِ لمسةٌ من فرَحها الحيّ

وتدلَّت على العرش قلائدُ المصابيح ، كأنها لؤلؤٌ تخلّق فى السماء لافى البحر فجاء من النور لامن الدُّر ، وجاء نورا من خاصَّته أنه متى استضاء فى جوّ العَروس أضاء الجوَّ والقلوبَ جميعا

وأتى العروسان إلى عرش الورد فجلسا جِلْسَةَ كوكبين حدودُهما النور والصفاء ، وأقبلت العَذارى يتخطَّرْنَ فى الحرير الأبيض كأنه من نُور الصبح ، ثم وقفن حافَّات حول العرش ، حاملات فى أيديهن طاقات من الزَّنبق ؛

تراها عَطِرة بيضاءَ ناضرة حَيِيَّة كأنها عَذارى مع عَذارى ، وكأنما يحملن فى أيديهن من هذا الزنبق الغضّ معانىَ قلوبِهنَّ الطاهرة ، هذه القلوبِ التى كانت مع المصابيح مصابيحَ أخرى فيها نورُها الضاحك

واقتعدَتْ دَرَج العرش تحت رَبْوَتَى الزّهر ودون أقدام العروسين — طفلةٌ صغيرةٌ كالزهرة البيضاء تحملُ طفولتَها ، فكانت من العرش كلّه كالماسة المدلّاة من واسطة العِقْد ، وجعلت بوجهها للزهركلّه تماماً وجمالا ، حتى ليظهر من دونها كأنه غضبانُ مُنْزَوٍ لا يريد أن يُرَى .

وكان ينبعث من عينيها فيما حولها تيارٌ من أحلام الطفولة جعل المكانَ بمن فيه كأن له رُوحَ طفل بَغتَتْه مَسرَّةٌ جديدة .

وكانت جالسة جِلْسةَ شِعْر تمثل الحياةَ الهنيئة المبتكَرة لساعتها ليس لها ماض فى دنيانا .

ولو أن مُبدِعاً افتَنَّ فى صُنع تمثال للنية الطاهرة وجىء به فى مكانها وأُخِذَتْ هى فى مكانه لتشابها وتشاكَلَ الأمر .

وكان وُجودُها على العرش دعوة للملائكة أن تَحْضُرَ الزفافَ وتباركَه .

وكانت بِصِغَرِها الظريف الجميلِ تعطى لكل شىء تماما ، فيُرَى أكبرَ مما هو وأكثرَ مما هو فى حقيقته ؛ كانت النقطةَ التى استعلَنَتْ فى مركز الدائرة : ظهورُها على صِغَرِها هو ظهورُ الإحكام والوزنِ والانسجام فى المحيط كلّه .

* * *

لا يكون السرورُ دائما إلا جديداً على النفس ، ولا سرورَ للنفس إلا من جديد على حالة من أحوالها ؛ فلو لم يكن فى كل دينار قوةٌ جديدةٌ غيرُ التى فى مثله لما سُرّ بالمال أحد ولا كان له الخَطَر الذى هُوَ له ، ولو لم يكن لكل طعام جوعٌ يُورِدُه جديدا على المعدة لما هَنَأ ولا مَرَأ ولو لم يكن الليلُ بعد نهار ،

والنهارُ بعد ليل والفصول كلها نقيضا على نقيضه وشيئا مختلفا على شيء مختلف — لما كان فى السماء والأرض جمال ولا منظَرُ جمال ولا إحساسٌ بهما ؛ والطبيعةُ التى لا تُفاح فى جعلك معها طفلا تكون جديدا على نفسك — لن تُفلح فى جعلك مسرورا بها لتكون هى جديدةً عليك .

وعرشُ الورد كان جديدا عند نفسى على نفسى ، وفى عاطفتى على عاطفتى ، ومن أيامى على أيامى ؛ نزل صباحُ يومِه فى قلبى بروح الشمس ، وجاء مساءُ ليلته لقلبى برُوح القمر ، وكنت عنده كالسماء أتلألأ بأفكارى كما تتلألأ بنجومها ، وقد جعلتنى أمتدُّ بسرورى فى هذه الطبيعة كلِّها ، إذ قَدَرْتُ على أن أعيشَ يوما فى نفسى ؛ ورأيت وأنا فى نفسى أن الفرحَ هو سرُّ الطبيعة كلها ، وأن كلَّ ما خلق اللهُ جمالٌ فى جمال ، فإنه تعالى نورُ السموات والأرض ؛ وما يجىء الظلام مع نوره ولا يجىء الشرُّ مع أفراح الطبيعة إلا من محاولة الفكر الإنسانى خَلْقَ أوهامِه فى الحياة ، وإخراجه النفسَ من طبائعها ، حتى أصبح الإنسانُ كأنما يعيشُ بنفس يحاول أن يصنعَها صناعة ، فلا يصنع إلا أن يَزيغَ بالنفس التى فطرها الله .

يا عجبا ! ينفِرُ الإنسانُ من كلمات الاستعباد والضَّعَة والذِّلة والبؤس والهم وأمثالِها ، وينكرها ويردُّها ، وهو مع ذلك لا يبحث لنفسه فى الحياة إلا عن معانيها !

✿ ✿ ✿

إن يوما كيوم عرش الورد لا يكون من أربع وعشرين ساعة ، بل من أربعة وعشرين فرَحا ؛ لأنه من الأيام التى تجعل الوقت يتقدم فى القلب لا فى الزمن ، ويكون بالعواطف لا بالساعات ، ويتواتر على النفس بجديدها لا بقديمها كان الشبابُ فى موكبِ نصره ، وكانت الحياة فى ساعةِ صُلْح مع القلوب ،

حتى اللغةُ نفسها لم تكن تُلقِى كلماتِها إلا ممتلئةً بالطرب والضحك والسعادة ، آتيةً من هذه المعانى دون غيرها ، مُصوِّرَةً على الوجوه إحساسها ونوازعَها ، وكلُّ ذلك سِحْرُ عرش الورد ، تلك الحديقةِ الساحرةِ المسحورةِ التى كانت النَسَماتُ تأتى من الجو ترفرفُ حولها متحيرة كأنما تتساءل : أهذه حديقةٌ خُلِقت بطيور إنسانية ، أم هى شجرةُ ورد هبطت من الجنة بمن يتفيَّأنَ ظلَّها ويتنسَّمْنَ شذاها من الْحُور ، أم ذاك منبعٌ ورديٌّ عطرىٌ نُورانىٌ لحياة هذه الملِكة الجالسة على العرش ؟

يا نَسَماتِ الليلِ الصافيةَ صفاءَ الخير ، أسأل الله أن تنبع هذه الحياةُ المقبلة فى جمالها وأثرها وبركتها من مثل الورد الْمُبْهِج ، والعطرِ المنعش ، والضوءِ الْمُحْيِي ؛ فإن هذه العروسَ المعتاليةَ عرشَ الورد :

هى ابنتى ...

أيها البحر ! (١)(٥)

إذا احْتَدَمَ الصيفُ ، جعلتَ أنت أيُّها البحرُ للزمن فصلا جديدا يسمَّى « الربيعَ المائى » ،

وتلتقِلُ إلى أيامك أرواحُ الحدائق ، فتَنبتُ فى الزمن بعضُ الساعاتِ الشهيَّةِ كأنها الثمرُ الحُلوُ الناضجُ على شجره ،

ويُوحى لونُكَ الأزرقُ إلى النفوس ما كان يوحيه لونُ الربيع الأخضر ،

---

(١) كتبها فى مصيفه بالإسكندرية

(٥) كتبنا فى (أوراق الورد) رسالة عن البحر والحب فيها أوصاف للبحر كثيرة

إلا أنه أرقّ وألطف ،

ويرى الشعراء فى ساحلك مثلَ مايرَون فى أرض الربيع : أنوثةً ظاهرة غير أنها تلكَ المعانىَ لا النبات ،

ويُحِسُّ المشاقُ عندك مايُحِسُّونه فى الربيع : أن الهواءَ يتأوّه ... !

* * *

فى الربيع يتحرك فى الدم البشرىِّ سرُّ هـذه الأرض ، وعند « الربيع المائى » يتحرك فى الدم سرُّ هذه السُّحُب ،

نوعان من الخمر فى هواء الربيع وهواءِ البحر يكون منهما سُكرٌ واحدٌ من الطرَب ،

وبالربيعَيْن الأخضرِ والأزرق ينفتح بابان للعالم السحرىّ العجيب ، عالمِ الجمالِ الأرضىّ الذى تدخله الروحُ الإنسانية كما يدخلُ القلبُ المحبُّ فى شعاع ابتسامةٍ ومعناها .

* * *

فى « الربيع المائى » ، يجلسُ المرءُ ، وكأنه جالسٌ فى سحابة لا فى الأرض ،

ويشعرُ كأنه لابسٌ ثيابا من الظلّ لا من القماش ،

ويجدُ الهواءَ قد تنزَّه عن أن يكون هواءَ التراب ،

وتخِفُّ على نفسه الأشياءُ ، كأن بعضَ المعانى الأرضيةِ انتُزعتْ من المادة ؛ وهنا يدركُ الحقيقة : أن السرورَ إنْ هو إلا تنبُّهُ معانى الطبيعة فى القلب .

* * *

وللشمس هنا معنى جديدٌ ليس لها هناك فى « دنيا الرزق » ؛

تُشرقُ الشمسُ هنا على الجسم ، أما هناك فكأنما تطلعُ وتغرُبُ على

الأعمالِ التى يعملُ الجسمُ فيها ،

تطلعُ هناك على ديوان الموظف لا الموظف ، وعلى حانوت التاجر لا التاجر ، وعلى مصنَع العامل ، ومدرسةِ التلميذ ، ودارِ المرأة ؛

تطلع الشمسُ هناك بالنور ، ولكنّ الناسَ ـ وأأسفاه ـ يكونون فى ساعاتهم المظلمة . . .

الشمسُ هنا جديدة ، تُثبت أن الجديدَ فى الطبيعة هو الجديدُ فى كيفية شعور النفس به .

* * *

والقمرُ زاءٍ رَفّافٌ من الحسْن ، كأنه اغتسل وخرج من البحر ؛

أو كأنه ليس قمرا ، بل هو فجرٌ طلَع فى أوائل الليل فحصَرته السماء فى مكانه ليستمرَّ الليل .

فجرٌ لا يُوقِظ العيونَ من أحلامها ، ولكنه يُوقظُ الأرواحَ لأحلامها ؛ ويُلقى من سحره على النجوم ، فلا تظهر حوله إلا مُسْتَبْهِمةً كأنها أحلامٌ معلَّقـة .

للقمر هنا طريقةٌ فى إبهاج النفس الشاعرة كطريقة الوجه المعشوقِ حين تقبِّله أولَ مرة .

* * *

و « الربيع المائى » طيورُه المغرِّدة وفَراشُه المتنقِّل :

أما الطيورُ فنساءٌ يَتَضاحَكْنَ ، وأما الفَراشُ فأطفالٌ يتواثبون ،

نساءٌ إذا انغمَسْنَ فى البحر خُيِّلَ إلىّ أن الأمواجَ تَتَشاحنُ وتتخاصَمُ على بعضهن ...

رأيتُ منهن زهراءَ فاتنة قد جلست على الرمل جِلْسَةَ حوّاءَ قبل اختراع

الثياب ، فقال البحر : يا إلهى ! قد انتقل معنى الغَرَق إلى الشاطئ ...
إن الغريقَ مَن غَرِقَ فى مَوْجة الرملِ هذه ... !

✡ ✡ ✡

والأطفالُ يلعبون ويصرُخون ويضِجُّون كأنما اتسعت لهم الحياةُ والدنيا .
وخُيِّل إلىَّ أنهم أقلقوا البحر كما يُقلقون الدار ، فصاح بهم : ويحكم يا أسماكَ التراب ... ورأيت طفلا منهم قد جاء فوَكَزَ البحرَ برِجْله ، فضحك البحر وقال : انظروا يابنى آدم !
أعَلَىَّ اللهِ أن يَعْبأَ بالمغرور منكم إذا كَفَر به ؟ أعَلَيَّ أن أعبأ بهذا الطفل كيلا يقولَ إنه ركَلَنى برجله !

✡ ✡ ✡

أيها البحر ، قد ملأَتك قوةُ الله لتُثبِتَ فراغَ الأرضِ لأهل الأرض ، ليس فيك ممالكُ ولا حدود ، وليس عليك سلطانٌ لهذا الإنسان المغرور ؛ وتجيش بالناس وبالسُفُنِ العظيمة ، كأنك تحمل من هؤلاء وهؤلاء قشًا تَرمى به ؛
والاختراعُ الإنسانىُّ مهما عَظُم لا يُغْنى الإنسانَ فيك عن إيمانه ؛
وأنت تملأ ثلاثةَ أرباع الأرض بالعظَمة والهوْل ، ردًّا على عَظمة الإنسان وهوله فى الربع الباقى ؛ ما أعظمَ الإنسان وأصغره !

✡ ✡ ✡

يَنزلُ الناسُ فى مائك فيتساوَوْن حتى لا يختلفَ ظاهرٌ عن ظاهرٌ ، ويركبون ظهرَك فى السفُن فيحِنُّ بعضُهم إلى بعض حتى لا يختلف باطنٌ عن باطن ؛
تُشعرهم جميعا أنهم خرجوا من الكُرَة الأرضيةِ ومن أحكامِها الباطلة ،

وتُفقرهم إلى الحب والصداقة فقراً يُريهم النجومَ نفسها كأنها أصدقاء إذ عرفوها فى الأرض ؛

ياسحرَ الخوف ، أنت أنت فى اللُّجَّة كما أنت أنت فى جهنم!

✡ ✡ ✡

وإذا ركبك المُلحِدُ أيها البحر فرَجَفْتَ من تحته وهَدَرتَ عليه وثُرْتَ به وأريتَهُ رأىَ العين كأنه بين سماءين ستنطبقُ إحداهما على الأخرى فتُقْفَلان عليه ـ تركتَه يتطأطا ويتواضع ، كأنك تهزُّه وتهزُّ أفكاره معا ، وتُدَحْرِجُهُ وتدحرجُها ؛

وأطَرْتَ كلَّ مافى عقله فيلجأ إلى الله بعقل طفل ،

وكشفتَ له عن الحقيقة : أن نسيانَ الله ليس عَملَ العقل ، ولكنه عملُ الغَفلة والأمنِ وطولِ السلامة

✡ ✡ ✡

ألا ماأشبَه الإنسانَ فى الحياة بالسفينة فى أمواج هذا البحر!

إن ارتفعت السفينةُ أو انخفضتْ أو مادتْ ، فليس ذلك منها وحدَها ، بل مما حولها ؛

وان تستطيعَ هذه السفينةُ أن تملكَ من قانون ماحولها شيئا ، ولكن قانونَها هو الثباتُ ، والتوازنُ ، والاهتداءُ إلى قصدها . ونجاتُها فى قانونها

فلا يَعْتِبَنَّ الإنسانُ على الدنيا وأحكامِها ، ولكن فليجتهدْ أن يحكم نفسَه

فى الربيع الأزرق (١) (*)

خواطر مرسلة

ماأجملَ الأرضَ على حاشيةِ الأزرقَيْن : البحرِ والسماء ، يكادُ الجالسُ هنا يظنُّ نفسَه مرسوما فى صورة إلٰهية

* * *

نظرتُ إلى هذا البحر العظيم بعينَيْ طفل يتخيل أن البحرَ قد مُلِئَ بالأمس ، وأن السماءَ كانت إناءً له فانكفأ الإناءُ فاندفق البحر ، وتَسَرَّحتُ مع هذا الخيال الطفلىّ الصغير ، فكأنما نالنى رَشاشٌ من الإناء . . . .

إننا لن ندركَ رَوعةَ الجمال فى الطبيعة إلا إذا كانت النفسُ قريبة من طفولتها ومرَحِ الطفولةِ ولَعِبها وهَذَيانِها

* * *

تبدو لك السماءُ على البحر أعظمَ مما هى ، كما لو كنتَ تنظر إليها من سماءٍ أخرى لامن الأرض

* * *

إذا أنا سافرتُ فجئتُ إلى البحر ، أو نزلتُ بالصحراء ، أو حللتُ بالجبل ، شعرتُ أولَ وَهْلَةٍ من دهشة السرور بما كنت أشعر بمثله لوأن الجبلَ أو

---

(١) كتبها فى مصيفه بالإسكندرية

(*) هذه تسمية جديدة للمصيف على ساحل البحر ، وقد شاع استعمالها بعد نشر هذه المقالة

الصحراءَ أو البحرَ قد سافرتْ هي وجاءت إليّ

✡ ✡ ✡

في جمال النفس يكون كلُّ شيء جميلا ؛ إذ تُلقي النفسُ عليه من ألوانها ، فتنقلب الدارُ الصغيرة قصرا ؛ لأنها في سَعَة النفس لا في مساحتها هي ، وتَعرِفُ لنور النهار عُذوبةً كعذوبة الماء على الظمأ ، ويظهر الليلُ كأنه معرِضُ جواهرَ أُقيم للحُور العِين في السموات ، ويبدو الفجرُ بألوانه وأنواره ونسماتِه كأنه جنّةٌ سابحةٌ في الهواء

في جمال النفس ترى الجمالَ ضرورة من ضرورات الخليقة ؛ وَيْ ! كأن الله أمرَ العالَم ألا يَعبَسَ للقلب المبتسم

✡ ✡ ✡

أيامُ المَصِيف هي الأيامُ التي ينطلق فيها الإنسانُ الطبيعيُّ المحبوسُ في الإنسان ، فيرتدّ إلى دهرِه الأول ، دهرِ الغابات والبحار والجبال

إن لم تكن أيامُ المصيف بمثل هذا المعنى ، لم يكن فيها معنى

✡ ✡ ✡

ليست اللذة في الراحة ولا الفراغ ، ولكنها في التعب والكَدْحِ والمشقة حين تتحولُ أياما إلى راحة وفراغ

✡ ✡ ✡

لا تتمّ فائدةُ الانتقالِ من بلدٍ إلى بلد إلا إذا انتقلت النفسُ من شعور إلى شعور ، فإذا سافر معك الهمُّ فأنت مقيمٌ لم تبرحْ

✡ ✡ ✡

الحياةُ في المصيف تُثبت للإنسان أنها إنما تكونُ حيث لا يُحْفَلُ بها كثيرا

✡ ✡ ✡

يشعر المرءُ فى المُدُن أنه بين آثار الإنسانِ وأعماله ، فهو هناك فى رُوح العَناء والكَدْح والنزاع ؛ أما فى الطبيعة فيُحِسُّ أنه بين الجمال والعجائب الإلٰهية ، فهو هنا فى رُوح اللذة والسرور والجلال

* * *

إذا كنتَ فى أيام الطبيعة فاجعل فكرك خاليا وفَرِّغه للنَّبْت والشجر ، والحَجَرِ والمَدَر ، والطيرِ والحيوان ، والزهرِ والعُشْب ، والماء والسماء ، ونورِ النهار وظلامِ الليل ، حينئذ يَفتَحُ لك العالَم بابَه ويقول : ادخل . . .

* * *

لُطْفُ الجمال صورةٌ أخرى من عَظَمة الجمال ؛ عرفتُ ذلك حينما أبصرتُ قطرة من الماء تلمعُ فى غصن ، فخُيِّل إلىَّ أن لها عَظَمَة البحر لو صَغُر فعُلِّق على ورقة

* * *

فى لحظة من لحظات الجسد الروحانية حين يفورُ شِعْرُ الجمال فى الدم ، أطلْتُ النظرَ إلى وردةٍ فى غصنها ، زاهيةٍ عَطِرةٍ ، متأنقةٍ ، متأنثةٍ ؛ فكدت أقول لها : أنتِ أيتها المرأة ، أنت يافلانة . . . . . .

* * *

أليس عجيبا أن كلَّ إنسان يرى فى الأرض بعضَ الأمكنة كأنها أمكنة الروح خاصة ؟ فهل يدلُّ هـذا على شيء إلا أن خيالَ الجنة منذ آدمَ وحوَّاءَ ، لايزال يعملُ فى النفس الإنسانية ؟

* * *

الحياةُ فى المدينة كشُرب الماء فى كُوبٍ من الخَزَف ، والحياةُ فى الطبيعة كشرب الماء فى كُوب من البَلُّور الساطع ؛ ذاك يحتوى الماءَ ، وهذا يحتويه ويُبدى جمالَه للعين .

* * *

وا أسفاه ! هذه هى الحقيقة : إن دقّةَ الفهم للحياة تُفسدها على صاحبها ، كدقةِ الفهم للحب ؛ وإن العقلَ الصغيرَ فى فهمه للحب والحياة ، هو العقلُ الكاملُ فى التذاذِه بهما . وا أسفاه ! هذه هى الحقيقة !

* * *

فى هذه الأيام الطبيعيةِ التى يجعلها المصيفُ أيامَ سرور ونسيان ، يشعر كل إنسان أنه يستطيع أن يقول للدنيا كلمةَ هَزْل ودُعابة

* * *

من لم يُرزق الفكرَ العاشقَ لم يرَ أشياءَ الطبيعة إلا فى أسمائها وشِياتِها ، دون حقائقها ومعانيها : كالرجل إذا لم يعشق رأى النساءَ كلهن سواء ، فإذا عشق رأى فيهن نساء غيرَ من عَرَف ، وأصبحن عنده أدلة على صفات الجمال الذى فى قلبه .

* * *

تقوم دنيا الرزق بما تحتاجه الحياة ، أما دنيا المصيف فقائمةٌ بما تَلذُّه الحياة ؛ وهذا هو الذى يغيِّر الطبيعةَ ويجعل الجو نفسَه هناك جوَّ مائدةِ ظُرفاءَ وظريفات ..

* * *

تعمل أيام المصيفِ بعد انقضائها عملا كبيرا ، هو إدخالُ بعضِ الشّعر فى حقائق الحياة .

* * *

هذه السماءُ فوقنا فى كل مكان ، غير أن العجيبَ أن أكثر الناس يرحلون إلى المصايف ليروا أشياءَ منها السماء ...

✡ ✡ ✡

إذا استقبلتَ العالمَ بالنفس الواسعة رأيتَ حقائقَ السرور تزيد وتتسع ، وحقائقَ الهموم تصغُرُ وتَضِيق ، وأدركت أن دنياك إن ضاقت فأنت الضيِّق لا هي

✡ ✡ ✡

في الساعة التاسعةِ أذهبُ إلى عملي ، وفي العاشرة أعملُ كَيْت ، وفي الحادية عشرةَ أعملُ كيتَ وكيت ؛ وهنا في المصيف تفقدُ التاسعةُ وأخواتُها معانيَها الزمنيـــة التي كانت تضعها الأيام فيها ، وتستبدلُ منها المعانيَ التي تضعها فيها النفسُ الحرة

هذه هي الطريقة التي تُصنع بها السعادةُ أحيانا ، وهي طريقةٌ لا يقـدر عليها أحدٌ في الدنيا كصغار الأطفال

✡ ✡ ✡

إذا تلاقَى الناسُ في مكان على حالة متشابهة من السرور وتَوَهُّمِه والفكرةِ فيه ، وكان هذا المكانُ مُعَدًا بطبيعته الجميلة لنسيان الحياة ومكارِهِها ـ فتلك هي الرواية وممثلوها ومَسْرَحُها (*) ، أما الموضوعُ فالسخريةُ من إنسان المدنيَّة ومدنية الإنسان

✡ ✡ ✡

ما أصدَق ماقالوه : إن المرئىَّ في الرائى . مرضتُ مدة في المصيف ، فانقلبت الطبيعةُ العَروسُ التي كانت تتزينُ كل يوم ، إلى طبيعةِ عجوز تذهب كلَّ يوم إلى الطبيب ...

(*) يظن صديقنا العلامة الكبير الأمير شكيب أرسلان أن المسرح لدار التمثيل غير صحيح ، وأن صوابها المزرح : ولكن الصاحب بن عباد استعملها في قريب من معنى دار التمثيل ، وأصلها من مرادفات ندى القوم ومجتمعهم

حديث قطين[1]

جاء فى امتحان شهادة إتمام الدراسة الابتدائية لهذا العام (١٩٣٤) فى موضوع الإنشاء ما يأتى :

تقابلَ قِطَّان : أحدُهما سَمينٌ تبدو عليه آثارُ النعمة ، والآخرُ نحيفٌ يدل منظرُه على سُوء حاله ؛ فماذا يقولان إذا حدَّث كل منهما صاحبَه عن معيشته ؟ »

وقد حار التلاميذُ الصغارُ فيما يضعون على لسان القِطَّين ، ولم يعرفوا كيف يوجِّهون الكلامَ بينهما ، وإلى أىّ غاية ينصرفُ القولُ فى مُحاورتهما ؛ وضاقوا جميعا وهم أطفال — أن تكونَ فى رءوسهم عقولُ السَّنانير ، وأعياهم أن تنزلَ غرائزُهم الطيبةُ فى هذه المنزلةِ من البهيميَّة ومن عيشها خاصَّة ، فيكتنِهوا تدبيرَ هذه القِطَاطِ لحياتها ، وينفُذُوا إلى طباعها ، ويندمجوا فى جُلودها ، ويأكلوا بأنيابها ، ويمزِّقوا بمَخالبها .

قال بعضُهم : وسَخِطنا على أساتذتنا أشدَّ السخط ، وعِبناهم بأقبح العيب ؛ كيف لم يعلِّمونا من قبل ، أن نكونَ حَميرا وخيلا وبغالا وثيرانا وقِرَدَةً وخنازير وفئرانا وقِططة ، وما هبَّ ودبَّ ، وما طار ودَرَجَ ، وما مَشَى وانْساح ؛ وكيف — ويحهم — لم يلقِّنونا مع العربية والإنجليزية لغاتِ النَّهيق ، والصَّهيل ، والشَّحيج ، والخُوار ، وضَحِكَ القرد ، وقُبَاعَ الخنزير ، وكيف نَصِىءُ ونَموء ، ونَلْغَط لَغَطَ الطَّير ، ونفُحّ فَحِيحَ الأفعى ، ونَكِشُّ كَشيشَ الدبَّابات (*) . إلى ما يتم بهذا العلمُ اللغوىُّ الجليلُ ، الذى تقوم به بلاغةُ البهائم والطير والحشرات والهَمَج وأشباهها ... ؟

(١) ص ١٩١ - ١٩٢ « حياة الرافعى »

(*) هذه أصوات هذه الأجناس فى اللغة

وقال تلميذ خبيث لأستاذه : أما أنا فأوجزتُ وأعجزت . قال أستاذه : أجدتَ وأحسنتَ ، ولله أنت ! وتالله لقد أصبت ! فماذا كتبت ؟ قال : كتبت هكذا :

يقول السَّمين : ناوْ ، ناوْ ، ناوْ ... فيقولُ النحيف : نَوْ ، ناوْ نَوْ ... فيردُّ عليه السمين : نَوْ ، ناوْ ، ناوْ ... فيغضب النحيف ، ويكشِّرُ عن أسنانه ، ويحرك ذيله ويصيح : نَوْ ، نَوْ ، نوْ ... فيلطمهُ السمينُ فيَخْدِشُه ويصرخ : ناوْ ... فيثبُ عليه النحيفُ ويصْطَرِعان ، وتختلط « النَّوْنَوَة » لا يمتاز صوتٌ من صوت ، ولا يَبِينُ معنًى من معنى ، ولا يمكنُ الفهمُ عنهما في هذه الحالة إلا بتعب شديد ، بعد مراجعة قاموس القِطاط ... !

قال الأستاذ : يابنيّ ، بارك الله عليك ! لقد أبدعت الفنَّ إبداعاً ، فصنعت ما يصنع أكبرُ النوابغ : يُظهر فنَّه بإظهار الطبيعة وإخفاءِ نفسه ، وما ينطق القِط بلغتنا إلا مُعجِزةً لنبيّ ، ولا نبيَّ بعد محمد (صلى الله عليه وسلم) ؛ فلا سبيلَ إلا ماحكيت ووصفت ، وهو مذهبُ الواقع ، والواقعُ هو الجديدُ في الأدب ؛ ولقد أرادوك تلميذاً هِرًّا ، فكنت في إجابتك هِرا أستاذا ؛ ووافقت السّنانير وخالفت الناس ، وحقَّقت الممتحِنين أرقى نظريات الفن العالى ، فإن هذا الفن إنما هو في طريقة الموضوع الفنية ، لا في تلفيق المواد لهذا الموضوع من هنا وهناك ، ولو حفظوا حرمةَ الأدب ، ورَعَوا عهدَ الفن . لأدركوا أن في أسطرك القليلة كلاما طويلا بارعا في النادرة والتهكم وغرابةِ العبقرية وجمالِها وصدقها وحسنِ تَناولها وإحكامِ تأديتها لما تؤدّى (*) ؛ ولكن ما الفرق يا بنيّ بين « ناوْ » بالمد ، و « نَوْ » بغير مد .. ؟ قال التلميذ : هذا عند السنانير كالإشارات التلغرافية : شَرْطة ونقطة وهكذا .

(*) هذا كلام تهكم كما هو ظاهر .

قال : يا بنى ، ولكن وزارة المعارف لا تُقِرُّ هذا ولا تعرفه ، وإنما يكون المصحِّحُ أستاذا لا هِرًّا . . . والامتحان كتابىّ لا شفوى

قال الخبيث : وأنا لم أكن هِرًّا . بل كنت إنسانًا ، ولكن الموضوع حديث قِطَّين ، والحكم فى مثل هذا لأهله القائمين به ، لا المتكلِّفين له ، المتطفِّلين عليه ؛ فإن هم خالفونى قلتُ لهم : اسألوا القِطاط ، أوْلا فليأتوا بالقِطين : السمينِ والنحيفِ ، فليجمعوا بينهما ، وليُحَرِّشوهما ، ثم ليُحْضِروا الرُّقباءَ هذا الامتحان ، وليكتبوا عنهما ما يسمعونه ، وليَصِفوا منهما ما يَرَونه ؛ فوالذى خلَقَ السنانيرَ والتلاميذَ والممتحِنين والمصحِّحين جميعا — ما يزيدُ الهِرَّان على « نَوْ » ، و « ناوْ » ، ولا يكونُ القول بينهما إلا من هذا ، ولا يقع إلا ما وصفتُ ، وما بُدٌّ من المهارَشة والمواثَبة بما فى طبيعةِ القوىِّ والضعيف ، ثم فرارِ الضعيف مهزومًا ، وينتهى الامتحان .

☆ ☆ ☆

إن مثلَ هذا الموضوع يشبه تكليفَ الطالبِ الصغيرِ خلقَ هِرَّتين لا الحديثَ عنهما ؛ فإن إجادة الإنشاء فى مثل هذا الباب أُلوهيةٌ عقلية تَخلق خلقَها السَّوِىَّ الجميلَ نابضا حيًّا ، كأنما وَضعتْ فى الكلام قلبَ هِرّ ، أو جاءت بالهِرِّ له قلبٌ من الكلام . وأين هذا من الأطفال فى الحاديةَ عشرةَ والثانيةَ عشرةَ وما حولها؟ وكيف لهم فى هذه السن أن يمتزجوا بدقائق الوجود ، ويُداخِلوا أسرارَ الخليقة ، ويُصبحوا مع كل شىء رَهْنًا بعِلَلِه ، وعند كل حقيقة موقوفين على أسبابها ؟ وقد قيل لهم من قبل فى السنوات الخالية : « كن زهرةً وصِفْ » . « واجعلْ نفسَك حبةَ قمح وقُلْ » . وإنما هذا ونحوُه غاية من أبعد غايات النبوّة أو الحكمة ؛ إذ النبىّ تعبيرٌ إلٰهى تتخذه الحقيقةُ الكاملةُ لتنطِقَ به كلمتَها التى تسمى الشريعة ، والحكيمُ وجهٌ آخرُ

من التعبير ، تتخذه تلك الحقيقةُ لتُلاقِيَ منه الكلمةَ التى تسمَّى الفن

وقد كان فى القديم امتحانٌ مثل هذا ، لم ينجح فيه إلا واحد فقط من آلاف كثيرة ؛ وكان الممتحِن هو اللهَ جلَّ جلالُه ، والموضوعُ حديثُ النملة مع النمل ، والناجحُ سليمان عليه السلام !

« قالت نملةٌ : يأيها النملُ ادخلوا مساكنكم لا يَحْطِمَنَّكُمْ سليمانُ وجنودُه وهم لا يشعرون ، فتبسم ضاحكا من قولها » !

إن الكونَ كلَّه مستقر بمعانيه الرمزية فى النفس الكاملة : إذ كانت الروح فى ذاتها نورا ، وكان سرُّ كل شيء هو من النور ، والشعاعُ يجرى فى الشعاع كما يجرى الماءُ فى الماء ، وفى امتزاج الأشعة من النفس والمادة تجاوُبٌ روحانىّ هو بذاته تعبيرٌ فى البصيرة وإدراك فى الذهن ، وهو أساسُ الفن على اختلاف أنواعه : فى الكلمة والصورة ، والمثالِ والنغْمة ؛ أى الكتابةِ والشعرِ والتصوير والحفر والموسيقى

ومن ذلك لا يكون البيانُ العالى أتمَّ إشراقا إلا بتمام النفس البليغة فى فضيلتها أو رذيلتها على السواء : فإن من عجائب السخرية بهذا الإنسان أن يكون تمامُ الرذيلة فى أثره على العمل الفنىّ ، هو الوجهَ الآخرَ لتمام الفضيلة فى أثره على هذا العمل ؛ والنقطةُ التى ينتهى فيها العلوُّ من مُحيط الدائرة هى بعينها التى يبدأ منها الانحدارُ إلى السُّفْل ؛ ومن ثَمَّ كانت الفنونُ لا تُعتبر بالأخلاق ؛ حتى قال علماؤنا : إن الدين عن الشعر بمَعْزِل ؛ فالأصلُ هناك سموُّ التعبير وجماله ، وبلاغة الأداء ورَوْعتُها ؛ ولا يكون السؤالُ الفنىُّ : ما هى قيمةُ هذه النفس ؟ ولكن : ما طريقتُها الفنية ؟ وأى عجيب فى ذلك ؟ أليس لجهنم حقٌّ فى كبار أهل الفن كما للجنة حق فى نوابغه ؟ وإذا قالت الجنة : هذه فضائلى البليغة . أفلا تقول الجحيمُ : وهذه بلاغةُ رذائلى ؟ وكيف لَعمرى يستطيع

إبليسُ أن يؤدىَ عملَه الفنى . . . . وبصوِّرَ بلاغتَه العاليةَ إلا فى ساقطِينَ من أهل الفكر الجيل ، وساقطاتٍ من أهل الجسم الجيل . . ؟

✡ ✡ ✡

لقد بعدنا عن القِطين ، وأنا أريد أن أكتبَ من حديثهما وخبرِهما :

كان القِطّ الهزيلُ مرابطا فى زُقاق ، وقد طارد فأرةً فانْجَحرتْ فى شِقّ ، فوقف المسكينُ يتربَّص بها أن تخرج ، ويؤامِر نفسَه كيف يُعالجها فيبتزُّها ؛ وما عقْلُ الحيوانِ إلا من حِرفة عيشِه لا من غيرها ؛ وكان القِطّ السمينُ قد خرج من دار أصحابه يريد أن يفرِّجَ عن نفسه بأن يكونَ ساعةً أو بعض ساعة كالقِطَطة بعضِها مع بعض ، لا كأطفالِ الناس مع أهليهم وذوى عنايتهم ، وأبصر الهزيلَ من بعيد فأقبل يمشى نحوه ، ورآه الهزيل وجعل يتأمله وهو يتخلّع تخلُّعَ الأسد فى مِشيته ، وقد ملأ جِلدتَه من كل أقطارها ونواحيها ، وبَسَطتْه النعمةُ من أطرافه ، وانقلبت فى لحمه غِلَظا ، وفى عَصَبه شِدةً ، وفى شَعره بَريقا ، وهو يَموجُ فى بدنه من قوةٍ وعافية ، ويكاد إهابه ينشقُّ سِمَنا وكِدْنة ؛ فانكسرت نفسُ الهزيل ، ودخلَته الحسرة ، وتَضَعْضَعَ لمرأى هذه النعمة مَرِحةً مختالة ؛ وأقبلَ السمينُ حتى وقف عليه ، وأدركته الرحمة له ، إذ رآه نحيفا متقبّضا ، طاوِىَ البطن ، بارزَ الأضلاع ، كأنما همت عظامُه أن تتركَ مسكَنها من جِلده لتجدَ لها مأوًى آخر

فقال له : ماذا بك ؟ ومالى أراك مُتيَبِّسا كالميت فى قبره غير أنك لم تمت ؟ ومالك أُعطيتَ الحياةَ غير أنك لم تحىَ ؟ أو ليس الهِرُّ منا صورةً مختزَلة من الأسد ، فمالك — ويحكَ — رجعتَ صورةً مختزلة من الهر ؟ أفلا يسقُونك اللبن ، ويُطعمونك الشَّحمة واللحمة ، ويأتونك بالسمك ، ويقطعون لك من الجبن أبيضَ وأصفر ، ويَفُتُّون لك الخبزَ فى المَرق ، ويُؤْثِرك الطفلُ ببعض

طعامه ، وتدلّلك الفتاةُ على صدرها ، وتَمسَحُك المرأة بيديها ، ويتناولك الرجل كما يتناول ابنَه . . . ؟ وما لجلدك هـذا مُغبرًّا كأنك لا تَلْطَعُه بلُعابك ، ولا تتعهَّده بتنظيف ، وكأنك لم تر قط فتًى أو فتاة يجرى الدِّهانُ بَريقا فى شعره أو شعرها ، فتحاول أن تصنعَ بلعابك لشعرك صنيعَهما ؛ وأراكَ متزايِلَ الأعضاء متفكّكا حتى ضَعُفْتَ وجَهِدتَ ، كأنه لا يَركبك من حُب النوم على قَدْرٍ من كسلك وراحتِك ، ولا يركبك من حب الكسل على قدرٍ من نعيمك ورَفاهتك ، وكأن جنبيك لم يعرفا طِنْفِسَةً ولا حَشِيَّة ولا وسادة ولا بِساطا ولا طِرازا ، وما أشبهك بأسدٍ أهلكه ألّا يجد إلا العُشبَ الأخضرَ والهشيمَ اليابس ، فما له لحمٌ يجيء من لحم ، ولا دمٌ يكون من دم ، وانحط فيه جسمُ الأسد ، وسكنتْ فيه روحُ الحمار !

قال الهزيل : وإن لك لحمةً وشَحمة ، ولبنا وسمكا ، وجُبنا وفُتاتا ؟ وإنك لتَقضى يومَك تَلْطَعُ جِلدَك ماسِحا وغاسلا ، أو تَتَطرَّح على الوسائد والطنافس نائما ومتمدّدا ؟ أمَا والله لقـد جاءتك النعمةُ والبلادةُ معا ، وصلحتْ لك الحياةُ وفسدتْ منك الغريزة ، وأحكمتَ طبعا ونَقَضتَ طِباعا ، وربحتَ شِبَعا وخسِرْتَ لذة ؛ عطفوا عليك وأفقدوك أن تعطف على نفسك ، وحملوك وأعجزوك أن تستقلّ ، وقد صرتَ منهم كالدجاجة : تُسمَّن لتُذبح ، غير أنهم يذبحونك دَلالا ومَلالا

إنك لتأكلُ من خِوانِ أصحابك ، وتنظرُ إليهم يأكلون ، وتطمع فى مؤاكلتهم ؛ فتَشبع بالعين والبطنِ والرغبةِ ، ثم لا شيءَ غيرُ هـذا ؛ وكأنك مُرْتَبَط بحبال من اللحم تأكل منها وتحتَبِس فيها

إن كان أولُ مافى الحياة أن تأكل ، فأهون مافى الحياة أن تأكل ؛ ومايقتلك شيء كاستواءِ الحال ، ولا يُحييك شيء كتَفاوتِها ؛ والبطنُ لا يتجاوز البطن ،

ولذتُه لذتُه وحدَها ؛ ولكن أين أنت عن إرثكَ من أسلافك ، وعن العِلَل الباطنةِ التي تحركنا إلى لذاتِ أعضائنا ، ومتاعِ أرواحنا ، وتَهَبُنا من كل ذلك وجودَنا الأكبر ، وتجعلنا نعيشُ من قِبَلِ الجسم كله ، لا من قِبَل المعدة وحدها ؟

قال السمين : تاللهِ لقد أكسبك الفقرُ حكمةً وحياة ، وأرانى بإزائك معدوماً بزَوال أسلافى منى ، وأراك بإزائى موجوداً بوجود أسلافك فيك ؛ ناشدتُكَ اللهَ إلا ما وصفتَ لى هذه اللذاتِ التى تعلو بالحياة عن مرتبة الوجود الأصغر من الشِّبع ، وتستطيل بها إلى مرتبة الوجود الأكبر من الرضى ؟

فقال الهزيل : إنك ضخم ولكنك أبله ، أما علمتَ — ويحك — أن المِحْنَةَ فى العيش هى فكرة وقوة ، وأن الفكرةَ والقوةَ هما لذةٌ ومنفعة ، وأن لهفةَ الحِرمان هى التى تضع فى الكَسْب لذةَ الكسب ، وسُعَارَ الجوع هو الذى يجعل فى الطعام من المادة طعاماً آخر من الروح ، وأن ما عُدل به عنك من الدنيا لا تعوّضك منه الشَّحْمةُ واللحمة ، فإن رغباتِنا لابد لها أن تجوعَ وتغتذىَ كما لابد من مثل ذلك لبطوننا ، ليوجِدَ كل منهما حياتَه فى الحياة ؛ والأمورُ المطمئنة كهذه التى أنت فيها هى للحياة أمراضٌ مطمئنة ، فإن لم تَنْقُصْ من لذتها فهى لن تزيدَ فى لذتها ، ولكنّ مكابدةَ الحياة زيادةٌ فى الحياة نفسِها .

وسِرُّ السعادة أن تكون فيك القُوَى الداخليةُ التى تجعل الأحسنَ أحسنَ مما يكون ، وتمنع الأسوأ أن يكونَ أسوأ مما هو ؛ وكيف لك بهذه القوة وأنت وادع قارٌّ محصورٌ من الدنيا بين الأيدى والأرجل ؟ إنك كالأسد فى القفص ، صَغُرت أجَمَتُهُ ولم تزل تصغُر حتى رجعتْ قفَصاً يحدُّه ويحبسه ، فصغُرَ هو ولم يزل يصغر حتى أصبح حركةً فى جلد ؛ أما أنا فأسدٌ

على مَخَالبي ووراء أنيابي ، وغَيْظي أبدا تتّسع ولاتزال تتسع أبداً ، وإن الحريةَ لتجعلني أتشمَّمُ من الهواء لذةً مثل لذة الطعام ، وأستَرْوِحُ من التراب لذّة كلذّة اللحم ، وما الشقاء إلا خلّتان من خلال النفس : أما واحدةٌ فأَن يكونَ في شَرَهِك ما يجعل الكثيرَ قليلاً ، وهذه ليست لمثلى مادمتُ على حدّ الكَفَاف من العيش ؛ وأما الثانيةُ فأن يكونَ في طمعك مايجعلُ القليلَ غيرَ قليل ، وهذه ليس لها مثلى مادمتُ على ذلك الحد من الكفاف ؛ والسعادةُ والشقاء كالحق والباطل : كلّها من قِبَل الذات ، لامن قِبل الأسباب والعلل ؛ فمن جاراها سَعِد بها ، ومن عكَسها عن مجراها فيها يشقى .

ولقد كنتُ الساعةَ أختِلُ فأرةً انجحرتْ في هذا الشّق ، فطَعِمتُ منها لذةً وإن لم أطعم لحمًا ، وبالأمس رماني طفل خبيث بحجر يريد عَقْري فأحدثَ لي وجعا ، ولكن الوجعَ أحدث لي الاحتراس ، وسأغشى الآن هذه الدار التي بإزائنا ، فأيةُ لذة في السّلّة والخَطْفةِ والاسْتِرَاقِ والانتهاب ، ثم الوثب شدًّا بعد ذلك ؟ هل ذقتَ أنت برُوحك لذةَ الفُرصة والنهزة ، أو وجدتَ في قلبك راحةَ المخالَسةِ واستراقِ الغفلة من فأرةٍ أو جُرَذ ، أو أدركت يومًا فرحةَ النجاة بعد الرَّوَغان من عابثٍ أو باغٍ أو ظالمٍ ؟ وهل نالتك لذةُ الظفَر حين هَوّلَك طفلٌ بالضرب ، فهوّلتَهُ أنت بالعضّ والعَقْر ، ففرّ عنك منهزِما لا يلوى ؟

قال السمين : وفى الدنيا هذه اللذاتُ كلها وأنا لاأدرى ؟ هلمّ أتوحّش معك ، ليكونَ لى مثل نُكرِك ودَهائك واحتيالِك ، فيكونَ لى مثلُ راحتك المكدودة ، ولذتِك المتعَبة ، وعُمرِك المحكومِ عليه منك وحدك ؛ وسأتصدّى معك للرزق أطاردُه وأواثبه ، وأغاديه وأراوِحه و ...

فقطع عليه الهزيل وقال :

ياصاحبي ، إن عليك من لحمك ونعمتك علامةَ أسرِك ، فلا يلقانا أولُ طفل إلا أهوى لك فأخذك أسيراً ، وأهوى عَلَيّ بالضرب لأنطلق حُرّاً ، فأنت على نفسك بلاء ، وأنت بنفسك بلاءٌ عَلَيّ .

وكانت الفأرةُ التي انجحرتْ قد رأت ماوقع بينهما ، فسرَّها اشتغالُ الشر بالشر ... وطالت مراقبتُها لهما حتى ظنت الفرصة ممكنةً ؛ فوثبت وثبةً من ينجو بحياته ، ودخلت في باب مفتوح ؛ ولمحها الهزيلُ كما تلمح العينُ برقاً أومض وانطفأ ، فقال للسمين : اذهب راشداً ؛ فحسبُك الآن من المعرفة بنفسك وموضعِها من الحياة ، أن الوقوفَ معك ساعةً هوضَياعُ رزق ، وكذلك أمثالُك في الدنيا ، هم بألفاظهم في الأعلى وبمعانيهم في الأسفل ..

بين خروفين[1]

« اجتمع ليلةَ الأضحى خروفان من أضاحي العيد ، فتكلّما : فماذا يقولان ؟ »

هذا هو الموضوعُ الذي استخرجه لي أصغرُ أولادي (الأستاذ) عبد الرحمن ، وسألني أن أكتب فيه الرسالة ، وهو أصغر قرائها سنّاً ، تَرِفُّ عليه النّسمةُ الثالثةَ عشرةَ من ربيع حياته[2] ـ بارك الله له فيها حاضرةً ومُقبِلة .

ولأستاذنا هذا كلمةٌ هي شعارُه الخاصّ به في الحياة ، يحفظُها لتحفظَه ، فلا يميل عن مَدْرَجَتِها ، ولا يَخرُجُ من معناها ؛ وهي هذه الكلمةُ العربية : « كالفَرَسِ الكريم في مَيْعَةِ حُضْرِه (*) ، كلما ذهب منه شَوْط جاء شَوط » .

---

(١) انظر ص ٢٢٧ « حياة الرافعي »

(٢) كان ذلك في سنة ١٩٣٤

(*) هذا كما يقال بالعامية : في عزجريه

فهو يعلم من هذا أن كرم الأصل فى كرم الفعل، ولا يغنى شىءٌ منهما عن شىء؛ وأن الدمَ الحرَّ الكريمَ يكون مُضاعَفَ القوّة بطبيعته، عظيمَ الأمل بهذه القوة المضاعَفة، نزّاعاً إلى السبق بمقدار أمله العظيم، مترفِّعاً عن الضعف والهُوَينا بهذا النُّزوع، متميزاً فى نبوغ عمله وإبداعِه باجتماع هذه الخصالِ فيه على أتمّها وأحسنِها؛ فمِن ثَمَّ لايَرى الحرُّ الكريم إلا أن يبلغَ الأمَدَ الأبعدَ فى كل مايحاوله، فلا يألو أن يبذلَ جهدَه إلى غاية الطاقة ومبلغ القدرة، مستمِدًّا قوةً بعد قوة، محقّقاً السحرَ القادرَ الذى فى نفسه، متلقّياً منه وسائلَ الإعجاز فى أعماله، مُرسِلًا فى نبوغه من توهُّج دمه أضواءً كأضواء النجم تُثبتُ لكل ذى عينين أنه النجمُ لاشىءٌ آخر.

ولما قَدّم إلىّ (الأستاذ) موضوعَه فى هذا الوزن المدرسىّ — وأظنه قد نزَعتْه حاجةٌ مدرسيةٌ إليه — قلتُ: حُبًّا وكَرامة. وهأنذا أكتبه منبعثاً فيه «كالفرس الكريم فى مَيعة حُضْره» ... ولعل الأستاذ حين يقرؤه لا يُثَوِّرُ فيه علاماتٍ كثيرةً بقلمه الأحمر ... !

✡ ✡ ✡

اجتمع ليلةَ الأضحى خروفان من الأضاحى فى دارنا: أما أحدهما فكبْشٌ أقْرَنُ يحمل على رأسه من قرنيه العظيمين شَجَرةَ السنين، وقد انتهى سِمَنُه حتى ضاق جِلْدُه بلحمه، وسَحَّ بدنه بالشحم سَحًّا، فإذا تحرَّك خِلتَه سحابةً يضطربُ بعضُها فى بعض، ويهتزّ شىءٌ منها فى شىء؛ وله وافِرةٌ (*) يجرُّها خلفه جرّاً، فإذا رأيتَها من بعيد حسبتَها حَمَلًا يتبعُ أباه؛ وهو أصْوَفُ قد سَبَغَ صُوفُه واستكْثَفَ وتراكم عليه؛ فإذا مشى تبَخْترَ فيه تبخْتُرَ الغانية فى حُلّتها، كأنما يشعر مثلَ شعورها أنه يلبسُ مَسَرّاتِ جسمِه لاثوبَ

(*) ألية عظيمة، ويقال: كبش أليان، إذا كان عظيم الالية

جسمه ؛ وهو من اجتماع قوّته وجَبَرُوتِه أشبهُ بالقلعة ، يعلوها من هامته كالبُرج الحربىّ فيه مدفعان بارزان ؛ وتراه أبداً مُصعِّراً خدَّه كأنه أمير من الأبطال ، إذا جلس حيث كان شعر أنه جالسٌ فى أمرِه ونهيه ، لا يَخرج أحدٌ من نهيه ولا أمرِه .

وأما الآخر فهو جَذَعٌ فى رأس الحَوْل الأولِ من مَوْلده . لم يُدْرِكْ بعدُ أن يُضَحَّى ، ولكن جِيء به للقَرَمِ إلى لحمه الغَضّ ؛ فالأول أُضْحِيّةٌ وهذا أَكُولَةٌ ؛ وذاك يُتَصَدَّقُ بلحمه كلّه على الفقراء ، وهذا يُتصدق بثُلُثَيه ويبقى الثلثُ طعاماً لأهل الدار .

وكان فى لِينه وترَجرُجِه وظَرفِ تكوينه ومَرَح طبعه كأنما يُصوِّر لكَ المرأةَ آنسةَ رقيقةً مُتوددة ، أما ذاك الضخمُ العاتى المتجبّر الشامخُ ، فهو صورة الرجل الوحشىّ أخرجته الغابةُ التى تخرج الأسدَ والحيّةَ وجذوعَ الدَّوْحة الضخمة ، وجعلت فيه من كل شىء منها شيئاً يُخافُ ويُتّقَى .

وكان الجذَعُ يَثْغُو لاينقطع ثُغاؤه ، فقد أُخِذ من قطيعه انتزاعاً فأحسّ الوحشةَ وتنبهتْ فيه غريزةُ الخوف من الذئب فزادته إلى الوحشة قلَقاً واضطراباً ؛ وكان لايستطيع أن يَنْفلت ، فهو كأنما يهربُ فى الصوت ويعدو فيه عدْواً .

أما الكبشُ فيَرى مثلَ هذا مَسَبَّةً لقرنيه العظيمين ، وهو إذا كان فى القطيع كان كبشَه وحاميَهُ والمُقدَّمَ فيه ، فيكونُ القطيعُ معه وفى كَنَفِه ولا يكون هو عند نفسه مع القطيع ؛ فإذا فقد جماعتَه لم يكن فى منزلة المنتظِر أن يَلحق بغيره ليحتمىَ به فيَقلقَ ويضطرب ، ولكنه فى منزلة المرتقِب أن يَلحقَ به غيرُه طلباً لحمايته وذِماره ، فهو ساكنٌ رابطُ الجأش مغتبِطُ النفس ، كأنما يتصدَّقُ بالانتظار ...

✡ ✡ ✡

فلما أدبر النهارُ وأقبل الليـلُ ، جيء للخروفين بالـكَلَأ من هذا البرسيم يَعْتلفانِه ، فأحسَّ الـكبشُ أن فى الـكلأ شيئا لم يدرِ ماهو ، وانقبضت نفسُه لِمَا كانت تنبسطُ إليه من قبل ، وعَرَته كآبةٌ من روحه ، كأنما أدركتْ هذه الروحُ أنه آخرُ رزقِه على الأرض ، فانـكسر وظهر على وجهه معنى الذبح قبل أن يُذبح ، وعافَ أن يَطْعَم ، ورجع كأوّل فِطامه عن أمه : لا يعرف كيف يأكل ، ولا يتناولُ من أكله إلا أدنى تناوُل .

وكأنما جـثَم الظلامُ على شحمه ولحمه ؛ فإنه متى ثَقُلَ الهمّ على نفس من الأنفس ، ثقل على ساعتها التى تـكون فيها ، فتطولُ كآبتُها ويطولُ وقـتها جميعا ؛ فأراد الـكبشُ أن يتفرَّجَ ممـا به ، ويُنفّس عن صدره شيئا ، وكان الصغير قد أنِس إلى المـكان والظلمة ، وأقبل يعتلفُ ويَخضِمُ الـكَلأَ ، فقال له الـكبش : أراك فارهًا يابن أخى كأنك لاتجد ماأجد ؛ إنى والله أعلم علمًا لاتعلمه ، وإنى لأُحسُّ أن القدرَ طريقُه علينا فى هذه الليلة ، فهو مُصْبِحُنا ما من ذلك بُدّ .

قال الصغير : أتعنى الذئب ؟

قال : ليته هو ، فأنا لَكَ به لوأنه الذئب ؛ إن صوفى هذا دِرْع من أظافره ، وهو كالشبكة يَنْشَبُ فيها الظُّفر ولا يتخلص ، ومن قرنىَّ هذين تُرْسٌ ورُمح ، فأنا واثق من إحراز نفسى فى قتـله ، ومَن أحرز نفسه من عدوّه فذاك قتلُ عدوه ، فإن لم يقتله فقد غاظه بالهزيمة ، وذاك عند الأبطال فنٌّ من القتل ؛ وهـذا القَرن الملتفُ الأحقدُ المذَرَّبُ كالسّنان ، لايكاد يراه الذئب حتى يعلم أنه حاطِمَةُ عظامِه ، فيَحْدُثُ له من الفزَع ماتنحلُّ به قوّته ، فما يُواثِبُنى إلا مُتخاذِلاً ، ولا يُقْدِمُ علىّ إلا توهُّمَ الذئبيّة للخَروفيَّة ، فإن

أساسَ القوة والضعف كليهما فى الشوبِ والطبيعة ، غير أنه لايعلم أنى خرجت من الخروفية إلى الجاموسيّة ... ! فما يُعَلِّمه ذلك إلا بَقْرُ بطنِه أو التطويح به من فوق هذا القَرن ، أقذفهُ قذفةً عالية تُلقيه من حالِق ، فتدقُّ عظامه وتحطم قوائمه !

قال الصغير : فماذا تخشى بعد الذئب ؟ إن كانت العصا ، فهى إنما تضرب منك الصوفَ لا الظهر .

قال الكبش : ويحك ! وأىّ خروفٍ يخشى العصا ؟ وهى إنما تكون عصا من يَعلِفهُ ويَرعاه ، فهى تنزلُ عليه كما تنزلُ على ابن آدم أقدارُ ربه ، لا حطْمًا ولكن تأديبا أو إرشاداً أو تهويلاً ؛ ومن قبْلها النعمةُ ، وتكون معها النعمة ، وتجيء بعدها النعمة ؛ أفيلغ الكفرُ منا مايبلغ كفرُ الإنسانِ بنعمة ربه : إذا أنعم عليه أعرضَ ونأى بجانبه ، وإذا مسَّه الشر انطلق ذا صُراخٍ عريض ؟

وكيف ترانى ـ ويحك ـ أخشى الذئب أو العصا ، وأنا من سُلالة الكبش الأسدىّ ؟

قال الصغير : وما الكبشُ الأسدىّ ؟ وكيف علمتَ أنك من نَجْله ، ولا علم لى أنا إلا هذا الكلأ والعلفُ والماءُ ، والمَرَاحُ والمَغْدى ؟

قال الكبش : لقد أدركتُ أمى وهى نعجةٌ قَحمةٌ كبيرة ، وأدركتُ معها جَدتى وقد أفرطَ عليها الكِبرُ حتى ذهب فمُها ، وأدركتُ معهما جدّى وهو كبش هَرِمٌ مُتقَدِّدٌ أعجفُ كأنه عِظام مُغطاة ، فعن هؤلاء أخذتُ ورَويتُ وحفظت :

حدثتنى أمى ، عن أبيها ، عن أبيه ، قالت : إن فخر جنسنا من الغنم يرجع إلى كبش الفِداء الذى فَدَى اللهُ به إسماعيلَ بن إبراهيمَ عليهما السلام ، وكان كبشا أبيضَ أقرَنَ أعينَ ، اسمه حَرير .

(قال) : واعلم يا ابن أخى أن مما انفردتُ أنا به من العلم فلم يُدركه غيرى ،

أن جدنا هذا كان مكسوًّا بالحرير لا بالصوف ، فلذلك سمى حريراً . . .

(قالت أمى) : والمحفوظ عند علمائنا أن ذاك هو الكبشُ الذى قَرَّبه هابِيلُ حين قَتل أخاه ، لتتمّ البليةُ على هذه الأرض بدم الإنسان والحيوانِ معا .

(قالوا) : فتُقُبِّل منه وأُرسِل الكبشُ إلى الجنة ، فبقى يرعَى فيها حتى كان اليوم الذى همَّ فيه إبراهيم أن يذبح ابنَه تحقيقا لرؤيا النبوّة ، وطاعةً لما ابتُلى به من ذلك الامتحان ، وليُثبِتَ أن المؤمنَ بالله إذا قَوِى إيمانُه لم يجزع من أمر الله ولو جَرّ السكّينَ على عُنُق ابنه ، وهو إنما يجرها على ابنِه وعلى قلبه !

(قالت) : فهذا هو فخر جنسنا كلِّه .

أما فخر سُلالتى أنا ، فذاك ما حدثتنى به جدتى ، ترويه عن أبيها ، عن جدها ، وذاك حين توسَّمتْ فىّ مَخايِلَ البُطولة ، ورَجَتْ أن أحفظَ التاريخ .

قالت : إن أصانا من دِمَشق ، وإنه كان فى هذه المدينة رجل سَبّاع ؛ قد اتخذ شِبْلَ أسدٍ فربّاه وراضَه حتى كبر وصار يطلب الخيل وتأذى به الناس ، فقيل للأمير (*) : هـذا السبُعُ قد آذى الناس ، والخيلُ تنفِر منه وتجدُ من ريحه ريحَ الموت ، وهو مايزال رابضا ليله ونهارَه على سُدَّةٍ بالقرب من داره . فأمر فجاء به السبّاعُ وأدخله إلى القصر ، ثم أمر بخروف مما اتخِذ فى مطبخه للذبح ، وأدخلوه إلى قاعة ، وجاء السبّاع فأطلق الأسدَ عليه ، واجتمعوا يرون كيف يَسطُو به ويفترسُه .

قالت جدتى : فحدّثنى أبى ، قال : حدّثنى جدك : أن السبَّاع أطلق الأسدَ من ساجُورِه (**) وأرسله ، فكانت المعجزةُ التى لم يفُزْ بها خروف ولم تؤثَر قط

(*) هذه القصة شهدها الأمير الأديب (أسامة بن منقذ) المتوفى سنة ٥٨٤ للهجرة وقصها فى كتابه (الاعتبار) ، والأمير المذكور فى القصة هو (معين الدين أنر) وزير شهاب الدين محمود . وقد تصرفنا فى عبارة القصة .

(**) الساجور : سلسلة الأسد والكلب ونحوهما

إلا من جدنا ، فإنه حسب الأسدَ خروفا أَجَمَّ لاقُرون له ، ورأى دِقة خَصره ، وضُمورَ جنبيه ، ورأى له ذيلاً كالألية المُفْرَغةِ الميّتة ، فظنه من مَهازيل الغنم التى قتلها الجَدْب ، وكان هو شَبْعانَ ريّان ، فما كَذّبَ أن حَمل على الأسد ونَطحه ، فانهزم السبُعُ مما أذهله من هذه المفاجأة ، وحسب جدَّنا سَبُعا قد زاده الله أسلحةً من قرنيه ، فاعتراه الخوف وأدبر لايلوِى . وطمع جدُّنا فيه فاتّبعه ، وما زال يُطارِدُه وينطحه ، والأسدُ يفرُّ من وجهه ويدورُ حول البِرْكة ، والقومُ قد غلبهم الضحك ، والأمير مايملك نفسَه إعجابا وفخراً بجدِّنا . فقال : هذا سبُعٌ لئيم ، خذوه فأَخرجوه ، ثم اذبحوه ، ثم اسلُخوه . فأُخِذ الأسدُ وذُبح ، وأُعتِقَ جدُّنا من الذبح ، وكان لنا فى تاريخ الدّنيا ، إنسانِها وحيوانِها ، أثران عظيمان : فجدُّنا الأول كان فِداءً لابن نبىّ ، وجدنا الثانى كان الأسدُ فداءَه !

☆ ☆ ☆

قال الصغير للكبش : قلتَ : الذبح ، والفِداء من الذبح : فما الذبح ؟

قال الكبش : هذه السُّنّة الجاريةُ بعد جدنا الأعظم ، وهى الباقية آخرَ الدهر : فينبغى لكلٍّ منا أن يكون فداءً لابن آدم !

قال الصغير : ابن آدم هذا الذى يخدمنا ، ويحتزُّ لنا الكلأ ، ويقدِّم لنا العلَف ، ويمشى وراءنا فنسحبُه إلى هنا وههنا ... ؟ تالله ما أظن الدنيا إلا قد انقلبت ، أَوْلا ، فأنت ياأخا جدّى ... قد كبرتَ وَخَرِفْت !

قال الكبش : ويحكَ ياأبله ! متى تتحلَّلُ هذه العقدةُ التى فى عقلك ؟ إنك لو علمتَ ما أعلم لما اطمأنت بك الأرض ، ولرجَعْتَ من القَلق والاضطراب كحبة القمح فى غِربالٍ يهتزُّ وينتفض !

قال الصغير : أتعنى ذلك الغِربال وذلك القمح وما كان فى القرية ، إذ تناولت ربةُ الدار غِربالَها تنفُضُ به قمحها ، فغافلتُها ونطحتُ الغِربالَ فانقلب

عن يدها وانتثر الحب ، فأسرعتُ فيه التقاطا حتى ملأت فمى قبل أن تُزيحَنى المرأة عنه ... ؟

فهز الكبشُ رأسه فِعْلَ مَنْ يريدُ الابتسامَ ولا يستطيعه ، وقال : أرأيتَ حانوتَ القَصَّاب ونحن نمرّ اليوم فى السوق ؟

قال : وما حانوت القَصَّاب ؟

قال : أرأيتَ ذلك السَّالِخَ من الغَنَم البِيضِ المُعلَّقة فى تلك المَعاليق لاجِلْد عليها ولا صوف ، وليس لها أرؤسٌ ولا قوائم ؟

قال الصغير : وما ذاك السَّالخ ؟ إنه إن صح ماحدّثتَنى به عن أمك ، فهذه غنم الجنة ، تبيت ترعى هناك ، ثم تجىء إلى الأرض مع الصبح ، وإنى لمترقب شمسَ الغد ، لأذهبَ فأراها وأملأ عينىَّ منها .

قال : اسمع أيها الأبله ! إن شمس الغد ستشعر بها من تحتك لامن فوقك ...! لقد رأيتُ أخى مذ كنتُ جذعا مثلك ؛ ورأيتُ صاحبَنا الذى كان يعلفه ويُسَمِّنُه قد أخذه ، فأضجَعَهُ ، فجَثَم على صدره شرا من الذئب ، وجاء بشَفْرَة بيضاءَ لامعة فجَرَّها على حلقه ، فإذا دَمُهُ يَشْخبُ ويتفجّر ، وجعل المسكينُ ينتفض ويَدْحَضُ برجله ، ثم سَكَنَ وبرَدَ ؛ فقام الرجل ففَصَل عنقَهُ ، ثم نَخَسَ فى جلده ونفخه حتى تطبَّل ورجع كالقربة التى رأيتَها فى القرية مملوءة ماءً فحسبتَها أمَّك ؛ ثم شقّ فيه شقا طويلاً ؛ ثم أدخل يَده بين الجِلدِ والصِّفاق ؛ ثم كشَطَه وسَحَفَ الشّحْمَ عن جنبيه ، فعاد المسكينُ أبيضَ لاجلد له ولاصوف عليه ، ثم بقَر بطنَه وأخرج مافيه ، ثم حطمَ قوائمه ، ثم شدّه فعلّقه فصار سليخًا كغنم الجنة التى زعمْت ! وهذا — أيها الأبله — هو الذبح والسلخ !

قال الصغير : وما الذى أحدث هذا كلّه ؟

قال : الشَّفرةُ البيضاءُ التى يسمونها السِّكين !

قال الصغير : فقد كانت الشفرةُ عند حلقه حيالَ فمه ؛ فلماذا لم ينتزعْها فيأكلَها ؟

قال الكبش : أيها الأبله الذى لا يعلم شيئا ولا يحفظ شيئا ! لو كانت خضراءَ لأكلها !

قال : وما خَطْبُ أن تجىء الشَّفرةُ على العنق ، أفلم يكن الحبلُ فى عنقك أنت فجعلتَ تجاذِبُ فيه الرجلَ حتى أعيَيْتَه ، ولولا أنى مشيتُ أمامك لما انْقَدْتَ له ؟

قال الكبش : ما أدرى والله كيف أُفْهِمُك أن هذا كلَّه سيَجرى عليك ؛ فستَرى أمورا تُنكرها ، فتعرفُ ما الذبح والسلخ ، ثم تصير أشلاءً فى القُدور تُضْرَم عليها النار ، فيأكلك ابنُ آدم كما تأكل أنت هذا الكَلأَ . . . !

قال الصغير : وماذا علىّ أن يأكلنى ابنُ آدم ؟ ألا ترانى آكلُ العُشب ؟ فهل سمعتَ عُوداً منه يقول : الرجُل ، والسكين ، والذبح ، والسلخ . . ؟

قال الكبش فى نفسه : لَعَمْرى إن قوة الشباب فى الشباب أقوى من حكمة الشيوخ فى الشيوخ ، وما نَفْع الحكمة إذا لم تكن إلا رأيا ليس له ما يُمْضيه ، كرأى الشيخ الفانى : يرى بعقله الصوابَ حين يكون جسمُه هو الخطأَ مركَّبا فى ضعفِه غَلطةً على غلطةٍ لاعُضواً على عضو . . ؟

وهل الرأىُ الصحيحُ للعالم الذى نعيش فيه إلا بالجسم الذى نعيش به ؟ وما جَدْوَى أن يعرفَ الكبيرُ حكمةَ الموت ، وهو من الضعف بحيث تنكسر نفسُه للمرض الهيِّن ، فضلا عن المرض المُعْضِل ، فضلا عن المرض المُزْمِن ، فضلا عن الموتِ نفسِه ؟ وما خَطَرُ أن يجهلَ الشبابُ تلك الحكمة ، وهو من قوة النفس بحيث لا يبالى الموتَ ، فضلا عن المرض ؟

لو أُذِن الشابُّ من الفتيان بيوم انقطاع أجَلِه ، وعلم أنه مُصْبِحُهُ أو مُمْسيه ،

لأمدّته نفسُه بأرواح السنينَ الطويلة ، حتى ليرى أن صبحَ الغد كأنما يأتى من وراء ثلاثين أو أربعين سنة ؛ فما يَتبيّنُه إلا كالفكر المنسىِّ مضى عليه ثلاثون سنةً أو أربعون .

ولو أُذِنَ الشيخُ بيوم مَصْرَعه ، وأيقن أن له مُهْلةً إلى تمام الحول ، لطار به الذُّعْرُ واستَفرَغه الوَجَل من ساعته ؛ ورأى يومَه البعيدَ أقربَ إليه من الصبح ، وابتلته طبيعةُ جسمه المختلّ بالوساوس الكثيرة ، تجتلبها له كما تجتلبُ الرياحَ صُدُوعُ المنزل الخَرِب .

فذاك بالشباب يقبض على الزمن ، فيعيش فى اليوم القصير مثلَ العام رَخِيًّا ممدودا ، فهو رابطٌ جَلْد ؛ وهذا بالكِبَر يقبض الزمنُ عليه ، فيعيش فى العام الطويل مثلَ اليوم متلاحِقا آخرُه بأوَّلِه ، فهو قَلِقٌ طائر . ولا طبيعة للزمن إلا طبيعةُ الشعور به ، ولا حقيقة للأيام إلا ما تضعه النفسُ فى الأيام .

☆ ☆ ☆

ثم إن الكبش نظر فرأى الصغيرَ قد أخذته عينُه واستثقلَ نوما ، فقال : هنيئا لمن كان فيه سرُّ الأيام الممدودة ! إن هذا السرَّ هو كسرّ النبات الأخضر ، لا يُقْطَع من ناحية إلا ظهر من غيرها ساخرا هازئاً ، قائلا على المصائب : هأنذا . . . .

فهذا الصغير ينام ملءَ عينيه والشفرةُ محدودةٌ له ، والذبحُ بعد ساعات قليلة ؛ كأنما هو فى زمنين : أحدهما من نفسه ، فبه ينام وبه يلهو وبه يسخر من الزمن الآخر وما فيه وما يجلبه .

إن الألم هو فهمُ الألم لا غير . فما أقبحَ عِلمَ العقل إذا لم يكن معه جهلُ النفس به وإنكارُها إياه . حَسْبُ العلم والعلماء فى السخرية بهم وبه هذه الحقيقةُ من النفس . أنا لو ناطحتُ كبشا من قُروم الكِباش ، ووقفتُ أفكّر

وأدبِّر وأتأمل ، وأعتبرُ شيئا بشيء ـ ذهب فكرى بقوتى ، واسترخى عَصَبى ، وتحلَّل غضبى كلّه ، وكان العلمُ وبالاً علىّ ؛ فإن حاجتى حينئذ إلى الروح وقُواها وأسبابِها ، أضعافُ حاجتى إلى العلم ؛ والروح لا تعرف شيئا اسمُه الموتُ ، ولا شيئا اسمه الوَجَع ؛ وإنما تعرف حظّها من اليقين ، وهدوءَها بهذا الحظ ، واستقرارَها مؤمنةً مادامت هادئةً مستيْقِنة .

وقد واللهِ صَدَق هذا الجَذَعُ الصغير : فما على أحدِنا أن يأكلَه الإنسان ؟ وهل أكْلُنا نحن هذا العُشْبَ ، وأكلَ الإنسان إيانا ، وأكلُ الموتِ للإنسان ـ هل كلُّ ذلك إلا وضعٌ للخاتمة فى شكل من أشكالها ؟

يُشبهُ والله إن أنا احتججتُ على الذبح واغتممتُ له ، أن أكونَ كخروفٍ أحمقَ لا عقل له ، فظنَّ إطعامَ الإنسان إياه من باب إطعامه ابنَه وابنتَه وامرأته ومن تجب عليه نفقتُه ؛ وهل أوجبَ نفقتى على الإنسان إلا لحمى ؟ فإذا استحقّ له فلعمرى ماينبغى لى أن أزعم أنه ظلمنى اللحمَ إلا إذا أقررتُ على نفسى بَدِيًّا أنى أنا ظلمتُه العَلَفَ وسرقتُه منه .

كلُّ حىّ فإنما هو شىء للحياة أُعْطِيَها على شرطها . وشرطُها أن تنتهى ؛ فسعادته فى أن يعرفَ هـذا ويقرِّرَ نفسَه عليه حتى يستيقنَه ، كما يستيقنُ أن المطرأول فصل الكلأ الأخضر ؛ فإذا فعل ذلك وأيقن واطمأن ، جاءت النهايةُ متممةً له لا ناقصةً إياه ، وجَرَتْ مع العمر مجرى واحدا وكان قد عرفها وأعَدَّ لها ؛ أما إذا حسب الحىُّ أنه شىء فى الحياة ، وقد أُعطيَها على شرطه هو ، من تَوهُّم الطمع فى البقاء والنعيم ، فكلُّ شقاء الحى فى وهمه ذاك ، وفى عمله على هذا الوهم : إذ لاتكون النهايةُ حينئذ فى مجيئها إلا كالعقوبة أُنزِلتْ بالعمر كلّه ، وتجىء هادمةً منغّصة ، ويبلغ من تنكيدها أن تسبِقَها آلامُها : فتؤلِمَ قبل أن تجىء ، شرا مما تؤلم حين تجىء !

لقد كان جدّى والله حكيما يوم قال لى : إن الذى يعيش مترقبا النهاية يعيش مُعِدا لها ؛ فإن كان مُعِدًّا لها عاش راضيا بها . فإن عاش راضيا بها كان عمرَه فى حاضر مستمرّ ، كأنه فى ساعةٍ واحدة يشهد أولها ويُحس آخرَها ، فلا يستطيع الزمن أن ينغّصَ عليه مادام ينقاد معه وينسجم فيه ، غيرَ محاولٍ فى الليل أن يُبعِدَ الصبح ، ولا فى الصبح أن يُبعِد الليل .

قال لى جدّى : والإنسانُ وحدَه هو التَّعِس الذى يحاولُ طردَ نهايته ، فيشقَى شقاء الكبش الأخرق الذى يريد أن يطارد الليل ، فيبيت ينطح الظلمةَ المُتدجِّيةَ على الأرض ، وهو لحمقه يظن أنه ينطح الليلَ بقرنيه ويزحزِحُه . . . !

وكم قال لى ذلك الجد الحكيم وهو يعظنى : إن الحيوانَ منا إذا جمع على نفسه هما واحدا ، صار بهذا الهم إنسانا تَعِسا شقيا ، يُعطِى الحياةَ فيقلبُها بنفسه على نفسه شيئا كالموت ، أو موتا بلا شىء . . . !

✡ ✡ ✡

وتحرك الصغير من نومه ، فقال له الكبش : إنه ليقع فى قلبى أنك الساعة كنتَ فى شأنٍ عظيم ، فما بالك منتفخا وأنت ههنا فى المَنْحَر لا فى المرعَى !

قال الصغير : يا أخا جدّى . . . لقد تحققتُ أنك هَرِمتَ وخَرِفتَ وأصبحتَ تمُجُّ اللُّعابَ والرأى . . . !

قال الكبش : فما ذاك ويلك ؟

قال : إنك قلتَ : إن هذا الإنسان غادٍ علينا بالشَّفْرة البيضاء ، ووصفتَ الذبحَ والسلخَ والأكل ؛ وأنا الساعةَ قد نمتُ فرأيتُ فيما أرى ، أننى نطحتُ ذلك الرجل الذى جاء بنا إلى هنا ، وهِجْتُ به حتى صرعتُه ، ثم إنى أخذتُ الشفرةَ بأسنانى ، فثلمتُه فى نحره حتى ذبحته ، ثم افتلَذْتُ منه مُضْغةً فلُكْتُها فى فمى ، فما عرفتُ والله فيما عرفت لَخَنًا ولا عَفَنًا فى الكلأ هو أقبحُ مذاقا منه !

إن الإنسانَ يستطيبُ لحمنا ، ويتغذى بنا ، ويعيش علينا ؛ فما أسعدَنا أن نكون لغيرنا فائدةً وحياة ، وإذا كان الفناءُ سعادةً نُعطيها من أنفسنا ، فهذا الفناءُ هو سعادةٌ نأخذها لأنفسنا ؛ وما هلاكُ الحيّ لقاءَ منفعةٍ له أو منفعةٍ منه ، إلا انطلاقُ الحقيقة التي جعلتْه حيا ، صارت حرةً فانطلقت تعملُ أفضلَ أعمالها .

قال الكبير : لقد صدقتَ والله ، ونحن بهذا أعقل وأشرف من الإنسان ؛ فإنه يقضى العمر آخذاً لنفسه ، متكالبا على حظها ، ولا يُعطِى منها إلا بالقهر والغلَبة والخوف . تعالَ أيها الذابح ، تعالَ خذ هذا اللحم وهذا الشحم ؛ تعالَ أيها الإنسانُ لنعطيك ؛ تعالَ أيها الشحاذ . . . . . !

الطفولتان (١)

(عِصمت) ابنُ فلان باشا طفلٌ مُـتْرَفٌ يكادُ ينعصرُ لينا ، وتراه يرِف رَفيفًا مما نشأ فى ظلال العزّ ، كأن لروحه من الرقَّة مثلَ ظلّ الشجرة حولَ الشجرة ؛ وهو بين لِداته من الصّبيان كالشوّكة الخضراء فى أُمْلُودِها الريّان ، لها منظرُ الشوكةِ على مَجَسّةٍ لينةٍ ناعمةٍ تُكذّب أنها شوكةٌ إلا أن تَيْبَسَ وتَتَوقّح .

وأبوه « فلان » مديرٌ لمديرية كذا ، إذا سُئل عنه ابنُه ، قال : إنه مدير المديرية . لا يكاد يعدو هذا التركيب ، كأنه من غُرور النعمة يأبى إلا أن يجعلَ أباه مديرا مرّتين . . . . وكثيرا ماتكون النعمةُ بذيئةَ وقاحًا سيئةَ الأدب فى أولاد الأغنياء ، وكثيرا ما يكون الغِنى فى أهله غِنًى من السيئات لا غير !

(١) ص ٢٢٣ - ٢٢٤ « حياة الرافعى »

وفى رأى (عصمت) أن أباه من عُلوِّ المنزلة كأنه على جَناح النَّسر الطائر فى مَسْبَحِهِ إلى النجم ، أما آباء الأطفال من الناس فهم عنده من سُقوط المنزلة على أجنحة الذباب والبَعوض !

ولا يغدو ابنُ المدير إلى مدرسته ولا يَتَرَوَّح منها إلا ووراءه جنديٌّ يمشى على أثره فى الغَدْوة والرَّوْحة ، إذ كان ابنَ المدير ، أى ابنَ القوَّة الحاكمة ، فيكون هذا الجندىُّ وراء هذا الطفل كالمَنْبَهة له عند الناس ، تُفْصِحُ شارتُه العسكريةُ بلغات السابِلَةِ جَمعَاء أن هذا هو ابنُ المدير ؛ فإذا رآه العربىّ أو اليونانىُّ أو الطليانىُّ أو الفرنسىُّ أو الإنجليزىُّ أو كائنٌ مَن كان من أهل الألسنة المتنافرة التى لا يَفهَمُ لسانٌ منها عن لسان — فهموا جميعا من لغة هذه الشارة أن هذا هو ابنُ المدير ؛ وأنه من الجندىّ الذى يَتْبَعُه كالمادة من القانون وراءها الشرح .... !

ولقد كان يجب لابن المدير هذا الشرفُ الصِّبيانىّ لو أنه يوم وُلِد لم يولد ابنَ ساعته كأطفال الناس ، بل وُلِد ابنَ عشر سنينَ كاملةٍ لتشهَد له الطبيعةُ أنه كبيرٌ قد انصدعت به مُعجزة ! وإلا فكيف يمشى الجندىُّ من جنود الدولة وراء طفل فيتبعهُ ويخدمُه ويَنْصَاعُ لأمره . وهذا الجندىُّ لو كان طَريدَ هَزيمةٍ قد فرّ فى معركة من معارك الوطن وأُريد تخليدُه فى هزيمته وتخليدُها عليه بالتصوير — لما صُوِّرَ إلا جنديا فى شارته العسكرية منقادا لمثل هذا الطفل الصغير كالخادم : فى صورة يُكتب تحتها : « نُفَايَةٌ عسكرية ! » .

✡ ✡ ✡

ليس لهذا المنظر الكثيرِ حدوثُه فى مصر إلا تأويلٌ واحد : هو أن مكان الشخصيات فوق المعانى ، وإن صغُرَتْ تلك وجَلَّت هذه ؛ ومن هنا يكذبُ الرجلُ ذو المنصب ، فيُرفَع شخصُه فوق الفضائل كلها ، فيكْبُر عن أن يكذبَ

فيكون كَذِبُه هو الصدق ، فلا يُنكَر عليه كَذِبُه أىْ صِدْقُه ... ! ويخرج من ذلك أن يتقررَ فى الأمة أن كَذِبَ القوَّةِ صِدْقٌ بالقوة !

وعلى هذه القاعدة يُقاسُ غيرُها من كل ما يُخذَل فيه الحق ؛ ومتى كانت الشخصياتُ فوق المعانى السامية ، طَفِقَتْ هذه المعانى تَمُوج مَوْجَها محاولةً أن تعلو ، مُكْرَهَةً على أن تَنزل ؛ فلا تستقيم على جهةٍ ولا تنتظمُ على طريقة ؛ وتُقبِلُ بالشىء على موضعه ، ثم تَكُرُّ كَرَّها فتُدْبِرُ به إلى غير موضعه ، فتضلُّ كل طبقةٍ من الأمة بكُبرائها ، ولا تكون الأمةُ على هذه الحالة فى كل طبقاتها إلا صِغاراً فوقهم كبارُهم ، وتلك هى تهيئةُ الأمة للاستعباد متى ابتُلِيَتْ بالذى هو أكبرُ من كبارها : ومن تلك تَنشأ فى الأمة طبيعةُ النفاق يحتمى به الصَّغَرُ من الكِبَر ، وتنتظم به أُلْفَةُ الحياة بين الذلّة والصَّولة !

☆ ☆ ☆

وتخلَّفَ الجندىُّ ذاتَ يوم عن موعد الرَّواح من المدرسة ، فخرج (عصمت) فلم يجده ، فبدا له أن يتسكّع فى بعض طرق المدينة لينطلقَ فيه ابنُ آدم لا ابنُ المدير ، وحنّ حنينَه إلى المغامَرة فى الطبيعة ، ولبِسَت الطرق فى خياله الصغير زينتَها الشعريةَ بأطفال الأزقة يلعبون ويَتهوّشون ويَتعابثون ويتشاحنون ، وهم شتّى وكأنهم أبناءُ بيتٍ واحد مسَّتْ بكلٍّ من كلٍّ رَحِمٌ ، إذ لا ينتسبون فى اللهو إلا إلى الطفولة وحدها .

وانساق (عصمت) وراء خياله ، وهرَب على وجهه من تلك الصورة التى يمشى فيها الجندىّ وراء ابن المدير ، وتَغلْغَلَ فى الأزقّة لا يبالى ما يعرفه منها وما لا يعرفه ، إذ كان يسير فى طرقٍ جديدة على عينه ، كأنما يحلمُ بها فى مدينةٍ من مدن النوم .

وانتهى إلى كبكبة من الأطفال قد استجمعوا لشأنهم الصبيانى ، فانْتَبَذ

ناحيةً ووقف يُصغى إليهم متهيِّبا أن يُقْدِمَ ، فاتصل بسمعه ونظره كالجبان ، وتسمَّع فإذا خبيثٌ منهم يعلِّم الآخرَ كيف يضرب إذا اعتَدى أو اعتُدِىَ عليه ، فيقول له : اضرب أينما ضربت ، من رأسِه ، من وجهِهِ ، من الْحُلقوم ، من مَرَاقّ البطن ؛ قال الآخر : وإذا مات ؟ فقال الخبيث : وإذا مات فلا تُقل إنى أنا علّمتُك . . . !

وسمع طفلاً يقول لصاحبه : أمَا قلتُ لك : إنه تعلّم السرقةَ من رؤيته اللصوصَ فى السِّيما ؟ فأجابه صاحبه : وهل قال له أولئك اللصوص الذين فى السِّيما : كن لصًّا واعملْ مثلنا ؟

وقام منهم شيطان فقال : يا أولاد البلد ، أنا المدير ! تعالوْا وقولوا لى : « ياسعادة الباشا ، إن أولادنا يريدون الذهاب إلى المدارس ، ولكنا لا نستطيع أن ندفع لهم المصروفات . . . » فقال الأولاد فى صوت واحد : « ياسعادة الباشا ، إن أولادنا يريدون الذهاب إلى المدارس ، ولكنا لا نستطيع أن ندفع لهم المصروفات » ! فردّ عليهم (سعادته) : اشتروا لأولادكم أحذية وطرابيش وثيابًا نظيفة ، وأنا أدفع لهم المصروفات .

فنظر إليه خبيث منهم وقال : ياسعادة المدير ، وأنت فلماذا لم يشترِ لك أبوك حذاء . . . . ؟

وقال طفل صغير : أنا ابنك ياسعادة المدير ، فأرسِلنى إلى المدرسة وقتَ الظهر فقط . . . . !

* * *

وكان (عصمت) يسمع ونفسه تهتز وترِفُّ بإحساسها ، كالورقة الخضراء عليها طَلُّ الندى ، وأخذ قلبُه يتفتَّح فى شعاع الكلام كالزهرة فى الشمس ؛ وسَكِر بما يسكَر به الأطفالُ حين تقدّم لهم الطبيعة مكانَ اللهو مُعَدًّا مهيَّأً ،

كالحانة ليس فيها إلا أسباب السكر والنشوة، وتمامُ لذتها أن الزمنَ فيها منسيٌّ، وأن العقل فيها مُهمَل . . . .

وأحسّ ابن المدير أن هذه الطبيعةَ حين ينطلق فيها جماعةُ الأطفال على سَجيّتهم وسجيّتها — إنما هي المدرسة التي لا جُدرانَ لها، وهي تربيةُ الوجود للطفل تربيةً تتناوله من أدقّ أعصابه، فتُبدّد قواه ثم تجمعها له أقوى ما كانت، وتُفْرِغُه منها ثم تملؤه بما هو أتمّ وأزيد؛ وبذلك تكْسِبُه نموَّ نشاطه، وتعلّمه كيف ينبعث لتحقيق هذا النشاط، فتهديه إلى أن يُبدعَ بنفسه ولا ينتظر من يُبدع له، وتجعلُ خُطاه دائماً وراء أشياءَ جديدةٍ، فتُسدِّده من هذا كلّه إلى سر الإبداع والابتكار، وتلقّيه العِلمَ الأعظمَ في هذه الحياة، عِلمَ نَضْرةِ نفسِه وسرورِها ومرَحِها، وتطبعه على المزاج المتطلّق المتهلّل المتفائل، وتتدفق به على دنياه كالفَيَضان في النهر، تفور الحياة فيه وتفور به. لا كأطفال المدارس الخامدين، تعرف للواحد منهم شكلَ الطفل وليس له وجودُه ولا عالَمُه، فيكون المسكين في الحياة ولا يجدها، ثم تراه طفلا صغيراً وقد جمعوا له همومَ رجل كامل!

ودبّت روحُ الأرض دبيبَها في (عصمت)، وأوحت إلى قلبه بأسرارها، فأدرك من شعوره أن هؤلاء الأغمارَ الأغبياء من أولاد الفقراء والمساكين، هم السعداءُ بطفولتهم، وأنه هو وأمثالُه هم الفقراءُ والمساكينُ في الطفولة، وأن ذلك الجندي الذي يمشي وراءه لتعظيمه إنما هو سجن، وأن الألعابَ خير من العلوم، إذ كانت هي طِفْلِيَّة الطفل في وقتها، أما العلوم فرُجولةٌ مُلزَقَةٌ به قبل وقتها تُوقِرُه وتحوّله عن طباعه، فتقتل فيه الطفولة وتهدم أساسَ الرجولة، فينشأ بين ذلك لا إلى هذه ولا إلى هذه، ويكون في الأول طفلا رجلا، ثم يكون في الآخر رجلا طفلا.

وأحسّ مما رأى وسمع أن مدرسة الطفل يجب أن تكون هي بيتَه

الواسعَ الذى لايتحرّجُ أن يصرخَ فيه صُراخَه الطبيعى ، ويتحركَ حركتَه الطبيعية ، ولا يكون فيه مدرسون ولا طَلَبة ، ولا حاملو العِصِىّ من الضبَّاط ؛ بل حقُّ البيت الواسع أن تكونَ فيه الأبوّةُ الواسعة ، والأخوّةُ التى تَنْفسِح للمئات ؛ فيمرّ الطفل المتعلم فى نشأته من منزلٍ إلى منزل إلى منزل ، على تدريجٍ فى التوسّع شيئا فشيئا ، من البيت ، إلى المدرسة ، إلى العالم .

* * *

وكان (عصمت) يحلم بهذهِ الأحلام الفلسفية ، وطفولتُه تَثِبُ وتسترجل ، ورَخاوتُه تشتدُّ وتتماسك ؛ وكانت حركاتُ الأطفال كأنها تحرِّكه من داخِله ، فهو منهم كالطفل فى السيما حين يشهد المتلاكمين والمتصارِعين ، يَستطيرُه الفرحُ ، ويتوثّب فيه الطفلُ الطبيعى بمَرَحِه وعُنْفُوانِه ، وتتقاَّصُ عضلاته ، ويتكَشَّفُ جِلدُه ، وتجتمع قوّتُه ؛ حتى كأنه سيُظاهر أحدَ الخصمين ويَلكم الآخرَ فيُكَوِّرُه ويصرعه ، ويفُضُّ معركةَ الضرب الحديدىّ بضربته اللينة الحريرية ... !

فما لبث صاحبنا الغريرُ الناعمُ أن تخشَّن ، وما كذّب أن اقتحم ، وكأنما أقبل على روحه الشارعُ والأطفالُ ولهوُهم وعبثُهم ، إقبالَ الجوّ على الطير الحبيس المعلّق فى مسمار إذا انفرج عنه القفص ؛ وإقبالَ الغابة على الوحش القَنيصِ إذا وثب وثبةَ الحياة فطار بها ؛ وإقبالَ الفلاةِ على الظَّبى الأسير إذا ناوَص فأفلَتَ من الحِبالة .

وتقدم فادَّغَم فى الجماعة وقال لهم : أنا ابنُ المدير . فنظروا إليه جميعا ، ثم نظر بعضُهم إلى بعض ، وسَفَرتْ أفكارُهم الصغيرة بين أعينهم ، وقال منهم قائل : إن حذاءه وثيابه وطربوشه كلها تقول إن أباه المدير .

فقال آخر : ووجهه يقول إن أمه امرأة المدير ...

فقال الثالث : ليست كأمك يابعْطيطى ولا كأم جُعْلُص ! (*)

قال الرابع : ياويلك لوسمع جُعاص ، فإن الكلمات حينئذ لاتترك أمك تعرف وجهك من القفا !

قال الخامس : ومَن جُعاص هذا ؟ فليأت لأريكم كيف أصارعه ، فأجتذبُه ، فأعصِره بين يدىَّ ، فأعتقلُ رِجلَه برجلى ، فأدفعُه ، فيتخاذل ، فأعرُكُه ، فيخِرُّ على وجهه ؛ فأسمِّره فى الأرض بمسمار !

فقال السادس : هاها ! إنك تصف بأدق الوصف مايفعله جُعاص لو تناولك فى يده ... !

فصاح السابع : ويلكم ! هاهوذا جُعاص ! جُعاص ! جُعلص !

فتطايَر الباقون يميناً وشمالا كالوَرق الجافّ تحت الشجر ضربته الريح العاصف ، وقهقه الصبي من ورائهم ، فثابوا إلى أنفسهم وتراجعوا ؛ وقال المُسْتَطيل منهم : أما إنى كنت أريد أن يعدوَ جعاص ورائى ، فأستطرِد إليه قليلا أطمِعُه فى نفسى ، ثم أرتدُّ عليه فآخذه كما فعل « ماشيست الجبار » (**) فى ذلك المنظر الذى شاهدناه .

وقهقه الصبيانُ جميعا ... ! ثم أحاطوا (بعصمت) إحاطة العشّاق بمعشوقة جميلة ، يحاول كلٌّ منهم أن يكون المقرَّب المخصوصَ بالحظْوة ، لامن أجل أنه ابنُ المدير فحَسْبُ ، ولكن من أجل أن ابنَ المدير تكون معه القروش ... فلو وُجدت هذه القروش مع ابن زبّال لما منعه نسبُه أن يكون أميرَ

(*) للعامة أسماء ونسب غريبة ، منها هذه.

(**) جبار إيطالى كالمارد ، عريض الألواح ، وثيق التركيب ، يعجب الأطفال به أشد الإعجاب ، وإذا شهدوه فى السيما كاد تمثيله يشب بهؤلاء الأطفال إلى سن الرجولة فى ساعة واحدة

الساعة بينهم إلى أن تنفدَ قروشُه فيعود ابنَ زبال . . . !

وتنافسوا فى (عصمت) وملاعبته والاختصاص به ، فلو جاء المديرُ نفسُه يلعب مع آبائهم ويركبهم ويركبونه ، وهم بين نجار وحداد ، وبنّاء وحمّال ، وحوذيّ وطباخ ؛ وأمثالهم من ذوى المهنة والمَكْسِبة الضئيلة — لكانت مطامع هؤلاء الأطفال فى ابن المدير . أكبرَ من مطامع الآباء فى المدير .

وجرت المنافسةُ بينهم مجراها ، فانقلبت إلى مُلاحاة ، ورجعت هذه الملاحاة إلى مشاحنة ، وعاد ابنُ المدير هَدَفا للجميع يدافعون عنه وكأنما يعتدون عليه ، إذ لا يقصد أحدٌ منهم أحدا بالغيظ إلا تعمدَ غيظ حبيبه ، ليكون أنكأً له وأشدَّ عليه !

وتظاهروا بعضُهم على بعض ، ونشأت بينهم الطوائل ، وأفسدهم هذا الغِنى المتمثلُ بينهم .

ويا ما أعجبَ إدراكَ الطفولة وإلهامَها ! فقد اجتمعت نُفوسهم على رأى واحد ، فتحولوا جميعا إلى سفاهة واحـــدة أحاطت بابن المدير ، فخاطرَه أحدُهم فى اللعب فقمرَه ، فأبى إلا أن يعلوَ ظهرَه ويركبه ؛ وأبى عليه ابنُ المدير ودافَعه ، يرى ذلك ثَلْمًا فى شرفه ونسبه وسَطوةِ أبيه ؛ فلم يكد يعتلُّ بهذه العلة ويذكر أباه ليعرِّفهم آباءَهم . . . . حتى هاجت كبرياؤهم ، وثارت دفائنُهم ، ورقصت شياطينُ رءوسهم ؛ وبذلك وضع الغبيُّ حِقدَ الفقر بإزاء سُخرية الغنى ؛ فألقى بينهم مسئلةَ المسائل الكبرى فى هذا العالم ، وطرَحها للحلّ . . . . !

وتنفّشوا للصَّولة عليه ، فسخِرَ منه أحدُهم ، ثم هزأ به الآخر ، وأخرج الثالثُ لسانَه ؛ وصدمه الرابع بمنكبه ، وأخنَى عليه الخامس ، ولكزه السادس ، وحثا السابعُ فى وجهه التراب !

وجهَد المسكينُ أن يفرّ من بينهم فكأنما أحاطوه بسبعة جُدران ، فبطَل

إقدامُه وإحجامُه : ووقف بينهم كما كتب الله . . . ! ثم أخذته أيديهم فانجدل على الأرض ، فتجاذبوه يُمرِّغونه فى التراب !

وهم كذلك إذ انقلب كبيرُهم على وجهه ، وانكفأ الذى يليه ، وأزيح الثالث ، ولُطِمَ الرابع : فنظروا ، فصاحوا جميعـا : « جُعْلُص ! جعلص ! » وتواثبوا يشتدُّون هَربا .

وقام (عصمت) يَنْتَخِلُ الترابُ من ثيابه وهو يبكى بدمعه ، وثيابُه تبكى بترابها . . . ! ووقف ينظر هذا الذى كشفهم عنه وشرَّدتهم صَوْلتُه : فإذا جُعاص وعليه رَجَفانٌ من الغضب ، وقد تبرطَمَتْ شفتُه ، وتقبَّض وجهه ، كما يكون « ماشيست » فى مَعاركه حين يدفع عن الضعفاء .

وهو طفل فى العاشرة من لِدات (عصمت) ، غير أنه مُحْتَنِكٌ فى سنّ رجلٍ صغير ؛ غليظٌ عَبْلٌ شديدُ الجِبْلةِ متراكِبٌ بعضُه على بعض (*) ، كأنه جِنّى مُتقاصِرٌ يَهُمُّ أن يطولَ منه المارد ، فأنِس به (عصمت) ، واطمأنَّ إلى قوّته وأقبل يشكو له ويبكى !

قال جعاص : ما اسمك !

قال : أنا ابن المدير ... !

قال جعلص : لا تَبْكِ يابن المدير : تعلَّمْ أن تكون جَلْدًا ، فإن الضرب ليس بذُلّ ولا عار ، ولكن الدموع هى تجعله ذلّا وعارا : إن الدموعَ لتجعلُ الرجل أنثى . نحن يابن المدير نعيش طول حياتنا إما فى ضرب الفقر أو ضرب الناس ، هذا من هذا ؛ ولكنك غنىٌّ يابن المدير ، فأنت كالرغيف (الفِينو) ضخمٌ مُنتفخ : ولكنه ينكسر بلمسة ، وحشوُهُ مثلُ القطن !

ماذا تتعلم فى المدرسة يابن المدير إذا لم تعلمك المدرسة أن تكون رجلا

(*) أى شديد فتل العضل مكتنز اللحم

يأكلُ من يريدُ أكله ؛ وماذا تعرف إذا لم تكن تعرف كيف تصبر على الشر يوم الشر ، وكيف تصبر للخير يوم الخير . فتكون دائما على الحالتين فى خير ؟

قال عصمت : آه لو كان معى العسكرى !

قال جعاص : ويحك ! لو ضربوا عنزا لما قالت : آه لو كان معى العسكرى !

قال عصمت : فمن أين لك هذه القوة ؟

قال جعاص : من أنى أعتَمِلُ بيدىّ فأنا أشتدّ ، وإذا جعتُ أكلتُ طعامى ؛ أما أنت فتسترخى ، فإذا جعتَ أكلك طعامُك ؛ ثم من أنّى ليس لى عسكرى ... !

قال عصمت : بل القوةُ مِن أنك لستَ مثلَنا فى المدرسة ؟

قال جعاص : نعم ، فأنت يابن المدرسة كأنك طفلٌ من ورَق وكرّاسات لامن لحم ، وكأن عظامَك من طَباشير ! أنت يابن المدرسة هو أنتَ الذى سيكون بعد عشرين سنة ، ولا يعلم إلا الله كيف يكون ؛ وأما أنا ابنَ الحياة ، فأنا مِن الآن ، وعلىّ أن أكونَ « أنا » من الآن !

أنتَ ...

* * *

وهنا أدركهما العسكرىُّ المسخَّر لابن المدير ، وكان كالمجنون يطير على وجهه فى الطرق يبحث عن (عصمت) ؛ لا حبًا فيه ، ولكن خوفا من أبيه ؛ فما كاد يرى هذا العفَرَ على أثوابه حتى رنَّت صفعتُه على وجه المسكين جُعاص !

فصعَّر هذا خدَّه ، ورشقَ عصمت بنظرِ ، وانطلق يعدو عَدْوَ الظّليم !

ياللعدالة ! كانت الصفعةُ على وجه ابن الفقير ؛ وكان الباكى منها ابنَ الغنىّ ... !

* * *

وأنتم أيها الفقراء ، حسبكم البطولة : فليس غِنَى بَطَلِ الحرب فى المال والنعيم ، ولكن بالجراح والمشقَّاتِ فى جسمه وتاريخه .

أحلام في الشارع (*)(1)

على عتَبة (البنك) نام الغلام وأختُه يفترشان الرّخامَ البارد، ويلتحفان جوّاً رخاميا فى برده وصلابته على جسميهما.

الطفلُ مُتكَبْكِبٌ فى ثوبه كأنه جسمٌ قُطِّعَ ورُكِمتْ أعضاؤه بعضُها على بعض، وسُجِّيَتْ بثوب، ورُمِيَ الرأس من فوقها فمال على خده.

والفتاة كأنها من الهُزال رَسْمٌ مُخَطَّطٌ لامرأةٍ بدأها المصوِّر ثم أغفلها إذ لم تُعجبه اكَتَب الفقرُ عليها الأعين ما يكتبُ الذُّبولُ على الزهرة: أنها صارت قَشًّا...

نائمةٌ فى صورةِ ميّتة، أو كميّتة فى صورةِ نائمة؛ وقد انسكب ضوءُ القمر على وجهها، وبقى وجهُ أخيها فى الظل؛ كأن فى السماء ملَكا وجّه المصباح إليها وحدَها، إذ عرف أن الطفلَ ليس فى وجهه علامةُ همّ، وأن فى وجهها هى كلَّ همها وهمّ أخيها.

من أجل أنها أُنثى قد خُلقت لتَلِدَ — خُلق لها قلبٌ يحمل الهمومَ ويلدها ويربّيها.

من أجل أنها أُعِدّت للأُمومة. تتألم دائما فى الحياة آلاما فيها معنى انفجار الدم.

من أجل أنها هى التى تَزيد الوجودَ، يزيدُ هذا الوجودُ دائمًا فى أحْزانها.

وإذا كانت بطبيعتها تُقاسى الألم لا يُطاقُ حين تلدُ فَرَحها، فكيف بها فى الحزن ...!

(*) منظر طفل متشرد كان هو وأخته نائمين على عتبة (البنك)

(1) اقرأ قصة هذه المقالة ص 192 «حياة الرافعى»

✡ ✡ ✡

وكان رأسُ الطفل إلى صدر أختِه ، وقد نام مطمئنا إلى هـذا الوجود النّسْوىّ ، الذى لابدّ منه لكل طفل مثـلِه مادام الطفلُ إذا خرج من بطن أُمه خرج إلى الدنيا وإلى صدرها معاً .

ونامت هى ويدُها مُرْسَلةٌ على أخيها كيَدِ الأم على طفلها . يا إلٰهى ! نامت ويدُها مستيقِظة !

أهما طفلان ؟ أم كلاهما تمثالٌ للإنسانية التى شَقِيتْ بالسعداء ، فعوَّضها الله من رحمته ألَّا تجدَ شقيا مثلَها إلا تضاعفت سعادتُها به ؟

تمثالان يصوِّران كيف يَسْرِى قلبُ أحـد الحبيبين فى الجسم الآخر فيجعلُ له وجوداً فوق الدنيا لاتصلُ الدنيا إليه بفقرها وغناها ، ولاسعادتِها وشقاوتِها ؛ لأنه وجودُ الحب لاوجودُ العمر ؛ وجودٌ سحرىّ ليس فيه معنًى للكلمات ، فلا فرقَ بين المـال والتراب ، والأميرِ والصُّعلوك ؛ إذ اللغةُ هناك إحساسُ الدم ، وإذ المعنى ليس فى أشياء المـادة ولـكن فى أشياء الإرادة .

وهل تحيا الألفاظ مع الموت فيكون بعده للمال معنًى وللتراب معنى . . . ؟ هى كذلك فى الحب الذى يفعل شبيها بما يفعله الموتُ فى نقـلِه الحياةَ إلى عالم آخر ، بَيْدَ أن أحدَ العالَمين وراء الدنيا ، والآخر وراء النفس .

✡ ✡ ✡

تحت يد الأخت الممدودة ينام الطفلُ المسكين ، ومن شعوره بهذه اليد ، خفَّ ثقلُ الدنيا على قلبه .

لم يبالِ أن نَبَذه العالَمُ كلُّه ، مادام يجد فى أخته عالَم قلبِه الصغير ؛ وكأنه فرْخ من فِراخ الطير فى عُشِّـه المعلّق ، وقـد جَمع لحمَه الغَضَّ الأحمرَ تحت جَناح أمه ، فأَحسّ أهنأَ السعادة حين ضيَّق فى نفسه الـكونَ العظيم ، وجعله

وُجودا من الريش .

وكذلك يَسعد كلُّ من يملك قوةَ تغيير الحقائق وتبديلها ، وفى هذا تفعلُ الطفولةُ فى نشأةِ عمرها مالا تفعلُ بعضَه معجزاتُ الفلسفة العُليا فى جملة أعمارِ الفلاسفة .

وما صنع الذين جُنوا بالذهب ، ولا الذين فُتِنُوا بالسُّلطة ، ولا الذين هلكوا بالحب ، ولا الذين تحطَّموا بالشهوات — إلا أنهم حاولوا عبثاً أن يَرْشُوا رحمةَ الله لتُعطيَهم فى الذهب والسلطة والحبّ والشهواتِ ـ ما نَوَّلَتْهُ هذا الطفلَ المسكينَ النائم فى أشعة الكواكب تحت ذراع كوكبٍ رُوحه الأرضى .

ألا إن أعظمَ الملوك لن يستطيعَ بكل ملكه أن يشترىَ الطريقةَ الهنيئةَ التى يَنْبِضُ بها الساعةَ قلبُ هذا الطفل .

* * *

وقفتُ أشهد الطفلين وأنا مستيقنٌ أن حولهما ملائكةً تصعد وملائكةً تنزل ؛ وقلت : هذا موضعٌ من مواضع الرحمة . فإن اللهَ مع المنكسِرَة قلوبُهم ، ولعلّى أن أتعرضَ لنفحة من نفحاتها ، ولعلَّ ملَكا كريما يقول : وهذا بائس آخر ، فَيُرفِّفُ بجناحه رِفَّةً ما أحوج نفسى إليها ، تجِدُ بها فى الأرض لمسةً من ذلك النور المتلألئ فوقَ الشمس والقمر .

وظهر لى بناءُ (البنك) فى ظلمة الليل من مرأى الغلامين — أسودَ كالحاً ، كأنه سجنٌ أُقفل على شيطانٍ يُمسكه إلى الصبح ، ثم يُفتح له لينطلق مُعَمِّرا ، أىْ مخرِّبا ... أو هو جسمُ جبارٍ كفَر بالله وبالإنسانية ولم يؤمن إلا بنفسه وحظوظِ نفسه ، فمسخه الله بناءً ، وأحاطه من هذا الظلام الأسود بمعانى آثامه وكفره ...

ياعجبا ! بطنان جائعان فى أطمارٍ بالية يبيتان على الطّوى والهم ، ثم لا يكون

وِسادُهما إلا عَتبة البنك ! ترَى مَن الذى لَعنَ (البنك) بهذه اللعنة الحية ؟ ومن الذى وضع هذين القلبين الفارغين موضعَهما ذلك ليثبتَ للناس أنْ ليس البنكُ خزائنَ حديديةً يملؤها الذهب ، ولكنه خزائن قلبيةٌ يملؤها الحب … ؟

* * *

وقفتُ أرى الطفلين رؤيةَ فكرٍ ورؤيةَ شِعر معا ، فإذا الفكرُ والشعر يمتدَّان بينى وبين أحلامهما ، ودخلتُ فى نفسين مضَّهما الهمُّ واشتدَّ عليهما الفقر ، وما من شىء فى الحياة إلا كادَّهما وعاسَرَهُما ؛ ونمتُ نومتى الشعرية …

قال الطفل لأخته : هلمّى فلنذهبْ من هنا فنقفَ على باب (السيما) نتفرجُ عما بنا ، فنَرى أولادَ الأغنياء الذين لهم أبٌ وأم .

انظرى هاهم أولاءِ يُرَى عليهم أثرُ الغِنى ، وتُعرَف فيهم رُوحُ النعمة ، وقد شَبِعوا … إنهم يلبسون لحمًا على عِظامهم ، أما نحن فنلبسُ على عظامنا جلداً كجلد الحذاء : إنهم أولادُ أهليهم ، أما نحن فأولادُ الأرض : هم أطفال ، ونحن حَطَبٌ إنسانىّ يابس ؛ يعيشون فى الحياةِ ثم يموتون ، أما نحن فعيشُنا هو سَكرات الموت إلى أن نموتَ ؛ لهم عيشٌ وموتٌ ، ولنا الموتُ مكرراً .

وَيْلِى على ذلك الطفلِ الأبيضِ السمين ، الحَسَنِ البَزَّة ، الأنيقِ الشارَة ، ذاك الذى يأكل الحلوى أكلَ لصٍّ قد سرق طعاما فأسرع يَحْدِرُ فى جوفه ماسرق ؛ هو الغِنَى الذى جعله يبتلعُ بهذه الشراهة ، كأنما يشرَبُ مايأكل ، أو له حلقٌ غيرُ الحلوق ؛ ونحن — إذا أكلنا — نَغَصُّ بالخبز لاأُدْمَ معه ، وإذا ارتفعنا عن هذه الحالة لم نجدْ إلا البَشيعَ من الطعام ، وأصبناه عَفِنًا أو فاسدا لايَسُوغُ فى الحَلق ، فإذا انخفضنا فليس إلا ماتَتقمَّم من قُشور الأرض ومن حُتَاتِ الخبز كالدوابّ والكلاب ؛ وإن لم نجد ومَسَّنا العُدْمُ وقفنا نتَحَيَّنُ طعامَ قوم فى دارٍ أو نُزلٍ ، فنراهم يأكلون فنأكل معهم بأعيننا ، ولا نطمع أن

نستطعمهم ، وإلا أطعمونا ضربًا ، فنكونُ قد جئناهم بألمٍ واحد فردّونا بألمين ، ونفقد بالضرب ماكان يُمسك رَمَقَنا من الاحتمال والصبر .

هؤلاء الأطفالُ يتضوَّرون شهوةً كلما أكلوا ، ليعودوا فيأكلوا ؛ ونحن نتضوَّر جوعًا ولا نأكل ، لنعودَ فنجوعَ ولا نأكل ؛ وهم بين سمع أهليهم وبَصَرهم ، مامن أنَّةٍ إلا وقعتْ فى قلب ، وما من كلمةٍ إلا وجدتْ إجابة ؛ ونحن بين سمع الشوارع وبصرِها ، أنينٌ ضائع ، ودموعٌ غيرُ مرحومة !

آه لوكَبِرتُ فصرتُ رجلا طويلًا عريضًا ؟ أتدرين ماذا أصنع ؟

— ماذا تصنع ياأحمد ؟

— إنى أخنق بيدىَّ كلَّ هؤلاء الأطفال !

— سَوْءَةً لك ياأحمد ! كلُّ طفلٍ من هؤلاء له أُمٌّ مثلُ أُمنا التى ماتت ، وله أختٌ مثلى ؛ فما عسى ينزل بى لو ثَـكِلْتُك إذا خنقك رجلٌ طويل عريض ؟

— لا ، لاأخنقهم ؛ بل سأرضيهم من نفسى ؛ أنا أريد أن أصير رجلا مثل (المدير) الذى رأيناه فى سيَّارته اليوم على حالٍ من السطوة تعلن أنه المدير ... أتدرين ماذا أصنع ؟

— ماذا تصنع ياأحمد ؟

— أرأيتِ عربةَ الإسعاف التى جاءت عند الظهر فانقلبت نعشًا الرجل الهرِم المحطَّم الذى أُغمى عليه فى الطريق ؟ سمعتُهم يقولون : إن المدير هوالذى أمر باتخاذ هذه العربة ، ولكنه رجل غُفْلٌ لم يتعلم من الحياة مثلَنا ، ولم تُحْكِمْه تجاربُ الدنيا ؛ فالذى يموت بالفُجاءة أو غيرِها لا يُحييه المديرُ ولا غير المدير ، والذى يقع فى الطريق يجـدُ من الناس من يبتدرونه لنجدتِه وإسعافِه بقلوب إنسانية رحيمة ، لا بقلبِ سوّاق عربة ينتظر المصيبةَ على أنها رزقٌ وعَيش !

إن عرباتِ الإسعاف هذه يجب أن يـكونَ فيها أكْل ... ويجب أن تحملَ

أمثالَنا من الطرق والشوارع إلى البيوت والمدارس ؛ وإن لم يكن للطفل أُمٌّ تُطعمه وتُؤويه، فلتَصْنَع له أمّ !

كلُّ شيء أراه لاأراه إلا على الغلَط ، كأن الدنيا منقلبة أو مدبِرَة إدبارَها ، وما قطُّ رأيت الأمور فى بلادنا جاريةً على مَجاريها ؛ فهؤلاء الحكام لاينبغى أن يكونوا إلا من أولاد صالحى الفقراء ، ليحكموا بقانون الفقر والرحمة ، لا بقانون الغنى والقسوة ؛ وليتقحّموا الأمورَ العظيمةَ المشتبهةَ بنفوسٍ عظيمةٍ صريحةٍ قد نبتتْ على صلابةٍ وبأسٍ وخُلُقٍ ودينٍ ورحمة ، فإنه لاينهزم فى معركة الحوادث إلا روحُ النعمة فى أهل النعمة ، وأخلاقُ اللين فى أهل اللين ؛ وبهؤلاء لم يبرح الشرقُ من هزيمةٍ سياسيةٍ فى كل حادثة سياسية .

إن للحكم لحما ودمًا هو لحم الحاكم ودمُه ؛ فإن كان صُلبا خَشِنًا فيه رُوحُ الأرض ورُوحُ السماء فذاك ؛ وإلا قَتَل اللينُ والترَفُ الحكمَ والحاكمَ جميعا . وهؤلاء الحكامُ من أولاد الأغنياء ، لايكون لهم همّ إلا أن يرفعوا من شأن أنفسهم ، إذ السلطةُ درجةٌ فوق الغِنى . ومن نال هذه استَشْرَف لتلك ، فإذا جمعوهما كان منهما الخُلُق الظالم الذى يصوِّر لهم الاعتداءَ قوة وسطوة وعلوًّا ، من حيث عَدِموا الخُلُقَ الرحيمَ الذى يصوِّر لهم هذه القوة ضعفا وجُبنًا ونذالة . إن أحدَهم إذا حكم وتسلَّط أراد أن يضرب ، ثم لم تكن ضربتُه الأولى إلا فى المبدإ الاجتماعى للأمة ، أو فى الأصل الأدبى الإنسانية . ويحرصون على مابه تمامُهم ، أى على السلطة ، أى على الحكم ؛ فيحملهم ذلك على أن يتكلفوا للحرص أخلاقَه ، وأن يجمعوا فى أنفسهم أسبابه ؛ من المداراة والمصانَعة والمهاوَنة ، نازلا فنازلا إلى دَرَكٍ بعيد ، فينشرون أسوأَ الأخلاق بقوة القانون ، ماداموا هم القوة .

— وماذا تريد أن يصنع أولاد الأغنياء ياأحمد ؟

ـ أما أولاد الأغنياء فيجب أن يباشروا الصناعةَ والتجارةَ ، ليجدوا عملا شريفًا يُصيبون منه رزقَهم بأيديهم لا بأيدى آبائهم ، فإنه والله لولا العمى الاجتماعىُّ لما كان فرقٌ بين ابن أميرٍ مُتبطِّل فى أملاك أبيه من القصور والضياع ، وابنِ فقيرٍ متبطِّل فى أملاك «المجلس البلدى» من الأزقة والشوارع .

وابنُ الأمير إذا كان تجارا أو حدادا أصلح السُّوقَ والشارعَ بأخلاقه الطيبة اللّينة ، وتعفُّفِه وكرمِه ، فيتعلم سَوادُ الناس منه الأمانةَ والصدق ، إذ هو لا يكذبُ ولا يسرق مادام فوق الاضطرار ؛ ولا كذلك ابنُ الفقير الذى يضطره العيشُ أن يكون تاجرا أو صانعا ، فتكونَ حرفته التجارة وهى السرقة ، أو الصناعة وهى الغش ؛ ويكون فى الناس أكثرَ عُمرِه مادةَ كَذِبٍ وإثمٍ ولصوصية .

آه لو صرتُ مديرًا ! أتدرين ماذا أصنع ؟

ـ ماذا تصنع يا أحمد ؟

ـ أعمدُ إلى الأغنياء فأردُّهم بالقوة إلى الإنسانية ، وأحملُهم عليها حملاً ، وأُصلح فيهم صفاتِها التى أفسدَها الترَف واللين والنعمة . ثم أُصلح ما أخلَّ به الفقرُ من صفات الإنسانية بالفقراء ، وأحملُهم على ذلك حملاً ، فيستوِى هؤلاء وهؤلاء ، ويتقاربون على أصلٍ فى الدم إن لم يلده آباؤهم ولَدَه العانون .
ألَا إن سقوطَ أمتنا هذه لم يأت إلا من تَعَادِى الصفات الإنسانية فى أفرادها ، فتقطَّعَ مابينهم . فهم أعداء فى وطنهم ، وإن كان اسمُهم أهلَ وطنهم .

ومتى أُحكِمَت الصفاتُ الإنسانية فى الأمة كلها ودانَى بعضُها بعضا ـ صار قانونُ كل فرد كلمتين لا كلمةً واحدة كما هو الآن . القانون الآن (حَقّ) ، ونحن نريد أن يكون (حَقّ ، وَوَاجِب) ؛ وما أهلك الفقراءَ بالأغنياء ، ولا الأغنياءَ بالفقراء ، ولا المحكومين بالحكام ـ إلا قانونُ الكلمة الواحدة .

* * *

أنا أحمد المدير . . . لستُ المديرَ بما فى نفس أحمد ، ولا بمعدته وبطنه ، ولا بما يريد أحمد لنفسه وأولاده ... كلا ، أنا عملٌ اجتماعىٌ منظَّم يحكم أعمالَ الناس بالعدل ، أنا خُلُقٌ ثابتٌ يوجّه أخلاقَهم بالقوة ، أنا الحياةُ الأُمُّ مع الحياة الأطفالِ الإخوةِ فى هذا البيت الذى يسمى الوطن ؛ أنا الرحمةُ ، عندى الجنة : ولكن عندى جهنم أيضا مادام فى الناس من يَعْصِى ، أنا بكل ذلك لست أحمد ، لكنى الإصلاح .

هأنذا قد صرتُ مديرًا أعُسُّ فى الطريقِ بالليل وأتفقَّد الناسَ ونوائبَهم .

من أرى ؟ هذا طفلٌ وأختُه نائمان على عَتبة البنك فى حياة كأهدامهما المرقَّعة ، فى دُنيا تمزقتْ عليهما ! قم يابنىّ ، لا تُرَعْ ، إنما أنا كأبيك ، تقول : اسمك أحمد ، واسم اختك أمينة ؟

تقول : إنك مانمتَ من الجوع ، ولكن دَغْدَغْتَ عينَك بشعاع النوم ؟

ياولدىَّ المسكينين . بأىِّ ذنبٍ من ذنوبكما دقَّتكما الأيامُ دقًّا وطحنتكما طحنا ؟ وبأى فضيلة من الفضائل يكون ابنُ فلان باشا ، وبنتُ فلان باشا فى هذا العيش اللين يختاران منه ويتأنّقان فيه ، ما الذى ضرَّ الوطنَ منكما فتمرتا ، وما الذى نفع الوطن منهما فيعيشا ؟

إن كنتَ يابنى لا تملك لنفسك الانتصارَ من هذه الظَّليمة ، فأنا أملكها لك ، وإنما أنا المظلومُ إلى أن تنتصر ، وإنما أنا الضعيفُ إلى أن آخذَ لك الحق !

إلىَّ يا ابن فلان باشا وبنتَ فلان باشا .

ياهذا ، عليكَ أخاك أحمد ولتكن به حَفِيًا ؛ وياهذه ، عليكِ أختَك الآنسة أمينة . . . . . .

أتأبيان ، أنفرَدَ من الإنسانية ، وتمرُّدا على الفضيلة ؟ أحقا بلا واجب ؟ دائما قانون الكلمة الواحدة ! خُلقتما أبيضين سخريةً من القدَر وأنتما فى

النفس من أُحْبُوشَة الزَّنج ومَنا كيد العبيد !

ورفع أحمد يدَه . . . .

وكان الشُّرطي الذى يقوم على هذا الشارع ، وإليه حِراسةُ البنك ، قد تَوَسَّنَهما (*) ودخلتْه الرِّيبة ، فانتهى إليهما فى تلك اللحظة ، وقبل أن تنزلَ يدُ سعادة المدير بالصفعة على وجه ابن الباشا وبنتِ الباشا ، كان هذا الشرطيُّ قد ركَلَه برجله ، فوثَب قائما واجتذب أختَه وانطلقا عَدْوَ الخيلِ من أُلْهُوبِ السَّوط .

. . . .

وتمجّدت الفضيلة كعادتها . ! . . أنَّ مسكينا حَلِم بها ...

أحلام فى قصر (١)

كان فلانٌ بنُ الأمير فلان يتنبَّلُ فى نفسه بأنه مُشْتَقٌّ ممن يضع القوانين لاممن يخضع لها ، فكان تيَّاها صَلِفًا يشمَخُ على قومه بأنه ابنُ أمير ، ويختالُ فى الناس بأن له جَداًّ من الأمراء ، ويرى من تجبُّرِه أن ثيابَه على أعطافِه كحدود المملكة على المملكة لأن له أصلاً فى الملوك .

وكان أبوه من الأمراء الذين وُلدوا وفى دمهم شعاعُ السيف ، وبريقُ التاج ، ونخوةُ الظفَر ، وعِزُّ القَهْر والغلَبة ؛ ولكنَّ زمنَه ضربَ الحِصارَ عليه ، وأفضت الدولةُ إلى غيره ، فتراجعتْ فيه ملكاتُ الحرب ، من فتح الأرض إلى شِراء

(*) توسنهما : أتاهما نائمين .

(١) انبعثت خواطر هذه المقالة فى نفس الرافعى على أثر كتابته مقالة (أحلام فى الشارع) السابقة ، ولكنه لم يكتبها إلا بعد زمان .

الأرض ، ومن تشييد الإمارات إلى تشييد العِمارات ، ومن إدارة معركة الأبطال إلى إدارة معركة المال ؛ وغَبَرَ دهرَه يملك ويجمع حتى أصبحت دفاترُ حسابه كأنها (خريطة) بمملكة صغيرة .

وبعضُ أولاد الأمراء يعرفون أنهم أولادُ أمراء ، فيكونون من التكبُّر والغرور كأنما رَضُوا من الله أن يرسلهم إلى هذه الدنيا ولكن بشروط ...

* * *

وانتقل الأميرُ البخيل إلى رحمة الله ، وترك المالَ وأخذ معه الأرقام وحدَها يُحاسَب عنها ، فورِثَه ابنُه وأمَرَّ يدَه فى ذلك المال يبعثره ؛ وكانت الأقدارُ قد كتبت عليه هذه الكلمة : « غير قابل للإحسان . » فمحتها بعد موت أبيه ، وكتبت فى مكانها هذه الكلمة : « جُمع للشيطان »

أما الشيطانُ فكان له عملٌ خاص فى خدمة هذا الشاب ، كعمل خازن الثياب لسيده ، غير أنه لا يُلبِسه ثيابا ، بل أفكارا وآراءً وأخيِلةً . وكان يَجهدُ أن يُدخِل الدنيا كلَّها إلى أعصابه ليُخرِج منها دنيا جديدةً مصنوعة لهذه الأعصاب خاصة ، وهى أعصابٌ مريضة ثائرة متلهّبة لا يكفيها ما يكفى غيرَها فلا تبرحُ تسأل الشيطانَ بين الحين والحين : ألَا توجد لذّة جديدة غيرُ معروفة ؟ ألا يستطيعُ إبليسُ القرنِ العشرين أن يخترعَ لذةً مبتكَرة ؟ ألا تكونُ الحياة إلا على هذه الوتيرة من صُبحها لِصُبحها ؟

كان الشاب كالذى يريد من إبليس أن يخترعَ له كأسا تَسعُ نهرا من الخمر ، أو يجدَ له امرأة واحدةً وفيها كلُّ فنون النساء واختلافِهنّ ؛ وكان يريد من الشيطان أن يُعينَه فى اللّذة على الاستغراق الرُّوحانى ، ويَغْمُرَه بمثل التجلِّيات القُدسية التى تنتهى إليها النفسُ من حِدَّة الطرب وحِدَّة الشوق ؛ وذلك فوق طاقة إبليس ، ومن ثَمَّ كان معه فى جُهد عظيم حتى ضجِر منه ذاتَ مرة فهمَّ

أن يرفع يدَه عنه ويَدَعَه يدخلُ إلى المسجد فيصلّي مع بعض الأمراء الصالحين ...

وهؤلاء الفُسَّاقُ الكثيرو المال إنما يعيشون بالاستطراف من هذه الدنيا ؛ فهمُّهم دائما الألذّ والأجملُ والأغلى ؛ ومتى انتهت فيهم اللذةُ منتهاها ولم تجدْ عاطفتُهم من اللذاتِ الجديدة ما يُسْعِدُها ، ضاقت بهم فظهرتْ مظهرَ الذى يُحاول أن ينتحر ، وذلك هو المَلل الذى يُبتَلون به ؛ والفاسقُ الغنىُّ حين يملُّ من لذاته ، يُصبح شأنُه مع نفسه كالذى يكون فى نفَقٍ تحت الأرض ويريد هناك سماءً وجوا يطير فيهما بالطيارة ...

* * *

قالوا : واعترض ابنَ الأمير ذات يوم شحاذٌ مريضٌ قد أسنَّ وعجز يتحامَلُ بعضُه على بعض ، فسأله أن يُحسن إليه ، وذكر عَوَزَه واختلالَه ، وجعل يَبُثُّه من دُموعه وألفاظه ؛ وكان إبليسُ فى تلك الساعة قد صرَفَ خواطِرَ الشاب إلى إحدى الغانيات الممتنِعات عليه ، وقد ابتاع لها حِلية ثمينة اشتطَّ بائعُها فى الثمن حتى بلغ به عشرة آلافِ دينار ، فهو يريد أن يُهديها إليها كأنها قدَرٌ من قادر ... وقَطَعَ عليه الشحاذُ المسكين أفكارَه المضيئةَ فى الشخص المضىء ، فكان إهانة لخياله السامى ... ووجد فى نفسه غَضاضة من رؤية وجهه ، واشمأزَّ فى عُروقه دمُ الإمارة ، وتحركت الوراثةُ الحربية فى هذا الدم ...

ثم ألقى الشيطانُ إلقاءَه عليه ، فإذا هو يرى صاحبَ الوجه القَذِر كأنما يتهكم به يقول له : أنت أميرٌ يبحث الناسُ عن الأمير الذى فيه فلا يجدون إلا الشيطانَ الذى فيه . وليس فيك من الإمارة إلا مثلُ ما يكون من التاريخ فى الموضع الأثرىِّ الخَرِب . ولن تكون أميرا بشهادة عشرة آلاف دينار عند مُومِس ، ولكن بشهادة هذا المال عند عشرة آلاف فقير . أنت أمير ، فهل تُثْبِتُ الحياةُ أنك أمير ، أو هذا معنى فى كلمة من اللغة ؟ إن كانت الحياةُ فأين

أعمالُك ، وإنّ اللغةُ فهذه لفظةٌ بائدة تدلُّ فى عصور الانحطاط على قِسْطِ حاملها من الاستبداد والطغيان والجبروت ، كأن الاستبدادَ بالشعبِ غنيمةٌ يتناهَبُها عظماؤه ، فقِسْمٌ منها فى الحاكم ، وقسمٌ فى شِبه الحاكم يُترجم عنه فى اللغة بلقب أمير

ألا قُلْ للناس أيها الأمير : إن لقبي هـذا إنما هو تعبيرُ الزمن عما كان لأجدادى من الحق فى قتل الناس وامتهانهم ... !

✡ ✡ ✡

وكان هذا كلاما بين وجهِ الشحاذ وبين نفسِ ابن الأمير فى حالةٍ بخصوصها من أحوال النفس ؛ فلا جَرَم أُهين الشحاذُ وطُرد ومضى يدعو بما يدعو .

ونام ابنُ الأمير تلك الليـلةَ فكانت خَيَالتُه (*) من دنيا ضميرِه وضميرِ الشحاذ ؛ فرأى فيما يرى النائم أن ملَكا من الملائكة يهتف به :

ويلكَ ! لقد طَردتَ المسكينَ تخشى أن تنالك منه جراثيمُ تمرضُ بها ، وما علمتَ أن فى كل سائل فقير جراثيمَ أخرى تمرض بها النعمة ؛ فإن أكرمته بقيتْ فيه ، وإن أهنتَه نَفَضَها عليك . لقد هلكت اليومَ نعمتُك أيها الأمير ، واستردَّ العاريةَ صاحبُها ، وأكلت الحوادثُ مالَك فأصبحتَ فقيراً محتاجا ترومُ الكِسْرَةَ من الخبز فلا تتهيأ لك إلا بجُهد وعملٍ ومشـقة ؛ فاذهبْ فاكْدَحْ لعيشك فى هذه الدنيا ، فما لأبيك حقٌّ على الله أن تكونَ عند الله أميراً .

قالوا : وينظر ابنُ الأمير فإذا كلُّ ما كان لنفسه قد تركه حين تركه المـال ، وإذا الإمارةُ كانت وهماً فرضـه على الناس قانونُ العـادة ، وإذا التعاظم والكبرياء والتجبّر ونحوُها إنما كانت مَكْراً من المـكْر لإثبات هذا الظاهر والتعزُّزِ به . وينظر ابنُ الأمير ، فإذا هو بعد ذلك صُعلوكٌ أبترُ مُعْدِمٌ رَثُّ الهيئة كذلك الشحاذ ، فيصيح مغتاظا : كيف أهملتنى الأقدار وأنا ابنُ الأمير؟

(*) الخيالة : ما يتراءى للنائم من الأشباح فى نومه .

قالوا : ويهتفُ به ذلك الملَك : ويحكَ ! إن الأقدار لا تُدلِّلُ أحدا ، لا ملِكا ولا ابنَ ملِك ، ولا سُوقيًا ولا ابن سُوقى ؛ ومتى صرتم جميعا إلى التراب فليس فى التراب عظمٌ يقول لعظم آخر : أيها الأمير ...

✡ ✡ ✡

قالوا : وفكَّر الشاب المسكينُ فى صواحبه من النساء ، وعندهن شبابهُ وإسرافُه ونفَقاته الواسعة ، فقال فى نفسه : أذهبُ لإحداهن ! وأخذ سَمْتَه إليها ، فما كادت تعرفه عيناها فى أسماله وبَذاذته وفقره حتى أمرتْ به فجُرَّ بيديه ودُفِع فى قَفاه ؛ ولكن دمَ الإمارة نزا فى وجهه غضَبًا ، وتحركت فيه الوراثة الحربية ، فصاح وأجْلَب واجتمع الناسُ عليه واضطربوا ، وماج بعضُهم فى بعض ؛ فبينا هو فى شأنه حانت منه التفاتةٌ ، فأبصر غلاما قد دخل فى غُمارِ الناس ، فدَسَّ يدَه فى جيب أحدهم فنَشَل كيسَه ومضى .

قالوا : وجرى فى وهم ابن الأمير أن يلحقَ بالغلام فيكْبِسَه كبْسَةَ الشُّرْطى وينتزعَ منه الكيس وينتفعَ بما فيه ، فتسلَّل من الزحام وتبع الصبى حتى أدركه ، ثم كَبسه وأخذ الكيس منه وأخرج الكنزَ ، فإذا ليس فيه إلا خاتم وحجاب وبعضُ خَرَزَات مما يتبرك العامة بحمله ، ومفتاح صغير . . .

فامتلأ غيظا ، وفار دمُ الإمارة ، وتحركت الوراثة الحربية التى فيه ؛ وألمَّ الصبىُّ بما فى نفسه ، وحدَس على أنه رجل أفاقٌ مُتَبطِّل ، لا نفَاذ له فى صناعة يرتزقُ منها ، فرثى لفقره وجهله ودعاه إلى أن يعلّمه السرقةَ وأن يأخذه إلى مدرستها ، وقال : إن لنا مدرسةً ، فإذا دخلتَ القسم الإعداديَّ منها تعلمتَ كيف تحمل المِكْتَل (١) فتذهب كأنك تجمع فيه الخِرقَ الباليةَ من الدُّور ، حتى إذا سَنَحتْ لك غَفلة انسللتَ إلى دارٍ منها فسرقتَ ما تناله يدُك من

(١) هو كالقفة يعمل من الخوص

ثوب أو متاعٍ ، ولا تزال فى هـذا الباب من الصـنعة حتى تُحْـكِمَه ، ومتى حذقتَه ومَهَرْتَ فيه انتقلت إلى القسم الثانوى . . .

فصاح ابن الأمير : أُغْرُبْ عنى ، عليك وعليك ، أخزاك الله ! ولعن الله الإعدادىَّ والثانوىَّ معا .

ثم إنه رمى الكيس فى وجه الغلام وانطلق ، فبينا هو يمشى وقد تَوَزَّعتْه الهمومُ ، أنشأ يفـكّر فيما كان يراه من الُمـكدين ، وتلك العللِ التى ينتحلونها للـكدْية ، كالذى يتعَامى ، والذى يتعارج ، والذى يُحدِث فى جسمه الآفة ؛ ولـكن دَم الإمارة اشمأز فى عروقه وتحركت فيه الوراثة الحربية !

وبَصُر بشاب من أبناء الأغنياء تنطق عليه النعمة ، فتعرَّض لمعروفه ، وأفضى إليه بهمّه ، وشكا مانزل به ؛ ثم قال : وإنى قد أمَّلْتك وظنِّى بك أن تصطفيَنى لمنادمتك أو تُلحِقَنى بخدمتك ، وما أريد إلا الـكَفافَ من العيش ، فإن لم تبلغ بى ، فالقليل الذى يعيش به المُقِلّ . وصعّد فيه الشاب وصوَّب ، ثم قال له : أتحسن أن تلطُف فى حاجتى ؟ قال : سأبلغ فى حاجتك ما تحب . قال الشاب : ألك سابقةٌ فى هذا . . . ؟ أكنت قوّاداً . . . ؟ أتعرف كثيرات منهن . . . ؟

فانتفض غضبا وهمّ أن يبطش بالفتى ، لولا خوفُه عاقبةَ الجريمة ، فاستخْذَى ومضى لوجهه ؛ وكان قد بلغ سوقًا ، فأمَّل أن يجد عملا فى بعض الحوانيت ، غيرَ أن أصحابَها جعلوا يزجُرونه مرةً ويطردونه مرة ؛ إذ وقعتْ به ظِنّةُ التلصُّص ، وكادوا يُسلِمونه إلى الشرطِى ، فمضى هاربا وقد أجمع أن ينتحر ليقتل نفسَه ودهرَه وإمارتَه وبؤسَه جميعا .

قالوا : ومرّ فى طريقه إلى مَصْرعه بامرأة تبيع الفُجْلَ والبصلَ والـكراث ، وهى بادنَة وَضيئة ممتلئةُ الأعلى والأسفل ، وعلى وجهها مَسْحَةُ إغراء ، فذكر غزلَه وفتنتَه واستغواءَه للنساء ، ونازعتْه النفسُ ، وحسب المرأةَ تـكون له

معاشا ولهوا ، وظنها لا تُعجزه ولاتفوتُه ، وهو فى هذا الباب خرّاجٌ ولاّجٌ منذ نشأ . . . غير أنه ما كاد يراودها حتى ابتدرَتْه بلطمةٍ أظـلم لهـا الجوُّ فى عينيه ، ثم هَرّتْ فى وجهـه هَرِيرا منـكَرا ، واستَعْدَت عليه السابـلةَ فأطافوا به وأخذه الصفعُ بما قَدُمَ وما حدُث ، ومازالوا يَتَعاورونه ضربا حتى وقع مغشيا عليه .

ورأى فى غَشْيته ما رأى من تمام هذا الكرب ، فضُرِبَ وحُبس وابتُلى بالجنون وأُرسل إلى المـارستان ، وساح فى مصائب العالَم ، وطاف على نـكَبات الأمراء والسُّوقة بمـا يعى وما لا يعى ؛ ثم رأى أنه قد أفاق من الإغماء فإذا هو قد استيقظ من نومه على فِراشِه الوثير .

٭ ٭ ٭

وياليت من يدرى بعد هذا ! أغدا ابنُ الأمير على المسجد وأقبـل على الفقراء يُحسن إليهم ، أم غدا على صاحبته التى امتنعت عليه فابتاع لها الحليةَ بعشرة آلاف دينار ؟

ياليت من يدرى ! فإن الكتاب الذى نقلنا القصة عنه لم يذكر من هذا شيئا ، بل قطع الخبرَ عند ما انقطع الصفع . . . .

بنت الباشا ...[1]

كانت هذه المرأةُ وضّاحةَ الوجه زهراءَ اللون كالقمر الطالع ، تحسبُها لجمالها غذتها الملائكةُ بنور النهار ، وروّتها من ضَوء الكواكب .

وكانت بَضّةً مُقسّمةً أبدعَ التقسيم ، يلتفُّ جسمُها شيئاً على شيء التفافا هندسيّا بديعا ، يرتفع عن أجسام الغيدِ الحسانِ أفْرِغَ فيها الجمالُ بقدر مايمكن — إلى أجسام الدُّمَى العبقريةِ التى أُفرغ فيها الجمالُ والفنُّ بقدر ما يستحيل .

وكانت باسمةً أبدا كأوّلِ ما يتلألأُ الفجر ، حتى كأن دمها الغَزِلِيَّ الشاعرَ يصنعُ لثغرها ابتسامتَها كما يصنعُ لخدّيها حمرتَهما

مالها جلست الآن تحتَ الليل مُطْرِقةً كاسِفةً ذابلة ، تأخذُها العينُ فما تَشكُّ أن هذا الوجهَ قد كان فيه مَنْبَعُ نُورٍ وغاض ا وأن هذا الجسمَ الظمآنَ المحروقَ هو بُقْعَة من الحياة أقيمَ فيها مأتم !

ما لهذه العين الكحيلة تُذْرِى الدمعَ وتسترْسلُ فى البكاء وتَلِجُّ فيه ، كأن الغادةَ المسكينةَ تُبصِر بين الدموع طريقا تُفضى منه نفسُها إلى الحبيب الذى لم يَعُد فى الدنيا ؛ إلى وحيدِها الذى أصبحتْ تراه ولا تلمسه ، وتكلّمه ولا يَرُدُّ عليها ، إلى طفلِها الناعمِ الظريفِ الذى انتقل إلى القبر ولن يرجع ، وتتمثّلهُ أبدا يريد أن يجيءَ إليها ولا يستطيع ، وتتخيلهُ أبدا يَصيح فى القبر يناديها : « يا أُمى ! يا أُمى ! . . . »

---

(1) انظر خبر هذه القصة وحديث (الزبال الفيلسوف) ص ٢١١ - ٢١٢ « حياة الرافعى »

قلبُها الحزينُ يُقطِّع فيها ويُمزِّق فى كل لحظة ؛ لأنه فى كل لحظة يُريد منها أن تضمَّ الطفلَ إلى صدرها ، ليستشعِرَهُ القلبُ فيفرحَ ويتهنَّأَ إذ يَمَسُّ الحياةَ الصغيرةَ الخارجةَ منه . ولكن أين الطفل ؟ أين حياة القلبِ الخارجةُ من القلب ؟

لاطاقة للمسكينة أن تجيب قلبَها إلى مايطلب ، ولا طاقة لقلبها أن يَهْدَأَ عمّا يطلب ؛ فهو من الغيظ والقهر يحاوِلُ أن يُفجِّرَ صدرَها ، ويريد أن يَدُقّ ضلوعَها ، ليَخرجَ فيبحثَ بنفسه عن حبيبِه !

مِسكينةٌ تترنَّحُ وتتلوَّى تحت ضَرباتٍ مُهْلِكةٍ من قلبها . وضَرباتٍ أخرى من خيالها ، وقد باتت من هذه وتلك تعيشُ فى مثل اللحظة التى تكون فيها الذَّبيحةُ تحت السِّكِّين : ولكنها لحظةٌ امتدّت إلى يوم ، ويومٌ امتد إلى شهر . ياويلَها من طول حياة لم تَعُدْ فى آلامها وأوجاعها إلا طولَ مدَّة الذَّبح المذبوح.

ولو كان للموت قِطارٌ يقفُ على محطَّةٍ فى الدنيا ، ليحملَ الأحبابَ إلى الأحباب ، ويسافر من وُجودٍ إلى وجود . وكانت هذه الأمُّ جالسةً فى تلك المحطة منتظِرةً تتربَّص ، وقد ذُهِلَتْ عن كل شيء ، وتجردتْ من كل معانى الحياة ، وجمدت جمودَ الانتقالِ إلى الموت — لما كانت إلا بهذه الهيئة فى مجلسِها الآن فى شُرفتها من قصرها : تُطِلُّ على الليل المظلم وعلى أحزانها ... !

☆ ✿ ☆

هى فلانة بنت فلان باشا وزوجةُ فلان بك . تَرادَفَتْ النِّعمُ على أبيها فيما يَطلبُ وما لا يطلب . وكأنما فرغ من اقتراحه على الزمان واكتفى من المال والجاه ، فلم يُعجب الزمانَ ذلك ، فأخذ يقترحُ له ويصنع مايقترح ، ويزيدُه على رَغمه نِعَمًا تتوالَى !

وكان قد تقدم إلى خِطْبة ابنته شابٌّ مهذَّب ، يملك من نفسه الشبابَ والهمةَ والعلم ، ومن أسلافه العُنصرَ الكريمَ والشرفَ الموروث ، ومن أخلاقه وشمائله

ما يُكاثِرُ به الرجالَ ويُفاخر . بَيْدَ أنه لا يملك من عيشه إلا الكفافَ والقِلّة ، وأملا بعيدا كالفجر وراء ليل لابد من مُصابرته إلى حين يَنْبَثِقُ النور .

وتقدم صاحبُنا إلى الباشا فجاءه كالنَّجم عاريا ؛ أى فى أزهَى نُورانيّته وأضوَئِها ؛ وكان قد عَلِقَ الفتاةَ وعُلِّقته ، فظنّ عند نفسه أن الحبَّ هو مال الحب ، وأن الرجولةَ هى مالُ الأنوثة ، وأن القلوبَ تتعامل بالمسَرّات لا بالأموال ، ونَسِيَ أنه يتقدم إلى رجل مالىّ جعلتْه حَقَارةُ الاجتماع رُتبة ، أو إلى رتبة ماليَّة جعلتها حقارةُ الاجتماع رجلا . . وأنّ كلمة « باشا » وأمثالها ، إنما تخلّفَت عن ذلك المذهب القديم : مذهبِ الألوهية الكاذبة التى انتحلَها فِرْعونُ وأمثالُه ، لِيَتعَبَّدُوا الناس منها بألفاظِ قلوبهم المؤمنة ؛ فإذا قيل « إله » كان جواب القلب : « عزّ وجلّ » ، « سُبْحانه » . . .

ولما ارتقى الناسُ عن عبادة الناس ، تلطَّفتْ تلك الألوهيةُ ونزلت إلى درجات إنسانية ، لتتعبَّدَ الناسَ بألفاظِ عقولهم الساذَجة ؛ فإن قيل « باشا » كان جوابُ العقل الصغير : « سعادتلو أفندم (*) » !

نِسِيَ الشاب أنه « أفندى » سيتقدم إلى « باشا » ، وأعماه الحبُّ عن فَرْقِ بينِهما ؛ وكان سامىَ النفس ، فلم يُدرك أن صغائرَ الأمم الصغيرة لابد لها أن تنتحلَ السموَّ انتحالا ، وأن الشعبَ الذى لا يجد أعمالا كبيرة يتمجَّد بها ، هو الذى تُخْترَعُ له الألفاظُ الكبيرةُ ليتلهَّى بها ؛ وأنه متى ضعف إدراكُ الأمة ، لم يكن التفاوتُ بين الرجال بفضائل الرجولة ومعانيها ، بل بموضع الرجولة من تلك الألفاظ ؛ فإن قيل « باشا » ، فهذه الكلمة هى الاختراعُ الاجتماعىُّ العظيم فى أمم الألفاظ ، ومعناها العلمىّ : قوةُ ألف فدان أو أكثر أو أقل ؛

(*) هذه ألقاب وضعتها الدولة العثمانية البائدة ، فأفسدت الناس بكبرياء الألفاظ الفارغة وقد أرادت بها رفع الأعلى ، فانتهى أمرها إلى سقوط الأعلى والأسفل .

ويقابلها مثلا فى أمم الأعمال الكبيرة لفظ « الآلة البخارية » ، ومعناها العلمى قوة كذا وكذا حصانا أو أقلّ أو أكثر [*] !

نسِى هذا الشاب أن « أمم الأكل والشرب » فى هذا الشرقِ المسكين ، لاتتم عظمتُها إلا بأن تضع لأصحاب المال الكثير ألقابا هى فى الواقع أوصافُ اجتماعيــة للمَعدة التى تأكل الأكثرَ والأطيبَ والألذّ ، وتملك أسبابَ القدرة على الألذّ والأطيب والأكثر .

وتقدم (الأفندى) يتودَّد إلى (الباشا) ما استطاع ، ويتواضع وينكمش ، ولا يألوه تمجيدا وتعظيما : ولكن أين هو من الحقيقة ؟ إنه لم يكن عند الباشا إلا أحمق ؛ إذ لم يعرف أن تقدُّمَه إلى ذلك العظيم كان أول معانيه أن كلمة « أفندى » تطاولتْ إلى كلمة « باشا » بالسبّ علَنًا ... !

✡ ✡ ✡

وانقبضوا عن (الأفندى) وأعرضوا عنه إعراضا كان معناه الطرد ؛ ثم جاء (البك) يخطب الفتاة .

و « بك » مَنْبَهةٌ للاسم الخاطب ، وشرفٌ وقَدْرٌ وثناء اجتماعيّ ، وذِكْر شهير ، وإرغامٌ على التعظيم بقوة الكلمة ، ودليــلٌ على الحُرُمات اللازمةِ للاسم لزومَ السواد للعين . ولم يكن تحت (بِك) رجلٌ ، فإن تحتها على كل حال (بك) ... ! وأنْعَمَ له الباشا ، ووصل يده بيد ابنته ، فألبَسَها وألبَسَتْه ، وأعلمها أبوها أنه قد نَحَصَ عن البك ، فإذا هو (بك) قوة مائتى فدان ... ! أما الأفندى فظهر من الفحص الهندسىّ الاجتماعى أنه (أفندى) قوة خمسة عشر جنيها فى الشهر .. !

وخَنَسَ الأفندى وتَراجَعَ مُنْخَزِلا ، وقد علم أن (الباشا) إنما زوَّج لقبه

(*) انظر مقالة (البك والباشا) فى الجزء الثانى .

قبل أن يزوج ابنته، وأنه هو لن يملك مهرَ هذا اللقب إلا إذا ملك أن يُبدّلَ أسباب التاريخ الاجتماعى فى الأمم الضعيفة، فينقلَ إلى العقل أو النفس ماجعلته «أمم الأكل والشرب» من حق المعدة، فلا يكون (باشا) إلا مخترعٌ شرقىٌّ مُفْلِس، أو أديبٌ عظيمٌ فقير، أو مَن جرى هذا المجرَى فى سموّ المعنى لافى سموّ المال.

وقدَّمت مِائتا الفدانِ مَهرها «الطِّينىَّ» العظيم بما تعبيرُه فى اللغة الطينية: ثمنُ عشرين ثورا، ومثلِها جاموسا، ومثلِها بِغالاً وأحمِرة، وفوقها مائةُ قنطارٍ قطنا، ومائة إردبٍ قمحا، ثم ذرةً، ثم شعيرا. والمجموعُ الطينىُّ لذلك ألفُ جنيه؛ وعزى الباشا أنه مستطيعٌ أن يقول للناس: إنها خمسة آلاف اختزلتها الأزمة قبّحها الله...!

ثم زُفَّت «بنت الباشا» زِفافًا طِينيا بهذا المعنى أيضا، كان تعبيرُه: أنه أُنفق عليه ثمنُ ألفِ قنطارٍ بصلا، ومائةِ غَرارةٍ من السَّماد الكيماوى، كأنما فُرِش بها الطريق...!

وطفِقَ الباشا يُفاخِر ويتمدَّح، ويَتَبذَّخ على الأفندى وأمثالِ الأفندى بالطين ومعانى الطين؛ فردَّت الأقدارُ كلامَه عليه، وجعلت مَرْجِعَه فى قلبه، وهيَّأت لبنت الباشا معيشة «طِينية» بمعنى غيرِ ذلك المعنى...

* * *

ومات الطفل؛ فردَّت هذه النكبةُ بنتَ الباشا إلى معانى انفرادِها بنفسها قبل الزواج، وزادتها على انفرادها الحزنَ والألم، وألقت الأقدارُ بذلك فى أيامها ولياليها الترابَ والطين.

ولجَّ الحزنُ ببنت الباشا فجعلت لاترى إلا القبرَ ولا تتمنى إلا القبرَ تلحق فيه بولدها، فوضعت الأقدارُ من ذلك فى رُوحِها معنى الطين والتراب.

وأسقمَ الهمُّ بنتَ الباشا وأذابَها، فنقلت الأقدارُ إلى لحمها عَمَلَ الطين

فى تحليله الأجسامَ وإذابتِها تحت البِلَى .

✡ ✡ ✡

وكان وراء قصرها حِوَاء (*) يأوى إليه قوم من « طين الناس » بنسائهم وعيالهم ، وفيهم رجلٌ « زَبَّالٌ » له ثلاثة أولاد ، يراهم أعظمَ مَفاخِرِه وأجملَ آثارِه ، ولا يزال يرفع صوتَه متمَدِّحا بهم ، ويخترع لذلك أسبابًا كثيرة لكى يَسمعَه جِيرانُه كل ليلة مُفاخِراً ، مرة بأحمد ، ومرة بحَسن ، ومرة بَعلىّ ؛ وأعجَبُ أمرِه أنه يرى أولادَه هؤلاء متمِّمين فى الطبيعة لأولاد « الباشوات » ... وهو يحبهم حبَّ الحيوان المفترِس لصغاره : يرى الأسدُ أشبالَه هم صنعةَ قوَّته ، فلا يزال يَحُوطُهم ويتَمِّمهم ويرعاهم ، حتى إنه ليقاتِلُ الوجودَ من أجلهم ؛ إذ يشعر بالفطرة الصادقة أنه هو وجُودُهم ، وأن الطبيعة وهبتْ له منهم مَسَرَّاتِ قلبِه ، ذلك القلبِ الذى انحصرت مسَرَّاتُه فى النسل وحده ، فصار الشعورُ بالنسل عنده هو الحبَّ إلى نهاية الحب . وكذلك الزَّبَّالُ الأسد (**) .

ومن سخرية القدر أن زبَّالنا هذا لم يسكن الحِواء إلا فى تلك الليلة التى جلست فيها بنت الباشا على ماوصفْنا ، وفى ضلوعها قلبٌ يُفَتِّتُ من كبدها ويُمزِّق من أحشائها .

وبينا تُناجى نفسَها وتعْجَبُ من سخرية الأقدار بالباشا والبك ، وتَسْتَحْمِقُ أباهافيما أقدم عليه من نبذ كُفْئِها لعجزه عن مهرِ باشا ، وإيثارِ هذا المهر الطينىّ ، وتباهِيه به أمامَ الناس ، واندِرائه بالطَّعن على من ليس له لقبٌ من ألقاب الطين —

(*) الحواء : جماعة من البيوت كهذه العشش التى يسكنها الصعايدة فى بعض الأحياء .

(**) هذا الزبال شخصية حقيقية ، لوقلنا بمذهب الرجعة لكان « أرسطو » رجع زبالا ليتمم فلسفته ، والكاتب يعرف الرجل ويبره أحيانا وكان (حضرته) قد طلب إلينا أن نصنع له (موالا) يتغنى به فى (أوقات الصفاء) فوضعنا له الاغنية التى يراها القارئ بعد وهو يصدح بها فى لياليه . وسنفرد لزبالنا هذا مقالا خاصا إن شاء الله ! !

بَيْناهى كذلك إذا بالزبال، كاذِبِ التراب والطين، يهتِفُ فى جوف الليل ويتغنَّى :

يالِيلْ، يالِيلْ، يالِيلْ   ما تِنْجِلى يا ليــل

✡ ✡ ✡

القَلب أهُــو راضِى   لَكْ حَمــدِى يا ربّى
مِن الهمومْ فاضى   إفــرحْ لى يا قلبى

✡ ✡ ✡

يادُوبْ كِدا يادوبْ   زَىِّ الحَــمامْ عايِشْ
ما يِمْتِلِكْ غِــيرْ تُوبْ   طُولْ عمرُه فِيهْ نافِشْ ...
ياليلْ، ياليــلْ، يالِيلْ   ما تِنْجِــلى يالِيــلْ

✡ ✡ ✡

إن قلت أنا فَرْحانْ   ذا مِــينّ يِكَدِّبْنِى
وأكْــتَرْ من السلطانْ   فرحانْ أنا بأبْنِى

✡ ✡ ✡

بين السـيوفْ ياناسْ   لَم انْكَسَرْ سِيفى
وابنِ الغِنَى مِحْتــاسْ   وانا على كِيفى ...
ياليلْ، ياليــلْ، ياليلْ   ما تِنْجِــلى ياليــلْ

✡ ✡ ✡

وابنِ الغِنَى فِ هُمُوم   والخــالى خالى البــالْ
والفقْــر ما بِيْــدُومْ   وتْدُومْ همــوم المالْ

✡ ✡ ✡

ياطِيرْ ياطِــيرْ، ياطِير   الحُــرّ فُوقِ اللُّوْمْ

قلت : وانظر حديثنا عن هذا الزبال ص ٢١١ — ٢١٢ « حياة الرافعى »

والخَــيرْ ، جميعِ الخَير لقْمَهْ ، وعافْيَه ، ونُومْ
ياليل ، ياليـل ، ياليل ما تِنْجِـلى يالِيـــل

✡ ✡ ✡

ولم تختر الأقدارُ إلا زبّالا تُرْسِلُ فى اسانه سخريتّها بذلك الباشا وبنت ذلك الباشا ... !

وكَسْرُ قلبٍ بكسرِ قلبٍ وحَطْمُ نفْسٍ بحطْمِ نفسٍ
ورُبَّ عِــزٍ تراه أمسْى كُناسَةً هُيِئَتْ لِكَنْس... !

ورقة ورد

« وضعنا كتابنا « أوراق الورد » فى نوع من الرسل لم يكن منه شىء فى الأدب العربى على الطريقة التى كتبناه بها ، فى المعانى التى أوردناه لها ، وهو رسائل غرامية تطارحها شاعر فيلسوف وشاعرة فيلسوفة على مابيناه فى مقدمة الكتاب . وكانت قد ضاعت « ورقة ورد » وهى رسالة كتبها ذلك العاشق إلى صديق له ، يصف من أمره وأمر صاحبته ، ويصور له فيها سحر الحب كما لمسه وكما تركه ؛ وقد عثرنا عليها بعد طبع الكتاب ، ورأينا ألا ننفرد بها . وهى هذه : »

... كانت لها نفسٌ شاعرة ، من هذه النفوسِ العجيبةِ التى تأخذُ الضدّين بمعنًى واحد أحياناً ؛ فيَسُرُّها مرةً أن تُحزِنَها وتستَدْعى غضبَها ، ويُحزِنُها مرةً أن تَسُرَّها وتبلغَ رضاها ؛ كأنْ ليس فى السرور ولا فى الحزن مَعانٍ من الأشياء ، ولكنْ من نفسها ومشيئتِها .

(١) انظر سبب إنشاء هذا الفصل ص ٢٣١ من كتابنا « حياة الرافعى »

وكان خيالُها مشبوبًا ، يُلقِى فى كلِّ شىءٍ لَمَعانَ النور وانطفاءه ؛ فالدنيا فى خيالها كالسماء التى ألبسها الليلُ ، مُلِئت بأشيائها مبعثَرةً مضيئةً خافتةً كالنجوم .

ولها شعورٌ دقيق ، يجعلُها أحيانا من بلاغة حِسِّها وإرهافه كأن فيها أكثرَ من عقلها ؛ ويجعلها فى بعض الأحيان من دِقةِ هذا الحسّ واهتياجه كأنها بغير عقل...

وهى ترى أسمى الفكرِ فى بعض أحوالها ألّا يكونَ لها فكرٌ ، فتترك من أمورها أشياءَ للمصادفة ، كأنها واثقةٌ أن الحظَّ بعضُ عُشّاقها ؛ على أن لها ثلاثةَ أنواع من الذكاء ، فى عقلها وروحِها وجسمِها : فالذكاءُ فى عقلها فَهْم ، وفى روحها فِتنة ، وفى جسمها ... خَلاعة .

وكنتُ أراها مَرِحَة مستطارة مما تَطْرَبُ وتتفاءل ، حتى لأَحسبُها تودُّ أن يخرجَ الكونُ من قوانينه ويطيش ...؛ ثم أراها بعدُ مُتَضَوِّرَةً مهمومة تحْزَن وتتشاءم ، حتى لأظنُّها ستزيد الكونَ همًّا ليس فيه !

وكانت على كل أحوالها المتنافرة — جميلةً ظريفة ، قد تمَّت لها الصورةُ التى تَخلق الحب ، والأسرارُ التى تبعثُ الفتنة ، والسحرُ الذى يُميِّزُ روحَها بشخصيّتها الفاتنة كما تتميّز هى بوجهها الفاتن .

✡ ✡ ✡

وكان حبى إياها حريقا من الحب ؛ فمثِّلْ لعينيك جسما تناوَل جِلْدَهُ مَسٌّ من لَهَب ، فتسلَّع هذا الجلدُ (*) هنا وهناك من سَلْخ النار ، وظهر فيه من آثار الحروق لَهَبٌ يابسٌ أحمرُ كأنه عُروقٌ من الجمر انتشرت فى هذا الجسم؛ إنك إن تمثَّلتَ هذا الوصفَ ثم نَقَلْتَه من الجلد إلى الدم — كان هو حريقَ

(*) أى تشقق وتسلخ .

ذلك الحبِّ في دمي !

والحبُّ إن كان حبًا لم يكن إلا عذابا ؛ فما هو إلا تقديمُ البرهان من العاشق على قوةِ فعل الحقيقة التي في المعشوق ، ليس حالٌ منه في عذابه ، إلا وهي دليلٌ على شيء منها في جَبَروتها .

ولقد أيقنتُ أن الغرامَ إنما هو جنونُ شخصيةِ المحب بشخصية محبوبه ، فيَسقُطُ العالَمُ وأحكامُه ومذاهبُه مما بين الشخصيتين ، ويلتفي الواقعُ الذي يجرى الناس عليه ، وتعودُ الحقائقُ لا تأتى من شيء في هذه الدنيا إلا بعد أن تمرّ على المحبوب لتجيءَ منه ، ويُصبح هذا الكونُ العظيم كأنه إطارٌ في عين مجنونٍ لا يحملُ شيئاً إلا الصورةَ التي جُنّ بها !

وتالله لكأنّ قانونَ الطبيعة يقضى ألّا تحبَّ المرأةُ رجلًا يسمَّى رجلاً ، وألّا تكون جديرةً بحُبها ، إلا إذا جرت بينهما أهوالٌ من الغرام تتركها معه كأنها مأخوذةٌ في الحرب ... تلك الأهوال يُمثِّلها الحيوانُ المتوحِّشُ عملاً جسميًّا بالقتال على الأنثى ، ثم ترِقُّ في الإنسانِ المتحضر فيمثِّلُها عملا قلبيًّا بالحبّ ...

* * *

أحببتُها جُهْدَ الهوى حتى لا مَزِيدَ فيه ولا مطمعَ في مزيد ، ولكن أسرارَ فتنتها استمرَّت تتعددُ فتدفعُنى أن يكون حبي أشدّ من هذا ؛ ولا أعرف كيف يمكنُ في الحبّ أشدُّ من هذا ؟

ولقد كنت في استغاثتي بها من الحب كالذى رأى نفسَه في طريق السَّيل ففرَّ إلى رَبْوَةٍ عالية في رأسها عقلٌ لهذا السّيل الأحمق ، أو كالذى فاجأه البركانُ بجنونه وغِلْظَتِه فهرب في رقة الماء وحِلمه ؛ ولا سيل ولا بركانَ إلا حُرقتى بالهوى وارتماضى من الحب .

أما والله إنه ليس العاشقُ هو العاشق ، ولكن هى الطبيعة ، هى الطبيعةُ فى العاشق .

هى الطبيعةُ ، بجبَروتها ، وعَسْفِها ، وتعنُّتِها . إذا استراح الناسُ جميعا قالت للعاشق : إلا أنت . . . !

إذا عقلَ الناسُ جميعا قالت فى العاشق : إلا هذا . . . !

إذا بَرَأَتْ جِرَاحُ الحياةِ كلُّها قالت : إلا جَرْحَ الحب . . . !

إذا تشابهتِ الهمومُ كالدّمعةِ والدمعة ، قالت : إلا هَمّ العشق . . !

إذا تغير الناسُ فى الحالة بعد الحالة ، قالت فى الحبيب : إلا هو . . . !

إذا انكشف سرُّ كلِّ شىء ، قالت : إلا المعشوقَ ، إلا هذا المحجّب بأسرار القلب . . . ؟

✡ ✡ ✡

ولما رأيتها أوّلَ مرةٍ ، ولَمَسنى الحبُّ لمسةَ ساحر ، جلست إليها أتأمّلُها وأحتَسى من جمالها ذلك الضياءَ الْمُسْكِرَ ، الذى تُعَرْبِدُ له الروحُ عَرْبَدَة كلّها وقارٌ ظاهر . . . فرأيتُنى يومئذٍ فى حالة كغَشْية الوحْى ، فوقها الآدميّةُ ساكنة ، وتحتها تيّار الملائكة يَعُبُّ ويجرى .

وكنت أُلَقَّى خواطرَ كثيرة ، جَعَلَتْ كلّ شىء منها ومما حولها يتكلم فى نفسى ، كأن الحياةَ قد فاضتْ وازدحمت فى ذلك الموضع الذى تجلس فيه ، فما شىءٌ يمرُّ به إلا مَسَّتْه فجعلتْه حيًّا يرتعش ، حتى الكلمات .

وشَعَرْتُ أولَ ماشعرْتُ أن الهواء الذى تتنفّسُ فيه يرِقُّ رِقّةَ نسيمِ السَّحَر ، كأنما انخدع فيها فحَسِبَ وجهها نورَ الفجر !

وأحسستُ فى المكان قوة عجيبة فى قدرتها على الجذب ، جعلتْنى مُبَعْثَرا حولَ هذه الفتّانة ، كأنها محدودةٌ بى من كلِّ جهة .

وخُيِّلَ إلىَّ أن النواميسَ الطبيعيةَ قد اختلّت فى جسمى إما بزيادةٍ وإما بنقص ؛ فأنا لذلك أعْظُمُ أمامَها مرة ، وأصغُر مرة .

وظننتُ أن هذه الجميلة إنْ هى إلا صورةٌ من الوجود النسائى الشاذ ، وقع فيها تنقيحٌ إلٰهىٌّ لتُظهِر للدنيا كيف كان جمالُ حوَّاءَ فى الجنة .

ورأيتُ هذا الحُسْنَ الفاتنَ يُشعِرُنى بأنه فوق الحسن ، لأنه فيها هى ؛ وأنه فوق الجمالِ والنَّضرةِ والمَرَح ، لأن الله وَضعه فى هذا السرورِ الحىِّ المخلوقِ امرأة .

والتمستُ فى محاسنها عيبا ، فبعد الجهد قلتُ مع الشاعر :

« إذا عِبْتُها شبَّهتُها البدرَ طالعا ... ! »

✡ ✡ ✡

ورأيتها تضحكُ الضَّحِكَ المُستحِى ؛ فيخرج من فمها الجميل كأنما هو شاعرٌ أنه تجرأ على قانون ....

وتَبْسم ابتساماتٍ تقول كلٌّ منها للجالسين : انظروها ! انظروها .... !

ويغمُرُها ضَحِكُ العين والوجهِ والفمِ ، وضحِكُ الجسمِ أيضا باهتزازِه وتَرَجْرُجِه فى حركات ، كأنما يَبسم بعضُها ويُقَهْقِهُ بعضُها ....

وتُلقِى نظراتٍ جَعل الله معها ذلك الإغضاءَ وذلك الحياء ، ليضعَ شيئا من الوقاية فى هذه القوّةِ الدِّمْوِيَّة ، قوّةِ تدمير القلب .

وهى على ذلك متساميةٌ فى جمالها ، حتى لا يتكلمَ جسمُها فى وساوس النفس كلامَ اللحم والدم ، وكأنه جسمٌ ملائكىٌّ ليس له إلا الجلالُ طوعا أو كَرْها ؛ جسمٌ كالمَعْبَد ، لا يَعرف مَن جاءه أنه جاءه إلا ليبتهلَ ويخشع ؛

وتطالِعك من حيث تأملتَ فكرةُ الحياةِ المنسجمةِ على هذا الجسم ، تطلبُ منك الفهمَ وهى لا تُفْهَم أبدا ؛ أىْ تريد الفهمَ الذى لا ينتهى ؛ أىْ تطلب الحبَّ الذى لا ينقطع .

وهى أبدا فى زينة حسنها كأنها عروسٌ فى معرِض جَلْوتها ؛ غير أن للعروس ساعة ، ولها هى كلُّ ساعة .

* * *

أما طَرفُها فيكاد يصيح تحت النظرات : أنا خائفٌ ! أنا خائف !

ووجهُها تتغالبُ عليه الرَّزانةُ والخِفّة ، لتقرأ فيه العينُ عقلَها وقلبَها .

وهى مِثلُ الشعر : تُطرِبُ القلبَ بالألم الذى يوجَدُ فى بعض السرور ، وبالسرور الذى يُحَسُّ فى بعض الألم .

وهى مِثلُ الخمر : تحسبُ الشيطانَ مُترَقْرِقا فيها بكل إغرائه !

وكلما تناولتْ أمامى شيئا أو صنعتْ شيئا خلقتْ معه شيئا ؛ أشياؤها لاتزيد بها الطبيعة ، ولكن تزيد بها النفس .

فيا كَبِدًا طارت صُدُوعا من الأسى . . . !

* * *

ورأيتُنى يومئذ فى حالة كغَشيةِ الوحْى ، فوقها الآدميّةُ ساكنة ، وتحتها تيّارُ الملائكةِ يَعُبُّ ويجرى .

* * *

ياسِحْرَ الحب ! تركتَنى أرى وجهَها من بَعدُ هو الوجهَ الذى تضحكُ به الدنيا ، وتعبسُ وتتغيظ وتتحامق أيضا . . . .

وجعلتَنى أرى تلك الابتسامةَ الجميلةَ هى أقوى حكومة فى الأرض . . . !

وجعلتَنى ياسحرَ الحب ··· وجعلتَنى ياسحرَ الحب مجنوناً . . . !

سُمُوُّ الحُبّ (1)

صاح المنادى فى موسم الحج : « لا يُفتى الناسَ إلا عَطاءُ بنُ أبى رَباح » (*) وكذلك كان يفعلُ خلفاءُ بنى أميّة ؛ يأمرون صائحَهم فى الموسِم أن يدلَّ الناس على مفتى مكة وإمامِها وعالِمِها ، ليَلقَوْه بمسائلهم فى الدين ، ثم ليُمسك غيرُه عن الفَتْوَى ؛ إذ هو الحجةُ القاطعة لاينبغى أن يكونَ معها غيرُها مما يختلف عليها أو يُعارضُها ، وليس للحُجج إلا أن تُظاهرَها وتترادفَ على معناها .

وجلس عطاءٌ يتحيَّنُ الصلاةَ فى المسجد الحرام ، فوقف عليه رجلٌ وقال : ياأبا محمد ، أنت أفتَيْتَ كما قال الشاعر :

سَلِ المُفْتِيَ المكّىَّ : هل فى تَزاوُرٍ وضَمَّةِ مُشتاقِ الفؤادِ جُناحُ ؟
فقال : مَعاذَ اللهِ أنْ يُذهِبَ التقَى تَلاصُقُ أكبادٍ بهنَّ جِراحُ !

فرفع الشيخُ رأسه وقال : والله ماقلتُ شيئاً من هذا ، ولكنَّ الشاعر هو نَحَلَنى هذا الرأى الذى نفَثَه الشيطانُ على لسانه ، وإنى لأخافُ أن تَشيعَ الفالَةُ فى الناس ، فإذا كان غدٌ وجلستُ فى حلْقتى فاغْدُ علىَّ ، فإنى قائلٌ شيئا

وذهب الخبرُ يؤُجُّ كما تؤُجُّ النار ، وتعالَمَ الناسُ أن عطاءً سيتكلم فى الحبّ ، وعجبوا كيف يدرى الحبَّ أو يُحْسِنُ أن يقول فيه مَن غَبَرَ عشرين سنةً فِراشُه المسجد ، وقد سمع من عائشة أمِّ المؤمنين ، وأبى هُرَيرة صاحبِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابنِ عباسٍ بحرِ العلم !

وقال جماعةٌ منهم : هذا رجلٌ صامتٌ أكثرَ وقته ، وما تكلم إلا خُيِّل

---

(1) انظر ص ٢١٨ - ٢٢١ « حياة الرافعى »

(*) ولد هذا الإمام سنة ٢٧ هـ وتوفى سنة ١١٥ قالوا ، ومات يوم مات وهو عند الناس أرضى أهل الدنيا .

إلى الناس أنه يُؤيَّد بمثل الوحي ، فكأنما هو نَجِيُّ ملائكةٍ يَسمع ويقول ، فلعل السماءَ مُوحِيةٌ إلى الأرض بلسانه وحيا في هذه الضلالة التي عمَّت الناس وفَتَنَتْهُم بالنساء والغِناء .

ولما كان غدٌ جاء الناسُ أرسالاً إلى المسجد ، حتى اجتمع منهم الجمعُ الكثير .

قال عبدُ الرحمن بنُ عبد الله بن أبي عمّار : وكنتُ رجلاً شابا من فِتيَان المدينة ، وفي نفسي مِن الدنيا ومِن هَوى الشباب ، فغدوتُ مع الناس ، وجئت وقد تكلم أبو محمد وأفاض ، ولم أكن رأيته من قبلُ ، فنظرتُ إليه فإذا هو في مجلسه كأنه غرابٌ أسود ، إذ كان ابن أمَةٍ سوداءَ تسمى « بَرَكة » ورأيتُه مع سوادِه أعورَ أفطسَ أشلَّ أعرجَ مُفَلْفَل الشَّعْر ، لا يتأمل المرءُ منه طائلا ، ولكنك تسمعه يتكلم فتظن منه ومن سواده — والله — أن هذه قطعةُ ليلٍ تَسْطَعُ فيها النجوم ، وتصعدُ من حولِها الملائكةُ وتنزل .

قال : وكان مجلسُه في قصة يوسفَ عليه السلام ، ووافقتُه وهو يتكلم في تأويل قوله تعالى : [1] « ورَاوَدَتْهُ التي هو في بَيتِها عَن نفسِه وغَلَّقَتِ الأبواب وقالت : هَيْتَ لك ! قال : مَعاذَ اللهِ ، إنَّه رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ ، إنَّه لا يُفْلِحُ الظَّالمون . ولقد هَمَّتْ به وهَمَّ بها لولا أنْ رَأَى بُرْهانَ رَبِّه ؛ كذلك لِنَصْرِفَ عنه السُّوءَ والفَحشاءَ ... »

قال عبد الرحمن : فسمعتُ كلاماً قُدْسِيًّا تَضَعُ له الملائكةُ أجنحتَها مِن رضًى وإعجابٍ بفقيه الحجاز . حَفِظْتُ منه قولَه :

عَجَباً للحب ! هذه مَلِكةٌ تعشق فتاها الذي ابتاعه زوجُها بثمنٍ بخس ؛ ولكنْ أين مُلْكُها وسطوةُ مُلْكِها في تصوير الآية الكريمة ؟ لم تَزد الآيةُ

---

(١) انظر ص ١٨٥ « حياة الرافعي »

على أن قالت : « وراودته الّتي ... » و « الّتي » هذه كلمةٌ تدلّ على كل امرأةٍ كائنةً مَن كانت ؛ فلم يَبْقَ على الحب مُلْكٌ ولا مَنْزِلة ؛ وزالتِ الملِكةُ من الأنثى !

وأعْجَبُ من هذا كلمةُ « رَاوَدَتْه » وهي بصيغتها المفردةِ حكايةٌ طويلةٌ تشير إلى أن هذه المرأة جعلتْ تعترض يوسفَ بألوان من أنوثتها ، لَوْنٍ بعد لون ، ذاهبةً إلى فنّ راجعة من فن ؛ لأن الكلمةَ مأخوذةٌ من رَوَدَان الإبل في مشيتها ، تذهبُ وتجيء في رِفْق . وهـذا يُصوّر حَيْرَةَ المرأة العاشـقة ، واضطرابَها في حبها ، ومحاولتَها أن تنفُذَ إلى غايتها ؛ كما يصوّر كبرياء الأنثى إذ تختالُ وتترفَّقُ في عرض ضعفها الطبيعيّ ، كأنما الكبرياءُ شيءٌ آخر غيرُ طبيعتها ، فهما تتهالكْ على مَن تحبّ ، وَجب أن يكون لهذا « الشيء الآخر » مَظهرُ امتناع أو مظهرُ تحيُّر ، أو مظهرُ اضطراب ، وإن كانت الطبيعةُ من وراء ذلك مندفِعة ماضية مصمِّمة .

ثم قال : « عن نفسـه » ليدُلّ على أنها لاتطمع فيه ، ولكن في طبيعته البشرية ، فهي تَعرِض ماتعرض لهذه الطبيعةِ وحدها ، وكأن الآيةَ مصرِّحةٌ في أدب سامٍ كلَّ السموّ ، منزَّه غايةَ التنزيه ، بما معناه : « إن المرأة بذلتْ كل ماتستطيع في إغوائه وتَصبّيه ، مقْبِلة عليه ومتدللة ومتبذلة ومُنْصَـبَّة من كلّ جهة ، بما في جسمها وجمالها على طبيعته البشرية ، وعارضـة كل ذلك عَرْض امرأة خلعتْ أوّل ماخلعتْ أمام عينيه ثوبَ المُلك » .

ثم قال : « وغلّقت الأبوابَ » ولم يقل « أغلقتْ » ، وهذا يُشعر أنها لما يئست ورأت منـه محاولةَ الانصراف ، أسرعتْ في ثورة نفسها مهتاجة تتخيّل القُفلَ الواحدَ أقفالا عِدّة ، وتجرى من باب إلى باب ، وتضطربُ يدُها في الأغلاق ، كأنما تحاول سدَّ الأبواب لاإغلاقَها فقط .

« وقالت : هَيْتَ لك » ومعناها في هذا الموقفِ أن اليأس قد دفع بهذه المرأة

إلى آخر حدوده ، فانتهت إلى حالة من الجنون بفكرتها الشهوانية ، ولم تعد لاملكةً ولا امرأة ، بل أنوثةً حيوانيةً صِرْفةً ، متكشفة مصرِّحة ، كما تكون أنثى الحيوان فى أشد اهتياجها وغَلَيانها .

هذه ثلاثةُ أطوار يترقّى بعضُها من بعض ، وفيها طبيعةُ الأنوثة نازلةً من أعلاها إلى أسفلها ؛ فإذا انتهت المرأةُ إلى نهايتها ولم يَبْقَ وراء ذلك شىء تستطيعه أو تعرضه ، بدأت من ثَمَّ عظَمةُ الرجولة السامية المتمكِّنةِ فى معانيها ، فقال يوسف : « مَعَاذَ الله » ثم قال : « إنه ربى أَحْسَنَ مَثْواى » ثم قال : « إنه لا يُفْلِحُ الظالمون » ؛ وهذه أسْمَى طريقةٍ إلى تنبيه ضمير المرأة فى المرأة ، إذ كان أساسُ ضميرها فى كل عصر هو اليقينَ بالله ، ومعرفةَ الجميل ، وكراهةَ الظلم ؛ ولكنَّ هذا التنبيهَ المترادفَ ثلاثَ مرات لم يكسر من نَزْوَتِها ، ولم يَفْثأ تلك الحِدَّة ، فإن حبَّها كان قد انحصر فى فكرةٍ واحدة اجتمعت بكلّ أسبابها فى زمنٍ فى مكانٍ فى رَجُل : فهى فكرةُ مُحْتَبَسَة كأن الأبوابَ مغلَّقةٌ عليها أيضا ؛ ولذا بقيتْ المرأة ثائرةً ثورةَ نفسِها . وهنا يعود الأدبُ الإلٰهىّ السامى إلى تعبيره المعجز فيقول : « لقد هَمَّتْ به » كأنما يُومىءُ بهذه العبارة إلى أنها ترامَتْ عليه ، وتعلَّقَتْ به ، والتجأت إلى وسيلتها الأخيرة ، وهى لَمْسُ الطبيعةِ بالطبيعة لإلقاء الجَمرةِ فى الهشيم ... !

جاءت العاشقةُ فى قضيتها ببرهان الشيطان الذى يَقْذِفُ به فى آخِر محاولته ، وهنا يقع ليوسفَ عليه السلام برهانُ ربِّه كما وقع لها هى برهانُ شيطانها ؛ فلولا برهانُ ربِّه لكان همّ بها . ولكان رجلا من البَشَر فى ضَعفه الطبيعىّ .

قال أبو محمد : وهٰهنا المعجزةُ الكبرى ، لأن الآية الكريمة تريد ألّا تنفى عن يوسفَ عليه السلام فُحولةَ الرجولة ، حتى لا يُظَنَّ به ، ثم هى تريد من ذلك أن يتعلّم الرجالُ ، وخاصّةً الشبانَ منهم ، كيف يتسامَوْن بهذه الرجولة فوق

الشهوات ، حتى فى الحالة التى هى نهاية قدرة الطبيعة : حالةِ مَلِكةٍ مطاعة فاتنة عاشقة مُخْتَلِية مُتعَرِّضة متكشِّفة متهالكة . هنا لا ينبغى أن ييأس الرجل ، فإن الوسيلة التى تجعله لا يرى شيئا من هذا — هى أن يرى برهانَ ربِّه .

وهذا البرهانُ يُؤَوِّله كلُّ إنسان بما شاء ، فهو كالمفتاح الذى يوضع فى الأقفال كلّها فيفُضُّها كلَّها ؛ فإذا مثَّل الرجلُ لنفسه فى تلك الساعة أنه هو وهذه المرأة منتَصِبان أمام الله يراهما ، وأن أمانىَّ القلب التى تهْجِس فيه ويظنها خافية ، إنما هى صوتٌ عالٍ يسمعه اللهُ ؛ وإذا تذكرَ أنه سيموت ويُقْبَر ، وفكَّر فيما يصنعُ الثرى فى جسمه هذا ، أو فكّر فى موقفه يوم تَشْهَدُ عليه أعضاؤه بما كان يعمل ، أو فكّر فى أن هذا الإثم الذى يقترِفُه الآن سيكون مَرْجِعُه عليه فى أخته أو ابنته — إذا فكّر فى هذا ونحوه رأى برهانَ ربِّه يُطالعه فجأة ، كما يكون السائرُ فى الطريق غافلا مندفعا إلى هاوية ، ثم ينظر فجأةً فيرى برهانَ عَيْنيه : أترونه يتردّى فى الهاوية حينئذ أم يقف دونها وينجو ؟ احفظوا هذه الكلمةَ الواحدة التى فيها أكثرُ الكلام ، وأكثرُ الموعظة ، وأكثرُ التربية ، والتى هى كالدّرْع فى المعركة بين الرجل والمرأة والشيطان — كلمةَ : « رأى برهانَ ربِّه » .

* * *

قال عبد الرحمن بن عبد الله وهو يتحدث إلى صاحبه سُهَيْل بن عبد الرحمن : ولَزِمْتُ الإمامَ بعد ذلك ، وأجْمَعْتُ أن أتشبَّهَ به وأسلكَ فى طريقه من الزهد والمعرفة ؛ ثم رجعتُ إلى المدينة وقد حفظتُ الرجلَ فى نفسى كما أحفظ الكلام ، وجعلتُ شِعارى فى كل نَزْعة من نَزَعات النفس هذه الكلمةَ العظيمة : « رأى برهانَ ربِّه » ؛ فما ألممتُ بإثم قَطّ ، ولا دانيْتُ معصية ، ولا رَهِقَنى مَطْلَبٌ من مطالب النفس إلى يوم الناس هذا ، وأرجو أن يَعْصِمَنى الله فيما بقى ؛ فإن هذه

الكلمةَ ليست كلمة ، وإنما هى كأمر من السماء تحمله ، تمرُّ به آمِنا على كل مَعاصى الأرض . فما يَعْترِضك شىء منها ، كأن معك خاتَمَ المَلك تجوزُ به .

قال سُهيل : فلهذا لقبَكَ أهل المدينة « بالقَسّ » : لعبادتك وزهدك وعُزُوفك عن النساء ، وقايلٌ لك — واللهِ — يا أبا عبد الله ، فلو قالوا : ما هذا بَشَراً إن هذا إلا مَلكٌ ، لصدقوا !

✡ ✡ ✡

قالت سَلاَّمة جاريةُ سُهيل بن عبدالرحمن ، المُغَنّيةُ ، الحاذقةُ الظريفةُ ، الجميلةُ الفاتنةُ ، الشاعرةُ القارئة ، المؤرخةُ المتحدثة ، التى لم يجتمع فى امرأة مثلِها حُسنُ وجهها ، وحُسنُ غِنائها ، وحُسنُ شِعرها — قالت : واشترانى أمير المؤمنين يزيدُ بن عبد الملك بعشرين ألفَ دينار (عشرة آلاف جنيه) وكان يقول : ما يُقِرُّ عينى ما أُوتِيتُ من الخلافة حتى أشترىَ سلاّمة ؛ ثم قال حين ملكنى : ماشاء بعدُ من أمر الدنيا فليَفُتْنى ... قالت : فلما عُرِضتُ عليه أمرنى أن أُغنِّيه ، وكنت كالمخبولةِ من حبّ عبد الرحمن القَسّ ، حبًّا أراه فالِقا كَبِدى ، آتيا على حُشاشتى ؛ فذهب عنى والله كلُّ ما أحفظه من أصوات الغناء ، كما يُمسَح اللوحُ مما كُتِبَ فيه ، وأُنسِيتُ الخليفة وأنا بين يديه ، ولم أرَ إلا عبدَ الرحمن ومجلسَه منى يوم سألنى أن أُغنّيه بشعرِه فِىَّ ، وقَوْلى له يومئذ : حُبا وكرامة وعَزازة لوجهك الجميل ! وتناولتُ العودَ وجسسته بقلبى قبل يدى ، وضربتُ عليه كأنى أضرب لعبد الرحمن ، بيدٍ أرى فيها عقلا يحتال حيلةَ امرأة عاشقة : ثم اندفعتُ أغنى بشعر حبيبى :

إن التى طَرقَتْك بين ركائب ... تمشى بِمِزْهَرِها وأنتَ حَرامُ
لِتَصِيدَ قلبكَ ، أو جزاءَ مودَّة ... إنَّ الرفيقَ له عليكَ ذِمامُ
باتت تُعَلِّلُنا وتَحْسِبُ أننا ... فى ذاك أيقاظٌ ، ونحن نيامُ

وغنيته والله غناءً والهة ذاهبةِ العقل كاسفةِ البال ، وردّدْته كما رددته لعبد الرحمن ، وأنا إذ ذاك بين يديه كالوردة أوّلَ ما تتفتّح ، وأنا أنظر إليه وأتبين لصوتى فى مِسْمعيه صوتاً آخر ... وقطّعته ذلك التقطيعَ ، ومدّدته ذلك التمديدَ ، وصِحت فيه صيْحةَ قلبي ونفسي وجوارحي كلّها ، كما غنيتُ عبدَ الرحمن ، لكيما أؤدى إلى قلبه المعنى الذى فى اللفظ والمعنى الذى فى النفس جميعاً ، ولكيما أُسْكِرَه — وهو الزاهدُ العابد — سكرَ الخمر بشىء غيرِ الخمر !

وما أفقتُ من هذه الغَشْيَةِ إلا حين قطعْتُ الصوت ، ، فإذا الخليفةُ كأنما يسمع من قلبي لا من فمى وقد زَلْزَلَهُ الطرب ، وما خَفِيَ عليَّ أنه رجلٌ قد أَلَمَّ بشأن امرأة ، وخشِيتُ أن أكونَ قد افْتَضَحْتُ عنده ؛ ولكنْ غلبتْه شهوتُه ، وكان جَسَداً بما فيه يريد جسداً لِما فيه ؛ فمِنْ ثَمَّ لم يُنْكِرْ ولم يتغيَّر .

واشترانى وصِرْتُ إليه ، فلما خَلَوْنا سألنى أن أغنّيَه فلم أشعر إلا وأنا أغنيه بشعر عبد الرحمن :

ألا قلْ لهذا القلبِ : هل أنت مُبْصِرُ وهل أنتَ عن سلّامةَ اليومَ مُقْصِرُ
إذا أخذَتْ فى الصوتِ كاد جليسُها يطيرُ إليها قلبُه حين تنظرُ

وأدّيتُه على ما كان يستحسنه عبدُ الرحمن ويطربُ له ، إذ يسمعُ فيه همْساً من بكائى ، ولهفةً مما أجدُ به ، وحسرة على أنه ينسكبُ فى قلبي وهو يَصُدُّ عنى ويتحامانى ، وما غنَّيتُ : « وهل أنتَ عن سلّامةَ اليومَ مُقْصِرُ » إلا فى صوت تنوح به سلّامةُ على نفسها وتندُب وتتفجّع !

فقال لى يزيد وقد فَضَحْتُ نفسى عنده فضيحة مكشوفة : ياحبيبتى ، مَن قائلُ هذا الشعر ؟

قلت : أحدّثك بالقصة ياأمير المؤمنين ؟

قال : حدّثينى .

قلت : هو عبد الرحمن بن أبى عمّار الذى يلقّبونه بالقَسّ لعبادته ونُسكه، وهو فى المدينة يُشبه عطاءَ بن أبى رَبَاح ، وكان صديقا لمولاى سُهَيْل ، فمرَّ بدارنا يوما وأنا أغنى ، فوقف يسمع ، ودخل علينا « الأحْوَصُ » (*) ، فقال : وَيْحَكُمْ ! الكأنّ الملائكةَ واللهِ تتلو مزاميرَها بحَلْق سلاَّمة ، فهذا عبدُ الرحمن القَسّ قد شُغِل بما يَسمع منها ، وهو واقفٌ خارجَ الدار . فتسارع مولاى فخرج إليه ودعاه إلى أن يدخل فيسمعَ منّى ، فأبَى ! فقال له : أما عَلِمْتَ أن عبد الله بن جعفر ، وهو مَنْ هو فى محلّه وبيتِه وعلمِه ، قد مَشَى إلى جميلة أستاذَةِ سلاَّمة حين عَلِمَ أنها آلَتْ أَلِيَّةً ألاّ تُغنّى أحداً إلا فى منزلها ؛ فجاءها فسمع منها وقد هيّأتْ له مجلسها ، وجعلتْ على رءوس جواريها شعوراً مُسْدَلةً كالعناقيد ، وألبستهنّ أنواع الثياب المصبَّغة ، ووضعتْ فوق الشعور التيجان ، وزَيّنتهنّ بأنواع الحِلَى ، وقامتْ هى على رأسه ، وقام الجوارى صَفَّيْن بين أيديه ، حتى أقسم عليها فجلستْ غير بعيد ، وأمَرَتِ الجوارى فجلَسْن ومع كلّ جارية عودُها ، ثم ضربْن جميعا وغنّتْ عليهن ، وغنّى الجوارى على غنائها ، فقال عبد الله : ماظننتُ أن مثل هذا يكون ! ...

... وأنا أُقْعِدُكَ فى مكانٍ تسمع مِن سلاَّمة ولا تراها ، إن كنتَ عند نفسك بالمنزلة التى لم يبلغْها عبدُ الله بن جعفر !

قالت سلاّمة : وكانت هذه والله يا أمير المؤمنين ـ رُقْيةً من رُقَى إبليس ؛ فقال عبد الرحمن : أمّا هـذا فنعَم . ودخل الدارَ وجلس حيث يسمع ، ثم أمرنى مولاى فخرجتُ إليه خروجَ القمرِ مَشْبُوبا من سحابةٍ كانت تغطّيه ؛ فأما هو فما رآنى حتى عَلِقْتُ بقلبه ، وسبَّح طويلا طويلا ؛ وأما أنا فما رأيتُه حتى رأيتُ الجنةَ والملائكةَ ، ومُتُّ عن الدنيا وانتقلتُ إليه وحده . . .

(*) هو الأحوص الشاعر المعروف

✡ ✡ ✡

قالت سلاّمة: وافتَضَحتُ مرةً أخرى، فتنحنحَ يزيد... فضحكتُ وقلت: ياأمير المؤمنين، أُحدِّثك أم حَسبُك؟ قال: حدّثيني ويحَكِ! فوالله لوكنتِ في الجنة كما أنتِ لأعدْتِ قصةَ آدمَ مع واحدٍ واحدٍ من أهلها حتى يُطردُوا جميعا من حُسْنِها إلى حسنك! فما فعلَ القَسُّ ويحكِ؟

قلتُ: ياأمير المؤمنين، إنه يُدْعَى القسّ قبل أن يهوانى.

فقال يزيد: وهل عَجَبٌ وقد فتنتِه أن يَطردَه «البَطْريق»؟

قلت: بل العجَبُ وقد فتنْتُه أن يصير هو البطريق...!

فضحك يزيد وقال: إيهِ، ماأحسبُ الرجلَ إلا قد دُهِيَ منكِ بداهية! فحدثيني فقد رفعتُ الغَيْرة؛ إني والله ماأرى هذا الرجلَ في أمره وأمركِ إلا كالفحل من الإبل قد تُركَ من الركوب والعمل، ونُعِّمَ وسُمِّن للفِحْلةِ، فندَّ يوما، فذهب على وجهه، فأقحمَ في مَفازة، وأصاب مَرْتعا فتوحَّش واستأسد. وتبيَّن عليه أثرُ وحشيتِه. وأقبلَ إقبالَ الجِنِّ من قوة ونشاطٍ وبأسٍ شديد؛ فلما طال انفرادُه وتأبُّدُه عَرَضتْ له في البرّ ناقةٌ كانت قد ندّتْ من عَطَنها، وكانت فارِهةً جسيمةً قد انتهتْ سِمَنًا، وغطّاها الشحْمُ واللحم، فرآها البازلُ الصَّئُولُ، فهاجَ وصالَ وهَدَر، يَخبِطُ بيده ورِجْله، ويُسمَعُ لجَوْفِهِ دَوِيٌّ من الغلَيان، وإذا هي قد ألقتْ نفسَها بين يديه!

أما والله لوجعلَ الشيطانُ في يمينه رجلًا خلا قويا جميلا، وفي شماله امرأةً جميلةً عاشقةً تهواه؛ ثم تمطّى متدافِعا ومدّ ذراعيه فابتعدا، ثم تراجعَ متداخِلًا وضَمَّ ذراعيه فالتقيا: لكان هذا شأنَ مابينك وبين القَسّ!

قلت: لاوالله ياأمير المؤمنين؛ ماكان صاحبي في الرجال خَلاً ولا خمراً، وماكان الفحلَ إلا الناقةُ... وما أحسبُ الشيطان يعرف هذا الرجل، وهل

كان للشيطان عمل مع رجلٍ يقول : إنى أعرف دائما فكرتى ، وهى دائما فكرتى لا تتغيّر . ذاك رجل أساسُه كما يقول : « برهانُ ربّه » ولقد تصنّعْتُ له مرةً ياأميرَ المؤمنين ، وتشكّلتُ وتحلّيتُ وتبرّجتُ ؛ وحدّثتُ نفسى منه بكثير ، وقلت إنه رجلٌ قد غبرَ شبابُه فى وجودٍ فارغٍ من المرأة ، ثم وجد المرأة فىّ وحدى ؛ وغنّيته ياأمير المؤمنين غناءَ جوارحى كلّها ، وكنت له كأنى حريرٌ ناعم يَترَجْرَجُ ويُنشَرُ أمامه ويُطوى ... وجلستُ كالنائمةِ فى فراشها وقد خلا المجلسُ ، وكنتُ من كل ذلك بين يديه كالفاكهة الناضجة الحُلوةِ تقول لمن يراها : « كُلْنى ... ! »

قال يزيد : ويحكِ ! ويحك ! وبعد هذا ؟

قلت : بعد هذا ياأمير المؤمنين ـ وهو يهوانى الهوى البرْح ، ويعشقنى العشقَ المُضْنِى — لم يَر فى جمالى وفتنتى واستسلامى إلا أن الشيطانَ قد جاء يَرْشوه بالذهب . بالذهبِ الذى يتعامل به !

فضحك يزيد وقال : لا والله ، لقد عَرَض الشيطانُ منك ذهبَه ولؤلؤَه وجواهرَه كلَّها ؛ فكيف لعَمْرى لم يُفْلح ، وهو لو رشانى من هذا كلّه بدرهم لوجد أميرَ المؤمنين شاهدَ زور ... !

قلت : ولكنى لم أيأس ياأمير المؤمنين ، وقد أردتُ أن أظهرَ امرأةً فلم أُفلح ، وعملتُ أن أظْهرَ شيطانة فانخذلْتُ ، وجَهَدتُ أن يرى طبيعتى فلم يَرنى إلا بغير طبيعة ، وكلما حاولتُ أن أنزِل به عن سَكينته ووَقارِه رأيتُ فى عينيه مالا يتغير ، كنور النجم ؛ وكانت بعضُ نظراته والله كأنها عصا المؤدِّب ، وكأنه يرى فى جمالى حقيقةً من العبادة ، ويرى فى جسمى خُرافة الصنم ؛ فهو مُقبِل علىّ جميلة ، ولكنه مُنْصرِفٌ عنى امرأة ...

... لم أيأس على كلّ ذلك ياأمير المؤمنين ، فإن أوّلَ الحب يطلبُ آخرة أبدا

إلى أن يموت ، وكان يُكثِرُ من زيارتى ، بل كانت إلىّ الغَدْوَةُ والرَّوحةُ ، من حُبّه إياى وتعلقِه بى ؛ فواعدتُه يوما أن يجيءَ متى وارى الليلُ أهلَهُ لأغنّيه : « ألا قل لهذا القلب ... » وكنتُ لحَّنتُه ولم يسمعْه بعدُ ، ولبثتُ نهارى كلّه أستَرْوِحُ فى الهواء رائحةَ هذا الرجل مما أتلهَّفُ عليه ، وأتمثّل ظلامَ الليل كالطريق الممتدّ إلى شيء مخبوء أعلّل النفسَ به ؛ وبلغتُ ما أقدرُ عليه فى زينة نفسى وإصلاحِ شأنى وتشكّلتُ فى صُنوفٍ من الزهر ، وقلت لِلأجاهنّ وهى الوردةُ التى وضعتها بين نَهْدَىَّ : يا أختى ، اجْذِبى عينَه إليك ، حتى إذا وقَفَ نظرُه عليكِ فانزلى به قليلاً أو اصعدى به قليلاً ...

قال يزيد وهو كالمحموم : ثُمّ ثمّ ثمّ ؟

قلت : يا أمير المؤمنين ، ثم جاء مع الليل ، وإنّ المجلسَ لخَالٍ ما فيه غيرى وغيرُه ، بما أكابِدُ منه وما يُعانى منى ؛ فغنّيته أحرَّ غناءٍ وأشجاه ، وكان العاشقُ فيه يَطْرَبُ لصوتى ، ثم يَطْرَبُ الزاهدُ فيه من أنه استطاع أن يطرب ، كما يطيش الطفلُ ساعةَ ينطلقُ من حبس المؤدِّب .

وما كان يسوءنى إلا أنه يُمارِسُ فنَّ الزهدَ مُمارَسة ، كأنما أنا صُعوبةٌ إنسانيةٌ فهو يريد أن يغلبَها ، وهو يُجرب قُوى نفسِه وطبيعتِه عليها : أو كأنه يرانى خيالَ امرأة فى مرآة ، لا امرأةً ماثلةً له بهواها وشبابها وحسنها وفتنتها ، أو أنا عنده كالحوريّة من حُور الجنة فى خيالِ مَن هى ثوابُه : تكون معه وإنّ بينها وبينه من البعد ما بين الدنيا والآخرة ؛ فأجمعتُ أن أحطم المرآة ليرانى أنا نفسى لا خيالى ، واستنجدتُ كلَّ فنتى أن تجعله يفرُّ إلىّ كلما حاول أن يفرَّ منى .

فلما ظننتُنى ملأتُ عينيه وأذنيه ونفسَه ، وانصببتُ إليه من كل جوارحه ، وهِجتُ التَّيار الذى فى دمه ودفعتُه دَفْعا — قلتُ له : « أنت ياخليلى شيء

لا يُعرَف ، أنت شيء مُتَلَفِّتٌ بإنسان ؛ ومَن التي تعشق ثوب رجل ليس فيه لابسُه ؟ »

ورأيته والله يطوفُ عند ذلك بفكره ، كما أطوّفُ أنا بفكري حول المعنى الذي أردتُه . فملتُ إليه وقلت (*) : « أنا والله أحبك »

فقال : « وأنا والله الذي لا إله إلا هو ... »

قلت : « وأشتهي أن أعانقَك وأقبلك ! »

قال : « وأنا والله ! »

قلت : « فما يمنعك ؟ فوالله إن الموضع لَخالٍ ! »

قال : يمنعني قولُ الله عزَّ وجلّ : « الأخلَّاءُ يومئذٍ بعضهُم لبعضٍ عَدوٌّ إلى المتقين » فأكره أن تَحول مودتي لكِ عداوةً يوم القيامة ! .

إني أرى « برهانَ ربِّي » ياحبيبتي ، وهو يمنعني أن أكون من سيئاتكِ وأن تكوني من سيئاتي ، ولو أحببتُ الأنثى لو جدتُكِ في كل أنثى ، ولكني أحب ما فيكِ أنتِ بخاصَّتِك ، وهو الذي لا أعرفه ولا أنتِ تعرفينه ، هو معناكِ ياسلاّمة لا شخصُك .

ثم قام وهو يبكي ، فما عاد بعد ذلك يا أمير المؤمنين ، ما عاد بعد ذلك ! وترك لي ندامتي وكلامَ دموعه ؛ وليتني لم أفعل ، ليتني لم أفعل ! فقد رأى أن المرأة — في بعض حالاتها — تكشف وجهها للرجل ، وكأنها لم تُلق حجابها ، بل ألقَت ثيابها ... ...

(*) هذا نص كلامهما كما رواه صاحب الأغاني — إلى قوله : «يوم القيامة» ، وهو كل القصة في كتابه

قصة زواج[1]

وفلسفة المهر

قال رسولُ عبد الملك: ويحَك يا أبا محمد! لكأن دَمَك والله من عَدُوِّك، فهو يفور بك لتَلِجَّ في العناد فتُقتَل؛ وكأني بك والله بين سَبُعَيْنِ قد فَغَرا عليك، هذا عن يمينك وهذا عن يسارك، ماتفرُّ من حَتْف إلا إلى حتف، ولا ترحمك الأنيابُ إلا بمخاليبها.

هٰهنا هِشامُ بنُ إسماعيل عاملُ أمير المؤمنين، إنْ دخلتْه الرحمةُ لك استوثق منك في الحديد، ورَمَى بك إلى دِمَشق؛ وهناك أمير المؤمنين، وما هو والله إلا أن يُطعِم لحمَك السيفَ يَعَضُّ بك عضَّ الحية في أنيابها السمّ؛ وكأني بهذا الجَنْبِ مصروعا لمَضْجَعه، وبهذا الوجه مُضَرَّجا بدمائه، وبهذه اللحية مُعفَّرةً بترابها، وبهذا الرأس مُحتزًّا في يد «أبي الزَّعَيْزِعة» جلّادِ أمير المؤمنين، يلقيه من سيفه رَمْيَ الغُصن بالثمرة قد ثقلتْ عليه.

وأنت ياسعيد فقيهُ أهل المدينة وعالمُها وزاهدُها، وقد عَلِم أميرُ المؤمنين أن عبد الله بن عُمر قال فيك لأصحابه: «لو رأى هذا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لَسَرَّه»، فإن لم تَكرُمْ عليك نفسُك فلْيَكرُمْ على نفسك المسلمون؛ إنك إن هلكتَ رَجَعَ الفِقْهُ في جميع الأمصار إلى المَوالي؛ ففقيهُ مكةَ عطاء، وفقيه اليمن طاووس، وفقيه اليمامة يحي بن أبي كثير، وفقيهُ البصرة الحسن، وفقيه الكوفة إبراهيمُ النَّخعيّ، وفقيهُ الشام مكحول، وفقيه خراسانَ عطاءالخراساني؛ وإنما يتحدث الناس أن المدينة من دون الأمصارِ قد حرسها الله بفقيهها القرشيِّ

---

(١) انظر ص ٢٠٤ - ٢١١ «حياة الرافعي»

العربىّ «أبى محمد بن المُسيَّب» كرامةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقد علم أهلُ الأرض أنك حَججتَ نيفا وثلاثين حَجة ، وما فاتتْك التكبيرةُ الأولى فى المسجد منذ أربعين سنة ، وما قمتَ إلا فى موضعك من الصف الأول ، فلم تنظر قطُّ إلى قفا رجل فى الصلاة ، ولا وجد الشيطانُ ما يَعرِضُ لك من قِبَلِه فى صلاتك ولا قَفا رجُل ؛ فاللهَ اللهَ ياأبا محمد ، إنى والله ما أغشّك فى النصيحة ، ولاأخدعك عن الرأى ، ولا أنظر لك إلا خيرَ ما أنظر لنفسى ؛ وإن عبد الملك ابنَ مَرْوانَ مَنْ عَلِمتَ : رجلٌ قد عمّ الناس ترغيبُه وترهيبُه ، فهو آخذُك على ماتكره إن لم تأخذه أنت على ما يُحبّ ؛ وإنه والله ياأبا محمد ، ما طَلَبَ إليك أميرُ المؤمنين إلا وأنت عنده الأعلى ، ولا بعثنى إليك إلا وكأنه يسعَى بين يديك ؛ رِعاية لمنزلتك عنده ، وإكباراً لحقّك عليه ؛ وما أرسلنى أخطُب إليك ابنَتك لوَلِىِّ عهده إلا وهو يبتذلُ نفسَه إليك ابتذالا ليَصِلَ بك رَحِمَه ، ويُوَثّقَ آصِرتَه ؛ وإن يكن الله قد أغناك أن تنتفع به وبمُلْكه وَرَعا وزَهادة ، فما أحوجَ أهلَ مدينةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينتفعوا بك عنده ، وأن يكونوا أصهارَ «الوليد» فيَسْتدْفِعُوا شَرًّا ما به عنهم غنى ، ويجتلبوا خيراً مابهم غنى عنه ، ولستَ تدرى مايكون من مَصادر الأمور ومواردها ؛ وإنك والله إن لَججتَ فى عنادك وأصررْت أن تردّنى إليه خائبا ، لَتهِيجَنَّ قَرَمَ سيوف الشام الى هذه اللحوم، ولَحْمُكَ يومئذ من أطيبها ، ولأمير المؤمنين تارتان : لينٌ وشدة ؛ وأنا إليك رسولُ الأولى ، فلا تجعلْنى رسولَ الثانية . . .

* * *

وكان أبو محمد يسمع هذا الكلام وكأن الكلام لا يَخلُص إلى نفسه إلا بعد أن تتساقَط معانيه فى الأرض ، هَيبة منه وفرقا من إقدامها عليه ؛ وقد لان رسولُ عبد الملك فى دَهائه حتى ظن عند نفسه أنه ساغ من الرجل مَساغَ الماء

العذبِ فى الحلق الظامئ ، واشتدَّ فى وَعيده حتى مايشكّ أنه قد سقاه ماءً حميا فقطَّع أمعاءَه ؛ والرجلُ فى كل ذلك من فوقه كالسماء فوق الأرض : لو تحوَّل الناس جميعا كنَّاسين يُثيرون من غبار هذه على تلك ، لما كان مرجعُ الغبار إلا عليهم ، وبقيت السماءُ صاحكةً صافيةً تتلألأ .

وقلَّب الرسولُ نظرَه فى وجه الشيخ ، فإذا هو هو ، ليس فيه معنى رغبةٍ ولا رهبة ، كأن لم يَجعلْ له الأرضَ ذهبا تحت قدميه فى حالة ، ولم يملأ الجوَّ سيوفا على رأسه فى الحالة الأخرى ؛ وأيقن أنه من الشيخ العظيم ، كالصبيّ الغِرّ قد رأى الطائرَ فى أعلى الشجرة فطمِعَ فيه ، فجاء من تحتِها يناديه : أنِ أنزلْ إلىّ حتى آخذَك وألعبَ بك ...

وبعد قليل تكلم أبو محمد فقال :

ياهذا ، أمّا أنا فقد سمعتُ ، وأما أنت فقد رأيتَ ، وقد روينا أن هذه الدنيا لا تَعْدِلُ عند الله جَناح بعوضة ، فانظر ماجئتنى أنت به ، وقسه إلى هذه الدنيا كلّها ، فكمْ ـ رحمك الله ـ تكون قد قَسَمْتَ لى من جناح البعوضة . . ؟ ولقد دُعيتُ من قبلُ إلى نيفٍ وثلاثين ألفا لآخُذَها ، فقلت : لاحاجةَ لى فيها ولا فى بنى مرْوان ، حتى ألقى اللهَ فيحكمَ بينى وبينهم . وهأنذا اليوم أُدعى إلى أضعافها وإلى المزيد معها ؛ أفأقبِضُ يدى عن جمْرة ثم أمدّها لأملأَها جمْراً ؟ لا والله مارغبَ عبدُ الملك لابنه فى ابنتى ، ولكنه رجلٌ من سياسته إلصاقُ الحاجة بالناس ليجعلَها مَقَادةً لهم فيُصَرِّفَهُمْ بها ؛ وقد أعجزه أن أُبايعَه ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن بيعتين ، وما عبدُ الملك عندنا إلا باطل كابن الزُّبير ، ولا ابن الزبير إلا باطل كعبد الملك ، فانظر فإنك ماجئت لابنتى وابنِه ، ولكن جئت تخطبنى أنا لبيعته ...

قال الرسول : أيها الشيخ ، دع عنك البيعة وحديثها ، ولكن مَنْ عسى

أن تجد لكريمتك خيراً من هذا الذى ساقه الله إليك ؟ إنك لراعٍ وإنها لرعيّة ، وستُسأل عنها : وما كان الظنُّ بك أن تُسىء رِعْيتها وتبخسَ حقّها وأن تَعْضِلَهَا وقد خطبها فارسُ بنى مروان ، وإن لم يكن فارسَهم فهو ولىّ عهد المسلمين ، وإن لم يكن هذا ولا ذاك فهو الوليدُ بن أمير المؤمنين ؛ وأدنى الثلاثِ أرفعُ الشرف ؛ فكيف بهنّ جميعاً ، وهنّ جميعاً فى الوليد ؟

قال الشيخ . أمّا إنى مسئول عن ابنتى ، فما رغبتُ عن صاحبك إلا لأنى مسئول عن ابنتى ، وقد علمتَ أنت أن الله يسألنى عنها فى يومٍ لعل أمير المؤمنين وابنَ أمير المؤمنين وألفافَهما لا يكونون فيه إلا وراء عبيدها وأوباشِها ودُعّارِها وفجّارها (*) ؛ يخرجون من حساب الفَجَرَةِ إلى حساب القَتَلَة ، ومن حساب هؤلاء إلى الحساب على السرقة والغصْب . إلى حساب أهلِ البغْى ، الى حساب التفريط فى حقوق المسلمين ؛ ويخف يومئذ عبيدها وأوباشُها ودعّارُها وفجّارُها فى زِحام الحشر ، ويمشى أمير المؤمنين وابنُ أمير المؤمنين ومن اتصل بهما وعليهم أمثالُ الجبالِ من أثقال الذنوب وحقوقِ العباد

فهذا ما نظرت فى حسن الرعاية لابنتى ؛ لو لم أضِنّ بها على أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين لأوْبقْتُ نفسى ؛ لا والله ما بينى وبينكم عمل ، وقد فرغْتُ مما على الأرض فلا يمرُّ السيفُ منى فى لحم حىّ !

✡ ✡ ✡

ولما كان غداة غد ، جلس الشيخ فى حلقته فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم للحديث والتأويل ؛ فسأل رجلٌ من عُرض المجالس فقال : ياأبامحمد ، إن رجلا يُلاحِينى فى صَداق ابنته ويكلّفنى ما لا أطيق ؛ فما أكثرُ مابلغ إليه صداقُ أزواجِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وصداقُ بناته ؟

(*) الضمير : راجع إلى الدنيا

قال الشيخ : رَوَينا أن عمر رضى الله عنه كان ينهى عن المغالاة فى الصداق ويقول : « ماتزوَّج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ولا زَوّج بناتِه بأكثر من أربعمائة درهم (*) ، ولو كانت المغالاة بمهور النساء مَكْرمةً اسبق إليها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم .

ورَوَيْنا عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خيرُ النساء أحسنُهنّ وجوهاً وأرخصُهنّ مُهوراً . »

فصاح السائل : يرحمك الله ياأبا محمد ، كيف يأتى أن تكونَ المرأة الحسناءُ رخيصةَ المهر ، وحُسنُها هو يُغلِيها على الناس : تَكْثُر رغبتهم فيها فيتنافسون عليها ؟

قال الشيخ : انظر كيف قلت ! أهم يُساومون فى بهيمةٍ لا تَعقل ، وليس لها من أمرها شىء إلا أنها بِضاعةٌ من مطامع صاحبها يُغْليها على مطامع الناس ؟ إنما أراد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أنّ خير النساء من كانت على جمال وجهها فى أخلاق كجمال وجهها ، وكان عقلُها جمالا ثالثا : فهذه إن أصابت الرجلَ الكُفء ، يَسَّرَتْ عليه ، ثم يسَّرت ، ثم يسَّرت ؛ إذ تعتبر نفسَها إنسانا يريد إنسانا ، لامتاعا يطلب شاريا ؛ وهذه لايكون رخصُ القيمة فى مَهرها إلا دليلا على ارتفاع القيمة فى عقلها ودينها ؛ أما الحمقاء فجمالُها يأبى إلا مضاعفةَ الثمن لحسنها ، أىْ لحُمْقها ؟ وهى بهذا المعنى من شِرار النساء ، وليست من خيارهن .

ولقد تزوج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعضَ نسائه على عشرة دراهم وأثاثِ بيت ، وكان الأثاثُ : رحى يد ، وجَرَّةَ ماء ، ووِسادة من أدَم حشْوُها ليف . وأوْلَم على بعض نسائه بِمُدَّين من شعير ، وعلى أخرى بمدَّين من تمر

(*) الدرهم : خمسة قروش

ومدّين من سَوِيق . وما كان به صلى الله عليه وسلم الفقرُ ، ولكنه يَشْرَعُ بسنّتِه ليُعلِّم الناسَ من عمله أن المرأة للرجل نَفْسٌ لِنَفْسٍ ، لامتاعٌ لشاريه ؛ والمتاع يُقوَّم بما بُذِلَ فيه إنْ غاليا وإن رخيصا ، ولكن الرجلَ يُقوَّم عند المرأة بما يكون منه ؛ فمهرها الصحيحُ ليس هذا الذى تأخذه قبل أن تُحْمَل إلى داره ، ولكنه الذى تجده منه بعد أن تُحْمَلَ إلى داره ؛ مهْرُها معاملتُها ، تأخذ منه يوما فيوما ، فلا تزال بذلك عَروسا على نفْس رجُلِها مادامت فى معاشرته ؛ أما ذلك الصداقُ من الذهب والفضة ، فهو صداقُ العروس الداخلةِ على الجسم لاعلى النَّفْس ؛ أفلا تراه كالجسم يهلك ويبْلى ؟ أفلا ترى هذه الغاليةَ — إن لم تجد النفْس فى رجُلها — قد تكون عروسَ اليوم ومطلَّقةَ الغد ؟ !

وما الصداقُ فى قليله وكثيره إلا كالإيماء إلى الرجولة وقدْرتها : فهو إيماء ، ولكنّ الرجلَ قبْلُ . إن كل امرئ يستطيع أن يحمل سيفا ، والسيفُ إيماء إلى القوة ، غيرأنه ليس كل ذوى السيوف سواءً، وقد يحمل الجبانُ فى كل يدٍ سيفا ، ويملك فى داره مائة سيف ؛ فهو إيماء ، ولكنَّ البطلَ قبْلُ ، ولكن البطل قَبْل !

مائة سيفٍ يمْهَر بها الجبانُ قوَّتَه الخائبة ، لاتغْنِي قوّتَه شيئا ، ولكنها كالتدليس على من كان جبانا مثله ؛ ويُوشِك أن يكونَ المهر الغالى كالتدليس على الناس وعلَى المرأة ، كى لاتعلمَ ولا يعلم الناس أنه ثمنُ خيبتها ؛ فلو عقلت المرأة لباهت النساءَ بيُسْرِ مهرها ، فإنها بذلك تكون قد تركت عقلها يعمل عمله ، وكَفَّتْ حماقتَها أن تُفْسد عليه .

فصاح رجلٌ فى المجلس : أيها الشيخ ، أفى هذا من دليل أو أثر ؟

قال الشيخ : نعم ؛ أمّا من كتاب الله فقد قال الله تعالى : « خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدةٍ وَجَعَلَ مِنها زَوْجَها . » فهى زَوْجُهُ حين تجده هو لاحين تجدُ مالَه ؛ وهى زوجه حين تُتَمِّمه لا حين تنقصه ، وحين تلائمه لا حين تختلفُ عليه ؛ فمصلحة

المرأة زوجةً مايجعلها من زوجها ، فيكونان معًا كالنَّفس الواحدة ، على ماترى للعضو من جسمه ؛ يريد من جسمه الحياةَ لاغيرها .

وأما من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روينا : « إذا أتاكم مَنْ تَرْضَوْن دِينَه وأمانتَه فزوِّجوه ؛ إلاَّ تفعلوا تكنْ فتنةٌ فى الأرض وفساد كبير . »

فقد اشترط الدينَ ، على أن يكون مَرْضيا ، لاأىَّ الدينِ كان ؛ ثم اشترط الأمانةَ ، وهى مظهر الدين كله بجميع حسناته ؛ وأيسرُها أن يكون الرجلُ للمرأة أمينا ، وعلى حقوقها أمينا ، وفى معاملتها أمينا ؛ فلا يبخسُها ولا يُعْنِتُها ، ولا يُسىء إليها ؛ لأن كل ذلك ثَلْمٌ فى أمانته ؛ فإن ردَّتْ المرأة مَنْ هذه حالُه وصِفتُه من أجل المهر ـ تقدَّم إليها بالمهر من ليست هذه حالَه وصفتَه ؛ فوقعت الفتنة ، وفسدت المرأة بالرجل وفسد هُو بها وفسد النسلُ بهما جميعا ، وأُهمِلَ من لايملك ، وتعنَّستْ من لاتجد ، ويرجع المهرُ الذى هو سببُ الزواج ، سببا فى منعه ، ويتقاربُ النساءُ والرجالُ على رغم المهرِ والدينِ والأمانة ؛ فيقع معنى الزواج ، ويبقى المعطَّل منه هو اللفظ والشرع .

هل علمَت المرأة أنها لاتدخل بيتَ رجلها إلا لتجاهدَ فيه جهادَها ، وتبلوَ فيه بلاءَها ؟ وهل يقوم مالُ الدنيا بحقِّها فيما تعملُ ، ما تجاهد وهى أم الحياة ومُنْشِئَتُها وحافظتُها ؟ فأين يكون موضعُ المال ومكانُ التَّفرقةِ فى كثيره وقليله ؛ والمالُ كلّه دون حقِّها ؟ .

ولن يتفاوتَ الناس بالمال تختلف درجاتهم به ، وتكون مراتبهم على مقداره ، تكثُربه مرة وتقل مرة ـ إلا إذا فسد الزمان ، وبطلت قضيةُ العقل ، وتعطَّل مُوجِبُ الشرع ، وأصبحت السَّجايا تتحوَّل ، يملكها من يملكُ المال ، ويَخسرها من يخسره ؛ فيكون الدِّين على النفوس كالدَّخيل المزاحم لموضعه ، والمتَدَلِّى فى غير حقه ؛ وبهذا يرجع باطل الغَنىِّ دِينا يتعاملُ الناسُ عليه ، ودينُ

الفقير بَهْرَجًا لا يروجُ عند أحد ؛ وليس هذا من ديننا ، دينِ النفس والخلق ؛ وإنّ ألف بعير يقتنوها الرجلُ خالصةً عليه، ثابتةً له ، لا تزيد فى منزلة دينه قدْر نملة ولا مادونها . والحجران : الذهبُ والفضة ، قد يكون شعاعُهما فى هذه الدنيا أضوأَ من شمسها وقمرها ولكنهما فى نور النفس المؤمنة كحصاتين يأخذهما الرجلُ من تحت قدميه ، ويذهب يزعم لك أنهما فى قدرِ الشمس والقمر .

وهلاكُ الناس إنما يُقْضَى بمحاولتهم أن يكونوا أناسا بعيوبهم وذنوبهم ؛ فهذا هو الإنسانُ المدْبِرُ عن الله وعن نفسه وعن جنسه ؛ لا يكون أبوه أبًا فى عطفه ، ولا أمه أما فى محبتها ، ولا ابنُه ابنًا فى برِه ، ولا زوجتُه زوجةً فى وفائها ؛ وإنما يكونون له مَهالِكَ ، كما روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يأتى على الناس زمانٌ يكون هلاكُ الرجل على يد زوجته وأبويه وولَده ؛ يعيّرونه بالفقر ، ويكلّفونه مالا يُطيق : فيدخلُ المَداخلَ التى يذهبُ فيها دينُه فيَهلِك . »

✡ ✡ ✡

وصاح المؤذن ، فقطع الشيخُ مجلسه وقام إلى الصلاة ، ثم خرج إلى داره ، فتلقتْه ابنتُه وعلى وجهها مثلُ نوره ، قالت : يا أبت ، كنت أتلو الساعة قوله تعالى : « رَبَّنا آتِنا فى الدنيا حسنةً وفى الآخرة حسنة . » فما حَسَنةُ الدنيا ؟ قال : يا بُنيَّة ، هى التى تَصلُح أن تُذْكَرَ مع حسنة الآخرة ، وما أراها للرجل إلا الزوجةَ الصالحةَ ، ولا المرأة . . .

وطُرِق الباب ، فذهب الشيخ يفتح ، فإذا الطارق (عبد الله بنُ أبى وَدَاعة) ؛ وكان يجالسه ويأخذ عنه ويلزم حَلقتَه ، ولكنه فقده أياما ؛ فدخل فجلس ؛ قال الشيخ : « أين كنت ؟ »

قال : « تُوفّيَتْ أهلى فاشتغلتُ بها . »

قال الشيخ : « هلّا أخبرتَنا فشهدناها ! » ثم أخذ يُفيض فى الكلام عن

الدنيا والآخرة ؛ وشعر ابن أبي وداعة أن القبر مايزال فى قلبه حتى فى مجلس الشيخ ، فأراد أن يقوم ؛ فقال (سعيد) : « هل استحدثْتَ امرأةً غيرَها ؟ »

قال : « يرحمك الله ، أين نحن من الدنيا اليوم ، ومَن يُزَوِّجنى وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة ؟ »

قال الشيخ : « أنا .... »

* * *

أنا ، أنا ، أنا ... دوَّى الجوُّ بهذه الكلمة فى أذن طالب العلم الفقير ، فحسب كأن الملائكةَ تُنشد نشيداً فى تسبيح الله يَطِنُّ لحنُه : « أنا ، أنا ، أنا ... »

وخرجت الكلمة من فم الشيخ ومن السماء لهذا المسكين فى وقت واحد ، وكأنها كلمةٌ زوّجتْه إحدى الحُور العين .

فلما أفاق من غَشْيَةِ أُذنِه ... قال : « وتَفعَل ! »

قال سعيد : « نعم » ! وفسر (نعم) بأحسنِ تفسيرها وأبلغِه ؛ فقال : قم فادعُ لى نفراً من الأنصار . فلما جاءوا حمد اللهَ وصلى عَلَى النبى صلى الله عليه وسلم ، وزوّجه علَى ثلاثة دراهم (خمسة عشر قرشا) .

ثلاثة دراهم مهرُ الزوجة التى أرسل يخطبها الخليفة العظيم لولى عهده بثقلها ذهبا لو شاءت !

وغشَّى الفرحُ هذه المرة عينى الرجل وأذنيه ، فإذا هو يسمعُ نشيدَ الملائكة يطِنُّ لحنُه : « أنا ، أنا ، أنا ... »

ولم يشعر أنه على الأرض ، فقام يطير ، وليس يدرى من فرحه مايصنع ، وكأنه فى يومٍ جاءه من غير هذه الدنيا يتعرَّفُ إليها بهذا الصوتِ الذى لايزال يطِنُّ فى أذنيه : « أنا ، أنا ، أنا ... »

وصار إلى منزله وجعل يفكِّر : مِمَّن يأخذ ؟ مِمَّن يستدين ؟ فظهرت له الأرضُ

خَلاءً من الإنسان ، وليس فيها إلا الرجلُ الواحد الذى يضطرب صوته فى أذنيه : « أنا ، أنا ، أنا ... »

وصلى المغربَ وكان صائما ، ثم قام فأسرج ، فإذا سراجه الخافت الضئيلُ يسطع لعينيه سطوع القمر ، وكأن فى نوره وجهَ عَروسٍ تقول له : « أنا ، أنا ، أنا ... »

وقدّم عَشاءَه ليُفطر ، وكان خبزًا وزيتا ، فإذا البابُ يُقرع ؛ قال : من هذا ؟ قال الطارق : سعيد ...

سعيد ؟ سعيد ! من سعيد ؟ أهو أبو عثمان ؟ أبو على ؟ أبو الحسن ؟ فكّر الرجل فى كل من اسمُه سعيد إلا سعيدَ بن المسيّب ؛ إلا الذى قال له : « أنا ... »

لم يخالجه أن يكونَ هو الطارق ، فإن هذا الإمام لم يَطْرق بابَ أحدٍ قَطّ ، ولم يُرَ منذ أربعين سنة إلا بين داره والمسجد .

ثم خرج إليه ، فإذا به سعيدُ بن المسيَّب ، فلم تأخذه عينُه حتى رَجعَ القبرُ فهَبَط فجأة بظلامه وأمواتِه فى قلب المسكين ، وظن أن الشيخ قد بدا له فندم ، فجاءه للطلاق قبل أن يشيعَ الخبر ، ويتعذّرَ إصلاحُ الغلطة ! فقال : « يا أبا محمد ، لو ... لو ... لو أرسلتَ إلىَّ لأتيتُك ! »

قال الشيخ : « لأنت أحقُّ أن تُؤْتَى » .

فما صكّت الكلمةُ سمعَ المسكين حتى أبْلَس الوجودُ فى نظره ، وغشِىَ الدنيا صمتٌ كصمت الموت ، وأحسّ كأن القبر يتمدّد فى قلبه بعُروق الأرضِ كلّها ؛ ثم فاءَ لنفسه ، وقدّر أن ليس محلُّ شيخهِ إلا أن يأمر ، وليس محله هو إلا أن يطيع ، وأنَّ من الرجولة ألاَّ يكون مَعرَّة على الرجولة ، ثم نَكَسَ وتَنكّسَ ، وقال بذِلّة ومسكنةٍ : « ماتأمرنى ؟ »

تفتحت السماء مرّة ثالثة ، وقال الشيخ : « إنك كنتَ رجلا عزَبًا ،

فتزوَّجْت ، فكرهتُ أن تبيت الليلةَ وحدك ؛ وهذه امرأتُك ! »

وانحرفَ شيئا ، فإذا العروسُ قائمةٌ خلفه مستترةٌ به ، ودفعها إلى الباب وسلَّم وانصرف .

وانبعث الوجود فجأةً ، ، وطنَّ لَحْنُ الملائكة فى أذن أبى وداعة : « أنا ، أنا ، أنا ... »

* * *

دخلت العروس البابَ وسقطت من الحياء ، فتركها الرجل مكانَها ، واستوثق من بابه ، ثم خطا إلى القصعة التى فيها الخبزُ والزيت ؛ فوضعها فى ظل السّراج كى لا تراها ؛ وأغمض السراجُ عينَه ونشر الظلّ ...

ثم صعد إلى السطح ورمى الجيرانَ بحُصَيَّات ؛ ليعلموا أن له شأنا اعتراه ، وأن قد وَجَبَ حقُّ الجار على الجار ، وكانت هذه الحصيات يومئذ كأجراس التلفون اليوم ، فجاءوه على سُطوحهم وقالوا : « ماشأْنك ؟ »

قال : « وَيْحَكُم ! زَوَّجنى سعيدُ بن المسيَّب ابنتَه اليوم ؛ وقد جاء بها الليلةَ على غفلة »

قالوا : « وسعيد زَوَّجكَ ! أهو سعيد الذى زَوَّجكَ ! أزَوَّجك سعيد ؟ »

قال : « نعم »

قالوا : « وهى فى الدار ؟ أتقول إنها فى الدار ؟ »

قال : « نعم »

فانثال النساء عليه من هنا وههنا حتى امتلأت بهن الدار ؛ وغشيت الرجلَ غشيةٌ أخرى ، فحسب داره تتيه على قصر عبد الملك بن مروان ، وكأنما يسمعها تقول : « أنا ، أنا ، أنا ... »

* * *

قال عبد الله بن أبي وداعة : « ثم دخلتُ بها ، فإذا هي من أجمل الناس وأحفَظِهم لكتاب الله تعالى ، وأعلَمِهم بسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعرفِهم بحقّ الزوج ؛ لقد كانت المسئلة المعضِلة تُعيي الفقهاءَ فأسألها عنها فأجد عندها منها علما . »

قال : « ومكثت شهرا لا يأتيني سعيد ولا آتيه ، فلما كان بعد الشهر أتيتُه وهو في حلقته فسلّمتُ ، فردّ عليّ السلام ، ولم يكلمني حتى تفرّق الناس من المجلس وخلا وجهُه ، فنظر إليّ وقال :

« ماحالُ ذلك الإنسان .... ؟ »

٭ ٭ ٭

أماذلك (الإنسان) فلم يعرف من الفرق بين قصر وليّ العهد ابنِ أمير المؤمنين ، وبين حجرة ابن أبي وداعة التي تُسمّى دارا ... ! إلا أن هناك مضاعفةَ الهم ، وهنا مضاعفة الحُبّ .

وما بين (هناك) إلى القبر مدةَ الحياة — ستَخْفِتُ الروحُ من نورٍ بعد نور ، إلى أن تنطفئ في السماء من فضائلها .

وما بين (هنا) إلى القبر مدةَ الحياة — تسطع الروح بنور على نور ، إلى أن تشتعلَ في السماء بفضائلها .

وما عند أمير المؤمنين لا يبقى ، وما عند الله خيرٌ وأبقى .

٭ ٭ ٭

ولم يزل عبد الملك يحتال (لسعيد) ويرْصُدُ غوائلَهُ حتى وقعت به المِحنةُ ، فضربه عامله على المدينة خمسين سوطا في يوم بارد ؛ وصبّ عليه جرّة ماء ، وعرّضه على السيف ، وطاف به الأسواقَ عاريًا في تُبّانٍ (٭) من الشَّعر ، ومنع

(٭) التبان : مايسمى اليوم (المايو) أو لباس البحر . ذكره الجاحظ وقال : هو سراويل قصير يلبسه الملاحون .

الناس أن يجالسوه أو يخاطبوه ؛ وبهذه الوقاحة ، وبهذه الرذيلة ، وبهذه المَخزاة ، قال عبد الملك بن مروان : « أنا .... ! »

ذيل القصة (١)

وفلسفة المـال

ذهب الناسُ يميناً وشمالا فيما كتبناه من خبر الإمام سعيد بن المسيَّب وتزويجه ابنتَه من طالب علم فقير ، بعد إذ ضنّ بها أن تكون زوجًا لولىّ عهد أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ؛ وقد جعلت قلوبُ بعض النساء العصريات المتعلمات تصيح وتُوَلوِلُ .... وحدّثنا أديبٌ ظريف أن إحداهن سألت عن عنوان عبد الملك بن مروان .....

أفتُرَاها ستكتبُ إليه أنها تقبل الزواج من ولى عهده ؟

على أن للقصة ذيلاً ، فإن الطبيعةَ الآدميةَ لاعصر لها ، بل هى طبيعةُ كل عصر ؛ والفضيلةُ الإنسانيةُ يبدأُ تاريخُها من الجنة ، فهى هى لا تتجدد ولا تزالُ تلوحُ وتختفى ؛ أما الرذيلةُ فأولُ تاريخها من الطبيعة نفسها ، فهى هى لاتتغير ولا تزالُ تظهرُ وتَسْتَتِرُ .

* * *

لما زوَّج الإمامُ ابنتَه من ابن أبى وَدَاعة ، وأخذها بنفسه إليه فى يوم زوَّجها منه ، ومشى بها فى طريقٍ حَصاه عنده أفضلُ من الدرّ ، وترابُه أكرمُ من الذهب — طارت الحادثةُ فى الناس ، واستَفاضَ لهم قولٌ كبيرٌ : « فأما الذين

---

(١) انظر ص ٢٠٩ — ٢١١ « حياة الرافعى »

آمَنُوا فزادتهم إيمانًا وهم يَسْتَبْشِرُونَ » ، وقد قال جماعةٌ منهم : تاللهِ لئن انقطع الوحيُ ، إن فى معانيه بقيّةً ماتزال تنزلُ على بعض القلوب التى تُشبه فى عظَمتها قلوبَ الأنبياء ، وما هذه الحادثةُ على الدنيا إلا فى معنى سُورةٍ من السُّوَرُ قد انشقّت لها السماءُ ونزل بها جِبريلُ يَخْفُقُ على أفئدة المؤمنين خفقةَ إيمان .

« وأما الذين فى قلوبهم مَرَضٌ فزادتهم رِجْسًا إلى رِجْسِهِمْ » ؛ وقال أناسٌ منهم : أمَا واللهِ لو تهيّأ لأحدنا أن يكون لصا يسرق أمير المؤمنين ، أو ابنَ أمير المؤمنين ، لركب رأسَهُ فى ذلك ، مايَرُدّه عن السرقة شىء ؛ فكيف بمن تهيّأ له الصِّهرُ والحَسَب ، وجاءه الغنىّ يَطْرُقُ بابَه ـ مابالُه يردُّ كل ذلك ويُخزى ابنتَه برجل فقير تعيشُ فى داره بأسوإ حال ؛ وكيف تَثْقُلُ همّتُه وتَبْطُؤُ وتموتُ إذا كان الدرُّ والجوهرُ والذهبُ والخلافة ، ثم ينبعث ويمضى لايتلكّأ عزمُه ، إذا كان العلمُ والفقرُ والدينُ والتقوى ؟

وانتهى كلام الناس إلى الإمام العظيم ، فلم يَجِئْهُ إلا من الظن خَفِيّا خَفِيا ، كأنما هى أقوالٌ حسِبَها تقال عنه بعد خمسين وثلثمائة وألفِ سنة (فى زمننا هذا) حين يكون هو فى معانى السماء ، ويكون القائلون فى معانى الترابِ النَّجِس الذى نَفَضَتْه على الشرق نعالُ الأوربيين ... !

قال الراوى : ولم يستطع أحدٌ من الناس أن يواجهَ الإمامَ بشَفةٍ أو بنتِ شفة ، لامُضَيِّقًا عليه من قلبِه ولا مُوسِّعا ، حتى كان يومٌ من أيام الجمعة ، وقد مال الناسُ بعد الصلاة إلى حلْقة الشيخ ، وتَقَصَّفوا بعضُهم على بعض ، فغصّ بهم المسجد ؛ وكان إمامُنا يفسّر قوله تعالى : « وما لَنا ألاَّ نَتوكَّلَ على اللهِ وقد هدانا سُبُلَنا ، ولَنَصْبِرَنَّ على ما آذَيْتُمُونا ؛ وعلى الله فلْيَتَوكَّلِ المُتَوَكِّلون . »

قال الراوى : فكان فيما قاله الشيخ :

إذا هُدِىَ المرءُ سبيلَه كانت السُّبُلُ الأخرى فى الحياة إما عِداءً له ، وإما

معارَضَةً ، وإما رَدا ؛ فهو منها فى الأذَى ، أو فى معنى الأذى ، أو عُرْضَةٌ للأذى . لقد وَجد الطريقَ ولـكنه أصاب العقَباتِ أيضاً ، وهذه حالة لا يَمضى فيها الموفَّقُ إلى غايته ، إلا إذا أعانه الله بطبيعتين : أولاهما العزمُ الثابت ، وهذاهو التوكلُ على الله ؛ والأخرى اليقينُ المستبصِر ، وهذا هو الصبرُ على الأذى .

ومتى عزم الإنسانُ ذلك العزمَ ، وأيقن ذلك اليقين ، تحولت العقباتُ التى تصدّه عن غايته ، فآل معناها أن تكون زيادةً فى عزمه ويقينه ، بعد أن وُضِعْنَ ليـكُنَّ نقصا منهما ؛ فترجع العقباتُ بعد ذلك وإنها لوسائل تُعين على الغاية ؛ وبهذا يبسطُ المؤمنُ رُوحَه على الطريق ، فما بُدٌّ أن يَغلبَ على الطريق وما فيها ؛ ينظر إلى الدنيا بنور الله فلا يجد الدنيا شيئا ـ على سَعتِها وتَناقُضِها ـ إلا سبيـلَه وما حَوْلَ سبيله ، فهو ماضٍ قُدُمًا لا يَترادُّ ولا يَفْـتُرُ ولا يكلُّ ، وهذه حقيقةُ العزم وحقيقةُ الصبر جميعا .

ومن ثَمّ لاتـكون الحياةُ لهذا المؤمن مهما تقلّبت واختلفت ـــ إلا نَفاذاً من طريق واحدة دون التّخبُّط فى الطرق الأخرى ، ثم لايكون العمرُ مهما طال إلا مدةَ صبرٍ فى رأى المؤمن .

وعزيمةُ النفاذ وعزيمةُ الصبر ، هما الضوء الروحانى القوىّ الذى يـكتسح ظُلماتِ النفس ، مما يسميه الناس خمولاً وَدعَةً وتهاونا وغفلة وضجراً ونحوَها .

قال : ولـكن كيف يُعانُ المؤمنُ على هذه المعجزة النفسية ؟ هنا يتبين إعجازُ الآية الـكريمة ؛ فقـد ذُكر فيها التوكُّلُ ثلاث مرات ، وافتُتِحتْ به وخُتمت ؛ والتوكلُ هو العزمُ الثابت كما أوضحنا . وذُكِرتْ فى الآية بين ذلك هدايةُ المرء سبيـلَه ؛ وهذه الإضافة (سُبلنا) تُعيِّن أنها هدايةُ الإنسانِ إلى سبيلِ نفسه ؛ أىْ سبيله الباطنىّ الذى هو مَناطُ سعادته فى الشعور بالسعادة (*) . ثم

(*) سيأتى فى كلام الإمام بسط لهذا المعنى .

ذُكِر الصبرُ على أذى الناس ، والأذى لا يقع إلا فى حيوانيةِ الإنسان ، ولا يؤثر إلا فيها ؛ فكأن الآية مُصرِّحةٌ أن نجاح المؤمن ونَفاذَه فى الحياة لا يكونان أولَ الأشياء وآخرَها إلا بثلاث : العزم الثابت ، ثم العزم الثابت ، ثم العزم الثابت ؛ وأن الصبر ليس شيئا يُذكر ، أو شيئا يُجدِى ، إن لم يكن صبراً على أذى الحيوانية فى أفظع وحشيتها ؛ فالروحُ لا تؤذِى الروح ، ولكنّ الحيوانَ يؤذى الحيوان ؛ وأن ما يقع من هذه الحيوانية فيُسمى اعتداءً من غيرك ، ويسمى أذًى لك ، هو شيء ينبغى أن يجعله العزم فخرا القوّة الاحتمال فيك ، كما جعله البطشُ فخرا للقدرة عند المعتدى .

وبهذا يكون العزم قد فَصَل بين نفسك الروحية وبين شخصك الحيوانىّ ، ووَهَبَك حقيقةَ الشعور ، وصحّح بمعانى رُوحيتك معانىَ حيوانيتكَ ؛ وحينئذ تَرى السعادةَ حقَّ السعادةِ ما كان هدايةً لنفسك أو هدايةً بها ، ولو انقلب فى الشخصِ الحيوانىّ منك أذًى وألمًا . ذلك صبرُ أُولى العزم من الرسل .

* * *

قال الراوى : وعند ذلك صاح رجل كان فى المجلس دسّه عاملُ الخليفة ليسألَ الشيخَ سؤالا على مَلَأٍ الناس ، يكون كالتشنيع عليه والتشهير به ؛ وقد مَكَرَ العاملُ فاختاره شيخا كبيرا أعْقَفَ ، ليرحم الناسُ رِقّةَ عظمه وكبرَ سنّه فلا يَعرضون له بأذى ، ثم ليكونَ صوتُه كأنه صوتُ الدهر من بعيد ؛ قال الصائح : ذلك أيها الشيخُ صبرُ أولى العزم من الرسل ، أو صبرُ ابنتِك على مَكاره العيش مع ابن أبى وداعة ؟ لا يجد إلا رُمْقَةً يُمْسِكُ بها الرَّمَقَ عليها ، وقد كانت النعمة لها مُعْرِضة ، فدفعتها إليه — زعمتَ — لتُهلِكَ به شخصها الحيوانىّ ، وتوكلتَ على الله وألقيتَ ابنتك فى اليَمّ ... !

فتربّدَ وجهُ الشيخ وأطرق هُنَيّاتٍ ، ثم رفع رأسه وقال : أين المتكلمُ آنفا ؟

فارتفع الصوت : هأنذا . قال : ادْنُ مِنِّى . فتقاعَسَ الرجلُ كأنما تهيَّب ما فَرَط منه ، فاستدناه الثانية ؛ فقام يتخطَّى الناس حتى وقف بإزائه ثم جلس ؛ فقرأ الشيخ قوله تعالى : « وبرزُوا لله جميعا ، فقال الضُّعفاءُ للذين استكبروا : إنا كُنا لكم تَبعاً ، فهل أنتم مُغْنون عنا من عذابِ اللهِ من شيء ؟ قالوا : لو هدانا اللهُ لَهَدَيْناكم ، سواءٌ علينا أجَزِعْنَا أم صَبَرْنا ، ما لنا من مَحِيص ! »

ثم قال : أيها الرجل ، لا تَسمعْنى بأذُنِك وحدها . أرأيتَك (*) لو سمعتَ خبرا ليس فى نفسك أصلٌ من معناه ، أو وَرَدَ عليك الخبَرُ ونفسك عنه فى شُغُلٍ قد أهمّها ؛ أفكنت تَنْشُط له نشاطك للخبر احتفلتْ له نفسُك أو أصاب هوًى منك أو رأيتَه موضعَ اعتبار ؟

قال : لا .

قال الشيخ : فإذا سمعتَ بأذنك وحدها فإنما سمعتَ كلاما يمرُّ بأذنك مرّا ، وإذا أردت الكلامَ لنفسك سمعتَ بأذنك ونفسِك معاً ؟

قال : نعم .

قال الشيخ : فكلُّ مالا تنفرد به حاسةٌ واحدة ، بل تشارك فيه الحواسُّ كلها أو أكثرُها — لا يكون إلا موضع اهتمام للنفس ؟

قال : نعمْ .

قال الشيخ : فمن هنا يكثر الفرحُ والحزن كلاهما إذا شاركتْ فيهما الحواس فيأتى كل منهما كثيرا مهما قلَّ ، وتزيد كلُّ حاسَّة فى اللذة لذةً وفى الألم ألما ، فتعمل النفس فى ذلك أعمالا تَسْحَرُ بها ، فيكون الشيءُ لصاحبه غيرَ ما هو للناس ، كالصوت الباكى أو الضاحك فى لسان طفلك ، تسمعه أنت منه بكلِّ

(*) أرأيتك : بمعنى أخبرنى ، تبقى تاؤه على حالها فى الإفراد والتثنية والجمع، ويسلط التغيير على الكاف : أرأيتك أرأيتكما ... الخ .

حواسك ، فإذا أنت سمعتَ الصوتَ عينه من لسان رجل فى الناس رأيتَه غير ذاك ؛ أكذلك هو ؟

قال : نعم .

قال الشيخ : أفيكونُ السرورُ بالغا عجيبا أكثرَ ماهو بالغٌ حين يجِدُ المالَ والغِنى فى الإنسان ، أم حين يجد القوةَ النفسيةَ وطبيعةَ المرَح والرضى ؟

قال : بل حين يجِدُ فى النفس ...

قال الشيخ : أرأيت الإنسانَ يكون سعيدا بما يتوهَّم الناسُ أنه به غنىٌّ سعيد ، أم بشعوره هو وإن كان بَعدُ فيما لا يتوهم الناسُ فيه الغِنى والسعادة ؟

قال : بل بشعوره .

قال الشيخ : أفلا توجدُ فى الدنيا أشياءُ من النفس تكونُ فوق الدنيا وفوق الشهوات والمطامع كالطفل عند أمه : كلُّ ماتعلَّق به من شىء وُزِن به هو لا بغيره ، وكان الاعتبارُ عليه لا على سواه ؛ أتعرف أُما ترضى أن يُذْبَح ابنُها فى حِجرها لِقاء أن يُملأ حجرُها ذهبا وإن كانت فقيرة مُعْدِمة ؟

قال : لا .

قال الشيخ : فإذا كانت النفسُ تشعرُ أكثرَ مما ترى ؛ أفيذهب ماتراه فيما تشعر به ، ويكون شعورُها هو وحدَه الذى يَلبَسُ ماحولها ويصوِّره ويُصرِّفه ؟

قال : نعم .

قال الشيخ : أفتعرف أن لكل نفسٍ قويةٍ من هذا العالم الذى نعيش فيه ، عالَماً آخر هو عالَم أفكارِها ، وإحساسها ، وفيه وحدَه لذاتُ إحساسِها وأفكارِها ؟

قال : نعم .

قال الشيخ : أفرأيتَ المرأةَ إذا صحّ حبُّها أو فرحُها أو عزمُها ـ أرأيتها

تكون إلا فى عالَم أفكارِها ؟ أرأيتَ كلَّ مايتصل برغبتِها حينئذ يكون إلا من أشياءِ قلبها لا من أشياءِ الدنيا ؟ أرأيتها لا تعيش فى هذه الحالة إلا بالمعاملة مع قلبِها الذى لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يجمع المالَ ولا يريد إلا الشعورَ فقط ؟

قال : نعم ، هو ذاك

قال الشيخ : أرأيت إذا كان الإيمانُ قد وُلِد ونشأ وترَعْرَعَ فى قلب المرأة ، ألا يكون هو طفلَ قلبِها ؟

قال : نعم .

قال الشيخ : أرأيتَ إذا كانت الخمرُ عند مُدْمِنها شيئا عظيما ، وكانت ضرورةً من ضرورات وجودِه الضعيف المختلّ فلا يستقيم وجودُه ولا سَفَهُ وجودِه إلا بها ؛ أفيلزمُ من ذلك أن تكون الخمرُ من ضرورات صاحبِ الوجود القوىّ المنتظم ؟

قال : لا .

قال الشيخ : أفَمُوقِنٌ أنت أن لابد من آخِرٍ لأيام الإنسان ولياليه فى هذه الدنيا فينقطعُ به العيش ؟

قال : نعم .

قال الشيخ : أفَيُؤَرِّخُ الإنسانُ يومئذ بتاريخ معدته وما حولها ، أم بتاريخ نفسه وما فيها ؟

قال : بل بتاريخ نفسه .

قال الشيخ : فإذا كنتَ صاحبَ حَرْب ، وكنتَ بطلا من الأبطال ، ومِسْعَرا من المَساعير ، وأيقنتَ الموتَ فى المعركة ؛ أيكونُ الحقيقُ عندك فى هذه الساعة هو الموتَ أم الحياة ؟

قال : بل الحياةُ عندئذ وهْمٌ وباطل .

قال الشيخ : فتفِرُّ فى تلك الساعة إلى الحياة ولذاتها فى خيالك ، أم تفرّ منها ومن لذاتها ؟

قال . بل الفرارُ منها ، فإن خيالها يكون خَبَالا .

قال الشيخ : فنى تلك الساعة التى هى عُمْرُ نفسِك ، وعَمَلُ نفسك ، ورجاءُ نفسك – تستشعر اللذةَ فى موتك بطلا مذكورا ، أم تُحِسّ الكرْبَ والمَقْتَ من ذلك ؟

قال : بل أستشعرُ اللذة .

قال الشيخ : إذن فهى كبرياءُ الروح العظيمة على مادة التراب والطين فى أىّ أشكالها ولو فى الذهب !

قال : هى تلك .

قال الشيخ : إذن فبعضُ أشياءِ النفس تمحو فى بعض الأحوال كلَّ أشياء الدنيا ، أو الأشياءَ الكثيرةَ من الدنيا ؟

قال : نعم .

قال الإمام : يرحمك الله ! كذلك مُحِيَ عندنا أميرُ المؤمنين وابنُ أمير المؤمنين ، ومُحِيَ المال والغنى ، ولم يكن ذلك عندنا إلا سعادة ؛ ومن رحمة الله أن كلَّ من هُدِىَ سبيلَه بالدين أو الحكمة ، استطاع أن يصنَع بنفسه لنفسه سعادتَها فى الدنيا ولو لم يكن له إلا اُلقَيْمات ؛ فإن السَّعَةَ سَعَةُ الخُلُق لا المالُ ، وإن الفقرَ فقرُ الخُلُق لا العيش .

* * *

قال الراوى : ثم إن الإمام العظيم التفت إلى الناس وقال : أما إنى — عَلِمَ الله — ما زوّجتُ ابنتى رجلا أعرفه فقيرا أو غنيا ، بل رجلا أعرفه

بطلا من أبطال الحياة ، يملك أقوى أسلحته من الدين والفضيلة ؛ وقد أيقنتُ حين زوّجتُها منه أنها ستعرف بفضيلةِ نفسِها فضيلةَ نفسه ، فيتجانسُ الطبعُ والطبع ؛ ولا مَهْنأً لرجل وامرأة إلا أن يُجانِسَ طبعُه طبعَها ، وقد علمتُ وعلم الناس أن ليس فى مال الدنيا ما يشترى هذه المجانَسة ، وأنها لا تكون إلا هديةَ قلبٍ لقلب يأتلفان ويتحابّان .

ثم قال الإمام : وأنا فقد دخلتُ على أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم (*) ورأيتُهن فى دُورهنّ يُقاسينَ الحياة ، ويُعانين من الرزق ما شَحَّ دَرُّه فلا يجىء إلا كالقطْرة بعد القطرة ، وهنّ على ذلك ، ما واحدةٌ منهن إلا هى مَلِكةٌ من ملِكات الآدمية كلها ، وما فقرُهنّ والله إلا كبرياءُ الجنة نظرتْ إلى الأرض فقالت : لا . . . ! (**)

يجاهدْنَ مجاهَدةَ كل شريفٍ عظيمِ النفس ، همُّه أن يكون الشرفُ أو لا يكونَ شىء ؛ ويرى الغافلُ أن مِثْلهن هالكاتٌ فى تعب الجهاد ، ويعلَمْنَ من أنفسهن غيرَ ما يرى ذلك المسكين : يَعلمْن أن ذلك التعب هو لذةُ النصر بعينها .

كانت أنوثتُهن أبداً صاعدةً مُتَساميةً فوق موضعها بهذه القناعة وبهذه التقوى ، ولا تزال متساميةً صاعدةً ، على حين تنزل المطامعُ بأنوثة المرأة دون موضعها ، ولا تزال أنوثتُها تنحدر ما بقيتْ المرأة تطمع ؛ ورُبَّ ملكةٍ جعلتْها مطامعُ الحياة فى الدَّرَك الأسفل ، وهى باسْمها فى الوهْم الأعلى . . . !

(*) توفى سعيد بن المسيب سنة إحدى وتسعين للهجرة أو حولها ، وكان قد لقى جماعة من الصحابة وسمع منهم ، ودخل على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وأخذ عنهن ، وكان متزوجا ابنة أبى هريرة الصحابى الجليل ، وعنه أكثر روايته .

(**) انظر مقالة : (درس من النبوة) فى الجزء الثانى من هذا الكتاب .

وقد روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « اطَّلعْتُ فى الجنةِ فإذا أقلُّ أهلِها النساء، فقلت: أين النساء؟ قال: شَغَلَهُنَّ الأحمران: الذهب والزعفران » (*) أى الطمعُ فى الغنى والعملُ له، والميلُ إلى التبرج والحرص عليه.

ونفسُ الأنثى ليست أنثى، ولكن شغلَها بذاك التبرجِ وذلك الحرصِ وذلك الطمعِ — هو يُخصصها بخصائص الجسد، ويُعطيها من حكمه، ويُنزلها على إرادته؛ وهذه هى المزَلَّة، فتهبط المرأةُ أكثرَ مما تعلو، وتضعفُ أكثرَ مما تقوَى، وتَفسُد أكثرَ مما تَصْلُح. إن نفس الأنثى أنثى لرجل واحد، لزوجها وحده.

رأيتُ أزواجَ النبي صلى الله عليه وسلم فقيراتٍ مَقتُوراً عليهن الرزق، غير أن كلاً منهن تعيش بمعانى قلبها المؤمنِ القوى، فى دار صغيرة فرَشتها الأرض... ولكنها من معانى ذلك القلب كأنها سماءٌ صغيرة مختبئةٌ بين أربعة جدران. إنهن لم يبتعدن عن الغنى إلا ليبعدْن عن حماقة الدنيا التى لا تكون إلا فى الغنى.

✡ ✡ ✡

أفٍ أفٍ! أتريدون أن أُزوِّج ابنتى من ابن أمير المؤمنين فيُخزِيَها الله على يدىّ، وأدفعُها إلى القصر وهو ذلك المكان الذى جمع كلَّ أقذار النفس ودَنَس

(*) هذان هما فتنة النساء فى كل دهر، وهذا الحديث من المعجزات، فالذهب كناية عن المال والحلى وما كان من بابهما، أما الزعفران ففيها المعجزة، لأنها كناية مطلقة فهمها العرب دلالة على الثياب المصبغة، ونفهم منها نحن كل أنواع زينة النساء من المساحيق والعطور، إلى (المودة) التى هى أصباغ معنوية لأشكال الثياب. وقد كان العرب يقولون: غمرت المرأة وجهها إذا طلته بالزعفران ليصفو لونها؛ ويقولون من ذلك: امرأة مغمرة، وتغمرت، أى فعلت ذلك. (فالزعفران) كما ترى: كناية تدخل فيها (البودرة) والأدهان المختلفة، وكل ما أفسد وجه المرأة ليفسد حياتها الاجتماعية...

الأيام والليالى ؟ أوْزوِّجها رجلا تعرفُ من فضيلة نفسِها سقوطَ نفسه ، فتكونُ زوجةَ جسمِه ومطلَّقةَ رُوحِه فى وقتٍ معاً ؟

ألا كم من قَصْرٍ هو فى معناه مَقبرةٌ ، ليس فيها من هؤلاء الأغنياء رجالِهم ونسائهم إلا جِيَفٌ يُبلى بعضُها بعضا !

✡ ✡ ✡

قال الراوى : وضجّ الناس لحمامةٍ صغيرة قد جَنَحتْ من الهواء ، فوقعتْ فى حِجر الشيخ لائذةً به من مَخافة ، وجعلتْ تَدِفُّ بجَناحيها وتضطرب من الفزَع ، ومرّ الصقرُ على أثرها وقد أهوى لهـا ، غير أنه تمطّر ومَرَق فى الهواء إذ رأى الناس ...

وتناولها الإمامُ فى يده وهى فى رَجْفتها من زلزلة الهواء ، وكانت كالعَروس مُسَرْوَلَةً قد غابت ساقاها فى الريش ، وعلى جسمها من الألوان نَمْنَمَةٌ وتحبير ، ولها رُوحُ العَروس الشابة يُهدُونهـا إلى مَن تـكْره ، ويزفّونها على قاتِلها الذى يُسمى زوجَها .

وأدْناها الشيخُ من قلبه ، ومَسَحَ عليها بيده ، ونظر فى الهـواء نظرة ... وهو يقول : نَجَوْتِ نَجَوْتِ يامسكينة !

زوجة إمام (١)

جلس جماعةُ أصحابِ الحديث فى مسجد الكوفة يتَنظَّرُون قُدومَ شيخِهم الإمام « أبى محمد سليمان الأعمش » (*) ليسمعوا منه الحديث ، فأبطأ عليهم ،

(١) انظر ص ٢٢٣ « حياة الرافعى » .

(*) ولد هذا الإمام العظيم سنة ٦١ للهجرة ، وتوفى سنة ١٤٨

فقال منهم قائل : هلمُّوا نتحدثْ عن الشيخ فنكونَ معه وليس معنا . فقال أبو معاويةَ الضَّرير : إلى أن يكونَ معنا ولسنا معه . ! فخطرت ابتسامةٌ ضعيفة تهتزُّ على أفواه الجماعة ، لم تبلغ الضحك ، ومرت لم تُسمَع ، وكأنها لم تُرَ ، وانطلقت من المباح المعْفُوِّ عنه . ولكنْ أكبرَها أبو عتّابٍ منصورُ بن المُعْتَمِرْ فقال : ويلكَ يا أبا معاوية ! أتتندَّرُ بالشيخ وهو منذُ الستين سنةً لم تفُتْه التكبيرةُ الأولى فى هذا المسجد ، وعلى أنه مُحدّث الكوفة وعالِمُهَا ، وأقرأُ الناس لكتاب الله . وأعلمُهم بالفرائض ، وما عَرفَتِ الكوفةُ أعبدَ منه ولا أفقهَ فى العبادة ؟

فقال محمد بنُ جُحَادة (*) : أنت يا أبا عتّاب ، رجلٌ وحدَك ، تُواصِلُ الصومَ منذ أربعين سنة ، فقد يَبِسْتَ على الدهر ، وأصبح الدهرُ جائعاً منك ، وما بَرِحتَ تبكى من خشية الله ، كأنما اطّلعتَ على سَواءِ الجحيم ، ورأيتَ الناسَ يتَوَاقَعُون فيها وهى لَهَبٌ أحمرُ يلتفُّ على لهبٍ أحمرَ ، تحت دُخانٍ أسود يتضرّبُ فى دخان أسود ؛ يتغامَسُ الإنسانُ فيها وهى مِلءُ السموات فما يكون إلا كالذُّبابة أوقدُوا لها جبلا ممتدا من النار ، ينْطادُ بين الأرض والسماء ، وقد ملأ ما بينهما جمرا وشُعَلا وحَمما ودُخانا ، حتى لتهارَبُ السُّحب فى أعلى السماء من حرّه ، وهو على هَوْله وجَسامته لِحَرْقِ ذبابة لا غيرِها ، بَيْدَ أنها ذبابةٌ تُحرَقُ أبدا ولا تموتُ أبدا ، فلا تزالُ ولا يزالُ الجبل. . . !

فصاح أبو معاوية الضَّرير : ويحك يا محمد ! دَعِ الرجلَ وشأنه ؛ إن لله عباداً متاعُهم مما لا نعرف ، كأنهم يأكلون ويشربون فى النوم ، فحياتُهم من وراء حياتنا ، وأبو عتَّاب فى دنيانا هذه ليس هو الرجل الذى اسمه «منصور» ،

(*) الجحادة : هى الغرارة الممتلئة ، فكانت أمه تشبه بها لضخامتها .

ولكنه العملُ الذى يعمله « منصور » ؛ هل أتاكم خَبرُ قارئ المدينة « أبى جعفر الزاهد » ؟

قال الجماعة : ما خبره يا أبا معاوية ؟ قالَ : لقد تُوُفى من قريب ، فرُئِى بعد موته على ظهر الكعبة ؛ وسترون أبا عتاب — إذا مات — على منارة هذا المسجد !

فصاح أبو عتاب : تَخَلَّلْ يا أبا معاوية ؛ أما حفظتَ خبر ابن مسعود : « كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقام رجل ، فوقَع فيه رجلٌ من بعده ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « تخلَّلْ » قال : « ممَّ أتخلَّلُ ؟ ما أكلت لحما ! » قال : « إنك أكلتَ لحم أخيك ! »

فتقاقل الضرير فى مجلسه ، وتَنَحْنَحَ ، وهَمْهم أصواتا بينه وبين نفسه ، وأحسَّ الجماعةُ شأنه ، وقد عرفوا أن له شرّا مُبْصِرا كالذى كان فيه من المزح والدُّعابة ، وشرّا أعمى هذه بوادرُه ؛ فاسْتلَبَ ابنُ جُدادةَ الحديثَ مما بينهما وقال : يا أبا معاوية ، أنت شيخُنا وبركتُنا وحافظُنا ، وأقربُنا إلى الإمام ، وأمسُّنا به ؛ فحدِّثنا حديثَ الشيخ كيف صنع فى ردّه على هِشام بن عبد الملك (*) ، وما كان بينك وبين الشيخ فى ذلك ؛ فإن هذا مما انفردتَ أنت به دون الناس جميعا ، إذ لم يسمعه غيرُ أذنيك ، فلم يحفظه غيرُك وغيرُ الملائكة .

فأَسْفرَ وجهُ أبى معاوية ، وسُرِّىَ عنه ، واهتزَّ عِطْفاه ، وأقبل عليهم بعفو القادر ... وأنشأ يحدّثهم ؛ قال :

إن هِشاما — قاتله الله — بعث إلى الشيخ : أن اكتبْ لى مناقبَ عثمانَ ومَساوِئَ علىّ . فلما قرأ كتابه كانت داجنةٌ إلى جانبه ، فأخذ القرطاسَ وألْقمَه الشاةَ ، فلاكَتْهُ حتى ذهب فى جوفها ، ثم قال لرسول الخليفة . قل له :

(*) بويع هشام سنة ١٠٥ للهجرة ، وتوفى سنة ١٢٥

هذا جوابُك ! فخشى الرسولُ أن يرجعَ خائبا فيقتله هشام ؛ فما زال يتحمّلُ بنا ، فقلنا : ياأبا محمد ، نجِّهِ من القتل . فلما ألححنا عليه كتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعدُ ياأمير المؤمنين ، فلو كانت لعثمانَ رضى الله عنه مناقبُ أهل الأرض ما نفعتْك ، ولو كانت لعليّ رضى الله عنه مساوئُ أهل الأرض ماضرّتْك ؛ فعليك بخُوَيْصَّةِ نفسِك ، والسلام . »

فلما فَصَلَ الرسولُ قال لى الشيخ : إنه كان فى خُرَاسانَ مُحدِّث اسمُه « الضحَّاك بن مُزاحِم الهلالى » وكان فقيهَ مكتب عظيم فيه ثلاثة آلاف صبيّ يتعلمون ؛ فكان هذا الرجلُ إذا تعب ركب حمارا ودارَ به فى المكتب عليهم ، فيكونُ إقبالُ الحمار على الصبيّ همًّا وإدبارُه عنه سرورا . وما أرى الشيطانَ إلا قد تعب فى مكتبه وأعيا ، فركب أميرَ المؤمنين ... ليدورَ علينا نحن يسألنا : ماذا حفظنا من مساوئ عليّ ؟

قلت : فلماذا ألقمتَ كتابَه الشاةَ ، ولو غسلتَه أو أحرقتَه كان أفهمَ له وكان هذا أشبهَ بك ؟ فقال : ويحك ياأبله ! لقد شابت البلاهةُ فى عارِضيك ؛ إن هشاما سيتقطع منها غيظا ، فما يُخفِى عنه رسولُه أنى أطعمتُ كتابَه الشاة ، وما يُخفِى عنه دهاؤه أن الشاة ستَبْعَرُه من بَعدُ ... !

قلت : أفلا تخشى أميرَ المؤمنين ؟

قال : ويحك ! هذا الأحولُ عندك أميرُ المؤمنين ؟ أبِمَا ولدته أمُّه من عبد الملك ؟ فهَبْها ولدته من حائكٍ أو حجّام ! إن إمارةَ المؤمنين ياأبا معاوية ، هى ارتفاعُ نفسٍ من النفوس العظيمة إلى أثرِ النبوّة ؛ كأنَّ القرآنَ عَرَضَ المؤمنين جميعا ثم رضى منهم رجلا الزمن الذى هو فيه . ومتى أُصيبَ هذا الرجلُ القرآنىُّ ، فذاك وارثُ النبيّ فى أمته وخليفتُه عليها ، وهو يومئذ أميرُ المؤمنين ، لامن إمارة المُلْك والترَف ، بل من إمارة الشرع والتدبير والعمل والسياسة .

هذا الأحولُ الذى التفّ كدودة الحرير فى الحرير ، وأقبل على الخيل لا للجهاد والحرب ، ولكن للهو والحَلْبَة ، حتى اجتمع له من جياد الخيل أربعةُ آلاف فرس لم يجتمع مثلُها لأحد فى جاهليةٍ ولا إسلام ، وعَمِلَ الخزَّ وقُطُفَ الخزّ ، واستجادَ الفَرشَ والكُسوة ، وبالغَ فى ذلك وأنفقَ فيه النفَقات الواسعة ، وأفسد الرجولة بالنعيم والترفِ ، حتى سلك الناسُ فى ذلك سُنَّتَه ، فأقبلوا بأنفسهم على لهو أنفسهم ، وصنعوا الخيرَ صنعةً جديدةً يصرفه إلى حظوظهم ، وتركوا الشرَّ على ما هو فى الناس ، فزادوا الشر وأفسدوا الخير ، ولم يَعُدِ الفقراءُ والمساكين عندهم هم الفقراءَ والمساكين من الناس ، بل بطونَهم وشهواتِهم ... ! ولقد كان الرجل من أغنياء المسلمين يقتصدُ فى حظ نفسه ليَسَع ببرِّه مائةً أو مائتين أو أكثرَ من إخوانه وذوى حاجته ، فعاد هذا الغنىُّ يتَّسعُ لنفسه ثم يتسع ، حتى لا يكفيه أن يأكلَ رزقَه مائةً أو مائتين أو أكثر !

إن هذا الإسلام يجعل أحسنَ المسرَّات أحسنَها فى بذلها للمحتاجين ، لا فى أخذِها والاستئثارِ بها ، فهى لا تضيع على صاحبها إلا لتكونَ له عند الله ، وكأن الفقر والحاجةَ والمسكنةَ والإنفاقَ فى سبيل الله ـ كأن هذه أرَضُون يُغرَس فيها الذهبُ والفضة غرسا لا يُؤتِى ثمرَه إلا فى اليوم الذى ينقلبُ فيه أغنى الأغنياء على الأرض ، وإنه لأفقر الناس إلى درهمٍ من رحمة الله ، وإلى ما دون الدرهم ؛ فيقالُ له حينئذ : خُذْ من ثمارِ عملك ، وخُذْ بِلءَ يديك !

والسلطانُ فى الإسلام هو الشرع مَرئيا يُتابِعه الناسُ ، متكلما يفهمُه الناسُ ، آمراً ناهيا يُطيعه الناس . ولقد رأى المسلمون هذا الأحولَ ، وتابعوه وسمعوا له وأطاعوا ؛ فمنعوا ما فى أيديهم ، فانقطع الرِّفْد ، وقلَّ الخير ، وشحَّت الأنفس ، وأصبح خيرُهم خيرَهم لبطنه وشهواته ، وصار الزمانُ أشبهَ بناسِه ، والناس أشبه بمَلِكِهم ، ومَلِكُهم فى شهواته « فقيرُ المؤمنين » لا أميرُ المؤمنين !

إنّ هذه الإمارةَ يا أبا معاوية ، إنما تكون فى قرب الشبهِ بين النبيّ ومن يختاره المؤمنون للبَيْعة . وللنبيّ جهتان : إحداهما إلى ربه ، وهذه لا يطمع أحدٌ أن يبلغ مَبلغَه فيها ؛ والأخرى إلى الناس ، وهذه هى التى يُقاس عليها ، وهى كلّها رِفقٌ ورحمةٌ وعملٌ ، وتدبير وحِياطة وقوة ، إلى غيرها مما يقومُ به أمرُ الناس ؛ وهى حقوقٌ وتَبِعاتٌ ثقيلةٌ تنصرف بصاحبها عن حظ نفسه ، وبهذا الانصراف تَجـذبُ الناسَ إلى صاحبها ؛ فإمارةُ المؤمنين هى بقاءُ مادّة النور النبوىّ فى المصباح الذى يضىء الإسـلام ، بإمداده بالقدْرِ بعـد القدْر من هذه النفوس المضيئة ؛ فإن صَلُح الترابُ أو المـاءُ مكانَ الزيت فى الاستضاءة ، صَلُح هشامٌ وأمثاله لإمارة المؤمنين !

ويلٌ للمسلمين حين ينظرون فيجدون السلطانَ عليهم بينه وبين النبى مثل مابين دِينَين مختلفين ! ويلٌ يومئذ للمسلمين ! ويلٌ يومئذ للمسلمين !

* * *

فلما أتمّ الضرير حديثَه قال ابن جُحادة : إن شيخنا على هذا الجِدّ ليمزح ، وسأحدّثكم غيرَ حديث أبى معاوية ، فقد رأيتُ الدنيا كأنما عرفت الشيخ ووقفت على حقيقته السماوية فقالت له : اضحكْ منّى ومن أهلى ! ولكنّ وقارَه ودينَه ارتفعا به أن يضحكَ بفمه ضَحِكَ الجهلاء والفارغين ، نضحك بالكلمة بعد الكلمة من نوادره .

لقد كنتُ عنده فى مَرْضتِه ، فعاده « أبو حنيفة » صاحبُ الرأى ، وهو جبَلُ عِلْم شامخ ، فطوّلَ القعودَ بمـا يُحبُّه ويأنسُ به ، إذ كانت الأرواحُ لا تتعرف مع أحبابها زمناً يطولُ أو يقصُر ؛ فلما أراد القيامَ قال له : ما كأنى إلا ثقُلْتُ عليك ! فقال الشيخ : إنك لثقيلٌ علىّ وأنت فى بيتك . . . ! وضحك أبو حنيفة كأنه طفـل يُلاغِيه أبوه بكلمةٍ ليس فيها معناها ، أو أبٌ داعبَه

طفـله بكلمة فيها غيرُ معناها .

وجاءه فى الغَداة قومٌ يعودونه ، فلما أطالوا الجلوسَ عنده أخذ الشيخ وِسادتَه وقام منصرفا ، وقال لهم : قد شَفَى الله مريضَكم ... !

فقال الضرير : تلك رَوْحَةٌ من هواء دُنْباوَنْد (*) ، فإن أبا الشيخ كان من تلك الجبال ، وقدم إلى الكوفة وأمُّه حاملٌ ، فوُلِدَ هنا ؛ فكأن فى دمه ذلك النسيمَ تهبُّ منه النفْحة بعد النفحة فى مثل هذه الكلمات المُتنسِّمة ؛ ثم هى رُوحُه الظريفةُ الطيّبةُ تَلمِسُ بعضَ كلامه أحيانا ، كما تلمسُ روحُ الشاعر بعضَ كلام الشاعر ؛ وما رأيت أدقَّ النوادر الساخرة وأبلغَها وأعجبَها يجىء إلا من ذوى الأرواح الشاعرة الكبيرة البعيدةِ الغَوْر ، كأنما تأتى النادرةُ من رؤية النفس حقيقتين فى الشىء الواحد . والإمامُ فى ذلك لا يسخر من أحد ، إلا إذا كانت الأرضُ حين تُخرج الثمرةَ الحلوةَ تَسخَر بها من الثمرة المرة !

والعجيبُ أن النادرةَ البارعةَ التى لا تتفق إلا لأذوى الأرواح ، يتفق مثلها لأضعفِ الأرواح ؛ كأنها تَسخر من الناس كما يسخرون بها ؛ فهذا « أبو حَسَن » مُعلِّم الكتّاب ، جاءه غلامان من صِبْيتِه قد تعلق أحدهما بالآخر ؛ فقال : يامُعلِّم ، هذا عَضّ أذنى . فقال الآخر : ماعَضَضْتُها ، وإنما هو عَضَّ أُذنَ نفسه ... فقال المعلم : وتمكُرُ بى أيضا ياابن الخبيثة ؟ أهو جملٌ طويلُ العُنق حتى ينالَ أذنَ نفسه فيعضَّها ... !

* * *

وطلع الشيخُ عليهم وكأنما قرأ نفسَ أبى معاوية فى وجهه المتفتِّح . ومن عجائب الحكمة أن الذى يُلْمَحُ فى عينى المبصِر من خوالج نفسه ، يُلْمحُ على وجه الضرير مُكَبَّرًا مجسَّما ، وكان الشيخ لا يأنسُ بأحدٍ أُنسَه بأبى معاوية ،

(*) ناحية من رستاق الرى فى الجبال الثلجية ، وهى من بلاد العجم .

لذكائه وحِفظه وضبْطِه ، ولمُشاكَاة الظَّرف الروحىّ بينهما ؛ فقال له :

— « فِيمَ كان أبو معاوية ؟ »

— « كان أبو معاوية فى الذى كان فيه ! »

— « وما الذى كان فيه ؟ »

— « هو ماتسأل عنه ! »

— « فأجبْنى عما أسأل عنه . »

— « قد أجبتُك ! »

— « بمـاذا أجبتَ ؟ »

— « بمـا سمعتَ ! »

فتقبّضَ وجهُ الشيخ وقال : « أهٰهنا وهناك معاً ؟ لوأن هذا من امرأة غضْبَى على زوجها لكان له معنى ، بل لامعنى له ولا من امرأةٍ غضبى على زوجها . أحْسَبُ لولا أن فى منزلى من هو أبغضُ إلىَّ منكم ماخرجت ؟ » فقال الضرير : « ياأبا محمد ، كأننا زوجاتُ العِلم ، فأيتُنا التى حَظِيَت وبَظِيت ... »

فغطّى الجماعةُ أفواهَهم يضحكون ، وتبسّم الشيخ ، ثم شرع يحدِّث ، فأفضى من خَبر إلى خبر ، وتَسرَّح فى الرواية حتى مرّ به هذا الحديث :

عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : « إن هلاكَ الرجالِ طاعتُهم لنسائهم » .

قال الشيخ : كان الحديث بهذا اللفظ ، ولم يقل النبى صلى الله عليه وسلم : « هلاكُ الرجل طاعتُه لامرأته » ؛ فإن هذا لا يستقيم ؛ إذ يكون بعضُ النساء أحيانا أكملَ من بعض الرجال ، وأوفرَ عقلا وأسدَّ رأيًا ؛ وقد تكون المرأة هى الرجلَ فى الحقيقة عزما وتدبيرا وقوّةَ نفس ، ويَتليَّنُ الرجلُ معها كأنه امرأة . وكثيرٌ من النساء يكُنَّ نساءً بالحِلْية والشكل دون ماوراءهما ، كأنما هُيِّئْنَ

رجالا فى الأصل ثم خُلِقْنَ نساءً بعدُ ، لإحداثِ مايريد الله أن يُحْدِثَ بهنّ ، مما يكون فى مثل هذه العجيبة عملا ذا حقيقتين فى الخير أو الشر .

وإنما عَمَّ الحديثُ ليدلّ على أن الأصلَ فى هذه الدنيا أن تستقيم أمورُ التدبير بالرجال : فإن البأس والعقل يكونان فيهم خِلقةً وطبيعةً أكثر مما يكونان فى النساء ؛ كما أن الرقة والرحمة فى خِلقة النساء وطبيعتهن أكثرُ مما هما فى الرجال ، فإذا غلبتْ طاعةُ النساء فى أمة من الأمم ، فتلك حياة معناها هلاكُ الرجال. وليس المراد هلاكَ أنفسِهم ، بل هلاكَ ماهم رجالٌ به ؛ والحديدُ حديدٌ بقوته وصلابته ، والحجرُ حجر بشدّته واجتماعه ؛ فإن ذاب الأولُ أو تفلّل ، وتناثر الآخر أو تفتَّت ، فذاك هلاك كلهما فى الحقيقة ، وهما بعدُ لايزالان من الحجر والحديد .

والمرأة ضعيفة بفطرتها وتركيبها ، وهى على ذلك تأبى أن تكونَ ضعيفةً أو تقِرَّ بالضعف ، إلا إذا وجدت رُجلها الكامل ، رُجلها الذى يكون معها بقوَّته وعقله وفِتْنتِه لها وحبها إياه ، كما يكون مِثالٌ مع مثال . ضَعْ مائةَ دينار بجانب عشرة دنانير ، ثم اترك للعشرة أن تتكلم وتَدّعىَ وتستطيل ؛ قد تقول : إنها أكثرُ إشراقا ، أو أظرف شكلا ، أو أحسن وضعا وتصفيفا ؛ ولكن الكلمةَ المحرَّمةَ هنا أن تزعم أنها أكبرُ قيمةً فى السوق ... !

قال الشيخ : ومَن مِنَ النساء تُصيبُ رجلَها الكاملَ أو القريبَ من كماله عندها ، أى كمالِ طبيعته بالقياس إلى طبيعتها ، كمالِ جِسْم مُفَصّلٍ لجسم ، تفصيلَ الثوبَ الذى يَلبسهُ ويختالُ فيه ؟ أما إن هذا من عمل الله وحده ، كما يبسُط الرزقَ لمن يشاء من عباده ويَقْدِر ، يبسُط مثلَ ذلك للنساء فى رجالهن ويَقْدِر .

فإذا لم تُصِب المرأةُ رجلَها القوىّ — وهو الأعمُّ الأغلب — لم تستطع أن تكون معه فى حقيقة ضعفها الجميل ، وعملتْ على أن يكون الرجل هو

الضعيف ؛ لتكون معه فى تزوير القوّة عليه وعلى حياته ، وبهذا تخرج من حَيِّزها ؛ وما أولُ خروج النساء إلى الطرقات إلا هذا المعنى ؛ فإن كَثُر خروجُهن فى الطريق ، وتَسكَّعْنَ هٰهنا وهٰهنا ، فإنما تلك صورةٌ من فساد الطبيعة فيهن ومن إملاقها أيضا . . .

قال الشيخ : وكأن فى الحديث الشريف إيماءً إلى أن من بعض الحق على النساء أن ينزلْنَ عن بعض الحق الذى لهن ، إبقاءً على نظام الأمة ، وتيسيراً للحياة فى مَجراها ؛ كما ينزل الرجل عن حقه فى حياته كلها إذا حارب فى سبيل أمته ، إبقاءً عليها وتيسيراً لحياتها فى مَجراها . فصبرُ المرأة على مثل هذه الحالة هو نفسُه جهادُها وحربها فى سبيل الأمة ، ولها عليه من ثواب الله مثلُ ما للرجلُ يُقتَلُ أو يُجرحُ فى جهاده .

ألا وإن حياةَ بعض النساء مع بعض الرجال تكونُ أحيانا مثلَ القتل ، أو مثلَ الجَرْح ، وقد تكون مثلَ الموت صبرا على العذاب ! ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لِمُزَوَّجَةٍ يسألها عن حالها وطاعتها وصبرها مع رجلها : « فأين أنتِ منه ؟ » قالت : ما آلُوه ما عَجَزْتُ عنه ! قال : « فكيف أنتِ له ؟ فإنه جَنَّتُكِ ونارُك . »

آه ! آه ! حتى زواجُ المرأة بالرجل هو فى معناه مُرُورُ المرأةِ المسكينة فى دنيا أخرى إلى موتٍ آخر ، ستُحاسَب عنده بالجنة والنار ، فحسابُها عند الله نوعان : ماذا صنعتِ بدنياكِ ونعيمِها وبؤسِها عليكِ ؟ ثم ماذا صنعتِ بزوجك ونعيمِه وبؤسه فيك ؟

وقد روينا أن امرأةً جاءت النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يارسول الله ، إنى وافدةُ النساء إليك ... ثم ذكرتْ ما للرجال فى الجهاد من الأجر والغَنيمةِ ؛ ثم قالت : فما لنا من ذلك ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : « أبلِغى من لقيتِ من النساء، أن طاعةَ للزوج ، واعترافا بحقِّه — يعدِلُ ذلك ؛ وقليل منكنّ من يفعله ! »

قال الشيخ : تأمّلوا واعجبوا من حكمة النبوة ودقّتها وبلاغتِها ؛ أيقالُ فى المرأة الْمُحِبّةِ لزوجها المفتتنة به المعجَبةِ بكماله : إنها أطاعتْهواعترفت بحقه ؟ أو ليس ذلك طبيعةَ الحب إذا كان حبا ؟ فلم يبق إذن إلا المعنى الآخر ، حين لا تصيب المرأةُ رجُلها المفصَّل لها ، بل رجلا يُسمَّى زوجا ؛ وهنا يظهر كرمُ المرأة الكريمة ، وها هنا جهادُ المرأة وصبرُها ، وهاهنا بَذْلُها لاأَخْذُها ؛ ومن كل ذلك ها هنا عملها لجنَّتها أو نارها .

فإذا لم يكن الرجل كاملا بما فيه المرأة ، فلتُبْقِه هى رجلا بنزولها عن بعض حقها له ، وتركِها الحياةَ تجرى فى مجراها ، وإيثارِها الآخرةَ على الدنيا ، وقيامِها بفريضةِ كمالها ورحمتها ؛ فيبقى الرجلُ رجلا فى عمله للدنيا ، ولا يمْسخُ طبعهُ ولا ينتكِسُ بها ولا يَذِلّ ، فإن هى بَذَأتْ وتسلَّطت وغلَبت وصرّفت الرجلَ فى يدها ، فأكثرُ مايظهر حينئذ فى أعمال الرجال من طاعتهم لنسائهم — إنما هو طيشُ ذلك العقلِ الصغير وجُرْأتَهُ ، وأحيانا وقاحتُه ؛ وفى كل ذلك هلاكُ معانى الرجولة ، وفى هلاك معانى الرجولة هلاكُ الأمة !

قال الشيخ : والقلوبُ فى الرجال ليست حقيقةً أبدا ، بطبيعة أعمالهم فى الحياة وأمكنتهم منها ؛ ولكنّ القلبَ الحقيقيّ هو فى المرأة ، ولذا ينبغى أن يكون فيه السُّمُوُّ فوق كل شىء إلا واجبَ الرحمة ؛ ذلك الواجبُ الذى يتجه إلى القوىّ فيكون حبًّا ، ويتجه إلى الضعيف فيكون حنانًا ورقة ؛ ذلك الواجبُ هو اللطف ؛ ذلك اللطفُ هو الذى يُثبت أنها امرأة .

✡ ✡ ✡

قال أبو معاوية : وانفضَّ المجلس ، ومنعنى الشيخُ أن أقوم مع الناس ،

وصَرَفَ قائدى ؛ فلما خلا وجهُه قال : ياأبا معاوية ، قُم معى إلى الدار . قلتُ : ماشأنُ فى الدار ياأبا محمد ؟ قال : إن (تلك) غاضبةٌ علىّ ، وقد ضاقت الحالُ بينى وبينها وأخشى أن تتباعَد ، فأريدُ أن تُصلِح بيننا صُلحا .

قلت : فمّ غضبُها ؟ قال : لا تسألُ المرأة مِمّ تغضب ، فكثيرا مايكون هذا الغضبُ حركةً فى طباعها ، كما تكون جالسةً وتريد أن تقوم فتقوم ، وتريدُ أن تمشى فتمشى !

قلت : ياأبا محمد ، هذا آخرُ أربعِ مرات (*) تغضبُ عليك غَضَبَ الطلاق ، فما يَحبِسُك عليها والنساء غيرها كثير .

قال : ويحك يارجل ! أبائعُ نساءٍ أنا ؟ أما علمتَ أن الذى يطلّق امرأة لغير ضرورةٍ مُلجئة ، هو كالذى يبيعها لمن لايدرى كيف يكون معها وكيف تكون معه ؟ إن عُمر الزوجة لوكان رقبة وضُربت بسيف قاطع لكان هذا السيف هو الطلاق !

وهل تعيشُ المطلّقة إلا فى أيام ميّتة ؟ وهل قاتِلُ أيامها إلا مطلِّقُها ؟

قال أبو معاوية : وقمنا إلى الدار ، واستأذنت ودخلت على (تلك) ...

زوجة إمام

بقية الخبر

قال أبو مُعاوية الضرير : وكنتُ فى الطريق إلى دار الشيخ أُرَوِّىُ فى الأمر ، وأمتحِنُ مذاهبَ الرأى ، وأقلّبها على وجوهها ، وأنظرُ كيف أحتالُ

(*) هذا هو التعبير الصحيح لمثل قول الناس : « هذه رابع مرة »

فى تأليف ماتَنافَرَ من الشيخ وزوجته ؛ فإن الذى يَسفُرُ بين رجلٍ وامرأته إنما يمشى بفكرِه بين قلبين ، فهو مُطْفئٌ نائِرَةٍ (*) أو مُسْعِرُها ، إذ لا يضعُ بين القلبين إلا حُمقَه أو كِياستَه ، وهو لن يردَّ المرأةَ إلى الرأى إلا إذا طاف على وجهها بالضحِك ، وعلى قلبها بالخَجل ، وعلى نفسها بالرقة ، وكان حكيما فى كل ذلك ؛ فإن عقلَ المرأة مع الرجل عقل بعيدٌ ، يجىء من وراء نفسها ، من وراء قلبها .

وجعلتُ أنظرُ ماالذى يُفسدُ محلَّ الشيخ من زوجته ، ومثَّلت بينه وبينها ، فما أخرج لى التفكيرُ إلاأن حُسنَ خلُقِه معها دائما هو الذى يستدعى منها سوءَ الخلُقِ أحيانا ؛ فإن الشيخ كما ورد فى وصف المؤمن : « هَيِّنٌ لَيِّنٌ كالجمل الأنُفِ (**) » إن قِيدَ انقادَ ، وإن أُنيخَ على صخرةٍ استناخ ؛ والمرأةُ لاتكون امرأةً حتى تطابَ فى الرجل أشياءَ : منها أن تحبَّه بأسباب كثيرة من أسباب الحب ، ومنها أن تخافَه بأسبابٍ يسيرةٍ من أسباب الخوف ؛ فإذاهى أحبته الحبَّ كلَّه ، ولم تخَفْ منه شيئا ، وطال سكونُه وسكونُها ـ نفرت طبيعتُها نفرةً كأنها تُنخيه وتُذمِّره ، ليكون معها رجلا فيُخيفَها الخوفَ الذى تستكملُ به لذةَ حبها ؛ إذ كان ضعفُها يحب فيما يحبه من الرجل ، أن يَقْسُوَ عليه الرجلُ فى الوقت بعد الوقت ، لاليؤذِيَهُ ، ولكن ليُخْضِعَه ؛ والآمرُ الذى لايُخافُ إذا عُصِى أمرُه ، هو الذى لايُعبأ به إذا أُطيع أمرُه .

وكأن المرأةَ تحتاج طبيعتُها أحيانا إلى مصائبَ خفيفةٍ تؤذِى برقَّةٍ ، أو تمرُّ بالأذى من غير أن تلمِسَها به ، لتتحركَ فى طبيعتها معانى دموعها من غير

(*) النائرة : الغضب .

(**) أى المأنوف ، ويسميه العامة (المخزوم) وهو الذى عقر أنفه بالخشاس فيقاد منه فيكون ذلولا سمحا

دموعها ؛ فإن طال ركودُ هذه الطبيعةِ ، أوجدتْ هي لنفسها مصائبَها الخفيفةَ ، فكان الزوجُ إحداها......

وهذا كله غير الجرْأة أو البَذَاءِ فيمن يُبغضْن أزواجهن ، فإن المرأة إذا فَرَكتْ زوجَها لمنافَرة الطبيعة بينها وبينه ، مات ضعفُها الأنثَوِىُّ الذى يتم به جمالها واستمتاعُها والاستمتاعُ بها ، وتعقد بذلك لينُها أو تصلّب أو استحْجر، فتكونُ مع الرجل بخلاف طبيعتها ، فينقلبُ سُكْرها الدسائى بأنوثتها الجميلةِ عربدةً وخِلافا وشرًّا وصَخَبا ، ويخرُج كلامُها للرجل وهو من البغض كأنه فى صوتين لافى صوتٍ واحد ؛ ولعل هذا هو الذى أحسَّه الشاعر العربىّ بفطرته ، من تلك المرأة الصخَّابة الشديدةِ الصوت الباديةِ الغيظ . فضاعفَ لها فى تركيب اللفظ حين وصفها بقوله :

صُلُبَّةِ الصَّيْحةِ صَهْصَلِيقُها (*)

قال أبو معاوية : واستأذنت على (تلك) ، ودخلتُ بعد أن استوثقتُ أن عندها بعضَ محارِمِها ؛ فقلت : أنعم الله مساءَكِ يا أم محمد . قالت : وأنتَ فأنعم الله مساءك .

فأصغيتُ للصوت ، فإذا هو كأنما قد انتبه يتمطّى فى استرخاءٍ ، وكأنها تَقْبلنى به وتردُّنى معا ، لا هو خالصٌ للغضب ولا خالص للرضى .

فقلت : ياأم محمد ، إنى جائع لم أُلِمَّ اليوم بمنزلى . فقامت فقرَّبت ماحضر ، وقالت : معذِرَةً يا أبا معاوية ، فإنما هو جُهدُ المُقِلّ ، وليس يعدُو إمساكَ

(*) هذا من عجائب اللغة العربية ، إذا زاد المعنى زادوا له فى اللفظ . ورواية لسان العرب : « (شديدة) الصيحة » وليست بشىء ، فليصححها من يقتنى اللسان من القراء .

الرَّمَق . فقلت : إن الجَوعانَ غير الشَّهوان ، والمؤمن يأكل في مِعًى واحد (*) ، ولم يخلق الله قمحا للملوك وقمحا غيره للفقراء .

ثم سَمَّيتُ ومددتُ يدى أتحسَّسُ ما على الطَّبَق ، فإذا كِسَرٌ من الخبز ، معها شىء من الجزَر المسلوق ، فيه قليلٌ من الخل والزيت ؛ فقلت فى نفسى : هـذا بعضُ أسباب الشر ! وما كان بى الجوعُ ولا سَدُّه ، غيرَ أنى أردت أن أعرفَ حاضِرَ الرزقِ فى دار الشيخ ، فإن مثلَ هـذه القـلة فى طعام الرجل هى عند المرأة قِـلةٌ من الرجل نفسِه ؛ وكلُّ ما تَفقِده من حاجاتها وشهواتِ نفسِها ، فهو عندها فقرٌ بمعنيين : أحدهما من الأشياء ، والآخر من الرجل ؛ كلمـا أكثر الرجلُ من إتحافها كـثُرَ عندها ، وإن أقلَّ قلَّ . وإنما خُلقت المرأةُ بطنا يلدُ ، فبطنُها هو أكبرُ حقيقتِها ، وهذه غايتُها وغايةُ الحكمةِ فيها ؛ لاجَرَمَ كان لها فى عقلها مَعِـدةٌ معنوية ؛ وليس حبُّها للحِلَى والثياب والزينةِ والمـال ، وطِماحُها إليها ، واستهلاكُها فى الحرص عليها والاستشرافِ لها — إلا مظاهراً من حكم البطنِ وسلطانِه ؛ فذلك كلُّه إذا حقَّقْتَه فى الرجل لم تجده عنده إلا من أسباب القوة والسُّلطة ، وكان فقـدُه من ذرائع الضعف والقِـلة ؛ فإذا حققْتَه فى المرأة ألفيتَه عندها من معانى الشِّبَع والبَطَر ، وكان فقدُه عندها كأنه فن من الجوع ، وكانت شهوتُها له كالقَرَم إلى اللحم عند من حُرِمَ اللحم ؛ وهذا بعضُ الفرق بين الرجال والنساء ؛ فإن يكونَ عقلُ المرأة كعقل الرجل ، لمكان الزيادة فى معانيها « البطنيَّة » ، فحُسِبَت لهـا الزيادة ههُنا بالنقص هناك ؛ فهن ناقصاتُ عقلٍ ودين كما ورد فى الحديث : أما نقصُ العقل فهذه علته ، وأما الدين فلغلبة تلك المعانى على طبيعتها كما تغلب على عقلها ؛ فليس نقصُ الدين فى المرأة نقصا فى اليقين

(*) فى بعض الأثر : المؤمن يأكل فى معى واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء . وهذا الحديث رمز عجيب لبهيمية من لايرى الدنيا إلا الدنيا فقط .

أو الإيمانِ ، فإنها فى هذين أقوى من الرجل ، وإنما ذاك هو النقصُ فى المعانى الشديدة التى لا يكمل الدين إلا بها : معانى الجوع من نعيم الدنيا وزينتِها ، وامتدادِ العين إليها ، واستشرافِ النفس لها ؛ فإن المرأةَ فى هذا أقلُّ من الرجل ، وهى لهذه العلةِ ما برحتْ تُؤْثِرُ دائماً جمالَ الظاهر وزينتَه فى الرجال والأشياء ، دون النظر إلى ما وراء ذلك من حقيقة المنفعة

✡ ✡ ✡

قال أبو معاوية : وأريتُها أنى جائع ، فنَهَشْتُ نهشَ الأعرابى ؛ كيلا تفطنَ إلى ما أردتُ من زَعْم الجوع ؛ ثم أحببتُ أن أستدْعِيَ كلامها وأستميلَها لأن تضحكَ وتُسَر ، فأُغيِّرَ بذلك ما فى نفسها ، فيجدَ كلامى إلى نفسها مذهباً ؛ فقلت : ياأم محمد ، قد تحرَّمتُ بطعامكِ ، ووَجَبَ حقى عليك ؛ فأشيرى علىَّ برأيك فيما أستصْلِحُ به زوجتى ، فإنها غاضبة علىّ ، وهى تقول لى : والله ما يُقيم الفأرُ فى بيتك إلا لحبِّ الوطن ... وإلا فهو يَسترزِقُ من بيوتِ الجيران !

قالت : وقد أعدَمتْ حتى من كِسَر الخبز والجزَر المسلوق ؟ اللهَ منك ! لقد استأصَلْتَها من جذورها ؛ إن فى أمراض النساء الحُمّى التى اسمها الحمّى ، والحمّى التى اسمُها الزَّوج ...

فقلت : اللهَ اللهَ ياأم محمد ! لقد أيسَرْتِ بعدنا ، حتى كان الخبز والجزرَ المسلوقَ شيءٌ قليل عندك من فَرْط ما يتيسَّر ؛ أو ما علمتِ أن رزقَ الصالحين كالصالحين أنفسِهم : يصومُ عن أصحابه اليومَ واليومين ... وكأنكِ ما سمعتِ شيئاً من أخبار أُمهات المؤمنين أزواجِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونساءِ أصحابه رضوانُ الله عليهم ؛ فما خيرُ امرأة مسلمةٍ لا تكون بأدبها وخُلقها الإسلامىّ كأنها بنتُ إحدى أمهات المؤمنين ؟

أفرأيتِ لو كنتِ فاطمةَ بنت محمد صلى الله عليه وسلم : أفكان ينقلك هذا

إلى أحسنَ مما أنتِ فيه من العيش ؟ وهل كانت فاطمةُ بنتَ ملكٍ تعيش فى أحلام نفسِها ، أو بنتَ نبيٍ تعيش فى حقائق نفسِها العظيمة ؟

تقولين : إنى استأصلتُ أمَّ معاويةَ من جُذورها ؛ فما أمُّ معاويةَ وما جذورُها ؟ أهى خيرٌ من أسماءَ بنتِ أبى بكر صاحبِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد قالت عن زوجها البطل العظيم : تزوّجنى وما له فى الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غيرُ فرَسِه وناضحِه (*) ، فكنت أعلفُ فرَسَه وأكفيه مؤنتَه وأسوسُه ، وأدُقّ النَّوى لناضحِه وأعلفُه ، وأستقى الماء وأخرزُ غَربَه (**) وأعجن ؛ وكنت أنقلُ النوى على رأسى من ثُلثَىْ فرسخ ، حتى أرسل إلىَّ أبو بكر بجارية فكفتْنى سياسةَ الفرس ، فكأنما أعتقنى !

هكذا ينبغى لنساء المسلمين فى الصبر والإباء والقوة ، والكبرياء بالنفس على الحياة كائنة ما كانت ، والرضا والقناعة ومؤازرةِ الزوج وطاعتِه ، واعتبارِ مالهن عند الله لا مالَهنَّ عند الرجل ؛ وبذلك يرتفعْنَ على نساء الملوك فى أنفسهن ، وتكون المرأة منهن وما فى دارها شيء وعندها أن فى دارها الجنة . وهل الإسلام إلا هذه الروح السماويةُ التى لا تهزمها الأرضُ أبدا ، ولا تُذِلها أبدا ، مادام يأسُها وطمعُها معلّقين بأعمال النفس فى الدنيا لا بشهوات الجسم من الدنيا ؟

هل الرجل المسلم الصحيح الإسلام ؛ إلا مثلُ الحرب يثور حولها غبارُها ، ويكون معها الشظَف والبأس والقوة والاحتمال والصبر ؛ إذ كان مفروضا على المسلم أن يكون القوةَ الإنسانية لا الضعف ، وأن يكون اليقينَ الإنسانىَّ لا الشك ، وأن يكون الحقَّ فى هذه الحياة لا الباطل ؟

وهل امرأةُ المسلم إلا تلك المفروضُ عليها أن تُمِدَّ هذه الحربَ بأبطالها ،

(*) النواضح : الإبل يستقى عليها ، واحدها ناضح ، وسائقها النضاح .

(**) الغرب : الدلو العظيمة تتخذ من جلد الثور .

وعَتادِ أبطالها، وأخلاقِ أبطالها؛ ثم ألاَّ تكونَ دائما إلا من وراء أبطالها؟ وكيف تلدُ البطلَ إذا كان فى أخلاقها الضعةُ والمطامع الذليلة والضجرُ والكسل والبلادة؟ ألَا إن المرأة كالدار المبنيَّة: لا يَسْهل تغييرُ حدودها إلا إذا كانت خَرابا!

فاعترَضتْه امرأةُ الشيخ وقالت: وهل بأْس بالدار إذا وُسِّعتْ حدودُها من ضِيق؟ أتكون الدار فى هذا إلى نقصِها أو تمامِها؟

قال أبو معاوية: فكدتُ أنقطعُ فى يدها، وأحببت أن أمْضِىَ فى استمالتها، فتركتُها هُنَيْهَة ظافرةً بى، وأريتُها أنها شدَّتنى وَثاقا، وأطرقتُ كالمفكِّر؛ ثم قلت لها: إنما أحدثك عن أم معاويةَ لأبى معاوية؛ وتلك دارٌ لا تملك غيرَ أحجارها وأرضها فبأى شىءٍ تتسع؟

زعموا أنه كان رجلٌ عامل يملك دُوَيْرة قد التصقتْ بها مساكنُ جيرانه، وكانت له زوجةٌ حمقاءُ ماتزال ضيِّقة النفس بالدار وصغَرِها، كأن فى البناء بناءً حول قلبها؛ وكانا فقيرين، كأم معاوية وأبى معاوية؛ فقالت له يوما: أيها الرجلُ، ألا توسِّع دارَك هذه، ليعلم الناس أنك أيسرتَ وذهب عنك الضرُّ والفقر؟ قال: فماذا أوسِّعها وما أملك شيئا؟ أؤمسك بيمينى حائطا وبشمالى حائطا فأمدُّهما أُباعِدُ بينهما...؟ وهبنى ملكتُ التَّوسِعةَ ونفقتَها، فكيف لى بدور الجيران وهى ملاصقةٌ لنا بَيْتَ بَيت؟

قالت الحمقاء: فإننا لانريد إلا أن يَتعالَم الناسُ أننا أيسرنا: فاهدِم أنت الدار، فإنهم سيقولون: لولا أنهم وجدوا واتَّسعوا وأصبح المالُ فى يدهم لما هدموا...!

قال أبو معاوية: وغاظتنى زوجةُ الشيخ فلم أسمع لها هَمْسةً من الضحك لِمَثل الحمقاء، وما اخترعتُه إلا من أجلها، كأنها تريد أن يذهبَ عملى باطلا؛ فقلت:

وهل تتسع أمُّ معاوية من نقرها إلا كما اتسعَ ذلك الأعرابى فى صلاحه ؟

قالت : وما خبرُ الأعرابى ؟

قلت : دخل علينا المسجدَ يوما أعرابى جاء من البادية ، وقام يصلى فأطال القيامَ والناس يرمقونه ، ثم جعلوا يتعجبون منه ، ثم رفعوا أصواتهم يمدحونه ويصفونه بالصلاح ؛ فقطع الأعرابىُّ صلاته وقال لهم : مع هذا إنى صائم ... !

قال أبو معاوية : فما تمالكتْ أن ضحكت ، وسمعتُ صوت نفْسها وميَّزْتُ فيه الرضى مقبِلاً على الصلح الذى أتسبَّبُ له . ثم قلت :

وإذا ضاقت الدار فلمَ لا تتسع النفسُ التى فيها ؟ المرأةُ وحدها هى الجوُّ الإنسانىُّ لدار زوجها ، فواحدةٌ تدخلُ الدَّارَ فتجعل فيها الروضةَ ناضرةً مُتَرَوِّحةً باسمةً ، وإن كانت الدَّار قحطةً منْحُوتةً ليس فيها كبيرُ شىء ؛ وامرأة تدخل الدارَ فتجعل فيها مثلَ الصحراء برمالها وقَيظها وعواصفِها ، وإن كانت الدَّار فى رِياشها ومَتاعها كالجنة السُّندُسِيَّة ؛ وواحدة تجعل الدار هى القبر . والمرأةُ حقُّ المرأة هى التى تترك قلبَها فى جميع أحواله على طبيعته الإنسانية ، فلا تجعلُ هذا القلبَ لزوجها من جنس ما هى فيه من عيشة : مرة ذهباً ، ومرة فضة ، ومرة نحاساً أو خشباً أو تراباً ؛ فإنما تكون المرأةُ مع رجلها من أجْله ومن أجل الأمةِ معًا ؛ فعليها حقان لا حق واحدٌ ، أصغرُهما كبير ؛ ومن ثَمَّ فقد وجب عليها إذا تزوجتْ أن تستشعرَ الذاتَ الكبيرة مع ذاتها ؛ فإن أغضبها الرجلُ بهفوةٍ منه تجافتْ له عنها وصَفحتْ من أجل نظام الجماعة الكبرى ؛ وعليها أن تحكم حينئذ بطبيعة الأمة لا بطبيعة نفسها ، وهى طبيعة تأبى التفرقَ والانفراد ، وتقومُ على الواجب ، وتضاعفُ هذا الواجبَ على المرأة بخاصّة

والإسلامُ يضعُ الأمةَ ممثّلةً فى النسل بين كل رجل وامرأته ، ويُوجبُ هذا المعنى إيجابا ، ليكونَ فى الرجل وامرأته شىء غيرُ الذكورة والأنوثة ،

يجمعهما ويقيّد أحدَهما بالآخر ، ويضعُ فى بهيميّتهما التى من طبيعتها أن تتفق وتختلف ، إنسانيةً من طبيعتها أن تتفق ولا تختلف .

ومتى كان الدينُ بين كل زوج وزوجته ، فهما اختلفا وتَدَابَرا وتعقَّدت نفساهما ، فإن كلّ عقدة لا تجىء إلا ومعها طريقةُ حلّها ؛ وان يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غَلَبه ، وهو اليُسْرُ والمساهَلَةُ ، والرحمةُ والمغفرةُ ، ولينُ القلب وخشيةُ الله ؛ وهو العهدُ والوفاء ، والكرمُ والمؤاخاةُ والإنسانية ؛ وهو اتساعُ الذات وارتفاعُها فوق كل ما تكون به منحطةً أو ضيقة

(قال أبو معاوية) : فحقُّ الرجلِ المسلم على امرأته المسلمةِ هو حقٌّ من الله ، ثم من الأمة ، ثم من الرجل نفسه ، ثم من لطفِ المرأة وكرمها ، ثم مما بينهما معا . وليس عجيبا بعد هذا ما روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لو كنتُ آمراً أحداً أن يسجدَ لأحدٍ ، لأمرتُ النساء أن يَسْجُدْنَ لأزواجهن ؛ لما جعل الله لهم عليهن من الحق »

وهذه عائشةُ أم المؤمنين قالت : يامعشرَ النساء ، لو تَعلمنَ بحق أزواجكن عليكن ، لجعلت المرأةُ منكن تمسحُ الغبارَ عن قَدَمَى زوجِها بحُرّ وجهِها .

✡ ✡ ✡

(قال أبو معاوية) : وكان الشيخ قد استبطأنى وقد تركتُه فى فِناء الدار ، وكنت زوّرتُ فى نفسى كلاما طويلا عن فَروته الحقيرة التى يلبسها فيكون فيها من بَذاذَة الهيئة كالأجير الذى لم يجد من يستأجره فظهرَ الجوعُ حتى على ثيابه ... وقد مرّ بالشيخ رجل من المسَوِّدة (*) وكان الشيخ فى فروته هذه جالسافى موضع فيه خليجٌ من المطر ، فجاءه المسوّد فقال : قم فاعبُر بِى هذا الخليج ! وجذبه بيده فأقامه وركبه والشيخ يضحك .

(*) الذين يلبسون السواد ، وهم شيعة العباسيين .

وكنت أريد أن أقول لأم محمد : إن الصحوَ فى السماء لا يكون فقرا فى السماء ، وإن فروة الشيخ تعرف الشيخ أكثر من زوجته ، وإن المؤمن فى لذات الدنيا كالرجل الذى يضع قدميه فى الطين ليمشى : أكبر همّه ألا يتجاوزَ الطينُ قدميه .

ولكن صوت الشيخ ارتفع : هل عليكم إذْن ؟

قال أبو معاوية : فبَدرْتُ وقلت : بِاسْمِ الله ادخل . كأنى أنا الزوجة ... وسمعتُ همسا من الضحك ؛ ودخل أبو محمد فجاس إلى جانبى ، وغمزنى فى ظهرى غمزة ؛ فقلت : يا أم محمد إن شيخك فى ورَعه وزهده لَيُشْبِهه ما يُشبِهُ الهُدهُد ، ويُرويه ما يروى العُصفور ؛ ولئن كان متهدِّما فإنه جَبَل علم ، « ولا تنظرى إلى عَمَش عينيه ، وحُموشةِ ساقيه . فإنه إمام وله قَدْرٌ »(*)

فصاح الشيخ : قم أخزاك الله ! ما أردتَ إلا أن تعرِّفها عيوبى !

قال أبو معاوية : ولكنى لم أقم ، بل قامت زوجة الشيخ فقبّلت يده ...

قُبْحٌ جميل (١)

دخل أحمدُ بن أيمن (كاتبُ ابن طولون) البصرة ، فصنع له مسلمُ بن عمران التاجرُ المتأدبُ صنيعا دعا إليه جماعةً من وجوه التجار وأعيان الأدباء ، فجاء ابنا صاحب الدعوة ، وهما غلامان ، فوقفا بين يَدى أبيهما ، وجعل ابنُ أيمن يُطيل النظرَ إليهما ويُعْجَبُ من حسنهما وبَزّتهما ورُوائهما ، حتى كأنما أُفرِغا فى

(*) ما بين القوسين هو الوارد فى التاريخ ، وعليه بنينا هذه القصة .

(١) انظر ص ٢٠٩ « حياة الرافعى »

الجمال وزينته إفراغا ، أو كأنما جاءا من شمسٍ وقمرٍ لامن أبوين من الناس ، أو هما قد نبتا فى مثل تهاويلِ الزهر من زينته التى تُبدِعُها الشمس ، ويَصقِلُها الفجر ، ويتندى بها رُوحُ الماءِ العذب ؛ وكان لا يصرف نظرَه عنهما إلا رجع به النظر ، كأن جمالهما لا ينتهى فما ينتهى الإعجابُ به .

وجعل أبوهما يسارِقُه النظرَ مُسارَقةً ويبدو كالمتشاغِل عنه ، لِيَدَع له أن يتوسَّمَ ويتأمل ما شاء ، وأن يملأَ عينيه بما أعجبه من لؤلؤتيْه وتخايلهما ؛ بَيْدَ أن الحُسنَ الفاتنَ يأبى دائما إلا أن يسمعَ من ناظره كلمةَ الإعجاب به ، حتى لينطق المرء بهذه الكلمة أحيانا وكأنها مأخوذة من لسانه أخذاً ، وحتى ليُحسُّ أنَّ غريزةً فى داخله كلَّمَها الحُسنُ من كلامِه فردَّت عليه من كلامها .

قال ابنُ أيمن : سبحان الله ما رأيتُ كاليوم قطّ دُمْيَتَيْنِ لا تفتّح الأعينُ على أجملَ منهما ؛ ولو نزلا من السماء وألبستْهما الملائكةُ ثيابا من الجنة ، ما حسبتُ أن تصنَعَ الملائكة أظرفَ ولا أحسنَ مما صنعت أمُّهما .

فالتفت إليه مسلم وقال : أحب أن تعوِّذهما . فمد الرجل يدَه ومَسَح عليهما ، وعوّذهما بالحديث المأثور ، ودعا لهما ، ثم قال : ما أراك إلا استجدْتَ الأمّ فحَسُنَ نسلك وجاء كاللؤلؤ يشبه بعضُه بعضا ، صِغارُه من كباره ؛ وما عليك ألّا تكون قد تزوجت ابنةَ قيصر فأولدتَها هذين وأخرجتْهما هى لك فى صِيغتها الملوكية (*) من الحسن والأدبِ والرَّونق ، وما أرى مثلَهما يكونان فى موضع إلا كان حولهما جلالُ المُلك ووقارُه ، مما يكون حولهما من نور تلك الأم .

فقال مسلم : وأنت على ذلك غيرُ مصدِّق إذا قلت لك إنى لا أحب المرأة الجميلَة التى تصف ، وليس بى هوى إلا فى امرأة دميمةٍ هى بدمامتها أحبُّ

(*) تجىء هذه الكلمة فى كتب الأدب والتاريخ على غير قاعدة النسب ، وهو الأفصح فى رأينا ، ومن ذلك تسمية الإمام ابن جنى كتابه : « التصريف الملوكى »

النساء إلىّ ، وأخفهن على قلبي ، وأصلحهن لى ؛ ماأعدِلُ بها ابنةَ قيصرَ ولا ابنة كسرَى .

فبقى ابن أيمن كالمشدوه من غرابة مايسمع ، ثم ذكر أن من الناس مَن يأكل الطينَ ويستطيبه لفسادٍ فى طبعه ؛ فلا يحلو السُّكَّرُ فى فمه وإن كان مكرَّراً خالصَ الحلاوة ؛ ورَثَى أشدّ الرثاء لأمّ الغلامين أن يكونَ هذا الرجل الجِلفُ قدضارَّها (*) بتلك الدميمةِ أو تسرَّى بها عليها ؛ فقال وماتملك نفسه : أمَا والله لقد كفَرتَ النعمة ، وغدرْت وجحدْتَ وبالغتَ فى الضُّر ، وإن أمَّ هذين الغلامين لامرأةٌ فوقَ النساء ، إذ لم يَتبيَّنْ فى ولديها أثرٌ من تغيُّر طبعها وكدُورِ نفسها ؛ وقدكان يَسعُها العذرُ لو جعلتْهما سَخْنَةَ عينِك ، وأخرجتْهما للناس فى مَساوئك لافى محاسنِك ، وما أدرى كيف لا تَنِدُّ عليك ، ولا كيف صَلُحَتْ بمقدار مافسدْتَ أنت ، واستقامتْ بمقدار ماالتويتَ ؛ وعجيبٌ والله شأنُكما ! إنها لتغلو فى كرم الأصل والعقل والمروءة والخلق ، كما تغلو أنت فى البهيمية والنزَق والغدرِ وسوء المكافأة !

قال مسلم : فهو والله ماقلتُ لك ، وما أحب إلا امرأةً دميمةً قد ذهبت بى كلَّ مذهب ، وأنستْنى كلَّ جميلة فى النساء ، ولئن أخذتُ أصفُها لك لما جاءت الألفاظ إلا من القُبح والشَّوْهةِ والدَّمامة ؛ غير أنها مع ذلك لا تجىء إلّا دالّةً على أجمل معانى المرأة عند رجُلها فى الحظوة والرضى وجمالِ الطبع ؛ وانظر كيف يلتئم أن تكونَ الزيادة فى القبح هى زيادةً فى الحسن وزيادةً فى الحب ، وكيف يكونُ للفظ الشائِه وما فيه لنفسى إلا المعنى الجميل ، وإلا الحسُّ الصادقُ بهذا المعنى ، وإلا الاهتزازُ والطرب لهذا الحسّ ؟

قال ابنُ أيمن : والله إنْ أراك إلا شيطانا من الشياطين ، وقد عجّل الله

(*) المضارة : اتخاذ الضرة على الزوجة .

لك من هـذه الدميمة زوجتك التى كانت لك فى الجحيم ، اجتمعا معًا على تعذيب تلك الحوراء الملائكية أمّ هذين الصغيرين ، وما أدرى كيف يتصلُ ما بينكما بعد هذا الذى أدخلتَ من القبح والدّمامة فى معاشرتها ومُعايشتها ، وبعد أن جعلتَها لا انتظار إليك إلا بنظرتها إلى تلك ؛ أفبَهيمةٌ هى لا تعقل ، أم أنت رجل ساحر ، أم فيك ماليس فى الناس ، أم أنا لا أفقه شيئا ؟

فضحك مسلم وقال : إن لى خبراً عجيبا : كنت أنزل « الأُبُلَّة » وأنا مُتَعَيِّش (*) فحملتُ منها تجارةً إلى البصرة فربحت ، ولم أزل أحمل من هذه إلى هـذه فأربح ولا أخسر ، حتى كثر مالى ؛ ثم بدا لى أن أتّسع فى الآفاق البعيدة لأجمع التجارة من أطرافها ، وأبسطَ يدى للمال حيث يكثر وحيث يقلّ ، وكنت فى مَيْعة الشباب وغُلَوَائه ، وأولِ هَجْمة الفتوّة على الدنيا ؛ وقلت : إن فى ذلك خلالا : فأرى الأممَ فى بلادها ومَعايِشها ، وأتقلّبُ فى التجارة ، وأجمع المال والطرائف ، وأُفيدُ عِظةً وعبرة ، وأعلم عِلما جديداً ؛ ولعلى أصيبُ الزوجةَ التى أشتهيها وأصوِّر لها فى نفسى التصاوير ، فإن أمرى من أوله كان إلى عُلوٍّ ؛ فلا أريد إلا الغاية ، ولا أرمى إلا للسَّبق ، ولا أرضى أن أتخلفَ فى جماعة الناس . وكأنى لم أر فى الأبلّة ولا فى البصرة امرأةً بتلك التصاوير التى فى نفسى ، فتأخذها عينى ، فتعجبَنى ، فتصلُح لى ، فأتزوّجَ بها ؛ وطمعتُ أن أستنزل نجما من تلك الآفاق أُحرِزُه فى دارى ؛ فما زلتُ أرمى من بلد إلى بلد حتى دخلتُ «بلخ» (**) من أجلّ مدُن خُراسان وأوسعِها غَـلّة ، تُحمَلُ غلّتُها إلى جميع خراسان وإلى خُوارَزْم ؛ وفيها يومئذ ـ كان ـ عالمُها وإمامُها « أبو عبد الله البَلْخى » ، وكنا نعرف اسمَه فى البصرة : إذ كان

(*) أى مكتسب ليعيش لا ليغتنى ، وهذا يسميه العامة (المتسبب)

(**) موقعها اليوم فى بلاد الأفغان .

قد نزلها فى رحلته وأكثر الكتابةَ بها عن الرُّواة والعلماء؛ فاستخفَّتنى إليه نَزِيَّةٌ من شوقى إلى الوطن، كأن فيه بلدى وأهلى؛ فذهبت إلى حلْقته، وسمعتُه يفسر قولَ النبى صلى الله عليه وسلم: «سوداءُ ولودٌ خيرٌ من حسناء لاتلد.» فما كان الشيخُ إلا فى سحابة، وما كان كلامه إلا وَحيا يوحى إليه؛ سمعت والله كلاما لاعهدَ لى بمثله؛ وأنا من أول نشأتى أجلس إلى العلماء والأدباء، وأُداخِلُهم فى فنونٍ من المذاكرة؛ فما سمعتُ ولا قرأتُ مثل كلام الباخىّ، ولقد حفظتُه حتى ما تفوتُنى لفظة منه، وبقى هذا الكلام يعملُ فى نفسى عمله ويدفعنى إلى معانيه دفعاً، حتى أتى عَلَىَّ ماسأحدِّثك به. إن الكلمةَ فى الذهن لتوجِدُ الحادثةَ فى الدنيا.

قال ابن أيمن: اطْوِ خبرك إن شئت، ولكن اذكر لى كلام الباخى، فقد تعلَّقتْ نفسى به.

قال: سمعتُ أبا عبد الله يقول فى تأويل ذلك الحديث: أمَّا فى لفظ الحديث فهو من معجزات بلاغة نبينا صلى الله عليه وسلم، وهو من أعجب الأدب وأبرعِه، ماعلمت أحداً تنبَّهَ إليه؛ فإنه صلى الله عليه وسلم لا يريد السوداءَ بخصوصها، ولكنه كَنَى بها عما تحت السواد، وما فوقَ السواد، وما هو إلى السواد، من الصفات التى يَتَقَبَّحُها الرجالُ فى خِلقة النساء وصُوَرِهِنَّ؛ فألطَفَ التعبيرَ ورَقَّ به، رفعاً لشأن النساء أن يصفَ امرأة منهن بالقُبح والدّمامة، وتنزيهاً لهذا الجنس الكريم، وتنزيهاً للسانه النبوىّ؛ كأنه صلى الله عليه وسلم يقول: إن ذِكْرَ قُبْح المرأة هو فى نفسه قبيحٌ فى الأدب، فإن المرأةَ أُمّ أو فى سبيل الأمومة؛ والجنةُ تحت أقدام الأمهات؛ فكيف تكون الجنة التى هى أحسن ما يُتَخَيَّلُ فى الحسن. تحت قدمى امرأة، ثم يجوز أدبا أو عقلا أن توصف هذه المرأةُ بالقبح.

أمَا إن الحديث كالنَّصّ على أن من كمال أدب الرجل إذا كان رجلا ألّا يصفَ امرأة بقبح الصورة ألبتَّه ، وألّا يجرىَ فى لسانه لفظ القبح وما فى معناه موصوفا به هذا الجنسُ الذى منه أمّه : أيَوَدُّ أحدُكم أن يمزّق وجهَ أمّه بهذه الكلمة الجارحة ؟

وقد كان العربُ يُفَصِّلون لمعانى الدمامة فى النساء ألفاظا كثيرة ؛ إذ كانوا لا يرفعون المرأة عن السائمة والماشية ؛ أما أكمل الخلْق صلى الله عليه وسلم ، فما زال يوصّى بالنساء ويرفع شأنهن حتى كان آخرُ ماوصى به ثلاثَ كلمات ، كان يتكلم بهن إلى أن تَلَجْلَجَ لسانُه وخَفِيَ كلامه ؛ جعل يقول : « الصلاة ... الصلاة ، وما ملكتْ أيمانُكم ، لا تكلّفوهم ما لا يطيقون ؛ اللهَ اللهَ فى النساء ! »

(قال الشيخ) : كأَن المرأةَ من حيث هى إنما هى صلاةٌ تتعبَّد بها الفضائلُ ، فوجبتْ رعايتها وتَلَقّيها بحقها ؛ وقد ذَكَرَها بعد الرقيق ، لأن الزواج بطبيعته نوعُ رِقّ ؛ ولكنه خَتَمَ بها وقد بدأ بالصلاة ، لأن الزواج فى حقيقته نوعُ عبادة .

(قال الشيخ) : ولو أن أمًّا كانت دميمةً شَوهاءَ فى أعين الناس ، لكانت مع ذلك فى عين أطفالها أجملَ من ملِكة على عرشها ؛ ففى الدنيا من يصفُها بالجمال صادقًا فى حسِّه ولفظِه لم يكذبْ فى أحدهما ؛ فقد انتفى القبحُ إذن ، وصار وصفُها به فى رأى العين تكذيبا لوصفها فى رأى النفس ، ولا أقلَّ من أن يكون الوصفان قد تعارَضا فلا جمال ولا دمامة .

(قال الشيخ) : وأما فى معنى الحديث ، فهو صلى الله عليه وسلم يقرّر للناس أن كرمَ المرأة بأمومتها ، فإذا قيل : إن فى صورتها قبحا . فالحسناء التى لا تلد أقبحُ منها فى المعنى . وانظر أنت كيف يكون القبحُ الذى يقال إن الحسن أقبحُ منه ... !

فمن أين تناولتَ الحديثَ رأيته دائراً على تقدير أنْ لا قبحَ فى صورة المرأة ،

وأنها منزّهة فى لسان المؤمن أن توصفَ بهذا الوصف، فإن كلماتِ القبح والحسن لغةٌ بهيمية تجعل حبّ المرأة حبا على طريقة البهائم، من حيث تَفْضُلها طريقةُ البهائم بأن الحيوانَ على احتباسه فى غرائزه وشهواته، لا يتكذّبُ فى الغريزة ولا فى الشهوة بتلوينهما ألوانًا من خَياله ووضعِهما مرّة فوق الحدّ، ومرة دون الحدّ (*).

فأكبرُ الشأن هو للمرأة التى تجعلُ الإنسانَ كبيراً فى إنسانيته، لا التى تجعله كبيرا فى حيوانيته؛ فلو كانت هذه الثانيةُ هى التى يصطلح الناس على وصفها بالجمال فهى القبيحةُ لا الجميلة؛ إذ يجب على المؤمن الصحيح الإيمان أن يعيشَ فيما يصلُح به الناس لا فيما يصطلح عليه الناس؛ فإن الخروجَ من الحدود الضيّقة للألفاظ، إلى الحقائق الشاملة، هو الاستقامةُ على طريقها المؤدّى إلى نعيم الآخرة وثوابها.

وهناك ذاتان لكل مؤمن: إحداهما غائبة عنه، والأخرى حاضرةٌ فيه؛ وهو إنما يصلُ من هذه إلى تلك، فلا ينبغى أن يَحْصُرَ السماويةَ الواسعةَ فى هذه الترابيَّة الضيّقة؛ والقبحُ إنما هو لفظ ترابىّ يشار به إلى صورةٍ وقع فيها من التشويه مثلُ معانى التراب، والصورة فانية زائلة، ولكنّ عملَها باقٍ؛ فالنظر يجب أن يكون إلى العمل؛ فالعملُ هو لا غيره الذى تَتعاوَرُه ألفاظ الحسن والقبح.

وبهذا الكمالِ فى النفس وهذا الأدبِ، قد ينظرُ الرجلُ الفاضلُ من وجه زوجته الشوهاءِ الفاضلة، لا إلى الشوهاء، ولكن إلى الحُور العين. إنهما فى رأى العين رجلٌ وامرأة فى صورتين متنافِرتين جمالا وقبحا؛ أما فى الحقيقة والعمل وكمال الإيمان الروحىّ، فهما إرادتان متّحدتان تجذبُ إحداهما

(*) بسطنا هذا المعنى فى كتابنا (السحاب الأحمر)

الأخرى جاذبيةَ عشق ، وتلتقيان معا فى النفسين الواسعتين ، والمرادِ بهما الفضيلةُ وثوابُ الله والإنسانية ؛ ولذلك اختار الإمامُ أحمدُ بن حنبل عوراءَ على أختها ، وكانت أختُها جميلة ، فسأل : مَن أعقلُهما ؟ فقيل : العوراء . فقال : زوِّجونى إياها فكانت العوراء فى رأى الإمام وإرادتِه هى ذاتَ العينين الكحيلتين ، لوفور عقله وكمال إيمانه .

(قال أبو عبد الله) : والحديثُ الشريفُ بعد كل هذا الذى حكيناه ، يدلّ على أن الحبَّ متى كان إنسانيا جاريًا على قواعد الإنسانية العامَّة ، متَّسِعا لها غيرَ محصورٍ فى الخصوص منها — كان بذلك علاجا من أمراض الخَيال فى النفس ، واستطاع الإنسان أن يجعل حُبَّه يتناول الأشياء المختلفة ، ويردُّ على نفسه من لذّاتها ؛ فإن لم يُسعدْه شىءٌ بخصوصه وجدَ أشياءَ كثيرةً تُسْعِدُه بين السماء والأرض ، وإن وقع فى صورة امرأته مالا يُعَدُّ جمالا ، رأى الجمالَ فى أشياءَ منها غيرِ الصورة ، وتَعَرَّف إلى مالا يَخفَى ، فظهر له ما يَخفَى .

وليست العينُ وحدَها هى التى تُؤَامَرُ فى أىّ الشيئين أجمل ، بل هناك العقل والقلب : فجوابُ العينِ وحدها إنما هو ثلثُ الحق ؛ ومتى قيل « ثلثُ الحق » فضياعُ الثُّلثين يجعله فى الأول حقا غير كامل .

فما نكرهه من وجهٍ قد يكون هو الذى نحبّه من وجه آخر ، إذا نحن تركنا الإرادة السليمة تعمل عملَها الإنسانىّ بالعقل والقلب ، وبأوسعِ النظرَين دون أن أضيقهما « فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعلَ الله فيه خيراً كثيراً . »

☆ ☆ ☆

فوثب ابنُ أيمن وأقبل يدور فى المجلس مما دخله من طَرَبِ الحديث ويقول : ماهذا إلا كلامُ الملائكة سمعناه منك يا بن عمران . قال مسلم : فكيف بك لو سمعتَه من أبى عبد الله ؛ إنه واللهِ قد حبَّب إلىّ السوداءَ

والقبيحةَ والدميمة ، ونظرتُ لنفسى بخير النظَرين ، وقلتُ : إن تزوَّجتُ يوما فما أبالى جمالا ولا قبحا ، إنما أريد إنسانيَّةً كاملة منى ومنها ومن أولادنا ، والمرأةُ فى كل امرأة ، ولـكن ليس العقل فى كل امرأة .

قال : ثم إنى رجعتُ إلى البصرة ، وآثَرْتُ السكنى بها ، وتعالَم الناسُ إقبالى ، وعلمتُ أنه لا يَحْسُنُ بى المُقامُ بغير زوجة ، ولم يكن بها أجلُّ قدراً من جدّ هذين الغلامين ، وكانت له بنت قد عَضَلَها وتعرَّض بذلك لعداوة خُطّابِها ؛ فقلت : ما لهذه البنت بدٌّ من شأن ، ولو لم تـكن أكملَ النساء وأجملَهن ماضنَّ بها أبوها رجَارةَ أن يأتيَه من هو أعلى ؛ فحدثتْنى نفسى بلقائه فيها ، فجئتُه على خَلْوة . . .

فقطع عليه ابن أيمن وقال : قد علمنا خبرَها من منظر هذين الغلامين ، وإنما نريدُ من خبر تلك التى تَعَشَّقْتَها .

قال : مهلاً ، فستنتهى القصةُ إليها . ثم إنى قلت : يا عمّ ، أنا فلانٌ بن فلان التاجر قال : ماخَفِىَ عنى محلّك ومحلُّ أبيك . فقلت : جئتُك خاطبا لابنتك . قال : والله مابى عنك رغبة ، ولقــد خطبها إلىّ جماعةٌ من وجوه البصرة وما أجبتهم ، وإنى لـكارهٌ إخراجَها عن حِضْنى إلى من يُقَوِّمُها تقويمَ العبيــد . فقلت : قد رفعها الله عن هذا الموضع ، وأنا أسألك أن تُدخِلَنى فى عَدَدِك ، وتَخْلِطَنى بِشَمْلك

فقال : ولا بدّ من هذا ؟ قلت : لابدّ . قال : أُغْدُ عَلَىَّ برجالك .

فانصرفتُ عنه إلى مـلأٍ من التجار ذوى أخـطارٍ ، فسألتهم الحضورَ فى غدٍ ؛ فقالوا : هــذا رجل قد ردَّ من هو أثْرَى منك ، وإنك لتُحَرِّكُنا إلى سَعْيٍ ضائعٍ .

قلت : لابدّ من ركوبكم معى . فركبوا على ثِقة من أنه سيردُّهم .

فصاح ابن أيمن وقد كادت روحه تخرج : فذهبتَ ، فزوَّجك بالجميلة الرائعة أمِّ هذين ؛ فما خبرُ تلك الدميمة ؟

قال مسلم : ياسيدى ، قد صبرتَ إلى الآن ؛ أفلا تصبر على كلمات تُنَبِّئُك من أين يبدأ خبر الدميمة ، فإنى ما عرفتها إلا فى العُرْسِ ...!

قال : وغَدَوْنا عليه فأحْسَنَ الإجابة وزوَّجنى ، وأطعم القومَ ونحر لهم ، ثم قال : إن شئتَ أن تبيتَ بأهلكَ فافعل ، فليس لها ما يُحْتَاجُ إلى التَّلَوُّم عليه وانتظارِه .

فقلت : هذا يا سيدى ما أحبه . فلم يزل يُحَدِّثنى بكل حَسَن حتى كانت المغرب ، فصلاّها بى ، ثم سبَّح وسبَّحتُ ، ودعا ودعوتُ ، وبقى مقبِلاً على دعائه وتسبيحه ما يلتفتُ لغير ذلك ، فأمضَّنى — علم اللهُ — كأنه يرى أن ابنته مُقْبِلَةٌ منى على مصيبة ، فهو يتضرَّع ويدعو ...!

ثم كانت العَتَمةُ فصلاّها بى ، وأخذ بيدى فأدخلنى إلى دار قد فُرِشَتْ بأحسن فَرْشٍ ، وبها خدم وجوارٍ فى نهايةٍ من النظافة ؛ فما استقرَّ بى الجلوس حتى نهض وقال : أسْتَوْدعك الله ، وقدَّم الله لكما الخير وأحْرَزَ التوفيق !

واكتنفنى عجائزُ من شمالِه ، ليس فيهنّ شابّة إلا من كانت فى الستين ... فنظرت فإذا وجوهٌ كوجوه الموتى ، وإذا أجسام باليـة يتَضَامُّ بعضها إلى بعض ، كأنها أطلالُ زمنٍ قد انقض بين يدىّ .

فصاح ابن أيمن : وإن دَميمتك لعجوزٌ أيضا ... ؟ ما أراك يا ابن عمران إلا قتلتَ أُمّ الغلامين ... !

قال مسلم : ثم جاوَزْنَ ابنتَه علَىّ وقد ملأْنَ عينىَّ هرما وموتا وأخيِلَة شياطين وظلالَ قُرود ، فما كدت أستفيق لأرى زوجتى ، حتى أسرعْن فأرخَيْنَ الستورَ علينا ؛ فحمدتُ الله لذهابهن ، ونظرت . . .

وصاح ابن أيمن وقد أكله الغيظ : لقد أطلْتَ علينا ، فستَحكى لنا قصتَك إلى الصباح ، قد علمناها ويلك ! فما خبرُ الدميمة الشوهاء ؟

قال مسلم : لم تكن الدميمةُ الشوهاء إلا العروس . . . .

✡ ✡ ✡

فزاغت أعيُن الجماعة ، وأطرق ابنُ أيمن إطراقةَ مَن وَرَد عليه ما حيَّره ؛ ولكن الرجل مَضى يقول :

ولما نظرتها لم أرَ إلا ما كنتُ حفظته عن أبى عبد الله الباخىّ ، وقلتُ : هى نفسى جاءت بى إليها ، وكأن كلام الشيخ إنما كان عملا يعمل فىّ ويُديرنى ويُصرِّفنى ؛ وما أسرع ما قامت المسكينةُ فأكبَّت على يدى وقالت :

« ياسيدى ، إنى سِرٌّ من أسرار والدى كتمه عن الناس وأفضى به إليك ، إذ رآك أهلاً لستره عليه ، فلا تخْفِرْ ظنَّه فيك ، ولو كان الذى يُطْلب من الزوجة حسنَ صورتها دون حُسْن تدبيرها وعفافِها ، لعَظُمَت مِحْنتى ، وأرجو أن يكون معى منهما أكثر مما قصَّر بى فى حُسْن الصورة ؛ وسأبلغ محبَّتَك فى كل ما تأمرنى ؛ ولو أنك آذيتَنى لعَدَدْتُ الأذى منك نعمةً ، فكيف إن وَسِعَنى كرمُك وسَتْرُك ؟ إنك لا تعاملُ اللهَ بأفضلَ من أن تكون سببا فى سعادة بائسةٍ مثلى . أفلا تحرِص ياسيدى على أن تكون هذا السببَ الشريف ... ؟ »

ثم إنها وثبتْ فجاءت بمالٍ فى كيس ، وقالت : ياسيدى ، قد أحلّ الله لك معى ثلاثَ حرائر وما آثرتَه من الإماء ؛ وقد سَوَّغتُك تزويجَ الثلاثِ وابتياعَ الجوارى من مال هذا الكيس ، فقد وقفتُه على شهواتك ، ولستُ أطلب منك إلا سترى فقط !

✡ ✡ ✡

قال أحمد بن أيمن : فحلَف لى التاجر أنها ملكتْ قلبى مِلْكا لا تصلُ إليه حسناءُ بحسنها ؛ فقلت لها : إن جزاء ما قدَّمْتِ ما تسمعينه منى : « والله لأجعلنَّك حظِّى من دنيايَ فيما يُؤْثِره الرجلُ من المرأة ، ولأضرِبَنّ على نفسى الحجابَ ، ما تنظر نفسى إلى أنثى غيرك أبداً . »

ثم أتممتُ سرورَها ، فحدثتها بما حفظته عن أبى عبد الله البلخىّ ، فأيقنتْ — والله يا أحمد — أنها نزلتْ منى فى أرفع منازلها ، وجعلتْ تَحْسُن وتحسُن ، كالغصن الذى كان مجرودا ، ثم وَخَزتْهُ الخُضْرَةُ من هنا ومن هنا .

وعاشرتُها ، فإذا هى أضبطُ النساء ، وأحسنهن تدبيراً ، وأشفقُهن علىّ ، وأحبُّهن لى ؛ وإذا راحتى وطاعتى أوّلُ أمرها وآخرُه ، وإذا عقلها وذكاؤها يُظهِران لى من جمال معانيها مالا يزال يكثُر ويكثر . فجعل القبح يقِلّ ويقل ، وزال القبح باعتيادى رؤيتَه ، وبقيت المعانى على جمالها ؛ وصارت لى هذه الزوجة هى المرأةَ وفوق المرأة .

ولما ولدتْ لى ، جاء ابنها رائعَ الصورة ؛ فحدثتْنى أنها كانت لاتزال تتمنى على كرم الله وقدرتِهِ أن تتزوّجَ وتلد أجملَ الأولاد ، ولم تدعْ ذلك من فكرها قط ، وألَّف لها عقلُها صورةَ أجمل غلام تتمثلُه وما برحتْ تتمثله ؛ فإذا هى أيضا كان لها شأنٌ كشأنى ، وكان فكرُها عملاً يعملُ فى نفسها ويديرها ويصرِّفها .

ورزقنى الله منها هذين الابْنَيْن الرائعين لك ، فانظر ؛ أىُّ معجزتين من معجزات الإيمان ... !

———— •• ————

الطائشة[1]

قال صاحبُها وهو يُحدِّثني من حديثها :

كانت فتاةً متعلِّمةً ، حُلوة المنظر ، حُلوةَ الكلام ، رقيقةَ العاطفة ، مُرْهَفَةَ الحسّ ، فى لسانها بيانٌ ولوجهها بيانٌ غيرُ الذى فى لسانها تَعْرِفُ فيه الكلامَ الذى لا تتكلم به ...

ولها طبعٌ شديدُ الطَّرَبِ للحياة ، مُسْتَرْسِلٌ فى مَرَحِهِ ، خفيف طَيَّاشٌ لو أثقلْتَه بجَبَلٍ لخفَّ بالجبل ، تحسبُها دائماً سَكْرَى تتمايلُ من طربها ، كأن أفكارَها المرِحةَ هى فى رأسها أفكارٌ وفى دَمِها خَمر ...

وكان هذا الطبعُ السكرانُ بالشباب والجمالِ والطرب ، يعملُ عملين متناقِضين ؛ فهو دلالٌ مُتراجعٌ منهزم ، وهو أيضا جُرْأَةٌ مُنْدفِعةٌ متهجِّمة .

وهزيمةُ الدلالِ فى المرأة إنْ هى إلا عَمَلٌ حَرْبى ، مُضْمَرَةٌ فيه الكَرَّةُ والهجوم ؛ وكثيراً ما ترى فيها النظرةَ ذاتَ المعنَيَيْن ؛ نظرةٌ واحدةٌ ، بها تُوَبِّخك المرأةُ على جراءتك معها . وبها أيضا تَعْذِلك على أنك لستَ معها أجرأ مما أنت ...!

٭ ٭ ٭

قلت : ويحكَ ياهذا ! أتعرفُ ماتقول ؟

قال : فمَنْ يعرفُ مايقول إذا أنا لم أعرف ؟ لقد أحببتُ خمسَ عشرةَ فتاة ، بل هُنَّ أحببْنَنى وفرَّغْنَ قلوبَهن لى ، ما اعتزَّتْ علىَّ منهن واحدة ، وقد ذهبن

---

(١) تقرأ قصة هذه الطائشة فى كتابنا « حياة الرافعى » ص ٢٢١ — ٢٢٣

بى مذهبا ، ولكنى ذهبتُ بهن خمسةَ عشَر !

قلت : فلا ريبَ أنك تحملُ الوِسامَ الإبليسىَّ الأوَّل من رُتبةِ الجَمْرة . . . فكيف استَهام بك خمسَ عشرةَ فتاة ؟ أجاهلاتٌ هنّ ؟ أعَمْياواتٌ هن . . ؟

قال : بل متعلّمات مُبصِرات يَرَيْنَ ويُدْرِكن ، ولا تُخطئ واحدةٌ منهن فى فهم أن رجلا وامرأةً قصةُ حُب . . . . وما خمسَ عشرةَ فتاة ؟ وما عشرون وثلاثون من فَتَيات هذا الزمن الحائرِ البائر ، الذى كَسَد فيه الزواجُ ، ورقَّ فيه الدين ، وسقط الحياء ، والتهبتْ العاطفة ، وانتشر اللّهو ، وكَثُرتْ فنونُ الإغراء ، واصطلح فيه إبليسُ والعلمُ يعملان معا . . ؛ وأُطلِقتِ الحرِّيةُ للمرأة ، وتوسعتِ المدارسُ فيما تقدِّم للفتَيات ، وأظهرتْ من الحفاوة بهن أمراً مُفْرِطا حتى أخذْن منها رُبعَ العلم . . . ؟

قلت : وثلاثةُ أرباعِ العلم الباقية ؟

قال : يأخذنها من الروايات والسيما .

علْمُ المدارس ! ماعِلْمُ المدارس ؟ إنهن لايصنعْن به شيئا إلا شهاداتٍ هى مكافأةُ الحفظ وإجازةُ النسيان من بَعد ؛ أما علمُ السيما والروايات فيصنعن به تاريخَهن . . . ورُبَّ منظر يشهدُه فى السيما ألفُ فتاة بمرَّةٍ واحدة ، فإذا استقرّ فى وَعْيِهنّ ، وطافت به الخواطرُ والأحلام — سلبهنَّ القرارَ والوقارَ فمثَّلْنه ألفَ مرَّة بألفِ طريقةٍ فى ألف حادثة !

يظنون أننا فى زمن إزاحةِ العقَباتِ النسائيةِ واحدةً بعد واحدة ، من حرية المرأة وعلمها ؛ أما أنا فأرى حريةَ المرأة وعلمَها لايُوجِدان إلا العقَباتِ النسائيةَ عَقَبةً بعد عقبة . وقد كان عيبُ الجاهلةِ المقصورةِ فى دارها أن الرجلَ يحتالُ عليها ، فصار عيبُ المتعلمةِ المفتوحِ لها البابُ أنها هى تحتالُ على الرجل ؛ فمرةً بإبداع الحيلةِ عليه ، ومرةً بتلقينه الحيلةَ عليها ؛ والغريب فى أمر هذا العلم أنه

هو الذى جعل الفتاةَ تبدأ الطريقَ المجهولَ بجهْل ... !

قلت : وما الطريق المجهول ؟

قال : الطريقُ المجهولُ هو الرجل ، وإطلاقُ الحرية للفتاة أطاق ثلاثَ حريّات : حريةُ الفتاة ، وحريةُ الحبّ ، والأخرى حرّيةُ الزواج ؛ ولما انطلق ثلاثتُهن معاً تغيَّرَ ثلاثتُهن جميعاً إلى فسادٍ واختلال .

أما الفتاةُ فكانت فى الأكثر للزواج ، فعادت للزواج فى الأقلّ وفى الأكثرِ للَّهو والغزل ؛ وكان لها فى النفوس وَقارُ الأمّ وحُرمةُ الزوجة ، فاجترأ عليها الشبّانُ اجتراءهم على الخليعة والساقطة ؛ وكانت مقصورةً لا تُنالُ بعيبٍ ولا يَتوَجَّهُ عليها ذمّ ، فمشتْ إلى عُيوبِها بقدمَيها ، ومشت إليها العيوبُ بأقدام كثيرة . . . وكانت بجملتها امرأةً واحدةً ، فعادت مما تَرى وتَعرفُ وتكابدُ كأنّ جسمَها امرأة ، وقلبَها امرأةٌ أخرى ، وأعصابَها امرأةٌ ثالثة ...

وأما الحبُّ ، فكان حبا تتعرَّف به الرجولةُ إلى الأُنوثة فى قيودٍ وشروط ، فلما صار حرًّا بين الرجولةِ والأنوثة ، انقلبَ حيلةً تغترُّ بها إحداهما الأخرى ؛ ومتى صار الأمرُ إلى قانونِ الحيلة ، فقد خرج من قانون الشرف ، ويرجعُ هذا الشرفُ نفسُه كما نراه ، ليس إلا كلمةً يُحتال بها .

وأما الزواجُ ، فلما صار حرًّا جاء الفتاةَ بشِبْه الزوج لا بالزوج ... وضَعُفتْ منزلتُه ، وقلَّ اتفاقُه ، وطال ارتقابُ الفتياتِ له ، فضعف أثرُه فى النفس المؤنَّثة . وكانت من قبلُ لفظتا (الشابّ ، والزوجِ) شيئاً واحداً عند الفتاة وبمعنًى واحد ، فأصبَحتا كلمتين متميّزتين : فى إحداهما القوةُ والكثرةُ والسهولة ، وفى الأخرى الضعفُ والقِلّة والتعذّر ؛ فالكلُّ شبّانٌ وقليلٌ منهم الأزواج ؛ وبهذا أصبح تأثيرُ الشاب على الفتاة أقوى من تأثير الشرف ، وعاد يُقنِعُها منه أخسُّ بُرهاناتِه ، لا بأَنه هو مُقْنع ، ولكنْ بأنها هى مهيّأَةٌ للاقتناع ...

وفى تلك الأحوال لا يكونُ الرجلُ إلا مغفَّلا فى رأى المرأة إذا هو أحبَّها ولم يكن محتالًا حِيلةَ مثله على مِثْلها ، ويظلُّ فى رأيها مغفَّلا حتى يخدَعها ويستَزِلّها ؛ فإذا فعل كان عندها نَذْلًا لأنه فعل ... وهذه حريةٌ رابعة فى لغة المرأةِ الحُرَّةِ والزواج الحُرّ والحب الحُرّ !

وانظر — بعيشِكَ — مافعلت الحريةُ بكلمة (التقاليد) ، وكيف أصبحتْ هذه الكلمةُ الساميةُ من مَبْذُوءِ الكلام ومكروهِهِ ، حتى صارت غيرَ طبيعيّةٍ فى هذه الحضارة ، ثم كيف أحالتها بجملتها فى هذا العصرِ أشهرَ كلمةٍ فى الألسنة ، يُتهَكَّمُ بها على الدين والشرفِ وقانونِ العُرْفِ الاجتماعىّ فى خوف المعَرَّة والدنيئةِ والتّصاوُنِ من الرذائلِ والمبالاةِ بالفضائل ؛ فكلُّ ذلك (تقاليد) ...

وقد أخذت الفتَيات المتعلّماتُ هذه الكلمةَ بمعانيها تلك ، وأجرَيْنَها فى اعتبارِهن مكروهةً وحْشيَّةً ، وأضفْن إليها من المعانى حواشىَ أخرى ، حتى ليكاد الأبُ والأمُّ يكونان عند أكثر المتعلمات من « التقاليد » ... أهى كلمةٌ أبدعتْها الحرية ، أم أبدَعها جهلُ العصر وحماقتُه ، وفجورُه وإلحادُه ؟ أهى كلمةٌ تعلّقَها الفَتياتُ المتعلماتُ لأنها لغةٌ من اللغة ، أم لأنها من لغةِ مايُحْبِبن ... ؟

« تقاليد » ... ؟ فما هى المرأةُ بدون التقاليد ... ؟ إنها البلادُ الجميلةُ بغير جَيْش ، إنها الكنزُ المخبوءُ مُعرَّضا لأعين اللصوص تحوطُه الغفلةُ لا المراقبة . هَبِ الناسَ جميعا شُرفاءَ مُتعفِّفين مُتصاونِين ؛ فإن معنى كلمةِ « كنزٍ » متى تُركتْ له الحريةُ وأُغفِلَ من تقاليد الحِراسة ، أوجدتْ حريتُه هذه بنفسها معنى كلمة « لص »

* * *

قال صاحبُنا : أما الفتاةُ المحرَّرَةُ من (التقاليد) ... كما عرفتُها فهى هذه التى أقصّ عليك قصتَها ، وهى التى جعلتنى أعتقد أن لكل فتاةٍ رُشْدَين : يَثبتُ أحدُهما بالسّن ، ويَثبت الآخرُ بالزواج . ولو أن عانِسا ماتت فى سن الخمسين

أو الستين لوَجب أن يقال : إنها ماتت نصفَ قاصر ! ولعل هذا من حكمة الشريعة فى اعتبار المرأةِ نصفَ الرجل ؛ إذ تمامُ شرفِها الاجتماعىّ أن يكونَ الرجلُ مضموما إليها فى نظام الاجتماع وقوانينه ؛ فالزوجُ على هذا هو تمامُ رُشْدِ الفتاة بالغةً مابلغتْ .

وأساسُ المرأةِ فى الطبيعة أساسٌ بدنىٌّ لاعقلىّ ، ومن هذا كانت هى المصنع الذى تُصنَعُ فيه الحياة ، وكانت دائما ناقصةً لاتتمُّ إلا بالآخر الذى أساسُه فى الطبيعة شأنُ عقلِه وشأنُ قوّته ...

واعتبرْ ذلك بالمرأة تدَرُّس وتتعلّم وتَنْبُغ ، فلو أنك ذهبتَ تمدحُها بوُفور عقلِها وذكائها ، وتُقرِّظها بنبوغها وعبقريتِها ، ثم رأتك لم تُلقِ كلمةً ولا إشارةً ولا نظرةً على جسمِها ومحاسنِها — لتحوّل عندها كلُّ مدحِك ذما ، وكلُّ ثنائك سُخرية ؛ فإن النبوغَ هاهنا فى أعصاب امرأةٍ تريد أن تعرفَ مع أسرار الكون أسرارَ كونِها هى ، هذا الكونِ البدنىّ الفاتن ، أو الذى تزعمُه هى فاتنا ، أو الذى لاترضاه ولا ترضى أن تكونَ صاحبتَه إلا إذا وجدت من يزعمُ لها أنه كونٌ فاتنٌ بديعٌ مزينٌ بشمسِه وقمرِه وطبيعتِه المتنَضِّرةِ التى تجعلُ مَسَّه مَسَّ ورَقِ الزَّهر .

مِثْلُ هذه إنما يكون الثناءُ عليها ثناءً عندها حينما يكونُ أقلُّه باللسان العلمىّ ولغتِه ، وأكثرُه بالنظر الفنِّىّ ولغتِه ؛ وهذا على أنها عالمةُ الجنسِ ونابغتُه ، ودليلُ شذوذِه العقلىّ ، والواحدةُ التى تجىء كالفَلْتةِ المفْرَدةِ بين الملايين من النساء ؛ فكيف بمَن دونَها ، وكيف بالنساء فيما هُنَّ نساءٌ به ؟

دعْ جماعةً من العلماء يمتحنون هذا الذى بيَّنتُ لك ، فيأتون بامرأةٍ جميلة نابغةٍ ، فيضعونها بين رجال لاتسمعُ من جميعهم إلا : ماأعقلَها ! ماأعقلَها ! ماأعقلَها ! ولا ترى فى عينَىْ كلّ منهم من أنواع النظر وفنونِه إلا نظرَ التلميذِ لمعلِّمةٍ

فى سنّ جَدَّته . . . فهذه لن تكونَ بعد قريب إلا فى حالة من اثنتين : إما أن يخرجَ عقلُها من رأسها ، أو . . . أو تخرجَ فى وجهها لِحْية . . . !

(ما أعقلَها) ! كلمةٌ حسنةٌ عند النساء لا يأبَيْنها ولا يذمُمْنَها ، غيرَ أن الكلمةَ البليغةَ العبقريةَ الساحرةَ ، هى عندهن كلمةٌ أخرى ، هى : (ما أجملَها !) ؛ إن تلك تُشبه الخبزَ القَفارَ لا شىءَ معه على الخِوان ، أما هذه فهى المائدة مُزيَّنة كاملة بطعامها وشرابها وأزهارِها وفكاهتِها وضحكِها أيضا .

وكأن العقلَ الإنسانىّ قد غضِب لمَهانةِ كلمته وما عَرَّها به النساء ، فأراد أن يُثبتَ أنه عقلٌ ؛ فاستطاع بحيلته العجيبة أن يجعل لكلمة : (ما أعقلَها) كلَّ الشأن والخطر ، وكلَّ البلاغة والسحر ، عند . . عند الطفلة . . . تفرحُ الطفلة أشدَّ الفرح ، إذا قيل : ما أعقلَها . . . !

✡ ✡ ✡

فقلت لمحدِّثى : كأنك صادقٌ يافتى ! لقد جلستُ أنا ذاتَ يوم إلى امرأة أديبة لها ظَرْفٌ وجمال ، وجاءت كبريائى فجلست معنا . . . وكانت (التقاليدُ) كالحاشية لى ؛ فعلمتُ بعدُ أنها قالت لصاحبة لها : « لا أدرى كيف استطاع أن ينسى جسمى وأنا إلى جانبه ، أُذكِّرُه أنى إلى جانبه ! لكأنما كانت لقلبه أبوابٌ يَفتحُ ماشاء منها ويُغلِق . »

قال محدِّثى : فهذا هذا ؛ إن إحساسَ المرأة بالعالَم وما فيه من حقائق الجمال والسرور ، إنما هو فى إحساسها بالرجل الذى اختارته لقلبها ، أو تَهُمُّ أن تختارَه ، أو تودُّ أن تختاره ؛ ثم إحساسِها بعد ذلك بالصُّوَر الأخرى من رجُلِها فى أولادها . وحياةُ المرأة لا أسرارَ فيها ألبتَّة ، حتى إذا دخلها الرجلُ عرفت بذلك أن فيها أسراراً ، وتَبيَّنتْ أن هذا الجسم الآخرَ هو فلسفةٌ عميقةٌ لجسمها وعقلِها .

قال : وقد جلستُ مرة مع صاحبة القصة ، وأنا مُغْضَبٌ أو كالمغضب ... ثم تَلاحَيْنا وطال بيننا التَّلاحي ؛ فقالت لى : أنت بجانبي وأنا أسألُ : أين أنت ؟ فإنك لستَ كلّك الذى بجانبي !

قال : ومذهبي فى الحب : الكبرياءُ ، كما قلتَ أنتَ ، غير أنها الكبرياءُ التى تدرك المرأةُ منها أنى قوىّ لا أنى مُتكبِّر ؛ كبرياءُ الرجل إمَّا مَهيبٌ مَرِح يملكُ أفراحَ قلبها ، وإما حزينٌ مَهيبٌ يملك أحزانَ هذا القلب .

إن المرأة لا تحب إلا رجلا يكون أوّلُ الحسن فيه حُسْنَ فهمِها له ، وأوّلُ القوّةِ فيه قوةَ إعجابِها به ، وأوّلُ الكبرياء فيه كبرياءَها هى بحبِّه وكبرياءَها بأنه رجل ؛ هذا هو الذى يجتمعُ فيه للمرأة اثنان : إنسانُها الظريف ، ووَحْشُها الظريف !

* * *

قلت : لقد بعُدنا عن القصة ، فما كان خَبَرُ صاحبتك تلك ؟

قال : كانت صاحبتى تلك تعلم أنى متزوِّج ، ولكن إحدى صديقاتها أنبأتها بكبريائى فى الحب . ووصفتْ لها صفةَ الإحساسِ لا وصفَ الكلام ؛ فكأنما تنبَّهتْ فيها طبيعةُ زَهْوِ الفتاةِ بأنها فتاة ، وغريزةُ افتتانِ الأنثى بأن تكون فاتنة : فرأتْ فى إخضاعى لجمالها عملا تعملُه بجمالها .

ومتى كانت الفتاةُ مستَخِفَّةً « بالتقاليد » كهذه الأديبةِ المتعلِّمة ، رأت كلمةَ (الزوج) لفظا على رجُل كلفظ الحب عليه ، فهما سواءٌ عندها فى المعنى ولا يختلفان إلا فى (التقاليد) ...

وعَرَضتْ لى كما يَعرِضُ المصارع للمصارع ؛ إذ كانت من الفتيات المغرورات اللواتى يحسَبْن أن فى قوّتِهن العلمية تيَّاراً زاخرا لنهرنا الاجتماعىِّ الراكد ، فتاة تخرَّجتْ فى مدرسة أو كلّية ، أو جاءت من أوربا بالعالميَّة ... أفتدرى أيةُ

معجزةٍ مصريةٍ فى هذا تُباهى بها مصر ؟

إن المعجزة أن هذه الفتاةَ صارت مدرِّسة ، أومفتِّشة ، أو ناظرةً فى وزارة المعارف ، أو مؤلِّفة كتُبٍ وروايات ، أو محرِّرة فى صحيفة من الصحف ؛ ولا يَصْغُرَنَّ عندك شأنُ هذه المعجزة ، فهى والله معجزةٌ مادام يتحقّقُ بها خروُجُ الفتاة من حكم الطبيعة عليها ، وبقاؤُها فى الاجتماع المصرىّ امرأةً بلا تأنيث ، أو انقلابُها فيه رجلا بلا تذكير !

وكيف لا يكون من المعجزات أنَّ تأليفَ رواية قدأغنى عن تأليف أُسْرَة ؛ وأن فتاة تعيش وتموتُ وما ولدت للأمّة إلا مقالات ... ؟

فقلت : ياصاحبى ، دعْ هؤلاء وخذِ الآنَ فى حديث الطائشة الخارجةِ على التقاليد ، وقد قلتَ إنها عرَضَتْ لك كما يعرِضُ المصارعُ للمصارع ...

قال : عَرَضَتْ لى تريد أن تُصرِّفَنى كيف شاءت ، فنبوْتُ فى يدها ؛ فزادت إلى رغبتها إصرارَها على هذه الرغبة ، فالتويتُ عليها ؛ فزادت إليهما خشيةَ اليأس والخيبة ، فتعسَّرْتُ معها ؛ فزادت إلى هذه كلّها ثورَةَ كبريائها ، فلم أتَسهَّل ؛ فانتهت من كل ذلك بعد الرغبةِ الخيالية التى هى أولُ العبَثِ والدلال ، إلى الرغبة الحقيقية التى هى أولُ الحب والهوى : رغبةِ تعذيبى بها لأنها مُتَعَذِّبةٌ بى !

ثم ردَّتها الطبيعةُ صاغِرة إلى حقائقها السَّلبيَّةِ ، فإذا الكبرياءُ فيها إنما كانت خضوعا يتراءى بالعِصْيان ، وإذا الرغبةُ فى تعذيب الرجل إنما كانت التماسا لأن تَنْعمَ به ، وإذا الإصرارُ على إخضاع الرجل وإذلالِه إنما كان إصرارا على تجْرِئتِه ودفْعِه أن يستبدَّ ويَمْلِك ؛ وردّتها الطبيعةُ إلى هذه الحقيقةِ النِّسويةِ الصريحةِ ، التى بُنيتِ المرأةُ عليها شاءتْ أم أبتْ ، وهى أن تُعانىَ وتصبرَ على ما تُعانى !

أما أنا فأحببتُها حبًّا عقليًّا ، وكان هذا يشتدُّ عليها ، لأنه إشفاقٌ لا حُبّ ؛

وكانت إذا سألتنى عن أمرٍ ترتاب فيه ، قالت : أجِبْنِى بلسانِ الصدق لابلسان الشفقة . وكانت تقول : إن فى عينيها بكاءً لاتستطيع أن تُذيله مع الدمع ؛ وسيقتُلُها هذا البكاءُ الذى لا يُبكَى ، وقد اتخذت لها فى دارها خَلوةً سمتها : (محرابَ الدَّمع !) ، قالت : لأنها تبكى فيها بكاءَ صلاةٍ وحبّ ، لابكاءَ حب فقط !

ثم طاشتِ الطيْشةَ الكبرى ... !

✡ ✡ ✡

قلت : وماالطيشةُ الكبرى ؟

قال : إنها كتبتْ إلىَّ هذه الرسالة :

« عزيزى رَغْمَ أنفى ...

« لقد أذللتَنى بشيئين : أحدُهما أنك لم تَذِلَّ لى ، وجعلتَنى — على تعليمى — أشدَّ جهلا من الجاهلة ؛ وقد نسيتَ أن المرأةَ المتعلِّمةَ تعرفُ ثم تعرفُ مرتين : تعرفُ كيف تُخطئ إذا وجب أن تخطئ ، وهذه هى المعرفةُ الأولى ؛ أما المعرفةُ الثانية فتَوَهَّمْها أنتَ ، فكأنى قلتُها لك ...

« اعلمْ — ياعزيزى رغمَ أنفى — أنى إذا لم أكن عزيزتَكَ رغم أنفك ، فسآتى مايجعلك سَلَفا ومَثَلا ، وستكتب الصحفُ عنك أوَّلَ حادث يقع فى مصر ، عن أوّلِ رجل اختطفتْه فتاة ...!

« وبعدُ ، فقد أرسلتُ روحى تُعانق روحَك ، فهل تشعرُ بها ؟ »

قال : فوجَمْتُ ساعةً وتبيَّنتْ لى خفتُها ، وظهر لى سَفَاهُها وطيشُها ، فأسرعتُ إليها بجثتها فأجدُها كالقاضى فى محكمته ، لاعقلَ له إلا عقلُ الحكم القانونىّ الذى لايتغير ، ولا إنسانَ فيه إلا الإنسانُ المقيَّدُ بمادة كذا إذا حدَثَ كذا ، والمادةِ كذا حين يكون وصفُ المجرِم كذا ... !

فقلت لها : أهذا هو العلمُ الذى تعلّمتِه ؟ ألا يكون علمُ المرأةِ خليقا أن يجعلَ صاحبتَه ذات عقلَين إذا كانت الجاهلةُ بعقل واحد ؟

قالت : العلم ؟

قلت : نعم ، العلم .

قالت : ياحبيبى ، إن هذا العلمَ هو الذى وضعَ المسدَّس فى يد المرأة الأوربية لعاشقِها ، أو معشوقِها ! ثم أطرقتْ قليلا وتنهّدتْ وقالت : والعلم هو الذى جعل الفتاةَ هناك تتزوج بإرشاد الرواية التى تقرؤها ولو انقلب الزواجُ رواية ... والعلمُ هو الذى كشف حجابَ الفتاة عن وجهها ، ثم عاد فكشف حياءَ وجهِها ، وأوجب عليها أن تُواجهَ حقائقَ الجنسِ الآخر وتعرفَها معرفة علمية . . . والعلمُ هو الذى جعل خطأَ المرأة الجنسىَّ مَعْفُوا عنه مادام فى سبيل مواجهة الحقائق لا فى سبيل الهرَب منها . . . . والعلم هو الذى جعل المرأةَ مُساوية للرجل ، وأكد لها أن واحدا وواحدا هُما واحدٌ وكلاهما أوّل . . . والعلم هو الذى عرَّى أجسامَ الرجال والنساءِ ببرهان أشعةِ الشمس ... والعلمُ ياعزيزى هو العلمُ الذى محا من العالَم لفظةَ (أمسِ) لا يعرفُها وإن كانت فيها الأديانُ والتقاليد ...

* * *

قال صاحبُها : فقلتُ لها : كأن العلم إفسادُ المرأة ! وكأنه تعليمُ مَعَرّاتها ونقائصِها ، لا تعليمُ فضائلِها ومحاسنِها ...

قالت : لا ، ولكنّ عقلَ المرأة هو عقلٌ أُنثى دائما ، ودائما عقلٌ أنثى ؛ وفى رأسها دائما جوُّ قلبِها ، وجوُّ قلبِها دائما فى رأسها ؛ فإذا لم تكن مدرستُها متممة لدارها وما فى دارها ، تمّمَت فيها الشارع وما فى الشارع .

العلم للمرأة ؛ ولكن بشرط أن يكون الأبُ وهيبةُ الأبِ أمرا مقرّرا فى

العلم ، والأخ وطاعةُ الأخِ حقيقةً من حقائق العلم ، والزوجُ وسيادةُ الزوج شيئاً ثابتاً فى العلم ، والاجتماعُ وزواجرُه الدينيةُ والاجتماعيةُ قضايا لا يَنْسَخُها العلم ؛ بهذا وحده يكونُ النساءُ فى كل أمة مَصانعَ علميةً للفضيلة والكمالِ والإنسانية ، ويبدأ تاريخُ الطفل بأسباب الرجولة التامّة ، لأنه يبدأ من المرأةِ التامة .

أما بغير هذا الشرط ، فالمرأةُ الفلّاحةُ فى حِجْرها طفلٌ قَذِرٌ ، هى خير للأمة من أكبر أديبةٍ تُخرج ذُرّيةً من الكتب ...

انظر ياعزيزى رغمَ أنفى ، هذه رسالة جاءتنى اليوم من صديقتى فلانة الأديبة ال... فاسمع قولها :

« ... وأنا أعيشُ اليوم فى الجمال ، لأنى أعيشُ فى بعضِ خفايا الحبيب ...

« وفى الحياة موتٌ حلوٌ لذيذ ؛ عرفتُ ذلك حينما نسيتُ نفسى على صدرِه القوىّ ، وحينما نسيتُ على صدره القوىّ صدرى ... »

أسمعتَ ياعزيزى ؟ إن كنتَ لمّا تَعْلَم أن هذا هو علمُ أكثرِ الفتياتِ المتعلماتِ حين يكسَدُ الزواج ــ فاعلمْهُ . ومتى عَمِيَ الشعبُ والحكومةُ هذا العمى ، فإن حريةَ المرأة لاتكون أبداً إلا حريةَ الفكرةِ المحرَّمة !

* * *

قلت لصاحبنا : ثم ماذا ؟

قال : ثم هـذا ... ودسَّ يدَه فى جيبه فأخرج أوراقا كَتَب فيها روايةً صغيرة أسماها : (الطائشة) .

الطائشــة

٢

وهذا مُحَصَّلُ رواية « الطائشة » نقلناه من خطّ الكاتب على مَساقِ مادَوَّنه في أوراقه ، وعلى سَرْدِهِ الذى قَصَّ به الخبرَ ؛ وقد أعطانا من البرهان ماتطمئنّ إليه أن هذه « الطائشةَ » هى من تأليف الحياة لامن تأليفه ، وأنه لم يخترع منها حادثةً ، ولم يأتفِكْ حديثا ، ولم يَزِدْها بفضيلة ، ولم يَنقُصْها بمَعَرَّة ؛ ثم أشهَدَ على قوله كُتُبَ صاحبته الأديبةِ المُسْتهتِرةِ التى لا تبالى ماقالت ولا ماقيل فيها ؛ وهذه الكتبُ رسائلُ : منها المُوجزُ ومنها المستفِيضُ ، وهى بجملتها تنزلُ من الرواية منزلةَ الشروح المُفَنّنة ، وتنزلُ الروايةُ منها منزلةَ اللُّمَعِ المقتَضبة ؛ وكل ذلك يُشبه بعضُه بعضًا ، فكلٌّ ذلك بعضُه شاهدٌ على بعض .

قال كاتب (الطائشة) :

كنتُ رجلا غَزِلا ولم أكن فاسقا ، ولستُ كهؤلاء الشبّان الذين أُصيبوا فى إيمانهم بالله فأصيبوا فى إيمانهم بكل فضيلة ، وذهبوا يُحقّقون المدنيَّة فحقّقوا كلّ شىء إلا المدنية .

ترى أحدَهم شريفا يأنَفُ أن يكونَ لصًّا وأن يسمى لصا ، ثم لايعملُ إلا عملَ اللص فى استلاب العفافِ وسرقةِ الفَتَياتِ من تاريخهنَّ الاجتماعى ؛ وتراه نَجْدًا يَستَنكِفُ أن يكونَ فى أوصاف قاطع الطريق ، ثم يأبى إلا أن يقطعَ الطريقَ فى حياة العَذارى وشرفِ النساء .

أكثرُ أولئك الشبان المتعلمين يَعرِضون للفتيات المتعلماتِ بوجوه مصقولة تحتملُ شيئين : الحبَّ والصَّفح ... ولكنَّ أكثرَ هؤلاء المتعلمات يضعْنَ القُبلة

فى مكان الصفعة ، إذ كان العلمُ قد حلَّلَ الغريزةَ التى فيهن فمادت بقايا لا تَسْتَمسك ، وبصَّرهنَّ بأشياءَ تزيد قوةَ الحياة فيهن خطَرا ، وتُوحِى إليهنّ وحْيها من حيث يَشعُرْنَ ولا يشعرن ؛ وصوَّر فى أوهامهنّ صُوَراً تحتْ الصُّوَر التى كانت فى عقائدهن ؛ وأخرجهنّ من السّلْب الطبيعىّ الذى حماهنّ الله به ، فلهنّ العفةُ والحياءُ ، ولكن ليس لهن ذلك العقلُ الغَريزىُّ الذى يجىء من الحياء والعفة ؛ وكثيراتٌ منهن يَخْشَيْنَ العارَ وسِمَتَه الاجتماعيةَ ولكنْ خَشيةَ فُقَهاءِ الحِيَل الشرعية قد أرْصَدُوا لكل وجهٍ من التحريم وجها من التحايل ، فأصبح امتناعُ الإثم هو ألا تكونَ إليه حاجة ...

والعقلُ الذى به التفكيرُ يكون أحيانا غيرَ العقل الذى به العمل ؛ ففى بعض الجاهلاتِ يكونُ عقلُ الحياء والعفةِ والشرفِ والدين ـ غريزة كغرائز الوحْش ، هى الفكرةُ وهى العملُ جميعا ، وهى أبدا الفكرةُ والعملُ جميعا ، لا تتغير ولا تتبدَّل ، ولا يقعُ فيها التنقيحُ الشعرىُّ ولا الفلسفىُّ .... وما غريزةُ الوحشِ إلا إيمانُه بمن خلقه وحْشا ؛ وكذلك غريزةُ الشرفِ فى الأنثى هى عندى حقيقةُ إيمانها بمن خلقها أنثى .

وشرفُ المرأة رأسُ مالٍ للمرأة ، ومن ذلك كان له فى أوهام العلم اشتراكيةٌ بحَسَبِه تنظر فيه نظرَها وتزيغُ زَيغَها وتقضِى حكمها ؛ وأكثرُ من عرفت من المتعلمين والمتعلمات قد انتهَوْا بطبيعتهم العلميةِ إلى الرضى بهذه الاشتراكية ، وإلى التسامح فى كثير ، وإلى وضع الاعتذار فيما لا يقبلُ عُذرا ؛ ومن هاهنا كان بعض الجاهلاتِ كالحِصْنِ المُغْلَقِ فى قِمّةِ الجبَلِ الوَعْر ، وكان بعضُ المتعلمات دونَ الحِصن ، ودون القِمّة ، ودون الجبل ، حتى تنزلَ إلى السهل فتراهنَّ ثمَّة .

لقد غَفَلت الحكوماتُ عن معنى الدين وحقيقتِه ، فلو عرفتْ لعرفتْ أن

الإنسانيةَ لاتقوم إلابالدين والعِلم كليهما ؛ فإن فى الرجل إنسانا عاما ونوعا خاصا مذكّراً ، وفى المرأة إنسانٌ عامّ كذلك ، ونوعٌ خاص مؤنث ؛ والدينُ وحده هو الذى يُصْلح النوعَ بتحقيق الفضيلة وتقرير الغاية الأخلاقية ، وهو الذى يُحاجِزُ بين الغريزتين ، وهو الذى يضعُ القوةَ الروحيةَ فى طبيعة المتعلم ؛ فإن كانت طبيعةُ التعليم قوية كانت الروحيةُ زيادة فى القوة ، وإن كانت ضعيفةً كما هى الحالُ فى هـذه المدنيّة ، لم تجمع الروحيةُ على المتعلم ضَعْفَين يَبتَلِى كلاهما الآخر ويزيدُه .

* * *

فلانٌ وفلانٌ تعَلَّقا فتاتَين جاهلةً ومتعلمة ؛ وكلتاهما قد صـدّت صاحبَها وامتنعتْ منه ؛ فأما الجاهلةُ فيقول (فلانُها) إنها كالوحْش ، وإن صُدودَها ليس صدودا حَسْبُ ، بل هو ثورةٌ من فضيلتِها وإيمانها فيها المعنى الحربىّ مجاهدا مُتحفِّزًا للقتل . . .

وأما المتعلمةُ فيقول (فلانُها) إنها ككل امرأة ، وإن صدودَها ثورةٌ ولكن من دلالها ، تُرْضِى به ـ أولَ ما تَرضِى وآخرَ ما تُرْضِى ـ كبرياءَ الجمالِ فيها لا الإيمانَ ولا الفضيلة ، فكأنها إيحاءٌ للطامع أن يزيدَ طمعا أو يزيدَ احتيالا ...

وفلانٌ هذا يقول لى : إن ضعَفاءَ الإيمان من الشبان المتعلمين ـ وأكثرُهم ضعفاءُ الإيمـان ـ لو حقّقتَ أمرَهم وبَلَوْتَ سرائرَهم ، لتبيَّنتَ أنهم جميعا لايرون قلبَ الفتاة المتعلمةِ إلا كالدار الخالية كُتب عليها : (للإيجار) ...

* * *

يقول كاتب « الطائشة »

أما أنا فقد صحّ عندى أن سياسةَ أكثرِ المتعلماتِ هى سياسةُ فتح ِ العين

حَذَرا من الشبان جميعا ، وإغماضِ العين لواحدٍ فقط ...

وهذا الواحدُ هو البلاءُ كله على الفتاة ، فإنها بطبيعتها تتقيّدُ ولا تنفصلُ إلا مُكرَهَة ، وهو بطبيعته قَيدُه لذتُه ، فيتّصلُ وينفصلُ ؛ غير أنها لا بد لها من هذا الواحد ، ففكرها المتعلم يُوحِي إليها بالحياة لايجعلُ في ذلك موضعاً للتّنكير عندها ، والحياةُ نصفُ معانيها النفسية في الصديق ؛ فالأنوثة بغيره مُظلمةٌ في حياتها ، راكدةٌ في طباعِها ، ثقيلةٌ على نفسِها ، مادام « الشعاعُ » لا يلمسُها ...

والدينُ يأبى أن يكونَ ذلك الصديقُ إلا الزوجَ في شروطه وعُهوده ، كيلا تتقيدَ المرأةُ إلا بمن يتقيدُ بها ؛ والعلم لا يأبى أن يكونَ ذلك الصديقُ هو الحب ، والفنُّ يوجب أن يكون هو الحب ؛ وليس في الحب شروطٌ ولا عهود إلا وسائلَ تُختَلَقُ لوقتِها ، وأكثرُها من الكذبِ والنفاقِ والخديعة ؛ ولفظ الحب نفسُه لِصٌّ لُغَوِىٌّ خبيثٌ ، يَسْرِقُ المعانيَ التي ليست له ويُنْفِقُ مما يَسرق ؛ وليس من امرأةٍ يختدِعُها عاشقٌ إلا انكشف لها حبُّه كما ينكشف اللص حين يُمسَك .

* * *

يقول كاتب « الطائشة » :

تلك فلسفةٌ لابد منها في التوطِئةِ للكتابة عن (عزيزتي رغم أنفي) ، ومن كانت مثلَها في أفكارها واستدلالِها وحُججِها وطريقتِها — كان خليقا بمن يكتب قصتَها أن يجعلَ القصةَ من أولها مُسلَّحة ...

لقد تكارَهتُ على بعض ما أرادتْ مني ما دام الحبُّ (رغمَ أنفي) ، وما دامت السياسةُ أن أداريَها وأتّبِعَ محبتَها ؛ غيرَ أني صارحتُها بكلمةٍ شمسيةٍ تلمعُ تحت الشمس ، أنها الصداقةُ لا الحبُّ ، وأنما هو اللهوُ البريءُ لاغيرُه ،

وأن ذلك جُهْدُ ما أنا قوى عليه وَفِيٌّ به .

قالت : فليكنْ ، ولكن صداقةٌ أعلى قليلا من الصداقة ... ولو من هذا الحب المتكبِّر الذى لا يَصدُق كيلا يكذب ... إن هذا النوعَ من الحب يطيشُ بعقل المرأة ، ولكنه هو أوّلُ ما يَستهيمُها ويُعجِبُها ويُورِثها التِياعَ الحَنين والشوق .

* * *

كتبتْ لى : « أنا لا أتألم فى هواك بالألم ، ولكن بأشياءَ منك أقلُّها الألم ؛ ولا أحزَنُ بالحزن ، ولكن بهمومٍ بعضُها الحزن .

« إنك صنعتَ لى بكاءً ودموعا وتنهدات ، وجعلتَ لى ظلاما منكَ ونوراً منك يا نهارى وليلى . ترَى ما اسمُ هذا النوعِ من الصداقة ؟

« اسمُه الحبُّ ؟ لا !

« اسمُه الكبرياء ؟ لا !

« اسمُه الحنان ؟ لا !

« اسمه حبُّك أنتَ ، أنت أيها الغائِضُ المتقلب ؛ ألا ترى ألفاظى تبكى ؟ ألا تسمعُ قلبى يصرُخ ؟ بأىِّ عَدْلِك أو بأىِّ عدلِ الناس تريد أن أحيا فى عالَمٍ شمسُه باردة ... هذا قتْلٌ ! هذا قتل ! »

فكتبتُ إليها : « إن لم يكن هذا جنونا فإنه لقريبٌ منه ! »

فردتْ على هذه الرسالة :

« أتكاتبُنى بأسلوب التلغراف ... ؟ لو أهديتَ إلىّ عِقْدا من الزمرد حبّاته بعدد هذه الكلمات لكنتَ بخيلاً ؛ فكيف وهى ألفاظ ؟ إنى لأبكى فى غمْضَة واحدةٍ بدموعٍ أكثرَ عددا من كلماتك ؛ وهى دموعٌ من آلامى وأحزانى ، وتلك ألفاظٌ من لهوك وعَبَثك !

«ما كان ضرَّكَ لو كتبتَ لى بضعةَ أسطر تنسخُها من تلغرافات روتر ... ما دمتَ تَسْخَرُ منى ؟ أأنت الشبابُ وأنا الكهولة ، فليس لك بالطبيعةِ إلا الانصرافُ عنى ، وليس لى بالطبيعة إلا الحنينُ إليك ؟ »

✡ ✡ ✡

لا أدرى كيف أحببْتُها ، ولا كيف دَعَتْنى إليها نفسى ؛ ولكن الذى أعلمه أنى تخادَعْتُ لها وقلتُ : إن المستحيلَ هو منع هذا الشر ، والممكنَ هو تخفيفه ؛ ثم أقبلتُ أرْثى لها ، وأخفّفُ عنها ؛ وأقبلتْ هى تُضاعِفُ لى مكرَها وخديعتَها ؛ وكان الأمرُ بيننا كما قالت : « فى الحب والحربِ لا يكونُ الهجومُ مجرما وفيه رِفقٌ أو تراجُع ! »

إن المرأة وحدَها هى التى تعرف كيف تُقاتِلُ بالصبر والأناة ، ولا يُشْبِهُها فى ذلك إلا دُهاةُ المُسْتَبِدّين .

✡ ✡ ✡

سألتنى أن أهدِىَ إليها رسمى ؛ فاعْتَلَلْتُ عليها بأنْ قلتُ لها : إن هذا الرسم سيكون تحت عينيك أنت رسمَ حبيب ، ولكنه تحت الأعينِ الأخرى سيكون رسمَ مُتَّهم .

وظنَنَتْنِى أَبْلَغْتُ فى الحجة وقَطَعْتُها عنى ؛ فجاءتنى من الغدِ بالردِّ المفحم جاءتنى بإحدى صديقاتها لتَظْهرَ فى الرسم إلى جانبى كأنى من ذوى قَرابتها ... فيكونُ الرسمُ رسمَ صديقتها ، ويكون مُهدًى منها لا منى ، وكأنى فيه حاشيةٌ جاءت من عمَّة أو خالة ...

وأصررْتُ على الإباء ، ونافرَتْنِى القولَ فى ذلك ، تَرُدُّ علَىّ وأرُدُّ عليها ، وتغاضَبنا وانكسرت حزنا وذهبتْ باكية ؛ ثم تسبَّبتْ إلى رضاىَ فرضيت

✡ ✡ ✡

حدثتني أن صديقتَها فلانة الأديبةَ استطاعت أن تستزيرَ صاحبَها فلانا في مخدعها، في دارها، بين أهلها مُنتصفَ الليل. قلتُ: وكيف كان ذلك؟

قالت: إنها تحمل شهادة ... وهي تلتمس عملا وقد طال عليها؛ فزعمت لذويها أنها عثرتْ في كتاب كذا على رُقْية من رُقَى السحر، فتريد أن تتعاطى تجربتَها بعد نصفِ الليل إذا مُحِقَ القمر، وأنها ستُطْلِقُ البَخُور وتبقَى تحتَ ضبابتِهِ إلى الفجر تُهَمْهِمُ بالأسماء والكلمات ...

ثم إنها اتَّعَدَتْ وصاحبَها ليوم، وأجافَتْ بابَ دارِها ولم تُغلقْه، وأطلقت البَخورَ في مِجْمَر كبير أثارَ عاصفةً من الدخان المعطَّرِ، وجعل مخدَعَها كمخدع عروس من مَلِكات التاريخ القديم، وبقي صاحبُها تحت الضبابة يُهَمْهِمُ وتُهَمْهِم ... ثم خرج في أغْباش السَّحَر.

هكذا قالت؛ وما أدري أهو خَبرٌ عن تلك الصديقة وفلانِها، أم هو اقتراحٌ عليَّ أنا من «فلانتي» لأكون لها عفريتَ الضبابة ...؟

* * *

لم يخْفَ عليها أن لذعةَ حبها وقعتْ في قلبي، وأن صبرَها قد غلَبَ كبريائي، وأن كثرة التلاقي بين رجل وامرأة يَطْمَعُ أحدُهما في الآخر — لابد أن ينقلَ روايتَهما إلى فصلها الثاني، ويجعل في التأليف شيئاً منتَظَراً بطبيعة السِّياق ... وإلحاحُ امرأة على رجل قد خلبَها وجفَا عن صِلتها، إنما هو تعرُّضها للتعقيد الذي في طبيعته الإنسانية؛ فإن هي صابَرَتْهُ وأمعَنَتْ، فقلَّما يَدَعُها هذا التعقيدُ من حَلٍّ لمعضلتها؛ وبمثل هذه العجيبةِ كان تعقيدا وكان غيرَ مفهوم ولا واضح؛ وقد ينقلبُ فيه أشدُّ البغضِ إلى أشد الحب، وقد تعملُ فيه حالةٌ من حالات النفس مالا يعمَلُ السِّحر؛ وكذلك يقعُ للرجل إذا أحب المرأة فنَبَتْ عن مودّته فعرضَ للتعقيد الذي في طبيعتها وأمعَنَ وثبَت وصابَرَ.

رأت الجمرةَ الأولى فى قلبي فأضرمتْ فيه الثانيةَ ، حين جاءتنى اليومَ بكتاب زعمتْ أن فلانا أرسله إليها يُطارِحُها الهوى ويَبُثُّها وَلَهَ الحنين والتياعَ الحب ؛ ويقول لها فى هذا الكتاب : « أنا لم أشربْ خمرا قط ، ولكنى لا أرانى أنظر إلى مَفاتِنِكَ ومحاسنِك إلا وفى عينىَّ الخمر ، وفى عقلى السُّكْر ، وفى قلبي العَرْبدَة : جعلتِ لى ويحكِ نظرَةَ سكِّير فيها نِسيانُ الدنيا وما فى الدنيا ماعدا الزجاجة ... »

ويختمه بهذه العبارة :

« آه لو استطعتُ أن أجعل كلامى فى نفسكِ ناعماً ، ساحراً ، مُسكرا ، مثلَ كلام الشَّفة للشَّفة حين تُقبِّلها ... ! »

عند هذا وقع الشيء المنتظَر فى الفصل الثانى من الرواية ، وخُتم هذا الفصلُ بأول قُبلة على شفتَىِ (الممثلة) .

٭ ٭ ٭

قالت : هذه القبلةُ كانت (غَلطةً مطبعية) ، ومضت تسمِّيها كذلك ، واستمرت المطبعة تغلط ... وما علمتُ إلا من بعْدُ أن ذلك الكتابَ الذى اسْتَوْقَدَتْ به غَيرتى ، إنما كان من عملِها ومكْرِها .

٭ ٭ ٭

وجاءتنى اليوم بآبِدَة من أوابدها ، قالت :

أنت رَجْعىٌّ محافظٌ على التقاليد . قلتُ : لأنى أرى هذه التقاليدَ كالصباح الذى يتكرَّر فى كل يوم وهو فى كل يوم ضياءٌ ونور .

قالت : أو كالمساء الذى يتكرر وهو فى كل يوم ظلامٌ وسَواد !

قلت : ليس هذا إلىّ ولا إليك ، بل الحكم فيه للنفع أو الضرر .

قالت : بل هو إلى الحياة ، والحياةُ اليوم علمية أوربية ، والزمنُ حثيثٌ فى

تقدمه ، وأصحابُ « التقاليد » جامدون فى موضعهم قد فاتهم الزمن ؛ ولذلك يسمونهم (متأخرين) . أما علمتَ أن المضلة قد أصبحت فى أوربا زِيًّا قديما ، فأخذ المِقَصُّ يعملُ فى تهذيبها ، يقطعُ من هنا ويَشُقُّ من هنا ... ؟

اسمع أيها « المتأخر » وتأملْ هذا البرهانَ الأوربيَّ العصريّ :

أخبرتنى صديقى فلانة حاملة شهادة ...... أنها كانت فى القِطار بين الإسكندرية والقاهرة ، وكانت معها فتاةٌ من جِيرتها تحملُ الشهادةَ الابتدائية ، فجمعهما السفرُ بشاب وَسيمٍ ظريف يُشارِكُ فى الأدب ، غيرَ أنه رَجْعيٌّ (متأخر) ؛ وصديقتى تعرفُ من كل شيء شيئاً ، وتأخذُ من كل فن بطَرَف ؛ فجرى الحديثُ بينهما مَجراه ، وتركت الصديقةُ نفسَها لدواعيها ، وانطلقت على سَجيَّتها الظريفة ، ووضعت فنَّ لسانها فى الكلام فجعلتْ فيه رُوحَ التقبيل ... !

ولم تبلغ إلى القاهرة حتى كانت قد سحرتْ ذلك (المتأخر) ووقعتْ من نفسه ، ودفعتْه إلى الزمن الذى هو فيه ؛ فلما همَّت بوداعه سألهما : أين تذهبان ؟

فأَغضتْ صاحبةُ الشهادة الابتدائية ، وأطرقتْ حياءً ، ورأت فى السؤال تهمةً وريبة ؛ فأَنَّبتْها الصديقةُ وأيقظتها من حيائها ، وقالت لها : ألا تزالين شرقيةً متأخرة ؟ إن لم يسعدنا الحظ أن تكون لنا حرية المرأة الأوربية فى المجتمع وفى أنفسنا ؛ أفلا يسعنا أن تكون لنا هذه الحرية ولو فى أنفسنا ؟

ثم ردَّت على الشاب فأنبأته بمكانها وعنوانها ، فأطمعه ردُّها ، فسألها أن تتنزَّه معه فى بعض الحدائق ، فأبت صاحبةُ الابتدائية ولجَّتْ عمايتُها الشرقية المتأخرة ، ورأت فى ذلك مَسقَطةً لها ، فلَوَتْ إلى دارِها وتركتهما إنسانا وإنسانا لافتًى وفتاة ؛ وتنزَّها معا ، وعرف الشابُّ الرجعىُّ الحبَّ ، والخمرَ التى هى تحيةُ الحب !

ولم تستطع الفتاةُ الماكرةُ أن ترجعَ إلى دارها وهى سَكْرى كما زعمت

للشابّ — فأَوَتْ إلى فُندق ، وخُتِمت روايتُهما بإعراضٍ من الشاب أجابت هي عليه بقولها : ألا زلت (متأخراً) ...... ؟

قالت « الطائشة » :

نعم ياعزيزى (المتأخر) ، إن مذهبَ المرأة الحرة ... فى الفرقِ بين الزوج وغيرِ الزوج ، أن الأولَ رجلٌ ثابتٌ ، والآخر رجل طارئ ، والثابتُ ثابتٌ معها بحقه هو ؛ والطارئ طارئ عليها بحقها هى ... فإن كانت حرةً فلها حقُّها ...

قال كاتب الطائشة : وهنا ، هنا ، هنا ، كاد الشيطانُ يرفع الستارَ عن فصل ثالث فى هذه الرواية ، رواية « الطائشة » ...

* * *

نقول نحن : وإلى هنا ينتهى نصف الرواية ، أما النصف الآخر فيكاد يكون قصة أخرى اسمها : (الطائش والطائشة) ...

دموع

من رسائل الطائشة (*)

ورسائلُ هذه الطائشةِ إلى صاحبها تُقرَأُ فى ظاهرها على أنها رسائلُ حب قد كُتِبَت فى الفنون التى يَتَرَسَّلُ بها العشاق ؛ ولكنَّ وراءَ كلامها كلاما آخر

(*) نحن لم نخترع الطائشة ، فهى فتاة متعلمة أديبة ، وقد أحبت رجلا متزوجا ، فطاش بها الحب طيش الطفل إذا منع مايطمع فيه ، وتركها الحب عليلة لما بها ، ثم قضت وكان بعض صواحبها يعذلنها ويرمينها بالتهمة ، فكانت تقول : إنها منهن كالغائب المحكوم عليه : لاهو يملك دفاع الذنب ، ولا الحاكم عليه يملك إثبات الذنب !

تُقْرَأُ به على أنها تاريخُ نفسٍ مُلتاعةٍ لاتزال شُعلةُ النار فيها تَتَنَمَّى وترتفع؛ وقد فَدَحَتها بظُلمها الحياةُ إذ حَصَرَتْها فى فنٍّ واحدٍ لايتغير، وأوقعتها تحت شرط واحد لايتحقَّق، وصَرَّفتها بفكرة واحدة لاتزال تخيب.

وأشدُّ سُجُون الحياةِ فكرةٌ خائبةٌ يُسجَنُ الحيُّ فيها، لاهو مُستطيعٌ أن يدَعها، ولا هو قادرٌ أن يحقِّقها؛ فهذا يمتدُّ شقاؤه مايمتد ولا يزال كأنه على أوّلِه لايتقدّم إلى نهاية، ويتألم مايتألم ولا تزال تُشعِرُه الحياةُ أن كلَّ مافات من العذاب إنما هو بدْءُ العذاب!

والسعادةُ فى جملتها وتفصيلها أن يكونَ لك فكرٌ غيرُ مقيّدٍ بمعنًى تتألم منه، ولا بمعنًى تخافُ منه، ولا بمعنى تحْذَرُ منه؛ والشقاءُ فى تفصيله وجملته انحباسُ الفكر فى معانى الألم والخوفِ والاضطراب.

وقد اخترنا من رسائل (الطائشة) هذه الرسالة المصوِّرةَ التى يَبْرُقُ شعاعُها وتكاد تقومُ بإزاء نفسها كالمرآة بإزاءِ الوجه؛ وهى فيها عَذْبَةُ الكلام من أنها مُرَّةُ الشعور، متَّسقةُ الفكرِ من أنها مختَلَّةُ القلب، مُسدَّدةُ المنطق من أنها طائشةُ النفس؛ وتلك إحدى عجائب الحب: كلما كان قَفْراً مُمحِلا اخضَرَّتْ فيه البلاغةُ وتفنّنتْ والتفَّتْ؛ وعلى قِلّةِ المُتْعةِ من لذّاته تزيد فيه المتعةُ من أوصافه؛ ولكأنّ هذا الحبَّ طبيعةٌ غريبةٌ تُروَى بالنار فتُخْصِبُ عليها وتَتفتَّقُ بمعانيها، كما تُرْوَى الأرضُ بالماء فتُخْصِبُ وتتغطّى بنباتها: فإنْ رَوِىَ الحبُّ من لذّاته وبَرَدَ عليها، لم يُنْبِتْ من البلاغة إلا أخفَّها وزناً وأقلَّها معانىَ، كأوَّلِ ما يبدو النباتُ حين يَتفطَّرُ الثرى عنه، تراه فتحسبُه على الأرض مَسْحة لونٍ أخضر، أو لم يُنْبِتْ إلا القليلَ القليلَ كالتَّعاشِيبِ (*) فى الأرض السَّبِخة...

(*) أعشاب قليلة متفرقة هنا وهناك.

إن قصةَ الحب كالرواية التمثيلية ، أبلغُ مافيها وأحسَنُه وأعجبُه ماكان قبلَ « العُقدة » فإذا انحلتْ هذه العقدةُ فأنت فى بقايا مُفسَّرَةٍ مشروحةٍ تُريد أن تنتهى ، ولا تحتملُ من الفنّ إلا ذلك القليل الذى بينها وبين النهاية .

✡ ✡ ✡

وهذه هى رسالة الطائشة إلى صاحبها :

« . . . .

« ماذا أكتبُ لك غيرَ ألفاظِ حقيقتى وحقيقتِك ؟

« يُخيَّل إلىَّ أن ألفاظَ خُضوعى وتَضرُّعى متى انتهتْ إليكَ انقلبتْ إلى ألفاظ شِجَارٍ ونزاع !

أىُّ عَدْلٍ أن تلمسَكَ حياتى لَمسَةَ الزَّهرةِ الناعمةِ بأطراف البنان ، وتَقْذِفَنى أنت قذْفَ الحجَر بملْءِ اليدِ الصُّلْبَةِ مُتمَطّية فيها قوّةُ الجسم ؟

« جعلْتَنى فى الحب كآلةٍ خاضعةٍ تدار فتَدور ، ثم عَبِثْتَ بها فصارت متمرِّدة تُوَقَّف ولا تقِفُ ؛ والنهايةُ — لا ريبَ فيها — اختلالٌ أو تحطيم !

« وجعلتَ لى عالماً : أما ليْلُه فأنتَ والظلامُ والبكاء ، وأما نهارُه فأنتَ والضِّياءُ والأملُ الخائب هذا هو عالَمى : أنت أنت ... !

« سمائى كأنها رُقْعَةٌ أطبقَتْ عليها كلُّ غيوم السماء ، وأرضى كأنها بُقْعة اجتمعتْ فيها كلُّ زَلازلِ الأرض ! لأنك غَيْمَةٌ فى حياتى ، وزلزلةٌ فى أيامى

« يابُعدَ مابين الدنيا التى حولى وبين الدنيا التى فى قلبى !

✡ ✡ ✡

« مايَحْمِلُ منكَ أن تُلْزِمَنى لومَ خطأ أنتَ المخطئُ فيه ! سَلنى عن حبى أُجِبْكَ عن نكْبتى ، وسَلنى عن نكبتى أُجِبْكَ عن حبى !

« كان ينبغى أن تكونَ لىَ الكبرياءُ فى الحب ، ولكن ماذا أصنعُ وأنت

منصرفٌ عنى ؟ وَيلاهُ من هـذا الانصرافِ الذى يجعل كبريائى رِضَى منى بأن تنسى فتنسى ... !

« ليس لى من وسيلةٍ تَعْطِفُكَ إلا هذا الحبُّ الشديدُ الذى هو يَصُدُّك، فكأن الأسبابَ مقلوبةٌ معى منذُ انقلبتَ أنت !

« ويُخيَّل إلىَّ من طُغيانِ آلامى أن كلَّ ذى حُزْنٍ فعندى أنا تمامُ حُزنه !

« ويخيل إلىَّ أنى أفصحُ من نَطقَ بـآه !

« عذابى عذابُ الصادقِ الذى لا يَعرفُ الكَذِب أبدا أبدا ، بالكاذبِ الذى لا يعرف الصدق أبدا أبدا !

« كم يقولُ الرجالُ فى النساء ، وكم يَصِفُونَهنّ بالكَيْد والغَدر والمكْر ؛ فهل جئتَ أنتَ لتُعاقِبَ الجنسَ كلَّه فىَّ أنا وحدى ... ؟

« ما لِكلامى يَتَقَطع كأنما هو أيضاً مُخْتَنِق ؟

* * *

« أشدَّ ما أتمنَّى أن أشترىَ انتصارِى ، ولكنَّ انتصارى عليكَ هو عندى أن تنتصرَ أنت .

« إن المرأةَ تطلبُ الحرّيةَ وتَلِجُّ فى طلبها ، ولكنَّ الحياةَ تنتهى بها إلى يقينٍ لاشكَّ فيه ، هو أن ألطفَ أنواعِ حريتها فى ألطف أنواع استعبادِها !

« حتى فى خيالى أرى لكَ هيئةَ الآمرِ النَّاهى أيها القاسى ! لا أحبُّ منك هذا ، ولكن لا يُعجِبُنى منك إلا هذا ... !

« ويزيدك رِفْعةً فى عينى أنك لم تحاول قطُّ أن تزيدَ رِفْعةً فى عينى .

« فالمرأةُ لا تُحبُّ الرجلَ الذى يعملُ على أن يَلفِتَها دائما ليرفعَ من شأنه عندها .

« إن الطبيعةَ قد جعلت الأنوثةَ (فى الإنسان) هى التى تَلفِتُ إلى نفسها

بالتصنّع والتّزَيُّدِ ، وعَرْض مافيها وتكلُّفِ ماليس فيها ؛ فإن يَصْنَعِ الرجلُ صنيعَها فما هو فى شىء إلا تزيينَ احتقارِه !

« التّزَيُّدُ فى الأنوثة زيادةٌ فى الأنثى عند الرجل ، ولكن التّزَيُّدَ فى الرجولة نقصٌ فى الرجل عند الأنثى !

✡ ✡ ✡

« ارْفع صوتَك بكلماتى تَسمعْ فيها اثنين : صوتَك وقلبى .

« ليست هى كلماتى لَدَيك أكثرَ مما هى أعمالُك لَدَىَّ .

« وليس هو حبى لك أكبرَ مما هو ظلمُكَ لى !

« ما أشدَّ تعسِى إذا كنتُ أخاطبُ منك نائما يسمعُ أحلامَه ولا يسمعُنى !

« ما أتعسَ مَن تُبكيه الحياةُ بكاءَها المفاجئ على ميّتٍ لا يَرجع ، أو بكاءَها المألوفَ على حبيب لا يُنال !

✡ ✡ ✡

« ولكن فَلْأَصبِرْ ولْأَصبر على الأيام التى لاطعمَ لها ، لأن فيها الحبيب الذى لاوفاءَ له !

« إن المصابَ بالعَمى اللَّوْنىِّ يرى الأحمرَ أخضر ، والمصابَ بعَمَى الحب يرى الشخصَ القفْرَ كلَّه أزهار .

« عَمًى مركَّبٌ أن تكونَ أزهاراً من الأوهامِ ولها مع ذلك رائحةٌ تَعْبَق .

« وعَمًى فى الزمن أيضا أن ينظرَ إلى الساعة الأولى من ساعات الحب ، فيرى الأيامَ كلَّها فى حكم هذه الساعة .

« وعَمًى فى الدم ، أن يَشعر بالحبيب يوما فلا يزالُ من بعدها يُحيِي خياله ويغذّيه أكثرَ مما يُحيِي جسمَ صاحِبه .

« وعَمًى فى العقل ، أن يَجعلَ وجهَ إنسانٍ واحدٍ كوجه النهارِ على الدنيا :

تَظهرُ الأشياءُ فى لونه، وبغير لونه تنطفىء الأشياء.

« وعَمِى فى قلبي أنا، هذا الحبُّ الذى فى قلبي!

✡ ✡ ✡

« ليس الظلامُ إلا فِقدانَ النور ، وليس الظلمُ فى الناس إلا فقدانَ المساواة بينهم.

« وظلمُ الرجالِ للنساء عملُ فِقدانِ المساواة لاعملُ الرجال.

« كيف تَسخرُ الدنيا من متعلمةٍ مِثلى، فتضعُها موضعامن الهوان والضعفِ بحيث لو سُئلتْ أن تكتب (وظيفتَها) على بِطاقة، لما كتبت تحت اسمِها إلا هذه الكلمة : (عاشقة فلان) . . . ؟

« وحتى فى ضَعفِ المرأة لامساواةَ بين النساء فى الاجتماع، فكلُّ متزوِّجةٍ وظيفتُها الاجتماعيةُ أنها زوجة ؛ ولكن ليس لعاشقةٍ أن تقول إن عِشقَها وظيفتُها . . .

« وحتى فى الكلام عن الحب لامساواة، فهذه فتاةٌ تُحبُّ فتتكلم عن حبها، فيقال : فاجرةٌ وطائشة . ولا ذنبَ لها غير أنها تكلمتْ ؛ وأخرى تحب وتكتُم، فيقال : طاهرةٌ عفيفة . ولا فضيلةَ فيها إلا أنها سكتتْ.

« أولُ المساواة بين الرجال والنساء أن يتَساوَى الكلُّ فى حرِّية الكلمة المخبوءة . . .

« لا لا، قد رجعتُ عن هذا الرأى . . .

✡ ✡ ✡

« إن القلَقَ إذا استمرَّ على النفس انتهى بها آخرَ الأمرِ إلى الأخذ بالشّاذِّ من قوانينِ الحياة.

« والنساء يُقلِقْنَ الكونَ الآن مما استقرَّ فى نفوسهن من الاضطراب ،

وسيُخَرِّبنَه أشنعَ تخريب .

« ويلٌ للاجتماع من المرأة العصريةِ التى أنشأها ضعفُ الرجل ! إن الشيطانَ لو خُيِّرَ فى غير شكله لما اختار إلا أن يكونَ امرأةً حرَّةً متعلمةً خياليّةً كاسدةً لاتجد الزوج ... !

« ويلٌ للاجتماع من عذراءَ بائرةٍ خيالية ، تريد أن تفرَّ من أنها عذراء ! لقد امتلأت الأرضُ من هذه القنابل ... ولكن مامن امرأةٍ تفرِّطُ فى فضيلتها إلا وهى ذنبُ رجل قد أهمل فى واجبِه .

✡ ✡ ✡

« هل تَملكُ الفتاةُ عِرْضَها أوْ لا تملك ؟ هذه هى المسئلة ...

« إن كانت تملك، فلها أن تتصرّفَ وتُعطى : أوْلا ، فلماذا لا يتقدَّمُ المالك ؟

« هذه المدنيّةُ ستنقلبُ إلى الحيوانية بعينها ؛ فالحيوانُ الذى لا يعرفُ النَسَبَ لا تعرفُ أنثاه العِرْض ... !

« وهل كان عَبَثًا أن يَفرِضَ الدينُ فى الزواج شروطاً وحقوقاً للرجل والمرأة والنسل ؟

« ولكن أين الدين ؟ وا أسفاه ! لقد مَدَّنوه هو أيضا ... !

✡ ✡ ✡

« طالت رسالتى إليكَ ياعزيزى ، بل طاشت ، فإنى حين أجدُكَ أفقدُ اللغة ، وحين أفقدُكَ أجدُها .

« ولقد تكلمتُ عن الدِّين لأنى أراكَ أنتَ بنصفِ دين ..

« فلو كنتَ ذا دين كامل لتزوّجتَ اثنتين ... !

« لا لا ، قد رجعتُ عن الرأى ... »

(طبق الأصل)

*

فلسفة الطائشة

... وهذا مجلسٌ من مجالس (الطائشة) مع صاحبها، مما تَسَقَّطَهُ من حديثها؛ فقد كان يكتبُ عنها ما تُصيبُ فيه وما تخطئ، كما يكتب أهلُ السياسةِ بعضُهم عن بعض إذا فاوض الحليفُ حليفَه، أو ناكرَ الخصمُ خصمَه؛ فإن كلامَ الحبيبِ والسياسيِّ الداهيةِ ليس كلامَ المتكلِّم وحده، بل فيه نطقُ الدولة.... وفيه الزمنُ يُقْبِل أو يُدبِر.

وصاحبُ الطائشة كان يراها امرأةً سياسية كهذه الدُّوَل التي ترْغِم صديقا على الصداقة، لأنه في طريقها أو طريقِ حوادثها؛ وكان يسميها «جيشَ احتلال» إذ حطَّت في أيامه واحتلتها فتبوَّأتْ منها ماشاءت على رغمه، واستباحتْ ماأرادت مما كان يَحميه أو يمنعُه؛ وقد كان في مدافَعته حبَّها واستمساكِه بصداقتها كالذي رأى ظلَّ شيء على الأرض فيحاوِلُ غسلَه أو كنسَه أو تغطيتَه... فهذا ليس مما يُغسَل بالماء، ولا يكنَس بالمِكْنَسة، ولا يغطَّى بالأغطية؛ إنما إزالتُه في إزالةِ الشَّبَح الذي هو يُلقيه، أو إطفاء النور الذي هو يُثْبِتُه.

في كل شيء على هذه الأرض سُخرية، والسخرية من الحسن الفاتن الذي تقدِّسه، تأتي من اشتهاءِ هذا الحسن؛ فذاك إسقاطُه سقوطاً مقدَّسا... أو ذاك تقديسُه إلى أن يسقُط، أو هو جعلُ تقديسِه بابا من الحيلة في إسقاطه، لابد من سُفْل مع العُلو يكون أحدُهما كالسخرية من الآخر؛ فإذا قال رجلٌ لامرأةٍ قد فَتَنَتْه أو وَقعتْ من نفسه: «أحبُّك.» أو قالتها المرأةُ لرجل وقع من نفسها أو استَهامَها، ففي هذه الكلمةِ الناعمةِ اللطيفة كلُّ معاني الوقاحةِ الجنسية، وكل السُّخرية بالمحبوب سخريةً بإجلال عظيم... وهي كلمةُ شاعرٍ في تقديس الجمال والإعجاب به، غير أنها هي بعينها كلمة الجزّار الذي يَرى الخروف في جماله اللحميّ

الذهنيّ ، فيقول : « سَمين ... ! »

لهذا يمنع الدينُ خَلوةَ الرجل بالمرأة ، ويُحرِّم إظهارَ الفتنةِ من الجنس للجنس ، ويَفْصِل بمعاني الحجاب بين السالب والمُوجب ، ثم يضعُ لأعينِ المؤمنين والمؤمناتِ حجابا آخرَ ، من الأمر بغَضِّ البصَر ؛ إذ لا يكفي حجابٌ واحد ؛ فإن الطبيعة الجنسيةَ تنظر بالداخِل والخارج معا — ثم يطردُ عن المرأة كلمةَ الحب إلا أن تكون من زوجها ، وعن الرجلِ إلا أن تكونَ من زوجته ؛ إذ هي كلمةُ حيلةٍ في الطبيعة أكثرُ مما هي كلمةُ صدقٍ في الاجتماع ، ولا يؤكِّد في الدين صدقَها الاجتماعي إلا العَقْدُ والشهودُ ، لربطِ الحقوق بها ، وجعلِها في حياطةِ القوة الاجتماعية التشريعية ، وإقرارِها في موضعها من النظام الإنساني ؛ فليس مايمنع أن يكون العاشق من معاني الزَّوج ، أما أن يكونَ من معنًى آخر أو يكونَ بلا معنى فلا ؛ وكل ذلك لصيانة المرأة ، مادامت هي وحدها التي تَلِد ، وما دامت لا تَلِد للبيع ...

وفلسفة هذه الطائشة فلسفةُ امرأة ذكية مطَّلعة مُحيطة مفكِّرة ، تُبْصِرُ بالكتب والعقلِ والحوادثِ جميعا ، وقد أصبحت بعد سَقْطةِ حبها ترى الصوابَ في شكلين لا شكل واحد : فتراه كما هو في نفسه ، وكما هو في أغلاطها .

وقد أسقطنا في رواية مجلسها ما كان من مُطارَحاتِ العاشقة ، واقتصرنا على ماهو كالإملاء من الأُستاذة ...

✡ ✡ ✡

قال صاحبُ الطائشة : ذكرتُ لها « قاسم أمين » وقلت : إنها خير تلاميذه وتلميذاته ... حتى لكأنها تجرِبةُ ثلاثين سنة لآرائه في تحرير المرأة . فقالت : إنما كان قاسم تلميذَ المرأة الأوربية ، وهذه المرأة بأعيُننا ؛ فما حاجتُنا نحن إلى تلميذها القديم ؟

قالت : وأبلَغُ من يَرُدُّ على قاسم اليومَ هي أستاذتهُ التي شَبَّت بها أطوارُ

الحياةِ بعده ، فقد أثبت قاسم — غفر الله له — أنه انحصر فى عهد بعينه ولم يُتبِعِ الأيامَ نظرَه ، ولم يستقرئ أطوارَ المدنية ؛ فلم يُقدِّرْ أن هذا الزمنَ المتمدّنَ سيتقدم فى رذائلِه بحكم الطبيعة أسرعَ وأقوى مما يتقدم فى فضائله ، وأن العلم لا يستطيع إلا أن يخدمَ الجهتين بقوة واحدة ، فأقواهما بالطبيعة أقواهما بالعلم ، وكأنَّ الرجلَ كان يظن أنه ليس تحت الأرض زَلازِلُ ولا تحت الحياةِ مثلُها ،

مزَّق البرقع وقال : « إنه مما يزيدُ فى الفتنة ، وإن المرأة لو كانت مكشوفةَ الوجه لكان فى مجموع خَلْقها — على الغالب — ما يردُّ البَصر عنها . » فقد زال البرقع ، ولكن هل قدَّر قاسم أن طبيعةَ المرأة منتصرةٌ دائما فى المَيْدان الجنسيِّ بالبرقع وبغير البرقع ، وأنها تخترع لكلِّ معركة أسلحتَها ، وأنها إن كشفت برقْعَ الخزِّ فستضعُ فى مكانه برقعَ الأبيضِ والأحمر ... ؟

وزعم أن « النقاب والبرقع من أشد أعوان المرأة على إظهار ما تظهر وعملِ ما تعمل لتحريك الرغبة ، لأنهما يُخفيان شخصيتَها فلا تخاف أن يعرفَها قريب أو بعيد فيقول : فلانة ، أو بنتُ فلان ، أو زوجُ فلان كانت تفعل كذا ؛ فهى تأتى كلَّ ما تشتهيه من ذلك تحت حماية البرقع والنقاب . » فقد زال البرقع والنقاب ، ولكن هل قدَّر قاسم أن المرأة السافرةَ ستلجأ إلى حماية أخرى ، فتجعلُ ثيابها تعبيرا دقيقاً عن أعضائها ، وبدلا من أن تُلبِسَ جسمها ثوبا يكسوه ، تُلبِسُه الثوبَ الذى يكسوه ويزيِّنه ويظهره ويحرِّكه فى وقتٍ معا ، حتى يكاد الثوب يقول للناظر : هذا الموضع اسمُه ... وهذا الموضع اسمه ... وانظر هنا ... وانظر هاهنا ... ما زادت المدنية على أن فكَّكت المرأةَ الطيِّبة ثم ركَّبتها فى هذه الهندسة الفاحشة !

وأراد قاسم أن يعلِّمنا الحبَّ لنرتبطَ به الزوجَ معنا ، فلم يزد على أن جرَّأنا على الحب الذى فرَّ به الزوجُ منا ، وقد نسى أن المرأة التى تخالط الرجلَ

ليُعجبها وتُعجبَه فيصيرا زوجين — إنما تخالط فى هذا الرجل غرائزَه قبل إنسانيته، فتكون طبيعتُه وطبيعتها هى محلّ المخالطة قبل شخصَيْهما، أو تحت ستارِ شخصيهما؛ وهو رجلٌ وهى امرأة، وبينهما مصارَعَةُ الدم ... وكثيرا ماتكون المِسكينةُ هى المذبوحة! وقد انتهينا إلى دهرٍ يُصْنعُ حُبُّه ومجالسُ أحبابِه فى «هوليوود» وغيرها من مُدُن السيما. فإن رأى الشاب على الفتاة مظهرَ العفّةِ والوقار قال: بلادةٌ فى الدم، وبلاهَة فى العقل، وثِقَل أىّ ثقل! وإن رأى غيرَ ذلك قال: فُجورٌ وطيش، واستهتارٌ أىّ استهتار! فأين تستقرُّ المرأة ولا مكانَ لها بين الضدَّين؟

أخطأ قاسم فى إغفال عمل الزمن من حسابه، وهاجمَ الدين بالعُرْف؛ وكان من أفحشِ غلطِه ظنُّـهُ العرفَ مقصورا على زمنه، وكأنه لم يدر أن الفرقَ بين الدين وبين العُرف، هو أن هذا الأخيرَ دائمُ الاضطراب، فهو دائمُ التغيُّر، فهو لايصلح أبدا قاعدةً للفضيلة؛ وها نحن أولاء قد انتهينا إلى زمن العُرْيِ، وأصبحنا نجد لفيفا من الأوربيين المتعلمين، رجالِهم ونسائهم، إذا رأوا فى جزيرتهم أو محلّتهم أو ناديهم رجلا يلبس فى حِقْوَيْه تُبَّانا قصيرا كأنه وَرَقُ الشجر على موضعه ذلك من آدمَ وحواء — إذا رأوا هذا المتعفِّفَ بخِرْقة ... أنكروا عليه وتساءلوا بينهم: مَن ... مَن هذا الراهب ...؟

ونسى قاسم ـ غفر الله له ـ أن للثياب أخلاقا تتغير بتغيُّرِها، فالتى تُفرِغُ الثوبَ على أعضائِها إفراغَ الهندسة، وتُلبِسُ وجهَها ألوانَ التصوير ـ لاتفعلُ ذلك إلا وهى قد تغـيَّر فهمُها للفضائل، فتغيرتْ بذلك فضائلُها، وتحوّلتْ من آيات دينية إلى آيات شعرية. ورُوحُ المسجد غيرُ روح الحانة، وهذه غيرُ رُوح المرقص، وهذه غير رُوح المخدع؛ ولكلّ حالة تلبسُ المرأة لِبْسا فتُخفِى منها وتُبْدِى. وتحريكُ البيئة لتتقلبَ، هو بعينه تحريكُ النفس لتتغيرَ صفاتُها؛

وأين أخلاقُ الثيابِ العصريةِ فى امرأة اليوم ، من تلك الأخلاق التى كانت لها من الحجابِ ؟ تبدَّلتْ بمشاعر الطاعة ، والصبر ، والاستقرار ، والعناية بالنسل ، والتفرُّغ لإسعاد أهلها وذويها — مشاعرَ أخرى ، أوّلها كراهيةُ الدارِ والطاعةِ والنّسل ؛ وحَسبُك من شرّ هذا أوّله وأخفُّه !

كان قاسم كالمخدوع المغترّ بآرائه ، وكان مُصلِحا فيه روحُ القاضى ، والقاضى بحكم عمله مقلّدٌ مُتَّبِـع ، أليس عليه أن يُسنِدَ رأيَه دائما إلى نَصّ لم يكن له فيه شأنٌ ولا عمل ؟ من ثم كثرت أغلاطُ الرجل حتى جعل الفرقَ بين فسادِ الجاهلة وفساد المتعلّمة ، أن الأولى « لا تكلّف نفسها عناءَ البحث عن صفات الرجل الذى تريد أن تقدّم له أفضلَ شيء لديها وهو نفسها ، وعلى خلاف ذلك يكون النساء المتعلماتُ ، إذا جرى القدَرُ عليهن بأمر مما لا يحلّ لهن ، لم يكن ذلك إلا بعد محبة شديدة يسبقها علمٌ تامٌّ بأحوال المحبوب (. . . .) وشمائـله وصفاته ، فتختاره من بين مئاتٍ وألوفٍ ممن تراهم فى كل وقت (!!!!) وهى تحاذر أن تضع ثِقتها فى شخص لا يكون أهلا لها ، ولا تُسلم نَفْسها إلا بعد مناضلة يختلفُ زمنُها وقوةُ الدفاع فيها حسب الأمزجة (؟؟؟؟) وهى فى كل حال تستتر بظاهر من التعفّف (؟؟؟؟) ... »(*)

أليس هذا كلامَ قاضٍ من القضاةِ المدَنيّين المتفلسِفين على مذهب (لمبروزو) ، يقول لإحدى الفاجرَتين : أيتها الجاهلة الحمقاء ، كيف لم تتحاشَىْ ولم تتستَّرى فلا يكونَ للقانون عليك سبيل ؟

(*) ص ٥١ من كتاب « تحرير المرأة » وهو كلام قاسم بنصه ، وأكثر ما فى هذا الكتاب هو فى رأينا خلط وخبط .

وحتى فى هذا قد أثبت قاسم أنه لايعرفُ الأرنبَ وأُذُنيها (*) وإلافتى كان فى الحب اختيار ؛ ومتى كان الاختيارُ يقعُ « فيما يجرى به القَـدَرُ » ، ومتى كان نظار العاشـقة إلى الرجال نظرا سيكولوچيا كنظر المعلمـة إلى صبيانها . . . فتدرس الصـفات والشمائل فى مئات وألوف من تراجم فى كل وقت لتُصَفِّيَها كلَّها فى واحد تختاره من بينهم ؟ هذا مضحك ! هذا مضحك !

إليك خبرا واحدا مما تنشره الصحفُ فى هذه الأيام : كفرار بنت فلان باشا خِرِّيجة مدرسـة كذا مع سائق سيارتها ؛ ففسِّر لى أنت كلام قاسم ، وأفْهِمنى كيف تكون اثنان واثنان خمسـةً وعشرين ؟ وكيف يكون فرارُ متعلِّمةٍ أصيلة مع سائق سيارة ، هو محاذرةَ وضع الثقةِ فيمن لايكون أهلًا لها ؟

لقد أغفل قاسم حسابَ الزمن فى هذا أيضا ، فكثير من المنكَرات والآثام قد انحلَّ منها المعنى الدينىُّ ، وثبت فى مكانه معنى اجتماعىٌّ مقررٌ ، فأصبحت المتعلمة لا تتخوَّف من ذلك على نفسها شيئا ، بل هى تُقارِفُه وتستأثر به دون الجاهلة ، وتلبس له (السواريه) ؛ وتقدِّم فيه للرجال المهذَّبين مرة ذراعها ، ومرة خَصرها . . .

أقرأتَ (شهر زاد) ؟ إن فيها سطرا يجعل كتابَ قاسم كلّه ورقا أبيض مغسولا ليس فيه شىءٌ يُقرَأ . . .

قالت شهر زاد المتعـلِّمةُ ، المتفلسفةُ ، البيضاءُ ، البضّةُ ، الرشيقةُ ، الجميلة ؛ للعبدالأسودالفظيع الدميم الذى تهواه : « ينبغى أن تكونَ أسودَ اللون ، وضيعَ الأصل ؛ قبيحَ الصورة ؛ تلك صفاتُك الخالدةُ التى أحبها . . . . . » (**)

(*) يقول العرب : « فلان يعرف الارنب وأذنيها » اى يعرف الشىء بالعلامة التى تثبته ولا تتخلف .

(**) ص ١٠٦ من « شهر زاد » للكاتب الدقيق صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم ،

فهذا كلامُ الطبيعة نفسِها لا كلامُ التأليفِ والتلفيقِ والتزويرِ على الطبيعة .

* * *

قال صاحبُ الطائشة :

فقلتُ لها : فإذا كان قاسم لا يُرضيكِ ، وكان الرجلُ مصلحا دخلتْه روحُ القاضى ، فخلَط رأيا صالحا وآخر سيئا ، فلعل « مصطفى كمال » همُّكِ من رجل فى تحرير المرأةِ تحريرا مزّق الحجاب والـ ... ؟

قالت : إن مصطفى كمال هذا رجلٌ ثائرٌ ، يسوقُ بين يديه الخطأَ والصوابَ بعصا واحدة ، ولا يمكن فى طبيعة الثورة إلا هذا ، ولا يبرحُ ثائرا حتى يَتِمَّ انسلاخُ أُمتِهِ ؛ وله عقلٌ عسكرى كان يمكرُ به مكرَ الألمان حين أكرهَهم الحلفاءُ على تحويل مصانع (كروب) ، فحوّلوها تحويلا يردُّها بأيسر التغيير إلى صنع المدافع والمهلِكات ؛ وليس الرجل مُصلحا ألبتَّة ، بل هو قائدٌ زَهَاه النصر الذى اتفق له ، فخرج من تلك الحرب الصغيرة وعلى شفتيه كلمةُ : « أريد ... » وجعل بعد ذلك إذا غلِط غلطة أرادها منتَصِرة ، فيفرضها قانونا على المساكين الذين يستطيع أن يفرضَ عليهم ، فيقهرهم عليها ولا يناظرهم فيها ، ويأخذهم كيف شاء ، ويَدَعُهم كيف أحب ؛ وبكلمة واحدة : هو مؤلف الرواية ، والقانونُ نفسُه أحدُ الممثّلين . .

وحِقْدُه على الدين وأهلِ الدين هو الدليلُ على أنه ثائرٌ لا مصلح ؛ فان أخصّ أخلاق الثورة حِقْدُ الثائرين ، وهذا الحقدُ فى قوة حربٍ وحدَها ، فلا يكون إلا مادة للأفعال الكثيرة المذمومة ، والرجلُ يحتذى أوربا ويعملُ على أعمال الأوربيين فى خيرها وشرِّها ، ويجعل رذائلَهم من فضائلهم على رغم أنفهم

وقد كتبنا نحن فى هذا المعنى وكشفنا عن سره فى كتاب « أوراق الورد » ص ٥١ - ٥٢ [الطبعة الأولى] وفى غيره من كتبنا .

يتبرءُون هم منها ويُلحِقُها هو بقومه ، فكأنه يَغْتَصِبُ الآراءَ ويأخذُها أخذاً عسكريا ، ليس فى الأمر إلا قولُهُ : « أريد ... » فيكون مايريد ؛ هو لم يحكم على شبر من أوربا يجعله تركيًّا ، ولكنه جعل رذائلَ أوروبا تتجنَّس بالجنسية التركية ...

وتالله إنه لأيسَرُ عليه أن يجيء بملائكةٍ أو شياطينَ من المَرَدَة ينفخون أرض تركيا فيَمُطُّونها مطًّا فيجعلونها قارّة ، من أن يُكرِه أوربا على اعتبار قومه أوربيِّين بلبس قبعةٍ وهَدْمِ مسجد ! إنه لايزال فى أول التاريخ ، وهذا الشعبُ الذى انتصر به لم تَلِدْه مبادئُه . ولا أنشأه هَدْمُ المساجد وشَنْقُ العلماء : بل هو هو الذى ولدته تلك الأمهات ، وأخرجه أولئك الآباء ، وما كان يُعْوِزُهُ إلا القائدُ الحازمُ المصمِّم ، فلما ظفر بقائده جاء بالمعجزة : فإذا فُتِنَ القائد بنفسه وأبى إلا أن يتحوَّل نبيًّا ، فهذا شيءٌ آخر له اسمٌ آخر

ولنفرْض « الأثير » كما يقول العلماء ، لنستطيعَ أن نجعل مسئلتَنا هذه علمية ، وأن نبحثَها بحثا علميا ؛ فليكن مصطفى كمال هو اللورد كتشنر فى انجلترا ؛ فيكسب اللورد كتشنر تلك الحرب العظمى لاحرب الدُّويلة الصغيرة ، وينتصر على البراكين من الجيوش لا على مثلِ براميل النبيذ . . . ثم يستعِزُّ الرجلُ بدالَّتِهِ على قومه ، ويدْخُله الغرور ، فيتصنَّع لهم مرة ، ويتزيَّن لهم مرة ، ثم يأتيهم بالآبِدَة فيُسَفِّهُ دينهم ، ويريدهم على تعطيل شعائرهم وهَدْمِ كنائسهم ، لأن هذا هو الإصلاحُ فى رأيه ــ أفتُرَى الانجليز حينئذ يَضْوُون إليه ويلتفُّون حوله ويقولون : قائدنا فى الحرب ، ومُصلِحنا فى السِّلم ، وقد انتصرنا به على الناس فسننتصر به على الله . وظفِرْنا معه بيوم من التاريخ فسنظفر معه بالتاريخ كله . . . ؟

أم تحسب كتشنر كان يجسُر على هذا وهو كتشنر لم يتغير عقله ؟

إنه والله ما يتدافَعُ اثنان أن هَدْمَ كنيسةٍ واحدة يومئذ لايكون إلا هدم

كتشنر وتاريخ كتشنر. ولكن العجزَ ممهّدٌ من تنقاء نفسه، والأرضُ المنخسفةُ هي التي يَسْتَنْقِعُ فيها الماء، فله فيها اسمٌ ورَسْمٌ؛ أما الجبلُ الصخريُّ الأشمّ فإذا صُبَّ هذا الماء عليه أرسله من كلّ جوانبه، وأفاضه إلى أسفل...! (*)

* * *

قال صاحبُ الطائشة: فأقول لها: إذا كان هذا رأيكِ للنساء، فكيف لا ترَيْن مثل هذا لنفسك؟

فتَضَعْضعَت لهذه الكلمةِ، ولَجْلَجت قليلًا ثم قالت: أنت سلبتَني الرأى لنفسى ووضعتني في الحقيقة التي لا تتقيد بقانون الخير والشر.

قلت: فإذا كانت كلّ امرأة تغالطُ لنفسها في الرأى، وتنصَحُ بالرأى الصائب غيرَها، فيُوشِكُ ألاّ يبقى في نساء الأرض فضيلة ولا يعودُ في المدرسة كلها عاقلٌ إلا الكتاب...

فتضاحكت وقالت: لهذا يشتدّ دينُنا الإسلاميّ مع المرأة، فهو يخلقُ طبائعَ المقاومة في المرأة، ويخلُقها فيما حولها، حتى ليخيّل إليها أن السماء عيونٌ تراها، وأن الأرض عقولٌ تُحصِى عليها؛ وهل أعجبُ من أن هذا الدينَ يقضى قضاءً مبرمًا أن تكونَ ثيابُ المرأة أسلوبَ دفاع لا أسلوبَ إغراء، وأن يضعَها من النفوس موضعًا يكون فيه حديثها بينها وبين نفسها كالحديث في (الراديو) له دوىٌّ في الدنيا؛ فيقيم عليها الحجاب، وغيرةَ الرجل، وشرفَ الأصل؛ ويؤاخذها بروح طبيعتها، فيجعل الهفوةَ منها كأنها جنينٌ يكبرُ

(*) أفردنا مقالا خاصا لهذا الإلحاد التركى الذبابى.... فقد عثرنا في النسخة الخطية التي عندنا من (كليلة ودمنة) على فصل بديع عنوانه «كفر الذبابة»، تقرؤه في الجزء الثاني من هذا الكتاب

[قلت: وانظر حديثا عن «كليلة ودمنة» ص ١٣٥ - ١٣٦ من «حياة الرافعى»]

ولايزال يكبرُ حتى يكونَ عارَ ماضيها وخِزْىَ مستقبلها .

هذه كلها حُجُبٌ مضروبةٌ لا حجابٌ واحد ، وهى كلّها لخلق طبائع المقاومة ، ولتيسير المقاومة ؛ ومتى جاء العلم مع هذه لم يكن أبدا إطلاقا ، ولم يكن أبدا إلا الحجابَ الأخيرَ كالسُّور حول القلعة ؛ ولكن قَبَّحَ الله المدنيةَ وفنَّها ؛ إنها أطلقت المرأةَ حرّة ، ثم حاطتها بما يجعلُ حريتها هى الحريةَ فى اختيار أثقل قيودها لا غير . أنت مُحمَّلٌ بالذهب ، وأنت حرٌّ ولكن بين اللصوص كأنك فى هذا لستَ حرا إلا فى اختيار من يجنى عليك ... !

لم تعد المرأة العصريةُ انتصارَ الأمومة ، ولا انتصارَ الخُلق الفاضل ، ولاانتصارَ التعزية فى هموم الحياة ؛ ولكن انتصار الفن ، وانتصار اللهو ، وانتصار الخلاعة .

قال صاحب الطائشة : فضحكتُ وقلت : وانتصارى ... !

(طبق الأصل)

تنبيـــه

ليست الطائشة كل النساء ولا كل المتعلمات ، ونحن إنما نروى قصة هى فى الدنيا ، ليس فيها كلمة من المريخ ولا من زحل ؛ فأما الصالح فيرى ويفهم ولعله يصون بها نفسه ؛ وأما الفاسد فيرى ويعتبر ، ولعله يردّ بها نفسه . ومذهبنا دائما وجوب كشف الحقيقة ، وإذا أردت أن تأخذ الصواب فخذه عمن أخطأ .

تربية لؤلؤية [1]

كتبتْ إليّ سيدة فاضلة بما هذه ترجمتُه منقولا إلى أسلوبى وطريقتى :

« ... أما بعدُ فهذا الذى كنا ظننَّا وظنَّتْ ، فاقرأ الفصلَ الذى انتزعتُه لك من مجلة [2] ... وستعرفُ منه وتنكِر ، وترى فيه النهارَ مبْصِرا والليلَ أعمى ... وتجدُ فتاةَ اليوم ـ على ما وقع بها من الظِّنَّة ، وكثُرَ فيها من أقوال السوء ـ لا تَشْمَسُ على الرِّيبة ولا تريد أن تنتفِيَ منها ؛ بل هى تعملُ لتحقيقها ، وتبغى مع تحقيقها أن يتعالَم الناس ذلك منها ، وتريد مع هذين أن يطلقوا لها ما شاءت ، ويُسَوِّغوها مُقارَفَةَ الإثم ، ويُقِرُّوها على منكَراتها .

« أما إنه إذا كانت أمهاتنا الجاهلاتُ هنّ أمْسنا الذاهبَ بلا فائدة ، فإن فتياتِنا المتعلماتِ هن يومُنا الضائعُ بلا فائدة ؛ غيرَ أن الجاهلةَ لم تكن تَكْسَدُ ومعها الفضيلة ، فأصبحت المتعلمةُ لم تكد تنْفُقُ ومعها الرذيلة ؛ ولَتاجرٌ أُمّىّ طاهرُ الاسم تتحرك سُوقه وتحيا ، خيرٌ من تاجر متعلم نَجس الاسم قد ماتت سوقه وخَمَدتْ ، فما تتنفَّسُ من درهم ولا دينار .

لقد احتذيْنا على مثال المرأة الأوربية ، فلما أحكَمَتْه المتعلماتُ منا ، كنَّ بين الشرق والغرب كالسَّبِخَةِ النَّشاشة من الأرض ، طَرَفٌ لها بالفلاة وطرَفٌ بالبحر ؛ فهى رملٌ فى ماء فى مِلْح ، لا تَخْلُصُ لفسادٍ ولا صحة ، فاعتبر هذه وهذه فستجدُهما بحكايةٍ واحدةٍ ؛ أصلا وطبقَ الأصل . »

* * *

---

(١) انظر ص ١٩٨ « حياة الرافعى »

(٢) مجلة « الأسبوع » المصرية سنة ١٩٣٤

وقرأت الفصـل الذى أومأتْ إليه السـيدة ، وكان فى كتابها ؛ فإذا هو لكاتبة تزعم (أنها ممن رفعن علم الجهاد لحرية المرأة) ، وإذا فى أوله :

« كتبت آنسة أديبـة فى عدد سابق من ... الأغر تقول : أجلْ ، لنفتشْ عن هذا الرجل كما يفتشون هم عن المرأة ، فإن أخطأناهم أزواجا فلن نخطئهم أصدقاء !!! وكتب بعد هذا أديب فاضل ، كما كتبت آنسة فاضلة ينحيان (كذا) هذا المنحى ، ويطرقان نفسَ السبيل (كذا) التى اختطتها الآنسة الجريئة فى غير حق ، الثائرة فى نزَق ... ثم قالت بعد ذلك : قرأت مقال الآنسة الثائرة فى حيوية صارخة !!!! فجزعت ، لأن (قاسم أمين) عند مارفع علَم الجهاد من أجل حرية المرأة ، و (ولى الدين يكن) عند ماجاهر بعده فى سبيل السفور ، و (هدى شعراوى) عند مارفعت صوتها عالياً تطالب بحرية المرأة — ماظنت وما ظن واحد من هذين الرجلين أن ثورةَ المرأة ستتطور إلى حد أن تقف آنسة مهذبة ، تكشف عن رأسها تبكى وتستبكى سواها معها ، من أجل الزواج ... »

☆ ☆ ☆

وأنا فلستُ أدرى والله مِمّ تعجبُ هـذه الكاتبة ، وإنى لأعجبُ من عجبها ، وأراها كالتى تكتب عبثاً وهزلا وهُوَيْنا ، مُظهِرة الجدّ والقصدَ والغضب . أَئِنْ أُطْلِقَ للنساء أن يَـثُرن كما تقول الكاتبة ، وجاهد فلان وفلان فى هذه الثورة فأخذت مأخذها ، فانطلقت لشأنها ، فأوغلتْ فى حريتها ، فامتدّ بها أمدُها شوطاً بعد شوط — ثم جاء خُلُقٌ من أخلاق المرأة يُسْفِر سفورَه ويرفعُ الحجابَ عن طبيعته ثائراً هو أيضا فى غير مُداراة ولا حذقٍ ولا كِياسة ، يريد أن يقتحمَ طريقَه ويسلكَ سبيلَه ، ثم وقف على رغمه فى الطريق منكَسِراً مما به من اللّهفة

والوثبة يتوجّع ، يتنهد ، يتلذّع بهذه المعانى وهذه الكلمات — أين وقع ذلك جاءت كاتبة من كاتبات السفور تقول للمرأة : جَرَى دليكِ وكنتِ حرة ، وتَزَعْزَعْتِ وكنتِ ثابتة ، وأفحشتِ وكنتِ عفيفة ، وتهوّرْتِ وكنتِ طاهرة ؟

أفلا تقول لهـا : سَفَرَتْ أخلاقُكِ إذ كنتِ سافرةً بارزة ، وضاع حياؤكِ إذ كنت مُخلّاة مهمَلة ، وغَلَوْتِ إذ كنتِ فى المبالغة من البدء ؟

أفلا تقول لها : لقد تلَطَّفتِ لجئتِ بالمعنى المجازىّ لكلمة (العُرْى) ، ولقد أبدعتِ فكنتِ امرأةً ظريفة اجتماعية مُخيِّلةً للشعر والفن ، وحققتِ أن واجبَ الطريقة الجميلة إعطاءُ الفن غذاءً من ... ، ومن ... ، ومن لحمها ... ؟

نعم إن قاسم أمين (رحمه الله) لم يكن يظن ... ولكن أما كان ينبغى أن يظن أن بعضَ الصواب فى الخطأ لايجعلُ الخطأَ صوابا ؟ بل هو أحرى أن يُلبِّسه على الناس فيشبِّهه عليهم بالحق وما هو به ، ويجعلهم يسكنون إليه ويأمنون جانبه فيتّهى بهم يوما إلى أن ينْتَسِفَ خطؤه صوابَه ، ويغطّىَ باطلُه على حقه ، ثم تستطرقُ إليه عواملُ لم تكن فيه من قبل ، ولا كانت تجد إليه السبيلَ وهو خطأ محض ، فتمدُّ له فى الغىّ مدًّا ، ثم تنتهى هى أيضا إلى نهايتها ، وتئول إلى حقائقها ، فإذا كل ذلك قد داخلَ بعضُه بعضا ، وإذا الشر لايقفُ عند ما كان عليه ، وإذا البلاء ليس فى نوع واحد بل أنواع .

ما يرتاب أحد فى نية قاسم أمين ، ولا نزعم أن له خَفِيَّةَ سوء أو مُضْمَرَ شر فيما دعا إليه من تلك الدعوة ، ولكنى أنا أرتاب فى كفايته لما كان أخذ نفسه به ، وأراه قد تكلَّف ما لا يُحسن ، وذهبَ يقول فى تأويل القرآن وهو لا ينفُذُ إلى حقائقه ، ولا يستنبِطُ أسرارَ عربيَّته ، وكان مُناظِروه فى عصره قوما ضعفاء ، فاستعلاهم بضعفِهم لا بقوته ، وكانت كلمةُ الحجاب قد انتفختْ فى ذهنه بعد أن أفرغت معانيها الدقيقة ، فأخذها ممتلئة وجاء بها فارغة ، وقال للنساء : غيِّرْن

وبدِّلن . فلما أطعْنه وبدَّلن وغيَّرْن ، وجاء الزمنُ بما يفسِّر الكلمةَ من حقائقِه وتصاريفِه لامن خيالاتِ المتخيِّل أو المتشيِّع — إذا معنى التغييرِ والتبديل هو مارأيتَ ، وإذا الحجابُ الأول على ضلاله كان نصفَ الشر ، وإذا المرأةُ التى ربحت الشارع هى التى خسرت الزوج ! وإذا تلك الدعوة لم تكن نفيا للحجاب عن المرأة ، ولكن نفيا للمرأة ذاتِها وراء حدود الأسرة ، كأنها بجرمة عُوقبتْ على فساد سياستها ؛ وهى قارَّة فى بيتها ولكنها مع ذلك منفيةٌ من مستقبلها .

كانوا يحتجُّون لنفى الحجاب بالفلاَّحات فى سفورهن ؛ وغفلوا أقبحَ الغفلة عن السبب الطبيعى فى ذلك ، وهو أن السفور إنما عَمَّهُنَّ من كونهن لسن فى المنزلة الاجتماعية أكثر من بهائمَ إنسانيةٍ مؤنثة ؛ ومثل هذا السفور لايكون على طبيعته تلك إلا فى اجتماع طبيعىّ فطرىّ أساسُه الخلطُ فى الأعمال لا التمييزُ بينها ، والاشتراكُ فى شىء واحدٍ ـ هو كَسْبُ القُوتِ (*) ـ لا الانفرادُ بما فوق ذلك من أشياء النفس .

ولست أرى هذه اللَّجاجة ، أو « الحيوية الصارخة » التى ثارت بفتياتنا ـ إلا تمرداً من طبيعتهن على الأحوال الظالمةِ المتصرفةِ بها ؛ ويَحسبْنَه توسعا من الطبيعة فى الحرية ، وطلبا للعالم كله بعد الشارع ، وللحقوق كلِّها بعد نبذِ الحجاب ؛ وهو فى الحقيقة ليس إلا ثورةَ الطبيعة النسوية على خيبتها مما أصابت من الحرية والشارع والعالَم والحقوق ، ورغبةً منها فى أن تُحَدَّ بحدودها ويُؤخذَ منها العالم كله بما فيه ، وتُعْطَى البيتَ وحدَه بما فيه !

إذا أنت كشفتَ جذور الشجرة لتُطلقَها بزعمك من حجابها ، وتُخرجَها إلى النور والحرية ، فإنما أعطيتَها النور ، ولكن معه الضعف ؛ والحريةَ ، ومعها

(*) ولهذا لا يكاد يغتنى الفلاح ولو أيسر الغنى ، حتى يصون امرأته ويحجبها ويرتفع بمعناها فى نفسه .

الانتقاض ؛ وتكون قد أخرجتَها من حجابها ومن طبيعتها معا ؛ فخذها بعد ذلك خَشبا لا ثمراً ، ومنظرَ شجرة لا شجرة ، لقد أعطيتَها من علمك لا من حياتها ، وجهلتَ أنها من أطباقِ الثرى فى قانونِ حياتها ، لا فى قانونِ حجابها . أفليست كذلك جذورُ الشجرة الإنسانية ؟

كلُّ مايتغير يسهُلُ تغييرُه على من شاء ، ولكنَّ النتائجَ الآتيةَ من التغيير لاتكون إلا حتما مقضيا كما يُقضَى ، فلن يسهلَ تبديلُها ولا تحويلُها ولا ردُّها أن تقَع ؛ وقد أخطأ جماعة السفور ، بل أنا أقول : إنهم جاءونا بالجاهلية الثانية ، وإنهم طَبُّوا للمرأة المسلمة كذلك الطبِّ الذى أساسُه الرائحة الذكية فى البَخور . . . ! (*)

⁂

وما هو الحجابُ إلا حفظُ روحانية المرأة للمرأة ، وإغلاءُ سِعرها فى الاجتماع ، وصونُها من التبذُّلِ الممقوتِ ، لضبطها فى حدودٍ كحدود الربح من هذا القانون الصارم ، قانونِ العَرْض والطلَب ؛ والارتفاعُ بها أن تكونَ سِلْعةً بائرةً ينادَى عليها فى مَدَارج الطرق والأسواق : العيونَ الكحيلة ، الخدودُ الوردية ، الشفاهُ الياقوتية ، الثغورُ اللؤلؤية ، الأعطافُ المرتجَّة ، النهود ال . . . ال . . . أوليس فتياتُنا قد انتهين من الكساد بعد نبذ الحجاب إلى هذه الغاية ، وأصبحن إن لم ينادِينَ على أنفسهن بمثل هذا فإنهن لا يظهَرن فى الطرق إلا لتنادى أجسامُهن بمثل هذا ؟

وهذه التى كتبت اليوم تطالبُهم مُخادِنين إن أخطأتهم أزواجا ، وتفتّش عليهم تفتيشا بين الزوجاتِ والأمهاتِ والأخوات ! هل تريد إلا أن تثبَ درجةً أخرى فى مُخزِيات هذا التطور ، فتمشىَ فى الطريق مشىَ الأنثى من البهائم طَمُوحا مَطْرُوفة ، تذهبُ عيناها هنا وهاهنا تلتمسُ من يخطو إليها الخطوةَ المقابلة . . . ؟

(*) أى طب الدجالين .

ما هو الحجابُ الشرعىّ إلا أن يكونَ تربيةً عمليةً على طريقة استحكام العادة لأسمى طباع المرأة وأخصِّها الرحمة ؟ هذه الصفةُ النادرةُ التى يقوم الاجتماع الإنسانىُّ على نزعها والمنازعةِ فيها مادامت سنةُ الحياة نزاعَ البقاء ، فيكون البيت اجتماعا خاصا مسالما للفرد تحفظُ المرأةُ به منزلتها ، وتؤدِّى فيه عملَها ، وتكون مَغرِسًا للإنسانية وغارسةً لصفاتها معًا .

لقد رأينا مَواليدَ الحيوان تولدكلّها : إما ساعيةً كاسبة لوقتها ، وإما محتاجة إلى الحَضانة وقتا قليلا لا يلبثُ أن ينقضىَ فتكدَح لعيشها ؛ إذ كانت غاية الحيوان هى الوجودَ فى ذاته لا فى نوعه ، وكان بذلك فى الأسفل لا فى الأعلى ؛ غير أن طفلَ المرأة يكون فى بطنها جنينا تسعةَ أشهر ، ثم يولد ليكون معها جنينا فى صفاتها وأخلاقها ورحمتها أضعاف ذلك ، سنةً بكل شهر ، فهل الحجابُ إلا قَصْرُ هذه المرأة على عملها . لتجويده وإتقانه ، وإخراجه كاملا ما استطاعت ؟ وهل قَصرُها فى حجابها إلا تربيةٌ طبيعية لرحمتها وصبرِها ، ثم تربية بعد ذلك لمن حولها برحمتها وصبرها ؟

أعرف معلمةً ذاتَ ولَد تترك ابنَها فى أيدى الخدم بعد وَصاةٍ علمية سيكولوجية ... وتمضى ذاهبةً عن يمين الصباح ، ويمضى زوجُها عن شماله ... وقد رأيت هذا الطفل مرة ، فرأيته شيئا جديداً غيرَ الأطفال ، له سِمَةٌ روحانية غيرُ سِمَاتِهم ، كأنما يقول لى : إنه ليس لى أبٌ وأم ، ولكن ، أبٌ رقم (١) وأب رقم (٢) ... !

✡ ✡ ✡

وقد كنتُ كتبت كلمة عن الحجاب الإسلامى قلت فيها : « ما كان الحجابُ مضروبا على المرأة نفسِها ، بل على حدودٍ من الأخلاق أن تُجاوز مقدارَها أو يُخالطها السوءُ أو يَتدَسّسَ إليها ؛ فكل ماأدى إلى هذه الغاية فهو

حجاب ، وليس يؤدّى إليها شىء إلا أن تكونَ المرأة امرأة فى دائرة بيتها ، ثم إنسانا فقط فيما وراء هذه الدائرة إلى آخر حدود المعانى »

وهذا هو الرأى الذى لم يتنبه إليه أحد ، فليس الحجابُ إلا كالرمز لما وراءه من أخلاقه ومعانيه ورُوحِه الدينية المَعْبَدِيّة ، وهو كالصدَفة : لا تحجبُ اللؤلؤةَ ولكن تربيها فى الحجاب تربية لؤلؤية ؛ فوراءَ الحجاب الشرعى الصحيح معانى التوازنِ والاستقرارِ والهدوء والاضطراد ، وأخلاقُ هذه المعانى وروحُها الدينى القوى ، الذى ينشئ عجيبةَ الأخلاق الإنسانية كلها ، أىْ صبرَ المرأة وإيثارَها ؛ وعلى هذين تقوم قوةُ المدافعة ، وهذه القوةُ هى تمام الأخلاق الأدبية كلها ، وهى سرُّ المرأة الكاملة ؛ فلن تجد الأخلاقَ على أتمها وأحسنها وأقواها إلا فى المرأة ذاتِ الدين والصبرِ والمدافعة ، إنها فيها تشبه أخلاقَ نبىّ من الأنبياء .

وقد مُحِقَ الدين والصبر ، وتراخت قوةُ المدافَعة فى أكثر الفتيات المتعلمات ، فابْتُلِينَ من ذلك بالضجَر والملل ، وتشويه النفس ؛ ووقَع فيهن معنىً كمعنى العفَن فى الثمرة الناضجة ، وجهلن بالعلم حتى طبيعتَهن ؛ فما منهن من عرفتْ أن طبيعتها سلبية فى ذاتها ، وأنه لا يشدّها ويقيمُها إلا الصفاتُ السلبية ، ومِلاكُها الصبرُ فروعُه وأصوله ، وجمالها الحياءُ والعفة ؛ ورمزُها وحارسُها والمعينُ عليها هو الحجابُ وحده . إنه إن لم يكن فى المرأة هذا فليست المرأة إلا بهذا .

وما تخطئ المرأة فى شىء خطأَها فى محاولة تبديل طبيعتها وجعلها إيجابية ، وانتحالِها صفاتِ الإيجاب ، وتمردِها على صفات السلب ، كما يقع لعهدنا ؛ فإن هذا لن يتم للمرأة ، ولن يكونَ منه إلا أن تعتبرَ هذه المرأةُ نقائضَ أخلاقها من أخلاقها ، كما نرى فى أوربا ، وفى الشرق من أثر أوربا ؛ فمن هذا تُناقى الفتاةُ حياءها وتَبْذُؤ وتُفْحِش ، إن لم يكن بالألفاظ والمعانى جميعا فبالمعانى وحدَها ، وإن لم يكن بهذه ولا بتلك ؛ فبالفكر فى هذه وتلك وكانت الاستجابة لهذا

ما فشا من الروايات الساقطة ، والمجلات العارية ؛ فإن هذه وهذه ليست شيئا إلا أن تكون عِلْم الفكرِ الساقط

وعادت الفتاةُ من ذلك لا تبتغى إلا أن تكون امرأةَ رواية : إما فوق الحياة ، وإما فى حقائقَ جميلةٍ تختارها اختيارا وتفرضُها فرضاً على القدَر ! وتنسَى الحمقاء أنها أحدُ الطرفين وليست الطرفين جميعا ؛ فتحاول أن تقررَ للحياة الجديدة تأويلا جديداً لمعانى الشرف والكرامة والعِرض والنسب وما إليها ؛ فانسلختْ من كل شىء ، ثم لما أعجزها أن تنسلخ من غريزة الأنوثة طاشت طيشَها الأخير فانسلختْ من إنسانية الغريزة !

* * *

أمَا إن غلطةَ الرجل فى المرأة لا تكون إلا من غلطة المرأة فى نفسها . وهى قد أُعطيت فى طبيعتها كلَّ معانى حجابها ؛ فإحساسُها محتجِبٌ مختبئ أبداً كأنه فى إتْبٍ (*) ومُلاءة وبرقع ، وأفكارُها طويلةُ الملازمةِ لها لا تكاد تتركها ، كأنها منها فى بيت ؛ وطبيعةُ الحذَر لا تبرحُها ، كأنها الحارسُ الثابتُ فى موضعه القائمُ بسلاحه على حفظ هذا الجسم الجميل ؛ وطولُ التأمل مُوَكلٌ بها ، كأن عمله مصاحبةُ وَحدتها لتخفيفها على نفسها والترفيه منها ؛ والدنيا حولَ المرأة بمذاهب أقدارها ، ولكنَّ لها دنيا فى داخلها ، هى قلبُها ، تذهبُ الأقدارُ فيه مذاهبَ أخرى ؛ وضَغطةُ الحياة طبيعيَّةٌ فيها ، حتى لا يُساوِرَها همٌّ من الهموم إلا صار كأنه من عادتها . والتى تمزقها الحياة كلما ولَدت ، لا تكونُ الحياةُ إلا رحيمةً بها إذا ضغطتها !

فخروجُ المرأة من حجابها خروجٌ من صفاتها ، فهو إضعافٌ لها وتَضْرِيَةٌ للرجال بها ؛ وماذا تُجدى عادةُ الحذَر إذا أفسدتها عادةُ الاسترسال والاندفاع ؟

(*) الإتب : هو بردة تشق فتلبس من غير كمين ، وتسميه الريفيات (الملس)

فيكونُ حذرا ليكون إغفالا . ثم يكونُ إغفالا ليعودَ الزَّلةَ والغلطة ؛ ومتى رجع غلطةً فهذا أول السقوط ، ومبدأ الانقلاب والتحوُّل . وليس الفرقُ بين امرأةٍ نَفُورٍ من الريبة ، شَمُوس لاتُطالع الرجالَ ولا تُطمِعُهم ، وبين امرأةٍ قَرُورٍ على الريبة ، هَلوكٍ فاجرة — ليس الفرقُ إلا حجابَ الحذَر أُسْدِلَ على واحدة وانكشف عن أخرى .

وإذا قرَّتْ المرأة فى فضائلها ، فإنما هى فى حجابها ودينها ، وإنما ذلك الحجابُ ضابُط حريتها الصحيحة ، باعتبارها امرأةً غيرَ الرجل ؛ فهو مسمّى بالحجاب لاتصاله بالحرية وضبطِه لها ؛ ولكن الضعفاءَ الذين يعرفون ظاهرا من الرأى لايدركون مذهَبه ، ولا يحققون ماينتهى إليه ، ويَنفذون فى حكمهم على الظاهر لا على البصيرة - هؤلاء لا يعرفون معنى الحجاب إلافى القماش والكساء والأبنية ، كأن حجابَ الأخلاق النسوية شىء يصنعُه الحائك والبانى والمستَعْبِد ، ولا تصنعه الشريعةُ والأدبُ والحياةُ الاجتماعية ؛ فهم - كما ترى - حين يأتون بنصف العلم ، يأتون بنصف الجهل !

لم يخلق الله المرأة قوةَ عقل فتكون قوةَ إيجاب ، ولكنه أبدعها قوةَ عاطفة لتكون قوةَ سلب ؛ فهى بخصائصها والرجلُ بخصائصه ؛ والسلبُ بطبيعته متحجِّبٌ صابرٌ هادئ منتظر ، ولكنه بذلك قانونٌ طبيعى تتم به الطبيعة .

وينبغى أن يكونَ العلم قوة لصفات المرأة لا ضعفاً ، وزيادةً لا نقصاً ؛ فما يحتاج العالَم إذا خرج صوتُها فى مشاكله أن يكون كصوت الرجل ، صيحةً فى معركة ؛ بل تحتاج هذه المشاكلُ صوتاً رَتيناً مؤثرا محبوبا مجمَعا على طاعته ، كصوت الأم فى بيتها

☼ ☼ ☼

أيتها الفتاة ، إنّ صدقَ الحياة تحتَ مظاهرِها لا في مظاهرها التي تكذبُ أكثرَ مما تَصْدق ؛ فساعدي الطبيعة واحجُبي أخلاقك عن الرجل ؛ لتعملَ هذه الطبيعةُ فيه بقوتين دافعتين : منها ومنكِ ، فيُسرع انقلابُه إليكِ وبحثُه عنك ؛ وقد يجد الفاسقُ فاسقاتٍ وبَغايا ، ولكنَّ الرجلَ الصحيحَ الرجولة لن يجدَ غيركِ .

وإنما سفورُك وسفورُ أخلاقكِ إفساد لتدبير الطبيعة ، وتمكينٌ للرجل نفسِه أن يُرْجِمَ بكِ الظنَّ ، ويسيءَ فيك الرأى ؛ وعقابُك على ذلك ما أنتِ فيه من الكساد والبوار ؛ عقابُ الطبيعة لمستقبلك بالحرمان ، وعقابُ أفكارك لنفسك بالألم !

س . أ . ع (١)

هؤلاء ثلاثةٌ من الأدباء تجمعُهم صِفَةُ العُزوبة ، ويحبّون المرأةَ حبًّا خائفا يُقدِّم رِجلا ويؤخِّر أخرى ؛ فلا يُقبِل إلا أدبر ، ولا يَعزِم إلا انْحَلَّ عزمُه ؛ بلغوا الرجولةَ وكأنْ ليست فيهم ، وتمرُّ بهم الحياةُ مرورَها بالتماثيل المنصوبة : لا هذه قد وُلِدَ لها ولا أولئك ؛ وما برحوا يجاهدون ليحتملوا معانىَ وجودِهم ، لا ليطلبوا سعادةَ وجودهم ؛ ويُمَخْرِقون فى شَعْوَذة الحياة بالنهار على الليل ، وبالليلِ على النهار ؛ يحاولون أن يجدوا كالناس أياما وليالىَ ، إذ لا يعرفون لأنفسهم من العُزوبة إلا نهاراً واحداً ، نصفُه أسودُ مُقْفِرٌ مظلِم ... !

---

(١) هم الأصدقاء : سعيد ... ، وأمين حافظ شرف ، وعبد الله عمار ؛ وانظر ص ١٩٥ - ١٩٦ ، و ١٩٩ - ٢٠٠ « حياة الرافعى »

فأما « س » فرجلٌ « كشيخ المسجد » يكاد يرى حَصِيرَ المسجد حيث وَطِئتْ قدماه من الأرض ... ذو دينٍ وتقوى ، ما يزال بهما ينقبِضُ وينكَمِشُ وَيتزايَلُ حتى يَرجعَ طفلا فى الثلاثين من عمره ... وهو حائرٌ بائرٌ لا يتَّجِهُ لشىء من أمر المرأة ، وقد فَقَدَ منها ما يَحِلُّ وما يَحْرُم ، ولا جُرْأةَ لنفسه عليه ، فلا جرأةَ له على المُوبِقات ، ولا يزيّن له الشيطانُ وَرْطةً منها إلا أمْلَسَ منه ؛ فإن له ثلاثةَ أبوابٍ مفتوحةٍ للهرب : إذ يخشى الله ، ويَتَوقَّى على نفسه ، ويستحْيي من ضميره .

وأما « أ » فرجلٌ مِعْزابةٌ ، ولكنه كالإسفِنْجة ، امتلأت حتى ليس فيها خَلاءٌ لقَطْرة ، ثم عُصِرَتْ حتى ليس فيها بَلَالٌ من قطرة : وقد بلَغ ما فى نفسه وقضى نَهْمتَه حتى اشتفَى بما أراد ؛ ثم قَلَبَ الثوب ... فإذا له داخِلةٌ ناعمةٌ من الخزِّ والدِّيباج ، وإذا هو « الرجلُ الصالح » العفيفُ الدِّخْلَة ، ما تنطاقُ له نفسٌ إلى مأثَم ، ولا يعرف الشيطانُ كيف يَتَسَبَّبُ لصُلْحه ومُراجعتِه الوَدّ ...

وأما « ع » فهو كالأعرج ؛ إذا مشى إلى الخير أو الشر مشى بطيئا برِجلٍ واحدةٍ ، ولكنه يمشى ... وهو « مَلِكُ الشوارع » لا يزال فيها مقبِلًا مُدبِراً طرَفا من النهار وزُلَفا من الليل ؛ فإذا لم يكن فى الشارع نساء ظَنَّ الشارعَ قد هَرَبَ من المدينة وخرج من طاعته ... ولهذه الشوارع أسماءٌ عنده غيرُ أسمائها التى يتَعارَفُها الناسُ ويستدِلُّون بها . فقد يكونُ اسمُ الشارع مثلا : «شارع طه الحكيم »[1] ويسمّيه هو « شارع مارى» ... ويكون اسمُ الآخر : « شارع كتشنر » فيسميه « شارع الطَّويلة » ... ودَرْبٌ اسمُه « دربُ الملاَّح » واسمه عنده « دربُ المَليحة » ... وهلمَّ جرّا ومَسْخا .

---

(١) ما يأتى هنا من أسماء الشوارع فهو من شوارع « طنطا » وفى شارع « طه الحكيم » كانت دار الرافعى

وإذا أراد صاحبُنا هذا أن يسخر من الشيطان دخل المسجدَ فصلَّى ، وإذا أراد الشيطانُ أن يسخرَ منه دَحْرَجه فى الشوارع ... !

✡ ✡ ✡

وافيتُ هؤلاء الثلاثةَ مجتمعين يَتَدارَسُون مقالة « تربية اؤاؤية » ، يناقِشُونها بثلاثةِ عقول ، ويفتِّشونها بستّ عيون ؛ فأجمعوا على أن المرأةَ السافرةَ التى نبذَتْ « حجابَ طبيعتها » على مابيَّنتُه فى تلك المقالة — إن هى إلا امرأة مجهولةٌ عند طالبى الزواج بقدر مابالغَتْ أن تكونَ معروفة ، وأنها ابتعدت من حقيقتها الصحيحةِ قدرَ مااقتربتْ من خيالها الفاسد ؛ وأتقنتْ الغلَطَ ليصدِّقَها فيه الرجلُ، فلم يكذِّبْها فيه إلا الرجل ؛ وجعلتْ أحسنَ معانيها ماظهرتْ به فارغة من أحسن معانيها ... !

وأردتُ أن أعرفَ كيف تَنْتَصِفُ الطبيعة من الرجل العَزَبِ للمرأة التى أهملها أو تركها مُهْمَلة ... وأين تبلغ ضَرَباتُها فى عيشه ، وكيف يكون أثرُها فى نفسه ، وكيف تكون المرأةُ فى خائنةِ الأعين ؛ فتسرَّحْتُ مع أصحابنا فى الكلام فنا بعد فن ، وأزلتُ حِذارَهم الذى يحذرون ، حتى أفضَوْا إلىّ بفلسفة عقولهم وصدورِهم فى هذه المعانى .

قال « س » : حسْبى واللهِ من الآلام وآلامٍ معها — شعورى بحرمانى المرأة ؛ فهو بلاءٌ معنى القرار ، وسلبى السَّكينة ؛ وكأنه شعورٌ بمثل الوَحْدة التى يُعاقَب السجينُ بها مصروفاً عن الحياة مصروفةً عنه الحياة : تجعلُه جُدران سجنه يتمنَّى لو كان حَجَراً فيها فينجوَ من عذاب إنسانيته الذليلةِ المجرِمة المخلَّى بينها وبينه توسِعُه مما يكره : شعورٌ بالوحدة والعُزْلةِ حتى مع الناس وبين الأهل، فما فىَّ إلا عواطفُ خُرْسٌ لا تستجيب لأحد ولا يجاوِبُها أحدٌ فى « ذلك المعنى » .

وتمامُ الذِّلّة أن يجدَ العَزَبَ نفسه أبداً مُكْرَها على الحديث عن آلامه لكلِّ من يُخالِطه أو يجلس إليه ، كأنه يحملُ مصيبةً لا يُنفِّسُ منها إلا كلامُه عنها ؛ وهذا هو السرُّ فى أنك لاتجد عَزَبا إلا عرفتَه ثرثاراً لاتزالُ فى لسانه

مَقالةٌ عن معنًى أو رجلٍ أو امرأة، وأصبْتَه كالذباب لا يطيرُ عن موضع إلا ليقعَ على موضع.

ومع جَهْدِ الحرمان جَهْدٌ شرٌّ منه في المقاومة وكفّ النفس؛ فذلك تعبٌ يَهلِكُ به الآدميُّ، إذ لا يدعُه يتقارُّ على حالة من الضجر فيما تُنازِعه الطبيعةُ إليه، وهو كالمَزْعِ في أعصابه، يُحِسُّها تُشَدُّ لتُقْطَع، ودائما تُشَدّ لتقْطع.

وقد رَهِقَني من ذلك الضَّنَى النّسويّ ماعِيلَ به صبري وضَعُفَ له احتمالى؛ فما أرانى يوما على جَمَامٍ من النفس، ولا ارتياحٍ من الطبع؛ وكيف وفى القلب مادةُ همّه، وفى النفس عِلّةُ انقباضِها، وفى الفكر أسبابُ مَشغَلَتِه؟ وقد أوقدتْ سَوْرةُ الشباب نارَها على الدم، تَتَعَجُ فى الأحشاء، وتطيرُ فى الرأس، وتَصبُغُ الدنيا بلون دُخانِها، وفى كل يوم يتخلّف منها رَمادٌ هو هذا السوادُ الذى رَانَ على قلبى.

وما حالُ رجلٍ عذابُه أنه رجل، وذُلُّه أنه رجل؟ يلبس ثيابَه الإنسانية على مثل الوحش فى سلاسِله وأغلالِه، ويحملُ عقلا تُسُبّه الغريزةُ كلَّ يوم وتراه من العقول الزُّيُوفِ لا أثرَ للفضيلة فيه؛ إذ هو مجنون بالمرأة جنونَ الفكرةِ الثابتة، فما يخلو إلى نفسه ساعةً أو بعضَ ساعةٍ إلا أخذته الغريزةُ مُجْترحا جريمةَ فكر ......

وفى دُونِ هذا ينكرُ المرءُ عقلَه؛ وأىُّ عقلٍ تُراه فى رجلٍ عَزَبٍ يقع فى خياله أنه متزوج، وأنه يأوِى إلى «فلانة»، وأنها قائمة على إصلاح شأنه ونظام بيته، وأنه من أجلها كان عَزُوفا عن الفَحشاء، بعيدا من المنكَر؛ وفاءً لها، وحفظا لعهدِ الله فيها، وقد دلّهَتْه بفُنونها التى يبتدِعُها فكرُه؛ وهى ساعةً تؤاكِلُه على الخِوان، وساعة تُضاحِكه، ومرةً تُعابِثه، وتارة تُجافيه، وفى كل ذلك هو ناعمٌ بها، يحدّثها فى نفسه، ويَسْمُرُ معها، ويتصنَّع لها وتتصنع له،

ويُعاتبها أحيانا فى رقة ، وأحيانا فى جفاءٍ وغِلظة ؛ وقد ضربها ذاتَ مرة ... !

ألا إن فكرةَ المرأةِ عندى هى هذا الجنونُ الذى يرجع بى إلى عشرة آلاف سنة من تاريخ الدنيا ، فيرمى بى فى كهفٍ أو غابةٍ ، فأرانى من وراء الدهور كأنى أبدأُ الحياةَ منفردا وأجدُنى رجلا عاريا متوحشا متأبّدًا ليس من الحيوانِ ولا من الإنْس ، دنياه أحجارٌ وأشجار ، وهو حجرله نُموُّ الشجر .

لقد توزّعَتْ المرأةُ عقلى فهو متفرِّقٌ عليها ، وهى متفرقة فيه ؛ لا أستطيعُ والله أن أتصوّرها كاملة ، بل هى فى خيالى أجزاء لا يجمعُها كلٌّ ؛ هى ابتسامةٌ ، هى نظرةٌ ، هى ضحكةٌ ، هى أُغنيَّةٌ ، هى جسم ، هى شىء ، هى هى هى .

أكلُّ تلك المعانى هى المرأةُ التى يعرفُها الناس ، أم أنا لى امرأةٌ وحدى ؟

وإنى على ذلك لأتخوَّفُ الزواجَ وأتحاماه ؛ إذْ أرى الشارعَ قد فَضَحَ النساءَ وكَشَفَهُنَّ ؛ فما يُرِينى منهن إلا امرأةً تَزْهَى بثيابها وصَنْعةِ جمالها ، أو امرأةً كالهاربة من فضائِلها ؛ والبيتُ إنما يطلبُ الزوجةَ الفاضلَةَ الصَّنَاعَ ، تَخيطُ ثوبَها بيدها فتُباهِى بصَنعته قبل أن تُباهى بلبسه ، وتَزْهَى بأثر وجهِها فىَّ ، لا بأثر المساحيقِ فى وجهها . وإنَّ مكابدةَ العفةِ ، ومصارعةَ الشيطان ، وتوهُّجَ القلب بناره الحامية ، وإلمامَ الطَّيْرةِ الجُنونيةِ بالعقل — كلُّ ذلك ومثلُه معه أهونُ من مكابَدةِ زوجةٍ فاسدةِ العلمِ أو فاسدةِ الجهل أُبْتَلَى منها فى صديقِ العُمر بعدوِّ العُمر .

إن أثرَ الشارع فى المرأة هو سوءُ الظنّ بها ، فهى تحسِبُ نفسها معلنةً فيه أنوثتَها ، وجمالَها ، وزينتَها ؛ ونحن نراها معلنةً فيه سُوءَ أدبٍ ، وفسادَ خُلُقٍ ، وانحطاطَ غريزة . ومن كان فاسقا أساء الظنَّ بكل الفتيات ، ووجد السبيلَ من واحدةٍ إلى قولٍ يقوله فى كل واحدة ؛ ومن كان عفيفا سَمِع من الفاسق فوجد من ذلك مُتعلَّقا يتعلَّق به ، وقياسا يقيس عليه ؛ والفتنةُ لا تُصيب الذين ظلموا

خاصّة ، بل تعُم .

آه لو استطعت أن أُوقِظ امرأةً من نساء أحلامى ...

* * *

وقال « أ » : لقد كانت معانى المرأة فى ذهنى صُوَراً بديعةً من الشعر تستخفّنى إليها العاطفة ، ولا يزال منها فى قلبى لكل يومٍ نازِيةٌ تنزو ، وكانت المرأةُ بذلك حديثَ أحلامى ونَجِيَّ وساوِسى ، وكنتُ عفيفَ البنطلون (*) ؛ ولكنَّ النساءَ أيقظْنَنى من الحُلُم ، وفجَعْنَنى فيه بالحقيقة ، ووضعْنَ يدى على ماتحت مَلْمَس الحيّة ، ولو حدّثتُك بجملة أخبارهن وما مارستُ منهن ، لتكرَّهْتَ وتسخَّطْتَ ، ولأيقنْتَ أن كلمة (تحرير المرأة) إنما كانت خطأً مطبعيا ، وصوابها : (تجرير المرأة) ... فهؤلاء النساءُ أو كثرتُهن — لم يُذِلْنَ الحجابَ إلا لتخرجَ واحدةٌ مما تجهلُ إلى ماتريد أن تعرف ، وتخرجَ الأخرى مما تعرفُ إلى أكثرَ مما تعرفه ، وتخرجَ بعضُهن من إنسانيةٍ إلى بهيمة ....

لقد عرفتُ فيمن عرفتُ منهن الخفيفةَ الطيّاشة ، والحمقاءَ المتساقِطة ، والفاحشةَ ذاتَ الرِّيبة ؛ وكلُّ أولئك كان تحريرُهن أى تجريرُهن — تقليدا للمرأة الأوربية : تهالكْنَ على رذائلها دون فضائلها ، واشتدَّ حرصُهن على خيالها الروائى دون حقيقتها العلمية ومن مصائبنا نحن الشرقيين أننا لا نأخذ الرذائلَ كما هى ، بل نزيد عليها ضِعْفَنا فإذا هى رذائلُ مضاعفة !

كان الحُلُمُ الجميلُ فى الحجاب وحده ، وهو كان يُسعِّر أنفاسى ويَستطيرُ قلبى ، ويُرغمنى مع ذلك على الاعتقاد أن هٰهنا علامةَ التكرُّم ، ورمزَ الأدب ، وشارةَ العفة ؛ وأن هذه المحصَّنةَ المخدَّرةَ — عذراء أو امرأةً — لم تُلقِ الحجابَ

(*) يقول العرب فى الكناية عن العفة : هو عفيف الإزار . وترجمتها فى عصرنا ما رأيت

عليها إلا إيذانا بأنها فى قانون عاطفةِ الأُمومة لا غيرِها ؛ فهى تحت الحجاب لأنه رمزُ الأمانة لمستقبلها ، ورمزُ الفصل بين ما يَحسُن ومالا يَحسن ، ولأن وراءه صفاءَ روحها الذى تخشى أن يكدَّر ، وثباتَ كِيانها الذى تخشى أن يُزعْزَع .

قال حكيم لأولئك الذين يستميلون النساء بأنواع الحِلَى وصُنوف الزينة والكُسوة الحسنة : « ياهؤلاء ، إنكم إنما تعلمونهنّ محبّةَ الأغنياء لا محبةَ الأزواج » ، وأحكمَ من هذا قول ذلك الرجل الإلهىّ الصارم عمرَ بن الخطاب : « اضرِبُوهنَّ بالعُرْى » فقد عَرف من ألف وثلثمائة سنة أن تحريرَ المرأة هو تحريرُها ، وأنها لا تخرج لمصلحةٍ أكثرَ مما تخرج لإظهار زينتها ، فلو مُنِعت الثيابَ الجميلة حَبَسَتْها طبيعتُها فى بيتها ؛ فماذا تقول الشوارعُ لو نطقت ؟ إنما تقول : يا هؤلاء ، إنما تعلمونهن معرفةَ الكثير لا معرفةَ الواحد ..!

لقد والله أنكرتُ أكثرَ ما قرأتُ وسمعتُ من محاسنهن وفضائلهن وحيائهن

وقد كان الحجابُ معنًى لصعوبة المرأة واعتزازها ، فصار الشارع معنى لسُهولتها ورخصها ؛ وكان مع تحقّقِ الصعوبة أو توَهُّمِها أخلاقٌ وطباعٌ فى الرجل ، فصار مع توهم السهولة أو تحقُّقِها أخلاقٌ وطباع أخرى على العكس من تلك مازالت تَنْمِى وتتحول حتى ألجأت القانون أخيرا أن يترقّى بمن لمَسَ المرأةَ فى الطريق من « الجُنحة » إلى « الجِناية » .

وتخنَّثَ الشبّانُ والرجالُ ضُروبا من التخنث بهذا الاختلاطِ وهذا الابتذال ، وتحلّلتْ فيهم طباعُ الغَيْرَة : فكان هذا سريعا فى تغيير نظرتهم إلى النساء ، وسريعا فى إفسادِ اعتقادهم ، وفى نَقْضِ احترامهم ؛ فأقبلوا بالجسم على المرأة وأعرضوا عنها بالقلب ، وأخذوها بمعنى الأنوثة وتركوها بمعنى الأمومة ؛ ومن هذا قلَّ طلاّب الزواج ، وكثر رُوّاد الخَنا .

ولقد جاءت إلى مصرَ كاتبةٌ انجليزية ، وأقامت أشهرا تخالط النساءَ

المتحجبات وتدرسُ معانىَ الحجاب ، فلما رجعت إلى بلادها كتبت مقالا عنوانه : « سؤال أحمله من الشرق إلى المرأة الغربية » قالت فى آخره : « إذا كانت هذه الحريةُ التى كسبناها أخيرا ، وهذا التنافسُ الجنسيّ ، وتجريدُ الجنسين من الحُجبِ المشوِّقةِ الباعثةِ التى أقامتها الطبيعةُ بينهما — إذ كان هذا سيُصبحُ كلُّ أثره أن يتولَّى الرجالُ عن النساء ، وأن يزولَ من القلوب كلُّ مايحرّك فيها أوتارَ الحب الزوجى — فما الذى نكون قد ربحناه ؟ لقد والله تضطر هذه الحال إلى تغيير خِططنا ، بل قد نستقرّ طوعا وراء الحجاب الشرقى ، لنتعلم من جديد فنَّ الحب الحقيق »

✡ ✡ ✡

وقال « ع » : لستُ فيلسوفا ، ولكنَّ فى يدى حقائقَ من علم الحياة لاتأتى الفلسفةُ بمثلها ، وكتابى الذى أقرأ فيه هو الشارع .

فاعلم أن العُزَّاب من الرجال يتعلم بعضُهم من بعض ، وهم كاللصوص : لايجتمع هؤلاء وهؤلاء إلا على رذيلة أو جريمة ؛ وحياةُ اللص معناها وجودُ السرقة ، وحياةُ العَزَبِ معناها وجودُ البِغاء والفسْق .

ومن حُكم الطبيعةِ على الجنسين أن الفاسقَ يُباهى بإظهار فسقِه قدرَ ماتخاف الفاسقةُ من ظهور أمرِها ؛ وهذه إشارةٌ من الطبيعة إلى أن المرأةَ مِسكينةٌ مظلومة . فما ابتذالُ الحجاب ، ولا استهتاكُ النساءِ ، إلا جوابٌ على انتشار العُزُوبةِ فى الرجال ؛ وكيف يتحول الماء ثلجا لولا الضغط نازلا فنازلا إلى مادون الصفر ؟ فهذا الثلجُ ماءٌ يَعتذرُ من تحوُّلِه وانقلابه بعذرٍ طبيعىّ قاهرٍ ، له قوةُ الضرورة المُلجِئة ، وكذلك المرأةُ المُذالةُ أو الطامحةُ أو المتبذّلة أو المتهتكة — ماصِفاتُهن إلا توكيدٌ لأعذارهن .

وكان على الحكومة أن تضربَ العزوبةَ ضربةَ قانونٍ صارم ، فالعَزَبُ

وإن كان رجلا حُرًّا فى نفسه ، ولكن رجولته تفرض للأنوثة حقّها فيه ؛ فمتى جحد هذا الحقَّ واستكبر عليه ، رجع حالُه مع المرأة إلى مثل شأنِ الغريم مع غريمه : ليس للفصْل فيه إلا الدولةُ وأحكامُها وقوّتُها التنفيذية .

وإذا أُطلِقت الحرية للرجال فصاروا كلُّهم أو أكثرُهم أعزابا ، فماذا يكونُ إلا أن تُمحى الدولة ، وتسقطَ الأمة ، وتتلاشَى الفضائل ؟ فالعُزوبةُ من هذا جريمةٌ بنفسها ، ولا ينبغى أن تتربَّص بها الحكومةُ حتى تعمّ ، بل يجب اعتبارُها باعتبار الجرائم من حيثُ هى ، ويجب تفسيرُ كلمة « العَزَب » فى اللغة بمثل هذا المعنى : إنها شخصية مذكَّرة ساخطة متمرِّدة على حقوقٍ مختلفةٍ للمرأة والنسل والأمةِ والوطن .

وما ساء رأىُ العزَّاب فى النساء والفَتيات إلا من كونهم بطبيعة حياتهم المضطربة لايعرفون المرأةَ إلا فى أسوإ أحوالها وأقبح صِفاتها ، وهم وحدهم جعلوها كذلك .

إن لهم وجودا محزِنا يستمتعون فيه ، ولكنهم يَهلِكون ويُهلِكون به ؛ هم والله أساتذةُ الدروس السافلةِ فى كل أمة ، وهم والله بُغاةٌ من الرجال فى حكم البَغايا من النساء ، يَجرُون جميعا مَجرًى واحدا ؛ ومَنْ هى البَغىّ فى الأكثر إلا امرأةٌ فاجرة لازوج لها ؟ ومَنْ هو العَزَب فى الأكثر إلا رجلٌ فاسق لازوجة له ؟ على أن مع المرأة عذرَ ضعفِها أو حاجتها ، ولكن ماعذرُ الرجل ؟

ماذا تُفيدُ الدولة أو الأمة من هذا العَزب الذى اعتاد فَوْضَى الحياة ، وسَيْرَها على نظامها ، وتحقُّقَها على أسخفِ مافيها من الخيال والحقيقة ؟ وأىٌّ عزَب يجد الاستقرارَ ، أو تجتمع له أسبابُ الحياة الفاضلة ، وهو قد فقدَ تلك الروحَ التى تتمم روحَه ، وتُنقِّحها ، وتمسكها فى دائرتها الاجتماعية على واجباتها وحقوقِها ، وتجيئه بالأرواح الصغيرة التى تُشعره التَّبِعةَ والسيادةَ معا ، وتمتـدّ به ويمتدّ

بهـا فى تاريخ الوطن ؟

كيف يُعتبَر مثلُ هـذا موجودا اجتماعيّا صحيحا وهو حيّ مختلّ فى وجودٍ مُستعار ، يقضِى الليلَ هاربا من حياة النهار ، ويقضى النهارَ نافرا من حياة الليل ؛ فيقضى عمرَه كلَّه هاربا من الحياة ، وكأنه لا يعيش بروحه كاملة ، بل ببعضها ، بل بالممكن من بعضها ... !

أيّةُ أسْرةٍ شريفة تَقْبل أن يساكِنَها رجلٌ عزَب ؟ وأيّةُ خادم عفيفةٍ تطمئن أن تخدمَ رجلا عزبا ؟ هذه هى لعنةُ الشرف والعفةِ لهؤلاء الأعزاب من الرجال !

* * *

قال الراوى : وهنا انتفض « س » و « أ » وحاولا أن يقبضا على هذه اللعنة ويردّاها إلى حلْق « ع » ! ثم سألنى ثلاثتُهم أن أُسْقِطَها من المقال ، بَيْدَ أنى رأيتُ أن خيرا من حذفها أن تكونَ اللعنة لأعزابِ الرجال إلا « س » و « أ » و « ع » ...

اِسْتَنْوَقَ الجمــل (١)

قال الشاب : لا قِبَل لى بهذا التعَب المُعنِّى الذى يسمّونه « الزواج » ؛ فمـا هو إلا بيتٌ ثقـله على شيئين : على الأرض ، وعلى نفسى ؛ وامرأةٌ همّها فى موضعين : فى دارها ، وفى قلبى ؛ وما هو إلا أطفالٌ يُلزِموننى عملَ الأيدى الكثيرةِ من حيث لا أملك إلا يدينِ اثنتين ، وأتحمّلُ فيهم رَهَقا شديدا كأنما أبليهم بأيامى ،

---

(١) انظر ص ٢٠٠ — ٢٠١ « حياة الرافعى »

وأجمعُ همومَ رءوسهم كلِّها فى رأسٍ واحد هو رأسى أنا!

يُولَدُ كلٌّ منهم بمَعِدة تَهضم لتوِّها وساعتِها، ثم لاشىء معها من يد أو رجل أو عقل إلا هو عاجزٌ لايستقلّ، مُتَخاذِلٌ لايُطيق ولا يقْدر.

قال: وإذا كان أولُ الزواج - أىْ عَسَلُه وحَلْواه - أنه امرأةٌ تُذْهِبُ عذوبتى، فأنا وأمثالى مانزالُ فى عَسَلٍ وحَلوى... ولكلٍّ وقت زواج، ولكل عصر أفكار، وما أسخفَ الليالىَ إذا هى ترادفَتْ على ضَرْب واحد من أحلامها، فهذا يجعلُ النومَ حكما بالسجن عشرَ ساعات...!

قال: وإذا أردتَ أن تستكشفَ القصةَ فاعلم أننا نحن العُزَّابَ قوم كرجال الفن: رذيلتُهم فنِّيَّة، وفضيلتهم فنِّيَّة؛ فتلك وهذه بسبيل؛ وكلٌّ شىء فى الفن هو لموضعه من الفن لامن غيره؛ فإذا قلتَ: هذا خالٍ من الفضيلة، عارٍ من الأدب؛ وعِبْتَ الفنَّ لذلك، فما هو إلا كَعيبك وجهَ المرأة الجميلة لأنه خال من اللِّحية... هاتِ الظلامَ وسوادَه، فإنه لونٌ كالنور وإشراقه؛ لابدّ من كليهما؛ إذ المعنى الفنّى إنما يكون فى تناسُب الأشياء لافى الأشياءِ ذاتها؛ ويدُ الفنّىِّ كيَدِ الغنىّ: هذه لايقع فيها الذهبُ إلا ليتعدَّدَ ثم يتعدد، وتلك لاتقع فيها المرأة إلا لتتعدّد ثم تتعدد؛ وفى كل دينارٍ قوةٌ جديدة، وفى كل امرأة فنٌّ جديد...!

قال: ومذهبُنا فى الحياة أن نستمتعَ بها ضُروبا وأفانينَ؛ مَن أطاق أنواعا لم يقتصر على نوعين، ومن قَدَر على نوعين لم يرضَ الواحد؛ ولو أن زوجةً كانت من أشعَّةِ الكواكب أو من قَطَرات النَّدى، لَثقُلَ منها على حياتنا ما يثْقُل من الحديد والصَّوَّان؛ إذ هى لاتَلِدُ أشعةَ كواكبٍ، ولا قطراتِ ندى؛ وحَسْبُ الجسد برأس واحد حِمْلا.

قال: ومَن الذى تَعرِضُ عليه الحياةُ سلامَها وتحيّاتِها وأشواقَها فى مثل

رسالة غرام، ثم يدعُ هذا ويسألها غضبَها وخِصامَها ولَجاجتَها فى مثل قضية من قضايا المحاكم، كلّ ورقةٍ فيها تلد ورقة . . .؟

ثم قال الشاب : لاتحسَبنَّ أن المرأةَ هى السافرةُ عندنا، ولكنَّ اللذةَ هى السافرة ؛ وما أحكمَ الشرع ! أقول لك وأنا محامٍ يقرر الحقيقة : ما أحكم الشرعَ الذى لم يُرَخِّصْ فى كشف وجهِ المرأة إلا لضرورة ؛ فإن الواقعَ فى الحياة أن هذا الكشفَ كثيراً مايكون كنقْبِ اللص على ماوراء النَّقْب ؛ وإذا كُسِرَ ما فوق القُفل من الخزانة المكتَنَز فيها الذهبُ والجوهرُ، فالبابُ الحديدُ كلّه سخرية وهُزُؤ مِن بَعْدُ . . !

* * *

هذه عقليةُ شابّ محامٍ طُوِىَ عقلُه على الكتب القانونية، وطوى قلبُه على مثلها من غير القانونية ؛ وليس يَمتَرِى أحدٌ فى أنها عقليةُ السواد من شبابِنا المثقَّف الذى لَبِس الجلد الأوربى . ومن البلاء على هذا الشرق أنه مابرحَ يُناهِضُ المستعمرين ويُواثبُهم، غافلًا عن معانيهم الاستعمارية التى تُناهِضُه وتواثبه، جاهلا أن أوربا تستعمرُ بالمذاهب العلمية كما تستعمرُ بالوسائل الحربية، وتَسوقُ الأسطولَ والجيش، والكتابَ والأستاذ، واللذةَ والاستمتاع، والمرأة والحب .

ولو أن عدوّاً رماك بالنار فاستطارتْ فى ثيابك أو متاعِك لما دخلَكَ الشك أن عدوَّك هو النارُ حتى تفرغ من أمرها ؛ فكيف ـ لَعمرى ـ غَفَل الشرقيون عن أخلاق ناريةٍ حمراء يأكلهم بها المستعمرون أكلا كأنما يُنضجونهم عليها ليكونوا أسهلَ مَساغا، وألينَ أخذاً، وأسرعَ فى الهضم . . . !

لم أفهم أنا من كلام صاحبنا الشاب ومعانيه إلا أن أوربا فى أعصابه، وأما مصرُ ونساؤُها ورجالُها فعلى طَرَف لسانِه لاتكون إلا صَيْحة، وليس بينه

وبينها فى الحياة عملٌ إلا من ناحيةِ لذّتِهِ بها ، لا من ناحية فائدتِها منه .

وتلك المعانى كلها مشتَق بعضُها من بعض ، ومَرْجِعُها إلى أصلٍ واحد ؛ كالأمراض التى تَبتلى الجسمَ : يُمَهِّد شىءٌ منها لشىء ، مادامت طبيعةُ هذا الجسم زائغةً أو مختلّة ، أو متراجِعة إلى الضعف ؛ أو ذاهبة إلى الموت .

وأولئك شبانٌ وقف بهم الشبابُ موقِفَ بَلادة ، فلا يخطو إلى الرجولة ، ولا يكمُلُ بنموِّه الاجتماعى كما يكمل الرجلُ الوطنى ؛ فمن ثَمّ يكون خَوّاراً لا يستطيع أن يَحمل أثقالا مع أثقاله ؛ ويَستوطئُ العجزَ والخُمولَ ؛ فلا يكون إلا قاعدَ الهمة ، رِخْو العزيمة ، قد استنام إلى أسباب عجزِه وتخاذُلِه ؛ ولا يكونُ فى بعض الاعتبار إلا كالمريض يعيش بمرضه حَمِيلةً على ذويه ، ضُجَعة لا يمشى ، نُوَمَة لا ينتهِض ، مستريحا لا يعمل .

وبهذه المَكْسَلَةِ الاجتماعيةِ فى الشبان ، يبدأُ الشعبُ يتحول من داخِله فينصرفُ عن فضائله ، ويتخذ فى مكانها فضائلَ استعارةٍ يقلّد فيها قوما غيرَ قومه ، ويجلبُها لبيئة غير بيئته ، ويَقْسِرُها على أن تَصْلُح له وهى فَساد ، ويُكْرِهها على أن تنفعَه وهى ضرر ؛ وتلك حالةٌ يُغامِر فيها الشعبُ بكِيانه فلا تلبثُ أن تَصْدَعَه وتفرّقه .

ولو أن فى السحاب مطَرا وغَيثا لما كان له فى كل ساعةٍ لونٌ مصبوغ ، ولو أن فى الشباب دينا لما صبغته تلك الأخلاقُ الفاسدة ؛ وما ذَهابُ الحارس عن مكانٍ إلا دعوةُ للصوص إليه! وهل كان الدين إلا واجباتٍ وتَبِعاتٍ وقيودا يراد من جميعها إعدادُ الإنسان لأمثالها فى الاجتماع ، حتى يقرَّ فى إنسانيته الصحيحةِ على النحو الذى يصلُح له منفردا ويصلح له مجتمعا ؟ فليست الزوجة وحدها هى التى خسِرت الشاب ، بل خسره معها الوطنُ والدينُ والفضيلةُ جميعاً ؛ وبهذا انعكس وضعُه من الجماعة ، فوجب فى رأيه أن تُسَخَّر الجماعةُ له ، وأن

يستقلّ هو بنفسه ؛ وبهذا العكسِ ، وهذا السقوطِ ، وهذا الاستمتاع الذى يجد سعادتَه فى نفسه ، أصبح أولئك الشبان كأنما حقُّهم على المجتمع أن يقدِّمَ لهم بغَايا لا زَوجات . . . بغَايا حتى من الزوجات . . . !

قَبَّحَ الله عصراً يجهلُ الشاب فيه أن الرجلَ والمرأةَ فى الوطن كلمتان تفسِّر الإنسانيةُ إحداهما بالأخرى تفسيراً إنسانيّاً دينيا ، بالواجبات والقيود والأحمال ، لا بالأهواء والشهواتِ والانطلاق ، كما تفسِّر الحيوانيةُ الذكرَ والأنثى .

والنفسُ الدنيئة أو المنحطّةُ فى أخلاقها ومَنازِعِها من الحياة ، لا تكون إلا دنيئةً أو منحطةً فى أحلامها وأخْيِلَتِها الروحية ، دنيئة كذلك فى طاعتها إن قَضَت عليها الحياةُ بموضع الخضوع ، دنيئةً فى حكمها إن قضت لها الحياة بمنزلةٍ من السلطة ؛ ولو تنبهت الحكومةُ لطردت من عملها كلَّ موظف غيرَ متأهِّل ، فإنها إنما تستعملُ شرّاً لا رجلًا يمنع الشر ، وكلُّ شابٍّ تلك حاله هو حادثة تَرْتدِف الحوادث وتستلزمها ، وما يأتى السوءُ إلا بمثله أو بأسوأ منه .

✡ ✡ ✡

ليس للزواج معنًى إلا إقرار طبيعةِ الرجل وطبيعةِ المرأة فى طبيعةٍ ثالثة تقومُ بالاثنتين معًا ، وهى طبيعةُ الشعب ؛ فمن سقوطِ النفس ولؤمِها ودناءتِها أن يفرَّ الشابُّ القوى من تَبِعة الرجولة ، فلا يحمل ما حمل أبوه من واجباتِ الإنسانية ، ولا يُقيم لوطنه جانبا من بناء الحياة فى نفسه وزوجِه وولده ، بل يذهبُ يجعل حظَّ نفسه فوقَ نفسه وفوق الإنسانية والفضيلة والوطنِ جميعا ، ولا يعرفُ أن انفلاتَه من واجبات الزواج هو إضعافٌ فى طبيعته لمعنى الإخلاص الثابت ، والصبر الدائب ، والعطف الجميل ، فى أىِّ أسبابها عَرَضَتْ .

ومن فُسُولة الطبع ولؤمِه ودناءته أن يهربَ هذا الجندىُّ من مَيْدانه الذى فَرَضت عليه الطبيعةُ الفاضلة أن يجاهِدَ فيه لأداء واجبه الطبيعى ، متعلِّلا لفِراره

* * *

فسقوطُ النفس وانحطاطُها هو وحده نكبةُ الزواج في أصلها وفُروعها الكثيرة التي منها المغالاةُ والشَّطط في المُهور، ومنها بحثُ الشاب عن الزوجة الغنية وإهمالُ ذاتِ الدِّين والأصلِ الكريم لفقرها، ومنها ابتغاءُ الزوجة رجلا ذا جاهٍ أو ثراء، وعُزُوفُها عن الفاضل ذى الكَفَافِ أو اليسير على غِنًى في رجولته وفضائله، كأنما هو زواجُ الدينار بالسبيكة، والسبيكةِ بالدينار، وكأن الطبيعةَ قد ابتُليت هي أيضًا بالسقوط، فأصبحت تعتبِرُ الغِنَى والفقر، فتجعل في دم أولاد الأغنياء رُوح الذهب واللؤلؤ والماس، وتُلقى في دم أولاد الفقراء رُوحَ النحاس والخشب والحجارة... على حين أن الجميعَ مُسْتَيْقِنون لا يَتَدَافَع اثنان منهم في أن الطبيعةَ لا تبالى إلا بوراثة الآداب والطباع

وأعظم أسباب هذا السقوط في رأيي هو ضعفُ التربية الدينية في الجنسين، وخاصةً الشبان؛ ظنًّا من الناس أن الدينَ شأنٌ زائد على الحياة، مع أنه هو لا غيرُه نظامُ هذه الحياة وقِوَامُها في كل ما يتصل منها بالنفس؛ وليست المدنيةُ الصحيحة — كما يحسبُ المفتونون — هي نوعَ المعيشة للحياة ومادتها، بل نوع العقيدة بالحياة ومعانيها؛ وإلى هذا ترمى كلُّ مبادئ الإسلام؛ فإن هذا الدين القويَّ الإنسانيّ لا يعبأ بزخارفَ كهذه التي تتلبَّسُ بها المدنيةُ الأوربية القائمة على الاستمتاع وفنونِ اللذات وانطلاقِ الحرية بين الجنسين؛ فهذا بعينه هو التحطيمُ الإنساني الذي ينتهي بتهدُّم تلك المدنية وخَرابها؛ وإنما يعبأ الإسلامُ بالعقيدة التي تنظِّم الحياةَ تنظيما صحيحاً مُتساوِقًا وافياً بالمنفعة، قائما للفضيلة، بعيداً من الخلط والفوضى.

ويقابلُ ضعفَ التربية الدينية مظهرٌ آخرُ هو سببٌ من أكبر أسباب السقوط، وهو ضعفُ التربية الاجتماعية في المدرسة؛ وإلى هذا الضعف يرجع

سببٌ آخر، هو تخنُّث الطباع واسترسالُها إلى الدَّعةَ والراحة، وفرارُهامن حمل التَّبِعة «المسئولية» التي هي دائما أساسُ كل شخصية قائمةٍ في موضعها الاجتماعي.

وبذلك الضعفِ وذلك السقوطِ وُضعت المرأةُ البغيُّ العاهرةُ في الموضع الطبيعيِّ للأم، ونزل الرجلُ السافلُ المنحط في المكان الطبيعي للأب، وتحلَّلت قُوَى الوطن بانحراف عُنْصريه العظيمين عن طبيعتهما، وجَعَلت فضيلةُ الفتيات المسكيناتِ تتآ كَّلُ من طول ما أُهمِلتْ وأخذَ سُوسُ الدم يتركها فضائل نخِرة ولا عاصم ولا دافع إلا قوةُ القانون وسطوتُه، مادامت الفضيلةُ في حكم الناس وتصريفهم قد تَركتْ مكانَهـا للقوانين، وما دامت قوةُ النفس قد أخلَتْ موضعَها للقوة التنفيذية.

لقـد قُتِلتْ رُوحيّةُ الزواج، وهي على كل حال جريمةُ قتل، فمن القاتلُ يا صاحبنا المحامي؟

قال الشاب: هو كل رجلٍ عَزَب.

قلت: فمـا عقابُه؟

فسكَتَ ولم يَرْجِعْ إليَّ جوابًا.

قلت: كأني بك قد تأهَّلتَ وَخلاكَ ذمٌّ.. فما عقابُه؟

قال: إلى أن تبلغ الحـكومة أو أن تعاقب هؤلاء العزّاب، فليعاقبْهم الشعبُ بتسميتهم «أرامل الحـكومة»... واحدُهم: رجلٌ أرملةُ حكومة...

ثم قال: اللهمّ يَسِّرْها ولا تجعلني رجلًا بغلطتين: غلطةٍ في نساء الأمة، وغلطةٍ في ألفاظ اللغة.

*

أرملة حكومة . . . (١)

(أرملة الحكومة) فيما تواضعْنا عليه بيننا وبين قرائنا (*) هو الرجلُ العَزَب يكون مُطِيقاً للزواج ، قادراً عليه ، ولا يتزوج ؛ بل يركبُ رأسه فى الحياة ، ويذهبُ يُمَوِّهُ على نفسه كذِباً وتدليساً ، وينتحِلُ لها المعاذيرَ الواهية ، ويَختلقُ العللَ الباطلة ، يحاول أن يُلحِقَ نفسَه بمرتبة الرجل المتزوج من حيث يَحُطُّ الرجلَ المتزوجَ إلى مرتبته هو ، ويضيف شؤمَه على النساء إلى هؤلاء النساء المسكينات ، يزيدهن على نفسه شرَّ نفسه ، ويرميهنّ بالسوء وهو السوءُ عليهن ، ويَتَنَقَّصُهنّ ومنه جاء النقص ، ويَعِيبُهُنّ وهو أكبرُ العيب ؛ لا يتذكر إلا الذى له ، ولا يتناسَى إلا الذى عليه ، كأنما انقلبت أوضاعُ الدنيا ، وتبدّلتْ رُسومُ الحياة ، فزالت الرجولةُ بتَبِعاتها عن الرجل إلى المرأة ، وانفصلت الأنوثةُ بحقوقها من المرأة إلى الرجل ، فوجب أن تَحمِلَ تلك ما كان يحمل هذا ، فتُقْدِمَ ويَقَرَّ وادعاً ، وتتعبَ ويستريح ، وتُعانِيَ الهمومَ السامية فى الحياة الاجتماعية ، ويعانيَ المخنَّثُ ابتساماتِه ودموعَه ، متّكِئًا فى مجلسه النّسيميّ تحت جَناح المِرْوحة ... فأما المرأةُ فتشْرف على هَلَكتِها ، وتُخاطِرُ بحاضرها ومستقبلها ، وأما هو فيبقى

---

(١) ص ٢٠٣ - ٢٠٤ « حياة الرافعى »

(*) انظر مقالة « استنوق الجمل » ، والتاء فى « أرملة الحكومة » ليست للتأنيث ، بل هى تاء جديدة فى العربية ، تزاد فى هذه الكلمة خاصة ، واسمها تاء الهزؤ ... ويا حبذا لو اصطلح النساء والفتيات والمتزوجون جميعاً على تسمية كل رجل عزب : « أرملة الحكومة » ، فان هذا الاسم إذا عم وشاع كان فى معناه وفعله المطهر ، حامضا لغويا كحامض الفنيك . . . !

من ثيابه فى مثل الخِدْر المَصُون . . . !

(أرملة الحكومة) هو ذلك الشاب الزائفُ المُبَهْرَج ، يُحْسَبُ فى الرجال كذبا وزورا ؛ إذ لا تكمُلُ الرجولةُ بتكوينها حتى تكملَ بمعانى تكوينها ، وأخصُّ هذه المعانى إنشاءُ الأسرة والقيامُ عليها ، أىْ مغامرةُ الرجلِ فى زمنه الاجتماعىِّ ووجودِه القومىِّ ، فلا يعيش غريبًا عنه وهو معدودٌ فيه ، ولا طُفيْليًّا فيه وهو كالمنفىِّ منه ، ولا يكون مَظهراً لقوة الجنس القوىّ هاربةً هروبَ الجبن من حَمْل ضَعف الجنس الآخر المحتمِى بها ، ولا لمروءةالعشيرِ مُتَبَرِّئة تَبَرُّؤَ النذالة من مؤازَرة العشير الآخر المحتاج إليها؛ ولا يرضَى لنفسه أن يكونَ هو والذلُّ يعملان فى نساء أُمته عمــلًا واحدًا ، وأن يصبح هو والـكسادُ لا يأتى منهما إلا أثرٌ متشابه ، وأن يبيتَ هو والفناء فى ظُلمةٍ واحدة كظُلُمات القبر تنقلُ الأجداثَ إلى الدُّور ، فتجعلُ البيتَ الذى كان يقتضيه الوطنُ أن يكون فيـه أبٌ وأم وأطفال ـ بيتاً خاوياً كأنما ثَـكِلَ الأمَّ والأطفال وبقيت فيه البقيةُ من هذا الرجلِ العزَبِ الميِّتِ أكثرُ تاريخه . . . !

لقد رأيتُ بعينىّ أداةَ العزَب وأثاثه المبعثرَ فى بيته ، كأنما يقصُّ عليه كلٌ ذلك قصةَ شؤمِه وَوَحدته ، وكأنما يقول له الفَرْشُ والنَّجْدُ والطِّراز : « بِعْنى يارجل وردَّنى إلى السوق ؛ فإنى هنالك أطمعُ أن يكونَ مصيرى إلى أبٍ وأم وأولاد ، أجِدُ بهم فرحةَ وجودى ، وأصيبُ من معاشرتهم بعضَ ثوابى ، وأَبْلى تحت أيديهم وأرجلهم فأكونُ قدعملتُ عملًا إنسانيًّا ؛ أما عندك ، فأنت خشبةٌ مع الخَشَب ، وأنت خِرْقةٌ بين الخِرَقِ » ؛ واسمعْ الـكرسىَّ إنه يقول : أف ! وأصغِ إلى فراشك إنه يقول : تُف . . . !

شَهِد العزَبُ وربٌّ الـكعبةِ على نفسه أنه مُبْتَلًى بالعافية ، مستعبَدٌ بالحرية ، مجنونٌ بالعقل ، مغلوبٌ بالقوة ، شقىٌّ بالسعادة ؛ وشَهِدَتْ الحياةُ عليه وربِّ البيت

أنه فى الرجولة قاطعُ طريق ، يقطع تاريخَها ولا يؤمِّنُه ، ويسرق لذاتِها ولا يكْسَبها ، ويخرج على شَرْعِها ولا يدخُل فيه ، ويعصى واجباتِها ولا ينقادُ لهـا ؛ وشهد الوطن — واللهِ — عليه أنه مخلوق فارغ كالواغِل على الدنيا ؛ إن كان نعمةً بصلاحه انتهت النعمةُ فى نفسها لا تمتد ، وإن كان بفساده مصيبةً امتدتْ فى غيرها لا تنقطع . وأنه شحّاذُ الحياة ، أحسَنَ به الأجدادُ نسلا باقيا ، ولا يُحْسِن هو بنسلٍ يبقى ؛ وأنه فى بلاده كالأجنبى ، مَهْبطه على منفعةٍ وعيش لا غيرهما ، ثم يموتُ وُجود الأجنبى بالنَّقْلةِ إلى وطنه ، ويموتُ وجودُ العزَب بالانتقال إلى ربه ، فيستويان جميعا فى انقطاع الأثر الوطنىّ ، ويتفقان جميعا فى انتهاب الحياة الوطنية وأن كليهما خرَجَ من الوطن أَبْتَرَ لا عَقِبَ له ، ويذهبان معا فى لُجج النسيان : أحدُهما على باخرة ، والآخر على النعش !

✡ ✡ ✡

جاءنى بالأمس « أرملة حكومة » ، وهو مهندس موظف ، ومعنى الهندسة الدقةُ البالغةُ فى الرقْم والخطّ والنقطة وما احتمل التدقيق ، ثم الحذرُ البالغ أن يختلّ شىء أو ينحرفَ ، أو يتقاصرَ أو يطولَ ، أو يزيدَ أو ينقص ، أو يَدْخلَه السَّهو أو يقعَ فيه الخطأ ؛ إذ كان الحاضرُ فى العمل الهندسىّ إنما هو للعاقبة ، وكان الخيالُ للحقيقة ، وكان الخُرْقُ هنا لا يقبلُ الرُّقْعة ؛ ومتى فَصلتِ الأرقامُ الهندسية من الورق إلى البناء مات الجمعُ والطرحُ والضربُ والقسمة ، ورجع الحسابُ حينئذ وهو حسابُ عقلِ المهندس ؛ فإما عقلٌ دقيق منتظِم ، أو عقل مأفون مختلّ .

بَيْد أن [هذا] المهندس — على ما ظهر لى — قد خَلَتْ حياته من الهندسة ... وانتهى فيها من التحريف المُضحِك - حتى فيما لا يخطئ الصغارُ فيه — إلى مثل التحريف الذى قالوا إنه وقع فى الآية الكريمة « إياكَ نعبدُ وإياك نستعين » ؛ فقد رَوَوا أن إمام قرية من القُرى فى الزمن القديم كان يخطب أهلَ قريته

ويصلّى بهم فى مسجدها ، فنزل به ضيف من العلماء، فقال له الخطيب : إن لى مسائلَ فى الدين لم يتوجّه لى وجهُ الحق فيها ، ولا أزال متحيِّر الرأى، وكنتُ من زمن أتمنى أن ألقى بهـا الأئمةَ ، فأريد أن أسألك عنها قال العالم : سَلْ ماأحببت .

قال الخطيب : أشْكَلَ علىّ فى القرآن بعضُ مواضع ، منها فى سورة الحمد « إياك نعبد وإياك » ... أىّ شىء بعده ؟ « تِسْعين أو سَبعين » .. ؟ أشْكَلَتْ علىّ هذه فأنا أقرؤها « تِسعين » أخذاً بالاحتياط .. !

كذلك مهندسُنا فيما أشكل عليه من حسابه للحياة ، فهو عَزَبٌ أخذاً بالاحتياط ! قال وهو يحاورنى :

كيف تُكلِّفنى الزواجَ وتُكرِهنى عليه ، وتُعَنِّفنى على العُزوبة وتَعيبنى بها ؛ وإنما أنت كالذى يقول : دع الممكنَ وخذ المستحيل ! إن استحالةَ الزواج هى جعلتْنى عَزَبا ، والعزوبةُ هى جعلتنى فاسدا ، وفى هذا الجو الفاسد من حياة الشباب إما أن تكسدَ الفتاة وإما أن تتصلَ بها العَدْوَى ؛ والعزَبُ لا يأبى أن يُقالَ فيه إنه للنساء طاعونٌ أحمر أو هواء أصفر ؛ فهو والله مع ذلك موتٌ أسود وبلاء أزرق .

قلتُ: لقد هوَّلتَ علىّ ؛ فما مستحيلك ياهذا ؟ ولِم استحالَ عليك ماأمكن غيرك ؟ وكيف بلغت مصر خمسةَ عشر مليونا ؟ أمِنْ غير آباء خُلِقوا ؟ أم زُرِعوا زرعا فى أرض الحكومة ؟ إسمع — ويحك — ألَا يكونُ الرجالُ قد أقبلوا ر تراجعْت ، وتجلّدوا و توجّعْت ، أو أقْدَموا وخَنَسْت، واسترجلوا و تأنثْت؟

قال : ليس شىء من هذا .

قلت : فإن المسألة هى كيف ترى الفكرة ، لا الفكرةُ نفسُها ، فما حَملك على العزوبة وأنت موظف وظيفتُك كذا وكذا دينارا ، وأنت مهندس

يَصْـدُق عليك ما قالوه فى الرجل المجدود : لو عَمـدَ إلى حَجَرٍ لا نفلَقَ له عن رزق .

قال : أليس مستحيلًا ثمّ مستحيلاً أن يجمع مثلى يدَه على مائة جنيه يدفعها مهرا ؟ وما طرقتُ — علم الله — بابا إلا استقبلونى بمسامعناه : هل أنت معجزة مالية ؟ هل أنت مائة جنيه ؟

قلت : فإن عملك فى الحكومة يُغِلُّ عليك فى السنة مائة وثمانين دينارا ، فلِمَ لا تعيش سنةً واحدة بثمانين فتقع المعجزة ؟

قال : « بكل أسف » لا يستطيع الرجلُ العزَب أن يدّخر أبدا ؛ فهو فى كل شىء مبدّد ضائع متفرق .

قلت : فهذه شهادتُك على نفسك بالسَّفَه والخُرْق والتبذير ؛ تُنفق مايكفى عددا وتَضيقُ بواحدة ، وماذا يَرْتَئى مِثلُك فى الحياة ؟ أعند نفسه وفى يقينه أن يتأبّدَ فيبقى عزَباً فهو يُنفق ماجمع فى شهوات حياته ، ويتوسَّع فيها ضُروباً وألواناً ، ليكونَ وهو فرد كأنه وهو فى إنفاقه جماعة كل منهم فى موضع رذيلة أو مكانِ لهوٍ ، وكأن منه رجالاً هو كاسِبُهم وعائلُهم ، يُنفق على هذا فى القهوة ، وعلى هذا فى الحانة ، وعلى ذلك فى الملاهى ، وعلى الرابع فى المواخير ، وعلى الخامس فى المستشفى . . . ؟ إن كان هذا هو أصلَ الرأى عند العزَب ، فالعزَبُ سفيه مُجرم ، وهو إنسانٌ خَرِبٌ من كل جهة إنسانية ، وهو فى الحقيقة ليس المتّسِعَ لنفقات خمسة ، بل كأنه قاتلُ خمسةٍ من أبناء وطنه ؛ إذ كان بهذا مُطيقًا أن يكونَ أبًا ينفق على أبنائه ، لا سفيهًا يُنفق على شياطينه .

فإن كان قد بنى رأيَه على أن يتعزَّب مدةً ثم يتأهل ، فهذا أحرى أن يعينَه على حسن التدبير ، وهو مَضْراة له على شهوة الجمع والادّخار ؛ إذ يكونَ عند

نفسه كأنما يَكْدَح لعياله وهو فى سَعَةٍ منهم بعدُ، وهم لا يزالون فى صُلْبه على الحال التى لا يسألونه فيها شيئا إلا أخلاقًا طيبة وهممًا وعزائم يَرِثونها من دمه فتجىء معهم إلى الدنيا متى جاءوا.

إنما العزَبُ أحدُ رجلين: رجلٍ قد خرج على وطنه وقومه وفضائل الإنسانية، قاعدته: جُرَّ الحبلَ ما انجرَّ لك. وهذا داعرٌ فاسقٌ مبذّر مِتْلافٌ إن كان من المَيَاسِير، أو مُرِيبٌ دنىء حقيرُ النفس إن كان من غيرهم ... ورجلٍ غيرِ ذلك، فهو فى وثاقِ الضرورة إلى أن تُطَاقِهُ الأسباب، ومن ثَمّ فهو يعمل أبدا للأسباب التى تُطَاقِه، ويعرف أنه وإن لم يكن آهِلاً فلا تزال ذمتُه فى حق زوجةٍ سَيَعُولها، وفى حقوقِ أطفالٍ يأبُوهُم، وواجباتِ وطنٍ يخدمه بإنشاءِ هذه الناحية الصغيرة من وجوده، والقيامِ على سياستها، والنهوض بأعبائها؛ فانظر ويحكَ أىُّ الرجلين أنت؟

قال: فتُريدنى أن أُقامرَ بتعب سنة وأنا بعد ذلك وما يُقدَّرُ لى، وقد أشترى بتعب سنة من العمر تعبَ العمر كلِّه؟

قلت: فهذه هى خِسَّةُ الفرديّة ودناءتُها الوحشيةُ فى جِنايتها على أهلها، وسوءِ أثرِها فى طباعهم وعزائمهم؛ فهى فرديةٌ تضرب فيهم العاطفةَ الاجتماعيةَ ضرْب التَّلَف (*)، وتبتليهم بالخوف من التَّبِعات حتى لَيَتوهَّم أحدُهم أنه إن تزوج لم يدخل على امرأة، ولكن على معركة؛ وهى تصيبهم بالقسوة والغِلْظة، فما دام الواحدُ منهم واحدا لنفسه، فهو فى تصريف حُكم الأثرة، وفى قانون الفِتنة بأهواء النفس ومنافعِها، كأنما يعامله الناس رجلاً كلُّه مَعِدَة، أو هو فيهم قوةُ هضمٍ ليس غير.

قال: ولكن الزواج عندنا حظٌّ مخبوءٌ «لوتريّة»، والنساء كأوراق السحب

(*) يقال: ضربه ضرب التلف، أى الضرب الذى يقتله ويتلفه.

منهن ورقةٌ هى التوفيقُ والغنى، بين آلاف هُنَّ الفقر والخيبة المحقّقة.

قلت: هل اعتقدتَ أن تتكلم وأنت نائم؟ فلعلك الآن فى نَومة عقل، أوْلا فأنت الآن فى غَفلة عقل.

إن هذا المسكينَ الذى يمسح الأحذية ويشترى من تلك الأوراق لايخلو منها، يعلم علمًا أكثرَ من اليقين أن عيشَه هو من مسح الأحذية لا من الأخيِلة التى فى هذه الأوراق؛ فهو لايعتدُّ بها فى كبير أمرٍ ولا صغيرِه، وما يُنْزِلُها فى حساب رغيفِه وثوبه إلا يومَ يُخالَطُ فى عقله فيتنزّهُ أن يمسحَ أحذية الناس ويَرى أن عظيما مثله لايمسح إلا أحذيةَ الملائكة...!

أنت ياهذا مهندس، ولك بعضُ الشأن وبعضُ المنزلة، فهَبْكَ ارتأيتَ أنه لايَحسن بك أو لا يَحْسُنُ لك إلا أن تتزوجَ بنتَ ملكٍ من الملوك، فهذه وحدها هى عندك «النمرة الرابحة»، وسائر النساء فقر وخيبةٌ، مادام الأمرُ أمر رأيك وهواك؛ غيرَ أنك إذا عَرَضْتَ لتلك «النمرة الرابحة» لم تعرفك هى إلاَّ صُعلوكا فى الصعاليك، وأحمقَ بين الحمق.

إن تلك الأوراق تُصْنَعُ صنعتَها على أن تكونَ جملتُها خاسرةً إلاعددا قليلا منها؛ فإذا تعاطيتَ شراءَها وأنت على هذا الأصلِ تأخذها، وبهذا الشرط تَبذلُ فيها؛ وما تَمتَرِى أنت ولا غيرُك أن القاعدةَ هُهنا هى الخيبة، وشُذوذها هو الربح، وليس فى الاحتمال غيرُ ذلك؛ ومن ثَمّ فقد بَرِئَ إليك الحظُّ إن لم يُصبك شيءٌ منه؛ وأين هذا وأين النساء وما منهن واحدةٌ إلا وفيها منفعة تكثُر أو تقِلّ، بل الرجالُ للنساء هم أوراقُ السَّحب فى اعتبارات كثيرة، مادامت طبيعة اتصالهما تجعلُ المرأةَ فى قوانين الرجل أكثرَ مما تجعل الرجلَ فى قوانينها؛ وهل ضاعت امرأة إلا من غفلة رجل أو قسوتِه أو نُسولته أو فُجوره؟

قال المهندس : فإنى أعلم الآن — وكنت أعلم — أن لاصلاح لى إلا بالزواج ، وأن طريقى إلى الزوجة هو كذلك طريقى إلى فضيلتى وإلى عقلى ؛ وتالله ماشىءٌ أسوأ عند العزَب ولا أكره إليه من بقائه عزَباً ؛ غير أنه يكابر فى المماراة كلما تحاقَرتْ إليه نفسُه ، وكلما رأى أن له حالا ينفردُ بها فى سخط الله وسخط الإنسانية ؛ ولا مَكْذِبةَ ، فقد والله أنفقتُ فى رذائلى ما يجتمع منه مهرُ زوجةٍ سَرِيَّةٍ تَشتطُّ فى المهر وتَغْلو فى الطلَب ؛ ولكن كيف بى الآن وما جبَرنى من قبلُ إصلاحٌ ، ولا أعاننى اقتصاد ؟ ومن لى بفتاة من طبقتى بمَهرٍ لاأتحمل منه رَهَقًا ، ولا تتقاصَرُ معه أُمورى ولا تختلُّ معيشتى ؟

قلت : فإذا لم يحملك الحمارُ من القاهرة إلى الإسكندرية ، فإنه يحملك إلى قليوب أو طوخ ؛ وفى النساء اسكندرية ، وفيهن شبرا ، وقليوب ، وطوخ ؛ وما قَرُب وبَعُد ، وما رَخُص وغلا .

قال : ولكن بلدى اسكندرية ...

قلت : ولكنك لاتملكُ إلا حماراً ... وللمرأة من كل طبقةٍ سِعْرُها فى هذا الاجتماع الفاسد ؛ ولو تَعاونَ الناسُ وصلُحوا وأدركوا الحقيقةَ كما هى ، لَمَا رأينا الزواجَ من فقر المُهور كأنما يَركبُ سُلَحْفاةً يمشى بها ... ونحن فى عصر القِطار والطيارة . وقد كان هذا الزواج على عهد أجدادنا فى عصر الحمار والجمل — كأنه وحدَه من السرعة فى طيارة أو قِطار .

* * *

حين يَفْسُدُ الناسُ لايكون الاعتبارُ فيهم إلا بالمال ، إذ تنزل قيمتُهم الإنسانية ويَبقى المال وحدَه هو الصالح الذى لا تتغير قيمتُه ؛ فإذا صلُحوا كان الاعتبارفيهم بأخلاقهم ونفوسهم ، إذ تنحطّ قيمةُ المال فى الاعتبار ، فلا يغلبُ على الأخلاق ولا يسخّرها ؛ وإلى هذا أشار النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله

لطالب الزواج : « التمسْ ولو خاتمًا من حديد (*) . » يريد بذلك نَفى المادِّيةِ عن الزواج ، وإحياءَ الروحيّة فيه ، وإقرارَه فى معانيه الاجتماعية الدقيقة ؛ وكأنما يقول : إن كفايةَ الرجل فى أشياءَ إن يكنْ منها المال فهو أقلُّها وآخرها ، حتى إن الأخسَّ الأقلَّ فيه ليُجزِئُ منه ، كخاتَم الحديد ؛ إذ الرجلُ هو الرجولةُ بعظَمتها وجلالها وقوّتها وطباعِها ، وان يُجْزِئَ منه الأقلُّ ولا الأخسّ مع المال ، وإن مِلْءَ الأرض ذهباً لا يُكمّل للمرأةِ رجلا ناقصا ؛ وهل تُتِمُّ الأسنانُ الذهبيةُ اللامعةُ يَحملُها الرجلُ الهَرِم فى فمه شيئا مما ذهب منه ؟ وما عسى أن تصنَعَ قواطعُ الذهب الخالص وطواحنُه لهذا المسكين بعد أن نطق تَحاتُّ أسنانِه العظْميَّة وتناثُرُها أنه رجلٌ حلَّ البِلى فى عظامه ... ؟

رؤيا فى السماء (1)

قال أبو خالدٍ الأحولُ الزاهد : لما ماتت امرأةُ شيخِنا أبى ربيعةَ الفقيه الصوفىّ ، ذهبْتُ مع جماعة من الناس فشَهِدنا أمرَها ؛ فلما فرغوا من دفنها وسُوِّيَ عليها ، قام شيخُنا على قبرها وقال : يرحمكِ الله يافلانة ! الآن قد شُفِيتِ أنتِ ومَرِضتُ أنا ، وعُوفِيتِ وابتُلِيتُ ، وتركتِنى ذاكراً وذهبتِ ناسية ، وكان للدنيا بكِ معنًى فستكونُ بعدكِ بلا معنى ، وكانت حياتُكِ لى نصفَ القوة فعاد موتُكِ لى نصفَ الضعف ؛ وكنتُ أرى الهمومَ بمواساتِك هموما فى صُوَرها المخفَّفة ، فستأتينى بعد اليوم فى صُوَرها المضاعَفة ؟ وكان وجودُكِ معى حجابا بينى وبين مَشقَّاتٍ كثيرة ، فستخلُصُ كلُّ هذه المَشاقّ إلى نفسى ؛ وكانت

(*) انظر « قصة زواج ، وفلسفة المهر » .

(1) ص ٢٠٩ و ٣٢١ « حياة الرافعى »

الأيام تمرُّ أكثرَ ماتمرُّ فى رقّتك وحنانِكِ ، فستأتينى أكثرَ ماتأتى مُتجرِّدةً فى قَسوتِها وغِلْظتِها ! أمَا إنى - والله - لمْ أُرْزَأْ منكِ فى امرأةٍ كالنساء ، ولكنى رُزِئْتُ فى المخلوقةِ الكريمة التى أحسستُ معها أن الخليقةَ كانت تتلطّف بى من أجلها !

قال أبو خالد : ثم استَدْمَعَ الشيخُ ، فأخذتُ بيده ورجعنا إلى داره ، وهو كان أعلمَ بما يعزِّى الناسُ بعضُهم بعضا ، وأحفظَ لما وَرَدَ فى ذلك ؛ غيرَ أن للكلام ساعاتٍ تَبطُلُ فيها معانيه أو تَضعُف ، إذ تكون النفسُ مُسْتَغْرِقةَ الهمِّ فى معنى واحدٍ قد انحصرتْ فيه ، إما من هَوْل الموت ، أو حبٍّ وقع فيه من الهَوْل ظلُّ الموت ، أو رغبةٍ وقع فيها ظلُّ الحب ، أو لَجاجةٍ وقع فيها ظلُّ الرغبة ؛ فكنتُ أحدِّثه وأعزّيه وهو بعيدٌ من حديثى وتعزيتى ، حتى انتهينا إلى الدار فدخلْنا وما فيها أحد ؛ فنظَرَ يمْنَةً ويَسرةً ، وقَلَّبَ عينيه هٰهنا وهٰهنا ، وحَوْقَلَ واسْترجَع ، ثم قال : الآن ماتت الدارُ أيضا ياأبا خالد ! إن البناء كأنما يحيا برُوح المرأة التى تتحرّكُ فى داخله ؛ وما دام هو الذى يحفظُها للرجل ، فهو فى عين الرجل كالمُطْرَف (*) تلبَسه فوق ثيابها من فَوقِ جسمها ؛ وانظرْكم بين أن تَرى عيناكَ ثوبَ امرأةٍ فى يد الدلاَّل فى السوق ، وبين أن تراه عيناك يَلْبَسُها وتَلبَسُه ! ولكنك ياأبا خالد لا تفقهُ من هذا شيئًا ، فأنت رجلٌ آليْتَ لا تَقْرَبُ النساءَ ولا يَقْرَبْنك ، ونجوتَ بنفسك منهن وانقطعتَ بها لله ؛ وكأن كلَّ نساء الأرض قد شاركْنَ فى ولادتك فحُرِّمْنَ عليك ! وهذا مالا أفهمُه أنا إلا ألفاظاً كما لا تفهمُ أنت ما أجدُ الساعةَ إلا ألفاظًا ؛ وشتَّانَ بين قائلٍ يتكلم من الطبع ، وبين سامع يفهم بالتكلّف .

فقلتُ له : يا أبا ربيعة ، وما يمنعك الآن وقد اطَّرحتَ أثقالَك وانبتّتْ أسبابُك من النساء — أن تعيشَ خفيفَ الظهر وتفرُغَ للنُّسك والعبادة ،

(*) المطرف : رداء من خزّ فيه نقوش تلبسه المرأة فى دارها ، وهو المسمى (الروب)

وتجعل قلبك كالسماء انقشعَ غيمُها فسطعتْ فيها الشمس؛ فإنه يقالُ: إن المرأة ولو كانت صالحةً قانتَة — فهي في منزل الرجل العابد مَدْخلُ الشيطان إليه؛ ولو أن هذا العابدَ كان يسكن في حَسَناته لا في دارٍ من الطوب والحجارة، لكانت امرأتُه كُوَّةً يقتحم الشيطانُ منها؛ ولقد كان آدمُ في الجنة، وبينها وبين الأرض سموات وأفلاك، فما منع ذلك أن تتعلّق رُوحُ الأرض بالشيطان، فيتعلّقَ الشيطانُ بحوّاء، وتتعلّقَ هي بآدم؛ ومكَر الشيطانُ فصوّرها لها في صِيغةِ مسئلة علمية، ومَكَرَتْ حوّاءُ فوضعتْ فيها جاذبيّةَ اللحم والدم، فلم تعد مسئلةَ علمٍ ومعرفة، بل مسئلةَ طبعٍ وحاجة؛ فأكلا منها فبدَتْ لهما سَوْءَاتُهُمَا!

وهل اجتمع الرجلُ والمرأةُ من بعدها على الأرض إلا كانا من نَصَب الحياة وهمومها وشهواتها ومطامعها ومَضارّها ومعايبها — في معنى « بَدَتْ لهما سَوءَاتُهُمَا »...؟

كِلانا يا أبا ربيعةَ مِمنْ لهم سَيْرٌ بالباطن في هذا الوجود غيرُ السير بالظاهر، وممن لهم حركةٌ بالفكر غيرُ الحركة بالجسم؛ فقبيحٌ بنا أن تتعلّق أدنى مُتَعلَّقٍ بنواميسِ هذا الكونِ اللّحْميّ الذي يُسمَّى المرأةَ، فهو تَدلٍّ وإسفافٌ منا.

ولعلك تقول: « التّناسل وتكثيرُ الآدميّة »! فهذا إنما كُتِب على إنسانِ الجوارح والأعضاء، أما إنسانُ القلبِ فله معناه وحُكمُ معناه؛ إذ يعيش بباطنه، فيعيشُ ظاهرُه في قوانين هذا الباطن، لا في قوانينِ ظاهِرِ الناس؛ وإنه لشرٌّ كلُّ ما نَقَلَك إلى طبع أهلِ الجوارح وشهواتهم، فزَيَّنَ لك ما يُزَيِّن لهم، وشغَلَك بما يَشْغَلُهم؛ فهذا عندنا — يرحمك الله — بابٌ كأنه من أبواب الجُنون الذي يَنقُلُ الرجلَ إلى طَبْع الصّبيّ.

فاطْمِسْ يا أخي على موضعها من قلبك، وألْقِ النورَ على ظِلّها؛ فالنورُ في قلب العابد نُورُ التحويل إن شاء، ونورُ الرؤية إن شاء؛ يرى به المادّةَ كما

يريد أن تكونَ لا كما تكون ؛ وأنت قدكانت فيك امرأة ، فَحوِّلها صلاةً ، واعملْ بنورك عكسَ ما يَعملُ أهلُ الجوارح بظلامهم ، فقد تكونُ في أحدهم الصلاةُ فيُحوِّلها امرأة . . .

قال أبو ربيعة : تالله إنه لرأيٌ ، والوَحْدةُ بعد الآن أرْوَحُ لقلبي ، وأجمعُ لهمّي ؛ وقد خلعَني اللهُ مما كنتُ فيـه ، وأخذَ القبرُ امرأتي وشهوَاتي معاً ، فسأعيشُ مابقِيَ لي فيما بقِيَ مني ؛ وزوالُ شيءٍ في النفس هو وجودُ شيءٍ آخر ؛ ولقد انتهيت بالمرأةِ ومعانيها وأيامها إلى القبر ، فالبَدْءُ الآن من القبرِ ومعانيه وأيامِه

✡ ✡ ✡

وتَوَاثقَا على أن يسيرا معاً في (باطنِ) الوجود . . . ! وأن يعيشا في عُمرٍ هو ساعةٌ معدودةُ اللّحظات ، وحياةٍ هي فكرةٌ مرسومةٌ مصوَّرة .

قال أبو خالد : ورأيتُ أن أبيتَ عنده وفاءً بحقِّ خدمته ، ودَفعاً للوحشة أن تُعاوِدَه فتدخلَ على نفسه بأفكارها ووَساوِسها ؛ وكان قد غمَرنا تعبُ يومِنا ، وأعيا أبو ربيعةَ وخذلَتْه القوة ؛ فلما صلَّينا العِشاء قلت : ياأبا ربيعة ، أحبُّ لك أن تَنْعَسَ فتُريحَ نفسَك ليذهبَ مابك ، فإذا آسْتَجْمَمْتَ أيقظتُك فقمنا سائرَ الليل .

فما هو إلا أن اضطجع حتى غَلبه النُّعاس ، وجلستُ أفكِّر في حاله وما كان عليه وما اجتهدتُ له من الرأي ؛ وقلتُ في نفسي : لعلّي أغريتُه بما لا قِبَل له به ، وأشرْتُ عليه بغيرِ ماكان يَحسنُ بمثله فأكونَ قد غششتُه ؛ وخامرَني الشـكُّ في حالي أنا أيضًا ، وجعلتُ أقابلُ بين الرجلِ متزوِّجا عابداً ، وبين الرجـلِ عابداً لم يتزوّج ؛ وأنظرُ في ارتياضِ أحدِهما بنفسه وأهـلِه وعيالِه ، وارتياضِ الآخر بنفسِه وحدها ؛ وأخذتُ أذهبُ وأجيء من فـكر إلى فـكر ، وقد هَـدأ كلُّ شيء حولي كأن المكانَ قد نام ، فـلم ألبثْ حتى أخذَتني عيني

فنمتُ واسْتثقلتُ كأنما شُدِدْتُ شدًّا بحبال من النوم لم يجئ من يَقطعُها

ورأيتُ فى نومى كأنها القيامةُ وقد بُعِثَ الناس، وضاق بهم المحشر، وأنا فى جُمـلة الخلائق، وكأننا من الضَّغْطَةِ حَبٌّ مَبْثُوثٌ بين حَجَرَى الرَّحى. هذا والموقفُ يَغْـلِي بنا غَلَيَان القِدْر بما فيها، وقد اشتدَّ الكَرْبُ وجَهَدَنا العطش، حتى ماءِنَّا ذو كَبِدٍ إلا وكأن الجحيمَ تتنفس على كبده، فما هو العطشُ بل هو السُّعارُ وَاللَّهبُ يَحْتَدِمُ بهما الجوفُ ويتأجَّج.

فنحن كذلك إذا وِلْدَانٌ يتخللونَ الجمعَ الحاشد، عليهم مَناديلُ من نور، وبأيديهم أباريقُ من فِضةٍ وَأكوابٌ من ذهب، يملئون هذه من هذه بسَلْسال بَرُودٍ عَذْبٍ، رُؤْيتُـه عَطَشٌ مع العطش، حتى ليتلوَّى مَنْ رآه من الألم وَيَتَلعْلَعُ كأنما كُوِىَ به على أحشائه.

وجعل الوِلْدانُ يَسْقُون الواحد بعد الواحد، ويتجاوَزون مَنْ بينهما، وهم كَثْرَةٌ من الناس؛ وكأنما يتخللون الجمعَ فى البحث عن أُناسٍ بأَعيانهم، ينْضَحون غليل أكبادهم بما فى تلك الأباريق من رَوْحِ الجنة ومائها ونسيمها.

ومَرَّ بى أحدهم، فمددتُ إليه يدى وقلت: «اسقِنى فقد يَبِسْتُ واحترقتُ من العطش!»

قال: «ومن أنت؟»

قلت: «أبو خالد الأحول الزاهد..»

قال: «ألكَ فى أطفال المسلمين وَلَدٌ افـتَرَطتَه صغيراً فاحتسبتَه عند الله؟»

قلت: «لا ...»

قال: «ألكَ وَلدٌ كَبِرَ فى طاعة الله؟»

قلت: «لا ...»

قال: «ألك ولدٌ نالتْكَ منه دعوةٌ صالحة جزاءَ حقِّك عليه فى إخراجه

إلى الدنيا ؟ »

قلت : « لا ... »

قال : « ألك ولدٌ من غير هؤلاء ولكنك تعبتَ فى تقويمه وقُمْتَ بحق الله فيه ؟ »

قلت : « يرحمكَ الله ! إنى كلما قلتُ « لا » أحسستُ « لا » هذه تمرُّ على لسانى كالمِكْواةِ الحامية ... »

قال : « فنحن لانسقى إلاّ آباءنا ؛ تَعِبوا لنا فى الدنيا ، فاليومَ نتعبُ لهم فى الآخرة ؛ وقدّموا بين يديهم الطفولة ، وإنما قدَّموا ألسنةً طاهرةً للدفاع عنهم فى هذا الموقف الذى قامت فيه محكمةُ الحَسَنةِ والسيئة ؛ وليس هنا بعد ألسنةِ الأنبياء أشدُّ طلاقةً من ألسنة الأطفال ، فما للطفل معنى من معانى آثامِكم يَحْتَبِسُ فيه لسانُه أو يُلجْلِجُ به » .

قال أبو خالد : فجُنَّ جنونى ، وجعلتُ أبحثُ فى نفسى عن لفظةِ « ابن » فكأنما مُسِحَت الكلمةُ من حِفظى كما مُسِحتْ من وجودى ؛ وذكرتُ صلاتى وصِيامى وعبادتى ، فما خطرتْ فى قلبى حتى ضحك الوليدُ ضَحِكا وجدتُ فى معناه بكائى ونَدَمى وخَيبتى .

وقال : ياويلَك ! أما سمعتَ : « إن من الذنوب ذنوبا لا تكفِّرها الصلاةُ ولا الصيامُ ، ويُكفرها الغمُّ بالعِيال . » أتعرفُ من أنا يا أبا خالد ؟

قلت : من أنت يرحمنا الله بك ؟

قال : أنا ابنُ ذاكَ الرجل الفقير المُعِيل ، الذى قال لشيخك إبراهيم بن أدهم العابد الزاهد : « طُوبَى لك ! فقد تفرّغتَ للعبادة بالعُزوبة ! » فقال له إبراهيم : « لَروعةٌ تنالكَ بسبب العِيال أفضلُ من جميع ماأنا فيه ... » ، وقد جاهدَ أبى جِهادَ قلبه وعقلِه وبدنِه ، وحَمَلَ على نفسه من مقاساة الأهل والولد حمْلَها

الإنسانىّ العظيم ، وفكَّر لغير نفسه ، واغتمَّ لغير نفسه ، وعمِل لغير نفسه ، وآمن وصَبرَ ، ووثِق بولاية الله حين تزَوَّج فقيراً ، وبِضَمانِ الله حين أعقب فقيراً ؛ فهو مُجاهِد فى سُبُلٍ كثيرة ، لا فى سبيل واحدة كما يُجاهد الغُزاة : هؤلاء يستشهدون مرةً واحدة ، أمّا هو فيستشهد كلَّ يوم مرةً فى همومه بنا ، واليومَ يرحمه الله بفضل رحمتِه إيانا فى الدنيا .

أمَا بَلَغَكَ قولُ ابنِ المبارَك وهو مع إخوانه فى الغَزْو : « أتعلمون عملًا أفضلَ مما نحن فيه ؟ قالوا : مانَعْلمُ ذلك . قال : أنا أعلم . قالوا : فما هو ؟ قال : رجل مُتَعَفِّف على فقره ، ذو عائلة ، قد قام من الليل فنظر إلى صبيانه نيامًا مُتَكَشِّفِينَ ، فستَرهم وغطّاهم بثوبه ؛ فَعَمَلُهُ أفضلُ مما نحن فيه ... »

يخلع الأبُ المسكينُ ثوبَه على صِبْيته لِيُدْفِئَهُم به ويتاقَّى بجلده البردَ فى الليل ! إن هذا البرد ـ يا أبا خالد ـ تحفظ له الجنة هنا فى حَرِّ هذا الموقف كأنها مُؤْتَمَنَة عليه إلى أن تُؤَدِّيه ؛ وإن ذلك الدفْءَ الذى شمل أولادَه يا أبا خالد ، هو هنا يقاتل جهنمَ ويدفعُها عن هذا الأب المسكين .

قال أبو خالد : ويَهُمّ الوليدُ أن يمضىَ ويدَعَنى ، فما أملكُ نفسى ، فأمدّ يدى إلى الإبريق فأنشطُهُ من يده ، فإذا هو يتحوّل إلى عظْمٍ ضَخْمٍ قد نشِب فى كفّى وما يليها من أسَلَةِ الذراع (*) فغابتْ فيه أصابعى فلا أصابعَ لى ولا كَفّ ، وأبى الإبريقُ أن يسقيَنى وصار مُثْلةً بى ، وتجسّدتْ هذه الجريمةُ لتَشهَدَ علىّ ، فأخذنى الهولُ والفزَع ، وجاء إبريقٌ من الهواء فوقع فى يد الوليد ، فتركنى ومضى .

وقلت لنفسى : ويحكَ يا أبا خالد ! ما أراكَ إلا مُحاسَباً على حسناتك كما

(*) الأسلة : مايلى الكف من الذراع إلى القسم المستغلظ منها ؛ فالأسلة هى العظمة التى تشد عليها ساعة اليد .

يُحَاسَب المذنبون على سيئاتهم، فلا حولَ ولا قوة إلا بالله !

وبلغتْنى الصَّيحةُ الرهيبة : أين أبو خالد الأحولُ الزاهدُ العابد ؟

قلت : هأنذا .

قيل : طَاوُوسٌ من طواويس الجنة قد حُصَّ ذَيْلُه (*) فضاع أحسنُ مافيه ! أين ذَيْلُكَ من أولادك ؟ وأين محاسنُك فيهم ؟ أخُلِقَتْ لك المرأةُ لتتجنَّبَها، وجُعِلْتَ نَسْلَ أبويك لتتبرَّأ أنت من النسل ؟

جئتَ من الحياة بأشياءَ ليس فيها حياة؛ فما صنعتَ للحياة نفسِها إلا أن هربتَ منها، وانهزمتَ عن ملاقاتها؛ ثم أنت تأمُلُ جائزةَ النصر على هزيمة . ! عمِلَت الفضيلةُ فى نفسك ونشأتك، ولكنها عَقِمَتْ فلم تعملْ بك . لك ألفُ ألفِ ركعةٍ، ومثلها سَجدَاتٌ من النوافل، ولَخَيْرٌ منها كلِّها أن تكون قد خرجتْ من صُلبك أعضاءٌ تركَع وتسجد !

قتلتَ رجولتَك، ووَأَدْتَ فيها النسل، ولبثتَ طوَالَ عمرك ولداً كبيرا لم تبلغ رتبةَ الأب ! فلئن أقمتَ الشريعة لقد عطلتَ الحقيقة، ولئنْ ....

قال أبو خالد : ووقعتْ غُنَّةُ النونِ الثانية فى مِسْمَعِىّ من هول ما خفتُ مما بعدها كالنَّفخ فى الصُّور ؛ فطار نومى وقمتُ فَزِعاً مشتَّتَ القلب كمن فتح عينيه بعد غَشْيةٍ فرأى نفسَه فى كفَنٍ فى قبرٍ سُدّ عليه ... !

وما كدتُ أعى وأنظر حولى وقد بَرَقَ الصبحُ فى الدار، حتى رأيتُ أبا ربيعة يتقلّب كأنما دَحْرجتْهُ يد ؛ ثم نهض مُسْتطارَ القلب من فزَعِه وقال : أهلكتَنى يا أبا خالد ! أهلكتَنى والله !

* * *

قلت : ما بالُك يرحمك الله ؟

(*) حص ذيله : قطع وجذ .

قال : إنى نمتُ على تلك النيّة التى عرفتَ : أن أجمعَ قلبي للعبادة ، وأخلُصَ من المرأة والولد ، ومن المعاناة لهما فى مَرَمَّةِ المعاش والتلفيقِ بين رغيفٍ ورغيف ، وأن أُعْفِيَ نفسى من لَأْوائهم وضَرَّائهم وَبلائهم ، لأفرغَ إلى الله وأُقبِلَ عليه وحده ؛ وسألتُ الله أن يَخِيرَ لى فى نومى ؛ فرأيتُ كأن أبوابَ السماء قد فُتحتْ ، وكأن رجالاً ينزلون ويسيرون فى الهواء يتبعُ بعضُهم بعضًا ، أجنحةً وراءَ أجنحة ؛ فكلما نزل واحد نظر إلىّ وقال لمن وراءه : هذا هو المشئوم !

فيقول الآخر : نعم هو المشئوم !

وينظر هذا الآخرُ إلىّ ثم يلتفت لمن وراءه ويقول له : هـــذا هو المشئوم !

فيقول الآخر : نعم هو المشئوم !

وما زالت « المشئوم ، المشئوم » حتى مرُّوا ؛ لا يقولون غيرها ولا أسمع غيرَها ، وأنا فى ذلك أخاف أن أسألهم ؛ هيبةً من الشؤم ، ورجاءَ أن يكون المشئوم إنسانًا ورائى يبصرونه ولا أبصره ؛ ثم مرَّ بى آخرهم ، وكان غلاما ، فقلت له : ياهذا ، من هو المشئوم الذى تُومِئُون إليه ؟

قال : أنت !

فقلت : ولم ذاك ؟

قال : كنا نرفع عملَك فى أعمال المجاهدين فى سبيل الله ، ثم ماتت امرأتك وتحزَّنْتَ على ما فاتك من القيام بحقِّها ، فرفعْنا عملك درجةً أخرى ؛ ثم أُمِرْنا الليلة أن نضع عملَك مع الخالفِين الذين فرُّوا وجَبُنُوا ... ...

✡ ✡ ✡

إن سُمُوَّ الرَّجُلِ بنفسِهِ عن الزَّوْجَةِ والولَدِ طَيَرَانٌ إلى الأعلَى ... ولكنه طَيَرَانٌ على أجنِحَةِ الشَّيَاطِينِ !

طَيَرَانٌ بالرَّجُلِ إلى فُوَّهَةِ البُرْكَانِ الَّذى فى الأعلى . . . !

بنته الصغيرة (١)

فرغ أبو يحيى مالكُ بنُ دينار ، زاهدُ البَصْرة وعالمُها ، من كتابة المُصْحَف ـ وكان يكتبُ المصاحفَ للناس ويعيشُ مما يأخذ من أجرة كتابته ؛ تعفُّفاً أن يَطْعَم إلا من كَسْب يده ـ ثم خرج من دارِهِ وَجْهُه المسجدُ ، فأتاه فصلّى بالناس صلاةَ العصر وجلسوا ينتظرونه ، واستوى هو قائماً ، فركع وسجد ماشاء الله حتى قضى نافِلَته ، ثم انْفَتَلَ من صلاته فقام إلى أُسْطُوانته (*) التى يستنِد إليها ، وتحلَّقَ الناسُ حوله جُموعا خلْفَ جموعٍ ، يذهبُ فيهم البصرُ مرة هنا ومرة هنا من كثرتهم وامتدادِهم ، حتى تغطَّى بهم المسجدُ على رُحْبِه . ومدَّ الإمامُ عينَه فيهم ثم أطرق إطراقةً طويلة ، والناسُ كأن عليهم الطيرَ مما سكَنوا لهيبته ، ومما عَجِبوا لخشوعه ؛ ثم رفع الشيخُ رأسَه وقد تَنَدَّتْ عيناه ، فما نَظَر إليهم حتى كأنما اطَّلعَ على أرواحهم بِجَوٍّ رَطْبٍ من سِحْر ذلك الندى .

وبَدَرَ شابٌّ حَدَثٌ فسأله : مابكاء الشيخ ؟ وكان قريبًا يجلس من الإمام فى سَمْت بصرِه (**) ، فتأمله الشيخ طويلا يقلّب فيه الطرْفَ كالمتعجّب ، ولَبِثَ

---

(١) ص ٢٢١ « حياة الرافعى »

(*) كان العلماء والرواة يجلسون إلى أساطين المسجد ، وهى أعمدته ، كما كان بالأزهر إلى عهد قريب .

(**) أى أمامه فى الخط الذى يمتد فيه البصر .

لايجيبه كأنما عقِد لسانُه أو أخذته عن نفسه حالٌ فما يُثْبِتُ شيئا مما يرى .

وازداد الناس عجبًا ؛ فما جرَّبوا على الشيخ من قبلها حَصَرًا ولا عِيًّا ، ولا قطَعَه سؤالٌ قطّ ولا تخافَ قطّ عن جواب ؛ وقالوا إن له اشأنًا ، وما بُدٌّ أن تكونَ من وراء حُبْسَتِه شِعابٌ فى نفسه تَهْدِر بِسَيْلها وتعتلج ، فما أسرعَ مايلتقى السيلُ فيجتمعُ فيُصَوَّبُ إلى مجراه فيتقاذَف .

وتبسَّم الإمام وقال : أما إنى قد ذكرتُ ذِكرَى فبكيتُ لها ، ورأيتُ رؤيا فتبسَّمتُ لها ؛ أمّا الذكرى ، فهل تعلمون أنّ هذا المسجدَ الذى يَفْهَقُ بهذا الحَشْدِ العظيم ، وتقع فيه المدينةُ لكل أذانٍ وتطير — هل تعلمون أنه خلا قطّ من الناس وقد وجبَت الفَريضة ؟ قالوا : ما نَعْلمه .

قال : فقد كان ذلك لعشرين سنةً خَلَتْ فى موت الحسن (*) ، فقد مات عَشِيَّةَ الخميس ، وأصبحنا يومَ الجمعة ففرغنا من أمره ، وحملناه بعد صلاة الجمعة ، فتبعَ أهلُ البصرة كلُّهم جنازتَه واشتغلوا به ، فلم تُقَم صلاةُ العصر بهذا المسجد ، وما تُركتْ منذ كان الإسلام إلا يومئذ ! ومثل الحسن لا تموت ساعةُ موته من عُمْرِ مَن شهدَها ، فذلك يومٌ عجيب قد لَفَّ نهارُه البصرةَ كلّها فى كَفَنٍ أبيض ، فما بقيتْ فى نفس رجلٍ ولا امرأةٍ شهوةٌ إلى الدنيا ، وفرغ كل إنسان من باطله ، كما يَفرغ مَن أيقن أن ليس بينه وبين قبره إلا ساعة ؛ وظهر لهم الموتُ فى حقيقةٍ جديدة بالغةِ الرَّوْع لايراها الأبناءُ فى موت آبائهم وأمهاتهم ، ولا الآباء والأمهاتُ فى موت مَن وَلدوا ، ولا المحبُّ فى موت حبيبه ، ولا الحميمُ فى موت حميمه ؛ فإن الجميع فقدوا الواحدَ الذى ليس غيرُه فى الجميع ؛ وكما يموت

(*) هو الحسن البصرى الامام المعظم ، وسيأتى وصفه ، ولد سنة ١٥ للهجرة ، وتوفى سنة ١١٠ ؛ وقد توفى مالك بن دينار شيخ هذه القصة فى سنة ١٣١ ، فيكون تاريخ القصة فى سنة ١٣٠

العزيزُ على أهل بيتٍ فيكونُ الموتُ واحداً وتتعدّد فيه معانيه، كذلك كان موتُ الحسن موتاً بعَدَدِ أهل البصرة!

ذاك يومٌ امتدَّ فيه الموتُ وكَبر، وانكمشت فيه الحياةُ وصغُرتْ، وتحاقَرَت الدنيا عند أهلها، حتى رجعت بمقدار هذه الحفرة التي يُلقَى فيها الملوكُ والصعاليك والأخلاطُ بين هؤلاء وأولئك، لا يَصغُر عنها الصغير، ولا يكبُرُ عنها الكبير؛ لا، بل دون ذلك، حتى رجعت الدنيا على قدر جيفةِ حيوانٍ بالعَراء، تنكشف للأبصار عن شَوْهاءَ نجِسةٍ قد أَرَمَّتْ (*) لا تُطاقُ على النظر، ولا على الشم، ولا على اللمس؛ وما تتفجّر إلا عن آفة، وما تتفجّر إلا لهوامِّ الأرض.

تلك هي الذكرى؛ وأما الرؤيا فقد طالعتْني نفسي من وجه هذا الفتى، فأبصرتُني حين كنتُ مثلَه يافعاً مُتَرَعْرِعًا داخلا في عصر شبابي، فكأنما انتبهتْ عيني من هذه النفس على فاتكٍ خبيثٍ كان في جناياته في أغلاله في سجنه، ومات طويلا ثم بُعِثَ!

إني مُخبِركم عنّي بما لم تُحيطوا به، فأرْعُوه أسماعَكم، وأحضِرُوه أفهامَكم، واستجمعوا له، فإنه كان غَيْبَ شيخِكم، وأنا محدِّثُكم به كيلا ييأَسَ ضعيف، ولا يقنَطَ يائس؛ فإن رحمةَ الله قريبٌ من المحسنين.

* * *

لقد كنتُ في صدْر أيامي شُرْطيا، وكنت في آنِفَةِ الحَداثةِ مِن قبلها أتفتَّى وأتشَطَّرُ، وكنت قويا معصوبًا في مثل جِبْلةِ الجبلِ من غِلَظٍ وشدّة، وكنت قاسيًا كأن في أضلاعي جَندلةً لا قلبًا، فلا أتندّم ولا أتأثّم؛ وكنت مُدمِنا على الخمر، لأنها رُوحانيّةُ من عَجَز أن تكون فيه روحانيّة، وكأنها إلهيّةٌ يُزوِّرُها الشيطانُ — لعنه الله — فيَخْلُق بها للنفس ما تحب مما تكره، ويُثيبها ثوابَ

(*) أرمّت: بدأت تتعفن وتبلى.

ساعةٍ ليست في الزمن بل في خيالِ شاربها ؛ وكأن جَهْلَ العقل نَفْسَه في بعض ساعات الحياة ، هو — في عِلْم الشيطان وتعليمه — معرفةُ العقل نَفْسَه في الحياة !

فبينا أنا ذاتَ يوم أجولُ في السوق ، والناسُ يَفُورون في بيعهم وشرائهم ، وأنا أرقُبُ السارق ، وأُعِدّ للجاني . وأتهيأ للنزاع — إذ رأيتُ اثنين يَتَلاحَيان وقد لَبَّبَ أحدُهما الآخر ؛ فأخذتُ إليهما ، فسمعتُ المظلوم يقول للظالم : لقد سَلَبْتَني فَرَحَ بُنَيَّاتي ، فسيدْعونَ الله عليك فلا تصيبُ من بعدها خيراً ، فإني ما خرجتُ إلا اتباعا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من خرج إلى سُوق من أسواق المسلمين ، فاشترى شيئاً ، فحمله إلى بيته ، فخَصَّ به الإناثَ دون الذكور ؛ نَظَرَ اللهُ إليه ! »

قال الشيخ : وكنت عزَبًا لا زوجةَ لي ، ولكن الآدميّةَ انتبهتْ فيَّ ، وطمِعتُ في دعوة صالحة من البُنَيّات المسكينات ، إذا أنا فرّحتُهن ؛ ودخلتني لهن رِقّةٌ شديدة ، فأخذتُ للرجل من غريمه حتى رضي ، وأضعفتُ له من ذاتِ يدي لأزيدَ في فرح بناته ، وقلت له وهو ينصرف : عَهْدٌ يحاسبُكَ الله عليه ، ويَستوفيه لي منك ، أن تجعلَ بناتِك يدعون لي إذا رأيتَ فَرَحهنَّ بما تحمل إليهنَّ ، وقل لهن : مالِك بن دينار .

وبِتُّ ليلتي أتقلّب مفكّراً في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعانيه الكثيرة ، وحَثّه على إكرام البنات وأن مَن أكرمَ بناتِهِ كَرُمَ على الله ، وحِرْصِه أن ينشأن كريماتٍ فَرِحات ؛ وحدّثني هذا الحديثُ ليلتي تلك إلى الصبح ، وفكّرْتُ حينئذ في الزواج ، وعلمت أن الناس لا يزوّجونني من طَيّباتهم ما دمتُ من الخَبيثين ؛ فلما أصبحتُ غدوت إلى سُوق الجواري ، فاشتريتُ جاريةً نفيسة ، ووقعتْ مني أحسنَ موقع ، ووَلَدَت لي بنتًا فشُغِفْتُ بها ، وظهرتْ لي فيها الإنسانيّةُ الكبيرة التي ليست فيَّ ، فرأيت بُعْدَ ما بيني وبين

صورتى الأولى ؛ ورأيتها سماوية لا تملك شيئًا وتملك أباها وأمها ، وليس لها من الدنيا إلا شِبعُ بطنها وما أيسَرَه ، ثم لها بعد ذلك سرورُ نفسها كاملاً تشُبّ عليه أكثرَ مما تشُبّ على الرَّضاع ؛ فعلمتُ من ذلك أن الذى تكتنفه رحمةُ الله يملكُ بها دنيا نفسه ، فما عليه بعد ذلك أن تفوتَهُ دنيا غيره ؛ وأن الذى يجد طهارةَ قلبه يجدُ سرورَ قلبه ، وتكونُ نفسه دائمًا جديدة على الدنيا ؛ وأن الذى يحيا بالثقة تُحْييه الثقة ؛ والذى لا يبالى الهمَّ لا يبالى الهمُّ به ؛ وأن زينةَ الدنيا ومتاعَها وغرورَها وما تجلب من الهم — كلّ ذلك من صِغَرِ العقل فى الإيمان حين يكبر العقلُ فى العلم !

كانت البُنيَّةُ بدءَ حياةٍ فى بيتى وبدءَ حياة فى نفسى ، فلما دَبّت على الأرض ازددتُ لها حبًا . وأَلِفتْنى وألفتُها ، فرُزِقتْ روحى منها أطهرَ صداقة فى صديق تتجدّد للقلب كلَّ يوم ، بل كلَّ ساعة ، ولا تكونُ إلا لمحضِ سرورِ القلب دونَ مطامعِه ، فتُمِدّه بالحياة نفسها لا بأشياءِ الحياة ، فلا تزيد الأشياءُ فى المحبة ولا تنقص منها ، على خِلاف ما يكون فى الأصدقاء بعضهم من بعض واختلافهم على المضَرَّة والمنفعة .

* * *

قال الشيخ : وجَهَدْتُ أن أتركَ الخمر ، فلم يأتِ لى ولم أستطعه ؛ إذ كنت منهمكاً على شربها ، ولكن حبّ ابنتى وضع فى الخمر إثمها الذى وضعتْه فيها الشريعة ، فكرِهتُها كُرْهاً شديدًا ، وأصبحت كالمكرَهِ عليها ، ولم تَعُدْ فيها نَشوتُها ولا رِيُّها ؛ وكانت الصغيرةُ فى تمزيق أخيلَتها أبرعَ من الشيطان فى حَوْكِ هذه الأخيلة ، وكأنها جرّتنى بيدها جرًّا حتى أبعدتْنى عن المنزلةِ الخَمْرية التى كان الشيطانُ وضعنى فيها ، فانتقلتُ من الاستهتار والمكابَرة وعدمِ المبالاة ، إلى الندم والتحوُّبِ والتأثُّم ؛ وكنتُ من بَعدها كلما وضعْتُ المسكِرَ وهممتُ به دَبّت

ابنتى إلى مجلسى ؛ فأنظر إليها وتنتشرُ عليها نفسى من رقةٍ ورحمة ، فأرقبُ ماتصنع ، فتجيء فتُجاذبنى الكأس حتى تُهرِقَها على ثوبى ، وأرانى لا أغضب ، إذ كان هذا يسرها ويُضحكها ؛ فأُسَرّ لها وأضحك .

ودام هـذا منى ومنها ، فأصبحتُ فى المنزلة بين المنزلتين : أشربُ مرةً وأترك مِراراً ؛ وجعلتُ أستقيم على ذلك ، إذ كانت النشوة بابنتى أكبرَ من النشوة بالزجاجة ، وإذ كنتُ كلما رجعتُ إلى نفسى وتدبّرتُ أمرى ، أستعيذ بالله أن تعقِل ابنتى معنى الخمر يوماً فأكونَ قد نجّستُ أيامها ، ثم أتقدم إلى الله وعليَّ ذنوبُها فوق ذنوبى ، ويترحّم الناسُ على آبائهم وتلعنُنى ، إذ لم أكن لها كالآباء ؛ فأكون قد وُجدتُ فى الدنيا مرةً واحدة وهلكتُ مرتين .

ومضيتُ على ذلك وأنا أُصْلِح بها شيئاً فشيئاً ، وكلما كبرتْ كبرتْ فضيلتى ؛ فلما تمّ لها سنتان ، ماتت !

✡ ✡ ✡

قال الراوى : وسكت الشيخ ، فعَلِقتْ به الأبصار ، ووقفت أنفاسُ الناسِ على شفاههم ، وكأنما ماتت لحظاتٌ من الزمن لِذكرِ موتِ الطفلة ، وخامَر المجلسَ مثلُ السكْر بهـذه الكأس المُذْهِلة ؛ ولكن الطفلة دبّت من عالم الغيب كما كانت تصنع ، وجذبت الكأس وأهرقتها ، فانتبه الناس وصاحوا : ماتت فكان ماذا ؟

قال الشيخ : فأَكْمدنى الحزنُ عليها ، وَوَهَنَ جأشى ، ولم يكن لى من قوة الروح والإيمان ما أتأسّى به ، فضاعفَ الجهلُ أحزانى ، وجعلَ مصيبتى مصائب . والإيمانُ وحدَه هو أكبرُ علوم الحياة ، يُبصّرُك إن عميتَ فى الحادثة ، ويَهديك إن ضَلَلْتَ عن السكينة ، ويجعلك صَديقَ نفسِك : تكونُ وإياها على المصيبة ، لا عَدُوَّها : تكون المصيبةُ وإياها عليك ، وإذا أخرجتِ الليالى من الأحزان

والهموم عسكرَ ظلامِها اقتالِ نفسٍ أو مُحاصرتِها . فما يدْفعُ المالُ ولا ترد القوةُ ولا يمنع السلطان، ولا يكونُ شيء حينئذ أضعفَ من قوة القوىّ، ولا أضيعَ من حيلةِ المحتال، ولا أفقرَ من غِنى الغنىّ، ولا أجهلَ من علم العالم؛ ويبقى الجهدُ والحيلةُ والقوّة والعلمُ والغِنى والسلطانُ — الإيمان وحده؛ فهو يكسر الحادث ويقلّل من شأنه، ويؤيد النفس ويضاعف من قوتها، ويَرُد قَدَرَ الله إلى حكمةِ الله: فلا يلبثُ ماجاء أن يرجع، وتعود النفس من الرضى بالقَدر والإيمانِ به كأنما تَشهد مايقع أمامها لا مايقعُ فيها.

قال الشيخ: ورجعتُ بجهلى إلى شرّ مما كنتُ فيه، وكانت أحزانى أفراحَ الشيطان؛ وأراد — أخزاه الله — أن يَفْتَنَّ فى أساليب فرحه، فلما كانت ليلةُ النصف من شعبانَ — وكانت ليلةَ جمعة، وكانت كأوّلِ نور الفجر من أنوار رمضان — سوَّل لى الشيطانُ أن أسكر سكْرةً مامثلُها؛ فبتُّ كالميت مما ثمِلت، وقذَفتنى أحلامٌ إلى أحلام. ثم رأيتُ القيامة والحشر، وقد وَلدت القبورُ مَن فيها، وسِيقَ الناس وأنا معهم وليس وراء مابى من الكَرب غاية؛ وسمعتُ خلفى زَفيراً كفَحيح الأفعى، فالتفت فإذا بتنّينٍ عظيم مايكون أعظمُ منه؛ طويلٌ كالنخلة السَّحوق، أسودُ أزرقُ، يُرسل الموتَ من عينيه الحمراوين كالدم، وفى فمه مثلُ الرِّماح من أنيابه، ولجَوْفِه حرٌّ شديدٌ لو زَفر به على الأرض مانبتتْ فى الأرض خضراء، وقد فَتح فاه ونَفخ جوفَه وجاء مُسرعاً يريد أن يَلتقمَنى، فررتُ بين يديه هاربًا فَزِعاً؛ فإذا أنا بشيخٍ هَرِم يكاد يموت ضَعفًا، فَعُذْتُ به وقلت: أَجِرنى وأغِثنى! فقال: أنا ضعيفٌ كما ترى، وما أقدِر على هـذا الجبّار، ولـكن مُرَّ وأسرعْ، فلعل الله أن يسبّبَ لك أسباباً للنجاة.

فولّيتُ هارباً، وأشرفتُ على النار وهى الهولُ الأكبر، فرجعتُ أشتدُّ

هربا والتنين على أثرى ؛ ولقيتُ ذلك الشيخَ مرة أخرى ، فاستَجرتُ به ، فبكى من الرحمة لى وقال : أنا ضعيف كما ترى وما أقدر على هـذا الجبار ، ولـكن اهرب إلى هذا الجبل ، فلعل الله يُحدث أمراً .

فنظرتُ فإذا جبلٌ كالدار العظيمة ، له كُوًى عليها سُتُور ، وهو يَبْرُق كشُعاع الجوهر ؛ فأسرعتُ إليه والتنين من ورائى ، فلما شارفتُ الجبلَ فُتِحت الـكُوى ورُفعت الستور ، وأشرفتْ علىّ وجوهُ أطفالٍ كالأقمار ، وقرب التنينُ منى ، وصرتُ فى هواءِ جوْفه وهو يَتضرّم علىّ ، ولم يبق إلا أن يأخذنى ؛ فَتصايح الأطفالُ جميعًا : يافاطمة ! يافاطمة !

قال الشيخ : فإذا ابنتى التى ماتت قد أشرفتْ علىّ ، فلما رأت ما أنا فيه صاحت وبكتْ ، ثم وثبتْ كَرَمْيةِ السهم ، فجاءت بين يدىّ ، ومدّت إلىّ شِمَالها فتعلقتُ بها ، ومدّت يمينَها إلى التنّين فولّى هارباً ، وأجلستْنى وأنا كالميت من الخوف والفزع ، وقعدَتْ فى حجرى كما كانت تصنع فى الحياة ، وضربتْ بيدها إلى لحيتى وقالت : يا أبت ، « أَلَمْ يأْنِ لِلَّذِينَ آمَنوا أن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ؟ » .

فبكيتُ وقلتُ : يا بُنيّة ، أخبرينى عن هـذا التنين الذى أراد هلاكى. قالت : ذاك عملُك السوءُ الخبيث . أنت قوّيْتَه حتى بلغ هذا الهولَ الهائل ، والأعمال تَرجعُ هنا أجساماً كما رأيت . قلت : فذاك الشيخُ الضعيفُ الذى استجرْتُ به ولم يُجِرْنى ؟ قالت : يا أبت ، ذاك عملك الصالح ، أنت أضعفْتَه فَضَعُفَ حتى لم يكن له طاقة أن يُغيثَك من عملك السيئ ؛ ولو لم أكن لك هنا ، ولو لم تكن اتبعتَ قولَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن فَرّحَ بناتِه المسكينات الضعيفات — لما كانت لك هنا شِمالٌ تتعلق بها ، ويمينٌ تَطْرُد عنك .

* * *

قال الشيخ : وانتبهت من نومى فزعاً ألعن ما أنا فيه ، ولا أرانى أستقرّ ، كأنى طَريدةٌ على الشئ ؛ كلما هَرَبتُ منه هَرَبت به ؛ وأين المَهْرَبُ من الندم الذى كان نائما فى القلب واستيقظ للقلب ؟

وأمّلتُ فى رحمة الله أن أربَح من رأس مالٍ خاسر ، وقلت فى نفسى : إن يوماً باقياً من العمر هو للمؤمن عُمْرٌ ما ينبغى أنْ يُستهان به ؛ وصَحّحتُ النّية على التوبة ؛ لأُرجعَ الشبابَ إلى ذلك الشيخ الضعيف ، وأُسمِّنَ عظامه ، حتى إذا استجرْتُ به أجارنى ولم يقل : « أنا ضعيف كما ترى ! » .

وسألتُ فدُللْتُ على أبى سعيد الحَسَن بن أبى الحسن البصرىّ ؛ سيّدِ البقيَّةِ من التابعين ؛ وقيل لى : إنه جَمَع كلّ علمٍ وفنّ إلى الزهد والورع والعبادة ، وإن لسانَه السّحر ، وإن شخصَه المغناطيس ، وإنه ينطق بالحكمة كأن فى صدره إنجيلًا لم يُنزَّل ، وإن أُمّه كانت مولاةً لأم سَلمةَ زوجِ النبى صلى الله عليه وسلم ، فكانت ربما غابت أمه فى حاجة فيبكى ، فترضعه أمّ سلمة تُعلّله بثديها فيَدِرّ عليه ، فكانت بينه وبين بَركة النبوة صِلَة .

وغدوتُ إلى المسجد والحَسَنُ فى حَلقته يقصّ ويتكلم ، فجلست حيث انتهى بى المجلس ؛ وما كان غيرَ بعيد حتى عَرَتنى نَفْضَةٌ كنفضة الحمّى ، إذ قرأ الشيخ هذه الآية : « ألم يأنِ للذينَ آمنوا أن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وما نَزَلَ مِنَ الحَقّ ؟ » ؛ فلو لفظتنى الأرضُ من بطنها وانشقّ عنى القبرُ بعد الموْت — ما رأيتُ الدنيا أعجَبَ مما طالعتْنى فى تلك الساعة : وأخذ الشيخ يفسر الآية ، فصنع بى كلامُه مالو بُعِث نبىٌّ من أجلى خاصةً لما صَنَع أكثرَ منه .

وكلامُ الحسن غيرُ كلام الناس ، وغيرُ كلام العلماء ؛ فإنه يتكلّم من قلبه ومن روحه ، ومن وجهه ولسانه ، وناهيكم من رجل خاشع مُتَصَدّعٍ من

خشية الله ، لم يكن يُرَى مُقْبِلا إلا وكأنه أسيرٌ أمروا بضرب عنقه ، وإذا ذُكِرَتِ النار فكأنها لم تخلق إلا له وحده ؛ رجلٌ كان فى الحياة لتتكلّم الحياةُ بلسانه أصدقَ كلماتها .

فصاح صائح : ياأبا يحيى ، التفسيرَ التفسير ! وصاح المؤذّنُ . الله أكبر .
فقطع الشيخ وقال : التفسيرُ إن شاء الله فى المجلس الآتى .

بنته الصغيرة

٢

... وجاء من الغدِ أبو يحيى مالكُ بنُ دينار إلى المسجد ، فصلى بالناس ، ثم تحوَّل إلى مجلس درسه وتعكّفوا حوله ؛ وكانوا إلى بقيّة خبَره فى لهفةٍ كأن لها عُمراً طويلا فى قلوبهم ، لاظَمأً ليلة واحدة .

وقال منهم قائل : أيها الشيخ ، جُعِلتُ فِداك ، ماكان تأويلُ الحَسَنِ لتلك الآية من كلام الله تعالى ؟ وكيف رَجعَ الكلام فى نفسك مَرْجِع الفكر تتَبُّعه ، وأصبح الفكرُ عندك عملا تحذو عليه ، واتصل هذا العملُ فكان ماأنت فى وَرَعك و ... ؟

فقطع الإمامُ عليه وقال : هوِّنْ عليك ياهذا ؛ إن شيخك لأهوَنُ من أن تذهبَ فى وصفه يمينا أو شمالا ، وقد روى لنا الحسَن يوما ذلك الخبر الواردَ فيمن يُعذَّب فى النار ألف عام من أعوام القيامة ، ثم يدركه عفوُ الله فيخرج منها ، فبكى الحسن وقال : « ياليتنى كنت ذلك الرجل ! » وهو الحسنُ يابنيَّ ، هو الحسن ... !

فضجَّ الناسُ وصاح منهم صائحون : ياأبا يحيى ، قتلتَنا يأسا ! وقال الأول : إذا كان هذا فأوشك أن يعمَّنا اليأسُ والقُنوط ، فلا ينفعنا عملٌ ، ولا نأتى عملًا ينفع .

قال الشيخ : هوِّنوا عليكم ، فإن للمؤمن ظنَّين : ظنًّا بنفسه ، وظنًّا بربه ؛ فأما ظنُّه بالنفس فينبغى أن ينزلَ بها دون جَمَحاتِها ولا يفتأ ينزل ؛ فإذا رأى لنفسه أنها لم تعمل شيئًا أوجب عليها أن تعمل ، فلا يزال دائمًا يدفعها ؛ وكلما أكثرتْ من الخير قال لها : أكْثِرِى . وكلما أقلَّتْ من الشرّ قال لها : أقِلِّى . ولا يزال هذا دأبَهُ ودأبَها ما بقى ؛ وأما الظنُّ بالله فينبغى أن يعلوَ به فوق الفَتَرات والعِلَل والآثام ، ولا يزال يعلو ؛ فإن الله عند ظنِّ عبده به ، إنْ خيراً فله وإن شرًّا فله . ولقد روينا هذا الخبر : « كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قَتَل تسعًا وتسعين نفسا ، فسأل عن أعلمِ أهل الأرض ، فدُلَّ على راهبٍ فأتاه ، فقال : إنه قتل تسعا وتسعين نفسا ، فهل له من توبة ؟ قال : لا ! فقتَله فكمَّلَ به مائة ! ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدُلَّ على رجل عالم ، فقال له : إنه قتل مائة نفس ، فهل له من توبة ؟ قال : نعم ؛ ومن يَحولُ بينك وبين التوبة ؟ انطلِقْ إلى أرض كذا وكذا ، فإن بها أُناسا يعبدون الله عز وجل ، فاعبد اللهَ معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرضُ سَوْء .

فانطَلَقَ ، حتى إذا نَصَفَ الطريقَ أتاه ملَكُ الموت ، فاختصمت فيه ملائكةُ الرحمةِ وملائكةُ العذاب ؛ فقالت ملائكةُ الرحمة : جاء تائبًا مُقْبِلاً بقلبه إلى الله . وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قطّ . فأتاهم مَلكٌ فى صورة آدمىّ فجعلوه حَكما بينهم ، فقال : قِيسوا مابين الأرْضَين ، فإلى أيّهما كان أدنى فهوَ له . فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد ، فقبضتْه ملائكةُ الرحمة !

قال الشيخ : فهذا رجُل لمّا مشى بقلبه إلى الله حُسِبت له الخطوةُ الواحدة

بل الشبرُ الواحد ؛ ولو أنه طوّف الدنيا بقدميه ولم يكن له ذلك القلب ، لكان كالعظام المحمولة فى نعش ؛ قبرُها فى المشرق هو قبرها فى المغرب ، وليس لها من الأرض ولا للأرض منها إلا معنًى واحدٌ لا يتغير : هو أنه بجملته ميّت ، وأنها بجملتها حُفْرة .

والإنسانُ عند الناس بهيئة وجهه وحِلْيتِه التى تبدو عليه ، ولكنه عند الله بهيئة قلبه وظنّه الذى يَظُنّ به ؛ وما هذا الجسمُ من القلب إلا كقشرة البيضة(*) مما تحتها ؛ فيالها سخريةً أن تزعم القشرةُ لنفسها أن بها هى الاعتبارَ عند الناس لا بما فيها ، إذ كان ماتحويه لا يكون إلا فيها هى ، ومن ثم تُبْعِدُ فى حماقتها فتسأل : لماذا يرمينى الناس ولا يأكلوننى ... !

إن هذه الأخلاقَ الفاضلةَ فى هذا الإنسان لاتجد تمامَ معناها إلا فى حالةٍ بعينها من أحوال القلب ، وهى حالةُ خشوعه على وصفها الذى شرحته الآية الكريمة : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحقِّ ؟ »

فالأخلاقُ الفاضلةُ محدودةٌ بالله والحقّ معًا ، وهى كلها فى خشوع القلب لهذين ؛ فإن من القلب مخارجَ الحياة النفسية كلّها .

قال الشيخ : وأنا منذُ حفظتُ عن الحسن تأويلَ هذه الآية ، واسْتَدْنَتُ بها ، مضيتُ أعيشُ من الدنيا فى تاريخ قلبى لا فى تاريخ الدنيا ، وأدركتُ من يومئذٍ أنْ ليس حفظ القرآن حِفْظَه فى العقل ، بل حفظُه فى العمل به ؛ فإن أنت أثبتَّ الآيةَ منه وكنتَ تعمل بغير معناها وتعيش فى غير فضيلتها ، فهذا — ويحك — نسيانُها لا حفظُها ؛ وقد كان قومُنا الأوّلون بمعانيه كالشجرة

(*) قشرة البيضة العليا اليابسة تسمى القيض (بفتح القاف وسكون الياء) ، والقشرة الداخلة الملتزقة بالبياض تسمى الغرقئ (بكسر الغين والقاف) .

الخضراء النامية : فيها وَرَقُها الأخضر وزهرُها وثمرُها ، وعلى ظاهرها حياةُ باطنها ، فلما ثبتَ الناسُ على الشكل وحده ولم يبالوا القلبَ وأحوالَه ، أصبحوا كالشجرة اليابسة : عليها ورقُها الجافُّ ليس فى بقائه ولا سقوطه طائل .

ما أصبحتُ ولا أمسيت منذ حفظتُ تفسيرَ الآية إلا فى حياةٍ منها ، وهذه الآية هى دلَّتْنى بمعانيها أن ليست الحياةُ الأرضيّةُ شيئًا إلا ثورةَ الحىّ على ظلم نفسه ، يَستكِفُّ عنها أكثرَ مما يَسْتَجِرُّ لها ، والناسُ من شقائهم على العكس : يستجرُّون أكثرَ مما يستكِفُّون ؛ وإنما السعيدُ مَن وَجد كلماتٍ روحانيةً إلٰهيّةَ يعيشُ قلبُه فيهن ؛ فذاك لا يعمل أعمالَه كما يأتى ويتفق ، بل يحذو على أصل ثابت فى نفسه ، ويختار فيما يعمل أحسنَ ما يعمل ، ومِن ثمَّ لا يكون جهادُه مُراغَمةً أو خضوعا فى سبيل الوجود كالحيوان ، بل فى سبيل صِحّةِ وجوده ؛ ولا يكون غرضُه أن يُلابِسَ الحياةَ كما تأخذه هى وتَدَعُه ، بل أن يحيا فى شرف الحياة على ما يأخذها هو ويَدَعُها .

إن الشقاء فى هذه الدنيا إنما يَجُرُّه على الإنسان أن يعملَ فى دفع الأحزان عن نفسه بمُقارَفَتِه الشهواتِ ، وبإحساسِه غرورَ القلب ؛ وبهذا يُبْعِدُ الأحزانَ عن نفسه ليجلِبَها على نفسه فى صُوَرٍ أخرى !

* * *

قال الشيخ : وكان مما حفظته من تفسير الحَسَن قوله :

إن كل كلمة فى الآية تكاد تكون آية ، وليست الكلمةُ فى القرآن كما تكون فى غيره ، بل السُّمُوُّ فيها على الكلام أنها تحمل معنًى ، وتُومئ إلى معنًى ، وتَسْتَتْبِعُ معنى ؛ وهذا ما ليس فى الطاقة البشرية ، وهو الدليل على أنه « كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُه ثمَّ فُصِّلَتْ » (*)

(*) طريقتنا فى اكتناه إعجاز القرآن ، أن الكلمة الواحدة من كلماته لها جهات =

يقول الله تعالى : «ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبُهم لذكر الله وما نزل من الحق ؟ »

« ألم يأنِ » : هذه الكلمة حثٌّ، وإطماعٌ، وجدالٌ، وحُجة ؛ وهي في الآية تُصرِّح أن خشوعَ القلب الذي تلك صفتُه هو كمال الإيمان ، وأن وقت هذا الخشوع هو كمالُ العمر ، وكيف يعرف المؤمنُ أنه (سيأتي) له أن يعيشَ ساعة أو ما دونها ؟ إذَنْ فالكلمةُ صارخةٌ تقول : الآنَ الآنَ قبل ألاّ يكون آن ! أي : البدَارَ البدَارَ ما دمتَ في نَفَسٍ من العمر ؛ فإن لحظة بعد (الآن) لا يضمنها الحيّ ؛ وإذا فَنِيَ وقتُ الإنسان انتهى زمنُ عمله فبقي الأبد كله على ماهو ؛ ومعنى هذا أن الأبد للمؤمن الذي يدرك الحقيقة ، إنْ هو إلا اللحظةُ الراهنةُ من عمره التي هي (الآن) ؛ فانظر — ويحك — وقد جُعِلَ الأبد في يدك ؛ انظر كيف تصنع به ؟

تلك هي حكمة اختيار اللفظة من معنى (الآن) دون غيره ، على كثرة المعاني .

ثم قال : « للذين آمنوا » ، وهذا كالنّصّ على أن غير هؤلاء لا تخشع قلوبُهم لذكر الله ولا للحق ؛ فلا تقومُ بهم الفضيلة ، ولا تستقيم بهم الشريعة ، وعالِمُهم وجاهلُهم سواء : لا يخشعان إلا للمادة ؛ وكأن إنسانَهم إنسانٌ تُرابيّ ، لا يزالُ يضطربُ على مَكَرّ الليل والنهار بين طرفين من الحيوان : عَيشِه وموتِه ؛ وما تقسو الحياةُ قسوتَها على الناس إلا بهم ، وما ترِقُّ رقتَها إلا بالمؤمنين .

وجَعل الخشوعَ للقلوب خاصةً ، إذ كان خشوعُ القلب غيرَ خشوع الجسم ،

= عدة ، كما ترى فيما نشرحه من تفسير هذه الآية ، وفيما جئنا به من تفسير آيات سبقت في المقالات الأخرى ؛ فالبحث في فهم القرآن يجب أن يكون في اللفظة ، ووجه اختيارها ، وسياق تركيبها ، وما تدل عليه في كل ذلك ، وما يدل كل ذلك بها ؛ وقد بسطنا هذا في كتابنا إعجاز القرآن .

فهذا الأخير لايكون خشوعا ، بل ذلاً ، أو ضَعَةً ، أو رياء ، أو نفاقاً ، أو ما كان ؛ أما خشوعُ القلب فلن يكون إلا خالصاً مُخْلَصا مَحْضَ الإرادة .

واشترَطَ « القلبَ » كأنه يقول : إنما القلب أساسُ المؤمن ، وإن المؤمنَ ينبُع من قلبه لامن غيره ، متى كان هذا القلبُ خاشعاً لله وللحق ؛ فإن لم يكن قلبُه على تلك الحال ، نَبَعَ منه الفاسقُ والظالم الطاغيةُ وكلُّ ذى شر . ما أشبهَ القلبَ تتفرعُ منه معانى الخُلُق ، بالحبّة تَندَرِحُ منها الشجرة ؛ فخُذْ نفسَك من قلبك كما شئت ، حُلواً من حُلْوٍ ومرًّا من مُرّ .

وخشوعُ القلب لله وللحق ، معناه السموُّ فوق حب الذات ، وفوق الأثرة والمطامع الفاسدة ؛ وهذا يضع المؤمن قاعدةَ الحياة الصحيحة ، ويجعلها فى قانونَين لاقانونٍ واحد ؛ ومتى خشع القلبُ لله وللحق ، عَظُمتْ فيه الصغائر من قوّةِ إحساسِه بها ، فيراها كبيرةً كبيرةً وإن عَمِيَ الناسُ عنها ، ويراها وهى بعيدةٌ منه بمثل عين العُقاب : يكون فى لُوحِ الجوّ ولا يغيب عن عينه مافى الثرى .

وقد تخشع القلوبُ لبعض الأهواء خشوعًا هو شرٌّ من الطغيان والقسوة ، فتقييدُ خشوعِ القلب «بذكر الله» ، هو فى نفسه نَفْيٌ لعبادةِ الهوى ، وعبادةِ الذاتِ الإنسانية فى شهواتها ؛ وما الشهوةُ عند المخلوق الضعيف إلا إلهُ ساعتها . فياما أحكمَ وأعجبَ قولَ النبى صلى الله عليه وسلم : « لايزنى الزانى حين يَزنى وهو مؤمن ، ولا يَسرقُ السارقُ حين يَسرق وهو مؤمن . ولا يَشربُ الخمرَ حين يشربها وهو مؤمن . » جَعَلَ نزعَ الإيمان موقوتًا « بالحين » الذى تُقترَفُ فيه المعصية ؛ إذ لم يكن الله عند هذا الشقىّ هو إله ذلك « الحين »

والخشوعُ لِمَا «نزَلَ من الحقّ» ، هو فى معناه نَفْيٌ آخرُ للكبرياءِ الإنسانية التى تُفسِد على المرء كلَّ حقيقة ، وتخرج به من كل قانون ؛ إذ تجعل الحقائق العامة محدودةً بالإنسان وشهواته ، لامحدودها هى من الحقوق والفضائل .

ويَخرج من هذا وذلك تقريرُ الإرادة الإنسانية ، وإلزامُها الخيرَ والحقَّ دون غيرهما ، وقهرُها لِلذات وشهواتِها ، وجعلُها الكبرياءَ الإنسانية كبرياءً على الدنايا والخسائس ، لا على الحقوق والفضائل ؛ وإذا تقرر كل ذلك انتهى بطبيعته إلى إقرار السكينة فى النفس ، ومحو الفَوضى منها ، وجَعْلِ نظامها فى إحساس القلب وحده ؛ فيحيا القلبُ فى المؤمن حياةَ المعنَى السامى ، ويكون نبْضُه علامةَ الحياة فى ذاتها ، وخشوعُه لله وللحق علامةَ الحياة فى كمالها .

وقال : « ما نزَلَ من الحقّ » ، كأنه يقول : إن هذا الحق لا يكون بطبيعته ولا بطبيعة الإنسان أرضيًّا ، فإذا هو ارتفع من الأرض وقرّره الناسُ بعضُهم على بعض ، لم يجاوز فى ارتفاعه رأسَ الإنسان ، وأفسدتْه العقول ؛ إذ كان الإنسان ظالماً متمرِّداً بالطبيعة ، لا تحكمه من أول تاريخه إلا السماءُ ومعانيها وما كان شبيهًا بذلك مما يجيئُه من أعلى ، أىْ بالسلطان والقوة ؛ فيكون حقًّا « نازلاً » مُتدَفِّعا كما يَتصوَّب الثُّقْلُ من عالٍ ، ليس بينه وبين أن يَنفُذَ شىء .

والخضوعُ لما نزل من الحق ينفى خشوعًا آخر هو الذى أفسد ذاتَ البينِ من الناس ، وهو الخشوعُ لما قام من المنفعة وانصرافُ القلب إليها بإيمان الطمع لا الحق .

وبحمل الآية على ذلك الوجه يتحقق العدلُ والنَّصفَةُ بين الناس ؛ فيكون العدل فى كل مؤمنٍ شعورا قلبيًّا ، جاريًا فى الطبيعة لا مُتكَلَّفًا من العقل ؛ وبهذا وحده يكون للإنسان إرادةٌ ثابتة على الحق فى كل طريق ، لا إرادةٌ لكل طريق ؛ وتستمرّ هذه الإرادة مُتسقةً فى نظامها مع إرادة الله ، لا نافرةً منها ولا متمرِّدة عليها ؛ وهذا وذلك يُثبّت القلبَ مهما اختلفت عليه أحوالُ الدنيا ، فلا يكون من إيمانه إلا سُمُوُّه وقوّتُه وثباتهُ ، وينزل العمرُ عنده منزلةَ اللحظة الواحدة ، وما أيسرَ الصبرَ على لحظة ! ما أهونَ شرّ « الآن » إن كان الخيرُ فيما بعده !

أَلَمْ يأنِ ؛ أَلَمْ يأنِ ؛ أَلَمْ يأنِ ...

* * *

قال الشيخ : وكان الحَسَنُ فى معانيه الفاضلةِ هو هـذه الآيةَ بعينها ؛ فما كانت حياتُه إلا إسلاميةً كهـذا الكلام الأبيض المُشرق الذى سمعتُه منه ؛ شعارُه أبدًا : « الآنَ قبل ألاّ يكون آن » ، وإمامُه : « خُذْ نفسَك من قلبك » ، وطريقتُه « شرفُ الحياة لا الحياةُ نفسُها » .

وكان يرى هذه الحياةَ كوَقْعة الطائر ؛ هى عملُ جناحين مُسْتَوْفِزَين أبدا لعملٍ آخر هو الأقوى والأشدّ ، فلا يزلان بطائرهما على شيءٍ إلا مُطْوِيَين على قُدْرةِ الارتفاع به ، ولا يكونان أبدا إلا هَفْهافَين خفيفين على الطيران ؛ إذ كانا فى حكم الجوّ لا فى حكم الأرض .

وآلةُ الوقوع والطيرانِ بالإنسانِ شهواتُه ورَغباتُه ؛ فإن حطّته شهوةٌ لا ترفعه فقد أوْبَقَته وأهلكَتْه وقذفت به ليُؤخذ .

لقد روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يَبلُغُ العبدُ أن يكونَ من المتَّقين حتى يَدَعَ مالا بأسَ به حذَراً مما به بأس . » ، وهذا ضَربٌ من خشوع القلب المؤمن فيما يحلّ له : يَدَعُ أشياءَ كثيرةً لا بأس عليه فيها لو أتاها ؛ ليَقوَى على أن يدعَ ما فيه بأس ، وإن الذى يترك ما هوَ له يكون أقوى على ترك ما ليس له .

والنفسُ لابدّ راجعةٌ يوماً إلى الآخرة ، وتاركةٌ أداتَها ؛ فقِوامُ نظامها فى الحياة الصحيحة أن تكون كلَّ يومٍ كأنها ذهبتْ إلى الآخرة وجاءت . وتلك هى الحكمة فيما فرضته الشريعةُ الإسلامية من عبادةٍ راتبةٍ تكون جزءاً من عمل الحياة فى يومِها وليلتها ؛ فإذا لم تكن النفسُ فى حياتها كأنها دائما تذهب إلى مصيرها وترجع منه ، طمَسَها الجسمُ وحبَسها فى إحدى الجهتين ، فلم يبقَ لها

فيه إلا أثر ضئيل لا يتجاوزُ النُّصح ، كاعتراض المقتول على قاتله يحاول أن يَرُدَّ السيفَ بكلمة ... ! وبذلك يتضاعف الجسمُ فى قوّته ، ويشتدّ فى صَولته ، ويتصرَّف فى شهواته ، كأن له بطنين يجوعان معاً ... فتَسْتهلكُ شهواتُ المرء دينَه ، وتقذف به يمينا وشمالا ، على قصدٍ وعلى غير قصد ؛ وتمضى به كما شاءت فى مَدْرجة مَدْرجةٍ من الشر .

ومثلُ هذا المسرف على نفسه لا يكون تمييزُه فى الدين ، ولا إحساسُه بالخير ، إلا كذلك السِّكِّير الذى زعموا أنه أراد التوبة ، وكانت له جَرَّتان من الخمر ، فلما اتَّعظ وبلغ فى النظر إلى نفسه وحظّ إيمانه ، وأراد أن يطيعَ الله ويتوب ، نظر إلى الجرَّتين ثم قال : أتوبُ عن الشرب من هذه حتى تفرغَ هذه ... !

* * *

قال الشيخ : ثم إنى تبتُ على يد الحسن ، وأخلصت فى التوبة وصَحَّحْتُها ، وعلمتُ من فعله وقوله أن حقيقة الدِّين هى كبرياءُ النفس على شرها وظلمها وشهواتها وأن هذه الكبرياء القاتلة للإثم ، هى فى النفس أختُ الشجاعة القاتلةِ للعدوّ الباغى : يفخر البطلُ الشجاعُ بمبلغه من هذه ، ويفخر الرجل المؤمن بمبلغه من تلك ؛ وأن خشوع القلب هو فى معناه حقيقةُ هذه الكبرياء بعينها .

وحدّثتُ الحسنَ يوما حديث رؤياى (*) ، وما شُبّه لى من عملى السيئ وعملى الصالح ، فاستدْمَعَتْ عيناه ، وقال :

إن البنتَ الطاهرةَ هى جهادُ أبيها وأُمها فى هذه الدنيا ، كالجهاد فى سبيل الله ، وإنها فوزٌ لهما فى معركةٍ من الحياة ، يكونان هما والصبرُ والإيمان فى ناحية منها قَبيلا ، ويكون الشيطانُ والهمُّ والحزنُ فى الجهة المُناوِحَةِ قبيلا آخر .

إن البنتَ هى أمٌّ ودار ، وأبَوَاها فيما يكابدان من إحسان تربيتها وتأديبها

(*) ذكرت الرؤيا فى القسم الأول من هذه المقالة .

وحياطتها والصبر عليها واليَقَظة لها — كأنما يحملان الأحجارَ على ظهرَيْهما حجرًا حجرًا ، ليَبْتَنِيا تلك الدار فى يوم يوم إلى عشرين سنة أو أكثر ، ماصَحِبَتْه وما بقيتْ فى بيته .

فليس ينبغى أن ينظر الأبُ إلى بنته إلا على أنها بنتُه ، ثم أمُّ أولادِها ، ثم أمُّ أحفاده ؛ فهى بذلك أكبرُ من نفسها ، وحقُّها عليه أكبرُ من الحق ، فيه حُرْمتها وحرمةُ الإنسانية معًا ؛ والأبُ فى ذلك يُقرض اللهَ إحسانًا وحنانا ورحمة . فحَقٌّ على الله أن يُوَفِّيَه من مثلها وأن يُضْعِفَ له .

والبنت ترى نفسَها فى بيت أهلها ضعيفةً كالمنقطِعة وكالعالة ، وليس لها إلا اللهُ ورحمةُ أبويها ؛ فإن رَحِمَاها ، وأكرماها فوقَ الرحمة ، وسَرَّاها فوقَ الكرامة ، وقاما بحق تأديبها وتعليمها وتفقيهها فى الدين ، وحَفِظا نفسها طاهرة كريمةً مسرورةً مؤدَّبة — فقد وضعا بين يَدَيِ الله عملاً كاملا من أعمالهما الصالحة ، كما وضعاه بين يدى الإنسانية : فإذا صارا إلى الله كان حقّا لهما أن يجدا فى الآخرة يمينًا وشمالاً يذهبان بينهما إلى عفو الله وكرمه ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من كان له ابنةٌ فأدّبها فأحسنَ تأديبها وغَذَاها فأحسن غِذاءَها ، وأسبغَ عليها من النعمة التى أسبغ اللهُ عليه — كانت له مَيْمَنَةً ومَيْسرةً من النار إلى الجنة» .

فهذه ثلاثٌ لابد منها معا ، ولا تُجزِئ واحدةٌ عن واحدة فى ثواب البنت : تربيةُ عقلها تربيةَ إحسان ، وتربيةُ جسمها تربيةَ إحسان وإلطاف ، وتربيةُ روحها تربيةَ إكرام وإلطاف وإحسان .

✡ ✡ ✡

قال الشيخ : واللهُ أرحمُ أن تضيعَ عنده الرحمة ، والله أكرمُ أن يضيعَ

الإحسان عنده ، والله أكبرُ ...

وهنا صاح المؤذِّن : الله أكبر .

فتبسّم الشيخ وقام إلى الصلاة .

الأجنبية(١)

أَحبَّها وأحبَّته ، حتى ذهب بها فى الحب مَذْهبًا قالت له فيه : « لو جاءنى قلبى فى صورةٍ بشَرِيَّة لأراه كما أُحِسُّه ، لما اختار غيرَ صورتك أنتَ فى رقّتك وعطفِك وحنانِك . » وحتى ذهبتْ به فى الحب مذهبا قال لها فيه : « إن الجنةَ لاتكون أبدعَ فنًّا ، ولا أحسنَ جمالاً ، ولا أكثرَ إمتاعا — لو خُلِقَتْ امرأةً يهواها رجل — إلا أن تكون هى أنت ! » فقالت له : « ويكون هو أنتَ ... ! »

وتَدَلَّهتْ فيه ، حتى كأنما خَلَبَها عقلها ووضع لها عقلا من هواه ؛ فكانت تقول له فيما تَبثُّه من ذاتِ نفسها : « إن حبّ المرأة هو ظهورُ إرادتِها مُتبَرِّئةً من أنها إرادة ، مُقِرَّةً أنها مع الحبيب طاعةٌ مع أمر ، مُذْعِنَةً أنها قد سلَّمت كبرياءَها لهذا الحبيب ، لتراه فى قوته ذا كبرياءَين . »

وافتتَنَ بها حتى أخذت منه كل مأخذ ، فملأتْ نفسَه بأشياء ، وملأت عينَه من أشياء ؛ فكان يقول لها فى نجْواه : « إنى أرى الزمَن قد انْتَسَخ مما بينى وبينك ، فإنما نحن بالحب فى زمنٍ من نَفَسَيْنا العاشقتين ، لايسمّى الوقتَ، ولكن يسمَّى السرور ؛ وإنما نعيشُ فى أيامٍ قلبيةٍ ، لاتدلُّ على أوقاتها

---

(١) انظر ص ١١٦ « حياة الرافعى »

الساعةُ بدقائقها وثوانيها ، ولكنِ السعادةُ بحقائقها ولذّاتها . »

وتحابّا ذلك الحبَّ الفنّيَّ العجيبَ الذى يكون ممتائا من الروحين يكاد يَفيضُ وينسكب ، وهو مع ذلك لا يَبْرَحُ يطلبُ الزيادة ، ليتخيّلَ من لذتها ما يتخيّلُ السِّكّيرُ فى نَشوته إذا طَفحَتْ الكأس ، فيرى بعينيه أنها ستتسع لأكثرَ مما امتلأتْ به ، فيكونُ له بالكأس وزيادتِها ، سُكْرُ الخمرِ وسكرُ الوهم .

تحابّا ذلك الحبَّ الفوّارَ فى الدم ، كأن فيه من دَوْرته طبيعةَ الفراقِ والتلاقى بغير تلاقٍ ولا فراق ؛ فيكونان معًا فى مجلسهما الغَزَلىِّ ، جَنْبَه إلى جنبها وفاها إلى فيه (*) وكأنما هربَتْ ثم أدركَها ، وكأنما فرّتْ ثم أمْسَكَها ؛ وبين القُبلةِ والقُبْلة هِجرانٌ وصُلح ، وبين اللّفْتة واللّفتة غَضَبٌ ورضى !

وهذا ضربٌ من الحب يكونُ فى بعض الطبائع الشاذّة المسْرِفة التى أفرطتْ عليها الحياةُ إفراطها . فيلفُّ الحيوانيّةَ بالإنسانية ، ويجعلُ الرجلَ والمرأةَ كبعض الأحماض الكيماوية مع بعضها : لا تلتقى إلا لتمازج ، ولا تمازجُ إلا لتتّحِد ، ولا تتحدُ إلا ليبتلعَ وجودُ هذا وجودَ ذاك .

✡ ✡ ✡

وضَرَب الدهرُ من ضَرباته فى أحداثٍ وأحداث ؛ فأبغضتْه وأبغضَها ، وفَسَدت ذاتُ بينِهما ، وأدبر منها ما كان مُقبِلاً ؛ فوَثَبَ كلاهما من وجود الآخر وَثْبةَ فزعٍ هاربًا على وجهه ؛ أما هو فسَخِطَها لعيوب نفسها ، وأما هى ... وأما هى فتَكرّهَتْهُ لمحاسنِ غيره !

وانْسرَبتْ أيامُ ذلك الحب فى مَسارِبها تحت الزمن العميق الذى طَوَى

(*) تأويل هذا فى باب (الحال) عند ظرفاء النحويين : متلاصقين متعانقين !

ولا يزالُ يَطْوى ولا يبرَحُ بعد ذلك يطوِى ، كما يغورُ الماءُ فى طِباقِ الأرض ؛ فأصبح الرجلُ المسكينُ وقد نزلتْ تلك الأيامُ من نفسه منزلةَ أقاربَ وأصدقاءَ وَأحِبَّاءَ ماتوا بعضُهم وراءَ بعض ، وتركوه ولكنهم لم يبرحوا فِكْرَه ، فكانوا له مادَّةَ حسرة ولهْفة : أما هى ... أما هى فانشقَّ الزمنُ فى فكرها برَجَّةٍ زازلة ، وابتلع تلك الأيامَ ثم التأم ... !

* * *

حدَّثَنا « الدكتور محمد »[1] رئيسُ جماعة الطلبة المصريين فى مدينة ... بفرنسا ، قال : وانتهى إلىَّ أنّ صاحبَنا هذا جاء إلى المدينة ، وأنه قادمٌ من مصر ، فتخالَجنى الشوقُ إليه ، ونَزَعتْ إلى لقائه نفسى ، وما بيننا إلا معرفتى أنه مصرىٌّ قَدِمَ من مصر ؛ وخُيِّل إلىّ فى تلك الساعة بما اهْتاجنى من الحنين إلى بلادى العزيزة ، أن ليس بينى وبين مصرَ إلا شارعان أقطعُهما فى دقائق ؛ فخففتُ إليه من أقرب الطرق إلى مَثْواه ، كما يصنعُ الطيرُ إذا ترامى إلى عُشّه فابتدرَه من قُطْرِ الجوّ .

قال : وأصبْته واجمًا يعلوه الحزن ، فتعرَّفتُ إليه ، فما أسرعَ ما مَلَأ من نفسى وما ملأتُ من نفسه ؛ وكما يَمَّحِى الزمانُ بين الحبيبَين إذا التقيا بعد فُرْقة — يتلاشَى المكانُ بين أهلِ الوطن الواحد إذا تلاقَوا فى الغُربة ؛ فذابت المدينةُ الكبيرةُ التى نحن فيها كأن لم تكن شيئاً ، وتجلَّى سحرُ مصرَ فى أقوى سَطْوتِه وأشدها فأخَذَنا كِلَينا ، فما استشعرْنا ساعَتئِذ إلا أن أوروبا العظيمةَ كأنما كانت مرسومةً على ورقة ، فطويناها وأحللْنا مصرَ فى محلها .

وطغَى علينا نازِعُ الطرَبِ طُغياناً شديداً ، فأرسلْتُ من يجمعُ الإخوانَ

---

(١) هو ولده الدكتور محمد الرافعى ، وكان يدرس وقتئذ فى جامعة ليون ، وقد أنشأ من أجله هذه القصة لتكون رسالة إليه برأيه فى موضوع بخصوصه

المصريين ، واخترتُ لذلك صديقاً شاعرَ الفطرة ، فنزا به الطربُ ، فكان يدعوهم وكأنه يُؤذِّن فيهم لإقامة الصلاة . وجاءوا يُهرْوِلون هَرْوَلةَ الحَجِيج، فلو نَطَقتِ الأرضُ الفرنسية التى مَشَوا عليها تلك المِشْيةَ لقالت : هذه وَطْأَةُ أُسودٍ تتخيَّلُ خُيَلاءَها من بغْيِ النشاطِ والقوة .

ألا ما أعظمَكِ يامصر ! وما أعظم تعنُّتَكِ فى هذا السحر الفاتن ! أينبغى أن يغتربَ كلُّ أهلك حتى يدركوا معنى ذلك الحديث النبوىّ العظيم : « مصرُ كِنانةُ الله فى أرضه » ، فيعرفوا أنك من عِزّتك معلَّقةٌ فى هذا الكون تعليقَ الكنانة فى دار البطل الأرْوع ؟

قال « الدكتور محمد » : واجتمعنا فى الدار التى أنزلُ فيها ، فراعَ ذلك صاحبةَ مَثْواى (*) ، فقلت لها : إنّ هاهنا ليلةً مصريةً ستحتلُّ ليلتكم هذه فى مدينتكم هذه ، فلا تجزعوا . ثم دعوتها إلى مجلسنا لتشهدَ كيف تَسْتَعْلِنُ الروحُ المصرية الاجتماعية برقتهاوظَرفِهاوحماستِها ، وكيف تُفسِّرهذه الروحُ المصريةُ كلَّ جميلٍ من الأشياء الجميلة بشوقٍ من أشواقها الحنَّانة ، وكيف تكون هذه الروحُ فى جوّ موسيقيَّتها الطبيعية حين تُناجِى أحبابَها ، فيجىءُ حديثُها بطبيعته كأنه دِيباجةُ شاعرٍ فى صفائها وحلاوتها ورنينِ ألفاظها ؟

وقالت السيدة الظريفة : يالها سعادة ! سأتخذُ زينتى ، وأُصلح من شأنى ، وأكون بعد خمس دقائق فى مصر !

قال الدكتور : وأخذْنا فى شأننا ، وكان معنا طالبٌ حَسَنُ الصوت ، فقام إلى البِيانة (**) وغنّى مقطوعة « طقطوقة » مصرية من هذه المقاطيع التى تُطقْطِقُ فيها

(*) صاحبة المثوى : هى ربة البيت الذى ينزل فيه الضيف ومن كان فى حكمه ، يقول العربى : من كانت صاحبة مثواك ؟ فتطلق على صاحبة البنسيون .

(**) البيانة : كلمة استعملناها فى كتابنا (السحاب الأحمر) للبيانو ، وتجمع على بيانات

النفس ، فجعل يمطل صوته بآه ، وآه ؛ ودار اللحنُ دورةً تأوَّهتْ فيها الكلماتُ كلُّها ، ثم اعتَوَرَ البِيانةَ طالبٌ آخر ، فما شَذَّ عن هذه السنَّة ، وكان بعد الأول كالنائحة تُجاوِبُ النائحة ! فمالت علىَّ السيدة الفرنسية وأسَرَّتْ إلىَّ : أهاتان امرأتان أم رجلان ... ؟ فقلت لها : إن هذا لحنٌ تاريخىّ ذو مقطوعتين ، كانت تتطارحه كيلوباترة وأنطونيو ، وأنطونيو وكيلوباترة .. فأُعجِبت المرأةُ أشدَّ الإعجاب ، وأكبرتْ منا هذا الذوقَ المصرىَّ أن نكْرِمَها لوجودها فى مجلسنا بألحان المليكة المصرية الجميلة ، وطرِبت لذلك أشدَّ الطرب ، ومَلَكها غُرور المرأة ، فجعلت تستعيد : « يالوعتى ، ياشقاىَ ، ياضنَى حالى ... » وتقول : ما كان أرقَّ كيلوباترة ! ما كان أرقَّ أنطونيو ! يالَفِتنةِ الحب الملكى ... !

قال « الدكتور محمد » : ثم خجلتُ والله من هذا الكلام المخنَّث ، ومن تلفيق الذى لفقتُه للمرأة المخدوعة ؛ فانتفضْتُ انتفاضةَ من يماؤه الغضب وقد حَمِيَ دمُه ، وفى يده السيفُ الباتر ، وأمامه العدوّ الوقح ؛ وثُرْتُ إلى البيانة فأجريت عليها أصابعى وكأنَّ فى يدىَّ عشرةَ شياطين لاعشر أصابع ، ودوَّى فى المكان لحنُ : « اسلمِى يامصر » ، وجَلْجَلَ كالرعد فى قُبة الدنيا ، تحت طِباق الغَيم ، بين شَرارِ البرق ؛ فكأنما تزَلْزَل المكانُ على السيدة الفرنسية وعلينا جميعاً وصَرَخ أجدادُنا يزْأرون من أعماق التاريخ : « اسلمى يامصر ... » (*)

ولما قطَعْتُ التفتُّ إليها فى كبرياء تلك الموسيقى وعظمتها ، وقلت لها : هذا هو غناؤنا نحن الشبان المصريين .

ثم راجَعْنا صاحبَنا الضيف وأحفَيْناه بالمسألة ، فقال بعد أن دافَعَنا طويلًا :

(*) هذا هو النشيد الذى وضعناه على لسان سعد باشا زغلول ، وهو اليوم النشيد الوطنى لمصر كلها ، يحفظه جميع الطلبة ، والكشافة ، والأندية الرياضية ، وغيرها .
[قلت : وانظر ص ٦٥ – ٧٢ « حياة الرافعى »]

إنه يُحسن شيئًا من الموسيقى ، وإن له لحنًا سيُطارحُنا به أنأخذه عنه . فطِرنا بلَحْنه قبل أن نسمعَه ، وقلنا له : افعلْ متفضِّلًا مشكورًا . وما زلنا حتى نهض متثاقِلًا فجلس إلى البيانة . وأطرق شيئًا كأنه يُسَوِّى أوتارًا فى قلبه ، ثم دقَّ يَتَشَاجَى بهذا الصوت :

أَضاعَ غَدِى مَن كان فى يَدِهِ غَدِى … وحَطَّمنى من كان يَجْهَدُ فى سَبْكِى !
فإن كنتُ لا آسَى لنفسى فَمَنْ إذن ؟ … وإن كنت لا أبكى لنفسى فمن يبكى (*)

قال « الدكتور محمد » : فكان الغناء يعْتَلِجُ فى قلبه اعتلاجًا ، وكانت نفسُه تبكى فيه بكاءها وتَنَفَّس من غُصَّتها ، وكأن فى الصوتِ فكراً حزينًا يَسْتعْلِن فى همٍّ موسيقىّ ؛ وخيل إلينا بين ذلك أن البِيانة انقلبت امرأة مغنية تُطارِحُ هذا الرجلَ عواطفها وأحزانها ، فاجتمع من صوتهما أكملُ صوتٍ إنسانىٍّ وأجمله وأشجاه وأرقُّه .

فأطَفْنا به وقلنا له : لقد كتمْتَنا نفسَك حتى نَمَّ عليها ماسمعنا ، وما هذا بغناء ، ولكنه همومٌ مُلَحَّنة تلحينا ؛ فلن ندعَك أو تُخبِّرَنا ماكان شأنُك وشأنها .

فاعْتَلَّ علينا ودافَعَنا جهدَه ، فقلنا له : هيهات ! والله لن نُفْلِتَكَ وقد صرتَ فى أيدينا . وإنك ماتزيدُ على أن تَعِظَنا بهذه القصة ؛ فإن أمسكتَ عنها فقد أمسكتَ عن موعظتنا . وإن بخلتَ فما بخلتَ بقصتك بل بعلمٍ من علم الحياة نُفيدُهُ منك ؛ وأنت ترانا نعيش هاهنا فى اجتماع فاسدٍ كله قِصَصٌ مليَّة ، بين نساءٍ لا يَلْبَسْنَ إلا ما يُعَرِّى جمالَهن ، وفى رجالٍ أفرطتْ عليهم الحرية حتى دخلَ فيها تَخْدُعُ الزوجة ... !

قال الدكتور : ونظرتُ فإذا الرجل كاسِفٌ قد تغيّر لونُه ، وتبيَّنَ الانكسارُ فى وجهه ، فألمَمْتُ بما فى نفسه ، وعلمتُ أنه قد دُهِىَ فى زوجةٍ من هؤلاء

(*) وضعنا هذين البيتين لبطل القصة ، وكم لهذه القصة من أبطال . . . !

الأوربيات اللواتى يتزوَّجن على أن يكون مخدعُ المرأة منهن حرًّا أن يأخذَ ويدَعَ ، ويُغيِّر ويبدِّل ، ويقْسم كلمةَ « زوج » قسمين وثلاثةً وأربعةً وما شاء .

وكأنما مَسسْتُ البارودَ بتلك الشرارة ، فانفجرتْ نفسُ الرجل عن قصةٍ ماأفظعَها !

☆ ☆ ☆

قال : ياإخوانى المصريين ، قبل أن أَنُقُصَ لكم ذلك الخبر ، أسدِيكم هذه النصيحةَ التى لم يَضعها مؤلِّف تاريخى لسوء الحظّ ، إلا فى الفصل الأخير من روايةِ شقائى :

إياكم إياكم أن تَغترّوا بمعانى المرأة ، تحسبونها معانىَ الزوجة ؛ وفرِّقوا بين الزوجة بخصائصها ، وبين المرأة بمعانيها ؛ فإن فى كل زوجةٍ امرأة ، ولكن ليس فى كل امرأةٍ زوجة .

واعلموا أن المرأة فى أنوثتها وفنونِها النسائية الفرديَّة ، كهذا السحاب الملوَّن فى الشَّفق حين يبدو : له وقتٌ محدود ثم يُمسَخ مَسخا ؛ ولكنَّ الزوجة فى نسائيّتها الاجتماعية كالشمس : قد يحجبها ذلك السحاب ، بَيْدَ أن البقاء لها وحدها ، والاعتبار لها وحدها ، ولها وحدها الوقتُ كلُّه .

لاتتزوجوا ياإخوانى المصريين بأجنبية ؛ إن أجنبيةً يتزوجُ بها مصرىّ ، هى مُسَدَّس جرائمَ فيه سِتّ قذائف :

الأولى : بَوارُ امرأةٍ مصرية وضيَاعُها بضَياع حقها فى هذا الزوج ؛ وتلك جريمةٌ وطنية . فهذه واحدة .

والثانية : إقحام الأخلاقِ الأجنبية عن طباعنا وفضائلنا فى هذا الاجتماع الشرقى ، وتوهينُه بها وصَدْعُه ؛ وهى جريمةٌ أخلاقية .

والثالثة : دَسّ العُروقِ الزائغةِ فى دمائنا ونَسْلِنا ؛ وهى جريمةٌ اجتماعية .

والرابعة : التمكينُ للأجنبيِّ في بيتٍ من بيوتنا يملكه ويحكمه ويُصرِّفه على ماشاء؛ وهي جريمة سياسية .

والخامسة : للمُسْلِمِ منا إيثارُه غيرَ أختِه المسلمة ، ثم تحكيمُه الهوى في الدين ، مايعجبُهُ وما لايعجبُه ؛ ثم إلقاؤه السمَّ الدينيَّ في نبْع ذرِّيتِه المقبلة ، ثم صَيْرورَتُه خِزْيا لأجداده الفاتحين الذين كانوا يأخذونهنَّ سَبَايا ، ويجعلونهن في المنزلة الثانية أو الثالثة بعد الزوجة ؛ فأخذتْه هي رقيقا لها ، وصار معها في المنزلة الثانية أو الثالثة بعد ... (*) وهذه جريمةٌ دينية .

والسادسة : بعد ذلك كلّه . أن هذا المسكين يُؤْثِر أسفلَه على أعلاه ... ولا يُبالى في ذلك خمسَ جرائم فظيعة ؛ وهذه السادسة جريمة إنسانية !

✡ ✡ ✡

ما كنتُ أحسبُ يا إخواني وقد رجعتُ بزوجتي الأوربية إلى مصر ، أني أحضرتُ معي من أوربا آلةً تصنع أحزاني ومصائبي! ولم يكن وَعَظني أحدٌ بما أعِظكم به الآن ، ولا تنبّهتُ بذكائي إلى أن الزوجةَ الأجنبيةَ تثبِتُ لي غُربتي في بلادي ، وتُثبتُ عليَّ أني غير وطني أو غيرُ تامِّ الوطنية ؛ ثم تكونُ مني حماقةً تثبت للناس أني أحمق فيما اخترت ؛ ثم تعودُ مُشكلةً دولية في بيتي ، يزورها أبناءُ جنسهاوَ يَسْتَزيرُونها رغم أنفي وفمي ووجهي كله ! ويستطيلون بالحماية ، ويستترون بالامتيازات ، ويرفعون ستاراً عن فصل ، ويُرْخون ستاراً على فصل ... وأنا وحدي أشهدُ الرواية ... !

إن الشيطانَ في أوربا شيطانٌ عالم مخترع ؛ فقد زَيّن لي من تلك الزوجة ثلاثَ نساءٍ معا : زوجةً عقلية ، وزوجةً قلبية ، وزوجةً نفسيّة ؛ ثم نَفَثَ اللعينُ

(*) يريد : بعد عشيقها .

فى رُوعى أن المرأة الشرقيةَ ليس فيها إلا واحدة ، وهى مع ذلك ليست من هؤلاء الثلاثِ ولا واحدة . قال الخبيث : لأنها زوجةُ الجسم وحده ، فلا تسمو إلى العقل ، ولا تتَّصل بالقلب ، ولا تمتزج بالنفس ؛ وأنها بذلك جاهلة ، غليظةُ الحسّ ، خَشِنَةُ الطبع ، لا تكون مع المصرىّ إلا كما تكون الأرضُ المصريةُ مع فلاَّحها ...

لعنةُ الله على ذلك الشيطان الرجيم العالم المخترع ! ما علمتُ إلا من بَعدُ أن هذه الشرقيةَ الجاهلةَ الخشنةَ الجافيةَ ، هى كالمَنْجَم الذى تِبْرُهُ فى تُرابه ، وماسُه فى فَحْمِهِ ، وجوهرُه فى معدنه؛ وأن صعوبتها من صعوبة العفّةِ الممتنعة ، وأن خشونتَها من خشونة الحب المعتزّ بنفسه ، وأن جفاءها من جفاء الدين المتسامى على المادة ، وأنها بمجموع ذلك كان لها الصبرُ الذى لا يدخُله العجز، وكان لها الوفاءُ الذى لا تَلحقُه الشبهة ، وكان لها الإيثار الذى لا يُفسِده الطمع .

هى جاهلةٌ ، ولها عقل الحياة فى دارها ؛ وغليظةُ الحس ، ولها أرَقُّ ما فى الزوجة لزوجها وحده ؛ وخَشِنَةُ الطبع ؛ لأنها تتنزّه أن تكون مَلمَسا ناعمًا لهذا وذاك وهؤلاء وأولئك ... لا كامرأة الحب الأوربيّة ، التى تجعلُ نفسها أنثى الفن ، وتريد أن تعيش دائما مع زوجها الشرقىّ من التفضيل والإيثار والإجلال والإباحة ـ فى كلمة « أنا » قبل كلمة « أنت » ... امرأةٌ أنشأتها الحربُ العظمى بأخلاق مُخَرِّبة مُدَمِّرة تنفجِرُ بين الوقت والوقت .

عندنا يا إخوانى تعدُّدُ الزوجات يتهموننا به من عمًى وجهل وسخافة . انظروا ، هل هو إلا إعلانٌ لشرعيّة الرجولة والأنوثة ، ودينيّةِ الحياة الزوجية فى أىّ أشكالِها ؟ وهل هو إلا إعلانُ بطولةِ الرجلِ الشرقىّ الأنوف الغَيور ، أن الزوجةَ تتعدّد عند الرجل ، ولكن ... ولكن ليس كما يقع فى أوربا من أنّ الزوجَ يتعدّد عند المرأة ...

يتهموننا بتعدّد المرأة على أن تكون زوجةً لها حقوقُها وواجباتُها ـ بقوة الشرع والقانون ـ نافذةً مُؤدّاة ؛ ثم لا يتهمون أنفسهم بتعدّد المرأة خليلةً مخادِنةً ليس لها حقّ على أحد ، ولا واجبٌ من أحد ، بل هي تتقاذفُها الحياةُ من رجُل إلى رجل ، كالسكّير يتقاذفه الشارع من جِدار إلى جدار !

لعنةُ الله على شيطان المدنية العالم المخترع المخنَّث ، الذى يجعلُ للمرأة الأوربية بعد أن يتزوجها الرجلُ الشرقى ، أصابعَ « أوتوماتيكية » ماأسرعَ ماتمتد فى نَزْوَةٍ من حماقاتها إلى رجُلِها بالمسدّس ، فإذا الرصاصُ والقتل ؛ وما أسرعَ ماتمتدفى نزوةٍ من عواطفها إلى عاشقها بمفتاح الدار ، فإذا الخيانة والعُهر !

ماذا تتوقّعون ياإخوانى من تلك الرقيقة الناعمة ، المتأنثة بكل مافيها أنوثةً تكفى رجالًا لارجلا واحدا ، وقدضعُفَت روحيةُ الأسرة فى رأيها ، وابْتُذِلت الروحيةُ فى مجتمَعِها ابتذالًا ، فأصبح عندها الزواجُ للزواج على إطلاقه ، لا لتكون امرأة واحدة لرجل واحد مقصورةً عليه ؛ وبذلك عاد الزواجُ حقًّا فى جسم المرأة دون قلبها وروحها ؛ فإن كان الزوجُ مشئومًا منكوباً لم يستطع أن يكون رَجُلَ قلبها ـ فعليه أن يَدَعَ لها الحرية لتختارَ زوجَ قلبها ... ! ومعنى ذلك أن تكون هذه المرأة مع الزوج الشرعىْ بمنزلة المرأة مع فاسق ، ومع الفاسق بمنزلة المرأة مع الزوج الشرعىّ ... ! وإن كان الرجل منحوسًا مُخَيَّبا ، وكان قد بَلَغَ إلى قلبها زمنًا ثم ملّه قلبُها — فعليه أن يَدَعَ لها الحرية لتتنقّل وتَلَذَّ بلذات الهوى ، ويقولَ لها : شأنَكِ بمن أحببتِ ! فإن هذا المنحوس المخيَّب ليس عندها إنسانًا ، ولكنه رواية إنسانيةٌ انتهى الفصلُ الجميل منها بمناظره الجميلة ، وبدأ فصلٌ آخر بحوادثَ غيرِ تلك ؛ فلِمَنْ يشهدُ الروايةَ أن يتبرَّمَ ماشاء ، ويستثقلَ كما يشاء ، ومتى شاء انصرف من الباب ... !

امرأةُ هذه المدنيّة هى امرأةُ العاطفة ؛ تتعلق باللفظ حين تُلْبِسُه العاطفةُ

من زينتها ، وإن ضاع فيه المعنى الكبير من معانى العقل ، وإن فاتت به النعمة الكبيرة من نعم الحياة .

تقوى العاطفةُ فتجيء بها إلى رجل ، ثم تقوى الثانيةَ فتذهبُ بها مع رجل آخر ... ! وتُقيِّد نفسها إن شاءت ، وتُسَرِّح نفسها إن شاءت ؛ وما بُدٌّ من أن تَبْلوَ الحياةَ كما يبلوها الرجلُ وأن تخوضَ فى مشاكلها ، وإذا شاءت جعلت نفسَها إحدى مشاكِلها ... ! ولا مندوحةَ من أن تتولّى شأنَ نفسها بنفسها ، فإذا خاسَتْ أو غدَرتْ فكلٌّ ذلك عندها من أحكام نفسها ، وكلٌّ ذلك رأيٌ وحقّ ، إذ كان مِحْوَرُها الذى تدورُ عليه هو عاطفتَها وحريةَ هذه العاطفة ، فمَنْ هذا يُقرِّرُ لها خطتَها ، ويُملى عليها واجباتها ، ويُزَوِّر لها الأسماءَ على إرادته دون إرادتها ، فيسمِّى لها نَكَدَ قلبها باسم فضيلة المرأة ، وحرمانَ عاطفتِها باسم واجب الزوجة الشريفة ؟

ومنذا خَوّلَه الحقَّ أن يقرّر وأن يُملى ؟

وهذا الشرقيُّ العتيقُ المأفونُ الذى قَبِلَها سافرةً لا تعرف رُوحُها ولا جسمُها الحجاب ، ما بالُه يريد أن يضربَ الحجابَ على عاطفتها ويتركَها محبوسةً فى شرَفِه وحقوقِه وواجباته ، وإن لم تكن محجوبةً فى الدار ؟

ما علمتُ يا إخوانى إلا مِن بَعدُ أن الزوجةَ الغربية قد تكونُ مع زوجها الشرقى كالسائحة مع دليلها ! هيهات هيهات ، إنه لن يُمسكَها عليه ، وان يُكرِهها على الوفاء له ، إلا أن تكونَ حُثالةً يزهدُ فيها حتى ذُبابُ الناس ؛ فيأسُها هو يجعل هذا المسكينَ مطمَعَها ، وهى مع ذلك لو خلطَتْه بنفسها لبقيتْ منها ناحيةٌ لا تختلط ، إذ ترى أُمتَه دون أُمتها ، وجنسَه دون جنسها ؛ فما تَسُب أُمّةَ زوجِها وبلادَه بأقبحَ من هذا !

أما واللهِ إن الرجل الشرقى حين يأتى بالأجنبية لتَلوِين حياته بألوان

الأنثى ... لا يكون اختار أزهى الألوان إلا لتلوين مصائبِ حياته ! وقد يكون هناك ما يَشذُّ ، ولكن هذه هى القاعدة .

* * *

أما قصتى يا إخوانى ....

قال الدكتور محمد : قد حكيتَها « يرحمك الله » !

لحوم البحر [1]

« قصيدة مترجمة عن الشيطان »

لكأنما والله قد تمدَّد على سِيفِ البحر فى اسكندرية شيطانٌ ماردٌ من شياطينِ ما بينَ الرجلِ والمرأة ، يخدعُ الناسَ عن جهنمَ بتبريدِ معانيها ... وقد امتلأ به الزمانُ والمكان : فهو يُرْعِشُ ذلك الرملَ بذلك الهواءِ رَعشةَ أعصابٍ حية ، ويُرْسل فى الجو نفخاتٍ من جُرْأة الخمر فى شاربها ثارَ فعَرْبد ، ويُطْلِعُ الشمسَ للأعينِ فى منظرِ حَسْناءَ عُريانةٍ ألقتْ ثيابَها وحياءَها معًا ، ويُرخِى الليلَ ليغطىَ به المَخازِى التى خجل النهارُ أن تكونَ فيه !

ولَعَمرى إن لم يكن هو هذا الماردَ ، ما أحسَبُه إلا الشيطانَ الخبيثَ الذى ابتدع فكرةَ عرضِ الآثامِ مكشوفةً فى أجسامها تحت عين التّقىّ والفاجر ، لتعملَ عملَها فى الطباع والأخلاق : فسوَّلَ للنساء والرجال أن ذلك الشاطئَ علاجُ المَلَل من الحرّ والتعب ، حتى إذا اجتمعوا ، فتقاربوا ، فتشابكوا ، سوَّلَ

(١) كتبها من مصيفه فى الإسكندرية ، وانظر ص ١٩٩ و ٢١٣ « حياة الرافعى »

لهم الأخرى : أن الشاطئ هو كذلك علاج المَلَل من الفضيلة والدين !

وإن لم يكن اللعينان فهو الرجيمُ الثالث ، ذلك الذى تألَّى أن يُفْسِد الآدابَ الإنسانيةَ كلها بفساد خُلُقٍ واحد ، هو حَياءُ المرأة ؛ فبدأ يكشفُها للرجال من وجهها ، ولكنه استمرَّ يكشف ... وكانت تظنه نَزْعَ حجابِها فإذا هو أولُ عُرْيِها ... وزادت المرأةُ ، ولكن بما زاد فجورَ الرجال ؛ ونقَصتْ ، ولكن بما نَقَصَ فضائلَهم ؛ وتغيرت الدنيا وفَسَدت الطباع ؛ فإذا تلك المرأةُ ممن يُقرُّونها على تَبذّلِها بين رجلين لا ثالثَ لهما : رجلٍ فجَرَ ، ورجل تخنّث ...

* * *

هناك فكرةٌ من شريعة الطبيعة هى عقلُ البحر فى هؤلاء الناس ، وعقلُ هؤلاء الناس فى البحر ؛ إذا أنت اعترضتَها فتبيَّنتها فتعقَّبتَها ، رأيتَها بلاغةً من بلاغة الشيطان فى تزيينه وتَطْويعِه ، وأصبتَ فكرَهُ مستقرا فيها استقرارَ المعنى فى عبارته ، آخذاً بمداخلها ومَخارجها ؛ وما كان الشيطانُ عَييًّا ولا غبيًّا ، بل هو أذكى شعراءِ الكون فى خَياله ، وأبلغُهم فى فطنته ، وأدقُّهم فى منطقه ، وأقدرُهم على الفتنة والسحر ؛ وبتمامه فى هذا كلِّه كان شيطانا لم تَسَعْه الجنةُ إذ ليس فيها النار ، ولم تُرضِه الرحمةُ إذ ليس معها الغضب ، ولم يُعجبه الخضوعُ الملائكى إذ ليس فيه الكِبرياء ، ولم يَخلُص إلى الحقيقة إذ لا تحملُ الحقيقةُ شِعرَ أحلامه .

وما أتى الشيطانُ أحداً ، ولا وسوَس فى قلب ، ولا سَوَّلَ لنفس ، ولا أغوى من يُغويه — إلا بأسلوبٍ شعرىّ مُلتَبِسٍ دقيقٍ ، يجعلُ المرءَ يعتقد أن اطِّراحَ العقلِ ساعةً هو عقلُ الساعة ، ويُفْسِدُ برهانَه مهما كان قويًّا ؛ إذ يرتدُّ به من النفس إلى أخيلةٍ لا تقبلُ البرهانات ، ويَقطعُ حجتَه مهما كانت دامغة ؛ إذ يعترضها بنزعة من النزَعات توجهها كيف دارَ بها الدم لا كيف دار بها المنطق

فكرةٌ من شريعة الطبيعة ، ظاهرُها لِبَعْضِ الأمر من الشمسِ والهواءِ

والبحرِ وما لاأدرى ، وباطنُها لبعض الأمر من فن الشيطان وبلاغتِه وشعرِه وما لاأدرى ؛ وما كانت الشرائعُ الإلهيةُ والوضعيةُ إلا لإقرار العقلِ فى شريعة الطبيعة ،كى تكونَ إنسانيةً لإنسانها كما هى الحيوانيةُ لحيوانها ، وليجدَ الإنسانُ مايحفظُ به نفسه من نفسه التى هى دائما فوضى ، ولا غايةَ لها لولا ذلك العقلُ إلا أن تكون دائما فوضى ...

وبالشرائع والآدابِ استطاع الإنسان أن يضعَ لكلمة الطبيعة النافذةِ عليه جوابا ، وأن يرى فى هذه الطبيعة أثرَ جوابه ؛ فكلمتُها هى : أيها الإنسان ، أنت خاضعٌ لى بالحيوانىّ فيك ! وكلمتُه هو : أيتها الطبيعة ، وأنتِ لى خاضعة بالإلهىّ فىّ !

☆ ☆ ☆

والآن سأقرأ لك القصيدة الفنّيةَ التى نظمها الشيطانُ على رمل الشاطئ فى اسكندرية ؛ وقد نقلتها أُترجمها فصلا بعد فصل عن تلك الأجسام عاريةً وكاسية ، وعن معانيها مكشوفةً ومغطّاة ، وعن طباعها بريئةً ومتهمة ، حتى اتّسقَت الترجمةُ على ماترى :

قال الشيطان :

«ألا إن البهيميةَ والعقلية فى هذا الإنسان ، مجموعُهما شيطانية ...

ألا وإنه ما من شىء جميلٍ أو عظيمٍ إلا وفيه معنى السخرية به .

هنا تتعرّى المرأة من ثوبها ، فتتعرى من فضيلتها .

هنا يخلعُ الرجل ثوبَه ، ثم يعودُ إليه فيلبس فيه الأدبَ الذى خلَعه ...

رؤية الرجلِ لحمَ المرأةِ المحرَّمةِ نظرٌ بالعين والعاطفة :

يَرمى ببصره الجائع كما ينظر الصقرُ إلى لحم الصيد .

ونَظَرُ المرأةِ لحمَ الرجل رؤيةُ فكر فقط ...

تحوِّلُ بصرَها أو تخفِضُه ، وهى من قلبها تنظر ...
يالحومَ البحر ! سلخَك من ثيابك جزّار ...

* * *

« يالحومَ البحر ! سلخكِ جزارٌ من ثيابك ،
جزارٌ لايذبح بألم ولكن بلذّة ...
ولا يَحِزُّ بالسكّين ولكن بالعاطفة ...
ولا يُميت الحىّ إلا موتًا أدبيا ...
إلى الهيجاء يا أبطال مَعركة الرجال والنساء ؛
فهنا تلتحِمُ نواميسُ الطبيعة ونواميسُ الأخلاق .
للطبيعة أسلحةُ العُرْى ، والمخالطة ، والنظر ، والانس ، والتَّضاحُك ، وع المعنى إلى المعنى ؛
وللأخلاقِ المهزومةِ سلاحٌ من الدين قد صَدِئ ، وسلاحٌ من الحياء مكسور !
يالحومَ البحر ! سلخكِ من ثيابك جزار ...

* * *

« الشاطئ كبيرٌ كبير ، يسعُ الآلاف والآلاف ،
ولكنه للرجل والمرأة صغيرٌ صغير ، حتى لايكونَ إلا خَلْوة ...
وتقضِى الفتاةُ سَنتَها تتعلم ، ثم تأتى هنا تتذكر جهلَها وتعرفُ ماهو ...
وتمضى المرأةُ عامَها كريمة ، ثم تجىء لتجدَ هنا مادةَ اللؤم الطبيعى ...
لو كانت حَجَّاجةً صَوَّامَةً ، للعنتْها الكعبةُ لوجودها فى « استانلى » .
الفتاة ترى فى الرجال العُرْيانين أشباحَ أحلامِها ، وهذا معنى من السقوط ؛
والمرأة تُسارِقُهم النظَرَ تنويعًا لرجُلِها الواحد ، وهذا معنى من المَواخِير ...
أين تكونُ النيةُ الصالحة لفتاةٍ أو امرأةٍ بين رجالٍ عريانين ؟
يالحومَ البحر ! سلخكِ من ثيابك جزار ...

✡ ✡ ✡

«هناك التربية ، وهنا إعلانُ الاغفال والطّيش ،
وهناك الدين ، وهنا أسبابُ الإغراء والزّلل ؛
هناك تكلُّف الأخلاق ، وهنا طبيعةُ الحرية منها ؛
وهناك العزيمةُ بالقهر يوما بعد يوم ، وهنا إفسادها بالترخص يوما بعد يوم
والبحرُ يعلِّم اللائى والذين يسبحون فيه كيف يغرقون فى البر . . .
لو درى هؤلاءِ وهؤلاءِ مَعرَّةَ اغتسالِهم معًا فى البحر ، لاغتسلوا من البحر ؛
فقطرةُ الماء التى نجَّستْها الشهواتُ قد انسكبتْ فى دمائهم ،
وذرَّةُ الرملِ النَّجِسةُ فى الشاطئ ، ستكبَرُ حتى تصيرَ بيتا نَجِسا لأب وأم . . .
ياحومَ البحر ! ساخِلك من ثيابك جزار . . .

✡ ✡ ✡

« يجيئون للشمس التى تَقْوَى بها صفاتُ الجسم ؛
ليجدَ كلٌّ من الجنسين شمسَه التى تضعُفُ بها صفاتُ القلب .
يجيئون للهواء الذى تتجدَّد به عناصرُ الدم ؛
ليجدوا الهواء الآخرَ الذى تفسُدُ به معانى الدم .
يجيئون للبحر الذى يأخذون منه القوة والعافية ؛
ليأخذوا عنه أيضا شريعتَه الطبيعية : سمكةٌ تطارِدُ سمكة . . .
ويقولون : ليس على المُصيِّفِ حَرَج ؛
أى لأنه أعمَى الأدب ، وليس على الأعمى حَرَج .
ياحومَ البحر ! ساخِلك من ثيابك جزار . . .

✡ ✡ ✡

« المدارس ، والمساجد ، والبِيَعُ ، والكنائس ، ووزارة الداخلية ؛

هذه كلُّها لن تهزمَ الشاطئ .

فأمواجُ النفسِ البشرية كأمواج البحرِ الصاخب : تنهزمُ أبدا لترجعَ أبداً .

لايهزم الشاطئَ إلا ذلك « الجامعُ الأزهر » لولم يكن قد مُسِخ مدرسة !

فصرخةٌ واحدةٌ من قلب الأزهر القديم ، تجعل هديرَ البحر كأنه تسبيح ،

وتردُّ الأمواجَ نقيةً بيضاء (*) ، كأنها عمائم العلماء ،

وتأتى إلى البحر بأعمدة الأزهر للفصلِ بين الرجال والنساء .

ولكنى أرى زمنا قد نَقَل حتى إلى المدارس رُوح « الكازينو » ... !

يالحوم البحر ! سلخك من ثيابك جزار ... !

* * *

« هنا على رغم الآداب ، مملكةٌ للصيف والقَيْظ ، سلطانها الجسمُ المؤنث العارى .

أجسامٌ تَعرِضُ مَفاتِنَها عَرض البضائع ؛ فالشاطئ حانوتُ الزواج !

وأجسامٌ تَعرض أوضاعَها كأنها فى غُرفةِ نومها لا فى الشاطئ ...

وأجسامٌ جالسةٌ لغيرها ، تُحيط بها معانيها ملتمِسةً معانيه ؛ فالشاطئ سوقٌ للرقيق ...

وأجسامٌ خَفِرةٌ جالسةٌ للشمس والهواء ؛ فالشاطئ كدار الكفرِ لمن أُكْرِهَ (**)

(*) يرى بعضهم أن مثل هذا الوصف خطأ ، وأن الصواب أن يقال « بيض » ، ولسنا من هذا الرأى ، وقد غلط فيه المبرد ومن تابعوه ، لغفلتهم عن السر فى بلاغة الاستعمال مرة فى الوصف بالمفرد ، ومرة فى الوصف بالجمع .

[قلت : وأحسبه يعنى ببعض ماسبق الأب أنستاس مارى الكرملى ؛ فقد كان بينهما حديث ورسائل حول صحة هذا التعبير]

(**) إشارة إلى الآية الكريمة : « ... إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان . »

وأجسام عليلة تَقْتَحِمُها الأعينُ فتزدريها، لأنها جَعلتِ الشاطئ مستشفى ... !
وأجسام خليعة أضافت « من استانلى » وأخَواتها - إلى منارة اسكندرية ، ومكتبة اسكندرية — مَزْبَلَة اسكندرية ...

كان جدالُ المسلمين فى السُّفور ، فأصبح الآن فى العُرْى .

فإذا تطوَّر ، فماذا بقى من تقاليد أوربا إلا الجدالُ فى شرعية جمعِ المرأة بين الزوج وشِبْه الزوج (*) ؟ »

* * *

انتهى مااستطعتُ ترجمته ، بعد الرجوع فى مواضع من القصيدة إلى بعض القواميس الحيّة ... إلى بعض شبان الشاطئ !

احــــذرى ... ! (١)

« قصيدة مترجمة عن الملَك »

ترجَمْنا عن الشيطان قصيدةَ (لحوم البحر) ، وهذه ترجمةٌ عن أحد الملائكة ؛ رآنى جالسا تحت الليل وقد أجمْعتُ أن أَضَع كلمةً للمرأة الشرقية فيما تُحَاذِرُ

(*) يسمى هذا فى اللغة : الضمد (بفتح الضاد والميم) ، وهوأن يخال الرجل المرأة ولها زوج ، ومنه قول الشاعر :

تريدين كيما تضمدينى وخالداً وهل يجمع السيفان ويحك فى غمد !

ومن هذا يقال فى الرجل : ذاق الضماد (بكسر الضاد) أى ذاق الطعم الذى وصفه أناتول فرانس ......

(١) انظر ص ٢١٣ « حياة الرافعى »

أو تَتَوَجّسُ منه الشرَّ ؛ فتَخايَلَ المَلَكُ بأضوائه فى الضوء ، وَسَنَحَ لى بِرُوحه ، وبَثَّ فىَّ من سرِّه الإلهى ؛ فجعلتُ أنظرُ فى قلبى إلى فجرٍ من هـذا الشعر يَنبُعُ كلمةً كلمة ، ويُشرِقُ معنًى معنًى ، ويَستطيرُ جملةً جملة ، حتى اجتمعت القصيدة وكأنما سافرتُ فى حُلُمٍ من الأحلام فجئت بها .

وانطلق ذلك المَلَك وتَركها فى يدى لُغَـةً من طهارته للمرأة الشرقية فى ملائكيتها :

* * *

احذرى . . . !

« احذرى أيتُها الشرقيـةُ وبالغى فى الحذر ، واجعلى أخصَّ طباعِك الحذَرَ وحدَه .

احذرى تمدُّنَ أوربا أن يجعلَ فضيلَتَكِ ثوبا يُوَسَّعُ ويُضَيَّق ؛ فلُبْسُ الفضيلةِ على ذلك هو لُبْسُها وخَلْعُها . . .

احذرى فنَّهم الاجتماعىَّ الخبيثَ الذى يَفرِضُ على النساء فى مجالس الرجالِ أن تؤدِّىَ أجسامُهُنَّ ضريبةَ الفن . . .

احذرى تلك الأنوثةَ الاجتماعيةَ الظريفة ؛ إنها انتهاءُ المرأة بغاية الظَّرفِ والرقة إلى . . . إلى الفضيحة .

احذرى تلك النسائيةَ (*) الغَزَلِيَّة ؛ إنها فى جملتِها تَرخيصٌ اجتماعىٌّ للحُرَّة أن . . . أن تُشارِكَ البَغىَّ فى نصف عملها .

أيتُها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

(*) نحن نستعمل : النسائية ، والنسوية ؛ وكلاهما عندنا صحيح ، والاختيار فى كل موضع للأفصح فى موقعه .

« احذرى التمدنَ الذى اخترع لقتل لَقَبِ الزوجةِ المقدَّس ، لقبَ « المرأة الثانية » ...

واخترع لقتل لقبِ العذراءِ المقدَّس ، لقبَ « نصف عذراء » ...

واخترع لقتل دِينيَّةِ معانى المرأة ، كلمةَ « الأدب المكشوف » ...

وانتهى إلى اختراع السُّرعة فى الحب ... فاكتفى الرجلُ بزوجةِ ساعة ...

وإلى اختراع استقلالِ المرأة ، فجاء بالذى اسمُهُ (الأبُ) من الشارع ، لتُلقِيَ بالذى اسمُهُ (الابنُ) إلى الشارع ...

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

« احذرى وأنت النَّجْمُ الذى أضاء منذُ النبوَّة ، أن تقلِّدى هذه الشمعةَ التى أضاءَتْ منذُ قليل .

إن المرأةَ الشرقيةَ هى استمرارٌ متصلٌ لآدابِ دينِها الإنسانىِّ العظيم هى دائمًا شديدةُ الحفاظ حارِسَة لحوْزَتِها ؛ فإن قانونَ حياتها دائمًا هو قانونُ الأمومة المقدَّس .

هى الطُّهر والعفة ، هى الوفاء والأنفة هى الصبرُ والعزيمة ، هى كلُّ فضائل الأُمّ .

فما هو طريقُها الجديدُ فى الحياة الفاضلة ، إلا طريقها القديم بعينه ؟

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

« احذرى (ويحكِ) تقليدَ الأوربية التى تعيشُ فى دنيا أعصابِها محكومةً بقانونِ أحلامها ...

لم تَعُدْ أنوثتُها حالةً طبيعيَّةً نفسيَّةً فقط ، بل حالةً عقليَّةً أيضًا تَشُكُّ وتُجادِل ..

أنوثةٌ تفَلْسَفَتْ فرأت الزواجَ نصفَ الكلمةِ فقط ... والأُمّ نصفَ المرأة فقط . . .

وياويلَ المرأةِ حين تنفجرُ أنوثتُها بالمبالغةِ العقلية ، فتنفجرُ بالدواهى على الفضيلة ...

إنها بذلك حُرّةٌ مساويةٌ للرجل ، ولكنها بذلك ليست الأنثى المحدودة بفضيلتها...

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

« احذرى خَجَلَ الأوربية المترجِّلةِ من الإقرار بأُنوثتها .

إن خَجَلَ الأنثى من أنها أنثى يجعلُ فضيلتَها تخجلُ منها ...

إنه يُسقِط حياءَها ويكسو معانيَها رُجولةً غيرَ طبيعيَّة

إن هذه الأنثى المترجّلةَ تنظر إلى الرجل نظرةَ رجلٍ إلى أنثى . . .

والمرأةُ تعلو بالزواج درجةً إنسانيَّة ، ولكن هذه المكذوبةَ تنحطُّ درجة إنسانيةً بالزواج .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

« احذرى تَهَوُّسَ الأوربية فى طلب المساواة بالرجل .

لقد ساوتْهُ فى الذهابِ إلى الحلاّق ، ولكن الحلاّق لم يجد فى وجهها اللِّحْية ...

إنها خُلقت لتَحْبيبِ الدنيا إلى الرجل ، فكانت بمساواتها مادّةَ تبغيض .

العجيبُ أن سرَّ الحياة يأبى أبداً أن تَتَساوى المرأةُ بالرجلِ إلا إذا خَسِرَتْه !

والأعجبُ أنها حين تخضع ، يرفعُها هذا السرُّ ذاتُه عن المساواة بالرجل إلى السِّيادة عليه .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

٭ ٭ ٭

«احذرى أن تخسرى الطباعَ التى هى الأليقُ بأُمٍّ أنجبت الأنبياءَ فى الشرق

أُمٌّ عليها طابَعُ النفسِ الجليلة ، تَنْشُرُ فى كل موضعٍ جَوَّ نفسِها العالية .

فلو صارت الحياةُ غَيمًا ورَعداً وبَرْقًا ، لكانت هى فيها الشمسَ الطالعة

ولو صارت الحياةُ قَيظًا وحَروراً واختِناقًا ، لكانت هى فيها النسيمَ يتخطَّر

أُمٌّ لاتُبالى إلا أخلاقَ البطولةِ وعزائمَها ، لأن جَدَّاتِها وَلَدْنَ الأبطال

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

٭ ٭ ٭

« احذرى هؤلاء الشبَّانَ المتمدنين بأكثرَ من التمدن ...

يُبالغُ الخبيثُ فى زينته ، وما يدرى أن زينتَه مُعْلِنةٌ أنه إنسانٌ من الظاهر ...

ويبالغُ فى عَرْض رُجولتِه على الفَتيات ، يحاولُ إيقاظَ المرأةِ الراقدةِ فى العذراءِ المسكينة !

ليس لامرأة فاضلةٍ إلا رَجُلُها الواحد ؛ فالرجالُ جميعاهم مصائبُها إلا واحداً .

وإذا هى خالطتِ الرجال ، فالطبيعىّ أنها تُخالطُ شَهَوات ، ويجب أن تحذَرَ وتُبالغ .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

٭ ٭ ٭

« احذرى ؛ فإن فى كل امرأة طبائعَ شريفةً مُتَهوِّرة ؛ وفى الرجالِ طبائعُ خسيسةٌ متهوِّرة .

وحقيقةُ الحجاب أنه الفصلُ بين الشرفِ فيه الميلُ إلى النزول ، وبين الخِسَّةِ فيها الميلُ إلى الصُّعود .

فيكِ طبائعُ الحبِّ، والحنان، والإيثار، والإخلاص؛ كلما كَبُرَتِ كَبُرَتْ.
طبائعُ خَطِرة، إن عملت فى غير موضعها ... جاءت بعكسِ ماتعمله فى موضعها.
فيها كلُّ الشرفِ مالم تنخدعْ، فإذا انخدعت فليس فيها إلا كلُّ العار.
أيتها الشرقية! احذرى احذرى!

* * *

« احذرى كلمةً شيطانيةً تسمعينها، هى: فنِّيَةُ الجمال، أو فنِّيَةُ الأنوثة.
وافهميها أنتِ هكذا: واجباتُ الأنوثة، وواجباتُ الجمال.
بكلمةٍ يكون الإحساس فاسداً، وبكلمةٍ يكون شريفا.
ولا يَتَسَقَّطُ الرجلُ امرأةً إلا فى كلماتٍ مُزَيَّنَةٍ مثلِها ......
يجب أن تَتَسَلَّح المرأةُ مع نظراتها، بنظرةِ غضَب ونظرةِ احتقار.
أيتها الشرقية! احذرى احذرى!

* * *

« احذرى أن تُخْدَعى عن نفسك؛ إن المرأةَ أشدُّ افتقاراً إلى الشرف منها إلى الحياة.
إن الكلمةَ الخادعة إذ تقالُ لك، هى أُختُ الكلمةِ التى تقالُ ساعةَ إنفاذِ الحكم المحكومِ عليه بالشَّنْق ...
يَغْتَرُّونَكِ بكلماتِ الحب والزواج والمال، كما يقالُ للصاعِد إلى الشنَّاقة (*): ماذا تشتهى؟ ماذا تريد؟

(*) كلمة « المشنقة » ليست عربية، ولكن لها وجها فى الاشتقاق، غير أن كسرة ميمها تجعلها ثقيلة، وكان اسمها قديماً « الشناقة »، ذكرها ياقوت فى معجم الأدباء، وهى أفصح وأخف، فلعل الشناقة بعد هذا تشنق المشنقة ...

الحب ؟ الزواج ؟ المال ؟ هـذه صَلاةُ الثعلب حين يَتظاهرُ بالتقوى أمام الدّجاجة ...

الحب ؟ الزواج ؟ المال ؟ يالحمَ الدّجاجة ! بعضُ كلماتِ الثعلب هى أنيابُ الثعلب ...

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

« احذرى السقوط ؛ إن سقوطَ المرأة لهِوْلِه وشدّتِه ثلاثُ مَصائبَ فى مصيبة : سقوطُها هى ، وسقوطُ من أوجدوها ، وسقوطُ من تُوجِدهم !

نَوائبُ الأُسرةِ كلّها قد يَسْتُرها البيتُ ، إلا عارَ المرأة ؛

فَيدُ العار تَقْلِبُ الحِيطانَ كما تقلبُ اليدُ الثوبَ فتجعلُ مالا يُرَى هو ما يُرى .

والعارُ حكمٌ يُنفِّذُه المجتمعُ كُلُّه ، فهو نَفْيٌ من الاحترام الإنسانى .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

« لوكان العارُ فى بئرٍ عميقةٍ لقلبَها الشيطانُ مِئْذَنةً ووقفَ يُؤذّنُ عليها .

يفرَحُ اللعينُ بفضيحة المرأة خاصّةً ، كما يفرحُ أبٌ غنِّىٌ بمولود جديد فى بيته ...

واللّص ، والقاتلُ ، والسكّير ، والفاسق ؛ كلٌ هؤلاء على ظاهر الانسانية كالحرِّ والبرد ،

أما المرأةُ حين تسقط ، فهذه من تحت الإنسانية هى الزّلزلة .

ليس أفظعُ من الزّلزلةِ المُرْتجّةِ تَشُقُّ الأرض ، إلا عارَ المرأةِ حين يشقُّ الأسْرَة .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى ! »

الجمال البائس [1]

« وكيف يُشعَبُ صَدْعُ الحبِّ في كَبِدي » كيف يُشعبُ صدعُ الحب ؟ لَعَمْري ما رأيتُ الجمالَ مرةً إلا كان عندي هو الألمَ في أجمل صُوَرِه وأبدعِها ؛ أتُراني مخلوقا بجُرْح في القلب ؟

ولا تكونُ المرأةُ جميلة في عينيّ ، إلا إذا أحسستُ حين أنظرُ إليها أن في نفسي شيئا قد عرفها ، وأن في عينيها لحظات موجَّهةً إليّ ، وإن لم تنظر هي إليّ

فإثباتُ الجمالِ نفسَه لعيني ، أن يُثْبِتَ صداقتَه لروحي باللَّمْحة التي تدلّ وتتكلم ؛ تدلُّ نفسي ، وتتكلم في قلبي !

* * *

كنت أجلس في (اسكندرية) بين الضُّحى والظهرِ ، في مكان على شاطئ البحر ، ومعي صديقي الأستاذ (ح) [2] من أفاضل رجال السلك السياسي ، وهو كاتبٌ من ذوي الرأي ، له أدبٌ غَضٌّ ونوادرُ وظرائف ؛ وفي قلبه إيمانٌ لا أعرف مثله في مثله ، قد بلغ ماشاء اللهُ قوة وتمكُّنا ، حتى لأحسبُ أنه رجلٌ من أولياء الله قد عُوقب فحُكم عليه أن يكونَ محاميا ؛ ثم زيد في الحكم فجُعل قاضيا ، ثم ضُوعفت العقوبة فجُعل سياسيًّا . . .

وهذا المكان ينقلب في الليل مَسْرحا ومَرقَصا وما بينهما ... فيتَغَاوَى

---

(١) انظر قصة صاحبة الجمال البائس ص ٢٢٩ - ٢٣٥ « حياة الرافعي » وقد كان له ولها شأن تعرف تفصيله ثمة

(٢) الأستاذ حافظ عامر بك

فيه الجمال والحب، ويَعرِضُ الشيطانُ مصنوعاتِه فى الهزْل والرقص والغناء(*) فإذا دخلتَه فى النهار رأيتَ نورَ النهار كأنه يَغسلُه ويغسلُك معه ، فتُحسُّ للنور هناك عملًا فى نفسك .

ويُرَى المكانُ صَدْراً من النهار كأنه نائم بعد سهرَ الليل . فما تجيئه من ساعةٍ بين الصبح والظهر إلا وجدتَه ساكناً هادئا كالجسم المستثْقِل نوما ؛ ولهذا كنتُ كثيراً ما أكتب فيه ، بل لا أذهبُ إليه إلا للكتابة

فإذا كان الظهرُ أقبل نساءُ المسرح ومعهن من يُطارِحُهن الأناشيدَ وألحانَها ومن يثقِّفهن فى الرقص ، ومن يُرَوِّيهنَّ ما يُمثّلْنَ ، إلى غير ذلك مما ابتلتهنَّ به الحياة لتُساقِطَ عليهن الليالىَ بالموت ليلةً بعد ليلة .

وكنَّ إذا جئنَ رأينَنى على تلك الحالِ من الكتابة والتفكير ، فينصرفْنَ إلى شأنِهن ، إلا واحدةً كانت أجملَهن(١) ؛ وأكثر هؤلاء المسكيناتِ يظهَرْنَ لعين المتأمل كأن المرأةَ منهن مثلُ العَنْزِ التى كُسر أحدُ قرنيها ، فهى تحمل على رأسها علامةَ الضعف والذلةِ والنقص، ولو أن امرأةً تتبدَّدُ حينا فلا تكونُ شيئًا ، وتجتمعُ حينًا فتكونُ مرة شيئًا مقلوبًا ، وأخرى شكلا ناقصا ، وتارةً هيئة مُشوَّهة ؛ لكانت هى كلَّ امرأة من هؤلاء المسكينات اللواتى يمشينَ فى المسرَّات إلى المخاوف ، ويعشْنَ ولكن بمقدَّمات الموت ، ويجدْنَ فى المال معنى الفقر ، ويتلقَّينَ الكرامةَ فيها الاستهزاء ، ثم لا يعرفن شابًّا ولا رجلا إلا وقعت عليهنَّ من أجله لعنةُ أب أو أمٍ أو زوجة .

* * *

(*) انظر مقالة (لو ...) فى الجزء الثانى ، فقد كتبت عن هذا المسرح بعينه .
[قلت : يعنى المسرح الصيفى للراقصة بيا !]

(١) يعنى راقصة هناك اسمها بنوتشيا

وتلك الواحدةُ التى أومأتُ إليها كانت حزينةً مُتَسَلِّبةً (*) فكأنما جذبها حزنُها إلىّ ، وكانت مفكِّرة فكأنما هداها إلىّ فكرُها ، وكانت جميلةً فدلَّها علىّ الحب ، وما أدرى والله أىُّ نفسَيْنا بدأتْ فقالت للأخرى أهلًا ...

ورأيتُها لاتصرِفُ نظرَها عنى إلا لتردَّه إلىّ ، ولا تردُّه إلا لتصرفَه ؛ ثم رأيتُها قد جال بها الغزَلُ جَوْلةً فى معركته ... فتشاغلتُ عنها لاأُريها أنى أنا الخصْمُ الآخرُ فى المعركة ...

بَيْدَ أنى جعلتُ آخذُها فى مَطارحِ النظر ، وأتأملُها خُلْسةً بعد خُلسةٍ فى ثوبها الحريرىّ الأسود ، فإذا هو يَشُبُّ لونَها (**) فيجعلُه يتلألأ ، ويُظهِرُ وجهَها بلون البدر فى تِمِّه ، ويُبديه لعينىّ أرقَّ من الورد تحت نور الفجر .

ورأيتُ لها وجها فيه المرأةُ كلُّها باختصار ، يُشرِقُ على جسمٍ بَضٍّ أَلْيَنَ من خَمْلِ النَّعام ، تعْرِضُ فيه الأنوثة فنَّها الكامل ؛ فلو خُلِقَ الدلالُ امرأةً لكانَتْها وتلوحُ للرائى من بعيدٍ كأنها وَضَعت فى فمها (زِرَّ وَرْدٍ) أحمرَ مُنْضَمًّا على نفسه : شفتان تكادُ ابتسامتُهما تكون نداءً لشفَتَىْ مُحِبٍّ ظمآن ... !

أما عيناها فما رأيتُ مثلَهما عينَىِ امرأةٍ ولا ظَبْيةٍ ؛ سوادُهما أشدُّ سوادا من عيون الظِّباء ؛ وقد خُلِقَتا فى هيئةٍ تُثبت وجودَ السِّحرِ وفِعْلَه فى النفس؛ فيهما القوةُ الواثقةُ أنها النافذةُ الأمر ، يُمازِجُها حنانٌ أكثرُ مما فى صدر أُمٍّ على طفلها ؛ وتمامُ الملاحةِ أنهما هما ، بهذا التكحيل ، فى هذه الهيئة ، فى هذا الوجهِ القمَرىّ !

ياخالقَ هاتينِ العينين ! سُبْحانَك سبحانك !

✲ ✲ ✲

(*) يقال : تسلبت المرأة . إذا أحدّت ، أى لبست ثياب الحداد .

(**) يزيده ويظهره ويجعله أحفل بالجمال .

قال الراوى :

وأتغافلُ عنها أياما ؛ وطال ذلك منى وشَقَّ عليها ، وكأنى صَغّرتُ إليها نفسَها وأرهقتُها بمعنى الخضوع ، بَيْدَ أن كبرياءها التى أبَتْ لهـا أن تُقدِم ، أبتْ عليها كذلك أن تنهزم .

وأنا على كل أحوالى إنما أنظر إلى الجمال كما أستَنْشِى العِطرَ يكون متَضوِّعًا فى الهواء : لا أنا أستطيعُ أن أمَسَّه ولا أحدٌ يستطيع أن يقولَ أخذْتَ منى ؛ ثم لا تدفعُنى إليـه إلا فِطرة الشعرِ والإحساسِ الرُّوحانىّ ، دون فطرةِ الشرِّ والحيوانية (*) ومتى أحسستُ جمالَ المرأة أحسستُ فيه بمعنًى أكبرَ من المرأة ؛ أكبرَ منها ، غيرَ أنه هو منها .

قال الراوى :

فإنى لجالِسٌ ذاتَ يومٍ وقد أقبلتُ على شأنى من الكتابة ، وبإزائى فتًى رَيّقُ الشبابِ ، فى العُمرِ الذى ترى فيه الأعينُ بالحماسةِ والعاطفةِ ، أكثرَ مما ترى بالعقل والبَصيرة ، ناعمٌ أمْلَدُ تمّ شبابُه ولم تَتِمّ قوتُه ، كأنما نَكَصَتِ الرجولةُ عنه إذ وافتْه فلم تجِدْه رجلا ... أو تلك هى شيمةُ أهل الظَّرفِ والقَصْفِ من شبان اليوم : ترى الواحدَ منهم فتعرفُ النُّضجَ فى ثيابه أكثرَ مما تعرفه فى جسمه ، وتأبَى الطبيعةُ عليه أن يكونَ أنثى ، فيجاهِدُ ليكونَ ضَرْبًا من الأنثى ... ! إنى لجالِسٌ إذ وافتِ الحسناءُ فأومأَتْ إلى الفتى بتحيتها ، ثم ذهبتْ فاعتَلَتْ المِنَصّةَ مع الباقيات ، ورقصتْ فأحسنتْ ماشاءت ، وكأن فى رقصها تعبيراً عن أهواءٍ ونزَعاتٍ تريدُ إثارَتَها فى رجلٍ ما ... فقلتُ لصاحبنا الأستاذ (ح) : إن كلمة الرقص إنما هى استعارةٌ على مثل هذا ، كما

(*) بسطنا هـذا المعنى فى المقدمة الثانية لكتابنا « أوراق الورد » وفى مواضع كثيرة من هذا الكتاب . فلم نتوسع فيه هنا

يستَعِرْنَ كلمةَ الحب لجمع المـال ؛ ولا رقص ولا حبَّ إلا فُجورٌ وطمع .

ثم إنها فرغت من شأنها فمرَّتْ تتهادَى حتى جاءت فجلستْ إلى الفتى ...

فقال الأستاذ (ح) وكان قد ألمَّ بما في نفسها : أتُراها جعلته ههنا مَحَطَّة ... ؟

قال الراوي : أما أنا فقلتُ في نفسي : لقد جاء الموضوع ... وإني لفي حاجةٍ أشدِّ الحاجةِ إلى مقالةٍ من المكْحولات ، فتفرَّغتُ لها أنظرُ ماذا تصنع ، وأنا أعلم أن مثلَ هذه قليلاً مايكونُ لها فكرٌ أو فلسفة ؛ غير أن الفكر والفلسفةَ والمعاني كلها تكون في نظرها وابتساماتِها وعلى جسمها كله .

✡ ✡ ✡

وكان فتاها قد وَضَعَ طربوشه على يده ؛ فقد انتهينا إلى عهدٍ رَجَعَ حكمُ الطربوشِ فيه على رأس الشاب الجميل ، كحكم البرقع على وجه الفتاة الجميلة ... فأسفر ذاك من طربوشه ، وأسفرتْ هذه من نِقابها — قال الراوي : فما جلستْ إلى الفتى حتى أدْنتْ رأسَها من الطربوش ، فاستنامَتْ إليه ، فألصقت به خدَّها ..

ثم التفتتْ إلينا التفاتةَ الخِشْفِ المذعورِ استَرْوَحَ السَّبُعَ (*) ووجدَ مقدَّماتِهِ في الهواء ، ثم أرْخت عينيها في حياء لا يَسْتَحِي ...

وأنشأتْ تتكلمُ وهي في ذلك تُسارِقُنا النظرَ ، كأن في ناحيتنا بعضَ معاني كلامها ...

ثم لا أدري ما الذي تَضاحَكَتْ له ، غير أن ضحكتها انشقَّتْ نصفين ، رأينا نحن أجملَهما في ثغرِها ...

ثم تزعزعتْ في كرسيِّها كأنما تَهُمُّ أن تنقلبَ ، لتمتدَّ إليها يدٌ فتُمْسِكها أن تنقلب ...

(*) الخشف : ولد الغزال ، يطلق على الذكر والأنثى . واستروح السبع : أي وجد ريحه في الهواء قبل أن يراه ، وكذلك طبيعة الحيوان .

ثم تساندت على نفسها ، كالمريضة الناعمة تتناهض من فراشها ، فيكاد يئن بعضها من بعضها ، وقامت فمشت ، فحاذتنا وتجاوزتنا غير بعيد ، ثم رجعت إلى موضعها متكسرة متخاذلة كأن فيها قوة تعلن أنها انتهت . . .

* * *

قال الراوى :

ونظرت إليها نظرة حزن ؛ فتغضبت واغتاظت ، وشاجرت هذه النظرة من عينيها الدعجاوين بنظرات متهكمة ، لاأدرى أهى توبخنا بها ، أم تتهمنا بأننا أخذنا من حسنها مجاناً . . . ؟

فقلت للأستاذ (ح) ، وأنا أجهر بالكلام ليبلغها :

أما ترى أن الدنيا قد انتكست فى انتكاسها ، وأن الدهر قد فسد فى فساده ، وأن البلاء قد ضوعف على الناس ، وأن بقية من الخير كانت فى الشر القديم فانتزعت ؟

قال : وهل كان فى الشر القديم بقية خير وليس مثلها فى الشر الحديث ؟

قلت : ههنا فى المسرح قيان لو كانت إحداهن . . . فى الزمن القديم ، لتنافس فى شرائها الملوك والأمراء وسراة الناس وأعيانهم ، فكان لها فى عهارة الزمن صون وكرامة ، وتتقلب فى القصور فتجعل لها القصور حرمة تمنعها ابتذال فنها لكل من يدفع خمسة قروش ، حتى لرذال الناس وغوغائهم وسفلتهم ؛ ثم هى حين يدبر شبابها تكون فى دار مولاها حميلة على كرم يحملها ، وعلى مروءة تعيش بها .

وقديماً أخذت سلامة الزرقاء فى قبلتها لؤلؤتين بأربعين ألف درهم ، تبلغ ألفى جنيه . فهل تأخذ القينة من هؤلاء إلا دخينة (*) بمليمين ... ؟

قال الأستاذ (ح) : ماأبعدك ياأخى عن (بورصة) القبلة وأسعارها ... !

(*) الدخينة : وضعناها للسيجارة ، وجمعها الدخائن .

ولكن ماخبرُ اللؤلؤتين ؟

قال الراوى :

كانت سَلَّامةُ هذه جاريةً لابن رَامين (*) ، وكانت من الجمال بحيث قيل فى وصفها : كأن الشمسَ طالعةٌ من بين رأسِها وكتفَيها ؛ فاستأذن عليها فى مجلس غِنائها الصَّيرفىُّ الملقَّب بالماجن ، فلما أذِنتْ له دخل فأَقْعَى بين يديها ، ثم أدخل يدَه فى ثوبه فأخرَج لؤلؤتين ، وقال : انظرى يازرقاءُ ، جُعِلتُ فِدَاك ! ثم حلَفَ أنه نَقدَ فيهما بالأمسِ أربعين ألف درهم . قالت : فما أصنعُ بذاك ؟ قال : أردتُ أن تعلمى ...

ثم غنَّت صوتاً وقالت : ياماجنُ هبْهما لى ويحك . قال : إن شئتِ والله فعلتُ . قالت : قد شئت . قال : واليمينُ التى حلَفتُ بها لازمةٌ لى إنْ أخذتِهما إلا بشفتيكِ من شفتىَّ ......

٭ ٭ ٭

قال الراوى :

ورأيتُها قد أذِنَتْ لى وأنصتتْ لكلامى ، وكأنما كانت تسمعُنى أعتذِرُ إليها ، واستيقنَتْ أنْ ليس بى إلا الحزنُ عليها والرِثاءُ لها ، فبدَتْ أشدَّ حياءً من العذراء فى أيام الخِدْر ......

ثم قلتُ : نعم كان ذلك الزمنُ سفيهاً ، ولكنها سفاهةُ فنّ ... لاسفاهةُ عَرْبدَةٍ وتَصَعْلُكٍ كما هى اليوم .

(*) سلامة هذه اشتراها جعفر بن سليمان بثمانين ألف درهم (٤٠٠٠ جنيه) ، كما اشترى جارية أخرى يقال لها ربيحة ، بمائة ألف درهم .

[قلت : وانظر تمام قصة سلامة هذه فيما حكى عنها المؤلف فى قصة « سمو الحب » ص ٩٨ من هذا الكتاب]

فنظرتْ إليَّ نظرةً لن أنساها، نظرةً كأنها تَدْمَع ، نظرةً تقول بها : ألستُ إنسانة ؟ فلم أملك أن قلتُ لها : تَعالَى تعالَىْ !

وجاءت أحلى من الأمل المعترِض سَنَحَتْ به الفُرصة ، ولكن ماذا قلتُ لها وماذا قالت ؟ ...

الجمال البائس

٢

جاءتْ أحلَى من الأمل المعترض سَنَحَتْ به فُرصة ؛ وعلى أنها لم تَخْطُ إلينا إلا خَطْوةً وتمامَها ، فقد كانت تَجِدُ في نفسها ماتجدُه لوأنها سافرتْ من أرضٍ إلى أرضٍ ، ونقلها البُعْدُ النازِحُ من أُمَّةٍ إلى أمة .

ياعجباً ! إن جلوسَ إنسانٍ إلى إنسانٍ بإزائه ، قد يكون أحيانا سفراً طويلا في عالَمِ النفس ؛ فهذه الحسناءُ تعيشُ في دنيا فارغةٍ من خِلالٍ كثيرة : كالتقوى ، والحياءِ ، والكرامة ، وسموِّ الروح ، وغيرِها ؛ فإذا عَرَضَ لها من يُشعِرُها بعضَ هذه الخلال ، ويَنْتَزِعُها من دنيا اضطرارِها وأخلاقِ عيشها ولو ساعةً — فما تكونُ قد وَجدتْ شخصا ، بل كشَفَتْ عالَمًا تَدْخُلُه بنفسٍ غيرِ النفسِ التي تُدَبِّرُها في عالَمِ رزقِها ...

ولا أعجَبَ من سحر الحب في هذا المعنى ؛ فإن العاشقَ ليَكونُ حبيبُه إلى جانبه ، ثم لايُحسُّ إلا أنه طَوَى الأرضَ والسمواتِ ودخلَ جنةَ الخُلد في قُبلة ...

* * *

جلستْ إلينا كما تجلسُ المرأةُ الكريمةُ الخَفِرَة : تُعطيك وجهَها وتبتعدُ عنك بسائرها ، وتُريك الغُصْنَ وتخبأُ عنك أزهارَه . فرأيناها لم تستقبل الرجلَ منا بالأُنثى منها كما اعتادت ؛ بل استقبلتْ واجبا برِعاية ، وتلطّفا بحَنَان ، وأدبا من فنّ بأدبٍ من فن آخر ؛ وكان هذا عجيبا منها ، فكلّمها فى ذلك الأستاذ (ح) فقالت : أمّا واحدةٌ فإننا نتّبِعُ دائما محبّةَ من نجالِسُهم ، وهذه هى القاعدة ؛ وأما الثانيةُ ، فإننا لانجِدُ الرجلَ إلا فى النَّدْرة ؛ وإنما نحن مع هؤلاء الذين يَتَسَوَّمونَ بسيما الرجال ، كحِيلة المحتالِ على غَفْلة المغفّل ؛ وهم معنا كالقُدرةِ بالثمنِ على مايشتريه الثمن : ليسوا علينا إلا قَهْراً من القهر ؛ ولسنا عليهم إلا سلْبا من السَّلب ، مادةٌ مع مادةٌ ، وشرٌّ على شر ؛ أما الإنسانيةُ منا ومنهم فقد ذهَبَتْ أو هى ذاهبة .

قال (ح) : ولـكن ...

فلم تدعه يَستَدْرِك ، بل قالت : إنّ « لـكن » هـذه غائبةٌ الآن ... فلا تجىء فى كلامنا . أتريد دليلاً على هـذا الانقلاب ؟ إن كل إنسانٍ يعلم أن الخطّ المستقيمَ هو أقربُ مَسافةٍ بين نُقطتين ؛ ولـكنّ كلَّ امرأةٍ منا تعلم أن الخطّ المعْوَجّ هو وحدَه أقربُ مسافةٍ بينها وبين الرجل ... !

قالت : فاذا وجَدتْ إحدانا رجلا بأخلاقِه لا بأخلاقها ... ردَّتْها أخلاقه إلى المرأةِ التى كانت فيها من قبل ، وزادتها طبيعتُها الزَّهْوَ بهذا الرجل النادر ، فتـكونُ معه فى حالةٍ كحالةِ أكملِ امرأة ، بَيْدَ أنه كالُ الحُلمِ الذى يستيقظ وَشِيكاً ؛ فان الرجلَ الكاملَ يكملُ بأشياءَ منها وأسفا ... امنها ابتعادُه عنا .

ثم قالت : وصاحبُك هـذا منذرأيتُه ، رأيتُه كالـكتاب يشغَلُ قارئَه عن معانى نفسِه بمعانيه هو ...

✡ ✡ ✡

وضحكتُ أنا لهذا التشبيه، فمتى كان الكتابُ عند هذه كتابا يشغل بمعانيه؟ غيرَ أنى رأيتها قد تكلمتْ واحتفلَتْ، وأحسنَت وأصابت؛ فتركتها تتحدث مع الأستاذ (ح)، وغِبتُ عنهما غيبَةَ فكر؛ وأنا إذا فكّرْتُ انطبق علىَّ قولهم: خَلِّ رَجُلًا وشأنَه. فلا يتصلُ بى شىءٌ مما حولى. وكان كلامُها يسطعُ لى كالمصباح الكهربائىِّ المتوقِّد، فقدَّمها فكرُها إلىَّ غيرَ ماقدَّمتها إلىَّ نفسُها ورأيتُ لها صورتين فى وقتٍ معاً، إحداهما تعتذرُ من الأخرى ...

وكنتُ قبل ذلك بساعة قد كتبتُ فى تذكِرة خواطرى هذه الكلمةَ التى استوحيتُها منها؛ لأضعَها فى مقالةٍ عنها وعن أمثالها، وهى:

« إذا خرجت المرأةُ من حُدود الأسرة وشَريعتها، فهل بقى منها إلا الأنثى مجرَّدةً تجريدَها الحيوانىّ المتكشِّف: المتعرِّض للقوة التى تناله أو ترغبُ فيه؟ وهل تعملُ هذه المرأةُ عند ذلك إلا أعمالَ هذه الأنثى؟

«وما الذى استرْعاه الاجتماعُ حينئذٍ فترعاه منه وتحفظُه له، إلا مااسترعَى أهلُ المالِ أهلَ السرقة؟ إن الليلَ ينطوِى على آفتين: أولئك اللصوصِ، وهؤلاء النساء!

« وكيف ترى هذه المرأةُ نفسها إلا مُشوّهةً، مادامت رذائلها دائما وراءَ عينيها، وما دام بإزاء عينيها دائمـا الأمَّهاتُ والمُحْصَنَاتُ من النساء، وليس شأنُها من شأنهن؟ إن خيالها يُحرز فى وَعْيِهِ صورتَها الماضيةَ من قبل أن تزِلَّ، فاذا خَلَتْ إلى نفسها كانت فيها اثنتان، إحداهما تلعنُ الأخرى، فترى نفسها من ذلك على ماترى.

« وهى حين تُطالعُ مرآتها لِتتبرَّج وتحتفِلَ فى زينتها، تنظرُ إلى خيالها فى المرآة بأهواءِ الرجال لابعينىْ نفسها، ولهذا تُبالغُ أشدَّ المبالغة: فلا تُعْنَى بأن تظهرَ جميلةً كالمرأة، بل مُثْمِرةً كالتاجر ... وتَكَسُّبُها بجمالها يكونُ أول

ماتفكر فيه؛ ومن ذلك لايكونُ سرورُها بهذا الجمال إلّا على قدر ماتكسبُ منه، بخلاف الطابع الذى فى المرآة، فإن سرورَها بمسحةِ الجمالِ عليها هو أولُ فكرها وآخره.

« إن الساقطةَ لاتنظر فى المرآة — أكثرَ ماتنظر — إلا ابتغاءَ أن تتعهّدَ من جمالها ومن جسمها مواقعَ نظرات الفُجور وأسبابَ الفتنة، وما يَشتَهِى الرجلَ وما يُفسِدُ العفّة عليه: فكأن الساقطةَ وخيالها فى المرآة، رجلٌ فاسقٌ ينظرُ إلى امرأةٍ، لا امرأةٌ تنظر إلى نفسها ... »

✡ ✡ ✡

ذهبتُ أفكر فى هذه الكلمةِ التى كتبتُها قبل ساعة، ولم أستطع أن ألبسَ فى هذه القضيةِ وجهَ القاضى؛ فدخلَتْنى رِقةٌ شديدةٌ لهذا الجمالِ المائن، الذى أراه يبتسم وحوله الأقدارُ العابسة، ويلهو وبين يديه أيامُ الدموع، ويجتهدُ فى اجتذاب الرجال والشبّان إلى نفسه، والوقتُ آتٍ بالرجال والشبّان الذين سيجتهدون فى طَردِه عن أنفسهم.

وتَغَشّانى الحزنُ، ورأتْ هى ذلك وعرفته: فأخرجتْ مِنديلها المعطّرَ ومسحتْ وجهَها به، ثم هزّته فى الهواء، فاذا الهواءُ منديلٌ معطّرٌ آخر مَسَحَتْ به وجهى...

وقال الأستاذ (ح): آه من العِطر! إنّ منه نوعا لا أستَنشِيه مرةً إلا ردّنى إلى حيث كنتُ من عشرين سنةً خلَتْ، كأنما هو مُسَجّلٌ بزمانهِ ومكانهِ فى دماغى...

فضحكتْ هى وقالت: إن عِطرنا نحن النساءَ ليس عِطرا، بل هو شعورٌ نُثْبِتُه فى شعورٍ آخر...

فقلت أنا: لا ريبَ أن لهذه الحقيقةِ الجميلةِ وجهاً غيرَ هذا! قالت: وما هو؟

قلت : إن المرأةَ المعَطّرة المتزيّنة ، هي امرأةٌ مُسلَّحَةٌ بأسلحتها . أفى ذلك ريب ؟

قالت : لا

قلت : فلماذا لا يُسمَّى هذا العِطرُ بالغازاتِ الخانقةِ الغَرامية ... ؟

فضحكتْ فُنوناً ؛ ثم قالت : وتسمَّى (البودرة) بالديناميتِ الغرامى .

ونقلنى ذلك إلى نفسى مرة أُخرى ، فأطرقتُ إطراقةً ؛ فقالت : مابك ؟

قلت : بى كلمةُ الأستاذ (ح) ، إنها ألهبَتْ فى قلبى جَمرةً كانت خامدة .

قالت : أوْ حَركتْ نقطةَ عطْر كانت ساكنة ... !

فقلت : إن الحبَّ يضعُ روحانيته فى كل أشيائه ، وهو يغيّر الحالةَ النفسيةَ للإنسان ، فتتغيرُ بذلك الحالةُ العقليةُ للأشياء فى وَهْم المحب ؛ (فعِطرُ كذا) مثلًا ... هو نوعٌ شَذِىٌّ من العِطر طيّبُ الشميم ، عاصِفُ النَّشوةَ ، حادُّ الرائحة ؛ لكأنه يَنْشُرُ فى الجو رَوضةً قد ماتتْ بأزهاره تُشَمُّ ولا تُرى ، وإنه ليجعلُ الزمنَ نفسَه عَبِقا بريحه ، وإنه ليُفْعِمُ كلَّ ماحوله طِيباً ، وإنه ليسحَرُ النفسَ فيتحوَّلُ فيها ...

وهنا ضحكتْ وقطعتْ علىَّ الكلامَ قائلة : يظهرُ لى أن (عِطر كذا) هاجِرٌ أو مخاصم ...

قلت : كلا ، بل خرج من الدنيا وما انتَشقْتُ أرَجَهُ مرةً إلا حسبتُه يَنفَحُ من الجنة .

فما أسرعَ ماتلاشى من وجهها الضحكُ وهيئتُه ، وجاءت دمعةٌ وهيئتُها ؛ ولمحتُ فى وجهها معنًى بكيتُ له بكاءَ قلبى .

جمالُها ، فتنتُها ، سحرُها ، حديثُها ، لهوُها ؛ آه حين لا يبقَى لهذا كلّه عينٌ ولا أثر ! آه حين لا يبقَى من هذا كله إلا ذُنوبٌ ، وذُنوب ، وذُنوب !

* * *

وأردنا أنا و (ح) بكلامنا عن الحب وما إليه ، ألا نُوحِشَها من إنسانيتنا ، وأن نَبُلّ شوقَها إلى ما حُرِمتْه من قَدرها قدرَ إنسانةٍ فيما نتعاطاه بيننا . والمرأةُ من هذا النوع إذا طَمِعَتْ فيما هو أغلى عندها من الذهبِ والجوهرِ والمتاعِ ـ طمعَتْ في الاحترام من رجلٍ شريفٍ متعفِّف ، ولو احترامَ نظرةٍ ، أو كلمةٍ ؛ تَقنعُ بأقلّ ذلك وترضَى به ؛ فالقليلُ مما لايدرَكُ قايلُه ، هو عند النفس أكثرُ من الكثير الذى يُنالُ كثيره .

ومثلُ هذه المرأةِ ، لاتدرى أنت أطافت بالذَّنبِ أم طافَ الذنبُ بها ؛ فاحترامُها عندنا ليس احتراماً بمعناه ، وإنما هو كالوُجُوم أمام المصيبةِ فى لحظةٍ من لحظات رَهْبةِ القدَر وخُشوعِ الإيمان .

وليست امرأةٌ من هؤلاء إلا وفى نفسها التندُّمُ والحسرةُ واللهفةُ مما هى فيه ، وهذا هو جانبها الإنسانىُّ الذى يُنظَر إليه من النفس الرقيقة بلهفةٍ أخرى ، وحسرةٍ أخرى ، وندمٍ آخر . كم يَرحمُ الإنسانُ تلك الزوجةَ الكارهةَ المرغَمةَ على أن تُعاشِرَ من تكرهُه فلا يزالُ يَغلِى دمُها بوَساوِسَ وآلامٍ من البغض لاتنقطع ! وكم يَرثى الإنسانُ للزوجة الغَيور ، يغلِى دمُها أيضاً ولكن بوَساوِسَ وآلامٍ من الحب ! ألا فاعلم أن كلَّ امرأة من مثل هذه الحسناء ، تحمل على قلبها مثلَ همِّ مائةِ زوجةٍ كارهةٍ مرغَمةٍ مستعبَدة ، يُخالِطُه مثلُ همِّ مائةِ زوجةٍ غيورٍ مكابِدةٍ منافِسةٍ ؛ ولقد تكون المرأةُ منهن فى العشرين من سنها وهى مما يكابدُ قلبُها فى السبعين من عُمر قلبها أو أكثر .

وهذه التى جاءتنا إنما جاءتنا فى ساعةٍ منا نحن لامنها هى ، ولم تكن معنا لافى زمانِها ولا فى مكانِها ولا فى أسبابِها ، وقد فتحت البابَ الذى كان مغلقاً فى قلبها على الخفَرِ والحياء ، وحوَّلت جمالها من جمالٍ طابَعُه الرذيلةُ ، إلى جمالٍ طابعُه الفنّ ، وأشعرتْ أفراحها التى اعتادتها رُوحَ الحزنِ من أجلنا ، فأدخلت

بذلك على أحزانها التي اعتادتها رُوحَ الفرَح بنا .

من ذا الذي يعرفُ أن أدبه يكونُ إحساناً على نفسٍ مثلِ هـذه ثم لا يُحسِن به ؟ (*)

* * *

تتجدَّدُ الحياةُ متى وَجد المرءُ حالةً نفسيةً تكونُ جديدةً فى سرورها ؛ وهذه المرأةُ المسكينةُ التى لا يَعنيها مِن الرجلِ من هو ؟ ولكن كَم هو... ؟ لم ترَ فينا نحن الرجل الذى هو « كم » ، بل الذى هو « مَن » ؛ وقد كانت من نفسِها الأولى على بُعدٍ قَصِيٍّ كالذى يمدّ يده فى بئرٍ عميقةٍ ليتناولَ شيئًا قد سَقَط منه ؛ فلما جلستْ إلينا اتصلتْ بتلك النفسِ من قُرْب ؛ إذ وجدتْ فى زمنها الساعةَ التى تصلحُ جِسْرًا على الزمن .

قال الراوى :

كذلك رأيتها جديدةً بعد قليل ، فقلت للأستاذ (ح) : أما ترى ما أراه ؟

قال : وماذا ترى ؟ فأومأتُ إليها وقلت : هذه التى جاءت من هذه . إن قلبَها يَنشُرُ الآن حولَها نوراً كالمصباح إذا أُضىء ، وأراها كالزهرة التى تفتَّحتْ : هى هى التى كانت ، ولكنها بغيرِ ما كانت .

فقالت هى : إنى أحسبُك تحبُّنى ؛ بل أراك تحبُّنى ؛ بل أنت تحبنى ... لم يخْفَ علىّ منذ رأيتكَ ورأيتنى .

قلتُ : هَبِيهِ صحيحا ، فكيف عرفْته ولم أُصانِعْك ، ولم أتملَّقْ لك ، ولم أزدْ على أن أجىءَ إلى هنا لأكتب ؟

(*) فى كتابنا (السحاب الأحمر) فصل طويل عنوانه (الربيطة) ، كتبناه فى مثل موضوع (الجمال البائس) ، غير أنه بمنحى آخر ومعان أخرى . والربيطة هى الكلمة العربية التى تقابل كلمة Maitrese يريد بها الأوروبيون المرأة البغى ترتبط بأجرفى دار الرجل لتحل محل الزوجة ...

قالت : عرفتهُ من أنك لم تصانعْنى ، ولم تتملقْ لى ، ولم تزدْ على أن تجىء إلى هنا لتكتب ...

قلتُ : ويحكِ ! لو كُحلَتْ عينُ (المكرسكوب) لكانت عينَك ! وضحكنا جميعا ؛ ثم أقبلتُ على الأستاذ (ح) فقلت له : إن القضايا إذا كَثُر وُرودُها على القاضى جعلتْ له عينا باحثة .

* * *

قال الراوى :

وأنظرُ إليها ، فإذا وجهُها القمرى الأزهرُ قد شَرِق لونُه وظهر فيه من الحياء ما يظهرُ مثلُه على وجهِ العذراء المخدَّرةِ إذا أنتَ مسستَها بريبة (*) ؛ فما شككتُ أنها الساعةَ امرأةٌ جديدة قد اصطلحَ وجهُها وحَياؤُها ، وهما أبداً متعادِيان فى كل امرأة مكشوفةِ العفّة ...

وذهبتُ أستدْرِكُ وأتأوّل ، فقلتُ لها : ماذلك أردتُ ، ولا حَدَسْتُ على هذا الظن ، وإنما أنا مُشفِقٌ عليكِ متألمٌ بك ، وهل يَعْرِضُ لكِ إلا الطبقةُ النظيفة ... من المُجْرِمين والخبثاء وأهلِ الشرّ ؛ أولئك الذين أعالِيهم فى دُورِ الخلاعةِ والمسارح ، وأسافِلُهم فى دُور القضاء والسجون ؟

فقالت : أعترِفُ بأنك تُحسِنُ قَلْبَ الثوب ، فظهر لكل عين أنه مقلوب ؛ لكنك تحبنى ... وهذا كافٍ أن ينهضَ منه عُذْرٌ !

قال الأستاذ (ح) : إنه يحبكِ ، ولكن أتعرفين كيف حبُّه ؟ هذا بابٌ يضعُ عليه دائما عِدّةً من الأقفال .

قالت : فما أيسرَ أن تجدَ المرأةُ عِدةً من المفاتيح ...

قال : ولكنه عاشقٌ يُنيرُ العشقُ بين يديه ؛ فكأنه هو وحبيبتُه تحت أعينِ الناسِ : ماتطمعُ إلا أن تراه ، وما يطمع إلا أن يراها ، ولا شىءَ غير

(*) أى لأنها ظنت أنه يقول إنها اعتادت الرجال .

ذلك ؛ ثم لا يزالُ حسنُها عليه ولا يزال هواه إليها ، وليس إلا هذا !

قالت : إن هذا لعجيب .

قال : والذى هو أعجبُ أنْ ليس فى حبه شىءٌ نهائى ، فلا هَجْرٌ ولا وصلٌ ؛ يلمساكِ بعد ساعة ؛ ولكنك أبداً باقيةٌ بكل جمالِك فى نفسه ، والصغائرُ التى تُبكى الناسَ وتَتلذَّعُ فى قلوبهم كالنار ليجعلوها كبيرةً فى همِّهم ويطفئوها ويلتهوا منها ككل شهواتِ الحب — تبكيه هو أيضاً وتَعْتَلِجُ فى قلبه ولكنها تظلُّ عنده صغائرَ ولا يعرفُها إلا صغائرَ ؛ وهذا هو تَجَبُّرُه على جبَّار الحب !

* * *

قال الراوى :

ونظرتُ إليها ونظرتْ ، وعاتبتْ نفسٌ نفساً فى أعيُنِهما ، وسألت السائلةُ وأجابت المُجيبة ، ولكن ماذا قلتُ لها ؟ وماذا قالت ؟ ...

الجمال البائس

٣

قال الراوى :

نظرتُ إليها ونظرتْ : أما هى ، فرَنَتْ إلىَّ فى سكون ، وكانت نظرتُها مُعاتبةً طويلةً فيها التملقُ والتوجُّع ، وفيها الانكِسارُ والفُتور ، وفيها الاسترخاءُ والدلال .

وبَيْنا كان طَرْفُها ساجِياً فاترا كأنه ينظرُ أحلامه ، إذْ حدَّدته إلىَّ لجأةً ونظرتْ نظرةَ مَدْهوش ، فبدَتْ عيناها فَزِعَتين ولكن فى وجه مطمئنّ .

ثم لم تكدْ تفعلُ حتى ضيَّقتْ أجفانَها وحدَّقت النظرَ مُتَلألِئا بمعانيه ، فبدَتْ عيناها ضاحكتين ولكن فى وجه متألم .

ثم ابتسمت بوجهها وعينيها معًا ، وأتمّتْ بذلك أجملَ أساليب المرأةِ الجميلةِ المحبوبةِ فى اعتراضها على من تحبه ، وجدالِها مع فكره ، وكَسْرِ حُجّته فى كبريائه ، وانتزاعِ الفكرة المستقِلّةِ من نفسه .

... وأما أنا ، فكانَ نظرى إليها ساكنا متألّما يُقِرُّ أنه عَجَزَ عن جوابِ عينيها ، وسيبقَى عاجزا عن جواب عينيها ...

إن وجهَها هو الابتسامُ ورُوحُ الابتسام ، وجسمَها هو الإغراءُ وروحُ الإغراء ، وفنَّها هو الفتنة ورُوحُ الفتنة ؛ وهى بهذا كلِّه ، هى الحبُّ وروح الحب ؛ غير أن فهمها على حقيقتها فى الناس يجعلُ ابتسامَها عَداوةً من وجهها ، وإغراءها جريمةً لجسمها ، وفنّها رذيلةً فى جمالها ؛ وهى بهذا كله ، هى الشقاءُ ورُوحُ الشقاء .

☆ ☆ ☆

أمّا أنى أحبُّ فنَعمْ ونِعِمّا ، بل أراه حبا فالقا كَبدى ، وليس يخلو فؤادى أبدا من سَوالِف حُب مضى ؛ وأما أنى أستَرْذِلُ فى الحب وأمتهنُ فضيلتى وأزلُ بها ، فلا وأبدا .

إن ذلك الحبَّ هو عندى عملٌ فنّىّ من أعمال النفس ، ولكن الفضيلة هى النفسُ ذاتُها ؛ والحبُّ أيامٌ جميلةٌ عابرةٌ فى زمنى ، أما الفضيلةُ فهى زمنى كله ؛ وذلك الجمالُ هو قوةٌ من جاذبيةِ الأرضِ فى مدّتها القصيرة ، ولكنّ الفضيلةَ جاذبيةُ السماءِ فى خُلودها الأبدى .

على أنه لامُنافرةَ بين الحب والفضيلة فى رأيى ، فإن أقوى الحب وأملأه بفلسفة الفَرَح والحزن ، لايكون إلا فى النفس الفاضلة المتورِّعةِ عن مُقارَفةِ الإثم ؛ وهٰهنا يتحولُ الحبُّ إلى ملَكةٍ سامية فى إدراكِ معانى الجمال ، فيكونُ الوجهُ المعشوقُ مصدرَ وحيٍ للنفسِ العاشقة ؛ وبهذا الوحى والاستمدادِ منه

ينزل المحبُّ من المحبوب منزلةَ من يرتفعُ بالآدميَّة إلى الملائكية (*) ، ليتلقى النورَ منها فنًّا بعد فن ، والفرحَ معنًى بعد معنى ، والحزنَ السماوىَّ فضيلةً بعد فضيلة

فهذا الحبُّ هو طريقةٌ نفسيَّـةٌ لاتِّساعِ بعضِ العقولِ المهيَّأة للإلهام ، كى تُحيطَ بأفراح الحياة وأحزانها ، فتُبْدِعَ للدنيا صورةً من صُوَر التعبير الجميلةِ التى تُثير أشواقَ النفس ؛ كأن كلَّ محب وحبيبته من هؤلاء الملهَمين ، هما صورةٌ جديدة من آدمَ وحواء ، فى حالةٍ جديدة من معنى تركِ الجنـة ، لإيجاد الصورةِ الجديدةِ من الفرَح الأرضى والحزن السماوى .

والخَطَرُ فى الحب ألا يكونَ فيه خَطَر ... فهو حينئذ نداءُ الجنس ، لايكون إلا دنيئا ساقِطا مبذولا ، فلا قيمةَ له ولا وحىَ فيه : إذ يكونُ احتيالًا من عملِ الغريزة جاءت فيه لابسةً ثوبَها النُّورانىَّ من شوق الروح ، لتخدعَ النفس الأخرى فيتصلَ بينهما ، حتى إذا اتّصل بينهما خلعت الغريزةُ هذا الثوبَ واستعلَنَتْ أنها الغريزةُ ، فانحصر الحبُّ فى حيوانيتهِ ، وبطلتْ أشواقه الخياليةُ أجمع .

* * *

قال الراوى :

وعرفتِ الحسناءُ هذا كلّه من عَرضها نظرةً وتلقّيها نظرةً غيرَها ؛ فقالت للأستاذ (ح) : أمَّا أن يكونَ مع أثرِ الشعر والفكر فى الجمال ودعوى الحب ، أثرُ الزهد فى الجسم الجميل وادِّعاءُ الفضيلة — فإنَّ بعيداً أن يجتمعا

قال (ح) : وأين تُبْعِدينَه ويحك عن هذه المنزلة ؟ إنى لأعرف من هو أعجبُ من هذا !!

قالت : وماذا بقى من العجب فتعرفه ؟

(*) نحن لا ننسب للملائكة إلا على خلاف القاعدة المقررة فى علم الصرف ، ونرى أن مخالفة القاعدة هى القاعدة فى هذه اللفظة وفى ألفاظ أخرى .

قال : أعرفُ رجلًا متزوّجا أحبّ أشدَّ الحب وأمَضّه ، حتى استهامَ وتدَلّه، فكان مع هذا لا يكتبُ رسالةً إلى حبيبته حتى يستأذِنَ فيها زوجتَه ، كيلا يعتدِيَ على شيء من حقها . وزوجتُه كانت أعرفَ بقلبه وبحبّ هذا القلب ، وهى كانت أعلمَ أن حبَّه وسُلوانه إنما هما طريقتان فى الأخذِ والتركِ بين قلبه وبين المعانى ، تارةً من سبيل المرأة وجمالِها ، وتارة من سبيل الطبيعة ومحاسنها .

فتنهّدَت وقالت : ياعجبًا ! وفى الدنيا مثلُ هذا الزوجِ الطاهر ، وفى الدنيا مثلُ هذه الزوجةِ الكريمة ؟

ثم إنها وَجَمَتْ هُنَيْهةً تجتمعُ فى نفسها اجتماعَ السحابة ، ثم استَدْمَعَتْ ، ثم أرسلتْ عينيها تبكى ؛ فبدَرْتُ أنا أُرَفِّهُ عنها حتى كفكَفَتْ من دمعها ، وكأن (ح) قد وخزَها فى قلبها وخزةً أليمةً بذكره لها الزوجة ، ثم الزوجةَ الطاهرة ، ثم الطاهرة حتى فى وسوسةِ شيطان الغَيْرة : ارتفع ثلاثَ مرات بالزوجة ، لترى هذه المسكينةُ أنها سافلةٌ ثلاثَ مرات ؛ وكأنه بهذا لم يكلمها ، بل رَسَمَ لها صورتَها فى عيشها المُخزى وقال لها : انظرى ... ... !

* * *

وياما كان أجملَها يترقرَقُ الدمعُ فى عينيها الفاتنتين الكحيلتين ، فيبُثُّ منهما حزنا يخيِّل لمن رآه أنه من أجلها سيُحزنُ الوجودَ كلّه !

ليس البكاءُ من هاتين العينين بكاءً عند من يراه إذا كان من العاشقين ، بل هو فنُّ الحزن يضع جمالا جديداً فى فن الحُسن ؛ وأكاد أعجَبُ كيف وجدَ الدمعُ مكاناً بين المعانى الضاحكةِ فى وجهها ، لو لم يكن هذا الدمعُ قد جاء ليظهِرَ على وجهها الفنَّ الآخرَ من جمالِ المعانى الباكية !

* * *

وسألتُها : ما الذى خامَرَ قلبَك من كلام الأستاذ (ح) فأبكاكِ ، وأنتِ كما أرى يتألّقُ النورُ على جدرانِ المكانِ الذى تحُلّين به ، فيظهرُ المكانُ

وكأنه يضحك لك ؟

فَتَشَكَّكَتْ لحظةً ثم قالت : أبكَ ما تقول أم أنت تتهكّم بى ؟

قلت : كيف يخطرُ لك هـذا وأنا أحترمُ فيك ثلاث حقائق : الجمال ، والحب ، والألم الإنسانى ؟

قالت : لا تَثْرِيب عليك (*) ، ولكن صَوِّرْ لى ببلاغتك كيف أحببتُك وأنت غير مُتَحبِّبٍ إلىَّ ، وكيف جادلتُ نفسى فيك وداورتُها عنك ، وكلما عزمتُ انحلّ عزمى ؟ فهذا مالا أكاد أعرفُ كيف وقع ، ولكنه وقع . هذه قطرةٌ من الماء الصافى العذْبِ ، فَضع عليها (المكرسكوب) ياسيدى ، وقل لى ماذا ترى ؟

قلت : إنك تخرجين من السؤال سؤالاً ؛ فما الذى خامَرَ قلبَكِ من كلام (ح) فبكيتِ له ؟

قالت : إذن فليست هى قطرةً من الماء ، بل تلك دمعةٌ من دموعى ، فضع عليها المكرسكوب ياسيدى .

قال الراوى :

وكانت حزينةً كأنها لم تسكتْ عن البكاء إلا بوجهها وبقيتْ روحُها تبكى فى داخلها ؛ فأراد الأستاذ (ح) أن يستدركَ لغلطتِه الأولى فقال : إنكِ الآن تسألينه حقًّا من حقوقكِ عليه ، فكل امرأةٍ يحبها هى عَروسُ قلبِه، ولها على هذا القلب حقُّ النفقَة . . . . . .

فضحكتْ نوعا ظريفًا من الضحكِ الفاتر ، كأنما ابتكره ثغرُها الجميلُ لساعةِ حزنها ؛ ونظرتْ إلىّ ؛ فقلتُ : إن كان الأمرُ من نفقة العَروس على القلب فما أشبهَ هذا (بلا شىء) جُحا .

(*) أى لاعتب عليك .

فضحكت أظرفَ من قبل ، وخُيِّلَ إلى أن ثغرها انطبقَ بعد افترارِه على قُبلةٍ أفلتتْ منه فأمسكها من آخرِها ...

ثم قالت : ماهو (لاشيء) جُحا ؟

قالت : زعموا أن جُحا ذهب يحتَطِبُ ، وحملَ فوقَ ما يُطيق ، فبهظَهُ الحِمْلُ وبلغَ به المَشقَّة ، ثم رأى فى طريقه رجلاً أبلهَ فاستعانَ به ، فقال الرجل : كم تُعطينى إذا أنا حملتُ عنك ؟ قال : أعطيك (لاشيء) ! قال : رضيت .

ثم حمل الأبلهُ وانطلق معـه حتى بلغا الدار ، فقال : أعطنى أجرى . قال جحا : لقد أخذتَه . واختلفا : هذا يقول أعطنى ، وهذا يقول أخـذتَ ؛ فلبَّبَهُ الرجل (*) ومضى يرفعـه إلى القاضى ، وكانت بالقاضى لُوثَةٌ ، وعلى وجهه رَوْعَةُ الحُمق (**) تخبرك عنه قبل أن يخبرك عن نفسه ، فلما سمع الدعوى قال لجحا : أنت فى الحبس أو تُعْطِيَهُ (اللاشيء) ...

قال جُحا فى نفسه : لقد احتجْتُ لعقلى بين هذين الأبلهين ! ثم إنه أدخل يده فى جيبه وأخرجها مُطبَقة ، وقال للرجل : تقدَّمْ وافتح يدى . فتقـدم وفتحَها ؛ قال جُحا : ماذا فيها ؟ قال الرجل : (لاشيء) ،

فقال له جحا : خذ (لاشيئَك) وامضِ فقد بَرِئتْ ذمتى !

قالوا : فذهب الرجل يحتجُّ ، فقال له القاضى : مَهْ ! أنت أقررتَ أنك رأيت فى يده (لاشيء) ، وهو أجرُك ؛ فخذه ولا تطمعْ فى أزيدَ من حقك...!

* * *

وضحكتْ وضحكنا ، ثم قالت : أنا راضيةٌ أن أكونَ عروسَ القلم ، فليُجْرِ علىّ القلمُ نفقتى ، وليصوِّرْ لى كيف أحببتُ ، وكيف آمرتُ نفسى وجادلتُها ؟

(*) أخذ بتلابيبه

(**) اللوثة (بضم اللام) : مس من الجنون ، وتكون أيضا بمعنى الحمق ، وروعة الحمق : علاماته ، وهى معروفة فى علم الفراسة .

قلت : لا أتكلم عنكِ أنتِ ولا أستطيعه ، بَيْدَ أنى لو صنَّفتُ روايةً يكون فيها هذا الموقفُ ، لوضعْتُ على لسان العاشقة هذا الكلامَ تحدِّثُ به نفسها :

تقول : كيف كنتُ وكيف صرت ؟ لقد رأيتُنى أعاشرُ مائةَ رجل فأخالُطهم فى شتَّى أحوالهم ، وأُصرفهم فى هواىَ ، وكلُّهم يجهدُ جُهدَه فى استمالتى ، وكلُّهم أهلُ مروءة وبَذْل ، وما منهم إلا جميلٌ مخلصٌ ، قد أنِقَ وتجمَّل وراع حسنُه ؛ كأنما هَرَبَ إلىَّ فى ثياب عُرسه ليلةَ زفافِه ، وترك من أجلى عروسا تبكى وتَصيح بوَيلها ؛ ثم أنا مع ذلك مُغْلَقَةُ القلب دونهم جميعاً : أَصْدُقُهم المودةَ والصحبةَ ، وأكْذُبهم الحبَّ والهوى ؛ فلستُ أُحبهم إلا بما أنالُ منهم ، ولستُ أتحبَّبُ إليهم إلا ما أُنولهم منى ، وهم بين عقلى وحيلتى رجالٌ لا عقولَ لهم ، وأنا بين أهوائهم وحَماقاتِهم امرأةٌ لاذات لها .

ثم أرى بغتةً رجلا فَرداً فلا أكاد أنظر إليه وينظرُ إلىَّ حتى يَضعَ فى قلبى مسئلةً تحتاجُ إلى الحلّ . . .

وأرتاعُ لذلك فأحاولُ تناسِيَه والإغضاءَ عنه ، فتَلِجُّ المسئلةُ فى طلبِ حلّها وتشغَلُ خاطرى ، وتتمدَّد فى قلبى ؛ وهو هو المسئلة . . .

فأَفزَعُ لذلك وأهتمّ له ، وأجهَدُ جهدى أن أكونَ مرةً حازِمةً بصيرةً ، كرجالِ المال فى حق الثروة عليهم ؛ ومرةً قاسيةً عنيدةً ، كرجال الحرب فى واجبها عندهم ؛ ومرة خبيثةً مُنكَرة ، كرجال السياسةِ فى عملها بهم ؛ ولكنى أرى المسئلة تلينُ لى وتتشكّل معى وتحتملُ هذه الوجوهَ كلها ، لتبقى حيثُ هى فى قلبى ؛ فإنه هو هو المسئلة . . .

وأغتمُّ لذلك غمًّا شديداً ، وأرانى سأسقُط بعد سقوطى الأول وأقبح منه ؛ إذ الحياةُ عندنا قائمةٌ بالخِداع ، وهذا يُفسِدُه الإخلاص ؛ وبالمكْر ، وهذا

يعطِّلهُ الوَفاء؛ وبالنسيانِ، وهذا يُبطله الحب؛ وإذ عواطِفُنا كلُّها متجرِّدة لغرض واحدٍ، هو كَسْبُ المالِ وجمعُه وادِّخاره، وفضيلتُنا عمليةٌ لا تتخيَّل، حِسابيَّة لا تختلُّ؛ فيستوِى عندنا الرجلُ بلغ جمالُه القمرَ فى سمائه، والرجلُ بلغتْ دَمامتُه الذبابَ فى أقذاره؛ والحبُّ معنا هو: كم فى كم ويبقَى ماذا... أو كما يقول أهلُ السياسة: هو «النقطة العملية فى المسئلة»؛ ولـكن المسئلةَ التى فى قلبى لاترى هذا حلاًّ لها؛ لأنه هو هو المسئلة...

فيزيدُ بى الكَرْبُ، ويشتدُّ علىَّ البلاء، وأحتالُ لقلبى وأُدبِّر فى خَنقه، وأذهبُ أُقْنِعه أن الرجلَ إذا كان شريفاً لم يحبَّ المرأةَ الساقطةَ، إذ يُعابُ بصُحبتها والاختلافِ إليها؛ فإذا كان ساقطاً لم تحبَّه هى، فإنمـا هو صَيدُها وفَريستها، وموضعُ نقمتِها من هـذا الجِنس؛ وأُشرِفُ على قلبى فى الملامَةِ والتعذيل فأقولُ له: ويحك ياقلبى! إن المرأةَ منا إذا تفتَّح قلبُها لحبيبٍ، تفتَّح كالجُرح لِيَـنْزِفَ دِماءَه لاغير. فيقتنعُ القلبُ ويُجمِعُ على أن ينسَى، وأن يَرجعَ عن طلبه الحب؛ وأرى المسئلةَ قد بطلتْ، وكان بُطلانُها أحسنَ حلٍّ لها، وأنامُ وادعة مطمئنة، فيأتى هو فى نومى ويَدخُل فى قلبى، ويُعيدُ المسئلةَ إلى وضعها الأول، فمـا أستيقظُ إلا رأيته هو هو المسئلة...

فأتناهَى فى الخوف على نفسى من هذا الحب، وأراه سجنها وعقابَها، وقهرَها وإذلالَها، فأقول لها: ويلكِ يانفسى! إنما همُّكِ فى الحياة وَسائلُ الفَوز والغَلَب، فأنتِ بهذا عدوَّةٌ مسماةٌ فى غَفْلة الرجال صديقة، فلو قد وُضِعْتِ فى موضعٍ تعيشين فيه بإهاناتٍ من الرجال يسمونها فى تَذَالتهم بالحب، فأنتِ عدوَّةُ الرجال بمعنًى من الدهاء والخُبث، وعدوَّةُ الزوجاتِ بمعنًى من الحقدِ والضغينة، وعدوَّة البَغايا أيضًا بمعنًى من المغالبة والمنافسة، وكلُّ مايستطيعُ الدَّهاءُ أن يعمـلَه فهو الذى علىَّ أنا أن أعمـلَه؛ فماذا أصنع وأنا أحب؟ وكيف أنجحُ وأنا أحب؟ ولـكنَّ النفسَ

تجيئني على كل هذا بأن هذا كلّه بعيدٌ عن المسئلة، مادام هو هو المسئلة...

* * *

قال الراوي:

وكانت كالذاهلة بما سمعتْ، ثم قالت: ألك شيطانٌ في قلبي؟ فهذا كلّه هو الذي حدث في سبعة أيام!

قال (ح): ولكن كيف يقَعُ هذا الحب؟ وهَبْكَ صنّفتَ تلك الرواية، ووضعتَ على لسان العاشقة ذلك الكلام، فبماذا كنتَ تُنطقُها في وصفِ حبها وما اجتذبها من رجل فاز بقلبها ولم يُداوِرْها، بعد مائة رجلٍ كلّهم دَاوَرَها ولم يَفُزْ منهم أحد؟ أتكون في وجه هذا الرجلِ أنوارٌ كتَبَاشِيرِ الصبح تدلُّ على النهار الكامِنِ فيه؟

قالت هي: نعم نعم؛ بماذا كنتَ تُنطقها؟

قلتُ: كنت أضعُ في لسانها هذا الكلامَ تُجيبُ به عاذلةً تَعْذُلها:

تقول: لا أدري كيف أحببتُه، ولكنَّ هذه الشخصيةَ البارزةَ منه جذبتْني إليه، وجعلت الهواء فيما بيني وبينه مُفْعَماً بالمغناطيس، مَصْدَرُه هو، ومعناه هو، ولا شيء فيه إلا هو.

عرَضَتْه لي شخصيتُه ظاهراً لأن جوابَ شخصيتِهِ فيَّ، وأصبحَ في عينَيَّ كبيراً لأن جوابَ شخصيتي فيه؛ ومن ذلك صارت أفكاري نفسُها تزيده كلَّ يوم ظهوراً، وتزيدُني كل يوم بَصَراً، وأعطاه حقَّه في الكمالِ عندي حقَّه في الحب مني؛ وبتلك الشخصية التي جوابُها في نفسي، أصبحَ ضرورةً من ضرورات نفسي

* * *

قال الراوي:

ولما رأيتها في جَوِّي، نَسِيمِه وعاصِفَتِه، أردتُها على قِصّتها وشأنِها، فماذا قلتُ لها وماذا قالت؟...

الجمال البائس

٤

قلتُ لها: إن قلبي وقلبَكِ يتجاليان (*) في هذه الساعة ويتباكيان؛ أتدرين ماذا يقول لكِ قلبي؟

إنه ليقولُ عني: أعْزِز عليَّ بأن تكوني هٰهنا، وأن تتألفَ منك هذه القصةُ التي تبدأُ بالوَصْمة وتنتهي بالاستخذاء، فتنطلقُ المرأةُ في متالفِها ومَهاويها ليبلُغَ بها القَدَرُ ما هو بالغ؛ وليس إلا الضرورةُ وسَطْوتُها بها، والإذلالُ ومَهانتُه لها، والاجتماعُ وتهكمُه عليها، والابتذالُ واستعبادُه إياها؛ ومهما يأتِ في القصة من معنًى فليس فيها معنى الشرف، ومهما يكنْ من مَوْقِفٍ فليس فيها موقفُ الحياء؛ ومهما يَجْرِ من كلامٍ فليس فيها كلمةُ الزوجة! وأعْزِزْ عليَّ بأن أرى المصباحَ الجميلَ المشْبُوبَ الذي وُضِع ليُضيء ما حوله، قد انقلب فجعلَ يُحرِقُ ما حوله؛ وكان يتلألأ ويتوقَّد، فارتدَّ يتَسعَّر ويتضرَّم ويجْني على ما يتصلُ به، وسقط بذلك سَقْطةً حمراء...

أفتدرين ماذا يقول لي قلبُك؟

إنه يقول عنكِ: يا بُؤسَنا من نِساء! لقد وُضِعْنا وَضعا مقلوبا، فلا تَستقيمُ الإنسانيةُ معنا أبدًا، وكلُّ شيءٍ منقلبٌ لنا متنكِّر، والشفقةُ علينا تنقلِبُ من تلقاء نفسها تهكّمًا بنا؛ فنبكي من شفقةِ بعض الناس، كما نبكي من ازدراءِ بعض الناس! يا بؤسَنا من نساء!

* * *

(*) أي يتكاشفان ويجلو كلاهما للآخر ويوضح.

قالت : صدقت ! وكذلك تنقلبُ أسبابُ الحياة معنا أسبابًا للمرض والموت ؛ فاليَقظةُ ليس لها عندنا النهارُ بل الليل ، والصَّحْوُ لا يكون فينا بالوَعْيِ بل بالسُّكْر ، والراحةُ لا تكون لنا في السكون والانفراد بل في الاجتماع والتبذل ؛ وماذا يَردُّ العيشُ على امرأةٍ من واجباتها السهرُ ، والسكْرُ ، والعَربدةُ ، والتبذلُ ، وتَدريبُ الطباع بالوَقاحة ، وتَضْريةُ النفسِ على الاستغواءِ ، والتَّصدِّى بالجمالِ للكَسْبِ من رذائلِ الفُسّاق وأمراضِهم ، والتعرُّض لمعروفهم بأساليبَ آخرُها الهوانُ والمذلَّة ، واستِماحَتُهم بأساليبَ أولُها الخداعُ والمكْر ؟

إن حياةً هذه هي واجباتُها ، لايكونُ البكاءُ والهمُّ إلا من طبيعةِ من يحياها ، وكثيراً ماتُعالج الضحِكَ لنفتحَ لأنفسِنا طُرُقًا تَتهارَبُ فيها معانى البكاء ؛ فإذا أثقلَنا الهمُّ وجَلَّ عن الضحك وعجزنا عن تكلُّفِ السرور ، خَتلْنا العقلَ نفسَه بالخمر ؛ فما تسكَرُ المرأةُ منا للسكْر أو النَّشوة ، بل للنسيان ، وللقُدرة على المَرَح والضحِك ، ولإمدادِ محاسنِها بالأخلاقِ الفاجرة ، من الطَّيش والخلاعةِ والسَّفَهِ وهذيانِ الجمال الذى هو شِعرُه البليغ . . . عند بُلغاء الفُسّاق .

قال الأستاذ (ح) : أهذا وحاضِرُ الغادةِ منكنَّ هو الشبابُ والصِّبى والجمالُ وإقبالُ العيش ، فكيف بها فيما تَستقْبِل ؟

قالت : إن المستقبلَ هو أخوفُ ما نخافهُ على أنفسنا ، وليس من امرأة فى هذه الصناعة إلا وهى مُعِدَّةٌ لمستقبلها : إمّا نوعًا من الانتحار ، وإما ضَرْبًا من ضُروب الاحتمالِ للذل والخَسْف ؛ وليس مستقبلُنا هذا إلا كمستقبل الثمار النضِرة إذا بقيتْ بعد أوانِها ؛ فهو الأيام العَفِنةُ بطبيعةِ ماضى . . . بلَى إن مستقبلَ المرأة البغىِّ هو عقابُ الشر .

* * *

قال (ح) : هذا كلامٌ ينبغى أنْ تعلمه الزوجات ؛ فالمرأةُ منهنَّ قد تَتبرَّم

بزوجها وتضجر وتغتم ، وتزعم أنها معذبة ؛ فتتسخط الحياة ، وتندب نفسها ؛ ثم لا تعلم أنه عذابٌ واحدٌ برجل واحد ، تألفه ، فتعتاده ، فترزق من اعتياده الصبر عليه ، فيسكنُ بهذا نِفارُها ؛ وتلك نعمةٌ واجبُها أن تحمدَ الله عليها ، مادام في النساء مثلُ الشهيدات ، تتعذبُ الواحدةُ منهن فنوناً من العذاب بمائة رجل ، وبألفِ رجل ، وهم مع ذلك يبتلون روحها بعددهم من الذنوب والآثام

وقد تستثقلُ الزوجةُ واجباتِها بين الزوج والنسلِ والدار ، فتغتاظ وتشكو من هذه الزَّجْرَجة اليوميةِ في الحياة ؛ ثم لا تعلم أن نساءً غيرَها قد انقلبتْ بهن الحياةُ في مثل الخَسْف بالأرض .

وقد تجزعُ للمستقبل وتنسى أنها في أمانِ شَرفِها ، ثم لا تعلم أن نساءً يترقَّبنَ هذا الآتيَ كما يترقبُ المجرمُ غدَ الجريمة ، من يومٍ فيه الشُّرْطةُ والنيابةُ والمحكمةُ وما وراء هذا كلّه .

فقالت : وهناك حقيقةٌ أخرى فيها العزاءُ كلُّ العزاء للزوجات ، وهي أن الزوجةَ امرأةٌ شاعرةٌ بوجود ذاتها ، والأخرى لا تشعر إلا بضياع ذاتها .

والزوجةُ امرأة تجدُ الأشياءَ التي تتوزَّع حبَّها وحنانَ قلبِها ، فلا يزال قلبُها إنسانيًا على طبيعته ، يَفيضُ بالحب ، ويستمدُّ من الحب ؛ والأخرى لا تجد من هذا شيئاً ، فتنقلب وحشيَّةَ القلب ، يفيضُ قلبُها برذائلَ ، ويستمدُّ من رذائل ؛ إذ كان لا يجد شيئاً مما هيأته الطبيعةُ ليتعلَّقَ به من الزوجِ والدارِ والنَّسل .

والزوجةُ امرأةٌ هي امرأةٌ خالصةُ الإنسانية ، أما الأخرى فمن امرأةٍ ومن حيوانٍ ومن مادةٍ مُهْلِكة .

وتمامُ السعادةِ أن النسلَ لا يكونُ طبيعيًا مستقِرًا في قانونه إلا للزوجات وحدَهن ؛ فهو نِعمتُهنّ الكبرى ، وثوابُ مستقبَلهن وماضيهن ، وبَرَكتُهن على الدنيا ؛ ومهما تكن الزوجةُ شقيَّةً بزوجها ، فإن زوجها قد أولدَها سعادتَها ،

وهذه وحدَها مزيّةٌ ونعمة ؛ أما أُولئك فليس لهنّ عاقبة (*) ؛ إذ النسلُ قلب حالتهن كلّها ؛ وهو غِنًى إنسانيٌّ ، ولكنه عندهن لا يكون إلا فقراً ؛ وهو رحمة ، ولكنها لا تكونُ إلا لعنةً عليهن وعلى ماضيهن . وقد وضعت الطبيعةُ فى موضع حبِّ الولَد الجديدِ من قلوبهن ، حبَّ الرجلِ الجديد ، فكانت هذه نقمةً أخرى !

قال (ح) : أتريد من الرجل الجديد من يكون عندهنّ الثانىَ بعد الأول ، أو الثالثَ بعد الثانى ، أو الرابعَ بعد الثالث ؟

قلت : ليس الجديدُ عليهن هو الواحدَ بعد الواحدِ إلى آخر العدد ، ولكنه الرجلُ الذى يكون وحدَه بالعدد جميعاً ؛ إذ هو عندهن يُشبه الزوجَ فى الاختصاص وفى شرف الحب ، فهو الحبيبُ الشريف الذى تتعلَّقه إحداهن وتريد أن تكونَ معه شريفة ؛ ولكن من نقمة الطبيعة أن من وجدتْه منهن لا تجدُه إلا لتعانِىَ ألَم فقده .

ياعجبا ! كلُّ شىء فى الحياة يُلقِى شيئا من الهم أو النكدِ أو البؤسِ على هؤلاء المسكينات ، كأن الطبيعةَ كلّها ترجُمُهنَّ بالحجارة ...

قالت هى : وليست الحجارةُ هى الحجارةَ فقط ، بل منها ألفاظ تُرجَمُ بها المسكينةُ ، كألفاظك هذه ... وكتسميةِ الناسِ لها « بالساقطة » ؛ فهذه الكلمة وحدها صخرةٌ لا حجر .

* * *

ثم تنهدتْ وقالت : مَن عسى يعرِفُ خَطَرَ الأُسْرة والنسلِ والفضيلةِ كما تعرفُها المرأة التى فقدتها ؟ إننا نُحِسُّها بطبيعة المرأة ، ثم بالحنين إليها ، ثم بالحسْرةِ على فقدها ، ثم برؤيتها فى غيرنا ؛ نعرفها أربعةَ أنواعٍ من المعرفة إذا عرفتْها

(*) يقال : ليس له عاقبة ، أى ليس له نسل وعقب .

الزوجةُ نوعًا واحدا . ولكن هل يُنصِفنا الرجال وهم يتدافعوننا ؟ هل يرضَوْن أن يتزوَّجوا منا ؟

قلت : ولكنَّ الأُسرةَ لاتقومُ على سوادِ عينى المرأةِ وحُمرةِ خدَّيها ، بل على أخلاقِها وطباعها ؛ فهذا هو السبب فى بقاء المرأة الساقطةِ حيثُ ارتطمتْ ؛ وهى متى سقطتْ كان أولُ أعدائها قانونَ النسل .

ومن ثَمّ كانت الزَّلةُ الأولى ممتدةً مُتَسَحِّبةً إلى الآخر ؛ إذ الفتاةُ ليست شخصا إلا فى اعتبارِها هى ، أما فى اعتبار غيرها فهى تاريخُ للنسل ، إن وقعتْ فيه غلطة فسد كلُّه وكذَبَ كلُّه فلا يُوثَقُ به .

وهذه الزَّلة الأولى هى بدءُ الانهيار فى طباعٍ رقيقةٍ مُتداخِلةٍ مُتسانِدَةٍ ، لا يُقيمُها إلا تماسُكُها جُملةً ؛ وما لم يتماسكْ إلا بجملته فأولُ السقوطِ فيه هو استمرارُ السقوطِ فيه ؛ ولهذا لايعرفُ الناسُ جريمةً واحدةً تعدُّ سِلسِلَة جرائمَ لاتنتهى ، إلا سقطةَ المرأة ؛ فهى جريمة مجنونة كالإعصارِ الثائرِ يلفها لفًا ؛ إذ تتناولُ المرأةَ فى ذاتها ، وترجع على أهلها وذويها ، وترتمى إلى مستقبلها ونَسلها ؛ فيَهْتِكُها الناسُ هى وسائرَ أهلِها ، مَن جاءت منهم ومن جاءوا منها .

والمرأةُ التى لايَحميها الشرفُ لايحميها شىء ، وكلُّ شريفةٍ تعرفُ أن لها حياتين إحداهما العفّة ، وكما تُدافِعُ عن حياتها الهلاكَ ، تُدافعُ السقوط عن عفتها ؛ إذ هو هلاكُ حقيقتِها الاجتماعية ؛ وكلُّ عاقلةٍ تعرفُ أن لها عقلين تحتمِى بأحدِهما من نَزَواتِ الآخر ، وما عقلُها الثانى إلا شَرَفُ عِرْضها .

* * *

قال الأستاذ (ح) : إن هذه هى الحقيقة ، فما تسامَحَ الرجالُ فى شرف العِرض إلا جعلوا المرأة كأنها بنصفِ عقلٍ ، فاندفعتْ إلى الطيش والفُجور والخلاعة ، أرادوا ذلك أم لم يريدوه .

قلت : وهذا هو معنى الحديث : « عِفوا تعفَّ نساؤكم . » فإن عَفاف المرأة

لاتحفظه المرأةُ بنفسها ، مالم تتهيَّأ لها الوسائلُ والأحوالُ التى تُعينُ نفسها على ذلك ؛ وأهمُّ وسائلها وأقواها وأعظمُها ، تشدُّدُ الرجالِ فى قانون العِرض والشرف

فإذا تراخى الرجالُ ضَعُفَت الوسائل ، ومن بين هذا التراخى وهذا الضعف تنبثق حريةُ المرأة متوجِّهةً بالمرأة إلى الخير أو الشر ، على ماتكون أحوالُها وأسبابُها فى الحياة ؛ وهذه الحريةُ فى المدنية الأوربية قد عوَّدت الرجالَ أن يُغضوا ويَتسمَّحوا ، وتهافتَ النساء عندهم ، تنالُ كلٌّ منهن حكمَ قلبِها ويخضعُ الرجل ... ...

على أن هذا الذى يسميه القومُ حريةَ المرأة ، ليس حريةً إلا فى التسمية ، أما فى المعنى فهو كما ترى :

إما شُرودُ المرأة فى التماسِ الرزقِ حين لم تجد الزوجَ الذى يَعُولُها أو يَكفيها ويُقيم لها ماتحتاج إليه ، فمثلُ هذه هى حُرةٌ حريةَ النكدِ فى عيشها ، وليس بها الحريةُ ، بل هى مستعبَدةٌ للعمل شرَّ ماتُستعبَدُ امرأة .

وإما انطلاقُ المرأةِ فى عَبثاتِها وشهواتِها ، مُستجيبةً بذلك إلى انطلاق حرية الاستمتاع فى الرجال ، بمقدار مايشتريه المال ، أو تُعين عليه القوة ، أو يُسوِّغُه الطيش ، أو يجلبه التهتك ، أو تدعو إليه الفُنون ؛ فمثلُ هذه هى حرةٌ حرية سقوطِها ، وما بها الحرية ، بل يستعْبِدُها التمتع .

والثالثة حريةُ المرأة فى إنسلاخها من الدين وفضائله ، فإن هذه المدنيّة قد نسخَتْ حرامَ الأديان وحلالها بحرامٍ قانونىّ وحلالٍ قانونى ، فلا مَسْقَطة للمرأة ولا غَضاضةَ عليها قانونًا . فيما كان يُعَدُّ من قبلُ خِزْيًا أقبحَ الخِزْى وعارًا أشدَّ العار ؛ فمثل هذه هى حرةٌ حريةَ فسادِها ، وليس بها الحرية ، ولكن تستعبِدُها الفَوْضى .

والرابعةُ غَطْرَسةُ المرأةِ المتعلمة وكبرياؤُها على الأنوثة والذكورة معًا ؛

فترى أن الرجل لم يبلغ بعدُ أن يكونَ الزوجَ الناعمَ كقفَّاز الحرير في يدِها، ولا الزوجَ المؤنَّث الذي يقولُ لها نحن امرأتان ... فهي من أجل ذلك مُطْلَقةٌ مُخَلَّاة كيلا يكونَ عليها سلطانٌ ولا إمْرة؛ فمثلُ هذه حرَّةٌ بانقلاب طبيعتها وزَيْغِها، وهي مستعبَدةٌ لهوسها وشُذوذِها وضلالتها.

حريةُ المرأة في هذه المدنية، أوّلها ماشئتَ من أوصافٍ وأسماء، ولكن آخرَها دائما إما ضَياعُ المرأة وإما فَسادُ المرأة.

والدليلُ على الْتواء الطبيعةِ في المدنية، استواءُ الطبيعة في البادية؛ فالرجالُ هناك قَوَّامون على النساء، والنساءُ بهذا قوَّاماتٌ على أنفسهن؛ إذ ينتقمون للمنكر انتقامًا يَفُورُ دمًا؛ وبهذه الوحشية يقرِّرون شَرفَ العِرض في الطبيعة الإنسانية، ويجعلونه فيها كالغريزة، فيُحاجِزون بين الرجالِ والنساء أولَ شيءٍ بالضميرِ الشريف الذي يجدُ وسائله قائمةً من حوله.

* * *

قال الراوي:

وغطتْ وجهَها بيديها وقالت: إنك لاتزال تَرْجُم بالحجارة ... إن فيكَ متوحِّشًا!

قلت! بل متوحشة ...!

إنكِ أنتِ قد تكلمتِ فيَّ، فجمالك الذي يضع الإنسانَ في ساعةٍ مجنونةٍ ليتمتَّعه بطيشها، قد وضعنا نحن في ساعةٍ مفكرة وأمتَعنا بعقلها؛ وإذا قلتُ جمالك، فقد قلتُ وحيُك، إذ لاجمالَ عندي إلا مافيه وحي

أمَا قلتِ: إنك لو خُيِّرتِ في وجودك لما اخترتِ إلا أن تكوني رجلًا نابغةً يكتبُ ويفكر ويتلقى الوحيَ من الوجوه الجميلة؟

فدقتْ صدرَها بيدِها وقالت: أنا؟ أنا لم أقل هذا! ثم أفكَرَتْ لحظةً وقالت: إذا كنتَ أنت تزعمُ أني قلتُه، فأظنُّ أني قلته ...

قال (ح) : رجل ! ويكتب ! ويفكر ! ولم تقل هي شيئًا من هذا ؟ أربعُ غلطاتٍ شنيعةٍ من فساد الذوق .

قالت : بل قل : أربعُ غلطاتٍ جميلة من فنّ الذوق ؛ إن الرجل الظريفَ القويَّ الرجولة ، يجب عليه أن يغلط إذا حدَّث المرأة ...

قال (ح) : لتضحكَ منه ؟

قالت : لا ، بل لتضحكَ له ...

قلت : فلى إليك رجاء .

قالت : إن صوتَكَ يأمر ، فقل .

* * *

فماذا قلتُ لها وماذا قالت ؟ ...

الجمال البائس

٥

قلتُ لها : إن كلمةَ الكفرِ لا تكون كافرةً إذ أُكْرِه عليها من أكرِه وقلبُه مطمئنٌّ بالإيمان ، وكلمةُ الفُجورِ أهونُ منها وأخفُّ وزنا وشأنا ، ثم لا تكونُ إلا فاجِرةً أبداً ؛ إذ لا إكراهَ على هذه الدَّعارة إكراها لا اختيارَ فيه ؛ وما أولُ الدَّعارة إلا أن تمدَّ المرأةُ طَرْفَها من غير حياء ، كما يمدُّ اللصُّ يدَه من غير أمانة

ومن اضطُرَّ إلى الكفر استطاع أن يخبأَ محْرابَ المسجد فى أعماقِه فيصلّى ثمةَ ، ولكنَّ الفجورَ لا يتركُ فى النفس موضعا لدينٍ ولا إيمان ؛ إذ هو دائب فى إثارة الغرائز الطبيعية الحيوانية المسترْسِلة بلا ضابط ، فيجعلُ المرأةَ تحيا بعيدةً

عن ضميرها ، فيُضعِفُ منها أولَ ما يُضعفُ آثار الآداب والأخلاق ، فيُهلِكُ فيها أولَ ما يُهلِكُ إحساسَها بمعنى المرأة الإنسانيةِ وشعورَها بمجد هذا المعنى .

فإذا انتهت المرأةُ إلى هــذا ، لم يكن لها مبدأٌ ولا عقيدة إلا أن على غيرها أن يتحمَّلَ عواقبَ أعمالها ، وهــذه بعينها هى حالةُ المجنون جنونَ عقلِه ؛ أفلا تكون المرأةُ حينئذٍ مجنونةً جنونَ جسمها ... ؟

* * *

فساءَها ذلك وبان فيها ، ولكنها أمسكتْ على ما فى نفسها ؛ والمرأةُ من هؤلاء لا يمشى أمرها فى الناس ولا يتصلُ عيشُها إلا إذا كَثُرتْ طباعُها كثرةَ ثيابها ، فهى تخلَعُ وتلبسُ من هذه وتلك لكل يوم ولكل حالةٍ ولكل رجل ؛ فيلبعثُ منها الغضبُ وهى فى أنعم الرضى ، كما ينبعث الرضى وهى فى أشد الغيظ ، وكأن لم تغضب ولم ترضَ لأنها ليستْ لأحدٍ ولا لنفسها .

وتَسَايَرَ غضبها ، ثم قالت : كان كلامُك أن لك رجاءً إلىَّ ، فأنا أحب ... أحب أن أعلم .

قلت : وأنا كذلك أحب ... أحب أن أعلم .

فضحكتْ وسُرِّى عنها ، وثبَتتْ على شفتيها ابتسامةٌ لو جاءَ مَلَكٌ من السماء ليضعَ فى ثغرها ابتسامةً أجملَ منها ، لما وجد أجملَ منها .

ثم قالت : تُحب أن تعلمَ ماذا ؟

قلت : أحبُّ أن أعلم منكِ قصةَ هذه الحياةِ ما كان أولُها ؟

قالت : لقد قضيتَ من حكمك فينا ، ولكنك أخطأت ؛ فلكل ليلٍ مُظلمٍ كوكبُه ، والكوكبُ الوقّادُ المعلّقُ فوق ليل المرأة منا هو إيمانُها ؛ نعم إنه ليس كإيمان الناسِ فى واجباته ، لكنه كإيمان الناس فى تعزيته ، والله ربُّنا وربُّكم !

قلت : لو أُطيعَ اللهُ بمعصيته لاستقام لكِ هذا ؛ وإنما أنت تصفين الإيمانَ

الأولَ الذى كان عمـلا ، فصار ذكرى ، فصارت الذكرى أملًا ، فظننتِ الأملَ هو الإيمان !

قالت : ثم إننا جميعا مكرَهاتٌ على هذه الحياة ، فما نحن إلا صرْعَى المصادَمة بين الإرادة الإنسانية وبين القَدر

قلتُ : ولـكن لم تهفُ واحدة منكن فى غلطتها الأولى وهى مستكرَهةٌ على غلطة ؛ بل وهى راغبة فى لذة ، أو مبادرة لشهوة ، أو طالبة لمنفعة .

قالت : هذا أحدُ الوجهين ؛ أما الآخرُ فالتماسُ الرزقِ وصلاحُ العيش فالرجلُ مع الرجل، رأسُ مالِه قوَّتُه ، وعمـلُه بقوته ؛ ولـكنَّ المرأة مع الرجل ، رأسُ مالها أنوثتُها وعملُ أنوثتها ؛ وفى الوجهِ الأول — وجهِ اللذة والمنفعة — تحتالُ كلمةُ الفُجور على المرأة بكلماتٍ رقيقةٍ ساحرة ، منها الحبُّ والزواج والسعادة ، فتستسلم المرأةُ مضطرةً ليقع شىء من هذا وفى الوجهِ الثانى — وجهِ الرزق والعيش — تحتال الكلمةُ الخبيثةُ الفاجرة على المرأة المسكينة المستضعَفة بكلماتٍ رهيبةٍ قاتلة ، منها الجوعُ والفقر والشقاء ، فتسقط المرأة مضطرةً خيفة أن يقعَ شىء من هذا ؛ وفى أحدِ الوجهين يكونُ الرجلُ هو الفاجرَ لفساد آدابه ، وفى الوجه الآخر يكون الفاجرُ هو المجتمَع لفساد مبادئه !

* * *

قلت : أنا لا أنكر أن المرأة إذا سقطتْ فى هذه المدنيَّة ، لم تقع أبداً إلا فى موضع غلطةٍ من غلطات القوانين ؛ وآفةُ هذه القوانينِ أنها لم تُسَنَّ لمنع الجريمة أن تقعَ ، ولـكن للعقابِ عليها بعد وقوعها ؛ وبهذا عجزتْ عن صيانة المرأة وحفظِها ، وتركتْها لقانون الغريزة الوحشىِّ ، فى هؤلاء الوحوش الآدميين الذين يأخذهم السُّعار من هذه الرائحة التى لا يعرفونها إلا فى اثنين: المرأةِ الجميلة والذهب فما ألجأت امرأةً حاجتُها أو فقرُها إلى أحدهم ورأى عليها جمالاً ، إلا ضربه ذلك السُّعار ؛ فان استخفت بِنزَواته وتعسَّرتْ عليه ، طردَها إلى الموت ، ومنعَها أن

تعيش من قِبَله؛ وإن صَاحت له وتيسرَتْ، آراها هي وطَرد شرَفها ...

وبخلاف ذلك الدين؛ فإنه قائم على منع الجريمة وإبطال أسبابها؛ فهو في أمر المرأة يُلزِمُ الرجل واجباتٍ، ويُلزِم المجتمعَ واجبات غيرَها، ويُلزم الحكومةَ واجبات أخرى:

أما الرجل فينبغي له أن يتزوجَ، ويتحصَّنَ، ويغارَ على المرأة، ويعملَ لها؛ وأما المجتمع فيجب عليه أن يتأدَّب، ويستقيم، ويُعينَ الفردَ على واجباتِ الفضيلة، ويَتَدامَج ويشُدَّ بعضُه بعضاً؛ وأما الحكومة فعليها أن تحمِيَ المرأة، فتُعاقِبَ على إسقاطها عِقابَ الموت والألم والتشهير؛ لتُقيمَ من الثلاثة حُرَّاساً جبابِرَةً، من لا يَخشى اللهَ خَشِيها؛ فليس يمكن أبداً أن يكون في ديننا موضعُ غلطة تسقُط فيه المرأة.

قال الأستاذ (ح): صدقتَ، فالحقيقةُ التي لا امِرَاء فيها أن فكرة الفُجور فكرة قانونية، وما دام القانونُ هو أباحها بشروط، فهو الذي قررها في المجتمع بهذه الشروط؛ ومِن هذا التقرير يُقْدِمُ عليها الرجلُ والمرأة كلاهما على ثقة واطمئنان؛ ومن ثَمَّ تأتي الجُرْأةُ على اندفاع الناس إلى ماوراءَ حدود القانون، ومن هذا الاندفاع تأتي الساقطةُ بآخر معانيها وأقبحِ معانيها.

وتقريرُ سيادةِ المرأة في الاجتماع الأوربي، وتقديمُها على الرجال، والتأدبُ معها؛ كلُّ ذلك يجعلُ جراءَةَ السفهاءِ عليها جراءةً متأدِّبةً، حتى كأنَّ المتحكِّكَ منهم في امرأة يقول لها: من فضلك كوني ساقطة ... أما هنا فجراءة السفهاء جراءة وَوَقاحةٌ معاً، وذلك هو شرُّها.

القانونُ كأنما يقول للرجال: احتالوا على رضى النساء، فإن رَضينَ الجريمَةَ فلا جريمة؛ ومن هذا فكأنه يعلمهم أن بَراعة الرجلِ الفاسقِ إنما هي في الحيلة على المرأة، وإيقاظ الفطرةِ في نفسها بأساليبَ من الملَق والرياء والمكْر،

تتركها عاجزةً لا تملكُ إلا أن تذعِنَ وترضَى ؛ وبهذا ينصرف كل فاجر إلى إبداع هذه الأساليب التى تُطلق تلك الفطرةَ من حيائها، وتخرجها من عفتها، « تطبيقا للقانون » . . .

ولا سيادةَ فى اجتماعنا للمرأة ، ولكنَّ القانونَ جعلها سيدةَ نفسها ، وجعلها فوق الآداب كلِّها ، وفوقَ عقوبة القانونِ نفسه ، إذا رضيتْ ؛ إذا رضيت ماذا . . . ؟

* * *

قلتُ : فإذا كان القانونُ هنا فى مسئلتنا هذه يَعْدِلُ بالظلم ، ويَحمِى الفضيلة بإطلاق حرية الرذيلة ؛ فهو إنما يُفسد الدينَ ، ويَصرف الناسَ عن خوف الله إلى خوفِ ما يُخافُ من الحكومة وحدها ؛ وبهذا لا يكون عملُه إلا فى تصحيح الظاهر من الرجل والمرأة ، ويَدَعُ الباطن يُسِرُّ ما شاء من خُبثه وحيلتِه وفسادِه ؛ فكأنه ليس قانونا إلا لتنظيم النِّفاق وإحكامِ الخديعة ؛ فلا جَرَم كان قانونا لحالة الجريمةِ لا للجريمةِ نفسها ؛ فإذا أُخذت المرأةُ مُلايَنَةً ورِضى فهذا فجورٌ قانونىّ . . . وإن كانت الملاينةُ هى عملَ الحيلة والتدبير ، وإن كان الرضى هو أثرَ الخداع والمكر ، وإن ضاعت المرأةُ وسقَطتْ وذهب شرفُها باطلًا وألحقه الناس بما لا يكون من توبة إبليس فلا يكون أبداً ! أما إذا أُخذت المرأةُ مُكارَهَةً وغَصْبا ، فهذه هى الجريمةُ فى القانون ؛ ويسميها القانونُ جريمةَ الاعتداء على العِرض ، وهى بأن تُسمَّى جريمةَ العجز عن إرضاء المرأة ، أحقُّ وأولى !

على أن المسكينة لم تُؤخَذ فى الحالتين إلا غَصْبا ، ولكن اختلفت طريقةُ الرجلِ الغاصب ؛ فإن كلتا الحالتين لم تتأدَّ بالمرأة إلا إلى نتيجة واحدة ، هى إخراجها من شرفها ، وحرمانُها حقوق إنسانيتها فى الأسرة ، وطردُها وراءَ حدود الاعتبار الاجتماعى ، وتركُها ثَمَّةَ مُخَلاَّةً لمجارِى أمورها ، فلا يتيسرُ لها العيشُ إلا من مثل ذلك الرجل الفاجر ، فلا تكونُ لها بيئةٌ إلا من أمثاله وأمثالها ، كما

يجتمع فى الموضع الواحدِ أهلُ المصيرِ الواحدِ ، على طريقةِ القطيع فى الجزرة !

* * *

فقالت هى : الحقُّ أن هذه الجريمةَ أولها الحب ؛ وهى لاتقع إلا من بينِ نقيضَيْن يجتمعان فى المرأة معا : كِبَرُ حبها إلى مايفوتُ العقل ، وصِغرُ عقلها إلى ما ينزلُ عن الحب ؛ والمرأة تظلُّ هادئةً ساكنةً رزينة ، حتى تصادفها اللِّحاظُ الناريةُ من العين المقدَّرةِ لهـا ، فلا يكونُ إلا أن تملأها ناراً ولهبا ؛ ولتكن المرأة من هِىَ كائنةً ، فإنها حينئذ كمستودَع البارود : يَهُولُ عِظَمُه وَكِبرُه ، وهو لاشىء إذا اتصلتْ به تلك الشرارةُ المهاجِمَة .

وليست حِراسةُ المرأة شيئًا يُؤبَهُ له أو يُعتَدُّ به أو يسمَّى حراسة ، إلا إذا كانت كالتحفظ على مستودَع البارود من النار ؛ فيستوى فى وسائلها الخوفُ من الشرارة الصغيرة ، والفزَعُ من الحريق الأعظم ؛ فيُحتاطُ لاثنيهما بوسائلَ واحدة فى قَدْرٍ واحد واعتبار واحد .

وإذا تُركتِ المرأةُ لنفسها تحرسُها بعقلها وأدبها وفضلها وحريتها ، فقد تُرك لنفسه مستودَعُ البارود تحرسُه جدرانهُ الأربعةُ القوية ...

والرجالُ يعلمون أن المرأة مَظاهرَ طبيعيةً ، من الخُيَلاء والكبرياء والاعتداد بالنفس والمباهاةِ بالعفة ؛ ولكن هؤلاء الرجالَ أنفسهم يعلمون كذلك ، أن هذا الظاهرَ مخلوقٌ مع المرأة كجِلْد جسمِها الناعم ، وأن تحته أشياءَ غيرَ هـذه تعمل عملَها وتصنعُ البارودَ النسائىَّ الذى سينفجر ...

* * *

قلت : إذا كان هذا فقَبَّحَ الله هذه الحريةَ التى يريدونها للمرأة ! هل تعيشُ المرأةُ إلا فى انتظار الكلمةِ التى تحكمها بلطف ، وفى انتظار صاحب هذه الكلمة ؟

قالت : إن هذا حقٌّ لاريب فيه ، وأوسعُ النساء حريةً أضيعُهنَّ فى الناس :

وهل كالمومِسِ فى حريتها فى نفسها ؟

ولكن ياشُؤْمَها على الدنيا ! إنما هى بعينها كما قلتَ أنت : حريةُ المخلوق الذى يُترك حرًّا كالشّريد ، لتُجرِّبَ فيه الحياةُ تجاريبَها المؤلمة ؛ وماذا فى يد المرأة من حريةٍ هى حريةُ القَدَرِ فيها ؟

قلت : ولهذا لاأرجع عن رأيى أبدا : وهو أنه لاحريةَ للمرأة فى أمة من الأمم ، إلا إذا شعر كلُّ رجلٍ فى هذه الأمة بكرامة كل امرأة فيها ، بحيث لو أُهينتْ واحدةٌ ثار الكلُّ فاستقَادوا لها كأن كراماتِ الرجالِ أجمعين قد أُهينتْ فى هذه الواحدة ؛ يومئذٍ تصبح المرأة حرة ، لابحريتها هى ، ولكن بأنها محروسة بملايين من الرجال ...

فضحكتْ وقالت : (يومئذٍ) ! هذا اسمُ زمان أو اسمُ مكان ... ؟

* * *

قال الأستاذ (ح) : ولكنا أبعدْنا عن قصةِ هذه الحياة ، ماكان أولها ؟

قالت : إن الشبانَ والرجالَ علمٌ يجب أن تعلَمه الفتاة قبل أوان الحاجة إليه ؛ ويجب أن يَقرَّ فى ذهنِ كل فتاة أن هذه الدنيا ليست كالدار فيها الحب ، ولا كالمدرسة فيها الصداقة ، ولا كالمحل الذى تبتاع منه منديلا من الحرير أو زجاجةً من العطر ، فيه إكرامُها وخدمتُها .

وأساسُ الفضيلة فى الأنوثة الحياءُ : فيجب أن تعلم الفتاةُ أن الأنثى متى خرجت من حيائها وتهجّمتْ ، أى توقّحت ، أى تبذّلتْ ، استوى عندها أن تذهب يمينا أو تذهبَ شمالًا ، وتهيأتْ لكلٍّ منهما ولِأَيِّهما اتفق ؛ وصاحباتُ اليمين فى كَنَفِ الزوج وظل الأسرة وشرفِ الحياة ، وصاحباتُ الشمال ماصاحباتُ الشمال ... ؟

قلت : هذا هذا ؛ إنه الحياءُ ، الحياءُ لاغيرُه ؛ فهل هو إلا وسيلةٌ أعانت الطبيعةُ بها المرأةَ لتسموَ على غريزتها متى وجب أن تسموَ ، فلا تلقَى رجلا إلا

وفى دَمِها حارسٌ لا يَغفُل ؛ وهل هو إلا سَلْبٌ جمعته الطبيعةُ إلى ذلك الإيجاب الذى لوانطلق وحده فى نفس المرأة لاندفعتْ فى التبرج والإغراء وعَرْضِ أسرارِ أنوثتها فى المعرض العام ... ؟

قالت : ذاك أردتُ ، فكلُّ ماتراه من أساليبِ التجميل والزينة على وجوه الفَتَيات وأجسامِهن فى الطرق ، فلا تَعُدَّنه من فَرْط الجمال ، بل من قلة الحياء .

واعلم أن المرأة لاتخضعُ حقَّ الخضوع فى نفسها إلا لشيئين : حيائها وغريزتها .

قلت : يا عجبًا ! هذا أدقُّ تفسير لقول تلك المرأة العربية : « تجوعُ الحرةُ ولا تأكلُ بثَديِها ! » فإن اختَضعتْ المرأةُ للحياء كفَّتْ غريزتَها ...

قالت : ... وجعلَها الحياءُ صادقةً فى نفسها وفى ضميرها ، فكانت هى المرأةَ الحقيقيةَ الجديرةَ بالزوج والنسلِ وتوريثِ الأخلاقِ الكريمة وحفظِها للإنسانية

قلت : ومن هذا يكون الإسرافُ فى الأنوثةِ والتبرجِ أمام الرجال كَذِبًا من ضمير المرأة .

قالت : ومن أخلاقِها أيضاً ؛ ألا ترى أن أشدَّ الإسراف فى هذه الأنوثة وفى هذا التبرج لايكون إلا فى المرأة العامة ... ؟

قلت : والمرأة العامة امرأةٌ تجاريَّةُ القلب ؛ فكأن المسرفةَ فى أنوثتها وتبرجها ، هذه سبيلُها ، فهى لا تؤمَنُ على نفسها .

قالت : قد تؤمَن على نفسها ، ولكنها أبداً مُومِسُ الفكر فى الرجال ، فيُوشِكُ ألا تُؤمَن ؛ وهى رَهنٌ بأحوالها وبما يقع لها ، فقد يتقدم إليها الجرىء وقد لايتقدم ، ولكنها بذلك كأنها مُعْلِنةٌ عن نفسها أنها « مستعِدة ألا تُؤمَن » ...

قالَ (ح) : لكن يقال إن المرأة قد تتبرجُ وتتأنّث لترى نفسَها جميلةً فاتنة ، فيعجبُها حسنها ، فيسرُّها إعجابُها .

قالت : هذا كالقول إن أستاذ الرقص الذى رأيته هنا ، ينظر إلى نفسه كما ينظر رجلٌ إلى راقصةٍ تتأوّدُ وتهتزُّ وتترَجْرَج . إن هذا الرقّاص فيه الحركةُ الفنية كما هى حركةٌ ليس غير ؛ فهو كالميزَانِ أو القياسِ أو أىِّ آلات الضبط ؛ أما فتنةُ الحركة وسحرها ومعناها من المرأة الفاتنة فى وهم الرجل المفتون بها ، فهذا كلّه لا يكونُ منه شىء فى أُستاذ الرقص ، وإن كان أُستاذَ الرقص .

إن أجملَ امرأة تَبصُقُ بفمِها على وجهها فى المرآة ، إذا مُحِىَ الرجلُ من ذهنها ، أو لم يُطِلّ بعينَيه من وراء عينَيها . أو لم تكن ممتلئةَ الحواس به ، أو بإعجابه ، أو بالرغبةِ فى إعجابه : فمهما يكنْ من جمال هذه فإنها لا ترى وجهها حينئذٍ إلا كالدنيا إذا خلتْ من العدل ...

☆ ☆ ☆

قلت : ولكننا أبعدنا عن « قصة هذه الحياة ما كان أولها ! »

قالت : سأفعل ذلك لموضعِكَ عندى : إن قصتى فى الفصل الأول منها هى قصةُ جمالى ؛ وفى الفصل الثانى هى قصةُ مرض العذراء ؛ وفى الفصل الثالث هى قصةُ الغفلة والتهاوُنِ فى الحراسة ؛ وفى الفصل الرابع هى قصةُ انخداع الطبيعةِ النِّسوية المبنية على الرقة وإيجادِ الحب وتلقّيه ، والرغبة فى تنويعهِ أنواعاً للأهلِ والزوج والولد ؛ ثم فى الفصلِ الخامس هى قصةُ لؤم الرجل : كان محبا شريفًا يُقْسِمُ بالله جَهْدَ أيمانه ، فإذا هو كالمزوِّر والمحتالِ واللص وأمثالهم ممن لا يُعْرَفون إلا بعد وقوع الجريمة .

ثم سكتتْ هُنَيْهةً ، فكان سكوتها يُتِمُّ كلامَها ...

وقال (ح) : فما هو مَرَضُ العذراء الذى كان منه الفصلُ الثانى فى الرواية ؟

قالت : كلُّ عذراءَ فهى مريضةٌ إلى أن تتزوج ؛ فيجب أن يُعلِمَها أهلُها أن العلاجَ قد يكون مسموما ؛ وينبغى أن يَحُوطوها بقريب من العناية التى يُحاط المريضُ بها ، فلا يُجعَلُ ما حوله إلا ملائما له ، ويُمنَع أشياءَ وإن أحبَّها ورغِبَ فيها ، ويُكرَهُ على أشياء وإن عافها وصَدَف عنها .

قال (ح) : فيكون القانونُ الاجتماعىُّ تصديقا للقانون الدينىّ من أن الذكورةَ هى فى نفسها عَداوةٌ للأنوثة ، وأن كلَّ رجل ليس ذا رَحِمٍ مَحْرَمٍ (*) يجبُ أن يكون مرفوضًا إلا فى الحالةِ الواحدةِ المشروعةِ ، وهى الزواج

قالت : فيكون المشكلةُ الاجتماعية هى : من ذا يُرغم الذكورةَ على هذه الحالةِ الواحدةِ المشروعةِ كيلا تضيعَ الأنوثة ؟

قال : ولكن إذا كان سقوطُ الفتاة هو جنايةَ « الزواج المزوَّر » ، فما عسى أن يكون سقوطُ بعضِ المتزوجات ؟

قالت : هو جنايةُ « الزواج المنقَّح » ... تريد أنفسُهن الخبيثةُ تنقيحَ الزوج ؛ والمومِسات أشرفُ منهن ، إذ لا يعتدينَ على حق ولا يَخُنَّ أمانة .

* * *

ورفَّ على وجهها فى هذه اللحظة شُعاعٌ من الشمس كان على جبينها كصفاءِ اللؤلؤ ، ثم تحول على خدها كإشراقِ الياقوت ؛ ورأتنى أتأملُه ، فقالت : أنا مُنْتَشِيةٌ بحظّى فى هذه الساعات ؛ وهذا الشعاعُ إنما جاء يختم نورَها .

ثم كانت السخريةُ العجيبةُ أنها لم تتم كلمةَ النور حتى جاء حظُّها الحقيقىُّ من حياتها ... وهو رجلٌ يتحظَّاها : فلما أخذتْه عينُها ابتسمتْ له ابتساما من الذلّ ، لو لم تجعلْه هى ابتسامًا لكان دموعا ؛ ثم وقفتْ وما تتماسَكُ من الهم ، كأنها تمثالٌ « للجمال البائس » ؛ ثم حَيَّتْ وسلَّمتْ وودّعت ؛ وبعد « واواتٍ » أخرى ... مشت ساكنةً ومَرْآها يَضِجّ ويَبكى !

(*) يقال : ذو رحم محرم : أى لا يحل للمرأة ، كأبيها وأخيها ... الخ .

فوداعا يا أوهامَ الذكاء التى تَلمِسُ الحقائقَ بقوةٍ خالقةٍ تَزيد فيها !

ووداعا يا أحلامَ الفكرِ التى تضع مع كلّ شيءٍ شيئاً يُغيّره !

ووداعا يا حُبَّها ......

عربة اللقطاء ... (١)

جلستُ على ساحل الشاطبي فى (اسكندرية) أتأملُ البحر وقد ارتفع الضُّحَى، ولكنَّ النهارَ لَدْنٌ ناعمٌ رطيبٌ كأن الفجرَ ممتدٌّ فيه إلى الظُّهر .

وجاءت عربةُ اللُّقَطاء فأشرفَت على الساحلِ، وكأنها فى منظرها غمامةٌ تتحرك، إذ تَعلوها ظُلّةٌ كبيرة فى لون الغَيْم؛ وهى كعَربات النقل، غيرَ أنها مُسوَّرَةٌ بألواحٍ من الخشب كجوانبِ النعش تُمْسِكُ مَن فيها من الصِّغارِ أن يتدحرجوا منها إذ هى تَدرُج وتتقَلْقَل .

ووقفتْ فى الشارع لتُنْزِلَ ركْبها إلى شاطئ البحر: أُولئك ثلاثون صغيرًا من كل سَفِيحٍ ولَقِيطٍ ومَنْبوذ، وقد انكمشوا وتَضاغَطُوا، إذ لا يمكن أن تُمَطَّ العربةُ فتَسعَهم، ولكن يمكن أن يَكْبَسُوا ويتداخلوا حتى يَشْغَلَ الثلاثةُ أو الأربعةُ منهم حَيِّزَ اثنين . ومَن منهم إذا تألّم سيذهبُ فيشكو لأبيه ...؟

وتَرى هؤلاء المساكينَ خَليطًا مُلتَبِسًا يُشعِرك اجتماعُهم أنهم صَيْدٌ فى شَبكةٍ لا أطفالٌ فى عَربة، ويدلك منظرُهم البائسُ الذليلُ أنهم ليسوا أولادَ أُمّهاتٍ وآباء، ولكنهم كانوا وساوِسَ آباء وأُمهات ...

* * *

هذه العربةُ يجرُّها جوادان، أحدُهما أدهمُ والآخرُ كُمَيْت (*)؛ فلما وقفت

---

(١) كتبها من مصيفه بسيدى بشر سنة ١٩٣٥

(*) الأدهم: الأسود. والكميت: الأحمر.

لَوَى الأدهمُ عُنقَه والتفتَ ينظر : أيُفرِغون العربةَ أم يزيدون عليها ؟ . . أما الكُمَيْتُ فحرَّك رأسه وعَلَكَ لجامَه كأنه يقول لصاحبه : إن الفكرَ في تخفيف العبْء الذي تحملُه يجعلُه أثقلَ عليك مما هو ؛ إذ يُضيف إليه الهمَّ ، والهمُّ أثقلُ ماحملتْ نفس ؛ فما دمتَ في العملِ فلا تتوهَّمَن الراحةَ ، فإن هذا يُوهِن القوة ، ويَخذُلُ النشاط ، ويَجْلِبُ السأم : وإنما رُوحُ العمل الصبر ، وإنما رُوح الصبر العزم !

ورآهم الأدهمُ يُنْزِلون اللّقطاء ، فاستخفَّه الطرب وحرَّك رأسه كأنما يسخَر بالكُميت وفلسفتِه ، وكأنما يقولُ له : إنما هو النُّزُوعُ إلى الحرية ، فإن لم تكن لك في ذاتِها ، فلتكنْ لك في ذاتك ، وإذا تعذَّرَت اللذةُ عليك ، فاحتفظْ بخَيالها ، فإنه وُصْلتُك بها إلى أن تُمكِنَ وتتسهَّل ؛ ولا تجعلَنَّ كلَّ طباعِك طباعاً عاملةً كادِحةً . وإلا فأنت أداةٌ ليس فيها إلا الحياةُ كما تريدك ، وليكن لك طبعٌ شاعرٌ مع هذه الطباع العاملةِ ، فتكونَ لك الحياةُ كما تريدك وكما تريدها .

إن الدنيا شيءٌ واحدٌ في الواقع ؛ ولكنَّ هذا الشيءَ الواحدَ هو في كلِّ خيالٍ دنيَا وحدَها .

* * *

وفي العربة امرأتان تقُومان على اللّقطاء ؛ وكلتاهما تزويرٌ الأمَّ على هؤلاء الأطفال المساكين ؛ فلما سكَنَت العربةُ انحدرتْ منهما واحدةٌ وقامت الأخرى تُناوِلها الصغارَ قائلةً : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ... إلى أن تمَّ العدد وخلا قَفَصُ الدَّجاجِ من الدجاج ... !

ومشى الأطفالُ بوجوهٍ يتيمة ، يَقرأ من يقرأ فيها أنها مُستسلِمةٌ ، مُستكِينة ، مُعترِفة أن لاحقَّ لها في شيء من هذا العالَم ، إلا هذا الإحسانَ البخسَ القليل .

جاءوا بهم لينظروا الطبيعةَ والبحرَ والشمس ، فغَفَلَ الصغارُ عن كل ذلك وصرَفوا أعيُنَهم إلى الأطفالِ الذين لهم آباءٌ وأمهات ...

* * *

واكَبِدِى ! أضنَى الأسَى كَبِدِى ! فقد ضاق صدرى بعد انفساحِه ، ونالنى وَجَعُ الفكرِ فى هؤلاء التعساء ، وعَرَتْنى منهم عِلّة كدَسِّ الحمَّى فى الدم ؛ وانقلبتُ إلى مَثْوايَ ، والعربةُ وأهلُها ومكانُها وزمانُها فى رأسى .

فلما طافَ بى النومُ طاف كلُّ ذلك بى ، فرأيتُنى فى موضعى ذاك ، وأبصرتُ العربةَ قد وقفتْ ، وتحاوَرَ الأدهمُ والكُميت ؛ فلما أفرغوها وشَعَرَ الجوادان بخفّتها التفتا معًا ، ثم جمعا رأسيهما يتحدّثان !

قال الكُميت : كنتُ قبلَ هذا أجرُّ عربةَ الكلابِ التى يقتلها الشُّرْطةُ بالسُّم ، فآخذ الموتَ لهذه الكلابِ المسكينة ، ثم أرجعُ بها مَوْتَى ؛ وكنتُ أذهبُ وأجيء فى كل مَرادٍ ومُضْطَرَبٍ من شوارع المدينةِ وأزقّتها وسِكَكِها ، ولا أشعر بغير الثِّقْلِ الذى أجره ؛ فلما ابتُليتُ بعربة هؤلاء الصغارِ الذين يسمونهم اللقطاء ، أحسستُ ثقلا آخرَ وقع فى نفسى وما أدرى ماهو ؟ ولكن يُخيَّلُ إلىّ أن ظلّ كلِّ طفلٍ منهم يُثْقِلُ وحدَه عربة .

قال الأدهم : وأنا فقد كنتُ أجر عربةَ القُمامةِ والأقذار ، وما كان أقذرَها وأنتَنها ! ولكنها على نفسى كانت أطهرَ من هؤلاء وأنظف ؛ كنت أجِدُ ريحَها الخبيثةَ مادمت أجرها ؛ فإذا أنا تركتُ العربة استَرْوَحتُ النّسيم واستطعَمْت الجوّ ، أما الآن فالريح الخبيثةُ فى الزمنِ نفسِه ، كأن هذا الزمنَ قد أرْوَحَ وَأنتَنَ منذ قُرِنْتُ بهؤلاء وعربَتِهم .

قال الكُميت : إن ابنَ الحيوان يستقبلُ الوجودَ بأُمه ، إذ يكونُ وراءها كالقِطْعة المتمّمة لها ، ولا تقبلُ أُمُّه إلا هذا ، ولا يَصْرِفُها عنه صارف ، فتُرغمُ الوجودَ على أن يتقبلَ ابنها ، وعلى أن يُعطيَه قوانينَه ؛ أما هؤلاء الأطفال فقد طرَدَهم الوجودُ منه كما طرد الله آباءهم وأمهاتِهم من رحمته ؛

وقد هُدِيتُ الآن إلى أن هذا هو سرٌّ ماتشعر به ؛ فلسنا نجرُّ للناس ولكن للشياطين ...

* * *

وهنا وقف على حُوذىِّ العربةِ صديقٌ من أصدقائه فقال : مَن هؤلاء ياأبا على ؟

قال الحوذى : هؤلاءِ هؤلاءِ يا أبا هاشم !

قال أبو هاشم : سبحانَ الله ، أما تترك طبعَك فى النكتة ياشيخ ؟

قال الحوذى: وهل أعرفهم أنا ؟ هم بِضاعةُ العربة والسلام : اركبوا ياأولاد انزلوا يا أولاد . هذا كلُّ ماأسمع .

قال أبو هاشم : ولكن مابالُك ساخطاً عليهم كأنهم أولادُ أعدائك ؟

قال الحوذى : ليت شعرى من يدرى أى رجلٍ سيخرج من هذا الطفل ، وأيةُ امرأة ستكون من هذه الطفلة ؟

انظر كيف تعلقتْ هذه البنتُ وعمرُها سنتان ، فى عُنُقِ هذا الولد الذى كان من سنتين ابنَ سنتين (*) ... لا أرانى أحملُ فى عربتى أطفالًا كالأطفال الذين تحملُهم العربات إلى أبواب دُورِهم ؛ فإن هؤلاء اللقطاءَ يُحمَلُون إلى باب الملْجأ ، وهو بابٌ للحارات والسكك ، لا يأخذُ إلا منها ، فلا يُرسل إلا إليها .

أنا والله يا أبا هاشم ، ضيّقُ الصدر كاسِفُ البال من هذه المهْنة ؛ ويخيَّل إلىَّ أنى لاأحملُ فى عربتى إلا الجنونَ والفُجور والسرقةَ والقتلَ والدَّعارةَ والسكْر وعواصفَ وزوابعَ ...

قال أبو هاشم : ولكنَّ هؤلاء الأطفالَ مساكين ولا ذنبَ لهم .

قال الحوذى : نعم لاذنبَ لهم ، غير أنهم هم فى أنفسهم ذنوب ؛ إن كلَّ

(*) تعبير بالنكتة على طريقة ظرفاء البلديين من أمثال (أبى على) ، والمراد أنه ابن أربع سنوات .

واحد من هؤلاء إن هو إلا جريمة تُثبِتُ امتدادَ الإثم والشرّ فى الدنيا؛ ولدتْهم أمهاتُهم لِغَيَّة (*) ...

فقطع صاحبُه عليه وقال: وهل وَلَدْنَهُمْ إلا كما تلد سائرُ الأمهاتِ أولادَهن؟

قال: نعم، إنه عمل واحد، غير أن أحواله فى الجهتين مختلفة لا تتكافأ؛ وهل تستوِى حالُ من يشترى المتاع، ومن يسرِقُ المتاع؟

ههنا باعثٌ من الشهوة قد عجز أن يسموَ سموّه — وما سموُّه إلا الزواج — فتسفَّل وانحط، ورجَع فِسقا، وعاد أولُه على آخره: كان أولُه جُرْما فلا يزالُ إلى آخره جُرْما، ولا يزال أبداً يعودُ أولُه على آخره؛ فلما حملت المرأةُ وفاءَتْ إلى أمرِها، وذهب عنها جنونُ الرجلِ والرجلُ معا؛ انطوتْ للرجال على الثأر والحقد والضغينة، فلا يكون ابنُ العارِ إلا ابنَ هذه الشرورِ أيضا.

والأمهاتُ يُعْدِدْن لأجنَّتهن الثيابَ والأكْسِيةَ قبل أن يُولدوا، ويُهيِّئْن لهم بالفكر آمالاً وأحلاما فى الحياة، فيكْسِبْنَهم فى بطونهن شعورَ الفرح والابتهاج وارتقابَ الحياةِ الهنيئة والرغبة فى السموِّ بها؛ ولكنَّ أمهاتِ هؤلاء يُعدِدْن لهم الشوارعَ والأزقَّة منذُ البدْء، ولا تترقَّبُ إحداهن طولَ أشهرِ حملِها أن يجيئها الوليد، بل أن يتركها حيّا أو مقتولًا؛ فيورِثْنهم بذلكَ وهم أجنَّة شعورَ اللَّهفةِ والحسْرة والبُغضِ والمَقْت، ويَطبَعْنَهم على فكرة الخطيئةِ والرغبةِ فى القتل؛ فلا يكونُ ابنُ العار إلا ابنَ هذه الرذائل أيضا.

وتظل الفاسقةُ مدةَ حملها تسعةَ أشهرٍ فى إحساس خائف، مترقّب، منفردٍ بنفسِه، منعزِلٍ عن الإنسانية، ناقم، متبرِّمٍ، متستِّر: منافِق، فلو كان السَّفيحُ من أبوين كريمين لجاء ثُعبانا آدميّا فيه سُمُّه من هذا الإحساس العنيف؛ ومتى ألقتْ الفاسقةُ ذَا بطنِها (**) قطعتْه لِتَوِّه من روابط أهلِه وزمَنِه وتاريخِه،

(*) ولدته لغية: أى من سفاح. وضده: لرشدة (بفتح الراء).

(**) أى وضعت وولدت، وهو تعبير عربى بليغ.

ورمتْ به ليموت ؛ فإن هلك فقد هلك ، وإن عاش لمثلِ هذه الحياةِ فهو موت آخر شرٌّ من ذاك ، ومهما يَتَوَلّهُ الناسُ والمحسِنون، فلا يزالُ أوله يعود على آخره ؛ بما فى دَمِه وطباعِه الموروثة ؛ ولا يبرح جريمةً ممتدَّةً متطاولة ، ولا ينفكُّ قِصةً فيها زانٍ وزانيةٌ ، وفيها خطيئةٌ ولَعنة !

فهؤلاء كما رأيتَ أولادُ الجُرأة على الله ، والتعــدِّى على الناس ، والاستخفافِ بالشرائع ، والاستهزاءِ بالفضائل ؛ وهم البغضُ الخارجُ من الحب ، والوقاحةُ الآتية من الخجل ، والاستهتارُ المنبعِثُ من النَّدامة ؛ وكل منهم مسئلةُ شرٍّ تطلب حلَّها أو تعقيدَها من الدنيا ، وفيهم دِماءٌ فوَّارة تجمعُ سمومَها شيئا فشيئا كلما كبِر سنةً فسنة .

قال أبو هاشم : ألا لعنة الله على ذلك الرجلِ الفاسقِ الذى اغْتَرَّ تلك المرأةَ فاستزلَّها وهوَّرَها فى هذه المَهْواة ! أكان حق الشهوة عليه أعظمَ من حق هذا الآدمىِّ ؟ أما كان ينبغى أن يكونَ هذا الآخِرُ هو الأولَ فى الاعتبار ، فيعلمَ أن هـذا اللقيطَ المسكينَ هو سبيلُه إلى صاحبته ، وهو البلاغ إلى مايحاوله منها ؛ فيكون كأنما دخل بين الاثنين ثالثٌ يراهما ... فلعلهما يستحِيان .

قال الحوذىُّ الفيلسوف : لعنةُ الله على ذلك الرجل ، ولَعَناتُ الله كلِّها ! ولَعَنات الملائكةِ والناسِ أجمعين على تلك المرأة التى انقادتْ له واغترَّتْ به ! إن الرجلَ ليس شيئا فى هـذه الجريمة ؛ فقد كانت بَصقةٌ واحدة تُغرقُه ، وكانت صفعةٌ واحدة تَهزمه ، وكان مع المرأة الحكومةُ والشرائعُ والفضائلُ ، ومعها جهنمُ أيضا !

ألم تعلم الحمقاءُ أن الرجلَ الذى ليس زوجا لها ليس رجلا معها ، وأن الشريعةَ لو أيقنتْ أنه رجلٌ لمـا حرّمت عليها أن تخالِطه ؟ إنه ليس الرجلُ هو الذى ساوَرَ هذه المرأة ، بل هى مادةُ الحياة التى رأت فى المرأة مُستودَعها ، فتريدُ أن تقتحمَ

إلى مَقَرِّها عَنْوَةً أو خِداعا أو رِضًى أو كما يتفق ؛ إذ كان قانونُ هذه المـادة أن توجَد ، ولا شيء إلا أن توجَد ؛ فلا تعرفُ خيرا ولا شرا ، ولا فضيلة ولا رذيلة .

لأيِّهما يجب التحصين : ألِلصاعقةِ المنقضةِ ، أم للمكان الذى يُخشَى أن تنقضَّ عليه ؟ لقد أجابت الشريعةُ الإسلامية : حَصِّنوا المكان ؛ ولكن المدنية أجابت : حصِّنوا الصاعقة ... !

* * *

وكانت المرأتان المصاحبتان لجماعةِ اللّقطاءِ تتناجَيان ، فقالت الكبرى منهما :

ياحَسْرَتا على هؤلاء الصغارِ المساكين ! إن حياةَ الأطفال فيما فوقَ مادةِ الحياة ، أى فى سرورِهم وأفراحِهم ؛ وحياةُ هؤلاء البائسين فيما هو دون مادةِ الحياة ، أى فى وجودِهم فقط .

وكِبَرُ الأطفالِ يكون منه إدخالُهم فى نظام الدنيا ، وكِبَرُ هؤلاء إخراجُهم من « الملجأ » ، وهو كلُّ النظام فى دنياهم ، ليس بعدَه إلا التشريدُ والفقرُ وابتداءُ القصة المحزنة .

فقالت الصُّغرى : ولِمَ لا يفرحون كأولادِ الناس ، أليست الطبيعةُ لهم جميعا ؟ وهل تجمعُ الشمسُ أشعتَها عن هؤلاء لتُضاعِفَها لأولئك ؟

قالت الأخرى : الطبيعة ؟ تقولين الطبيعة ؟ إنكِ ياابنتى عذراء لم تبدأ فى حياتك حياةً بعد ، ولم تجاوِبى بقلبك القلبَ الصغيرَ الذى كان تحت قلبكِ تسعةَ أشهر ؛ وإنما أنتِ مع هؤلاء (موظَّفة) لا تعرفين منهم إلا جانبَ النظام وقانونَ الملجأ .

لقد ولدتُ ياابنتى خمسةَ أطفال ، وبالعينِ البليغةِ التى أنظرُ بها إليهم أنظر إلى هؤلاء ؛ فما أراهم إلا منقطعين من صِلة القلب الإنسانى : يعبَسُ لهم حتى الجوّ ، ويُظلِم عليهم حتى النور ؛ ويبدو الطفل منهم على صِغَره كأنه يحملُ الغمَّ المقبل عليه طول عمره !

يا لَهْفِى على عُودٍ أخضرَ ناعمٍ رَيَّانَ كان للثَّمَر فقيل له : كن للحَطب !

الفرحُ يا ابنتى هو شعورُ الحىّ بأنه حىٌّ كما يهوى ، ورؤيتُه نفسَه على ما يشاء فى الحياة الخاصةِ به ؛ وهؤلاء اللقطاءُ فى حياة عامّةٍ قد نُزِعَتْ منها الأمُّ والأبُ والدارُ ، فليس لهم ماض كالأطفال ، وكأنهم يبدءون من أنفسِهم لا من الآباء والأمهات .

قالت الصغيرة : ولكنهم أطفال .

قالت تلك : نعم يا ابنتى هم أطفال ، غيرَ أنهم طُرِدوا من حقوق الطفولة كما طُردوا من حقوق الأهلِ ؛ وحسبُكِ بشقاء الطفل الذى لم يَعرف من حَنان أمه إلا أنها لم تقتلْه ، ولا من شفَقتها إلا أنها طرَحتْه فى الطريق !

إن الطبيعةَ كلَّها عاجزة أن تعطِىَ أحدَهم مكاناً كالموضع الذى كان يتبوَّؤه بين أُمه وأبيه .

ليس الأطفالُ يا ابنتى إلا صُوَراً مُبهَمةً صغيرةً من كلّ جمالِ العالم ، تفسِّرها أعينُ ذويهم بكل التفاسير القلبيةِ الجميلة ؛ فأينَ أينَ العيونُ التى فيها تفسيرُ هذه الصُّور اللقيطة ؟

ألا لعنةُ الله والملائكةِ والناسِ أجمعين على أُولئك الرجال الأنذالِ الطَّغَام الذين أولدوا النساء هؤلاء المنبوذين ! يزعمون لأنفسِهم الرجولةَ ، فهذه هى رجولتُهم بين أيدينا ، هذه هى شهامتُهم ، هذه هى عقولهم ، هذه هى آدابُهم ... !

عجباً ! إن سيِّئات اللصوص والقَتلةِ كلَّها يُنسى ويتلاشى ، ولكنَّ سيئاتِ العشاقِ والمحبين تعيشُ وتكبر ...

أكان ذنبُ المرأة أنها صادقة فصدَّقتْ ، وأنها مُخلِصة فأخلصتْ ، وأنها رقيقة فلانَت ، وأنها محسنة فرَحمَتْ ، وأنها سليمةُ القلب فانخدعتْ ؟

واكَبِدى للمسكينةِ ! هل انخدعتْ إلا من ناحيةِ الأمومة التى خُلِقت لها ؟

هل انخدعتْ إلا الأمُّ التى فيها ؟ وهل خدعها من ذلك اللئيم إلا الأب الذى فيه ؟

واكَبِدِى لمن تُفجَع بالنكبةِ الواحدة ثلاثَ فجائع : فى كرامتها التى ابتُذِلتْ ، وفى الحبيب الذى تبرَّأ منها ، وفى طفلِها الذى قطعته بيدها من قلبها وتركتْهُ لما كتِب عليه ... !

إن هذا لا يُعوِّضه فى الطبيعة إلا أن يكون لكل رجل من أولئك الأنذالِ ثلاثُ أرواح ، فيُقتلَ ثلاثَ مرات : واحدةً بالشنق ، والثانيةَ بالحرق ، والثالثة بالرَّجْم بالحجارة .

* * *

وكان اللقطاءُ قد تبعْثروا على الساحل جماعات وشتَّى ، فوقف أحدُهم على طفل صغير يلعبُ بما بين يديه ، وأُمُّه على كَثَبٍ منه ، وهى تتلهَّى بالمخرَّم تتلوَّى فيه أصابعُها .

فنظر الطفل إلى اللقيط وأومأ إلى جماعته ثم قال له : أأنتم جميعا أولادُ هاتين المرأتين أم إحداهما ؟

قال اللقيط : هما المراقِبتان ؛ وأنتَ أفليستْ هذه التى معك مراقِبة ؟

قال الطفل : ما معنى مراقِبة ؟ هذه ماما !

قال الآخر : فما معنى ماما ؟ هذه مراقِبة !

قال الطفل : وكلكم أهلُ دارٍ واحدة ؟

قال : نحن فى الملجأ ، ومتى كبرنا أخذونا إلى دورِنا .

فقال الطفل : وهل تبكى فى الملجأ إذا أردت شيئاً ليعطوك ؛ ثم تغضب إذا أعطوك ليَزيدوك ؟ وهل يُسكِتُونك بالقرش والحلوى ؟ والقُبلةِ على هذا الخد وعلى هذا الخد ؟ إن كان هذا فأنا أذهب معكم إلى الملجأ ؛ فإن أبى قد ضربنى اليوم ، وقد أمر (ماما) أن لا تعطينى شيئًا إذا بكيت ، ولا تزيدنى إذا غضبت ، ولا ....

وهنا صاحت المراقبة الصغيرة : تعال يا رَقْم عشرة ... فلَوَى اللقيطُ المسكينُ وجهه ، وانْصاعَ وأدبر .

ومشَى الأطفالُ بوجوهٍ يتيمةٍ ، يقرأ من يقرأ فيها أنها مستسلِمَةٌ ، مستكِينةٌ ، معترِفة أن لاحقَ لهـا فى شيء من هـذا العالَم إلا هذا الإحسانَ البخس القليل ...

الله أكبر ! (١)

جلستُ وقد مضى هَزِيعٌ من الليل أُهَيِّئ فى نفسى بِناءَ قصةٍ أُدِيرها على فتًى كما أَحَبَّ ... خبيثٍ داعِر ، وفتاةٍ كما أحبَّتْ ... عذراءَ مُتماجِنَة ؛ كِلاهما قد دَرَسَ وتخرَّجَ فى ثلاثة مَعاهد : المدرسةِ ، والروايات الغرامية ، والسِّيما ؛ وهو مصرىٌّ مسلم ، وهى مصرية مسيحيّة . وللفتى هَنَاتٌ وسيئاتٌ لايتنزَّه ولا يتورَّع ؛ وهو مِن شبابه كالماء يغلى ، ومِن أناقتِه بحيث لم يَبْقَ إلا أن تَلْحقَه تاءُ التأنيث ... وقد تشعَّبت به فنونُ هذه المدنيّة ، فرفَع اللهُ يَدَه عن قلبه لايُبالى فى أىّ أوْدِيَتها هَلَك ؛ وهو طِلْبُ نساءٍ ، دأبُه التَّجْوالُ فى طُرقهنّ ، يتْبَعُهنَّ ويتعرضُ لهنّ ، وقد ألِفَتْه الطّرق حتّى لو تكلّمت لقالت : هذا ضَرْبٌ عجيبٌ من عَرَبات الكَنْس ... !

وللفتاة تبرُّجٌ وتهتُّك ، يَعْبَثُ بها العبَثُ نفسُه ، وقد أخرجتْها فنونُ هذا التأنث الأوربىّ القائم على فلسفة الغريزة وما يُسمّونه « الأدب المكشوف » كما يُصوِّره أولئك الكتّابُ الذين نَقَلوا إلى الإنسانية فلسفةَ الشهوات الحرّة عن البهائم الحرة ... فهى تَبْرُزُ حين تخرجُ من بيتها ، لا إلى الطريق

(١) كتبها فى الأسبوع الأخير من رمضان . وانظر ص ٢٢٠ « حياة الرافعى »

ولكن إلى نظراتِ الرجال ؛ وتَظهرُ حين تظهر، مُصوَّرة لا بتَلْوين نفسِها بما يجوزُ وما لا يجوز، ولكن بتلوين مرآتها بما يُعجِب وما لا يُعجِب .

وَكِلا اثنَيْهما لا يُقيم وزنا للدين، والمسلم والمسيحيّ منهما هو الاسمُ وحده؛ إذ كان مِن وَضْع الوالدين (رحمهما الله !) ؛ والدِّينُ حرّية القَيد لا حرّية الحرية ؛ فأنت بعد أن تُقيِّدَ رذائلك وضَراوتكَ وشرّك وحيوانيّتك — أنت مِن بعد هذا حرٌّ ما وَسِعَتْك الأرضُ والسماءُ والفكر؛ لأنك من بعدِ هذا مُكَمِّلٌ للإنسانيّة، مستقيم على طريقها؛ ولكن هَبْ حِماراً تَفَلْسَفَ وأراد أن يكونَ حرًّا بعقله الحماريّ ، أيْ تقرير المذهب الفاسق الحماريّ في الأدب ؛ فهذا إنما يبتغي إطلاقَ حريته، أي تسليطَ حِمَارِيَّتِهِ الكاملة على كل مايتصل به من الوجود !

وتمضِي قصّتي في أساليبَ مختلفة تَمْتَحِنُ بها فنونُ هـذه الفتاة شهَواتِ هذا الفتى، فلا يزال يَمشي مِن حيث لا يصل، ولا تزال تمنعه من حيث لا تردُّه؛ وما ذلك من فضيلةٍ ولا امتناع، ولكنها غريزة الأنوثةِ في الاستمتاع بسُلطانها وإثباتِها للرجل أن المرأة هي قوّة الانتظار وقوّة الصبر؛ وأن هذه التي تحمل جنينَها تسعةَ أشهر في جوفها، تُمسِكُ رغبتَها في نفسها مدّة حَملٍ فكْريّ إذا هي أرادت الحياة لرغبتها، ليكونَ لوقوعها وتحقُّقها مثلُ الميلاد المُفْرِح .

ولكنَّ الميلادَ في قصتي لا يكون لرذيلة هذه الفتاة، بل لفضيلتها؛ فإن المرأة في رأيي — ولو كانت حياتُها محدودة من جهاتها الأربع بكبائرِ الإثم والفاحشة — لا يزال فيها من وراء هـذه الحدود كلّها قلبُ طبيعتُه الأمومة، أيْ الاتصالُ بمَصدر الخَلْق، أي كلُّ فضائل العقيدة والدين؛ وما هو إلا أن يتنبه هذا القلبُ بحادثٍ يتّصلُ به فيبلغُ منه، حتى تتحوّلَ المرأة تحوُّلَ الأرض من فصلها المقشعِرِّ الجديب، إلى فصلها النَّضِر الأخضر.

فى قصتى تُذعِنُ الفتاة لصاحبها فى يوم قد اعترتها فيه مخافة، ونزلَ بها همٌّ، وكادتها الحياةُ من كَيدِها؛ فكانت ضعيفةَ النفس بما طرأ عليها من هذه الحالة. وتخلو بالفتى وفكرُها منصرِفٌ إلى مَصدر الغيب، مؤمِّلٌ فى رحمة القَدَر؛ ويَخلِبُها الشابُّ خَلَابةَ رُعُونتِه وحبِّه ولسانِه، فيعطيها الألفاظَ كلَّها فارغةً من المعانى، ويُقِرُّ بالزواج وهو مُنطَوٍ على الطَّلاق بعد ساعة؛ فإذا أوشكتِ الفتاة أن تُصرَعَ تلك الصَّرعةَ دَوَّى فى الجوّ صوتُ المؤذّن: «الله أكبر!»

وتُلْسَعُ الفتاة فى قلبها، وتتصلُ بهذا القلب رُوحانيّةُ الكلمة، فتقعُ الحياة السماويةُ فى الحياة الأرضية، وتنتبه العذراءُ إلى أن الله يَشْهَدُ عارَها، ويَفْجَؤُها أنها مُقدِمةٌ على أن تُفسِدَ من نفسها مالا يُصلِحُه المستحيلُ فضلا عن الممكنِ، وترنو بعينِ الفتاة الطاهرة من نفسها إلى جسمِ بَغِيٍّ ليستْ هى تلك التى هى؛ وتنظر بعين الزوجة من صاحبها إلى فاسقٍ ليس هو ذاك الذى هو؛ ويَحْكى لها المكانُ فى قلبها المفطورِ على الأمومة، حكايةً تثُور منها وتشمئزّ؛ ويَصْرُخُ الطفلُ المِسكينُ صَرْختَه فى أذنها قبل أن يُولَدَ ويُلْقى فى الشارع ... !

الله أكبر! صوتٌ رهيبٌ ليس من لغةِ صاحبِها ولا من صَوْتِهِ ولا من خِسّته، كأنما تُفرِغُ السماءُ فيه مِلْءَ سحابةٍ على رِجْسِ قلبها فتُنقِيه حتى ليس به ذَرّةٌ من دَنَسِهِ الذى رَكِبَهُ الساعة. كان لصاحبها فى حِسّ أعصابها ذلك الصوتُ الأسودُ المنطفئُ المبهَم المتَلَجْلِجُ بما فيه من قوّة شهواته؛ وكان للمؤذّن صوتٌ آخر فى رُوحها: صوتٌ أحمرُ مشتعلٌ كمَعْمَعَةِ الحَريق، مُجَلْجِلٌ كالرعد، واضحٌ كالحقيقة فيه قوّةُ الله!

سمعتْ صوتَ السِّلسلةِ وقَعْقَعَتَها تُلوَى وتَشَدُّ عليها، ثم سمعتْ صوتَ السلسلة بعينها يُكسَرُ حديدُها ويتحطّمُ.

كانت طهارتُها تختنِقُ فنفذتْ إليها النَّسَمات؛ وطارت الحمامةُ حين دعاها

صوتُ الجوّ بعد أن كانت أسَفَّتْ حين دعاها صوتُ الأرض؛ طارت الحمامة لأن الطبيعةَ التفتتْ فيها لفتةً أخرى.

ويكرِّر المؤذِّنُ في ختام أذانه: «الله أكبرُ الله أكبر!» فإذا ...

* * *

وتبلَّدَ خاطرى فوقفتُ في بناء القصَّة عند هذا الحد، ولم أدرِ كيف يكون جوابُ «إذا ...» فتركتُ فكرى يعمل عَمَله كما تلهمه الواعية الباطنة، ونِمْت... (١)

ورأيت في نومى أنى أدخل المسجدَ لصلاة العيد وهو يَعُجُّ بتكبير المصلين: «الله أكبرُ الله أكبر!» ولهم هديرٌ كهدير البحرِ في تلاطُمِه؛ وأرى المسجدَ قد غَصَّ بالناس فاتّصلوا وتلاحموا: تجدُ الصفَّ منهم على استوائه كما تجد السطرَ في الكتاب: ممدودا محتَبِكا ينتظمه وضعٌ واحد؛ وأراهم تتابعوا صفًّا وراء صفّ ونَسَقا على نَسَق، فالمسجدُ بهم كالسُّنْبُلَةِ مُلِئت حبًّا ما بين أوّلها وآخرِها، كلُّ حبة هى في إِلْف من أهلِها وشملِها، فليس فيهن على الكثرة حَبَّةٌ واحدة تُميِّزُها السنبلة فَضْلَ تمييز، لا في الأعلى ولا في الأسفل.

وأقف متحيِّراً مُتَلَدِّدا ألتفتُ ههنا وههنا، لا أدرى كيف أخلص إلى موضع أجلس فيه؛ ثم أمضِى أتخطَّى الرِّقابَ أطمع في فُرْجةٍ أقتحمها وما تنفرج، حتى أنتهِيَ إلى الصفِّ الأوّل؛ وأنظرُ إلى جانب المِحراب شيخا بادنًا يملأ موضعَ رَجلين، وقد نَفَح منه ريحُ المِسك، وهو في ثيابٍ خُضْرٍ من سندسٍ؛ فلما حاذَيْتُه جمَع نفسَه وانكمش فكأنما هو يُطوَى طيًّا، ورأيت مكانًا وَسِعَنى، فحططت فيه إلى جانبه وأنا أعجَبُ للرجل كيف ضاق ولم أُضيِّق عليه، وأين ذهبَ نِصفُه الضخم وقد كان بعضه على بعضه زِيَمًا على زِيَمٍ (*) وامتلاءً على امتلاء وجعلت أحدُسُ عليه ظنى، فوقع في نفسى أنه مَلَكٌ من ملائكة الله قد

---

(١) انظر ص ٢٢٠ «حياة الرافعى»

(*) أى كتلا على كتل، والزيم: المتفرّق من اللحم

تمثّل فى الصورة الآدمية فاكتتمَ فيها لأمرٍ من الأمر .

وضجَّ الناسُ : « اللهُ أكبرُ اللهُ أكبر ! » فى صوتٍ تقشعرُّ منه جُلود الذين يخشَوْنَ ربَّهم ، غير أن الناسَ بما ألِفوا الكلمةَ وبما جهلوا من معناها — لايسمعونها إلا كما يسمعون الكلام ؛ أما الذى إلى جانبي فكان ينتفضُ لها انتفاضةً رجَّتْنِي معه رَجًّا ؛ إذ كنتُ ملتصِقا به مُناكِبا له ؛ وكأنَّ المسجدَ فى نَفْضه إيانا كان قِطارا يجرِى بنا فى سرعة السحاب فكلُّ مافيه يرتج ويهتزّ ؛ ورأيتُ صاحبي يذْهَل عن نفسه ، ويتلألأ على وجهه نورٌ لكل تكبيرة ، كأن هناك مصباحا لايزال ينطفئ ويشتعل ؛ فقطعتُ الرأى أنه من الملائكة .

ثم أُقيمت الصلاةُ وكبَّر الإمام وكبَّر أهلُ المسجد ، وكنتُ قرأتُ أن بعضهم صلّى خلْفَ رجلٍ من عظماء النفوس الذين يعرفون الله حقَّ معرفته ؛ قال : فلما كبَّرَ قال : « اللهُ ... » ثم بُهِتَ وبقى كأنه جَسَدٌ ليس به رُوح من إجلاله لله تعالى ؛ ثم قال : « أكبر » يَعْزِم بها عَزْماً ، فظننتُ أن قلبي قد انقطعَ من هيبة تكبيرِه .

قلتُ أنا : أما الذى إلى جانبي ، فلما كبّر مدّ صوته مدّا ينبثق من رُوحه ويستطير ، فلو كان الصوتُ نورا لَملأ مابين الفجر والضُّحى .

* * *

وعرفت والله من معنى المسجد مالم أعرف ، حتى كأنى لم أدخله من قبل ، فكان هذا الجالسُ إلى جانبي كضوء المصباح فى المصباح ؛ فانكشفَ لى المسجدُ فى نوره الرُّوحىّ عن معانٍ أدخلتْنى من الدنيا فى دُنْيا على حِدَة ؛ فما المسجدُ بناءً ولا مكاناً كغيره من البناء والمكان ، بل هو تصحيحٌ للعالَم الذى يَموجُ من حَوْله ويضطرب ؛ فإن فى الحياة أسبابَ الزَّيغ والباطل والمنافَسة والعداوة والكَيْدِ ونحوها ، وهذه كلُّها يمحوها المسجدُ ؛ إذ يجمع الناسَ مرارا فى كلّ يوم على سلامةِ الصدر ، وبراءةِ القلب ، وروحانيّةِ النفس ؛ ولا تدخله إنسانيةُ الإنسان

إلا طاهرةً منزَّهة مُسْبِغَةً على حدود جسمها من أعلاه وأسفلِه شِعارَ الطُّهرِ الذى يُسمَّى الوضوء ، كأنما يغسلُ الإنسان آثار الدنيا عن أعضائه قبل دخوله المسجد .

ثم يستوى الجميعُ فى هذا المسجد استواءً واحدا ، ويقفونَ موقفا واحدا ، ويخشعون خشوعا واحدا ، ويكونون جميعا فى نفسيَّةٍ واحدة ؛ وليس هذا وحدَه ، بل يَخِرُّون إلى الأرض جميعا ساجدين لله فليس لِرأسٍ على رأسٍ ارتفاع ، ولا لوجهٍ على وجهٍ تمييز ؛ ومِن ثمَّ فليس لِذاتٍ على ذاتٍ سلطان . وهل تُحقِّق الإنسانية وَحْدَتها فى الناس بأبدعَ من هذا ؟ ولعمرى أين يجدُ العالَمُ صوابَه إلا ههنا ؟

فالمسجد هو فى حقيقته موضعُ الفكرةِ الواحدةِ الطاهرة المصحّحة لكلِّ ما يَزِيغُ به الاجتماع ؛ هو فِكْرٌ واحدٌ لكلِّ الرءوس ؛ ومن ثَمَّ فهو حل واحدٌ لكلِّ المشاكل ؛ وكما يُشقّ النهرُ فتقفُ الأرض عند شاطئيه لا تتقدم ، يُقام المسجدُ فتقفُ الأرضُ بمعانيها الترابيّة خلف جدرانه لا تدْخُله .

* * *

وما حَرَكةٌ فى الصلاة إلا أوّلُها « الله أكبر » وآخرُها « الله أكبر » ؛ ففى ركعتين من كلِّ صلاة إحدى عشرةَ تكبيرةً يَجْهَرُ المصلُّون بها بلسانٍ واحد ؛ وكأنى لم أفطن لهذا من قبل ، فأىُّ زِمامٍ سياسىٍّ للجماهير وروحانيَّتها أشدُّ وأوثقُ من زمام هذه الكلمة التى هى أكبرُ ما فى الكلام الإنسانىّ ؟

* * *

ولما قُضِيَت الصلاةُ سلَّمْتُ على المَلَك وسَلَّم علىّ ، ورأيتُه مقبِلا محتفيا ، ورأيتُنى أثيرا فى نفسه ، وجالت فى رأسى الخواطرُ ، فتذكَّرتُ القصةَ التى أريد أن أكتبَها ، وأنَّ المؤذِّنَ يكرر فى خاتمة أذانِه : « الله أكبرُ الله أكبر » فإذا ...

وقلت : لأسْألَنَّه ؛ وما أعظم أن يكونَ فى مقالتى أسطرٌ يُلْهِمها مَلَكٌ من الملائكة ! ولم أكد أرفعُ وجهى إليه حتى قال :

... فإذا لَطْمتان على وجه الشيطان ، فوَلّى مُدْبِراً ولم يُعَقِّبْ ؛ ووَضعتِ الكلمةُ الإلٰهيّةُ معناها فى موضعه من قلب الفتاة ، فَلأْيًا بِلأْيٍ مانجَتْ .

إن الدينَ فى نفس المرأة شعورٌ رقيق، ولكنه هو الفُولاذُ السميكُ الصُّلْب الذى تُصفَّح به أخلاقُها المدافِعة .

الله أكبر ! أتدرى ماذا تقول الملائكة إذا سمعت التكبير ؟ إنها تنشدُ هذا النشيد :

* * *

بَيْنَ الوقتِ والوقتِ من اليوم تدُقُّ ساعةُ الإسلام بهذا الرَّنين : الله أكبرُ الله أكبر ، كما تدقّ الساعة فى موضعٍ ليتكلمَ الوقتُ برنينها .

* * *

الله أكبر ! بَيْنَ ساعاتٍ وساعاتٍ من اليوم تُرْسِلُ الحياة فى هــذه الكلمة نداءَها تهتِفُ : أيها المؤمن ! إن كنتَ أصبْتَ فى الساعات التى مضتْ ، فاجتهدْ للساعات التى تتلو ؛ وإن كنتَ أخطأتَ فكفِّرْ وامْحُ ساعةً بساعة ؛ الزمن يمحو الزمن ، والعملُ يغيِّر العمل ، ودقيقةٌ باقيةٌ فى العمر هى أملٌ كبير فى رحمة الله .

* * *

بين ساعاتٍ وساعاتٍ ، يتناولُ المؤمن ميزانَ نفسه حين يسمع : الله أكبر ، ليعرفَ الصِّحّةَ والمرضَ من نِيَّتِه ، كما يَضَعُ الطبيب لمريضه بينَ ساعاتٍ وساعاتٍ ميزانَ الحرارة .

* * *

اليومُ الواحد فى طبيعة هذه الأرض عُمْرٌ طويلٌ للشرّ ، تكاد كلُّ دقيقةٍ بشرّها تكون يومًا مخزومًا بليْلٍ أسود ؛ فيجب أن تقسمَ الإنسانيّةُ يومها بعدد قارّات الدنيا الخَمْس ؛ لأن يومَ الأرض صورةٌ من الأرض ، وعند كلِّ قسم : من الفجر ، والظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعِشاء — تصيح الإنسانيةُ المؤمنةُ مُنَبِّهةً نفسَها : الله أكبر ، الله أكبر !

* * *

بين ساعات وساعاتٍ من اليوم يَعرِض كلُّ مؤمن حسابه، فيقومُ بين يَدَيِ الله ويرفعه إليه؛ وكيف يكون مَن لايزال ينتظر طولَ عُمره فيما بين ساعاتٍ وساعاتٍ — الله أكبر ...؟

* * *

بين الوقتِ والوقتِ من النهار والليلِ تُدَوِّى كلمةُ الروح: الله أكبر! ويُجيبها الناسُ: الله أكبر! ليعتادَ الجماهير كيف يقادُون إلى الخير بسهولة، وكيف يحقّقون فى الإنسانية معنى اجتماع أهل البيت الواحد؛ فتكون الاستجابةُ إلى كل نداءٍ اجتماعيٍ مغروسةً فى طبيعتهم بغير اسْتِكْراه.

* * *

النفسُ أسْمى من المـادّةِ الدنيئة، وأقوى من الزمن المخرِّب، ولا دِينَ لمن لاتشمئزُّ نفسُه من الدناءة بأَنفَةٍ طبيعية، وتحمل همومَ الحياة بقوةٍ ثابتة.

لاتضطربوا، هذا هو النظام؛ لاتنحرفوا، هذا هو النَّهْج؛ لاتتراجعوا، هذا هو النداء. لن يَكْبرَ عليكم شيءٌ مادامت كلمتُكم: الله أكبر...

فى اللهب ولا تحترق (١)

أفى الممكن هذا؟

لَعُوبٌ حَسَنةُ الدَّلّ، مُفاكِهة مُداعِبة، تُحيي ليالَها راقصةً مغنية، حتى إذا اعتدل الليلُ ليمضى، وانتبه الفجر ليُقْبِل — انكفأت إلى دارها فنَضَتْ وَشْيها، وخرجتْ من زينتها، وخلعتْ رُوحا ولبست روحا، وقالت: اللهم إليك، ولبيّك اللهم لبّيك! ثم ذهبتْ فتوضأَت وأفاضتْ النورَ عليها، وقامتْ بين يدى ربها تصلى ... !

---

(١) انظر قصة هذه الراقصة وما كان من شأنها وشأنه ص١٩٢ - ١٩٥ «حياة الرافعى»

* * *

هى حسناء فاتنة ، لو سَطَع نورُ القمر من شىء فى الأرض لسطع من وجهها ، وما تراها فى يوم إلا ظهرت لك أحسنَ مما كانت ؛ حتى لتظن أن الشمسَ تَزيد وجهَها فى كل نهار شُعاعةً ساحرة ، وأن كلَّ فجر يترك لها فى الصبح بَرِيقًا ونَضْرةً من قطَرات النَّدى

وتحسبُ أن لها دمًا يَطْعم فيما يَطعم أنوارَ الكواكب ، ويشرب فيما يشرب نسماتِ الليل .

وإذا كانت فى وَشْيها وتَطارِيفها وأصباغِها وحِلاها ، لم تجدها امرأة ، ولكن جَمرةً فى صورة امرأة ؛ فلها نورٌ وبَصيص ولهَب ، وفيها طبيعة الإحراق ... إن الذى وضَع على كل جمال ساحرٍ فى الطبيعة خاتَمَ رهْبة ، وضع على جمالها خاتَمَ قُرص الشمس .

فإذا رأيتَها بتلك الزينة فى رقصها وتَثَنِّيها ، قلتَ : هذه روضة مُفْتَنَّة اشتهتْ أن تكونَ امرأة فكانت ، وهذا الرقصُ هو فنُّ النسيم على أعضائها .

وهى متى نفذتْ إلى البقعة المجدِبةِ من نفسك أنشأتْ فى نفسك الربيعَ ساعة أو بعض ساعة .

وتنسجم أنغامُ الموسيقى فى رشاقتها نَغْمةً إلى حركة ؛ لأن جسمَها الفاتن الجميلَ هو نفسُه أنغام صامتة تُسمَع وتُرى فى وقتٍ معا .

وتنسكبُ روحُها الظريفةُ بين الرقص والموسيقى ، لتُخرج لك بظَرفها صراحةَ الفن من إبهامين كلاهما يُعاوِن الآخر .

وهى فى رقصها إنما تفسر بحركات أعضائها أشـــواقَ الحياة وأفراحها وأحزانَها ، وتزيد فى لغة الطبيعة لغةَ جسم المرأة .

وكأن الليلَ والنهارَ فى قلبها ؛ فهى تبعث للقلوب ماشاءت ضَوءاً وظلمة .

وهى إلى القِصَر ، غير أنك إذا تأملتَ جمالها وتمامَها حسبتَها طالت لساعتها ؛

وإلى النحافة ، غير أنك تنظر فإذا هى رابيـةٌ كأن بعضها كان مختبئا فى بعض .

ويخيل إليك أحيانًا فى فنٍّ من فنون رقصها أن جسمَها يتثاءب برعشـةٍ من الطرب ، فإذا جسمُك يهتزّ بجوابِ هذه الرّعشة ، لايملك إلا أن يتثاءب ...

ويُجَنّ رقصُها أحيانًا ، ولـكن لتحقّقَ بجنونِ الحركة أن العقل الموسيقىّ يُصرِّف كل أعضاء جسمها .

ومهما يكن طيشُ الفنّ فى تأوُّدها ولفتتها ونظرتِها وابتسامِها وضحكها ــ ففى وجهها دائما علامةٌ وقارٍ عابسةٌ تقول للناس : اِفْهَمونى !

* * *

ولمـا رأيتها شَهد قلبي لها بأن على وجهها مع نور الجمال نورَ الوضوء ؛ وأنها متحرّزة ممتنعة فى حصنٍ من قلبها المؤمن يبسط الأمنَ والسلامةَ على ظاهرها ؛ وأن لهـا عيناً عذراءَ لاتحاول التعبير ، لاسؤالاً ولا جوابا ولا اعتراضا بينهما ؛ وأن قوةَ جمالها تستظهِرُ بقوة نفسها ، فيكونُ ما فى جمالها شيئا غير ما فى النساء ، شيئا عبقريا بالغَ القوة ، يكُف الدواعى ، ويَحْسِمُ الخواطر ، ويُرغمُ الإعجابَ أن يكون ذُهولا وحَيرة ، ويكرِه الحبَّ أن يرجعَ مَهابة واحتشاما .

والرواية كلُّها فى باطنها تظهر على ضوءٍ من مصـباح قلبها ، وما وجهُها إلا الشاشةُ البيضاء لهذه « السيما » ، وهل يـكون على الوجه إلا أخيـلةُ القلبِ أو الفـكر ؟

وعندى أن المرأةَ إذا كان لها رأىٌ دينىٌّ ترجعُ إليه ، وكان أمرها مجتمِعا فى هذا الرأى ، وكانت أخلاقُها محشودةً له متَحفِّلةً به — فتلك هى الياقوتة التى تُرمَى فى اللهب ولا تحترق ، وتظل فى كل تجربةٍ على أولِ مُجاهدتِها ؛ إذ يكون لها فى طبيعة تركيبها الياقوتىّ ماتهزم به طبيعةَ التركيب النارىّ .

وليس من امرأة إلا وقد خلق الله لهـا طبيعةً ياقوتية ، هى فطرتها الدينية

التى فيها : إن بقيتْ لها هذه بقيتْ معها تلك ؛ ولكنها حين تنخلع من هذه الفطرة تخذلها الفطرة والطبيعةُ معا ؛ فيجعلُ الله عِقابها فى عماها . ويَكِلُها إلى نفسها فإذا هى مقبلةٌ على أغلاطها ومَساوِئها بطُرُقٍ عقلية إن كانت عالمة ، وبطرق مفضوحة إن كانت جاهلة ، وما بُدٌّ أن تستَمِرَّ بطباع إما فاسدة وإما فيها قوةُ الاستحالة إلى الفساد ؛ ويرجعُ ضميرُها الخالى محاولًا أن يمتلئ من ظاهرها ، بعد أن كان ظاهرها هو يمتلئ من ضميرِها ، وتصبح المرأةُ بعد ذلك فى حكم أسباب حياتها ، مصرَّفةً بهذه الأسباب ، خاضعةً لما يُصرِّفها ؛ ويذهبُ الدِّين وينزل فى مكانه الشيطان ، ويزولُ الاستقرارُ ويحلُّ فى محله الاضطراب ، وتنطفئ الأشعةُ التى كانت تذيب الغُيوم وتمنعها أن تتراكم ، فإذا الغيومُ ملتفٌّ بعضُها على بعض ؛ وتُخذَلُ القوةُ السامية التى كانت تنصر المرأة على ضعفها فتنصرُها بذلك على أقوى الرجال ، فإذا المرأةُ من الضعف إلى تهافُت ، تَغلبُها الكلمةُ الرقيقة ، وتغترُّها الحيلةَ الواهنة ، وتوافقُ انخداعَها كلُّ رغبةٍ مزيَّنة ، ويستذلها طمعُها قبل أن يستذلها الطامعُ فيها ؛ ولتكنْ بعد ذلك مَن هى كائنة أصلًا وحسبًا وتهذيبا وعقلا وأدبًا وعلمًا وفلسفة ، ولو أنها امرأةٌ من « الأسمنت المسلَّح » لتفتّتتْ بالطبيعة التى فى داخِلها ، مادامت الطبيعةُ متوجهةً إلى الهدم بعد أن فقدت ما كان يمسكها أن تَهدِمَ وأن تنهدم .

لقد رقَّ الدينُ فى نسائنا ورجالنا ؛ فهل كانت علامة ذلك إلا أن كلمةَ : « حرام وحلال » قد تحولت عند أكثرهم وأكثرهن إلى « لائق وغير لائق » ، ثم نزلتْ عند كثير من الشبان والفتيات إلى « معاقَبٍ عليه قانونا ومباح قانونا ... » ثم انحطت آخِراً عند السواد والدَّهماء إلى « ممكن وغير ممكن..... » ؟

* * *

قالت الياقوتة ، أعنى الراقصة :

— : أخذنى أبى من عهد الطفولة بالصلاة ، وأثبت فى نفسى أن الصلاةَ

لاتصحّ بالأعضاء إن لم يكن الفكرُ نفسُه طاهراً يصلّى لله مع الجسم ، فإن كانت الصلاة بالجسم وحده لم يزدد المرءُ من رُوح الصلاة إلا بعداً . وقَرَّ هذا فى نفسى واعتقدته ؛ إذ كنتُ أتعبَّد على مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه ، فأصحح الفكرَ ، وأستحضرُ النيَّةَ فى قلبى ، وأنحصرُ بكلّى فى هذا الجزء الطاهر قبل أن أقولَ : « الله أكبر » ؛ وبذلك أصبح فكرى قادراً على أن يخلَع الدنيا متى شاء ويلبسها ، وأن يخرجَ منها ثم يعودَ إليها ؛ ونشأتْ فيه القوة المصمِّمة التى تجعلُه قادراً على أن ينصرفَ بى عما يُفسِدُ رُوحَ الصلاة فى نفسى ، وهى سرُّ الدين وعمادُه .

ويالها حكمةً أنْ فرَضَ الله علينا هذه الصلوات بين ساعاتٍ وساعات ، لتبقَى الروح أبداً إما متصلةً أو مهيَّأةً لتتصل ؛ وان يَعجزَ أضعفُ الناس مع روح الدين أن يملِكَ نفسَه بضعَ ساعات ، متى هو أقرَّ اليقينَ فى نفسه أنه متوجّه بعدها إلى ربه فخاف أن يقفَ بين يديه مخطئاً أو آثماً ؛ ثم هو إذا ملك نفسَه إلى هذه الفريضة ذكر أن بعدها الفريضةَ الأخرى ، وأنها بضعُ ساعات كذلك ، فلا يزال من عزيمة النفسِ وطهارتها فى عُمرٍ على صيغةٍ واحدة لايتبدّل ولا يتغيّر ، كأنه بجملته — مهما طال — عملُ بضع ساعات .

قالت الياقوتة : ورأيتُ أبى يصلى ، وكذلك رأيت أُمِّى ، فلا تكاد تُلِمّ بى فكرة آثمة إلا انتصبا أمامى ، فأكره أن أستلئِمَ إليهما فأكونَ الفاسدةَ وهما الصالحان ، واللئيمةَ وهما الكريمان ؛ فدمِى نفسُه - ببركة الدينِ - يحرسُنى كما ترى .

قلت : فهذا الرقص ... ؟

قالت : نعم ، إنه قُضِىَ علىّ أن أكونَ راقصة ، وأن ألتمسَ العيشَ من أسهلِ ثلاثِ طُرُقٍ وأليَنِها وأبعدِها عن الفساد ، وإن كان الفساد ظاهِرَها ؛ أريد : الرقص ، أو الخدمةَ فى بيت ، أو العملَ فى السوق . وأنا مُطيقةٌ لحربى

فى الأولى ، ولكنى لن أملكَها فى الأخيرتين مادام عَلَىّ هذا الميسم من الحسن ؛ وكم من امرأة متحجِّبة وهى عاريةُ الروح ، وكم من سافرة وروحها متحجِّبة ؛ إن كنتَ لا تعلم هذا فاعلمه ؛ وليس السؤال ماسألتَ ، بل يجب أن يكون وضعه هكذا : هل ماترى هو فى ثيابى فقط ، أو هو فى ثيابى ونفسى ؟

ها أنتَ ذا تُغلْغِلُ نظرتك فى عينىَّ إلى المعانى البعيدة ، فهل تَرى عينىْ راقصة ؟

قلت : لا والله ، ما أرى عينىَْ راقصة ، ولكنْ عينىَ مُجاهِد فى سبيل الله ... ! فاستضحكتْ وقالت : بل قل : عينىَ مجاهدٍ يهزم كلَّ يوم شيطاناً أو شياطين !

إنى لأَرقصُ وأغنّى ، ولكن أتدرى ما الذى يُحْرِزُنى من العاقبة ، ويحمينى من وباء هذا الجمهور المريضِ النفس ؟ فاعلم أنى لا أشعر بالجمهور ولا بِرُوح المسرح إلا كما أشعر بروح المقبرة والمشيِّعين إليها ؛ فهيهات بَعْد ذلك هيهات ! ومِن هذا لاأُحِس بقلوبهم ولا بشهواتهم ، وما أنا بينهم إلا كالتى تؤدّى عملا فنيًّا على مَلإٍ من الأساتذة الممتحِنين ، والنَّظّارَةُ يحكمون لها أو عليها ؛ فهى فى فكرة الامتحان وهم لأنفسهم فيما شاءوا ...

ولست أنكر أن أكثرهم ، بل جميعَهم ، يخطئ فى طريقة تناوله السيَّالَ الكهربائى المنبعثَ من نفسى ، ولكن لاعَلَىَّ ، فهذا السيالُ نفسُه ينبعث مثلُه من الزهر ، ومن القمر والكواكب ، ومن كل امرأة جميلة تمشى فى الطريق ، ومن كل جميل فى الطبيعة ، وحتى من الأمكنة والبقاع إذا كان لإنسان فيها ذكرياتٌ قديمة ، أو نبَّهتْ ببعضِ معانيها بعضَ معانيه !

قالت الياقوتة : فأنا كما ترى أضطربُ وجوهًا من الاضطراب فى جذْب الناس ودَفْعهم معاً . وإذا سَلِمت المرأةُ من أن يغلبَها الطمع على فكرها ،

سلِمتْ من أن يغلبها الرجل على فضيلتها . وفى النساء حواسُّ مغناطيسية كاشِفَةٌ منبِّهةٌ خُلقت فيهن كالوقاية الطبيعية لتسلَمَ بها المرأةُ من أن تُخطِرَ عِفتَها لغرض ، أو تُغرِّر بنفسها لإنسان ؛ فإنك لتكلم المرأة وتزيّن لها ماتزيّن ، وهى شاعرةٌ بما فى نفسك ، وكأنها ترى مافى قلبك ينشأ ويتدرَّجُ تحت عينيها وكأنه فى وِعاء من الزجاج الرقيق الصافى تحمله على كفّك يَشِفُّ ويفضَح ، لافى قلبٍ من لحم ودمٍ تخفيه بين جنبيك فيطوِى ويكتُم .

وليس يُبطِل هدايةَ هذه الحاسة فى المرأة إلا طمعُها المادىُّ فى المال والمتاع والزينة ؛ فإن هذا الطمعَ هو القوة التى يغلبُ بها الرجلُ المرأة ، فبنفسِها غَلَبَها ! وإذا تبذَّلَ طمعُ امرأةٍ فى رجل فهى مُومِس وإن كانت عذراءُ فى خدرها .

وياعجبًا ! إن وجودَ الطبيعة فى النفس غيرُ الشعور بها ؛ فليس يُشعر المرأةَ بتمام طبيعتها النسائية إلا الزينةُ والمتاعُ ومابه المتاعُ والزينة ؛ فكأن الحكمةَ قد وَقَتْها وعرّضتْها فى وقتٍ معا ، لتكون هى الواقيةَ أو المُخْطِرةَ لنفسها ، فبعملها تُجْزَى ، ومن عملها ما تَضحَكُ وتَبكى .

قالت الياقوتة : ولذا أخذتُ نفسى ألا أطمعَ فى شىء من أشياء الناس ، وسَخوْتُ عن كل مافى أيديهم ؛ فما يتكرّمون علىّ إلا بهلاكى ؛ وحسْبى أن يبَقى لعينىْ قلبى ضوءُهما المبصِر . وأنا أعتمدُ على شهامة الرجل ، فإن لم أجدها علمتُ أنى بإزاء حيوانٍ إنسانى ، فأَتحذَّرُه حَذَرى من مُصيبةٍ مقبلة ! وإذا جاءنى وَقحٌ خَلَق اللهُ وجهَه الحسَنَ مَسبَّةً له ، أو خلقه هو مَسبَّةً لوجهه القبيح ،ذكرتُ أنى بعدَ ساعة أو ساعات أقوم إلى الصلاة ، فلا يزداد منى إلا بعداً وإن كان بإزائى ، فأُغلِظُ له وأتسخَّط ، وأُظهِر الغضبَ وأصفعُه صَفعتى .

قلت : وما صفعتُكِ ؟

قالت : إنها صفعة لاتَضرِبُ الوجهَ ولكن تُخجله .

قلت : وما هى ؟

قالت الياقوتة : هى هذه الكلمة : أما تعرفُ ياسيدى أنى أُصلّى وأقولُ « الله أكبر »؟ فهل أنتَ أكبر ...؟ أأقيم لكَ البرهانَ على صَغارِكَ وحقارتك : أأنادى الشرطى ... !

* * *

تختنق بالرقص وتنتعشُ بالصلاة ، وفى كل يوم تختنق وتنتعش .

ولكنى لاأزال أقول :

أفى الممكن هذا ؟

أفى المترادف شرعا : رَقَصَتْ وصلَّت ... ؟

المشـــــكلة [1]

قالت لى صاحبةُ « الجمال البائس » فيما قالت [*] : إن المرأةَ الجميلةَ تخاطبُ فى الرُجل الواحدِ ثلاثة : الرجلَ ، وشيطانَه ، وحيوانَه . فأما الشيطانُ فهو معَنا وإن لم نكن معه ... وأما الحيوانُ فله فى أيدينا مَقَادَةٌ من الغَباوة ومَقَادةٌ من الغريزة ، إذا شَمَسَ فى واحدةٍ أصْحَبَ فى الأخرى وانقاد ؛ ولكن المشكلة هى الرجلُ تكون فيه رجولة !

* * *

نعم إن المشكلةَ التى أعْضَلتْ على الفسادهى فى الرجل القوىّ الرجولة يعرفُ حقيقة وجوده وشرف منزلته ؛ ولهذاأوجب الإسلامُ على المسلم أن يكونَ بين

---

(١) تقرأ قصة صاحب هذه المشكلة وما كان من خبره وخبر صاحبته فى كتابنا « حياة الرافعى » ص ٢٣٩ - ٢٤٤ ، وللقصة تمام لم ينشر بعد !

(*) مرت مقالات (الجمال البائس) فى هذا الجزء

الوقت والوقت فى اليوم الواحد خارجا من صلاة .

وإنمـا الرجولة فى خلالٍ ثلاث : عَمَلِ الرجل على أن يكونَ فى موضعه من الواجبات كلّها قبل أن يكون فى هواه ؛ وقبولِه ذلك الموضعَ بقبول العاملِ الواثق من أجْرِه العظيم ؛ والثالثةُ قدرتُه على العمل والقَبول إلى النهاية .

وان تقومَ هذه الخلالُ إلا بثلاثٍ أخرى : الإدراك الصحيح للغاية من هذه الحياة ؛ وجعْل مايحبه الإنسانُ وما يكرهُه موافِقا لمـا أدرك من هذه الغاية ؛ والثالثةُ القدرةُ على استخراج معانى السرور من معانى الألم فيما أحبَّ وكَرِه على السواء .

فالرجولة على ذلك هى إفراغُ النفس فى أسلوبٍ قوىٍّ جَزْلٍ من الحياة ، مُتساوِقٍ فى نَمَطِ الاجتماع ، بليغٍ بمعانى الدين ، مصقولٍ بجمال الإنسانيـة ، مُسترسلٍ ببلاغةٍ وقوةٍ وجمالٍ إلى غايته السامية .

ولهذه الحكمة أسقطت الأديانُ من فضائلها مبدأ إرضاء النفس فى هواها ، فلا معاملة به مع الله إلا فى إثم أو شر ؛ وأسقطه الناسُ من قواعد معاملتهم بعضهم مع بعض ، فلا يقومُ به إلا الغشّ والمكرُ والخديعة ؛ وكلُّ خارجٍ على شريعةٍ أو فضيلة أو منفعةٍ اجتماعية فإنما ينزِعُ إلى ذلك إرضاءً لنفسه وإيثاراً لهـا وموافَقة لمحبتها وتوفيةً لحظها ؛ وعمـلُه هـذا هو الذى يُلْبِسُه الوصفَ الاجتماعىَّ الساقِطَ ويسـميه باسمه فى اللغة ، كالرجل الذى يُرضِى نفسَـه أن يسرقَ ليغتنى ، فإذا أعْطى نفسَـه رضاها فهو اللص ؛ وكالتاجر فى إرضـاءِ طمعه هو الغاشّ ، وكالجندى فى إرضاء جُبنه هو الخائن ، وكالشابّ فى إرضاء رذيلته هو الفاسق ، وهلمَّ جَرّا وهلمَّ جَرْجَرَة . . .

* * *

وأما بعدُ ، فالقصةُ فى هذه الفلسفة قصةُ رجل فاضل مهذّب قد بلغ من العلم والشباب والمـال ؛ ثم امتحنته الحياةُ بمشكلة ذهب فيها نومُ ليـله

وهدوءُ نهاره، حتى كَسَفَتْ باله، وفرَّقت رأيه، وكابد فيها الموتَ الذى ليس بالموت، وعاش الحياةَ التى ليست بالحياة.

قال: فقدتُ أُمى وأنا غلام أحوج مايكون القلبُ إلى الأم، فخشِيَ علىَّ أبى أن أستكينَ لذلَّةِ فقْدِها فيكونَ فى نشأتى الذلُّ والضَّراعة، وكَبُرَ عليه أن أُحسَّ فقدَها إحساسَ الطفل تموت أمه فيحملُ فى ضياعها مثلَ حزنها لو ضاع هو منها؛ فعلَّمنى هذا الأبُ الشفيقُ أن الرجلَ إذا فَقَدَ أُمَّه كان شأنه غير شأنِ الصبى، لأن له قوةً وكبرياء؛ وأأتى فى رُوعى أنى رجلٌ مثلُه، وأن أُمه قد ماتت عنه صغيراً فكان رجلًا مثلى الآن...

وكان مِن بَعدها إذا دعانى قال: أيها الرجل! وإذا أعطانى شيئاً قال: خذ يارجل! وإذا سألنى عن شأنى قال: كيف الرجل؟ وقلَّ يومٌ يمرُّ إلا أسمعَنيها مراراً، حتى توهمتُ أن معى رجلًا فى عقلى خلقته هذه الكلمة. وتمامُ الرجل بشيئين: اللحيةُ فى وجهه، والزوجةُ فى داره؛ فتجىء الزوجةُ بعد أن تظهرَ اللحية لتكون كلتاهما قوةً له، أو وقاراً أو جمالا، أو تكونَ كلتاهما خشونة، أو لتكونا معاً سوادَين فى الوجه والحياة...

أما اللحيةُ لى أنا أيُّها الرجلَ الصغيرَ فليس فى يد أبى ولا فى حيلته أن يجىء بها، ولكن الأخرى فى يده وحيلته؛ فجاءنى ذاتَ نهارٍ وقال لى: أيها الرجل! إن فلانة مُسَمَّاةٌ عليك (*) منذُ اليوم، فهى امرأتك، فاذهبْ لترى فيك رجُلَها.

وفلانة هذه طفلةٌ من ذواتِ القُرْبى، فأفرحنى ذلك وأبهجنى؛ وقلت للرجل الذى فى عقلى: أصبحتَ زوجاً أيها الرجل...

وكان هذا الرجلُ الجاثمُ فى عقلى هو غُرورى يومئذٍ وكبريائى، فكنتُ أقع فى الخطأ بعد الخطأ، وآتى الحماقةَ بعد الحماقة، كنت طفلًا ولكن غُرورى

(*) هذا هو التعبير العربى الصحيح لقولهم قبل العقد: «مخطوبة لفلان».

ذو لحيةٍ طويلة ...

* * *

ونشأتُ على ذلك : صُلْبَ الرأى مُعْتَدًّا بنفسى ، إذا هَمَمْتُ مضيت ، وإذا مضيتُ لا ألوِى ، وما هو إلا أن يخطرَ لى الخاطر فأركبَ رأسى فيه ، ولَأَنْ تُكسَرَ لى يَدٌ أو رجلٌ أهونُ علىّ من أن يكْسرَ لى رأىٌ أو حُكم ؛ وأكسبنى ذلك خيالًا أكذبَ خيالٍ وأبعدَه ، يخلط علىَّ الدنيا خَلْطاً فيدَعُنى كالذى ينظر فى الساعة وهى اثنا عشرَ رقماً لنصفِ اليوم الواحد ، فيطالِعُها اثنى عشرَ شهراً للسنة ...

وترامتْ حريتى بهذا الخيال فجاوزتْ حدُودَها المعقولة ، وبهذه الحرية الحمقاء وذلك الخيالِ الفاسد ، كذَبتْ علىّ الفكرةُ والطبيعة .

ولستُ جميلَ الطلعة إذا طالعتُ وجهى ، ولكنى مع ذلك معتقِدٌ أن الخطأ فى المرآة ... إذ هى لا تُظهِر الرجلَ الوضِىءَ الجميلَ الذى فى عقلى ؛ ولستُ نابغةً ، ولكنَّ الرجلَ الذى فى عقلى رجلٌ عبقرى ؛ وهذا الذى فى عقلى رجلٌ متزوج ؛ فيجب علىَّ أنا الطفلَ أن أكونَ رزيناً ، رزيناً كوالد عشرة أولادٍ فى المدارس العليا ...

وذهبتُ بكل ذلك أرى فلانة زوجتى ، فأغلقت البابَ فى وجهى واختبأتْ منى ، فقلتُ فى نفسى : أيها الرجلُ ، إن هذا نُشُوزٌ وعِصْيانٌ ، لا طاعةٌ وحُب . وساءنى ذلك وغمّنى وكَبُر علىَّ ، فأضمرتُ لها الغَدْر ، فثبتتْ بذلك فى ذهنى صورةُ (الباب المغلَق) ، وكأنه طلاق بيننا لا باب ...

* * *

قال : ثم شبَّ الرجلُ ، فكان بطبيعة ما فى نفسه كالزوج الذى يترقَّبُ زوجتَه الغائبةَ غَيبةً طويلة : كلّ أيامِه ظمأٌ على ظمأ ، وكلّ يوم يمرّ به هو زيادةُ سنةٍ فى عمر شيطانه ... وكان قد انتهى إلى مدرسته العالية ، وأصبح رجلَ كُتُبٍ

وعلومٍ وفكرٍ وخيال ؛ فعرضَتْ له فتاة كاللواتى يعرِضْنَ للطلبة فى المدارس العليا ، مامنهن على صاحبها إلا كالخَيبةِ فى امتحان ... بيدَ أنَّ (الرجل) لم يعرف من هذه الفتاة إلا أوائلَ المرأة ... ولم يكد يَستَشْرِفُ لأواخرِها حتى سُمِّيتْ على غيره فخُطبتْ فزفَّتْ ، زُفت بعد نصف زَوجٍ إلى زوج ......

وعرف الرجلُ من الفلسفة التى درَسَها أنه يجب أن يكونَ حرًّا بأكثر مما يستطيع ، وبأكثرَ من هذا الأكثر ... فقالها بملء فيه ، وقال للحرية : أنا لكِ وأنتِ لى

قالها للحرية ، فما أسرعَ ماردَّت عليه الحرية بفتاةٍ أخرى ...

* * *

نقول نحن : وكان قد مضى على (الباب المغلَق) تسعُ سنوات ، فصار منهن بين الشاب وبين زوجته العقلية تسعةُ أبواب مغلقة ؛ ولكنها مع ذلك مسمَّاةٌ له ، يقول أهله وأهلُها : (فلان وفلانة) . وليس (البابُ المغلَق) عندهم إلا الحياءَ والصِّيانة ، وليست الفتاةُ من ورائه إلا العفافَ المنتَظِر ؛ وليس الفتى إلا ابنَ الأب الذى سمَّى الفتاةَ له وحبَسَها على اسمه ، وليست القُربى إلا شريعةً واجبةَ الحق نافذةَ الحكم .

وعند أهل الشرفِ ، أنه مهما يبلغْ من حرية المرء فى هذا العصر فالشرفُ مقيَّد .

وعند أهل الدين ، أن الزواج لاينبغى أن يكون كزواج هذا العصر قائما من أوله على معانى الفاحشة .

وعند أهل الفضيلة ، أن الزوجةَ إنما هى لبناء الأُسْرة ؛ فإن بلغ وجهُها الغايةَ من الحسن أو لم يبلغ ، فهو على كل حال وجهٌ ذو سُلطةٍ وحقوقٍ (رسميَّةٍ) فى الاحترام ؛ لاتقومُ الأسرة إلا بذلك ، ولا تقوم إلا على ذلك

وعند أهل الكمال والضمير ، أن الزوجةَ الطاهرةَ المخلِصةَ الحبِّ لزوجها ،

إنما هى معاملة بين زوجها وبين ربه ؛ فحيثما وضعها من نفسه فى كرامةٍ أو مهانةٍ ، وضع نفسَه عند الله فى مثلِ هذا الموضع .

وعند أهل العقل والرأى ، أن كلَّ زوجة فاضلة ، هى جميلةٌ جمالَ الحق ؛ فإن لم تُوجِب الحبَّ ، وَجَبَتْ لها المودّة والرحمة .

وعند أهلِ المروءة والكرم ، أن زوجةَ الرجل إنما هى إنسانيتُه ومُروءتُه ؛ فإن احتملها أعلن أنه رجل كريم ، وإن نَبَذَها أعلن أنه رجلٌ ليس فيه كرامة

أما عند الشيطان (لعنه الله) فشروطُ الزوجةِ الكاملةِ ما تشترطُه الغريزة : الحب ، الحب ، الحب !

* * *

قال الشاب : وإذا أنا لم أتزوج امرأةً تكون كما أشتهى جمالا ، وكما يشتهى فكرى علمًا ، كنتُ أنا المتزوجَ وحدى وبقى فكرى عَزَبًا . . . وقد عرفتُ التى تصلح لى بجمالها وفكرِها معًا . وتبوَّأتْ فى قلبى وأقمتُ فى قلبها ؛ ثم داخلتُ أهلَها ، فخالطونى بأنفسهم ، وقالوا : شابٌّ وعَزَب . . . . ومتعلم وثَرِىّ . . . فلم يكن لدارهم (بابٌ مغلَق) ، حتى لو شئتُ أن أصل إلى كريمتهم فى حرامٍ وصلت ، ولكنى رجل يحملُ أمانة الرجولة . . .

أما الفتاةُ فلست أدرى والله أفيها جاذبيةُ نجم ، أم جاذبيةُ امرأة ! وهل هى أنثى فى جمالها ، أو هى الجمالُ السماوىُّ أتى ينقِّحُ الفنونَ الأرضيةَ لأهلِ الفن !

إذا التقينا قالت لى بعينيها : هأنذى قد أرخيتُ لك الزِّمامَ ، فهل تستطيعُ فراراً منى ؟ ونلتصقُ فتقول لى بجسمها : أليست الدنيا كلُّها هنا ، فهل فى المكان مكانٌ إلا هنا ؟ ونفترق فتحصُرُ لى الزمنَ كلَّه فى كلمةٍ حين تقول : غدا نلتقى .

كلامُها كلامٌ متأدب ، ولكنه فى الوقت نفسِه طريقةٌ من الخلاعة ، تلفتُك إلى فَمِها الحُلو ؛ والحركةُ على جسمها حركةٌ مُستَحِيَةٌ ، ولكنها فى الوقت عينه كالتعبير الفنىِّ المتجسِّم فى التمثالِ العارى .

إنها والله قد جعلت شيطانى هو عقلى ؛ أما هذا العقلُ الذى يَنْصَحُ ويَعظ ويقول : هذا خيرٌ وهذا شرٌّ ، فهو الشيطانُ الذى يجب أن أتبرأ منه . . .

* * *

قال : وألَمَّ الأبُ بقصةِ فتاهُ ، ويَحسبُها نَزْوَةً من الشباب يُخمدها الزواج ، فيقول فى نفسه : إن للرجل نظرتين إلى النساء : نظرة إليهن من حيث يختلفن ، فتكون كل امرأة غيرَ الأخرى فى الخيال والوهم والمزاج الشعرى ؛ ونظرةً إليهن من حيث يتساوَيْنَ فى حقيقة الأنوثة وطبيعة الاحترام الإنسانى ، فتكون كل امرأة كالأخرى ولا يتفاوتن إلا بالفضيلة والمنفعة ـ ويقرّر لنفسه أن ابنه رجل متعلم ذو دين وبَصَر ، فلا ينظر النظرةَ الخياليةَ التى لا تقنع بامرأة واحدة ، بل لا تزال تلتمس محاسنَ الجنس ومَفاتنَه ، وهى النظرة التى لا يقوم بها إلا بناءُ الشعر دون بناء الأسرة ، ولا تصلُح عليها المرأة تلد أولادا لزوجها ، بل المرأة تلد المعانى لشاعرها .

ثم احتاط فى رأيه ، فقدَّر أن ابنه ربما كان عاشقا مفتونًا مسحورا ، ذا بصيرة مدخولة وقلبٍ هواء وعقل مُلتاث ، فيتمرد على أبيه ويخرج عن طاعته ، ويحارب أهله وربَّه من أجل امرأة ، بَيْدَ أنه قال : إنه هو والده ، وهو ربّاه وأنشأه فى بيت فيه الدينُ والخُلُق والشهامةُ والنّجدة ، وأن محاربة الله بامرأة لا تكون إلا عملا من أعمال البيئة الفاسدة المستهتَرَة ، حين تجمع كل معانى الفساد والإباحة والاستهتار فى كلمة (الحرية) : وقال : إن البيئة فى العهد الذى كان من أخلاقه الشرفُ والدينُ والمروءة والغيرةُ على العِرض ، لم يكن فيها شىء من هذا ، ولم يكن الأبناءُ يومئذ يعترضون آباءهم فيمن اختاروهن ، إذ النسلُ هو امتدادُ تاريخ الأب والابن معا ، والأبُ أعرفُ بدنياه وأجدرُ أن يكون مُبَرَّأً من اختلاط النظرة ، فيختار للدين والحَسَب والكمال ، لا للشهوة والحب وفنون الخلاعة ؛ ولا محل للاعتراض بالعشق فى باب من أبواب الأخلاق ،

بل محله فى باب الشهوات وحدها .

ثم جزَمَ الأبُ أن الولد الذى يجىء من عاشقين ، حَرِىٌّ أن يرثَ فى أعصابه جنون اثنين وأمراضهما النفسية وشهواتهما الملتهبة ؛ ولهذا وقف الشرع فى سبيل الحب قبل الزواج لوقاية الأمة فى أولها ؛ ولهذا يكثر الضعف العصبي فى هذه المدنية الأوربية وينتشر بها الفساد ، فلا يأتى جيلٌ إلا وهو أشد ميلًا إلى الفساد من الجيل الذى أعقبه .

ولم يكد ينتهى الأبُ إلى حيث انتهى الرأىُ به ، حتى أسرع إلى (الباب المغلَق) يهيّئ الزفاف ويتعجَّل لابنه المطيع ... نكبةً ستجىء فى احتفالٍ عظيم ...

* * *

قال الشاب : وجُنَّ جنونى ؛ وقد كان أبى من احترامى بالموضع الذى لا يُلْقَى منه ، فلجأتُ إلى عمى أستدْفعُ به النكبةَ ، وأتأيّدُ بمكانِه عند أبى ؛ وبثثته حزنى وأفضيتُ إليه بشأنى ، وقلت له فيما قلت : افعلوا كلّ شىء إلا شيئا ينتهى بى إلى تلك الفتاة ، أو ينتهى بها إلىّ ؛ وما أنكِر أنها من ذواتِ القُربى ؛ وأن فى احتمالى إياها واجبًا ورجولة ، وفى سَتْرى لها ثوابا ومروءة ، وخاصةً فى هذا الزمن الكاسِد الذى بلغتْ فيه العَذارى سنَّ الجَدّات ... ولكنَّ القلبَ العاشقَ كافرٌ بالواجب والرجولة ، والثوابِ والمروءة ، وبالأمّ والأب ؛ فهو يملكُ النعمةَ ويريد أن يملكَ التنعُّم بها ؛ وكلٌّ من اعترضه دونها كان عنده كاللص .....

قال : قَبح اللهُ حُبا يجعلُ أباك فى قلبك لصّا أو كاللص .

قلت : ولكنى حرٌّ أختارُ من أشاء لنفسى ......

قال : إن كنتَ حرّا كما تزعم فهل تستطيع أن تختار غير التى أحببتَها ؟ ألا تكون حرّا إلا فينا نحن وفى هَدْم أسرتنا ؟

قلت : ولكنى متعلم ، فلا أريد الزواجَ إلا بمن ......

فقطع علىّ وقال : ليتك لم تتعلم ! فلو كنتَ نجاراً أو حدادا أو حوذيا ،

لأدركتَ بطبيعة الحياة أن الذين يتخضَّعون للحب والمرأةِ هذا الخضوع ، هم الفارغون الذين يستطيع الشيطانُ أن يَقْضِىَ فى قلوبهم كلّ أوقات فراغه ......

أما العاملون فى الدين ، والمُغامِرون فى الحياة ، والعارفون بحقائقِ الأمور ، والطامعون فى الكمالِ الإنسانى ، فهؤلاء جميعا فى شغلٍ شاغلٍ عن تربية أوهامهم ، وعن البكاء للمرأة والبكاء على المرأة ؛ ونظرتُهم إلى هذه المرأةِ أعلى وأوسع ، وغرضُهم منها أجلّ وأسمى ؛ وقد قال نبيُّنا صلى الله عليه وسلم : « اتقوا اللهَ فى النساء » أى انظروا إليهن من جانب تقوى الله ؛ فإن المرأة تُقْدِم من رجُلها على قلبٍ فيه الحبُّ والكَراهةُ وما بينهما ، ولا تدرى أىّ ذلك هو حظُّها ؛ ولو أن كلّ من أحب امرأة نبذ زوجة ، لخربت الدنيا ولفَسد الرجال والنساءُ جميعا . وهذه يابنىَّ أوهامُ وقتِها وعملُ أسبابِها ، وسيمضى الوقتُ وتتغيرُ الأسباب ، وربما كان الناضجُ اليوم هو المتعفِّنَ غدا ، وربما كان الفجُّ هو الناضجَ بعد ؟

وهبْك لا تحب ذاتَ رَحِمِكَ ثم أكرمتَها وأحسنتَ إليها وسترتَها ، أفيكونُ عندك أجملُ من شعورها أنك ذو الفضل عليها ؟ وهل أكرمُ الكرم عند النفس إلا أن يكونَ لها هذا الشعورُ فى نفسٍ أخرى ؟ إن هذا يابنىّ إن لم يكن حبًّا فيه الشهوةُ ، فهو حبٌّ إنسانىٌّ فيه المجد .

* * *

ووقعت المشكلة وزُفَّت المسكينة ؛ فكيف يصنع الرجل بين المحبوبة والمكروهة ؟

(رجاء إلى القراء) : هذه القصة واقعة ، وقد بنى الرجل بامرأته ، وهو فى الشهر الذى لا اسم له عنده وإن كان اسمه عند الناس (شهر العسل) . فماذا يرى له القارئ من الرأى ؟ وماذا ترى القارئة لهذه العروس اللابسة أكفانها فى عين الرجل ؟

المشكلة

٢

لما فرغتُ من مقالات (المجنون) (*) وأرسلتُ الأخيرةَ منها، قلتُ في نفسي: هذا الآخِرُ هو الآخِرُ من المجنون وجنونِه، ومن الفكر في تخليطِه ونوادره؛ غيرَ أنه عاد إليَّ أخلاطاً وأضغاثًا فكأني رأيته في النوم يقول لي: اكتب مقالًا في السياسة. قلت: مالي وللسياسة وأنا «موظف» في الحكومة، وقد أخذت الحكومة مِيثاقَ الموظفين: لَمَا عَرَفُوا من نَقْد أو غَميزة ليكتُمُنَّه ولا يُبَيِّنُونه؟ فقال: هذه ليست مشكلة، وليس هذا يصلُح عذراً، والمخرَجُ سهلٌ والتدبيرُ يسيرٌ والحلُّ ممكِن. قلت: فما هو؟

قال: اكتب ماشئتَ في سياسة الحكومة، ثم اجعل توقيعَك في آخر المقال هكذا: «مصطفى صادق الرافعي: غير موظف بالحكومة» .....

فهذه طريقة من طرق المجانين في حل المشاكل المعقَّدة: لا يكون الحل إلا عقدة جديدة يتم بها اليأس ويتعذَّر الإمكان، وهي بعينها طريقةُ ذلك الطائر الأبله الذي يرى الصائد فيُغمِّضُ عينَه ويلوِي عنقَه ويخبأُ رأسه في جَناحه، ظنًّا عند نفسه أنه إذا لم يرَ الصائد لم يره الصائد، وإذا توهم أنه اختفى تحقَّق أنه اختفى؛ وما عمَلُه ذلك إلا كقوله للصياد: إني غيرُ موجود هنا... على قِياسِ «غير موظف»...

* * *

(*) بعد أن كتبنا الفصل الأول من (المشكلة) واستفتينا القراء في آخره، انتظرنا مدة، وكتبنا في هذه المدة مقالات (المجنون) فانظرها في الجزء الثاني.

[قلت: وحديث هذا المجنون في ص ٢٤٤ - ٢٤٥ ، حياة الرافعي]

وقد كنت استفْتَيْتُ القراءَ فى (المشكلة)، وكيف يتّقى صاحبُها على نفسه، وكيف تصنع صاحبتُها؛ فتلقيتُ كتباً كثيرةً أهدتْ إلىّ عقولا مختلفة؛ وكان من عجائب المقادير أن أول كتاب أُلقِى إلىّ منها — كتاب مجنونٍ « نابغة » كنابغة القرن العشرين، بعث به من القاهرة، وسمى نفسه فيه (المصلِح المنتظر) وهذه عبارته بحرفها ورسمها كما كُتبت وكما تُقرأ؛ فإن نشرَ هذا النص كما هو، يكون أيضا نصًّا على ذلك العقلِ كيف هو....

قال: « إن هذا الكونَ تَعِبت فيه آراءُ المصلحين، وكتب الأنبياء زُهاءُ قرون عديدة، ودائما نرى الطبيعة تنتصر. ولقد نرى الحيوان يعلم كيف يعيش بجوار أليفه، والطير كيف يركن إلى عش حبيبته، إلا الإنسان؛ ولقد تفنّن المشرعون فى أسماءٍ: العادات والتقاليد والْحَمِيَّة والشرف والعِرْض، وإن جميع هذه الأشياء تزول أمام سلطان المادة فما بالكم بسلطان الروح؟

« ورأيى لهذا الشاب ألا يطيع أباه ولو ذهب إلى مايسموه الجحيم (كذا) إذا كان بعد أن يعيش الحياةَ الواحدة التى يحياها ويتمتع بالحب الواحد المقدر له، مادام قلبه اصطفاها وروحه تهواها؛ ولو تركته بعد سنين قليلة لأى داع من دواع الانفصال (كذا).

« وهذا ليس مجرد رأى مجرب، وإنما هو رأى أكبر عقل أنجبته الطبيعة حتى الآن...! وسينتصر على جميع من يقفون أمامه، والدليل أن هذا المقال سيشار إليه فى مجلة (الرسالة)، وهذا الرأى سيعمل به، وصاحب هذا الرأى سيخلد فى الدنيا، وسيضع الأسس والقوانين التى تصلح لبنى الإنسان مع سمو الروح بعد أن أفسدت أخلاقَه عبادة المال.

« إن الإنسان يحيا حياة واحدة، فليجعلها بأحسن ماتكون، وليمتع روحه بما تمتع به جميع المخلوقات سواه. وإلى الملتقى فى ميدان الجهاد »

(المصلح المنتظر) انتهى

وهذا الكتاب يحل (المشكلة) على طريقة «غير موظف» ... فليعتقد العاشق أنه غيرُ متزوج فإذا هو غيرُ متزوج، وإذا هو يتقلَّب فيما شاء؛ وتسأل الكاتبَ ثم ماذا؟ فيقول لك: ثم الجحيم...

وإنما أوردنا الكتابَ بطوله وعرضِهِ لأننا قرأناه على وجهين، فقد نبهتنا عبارة «أكبر عقل أنجبته الطبيعة حتى الآن» إلى أن فى الكلام إشارةً من قوة خفية فى الغيب، فقرأناه على وحىِ هذه الإشارة وهَدْيِها، فإذا ترجمةُ لغةِ الغيب فيه:

«ويحكَ ياصاحبَ المشكلة! إذا أردتَ أن تكونَ مجنوناً أو كافراً بالله وبالآخرةِ فهذا هو الرأى. كنْ حيواناً تلتصِرُ فيه الطبيعة والسلام!»

* * *

تلك إحدى عجائب المقادير فى أول كتاب أُلقِىَ إلىّ؛ أما العجيبةُ الثانية فإن آخر كتابٍ تلقيتُه كان من صاحبة المشكلة نفسِها، وهو كتاب آيةٌ فى الظرف وجمالِ التعبير وإشراق النفس فى أسرارها، يَمُورُ مَوْرَ الضّباب الرقيق من ورائه الأشعة، فهو يَحجبُ جمالاً ليُظهِرَ منها جمالاً آخر؛ وكأنه يعرِضُ بذلك رأياً للنظر ورأياً للتصوّر، ويأتى بكلام يُقرأ بالعين قراءةً وبالفكر قراءةً غيرها، ولفظُها سهلٌ سهلٌ، قريبٌ قريب، حتى كأن وجهَها هو يُحدّثك لا لفظَها؛ ومادةُ معانيها من قلبها لا من فكرها، وهو قلبٌ سليمٌ مُقفَلٌ على خواطره وأحزانه، مُسترسِلٌ إلى الإيمان بما كُتب عليه استرسالَه إلى الإيمان بما كُتِب له، فما به غُرورٌ ولا كبرياء ولا حِقدٌ ولا غَضَبٌ، ولا يَكْرُثُهُ ماهو فيه.

ومن نَكَدِ الدنيا أن مثلَ هذا القلب لا يُخلَقُ بفضائله إلا ليُعاقَبَ على فضائله، فغِلْظة الناس عقابٌ لرقته، وغدرُهم نكايةٌ لوفائه، وتهوّرُهم ردٌّ على أناته، وحُمقُهم تكديرٌ لسكونه، وكذِبُهم تكذيبٌ للصدق فيه.

وما أرى هذا القلبَ مأخوذاً بحب ذلك الشاب ولا مُسْتَهامًا به لِذاته ، وإنما هو يتعلّق صُوَراً عقليةً جميلةً كان من عجائب الاتفاق أن عَرَضَتْ له فى هذا الشاب أولَ ماعرضتْ على مقدارٍ ما ، وسيكونُ من عجائب الاتفاق أيضاً أن يزولَ هذا الحب زوالَ الواحدِ إذا وُجدت العشَرة ، وزوالَ العشَرة إذا وُجدت المائة ، وزوالَ المائة إذا وُجد الألف .

وبعد هذا كلّه فصاحبةُ المشكلة فى كتابها كأنمـا تكتبُ فى نقد الحكومة على طريقة جعل التوقيع : « فلان غير موظف بالحكومة » ... وهى فيما كتبت كالنهر الذى يتحدَّر بين شاطئيه مُدَّعيًا أنه هاربٌ من الشاطئين مع أنه بينهما يَجرى : تحبُّ صاحبها وتلقاه ، ثم هى عند نفسها غيرُ جانيةٍ عليه ولا على زوجته ... فليت شِعْرى عنها ، ماعسى أن تكونَ الجنايةُ بعدزواج الرجل غيرَ هذا الحب وهذا اللقاء؟

ونحن معها كأرسطاطاليس مع صديقه الظالم حين قال له : هَبْنا نقْدِرُ على مُحاباتِك فى ألاّ نقولَ إنك ظالم ؛ هل تقدرُ أنت على ألاَّ تعلم أنك ظالم ؟

ورأيها فى (المشكلة) أن ليس من أحدٍ يستطيعُ حلَّها إلا صاحبُها ، ثم هو لا يستطيع ذلك إلا بطريقةٍ من طريقتين : فإما أن تكون ضحيةُ أبيها وأبيه ـ تعنى زوجته ـ ضحيتَه هو أيضًا ، ويستهدف لمـا يناله من أهله وأهلها ، فيكونُ البلاء عن يمينه وشماله ، ويكابدُ من نفسه ومنهم ما إنَّ أقَلَّه ليذْهَبُ براحته وينغِّصُ عليه الحبَّ والعيش ، (قالت) : وإما أن يضحِّيَ بقلبه وعقلِه وبى ...

وهذا كلام كأنها تقول فيه : إن أحداً لا يستطيع حلَّ المشكلة إلا صاحبُها ، غير مستطيعٍ حلَّها إلا بجنايةٍ يذهبُ فيها نعيمُه ، أو بجنونٍ يذهب فيه عقله . فإن حلَّها بعد ذلك فهو أحدُ اثنين : إما أحمقُ أو مجنونٌ ، مامنهما بد ...

ولسانُ الغيب ناطقٌ فى كلامها بأن أحسنَ حل المشكلة هو أن تبقى بلا حل ،

فإن بعضَ الشر أهونُ من بعض .

* * *

والعجيبةُ الثالثة أن « نابغة القرن العشرين [*] » جاء زائراً بعد أن قرأ مقالات (المجنون) ، فرأى بين يدىَّ هذه الكتبَ التى تلقيتها وأنا أعرِضُها وأنظر فيها لأتخيّر منها ، فسأل فخبّرتُه الخبر ؛ فقال : إن صاحب هذه المشكلة مجنونٌ ... لو امتحنوه فى الجغرافيا وقالوا له : ماهى أشهرُ صناعة فى باريس ؟ لأجابهم : أشهر ماتُعرف به باريس أنها تصنع (البودرة) لوجه حبيبتى ...

قلتُ : فكيف يرتدُّ هذا المجنونُ عاقلا ؟ وما عِلاجُه عندك ؟

قال : وَجّهْ فى طلب (ا . ش) [1] ليجىء ، فلما جاء قال له اكتب : جلس « نابغة القرن العشرين » مجلسَه للإفتاء فى حل المشكلة فأفتى مُرتجِلا :

« إن منطقَ الأشياء وعقليةَ الأشياء صريحان فى أن مشكلةَ الحب التى يَعْسُرُ حلُّها ويتعذَّر مجازُ العقلِ فيها — ليست هى مشكلةَ هذا العاشق أكرهوه على الزواج بامرأةٍ يحملُها القلبُ أولا يحملُها ، وإنما تلك هى مشكلةُ إمبراطور الحبشة يريدون إرغامَه أن يتزوجَ إيطاليا ، ويذهبون يَزُفُّونها إليه بالدَّبابات والرشاشات والغازات السامة .

« ولولم يكن رأسُ هذا العاشق المجنون فارغاً من العقل الذى يعملُ عملَ العقل ، إذن لكانت مجارِى عقلِه مطَّردةً فى رأسه ، فانحلَّت مشكلتُه بأسباب تأتى من ذات نفسِها أو ذات نفسِه ؛ غير أن فى رأسه عقلَ بطنِه لا عقلَ الرأس ، كذلك الشَّرِه البخيل الذى طبخ قِدْرا وقعد هو وامرأتُه يأكلان ، فقال : ماأطيبَ هذه القِدْرَ لولا الزحام ... قالت امرأتُه : أىُّ زحامٍ ههنا ؟ إنما أنا وأنت ! قال : كنتُ أحب أن أكونَ أنا والقدر فقط ...

« فعقلُ النَّهِم فى رأس هذا كعقل الشهوة فى رأس ذاك ؛ كلاهما فاسدُ التقدير

(*) هو لقب المجنون ، فانظر مقالاته فى الجزء الثانى .

(١) هو الأديب أمين حافظ شرف ، ويأتى له ذكر فى مقالات « المجنون »

لا يعملُ أعمالَ العقول السليمة ؛ ويريد أحدُهما أن تَبْطُلَ الزوجةُ من أجل رِطلٍ من اللحم ، ويريد الآخرُ مثلَ ذلك فى رطلٍ من الحب ... »

« وإذا فسد العقلُ هذا الفسادَ ابتَلَى صاحبَه بالمشاكل الصبيانيةِ المضحكةِ : لا تكونُ من شىء كبير ، ولا يكونُ منها شىء كبير ؛ وهى عند صاحبها لو وُزِنَتْ كانت قناطيرَ من التعقيد ، ولو كِيلَتْ بلغت أرادبَّ من الحيرة ، ولو قِيسَتْ امتدَّت إلى فراسخَ من الغُموض .

« هاتان المرأتان : (الحبيبة والزوجة) ، إما أن تكونا جميعا امرأتين ، فالمعنى واحدٌ فلا مشكلة ؛ وإما ألا تكونا امرأتين ، فالمعنى كذلك واحدٌ فلا مشكلة ؛ وإما أن تكون إحداهما امرأة والأخرى قِرْدة أو هِرْدة ، وهٰهنا المشكلة . (حاشية : الهردة من أوضاع نابغة القرن العشرين فى اللغة ، ومعناها الأنثى ليست من إناث الأناسىّ ولا البهائم ...)

فإن زعم العاشقُ أن زوجتَه قِردة فهو كاذب ، وإن زعم أنها الهِرْدة فهو أكذَب ؛ والمشكلة هنا مشكلةُ كل المجانين ، فى مخه موضعٌ أفْرَط عليه الشعورُ فأفسده ، وأوقع بفساده الخطأ فى الرأى ، وابتلاه من هذا الخطأ بالعَمَى عن الحقيقة ، وجعل زوجتَه المسكينةَ هى مَعْرَض هذا العمى وهذا الخطأ وهذا الفساد ؛ ولا عيبَ فيها ، لأنها من زوجها كالحقيقة التى يتخبَّط فيها المجنونُ مدةَ جنونه ، فتكونُ مَجْلَى هَذَيانه ومعرَض حماقاتِه ، وهى الحقيقة غير أنه هو المجنون .

« فإن كانت هذه الحقيقةُ مسئلةً حسابيةً استمرَّ المجنون مدةَ جنونه يقول للناس : خمسون وخمسون ثلاثةَ عشر ، ولا يصدِّق أبداً أنها مائة كاملة ؛ وإن كانت مسئلة علمية قضى المجنون أيامه يُشعِل الترابَ ليجعله بارودا ينفجر ويتفَرْقَع ، ولا يدخلُ فى عقله أبدا أن هذا ترابٌ منطفئٌ بالطبيعة ؛ وإن كانت مسئلةً قلبية استمر المجنونُ يزعم أن زوجتَه قِردة أو هِرْدة ، ولا يشعر أبداً أنها امرأة .

« فإن صح أن هذا الرجلَ مجنون ، فعلاجُه أن يُربَط فى المارستان ، ثم يجيء أهله كل يوم بزوجته فيسألونه : أهذه امرأة أم قردة أم هردة ؟ ثم لايزالون ولا يزالُ حتى يراها امرأةً ، ويعرفها امرأتَه ، فيقال له حينئذ : إن كنت رجلا فتخلَّق بأخلاق الرجال .

« أما إن كان الرجل عاقلا مميِّزاً صحيحَ التفكير ولكنه مريضٌ مرَضَ الحب ، فلا يرى (النابغةُ) أشفَى لدائه ولا أنجعَ فيه من أن يَسْتَطِبَّ بهذه الأشْفِيَةِ واحدًا بعد واحد حتى يذهبَ سَقامه بواحدٍ منها أو بها كلِّها :

« الداء الأول : أن يجمعَ فكرَه قبل نومه فيحصُرَه فى زوجته ، ثم لايزال يقول : زوجتى ! زوجتى ! حتى ينام ؛ فإن لم يذهب مابه فى أيام قليلة فالدواء الثانى .

« الدواء الثانى : أن يتجرّعَ شربةً من زيت الخروع كل أسبوع . . . ويتوهَّم كلَّ مرة أنه يتجرعُها من يد حبيبته ، فإن لم يشفِه هذا فالدواء الثالث .

« الدواء الثالث : أن يذهبَ فيبيتَ ليلةً فى المقابر ، ثم ينظر نظرَه فى أى المرأتين يريد أن يلقَى الله بها وبرضاها عنه وبثوابه فيها ؛ وأيَّتُهما هى موضعُ ذلك عند الله تعالى ، فإن لم يُبصِرْ رُشده بعد هذا فالدواء الرابع .

« الدواء الرابع : أن يخرجَ فى (مظاهرة) . . . فإذا فُقِئَتْ له عينٌ أو كُسرَتْ له يدٌ أو رِجل ، ثم لم تحِلَّ حبيبتُه المشكلةَ بنفسها . . . فالدواء الخامس

« الدواء الخامس : أن يصنعَ صنيعَ المبتلَى بالحشيش والكوكايين ، فيذهبَ فيُسلم نفسَه إلى السجن ليأخذوا على يدِهِ فينسَى هذا الترفَ العقلى ، ثم ليعرفَ من أعمال السجن جِدَّ الحياة وهزلَها ، فإن لم ينزِعْ عن جهله بعد ذلك فالدواء السادس .

« الدواء السادس : أنه كلما تحرك دَمُه وشاعتْ فيه حرارةُ الحب ، لايذهبُ إلى من يحبها ، ولا يتوخّى ناحيتَها ، بل يذهب من فَوْره إلى حجّام يحجمُه . .

ليطفئ عنه الدمَ بإخراج الدم ؛ وهذه هي الطريقةُ التي يصلُح بها مجانينُ العشاق ، ولو تبدَّلوا بها من الانتحار لعاشوا هم وانتحرَ الحب .

قال « نابغة القرن العشرين » : « فإن بَطلتْ هذه الأشفيةُ الستةُ ، وبقي الرجلُ جَمُوحا لا يُرَدُّ عن هواه فلم يبق إلا الدواءُ السابع .

« الدواء السابع : أن يُضرَبَ صاحبُ المشكلة خمسين قناةً يُصكُّ بها (*) واقعةً منه حيثُ تَقع من رأسه وصدرِه وظهرِه وأطرافِه ، حتى يَنْهَشِمَ عظمُه ، وينقَصفَ صُلبُه ، ويَنْشَدِخَ رأسُه ، ويَتَفَرَّى جلدُه ؛ ثم تُطْلَى جراحُه وكُسورُه بالأَطْلية والمراهم ، وتُوضَعُ له الأضْمِدةُ والعصائب ، ويُترَكُ حتى يَبرأَ على ذلك : أعرَجَ مُتَخلِّعًا مبعثرَ الخَلْق مكسورَ الأعلى والأسفل ، فإن في ذلك شفاءَه التامَّ من داء الحب إن شاء الله . . . »

قلنا : فإن لم يشفه ذلك ولم يصرف عنه غائلةَ الحب ؟

قال : فإن لم يشفه ذلك فالدواءُ الثامن .

الدواء الثامن : أن يُعادَ عِلاَجه بالدواء السابع . . . . . .

المشكلة

٣

أما البقيةُ من هذه الآراء التي تلقيتُها فكل أصحابها مـتوافِقُون على مثلِ

(*) القناة : هي العصا الغليظة التي يقال لها «الشومة» . والصك : خاص في ضرب الرأس ، ولكن لما كانت عظام صاحب المشكلة مقصودة في هـذا العلاج ... فقد جاز استعمال الصك في الجسم كله كما رأيت .

الرأى الواحدِ، من وجوب إمساكِ الزوجة والاقبالِ عليها، وإرسالِ «تلك» والانصراف عنها؛ وأن يكونَ للرجل فى ذلك عزمٌ لا يتقلقل ومَضاءٌ لا ينثنى، وأن يصبرَ للنُّفْرة حتى يستأنِسَ منها فإنها ستتحوَّل، ويجعلَ الأناةَ بإزاء الضجر فإنها تُصلِحه، والمروءةَ بازاء الكُره فإنها تَحمِله، وليترك الأيامَ تعملُ عملَها فإنه الآن يعترضُ هذا العملَ ويُعطِّله، وإن الأيام إذا عمِلَتْ فستغيِّر وتبدِّل؛ ولا يُستقَلُّ القليلُ تكون الأيامُ معه، ولا يُستكثَرُ الكثيرُ تكونُ الأيامُ عليه

والعَديدُ الأكبرُ ممن كتبوا إلىَّ يحفظون على صاحب المشكلة ذلك البيانَ الذى وضعناه على لسانه فى المقال الأول، ويُحاسِبُونه به، ويُقيمون منه الحجةَ عليه، ويقولون له: أنت اعترفت وأنت أنكرت، وأنت رددتَ على نفسك، وأنت نَصَبْتَ الميزانَ فكيف لا تقبَل الوزنَ به؟ وقد غفلوا عن أن المقالَ من كلامنا نحن، وأن ذلك أسلوبٌ من القول أدرناه وتَحلْنَاه ذلك الشابَّ، ليكونَ فيه الاعتراضُ وجوابه، والخطأُ والردُّ عليه؛ ولنُظهِرَ به الرجلَ كالأبله فى حَيرته ومشكلاته، تنفيراً لغيره عن مثل موقفه، ثم لنحرِّكَ به العِللَ الباطنَة فى نفسه هو فنصرفَه عن الهوى شيئًا فشيئًا إلى الرأى شيئًا فشيئًا، حتى إذا قرأ قصةَ نفسِه قرأها بتعبيرٍ من قلبه وتعبيرٍ آخر من العقل، وتلَمَّحَ ماخَفِىَ عليه فيما ظهر له، واهتدى من التقييد إلى سبيل الإطلاق، وعرف كيف يُخلِّص بين الواجب والحب اللذين اختلطا عليه وامتزجا له امتزاجَ الماء والخمر؛ وبذلك الأسلوبِ جاءت المشكلةُ معقَّدةً منحلَّةً فى لسانِ صاحبها، وبقى أن يُدفعَ صاحبُها بكلامٍ آخرَ إلى موضع الرأى.

وكثير من الكتاب لم يزيدوا على أن نبَّهوا الرجلَ إلى حق زوجته، ثم يدعون الله أن يرزقه عقلا... وقد أصاب هؤلاء أحسنَ التوفيق فيما أُلهِمُوا من هذه الدعوة، فإنما جاءت المشكلة من أن الرجلَ قد فقد التميزَ وجُنَّ

بجنونين : أحدهما فى الداخل من عقله ، والثانى فى الخارج منه ؛ فأصبح لا يبالى الإثمَ والبغضَ عند زوجته إذا هو أصاب الحظْوةَ والسرور عند الأخرى ؛ فتعدَّى طَوْرَه مع المرأتين جميعًا ، وظلم الزوجةَ بأن اسْتَلَبَ حقها فيه ، وظلم الأخرى بأن زادها ذلك الحقَّ فجعلها كالسارقة والمعتدية .

وقد تمنى أحدُ القراء من فلسطين (*) أن يرزقَه الله مثلَ هذه الزوجة المكروهة كراهةَ حب ، ويضعَه موضعَ صاحب المشكلة ليُثبتَ أنه رجلٌ يحكم الكرهَ ويصرِّفُه على مايشاء ، ولا يرضى أن يحكمه الحبُّ وإن كان هو الحب .

وهذا رأيٌ حصيفٌ جيِّد ، فإن العاشقَ الذى يتلعَّبُ الحبُّ به ويصدُّه عن زوجته ، لايكونُ رجلا صحيحَ الرجولة ، بل هو أسخفُ الأمثلةِ فى الأزواج ، بل هو مُجرِمٌ أخلاقىٌّ يَنْصِبُ لزوجته من نفسه مثالَ العاهرِ الفاسق ، ليدفعَها إلى الدَّعارة والفِسْق من حيث يَدرى أو لايدرى ؛ بل هو غبى ، إذ لايعرفُ أن انفرادَ زوجته وتراجُعَها إلى نفسِها الحزينة يُنشِئُ فى نفسها الحنينَ إلى رجل آخر ؛ بل هو مغفَّل ، إذ لايدرك أن شريعةَ السنِّ بالسنِّ والعينِ بالعينِ ، هى بنفسها عند المرأة شريعةُ الرجُل بالرجل ....

والمرأة التى تجد من زوجها الكَراهِيَةَ لا تعرفُها أنها الكراهةُ إلا أوَّلَ أولَ ، ثم تنظر فإذا الكراهةُ هى احتقارُها وإهانتُها فى أخصِّ خصائصِها النِّسوية ، ثم تنظر فإذا هى إثارة كِبريائها وتحدِّيها ، ثم تنظر فإذا هىَ دفْعُ غريزتها أن تعملَ على إثباتِ أنها جديرةٌ بالحب ، وأنها قادرة على النقْمة والمجازاة ؛ ثم تنظر فإذا برهانُ كل ذلك لايجيء من عقل ولا منطقٍ ولا فضيلة ، وإنما يأتى من رُجل ... ... رجلٍ يحقق لها هى أن زوجَها مغفَّل وأنها جديرةٌ بالحب .

* * *

(*) هذه الآراء التى سننقلها قد تصرفنا فى جميعها بالعبارة ، ولكنا لم نخرج عما يرمى إليه صاحب الرأى وما أقام رأيه عليه .

وكأن هذا المعنى هو الذى أشارت إليه الأديبة (ف . ز) وإن كانت لم تَبْسُطه ، فقد قالت : « إن صاحبَ هذه المشكلة غبىّ ، ولا يكونُ إلا رجلًا مريضَ النفس مريضَ الخلُق ، وما رأيتُ مثلَه رجلا أبعدَ من الرجل ... ومثلُ هذا هو فى نفسِه مشكلة فكيف تُحلُّ مشكلتُه ؟ إنه من ناحية زوجته مغفّل ، لاوصف له عندها إلا هذا ؛ ومن جهة حبيبته خائن ، والخيانة أولُ أوصافِه عندها

« وهذا الزوجُ يسمّم الآن أخلاقَ زوجته ويُفسِد طباعَها ، وينشئ لها قصةً فى أولها غباوتُه وإثمُه ، وسيتركها تُتِمُّ الرواية فلا يعلم إلا اللهُ مايكونُ آخرها . وبمثل هذا الرجل أصبح المتعلماتُ يعتقدن أن أكثرَ الشبان ـ إن لم يكونوا جميعا ـ هم كاذبون فى ادعاء الحب ، فليس منهم إلا الغَواية ؛ أو هم محبون يكْذِبُ الأملُ بهم على النساء ، فليس منهم إلا الخيبة .

قالت : « وخيرُ ماتفعله صاحبةُ المشكلة أن تصنع ماصنعتْه أخرى لها مثلُ قصتها : فهذه حين علمتْ بزواج صاحبها قذفتْ به من طريقِ آمالها إلى الطريق الذى جاء منه ، وأنزلته من دَرَجة أنه كلُّ الناسِ إلى منزلة أنه ككل الناس ، ونبَّهتْ حزمَها وعزيمتَها وكبرياءَها ، فرأته بعد ذلك أهونَ على نفسها من أن يكونَ سببًا لشقاءٍ أو حسرةٍ أوهمّ ، وابتعدتْ بفضائلها عن طريقِ الحب الذى تعرفُ أنه لايستقيم إلا لزوجةٍ وزوجِها ، فإذا مشَتْ فيه امرأةٌ إلى غير زواج انحرفَ بها من هنا واعوجَّ لها من هنا ، فلم ينتهِ بها فى الغاية إلا أن تعودَ إلى نفسها وعليها غبارُه ، وما غبارُ هذا الطريقِ إلا سوادُ وجه المرأة ... ...

« وقد جهَد الرجلُ بصاحبته أن تتخذَه صديقا ، فأبت أن تتقبّلَ منه برهانَ خيبتها ... وأظهرتْ له جَفْوَةً فيها احتقار ، وأعلمته أن نكْثَ العَهْدِ لايخرجُ منه عهد ، وأن الصداقةَ إذا بدأتْ من آخر الحب تغير اسمُها وروحُها ومعناها ، فإما أن تكونَ حينئذ أسقطَ مافى الحب ، أو أكذبَ مافى الصداقة .

ثم قالت الأديبة : « وهى كانت تحبه ، بل كانت مُسْتَهامَةً به ، غير أنها كانت أيضا طاهرةَ القلب ، لا تريد فى الحبيب رجلًا هو رجلُ الحيلة عليها فتُخْدَع به ، ولا رجلُ العار فتُسبّ به ؛ وفى طهارة المرأة جزاءُ نفسِها من قوة الثقة والاطمئنانِ وحسنِ التمكن ؛ وهذا القلبُ الطاهرُ إذا فقد الحبَّ لم يفقد الطُمأنينة ، كالتاجر الحاذقِ إن خَسِر الربح لم يُفْلِس ، لأن مهارتَه من بعض خصائِصها القدرةُ على الاحتمال والصبرُ للمجاهدة .

قالت : « فعلى صاحبةِ المشكلة التى عرفت كيف تحب وتُجِلُّ ، أن تعرفَ الآن كيف تَحتقر وتَزدرِى »

* * *

وللأديبة (ف . ع) رأىٌ جَزْلٌ مُسَدَّد ؛ قالت : « إنما هى قد كانت يوما بالموضع الذى فيه صاحبةُ المشكلة ، فلما وقعت الواقعةُ أَنِفتْ أن تكونَ لِصَّةَ قلوب ، وقالت فى نفسها : إذا لم يُقْدَرْ لى ، فإن الله هو الذى أراد ، وإنى أستحى من الله أن أحاربَه فى هذه الزوجة المسكينة ! ولئن كنتُ قادرةً على الفوز ، إن انتصارى عليها عند حبيبى هو انتصارُها علىَّ عند ربى ! فلأخسرْ هذا الحبَّ لأرابحَ الله برأس مال عزيز خَسِرتُه من أجله ، ولأُبقِ على أخلاق الرجل ليبقَى رجلًا لامرأته ، فما يسرنى أن أنالَ الدنيا كلَّها وأهدمَ بيتاً على قلْب ، ولا معنى لحب سيكونُ فيه اللّؤم بل سيكونُ ألأمَ اللؤم !

قالت : « وعلمتُ أن الله (تعالى) قد جعلنى أنا السعادةَ والشقاءَ فى هذا الوضع ، ليرَى كيف أصنع ، وأيقنتُ أن ليس بين هذين الضدين إلا حِكْمتى أو حُمقى ، وصحَّ عندى أن حُسنَ المداخَلة فى هذه المشكلة هو الحلُّ الحقيق للمشكلة .

قالت : « فتغيرتُ لصاحبى تغيراً صناعيا ، وكانت نيَّتى له هى أكبرَ أعوانى عليه ، فما لبث هذا الانقلابُ أن صار طبيعيا بعد قليل ؛ وكنت أستمدُّ من قلب امرأتِه إذا اختانَنى الضعفُ أو نالنى الجزَع ، فأَشعرُ أن لى قوةَ قلبين ؛

وزدتُ على ذلك النصحَ لصاحبي نُصحا مُيَسَّرا قائما على الإقناع وإثارةِ النَّخْوة فيه وتبصيره بواجباتِ الرجل، وترفقتُ فى التوصل إلى ضميره لأثبتَ له أن عزةَ الوفاء لا تكونُ بالخيانة، وبيَّنتُ له أنه إذا طلّقَ زوجتَه من أجلى فما يصْنَع أكثرَ من أن يقيمَ البرهانَ على أنه لا يصلح لى زوجا؛ ثم دللتُه برفقٍ على أن خيرَ ما يصنعُ وخيرَ ما هو صانعٌ لإرضائى أن يقلّدنى فى الإيثارِ وكَرم النفسِ، ويحتذِيَنى فى الخير والفضيلة، وأن يعتقدَ أن دموعَ المظلومين هى فى أعينهم دموع، ولكنها فى يد الله صواعقُ يضربُ بها الظالم.

قالت: «وبهذا وبعد هذا انقلب حبُّه لى إكبارا وإعظاما، وسما فوق أن يكونَ حبا كالحب؛ وصار يجدنى فى ذاتِ نفسه وفى ضميره كالتوبيخ له كلما أراد بامرأته سوءا أو حاول أن يَغُضَّ منها فى نفسه؛ واعتاد أن يُكرِمَها فأكرمها، وصلُحت له نيته فاتصل بينهما السبب، وكبرَت هذه النية الطيبة فصارت وُدًّا، وكَبِرَ هذا الودُّ فعاد حبًّا، وقامت حياتهما على الأساسِ الذى وضعتُه أنا بيدى، أنا بيدى ......

«أما أنا...؟»

* * *

وكتب فاضل من حلوان: «إن له صديقا ابتُلِى بمثل هذه المشكلة فركب رأسَه فما ردَّه شىء عن الزواج بحبيبته، وزُفَّ إليها كأنه مَلِكٌ يدخل إلى قَصْرِ خَياله؛ وكان أهلُه يعذلونه ويلومونه ويُخلِصون له النُّصحَ ويجتهدون فى أمرِه جُهْدَهم، إذ يرَوْن بأعينهم ما لا يرى بعينه، فكان النصحُ ينتهى إليه فيظنه غِشا وتَلبيسا، وكان اللّومُ يبلغه فيراه ظُلما وتحاملا، وكان قلبُه يُترجِمُ له كلَّ كلمة فى حبيبته بمعنًى منها هى لا من الحقائق، إذ غلبتْ على عقله فبها يَعْقل، وذهبتْ بقلبه فبها يُحِس، واستبدَّت بإرادته فلها يَنقاد؛ وعادت خواطرُه وأفكارُه تدورُ عليها كالحواشى على العبارة المغلقة فى كتاب؛ واستقرَّت له فيها

قوةٌ من الحب ، أمْرُها إذا أرادتْ شيئا أن تقولَ له كُن ...

« ثم مضت الليلةُ بعد الليلة ، وجاء اليومُ بعد اليوم ، والموجُ يأخذُ من الساحل الذرّةَ بعد الذرة والساحلُ لا يشعر ، إلى أن تصرّمت أشهرٌ قليلة ، فلم تلبث الطبيعة التى ألّفت الروايةَ وجعلتها قبلَ الزواج روايةَ المَلِك والمَلِكة ، وقصةَ التاج والعرش ، وحديثَ الدنيا ومُلكِ الدنيا — لم تلبث أن انتقلتْ على فجأة فأدارت الرواية إلى فصلِ السخرية ومنظرِ التهكم ، وكشفت عن غرضها الخفىّ وحلّت العُقدة الروائية .

قال : « ففرغ قلبُ المرأة من الحب ، وظَمِئ إلى السُّكْر والنّشوة مرةً أُخرى من غير هذه الزجاجة الفارغة ... وبَرَدَ قلبُ الرجل ، وكان الشيطانُ الذى يتَسَعّر فيه نارا شيطانا خبيثا ، فتحولَ إلى لوح من الثلج له طولٌ وعرض ...

« وجِدّت الحياةُ وهَزَل الشيطان ، فاستَحْمَقَ الرجل نفسَه أن يكونَ اختار هذه المرأةَ له زَوجة ، واستجْهلَتْ المرأةُ عقلَها أن تكون قد رضيت هذا الرجلَ زوجا ، وأنكَرها إنكاراً أوّلُه الملالة ، وأنكرته إنكارا آخرُ أولِه التبرّم ؛ وعاد كلاهما من صاحبه كإنسان يكلّف إنسانا أن يخلُقَ له الأمس الذى مضى !

« وضربت الحياة ضَرْبةً أو ضربتين ، فإذا أبنيةُ الخيال كلُّها هَدْمٌ هَدْم ، وإذا الطبيعة مؤلّفةُ الرواية .... قد ختمتْ روايتها وقوّضتِ المسرح ، وإذا الأحلامُ مفسَّرة بالعكس : فالحب تأويلُه البغض ، واللذة تفسيرُها الألم ، و« البودرة » معناها الجير ... وتغيّرَ كلٌّ ما بينهما إلا الشيطانَ الذى بينهما ، فهو الذى زوّج وهو بعينه الذى طلّق ... »

* * *

وكتب أديب من بغداد يقول : « إنه كان فى هذا الموضع القَلِق ، موضعِ صاحب المشكلة ، وإن ذات قُرباه التى سُمّيت عليه كانت مُلفّفةً له فى حُجُبٍ عِدّة لا فى حجاب واحد ، وقد وُصِفتْ له باللغة ... وفى اللغة : ما أحْسَنَ ! وما أجمل !

وما أظرف ! وكأنها ظَبيٌ يتلفَّت ! وكأنها غُصنٌ يميل ! وكأن سُنّةَ وجهِها البَدر !

قال : « وشُبِّهت له بكل أدوات التشبيه ، وجاءوا فى أوصافها بمذاهبِ الاستعارة والمجاز ، فأخذها قصيدةً قبل أن يأخذها امرأة ؛ وكان لم يرَ منها شيئًا ، وكانت لغةُ ذوى قَرابته وقَرابتِها كلُغة التجارة فى ألسنةِ حُذّاق السماسرة : ما بهم إلا تَنفِيقُ السِّلعة ثم يُخلُّون بين المشترى وحظِّه .

قال : « فرسخ كلامُهم فى قلبى ، فعقدتُ عليها ، ثم أعْرَستُ بها ، ونظرتُ فإذا هى ليست فى الكلمةِ الأولى ولا الأخيرةِ مما قالوا ، ولا فيما بينهما ... ثم تعرفتُ فإذا هى تكبرنى بخمسَ عشرةَ سنة .... ورأيتُ اتِّضاعَ حالها عندى فأشفقتُ عليها ، وبتُّ الليلة الأولى مُقبلًا على نفسى أؤامرها وأناجيها ، وأنظر فى أى موضع رَأْيٍ أنا ؛ وتأملتُ القصةَ ، فإذا امرأةٌ بين رحمةِ الله ورحمتى ، فقلتُ : إن أنا نزعتُ رحمتى عنها ليُوشِكنّ الله أن ينزعَ رحمتَه عنى ، وما بينى وبينه إلا أعمالى ؛ وقلت : يانفسى ، إنها إن تَكُ مِثْقال حَبَّة من خَرْدلٍ فتكُنْ فى صخرةٍ أو فى السموات أو فى الأرضِ يأتِ بها الله ! وإنما أتقدم إلى عفوِ الله بآثامٍ وذنوبٍ وغلطاتٍ ، فلأجعلْ هذه المرأةَ حسنتى عنده ، وما علىَّ من عمرٍ سيَمضى وتبقى منه هذه الحسنةُ خالدةً مخلّدَةً !

« إنما كانت حاجةَ النفس إلى المتاع فانقلبت حاجةً إلى الثواب ، وكانت شهوةً فرجعت حكمة ، وكنت أريد أن أبلغ ما أحبُّ فسأبلغ ما يَجِب . ثم قلتُ : اللهمّ إن هذه امرأةٌ تنتظرها ألسنةُ الناس إما بالخير إذا أمسكتُها ، وإما بالشر إذا طلقتُها ، وقد احتمتْ بى ؛ اللهمّ سأكفيها كلَّ هذا لوجهك الكريم !

قال : « ورأيتُنى أكونُ ألأمَ الناس لو أنى كشفتُها للناس وقلتُ انظروا ... فكأنما كنتُ أسأتُ إليها ؛ فأقبلتُ أترضّاها ، وجعلتُ أمازحُها وألاينُها فى القول ، وعدلْتُ عن حظ نفسى إلى حظ نفسها (*) واستظهرتُ بقوله تعالى :

(*) استوفينا بيانَ هذه المعانى فى مقالة (قبح جميل) .

« وعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيراً كثيرًا » ؛ واعتقدتُ الآيةَ الكريمةَ أصحَّ اعتقاد وأتمَّه ، وقلت اللهمّ اجعلْها من تفسيرها .

قال : « فلم تمض أشهرٌ حتى ظهر الحملُ عليها ، فألقى الله فى نفسى من الفرح مالا تَعْدِله الدنيا بحذافيرها ، وأحسستُ لهـا الحبَّ الذى لا يقال فيه جميل ولا قبيح ، لأنه من ناحية النفس الجديدة التى فى نفسها (الطفل) ؛ وجعلتُ أرى لها فى قلبى كل يوم مداخِلَ ومخارج دونها العشقُ فى كل مَداخِله ومخارِجه ، وصار الجنينُ الذى فى بطنها يتلألأ نورُه عليها قبل أن يخرج إلى النور ، وأصبحت الأيام معها ربحًا من الزمن فيه الأملُ الحلوُ المنتظَر .

قال : « وجاءها المخاض ، وطرَّقَتْ بغلام ؛ وسمعتُ الأصواتَ ترتفع من حُجْرتها : ولد ! ولد ! بَشِّرُوا أباه ! فوالله لـكأن ساعةً من ساعات الخلد وقعت فى زمنى أنا من دون الخلق جميعا وجاءتنى بـكل نعيم الجنة ؛ وما كان مُلْكُ العـالم — لو ملـكتُه — مستطيعا أن يهبنى ما وهبتنى امرأتى من فَرَح تلك الساعة ؛ إنه فَرحٌ إلٰهى أحسست بقلبى أن فيه سلامَ الله ورحمتَه وبركتَه . ومن يومئذٍ نَطق لسانُ جمالها فى صوتِ هذا الطفل . ثم جاء أخوه فى العام الثانى ، ثم جاء أخوهما فى العام الثالث ؛ وعرفتُ بركةَ الإحسان من اللطف الرَّبانى فى حوادثَ كثيرة ، وتنفَّسَتْ علىَّ أنفاسُ الجنة ، وفَسَّرتِ الآيةُ الـكريمةُ نفسَها بهؤلاء الأولاد ، فكان تفسيرُها الأفراح ، والأفراح ، والأفراح » .

* * *

ويرى صديقُنا الأستاذ (م . ح . ج) أن صاحبَ المشكلة فى مشكلةٍ من رجولته لا من حبه ؛ فلو أن له ألفَ روح لما استطاع أن يعاشرَ زوجتَه بواحدة منها ، إذ هى كلُّها أرواحٌ صبيانية تبكى على قطعةٍ من الحلوى ممثلةٍ فى الحبيبة ... ولو عرف هذا الرجلُ فلسفةَ الحب والـكره ، لعرف أنه يصنع دموعَه بإحساسه الطِّفْلىِّ فى هذه المشكلة ؛ ولو أدرك شيئًا لأدرك أن الفاصلَ

بين الحب والكره منزوعٌ من نفسه ، إذ الفاصلُ فى الرجل هو الحزم الذى يُوضَع بين مايجب وما لا يجب .

إنه مادام بهذه النفس الصغيرة فكلُّ حل لمشكلته هو مشكلةٌ جديدة ، ومِثْله بلاءٌ على الزوجة والحبيبة معًا ، وكلتاهما بلاءٌ عليه ، وهو بهذه وهذه كمحكوم عليه أن يُشْنَقَ بامرأة لا بمشنقة ...

هذا عندى ليس بالرجل ولا بالطفل إلى أن يُثْبِتَ أنه أحدُهما ؛ فإن كان طفلاً فمن السخرية به أن يكونَ متزوجا ، وإن كان رجلا فليحلَّ هو المشكلةَ بنفسه ، وحلُّها أيسرُ شىء : حلها تغييرُ حالته العقلية .

* * *

ونحن نعتذر للباقين من الأدباء والفضلاء الذين لم نذكر آراءهم ، إذ كان الغرضُ من الاستفتاء أن نظفرَ بالأحوال التى تشبه هذه الحادثة ، لا بالآراء والمواعظ والنصائح . أما رأينا ففى البقية الآتية .

المشكلة

٤

صاحبُ هذه المشكلةِ رجلٌ أعورُ العقل ... يرى عقلُه من ناحية واحدة ، فقد غاب عنه نصفُ الوجود فى مشكلته ، ولو أن عقله أبصرَ من الناحيتين لما رأى المشكلةَ خالصةً فى إشكالها ، ولوجدَ فى ناحيتها الأخرى حظًا لنفسه قد أصابه ، ومذهبا فى السلامة لم يُخطِئه ؛ وكان فى هذه الناحية عذابُ الجنون لو عذبه الله به ، وكان يُصبح أشقَّ الخلق لو رماه الله فى الجِهَة التى أنقذه منها

فتهيأتْ له المشكلة على وجهها الثانى .

ماذا أنت قائلٌ ياصاحبَ المشكلة لوأن زوجتك هذه المسكينةَ المظلومة التى بلَيْتَ بها ، كانت هى التى أُكْرِهَتْ على الرضى بك ، وحُمِلَتْ على ذلك من أبيها ؛ ثم كنت أنت لها عاشقا ، وبها صَبًّا ، وفيها مُتَدَلِّهًا ؛ ثم كانت هى تحبُّ رجلاً غيرَك ، وتَصبُو إليه ، وتفتتِنُ به ، وقد احترقتْ عشقًا له ؛ فإذا جلَوْها عليك رأتك البَغيضَ المَقِيتَ ، ورأتك الدَّميمَ الكريه ، وفزِعَتْ منك فزَعها من اللِّص والقاتل ؛ وتمدُّ لها يدكَ فتتَحاماها تحامِيَها المجذومَ أو الأبرص ، وتكلمُها فتُحَمُّ بَرْدا من ثِقَل كلامك ، وتفتَحُ لها ذراعيك فتحسبُها حَبْلَين من مشنقتين ، وتتحبَّبُ إليها فإذا أنتَ أسمجُ خلقِ الله عندها ، إذ تحاولُ فى نذالة أن تحِلَّ منها محلَّ حبيبها ؛ وتُقبلُ عليها بوجهك فتراه من تقذّرِها إياكَ ، واشمئزازها منك — وجهَ الذبابة مكبَّرًا بفظاعةٍ وشناعةٍ فى قدر صورة وجهِ الرجلِ ، ليتجاوزَ حدَّ القبح إلى حدّ الغثاثة ، إلى حدٍّ انقلابِ النفسِ من رؤيته ، إلى حدِّ القَيْءِ إذا دنا وجهُك من وجهها . . . ؟

ماذا أنت قائلٌ ياصاحبَ المشكلة لوأن مشكلتَك هذه جاءت من أن بينك وبين زوجتك (الرجلَ الثانى) لاالمرأةَ الثانية ؟ ألستَ الآن فى رحمةٍ من الله بك ، وفى نعمةٍ كفتْ عنك مُصيبة ، وفى موقفٍ بين الرحمة والنعمة يقتضيك أن تَرقُبَ فى حكمك على هذه الزوجة المسكينة حكمَ الله عليك ؟

* * *

تقول : الحب والخيال والفن ! وتذهب فى مذاهبها ؛ غيرَ أن « المشكلة » قد دلت على أنك بعيدٌ من فهم هذه الحقائق ، ولو أنت فهمتها لما كانت لك مشكلة ، ولا حسبتَ نفسَك منحوسَ الحظ محروما ، ولا جهلتَ أن فى داخلِ العين من كل ذى فنٍّ عينا خاصةً بالأحلام كيلا تعمَى عينُه عن الحقائق .

الحب لفظ وهى موضوع على أضداد مختلفة : على بُركان وروضة ، وعلى

سماءٍ وأرض ، وعلى بكاءٍ وضحك ، وعلى هموم كثيرة كلّها هموم ، وعلى أفراحٍ قليلة ليست كلها أفراحا ؛ وهو خِداعٌ من النفس يضع كلّ ذكائه فى المحبوب ، ويجعلُ كل بَلاهته فى المحب ، فلا يكونُ المحبوبُ عند محبه إلا شخصا خياليا ذا صفة واحدةٍ هى الكمال المطلق ، فكأنه فوق البشريةِ فى وجودٍ تامِّ الجمالِ ولا عيبَ فيه ، والناس من بعده موجودون فى العيوب والمحاسِن .

وذلك وهْم لاتقومُ عليه الحياةُ ولا تصلُح به ، فإنما تقوم الحياةُ على الروح العملية التى تضعُ فى كل شىء معناه الصحيحَ الثابت ؛ فالحبُّ على هـذا شىء غيرُ الزواج ، وبينهما مثلُ مابين الاضطراب والنظام ؛ ويجب أن يُفهَم هـذا الحبُّ على النحو الذى يجعـله حبا لاغير ، فقد يكون أقوى حب بين اثنين إذا تحابًّا هو أسخفَ زواجٍ بينهما إذا تزوجا .

وذو الفن لا يُفيدُ من هذا الحب فائدتَه الصحيحة إلا إذا جعله تحت عقـلِه لافوق عقـله ، فيكون فى حبه عاقلا بجنون لطيف ... ويترك العاطفةَ تدخلُ فى التفـكير وتضعُ فيه جمالَها ونورَتَها وقوتَها ؛ ومن ثَمَّ يرى مجاهَدَة اللذة فى الحب هى أسمى لذاته الفـكرية ، ويعرفُ بها فى نفسه ضَرْبًا إلٰهيًّا من السَّكينة يُولِيه القدرة على أن يقهرَ الطبيعةَ الإنسانية ويصرِّفها ويُبدعَ منها عمله الفنيَّ العجيب .

وهذا الضربُ من السموّ لا يبلغه إلا الفـكرُ القوىُّ الذى فازَ على شهواته وكبَحَها وحمَّاها تَغلى فيـه غَليانَ المـاء فى المِرْجَل ليخرج منها ألطفَ مافيها ، ويحوِّلَها حركةً فى الروح تنشأ منها حياةُ المعانى الفنية ؛ وما أشبهَ ذا الفنِّ بالشجرة الحية : إن لم تَضْبِطْ مافى داخلها أصحَّ الضبط ، لم يكن فى ظاهرها إلا أضعفُ عملها .

ومثلُ هذا الفـكرِ العاشق يحتاج إلى الزوجة حاجتَه إلى الحبيبة ، وهو فى قوته يجمعُ بين كرامة هذه وقُدْسِيّة هـذه ، لأن إحداهما تُوازِنُ الأخرى

وتُعَدُّ لها فى الطبع ، وتخفف من طُغْيانها على الغريزة . وتُمسكُ القلبَ أن يَتَبدَّد فى جوِّه الخيالى .

* * *

والرجلُ الكاملُ المفكِّر المتخيِّلُ إذا كان زوجا وعَشِق ، أو كان عاشقا وتزوَّج بغير من يهواها ، استطاع أن يبتدعَ لنفسه فنًّا جميلا من مسرات الفكر لايجدُه العاشقُ ولا يناله المتزوج ؛ وإنه ليرى زوجتَه من الحبيبة كالتمثال جَمَدَ على هيئة واحدة ، غير أنه لا يُغْفِل أن هذا هو سر من أسرار الإبداع فى التمثال ، إذ تلك هيئةُ استقرارِ الأسمى فى سموه ؛ فإن الزوجة أُمومةٌ على قاعدتها ، وحياةٌ على قاعدتها ؛ أما الحبيبة فلا قاعدة لهـا ، وهى معانٍ شاردةٌ لا تستقرُّ ، وزائلةٌ لاتثبت ، وفنها كلُّه فى أن تبقَى حيث هى كما هى ، فجمالُها يحيا كلَّ يوم حياةً جديدة مادامت فنًّا محْضا ، وما دام سِرُّ أنوثتها فى حجابه .

ومتى تزوج الرجلُ بمن يحبها انهتك له حجابُ أنوثتِها فبطَلَ أن يكون فيها سر ، وعادت له غيرَ من كانت ، وعاد لها غيرَ من كان ؛ وهـذا التحولُ فى كل منهما هو زوال كلٍّ منهما من خَيال صاحبه ؛ فليس يصلُح الحبُّ أساسا للسعادة فى الزواج ، بل أحْرِ به إذا كان وجْداً واحتراقا أن يكونَ أساسا للشؤم فيه ؛ إذ كان قد وضع بين الزوجين حدًّا يعيِّنُ لهما درجةً من درجةٍ فى الشغَف والصبابة والخيال ، وهما بعدَ الزواج متراجعان وراءَ هذا الحد ماءن ذلك بد ، فإن لم يكن الزوجُ فى هذه الحالة رجلًا تامَّ الرجولة ، أفسدت الحياةَ عليه وعلى زوجته صبيانيةُ رُوحه ، فالتمس فى الزوجة مالم يَعُدْ فيها ؛ فإذا انكشفَ له فراغُها ذهب يلتمسُه فى غيرها ، وكان بلاءً عليها وعلى نفسه وعلى أولاده قبل أن يولدوا ؛ إذ يضَعُ أمام هذه المرأة أسوأ الأمثلة لأبى أولادها ؛ ويفسد إحساسَها فيُفسدُ تكوينَها النفسيَّ ؛ وما المرأة إلا حسُّها وشعورُها (*)

(*) هذا كله من بعض الحكمة فى أن الإسلام لا يبيح اختلاط الزوجين قبل العقد

* * *

فالشأنُ هو فى تمام الرجولة وقوتها وشهامتِها وفُحُولتِها إن كان الرجلُ عاشقاً أو لم يكُنْه ؛ وما من رجل قوىٍّ الرجولةِ إلا وأساسه ديانتُه وكرامتُه، وما من ذى دينٍ أو كرامة يقع فى مثل هذه المشكلة ثم تُظْلَم به الزوجة أو يحيف عليها أو يُفسِدُ مابينه وبينها من المداخَلة وحسنِ العِشْرة ، بَلْه أن يراها كما يقولُ صاحب المشكلة (مصيبة) فيُجافيها و يبالغَ فى إعْناتِها ويشفِىَ غيظَه بإذلالها واحتقارها .

وأىُّ ذى دينٍ يأمنُ على دينه أن يَهلكَ فى بعض ذلك فضلًا عن كل ذلك ؟ وأى ذى كرامة يرضى لكرامته أن تنقلبَ خسة ودناءة ونذالةً فى معاملة امرأةٍ هو لاغيره ذنبُها ؟

إن أساسَ الدين والكرامة ألّا يخرجَ إنسانٌ عن قاعدة الفضيلة الاجتماعية فى حل مشكلته إن تورط فى مشكلة ؛ فمن كان فقيراً لا يسرق بحجة أنه فقير ، بل يكدُّ ويعمل ويصبر على مايعانيه من ذلك ؛ ومن كان محبًّا لا يستَزِلّ المرأة فيُسقطها بحجة أنه عاشق ؛ ومن كان كصاحب المشكلة لايظلم امرأته فيمقتها بحجة أنه يعشق غيرها ؛ وإنما الإنسانُ مَن أظهر فى كل ذلك ونحوِ ذلك أثَرَهُ الإنسانى لا أثَرَه الوحشىَّ ، واعتَبر أمورَه الخاصةَ بقاعدة الجماعة لابقاعدةِ الفرد . وإنما الدينُ فى السموِّ على أهواء النفس ، ولا يَتَسامى امرؤٌ على نفسه وأهواءِ نفسه إلا بإنزالها على حكم القاعدة العامة ، فمن هناكَ يتسامى ومن هناك يبدو علوُّه فيما يبلغُ إليه ......

وإذا حلَّ اللصُّ مشكلتَه على قاعدته هو فقد حلّها ، ولكنه حلٌّ يجعله هو بجملته مشكلةً للناس جميعاً ، حتى ليرى الشرعُ فى نظرته إلى إنسانية هذا

= إذ لايعرف الدين الإسلامى من الزوجين إلا أسرة يجب أن تبنى بما يبنيها ، وتصان بما يصونها . وقد أشرنا إلى حكمة أخرى فى المقالة الأولى من المشكلة .

اللص أنه غير حقيقٍ باليد العاملةِ التى خُلقت له ، فيأمر بقطعها .

وعلى هذه القاعدة فالجنسُ البشرىُّ كله ينزلُ منزلةَ الأبِ فى مناصرته لزوجة صاحب المشكلة والاستظهارِ لها والدفاع عنها، مادام قد وقع عليها الظلم من صاحبها ؛ وهذا هو حكمها فى الضمير الإنسانى الأكبر ، وإن خالف ضميرَ زوجها العدوِّ الثائر الذى قطعها من مَصادر نفسِه ومَوَاردها . أما حكم الحبيبةِ فى هذا الضمير الإنسانى فهو أنها فى هذا الموضع ليست حبيبة ولكنها شحَّاذَة رجال ... ...

* * *

لسنا ننكر أن صاحبَ هذه المشكلة يتألم منها ويتلذع بها من الوقْدَةِ التى فى قلبه ؛ بيد أننا نعرفُ أن ألم العاقل غيرُ ألم المجنون ، وحزنَ الحكيم غيرُ حزن الطائش ؛ والقلبُ الإنسانى يكاد يكون آلةً مخلوقةً مع الإنسان لإصلاح دنياه أو إفسادِها ؛ فالحكيمُ من عرف كيف يتصرف بهذا القلب فى آلامه وأوجاعه ، فلا يصنع من ألمه ألما جديدًا يزيده فيه ، ولا يُخرِجُ من الشر شرا آخرَ يجعله أسوأ مما كان ؛ وإذا لم يجد الحكيم مايشتهى ، أو أصاب مالا يشتهى ، استطاع أن يخلقَ من قلبه خَلقاً معنوياًيوجِدُه الغِنَى عن ذلك المحبوب المعدوم ، أو يوجِدُه الصبر عن هـذا الموجود المكروه ؛ فتتوازنُ الأحوالُ فى نفسه وتعتدلُ المعانى على فكره وقلبه ؛ وبهذا الخلق المعنوىّ يستطيع ذو الفن أن يجعلَ آلامَه كلّها بدائع فنّ (*) . وما هو فكرُ الحكماء إلا أن يكونَ مصنعاً ترسَلُ إليه المعانى بصورة فيها الفَوْضَى والنقصُ والألم ، لتخرجَ منه فى صورة فيها النظامُ والحكمةُ واللذةُ الروحية .

يعشق الرجلُ العامىُّ المتزوج ، فإذا الساعةُ التى أوْبقَتْه فى المشكلة قد جاءته معها بطريقة حلها : فإما ضَرَب امرأته بالطلاق ، وإما أهلكَها باتخاذ الضّرة

(*) استوفينا هذه المعانى فى كثير مما كتبنا ، وبعضها فى مقالات (الجمال البائس) .

عليها ، وإما عذبها بالخيانة والفُجور ؛ لأن بعضَ العبث من الطبيعة فى نفس هذا الجاهل هو بعينه عَبثُ الطبيعة بهذا الجاهل فى غيره ، كأن هذه الطبيعةَ تُطلقُ مدافعَها الضخمةَ على الإنسانية من هذه النفوسِ الفارغة ...

وليس أسهلُ على الذكر من الحيوان أن يحلَّ مشكلةَ الأنثى حلاًّ حيوانيا كحلِّ هذا العامىّ ، فهو ظافر بالأنثى أو مقتولٌ دونها مادام مطلَقًا مخلًّى بينه وبينها؛ والحقيقةُ هنا حقيقته هو ، والكونُ كله ليس إلا منفعةً شهوانيــة ؛ وأسمى فضائله ألّا يَعجزَ عن نيل هذه المنفعة .

ثم يعشقُ الرجلُ الحكيم المتزوج فإذا لمشكلته وجهٌ آخر ، إذ كان من أصعب الصعب وجودُ رجل يحل هذه المشكلةَ برجولة ، فإن فيها كرامةَ الزوجة وواجبَ الدين ، وفيها حق المروءة ، وفيها مع ذلك عَبَثُ الطبيعة وخــداعُها وهزْلُها الذى هو أشدُّ الجِد بينها وبين الغريزة ؛ وبهذا كلِّه تنقلب المشكلةُ إلى معركة نفسية لا يَحْسِمُها إلا الظفَر ، ولا يُعينُ عليها إلا الصبر ، ولا يُفلح فى سياستها إلا تحمُّلُ آلامها ؛ فإذا رُزق العاشقُ صبرًا وقوةً على الاحتمال فقد هانَ الباقى وتيسرت لذةُ الظفر الحاسم ، وإن لم يكن هو الظفرَ بالحبيبة ؛ فإن فى نفس الإنسان مواقع مختلفةً وآثارًا متباينةً للذة الواحدة ؛ وموقعٌ أرفعُ من موقع ، وأثرٌ أبهجُ من أثر ؛ وألذُّ من الظفر بالحبيبة نفسها عند الرجل الحكيم الظفرُ بمعانيها ، وأكرمُ منهــا على نفسه كرامةُ نفسه ؛ وإذا انتصر الدينُ والفضيلةُ والكرامةُ والعقلُ والفن ، لم يبق لخيبة الحب كبيرُ معنًى ولا عظيمُ أثر ، ويتوغّل العاشقُ فى حبه وقد لَبِسَتْه حالةٌ أخرى كما يكْظِمُ الرجلُ الحليم على الغَيظ ؛ فذلك يحب ولا يَطيش ، وهذا يغتاظ ولا يغضَب . والبطلُ الشديدُ البأس لا ينبغُ إلا من الشدائد القوية ، والداهيةُ الأريبُ لا يخرج إلا من المشكلات المعقّدة ، والتقىُّ الفاضل لا يُعرفُ إلا بين الأهواء المستحكِمة

ولَعمرى إذا لم يستطع الحكيمُ أن ينتصرَ على شهوة من شهوات نفسه ، أو يُبطِل حاجةً من حاجاتها ، فماذا فيه من الحكمة وماذا فيه من النفس ؟

* * *

وما عقَّد (المشكلةَ) على صاحبها بين زوجته وحبيبته ، إلا أنه بخياله الفاسدِ قد أفسد القوةَ المصلِحةَ فيه ، فهو لم يتزوج امرأتَه كلَّها ... وكأنه لايراها أنثى كالنساء ، ولا يُبصر عندها إلا فُروقًا بين امرأتين : محبوبةٍ ومكروهة ؛ وبهذا أفسد عينَه كما أفسد خَياله ؛ فلو تعلَّم كيف يراها لرآها ، ولو تعوَّدها لأحبها .

إنه من وهمه كالجواد الذى يشعر بالمَقَادة فى عنقه ؛ فشعورُه بمعنى الحبل وإن كان معنًى ضئيلًا عطّل فيه كلَّ معانى قوته ، وإن كانت معانىَ كثيرة . وما أقدرَك أيها الحبُّ على وضع حبال الخيل والبغال والحمير فى أعناق الناس !

* * *

وقد بقى أن نذكر ، توفيةً للفائدة ، أنه قد يقع فى مثل هذه المشكلة من نقصت فُحُولَتُه من الرجال ، فيدَلِّس على نفسه بمثل هذا الحب ، ويبالغ فيه ، ويتجرَّم على زوجته المسكينة التى ابتُليت به ، ويختلقُ لها العِلل الواهية المكذوبة ، ويُبغضُها كأنه هو الذى ابتُلِيَ بها ، وكأن المصيبةَ من قِبَلها لا من قِبَله ؛ وكلُّ ذلك لأن غريزته تحولت إلى فكرِه ، فلم تعد إلا صُوَراً خياليةً لا تعرف إلا الكذب . وقد قرر علماء النفس أن من الرجال من يكره زوجتَه أشدَّ الكره إذا شعر فى نفسه بالمهانة والنقص من عجزه عنها ... فهذا لايكونُ رجلاً لامرأته إلا فى العداوة والنقمة والكراهية وما كان من باب شِفَاء الغيظ ؛ وامرأتُه معه كالمعاهَدة السياسية من طَرَف واحد : لاقيمة ولا حرمة ؛ وإذا أحب هذا كان حبه خياليا شديدًا ، لأنه من جهة يكون كالتعزية لنفسه ، ومن جهة أخرى يكون غيظًا لزوجته ، وردًّا بامرأة على امرأة . . . .

فهرست الجزء الأول من وحى القلم

الصفحة	الموضوع
١	اليمامتان
١٤	اجتلاء العيد
١٩	المعنى السياسى فى العيد
٢٢	الربيع
٢٦	عرش الورد
٣٠	أيها البحر
٣٥	فى الربيع الأزرق
٤٠	حديث قطين
٤٨	بين خروفين
٦٠	الطفولتان
٧٠	أحلام فى الشارع
٧٨	أحلام فى قصر
٨٥	بنت الباشا
٩٢	ورقة ورد
٩٨	سمو الحب
١١٠	قصة زواج وفلسفة المهر
١٢٢	ذيل القصة وفلسفة المال
١٣٢	زوجة إمام (١)
١٤٣	زوجة إمام (٢)
١٥٢	قبح جميل
١٦٤	الطائشة (١)
١٧٥	الطائشة (٢)
١٨٤	دموع من رسائل الطائشة
١٩١	فلسفة الطائشة

الصفحة	الموضوع
٢٠١	تربية لؤلؤية
٢١٠	س . ا . ع
٢١٩	استنوق الجمل
٢٢٧	أرملة حكومة
٢٣٥	رؤيا فى السماء
٢٤٤	بنته الصغيرة (١)
٢٥٣	بنته الصغيرة (٢)
٢٦٣	الأجنبية
٢٧٤	لحوم البحر
	قصيدة مترجمة عن الشيطان
٢٨٠	احذرى
	قصيدة مترجمة عن الملك
٢٨٧	الجمال البائس (١)
٢٩٤	» » (٢)
٣٠٢	» » (٣)
٣١١	» » (٤)
٣١٨	» » (٥)
٣٢٨	عربة اللقطاء
٣٣٧	الله أكبر
٣٤٤	فى اللهب ولا تحترق
٣٥١	المشكلة
٣٦٠	» (٢)
٣٦٧	» (٣)
٣٧٦	» (٤)

وحي القلم

تأليف

مصطفى صادق الرافعي

راجعه واعتنى به

د. درويش الجويدي

الجزء الثاني

المكتبة العصرية

صيدا - بيروت

وحي القلم

بسم الله الرحمن الرحيم

الإشراقُ الإلهي
وفلسفة الإسلام

كما تطلعُ ٱلشمسُ بأنوارِها فتُفجّرُ ينبوعَ الضوءِ المسمّى النهار، يولَدُ النبيُّ فيُوجِدُ في الإنسانيةِ ينبوعَ النورِ المسمّى بالدين. وليسَ النهارُ إلا يقظةَ الحياةِ تُحقّقُ أعمالَها، وليسَ الدينُ إلا يقظةَ النفسِ تُحققُ فضائلَها.

والشمسُ خلقَها اللَّهُ حاملةً طابَعَهُ الإلهيَّ، في عملِهِ لِلمادةِ تُحَوّلُ بِهِ وتُغَيّر، والنبيُّ يُرسلُهُ اللَّهُ حاملاً مثلَ ذلك الطابعِ في عملِهِ تترقّى فيهِ وتسمو.

ورَعشاتُ الضوءِ منَ الشمسِ هي قصةُ الهدايةِ لِلكونِ في نورٍ مِنَ الكلامِ.

والعاملُ الإلهيُّ العظيمُ يعملُ في نظامِ النفسِ والأرضِ بأداتيْنِ متشابهتينِ: أجرامِ النورِ مِنَ الشموسِ والكواكب، وأجرامِ العقلِ مِنَ الرُّسُلِ والأنبياء.

فليسَ ٱلنبيُّ إنساناً مِنَ العظماءِ يُقرأُ تاريخُهُ بالفكرِ معَهُ ٱلمنطق، ومعَ ٱلمنطقِ الشكّ، ثم يُدْرَسُ بكلّ ذلك على أصولِ الطبيعةِ البشرية العامة، ولكنَّهُ إنسانٌ نجميٌّ يُقرأُ بمثلِ «التلسكوب» في الدقة، معَهُ العِلْم، ومعَ ٱلعِلْمِ الإيمان، ثم يُدْرسُ بكلِّ ذلك على أصولِ طبيعتِهِ النورانيةِ وحدَها.

والحياةُ تُنشِيءُ عِلمَ التاريخ، ولكنَّ هذه الطريقةَ في درسِ الأنبياءِ ـ صلواتُ اللهِ عليهم ـ تجعلُ التاريخَ هو يُنشيءُ عِلْمَ الحياة، فإنَّما النبيُّ إشراقٌ إلهيٌّ على الإنسانية، يُقَوّمُها في فلَكِها الأخلاقيّ، ويجذبُها إلى الكمالِ في نظامٍ هو بعينِهِ صورةٌ لِقانونِ الجاذبيةِ في الكواكبِ.

ويجيءُ النبيُّ فتجيءُ الحقيقةُ الإلهيةُ معَهُ في مثلِ بلاغةِ الفنّ البيانيّ، لِتَكُونَ أقوى أثراً، وأيسرَ فَهْماً، وأبدعَ تمثيلاً، وليسَ عليها خِلافٌ مِنَ الحِسّ. وهذا هو الأسلوبُ الذي يجعلُ إنساناً واحداً فَنَّ الناسِ جميعاً، كما تكونُ البلاغةُ فنَّ لغةٍ بأكملِها، هوَ الشخصُ المفسّرُ إذا تعسّفَ[1] الناسُ الحياةَ لا يدرونَ أينَ يؤُمّونَ

(١) تعسّف: اشتط، جاوز الحدّ المعقول.

منها، ولا كيف يتهدَّون فيها، فتضطربُ الملايينُ من البشريةِ اضطرابَها فيما تنقبضُ عنه وتتهالكُ فيهِ من أطماعِ الدنيا، ثم يُخْلَقُ رجلٌ واحد لِيكونَ هو التفسيرَ لِمَا مضى وما يأتي، فتظهرُ به حقائقُ الآدابِ العاليةِ في قالَبٍ مِنَ الإنسانِ العاملِ المرئيِّ، أبلغَ مِمّا تظهرُ في قصةٍ متكلِّمةٍ مروية.

وما الشهادةُ لِلنبوّةِ إلَّا أنْ تكونَ نفسُ النبيّ أبلغَ نفوسِ قومِه، حتى لَهُوَ في طباعِهِ وشمائِلِهِ طبيعةٌ قائمةٌ وحدَها، كأنَّها الوضعُ النفسانيُّ الدقيقُ الذي يُنْصَبُ لِتصحيحِ الوضعِ المغلوطِ لِلبشريةِ في عالمِ المادةِ وتنازعِ البقاء(١). وكأنَّ الحقيقةَ الساميَةَ في هذا النبيّ تُنادي الناس: أنْ قَابِلُوا على هذا الأَصلِ وصحِّحوا ما اعترى أنفسَكم من غلَطِ الحياةِ وتحريفِ الإنسانية.

* * *

ومن ثَمَّ فنبيُّ البشريةِ كلِّها مَنْ بُعِثَ بالدينِ أعمالاً مفصَّلةً على النفسِ أدقَّ تفصيلٍ وأوفاهُ بمصلحتِها، فهو يُعطي الحياةَ في كلِّ عصرٍ عقلَها العمليَّ الثابتَ المستقرَّ تُنظِّمُ بِهِ أحوالَ النفسِ على مَيْزةٍ وبَصيرة، ويَدَعُ لِلحياةِ عقلَها العِلْميَّ المتجدد المتغيرَ تنظِّمُ بِهِ أحوالَ الطبيعةِ على قصْدٍ وهُدًى، وهذه هي حقيقةُ الإسلامِ في أخصِّ معانيه، لا يُغني عنه في ذلك دينٌ آخر، ولا يؤدِّي تأديتَهُ في هذه الحاجةِ أدبٌ ولا عِلْمٌ ولا فلسفة، كأنَّما هُوَ نَبعٌ في الأرضِ لِمعاني النور، بإزاءِ الشمسِ نبعِ النورِ في السماء.

وكلُّ ذلك تراهُ في نفس محمدٍ ﷺ، فهي في مجموعِها أبلغُ الأنفسِ قاطبة، لايُمكنُ أنْ تعرفَ الأرضُ أكملَ منها، ولوِ اجتمعَتْ فضائلُ الحكماءِ والفلاسفةِ والمتألِّهينَ وجُعِلَتْ في نِصَابٍ واحد ـ ما بلغَتْ أنْ يجيءَ منها مثلُ نفسهِ ﷺ. ولَكأنَّما خرَجتْ هذه النفسُ من صيغةٍ كصيغةِ الدُّرَّةِ في عِرْقِه. وهي النفسُ الاجتماعيةُ الكبرى، من أين تدبَّرْتَها رأيْتَها على الإنسانيةِ كالشمسِ في الأفقِ الأعلى تنبسطُ وتَضْحَى.

وتلك هي الشهادةُ لهُ ﷺ بأنَّهُ خاتمُ الأنبياء، وأنَّ دينَه هو دينُ ٱلإنسانيةِ ٱلأخير، فهذا ٱلدينُ في مجموعِهِ إنْ هو إلَّا صورةُ تلك النفسِ العظيمةِ في مجموعِها: صلابتُهُ بمقدارِ الحقِّ الإنسانيِّ الثابتِ، لا بمقدارِ ٱلإنسانِ المتغيِّرِ الذي

---

(١) تنازع البقاء: صراع البقاء.

يكونُ عندَ سَببِ جَبَلاً صَلْداً[١] يَشْمَخ[٢]، وعندَ سببِ آخرَ ماءً عذْباً يجري.

وهو دينٌ يعلو بِالقوةِ ويدعو إليها، ويُريدُ إخضَاعَ الدنيا وحُكْمَ العالم، ويستفرغُ همَّهُ في ذلك، لا لإعزازِ ٱلأقوى وإذلالِ الأضعف، ولكنْ لِلارتفاع بالأضعفِ إلى الأقوى، وفرقٌ ما بينَ شريعتِهِ وشرائع ٱلقوة، أنَّ هذهِ إنَّما هي قوةُ سيادةِ الطبيعةِ وتحكُّمِها، أمَّا هو فقوةُ سيادةِ الفضيلةِ وتَغلُّبِها، وتلك تعملُ لِلتفريق، وهو يعملُ لِلمساواة، وسيادةُ الطبيعةِ وعملُها لِلتفريقِ هما أساسُ العبودية، وغلبةُ الفضيلةِ وعملُها لِلمساواةِ هما أعظمُ وسائلِ ٱلحريَّة.

ومن هنا كانَ طبيعيًا في ٱلإسلامِ ما جاءَ بهِ مِن أنهُ لا فضيلةَ إلَّا وهو يطبعُ عليها صورةَ ٱلجنةِ بنعيمِها ٱلخالد، ولا رذيلةَ إلّا وهو يضعُ عليها صورةَ ٱلنارِ الأبديَّةِ وَقُودُها الناسُ والحجارة، فلا تنظُر العينُ المسلمةُ إلى أسبابِ الحياةِ نظرةَ الفكرِ المنازع: يحرِصُ على ما يكونُ لَهُ ويَشْرَهُ[٣] إلى ما ليسَ له، ويمكُرُ الحيلةَ، ويُبدِعُ وسائلَ الخِداع، ويَزيدُ بِكلِّ ذلك في تعقيد الدنيا ـ بلْ نظرةُ القلبِ المُسالم: يَخلعُ الدنيا ويَسخو بكلِّ مضنونٍ فيها، فيعفُّ عن كثير، ويعرفُ الإنسانيةَ ويطمعُ في غاياتِها العُلْيا، فيعفو عن كثير، ويُدرِكُ أنَّ الحلالَ وإنْ حلَّ فوراءَهُ حسابُه، وأنَّ الحرامَ وإنْ غرَّ ليسَ إلَّا تعلُّلَ[٤] ساعةٍ ذاهبةٍ ثم من ورائِهِ عِقابُ الأبد.

ويخرجُ من ذلك أنْ يكونَ أكبرُ أغراضِ ٱلإسلامِ هو أنْ يجعلَ من خشيةِ ٱللَّهِ ـ تعالى ـ قانونَ وجودِ ٱلإنسانِ على ٱلأرض، فمن أيِّ عِطْفيهِ[٥] التفتَ هذا الإنسانُ وجدَ على يَمْنتِهِ ويَسْرتِهِ مَلَكَينِ مِنْ ملائكةِ ٱللهِ يكتبانِ أعمالَهُ بخيرِها وشرِّها، فهو كالمتَّهَم المسترابِ[٦] بهِ في سياسةِ النفس: لا يمشي خُطوةً إلَّا بينَ جاسوسَيْنِ يُحصيانِ[٧] عليهِ حتى أسبابَ ٱلنِّية، ويَجمعانِ منهُ حتى نَزَواتِ الكبِد، ويُترجمانِ عنه حتى معانِيَ النظر.

وإذا قامَتْ هذه المحكمةُ الملائكيَّةُ وتقرَرَتْ في ٱعتبارِ النفس، قامَ منها على النفسِ شرعٌ نافذٌ هو قانونُ الإرادةِ المميِّزة، وتُريدُ ٱلحسناتِ وتعملُ لها، وتخشَى

---

(١) صلداً: قاسياً.
(٢) يشمخ: يتسامى.
(٣) يشره: يسعى للحصول على ما ليس له بطمع.
(٤) تعلّل: تمني النفس.
(٥) عطفيه: جنبيه.
(٦) المستراب: الشَّاك.
(٧) يحصبان: يعدّان.

السيئاتِ وتَنفرُ منها، فإذا معاني الجسدِ يحكمُ بعضُها بعضاً، لا لتحقيقِ الحكومةِ والسلطة، ولكنْ لِتحقيقِ الخيرِ والمصلحة، وإذا نواميسُ الطبيعةِ المجنونةِ في هذا الحيوان، قد نهضَتْ إلى جانبِها نواميسُ الإرادةِ الحكيمةِ في الإنسان، وإذا كلُّ صغيرةٍ وكبيرةٍ في النفسِ هي من صاحبِها مادةُ تُهمةٍ عندَ قاضيها في محكمتِها، وإذا كلُّ ما في الإنسانِ وما حولَ الإنسان، لا يُرادُ منه إلّا سلامُ النفسِ في عاقبتِها؛ وإذا معنى السلامِ هو المعنى الغالبُ المتصرِّفُ بالإنسانيةِ في دنياها.

وكلُّ أعمالِ الإسلامِ وأخلاقِهِ وآدابِه، فتلك هي غايتُها، وهذه هي فلسفتُها؛ لا يُقررُها لِلإنسانيةِ حَسْبُ، بل يَغرِسُها في الوراثةِ غَرْساً بالاعتيادِ والمِرانِ الدائم، لِتكونَ عِلْماً وعملاً، فتُمكِّنَ لِسلامِ النفسِ بينَ الأسلحةِ المسدَّدةِ إليها من ضروراتِ الحياة، في أيدي الأعداءِ المتألِّبةِ[1] عليها من شَهَواتِ الغريزة.

فليسَ يعمُّ السلامُ إلّا إذا عمَّ هذا الدينُ بأخلاقِهِ فشَملَ الأرضَ أو أكثرَها؛ فإنَّ قانونَ العالمِ حينئذٍ يُصبحُ منتزَعاً من طبيعةِ التراحُم، فإمّا انتسخَ بهِ قانونُ التنازعِ الطبيعيّ، وإما كَسَرَ من شِرّتهِ؛ ويُولدُ المولودُ يومئذٍ وتُولَدُ معَهُ الأخلاقُ الإنسانية.

* * *

تقريرُ معنى الدوامِ لِكلِّ أعمالِ النفسِ حتى مثقالِ الذَّرةِ مِنَ الخيرِ والشرّ، وضبطُ ذلك برياضةٍ عمليةٍ دائمةٍ مفروضةٍ على الناسِ جميعاً هذا هو أساسُ العقيدةِ الإسلامية؛ ولا صلاحَ لِلإنسانيةِ بغيرِهِ يردُّها إلى سبيلِ قَصْدِها[2]، فإنَّ من ذلك تكونُ الصفةُ العقليةُ التي تَغْلِبُ على المجتمع، وتُجانِسُ بينَ أفرادِه، فتوجِّهُ الإنسانيةَ كلَّها نحوَ الممكنِ من كمالِها، ولا تزالُ تُوجِّهُها نحوَ ما هو أعلى، وتحكمُ فاسدَها بصالِحِها، وتأخُذُ عاصيَها بمطيعِها، وتجعلُ الشرفَ الإنسانيَّ غرضَها الأول، لأنَّ اللَّهَ الحقَّ غرضُها الأخير؛ فيُصبحُ المرء ـ وهذا دينُه ـ كلّما تقدَّمَ بهِ العمرُ كَمُلَ فيهِ اثنان: الإنسان، والشريعة. ولا يعودُ طالبُ السعادةِ النفسيةِ في الدنيا كالمجنونِ يجري وراءَ ظلِّهِ لِيُمسِكَه؛ فلا يُدركُ في الآخرِ شيئاً غيرَ معرفتِهِ أنّهُ كانَ في عملٍ باطلٍ وسعيٍ ضائع.

والإسلامُ يحرصُ أشدَّ الحِرْصِ وأبلغَهُ على تقريرِ ذلك المعنى الإلهيِّ

---

(١) الأعداء المتألبة: المجتمعين المتقضين على من يتخذونه عدواً.

(٢) قصدها: غايتها.

العظيم، لا بالمنطق، ولكنْ بالعملِ؛ ثمَّ في النفسِ وعواطفِها، لا في العقلِ وآرائهِ؛ ثم على وجهِ التعميم، دونَ ٱلاستثناءِ وٱلخصوص؛ وذلك هو سِرُّ مشقَّتِهِ على النفسِ بما يفرضُهُ عليها؛ فإنَّ فلسفتَهُ أنَّ هذه النفسَ هي أساسُ العالم، وأنَّ النظامَ الخُلقيَّ هو أساسُ النفس، وأنَّ العملَ الدَّائمَ هو أساسُ النظام، وأنَّ روحَ العملِ الدائمِ تكونُ فيما يشُقُّ بعضَ المشَقةِ ولا يبلغُ العُسْرَ والحَرَجَ[1]، كما تكونُ فيما يَسْهُلُ بعضَ السهولةِ ولا يبلغُ الكَسَلَ والإهمال.

ولِلنفسِ وجهان: ما تُعلِن، وما تسِرّ؛ ولا صدقَ لإعلانِها حتى يصدقَ ضميرُها، ولا صلاحَ لِجَهْرِها[2] حتى يصلُحَ ٱلسرُّ فيها، ولا يكونُ الإنسانُ ٱلاجتماعيُّ فاضلاً بمَشْهَدِهِ[3] حتى يكونَ كذلك بغَيْبِه.

ولِلعالَم كذلك وجهان: حاضرُهُ الذي يمرُّ فيه، وآتيهِ الذي يمتدُّ لَهُ؛ ولا يُفلِحُ حاضرٌ منقطعٌ لا يُوَرِّثُ ما بعَدهُ كما وَرِثَ قبَله، وما حاضرُ ٱلإنسانيةِ إلّا جزءٌ من عملِ الناسِ في ٱستمرارِ فضائلِهم باقيةً نامية.

ولِلنظام أيضاً وجهان: نظامُ الرغبةِ على الطاعةِ وٱلاطمئنانِ لها، ونظامُ الرغبةِ على الخشيةِ[4] والنَّفْرةِ منها. ولا يستقيمُ شأنٌ ليسَ أساسُهُ ٱلطاعةَ في ٱلنفس، ولا يستمرُّ نظامٌ عليهِ خِلافٌ من فِكْرِ العاملِ به.

ولِلعملِ الدائم طريقتان: إحداهما طريقةُ ٱلجادِّ يعملُ للعاقبةِ يستَيْقِنُها، فلا يجدُ مِمَّا يشقُّ عليهِ إلّا لذةَ المغالَبةِ لِلنصر: كلُّ مرارةٍ من قِبلِهِ هي حلاوةٌ فيهِ من بَعد، ولا يعرفُ لِلمِحْنةِ[5] يُبتلى بها إلّا معناها الحقيقيَّ وهو إيقاظُ نفسِه، فيُصبحُ الصبرُ عندَهُ كصبرِ المُحبِّ على أشياءَ مِمَنْ تُحبُّه؛ صبرٌ فيهِ مِنَ السحرِ ما يكسو ٱلحِرْمانُ في بعضِ الأحيانِ خيالَ ٱلاستمتاع، ويُذيقُ النفسَ في العجزِ عن بعضِ أغراضِها ـ لذةً كلذةِ إدراكِه.

* * *

تلك هي فلسفةُ ٱلإسلام؛ لا قِوامَ لِلأمرِ فيها ولا مِساكَ لَهُ إلّا بتقريرِ معنى الدوامِ لِكلِّ أعمالِ النفس، ووضعِ طابَعِ الجنَّةِ على أعمالِ الجنَّة، وطابعِ النارِ على

(١) الحرج: الشعور بالضيق والشدّة.
(٢) لجهرها: لإعلانها.
(٣) بمشهده: بحضوره.
(٤) الخشية: الخوف.
(٥) المحنة: المصيبة.

أعمالِ النارِ ـ وحياطةِ كلِّ فردٍ مِنَ الناسِ حياطةً رياضيةً عمليَّةً بين الساعةِ والساعة، بل بين الدقيقةِ والدقيقة، بما يكلَّفُ من أعمالِ جسمِهِ وحواسِّه، ثم أعمالِ قلبِهِ ونيتِهِ ـ وتعظيمِ الشخصيةِ الروحيَّةِ دونَ الشخصيةِ المادية، فلا يحاولُ كلُّ إنسانٍ أنْ يجعلَ بطنَهُ في حجْمِ مملكةٍ أو مدينةٍ أو قرية، بما ينتقِصُ[1] من حقوقِ غيرِه؛ بل تتَّسعُ ذاتيةُ كلِّ فَردٍ بِما يجبُ لَهُ على المجتمعِ مِنَ الواجباتِ الإنسانيَّة؛ وبهذا لا بغيرِهِ تتعيَّنُ مقاييسُ الأخلاقِ في ٱلأرض: بٱلمصلحةِ لا بٱللذة؛ فلا يقعُ ٱلخطأُ ولا ٱلتزوير، وتنحلُّ المشكلةُ الاجتماعيةُ ما دامَتِ ٱلحياةُ لا تجدُ من أهلِها كلَّ ساعةٍ عُقَداً فيها.

وٱلاستيلاء بذلك المعنى على العقلِ والعاطفةِ هو وحدَهُ ٱلطريقةُ لإنشاءِ طبيعةِ ٱلخيرِ في ٱلناسِ على نَسَقِها ٱلطبيعيّ، كما أنَّهُ هو وحدَهُ ٱلطريقةُ لِتطهيرِ التاريخِ الإنسانيِّ من أوبائِهِ ٱلاقتصادية[2]، التي جعلَتْهُ كأنَّما هو تاريخُ الأسنانِ والأضراس، وتركَتِ ٱلناسَ يهدمُ بعضُهُم بعضاً، كما يهدُمُ الجارُ حائطَ جارِهِ لِيوسِّعَ بيتَه.

وأساسُ ٱلعملِ في ٱلإسلام إخضاعُ ٱلحياةِ لِلعقيدة، فتجعلُها العقيدةُ أقوى مِنَ ٱلحاجة، فيكونُ الفقيرُ مُعْدَماً[3] ويتعفَّف، ويكونُ الغنيُّ موسَراً ويتصدَّق، ويكونُ ٱلشَّرِهُ طامعاً ويُمْسِك، ويكون ٱلقويُّ قادراً ويُحْجِم[4]، وكما قالَ العربُ في تحقيقِ ناموسِ الأنَفةِ والحميَّةِ وغلبتِهِ على الناموسِ ٱلاقتصاديّ: «تجوعُ ٱلحرةُ ولا تأكلُ بثَدْيَيْهَا».

❋ ❋ ❋

تُريدُ ٱلإنسانيةُ ٱمتداداً غيرَ ٱمتدادِها ٱلتجاريِّ في ٱلأرض، وتحتاجُ إلى معنًى يقودُ إنسانَها غيرَ ٱلحيوانِ ٱلذي فيه؛ وإذا قادَ ٱلغرابُ قوماً فإنَّما هو ـ كما قال شاعرُنا ـ يمرُّ بهم على جِيَفِ الكلاب... والإنسانيةُ ٱليومَ في مثلِ ليلٍ حَوْشيٍّ[5] مظلم ٱختلطَ بعضُهُ في بعض، وليسَتْ معاني ٱلإسلام إلَّا الإشراقَ الإلهيَّ على هذه الكَثَافةِ ٱلماديةِ ٱلمتراكِمة، وإذا رُفِعَ ٱلمِصباحُ لم تجدِ ٱلظلامَ إلَّا وراءَ الحدودِ التي تنتهي إليها أشعتُه.

---

(١) ينتقص: يأخذ.

(٢) أوبائه الاقتصادية: أمراضه، كالفقر والعوز والجوع...

(٣) معدماً: فقيراً لا يملك مالاً.

(٤) يحجم: يمسك.

(٥) حوشي: متوحش.

وقد علمْنا من طبيعةِ النفس أنَّ إنسانيةَ ٱلفردِ لا تعظُمُ وتسمو وتتخيلُ وتفرحُ فرحَها ٱلصادقَ وتحزنُ حزنَها ٱلسَّامي ـ إلَّا أنْ تعيشَ في محبوب؛ فإنسانيةُ العالَمِ لا تكونُ مثلَ ذلك إلَّا إذا عاشَتْ في نبيِّها ٱلطَّبيعيِّ، نبيِّ أخلاقِها الصحيحةِ وآدابِها العاليةِ ونظامِها ٱلدقيق؛ وأين تجدُ هذا المحبوبَ الأعظمَ إلَّا في محمدٍ ودينِ محمد؟

وعجيبٌ أنْ يجهلَ المسلمونَ حِكْمةَ ذكرِ النبيِّ العظيم خمسَ مراتٍ في ٱلأذانِ كلَّ يوم، يُنادَى بٱسمِهِ ٱلشريفِ ملْءَ ٱلجوِّ؛ ثم حكمةَ ذكرِهِ في كلِّ صلاةٍ من الفريضة والسُّنَّةِ والنافلةِ[1]، يُهَمَسُ بٱسمِهِ الكريم ملْءَ النفس! وهلِ ٱلحكمةُ من ذلك إلَّا الفرضُ عليهم ألَّا ينقطعوا من نبيِّهم ولا يوماً واحداً مِنَ التاريخ، ولا جزءاً واحداً مِنَ اليوم؛ فيمتدُّ الزمنُ مهما ٱمتدَّ وٱلإسلامُ كأنَّه على أوَّله، وكأنَّهُ في يومِهِ لا في دهرٍ بعيد؛ وٱلمسلمُ كأنَّهُ مع نبيِّهِ بينَ يديهِ تبعثُهُ روحُ ٱلرسالة، ويسطعُ في نفسِهِ إشراقُ ٱلنبوَّة، فيكونُ دائماً في أمرِهِ كالمسلمِ الأولِ الذي غيَّر وجهَ الأرض؛ ويظهرُ هذا المسلمُ الأولُ بأخلاقِهِ وفضائلهِ وحَمِيَّتِهِ في كلِّ بقعةٍ مِنَ الدنيا مكانَ إنسانِ هذه البقعة، لا كما نرى اليوم؛ فإنَّ كلَّ أرضٍ إسلاميَّةٍ يكادُ لا يظهرُ فيها إلَّا إنسانُها التاريخيُّ بجهلِهِ وخُرافاتِهِ وما وَرِثَ مِنَ القِدَم؛ فهنا المسلمُ الفرعونيّ، وفي ناحيةٍ المسلمُ الوثنيّ، وفي بلدِ المسلمُ المجوسيّ[2]، وفي جهةٍ ٱلمسلمُ المعطِّل. . . وما يُريدُ الإسلامُ إلَّا نفسَ المسلمِ الإنسانيّ.

أيُّها ٱلمسلم!

لا تنقطعْ من نبيِّكَ ٱلعظيم، وعِشْ فيهِ أبداً، وٱجعلْهُ مثلَكَ الأعلى؛ وحينَ تذكُرُهُ في كلِّ وقتٍ فكُنْ كأنَّكَ بينَ يديه؛ كُنْ دائماً كٱلمسلمِ ٱلأول؛ كُنْ دائماً ٱبنَ المُعْجِزة.

---

(١) النافل من كل شيء: الزائد.

(٢) المجوسي: عابد النار.

حقيقةُ المسلم

لا يعرفُ التاريخُ غيرَ محمدٍ ﷺ رجلاً أفرغَ ٱللَّهُ وجودَهُ في ٱلوجودِ ٱلإنسانيّ كلِّه؛ كما تنصبُّ ٱلمادّةُ في ٱلمادة، لِتمتزجَ بها فتُحوِّلَها، فتُحدثُ منها ٱلجديد، فإذا ٱلإنسانيةُ تتحوَّلُ بهِ وتنمو، وإذا هو ﷺ وجودٌ سارٍ فيها فما تبرحُ هذه الإنسانيةُ تنمو بهِ وتتحوَّل.

كانَ ٱلمعنى الآدميُّ في هذه الإنسانيَّةِ كأنَّما وَهَنَ[1] من طولِ ٱلدهرِ عليه، يَتحيَّفُهُ[2] ويمحُوهُ ويتَعاوَرُهُ[3] بالشرِّ والمنكرِ؛ فٱبْتَعثَ ٱللَّهُ تاريخَ العقلِ بآدمَ جديدٍ بدأتْ بهِ ٱلدنيا في تَطوُّرِها الأعلى من حيثُ يرتفعُ ٱلإنسانُ على ذاتِه، كما بدأتْ من حيثُ يُوجَدُ الإنسانُ في ذاتِه؛ فكانَتِ ٱلإنسانيَّةُ دهرَها بينَ ٱثنين: أحدُهما فَتحَ لها طريقَ المجيءِ مِنَ الجنة، والثاني فَتحَ لها طريقَ العوْدةِ إليها: كانَ في آدمَ سرُّ وجودِ ٱلإنسانيَّة، وكان في محمدٍ سرُّ كمالِها.

* * *

ولهذا سُمِّي الدينُ (بالإسلام)؛ لأنَّهُ إسلامُ النفسِ إلى واجبِها، أي إلى الحقيقةِ مِنَ الحياةِ الاجتماعيَّة؛ كأنَّ المسلمَ يُنكِرُ ذاتَهُ فيُسْلِمُها إلى الإنسانيةِ تُصرِّفُها وتَعْتَمِلُها في كمالِها ومعاليها؛ فلا حظَّ لَهُ هو من نفسِهِ يُمسِكُها على شهواتِه ومنافعِه، ولكنْ لِلإنسانيةِ بها ٱلحظّ.

وما ٱلإسلامُ في جملتِهِ إلّا هذا ٱلمبدأ: مبدأُ إنكارِ ٱلذاتِ و(إسلامُها) طائعةً على ٱلمَنْشَطِ[4] والمَكْرهِ لِفُروضِها وواجباتِها؛ وكلَّما نكَصَتْ[5] إلى منْزَعِها ٱلحيوانيّ، أسلمَها صاحبُها إلى وازِعِها[6] الإلهيّ؛ وهو أبداً يَرُوضُها[7] على هذه

---

(١) وهَن: ضعُف.

(٢) يتحيَّفه: يظلمه.

(٣) يتعاوره: يتجاذبه، يتناوشه.

(٤) المنشط: الجدّ والحيوية والحماس.

(٥) نكصت: تراجعت.

(٦) وازعها: رادعها.

(٧) يروضها: يدربها.

الحركةِ ما دامَ حيًا؛ فينتزعُها كلَّ يومٍ من أوهامِ دنياها، لِيضعَها ما بينَ يَدَيْ حقيقتِها الإلهيَّة: يروضُها على ذلك كلَّ يومٍ وليلةٍ خَمسَ مرّاتٍ مُسماةٍ في اللغةِ خَمْسَ صلوات، لا يكونُ الإسلامُ إسلاماً بغَيرِها؛ فلا غَروَ[1] وَكانَتِ ٱلصلاةُ بهذا المعنى كما وصفَها ٱلنبيُّ ﷺ هي عِمادَ الدين.

* * *

بينَ ساعاتٍ وساعاتٍ في كلِّ مطلعِ شمسٍ من حياةِ ٱلمسلم صلاة، أيْ إسلامُ النفسِ إلى ٱلإرادةِ ٱلاجتماعيّةِ الشاملةِ[2] ٱلقائمةِ على ٱلطاعةِ لِلفرْضِ ٱلإلهيّ، وإنكارُ لِمعانيها ٱلذاتيّةِ ٱلفانيةِ التي هي مادةُ الشرِّ في ٱلأرض، وإقرارُها لحظاتٍ في حَيّزِ الخيرِ ٱلمحضِ ٱلبعيدِ عنِ ٱلدنيا وشهواتِها وآثامِها ومنكَراتِها. ومعنى ذلك كلِّهِ تحقيقُ ٱلمسلمِ لِوجودِ روحِه؛ إذْ كانَت أعمالُ الدنيا في جملتِهَا طُرُقاً تتشتَّتُ فيها الأرواحُ وتَتبعثرُ، حتى تَضِلَّ روحُ الأخِ عن روحِ أخيهِ فتُنكرُها ولا تعرفُها!

وهذا الوجودُ الروحيُّ هو مبعثُ ٱلحالةِ ٱلعقليّةِ ٱلتي جاءَ ٱلإسلامُ لِيَهْديَ ٱلإنسانيّةَ إليها: حالةِ السلامِ الروحانيِّ الذي يجعلُ حربَ الدنيا المهلكةَ حرباً في خارجِ النفس لا في داخلِها، ويجعلُ ثروةَ الإنسانِ مُقَدَّرةً بما يعاملُ ٱللَّهُ والإنسانيةُ عليه؛ فلا يكونُ ذهبُه وفِضّتُه ما كتبَتْ عليهِ ٱلدول: «ضُرِبَ في مملكةِ كذا»، ولكنْ ما يراهُ هو قد كُتِبَ عليه: «صُنِعَ في مملكةِ نفسي»؛ ومن ثَمّ لا يكونُ وجودُهُ ٱلاجتماعيُّ لِلأخذِ حَسْبُ، بلْ لِلعطاءِ أيضاً، فإنَّ قانونَ ٱلمالِ هو ٱلجمع، أمّا قانونُ العملِ فهو ٱلبذل.

بٱلانصرافِ إلى ٱلصلاةِ وجَمْعِ ٱلنيّةِ عليها، يستشعرُ المسلمُ أنّهُ قد حطَّمَ ٱلحدودَ الأرضيةَ المحيطةَ بنفسِهِ مِنَ الزمانِ والمكان، وخَرَجَ منها إلى رُوحانيّةٍ لا يُحدُّ فيها إلّا باللّهِ وحدَه.

وبٱلقيامِ في ٱلصلاة، يُحقِّقُ ٱلمسلمُ لِذاتِهِ معنى إفراغِ ٱلفكرِ ٱلسامي على ٱلجسمِ كلِّه، لِيمتزجَ بجلالِ ٱلكونِ ووقارِه، كأنَّهُ كائنٌ منتصبٌ معَ ٱلكائناتِ يسبِّحُ بحمدِه.

وبالتولّي شَطْرَ القِبلةِ[3] في سَمْتِها[4] ٱلذي لا يتغيَّرُ على ٱختلافِ أوضاعِ

---

(١) لا غرو: لا شك، لا ريب.

(٢) الشاملة: الجامعة، ويقصد بذلك صلاة الجماعة لأهميتها ولثوابها.

(٣) شطر القبلة: ناحيتها.

(٤) سمتها: وقارها ومظهرها.

ٱلأرض، يَعرفُ ٱلمسلمُ حقيقةَ ٱلرمزِ لِلمركزِ الثابتِ في روحانيَّةِ ٱلحياة؛ فيَحملُ قلبُهُ معنى ٱلاطمئنانِ وٱلاستقرارِ على جاذبيَّةِ الدنيا وقَلَقها.

وبٱلركوعِ وٱلسجودِ بينَ يَدَي ٱللَّه، يُشْعِرُ ٱلمسلمُ نفسَهُ معنى ٱلسموّ والرّفعةِ على كلِّ ما عدا الخالقَ من وجودِ الكون.

وبالجلسةِ في الصلاةِ وقراءةِ التحيَّاتِ الطيِّبات، يكونُ ٱلمسلمُ جالساً فوقَ الدنيا يحمَدُ اللَّهَ ويُسلِّمُ على نبيِّهِ وملائكتِهِ ويشهَدُ ويدعو.

وبالتسليمِ ٱلذي يَخرجُ بِهِ مِنَ الصلاة، يُقْبِلُ المسلمُ على الدنيا وأهلِها إقبالاً جديداً: من جهتي السلامِ والرحمة.

هي لَحظَاتٌ مِنَ الحياةِ كلَّ يوم في غيرِ أشياءِ هذه الدنيا؛ لِجمعِ ٱلشهواتِ وتقييدِها بينَ وقتٍ وآخرَ بسلاسلِها وأغلالِها من حركاتِ الصلاة، ولِتمزيقِ الفناءِ خمسَ مراتٍ كلَّ يومٍ عنِ النفس؛ فيرَى المسلمُ من ورائِهِ حقيقةَ ٱلخلود، فتشعرُ ٱلروحُ أنَّها تنمو وتَتَّسِع.

هي خمسُ صَلوات، وهي كذلك خمسُ مرَّاتٍ يَفْرَغُ فيها ٱلقلبُ مِمَّا ٱمتلأ بهِ مِنَ الدنيا، فما أدقَّ وأبدعَ وأصدقَ قولَه ﷺ: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصلاة».

* * *

لم يكن ٱلإسلامُ في حقيقتِهِ إلَّا إبداعاً لِلصِّيغةِ ٱلعمليَّةِ التي تنتظمُ ٱلإنسانيةُ فيها؛ ولهذا كانتْ آدابُهُ كلُّها حُرَّاساً على ٱلقلبِ المؤمن، كأنَّها ملائكةٌ مِنَ ٱلمعاني؛ وكانَ ٱلإسلامُ بها عملاً إصلاحياً وقَعَ بهِ التطوُّرُ في عالَمِ الغريزة، فنَقلَهُ إلى عالمِ ٱلخُلُق، ثُمَّ ٱرتقى بالخُلُقِ إلى الحقِّ، ثم سمَا بالحقِّ إلى الخَيرِ العامّ؛ فهو سموٌّ فوقَ الحياةِ بثلاثةِ طبقَات، وتدرُّجٌ إلى الكمالِ في ثلاثِ منازل، وٱبتعادٌ عنِ الأوهامِ بمسافةِ ثلاثِ حقائق.

وبتلك الأعمالِ والآدابِ كانتِ ٱلدنيا المُسْلمةُ التي أسَّسها النبيُّ ﷺ دنيا أسلمَتْ طبيعتُها، فأصبحَتْ على ما أرادَ المسلمونَ لا ما أرادَتْ هي؛ وكأنَّها قائمةٌ بنواميسَ من أهليها، لا على أهليها؛ وكانَ ٱلظاهرُ أنَّ الإسلامَ يغزو الأممَ بالعربِ ويفتَتِحُها، ولكنَّ الحقيقةَ أنَّ إقليماً مِنَ الدنيا كانَ يُحاربُ سائرَ أقاليمِ الأرضِ بالطبيعةِ الأخلاقيةِ ٱلجديدةِ لِهذا الدين.

وكأنَّ اللَّهَ ـ تعالى ـ ألقى في رمالِ الجزيرةِ روحَ البحر، وبعثَها بَعثَهُ الإلهيَّ

لِأمرِهِ، فكانَ النبيُّ ﷺ هو نقطةَ المدِّ التي يفورُ البحرُ منها، وكانَ المسلمونَ أمواجَهُ التي غُسِلَتْ بها الدنيا. . .

لهذا سمعَ ٱلمسلمونَ الأوّلونَ كلامَ ٱللَّهِ ـ تعالى ـ في كتابه، وكلامَ رسولِهِ ﷺ، لا كما يسمعونَ ٱلقولَ، ولكنْ كما يتلقَّوْنَ ٱلحكمَ النافذَ المقْضيَّ(١)؛ ولم يجدوا فيهِ البلاغةَ وحدَها، بل رَوْعةَ أمرِ السماءِ في بلاغة؛ وٱتَّصلوا بنبيِّهم، ثم بعضُهم ببعض، لا كما يتَّصلُ إنسانٌ بإنسان، بل كما تتصلُ الأمواجُ بقوةِ المدّ، ثم كما يُمِدُّ بعضُها بعضاً في قوةٍ واحدة.

وحقَّقوا في كمالِه ﷺ وجودَهُم ٱلنفسيّ؛ فكانوا من زَخارِفِ الحياةِ وباطلِها في موضعِ الحقيقةِ ٱلذي يُرى فيهِ ٱلشيءُ لا شيء.

ورأَوْا في إرادتِهِ ﷺ ٱلنقطةَ الثابتةَ فيما يَتضَاربُ منْ خيالاتِ ٱلنفس؛ فكانوا أكبرَ علماءِ ٱلأخلاقِ على الأرض، لا من كُتُبٍ ولا عِلْمٍ ولا فلسفة، بل من قلبِ نبيِّهم وحدَه.

وعرفوا بِهِ ﷺ تمامَ ٱلرجولة؛ ومتى تمَّتْ هذه ٱلرجولةُ تمامَها في إنسان، رجعَتْ لَهُ ٱلطفولةُ في رُوحِه، وٱمتلكَ تلكَ ٱلطبيعةَ ٱلتي لا يملِكُها إلَّا أعظَمُ الفلاسفةِ والحكماءِ فأصبحَ كأنَّما يمشي في الحياةِ إلى الجنةِ بخُطُواتٍ مُسدَّدةٍ لا تَزيغُ(٢) ولا تنحرف، فلا شرَّ ولا رذيلة؛ ودنياهُ هي الدنيا كلُّها بشمسِها وقمرِها، يملكُها وإنْ لم يملكْ منها شيئاً، ما دامَتْ في قلبِهِ طبيعةُ ٱلسرور، فلا فقرَ ولا غِنى ممَّا يَشعُرُ ٱلناسُ بمعانيه، بلْ كلُّ ما أمكنَ فهو غِنًى كامل، إذْ لم تَعُدِ ٱلقوةُ في ٱلمادةِ تزيدُ بزيادتِها وتنقصُ بنقصِها، بل ٱلقوةُ في ٱلروحِ التي تَتصرفُ بطبيعةِ الوجود، وتَدفعُ قُوَى الجسمِ بمثلِ دوافعِ الطفولةِ النامية المتغلِّبة، حتى لَتجعلُ مِنَ النورِ والهواءِ ما يُؤتَدَمُ(٣) بِهِ مَعَ الخبزِ القَفَار، كما يؤتَدَمُ بٱللحمِ وأطايبِ ٱلأطعمة.

وبذلك لا تتسلَّطُ ضرورةٌ على ٱلجِسْم ـ كٱلجوعِ وٱلفقرِ والألم ونحوِها ـ إلَّا كانَ تَسلُّطُها كأنَّهُ أمرٌ من قوّةٍ في ٱلوجودِ إلى قوّةٍ في هذا الجسم: أَنْ تَظْهَرَ لِتعملَ عملَها ٱلمُعجزَ في إبطالِ هذه الضرورة. وهذا الجِنْسُ مِنَ الناسِ كالأزهارِ على

(١) المقضي: المقدّر.

(٢) لا تزيغ: لا تتحوّل ولا تنحرف.

(٣) يؤتدم: يؤكل من الطعام.

أغصانِها الخُضر؛ لو قالَتْ شيئاً لَقالَتْ: إنَّ ثروتي في ٱلحياةِ هي ٱلحياةُ نفسُها، فليسَ لي فقرٌ ولا غِنًى، بلْ طبيعةٌ أوْلا طبيعة.

* * *

ولقدْ كانَ ٱلمسلمُ يُضْربُ بالسيفِ في سبيلِ ٱللّه، فتقَعُ ضَرباتُ ٱلسيوفِ على جسمِهِ فتُمَزِّقُه؛ فما يُحِسُّها إلّا كأنَّها قُبَلُ أصدقاءَ مِنَ ٱلملائكةِ يَلْقَوْنَهُ ويعانقونَه!

وكان يُبْتَلى في نفسِه ومالِه، فلا يشعرُ في ذلك أنَّهُ المُرَزَّأُ[1] المُبْتَلى يُعْرَفُ فيهِ الحُزنُ وٱلانكسار، بلْ تَظهرُ فيهِ الإنسانيةُ ٱلمنتصرةُ كَمَا يَظهرُ ٱلتاريخُ ٱلظافِرُ في بطلِهِ العظيمِ أُصيبَ في كلِّ موضعٍ من جسمِهِ بجراح، فهي جِراحٌ وتشويهٌ وألم، وهي شهادةُ ٱلنصر!

ولم تكنْ أثقالُ المسلم من دنياهُ أثقالاً على نفسِه، بل كانَتْ لَهُ أسبابَ قوةٍ وسموٍّ؛ كالنَّسْرِ ٱلمخلوقِ لِطبقَاتِ ٱلجوِّ ٱلعُليا، ويحملُ دائماً من أجلِ هذه الطبقَاتِ ثِقَلَ جناحيهِ العظيمين.

وكانَتِ ٱلحقيقةُ التي جعلَها النبيُّ ﷺ مَثَلَهمُ الأعلى، وأقرَّها في أنفسِهِم بجميعِ أخلاقِهِ وأعمالِه ـ أنَّ الفضائلَ كلَّها واجبةٌ على كلِّ مسلم لِنفسِه، إذْ إنَّها واجبةٌ بِكلِّ مسلم على غيره، فلا تكونُ في ٱلأمَّةِ إلّا إرادةٌ واحدةٌ متعاونة، تجعلُ ٱلمسلمَ وما هو روحُ أمتِهِ تعملُ بِهِ أعمالَها هي لا أعمالَهُ وحدَها.

المسلمُ إنسانٌ ممتدٌّ بمنافعِهِ في معناهُ ٱلاجتماعيِّ حولَ أمتِهِ كلِّها، لا إنسانٌ ضيِّقٌ مجتمِعٌ حولَ نفسِهِ بهذه المنافع؛ وهو من غيرِهِ في صدقِ ٱلمعاملةِ الاجتماعيةِ كٱلتاجرِ مِنَ التاجر؛ تقولُ ٱلأمانةُ لِكليهما: لا قيمةَ لِميزانِكَ إلّا أنْ يُصَدِّقَهُ ميزانُ أخيك.

ولنْ يكونَ ٱلإسلامُ صحيحاً تامًّا حتى يجعلَ حامِلَهُ مثَلاً من نبيِّهِ في أخلاقِ ٱللّه؛ فما هو بشخصٍ يضبِطُ طبيعتَه: يَقْهرُها مرةً وتقهرُهُ مِراراً؛ ولكنْ طبيعةٌ تضبِطُ شخصَها فهي قانونُ وجودِه.

لا يضطربُ من شيء، وكيف يضطربُ ومعَهُ ٱلاستقرار؟

لا يخافُ من شيء، وكيفَ يخافُ ومعَهُ ٱلطمأنينة؟

لا يخشى مخلوقاً، وكيفَ يخشى ومعَهُ ٱللّه؟

أيُّها ٱلأسد، هل أنت بجملتِكَ إلّا في طبيعةِ مَخالِبك وأنيابِك...؟

---

(١) المرزأ: المصاب بالابتلاءات المختلفة.

وحيُ ٱلهجرة

إنَّ التاريخَ لَيتكلَّمُ بلغةٍ أوسعَ من ألفاظِهِ إذا قرأَهُ مَنْ يقرؤُهُ على أنَّهُ بعضُ نواميسِ ٱلوجود، صُوِّرَتْ فيها النفسُ الإنسانيةُ كيفَ ٱعْتَوَرَتْ أغراضَها، وكيف مدَّت في نَسَقِها[1]، وكيفَ تغلغَلَتْ في مسالكِها، وما تأتَّى لها فَجَرَتْ بِهِ مَجراها، وما دفعَها فٱنحدرتْ منه إلى مَقارِّها[2]؛ فهو ليسَ بكلامٍ تستقبلُه تقرأُ فيه، ولكنَّهُ أحوالٌ مِنَ الوجودِ تعترضُها فتُغيِّرُ عليكَ حِسَّكَ بإلهامِها وأحلامِها، وتتناولُها من ناحيةٍ فتتناولُك مِنَ الأخرى؛ فإذا ٱلكلمةُ من ورائِها معنًى، من ورائِهِ طبيعةٌ، من ورائِها سببٌ وحِكْمة؛ وإذا كلُّ حادثةٍ فيها إنسانيتُها وإلهيَّتُها معاً، وإذا ٱلوجودُ فِي ذهنِك كٱلساعةِ ترسمُ لك حدَّ الثانيةِ بخَطْرتين، وحدَّ الدقيقةِ من عددٍ محدودٍ مِنَ الثواني، وحدَّ ٱلساعة إلى حدِّ ٱليوم؛ وإذا ٱلبيانُ في نفسِك من كلِّ هذه الحواشي، وإذا ٱلتاريخُ فيما تقرؤُهُ مُفَنَّنٌ في ظاهرِهِ وباطِنِهِ يَفِيءُ عليكَ من ألفاظِهِ ومعانيهِ بظلالٍ هي صِلتُكَ أنتَ أيُّها الحيُّ ٱلموجودُ بأسرارِ ما كانَ موجوداً من قبل.

كذلك قرأْتُ بالأمسِ تاريخَ الهجرةِ النبويةِ في كتابِ أبي جعفرٍ ٱلطَّبريِّ لِأكتبَ عنهُ هذه الكلمة، فلم أكُن ـ علِمَ الله ـ في كتابٍ ولا في حِكاية، بلْ في عالمٍ ٱنبثقَ في نفسي مخلوقاً تامًّا بأهلِه، وحوادثِ أهلِه، وأسرارِ أهلِهِ جميعاً؛ كما يرى ٱلمُحبُّ حبيبَه: لا يكونُ ٱلجميلُ في محلٍّ إلَّا ٱمتلأَ مكانَهُ بعَاشِقِهِ، فهو مكانٌ مِنَ ٱلنفس، لا مِنَ ٱلدنيا وحدَها، وفيهِ ٱلحياةُ كما هي في ٱلوجودِ بمظهرِ ٱلمادة، وكما هي في ٱلحُبِّ بمظهرِ ٱلروح.

وتلك حالةٌ مِنَ القراءةِ بٱلروحِ وٱلكتابةِ بٱلروح، متى أنت سَمَوْتَ إليها رأيْتَ فيها غيرَ ٱلمعنى يُخرِجُ معنًى، ومِن لا شيءَ تُخلَقُ أشياء، لأنَّك منها ٱتصلْتَ بأسرارِ نفسِك، ومن نفسِك ٱتصلْتَ بأسرارٍ فوقَها؛ فيُصبحُ ٱلتاريخُ معَك فنَّ ٱلوجودِ ٱلإنسانيِّ على ٱلوجهِ ٱلذي أفضَتْ بِهِ ٱلحِكْمةُ إلى الحياةِ لِتستمرَّ بالنفسِ ٱلإنسانية،

---

(١) نسقها: طرازها وعلى شكلها.　(٢) مقارّها: أماكنها.

لا فنَّ عِلمِ الناسِ على الوجهِ الذي أفضتُ[1] بِهِ الحوادثُ مِمَّا بينَ ٱلحياةِ وٱلموت.

* * *

نشأَ النبيُّ ﷺ في مكة، وٱستُنبِىءَ على رأسِ ٱلأربعينَ من سِنِّه، وغَبَرَ[2] ثلاثَ عشْرَةَ سنةً يدعو إلى اللَّهِ قبلَ أنْ يُهاجرَ إلى المدينة؛ فلم يكنْ في ٱلإسلام أولَ بَدْأتِهِ إلَّا رجلٌ وٱمرأةٌ وغلام: أما الرجلُ فهو هو ﷺ، وأما المرأةُ فزوجُهُ خديجة، وأما الغلامُ فعليّ ٱبْنُ عمِّهِ أبي طالب.

ثم كانَ أولُ النموِّ في ٱلإسلام بحُرٍّ وعبد: أمَّا ٱلحرُّ فأبو بكر، وأمَّا العبدُ فَبِلال، ثم ٱتَّسقَ ٱلنموُّ قليلاً قليلاً بِبُطْءِ ٱلهمومِ في سيرِها، وصبرِ الحُرِّ في تجلّدِه؛ وكأنَّ ٱلتاريخَ واقفٌ لا يتزحزح، ضيّقٌ لا يتَّسِعُ، جامدٌ لا ينمو؛ وكأنَّ النبيَّ ﷺ أخو الشمس: يطلُعُ كلاهما وحدَهُ كلَّ يوم. حتى إذا كانتِ ٱلهجرةُ من بَعدُ، فٱنتقلَ ٱلرسولُ إلى المدينة، بدأَتِ ٱلدنيا تَتَقَلْقَل[3]، كأنَّما مرَّ بقدمِهِ على مركزِها فحرَّكَها؛ وكانَتْ خطواتُهُ في هجرتِهِ تَخطُّ في ٱلأرض، ومعانيها تخطُّ في ٱلتاريخ؛ وكانَتِ ٱلمسافةُ بينَ مكةَ والمدينة، ومعناها بينَ ٱلمشرقِ والمغرب.

لقد كانَ في مكةَ يَعْرِضُ الإسلامَ على العربِ كما يُعْرَضُ ٱلذهبُ على ٱلمتوحشين: يَرونَهُ بَريقاً وشُعاعاً ثُمَّ لا قيمةَ له، وما بهم حاجةٌ إليه، وهو حاجةُ بني آدمَ إلّا المتوحشين، وكانوا في ٱلمحادَّةِ[4] والمخالفةِ ٱلحمقاء، وٱلبلوغ بدعوتِهِ مبلغَ ٱلأوهامِ والأساطير ـ كما يكونُ ٱلمريضُ بذاتِ صدرِهِ معَ الذي يدعوهُ في ليلةٍ قارَّةٍ إلى مداواةِ جسمِهِ بأشعةِ الكواكب؛ وكانَتْ مكةُ هذه صخراً جغرافيًّا يتحطَّمُ ولا يلين، وكأنَّ الشيطانَ نفسَهُ وضعَ هذا الصخرَ في مجرى ٱلزمنِ لِيصدَّ بِهِ التاريخَ الإسلاميَّ عنِ الدنيا وأهلِها.

وأوذِيَ رسولُ ٱللَّهِ ﷺ، وكُذِّبَ وأُهين، ورَجَفَ بِهِ ٱلوادِي يخطو فيهِ على زَلازلَ تتقلَّب، ونابذَهُ[5] قومُهُ وتَذامَروا[6] فيه، وحضَّ بعضُهم بعضاً عليه، وٱنْصَفَقَ[7] عنهُ عامةُ ٱلناسِ وتركوه إلّا مَنْ حفِظَ ٱللَّهُ منهم؛ فأُصِيبَ كبيراً باليُتْمِ من قومِه، كما أُصيبَ صغيراً باليُتْمِ من أبويه.

---

(١) أردت: أوصلت.

(٢) غبر: مضى.

(٣) تتقلقل: تتململ.

(٤) المحادّة: المعاندة والمخالفة والعداء.

(٥) نابذ: رفض وأخرج وأفرد.

(٦) تذامروا: اتحدوا واحتشدوا جماعات جماعات.

(٧) انصفق: تخلّى واجتنب.

وكانَ لا يسمعُ بقادمٍ يقدُمُ مِنَ العربِ لَهُ اسمٌ وشرفٌ، إلَّا تصدَّى[1] لَهُ فدعاهُ إلى اللَّهِ وعرضَ نفسَهُ عليهِ؛ ومع ذلك بقيَتِ الدعوةُ تلوحُ وتختفي كما يَشُقُّ البرقُ من سحابةٍ على السماء: ليسَ إلَّا أنْ يُرَى ثم لا شيءَ بعدَ أنْ يُرى!

* * *

فهذا تاريخُ ما قبلَ الهجرةِ في جملةِ معناه، غيرَ أنِّي لم أقرأْهُ تاريخاً، بلْ قرأْتُ فيهِ فصلاً رائعاً من حِكْمةٍ إلهية، وضَعَهُ اللَّهُ كالمقدِّمةِ لِتاريخِ الإسلام في الأرض؛ مقدِّمةٌ مِنَ الحوادثِ والأيام تحيا وتمرُّ في نَسَقِ[2] الروايةِ الإلهيةِ المنطويةِ على رموزِها وأسرارِها، وتظهرُ فيها رحمةُ اللَّهِ تعملُ بقسوة، وحِكمةُ اللَّهِ تتجلَّى في غُموض؛ فلو أنت حققْتَ النظرَ لَرأيْتَ تاريخَ الإسلام يتألَّهُ[3] في هذه الحِقْبة، بحيثُ لا تقرؤهُ النفسُ المؤمنةُ إلَّا خاشعةً كأنَّها تُصلِّي، ولا تتدَبَّرُهُ إلَّا خاضعةً كأنَّها تتعبَّد.

بدأَ الإسلامُ في رجلٍ وامرأةٍ وغلام، ثم زاد حرًّا وعبداً؛ أليسَتْ هذه الخمسُ هي كلَّ أطوارِ البشريةِ في وجودِها، مخلوقةً في الإنسانيةِ والطبيعة، ومصنوعةً في السياسةِ والاجتماع؛ فهٰهنا مطلعُ القصيدة، وأولُ الرمزِ في شعرِ التاريخ.

ولَبِثَ النبيُّ ﷺ ثلاثَ عَشْرَةَ سنةً لا يَبْغيهِ[4] قومُهُ إلَّا شرًّا، على أنَّهُ دائبٌ[5] يطلبُ ثُمَّ لا يجد، ويَعرِضُ ثُمَّ لا يُقبَلُ منه، ويُخفِقُ ثُمَّ لا يَعتريهِ اليأس، ويَجْهَدُ ثُمَّ لا يتخوَّنُهُ الملَل[6]، ويستمرُّ ماضياً لا يتحرَّف[7]، ومعتزماً لا يتحوَّل؛ أليسَتْ هذه هي أسمى معاني التربيةِ الإنسانيَّةِ أظهرَها اللَّهُ كلَّها في نبيِّه، فَعمِلَ بها وثَبَت عليها، وكانَتْ ثلاثَ عشْرَةَ سنةً في هذا المعنى كعمرِ طفلٍ وُلِدَ ونشأَ وأُحكمَ تهذيبُهُ بالحوادث، حتى تسلَّمتْهُ الرجولةُ الكاملةُ بمعانيها مِنَ الطفولةِ الكاملةِ بوسائلِها؟

أفليسَ هذا فصلاً فلسفيًّا دقيقاً يعلِّمُ المسلمينَ كيف يجبُ أنْ ينشأَ المسلم: غِنَاهُ في قلبِه، وقوَّتُهُ في إيمانِهِ، وموضعُهُ في الحياةِ موضعُ النافعِ قبلَ المنتفِع، والمصلحِ قبلَ المقلِّد؛ وفي نفسِهِ من قوةِ الحياةِ ما يموتُ بهِ في هذه النفسِ أكثرُ ما في الأرض والناسِ من شهواتٍ ومطامع؟

---

(١) تصدّى: خرج لمواجهته.
(٢) نسق: نمط منسجم.
(٣) يتأله: يسمو ويعلو كالإله.
(٤) لا يبغيه: لا يريد له.
(٥) دائب: مستمر.
(٦) لا يتخوّنه الملل: لا يداخله.
(٧) لا يتحرّف: لا يميل ولا يتحوّل.

ثم أليسَتْ تلكَ ٱلعواملُ الأخلاقيَّةُ هي هي ٱلتي ألقِيَتْ في منبعِ ٱلتاريخِ الإسلاميِّ ليعُبَّ منها تيَّارُه؛ فتدفعُهُ في مجراهُ بينَ ٱلأممِ، وتجعلُ مِنْ أخصِّ ٱلخصائصِ الإسلاميةِ في هذه الدنيا ـ ٱلثباتَ على ٱلخُطوةِ ٱلمتقدمةِ وإنْ لم تتقدَّمْ، وعلى ٱلحقِّ وإنْ لم يتحقَّقْ؛ والتبرُّؤَ مِنَ الأثرةِ وإنْ شَحَّتْ[1] عليها ٱلنفس، وٱحتقارَ الضعفِ وإنْ حَكَمَ وتسلَّط، ومقاومةَ الباطلِ وإنْ سادَ وغلَب، وحمْلَ الناسِ على مَحْضِ ٱلخيرِ وإنْ رَدُّوا بٱلشرّ، وٱلعملَ لِلعملِ وإنْ لم يأتِ بشيء، والواجبَ لِلواجبِ وإنْ لم يكُنْ فيهِ كبيرُ فائدة، وبقاءَ الرجلِ رجلاً وإنْ حطَّمَهُ كلُّ ما حولَه؟

ثمَّ هي هي ٱلبُرهاناتُ القائمةُ لِلدهرِ قيامَ ٱلمنارةِ في الساحلِ ـ على نبوَّةِ محمدٍ ﷺ تثبُتُ ببرهانِ الفلسفةِ وعلومِ النفسِ أنَّهُ رُوحٌ وغاياتُها المحتومَةُ بِالقدَر، لا جسمٌ ووسائلُهُ المتغلِّبةُ بٱلطبيعة؛ ولو كانَ رجلاً ٱبتعثَتْهُ[2] نفسُه، لتمحَّلَ[3] الحِيَلَ لِسياستِه، ولأخذَتْ طَمعاً من كلِّ مَطْمع، ولَركَدَ مَعَ ٱلحوادِثِ وهَبّ، ولَما ٱستمرَّ طوالَ هذه المدةِ لا يتَّجِهُ وهو فردٌ إلا ٱتجاهَ ٱلإنسانيةِ كلِّها كأنَّما هو هي.

ولو هو كانَ رجلَ ٱلمُلكِ أو رجلَ ٱلسياسة، لٱستقامَ وٱلتَوَى، ولأدركَ ما يبتغي في سَنواتٍ قليلةٍ، ولأَوْجَدَ ٱلحوادثَ يتعلَّقُ عليها، ولَمَا أفلتَ ما كانَ موجوداً منهُ يتعلَّقُ به، ولَمَا ٱنتزعَ نفسَهُ من محلِّهِ في قومِهِ وكانَ واسطةً فيهم، ولا تركَ عواملَ الزمنِ تُبعدُهُ وهي كانَتْ تُدنيه.

قالوا: إنَّ عَمَّهُ أبا طالبٍ بعثَ إليهِ حينَ كلَّمتْه قُريش فقالَ له: يا ٱبنَ أخي، إنَّ قومَكَ قد جاؤوني فقالوا لي: كذا وكذا، فأبْقِ عليَّ وعلى نفسك. ولا تُحمِّلْني مِنَ الأمرِ ما لا أُطيق. فظنَّ رسولُ ٱللَّهِ ﷺ أنَّهُ قد بدا لِعمِّهِ فيهِ بَداء[4]، وأنَّهُ خاذِلُه[5] ومُسْلِمُه، وأنَّهُ قد ضَعُفَ عنْ نُصرتِهِ وٱلقيامِ معه، فقال: يا عمَّاه، ـ واللَّهِ ـ لو وضعوا الشمسَ في يميني والقمرَ في يساري على أنْ أتركَ هذا الأمرَ حتى يُظهِرَهُ اللَّهُ أو أهلِكَ فيهِ ما تركْتُه. ثم ٱستعبرَ ﷺ فبكى!

يا دموعَ النبوَّة! لقدْ أثبَتِّ أنَّ النفسَ ٱلعظيمةَ لَنْ تتعزَّى عن شيءٍ منها بشيءٍ

---

(١) شحت: بخلت وقلّت.
(٢) ابتعثته: اختارته.
(٣) تمحّل: أوجد الأعذار الواهية.
(٤) بداء: رأي جديد.
(٥) خاذله: متخلٍ عنه.

من غيرِها كائناً ما كان، لا من ذهبِ ٱلأرضِ وفِضّتِها، ولا من ذهبِ ٱلسماءِ وفِضتِها إذا وُضِعَتِ ٱلشمسُ في يدٍ وٱلقمرُ في ٱلأخرى.

وكلُّ حوادثِ ٱلمدةِ قبلَ ٱلهجرةِ على طولِها ليسَتْ إلّا دليلَ ذلك ٱلزمنِ على أنّهُ زمنُ نبيٍّ، لا زمنُ مَلِكٍ أو سياسيٍّ أو زعيمٍ؛ ودليلُ الحقيقةِ على أنَّ هذا اليقينَ الثابتَ ليسَ يقينَ الإنسانِ الاجتماعيِّ من جهةِ قوّتِه، بل يقينُ الإنسانِ الإلهيِّ من جهةِ قلبِه؛ ودليلُ ٱلحِكْمةِ على أنَّ هذا الدينَ ليسَ مِنَ ٱلعقائدِ الموضوعةِ التي تنشُرُها عَدْوى النفسِ لِلنفسِ؛ فها هو ذا لا يبلغُ أهلُهُ في ثلاثَ عشرة سنةً أكثرَ مِمّا تبلغُ أسرةٌ تتوالدُ في هذه الحِقْبةِ؛ ودليلُ الإنسانيةِ على أنّهُ وحْيُ ٱللّهِ بإيجادِ ٱلإخاءِ العالميِّ وٱلوحدةِ ٱلإنسانيّة. أفلَمْ يكُنْ خروجُهُ عن موطنِهِ هو تحقُّقَهُ في ٱلعالَمِ؟

ثلاثَ عشْرَةَ سنة، كانَتْ ثلاثةَ عَشَرَ دليلاً تُثبتُ أنَّ النبيَّ ﷺ ليسَ رجلَ مُلْك، ولا سياسة، ولا زَعامة؛ ولو كان واحداً من هؤلاءِ لأدركَ في قليلٍ؛ وليسَ مبتدِعَ شريعةٍ من نفسِه، وإلّا لَمَا غَبَر في قومِهِ وكانَهُ لم يجذِبْهم وهم حولَه؛ وليسَ صاحبَ فِكرةٍ تعملُ أساليبُ النفسِ في ٱنتشارِها؛ ولو كانَهُ لَحملَهم على مَخْضِها وممزوجِها؛ وليسَ رجلاً متعلِّقاً بٱلمصادفاتِ ٱلاجتماعيّةِ، ولو هو كان لَجعلَ إيمانَ يومٍ كُفْرَ يومٍ؛ وليسَ مُصْلِحَ عشيرةٍ يهذِّبُ منها على قَدْرِ ما تقبلُ منهُ سياسةً ومُخادعة، ولا رجلَ وطنِهِ تكونُ غايتُهُ أنْ يشمخَ في أرضِهِ شُموخَ جبلٍ فيها، دونَ أنْ يُحاولَ ما بلغَ إليهِ من إطلالِهِ على الدنيا إطلالَ السماءِ على ٱلأرضِ، ولا رجلَ حاضِرِه إذْ كانَ واثقاً دائماً أنَّ معَهُ ٱلغدَ وآتِيَه، وإنْ أدبرَ[1] عنهُ ٱليومُ وذاهِبُه؛ ولا رجلَ طبيعتِهِ ٱلبشريّةِ يلتمسُ لها ما يلتمسُ ٱلجائعُ لِبطنِه، ولا رجلَ شخصيتِه يستهوِي بها ويسحر، ولا رجلَ بطشِهِ يغلبُ بهِ ويتسلَّط، ولا رجلَ ٱلأرضِ في ٱلأرض، ولكنْ رجلَ ٱلسماءِ في ٱلأرض.

هذه هي حِكمةُ ٱللهِ في تدبيرِهِ لنبيِّه قبلَ ٱلهجرة: قبضَ عنه أطرافَ ٱلزمن، وحصَرَهُ من ثلاثَ عشْرَةَ سنةً في مثلِ سنةٍ واحدة، لا تَصدُرُ بِهِ الأمورُ مَصادرَها كي تُثبِتَ أنّها لا تَصدُرُ بِهِ: ولا تستحقُّ بهِ الحقيقةَ لِتدلَّ على أنّها ليسَتْ من قوتِهِ وعملِه.

---

(١) أدبر: رحل راجعاً.

وكانَ ﷺ على ذلك ـ وهو في حدودِ نفسِهِ وضِيقِ مكانِهِ ـ يتَّسعُ في ٱلزمنِ من حيثُ لا يَرَى ذلك أحدٌ ولا يعلمُهُ، وكأنَّما كانَتْ شمسُ اليوم الذي سينتصرُ فيه ـ قبلَ أنْ تُشرِقَ على الدنيا بثلاثَ عشْرَةَ سنةً ـ مشرقةً في قلبِهِ ﷺ

والفصلُ مِنَ ٱلسنةِ لا يقدّمُهُ الناسُ ولا يؤخرونه، لأنَّهُ من سَيْرِ ٱلكوْنِ كلّه؛ وٱلسحابةُ لا يُشْعِلونَ برقَها بٱلمصابيح، ومعَ ٱلنبيِّ من مثلِ ذلك برهانُ ٱللَّهِ على رسالتِه، إلى أنْ نزلَ قولُه تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ فحلَّ الفصلُ، وٱنطلقتِ ٱلصاعقة، وكانَتِ ٱلهجرة.

تلك هي المقدمةُ الإلهيَّةُ لِلتاريخ، وكانَ طبيعيًا أنْ يطَّرِدَ ٱلتاريخُ بعدَها، حتى قال الرشيدُ لِلسحابةِ وقدْ مرَّتْ بِه: أمطري حيثُ شِئْتِ فسيأتيني خَراجُك!

فلسفةُ قصة

ماتَتْ خديجةُ زوجُ النّبيِّ ﷺ وماتَ عمُّهُ أبو طالبٍ في عامٍ واحد، في السنةِ العاشرةِ مِنَ النبوّة، فعظُمَتِ ٱلمصيبةُ فيهما عليه، إذْ كانَ عمُّهُ هذا يمنُعُهُ من أذى قريش، ويقومُ دونَهُ فلا يخلُصونَ إليهِ بمكروه؛ وكان أبو طالبٍ من قُريشٍ كٱلعقيدةِ السياسية: هي بطبيعتِها قوةٌ نافذةٌ على قوةِ القبيلة؛ فمِنْ ثَمَّ كانَ هو وحدَه المشكلةَ النفسيةَ المعقَّدةَ التي تعملُ قريشٌ جاهدةً في حلّها، وقامَتِ ٱلمعركةُ الإسلاميةُ الأولى بينَ إرادتِهم وإرادتِه، وهم أمّةٌ تحكمُهُمُ ٱلكلمةُ ٱلاجتماعيَّةُ ٱلتي تَسِيرُ عنهم في ٱلقبائل؛ وتاريخُهم ما يُقالُ في ٱلألسنةِ من معاني ٱلمدحِ وٱلذمّ، فيخشَوْنَ ٱلمقالةَ أكثرَ مِمّا يخشَوْنَ ٱلغارة، وقد لا يُبالونَ بالقَتْلَى وٱلجرحى منهم، ولكنَّهم يبالونَ بالكلماتِ ٱلمجروحة.

فكانَ مِنْ لَطيفِ صنعِ ٱللهِ للإسلام، وعجيبِ تدبيرِهِ في حِمايةِ نبيِّهِ ﷺ - وضْعُ هذه القوةِ النفسيةِ في أولِ تاريخِ النبوّة، تشتغلُ بها سخافاتُ قريش، وتكونُ عملاً لِفراغِهِمُ ٱلرُّوحيّ، وتُثِيرُ فيهمُ ٱلإشكالَ السياسيَّ ٱلذي يُعطِّلُ قانونَهُمُ ٱلوحشيَّ إلى أنْ يتمَّ عملُ الأسبابِ الخفيَّةِ التي تكْسِرُ هذا القانون، فإنَّ ٱلمصنعَ الإلهيَّ لا يُخْرِجُ أعمالَهُ التامَّةَ العظيمةَ إلّا من أجزاءٍ دقيقةٍ.

أمّا خديجةُ زوجُ النبيِّ ﷺ فكانَتْ في هذه المِحْنةِ قلباً معَ قلبِهِ العظيم، وكانَتْ لِنفسِهِ كقولِ (نَعم) لِلكلمةِ الصادقةِ التي يقولُ لها كلُّ الناسِ (لا)؛ وما زَالتِ ٱلمرأةُ ٱلكاملةُ ٱلمحبوبةُ هيَ ٱلتي تُعطِي ٱلرجلَ ما نقصَ من معاني ٱلحياة، وتَلِدُ لَهُ ٱلمسراتِ من عواطفِها كما تَلِدُ من أحشائِها، فالوجودُ يعملُ بها عملينِ عظيمين: أحدهُما زيادةُ الحياةِ في الأجسام، وٱلآخرُ إتمامُ نقصِها في المعاني.

وبموتِ أبي طالبٍ وخديجةَ، أُفْرِدَ النبيُّ ﷺ بجسمِهِ وقلبِه، لِيتجرَّدَ[1] مِنَ الحالةِ ٱلتي يَغْلِبُ فيها ٱلحِسُّ، إلى الحالةِ التي تَغلبُ فيها ٱلإرادة، ثُمَّ ليخرجَ من

(١) ليتجرّد: ليتفرّغ، ليتخلّص.

أيامِ ٱلاستقرارِ في أرضِهِ، إلى الأيامِ المتحركةِ بِهِ في هِجرتِهِ، ثُمَّ لِينتهِيَ بذلك إلى غَايةِ قوميَّتِه ٱلصغيرةِ المحدودة، فيتصلَ من ذلك بأولِ عالميَّتِهِ ٱلكُبرى.

وأرادَ ٱللَّهُ ـ تعالى ـ أنْ يبدأَ هذا الجليلُ العظيمُ من أسمى خِلالِ ٱلجلالِ والعظَمة، لِيكونَ أولُ أمرِه شهادةً بكمالِهِ، فكانَتِ ٱلحسنةُ فيهِ بشهادةِ السيِّئةِ من قومِهِ، فحِلْمُهُ بشهادةِ رُعُونتِهِم[1]، وأناتُهُ[2] بدليلِ طَيْشهِم، وحِكمتُهُ ببرهانِ سفاهتِهِم[3]؛ وبذلك ظهرَ الروحانيُّ روحانيًا في المادة.

قالوا: فنالَتْ منه قريش، ووَصَلُوا من أذاهُ إلى ما لم يكونوا يصِلُونَ إليهِ في حياةِ عمِّه، حتى نثَرَ بعضُهُمُ ٱلترابَ على رأسِه، كأنَّما يُعلِمونَهُ أنَّهُ أهونُ عليهم من أنْ يكونَ حُرًّا، فضلاً عنْ أنْ يكونَ عزيزاً، فضلاً عنْ أنْ يكونَ نبيًّا؛ قالوا: فدخلَ رَسولُ ٱللهِ ﷺ بيتَهُ وٱلترابُ على رأسِه، فقامَتْ إليهِ إحدى بناتِه تغسلُ عنهُ الترابَ وهي تبكي!

كانَتْ تبكي إذْ لا تعلمُ أنَّ هذا الترابَ على رأسِ النبيِّ العظيمِ هو شُذوذُ ٱلحياةِ ٱلأرضيَّةِ ٱلدنيئة، في مقابَلةِ إنسانِها ٱلشاذِّ ٱلمنفرد. هذه القَبْضَةُ مِنَ الترابِ الأرضيِّ قبضةٌ سفيهةٌ، تُحاولُ ردَّ ٱلممالكِ الإسلاميةِ العظيمةِ أنْ تَنشأَ نشأتَها وتعملَ عمَلها في ٱلتاريخ، فهي في مقدارِها وسخافتِها ومحاولتِها، كعقلِ قُريشٍ حينئذٍ في مقدارِهِ وسخافتِهِ ومحاولتِه.

أمَّا النبيُّ ﷺ فقالَ لِبنتِه: «يا بنيّةُ لا تبكي، فإنَّ اللَّهَ مانعٌ أباك». حسِبَتْ ذلك هَواناً وضَيْعةً، فأعلمَها أنَّ قبضةً مِنَ الترابِ لا تَطْمُرُ النَّجم، وأنَّ هذه الحَثْوَةَ الترابيةَ لا تُسمَّى معركةً أثارتْها ٱلخيلُ فجاءتْ بنتيجة، وأنَّ ساعةً مِنَ الحزنِ في يوم، لا يُحكَمُ بها على الزمنِ كلِّه، وأنَّ هذه النَّزوةَ التي تحركَتِ الآنَ هي حمقُ الغباوة: قوّتُها نهايتُها.

«يا بنيَّةُ لا تبكي فإنَّ الله مانعٌ أباك». أي ليسَ لِلنبيِّ كبرياءُ ينالُها الناسُ أو يَغُضُّونَ[4] عنها فيأتي ٱلدمعُ مترجِماً عنِ ٱلمعنى الإنسانيِّ الناقصِ مُثبتاً أنَّهُ ناقص، إنَّما هي النبوَّةُ: قانونُها غيرُ ما ٱعتادَتِ النفسُ من أفراحٍ وأحزان، وهي النبوّةُ: تجعلُ ٱلمختارَ لها غيرَ محدودٍ بجسدِهِ ٱلضعيفِ، بلْ حُدودُهُ ٱلحقائقُ التي فيها

(١) رعونتهم: حماقتهم.
(٢) أناته: تروّيه.
(٣) سفاهتهم: طيشهم ودناءتهم.
(٤) غضّ الطرف: أغمض عينيه.

قوّتُها، فهو في مَنَعَةِ ٱلواقعِ ٱلذي لا بدَّ أنْ يقَع، فلو أمكنَ أنْ يُحذَفَ يومٌ منَ ٱلزمنِ أوْ يؤخَّرَ عن وقتِه، أمكنَ أنْ يؤخَّرَ ٱلنبيُّ أو يُحذَف.

«يا بنيةُ لا تبكي إنَّ ٱللَّهَ مانعُ أباك». لا ـ واللهِ ـ ما يقولُ هذه الكلمَةَ إلّا نبيٌّ وَسعَ التاريخَ في نفسِهِ الكبيرةِ قبلَ أنْ يُوجَدَ هذا التاريخُ في الدنيا، فكلمتُهُ هي ٱلإيمانُ والثقةُ إذْ يتكلمُ عن موجود.

ترابٌ ينثرهُ سفيهٌ على رأسِ النبيِّ! ويحكِ يا حقَارَةَ المادة؛ إنَّ ارتفاعَكِ لعنة، إنَّ ٱرتفاعَكِ لعنة.

* * *

قالوا: وخرجَ رسولُ ٱللهِ ﷺ وحدَهُ إلى الطائف، يلتمسُ من ثَقيفٍ النصرَ والمنعَةَ لَهُ من قومِه، فلمَّا ٱنتهى إلى ٱلطائفِ عَمدَ[1] إلى نفرٍ من ثقيفٍ هم يومئذٍ سادتُهم وأشرافُهم، فجلسَ إليهم فدعاهم إلى ٱللهِ وكلَّمُهم بما جاءَهم لَهُ من نُصرتِهِ والقيامِ معَهُ في ٱلإسلامِ على مَنْ خالفَهُ من قومِهِ، فلم يفعلوا وأغرَوْا[2] بِهِ سُفهاءَهم وعبيدَهم يسبُّونَهُ ويصيحونَ بِه، حتى ٱجتمعَ عليهِ ٱلناسُ وألجأُوهُ إلى حائطٍ[3] لِعُتْبَةَ ابنِ ربيعَة وشَيبةَ بْنِ ربيعةَ وهما فيه. ورجَعَ عنه مِنْ سفهاءِ ثَقيفٍ من كانَ يتبعُه، فعمدَ ﷺ إلى ظلِّ حُبْلَةٍ[4] من عِنَبٍ فجلسَ فيه، وٱبنا ربيعةَ ينظرانِ إليهِ ويريانِ ما لقِيَ مِنَ السفهاء.

فلمَّا ٱطمأنَّ ﷺ في مجلسِهِ قال: «اللهمَّ إليك أشكو ضعفَ قوّتي، وقلةَ حيلتي، وهواني على الناس؛ يا أرحمَ الراحمين، أنتَ ربُّ المستَضْعَفِينَ وأنت ربّي، إلى مَنْ تكِلُني، إلى بعيدٍ يتجهّمُني[5]، أو إلى عدوٍّ ملَّكْتَهُ أمري، إنْ لم يكُنْ بك عليَّ غضبٌ فلا أُبالي، ولكنّ عافيَتَك هي أوسعُ لي. أعوذُ بنورِ وجهِكَ ٱلذي أشرقَتْ لَهُ ٱلظُّلُماتُ، وصَلُحَ عليهِ أمرُ الدنيا والآخرة، من أنْ ينزلَ بي غضبُكَ، أو يحلَّ عَلَيَّ سخَطُك، لكَ العُتْبَى حتى ترضى، لا حولَ ولا قوةَ إلّا بك!».

* * *

ألا ما أكملَ هذه الإنسانيةَ التي تُثبِتُ أنَّ قوةَ الخُلُقِ هي درجةٌ أرفعُ مِنَ الخُلُق

---

(١) عمد: لجأ.

(٢) أغروا: حثّوا وشجّعوا.

(٣) الحائط: البستان، ويجمع على حوائط.

(٤) الحُبْلة بالضم: الكرْم.

(٥) يتجهمني: يستقبلني بوجه كريه.

نفسِه، فهذا فنُّ الصبرِ لا الصبرُ فقط، وفنُّ الحِلْم لا الحِلمُ وحدَه.

قوةُ الخُلُقِ هي التي تجعلُ الرجلَ العظيمَ ثابتاً في مركزِ تاريخهِ لا متقلّقِلاً في تواريخِ الناس، محدوداً بعظائم شخصيتِهِ الخالدةِ لا بمصالح شخصهِ الفاني، ناظراً في الحياةِ إلى الوضع الثابتِ لِلحقيقةِ لا إلى الوضعِ المتغيِّرِ لِلمنفعة.

وما كانَ أولئك ٱلأشرافُ وسفهاؤُهم وعبيدُهم إلّا معانيَ ٱلظلم، والشرّ، والضعْف، تقولُ لِلنبي العظيمِ الذي جاءَ يمحوها ويُدِيلُ منها: إننا أشياءُ ثابتةٌ في البشريّة.

لم يكنْ منهمُ ٱلأشرافُ وٱلسفهاءُ وٱلعبيدُ، بلْ كانَ منهمُ ٱلعَسْفُ[1]، والرّق، والطَّيش، تَسْخَرُ ثلاثتُها من نبيِّ ٱلعدْل، والحريّة، والعقل، فما تَسْخَرُ إلّا من نفسِها.

صغائرُ الحياةِ قد أحاطَتْ بمجدِ ٱلحياة، لِتُثبِتَ ٱلصغائرُ أنّها ٱلصغائر، ولِيُثْبِتَ ٱلمجدُ أنّهُ ٱلمجد.

كانَ ٱلفريقانِ هما الفكرتينِ ٱلمتعاديَتينِ أبداً على الأرض: إحداهما عِشْ لِتأكلَ وتستمتِعَ وإنْ أهلكْت، والأخرى عشْ لِتعملَ وتنفعَ الناسَ وإنْ هلكْت.

كانَتِ الأقدارُ تُبادي هذا الروحَ الواسعَ بذلك الروح الضيق، لِينطلقَ الواسعُ من مكانِهِ ويستقبِلَ الدنيا التي عليهِ أنْ يُنشِئها. فأولئك ٱلاشرافُ والسفهاءُ والعبيدُ إن هم إلّا الضيقُ، والركودُ، وذلُّ ٱلعيش، حول السّعةِ الروحيةِ، والسموّ، وطَهارةِ الحياة.

وقفَ ٱلمعنى السماويُّ بينَ معاني الأرض، ولكنَّ نورَ الشمسِ ينبسطُ على الترابِ فلا يُعفِّرُهُ ٱلتراب[2]، وما هو بنورٍ يُضيءُ اكثرَ مِمّا هو قوةٌ تعملُ بالْعناصرِ ٱلتي من طبيعتِها انْ تحوّلَ، في العناصرِ التي من شأنِهَا أنْ تتحوّل.

وكانَ بينَ النبيّ ﷺ وبينَ أولئكَ المستهزئينَ قوةٌ أخرى، هي ٱلقدرةُ ٱلتي تعملُ بهذا النبيِّ لِلعالم كلِّه، وبهذه القدرةِ لم ينظرِ ٱلنبيُّ إلى قريشٍ وصَوْلتِهم[3] عليهِ إلّا كما ينظرُ إلى شيءٍ ٱنقضى، فكانَ ٱلوجودُ الذي يُحيطُ بهِ غيرَ موجود، وكانَتْ حقيقةُ الزمنِ الآتي تجعلُ الزمنَ الحاضرَ بلا حقيقة.

---

(١) العسف: الجور والظلم.

(٢) يعفّره التراب: يلوّثه ويغطّيه.

(٣) صولتهم: جولتهم، تغلبهم.

وإلى هذه القدرةِ توجَّهَ النبيُّ ﷺ بذلك الدعاءِ البليغ الخالد، يشكو أنَّهُ إنسانٌ فيهِ الضعفُ وقِلَّةُ الحِيلة، فينطِقُ الإنسانيُّ فيهِ بالشَّطرِ[1] الأولِ مِنَ الدعاءِ يذكرُ ٱنفرادَهُ وَآثارَ ٱنفرادِه، ويتوجَّعُ لِمَا بينَهُ وبينَ إنسانيةِ قومِه، ثم ينطقُ الروحانيُّ فيهِ بعدَ ذلك إلى آخِرِ ٱلدعاءِ متوجِّهاً إلى مصدَرِهِ ٱلإلهيِّ قائلاً اولَ ما يقول: إنْ لم يكُنْ بك عليَّ غضبٌ فلا أُبالي.

ولَعمري لو نطَقَتِ ٱلشمسُ تدعو ٱللّهَ لَمَا خرجَتْ عن هذا المعنى ولا زادتْ على قولِهِ: «أعوذُ بنورِ وجهِك»، تلتمسُ[2] من مصدرِ النورِ الأزليِّ حِياطةَ وجودِها الكامل.

* * *

ولقد هزئوا من قبلُ بِالمسيحِ (عليه السلام) فقالَ لِلساخرينَ منه: ليسَ نبيٌّ بلا كرامةٍ إلَّا في وطنِهِ وفي بيتِه. وبهذا ردَّ عليهم ردَّ مَنِ ٱنسلخَ منهم، وقال لهم قولَ مَنْ ليسَ لَهُ حكمٌ فيهم، وأخذَهم بالشريعةِ الأدبيَّةِ لا العمليَّة؛ إذْ كانَ (عليه السلام) كالحكمةِ الطائفةِ ليسَتْ لِكلِّ قلْبٍ ولا لِكلِّ عقْل، ولكنَّها لِمَنْ أُعدَّ لها؛ وشريعتُهُ أكثرُها في التعبيرِ وأقلُّها في العمل، ولم تجيءْ بالقوةِ العاملةِ فلم يكُنْ بدٌّ من أنْ تَضعَ ٱلموعِظةَ في مكانِ ٱلسيف، وأنْ تكونَ قائمةً على النهي أكثرَ مِمَّا هي قائمةٌ على الأمر، وأنْ تكونَ كشمسِ ٱلشتاءِ الجميلة: لا تَغْلِي بها ٱلأرض، وإنَّما عملُها أنْ تمهِّدَ[3] هذه الأرضَ لِفصلٍ آخر.

أمَّا نبيُّنا ﷺ فلم يُجِبِ ٱلمستهزئين، إذْ كانَتِ ٱلقوةُ ٱلكامنةُ في بلادِ ٱلعربِ كلِّها كامنةً فيه، وكانَ صدرُه ٱلعظيمُ يحملُ لِلدنيا كلمةً جديدةً لا تقبلُ ٱلدنيا أنْ تُعاملَهُ عليها إلَّا بطريقتِها ٱلحربيَّة؛ فلم يردَّ ردَّ الشاعرِ ٱلذي يُريدُ مِنَ الكلمةِ معناها البليغَ، ولكنَّهُ سكَتَ سكوتَ المشترِعِ الذي لا يُريدُ مِنَ الكلمةِ إلَّا عملَها حين يتكلَّم؛ وكانَ في سكوتِهِ كلامٌ كثيرٌ في فلسفةِ ٱلإرادة وٱلحريَّةِ وٱلتطوّر، وأنْ لا بدَّ أنْ يتحوَّلَ القومُ، وأنْ لا بدَّ أنْ يتفطَّرَ[4] هذا الشجرُ الأجْرَدُ عن وَرَقٍ جديدٍ أخضرَ ينمو بِٱلحياة.

لم يتسخَّطْ[5] ولم يقلْ شيئاً، وكانَ كالصانعِ الذي لا يردُّ على خطأ الآلةِ بسخْطٍ ولا يأس، بل بإرسالِ يدِهِ في إصلاحِها.

---

(١) الشطر: الجانب والقسم.

(٢) تلتمس: تستمدّ، تأخذ.

(٣) تمهّد: تفسح المجال وتهيئه.

(٤) يتفطّر: يتفتح ويستنبت.

(٥) يتسخط: يغضب.

قالوا: ورأى ٱبنا ربيعةَ، عُتْبةُ وشيبةُ ما لقي النبيُّ ﷺ مِنَ السفهاء، فتحركَتْ لَهُ رَحِمُهُما[1]، فدَعَوا غلاماً لهما نَصرانيًا يُقالُ له عَدَّاس، فقالا له: خذْ قِطْفاً من هذا العنبِ وضعْهُ في ذلك الطبق، ثمّ ٱذهبْ بِهِ إلى ذلك الرجلِ فقلْ لَهُ يأكلُ منه. ففعلَ عدّاسٌ ثم أقبلَ بِهِ حتى وضَعَهُ بينَ يدي رسولِ ٱللّهِ ﷺ فلمّا وضَعَ يدَه قال: «بسم ٱللّهِ» ثمّ أكل؛ فنظرَ عدّاسٌ إلى وجهِهِ ثم قال: ـ واللهِ ـ إنَّ هذا لَكلامٌ ما يقولُهُ أهلُ هذه البلدة.

فقالَ لَهُ رسولُ ٱللّهِ ﷺ ومِن أهلِ أيّ ٱلبلادِ أنت يا عدّاسُ وما دينُك؟

قال: أنا نَصرانيٌّ وأنا رجلٌ من أهلِ نينَوَى. فقالَ لَهُ رسولُ ٱللّهِ ﷺ من قريةِ الرجلِ الصالح يُونسَ بنِ متّى؟ قال: وما يُدريكَ[2] ما يونسُ بْنُ متى؟ قال ﷺ ذاكَ أخي: كان نبيًّا وأنا نبيّ.

فأكبَّ عدّاسٌ على رسولِ ٱللّهِ ﷺ يقبلُ رأسَهُ ويديهِ ورجليه.

* * *

يا عجباً لِرموزِ القدَرِ في هذه القصة!

لقدْ أسرعَ ٱلخيرُ وٱلكرامةُ وٱلإجلالُ فأقبَلتْ تعتذرُ عنِ ٱلشرِّ والسفاهةِ وٱلطيْش، وجاءتِ ٱلقُبُلاتُ بعدَ كلماتِ العداوة.

وكانَ ٱبنا ربيعةَ من ألدِّ أعداءِ الإسلام، وممَّنْ مَشَوْا إلى أبي طالبٍ عمِّ النبيِّ ﷺ من أشرافِ قريشٍ يسألونَهُ أنْ يكفَّهُ عنهم أو يُخلّيَ بينَهم وبينَه، أو يُنازِلُوهُ وإيّاهُ حتى يهلكَ أحدُ ٱلفريقين، فٱنقلبتِ ٱلغريزةُ ٱلوحشيةُ إلى معناها الإنسانيِّ الذي جاءَ بِهِ الدين، لأنَّ ٱلمستقبلَ الدينيَّ لِلفكرِ لا لِلغريزةِ.

وجاءتِ ٱلنصرانيّةُ تُعانقُ الإسلامَ وتُعزِّه، إذِ ٱلدينُ الصحيحُ مِنَ الدينِ الصحيح كالأخِ من أخيه، غيرَ أنَّ نَسَبَ الإخوةِ الدمُ ونسبَ الأديانِ العقل.

ثُمّ أتمّ ٱلقدرُ رمزَهُ في هذه القصة، بقِطْفِ العنبِ سائغاً عَذْباً مملوءاً حَلاوة؛ فباسمِ ٱللّهِ كانَ قِطْفُ ٱلعنبِ رمزاً لِهذا العنقودِ الإسلاميّ العظيمِ الذي ٱمتلأَ حبًّا كلُّ حبةٍ فيه مملكة.

---

(١) رحمهما: إحساسهما بالقرابة.

(٢) يدريك: يعلمك.

فوقَ الآدمية الإسراءُ والمعراج

من أعجبِ ما ٱتّفقَ لي أنّي فرغْتُ[1] من تسويدِ هذا ٱلمقالِ ثمّ أردْتُ نقلَه، فتعَسّرَ عليّ وصُرِفْتُ عنه بألم شديدٍ ٱعتراني[2]، ونالني منه ثَقْلةٌ في الدماغ؛ ثم كشفَهُ ٱللّهُ بعدَ يوم فراجعْتُ ٱلكتابةَ، فإذا قلمي ينبعثُ بهذه الكلمات:

كيف يَسْتَوْطِىءُ ٱلمسلمونَ ٱلعجزَ، وفي أولِ دينِهم تسخيرُ ٱلطبيعة؟

كيف يَسْتَمْهِدُونَ ٱلراحةَ[3]، وفي صَدْرِ تاريخِهم عملُ ٱلمعجزةِ الكبرى؟

كيف يَرْكَنُونَ إلى ٱلجهل، وأولُ أمرِهم آخِرُ غاياتِ ٱلعِلْم؟

كيف لا يحملونَ النورَ لِلعالَمِ ونبيُّهم هو ٱلكائنُ ٱلنورانيُّ ٱلأعظم؟

* * *

قصةُ ٱلإسراءِ وٱلمِعراجِ هيَ من خصائصِ نبيِّنا محمدٍ ﷺ هذا النجمُ الإنسانيُّ العظيم؛ وهو النورُ المتجسِّدُ لِهدايةِ العالَمِ في حَيْرةِ ظُلماتِهِ النفسيّة؛ فإنَّ سماءَ الإنسانِ تُظلِمُ وتُضيءُ من داخِلِهِ بأغراضِهِ ومعانيه. وٱللّهُ ـ تعالى ـ قد خلَقَ لِلعالَمِ الأرضيِّ شمساً واحدةً تُنيرُهُ وتُحييهِ وتتقلَّبُ عليهِ بليلِهِ ونهارِهِ، بيدَ أنّهُ تركَ لِكلِّ إنسانٍ أنْ يصنعَ لِنفسِهِ شمسَ قلبِهِ وغَمَامَها وسحائبَها وما تُسفِرُ بِهِ وما تُظلِمُ فيه. ولِهذا سُمِّيَ القرآنُ نوراً لِعملِ آدابِهِ في النفس، ووُصِفَ المؤمنونَ بأنّهم ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾، وكانَ أثرُ ٱلإيمانِ والتقوى في تعبيرِ ٱلقرآنِ الكريمِ أنْ يجعلَ ٱللّهُ لِلمؤمنينَ نوراً يمشُون بهِ.

وقد حارَ المفسِّرونَ في حكمةِ ذكرِ «الليل» في آيةِ «الإسراء» من قولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾. فإنَّ السُّرَى في لغةِ العربِ لا يكونُ إلّا ليلاً.

---

(١) فرغت: انتهيت.

(٢) اعتراني: داخلني وسيطر علي.

(٣) يستمهدون الراحة: يجعلونها مهداً لهم.

والحِكمةُ هي ٱلإشارةُ إلى أنَّ القصةَ قصةُ (النجم) الإنسانيِّ العظيم الذي تحوَّلَ من إنسانيتِهِ إلى نورِهِ السماويِّ في هذه المعجزة، ويُتَمِّمُ هذه العجيبةَ أنَّ آيات «ٱلمِعراجِ» لم تجئ إلّا في سورةِ: «والنَّجم».

وعلى تأويلِ أنَّ ذكرَ (الليلِ) إشارةٌ إلى قصةِ النجم، تكونُ الآيةُ برهانَ نفسِها، وتكونُ في نَسَقِها[1] قد جاءَتْ معجزةً مِنَ المعجزاتِ البيانيَّة؛ فإذا قيلَ إنَّ نجماً دارَ في السماءِ، أو قطَعَ ما تقطعُهُ النجومُ مِنَ المسافاتِ التي تُعجِزُ الحساب، فهل في ذلك من عجيب؟ وهلْ فيه شكٌّ أو نظرٌ أو تردُّد؟ وهل هو إلّا من بعض ما يُسَبِّحُ اللّهُ بذكرِهِ؟ وهل يكونُ إلّا آيةً ٱتصلَتْ بالآياتِ التي نَرَاها ٱتصالَ الوجودِ بعضِهِ ببعض؟

وأنا ما يكادُ ينقضي عجَبي من قولِه تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾. معَ أنَّ الألفاظَ كما ترى مكشوفةٌ واضحة، يُخيَّلُ إليك أنْ ليسَ وراءَها شيء، ووراءَها السرُّ الأكبر؛ فإنَّها بهذهِ العِبارةِ نصٌّ على إشرافِ النبيِّ ﷺ فوقَ الزمانَ والمكان يرى بغيرِ حِجابِ الحواسِّ مِمَّا مَرْجِعُهُ إلى قُدرةِ ٱللّهِ لا قدرةِ نفسِه؛ بخِلافِ ما لو كانتِ العبارةُ: «**ليرى من آياتنا**» فإن هذا يجعلُهُ لِنفسِهِ في حُدود قوتِها وحواسِّها وزمانِها ومكانِها، فيضطربُ ٱلكلام، ويتطرَّقُ إليهِ ٱلاعتراضُ ولا تكونُ ثَمَّ معجزة.

وتحويلُ فعلِ (الرؤيةِ) من صِيغةٍ إلى صِيغةٍ كما رأيتَ، هو بعينِهِ إشارةٌ إلى تحويلِ ٱلرائي من شكلٍ إلى شكلٍ كما ستعرفُه، وهذه معجزةٌ أخرى يسجدُ لها العقلُ؛ فتبارَكَ اللّهُ مُنزِلُ هذا الكلام!

وإذا كانَ ﷺ نَجماً إنسانيًّا في نوره، فلنْ يأتيَ هذا إلّا من غَلَبةِ روحانيتِهِ على مادتِه؛ وإذا غلبَتْ روحانيتُهُ كانَتْ قواهُ ٱلنفسيةُ مهيَّأةً في الدنيا لِمثلِ حالتِها في ٱلأخرى؛ فهو في هذه المعجزةِ أشبهُ بٱلهواءِ ٱلمتحرِّك. فقُلِ ٱلآن: أيُعترَضُ على الهواءِ إذا ٱرتفعَ بأنَّهُ لم يرتفعْ في طيَّارة...؟

ومن ثَمَّ كانَ ٱلإنسانُ إذا سما درجةً واحدةً في ثباتِ قواهُ ٱلروحيَّة، سما بها دَرجاتٍ فوقَ الدنيا وما فيها، وسُخِّرَتْ لَهُ ٱلمعاني التي تُسَخِّرُ غيرَهُ مِنَ ٱلناس، ونشأتْ لَهُ نواميسُ أخلاقيَّةٌ غيرُ ٱلنواميسِ التي تتسلَّطُ بها ٱلأهواء. ومتى وُجدَ الشيءُ مِنَ الأشياءِ كانَتْ طبائعُ وجودِهِ هي نواميسَه؛ فالنارُ مثلاً إذا هي تضرَّمتْ أوجدَتِ ٱلإحراق فيما

---

(١) نسقها: نمطها، نموذجها.

يحترق، فإنْ وُضعَ فيها ما لا يحترقُ أبطلَ نواميسَها وغلبَ عليها.

وكلُّ معجزةٍ تَحدُثُ فهذا هو سبيلُها في إيجادِ ٱلنواميسِ ٱلخاصةِ بِها وإبطالِ النواميسِ ٱلمألوفة، وبهذا يُقال: إنَّها خَرَقَتِ ٱلعادة. ومنَ ٱلنور نورٌ لا يَشِفُّ[1] له غيرُ ٱلهواء، ومنه أشعةُ (رونتجن) التي تشفُّ لها الجدرانُ والحُجُب؛ فهذه معجزةٌ في ذاك.

* * *

والنبيُّ لا يكونُ نبيًّا حتى يكونَ في إنسانِه إنسانٌ آخرُ بنواميسَ تجعلُهُ أقربَ إلى الملائكةِ في روحانيَّتها، وما ينزلُ إنسانُهُ الظاهرُ مِنَ ٱلإنسانِ ٱلباطنِ فيهِ إلَّا منزلةَ مَنْ يتلقَّى مِمَنْ يُعطِي؛ فذاك ٱلباطنُ هو لِلحقائقِ التي لا تحملُها الدنيا، وهذا الظاهرُ لِمَا يُمكنُ أنْ يبلغَ إليهِ ٱلكمالُ في المَثل الإنسانيِّ الأعلى، ولولا ذلك الباطنُ ما ٱستطاعَ نبيٌّ مِنَ الأنبياءِ أنْ يحمِلَ همومَ أمّةٍ كاملةٍ لا تُضْنيهِ ولا تُغيِّرُهُ ولا تُعجِزُه.

فحقيقةُ النبوَّةِ أنَّها قوةٌ مِنَ الوجودِ في إنسانٍ مختارٍ جاءَتْ تُصْلِحُ ٱلوجودَ ٱلإنسانيَّ بهِ لتُقِرَّ في هذهِ الحيوانيَّةِ المهذَّبةِ مَثَلَها الأعلى، بدلالتِها على طريقِها النفسيِّ مَعَ طريقِها الطبيعيِّ؛ فيكونُ معَ ٱلانحِطاطِ الرقيُّ، ومعَ ٱلنقصِ ٱلكمالُ، ومع حُكْمِ الغريزةِ التحكّمُ في الغريزة، ومعَ ٱلظلمةِ الماديَّةِ الإشراقُ الروحانيُّ.

وما ٱلمعجزاتُ إلَّا شأنُ تلكِ القوةِ ٱلباطنةِ لا شأنُ إنسانِها الظاهر، ومَنِ ٱلذي يُنكرُ أنَّ قُوى الوجودِ هي في نفسِها إعجازٌ لِلعقلِ البشريّ؟ وهلْ يُنكرُ اليومَ أحدٌ شأنَ هذه القوةِ في (الراديو) حينَ مَسَّتْهُ فجعلَتِ الكلمةَ التي تُرسَلُ بينَ الشرقِ والغرب، كالكلمةِ بينَ ٱثنينِ يتحدثانِ في مجلسٍ واحد؟

ونحن نرى معجزاتِ ٱلتنويمِ ٱلمغناطيسي وما يُبصرُهُ ٱلنائمُ وما يسمعُهُ، وما ينكشفُ لَهُ مِمَّا وراءَ الزمانِ والمكانِ؛ وليسَ ٱلتنويمُ شيئاً إلَّا تسليطَ الذاتِ الباطنةِ بقواها الروحيَّةِ ٱلعجيبة، على ٱلذاتِ الظاهرةِ المقيَّدةِ بحواسِّها ٱلمحدودة، فتَطْغَى عليها، فتُصْبحُ ٱلحواسُّ مطلقةً شائعةً في ٱلوجودِ بمِقدارِ ما فيها من قواهُ لا بمقدارِ ما فيها من قوة شخصِها.

وعلى نحوٍ من ذلك يتصلُ الرجلُ الروحانيُّ بذاتِهِ ٱلباطنة، فيوقعُ شخصَه الظاهرَ في ٱلاستهواء[2]، فينكشفُ لَهُ ٱلوجودُ، ويُبصرُ ما يقعُ على ٱلبعد، ويرى ما

(١) يشفّ: يرق.

(٢) الاستهواء: الاستحالة القلبية.

هو آتٍ قبلَ أنْ يأتي؛ وما ٱلكونُ في هذهِ الحالةِ إلَّا كالمعشوقِ يقولُ لِعاشقِهِ ٱلذي وقعَ في قلبِهِ ٱلحُبّ: قدْ آتيتُكَ نوراً تنظرُ بهِ جمالي.

***

وفي علماءِ عصرِنا من يفكِّرُ في ٱلصعود إلى القمر، وفيهم مَنْ يعملُ لِلمخاطبةِ معَ الأفلاك، وفيهم مَنْ تقعُ لَهُ ٱلعجائبُ في ٱستحضارِ ٱلأرواحِ وتسخيرِها؛ وكلُّ ذلك أولُ ٱلبرهانِ الكونيِّ الذي سَيُلْزِمُ العِلْمَ فيُضطرُّهُ في يومٍ ما إلى الإقرارِ بصحةِ ٱلإسراءِ وٱلمِعراج.

ونحن قبل أن نُبديَ رأينا في ٱلقصةِ نُلِمُّ بها إلمامةً موجزَةً؛ فقدِ ٱختلفَتْ فيها ٱلأحاديثُ ووقعَ فيها تخليطٌ كثير، فجاءَتْ فُنوناً وأنواعاً من طُرُقٍ شتَّى، حتى جمعَها بعضُهم في جزءَيْن، وما تحتملُ كلَّ ذلك ولا بعضَه، ولكنَّ روحَ الروايةِ في ذلك الزمنِ كانَتْ كروحِ الصّحافةِ في هذا العصر: متى فارتْ فَوْرَها ٱستحدثَتْ من كلِّ عبارةٍ عبارةً أخرى، وعلى هذه الطريقةِ تخرجُ مِنَ العبارتينِ عبارةٌ ثالثة، فيكونُ الأصلُ معنًى واحداً وإذا هو يَمُدُّ من يمينِهِ ويسارِه.

ولا يَرَونَ بذلك بأساً؛ فإنَّهم يَشُدُّون بهِ الرأيَ، ويُضاعِفُونَ منهُ ٱليقين، ويزيدون ضوءاً في نورِ ٱلمعنى، وما داموا قد أثبتوا ٱلأصلَ وٱستيقنوه، فلا حَرَجَ أنْ يؤيِّدَ ٱلقولُ بعضُه بعضاً، بٱجتهادٍ في عبارة، وٱستنباطٍ من أخرى، وزيادةٍ في الثالثةِ مِمَّا هو بسبيلٍ منها، على نحو ما نرى من فنِّ ٱلروايةِ ٱلقصصيَّة؛ إذْ تتعددُ ٱلأساليبُ وٱلعِباراتُ مختلفةً متنوِّعة، وليسَ تحتها إلَّا حقيقةٌ واحدةٌ لا تختلف. وٱلقصصُ الدينيُّ في هذه ٱللغةِ ٱلعربيةِ فنٌّ كاملٌ قائمٌ بنفسِه، لا يُبدعُ ٱلعقلُ وٱلخيالُ وٱلعاطفةُ أقوى منه ولا أعجبَ ولا أغرب.

هذا في مَتْنِ ٱلقصة، أمَّا في واقعتِها فقدِ ٱختلفوا ٱختلافاً آخر: هل كانَ الإسراءُ والمِعراجُ يقظةً أو مناماً؟ وبالروحِ وحدَها، أو بالروحِ والجسمِ معاً: وإنَّما ذكرْنا هذا الخِلافَ لأنَّهُ الدليلُ القاطعُ على أنَّ النبيَّ ﷺ لم يُخْبِرْ بشيءٍ من ذلك، فلم يعيِّنْ لهم وجهاً من هذه ٱلأوجُه. والحكمةُ في ذلك أنَّ عقولَهم لم تكنْ تحتملُ ٱلإدراكَ العِلْميَّ الذي أساسُهُ ما عُرِفَ اليومَ من أمرِ ٱلكهرباءِ وٱلأثير...

وٱلخلاصةُ التي تتأدَّى[1] مِنَ القصة: أنَّهُ ﷺ كانَ مضطَجِعاً، فأتاهُ جبريلُ،

---

(١) تتأدى: تُستنتج.

فأخرجَه مِنَ المسجد، فأركبَهُ ٱلبُراقَ، فأتى بيتَ المقدس، ثُمَّ دخلَ المسجدَ فصلّى فيه، ثم عُرِجَ بِهِ إلى السموات، فٱستفتحَها جبريلُ واحدةً واحدة، فرأى فيها من آياتِ ربِّهِ، وٱجتمعَ بالأنبياء ـ صلواتُ الله عليهم ـ، وصعَد في سماءٍ بعدَ سماءٍ إلى سِدْرةِ المنتهى، فغَشِيَها من أمرِ ٱللّهِ ما غشيَها، فرأى ﷺ مظهرَ ٱلجمالِ الأزليّ، ثم زُجَّ[1] بِهِ في ٱلنورِ فأوحَى ٱللّهُ إليهِ ما أوحى.

أمّا وَشْيُ ٱلقصةِ وطِرازُها فبابٌ عجيبٌ مِنَ الرموزِ ٱلفلسفيةِ ٱلإنسانيَّةِ التي يُرمَزُ بها إلى تجسيدِ الأعمالِ في هذه الحياة: تكونُ تَعَباً وتقعُ فائدة، أو تُلْتَمَسُ منفعةً وشهوةً وتقعُ مُضَرَّةً وحماقة، ثم تفنَى من هذه وتلك الصُّوَرُ الزمنيَّةُ التي توهَّمَها أصحابُها، وتخلُدُ ٱلصورُ ٱلأبديَّةُ التي جاءَتْ بها حقائقُها.

ومن هذه ٱلرموزِ ٱلبديعةِ قولُه: فجاءَني جبريلُ بإناءٍ من خمرٍ وإناءٍ من لبن، فأخذْتُ ٱللبن، فقالَ جبريل: أخَذْتَ ٱلفِطرة. وأنَّهُ مرَّ على قومٍ يزرعون ويحصُدونَ في كلِّ يوم، كلَّمَا حصدوا عادَ كما كان؛ فسألَ ما هذا؟ قالَ جبريلُ هؤلاءِ المجاهدونَ في سبيلِ ٱلله، تُضاعَفُ لهمُ ٱلحسنةُ سبعمائةِ ضِعْف. ثم أتى على قومٍ تُرْضَخُ[2] رؤوسُهم بِٱلصخر، كلَّما رُضِخَتْ عادَتْ كما كانَتْ ولا يُفتَّرُ عنهم من ذلك شيء؛ فقال ما هذا؟ قالَ جبريل: هؤلاءِ الذين تتثاقلُ رؤوسُهم عنِ ٱلصلاة. ثم أتى على قومٍ بينَ أيديهم لحمٌ نَضِيجٌ في قِدْر، ولحمٌ آخرُ نيءٌ في قِدْرٍ خبيث، فجعلوا يأكلونَ مِنَ ٱلنيءِ ٱلخبيثِ ويَدَعُونَ النضيج؛ فقالَ ما هؤلاء؟ قالَ جبريل: هذا الرجلُ تكونُ عندَهُ ٱلمرأةُ ٱلحلالُ ٱلطيِّبُ فيأتي ٱمرأةً خبيثة، وٱلمرأةُ تقومُ من عندِ زوجِها حلالاً طيِّباً فتأتي رجلاً خبيثاً. ثم أتى على رجلٍ قد جمعَ حزمةً عظيمةً لا يستطيعُ حملَها وهو يزيدُ عليها، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجلُ تكونُ عليهِ أماناتُ الناسِ لا يقدرُ على أدائِها وهو يُريدُ أنْ يَحمِلَ عليها. ثم رأى نساءً معلَّقاتٍ بثديهِنّ؛ فسأل، فقال جبريل: هؤلاءِ اللاتي أدخلْنَ على الرجالِ من ليسَ من أولادِهم.

* * *

ونحن على ٱلرأيِ ٱلذي عليه جمهورُ ٱلعلماء: من أنَّ الإسراءَ والمِعراجَ كانا بِٱلجسمِ وٱلروحِ معاً على التأويلِ الذي سنُبيِّنُه؛ ويُثبِتُ ذلك قولُهُ ـ تعالى ـ في

(١) زجّ به: أُدخِل.

(٢) ترضخ: تضرب وتشدخ.

سورةِ (والنَّجم): ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾. فلا يكونُ البصرُ يزيغُ[(١)] ويطغى إلّا في ٱلجسم، ولا ينتفي عنهُ ذلك إلّا وهو في ٱلجسم. ولم يتنبهْ أحدٌ مِنَ ٱلمفسرينَ إلى المعنى ٱلمعجزِ ٱلعجيبِ في قولِهِ: ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾: فذلك نصٌّ على أنَّهُ كانَ يرى بجسم قد تحوَّلَ عنِ ٱلطبيعةِ الآدميَّةِ ٱلمحدودةِ فليسَ فيهِ منها شيءٌ؛ إذْ لا يكونُ طغيانُ ٱلبصرِ إلّا من تَسلّطِ ٱلخيالِ عليهِ بأهواءِ ٱلجسم ٱلتي لا يستقيمُ بها حكمٌ على حقيقتِه، فما زاغَ ٱلبصرُ بكونِهِ مقيَّدَ ٱلحاسة، ولا طغى بكونِهِ مُطْلَقَ ٱلخيال، بلْ كانَ كما يُريهِ ٱللّهُ من آياتِه، أيْ كانَ حقيقةً كونيَّةً في غيرِ حالتِها ٱلأرضيَّةِ ٱلناقصة.

وٱلذين قالوا إنَّ ٱلإسراءَ وٱلمِعراجَ كانا رؤيا رآها النبيُّ ﷺ ٱحتجّوا لِذلك بقولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾. وقد خلطَ المفسرونَ في هذا أيضاً، وإنَّما كانَ ٱلتعبيرُ بلفظِ «الرؤيا» ـ وهي التي تكونُ مناماً ـ لنفي تأثيرِ ٱلحواسِّ على ٱلرائي، وإثباتِ أنَّ الطبيعةَ الآدميةَ بجملتِها كانَتْ فيهِ كالنائمةِ عنْ حياتِها ٱلأرضيَّةِ بحقائقِها وأخْيلتِها معاً، فليسَ نائماً كٱلنائم، ولا مستيقظاً كٱلمستيقظ.

وفي أساسِ القصةِ جبريلُ وٱلبُراق، وهما ٱلقوَّةُ ٱلملائكية وٱلقوَّةُ ٱلطبيعيَّة، أوِ ٱلروحُ ٱلملائكيُّ وٱلروحُ ٱلطبيعيُّ؛ ولم يُوصفِ ٱلبراقُ بأنَّه دابةٌ إلّا رمزاً، إذْ لا يأتي لِلعربِ أنْ يفهموا ما يُرادُ منه؛ وعندنا أنَّهُ سُمّيَ ٱلبُراقَ مِنَ ٱلبَرْق، وما ٱلبَرقُ إلّا الكهربائيَّة، وهذا هو المُرادُ منه؛ فتلك قوةٌ كهربائيةٌ متى نَبَضَتْ جمعَتْ أولَ العالمِ بآخرِه؛ وهذه هي ٱلحِكْمةُ في أنَّ آيةَ ٱلإسراءِ لم تذكُرْ أنَّهُ كان محمولاً على شيء، إذا لم يكنْ محمولاً إلّا على روحِ ٱلأثير.

وما دامَتِ ٱلقوَّةُ ٱلملائكيَّةُ والقوَّةُ الطبيعيَّةُ قد سُخِّرتا لَهُ ﷺ فلا معنى لِأنْ يكونَ ذلك لِلروح دونَ ٱلجسم، بَلِ ٱجتماعُهما معاً في ٱلقصةِ دليلٌ على أنَّ سِرَّ ٱلمعجزةِ إنَّما كانَ في تيسيرِ ملاءمةِ جسمِهِ ٱلشريفِ لِهاتينِ ٱلحالتين؛ فيتحولُ في صورةِ كونيةٍ ملائكيةٍ بينَ سرِّ الملكِ وسرِّ ٱلطبيعة، وحينئذٍ لا تجري عليهِ أحكامُ ٱلحواسِّ ولا أحكامُ ٱلمادة.

ومنَ ٱلممكنِ أنْ تتحوَّلَ ٱلأجسامُ إلى حالتِها الأثيريَّةِ[(٢)] في بعضِ ٱلأحوالِ ٱلخارِقة، وبهذا يُعلَّلُ طَيُّ الأرضِ لِبعضِ ٱلروحانيِّين، وتُعللُ خوارقُ كثيرةٌ مِمَّا

---

(١) يزيغ: يحيد ويتحوّل.

(٢) الأثيرية: الهوائية.

يَحدُثُ في ٱستحضارِ الأرواحِ لِهذا العهْد، ومِمَّا يأتيهِ فقراءُ ٱلهند، ومِمَّا كانَ يصنعُهُ «هوديني» الأمريكيّ: إذْ كانوا يغلّلونَهُ بالسلاسلِ والقيودِ ثِمَّ يرونَهُ طليقاً؛ ويحبسونَهُ في ٱلسجونِ المحصَّنةِ يقومُ عليها ٱلحراسُ وتُمسِكُهُ فيها الأبوابُ والجُدرانُ ثُمَّ يجدونَهُ في بعضِ الفنادقِ.

وليسَ لِلعقلِ أنْ يُنكِرَ شيئاً من هذه ونحوِه، فإنَّ تركيبَ ٱلطبيعةِ ردٌّ عليه، ونقضُهُ هو ردٌّ على نفسِه، وٱلمستحيلُ على ٱلأعمى هو أيسرُ ٱلممكناتِ على ٱلمبصِر.

فأنت ترى أنّ ذكرَ ٱلبُراقِ وٱلملكِ في أساسِ قصةِ ٱلإسراءِ وٱلمِعراجِ هو صلةُ ٱلقصةِ بٱلمعجزة، وهو عينُهُ صِلتُها بِٱلبرهان؛ ولو لم يكونا فيها لَمَا كانَ لها تفسير.

* * *

والقصةُ بعدَ ذلك تُثبِتُ أنَّ هذا الوجودَ يرقُّ وينكشفُ ويستضيءُ كلَّما سما الإنسانُ بروحِه، ويغلُظُ ويتكاثَفُ ويتحجَّبُ كلَّما نزلَ بها، وهي من ناحيةِ ٱلنبيِّ ﷺ قصةٌ تَصِفُهُ بمظهرِهِ ٱلكونيِّ في عظَمتِهِ الخالدةِ كما رأى ذاتَهُ الكاملةَ في ملكوتِ ٱللهِ، ومن ناحيةِ كلِّ مسلم من أتباعِهِ هيَ كالدرسِ في أنْ يكونَ لِقلبِ ٱلمؤمنِ مِعراجٌ سماويّ فوقَ هذه الدنيا، لِيشْهَدَ ببصيرتِهِ أنوارَ الحقّ، وجمالَ ٱلخير، وتجسُّدَ الأعمالِ ٱلإنسانيةِ في صورِها ٱلخالدة؛ فيكونُ بتدبُّرِهِ القصةَ كأنَّما يصعَدُ إلى ٱلسماءِ وينزل؛ فيستريحُ إلى ٱلحقائقِ ٱلأساسيَّةِ لِهذه ٱلحياة، فيدفعُ عن نفسِهِ بذلك تعقُّدَ ٱلأخيلةِ الذي هو أساسُ ٱلبلاءِ على الروح.

ومتى ٱستنارَ ٱلقلبُ كانَ حيًّا في صاحبه، وكانَ حيًّا في ٱلوجودِ كلّه. ومتى سَلِمَتِ ٱلحياةُ من تعقيدِ ٱلخيالِ ٱلفاسدِ لم يكنْ بينَ ٱلإنسانِ وبينَ اللّٰهِ إلّا حياةٌ هيَ ٱلحقُّ وٱلخير، ولم يكنْ بينَهُ وبينَ الناسِ إلّا حياةٌ هي ٱلرحمةُ والحُبّ.

الإنسانية العليا

من أوصاف ٱلنبيِّ ﷺ أنَّهُ كانَ متواصِلَ ٱلأحزانِ، دائمَ ٱلفكرة، ليسَتْ لَهُ راحةٌ، طويلَ السَّكْت، لا يتكلمُ في غيرِ حاجة، ليسَ بٱلجافِي(١) ولا المَهِين، يُعظِّمُ ٱلنعمةَ وإنْ دقَّتْ لا يذمُّ منها شيئاً، ولا تُغضبُهُ ٱلدنيا ولا ما كانَ لها، فإذا تُعُدِّيَ ٱلحقُّ لم يقمْ لِغضبِه شيءٌ حتى ينتصرَ لَه، ولا يغضبُ لِنفسِهِ ولا ينتصرُ لها؛ وكان خافِضَ الطَّرْف(٢)، نظرُهُ إلى الأرض أطولُ من نظرِهِ إلى ٱلسماء، مَنْ رآهُ بديهةً هابَه، ومَنْ خالَطَهُ مَعْرِفةً أحبَّه، لا يَحسِبُ جليسُهُ أنَّ أحداً أكرمُ عليهِ منه، ولا يَطْوي عن أحدٍ مِنَ ٱلناسِ بِشْرَهُ(٣)، قد وسِعَ ٱلناسَ بَسْطُهُ وخُلُقُه، فصارَ لهم أباً، وصاروا عندَهُ في ٱلحقِّ سواء؛ يُحسِّنُ ٱلحسَنَ ويقوّيه، ويُقبِّحُ ٱلقبيحَ ويُوهِيه(٤)، معتدلُ ٱلأمرِ غيرُ مختلِف؛ وكانَ أشدَّ ٱلناسِ حياء، لا يثبِّتُ بصَرَهُ في وجهِ أحد، لَهُ نورٌ يَعلوهُ كأنَّ ٱلشمسَ تجري في وجهِه، لا يُؤيِسُ(٥) راجيَه، ولا يُخيِّبُ عافيَه(٦)، ومَنْ سألَهُ حاجةً لم يردَّهُ إلَّا بها أو بمَيْسُورٍ مِنَ ٱلقول؛ أجودُ ٱلناسِ بالخير.

* * *

صلى ٱللَّهُ وسلَّمَ على صاحبِ هذه ٱلصفاتِ ٱلتي لا يجدُ ٱلكَمالُ ٱلإنسانيُّ مذهباً عنها ولا عن شيءٍ منها، ولا يجدُ ٱلنقصُ البشريُّ مَساغاً(٧) إليها ولا إلى شيءٍ منها؛ ففيها ٱلمعنى ٱلتامُّ لِلإنسانيَّة، كما أنَّ فيها المعنى التامَّ لِلحقّ، ومِنِ ٱجتماعِ هذينِ يكونُ فيها ٱلمعنى ٱلتامُّ لِلإيمان.

هي صفاتُ إنسانِها العظيم، وقدِ ٱجتمعَتْ لَهُ لِتأخذَ عنهُ ٱلحياةُ إنسانيتَها ٱلعالية؛ فهي بذلك من بُرهاناتِ نبوّتِهِ ورسالتِهِ.

---

(١) الجافي: القاسي الغليظ.
(٢) الطرْف بسكون الراء: النظر.
(٣) بشره: سروره وابتسامه وبسطه.
(٤) يوهيه: يضعفه.
(٥) يؤيس: يقنط ويفقد الأمل من رجائه.
(٦) العافي: المحتاج.
(٧) مساغاً: سبيلاً.

ولو جمعْتَ كلَّ أوصافِهِ ﷺ ونظمْتَها بعضَها إلى بعض، وأعتبرْتَها بأسرارِها ٱلعِلميّة ـ لَرأيْتَ منها كَوْناً معنويًّا دقيقاً قائماً بهذا الإنسانِ الأعظم، كما يقومُ هذا الكونُ الكبيرُ بسُنَنِهِ وأصولِ ٱلحِكمةِ فيه، ولأيقنْتَ أنَّ هذا النبيَّ ٱلكريمَ إنْ هو إلّا مُعْجَمٌ نفسيٌّ حيٌّ أَلَّفتْهُ ٱلحِكمةُ الإلهيةُ بعلْم من عِلْمِها، وقوةٍ من قوّتِها، لِتتخرَّجَ بهِ الأمةُ التي تُبدعُ ٱلعالَمَ إبداعاً جديداً، وتُنشِئُهُ ٱلنشأةَ ٱلمحفوظةَ لَهُ في أطوارِ كمالِه.

ولَنْ ترى في ٱلإنسانيّةِ أسمى مِنِ أجتماعِ هذه الصفاتِ بعضِها إلى بعضٍ وإنّي لأكادُ كلَّما تأملْتُها أحسبُ هذا السموَّ قضاءً وقَدراً بإنسانٍ على الإنسانيّةِ كلِّها. وهي دليلٌ على أنَّهُ ٱلإنسانُ ٱلذي خُلِقَ لِلدنيا لا لِنفسِه؛ فهو لا ينمو بما يكونُ على الناسِ مِنَ ٱلحق، ولكنْ بما يكونُ لِلناسِ عليهِ مِنَ ٱلواجبات، كأنَّما هو حقيقةٌ كونيّةٌ تعيشُ عيشَها، فما تكونُ في ٱلوجودِ إلّا لِتقرِّرَ وجودَها هي، ولا تنتهي حينَ تنتهي بذاتِها إلّا لِتبدأَ معانيَها في غيرِها، فهو ﷺ إنسانٌ غُرِسَ في التاريخِ غرْساً ليكونَ حدًّا لِزمنٍ وأوّلاً لِزمنٍ بعدَهُ، وما كانَتْ حياتُهُ تلك إلّا طريقةَ غَرْسِهِ، وهو أبداً أصبحَ في الدنيا كأنَّهُ جهةٌ مِنَ ٱلجِهاتِ لا إنسانٌ مِنَ ٱلناس، فلَنْ يتغيرَ أو يُمْحَى إلّا إذا تغيَّرَ أو مُحِيَ ٱلمشرقُ وٱلمغرب.

ونحن حينَ نقرأُ تلك ٱلصفاتِ وما فاضَتْ بِهِ كُتبُ ٱلشمائلِ من أمثالِها، لا نقرؤُها أوصافاً ولا حِلْيَة، بل نراها صفحةً إلهيّةً مصنَّفَةً أبدعَ تصنيفٍ وأدقَّه، ومِن وراءِ تأليفِها تفسيرٌ طويلٌ لا يتهدّى[1] ٱلفكرُ ٱلبشريُّ لِأحسنَ منه ولا أصحَّ ولا أكمل؛ فقدِ أجتمعَتْ تلك ٱلصفاتُ في إنسانِها أجتماعَ الأجزاءِ في ٱلمسألةِ ٱلرياضيّة: لا ينبغي أنْ تزيدَ أو تنقُص، إذْ كانَ في مجموعِها ما وُجِدَ لَهُ مجموعُها.

ويكادُ ٱلارتباطُ بينَ أجزاءِ ٱلمسألةِ يكونُ هو بعينِهِ صورةً لِلارتباطِ بينَ أجزاءِ تلكَ ٱلصفاتِ ٱلشريفة؛ فإنَّ كلَّ جزءٍ منها موضوعٌ وضْعاً لا يتمُّ الكلُّ إلّا بِهِ، حتى لا موضِعَ فيها لِقلَّةٍ أو كثرة؛ وهذا معنى قولِه ﷺ «أدَّبني ربّي فأحسنَ تأديبي»، وأنتَ إذا دقَّقتَ في هذا ٱلحديثِ أدركْتَ من مَغْنَاتِهِ أنَّ هناك طبيعةً أخلاقيّةً مفردةً[2] تَجري على قانونِها ٱلذي وضعَهُ ٱللّٰهُ لها وأحكمَها بِه.

وأعجبُ ما يُدهِشُنا من مجموعِ صِفاتِهِ ﷺ أنَّ فيها دليلاً بيِّناً على أنَّهُ مخلوقٌ خِلْقةً متميزةً بنفسِها، كخلقةِ ٱلقلْبِ ٱلإنسانيّ: نظامُهُ حياتُهُ وحياتُه نظامُه، وكأنَّما

(١) لا يتهدّى: لا يعثر.

(٢) مفردة: مميّزة.

ٱعترَتْهُ حالةٌ نفسيَّةٌ كٱلتي تعتري ٱلقلْبَ في ٱستشعارِ ٱلخطرِ فتُخرجُهُ من طبيعتِهِ إلى أقوى منها، فلا يزالُ يُمِدُّ أعضاءَ ٱلجسم بمَدَدٍ لا ينفَدُ مِنَ ٱلقوَّةِ وٱلصبر، يجعلُ ٱلحياةَ فيها على أضعافِها كأنَّها حياةٌ كانَتْ مخبوءةً وظهرَتْ بغتة؛ وفي هذه ٱلحالةِ تتَّجِهُ غرائزُ النفسِ كلُّها إلى جهةٍ واحدةٍ كأنَّها مقدَّرةٌ بميزان، مضبوطةٌ بقياس؛ فترجِعُ على تناقُضِها وٱختلافِها مُتعاوِنةً يُؤازِرُ[1] بعضُها بعضاً، وكانَ قانونُها ٱلطبيعيُّ أنْ تَتَجاذَبَ وتتساقَطَ وتُفسِّرَ الواحدةُ منها عملَ الأخرى، فيجيءُ بها الشيءُ وضدُّه معاً: كٱلصدقِ وٱلكذب، وٱلطمعِ وٱلقناعة، وٱلشهواتِ الثائرةِ وٱلخمودِ ٱلساكن، إلى آخر ما تعدُّ من هذه الغرائز؛ ولكنَّها في ٱستشعارِ ٱلخطرِ تكونُ كالأشباهِ لا كالأضداد، فيشدُّ بعضُها بعضاً، ويُتممُ ٱلنَّقِيضُ منها نقيضَه، وتجري كلُّها في قانونٍ واحد: هو الدفاعُ بأجزائِها عن مجموعِها؛ فترى ٱلنازعَ منها وإنَّهُ لَمستقرٌّ في أشدَّ مِنَ ٱلقيد، وكأنَّ فيهِ غيرَ طبيعتِه.

وهل يُنبِئُكَ مجموعُ صفاته ﷺ إلّا أنَّهُ يعيشُ معيشةَ ٱلقلْبِ إذا ٱختلفَ ما حولَهُ وفجأتْهُ بغتَاتُ[2] ٱلوجودِ فتَجَاوَزَ أنْ يكونَ منبعاً لِلحياةِ إلى أنْ يكونَ حافظاً لِلحياةِ في منبعِها؟

وتلك الحالةُ ـ كما مرَّ بك ـ تجعلُ وجودَ ٱلإنسانِ هو وجودَ إرادتِهِ وعقلِه، لا وجودَ شهواتِهِ وغرائزِه؛ وكذلك عاشَ نبيُّنا ﷺ فهو مدةَ حياتِهِ في وجودِ إرادتِهِ لا غيرِها، حتى ليسَ عليهِ سبيلٌ لِغَميزةٍ أو لائمة، كأنَّهُ خُلُقٌ تَشُدُّهُ نيَّةٌ مستيقِظةٌ قد نبَّهَها ما يُنبِّهُ النفسَ مِنَ الغَرَرِ والخطَر. ولعلَّ هذا الشعورَ في نفسِهِ ﷺ هوَ التفسيرُ لِقولِهِ: «نِيَّةُ المؤمنِ خيرٌ من عملِه». إلى أحاديثَ كثيرةٍ مِمَّا يجري في معنى هذه الكلمةِ الجامعة؛ يُريدُ بها: أنَّ نِيَّةَ ٱلمؤمنِ لا تنطوي إلَّا على ٱلخيرِ ٱلكامل، فهو ـ ما دامَتْ نِيَّتُهُ على صَلاحِها وسِرُّهُ على إخلاصِه ـ لا يَعُدُّ ٱليسيرَ مِنَ الشرِّ يسيراً، ولا يرى الكثيرَ مِنَ الخيرِ كثيراً؛ فٱلأصلُ ٱلقائمُ في تلك النيَّةِ المؤمنةِ ألّا يبدأَ الشرُّ كي لا يوجدَ، وألَّا ينتهيَ ٱلخيرُ كي لا يفْنَى؛ فالمؤمنُ من ذلك على الخيرِ وٱلكمالِ أبداً، في حينِ أنَّ عملَهُ بطبيعتِهِ ٱلإنسانيَّةِ يتناولُ ٱلخيرَ وٱلشرَّ جميعاً، ثم لا يكونُ إلَّا عملاً إنسانيًّا على نقصٍ وٱضطرابٍ وٱلتواء.

وقد لا يستطيعُ ٱلمؤمنُ أنْ يأتيَ الخيرَ في بعضِ أحوالِه، ولكنَّهُ يستطيعُ دائماً

---

(١) يؤازر: يعضّد ويقوّي. (٢) بغتات: مفاجآات.

أنْ يَنْويَهُ ويرغَبَ فيهِ ويَعْزِمَ عليه، لِيُحقِّقَ ضميرَهُ في كلِّ ما يَهُمُّ بِه؛ ويَحصِرَ أفكارَهُ في قانونِ نِيَّتِهِ ٱلمؤمنة. وهذا هوَ الأساسُ في عِلْمِ الأخلاق، لا أساسَ من دونِه.

وٱلنِّيَّةُ من بعدُ هي حارسُ ٱلعمل؛ فكلُّ إنسانٍ يستطيعُ أنْ يُذْعِنَ[1] وأنْ يأبَى، ومن ثَمَّ تكونُ هذه النيةُ ردًّا ومدافعَةً من ناحية، وٱستجابةً ومُطاوَعةً مِنَ ٱلناحيةِ ٱلأخرى؛ فهي على ٱلحقيقةِ متى صلُحَتْ كانَتِ ٱستقلالاً تامًّا لِلإرادة، وكانَتْ مع ذلك ضبطاً لِهذه الإرادةِ على حالٍ واحدةٍ هي التي ينتظمُ بها قانونُ ٱلمبدأ السامي.

ثُمَّ إنَّهُ لا ضابطَ لِصحةِ ٱلعملِ وٱستقامتِهِ إلَّا النيّةُ ٱلصحيحةُ ٱلمستقيمة؛ فٱلتزويرُ وٱلتلبيسُ كِلاهما سهلٌ ميسورٌ في ٱلأعمال، ولكنَّهما مستحيلانِ في ٱلنيَّةِ إذا خَلُصَتْ.

وهي كذلك ضابطٌ لِلفضائلِ تُوجِّهُ ٱلقلوبَ على ٱختلافِها وتَفاوُتِها ٱتجاهاً واحداً لا يختلف؛ فيكونُ طريقُ ما بينَ ٱلإنسانِ وٱلإنسان، من ناحيةِ ٱلطريقِ ما بينَ ٱلإنسانِ وبينَ ٱلله.

وأشواقُ ٱلروحِ بطبيعتِها لا تنتهي، فيُعارِضُها ٱلجسمُ بجعلِ حاجاتِهِ غيرَ منتهية؛ يُحاولُ أنْ يَطْمِسَ[2] بهذه على تلك، وأنْ يُغلِّبَ ٱلحيوانيَّة على ٱلروحانيَّة، فإذا كانَتِ ٱلنيةُ مستيقظةً كفَّتْهُ وأماتَتْ أكثرَ نزعاتِه، ووضعَتْ لِكُلِّ حاجةٍ حدًّا ونِهاية؛ وبذلك ترجعُ ٱلنيَّةُ إلى أنْ تكونَ قوّةً في ٱلنفسِ يخرجُ بها الإنسانُ عن كثيرٍ مِمّا يَحُدُّهُ من جِسمِه، لِيخرجَ بذلك عن كثيرٍ مِمَّا يحدُّهُ من معاني ٱلأرض...

وهي بعدَ هذا كلِّهِ تحملُ الإنسانَ أنْ ينظرَ إلى واجبِهِ كأنَّهُ رقيبٌ حيٌّ في قلبِه، لا يُرائيهِ ولا يُجامِلُه، ولا يُخدَعُ من تأويل، ولا يُغَرُّ بفلسفةٍ ولا تزيينٍ، ولا يُسكِتُهُ ما تُسَوِّلُ ٱلنفس[3]، ولا يزالُ دائماً يقولُ لِلإنسانِ في قلبِه: إنَّ ٱلخطأَ أكبرَ الخطأِ أنْ تنظِّمَ ٱلحياةَ من حولِك وتتركَ الفَوْضَى في قلبِك.

وجملةُ ٱلقولِ في معاني ٱلنيَّةِ أنّها قوةٌ تجعلُ باطنَ ٱلجسم مُتَساوقاً مع ظاهِرِه، فتتعاونُ ٱلغرائزُ ٱلمختلفةُ في ٱلنفسِ تعاوُناً سهْلاً طبيعيًّا مطَّرِداً، كما تتعاونُ أعضاءُ ٱلجِسمِ على ٱختلافِها في ٱطِّرادٍ وسهولةٍ وطبيعة.

* * *

---

(١) يُذعن: يخضع.

(٢) يطمس: يغطي.

(٣) تسوّل النفس: توسوس.

وكلُّ صفاتِ النبيِّ ﷺ ـ مِمَّا ذكرْناهُ وما لم نذكُرْهُ ـ متى ٱعتُبِرتْ بذلك الأصلِ ٱلذي بيَّناهُ ٱنتظَمها جميعاً، فجاءَ بعضُها تماماً على بعضٍ في نَسَقٍ رياضيٍّ عجيب، وظهَرَتْ حِكمةُ كلٍّ منها واضحةً مكشوفة، ورأيْتَها في مجموعِها تَصِفُ لك عُمراً هندسيًا دقيقاً قد بلغَ ٱلغايةَ مِنَ الكمال وٱلروعةِ وٱلدقة، لا يُعَدُّ جزءٌ منه جزءاً، بلْ كلُّهُ أجزاؤه، وأجزاؤُهُ كلُّه؛ كالوضعِ ٱلهندسيّ: إمَّا أنْ يكونَ بِكُلِّه، وإمَّا ألَّا تكونَ فيهِ ٱلهندسةُ كلُّها.

وليسَ مجموعُ تلك ٱلصفاتِ في معناهُ إلَّا صنعةَ ٱلإنسانِ صنعةً جديدةً تُخرجُه موجوداً من ذاتِ نفسِه، وتكْسِرُ ٱلقالَبَ الأرضِيَّ الذي صُبَّ فيهِ وتُفْرِغُهُ في مثلِ قالَبِ ٱلكَوْن، فإذا هو غيرُ هذا الإنسانِ الضيّقِ ٱلمنحصِر في جسمِهِ ودَواعِي جسمِهِ، فلا تُخضعُهُ ٱلمادة، ولا يُؤتى من سُوءِ نظرِهِ لِنفسِه، ولا تَغرُّهُ[1] الدنيا، ولا يُمسكُهُ ٱلزمان؛ إذْ كانَتْ هذه هي صفاتِ ٱلمستعبدِ بأهوائِهِ لا الحُرِّ فيها، وٱلخاضعِ بنفسِهِ لا المستقلِّ بها، وٱلمقبورِ في إنسانيتِهِ لا ٱلحيِّ فوقَ إنسانيتِه؛ ومثلُ هذا المستعبدِ الخاضعِ ٱلمقبورِ لا وجودَ لَهُ إلَّا في حُكْم حواسِّه، فعملُهُ ما يعيشُ بهِ لا ما يعيشُ من أجلِه؛ ويتَّصلُ بكلِّ شيءٍ ٱتِّصالاً مبتوراً[2] ينتهي في هوًى من أهواء ٱلحيوانِ ٱلذي فيه.

ومنَ ٱلمقابلةِ ٱلعجيبةِ أنْ يكونَ في ٱلإنسانِ ٱلاجتماعيِّ حيوانٌ، تُقابلُهُ ٱلحِكمةُ في ٱلحيوانِ ٱلأليفِ بإنسان، وحُكمُها واحدٌ ومنطقُهما لا يختلف. فلو أنَّكَ سألْتَ حيوانَ ٱلأعصابِ عن صاحبِهِ الإنسانِ لَقالَ لك: هو غلَّتي ومَزْرعتي. ولو سألْتَ كلباً عن حُبِّهِ صاحبَهُ ومبلغِ هذا الحُبِّ في نفسِهِ لَمَا زادَ في جوابِهِ على أنه يُحبُّهُ حُبَّ ٱللقمةِ والعظْمة..

ومتى كانَ ٱلإنسانُ في حكم حواسِّهِ لم تَعُدِ الأشياءُ عندَهُ كما هي في نفسِها بمعانيها الطبيعيةِ ٱلمحدودة، وٱنقلَبَتْ كما هي في وهْمِهِ بمعانٍ متفاوتةٍ مضطربة، فلا يشعرُ المرءُ بِٱئتلافِ الوجودِ وتعاونِه، ولكنْ بِٱختلافِهِ وتناقُضِه، فمِنْ ثَمَّ لا تكونُ أسبابُ ٱللذةِ إلَّا من أسبابِ ٱلألم، ويدخلُ في كلِّ حُبٍّ بغضٌ، وفي كلِّ رغبةٍ طمعٌ، وفي كلِّ خيرٍ شرٌّ، وفي كلِّ صريحٍ خَبيءٌ، وهلمَّ جرًّا؛ إذْ لا بدَّ من هذا كلِّه متى غَلَبَ ٱلفاني على ٱلباقي، ولا بدَّ من كلِّ هذا في تمثيلِ روايةِ ٱلحواسِّ ٱلخادعةِ

---

(١) تغرّه: تخدعه.

(٢) مبتوراً: مقطوعاً.

التي أساسُها ٱلتغيّرُ وٱلتقلّب، حتى لَكَأنَّ ٱلنفسَ إنَّما تعيشُ بها في ظاهرِ مِنَ ٱلحياةِ لا في ٱلحياةِ نفسِها.

وهذا الخِداعُ جاعِلٌ كلَّ شَيءٍ من أشياءِ النفسِ لا يبدأُ إلَّا لِينتهيَ، ثُمَّ لا ينتهي إلَّا لِيبدأ؛ فما تزالُ هذه النفسُ طامعةً فيما لا تنالُه، ولا يزالُ من ذلك مصدرٌ لآلامِها ٱلحِسيَّة؛ ثم إذا هي نالَتْ مَنالَتَها سَئِمَتْ، فلا يزالُ من ذلك مصدرٌ آخرُ لآلامِها ٱلمعنويَّة. ولن يجيءَ ٱلصحيحُ من غيرِ ٱلصحيح؛ فالكونُ كلُّهُ ليسَ إلَّا كَذِباً في النفسِ ٱلكاذبةِ بحواسِّها.

ولذا كانَ أخصُّ أوصافِهِ ﷺ راجعاً إلى خروجِهِ من سلطانِ نفسِه، فلا يغضبُ لَها، ولا يُطْلِقُها مِنَ الدنيا فيما تذمُّهُ أو تمدحُهُ، ولا يُحبُّ فيها، ولا يُبغِضُ من أجلِها، ولا يُهاوِنُها، ولا يَستلينُ لها في مأكلٍ ولا ملبس، ولا يأخذُها إلَّا من ناحيةِ ٱلإيمانِ بٱللَّهِ وٱلإيمانِ بالإنسانيَّة؛ فأفراحُها أحزانُها، وآمالُها أشواقُها، وأملاكُها أعمالُها، وحِسابُها في طبيعتِها، وحوادثُها مِنَ ٱلعقلِ لا مِنَ ٱلحواسّ، وعظَمتُها إثباتُ ذاتِها في غيرِها، لا إثباتُ غيرِها في ذاتِها؛ وغايتُها في ٱلباقي لا ٱلزائل، وفي ٱلخالدِ لا ٱلفاني، وما دامَ ٱلحاضرُ متحرِّكاً فهو طارِئٌ عابرٌ أوْشَكُ أمورِ الدنيا زوالاً، وٱلعملُ لَهُ على مقدارِهِ في قِلَّةِ لُبْثِهِ[1] وهَوانِ أمرِه، وٱلاهتمامُ أبداً بِمَا وراءَهُ لا بِه.

فأولُ ٱلنفسِ ٱلنيَّةُ العاملةُ لِآخرتِها، وآخرُ النفسِ ما تؤدّي إليهِ أعمالُ هذه النِّيَّة؛ فليسَ في إنسانِ الدنيا إلا إنسانُ ٱلعالمِ ٱلآخر؛ وبهذا يُقدَّرُ صمتُهُ وكلامُه، وحركتُهُ وسكونُه، وما يأتي وما يَدَع، وما يُحبُّ وما يكرَه، إذْ كلُّ شيءٍ منه على ذلك ٱلاعتبارِ إنَّما هو صورةُ ٱلحقيقةِ العاملةِ فيه.

وجماعُ الأمرِ[2] ألَّا يكونَ مستقبلُ ٱلإنسانِ علامةَ ٱستهزاءٍ بجانبِ ماضيه، ولا علامةَ ٱستفهام، ولا علامةَ إنكار.

* * *

وتدلُّ صفاتُ النبيِّ ﷺ بٱجتماعِها وتَساوُقِها[3] على حقيقةٍ عظمى لم يتنبهْ إليها أحد؛ وهي أنَّ جميعَ خصائصِهِ ٱلنفسيَّة مُرْهَفَةٌ[4] متيقِّظة، وهذا ممَّا يَنْدُرُ

(١) لُبثه: مكثه، بقائه.

(٢) جماع الأمر: الخلاصة.

(٣) تساوقها: تجانسها.

(٤) مرهقة: متعبة.

وقوعُهُ وإمكانُه؛ فإنَّ الرجلَ منَ الناسِ ليَكونُ حيًا بِالحياة، ولكنَّ جوانبَ كثيرةً من نفسِهِ قد طاحَ بها ٱلموت، أو هي مريضةٌ وذلك أولُ ٱلموت؛ أو غافلةٌ وذلك شِبْهُ ٱلموت؛ أمَّا الحيُّ ٱلعظيمُ فهو الذي يحيا بأكثرِ خصائصِ نفسِه، وأمَّا ٱلحيُّ ٱلأعظمُ فهوَ ٱلذي يحيا بجميعِ خصائصِها، تملؤُهُ ٱلحياةُ فيملأُ ٱلحياة، ويتمدّدُ السرُّ فيهِ ليُريَهُ حقائقَ ٱلأشياءِ ويَهْدِيَهُ ويدلَّه، فيكونُ بنفسِهِ رؤيةً لِلناسِ وهِدايةً ودلالة؛ ومثلُ هذا يعظُمُ ثُمَّ يعظمُ حتى لَيُرَى ٱلفرقُ بينَهُ وبينَ غيرِهِ كٱلفرقِ بينَ نورٍ لَبِسَ ٱللحمَ وٱلدم، وبينَ تُرابٍ لَبِسَ ٱلدمَ وٱللحم.

وذلك لا يَكادُ يتَّفقُ إلَّا في مراتبَ أعلاها ٱلامتيازُ في ٱلنبوَّة، ثُمَّ تدنو إلى النبوَّة؛ ثُمَّ تنزِلُ إلى ٱلامتيازِ في ٱلحِكْمة؛ ثم تهبطُ إلى عبقريةِ ٱلشعر. فأكبرُ ٱلشعراءِ قاطبةً كالنبيِّ في معناه إلَّا أنَّهُ نبيٌّ صغير، وإلَّا أنَّهُ في حُدودِ قلبِه.

وهذه ٱلقوى ٱلثلاثُ هي ٱلتي أبدعَتْها ٱلحِكمةُ ٱلإلهيةُ لِتحويلِ ٱلحياةِ وٱلسموِّ بها؛ فٱلشاعرُ يستوحي ٱلجمالَ إذا تألَّهَ ٱلجمالُ في قلبِهِ، وٱلحكيمُ يستوحي الحقيقة إذا تألَّهَتْ في نفسِه، والنَّبيُّ يستوحي ٱلألوهيَّة نفسَها.

«كان ﷺ متواصلَ ٱلأحزان» ولكنَّها أحزانُ ٱلنبوَّةِ تكسو ٱلحياةَ فرحَ ٱلنفسِ ٱلكبيرة؛ وهو فرحٌ كلُّهُ حزنٌ وتأمُّل، وفكرةٌ وخشوع، وطهْرٌ وفضيلة؛ وما فَرَحُ أعظمِ الشعراءِ بِطَربِ ٱلوجودِ وجمالِ الموجوداتِ إلَّا شيءٌ قليلٌ من حزنِ النَّبيّ.

«وكان دائمَ ٱلفكرةِ ليسَتْ لَهُ راحة» إذْ هو مكلَّفٌ أنْ يصنعَ ٱلإنسانَ ٱلجديدَ ويُنقِّحَ[1] ٱلآدميَّةَ فيه. وفكرةُ النبيِّ هي معيشتُهُ بنفسِهِ مَعَ ٱلحقائِقِ ٱلعليا، إذ لا يرى أكثرَها تعيشُ في ٱلناس، وهي ٱلفرديةُ وٱستقلالُها وسموُّها؛ لأنَّها إطاقةُ النفسِ ٱلكبيرةِ لِوحدتِها، بخِلافِ الأنفسِ الضعيفةِ التي لا تُطيقُها، فدأبُها أبداً أنْ تبحَثَ عمّا تَسْتعبِدُ لَه، أو تنسَى ذاتَها فيه، أو تستريحُ إليهِ من ذاتِها. ومتى كانَتِ ٱلنفسُ فارغةً كانَ تفكيرُها مضاعفةً لِفراغِها، فهي تفرُّ منهُ إلى ما يُلهيها عنه؛ ولكنَّ ٱلعظيمَ يعيشُ في ٱمتلاءِ نفسِه؛ وعالَمُهُ ٱلداخليُّ تُسمِّيهِ ٱللغةُ أحياناً: الفكرة؛ وتُسميهِ أحياناً: الصمت.

«وكانَ ﷺ طويلَ السَّكْتِ لا يتكلَّمُ في غيرِ حاجة»، ومنَ ٱلصمتِ أنواع:

---

(١) ينقح: يميّز بين الجيّد والرديء.

فنَوعٌ يكونُ طريقةً من طرقِ ٱلفهْم بينَ ٱلمرءِ وبينَ أسرارِ ما يُحيطُ به؛ ونوعٌ يغشى ٱلإنسانَ العظيمَ لِيكونَ علامةً على رهبةِ ٱلسرِّ ٱلذي في نفسِهِ ٱلعظيمة؛ ونوعٌ ثالثٌ يكونُ في صاحبِهِ طريقةً من طُرُقِ ٱلحُكْمِ على صَمْتِ ٱلناسِ وكلامِهِم؛ ونوعٌ رابعٌ هو كالفصل بينَ أعمالِ الجسدِ وبينَ ٱلروحِ في ساعةِ أعمالِها؛ ونوعٌ خامسٌ يكونُ صمتاً على دوِيٍّ تحتهُ يُشبِهُ نوماً ساكناً على أحلامٍ جميلةٍ تتحرك.

* * *

على هذا ٱلنَمَط يجب أنْ تُفسَّرَ كلُّ أوصافِهِ ﷺ؛ فهي بمجموعِها طابَعٌ إلهيٌّ على حياتِهِ الشريفة، يُثبتُ لِلدنيا بكلِّ برهاناتِ ٱلعِلْمِ وٱلفلسفةِ أنَّهُ ٱلإنسانُ ٱلأفضل، وأنَّهُ ٱلأقدر، وأنَّهُ ٱلأقوى.

سُمُوُّ الفقرِ
في المصلحِ الاجتماعيِّ الأعظم

١

كانَ ٱلنبيُّ ﷺ على ما يصفُ ٱلتاريخُ مِنَ ٱلفقرِ وٱلقِلَّة، ولكنَّهُ كانَ بطبيعتِهِ فوقَ ٱلاستغناء، فهو فقيرٌ لا يجوزُ أنْ يُوصَفَ بالفقر، ولا تنالُهُ ٱلمعاني ٱلنفسيَّةُ التي تعلو بعَرَضٍ مِنَ ٱلدنيا وتنزلُ بعَرَض، فما كانَتْ بِهِ خَلَّةٌ تُحْدِثُ هَدْماً في ٱلحياةِ فيُرَمِّمُها ٱلمال(١)، ولا كانَ يتحرَّكُ في سَعْيٍ يُنْفِقُ فيهِ من نفسِهِ ٱلكبيرةِ لِيجمعَ مِنَ الدنيا، ولا كانَ يتقلَّبُ بينَ ٱلبعيدِ وٱلقريبِ من طمَعٍ أدركَ أو طمعٍ أخفق، ولا نظرَ لنفسِه في ٱلحِسْبَةِ وٱلتدبيرِ ليتدبَّرَ معيشتَهُ فيَحْتلبَها(٢) ذهباً أو فِضةً، ولا ٱستقرَّ في قلبِهِ ٱلعظيم ما يجعلُ لِلدينارِ معنى ٱلدينار ولا لِلدِّرهم معنى ٱلدرهم؛ فإنَّ ٱلمعنى ٱلحيَّ لِهذا المالِ هو إظهارُ ٱلنفسِ رابيةً متجسِّمةً في صورةٍ تكْبَرُ في قدرٍ مِنَ ٱلسَّعَةِ والغِنى؛ وٱلمعنى ٱلحيُّ لِلفقرِ مِنَ ٱلمالِ هو إبرازُ ٱلنفسِ ضئيلةً منْزَويةً في صورةٍ تصغُرُ على قدرٍ مِنَ ٱلضِّيقِ وٱلعُسْرَة.

إنَّ فقرَهُ ﷺ كانَ من أنَّهُ يتَّسعُ في ٱلكونِ لا في ٱلمال، فهو فقرٌ يُعَدُّ من معجزاتِهِ ٱلكبرى ٱلتي لم يتنبَّهْ إليها أحدٌ إلى الآن، وهو خاصٌّ بِهِ ومن أينَ تدبَّرْتَهُ رأيتَهُ في حقيقتِهِ معجزةً تواضَعَتْ وغيَّرَتْ ٱسمَها؛ معجزةً فيها ٱلحقائقُ ٱلنفسيَّةُ وٱلاجتماعيةُ ٱلكبرى، وقد سبقَتْ زمنَها بأربعةَ عشرَ قرناً، وهي ٱليومَ تُثبتُ بالبرهانِ معنى قولِهِ ﷺ في صفةِ نفسِه: «إنَّما أنا رَحْمَةٌ مُهْدَاة».

نحن في عصرٍ تَكادُ ٱلفضيلةُ ٱلإنسانيَّةُ فيهِ تَلْحَقُ بٱلألفاظِ ٱلتاريخيةِ ٱلتي تدلُّ على ما كانَ قديماً... بل عادَتْ كلمةً من كلماتِ ٱلشعرِ تُرادُ لِتحريكِ ٱلنَّسيمِ

---

(١) يرمّمها المال: يصلحها. (٢) يحتلبها: يستخرج منها.

ٱللّغويّ ٱلراكدِ في ٱلخيال، كما تقول: ٱلسحابُ ٱلأزرق، وٱلفجرُ ٱلأبيض، وٱلشفَقُ ٱلأحمر، وٱلتَّطاريفُ[1] ٱلوردية على ذَيْلِ ٱلشمس. وأصبحَ ٱلناسُ ينظرُ أكثرُهم إلى أكثرِهِم بأعينٍ فيها معنًى وحشيٌّ لو لَمسَ لَضَرَبَ أو طَعَنَ أو ذَبَح.

وعَمِلَتِ ٱلمدنيّةُ أعمالَها فلمْ تزدْ على أنْ أخرجَتِ ٱلشكلَ ٱلشعريَّ لإنسانِها الفَنِّيِّ مُتَهافِتاً[2] تَرَفاً، ونِعْمةً، وٱفتتاناً بينَ ذلك من أيسرِ ٱلحلالِ إلى الفظيعِ المُتَفَاحِشِ في ٱلإباحة؛ فكأنّما وضَعتِ ٱلمدنيةُ عقلاً في وحش، فجاءَ وقد زاغتْ[3] فيهِ ٱلطبيعةُ من ناحيتينِ؛ ثم قابلتْهُ بالشكلِ الوحشيِّ لإنسانِها الفقيرِ، فكأنّما نَزَعَتْ عقلاً من إنسان، فجاءَ وقد ضَلَّتْ فيهِ ٱلطبيعةُ من ناحيتين؛ وكانَ معَ ٱلأولِ سَرَفُ ٱلهوى بالطبيعة، وكانَ معَ ٱلثاني بالطبيعةِ سَرَفُ ٱلحماقة.

وقد أصبحَ من تهكُّمِ ٱلحياةِ بأهلِها أنْ يكونَ ٱلفقيرُ فقيراً وهو يعلمُ أنَّ صِناعتَهُ في ٱلمدنيّةِ عَمَلُ ٱلغنِيّ لِلأغنياء... وأنْ يكونَ الغنيُّ غنيّاً وهو يعلمُ أنَّ عملَهُ في ٱلمدنيةِ هو صنعةُ ٱلفقرِ لِضميره!

وخرجَتْ من هذا وذاك مسائلُ جديدةٌ في فلسفةِ ٱلمُعَايَشَةِ ٱلإنسانيَّةِ ٱلتي يسمونَها «الاجتماع»؛ إلى أسئلةٍ كثيرةٍ لوذهبْنا نعدُّها ونصِفُها لَطَالَ بِنا ٱلقول، وكلّها عاملةٌ على نزعِ ٱلشعورِ ٱلعقليِّ مِنَ ٱلحياةِ لِتظهرَ أسخفَ مِمّا هي، وأقبحَ مِمَنْ كانت؛ حتى أصبحَتِ ٱلشمسُ تَطْلُعُ تمحو ليلاً عنِ ٱلمادةِ وتُلقِي ليلاً على النفس، في حينِ أنَّ ٱلدينَ وٱلإنسانيةَ لا يعملانِ غيرَ بثّ هذا ٱلنورِ ٱلعقليِّ في الأشياءِ وٱلمعاني لِتظهرَ ٱلحياةُ مضيئةً ملْتَمِعةً، فتُصبحُ أوضحَ مِمّا هي في نفسِهَا، وأجملَ مِمّا هي في الطبيعة.

في مثلِ هذه ٱلنزعَاتِ ٱلمتقاتِلَةِ ٱلتي صَعِدَتْ بٱلفلسفةِ ونزلَت، وجعلَتْ مِنَ ٱلعِلْمِ في صدرِ ٱلإنسانيَّةِ ملْءَ سماءٍ مِنَ ٱلغُيوم بِسوادِها ورعْدِها وصواعِقِها، وتركَتِ ٱلعالَمَ يضجُّ ضجيجَهُ ٱلمزعجَ في قلْبِ كلِّ حيٍّ حتى لَتُذَاعُ ٱلهمومُ إلى قلوبِ الناس إذاعةَ ٱلأصواتِ إلى أسماعِهِم في «الراديو»... في مثلِ هذا البلاءِ ٱلماحقِ تتلفَّتُ ٱلإنسانيَّةُ إلى التاريخ تسألُهُ درساً منَ ٱلكمالِ ٱلإنسانيِّ ٱلقديم تَطِبُّ منه لهذه ٱلحماقاتِ ٱلجديدة، ولَو علمَتْ لَعَلِمَتْ أنَّ درسَ هذا العصرِ في عِلاجِ مشاكلِهِ

---

(١) التطاريف: الإشعاعات.

(٢) متهافتاً: متسارعاً متهالكاً.

(٣) زاغت: مالت انحرفت.

الإنسانيَّةِ هو «محمد» ﷺ، الذي لن يبلغَ أحدٌ في وصفِهِ ٱلاجتماعيِّ ما بلغَ هو في قولِه: «إنّما أنا رحمةٌ مُهْدَاة».

❊ ❊ ❊

هذا ٱلمُصْلِحُ ٱلاجتماعيُّ ٱلأعظمُ يُلقِي فقرُهُ ٱلْيومَ درساً على ٱلدنيا ٱلعلميَّةِ ٱلفلسفيَّة، لا من كتابٍ ولا فكر، ولكنْ بأخلاقِهِ وعملِهِ وسيرتهِ؛ إذْ ليسَ ٱلمصلح منْ فكَّرَ وكتب، ووعَظَ وخطب، ولكنَّهُ ٱلحيُّ ٱلْعظيمُ ٱلذي تلتمسُهُ ٱلفكرةُ ٱلْعظيمةُ لِتحيا فيهِ، وتجعلَ لَهُ عُمراً ذِهْنيًا مُصرَّفاً على حكمِها، فيكونُ تاريخُهُ ووصفُهُ هو وصفَ هذه الفكرةِ وتاريخَها.

وما كانَ محمدٌ ﷺ إلّا عمراً ذهنيًا مَحْضاً، تمرُّ فيهِ ٱلمعاني ٱلإلهيةُ لِتظهرَ لِلناسِ إلهيَّةً مفسَّرة. وكلُّ حياتِهِ ﷺ دروسٌ مفنَّنَةٌ مختلفةُ ٱلمعاني، ولكنَّها في جملتِها تُخاطبُ ٱلإنسانَ على ٱلدَّهرِ بهذِهِ ٱلجملة: أيُّها الحيُّ، إذا كانتِ ٱلحياةُ هنا فلا تكُنْ أنت هناك: أي إذا كانَتِ ٱلحياةُ في الحقيقةِ فلا تكُنْ أنت في ٱلكَذبِ، وإذا كانَتِ ٱلحياةُ في الرجولةِ البصيرةِ فلا تكُنْ في ٱلطفولةِ النَّزِقة[1]، فإنَّ الرجلَ يَعرِفُ ويُدْرِك، فهو بذلك وراءَ ٱلحقيقيّ؛ ولكنَّ ٱلطفلَ يجهلُ ولا يعرفُ ٱلدنيا إلّا بعينيه، فهو وراءَ ٱلوهم، ومن ثَمَّ طيشُهُ ونَزَقُهُ، وإيثارُهُ كلَّ عاجلٍ وإنْ قَلّ، وعملُهُ أنْ تكونَ حياتُهُ ٱلنفسيَّةُ ٱلضئيلةُ في مثلِ توثُّبِ أعضاءِ جسمِه، حتى كأنَّه أبداً يلعبُ بظاهرِهِ وباطنِهِ معاً. . .

أيُّها الحيّ، إذا كانَتِ ٱلحياةُ هنا فلا تكُنْ أنت هناك: أي ٱلحياةُ في ذاتِك الداخليَّةِ وقانونِ كمالِها، فإذا ٱستطعْتَ أنْ تُخْرِجَ لِلأرضِ معنًى سماويًا من ذاتِك فهذا هوَ ٱلجديدُ دائماً في ٱلإنسانية، وأنت بذلك عائشٌ في القريبِ ٱلقريبِ مِنَ الروح، وأنت بهِ شيءٌ إلهي؛ وإذا لم تستطعْ وعشْتَ في دَمِك وأعصابِكَ فهذا هو ٱلقديمُ دائماً في ٱلحيوانيَّة، وأنت بذلك عائشٌ في ٱلبعيدِ ٱلبعيدِ مِنَ النفس، وأنت به شيءٌ أرضيٌّ كالحجَرِ وٱلتراب.

هنا: أي في ٱلإرادةِ ٱلتي فيك وحدَك. ولا هناك: أي في ٱلخيالِ ٱلذي هو في كلِّ شيء. وهنا، في أخلاقِك وفضائِلك ٱلتي لا تَدفعُك إلى طريقٍ من طُرُقِ ٱلحياةِ إلَّا إذا كانَ هو بعينِه طريقاً من طُرُقِ ٱلهِدايةِ وٱلحِكْمة؛ وليسَ هناك، في أموالِكَ ومَعَايِشِك

---

(١) النزقة: الطائشة المنحرفة.

ٱلتي تجعلُكَ كاللصِّ مندفِعاً إلى كلِّ طريقٍ متى كانَ هو بعينِهِ طريقاً إلى نَهْبَةٍ أو سرقة. هنا، في الروح، إذْ تشعرُ ٱلروحُ أنَّها موجودةٌ، ثم تعملُ لِتُثْبِتَ أنَّها شاعرةٌ بوجودِها، ماضيةٌ إلى مصيرِها، منتهيةٌ بجسدِها إلى الموتِ الإنسانيِّ على سُنَّةِ النفسِ الخالدةِ؛ وليسَ هناك في ٱلحِسّ، إذْ يتعلقُ ٱلحسُّ بما يتقلَّبُ على الجسم، فهو مهتاجٌ لِشعورِهِ بوَشْكِ فنائِهِ فلا يُحْدِثُ إلّا الألَمَ إنْ نالَ أو لم ينلْ، وهو منتهٍ بجسمِهِ إلى ٱلموتِ ٱلحيوانيِّ بينَ آكلٍ ومأكولٍ على سُنَّةِ الطبيعةِ الفانية.

أيُها ٱلحيُّ، إذا كانَتِ ٱلحياةُ هنا فلا تكُنْ أنت هناك.

* * *

إنَّ ٱلحكيمَ ٱلذي ينظرُ إلى ما وراء ٱلأشياءِ فيتعرَّفُ أسرارَها، لا تكونُ لَهُ حياةُ ٱلذي يتعلّقُ بظاهرِها ولا أخلاقُهُ ولا نظرتُه؛ هذا ٱلأخيرُ هو في نفسِهِ شيءٌ مِنَ ٱلأشياءِ له مظهرُ ٱلمادةِ وخِداعُها عنِ ٱلحقيقة؛ وذلك الأولُ هو نفسُهُ سرٌّ مِنَ ٱلأسرارِ له رَوْعَةُ السرِّ وكشفُهُ عنِ ٱلحقيقة. ولِهذا كانَ في حياةِ ٱلأنبياءِ وٱلحكماءِ ما لا يُطيقُهُ ٱلناسُ ولا يَضْبِطونَهُ إذا تكلَّفوه، بلْ يَنْخَرِقُ عليهم فيكونُ منهُ ٱلعجزُ والغَلَط، ويحدثُ منَ ٱلغلطِ الزَّلَل.

ونظرةُ نبيِّنا ﷺ إلى هذا الوجودِ نظرةٌ شاملةٌ مدركةٌ لِحقيقةِ ٱللانهاية، فيرى بِدايةَ كلِّ شيءٍ ماديٍّ هي نِهايَتَهُ في ٱلتوِّ وٱللحظة، فلا وجودَ لَهُ إلا عارِضاً مارًّا، فهو في ٱعتبارِهِ موجودٌ غيرُ موجود، مبتدىءٌ مُنْتَهٍ معاً؛ وبذلك تَبطُلُ عندَهُ ٱلأشياءُ ٱلماديةُ وتأثيرُها، فلا تتصلُ بنفسِهِ ٱلعاليةِ إلّا من أضعفِ جِهاتِها، ويجدُ لها الناسُ في حياتِهِمُ ٱلشجرةَ والفرْعَ وٱلثمرة، وما لَها عندَهُ هو جِذْرٌ ولا فرع؛ وبهذا لم يَفْتِنْهُ شيءٌ ولم يتعلقْ بِهِ شيء.

وكانَتِ ٱلدنيا تطولُ ٱلناسَ وتتقاصرُ عنه، وكانَتْ منقطعةَ النَّماءِ وهو ذاهبٌ في نموِّهِ ٱلروحيِّ، وكأنَّما هو صورةٌ أخرى من آدمَ (عليه السلام)؛ فكلاهما لَمَسَ بنفسِهِ ٱلحياةَ جديدةً خاليةً مِمَّا جمعَ فيها الزمنُ وأهلُهُ من طمعٍ وشَرَه، وجاءَ آدمُ لِيُعطِيَ ٱلأرضَ ناسَها من صُلْبِه، وجاءَ محمدٌ لِيُعطِيَ ٱلناسَ قوانينَهُم من فضائِله؛ فآدمُ بشخصِهِ هو دنيا بُعِثَتْ لِتتسع، ومحمدٌ بشخصِهِ هو دنيا بُعثتْ لِتنتظم.

وماذا يُفهَمُ مِنَ ٱلفلسفةِ ٱلأخلاقيَّةِ ٱلنبويّةِ ٱلعظيمة؟ يُفهمُ منها أنَّ ٱلشهواتِ خُلِقَتْ مع ٱلإنسانِ تتحكمُ فيه، لِينقلبَ بها إنساناً يتحكَّمُ فيها؛ وأنَّ الإنسانَ

ٱلصحيحَ ٱلذي لم تُزَوِّرْهُ ٱلدنيا يجبُ أنْ يكونَ ذا روح يمتدُّ فيَفيضُ عن غاياتِ جسمِهِ إلى ما هو أعلى فأعلى حتى يُصبحَ في حكمِ ٱلنورِ وٱنطلاقِهِ وحريتِه، ولا ينكمشُ فيحصرُهُ جسمُهُ في غاياتِهِ وضروراتِهِ فيرتدُّ إلى ما هو أسفلَ أسفلَ حتى يعودَ في حكمِ ٱلترابِ وأسرِهِ وعبوديتِه. فالفقرُ وما إليه، والزهدُ وما هو بسبيلٍ منه، وٱلانصرافُ عَنِ ٱلشهواتِ وٱلرذائل ـ كلُّ ذلك إنْ هو إلَّا تَراجُعُ ٱلنفسِ ٱلعاليةِ إلى ذاتِها النورانيةِ حالاً بعدَ حال، وشيئاً بعدَ شيء، لِتُضيءَ على ٱلمادةِ فتكشفَ حقائقَها الصريحةَ فلا تُباليها ولا تُقيمُ لها وزناً. فبينما الناسُ يَروْنَ ٱلأموالَ وٱلشهواتِ مادةَ حياةٍ وعملٍ وشعور، تراها هي مادةَ بحْثٍ ومعرفةٍ وٱعتبارٍ ليسَ غير؛ وبهذا تكونُ النفسُ ٱلعظيمةُ في الدنيا كأستاذِ ٱلمعمل: تدخلُ المادةُ إلى معملِهِ وهي مادةٌ وفكرة، وتخرجُ منه وهي حقيقةٌ ومعرفة، وعلى أيّ أحوالِها فهي إنَّما تُحَسُّ في ذلك ٱلمعملِ بأصابعَ علميَّةٍ دقيقةٍ ليسَ فيها ٱلجمعُ ولا ٱلحِرْص، ولكنْ فيها ٱلذهنُ وٱلفكر؛ وليسَ لها طبيعةُ ٱلرغبةِ وٱلغفلة، ولكنْ طبيعةُ ٱلانتباهِ وٱلتحَرُّز، وليسَتْ في أسْرِ ٱلمادة، ولكنَّ ٱلمادةَ في أسرِها ما شاءَت.

ولا يسمَّى فقرُهُ ﷺ زُهداً كما يظنُّ الضعفاءُ مِمَنْ يتعلَّقونَ على ظاهرِ التاريخِ ولا يُحققونَ أصولَهُ ٱلنفسيَّة؛ وأكثرُهم يقرأُ ٱلتاريخَ ٱلنبويَّ بأرواحٍ مظلمةٍ تُريهم ما ترى العينُ إذا ما ٱختلطَ الظلامُ ولَبِسَ ٱلأشياءَ فتراءَتْ مُجْمَلَةً لا تفْصيلَ لها، مُفْرَغةً لا تَبْيِينَ فيها؛ وما بها من ذلك شيءٌ، غيرَ أنَّها تتراءى في بقيةٍ مِنَ ٱلبصرِ لا تَغْمرُها.

وهلِ ٱلزهدُ إلَّا أنْ تطردَ ٱلجسمَ عنكَ وهو معَك، وتنصرِفَ عنهُ وهو بكَ متعلق؟ فتلك سُخْريةٌ ومُثْلَة، وفي رأيي تشويهٌ لِلجسمِ بروحِه، وقد تنعكسُ فتكونُ من تشويهِ ٱلروحِ بجسمِها؛ فليسَ يعلمُ إلَّا اللَّهُ وحدَه: أذاك تفسيرٌ لإِنسانيةِ ٱلزاهدِ بٱلنور، أم هو تفسيرٌ بٱلتراب...

ولقدْ كانَ ﷺ يملكُ ٱلمالَ ويَجدُهُ، وكانَ أجوَدَ بِهِ منَ ٱلريحِ ٱلمرسَلَة، ولكنَّه لا يدعُهُ يتناسلُ[1] عندَهُ، ولا يتركُهُ يَنْبُتُ في عملِه، وإنَّما كانَ عملُهُ ترجمةً لإِحساسِهِ ٱلروحيّ؛ فهو رسولٌ تعليميّ، قلبُهُ ٱلعظِيمُ في القوانينِ ٱلكثيرةِ من واجباتِه، وهو يُريدُ إثباتَ وحدةِ ٱلإِنسانيَّة، وأنَّ هذا ٱلإِنسانَ مَعَ ٱلمادةِ ٱلصامتةِ

(١) يتناسل: يتكاثر.

ٱلعمياءِ مادةٌ مفكّرةٌ مميِّزة، وأنَّ الدينَ قوةٌ روحيَّةٌ يلقى بها المؤمنُ أحوالَ ٱلحياةِ فلا يثبتُ بإزائِها شيءٌ على شيئيَّتِه، إذِ الروحُ خلودٌ وبقاء، وٱلمادةُ فناءٌ وتحوُّل، ومن ثَمَّ تخضعُ ٱلحوادثُ لِلروحِ ٱلمؤمنةِ وتتغيرُ معها، فإنْ لم تخضَعْ لم تُخْضِعْها، وإن لم تتغيرِ ٱلروحُ بها؛ وأساسُ ٱلإيمانِ أنَّ ما ينتهي لا ينبغي أنْ يتصرَّفَ بما لا ينتهي.

ما قيمةُ ٱلعقيدةِ إلَّا بصدقِها في ٱلحياة، وأكثرُ ما يصنعُ هذا المالُ: إما ٱلكذبَ ٱلصُّرَاحَ في ٱلحياة، وإما شُبهةَ ٱلكذِب؛ ولهذا تنزَّهَ ٱلنبيُّ ﷺ عنِ ٱلتعلقِ بهِ، وزادَهُ بُعْداً منه أنَّهُ نبيُّ ٱلإنسانيَّةِ ومثَلُها الأعلى، فحياتُهُ ٱلشريفةُ ليسَتْ كما نَرى في ٱلناس: إيجاداً لِحلِّ مسائلِ الفردِ وتعقيداً لِمسائلِ غيرِه، ولا توسُّعاً من ناحيةٍ وتضييقاً مِنَ ٱلناحيةِ ٱلأخرى، ولا جمعاً من هنا ومنعاً من هناك؛ بلْ كانَتْ حياتُهُ بعدَ ٱلرسالةِ منصرفةً إلى إقرارِ التوازنِ في ٱلإنسانيةِ، وتعليمِ ٱلجميعِ على تفاوتِهِم وٱختلافِ مراتبِهِم كيف يكونُ لهم عقلٌ واحدٌ مِنَ ٱلكون؛ وبهذا العقلِ الكونيِّ ٱلسليمِ ترى ٱلمؤمنَ إذا عَرَضَ لَهُ الشيءُ مِنَ الدنيا يفْتِنُهُ أو يَصْرِفُهُ عن واجبِهِ ٱلإنسانيِّ ـ أبتْ نفسُهُ ٱلعظيمةُ إلَّا أنْ ترتفعَ بطبيعتِها، فإذا هو في قانونِ ٱلسموِّ، وإذا ٱلمادةُ في قانونِ ٱلثقل؛ فيرتفعُ وتَتَهاوَى[1] ويُصبحُ الذهبُ ـ وإنَّهُ ذهبٌ ـ وليسَ فيهِ عندَ ٱلمؤمنِ إلَّا روحُ ٱلتراب.

---

(١) تتهاوى: تسقط وترسب.

سموُ الفقرِ
في المصلحِ الاجتماعيِّ الأعظم

٢

قالَتْ عائشةُ (رضيَ ٱللّهُ عنها): لم يمتلىءْ جوفُ النبيِّ ﷺ شِبَعاً قطّ، وإنَّهُ كانَ في أهلِهِ لا يسألُهم طعاماً ولا يتشهَّاه؛ إنْ أطعموه أكل، وما أطعموه قَبِل، وما سقَوْهُ شَرِب.

وقالت: ما شبعَ آلُ محمدٍ من خبزِ الشعيرِ يومينِ متتابعينِ حتى قُبضَ رسولُ ٱللّهِ ﷺ.

وعنها: كنّا آلَ محمدٍ نمكثُ شهراً ما نَسْتَوْقِدُ بنار، إنْ هو إلّا ٱلتمرُ وٱلماء.

وقالَتْ: ما رَفعَ رسولُ ٱللّهِ ﷺ قَطُّ غداءً لِعَشَاء، ولا عَشاءً لِغداءٍ ولا ٱتَّخذَ من شيءٍ زَوجين؛ لا قميصين، ولا رِداءين، ولا إزارين، ولا زوجينِ مِنَ ٱلنعال.

ويُروى عنها، قالَت: تُوفيَ رسولُ ٱللّهِ ﷺ وليس عندي شيءٌ يأكلُهُ ذو كَبِد، إلّا شطرُ شعيرٍ في رَفٍّ لي.

وقالَتْ: توفيَ رسولُ ٱللّهِ ﷺ ودِرْعُهُ مرهونةٌ عندَ يهوديّ في ثلاثينَ صاعاً من شعير.

وعنِ ٱبنِ عباس: كانَ رسولُ ٱللّهِ ﷺ يَبيتُ ٱلليالِيَ ٱلمتتابعةَ وأهلَهُ طاوياً(١) لا يجدونَ عشاءً، وإنّما كانَ خبزُهُم ٱلشعير.

وعنِ ٱلحسن، قال: خطَبَ رسولُ ٱللّهِ ﷺ فقال: «واللّهِ ما أمسَى في آلِ محمدٍ صاعٌ من طعام، وإنَّها لتِسعةُ أبيات!» واللّهِ ما قالَها ٱستقلالاً، ولكنْ أرادَ أنْ تتأسَّى بِهِ أمتُه.

---

(١) طاوياً: جائعاً لم يأكل شيئاً.

وعنِ ٱبنِ مجير قال: أصابَ ٱلنبيَّ ﷺ جُوعٌ يوماً، فعمدَ[1] إلى حجرٍ فوضَعَهُ على بطنِه، ثم قال: «ألا رُبَّ نفسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا، جائعةٌ عاريةٌ يومَ القِيامة؛ ألا ربَّ مُكْرِمٍ نفسَهُ وهو مُهينٌ لها؛ ألا ربَّ مُهينٍ نفسَهُ وهو مكْرِمٌ لها».

وخُيِّرَ ﷺ أنْ يكونَ لَهُ مثلُ «أحُدٍ» ذهباً فقال: «لا يا ربِّ؛ أجوعُ يوماً فأدعوك، وأشبَعُ يوماً فأحمدُك»!.

وكانَ يقولُ في دعائِهِ ويُكْثِرُ منه: «اللهمَّ أحْيِني مِسْكيناً، وأمِتْني مِسكيناً، وٱحشُرْني في زُمرةِ[2] المساكين».

* * *

هذا هو سيّدُ ٱلأمة، يُمسِكُهُ في ٱلحياةِ نبيًّا عظيماً ما يُخْرِجُ غيرَه منها ذليلاً محتقَراً، وكأنَّما أشرقَ صفاءُ نفسِهِ على ترابِ ٱلأرضِ فردّهُ أشعةَ نور، على حينِ يُلقي الناسُ على هذا الترابِ من ظلامِ أنفسِهم فلا يَبْقى تراباً بل يرجعُ ظلاماً، فكأنَّهم إذْ يمشونَ عليهِ يَطؤونَ المجهولَ بخَوْفِهِ ورَوْعتِه؛ ثم لا يستقرُّ ظلاماً بل يرجعُ آلاماً، فكأنَّهم يَنْبُتونَ على ٱلمرضِ لا على ٱلحياة؛ ثم لا يثبتُ آلاماً بل يتحوَّلُ فَوْرةً وتوثُّباً تكونُ منه نَزَواتُ[3] ٱلحمقِ وٱلجنونِ في النفس.

هؤلاء الذين تعيشُ أنفسُهم في ٱلتراب، ويتمرَّغون بأخلاقِهم فيه، ينقلبون على ٱلحياةِ من صنعِ ٱلترابِ ناساً دُوداً كطبعِ الدُّودِ لا يقعُ في شيءٍ إلَّا أفسدَهُ أو قذَّره؛ أو قوماً سُوساً كطبعِ السُّوسِ لا ينالُ شيئاً إلَّا نَخَرَهُ أو عابَه، فهم يُوقِعُونَ الخَلَلَ في نِظامِ أنفسِهم، فإذا هي طائشةٌ تُخيِّلُ لهم كأنما ٱختلَّتْ نواميسُ الدنيا، وكأنَّ اللَّهَ قَبَضَهم وبسطَ غيرَهم، وشَغَلَهم وفرَّغَ مَنْ عداهم، وٱبتلاهم على مُسْكةِ الرزقِ[4] بٱلشهوةِ ٱلمسعورةِ[5] ٱلتي لا تتحققُ، فضرَبَهم بالمجاهَدةِ التي لا تنقطع؛ وأنعَمَ على غيرِهم في بَسْطَةِ ٱلرزق بالشجرةِ المسحورةِ ٱلتي لا تُقطَعُ منها ثمرةٌ إلَّا نبتَ غيرُها في مكانِها.

إنَّ ما وصفناهُ من فقرِ النبيّ ﷺ، وأنَّهُ لم يكنْ لَهُ عتيدٌ حاضرٌ، وأنَّهُ لم يجعلْ نفسَهُ في همِّ ٱلمال، ولا جعلَتْهُ نفسُهُ في همِّ ٱلفقر، وأنَّهُ لَقِيَ ٱلحياةَ حاملاً لا

(١) عمد إلى حجر: أتى بحجر.
(٢) زمرة: جماعة.
(٣) نزوات: رغبات.
(٤) مُسكة الرزق: ضيق العيش.
(٥) الشهوة المسعورة: الجامحة.

محمولاً، وٱستقرَّ فيها هادئاً لا مضطرباً ـ كلُّ ذلك إنما يُثبتُ لِلدنيا أنَّهُ خُلِقَ وبُعِثَ وعاشَ لِيكونَ درساً عمليًا في حلِّ ٱلمشكلاتِ ٱلاجتماعية، يُعلِّمُ الناسَ أنَّها لا تتعقَّدُ بطبيعتِها، ولكنْ بطبائِعهم فيها، ولا تستمرُّ بقوَّتِها، ولكنْ بإمدادِ قواهم لها؛ ولا تَغْلِبُ بصَوْلتِها[1]، ولكنْ بجزعِهم[2] منها؛ ولا تُعْضِلُ[3] من ذاتِ نفسِها، ولكنْ من سوءِ أثرِهم عليها وسوءِ نظرِهم لِأنفسِهم ولها.

فإذا قرأتَ ٱلأحاديثَ ٱلتي أسلفْناها فلا تقرأْها زُهْداً وتقلّلاً، ولا فقراً وجُوعاً، ولا ٱختلالاً وحاجة، كما تُترجِمُها نفسُك أو تُحِسُّها ضرُورتُك؛ بلِ ٱنظرْ فيها وٱعتَبِرْها بنفسِه هو ﷺ، ثم ٱقرأْها شريعةً ٱجتماعيَّةً مُفصَّلةً على طبيعةِ ٱلنفس، قائمةً على أنْ تأخذَ نفسُ ٱلإنسانِ من قُوَى الدنيا عناصرَها ٱلحيَّة، لِتُعطِيَ الحياةَ من ذلك قوَّةَ عناصرِها.

وٱلحياةُ ٱلعاملةُ غيرُ ٱلحياةِ ٱلوادعة، هما ذكرٌ وأنثى؛ فأمَّا الأولى فهي ما وصَفْنا وحكيْنا، وأمَّا الثانيةُ فهي تغَلّلُ ٱلنعمة، وإطلاقُ قانونِ ٱلتناسلِ في ٱلمالِ يُنمِّي بعضُهُ بعضاً، ويَنْبُتُ بعضُهُ على بعض، ثُمَّ إقامةُ ٱلحياةِ على الزينةِ ومُقَوِّماتِها، وقيامُ ٱلزينةِ على ٱلخِداعِ وطِباعِه، فيُقْبِلُ ٱلمرءُ من دنياهُ على ما هو جديرٌ أنْ يصرِفَهُ عنها، ويُحِبُ منها ما كانَ ينبغي أنْ يباغِضَهُ فيها. وكلُّ ما رأيْتَ وعلمْتَ في رجلٍ، قُوَّتُه ٱلقوةُ فهو هناك؛ وكلُّ ما علمْتَ ورأيْتَ في أنثى، قوتُها الضعفُ فهو هنا.

فالسوادُ الذي تراهُ في فقرِهِ ﷺ هو ٱلسوادُ ٱلحيُّ؛ سوادُ الليلِ حولَ الروحِ النَّجْميّةِ ٱلساطعة؛ وذلك الترابُ هوَ ٱلترابُ الحيّ؛ ترابُ ٱلزرعِ تحتَ ٱلنضرَةِ وٱلخُضرَة؛ وتلك ٱلحاجةُ ٱلجسميَّةُ هي ٱلحاجةُ ٱلحيّةُ الدافعةُ إلى حريَّةِ النفس؛ وذلك ٱلإقلالُ من فَهْمِ ٱللذةِ هوَ ٱلإقلالُ الحيُّ الذي يزيدُ قوةَ فهْمِ ٱلجمالِ في ٱلسماءِ وٱلأرضِ وما بينهما، وذلك ٱلضيقُ في حَيِّزِ[4] المَتاعِ لِلحاسَّةِ هو ٱلضيقُ ٱلحيُّ الذي يُوَسِّعُ حَيِّزَ المتاعِ لِلروح. وبالجملةِ فذلك النقصُ مِنَ المادةِ لم يكنْ إلَّا لِنفي النقصِ عنِ ٱلفضيلة، وذلك ٱلاحتقارُ لِلعَرَضِ الفاني الزائلِ هو ٱلمعنى الآخرُ لِتقديسِ ٱلخالدِ الباقي.

---

(١) الصولة: الغلبة.

(٢) بجزعهم: بخوفهم.

(٣) تعضل: تشتدّ وتقوى.

(٤) حيّز: ملك.

فليسَ هناك خُبزُ الشعير، ولا الجوعُ، ولا رهنُ الدرعِ عندَ ٱليهوديّ. كلا، كلا، بل هناك حقيقةٌ نفسيةٌ عقليّة، ثابتةٌ متّزنة، قائمةٌ بعناصرِها السامية: مِنَ اليقينِ وٱلعقلِ وٱلحِكْمة، إلى ٱلرفقِ وٱلحِلْم وٱلتواضع، تُخبرُ هذه الدنيا العلميَّةَ الفلسفيَّةَ المفكِّرةَ أنَّ ذلك النبيَّ العظيمَ هو الرجلُ ٱلاجتماعيُّ ٱلتامُّ بأخلاقِهِ وفضائلِهِ، وهو الذي بُعِثَ لِتنقيحِ غريزةِ تنازعِ ٱلبقاء، وكَسْرِ هذه ٱلحيوانيَّة، وقَمْعِ[1] نزواتِها، وإماتةِ دَواعِيها، والسموِّ بخواطِرِها؛ فهو بنفسِهِ صورةُ ٱلكمالِ الذي بُعِثَ لِتحقيقِهِ وإثباتِ أنَّهُ الممكنُ لا الممتنِع، والحقيقيُّ لا الخياليّ.

ليسَ هناك دِرْعٌ مرهونةٌ في ثلاثينَ صاعاً، ولا الفقرُ ولا خبزُ الشعير. كلا، كلا، بل هناك تقريرُ أنّ ٱلنصرَ في معركةِ ٱلحياةِ لا يأتي مِنَ ٱلمالِ والثَّراءِ وٱلمتاع، ولكنْ مِنَ ٱلمعاناةِ وٱلشدّةِ وٱلصبر؛ وأنَّ التقدمَ الإنسانيَّ لا يُباعُ بيعاً، ولا يُؤخَذُ هَوْناً[2]؛ بل هو ٱنتزاعٌ مِنَ ٱلحوادثِ بالأخلاقِ التي تتغلَّبُ على الأزَمَاتِ ولا تتغلبُ الأزمَاتُ عليها، وأنَّ هذا المالَ وهذه الشهوات - في حقائقِ ٱلحياةِ ومَصَائِرِها - كَكُنوزِ الأحلام: لا تكونُ كُنوزاً إلّا في مواضعِها من أرضِ الغَفْلةِ وٱلنوم، فلا لذّةَ منها إلّا بمقدارٍ خفيفٍ من هذه الغفلة. وليسَ إلّا الأحمقُ أوِ ٱلمخذولُ أوِ الضائعُ هو الذي يقطعُ العمرَ نائماً أبداً لِيظلَّ مالكاً أبداً لِهَذِهِ الكنوز. وهو يعلمُ أنَّهُ لا بدَّ مستيقظ، وأنَّهُ متى ٱنتبه في آخرتِهِ لم يجدْ منها شيئاً «ووجدَ ٱللَّهَ عندَهُ فوفَّاهُ حِسابَه».

كلا، كلا، ليس هناك فقرٌ ولا جوعٌ وما إليهما، بل هناك وَضْعُ هذه الحقيقة: ينبغي أنْ تجدَ نفسَك، وموضِعَ نفسِك، وإيمانَ نفسِك، وعِزَّةَ نفسِك. فإذا أدركْتَ ذلك ورفعْتَ نفسَك إلى موضعِها الحقّ، وأقررْتَها فيه، وحبسْتَها عليه، وَحَدَدْتَها بالإنسانيَّةِ من ناحيةٍ وباللَّهِ مِنَ الناحيةِ المُقابِلة - رأيْتَ إذنْ أنَّ قيمتَك ٱلصحيحةَ في أنْ تكونَ وسيلةً تُعطِي وتعملُ لِتُعطي، لا غايةً تأخذُ وتعملُ لِتأخذ، ومهما ضُيِّقَ عليك فإنَّما أنت كالشجرةِ الطيِّبةِ تأخذُ تراباً وتصنعُ حَلاوة.

وما قطُّ نبتَتْ شجرةٌ في مكانِها لِتأكلَ وتشربَ وتختزِنَ ٱلسّمادَ والترابَ وتحصِّنَهما وتمنَعَهما عن غيرِها، ولو قد فعلَتْ ذلك شجرةٌ لَكانَ هلاكُها فيما تفعل، إذْ تُحاولُ أنْ تُضاعِفَ فائدتَها من قانونِ العالم، فيكونُ طعمُها سريعاً في

(١) قمع: ضرب وقهر وأذلّ.

(٢) هوناً: سهلاً.

إفسادِ الصلةِ بينَهما، فلا يجدُ القانونُ فيها نظامَه، ومن ثَمَّ لا تجدُ في القانونِ نظامَها، فيُهلِكُها الذي كانَ يُحييها، وتستعبدُ لِحظّ نفسِها، فيُفْقِدُها ذلك حريّةَ الحياةِ التي كانَتْ لها في نفسِها.

* * *

يقولُ نبيُّنا ﷺ: «إنَّ ٱلمؤمنَ بكلِّ خيرٍ على كلِّ حال، إنَّ نفسَهُ تُنزَعُ من بينِ جنبيهِ وهو يَحمدُ ٱللَّهَ عزَّ وجلَّ». فهذا هو أسمى قانونٍ ٱجتماعيٍّ يُمكنُ أنْ تظفرَ بهِ ٱلإنسانيَّةُ، وما يأتِي لها ذلك إلَّا إذا أصبَحتْ تلك ٱلمعاني ٱلتي أومأنا[1] إليها شعوراً ٱجتماعيًّا عامًّا مقرَّراً في ٱلنفس، قائماً فيها على إيمانٍ راسخ بأنَّ ٱلفردَ هو صورةُ ٱلمجتمع لا صورةُ نفسِه وحدَها، وأنَّ ٱلناسَ كحبِّ القمح في ٱلسُّنبلة، ليسَ لِجميعِهِ إلَّا قانونٌ واحد، فموضِعُ كلِّ حبةٍ مِنَ السنبلةِ هو ثروتُها، عَلَتْ أو سَفُلَتْ، وكَثُرَ ما تأخذُهُ أو قلَّ؛ وإذا كان أساسُ الحياةِ في ٱلحبَّةِ منها أنْ تجدَ قِوامَها وكِفايتَها من مادةِ ٱلأرض، فتمامُ الحياةِ فيها أنْ يَغْمُرَهَا ٱلنورُ مِن حولِها، وأنْ يستمرَّ ٱلنورُ من حولِها يغمرُها.

فٱلحبَّةُ مِنَ السُّنبلةِ بكلِّ خيرٍ على كلِّ حال، وإنَّها لَتُنزَعُ وما بها أنَّها نُزِعتْ، ولكنَّها أدَّتْ ما تؤدِّي، وٱنقطعَتْ من قانونٍ لِتَتَّصِلَ بقانونٍ غيرِه، وما ٱغتنَتْ ولا ٱفتقرَتْ، ولا أكثرَتْ ولا أخفَّتْ بل حقَّقتْ موضِعَها، فإنَّها ما نبتَتْ لِتبقى، وما نَمَتْ إلَّا لِينقطعَ نماؤُها. وكذلكَ ٱلمؤمنُ ٱلصحيحُ ٱلإيمانِ، ٱلصادقُ النظرِ في ٱلحياة: هو أبداً في قانونِ آخرتِه، فهو أبداً في عملِ ضميرِه.

والناسُ في هذه الحياةِ كحَشْدٍ عظيم يتدفَّقُ من مَضِيقٍ بينَ جبلينِ ينفُذُ إلى الفضاء؛ فإذا هم أدركوا جميعاً أنَّهم مُفْضُونَ[2] إلى هذه النهايةِ مرُّوا آمنينَ وكانَ في يقينهمُ ٱلسلامة، وفي صبرهمُ ٱلوِقاية، وفي نِظامِهمُ ٱلتوفيق، وفي تَعاونهمُ ٱلحياة؛ فهم بكلِّ خيرٍ على كلِّ حال، ما دامَ هذا قانونَ جميعِهِم؛ فأيُّما رجلٍ شَذَّ منهم فٱضطربَ فطاشَ[3]، هَلَكَ وأهلَكَ مَنْ حولَه، ومَنْ عكَسَ منهم موضِعَهُ ونكَصَ على عَقِبيه، أهلَكَ مَنْ حولَهُ وهَلَكَ، وٱلموتُ أشقى ٱلموتِ هنا في هذا المضيقِ بينَ الجبلين ـ ٱعتبارُ الحاضِرِ حاضراً فقط، والضجرُ منه، وجعلُ كلِّ إنسانٍ نفسَهُ

---

(١) أومأنا: أشرنا.

(٢) مفضون: واصلون، منتهون إلى.

(٣) طاش: انحرف.

غاية. والحياةُ أهنأُ الحياة ـ اعتبارُ الحاضرِ بما وراءَه، والصبرُ على شِدَّتِه، وجعلُ الإنسانِ نفسَه وسيلة.

* * *

فذلك معنى خبزِ الشعير، والقِلّةِ والضيق، ورهنِ الدرع عندَ يهوديٍّ من سيِّدِ الخَلْقِ وأكملِهم، ومَنْ لو شاءَ لَمشى على أرضٍ مِنَ الذهب. فهو ﷺ يُعلِّمُ الإنسانيّةَ أنَّ الرجلَ العظيمَ النفسِ لا يكونُ في الحياةِ إلّا ضيفاً نازلاً على نفسِه.

ومن معاني ذلك الفقرِ العظيمِ أنَّ خبزَ الشعيرِ هو رَمزٌ من رموزِ الحياةِ على التحلّلِ من خُلُقِ الأثرَةِ، والبراءةِ من هوى التَّرَف؛ ورهنُ الدرعِ رمزٌ آخرُ على التخلُّصِ مِنَ الكِبرياءِ والطمع؛ والعُسرةُ رمزٌ ثالثٌ على مجاهدةِ المَلَلِ الحيِّ الذي يُفسِدُ الحياةَ كما يُفْسدُ بعضُ النباتِ النبات. ومجموعُ هذه الرموزِ رمزٌ بحالِهِ على وجوبِ الإيقاظِ النفسيِّ للأمةِ العزيزةِ التي تقودُ أنفسَها بمقاساةِ الشدائدِ ومُجاهدةِ الطباع، لِتكونَ في كلِّ فردٍ مادةُ الجيش، ولِيصلُحَ هذا الجيشُ قائداً لِلإنسانيّة.

على أنَّهُ ﷺ حثَّ على طلبِ اليَسار[1]، والتغلُّلِ مِنَ الأعمالِ الشريفةِ بالغَلّةِ والمال، فقال: «إنك إنْ تَدَعْ عِيالَك أغنياء، خيرٌ من أنْ تَدَعهم عَالَةً يتكفَّفون[2] الناس». ورأى عابداً قدِ انقطعَ لِلعبادةِ حتى أكلَتْ نفسُهُ جسمَه، ووصفوا لَهُ مِنْ زُهدِهِ وعِبادتِه، فقال ﷺ: «مَنْ يعولُه؟» قالوا: كلّنا نعولُه. فقال: «كلّكم خيرٌ منه! . . .» إلى أحاديثَ كثيرةٍ مرويّة، هي تمامُ القانونِ الأدبيِّ الاجتماعيِّ في الدنيا، تُثبِتُ أنَّ الحيَّ إنْ هو إلّا عملُ الحيّ.

ولكنْ حينَ يكونُ سيدُ الأمّةِ وصاحبُ شريعتِها رجلاً فقيراً، عاملاً مُجاهداً، يكْدَحُ[3] لِعيشِه، ويجوعُ يوماً ويشبعُ يوماً، فلم يقلِّبْ يدَهُ في تِلادِ[4] مِنَ المال يرثُه، ولم يجمعْهما على طَريفٍ[5] منه يُوَرِّثُه ـ فذلك هو ما بيَّناهُ وشرحْناه، وذلك كالأمرِ نافذاً لا رُخْصَةَ فيه، على ألّا يتَّخذَ الغنيُّ مِنَ الفقيرِ عبداً اجتماعيًّا لِفقرِ هذا ولِمالِ ذاك؛ بل هيَ المساواةُ النفسيَّةُ لا غيرُها وإنِ

(١) اليسار: الغنى.

(٢) يتكفّفون: يعيشون على الكفاف وشظف العيش.

(٣) يكدح: يتعب ويجدّ في عمله.

(٤) تلاد المال: المال الموروث.

(٥) طريف المال: حديثه وجديده.

ٱختلفَتْ طبقاتُ ٱلاجتماع. وٱلأكرمُ هو ٱلأتقى لِلّهِ بمعنى ٱلتقوى، وٱلأقومُ بالواجبِ على معنى الواجب، والأكفأُ لِلإنسانيَّةِ في معاني الإنسانيَّة.

فقرُ ذلك السيّدِ الأعظمِ ليسَ فقراً، بل هو كما رأيْت: ضبطُ السلطةِ الكائنةِ في طبيعةِ التملّك، لِقيامِ التعاوُنِ ٱلإنسانيّ على أساسِهِ ٱلعمليّ؛ هو المحاجَزَةُ العادلةُ بينَ ٱلمصالحِ ٱلاقتصاديَّةِ ٱلطاغية: يمنعُ أنْ تأكلَ مصلحةٌ مصلحةً فتَهلِكَ بها، ويُوجِبُ أنْ تَلِدَ المصلحةُ مصلحةً لِتحيَا بها.

والنبيُّ ٱلفقيرُ ٱلعظيمُ هو في ٱلتاريخِ من وراءِ كلِّ هذه ٱلمعاني، كالقاضي ٱلجالسِ وراءَ موادِّ ٱلقانون. ﷺ.

درسٌ منَ النبوة

قالوا: إنهُ لمَّا نَصر اللّهُ (تعالى) رسولَهُ وردَّ عنهُ ٱلأحزابَ وفتَح عليهِ قُرَيْظَةَ وٱلنَّضِير[1]، ظنَّ أزواجُهُ ﷺ أنّه ٱختصَّ بنفائسِ ٱليهودِ وذخائرِهم؛ وكنَّ تِسْعَ نِسوة: عائشة، وحَفْصة، وأمَّ حبيبة، وسَوْدة، وأمَّ سَلَمة، وصفيّة، وميمونة، وزينب، وجُوَيْرية؛ فقعدْنَ حولَهُ وقلْن: يا رسولَ الله، بناتُ كِسرى وقَيْصَرَ في ٱلحَلْي وٱلحُلَلِ، وٱلإماءِ وٱلخَوَل[2]، ونحن ما تراهُ منَ ٱلفاقةِ وٱلضيق . . . وآلَمْنَ قلبَهُ بمطالبتِهِنَّ لَهُ بتَوْسِعَةِ ٱلحال، وأنْ يعامِلَهُنَّ بما تُعامِلُ بهِ ٱلملوكُ وأبناءُ ٱلدنيا أزواجَهم؛ فأمرهُ اللّهُ (تعالى) أنْ يتلوَ عليهنَّ ما نزلَ في أمرِهِنَّ من تخييرِهِنَّ في فِراقِه، وذلك قولُهُ ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا[3] وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

قالوا: وبدأ ﷺ بعائشةَ ـ وهي أحبُهن إليه ـ فقال لها: «إنّي ذاكرٌ لَكِ أمراً ما أُحبُّ أنْ تعجَلِي فيهِ حتى تَسْتأمري أبوَيك». قالَت: ما هو؟ فتلا عليها الآية. قالت: أفيكَ أستأمِرُ أبويَّ؟ بلْ أختارُ اللّهَ ـ تعالى ـ ورسولَه.

ثم تَتَابَعْنَ كلُّهن على ذلك، فسمَّاهُنَّ ٱللّهُ «أمّهات المؤمنين»، تعظيماً لِحقهِنّ، وتأكيداً لِحرمتِهِنّ، وتفضيلاً لَهُنَّ على سائرِ ٱلنساء.

* * *

هذه هي ٱلقصةُ كما تُقرأُ في التاريخ وكما ظهرَتْ في ٱلزمانِ وٱلمكان، فلْنقرأها نحن كما هي في معاني ٱلحكمة، وكما ظهرَتْ في ٱلإنسانيّةِ ٱلعالية؛ فسنجدُ لها غَوْراً[4] بعيداً، ونعرفُ فيها دَلالةً سامية، ونتبينُ تحقيقاً فلسفيًا دقيقاً لِلأوهامِ وٱلحقائق.

---

(١) قريظة والنضير: هما قبيلتان وحيان من أحياء اليهود في المدينة.

(٢) الخول: الخدم والحشم.

(٣) السراح: الطلاق، أما متعة الطلاق فهي الصداق المتأخر.

(٤) غوْراً: عمقاً.

وهي قبلَ كلِّ هذا ومعَ كلِّ هذا تنطوي على حكمةٍ رائعةٍ لم يتنبَّهْ لهاأ حد، ومن أجلِها ذُكرتْ في ٱلقرآن الكريم، لِتكونَ نصًّا تاريخيًّا قاطعاً يُدَافِعُ بهِ التاريخُ عن هذا ٱلنبيِّ العظيمِ في أمرٍ من أمورِ ٱلعقلِ وٱلغريزة، فإنَّ جَهَلَةَ ٱلمبشرينَ في زمنِنا هذا، وكثيراً من أهلِ الزَّيغ[1] وٱلإلحاد، وطائفةً من قِصَارِ ٱلنظرِ في ٱلتحقيقِ ـ يزعمونَ أنَّ محمداً ﷺ إنَّما ٱستكثرَ مِنَ النساءِ لِأهواءٍ نفسيةٍ محضةٍ وشهواتٍ كٱلشهوات؛ ويَتَطرَّقونَ من هذا الزعمِ إلى الشُّبْهة، ومنَ الشُّبْهةِ إلى سوءِ الظنّ، ومن سوءِ ٱلظنِّ إلى قبحِ ٱلرأي؛ وكلّهم غبيٌّ جاهل؛ فلو كانَ ٱلأمرُ على ذلك أو على قريبٍ منه أو نحوٍ من قريبِه، لَمَا كانَتْ هذه ٱلقصةُ ٱلتي أساسُها نفيُ الزينةِ وتجريدُ نسائِهِ جميعاً منها، وتصحيحُ ٱلنيَّةِ بينَهُ وبينهُنَّ على حياةٍ لا تحيا فيها معاني ٱلمرأة، وتحتَ جوٍّ لا يكونُ أبداً جوَّ ٱلزَّهر.... وأمرُهُ من قِبَلِ ربِّهِ أنْ يُخيِّرَهُنَّ جميعاً بينَ سراحِهِنَّ فيكُنَّ كالنساءِ ويجدْنَ ما شِئْنَ من دنيا ٱلمرأة، وبينَ إمساكِهِنَّ فلا يكُنَّ معَهُ إلَّا في طبيعةٍ أخرى تبدأُ من حيث تنتهي ٱلدنيا وزينتُها.

فٱلقصةُ نفسُها ردٌّ على زعمِ ٱلشهوات، إذ ليسَتْ هذه لغةَ ٱلشهوة، ولا سياسةَ معانيها، ولا أسلوبَ غضبِها أو رِضاها. وما هٰهنا تمليقٌ، ولا إطراءٌ، ولا نُعومةٌ، ولا حِرْصٌ على لذة، ولا تعبيرٌ بِلغةِ ٱلحاسة؛ وٱلقصةُ بعدُ مكشوفةٌ صريحةٌ ليسَ فيها معنًى ولا شِبْهُ معنًى من حرارةِ ٱلقلب، ولا أثرٌ ولا بقيَّةُ أثرٍ من ميلِ ٱلنفس، ولا حرفٌ أو صوتُ حرفٍ من لغةِ ٱلدم. وهي على منطقٍ آخرَ غيرِ ٱلمنطقِ ٱلذي تُستمالُ بِهِ ٱلمرأة، فلم تقتصرْ على نفي ٱلدنيا وزينةِ الدنيا عنهُنَّ، بل نَفَتِ ٱلأمَلَ في ذلك أيضاً إلى آخرِ الدهر، وأماتَتْ معناهُ في نفوسِهِنَّ، بقَصْرِ ٱلإرادةِ منهُنَّ على هذه الثلاثة: اللَّهُ في أمرِهِ ونهيه، والرسولُ في شدائدِهِ ومُكابَدَتِهِ[2]، والدارُ الآخرةُ في تكاليفِها ومَكَارِهِها. فليسَ هنا ظرفٌ، ولا رقةٌ، ولا عاطفةٌ، ولا سياسةٌ لِطبيعةِ ٱلمرأة، ولا ٱعتبارٌ لِمزاجِها، ولا زُلْفَى[3] لِأنوثتِها، ثم هو تخييرٌ صريحٌ بينَ ضِدينِ لا تتلوَّنُ بينَهما حالةٌ تكونُ منهما معاً، ثم هو عامٌّ لِجميعِ زوجاتِهِ لا يستثني منهُنَّ واحدةً ولا أكثر.

والحريصُ على ٱلمرأةِ وٱلاستمتاعِ بها لا يأتي بشيءٍ من هذا، بل يُخاطبُ في

---

(١) الزيغ: الانحراف عن الدين والكفر.
(٢) مكابدته: عاش فيه بجهد ومشقّة.
(٣) زُلفى: تقرّب.

ٱلمرأة خيالَها أولَ ما يُخاطب، ويُشبِعُهُ مُبالغةَ وتأكيداً، ويُوسِعُهُ رَجاءً وأملاً، ويقرِّبُ لَهُ ٱلزمنَ ٱلبعيدَ، حتى لو كانَ في أولِ ٱلليلِ وكانَ الخِلافُ على الوقت، لَحقَّق لَهُ أنَّ ٱلظهرَ بعدَ ساعة...

* * *

وبرهانٌ آخرُ؛ وهو أنَّ النبيَّ ﷺ لم يتزوَّجْ نساءَهُ لِمتاعٍ مِمَّا يُمتِّعُ الخيالُ بهِ، فلو كانَ وَضْعُ الأمرِ على ذلك لَمَا ٱستقامَ ذلك إلَّا بالزينةِ وبالفنِّ ٱلناعمِ في الثوبِ والحِلْيةِ والتشكُّلِ كما نرى في ٱلطبيعةِ ٱلفنيَّة، فإنَّ ٱلمُمثِّلةَ لا تمثلُ ٱلروايةَ إلَّا في ٱلمسرحِ ٱلمهيأ بمناظرِهِ وجَوِّه... وقد كانَتْ نساؤُهُ ﷺ أعرفَ بِه؛ وها هو ذا ينفي ٱلزينةَ عَنهُنَّ ويُخيرُهُنَّ ٱلطلاقَ إذا أصرَرْنَ عليها. فهل ترى في هذا صورةَ فكرٍ من أفكارِ الشهوة؟ وهل ترى إلَّا الكمالَ المحض؟ وهل كانَتْ متابعَةُ ٱلزوجاتِ ٱلتسعِ إلَّا تسعةَ بُرهاناتٍ على هذا الكمال؟

وكأنَّ النبيَّ ﷺ يُلقِي بهذه القصةِ درساً مستفيضاً في فلسفةِ ٱلخيالِ وسُوءِ أثرِه، على ٱلمرأةِ في أنوثتِها، وعلى ٱلرجل في رجولتِه؛ وأنَّ ذلك تعقيدٌ في الشهواتِ يُقابلُهُ تعقيدٌ في ٱلطبع، وكَذِبٌ في ٱلحقيقةِ ينشأُ عنهُ كذبٌ في ٱلخلُق، وأنَّه صَرْفٌ لِلمرأةِ إلى حياةِ ٱلأحلام والأمانيِّ والطيْشِ وٱلبطَرِ وٱلفراغ، وتعويدُها عاداتٍ تُفسِدُ عاطفتَها، وتُضيفُ إليها ٱلتصنُّعَ فتُضعِفُ قوتَها ٱلنفسيَّةَ ٱلقائمةَ على إبداعِ ٱلجمالِ من حقيقتِها لا من مظهرِها، وتحقيقُ ٱلفائدةِ من عملِها لا من شكلِها.

وكلُّ محاسنِ المرأةِ هي خيالُ متخيِّلٍ ولا حقيقةَ لِشيءٍ منها في ٱلطبيعة، وإنَّما حقيقتُها في ٱلعينِ ٱلناظرةِ إليها فلا تكونُ ٱمرأةٌ فاتنةً إلَّا لِلمفتونِ بها ليسَ غير. ولو ردَّتِ ٱلطبيعةُ على مَنْ يُشَبِّبُ[1] بٱمرأةٍ جميلةٍ فيقولُ لها: هذه محاسنُك وهذه فتنتُكِ وهذا سِحرُكِ وهذا وهذا؛ لقَالَتْ لَهُ الطبيعة: بل هذه كلُّها شهواتُكَ أنت...

وبهذا يختلفُ ٱلجمالُ عندَ فقدِ ٱلنظر؛ فلا يفتنُ الأعمى جمالُ الصورةِ ولا سِحرُ الشكلِ ولا فَراهةُ المنظر، وإنَّما يفتنُهُ صوتُ ٱلمرأةِ ومَجَسَّتُها[2] ورائحتُها.

فلا حقيقةَ في ٱلمرأةِ إلَّا المرأةُ نفسُها؛ ولو أُخِذَتْ كلُّ أنثى على حقيقتِها هذه لَمَا فسدَ رجلٌ ولا شقيَتِ ٱمرأة، ولا ٱنتظمَتْ حياةُ كلِّ زوجينِ بأسبابِها التي فيها. وذلك هو المثلُ المضروبُ في القصة.

---

(١) يتشبَّب: يتغزّل.   (٢) مجسّتها: لمسها.

يُريدُ النبيُّ ﷺ لِيُعلِّمَ أمّتَهُ أنَّ حَيفَ[1] الغريزةِ على العقلِ إفسادٌ لِهذا العقل، وأنَّه متى أُخْضِعَتِ ٱلمرأةُ لِحظِّ ٱلغريزةِ وٱختيارها، كانَتْ حياتُها ٱستجابةً لِجنونِ ٱلرجل، وملأتْها معاني ٱلتزيُّدِ وٱلتصنُّع؛ فيُوشِكُ أنْ ينقلَها هذا عن طبيعتِها ٱلساميةِ التي أكثرُها في ٱلحِرمان وٱلإيثارِ وٱلصبرِ وٱلاحتمال، ويردَّها إلى أضدادِ هذه الصفات، فيقومُ أمرُها بعدُ على ٱلأثرةِ وٱلمصلحةِ وٱلتفادي وٱلضجَرِ وٱلتبرُّم[2] وٱلإلحاحِ وٱلإزعاج، ويُضعفُ معنى ٱلسلْبِ ٱلراسخِ في نفسِها من أصلِ ٱلفِطْرَة؛ فيتبدَّلُ حَياؤُها، وفي ٱلحياءِ ردُّها عن أشياء؛ ويقلُّ إخلاصُها، وفي الإخلاصِ ردٌّ لها عن أشياءَ أخرى؛ ويكثرُ طمعُها، وفي قناعتِها مُحاجَزَةٌ بينَها وبينَ الشرّ.

وبهذا ونحوِهِ يفسدُ ما بين ٱلرجلِ وٱلمرأةِ ٱلمتصنِّعة؛ فإذا أكثرُ ٱلمتصنِّعاتِ لا يكونُ منَ ٱلنساءِ مَشَاكِلُ فقط، بل تكونُ من حُلولِ ٱلمشاكلِ معهُنَّ مشاكلُ أخرى...

* * *

ولُبابُ هذه القصةِ أنَّ النبيَّ ﷺ يجعلُ نفسَهُ في الزواجِ المثَلَ الشَّعبيَّ الأكملَ كما هو دأبُهُ[3] في كلِّ صفاتِهِ الشريفة، فهو يُريدُ أنْ تكونَ زوجاتُهُ جميعاً كنساءِ فقراءِ المسلمين، لِيكونَ منهُنَّ المثَلُ ٱلأعلى لِلمرأةِ ٱلمؤمنةِ العاملةِ الشريفةِ التي تَبْرَعُ البراعةَ كلَّها في ٱلصبرِ وٱلمجاهدةِ وٱلإخلاصِ وٱلعِفَّةِ وٱلصراحةِ وٱلقناعة، فلا تكونُ ٱلمرأةُ زينةً تَطْلُبُ زينةً لِتتمَّ بها في ٱلخيال، ولكنْ إنسانيةً تطلبُ كمالَها الإنسانيَّ لِتتمَّ بهِ في ٱلواقع.

وهذه الزينةُ ٱلتي تتصنعُ بها ٱلمرأةُ تكادُ تكونُ صورةَ المكرِ والخِداعِ والتعقُّد، وكلّما أسرفَتْ في هذِهِ أسرفَتْ في تلك، بَلْهَ ٱلزينةُ لِوجهِ ٱلمرأةِ وجِسمِها سلاحٌ من أسلحةِ ٱلمعاني: كالأظافرِ وٱلمخالبِ وٱلأنياب، غيرَ أنَّ هذه لوحْشيةِ ٱلطبيعةِ ٱلحيَّة ٱلمفترسة، وتلك لوحشيةِ الغريزةِ الحيَّة ٱلتي تُريدُ أنْ تفترس. ولا تُنْكِرُ ٱلمرأةُ نفسُها أنّ الزينةَ على جسمِها ثرثرةٌ طويلةٌ تقولُ وتقولُ وتقول...

* * *

وإنَّما يكونُ أساسُ ٱلكمالِ ٱلإنسانيّ، في ٱلإنسانِ ٱلعاملِ ٱلمُجاهد: لا يحصُرُ نفسَهُ في شيءٍ يُسمَّى متاعاً أو زِينة، ولا يقدِّر نفسَهُ بما يجمعُ لها أو بما يجمعُ حولَها، ولا يعتدُّ ما يكونُ من ذلك إلّا كالتعبيرِ من عملِ ٱلشهواتِ عنِ الشهوات.

---

(١) حيف: ظلم، جور.

(٢) التبرّم: إظهار الملل والضجر.

(٣) دأبه: عادته.

ونبيُّنا ﷺ هو الغايةُ في هذا. دخلَ عليه مرةً عمرُ بْنُ ٱلخطاب، فإذا هو على حَصيرٍ وعليهِ إزارُهُ وليسَ عليهِ غيرُه، وإذا الحصيرُ قد أثَّرَ في جنبِه. قال عمر: وإذا أنا بقَبْضةٍ من شعيرٍ نحو ٱلصاع، وإذا إهابٌ معلَّق[1]، فٱبتَدَرَتْ عيناي[2]، فقال: ما يُبكيك يا ٱبنَ ٱلخطَّاب؟ قال: عمر: يا نبيَّ ٱلله، وما لي لا أبكي وهذا الحصيرُ قد أثرَ في جنبِك، وهذه خزائنُكَ لا أرى فيها إلَّا ما أرى، وذاك كسرى وقيصرُ في ٱلثمارِ وٱلأنهارِ وأنت نبيُّ ٱللَّهِ وصفوتُهُ وهذه خزائنُك؟

وجاءَ مرة من سفَرٍ فدخل على ٱبنتِهِ فاطمةَ (رضيَ اللَّهُ عنها) فرأى على بابِها سِتْراً وفي يديها قُلبَيْنِ[3] من فِضَّة، فرجع؛ فدخلَ عليها أبو رافعٍ وهي تبكي، فأخبرَتْهُ برجوعِ أبيها، فسألَهُ في ذلك فقالَ ﷺ: من أجلِ ٱلسترِ وٱلسِّوارين.

فلمَّا أخبَرها أبو رافع هتكَتِ[4] ٱلسترَ ونزَعَتِ ٱلسوارينِ فأرسلَتْ بهما بِلالاً إلى النبيِّ ﷺ وقالت) قد تَصدَّقْتُ به، فضعْهُ حيثُ ترَى. فقال لِبلال) اذهبْ فبِعْهُ وٱدفعْهُ إلى أهلِ ٱلصُّفَّة[5]. فباعَ ٱلقُلبينِ بدرهمينِ ونصفٍ (نحو ثلاثةَ عشرَ قرشاً) وتصدَّقَ بِهِ عليهم.

يا بنتَ النبيِّ العظيم! وأنتِ أيضاً لا يرضى لكِ أبوكِ حِليةً بدرهمينِ ونصفٍ وإنَّ في ٱلمسلمينَ فقراءَ لا يملكونَ مثلَها.

أيُّ رجلٍ شَعْبيٍّ على ٱلأرضِ كمحمدٍ ﷺ، فيهِ لِلأمةِ كلِّها غريزةُ الأب، وفيه على كلِّ أحوالِهِ اليقينُ ٱلذي لا يتحوَّل، وفيهِ ٱلطبيعةُ ٱلتامَّةُ التي يكونُ بها ٱلحقيقيُّ هو ٱلحقيقي.

يا بنتَ النبيِّ العظيم! إنَّ زينةً بدرهمينِ ونصف، لا تكونُ زينةً في رأيِ ٱلحقِّ إذا أمكنَ أنْ تكونَ صَدقةً بدرهمينِ ونصف؛ إنَّ فيها حينئذٍ معنًى غيرَ معناها؛ فيها حقُّ النفسِ غالباً على حقِّ ٱلجماعة؛ وفيها الإيمانُ بالمنفعةِ حاكماً على الإيمانِ بالخير؛ وفيها ما ليسَ بضروريّ قد جارَ على ما هو ٱلضروري؛ وفيها خطأٌ منَ ٱلكمالِ إنْ صحَّ في حِسابِ الحلالِ والحرام لم يصحَّ في حسابِ ٱلثوابِ وٱلرحمة.

تعالَوْا أيُّها ٱلاشتراكيُونَ فٱعرِفوا نبيَّكمُ ٱلأعظم؛ إنَّ مذهبَكم ما لم تُحْيِهِ

---

(١) الإهاب: هو كيس من جلد كان يتخذه العرب وعاء.

(٢) ابتدرت عيناي: دمعت.

(٣) القُلب، بالضم هو سوار من فضة.

(٤) هتكت الستر: مزقته.

(٥) الصُّفة: بالضم، هي الغرفة.

فضائلُ الإسلام وشرائعُه ـ إنَّ مذهبَكم لَكالشجرةِ ٱلذابلةِ تُعلِّقونَ عليها الأثمارَ تَشُدُّونها بالخيطِ . . . كلَّ يومٍ تَحِلُّون، وكلَّ يومٍ تَربطُون، ولا ثمرةَ في الطبيعة.

ليسَتْ قصةُ ٱلتخيير هذه مسألةً من مسائلِ الغَني والفقيرِ في معاني المادة، ولكنَّها مسألةٌ من مسائلِ ٱلكمالِ وٱلنقصِ في معاني ٱلروح؛ فهي صريحةٌ في أنَّ النبيَّ ﷺ أستاذُ الإنسانيَّةِ كلِّها؛ واجبُهُ أنْ يكونَ فضيلةً حيَّةً في كلِّ حياة، وأنْ يكونَ عَزاءً في كلِّ فقْر، وأنْ يكونَ تهذيباً في كلِّ غِنى، ومن ثَمَّ فهو في شخصِهِ وسيرتِهِ ٱلقانونُ ٱلأدبيُّ لِلجميع.

وكأنَّهُ ﷺ يُريدُ لِيُعلِّمَ الأُمَّةَ بهذهِ القصةِ أنَّ ٱلجماعاتِ لا تَصلُحُ بٱلقوانينِ وٱلشرائعِ وٱلأمرِ وٱلنهي، ولكنْ بعملِ عظمائِها في ٱلأمرِ وٱلنهي؛ وأنَّ ٱلحاكمَ على الناسِ لا ينبغي أنْ يحكمَ إلَّا إذا كانَ في نفسِهِ وطبيعتِهِ يُحسُّ فتنةَ الدنيا إحساسَ المتسلِّطِ(١) لا الخاضِع، لِيكونَ أولُ استقلالِهِ استقلالَ داخِله.

فليسَ ذلك فقْراً ولا زُهداً كما ترى في ظاهرِ ٱلقصة، ولكنَّها جُرْأَةُ ٱلنفسِ العُظمَى في تقريرِ حقائقِها ٱلعمليَّة.

* * *

وتنتهي ٱلقصةُ في عبارةِ ٱلقرآنِ ٱلكريم بتسميةِ زوجاتِهِ ﷺ: «أمَّهات المؤمنين» بعدَ أنِ ٱخترْنَ ٱللَّهَ ورسولَهُ وٱلدارَ الآخرة؛ وعلماءُ التفسيرِ يقولون: إنَّ ٱللَّهَ (تعالى) كافأهُنَّ بهذه التسمية؛ وليسَ ذلك بشيءٍ ولا فيهِ كبيرُ معنًى، وإنَّما تُشْعِرُ هذه التسميةُ بمعنًى دقيقٍ هو آيةٌ من آياتِ ٱلإعجاز؛ فإنَّ الزوجةَ الكاملةَ لا تكملُ في ٱلحياةِ ولا تكملُ ٱلحياةُ بها إلَّا إذا كانَ وصْفُها مع رجُلِها كوصفِ الأمّ: ترى ابنَها بالقلْبِ ومعانيه، لا بالغريزةِ وحُظوظِها؛ فكلُّ حياةٍ حينئذٍ مُمكنةُ ٱلسعادةِ لِهذه الزوجة، وكلُّ شقاءٍ محتمَلٌ بصبر، وكلُّ جِهادٍ فيهِ لذتُهُ ٱلطبيعيَّة، إذْ يقومُ ٱلبيتُ على الحُبِّ الذي هو الحُبُّ الخالصُ لا المنفعة، وتكونُ زينةُ الحياةِ وجودَ الحيِّ نفسِهِ لا وجودَ ٱلمادة، وتُبْنَى النفسُ على ٱلوفاءِ ٱلطبيعيِّ كوفاءِ ٱلأمّ، وذلك خُلُقٌ لا يَعْسُرُ عليهِ في سبيلِ حقيقتِهِ أنْ يتغلَّبَ على الدنيا وزينتِها.

وآخِرُ ما نستخرجُ مِنَ القصةِ في درسِ ٱلنبوَّةِ هذه الحكمة:

بِحَسْبِ المؤمنِ إذا دخَلَ دارَهُ أنْ يجدَ حقيقةَ نفسِهِ الطيِّبة، وإنْ لم يجدْ حقيقةَ كِسْرى ولا قَيصر.

---

(١) المتسلِّط: المسيطر.

شهرٌ للثورة
فلسفة الصيام

لم أقرأ لأحدٍ قولاً شافياً في فلسفةِ الصومِ وحِكمتِه؛ أمَّا منفعتُهُ لِلجسم، وأنَّهُ نوعٌ مِنَ ٱلطبِّ لَهُ، وبابٌ مِنَ السياسةِ في تَدبيرِه؛ فقد فرغَ ٱلأطباءُ من تحقيقِ ٱلقولِ في ذلك؛ وكأنَّ أيامَ هذا الشهرِ ٱلمباركِ إنْ هي إلَّا ثلاثون حبَّةً تؤخَذُ في كلِّ سنةٍ مرةً لِتقويةِ المَعِدةِ وتصفيةِ الدم وحِياطةِ أنسجةِ الجسم؛ ولكنَّا ٱلآنَ لَسْنَا بصَدَدٍ من هذا، وإنَّما نستوحي تلك الحقيقةَ الإسلاميَّةَ الكبرى التي شَرَعَتْ هذا الشرعَ لِسياسةِ الحقائقِ الأرضيَّةِ الصغيرة، عاملةً على ٱستمرارِ الفكرةِ ٱلإنسانيَّةِ فيها، كي لا تتبدَّلَ النفسُ على تغيّرِ ٱلحوادثِ وتَبَدُّلِها، ولِكيلا تجهلَ الدنيا معانيَ الترقيعِ إذا أتَتْ على هذه الدنيا معاني ٱلتمزيق.

من معجزاتِ ٱلقرآنِ الكريم أنَّه يدَّخرُ[١] في ٱلألفاظِ المعروفةِ في كلِّ زمنٍ، حقائقَ غيرَ معروفةٍ لِكلِّ زمن، فَيُجلِّيها[٢] لِوقتِها حينَ يَضِجُّ الزمانُ العلميُّ في مَتاهَتِهِ وحَيْرَتِهِ، فيَشْغَبُ[٣] على التاريخ وأهلِهِ مُسْتَخِفًّا بالأديان، ويذهبُ يتتبَّعُ ٱلحقائق، ويستقصي في فنونِ ٱلمعرفة، لِيستخلصَ من بينِ كُفْرٍ وإيمانٍ دِيناً طبيعيّاً سائغاً، يتناولُ الحياةَ أوّلَ ما يتناولُ فيضْبِطُها بأسرارِ ٱلعِلْم، ويُوجِّهُها بالعِلْمِ إلى غايتِها ٱلصحيحة، ويُضاعِفُ قُواها بأساليبِهِ ٱلطبيعيَّة، لِيُحقِّقَ في إنسانيةِ العالَمِ هذه الشَّيئيَّةَ ٱلمجهولةَ التي تتوهَّمُها ٱلمذاهبُ الاجتماعيَّةُ العلميَّةِ بينَ يدي عُلمائها: لم يحقّقوها ولم يَيْأسوا منها، وبقيَتْ تلك ٱلمذاهبُ كعقاربِ الساعةِ في دَوْرَتِها: تبدأُ من حيثُ تبدأُ ثم لا تنتهي إلَّا إلى حيثُ تبدأ. . .

* * *

يضطربُ الاشتراكيون في أوروبا وقد عجزوا عجزَ مَنْ يُحاولُ تغييرَ ٱلإنسانِ

---

(١) يدّخر: يوفّر ويختزن.

(٢) يجليها: يكشفها. (٣) يشغب: يشوّش.

بزيادةٍ ونقصٍ في أعصابِه؛ ولا يزالُ مذهبُهُم في الدنيا مذهبَ كُتُبٍ ورسائل؛ ولو أنَّهم تدبَّروا حِكمةَ ٱلصوم في ٱلإسلام، لَرأَوْا هذا الشهرَ نِظاماً عمليًّا من أقوى وأبدعِ ٱلأنظمةِ ٱلاشتراكيَّةِ ٱلصحيحة: فهذا ٱلصومُ فَقْرٌ إجباريّ تَفرضُهُ ٱلشريعةُ على الناسِ فَرضاً لِيتساوَى الجميعُ في بواطِنِهم، سواءٌ منهم مَن مَلَكَ ٱلمليونَ مِنَ ٱلدنانير، ومَن ملكَ القِرشَ الواحد، ومَنْ لم يملكْ شيئاً؛ كما يتساوَى الناسُ جميعاً في ذهابِ كِبريائِهِمُ ٱلإنسانيَّةِ بالصلاةِ ٱلّتي يفرضُها ٱلإسلامُ على كلِّ مسلم؛ وفي ذهابِ تَفَاوُتِهِمُ ٱلاجتماعِيِّ بِٱلحجّ الذي يفرضُهُ على مَنِ ٱستطاع.

فقرٌ إجباريٌّ يُرادُ بِهِ إشعارُ النفسِ ٱلإنسانيَّةِ بطريقةٍ عمليَّةٍ واضحةٍ كلَّ ٱلوضوح، أنَّ الحياةَ ٱلصحيحةَ وراءَ ٱلحياةِ لا فيها، وأنَّها إنَّما تكونُ على أتمِّها حين يتساوَى الناسُ في ٱلشعورِ لا حينَ يختلفون، وحينَ يتعاطَفُونَ بإحساسِ ٱلألمِ ٱلواحدِ لا حينَ يتنازَعونَ بإحساسِ ٱلأهواءِ ٱلمتعدِّدة.

ولو حقَّقْتَ لَرأيْتَ الناسَ لا يختلفونَ في الإنسانيَّةِ بعقولِهم، ولا بأنسابِهِم، ولا بمراتبِهِم، ولا بما ملكوا؛ وإنَّما يختلفون ببطونِهم وأحكامِ هذه البطونِ على ٱلعقلِ وٱلعاطفة؛ فمِنَ ٱلبطنِ نكبةُ ٱلإنسانيَّة، وهو ٱلعقلُ العمليُّ على الأرض؛ وإذا ٱختلفَ ٱلبطنُ وٱلدماغُ في ضرورةٍ، مدَّ البطنُ مَدَّهُ من قِوَى الهضمِ فلم يُبقِ ولم يَذَرْ.

ومن هٰهنا يتناولُهُ الصومُ بٱلتهذيبِ وٱلتأديبِ وٱلتدريب، ويجعلُ الناسَ فيهِ سواءً: ليسَ لِجميعِهِم إلَّا شعورٌ واحدٌ وحِسٌّ واحدٌ وطبيعةٌ واحدةٌ؛ ويُحْكِمُ ٱلأمرَ فيحولُ بينَ هذا البطنِ وبينَ ٱلمادة، ويُبالغُ في إحكامِهِ فيُمسِكُ حَواشيَهُ العصبيَّةَ في الجسمِ كلِّه يمنعُها تغذيتَها ولَذتَها حتى نَفْثَةً من دخينة[1].

وبهذا يضَعُ الإنسانيةَ كلَّها في حالةٍ نفسيَّةٍ واحدةٍ تَتَلَبَّسُ بها النفسُ في مشارقِ الأرضِ ومغارِبِها، ويُطْلِقُ في هذه الإنسانيَّةِ كلِّها صوتَ الروحِ يُعلِّمُ الرحمةَ ويدعو إليها، فيُشْبِعُ فيها بهذا الجوعِ فكرةً معيَّنةً هي كلُّ ما في مذهبِ الاشتراكيَّةِ مِنَ ٱلحقّ، وهي تلك الفكرةُ التي يَكونُ عنها مساواةُ الغنيّ لِلفقيرِ من طبيعتِهِ، وٱطمئنانُ الفقيرِ إلى الغنيّ بطبيعتِه؛ ومن هذينِ: (الاطمئنانِ والمساواةِ)، يكونُ هدوءُ الحياةِ بهدوءِ النفسينِ اللتينِ هما السَّلْبُ والإيجابُ في هذا الاجتماعِ ٱلإنسانيِّ؛ وإذا أنت

---

(١) الدخينة كلمة استعملها الأستاذ مصطفى صادق الرافعي للسيجارة.

نزعَتْ هذه الفكرةَ مِنَ الاشتراكيَّةِ بقي هذا المذهبُ كلُّهُ عَبَثاً مِنَ العبَثِ في محاولةِ جعْلِ التاريخِ الإنسانيِّ تاريخاً لا طبيعةَ له.

* * *

من قواعدِ النفسِ أنَّ الرحمةَ تنشأُ عنِ ٱلألم، وهذا بعضُ السرِّ الاجتماعيِّ ٱلعظيمِ في ٱلصوم، إذْ يُبالِغُ أشدَّ المبالغة، ويدقِّقُ كلَّ التدقيق، في منعِ الغِذاء وشبهِ الغِذاءِ عنِ ٱلبطنِ وحواشيهِ مدةً آخرُها آخرُ ٱلطاعة؛ فهذه طريقَةٌ عمليَّةٌ لِتربيةِ الرحمةِ في النفس، ولا طريقةَ غيرُها إلَّا ٱلنكباتُ وٱلكوارث؛ فهما طريقتانِ كما ترى: مُبصِرةٌ وعمياء، وخاصةٌ وعامَّة، وعلى نِظامٍ وعلى فَجْأَة.

ومتى تحقَّقتْ رحمةُ الجائعِ الغنيِّ لِلجائعِ ٱلفقير، أصبحَ لِلكلمةِ ٱلإنسانيَّةِ الداخليَّة سلطانُها النافذ، وحَكَمَ ٱلوازعُ[1] النفسِيُّ على ٱلمادة؛ فيسمعُ الغنيُّ في ضميرِهِ صوتَ الفقيرِ يقول: «أعطني». ثُمَّ لا يسمعُ منهُ طلباً مِنَ الرجاء، بل طلباً مِنَ الأمرِ لا مفرَّ من تلبيتِهِ والاستجابةِ لِمعانيه، كما يُواسي ٱلمبتَلَى مَنْ كانَ في مثلِ بلائهِ.

أيةُ معجزةٍ إصلاحيَّةٍ أعجبُ من هذه المعجزةِ الإسلاميَّةِ التي تقضي أنْ يُحذَفَ مِنَ الإنسانيَّةِ كلِّها تاريخُ البطنِ ثلاثينَ يوماً في كلِّ سنة، لِيحِلَّ في محلِّهِ تاريخُ النفس؟ وأنا مُستيقِنٌ أنَّ هناك نسبةً رياضيَّةً هيَ ٱلحِكمةُ في جعلِ هذا الصومِ شهراً كاملاً من كلِّ ٱثني عشرَ شهراً، وأنَّ هذه النسبةَ متحقِّقةٌ في أعمالِ ٱلنفسِ لِلجسم، وأعمالِ ٱلجسمِ لِلنفس؛ كأنَّهُ ٱلشهرُ الصِّحيُّ ٱلذي يفرضُهُ الطِّبُّ في كلِّ سنةٍ لِلراحةِ وٱلاستجمام[2] وتغييرِ ٱلمعيشة، لِأحداثِ ٱلترميمِ العصبيِّ في ٱلجسم، ولَعلَّ ذلك آتٍ مِنَ العلاقةِ بينَ دَوْرةِ الدم في ٱلجسمِ ٱلإنسانيِّ وبينَ ٱلقمرِ منذُ يكونُ هِلالاً إلى أنْ يدخلَ في ٱلمُحَاق؛ إذ تنتفخُ العروقُ وتَربو في النصفِ الأولِ مِنَ ٱلشهر، كأنَّها في (مَدّ) من نورِ القمرِ ما دام هذا النورُ إلى زيادة، ثم يُراجعُها (الجَزْرُ) في النصفِ الثاني حتى كأنَّ لِلدمِ إضاءةً وظلاماً. وإذا ثبَتَ أنَّ لِلقمرِ أثراً في الأمراضِ ٱلعصبيَّة، وفي مدِّ الدمِ وجَزرِهِ[3]، فهذا من أعجبِ ٱلحِكمةِ في أنْ يكونَ الصيامُ شهراً قمريًّا دونَ غيره.

---

(١) الوازع: الرّادع.

(٢) الاستجمام: الراحة.

(٣) الجزر: انحسار ماء البحر وانخفاضه عكس المدّ.

وفي ترائي الهلالِ ووجوبِ الصومِ لِرؤيتِهِ معنًى دقيقٌ آخر، وهو ـ مع إثباتِ رؤيةِ ٱلهلالِ وإعلانِها ـ إثباتُ الإرادةِ وإعلانُها، كأنَّما ٱنبعثَ أولُ الشعاعِ السماويِّ في التنبيهِ الإنسانيِّ العامِّ لِفروضِ ٱلرحمةِ وٱلإنسانيَّةِ وٱلبرّ.

وهنا حِكمةٌ كبيرةٌ من حِكَمِ ٱلصوم، وهي عملُهُ في تربيةِ ٱلإرادةِ وتقويتِها بهذا الأسلوبِ ٱلعمليّ، ٱلذي يُدَرّبُ الصائمَ على أن يمنعَ باختيارهِ من شهواتِهِ ولذّةِ حيوانيتِه، مُصِرًّا على ٱلامتناع، مُتَهيِّئاً لَهُ بعزيمتِه، صابراً عليهِ بأخلاقِ ٱلصبر، مُزاوِلاً في كلِّ ذلك أفضلَ طريقةٍ نفسيَّةٍ لاِكتسابِ ٱلفكرةِ الثابتةِ ترسَخُ لا تتغيَّرُ ولا تتحوَّل، ولا تعدو عليها عوادي ٱلغريزة.

وإدراكُ هذه القوَّةِ مِنَ ٱلإرادةِ ٱلعمليَّةِ منزلةٌ ٱجتماعيةٌ سامية، هي في ٱلإنسانيَّةِ فوقَ منزلةِ ٱلذكاءِ والعِلْم، ففي هذين تعرضُ ٱلفكرةُ مارّةً مُرورَها، ولكنَّها في ٱلإرادةِ تعرِضُ لِتستقرّ وتتحقَّق. فانظرْ في أي قانونٍ مِن ٱلقوانين، وفي أيَّةِ أمَّةٍ مِنَ الأمم، تجدُ ثلاثينَ يوماً من كلِّ سنةٍ قد فُرِضَتْ فرضاً لِتربيةِ إرادةِ الشعبِ ومزاولتِهِ فكرةً نفسيّةً واحدةً بخصائصِها ومُلابساتِها حتى تستقرَّ وترسخَ وتعودَ جزءاً من عملِ ٱلإنسان، لا خيالاً يمرُّ برأسِهِ مَرًّا.

ألَيستْ هذه هي إتاحةَ[1] الفرصةِ العمليَّةِ التي جعلوها أساساً في تكوينِ الإرادة؟ وهل تبلغُ الإرادةُ فيما تبلغ، أعلى من منزلتِها حينَ تجعلُ شهواتِ المرءِ مُذْعِنةً لِفكرِهِ، مُنقادةً لِلوازعِ النفسيّ فيه، مُصَرَّفَةً بِالحسِّ الدينيِّ المسيطِرِ على النفسِ ومشاعِرِها.

أمَا ـ والله ـ لو عمَّ هذا الصومُ الإسلاميُّ أهلَ ٱلأرضِ جميعاً، لآلَ معناهُ أَنْ يكونَ إجماعاً مِنَ ٱلإنسانيَّةِ كلِّها على إعلانِ الثورةِ شهراً كاملاً في السنة، لِتطهيرِ العالَمِ من رذائلهِ وفسادِه، ومَحْقِ[2] الأَثَرَةِ والبخلِ فيه، وطَرْحِ المسألةِ النفسيَّةِ لِيتدَارَسَها أهلُ الأرضِ دِراسةً عمليَّةً مدةَ هذا الشهرِ بطولهِ، فيَهبطُ كلُّ رجُلٍ وكلُّ ٱمرأةٍ إلى أعماقِ نفسِهِ ومَكامِنِها، لِيختبرَ في مصنعِ فكرِهِ معنى ٱلحاجةِ ومعنى الفقر، ولِيفهمَ في طبيعةِ جسمِهِ ـ لا في الكتب ـ معانيَ الصبرِ والثباتِ والإرادة، ولِيبلغَ من ذلك وذلك درجاتِ الإنسانيَّةِ والمواساةِ والإحسان؛ فيُحقِّقُ بهذه وتلك معانيَ ٱلإخاءِ والحريَّةِ وٱلمساواة.

---

(١) إتاحة: إفساح المجال.

(٢) محق: محو.

شهرٌ هو أيامٌ قلبيَّةٌ في الزمن؛ متى أشرفَتْ على الدنيا قالَ الزمنُ لِأهلِه: هذه أيامٌ من أنفسِكم لا من أيامي، ومن طبيعتِكم لا من طبيعتي؛ فيُقْبِلُ ٱلعالَمُ كلُّهُ على حالةٍ نفسيَّةٍ بالغةِ السموّ، يتعهَّدُ فيها النفسَ برياضتِها على معالي الأمورِ ومكارمِ الأخلاق، ويفهمُ الحياةَ على وجهٍ آخرَ غير وجهِها الكالح، ويراها كأنَّما أجِيعَتْ من طعامِها ٱليوميّ كما جاعَ هو، وكأنَّما أُفرِغَتْ من خَسائِسها وشهواتِها كما فَرَغَ هو، وكأنَّما أُلْزِمَتْ معانيَ ٱلتقوى كما أُلْزِمَها هو. وما أجملَ وأبدعَ أنْ تَظهرَ ٱلحياةُ في العالمِ كلِّهِ ـ ولو يوماً واحداً ـ حاملةً في يدِها السُّبْحة. . . . ! فكيف بها على ذلك شهراً من كلِّ سنة؟

إنَّها ـ واللَّهِ ـ طريقةٌ عمليةٌ لِرسوخِ فكرةِ الخيرِ والحقِّ في النفس؛ وتطهيرِ ٱلاجتماعِ من خسائسِ ٱلعقلِ ٱلماديّ؛ وردٌ هذه الطبيعةِ الحيوانيَّةِ المحكومةِ في ظاهرِها بالقوانين، والمحرَّرةِ مِنَ القوانين في باطنِها ـ إلى قانونٍ من باطنِها نفسِهِ يُطهِّرُ مَشَاعرَها، ويسمو بإحساسِها، ويَصْرِفُها إلى معاني إنسانيَّتِها، ويُهذِّبُ من زياداتِها، ويحذفُ كثيراً من فُضُولها، حتى يرجعَ بها إلى نحوٍ من بَراءةِ ٱلطفولة، فيجعلَها صافيةً مُشْرِقةً بما يجتذبُ إليها من معاني الخيرِ والصفاءِ وٱلإشراقِ؛ إذْ كانَ من عملِ الفكرةِ الثابتةِ في ٱلنفسِ أنْ تدعوَ إليها ما يُلائمُها ويتَّصِلَ بطبيعتِها منَ الفِكَرِ الأخرى. والنفسُ في هذا الشهرِ مُحْتَبَسَةٌ في فكرةِ الخيرِ وحدَها، فهي تبني بناءَها من ذلك ما ٱستطاعَتْ.

هذا على الحقيقةِ ليسَ شهراً مِنَ الأشهر، بل هو فصلٌ نَفسانِيٌّ كفصولِ الطبيعةِ في دَوَرَانها؛ ولَهُوَ ـ واللَّهِ ـ أشبهُ بفصلِ الشتاءِ في حلولِهِ على الدنيا بالجوِّ الذي من طبيعتِهِ ٱلسحُبُ وٱلغيث، ومن عملِهِ إمدادُ ٱلحياةِ بوسائلَ لَها ما بعدَها إلى آخرِ السنة، ومن رياضتِهِ أنْ يُكْسِبَها ٱلصلابةَ وٱلانكماشَ وٱلخِفَّة، ومن غايتِهِ إعدادُ الطبيعةِ لِلتفتُّحِ عن جمالِ باطنِها في ٱلربيعِ الذي يتلوه.

وعجيبٌ جدًّا أنَّ هذا الشهرَ الذي يَدَّخِرُ فيهِ الجسمُ من قُواهُ المعنويَّةِ فيُودِعُها مَصْرِفَ روحانيَّتِه، لِيجدَ منها عندَ الشدائدِ مَدَدَ ٱلصبرِ وٱلثباتِ والعزمِ والجَلدِ والخشونةِ ـ عجيبٌ جدًّا أنَّ هذا الشهرَ الاقتصاديَّ هو من أيام السنةِ كفائدة $8\frac{1}{3}$ في المائة. . . فكأنَّهُ يُسجِّلُ في أعصابِ المؤمنِ حسابَ قوَّتِهِ وربحِهِ فلَهُ في كلِّ سنةٍ زيادة $8\frac{1}{3}$ من قوّتِهِ المعنويَّةِ الرُّوحانيَّة.

وسحْرُ العظائمِ في هذه الدنيا إنَّما يكونُ في الأمَّةِ التي تعرفُ كيفَ تَدَّخرُ هذه

القوّةَ وتُوفِّرُها لِتستمدّها عندَ الحاجة، وذلك هو سِرُّ أسلافِنا الأولينَ الذينَ كانوا يجدون على الفقرِ في دِمائِهم وأعصابِهم ما تجدُ الجيوشُ العظمى ٱليومَ في مخازنِ العَتادِ والأسلحةِ والذخيرة.

***

كلُّ ما ذكرْتُهُ في هذا المقالِ من فلسفةِ الصوم؛ فإنّما ٱستخرجْتُهُ من هذه الآيةِ الكريمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. وقد فهمها العلماءُ جميعاً على أنّها معنى «التقوى»، أمّا أنا فأوّلْتُها من «الاتّقاء»؛ فبالصوم يتّقِي ٱلمرءُ على نفسِهِ أنْ يكونَ كالحيوانِ الذي شريعتُهُ مَعِدَتُه، وألّا يُعامِلَ الدنيا إلّا بموادِّ هذه الشريعة؛ ويتّقِي ٱلمجتمعُ على إنسانيّتِهِ وطبيعتِهِ مثلَ ذلك، فلا يكونُ إنسانٌ مَعَ إنسانٍ كحمارٍ معَ إنسانٍ: يبيعُهُ القوّةَ كلَّها بالقليلِ مِنَ ٱلعَلَف.

وبالصومِ يتّقي هذا وهذا ما بينَ يديه وما خلفَه، فإنَّ ما بينَ يديهِ هو الحاضرُ من طباعِهِ وأخلاقِهِ، وما خَلْفَهُ هوَ الجيلُ الذي سَيرِثُ من هذه الطبّاعِ والأخلاق، فيعملُ بنفسِهِ في الحاضر، ويعملُ بِالحاضرِ في الآتي.

وكلُّ ما شرحْنَاهُ فهو ٱتقاءُ ضررٍ لِجلْبِ منفعة، وٱتقاءُ رذيلةٍ لِجلبِ فضيلة؛ وبهذا التأويلِ تتوجّهُ ٱلآيةُ ٱلكريمةُ جهةً فلسفيّةً عاليّةً، لا يأتي البيانُ ولا العِلْمُ ولا الفلسفةُ بأوجزَ[1] ولا أكملَ من لفظِها؛ ويتوجّهُ الصيامُ على أنّهُ شريعةٌ ٱجتماعيّةٌ إنسانيّةٌ عامّة؛ يتّقي بها ٱلاجتماعُ شرورَ نفسِه؛ ولنْ يتهذّبَ العالَمُ إلّا إذا كانَ لَهُ مَعَ القوانينِ النافذةِ هذا القانونُ العامُّ الذي ٱسمُهُ الصومُ، ومعناه «قانونُ البطن»....

ألا ما أعظمَكَ يا شهرَ رمضان! لو عَرَفَك العالَمُ حقَّ معرفتِكَ لَسَمّاك: «مدرسة الثلاثين يوماً».

(١) أوجز: أخصر، أبلغ.

ثباتُ الأخلاق

لو أنَّني سُئلْتُ أنْ أُجمِلَ فلسفةَ الدينِ الإسلاميِّ كلَّها في لفظين، لقلْتُ: إنَّها ثباتُ الأخلاقِ «ولو سُئل أكبرُ فلاسفةِ الدنيا أنْ يُوجِزَ علاجَ الإنسانيَّةِ كلَّهُ في حرفين، لَمَا زاد على القول: إنَّهُ ثباتُ الأخلاق. ولوِ اجتمعَ كلُّ علماءِ أوربا لِيدرسوا المدنيةَ الأوربيَّةَ ويَحصُرُوا ما يُعْوِزُها في كلمتينِ لقالوا: ثباتُ الأخلاق.

فليسَ ينتظرُ العالَمُ أنبياءَ ولا فلاسفةً ولا مُصلحينَ ولا علماءَ يُبدعونَ لَهُ بِدْعاً جديداً؛ وإنَّما هو يترقَّبُ[1] مَنْ يستطيعُ أنْ يفسرَ لَهُ الإسلامَ هذا التفسير، ويُثبِتَ لِلدنيا أنَّ كلَّ ٱلعباداتِ الإسلاميَّةِ هي وسائلُ عمليَّةٌ تمنعُ ٱلأخلاقَ ٱلإنسانيَّةَ أنْ تتبدَّلَ في الحيّ فيخلعَ منها ويَلبَس، إذا تبدلَتْ أحوالُ الحياةِ فصعِدَتْ بإنسانِها أو نزلت؛ وأنَّ الإسلامَ يأبَى على كلِّ مسلم أنْ يكونَ إنسانَ حالتِهِ التي هو فيها مِنَ الثروةِ أو ٱلعُلُوم، ومنَ الارتفاعِ أوِ الضَّعَةِ[2]، ومن خمولِ المنزلةِ أو نَباهتِها[3]؛ ويُوجِبُ على كلِّ مسلم أنْ يَكونَ إنسانَ الدرجةِ التي انتهى إليها ٱلكونُ في سموِّهِ وكمالِه، وفي تقلُّبِهِ على مَنازِلِهِ بعدَ أنْ صُفِّيَ في شريعةٍ بعدَ شريعة، وتجربةٍ بعدَ تجربة، وعِلْمٍ بعدَ عِلْم.

انتَهتِ ٱلمدنيَّةُ إلى تبدُّلِ ٱلأخلاقِ بتبدُّلِ أحْوالِ ٱلحياة، فمَنْ كانَ تقيًّا على ٱلفقرِ وٱلإملاقِ[4] وحَرَمَهُ ٱلإعسارُ[5] فُنونَ اللذة، ثُمَّ أيسرَ من بعدُ؛ جازَ لَهُ أنْ يكونَ فاجراً على الغِنى وأنْ يتسمَّحَ لِفُجورِهِ على مَدِّ ما يتطوَّحُ بهِ ٱلمال، وإنْ أصبَحَ في كلِّ دينارٍ من مالِهِ شقاءُ نفسٍ إنسانيَّةٍ أو فسادُها.

ومَنْ وُلِدَ في بطنِ كُوخ، أو على ظَهرِ الطريق، وجبَ أنْ يبقى أرضاً إنسانيَّة؛ كأنَّ ٱللَّهَ (سبحانَهُ) لم يَبْنِ من عظامِهِ ولحمِه وأعصابِهِ إلَّا خَرِبةً آدميةً من غيرِ هندسةٍ

(١) يترقّب: ينتظر.
(٢) الضّعة: المذلة.
(٣) نباهتها: علو منزلتها.
(٤) الإملاق: الفقر الشديد المدقع.
(٥) الإعسار: الفقر.

ولا نظام ولا فنّ . . . ثُمَّ يُقابلُهُ مَن وُلِدَ في القصرِ أو شبهِ ٱلقصرِ فلهُ حكمٌ آخر، كأنَّ الله (سبحانَه) قد ركَّبَ من عظمِهِ ودمِهِ وتكوينِه آيةً هندسيةً وأعجوبةَ فنٍّ، وطُرْفَةَ تدبيرٍ، وشيئاً معَ شيء، وطبقةً على طبقة.

ولكنَّ الإسلامَ يُقرِّرُ ثَباتَ ٱلخُلُقِ ويُوجبُهُ ويُنشىءُ النفسَ عليه، ويجعلُهُ في حِياطةِ المجتمعِ وحِراستِه، لأنَّ هناك حدوداً في الإنسانيَّةِ تتميزُ بحدودٍ في ٱلحياة، ولا بدَّ مِنَ ٱلضبطِ في هذه وهذه، حتى لا يكونَ وَضْعٌ إلَّا وراءَهُ تقدير، ولا تقديرٌ إلَّا معَهُ حِكمة، ولا حِكمةٌ إلَّا فيها مصلحة؛ وحتى لا تعلوَ ٱلحياةُ ولا تنزلَ إلا بمثلِ ما ترى من كِفَّتَيْ ميزانٍ شُدَّتا في عَلاقةٍ تجمعُهما وتحرِّكُهما معاً، فهي بذاتِها هي التي تنزلُ بالنازلِ لتَدُلَّ عليه، وتَشِيلُ بالعالي لِتبينَ عنه؛ فالإسلامُ مِنَ المدنيَّةِ هو مدنيَّةُ هذه المدنيَّة.

* * *

إنَّها لنْ تتغيرَ مادةُ ٱلعظمِ وٱللحمِ وٱلدمِ في ٱلإنسانِ فهي ثابتةٌ مقدَّرةٌ عليه، ولنْ تتبدلَ ٱلسُّنَنُ الإلهيةُ التي تُوجدُها وتُفنيها فهي مُصرِّفةٌ لها قاضيةٌ عليها، وبينَ عملِ هذه المادةِ وعملِ قانونِها، فيها تكونُ أسرارُ التكوين: وفي هذه الأسرارِ تجدُ تاريخَ الإنسانيَّةِ كلَّه سابحاً في الدم.

هي الغرائزُ تعملُ في الإنسانيَّةِ عمَلَها الإلهي، وهي محدَّدةٌ محكمَةٌ على ما يكونُ من تَعاديها وٱختلافِ بينِها، وكأنها خُلِقَتْ بمجموعِها لِمجموعِها؛ ومن ثَمَّ يكونُ ٱلخُلُق الصحيحُ في معناهُ قانوناً إلهيًّا على قوةٍ كقوةِ الكوْنِ وضبطٍ كضبطِه.

وبهذِه القوةِ وهذا الضبطِ يستطيعُ ٱلخُلُق أنْ يحوِّلَ ٱلمادةَ التي تُعارضُهُ إذا هوَ ٱشتدَّ وصَلُب، ولكنَّهُ يتحوَّلُ معها إذا هو لَانَ أو ضعُف. فهو قَدَرٌ إلَّا أنَّهُ في طاعتِك، إذْ هو قوةُ الفصْلِ بين إنسانيتِكِ وحيوانيتِك، كما أنَّهُ قوةُ المَزْجِ بينَهما، كما أنَّهُ قوةُ التعديلِ فيهما، وقد سَوَّغَ[1] القُدرةَ على هذه الأحوالِ جميعاً، ولولا أنَّهُ بهذه المثابةِ لَعاشَ الإنسانُ طولَ التاريخِ قبلَ التاريخ، إذْ لن يكونَ لَهُ حينئذٍ كَوْنٌ تؤرِّخُ فضائلُهُ أو رذائلُهُ بمدحٍ أو ذَمّ.

فلا عِبرةَ[2] بمظهرِ ٱلحياةِ في ٱلفرد، إذِ ٱلفردُ مقيدٌ في ذاتِ نفسِه بمجموعٍ هو

(١) سوَّغ: علَّل وسمح.

(٢) عِبرة، بكسر العين: الدرس والأمثولة.

لِلمجموعِ وليسَ لَهُ وحدَه: فإنَّك ترى ٱلغرائزَ دائبةً[1] في إيجادِ هذا الفردِ لِنوعِهِ بسُننٍ من أعمالِها، ودائبةً كذلك في إهلاكِهِ في ٱلنوعِ نفسِهِ بسُننٍ أخرى؛ فليسَ قانونُ ٱلفردِ إلَّا أمراً عارضاً كما ترى؛ وبهذا يُمكنُ أنْ يتحوَّلَ الفردُ على أسبابٍ مختلفة، ثم تبقى ٱلأخلاقُ التي بينَهُ وبينَ ٱلمجموعِ ثابتةً على صورتِها.

فالأخلاقُ على أنَّها ٱلأفراد، هي في حقيقتِها حُكْمُ ٱلمجتمعِ على أفرادِه؛ فقِوامُها بٱلاعتبارِ ٱلاجتماعيِّ لا غير.

❊ ❊ ❊

وحينَ يقعُ الفسادُ في ٱلمُجْمَعِ عليهِ من آدابِ ٱلناسِ، ويلْتوي ما كانَ مستقيماً، وتَشْتَبِهُ ٱلعاليةُ وٱلسافِلَة[2]، وتُطَّرَحُ[3] ٱلمبالاةُ بِٱلضمير ٱلاجتماعيِّ، ويقومُ وزنُ ٱلحكم في ٱجتماعِهم على ٱلقبيحِ وٱلمنكَر، وتجري ٱلعِبْرَةُ فيما يعتبرونَهُ بٱلرذائلِ وٱلمحرَّمات، ولا يُعجِبُ الناسَ إلَّا ما يُفسِدُهُم، ويقعُ ذلك منهم بموقعِ ٱلقانونِ ويَحِلُّ في محلِّ ٱلعادة؛ فهناك لا مِساكَ لِلخُلُقِ ٱلسليم على فرد، ولا بدَّ من تحوُّلِ الفردِ في حقيقتِه؛ إذْ كانَ لا يجيءُ أبداً إلَّا مُتَصَدِّعاً[4] في كلِّ مظاهرِهِ ٱلاجتماعيَّة، فأينما وقعَ من أعمالِ ٱلناسِ جاءَ مكسوراً أو مثْلوماً، وكأنَّهُ منتقِلٌ من عالَمٍ إلى عالمٍ ثانٍ بغيرِ نواميسِ الأول.

وما شذَّ من هذه القاعدةِ إلَّا الأنبياءُ وأفرادٌ مِنَ ٱلحكماء؛ فأمَّا أولئك فهم قوةُ ٱلتحويلِ في تاريخِ ٱلإنسانيَّة: لا يُبعَثُ أحدُهم إلا لِيهَيجَ بهِ الهَيْجُ في التاريخ، ويتطرَّقَ بهِ الناسُ إلى سُبُلٍ جديدةٍ كأنَّما تطردُهُم إليها ٱلعواصفُ وٱلزلازلُ وٱلبراكينُ، لا شريعتُهُ ومبادئُهُ وآدابُه؛ وأمَّا ٱلحُكماءُ ٱلناضجونَ فيهم دائماً في هذه الإنسانيَّةِ أمكنةٌ بشريَّةٌ مُحَصَّنةٌ لِحفظِ كنوزِها وإحرازِها في أنفسِهِم، فلهم في ذاتِ أنفسِهم عِصْمةٌ ومَنَعَةٌ كالجبالِ في ذاتِ ٱلأرض.

❊ ❊ ❊

الأخلاقُ في رأيي هي ٱلطريقةُ لِتنظيم ٱلشخصيَّةِ ٱلفرديَّةِ على مقتضى ٱلواجباتِ ٱلعامّة، فالإصلاحُ فيها إنّما يكونُ من عملِ هذه الواجبات، أي من ناحيةِ ٱلمجتمعِ والقائمينَ على حُكمِه. وعندي أنَّ للشعب ظاهراً وباطناً؛ فباطِنُهُ هو الدينُ

---

(١) دائبة: مستمرة بطلبها.

(٢) السافلة: الرعاع.

(٣) تُطَرح: تُرمى وتُتجاهل.

(٤) متصدعاً: متهدماً.

الذي يَحكم ٱلفردَ، وظاهِرُهُ هو القانونُ الذي يحكمُ الجميع، ولن يصلُحَ لِلباطنِ ٱلمتصلِ بٱلغيبِ إلَّا ذلك ٱلحكمُ ٱلدينيُّ ٱلمتصِلُ بِالغيبِ مثلَه؛ ومن هنا تتبيَّنُ مواضعُ ٱلاخْتلَالِ في المَدنيَّةِ الأوربيَّةِ الجديدة؛ فهي في ظاهرِ ٱلشعبِ دونَ باطنِه، والفردُ فاسِدٌ بها في ذاتِ نفسِهِ إذا هو تحلَّلَ مِنَ الدين، ولكنَّهُ معَ ذلك يبدو صالحاً منتظماً في ظاهرِهِ ٱلاجتماعيِّ بالقوانينِ وبالآدابِ العامةِ التي تفرضُها ٱلقوانين، فلا يبرحُ هازئاً مِنَ ٱلأخلاقِ ساخراً بها؛ لأنَّها غيرُ ثابتةٍ فيه، ثُمَّ لا تكونُ عندَهَ أخلاقاً يَعتَدُّ بها إلَّا إذا درَّتْ بها منافعُه، وإلَّا فهي ضارَّةٌ إذا كانَتْ منها مَضرَّة، وهي مُؤلمةٌ إذا حالَتْ دونَ ٱللذات. ولا ينفكُّ هذا الفردُ يتحولُ لأنَّهُ مطلَقٌ في باطنِهِ غيرُ مقيَّدٍ إلَّا بأهوائِهِ ونزعاتِه، وكلمَتَا الفضيلةِ والرذيلةِ معدومتانِ في لغةِ ٱلأهواءِ والنزَعات؛ إذِ ٱلغايةُ ٱلمتاعُ واللذةُ والنجاحُ، ولْيكُنِ ٱلسببُ ما هو كائن...

وبهذا فلَنْ تقومَ ٱلقوانينُ في أوربا إذا فَنِيَ المؤمنونَ بالأديانِ فيها أو كاثَرهمُ[1] ٱلملحدون، وهُمُ اليومَ يُبْصرونَ بأعينِهم ما فعلَتْ عقيلةُ ٱلحربِ العظمى في طوائفَ منهم قد خَرِبَتْ أنفُسُهم من إيمانِهم فتحولوا ذلك التحوُّلَ الذي أومأْنا إليه، فإذا أعصابُهم بعدَ الحربِ ما تزالُ محاربةً مقاتلةً ترمي في كلِّ شيءٍ برُوحِ ٱلدم وٱلأشلاءِ والقبورِ والتعفُّنِ والبِلَى... وٱنتَهتِ ٱلحربُ بينَ أممٍ وأمم، ولكنها بدأَتْ بين أخلاقٍ وأخلاقٍ.

وقديماً حاربَ المسلمون، وفتحوا العالم، ودوَّخوا الأمم؛ فأثبتوا في كلِّ أرضٍ هَدْيَ دينِهم وقوةَ أخلاقِهمُ ٱلثابتة، وكانَ من وراءِ أنفسِهم في ٱلحربِ ما هو من ورائِها في السِّلم، وذلك بثباتِ باطنِهِمُ الذي لا يتحوّل، ولا تستخفُّهُ ٱلحياةُ بنزَقِها، ولا تسفَّهُهُ[2] ٱلمدنيَّاتُ فتحملُهُ على الطيش.

ولو كانوا هَمْ أهلَ هذه الحربِ الأخيرةِ بكلِّ ما قَذَفَتْ بِهِ الدنيا. لَبقيَتْ لهمُ ٱلعقليةُ ٱلمؤمنةُ ٱلقويَّة، لأنَّ كلَّ مسلم فإنَّما هوو عقيلتُهُ في سلطانِ باطنِهِ ٱلثابتِ القارِّ على حدودٍ بيِّنةٍ مُحصَّلةٍ مقسومَةٍ، تحوطُها وتُمسكُها أعمالُ الإيمانِ ٱلتي أحكمَها ٱلإسلامُ أشدَّ إحكام بفَرْضِها على النفوسِ منوَّعةً مكررةً: كالصلاةِ وٱلصوم وٱلزكاة، لِيمنعَ بها تغيُّراً ويُحدِثَ بها تغيُّراً آخر، ويجعلَها كالحارسةِ لِلإرادةِ ما تزالُ تمرُّ بها وتتعهدُها بينَ ٱلساعةِ والساعة.

إنَّما ٱلظاهرُ وٱلباطنُ كٱلموجِ وٱلساحل؛ فإذا جُنَّ ٱلموجُ فلنْ يَضِيرَهُ ما بقيَ

---

(١) كاثرهم: فاخرهم بكثرته.

(٢) تسفهه: تنزل به إلى الحضيض.

ٱلساحلُ ركيناً هادئاً مشدُوداً بأَعْضَادِهِ في طبقاتِ ٱلأرض. أمَّا إذا ماجَ الساحل . . . فذلك أسلوبٌ آخرُ غيرُ أسلوبِ ٱلبحارِ وٱلأعاصير؛ ولا جَرَمَ[1] ألَّا يكونَ إلَّا خَسْفاً بالأرضِ وٱلماءِ وما يتَّصلُ بهما.

* * *

في ٱلكونِ أصلٌ لا يتغيرُ ولا يتبدَّل، هو قانونُ ضبطِ ٱلقوَّةِ وتصريفِها وتوجيهِها على مُقتضى ٱلحِكْمة. ويُقابلُهُ في ٱلإنسانِ قانونٌ مثلُهُ لا بدَّ منه لِضبطِ معاني ٱلإنسانِ وتصريفِها وتوجيهِها على مُقتضى ٱلكمال. وكلُّ فروضِ ٱلدينِ ٱلإسلاميِّ وواجباتُهُ وآدابُه، إنْ هي إلَّا حركةُ هذا القانونِ في عملِه؛ فما تلك إلَّا طُرُقٌ ثابتةٌ لِخَلْقِ الحِسِّ الأدبيّ، وتثبيتِه بِٱلتكرار، وإدخالِهِ في ناموسٍ طبيعيٍّ بإجرائِهِ في الأنفُسِ مَجرى العادة، وجعلِهِ بكلِّ ذلك قوةً في باطنِها، فتُسمَّى الواجباتُ والآدابُ فروضاً دينيَّةً؛ وما هي في الواقعِ إلَّا عناصرُ تكوينِ ٱلنفسِ العالية، وتكونُ أوامرَ وهي حقائق.

ومن ذلك أرانا ـ نحنُ الشرقيينَ ـ نمتازُ على الأوربيينَ بأنَّنا أقربُ منهم إلى قوانينِ الكون؛ ففي أنفسِنا ضوابطُ قويَّةٌ متينةٌ إذا نحنُ أقرَرْنا مدينتَهم فيها ـ وهي بطبيعتِها لا تقبلُ إلَّا محاسنَ هذه المدنية ـ سبقناهم وتركْنا غبارَ أقدامنا في وجوهِهم، وكنَّا ٱلطبقةَ المُصَفَّاةَ التي يَنْشُدونَها[2] في إنسانيتِهِمُ ٱلراهنةِ[3] ولا يجدونَها، ونمتازُ عنهم من جِهةٍ أخرى بأنَّنا لم نُنْشِئْ هذه المدنيَّةَ ولم تُنشِئْنا، فليسَ حقًّا علينا أنْ نأخذَ سيئاتِها من حسناتِها، وحماقَتَها في حِكمتِها، وتزويرَها في حقيقتِها؛ وأنْ نُسيغَ[4] منها ٱلحُلوةَ وٱلمُرَّة، وٱلناضجةَ والفجَّة؛ وإنَّما نحن نُحَصِّلُها ونقتبسُها ونَرتَجِعُ منها ٱلرَّجْعَةَ ٱلحسنة؛ فلا نأخذُ إلَّا الشيءَ ٱلصالحَ مكانَ الشيءِ قدْ كانَ دونَهُ عندَنا ونَدَعُ ما سوى ذلك؛ ثُمَّ لا نأخذُ ولا نَدَعُ إلَّا على الأصولِ الضابطةِ المحكمةِ في أديانِنا وآدابِنا؛ ولَسْنا مثلَهُم متصلينَ من حاضرِ مدنيتِهِم بمثلِ ماضيهم، بيدَ أنَّ العجَبَ الذي ما يفرغُ عَجبي منه، أنَّ الموسومِيْنَ[5] مِنَّا بالتجديدِ لا يُحاولونَ أولَ وَهْلةٍ وآخرَها إلَّا هدمَ تلك الضوابطِ التي هي كلُّ ما نمتازُ بِه، والتي هي كذلك كلُّ ما تحتاجُ إليهِ أوربا لِضبطِ مدنيتِها؛ ويسمون ذلك تجديداً، ولَهُوَ بأنْ يسمَّى حماقةً وجَهْلاً أولى وأحقّ.

---

(١) لا جرمَ: لا شكَّ.

(٢) ينشدونها: يطلبونها.

(٣) الراهنة: الحالية.

(٤) نُسيغ: نجد طعم.

(٥) الموسومِيْنَ: المعروفين بطابع التجديد.

أقولُ ولا أُبالي: إنَّنا ٱبتُلِينا في نهضتِنا هذه بقومٍ منَ ٱلمترجمينَ قدِ ٱحترفوا[١] النقلَ من لغاتِ أوربا، ولا عقلَ إلَّا عقلُ ما ينقلونَه: فصَنَعْتُهمُ ٱلترجمةُ من حيثُ يدرونَ أو لا يدرونَ صنعةُ تقليدٍ مَحْضٍ ومُتَابَعةٍ مُسْتعبَدة، وأصبحَ عقلُهم ـ بحكمِ ٱلعادةِ وٱلطبيعة ـ إذا فكَّر ٱنجذَبَ إلى ذلك الأصلِ لا يخرجُ عليهِ ولا يتحوَّلُ عنه. وإذا صحَّ أنَّ أعمالَنا هي التي تَعملُنا ـ كما يقولُ بعضُ ٱلحُكماءِ ـ فهم بذلك خطَرٌ أيُّ خطرٍ على الشعبِ وقوميتِهِ وذاتيتِهِ وخصائصِه، ويُوشِكُ إذا هو أطاعَهم إلى كلِّ ما يدعُون إليهِ أنْ. . . أنْ يترجمُوه إلى شعبٍ آخر. . .

* * *

إنَّ أوربا ومدنيَّتَها لا تُساوِي عندَنا شيئاً إلَّا بمِقدارِ ما تُحقِّقَ فينا منِ ٱتساعِ ٱلذاتيَّة بعلومِها وفنونِها، فإنَّما الذاتيَّةُ وحدَها هي أساسُ قوّتِنا في ٱلنزاعِ العالميِّ بكلِّ مظاهرِهِ أيِّها كان؛ ولها وحدَها، وبٱعتبارٍ منها دونَ سواها، نأخذُ ما نَأخذُهُ من مدنيَّةِ أوربا ونُهملُ ما نُهمل؛ ولا يجوزُ أنْ نتركَ ٱلثبتَ في هذا ولا أنْ نتسامَحَ في دقةِ المحاسبَةِ عليه.

فٱلمحافظةُ على ٱلضوابطِ ٱلإنسانيَّةِ ٱلقويَّةِ ٱلتي هي مظاهرُ ٱلأديانِ فينا، ثُمَّ إدخالُ ٱلواجباتِ ٱلاجتماعيَّةِ ٱلحديثة في هذه الضوابطِ لِربطِها بالعصرِ وحضارتِه، ثُمَّ تنسيقُ مظهرِ الأمَّةِ على مُقتضى هذه الواجباتِ والضوابط، ثُمَّ العملُ على ٱتحادِ المشاعرِ وتمازُجِها لِتقويمِ هذا ٱلمظهرِ الشعبيِّ في جملتِهِ بتقويمِ أجزائِه ـ هذه هي الأركانُ الأربعةُ التي لا يقومُ على غيرِها بناءُ الشرق.

والإلحادُ والنزعاتُ السافلةُ وتخانيثُ المدنيَّةِ الأوربيَّةِ التي لا عملَ لَها إلَّا أنْ تُظْهِرَ الخَطَرَ في أجملِ أشكالِه. . . ثُمَّ ٱلجهلُ بعلومِ القوَّةِ الحديثةِ وبأصولِ التدبيرِ وحِياطةِ الاجتماعِ وما جرى هذا المجرى، ثُمَّ ٱلتدليسُ[٢] على ٱلأمَّةِ بآراءِ المُقلِّدينَ والزائفينَ والمستعمرينَ لِمحْقِ ٱلأخلاقِ ٱلشعبيَّةِ ٱلقويَّةِ وما ٱتَّصلَ بذلك، ثُمَّ التخاذلُ والشِّقاقُ وتدابُرُ الطوائفِ وما كانَ بسبيلِها ـ تلك هي المَعاوِلُ الأربعةُ التي لا يَهدمُ غيرُها بناءَ الشرق.

فلْيكُنْ دائماً شعارُنا ـ نحن الشرقيينَ ـ هذه الكلمة: أخلاقُنا قبلَ مدنيَّتِهم.

---

(١) احترفوا: اتّخذوا حرفة.

(٢) التدليس: الكذب.

قُلْتُ لِنفسي
وقالَتْ لي . . .

قُلْتُ لِنفسي: ويحكِ يا نفسُ! مالي أتحامَلُ عليكِ؛ فإذا وفَيْت بما في وُسْعِكِ أردْتُ منكِ ما فوقَهُ وكلَّفتُكِ أنْ تَسَعِي؛ فلا أزالُ أُعْنِتُك[١] من بعدِ كمالٍ فيما هو أكملُ منه، وبعدَ الحَسَنِ فيما هو الأحسن؛ وما أنفكُّ أُجْهِدُكِ كلَّما راجَعَكِ النشاط، وأُضنيكِ كلَّما ثابَتِ ٱلقوّة؛ فإن تكُنْ لك همومٌ فأنا أكبَرُها، وإذا ساوَرَتْكِ ٱلأحزانُ فأكثرُها مِمَّا أجلِبُ عليك.

أنتِ يا نفسُ سائرةٌ على النَّهج، وأنا أعتَسِفُ[٢] بكِ أُريدُ ٱلطيرَانَ لا السَّير، وأبتغي عملَ ٱلأعمارِ في عُمْر، وأسْتَحِثُّكِ من كلِّ هَجْعَةٍ[٣] راحةٍ بفجرِ تعبٍ جديد، وكأنّي لكِ زَمنٌ يُمادُّ بعضُهُ بعضاً، فما يبرحُ يَنْبَثِقُ عليكِ من ظلامٍ بنورٍ ومن نورٍ بظلام؛ لِيُهَيِّىءَ لكِ ٱلقوَّةَ التي تمتدُّ بكِ في التاريخِ من بَعدُ، فتذهبِينَ حينَ تذهبينَ ويعيشُ قلبُكِ في العالَمِ سارياً بكلماتِ أفراحِهِ وأحزانِه.

وقالتْ لِيَ ٱلنفس: أمَّا أنا فإنّي معَكَ دَأْباً كالحبيبةِ الوفيَّةِ لِمَن تُحبُّهُ: ترى خضوعَها أحياناً هو أحسنَ ٱلمقاومَة؛ وأمَّا أنتَ فإذا لم تكنْ تتعبُ ولا تزالُ تتعبُ فكيفَ تُريني أنَّكَ تتقدَّمُ ولا تزالُ تتقدّم؟

ليسَتْ دُنياكَ يا صاحبي ما تجدُهُ من غيرِك، بل ما تُوجِدُهُ بنفسِك؛ فإنْ لم تَزِدْ شيئاً على الدنيا كنْتَ أنتَ زائداً على الدنيا؛ وإنْ لم تَدَعْها أحسنَ مِمَّا وجدْتَها فقد وجدتْهَا وما وَجَدْتَكَ؛ وفي نفسِكَ أولُ حدودِ دُنياكَ وآخِرُ حدودِها. وقد تكونُ دنيا بعضِ الناس حانوتاً صغيراً، ودُنيا الآخَرِ كالقَرْيةِ المُلَمْلَمَة[٤]، ودنيا بعضِهِم كالمدينةِ الكبيرة؛ أمَّا دنيا العظيمِ فقارَّةٌ بأكملِها، وإذا ٱنفردَ ٱمتدَّ في الدنيا فكانَ هوَ الدنيا.

---

(١) أعنت: أتعب.
(٢) اعتسف: عنف.
(٣) هجعة: رقدة.
(٤) الململمة: يقصد بذلك القرية الصغيرة.

والقوّةُ يا صاحبي تغتذي بالتَعبِ والمُعاناة؛ فما عانيتَهُ اليومَ حركةً من جسمِك، ألفَيْتَهُ[1] غداً في جسمِكَ قوّةً من قُوَى اللحمِ والدم. وساعةُ الراحةِ بعدَ أيامٍ مِنَ التعب، هي في لذّتِها كأيامٍ مِنَ الراحةِ بعدَ تعبِ ساعة. وما أشبهَ الحيَّ في هذِهِ الدنيا ووَشْكِ انقطاعِهِ منها، بِمَنْ خُلِقَ لِيعيشَ ثلاثةَ أيامٍ معدودةً عليهِ ساعاتُها ودقائقُها وثوانيها؛ أفتُراه يَغْفُلُ فيُقَدِّرُها ثلاثةَ أعوام، ويذهبُ يُسرِفُ فيها ضُرُوباً من لَهْوِهِ ولَعبِهِ ومُجونِه، إلّا إذا كانَ أحمقَ أحمقَ إلى نهايةِ الحُمْق؟

اِتعَبْ تعبَكَ يا صاحبي، ففي الناسِ تَعَبٌ مخلوقٌ من عملِه، فهو ليِّنٌ هيِّنٌ مُسَوًّى تسويةً؛ وفيهم تَعَبٌ خالقٌ عملَه، فهو جبّارٌ متمرِّدٌ لَهُ القهرُ والغَلَبة. وأنتَ إنّما تكدُّ لِتسموَ بروحِكَ إلى همومِ الحقيقةِ العالية، وتسموَ بجسمِكَ إلى مشقاتِ الرُّوحِ العظيمة؛ فذلك يا صاحبي لَيس تعباً في حَفْرِ الأرض، ولكنَّهُ تعبٌ في حَفرِ الكنز.

اِتعبْ يا صاحبي تعبَكَ؛ فإنَّ عَناءَ الروحِ هو عُمْرُها؛ فأعمالُكَ عُمْرُكَ الرُّوحانيُّ، كعُمرِ الجسمِ لِلجسم؛ وأحدُ هذينِ عُمْرُ ما يعيش، والآخرُ عُمْرُ ما سيعيش.

* * *

قلْتُ لِنفسي: فقد مللْتُ أشياءَ وتبرَّمْتُ بأشياء. وإنَّ عَمَلَ التغييرِ في الدنيا لَهُوَ هَدْمٌ لها كلَّما بُنِيَتْ، ثم بِناؤُها كلَّما هُدِمَتْ؛ فما من شيءٍ إلّا هو قائمٌ في الساعةِ الواحدةِ بصورتينِ معاً؛ وكم من صديقٍ خلطْتُهُ بالنفسِ يذهبُ فيها ذَهابَ الماءِ في الماء، حتى إذا مرَّ يومٌ، أو عَهْدٌ كاليوم، رأيْتُ في مكانِهِ إنساناً خياليًّا كمسألةٍ من مسائلِ النُّحاةِ فيها قَولان. . .! فهو يَحتملُ في وقتٍ واحدٍ تأويلَ ما أظنُّ بِهِ من خير، وما أتوقَّعُ بِهِ من شرّ! وكم مِنِ اسمِ جميلٍ إذا هَجَسَ[2] في خاطِري قلْتُ: آه، هذا الذي كان. . .!

أمَا ـ واللهِ ـ إنَّ ثيابَ الناسِ لَتجعلُهُم أكثرَ تشابُهاً في رأيِ النفس، مِمَّا تجعلُهُم وجوهُهمُ التي لا تختلفُ في رأيِ العين: وإنّي لأرى العالَم أحياناً كالقِطارِ السريعِ منطلِقاً برَكْبِهِ وليسَ فيهِ مَنْ يقودُه، وأرى الغفلةَ المُفْرِطةَ[3] قد بلغَتْ من هذا الناسَ مبلغَ مَنْ يظنُّ أنَّهُ حيٌّ في الحياةِ كالموظَّفِ تحتَ التجربة، فإذا قَضَى المدةَ قِيلَ لَه: اِبدأ مِنَ الآن. كأنَّهُ إذا عاشَ يتعلَّمُ الخيرَ والشرّ، ويُدركُ ما يَصْلُحُ وما لا

---

(١) ألفيته: وجدته.

(٢) هجس: طرأ على بالي. (٣) المفرطة: الزائدة.

يصلُح، وٱنتهى من عمرِهِ إلى ٱلنهايةِ ٱلمحدودة ـ رَجَعَ من بعدِها يعيشُ منتظِماً على ٱستواءٍ وٱستقامة، وفي إدراكٍ وتمييز. مع أنَّ ٱلخرافةَ نفسَها لم تقبلْ قطّ أنْ يُعَدَّ منها في أوهامِ ٱلحياةِ أنَّ رجلاً بلغَ الثمانينَ أوِ ٱلتسعينَ وحانَ أجَلُهُ فأصبحوا لم يجدُوه ميتاً في فِراشِه؛ بلْ وجدُوه مولوداً في فراشه. . . !

وقالتْ لِيَ ٱلنفسُ: وأنتْ ما شأنُكَ بالناسِ وٱلعالَم؟ يا هذا ليسَ لِمِصباحِ ٱلطريقِ أنْ يقولَ: «إنَّ ٱلطريقَ مظلِمٌ». إنَّما قولُهُ إذا أرادَ كلاماً أنْ يقولَ: «هأنذا مُضيء».

وٱلحكيمُ لا يَضْجَرُ ولا يَضيقُ ولا يَتَمَلْمَلَ، كما أنَّهُ لا يَسْخُفُ ولا يَطِيشُ ولا يَسْتَرْسِلُ[1] في كَذِبِ ٱلوهم؛ فإنَّ هذا كلّهُ أثرُ ٱلحياةِ ٱلبهيميَّةِ في هذه البهيمةِ الإنسانيَّة، لا أثرُ الروحِ القويَّة في إنسانِها. وٱلحيوانُ هو الذي يجوعُ ويشبعُ لا النفسُ. وبينَ كلِّ شَيئينِ ممَّا يَعْتَورُ ٱلحيوانيَّةَ ـ كالخلوِّ وٱلامتلاء، وٱللذةِ والألم ـ تعملُ قُوَى ٱلحيوانِ أشياءَها الكثيرةَ التي تتسلَّطُ بها على النفس، لِتَحُطَّها من مرتبةٍ إلى أنْ تجعلَها كنفوسِ ٱلحيوان؛ ولهذا كانَ أولُ ٱلحِكْمةِ ضَبطَ الأدواتِ ٱلحيوانيَّةِ في ٱلجسم، كما توضَعُ اليدُ العالِمةُ على مفاتيحِ القِطارِ المنطلِقِ يَتَسَعَّرُ مِرْجلُهُ ويغْلِي.

اِعملْ يا صاحبي عملَكَ؛ فإذا رأيْتَ في ٱلعاملينَ مَنْ يَضْجَرُ فلا تضجرْ مثلَه، بل خُذِ ٱطمئنانَهُ إلى اطمئنانِك، ودَعْهُ يخلو وتَضاعَفْ أنت.

إنّهُ لَيُوشِكُ أنْ يكونَ في الناسِ ناسٌ (كالبُنوك)؛ هذه مُسْتَوْدَعاتٌ لِلمالِ تحفظُهُ وتُخرِجُ منهُ وتُثَمِّرُه، وتلك مستودَعاتٌ لِلفضائلِ تحفظُها وتخرجُ منها وتَزيدُها. وإفلاسُ رجلٍ من أهلِ ٱلمال، هو إطلاقُ ٱلنكبةِ مُسَدَّسَها على رجلٍ تقتلُه؛ ولكنَّ إفلاسَ (بنكٍ) هو إطلاقُ النكبةِ مِدفَعَها الكبيرَ على مدينةٍ تُدمرُها.

❊ ❊ ❊

قلْتُ لِنفسي: فما أشدَّ الألَمَ في تحويلِ هذا الجسدِ إلى شِبْهِ رُوحٍ معَ الروح! تلك هي المعجزةُ التي لا توجَدُ في غيرِ ٱلأنبياء، ولكنَّ ٱلعملَ لها يَجعلُها كأنَّها موجودةٌ. والأسدُ ٱلمحبوسُ محبوسةٌ فيهِ قُوَّتُهُ وطِباعُه؛ فإنْ زالَ ٱلوجودُ ٱلحديديُّ من حولِهِ أو وَهَنَتْ[2] ناحيةٌ منه، انطلقَ ٱلوحش. وٱلرجلُ ٱلفاضلُ فاضلٌ ما دامَ في

---

(١) استرسل: تمادى واستمرّ. (٢) وهنت: ضعفت.

قَفَصِهِ الفكريّ، وهو ما دامَ في هذا القفصِ فعليهِ أنْ يكونَ دائماً نَموذَجاً معروضاً لِلتنقيح[1] المُمْكنِ في النفسِ ٱلإنسانيَّة: تُصيبُهُ ٱلسيئةُ مِنَ ٱلناس لِتختبرَ فيهِ ٱلحسنة، وتبلُوَهُ الخِيانةُ لِتجدَ الوفاء، ويَكْرهُ البُغضَ لِيقابلَهُ بالحُبّ، وتأتيهِ ٱللعنةُ لِتجدَ المغفِرةَ؛ وله قلبٌ لا يتعبُ فيبلغُ منزلةً إلَّا ٱبتدأ ٱلتعبَ لِيبلغَ منزلةً أعلى منها، وله فكرٌ كلَّما جَهِدَ فأدركَ حقيقةً كانتِ ٱلحقيقةُ أنْ يَجهدَ فيُدركَ غيرَها.

وقالَتْ ليَ ٱلنفس: إنَّ مَنْ فاقَ ٱلناسَ بنفسِه ٱلكبيرةِ كانَتْ عَظَمتُهُ في أنْ يفوقَ نفسَهُ ٱلكبيرة؛ إنَّ الشيءَ ٱلنهائيَّ لا يُوجَدُ إلَّا في ٱلصغائرِ وٱلشرّ، أمَّا ٱلخيرُ وٱلكمالُ وعظائمُ ٱلنفسِ وٱلجمالُ ٱلأسْنَى، فهذه حقائقُ أزليّةٌ وُجِدَتْ لِنفسِها: كالهواءِ يتنفَّسُهُ كلُّ ٱلأحياءِ على هذه الأرضِ ولا ينتهي، ولا يُعْرَفُ أنْ تكونَ تلكَ ٱلصفاتُ منبعثةً إلى النفوسِ من أنوارِ ٱلملائكة، وبهذا كانَ أكبرُ الناسِ حظًّا منها هُمُ ٱلأنبياءَ المتَّصلينَ بتلك الأنوار.

ومن رحمةِ ٱللَّهِ أنْ جعلَ في كلِّ النفوسِ الإنسانيَّةِ أصلاً صغيراً يجمعُ فِكرَةَ الخيرِ وٱلكمالِ وعظائِمِ ٱلنفسِ وٱلجمالِ ٱلأسْنَى، وقد تَعظمُ فيهِ هذه الصفاتُ كلُّها أو بعضُها، وقد تَصغُرُ فيهِ بعضُها أو كلُّها: ألَا وهو الحُبّ.

لا بدَّ أنْ تمرَّ كلُّ حياةٍ إنسانيَّةٍ في نوعٍ من أنواعِ ٱلحُبِّ؛ من رِقَّةِ ٱلنفسِ ورحمتِها، إلى هوى النفسِ وعِشقِها.

وإذا بلغَ ٱلحُبُّ أنْ يكونَ عِشقاً، وَضَعَ يَدهُ على المفاتيحِ العصبيَّةِ لِلنفس، وفتَحَ لِلعظائمِ والمعجزاتِ أبوابَها؛ حتى إنَّه لَيجعلُ الخُرافةَ الفارغةَ معجزةً دقيقة، ويملأُ الحياةَ بمعانٍ لم تكنْ فيها من قبل، ويصبحُ سرُّ هذا الحُبِّ لا ينتهي؛ إذْ هو سرٌّ لا يُدْرَكُ ولا يُعرف.

اِجْهدْ جُهدَكَ يا صاحبي، فما هو قفَصُك ٱلفكريُّ ذلك الشعاعُ الذي يحبسُك، ولكنَّهُ صَقْلُ[2] النفسِ لِتتلقى ٱلأنوار، ولا بُدّ لِلمرآةِ من ظاهرٍ غيرِ ظاهرِ الحجَرِ لِتكونَ بهِ مرآة.

* * *

قلْتُ لِنفسي: فما أشدَّهُ مَضَضاً[3] أُعانيهِ! إنَّ أمري لَيذهبُ فُرُطاً[4] أكلَّما

---

(١) التنقيح: التمييز بين الصالح والطالح.

(٢) صقل: تهذيب.

(٣) مضضاً: ألماً وعذاباً.

(٤) فرطاً: مجاوزاً الحدّ.

ٱبتغيْتُ مِنَ الحياةِ مَرحاً أطرَبُ لَهُ وأهتزّ، جاءتْني ٱلحياةُ بفكرةٍ أستكِدُّ[١] فيها وأدأَب؟ أهذا السرورُ الذي لا يزالُ يقعُ بينَ الناسِ هو الذي لا يكادُ يقعُ لي؟ وهلْ أنا شجرةٌ في مَغْرِسِها: تنمو صاعدةً بفروعِها، ونازلةً بجذورِها، غيرَ أنَّها لا تبرحُ مكانَها؟ أو أنا تِمثالٌ على قاعدتِه: لا يتزحزحُ عنها إلَّا ساعةَ لا يكونُ تِمثالاً، ولا يَدعُها حتى تَدعَهُ معاني العظمَةِ التي نُصِبَ لها؟

قالَتْ لِيَ النفس: ويحك! لا تطلبْ في كونِكَ الصغيرِ ما ليسَ فيه؛ إنَّ ٱلناسَ لوِ ٱرتفعوا إلى السماءِ وتقلَّبوا فيها كما يَسيحُ[٢] أهلُ قارَّةٍ مِنَ الأرضِ في قارّةٍ غيرِها، وٱبتغَوْا أنْ يحملوا معهم مِمَّا هناك تَذكاراً صغيراً إلى الأرض ـ لَوجدوا أصغرَ ما هنالك أكبرَ مِنَ الأرضِ كلِّها؛ فأنت سائحٌ في سماوات.

أنت كالنائم: لَهُ أنْ يَرى وليسَ لَهُ أنْ يأخذَ شيئاً مِمَّا يرى إلَّا وَصْفَه، وحِكمتَه، والسرورَ بِمَا ٱلتذَّ منه، والألَمَ بِمَا توجَّعَ لَه.

لنْ تكونَ في الأرضِ شجرةٌ بِرجْلينِ تذهبُ هنا وهٰهنا، ولكنَّ ٱلشجرةَ تُرسلُ أثمارَها يتناقلُها ٱلناس، وهي تُبدِعُ الثمارَ إبداعَ ٱلمؤلفِ ٱلعبقريِّ ما يُؤلفُهُ بأشدِّ الكدِّ وأعظمِ ٱلجهْد، مُطْلِقَةً ضميرَها في ٱلفكرةِ ٱلصغيرة، تَعقِدُها شيئاً شيئاً، ثم تعودُ عليها بالزيادة، ولا تزالُ كلَّ وقتٍ تعودُ عليها حتى تستفرغَ[٣] أقصى ٱلقوة؛ ثمَّ يكونُ سرورُها في أنْ تَهبَ فائدتَها، لأنَّها لذلك وُجِدَتْ.

إنَّ في الشجرةِ طبيعةً صادقةً لا شهوةً مكذوبة؛ فالحياةُ فيها على حقيقتِها، وأكثرَ ما تكونُ الحياةُ في الإنسانِ على مَجازِها؛ وشرطُ المجازِ ٱلخيالُ والمبالغةُ وٱلتلوين؛ ولكنْ متى ٱختارَ اللَّهُ رجلاً فأقَرَّ فيهِ سِرًّا من أسرارِ ٱلطبيعةِ ٱلصادقة، ووهبَ لَهُ ٱلعاطفةَ القادرةَ التي تَصنعُ ثِمارَها ـ فقد غَرَسَهُ شجرةً في مَنْبِتِها لا مفرَّ ولا مَنْدوحَةَ[٤]، وقد يُخَيَّلُ لَهُ ضعفُ طبيعتِهِ البشريَّةِ أحياناً أنَّ نُضرةَ ٱلمجدِ التي تعلوه وتتألَّقُ كشعاعِ ٱلكوكب، هي تَعبُهُ وضجَرُه، أو أثرُ ٱنخذالِهِ[٥] وألمِهِ ومسكنَتِه؛ وهذا من شقاءِ ٱلعقل؛ فإنَّهُ دائماً يُضيفُ شيئاً إلى شيء، ويخلِطُ معنًى بمعنى، ولا يتركُ حقيقةً على ما هي؛ كأنَّ فيهِ ما في الطفلِ من غريزةِ التقليد؛

---

(١) أستكدّ: أتعب.

(٢) يسيح: ينتقل ويرتحل.

(٣) تستفرغ: تتخلّص.

(٤) لا مندوحة: لا ملجأ.

(٥) انخذاله: انهزامه.

وٱلعقلُ لا يرى أمامَهُ إلَّا الإلهيَّة، فهو يُقلدُها في مُدَاخَلَةِ الأشياءِ بعضِها في بعض، لإيجادِ الأسرارِ بعضِها من بعض.

ومن ثَمَّ كانَتِ ٱلحقيقةُ ٱلصريحةُ ٱلثابتةُ مَدْعَاةً لِلملَل ٱلعقليِّ في ٱلإنسان، لا يكادُ يُقيمُ عليها أو يتقيَّدُ بها، فما نال شيئاً إلَّا لِيطمعَ في غيرِه، وما فازَ بلذَّةٍ إلَّا لِيزهَدَ فيها، وأجَلُّ ما أحبَّهُ الإنسانُ أنْ ينالَه، فإذا نالَهُ وقعَ فيه معنى موتِه، وبَدَأَ في النفس عُمراً آخرَ من حالةٍ أخرى، أو ماتَ ولم يَبْدَأْ؛ فلا بدَّ لِهذا الإنسانِ مَعَ كلِّ صوابٍ من جزءٍ مِنَ الخطأ، فإنْ هو لم يجدْ خطأً في شيءٍ ٱئْتَفَكَ لِنفسِهِ[1] ٱلخطأَ المضحكَ في شِبهِ روايةٍ خياليَّة.

إنَّهُ لَشِعرٌ سخيفٌ بالغُ السخافةِ أنْ يُتَخَيَّلَ الغريقُ مفكراً في صَيْدِ سمكةٍ رآها... ولكنَّ هذا من أبلغِ ٱلبلاغةِ عندَ العقلِ ٱلذي يبحثُ عن وهمٍ يُضيفُهُ إلى هذه الحقيقةِ لِيضحكَ منها، كما يبحثُ لِنفسِهِ أحياناً في أجملِ حقائقِ ٱللذةِ عن ألمٍ يتألمُ بِهِ لِيَعْبَسَ فيه!

* * *

قلْتُ لِنفسي: فهلْ ينبغي لِي أنْ أُحرِقَ دمي لأنِّي أفكِّر، وهلْ أظلُّ دائماً بهذا التفكيرِ كالذي ينظرُ في وجهِ حسناءَ بمنظارٍ مكبر: لا يُريهِ ذلك الوجهَ المعشوقَ إلَّا ثُقوباً وتخريماً كأنَّهُ خشبةٌ نُزِعَتْ منها مساميرُ غليظة...! فلا يجدُ المسكينُ هذه الحقيقةَ إلَّا لِيفقدَ ذلك الجمال؟ وهلْ بُدٌّ منَ ٱلشبهِ بينَ بعضِ الناسِ وبينَ ما ٱرْتَصَدَ لَهُ من عملٍ يحيا بِه؛ فلا يكونُ ٱلحُوذيُّ[2] حُوذيًّا إلَّا لِشَبَهٍ بينَ نفسِهِ وبينَ الخيلِ والبِغالِ والحمير...؟

وقالتْ ليَ ٱلنفس: إنَّ فأسَ ٱلحطَّابِ لا تكونُ من أداةِ الطبيب؛ فخذْ لِكلِّ شيءٍ أداتَه، وكُنْ جاهلاً أحياناً، ولكنْ مثلَ ٱلجهلِ ٱلذي يَصْنَعُ لِوجهِ الطفلِ بشاشتَهُ الدائمة؛ فهذا الجهلُ هو أكبرُ عِلْمِ ٱلشعورِ ٱلدقيقِ ٱلمرهَف، ولولاه لَهَلَكَ الأنبياءُ والحكماءُ والشعراءُ غمًّا وكمَداً، ولَكانوا في هذا الوجود، على هذه الأرض، بينَ هذه الحقائق ـ كالذي قُيِّدَ وحُبِسَ في رَهَجٍ[3] تُثيرُهُ ٱلقَدَمُ وٱلخُفُّ والحافر: لا يتنفَّسُ إلَّا ٱلغبارَ يُثارُ من حولِهِ إلى أنْ يُقْضَى عليه.

---

(١) ائتفك لنفسه: كذب واخترع ليسوّغ ما هو عليه.

(٢) الحوذي: سائق العربة يجرّها حصان. (٣) رهج: شغب.

اِجهلْ جهلَك يا صاحبي في هذه الشهواتِ الخسيسة؛ فإنَّها ٱلعِلْمُ ٱلخبيثُ ٱلذي يُفسِدُ الروح، وٱعرفْ كيف تقولُ لِرُوحِكَ الطِّفْلةِ في ملائكيَّتِها حينَ تُساوِرُكَ الشهوات: هذا ليسَ لي؛ هذا لا ينبغي لي.

إنَّ الروحَ الكبيرةَ هي في حقيقتِها الطفلُ الملائكيّ.

وعِلْمُ خسائسِ الحياةِ يجعلُ لِلإنسانِ في كلِّ خسيسةٍ نفساً تتعلَّقُ بها، فيكونُ المسكينُ بينَ نفسينِ وثلاثٍ وأربع، إلى ثلاثينَ وأربعينَ كلهُنَّ يتنازَعْنَه، فيضيعُ بهذِه الكثرة، ويُصبحُ بعضُهُ بلاءً على بعض، وتَشْغَلُهُ الفُضُول، فيعودُ لها كالمزْبَلةِ لِمَا أُلقِيَ فيها، ويُمْحَقُ[1] في نفسِهِ الطبيعيَّةِ حِسُّ الفرحِ بجمالِ ٱلطبيعة، كما يُمْحَقُ في المزبلةِ معنى النظافةِ ومعنى الحِسِّ بها.

هذه الأنفسُ الخياليةُ في هذا الإنسانِ المنكود، هيَ ٱلأرواحُ التي يَنْفُخُها في مصائبِه، فتجعلُها مصائبَ حيَّةً تعيشُ في وجودِهِ وتعملُ فيهِ أعمالَها، ولولاها لَماتَتْ في نفسِهِ مطامعُ كثيرة، فماتَتْ لَهُ مصائبُ كثيرة.

ٱنظرْ بالروحِ الشاعرة، تَرَ الكونَ كلَّهُ في سمائِهِ وأرضِهِ ٱنسجاماً واحداً ليسَ فيهِ إلّا الجمالُ والسحرُ وفتنةُ الطَّرب، وٱنظرْ بالعقلِ العالمِ، فلَنْ تَرى في الكونِ كلِّهِ إلّا موادَّ عِلْمِ الطبيعةِ وٱلكيمياء.

ومَدَى الروحِ جمالُ الكونِ كلِّه؛ ومَدَى العقلِ قطعةٌ من حجَر، أو عظْمةٌ من حيوان، أو نَسِيجةٌ من نبات، أو فِلْذَةٌ من معدن، وما أشبَهها.

اِجْهلْ جهلَك يا صاحبي؛ ففي كلِّ حُسْنٍ غَزَلٌ بشرطِ ألّا تكونَ ٱلعاشقَ ٱلطامع، وإلّا أصَبْتَ في كلِّ حسنٍ هَمًّا ومَشْغَلة....!

* * *

قلْتُ لِنفسي: إلى الآنَ لم أقلْ لكِ ذلك المعنى الذي كتمْتُهُ عنك.

وقالَتْ لِيَ النفس: وإلى الآنَ لم أقلْ لكَ إلّا جوابَ ذلك الذي كتمتَهُ عنِّي..

---

(١) يمحق: يمحو.

الانتحار

١

حَدَّثَ ٱلْمُسَيَّبُ بْنُ رافعٍ الكوفيُّ قال: بينا أنا يوماً في مسجدِ الكوفة، ومعي سعيدُ بن عثمان، ومجاهد، وداودُ الأزْديُّ وجماعةٌ ـ أقبلَ فتًى فجلسَ قريباً منَّا، وكانَ تلقاءَ وجهي؛ لا أمُدُّ نظري إلَّا ٱنطلقَ في سَمْتِهِ[1] ووقفَ عليه، وكنَّا نتحدّثُ فرأيْتهُ يتسمَّعُ إلى حديثِنا؛ فلمَّا تكلَّمَ سعيدٌ ـ وكانَ خافتَ الصوتِ من عِلَّةٍ به، وكنّا نُسميهِ ٱلنملةَ الصَّخّابة ـ رأيْتُ الفتى يتزحَّفُ قليلاً قليلاً حتى صارَ بحيثُ يقعُ في سَماعِهِ حَسِيسُ نَمْلتِنا.

وكانَ سعيدٌ يقول: اِجْتزْتُ[2] أنا والشّعبيُّ أمسِ بعِمْرَانَ الخيَّاط، فمازَحَهُ ٱلشيخُ فقال له: عندَنا حِبٌّ[3] مكسور، تَخيطُه؟ قال: نعم، إنْ كانَ عندَك خيطٌ من ريح! فقلْتُ أنا: فٱذهبْ فجِئْنَا بٱلمِغْزَلِ ٱلذي يغزلُ الهواءَ لِنضعَ لكَ ٱلخيط.

قال مجاهد: هذا ليسَ بشيءٍ في تنادُرِ شيخِنا وما يتَّفقُ له؛ أخبرَني أنَّ رجلاً جاءَهُ في مسألة، فدخلَ عليهِ ٱلبيتَ وهو جالسٌ معَ ٱمرأتِه؛ فقالَ الرجل أيُّكما الشعبيّ...؟ فأومأ الشيخُ إلى ٱمرأتِه وقال: هذه...!

قال المُسيَّب: وضحكْنَا جميعاً، وأخذَ نظري ٱلغلامَ فإذا هو ناكِسٌ حزناً وهمًّا، وكأنَّهُ لا يتسمَّعُ إلينا لِيسمع، بلْ لِيشغلَ نفسَهُ عن شيءٍ فيها، فتتوزَّعُ خواطرُه، فيتبدَّدُ ٱجتماعُها على همِّهِ بصوتٍ من هنا وصوتٍ من هنا، كما يفعلُ ٱلمحزونُ في مغالبةِ ٱلحزنِ ومُدَافعتِه: يَشْغَلُ عنهُ بصرَهُ وقلبَهُ وسمعَهُ جميعاً، فيكونُ الحزنُ فيهِ وكأنَّهُ بعيدٌ منه.

فقلْتُ في نفسي: أمرٌ أماتَ الضحِكَ في هذا الفتى وكَسَرَ حِدّتَهُ[4] وشبابَه.

---

(١) سمته: حسن هيئته ومنظره في الدين.
(٢) اجتزأت: التقيت.
(٣) الحِبّ، بكسر الحاء هو الزير.
(٤) حدّته: قوّته.

ثُمَّ تحوّلْتُ إليهِ وقلْتُ: رأيْتُكَ يا بُنيّ مقبلاً علينا كالمنصرِفِ عنّا؛ فما بالُكَ لم تضحكْ وقد ضحكْنا جميعاً؟

قال: إليك عني يا هذا؛ فأين مني الضَّحكُ وأنا على شفيرِ[1] القبر، ورُوحُ التراب ماليءٌ عينيَّ في كلِّ ما أرى، وكأنّ حُفرتي ابتلَعتِ الدنيا التي أنا فيها لِتأخذَني فيها، وأنا الساعةَ ميتٌ حيٌّ؛ رجُلٌ في الدنيا ورجُلٌ في الآخرة!

قلْتُ: فأعلمْني ما بك يا بنيّ، فلقدِ احتسبْتُ ولداً لي كانَ في مثلِ سِنِّك وشبابِك ولم أُرزقْ غيرَه، قلبي بعدَهُ مريضٌ به، يتوسمُهُ مُفرّقاً في لِداتِهِ، مُتوهّماً أنَّ وجوهَهُم تجمعُهُ بملامحِه؛ فأنا من ذلك أُحبّهم جميعاً وأُطيلُ النظرَ إليهم والتأمُّلَ في وجوهِهم، ولسْتُ أرى أحداً منهم إلّا كانَ لَهُ ولِقلبي حديث! فإنْ رأيْتُهُ حزيناً مثلك تقطّعتُ لَهُ من إشفاقٍ ورحمة، وطالعَني فتايَ في مثلِ همِّهِ وحزنِهِ وانكسارِه؛ فيعودُ قلبي كالعينِ التي غشّاها الدمع، تحملُ أثرَ الحزنِ ومعناهُ وسرَّه؛ فبُثّني ما تجدُ يا بنيَّ، فلعلَّ لي سبباً إلى كَشفِ ضُرِّكَ أو إسعافِك بحاجتِك؛ ولعلّك تكونُ قد حزنْتَ من أمرٍ قريبِ المتناوَلِ هيِّنِ المحاولَة، لم يجعلْه عندَكَ كبيراً أنّهُ كبير، ولكنْ أنّكَ أنت صغير.

قالَ الفتى: مهلاً يا عمّ، فإنَّ ما نزل بنا مِمَّا تنقطعُ عندَهُ الحِيلةُ ولا تَنْقادُ فيهِ الوسائل، ولا علاجَ منه إلّا بالموتِ يأخُذها ويأخُذه!

قلْتُ: يا بنيّ، هذه كلمةٌ ما أحسبُ أحداً يقولُها إلّا من أُخِذَ لِلقتلِ بجنايتِهِ ولم يَعفُ أهلُ الدم، فهل جَنيْتَ أو جنى أبوك على أحد؟

قال: إن الأمرَ قريبٌ من قريب، فإنّي تركْتُ أبي الساعةَ مُجمِعاً على إزهاقِ نفسِه، وقدْ أغلقَ عليهِ الدار واستوثَقَ[2] مِنَ الباب!

قالَ المسيَّب: فكأنّما لَدغتني حيةٌ بهذه الكلمة، وأكبرْتُ أنْ يكونَ رجلٌ مسلمٌ يقتلُ نفسَه: فتناهَضْتُ، ولكنَّ الغلامَ أمسكَ بي وقال: إنَّهُ لا يزالُ حيًّا، وسيقتلُ نفسَهُ متى أظلمَ الليلُ وهَدأتِ الرِّجل.

قلْتُ: الحمدُ لِلّه، إنَّ في النور عقلاً، ولكنْ ما الذي صارَ بِه إلى ما قلْت، وكيف تركْتَهُ لِقَدرِهِ وجِئْت؟

---

(١) شفير: حافة.

(٢) استوثق، تأكّد.

قالَ الفتى: إنَّهُ قالَ لي: يا ولدي، ليسَ لك أبٌ بعدي؛ فإنْ أردْتَ ٱللحاقَ بي فٱرجِعْ معَ ٱلليل لِنُسْلِمَ أنفسَنا، وإنْ آثرْتَ ٱلحياةَ فٱرجِعْ معَ ٱلصبحِ لِتُسلِمَني إلى غاسلي!

قلْتُ: أفآمِنٌ أنت ألّا يكونَ أبوك قد أخرجَكَ عنه لأنَّ عينَكَ تُمْسِكُ يدَهُ وتردُّهُ عمَّا يَهُمُّ بِه، حتى إذا خلا وجهُهُ منك أزهقَ نفسَه؟

قال: لم أدَعْه حتى أقسمَ أنْ يحيا إلى الليل، وحتى أقسمْتُ أنْ أرجِعَ لِأموتَ معَه؛ فإن لم تُمسكْهُ يمينُهُ أمسكَهُ ٱنتظاري، وقد فرغَتِ ٱلحياةُ منّا فلم يبقَ إلّا أنْ نفرغَ منها؛ ومن كانَ فيما كنّا فيهِ ثم ٱنحدَر إلى ما ٱنحدرْنا إليه، لم يُرِ الناسَ من نفسِهِ ضَعةً ولا ٱستكانَةَ: وإنَّما خرجْتُ لِأسألَ هذا الإمامَ (الشعبيّ) وجهاً من الرأي فيمَنْ يقتلُ نفسَهُ إذا ضاقَتْ عليهِ ٱلدنيا، ونزلَتْ بِهِ ٱلنازلاتُ، وتعذَّرَ ٱلقُوت، وٱشتدَّ ٱلضُّرّ، وتَدَلَّتْ بِهِ ٱلمسكنةُ إلى حَضِيضِها، وأُلجِئ إلى أحوالٍ دَقَّتْهُ دَقَّ الرَّحَى[1] لِمَّا تدورُ عليه، ولم يَعُدْ لَهُ إلّا رأيٌ واحدٌ في معنى الدنيا: هو أنَّهُ مكذوبٌ مَزوَّرٌ على الدنيا.

قلْتُ: يا بنيّ، فإنّي أراك أديباً؛ فمَنْ أبوك؟

قال: هو فلانٌ التاجر، ظهَرَ ظهورَ القمرِ ومُحِقَ[2] محاقَه، وهو ٱليومَ في أحْلكِ الليالي وأشدِّها ٱنطماساً؛ جَهَدَهُ[3] ٱلفقر، ويا ليتَهُ كانَ ٱلفقرَ وحدَه، بلِ ٱنتهكَتْهُ العِلَل، ولَيتَها لم تكنْ إلّا العِللَ معَ الفقر، بل أخذَ ٱلموتُ ٱمرأتَهُ فماتَتْ همًّا بِهِ وبي، ولم يكُنْ لَهُ غيري وغيرُها، وكانَ كلٌّ من ثلاثتِنا يحيا لِلاثنينِ ٱلآخرين، فهذا ما كانَ يجعلُ كلّاً مِنّا لا يفرَغُ إلّا ٱمتلاءً، ولمَّا ذهبَتِ ٱلأمُّ ذهبَتِ ٱلحقيقةُ التي كنّا نقاتلُ الأيامَ عنها، وكانَتْ هي وحدَها تُرينا ٱلحياةَ بمعناها إنْ جاءتْنا ٱلحياةُ فارغةً مِنَ ٱلمعنى، وكنّا من أجلِها نفهمُ ٱلأيامَ على أنَّها مجاهَدَةُ ٱلبقاء؛ أمّا الآن فٱلحياةُ عندَنا قَتْلُ ٱلحياة...!

قلْتُ: يا بنيَّ، فإنَّك ـ واللّهِ ـ مع أدبِك لَحكيم، وإنِّي لأنْفَسُ[4] بكَ على ٱلموت، فكيفَ ردَّتْكَ حياةُ أمِّكَ عن قتلِ نفسِكَ ولا تردُّكَ حياةُ أبيك؟

قال: لو بقي أبي حيًّا لَبقيْت، ولكنَّ ٱلدهرَ قدِ ٱنتزعَ منهُ آخرَ ما كانَ يملكُ من

---

(١) الرّحى: الطاحون.
(٢) محق: خفي.
(٣) جهده: أتعبه.
(٤) أنفس: أضنّ.

أسبابِ ٱلقوّة، حين أخَذَ القلبَ الشفيقَ الذي كانَ يجعلُهُ يرتعدُ إذا فكَّرَ في ٱلموت: فهو الآن كالذي يُحاربُ عن نفسِهِ تِلْقاءَ عدوٍّ لا يرحمُه؛ إنْ عجزَ عن عدوّهِ فالرأيُ قتلُ نفسِهِ لِيستريحَ من تنكيلِ العدوِّ بِه.

***

قالَ ٱلمسيَّب بْنُ رافع: وأدركْتُ أنَّ الفتى يُريدُ من سؤال الشيخ تَحِلَّةً يطمئنُّ إليها أنْ يموتَ مسلماً إذا قتلَ نفسَهُ كالمضطرّ أو المُكْرَه؛ فأشفقْتُ[1] أنْ أكسِرَ نفسَهُ إذا أنا حدّثْتُه أو أفتيْتُه؛ وقلْتُ: هذا مريضٌ يحتاجُ ٱلعلاجَ لا الفُتْيا؛ وكانَ إمامُنا (الشعبيُّ) حكيماً لَحِناً فَطِناً، سَفَرَ بينَ أميرِ ٱلمؤمنينَ (عبد الملك) وعاهلِ ٱلروم[2]، فحسدَنا العاهلُ أنْ يكونَ فينا مثلُه. وقلْتُ: لَعلَّ الله يُحدِثُ بِهِ أمراً. فأخذْتُ بيدِ الفتى إليه، ومشيْتُ أكلمُهُ وأُرفِّهُ عن نفسِه. وقلْتُ له: أمَا تدري أنَّك حينَ فرغْتَ من سرورِ الحياةِ فرغْتَ من غرورِها أيضاً، وأنَّ الزاهدَ ٱلمنقطعَ في عُرْعُرةِ[3] الجبلِ ينظرُ من صَوْمَعتِه إلى الدنيا، ليسَ بأحكمَ ولا أبصرَ مِمَّنْ ينظرُ من آلامِهِ إلى الدنيا؟

يا بنيّ: إنَّ الزاهدَ يحسبُ أنَّهُ قد فرَّ مِنَ الرذائلِ إلى فضائلِه، ولكنَّ فِرارَهُ من مجاهَدةِ الرذيلةِ هو في نفسِه رذيلةٌ لِكُلِّ فضائلِه. وماذا تكونُ العِفَّةُ والأمانةُ والصدقُ والوفاءُ والبرُّ والإحسانُ وغيرُها، إذا كانَتْ فيمَنِ ٱنقطعَ في صحراءَ أو على رأسِ جبل؟ أيزعَمُ أحدٌ أنَّ الصدقَ فضيلةٌ في إنسانٍ ليسَ حولَهُ إلّا عشرةُ أحجار؟ وايمُ ٱللّهِ إنَّ الخاليَ من مُجاهَدةِ الرذائلِ جميعاً، لَهُوَ الخالي مِنَ ٱلفضائلِ جميعاً!

يا بنيّ: إنّ منَ الناسِ مَنْ يختارُهُمُ ٱللّهُ فيكونون قَمْحَ هذه الإنسانية: يَنْبُتون ويُحصَدون ويُطحَنون ويُعجَنون ويُخبَزون، لِيكونوا غذاءَ الإنسانيةِ في بعضِ فضائلها. وما أراكَ أنت وأباك إلّا مِنَ ٱلمُختارين، كأنَّ في أعراقِكما دمَ نبيٍّ يُقْتَلُ أو يُصْلب!

قال ٱلمسيَّب: وٱنتهيْنا إلى دارِ الشعبيّ، فطرقْتُ ٱلباب، وجاءَ ٱلشيخُ ففتحَ لنا، وسلّمْنا وسلّم، ثم بَدَرْتُ فقلْتُ: يا أبا عمرو، إنَّ أبا هذا كانَ من حالِهِ كَيْتَ وكيتِ، فترادَفَتْ[4] عليهِ ٱلمصائبُ، وتوالتِ ٱلنكباتُ، وتواترتِ ٱلأسقام[5]... ثُمّ

---

(١) أشفقت: خفت.

(٢) عاهل الروم: قيصر الروم، ملكهم.

(٣) عُرعرة الجبل، بالضمّ: رأسه ومعظمه.

(٤) ترادفت: توالت.

(٥) الأسقام: الأمراض.

أقتصصْتُ ما قالَ ٱبنُهُ حرفاً حرفاً، ثُمَّ قلْتُ: وإنَّهُ الآنَ مُوشِكٌ أن يُزهِقَ نفسَهُ وسيتَبعُهُ ٱبنُهُ هذا؛ وقد (هداهُ ٱللَّهُ إليك) فجاءَ يسألُك: أيموتُ مسلماً مَنْ أُلجِىءَ وأُكْرِهَ وٱضطُرَّ وٱسْتَضَاقَ وٱختلَّ، فتَحسَّى[1] سُمًّا فهلكَ أو تَوجَّأ[2] بحديدةٍ فَقَضَى، أو ذَبَحَ نفسَهُ بنَصْلٍ فَخَفَتَ، أو حزَّ في يدِهِ بسكينٍ فما رقأَ دمُهُ[3] حتى مات، أوِ ٱختنقَ في حبلٍ ففاضَتْ نفسُه[4]، أو تَرَدَّى[5] من شاهقٍ فطاح . . . !

وأدركَ ٱلشيخُ معنى قولي: (هداهُ اللَّهُ إليك)، ومعنى ما أكثرْتُ مِنَ ٱلألفاظِ ٱلمترادفةِ على القتلِ وما ٱستقصيْتُ من وجوهِهِ؛ فعلِم أنّي لم أسألْهُ ٱلفُتْيا والنَّصّ، ولكنّي سألْتُهُ الحِكمةَ وٱلسياسة؛ فقال: هذا ـ واللَّهِ ـ رجلٌ كريم، أخَذَتْهُ الأَنَفةُ وعِزّةُ النفس، وما أنا الساعةَ بمعْزَلٍ عن همِّه، فنذهبُ نكلّمُهُ واللَّهُ ٱلمستعان.

ومشَيْنا ثلاثتُنا، فلما شارَفْنا ٱلدارَ قالَ الفتى: إنَّهُ لا يفتحُ لي إذا رآكما، وربَّما ٱسْتَفَزَّ[6] بنفسِهِ فأزهَقَها، وسأتَسَوَّرُ ٱلحائطَ[7] وأتدليَّ ثُمَّ أفتحُ لكما فتدخلانِ وأنا عندَه.

* * *

ودخلْنَا، فإذا رجلٌ كالمريضِ من غيرِ مرض، خوَّارٌ[8] مسلوبُ ٱلقوّة، ٱنزعجَ قلبُهُ إلى الموتِ وما بِهِ جُرْأة، وإلى الحياةِ وما به قوّة؛ وصَغَّرَ إليهِ نفسَهُ أنَّها أصبحَتْ في معاملةِ الناسِ كالدرهم الزائفِ لا يقبلُهُ أحد، وثابَرَ عليهِ داءُ ٱلحزنِ فأضناهُ وتركَهُ رُوحاً تتقعقعُ في جِلْدِها، فهي تهمُّ في لحظةٍ أنْ تَثِبَ وتندلِق.

وسلَّمَ ٱلشيخُ وأقبلَ بوجهِهِ على الرجل، ثُمَّ قال: «بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿وَالصَّـٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

فقطعَ عليهِ ٱلرجلُ وقال كالمحنق: أيُّها الشيخ، قد صبرْنَا حتى جاءَ ما لا صبرَ عليه؛ وقد خَلوْنا من معاني ٱلكلامِ كلِّهِ، فما نقدِرُ عليها إلَّا لفظةً واحدةً نملكُ معناها، هي أنْ ننتهي!

ومدَّ الشيخُ عينَهُ فرأي كُوَّةً[9] مسدودةً في ٱلجدار، فقالَ لي: افتحْ هذه ودَعِ

---

(١) تحسّى: شرب.
(٢) توجّأ: ضرب نفسه بالسكين.
(٣) رقأ دمه: توقف نزفه.
(٤) فاضت نفسه: مات.
(٥) تردّى: رمى نفسه من علٍ.
(٦) استفزّ: أثار.
(٧) تسوّر الحائط: صعد فوقه.
(٨) خوّار: ضعيف.
(٩) كوّة: فتحة صغيرة في جدار.

ٱلهواءَ يتكلمُ معَنا كلامَه. فقمْتُ إليها فعالجْتُها حتى فتحْتُها، ونفذَ منها رَوْحُ الدنيا، وقالَ الشيخُ لِلرجل: أصغِ إليّ، فإذا أنا فرغْتُ مِنَ الكلامِ فشأنَكَ بنفسِك:

أعلمْتَ أنَّ رجلاً مِنَ المسلمينَ قد مَرِض، فأعْضلَ مَرضُهُ[1] فأثبتَهُ على سريرِهِ ثلاثينَ سنةً لا يتحرّك، وطَوى فيهِ الرجُلَ الذي كانَ حيًّا ونشرَ منه الرجلَ الذي سيكونُ ميْتاً، فبقيَ لا حيًّا ولا ميتاً ثلاثينَ سنة....؟

قال ٱلرجل: وفي الدنيا مَنْ يعيشُ على هذه الحالِ ثلاثينَ سنة؟

قال الشيخ: صَحِّحِ الكلامَ وٱسألْ. أيصبرُ على هذه الحالِ ثلاثين سنةً ولا يقول: (جاء ما لا صبرَ عَليه) وأيُّ شيءٍ لا صبرَ عليهِ عندَ ٱلرجلِ ٱلمؤمنِ الذي يعلمُ أنَّ البلاءَ مالٌ غيرَ أنَّهُ لا يُوضَعُ في الكيس بل في ٱلجسم؟

أفتدري مَنْ كانَ الصابرَ ثلاثين سنةً على بلاءِ الحياة والموتِ مجتمعَينِ في عظامٍ مُمَدَّدةٍ على سريرها؟ إنَّهُ إمامُنا (عِمرانُ بنُ حُصَينٍ ٱلخُزاعيُّ) ٱلذي أرسلَهُ عمرُ بْنُ الخطابِ يُفقِّهُ أهلَ البصرة، وتولّى قضاءَها، وكانَ الحسنُ البَصريُّ يحلِفُ باللّهِ ما قدِمَها خيرٌ لهم من عِمرانَ بْنِ حُصين. ولقد دخلْتُ عليهِ أنا وأخوه (العلاء)، فرأيناهُ مُثْبَتاً على سريرِ ٱلجريدِ كأنّما شُدَّ بالحِبالِ وما شُدَّ إلّا بانتهاكِ عَصَبِهِ وذَوَبانِ لحمِه وَوَهَنِ[2] عِظامِه؛ فبكى أخوه، فقال: لِمَ تبكي؟ قال: لأنّي أراكَ على هذه ٱلحالِ العظيمة؟ قالَ: لا تَبكِ؛ فإنَّ أحبَّهُ إلى اللّهِ تعالى أحبُّهُ إليّ. ثم قال: إنَّ هذه الأرضَ تحملُ ٱلجبالَ فلا يشعرُ موضعٌ منها بالجبلِ القائم عليه، إذْ كانَ تماسُكُ الأرضِ كلِّها قد جَعَلَ لِكُلِّ موضعٍ منها قوةَ ٱلجميع، ولولا هذا لَدَكَّ[3] الجبلُ موضعَهُ وغارَ به؛ وكذلك يحملُ المؤمنُ مثلَ الجِبالِ مِنَ ٱلبلاءِ على أعضائِهِ لا ينكسرُ لَها ولا يتهدَّم؛ إذْ كانَتْ قوةُ روحِهِ قوّةً في كلِّ موضع، فٱلبلاءُ محمولٌ على همّةِ ٱلروحِ لا على ٱلجسم، وهذا معنى الخبر: «إنَّ ٱلمؤمنَ بكلِّ خيرٍ على كلِّ حال، إنَّ رُوحَهُ لَتُنزعُ من بينِ جنبيهِ وهو يَحمدُ ٱللّهَ عزَّ وجلّ!».

ثُمَّ قال: ولكنْ ذاك هو ٱلمؤمن، فمن آمنَ باللّهِ فكأنَّما قالَ لَه: «ٱمتَحِنّي!» وكيف تراكَ إذا كنْتَ بطلاً مِنَ الأبطالِ مع قائدِ ٱلجيش، أمَا تفرضُ عليك شجاعتُكَ أنْ تقولَ لِلقائد: «ٱمتحنّي وٱرْمِ بي حيثُ شِئْتَ!» وإذا رَمَى بِكَ فرجعْتَ مُثخَناً

---

(١) أعضل مرضه: اشتدّ حتى صعب الشفاء منه.

(٢) وهن: ضعيف.

(٣) دكّ: حطّم.

بالجراحِ[1] ونالَكَ ٱلبترُ وٱلتشويه، أتُراها أوصافاً لِمصائبك، أَمْ ثناءً على شجاعتِك؟

ثُمَّ قال: إذا لم يكنِ ٱلإيمانُ باللّهِ ٱطمئناناً في النفسِ على زَلازِلِها وكوارثِها، لم يكنْ إيماناً، بل هو دعوى بالفكْرِ أو باللسانِ لا يعْدُوهما، كدعوى ٱلجبانِ أنّهُ بطل، حتى إذا فَجَأهُ ٱلرَّوْعُ[2] أحدَثَ في ثِيابِهِ مِنَ ٱلخوف. . . ومِنَ ثَمَّ كانَ قتلُ المؤمنِ نفسَهُ لِبلاءٍ أو مرضٍ أو غيرِهما كفراً بِاللّهِ وتكذيباً لإيمانِه، وكانَ عملُهُ هذا صورةً أخرى من طيشِ ٱلجبانِ ٱلذي أحدَثَ في ثيابِه!

وٱلإيمانُ الصحيحُ هو بشَاشَةُ ٱلروح، وإعطاءُ ٱللّهِ ٱلرِّضى مِنَ ٱلقلب، ثقةً بوعدِهِ ورَجَاءً لِمَا عندَه، ومن هذينِ يكونُ ٱلاطمئنان. وبالبشاشةِ وٱلرضى وٱلثقةِ وٱلرجاء، يُصبحُ ٱلإيمانُ عقلاً ثانياً مَعَ العقل؛ فإذا ٱبْتُلِيَ ٱلمؤمنُ بِما يذهبُ معهُ ٱلصبرُ ويطيشُ لَهُ العقل، وصارَ من أمرِهِ في مثلِ ٱلجنون ـ برَزَ في هذه ٱلحالةِ عقلُهُ ٱلرُّوحانيُّ وتولّى سياسةَ جسمِهِ حتى يُفيقَ ٱلعقلُ الأول. ويجيءُ ٱلخوفُ من عذابِ ٱللّهِ ونقمتِهِ في ٱلآخرة، فيَغْمرُ بِهِ خوفَ النفسِ مِنَ ٱلفقرِ أوِ ٱلمرضِ أو غيرِهِما فيقتلُ أقواهما ٱلأضعف، ويُخرجُ الأعزُّ منهما الأذلّ.

فالاطمئنانُ بالإيمانِ هو قتلُ الخوفِ الدُّنيويِّ بالتسليمِ وٱلرضى، أو تحويلُهُ عن معناهُ بجعلِ ٱلبلاءِ ثواباً وحسنات، أو تجريدُهُ من أوهامِهِ بٱعتبارِ ٱلحياةِ سائرةً بكلِّ ما فيها إلى الموت؛ وهو بهذا عقلٌ روحانيٌّ لَهُ شأنٌ عظيمٌ في تصريفِ الدنيا، يتركُ ٱلنفسَ راضيةً مَرْضِيَّة، تقولُ لِمصائِبها وهي مطمئنة: نعم. وتقولُ لِشهواتِها وهي مطمئنة: لا.

وما الإنسانُ في هذا الكون؟ وما خيرُهُ وشرُّه؟ وما سخطُهُ ورِضاه؟ إنْ كلُّ ذلك إلّا كما ترى قبضةً مِنَ ٱلترابِ تتكبَّرُ وقد نسيَتْ أنَّهُ سيأتي مَنْ يكنسُها. . . . !

* * *

قال الشيخ: وٱنظر، أما تُبْتَلى ٱلشجرةُ الخضراءُ في بعضِ أوقاتِها بمثلِ ما يُبْتَلى بِهِ ٱلإنسان؟، غيرَ أنَّ لها عقلاً روحانيًّا مستقرًّا في داخلِها يُمسكُ ٱلحياةَ عليها ويتربَّصُ[3] حالاً غيرَ ٱلحال؛ ومهما يكنْ من أمرِ ظاهرِها وبَلائِهِ فٱلسعادةُ كلُّها في داخلِها، ولها دائماً ربيعٌ على قدْرِها حتى في قُرِّ[4] الشتاء.

---

(١) مثخناً بالجراح: ممتلئاً جراحاً في سائر جسده.

(٢) الروْع: الخوف الشديد.

(٣) يتربّص: ينتظر.

(٤) القرّ: البرد الشديد

فالعقلُ الروحانيُّ الآتي مِنَ ٱلإيمان، لا عملَ لَهُ إلّا أنْ يُنشىءَ لِلنفسِ غريزةً متصرِّفةً في كلِّ غرائزِها، تُكمِّل شيئاً وتُنقصُ من شيء. وتُوَجِّهُ إلى ناحيةٍ وتصرفُ عن ناحية؛ وبهذه الغريزةِ تسمو ٱلروحُ فتكونُ أكبرَ من مصائِبها وأكبرَ من لذّاتِها جميعاً.

وتلك الغريزةُ هي نفسُها معنى ٱلرضى بالقدرِ خيرِهِ وشرِّه، وهي تأتي بالتأويلِ لكلِّ همومِ الدنيا، فتضعُ في النكبَاتِ معانيَ شريفةً تنزعُ منها شرَّها وأذاها لِلنفس؛ وليسَتِ ٱلمصيبةُ شيئاً لولا تأذِّي النفسِ بها. وإذا وقعَ ٱلتأويلُ في معاني ٱلنكباتِ أصبحَتْ تعملُ عملَ ٱلفضائل، وتغيَّرَتْ طبيعتُها فيعودُ الفقرُ باباً مِنَ ٱلزهد، وٱلمرضُ نوعاً مِنَ ٱلجِهاد، وٱلخيبةُ طريقاً مِنَ ٱلصبر، وٱلحزنُ وجهاً مِنَ ٱلرجاء، وهلمّ جرًّا.

والنفسُ وحدَها كنزٌ عظيم، وفيها وحدَها ٱلفرحُ وٱلابتهاجُ لا في غيرِها، وما لذّاتُ ٱلدنيا إلّا وسائلَ لإثارةِ هذا الفرحِ وهذا ٱلابتهاج، فإنْ وُجدا معَ الفقرِ بطلَتْ عِزَّةُ ٱلمالِ وأصبحَ حجراً مِنَ الأحجار؛ والبلبلُ يتغرَّدُ بحَنْجرتِهِ ٱلصغيرةِ ما لا تُغْنِي فيهِ آلاتُ التَّطْرِيبِ كلُّها. وفي ٱلنفسِ حياةُ ما حَوْلها، فإذا قَوِيَتْ هذه النفسُ أذلَّتِ ٱلدنيا، وإذا ضعُفَتْ أذلَّتْها الدنيَا!

* * *

قالَ ٱلمسيَّب: ثم سكَتَ ٱلشيخ قليلاً، وكنتُ أرى الرجلَ كأنَّما يغتسلُ بكلامِه، وقد أشرقَ وجهُهُ وتَنضَّرَ وٱنقلبَ إلى روحِهِ التي كانَ منصرفاً عنها، فعادَتْ مصائبُهُ تضغطُ روحاً لينةً كما تضغطُ اليدُ على ٱلماء، وأيقنَ أنَّ النكبةَ كلَّها هي أنْ ينظرَ ٱلإنسانُ إلى الحياةِ بعينِ شهواتِه، فيُنكَبُ أولَ ما ينكبُ في صبرِهِ ويقينِه.

ثم قال الشيخ، ولقد رأيتُ بعيني رأسي معجزةَ (العقل الروحانيِّ) وكيف يصنع: رأيتُ عروةَ بْنَ ٱلزبير وهو شيخٌ كبير، عنَد ٱلوليدِ بْنِ عبدِ ٱلملك، وقد وقَعَتْ في رِجْلِهِ الأُكلةُ(١): فأشاروا عليهِ بقطعِها لا تُفسدَ جسدَهُ كلَّه، فدُعِيَ لَهُ مَنْ يقطعُها فلمَّا جاءَ قالَ لَه: نسقيكَ ٱلخمرَ حتى لا تجدَ لها ألماً. فقالَ عُروة: لا أستعينُ بحرامِ ٱللّهِ على ما أرجو من عافية! قال: فنسقيكَ المُرْقِد(٢). فقال عروة: ما أحِبّ أنْ أُسلَبَ عضواً من أعضائي وأنا لا أجدُ ألمَ ذلك فأحتسبُه!

---

(١) الأُكلة، بضم الهمزة هي الحِكَّة بكسر الحاء. (٢) المرْقد: ما يسمّى بالأجنبية البنج.

ثُمَّ دخلَ رجالٌ أنكَرهم عُروة، فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يُمسكونَك، فإنَّ الألمَ ربَّما عزَبَ[1] معهُ ٱلصبر. قالَ أرجو أنْ أكفيَكم ذلك من نفسي!

قال الشيخ: فانظرْ أيُّها الضعيفُ الذي يُريدُ قتلَ نفسِهِ كيفَ صنَع عُروة، وكيف ٱستقبلَ ٱلبلاء، وكيفَ صبرَ وكيف ٱحتمل. إنَّهُ ٱنصرفَ بحسِّهِ إلى النفسِ فٱنبسطَتْ روحُهُ عليه، وأخذ يكبِّرُ ويهلِّلُ ليبقى مع روحِهِ وحدَها، وخرجَ من دنيا ظاهرِهِ إلى دنيا باطنِهِ، وغُمِرَتْ حواسُّهُ وأَعصابُهُ بالنورِ الإلهيِّ من معنى ٱلتكبيرِ وٱلتهليل، فقطعَ القاطعُ كعبَهُ بالسكينِ وهو لا يلتفِت، حتى إذا بلغَ العظمَ وضعَ عليها المنشارَ ونشَرَها وعروةُ في ٱلتكبيرِ والتهليل؛ ثُمَّ جِيءَ بالزيتِ مغليًّا في مغارفِ[2] الحديدِ فَحُسِمَ[3] بِهِ مكانُ القطع، فَغُشِيَ على عُروة ساعةً ثمَّ أفاقَ وهو يمسحُ العرَقَ عن وجهِه، ولم يُسمعْ منه في كلِّ هذه الآلامِ الماحقةِ أنَّةٌ ولا آهةٌ، ولم يقلْ قبلَها ولا بعدَها ولا بينَ ذلك: «جاءَ ما لا صبرَ عليه. . . . !».

* * *

قال المسيَّب: وأَرْهِفَ[4] بأسُ الرجلِ الضعيفِ وقَوِيَ جأشُه[5]، وٱنبعَثَ فيه ٱلروحُ إلى عُمرٍ جديد، ونشأَ لَهُ اليقينُ من عقلِهِ ٱلروحانيّ، وعرفَ أنَّ ما لا يُمكنُ أنْ يُدرَك، يُمكنُ أنْ يُترَك.

وجاءَ هذا العقلُ الروحانيُ فمرَّ بالمِنشارِ على ٱليأسِ الذي كانَ في نفسِه فقطعَه، فما راعنا إلَّا أنْ وثبَ الرجلُ قائماً يقول: اللَّهُ أكبرُ مِنَ الدنيا، اللَّهُ أكبرُ مِنَ الدنيا!.

ثُمَّ أكبَّ[6] على يدِ الشيخِ وهو يقول: صدقْت؛ «إنْ كلُّ ذلك إلَّا كما ترى قبضةً مِنَ ٱلترابِ تتكبر، وقد نسِيَتْ أنَّهُ سيأتي مَنْ يكنسُها!».

ماذا يصنعُ الإنسانُ إذا غلطَ في مسألةٍ من مسائلِ الدنيا إلَّا أنْ يتحرَّى[7] ٱلصواب، ويجتهدَ في الرجوع إليه، ويصبرَ على ما ينالُهُ في ذلك؟ وماذا يصنعُ الإنسانُ إذا غلطَتْ فيه مسألة. . . .؟

---

(١) عزب: نفد.
(٢) مغارف: ملاعق.
(٣) حسم: سكّر.
(٤) أرهف: رقّ.
(٥) الجأش: السيطرة على النفس.
(٦) أكبّ: انحنى.
(٧) يتحرّى: يتقصى.

الانتحار

٢

قال المسيَّب بْنُ رافع: وقامَ الشعبيُّ إلى الرجلِ فاْعْتَنَقَهُ فَرِحاً بما آلَ أمرُهُ إليه، بعدَ إذ رأى النورَ يجري على لونِهِ ويترقرقُ في ديباجتِهِ[١]؛ كأنَّما وَقَعَ الصلحُ بينَ وجهِهِ وبينَ الحياة. ثُمَّ قالَ لَه: نِعْمَ أخو الإسلام أنت، فاْستعِذْ بِاللَّهِ من خِذْلانِه، فإنَّهُ ما خذَلَكَ إلَّا وضْعُكَ نفسَك بإزاءِ اللَّهِ تُعارِضُه أو تُجاريهِ في قدرتِه، فَيَكِلُكَ إلى هذه النفس، فتنتهي بك إلى العجز، وينتهي العجزُ بك إلى السُّخْط؛ ومتى كنْتَ عاجزاً ساخطاً، محصوراً في نفسِك؛ مَوْكولاً إلى قدرتِك، كنْتَ كالأسدِ الجائعِ في القَفْر[٢]، إذا ظنَّ أنَّ قوّتَهُ تتناولُ خَلْقَ الفريسةِ؛ فيدعو ذلك إلى نفسِك اليأسَ واْلانزعاجَ واْلكآبةَ؛ وأمثالَها من هذه المُهلِكاتِ تقْدَحُ[٣] في قلبِك اْلشكَّ في الله، وتُثبِتُ في رُوعِكَ شرَّ الحياة، وتُهدي إلى خاطرِك حماقاتِ اْلعقل، وتقرِّرُ عندَك عجزَ اْلإرادة؛ فتنتهي من كلِّ ذلك ميّتاً قد أزهقتْك نفسُك قبلَ أنْ تُزْهِقَها!

ولو كنْتَ بَدَلَ إيمانِك بنفسِك قد آمنْتَ باللَّهِ حقَّ الإيمان، لَسلَّطَكَ اللَّهُ على نفسِك ولم يسلطْها عليك؛ فإذا رَمتْكَ اْلمطامعُ بالحاجةِ التي لا تقدرُ عليها، رميْتَها من نفسِك بالاستغناءِ الذي تقدرُ عليه؛ وإذا جاءتْكَ اْلشهواتُ من ناحيةِ الرغبةِ المقبلة، جِئْتَها من ناحيةِ الزُّهدِ اْلمنصرف، وإذا سَاوَرَتْكَ كبرياءُ الدنيا أذْلَلْتَها بكبرياءِ الآخرة.

وبهذا تنقلبُ اْلأحزانُ والآلامُ ضُروباً من فرَحِ اْلفوزِ واْلانتصارِ على النفسِ وشهواتِها، وكانَتْ فنوناً مِنَ الخِذْلانِ واْلهمّ، وتعودُ موضعَ فخرٍ ومباهاة، وكانَتْ أسبابَ خِزْيٍ واْنكسار. «وعزيمةُ الإيمانِ إذا هي قوِيَتْ حَصَرَتِ اْلبلاء في مقدارِه، فإذا حصرَتْهُ لم تزلْ تَنقُصُ من معانيهِ شيئاً شيئاً، فإذا ضعُفَتْ هذه العزيمةُ جاءَ

(١) ديباجته: محيّاه. (٢) القفر: الصحراء. (٣) تقدح: تشعل.

ٱلبلاءُ غامراً مُتَفشّياً يُجاوِزُ مقدارَهُ بما يَصْحَبُه مِنَ ٱلخوفِ والرَّوْعِ، فلا تزالُ معانيهِ تَزيدُ شيئاً شيئاً بما فيه وبما ليسَ فيه.

ولِلإيمانِ ضوءٌ في النفس يُنيرُ ما حولَها فتراهُ على حقيقتِهِ ٱلفانيةِ وشِيْكاً أنْ يزول؛ فإذا ٱنطفأَ هذا الضوءُ ٱنْطَمَسَتِ ٱلأشياء، فتتوهَمُها ٱلنفسُ أوهاماً مُتباينةً[1] على أحوالِها ٱلمختلفة؛ كما يرى ٱلأعمى بِوَهْمِه: لا عيْنُهُ معَ الأشياءِ تكونُ في طبيعتِها، ولا أشياؤه عندَ عينِهِ تكونُ في حقيقتِها.

* * *

قال ٱلمسيَّب: وكانَتِ ٱلشمسُ قد طفَّلَتْ[2] لِلمغيب؛ فقالَ الإمامُ لِلرجل: قُمْ فتوضَأْ وأسْبغ ٱلوضوء، وسأُعلِّمُك أمراً تنتفعُ بهِ في دينِكَ ودنياك: فإذا قُمْتَ إلى وُضوئِك فأيقِنْ في نفسِك وٱعزِمْ في خاطرِك على أنَّ في هذا الماءِ سرًّا روحانيًا من أسرارِ ٱلغَيبِ وٱلحياة، وأنَّهُ رمزٌ لِلسماءِ عندَك، وأنّك إنَّما تتطهَّرُ بهِ من ظُلماتِ نفسِك ٱلتي ٱمتدَّتْ على أطرافِك؛ ثُمَّ سَمِّ ٱللَّهَ (تعالى) مُفيضاً ٱسمَهُ ٱلقادِرَ الكريمَ على ٱلماءِ وعلى نفسِك معاً، ثم تَمثَّلْ أنّك غسلْتَ يديك مِمَّا فيهما ومِمَّا تتعاطاهُ بهما من أعمالِ الدنيا، وأنّك آخِذٌ فيهما مِنَ السماءِ لِوجهِكَ وأعضائِك؛ وقرِّرْ عندَ نفسِك أنَّ الوضوءَ ليسَ شيئاً إلَّا مَسحةً سماويةً تُسبِغُها على كلِّ أطرافِك، لِيشعرَ بها جسمُكَ وعقلُك؛ وأنَّكَ بهذِه ٱلمسحةِ السماويةِ تستقبلُ ٱللَّهَ في صلاتِك سماويًّا لا أرضيًّا.

فإذا أنت ٱستشعرْتَ هذا وعملْتَ عليهِ وصارَ عادةً لك، فإنَّ الوضوءَ حينئذٍ ينزلُ مِنَ النفسِ منزلةَ ٱلدواء، كلَّما ٱغتَممْتَ أو تَسخطْتَ أو غشيَكَ حزنٌ أو عَرضَ لك وَسواس، فما تتوضأُ على تلك النيَّةِ إلَّا غسلْتَ ٱلحياةَ وغسلْتَ الساعةَ التي أنت فيها مِنَ الحياة. وترى ٱلماءَ تحسبُهُ هدوءاً ليِّناً لِينَ الرِّضى، وإذا هو ينسابُ في شعورِك وفي أحوالِك جميعاً.

قالَ ٱلمسيَّب: وقمْتُ أنا فجدَّدتُ وضوئي على هذِه ٱلصفةِ بتلكَ النية، فإذا أنا عندَ نفسي مستضيءٌ برُوحٍ نَجميَّةٍ لها إشراقٌ وسناء، وإذا الوضوءُ في أضعفِ معانيه هو ما عَلمْنا من أنَّهُ ٱلطهارةُ والنظافة، أمَّا في أقوى معانيهِ فهو إفاضةٌ مِنَ السماءِ فيها التقديسُ وٱلتزكيةُ وغَسلُ ٱلوقتِ ٱلإنسانيِّ مِمَّا يُخالطُهُ كلَّما مرَّتْ

---

(١) متباينة: مختلفة. (٢) طفّلت: مالت.

ساعات، وٱبتداؤه لِلروحِ كالنباتِ ٱلأخضرِ ناضراً مطولاً مترَطباً بِالماء.

ثم صلّى بنا الشيخُ، وأمرني بالمبيتِ معَ الرجل، كأنما خَشي البَدَوَاتِ[1] أنْ تَبدُو له فَتنقُصَ عَزْمَه، أو هو زادني عليه لِأغيِّرَ شخصَهُ وأبدِّلَ وحدتَهُ التي كانَ فيها، أو كأنَّ الشيخَ لم يأمنْ على الرجلِ أنْ يكون إنسانُهُ الروحيُّ قد تنبّهَ بأكملِهِ فوضعَني كٱلتنبيهِ لَه.

وجاءَنا ٱلعشاءُ من دارِ ٱلشيخ فطعِمْنَا، ثُمَّ قامَ الرجلُ فتوضَّأَ وصلَّيْنا العَتَمَةَ وجلسْنا نتحدث، فاستنبأتُهُ نبأه[2]، فقال: مهلاً. ثُمَّ نهض فتوضَّأَ الثالثةَ وقال: تاللهِ ما أعرِفُ الوضوءَ بعدَ اليومِ إلَّا ملامَسةً بينَ ٱلسماءِ والنفس، وما أعرِفُ وقتَهُ مِنَ الروحِ إلَّا كساعةِ الفجرِ على النباتِ الأخضر.

* * *

قالَ المسيَّب: وأصبحْنَا فغدوْنَا على الإمام، ثُمَّ لزمني ٱلرجلُ في بعضِ أموري، ثُمَّ وافينا المسجدَ صلاةَ العصرِ لِحضورِ درسِ الشيخ؛ وكانَ الناسُ كالحَبِّ المتراصِفِ على العُنقود، لا أدري من ساقَهم وجَمَعهم؛ كأنَّما علِمَتِ الكوفةُ أن رجلاً مسلماً كفَرَ باللَّهِ كفْرةً صَلْعاءَ وأنَّهُ سيحضُرُ درسَ ٱلشيخ، وسيحضرُ الشيخُ من أجلِه، فهبَّتِ ٱلرياحُ الأربعُ تسوقُ أهلَها إلى المسجدِ من أقطارِها.

وجلسَ الشيخُ مجلسَ ٱلحديث فقال:

رُوِينا أنَّ رجلاً كانَتْ بِهِ جِراحَةٌ، فأتى قَرَناً[3] لَهُ فأخَذَ مِشقصاً[4] فذَبحَ بِهِ نفسَه، فلم يُصَلِّ عليهِ النبيُّ ﷺ، وتركَ جنازتَهُ مطرودةً تقتحمُ مَتْلفةَ الآخرةِ كما ٱقتحمتْ متلفةَ الدنيا!

رُوِينا في الحديث عنِ ٱلنبيِّ ﷺ أنه قال: «الذي يخنقُ نفسَهُ يخنُقها في النّار، والذي يَطْعُنُ نفسَهُ يطعَنُ نفسَهُ في ٱلنار، والذي يقتحمُ يقتحمُ في النار!»

رُوِينا عنهُ ﷺ: «من قَتَلَ نفسَهُ بِشيءٍ عُذِّبَ بِهِ يومَ القِيامة!»

رُوِينا عنه ﷺ قال: «كانَ رجلٌ بِهِ جِراحٌ فقتلَ نفسَه، فقالَ الله: بَدَرَني عبدي بنفسِهِ فحرَّمتُ عليهِ ٱلجنة!».

---

(١) البدوات: المفاجاءات.

(٢) استنبأته نباه: سألته عنه.

(٣) القَرَن بالفتح: جعبة النشاب.

(٤) المشقص: سهم ذو نصل عريض.

قالَ الشعبيُّ: يقولُ ٱللهُ: «بَدَرَني عبدي بنفسِه. . .» أيْ بدرني[1] وتألّه فَجَعَلَ نفسَهُ إلٰهَ نفسِه، فَقبضَها وتَوفّاها، فكانَ ظالما.

بَدَرني وتَألَّهَ في آخرِ أنفاسِهِ لحظَة ينقلبُ إليُّ، فكانَ معَ ظُلمِهِ مغروراً أحمق!

بدرني وتألّهَ حينَ ضاق، فهَوَّرَ نفسَهُ[2] في الموتِ من عجزِهِ أنْ يُمسِكَها في ٱلحياة، فكانَ عاجزاً معَ ظُلمِهِ وغُرورِهِ وحُمْقِه!

بدرني وتألَّهَ على جهلِهِ بِسرِّ ٱلحياةِ وحكمتِها، فلم يَسْتَحِ هذا ٱلمخلوقُ ٱلظالمُ ٱلمغرور في حمقِهِ وعجزِهِ وجهلِه ـ لم يستحِ أنْ يجيئني في صورة إله!

بَدَرني وتألَّه، فَطَبَع نفسَهُ طابَعَها الأبديَّ من غِيٍّ وتمرّدٍ وسفاهة، وأرسلَها إليّ مقتولةً يرُدُّها عَلَيّ.

بدرني وتألَّهَ كأنما يقول: إنَّ لَهُ نصفَ الأمرِ وليَ ٱلنصف: أنا أحييْتُ وهو أماتَ. . . !

بَدَرَني عَبْدي بِنفسِهِ فحرَّمتُ عليهِ ٱلجنة! قال الشعبيّ: وإنَّما تُحرَّمُ الجنةُ على مَنْ يقتل نفسَهُ، إذْ ينقلبُ إلى اللَّهِ وعلى روحِهِ جِنايةُ يدِهِ ما تُفارِقُها إلى الأبد: فهو هناك جِيفةٌ مِنَ الجيفِ مسمومةٌ أبداً، أو مخنوقةٌ أبداً، أو مذبوحةٌ أبداً، أو مهشَّمةٌ أبداً يقولُ ٱللَّهُ له: أنت بَدَرْتني بنفسِك، وجَريْتَ معي في القَدَرِ مجرًى واحداً، فستخلدُ نفسُك في الصورة التي هي من عملِك، وما قتلْتَ إلّا حسَنَاتِك.

قال الشعبيّ: ولو عرفَ قاتلُ نفسِهِ أنَّهُ سيصنعُ من نفسِهِ جِيفةً أبديَّة، فمَنْ ذا الذي يعرِفُ أنه إذا فعلَ كذا وكذا تحوَّلَ حِماراً وبقيَ حِماراً، فيرضَى أنْ يتحوَّل ويُسرعَ لِيتحوَّل؟

مِن ذلك نظرَ النبيُّ ﷺ إلى جنازةِ ذلك الرجلِ الذي قتلَ نفسَه، كما ينظُر إلى ذبابةٍ توجَّهَتْ بالسبِّ إلى الشمسِ والكواكبِ والأفلاكِ كلِّها، ثم جاءتْه تقولُ: اشهدْ لي.

* * *

قال الشيخ: ومِمَّ يقتلُ الإنسانُ نفسَه؟ أمَا إنَّ الموتَ آتٍ لا ريبَ فيهِ ولا مَقْصِرَ لِحَيٍّ عنه، وهو ٱلخيبةُ ٱلكُبرى تُلْقَى على هذه الحياة؛ فما ضررُ الخيبةِ الصغيرةِ في أمرٍ من أمورِ الحياة؟

---

(١) بدرني: سبقني وأتى إليّ. (٢) هوّر نفسه: أزهقها.

إنَّ المرءَ لا يقتلُ نفسَهُ من نجاحٍ بل من خيبة، فإنْ كانَتِ ٱلخيبةُ من مالٍ فهي الفقرُ أوِ ٱلحاجة، وإنْ كانَتْ من عافيَةٍ فهِيَ ٱلمرضُ أوِ ٱلاختلال، وإنْ كانَتْ من عِزَّةٍ فهي ٱلذلُّ أوِ ٱلبؤس، وإنْ كانَتْ مِمَّا سوى ذلك ـ كالنساءِ وغيرِهِنَّ ـ فهي العجزُ عنِ ٱلشهوةِ وفسادُ التخيُّل، كلُّ ذلك موجودٌ في ٱلناس، يحملُهُ أهلُهُ راضينَ بِهِ صابرينَ عليه، وهو ٱلغبارُ النفسيُّ لهذه الأرضِ على نفوسِ أهلِها. ويا عجباً! إنَّ العُميانَ هم بالطبيعةِ أكثرُ الناسِ ضحكاً وٱبتساماً وعبثاً وسخرية، أفتريدون أنْ تُخاطبَكُمُ الحياةُ بأفصحَ من ذلك؟

ليسَتِ ٱلخيبةُ هي ٱلشرّ، بلِ ٱلشرُّ كلُّهُ في العقل إذا تبلَّدَ فجمدَ على حالةٍ واحدةٍ مِنَ الطمعِ ٱلخائب، أو في الإرادةِ إذا وَهَنَت فبقيَتْ متعلِّقةً بما لم يُوجَد. أفلا ترونَ أنَّهُ حينَ لا يُبالي ٱلعقلُ ولا الإرادةُ لا يبقى لِلخيبةِ معنًى ولا أثرٌ في النفس، ولا يخيبُ الإنسانُ حينئذٍ، بل تخيبُ الخيبةُ نفسُها؟

لهذا يأبى ٱلإسلامُ على أهلِهِ ٱلتَّرَفَ العقليَّ والتخيُّلَ الفاسد، ويشتدُّ كلَّ الشِّدةِ في أمرِ ٱلإرادة، فلا يترخَّصُ في شيءٍ يتعلَّقُ بها، ولا يزالُ يُنميها بأعمالٍ يوميَّةٍ تشدُّ منها لِتكونَ رقيبةً على العقل حارسةً لَه، فإنَّ لِلعقل أمراضاً كثيرةً يقيسُ فيها درجاتٍ مِنَ الطيشِ حتى يبلغَ ٱلجنونَ أحياناً؛ فكانَتِ ٱلإرادةُ عقلاً لِلعقل؛ هي لِينُهُ إذا تصلَّبَ، وهي حركتُهُ إذا تبلَّد، وهي حِلْمُهُ إذا طاش، وهي رِضاهُ إذا سَخِط.

الإرادةُ شيءٌ بينَ ٱلروحِ وٱلعقل، فهي بينَ وجودَين؛ ولِهذا يكونُ بها الإنسانُ بين وجودَينِ أيضاً، فيستطيعُ أنْ يعيشَ وهو في الدنيا كالمنفصلِ عنها، إذْ يكونُ في وجودِهِ الأقوى وجودُ روحِه، وأكبرُ همِّهِ نجاحُهُ في هذا الوجود.

وهذا النجاحُ لا يأتي مِنَ المالِ، ولا تُحقِّقُهُ العافية، ولا تُيسِّرُهُ ٱلشهوات، ولا يُسَنِّيهِ[1] التَّخيلُ الفاسد؛ ولا يكونُ من مَتاعِ الغُرور، ولا مِمَّا عُمرُهُ خمسونَ سنةً أو مائةُ سنة؛ بل يأتي مِمَّا عُمْرُهُ الخلودُ ومِمَّا هو باقٍ أبداً في معانيهِ مِنَ ٱلخيرِ والحقِّ والصلاح؛ فهٰهنا يُعينُ المرضُ بالصبرِ عليهِ مِمَّا لا تُعينُ الصحة، ويُفيدُ الفقرُ بحقائقِهِ ما لا تُفيدُ الثروة؛ وهنا يكونُ العقلُ الإنسانيُّ عاملاً أكثرَ مِمَّا هو متخيِّل، وقانِعاً أكثرَ مِمَّا هو طامع؛ وههنا لا موضعَ لِغلبةِ ٱلشهوة، ولا كِبرياءِ النفس، ولا

(١) يسنيه: يجعله سنياً نبيلاً.

حُبّ الذات؛ وهذه الثلاثُ هي جالِبةُ الشقاءَ على الإنسانِ حتى في أحوالِ ٱلسعادة، وبدونِها يكونُ الإنسانُ هانِئاً حتى في أحوالِ الشقاء.

بالإرادة المؤمنةِ القويَّةِ ينصرفُ ذكاءُ المؤمنِ إلى حقائقِ العالم وصلاحِ النفسِ بها، وبغيرِ هذهِ الإرادةِ ينصرفُ الذكاءُ إلى خيالِ الإنسانِ وفسادِ الإنسان. . .

وإذا ٱنصرفَ الذكاءُ إلى حقائقِ الدنيا كانَ العقلُ سهلاً مَرِناً مِطواعاً، وٱستحالَ عليهِ أنْ يفهمَ فكرةَ قتلِ النفسِ أو يُقرَّها، فإنَّ هذه الفكرةَ الخبيثةَ لا تَسْتطْرِقُ إلى العقلِ إلّا إذا تحجَّرَ وٱنحصرَ في غرضٍ واحدٍ قد خابَ وخابَتْ فيهِ الإرادةُ ففرغَتِ الدنيا عندَهُ.

ولو أنَّ ٱمرأً تمَّ عزمُهُ على قتلِ نفسِهِ ثُمَّ صابرَ الدنيا أيّاماً، لٱنفسَحَ عزمُهُ أوْ رَكَ[1]؛ إذْ يلينُ العقلُ في هذه المدةِ نوعاً ما، ويجعلُ الصبرُ بينَه وبينَ المصيبةِ مسافةً ما، فتتغيرُ حالةُ النفسِ هَوْناً ما؛ فالصبرُ كالتروُّح بالهواءِ على العقلِ الذي يكادُ يختنقُ من ٱحتباسِهِ في معنًى واحدٍ مُقْفَلٍ من جوانبِهِ «ومَثَلُ العقلِ في هذه الحالِ مَثَلُ القائم في إعصارٍ لَفَّهُ بالترابِ لَفًّا وسدَّ عليهِ مَنَافِذَ ٱلهواء، وحبسَهُ في هذا الترابِ الملتفِّ حَبْسَ ٱلحشرةِ في جوفِ القصَبة؛ فهو على ٱليقينِ أنَّها حالةُ ساعةٍ طارئةٍ في ٱلزمنِ لا حالةُ الزمن؛ وأنَّ الهواءَ الذي جاءَ بهذا ٱلهمِّ هو الذي يذهبُ بهذا ٱلهمّ.

وكما أنَّ الأرضَ هي شيءٌ غيرُ هذا الإعصارِ الثائرِ منها، فالحياةُ كذلك هي أمرٌ آخرُ غيرُ شقائِها.

* * *

قالَ ٱلإمام: وفي كتابِ ٱللَّهِ آيتانِ تدلّانِ على أنَّهُ كتابُ الدنيا كلِّها، إذْ وضعَ لهذه الدنيا مثالين: أحدُهما المثالُ الروحيُّ لِلفردِ ٱلكامل، والآخرُ المثالُ الروحيّ لِلجماعةِ الكاملة.

أما الآية الأولى فهي قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾.

وأما الثانيةُ فهي قولُهُ تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾.

---

(١) رَكَّ: ضعف.

ففي رجاءِ ٱللَّهِ واليومِ الآخرِ يتسامى الإنسانُ فوقَ هذه الحياةِ الفانية، فتمرُّ همومُها حولَهُ ولا تصدمُه، إذْ هي في الحقيقةِ تجري من تحتِهِ فكأنْ لا سلطانَ لها عليه؛ وهذه الهمومُ تجدُ في مثلِ هذه النفسِ قُوًى بالغةً تصرِّفها كيف شاءَت، فلا يجيءُ الهمُّ قوةً تسحقُ ضعفاً، بل قوةٌ تمتحِنُ قوةً أخرى أو تُثيرُها لِتكونَ عملاً ظاهراً يقلِّدُهُ الناسُ وينتفعُونَ منه بالأسوةِ الحسنة، والأسوةُ وحدَها هي عِلْمُ الحياة.

وقد ترى الفقيرَ مِنَ الناسِ تحسُبُهُ مسكيناً، وهو في حقيقتِهِ أستاذٌ من أكبرِ الأساتيذِ يُلقي على الناسِ دروسَ نفسِهِ القويَّة.

وفي رجاءِ ٱللَّهِ واليوم الآخرِ يبطلُ أكبرُ أسبابِ الشرِّ في الناس، وهو نظَرُ الإنسانِ لِمَنْ هو أحظَى منهُ بفتنةِ الدنيا نظراً لا يَبْعثُ إلَّا ٱلحِقدَ وٱلسخط، فينظرُ المؤمنُ حينئذٍ إلى ما في الناسِ مِنَ الخيرِ والصلاحِ والإيمانِ والحقِّ والفضيلة، وهذه بطبيعتِها لا تبعثُ إلَّا السرورَ والغِبطة. ومَنْ جعلَها في تفكيرِهِ أبطلَ أكثرَ الدنيا من تفكيره؛ وبها تسقطُ الفروقُ بينَ الناسِ عاليهم ونازِلهم؛ كالرجلِ الفقيرِ العالمِ إذا قَدِمَ على الغنيِّ العالم؛ جَمعَ بينَهما الاتفاقُ العقليُّ وسقطَ ما عداه.

وفي رجاءِ ٱللَّهِ واليومِ الآخرِ يعيشُ ٱلإنسانُ عُمْرَهُ الطويلَ أوِ ٱلقصيرَ كأنَّهُ في يوم يُصبحُ منه غادياً على ٱلحشرِ وٱلحِساب؛ فهو متَّصلٌ بالخلودِ غيرُ مَعْنِيٍّ إلَّا بأسبابِه؛ وبهذا تكونُ أمراضُهُ وآلامُهُ ومصائبُهُ ليسَتْ مَكارِهَ منَ الدنيا، بل هي تلكَ المكارِهُ التي حُفَّتِ ٱلجنةُ بها؛ ولا يَضرُّهُ الحِرْمانُ لأنَّهُ قريبُ الزوال، ولا يغُرُّهُ المتاعُ لأنَّهُ قريبُ الزوالِ أيضاً.

وفي رجاءِ ٱللَّهِ واليومِ الآخرِ يَسُودُ الإنسانُ على نفسِه؛ ومَنْ كانَ سيِّدَ نفسِهِ كانَ سيدَ ما حولَها يُصَرِّفُهُ بحكمِهِ، ومَنْ كانَ عَبْدَ نفسِهِ صَرَّفَهُ بحكمِهِ كلُّ ما حَوْلَه.

قالَ الشعبيّ: وأمَّا المثالُ الروحيُّ لِلجماعةِ الكاملة، فهو في وصفِ ٱلمؤمنينَ بأنهم «رُحَمَاءُ بينهم»؛ فهذا هذا، ما أحسُبُه يحتاجُ إلى بَسْطٍ وبيان.

إنَّ أكثرَ ما يضيقُ بهِ الإنسانُ يكونُ من قِبَلِ مَنْ حولَهُ مِمَّن يُعايِشُهُم ويتَّصلُ بهم لا من قبل نفسِه، فإذا قامَ ٱجتماعُ أمَّةٍ على أنَّهم (رُحَمَاءُ بينهم) تَقَرَّرَتِ ٱلعظمَةُ النفسيَّةُ لِلجميعِ على السواء؛ ومَنْ كانوا كذلك لم يَحْقِروا الفقيرَ بفقرِهِ، ولم يُعظموا الغنيَّ لِغِناه، وإنَّما يُحَقِّرُون ويعظِّمونَ لِصفاتٍ ساميةٍ أو حقيرة. وبينَ هؤلاءِ يكونُ الفقيرُ الصابرُ أعظمَ قَدْراً مِنَ الغنيِّ الشاكر، وإعظامُ الناسِ

لِفضيلةِ الفقيرِ هو الذي يجعلُ فقرَهُ عندَ نفسِهِ شيئاً ذا قيمةٍ في الإنسانية.

ومتى تَصحَّحَتْ آراءُ الجماعةِ في هذه المعاني المؤلمةِ لِلناس بَطَلَ ألمُها وٱستحالَتْ معانيها، وصارَ لا يَبلَى معنًى من معاني ٱلحياة في إنسانٍ إلّا وضعَ إيمانُهُ معنًى جديداً في مكانِه، وتُصبحُ ٱلفضيلةُ وحدَها غايةَ النفسِ في الجميع؛ وبذلك يَصبرُ ٱلفردُ على مصائبِه، لا بقُوّتِهِ وحدَه، ولكنْ بجميعِ القوَى التي حولَه. أفَلا تَرَوْنَ أنَّ إعجابَ الناسِ بالشجاعةِ وتعظيمَهم صاحبَها يَضعُ في ألَمِ السلاحِ لذةً يُحِسُّها لحمُ الشجاعِ البطلِ؟

* * *

قالَ المسيَّب بْنُ رافع: فقامَ رجلٌ مِنَ المجلس، فقال. أيُّها الشيخ، وإذا فَسدَ الناسُ وغَلُظَتْ قلوبُهم، وتقطَّعتْ بينَهُمُ الأسباب، ولم يعودوا (رُحَمَاءُ بينهم)، وشَمِتوا بالفقير، وتهزَّءوا بالمُبتلَى وطرحوه في ألسنتِهم كما يَطرَحُ الشاعرُ في لِسانِهِ رجلاً يهجوه لا يكفُّ عنه ـ فما عسى أنْ يصنعَ المسكينُ حينئذٍ وكلُّ شيءٍ يدفعُهُ إلى قتلِ نفسِه؟

وقال الشعبيّ: هٰهنا الرجاء في اللّهِ واليوم الآخر، وهو شعورٌ لا يُشترى بمال، ولا يُلتمسُ من أحد، ولا يَعْسُرُ على مَنْ أرادَهُ؛ والفقيرُ وٱلمُبتلَى وغيرُهما إنَّما يَصنعُ كلٌّ منهم مِثالَهُ السامي؛ فالصبرُ على هذا العَنَتِ هو صبرٌ على إتمامِ ٱلمِثال، وإذا وقَعَ ما يسوءُك أو يُحزِنُكَ فٱبحثْ فيهِ عن فكرتِهِ السامية، فقلَّما يخلو منها، بل قلَّما يجيءُ إلّا بها.

قالَ المسيَّب: فقامَ آخرُ فقال: وكيف يصنعُ ٱمرؤٌ آلتْ[1] أحوالُ ٱلدنيا إلى ما يُخيفُه، أو بَلَغَ ٱلهمُّ مبلَغَهُ من قلبِهِ فهمَّ أنْ يقتلَ نفسَه؟

قال الشعبيّ: فلْيجعلِ ٱلخوفَ خَوْفَيْنِ: أحدُهما خوفُهُ عذابَ اللّهِ خالداً مُخلَّداً فيهِ أبداً؛ فَيَذْهَبُ الأقوى بالأضعف. وإذا ٱبتُليَ فلْيضمَّ إلى نفسِهِ مَن هو أشدُّ بلاءً منه؛ لِيكونَ همُّهُ أحدَ همَّيْن، فيذهبَ الأثقلُ بالأخفّ.

إنَّ الإنسانَ ونفسَهُ في هذه الحياةِ كالذي أُعطيَ طِفلاً نَزِقاً طَيَّاشاً عارِماً متمرِّداً لِيؤدِّبَهُ ويُحْكِمَ تربيتَهُ وتقويمَهُ فيُثبتَ بذلك أنَّهُ أُستاذٌ، فيُعطَى أجرَ صبرِهِ وعملِه، ثم يضيقُ الأستاذُ بالطفلِ ساعةً فيقتلُه. أكذلك التأديبُ والتربية؟

---

(١) آلت: تحوّلت.

الانتحار

٣

قال ٱلمسيَّبُ بْنُ رافع: وكان الإمامُ قد شغَلَ خاطِرَهُ[١] بهذِه القصةِ فأخذَتْ تَمُدُّ مدَّها في نفسِه، ومكَّنَتْ لَهُ من معانيها بِمِقدارِ ما مكَّنَ لَها في هَمِّه، وتفتَّقَ بها ذِهنُهُ عَنْ أساليبَ عجيبةٍ يتهيَّأُ بعضُها من بعضٍ كما يَلِدُ المعنى المعنى. فلمَّا قالَ ٱلرجُلانِ مقالَهما آنفاً وأجابَهما بتلك الحِكمةِ والموعظةِ الحسنة، ٱنْقدَحَ لَهُ من كلامِهما وكلامِهِ رأيٌ فقال:

يا أهلَ الكوفة: أنشُدُكم ٱللّهَ والإسلامَ أيُّما رجلٍ منكم ضاقَ بروحِهِ يوماً فأرادَ إزهاقَها إلَّا كشفَ لأهلِ المجلسِ نفسَهُ وصَدَقَنا عن أمرِه؛ ولا يَجِدَنَّ في ذلك ثَلْباً[٢] ولا عاباً، فإنَّما ٱلنكبةُ مذهبٌ من مذاهبِ القَدَرِ في ٱلتعليم؛ وقد يكونُ ٱبتداءُ المصيبةِ في رجلٍ هو ٱبتداءَ الحكمةِ فيهِ لِنفسِه أو لِغيرِه؛ وما من حزينٍ إلَّا وهو يشعرُ في بعضِ ساعاتِ حزنِهِ أنَّهُ قد غُيِّبَتْ فيهِ أسرارٌ لم تكنْ فيه، وهذا من إبانةِ ٱلحقيقةِ عن نفسِها وموضعِها كما لألأ[٣] في سيفٍ بريقُه.

وعقلُ ٱلهمِّ عقلٌ عظيم، فلو قد أُريدَ استخراجُ عِلْمٍ يَعلمُهُ الناسُ مِنَ ٱللذاتِ والنِّعم؛ لَكانَ من شرحِ هذا العِلْمِ مِنَ الحميرِ والبغالِ والدَّوابِّ ما لا يكونُ مثلُهُ ولا قُرابُهُ في ٱلعقلاء، ولا تبلغهُ القُوى الآدميَّةُ في أهلِها؛ بَيدَ أنَّهُ لو أُريدَ عِلْمٌ مِنَ البؤسِ والألمِ وٱلحاجةِ لَمَا وُجِدَ شرحُهُ إلَّا في الناس، ثُمَّ لا يكونُ الخاصُّ منه إلَّا في الخاصةِ منهم.

وما بانَ أهلُ النعمةِ ولا غَمروا المساكينَ في تطَاوُلِهم بأعناقِهم إلَّا من أنَّهم يَعلُون أكتافَ الشياطين؛ فالشيطانُ دابَّةُ الغنيِّ الذي يجهلُ الحقَّ عليهِ في غِناهُ ويحسبُ نفسَهُ مُخَلًّى لِشهواتِهِ ونعيمِه؛ كما هو دابةُ العالمِ الذي يجهلُ الحقَّ عليهِ

---

(١) خاطِره: باله. (٢) ثلباً: عاباً وعيباً. (٣) لألأ: التمع وبرق.

في عِلْمِه، ويزعمُ نفسَهُ مخلًّى لِعقلِهِ أو رأْيِه، وما طالَ الطويلُ بذلك ولا عن ذلك قَصُرَ ٱلقصير، وهلْ يصحُّ في الرأي أن يُقالَ هذا أطولُ من هذا لأنَّ الأولَ فوقَ السُّلَّمِ والآخرَ فوقَ رجليه...؟

* * *

قال المسيَّب: فقامَ شيخٌ من أقصى المجلس وأقبلَ يتخطَّى ٱلرقابَ وٱلناسُ يَنْفرجون[1] لَهُ حتى وقفَ بإزاءِ الإمام؛ وتَفَرَّستُهُ[2] وجعلَتْ عيني تعْجمُهُ[3]، فإذا شيخٌ تبدو طَلاقَةُ وجهِهِ شباباً على وجهه، أبلجُ الغُرّةِ مُتهلّلٌ عليهِ بشاشةُ الإيمانِ وفي أساريرِهِ أثرٌ من تقطيبٍ قديم، ينطقُ هذا وذاك أنَّ الرجلَ فيما أتى عليهِ مِنَ الدهرِ قد كانَ أطفأَ ٱلمصباحَ الذي في قلبِهِ مرةً ثُمَّ أضاءَه. وعجِبْتُ أنْ يكونَ مثلُ هذا الشيخِ قد همَّ بقتلِ نفسِهِ يوماً، وأنا أرى بعينيَّ نفسَهُ هذه مُنْبثِقةً في الحياةِ ٱنبثاقَ النَّخلةِ السَّحوقِ.

وتكلمَ هذا الرجلُ فقال:

أمَّا إذ ناشدْتَنا[4] الله والإسلامَ وميثاقَ العِلْمِ ووحيَ الأقدارِ في حِكمتِها، فإنِّي محدِّثُك بخبري على وصفِهِ ورَصْفِه: أملقْتُ[5] منذُ ثلاثينَ سنةً ووقفَ بي منَ الدهرِ ما كانَ يجري، وأصبحْتُ في مُزاولةِ الدنيا كعاصرِ الحَجَرِ يُريدُ أنْ يشربَ منه، وعجَزتْ يدي حتى لَظُفْرُ دَجاجةٍ في نبشِها الترابَ عنِ ٱلحبَّةِ وٱلحشرَةِ أقدرُ مني؛ وطرَقَتْني ٱلنوائبُ[6] كأنَّما هي تُساكنُني في داري، وأكلني ٱلدهرُ لحماً ورماني عِظاماً، فما كانَ يقفُ عليَّ إلَّا كلابُ ٱلطريقِ؛ ولي يومئذٍ ٱمرأةٌ أعقبْتُ منها طفلاً، ويلزَمُني حقُّهما ولا أستطيعُه؛ وكانَ بينَنَا حُبٌّ فوقَ المعاشرةِ والألفةِ قد تركني مِنِ ٱمرأتي هذه كالشاعرِ الغَزِلِ من صاحبتِه، غيرَ أنّ الشعرَ في دمي لا في لِساني.

فلمَّا نَهكَتْني[7] المصائبُ وتناولَتْني من قريبٍ ومن بعيد؛ قلْتُ لِلمرأةِ ذاتَ يومٍ وقد شَحِبَتْ وٱنكسَرَ وجهُها وتَقَبَّضَ[8] من هُزالِه: وأيمُ اللّهِ يا فلانةُ لو جازَ أنْ يُؤكَلَ لحمُ الآدميِّ لَذبحْتُ نفسي لِتأكلي وتَدرِّي على الصبيِّ؛ ولقد همَمْتُ أنْ أركبَ رأسي وأذهبَ على وجهي لِتفقداني فتفقدا شُؤمي عليكما؛ ولكنْ ردَّني

(1) يتفرجون له: يُفسحون له الطريق.
(2) تفرسته: نظرت إليه بإمعان.
(3) تعجمه: تتفحصه.
(4) ناشدتنا الله: استحلفتنا.
(5) املقت: افتقرت.
(6) طرقتني النوائب: حلّت بي المصائب.
(7) نهكتني: أتعبتني وأضنتني.
(8) تقبّض: انكمش.

قلبي، وهو حَبَسني في هذه الدنيا الصغيرةِ التي بينَكما، فليسَ لي مِنَ الأرضِ مَشْرِقٌ ولا مغربٌ إلّا أنتِ وهذا الصبيّ. ولسْتُ أدري - واللّهِ - ما نصنعُ بالحياةِ وقد كُنّا من نباتِها الأخضرِ فرجَعْنا من حَطبِها اليابسِ؛ وعادتِ الشمسُ لا تَغْذوها بل تمتصُّ منها ما بقي، ولا تستضيءُ لها، ولكنْ تَسْتَوْقِدُ عليها!

إنَّ مَنْ فَقَدَ ٱلخيرَ ووقعَ في الشرّ، حَرِيٌّ[1] أنْ يكونَ قد أصابَ خيراً عظيماً إذا قتلَ نفسَهُ فخلص مِنَ ٱلشرِّ والخيرِ جميعاً، لا يُكْدِي[2] ولا يَنجَحُ، ولا يألمُ ولا يَلَذُّ؛ وكما أنكرَتْهُ الدنيا فلْينكرْها. أمَا إنّهُ إنْ كانَ القبرُ فالقبرُ ولكنْ في بطنِ الأرضِ لا على ظهرِها كحالِنا؛ وإنْ كانَ ٱلموتُ فٱلموتُ ولكنْ بمرّةٍ واحدةٍ وفي شيءٍ واحدٍ لا كهذا الذي نحن فيهِ أنواعاً أنواعاً. قد ماتَتْ أيّامُنا، وترَكَتْنا نعيشُ كالموْتى لا أيامَ لهم، وزادَ علينا ٱلموتى في النعمةِ والراحةِ أنّهم لا يتطفّلون[3] على أيامِ غيرِهِم فيُطْرَدوا عن يوم هذا ويوم ذاك.

قال: فٱستعبرَتِ[4] ٱلمرأةُ باكيةً، ولَمّا فرغَتْ من كلامِ دموعِها قالَت: كأنَّكَ تُريدُ أنْ تَفْجَعَنَا فيك؟ قلْتُ: ما عَدَوْتِ ما في نفسي؛ ولَكنْ هلْ بقيَ فيَّ مَنْ تُفْجَعينَ فيه؟ أمَا ذهبَ مني ذاكَ الذي كانَ لكِ زوجاً وكاسِباً، وجاءَ الذي هو همُّكِ وهمُّ هذا الصبيِّ من رجلٍ كالحفرةِ لا تنتقلُ من مكانِها وتأخذُ ولا تُعطِي؟

أمْ واللهِ لَكأني خُلقْتُ إنساناً خطَأً، حتى إذا تبيَّنَ الغلطُ أُريدُ إرجاعي إلى الحيوانِ فلم يأتِ لا هذا ولا ذاك، وبقيْتُ بينَهما؛ يمرُّ الناسُ بي فيقولون: إنسانٌ مِسكين. وأحسبُ لو نطَقتِ ٱلكلابُ لَقالَتْ عنّي: كلبٌ مسكين. يا عجباً! عجباً لا ينتهي! أصبحتِ الدنيا في يدِنا مِنَ العجزِ واليأسِ كأنّما هي بَعْرَةٌ نَجْهَدُ في تحويلِها ياقوتةً أو لؤلؤة. . .

فقالَتِ ٱلمرأة: واللّهِ لَئِنْ حَيِيتَ على هذا إنَّ هذا لَكفرٌ قبيح، ولَئِنْ مُتَّ عليه إنّهُ لَأقبحُ وأشدّ.

فقلْتُ لها: ويحكِ وماذا تنظرُ العينُ ٱلمُبصِرةُ في الظلامِ الحالكِ إلّا ما تنظرُ ٱلعمياء؟

قالَت: ولِمَ لا تنظرُ كما ينظرُ المؤمنُ بنورِ ٱللّهِ؟

(١) حريّ: جدير.
(٢) أكدى: قلّ خيره وعطاؤه.
(٣) يتطفلون: يعيشون على حساب غيرهم.
(٤) استعبرت: بكت.

قلْتُ: فٱنظرِي أنت وخبِّريني ماذا تَرَيْن. أترَيْن رغيفاً؟ أترَيْن إداماً؟ أترَيْنَ ديناراً؟

قالت: واللَّهِ إني لأرى كلَّ ذلك وأكثرَ من ذلك. أرى قمراً سيكْشِفُ هذه السُّدْفَةَ[1] المُظلِمةَ إنْ لم يَطْلُعْ فكأنْ قدْ.

قال: فغاظْتني ٱلمرأةُ ورأيْتُها حينئذٍ أشدَّ عليَّ بقلَّةِ ذاتِ عقلِها من قلَّةِ ذاتِ يدي؛ ولولا حبِّي إيّاها ورحمتِي لها لأوقعْتُ بها[2]. وٱستحكم في ضميري أنْ أُزْهِقَ نفسي وأدَعَها لِمَا كُتِب لها.

وقلت: إنَّ جُبنَ ٱلمرأةِ هو نصفُ إيمانِها حينَ لا يكونُ نصفَ عقلِها، وللقَدَرِ يدٌ ضعيفةٌ على النساءِ تَصْفَعُهُنَّ وتمسحُ دموعَهُنَّ، ولَهُ يدٌ أخرى على الرجالِ ثقيلةٌ تصفعُ الرجلَ وتأخذُ بحلقِهِ فتعصِرُه.

* * *

قال: وكنْتُ قد سمعْتُ قولَ الجاهليةِ في هذه الخليقة؛ أرحامٌ تَدْفَع، وأرضٌ تَبْلَع. فحضَرني هذا القولُ تلكَ الساعةَ وشُبِّهَ لي، وٱعتقدْتُ أنَّ هذا الإنسانَ شيءٌ حقيرٌ في الغايةِ مِنَ ٱلهوانِ والضَّعة: حملَتْهُ أمُّهُ كُرْهاً، وأثْقَلتْ بِهِ كُرهاً، ووضَعتْهُ كُرهاً؛ وهو من شُؤمِهِ عليها إذَا دَنَا لها أنْ تَضَعَ لم يخرجْ منها حتى يَضْرِبَها ٱلمخاضُ فتتقلَّبُ وتصيحُ وتتمزَّقُ وتَنْصَدِع[3]؛ وربمَّا نَشِبَ فيها فقتلَها، وربَّما التوى فيُبْقَرُ بطنُها عنه. وإذا هي ولدتْهُ على أيِّ حاليْها من عُسْرٍ وتطريقٍ بمثلِ ٱلمَطارِقِ ٱلمحطِّمة، أو سَرَاحٍ ورَواحٍ كما يتيسَّر ـ فإنَّما تلدُهُ في مَشيمَةٍ ودماءٍ وقذَرٍ مِنَ ٱلأخلاطِ كأنما هو خارجٌ من جُرْحٍ. ثم تتناولُهُ الدنيا فتضَعُهُ من معانيها في أقبحَ وأقذرَ من ذلك كلِّه. ثُمَّ يستوفي مُدَّتَهُ فيأخذُهُ القبرُ فيكونُ شرًّا عليه في تمزيقِهِ وتعفينِهِ وإحالتِه.

قال: وحضَرني مع كلمةِ الجاهليةِ قَولُ ذلك الجاهلِ الزِّنديقِ الذي يُعرفُ (بالبَقْلِيّ) ـ إذْ كانَ يزعمُ أنّ الإنسان كالبَقْلة، فإذا ماتَ لم يَرْجع. وقلْتُ لِنفسي: إنَّما أنت بَقْلةٌ حمقاءُ ذاويةٌ في أرضٍ نَشَّاشةٍ[4]، فقتلَهَا مِلْحُ أرضِها أكثرَ مِمَّا أحياها.

---

(١) السُّدفة: الظلمة والعتمة.

(٢) أوقعت بها: نزلت بها ضرباً.

(٣) تنصدع: تتكسّر.

(٤) الأرض النشاسة: السبخة التي يوجد فيها الماء والملح.

قال: وثُرْتُ إلى المِديةِ[1] أُريدُ أنْ أتوَجأَ بها، فتُبادرني ٱلمرأةُ وتحولُ بيني وبينَها؛ وأكادُ أبطُشُ بها مِنَ ٱلغيظ، وكانَتْ روحُ ٱلجحيم تَزْفِرُ من حولي لو سَمِعوا سمعوا لها شهيقاً وهي تَفور؛ فما أدري أيُّ مَلَكٍ هبطَ بوحْي الجنةِ في لِسانِ ٱمرأتي.

قلْتُ لها: إنَّها عَزْمةٌ منّي أنْ أقتلَ نفسي.

قالَت: وما أُريدُ أنْ أنقضَها ولسْتُ أرُدُّك عنها وستُمْضيها.

قلْتُ: فخلِّي بينَ نفسي وبينَ المِدية.

قالَت: كلُّنا نفسٌ أنا وأنت والصبيُّ فلْنَقْضِ معاً؛ وما بنفسي عن نفسِك رغبةٌ ولا ندعُ الصبيَّ يتيماً يصفعُهُ مَنْ يُطْعِمُه، ويضربُه ٱبنُ هذا وٱبنُ ذاك إذْ لا يستطيعُ أنْ يقولَ في أولادِ الناسِ أنا ابنُ ذلك ولا ابنُ هذا.

قلْتُ: هذا هو الرأي.

قالَت: فتعالَ ٱذبحِ ٱلطفل....

❋ ❋ ❋

قالَ المسيَّب بْنُ رافع: وما بلغَ الرجلُ في قصتِهِ إلى ذبح صغيرِهِ حتى ضجَّ الناسُ ضجةً مُنْكَرة؛ وتوهَّمَ كلُّ أبٍ منهم أنَّ طفلَهُ ٱلصغيرَ مُمدَّدٌ لِلذبحِ وهو يُنادي أباهُ ويشُقُّ حَلْقَهُ بالصُّراخ: يا أبي يا أبي؛ أدركْني يا أبي.

أمَّا الإمامُ فدَمَعَتْ عيناهُ وكنْتُ بينَ يديهِ فسمعْتُهُ يقول: إنَّا للَّهِ، كيف تصنعُ جهنمُ حطبَها؟

وأنا فما قَطُّ نسِيْتُ هذه الكلمة، وما قطُّ رأيْتُ من بعدِها كافراً ولا فاسقاً فٱعْتبرْتُ أعمالَهُ إلَّا كانَ كلُّ ذلك شيئاً واحداً هو طريقةُ صَنعتِهِ حَطباً... كأنَّ الشيطانَ لعنَهُ ٱللَّهُ يقولُ لأتباعِه؛ جَفِّفوه...

وكانَتْ هُنَيْهاتٌ، ثُمَّ فاءَ الناسُ ورجعوا إلى أنفسِهم وصاحوا بالمتكلم: ثم ماذا؟

❋ ❋ ❋

قالَ الرجل: ففتحْتُ عيني وقلبي معاً ورَمقْتُ[2] ٱلطفلَ المسكينَ الذي لا يملِكُ إلَّا يديهِ الضعيفتينِ؛ ونظرْتُ إلى مَجْرَى السكينِ من حلقِهِ وإلى مَحَزِّها[3] في

---

(١) المدية: السكين.

(٢) رمق: نظر بطرف نظره.

(٣) محزّها: موضع الذبح.

رقبتِهِ اللّينة؛ ورأيْتُهُ كأنّما تفرَّقَ بصرُهُ مِنَ الفزَعِ على كلِّ جهة، ورأيْتُهُ يتضرَّعُ لي بعينيهِ الباكيتينِ ألّا أذبحَه، ورأيْتُهُ يتوسلُ بيديهِ الصغيرتينِ كأنّهُ عرفَ أنَّهُ منّي أمامَ قاتلِه، ثُمّ خُيِّل إليَّ أنّه يتلوّى وينتفضُ ويصرُخُ من ألمِ الذبحِ تحتَ يدِ أبيه؛ تحت يدِ أبيهِ التَّعِس.

يا ويلتاهُ! لقد أخذَني ما كانَ يأخُذني لو تهدَّمَتِ ٱلسماءُ على الأرض، وحسبْتُ الكونَ كلَّهُ قدِ ٱنفجرَ صُراخاً من أجلِ الطفلِ الضعيفِ الذي ليسَ لَهُ إلّا ربُّهُ أمامَ القاتل.

فهَرْوَلْتُ[1] مسرعاً وتركْتُ ٱلدارَ وٱلمرأةَ والصبيَّ وأنا أقولُ يا أرحمَ الراحمين. يا مَنْ خلقَ الطفلَ عالَمُهُ أمُّهُ وأبوه وحدَهما وباقي العالم هباءٌ عندَه. يا مَنْ دبَّرَ الرضيعَ فوهبَهُ مُلكاً ومملكةً وغِنًى وسروراً وفرحاً، كلُّ ذلك في ثَدْي أمِّهِ وصدرِها لا غيرَ يا إلهي: أنسنِي مثلَ هذا النسيان، وٱرزقْني مثلَ هذا الرزق، وٱكفُلْنِي بمثلِ هذا التدبيرِ فإنّي منقطعٌ إلّا من رحمتِك ٱنقطاعَ الرضيعِ إلّا من أمّه.

* * *

قالَ الرجل: ولقد كنْتُ مغروراً كالجيفةِ الراكدةِ تحسبُ أنّها هي تفورُ حينَ فارقَتْ حشَراتُها. ولقد كنْتُ أحقرَ مِنَ الذبابِ الذي لا يجدُ حقائقَه، ولا يلتمسُها إلّا في أقذرِ القذر.

وما كِدْتُ أمضي كما تسوقُني رجلاي حتى سمعْتُ صوتاً نَديًّا مطلولاً يُرَجِّعُ ترجيعَ الوَرْقاءِ[2] في تَحْنانِها وهو يُرتِّل هذه الآية:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[3].

قال: فوقفْتُ أسمعُ وماذا كنْتُ أسمع؟ هذه شُعَلٌ لا كلمات، أحرقَتْ كلَّ ما كانَ حولي ولمسَتْ مِصباحَ رُوحِي ٱلمنطفِىءَ فإذا هو يتوهَّجُ، وإذا الدنيا كلُّها تتوهجُ في نورِهِ، وٱرتفعَتْ نفسي عنِ ٱلجَدْبِ[4] الذي كنْتُ فيهِ وكأنّما لَفّتْني سحابةٌ مِنَ السُّحُب، ففي روحي نسيمُ الماءِ الباردِ ورائحةُ الماءِ العذْب.

لعنَ ٱللّهُ هذا الاضطرابَ الذي يُبتَلى الخائفُ به. إنّنا نحسبُهُ ٱضطراباً وما هو

---

(١) هرولت: ركضت.
(٢) الورقاء: اليمامة.
(٣) فرطاً: تتقاسمه الأهواء.
(٤) الجدب: المحل.

إلَّا اختلاط ٱلحقائقِ على النفسِ وذَهابُ بعضِها في بعض، وتَضَرُّبُ الشرِّ في الخيرِ والخيرِ في الشرِّ حتى لا يَبِينَ جنسٌ من جنس، ولا يُعرَفَ حَدٌّ من حدّ، ولا تمتازَ حقيقةٌ من حقيقة. وبهذا يكونُ الزمنُ على المبتَلى كالماءِ الذي جَمدَ لا يتحرَّكُ ولا يَتَسايَرُ. فيلوحُ الشرُّ وكأنَّهُ دائماً لا يزالُ في أولِهِ يُنذِرُ بالأهوال، وقد يكونُ هَوْلَهُ ٱنتهى أو يُوشِك.

قالَ الرجل: وكنتُ أرى يأسي قدِ ٱعْتَرَى كلَّ شيء، فٱمتدَّ إلى آخرِ الكونِ وإلى آخِرِ الزمن؛ فلمَّا سكَن ما بي إذا هو قد كان يأسَ يوم أو أيام في مكانٍ مِنَ الأمكنة؛ أمَّا ما وراءَ هذه الأيَّام وما خلْفَ هذا المكان، فذلكَ حُكمُهُ حكمُ الشمسِ التي تطلُعُ وتغيبُ على الدنيا لإحيائها، وحكمُ الماءِ الذي تَهْمِي السماءُ بهِ لِيسقِيَ الأرضَ وما عليها، وحكمُ ٱستمرارِ هذه الأجرامِ السماويَّةِ في مَدَارِها لا تُمسِكُها ولا تَزِنُها إلَّا قوةُ خالقِها.

أين أثرُ الإنسانِ الدنيءِ الحقيرِ في كلِّ ذلك؟ وهلِ ٱلحياةُ إلَّا بكلِّ ذلك؟

وما الذي في يدِ الإنسانِ العاجزِ من هذا النظام كلِّهِ فيَسُوغَ[1] لَهُ أنْ يقولَ في حادثةٍ من حوادثِهِ إنَّ الخيرَ لا يبتدِىءُ وإنَّ الشرَّ لا ينتهي؟

تَعترِي المصائبُ هذا الإنسانَ لِتمحوَ من نفسِهِ الخِسَّةَ والدناءة، وتكسِرَ الشرَّ والكِبرياء، وتَفثأ[2] ٱلحِدَّةَ والطيش؛ فلا يكونُ من حُمقِهِ إلَّا أنْ يزيدَ بها طيشاً وحِدَّة، وكِبرياءَ وشرًّا، ودناءةً وخِسَّة، فهذه هي مصيبةُ الإنسانِ لا تلك.

المصيبةُ هي ما يَنْشأُ في الإنسانِ مِنَ ٱلمصيبة.

* * *

قال: وردَّدْتُ الآيةَ الكريمةَ في نفسي لا أشبعُ منها، وجعلْتُ أُرتِّلُها أحسنَ ترتيلٍ وأطرَبَهُ وأشجاه؛ فكانتْ نفسي تهتزُّ وترتجُّ كأنَّما هي تبدأُ تنظيمَ ما فيها لإقرارِ كلِّ حقيقةٍ في موضعِها بعدَ ذلك ٱلاختلاطِ وٱلاضطراب.

صبرُ النفسِ معَ الذين يمثِّلونَ روحانيتها تمثيلاً دائماً بالغَداةِ والعشيّ، وعلى نورِ الحياةِ وظلامِها، يُريدون وَجهَ ٱللّهِ الذي سبيلُهُ ٱلحُبُ لا غيرُهُ من مالٍ أو متاع. وتقييدُ العينينِ بهذا المثَلِ الأعلى كما يكونُ الأمرُ في ٱلجمالِ والحُبّ؛ والربطُ على

(١) يسوغ: يسمح.

(٢) فثأ الغضب: سكّنه وكسره.

الإرادةِ كَيْلاً تَتفلَّتَ فتَسِفَّ[1] إلى حقائرِ الدنيا المسماةِ هُزُءاً وتهكماً زينةَ الدنيا، تلك التي تُشبهُ حقائقَ الذبابِ العالية. . . فتكونُ قَذِرةً نجِسةً، ولكنَّها مع ذلك زينةُ الحياةِ لِهذا الخَلْقِ الذُّبابي.

تلك ـ واللَّهِ ـ هي أسبابُ السعادةِ والقوّة. أمَّا المصائبُ كلُّها، فهي في إغفالِ ٱلقلبِ الإنسانيِّ عن ذكرِ الله.

* * *

قال: ولمَّا صَحَّتْ توبتي، وقَوِيَ اليقينُ في نفسي، كَبُرَتْ روحي وٱتسعَتْ، وٱنبعثَتْ لها بواعثُ من غيرِ حقائقِ الذباب، وأشرقَ فيها الجمالُ الإلهيُّ ساطعاً من كلِّ شيء، وكانَ ٱلصبحُ يطلعُ عليَّ كأنَّهُ وِلادةٌ جديدة، فأنا دائماً في عُمرِ طفل، وجاءَنِي الخيرُ من حيثُ أَحْتَسِبُ[2] ولا أحتسِب، وكأنَّما نِمْتُ فٱنتبهْتُ غنيًّا وعَمِلَ القلبُ الحيُّ في الزمنِ الحيّ.

ولقد أفدْتُ مِنَ الآيةِ طبيعةً لم تكُنْ فيَّ، ولا يثبتُ معها الشرُّ أبداً، فأصبحَ من خِصالي أنْ أرى الحاضرَ كلَّهُ متحرِّكاً يمرُّ بما فيهِ من خيرِهِ وشرِّهِ جميعاً، وأَسْتَشْعِرَ حركتَهُ مثلما ترى عيناي من قِطَارِ الإبلِ يهتزُّ تحتَ رِحالِهِ وهو يُغِذُّ السَّير[3].

لم أُبْعِدْ قليلاً وأنا أمشي مطمئناً تائباً متوكِّلاً حتى دعاني رجلٌ ذو نعمةٍ ومُروءةٍ وجاهٍ، وكأنَّما كلَّمَهُ قَلبُهُ أو كلَّمَهُ وجهي في قلبِه فٱستَنْبأني، وبَثَثْتُه[4] حالي وٱقْتَصَصْتُ قِصتي. فقال: سيُحييك ٱللَّهُ بالطفلِ الذي كِدْتَ تقتُلُهُ فٱرجعْ إلى دارِك. ثُمَّ وجَّهَ إليَّ دنانيرَ وقال: اِتَّجِرْ بهذه على ٱسمِ اللَّهِ وبركتِهِ فسينمو فيها طفلٌ مِنَ ٱلمالِ حتى يبلغَ أشُدَّه. وقد صدقَ إيمانُهُ وإيماني، فباركَ لِيَ ٱللَّهُ ونما طفلُ المالِ وبلغَ وجاوزَ إلى شبابِه.

* * *

قالَ ٱلمسيَّب: وجلسَ الرجلُ وكانَ كالخطيبِ على المنبر، فقالَ الإمام: ما أشبَهَ النكبةَ بالبَيضةِ تُحسَبُ سِجناً لِما فيها وهي تحوطُهُ وتربِّيهِ وتُعينُهُ على تَمامِه، وليسَ عليهِ إلَّا الصبرُ إلى مدَّة، والرِّضى إلى غاية، ثم تَنْقُفُ ٱلبيضةُ فيخرجُ خَلقاً آخر.

وما ٱلمؤمنُ في دنياهُ إلّا كالفَرْخِ في بَيضتِه، عملُهُ أنْ يتكوَّنَ فيها، وتمامُهُ أنْ ينبثقَ شخصُهُ الكاملُ فيخرجَ إلى عالَمِهِ الكامل.

---

(١) تسفّ: تنحطّ.
(٢) احتسب: اعتقد وظنّ وأمل.
(٣) يغذّ السير: يجدّ في سيره.
(٤) بثثته: أعلمته وأطلعته على أمري.

الانتحار

٤

قال المسيَّب بْنُ رافع: ومدّ الإمامُ عينَهُ وقد رُفِعَ له شخصٌ منَ ٱلمجلس؛ ثم جَلى بنظرِهِ كأنَّما يتطلَّعُ إلى عجيبةٍ كالحقِّ إذا بَطَل، والصدقِ إذا كَذَب؛ ثم ردَّ بصرَهُ عَلَيَّ كأنهُ يُعَجِّبُني من عجبِهِ؛ ثم سَجَا[١] طرْفُهُ كأنَّما أنكرَ رأيَ عينيهِ فهو يلتمسُ رأيَ قلبِه. وتبيَّنتُ في وجهِهِ ٱنقباضاً خَيَّلَ إليَّ أنَّ الشيطانَ جاءَهُ بهذا الرجلِ يُفْحِمُهُ[٢] بهِ يُريهِ كيف يجعلُ أحدَ المؤمنين الصالحينَ يتحمَّسُ في دينِهِ لِيرجعَ بعدَ ذلك أصلاً لا غِنى عنهُ في إنشاءِ قصةِ كُفْر!

هذا هو ضيفُنا (أبو محمدٍ البَصْريُّ) يَتَخَوَّضُ[٣] الناسَ لِيجيءَ فيُحدِّثَنا حديثَهُ في قَتْلِ نفسِهِ والاثم بربّه؛ فلو قيلَ لي: إنَّ قَوْسَ السماءِ بأحمرِهِ وأصفرِهِ وأزرقِهِ وأخضرِهِ، قد وقعَ إلى الأرضِ وٱصطبغَ من ألوانِهِ أوحالاً وأقذاراً؛ لكَانَ هذا كهذا في تعاظُمِهِ وإنكارِهِ والعجَبِ منه؛ فأبو محمدٍ مِنَ الرجالِ الحُمْسِ[٤] الذين لو كَفَرَ أحدُهم ثُمَّ قيل: «إنه كفر»، لقَصَّرَ اللفظُ أنْ يبلُغَ الحقيقةَ أو يصِفَ شُنْعتَها، كما يقَصِّرُ لفظُ ٱلجنونِ عن وصفِ حكيم تألَّى أنْ يعملَ عملاً يَخرجُ بهِ منَ الكون، فلا يبقى في أرضٍ ولا سماءٍ ولا تنالُهُ يدُ الله! إنَّ في لفظِ الكفرِ معَ ذاك، وفي لفظِ الجنونِ معَ هذا ـ شيئاً من نِفاقِ العقلِ وتأدُّبِهِ في أداءِ المعنى الأخرقِ الذي لا يُشْبهُهُ جنونٌ ولا كفر.

ونعوذُ باللّهِ من خِذلانهِ[٥]؛ فلقد يكونُ الرجلُ المؤمنُ في تشدُّدِهِ وإيغالِهِ في الدين ـ كالذي يصنعُ حبلاً يَفْتِلُهُ فتلاً شديداً فيُمِرُّهُ على طاقٍ بعدَ طاق، لِيكونَ أشدَّ

---

(١) سجا: سكن ودام.
(٢) يفحمه: يقنعه ويتغلّب عليه.
(٣) يتخوّض: يتخطى.
(٤) الحُمس: أي المتحمسين في دينهم.
(٥) خذلانه: تخلّيه.

لَهُ وأقوى، ثُمَّ يُجاذِبُهُ الشيطانُ حَبْلَه، فإذا هو كانَ في الوهَنِ مثلَ العنكبوتِ اتَّخذَتْ بيتاً في سَقْفِ حدّاد؛ فرأتْهُ يصبُّ الحديدَ المصهورَ يجعلُهُ سلسلةً حَلْقةً في حلْقة، فذهبَتْ تحكيه وتُرسِلُ من لُعابها خيطاً في خيطٍ تزعُمُه سلسلة. . . !

إنَّ معَ كلِّ مؤمنٍ شيطانَهُ يتربَّصُ[1] به، فلهذا ينبغي لِلمؤمنِ أنْ يكونَ في كلِّ ساعةٍ كالذي يشعرُ أنَّهُ لم يؤمنْ إلّا منذُ ساعة، فهو أبداً محترسٌ متهيّىءٌ متجدِّدُ الحواسِّ مُرْهَفُها يستقبلُ بها الدنيا جديدةً على نفسِهِ بينَ الفترةِ والفترة: ومن هذا حِكمةُ أنْ يؤذنَ المؤذِّنُ، وأنْ تُقام الصلاةُ مِراراً في اليوم، فكلّما بدأَ وقتٌ قالَ المؤمن: الآنَ أبدأُ إيماني أطهرَ ما كانَ وأقوى.

* * *

وقالَ الإمام: هِيهِ يا أبا محمد! فقال البَصْرِيُّ وقد رأى الكراهةَ في وجهِ الإمام: لا يُفْزِعنَك أيُّها الشيخ؛ فإنَّ اللّهِ ـ تعالى ـ قد يجعلُ ما يُحبُّهُ هو فيما نكرهُ نحن؛ وليسَ لِلأقدارِ لغةٌ فتجريَ على ألفاظِنا؛ وقد نُسمي النازلةَ[2] تنزلُ بنا خساراً وهي ربح، أو نقولُ مصيبةٌ جاءَتْ لِتبديلِ الحياة، ولا تكونُ إلّا طريقةً تَيسَّرتْ لِتبديلِ الفكر. إنّما لغةُ القدَرِ في شيءٍ هي حقيقةُ هذا الشيءِ حين تظهرُ الحقيقة؛ وكأيِّنْ من حادثةٍ لا تُصيبُ أمرأً في نفسِهِ إلّا لِتقعَ بها الحربُ بين هذه النفسِ وبينَ غرائزِها. فتكونَ أعمالُ الطبيعةِ المعاديةِ أسباباً في أعمالِ العقلِ المنتصر.

وكثيرٌ من هذا البلاءِ الذي يُقْضَى على الإنسان، لا يكونُ إلّا وسائلَ منَ القدَرِ يُرَدّ بها الإنسانُ إلى عالَم فكرِهِ الخاصِّ به؛ فإنَّ هذه الدنيا عالَمٌ واحدٌ لِكلِّ مَنْ فيها، ولكنَّ دائرةَ الفكرِ والنَّفسِ هي لِصاحبِها عالَمُهُ وحدَه. والسعيدُ من قرَّ في عالَمِهِ هذا واستطاعَ أنْ يحكمَ فيه كالملكِ في مملكتِه، نافذَ الأمرِ في صغيرتِها وكبيرتِها؛ والشّقيُّ مَنْ لا يزالُ ضائعاً في كلِّ هذا كالأجنبيِّ في غيرِ بلدِهِ وغيرِ قومِهِ وغيرِ أهلِه، إذْ كلُّ شيءٍ يُصبحُ أجنبيًّا عنِ الإنسانِ ما دامَ هو أجنبيًّا عن نفسِه.

لقد كنْتُ ضالّاً عن نفسي وعالَمِهَا، فكنْتُ في هذه الدنيا أستشعِرُ شعورَ اللِّصّ، أشياؤه هي أشياءُ الناسِ جميعاً؛ واللصُّ ينظُرُ إلى أموالِ الناسِ بعينَي شاعرٍ مُتَحَبِّبٍ كَلِف[3]، وهي تنظرُ إليهِ بعينَيْ مُقاتِلٍ متربِّصٍ حَذِر.

---

(١) يتربص به: يتحيّن الفرص.

(٢) النازلة: المصيبة الطارئة.

(٣) كَلِف: عاشق.

وكنْتُ نَزِقاً[١] حديدَ ٱلطبعِ سريعَ ٱلبادرة[٢]؛ ومَنْ فَقدَ عالمَ نفسِه وكانَ في مَثَلِ اللصِّ الذي ذكرْتُ؛ فإنَّ هذه الطباعَ تكونُ هي أسلحتَهُ يَدْفَعُ بها أو يعتدي. وما قطُّ تَمكَّنَ إنسانٌ من نفسِهِ وأحاطَ بها ونفذَ فيها تصرُّفه؛ إلَّا كانَ راضياً عن كلِّ شيءٍ إذْ يتَّصلُ من كلِّ شيءٍ بجهتِهِ ٱلسامية لا غيرِها، حتى في ٱتصالِهِ بأعدائِهِ مِنَ الناسِ وأعدائِهِ منَ الأشياء؛ فما يرى هؤلاءِ ولا هؤلاءِ إلَّا ٱمتحاناً لِفضائِلِهِ وإثباتاً لَها. وقد يكونُ عدوُّك في بعضِ الأمورِ عيناً لك في رؤيةِ نفسِك؛ ففيهِ بَركةُ هذه الحاسَّةِ ونِعمتُها.

ولو نحن كنَّا مسلمينَ إسلامَ نبيِّنا ﷺ، وإسلامَ المقتدينَ بِهِ من أصحابِه ـ لأدركْنا سرَّ الكمالِ الإنسانيِّ؛ وهو أنْ يَقرَّ الإنسانُ في عالمِ نفسِهِ ويجعلَ باطنَهُ كباطنِ كلِّ شيءٍ إلهيّ، ليسَ فيهِ إلا قانونُهُ الواحدُ المستمرُّ بهِ إلى جهةِ الكمال، المرتفعُ بِهِ من أجلِ كمالِهِ عن دوافعِ غيرِه؛ فنَظَرُ الإنسانِ إلى نقصِ غيرِهِ هو أولُ نقْصِه. والمؤمنُ كالغصن؛ إنْ أثمرَ فتلك ثمارُ نفسِه، وإن عَطَلَ لم يَشْحَذْ ولم يحسُدْ وٱستمرَّ يعملُ بقانونِهِ.

ولقد نشأْتُ في مَغْرِسٍ[٣] كريم، على صورةٍ مِنَ الحياةِ تُشبِهُ صورةَ الثمرةِ الحُلوة، اجتمعَ لها من طبيعةِ مغرسِها ومَرْتَبَتِها ما تتعيَّنُ بِهِ من حلاوةٍ ونكْهةٍ ومَذاق؛ فلمَّا عَقلْتُ[٤] وعرفْتُ الناسَ بعدُ فجارَيْتُهم[٥] وخالطْتُهم، رَأيْتُني منهم كالتفَّاحةِ ملقاةً في البصَل. وكانتِ ٱلتفاحةُ حمقاءَ فزادَتْ حُمقاً، وكانَتْ جديدةً فزادَتْ جِدّة، وظنَنْتُ أنَّ الحِكمةَ قد مَسَخَتْ في الدنيا وبدَّلَتْ إذْ خَلَقَتِ البَصَلةَ بعدَ أنْ خلقَتِ ٱلتفاحة؛ وما علمَتِ ٱلخرقاءُ أنَّ الكمالَ في هذه الحياةِ مجموعُ نقائص، وأنَّ لِلجمالِ وجهين: أحدُهما الذي ٱسمُهُ القبح؛ لا يُعرفُ هذا إلَّا من هذا؛ وأنَّ البصلةَ لو أدركَتْ ما يُريدُ الناسُ من معناها ومعنى التفاحةِ لَسَمَّتْ نفسَها هي التفاحَة، وقالَتْ عن هذه إنَّها هي ٱلبصلة!

ولمَّا رأَتْ تفاحتي أنَّها عاجزةٌ أنْ تجعلَ الشجرَ كلَّهُ في مثلِ مرتبتِها ومغرسِها ـ قالَت: إنَّ الأمرَ أكبرُ من طبيعتي، وما دامَ سرُّ الكونِ مُغْلَقاً فلا تعريفَ لَهُ إلا أنَّهُ

---

(١) نزقاً: سريع الغضب، طائشاً.
(٢) البادرة: الغضب.
(٣) مغرس: منبت في بيت وعائلة.
(٤) عقلت: أدركت.
(٥) جاريتهم: ماشيتهم ووافقتهم.

سِرٌّ مغلَق، ولْيَبْقَ كلُّ شيءٍ في طبيعةِ نفسِه، فعلى هذا يَصلُحُ كلُّ شيءٍ ولو في نفسِهِ وحدَها.

***

قال أبو محمد: ولكنْ بقيَتْ وَحْشةُ الدنيا وجَفوتُها، إذْ لم أكنِ ٱهتديْتُ إلى عالمي، ولا تأكَّدَتْ عقيدتي بنفسي؛ فكانَ كلُّ ما حولي مُنبجساً[١] في رُوحي بشرِّه، وكانَتِ ٱلدنيا بهذا كالمتطابقة في رأيي على معنًى واحد، وزادني أنِّي كنتُ رجلاً عَزَباً متعفِّفاً؛ وما أشبَهَ فراغَ الرجولةِ مِنَ المرأةِ بفراغِ العقلِ مِنَ ٱلذكاء؛ هذا هو العقلُ البليد، وتلك هي ٱلرجولةُ ٱلبليدة!

وٱلمرأةُ تُضاعِفُ معنى الحياةِ في ٱلنفس، فلا جَرَمَ كانَ ٱلخَلاءُ منها مضاعَفَةً لِمعنى الموت؛ عَلِمَ هذا مَن عَلم وجَهلَهُ من جَهِل، فكنْتُ أعيشُ منَ الكونِ في فراغٍ ميّت، وكنْتُ أُحِسُّ في كلِّ ما حولي وحشةً عقليَّةً تُشعرُني أنَّ الدنيا غيرُ تامَّةٍ؛ وكيفَ تَتِمُّ في عيني دنيا أراها غيرَ الدنيا التي في قلبي؟

وعرفتُ أنَّ كلَّ يوم يمضي على الرجلِ العَزَبِ المتعفِّفِ لا يمضي حتى يُهيِّئَ فيهِ مَرضُ يومٍ آخرَ. ومن هذه الأيامِ المريضةِ المتهالِكة، تُعِدُّ ٱلحياةُ ٱنتقامَها من هذا الحيّ الذي نَقَضَ آيتَها وٱفْتاتَ عليها[٢]، وجَعلَ نفسَهُ كالإلهِ لا زوجةَ لَهُ ولا صاحبة!

وأيْمُ اللّهِ إنَّ الشيطانَ لا يفرحُ بالرجلِ الزاني وبالمرأةِ الزانيةِ ما يَفرحُ بالرجلِ العَزَبِ وبالمرأةِ ٱلعزباء؛ لأنَّهُ في ذينِكَ رذيلةٌ في أسلوبِها، أمَّا في هذينِ فالشيطانُ رذيلةٌ في أسلوبِ فضيلة... ! هناك يُلِمُّ الشيطانُ ويمضي، وهنا يأتي الشيطانُ ويُقيم!

وقد عِشْتُ ما عِشْتُ بقلبٍ مُغلَقٍ وعقلٍ مفتوح؛ وليتني كنْتُ جاهلاً مُغلِقاً عقلَهُ، وكانَ قلبي مفتوحاً لأفراحِ هذا الكونِ العظيم!

ومضَتْ أيامي يَضْربُ بعضُها في بعض، ويُمرِضُ بعضُها بعضاً حتى ٱنتهَتْ مُنتهاها، وجاءَ اليومُ المُدْنَفُ[٣] الهالكُ الذي سيموت.

أصبحْتُ فقُلْتُ لِنفسي: كم تعيشينَ ويحكِ في أحكامِ جسدٍ مُختلٍّ لا تَصْدُقُ أحكامُه، وما أنتِ معَهُ في طبيعتِكِ ولا هو معكِ في طبيعتِهِ؛ ففيم ٱجتماعُكُما إلَّا على بلائي ونكَدي[٤]؟

---

(١) منبجساً: نابتاً.

(٢) افتات عليها: جار عليها في الحكم.

(٣) المدنف: المريض مرضاً ثقيلاً.

(٤) نكدي: سوء حظي.

لم تصطلحا قطّ على واجب ولا لذّة، ولا حلالٍ ولا حرام؛ فأنتما عدُوَّانِ لا همَّ لِكليهما إلّا إفسادُ ٱلمسرَّةِ ٱلتي تَعْرِضُ لِلآخر. وما أدري بِمَنْ يسخَرُ ٱلشيطانُ منكما؟ فالعابدُ الذي يُوَسْوِسُ باللذاتِ يتمنَّى ٱقترافَها، كالفاجرِ الذي يُواقِعُها ويقتحمُها!

ويحكِ يا نفس! إنّي رأيْتُ هذه الدنيا الخرقاءَ لم تُقدِّم لي إلّا رغيفاً وقالَت: إملأْ بهذا بطنَكَ وعقلَكَ وعينَيكَ وأُذنيكَ ومشاعرَك. آه، آه! مُمْكِنٌ واحدٌ معهُ أربعُ مستحيلات؛ إنَّ هذا لا يُلْبِثُني[1] أنْ يذهبَ مني بالأربعةِ التي تُمسِكني على الحياة: الأملِ والعقلِ والإيمانِ والصبر.

لقدِ ٱستوى في هذه الكآبةِ صغيرُ همِّي وكبيرُه، وما أراني إلّا قد أشرفْتُ على الهلَكةِ التي لا باقيةَ لها، فإنَّ وجهي المتَكلِّحَ[2] المتقبِّضَ يَدُلُّ منِّي على أعصابٍ مُحتضرَةٍ نَهَكَتْها[3] أمراضُها ووساوسُها، وإنَّما وجهُ الإنسانِ في قُطوبِهِ[4] أو تَهلُّلِهِ هو وجهُهُ ووجهُ دُنياهُ تَعبسُ أو تبتسم.

وتاللَّهِ لقد عجزتُ عن كِفاحِ الدنيا بهذه الأعصابِ المريضةِ الواهنة؛ فإنَّ حِبَالةَ الصَّيد ـ صَيدِ الوحش ـ لا تكونُ من خَيطِ الإبرة...! وأراني أصبحْتُ كإنسانٍ حجَريٍّ ليسَ في طبيعتِهِ ٱلالتواءُ إلى يمينِ الحياةِ ويسارِها؛ ويُخَيَّلُ إليَّ من صلابتي أنِّيَ ٱلأسد، ولكنّي أسدٌ من حجَر، لا تفرِضُ قوّتُهُ ٱلفرارَ منه على أحد!

قال أبو محمد: ورأيْتُ نفسي في هذا الحوارِ كٱلميِّتة، لا تُجيبُ ولا تعترِضُ ولا تُنكِر، وكنْتُ أظنُّها تُرَاوِدُني على الحياةِ أو تردُّني عن غَوايتي[5]؛ فَملأني سكونُها جزَعاً، وأيقنْتُ أنَّ الشيطانَ بيني وبينَها، وأنَّهُ أخذَ بمنَافِذِها، فأردْتُ الصلاةَ فَثقُلَتْ عنها ورأيتُني لا أصلحُ لها، بل خُيِّلَ إليَّ أنّي إذا قمْتُ إلى الصلاةِ فإنَّما قمْتُ لأتَهزّأَ بالصلاة!

وجعلَ الشيطانُ يأخذُني عن عقلي ويردُّني إليه، ثُمَّ يأخذُني ويردُّني، حتى توهَّمْتُ أنّي جُنِنْت، وكأنَّما كانَ يُريدُ اللعينُ بقيَّةَ إيماني يُجاذبُني فيها وأُجاذبُه، فلم ألبثْ أنْ مسَّتني خبالٌ وألقيْتُ هذه البقيَّةَ في يديه!

---

(١) لا يلبثني: لا يبقيني.
(٢) المتكلّح: المتغيّر، المصفرّ.
(٣) نهكتها: أتعبتها.
(٤) قطوبه: عبوسه.
(٥) غوايتي: ضلالتي.

ثُمَّ أَفَقْتُ إفاقةً سريعة، فرأيْتُ (المصحفَ) يَرقُبُني قريب، فعُذْتُ بِهِ[1] وعطفْتُ عليهِ وقلْتُ لَه: اِمنع ٱلضربةَ عن قلبي. بَيْدَ أنّي أحسسْتُ أنَّهُ خَصمي في موقفي لا ظَهِيري؛ كأنّي جعلْتُهُ مصحفاً عندَ زِنديق، فكانَ كلُّ إيماني الذي بقيَ لي في تلك اللحظةِ أنّي ضُعفْتُ عن حَملِ المصحفِ كما ثقلْتُ عنِ ٱلصلاة، فبقي ٱلطاهرُ طاهراً وٱلنجسُ نَجساً.

ولم تكنْ نفسي فيَّ ولا كنْتُ فيها؛ فرأيْتُ الدنيا على وجهٍ لا أدري ما هو، غيرَ أنَّهُ هو ما يُمكنُ أنْ يكونَ معقولاً من تَخاليطِ مجنونٍ تركَهُ عقلُهُ من ساعة: بقايا شعورٍ ضعيف، وبقايا فهْمٍ مريض، تَتَصاغَرُ فيهما الدنيا، ويتحاقَرُ بهما العقل.

فلمَّا ٱنتهيْتُ إلى هذا لم أعقلْ ما عملْت، وكانَتِ ٱلمُوسى قد أصابَتْ من يدي عِرْقاً ناشزاً[2] مُنْتَبِراً، ففارَ الدَّمُ وٱنفجرَ منه مثلُ ٱلينبوعِ ضُرِبَ عنه الصخرُ فٱنشقَّ فٱنبثَق.

وتحقَّقْتُ حينئذٍ أنَّهُ الموتُ فنظرْتُ فرأيت....

* * *

قال المسيَّب راوي القصة: وتجهَّمَ وجهُ الرجلِ فأطرقَ وسكَت، وكانَ على وجهِهِ شَفَقٌ مُحْمَرٌ فأظلَمَ بغتةً عندَ ما قال: «فنظرْتُ فرأيْت».

وٱرتجَّ ٱلمسجدُ بصَيحةٍ واحدة: فرأيْتَ ماذا؟ رأيْتَ ماذا؟

وبَعَثَتِ ٱلصيحةُ أبا محمد فقال: رأيْتُ ثلاثةَ وجوهٍ أشرفَتْ مِنَ المصحفِ تنظرُ إليَّ كالعاتبة، وكانَ أوسطُها كالقمرِ الطالع، لو تمَثَّلَتْ آياتُ الجنةِ كلُّها وجهاً لَكانتْهُ في نَضرَتِهِ وبشاشتِه. وغَمْغَمَتِ[3] ٱلوجوهُ الثلاثةُ بكلماتٍ لم أسمعْ منها شيئاً، ولكنَّ نظرَها إليّ كان يؤدّي لي معانيَها، وكأنَّها تقول: «أكذلك المؤمن...؟».

ثُمَّ غابَتْ وتخلَّتْ عنِّي وبرزَتْ ثلاثةُ وجوهٍ أخرى، كأنَّها نقائضُ تلك، وأعوذُ باللَّهِ من أوسطِها، لو تمثَّلتْ آياتُ ٱلجحيم كلُّها وجهاً لَكانتْهُ في نُكْرِهِ وهَوْلِه، وخُيِّلَ إليَّ أنَّ الوجهَ الأصغرَ منها وجهُ سُورةٍ من سُوَرِ المصحف، ففكَّرْتُ، فوَقَعَ لي مِمَّا قامَ في نفسي مِنَ اللَّعنةِ أنَّها: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾...

---

(١) عذت به: لجأت إليه.

(٢) ناشزاً: نافراً.

(٣) غمغمت الوجوه بانت عن ذعر وخوف.

وطَمَسَ[1] الظلامُ هذه الرؤيا وتغَيَّمَتِ الدنيا، فأيقنْتُ أنَّ آثامي قد أقبلَتْ عليَّ ظُلمةً بعدَ ظُلمَةٍ، والتمعَ شيءٌ أحمر، فنظرْتُ فإذا الدَّمُ يتخايَلُ في عينيَّ كأنَّهُ شُعَلٌ تتلوّى، فجزِعْتُ أشدَّ الجزع، وحسبْتُها طرائقَ ممتدَّةً لِرُوحي تذهبُ بها إلى الجحيم.

وماتَتْ كلُّ خواطري بعدَ ذلك إلَّا فكرةً واحدةً بقيَتْ حيَّةً تأكلُ في قلبي أكلَ النار، وهي: «كيفَ تجرأْتُ فوضعْتُ بيني وبينَ اللّهِ حُمْقي؟».

❊ ❊ ❊

ويقولون: إنَّ أختي قد رأتْني أتَشَحَّطُ[2] في دمي فصاحَت، وجاءَ الناسُ على صوتِها، وكانَ فيهم طبيب، فبعدَ لأْيٍ ما، ٱستطاعَ حبْسَ الدم، وٱحتالَ حيلتَهُ حتى أسَفَّ[3] الجُرحَ دواءً وضَمَدَه؛ فجعلْتُ أثوبُ نَفَساً بعدَ نَفَس، وراجعْتُ قليلاً قليلاً...

ثم طافَتِ ٱلحياةُ على عينيَّ ففتحْتُها، فإذا الأشياءُ تبدو لي وليسَ فيها حقائقُ ولا معانٍ، كأنّها تَتَخَلَّقُ[4] جديدةً تحتَ بصري، وكأنَّها خارجةٌ لِساعتِها من يدِ ٱللّهِ!

وتماثلْتُ شيئاً بعدَ ساعات، فأحسسْتُ أنَّ نفسي قد رجعَتْ إليَّ ساخرةً منّي تقولُ: كيفَ رأيْتَ عَمَلَ العقلِ أيّها العاقل؟

وبدأَتِ الحياةُ تتجدّدِ، فأقسمْتُ بيني وبينَ نفسي أنْ أجدّدَ إيماني بِالله. ولم أكدْ أفعلُ حتى أحسسْتُ أنَّ قوّةَ ٱلوجودِ كلَّها مستقرَّةٌ في روحي، وخُيِّلَ إليَّ أنّي أنا وحدي ٱلقويُّ على هذه الأرضِ قُوَّةَ جِبالِها وصخورِها، على حين كانَ جسمي ممدّداً كالميْتِ لا يتماسَكُ مِنَ الضعف!

فأيقنْتُ حينئذٍ ما أعرفُهُ قطُّ منَ الدنيا ولم أشعرْ به قطّ في الحياةِ ولم يأتِني بِهِ عِلْمٌ ولا فكر: أيقنْتُ أنّها مُعجزةُ الإيمانِ الجديدِ الغضّ[5]، المتَّصِلِ بِاللّهِ لِتَوِّهِ كإيمانِ الأنبياءِ دونَ أنْ تلمسَهُ شهوة، أو تعترضَهُ خاطرة، أو تُكدِّرَهُ ذرَّةٌ واحدةٍ من فكرِ أرضيٍّ دَنِس.

❊ ❊ ❊

قال المسيّب: ثُمَّ جلسَ المتحدّث، وكانَ الناسُ في آخرِ كلامِهِ كأنّما غادروا الدنيا ساعةً، ورجعوا إليها على مثلِ حالتِهِ ومثلِ إيمانِه؛ فسكَتَ ٱلإمامُ ولم يتكلم، لِيدعَ كلَّ نفسٍ تُكلمُ صاحبَها.

---

(١) طمس: غطى.
(٢) أتشحط: أتخبّط.
(٣) أسفّ: أسعف الجرح بوضع الدواء فيه لينقطع.
(٤) تتخلّق: تبدو على هيئة جديدة.
(٥) الغضّ: الطريء.

الانتحار

٥

قال المسيَّبُ بنُ رافع: وأطرقَ الناسُ قليلاً بعدَ خَبَر (أبي محمدٍ ٱلبَصْريّ)؛ إذْ كانَ كلٌّ منهم قد جَمَع بالَهُ لِمَا سمع، وأخذ يَحْدِسُ[١]، في نفسِهِ ويُراجعُها ٱلرأيَ، وكانَ المجلسُ قدِ ٱمتدَّ بنا منذُ ٱلعصرِ وما يكادُ النهارُ يُشْعِرُنا بإدبارِه، حتى ٱعترَضَتْ في شمسِهِ ٱلغُبرةُ التي تَعتريها إذا دَنتْ أنْ تَغرُب. وكانَ إلى يساري فتًى رَيَّانُ ٱلشباب، حسَنُ ٱلصورة، وَضيءٌ مُشرِقٌ، لَهُ هيئةٌ وسَمْت، أقبلَ على ٱلأيَّام، وأقبلتِ ٱلأيَّامُ عليه.

فسمعني أطِنُّ على أُذنِ (مجاهدٍ الأزديّ)؛ وكنْتُ أعرفُه شاعراً في كلامِهِ وشاعراً في قلبِه؛ فقلْتُ لَه: إنَّهُ لم يبقَ مِنَ النهار يا مجاهدُ إلَّا مثلُ صبرِ ٱلمحبِّ دنا لَهُ ٱلمَوْعِد؛ ولم يبقَ مِنَ الشمسِ إلَّا مثلُ ما تَتلفَّفُ صاحبتُه، تأخذُ عليها ثوبَها وغلائلَها، ولكنْ بعدَ أنْ تُسقِطَها من هنا ومن هنا، لِترى جمالَ جسمِها هنا وهنا!

فٱهتزَّ ٱلفتى لِهذه ٱلكلمات، وسالتِ ٱلرقَّةُ في أعطافِه، وقال: يا عمّ، أمَا ترى ما بقيَ مِنَ ٱلنهارِ كأنَّهُ وجهُ باكٍ مَسَحَ دموعَهُ وليسَ حولَهُ إلَّا كآبةُ ٱلزمن. . .؟

قلْتُ: كأنَّ لك خبراً يا فتى، فإنْ كانَ شأنُك مِمَّا نحن فيهِ فَقُصَّهُ علينا وعَلِّلْنا بِهِ سائرَ ٱلوقتِ إلى أنْ تَجِبَ الشمس، ولعلّك طائرٌ بنا طَيرةً فوقَ الدنيا.

قال: فَمَهْ[٢]؟

قلت: تقومُ فتتكلم، فإنّي أرى لك لِساناً وبياناً.

قال: أو يَحْسُنُ أنْ أتكلَّمَ في ٱلمسجدِ عن صَرْعةِ ٱلحُبِّ وصريعِه، وعاشقةٍ وعاشق؟

---

(١) يحدس: يفكّر ويغلّب فكرة على فكرة.

(٢) مَهْ: اسم فعل أمر بمعنى أسكت.

فبادرَ مجاهدٌ فقال: ويحكَ يا فتى! لقد تَحَجَّرْتَ واسعاً؛ إنَّ ٱلمؤمنَ لَيُصلّي بين يدي ٱللَّهِ وكتابُ سيئاتِهِ في عنقِهِ منشورٌ مقروء. وهلْ أوقاتُ ٱلصلاةِ إلَّا ساعاتٌ قلبيَّةٌ لِكلِّ يوم منَ الزمن، تأتي ٱلساعةُ مِمَّا قبْلها كما تأتي توبةُ القلْبِ مِمَّا عملَ ٱلجسم؟ إنَّما يَتلَّقى ٱلمسجدُ مَنْ يدخلُهُ لِساعتِهِ التي يدخلُهُ فيها، ولو أنَّهُ حاسَبَهُ عن أمسِ وأوَّلَ منه وما خَلَا من قبل، لَطردَهُ مِنَ ٱلعتَبَة! إنَّ ٱلمسجدَ يا بُنيَّ إنّما يقولُ لِداخلِه: أُدخلْ في زمني ودَعْ زمنَك، وتعالَ إليَّ أيُّها ٱلإنسانُ ٱلأرضيّ، لِتتحقَّقَ أنَّ فيك حاسَّةً مِنَ ٱلسماء، وجِئْني بقلبِك وفكرِك، لِيَشْعُرا ساعةَ أنَّهما فيَّ لا فيك. ولسْنا الآنَ يا بُنيَّ في مُتَحدَّثٍ كنَدِيّ القومِ يتطارحون فيه أخبارَهم، بلْ نحنُ في مجلسِ عالم تكلمَتْ فيهِ رَقَبَةُ هذا ورقبةُ هذاَ بِمَا سمعْتَ؛ فقُمْ أنتَ فٱذكرْ عِلْمَ قلبِك وقُصَّ علينا خبرَ طيشِ ٱلحُبِّ وٱلشبابِ ٱلذي يُشبهُ الكلامُ فيهِ أنْ يكونَ كلاماً عنِ ٱلصعودِ إلى القمرِ والقبضِ من هناك على البرْق!

* * *

قال المسيَّب: فٱنتهضَ الفتى، ورأيْتُ مجاهداً يتنهَّدُ كأنَّما ٱنصدَعتْ[1] كَبِدُه: فقلْت: ما بالُك؟ قال: إنَّ شبابي قد مرَّ عليَّ الساعةَ فَنَسَمْتُ منه في بُرْدَةٍ[2] هذا الفتى، ثُمَّ فقدْتُهُ فقداً ثانياً فهَرِمْتُ هَرَماً ثانياً، وجاءَني ٱلحزنُ من إحساسي بأنّي شيخٌ، حُزْنُ مَن هَمّ أنْ يدخلَ بابَ حبيبٍ ثم رُدّ. . . . !

وتحدّثَ ٱلفتى، فإذا هو يُديرُ بينَ فَكَّيهِ لِسانَ شاعرٍ عظيم، يتكلمُ كلامَهُ بنفسَين: إحداهما بَشَريَّةٌ تصنعُ ٱلمعنى وٱللفظ، وٱلأخرى عُلْويةٌ تُلقي فيها ٱلنارَ وٱلنور.

قال: إنَّ لي قصةً أيُّها الشيخ، لم يبقَ منها إلَّا الكلامُ الذي دُفنَتْ فيه معانيها؛ وقد تأتي ٱلقصةُ من أخبارِ ٱلقلْبِ مُفْعَمَةً بالآلامِ والأحزان، لا يُرادُ بآلامِها وأحزانِها إلَّا إيجادُ أخلاقٍ لِلقلْبِ يعيشُ بها ويتبدّل. والذي قُدِّرَ عليهِ الحُبُّ لا يكونُ قد أحبَّ غيرَهُ أكثرَ مِمَّا يكونُ قد تعلَّمَ كيف يَنسى نفسَهُ في غيرِه، وهذه كما هي أعلى درجاتِ الحُبّ؛ فهي أعلى مَراتبِ ٱلإحسان.

ومتى صَدقَ المرءُ في حبِّهِ كانَتْ فكرتُهُ فكرتَين: إحداهما فكرةٌ، والأخرى عقيدةٌ تجعلُ هذه الفكرةَ ثابتةً لا تتغيَّر؛ وهذه كما هي طبيعةُ الحُبِّ فهي طبيعةُ ٱلدّين.

---

(١) انصدعت: تحطّمت، تكسرت. (٢) بُردة: ثوب.

ولا شيءَ في الدنيا غيرُ الحُبِّ يستطيعُ أنْ يَنْقُلَ إلى الدنيا ناراً صغيرةً وجنَّةً صغيرةً، بقدْرِ ما يكفي عذابَ نفسٍ واحدةٍ أو نعيمَها! وهذه حالةٌ فوقَ البشريَّة.

والفضائلُ عامَّتُها تعملُ في نقلِ الإنسانِ من حيوانيَّتِه، وقد لا تَنقلُ إلَّا أقلَّهُ ويبقَى في الحيوانيَّةِ أكثرُهُ: ولكنَّ الحُبَّ الصادقَ يقتلعُ الإنسانَ من حيوانيَّتِهِ بمرَّةٍ واحدة، بَيْدَ أنَّهُ لا يكونُ كذلك إلَّا إذا قَتَلَهُ بآلامِه؛ فهو كأعلى النسْكِ والعِبادة.

كانَ خَبرِي أنّي دُعيتُ يوماً إلى ما يُدْعى لِمثلِهِ الشبابُ في مجلسِ غِناءٍ وشراب. يا لَهُ من مجلس! وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾، والبعوضةُ في قصتي أنا كانَتِ امرأةً نَصرانيَّة.. قَيْنَةُ[1] فلانٍ المغنيَّةُ الحاذقةُ المُحْسِنةُ المتأدِّبة، تحفَظُ الخبرَ وتروي الشعر، وتتكلَّمُ بألفاظٍ فيها حَلاوةُ وجهِها، وتخلُقُ النكتةَ إذا شاءَتْ خَلْقَ الزهرةِ المتفتِّحةِ عليها، سَقِيطُ النَدَى؛ وتجِدُّ بالحديثِ ما شاءَتْ وتَهْزِل، فتجعلُ لِلكلامِ عقْلاً وشهوةً تُضاعِفُ بهما مَنْ تحدِّثُهُ في شهواتِهِ وعقلِه!

وستجرِي في قصتِها ألفاظُ القصةِ نفسِها، لا أتأثَّمُ من ذلك ولا أتذمَّم؛ فقد ذكرَ اللَّهُ الخمرَ بلفظِ الخمرِ ولم يَقُل: «الماءُ الذي فيه السُّكْر»، ووَصفَ الشيطانَ ولم يقل: «الملَكُ الذي عمِلَ عملَ المرأةِ الحسناءِ في تكبُّرِها»، وذكرَ الأصنامَ بأنَّها الأصنام، ولم يُسمِّها: «حاملةُ السماءِ التي يصنعُها الإنسانُ بيديه» وحكايةُ ما بينَ الرجلِ والمرأةِ هي كلامٌ يُقبِّلُ بعضُهُ بعضاً ويلتزِمُ ويتعانَق!

قالَ المسيب: فتبسَمَ إمامُنا ونظرَتْ عيناهُ تسألانِ سؤالاً. أمَّا مجاهدٌ الأزديُّ فكانَ من هزّةِ الطَّرَبِ كأنَّهُ على قَتَبِ بَعير، وقال: لِلَّهِ دَرُّه فتى، إنَّ هذا لَبيانٌ كحيلُ العَين...

ثُمَّ قال الفتى: وذهبْتُ إلى المجلسِ وقد جعلتُهُ هذه المغنِّيةُ من حواشيهِ وأطرافِهِ كأنَّهُ تفسيرٌ لَها هي. أمَّا هي فجعلَتْ نفسَها تفسيراً لِكلمةٍ واحدةٍ هي: «اللذّة...»

قالَ المسيَّب: وطرِبَ مجاهدٌ طَرَباً شديداً، وسمعْتُهُ يُخافِتُ بصوتِهِ يقول: «لِلَّهِ درُّها امرأة؛ هذه، هذه عَدُوَّةُ الحُورِ العِين!».

ثُمَّ قالَ الفتى: وتَطَرَّبَ جماعةُ أهلِ المجلسِ إلى الشرب، وما ذقْتُ خمراً

---

(١) قينة: أمة، بفتح الميم.

قطّ، ولن أتذوّقها ولو شربها ٱلناسُ جميعاً، ولن أذوقها ولو ٱنقطَعَ ٱلغيثُ ولم تَمْطُرِ ٱلسماءُ إلّا خمراً؛ فإنّي مُذْ كنتُ يافعاً رأيْتُ أبي يشربُها، وكانَتْ أمي تلُومُهُ فيها وتشتدُّ في تعنيفِهِ وتحتَدِم[1]، وكانا يتشاحنانِ[2] فينالُها بالأذى ويَنْدَرِئُ[3] عليها بالسبِّ وفُحْشِ القول. وسَكِرَ مرةً وغلبَهُ السكرُ حتى ثارَتْ أحشاؤُه، فَذَرَعَهُ[4] القَيْءُ فتوهَّمني وعاءً، وجاءَ إليَّ وأنا جالسٌ فأمسكَ بي وقاءَ في حِجْري، حتى أفرغَ جوفَه؛ وثارَتْ أمّي لِتنتزِعَهُ وأنشأَتْ تُعالجُهُ عنّي فَتصارَعَ جنونُهُ وعقلُها حتى كَفأَتْهُ[5] على وجهِهِ كالإناء؛ فالتوى كالحيَّةِ بطْناً لِظَهْرٍ، وٱستجْمعَ كالقُنفذِ في شَوكِه، ثم لَكَزَها برجلِهِ أسفلَ بطنِها فٱنقلبَت، وأصابَ رأسُها إجّانةَ[6] العجينِ فتثلَّمَ[7] تثليمَ ٱلإناءِ كأنَّما شُدِخَ[8] ضرْباً بحجَر، وٱنتثَرَ دماغُها على الأرض أمامَ عينيّ، ورأيْتُها لم تزدْ على أنْ دَفَعَتْ بإحدى يديها في ٱلهواء، وضمَّت بالأخرى إلى صَدْرِها، تتوهَّمُ أنَّها تحميني وتدفعُهُ عنّي؛ ثُمَّ سَكَنَتْ، ولو لم تمتْ مِنَ الشَّجَّةِ في رأسِها لماتتْ مِنَ الضربةِ في بطنِها!

* * *

قال المسيَّب: وأطرقَ ٱلفتى هُنَيهةً وأطرقَ ٱلناسُ معَه؛ فرفَعَ مُجاهدٌ صوتَهُ وقال: رحِمَها ٱللهُ! فقالَ الناسُ جميعاً: رحِمَها ٱللهُ.

ثُمَّ قالَ الفتى: وكانَ عامَّةُ مَن في المجلسِ يعرفون ذلك منّي، ويعرفون أنَّهُ لو ساغَ لإنسانٍ أنْ يشربَ دمَ أمِّهِ ما شربْتُ أنا الخمر، فقالوا لِلمغنِّية: إنَّ هذا لا يدخلُ في ديوانِنا[9] فنظرَتْ إليّ، وهربْتُ أنا من نظرتِها بإطراقة؛ ثم قالَت: تَشربُ على وجهي؟ فقلْتُ لها: إنَّ وجهَكِ يقولُ لي: لا تشربْ... فتضاحكَتْ وقالَت: أهو يقولُ لك غيرَ ما يقولُ لِهؤلاء؟ فهربْتُ من كلامِها بإطراقةٍ أخرى، ووَصلَتِ ٱلإطراقتانِ ما بيني وبينَ قلبِي؛ وتنبَّهَ فيها مثلُ حُنوِّ الأمِّ على طِفْلِها إذا آذتْهُ بلسانِها فأطرقَ ساكتاً يشكوها إلى قلبِها!

وٱلتفتَتْ لِمَنْ حضرَ وقالَتْ لهم: لسْتُ أطيبُ لكم ولا تنتفعون بي إلّا أنْ

---

(١) تحتدم: تشتدّ.
(٢) يتشاحنان: يتشاجران.
(٣) يندرىء: يندفع ويعنف.
(٤) ذرعه: فاجأه.
(٥) كفأ الإناء: قلبه.
(٦) إجانة: آنية يعجن فيها العجين.
(٧) تثلّم: تشقّق.
(٨) شدخ: ضرب رأسه.
(٩) إنه تعبير قديم العهد، يريدون به الشرب كأنه ديوان ملك.

تشربوا لي ولهُ ولأنفسِكم، وٱنحطّ عليهمُ ٱلساقي، فشربوا أرطالاً وأرطالاً، وهي بين ذلك تُغنّيهم وقد أقبلَتْ عليهم وخلا وجهُها لهم من دُوني وإنَّما تُخالِسُني[١] النظرةَ بعدَ النظرة.

فوسوسَ لي شيطاني أنْ تَشدَّدْ مع هذه بمثلِ عَزْمَتِكَ مَعَ الخمرِ فإنَّما هما شيءٌ واحد. ولكنّي كنْتُ أحِدُّ النظرَ[٢] إليها، فمرّةً أوامِقُها نظرةَ المُحبِّ لِلحبيب، ومرةً أُغضي عنها بنظرةٍ لا تنظرُ؛ وكأنّي بذلك كنْتُ آخذُها وأدَعُها، وأصِلُها وأهجرُها. فقالَتْ لي كالمُنكِرَةِ عليّ: ما بالُك تنظرُ إليّ هكذا؟ ولكنَّ هيئةَ وجهِها جعلَتِ ٱلمعنى: لا تنظرْ إليّ إلّا هكذا....!

وأسرعَ ٱلشرابُ في القومِ وأفرطَ عليهمُ ٱلسُكْر؛ فبقيَتْ لي وحدي وبقيْتُ لها وحدَها؛ ثم تناولَتْ عودَهَا وضَمَّتْهُ إليها ضمًّا شديداً أكثرَ مِنَ ٱلضمّ... وألمستْهُ صدرَها ونَهديها، ثُمَّ رَنتْ إليّ بمعنى، فما شككْتُ أنَّها ضَمَّةٌ لي أنا والعود؛ ثم غنّتْ هذا الصوت:

ألا قاتلَ اللّهُ الحمامةَ غُدْوةً ... على الغصنِ؛ ماذا هيَّجتْ حينَ غنَّتِ؟
فما سكتَتْ حتّى أوَيْتُ لِصوتِها ... وقلْتُ: تُرى هذي ٱلحمامةُ جُنَّتِ؟

* * *

وما وَجْدُ أعرابيةٍ قَذفتْ بها ... صُروفُ ٱلنوى[٣] من حيثُ لم تَكُ ظنَّتِ..
إذا ذكَرتْ ماءَ ٱلعِضاهِ[٤] وطيبَهُ ... وبَرْدَ ٱلحِمى من بَطنِ خِبْتٍ[٥]، أرنَّتِ[٦]
بأكثرَ منّي لَوعةً، غيرَ أنَّني ... أُجَمْجِمُ أحشائي على ما أجنَّتِ![٧]

وغَنَّتْهُ غِناءً من قلبٍ يئنُّ، وصدرٍ ينتهِّد، وأحشاءٍ لا تُخفي ما أجنَّتْ[٨]؛ وكانَتْ ترتفعُ بٱلصوتِ ثمَّ كأنَّما يهمى[٩] ٱلدمعُ على صوتها، فيرتَعِشُ ويتنزّلُ قليلاً قليلاً حتى يئنَّ أنينَ ٱلباكية، ثُمَّ يعتلجُ[١٠] في صدرِها مَعَ ٱلحُبّ، فيترددُ عالياً ونازلاً، ثم يرفضُ ٱلكلامُ في آخِرِهِ دموعاً تجري.

* * *

---

(١) تخالسني: تسارقني.
(٢) أحدّ النظر: أمعن النظر.
(٣) صروف: مصائب. النوى: البعد.
(٤) العضاه: ضرب من الشجر، ذو أشواك.
(٥) خبت: اسم مكان.
(٦) أرنّت، نشطت.
(٧) أجمجم: أخفي شيئاً في صدري.
(٨) أجنّت: من أجن الثوب إذا دقه.
(٩) يهمى: ينهمر.
(١٠) يعتلج: يختلج.

قالَ المسيَّب: فنظرَ إليّ مُجاهدٌ وقال: عدُوّةُ الجنَّةِ ـ واللَّهِ ـ هذه يا أبا محمد، لا تقبلُ الجنَّةُ مَنْ يكونُ معها. تقولُ له: كنْتَ مَعَ عدُوّتي!

ثُمَّ قالَ الفتى: وكان القومُ قدِ ٱنتَشَوْا، فاعتراهم نصفُ النومِ وبقيَ نصفُ اليَقَظةِ في حواسِّهم، فكلُّ ما رأوْهُ منّا رأوْهُ كأحلامِ لا وجودَ لها إلّا خلفَ أجفانِهِمُ ٱلمُثقَلةِ سُكراً ونُعاساً. ووثَبتِ ٱلمغنيةُ فجاءَتْ إلى جانبي وٱلتصقَتْ بي، وأسرعَ ٱلشيطانُ فوسوسَ لي: أن ٱحذرْ فإنَّكَ رجلُ صِدْق، وإذا صدقْتَ في الخمرِ فلا تكذِبَنَّ في هذه، ولئِنْ مَسسْتَها إنَّها لَضياعُكَ آخِرَ الدهر!

فعجبْتُ أشدَّ العجبِ أنْ يكونَ شيطاني أسلمَ وأُعِنْتُ عليهِ كما أُعينَ الأنبياءُ على شياطينِهم. ولكنَّ اللعينَ مضى يصُدُّني عنِ ٱلمرأةِ دونَ معانيها، وكانَ منّي كالذي يُدني الماءَ من عَيْنِي ٱلقتيلِ ٱلمتلهِّبِ جَوفُه ثُمَّ يجعلُهُ دائماً فَوْتَ فمِه، ولقد كنْتُ مِنَ الفُحولةِ بحيثُ يبدو لي من شدةِ الفَورةِ في دمِي وشبابي أنّي أجمعُ في جسمي رجالاً عِدَّة، ولكنْ ضَرَبني ٱلشيطانُ بالخجلِ فلم أستطعْ أنْ أكونَ رجلاً مَعَ هذه ٱلمرأة.

وعجِبَتْ هي لِذلك وما أسرعَ ما نطقَ الشيطانُ على لِسانِها بالموعظةِ ٱلحسنة... ! فقالَتْ أحببْتُك ما لم أحِبَّ أحداً، وأحببْتُ خجَلَكَ أكثرَ منك، فما يسرُّني أنْ تأثَمَ فيَّ فتدخلَ النارَ بِحُبّي، ولو أنَّك ٱبتعتَني من مولاي؟ فقلْتُ: بكم ٱشتراكِ؟ قالت: بألفِ دينار! قلْتُ: وأين هي منّي وأنا لو بعْتُ نفسي ما حصَلتْ لي؟

فتمَّمَ الشيطانُ موعظتَه، وقالَتْ وأشارَتْ إلى قلبِها: إنَّ قلبي هذا قَبِلَكَ غنيًّا كنْتَ أو فقيراً، وأحسَّ بك وحَدك حُبَّ العذراءِ أوّلَ ما تُحبّ، وأنا ـ كما تراني ـ أعيشُ في السيئاتِ كالمُكْرَهةِ عليها، فسأعملُ على أنْ تكونَ أنت حَسَنَتي عندَ الله، أذهبُ إليهِ حاملةً في قلبي حُبّي إيَّاكَ وعِفَّتي عنك، ولَئِنْ كانت عِفةَ مَنْ لا يشتهي ولا يجدُ تُعَدُّ فضيلةً كاملة، إنّ عِفةَ مَنْ يجدُ ويشتهي لَتُعدُّ ديناً بحالِه. ولا يزالُ حبّي بِكْراً، ولا أزالَ في ذلك عذراءَ ٱلقلْب، وهؤلاءِ قد نزعوا ٱلحياءَ عنّي من أجْلِ أنفسِهم، فألْبِسْنيهِ أنتَ من أجلِكَ خاصَّة؛ وإنَّ قوةَ حُبّي كالذي سيتألَّمُ بك ويتعذَّبُ منك لِطُولِ ما يصبرُ عنك، ستكونُ هي بعينِها قوةً لِفضيلتي وطَهارتي.

ثُمَّ تناولتْ عودَها وسوَّته وغنَّتْ:

فلو أنّا على حجرٍ ذُبحنا جرى ٱلدَّميانِ بالخبرِ ٱليقينِ[1]

وجعلَتْ تتأوّهُ في غِنائِها كأنَّها تُذبحُ ذبحاً، ثُمَّ وضعَتِ ٱلعودَ جانباً وقالَت: ما أشقاني! إذا ٱتفقتْ لي ساعةُ زواجي في غيرِ وقتِها فجاءَتْ كالحُلْمِ يأتي بخيالِ الزمنِ فلا يكونُ فيهِ مِنَ الأشياءِ إلَّا خيالُ ٱلأشياء.

ثُمَّ سألْتني: ما بالُكَ لم تشربِ ٱلخمرَ ولم تدخلْ في ٱلديوان؟ فبدرَ شيطاني المؤمن... وساقَ في لِساني خبرَ أُمّي وأبي، فٱنْتَضَحَت عيناها باكيةً وتَمَّ لها رأيٌ فيّ كرأيي أنا في ٱلمسكر؛ وكانَ شيطانُها بعدَ ذلك شيطاناً خبيثاً معَ أصحابِها، وبَطْريقاً زاهداً معي أنا وحدي!

ورأيْتُها لا تُجالسني إلَّا مُتَزايِلةً[2] كٱلعذراءِ الخفرةِ إذا ٱنقبضَتْ وغطَّتْ وجهَها، وصارَتْ تخافني لأنَّها تُحبني، وهَيَّبَني الشيطانُ إليها فعادَتْ لا ترى فيَّ الرجلَ الذي هو تحتَ عينيها ٱلثَّيِّبتين... ولكنَّ القِدّيسَ الذي تحتَ قلبِها البِكْر.

ولم يَعُدْ جمالي هو الذي يُعجبُها ويُصْبِيها، بل كانَ يُعجبُها منّي أنّي صنعةُ فضيلتِها التي لم تَصنعْ شيئاً غيري....

وٱنطلقَ ٱلشيطانُ بعدَ ذلك فيَّ وفيها بدهائِه وحُنْكَتِهِ وبكلِّ ما جَرَّبَ في ٱلنساءِ وٱلرجالِ من لَدُنِ آدمَ وحوّاءَ إلى يومي ويومِها!... فكانَ يجذبني إليها أشدَّ ٱلجذْبِ، ويدفعُها عنّي أقوى ٱلدفع، ثم يُغريني بكلِّ رذائلِها ولا يُغريها هي إلَّا بفضائِلي. وألقى منها في دمي فكرةَ شهوةٍ مجنونةٍ متقلّبة، وألقى مني في دمِها فكرةَ حكمةٍ رزينةٍ مستقِرَّة. وكنتُ ألقاها كلَّ يوم وأسمعُ غِناءَها؛ فما هو بالغِناءِ ولكنّهُ صوتُ كلِّ ما فيها لِكلِّ ما فيَّ، حتى لو ٱلتصَقَ جسمُها بجسمي وسارَّ ٱلبَدَنُ البدنَ، وهَمَسَ ٱلدمُ لِلدم، لَكانَ هو هذا الغناءَ ٱلذي تُغنّيه.

وأصبحَتْ كلَّما ٱستقمْتُ لِحبِّها تَلَوَّتْ عَلَيَّ؛ إذ لسْتُ عندَها إلَّا الأملَ في المغفرةِ وٱلثواب، وكأنَّما مُسخْتُ حَبْلاً طولُهُ من هنا إلى ٱلجنَّةِ لِتتعلَّقَ به. وعادَ ٱمتناعُها منّي جنوناً دينيًّا ما يُفارقُها، فٱبتلاني هذا بمثلِ ٱلجنونِ في حُبِّها من كلَفٍ[3] وشغف.

---

(1) من جميل أساطير العرب، أنه إذا قتل اثنان معاً في وقت واحد وجرى دمياهما والتقيا أنهما متحابان، فإذا جرى دمياهما باتجاهين متعاكسين أنهما متشاحنان.

(2) متزايلة: منحازة. (3) كلف: شغف: شديد الحبّ.

وٱنحصرَتْ نفسي فيها، فرجَعتُ معها أشدَّ غَباوةً مِنَ الجاهلِ ينظرُ إلى مَدِّ بصرِهِ مِنَ ٱلأفقِ فيحكمُ أنَّ هٰهنا نهايةَ ٱلعالَم، وما هٰهنا إلَّا آخرُ بصرِهِ وأوّلُ جهلِهِ. وٱنفلَتَ منِّي زِمامُ روحي، وٱنكسَر ميزانُ إرادتي، وٱختلَّ ٱستواءُ فكري، فأصبحْتُ إنساناً مِنَ النقائضِ ٱلمتعاديةِ أجمعُ ٱليقينَ وٱلشَّكَّ فيه، والحُبَّ والبُغضَ لَه، وٱلأملَ وٱلخيبةَ منه، وٱلرغبةَ وٱلعُزُوفَ عنها، وفي أقلَّ من هذا يَخْطُفُ ٱلعقل، ويَتَدَلَّهُ مَنْ يتدلَّه.

ثُمَّ ٱبتُلِيتُ معَ هذا اللَّمَم(١) بجنونِ ٱلغيظِ من ٱبتذالِها لأصحابِها وعِفَّتِها معي، فكنْتُ أتطايرُ قِطَعاً بينَ ٱلسماءِ وٱلأرض، وأجِدُ عليها وأتنكَّرُ لَها، وهي في كلِّ ذلك لا تزيدني على حالةٍ واحدةٍ مِنَ ٱلرَّهبانيَّة؛ فكانَ يَطيرُ بِعقلي أنْ أرى جسمَها ناراً مشتعلة، ثُمَّ إذا أنا رُمتُهُ ٱستحالَ ثلْجاً، وقَرَحَتِ ٱلغيرةُ قلبي وفتَّتَتْ كبِدي من عابدةِ ٱلشيطانِ مَعَ الجميع، الراهبةِ معَ رجلٍ واحدٍ فقط!...

ورجعَتْ خواطري فيها مِمَّا يُعْقَلُ وما لا يُعقل؛ فكنْتُ أرى بعضَها كأنَّهُ راجعٌ من سفرٍ طويلٍ عن حبيبٍ في آخرِ الدنيا، وبعضَها كأنَّهُ خارجٌ من دارِ حبيبٍ في جِواري، وبعضَها كأنَّهُ ذاهبٌ إلى المارستان...!(٢)

ورأيْتُنا كأنَّنا في عالَمينِ لا صِلةَ بينهما، ونحن معاً قلْباً إلى قلب، فذهبَ هذا بالبقيَّةِ التي بقيَتْ من عقلي، ولم أرَ لِي مَنْجاةً إلَّا في قتْلِ نفسي لأزهقَ هذا الوحشَ الذي فيها.

وذهبْتُ فٱبتعْتُ شَعِيراتٍ مِنَ السمِّ الوَحِيِّ الذي يُعْجِلُ بالقتل، وأخذْتُها في كفي وهممْتُ أنْ أقحمَها وأبتلعَها، فذكرْتُ أمي، فظَهَرَتْ لِخيالي مشدوخةَ الرأسِ في هيئةِ موتِها، وإلى جانبِها هذه المرأةُ في هيئةِ جمالِها، وثَبَتَتْ على عيني هذه الرؤيا، وأدْمَنْتُ النظرَ فيها طويلاً فإذا أنا رجلٌ آخرُ غيرُ الأوّل، وإذا ٱلمرأةُ غيرُ تلك، وطَغَتْ عِبرةُ ٱلموت على شهوةِ ٱلحياةِ فمحَتْها، وصَحَّ عندي من يومئذٍ أنْ لا علاجَ من هذا الحُبِّ إلّا أن تُقرَنَ في النفسِ صورةُ ٱمرأةٍ ميتةٍ إلى صورةِ ٱلمرأةِ ٱلحيَّة، وكلّما ذُكِرَتْ هذه جِيءَ لها بتلك، فإذا ٱستمرَّ ذلك فإنَّ الميّتَةَ تُميتُها في النفسِ وتُميتُ ٱلشهوةَ إليها، ما من ذلك بُدّ، فلْيجرّبْهُ مَنْ شكَّ فيه.

وٱنفتحَ لي رأيٌ عجيب، فجعلْتُ أتأملُ كيف آمنَ شيطاني ثم كَفَرَ بَعْدُ، على

---

(١) اللمم، محركة بالفتح: الجنون.

(٢) المارستان: مستشفى المجاذيب.

أنَّ شيطانَها هي كَفَرَ في الأولِ ثُمَّ آمنَ في الآخرِ؟ فوٱللّهِ ما كنْتُ إلّا غبيًّا خامدَ ٱلفِطْنة[1]، إذْ لم يَسْنَحْ لِيَ ٱلصوابُ حتى كِدْتُ أُزهقُ نفسي وأخسرُ الدنيا والآخرة؛ فإِنَّ ٱلشيطانَ ـ لعنَهُ الله ـ إنَّما ردّني عنِ ٱلفاحشةِ وهي ذنبٌ واحد، لِيرمَيني بعدَها في الذنوبِ كلِّها بالموتِ على الكفر!

وردَّ إليّ هذا الخاطرُ ما عَزَبَ[2] من عقلي. ومَنِ ٱبْتُلِيَ ببلاءٍ شديدٍ يُزلزلُ يقينَهُ ثُمَّ أبصرَ اليقين، جاءَ منه شخصٌ كأنَّما خُلِقَ لِساعتِه؛ فلَعنْتُ شيطاني واستعذْتُ بِاللّهِ من مكْرِه، وألقيْتُ ٱلسمَّ في الترابِ وغيَّبتُهُ فيه، وقلْتُ لِنفسي: ويحكِ يا نفسُ! إِنَّ الحياةَ تعملُ عملاً بالحيّ، أفترَضَيْنَ أنْ تعملَ الحياةُ بأبطالِها ورِجالِها ما عرفْتِ وما علمْتِ، ثُمَّ يكونُ عملُها بكِ أنْتِ ٱلقعودَ ناحيةً والبكاءَ على ٱمرأة؟

أيَّتُها ٱلنفس، ما الفرقُ بينَ سرقةِ لحمٍ من دكانِ قصّاب، وبينَ سرقةِ لحمِ ٱمرأةٍ من دارِ أبيها، أو زوجِها، أو مولاها. . . .؟

أيَّتُها ٱلنفس، إِنَّ إيمانَ أسلافِنا معنا؛ إِنَّ الإسلامَ في ٱلمسلم.

* * *

قالَ ٱلمسيَّب: وهنا طَاشَ مُجاهدٌ وٱستخفَّهُ ٱلطرب، فصاحَ صيحةَ النصر: اللّهُ أكبر! وجاوبَهُ أهلُ ٱلمسجدِ في صيحةٍ واحدة: اللّهُ أكبر! ولم يكدْ يهتفُ بها الناسُ حتى ٱرتفعَتْ صيحةَ المؤذّنِ لِصلاةِ المغرب. الله أكبر. . .

---

(١) الفطنة: الذكاء.

(٢) عزب: ضاع وذهب.

الانتحار

٦

تتمة

قالَ المسيَّبُ بنُ رافع: وٱنفضَّ[١] مجلسُ الشيخ، ودَرَجَتْ[٢] بعدَهُ أعوامٌ في عدَّة الشهور من حَمْلِ ٱلمرأة، بلغَتْ فيها أمورُ الناسِ مبلَغها من خيرِ ٱلدنيا وشرِّها، مِمَّا أَعرفُ وما لا أعرف؛ ودخلْتُ ٱلبصرةَ أنا ومُجاهدٌ الأزديّ، نسمعُ الحَسَنَ ونأخذُ عنه؛ فإنَّا لَسائرانِ يوماً في سِكَّةِ[٣] بني سَمُرَة، إذْ وافقْنا الفتى صاحبَ ٱلنصرانيَّةِ مُقبلاً علينا، وكُنَّا فقدْناهُ تلك المدة، فأسرعَ إليهِ مُجاهدٌ فٱلتزمَهُ وقال: مرحباً بذي نَسَبٍ إلى القلْب. وسلَّمْتُ بعدَهُ وعانقْتُه، ثُمَّ أقبلْنا نسألُه، فقلْتُ له: ما كان آخِرُ أوّلِك؟ قالَ مُجاهد: بلْ ما كانَ آخرُ أولِها هي؟

فضحكَ الرجلُ وقال: النَّصرانيَّةَ تعني؟ قال: آخرُها من أولِها كهذا مني؛ وأومأَ إلى ظلِّهِ في ٱلأرضِ ممدوداً مشبوحاً مختلِطاً غيرَ متميز؛ كأنَّهُ ثوبٌ منشورٌ ليسَ فيه لابسُه، وكنَّا في الساعةِ ٱلتي يصيرُ فيها ظلُّ كلِّ شيءٍ مِثلَيْهِ فهو مَزْجُ ٱلمَسْخِ بالمسْخ...

قالَ مُجاهد: ما أفظَّ جوابَك وأثقلَهُ يا رجل! كأنَّك ـ واللَّهِ ـ تاجرٌ لا صِلةَ لَهُ بالأشياءِ إلَّا من أثْمانِها؛ فنظرُهُ إلى فَراهةِ ٱلدابةِ مِنَ ٱلدّوابِّ وإلى فراهةِ الجاريةِ منَ ٱلرقيقِ سواء.

قال الرجل: فأنا ـ واللَّهِ ـ تاجر، وأنا الساعةَ على طريقِ الإيوانِ[٤] الذي يلتقي فيهِ تُجارُ العِراقِ والشام وخُراسان؛ وقد ضربْتُ في هذه التجاراتِ وحَسُنَتْ بها حالي وتأثَّلْتُ منها؛ غيرَ أنَّ قلبَ التاجرِ غيرُ التاجر، فليسَ يَزِنُ ولا يَقبِض، ولا

---

(١) انفضَّ: تفرّق.
(٢) درجت: مضت.
(٣) سكة: طريق.
(٤) هذه المفردة تناسب ما يسمونه اليوم (البورصة).

يبيعُ ولا يشتري. أمَّا «تلك» فأصبحَتْ نسياناً ذهبَ لِسبيلِهِ في ٱلزمن!

قالَ مُجاهد: فكيف كنْتَ تراها وكيف عدْتَ تنظرُ إليها؟

قال: كنْتُ أنظرُ إليها بعينيَّ وأفكاري وشهواتي؛ فكانَتْ بذلك أكثرَ من نفسِها ومنَ ٱلنساء، وكانَتْ ألواناً ألواناً ما تنقضي، فلمَّا دخلَ بيني وبينَها ٱلزمنُ وٱلعقْل، أبعدَها هذا عنِ قلبي وأبعدَها ذاك عن خيالي؛ فنظَرْتُ إليها بعينيَّ وحدَهما، فرَجعتِ ٱمرأةً ككلِ ٱمرأة؛ وبنزولِها من نفسي هذه المنزلةَ، رجعَتْ أقلَّ من نفسِها ومنَ ٱلنساء، وهذه القِلَّةُ فيما عرفْتُ لا تُصيبُ ٱمرأةً عندَ مُحبِّها إلَّا فعلَتْ بجمالِها مثْلَ ما تفعلُهُ ٱلشيخوخةُ بجسمِها، فأدبَرَتْ بهِ ثُمَّ أدبرَتْ وٱستمرَّتْ تُدْبر!

وأنتَ فإذا أبصرْتَ ٱمرأةً شيخةً قد ذهبَتْ التي كانَتْ فيها... وأخطرْتَ في ذِهنِك نِيَّةً مِمَّا بينَ ٱلرجالِ وٱلنساء، فهل تُراكَ واجداً ٱلشهوةَ والميلَ إلَّا ٱلنُّفْرةَ وٱلمعْصِيَةَ؟ إنَّ هذا الذي كانَ الحُبَّ والهوى والعِشْقَ، هو بعينِهِ الذي صارَ الإثْمَ والذنبَ والضَّلالةَ!

قالَ مُجاهد: كأنَّكَ لمَّا ذهبْتَ تقتلُ نفسَك من حبِّها قتلْتَها هي في نفسِك؟

قال: يا رحمةً قد رَحِمْتُ بها نفسي يومئذٍ! أمَا ـ واللَّهِ ـ إنَّ الذي يقتلُ نفسَهُ من حُبِّ ٱمرأةٍ لَغَبِيّ. وَيحَهُ! فلْيتخلَّصْ من هذا الجزءِ مِنَ الحياةِ لا مِنَ ٱلحياةِ نفسِها. وقد جعلَ ٱللَّهُ لِلحُبِّ طرَفين: أحدُهما في اللذَّة، والآخرُ في ٱلحماقة؛ ما منهما بُدّ. فهذا ٱلحُبّ يُلقِي صاحبَهُ في ٱلأحلام ويُغشّي بها على بصرِه، ثُمَّ إنْ هو ٱتَّجهَ بطرَفِهِ ٱلسعيدِ إلى حظِّهِ ٱلمقبلِ وٱتفقتِ ٱللذَّةُ لِلمُحبّ، أيقظَتْهُ اللذةُ من أحلامِه؛ وإنِ ٱتَّجهَ ٱلحُبُّ بطرفِهِ الشقيِّ إلى حظِّهِ ٱلمُدْبر، وقعَتِ ٱلحماقاتُ فنوناً شتَّى بينَ ٱلحبيبين، وفعلَتْ آخِراً فِعْلَ ٱللذة، فأيقظَتِ ٱلعاشقَ من أحلامِهِ أيضاً. وهذا تدبيرٌ مِنَ ٱلرحمةِ في تلك ٱلقوَّةِ ٱلمدمِّرةِ ٱلمسماةِ ٱلحُبّ. أفلا يدلّ ذلك على أنَّ ٱللذةَ وهمٌ مِنَ ٱلأوهام ما دامَ تحقُّقُها هو فناءَها؟

خذْ عني يا مجاهدُ هذه الكلمة: «ليسَ ٱلكمالُ مِنَ ٱلدنيا ولا في طبيعتِها، ولا هو شيءٌ يُدْرَك، ولكنْ من عظمَةِ ٱلكمالِ أنَّ ٱستمرارَ ٱلعملِ لَهُ هو إدراكُه».

قالَ مُجاهد: لقد علمْتَ بعدَنا عِلْماً، فمِنْ أين لك هذا وعمَّنْ أخذْت؟

قال: عنِ السماء!

قال: ويلك! أينَ عقلُك، فهل نزل عليك ٱلوحيّ؟

قالَ ٱلرجل: لا، ولكنْ تَعالَيا معي إلى ٱلدارِ فأحدِّثَكما.

***

قالَ ٱلمسيَّب: وذهبْنا معه؛ فأُتيْنا بطعامٍ نظيفٍ فأكلْنا، وأشعَرتْنا ٱلدارُ أنَّ ربَّها قد وقعَ فيما شاءَ من دنياهُ وتواصلَتْ عليهِ ٱلنعمة؛ فلمَّا غسلْنا أيدِيَنا قال مجاهد: هيهِ يا أبا... يا أبا مَن؟ قال: أبو عُبَيد. قال: هيهِ يا أبا عبيد...

فأفكَرَ ٱلرجلُ ساعةً ثُمَّ قال: عهدُ كما بي منذُ تِسْعٍ في مجلسِ الإمامِ ٱلشعبيِّ بالكوفة؛ وقد كنتُ في بقيةٍ مِنَ النعمةِ أتجمَّلُ بها، وكانَتْ تُمسكُني على موضعي في أعينِ ٱلناس؛ فما زالَتْ تلك ٱلبقيةُ تَدِقُّ وتنفَضُّ حتى نكِدَ عيشي ووقعْتُ في ٱلأيَّام ٱلمقعَدَةِ التي لا تمشي بِصاحبِها، وٱنقلَبَ ٱلزمنُ كالعدوِّ المُغيرِ جاءَ لِيصْطَلِمَ[1] ويُخْرِبَ ويُفسِد، فأثَّرَ فِيّ أقبحَ آثارِه، فبِعْتُ ما بقيَ لي وتحملْتُ عنِ ٱلكوفةِ إلى ٱلبصرة، وقلْت: إنْ لم تتغيَّرْ حالي تغيَّرتْ نفسي، ولا أكونُ في ٱلبصرةِ قدِ ٱنتهيْتُ إلى ٱلفقر، بل أكونُ قد بدأْتُ مِنَ الفقرِ كما يبدأُ غيري، وأدعُ الماضيَ في مكانِهِ وأمضي إلى ما يستقبلُني.

فٱلتمسْتُ رُفْقَةً فٱلتأمْنا[2] عشرينَ رجلاً، فلمَّا كنَّا في ٱلطريق، سَلَبَنا ٱللصوصُ وحازوا ٱلقافلةَ وما تَحويه، ونجَوتُ أنا راكباً فرسي وعُمْري، وأدركْتُ حينئذٍ أنَّ ٱلحياةَ وحدَها مِلْكٌ عظيم، وأنَّها هي ٱلأداةُ ٱلإلهيَّة، وٱلباقي كلُّهُ هو من أنفسِنا لِأنفسِنا والأمرُ فيه هيِّنٌ وٱلخَطْبُ يسير.

وقلْتُ: لو أنَّ ٱللصوصَ قد مرُّوا بنا كما يمرّ النّاسُ بالناسِ لَمَا نكبَونا، ولكنَّهم عرضوا لنا عُروضَ اللصّ لِلمالِ وٱلمتاعِ لا لِلناس، فوضعوا فينا الأيديَ الناهبة؛ ومن هذا أدركْتُ أنْ ليسَ ٱلشرُّ إلَّا حالةً يتلبَّسُ بها مَنْ يستطيعُ أنْ يتخلَّصَ منها. فإذا كان ذلك فأصلُ ٱلسعادةِ في ٱلإنسانِ ألَّا يعبأَ[3] بهذِه ٱلحالاتِ متى عَرَضَتْ[4] له؛ وهو لا يستطيعُ ذلك إلَّا إذا، تمثَّلَ الشرَّ كما يراهُ واقعاً في غيره؛ فٱلمرأةُ العفيفةُ إذا عرضَتْ لها حالةٌ مِنَ ٱلفُجور، ونظرَتْ إلى نفسِها وحظِّ نفسِها، فقد تعمَى وتَزِلّ؛ ولكنَّها إذا نظرَتْ إلى ذلك في غيرها وإلى أثرِهِ على الفاجرة، كانَتْ كأنَّما زادَتْ على نفسِها نفساً أخرى تُريها ٱلأشياءَ مجردةً كما هي في حقائقِها.

---

(١) يصطلم: يستأصل.

(٢) التأمنا: اجتمعنا.

(٣) يعبأ: يهتمّ.

(٤) عرضت: حصلت.

قال: ومضيْتُ على وجهي تتقاذفُني ٱلبِقاعُ والأمكنةُ: وأنا أُعانِي ٱلأرضَ وٱلسماء، وأخشى الليلَ والنهار، وأُكابدُ ٱلألمَ وٱلجوع، حتى دخلْتُ ٱلبصرةَ دخولَ ٱلبعيرِ ٱلرازح، قَطَعَ ٱلصحراءَ تأكلُ منه ولا يأكلُ منها، فأنضاهُ[1] السفرُ وحَسَرهُ الكَلالُ[2] ونَحتَهُ الثِّقلُ ٱلذي يحملُه، فجاءَ ببِنْيةٍ غير التي كانَ قد خرجَ بها. وكانَتْ أيَّامي هذه عمراً كاملاً مِنَ ٱلشقاء، جعلَتْني أُوقِنُ أنَّ هؤلاءِ الناسَ في ٱلحياةِ إنْ هم إلّا كالدَّوابِّ تحتَ أحمالِها: لا تختارُ الدابَّةُ ما تحملُ ولا مَنْ تحمل، ولا يُترَكُ لها مع هذا أنْ تختارَ ٱلطريقَ ولا مدةَ ٱلسير؛ وليسَ لِلدابةِ إلّا شيئان: صبرُها وقُوَّتُها؛ إنْ فقدَتْهما هلكتْ، وإنْ وَهَنا فيها كان ضعفُها بحسبِ ذلك.

إنَّ هناك أوقاتاً مِنَ ٱلشقاءِ والبؤسِ تقذفُ بالإنسانِ وراءَ إنسانيَّتِهِ وإنسانيَّةِ البشرِ جميعاً، لا تُبالي كيف وقعَ وفي أيِّ وادٍ هلَك، فلا ينفعُ ٱلإنسانَ حينئذٍ إلّا أنْ يعتصمَ[3] بأخلاقِ ٱلحيوان، في مثلِ رِضاهُ الذي هو أحكمُ الحِكْمةِ في تلك الحال، وصبرِهِ ٱلذي هو أقوى القوّة، وقناعتِهِ التي هي أغنى ٱلغِنى، وجهلِهِ الذي هو أعلمُ العِلْم، وتوكُّلِهِ ٱلذي هو إيمانُ فطرَتِهِ بفِطرتِه. لا يُبالي ٱلحيوانُ مالاً ولا نعيماً، ولا متاعاً ولا منزلةً، ولا حظًّا ولا جاهاً، ولنْ تجدَ حمارَ ٱلملكِ يعرفُ مِنَ الملكِ أكثرَ مِمَّا يعرفُ حِمارُ السَّقَّاءِ مِنَ السقّاء؛ ولعلَّك لو سألْتَهما وأطاقا الجوابَ لَقالَ لك الأوّل: إنَّ الذي فوقَ ظهري ثقيلٌ مَقِيتٌ بغيض؛ ولَقالَ لك الثاني: إن الذي يركبُهُ خفيفٌ سهلٌ سَمْح!

ولكنَّ بلاءَ ٱلإنسانِ أنَّهُ حينَ يُطَوِّحُهُ ٱلبؤسُ[4] وٱلشقاءُ وراءَ ٱلإنسانيَّة، لا ينظرُ لِغيرِ ٱلناس، فيزيدُهُ ذلك بُؤْساً وحسرة، ويَمحَقُ[5] في نفسِهِ ما بقيَ مِنَ ٱلصبر، ويقلِّبُ رِضاهُ غيظاً، وقناعتَهُ سخطاً، ويبتليهِ كلُّ ذلك بالفكرةِ المهلِكةِ أعجزَها أنْ تُهلِكَ أحداً فلا تجدُ مَنْ تُدَمِّرُهُ غيرَ صاحبِها؛ فإذا هي وجدَتْ مَساغاً[6] إلى الناسِ فأهلكَتْ وعاثَتْ وأفسدَتْ، فجعلَتْ صاحبَها إمَّا لِصًّا أو قاتلاً أو مُجرماً، أيَّ ذلك تيسَّر!

* * *

(١) أنضاه: أتعبه.
(٢) الكلال: التعب الشديد.
(٣) يعتصم: يلجأ ويتقوّى.
(٤) يطوّحه البؤس: أخذه كل مأخذ.
(٥) يمحق: يمحو.
(٦) مساغاً: سبباً.

قال: وكنْتُ أعرفُ في ٱلبصرةِ فلاناً التاجرَ من سَراتِها[١] ووجوهِ أهلِها، فٱستطرقْتُهُ[٢]؛ فإذا هو قد تحوّلَ[٣] إلى خُراسان، وليسَ يعرفُني أحدٌ في ٱلبصرةِ ولا أعرفُ أحداً غيرَه؛ فكأنَّما نُكِبْتُ مرةً ثانيةً بغارةِ شرٍّ من تلك، غيرَ أنَّها قطعَتْ عليَّ في هذه ٱلمرةِ طريقَ أيَّامي، وسلبتْني آخرَ ما بقيَ لِنفسي، وهو الأمل!

ورأيْتُ أنَّهُ ما مِنْ نزولي إلى الأرض بُدّ، فأكونَ فيها إنساناً كالدابةِ أوِ ٱلحشَرة: حياتُها ما ٱتَّفقَ لا ما تُريدُ أنْ يتَّفِق؛ وأنَّهُ لا رأيَ إلَّا أنْ أسخَرَ مِنَ ٱلشهوات فأزهدَ فيها وأنا القويُّ ٱلكريم، قبلَ أنْ تسخرَ هي منِّي إذا جئْتُها وأنا الطامعُ العاجز!

وفي الأرضِ كِفايةُ كلِّ ما عليها ومَنْ عليها، ولكنْ بطريقتِها هي لا بطريقةِ الناس؛ وما دامَتْ هذه الدنيا قائمةً على التغييرِ والتبديلِ وتحوُّلِ شيءٍ إلى شيء، فهذا الظَّبيُ الذي يأكلُهُ الأسدُ لا تعرفُ الأرضُ أنَّهُ قد أُكِلَ ولا أنَّهُ ٱفترِسَ ومُزِّق، بلْ هو عندَها قد تحوَّلَ قوةً في شيءٍ آخرَ ومضى؛ أمَّا عندَ ٱلناسِ فذلك خَطْبٌ[٤] طويلٌ في حِكايةِ أوهامٍ مِنَ ٱلخوفِ وٱلوجَل[٥]، كما لو ٱخترعْتَ قصةً خرافيَّةً تحكيها عن أسدٍ قد زرَعَ لحماً. . . فتعهَّدَهُ فأنبتَهُ فحصدَهُ فأكلَه، فذهبَ ٱلزرعُ يحتجُّ على آكِلِهِ، وجعلَ يشكو ويقول: ليسَ لِهذا زرعْتَني أنت، وليس لِهذا خرجْتُ أنا تحتَ الشمس، وليسَ من أجلِ هذا طلعَتِ ٱلشمسُ عليَّ وعليك!

وٱلإنسانُ يرى بعينيهِ هذا التغييرَ واقعاً في ٱلإنسانيَّةِ عامَّتِها وفي ٱلأشياءِ جميعِها؛ فإذا وقعَ فيهِ هو ضجَّ وسَخِط، كأنَّ لَهُ حقًّا ليسَ لأحدٍ غيرِه، وهذا هوَ ٱلعجيبُ في قصةِ بني آدم، فلا يزالُ فيها على الأرضِ كلماتٌ مِنَ ٱلجنةِ لا تُقالُ هنا ولا تُفهَم هنا؛ بل مَحلُّ ٱلاعتراضِ بها حينَ يكونُ ٱلإنسانُ خالداً لا يقعُ فيهِ ٱلتغييرُ وٱلتبديل. ومن هذا كانَ خيالُ ٱللذةِ في ٱلأرضِ هو دائماً باعثَ ٱلحماقةِ ٱلإنسانيَّة.

قال أبو عُبيد: وذهبْتُ أعتَمِلُ بيديَّ وجسمي على آلامٍ مِنَ ٱلفاقةِ وٱلضُّرّ، ومنَ ٱلخيبةِ والإخفاق، ومن إلجاءِ ٱلمسكنَة، وإحواجِ ٱلخَصَاصة[٦]؛ فلقد رأيتُني وإنَّ يدي كيدِ ٱلعبد، وظهري كظهرِ ٱلدّابة، ورجلي كرجلِ ٱلأسير، وعُنُقي كعُنُقِ

---

(١) سراتها: أغنيائها.
(٢) استطرقته: جئته ليلاً.
(٣) تحوّل: انتقل.
(٤) خطْب: بسكون الطاء: المصيبة.
(٥) الوجل: الخوف.
(٦) الخصاصة: الفقر المدقع وشدّته.

ٱلمغلول، ويطلعُ قرصُ الشمس على الدنيا ويغيبُ عنها وما أعتمِلُ إلَّا بقُرصٍ مِنَ ٱلخبز، ولقد رأيتُني أبذُلُ في صِيانةِ كلّ قطرةٍ من ماءِ وجهي سحابةً مِنَ العرَقِ حتى لا أسألَ ٱلناس، ويا بؤساً لي إنْ سألْتُ وإنْ لم أسأل!

وما كان يُمسِكني على هذه الحياةِ المُرمَقَّةِ[1]، تأتي رَمَقاً بعدَ رَمَقٍ في يوم يوم - إلا كلامُ الشعبيّ - الذي سمعْتُهُ في مسجدِ الكوفة، وقولُهُ فيمَنْ قتلَ نفسَه؛ فكانَ كلامُه نوراً في صدري يُشرقُ منه كلّ يوم معَ الصبحِ صبحُ لإيماني. ولكنْ بقيَتْ أيامُ نعمتي الأولى ولها في نفسي ضَرَبانٌ مِنَ الوجَعِ كالذي يجدُهُ ٱلمجروحُ في جرحِهِ إذا ضَرَبَ عليه، فكانَ الشيطانُ لا يجدُ منفذاً إليَّ إلّا منها. وفقدْتُ ٱلصديقَ وعونَه، فما كان يُقبِلُ عليّ صديقٌ إلّا في أحلامي من وراءِ ٱلزمنِ الأول!

قالَ مُجاهد: والحبيب؟

فتبسَّمَ ٱلرجل وقال: إذا فرغَتِ[2] ٱلحياةُ مِنَ الذي هو أقلُّ مِنَ ٱلممكن، فكيف يكونُ فيها الذي هو أكثرُ مِنَ ٱلممكن؟ إنَّ جوعَ يوم واحدٍ يجعلُ هذه الحياةَ حقيقةً جافيةً لا شِعرَ فيها، ويتركُ الزمنَ وما فيه ساعةٌ واحدةٌ مُعَطَّرة.... والبؤسُ يَقَظَةٌ مؤلمةٌ في ٱلقلبِ ٱلإنسانيِّ تُحَرِّمُ عليهِ ٱلأحلامُ؛ وما ٱلحُبُّ من أوّلِهِ إلى آخرِهِ إلّا أحلامُ القلوبِ بعضِها ببعض!

قال أبو عُبيد: وتَضَعْضَعْتُ[3] لِهذه الحياةِ المخزيةِ وأبْرَمَتْني[4] أيامُها، وحملْتُ فيَّ الميّتَ والحيَ، ورأيتُ الشيطانَ - لَعنَهُ الله - كأنَّما ٱتخذَني وِعاءً مُطَّرَحاً على طريقِهِ يُلقي فيهِ القمامة[5]....، وظهَر لي قلبي في وساوسِهِ كالمدينةِ الخَربةِ ضَرَبَها الوباءِ، فأعمرُ ما فيها مَقْبَرَتُها؛ وعادَ البؤسُ وَقاحَ الوجهِ لا يستحي، فلا أراهُ إلّا في أرذلِ أشكالِهِ وأبردِها؛ ولقد يكونُ البؤسُ لِبعضِ الناسِ على شيءٍ مِنَ ٱلحياءِ فيأتي في أسلوبٍ معتذِرٍ كٱلمرأةِ الدميمة[6] في نقابِها[7].

وقلْتُ لِنفسي: ما هو - واللّهِ - إلّا القتل، فهذا عُمرٌ أراهُ كالأسيرِ أُقِيمَ على النطع[8] وسُلَّ عليهِ السيف، فما ينتقمُ منه ٱلمنتقِمُ بأفظعَ من تأخيرِ ٱلضربة، وما يرحمُهُ ٱلراحمُ بأحسنَ مِنْ تعجيلِها!

---

(١) المرمقة: الباقي من الحياة.
(٢) فرغت الحياة: انتهت.
(٣) تضعضعت: تخلخلت.
(٤) أبرمتني: أضجرتني.
(٥) القمامة: الزبالة.
(٦) الدميمة: البشعة.
(٧) تقابلها: ما تغطي به وجهها.
(٨) النّطع: الآنية ينزل فيها دم من قطع رأسه.

وبِتُّ أؤامِرُ هذه النفسَ في قتلِها وأحدِّثُها حديثَ الموت، فسدَّدَتْ رأيي فيهِ وقالت: ما تصنعُ بجسمٍ كالمتعفِّنِ أصبحَ كالمقبورِ لا أيامَ لَهُ إلَّا أيامُ ٱنقراضِهِ وتفتيتِه؟ بَيْدَ أنِّي ذكرْتُ كلامَ (الشَّعبيِّ) في ذلك المجلسِ وأنا أحفظُهُ كلَّه، فجعلْتُ أهُذُّه[1] ما أتركُ منه حَرْفاً، وٱتَّخذْتُهُ متكلماً مع نفسي لا كلاماً، كنْتُ كلَّما غلبَني ٱلضعفُ رفعْتُ بِهِ صوتي وأَصغيْتُ كما أُصغي إلى إنسانٍ يُكلِّمُني فرأيْتُ ٱلشيطانَ بعدَ ذلك كاللصِّ إذا طَمِعَ في رجلٍ ضعيفٍ منفردٍ، ثُمَّ لمَّا جاءَهُ وجدَ معه رجلاً ثانياً قويًّا فهرب!

قال أبو عُبيد: ونالني رَوْحٌ مِنَ ٱلاطمئنانِ وجدْتُ لَهُ السكينةَ في قلبي فنِمْتُ، فإذا الفزعُ ٱلأكبرُ الذي لا ينساهُ مَنْ سمع بهِ، فكيف ٱلذي رآهُ بعينيه؟

رأيتُني ميّتاً في يدِ غاسلِهِ يُقلِّبُهُ ويغسلُهُ كأنَّهُ خِرْقة؛ ثُمَّ حُمِلْتُ على ٱلنعشِ كأنَّ الحاملين قد رفعوني يقولون: ٱنظروا أيُّها ٱلناسُ كيفَ يصيرُ ٱلناس؛ ثُمَّ صلَّى عليَّ الإمامُ الشعبيُّ في مسجدِ ٱلكوفة، ثم دُلِّيتُ في قَعْرِ مُظْلِمَةٍ وهِيلَ الترابُ عليّ، وتُرِكْتُ وحيداً وٱنصرفوا!

وما أدري كم بقيْتُ على ذلك ثُمَّ رأيْتُ كأنَّما نُفِخَ في ٱلصُّورِ[2] وبُعْثِرتِ ٱلأمواتُ جميعاً، فطِرْنا في ٱلفضاء، وكانتِ ٱلنجومُ غباراً حوْلَنا كتُرابِ ٱلعاصفةِ في ٱلعاصفة؛ وإذا نحن في عَرَصَاتِ القِيامةِ وفي هَوْلِ الموقف!

وتوجَّهْتُ بكلِّ شعرةٍ في جسمي إلى الرجاءِ في رحمةِ ٱللهِ؛ ورأيْتُ أعمالي رؤيةً أحزنَتْني، فهي كمدينةٍ عظيمةٍ كلُّ أهلِها صعاليكُ إلَّا قليلاً منَ ٱلمستورين، أرى منهُمُ ٱلواحدَ بعدَ ٱلواحدِ في ٱلساعة بعدَ ٱلساعةِ نَدَرُوا وتَبَعثروا وضاعوا كأعمالي ٱلصالحة!

وذكرْتُ أني كِدْتُ أقتلُ نفسي فِراراً بها مِنَ ٱلعُمرِ المؤلم؛ فنظرْتُ فإذا الزمنُ قد ظهرَ في أبديَّتِهِ، ورجعَ ٱلماضي حاضراً بكلِّ ما حَوَى كأنَّهُ لم يمض، وإذا عمري كلُّهُ لا يَكادُ يبلغُ طُرْفةَ عينٍ من دهرٍ طويل، فحمدْتُ ٱللَّهَ أنِّي لم أفتَدِ ألَمَ ٱللحظةِ ٱلقصيرةِ ٱلقصيرة، بعذابِ ٱلأبدِ ٱلخالدِ ٱلخالدِ ٱلخالدِ.

وجِيءَ على أعينِ ٱلخلْقِ بأنعمِ أهلِ الدنيا وأكثرِهم لَذّاتٍ في تاريخِ الدنيا كلِّه، فصاحَ صائحٌ: هذا أنعمُ مَنْ كانَ على الأرضِ منذُ خَلَقَها ٱللَّهُ إلى أنْ طواها. ثُمَّ غُمِسَ هذا المنَعَّمُ في النارِ غَمْسَةً خفيفةً كنبضَةِ البرْق، وأُخْرِجَ إلى المحشَر،

---

(١) أهذُّه: أسرع في قراءته.   (٢) الصُّور: البوق.

وقيلَ لَهُ والناسُ جميعاً يسمعون: هل ذُقْتَ نعيماً قطّ؟ قال: لا ـ واللهِ ـ.

ثُمَّ جِيءَ بأتعسِ أهلِ ٱلأرضِ وأشدِّهِم بُؤساً منذُ خُلقَتِ ٱلأرض، فغُمسَ في ٱلجنةِ غَمْسَةً أسرعَ مِنَ النسيمِ تحرّكَ ومرّ، ثُمَّ أُخْرجَ إلى المحشرِ وقِيلَ له: هل ذُقْتَ بؤساً قطّ؟ قال: لا ـ واللهِ ـ.

وسمعْنَا شهيقَ جهنمَ وهي تفورُ تكادُ تميَّزُ مِنَ الغيظ؛ فأيقنْتُ أنَّ لها نفساً خُلقَتْ من غضَبِ ٱللهِ. وخرجَ منها عُنقٌ عظيمٌ هائل، لو تضرَّمَتِ[1] ٱلسماءُ كلُّها ناراً لأَشبهَتْه، فجعلَ يلتقِطُ صِنْفاً صِنفاً مِنَ ٱلخلْق، وبدأ بالملوكِ الجبابرةِ فٱلتقطهمْ مرَّةً واحدةً كالمغناطيسِ لِتُرابِ ٱلحديدِ؛ وقَذَفَ بهم إلى النار؛ ثُمَّ ٱنبعثَ فٱلتقطَ ٱلأغنياءَ ٱلمُفسدِينَ فأطارَهم إليها؛ ثُمَّ جعلَ يأخذُ قَوْماً قَوْماً، وقد ألجمَنِي العرَقُ مِنَ ٱلفزع؛ ثُمَّ طِرْتُ أنا فيه، ونظرْتُ، فإذا أنا مُحْتبِسٌ في مُظلمةٍ نارِّيةٍ كالهاوية، ليسَ حولي فيها إلَّا قاتلو أنفسِهِم. ولو أنَّ بِحارَ ٱلأرضِ جُعلَ فيها البحرُ فوقَ ٱلبحرِ فوقَ ٱلبحر، إلى أنْ تجتمعَ كلُّها فيكونَ العمقُ كبعْدِ ما بينَ ٱلأرضِ وٱلسماء، ثُمَّ تُسْجَرُ[2] ناراً تَلَظَّى، لَكانَتْ هيَ ٱلهاويةَ التي نحن في أعماقِها؛ وكنْتُ سمعْتُ من إمامِنا الشعبيّ: أنَّ عُصاةَ ٱلمؤمنينَ ٱلموحِّدِينَ إذا ماتُوا على إيمانِهم كانوا في النارِ أحياءَ وجوارحُهم مَوْتى؛ لأنَّ هذه الجوارحَ قد أطاعَتِ ٱللَّهَ وسبَّحَتْهُ فكرُمَتْ بذلك حتى على جهنَّم، ثُمَّ يعذَّبونَ عذاباً فيهِ ٱلرحمة، ثُمَّ يُخرَجونَ وينتظرُهم إيمانُهم على بابِ النار، فكانَ إلى جانبي رجلٌ قتلَ نفسَه، فسمعَ قائلاً من بعيدٍ يقولُ لِمؤمِن: أُخرجْ فإنَّ إيمانَك ينتظرُك. فصاحَ الذي إلى جانبي: وأنا، أفلا ينتظرُني إيماني؟ فقيلَ له: وهل جِئْتَ بهِ؟

ورأيْتُ رجلاً ذَبحَ نفسَهُ يُريدُ أنْ يصرخَ يسألُ اللهَ ٱلرحمة، فلا يخرجُ ٱلصوتُ من حَلْقِه، إذْ كانَ قد فَرَاهُ وبقيَ مَفْرِيًّا! وأبصرْتُ آخرَ قد طعنَ في قلبهِ بِمِدية، فهو هناك تَسلُخُ الزبانيةُ قلبَهُ تبحَثُ هلْ فيهِ نيَّةٌ صالحة، فلا تزالُ تسلُخُ ولا تزالُ تبحثُ!

ورأيْتُ آخرَ كانَ تَحسَّى[3] مِنَ السمِّ فماتَ ظمآنَ يتلظَّى[4] جوفُه، فلا تزالُ تَنْشأُ لَهُ في النارِ سحابةٌ رَوِيَّةٌ تَبْرُقُ بالماء، فإذا دنَتْ منه ورَجاها، ٱنفجرَتْ عليهِ بِالصواعقِ ثُمَّ عادَتْ تَنشأُ وتنفجر!

---

(١) تضرّمت: اشتدّ اشتعالها.
(٢) تستجر: تشعل.
(٣) تحسّى: شرب.
(٤) يتلظّى: يشتعل.

وقالَ رجل: إنَّما كنْتُ مجنوناً ضعيفاً عاجزاً فأزهقْتُ نفسي. فنودِيَ: أوَ ما علمْتَ أنَّ اللَّهَ يُحاسبُك على أنَّكَ عاقلٌ لا مجنونٌ، وقويٌّ لا ضعيف، وقادرٌ لا عاجز؟ كنْتَ تعقِلُ بالأقلِّ أنَّكَ ستموتُ، وكنْتَ تَقوَى على أنْ تصبِر، وكنْتَ تقدرُ أنْ تتركَ الشرَّ.

وقالَ رجلٌ عالمٌ قد حزَّ في يدِهِ بسكينٍ فمات: «لم يكُنِ ٱلكمالُ مِنَ ٱلدنيا ولا في طبيعتِها ولا هو شيءٌ يُدرك». فصرخَ فيهِ صوتٌ رهيب: «ولكنْ من عَظَمةِ الكمالِ أنَّ ٱستمرارَ العملِ لَهُ هو إدراكُه!».

***

قالَ أبو عُبيد: ثُمَّ ٱنتصبَ بإزائي شيطانٌ ماردٌ أحمر، يلتمِعُ ٱلتماعَ ٱلزجاجِ فيهِ ٱلخمر، فقامَ في وجهي وقال: بِماذا جِئْتَ إلى هنا يا عدوَّ الخمر؟ فما كانَ إلَّا أنْ سمعْتُ ٱلنداء: شَفَعَتْ فيك الخمرُ التي لم تشربْها، أُخرج، إنَّ إيمانَكَ ينتظرُك.

فصِحْت: ٱلحمدُ لِلَّهِ! وتحركَ بها لِساني، فٱنتبهْت.

لقد علمْتُ أنَّ ٱلصبرَ على المصائبِ نعمةٌ كبرى لا يُنعِمُ ٱللَّهُ بها إلَّا في ٱلمصائب.

وحيُ القبور

ذهبْتُ في صُبحِ يوم عيدِ ٱلفطرِ أحملُ نفسي بنفسي إلى ٱلمَقْبَرَة، وقد ماتَ لي مِنَ ٱلخواطِرَ مَوْتَى لا مَيِّتٌ واحد؛ فكنْتُ أمشي وفيَّ جَنَازَةٌ بمُشَيعيِّها[1]؛ من فِكْرٍ يَحملُ فِكْراً، وخاطرٍ يَتْبعُ خاطراً، ومعنًى يَبكِي، ومعنًى يُبكَى عليه.

وكذلك دأْبِي[2] كلَّما ٱنحدرْتُ في هذه الطريقِ إلى ذلك ٱلمكانِ ٱلذي تأتيهِ ٱلعيونُ بدموعِها، وتمشي إليهِ ٱلنفوسُ بأحزانِها، وتجيءُ فيهِ ٱلقلوبُ إلى بقايا. تلك المقابرُ التي لا يُنَادَى أهلُها مِن أهليهم بالأسماءِ ولا بِالألقاب، ولكنْ بهذا النداء: يا أحبابَنَا، يا أحزانَنَا!

ذهبْتُ أزورُ أمواتي الأعزاءَ وأتَّصلُ منهم بأطرافِ نفسي، لأحيا معهم في ٱلموتِ ساعةً أعْرِضُ فيها أمرَ الدنيا على أمر ٱلآخرة، فأنسى وأذكر، ثُمَّ أنظرُ وأعتبرُ، ثُمَّ أتعرَّفُ وأتوسَّم[3]، ثُمَّ أسْتبْطِنُ مِمّا في بطنِ ٱلأرض، وأستَظْهِرُ مِمّا على ظهرِها.

وجلسْتُ هناك أُشْرِفُ من دهرٍ على دهر، ومن دنيا على دنيا، وأخرَجَتِ ٱلذاكرةُ أفراحَها القديمةَ لِتجعلَها مادةً جديدةً لِأحزانِها؛ وٱنفتحَ لِيَ ٱلزمنُ ٱلماضي فرأيتُ رَجْعَةَ الأمس، وكأنَّ دهراً كاملاً خُلِقَ بحوادثِهِ وأيَّامِه، ورُفِعَ لِعينيَّ كما تُرفَعُ ٱلصورةُ ٱلمعلقةُ في إطارِها.

أعرفُ أنَّهم ماتوا، ولكنِّي لم أشعرْ قطُّ إلَّا أنَّهم غابوا؛ وٱلحبيبُ ٱلغائِبُ لا يتغيَّرُ عليهِ الزمانُ ولا المكانُ في ٱلقلْبِ ٱلذي يُحبُّهُ مهما تَراخَتْ بِهِ ٱلأيام[4]؛ وهذه هي بقيةُ ٱلروحِ إذا ٱمتزَجَتْ بِالحُبِّ في روحٍ أخرى: تتركُ فيها ما لا يُمحَى لِأنَّها هي خالدةٌ لا تُمحَى.

ذهبَ ٱلأمواتُ ذَهَابَهم ولم يُقيموا في ٱلدنيا؛ ومعنى ذلك أنَّهم مرُّوا بالدنيا

---

(١) مشيّعها: مرافقها.
(٢) دأبي: بسكون الهمزة: عادتي.
(٣) توسَّم: استطلع.
(٤) تراخت به الأيام: امتدّت.

ليسَ غير، فهذه هي ٱلحياةُ حينَ تُعبِّرُ عنها ٱلنفسُ بِلِسانِها لا بلسانِ حاجتِها وحِرصِها.

الحياةُ مدةُ عمل، وكأنَّ هذه الدنيا بكلِّ ما فيها مِنَ ٱلمتناقضات، إنْ هي إلَّا مَصْنَعٌ يُسَوَّغُ كلُّ إنسانٍ جانباً منه، ثُمَّ يُقالُ لَه: هذه الأداةُ فٱصنعْ ما شِئْتَ، فضيلتَك أو رذيلتَك.

* * *[1]

جلسْتُ في ٱلمقبرة، وأطرقْتُ أُفكرُ في هذا الموت. يا عجباً لِلناس! كيف لا يستشعرونَهُ وهو يَهدمُ من كلِّ حيّ أجزاءً تُحيطُ بهِ قبلَ أنْ يهدمَهُ هو بجملتِه؛ وما زالَ كلُّ بُنْيانٍ مِنَ الناسِ بِهِ كالحائطِ المُسَلَّطِ عليهِ خَرابُه، يَتَأَكَّلُ من هنا ويتناثرُ من هناك!؟

يا عجباً لِلناسِ عجباً لا ينتهي! كيف يجعلونَ ٱلحياةَ مدةَ نزاعٍ وهي مُدةُ عمل، وكيف لا تبرحُ تَنْزُو النَّوازِي بِهم في ٱلخِلافِ وٱلباطِلِ، وهم كلَّما تدافعوا بينهم قضيةً مِنَ ٱلنزاعِ فضربوا خَصْماً بخصمٍ وردّوا كَيْداً بكيد، جاءَ حكمُ ٱلموتِ تكذيباً قاطعاً لِكُلِّ مَنْ يقولُ لِشيءٍ: هذا لي؟

أمَا ـ واللَّهِ ـ إنَّهُ ليسَ أعجبُ في ٱلسخريةِ بهذه الدنيا من أنْ يُعطَى ٱلناسُ ما يملكونَهُ فيها لإثباتِ أنّ أحداً منهم لا يملكُ منها شيئاً، إذْ يأتي الآتي إليها لحماً وعظماً، ولا يرجعُ عنها الراجعُ إلَّا لحماً وعظماً، وبينَهما سفاهةُ ٱلعظمِ واللحمِ حتى على ٱلسِّكِّينِ ٱلقاطعة....

تأتي ٱلأيامُ وهي في ٱلحقيقةِ تَفِرُّ فِرارَها؛ فمَنْ جاءَ من عمرِهِ عشرونَ سنةً فإنَّما مَضَتْ هذه العشرونَ من عمره. ولقد كانَ ينبغي أنْ تُصَحِّحَ أعمالُ الحياةِ في الناسِ على هذا الأصلِ ٱلبَينِ، لولا ٱلطباعُ ٱلمدخولةُ وٱلنفوسُ الغافلةُ، وٱلعقولُ ٱلضعيفةُ، وٱلشهواتُ ٱلعارمة؛ فإنَّهُ ما دَامَ ٱلعمرُ مُقبِلاً مُدْبِراً في ٱعتبارٍ واحد، فليسَ لِلإنسان أنْ يتناولَ مِنَ ٱلدنيا إلَّا ما يُرضيهِ محسوباً لَه ومحسوباً عليهِ في وقتٍ معاً؛ وتكونُ ٱلحياةُ في حقيقتِها ليسَتْ شيئاً إلَّا أنْ يكونَ الضميرُ ٱلإنسانيُّ هو الحيَّ في الحيّ.

* * *

وما هي هذه ٱلقبور؟ لقد رجعَتْ عندَ أكثرِ ٱلناسِ مَعَ المَوْتَى أبنيةً ميتة؛ فما

(١) يقصد إنسانية الحياة.

قطُّ رأوهَا موجودةً إلّا لِينسَوْا أنّها موجودة؛ ولولا ذلك من أمرِهم لَكانَ لِلقبرِ معناهُ ٱلحيُّ ٱلمُتَغَلْغِلُ في ٱلحياةِ إلى بعيد؛ فما القبرُ إلّا بناءٌ قائمٌ لِفكرةِ ٱلنهايةِ وٱلانقطاع؛ وهو في ٱلطَّرَفِ ٱلآخرِ رَدٌّ على البيتِ الذي هو بناءٌ قائمٌ لِفكرةِ البَدْءِ وٱلاستمرار؛ وبينَ ٱلطَّرفينِ ٱلمَعْبَدُ وهو بناءٌ لِفكرةِ ٱلضميرِ ٱلذي يحيا في البيتِ وفي ٱلقبر، فهو على ٱلحياةِ والموتِ كالقاضي بينَ خَصمينِ يُصْلِحُ بينهما صُلحاً أو يقضي.

القبرُ كلمةُ ٱلصدقِ مبنيَّةً متجسِّمَةً، فكلُّ ما حولَها يَتَكَذَّبُ ويتأوَّل، وليسَ فيها هي إلّا معناها لا يَدْخُلُهُ كذِبٌ ولا يعتريهِ تأويل. وإذا ماتَتْ في الأحياءِ كلمةُ الموتِ من غرورٍ أو باطلٍ أو غفْلةٍ أو أثرة، بقيَ ٱلقبرُ مُذكِّراً بالكلمةِ شارِحاً لها بأظهرِ معانيها، داعياً إلى الاعتبارِ بمدلولِها، مبيِّناً بِمَا ينطوي عليهِ أنَّ الأمرَ كلَّهُ لِلنّهاية.

ٱلقبرُ كلمةُ ٱلأرضِ لِمَنْ ينخدعُ فيرى العمرَ ٱلماضيَ كأنَّهُ غيرُ ماض، فيعملُ في إفراغِ حياتِهِ مَنَ ٱلحياة بما يملؤُها من رذائلِهِ وخسائِسِه؛ فلا يزالُ دائِباً في معاني الأرضِ وٱستجماعِها. وٱلاستمتاعِ بها، يتلو في ذلك تِلْوَ ٱلحيوانِ ويقْتَاسُ بهِ، فشريعتُهُ جَوْفُهُ وأعضاؤُه؛ وترجعُ بذلك حيوانيتُهُ مع نفسِهِ الروحانيَّة، كالحِمارِ معَ ٱلذي يملكُهُ ويعلفُه، ولو سُئلَ ٱلحمارُ عن صاحبِهِ مَنْ هو؟ لَقال: هو حِماري...

القبرُ على الأرضِ كلمةٌ مكتوبةٌ في ٱلأرضِ إلى آخرِ الدنيا، معناها أنَّ الإنسانَ حيٌّ في قانونِ نِهايتِهِ، فلْينظرْ كيف ينتهي.

* * *

إذا كانَ الأمرُ كلُّهُ لِلنهاية، وكانَ ٱلاعتبارُ بِها وٱلجزاءُ عليها، فالحياةُ هيَ ٱلحياةُ على طريقةِ ٱلسلامةِ لا غيرِها؛ طريقةِ إكراهِ ٱلحيوانِ ٱلإنسانيِّ على مُمَارسةِ ٱلأخلاقيَّةِ ٱلاجتماعيَّة، وجعلِها أصلاً في طِباعِه، ووزنِ أعمالِهِ بنتائجِها التي تنتهي بها، إذْ كانَتْ روحانيتُهُ في النهاياتِ لا في بداياتِها.

في الحياةِ الدنيا يكونُ الإنسانُ ذاتاً تعملُ أعمالَها؛ فإذا ٱنتَهتِ ٱلحياةُ ٱنقلبَتْ أعمالُ الإنسانِ ذاتاً يخلُدُ هو فيها؛ فهو منَ ٱلخيرِ خالدٌ في الخير، ومنَ الشرِّ هو خالدٌ في الشرّ؛ فكأنَّ ٱلموتَ إنْ هو إلّا ميلادٌ لِلروحِ من أعمالِها؛ تُولدُ مرتين: آتيةً وراجعة.

وإذا كانَ ٱلأمرُ لِلنهايةِ فقدْ وجبَ أنْ تبطلَ مِنَ ٱلحياةِ نهاياتٌ كثيرة، فلا يُتركُ

الشرُّ يمضي إلى نهايتِهِ بلْ يُحسَمُ في بَدْئِهِ ويُقتلُ في أولِ أنفاسِه، وكذلك الشأنُ في كلِّ ما لا يَحسنُ أنْ يُبدأ، فإنَّهُ لا يجوزُ أنْ يمتدَّ: كالعداوةِ وٱلبغضاءِ، وٱلبخلِ وٱلأثرة، وٱلكِبرياءِ وٱلغرور، وٱلخِداعِ وٱلكذب؛ وما شابَهَ هذه أو شابَهَهَا، فإنَّها كلَّها ٱنبعاثٌ مِنَ ٱلوجودِ ٱلحيوانيِّ وٱنفجارٌ من طبيعتِه؛ ويجبُ أنْ يكونَ لِكلٍّ منها في ٱلإرادةِ قبرٌ كي تَسْلَمَ لِلنفسِ الطيبةِ إنسانيتُها إلى النهاية.

* * *

يا مَنْ لهم في القبورِ أموات!

إنَّ رؤيةَ القبرِ زيادةٌ في ٱلشعورِ بقيمةِ ٱلحياة، فيجبُ أنْ يكونَ معنى ٱلقبرِ من معاني ٱلسلامِ ٱلعقليِّ في هذه الدنيا.

القبرُ فمٌ يُنادي: أسرعوا أسرعوا، فهي مدةٌ لو صُرِفَتْ كلُّها في ٱلخيرِ ما وَفَتْ بهِ؛ فكيف يضيعُ منها ضيَاعٌ في الشرِّ أوِ ٱلإثم؟ لو وُلِدَ ٱلإنسانُ ومشى وأيفَعَ وشبَّ وٱكْتَهلَ وهَرِمَ في يوم واحد، فما عساهُ كانَ يُضيِّعُ من هذا اليوم الواحد؟ إنَّ أطولَ ٱلأعمارِ لا يراهُ صاحبُهُ في ساعةِ موتِهِ إلَّا أقصرَ من يوم.

يُنادي القبر: أصلِحوا عيوبَكم، وعليكم وقتٌ لِإصلاحِها؛ فإنَّها إنْ جاءَتْ إلى هنا كما هي، بقيَتْ كما هي إلى الأبد، وتركَها ٱلوقتُ وهرب.

هنا قبر، وهناك قبر، وهنالِكَ القبرُ أيضاً؛ فليسَ ينظرُ في هذا عاقلٌ إلَّا كانَ نظرُهُ كأَنَّهُ حكمُ محكمةٍ على هذه الحياةِ كيفَ تنبغي وكيف تكون.

في ٱلقبرِ معنى إلغاءِ الزمان، فمَنْ يفهمُ هذا ٱستطاعَ أنْ ينتصِرَ على أيَّامِه، وأنْ يُسْقِطَ منها أوقاتَ الشرِّ وٱلإثم، وأنْ يُمِيتَ في نفسِهِ خواطرَ ٱلسوء؛ فمِنْ معاني ٱلقبرِ ينشأُ لِلإرادةِ عقلُها ٱلقويُّ ٱلثابت؛ وكلُّ الأيامِ المكروهةِ لا تجِدُ لها مكاناً في زمنِ هذا العقل، كما لا يجدُ الليلُ محلّاً في ساعاتِ ٱلشمس.

ثلاثةُ أرواحٍ لا تَصلُحُ روحُ ٱلإنسانِ في ٱلأرضِ إلَّا بها:

روحُ الطبيعةِ في جمالِها، وروحُ المعبدِ في طهارتِه، وروحُ القبرِ في موعظتِه.

عروسٌ تُزَفُّ إلى قبرِها

١

كانَ عمرُها طاقَةَ أزهارٍ تُسمَّى أيَّاماً.

كانَ عمرُها طاقَةَ أزهارٍ يَنْتَسِقُ فيهِ اليومُ بعدَ اليومِ كما تَنبُتُ ٱلورقةُ الناعمةُ في الزهرةِ إلى ورقةٍ ناعمةٍ مثلِها.

أيامُ الصِّبَا ٱلمَرِحَةُ حتى في أحزانِها وهمومِها؛ إذْ كانَ مجيئُها مِنَ الزمنِ ٱلذي خُصَّ بشبابِ القلْبِ، تبدو ٱلأشياءُ في مَجارِي أحكامِها كالمسحورة؛ فإنْ كانَتْ مُفرِحَةً جاءَتْ حاملةً فرَحَيْن، وإنْ كانَتْ مُحْزِنَةً جاءَتْ بنصفِ ٱلحزن.

تلكَ الأيامُ التي تعملُ فيها ٱلطبيعةُ لِشبابِ الجسمِ بِقُوًى مختلفة: منها ٱلشمسُ وٱلهواءُ وٱلحركة، ومنها ٱلفرَحُ وٱلنسيانُ والأحلام!.

* * *

وشبَّتِ ٱلعذراءُ وأُفرِغَتْ في قالَبِ ٱلأنوثةِ ٱلشمسيِّ ٱلقمري، وٱكتسى وجهُها ديباجةً[1] مِنَ الزَّهَرِ ٱلغَضِّ[2]، وأودعَتْها ٱلطبيعةُ سِرَّها ٱلنسائيَّ ٱلذي يجعلُ ٱلعذراءَ فنَّ جمالٍ لِأنها فنُّ حياة، وجعلَتْها تِمثالاً لِلظَّرف: وما أعجبَ سِحرَ الطبيعةِ عندَ ما تُجَمِّلُ ٱلعذراءَ بظرفٍ كظرفِ ٱلأطفالِ الذينَ ستلِدُهم من بَعد! وأسبغَتْ[3] عليها معانيَ الرقةِ وٱلحَنَانِ وجمالِ ٱلنفس؛ وما أكرمَ يدَ الطبيعةِ عندَ ما تَمْهَرُ ٱلعذراء من هذه ٱلصفاتِ مَهرَها الإنسانيّ!

وخُطِبَت ٱلعذراءُ لِزوجِها، وعُقِدَ لَهُ عليها في اليومِ ٱلثالثِ من شهرِ مارسَ في الساعةِ الخامسةِ بعدَ الظهر.

---

(١) ديباجة: بشرة.

(٢) الغضّ: الطريء.

(٣) أسبغت: أعطت وشملت.

وماتَتْ عذراءَ بعدَ ثلاثِ سنين، وأُنزِلَتْ إلى قبرِها في اليومِ الثالثِ من شهرِ مارسَ في الساعةِ الخامسةِ بعدَ الظهر!

وكانَتِ ٱلسنواتُ الثلاثُ عُمْرَ قلْبٍ يُقطِّعُهُ ٱلمرض، يتنظَّرون بهِ العُرْس، وينتظرُ بنفسِهِ الرَّمْس!

يا عجائبَ القدَر! أذاك لَحنٌ موسيقيٌّ لأنِينٍ ٱستمرَّ ثلاثَ سنوات، فجاءَ آخرُه موزوناً بأوَّلِه في ضبطٍ ودقَّة؟

أكانَتْ تلك العذراءُ تحملُ سرًّا عظيماً سيُغيِّرُ ٱلدنيا، فردَّتِ ٱلدنيا عليها يومَ ٱلتهنئةِ وٱلابتسامِ وٱلزينة، فإذا هو يومُ الوَلْوَلَةِ[1] وٱلدموعِ وٱلكفن؟

٢

واهاً لكَ أيُّها الزمن! مَنِ ٱلذي يفهمُك وأنت مُدّةُ أقدار؟

واليومُ الواحدُ على الدنيا هو أيامٌ مختلفةٌ بعددِ أهلِ الدنيا جميعاً، وبهذا يعودُ لِكُلِّ مخلوقٍ سِرُّ يومِه، كما أنَّ لِكلِّ مخلوقٍ سرَّ روحِه، وليسَ إليهِ لا هذا ولا هذا.

وفي اليوم الزمنيِّ الواحدِ أربُعمائةِ مليونِ يوم إنسانيٍّ على ٱلأرض! ومع ذلك يُحصيهِ عقلُ الإنسانِ أربعاً وعشرينَ ساعة؛ يا لَلغباوة. . . !

وكلُّ إنسانٍ لا يتعلَّقُ مِنَ ٱلحياةِ إلَّا بالشعاعِ ٱلذي يُضيءُ ٱلمكانَ ٱلمظلمَ في قلبِه، والشمسُ بِمَا طَلَعَتْ عليهِ لا تستطيعُ أنْ تُنيرَ ٱلقلبَ الذي لا يُضيئُهُ إلَّا وجهُ محبوب.

وفي الحياةِ أشياءُ مكذوبةٌ تُكَبِّرُ ٱلدنيا وتُصغِّرُ النفس، وفي ٱلحياةِ أشياءُ حقيقيَّةٌ تَعْظمُ بالنفسِ وتَصغُرُ بالدنيا؛ وذَهَبُ ٱلأرضِ كلّهُ فقرٌ مُدْقِعٌ حينَ تكونُ ٱلمعاملةُ مَعَ ٱلقلب.

أيَّتُها الدنيا؛ هذا تحقيرُك ٱلإلهيُّ إذا أكبرَكِ الإنسان!

* * *

(١) الولولة: العويل والبكاء.

ويا عَجباً لأهلِ ٱلسوءِ ٱلمغتَرّينَ بحياةٍ لا بدَّ أنْ تنتهيَ! فماذا يرتقِبونَ إلّا أنْ تنتهيَ؟ حياةٌ عجيبةٌ غامضة؛ وهل أعجَبُ وأغمضُ من أنْ يكونَ ٱنتهاءُ الإنسانِ إلى آخرِها هو أوّلَ فكرِهِ في حقيقتِها؟

فعِندَما تحينُ ٱلدقائقُ ٱلمعدودةُ التي لا تَرقُمُها ٱلساعةُ ولكنْ يرقُمها صدرُ ٱلمُحْتَضَر[1]... عندَ ما يكونُ مُلْكُ ٱلملوكِ جميعاً كالترابِ لا يَشتري شيئاً ألبَتَّة...

.... ماذا يكونُ أيُّها ٱلمجرمُ بعدَها تَقْتَرِفُ ٱلجِناية، ويقومُ عليكَ الدليل، وترى حَولَك ٱلجُنْدَ وٱلقُضاة، وتقِفُ أمامَك ٱلشريعةُ وٱلعدل؟

* * *

أعمالُنا في ٱلحياةِ هي وحدَها ٱلحياة، لا أعمارُنا، ولا حُظُوظُنا. ولا قيمةَ لِلمال، أوِ ٱلجاه، أوِ ٱلعافية، أو هي معاً ـ إذا سُلِبَ صاحبُها ٱلأمنَ وٱلقرار! والآمِنُ في الدنيا مَنْ لم تكنْ وراءَهُ جريمةٌ لا تزالُ تجري وراءَه. وٱلسعيدُ في ٱلآخرةِ مَنْ لم تكنْ لَهُ جريمةٌ تُطارِدُهُ وهو في ٱلسماوات.

كيف يُمكنُ أنْ تخدعَ ٱلآلةُ صاحبَها وفيها (العدّاد): ما تتحرَّكُ من حركةٍ إلّا أشعَرَتْه فعَدَّها؟ وكيف يُمكنُ أنْ يكْذِبَ ٱلإنسانُ ربَّهُ وفيهِ ٱلقلبُ: ما يعملُ من عملٍ إلّا أشعرَهُ فعدَّه؟

٣

ورأيْتُ ٱلعروسَ قبلَ موتِها بأيّام.

أفرأيْتَ أنتَ الغِنَى عندَ ما يُدْبِرُ عن إنسانٍ لِيترِكَ لَهُ ٱلحسرةَ والذكرى الأليمة؟ أرأيْتَ ٱلحقائقَ ٱلجميلةَ تذهبُ عن أهلِها فلا تتركُ لهم إلّا الأحلامَ بها؟ ما أتعبَ الإنسانَ حينَ تتحوّلُ ٱلحياةُ عن جسمِه إلى الإقامةِ في فكرِه!

وما هِيَ ٱلهمومُ وٱلأمراض؟ هي ٱلقبرُ يستبطىءُ صاحبَهُ أحياناً فيَنفضُ في بعض أيّامِهِ شيئاً من ترابِه....!

رأيتُ العَروسَ قبلَ موتِها بأيّام، فيالِلّهِ من أسرارِ ٱلموتِ ورهبتِها! فَرَغَ

---

(١) المحتضر: المنازع سكرات الموت.

جسمُها كما فرَغتْ عندَها الأشياءُ من معانيها! وتخلّى هذا الجسمُ عن مكانِهِ لِلرُّوحِ تَظهرُ لأهلِها وتقفُ بينَهم وِقْفةَ ٱلوَدَاع!

وتحوّلَ ٱلزمنُ إلى فكرِ ٱلمريضة؛ فلم تَعُدْ تعيشُ في نهارٍ وليل، بلْ في فكرٍ مُضيءٍ أو فكرٍ مظلم!

يا إلهي! ما هذا ٱلجِسْمُ ٱلمتهدِّمُ ٱلمقْبِلُ على ٱلآخرة؛ أهو تمثالٌ بَطَلَ تعبيرُهُ، أم تمثالٌ بدأ تعبيرُه؟

لقد وثِقَتْ أنَّهُ ٱلموت، فكانَ فكرُها ٱلإلهيُّ هو ٱلذي يتكلَّم؛ وكانَ وجهُها كوجْهِ ٱلعابد: عليهِ طيَفُ الصلاةِ ونورُها. والروحُ الإنسانيةُ متى عبَّرتْ لا تُعبِّرُ إلَّا بالوجه.

ولها ٱبتسامةٌ غريبةُ ٱلجمال؛ إذْ هي ٱبتسامةُ آلام أيقنَتْ أنَّها مُوشِكةٌ أنْ تنتهي! ٱبتسامةُ روح لها مثلُ فَرحِ ٱلسجينِ قد رأى سجَّانَهُ واقفاً في يدِهِ الساعةُ يرقُبُ ٱلدقيقةَ والثانيَةَ لِيقولَ له: انطلِقْ!

* * *

ودخلْتُ أعودُها فرأَتْ كأنَّني آتٍ مِنَ ٱلدنيا. . . ! وتَنسَّمَتْ منِّي هواءَ ٱلحياة، كأنَّني حديقةٌ لا شخص!

ومَنْ غيرُ ٱلمريضِ ٱلمُدْنَف(١)، يعرفُ أنَّ ٱلدنيا كلمةٌ ليسَ لها معنًى أبداً إلَّا العافية: مَن غيرُ ٱلمريضِ ٱلمُشْفي على الموت، يعيشُ بقلوبِ ٱلناسِ الذينَ حولَهُ لا بقلبِهِ؟

تلك حالةٌ لا تنفعُ فيها ٱلشمسُ ولا ٱلهواءُ ولا ٱلطبيعةُ ٱلجميلة، ويقومُ مقامَ جميعِها لِلمريضِ أهلُهُ وأحبَّاؤه!

وكانَ ذَوُوها من رهبةِ ٱلقدرِ ٱلداني كأنَّهم أسرى حربٍ أُجلسوا تحتَ جدارٍ يُريدُ أنَّ ينقضّ! وكانَتْ قلوبهُم من فزعِها تَنبِضُ نبضاً مثلَ ضَرَباتِ ٱلمَعاول.

وبٱقترابِ ٱلحبيبِ ٱلمحتَضَرِ مِنَ ٱلمجهولِ، يُصبحُ مَنْ يحبُّهُ في مجهولٍ آخر، فتختلطُ عليهِ ٱلحياةُ بالموت، ويعودُ في مثلِ حَيرةِ ٱلمجنونِ حينَ يُمسكُ بيدِهِ ٱلظلَّ المتحرّكَ لِيمنعَه أنْ يذهبَ وتَعْروه في ساعةٍ واحدةٍ كآبةُ عمرٍ كامل، تُهيِّىءُ لَهُ جلالَ ٱلحِسِّ ٱلذي يشهدُ بهِ جلالَ الموت!

* * *

(١) المدنف: الشديد المرض.

وحانَتْ ساعةُ ما لا يُفْهم، ساعةُ كلِّ شيءٍ، وهي ساعةُ ٱللاشيءِ في ٱلعقلِ الإنسانيّ! فالتفَتَتِ ٱلعروسُ لأبيها تقول: «لا تحزَنْ يا أبي. . .» ولأمِّها تقول: «لا تحزني يا أمِّي. . . . !».

وتبسمَتْ لِلدموعِ كأنَّما تُحاولُ أنْ تُكلِّمَها هي أيضاً؛ تقولُ لها: «لا تبكي. . . !» وأشفقَتْ على أحيائِها وهي تموت، فٱستجمعَتْ روحَها لِيبقَى وجهُها حيًّا من أجْلِهم بضعَ دقائق! وقالَتْ: «سأغادرُكم مبتسمةً فيعيشوا مبتسمين، سأتركُ تذكاري بينَكم تذكارَ عروس! . . .».

ثُمَّ ذكَرتِ اللّهَ وذكَّرتْهُم بِه، وقالَت: «أشهدُ أنْ لا إلهَ إلّا الله». وكررتْها عشراً! وتملأتْ روحُها بالكلمةِ التي فيها نورُ السماواتِ والأرض، ونطقَتْ من حقيقةِ قلبِها بالاسمِ الأعظمِ الذي يجعلُ النفسَ منيرةً تتلألأُ حتى وهيَ في أحزانها.

ثُمَّ ٱستقبلَتْ خالقَ ٱلرحمةِ في الآباء والأمهاتِ وفي مثل إشارةِ وداعٍ من مسافرٍ ٱنبعَثَ بِهِ ٱلقِطار، ألقَتْ إليهم تحيَةً مِنِ ٱبتسامتِها وأسلمَتِ ٱلروح!

٤

يا لَعَجائبِ ٱلقدر! مشيْنَا في جنازةِ ٱلعروسِ التي تُزفُّ إلى قبرِها طاهرةً كالطفلةِ ولم يُبارِكْ لها أحد! فما جاوزْنا ٱلدارَ إلّا قليلاً حتى أبصرْتُ على حائطٍ في الطريقِ إعلاناً قديماً بالخطِّ الكبيرِ الذي يصيح لِلأعين؛ إعلاناً قديماً عن (رواية) هذا هو اسمُها: «مبروك. . . !».

وٱخترقْنا ٱلمدينةَ وأنا أنظرُ وأتقصَّى[1]، فلم أرَ هذا الإعلانَ مرةً أخرى! وٱخترقْنا ٱلمدينةَ كلَّها، فلمَّا ٱنقطعَ ٱلعُمرانُ وأشرفْنا على ٱلمقبرة، إذا آخرُ حائطٍ عليه الإعلان: «مبروك. . . !»

---

(١) أتقصّى: أبحث.

موتُ أمّ

رجعتُ مِنَ ٱلجنَازةِ بعدَ أنْ غبَّرْتُ قدميَّ ساعةً في ٱلطريقِ ٱلتي ترابُها ترابٌ وأشعة، وكانَتْ في ٱلنعشِ لؤلؤةٌ آدميةٌ محطَّمةٌ، هي زوجةُ صديقٍ طَحْطَحَتْها[1] الأمراضُ ففرّقتْها بينَ عِلَلِ ٱلموتِ، وكانَ قلبُها يُحيِيها فأخذَ يُهلكُها، حتى إذا دنا أنْ يَقْضِيَ عليها رحمَها ٱللَّهُ فقضَى فيها قضاءَه. ومَنْ ذا ٱلذي ماتَ لَهُ مريضٌ بالقلبِ ولم يَرَهُ من قلبِهِ في عِلَّتِهِ كالعصفورةِ ٱلتي تَهْتَلِكُ تحتَ عيني ثعبانٍ سلَّطَ عليها سمومَ عينيه!

كانَتِ ٱلمسكينةُ في ٱلخامسةِ وٱلعشرينَ من سِنِّها، أمَّا قلبُها ففي الثمانينَ أو فوقَ ذلك؛ هي في سنِّ ٱلشبابِ وهو متهدِّمٌ في سنِّ ٱلموت.

وكانَتْ فاضلةً تقيةً صالحةً، لم تتعلَّمْ ولكنَّ علَّمَها ٱلتقوى والفضيلة. وأكملُ ٱلنساءِ عندي ليسَتْ هي ٱلتي ملأَتْ عينيها مِنَ ٱلكتبِ فهي تنظرُ إلى الحياةِ نظراتٍ تَحِلُّ مشاكلَ وتخلقُ مشاكلَ ولكنَّها تلك ٱلتي تنظرُ إلى الدنيا بعينٍ متلألئةٍ بنورِ ٱلإيمانِ تُقِرُّ في كلِّ شيءٍ معناهُ ٱلسماويّ، فتؤْمِنُ بأحزانِها وأفراحِها معاً، وتأخذُ ما تُعطَى من يدِ خالقِها رحمةً معروفةً أو رحمةً مجهولة. هذه عندي تُسمَّى ٱمرأة، ومعناها ٱلمعبدُ ٱلقُدسي؛ وتكونُ ٱلزوجةَ، ومعناها ٱلقوةُ ٱلمُسْعِدة؛ وتَصيرُ ٱلأمَّ، ومعناها التكمِلةُ الإلهيَّةُ لِصغارِها وزوجِها ونفسِها.

ومهما تبلغِ ٱلمرأةُ مِنَ العِلْم فٱلرجلُ أعظمُ منها بأنَّهُ رجل، ولكنَّ ٱلمرأةَ حقَ ٱلمرأةِ هي تلك ٱلتي خُلِقَتْ لِتكونَ لِلرجلِ مادةَ ٱلفضيلةِ والصبرِ والإيمان، فتكونُ له وحياً وإلهاماً وعزاءً وقوَّة، أي زيادةً في سرورِهِ ونقصاً من آلامِه.

ولنْ تكونَ ٱلمرأةُ في الحياةِ أعظمَ مِنَ الرجلِ إلَّا بشيءٍ واحد، هو صفاتُها التي تجعل رجُلَها أعظمَ منها.

* * *

---

(١) طحطحتها: أنهكتها.

ومشيْتُ مِنَ ٱلبيتِ ٱلذي ألبستْهُ ٱلميتةُ معنى ٱلقبر، إلى القبرِ الذي ألبسَ ٱلميتةَ معنى ٱلبيت وأنا منذُ مشيْتُ في جنازةِ أمِّي (رحمَها ٱللهُ) لا أسيرُ في هذه الطريقِ معَ ٱلأحياء، ولكنْ مَعَ ٱلموتى، فأتبعُ مِنَ الميتِ صديقاً ليسَ رجلاً ولا ٱمرأة، لأنَّهُ من غيرِ هذه الدنيا؛ وأمشي في ساعةٍ ليسَتْ ستينَ دقيقةً، لِأنَّها خرجَتْ مِنَ ٱلزمنِ؛ ولا أرى الطريقَ من طرقِ ٱلحياة، لِأنَّني في صُحبةِ ميت؛ وتُصبحُ لِلأرضِ في رأيي جغرافيَّةٌ أخرى عَمِيَ الناسُ عنها لِشدَّةِ وضوحِها، كالألوهيَّةِ خفيَتْ من شدَّةِ ما ظهرَتْ.

يقولون: إنَّ ثلاثةَ أرباعِ ٱلأرضِ يَغمُرها ٱلبحر. أمَّا أنا فأرى في تلك ٱلساعةِ أنَّ ثلاثة أرباعِ ٱلأرضِ لا يغمرُها البحرُ ٱلذي وصفوا، ولكنْ خِضَمٌّ آخرُ زخَّارٌ[1] مُتَضرِّب، هو ذلك البحرُ الترابيُّ ٱلعظيمُ ٱلمسمى «المقبرة».

يقولون: إنَّ الحياةَ هي... هي ماذا - ويْحَكُم - أيُّها المغرورون؛ أفلا تَرَون هذه الصِّلَةَ الدائمةَ بين بطنِ ٱلأمِّ وبطنِ ٱلأرض؟

* * *

لَعَمْري كيف تجعلُ هذه الحياةُ لِلناس قلوباً معَ قلوبِهم، فيُحِسُّ ٱلمرءُ بِقلْب، ويعملُ بقلبٍ آخر: يعتقدُ ضررَ ٱلكذبِ ويكذب، ويعرفُ مَعَرَّةَ ٱلإثم ويأثم، ويُوقِنُ بعاقبةِ ٱلخيانةِ ثُمَّ يخون؛ ويمضي في ٱلعمرِ منتهياً إلى ربِّه، ما في ذلك شكٌّ، ولكنَّهُ في ٱلطريقِ لا يعملُ إلَّا عملَ من قد فَرَّ من ربِّه...؟

هبَّتِ ٱلريحُ في ٱلسَّحَرِ على روضةٍ غَنَّاءَ فطابَتْ لها، فعقدَتْ عُقدتَها أنْ تتخِذَ لها بيتاً في ذلك ٱلمكانِ ٱلطيِّبِ لِتُقيمَ فيه... يا لها حكمةً مِنَ التدبير! تزعمُ ٱلريحُ الإقامةَ على حينِ كلُّ وجودِها هو لحظةُ مرورِها، وتحلُمُ بالقَرارِ في ٱلبيتِ وهي لا تملِكُ بطبيعتِها أنْ تقف.

يا لها حكمةً سامية، لا يسكنُها مِنَ ٱلمعنى إلَّا أسخفُ ما في ٱلحُمق!

* * *

هَمَدَ الحيُّ وٱنطفأَتْ عيناه، ولكنَّه تحرَّكَ في تاريخِهِ مِمَّا ضيَّقَ على نفسِهِ أو وَسَّع، وأصبَحَ ينظرُ بعينٍ من عملِهِ إمَّا مُبْصِرةٍ أو كالعمياء؛ فلو تكلَّمَ يَصِفُ ٱلحياةَ ٱلدنيا لقال: إنَّ هذه النجومَ على الأرضِ مصابيحُ مأتمٍ أُقيمَ بليل. وما أعجبَ أنْ يجلسَ أهلُ ٱلمأتمِ في ٱلمأتمِ ليضحَكوا ويلعبوا!

---

(١) زخّار: مليء بالحركة والضجة.

ولو نطقَ ٱلموتى لَقالوا: أيُّها الأحياء، إنَّ هذا الحاضرَ ٱلذي يمرُّ فيكونُ ماضيَكم في ٱلدنيا، هو بعينهِ ٱلذي يكونُ مستقبلَكُم في ٱلآخرة، لا تزيدون فيهِ ولا تُنقِصون. وإنَّ الدنيا تبدأُ عندَكم منَ الأعلى إلى الأدنى: منَ ٱلعظماءِ إلى الفقراء؛ ولكنَّها تنقلبُ في ٱلآخرةِ فتبدأُ مِنَ الفقراءِ إلى العظماء؛ وأنتم ترسمونها بخطوطِ ٱلمطامعِ وٱلحظوظ، ويرسمُها ٱللّهُ بخطوطِ ٱلحِرْمانِ وٱلمُجاهدة؛ إنَّ التامَّ على الأرضِ مَن تمَّ بمتاعِها ولذَّاتِها، ولكنَّ ٱلتامَّ في السماءِ مَنْ تمَّ بنفسِهِ وحدَها.

* * *

يا أسفاً! لنْ يقولَ ٱلميتُ لِلْحيِّ شيئاً، ومَنْ يدري؟ لعلَّنا ونحن نُلْحِدُ لِلموتى ونُنزِلُهُم في قبورِهم، يَرونَ بأرواحِهِمُ ٱلخالدةِ أنَّنا نحن موتاهُمُ ٱلمساكين، وأنَّنا مدفونون في ٱلقبر الذي يسمونَهُ «الكرة الأرضية»! وهلِ ٱلكرةُ الأرضيةُ مِنَ اللانهايةِ إلَّا حفرةٌ برجْلِ نملةٍ لِتُدْفَنَ فيها نملة. . .

الحياة. . أتُريدُ أنْ تعرفَها على حقيقتِها؟ هيَ ٱلمُبْهَماتُ ٱلكثيرةُ ٱلتي ليسَ لها في الآخِرِ إلَّا تفسيرٌ واحد: حلالٌ أو حرام.

* * *

ورجعْنا معَ ٱلصديقِ إلى بيتِه، ولَهُ خمسةُ أطفالٍ صِغارٍ لو أنَّهم همُ ٱلذينَ ٱنتُزِعوا من أمِّهِم لَتَركَ كلُّ واحدٍ على قلبِها مثلَ المِكْواةِ المحمّى عليها في النارِ إلى أنْ تحمَرَّ؛ ولكنَّ أمَّهم هي ٱلتي نُزِعَتْ منهم، فكانَ بقاؤهُم في ٱلحياةِ تخفيفاً لِسَكْرةِ ٱلموتِ عليها. وغَشِيتْها ٱلغَشيةُ فماتَتْ وهي تضحك، إذْ تراهم نائمينَ تحتَ جَناحِ ٱلرحمةِ ٱلإلهيَّةِ ٱلمَمْدود، وقالَت: إنَّها تسمعُ أحلامَهم. وكانوا همْ عقلَها في ساعةِ ٱلموت!

تباركَ ٱلذي جعلَ في قلبِ ٱلأمِّ دنيا من خَلْقِهِ هو، ودنيا من خَلْقِ أولادها!

تباركَ الذي أثابَ ٱلأمَّ ثوابَ ما تُعاني، فجعلَ فرحَها صورةً كبيرةً من فرحِ صغارِها!

* * *

وجاءَ أكبرُ الأطفالِ ٱلخمسة، وكأنَّهُ ثمانيةُ أرطالٍ مِنَ ٱلحياةِ لا ثمانيةُ أعوامٍ مِنَ ٱلعمر؛ جاءَ إلينا كما يجيءُ الفزَعُ لِقلوبٍ مطمئنَّة، إذْ كانَ في عينيهِ الباكيتينِ معنى فقدِ الأمِّ!

وطغَتْ عليهِ ٱلدموعُ فتناولَ منديلَهُ ومسحَها بيدِهِ ٱلصغيرة، ولكنَّ روحَهُ

اليتيمةَ تأبى إلّا أنْ ترسمَ بهذه الدموعِ على وجهِهِ معانيَ يُتْمِها!

وظهرَ ٱلانكسارُ في وجهِهِ يعبِّرُ بِبَلاغةٍ أنَّهُ قد أحسَّ حقيقةَ ضعفِهِ وطفولتِهِ بإزاءِ ٱلمصيبةِ ٱلتي نزلَتْ بهِ، وجلسَ مستسلِماً تُتَرْجِمُ هيئتُهُ معانيَ هذه الكلمة: «رِفْقاً بي!».

ثُمَّ تطيرُ من عينيهِ نظراتٌ في ٱلهواءِ، كأنَّما يُحسُّ أنَّ أمَّهُ حولَهُ في ٱلجوِّ ولكنَّه لا يراها!

ثُمَّ يُرخِي عينيهِ في إغماضةٍ خفيفةٍ، كأنَّما يرجو أنْ يرى أمَّهُ في طَوِيَّتِهِ![1]

ولا يُصَدِّقُ أنَّها ماتت، فإنَّ صوتَها حيٌّ في أذنيهِ لا يزالُ يسمعُهُ من أمسِ!

ثُمَّ يعودُ إلى وجهِهِ ٱلانكسارُ وٱلاستسلام، ويتململُ في مجلسِه، فينطِقُ جسمُهُ كلُّهُ بهذه الكلمة: «يا أمِّي!».

* * *

أحسَّ ـ ولا ريبَ ـ أنَّهُ قد ضاعَ في ٱلوجود، لأنَّ الوجودَ كانَ أمَّه.

ولمسَ خشونةَ الدنيا منذُ ٱلساعة، بعدَ أنْ فقدَ ٱلصدرَ الذي فيهِ وحَدهُ لِينُ ٱلحياةِ لأنَّ فيهِ قلبَ أمِّهِ وروحَها.

وشعرَ بالذلِّ ينسابُ إلى قلبِهِ ٱلصغير، لأنَّ تلك التي كانَ يملكُ فيها حقَّ الرحمةِ قد أُخِذَتْ منهُ وتركتْهُ بِلا حقٍّ في أحد؛ وليسَ لأحدٍ أمَّان!

ولبِسَتْهُ ٱلمسكنَةُ، لأنَّ لَهُ شيئاً عزيزاً أصبحَ وراءَ الزمانِ فلَنْ يَصِلَ إليه!

ولبستْهُ ٱلمسكنَةُ، لأنَّه صارَ وحدَهُ في ٱلمكانِ كما هو وحدَهُ في الزمان!

وٱرتسمَ على وجهِهِ ٱلتعجُّب، كأنَّهُ يسألُ نفسَه: «إذا لم تكنْ أُمِّي هنا، فلماذا أنا هنا؟!».

ثُمَّ تَغرْغَرَتْ[2] عيناهُ فيُخرِجُ منديلَهُ ويمسحُ دمعَهُ بيدِهِ ٱلصغيرة، ولكنّ روحَهُ اليتيمةَ تأبى إلَّا أنْ ترسمَ بهذه الدموعِ على وجهِهِ معانيَ يُتْمِها!

* * *

ونهضَ ٱلصغيرُ ولم ينطقْ بذاتِ شَفَة؛ نهضَ يحملُ رجولَتَهُ التي بدأَتْ منذُ الساعة!

---

(١) طويته: سريرته داخله.　　(٢) تغرغرت: دمعت.

انتهَتْ ـ أيُّها الطفلُ المسكينُ ـ أيامُك مِنَ الأمّ؛ هذه الأيامُ ٱلسعيدةُ ٱلتي كنْتَ تعرفُ الغَدَ فيها قبلَ أنْ يأتِيَ معرفتَك أمسِ الذي مضى؛ إذْ يأتي الغدُ ومَعكَ أمُّك!

وبدأتْ ـ أيُّها ٱلطفلُ ٱلمسكين ـ أيامُك مِنَ ٱلزمن، وسيأتي كلُّ غدٍ محجَّباً مرهوباً؛ إذْ يأتي لك وحدَك، ويأتي وأنت وحدَك!

الأمّ. . .؟ يا إلهي، أيُّ صغيرٍ على الأرضِ يجِدُ كِفايتَهُ مِنَ ٱلروحِ إلَّا في ٱلأمّ؟

قصةُ أب

حدَّثَني ٱلمسكينُ فيما حدَّثَ وهو يصفُ ما نزلَ بهِ قال:

رأيْتُ ٱلناسَ قد أنعمَ ٱللَّهُ عليهم أنْ يكونوا آباءَ فَنَسَأَ[1] بالولَدِ في آثارِهم، ومدَّ بالنسلِ في وجودِهم، وزادَ منه في أرواحِهم أرواحاً، وضمَّ بهِ إلى قلوبِهم قلوباً، وملأَ أعينَهم من ذلك بما تَقَرُّ بهِ قُرَّةَ عينٍ كانَتْ لم تَجِدْ ثُمَّ وجَدَت؛ فهم بهؤلاءِ ٱلأطفالِ يملكونَ ٱلقوّةَ التي تُرجِعُهُمْ أطفالاً مثلَهُمْ في كلِّ ما يسرُّهم، فيكبَرُ الفرَحُ في أنفسِهم وإنْ كانَ في ذاتِ نفسِهِ ضئيلاً صغيراً، ما يسرُّهم، فيكبَرُ الفرَحُ في أنفسِهم وإنْ كانَ في ذاتِ نفسِه ضئيلاً صغيراً، ويعظُمُ ٱلأملُ في أشيائِهم وإنْ كانَ هو عن شيءٍ حقيرٍ لا يُؤْبَهُ[2] له.

وتلك حقيقةٌ من حقائقِ ٱلسعادةِ لا أسْمَى ولا أعظمَ منها إلّا الحقيقةُ ٱلأخرى: وهيَ ٱلقوةُ ٱلتي يتحوّلُ بها ٱلكونُ في قلبِ ٱلوالدينِ إلى كنزٍ مِنَ ٱلحبِّ والرحمةِ وجمالِ ٱلعاطفةِ، بسحْرٍ مِن ٱبتسامةِ طفلٍ أو طِفْلَة، أو بكلمةٍ منهما أو حركة، على حينٍ لا يتحوّلُ مثلَ ذلك ولا قريباً منه بمالِ ٱلدنيا، ولا بِمُلكِ ٱلدنيا.

رأيْتُ ٱلناسَ قد أنعمَ ٱللَّهُ عليهم أنْ يكونوا آباءَ، ولكنَّهُ ٱبتلاني بأنْ أكونَ أباً، وأخرجَ لي من أفراحِ قلبي أحزانَ قلبي! ولقد كنْتُ كرجلٍ ملكَ داراً يستمتِعُ بها، فتمنّى أنْ يُشْرِعَ[3] في جانِبٍ منها غرفةً يزَخرِفُها، فلمَّا تمَّ لَهُ ذلك وبلغَ ٱلمقْتَرَحَ، ٱنهدمَتِ ٱلدارُ وبقيَتِ ٱلغرفةُ قائمة!

عَمْرَكَ اللَّهُ، أيشعرُ هذا الرجلُ في نكبتِهِ بالغرفةِ أم بالدار؟ وهل تراهُ زادَ أو نَقص؟ ويا ليتَهما بيتٌ وغرفةٌ من بيت؛ فإنَّ الحِجارةَ تحيا بالبناءِ إذا ماتَتْ بالهدم، ولكنْ مَنْ ذا يُحيي ٱلزوجةَ ماتَتْ بعدَ أنْ وضعَتْ بِكرَها الأولَ والآخِر!

إنَّها طفلةٌ وُلِدَتْ وكأنَّما أُخرِجتْ من تحتِ ٱلرَّدمِ، إذْ وُلِدَتْ تحتَ ماضٍ من

---

(١) نسأ: زاد.

(٢) يؤبه: يهتمّ، يلتفت إليه.

(٣) أي أن يفتتح غرفة تؤدّي إلى الشارع.

ٱلحياةِ منهدِم، وهل فرقٌ بينَ هذا وبينَ أنْ تكونَ أمُّها قد ولدَتْها في ٱلصحراءِ ثُمَّ أُكرِهَتْ أنْ تدعَها وحدَها في ذلك القَفْرِ تصرخُ وتبكي! فالمسكينةُ على الحالينِ منقطعةٌ أولَ ما ٱنقطعَتْ من حنانِ ٱلأمِّ ورحمتِها.

طفلةٌ وُلدَتْ صارخةً، لا صرخةَ ٱلحياة، ولكنْ صرخةَ النوْحِ والندْبِ على أمِّها.

صرخةٌ حزينةٌ معناها: ضعوني معَ أمِّي ولو في ٱلقبر!

صرخةٌ ترتعِدُ، كأنَّ المسكينةَ شعرَتْ أنَّ الدنيا خاليةٌ مِنَ ٱلصدرِ ٱلذي يُدفئُها!

صرخةٌ تترددُ في ضَرَاعة[1]، كأنَّها جملةٌ مركَّبةٌ من هذه الكلمات: «يا ربِّ ٱرحمني من حياةٍ بلا أمّ!».

* * *

قالَ ٱلمسكينُ وهو يبكي ٱمرأتَه:

ولمَّا ضَرَبها ٱلمخاضُ، ضاعفَتْ قوَّتَها من شعورِها أنَّها ستكونُ بعدَ قليلٍ مضاعَفَةً بمولودِها، وستكونُ روحينِ لا روحاً واحدة، وتَلِدُ ليَ ٱلحياةَ والحُبَّ الإلهيَّ معاً، وتأتي لِقلبي بمثلِ طفولتِهِ ٱلأولى ٱلتي يستحيلُ أنْ تأتيَ الرجلَ إلَّا من زوجِه. كلُّ ذلك ضاعفَ قواها ساعةً وشدَّ منها؛ ولكنْ ما أسرعَ ما تبيَّنَتْ أنَّهُ الموتُ، إذْ عُضِّلَتْ وعَسُرَ خروجُ مولودِها.

وجاءَها ٱلجراحِيُّ بمبْضعِه، وكأنَّها رأتْهُ ذابحاً لا طبيباً، فجعلَتْ تعبِّرُ بعينيها، إذْ لم تملكْ في آلامِها القاتلةِ غيرَ لغةِ هاتينِ ٱلعينين.

كانَتْ بنظرةٍ تبكِي عَلَيّ وعلى بؤسي، وبأخرى تبكي على بؤسِ مولودِها وشقائِه؛ وبنظرةٍ تُودِّعُني، وبأخرى تدعو ٱللَّهَ لي جزاءَ ما أحسنْتُ إليها؛ وبنظرةٍ تتوجعُ لِنفسِها، وبأخرى تتألمُ من أنَّها تراني أكادُ أُجَنّ.

نظرات نظرات...

يا إلهي! لقد خُيِّلَ إليّ أنَّ ملَكَ ٱلموتِ واقفٌ بينَ عشرينَ مرآةً تُحيطُ بهِ، فأنا أراهُ مَوْتاً متعدِّداً لا موتاً واحداً، وكلُّ نظرةٍ من عينيْ زوجتي إليّ كانَتْ منها هي نظرةً، وكانَتْ عندي أنا مرآةَ ٱلروحِ لِلروح.

---

(١) ضراعة: توسّل.

ولكنَّها لم تنسَ أنَّها تموتُ لِوَضعِ مولودِها، وأنَّ هذه الآلامَ الدمويَّةَ الذابحةَ هي ٱلوسيلةُ لأنْ تتركَ لي بقيَّةً حيَّةً منها؛ فيا لَلرحمةِ والحنانِ والحُبِّ! لقدِ ٱبتسمَتْ لي وهي تموت؛ وهي تَلِد؛ وهي تُذبَح!

* * *

ليسَتْ رحمةُ ٱلمرأةِ ٱلمحبَّةِ خيالاً إلَّا إذا كانَتْ حرارةُ ٱلشمسِ التي تُحيي ٱلدنيا خيالاً أيضاً؛ إنَّ هذا القلبَ النِّسويَّ ٱلمستقرَّ فوقَ أحشاءِ تحملُ الجنينَ صابرةً راضيةً فرِحةً بآلامِها، وتغذوهُ وتُقاسِمُهُ حياةَ نفسِها ـ هذا القلبُ يحملُ الحُبَّ أيضاً صابراً راضياً فرِحاً بآلامِه، ويغذوهُ ويُقاسمُهُ حياةَ نفسِه.

ولِلرحمةِ الإلهيَّة أدلةٌ كثيرةٌ تدلُّ الإنسانَ عليها دلالاتٍ مختلفة؛ فالشمسُ تدلُّ عليها بالضوءِ ٱلذي تَطْعَمُهُ ٱلحياة، والهواءُ يدلُّ عليها بالضوءِ ٱلذي تتنفَّسُهُ الحياة، والماءُ يدلُّ عليها بالضوءِ ٱلذي تَشربُهُ الحياة، وهكذا إلى أنْ يأتيَ في الآخرِ قلْبُ المرأةِ فيدلُّ على رحمةِ اللّهِ بِالحبِّ الذي تقومُ بِهِ ٱلحياة.

اِبتسامةُ الحُبِّ غالبَتْ زفراتِ ٱلموتِ ٱلتي تَعْتَلِجُ من تحتِها حتى غلبتْها، وأعادَتِ ٱلحياةَ لحظةً إلى وجهِ زوجتي لِأراها آخرَ ما أراها في صورةِ المُحبَّةِ لي، فكانَ كلُّ جمالِ نفسِها منتشراً على ذلك الوجه، وظهرَتْ فيهِ روحُها وعواطِفُها تودِّعُني وداعاً حزيناً متبسماً يتكلَّم؛ يتكلمُ بعجزِهِ عنِ ٱلكلام.

اِبتسامةٌ لا ريبَ أنَّ فيها أشياءَ ليسَتْ من جمالِ هذه الدنيا ولا من حقائِقها؛ فكأنَّما ٱلتمعَتْ بأشعةٍ مِنَ الخُلْدِ تَرِفُّ رفيفَها على وجهِ ٱلحبيبِ لِيُظهِرَ ساعةَ الموتِ أنَّ حبَّهُ أقوى مِنَ ٱلموت.

* * *

قالَ المِسكين: ونَثَر ٱلطبيبُ ذا بطْنَها فكانَتْ طِفلة، وما كانَتْ زوجتي تقترحُ أنْ يكونَ الجنينُ غيرَها، بل كانَتْ مستيقنةً أنَّها تضعُها أنثى، وصنَعتْ لها ثيابَها، ووشَّتْها بزينةِ ٱلأنوثة، وعرضَتْ أسماءَ البناتِ فٱختارَتِ ٱسمَها أيضاً، وكنْتُ أكرهُ ذلك منها وأريدُ ولداً لا بِنتاً، فكانَتْ تُغايظُني بعملِها وإصرارِها غيظَ دُعابةٍ لا غيظَ جَفَاء.

ومَضَتْ لا تذكرُ إلَّا بنتَها مدةَ الحَمْل، ولا تتكلمُ إلَّا عن بنتِها، وقد كنْتُ أعجبُ لذلك؛ فلمَّا قضى ٱللّهُ فيها قضاءَه، علمْتُ أنَّ ذلك أمرٌ من أمرِ ٱلروح، فكانَ ٱلإلهامُ فيها أنَّها على بابِ قبرِها، وأنَّها لن ترى طِفلتَها، ولن تعيشَ لها،

فعاشَتْ أيامَ الحَمْلِ مع ذكراها: تضمُّ ثيابَها إلى صدرِها وتحملُها على يدِها، وتُناغيها وتُقبِّلُها، وتأخذُها مِنَ ٱلوهْمِ وتردُّها إليه؛ وكذلك نَعِمَتِ ٱلمسكينةُ بالمسكينة!

لكِ اللَّهُ يا معجزةَ الرحمة، يا نفسَ الأم!

* * *

ولمَّا قيل: ماتت. جعلَ يكلِّمُني ٱلمتكلمُ ولا أعقِل؛ فإنَّ الكلمةَ التي تأتي بالمصيبةِ المتوقَّعَةِ طالَ ٱرتقابُها، لا تأتي بمعانٍ لغوية كغيرِها مِنَ ٱلكلام، بلْ بأسلحةٍ تَضربُ في ٱلنفسِ وفي العقل، وتُثْخِنُها جِراحاً وفتْكاً.

وجعلني موتُها كأنّي ميتٌ يحملُ نفسَهُ، ما حولَهُ إلّا المشيّعون؛ وأحسسْتُ كأنَّ قوةً أخذَتْ بإحدى رجليَّ فوضعَتْها في الآخرةِ وتركتِ الثانيةَ في الدنيا، ولَحِقَنِي من الجزعِ ما اللَّهُ عالمٌ بهِ، وَوجِدْتُ أحْرَقَ ٱلوجْد، وبكيْتُ أحرَّ البكاء؛ وجعلَتْ أفكاري تنحدرُ من رأسي إلى حلْقي فأختنقُ بها ثُمَّ لا يُنفِّسُ عنّي إلّا الدمع، كأنَّ أعضائي ٱختلَّتْ مِمَّا ضَغَطَنِي مِنَ ٱلحزن، فأنا أتنفسُ برئتيّ وعينيّ.

بموتِها شعرْتُ بها؛ ولعلَّهُ من أجلِ ذلك لا يشعرُ الإنسانُ بلذةِ ٱلحُبِّ كاملةً إلّا في آلامِ ٱلحُبِّ وحدَها، وكانَتْ في حياتِها تضعُ من روحِها في سروري، وهذا هو سرُّ ٱلمرأةِ المحبوبة: يجدُ مُحبُّها في كلِّ سرورٍ لَمحاتٍ روحانيَّة؛ وكذلك فعلَتْ بعدَ موتِها، فجعلَتْ روحَها في أحزاني؛ ولولا أنَّ روحَها في أحزانِي لَقتلتْني ٱلمصيبة.

وكنْتُ أدْلِفُ[1] وراءَ النعشِ وقد بَطَلَ في نفسِي ٱلشعورُ بالدنيا، وكانَ ٱلناسُ يمشُون حَوْلي بِمَا فيهم مِنَ ٱلحياة، وكانوا ذاهبينَ إلى المقبرةِ على أنَّهم سائرونَ كما يذهبون إلى كلِّ مكان؛ أمَّا أنا فكنْتُ أمشي بِمَا فيَّ مِنَ ٱلحُبِّ منكسِراً منخذِلاً متَضَعْضِعاً، لِأنّي وحدي سائرٌ وراءَ ما لا يُلْحَق.

وثَقُلَ الناسُ على قلْبي، ورجعَ كلُّ أمرِهم عندي إلى العَيبِ والنقيصة، إذْ كانَ لي عقلٌ طارِئٌ مِنَ الحالةِ التي أنا فيها ليسَ مثلُهُ لِأحدٍ منهم، وكنْتُ وحدي ٱلمصابَ بينهم، فكنْتُ وحدي بينهمُ ٱلعاقل.

أنا أمشي لِأنتهيَ إلى آخرِ مُصيبتي، وهم يمشَون لِينتهوا إلى آخرِ الطريق؛ وشَتَّانَ[2] ما نحن وشتَّان!

---

(١) دلف: مشى.

(٢) شتّان: اسم فعل ماضٍ بمعنى بعُدَ.

ولمَّا رأيتُ قبرَها ٱبتدرَتْ عينايَ تنظرانِ بالدموعِ لا بالنظَر، ورأيتُ الترابَ كأنَّهُ غُيومٌ ملوَّنةٌ بألوانِ السحُبِ الداكنةِ تتهيَّأُ في سمائِها تحتَ الظلامِ لِتُخْفِيَ كوكباً مِنَ الكواكب؛ وظهرَ لِيَ ٱلقبرُ كأنَّهُ فَمُ ٱلأرضِ يُخاطبُ الإنسانَ بحزمٍ صارمٍ، يُخاطبُ الفقيرَ والغنيّ، والضعيفَ والقويّ، والملوكَ والصعاليك: «أنَّ كلَّ قوةٍ تُنزَعُ هُنا».

* * *

قال المسكين: وكما يجدُ الإنسانُ في أيَّامِ ٱلمطرِ رائحةَ النسيمِ المبتلِّ بالماء، كنتُ أسْتَرْوِحُ(١) في رَجْعتي إلى الدارِ رائحةَ نسيمٍ مبتلٍّ بالدموع؛ وحضَرْتُ المأتمَ وعزّاني الناسُ، فكنتُ فيهم كالمأسورِ بينهم: لا أتمنَّى إلَّا أنْ يَدَعوني فأنجوَ على وجهي، ولا أرى إلَّا أنَّهم يجرِّعونني الوجودَ غُصَصاً كما تجرعْتُ الفقدَ غُصةً غُصة؛ إلى أنْ تفرقوا معَ سوادِ الليل فٱنكفأْتُ إلى الدار، فإذا كلُّ شيءٍ قد تغيَّرَ ولمسَهُ الموتُ لَمْسَة، وإذا ٱلدارُ نفسُها كالعينِ المقروحةِ من آثارِ البكاء: ما ثَمَّ شيءٌ إلَّا لِيطالِعَني بأنّ مسراتي قد ماتت!

ولاحَ ٱلصبحُ لعينيَّ ٱلساهرتين صُبْحاً فاتراً تبيَّنتُ فيه الخجل، كأنَّهُ يقول: «لم أطلُعْ لك»، فانسللْتُ مِنَ ٱلبيت، وذهبْتُ أمشي في دنيا هي ٱلكآبةُ المضيئةُ سَخِرَتِ ٱلأقدارُ منها بإظهارِها في هذا الضوءِ مَظهرَ وجهِ العجوزِ المُتصابِيةِ في زِينةٍ لا تزيدُها إلَّا قبحاً!

ومضيْتُ على وجهي لا غايةَ لي، أضرِبُ في كلِّ جهةٍ كأنَّما أُريدُ أنْ أهربَ من نفسي! وما خطرَ لي قطّ أنّي في يومٍ جديد، بلْ كنْتُ عندَ نفسي لا أزالُ. أمس، وتغيَّرَ عندي الزمانُ والمكان: فأحدُهما ساعةُ موتٍ لا تتركُ ما فيها، والآخرُ قبرُ ميِّتةٍ لا يردُّ ما فيه.

آهِ مِنَ ٱلوقتِ ٱلذي ينتهي فيهِ ٱلموجودُ ليعذِّبَنا بالتذكُّرِ أنَّهُ كانَ موجوداً!

* * *

قالَ المسكينُ ثُمَّ أعادتني قدمايَ إلى البيتِ لأرى طِفلتي ـ وما كنْتُ رأيْتُها ـ ولقد كانَتْ وِلادتُها أولَ الحياةِ لها، وأولَ الحياةِ لي أيضاً؛ إذْ لولاها لٱنتحرْتُ غيرَ شكّ.

يا ويلَتا! لم تلتقِ عيني بعينِ الطفلةِ حتى ٱنفجَرتْ تبكي. أتبكينَ لي يا ٱبنتي أمْ عليّ؟

---

(١) أستروح: أشمّ.

أهذا بكاؤُكِ أيتُها ٱلمسكينة، أمْ هو صوتُ قلبِكِ ٱليتيم؟

أصوتُكِ أنتِ، أم هي روحُ أمِّكِ تصرخُ ترثِي لي، وتتوجعُ لِفرْطِ ما قاسيْت!

يا ٱبنتي، إنَّما أنتِ ٱلحقيقةُ الصغيرةُ التي خرجَتْ لي من كلِّ تلك الخيالاتِ الشعريَّةِ الجميلة، خيالاتِ الأيامِ السعيدةِ التي مرَّت!

يُخلَقُ المواليدُ مِنَ ٱللَّحمِ وٱلدم! وأراكِ أنتِ يا مسكينة، خُلقْتِ مِنَ ٱللحم وٱلدمِ وٱلدموع!

بقيةُ حياةٍ ماتَت! فهلْ معنى ذلكِ إلَّا أنَّك بقيةُ موتٍ يحيا؟

مسكينة، مسكينة؛ لو أنَّ نواميسَ العالَم متغيرةٌ لِشيءٍ لَتغيَّرَتْ من أجلِ بؤسِكِ فردَّتْ لَكِ ٱلأمّ؛ ولكنَّها لنْ تتغيَّر، وما بكاؤُنا وآلامُنا وتعاستُنا إلا تُراثُ[1] ٱلحياةِ في أجسامِنا الأرضيَّة، كلُّ ذلك طبيعةٌ ولكنَّ بقعةً أنظفُ من بقعة، وأراكِ يا ٱبنتي كالبيتِ الذي هُدِمَ أوّلَ ما بُني يملؤُهُ ترابُه!

لنْ تتغيَّرَ النواميس، فلنْ تَجدي عطفَ الأمّ، ولكنْ لنْ يتغيَّرَ قلبي أيضاً، فلن تُحرمي عطفَ ٱلأب.

وإذا صبرَ ٱلناسُ على ٱلحياةِ فمِنْ أجلِكِ يا مسكِينة! من أجلِ ضعفِكِ وٱنقطاعِكِ سأُعاني الصبرَ لك، وأُعاني الصبرَ لي، وأعانِي الصبرَ عن أمِّك، سأصبرُ على الصبرِ نفسِه!

يا ٱبنتي، يا ٱبنتي، لماذا وضَعَتْكِ ٱلأقدارُ من هذه الحياةِ في الناحيةِ التي ليسَ فيها إلَّا قبرٌ مظلمٌ مقفَلٌ على أمِّكِ، وأبٌ مسكينٌ مقفَلٌ على آلامِه؟

* * *

قال المسكين: وهكذا كُتِبْتُ من أهلِ البؤسِ والهمّ، فلمْ أتزوجْ إلَّا لِتصنعَ لي حبيبي دموعي، ثُمَّ لم تَمُتْ إلَّا بعدَ أنْ تركَتْ لي حبيبةً أخرى ستظلُّ زمناً طويلاً تصنَعُ لي دموعي!

---

(١) تراث: وراثة.

السَّمكة

حدَّثَ أحمدُ بْنُ مِسكينٍ ٱلفقيهُ ٱلبَغداديُّ قال: حصَلْتُ في مدينةِ (بَلْخ) سنةَ ثلاثينَ ومائتين، وعالِمُها يومئذٍ شيخُ خُراسانَ أبو عبدِ ٱلرحمنِ ٱلزاهدُ صاحبُ ٱلمواعظِ وٱلحِكَم؛ وهو رجل قلبُهُ من وراءِ لِسانِهِ، ونفسُهُ من وراءِ قلْبِه، وٱلفَلَكُ الأعلى من وراءِ نفسِه، كأنَّهُ يُلَقَّى عليهِ فيما زعموا.

وكانَ يُقَالُ لَهُ عندَهم: (لُقمانُ هذه الأمَّة)؛ لِمَا يُعجبُهُم من حِكَمِهِ في ٱلزهدِ وٱلموعظة، وقد حضرْتُ مجالسَهُ وحفظْتُ من كلامِهِ شيئاً كثيراً، كقولِه: مَنْ دخلَ مذهبَنا هذا (يعني الطريق) فَلْيجعلْ على نفسِهِ أربعَ خِصالٍ منَ الموت: موتٌ أبيض، وموتٌ أسود، وموتٌ أحمر، وموتٌ أخضر؛ فٱلموتُ ٱلأبيضُ ٱلجوع، وٱلموتُ ٱلأسودُ ٱحتمال الأذى، وٱلموتُ الأحمرِ مُخالفةُ النفس، وٱلموتُ الأخضرُ طرحُ ٱلرِّقاعِ بعضِها على بعض (يعني لبسَ ٱلمرقعةِ وٱلخَلَقِ مِنَ ٱلثياب).

وقلْتُ يوماً لِصاحبِهِ وتلميذِهِ (أبي تُراب) وجارَيْتُهُ في تأويلِ هذا الكلام: قد فهِمْنَا وجهَ ٱلتسميةِ في ٱلموتِ الأخضرِ ما دامَتِ المرقعةُ خضراء؛ فما الوجهُ في الأبيضِ والأسودِ والأحمر؟ فجاءَ بقولٍ لم أرضَه، وليسَ معَهُ دليل، ثُمَّ قال: فما عندَكَ أنت؟ قلْتُ: أمَّا ٱلجوعُ فيُميتُ ٱلنفسَ عن شهواتِها ويتركُها بيضاءَ نقيَّة، فذلك ٱلموتُ الأبيض؛ وأمّا ٱحتمالُ ٱلأذى فهو ٱحتمالُ سوادِ ٱلوجهِ عندَ ٱلناس، فهو ٱلموتُ ٱلأسود؛ وأمَّا مُخالفةُ ٱلنفسِ فهي كإضرامِ ٱلنارِ فيها، فذاك ٱلموتُ الأحمر.

قال أحمدُ بْنُ مسكين: وكنْتُ ذاتَ نهارٍ في مسجدِ (بلْخ) والناسُ مُتَوافِرونَ[1] ينتظرون (لُقمانَ الأمة) ليسمعوه، وشغَلَه بعضُ الأمرِ فراثَ[2] عليهم، فقالوا: مَنِ يَعِظُنا إلى أنْ يجيءَ الشيخ؟ فالتفتَ إليَّ أبو ترابٍ وقال: أنت رأيْتَ الإمامَ أحمدَ بْنَ حَنبل، ورأيْتَ بِشراً ٱلحافِيَ وفلاناً وفلاناً، فقُمْ فحدِّثِ ٱلناسَ عنهم، فإنَّما هؤلاءِ وأمثالُهم هم بقايا النبوَّة. ثُمَّ أخذَ بيدي إلى الأسطوانةِ ٱلتي

(١) متوافرون: كثر.

(٢) راث: تأخَّر.

يجلسُ إليها إمامُ خُراسانَ فأجلسني ثَمَّةَ[1] وقعدَ بينَ يديّ.

وتطاولَتِ ٱلأعناق[2]، ورماني ٱلناسُ بأبصارِهم[3]، وقالوا: البَغداديّ! البغداديّ! وكأنّما ضُوعِفَتْ عندَهم بمجلسي مرةً وبنسبَتي مرةً أخرى، فقلْتُ في نفسي: ـ واللّهِ ـ ما في ٱلموتِ ٱلأحمرِ ولا ٱلأخضرِ ولا ٱلأسودِ موعظة، ولو لَبِسَ عزرائيلُ قَوْسَ قُزَحَ لأفسدَ شعرُ هذه الألوانِ معناه، وإنّما يجبُ أنْ يكونَ كما يجبُ أنْ يكون؛ ولا موعظةَ في كلامٍ لم يمتلىءْ من نفسِ قائلِهِ، لِيكونَ عملاً فيتحوّلَ في النفوسِ الأخرى عملاً ولا يبقَى كلاماً؛ وإنّه ليسَ ٱلوعظُ تأليفَ ٱلقولِ لِلسامعِ يسمعُه، لكنَّهُ تأليفُ النفسِ لِنفسٍ أخرى تراها في كلامِها، فيكونُ هذا الكلامُ كأنّهُ قرابةٌ بينَ النفسين، حتى لَكأنَّ الدمَ المتجاذِبَ يجري فيهِ ويدورُ في ألفاظِه.

* * *

وكنْتُ رأيْتُ رؤيا (ببلخ) تتَّصلُ بقصةٍ قائمةٍ في بغداد، فقصصْتُها عليهم، فكانَتِ ٱلقصةُ كما حكيْتُها: أنّي ٱمتُحِنْتُ بالفقرِ في سنةِ تسعَ عشرةَ ومائتين؛ وٱنحَسَمَتْ مادتي[4] وقَحِطَ منزلي قَحطاً شديداً جمعَ عليَّ ٱلحاجةَ وٱلضُّرَّ وٱلمسكنَة؛ فلوِ ٱنكمشَتِ ٱلصحراءُ ٱلمُجدِبةُ فصَغُرتْ ثُمَّ صغُرَتْ حتى ترجعَ أذرُعاً في أذرع، لَكانَتْ هي داري يومئذٍ في محلَّةِ بابِ البَصرةِ من بغداد.

وجاءَ يومٌ صَحْراويٌّ كأنّما طلعَتْ شمسُهُ من بينِ ٱلرملِ لا من بينِ السُّحُب، ومرَّتِ ٱلشمسُ على داري في بغدادَ مرورَها على الورقةِ الجافَّةِ المعلَّقةِ في ٱلشجرةِ ٱلخضراء؛ فلم يكنْ عندَنا شيءٌ يُسيغُهُ حَلْقُ آدميٍّ، إذْ لم يكنْ في ٱلدارِ إلّا ترابُها وحِجارتُها وأجذاعُها؛ وليَ ٱمرأةٌ ولي منها طفلٌ صغير، وقد طَوَيْنَا على جوعٍ يَخْسِفُ[5] بالجوفِ خَسفاً كما تَهْبِطُ الأرض؛ فَلَتَمنَّيْتُ حينئذٍ لو كنّا جُرْذاناً فنَقْرِضَ ٱلخشب! وكانَ جوعُ الصبيّ يزيدُ ٱلمرأةَ ألماً إلى جوعِها، وكنْتُ بهما كالجائعِ بثلاثةِ بطونٍ خاوية.

فقلْتُ في نفسي: إذا لم تأكلِ ٱلخشبَ والحِجارةَ فلْنأكلْ بثمنِها. وجمعْتُ نيتي على بيعِ ٱلدارِ والتحوُّلِ عنها، وإنْ كانَ خروجي منها كٱلخروجِ من جِلْدي: لا

---

(١) ثمّة: ظرف زمان بمعنى هناك.

(٢) تطاولت الأعناق: اشرأبّت.

(٣) رماني الناس بأبصارهم: نظروا إليّ.

(٤) انحسمت مادتي: افتقرت.

(٥) يخسف: ينهار.

يسمّى إلّا سَلْخاً وموتاً؛ وبتُّ ليلتي وأنا كالمُثْخَنِ حُمِلَ من معركةٍ: فما يتقلَّبُ إلّا على جِراحٍ تعملُ فيهِ عملَ ٱلسيوفِ وٱلأسنَّةِ التي عملتْ فيها.

ثُمَّ خرجْتُ بغَلَسٍ[1] لِصلاةِ ٱلصبحِ؛ وٱلمسجدُ يكونُ في ٱلأرضِ ولكنَّ ٱلسماءَ تكونُ فيه، فرأيتُني عندَ نفسي كأنّي خرجْتُ مِنَ الأرضِ ساعة. ولمَّا قُضِيَتِ ٱلصلاةُ رفعَ النّاسُ أكفَّهم يدعون ٱللَّهَ (تعالى)، وجرى لِساني بهذا الدعاء: «اللهمَّ بك أعوذُ أنْ يكونَ فقري في دِيني، أسألُكَ ٱلنفعَ ٱلذي يُصلحُني بطاعتِك، وأسألُكَ بركةَ ٱلرضى بقضائِك، وأسألُك ٱلقوّةَ على ٱلطاعةِ وٱلرضا يا أرحمَ الراحمين».

ثُمَّ جلسْتُ أتأملُ شأْني، وأطلْتُ ٱلجلوسَ في ٱلمسجدِ كأنّي لم أعُدْ من أهلِ ٱلزمنِ فلا تجري عليَّ أحكامُه، حتى إذا ٱرتفعَ ٱلضُّحَى وٱبيضَّتِ ٱلشمسُ جاءَتْ حقيقةُ ٱلحياة، فخرجْتُ أتسبَّبُ لِبيعِ ٱلدار، وٱنبعثْتُ وما أدري أين أذهب، فما سِرْتُ غيرَ بعيدٍ حتى لقيني (أبو نصرٍ ٱلصياد) وكنْتُ أعرفُهُ قديماً، فقلْت: يا أبا نصر! أنا على بيعِ الدار؛ فقد ساءَتِ ٱلحالُ وأحْوَجَتِ ٱلخصاصة، فأقرِضني[2] شيئاً يُمسِكُني على يومي هذا بالقِوامِ مِنَ ٱلعيش حتى أبيعَ ٱلدارَ وأوَفِّيك.

فقال: يا سيدي! خذْ هذا ٱلمنديلَ إلى عِيالِك، وأنا على أثرِكَ لاحِقٌ بِكَ إلى ٱلمنزل. ثُمَّ ناولَني منديلاً فيهِ رُقاقتانِ بينهما حلوى، وقال: إنَّهما واللَّهِ بركةُ الشيخ.

قلْت: مَنِ ٱلشيخُ وما القصة؟

قال: وقفْتُ أمسِ على بابِ هذا المسجدِ وقدِ ٱنصرفَ النّاسُ من صلاةِ ٱلجمعة، فمرَّ بي أبو نصرٍ بِشْرٌ ٱلحافي فقال: مالي أراكَ في هذا الوقت؟ قلْت: ما في ٱلبيتِ دقيقٌ ولا خبزٌ ولا درهمٌ ولا شيءٌ يُباع. فقال: اللَّهُ المستعان؛ اِحملْ شبكتَك وتعالَ إلى الخَنْدق؛ فحملْتُها وذهبْتُ معه، فلمَّا ٱنتهيْنا إلى ٱلخندقِ قال لي: توضَّأْ وصلِّ ركعتين. ففعَلْت، فقال: سَمِّ اللَّهَ ـ تعالى ـ وألقِ الشبكة. فسمَّيْتُ وألقيْتُها، فوقعَ فيها شيءٌ ثقيل، فجعلْتُ أجرُّهُ فشَقَّ علَيَّ؛ فقلْتُ لَه: ساعدْني فإنّي أخافُ أنْ تنقطعَ ٱلشبكة، فجاءَ وجرَّها معي، فخرجَتْ سمكةٌ عظيمةٌ لم أرَ مثلَها سِمْناً وعِظَماً وفَراهة. فقال: خذْها وبِعْها وٱشترِ بثمنِها ما يُصلِحُ

---

(١) غلس: الهزيع الأخير من الليل العتمة قبل الفجر.

(٢) أقرض: ديّن.

عيالَك. فحملْتُها فٱستقبلني رجلٌ ٱشتراها، فٱبْتعْتُ لِأهلي ما يحتاجون إليه، فلمّا أكلْتُ وأكلوا ذكرْتُ ٱلشيخَ فقلْتُ أهدي له شيئاً، فأخذْتُ هاتينِ الرقاقتينِ وجعلْتُ بينهما هذه الحلوى، وأتيتُ إليهِ فطرقْتُ ٱلباب، فقال: من؟ قلْت: أبو نصر! قال: اِفتحْ وضعْ ما معَك في ٱلدهليز وٱدخلْ. فدخلْتُ وحدثْتُهُ بما صنعْتُ فقال: الحمدُ لِلّهِ على ذلك. فقلْت: إنّي هيأتُ لِلبيتِ شيئاً وقد أكلوا وأكلْتُ ومعي رقاقتانِ فيهما حلوى.

قال: يا أبا نصر! لو أطعمْنا أنفسَنا هذا ما خرجَتِ ٱلسمكة! اذهبْ كُلْه أنت وعِيالُك.

***

قال أحمدُ بْنُ مسكين: وكنْتُ مِنَ ٱلجوع بحيثُ لو أصبْتُ رغيفاً لَحسبتُهُ مائدةً أُنزِلَتْ مِنَ ٱلسماء، ولكنَّ كلمةَ الشيخِ عنِ ٱلسمكةِ أشبعَتْني بمعانيها شِبَعاً ليسَ من هذه الدنيا، كأنّما طَعِمْتُ منها ثمرةً من ثِمارِ الجنة؛ وطَفِقْتُ[1] أردِّدُها لِنفسي وأتأملُ ما تَفْتُق ٱلشهواتُ على الناس، فأيقنْتُ أنَّ ٱلبلاء إنّما يُصيبُنا من أنّنا نُفسِّرُ الدنيا على طولِها وعرضِها بكلماتٍ معدودة، فإذا ٱستقرَّ في أنفسِنا لفظٌ من ألفاظِ هذه الشهوات، ٱستقرَّتْ بهِ في ٱلنفسِ كلُّ معانيهِ مِنَ ٱلمعاصي والذنوب، وأخذَتْ شياطينُ هذه المعاني تَحومُ على قلوبِنا، فنُصبحُ مُهَيَّئِينَ لِهذه الشياطين، عاملينَ لها، ثُمَّ عاملين معها، فتُدْخِلُنا مَداخِلَ السُّوءِ في هذه الحياة، وتُقْحِمُنا في ٱلوَرْطةِ[2] بعدَ ٱلورطة، وفي ٱلهلكَة بعدَ الهلكة.

وما هذه الشياطينُ إلّا كالذبابِ وٱلبعوضِ وٱلهوامّ[3]، لا تحومُ إلّا على رائحةٍ تجذبُها، فإنْ لم تجدْ في ٱلنفسِ ما تجتمعُ عليه، تفرقَتْ ولم تجتمع، وإذا ألَمَّتِ ٱلواحدةُ منها بعدَ ٱلواحدةِ لم تثبُتْ. فلو أنّنا طردْنا من أنفسِنا الكلماتِ التي أفسدَتْ علينا رؤيةَ الدنيا كما خُلِقَتْ. لَكانَ لِلدنيا في أنفسِنا شكلٌ آخرُ أحسنُ وأجملُ من شكلِها، ولَكانَتْ لنا أعمالٌ أخرى أحسنُ وأطهرُ من أعمالِنا.

فالشيخُ لم يكنْ في نفسِهِ معنًى لِكلمةِ (التلذُّذ)، وبطردِهِ من نفسِهِ هذا ٱللفظَ ٱلواحد، طَرَدَ معانيَ ٱلشرِّ كلَّها، وصَلُحَ له دينُه، وخَلُصَتْ نفسُهُ لِلخيرِ ومعاني

---

(١) طفق: شرع، بدأ.
(٢) الورطة: المصيبة.
(٣) الهوام: الحشرات.

ٱلخير. ولو أنَّ رجلاً وضعَ في نفسِهِ ٱمرأةً يعشَقُها، لَصارَتِ ٱلدنيا كلُّها في نفسِهِ كٱلمخْدَع[1]: ما فيهِ إلَّا المرأةُ وحدَها بأسبابِها إليهِ وأسبابِهِ إليها...

وقد كنْتُ سمعْتُ في درسِ شيخِنا أحمدَ بنِ حنبلٍ هذا الحديث: «لولا أنَّ ٱلشياطينَ يَحومون على قلوبِ بني آدمَ لنَظَروا إلى مَلَكُوتِ ٱلسموات». فما فهمْتُ ـ واللَّهِ ـ معناهُ إلَّا من كلمةِ الشيخِ في ٱلسمكة، وقد علَّمَنيها هذا الصيَّادُ ٱلعامِّيّ؛ فالشياطينُ تنجذبُ إلى المعاني، والمعاني يُوجِدُها ٱللفظُ ٱلمستقرُّ في ٱلقلبِ ٱستقرارَ غَرَضٍ أو شهوةٍ أو طمع؛ فإذا خلا ٱلقلبُ من هذِه ٱلمعاني، فقد أمِنَ مُنَازَعَتَها لَهُ وشُغْلَها إيّاه، فيُصبحُ فوقَها لا بينَها؛ ومتى صارَ ٱلقلبُ فوقَ ٱلشهواتِ ولم يجدْ من ألفاظِها ما يُعْمِيهِ ويعترِضُ نظرَهُ إلى الحقائق، ٱنكشفتْ لَهُ هذه الحقائقُ فٱنكشفَ لَهُ ٱلمَلَكُوت؛ فإذا وقَع بعدُ في واحدةٍ من ٱللذاتِ ولو (كالرُّقاقتينِ والحَلوى)، ٱستَغلَتِ ٱلأشياءُ عليهِ فحجبَتْه[2]، وعادَ بينَها أو تحتَها، وعَمِيَ عمى ٱللذة؛ وٱلحِجابُ على البصرِ كأنَّهُ تعليقُ ٱلعَمَى على ٱلبصر.

وكنْتُ لا أزالُ أعجبُ من صبرِ شيخِنا أحمدَ بْنِ حنبلٍ وقد ضُرِبَ بينَ يدي ٱلمعتصم بالسِّياطِ حتى غُشِيَ عليهِ فلم يتحوّلْ عن رأيه؛ فعلمْتُ ٱلآنَ من كلمةِ ٱلسمكةِ أنَّهُ لم يجعلْ في نفسِهِ لِلضربِ معنَى ٱلضرب، ولا عرفَ لِلصبرِ معنى ٱلصبرِ الآدميّ؛ ولو هو صبَرَ على هذا صبْرَ الإنسانِ لَجَزِعَ[3] وتحوَّل، ولو ضُرِبَ ضربَ الإنسانِ لَتألَّم وتغيَّر؛ ولكنَّهُ وَضَعَ في نفسِهِ معنَى ثباتِ السُّنَّةِ وبقاءِ الدين، وأنَّهُ هو ٱلأُمَّةُ كلُّها لا أحمدُ بْنُ حنبل، فلو تحوَّلَ لَتحوَّلَ الناسُ، ولوِ ٱبتَدَعَ لَٱبتدَعُوا؛ فكانَ صبرُهُ صبرَ أُمَّةٍ كاملةٍ لا صبرَ رجلٍ فرَد، وكانَ يُضرَبُ بالسياطِ ونفسُهُ فوقَ معنى ٱلضرب، فلو قَرَضُوهُ بالمقَاريضِ[4] ونشروهُ بالمَناشيرِ لَمَا نالوا منه شيئاً؛ إذْ لم يكنْ جسمُهُ إلَّا ثوباً عليه، وكانَ ٱلرجلُ هو الفكرَ ليسَ غيْر.

هؤلاء قومٌ لا يَروْنَ فضائلَهم فضائلَ، ولكنَّهم يَروْنَها أماناتٍ قدِ ٱئتُمِنُوا عليها مِنَ ٱللَّهِ لِتبقَى بهم معانيها في هذه الدنيا؛ فهم يُزْرَعونَ في ٱلأمم زَرْعاً بيَدِ ٱلله، ولا يملكُ ٱلزرعُ غيرَ طبيعتِه، وما كانَ ٱلمعتصمُ وهو يُريدُ شيخَنا على غيرِ رأيهِ، وعقيدتِهِ إلا كالأحمقِ يقولُ لِشجرةِ ٱلتفاح: أثمِري غيرَ ٱلتفاح.

---

(١) المخدع: مكان النوم.

(٢) حجبته: منعته.

(٣) جزع: خاف.

(٤) قرض: قصّ.

قال أحمدُ بْنُ مِسكين: وأخذْتُ ٱلرُّقاقتينِ وأنا أقولُ في نفسي: لعنَ ٱللّهُ هذه الدنيا! إنَّ من هَوانِها على اللّهِ أنَّ الإنسانَ فيها يَلْبَسُ وجهَهُ كما يلبَسُ نعلَه. فلو أنَّ إنساناً كانَتْ لَهُ نظرةٌ ملائكيَّةٌ ثُمَّ ٱعترضَ ٱلخلْقَ ينظُرُ في وجوهِهم، لَرأى عليها وُحُولاً وأقذاراً كالتي في نِعالِهم أو أقذرَ أو أقبح، ولعلَّهُ كان لا يَرى أجملَ ٱلوجوهِ ٱلتي تَسْتَهيمُ ٱلناسَ(١) وتَتَصَبَّاها(٢) مِنَ ٱلرجالِ وٱلنساء، إلّا كالأحذيةِ العتيقة...

ولكنّي أحسسْتُ أنَّ في هاتينِ ٱلرُّقاقتينِ سرَّ الشيخ، ورأيْتُهما في يدي كالوثيقتينِ بخيرٍ كثير؛ فقلْت: على بَركةِ ٱلله. ومضيْتُ إلى داري؛ فلمّا كنْتُ في الطريقِ لقيَتْني ٱمرأةٌ معها صبيٌّ، فنظرَتْ إلى المنديل وقالت: يا سيدي، هذا طفلٌ يتيمٌ جائعٌ ولا صبرَ لَهُ على ٱلجوع، فأطعِمْهُ شيئاً ـ يرحمْك ٱلله ـ. ونظرَ إليَّ ٱلطفلُ نظرةً لا أنساها؛ حَسِبْتُ فيها خُشوعَ ألفِ عابدٍ يعبدونَ ٱللّهَ (تعالى) مُنْقَطعين عنِ ٱلدنيا؛ بل ما أظنُّ ألفَ عابدٍ يستطيعون أنْ يُرُوا ٱلناسَ نظرةً واحدةً كالتي تكونُ في عينِ صبيٍّ يتيمٍ جائعٍ يسألُ ٱلرحمة. إنَّ شِدَّةَ ٱلهمِّ لَتجعلُ وجوهَ ٱلأطفالِ كوجوهِ ٱلقِدّيسين، في عينِ مَنْ يراها مِنَ ٱلآباءِ وٱلأمهات، لِعَجْزِ هؤلاءِ الصغارِ عنِ الشرِّ الآدميِّ وَٱنْقطاعِهم إلا منَ الله والقلبِ الإنسانيّ، فيظهرُ وجهُ أحدِهم وكأنَّهُ يَصْرُخُ بمعانيهِ يقول: يا ربَّاهُ يا رباه!

قالَ أحمدُ بْنُ مِسكين: وخُيِّلَ إليَّ حينئذٍ أنَّ ٱلجنَّةَ نزلتْ إلى الأرضِ تَعْرِضُ نفسَها على مَنْ يُشْبِعُ هذا الطفلَ وأُمَّه، والناسُ عَمْيٌ لا يُبصرونَها، وكأنَّهم يمرون بها في هذا ٱلموطِنِ مرورَ ٱلحميرِ بقصرِ ٱلملك: لو سُئِلتْ فَضَّلَتْ عليهِ ٱلإصْطَبلَ الذي هيَ فيه...

وذكرْتُ ٱمرأتي وٱبنَها وهما جائعانِ مُذْ أمس، غيرَ أنّي لم أجدْ لهما في قلبي معنى ٱلزوجةِ وٱلولد: بلْ معنى هذه ٱلمرأةِ ٱلمُحتاجةِ وطفلِها، فأسقطْتُهما عن قلبي ودفعْتُ ما في يدي لِلمرأةِ وقلْتُ لها: خذي وأطعمي ٱبنَك، و ـ واللّهِ ـ ما أملكُ بيضاءَ ولا صفراء، وإنَّ في داري لِمَن هو أحوجُ إلى هذا الطعام؛ ولولا هذه الخَلَّةُ بي لَتقدمْتُ فيما يُصْلِحُك. فَدَمَعَتْ عيناها، وأشرقَ وجهُ الصبيّ، ولكنْ طَمَّ(٣) على قلبي ما أنا فيهِ فلم أجدْ لِلدَّمعةِ معنى ٱلدمعة، ولا لِلبَسْمةِ معنى ٱلبسمة.

---

(١) تستهيم الناس: تستهويهم.

(٢) تتصّباها: تعشقها.

(٣) طمّ: خيّم.

وقلْتُ في نفسي: أمّا أنا فأطوي إنْ لم أصِبْ طعاماً، فقد كانَ أبو بكرِ الصديقُ يطوي[1] ستةَ أيام، وكانَ ٱبنُ عُمَر يطوي، وكان فلانٌ وفلانٌ مِمَنْ حفظْنَا أسماءَهم ورَوينا أخبارَهم؛ ولكنْ مَنْ لِلمرأةِ وٱبنها بمثلِ عَقْدِي ونيَّتي؟ وكيف لي بهما؟

ومشيْتُ وأنا مُنْكسِرٌ منقبِض، وكأنّي كنْتُ نسيْتُ كلمةَ ٱلشيخ: «لو أطعمْنَا أنفسَنا هذا ما خرجَتِ ٱلسمكة». فذكرْتُها وصرفْتُ خاطري إليها وشَغَلْتُ نفسي بتدبُّرِها وقلْتُ: لو أنّي أشبعْتُ ثلاثةً بجوعِ ٱثنين لَحُرِمْتُ خمسَ فضائلَ وهذه الدنيا محتاجةٌ إلى الفضيلة، وهذه الفضيلةُ محتاجةٌ إلى مثلِ هذا ٱلعمل، وهذا ٱلعملُ محتاجٌ إلى أنْ يكونَ هكذا، فما يستقيمُ ٱلأمرُ إلَّا كما صنَعْت.

وكانَتِ ٱلشمسُ قدِ ٱنبسطَتْ في ٱلسماءِ وذلك وقتُ ٱلضُّحى الأعلى، فملْتُ ناحيةً وجلسْتُ إلى حائطٍ أفكِّرُ في بيعِ ٱلدارِ ومَنْ يبتاعُها، فأنا كذلك إذْ مرَّ أبو نصرٍ الصيادُ وكأنَّهُ مُسْتَطَارٌ فَرحاً، فقال: يا أبا محمد، ما يُجلِسُكَ هٰهنا وفي دارك ٱلخيرُ وٱلغِنى، قلْت: سبحانَ ٱللهِ! من أين خرجَتِ ٱلسمكةُ يا أبا نصر؟

قال: إني لَفِي ٱلطريقِ إلى منزلِك، ومعي ضَرُورةٌ مِنَ ٱلقُوتِ أخذْتُها لِعيالِك، ودَراهِمَ ٱستَدَنْتُها لك، إذا رجلٌ يَسْتَدِلُّ الناسَ على أبيكَ أو أحدٍ من أهلِه، ومَعُه أثقالٌ وأحمال، فقلْتُ لَه: أنا أدلُّك. ومشيْتُ مَعهُ أسألُهُ عن خبرِهِ وشأنِهِ عندَ أبيك. فقال: إنَّهُ تاجرٌ مِنَ ٱلبَصْرة، وقد كان أبوك أوْدعَهُ مالاً من ثلاثين سنةً، فأفلسَ وٱنكسرَ ٱلمالُ ثُمَّ تركَ ٱلبصرةَ إلى خُراسانَ، فصلُحَ أمرُهُ على ٱلتجارةِ هناك، وأيْسَرَ بعدَ ٱلمِحْنَة، وٱستَظْهَرَ بعدَ ٱلخِذْلان، وأقبلَ جَدُّهُ بالثَّراءِ وٱلغِنَى؛ فعادَ إلى ٱلبصرة، وأرادَ أنْ يتحلَّلَ، فجاءَك بالمالِ وعليهِ ما كانَ يربحُهُ في هذه الثلاثينَ سنةً، وإلى ذلك طَرائفُ وهدايا.

* * *

قال أحمدُ بْنُ مسكين: وٱنقلِبُ إلى داري فإذا مالٌ جَمٌّ وحالٌ جميلة! فقلْت: صدقَ الشيخ: «لو أطعَمْنَا أنفسَنا هذا ما خرجتِ ٱلسمكة»! فلو أنَّ هذا الرجلَ لم يلقَ في وجهِهِ أبا نصر، في هذه ٱلطريق، في هذا ٱليوم، في هذه الساعةِ، لما ٱهتدى إليَّ؛ فقد كانَ أبي مغموراً لا يعرفُهُ أحدٌ وهو حيّ؛ فكيفَ بِهِ ميتاً من وراءِ عشرينَ سنة؟

وآلَيْتُ لَيعلمَنَّ ٱللّٰهُ شكري هذه النعمة؛ فلم تكنْ لي هِمَّةٌ إلَّا البحثَ عنِ

---

(١) يطوي: ينام بلا عشاء.

ٱلمرأةِ ٱلمحتاجةِ وٱبنِها، فكفيْتُهما وأجريْتُ عليهما رِزقاً، ثُمَّ ٱتَّجَرْتُ في ٱلمال، وجعلْتُ أرُبُّهُ[1] بٱلمعروفِ والصَّنيعةِ وٱلإحسانِ وهو مُقْبِلٌ يزدادُ ولا ينقُص، حتى تموَّلْتُ وتأثَّلْتَ[2].

وكأنِّي قد أعجبتْني نفسي، وسرَّني أنِّي قد ملأتُ سِجلاتِ ٱلملائكةِ بحسناتي، ورجَوْتُ أنْ أكونَ قد كُتِبْتُ عندَ ٱللَّهِ في ٱلصالحين، فنمْتُ ليلةً فرأيْتُني في يومِ القِيامةِ وٱلخَلْقُ يموجُ بعضُهم في بعض، وٱلهولُ هولُ ٱلكونِ ٱلأعظمِ على الإنسانِ الضعيف، يُسْألُ عن كلِّ ما مسَّهُ من هذا الكون. وسمِعْتُ الصائحَ يقول: يا معشرَ بني آدم! سَجَدَتِ ٱلبهائمُ شكراً لِلَّهِ أنَّهُ لم يجعلْها من آدم. ورأيْتُ ٱلناسَ وقد وُسِّعَتْ أبدانُهم فهم يَحملون أوزارَهم على ظُهورِهم مخلوقةً مجسَّمة، حتى لَكأنَّ الفاسقَ على ظهرِهِ مدينةٌ كلّها مُخْزيات!

وقيل: وُضعَتِ الموازينُ. وجيءَ بي لِوزنِ أعمالي، فَجُعِلَتْ سيئاتي في كفةٍ وأُلقيَتْ سجلاتُ حسناتي في ٱلأخرى، فطاشَتِ[3] ٱلسجلاتُ ورجَحَتِ ٱلسيئات، كأنَّما وزنوا ٱلجبلَ الصخريَّ ٱلعظيمَ الضخمَ بلُفافةٍ مِنَ القطن...

ثُمَّ جعلوا يُلْقون الحسنةَ بعدَ ٱلحسنةِ مِمَّا كنْتُ أَصنعُهُ فإذا تحتَ كلِّ حسنةٍ شهوةٌ خفيَّةٌ من شهواتِ ٱلنفس: كالرِّياءِ وٱلغُرورِ وحُبِّ ٱلمحْمَدَةِ عندَ الناسِ وغيرِها، فلم يَسْلَمْ لي شيء، وهلكَتْ عنِّي حُجَّتي، إذِ ٱلحجةُ ما يُبَيِّنُهُ ٱلميزانُ، والميزانُ لم يدلَّ إلَّا على أنِّي فارغ.

وسمعْتُ ٱلصوتَ: ألم يبقَ لهُ شيء؟ فقيل: بَقِيَ هذا.

وأنظرُ لِأرى ما هذا الذي بقي، فإذا ٱلرُّقاقتانِ ٱللتانِ أحسنْتُ بهما على ٱلمرأةِ وٱبنِها! فأيقنْتُ أنِّي هالك؛ فلقد كنْتُ أُحْسِنُ بمائةِ دينارٍ ضَرْبةً واحدةً فما أغنَتْ عنِّي، ورأيْتُها في ٱلميزانِ مع غيرِها شيئاً معلَّقاً، كالغَمامِ[4] حينَ يكونُ ساقِطاً بينَ ٱلسماءِ وٱلأرض: لا هُو في هذه ولا هو في تلك.

ووُضعَتِ ٱلرُّقاقتان، وسمعْتُ ٱلقائل: لقد طارَ نصفُ ثوابِهما في ميزانِ أبي نصرِ ٱلصياد. فٱنخذَلْتُ[5] ٱنخذالاً شديداً، حتى لو كُسِرْتُ نِصفينِ لَكانَ أخفَّ عليَّ

---

(١) أربّه: أزيده.

(٢) تأثلت: اغتنيت.

(٣) طاشت: خفّت وانحرفت.

(٤) الغمام: الغيم.

(٥) انخذلت: شعرت بالخسران والهزيمة.

وأهون. بَيْدَ أنّي نظرْتُ فرأيْتُ كِفة ٱلحسناتِ قد نزلتْ منزلةً ورجَحَت بعضَ ٱلرُّجحان.

وسمعْتُ ٱلصوت: ألم يبقَ له شيءٌ؟ فقيلَ بَقيَ هذا.

وأنظرُ ما هذا الذي بقي، فإذا جوعُ ٱمرأتي في ذلك ٱليوم! وإذا هو شيءٌ يُوضَعُ في ٱلميزان، وإذا هو ينزِلُ بكفَّةٍ ويرتفعُ بالأخرى حتى ٱعتدلَتا بالسَّوِيَّة. وثَبَتَ ٱلميزانُ على ذلك فكنْتُ بينَ ٱلهلاك والنَّجاة.

وأسمعُ ٱلصوت: ألم يبقَ لَهُ شيء؟ فقيل بقيَ هذا.

ونظرْتُ فإذا دموعُ تلك ٱلمرأةِ ٱلمسكينةِ حينَ بكتْ من أثَرِ ٱلمعروف في نفسِها، ومن إيثاري[1] إيَّاها وٱبنَها على أهلي. ووُضِعَتْ غَرْغَرَةٌ[2] عينيها في ٱلميزانِ فَفارَتْ، فطمَّتْ[3] كأنَّها لُجَّةٌ، من تحتِ ٱللُّجَّةِ بحر؛ وإذا سمكةٌ هائلةٌ قد خرجَتْ مِنَ ٱللجَّة وقَعَ في نفسي أنَّها رُوحُ تلك الدموع، فجعلَتْ تعظُمُ ولا تزالُ تعظم، وٱلكفةُ ترجَحُ ولا تزالُ ترجح، حتى سمعْتُ ٱلصوتَ يقول: قد نجا!

وصحْتُ صيحةً ٱنتبهتُ لها، فإذا أنا أقول: «لو أطعمْنا أنفسَنا هذا ما خرجَتِ ٱلسمكة!».

(١) إيثاري: تفضيلي.

(٢) غرغرة: دموع.

(٣) طمّت: فاضت.

الزاهدان

٢

قال أحمدُ بْنُ مسكين: انتشر حديثُ ٱلسمكةِ في أهلِ (بلْخ). وٱستفاضَ[١] بينهم، وكنتُ قَصَصْتُهُ عليهم يومَ ٱلسبت، فلمّا دارَ ٱلسبتُ من أسبوعِهِ لَقيَني شيخُهم حاتمُ بْنُ يوسفَ (لقمانُ الأمّةِ) ومعه صاحبُه أبو تراب، فقال: يا أحمد! لَكأنّكَ في هذه المدينة قمرٌ طَلَعَ بلَيْلٍ فلا يَعِظُ الناسَ في يوم ٱلسبتِ غيرُك؛ ومَنْ سمعَ فكأنّهُ عاينَ[٢]، وليسَ على ألسنةِ أهلِ بلْخٍ منذُ تحدثْتَ إلّا بِشْرٌ وٱبْنُ حنبل، ولا على بالِ أحدٍ منهم إلّا موعظتُك وحديثُك.

والكلامُ عنِ ٱلصالحينَ في مثلِ ما وصفْتَ وحكيْتَ قُرْبٌ من حقائقِهم، وسُمُوٌّ إلى معانيهم، وليسَ في ٱلقولِ بابٌ لَهُ موقعٌ كموقعِ ٱلقصةِ عن هؤلاءِ الذين يخلُقُهُمُ ٱللّهُ في البشريةِ خلقَ النور: يُضيءُ ما حولَهُ من حيثُ يُرى، ويعملُ فيما حولَهُ من حيث لا يُرى، وفي ظاهرِهِ ٱلجمالُ وٱلمنفعة، وفي باطنِهِ ٱلقوةُ وٱلحياة. ولسْتُ أقولُ لك ٱذهبْ فحدِّثِ ٱلناس، ولكنّي أقولُ ٱذهبْ فأعْطِ الناسَ عقلاً مِنَ ٱلحديث.

قالَ ٱبنُ مسكين: فلمّا صلَّيْنا ٱلعصرَ، قدَّمني أبو ترابٍ فجلسْتُ في مجلسي ذاك، وهَتَفَ بيَ ٱلناسُ يُريدونَ ٱلحديث عن بِشر ٱلحافي وما سَقَطَ لي من أخبارِهِ، على الطريقةِ ٱلتي حدثْتُهم بها من قبل، فٱبتدأْتُ بذكرِ موتِهِ (رحمَهُ ٱللّه) وأنَّ يومَهُ كأنّما ٱجتمعَ له أهلُ خمسٍ وسبعينَ سنة، إذْ خرجَتْ جنازتُهُ بعدَ صلاةِ الصبح، فلم يحصُلْ في قبرِه إلّا في ٱلليل مِمّا ٱحتَشَدَ[٣] في طريقِهِ مِنَ ٱلخلْق، حتى لَكأنَّ في نعشِهِ سِرًّا من أسرارِ ٱلجنّةِ يُطالعُهم بهِ ٱلموتُ فخرجوا ينظرونَ إليه، وكانوا يصيحونَ في جنازتِه: هذا ـ وٱللّهِ ـ شرفُ ٱلدنيا قبلَ شرفِ ٱلآخرة.

---

(١) استفاض: انتشر.

(٢) عاين: رأى.

(٣) احتشد: تجمهر، اجتمع.

ثُمَّ قلْتُ: حدَّثَني حسينٌ ٱلمَغَازِليُّ: أنَّ بِشراً (رحَمهُ ٱللَّهُ) كانَ لا يأكلُ إلَّا الخبزَ تورُّعاً عنِ ٱلشبهاتِ وٱكتفاءً لِضرورةِ ٱلحياةِ بٱلأقلِّ ٱلأيسر، وكانَ يقولُ في ذلك: يَدٌ أقصرُ من يد، ولُقمةٌ أصغرُ من لقمة. وسُئِلَ مرة: بأيِّ شيءٍ تأكلُ ٱلخبز؟ فقال: أذكرُ ٱلعافيةَ فأجعلُها إداماً. وقد أعانَهُ على ذلك أنَّهُ لم يتزوج، وكانَ يرى هذا نقصاً في نفسِهِ حتى فضَّلَ الإمامَ أحمَد بْن حنبلٍ بأشياء: منها أنَّ له أهلاً؛ غيرَ أنَّهُ قِيلَ لهُ ذاتَ يوم: لو تزوجْتَ تم نُسُكُك. فقال: أخافُ أنْ تقومَ ٱلزوجةُ بحقّي ولا أقومَ بحقِّها. فكانَتْ هذه النيةُ في نفسِهِ أفضلَ من زواجِهِ.

وكانَ مع هذا لا يُؤاكِلُ أحداً، ولا يسعَى إلى لِقاءِ أحد، حتى إِنَّهُ لَمَّا رغبَ في مؤاخاةِ الزاهدِ العظيم (معروفِ الكَرْخي)، أرسلَ إليهِ (الأسودَ بن سالم) وكانَ صديقاً لهما، فقالَ لِمعروفٍ: إنَّ بشرَ بْنَ ٱلحارثِ يُريدُ مؤاخاتَك وهو يستحي أنْ يُشافِهَك[1] بذلك، وقد أرسلَني إليكَ يسألُكَ أنْ تعقدَ لَهُ فيما بينَهُ وبينَكَ أُخُوَّةً يحتَسِبُها ويعتدُّ بها؛ إلَّا أنَّهُ يشترطُ فيها شروطاً: أولُها أنَّهُ لا يُحبُّ أنْ يشتهرَ ذلك، وثانيها ألَّا يكونَ بينَك وبينه مُزَاوَرَةٌ ولا مُلاقاة. فقال معروف: أمَّا أنا فإذا أحببْتُ أحداً لم أحبَّ أنْ أفارقَهُ ليلاً ولا نهاراً، وأزورُهُ في كلِّ وقت، وأوثِرُهُ على نفسي في كلِّ حال؛ وأنا أعقدُ لِبشرٍ أخوةً بيني وبينَه، ولكنِّي أزورُهُ متى أحببْت، وآمرُهُ بلقائي في مواضعَ نلتقي فيها إذا هو كرهَ زيارتي.

قالَ حسينٌ ٱلمغازليُّ: وكانَ هذا كلُّهُ من أمرِ بِشْرٍ معروفاً في بغداد، لا يجهلُهُ أحدٌ من أهلِها، إذْ لم يكنْ لِبغدادَ إمامٌ غيرُهُ وغيرُ ٱبنِ حنبل؛ فما كانَ أكثرَ عجَبِي حينَ كنْتُ عندَهُ يوماً وقد زارهُ (فَتْحُ الموْصِلي)، فقامَ فجاءَ بدارهِمَ ملءَ كفِّهِ ودفعَها إليّ وقال: ٱشترِ لنا أطيبَ ما تجدُ مِنَ ٱلطعام، وأطيبَ ما تجدُ مِنَ ٱلحلوى، وأطيبَ ما تجدُ مِنَ ٱلطِّيب، وما قالَ لي مثلَ ذلك قطّ، وهو الذي رأى ٱلفاكهةَ يوماً فقال: تَرْكُ هذه عبادة! وهو ٱلقائلُ لِأبي نصرِ ٱلصياد: لو أطعمْنَا أنفسَنا هذا ما خرجَتِ ٱلسمكة.

فذهبْتُ فٱشتريْتُ وٱنتقيْتُ وتخيَّرْت، ثُمَّ وضعْتُ ٱلطعامَ بينَ أيديهما، فرأيْتُه يأكلُ معهُ وما رأيْتُهُ أكلَ معَ غيرِه، ورأيْتُهُ منبسِطاً إليهِ وما لي عهدٌ كانَ بٱنبساطِهِ إلى أحد. وقد كنْتُ أخبرْتُهُ في ذلك النهارِ بخبرِ أحمدَ بْنِ حنبل، عَلِمْتُهُ من أدريسَ

---

(١) يشافهك: يحدّثك.

ٱلحداد: فإنَّهُ لما زالتِ ٱلمِحنةُ بعدَ أنْ ضرِبَ بينَ يدي ٱلمعتصمِ وصُرِفَ إلى بيتِه، حُمِلَ إليهِ مالٌ كثيرٌ من سَرَواتِ[1] بغدادَ وأهلِ ٱلخيرِ فيها، فردَّ جميعَ ذلك ولم يقبلْ منه قليلاً ولا كثيراً، وهو محتاجٌ إلى أيسرِه، وإلى الأقلِّ من أيسرِه، وإلى الشيءِ من أقلِّه، فجعلَ عمُّهُ إسحاقُ يَحْسَبُ ما وردَ ذلك اليوم، فكانَ خمسينَ ألفَ دينار، فقالَ له ٱلإمام: يا عمّ، أراكَ مشغولاً بحساب ما لا يُفيدُك. قال: قد رددْتَ اليومَ كذا وكذا ألِفاً وأنت محتاجٌ إلى حبةٍ من دانق. فقالَ ٱلإمام: يا عمّ، لو طلبْنَاهُ لم يأتِنا، وإنَّما أتانا لمَّا تركْناهُ.

* * *

قال المغَازلي: فنِمْتُ تلكَ الليلةَ وأنا أفكِّرُ في صنيعِ ٱلشيخ، وقد تعلَّقَ خاطري بهِ: كيف ٱنقلبَتِ ٱلحالُ معه، وأيُّ شيءٍ هذه الحال؟ وجعلْتُ أكِدُّ ذِهني لِأعرفَ ٱلحقيقةَ ٱلعقليَّةَ التي سَلَّطَتْ عليه هذه الضرورةَ فتسلَّطَ ٱلنعيمُ على نفسِه، وأنا أعلمُ أنَّ للقوم علوماً روحانيَّةً ليسَتْ في ٱلكتب، فمنها لا يتعلمونَهُ إلَّا مِنَ ٱلفقر، ومنها ما لاَ يتعلمونَهُ إلَّا مِنَ ٱلبلاء، ومنها، ومنها؛ ولكنْ ليسَ منها ما يتعلمونه من اللذات والشهوات؛ وذهبَ قلبي إلى أوهام كثيرةٍ ليسَ في جميعِها طائلٌ ولا بها معرفة، حتى غلبتْني عيناي، وأنا من وَهَجِ ٱلفِكرِ نائمٌ كٱلمريض، وقد ثَقُلَ رأسي وٱختلطَ فيهِ ما يُعْقَل بما لا يُعقَل.

فرأيْتُ أولَ ما رأيْتُ مَلِكاً جباراً يحكمُ مدينةً عظيمة، وقد أطلقَ ٱلمناديَ في جمْعِ كلِّ أطفالِ مدينتِه، فجيءَ بهم من كلِّ دار، ثُمَّ رأيْتُهُ قد جلسَ على سِريرِهِ وفي يدِهِ مِقراضٌ عظيم، قدِ ٱتخذَهُ على هيئةِ نَصلينِ[2] عريضينِ لو وُضِعَتْ بينهما رقبةٌ لَفَصلاها عن جسمِها؛ فكانَ هذا الجبارُ يتناولُ الطفلَ من أولئِك فيضعُ أصابعَ إحدى قدميهِ في شِقَّيِ ٱلمِقْراضِ فيقرضُها، فإذا هي تتناثرُ أسرعَ مِمَّا يقرِضُ ٱلمِقصُّ ٱلخيط، ثُمَّ يَرمي بٱلطفلِ مغشيًّا عليه، ويتناولُ غيرَهُ فيبتُرُ[3] أصابعَه، والأطفالُ يصرخون؛ وأنا أرى كلَّ ذلك ولا أملكُ إلَّا غيظي على هذا الجبارِ من حيثُ لا أستطيعُ أنْ أُمْضِيَ فيهِ هذا الغَيظَ فأقرضَ عنقَهُ بمقراضِه.

ثم رأيْتُهُ يأخذُ طفلاً صغيراً، فلمَّا جاءَتْ قدمُ ٱلطفلِ بينَ شِقَّيِ ٱلمِقراضِ صاح: يا

---

(١) السروات: الأغنياء.

(٢) نصل السيف: المكان القاطع منه. (٣) بتر: قطع.

ربّ، يا ربّ. فإذا ٱلمِقراضُ يلتوي فلا يصنعُ شيئاً، وكأنَّ فيهِ حجراً صَلْداً لا قَدماً رَخْصَة[1]. فتميَّزَ ٱلجبارُ مِنَ ٱلغيظِ وقال: مَنْ هذا الطفل؟ فسمعْتُ هاتفاً يهتف: هذا بشرٌ ٱلحافي! لا يبلغُ تاجُ مَلكٍ في ٱلأرضِ أنْ يكونَ لِقدمِهِ ٱلحافيةِ نعلاً عندَ ٱللهِ!

وكانَ إلى يميني رجلٌ يَتَوَضَّأُ وجهُهُ صلاحاً وتقوى، فقلْتُ لَه: مَنْ هذا ٱلطاغية[2]؟ ولِمَ ٱتخذَ ٱلمِقراضَ لِأقدامِ ٱلأطفالِ خاصّة؟

فقال: يا حُسين! إنَّ هذا الجبارَ هو ذُلُّ ٱلعيش، وهذا وَسْمُهُ لِأهلِ ٱلحياةِ على ٱلأرض، يُحقِّقُ بهِ في ٱلإنسانِ معنى ٱلبهيمةِ أولَ ما يَدِبُّ[3] على الأرض، حتى كأنَّهُ ذو حافرٍ لا ذو قَدَم.

قلْت: فما بالُ هذا الطفلِ لم يعملْ فيهِ ٱلمِقراض؟

قال: إنَّ لِلَّهِ عِباداً ٱستخصَّهم[4] لِنفسِه، أولُ علامتِهِ فيهم أنَّ ٱلذلَّ تحتَ أقدامِهم، وهم يجيئونَ في هذه ٱلحياةِ لإثباتِ ٱلقُدرةِ ٱلإنسانيَّةِ على حكم طبيعةِ ٱلشهواتِ ٱلتي هي نفسُها طبيعةُ الذل؛ فإذا ٱطَّرحَ أحدُهم لِلشهواتِ وزهدَ فيها، وٱستقامَ على ذلك في عَقْدِ نيَّةٍ وقوةِ إرادة، فليسَ ذلك بالزاهدِ كما يصفُهُ ٱلناس، ولكنَّهُ رجلٌ قويّ ٱختارتْهُ ٱلقدرةُ لِيحملَ أسلحةَ النفسِ في مَعاركِها ٱلطاحنة، كما يحملُ ٱلبطلُ ٱلأروعُ أسلحةَ ٱلجسم في معاركِهِ ٱلدامية: هذا يَتَعلَّمُ منه فنّ، وذاك يُتعلَّمُ منه فنٌّ آخر، وكلاهما يُرمَى بِهِ على ٱلموتِ لإيجادِ ٱلنوعِ ٱلمستعزِّ مِنَ ٱلحياة، فأولُ فضائلِهِ ٱلشعورُ بِٱلقوَّة، وآخرُ فضائلِهِ إيجادُ ٱلقوة.

* * *

قالَ ٱلمغازلي: وضَرَبَ النومُ على رأسي ضربةً أخرى، فإذا أنا في أرضٍ خبيثةٍ داخِنَةٍ، قدِ ٱرتفعَ لها دُخانٌ كثيفٌ أسودُ يتضرَّبُ بعضُهُ في بعضٍ رجعتُ أرى شُعَلاً حُمراً تذهبُ وتجيءُ كأنَّها أجسامٌ حيَّة، فوقعَ في وهمي أنَّ هؤلاءِ هُمُ الشياطينُ: إبليسُ وجنودُه، وسمعْتُ صارخاً يقول: يا بُشرَى! فَلْتبكِ ٱلسماءُ على ٱلأرض، لقد أكلَ بشرٌ ٱلحافي من أطيبِ ٱلطعامِ وأطيبِ ٱلحلوى بعدَ أن ٱستوى عندَهُ حجرُها ومَدَرُها[5]، وذهبُها وفضَّتُها! فعارضَهُ صائحٌ أسمعُ صوتَهُ ولا أرى شخصَه: ويلكَ يا زَلَنْبور[6]! إنَّ هذا شرٌّ علينا من عامَّةِ نُسكِهِ وعبادتِه؛ فهذا ـ ويحكَ ـ هو ٱلزهدُ الأعلى الذي كانَ لا

---

(1) رخصة: طريّة لدِنة.
(2) الطاغية: الظالم.
(3) يدبّ: يمشي.
(4) استخصّهم: استخلصهم.
(5) مدرها: مدنها وحضرها.
(6) زلنبور: هو اسم لبعض ولد إبليس.

يُطيقهُ بشر؛ إنّهُ إعناتٌ[1] سلَّطَهُ على نفسِه، فإنّي دفعتُ هذا (المغازليَّ) الأعمى القلب لِيُزيِّنَ لهُ ما فعلَ أحمدُ بْنُ حنبلٍ من ردِّه خمسينَ ألفَ دينارٍ على حاجتِه، زهداً وورعاً، وقوّةَ عزمٍ، ونفاذَ إرادة؛ وقلتُ: عسى أنْ تتحركَ في نفسِهِ شهوةُ الزهدِ فيَحْسُدَ أو يَغار، أو تُعجِبَهُ نفسُهُ فيكونُ لي من ذلك لَمّةٌ[2] بقلبِهِ فأوسوسُ لَه. فإنّا نأتي هؤلاءِ من أبوابِ الثوابِ كما نأتي غيرَهم من أبوابِ المعاصي، ونتورّعُ مع أهلِ الورَعِ كما نَتَسَخَّفُ مع أهلِ السُّخف؛ ولكنَّ الرجلَ رجلٌ وفيهِ حقيقةُ الزاهد، فقد أعطى القوةَ على جعلِ شهواتِ نفسِهِ أشخاصاً صاحيةً يُعاديها ويُقاتِلُها، فإذا أنا جعلتُ شهوتَهُ في اللذةِ قتلَ اللذة، وإذا جعلتُها في الكآبةِ قتلَ الكآبة، وليسَ الزاهدُ العابدُ هو الذي يتقشّفُ ويتعفّفُ، ويتخفّفُ ويتلفّفُ، فإنَّ كثيراً ما تكونُ هذه هي أوصافَ الذّلِّ والحمق، ويكونُ لها عملُ العبادةِ وفيها إثمُ المعصية. ولكنَّ الزاهدَ حقَّ الزاهدِ مَنْ أدارَ في هذه الأشياءِ عيناً قد تعلّمتِ النظرَ بحقِّهِ والإغضاءَ[3] بحقِّه؛ فهذا لا يُخطئهُ معنى الشرِّ إنْ لَبّسناهُ[4] عليهِ في صورةِ الخير، ولا معنى الخيرِ إنْ زوّرناهُ في صورةِ الشرّ، وبذلك يضعُ نفسَهُ في حيثُ شاءَ مِنَ المنزلة، لا في حيثُ شاءتِ الدنيا أنْ تضعَهُ من منازلِها الدنيئة.

وما أكلَ بشرٌ هذه الطيِّباتِ إلّا لِيُبادِرَ بها وسوستي ويردَّني عن نفسِهِ وعن اللَّمّةِ بقلبِه، فلو أنّهُ أعجبَهُ زهدُ ابنِ حنبلٍ ونظرَ من ذلك إلى زهدِ نفسِهِ لَحَبِطَ أجرُه؛ فبهذه الطيباتِ عالجَ نفسَهُ عِلاجَ مريض، وقد غيَّرَ على جوفِهِ طعاماً بطعام، كما يبدّلُ على جلدِهِ ثوباً بثوب؛ ولا شهوةَ لِلجلدِ في أحدِهما.

* * *

قال المغازلي: وثقُلَ النومُ عليَّ ثقلةً أخرى، فرأيتُني في وادٍ عظيم، وفي وسطِهِ مثلُ الطَّوْدِ[5] مِنَ الحجارةِ قد رُكِمَ بعضُها على بعض؛ ورأيتُني مع بشرٍ أقصُّ عليهِ خبرَ أحمدَ بنِ حنبل؛ فقال: انظرْ ـ ويحك ـ؛ إنَّ الناسَ يستعظمونها خمسينَ ألفَ دينار، وهي هنا في وادي الحقائقِ خمسونَ ألفَ حجرٍ لو أصابتْ أحمدَ لَقتلتْهُ ولكانتْ قبرَهُ آخرَ الدهر.

إنَّ المالَ يا بُنيَّ هو ما يعملُهُ المالُ لا جوهرُهُ مِنَ الذهبِ والفضّة، فإذا كنتَ

---

(١) إعنات: إتعاب.

(٢) اللمّة: مسّ الجنون.

(٣) الإغضاء بحقّه: الزراية وعدم تقديره.

(٤) لَبّسناه: موّهناه.

(٥) الطَّوْد، بسكون الواو: الجبل.

بِمَفَازةٍ[1] ليسَ فيها من يبيُعكَ شيئاً بذهبِك، فالترابُ والذهبُ هناك سواء؛ والفضائلُ هي ذهبُ الآخرة؛ فهنا تُجدِّدُ بالمالِ دنياك ٱلتي لا تبقى أكثرَ من بقائِك، وهناك تُجدِّدُ بالفضائلِ نفسَك ٱلتي تخلدُ بِخلُودِها.

ومعنى ٱلغِنى معنًى مُلْتبِسٌ على العقولِ ٱلآدميَّةِ لاجتماعِ ٱلشهواتِ فِيه، فحينَ يردّ أحمدُ بْنُ حنبلٍ خمسينَ ألفاً، يكونُ هذا المعنى قد صحَّحَ نفسَهُ في هذا العملِ وَجْهاً مِنَ التصحيح.

* * *

قال حسينٌ ٱلمغازليّ: وغطَّني[2] ٱلنومُ في أعماقِهِ غطَّةً أخرى؛ فإذا أنا في المسجدِ في درسِ ٱلإمامِ أحمَدَ، وهو يُحدِّثُ بحديثِ النبيِّ ﷺ: «إذا عظَّمَتْ أمتي ٱلدينارَ وٱلدرهم، نُزِعَ منها هيْبةُ الإسلام؛ وإذا تركوا ٱلأمرَ بِٱلمعروفِ وٱلنهيَ عنِ ٱلمنكر، حُرموا بركةَ ٱلوحي» وهمّ أنْ يتكلمَ في تفسيرِهِ ولكنَّهُ رآني فأمسَكَ[3] عنهُ وأقبل عليّ فقال: يا حسين! إذا ٱجتزأَ شيخُكَ بالرغيفِ فهذا عندَهُ هو قدْرُ الضرورة؛ فإنْ أكلَ ٱلطيباتِ فقدْ عرضَتْ حالٌ جعلَتْ هذه الطيباتِ عندَهُ هي قدرَ الضرورة؛ وفي هذه النفوسِ ٱلسماويَّةِ لا يكونُ ٱلجزءُ الأرضيُّ إلَّا محدوداً، فلا يكونُ محصولُهُ إلَّا ما ترى من قدرِ ٱلضرورةِ.

ولمَّا صغُرَ ٱلجزءُ الأرضيُّ في نفوسِ ٱلمسلمينَ ٱلأولينَ ملَكوا ٱلأرضَ كلَّها بقوةِ ٱلجزءِ ٱلسماويِّ فيها، إذْ كانَتْ إرادتُهم فوقَ ٱلأطماعِ وٱلشهوات، وكانَتْ بذلك لا تذلُّ ولا تضعفُ ولا تنكسر؛ فالآدميَّةُ كلُّها تنتهي إلى بعضِ صُوَرٍ، وهؤلاءِ هُمُ الذينَ محلُّهم في أعلاها

يا حسين! ألَا وإنَّ ردَّ خمسينَ ألفَ دينارٍ هو كذلك قدرُ الضرورة.

قالَ حسين: وذهبْتُ أعترضُ على الإمامِ بِمَا كانَ في نفسي من أنَّ هذا المالَ وإنْ لم يكُنْ من كسْبه، فقد كانَ يتحوَّلُ في يدِهِ عملاً من أعمالِ ٱلخير؛ وأُنسِيتُ أنَّ هذه الصَّدَقاتِ هي أوساخُ الناسِ وأقذارُ نفوسِهِم، فلمْ أكدْ أفتحُ فمي حتى رأيْتُ ٱلكلامَ يتحوَّلُ طِيناً في فمي لِيذكِّرني بهذا المعنى؛ وكِدْتُ أختنقُ فٱنتفضْتُ أتنفَّس، فطارَ ٱلنومُ وٱلحِلْمُ.

---

(١) المفازة: الطريق الضيّق.

(٢) غطني النوم: غلبني.

(٣) أمسك: توقّف وانقطع.

إبليسُ يُعلّم

٣

قالَ أحمدُ بْنُ مِسكين: ودارَ ٱلسبتُ الثالثُ، وجلسْتُ مجلسي لِلناسِ وقدِ ٱنتظمَتْ حَلْقَتُهم؛ فقامَ رجلٌ من عُرْضِ(١) ٱلمجلسِ فقال: إنَّ الحسَنَ بْنَ شُجاعٍ ٱلبلْخي تلميذَ ٱلإمامِ أحمدَ بْنِ حنبل، كانَ منذُ قريبٍ يُحدِّثُنا بأحاديثَ عنِ الشيطان، حفظْنا منها قولَه ﷺ: «إنَّ ٱلمؤمن يُنْضِي(٢) شيطانَه كما يُنضي أحدُكم بعيرَهُ في سفرِهِ». وكانَ الحسنُ يقولُ في تأويلِهِ: إنَّ شيطانَ ٱلكافرِ دَهينٌ سمينٌ كاسٍ، وشيطانَ ٱلمؤمنِ مَهزولٌ أشعثُ أغبرُ عارٍ. فهل يأكلُ الشيطانُ ويدَّهِنُ ويلبسُ لِيكونَ لَهُ أنْ يجوعَ معَ ٱلمؤمنِ ويَعرى ويتشعَّثَ ويَغْبَرّ؟

قالَ ٱبنُ مسكين: فقلْتُ في نفسي: لا حولَ ولا قوةَ إلّا بالله! ما أرى ٱلسائلَ إلّا شيطانَ هذا السائل؛ فإنَّ إبليسَ إذا أرادَ أنْ يَسْخَرَ مِنَ ٱلعالمِ ويُسمِعَهُ طَنْزَهُ وتهكمَهُ(٣)، حرَّكَ مَنْ يسألُهُ عنه ما هو وكيف هو؛ كأنّما يقولُ له: تَنَبَّهْ ـ ويحكَ ـ على معنايَ، فأنْتَ تتكلَّمُ وأنا أعمل، وأنْتَ صورةٌ مِنَ ٱلردِ عَلَيَّ، ولكنِّي حقيقةٌ مِنَ الرَدِّ عليك، وما أنت في محاربَتِكَ لي بالوعظِ إلّا كالذي يُريدُ أنْ يضربَ عُنُقَ عدوِّهِ بمائةِ ٱسمٍ وُضِعَتْ لِلسيف...

قال: وكنْتُ قد سمعْتُ خبراً عجيباً عن أبي عامرٍ قَبيصةَ بْنِ عُقْبَةَ الكوفيِّ ٱلمحدِّثِ ٱلحافظِ ٱلثقةِ أحدِ شيوخِ أحمدَ بْنِ حنبل؛ وهوَ ٱلرجلُ ٱلصالحُ العابدُ ٱلذي كانَ يُقالُ له: (راهبُ الكوفةِ)؛ من زهدِهِ وعبادتِهِ وٱحتباسِ نفسِهِ في داخلِهِ كأنَّما جَسَدُهُ جدارٌ بينَ نفسِهِ وبينَ ٱلدنيا، فقلْتُ ـ والله ـ لَأُغيظَنَّ ٱلشيطانَ بهذا الخبر، فإنَّ أسماءَ ٱلزهَّادِ والعبَّادِ وٱلصالحينَ هي في تاريخِ ٱلشياطينِ كأسماءِ المواقعِ ٱلتي

---

(١) عرْض، بتسكين الراء: جهة.

(٢) ينضي: يتعب ويهزل.

(٣) الطنز: السخرية والتهكم.

تنهزمُ فيها ٱلجيوش، وما الرجلُ العابدُ إلَّا صاحبَ الغَمَرات[1] معَ ٱلشيطان، وكأنَّه يحتملُ ٱلمكارهَ عن أمَّةٍ كاملةٍ بلْ عنِ ٱلبشريةِ كلِّها حيثُ كانَتْ مِنَ ٱلأرض، فالناسُ يحسبونَهُ قد تخلَّى مِنَ ٱلدنيا ويظنُّونَ ٱلتركَ أيسرَ شيء، وما علِموا أنَّ ٱلزهدَ لا يستقيمُ لِلزاهدِ حتى يجعلَ جسمَهُ كأنَّهُ نوعُ نظامٍ آخرَ غيرِ نظامِ أعضائِه؛ ولا أشَقَّ من ذلك على النفس. ومعجزةُ الزاهدِ أنَّهُ مكلفٌ أنْ يُخرجَ لِلناسِ أقوى القوةِ مِنَ ٱلمعاني ٱلتي هي عندَ ٱلناسِ أضعفُ الضعف؛ ولو أنَّ ملِكاً عظيماً تعبَ في جمع الدنيا وفتْحِ ٱلممالكِ حتى حِيزتْ[2] له جوانبُ ٱلأرض، لكَانَ عملُهُ هذا هو الوجهَ الآخَرَ لتعبِ الزاهدِ في مُجاهدَةِ هذه الدنيا وتركِها.

* * *

قال أحمدُ بْنُ مسكين: وقصصْتُ عليهمُ ٱلقصةَ فقلْت: كانَ أبو عامرٍ قَبيصةُ بْنُ عُقبةَ كثيرَ الفِكْرِ في ٱلشيطان، يوَدُّ لو رآهُ وناقَلَهُ ٱلكلامَ؛ وكانَ يتدبَّرُ ٱلأحاديثَ التي صحَّ ورودُها فيه، ويفسِّرُ معنى ٱلشيطانِ بأنَّهُ الروحُ الحيُّ لِلخَطأ على الأرض؛ والخطأُ يكونُ صواباً محوّلاً عن طريقتِهِ وجِهَتِهِ، ولهذا كانَ إبليسُ في ٱلأصلِ مَلَكاً مِنَ ٱلملائكَةِ وتحوّلَ عن طبيعتِهِ حينَ خُلِقَ آدمُ (عليه السلام)، أي وُجِدَ في ٱلكونِ روحُ ٱلخطأ حينَ وُجِدَ فيهِ ٱلروحُ ٱلذي سيُخطىء.

فلمَّا هبطَ آدمُ مِنَ ٱلجنةِ وحُرِمَها هو وزوجُهُ وذرّيته، كانَ إبليسُ (لعنهُ ٱللهُ) هو معنى بقاءِ هذا الحِرمانِ وٱستمرارِهِ على الدهر، فكأنَّ هذه الآدميَّةَ أُخرِجَتْ مِنَ ٱلجنة، وأُخرِجَتْ معها قوةٌ لا تَزالُ تَصُدُّها عنها، لِيضطربَا في الكِفاحِ مَلِيًّا من زمنٍ هو عمرُ كلِّ إنسان، وهذا هو العدلُ الإلهيّ: لم يَعرفْ آدمُ حقَّ ٱلجنَّة، فعُوقِبَ ألَّا يأخذَها إلَّا بحقِّها، وأنْ يُقاتِل في سبيلِ الخيرِ قوةَ ٱلشرّ.

وباتَ أبو عامرٍ ذاتَ ليلةٍ يُفكِّرُ في هذا ونحوِهِ بعدَ أنْ فرغَ من صلاتِهِ وقراءتِه، ثُمَّ هَوَّمَ[3] فكانَ بينَ ٱليقظةِ والنوم، وذلك حينَ تكونُ ٱلعينُ نائمةً وٱلعقلُ لا يزالُ متنبهاً، فكأنَّ ٱلعينَ مترجِمَةٌ تُبصرُ من تحتِ أجفانِها بصراً يُشارِكُها فيهِ ٱلعقل.

فرأى شيخُنا أبو عامرٍ صورةَ إبليسَ جاءَهُ في زِيِّ رجلٍ زاهد، حسَنِ ٱلسَّمْتِ[4] طيِّبِ الريح، نظيفِ ٱلهيئة، وكادَ يُشَبَّهُ عليهِ لولا أنَّهُ قد عرفَهُ من عينيه.

---

(١) الغمرات: الحروب.
(٢) حِيزت: تحصّلت.
(٣) هوّم: تحيّر.
(٤) السمت: الهيئة والمظهر.

فإنّ عيني الكاذبِ تَصدُقانِ عنه، وقد عَلِمَ ٱللَّهُ أنَّ الكاذبَ آدميٌّ قَفْرٌ[1] كالْمَتاهَةِ مِنَ الأرض، فجعلَ عينيهِ كالْعلاماتِ لِمَنْ خاضَ ٱلفلاة.

وظهرَ ٱلشيطانُ زاهداً عابداً تَقيًّا نَقيًّا كأنَّهُ دِينٌ صحيحٌ خُلِقَ بَشراً، فَصَرَخَ فيهِ أبو عامر: عليكَ لَعنةُ ٱلله! أمعصيةٌ في ثوبِ ٱلطاعة؟

قالَ إبليس: يا أبا عامر! لو لم تقلِ: ٱلمعصيةُ إنَّها طاعةٌ لم يُقارِفْها[2] أحد. وهل خُلقَتِ ٱلشهواتُ في نفسِ ٱلإنسانِ وغريزتِهِ إلّا لِتقريبِ هذه ٱلمعاصي منَ ٱلنفس، وجعْلِ كلٍّ منها طاعةً لِشيءٍ ما؛ فتقعُ ٱلمعصيةُ بأنَّها طاعةٌ لا بأنَّها معصية؟ أوَ لا ترى يا أبا عامرٍ أنَّ ٱلحِيلةَ مُحكمةٌ في ٱلداخلِ مِنَ ٱلجسم أكثرَ مِمَّا هي محكمةٌ في ٱلخارجِ عنه، وأنَّهُ لولا أنَّ هذا الباطنَ بهذا المعنى وهذا العملِ لَمَا كانَ لِظاهرِ ٱلوجودِ كلِّهِ في ٱلأنسانِ معنًى ولا عمل؟

قالَ الشيخ: عليكَ لعنةُ ٱلله! فما أرى ٱلموتَ قد خُلِقَ إلّا ردًّا عليكَ أنت، لِيتبيَّنَ ٱلناسُ أنَّكَ ٱلممتلىءُ ٱلممتلىءُ، ولكنَّك ٱلفارغُ ٱلفارغ؛ بل كلُّ شهواتِكَ سخريةٌ منك وردٌّ عليك، فلا طعْمَ للذةٍ من لذاتِكِ إلّا وهِيَ تموت، وإنَّما تمامُ وجودِها ساعةَ تنقضي؛ ومتى قالَتِ ٱللذةُ: قدِ ٱنتهيْت. فقد وصفَتْ نفسَها أبلغَ الوصف.

قالَ إبليسُ: يا أبا عامر، ولكنَّ ٱللذةَ لا تموتُ حتى تَلِدَ ما يُبقيها حيَّة، فهي تَلِدُ ٱلحنينَ إليها، وهو لا يسكنُ حتى يعودَ لَذةً تنقضي وتَلِد.

قال الشيخ: معاني ٱلتراب، معاني ٱلتراب؛ كلُّ نَبْتَةٍ فيها بِذْرتُها، ولكنْ (عليكَ لعنةُ الله) لِماذا جِئْتني في هذه الصورة؟

قال إبليسُ: لِأنّي لا ألبسُ إلّا محبَّةَ ٱلقلبِ الآدميّ، ولولا ذلك لطردَتْني ٱلقلوبُ كلُّها وبَطَلَ عملي فيها، وهل عملي إلّا التلبيسُ وٱلتزوير؛ أفتدري يا أبا عامرٍ أنّي لا أعتري ٱلحيوانَ قطُّ.

قالَ الشيخ: لِأنَّ ٱلحيوانَ لا ينظرُ إلى الشيءِ إلّا نظرةً واحدةً، هي نظرُهُ وفهمُهُ معاً، فلا محلَّ لِلتزويرِ مع هذهِ النظرةِ الواحدة؛ وصدقَ ٱللَّهُ العظيم: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾. فأنْتَ أيُّها ٱلشيطانُ ٱلتزوير، وٱلتزويرُ

---

(1) قفر: صحراء.

(2) يقارفها: يقع فيها.

موضعُه ٱلكذب؛ فمَنْ لم يكذبْ في ٱلفكرِ ولا في ٱلنظرِ ولا في ٱلفهمِ ولا في ٱلرجاء، فليسَ لك عندَهُ عمل.

قالَ إبليس: يا أبا عامر! وهلْ ترى (رحمَكَ ٱلله) أعجبَ وأغربَ وأدعى إلى الهُزءِ والسخريةِ من أنّ أعظمَ العُقلاءِ الزهَّادِ العُبَّادِ، هو في جملةِ معانيهِ حيوانٌ ليسَ لَهُ إلّا نظرةٌ واحدةٌ في كلِّ شيء؟

قالَ الشيخ: عليكَ وعليك...؛ إنَّ الحيوانَ شيءٌ واحدٌ، فهو طبيعةٌ مسخَّرةٌ بنظامِها، ولكنَّ ٱلإنسانَ أشياءُ متناقِضَةٌ بطبيعتِها، فألوهيتُهُ أنْ يُقِرَّ ٱلنظامَ بين هذه ٱلمتناقِضَات، كأنّما ٱمتُحِنَ فأعطَى من جسمِهِ كوناً فيهِ عناصرُ ٱلاضطراب، وحولَهُ عناصرُ ٱلاضطراب، ثم قيل لَهُ دَبِّرْه.

فضحكَ إبليس. قال الشيخ: مِمَّ ضحكْتَ لَعنَكَ ٱلله؟

قال: ضحكْتُ من أنَّك أعلَمتَني حقيقةَ ٱلإبليسية، فالزهَّادُ همُ ٱلصالحونَ لِأنْ يكونوا أعظمَ ٱلأبالسة...

قالَ الشيخ: عليكَ لعنةُ الله، فما هي تلك ٱلحقيقةُ التي زعمْت؟

قالَ إبليس: ـ واللَّهِ ـ يا أبا عامر، ما غلا إنسانٌ في زَعْمِ ٱلتقوى وٱلفضيلةِ إلَّا كانَتْ هذه هي ٱلإبليسيَّة؛ وسأعلمُكَ يا أبا عامرٍ حقيقةَ الزهدِ والعِبادة. فلا تقلْ إنَّها ألوهيَّةٌ تُقِرُّ ٱلنظامَ بينَ متناقِضاتِ الإنسانِ ومتناقضاتِ الطبيعة.

قال الشيخ: وتسخَرُ منّي لَعنَكَ الله؟ فمتى كنْتَ تعلَمُ ٱلحقيقةَ والفضيلة؟

قالَ إبليس: أوَ لم أكنْ شيخَ ٱلملائكة؟ فمَنْ أجدرُ من شيخِ ٱلملائكةِ أنْ يكونَ عالمَهَا ومعلِّمَها؟

قال: عليكَ لعنةُ ٱلله؛ فما هي حقيقةُ الزهدِ وٱلعِبادة؟

قالَ إبليس: حقيقتُها يا أبا عامر، هي ٱلتي أعجزتْني في نبيِّكُم.

قالَ الشيخ: ﷺ؛ فما هي؟

قالَ إبليس: هي ثلاثٌ بها نظامُ ٱلنفس، ونظامُ ٱلعالم، ونظامُ ٱللذات وٱلشهوات: أنْ تكونَ لكَ تقوى، ثُمَّ يكونَ لك فكرٌ من هذه التقوى، ثُمَّ يكونَ لكَ نظرٌ إلى العالمِ من هذا الفكر. ما ٱجتمَعتْ هذه الثلاثُ في إنسانٍ إلَّا قَهرَ الدنيا وقَهر إبليس.

فإنْ كانتِ ٱلتقوى وحدَها ـ كتقوى أكثرِ ٱلزهَّادِ وٱلرهبان ـ فما أيسرَ أنْ أجعلَ ٱلنظرَ منها نظرَ الغفلةِ وٱلجُبْنِ وٱلبَلادةِ وٱلفضائلِ ٱلكاذبة، وإنْ كانَ الفكرُ وحدَه ـ كفكر ٱلعلماءِ وٱلشعراء ـ فما أهونَ أنْ أجعلَ النظرَ بِهِ نظرَ ٱلزَّيغِ وٱلإلحادِ وٱلبهيمةِ وٱلرذائلِ ٱلصريحة.

قال الشيخ: صدقَ ٱللَّهُ العظيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾.

قال إبليسُ: يا أبا عامر! ما يضرُني ـ والله ـ أنْ أفسِّرَ لك، فإنَّ قارورةً مِنَ ٱلصِّبْغِ لا تَصْبغُ البحر، وأنا أعدُّ الزهادَ والعلماءَ المصلحينَ فأضَعُ في الناسِ بجانبِ كلِّ واحدٍ منهم مائةَ ألفِ ٱمرأةٍ مفتونة، ومائةَ ألفِ رجلٍ فاسق، ومائةَ ألفِ مخلوقٍ ظالم، فلو أنَّكَ صَبَغْتَ البحرَ بملءِ قارورةٍ حمراءَ لَمَا صبغْتِ ٱلبحرَ ٱلإنسانيَّ بالزاهدِ وٱلمصلح، ما دامَ ٱلمصلحُ شيئاً غيرَ ٱلسيف، وما دامَ ٱلزاهدُ شيئاً غيرَ ٱلحاكم.

قالَ ٱلشيخ: لعنَكَ ٱللَّهُ مِنْ شيطانٍ عارِم، فإذا وضعْتَ ٱلمصلحَ بينَ مائةِ ألفِ فاسد، فهل هذه إلَّا طريقةٌ شيطانيَّةٌ لإفسادِه؟

قالَ إبليس: ومائةَ ألفِ ٱمرأةٍ فتَّانةٍ مفتونةٍ يا أبا عامر، كلُّ واحدةٍ تحسبُ جسمَها . . .

فصرخَ ٱلشيخ: اُغْرُبْ عنِّي عليكَ لعنةُ الله!

قالَ إبليس: ولكنَّ الآيةَ الآيةَ يا أبا عمر. لقد لقيْتُ ٱلمسيحَ وجرَّبْتُهُ وهو كانَ تفسيرَها.

قالَ الشيخ: عليهِ السلام! وعليكَ أنت لعنةُ الله! فكيفَ قال؟ وكيف صنع؟

قالَ إبليس: ألقيْتُ بهِ جائعاً في ٱلصحراءِ لا يجدُ ما يَطْعَمُهُ، ولا يظنُّ أنَّهُ يجدُ، ولا يرجو أنْ يظنَّ؛ ثُمَّ قلْتُ لَه: إنْ كنْتَ رُوحَ ٱللَّهِ وكلمتَهُ كما تزعمُ فمُرْ هذا الحجَرَ ينقلبْ خبزاً. فكانَ تقيًّا، فتذكَّر فإذا هو مُبْصِر، فقال: ليسَ بالخبزِ وحدَهُ يحيا ٱلإنسان، فمثلُ هذا لو ماتَ جوعاً لم يتحوَّلْ، لِأنَّ ٱلموتَ إتمامُ حقيقتِهِ ٱلساميةِ فوقَ هذه الدنيا، ولو مُلِئتْ لَهُ ٱلدنيا خبزاً وهو جائعٌ لم يتحوّل، لِأنَّ لَهُ بَصَراً من فوقِ ٱلخبزِ إلى حقيقتِهِ ٱلسماوية؛ فليسَ بِالخبزِ وحدَهُ يحيا؛ بل بمعانٍ أخرى هي إشباعُ حقيقتِهِ ٱلسماويةِ التي لا شهوةَ لها.

ثمّ أرتقيتُ[1] بهِ إلى ذروةِ جبلٍ وأريْتُهُ ممالكَ ٱلخافِقَين[2]، كشفْتُها كلَّها لعينيهِ وقلْتُ له: هذا كلُّهُ لكَ إذا أنت سجدْتَ لي. فكان متقياً، فتذكّرَ فإذا هو مُبصِر: أبصرَ حقيقةَ الخيالِ الذي جَسَّمْتُهُ له، وعَلِمَ أنَّ الشيطانَ يُعطي مثلَ معاني هذه الممالكِ في جَرعةِ خمر، كما يُعطيها في ساعةِ لذة، كما يُعطيها في شِفاءِ غيظٍ بالقتلِ والأذى؛ ثُمَّ لا يبقَى من كلِّ ذلك باقٍ غيرُ الإثم، ولا يصحُّ منه صحيحٌ إلّا الحرام. ومَن ملَكَ ٱلدنيا نفسَها لم يبقَ لها إذا بقيَتْ فهي خيَالٌ في جَرعةِ ٱلحياة، كما هي خيالٌ في جرعةِ ٱلخمر.

يا أبا عامر؛ إنَّ هذا ٱلنظر، ٱلذي وراءَهُ التذكُّر، الذي وراءَهُ ٱلتقوى، التي وراءَها ٱلله ـ هذا وحدَهُ هو القوةُ التي تتناولُ شهواتِ الدنيا فتُصفِّيها أربعَ مراتٍ حتى تعودَ بها إلى حقائِقها الترابيةِ الصغيرةِ التي آخرُها القبر، وآخرُ وجودِها التلاشي.

فالبصرُ الكاشفُ الذي يُجرِّدُ الأشياءَ من سِحرِها ٱلوهميّ، هذا هو كلُّ السرّ.

* * *

قال الشيخ: لعَنَك ٱلله؛ فكيف مع هذا تفتُنُ ٱلمؤمن؟

قالَ إبليس: يا أبا عامر، هذا سؤالٌ شيطانيّ... تُريدُ ـ ويحَكَ ـ أن تحتالَ على الشيطان؟ ولكن ما يضرُّني أنْ أفسرَها لك.

ليسَ ٱلإيمانُ هوَ ٱلاعتقادَ ولا العملَ، ولو كانَ من هذينِ لَمَا شَقَّ على أحدٍ ولَصلُحَتِ ٱلدنيا وأهلُها؛ إنَّما الإيمانُ وضعُ يقينٍ خفيٍّ يكونُ مَعَ ٱلغريزةِ في مَقرِّها، ويصلُحُ أنْ يكونَ في مقرِّها لِتَصْدُرَ عنهُ أعمالُ الغريزة؛ وهذا ٱليقينُ لا يصلُحُ كذلك إلّا إذا كانَ يقيناً ثابتاً بِمَا هو أكبرُ مِنَ الدنيا، فيرجعُ إليهِ الإنسانُ فيتذكّرُ فيُبْصِر. هناك ميراثٌ مِنَ الآخرةِ لِلمؤمن، فٱليقينُ بهذا ٱلميراثِ هو سِرُّ ٱلإيمان.

وٱلعملُ الشيطانيُّ لا يكونُ إلّا في إفسادِ هذا اليقينِ ومُعارضةِ ٱلخيالِ ٱلعظيمِ ٱلذي فيهِ بالحقائقِ ٱلصغيرةِ التي تظهرُ لِلمغفلِ عظيمة، كما تُشَبُّ نارٌ أكبرُ من قُرصِ ٱلشمسِ ثُمَّ يُقالُ لِلأبلهِ: أُنظرْ بعينيك، فيُصدِّقُ أنّها أكبرُ مِنَ ٱلشمس.

ومتى صغُرَ هذا اليقينُ وكانَتِ ٱلحقائقُ الدنيويَّةُ أكبرَ منه في النفس؛ فأيسرُ أسبابِ الحياةِ حينئذٍ يُفسِدُ ٱلمعتقَدَ ويُسقِطُ ٱلفضيلة؛ وبدرهمٍ واحدٍ يُوجَدُ ٱللصُّ حينئذٍ.

---

(١) ارتقيت: صعدت.

(٢) الخافقين: المشرق والمغرب.

أما إذا ثبتَ ٱليقينُ فٱلشيطانُ مَعَ ٱلإنسانِ يصغرُ ثُمَّ يصغُر، ويَعجزُ ثُمَّ يعجز. حتى لَيرجعُ مثلَ ٱلدرهمِ إذا طمِعَ الطامعُ أنْ يجعلَ ٱلرجلَ الغنيَّ ٱلكثيرَ ٱلمالِ لِصًّا مِنَ ٱللصوص بهذا الدرهم.

قالَ الشيخ: لعَنَكَ الله! فإنْ لم تستطعْ إفسادَ هذا اليقينِ فكيفَ تصنعُ في فتنةِ ٱلمؤمن؟

قالَ إبليس: يا أبا عامر، إنْ لم أستطعْ إفسادَ ٱليقينِ زدْتُهُ يقينياً فيفسد، وٱستحسانُ الرجلِ لأعمالِهِ ٱلساميةِ قد يكونُ هو أولَ أعمالِهِ ٱلسافلة؛ وبأيِّ عجيبٍ يكونُ ٱلشيطانُ شيطاناً إلَّا بمثلِ هذا؟

* * *

قالَ أحمدُ بْنُ مسكين: وغضبَ ٱلشيخ، فمدَّ يدَهُ فأخذَ فيها عُنُقَ إبليسَ وقد رآهُ دقيقاً، ثُمَّ عَصرهُ عَصْراً شديداً يُريدُ خنْقَه؛ فقهقَهَ ٱلشيطانُ ساخراً منه. ويتنبَّهُ الشيخ، فإذا هو يشدُّ بيدِهِ ٱليمنى على يدِهِ ٱليسرى....

الدنيا والدرهم

٤

قالَ أحمدُ بْنُ مِسكينٍ: وأزِفَ[١] ترحُلي عن (بلْخ)، وتهيأتُ لِلخروجِ، ولم يبقَ من مدةِ مَقِيلي بها إلَّا أيامٌ يجيءُ فيها ٱلسبتُ الرابع، وكانَ قَدْ وقعَتْ مُماراةٌ بيني وبينَ مفتي (بلْخ) أبي إسحاقَ إبراهِيمَ بْنِ يوسفَ ٱلباهليّ تلميذِ أبي يوسفَ صاحبِ ٱلإمام أبي حَنيفةِ، ويزعمونَ أنَّهُ شحيحٌ على ٱلمال، وأنَّهُ يَتَغَلَّلُهُ من مُسْتَغَلَّاتٍ كثيرَة[٢]، فكأنَّما غَشِيَتْهُ[٣] غمامتي، فهو لا يرى أنْ أتكلمَ في الزهد، ويحسِبُ هذا الزهدَ تَمَاوُتَ العُبَّاد، ونَفْضَ الأيدي مِنَ ٱلدنيا، وسُوءَ ٱلمصاحبةِ لِمَا يُنعِمُ ٱللَّهُ بهِ على العبد، وخذلانَ ٱلقوةِ في ٱلبدن، وما جرى هذا ٱلمجرى من تزويرِ ٱلحياةِ بالأباطيلِ ٱلتي زَعَمَ أنَّها أباطيلُ ٱلطاعاتِ وما أقرَبَها مِنْ أباطيلِ ٱلمعصية. ولم يكنْ هذا المفتى قد سمعني ولا حضرَ مجلسي، ولولا الذي لم يعرفْهُ من ذلك لقد كانَ عرف.

وجادلْتُهُ[٤] فرأيْتُهُ واهِنَ[٥] الدليل، ضعيفَ ٱلحُجَّة، يُخَمِّنُ تخمينَ فقيه، وينظرُ إلى الخفايا من حقائقِ النفوسِ نظرَ صاحبِ ٱلنصِّ إلى الظاهر، كأنَّ ٱلحقيقةَ إذا أُلقِيَتْ على الناسِ مضَتْ نافذةً كفتوى المفتي... ويزعُم أنَّ ٱلوعظ وعظُ ٱلفقهاء، يقولون: هذا حرام. فيكونُ حراماً لا يُقارفُهُ[٦] أحد، وهذا حلالٌ. فيكونُ حلالاً لا يتركُهُ أحد، وهو كانَ بعيداً عن حقيقةِ ٱلوعظ ومَدَاخلِهِ إلى النفسِ وسياستِهِ فيها، ولا يعرفُ أنَّ الحقيقةَ كالأنثى: إنْ لم تُزَيَّنْ بزينتِها لم تَسْتَهْوِ أحداً؛ وأنَّ ٱلموعظةَ إنْ لم تَتأدَّ في أسلوبِها الحيِّ كانَتْ بالباطلِ أشبَه، وأنَّهُ لا يُغيِّرُ ٱلنفسَ إلَّا النفسُ التي فيها قوةُ ٱلتحويلِ وٱلتغيير، كنفوسِ ٱلأنبياءِ ومَنْ كانَ في طريقةِ رُوحِهم،

---

(١) أزف: حان.
(٢) المستغلّات: أصول الأموال.
(٣) غشيته: غطته.
(٤) جادلته: ناقشته.
(٥) واهن: ضعيف.
(٦) يقارفه: يقع فيه.

وأنَّ هذه الصناعةَ إِنَّما هي وضعُ نورِ ٱلبصيرةِ في الكلام، لا وضعُ ٱلقِياسِ وٱلحُجَّة، وأنَّ ٱلرجلَ ٱلزاهدَ ٱلصحيحَ الزهد، إِنَّما هو حياةٌ تلبسُها الحقيقةُ لِتكونَ بِهِ شيئاً في ٱلحياة والعمل. لا شيئاً غيرَ القولِ والتوهُّم، فيكون إلهامُها فيه كحرارةِ ٱلنارِ في ٱلنار: مَنْ وَاتاها أحسَّها.

ولَعَمْري، كم من فقيهٍ يقولُ للناس: هذا حرام. فلا يزيدُ هذا الحرامَ إِلَّا ظهوراً وٱنكشافاً ما دامَ لا ينطقُ إِلَّا نطقَ ٱلكتب، ولا يُحسنُ أنْ يصِلَ بينَ ٱلنفسِ والشَّرْع، وقد خلا مِنَ القوَّةِ التي تجعلُهُ روحاً تتعلَّقُ ٱلأرواحُ بها وتضعُهُ بينَ ٱلناسِ في موضعٍ يكونُ بهِ في ٱعتبارِهم كأنَّهُ آتٍ مِنَ ٱلجنَّةِ منذُ قريب، راجعٌ إليها بعد قريب.

وٱلفقيهُ ٱلذي يتعلَّقُ بالمالِ وشهواتِ ٱلنفس، ولا يجعلُ هَمَّهُ إِلَّا زيادةَ ٱلرزقِ وحظَّ الدنيا ـ هو الفقيهُ الفاسدُ الصورةِ في خيالِ ٱلناس، يُفْهِمُهم أولَ شيءٍ أَلَّا يَفْهموا عنه؛ إذ جِرْصُهُ فوقَ بصيرتِهِ، ولَهُ في ٱلنفوسِ رائحةُ ٱلخبز، ولَهُ معنى: خمسٌ وخمسٌ عشرة. . .[1] وكأنَّ دنياهُ وضَعَتْ فيه شيئاً فاسداً غريباً يُفسِدُ ٱلحقيقةَ ٱلتي يتكلَّمُ بها؛ ولسْتُ أدري ما هو هذا الشيء، ولكنِّي رأيْتُ فقهاءَ يعِظونَ ويتكلمونَ على الناسِ في ٱلحرامِ وٱلحلالِ وفي نصِّ كتابِ ٱللَّهِ وسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ، ثمَّ لم أجدْ لِكلامِهم نفعاً ولا ردًّا، إذْ يُلْهِمُون الناسَ بأرواحِهم غيرَ ٱلمعنى ٱلذي يتكلمون فيه؛ وتَسْخَرُ ٱلحقيقةُ منهم ـ على خَطَرِهم[2] وجلالِ شأنِهم ـ بذاتِ الأسلوبِ ٱلذي تسخَرُ بِهِ من لِصٍّ يعِظُ لِصًّا آخرَ فيقول له: لا تَسرِق. . .

* * *

قالَ ٱبْنُ مسكين: فلمَّا دارَ يومُ ٱلسبتِ أقبلَ ٱلناسُ على ٱلمسجدِ أفواجاً، وكانوا قد تَعالَموا إِزْمَاعِي ٱلرحيلَ عن بلدِهم ـ وجاءَ (لقمانُ الأمَّةِ) في أشياعِهِ وأصحابِه، وجاءَ أبو إسحاقَ المُفتي في جماعتِه؛ وٱستقرَّ بيَ ٱلمجلسُ فنفَذْتُ ٱلناسَ بنظَري، فكأنَّهُم من كثرتِهِم نَباتٌ غطَّى ٱلأرض، فأذكرني هذا شيخَنا السريَّ بْنَ مُغلِّسٍ ٱلسقَطيّ[3]، وكانَ قد لزمَ دارَهُ في بغدادَ لا يخرجُ منها ولا يراهُ إِلَّا من قَصَدَ إليه، وهممْتُ أنْ أجعلَ ٱلموعظةَ في شرحِ كلمتِهِ ٱلمشهورة: «لا تَصِحُّ ٱلمحبَّةُ بينَ

---

(١) يقصد من ذلك أن الحياة عملية حسابية.

(٢) خطرهم: أهميتهم. (٣) السقط: رديء المتاع، وبائعه يسمّى السقطي.

ٱثنينِ حتى يقولَ أحدُهما للآخر: يا أنا». وما نقلوا عنه من أنَّهُ قالَ مرةً لِبعضِ أصحابِه: منذُ ثلاثينَ سنةً وأنا في الاستغفارِ من قولي: (الحمدُ لله). فقالَ صاحبُه: وكيف ذلك؟ قال: وقعَ ببغدادَ حريقٌ، فٱستقبلَني رجلٌ فقال: نجا حانوتُك. فقلْتُ: الحمدُ لِلَّه فأنا نادمٌ من ذلك الوقتِ على ما قلْت؛ إذْ أردْتُ لِنفسي خيراً مِنَ ٱلناس!

قالَ ٱبْنُ مسكين: ولكنِّي أحببْتُ أنْ أُكلِّمَ ٱلمُفتي ومالَ المُفتي؛ فحدثْتُهُم حديثَ معرفتي بالسَّريّ: أنِّي سمعْتُ يوماً (غَيْلانَ ٱلخياط) يقول: إنَّ السريَّ كانَ اشترى كُرَّ[1] لوز بستين ديناراً، وأثبتَهُ في رزنامجهِ[2] وكتبَ أمامَهُ: ربحُهُ ثلاثةُ دنانير؛ فلم يلبثْ أنْ غلا السعرُ فبلغَ تسعينَ ديناراً؛ فأتاهُ ٱلدلالُ الذي كانَ ٱشترى لَهُ فقال: أُريدُ ذلك اللوز. قال الشيخ: خذْهُ. قال: بكَم؟ فقال: بثلاثةٍ وستينَ ديناراً. وكانَ ٱلدلالُ رجلاً صالحاً، فقالَ لِلشيخ: إنَّ اللوزَ قد صارَ ٱلكُرُّ بتسعين. قال السريّ: ولكنِّي عقدْتُ بيني وبينَ اللّهِ عقْداً لا أحلُّه، فلسْتُ أبيعُ إلَّا بثلاثةٍ وستينَ ديناراً. فقالَ الدلّال: وأنا قد عقدْتُ بيني وبينَ ٱللّهِ عقداً لا أحلّه، ألّا أَغشَّ مسلماً، فلسْتُ أشتري منك إلّا بتسعين؛ فلا الدلّالُ ٱشترى منه، ولا السريُّ باعه...!

قالَ أحمدُ بْنُ مسكين: فلمَّا سمعْتُ ذلك لم تكنْ لي هِمَّةٌ إلّا أنْ ألقى الشيخَ وأصحَبَهُ وآخذَ عنه، فلم أُعرِجْ[3] على شيءٍ حتى كنْتُ في ٱلمسجدِ الذي يُصلِّي فيه، فأجدُهُ في حَلْقتِهِ وعندَهُ مِمَنْ كنْتُ أعرفُهم: عبدُ ٱلله بْنُ أحمد بْنِ حنبل، وإدريسُ الحداد، وعلي بْنُ سعيدِ ٱلرازي، وحولَهُ خلقٌ كثيرٌ وهو فيهم كالشجَرةِ الخضراءِ بينَ الهشيمِ تعلوهُ نَضْرةُ روحِه، وكأنَّما يُمدُّهُ بالنورِ عِرقٌ مِنَ ٱلسماء، فهو يتلألأُ لِلعين؛ ولا يملكُ الناظرُ إليهِ إلّا أنْ يُحِسَّ في ذاتِ نفسِهِ أنَّهُ الأدنى، من رؤيتِهِ في ذاتِ نفسِهِ أنَّ هذا هُوَ الإنسانُ الأعلى.

ورأيْتُ على وجهِهِ آلاماً تمسَحُهُ مِسْحةَ ٱلأشواقِ لا مِسْحَةَ ٱلآلام، آثارُ ما يجدُهُ في روحِهِ ٱلقويَّة، لا كآلامِ ٱلناسِ ٱلتي هي آثارُ ٱلحِرمانِ في أرواحِهِمُ ٱلواهنةِ ٱلضعيفةِ فلا تمسحُ وجوهَهم إلّا مِسحةَ الغمِّ والكآبة.

---

(١) الكر، بضم الكاف هو مكيال عظيم يقدرون فيه الحساب، يساوي أربعين إردباً مصرياً.

(٢) رزنامجه: دفتر حساباته.

(٣) أعرّج: أمل، ألو.

وما يُخطِئُ ٱلنظرُ في تمييزِ آلامِ السماءِ على هذهِ ٱلوجوهِ ٱلسعيدةِ مِنْ آلامِ الأرضِ في ٱلوجوهِ ٱلأخرى، فإنَّ الأولى تَتَندَّى على رُوحِ الناظرِ بمثلِ الطَّلِّ إذا قَطَّرَهُ ٱلفجر، والأخرى تَتَثَوَّرُ في روحِهِ كما تَهيجُ الغَبَرَةُ إذا ضربَتِ ٱلريحُ ٱلأرض.

كانَ ٱلشيخُ في وجودٍ فوقَ وجودِنا؛ فلا تتلوَّنُ لَهُ ٱلأشياءُ ولا تعدو عندَهُ ما هي في نفسِها، ولا يحملُ الشيءُ لَهُ إلَّا معناهُ من حيثُ يَصلُحُ أو لا يصلُح، ومن حيثُ ينبغي أو لا ينبغي. فإنَّما تتلوَّنُ الأشياءُ عندَ ما يضعُ ٱلشيطانُ عينَهُ في عينِ ٱلناظرِ إليها؛ وإنَّما تزيدُ وتنقُصُ في القلبِ عندَما يكونُ روحُ الشيطانِ في ٱلقلْب؛ وإنَّما يَشتبِهُ ما ينبغي وما لا ينبغي عندَ ما يأتي الشيءُ من جهتين: جهتِهِ من طبيعتِهِ هو، وجهتِهِ من طبيعتِنا نحن. وبهذا قد يجمعُ ٱلإنسانُ ٱلمالَ ثُمَّ لا يجدُ في ٱلمالِ معنى ٱلغِنى، وقد تتَّفِقُ أسبابُ ٱلنعيمِ ولا يكونُ منها إلَّا الذُّلّ. وكم مِن إنسانٍ يجدُ وكأنَّهُ لم يجدْ إلَّا عكسَ ما كانَ يبغِي، وآخَرَ لم يجدْ شيئاً ووجدَ بذلك راحتَه.

* * *

قالَ ٱبنُ مسكين: وما كانَ أشدَّ عجبي حينَ تكلَّمَ الشيخ، فقد أخذَ يُجيبُ عمَّا في نفسي ولم أسألْه، كأنَّ ٱلذي في فكري قد ٱنتقلَ إليه؛ فروَى الحديث: «إذا عظَّمَتْ أمتي ٱلدينارَ وٱلدرهمَ، نُزِعَ منها هيبةُ ٱلإسلام؛ وإذا تركوا الأمرَ بالمعروفِ وٱلنهيَ عنِ المنكر، حُرموا بركةَ ٱلوحي». ثُمَّ قال في تأويلِهِ:

إنَّ مَلَكَ الوحي ينزلُ بالأمرِ والنهي ليُخضعَ صَوْلَةَ[1] الأرضِ بصَولةِ ٱلسماء، فإذا بقيَ ٱلأمرُ بالمعروفِ وٱلنهيُ عنِ ٱلمنكر، بقي عملُ ٱلوحي إلَّا أنَّهُ في صورةِ ٱلعقل، وبقيَتْ روحانيَّةُ الدنيا إلَّا أنَّها في صورةِ ٱلنظام، وكانَ مَعَ كلِّ خطأ تصحيحُه؛ فيُصبحُ ٱلإنسانُ بذلك تنفيذاً لِلشريعةِ بينَ آمرٍ مُطاعٍ ومأمورٍ مُطيع، فيتعاملُ ٱلناسِ على حالةٍ تجعلُ بعضَهُم أستاذاً لِبعض، وشيئاً منهم تعديلاً لِشيء، وقوةً سنداً لِقوَّة؛ فيقومُ العزْمُ في وجهِ ٱلتعاون، وٱلشدَّةُ في وجهِ ٱلتراخي، والقدرةُ في وجهِ ٱلعجز؛ وبهذا يكونون شركاءَ متعاونين، وتعودُ صِفاتُهُمُ ٱلإنسانيَّةُ وكأنَّها جيشٌ عاملٌ يُناصِرُ بعضُهُ بعضاً، فتكونُ ٱلحياةُ مفسَّرةً ما دامَتْ معانيها ٱلساميةُ تأمرُ أمرَها وتُلهِمُ إلهامَها، وما دامَتْ ممثَّلةً في ٱلواجبِ ٱلنافذِ على ٱلكُلّ.

وٱلناسُ أحرارٌ متى حكمتْهم هذه المعاني، فليسَتْ حقيقةُ ٱلحريَّةِ ٱلإنسانيَّةِ إلَّا

---

(١) صوْلة: جوْلة.

ٱلخضوعَ لِلواجبِ ٱلذي يحكم، وبذلك لا بغيرِهِ ويتَّصلُ ما بينَ ٱلملكِ والسُّوقةِ[1]، وما بينَ ٱلأغنياءِ والفقراءِ، ٱتصالَ الرحمةِ في كلِّ شيءٍ، واتِّصالَ ٱلقسوةِ في ٱلتأديبِ وحدَه. فبركةُ ٱلوحي إنَّما هي جعلُ ٱلقوَّةِ الإنسانيَّةِ عملاً شرعيًّا لا غير.

أمَّا تعظيمُ ٱلأمةِ لِلدنيا والدرهم، فهو ٱستبعادُ ٱلمعاني ٱلحيوانيَّةِ في ٱلناسِ بعضِها لِبعض، وتقطُّعُ ما بينَهم مِنَ ٱلتشابُك في لُحْمَةِ ٱلإنسانيَّة، وجعلُ ٱلكبيرِ فيهم كبيراً وإنْ صَغُرَتْ معانيه، والصغيرِ فيهم صغيراً وإنْ كَبِرَ في ٱلمعاني؛ وبهذا تموجُ ٱلحياةُ بعضُها في بعض، ولا يستقيمُ ٱلناسُ على رأيٍ صحيح؛ إذْ يكونُ ٱلصحيحُ والفاسدُ في مِلْكِ ٱلإنسانِ لا في عمل ٱلإنسان، فيكنزُ ٱلغنيُّ مالاً ويكنزُ ٱلفقيرُ عداوةً، كأنَّ هذا قَتَلَ مالَ هذا، وكأنَّ أعمالاً قتلَتْ أعمالاً، وترجعُ ٱلصفاتُ ٱلإنسانيَّةُ متعاديةً، وتُباعُ ٱلفضائلُ وتُشترى، ويزيدُ من يزيدُ ولكنْ في ٱلقسوة، وينقُصُ مَنْ ينقصُ ولكنْ في ٱلحريَّة، وتكونُ ٱلمنفعةُ ٱلذاتيَّةُ هي ٱلتي تأمرُ في ٱلجميعَ وتنهَى، ويدخُل ٱلكذبُ في كلِّ شيءٍ حتى في ٱلنظرِ إلى ٱلمال، فيرى كلُّ إنسانٍ كأنَّما دِرْهمُهُ ودينارُهُ أكبرُ قيمةً من دينارِ ٱلآخرِ ودرهمِه، فإذا أعطى نقَصَ فغَشَّ، وإذا أخذ زادَ فَسَرَق؛ وتُصبحُ النفوسُ نفوساً تجاريَّةً تُساوِمُ قبلَ أنْ تنبعثَ لِفضيلة، وتُماكِسُ[2] إذا دُعِيَتْ لِأداءِ حقّ، ويتعاملُ الناسُ في الشرفِ على أصولٍ مِنَ المَعِدةِ لا مِنَ ٱلروح، فلا يُقالُ حينئذٍ، إنَّ رغيفينِ أكثرُ من رغيفٍ واحد. كما هي طبيعةُ ٱلعددِ، بل يُقال: إنَّ رغيفينِ أشرفُ من رغيفٍ. كما هي طبيعةُ ٱلنفاق.

أمَّا التجارةُ ـ وهي ٱلتفسيرُ ٱلظاهرُ لِمعاني ٱلنفوس ـ فتُصبحُ بينَ ٱلغِشِّ والضررِ والمماكَرَة، وتكونُ يقَظَةُ ٱلتاجرِ من غفلةِ ٱلشاري، وتَفسُدُ ٱلإرادةُ فلا تُحدِثُ إلَّا آثارَها ٱلزائغة[3]. وما ٱلتاجرُ في ٱلأمَّةِ ٱلقويَّةِ إلَّا أستاذٌ لِتعليم الصدقِ والخُلقِ في ٱلموضع ٱلمتقلِّب، فكلمتُهُ كالرقْم مِنَ ٱلعددِ لا يحتملُ أزيدَ ولا أنقصَ مِمَّا فيه، ويُمتَحَنُ بٱلدنيا والدرهم أشدَّ مِمَّا يُمتحنُ ٱلعابدُ بصلاتِهِ وصيامِهِ. وقد شهدَ رجلٌ عندَ عمرَ بْنِ ٱلخطابِ في قضيَّة، فقالَ لَهُ عمر: ٱئتني بمَنْ يعرفُك. فأتاهُ برجلٍ أثنى عليهِ خيراً، فقالَ لَهُ عمر: أنتَ جارُهُ ٱلأدنى ٱلذي يعرفُ مَدْخَلَهُ ومخرجَه؟ قال:

---

(١) السُّوقة: العامة من الناس.

(٢) تماكس: تشاحى في البيع والشراء.　　(٣) الزائغة: المنحرفة.

لا. قال: فكنْتَ رفيقَهُ في ٱلسفرِ ٱلذي يُستدَلُّ بهِ على مكارمِ ٱلأخلاق؟ قال: لا.

قال: فعاملْتَهُ بالدينارِ وٱلدرهمِ الذي يَستبِينُ بِهِ ورَعُ ٱلرجل؟ قال: لا.

قالَ عمر: أظنُّكَ رأيْتَهُ قائماً في ٱلمسجدِ يُهَمْهِمُ بالقرآن، يَخفِضُ رأسَهُ طوْراً ويرفعُهُ أخرى؟ قال: نعم.

قال: فٱذهبْ فلسْتَ تعرفُه!

وإنّما التاجرُ صورةٌ من ثِقةِ ٱلناسِ بعضِهم ببعض، وإرادةِ ٱلخيرَ وٱعتقادِ ٱلصدق، وهو في كلِّ ذلك مظهرٌ توضَعُ ٱليدُ عليهِ كما تَجسُّ[1] ٱليدُ مرضَ ٱلمريضِ وصحتَه.

فإذا عظَّمَتِ ٱلأمةُ ٱلدينارَ وٱلدرهم، فإنّما عظَّمَتِ ٱلنفاقَ وٱلطمعَ وٱلكذبَ وٱلعداوةَ وٱلقسوةَ والاستعبادَ؛ وبهذا تُقيمُ ٱلدنانيرَ وٱلدراهِمَ حُدوداً فاصلةً بينَ أهلِها، حتى لِتكونَ ٱلمسافةُ بينَ غنيٍّ وفقيرٍ كٱلمسافةِ بينَ بلدينِ قد تباعَدَ ما بينهما. وإنّما هيبةُ ٱلإسلامِ في العِزةِ بالنفسِ لا بالمال، وفي بذلِ ٱلحياةِ لا في ٱلحِرْصِ عليها، وفي أخلاقِ ٱلروحِ لا في أخلاقِ ٱليد، وفي وضعِ حُدودِ ٱلفضائلِ بينَ الناسِ لا في وضعِ حُدودِ ٱلدراهم، وفي إزالةِ النقائصِ مِنَ ٱلطباعِ لا في إقامتِها، وفي تَعاوُنِ صِفاتِ المؤمنينَ لا في تعاديها، وفي ٱعتبارِ ٱلغِنى ما يُعْمَلُ بالمالِ لا ما يُجمَعُ مِنَ ٱلمال، وفي جعلِ أولِ ٱلثروةِ العقلَ والإرادة، لا ٱلذهبَ والفضة...

هذا هو ٱلإسلامُ الذي غلَبَ ٱلأمم، لأنَّهُ قبلَ ذلك غَلَبَ ٱلنفسَ وٱلطبيعة.

---

(١) تجسّ: تدسّ.

دُعابةُ إبليس[1]

أمَا إنِي سأقصُّ هذه ٱلحكايةَ كما ٱتَّفقَتْ، لا أُزينُها بخيال، ولا أتزَيَّدُ فيها بخبر، ولا أولِّدُ لها معنى؛ فإنَّما هي حِكايةُ خُبْثِ ٱلخبيثِ: فنُّها حِذْقُهُ[2] ودَهاؤه، ورِقَّتُها غِلْظتُهُ وشرُّه، ومعانيها بلاؤُهُ ومِحْنتُه؛ وأعوذُ باللَّهِ مِنَ ٱلشيطانِ الرجيم، وٱللَّهُ المستعان.

لَمَّا فكرْتُ في وضعِ مقالةِ (إبليسَ) من أحاديثِ (ابنِ مسكين)، وأدرْتُ رأيي في نهجِها وحدودِها ومعانيها، جعلَ فكري يتقطَّعُ في ذلك، يذهبُ ويجيءُ كأنَّ بيني وبينه منازَعة، أو كأنَّ في نفسي شيئاً يَثنيني ويقطعُني عنِ ٱلعَزم؛ وخُيِّلَ إليَّ حينئذٍ أنَّ (إبليسَ) هذا منفعةٌ مِنَ ٱلمنافع... وأنَّهُ هو قانونُ ٱلطبيعةِ ٱلذي نَصُّ مادَّتِهِ ٱلأولى: ما أعجبَك فهو لك. ونَصُّ مادتِهِ ٱلأخيرة: ما ٱحتَجتَ إليهِ فثمنُهُ أنْ تقدرَ على أخْذه...

وهَجَسَ في نفسي هاجسٌ: أنَّ (إبليسَ) قائمٌ في لفظِ ٱلحريَّةِ كما هو قائمٌ في لفظِ ٱلإثم، وأنَّهُ إنْ يكنْ في قلوبِ ٱلفُسَّاقِ فهو أيضاً في أدمغةِ ٱلفلاسفةِ وإنْ كانَ في سقوطِ أهلِ ٱلرذيلةِ إلى ٱلرذيلة، فهو كذلك في سموِّ أهلِ ٱلفنِّ إلى الفنِّ... قالَ ٱلهاجس[3]: وإنَّ (إبليسَ) أيضاً هو صاحبُ ٱلفضيلةِ ٱلعمليَّةِ في هذا العصرِ ٱلماديّ، فهو من ثَمَّ حقيقٌ أنْ يلقِّبوه «صاحبَ الفضيلة».

ولكنِّي لم أحفِلْ[4] بهذهِ ٱلوساوسِ ولم أعُجْ[5] على شيءٍ منها، وٱستعنْتُ ٱللَّهَ وأمضيْتُ نيَّتِي على ٱلكِتابة، وأخذْتُ أقلِّبُ ٱلموضوع، وأنبِّهُ فكري له، وأستَشْرِفُ[6] لِمَا يؤدِّي إليهِ ٱلنظر، وأتطلَّعُ لِمَا يجيءُ بهِ ٱلخاطر، وألتمسُ ما أبني عليهِ ٱلكلامَ كما هي عادتي؛ فلم يقعْ لي شيءٌ ألبتة، كأنَّما ذهَبَ أولُ ٱبتداءِ

---

(١) الدعابة: المزاح واللعب.
(٢) حذقه: اتقانه.
(٣) الهاجس: الهاتف.
(٤) أحفل: أهتمّ.
(٥) أعج: أمل، أعرّج.
(٦) أستشرف: أستطلع.

ٱلموضوع فلا أولَ لَهُ ولا سبيلَ إلى ٱقتحامه، وكأنَّهُ من وراءِ ٱلعِلْم فلا يُبلَغُ إليه، وكأنَّه مِنَ ٱلتعذُّرِ كمحاولةِ تصويرِ حماقةِ ٱلحياةِ كلِّها في كلمة. وإبليسُ كلمةٌ فيها حماقةُ الحياةِ كلِّها.

***

ومن عادتي في كتابةِ هذه ٱلفصولِ ٱلتي تنشُرها (الرسالة)، أنْ أدعَ ٱلفصلَ منها تقلِّبُهُ ٱلخواطرُ في ذهني أيامَ ٱلثلاثاءِ وٱلأربعاءِ وٱلخميس، وأتركُ أمرَهُ لِلقوةِ ٱلتي في نفسي، فتتولَّدُ ٱلمعاني من كلِّ ما أرى وما أقرأ، وتَنْثَالُ[1] من هٰهنا وهٰهنا، ويكونُ ٱلكلامُ كأنَّهُ شيءٌ حيٌّ أُريدَ لَهُ ٱلوجودُ فوُجِد.

ثُمَّ أكتبُ نهارَ ٱلجمعة، ومن ورائِهِ ليلُ ٱلسبتِ وليلُ ٱلأحدِ كالمددِ من وراءِ الجيشِ إذا نالتْني فترةٌ أو كنتُ على سفرٍ أو قطعَني عنِ ٱلكتابةِ شيءٌ مِمّا يَعْرِض.

وفي أسبوعِ إبليسَ (لعنَهُ ٱلله)، مرَّتِ ٱلأيامُ الثلاثةُ وفيها ثلاثةُ ألوان: ضجرٌ لا رَوْحَ فيه، وكَسَلٌ لا نشاطَ معه، وٱضطرابٌ لا مِساكَ له. وأطلْتُ ٱلتفكيرَ يومَ ٱلخميس، فكانَتْ تعتريني خواطرُ مضحكة: فيعرضُ لي مرةً أنْ أصوِّر إبليسَ ٱمرأةً لِيكونَ إبليسَ ٱلجميل... وتارةً أتوهَّمُ أنَّ إبليسَ يُريدُ أنْ يكونَ شيخاً كبعضِ رجالِ ٱلدينِ ٱلذينَ لا تزالُ تَطَّلِعُ على خائنةٍ منهم، لِيُقالَ إبليسُ ٱلتقيُّ ٱلمصلّي... وحِيناً أظنُّ أنَّهُ يُريدُ أنْ يكونَ كاتباً مؤلِّفاً شهيراً لِيقالَ إبليسُ المفكِّرُ ٱلمصْلِح... وخطرَ لي أخيراً أنَّهُ يُريدُ أنْ يكونَ حاكماً مُلْحِداً فاجراً، لِيكونَ إبليسَ التامّ لا إبليسَ ٱلناقص...

***

ولَمّا ذهبَتِ ٱلأيامُ ٱلثلاثةُ باطلاً، خُيِّلَ إليَّ أنَّ إبليسَ (أخزاهُ ٱللّٰهُ) يسألُني عنِ ٱلمقالة: إلى أيِّ شيءٍ ٱنقلَبَتْ...؟ فشقَّ[2] ذلك عَلَيَّ وٱغتَمَمْتُ بهِ، غيرَ أنّي ٱطمأننتُ إلى يومِ ٱلجمعةِ وأنْ وراءَهُ ليلتين. وكانَتْ قد غربَتْ شمسُ ٱلخميس، فقلْتُ: فلأخرجْ لِأتفرَّجَ مِمّا بي، وعسى أنْ أجمعَ نفسي لِلتفكيرِ إذا جلسْتُ في النديّ، ولعلَّهُ يقعُ ما أستَوْحيهِ أو ينفتحُ لي بابٌ في ٱلقراءة.

وخرجْتُ، فلم أجاوزِ ٱلدارَ حتى ٱبتدرني مَنْ هَبَطَ عليهِ ٱلخبرُ مِنَ ٱلقاهرةِ أنَّ نسيباً لنا مِنَ ٱلعظماءِ توفي أخوه ٱليوم. فقلْتُ: لا حولَ ولا قوةَ إلّا بالله؛ ضاعَ يومُ ٱلجمعة. إذْ لا بدَّ مِنَ ٱلسفرِ لتشييعِ ٱلجنازةِ وحضورِ ٱلمأتمِ ثُمَّ قلْتُ: لعلَّ في هذا

(١) تنثال: تنهمر وتتوالى.

(٢) شقّ: صعب.

ٱلسفرِ استجماماً[١] ونشاطاً فأستدركَ ٱلأسبوعَ كلَّهُ في يومينِ، وإنَّما ٱلاستكثارُ بالقوَّةِ لا بالزمن، ولا يدَ لإبليسَ في ٱلموتِ وٱلحياة، فليسَ إلَّا اطِّراحُهُ وقلةُ ٱلمبالاةِ به، وإنَّما هي خَطَراتٌ من وساوسِه.

وأصبحْتُ في ٱلقاهرة، ومشيْتُ في ٱلجنازةِ قبلَ الظهرِ مَسِيرَةَ ساعةٍ كاملة؛ وكانَتِ ٱلشمسُ ساطعةً تتلألأ، وأنا مُثَقَّلٌ بثيابِ ٱلشتاءِ وكنْتُ أتوقَّعُ أنْ يكونَ اليومُ من أيامِ ٱلريحِ ٱلمجنونة، فلمَّا ٱنتهيْنا إلى ٱلصحراء، هبَّتِ ٱلريحُ هبوباً ليِّناً، ثُمَّ زَفَّتْ فكانَتْ إلى ٱلشدَّةِ ما هي: ولكنَّها ماضيةٌ تَسْفي[٢] ٱلرملَ في ٱلأعينِ فيأخذُ في أجفاني أُكالٌ[٣] وتَهييج، وليسَ معي شيءٌ أتَّقيها به؛ غيرَ أنِّي شغلْتُ، فكري برؤيةِ ٱلمقابر، وجعلْتُها في نفسي كالمقالةِ ٱلمكتوبةِ سَطراً وراءَ سطر؛ وقلْت: هٰهنا ٱلحقيقةُ في أولِ تفسيرِها، وغيرُ ٱلمفهومِ في ٱلحياةِ يُفْهَم هنا.

ثُمَّ رجعْتُ مُنَدَّى ٱلجسم بالعرقِ وعَلَيَّ نَضْحٌ منه، وكانَ ٱلقميصُ مِنَ ٱلصوف، وبصدري أثرٌ مِنَ ٱلنَزلةِ ٱلشُعبيَّة[٤]، وإذا تَنَدَّى ٱلصوفُ وجبَ نزعُهُ وإلَّا فهي ٱلعِلَّةُ ما منها بُدّ.

ثُمَّ لم تكنْ إلَّا ساعةٌ حتى ٱنخَرقَتِ ٱلريحُ وجعَلتْ تَعْصِفُ وبَرَدَ ٱلجوُّ، فأيقنْتُ أنَّه ٱلزكَام، وقلْتُ في نفسي: هذا بابٌ على حِدَة، وٱلمقالةُ ذاهبةٌ لا محالة، فسيتخَلَّفُ ٱلذهنُ ويتبلَّدُ؛ وٱلشيطانُ كريمٌ في الشرِّ يُعطي من غيرِ أنْ يُسأل...

وثَقُلَ ذلك عَلَيَّ فكانَ ٱلغمُّ بهِ عِلَّةً جديدة، بيدَ أنِّي لم أزلْ أرجو ٱلفرصةَ في أحدِ ٱليومين: السبت والأحد. وقلْت: إنَّ مِنَ ٱلبلاءِ الفكرَ في ٱلبلاء، ولعلَّ مِنَ ٱلسلامةِ الثقةَ بِٱلسلامة؛ فإذا نبَّهْتُ ٱلعزيمةَ رجوْتُ أنْ يتغلغلَ أثرُهَا في ٱلبدنِ كلِّهِ فيكونَ علاجاً في ٱلدمِ يَحْدُثُ بِهِ ٱلنشاطُ ويُرهَفُ[٥] منهُ ٱلطبعُ وتجمُّ عليهِ النفس. وفي قوةِ ٱلعصَبِ كهربائيَّةٌ لَها عملُها في ٱلجسمِ إذا أحسنَ ٱلمرءُ بعْثَها في نفسِهِ وأحكمَ إفاضتَها وتصريفَها على طريقةٍ رياضيَّة؛ ولَهِيَ ٱلدواءُ حينَ يَعجزُ الدواء، وهيَ ٱلقوَّةُ حينَ تُخذَلُ ٱلقوَّة.

فاعتزمْتُ وصمَّمتُ، وٱحتَلْتُ على ٱلإرادة، وتكثَّرْتُ من أسبابِ ٱلثقةِ

---

(١) استجماماً: راحة لتجدّد النشاط.
(٢) تسفي الرمل: تنشره.
(٣) الأكال: الحكاك.
(٤) النزلة الشعبية: الرشح والزكام.
(٥) يرهف: يرقق ويلطف.

وترصَّدْتُ لها ٱلسوانِحَ العقليَّةَ التي تَسْنَحُ في ٱلنفس، وقلْتُ لإبليسَ: اِجهَدْ جُهْدَك، فما تذهبُ مذهباً إلَّا كانَ لي مذهب. ولكنَّ ٱللعينَ أخطَرَ في ذِهني قولَ القائلِ يسخَرُ فيهِ من ذلك الكاتبِ ٱلبغداديّ.

لو قيلَ: كم خمسٌ وخمسٌ؟ لاغتَدى ... يوماً وليلَتَهُ يَعُدُّ ويَحْسُبُ
ويقولُ: مُعْضِلَةٌ عجيبٌ أمرُها ... وَلَئِنْ فهمْتُ لها، لأَمْرِيَ أعجبُ
خمسٌ وخمسٌ ستةٌ، أو سبعةٌ ... قولانِ قالهما ٱلخليلُ وثعلبُ

* * *

ثُمَّ أجمعْتُ ٱلرجوعَ من يومي إلى (طنطا)، لأتقيَ ٱلبردَ بعلاجِهِ إنْ نالني أثرُهُ، وكانَ عَلَيَّ وقتٌ إلى أنْ يقومَ ٱلقطار، فذهبْتُ فقضيْتُ واجباً مِنْ زيارةِ بعضِ ٱلأقاربِ في ضاحيةِ (الجيزة)، ثُمَّ ركبْتُ ٱلترامَ ٱلذي أعلمُ أنَّهُ ذاهبٌ إلى محطةِ سكةِ ٱلحديد.

وجلسْتُ أفكرُ في إبليسَ ومقالتِه، وٱلترامُ ينبعِثُ في طريقِهِ نحوَ ثلثِ الساعة، حتى بلغ، ٱلموضعَ الذي ينعرجُ[1] منه إلى ٱلمحطة، وهو بحيالِ (جمعيةِ الإسعاف)، حيثُ تنشعبُ[2] طرقٌ أخرى؛ وكنْتُ منصرفاً إلى التفكيرِ مستغرقاً فيه، طائفَ ٱلنظَراتِ على ٱلجوّ، فما راعني إلَّا ٱختلافُ منظرِ ٱلطريق؛ وأنتبهُ، فإذا ٱلترامُ يَمْرُقُ مروقَ ٱلسهم في تلك السبيلِ ٱلصاعدةِ إلى (الجيزة)... من حيثُ جئت.

فلعنْتُ ٱلشيطانَ وتلبثْتُ[3] حتى وقفَ هذا ٱلترام، فغادرْتُهُ ورجعْتُ مُهَرْولاً إلى ذلك المنشَعَب، فصادَفْتُ تراماً آخر، فوثبْتُ إليهِ كأنِّي أُحْمَلُ إليهِ حملاً، ودفعْتُ ٱلأجرة، وٱنطلق، فإذا هو مُنَصَبٌ في تلك الطريقِ عينِها ٱلذاهبةِ إلى الجيزةِ من حيثُ جئت.... ولا أستطيعُ ٱلانحدارَ منه وهو منطلِق، فتَسَخَّطْتُ[4] ولعنْتُ ٱلشيطانَ مرةً أخرى، ورأيْتُ أنَّ عَبثَهُ قد تَرادفَ؛ فلمَّا سكَنَ ٱلترامُ رجعْتُ مهرولاً إلى ذلك المنشَعَبِ ولم يبقَ مِنَ ٱلوقت غيرُ قليل.

وأنظرُ ثَمَّ، فإذا ترامٌ وراءَ ترام، وإذا قد وقعَتْ حادثةٌ لإحدى ٱلسياراتِ وٱجتمعَ الناسُ وسُدَّتِ ٱلطريق... فجعلْتُ أغلي من الغيظ، ولعنتُ هذا الدَّعابَةَ الخبيث. وأذكرَني ٱللعينُ نادرةَ ٱلأعرابي ٱلذي عضَّهُ ثعلب، فأتى راقياً، فقالَ لَهُ

---

(١) ينعرج: يتحوّل، يحطّ.
(٢) تنشعب: تتفرّق.
(٣) تلبّثت: انتظرت.
(٤) تسخّط: غضب.

ٱلراقي: ما عضَك؟ فاستَحى أنْ يقول ثعلب، وقال: كلب. فلمَّا ٱبتدأ ٱلرجلُ برُقْيَةِ ٱلكلب، قالَ لهُ ٱلأعرابيّ: وٱخلِطْ بها شيئاً من رُقْيةِ الثعالب...

* * *

ثُمَّ إنِّي لم أرَ بُدًّا من بلوغ ٱلمحطةِ على قدميَّ لِأُتِمَّ على عزيمتي في مُراغمةِ ٱللعين، فأسرعْتُ أطوي ٱلأرض وكأنَّما أخوضُ في أحشائِهِ[1] وكانَ بصدري ٱلتهابٌ فهاجَ بي، غيرَ أنِّي تجلَّدْتُ وٱتسَعْتُ لاحتمالِهِ وبلغْتُ حيثُ أردت. ثُمَّ ذهبْتُ ألتمسُ في ٱلقطارِ عربةً خاصَّةً أعرفُها، كانَتْ من عرباتِ ٱلدرجةِ ٱلأولى فجعلوها في ٱلثانيةِ يرفِّهونَ بها بعضَ الترفيهِ على طائفةٍ مِنَ ٱلمسافرين؛ وأصبْتُ فيها مكاناً خالياً كأنَّما كانَ مهيَّأً لي بخاصة... فٱنحططْتُ فيهِ إلى جانبِ رجلٍ أوربيّ أحسبُهُ ألمانيا لِتَفاوُتِ خَلْقِهِ وعُنْجُهيَّتِه؛ وجلسْتُ أنفِّسُ عن صدري، ثُمَّ أقبلْتُ أسخرُ من إبليسَ ونِكايَتِه، وجعلْتُ أتعجَّبُ مِمَّا اتفقَ من هذا التدبير.

وتحرَّكَ ٱلقِطارُ وٱنبعثَ، وكانَ ٱلأوربيُّ إلى جانبي مِمَّا يَلي ٱلنافذةَ وقد تركَها مفتوحةً، فأحسسْتُ ٱلهواءَ ينصبُّ منها كالماءِ ٱلباردِ وأنا مُتَنَدٍّ بالعرَق؛ وترقبْتُ أنْ يُغلِقَها ٱلرجلُ فلم يفعل، فصابرْتُهُ قليلاً فإذا هو ساكنٌ مطمئنٌ يترَوَّحُ بٱلهواءِ وكأنَّما يَشرَبُه، وتأملتُهُ فإذا شيخٌ في حدودِ ٱلستينَ أو فوقَها، غيرَ أنَّهُ على بقيةٍ من قوةِ مصارعٍ في ٱكتنازِ عَضَلِهِ وٱجتماعِ قوَّتِهِ ووَثاقةِ تركيبِه، فأيقنْتُ أنَّ ٱلهواءَ من حاجتِه، وهممْتُ أنْ أنبهَهُ أو أقومَ أنا فأُغلِقَ ٱلنافذةَ، ولو شئْتُ أنْ أفعلَ ذلك فعلْت، غيرَ أنَّ ٱلشيطانَ (أخزاهُ ٱللهُ) وسوَسَ لي: أنَّ هذا رجلٌ أجنبيٌّ غربيّ، وأنت مصريٌّ شرقيّ، فلا يَحسنُ بك أنْ تُعلِمَهُ وتُعلِمَ الحاضرين أمامَكما أنَّك أنت ٱلأضعفُ على حينِ أنَّهُ هوَ ٱلأسَنُّ، وكيف لا تقومُ لِمَا يقومُ لَهُ وقد كنْتَ تُباكِرُ ٱلماءَ ٱلباردَ في صميمِ ٱلشتاء، وكنْتَ لا تلبسُ في أشدِّ أيام البردِ غيرَ ثيابِ ٱلصيف، وكنْتَ تحملُ كذَا وكذا ثِقْلاً لِلرياضة، وتُعاني كذا وكذا من ضروبِ ٱلقوَّة، وكنْتَ تلوي بيديك عودَ ٱلحديد، وكنْتَ وكنْت....

فتذمَّمْتُ ـ واللهِ ـ مِمَّا خطَرَ لي؛ وأنِفتُ أنْ أنبهَ ٱلرجل، ورأيْتُ عملي هذا ضعفاً وفُسولة[2]، ولم أعبأْ بالهواءِ ولا بالعرَقِ ولا بٱلنزلةِ ٱلشعبيَّةِ ولا بٱلزكام، وتركْتُ الأوربيَّ وشأنَه، وأقبلْتُ على كتابٍ كانَ في يدي، وتناسيْتُ أنَّ هذهِ ٱلنافذةَ

---

(١) أحشائه: جوفه.

(٢) فسولة: نذالة لامروءة فيها.

جهةٌ من تدبيرِ إبليس؛ وكانَ ٱلقِطارُ مزدحِماً بالراجعينَ منَ ٱلمعرضِ ٱلزراعيِّ ٱلصناعيِّ، وبعضُ الناسِ وقوفٌ فلا مطمعَ في مكانٍ آخر . . .

ولَبِثْتُ ساعةً ونصفَ ساعةٍ في تيّارٍ من هواءِ (فبراير) ينصبُّ ٱنصباباً، ويَعْصِفُ عَصْفاً، وكأنّي أسبحُ منه في نهرٍ تحتَ ظلمةِ ٱلليلِ ٱلماطر، وٱلناسُ معجَبُونَ بي وبٱلأوربيّ، وهذا الأوربيُّ معجَبٌ بي أكثَر منهم، وقد رأى مكاني وعرفَ موضعي؛ وكانَ إلى يميني مجلسٌ بقيَ خالياً ولم يُقْدِمْ أحدٌ على أنْ يجلسَ فيه خوفاً مِنَ ٱلرجل ٱلأوربيّ. . .

ثُمّ تراءيتُ أنوارَ محطةِ (طنطا)، ولم يبقَ من هذه المحنةِ غيرُ دقيقتين؛ فوٱللهِ ٱلذي لا يُحْلَفُ بغيرِ ٱسمهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ، لقد كانَ إبليسُ رقيعاً جِلْفاً[1] بارداً ثقيلَ ٱلمُزاح؛ إذْ لم أكَدْ أتهيأُ لِلقيام، حتى رأيتُ ٱلرجلَ الأوربيّ قد مدَّ يدَهُ فأغلقَ ٱلنافذة. . . .

* * *

ورجعْتُ إلى داري وأنا أقول: ثُمّ ماذا يا إبليس؛ ثُمّ ماذا أيُّها الدُّعْبُبُ[2] وحاولْتُ بجهدِي أنْ أكتبَ أو أقرأَ فلم أتحرّكْ لِشيءٍ من ذلك، وكانَتِ ٱلساعةُ ٱلعاشرةُ ليلاً، فصلّيْتُ وأويْتُ إلى مضجعي.

ثُمّ أصبحْتُ يومَ ٱلسبت، فإذا كتابٌ مِنَ ٱلأستاذِ صاحبِ (ٱلرسالة): أنّه سيطبعُ عددينِ معاً فيُريدُ لهما مقالتين، إذْ تُغلَقُ ٱلمطبعةُ في أيامِ عيدِ الأضحى. وكانَ أملي في ٱلمقالةِ الواحدةِ مخذولاً مِمّا قاسيْت، فكيف لي باثنتين؟

وٱختلَطَ في نفسي همٌّ. بهمّ، وما يُفْسِدُ عَلَيَّ أمري شيءٌ مثلُ ٱلضيق، فإذا تضايقْتُ كنْتُ غيرَ من كنت؛ ولكنّي تيقظْتُ وتنبهْتُ وأمّلتُ ٱلعافيةَ مِمّا أجِدُهُ من ثِقْلةِ ٱلبردِ وضَعْفَتِه، وأحدثْتُ طمعاً في ٱلنشاطِ إذا جلسْتُ لِلكتابةِ في ٱلليل، فإنّي بالنهارِ أعملُ لِلحكومة.

فلمّا كانَ ٱلليلُ لم أجدْ أمري على ما أُحبّ، وجلسْتُ متفتّراً مُعْتَلّاً، وثقُلَ رأسي من ضَرْبةِ ٱلنافذة، وتسلّطَ عليَّ ظَنُّ ٱلمرضِ وٱلعجزُ عنِ ٱلكتابة، وٱنتفَضَ الأمرُ كلُّهُ فرأيْتني أشقُّ على نفسي بلا طائل، فكأنَ من صوابِ ٱلتدبيرِ عندي أنْ

---

(١) جلفاً: قاسياً فظاً.

(٢) الدعبب والمداعب والدُّعّابة، بالتشديد، كلها بمعنى واحد.

أستجِمَّ بالنومِ ثُمَّ أنهضَ في ٱلسَّحَرِ لِلكتابة؛ فأوصيْتُ من يُوقظني؛ وحرَّرنا ٱلساعةَ المنبِّهةَ على تَمامِ ٱلثانيةِ بعدَ منتصفِ ٱلليلِ.

وأحسسْتُ أنّي جائع، وأنَّ معدتي مَشحوذة[1]، ونسيْتُ كلّ ما أعرفُ مِنَ ٱلطبّ؛ وجاءَوني بشِواءٍ وحَلوى وما بينَهما، فحططْتُ فيهِ ولَففْتُ الآخرَ بالأول، ثُمَّ قمْتُ أُريدُ ٱلنوم، فإذا ٱلطعامُ كانَ أشدَّ عليَّ من نافذةِ القِطارِ، وكانَ ٱلذي في ٱلفكرِ مِنَ المقالةِ أثقلَ من ٱلذي في ٱلمعدةِ مِنَ ٱلطعام، وساءَ ٱلهضمُ في ٱلدماغِ وٱلبطنِ جميعاً!

وجعلْتُ أتناومُ وأُرخي أعضائي وأتوهَّمُ ٱلكرى[2] وأَستَدْنيهِ بكلِّ ما أعرفُ من وسيلة، ثُمَّ لا أزدادُ على ذلك إلَّا أرَقاً، وتمرَّدَ ٱلفكر، وأحسسْتُ رأسي يكادُ ينفجر، وصِرْتُ أتَمَلْملُ ولا أتَقارُّ، وتوهَّمْتُ أنْ لو كانَ لي عقلانِ ما ٱستطعْتُ كِتابةَ ٱلمقالةِ عن إبليسَ ـ لعنَهُ ٱللهُ ـ؛ وأذكرني ٱلخبيثُ نادرةً مضحكَة: أنَّ رجلاً كانَ يركبُ حماراً ضعيفاً، وكانَ يبعثُهُ فلا ينبعث، فجعلَ يضربُه، فقيلَ لَهُ: ٱرفُقْ بِه. فقالَ إذا لم يقدرْ يمشي فَلِمَ صارَ حماراً....؟

* * *

وقذفْتُ بنفسي مِنَ ٱلفراشِ ونظرْتُ في ٱلساعة، فإذا هي موشكَةٌ أنْ تبلغَ الثانيةَ ولم أُحِسَّ ٱلرقادَ بعد، فأَسْرعتُ إلى المنبِّهةِ وحرّرتُها على تمامِ ٱلساعةِ الرابعةِ صباحا، وأيقنْتُ أنَّ ٱلشيطانَ يُرهِقُني طُغياناً وكَيداً، فطَفِقْتُ ألعنهُ، وما أحسبُه إلَّا قد رأى ٱللعنَ مَدْحاً فهو يستزيدُني...

ثُمَّ رجعْتُ أحاولُ النَوم، فما كانَ هذا الليلُ إلَّا شيئاً واحداً أولُهُ آخرُهُ إلى أنْ طلعَ ٱلفجر.

وجاءَ يومُ ٱلأحدِ وهو يومُ عُطْلةِ ٱلأوربيِّين، فما أشدَّ عجبي إذ تركني فيهِ إبليسُ كأنَّهم لا يَدْعُونَ لَهُ وقتاً في هذا اليوم...

والآنَ يُزيِّنُ ليَ ٱلخبيثُ أنْ أختمَ هذه المقالة بـ.......بـ.... ولكن لا. لا.

(١) مشحوذة: خاوية.

(٢) الكرى: النعاس والنوم.

الشيطان . . .

قال الشيخُ أبو الحسن بنُ الدَّقَّاقِ: كانَ شيخي أبو عبدِ ٱللَّهِ محمدٌ الأزهريُّ العجميُّ (رضيَ الله عنه) رجلاً صاحبَ آياتٍ وخَوَارِقَ مِمَّا فوقَ ٱلعقلِ، كأنَّما هو سِرٌّ مِنَ ٱلأسرارِ ٱلجاريةِ في هذا ٱلكون، قد بلغَ بنفسِهِ رتبةَ ٱلنَّجمِ في أُفُقِهِ ولألائِهِ مِن إشراقِ روحِهِ وصفائِها؛ وقدِ ٱرتفعَ بآدميَّتِهِ فوقَ نفسِها؛ فأصبحَ في الناسِ ومعَهُ سماؤه، يجعلُها بينَ قلبِهِ وبينَ ٱلدنيا.

والرجلُ إذا بلغَ هذا المبلغَ كانَ حيًّا كالميتِ ساعةَ ٱحتضارِه: ينظرُ إلى كلِّ ما في ٱلحياةِ نظرةَ مَنْ يتركُ لا من يأخذ، ومَنْ يعتبرُ لا مَنْ يَغْتَرُّ، ومن يَلْفِظُ لا من يَتذوّق، ومَنْ يُدركُ ٱلسرّ لا مَنْ يتعلّقُ بٱلظاهر؛ ويرى ٱلشهواتِ كأنها من لغةٍ لا يعرفُها، فهي ألفاظٌ فيها معاني أهلِها لا معانيه، وإنَّما تلبسُ كلماتُنا معانَيها من أنفسِنا. وفي ٱلنفوس مثلُ ٱلهشيم[1]: إذا وقَعتْ فيهِ ٱلمعاني المشتعلةُ ٱستطارَ حَريقاً وتَضرَّمَ، وفيها على المجاهَدَةِ مثلُ ٱلماء؛ فإذا خالطَتْهُ تلك ٱلمعاني ٱنطفأتْ بهِ وخمدَتْ.

وقد سألْتُ ٱلشيخَ مرة: كيف تَحدُثُ ٱلكراماتُ وٱلحوارقُ لِلإنسان؟ فقال: يا ولدي إنَّ ٱلإنسانَ مِنَ ٱلناسِ ٱلمحجوبينَ يتصرَّفُ في جسمِهِ ولا يكادُ يملكُ لِروحانيتِهِ شيئاً، فإذا أبليَ في ٱلمجاهدةِ ووقَعَ في قلبهِ النور، تصرَّفَ في روحانيتهِ ولا يكادُ يملكُ لِجسمِهِ شيئاً، فَمنْ أطاقَ أنْ يَنسلخَ من بشريتِه، وٱتسَعتْ ذاتُهُ في معاني ٱلسماءِ بمقدارِ ما ضاقَتْ من معاني ٱلأرض، وكانَ مُعَدًّا لِأنْ يتحقَّقَ في روحانيَّتِه، مُعاناً على ذلك بطبيعةٍ فوق ٱلاعتدال ـ فقد شاعَ في ٱلكون، وأصابَ لَهُ وجهاً ومذهباً إلى تلك القوة التي تَهدِمُ في ٱلعالَمِ وتبني، وتُفرِّقُ وتَجمع، وتنقلُ ٱلصُّوَرَ بعضَها إلى بعض؛ فإنَّ ٱلكونَ كلَّهُ جوهرٌ واحدٌ هو ٱلنور، حتى ٱلجبلُ هو نورٌ صَخريّ، وحتى البحرُ هو نورٌ مائيّ، وحتى ٱلحديدُ وٱلذهب وٱلتراب، كلُّ

---

(١) الهشيم: الحشيش الجاف.

ذلك نورٌ صرّفَتْهُ ٱلقدرةُ ٱلإلهيّةُ تصريفَها ٱلمعجز، فكانَ، على ما نرى: ظاهراً مخيِّلاً يُلائمُ نقصَنا وعجزَنا، وحقيقةً قارّةً على غيرِ ما نرى. ومَنْ ذا يعقلُ أنَّ ٱلصخرَ نورٌ متجمدٌ إذا لم يكنْ لَهُ إلّا عقلُ عينِهِ وحواسِّه؟ ومَنْ ذا يُطيقُ أنْ يفهمَ بحواسِهِ وعينِهِ قولَ ٱللّٰهِ ـ تعالى ـ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾؟ فٱلجبالُ جامدةٌ ثابتة، غيرَ أنّها تمرُّ بأرضِها وتموجُ في نفسِها؛ ومتى تأذَنُ ٱللّٰهُ أنْ ينكشفَ نورُ كلامِهِ لِلعقلِ ٱلإنسانيّ، فستكونُ هذه ٱلآيةُ عِلْماً جديداً في ٱلأرض، يُثبتُ أنَّ ٱلسحابَ والجبلَ مادةٌ واحدةٌ وصُنْعٌ واحد.

ويا لها سُخريةً بالإنسانِ وجهلِه! فإنّهُ إذا كانتِ ٱلحقيقةُ غيرَ ما نرى، فكلُّ شيءٍ في ٱلدنيا هو ردٌّ على ٱلنظرِ الإنسانيّ، ويكادُ ٱلجبلُ ٱلعظيمُ يكونُ كلمةً عظيمةً تقولُ لِلإنسان: «كذَبْتَ!»

فٱلشاذُّ في ٱلخوارقِ وٱلكراماتِ راجعٌ إلى القدرةِ أنْ يُسلِّطَ ٱلإنسانُ ٱلروحانيُّ ما فيهِ من سرِّ النورِ على ما في بعضِ ٱلأشياءِ من هذا ٱلسرّ، وتلكَ هي طاعةُ بعضِ ٱلكوْنِ لِمَنْ يتصرفُ عن ٱلمادةِ ويتّصلُ بخالقِها.

فإذا بقيَ في ٱلرجلِ الروحانيّ شيءٌ من أمرِ جسمِهِ يقول: «أنا...» لم يكنْ في ٱلرجلِ من تلكَ ٱلقدرةِ ذرة؛ فإنْ هو حاولَ أنْ يخرقَ ٱلعادة، أبى ٱلكونُ أنْ يعرفَهُ إلّا كما يعرفُ حجرٌ مُلقًى يحاولُ أنْ يتصرفَ بالجبلِ الذي هو منه فينقلَهُ أو يزحزحَهُ أو يزلزلَه.

ولا خيرَ على الأرضِ مطلقاً إلّا وهو أخْذٌ من حقوقِ هذه الـ «أنا...» في إنسانِها، ولا شرَّ على ٱلأرضِ مطلقاً إلّا وهو إضافةُ حقوقٍ إليها. فحينَ لا يبقى لها حقٌّ في شيءٍ عند نفسِها، يجبُ لها ٱلحقُّ حينئذٍ على كلِّ شيء. وهذه هي ٱلكرامة: تكريمُ ٱلخليقةِ مَنْ أكرمَهُ ٱلخالق.

فمَنْ أرادَ أنْ تتّصلَ نفسُهُ بالله، فلا يكنْ في نفسِهِ شيءٌ من حظِّ نفسِه، ولا يؤمنْ إيمانَ هؤلاءِ ٱلعامّة: يكونُ إيمانُهم بٱللّٰهِ فكرةً تُذكَرُ وتُنسى. أمّا عملُهم فهو إيمانُهمُ ٱلراسخُ بالجسمِ وشهواتِهِ يُذكَرُ ولا يُنسى.

وأنت ترى رجالَ ٱلروحِ يأكلونَ ويشربونَ ويلبسون، ولكنَّ هذا كلَّهُ ليسَ فيهِ ذرّةٌ من أرواحِهِم، على خلافِ غيرِهِم مِنَ ٱلناس؛ فهؤلاءِ كلُّ أرواحِهِم في مَطاعِمِهم؛ ومن ثَمَّ لا يجري ٱلشيطانُ مِنَ ٱلأوّلينَ إلّا في مَجارٍ ضيقةٍ أشدَّ ٱلضيقِ لا

يكادُ ينفذُ منها إلى فكرٍ أو شهوةٍ أو حُلم من أحلام الدنيا، أمّا الآخرون فالشيطانُ فيهم هو تيّارُ الدم، يَعُبُّ عُبابه في الأسفلِ والأعلى.

* * *

قالَ أبو الحسن: وكنّا يومئذٍ في دمشق، فنبّهني كلامُ الشيخ عنِ الشيطانِ إلى ما قرأتُهُ عن كثيرينَ مِمَنْ رأَوْا الشيطانَ أو حاوَرُوهُ أو صارَعُوه؛ فقلتُ للشيخ: إنَّ من حقّكَ عليَ أنْ أسألكَ حقّي عليك، وما في نفسي أحبُّ إليّ ولا أعجبُ من أنْ أرى الشيطانَ وأُكلّمَهُ وأسمعَهُ؛ وأنت قادرٌ أنْ تنقلني إليهِ كما نقلْتني إلى ما دخلْتَ بي عليهِ من عوالمِ الغيب.

قالَ الشيخ: وماذا يردُ عليك أنْ ترَى الشيطان وتكلمَه؟

قلتُ: سبحانَ الله! لا يُجدي عليّ شيئاً إلّا أنْ أسخَرَ منه.

قال الشيخ: فإنّي أخشى يا ولدي، أنْ يكونَ الشيطانُ هوَ الذي يُريدُ أنْ تراهُ وتسمَعه...!

قلت: فأُريد أنْ أسألَه عن سِرّه، فيكونُ عِلْماً لا سُخريةً.

قال: لو كَشَفَ لك عن سرِّهِ لَمَا كانَ شيطاناً، فإنّما هو شيطانٌ بسرِّهِ لا بغيرِهِ.

قلت: فأُريد أنْ أرى الشيطانَ لأكونَ قد رأيتُ الشيطان!

قالَ الشيخ: لا حولَ ولا قوةَ إلّا بالله! لو كنْتَ يا أبا الحسنِ بأربعِ أرجُلٍ لهربْتَ منَ الشيطانِ بثلاثٍ منها وتركْتَهُ يجرُّكَ من واحدة!

قلْتُ: يا سيدي، فلو كنْتُ حماراً لَبطَلَ عملُ الشيطانِ في أرجلي الأربعِ كلِّها، إذْ لا حاجةَ به إلى إغواءِ حمار!

فتبسم الشيخُ وقال: ولا بدَّ أنْ ترى الشيطانَ وتكلمَه؟

قلْت: لا بدّ.

قال: إنّهُ هو يقرنها، فقُم!

* * *

قال أبو الحسن: وكانَ الشيخُ إذا مضى إلى أمرٍ خارقٍ بقيتُ معَهُ غائباً عنِ الحس، كأنّهُ يُبطِلُ مني ما أنا به أنا، فأصبحُ ظِلّاً آدميّاً معلّقاً به. ولا تقعُ الخوارقُ إلّا لمَنْ وجدَ القوّةَ المُكمّلَةَ لروحه. وهذه القوةُ تُستمَدُّ من الشيخ الواصل. فلا بُدَّ

من إمام، كأنَّها سلسلةٌ نفسيَّةٌ متميِّزةٌ في الأرض، فتتغيَّرُ ٱلواحدةُ منها بالواحدة، إذْ تقعُ في جوّها فتُورِقُ وتُثمر؛ كٱلشجرة: جَوٌّ يكسوها، وجَوٌّ يُذْبِلُها، وجَوٌّ يسلُبها سلباً؛ وكذلك تفعلُ النفسُ إذا كانَ لها جَوّ.

وخرجْنا من دمشقَ وأنا خلفَ ٱلشيخ كالمحمول، فرأيْتُنا وقد أشرفْنَا على بناءٍ عظيم، ورأيْتُ أقواماً يَتلقَّوْنَ ٱلشيخَ ويُسلمونَ عليهِ ويتبرّكونَ بمقدَمِه؟ فأنكرَتْهم نفسي ووجدْتُ منهم وَحْشَةً، فالتَفتَ إليَّ ٱلشيخُ وقال: هؤلاءِ مِنَ ٱلجِنّ، وما إليهم قَصَدْنا، فلا تشتغلْ بما ترى وٱشتغلْ بي.

ثُمَّ ننتهي إلى ٱلبناءِ العظيم، فتستقبلُنا طائفةٌ أخرى، ويُدْخِلون ٱلشيخَ وأنا خلفَه، ويمرون بنا على دنيا مخبوءةٍ تُعجزُ الوصفَ، مِمَّا لا عينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمعَتْ؛ فيقولون: هذه كنوزُ سليمانَ وذخائرُهُ، ويطوفون بالشيخ يعرضونها عليهِ كنزاً كنزاً فرأينا ثَمّ[1] نعيماً ومُلكاً كبيراً، ثُمَّ ٱنتهينا آخِراً إلى مغارةٍ خسيفةٍ كأنَّها عِرقٌ من عُروقِ جسمِ ٱلأرضِ، يتفجَّرُ منها دويٌ كٱلرعدِ ٱلقاصفِ، إلَّا أنَّهُ في السمع كخُوَارِ الثور، إلَّا أنَّه ثورٌ خُيّلَ إليَّ أنَّ رأسَهُ في قَدرِ جَبَلٍ عظيم، يتعلَّقُ بهِ غَبْغَبٌ[2] في قَدْرِ جبلٍ آخر، على جسمٍ يَسُدُّ ٱلخافقين، فخُوارُهُ كأنَّهُ صُراخُ ٱلأرض، وإذا أنا بأقبحِ مكانٍ منظراً، وأنتنِهِ رِيحاً، كأنَّه سجنٌ بناؤهُ مِنَ ٱلجِيفَ.

فقلْتُ: ما هذا؟ قالوا: هذا سجنُ إبليس، وهو هنا في هذه ٱلمغارةِ منذُ زمنِ سليمانَ ـ عليهِ ٱلسلام ـ.

قلْتُ: أفَمَسْجونٌ هو؟

قالوا: وإنَّهُ مع ذلك مُوقَرٌ بأمثالِ ٱلجبالِ حديداً يَرْبِضُ بِهِ في مَحْبسِه، فلا يتزحزحُ ولا يَتَحَلْحَل.

قلْتُ: وإنَّهُ مع ذلك قد ملأَ ٱلدنيا فساداً، فكيف بِهِ لو كانَ طليقاً؟

قالوا: فلو أنَّهُ كانَ طليقاً لَاسْتَحْوَذَ[3] على الناسِ كافَّةً؛ فيجتمعُ أهلُ ٱلأرضِ على شهوةٍ واحدةٍ لا شيءَ غيرُها، فيبطلُ مع هذه ٱلشهوةِ ٱلواحدةِ كلُّ تدبيرٍ بينَهم، فلا تقومُ لهم سياسة، ولا يكونُ بينهم وازِع[4]؛ فيرجعونَ كالكلابِ أصابَها ٱلكَلَبُ

(١) ثمّ بفتح الثاء ظرف مكان بمعنى هناك.

(٢) غبغب الثور وغببه هو ما تثنى من لحم ذقنه من أسفل.

(٣) استحوذ: استمال.

(٤) وازع: رادع.

وهاجَ بها، فأنيابُها في لحمِها، لا يزالُ يَعَضُّ بعضُها بعضاً، فليسَ لِجميعِها إلَّا عملٌ واحدٌ يُسلِمُها إلى ٱلهلاك، ويُصبحُ ظهرُ ٱلأرضِ أعْرَى من سَراةِ أديم.

وإنَّمايَصلُحُ ٱلناسُ بٱختلافِ شهواتِهم وتَنافُرِها وتنازُعِها: فبعضُها يحكمُ بعضاً، وشيءٌ منها يَزَعُ شيئاً، ومن تخلَّصَ من نَزوَةٍ قَمَعَ بها نزوةً أخرى؛ كٱلمتزوّجِ المحْصَنِ: يَحكُمُ بِالجلدِ وٱلرجْمِ على مَنْ ليسَتْ لَهُ ٱمرأةٌ فزنا؛ وكالغنيّ الواجد: يَحكمُ على ٱللصِّ الذي لم يجدْ فسرَق، وهلمَّ جرا.

وما ينشَأُ الناسُ في ثلاثةِ أعمار، فيَشِبُّون ويكتهِلون ويهرَمُون، إلَّا لِتختلفَ شهوَاتُهم وتختلفَ مقاديرُ ٱلرغبةِ فيها، فتتحقَّقُ من ثَمّ تلك ٱلحكمةُ ٱلإلهيَّةُ في ٱلتدبيرِ ويجدُ ٱلشرعُ محلَّهُ بينهم، كما يجدُ ٱلعِصيانُ بينَهم محلَّه.

ولو أنَّ أمَّةً كلُّها أطفالٌ أو كُهولٌ أو شيوخ، لَبادَتْ[1] في جيلٍ واحد؛ وإنَّهُ ليسَ أسمجَ مِنَ ٱلرذيلةِ تكونُ وحدَها في ٱلأرض إلَّا الفضيلةُ تكونَ وحدَها، فلا بدَّ من شيءٍ يَظهرُ بِهِ شيءٌ غيرُهُ كالضّدِ والضّد؛ وٱلمعركةُ إذا ٱنتصَرَ كلُّ مَنْ فيها كانَتْ هَزْلاً وكانَتْ شيئاً غيرَ ٱلمعركة.

قالَ أبو الحسن: وقلْتُ لهم: فإذا كانَ ٱلشيطانُ سجيناً قد ربَضَتْ بِهِ أثقالُه، حتى لَهُو في سجنٍ من سجنٍ مبالغةً في كفِّهِ وٱلتضييقِ عليه - فكيف يَفتِنُ ٱلناسَ في أرجاءِ ٱلأرضِ ويُوسْوسُ في قلوبِهم، حتى لَهو يَدٌ بينَ كلّ يدَين، وحتى لَهو ٱلعينُ ٱلثالثةُ لعينيَ كلِّ إنسان؟

قالوا: إنَّ في روحِهِ ٱلناريَّةِ قوةً تَفصِلُ منها وتنتشِرُ في ٱلأرض، كَشُعاعِ ٱلشمسِ مِنَ ٱلشمس: هذه كُرَةٌ ناريَّةٌ ميِّتةٌ معلَّقةٌ على ٱلأجسام مُرْصَدَةٌ لها، وتلك كرةٌ ناريَّةٌ حيَّةٌ معلَّقةٌ على ٱلنفوسِ مُرصَدَةٌ لها، وبهذه وتلك عَمارُ ٱلدنيا وأهلِ الدنيا.

قلْت: لعلَّكم أردْتُمْ أنْ تقولوا: خرابُ ٱلدنيا وأهلِ ٱلدنيا. فغَلِطْتُم، فكانَ ينبغي أنْ يجيءَ بَدَلُ الغلط...

فقالَ أحدُهم: يا أبا الحسن، خَرَقَ ٱلثوبُ ٱلمسمَار. جازَ هنا لِأمنِ ٱللَّبْسِ أنْ يكونَ ٱلمفعولُ بِهِ - وهوَ ٱلثوبُ - مرفوعاً وفاعلُه - وهو ٱلمسمار - منصوباً، هل جئْتَ - ويحك - تطلبُ النحوَ أو تطلبُ ٱلشيطان...؟

---

(١) بادت: فنيت.

قالَ أبو ٱلحسن: فقطَعني ٱلجنيُّ ـ والله ـ وأخجلَني، ونظرْتُ خِلْسةً إلى ٱلشيخِ أراهُ كيفَ يسْخَرُ منّي، فإذا ٱلشيخُ وقد أمَّلسَ فلا أراه، وإذا أنا وحدي بينَ الجِنِّ وبإزاءِ هذا الساحرِ وُضِعَتْ عينُهُ في جبهتِهِ وشُقَّ فمُهُ في قفاه..! فَسُرِّيَ عني وزالَ ما أجدُه، وقلْتُ في نفسي: الآنَ أبلغُ أرَبي[1] مِنَ ٱلشيطانِ ويكونُ ٱلأمرُ على ما أُريد، فلا أَجِدُ مَنْ أحتَشِمُ ولا تَقطَعُني هيبةُ ٱلشيخ..!

ووَقعَ هذا الخاطرُ في نفسي، فٱستعذْتُ بِالله ولعنْتُ ٱلشيطانَ وقلْت: هذا أولُ عَبَثِهِ بي وجعلُهُ إيايَ من أهلِ ٱلرياءِ، كأنَّ لي شأناً في حضور ٱلشيخِ وشأناً في غِيابِه، وكأنّي مُنافقٌ أُعلِنُ غيرَ ما أُسِرّ، وقلْت: إنَّا لِلَّه! كِدْتَ يا أبا ٱلحسنِ تَتَشيطن!

ثُمَّ همَمْتُ أنْ أنكصَ[2] على عقبيَّ، فقد أيقنْتُ أنَّ الشيخَ إنَّما تخلَّى عنِّي لِأكونَ هنا بنفسي لابه، وما أنا هنا إلَّا بِهِ لا بنفسي، فيُوشِكُ إذا بقيْتُ في موضعي أنْ أهلِك! بَيْدَ أنَّ ٱلمغارةَ ٱنكشَفتْ لي فجأةً فما ملكْتُ أنْ أنظر؛ ونَظَرْتُ فما ملكْتُ أنْ أقِف، ووقفْتُ أرى، فإذا دخانٌ قد هاجَ فٱرتفعَ يثُور ثَوَرَانُهُ حتى تملأَ ٱلمكانُ بِهِ، ثم رقَّ ولَطُف.

وٱسْتَضْرَمَتْ[3] منه نارٌ عظيمةٌ لها وهَجَانٌ شديدٌ يتضرَّم بعضُها في بعض، ويُسمَعُ من صوتِها مَعمَعةٌ[4] قويّة، ثُمّ خمدَت.

وٱنفجرَ في موضِعِها كالسَّدِّ ٱلمنبثِقِ من ماءٍ كثيفٍ أبيضَ أصفرَ أحمرَ، كأنَّهُ صَديدٌ[5] يتَقيّحُ في دم، ثُمّ غاض.

وتَنبّعَتْ في مكانِهِ حَمْأةٌ منتِنةٌ جعلَتْ تَربُو وتَعظُمُ حتى خِفْتُ أنْ تَبتَلِعَني وأذهبَ فيها، فسميْتُ ٱللّهَ ـ تعالى ـ فغارَتْ في ٱلأرض.

ثُمَّ نظرْتُ فإذا كلبٌ أسودُ مُحْمَرُّ ٱلحَماليق، هائِلُ ٱلخِلْقةِ مسْتأسِد[6]، قد وقَفَ على جيفةٍ قَذِرةٍ غابَ فيها خَطْمُهُ يَعُبُّ مِمَّا تَسِيلُ بِهِ.

فقلْت: أيُّها الكلبُ، أأنت ٱلشيطان؟

وأنظرُ فإذا هو مَسْخٌ شائِهٌ كأنَّهُ إنسانٌ في بهيمةٍ قدِ ٱمتزَجا وطغَى منهما شيءٌ على شيء، وأمّا وجهُهُ فأقبحُ شيءٍ منظراً، تحسَبُهُ قد لَبِسَ صورةَ أعمالِه..

---

(١) أربي: غايتي.
(٢) أنكص: أتراجع.
(٣) استضرمت: اشتعلت.
(٤) معمعة: معركة.
(٥) صديد: قيح الجراح.
(٦) يستأسد: يتخلّق بأخلاق الأسود.

ونطقَ فقال: أنا الشيطان!

قلْت: فما تلك الجِيفة؟

قال: تلك دنياكم في شهواتِها، وأنا ألْتَقِمُ قلبَ ٱلفاسقِ أوِ ٱلآثمِ منكم، كما ألتقمُ دودةٌ من هذه الجِيفة.

قلْت: عليكَ لعنةُ ٱللّهِ وعلى ٱلفاسقينَ وٱلآثمين، فكيف كنْتَ دخاناً، ثمَّ ٱنقلبْتَ ناراً، ثُمَّ رجعْتَ قَيحاً، ثُمَّ صِرْتَ حمأة[1]، ثُمَّ كنْتَ كلباً على جِيفة؟

قال: لا تلعنِ ٱلفاسقينَ وٱلآثمين؛ فإنَّهمُ العِبَّادُ الصالحون بأحدِ ٱلمعنيين، وأنت وأمثالُك عُبَّادٌ صالحون بالمعنى الآخر، أليسَ في ٱلدنيا حياءٌ ووقاحة؟ فأولئك يا أبا الحسنِ هم وقاحتي أنا على الله! أنا منكم في زهدِكم حِرمانُ ٱلحرمان، وفقرُ ٱلفقر، ولقد أهلكتموني بُؤساً؛ غيرَ أنّي معهم لذّةُ ٱللذة، وشهوةُ ٱلشهوة، وغِنى الغِنى، لاتتمُّ لذةٌ في ٱلأرض، ولا تحلو لذائقها وإنْ كانَتْ حلالاً، إلَّا إذا وضعْتُ أنا فيها معنًى من معانيّ أو وقاحةً مِن وقاحتي! حتى لأَجعلُ ٱلزوجةَ لِزوجِها مثلَ ٱلشعرِ البليغ إذا ٱستعارَ لها معنى مِنّي، وكلُّ ما فسَدتْ بِهِ ٱلمرأةُ فهو مَجازي وٱستعارتي لها أجعلُها بِهِ بليغة...

وأنتم يا أبا ٱلحسنِ تقطعون حياتَكم كلَّها تُجاهدون إثْمَ ساعةٍ واحدةٍ من حياةِ عبَّادي، فٱنظرْ ـ رحمَك الله ـ لئن كانَتْ ساعةٌ من حياتِهم هي جهنَّمُكم أنتم، فكيف تكونُ جهنمُ هؤلاءِ ٱلمساكين؟

إنَّكَ رأيتَني دُخاناً لِأنّي كذلك أنبعثُ في ٱلقلبِ الإنسانيّ، فمتى تحركْتُ فيهِ حركةَ ٱلشرِّ كنْتُ كٱلاحتيالِ لإضرامِ ٱلنارِ بٱلنَّفْخ عليها؛ فمِنْ ثَمَّ أكونُ دُخاناً، فإذا غَفَل عني صاحبُ ٱلقلبِ تضرَّمتُ في قلبِه ناراً تطلبُ ما يُطفئُها؛ ثُمَّ يُواقعُ ٱلإثمَ وٱلمعصيةَ ويقضي نَهْمَتَهُ[2] فأبْرَدُ عن قلبِهِ، فيكونُ في قلبِهِ مثلُ ٱلحرقِ ٱلذي بَردَ فتأكَّلَ موضعُهُ فتقيَّح، ثُمَّ يختلطُ قيحُ أعمالِهِ بمادتِهِ ٱلترابيّةِ ٱلأرضيَّة، فينقلبُ هذا ٱلمسكينُ حمأةً إنسانيةً لا تزالُ تربو وتنفتحُ كما رأيْت.

قلْت: أعوذُ باللّهِ منك! أفلا تعرفُ شيئاً يردُّكَ عنِ ٱلقلبِ وأنت دخانٌ بَعْد؟

فقهقهَ ٱللعينُ وقال: ما أشدَّ غفلتَك يا أبا الحسن، إذْ تسألُ ٱلشيطانَ أنْ يخترعَ

---

(١) حمأة: ناراً. (٢) نهمته: جوعته.

ٱلتوبة! أمَا لو أنَّ شيئاً يَخترعُ ٱلتوبةَ في ٱلأرض لٱخترعَها ٱلقبرُ الذي يَدْفنُ فيهِ بعضُكم بعضاً كلَّ طرفةِ عينٍ مِنَ ٱلزمنِ، فتُنزلونَ فيهِ ٱلميتَ ٱلمسكينَ قدِ ٱنقطعَ من كلِّ شيءٍ وتتركونَهُ لِآثامِهِ، وحِسابِ آثامِه، وٱلهلاكِ الأبديِّ في آثامِه؛ ثُمَّ تعودون أنتم لاقترافِ هذه الآثامِ بعينِها!

قلْتُ: عليك وعليك أيُّها اللعين؛ ولكنْ ألا يتبدّدُ هذا الدخانُ إذا ضرَبَتْهُ ٱلريحُ أوِ ٱنطفأ ما تحته!

قال: أوّه! لقد أوجعْتَني كأنَّما ضرَبْتَني بجبلٍ من نارٍ، إنَّ نبيَّكم عَرفَها ولكنَّكم أغبياء؛ تأخذون كلامَ نبيِّكم كأنَّما هو كلامٌ لا عَمل، وكأنَّهُ كلامُ إنسانٍ في وقتهِ لا كلامُ النبوّةِ لِلدهرِ كلِّهِ ولِلحياةِ كلِّها؛ ولِهذا غلبْتُ أنا ٱلأنبياءَ على الناس، فإنِّي أضعُ ٱلمعانيَ التي تعمل، لا الحِكمةَ المتروكةَ لِمَنْ يعملُ بها ومَنْ لا يعمل.

أتدري يا أبا ٱلحسن، لِماذا أعجزني أسلافُكمُ ٱلأوّلونَ مثل: عُمرَ وأبي بكر؟ حتى كانَ إسلامُهم من أكبرِ مصائبي، فتركوني زمناً ـ وأنا الشيطانُ ـ أرتابُ في أنِّي أنا ٱلشيطان. . .؟

قلْت: لِماذا؟

قال: أراك الآنَ لم تَلْعَنْ، فلسْتُ قائلَها إلَّا إذا ترَحّمْتَ عليّ.

قلْت: عليك وعليك من لَعَناتِ ٱلله! قلْ لِماذا؟

قال: أسائِلٌ ويأمرُ وطُفَيْليٌّ ويَقْترِح؟ لا بدَّ أنْ تترحَّم!

قلْت: يرحمُنا ٱلله منك! قلْ لِماذا؟

قال: وهذه لعنةٌ في لفظةِ رحمة؛ لا، إلَّا تترحَّم عليّ أنا إبليس الرجيم(1)!

قلْت: فيُغني ٱللَّهُ عن عِلْمِك؛ لقد ألهَمْتَنيها روحُ النبيِّ ﷺ: إنَّ النبوّةُ كانت هي بأعمالِها وصِفاتِها تفسيراً لِلألفاظِ على أسمى ٱلوجوهِ وأكملِها، فكانَ روحُ النبيِّ ﷺ لِتلك الأروَاحِ كالأمِّ لِأبنائِها؛ وقد رأَوْهُ لا يغضبُ لِنفسِهِ ولاحظِّ نفسِه، وذلك لا يستقيمُ إلَّا بالقَصْدِ في أمرِ النفس، وجعلَ ناحيةِ الإسرافِ فيها إسرافاً في العملِ لِسعادةِ الناس. وكلَّما ٱرتدَّ الإنسانُ لِنفسِهِ وحظوظِها ٱرتدّ إليك ـ أيُّها اللعين ـ وأقبلَ على شَقاءِ نفسِه، وكلَّما عملَ لِسعادةِ غيرِهِ ٱبتعدَ عنك ـ أيُّها الرجيم ـ وأقبلَ

---

(1) الرجيم: المطرود

على سعادةِ نفسِهِ، وتركِ الغضبِ وحظوظِ النفسِ هوَ الصبر؛ وصبرُ الأنبياءِ وٱلصِّدِّيقينَ ليسَ صبراً على شيءٍ بعينهِ في الحياة، بلْ هو ٱلصبرُ على حوادثِ ٱلعمرِ كلّه، كصبرِ المسافرِ إنْ كانَ عزيمةَ مدةَ ٱلطريقِ كلِّها، وإلَّا كانَ فساداً في ٱلقوَّةِ ووقعَ بِهِ الخِذلان.

فهذا ٱلصبرُ المُعتزِمُ ٱلمصمِّم، ٱلذي يُوطِّنُ بِهِ الرجلُ نفسَهُ أنْ يكونَ رَجلاً إلى الآخر ـ هو تعبُ الدنيا، ولكنَّهُ هو رَوْحُ ٱلجنَّةِ مَعَ الإنسانِ في ٱلدنيا. والمؤمنُ ٱلصابرُ رجلٌ مُقْفَلٌ عليهِ بأقفالِ الملائكةِ التي لا يَقْتَحِمُها الشيطانُ ولا تفتحُها مصائبُ الدنيا؛ ولذلك قالَ النبيُّ ﷺ: «إنَّ ٱلمؤمنَ يُنْضي شيطانَهُ كما يُنْضي(١) أحدكُم بعيرَهُ في سفرِه». كأنَّهُ يقول: لو لم يصبرِ ٱلمسافرُ دائباً معتزِماً مدةَ سفرِهِ كلِّها لَمَا أنضى شيطانَه.

فصاحَ الشيطان: أوَّه، أوَّه! ولكنْ قلْ لي يا أبا الحسن: ما صَبْرُ رجلٍ مؤمنٍ قويِّ ٱلإيمان، قدِ ٱستطاعَ بقوةِ إيمانِهِ أنْ يُفيقَ من سُكْرِ ٱلغِنى، فتخَلَّصَ من نزوَاتِ ٱلشاطينِ الذهبيَّةِ ٱلصغيرةِ التي تسمُّونها ٱلدنانير؛ وقد أردْتُهُ على أنْ يكذبَ، فرأى الإيمانَ أنْ يَصْدُق؛ وجَهَدْتُ بِهِ يغضبُ، فرأى ٱلحكمةَ أنْ يهْدأ؛ وحاولْتُ منه أنْ يطمعَ، فرأى الراحةَ أنْ يرضَى؛ وسَوَّلْتُ لَهُ أنْ يَحْسُدَ، فرأى الفضيلةَ ألَّا يُبالي؛ وأخذَ لِنفسِهِ من كلِّ شيءٍ في ٱلحياةِ بما يثِقُ أنَّهُ ٱلإيمانُ وٱلصبرُ وٱلهدوءُ وٱلرضا وٱلقناعة؛ وأحاطَ نفسَهُ من هذه الأخلاقِ بالسعادةِ القلبيَّةِ وٱجْتزَأَ بها؛ وقَصَرَ نظَرَهُ على ٱلحقيقةِ؛ ووجَد ٱلجمالَ في نفسِهِ ٱلطيِّبةِ ٱلصافية؛ وأجرى ما يُؤلِمُهُ وما يَسُرُّهُ مَجرًى واحداً؛ ونظرَ إلى ٱلعمرِ كلِّهِ كأنَّهُ يومٌ واحدٌ يَرْقُبُ مغربَ شمسِه؛ وأخذَ من إرادتِه قوةً أنسَتْهُ ما لم تُعطِهِ ٱلدنيا، فلمْ يَحْفَلْ بِمَا أعطَتِ ٱلدنيا وما مَنَعتْ؛ وعاشَ على فقرِهِ بِكلِّ ذلك كما يعيشُ ٱلمؤمنُ في ٱلجنَّة: هذا في قصرٍ من لؤلؤةٍ أو ياقوتةٍ أو زَبَرْجَدَةٍ، وذاكَ في قصرٍ مِنَ ٱلحكمةِ أو مِنَ ٱلإيمانِ أو مِنَ ٱلعقل.

قالَ الشيطان: فلمَّا أعجَزني صلاحاً ورضًى وصبراً وقناعةً وإيماناً وٱحتساباً، وكانَ رجلاً عالماً فقيها ـ سوَّلْتُ(٢) لَهُ أنْ يخرجَ إلى المسجدِ لِيعِظَ الناسَ فينتفعوا بِهِ، ويُبَصِّرَهمْ بدينِهم ـ ويتكلَّمَ في نصِّ كلامِ ٱللهِ؛ فَعقَدَ ٱلمجلسَ ووَعظ، وٱنصرفوا وبقيَ وحدَه.

---

(١) ينضي: يهزل، يضعف.

(٢) سوّلت: وسوست له.

فجاءَتِ ٱمرأةٌ تسألُهُ عن بعضِ ما يحتاجُ إليهِ ٱلنساءُ في ٱلدينِ من أمرِ طبيعتِهن؛ وكانتِ ٱمرأةً جَزْلةً غَضَّةً رابيةً، يهتزُّ أعلاها وأسفلُها، وتمشي قصيرةَ الخَطْوِ مُثَّاقِلَةً كالمتضايقةِ من حَمْلِ أسرارِ جمالِها وأسرارِ بدنِها ٱلجميل؛ فبَعْضُ مِشيتِها يَقَظَةٌ وبعضُها نومٌ فاترٌ تُخالطُهُ ٱليقَظة؛ ولا يراها ٱلرجلُ الفَحْلُ ٱلتامُّ الفُحولةِ إلَّا رأى ٱلهواءَ نفسَهُ قد أصبحَ من حولِها أنثى، مِمَّا تَعْصِفُ بِهِ ريحُها العَطِرةُ عِطْرَ زينتِها وجسمِها.

وكانَ الواعظُ قد ترمَّلَ من أشهر، وكانَتِ ٱلمرأةُ قد تأيَّمَتْ[1] من سَنَوات؛ فلمَّا رآها غَضَّ طرْفَهُ[2] عنها؛ ولكنَّها سأَلَتْهُ بألفاظِها العذْبةِ عن أمورٍ هي من أسرارِ طبيعتِها، وسألَتْهُ عن طبيعتِها بألفاظِها؛ فسمعَ منها مثلَ صوتِ ٱلبلَّور، يتكسَّرُ بعضُهُ على بعض.

وتحدَّثتْ لَهُ وكأنَّها تتحدَّثُ فيه: فسمِعَ بأذنِهِ ودمِه، ثُمَّ كانَ غَضُّ عينِهِ أقوى لِرؤيةِ قلبِهِ وجَمْعِ خواطِره.

ورأى صوتَها يَشْتَهِي؛ وعانَقَتْهُ رائحتُها ٱلعطريَّةُ ٱلنفَّاذة؛ وأحاطتْهُ بجوٍ كجوِّ ٱلفراشِ؛ وعادَتْ أنفاسُها كأنَّها وسْوَسَةُ قُبَلٍ؛ وصارَتْ زَفراتُها كالقِدْرِ إذا ٱستَجمعَتْ غَلَيَاناً؛ وطَلَعَتْ في خيالِهِ عُريانَةً كما تَطلعُ لِلسكرانِ من كأسِ ٱلخمرِ حُوريَّةٌ عُريانةٌ، لها جِسمٌ يبدو مِنَ ٱللِّينِ وٱلبَضاضةِ وٱلنَّعمَةِ كأنَّهُ من زَبَدِ ٱلبحرَ؟

قالَ أبو ٱلحسن: وكنْتُ كالنائم، فما شعرْتُ إلَّا بصوتٍ كصَكِّ ٱلحجرِ بِالحجر، لا كتكسُّرِ ٱلبلورِ بعُضِهِ على بعض، وسمعْتُ شيخي يقول: أفَسَقْت...؟

---

(١) تأيمت: مات عنها زوجها.

(٢) غضّ طرفه عنها: مال بنظره عنها.

تاريخٌ يتكلَّم. . .

أيعرفُ ٱلقرّاءُ أنَّ في ٱلأحلام أحلاماً هي قِصَصٌ عقليَّةٌ كاملةُ ٱلأجزاءِ محكمَةُ ٱلوضعِ مُتَّسقةُ ٱلتركيبِ بديعةُ ٱلتأليفِ، تجعلُ ٱلمرءَ حينَ ينامُ كأنَّهُ أسلمَ نفسَهُ إلى (شركةٍ مِنَ الملائكة)، تَسيحُ بِهِ في عالَمٍ عجيبٍ كأنَّما سُحِرَ فتحوَّلَ إلى قصة؟

إنْ يكنْ في ٱلقراءِ مَنْ لا يعلمُ هذا فلْيعلمْهُ منّي؛ فإنّي كثيراً ما أكتبُ وأقرأُ في النوم؛ وكثيراً ما يُلْقِي عَلَيَّ من بارع الكلام، وكثيراً ما أرى ما لو دوّنْتُهُ لَعُدَّ مِنَ ٱلخوارقِ وٱلمعجزات.

وهذه القصةُ التي أَرويها ٱليومَ، كانَتِ ٱلمعجزةُ فيها أنّي مشيْتُ في ٱلتاريخِ كما أمشي في طريقٍ ممتدّة؛ فتقدمْتُ إلى أهل سنةِ ٣٩٥ للهجرة وما يليها، فعِشْتُ معَهم وتَخَبَّرْتُ من أخبارِهم، ثُمَّ رجعْتُ إلى زمني لِأقصَّ ما رأيْتُهُ على أهلِ سنة ١٣٥٣...

أمسيْتُ ٱلبارحةَ كالمغموم في أحوالٍ ثقيلةٍ على النفسِ ما تَنطلقُ ٱلنفسُ لها، أوّلُها سوءُ ٱلهضم؛ ومتى كانَ ٱلبدءُ من هُنا لم تكنِ ٱلحركةُ في ٱلنفسِ إلَّا دائرةً: تَذهبُ ما تذهبُ ثُمَّ لا تنتهي إلَّا في سوءِ ٱلهضم عينهِ. فجلسْتُ في ٱلنَّديّ ٱلذي أسْمُرُ[1] فيهِ أحياناً، فكانَ لِجوّهِ وزنٌ أحسسْتُهُ كما يُحسُّ ٱلغائصُ في ٱلماءِ ثِقْلَ ٱلماءِ عليه؛ ودخَّنْتُ ٱلكَرْكَرَةَ[2] فلم تكنْ هواءً ودُخاناً يَتروَّحُ، بلْ كانَتْ من ثِقْلِها كٱلطعام يدخلُ على ٱلطعام؛ ونظرْتُ ناحيةً فأخذَتْ عيني رجُلاً فِيليَّ ٱلخِلْقة[3]، مُنْطادَ ٱلبطنِ[4] كأنّما نُفِخَ بطنُهُ بٱلآلات، يَحمِلُ منه مقدارَ أربعةٍ من بطونِ ٱلبديناتِ ٱلحواملِ كلٌّ منهنَّ في ٱلشهرِ ٱلتاسعِ من حَمْلِها... وكانَ معي إلى كلِّ هذا ٱلبلاءِ خمسُ صُحُفٍ يوميَّةٍ أُريدُ قراءتَها...!

ثُمَّ جِئْتُ إلى ٱلدارِ وٱلمعركةُ حاميةٌ في أعصابي؛ وما كانَ سوءُ ٱلهضم مُنوِّمةً فيدعوَ إلى النوم، فدخلْتُ بيتَ كُتُبي وأردْتُ كتاباً أيَّ كتابٍ تنالُهُ يدي، فخرجَ لِي كتابٌ

---

(١) أسمر فيه: أقضي ليالي السمر فيه.
(٢) الكرْكرة: النارجيلة.
(٣) فيلي الخلقة: ضخها كالفيل.
(٤) مُنطاد البطن: منفتح البطن.

في خُرافاتِ ٱلأوّلينَ وأساطيرِهم وهَذَيانِهم وسوءِ هضمِهمُ ٱلعقلي. . . كالكلام عن أدُونيسَ وأرطاميسَ وديوُنيسَ وسميراميسَ وإيسيسَ وأتوبيسَ وأثرغتيس. . . . فٱستعَذْتُ باللّهِ وقلْت: حتى ٱلكتُبُ لها في هذه الليلةِ أعصابٌ قد نالتْها ٱلثِّقْلةُ وٱلألم؟

وباتَ ٱلليلُ يقظانَ معي، وبقيْتُ مُتَمَلْمِلاً أتقلَّبُ حتى أخذَ ٱلصداعُ في رأسي، فٱنقلبَ ٱلتعبُ نوماً، وجاءَ مِنَ ٱلنومِ تعبٌ آخر، وقُذِفْتُ إلى عالمِ ٱلأحلامِ في قُنبلةٍ تستقرُّ بي حيثُ تُريدُ لا حيثُ أُريد:

* * *

ورأيتُني في قومٍ لا أعرفُ منهم أحداً قدِ ٱجتمعوا جمَاهير، وسمعْتُ قائلاً منهم يقول: «الساعةَ يمرُّ مولانا العالي». فقلْتُ لِمَنْ يليني: «مَنْ يكونُ مولانا العالي؟» قال: «أوَ أنتَ منهم؟» قلْت: «مِمَن؟» فألهاهُ عن جوابي تَشوُّفُ ٱلناسِ وٱنصرافُهم إلى رجلٍ أقبلَ راكباً حماراً أشهب؟ فصاحوا: «القمر القمر[1]» ورفَعَ ٱلرجلُ الذي يُناكِبُني صوتَهُ يقول: «البركاتُ والعَظَماتُ لك يا مولانا العالي!».

قلْت: إنّا لله! لقد وقعْتُ في قومٍ مِنَ ٱلزنادقة، يُعارضون «التحياتُ والصّلَواتُ والطّيباتُ لله»؛ ثُمَّ مرّ صاحبُ ٱلحمارِ بحذائي، وغمزَهُ ٱلرجلُ علَيّ، فقال: ما بالُك لا تقولُ مثلَه؟ قلْت: أعوذُ باللّهِ من كُفرٍ بعدَ إيمان. فكأنّما أرادَ أنْ يَلْطُمَني فرفَع يدَه، فصِحْتُ فيه: كما أنتَ ـ ويلكَ ـ وإلّا قبضْتُ عليك، وأسلمْتُك لِلبوليس، وشكوْتُك إلى ٱلنيابة، ورفعْتُكَ إلى محكمةِ ٱلجُنَح[2]!

قال: ماذا أسمع؟ الرجلُ مجنونٌ فخذوه! وأحاطَ بي جماعةٌ منهم، ولكنَّهُ تَرَجَّلَ عن حمارِهِ وأخذَ بيدي ومشيْنا، فقلْت: مَنْ أنت يا هذا؟ قال: أراكَ من غيرِ هذا ٱلبلد؛ أمَا تَعرفُ ٱلحاكمَ بأمرِ ٱلله؟ فأنا هو. قلْت: أُنظرْ ـ ويحكَ ـ ما تقول. فما أظنُّكَ إلّا مَمْرُوراً؛ لقد كتبْتُ أمسِ كتاباً إلى مجلة (الرسالة) أرّختُه ١٣ من ذي الحجة سنة ١٣٥٣ و١٨ من مارس سنة ١٩٣٥، وأرسلْتُ بِهِ مقالةَ «الخروفين». .

قال: ماذا أسمع؟ نحن الآن في سنةِ ٣٩٥؛ فالرجلُ مجنون، أوْلا فأنت أيُّها ٱلرجلُ من معجزاتي. لقد جئْتُ بك مِنَ ٱلتاريخ، فسترى وتكتب، ثُمَّ تعودُ إلى التاريخِ فتكونُ من معجزاتي، وتقصُّ عنيَّ وتشهدُ لي. . . !

قلْت: فإنّي أعرفُ أعمالَك إلى أنْ قُتِلْتَ في سنة ٤١١. . . !

---

(١) القمر اسم لذلك الحمار.

(٢) الجنح، مفرده جُنحة وهي الجريمة.

قال: أوَ إلهٌ أنت فتَخلُقَ ستَّ عشرةَ سنةً بحوادِثها؟ لقد كِذْتَ من أفَنِكَ وغَباوتِك تُفسدُ عليَّ دعوى ٱلمعجزة!

وهاجَ ٱلصداعُ في رأسي، وبلغَ سوءُ ٱلهضم حدَّه، وٱشتبكَتْ سيناتُ إيسيسَ وأتوبيسَ إلخ بسينِ إبليس، ومرَّتْ بينَ كلِّ هذا حوادثُ ٱلطاغيةِ ٱلمعتوهِ[1] ٱلمتجبرّ، فرأيتُهُ يبتدعُ في كلِّ وقتٍ بِدَعا، ويخترعُ أحكاماً يُكْرِهُ ٱلناسَ على أنْ يعملوا بها، ويعاقبُهم على ٱلخروج منها، ثُمَّ يعودُ فينقُضُ أمرَه، ويُعاقِبُ على الأخذِ بِهِ، كأنَّ ٱلذي نَقضَ غيرُ ٱلذي أبْرَم، وكأنَّهُ حينَ يتبلَّدُ فيُعجزُهُ أنْ يخترعَ جديداً ـ يَجعلُ ٱختراعَهُ إبطالَ ٱختراعِه.

ورأيْتُهُ كأنَّما يعتدُّ نفْسَهُ مُخَّ هذه الأمَّة، فلا بُدّ أنْ يكونَ عقلاً لِعقولِها، ثُمَّ لا بُدّ أنْ يَسْتَعْلِيَ ٱلناسَ ويستبدَّ بهِمُ ٱستبدادَ ٱلشريعةِ في أمرِها ونَهْيِها، فكانَتْ أعمالُهُ في جُملتِها هي نقضَ أعمالَ ٱلشريعةِ الإسلاميَّة، وظنَّ أنَّهُ مستطيعٌ محوَ ذلك ٱلعصر من أذهانِ ٱلناسِ وقَتْلَ ٱلتاريخِ ٱلإسلاميِّ بتاريخِ قاتلٍ سفَّاك.

وسَوَّلَ[2] لَهُ جنونُهُ أنَّهُ خُلِقَ تكذيباً لِلنبوّة؛ ثُمَّ أفرَطَ عليهِ ٱلجنونُ فحصَّلَ في نفسهِ أنَّهُ خُلِقَ تكذيباً لِلألوهيَّة؛ وفي تكذيبِهِ لِلنُّبوَّةِ وٱلألوهيَّةِ يحملُ الأمَّةَ بالقهرِ وٱلغلَبةِ على ٱلٱتصدّقَ إلَّا بِهِ هو؛ وفي سبيلِ إثباتِهِ لنفسِهِ صَنَعَ ما صَنع، فجاءَ تاريخُهُ لا ينفي ألوهيَّةً ولا نبوَّة، بلْ ينفي ٱلعقلَ عن صاحبِه؛ وجاءَ هذا التاريخُ في الإسلامِ لِيتكلَّمَ يوماً في تاريخِ ٱلإسلام. . .

* * *

رأيتُني أصبحتُ كاتباً لِهذا الحاكم، فجعلْتُ أشهدُ أعمالَهُ وأُدوِّنُ تاريخَه، وأقبلْتُ على ما أفْرَدَني بِهِ وقلْتُ في نفسي: لقد وضعَتْني الدنيا مَوْضِعاً عزيزاً لم يرتفعْ إليهِ أحدٌ من كتَّابها وأدبائها، فسأكتبُ عن هذا الدهرِ بعقلٍ بينه وبين هذا الدهرِ ٩٦٨ سنةً صاعدةً في العِلْم.

ودوّنتُ عشرةَ مجلَّداتٍ ضخمةٍ ٱنتبهْتُ وأنا أحفظُها كلَّها، فإذا هي جُملٌ صغيرة، جَعلَ الحُلُمُ كلَّ نبذةٍ منها سِفْراً ضخماً كما يُخيَّلُ لِلنائم أنَّهُ عاشَ عمراً طويلاً وأحدثَ أحداثاً ممتدَّة، على حين لا تكونُ الرؤيا إلا لحظة.

---

(١) المعتوه: المخبول.

(٢) سوّل: سوّغ وأوحى له وسمح.

وهذه هي المجلَّداتُ التي قلْتُ: إن التاريخ يتكلَّمُ بها في التاريخ. . .

المجلدُ الأول

ابتُلِيَ هذا ٱلطاغيةُ بنقيصتين: إحداهما من نفسِه، والأخرى من غيرِه؛ فأمَّا ٱلتي من نفسِهِ فإنِّي أراهُ قد خُلِقَ وفي مُخِّهِ لُفافَةٌ عَصَبِيَّةٌ من يَهوديةٍ جَدِّهِ رأسِ هذه ٱلدعوة؛ فهو ٱلحاكمُ بْنُ ٱلعزيزِ بْنِ ٱلمعزِ بْنِ ٱلقاسمِ ٱلمهديِّ عُبيدِ ٱللهِ، ويقولون: إنَّ عبيدَ ٱللهِ هذا كانَ ٱبنَ ٱمرأةٍ يهوديَّةٍ من حدَّادٍ يهوديّ، فٱتفقَ أنْ جرى ذكرُ النساءِ في مجلسِ ٱلحسينْ بنِ محمدٍ ٱلقدَّاح، فوصفوا لَهُ تلك ٱلمرأةَ ٱليهوديَّة، وأنَّها آيةٌ في ٱلحسنُ؛ وكانَ لها مِنَ الحدادِ ولد، فتزوَّجَها ٱلرجلُ وأدَّبَ ٱبنَها وعلَّمَه، ثُمَّ عرَّفَهُ أسرارَ ٱلدعوةِ العَلَويةِ وعَهِدَ إليهِ بها.

ومن بعضِ ٱللفائفِ ٱلعصبيَّةِ في ٱلمخِّ ما ينحدِرُ بالوارثةِ مطبوعاً على خيرِهِ أو شرِّه، لايَدَ لِلمرْءِ فيهِ ولا حِيلةَ لَهُ في دفعِهِ أوِ ٱلانتفاءِ منه، فيكونُ قَدَراً يَتَسلْسلُ في ٱلخَلْقِ لِيُحدِثَ غاياتِهِ المقدورة، فمتى وقعَ في مخِّ إنسانٍ فالدنيا بِهِ كالحُبْلَى ولا بدّ أنْ تتمخَّضَ[1] عنه.

هذهِ ٱللّفافةُ ٱليهوديَّةُ في مخِّ هذا ٱلطاغيةِ ستُحقِّقُ بِهِ قولَ ٱللَّهِ تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ﴾ فهو لَنْ يكونَ ٱلعدوَّ لِلإسلام دونَ أنْ يكونَ ٱلأشدَّ في هذهِ ٱلعداوة، ولنْ يكونَ فيها ٱلأشدَّ حتى يفعلَ بها الأفاعيلَ ٱلمنكَرَة. وما أرى هذه ٱلمآذنَ ٱلقائمةَ في الجوِّ إلَّا تخرقُ بمنظرِها عينَهُ مِن بُغضِهِ لِلإسلامِ وٱنطوائِهِ على عُدوانِهِ؛ فويلٌ لها منه!.

وأمَّا ٱلنقيصةُ ٱلثانيةُ فقدِ ٱبتُليَ بقومٍ فتنُوهُ بآرائِهم ومذهَبِهم، وهم حمزةُ بْنُ عليّ، وٱلأخرمُ، وفلان، وفلان. . وقدْ لفَّقوا لِلدنيا مذهَباً هو صورةُ عقولِهِمُ ٱلطائشة، لا يجيءُ إلَّا لِلهدم، ثُمَّ لا يضعُ أولَ مَعاوِلِهِ إلَّا في قُبةِ ٱلسماءِ لِيهدمَها. . .! ولو أنا جمعْتُ هذا ٱلمذهبَ في كلمَة واحدةٍ لَقلْتُ: هو حماقةٌ حمقاءُ تُريدُ إخراجَ ٱللَّهِ مِنَ ٱلوجودِ لإدخالِ اللَّهِ في بعضِ ٱلطغاة!

ويتلقَّبون في مذهبِهم بهذه الألقاب: العقل، الإرادة، الإمام، قائم الزمان، علة العلل. . .!

---

(١) تتمخّض عنه: تنتج عنه.

أظهرَ ٱلطاغيةُ أنَّ الله يؤيّدُ بهِ ٱلإسلام، لِيتألّفَ ٱلجندَ والشعبَ ويستميلَهم إليه، وكانَ في ذلك لئيمَ ٱلكَيْدِ، دنيءَ ٱلحِيلة، يهوديَّ ٱلمكْر؛ فأمرَ بِعمارةِ ٱلمدارسِ لِلفقهِ وٱلتفسيرِ وٱلحديثِ وٱلفُتْيا، وبَذَلَ فيها ٱلأموال، وجعلَ فيها ٱلفقهاء (والمشايخ)، وبالغَ في إكرامِهم، والتَّوْسعَةِ عليهم، وٱلتَّخضُّعِ لهم، ودَخَل في ظلالِ ٱلعمائم... وأحضرَ لِنفسهِ فقيهَين مالكيَّين (اثنين لا واحد) يعُلِّمانِهِ ويُفقِّهانِهِ، وكانَ أشبَهَ بمُريدٍ مع شيخ ٱلطريقةِ يَتسعَّدُ[1] بِهِ ويَتيَمّن[2]؛ أشرفُ ألقابِهِ أنه خادمُ ٱلعِمامةِ ٱلخضراء، وأسعدُ أوقاتِهِ ٱليومُ الذي يقولُ له فيه الشيخ: رأيْتُكَ في ٱلرؤيا ورأيتُ لك...!

وكانَتْ هذه ٱلمعاملةُ ٱلإسلاميَّةُ ٱلكريمةُ من هذا الطاغية، هي بعينِها رِبا ٱللُّفافةِ ٱليهوديَّةِ في مُخِّه؛ تُصْلِحُ بإقراضِ مائةٍ، وفيها نيةُ الخرابِ بالستينَ في المائة...! فإنَّهُ ما كادَ يتمكَّنُ مِنَ الناسِ ويعرفُ إقبالَهم عليهِ وثِقتَهم به، حتى طَلبتِ ٱللفافةُ ٱليهوديةُ رأسَ ٱلمال وٱلرِّبا؛ فأمرَهم بهدمِ تلكَ ٱلمدارسِ وإخرابِها، وأبطَلَ العيدَينِ وصلاةَ ٱلجمعة، وقَتَلَ ٱلفقهاء وقَتَلَ معهم فقيهيهِ وأستاذَيه، وعادَ كالمُريدِ ٱلمنافقِ معَ شيخِ ٱلطريقة، يقولُ في نفسِهِ: إنَّ هناك ثلاثةً تعملُ عملاً واحداً في الصيَّد: الفخّ، والعِمامة، واللّحية...!

إنَّ هذا الطاغيةَ مِلكٌ حاكم، يستطيعُ أنْ يجعلَ حماقتَهُ شيئاً واقعاً، فيقتلَ علماءَ ٱلدينِ بإهلاكهم، ويقتلَ مدارِسَ ٱلدينِ بإخرابِها، ولو شاءَ لٱسْتطاعَ أنْ يشنُقَ مِنَ ٱلمسلمينَ كلَّ ذي عِمامةٍ في عِمامتِه. ويبلغُ من كفرِهِ أنْ يتبجَّحَ[3] ويرى هذا قوةً، ولا يعلمَ أنَّهُ لِهوانِهِ على اللّهِ قد جعلَهُ ٱللّهُ كالذبابةِ التي تُصيبُ ٱلناسَ بالمرض، وٱلبعوضةِ التي تقتلُ بٱلحمَّى، وٱلقملةِ ٱلتي تَضْربُ بِالطاعون، فلو فَخَرَتْ ذبابةٌ، أو تَبجَّحَتْ قملةٌ، أو ٱستطالَتْ بعوضة، لجازَ لَهُ أنْ يَطِنَّ طنينَهُ في ٱلعالم. وهلْ فعلَ أكثرَ مِمَّا تفعل؟

لقد أوْدَى بأُناسٍ يقومُ إيمانُهم على أنَّ ٱلموتَ في سبيلِ ٱلحقِّ هو ٱلذي يُخلِدُهم في ٱلحق، وأَنَّ ٱنتزاعَهم بٱلسيفِ من ٱلذي يضعُهم في حقيقتِها، وأنَّ هذه الروحَ ٱلإسلاميةَ لا يَطْمِسُها ٱلطغيانُ إلَّا لِيجلوَها.

---

(١) يتسعّد: يجعله سبب سعادته.
(٢) يتيمّن: يتفاءل.
(٣) تبجّح: أعلن فرحه وجاهر به مفتخراً.

إنَّهُ ـ واللَّهِ ـ ما قَتَلَ ولا شَنَقَ ولا عَذَّب، ولكنَّ ٱلإسلامَ ٱحتاجَ في عصرِهِ هذا إلى قوم يموتون في سبيلِهِ، وأعوزَهُ ذلك ٱلنوعُ ٱلسامي مِنَ ٱلموتِ الأولِ ٱلذي كانَ حياةَ ٱلفكرِ ومادةَ التاريخِ، فجاءَتِ ٱلقملةُ تحملُ طاعونها..!

لقد أحياهم في ٱلتاريخ، أمَّا هم فقتَلوهُ في ٱلتاريخ، وجاءَهم بٱلرحمةِ من جميعِ ٱلمسلمين، أمَّا هم فجاءُوه بٱللعنةِ مِنَ ٱلمسلمين جميعاً!

المجلدُ الثالث

يرى هذا الطاغيةُ أنَّ الدينَ ٱلإسلاميَّ خُرافةٌ وشَعْوذةٌ عنِ ٱلنفس، وأنَّ محوَ ٱلأخلاقِ ٱلإسلاميَّةِ ٱلعظيمةِ هو نفسُهُ إيجادُ أخلاق، وأنَّ ٱلإسلامَ كانَ جريئاً حينَ جاءَ فٱحتلَّ هذه الدنيا؛ فلا يطردُهُ مِنَ ٱلدنيا إلَّا جَراءةُ شيطانٍ كٱلذي توَقَّحَ على ٱللَّهِ حينَ قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. ولهذا أمرَ ٱلناسَ بسبِّ ٱلصَّحابة، وأنْ يُكْتَبَ ذلك على حِيطانِ ٱلمساجدِ وٱلمقابرِ وٱلشوارع!

أخزاهُ ٱللهُ! أهي روايةٌ تمثيلية يُلْصِقُ ٱلإعلانَ عنها في كلِّ مكان؟ لو سمعَ لسمعَ ٱلمساجدَ وٱلمقابرَ وٱلشوارعَ تقول: أخزاهُ ٱلله....!

المجلدُ الرابع

هذا ٱلفاسقُ لا يركبُ إلَّا حماراً أشهبَ يُسمِّيه: (القمر)، وقد جعلَ نفسَهُ مُحتسَباً لِغاية خبيثةٍ؛ فهو يدورُ على حِمارِهِ هذا في ٱلأسواقِ ومعَهُ عبدٌ أسود، فمَنْ وجَدهُ قد غَشَّ؛ أمرَ ٱلأسودَ فـ...! ووقف هو ينظرُ ويقولُ لِلناس: انظروا...!

ومن غَلبَةِ ٱلفُسوقِ على نفسِهِ وعلى شيعتِهِ أنّ داعيتَهُ (حُمزَة بْنَ عَليّ) نَوَّهَ[1] بٱلحمارِ في كتابِهِ وأومأَ إليهِ بالثناء، لِخصال: منها أن...! وكتبَ حمزةُ هذا في بعضِ رسائلِهِ: أنَّ ما يرتكبُهُ أهلُ الفسادِ بجوارِ ٱلبساتينِ ٱلتي يمرُّ بها (الفاسقُ) مِنَ المنكَرِ وٱلفحشاء ـ إنما يُرتكَب في طاعتِه...!

هذه طبيعةُ كلِّ حاكم فاسقٍ مُلحد، يرى في نفسِهِ رذائلَهُ عُريانةً، فلا يكونُ كلامُهُ وعملُهُ وفكرُهُ إلَّا فُحشاً يتعرَّى؛ وإنَّ في هذا الرجلِ غريزةَ فسق بهيميَّةً متصلةً بطَوْرِ[2] ٱلحيوانِ ٱلإنسانيِّ ٱلأول؛ فما من رَيْبٍ أنَّ في جسمِهِ خليَّةً عصبيَّةً مُهْتاجَةً،

(١) نوّه: ذكر فضائله.

(٢) طوْر بتسكين الواو: المرحلة.

ما زالَتْ تَسْبَحُ بالوارِثةِ في دماءِ ٱلأحياء، متلفِّفةً على خصائصِها، حتى ٱستقرَّتْ في أعصابِ هذا الفاسق، فٱنفجَرتْ بكلِّ تلك ٱلخصائص.

ولسْتُ أرى أكثَرَ أعمالِهِ ترجعُ في مَرَدِّها إلَّا إلى طغيانِ هذهِ الغريزةِ فيه؛ فهو يُحاولُ هدمَ ٱلإسلام، لِأنَّهُ دينُ ٱلعِفَّةِ ودينُ صَوْنِ ٱلمرأة، يُلزمُها حِجابَ عِفَّتِها وإبائِها، ويمنعُها ٱلابتذالَ وٱلخلاعة، ويُعينُها أنْ تتخلَّصَ مِمَنْ يشتهيها، ولو كانَ الحاكم. . . إنَّهُ يَمقتُ هذا الدينَ ٱلقويّ، كما يمقتُ اللصُّ ٱلقانون؛ فهو دينٌ يَثْقُلُ على غريزتِهِ ٱلفاسقة، ولِكلِّ غريزةٍ في ٱلإنسان شعورٌ لامهَناً لها إلَّا أنْ يكونَ حرًّا حتى في ٱلتوهُّم؛ وهلْ يُعجِبُ ٱلسكِّيرَ شيءٌ أو يُرضيهِ أو يَلَذُّه، كما يُعجبُهُ أنْ يرى الناسَ كلَّهم سُكارى؛ فَيَنْتشي هو بٱلخمر، وتسكرُ غريزتُهُ برؤيةِ ٱلسكْر؟

وما زالَ رأيُ ٱلفُسَّاقِ في كلِّ زمنٍ أنَّ ٱلحريةَ هي حريةُ ٱلاستمتاع، وأنَّ تقييدَ ٱللذةِ إفسادٌ لِلَّذَّة.

المجلدُ الخامس

يزعمُ ٱلطاغيةُ أنَّهُ يُعِزُّ قومَه، وما أراهُ يُعزُّهم، لكنَّهُ يمتحنُ ذلَّهم وضعفَهم وهوانَهم على ٱلأمم؛ يتجرَّأُ شيئاً فشيئاً، مُنتظِراً ما يَتَسهَّل، مترقِّباً ما يُمكن؛ وهو يرى أنَّ أخلاقَنا ٱلإسلاميَّةَ هي أمواتُنا دَفنوا أنفسَهم فينا؛ فمن ذلك يَهدمُ ٱلأخلاقَ ويظنُّ عندَ نفسِهِ أنَّهُ يهدمُ قبوراً لا أخلاقاً.

ولقد سَخِرَ منهُ ٱلمصريون بنكتةٍ من ظَرفِهِمُ ٱلبديع، وجاءُوه من غريزتِه، فصنعوا أمرأةً مِنَ ٱلورقِ ٱلذي يُشْبِهُ ٱلجلد، وألبسوها خُفَّها وإزارَها، حتى لا يشكَّ مَنْ رآها أنَّها آدميَّة، ثُمَّ وضعوا في يدها قَصَّةً وأقاموها في طريقه؛ فلمَّا رآها عَدَلَ إليها[1] وأخذَ من يدِها ٱلقَصةَ وقرأها، فإذا فيها سَبٌ لَهُ ولِآبائِهِ؛ وسخريةٌ من جنونِهِ ورُعونتِهِ ٱلمضحكة؛ فغضَبَ وأمرَ بقتلِ ٱلمرأة؛ فكانَتْ هذه سخريةً أخرى حينَ تحقَّق أنَّها مِنَ ٱلورق، وأخذَتْهُ ٱلنكتةُ ٱلظريفةُ بمثلِ ٱلبرقِ وٱلرعدِ؛ فٱستَشاطَ[2] وأمرَ عبيدَهُ مِنَ ٱلسودانِ بتحريقِ الدُّورِ ونهبِ ما فيها وسَبْيِ ٱلنساءِ وٱلفُجورِ بهنّ؛ حتى جاءَ ٱلأزواجُ يشترون زوجاتِهم مِنَ ٱلعبيد، بعدَ أنْ طارَتِ ٱلزوبعةُ ٱلسوداءُ في بياضِ ٱلأعراض.

إندلعَتْ ثورةُ ٱلفجورِ في ٱلمدينة، لا مِنَ ٱلعبيد، ولكنْ مِنَ ٱلحيوانِ ٱلعتيقِ ٱلمستقرِّ في هذا الطاغية.

---

(١) عدل إليها: مال وعرّج عليها.

(٢) استشاط: اشتعل غضباً.

المجلدُ السادس

وهذه رُعونَةٌ من أقبحِ رُعوناتِهِ، كأنَّ هذا الحيوانَ لا يحسبُ نساءَ ٱلأمَّةِ كلَّها إِلَّا نساءَه، فيأمُرهنَّ بأمر ٱمرأتِه، وكأنَّ ٱلنساءَ في رأيهِ إنْ هُنَّ إِلَّا ٱستجاباتٌ عصبيَّةٌ تُطْلَقُ وتُرَدّ.

إنَّ لِموجةِ ٱلفِسْقِ في ٱلغريزةِ ٱلطاغيةِ جَزْراً ومداً يقعانِ في تاريخِ ٱلفسَّاق؛ فهذا الطاغيةُ قد جَزَرَتْ فيهِ ٱلموجة، فأمرَ أنْ يُمنَعَ ٱلنساءُ مِنَ الخروجِ ليلاً ونهاراً، لا تطأُ أرضَ ٱلمدينةِ قَدَمُ ٱمرأة، وأمرَ ٱلخفَّافينَ أَلَّا يصنعوا لَهنَّ ٱلأخفافَ وٱلأحذيَةَ؛ ولَمَّا عَلِمَ أنَّ بعضَ ٱلنساءِ خرجْنَ إلى ٱلحماماتِ هَدَمَ ٱلحماماتِ عليهِنّ!

ولو مدَّتِ ٱلموجةُ في تفسُّقِ ٱلفاسقِ لَفَرَضَ على ٱلنساءِ ٱلخروجَ وٱلاتصالَ بٱلرجال وٱلتعرضَ لِلإباحةِ.

إنَّ ٱلصلاحَ وٱلفسادَ كلاهما فسادٌ ما لم يكنِ ٱلصلاحُ نظافةً في ٱلروحِ وسموًّا في ٱلقلب.

المجلدُ السابع

يزعمُ ٱلطاغيةُ أنَّهُ سيَهدمُ كلَّ قديم؛ وإنيِّ لأخشى ـ واللهِ ـ أنْ يأمرَ ٱلناسَ في بعضِ سَطَواتِ جنونِه: أنَّ كلَّ مَنْ كانَ له أبٌ أو أمٌ بلغ ٱلستينَ فلْيقتلْه، لِتتخلَّصَ ٱلأمةُ من قديمِها ٱلإنسانيّ...!

كأنَّهُ لا يعرفُ أنَّهُ إنَّما يتسلطُ على أيَّامِ مُعاصريهِ لا على التاريخ؛ ويحكمُ على طاعةِ قومِهِ وعِصيانِهِم لا على قلوبِهم وطِباعِهم ومِيراثِهم مِنَ ٱلأسلاف؛ فما هو إِلَّا أنْ يهلِكَ حتى ينبعثَ في ٱلدنيا شيئان: نَتْنُ رِمَّتِهِ[1] في بطنِ ٱلأرض، ونتْنُ أعمالِهِ على ظهرِ ٱلأرض. إنَّ هذا ٱلرجلَ ٱلمسلَّطَ، كٱلغُبارِ ٱلمُستَطارِ لا يُكْنَسُ إِلَّا بعدَ أنْ يقعَ...

ولقد رأى ٱلمأفونُ أنَّ أكلَ ٱلناسِ ٱلملوخيَّا ٱلخضراءَ وٱلفُقَّاع، وٱلتُّرمُسَ والجِرْجيرَ، والزبيبَ والعنب ـ هوًى قديمٌ في طِباعِ ٱلناس، فنهى عن كلِّ ذلك، لا يُباعُ ولا يُؤكل، وظهرَ على أنَّ جماعةً باعُوا أشياءَ منها فضَرَبهُم بٱلسِّياط، وأمرَ فَطيفَ بهم في ٱلأسواق، ثُمَّ ضَربَ أعناقَهم؛ كأنَّ ٱلذي يحملُ ٱلملوخيَّا الخضراءَ على رأسِهِ لِيبيعَها يلبسُ عِمامةً خضراء...

---

(١) رِمّته: جيفته.

أهذا ـ وَيْحه ـ تجديدٌ في ٱلأمة، أم تجديدٌ في ٱلمعِدة. . .؟

المجلدُ الثامن

لا يرضَى ٱلطاغيةُ إلَّا أنْ يَمْحَقَ[1] روحانيَّةَ ٱلأمَّةِ كلِّها، فلا يتركُ شيئاً رُوحانيًّا لَهُ في أعصابِ الناسِ أثرٌ مِنَ ٱلوقار، وبِمَنْ يَسْتَظهِرُ ـ ويْلَه ـ إذا مُحِقَتْ روحانيَّةُ ٱلأمَّةِ وأشرفَتْ نَزْعتُها الدينيةُ على ٱلانحلال؟ كأنَّهُ لا يعلمُ أنَّ حقيقةَ ٱلوجود لِأمةٍ مِنَ ٱلأممِ إنَّما تُستَمدُّ من إيمانِها بالمثَلِ ٱلأعلى ٱلذي يدفعُها في سِلْمِها إلى الحياةِ بِقوة، كما يدفعُها في حربِها إلى ٱلموتِ بقوَّة؛ وكأنَّهُ لا يعلمُ أنَّ ٱلتاريخَ كلَّه تُقرِّرُهُ في ٱلأرض بِضعةُ مبادىءَ دينيَّة.

هذا ٱلحاكمُ ٱلأخرقُ هو عندي كٱلذي يقولُ لِنفسِه: لم أستطعْ أنْ أفتحَ دولة، فلأفتحْ دولةً في مملكتي. . . لقد أمرَ بهدمِ ٱلكنائسِ وٱلبِيَع، حتى بلغَ ما هدَم منها ثلاثينَ ألفاً ونيِّفاً.

أيُّ مجنونٍ أسخفُ جنوناً من هذا ٱلذي يحسبُ ٱلنفوسَ ٱلإنسانيَّةَ كٱلأخشاب؛ تَقبَلُ كلُّها بغيرِ ٱستثناءٍ أنْ تُدقَّ فيها ٱلمسامير. . .؟

سيعلمُ إذا نشبَتْ حربٌ بينَهُ وبينَ دولةٍ أخرى، أنَّهُ كسرَ أشدَّ سيوفِهِ مضاءً حينَ كسَرَ ٱلدين!

المجلدُ التاسع

هذه هي ٱلطامَّةُ ٱلكُبرى؛ فلا أدري كيف أكتُبُ عنها: لقد تطاوَلَ ٱلمجنونُ إلى الألوهيَّةِ فٱدَّعاها، وصارَ يكتبُ عن نفسِهِ: بٱسم ٱلحاكمِ ٱلرحمن!

لو كان أغبى ٱلأغبياءِ في موضعِهِ لَاتَّقى شيئاً، لا أقولُ تقوى ٱلدينِ وٱلضمير، ولكنْ تقوى ٱلنِّفاقِ ٱلسياسيّ؛ فكانَ يحملُ ٱلناسَ على أنْ يقولوا عنه: «أبانا الذي في ٱلأرضين. . . . !».

وإلَّا فأيُّ جهلٍ وخَبْطٍ، وأيّ حُمقٍ وتَهوُّر، أنْ يكونَ إلهٌ على حمارٍ، وإنْ كانَ ٱسمُ حمارِهِ القمر!

المجلدُ العاشر

سيأخذُهُ ٱللَّهُ بأمرأة؛ ولِكلِّ شيءٍ آفةٌ من جنسِه؛ لقد بلغَ من وقاحةِ غريزتِهِ أنْ

---

(١) يمحق: يسحق، يمحو.

ٱئْتَفَكَ[1] أختَهُ ٱلأميرةَ (ستّ المُلك)، ورماها بٱلفاحشة، وهي من أزكى ٱلنساءِ وأفضلِهِنّ، واَتّهمها بالأمير (سيف الدين بنِ الدَّوّاس) وقد علمْتُ أنّها تُدبِّرُ قتلَه، وأنّها ٱجتمعتْ لذلك بسيفِ الدين. فسأمسك عن ٱلكتابةِ في هذا المجلد، وأدعُ سائرَهُ بياضاً حتى أذهبَ إليهما فأُعينَهما بما عندي مِنَ ٱلرأي، ثُمَّ أعودُ لِتدوينِ ما يقعُ من بَعد. . .

* * *

ورأيتُ أنّي ٱجتمعْتُ بِهما وٱطمأنّا إليّ، فأخذْنا نُديرُ ٱلرأي:

قالتِ ٱلأميرةُ لِسيفِ ٱلدين فيما قالَتْه: «وٱلرأيُ عندي أنْ تُتْبِعَهُ غِلماناً يقتلونَهُ إذا خرجَ في غدٍ إلى جبلِ ٱلمقطَّم، فإنَّهُ ينفرِدُ بنفسِهِ هناك!».

فقلْتُ أنا: «ليسَ هذا بالرأيِّ ولا بٱلتدبير».

قالَتْ: «فما ٱلرأيُ وٱلتدبيرُ عندك؟».

قلت: «إنَّ لنا عِلْماً يسمونَهُ (علم النفس)، لم يقعْ لِعلمائِكم، وقد صحَّ عندي من هذا العِلْمِ أنَّ ٱلرجلَ طائشُ ٱلغريزةِ مجنونُها، وأنَّ ٱلأشعةَ ٱللطيفةَ ٱلساحرةَ ٱلتي تنبعثُ من جسمِ ٱلمرأةِ هي ٱلتي تنفجرُ في مُخِّهِ مرّةً بعدَ مرّة؛ فإذا خَبَتْ[2] هذه الأشعة، وبطَلَتِ ٱلغريزة، بَطَلتْ دواعي أعمالِهِ ٱلخبيثةِ كلُّها، وكَفَّ[3] عن محاولتِهِ أنْ يجعَلَ ٱلأمَّةَ مملوءةً من غرائزِ جسمِهِ وشهواتِهِ، لا من فضائِلِها ودينِها. فلو أخذْتُم برأيي وأمضيتُموه فإنَّهُ سيُنكِرُ أعمالَهُ إذا عرَضَها على نفسِهِ ٱلجديدة، وبهذا يُصلِحُ ما أفسد، وتكونُ حياتُهُ قد نطقَتْ بكلمتِها ٱلصحيحةِ كما نطقَتْ بكلمتِها ٱلفاسدة؛ فإذا. . . .».

قالَ ٱلأمير: «فإذا ماذا؟».

قلْت: «فإذا خُصِيَ. . . .».

فضحكَتْ سِتُّ ٱلملكِ ضحكةً رنَّتْ رنيناً.

قلْت: «نعم إذا خُصيَ هذا الحاكم».

فغلبَها ٱلضحكُ أشدَّ مِنَ ٱلأول، ورمتْني بمنديلٍ لطيفٍ كانَ في يدِها أصَابَ وجهي، فٱنتهبتُ وأنا أقول:

«نعم إذا خُصِيَ هذا الحاكم. . .».

---

(١) ائتفك: اتّهم بالفجور. (٢) خبت: سكنت. (٣) كفّ: توقّف.

كُفْرُ الذُّبابة . . .

قالَ كَلِيلةُ وهو يَعِظُ دِمْنةَ ويُحَذِّرُهُ ويَقضي حقَّ ٱللَّهِ فيه؛ وكانَ دِمنةُ قد داخلَهُ ٱلغرورُ وزَهَاهُ ٱلنَّصر، وظهرَ منهُ ٱلجفاءُ وٱلغِلْظة، ولَقِيَ ٱلثعالبُ من زيغِهِ[1] وإلحادِهِ عنتاً شديداً:

. . . وٱعلمْ يا دِمنةُ أنَّ ما زعْمتَهُ من رأيك تامٌّ لا يعتريهِ ٱلنقص، هو بعينِهِ الناقصُ الذي لم يتمَّ؛ والغرورُ ٱلذي تُثبِتُ بِهِ أنَّ رأيكَ صحيحٌ دونَ ٱلآراء، لعلَّهُ هو ٱلذي يُثبت أنَّ غيرَ رأيكَ في ٱلآراءِ هوَ ٱلصحيح.

ولو كانَ ٱلأمرُ على ما يتخيَّلُ كِلُّ ذي خيال، لَصدَقَ كلُّ إنسانٍ فيما يزعم، ولو صدَقَ كلُّ إنسانٍ فيما يزعمُ، لكذَبَ كلُّ إنسان؛ وإنَّما يدفعُ ٱللَّهُ ٱلناسَ بعضَهم ببعض، لِيجيءَ حقُّ ٱلجميعِ مِنَ ٱلجميع، ويبقى ٱلصغيرُ مِنَ ٱلخطأ صغيراً فلا يكبر، ويثبُتَ ٱلكبيرُ مِنَ ٱلصوابِ على موضعِهِ فلا يُنتقص، ويصحَّ ٱلصحيحُ ما دامتِ ٱلشهادةُ لَه، ويفسُدَ ٱلفاسدُ ما دامَتِ ٱلشهادةُ عليه، وما مثَلُ هذا إلَّا مَثَلُ ٱلأرنبِ وٱلعلماء.

قالَ دِمنة: وكيفَ كانَ ذلك؟

قال: زعموا أنَّ أرنباً سمَعتِ ٱلعلماءَ يتكلَّمون في مصير هذه الدنيا، ومتى يتأذَّنُ[2] ٱللَّهُ بٱنقراضِها، وكيف تكونُ ٱلقارعة[3]؛ فقالوا: إنَّ في ٱلنجوم نجوماً مُذَنَّبةَ، لوِ ٱلتفَّ ذنَبُ أحدِها على جِرْمِ أرضِنا هذه لَطارَتْ هَوَاءَ كأنَّها نفخةُ ٱلنافخ، بلْ أضعفُ منها كأنَّها زَفرةُ صدرِ مريضٍ، بلْ أوهى كأنَّها نَفْثَةٌ من شفتين. فقالَتِ ٱلأرنب: ما أجهلَكم أيُّها العلماء! قد وٱللَّهِ خَرِفْتُم وتكَذَّبتم وٱستَحْمَقْتُم؛ ولا تزالُ ٱلأرضُ بخيرٍ معَ ذَواتِ ٱلأذناب؛ وٱلدليلُ على جهلِكم هو هذا ـ قالوا: وأرْتهُم ذَنَبها . . . !

قالَ كليلة: وكم من مغرورٍ يُنْزِلُ نفسَهُ مِنَ ٱلأنبياءِ منزلةَ هذه الأرنبِ من

---

(1) زيغه: روغانه. (2) يتأذن: يسمح. (3) القارعة: القيامة.

أولئك العلماء؛ فيقول: كذَبوا وصدَقْتُ أنا، وأخطأُوا جميعاً وأصبْتُ، وٱلْتبَسَ عليهم وٱنكشَفَ لي، وهم زعموا وأنا ٱلمستَيْقِن. ثُمَّ لا دليلَ لَهُ إلَّا مثلُ دليلِ ٱلأرنبِ ٱلخرقاءِ من هَنَةٍ تتحرّكُ في ذنبها.

وكانَ يُقال: إنَّهُ لا يُجاهِرُ[1] بالكفرِ في قوم إلَّا رجلٌ هانَ عليهم فلم يَعبئوا به، فهو ٱلأذلُّ المستضَف؛ أو رجلٌ هانوا عليهِ فلَم يعبأْ بهم، فهوَ ٱلأعزُّ ٱلطاغية؛ ذاك لا يخشَونَهُ فيَدَعُونَهُ لِنفسِهِ وعليهِ شهادةُ حُمقِه، وهذا يخشونَهُ فيتركون مُعارضَتَهُ وعليهِ شهادةُ ظُلمِه؛ وما شرٌّ من هذا إلَّا هذا.

وقَالَتِ ٱلعلماء: إنْ كنْتَ حاكماً تَشْنُقُ مَنْ يُخالِفُكَ في ٱلرأي، فليسَ في رأسِكَ إلا عقلٌ ٱسمُهُ ٱلحَبل؛ وإنْ كنْتَ تَقتلُ مَن يُنكرُ عليك ٱلخطأ، فليسَ لَكَ إلَّا عقلٌ ٱسمُهُ ٱلحديد؛ وإنْ كنْتَ تحبِسُ مَنْ يُعارضُك بِالنظر، ففيك عقلٌ ٱسمُهُ ٱلجِدار؛ أمّا إنْ كنْتَ تُناظِرُ[2] وتُجادِل، وتقنعُ وتقتنع، وتدعو ٱلناسَ على بَصيرةٍ ولا تأخذُهم بالعَمَى - ففيكَ ٱلعقلُ ٱلذي ٱسمُهُ العقل.

* * *

قالَ كليلة: وأنا يا دِمنة، فلو كنْتُ قائداً مُطاعاً، وأميراً مُتَّبَعاً، لا يُعصَى لي أمر، ولا يُردُّ عَلَيَّ رأيٌ، ولا يُنكَرُ مني ما يُنكَرُ مِنَ ٱلمخلوقِ إذا أخطأ، ولا يُقالُ لي دائماً إلَّا إحدى ٱلكلمتين: أصبْتَ، ثُمَّ هي دائماً أصبْتَ؛ ولا يَلْقاني أحدٌ من قومي بِٱلكلمةِ الأخرى، رَهْبةً من سَخَطِي[3]، رَهْبَةَ ٱلجُبناء، أو رغبةً في رِضايَ رغبةَ ٱلمُنافقين، وزعموا أنَّهم على ذلك قد صَحَّتْ نِيَّاتُهم وخلَصَ لي باطنُهم جميعاً - فلو كنْتُ وكانوا على هذا، لأحالَني نقصُهم إلى نقصِ ٱلعقلِ بعدَ كمالِه، وردَّتني فُسولتُهم إلى فُسولةِ ٱلرأي بعدَ جَوْدتِه، فأخْلِقْ[4] بي أنْ أعتبرَ وضْعَهم إيايَ في موضعِ ٱلآلهة، هو إنزالَهم إياي في منزلةِ ٱلشياطين؛ وإلَّا كنْتُ حقيقاً أنْ يُقصيبني ما أصابَ ٱلعَنْزَ ٱلّتي زعموا لها أنَّها أنثى الفيل. . .

قالَ دِمنة: وكيفَ كانَ ذلك؟

قال: زعموا أنَّهُ كانَ في إحدى خَرائبِ ٱلهندِ جماعةٌ منَ ٱلعظاءِ[5]، وكانَ

---

(١) يجاهر: يعلن على الملأ من الناس.

(٢) تناظر: تجادل وتحاور.

(٣) سخطي: غضبي.

(٤) أخلق بي: أجدر بي.

(٥) العِظاء، مفرده عِظاءة وعَظاية، وهي السحلية.

فيها عَضرَ فُوطٌ كبير[1]، فملَّكَتْهُ ٱلجماعةُ وذهبَتْ تأتَمِرُ[2] على أمْرِهِ وتنتَهي. فمرّ بهذه الخِرْبةِ فيلٌ جسيمٌ مِنَ ٱلفِيَلةِ ٱلهنديَّةِ ٱلعظيمة، لم يُحِسَّ بٱلعَظَاء، ولم يُميِّزْ فَرْقاً بين هذه الأمَّةِ مِنَ ٱلحشراتِ وبينَ ٱلحصى منثوراً يلْتَمِعُ في ٱلأرضِ هنا وهنا؛ قالوا فغضِبَ ٱلعَضْرَفُوطُ، وكانَ قائداً عظيماً، ثُمَّ تدبّر أمْرَ ٱلفيلِ ينظرُ كيفَ يصنعُ في مُدافَعَتِه[3]، وكيف يحتالُ في هَلاكِه، فرآهُ لا يتحركُ إلّا بأقدامِهِ يَنقلُها واحدةً واحدة؛ فقدَّرَ عندَ نفسِهِ أنَّهُ لو أزالَ قدَمَ الفيلِ عنِ ٱلأرضِ زالَ الفيلُ نفسُه؛ فجاءَ فٱعترضَ ٱلطريقَ، ودَبَّ دبيبَه؛ فلمَّا رفعَ ٱلفيلُ قدمَه ٱهْتَبَلَ[4] هذه الغَفْلَةَ منه. وٱنْدسَّ[5] تحتها، فٱندسَّ مقبوراً في التراب!

ثُمَّ إن ٱلعَظَاءَ ٱفتَقَدَتْ أميرَها. فلمَّا مضى ٱلفيلُ لِسبيلِهِ ورأتْ ما نزلَ بها، نَفَرَتْ إلى أجحارِها[6]، وٱستكنَّتْ[7] فيها ترتَقِبُ وتَتربَّص[8]، فدخلَتْ إلى ٱلخِربةِ عَنْزٌ جعلَتْ تتقممُ منها وتَرْتَعُ فيها، ورأتْها ٱلعَظَاءُ فٱجتمعْنَ يأتَمِرْنَ[9]. . .

فقالَ منها قائل: هذه أنثى الفيل. فسألَتْ عَظَايةٌ منهنّ: وأينَ ٱلنابانِ العظيمان؟

قالَتِ ٱلأولى: إنَّ الإناثَ دونَ الذكورةِ في خَلْقِها، والأنثى هي ٱلذكَرُ مقلوباً أو مختصراً أو مشوَّهاً، ولذلك هنَّ يَقْلِبْنَ ٱلحياةَ أو يختصرْنَها أو يشوِّهْنَها، أفلا ترينَ ٱلنابينِ ٱلعظيمينِ البارزينِ في ذلك الفيلِ الجسيم، كيف نَبَتَا صغيرينِ منقلبين فوقَ رأس أنثاه. . .؟

فقالَتْ واحدة: إنْ جازَ قولُك في ٱلرأي فأينَ ٱلخُرْطُوم؟

قالتِ ٱلأخرى: هو هذه الزَّنمةُ المتدلِّيةُ من حَلْقها، وذلك خُرطومٌ على قدْرِ أنوثةِ ٱلأنثى. . . !

قالوا: ثُمَّ ٱجتمعَ رأيُهُنَّ على أنْ يُمَلِّكْنَ أنثى ٱلفيلِ هذه؛ وأنْ يَهَبْنَ لها الخِربةَ وأُمَّتَها. وسمعَتِ ٱلماعِزَةُ كلامُهُنَّ فقالَتْ في نفسِها: لا جَرَمَ أنَّ تكونَ ٱلعنزُ فيلةً في أمَّةٍ مِنَ ٱلعَظَاء، فقد قالَتِ ٱلعلماء: إنَّهُ لا كبيرَ إلَّا بصغير، ولا قَوِيَّ إلَّا بضعيف،

---

(١) العضرفوط هو ضرب من العظاء يكون أكبر منها.
(٢) تأتمر: تنصاع لأمره.
(٣) مدافعته إبعاده بالحيلة.
(٤) اهتبل: انتهز.
(٥) اندس: دخل خلسة.
(٦) أجحارها: أوكارها.
(٧) استكنّت: كمنت.
(٨) تربّص: تنتظر غفلة.
(٩) يأتمرن: يتناقشن.

ولا طاغيةَ إلَّا بذليل؛ وإنَّ العظمةَ إنْ هي إلَّا شهادةُ ٱلحقارةِ على نفسِها، وإنَّهُ رُبَّ عظيمِ طاغيةٍ متَجَبِّرٍ ما قامَ في ٱلناس إلَّا كما تقومُ ٱلحِيلة، ولا عاشَ إلَّا كما يعيشُ ٱلكَذِب، ولا حَكَمَ إلَّا كما يَحكمُ ٱلخِداع. وهذه الدنيا لِلمحظوظِ كأنَّها دنيا لَهُ وحدَه، فمتى جاءَتْ إليهِ فقد جاءَت، ولو أنَّها أدبرَتْ[1] عنه من ناحيةٍ لَرجعَتْ من ناحيةٍ أخرى، لِيثبتَ ٱلحظُّ أنَّهُ الحظ.

وتقدَّمَ ٱلعَظَاءُ إلى العنز، فقُلْنَ لها: أيَّتُها ٱلفِيلةُ العظيمة، إنَّ قرينَكِ العظيمَ قد مسَّ أميرَنا العَضْرَفُوطَ بقدمِهِ فغيَّبَهُ تحتَ سبْعِ أرَضِين، وأنت أنثاهُ وسيِّدتُه، فقدِ ٱخترناكِ مَلِكةً علينا، ووهبْنَا لك ٱلخِربَةَ وما فيها.

قالَتِ ٱلعنز: فإنِّي أتَّهِبُ منكُنَّ هذه الهِبَة، ونِعِمَّا صَنَعْتُنَّ؛ غيرَ أنَّ بينكُنَّ وبيني ما بينَ العَظَايَةِ وٱلفيل. وما بينَ ٱلحصاةِ والجبل، فإذا أنا قلْتُ، فأنا قلْت؛ وإذا أنا أمرْتُ، فأنا أمَرْت؛ وإذا أنا فعلْتُ، فأنا فعلْت. هنا في هذه الأمَّةِ كلِّها (أنا) واحدةٌ ليسَ معها غيرُها؛ لأنَّ هٰهنا في هذا الرأسِ دماغَ فِيلة، وفي هذا ٱلجسم قوةَ فِيلة، وفي ٱلخِربَةِ كلِّها فيلةٌ واحدة؛ فلا أعْرِفَنَّ منكُنَّ على ٱلصواب وٱلخطأ إلَّا ٱلطاعةَ طاعةَ ٱلأعمى لِلبصير. ألا وإنَّ أوّلَ ٱلحقائقِ أنَّني فيلةٌ وأنكُنَّ عَظَاء؛ ومتى بدأَ ٱليقينُ من هنا سَقَطَ ٱلخِلافُ من بينِنا وبَطلَ ٱلاعتراضُ منكُنّ، وقوَّتي حقٌّ لِأنَّها قوّة، وباطلي كذلك حقٌّ لِأنَّهُ من قوّتي؛ وقد قال أسلافُنا[2] حكماءُ ٱلفِيلَةَ: إنَّ القويَّ بينَ ٱلضعفاءِ مَشِيئةٌ مُطْلَقة، فهو مُصْلِحٌ حتى بالإفساد، حكيمٌ حتى بِٱلحماقة، إمامٌ حتى بٱلحرافة، عالمٌ حتى بالجَهالة نَبيٌّ حتى بالشَعوذَة. . . . !

قالوا: وتُنكِرُ عليها عَظَايَةٌ صالحةٌ عالمةٌ كانَتْ ذاتَ رأيٍ ودِينٍ في قومِها، وكُنّ يُسمِّينَها: (العِمامَة)، لِبياضِها وصلاحِها وطهارتِها، فقالت: ولا كلُّ هذا أيتُها ٱلفيلة؛ لقد تَخرَّصْتِ[3] غيرَ ٱلحق؛ فإنَّكِ تحكيمنَنا من أجلِنا لا من أجلِكِ، وما قولُكِ إلَّا كلماتٌ تُحقِّقُها أعمالُنا نحن؛ فَلَكِ ٱلطاعةُ فيما يُصْلِحُنا، وما كانَ من غيرِهِ فهو رَدٌّ عليك، ورأيُكِ شيءٌ ينبغي أنْ تكونَ معه آراؤنا، لِتَتَبيَّنَ ٱلأسبابُ أسبابُ ٱلموافقةِ وٱلمخالَفة، فنأخذَ عن بيِّنَةٍ ونتركَ عن بيِّنة؛ وقد كان يُقالُ في قديمِ ٱلحِكمة: إنَّهُ يجبُ على مَنْ يُقدِّمُ رأياً لِلأمَّةِ الحازمةِ كي تأخذَ به، أو يضَعُ لهاَ شرعاً لِيحْمِلَها عليه، أو يَسنُّ لها سنَّةً لِتتَّبعَها ـ إنَّهُ يجبُ على هذا ٱلمتقدِّمِ لِتحويلِ

---

(١) أدبرت: رحلت. (٢) أسلافنا: أجدادنا. (٣) تخرّصت: تقوّلت.

ٱلأمَّةِ أو تحريرِها يتقدَّمَ لِأهلِ ٱلشُّورَى وفي رأسِهِ ٱلرأيُ، وفي عنقِهِ حَبْل؛ ثُمَّ يتكلَّمُ برأيِهِ ويَبْسُطُهُ ويدْفعُ عنه، ويُجادلُهم ويُجادلونَه؛ فإنْ كانَ ٱلرأيُ حقًّا أخذوا ٱلرأي، وإنْ كانَ باطلاً أخذوا الحبلَ فشنقوا فيهِ هذا المتهوّر.

وفي دينِنا أنّ الطاعةَ في ٱلمعصيةِ معصيةٌ أخرى؛ ولقد كانَ لنا عَضْرفُوطٌ بَحّاثَةٌ في ٱلأديانِ دَرّاسَةٌ لِكتبِها عَلاّمَةٌ نَقّابٌ؛ فكانَ مِمّا علَّمنا: أنَّ ٱلمخلوقَ مبنيٌّ على النقصِ إذْ هو ماضٍ إلى ٱلفناء، فيجبُ ألّا يتمَّ منه شيءٌ إلّا بمقدار، وألّا تكونَ ٱلقوةُ فيهِ إلّا بمقدار؛ ولهذا كانَ ٱلعقلُ ٱلتامُّ في الأرضِ هو مجموعَ ٱلعقولِ ٱلعظيمةِ كلِّها، وكانَ أتمُّ ٱلآراءِ وأصحُّها ما أثبتَتِ ٱلآراءُ نفسُها أنَّهُ أصحُّها وأتمُّها. فلا ٱلدينَ ٱتَّبعْتِ أيّتُها ٱلفيلةُ، ولا ٱتَّبعْتِ ٱلعقل، وليسَ إلّا هذا (ٱلتفيُّلُ) ٱلكاذب.

فلمّا سمعتِ ٱلعنزُ ذلك تنقَّشَتْ وغضبَتْ، وقالَت: إيّاكم وهذه الترهّاتِ من ألسنتِكم، وهذه الأباطيلَ في عقولِكم؛ لا أسْمَعَنّ منكم كلمةَ ٱلدينِ ولا كلمةَ الأنبياءِ ولا العَضَافيط... فذلك وحيٌ غيرُ وحيي أنا؛ وإذا كان غيرَ وحْيي أنا فأنا لستُ فيه، وإذا لم أكن أنا فيه فهو لا يَصْلُحُ لِلحكم الذي شَرْطُهُ أنَّ الدولةَ ليس فيها إلّا أنا واحدة. وذلك إنْ لم يجعلْكم غُرباءَ عني جعلني غريبةً عنكم، ما بُدٌّ من إحدى الغُرْبتين، فهو أوّلُ ٱلقَطيعة، والقطيعةُ أوّلُ ٱلفساد. وما دامَ في ٱلدينِ أمرٌ غيرُ أمري، ونَهْيٌ غيرُ نَهْيي، وتحليلٌ وتحريمٌ لا يتغيرانِ على مشيئتي ـ فأنا مجنونةٌ إنْ رضيْتُ لكم هذا...!

فضَحِكَتِ (العِمامةِ) وقالَتْ لِلماعزة: بل قولي: أنا مجنونةٌ بـ (أنا)؛ أفلا يجوزُ وأنتِ خَلْقٌ مِنَ ٱلخلقِ أنْ يَعْتَرِيَ عقلَكَ شيءٌ مِمّا يعتري ٱلعقول؟ ولَسْنَا نُنكرُ أنَّكِ قويّةُ ٱلرأي في ناحيةِ ٱلقوة، حَسَنَةُ ٱلتدبيرِ في ناحيةِ ٱلشجاعة، متجاوِزةُ المِقدارِ في ناحيةِ ٱلحَزْمِ وٱلحِرْصِ على مصالحِ ٱلدولة؛ ولكنْ ألم يقلِ ٱلحكماء: إنَّ الزيادةَ ٱلمسْرِفةَ في جهةٍ مِنَ ٱلعقل، تأتي مِنَ ٱلنقصِ ٱلمتحيِّف[1] لِجهةٍ أخرى؛ وإنَّهُ رُبَّ عقلٍ كانَ تامًّا عَبْقريًّا في أمورٍ، لكنَّهُ ضعيفٌ أبلهُ في غيرِها؛ يُحسِنُ في تلك ما لا يُحسِنُهُ أحد، ويُحكِمُ منها ما لا يُحكِمُهُ أحد، ثُمَّ يَغلَطُ في ٱلأخرى ما لا يغلَطُ أحدٌ فيه؟

قالوا: فجاشَتِ[2] ٱلعنزُ وفارَتْ مِنَ ٱلغضبِ فَوْرةَ ٱلجبّار، وخُيِّلَ إليها من

---

(١) المتحيِّف: الجائر، الظالم.
(٢) جاشت: استشاطت غضباً.

عَمَى ٱلغيظِ أنَّها ذهبَتْ بينَ ٱلأرضِ وٱلسماء، وأنَّ زَنْمَتَها ٱمتدَّ منها خُرطومٌ طويل، وأنّ قرْنيها ٱنْبَعَجَ منهما نابانِ عظيمان؛ وقالَت: ويْحَكُم! خذوا هذه (العِمامة) فٱشنقوها؛ فإنَّها كما قالَت؛ تقدّمَتْ إلينا بالرأي وٱلحلِّ. . . !

وكانَ في العَظَاءِ ضِعافٌ ومَهازيلُ وجُبناءُ، ومأكولون لِكلِّ آكل؛ فَتَشَبَّحَ[1] لهم أنَّ أنثى ٱلفيل هذه. . . ستَخْلُقُهُم فِيَلةً إنْ هم أطاعوها؛ فإذا مَرَدُوا[2] عليها فإنَّها من صرامةِ ٱلبأسِ بحيثُ تجعلُ كلَّ ظِلْفٍ من أظلافِها جبلاً فوقَهم كأنَّهُ ظُلَّةٌ فَتسُوخُ بهمُ ٱلأرض. ثُمَّ إنهم انْخَزلوا وترَاجَعوا، وأُخِذَتِ (العِمامةُ) الصالحةُ فشُنِقَتْ، وخَمدَ ٱلرأيُ من بعدِها، وٱنقطعَ ٱلخِلافُ والدِّينُ والعقلُ الحرّ. . . ؛ وأقبلَتْ دولةُ ٱلعَظَاءِ على العنزِ تُجرّرُ أذيالها.

قالوا: وٱغترَّتِ ٱلماعِزةُ وأحسَّتْ لها وجوداً لم يكن، وعرفَتْ لِنفسِها وهي ماعزةٌ نَبَاهَةَ شأنِ ٱلفيلِ ٱلقويّ، فَلَجّتْ[3] في عمَايتِها وكفَرتْ بجنسِها، وقالت: لم يخلقني ٱللَّهُ فِيلةً وخلقْتُ نفسي؛ فأنا لا هو. . .

وثَبتَ عندَها أنها ليسَتْ بعنْزٍ وإنْ أشبهَتْها كلُّ عنزٍ في ٱلدنيا؛ وذهبَتْ تُقلِّدُ وتعيشُ على مذاهبِ ٱلفِيَلةِ بينَ ٱلعَظَاء؛ فإذا مَشَتْ ٱرتجَّتْ وتخطَّرَتْ كأنّها بِناءٌ يتقلقل، وإذا ٱضطجعَتْ أنذرَتِ ٱلأرضَ أنْ تتمسَّكَ لا تَدُكُّها بجنبِها. . . . !

ومرَّ ذلك الفيلُ بهذا ٱلخرابِ مرّةً أخرى، فلاذَتِ ٱلعَظَاءُ كلُّهنّ بالفِيلة. . . وتأهَّبَتْ هذهِ لِلقتال، وتحصَّفَتْ في ٱلمبارزَةِ وٱلمناجزَة. . . (والمعانَزَة) فنَصَبَتْ قرنيها، وحرّكَتْ زنمتَها، وطأطأَتْ، وشدَّتْ أظلافَها في الأرض، وثبَّتَتْ قوائمَها، وصلَّبَتْ عظامَها، ونفشَتْ شعرَها، وتَشَوّكَتْ[4] كالقُنفذ، وأصرَّتْ بكلِّ ذلك إصرارَها، وكانَتْ عنزاً نَطِيحةً منذ كانَتْ تَتْبَعُ أمَّها وتتلوها، فكيف بها وقد تَفَيَّلَتْ. . . ؟

ثُمَّ إنَّها ثبتَتْ في طريقِ ٱلفيلِ لِيرى بعينيهِ هذا ٱلهوْلَ ٱلهائل. . . فأقبَلَ فمدَّ خرطومَه، فنالَها بِه، فلفَّها فيه، فقَبَضَه، فرفَعه، فطوَّحَها[5]، فكأنَّما ذهبَتْ في ٱلسماء. . . !

(١) تشبّح: خيّل إليهم أنه شبح.
(٢) مردوا: تمرّدوا.
(٣) لَجّت: تمادت.
(٤) تشوّكت: أظهرت في جلدها ما يشبه الشوك.
(٥) طوّح: تحرك ذات اليمين وذات اليسار.

وتهارَبَتِ ٱلعَظَاءُ ولُذْنَ[١] بأجْحَارِهِنّ، ثُمَّ غَدَوْنَ على رِقِهن؛ فإذا جِيفَةُ ٱلعنزِ غيرَ، بعيد، فَذَبَبْنَ عليها وٱرتَعَيْنَ فيها، وعَلِمْنَ أنَّها كانَتْ ماعِزَةً فَيَّلَها جنونُها، وأدركْنَ أنَّ ٱلكذبَ على ٱلحقائقِ قد جعلَ ٱللَّهُ لَهُ حقائقَ أخرى تقتلُه، وأنَّ مَنْ غَلَبَ أمّةَ ٱلعَظَاءِ على أمرِها فليسَتِ ٱلأيامُ وٱلليالي عَظَاءً فيغلبَها؛ وأنَّ تغييرَ ٱلمخلوقات، إنّما يكونُ بتحويلِ باطنِها لا بتحويلِ ظاهرِها، وأنَّ الإناءَ الأحمرَ يُريكَ ٱلماءَ محمرًا وٱلماءُ في نفسِهِ لا حُمرةَ فيه، حتى إذا ٱنكسرَ ٱلإناءُ ظهرَ كما هو في نفسِه؛ وكلُّ ما يُخفي ٱلحقَّ هو كهذا الإناء: لونٌ على ٱلحقِّ لا فيه؛ ثُمَّ أيقَنَّ أنَّ مُحاولةَ إخراجِ أمَّةٍ كاملةٍ من نَزعاتِ ماعزةٍ مأفونة[٢]، هي كمحاولةِ ٱستيلادِ ٱلفيلِ مِنَ ٱلماعزة. . . !

* * *

قالَ كليلة: وٱعلمْ يا دِمنةُ أنَّهُ لولا أنَّ هذه ٱلعنزَ ٱلحمقاءَ قد كفرَتْ كُفْرَ ٱلذبابة، لما أخذَها ٱللَّهُ أَخْذَ الذبابة.

قالَ دِمنة: وكيف كانَ ذلك؟

قال: زعموا أنَّ ذبابةً سوداءَ كانَتْ من حَمْقى ٱلذِّبَّان، قُدِّرَتِ ٱلحماقةُ عليها أبديَّة، فلوِ ٱنقلبَتْ نقطةُ حبرٍ في دواةٍ لَمَا كُتِبَتْ بها إلا كلمةُ سُخف.

ووقَعَتْ هذه الذبابةُ على وجهِ ٱمرأةٍ زَنجيَّةٍ ضخْمة، فجعلَتْ تُقابلُ بينَ نفسِها وبين ٱلمرأة؛ وقالَت: إنَّ هذا لَمِنْ أدلِّ ٱلدليل على أنَّ ٱلعالَمَ فوضى لا نِظامَ فيه، وأنَّهُ مُرسَلٌ كيف يتَّفقُ على ما يتّفق، عَبَثًا[٣] في عبث، ولا ريبَ أنَّ الأنبياءَ قد كذَبوا الناس، إذْ كيف يستوي في ٱلحِكمةِ خَلْقي (أنا) وخلْقُ هذه الذبابةِ ٱلضخمةِ ٱلتي أنا فوقَها. . .؟

ثُمَّ نظرَتْ ليلةً في ٱلسماء، فأبصرَتْ نجومَها يتلألأُ وبينَها القمر؛ فقالَت: وهذا دليلٌ آخرُ على ما تحقَّقَ عندي من فوضى ٱلعالم، وكذبِ ٱلأديان، وعَبثِ ٱلمصادَفات؛ فما الإيمانُ بعينِهِ إلَّا ٱلإلحادُ بعينِه، ووضْعُ العقلِ في شيءٍ هو إيجادُ ٱلألوهيَّةِ فيه، وإلَّا فكيفَ يستوي في ٱلحِكْمةِ وضعي (أنا في ٱلأرضِ ورفعُ هذا ٱلذِّبانِ ٱلأبيضِ ويَعْسُوبِهِ[٤] ٱلكبيرِ إلى السماء. .؟

---

(١) لذن: لجأن.

(٢) مأفونة، المتمدّحة بما ليس عندها، ذات الرأي الضعيف.

(٣) عبثاً: لعباً.

(٤) اليعسوب: أمير الذباب والنحل ونحوهما.

ثُمَّ إنَّها وقعَتْ في دارِ فلّاح، فجعلَت تمورُ[١] فيها ذهاباً وجيئةً، حتى رجعَتْ بقرةُ ٱلفلّاح من مرعاها، فبُهتَتِ[٢] ٱلذبابةُ وجمدَتْ على غُرّتِها[٣] من أوّلِ ٱلنهارِ إلى آخرِه، كأنَّها تُزاوِلُ عملاً؛ فلمَّا أمْسَتْ قالَتْ: وهذا دليلٌ أكبرُ ٱلدليلِ على فوضى ٱلأرزاقِ في ٱلدنيا، فهاتانِ ذبابتانِ قد ثَقبتَا ثُقْبينِ في وجهِ هذه البقر... وٱكْتنَّتا فيهما تأكلانِ من شَحمِها فتعظمانِ سِمنًا؛ وٱلناسُ من جهلِهِم بِالعِلْم الذُّبابيِّ يسمونَها عينين. وأنا قضيْتُ ٱليومَ كلَّهُ أخْمِشُ وأعضُّ وألْسَعُ لِأثقُبَ لي ثُقْباً مثلَهما فما ٱنتزعْتُ شعرة؛ فهل يستوي في ٱلحِكْمةِ رزقي (أنا) ورزقُ هاتينِ ٱلذبابتينِ في وجهِ البقرة...؟

ثُمَّ إنَّها رأَتْ خُنْفُسَاءَ تَدِبُّ دبيبَها في ٱلأرواثِ[٤] وٱلأقذار؛ فنظرَتْ إليها وقالت: هذه لا تَصْلُحُ دليلاً على ٱلكفر؛ فإنِّي (أنا) خيرٌ منها؛ (أنا) لي أجنحةٌ وليسَ لها، (وأنا) خفيفةٌ وهي ثقيلة؛ وما كأنّها إلَّا ذبابةٌ قديمةٌ من ذُبابِ ٱلقرونِ الأولى، ذلك الذي كانَ بليداً لا يتحرّكُ فلم تجعلْ لَهُ ٱلحركةُ جَناحاً. ثُمَّ إنَّها أصْغَتْ فسمعَتِ ٱلخنفساءَ تقولُ لِأخرى وهي تُحاورُها: إذا لم يجدِ ٱلمخلوقُ أنَّهُ كما يشتهي فلْيكْفُرْ كما يشتهي؛ يا وَيحنا! لِمَ لمْ نكنْ جاموساً كهذا ٱلجاموسِ العظيم، وما بينَنا وبينَهُ فرقٌ إلَّا أنَّهُ وَجَدَ مَنْ يَنْفُخُهُ ولم نجد...؟

فقالَتِ ٱلذبابة: إنَّ هذا دليلُ ٱلعقلِ في هذهِ ٱلعاقلة، ولَعمري إنَّها لا تمشي مثَّاقِلَةً من أنَّها بطيئةٌ مُرهَقَةٌ بعَجْزِها، ولكنْ من أنّها وقُورٌ مُثقَلةٌ بأفكارِها، وهيَ ٱلدليلُ على أنّي (أنا) ٱلسابقةُ إلى كشفِ ٱلحقيقة...!

وجَعَلتِ ٱلذبابةُ لا يُسْمعُ من دَنْدَنتِها إلا، أنا، أنا، أنا، أنا... من كُفْرٍ إلى كفرِ غيرِه، إلى كفرِ غيرِهما؛ حتى كأنَّ ٱلسماواتِ كلَّها أصبحَتْ في معركةٍ معَ ذبابة...

ثُمَّ جاءَتِ ٱلحقيقةُ إلى هذا ٱلإلحادِ ٱلأحمقِ تَسعى سَعْيَها؛ فبينَا ٱلذبابةُ على وجهِ حائط، وقد أكلَتْ بعوضةً أو بعوضتين، وأعجبتْها نفسُها، فوقفَتْ تحكُّ ذراعَها بذراعِها - دَنَتْ بطةٌ صغيرةٌ قدِ ٱنفلقَتْ عنها ٱلبَيضةُ أمس، فمدَّتْ منقارَها، فٱلتقطَتْها.

ولَمَّا ٱنطبقَ ٱلمِنقارُ عليها قالَت: آمنْتُ أنَّهُ لا إلَه إلَّا ٱلذي خلَقَ ٱلبطة...!

(١) تمور: تتحرّك في كل اتجاه.
(٢) بهتت: دهشت.
(٣) غرّتها: مفاجأتها.
(٤) الأرواث: السواد والسماد.

يا شبابَ العرب!

يقولون: إنَّ في شبابِ ٱلعربِ شيخوخةَ ٱلهِمَمِ وٱلعزائم؛ فالشبانُ يمتدّون في حياةِ ٱلأممِ وهم ينكمشون.

وإنَّ ٱللهوَ قد خَفَّ بهم حتى ثَقُلَتْ عليهم حياةُ ٱلجِدّ، فأهملوا ٱلممكناتِ فرجعَتْ لهم كاٱلمستتحيلات.

وإنَّ ٱلهزلَ[1] قد هوَّنَ عليهم كلَّ صَعْبةٍ فٱختصروها؛ فإذا هَزِءُوا بالعدوِّ في كلمةٍ فكأنَّما هَزمُوهُ في معركة...

وإنَّ ٱلشابَّ منهم يكونُ رجلاً تامًّا، ورجولةُ جسمِهِ تحتجُّ على طفولةِ أعمالِه.

ويقولون: إنَّ ٱلأمرَ ٱلعظيمَ عندَ شبابِ ٱلعربِ ألَّا يحملوا أبداً تَبِيعةَ[2] أمرٍ عظيم.

* * *

ويزعون أنَّ هذا ٱلشبابَ قد تمَّتِ ٱلآفةُ بينَهُ وبينَ أغلاطِه، فحياتُهُ حياةُ هذه الأغلاطِ فيه.

وأنَّهُ أبرعُ مُقلّدٍ لِلغربِ في ٱلرذائلِ خاصَّة؛ وبهذا جعلَهُ ٱلغربُ كالحيوانِ محصوراً في طعامِهِ وشرابِهِ، ولذّاته.

ويزعمون أنَّ ٱلزجاجةَ مِنَ ٱلخمرِ تعملُ في هذا ٱلشرقِ ٱلمسكينِ عملَ جنديٍّ أجنبيٍّ فاتح...

ويتواصَوْنَ بأنَّ أولَ ٱلسياسةِ في ٱستعبادِ أممِ ٱلشرق، أنْ يُتْركَ لهمُ ٱلاستقلالُ ٱلتامُّ في حريةِ ٱلرذيلة...

ويقولون: إنَّهُ لا بدَّ في ٱلشرقِ من ٱلتَيْنِ لِلتخريب: قوةِ أوربا، ورذائلِ أوربا.

* * *

---

(١) الهزل: اللعب والمزاح.　　(٢) تبعة: مسؤولية.

يا شبابَ ٱلعرب! من غيرُكم يُكذِّبُ ما يقولونَ ويزعمونَ على هذا ٱلشرقِ ٱلمسكين؟

مَن غيرُ ٱلشبابِ يضعُ ٱلقوَّةَ بإزاءِ هذا ٱلضعفِ الذي وصفُوهُ لِتكونَ جواباً عليه؟

من غيرُكم يجعلُ ٱلنفوسَ قوانينَ صارِمَة[1]، تكونُ ٱلمادةُ ٱلأولى فيها: قَدِرْنا لِأنَّنا أرَدْنا؟

ألا إنَّ ٱلمعركةَ بينَنا وبينَ ٱلاستعمارِ معركةٌ نفسيَّة، إنْ لم يُقْتَلْ فيها ٱلهزلُ قُتِلَ فيها ٱلواجب!

والحقائقُ ٱلتي بينَنا وبينَ هذا ٱلاستعمارِ إنَّما يكونُ فيكم أنتم بحثُها ٱلتحليليّ، تكْذِبُ أو تَصْدُق.

* * *

الشبابُ هوَ ٱلقوة؛ فالشمسُ لا تملأُ ٱلنهارَ في آخرِهِ كما تملؤُهُ في أولِه.

وفي ٱلشبابِ نوعٌ مِنَ ٱلحياةِ تَظهرُ كلمةُ ٱلموتِ عندَهُ كأنَّها أختُ كلمةِ ٱلنوم.

ولِلشبابِ طبيعةٌ أولُ إدراكِها ٱلثقةُ بالبقاء، فأولُ صِفاتِها ٱلإصرارُ على ٱلعزْم.

وفي ٱلشبابِ تَصْنَعُ كلُّ شجرةٍ من أشجارِ ٱلحياةِ أثمارَها؛ وبعدَ ذلك لا تصنعُ ٱلأشجارُ كلُّها إلَّا خَشَبا...

يا شبابَ ٱلعرب! اِجعلوا رسالتَكم: إمَّا أنْ يحيا ٱلشرقُ عزيزاً، وإمَّا أنْ تموتوا.

* * *

أنقِذوا فضائلَنا من رذائلِ هذه المدنيَّةِ ٱلأوربيَّة، تُنقِذوا ٱستقلالَنا بعدَ ذلك، وتنقذوه بذلك.

إنَّ هذا ٱلشرقَ حينَ يدعو إليهِ ٱلغرب؛ «يدعو لَمَنْ ضَرُّهُ أقربُ من نفعِه؛ لَبِئْسَ ٱلموْلَى ولبئسَ ٱلعَشير».

لَبئسَ ٱلمولى إذا جاءَ بقوتِهِ وقوانينِه، ولَبئسَ ٱلعشيرُ إذا جاءَ برذائلِهِ وأَطماعِه.

أيُّها ٱلشرقيُّ! إنَّ ٱلدينارَ ٱلأجنبيَّ فيهِ رصاصةٌ مخبوءة، وحقوقُنا مقتولةٌ بهذه الدنانير.

---

(١) صارمة: حازمة.

أيُها ٱلشرقيُّ! لا يقولُ لَكَ ٱلأجنبيُّ إلَّا ما قال ٱلشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾.

* * *

يا شبابَ ٱلعرب! لم يكنِ ٱلعسيرُ يَعْسُرُ على أسلافِكمُ ٱلأولين، كأنَّ في يدهِم مفاتيحَ مِنَ ٱلعناصرِ يفتحون بها.

أتُريدونَ معرفةَ ٱلسرّ؟ السرُّ أنَّهمُ ٱرتفعوا فوقَ ضعفِ ٱلمخلوق، فصاروا عملاً من أعمالِ ٱلخالق.

غَلَبوا على الدنيا لَمَّا غلبَوا في أنفسِهِم معنى ٱلفقر، ومعنى ٱلخوف، وٱلمعنى ٱلأرضي.

وعلَّمَهُمُ ٱلدينُ كيف يعيشون بٱللذاتِ ٱلسماويَّةِ ٱلتي وَضعَتْ في كلِّ قلبٍ عظمتَهُ وكِبرياءَه.

وٱخترعَهُمُ ٱلإيمانُ ٱختراعاً نفسيًّا، علامتُهُ ٱلمسجَّلةُ على كلٍّ منهم هذه الكلمة: لا يَذِلّ.

* * *

حينَ يكونُ ٱلفقرُ قِلةَ ٱلمال، يفتقرُ أكثرُ ٱلناس، وتنخذِلُ[1] ٱلقوةُ ٱلإنسانيَّة، وتَهلِكُ ٱلمواهب.

ولكنْ حينَ يكونُ فقرُ ٱلعملِ ٱلطيِّب، يستطيعُ كلُّ إنسانٍ أنْ يَغْتَني، وتنبعثُ ٱلقوةُ وتعملُ كلّ موهبة.

وحينَ يكونُ ٱلخوفُ من نقصِ هذه ٱلحياةِ وآلامِها، تفسِّرُ كلمةَ ٱلخوفِ مائةُ رذيلةٍ غيرِ ٱلخوفِ.

ولكنْ حينَ يكونُ من نقصِ ٱلحياةِ ٱلآخرةِ وعذابِها، تُصبحُ ٱلكلمةُ قانونَ ٱلفضائلِ أجمع.

هكذا ٱخترعَ ٱلدينُ إنسانَهُ ٱلكبيرَ ٱلنفسِ ٱلذي لا يُقالُ فيه: انهزمَتْ نفسُهُ.

* * *

يا شبابَ ٱلعرب! كانَتْ حِكمةُ ٱلعربِ ٱلتي يعملونَ عليها: أُطلُبِ ٱلموتَ تُوهَبُ لك ٱلحياة.

---

(١) تنخذل: تنهزم.

والنفسُ إذا لم تخشَ الموتَ كانَتْ غريزةُ الكِفاحِ أولَ غرائزِها تعْمل.

ولِلكفاحِ غريزةٌ تجعلُ الحياةَ كلَّها نصراً، إذْ لا تكونُ الفِكرةُ معَها إلَّا فكرةً مُقاتِلة.

غريزةُ الكفاحِ يا شباب، هي التي جعلَتِ الأسَدَ لا يُسَمَّنُ كما تسمَّنُ الشاةُ لِلذبح.

وإذا انكسَرَتْ يوماً، فالحجَرُ الصَّلْدُ[1] إذا تَرَضْرَضَتْ[2] منه قِطعةٌ كانَتْ دليلاً يكشِفُ لِلعينِ أنَّ جميعَهُ حجرٌ صَلد.

* * *

يا شبابَ العرب! إنَّ كلمةَ (حقيّ) لا تحيا في السياسةِ إلَّا إذا وضعَ قائلُها حياتَهُ فيها.

فالقوَّةَ القوَّةَ يا شباب! القوَّةُ التي تقتلُ أولَ ما تقتلُ فكرةَ الترَفِ والتخنُّث.

القوةُ الفاضلةُ المتساميةُ التي تضعُ لِلأنصارِ في كلمة (نعم) معنى نعم.

القوَّةُ الصارمةُ النفَّاذةُ التي تضعُ لِلأعداءِ في كلمةِ (لا) معنى لا.

يا شبابَ العربِ اجعلوا رسالتكم: إمَّا أنْ يحيا الشرقُ عزيزاً، وإمَّا أنْ تموتوا.

---

(١) الصلد: الصلب، القاسي.

(٢) ترضرضت: تكسرت.

لَـوْ...!

رأيتُني جالساً في مسرح هزليّ بمدينةِ اسكندرية، كما يجلسُ ٱلقاضي في جريمةٍ يحملُ أهلُها بينَ يديهِ آثامَهُم وأعمالَهُم، ويحملُ هو عقلَهُ وحُكمَه.

وقد ذهبْتُ لِأرى كيفَ يتَساخَفُ[1] أهلُ هذه الصناعة؛ فكانَ حُكْمي أنَّ ٱلسخافةَ عندَنا سخيفةٌ جدًا....

رأيْتُهم هناك ينقُدونَ ٱلعيوبَ بما يُنشىءُ عيوباً جديدة، ويَسْبَحون بأيديهم سِباحةَ ماهرة؛ ولكنْ على ٱلأرضِ لا في ٱلبحر، وتكادُ نظرتُهم إلى ٱلحقيقةِ ٱلهزليَّةِ تكونُ عمًى ظاهراً عمَّا هي بهِ حقيقةٌ هزليَّة؛ ولا غايةَ لهم من هذا التمثيلِ إلَّا الرَّقاعةُ[2] والإسفافُ وٱلخَلْطُ وٱلهذَيان، إذْ كانَ هذا هو الأشْبَهَ بجمهورِهِمُ ٱلذي يَحضُرهمُ، وكانَ هو ٱلأقربَ إلى تلك الطباعِ ٱلعاميَّةِ ٱلبليدةِ ٱلتي ٱعتادَتْ من تكلُّفِ ٱلهزلِ ما جعلَها هي في ذاتِ نفسِها هزْلاً يُسْخرُ منه.

ولا أسخفَ من تكلُّفِ ٱلنكتةِ ٱلباردةِ قد خلَتْ مِنَ ٱلمعنى، إلَّا تكلُّفُ ٱلضحِكِ ٱلمصنوع يأتي في عَقِبِها كالبرهانِ على أنَّ في هذه النكتةِ معنًى.

فالفنُّ ٱلمضحِكُ عندَ هؤلاء، إنَّما هوَ ٱلسخفُ ٱلذي يُوافقون بهِ ٱلروحَ ٱلعاميَّةَ ٱلضئيلةَ ٱلكاذبةَ ٱلمكذوبَ عليها، التي يبلغُ من بلاهتِها أحياناً أن تضحكَ لِلنكتةِ قبلَ إلقائِها، لِفَرْطِ خِفَّتِها ورُعونتِها[3]، وطولِ ما تكلفَتْ وٱعتادَت. فما ذلك ٱلفنُّ إلَّا ما ترى مِنَ ٱلتخليط في ٱلألفاظ، وٱلتضريب[4] بينَ ٱلمعاني، وإيقاع ٱلغلَطِ في ٱلمعقولات؛ ثُمَّ لا ثُمَّ بعدَ هذا. فلا دِقَّةَ في ٱلتأليف، ولا عُمْقَ في ٱلفَكرة، ولا سياسةَ في جمعِ ٱلنقائض، ولا نَفَاذ في أسرارِ ٱلنفس، ولا جِدَّ يُؤخذُ من هزليَّةِ ٱلحياة، ولا عظَمَةَ تُستخرجُ من صغائرِها، ولا فلسفةَ تُعرفُ من حماقاتِها.

---

(١) يتساخف: يبدي ما به من حماقة.

(٢) الرقاعة: الحماقة.

(٣) الرعونة: التصرّف بحماقة.

(٤) التضريب: التخليط.

والفرقُ بعيدٌ بينَ ضحكٍ هو صناعةُ ذِهْنٍ لِتحريكِ ٱلنفس، وشَحْذِ ٱلطبع، وتصويرِ ٱلحقيقةِ صورةً أخرى، وبينَ ضحكٍ هو صناعةُ ٱلبلاهةِ لِلَّهْوِ وٱلعبث، وٱلْمَجانةِ لا غير.

* * *

وكانَ معي قريبٌ من أذكياءِ ٱلطلبةِ ٱلمتخصصينَ لِلآدابِ ٱلإنجليزية، فلم نلبثْ إلَّا يسيراً حتى جاءَ ثلاثةٌ من ضباطِ ٱلأسطولِ ٱلإنجليزي، فجلسوا بحذائنا صفًّا تلوحُ عليهم مَخايِلُ ٱلظفر، ولهم وَقارُ ٱلبُطولة، وفيهم أرواحُ ٱلحرب؛ وهم يبدون في ثيابِهِمُ البيضِ المطَرَّاةِ[1] كأنَّهم ثلاثةُ نُسورٍ هبطَتْ منَ ٱلغمامِ إلى الأرض، فلأعينِها نظراتٌ تدورُ هنا وهناك تُنكِرُ وتُعرِّف.

وأعجبني أنْ أراهم في هذا ٱلمكانِ الهزليِّ ٱلممتلىءِ بٱلضعفاء، كأنَّهم ثلاث حقائقَ بينَ ٱلأغلاط، أو ثلاثُ أغلاطٍ كبيرة... وكانَ أبدعَ ما أراهُ على هيئةِ وجوهِهم وأَسَرُّ لَه، تواضعُ هذا ٱلاستعدادِ الحربيِّ وتحوُّلُهُ إلى ٱستعدادٍ لِلسخرية..

ثُمَّ تأملْتُهم طويلاً؛ فإذا صَرامةٌ وشهامةٌ، وسَكينةٌ ووَداعة، وحُسْنُ سَمْتٍ وحلاوةُ هيئةٍ في جِلْسةٍ رزينةٍ متوقِّرة، لا يُشبهُها في حسِّ ٱلنفسِ ٱلتي تعرفُ معانيَ ٱلقوةِ إلَّا وضعُ ثلاثةِ مدافعَ مُصَوَّبة.

وجعلْتُ أقلِّبُ عينيَّ في ٱلناسِ ٱلموجودينَ ومَلامحِهِم وهيئاتِهم، ثُمَّ أُرجِعُ ٱلبصرَ إلى هؤلاءِ الثلاثة، فأرى ٱلمصريَّ كالمقتنعِ بأنَّهُ محدودٌ بمدينةٍ أو قريةٍ لا يعرفُ لِنفسِهِ مكاناً في غيرِهما، فهو من ثَمَّ لا يَرحلُ ولا يُغامِرُ، ولا تتقاذَفُهُ ٱلدنيا؛ وأرى ٱلإنجليزيَّ كالمقتنعِ بأنَّ كلَّ مكانٍ في ٱلعالمِ ينتظرُ ٱلإنجليز...

وخيِّلَ إليَّ - واللَّهِ - أنَّ رجلاً من هؤلاءِ ٱلإنجليزِ ٱلأقوياءِ ٱلمعتدِّينَ بأنفسِهِم[2] لا يُهاجرُ من بلادِهِ إلَّا ومعَهُ نفسُهُ وٱستقلالُه، وتاريخُهُ وروحُ دولتِه، وطبيعةُ أرضِه؛ فهو مستيقِنٌ أنَّ ٱللَّهَ لا يرزقُهُ رِزقاً أيَّ ٱلرزقِ كانَ على ما يتَّفِق، بل رزقاً إنجليزيًّا: أي فيهِ كِفايتُه.

ورأيْتُ شيئاً عجيباً مِنَ ٱلفرقِ بينَ طابعِ ٱلسِّلم على وجوه، وبينَ طابعِ ٱلحربِ على وجوهٍ أخرى؛ ففي تلك معاني ٱلسهولةِ والملاينَةِ وٱلحِرْصِ على مادةِ ٱلحياة،

---

(١) المطرّاة: المكواة.

(٢) المعتدين بأنفسهم: المعتزين، الواثقين من أنفسهم.

وفي هذه معاني ٱلعزْمِ وٱلمُقاومةِ وٱلحِرْصِ على مجدِ ٱلحياةِ لا على مادتِها.

وتبيَّنْتُ أسلوبينِ منَ ٱلأساليبِ ٱلاجتماعيَّة: أحدُهما في فردٍ قد بَنَى أمرَهُ عَلَى أنْ أُمَّةَ تحملُه، فهو يعيشُ بأضعفِ ما فيه: والآخرُ في فردٍ قد وَضَعَ ٱلأمرَ عَلَى أنَّهُ هو يحملُ أُمَّةً فلا يدعُ في نفسِهِ قوةً إِلَّا ضاعَفَها.

وعرفتُ وجهينِ من وجوهِ ٱلتربيةِ ٱلسياسية: أحدُهما بٱلطنطنة، والتهويلِ وٱلصُّراخ، وٱستعارةِ ألفاظِ غيرِ ٱلواقعِ لِلواقع، وتحميلِ ٱلألفاظِ غيرَ ما تحمل؛ وٱلآخرُ بٱلهدوءِ ٱلذي يَقْهَرُ ٱلحوادث، وٱلصبرِ ٱلذي يغلبُ ٱلزمن، وٱلعقيدةِ ٱلتي تفرضُ أعمالَها ٱلعظيمةَ على صاحبِها وتجعلُ أعظمَ أجرِهِ عليها أنْ يقومَ بها.

وميَّزتُ بين أثرينِ من آثارِ ٱلأرضِ في أهلِها: أحدُهما في ٱلمصريِّ ٱلسَّمْحِ ٱلوادِعِ ٱلألوفِ ٱلحييِّ ٱلذي هو كَرَمُ ٱلطبيعة، وٱلآخرُ في ٱلإنجليزيِّ ٱلعَسِرِ ٱلمغامِرِ ٱلنَّفورِ ٱلملحِّ على الدنيا كأنَّهُ تطفّلُ ٱلطبيعة...

* * *

وألقى ٱبنُ العمِّ ٱلذي كانَ معي سمعَهُ إلى هؤلاءِ ٱلضباط، وهم من فلاسفةِ ٱلرأي على ما يظهرُ من حديثِهم، ثُمَّ نقل إليَّ عنهم، فقالَ كبيرُهم: لقد فرغْتُ من بحثي ٱلذي وضعْتُهُ في فلسفةِ خُمولِ ٱلشرقيين، وأفضيْتُ منه إلى حقائقَ عجيبة، أظهرُها وأخفاها معاً أنَّ أمَّةً من هذهِ ٱلأممِ لا يُمَكِّنُ لِلأجنبيِّ فيها، ولا تثقُلُ وطْأَتُهُ[1] عليهم، ولا يَطولُ ثَواؤُهُ[2] في أرضِهم، ولا يحتلُّها مَنْ يطمعُ فيها، ما لم يكنْ سادتُها وأمراؤُها وكبراؤُها كأنَّهم فيها دولةٌ محتلَّة.

وهؤلاءِ ٱلكبراءُ هم آفةُ ٱلشرق؛ فمِنْ أعظم واجباتِنا أنْ نزيدَ في تعظيمِهم، وأنْ نَمدَّ لهم في ٱلمالِ وٱلجاه، ونَبْسُطَ لهمُ ٱليمينَ وٱلشِّمال، ونُوهِمَهُمْ أنَّ عظمَتَهم هكذا وُلِدَتْ فيهم وهكذا وُلدوا بها من أمهاتِهم كما وُلِدوا بأيديهم وأرجلِهم... وخاصةً عظماءَ رجالِ ٱلأديانِ ٱلمفتونينَ بالدنيا؛ فإنَّنا نصنعُ بغُرورِ ٱلجميعِ وسخافاتِهم وحِرْصِهم وطمعِهم أشياءَ ٱجتماعيَّةً ذاتَ خطَرٍ لا يصنعُ لنا مثلَها إِلَّا الشياطينُ ومَنْ لنا بالحكم على ٱلشياطين؟ وهذا ما تنبَّهَ لَهُ (غاندي) ذلك ٱلمهزولُ ٱلهنديُّ ٱلذي تُقوَّمُ دنياهُ بأربعةِ شلنات، ولا يزنُ أكثرَ من بضعةِ أرطالٍ مِنَ ٱلجِلْدِ وٱلعظم، ولا بطشَ عندَهُ ولا قوةَ فيه، وهو مع ذلك جبَّارٌ

---

(١) وطأته: سطوته.　　(٢) ثواؤه: بقاؤه.

سماويٌّ في يدِهِ ٱلبرقُ وٱلرعدُ يُرى ويُسمَعُ في أرجاءِ ٱلدنيا.

قالَ ضابطُ ٱليمين: وبصناعةِ ٱلكِبرياءِ هذه الصناعةِ يكونُ رجلُ ٱلشعبِ من هؤلاء ٱلشرقيينَ رجلَ تقليدٍ بالطبيعة، ورجلَ ذُلٍّ بٱلحالة، ورجلَ خُضوع بٱلجُملة؛ فليسَ في نفسِهِ أنّهُ سيدُ نفسِهِ ولا سيدُ غيرِه، بلْ أكبرُ معانيهِ أنَّ غيرَهُ سيّدٌ عليهِ فيكونُ معَهُ دائماً خيالُ ٱستعبادِه.

وتكلمَ ضابطُ اليسار: ولكنَّ المترجِمَ لم يميّز أقوالَه، لأنَّ ثلاثَ عشرةَ ٱمرأةً كنَّ يصرخْنَ في ٱلروايةِ ٱلهزليةِ بلحنٍ طويلٍ يقلْنَ في أولِه: «عاوزين رجّالة تدلَّعْنا...» وكانَتِ ٱلموسيقى تصرخُ معهُنَّ وتُولولُ كأنَّها هي أيضاً ٱمرأةٌ محرومة...

❋ ❋ ❋

ثُمَّ أرهفَ[1] ٱلمترجِمُ أذنَهُ فقالَ كبيرُهم: إنَّ لِهؤلاءِ ٱلشرقيينَ ستَّ حواس: ٱلخمسُ ٱلمعروفةُ، وحاسةُ ٱلخمولِ ٱلذي خدَعتْهم عنهُ الطبيعةُ ٱلبليدةُ فسمَّوهُ ٱلترفَ وٱلهزل وٱللهو؛ وٱلأمةُ الأوربيَّةُ ٱلتي تحتلّ بلاداً شرقيةً تجدُ فيها لصغائرِ ٱلحياةِ جيشاً أقوى من جيشِها؛ فعشرةُ آلافِ جنديّ بعَتادِهِم وآلاتِهِم، لا يصنعون شيئاً إلّا ٱلاستفزازَ[2] والتحدّي وإثباتَ أنَّهم غاصبون؛ ولكنْ ما أنت قائلٌ في عشرةِ آلافِ مكانٍ كهذا المسرح براقصاتِهِ ومومساتِهِ وخمورِهِ ورواياتِه، وبهؤلاءِ ٱلرجالِ المخنثينَ ٱلهزليينَ ٱلرُّقعاءِ الذين هم وحدَهم مُعاهدَةٌ سياسيَّةٌ ناجحةٌ بينَنا وبينَ شبابِ الأمَّة...؟

قالَ ضابطُ اليمين: نعمْ إنَّ فنَّ ٱلاحتلالِ فنٌّ عسكريّ في ٱلأول، ولكنَّهُ فنٌّ أخلاقيٌّ في ٱلآخر؛ ولِهذا يجبُ تعيينُ نقطةِ ٱتجاهٍ للشبابِ تكونُ مضيئةً لامعةً جذَّابةً مُغرية؛ ولكنَّها في ذاتِ ٱلوقتِ مُحرِقةٌ أيضاً، وهذه هي صِناعةُ إهلاكِ ٱلشبابِ بٱلضوءِ ٱلجميل، وما على ٱلسياسي ٱلحاذقِ في ٱلشرقِ إلّا أنْ يحميَ ٱلرذيلة، فإنَّ الرذيلةَ ستعرفُ لَهُ صنيعَهُ وتَحميه..

فتكلَّمَ ضابطُ ٱليسار، ولكنَّ صوتَهُ ذهبَ في عِشرينَ صوتاً من رجالِ ٱلمسرحِ ونسائِهِ يصيحون جميعاً: «يا حلوة يا خفَّافي، يا مجنِّنه الشبان...».

❋ ❋ ❋

---

(١) أرهف السمع: دقّق.

(٢) الاستفزاز: إثارة الغضب.

ولَمَّا ألممْتُ[1] بحوارِ ٱلضباطِ ٱلثلاثةِ قلْتُ لِصاحبي: إستأذِنْ لي عليهم أكلمُهم. ففعلَ وعرَّفني إليهم، وترجَمَ لهم مقالة (يا شبابَ ٱلعرب) وكانَ يحملُها. فكأنَّما رماهم منها بالجيشِ وٱلأسطول.

ثُمَّ قلْتُ لِكبيرِهِم: لسْتُ أُنكرُ أنَّ ٱلإنجليزيَّ لو دخلَ جهنَّمَ لَدخلَها إنجليزياً. ولا أَجحدُ أنَّ لَهُ في ٱلحياةِ مثلَ هِدايةِ ٱلحيوان، لأنَّهُ رجلٌ عمليٌّ: دليلُ منفعتِهِ أنَّها منفعتُهُ وحَسْبُ، ثُمَّ لا دليلَ غيرُ هذا ولا يقبلُ إلَّا هذا. فإذا قالَ الشرقيّ: حقيّ، وقالَ ٱلإنجليزيَّ: منفعتي، بطَلَتِ ٱلأدلَّةُ كلُّها، ورأى ٱلشرقيُّ أنَّهُ مَعَ الإنجليزي كالذي يُحاولُ أنْ يُقنِعَ ٱلذئبَ بقانونِ ٱلفضيلةِ وٱلرحمة.

وقد عرفْنَا أنَّ في ٱلسياسةِ عجائب، منها ما يُشْبِهُ أنْ يَلقَى إنسانٌ إنساناً فيقولَ له: يا سيدي ٱلعزيز، بكلِّ ٱحترامٍ أرجو أنْ تتلقَّى مني هذه الصفعة...

وفي ٱلسياسةِ مواعيدُ عجيبة، منها ما يُشبهُ غرسَ شجرةٍ لِلفقراءِ وٱلمساكين، وٱلتوكيدَ لهم بالأيمانِ أنَّها ستُثمرَ رُغفاناً مخبوزة... ثُمَّ بعدَ ذلك تُطَعَّمُ فتُثمِرُ ٱلرغفانَ ٱلمخبوزةَ حَشْوُها ٱللحمُ والإدام...

وفي ٱلسياسةِ محاربةُ ٱلمساجدِ بالمراقص، ومحاربةُ ٱلزوجاتِ بٱلمومسات، ومحاربةُ ٱلعقائدِ بأساتذةِ حريةِ ٱلفكر، ومحاربةُ فنونِ ٱلقوَّةِ بفنونِ ٱللَّذة. ولكنْ لو فَهِمَ ٱلشبابُ أنَّ أماكنَ ٱللهوِ في كلِّ معانيها ليسَتْ إلَّا غَدْراً بالوطنِ في كلِّ معانيه!

ولو عرفَ ٱلشبابُ أنَّ محاربةَ ٱللَّهْوِ هي أولُ ٱلمعركةِ ٱلسياسيةِ ٱلفاصلة!

ولو أدركَ ٱلشبابُ أنَّ أولَ حقِّ ٱلوطنِ عليهِ أنْ يحملَ في نفسِهِ معنى ٱلشعبِ لا معنى نفسِه!

ولو رجعَ ٱلدينُ الإسلاميُّ كما هو في طبيعتِهِ آلةً حربيةً تصنعُ مِنَ ٱلشبابِ رجالَ القوَّة!

ولو عَلِمَ ٱلشبابُ أنَّ روحَ هذا ٱلدينِ ليْسَت: اعتقِدْ ولا تعتقدْ. ولكنِ ٱفعلْ ولا تفعلْ!

ولو أيقنَ ٱلشبابُ أنَّ فرائضَ هذا الدينِ ليسَتْ إلَّا وسائلَ عمليَّةً لاِمتلاءِ ٱلنفسِ بمعاني ٱلتقديس!

---

(١) ألممت: اطّلعت.

ولو فَهِمَ ٱلشبابُ أنْ ليسَ في ٱلكَوْنِ إلَّا هذه ٱلمعاني تجعلُ ٱلنفسَ فوقَ ٱلمادةِ وفوقَ الخَوْفِ وفوقَ ٱلذلِّ وفوقَ ٱلمَوْتِ نفسِه!

ولو بحثَ ٱلشبابُ ٱلنفسَ ٱلإنجليزيَّةَ ٱلقويَّةَ لِيعرفَ بِالبرهانِ أنَّها نصفُ مسلمةٍ فكيفَ بها لو كانَتْ مسلمة؟ . . .

* * *

وكانَ ٱلمترجِمُ ينقلُ إليهم كلامي، فما بلغَتْ إلى حيثُ بلغْتُ، حتى شدّ الضابطُ على يدي وهزّها؛ فنظرْت، فإذا أنا قد كنْتُ نائماً بعدَ سهرةٍ طويلةٍ في ذلك ٱلمسرح، وإذا يدُ ٱلمترجِمِ نفسِهِ هي ٱلتي تهزُّني لِأنتبه . . .

أيُّها ٱلمسلمون!

نهضَتْ فِلَسْطِينُ تَحِلُّ ٱلعقدةَ التي عُقِدَتْ لها بينَ ٱلسيفِ، وٱلمكرِ، وٱلذهب.

عقدةٌ سياسيةٌ خبيثة، فيها لِذلك ٱلشعبِ الحرِّ قتلٌ وتخريبٌ، وفقْر.

عقدةُ ٱلحُكْمِ ٱلذي يحكمُ بثلاثةِ أساليب: الوعدِ ٱلكذب، وٱلفَناءِ ٱلبطيء، ومطامعِ ٱليهودِ ٱلمتوحشَة.

أيُّها ٱلمسلمون! ليسَتْ هذه محنةَ فلسطين، ولكنَّها محنةُ ٱلإسلام؛ يُريدونَ ألّا يُثبِتَ شخصيَّتَهُ ٱلعزيزةَ ٱلحرّة.

كلُّ قرشٍ يُدفعُ ٱلآنَ لِفلسطين، يذهبُ إلى هناك لِيجاهدَ هو أيضاً.

* * *

أولئك إخوانُنا ٱلمجاهدون؛ ومعنى ذلك أنَّ أخلاقَنا هي حُلَفاؤهم في هذا ٱلجِهاد.

أولئك إخوانُنا ٱلمنكوبون؛ ومعنى ذلك أنَّهم في نكبتِهم ٱمتحانٌ لِضمائِرنا نحن ٱلمسلمين جميعاً.

أولئك إخوانُنا ٱلمضطَهَدون؛ ومعنى ذلك أنَّ ٱلسياسةَ ٱلتي أذَلَّتهم تسألُنا نحن: هل عندَنا إقرارٌ لِلذلّ؟

ماذا تكونُ نكبةُ ٱلأخِ إلَّا أنْ تكونَ ٱسماً آخرَ لِمروءةِ سائرِ إخوتِهِ أو مَذَلَّتِهِم؟

أيُّها ٱلمسلمون! كلُّ قرشٍ يُدفعُ لِفلسطين، يذهبُ إلى هناكَ لِيفرضَ على ٱلسياسةِ ٱحترامَ ٱلشعورِ ٱلإسلاميّ.

* * *

اِبتَلَوْهُم بِاليهودِ يحملونَ في دمائِهم حقيقتينِ ثابتتين: من ذلِّ ٱلماضي وتشريدِ ٱلحاضر.

ويحملونَ في قلوبِهم نِقْمتينِ طاغيتين: إحداهما من ذهبِهِم، والأخرى من رذائِلِهم.

ويُخَبِّئونَ في أدمغتِهم فكرتينِ خبيثتين: أنْ يكونَ ٱلعربُ أقليَّة، ثُمَّ أنْ يكونوا بعد ذلك خَدَمَ ٱليهود.

في أنفسِهمُ ٱلحِقْد، وفي خيالهمُ ٱلجنون، وفي عقولهمُ ٱلمكر، وفي أيديهمُ ٱلذهبُ ٱلذي أصبحَ لئيماً لأنَّهُ في أيديهم.

أيُّها المسلمون! كلُّ قرشٍ يُدفعُ لِفلسطين، يذهبُ إلى هناك لِيتكلَّمَ كلمةً تردُّ إلى هؤلاءِ ٱلعقل.

* * *

اِبتَلَوْهُم باليهودِ يَمرُّونَ مرورَ ٱلدنانيرِ بالربا الفاحِشِ في أيدي ٱلفقراء.

كلُّ مائةِ يهوديٍّ على مذهب ٱلقومِ يجبُ أنْ تكونَ في سنةٍ واحدةٍ مائةً وسعبين...

حسابٌ خبيثٌ يبدأ بِشيءٍ مِنَ ٱلعقل، ولا ينتهي أبداً وفيهِ شيءٌ مِنَ ٱلعقل.

وٱلسياسةُ وراءَ ٱليهود، وٱليهودُ وراءَ خيَالِهِمُ ٱلدينيّ، وخيالُهمُ ٱلدينيُّ هو طردُ ٱلحقيقةِ ٱلمسلمة.

أيُّها ٱلمسلمون! كلُّ قرشٍ يُدفعُ لِفلسطين، يذهبُ إلى هناكَ لِيُثبِّتَ ٱلحقيقةَ ٱلتي يُريدونَ طردَها.

* * *

يقولُ ٱليهود: إنَّهم شعبٌ مضطهَدٌ في جميعِ بلادِ ٱلعالم.

ويزعمون: أنَّ من حقِّهم أنْ يعيشوا أحراراً في فلسطين، كأنهَا ليسَتْ من جميعِ بلادِ ٱلعالم...

وقد صنعوا لِلإنجليزِ أسطولاً عظيماً لا يسبحُ في ٱلبحار، ولكنْ في ٱلخزائن...

وأرادَ ٱلإنجليزُ أن يطمئنُّوا في فلسطينَ إلى شعبٍ لم يتعودْ قطُّ أنْ يقولَ: أنا.

ولكنْ لِماذا كنَسَتْكُم كلُّ أمةٍ من أرضِها بمكنَسةٍ أيُّها اليهود؟

* * *

أجَهِلْتُمُ ٱلإسلام؟ الإسلامُ قوةٌ كتلكَ ٱلتي تُوجِدُ ٱلأنيابَ وٱلمخالبَ في كلِّ أسد.

قوةٌ تُخرجُ سلاحَها بنفسِها، لِأَنَّ مخلوقَها عزيزٌ لم يُوجدْ لِيُؤكلَ، ولم يُخلقْ لِيَذلّ.

قوةٌ تجعلُ ٱلصوتَ نفسَهُ حينَ يُزَمْجِر، كأنَّهُ يُعلنُ ٱلأسديةَ ٱلعزيزةَ إلى ٱلجهاتِ ٱلأربع.

قوةٌ وراءَها قلبٌ مشتعلٌ كالبركانِ، تتحوَّلُ فيهِ كلُّ قطرةِ دم إلى شرارةِ دم وَلِئنْ كانَتِ ٱلحوافرُ تُهيّىءُ مخلوقاتِها لِيركبَها ٱلراكب، إنَّ ٱلمخالبَ وَٱلأنيابَ تُهيّىءُ مخلوقاتِها لِمعنًى آخر.

* * *

لو سُئلْتُ ما ٱلإسلامُ في معناهُ ٱلاجتماعيّ؟ لَسَأَلْتُ: كم عددُ ٱلمسلمين؟

فإنْ قيل: ثلثُمائةِ مليون. قلْتُ: فالإسلامُ هو الفكرةُ التي يجبُ أنْ يكونَ لها ثلثُمائةِ مليونِ قوة.

أيجوعُ إخوانُكم أيُّها ٱلمسلمونَ وتشبعون؟ إنَّ هذا الشِّبَعَ ذنبٌ يُعاقِبُ ٱللَّهُ عليه.

وٱلغِنَى ٱليومَ في الأغنياءِ ٱلمُمْسِكينَ عن إخوانِهم، هو وصفُ ٱلأغنياءِ بٱللؤمِ لا بِالغِنى.

كلُّ ما يبذلُهُ المسلمونَ لِفلسطين، يدلُّ دَلالاتٍ كثيرة، أقلّها سياسةُ ٱلمقاومة.

* * *

كانَ أسلافُكم أيُّها ٱلمسلمونَ يفتحونَ ٱلممالكَ، فٱفتحوا أنتم أيديَكم...

كانوا يرمون بأنفسِهم في سبيلِ ٱللَّهِ غيرَ مكْتَرِثين(١)، فٱرمُوا أنتم في سبيلِ ٱلحقِّ بٱلدنانيرِ وٱلدراهم.

لِماذا كانتِ ٱلقِبْلَةُ في ٱلإسلامِ إلّا لتِعتادَ ٱلوجوهُ كلُّها أنْ تتحولَ إلى ٱلجِهةِ ٱلواحدة؟

لماذا ٱرتفعَتِ ٱلمآذنُ إلّا لِيعتادَ ٱلمسلمونَ رفعَ ٱلصوتِ في ٱلحقّ؟

أيُّها ٱلمسلمون! كونوا هناك. كونوا هناك معَ إخوانِكم بمعنًى مِنَ ٱلمعاني.

* * *

---

(١) مكترثين: مهتمين.

لو صِامَ ٱلعالـمُ ٱلإسلاميُّ كلُّهُ يوماً واحداً وبذَلَ نفقاتِ هذا اليومِ ٱلواحدِ لِفلسطينَ، لأَغناها.

لو صامَ ٱلمسلمونَ كلُّهم يوماً واحداً لإِعانةِ فلسطين، لَقالَ النبيُّ مُفاخراً الأنبياء: هذه أمتي!

لو صامَ ٱلمسلمونَ جميعاً يوماً واحداً لِفلسطين، لَقالَ ٱليهودُ اليومَ ما قالَهُ آباؤهم من قبل: إنَّ فيها قوماً جَبَّارين...

أيُّها المسلمون! هذا موطنٌ يزيدُ فيهِ معنى ٱلمالِ ٱلمبذولِ فيكونُ شيئاً سماويًا.

كلُّ قِرشٍ يبذلُهُ ٱلمسلمُ لِفِلسطين، يتكلَّمُ يومَ ٱلحسابِ يقول: يا ربّ، أنا إيمانُ فلان!

قصةُ ٱلأيدي ٱلمتوضِّئة . . .

قال راوي ٱلخبر : ذهبْتُ إلى المسجدِ لِصلاةِ ٱلجمعة ؛ وٱلمسجدُ يجمعُ ٱلناسَ بقلوبِهم لِيُخرِجَ كلَّ إنسانٍ من دنيا ذاتِه ، فلا يفكّرُ أحدٌ أنهُ أسمى من أحد ؛ ولقد يكونُ إلى جانبِك ٱلصانعُ أوِ ٱلأجيرُ أوِ ٱلفقيرُ أوِ ٱلجاهل ، وأنتَ ٱلرئيسُ أوِ ٱلعظيمُ أوِ ٱلغنيُّ أوِ ٱلعالم ، فتنظرُ إليهِ وإلى نفسِكَ فتُحسُّ كأنَّ خواطِرَكَ متوضّئةٌ متطهِّرة ، وترى كلمةَ ٱلكِبرياءِ قد فقدَتْ روحَها ، وكلمةَ ٱلتواضعِ قد وجدَتْ روحَها ؛ وتشعرُ بالنفسِ ٱلمجتمعةِ قد نصبَتِ ٱلحربَ لِلنفسِ ٱلمنفردةِ ؛ ولو خطرَ لكَ شيءٌ بِخِلافِ ذلك رأيْتَ ٱلفقيرَ إلى جانبِك توبيخاً لك ، ونظرْتَ إليهِ ساكتاً وهو يتكلّمُ في قلبك ، وشعرْتَ بِاللّهِ من فوقِكُما ، وٱستعلنَتْ لك روحُ ٱلمسجدِ كأنَّها تَهُمُّ بطردِك منه ، وخُيِّلَ إليكَ أنَّ الأرضَ ستلطمُ وجهَكَ إذا سجدْتَ عليها ، وأيقنْتَ من ذاتِ نفسِكَ أنْ لسْتَ هناك في دنياكَ وليسَ صاحبُكَ في دنياه ، وإنَّما أنتما هناك في إنسانيَّةٍ ميزانُها بيدِ ٱللّهِ وحدَه ؛ فلا تدري أيّكما ٱلذي يَخِفُّ وأيّكما ٱلذي يثقُل .

قال : والعجيبُ أنَّ هذا ٱلذي لا يجهلُهُ أحدٌ من أهلِ ٱلدين ، يعرفُهُ بعضُ علماءِ ٱلدينِ على وجهٍ آخر ، فتراهُ في ٱلمسجدِ يمشي مختالاً ، قد تحلَّى بحليْتِه ، وتكلّفَ لِزَهْوه ، فليسَ ٱلجبَّةُ تَسَعُ ٱثنين ، لا وتطاوَلَ كأنَّهُ ٱلمِئذَنة ، وتَصَدَّرَ كأنَّهُ القِبْلة ، وٱنتفخَ كأنَّهُ ممتلىءٌ بالفُروقِ بينَهُ وبينَ ٱلناس ؛ وهو بعدَ كلِّ هذا لو كشفَ ٱللّهُ تمويهَهُ لٱنكشَفَ عن تاجرِ عِلْم بعضُ شروطِهِ على الفضيلةِ أنْ يأكلَ بها ، فلا يجدُ دنيا ذاتِهِ إلّا في ٱلمسجد ، فهو نوعٌ من كَذبِ ٱلعالمِ ٱلدينيِّ على دينِه .

* * *

قالَ ٱلراوي : وصَعِدَ ٱلخطيبُ ٱلمنبرَ وفي يدِهِ سيفُهُ ٱلخشبيُّ يتوكأُ عليه ؛ فما ٱستقرَّ في ٱلذِّروةِ حتى خُيلَ إليَّ أنَّ ٱلرجلَ قد دخلَ في سِرِّ هذه ٱلخشبة ، فهو يبدو كٱلمريضِ تُقيمُهُ عصاه ، وكٱلهَرِمِ يُمسكُهُ ما يتوكأُ عليه ؛ ونظرْتُ فإذا هو كذِبٌ صريحٌ على ٱلإسلامِ وٱلمسلمين ، كهيئةِ سيفِهِ ٱلخشبيِّ في كذبِها على ٱلسيوفِ ومعدنِها وأعمالِها .

وتاللَّهِ ما أدري كيفَ يستحلُّ عالمٌ من علماءِ ٱلدينِ ٱلإسلاميِّ في هذا ٱلعصر، أنْ يخطبَ ٱلمسلمينَ خُطبَةَ جُمعتِهم وفي يدِهِ هذا ٱلسيفُ علامةُ ٱلذلِّ وٱلضَعةِ وٱلتراجُعِ وٱلانقلابِ وٱلإدبارِ وٱلهزْلِ وٱلسخريةِ وٱلفضيحةِ وٱلإضحاك؛ ومتى كانَ ٱلإسلامُ يأمرُ بِنَجْرِ ٱلسيوفِ مِنَ ٱلخشبِ ونَحْتِها وتسويتِها وإرهافِ حدِّها ٱلذي لا يقطعُ شيئاً، ثُمَّ وضْعِها في أيدي ٱلعلماءِ يَعْتَلُونَ بها ذُؤابَةَ[1] كلِّ منبر، لِتتعلّقَ بها ٱلعيونُ، وتشهدَ فيها الرمز وٱلعلامة، وتستوحِيَ منها ٱلمعنويَّةَ في الدينيَّةَ ٱلتي يجبُ أنْ تتجسَّمَ لِتُرى؟

أفي سيفٍ مِنَ ٱلخشبِ معنويَّةٌ غيرُ معنى ٱلهزْلِ وٱلسخافة، وبلاهةِ ٱلعقلِ وذلّةِ ٱلحياة، ومسْخِ ٱلتاريخِ ٱلفاتحِ ٱلمنتصر، وٱلرمزِ لِخضوعِ ٱلكلمةِ وصِبيانيَّةِ ٱلإرادة؟

قال: وكانَ تمامُ ٱلهزءُ بهذا ٱلسيفِ ٱلخشبيِّ ٱلذي صنعتْهُ وزارةُ أوقافِ ٱلمسلمين، أنَّهُ في طولِ صَمْصَامةِ[2] عمرو بْنِ مَعْدِيكَرِبَ ٱلزُّبيديِّ فارسِ ٱلجاهليَّةِ وٱلإسلام، فكانَ إلى صدرِ ٱلخطيب، ولولا أنَّهُ في يدِهِ لَظهرَ مَقْبِضُهُ في صدرِ ٱلرجلِ كأنّه وِسامٌ مِنَ ٱلخشب...

قال: وكانَ ٱلخطيبُ إذا تكلَّفَ وتصنَّعَ وظهرَ منه أنَّهُ قد حَمِيَ وثارَ ثائرُهُ، ٱرتجَّ وغفَلَ عن يدِه، فتضطربُ فيها قبضةُ ٱلسيفِ فَتلكزُهُ في صدرِهِ كأنَّما تذكِّرُهُ أنَّ في يدِهِ خشبةً لا تَصلُحُ لِهذهِ ٱلحماسة....![3]

* * *

قال: وخطبَ ٱلعالمُ على الناس، وكانَ سيفُهُ ٱلخشبيُّ يخطبُ خطبةً أخرى: فأمَّا ٱلأولى فهي محفوظةٌ معروفةٌ ولا تنتهي حتى ينتهيَ أثرُها، إذْ هي كالقراءةِ لإقامةِ ٱلصلاة؛ وكانَتْ في عهدِها ٱلأولِ كٱلدرسِ لإقامةِ شأنٍ من شؤونِ ٱلاجتماعِ وٱلسياسة، فبينَها وبينَ حقيقتِها ٱلإسلاميَّة مثلُ ما بينَ هذا ٱلسيفِ مِنَ ٱلخشبِ وبينَ حقيقتِهِ ٱلأولى. وأمَّا الخطبةُ ٱلثانيةُ فقدَ عقلْتُها أنا عن تلك الخشبةِ وكتبْتُها، وهذه هي عبارتُها:

ويحكم أيُّها ٱلمسلمون! لو كنْتُ بقيةً من خشبِ سفينةِ نوحٍ ٱلتي أنقذَ فيها

---

(١) ذؤابة: رأس.

(٢) صمصامة: اسم للسيف.

(٣) كانت القاعدة الشرعية تبيح للخطيب المسلم، إذا ما افتتح بلداً غضباً بالسيف أن يخطب وبيده سيفه.

ٱلجنسَ البشريَّ، لَمَا كانَ لكم أنْ تضعوني هذا ٱلموضع؛ وما جعلَكُمُ ٱللَّهُ حيثُ أنتم إلَّا بعدَ أنْ جعلْتُموني حيث أنا، تكادُ شرارةٌ تذهبُ بي وبكم معاً، لِأنَّ فيَّ وفيكمُ ٱلمادةَ ٱلخشبيةَ وٱلمادةَ ٱلمتخشِّبة.

ويحكم! لو أنَّهُ كانَ لِخطيبِكم شيءٌ مِنَ ٱلكلامِ ٱلناريِّ ٱلمضطرم، لَمَا بقيَتِ ٱلخشبةُ في يدِهِ خشبة. وكيف يمتلىءُ الرجلُ إيماناً بإيمانه، وكيف يصعدُ ٱلمنبرَ لِيقولَ كلمةَ الدينِ مِنَ ٱلحقِّ ٱلغالبِ، وكلمةَ ٱلحياةِ مِنَ ٱلحقِّ ٱلواجب ـ وهو كما ترونَه قدِ ٱنتهى مِنَ ٱلذلِّ إلى أنْ فقد ٱلسيفُ روحَهُ في يدِه؟

أيُّها ٱلمسلمون! لنْ تُفلحوا[1] وهذا خطيبُكُمُ ٱلمتكلمُ فيكم، إلَّا إذا أفلحْتُم وأنا سيفُكم ٱلمدافعُ عنكم. أيُّها ٱلمسلمون، غَيِّروه وغيّروني.

* * *

قالَ راوي الخبر: ولمَّا قُضِيَتِ ٱلصلاةُ ماجَ[2] ٱلناسُ إذِ ٱنبعَثَ فيهم جماعةٌ مِنَ ٱلشبانِ يصيحون بهم يستوقفونهم لِيخطبوهم؛ ثُمَّ قامَ أحدُهم فخطب، فذكرَ فلسطينَ وما نزلَ بها، وتغيُّرِ أحوالِ أهلِها، ونكبتَهم وجهادَهم وٱختلالَ أمرِهم، ثمَّ ٱستنجدَ وٱستعان، ودعا ٱلمُوسِرَ[3] وٱلمُخِفَّ[4] إلى ٱلبذلِ وٱلتبرعِ وإقراضِ ٱللَّهِ تعالى؛ وتقدمَ أصحابُهُ بصناديقَ مختومة، فطافُوا بها على الناسِ يجمعون فيها القليل وٱلأقلَّ من دارهِمَ هي في هذه ٱلحالِ دارهِمُ أصحابِها وضمائرُهم.

قال: وكانَ إلى جانبي رجلٌ قَرَوِيٌّ من هؤلاءِ ٱلفلاحينَ ٱلذين تَعرفُ ٱلخيرَ في وجوهِهم، وٱلصبرَ في أجسامِهم، وٱلقناعةَ في نفوسِهم، وٱلفضلَ في سجاياهم؛ إذِ ٱمتزجَتْ بهم روحُ ٱلطبيعةِ ٱلخِصبةِ فتُخرجُ من أرضِهم زُروعاً ومن أنفسِهم زروعاً أخرى ـ فقالَ لِرجلٍ كانَ مَعه: إنَّ هذا ٱلخطيبَ خطيبَ ٱلمسجدِ قد غشَّنا وهؤلاءِ الشبانُ قد فضحوه؛ فما ينبغي أنْ تكونَ خطبةُ ٱلمسلمينَ إلَّا في أخصِّ أحوالِ ٱلمسلمين.

قال: ونبَّهني هذا ٱلرجلُ ٱلساذَجُ إلى معنًى دقيقٍ في حِكمةِ هذه ٱلمنابرِ ٱلإسلاميَّة؛ فما يُريدُ ٱلإسلامُ إلَّا أنْ تكونَ كمحطاتِ ٱلإذاعة، يلتقطُ كلُّ منبرٍ أخبارَ ٱلجهاتِ ٱلأخرى ويُذيعُها في صيغةِ ٱلخطابِ إلى ٱلروح وٱلعقلِ وٱلقلْب، فتكونُ

---

(١) تفلحوا: تنجحوا.
(٢) ماج: هاج.
(٣) الموسر: الغني.
(٤) المخف: الفقير.

خطبةُ ٱلجمعةِ هي ٱلكلمةَ ٱلأسبوعيَّةَ في سِياسةِ ٱلأسبوعِ أو مسألةِ ٱلأسبوع؛ وبهذا لا يجيءُ ٱلكلامُ على ٱلمنابرِ إلَّا حيًّا بحياةِ ٱلوقت، فيُصبِحُ ٱلخطيبُ ينتظرُهُ ٱلناسُ في كلِّ جمعةٍ ٱنتظارَ ٱلشيءِ ٱلجديد؛ ومن ثَمَّ يستطيعُ ٱلمنبرُ أنْ يكونَ بينَهُ وبينَ ٱلحياةِ عمل.

قال: وخُيِّلَ إليَّ بعدَ هذا ٱلمعنى أنَّ كلَّ خطيبٍ في هذه ٱلمساجدِ ناقصٌ إلى ٱلنصف، لِأنَّ السياسةَ تُكرِهُهُ أنْ يخلعَ إسلاميَّتَهُ ٱلواسعةَ قبلَ صعودِهِ ٱلمنبر، وألَّا يصعدَ إلَّا في إسلاميتِهِ ٱلضيِّقةِ ٱلمحدودةِ بحدودِ ٱلوعْظِ هو مع ذلك نصفُ وعظ. . . فالخطبةُ في ٱلحقيقةِ نصفُ خطبة، أو كأنَّها أثرُ خطبةٍ معَها أثرُ سيف. . .

قال: وأخرجَ ٱلقرويُّ كِيسَهُ فعزَلَ منه دراهم وقال: هذه لِطعام أتبلَّغ بِهِ ولِأَوْبتي[1] إلى البلد، ثم أفرغَ الباقي في صناديقِ ٱلجماعة؛ وٱقتديْتُ أنا بِهِ فلم أخرجْ مِنَ ٱلمسجدِ حتى وضعْتُ في صناديقِهم كلَّ ما معي؛ ولقد حسبْتُ أنَّهُ لو بقيَ لي درهمٌ واحدٌ لَمضى يَسبُّني ما دامَ معي إلى أنْ يخرجَ عنِّي.

* * *

قالَ ٱلراوي: ثُمَّ دخلْتُ إلى ضريحِ صاحبِ ٱلمسجدِ أزورُهُ وأقرأُ فيهِ ما تيسَّرَ مِنَ ٱلقرآن، فإذا هناك رجالٌ من علماءِ ٱلمسلمين، اِثنانِ أو ثلاثةٌ: (الشكُّ في ثالثِهم لأنَّهُ حليقُ ٱللحية). ثُمَّ تَوَافَى[2] إليهم آخرون فتمُّوا سبعة؛ ورأيْتُهم قد خلطوا بأنفسِهم صاحبَ (اللا لِحية)، فعلِمْتُ أنَّهُ منهم على ٱلمذهبِ ٱلشائعِ في بعضِ ٱلعصريينَ مِنَ ٱلعلماءِ وٱلقضاةِ ٱلشرعيِّين، أحسبُهم يحتجُّون بقولِه تعالى: و ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾؛ وكلُّ ٱمرىءٍ فإنَّما تُبَصِّرهُ مرآتُهُ كيف يظهرُ في أحسنِ تقويم، أبلحيةٍ أم بلا لِحية. . .؟

وأدرْتُ عيني في وجوههم، فإذا وقارٌ وسَمْتٌ ونورٌ لم أرَ منها شيئاً في وجهِ صاحبِ (اللا لِحية)؛ وأنا فما أبصرْتُ قطُّ لِحيةَ رجلٍ عالم أو عابدٍ أو فيلسوفٍ أو شاعرٍ أو كاتبٍ أو ذي فنٍّ عظيم، إلَّا ذكرْتُ هذا المعنى ٱلشعريَّ البديعَ الذي وردَ في بعضِ ٱلأخبارِ، من أنَّ للَّهِ (تعالى) ملائكةً يُقْسِمون: وٱلذي زيَّن بني آدمَ باللِّحى.

وكانَ مِنَ ٱلسبعةِ رجلٌ تركَ لِحيتَهُ عافيةً على طبيعتِها؛ فٱمتدَّتْ وعظُمَتْ حتى

---

(١) أوبتي: عودتي. (٢) توافى: جاء.

نَشَرَتْ حولَها جوًّا روحانيًّا مِنَ ٱلهيبةِ تشعرُ ٱلرقيقةُ بتيَّارِهِ على بُعد، فكانَ هذا أبلغَ ردٍّ على ذلك.

* * *

قال؛ وأنصَتَ ٱلشيوخُ جميعاً إلى خطبِ ٱلشبان، وكانَتْ أصواتُ هؤلاءِ جافيةً(١) صُلبةً حتى كأنَّها صَخَبُ(٢) معركةٍ لا فنُّ خطابة، وعلى قدرِ ضعفِ المعنى في كلامِهم قَويَ ٱلصوت؛ فهم يصرخونَ كما يصرخُ ٱلمستغيثُ في صيحاتٍ هاربةٍ بينَ ٱلسماءِ وٱلأرض.

فقالَ أحدُ ٱلشيوخِ ٱلفضلاء: لا حولَ ولا قوةَ إلَّا باللهِ! جاءَ في ٱلخبَر: «تَعِسَ عبدُ ٱلدينارِ تَعِسَ عبدُ ٱلدرهم». وواللَّهِ ما تعسَ ٱلمسلمونَ إلَّا منذُ تعبَّدوا لِهذين حِرْصاً وشُحّاً؛ ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(٣)، ولو تعارفَتْ أموالُ ٱلمسلمينَ في ٱلحوادثِ لمَا أنكرتْهمُ ٱلحوادث.

فقالَ آخر: وفي ٱلحديث: «إنَّ ٱللَّهَ يُحبُّ إغاثةَ ٱللَّهْفان»، ولكن ما بالُ هؤلاءِ ٱلشبانِ لا يُوردون في خطبِهم أحاديثَ معَ أنَّها هي كلماتُ ٱلقلوب؟ فلو أنَّهم شرحوا لِلعامةِ هذا الحديث: «إنَّ ٱللَّهَ يُحبُّ إغاثةَ ٱللهفانِ» لأسرعَ العامَّةُ إلى ما يُحبّهُ ٱللهُ.

قالَ ٱلثالث: ولكنْ جاءَنا ٱلأثرُ في وصفِ هذه الأمَّة: «إنَّها في أولِ ٱلزمانِ يتعلَّمُ صغارُها من كِبارِها، فإذا كانَ آخرُ ٱلزمانِ تعلّمَ كِبارُهم من صِغارِهم». فنحن في آخرِ ٱلزمان، وقد سُلِّطَ ٱلصغارُ على ٱلكبارِ يُريدونَ أنْ يَنقُلوهم عن طِباعِهم إلى صِبيانيَّةٍ جديدة.

قالَ ٱلراوي: فقلْتُ لِصديقٍ معي: قلْ لِهذا الشيخ: ليس معنى ٱلأثرِ ما فهِمْتَ، بل تأويلُهُ أنَّ آخرَ ٱلزمانِ سيكونُ لِهذهِ الأمَّةِ زمنُ جِهادٍ وٱقتحام، وعزيمةٍ ومُغالبةٍ على ٱستقلالِ ٱلحياة؛ فلا يصلحُ لِوقايةِ ٱلأمَّةِ إلَّا شبابُها ٱلمتعلِّمُ ٱلقويُّ ٱلجريءُ، كما نرى في أيَّامِنا هذه، فينزلون مِنَ ٱلكِبارِ تلكَ ٱلمنزلةَ؛ إذْ تكونُ ٱلحماسةُ مُتممةً لِقُوةِ ٱلعِلْم. وفي ٱلحديث: «أمَّتي كالمطرِ: لا يُدرَى أولُهُ خيرٌ أم آخرُه».

* * *

قالَ ٱلراوي: ولم يكدِ ٱلصديقُ يحفظُ عنِّي هذا الكلامَ ويَهُمُّ بتبليغِهِ، حتى

---

(١) جافية: قاسية صلبة.
(٢) صخب: ضجيج.
(٣) شحّ: بخل.

وقعَتِ ٱلصِيحةُ في ٱلمكان؛ فجاءَ أحدُ الخطباءِ ووقفَ يفعلُ ما يفعلُهُ ٱلرعد: لا يكرِّرُ إلَّا زمجرةً واحدة؛ وكانَ ٱلشيوخ ٱلأجِلَّاءُ قد سمعوا كلَّ ما قيل، فأطرقوا يسمعونه مرةً رابعةً أو خامسة؛ وفرغَ ٱلشبابُ من هَديرِهِ فتحوَّلَ إليهم وجلسَ بينَ أيديهم متأدِّباً متخشِّعاً ووضَع ٱلصندوقَ ٱلمختوم.

فقالَ أحدُ ٱلشيوخ: لم يَخفَ علينا مكانُك، وقد بذلْتُم ما ٱستطعْتُم؛ فباركَ ٱللهُ فيك وفي أصحابِك.

وسكَتَ ٱلشابُ، وسكَتَ ٱلشيوخ، وسكَتَ ٱلصندوقُ أيضاً...

ثُمَّ تحركَتِ ٱلنفسُ بوحْي ٱلحالة؛ فمدَّ أولُهم يدَهُ إلى جيبِه، ثُمَّ دسَّها فيه، ثُمَّ عَيَّثَ[1] فيه قليلاً؛ ثم... أخرجَ ٱلساعةَ ينظرُ فيها.

وٱنتقلَتِ ٱلعدوى إلى ٱلباقين، فأخرجَ أحدُهُم مِنديلَهُ يتمخَّطُ فيه، وظهَرتْ في يدِ ٱلثالثِ سُبحةٌ طويلة، وأخرجَ ٱلرابعُ سِواكاً فمرَّ بهِ على أسنانِه، وجرَّ الخامسُ كُراسةً كانَتْ في قَبائِه، ومدَّ صاحبُ ٱللِّحيةِ ٱلعريضةِ أصابعَهُ إلى لِحيتِهِ يُخَلِّلُها؛ أمَّا السابعُ صاحبُ (اللاحية)، فثبتَتْ يدُهُ في جيبِهِ ولم تخرج، كأنَّ فيها شيئاً يستحي إذا هو أظهرَه، أو يخشى إذا هو أظهَرُه من تخجيلِ ٱلجماعة.

وسكَتَ ٱلشابُ، وسكَتَ ٱلشيوخ، وسكَتَ ٱلصندوق أيضاً...

قالَ ٱلراوي: ونظرْتُ فإذا وجوهُهُم قد لبَستْ لِلشابِّ هيئةَ ٱلمدرِّسِ ٱلذي يُقرِّرُ لِتلميذِهِ قاعدةً قرَّرها مِنْ قبلُ ألفَ مرةٍ لِألفِ تلميذ؛ فخجلَ ٱلشابُ وحملَ صندوقَهُ ومضى...

* * *

أقولُ أنا: فلَمَّا ٱنتهى ٱلراوي من (قصةِ ٱلأيدي ٱلمتوضئة)، قلْتُ لَه: لَعلَّكَ أيُها ٱلراوي ٱستيقظْتَ مِنَ ٱلحُلُم قبلَ أنْ يملأَ الشيوخُ الأجلَّاءُ هذا ٱلصندوق، وما ختمَ عقلُكَ هذه الروايَةَ بهذا الفَصلِ إلَّا بما كَدَدْتَ[2] فيهِ ذهنَكَ من فلسفةِ تحوُّلِ ٱلسيفِ إلى خشبة؛ ولو قدِ ٱمتدَّ بِكَ النومُ لَسمعْتَ أحدَهم يقول لِسائِرهم: بِمَنْ ينهضُ إخوانُنا ٱلمجاهدونَ وبِمنْ يصولون؟ لهذا قالَ رسولُ ٱللهِ ﷺ: «جاهلٌ سخيٌّ[3] أحبُّ إلى ٱللهِ من عالمٍ بخيل». ثُمَّ يملئون ٱلصندوق....

---

(١) عيَّث فيه قليلاً: أي بحث بأصبعه.

(٢) كددت: أتعبْت.

(٣) سخيّ: كريم.

نجوى التمثال

أيُّها ٱلمفترِشُ ٱلصخرةَ يشُدُّ ذراعيهِ أقوى ٱلشدِّ كأنّما يُريدُ أنْ يقتلعَ ٱلصخرةَ فيهما،

مُتَنَاهِضاً بصدرِهِ(١) لِيَدلَّ على أنّهُ وإنْ رَبضَ فإنَّ ٱلوثبةَ في يديه، مُتَمَطِّياً(٢) بصُلْبِهِ لِيُشيرَ من جِسمِهِ ٱلهادىء إلى معانيهِ ٱلمفترسة، مُقْعياً على ذَنبِهِ(٣) ومتحفِّزاً بسائِرِهِ كأنّهُ قوةُ ٱندفاعٍ تَهُمُّ أنْ تَنفلِتَ من جاذبيةِ ٱلأرض.

وأنتِ أيَّتُها ٱلهيفاءُ(٤) تمثِّلُ ٱلإنسانيَّةَ ٱلمتمدِّنةَ في نَحافتِها وهي كهذه ٱلإنسانيّةِ ضاربةٌ بذراعَيْ أسدٍ في غِلَظٍ مِدْفعين....

حكيمةً في ٱلنظرِ كأنّما تَمُدُّ في سرائِرِ ٱلأممِ نظرةَ ٱلمتأملِ، ولكنَّ يدَها كَيَدِ ٱلحِكمةِ ٱلسياسيَّةِ على تركيبٍ عقليٍّ تحتَهُ ٱلمخالب...

ساكنةً كأنّها تمثالُ ٱلسلامِ على أنّها في جِوارِ ٱلأسدِ كَٱلسلامِ بينَ ٱلشعوب: تَلْمَحُ فيهِ إنسانَ ٱلعالمِ ووحشَ ٱلعالم...

يا أبَا ٱلهول.

أأنتَ جوابٌ عن ذلك ٱللُّغزِ ٱلقديمِ ٱلذي هو كلامٌ لا يتكلَّمُ وسكوتٌ لا يسكُت.

وٱلذي أشارَ برأسِ ٱلإنسانِ على جسمِ ٱللَّيثِ(٥) أنّهُ قوةٌ عمياءُ كَٱلضرورةِ ولكنّها مُبْصِرَةٌ كٱلاختيار.

وٱلذي أخرجَ من فَنَّي ٱلغريزةِ والعقلَ فنّاً ثالثاً لا يزالُ في ٱلأرضِ ينتظرُ ٱلمرأةَ التي تَلِدُ إنساناً عِظامُهُ مِنَ ٱلحجَر؟

---

(١) متناهضاً بصدره: مرتفعاً.
(٢) متمطياً: متمدداً، وذلك بعد النوم.
(٣) مقعياً على ذنبه: جالساً.
(٤) الهيفاء: الفتاة الممتشقة الطول.
(٥) الليث: الأسد.

وأنتِ يا مصر:

أواقفةٌ ثَمَّةَ لِلشرحِ وٱلتفسير، تقولينَ لِلمصريِّ: إنَّ أجدادَك يسألونَك مِنْ آلافِ ٱلسنينَ بهذا الرَمز: ألَا معجزةٌ مِنَ ٱلقوَّةِ تمطُّ عَضَلاتِ ٱلحجَر؟

ألا بَسْطَةٌ[1] مِنَ ٱلعِلْم تجعلُك أيُّها ٱلمصريُّ وكأنَّكَ رأسٌ لِجسمِ ٱلطبيعة؟ ألا فنٌّ جديدٌ ترفعُ بِهِ أبا ٱلهولِ في ٱلجوّ فتزيدُهُ على قوَّةِ ٱلوحشِ وذكاءِ ٱلإنسانِ خِفَّةَ ٱلطير؟

أمْ تقولينَ لِلمصريّ: إنَّ أجدادَك يُوصونكَ بهذا ٱلرمزِ أنْ تكونَ كالظَّهرِ ٱلأسديِّ لا يُركَبُ مَطاهُ، وكٱلرأسِ ٱلإنسانيّ لا تُقيِّدُ حريتَهُ، وكٱلرَّبْضَةِ ٱلجبليَّةِ لا تَسْهُلُ إزاحتُها، وكٱلإبهامِ ٱلمركَّبِ من غامضَينِ لا يتيسَّرُ بِهِ عَبَثُ ٱلعابث، وكٱلصراحةِ ٱلمجتمعةِ من عنصرٍ واحدٍ لا يغلطُ في حقيقتِها أحد؟

أمْ تقولينَ يا مصر: إنَّ تفسيرَ أبي ٱلهولِ ٱلأولِ أنَّ ٱلنهضةَ ٱلمصريَّةَ إنَّما تكونُ يومَ تُخرِجُ ٱلبلادُ مَنْ يصنعُ أبا ٱلهولِ الثاني؟

* * *

تمثالُ ٱلنهضةِ أم صفحةٌ مِنَ ٱلحجرِ قد صَوَّرَ ٱلشعبُ عليها، ودوَّنَ فيها إحساسَهُ بتاريخِه، ووصفَ بها إدراكَهُ حياةَ ٱلمعاني ٱلسامية؟

أمْ هو كتابةُ فصلٍ مِنَ ٱلتاريخ بقلمِ ٱلحياةِ وعلى طريقةٍ من بلاغتِها، خشيَتْ عليهِ ٱلفناءَ فدوَّنَتْهُ في أسلوبٍ مِن أساليبِ ٱلبقاءِ ٱلحجريِّ ٱلصَّلْد؟

أمْ ذاك يومٌ من أيامِ ٱلأمَّةِ أحالَهُ ٱلفنُّ من زمنٍ إلى مادة؛ ومن معنًى إلى حسٍّ، ومن خبرٍ إلى مَنْظَر، وكانوا يتكلَّمون عنهُ فجعلَهُ ٱلفنُّ يتكلَّمُ عن نفسِه؟

أمْ هو تعبيرٌ عن تلك ٱلمعاني التي خلَقتْها نفوسُ هذا ٱلجيلِ تُخاطِبُ بِهِ ٱلنفوسَ الآتيةَ لِتُتمِّمَ عليها، وتُضيفَ فيه إلى ٱلمعنى سرَّ ٱلمعنى، وتضعَ ٱلكلمةَ ٱلإنسانيَّةَ على لِسانِ ٱلطبيعةِ تتكلَّمُ بالتمثالِ كما تتكلَّمُ بالجيل؟

أمْ تركيبٌ سِياسيٌّ إذا فسَّرتْهُ ٱللغةُ كانَ معناهُ أنَّ ٱلثابتَ إذا ٱحتاجَ إلى مَنْ يُثبِتُهُ... فلَنْ يمحوَهُ من يُنكرُهُ، وأنَّ ٱلظاهرَ إنِ ٱحتاجَ إلى مَنْ يَدلُّ عليه... فلَنْ يُخفِيَهُ مَنْ لا يراه؟

* * *

(1) بسطة: سعة.

بلْ أراكَ لا هولَ[1] فيكَ يا أبا الهولِ ٱلجديد.

أفذاكَ من رِقَّةٍ داخلَتْك ورحمةٍ جاءَتْك من مَسِّ يدِ ٱلمرأة...؟

أم ٱلهولُ ٱليومَ قد أصبحَ في ٱلعقلِ وٱلعاطفةِ ومدّ ٱلعينِ ٱلنسائيَّةِ إلى بعيد...؟

أمْ لا يتمُّ في هذِهِ ٱلمدينةِ رأسُ رجلٍ وجسمُ سَبعٍ إلَّا... إلَّا بأناملِ ٱمرأة؟

ألَا مَنْ يُعْلِمُني أهذه ٱلمرأةُ منك هي تهذيبٌ لِلإنسانِ وٱلوحشِ أمْ تكملةٌ عليهما؟

ألا مَنْ يأتيني بٱلحِكْمةِ فيكَ من وضْعِ ٱلرجلِ ٱلقويِّ رأساً ولا جسم، والأسدِ ٱلمفترسِ جسماً ولا رأس، ثُمَّ لا يكملُ دُونَهما إلَّا ٱلمرأةُ وحدَها.

إنَّما كنْتَ يا أبا الهولِ لُغزَ ٱلصمْت، فَلمَّا أُضيفَتِ ٱلمرأةُ إليكَ أصبحْتَ لُغزَ ٱلنطقِ... فيا لَلْهول!

---

(١) هول: قوة.

فاتحُ ٱلجوِّ ٱلمصريّ

يا طيرَ ٱلمثَلِ ٱلأعلى!

لقدِ ٱنْفَلَتَّ(1) من رذيلةِ ٱلخوف وتركْتَها في ٱلترابِ مَوْطِىءَ ٱلقَدَم، وقلْتَ لها: ويحكِ، لقد آنَ لِلشباب ٱلمصريِّ؛ فهو مُغَامِسٌ(2) في ماءِ ٱلصواعق(3)، مُتَطَوِّحٌ(4) في ٱللُّجّةِ ٱلأزليَّةِ(5) التي تغوصُ فيها ٱلكواكبُ(6)، يطيرُ برُوحِ ٱلشَّرارة، ويَهْبِطُ برُوحِ ٱلغيث(7)، ويُلجِمُ(8) ٱلجوَّ ويُسْرِجُهُ،(9) ويتعلَّمُ كيفَ يَشْوي عدوَّهُ في عَيْنِ ٱلشمس.

وكنْتَ بطلاً مُغَامراً فخطوْتَ في طريقِ الملائكةِ بهٰذِهِ ٱلفضيلةِ وحمَلَكَ ٱلجوُّ؛ ولو أنَّك خِفْتَ وكنْتَ على جَنَاحَيْ جِبريلِ لا على طيَّارة، لَخَافَ جبريلُ على جناحَيهِ من حَطْمَةِ هذا ٱلمعنى الترابيِّ ٱلطاغيةِ ٱلذي يَحكُمُ على ٱلأحياءِ بِٱلموتِ بلا موت، لِأنَّهُ ٱلذلُّ وٱلخضوعُ وٱلرذيلة.

وحملَكَ ٱلجوُّ إلى قُبّةِ ٱلسماء، وهنالِكَ نَظَرَ ٱلعالَمُ فرأى لِمِصرَ ٱلناهضةِ عَلَمَها ٱلإنسانيَّ يتنفَّسُ تحتَ ٱلكواكب.

وحملَكَ ٱلجوُّ إلينا، فلمَّا رفعْنَا رؤوسَنَا لِنراك، رفعْناها في ٱلوقتِ بين شعوبِ الأرض.

* * *

وضربْتَ يا جَنَاحَ مصرَ في الهواء، وأعْنَانُ ٱلسماءِ(10) مملوءةٌ بِالزَّغْزَع(11) وٱلهَوجاءِ وٱلعاصف، وٱلسماءُ في فصلِها ٱلمكْفَهِرِ ٱلذي تخلعُ فيهِ كلَّ ساعةٍ وتلبسُ

---

(1) انفلتَّ: تخلّصت.

(2) مغامس: مبلل.

(3) تلك كناية عن السحاب.

(4) متطوّح: متمائل في كل اتجاه.

(5) اللجة الأزلية: السماء.

(6) تلك كناية عن أجواز الفضاء.

(7) الغيث: المطر.

(8) يُلجم: يضع اللجام للحصان.

(9) يُسرجه: يضع السرج للحصان.

(10) أعنان، مفرده عنان، بالفتح: نواحيها.

(11) الزعزع: تردّد الصوت كالجلجلة.

وتَمزّقُ[1] وتَطْوي، فزِدْتَ بجُرأتِكَ في براهينِ ٱلقضيَّةِ ٱلمصريَّةِ برهانَ قوَّةِ ٱلمُخاطَرة، وأضفْتَ إلى مَنطِقِها وضعاً جديداً مُفْحِماً من روحِ ٱلتضحية.

وطِرْتَ بينَ حياةٍ وموتٍ فجعلْتَهما يستويانِ في ٱعتقادِك؛ إذْ وصلْتَ فكرةَ ٱلموتِ بسرِّ ٱلإيمان، وٱلحياةَ بسرِّ ٱلعزيمة.

وكنْتَ رَجُلَ أُمَّتِكَ بإنكارِ ذاتِ نفسِكَ من أجلِها.

وٱتسَعْتَ لِلتاريخِ بِوضعِك عُمرَكَ ٱلمحدودَ على ٱلطيَّارة، وقذفِكَ بِهَا وبِهِ في مَسْبَحِ ٱلأجل.

وتجرَّدْتَ لِلأبديَّةِ لِتُعطيَ بِلادَكَ: إمَّا شهيدَ مجدٍ في ٱلآخرة، وإمَّا شهادةَ فخرٍ في ٱلدنيا.

وكنْتَ على طيَّارتِكَ ٱلصغيرةِ ٱلمُتَطارِدةِ تحتَ ٱلريح، وحَولَكَ رُوحُ ٱلهرَمَ ٱلأكبرِ ٱلقائمِ بإرادةِ مصرَ وكأنَّهُ مِسْمارٌ مدقوقٌ في كُرَةِ ٱلأرضِ بينَ ٱلقطْبِ وٱلقطب.

* * *

وأنتِ يا «فائزة» يا هذه ٱلصغيرةُ ٱلخارجةُ من مالِ صاحِبها وجُهدِهِ وعزيمتِهِ كما تخرجُ ٱلقوَّةُ من ضَعف، أعلمْتِ إذْ أنتِ ترتفعينَ وتهبطينَ بينَ ٱلسحُبِ كما تتواثبُ ٱلفَراشةُ على ٱلنوَّارِ في رَوضةٍ مُزهرة، وإذْ أنتِ تَفْتُقين وتحُوكينَ في مُلاءةِ ٱلسحابِ كأنَّكِ بِمُحَرِ كِكِ ٱلدَّوَّارِ تَنسِجُينَ في ٱلسماءِ بمغْزَل، وإذْ أنتِ بينَ صَفْقِ ٱلرياحِ ٱلهُوجِ[2]، تحتَ ٱلسماءِ ٱلمُدَجَّجةِ[3]، في كُبَّةِ ٱلشتاء[4]، كأنَّك مناظَرةٌ تجري بينَ ٱلعزيمةِ في ٱلإنسانِ والعزيمةِ في ٱلطبيعة، وإذْ أنتِ بينَ ذئابِ ٱلأعاصيرِ، ونُمورِ ٱلسحابِ[5] وسِباعِ ٱلغيمِ ذواتِ ٱللِّبدةِ ٱلكثيفةِ ٱلمُتَشَعّثَةِ، كأنَّكِ بِصوتِكِ وأزيزِكِ تُطلقينَ على وحوشِ الجوِّ مِدفعاً رشاشاً يترُكها صَرْعَى،

وإذْ تراكِ ٱلريحُ فتقولُ عنكِ: ريحٌ صَنَعَها ٱلإنسان. وَيَراكِ ٱلنجمُ فيقول: نجمٌ أفلَتَ مِنَ ٱلنِّظامِ ٱلأرضيّ. وتَراكَ ٱلملائكةُ فتقول: ويحكَ يا ٱبنَ آدمَ، كأنَّكَ بما

---

(١) كناية عن المطر وطبيعة الشتاء.

(٢) الهوج، مفرده هوجاء أي المجنونة التي لا تستقرّ ولا تهدأ.

(٣) المدجَّجة: المفعمة.

(٤) كبّة الشتاء: عنفه وغزارته.

(٥) السحاب: الغيم.

خَلَقَهُ ٱلعقلُ تطمعُ مِنَّا في سَجْدَةٍ أخرى كالتي سجدْناها لِآدمَ يومَ خلقَهُ ٱللهُ.

. . . أعلمْتِ إذْ أنتِ كذلك يا «فائزة»، أنَّ ٱلتاريخَ ٱلمصريَّ سيحوِّلُكِ من طيَّارةٍ إلى آيةٍ كآيةِ بَدْءِ ٱلخَلْق، لِأنَّ فيكِ بَدْءَ الطَيرانِ في مصر؟

* * *

سلاماً يا فاتحَ ٱلجوِّ ٱلمصري. لقدْ أجالَتِ ٱلأيامُ قِداحَها[1] فخرجَتِ ٱلقُرعةُ عليك، وأوحَى إليك الواجبُ آيةَ: بسمِ اللّهِ مَصْعَدُها ومَجراها.

وطِرْتَ فإذا أنت بِها عابرٌ فوقَ ٱلحاضرِ لِتجيئَنا من جانبِ ٱلمستقبل.

وهبطْتَ علينا كأنَّكَ في بَريدِ ٱلسماءِ كتابُ مَجْدٍ حَيٍّ لِلوطنيَّةِ ٱلظافرة.

بلْ كِتابُ قصَّةٍ رائعةٍ أَلَّفتْها ٱلعواصفُ من فنَّين: ثورةِ ٱلجوِّ وثورةِ نفسِكَ ٱلمصريَّة. وحَكَتْها في صوتين: زَفيفِ ٱلطيَّارةِ وصَرْخةِ ضميرِكَ ٱلوطنيّ. وجعلَتْها فصلين: أنتَ وٱلمجهول. ألَا حسبُكَ مجداً أنْ يحيا ٱلشعبُ كلُّهُ بضعةَ أيامٍ في قصتِك!

* * *

فعلى مَهْدِ ٱلجوّ، وفي حَريرِ ٱلشعاع، وتحتَ كِلَّةِ ٱلسحاب ـ وُلِدَ لِمصرَ يومٌ تاريخيّ.

وخرجَتِ ٱلتهانيءُ ٱلتي طالَ ٱحتباسُها[2] في ٱلقلوبِ ٱلمصريَّةِ لا يُفْرَجُ عنها لأنَّ سجَّانَها ظُلْمُ ٱلسياسة.

وٱتجهَتْ أفراحُ شعبٍ كاملٍ إلى ٱلفتى ٱلجرىءِ ٱلذي رَمَتْ بِهِ هِمَّتُهُ فوقَ هاويةِ ٱلموتِ فتخطاها.

وتلقَّى شعورُ الأمَّةِ رسولَه ٱلمِقدامَ ٱلذي لم يكنْ لَهُ ملجأٌ في خِطَارِهِ إلَّا شعورَهُ بهذه الأمَّة.

وٱرتجَّ ٱلوادي كلَّهُ كأنَّه غِمْدٌ يتقلقلُ حينَ يُسَلُّ منهُ ٱلسيف.

ثُمَّ أُهْدِيَتْ كلمةُ مِصرَ لابْنِها ٱلذي كتَبَ في جوِّها ٱلكلمةَ ٱلسماويَّةَ ٱلأولى. وكانَتْ ساعةٌ تلاشَى عندَها ٱلزمنُ فٱرتفعَتْ منه أربعةُ آلافِ سنةٍ وهتَفَ معنا ٱلفراعنة: بوركْتَ يا «صدقي»!

* * *

---

(١) قداحها: كأسها لتقرع فيها على طريقة الجاهلية.
(٢) احتباسها: سجنها.

لِلهِ درُّكَ أيُّما ٱبنِ عزيمة! كأنَّما كَشفْتَ أهاويلَ ٱلوحْيِ وهبطْتَ في سحابةٍ مُجَلْجِلَةٍ إنْ لم تحملْ كتاباً مُنزَلاً فكأنَّما حملتْ شخصاً منزلاً.

ولعلَّكَ رسولُ ٱلغَيم ٱلعابِسِ لِهذا ٱلجوِّ ٱلمصريِّ ٱلذي يضحكُ دائماً ضحكةَ ٱلفيلسوفِ ٱلساخرِ في حينِ أصبَحتِ ٱلحياةُ قوةً لا فلسفةً...

ولعلَّكَ مبعوثُ ٱلبرقِ وٱلرعدِ لِهذا ٱلسكونِ ٱلنائمِ ٱلذي يطوي كلَّ يومٍ في طيِّ ٱلنسيانِ ما حَدَثَ في ٱليومِ ٱلذي قبلَه...

ولعلَّكَ نبيُّ ٱلجِدّيةِ وٱلمرارةِ لِهذهِ الحلاوةِ ٱلنيليَّةِ ٱلمُفْرِطةِ ٱلتي كادَ منها ٱلشعبُ أنْ يكونَ سُكَّرَ أخلاقٍ يُذابُ ويُشْرب...

ولَعلَّكَ تفسيرٌ مصحِّحٌ لِعقيدتِنا ٱلمغلوطةِ في ٱلقضاءِ وٱلقدر، أنَّ ٱلقضاءَ أنْ تُقْدِمَ بِلا خوف، وأنَّ ٱلقدرَ أنْ تَثِقَ بِلا مُبالاة.

أمَا ـ واللّهِ ـ لقدْ غمرْتَ ٱلشعبَ بموجةِ هواءٍ جديدةٍ جِئْتَ بها في جناحَيْك، ونفخْتَ روحَ طيَّارتِكَ ٱلمجيدةِ في ٱلقلوبِ فجعلْتَها كلَّها ترفرِفُ كأنَّ لكَ في ضلوعِ كلِّ مِصريٍّ طيَّارة.

أجنحةُ ٱلمدافعِ ٱلمصرية

اِسْتَجْنحي[١] يا مَدافعَ مِصرَ وطيري، إنَّ ٱلمجدَ يطلبُ مِنَّا إنسانَهُ ٱلبرْقيّ. لقد مَدَّتْ لُغةُ ٱلقوَّةِ في هذا ٱلعصرِ مَدَّها حتى أصبحَ الطَّيرَانُ بعضَ معاني ٱلمشيْ، ولم يَعدِ ٱلعالَمُ يدري كيفَ تكونُ ٱلصورةُ ٱلأخيرةُ التي يستقرُّ فيها معنى إنسانِه.

فَلْتَتَمَجَّدْ مِصرُ بإنسانِها ٱلبَرقِّي ٱلذي تَخرج ٱلنارُ بيدِهِ من أعْراضِ ٱلسحاب، وتُفرقِعُ في أصابعِهِ هَزّاتُ ٱلرَّعد، ويجعلُ في قُبّةِ ٱلسماءِ صَلْصَلَةً وجَلْجَلة، ويحملُ ٱلاسمَ ٱلمصريَّ إلى مُعلَّقِ ٱلنجم، فيضعُ لَهُ هناكَ ٱلتعريفَ الناريَّ ٱلذي وضعَتْه ٱلدولُ ٱلعظمى لِأسمائِها.

وَلْتتمجدْ مصرُ بإنسانِها ٱلبرقيِّ ٱلذي يُشْعِرُها حقيقةَ ٱلعلوِّ العالي، وٱلعُمقِ ٱلعميق، وٱلسِّعَةِ ٱلتي لا تُحدُّ؛ وَيزيدُ في معاني أحيائِنَا معنًى جديداً لِأحياءِ السُّحب، وفي معاني أمواتِنا معنًى جديداً لِموتَى ٱلكواكب.

إنسانٌ برقيٌّ يُتمِّمُ بشجاعتِهِ في ٱلسماء بُطولَةَ فلَّاحِنا ٱلإنسانِ ٱلشمسيِّ في ٱلأرض، ويعلو بِكِبرياءِ مصرَ في ذِرْوةِ ٱلعالَمَ، فتظهرُ طيَّاراتُها العظيمةُ قدرةً في ٱلجوِّ كما ظَهرتْ آثارُها ٱلعظيمةُ قدرةً في ٱلثرَّى.

إنَّها مصر، مصرُ ٱلقادرةُ ٱلتي سَحرَتِ ٱلقِدَمَ بقوَّتِها وفنِّها، فَبقِيَ فيها على حالِهِ وجلالتِهِ، وٱنهزمَ ٱلدهرُ عنهُ كأنَّه قوةٌ على قوةِ ٱلزمن نفسِها.

فاستَجْنِحي يا مدافعَ مصرَ وطِيري. إنَّ ٱلمجدَ يطلبُ مِنَّا إنسانَهُ البرقيّ.

* * *

ولَمَّا فُتِحَ ٱلسِّجِلُّ ذاتَ صباح لِتكتبَ مصرُ أسماءَ ٱلفَوْجِ ٱلأولِ من نُسُورِها ٱلحربيِّين، صاحَ مجدُها ٱلخالدُ من أعماقِ ٱلتاريخ:

«أَضْرمي ٱلشعلةَ ٱلآدميَّةَ الأولى يا مصر، وٱفتحي ٱلقبرَ ٱلجويَّ الأول، وٱلحِدي

(١) استجنحي: اجعلي لنفسك جناحين.

فيهِ من عنصرَيك ٱلمسلمينَ والأقباط، وضَعي ٱلحياةَ في أساسِ ٱلحياة، وٱستقبلي عصرَكِ ٱلجديدَ بأذانِ ٱلمسجدِ ودقِّ ٱلناقوسِ لِيُبارِكَهُ ٱلله، ولْيتلقَّ ٱلشعبُ أولَ طيَّاريهِ بقلوبٍ فيها رُوحُ ٱلمعركةِ، وأكبادٍ عرفَتْ مَسَّ ٱلنار؛ ولا ينظرَنّ إلى طيَّاراتِهِ الأوَلِ إلّا بعدَ أنْ ينظرَ ٱلنعشينِ فيرى مجدَ ٱلموتِ في سبيلِ ٱلوطن، فتسطعَ نظراتُهُ ببريقِ ٱلكِبرياءِ، ولَمعةِ ٱلعزيمةِ، وشُعاعِ الإيمان؛ ويأتَلِقَ فيها النورُ ٱلسماويُّ ٱلذي يجعلُ الناسَ في بعضِ ساعاتِهِم كواكب، نورُ صلاةِ ٱلشعبِ على موتاهُ ٱلشهداء».

* * *

وٱستجابَ ٱلقَدرُ لِصوتِ ٱلمجد، فَٱلتَجَّ(١) ٱلظلامُ في وَضَحِ ٱلصبح، وٱنطفأ سِراجُ في ٱلنهارِ قبةِ ٱلفلك، وأطْبَقَتْ نواحي ٱلجوِّ إطباقَ ليلةٍ تَساقَطَتْ أركانُها وأقبلَ ٱلضبابُ يَعترِضُ ٱعتراضَ جبَلٍ عائم يتَذَبْذَبُ(٢) في بحر، وٱستأرَضَ(٣) ٱلسحابُ فتَخلَّى عن طبيعتِهِ ٱلسماويَّةِ ٱلرقيقةَ، وتذامرَتِ(٤) ٱلعناصرُ على ٱلقِتالِ يَحُضُّ(٥) بعضُها بعضاً، وتغشَّتِ(٦) ٱلسماءُ بوجهِ ٱلموت: كلَّحَ فٱرْبَدَّ(٧) وٱنتفخَ، وتكسَّرَتْ فيهِ ٱلغُضونُ كلُّ غَضنٍ كِسْفَةُ ظلام، وعادَ أوسعُ شيءٍ أضيقَ شيء، فكانَ ٱلفضاءُ كصدرِ ٱلمحتضرِ: ليسَ معهُ إلّا عمْرُ ساعةٍ وأنفاسُها.

وٱبْتَدَرَتْ إلى مجدِ ٱلموتِ ٱلطيَّارةُ ٱلمصريةُ ٱلأولى؛ وكانَ فيها إنكليزيانِ يقودانِها فأباهما ٱلموتُ، فذهَبتْ فٱنتحرتْ أسفاً وتردَّتْ متحطمة، وٱنسلَّ ٱلرجلانِ من مخالبِ ٱلردى(٨)، وكانا في ٱلطيارةِ كورقتينِ مِنَ ٱلنَّبْتِ في فَمِ جَرادةٍ هَمَّتْ تَقْضِمُها...

وتَسْتَبِقُ ٱلثانيةُ فإذا فيها وَديعةُ ٱلكرم من عُنصُري مصرَ: «حجَّاج ودوس» وكانَ سرًّا من أسرارِ مصرَ ٱجتماعُهمَا في مَداحِضِ ٱلغَمام ومزالِقِه، لِيكونا هديَّةَ مصرَ الأولى إلى مجدِها ٱلحربيّ، ثُمَّ لِيكونا هديةَ ٱلمجدِ إلى إحساسِ هذا الشعبِ يُحسُّ منهما ٱلعالَمَ المنطَويَ لَهُ في مستقبلِ ٱلنصر.

واعتسَفَتْ(٩) طيارةُ الشهيدينِ طريقَ ٱلفَناءِ ومتَاهةَ(١٠) ٱلحياة، فذَهَبَتْ عنها

---

(١) التجّ: أصبح لجّة.
(٢) يتذبذب: يتردّد لوجوده في الهواء، ويتحرّك.
(٣) استأرض: تحوّل إلى أرض.
(٤) تذامرت: تداعت للاجتماع.
(٥) يحضّ: يحثّ.
(٦) تغشّت: تغطّت.
(٧) اربدّ: تلبّد.
(٨) الردى: الموت.
(٩) اعتسفت: مالت وخبطت على غير هداية.
(١٠) متاهة: صعوبة الحياة ومتطلباتها.

مَعارِقُ ٱلأرض، وعُمّيَتْ عليها معالِمُ ٱلسماء، وخرجَتْ من تصريفِ أيدي ٱلبطَلينِ إلى تصريفِ أجلِهما، وأصبَحتْ كأنَّها تطيرُ في الأنفاسِ ٱلباقيةِ لهما؛ فما تتقدَّمُ ولا تتأخَّر؛ ولم تكنْ طيارةً تحملُهما، بلْ جناحاً ممدوداً لهما من رحمةِ ٱلله.

ثُمَّ ٱجترَّها ٱلموتُ إلى غوْرٍ، فٱنحطَّتْ مِنَ ٱلهواءِ جانحةً كٱلطائرِ يطلُبُ ملجأً في ٱلعاصفة، ثُمَّ ٱنتهضَتْ واثبةً، وتمطَّرَتْ منقلِبةً، فٱشتعَلتْ فٱستعَرَتْ فأنضجَتْ راكبَيْها، رحِمهُما ٱلله!

وكثيراً ما يكونُ منظرُ ٱلحزنِ في ٱلحياةِ هو ٱنهماكَ ٱلحياةِ في عملٍ جديدٍ تُبدعُ منهُ ٱلسرورَ وٱلقوّة. ٱحترقَ البَطَلانِ لِتتسَلَّمَ مصرُ في نعشيهما رماداً لَنْ يُبْنى تاريخُ ٱلعِزّةِ ٱلوطنيَّةِ إلَّا به.

فٱستجْنِحي يا مدافعَ مصرَ وطِيري. إنَّ ٱلمجدَ يطلبُ منَّا إنسانَهُ البرقيّ.

* * *

صنعَتِ ٱلنارُ الآدميَّةُ ٱلحقيقة، ووضَعتْ لنا ٱلاسمَ ٱلبديعَ ٱلذي نُطلقُهُ على طيَّارينا ٱلأبطال، فلا تُسَمُّوهم نُسُورَ ٱلجوّ، ولكنْ سمّوهم «جَمَراتِ ٱلجوّ».

صنعَتِ نارُنا ٱلحقيقة، وأوحَتْ إلينا أنْ نستبدلَ من أنفسِنا حالةً بحالةٍ، وأنْ نُفاجىءَ شعورَنا ٱلحالمَ فنصدمَهُ بآلامِ ٱليقَظةِ ٱلمرّة، وأنْ نغيِّرَ قاعدةَ ٱلحياةِ في ٱلتربيةِ ٱلمصريةِ فلا تكون: ٱلعيشَ ٱلعيش، ولكنِ ٱلقوَّةَ ٱلقوَّة.

صنَعتِ ٱلنارُ ٱلحقيقة، وأثبتَتْ لنا أنَّ ٱلحياةَ إنْ هي إلَّا أداةٌ لِلحيّ، وليسَ ٱلحيُّ أداةً لِلحياة، فَلْيتصرَّفْ بها على قوانينِ ٱلروحِ وآمالِها فيسمُوَ وتسمو، ولا يَدَعْها تتصرفُ على مذاهبِ أقدارِ ٱلمادةِ وتصاريفِها فيُذلَّها وتُذلَّه. وفي قانونِ ٱلروح: لا قيمةَ لِعالَمِ ٱلأشياءِ إلَّا كما تَصْلُحُ لنا؛ وفي قانونِ ٱلمادَّةِ وضَغْطَةِ ٱلحياة: كما تَصْلُحُ لنا وكما نَصلُحُ لها...

بَلَى، قد صنعَتِ ٱلنارُ الآدميَّةُ ٱلحقيقةَ، وأعطتْنا قصةَ ٱلحريَّةِ كاملةً في معنًى واحد: وهو أنَّ هذه ٱلحريَّةَ لِعاشقيها كأجملِ ٱلجميلاتِ لِلمتنافِسينَ عليها: جمالُها متوحِّش، وخَلَاعتُها مُفْترِسة، وظَرْفُها سَفَّاكٌ لِلدم.

فٱستجنْحِي يا مدافعَ مصرَ وطيري. إنَّ ٱلمجدَ يطلبُ منَّا إنسانَهُ البرقيّ.

* * *

وإلى السماءِ يا «جمَراتِ الجوّ»، فإذا ٱستويتُم[1] على ٱلسحاب، فليسَتِ ٱلطيَّارةُ ثَمَّ طيَّارةً، بلْ حقيقةً حيةً عاملةً لِلمجد، فلْتحملْ معناها ٱلمصريَّ من بطَلِها ٱلمصريّ.

وإذا سبحْتم في مَهْبِط ٱلقدَر، فليسَ ٱلطيّارُ ثَمَّ طياراً، بل حياةً عبقريَّةً أرسلَتْها مصرُ تستنزلُ لِلحياةِ أقداراً سعيدة.

وإذا خُضتُمْ في ٱلمعْرَكِ ٱلضَّنْكِ[2] تتبعثَرُ فيهِ ٱلآجالُ على الرياح، فليسَ ٱلجسمُ المصريُّ هناك من لحم ودم، بلْ ناموساً طبيعيًّا ماضياً إلى غاية.

وإذا تَقَاذَفْتُم في بحر ٱلشمس، فأنتم هناك على شِباكٍ طرحْتُموها لِصيدِ أيامٍ مضيئةٍ تلتمِعُ في تاريخِ مصر.

وإذا نفذْتُم من أقطارِ ٱلسماوات، فٱنظروها بأعينِكم معاليَ مصر، وٱفهموها بقلوبِكم ذاتيةَ ٱلوطنِ المِصريِّ تعلو وتعلو ولا تزالُ أبداً تعلو.

إنَّما الطيَّارةُ وسلاحُها وطيَّارُها تأليفٌ مِنَ ٱلإنسانيَّةِ وٱلعناصِر، معناهُ في ٱلعزيمةِ «لا بدَّ». ومتى هَدَرَتِ ٱلطيارةُ هَديرَها فإنَّما تقولُ للبطلِ منكم: هَلُمَّ من عالٍ إلى أعلى، إلى أكثرَ علوًّا، إلى أقصى حدودِ الواجبِ على النفسِ حينَ يأخذُ ٱلواجبُ ٱلكلّ وحينَ تُعطي ٱلنفسُ ٱلكلَّ.

فٱستجْنحي يا مدافعَ مصرَ وطيري. إنَّ ٱلمجدَ يطلبُ منَّا إنسانَهُ البرقيّ.

---

(١) استويتم: ركبتم.

(٢) الضّنك: ضيق العيش.

الطماطمُ ٱلسياسي...

كانَ (م: باشا رحمَهُ ٱللَّهُ ـ داهيةَ من دُهاةِ ٱلسياسةِ ٱلمصريَّة، يلتوي مرةً في يدِها ٱلتواءَ ٱلحبل، ويستوي في يدِها مرةً ٱستواءَ ٱلسيف، ولا يُرى أبداً إلّا منكمِشاً مُتَحرِّزاً[1] كأنَّ له عدوًّا لا يدري أين هو ولا متى يقتحِمُ عليه، ولكنَّه كغيرِهِ مِنَ ٱلرؤساءِ ٱلذين كانوا آلاتٍ لِلكذِبِ بينَ طالبِ ٱلحقِّ وغاصبِ ٱلحقّ ـ يعرفُ أنَّ عدوَّهُ كامنٌ في أعمالِهِ.

وكان ذكيًّا أريباً[2]، غيرَ أنَّ مُلابَسَتَهُ لِلسياسةِ ٱلدائرةِ على مِحورِها، جعلَتْ نصفَ ذكائِهِ مِنَ ٱلذكاءِ ونصفَهُ مِنَ ٱلمكر؛ فكانَ في مُراوغتِهِ كأنَّ لَهُ ثلاثةَ عقول: أحدُها مصريّ، وٱلآخرُ إنجليزيّ، وٱلثالثُ خارجٌ مِنَ ٱلحالين.

وبهذا تقدَّمَ وعاشَ أثيراً عندَ ٱلرؤساءِ مِنَ ٱلإنجليز، وٱستمرَّتْ مجاريهِ مُطَّرِدةً[3] لديهم حتى بلغوا بِهِ إلى ٱلوزارة، إذْ كانَ حَسَنَ ٱلفهْم عنهم، سريعَ ٱلاستجابةِ إليهم؛ يفهمُ معنى ألفاظِهم، ومعنى ٱلنيَّةِ ٱلتي تكونُ وراءَ ألفاظِهم، ومعنًى آخرَ يتبرعُ هو بِهِ لِألفاظِهم... فكانَ هو وأمثالُهُ في رأي تلك ٱلسياسةِ ٱلقديمة، رجالاً كالأفكار: يُوضعُ أحدُهم في مكانِهِ مِنَ ٱلحكمِ كما تُوضعُ صِيغةُ ٱلشكِّ لإفسادِ ٱليقين، أو صِيغةُ ٱلوهمِ لِتوليدِ ٱلخيال، أو صِيغةُ ٱلهوى لإيجادِ ٱلفِتنة.

***

وكانَ صديقي (فلانٌ) ـ رحمَهُ ٱللَّهُ ـ صاحبَ سِرِّهِ (السكرتير)، وقدْ وَثِقَ بِهِ ٱلباشا حتى إنَّهُ كانَ يُعالِنُهُ[4] بما في نفسِه، ويبثُّهُ[5] همومَهُ وأحزانَه، ويرى فيهِ دنيا حرَّةً يخرجُ إليها كلَّما ضاقَتْ بِهِ دنيا وظيفتِهِ، ويستعيرُ منهُ ٱليقينَ أحياناً بِأنَّهُ لا يزالُ مِصريًّا لم يتمَّ بعدُ تحويلُهُ في ٱلكرسي...

---

(١) متحرّزاً: محترساً.

(٢) أريباً: ذكياً.

(٣) مطّردة: متدافعة متوالية.

(٤) يعالنه: يطلعه على ما في نفسه.

(٥) يبثه: يشكو له ما يعانيه.

فحدَّثني ٱلصديقُ بعدَ موتِ هذا الباشا قال: إنَّهُ دعاهُ يوماً لِيُفَاتِحَهُ ٱلرأيَ في أمرٍ من أمورهِ، ثُمَّ قالَ له: إنَّ الرئيسَ ٱلإنجليزيَّ غيرُ مطمئنٍ إليكَ لِأنَّ حقيقةً مِنَ ٱلحقائقِ ٱلصريحةِ ظاهرةٌ على وجهِك، فأنت تنظرُ إليهِ وكأنَّكَ تقولُ لَهُ بعينيكَ إنَّكَ مصريٌّ مستقل.

قالَ صاحبُ ٱلسرّ: لَئِنْ كانَ ذلك ما يُغضِبُهُ إنَّ ٱلخطْبَ لَهيِّن، فلسْتُ أنظرُ إليهِ بعدَ ٱليومِ إلَّا من وراءِ نظَّارةٍ سوداء...

فضحكَ الباشا وقال: يا بُنيَّ، هذا ٱلإنجليزيُّ عندَنا كٱلشيطان: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾، وواللّهِ يا بُنيَّ إنِّي لَأشدُّ أنفةً منك، وإنَّ صدري لَشَجِيٌّ[1] مِمَّا أنا فيهِ من هذا ٱلكرْب[2]، ولكنَّنا ـ نحن ٱلشرقيينَ ـ قد ضِعْنا منذُ فقدْنَا ٱلشخصيَّةَ ٱلاجتماعيَّة.

أتُراكَ تفهمُ شيئاً لو قلْتُ لك: رجلٌ، أسد، جبلٌ، مدينةٌ، أسطول؟ إنَّ تركيبَنا ٱلاجتماعيَّ شيءٌ كهذا ٱلكلام: فيهِ من ضخامةِ ٱللفظِ بقدرِ ما فيهِ مِنِ ٱنحلالِ ٱلمعنى وٱضمحلالِه. ولِكلِّ كلمةٍ إذا أُفردَتْ معنًى صحيحٌ يقومُ بها وتقومُ بهِ، غيرَ أنَّهُ يتحوَّلُ في ٱلجملةِ إلى معنًى كَلَا معنى.

أصبحَ ٱلشرقيُّ يعيشُ في أُمَّتِهِ على قاعدةِ أنَّهُ منفردٌ لا صِلةَ بينَهُ وبينَ ٱلأطرافِ لا في ٱلزمانِ ولا في ٱلمكان، ونَسِيَ معنى ٱلحديثِ ٱلشريف: «إعملْ لِدنياكَ كأنَّكَ تعيشُ أبداً». فماذا كانَ يُريدُ أعظمُ ٱلمصلحينَ ٱلاجتماعيينَ من قوله: «كأنَّك تعيش أبداً»؟ إلَّا أنْ يُقرِّرَ لِأُمَّتِهِ أنَّ ٱلفردَ ينبوعُ ٱلأجيالِ ٱلمُقبلةِ كلِّها، فلْيعملْ لَها ولِنفسِهِ كأنَّها موقوفةٌ عليهِ وكأنَّهُ مستمرٌّ فيها.

هذه حِكمةٌ إسلاميَّةٌ دقيقةٌ، عندَنا نحن لَفظُها ولسْنَا نعرفُ معناها، وعندَ ٱلإنجليزِ معناها ولا يعرفون لَفظَها. أهُمُ ٱلمسلمون أم نحن؟

وعلى قاعدةِ ٱلانفرادِ ٱنفردَ كلُّ شيء؛ فآثَرَ ٱلشرقيُّ حياتَهُ على وطنِه، وقدَّمَ لَذَّتَهُ على واجبِه، وتعامَلَ بالمالِ في مواضعِ ٱلمُعاملةِ بالأخلاق؛ وكانَ طبيعيًا مع هذا أنْ يَختصِرَ ٱلدينَ ٱختصاراً يجعلُهُ مِقداراً بينَ مقدارين، فلا هو دينٌ ولا هو غيرُ دين؛ وبذلك يُناسبُ فرديتَهُ ويقعدُ تحتَ حُكمِهِ وهو خارجٌ عليه؛ فترى ٱلرجلَ من

---

(١) شجي: حزين.   (٢) الكرب: الضيق.

هذه ٱلملايينِ يؤمنُ بٱللَّهِ وهو يَحلِفُ بهِ كَذِباً على درهم، ويُصلّي ويَفْجُرُ في يومٍ واحد، ويتعبَّدُ في نفسِهِ ويخونُ سِواهُ في وقتٍ معاً.

ومتى كانتِ ٱلحالةُ ٱلنفسيَّةُ لِلأُمَّةِ هي هذه ٱلفردية ومصالحَها ودواعيَها، كانَ ٱلكذِبُ أظهرَ خِلالِ هذه الأمَّة، إذْ هو ٱنفرادُ ٱلكاذبِ بحظِّهِ ومصلحتِهِ وداعيتِهِ؛ ولا يكذبُ عليك إلَّا مَنْ يرجو أنْ تكونَ مغفَّلاً، أو من قدَّرَ في نفسِهِ أنَّ المعاملةَ ٱلعامَّةَ في ٱلأمَّةِ هي على قاعدةِ ٱلمغفلين.. ويكذبونَ في هذا أيضاً فيُسمونَهُ حِذاقاً وبراعةً (وشطارة).

وإذا عَمَّ ٱلكَذِبُ فشا منهُ ٱلهَزْل؛ فكلُّ كاذبٍ هازل، وهلْ يَجِدُّ ٱلكاذبُ وهو يكذبُ إلَّا إذا كانَ مجنوناً؟ ومنَ ٱلهَزلِ ضَرْبٌ هوَ ٱلمباسطةُ بٱلكذب، ومنه ضرْبٌ من كذبِ ٱلحقائق، ومنه مِنْ كذبِ ٱلخيال، وكيفما دارتِ ٱلحالُ لا تجدُهُ إلَّا كذباً.

ومتى صارَ ٱلكذِبُ أصلاً يعْمَلُ عليه، تقرَّرَ عندَ ٱلناسِ أنَّ ٱلكلامَ إنَّما يُقالُ لِيُقالَ فقط. أفلسْتَ ترى ٱلرجُلينِ إذا أخبرَ أحدُهما صاحِبَهُ بالخبرِ فيهِ شيءٌ مِنَ ٱلغرابةِ أوِ ٱلبعد، لا يكلِّمُهُ ٱلآخَرُ أولَ ما يتكلَّمُ إلَّا أنْ يسألَهُ: صحيح؟ صدق؟

ولا أضرَّ على ٱلأُمَّةِ من هذه ٱلعقيدة ـ عقيدةِ أنَّ الكلام يُقالُ لِيُقالَ فقط ـ فإنَّها هي طابَعُ ٱلهَزلِ على أخلاقِ ٱلأُمَّة، وعلى كلِّ أحوالِها، وعلى حكومتِها أيضاً.

ومِنَ ٱلهَزلِ وٱلكذبِ ترانا مبالغينَ في كلِّ شيء، حتى لَيكونُ لنا ٱلواحدُ كالآحادِ في غيرِنا فنجعلُهُ مائةً بصِفْرين، نجيءُ بأحدِهِما منِ ٱعتيادِ ٱلكذبِ على ٱلحقيقة، ونجيءُ بالآخَرِ من حقيقةِ إفلاسِنا.

هذه مبالغةٌ خطِرة، وأخطرُ ما فيها أنَّنا بها نُريدُ ٱلمبالغةَ في ٱلدَّلالةِ على ٱلأشياء، فتنقلبُ مبالغةً في ٱلدلالةِ علينا نحن، وعلى كَذِبِ طِباعِنا، وعلى فَوضى ٱلعقْلِ فينا. نعم وحتى تُثبتُ أنَّنا لا عزْمَ لنا، من كونِها مبالغةً لا تدقيقَ في معناها؛ وأنْ لا صبرَ لنا، من أنَّها لاثباتَ لِحقيقتِها ٱلمهزومة؛ وأنْ لا شِدَّةَ لنا في طلبِ ٱلحقّ، لأنَّنا بها من أهلِ ٱلغفلةِ في وصفِ ٱلحقّ؛ وأنَّنا لا نتمثلُ ٱلعواقبَ إذْ نُرسلُ ٱلكلامَ إرسالاً ولا نخشى ما يكونُ من عاقبتِه.

وأيسرُ ما يُفهمُ من هذه ٱلمبالغاتِ ٱلتي أصبحَتْ طريقةً من طرقِ ٱلشعبِ في ٱلتعبير، أنَّ هذا ٱلشعبَ لا يصلحُ في شيءٍ إلَّا بالحُكُومةِ، فهو نفسُهُ كٱلمبالغة، وٱلحكومةُ لَهُ كالتصحيح؛ وهذه هي ٱلعِلَّةُ في أنَّ ٱلشعبَ ٱلكذوبَ يلجأُ إلى حُكومتِهِ

في كلِّ كبيرةٍ وصغيرةٍ في ٱلعمل، كما أنَّها هيَ ٱلعِلَّةُ في أنَّ حُكومتَهُ تُكذِّبُ عليهِ بكلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ في ٱلسياسة.

ومن أثرِ ٱلكذبِ ٱلشعبيّ وٱلمُبالغةِ ٱلشعبيَّة، ما نراهُ مِنِ ٱهتمامِ كلِّ فردٍ بِمَا يقولُ ٱلناسُ عن أعمالِه، فيُديرُها على ذلك وإنْ قلَّتْ منفعتُها، وإنْ فَسَدتْ حقيقتُها، وإنْ جَلَبَتْ عليهِ مِنَ ٱلضررِ في مالِهِ ونفسِهِ ما هي جالبة؛ فقاعدتُهم هي هذه: ليسَ ٱلشأنُ في ٱلحياةِ لِلعملِ في نفسِه، ولكنْ فيما يُقالُ عنه؛ فإنْ لم يُقَلْ شيءٌ فلا تعملْ شيئاً...

هذه يا بُنيَّ أمَّةٌ لا يكونُ حكَّامُها إلَّا مبالغاتٍ أيضاً...

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرّ: وٱرتفعَ مِنَ ٱلطريقِ صوتُ بائعٍ يُنادي على سِلعتِه: أحسنُ مِنَ ٱلتفَّاحِ يا طماطم..

فضحكَ الباشا وقال: هكذا يقولون لنا عنِ ٱلطماطمِ السياسيِّ ٱلعَفِن: إنَّهُ ليسَ تفاحاً وحَسْبُ، بلْ هو أحسنُ مِنَ ٱلتفاح..

إنَّ ٱلأُمَّةَ لنْ تكونَ في موضعِها إلَّا إذا وضعَتِ ٱلكلمةَ في موضعِها، وإنَّ أولَ ما يدلُّ على صِحَّةِ ٱلأخلاقِ في أُمَّةٍ كلمةُ ٱلصدقِ فيها، وٱلأُمَّةُ ٱلتي لا يحكمُها ٱلصدقُ لا تكونُ معها كلُّ مظاهرِ ٱلحُكْمِ إلَّا كَذِباً وهَزْلاً ومُبالغة.

البك والباشا

وحدثني صاحبُ سرِّ (م) باشا قال: جاءَ يوماً إلى زيارةِ ٱلباشا رجلٌ دخلَ عليَّ متهلِّلاً مُشْرِقَ ٱلوجهِ كأنَّهُ مُضاءٌ من داخلِهِ بشمعة... ويترنَّحُ عِطْفاهُ كأنَّما تهزُّه أسرارُ عظَمتِه؛ ويمشي متخلِّعاً كٱلمرأةِ ٱلجميلةِ ٱلتي أثقلَها لَحمُها وأثقلَتْها ٱلمعاني ٱلكثيرةُ من أعينِ ٱلناظرينَ إليها، وعلى شفتيهِ خيَالٌ من فكرةِ هؤلاءِ ٱلكُبراءِ ٱلمغرورينَ ٱلذينَ لا يأمرُ أحدُهم رجلاً صغيراً إلَّا ليُعْلِمَهُ أنَّهُ هو كبير، فيكونُ في ٱلأمرِ شيئان: الأمرُ واللؤم؛ وأقبلَ عليَّ في هيئةٍ شامخةٍ لو نطَقَتْ لَقالَت: سَبِّحِ ٱسمَ ربِّكَ ٱلأعلى. سبِّحِ ٱللَّهَ ٱلذي خلقَ في ٱلأسَدِ شعرةً جبَّارةً خرجَ منها ٱلأسَدُ كلُّهُ.

سُبحانَ ٱللَّهِ ولا إلهَ إلَّا ٱلله. هذا (فلان باشا) ٱلذي قرأْتُ في ٱلصحفِ أمسِ أنَّهم أنعموا عليهِ برتبةِ ٱلباشوية؛ خلقَهُ ٱللَّهُ من ترابٍ وحوَّلَتِ ٱلرتبةُ هذا ٱلترابَ الذي فيهِ إلى ذهبٍ خالص... ينظرُ إليَّ وبرغْمِهِ أنْ تَقِفَ عيناهُ عليَّ وعلى ٱلحائط؛ ولا تجدُ نفسُهُ ٱلمزهوَّةُ سبيلاً إلى التعبيرِ عنِ ٱلرتبةِ إلَّا هذا ٱلازدراءَ ٱلمنبعثَ من شخصِهِ ٱلعظيمِ لِمنْ لم يكُنْ كشخصِه. ما بينَ أمسِ وٱليومِ زادَ هذه ٱلزيادةَ الآدميَّة، أو كأنَّما كانَتْ صورتُهُ خُطوطاً فقطْ فوُضِعَتْ فيها ٱلألوان...

(باشا)! هذه ٱلباءُ وهذه ٱلألفُ وهذه ٱلشينُ ٱلممدودةُ ليسَتْ حروفاً خارجةً مِنَ ٱلأبجدية ٱلعامَّة؛ فإنَّ ٱلأبجديةَ قد تجعلُ ٱلباءَ في بليدٍ مثلاً، وٱلألفَ في أبله، وٱلشينَ ٱلممدودةَ في شاهدِ زُورٍ مثلاً مثلاً... بلْ تلك حروفٌ من حروفِ ٱلدولة، منتزعةٌ من قوَّةٍ قادرةٍ على أنْ تجعلَ لِحياةِ صاحبِها مِنَ ٱلشكلِ ما يُسْبِغُهُ ٱلفنُّ على ٱلحجَرِ من شكلِ تِمثالٍ يُنْصَبُ لِلتعظيم.

قال: وكنْتُ أعرفُ هذا الرجل، وهو رجلٌ أميٌّ لا يُحسنُ إلَّا كتابَةَ ٱسمِهِ كما تكتبُ ٱلدَّجاجةُ في ٱلأرض... فكانَتِ ٱلرتبةُ عليهِ كإطلاقِ لفظِ ٱلحديقةِ على صخرةٍ مِنَ ٱلصخورِ ٱلصَّلْدة؛ وهذا مِمَّا يحتملُهُ ٱلمجازُ بَعلاقةٍ ما؛ ولكنَّ ٱلذي لا يَسُوغُ في ٱلمجاز، ولا في مبالغاتِ ٱلاستعارة، ولا في خُرافاتِ ٱلمستحيلِ، أنْ

تزعمَ ٱلصخرةُ لِلناسِ أنَّ لفظَ ٱلحديقةِ ٱلذي أُطلِقَ عليها قد أنبَتَ فيها أشجارَ ٱلحديقة . . .

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرّ : وٱستأذنْتُ لَهُ على ٱلباشا فسهَّلَ لَهُ ٱلإذنَ وقال : هذا رجلٌ أصبحَ كالورقةِ ٱلمبصومةِ بخاتَمِ ٱلدولة ، فَلْتكُنْ ما هي كائنةٌ فإنَّ لها ٱعتبارَها . ثُمَّ تلقَّاهُ تلقِّيَ ٱلهازلِ ٱلمتهكِّمِ وقالَ لَه : أهنئُكَ بٱلنَّحْوِي . . . مُبارَكون يا باشا . وأقبلَ عليهِ وبَسَطَ لَهُ وجهَه .

وكانَ في ٱلباشا دُعابةٌ ظريفةٌ يُعرفُ بها ، وهو كثيرُ ٱلنوادرِ وٱلمُلَح ، ولَهُ خَصِيصةٌ عجيبةٌ ، فيكونُ بينَ يديهِ كُدْسٌ مِنَ ٱلأوراقِ ٱلتي تُعرضُ عليهِ ينظرُ فيها ويقرؤُها ويتدبَّرُها ، وهو في ذلك يستمعُ إلى محدِّثِهِ ويُراجعُهُ ويردُّ عليه ، فيُصرِّفُ ٱلناسَ وٱلأوراقَ في وقتٍ واحد ، ويستعملُ ناحيتينِ من فكرهِ ٱستعمالاً واحداً لا يُخِلُّ بالإصابةِ[1] في شيءٍ من هذه ولا من تلك .

ثُمَّ قالَ لِلباشا ٱلحديثِ وعينُهُ إلى ما بينَ يديه : هذه أوراقُ سرقةِ ثورٍ عظيم ، فكم يُساوي ٱلثورُ ٱلعظيمُ الآن . . . ؟

قالَ صاحبُنا ٱلذكيُّ ٱلفَطِن : إذا كانَ مِنَ ٱلثيرانِ ٱلتي تُعرضُ في ٱلمعارضِ وتنالُ ٱلمدالياتِ ٱلذهبيةَ فقدْ يَبْعُدُ سعرُهُ ويُغَالَى بِهِ .

قالَ الباشا : نعم نعم ، إنَّ مِنَ ٱلثيران ثيراناً يُنْعَمُ عليها بالأوسمة ، ولكنَّ هذا ٱلثور الذي سألْتُك عنهُ يا باشا هو ثورُ محراثٍ لا ثَورُ معرض . . .

قالَ ٱلآخر : إذا كانَ ثورَ مِحراثٍ فمثلُهُ كثيرٌ فلا يكونُ ثوراً عظيماً كما قلْتَ وليسَتْ لهُ إلَّا قيمةُ مثلِه .

قالَ ٱلباشا : أراني أخطأت ، ولعَنَ ٱللَّهُ ٱلعَجَلة ، فهذه أوراقُ سرقةِ حمار !

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرّ : وٱنصرفْتُ عنهما بأوراقي ، وقد رأيْتُ يدَ ٱلباشا مملوءةً لِصاحبنا بتحيَّاتٍ كلُّها صفَعَات ؛ فلم يكنْ إلَّا يسيرٌ حتى خرجَ مبتهجاً يَميدُ ٱلسرورُ بعِطْفيه . ثُمَّ دعاني ٱلباشا ودفَع إليَّ بِطاقةً بٱلحاجةِ ٱلتي جاءَ فيها ٱلرجل ، ثُمَّ قال :

---

(١) لا يخلّ بالإصابة : لا يخطىء .

يا ليت لنا في ألقابِ ٱلدولةِ لقبَ (رحمَه الله)... يُنْعَمُ بِهِ على مثلِ هذا.
أتدري يا بُنيَّ أنَّ هذهِ ٱلرتَبَ وهذه ٱلألقابَ لم تكنْ في القديم إلَّا كوضعِ علامةِ ٱلشرِّ على أهلِ ٱلشرِّ لِيهابَهُمُ[1] ٱلناسُ، حتى كأنَّما يُكْتَبُ على أحدِهم من لَقَبِ بك أو باشا: مُلْحَقٌ بالدولة...

وكانَ ٱلشعبُ أميًّا جاهلاً لا يستطيعُ ٱلإدراكَ ولا يُحسنُ ٱلتمييز، فكانَتِ ٱلألقابُ كٱلقوانينِ ٱلشخصيةِ ٱلموضوعةِ في صيغةٍ موجزَةٍ مفهومةٍ متعيِّنةِ ٱلدِّلالة، وكانَ كلُّ مَنْ يحملُ لقباً مِنَ ٱلحكومةِ يستطيعُ أنْ يقولَ للناس: لقد وضعَتِ ٱلحكومةُ كلمةَ ٱلأمرِ في شفتيّ...

وكأنَّ ٱللقبَ إعلانٌ مِنَ ٱلحكومةِ ٱلمستبِدَّةِ لِشَعبِها ٱلجاهل: إنَّ هذا البك والباشا مَنْ يحقُّ لَهُ أنْ يُحترم.

مِنَ ٱلهزْلِ أنْ يُشترى ٱسمُ ٱلنصرِ ٱلحربيِّ أو يُوهَبَ أو يُعار؛ وأقبحُ منه في بابِ ٱلهزْلِ أنْ يُنعمَ على مثلِ هذا الأميِّ بلقبِ باشا. وأنا أعرفُ أنَّهُ قد بَذَلَ في سبيلِهِ ما بَذَل، وأضاعَ ما أضاع، فكأنَّ ٱلذين مَنحُوهُ إيَّاهُ لم يفعلوا شيئاً إلَّا وضعَ توقيعِهِم على أخْذِ ٱلثمن.

ولقدْ أصبحَ ٱلرجلُ تحتَ تأثيرِ ٱلكلمةِ ٱلعظيمةِ مخبولاً بسحْرِها ٱلوهميّ، فحسِبَ ذلك إدخالاً لَهُ في وظيفةِ كلِّ حاكم، وإشراكاً لَهُ في ٱلحكمِ متى ٱقتضتْهُ مجاري أمورِهِ وأحوالِهِ، أو حاجاتُ أسبابِهِ وأتباعه؛ وها هو ذا قد جاءَ يطلبُ حقَّه، فإنَّ مثلَهُ لا يفهمُ من لقبِ (باشا) إلَّا أنَّ ٱلحكومةَ قد سوَّغَتْ سلطتَهُ ٱلظهورَ وٱلعملَ، فمدَّتْ باعَهُ وقوَّتْ أمرَهُ ونوَّهَتْ[2] بٱسمِهِ لِمصالِحِها وعُمَّالها؛ فهو عندَ نفسِهِ قدِ ٱلْتَحَمَ منذُ ٱليومِ بالنسبِ ٱلحكوميّ، وفي كلمةٍ واحدة، هو قدْ وُلِدَ من بطنِ ٱلحكومة...

ألا ترى أنَّ ٱلشعبَ لَوِ ٱستردَّ سُلْطَتَهُ ٱلكاملةَ، وأنَّ ٱلناسَ لو أيقنوا أنَّ ٱلألقابَ ألفاظٌ فارغةٌ مِنَ ٱلأمرِ وٱلنهي وٱلوسيلةِ وٱلشفاعةِ، لَمَا بقيَ مَنْ يعبأُ بها، ولَكانَ حاملُها هو أولَ مَنْ يسخرُ منها؟

فهي إذن شَعْبَذَةٌ[3] مِنَ ٱلحكومةِ وتضليلٌ في مثلِ هذا ٱلرجلِ الأميّ، وهي

---

(١) يهاب: يخاف.
(٢) نوّه: دلّ على فضله.
(٣) الشعبذة: الشعوذة والدجل.

ضربٌ مِنَ ٱلتهويلِ وٱلمُبالغةِ في سواهُ مِنَ ٱلكُبراءِ وٱلعُظماء، كأنَّ ٱلوزيرَ ٱلذي يُلقَّبُ بالباشا، يجعلُ فيه لقبُهُ وزيرين، وكأنَّ مثلَ هذا ٱلأميِّ ٱلمغفَّل، يجعلُ فيهِ لقبُهُ شخصاً، آخرَ غيرَ ٱلأميِّ ٱلمغفّل..

أنا قلَّما رأيتُ رجلاً يحتاجُ إلى ألقابٍ يتعظَّمُ بها إلَّا وهو لا يحتاجُ إليها؛ فأينَ يكونُ موضعُ هذِهِ ٱلرتبِ وٱلألقاب؟

ساكنو ٱلثياب..

قالَ صاحبُ سرِّ (م) باشا: وجاءني يوماً ٱثنانِ من شيوخِ ٱلدينِ من ذَوِي هيئاتِهم وأصحابِ ٱلمنزلةِ فيهم، كلاهما هامَةٌ وقَامَة، وجُبَّةٌ وعِمامة، ودَرجةٌ مِنَ ٱلإمامة؛ ولهما نسيمٌ يَنفحُ عِطْراً حَسِبتُهُ من تَرويحِ أجنحةِ ٱلملائكة؛ وعليهما مِنَ ٱلوقارِ كظلِّ ٱلشجرةِ ٱلخضراءِ في لَهَبِ ٱلشمسِ تفيءُ بِهِ يَمْنةً ويَسْرةً. فتوجَّهْتُ إليهما بنظري، وأقبلْتُ عليهما بنفسي، ووضعْتُ حواسّي كلَّها في خدمتِهما؛ وقلْتُ: هؤلاءِ هم رجالُ ٱلقانونِ ٱلذي مادتُهُ ٱلأولى ٱلقلْب.

ما أسخفَ ٱلحياةَ لولا أنَّها تدلُّ على شرفِها وقَدْرِها ببعضِ ٱلأحياءِ ٱلذين نراهم في عالمِ ٱلترابِ كأنَّ مادتَهم مِنَ ٱلسُّحُب، فيها لِغيرِهِمُ ٱلظلُّ وٱلماءُ وٱلنسيم، وفيها لِأنفسِهِمُ ٱلطهارةُ وٱلعلوُّ وٱلجمال؛ يُثبتونَ لِلضعفاءِ أنَّ غيرَ ٱلمُمكنِ ممكنٌ بِٱلفعل، إذْ لا يرى ٱلناسُ في تركيبِ طِباعِهِم إلَّا ٱلإخلاصَ وإنْ كانَ حِرماناً، وإلَّا ٱلمروءةَ وإنْ كانَتْ مَشَقة، وإلَّا محبةَ ٱلإنسانيَّةِ وإنْ كانَتْ ألماً، وإلَّا ٱلجدَّ وإنْ كانَ عنَاء، وإلَّا ٱلقناعةَ وإنْ كانَتْ فقراً.

هؤلاءِ قومٌ يؤلَّفونَ بيدِ ٱلقدرة، فهم كالكتبِ قدِ ٱنطوتْ على حقائِقِها وخُتِمَتْ كما وُضِعَتْ، لا تستطيعُ أنْ تُخرجَ لِلناسِ من حقيقةٍ نصفَ حقيقةٍ ولا شِبهَ حقيقةٍ ولا تزويراً على حقيقة.

وما أعجبَ أمرَ هذهِ ٱلحياةِ ٱلإنسانيةِ ٱلقائمةِ على ٱلنواميسِ[1] ٱلاقتصاديَّة! فٱلسماءُ نفسُها تحتاجُ فيها إلى سماسرةٍ لِعرْضِ ٱلجنَّةِ على ٱلناسِ بالثمنِ ٱلذي يملكُهُ كلُّ إنسانٍ وهوَ ٱلعملُ ٱلطيِّب.

قال: ونظرْتُ إلى ٱلشيخينِ على ٱعتبارِ أنَّها من بقيةِ ٱلنبوَّةِ ٱلعاملةِ فيها شريعةُ نفسِها. تلك ٱلشريعةُ ٱلتي لا تتغيَّرُ ولا تتبدَّلُ كيلا يتغيَّرَ ٱلناسُ ولا يتبدَّلوا. ثُمَّ سألْتُهما عن حاجتِهما، فإذا أحدُ هما قد عملَ أبياتاً مِنَ ٱلشعرِ جاءَ يمدحُ بها ٱلباشا

---

(١) النواميس، مفرده ناموس وهو القانون.

لِيزدلِفَ إليه؛ فقلْتُ في نفسي: «ما أشبَهَ حَجَلَ ٱلجبالِ بألوانِ صخرِها!» هذا عالِمُ دنيا يحدُّها مِنَ ٱلشرقِ ٱلرغيفُ، ومِنَ ٱلغربِ ٱلدينار، ومنَ ٱلشِّمالِ ٱلجاه، ومِنَ ٱلجنوبِ ٱلشيطان . . .

ثُمَّ نَشَرَ ورقةً في يدِهِ وأخذَ يَسْرُدُ[1] عَلَيَّ ٱلقصيدةَ، وهي على رَوِيّ ٱلهاء، تنتهي أبياتها: ها. ها. ها. فكانَ يقرؤُها شعراً ـ أو كما يُسميهِ هو شعراً ـ وكنْتُ أسمعُها أنا قهقهةً مِنَ ٱلشيطانِ ٱلذي رَكِبَ أكتافَ هذا العالمِ ٱلدينيّ: ها. ها. ها. ها. . .

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرِّ: وأدخلْتُهما على ٱلباشا، فوقفَ ٱلمدَّاحُ يمدحُ بقصيدتِهِ، وأخذَتْ لِحيتُهُ ٱلوافرةُ تهتزُّ في إنشادِهِ كأنَّها مِنْفَضَةٌ ينفُضُ بها ٱلملَلَ عن عواطفِ ٱلباشا. . وكانَ لِلآخر صمتٌ عاملٌ في نفسِهِ كصمتِ ٱلطبيعةِ حينَ تَنْفَطِرُ[2] البذرةُ في داخلِها، إذْ كانَتِ ٱلحاجةُ حاجتَه هو، وإنَّما جاءَ بِصاحبِهِ رافِداً وظَهيراً يحملُ ٱلشمسَ وٱلقمرَ وٱلليثَ وٱلغَيثَ، لِتتقلَّبَ ٱلأشياءُ حولَ ٱلممدوحِ فيأخذَهُ ٱلسحر، فيكونَ جوابُ ٱلشمسِ على هذه ٱللغةِ أنْ تُضيءَ يومَ ٱلشيخ، وجوابُ ٱلقمرِ أنْ يملأَ ظلامَه، وجوابُ ٱلليثِ أنْ يفترِسَ عدوَّه، وجوابُ ٱلغيثِ أنْ يَهْطِلَ على أرضِه.

وٱلباشا لا يدعُ[3] ظَرفَهُ ودُعابتَه، وكانَ قد لمحَ في أشداقِ ٱلعالمِ ٱلمتشاعرِ أسناناً صناعية، فلمَّا فرغَ من نظمِهِ ٱلركيكِ قالَ لهَ: يا أستاذ، أحسبُني لَا أكونُ إلَّا كاذباً إذا قلْتُ لك: لا فُضَّ فوك.

ثُمَّ ذكرَ ٱلآخرُ حاجتَه: وهي رجاؤُهُ أنْ يكونَ عمدةُ ٱلقريةِ من ذوي قرَابتِهِ لا من ذوي عداوتِهِ. فقالَ لهُ الباشا: ولِقريتِكم أيضاً أبو جَهْل. . .؟

* * *

ولَمَّا ٱنصرفا قالَ ليَ ٱلباشا: لِأمرٍ ما جعلَ هؤلاءِ ٱلقومُ لِأنفسِهم زِيًّا خاصًّا يتميَّزون بهِ في ٱلناس، كأنَّ ٱلدينَ بابٌ مِنَ ٱلتحرُّفِ وٱلتصرُّف، بعضُ آلتِهِ في ثِيابِه؛ فهؤلاءِ يسكنون ٱلجُبَبَ وٱلقفاطِينَ وكأنَّها دواوينُهم لا ثيابُهم. . .

قد أفهمُ لِهذا معنًى صحيحاً إذا كانَ كلُّ رجلٍ منهم محصوراً في واجباتِ

---

(١) يسرد: هنا بمعنى ينشد.

(٢) تنفطر: تتشقق. (٣) يدع: يترك.

عملِهِ كالجنديّ في معاني سلاحِهِ، فيكونُ العظيمُ والتوقيرُ لِثوبِ العالمِ الدينيِّ كأداءِ التحيَّةِ لِلثوبِ العسكريِّ: معناهُ أنَّ في هذا الثوبِ عملاً سامياً أولُهُ بيعُ الروحِ وبذلُ النفسِ وتركُ الدنيا في سبيلِ المجتمعِ؛ هذا ثوبُ الموتِ يُفْرَضُ على الحياةِ أنْ تعظِّمَهُ وتُجلَّه، وثوبُ الدفاعِ تجبُ لَهُ الطاعةُ والانْقياد، وثوبُ القوَّةِ ليسَ لَهُ إلَّا المَهابةُ والإعزازُ في الوطن.

ولكنْ ماذا تصنعُ الجُبَّةُ اليوم؟ إنَّها تُطْعِمُ صاحبَها...

أثرُ الجيشِ معروفٌ في دِفاعِ الأُمَمِ العدوَّةِ عنِ البلاد، فأينَ أثرُ جيشِ العلماءِ في دِفاعِ المعاني العدوَّةِ عن أهلِ البلاد، وقدِ احتلَّتْ هذه المعاني وضَربَتْ وتملكَتْ وتركَتْ هذا العالمَ الدينيَّ في ثوبِهِ كالجنديِّ المنهزم: يحملُ من هزيمتِهِ فضيحةً ومن ثوبِهِ فضيحةً أخرى؟

أنت يا بنيَّ قد رأيْتَ (الشيخ محمد عبده) وعرَفْتَه؛ فرحمَ اللَّهُ هذا الرجل، ما كانَ أعجبَ شأنَه! لَكأنَّهُ ـ واللَّهِ ـ سحابةٌ مطويَّةٌ على صاعقة. ولو قلْتُ إنَّهُ قد كانَ بينَ قلبِهِ ورأسِهِ طريقٌ لِبعضِ الملائكة. لَأشْبَهَ أنْ يكونَ هذا قولاً.

كانَ يزورني أحياناً فأراني مُرغَماً على أنْ أقدِّمَ لَهُ مجلسينِ أحدُهما قلبي. وكانَ لَهُ وجهٌ يأمرُ أمراً، إذْ لا تراهُ إلَّا شعرْتَ بِهِ يرفعُكَ إلى حقيقةٍ سامية.

رجلٌ نَبَتَ على أعراقٍ[1] فيها إبداعُ المُبدعِ العظيمِ الذي هيَّأَهُ لِرسالتِه، فعواصِفُهُ كالعِطْرِ في شجرةِ العِطرِ الشَّذِيَّة، وشمائلُهُ كجمالِ السماءِ في زُرقةِ السماءِ الصافية، وعظَمَتُهُ كرَوْعةِ البحرِ في منظرِ البحرِ الصاخب. وكثيراً ما كانَ يتعجَّبُ من هذا أستاذُهُ (السيدُ جمالُ الدينِ الأفغانيُّ) فيسألُهُ مندهشاً: بِاللَّهِ قلْ لي: ابنُ أيِّ ملكٍ أنت؟

لم يكنِ ابنَ ملكٍ ولا ابنَ أمير، ولكنَّهُ ابنُ القوَّاتِ الروحيَّةِ العاملةِ في هذا الكوْن؛ فهي أعدَّتْه، وهي ألهمتْه، وهي أنطقَتْه، وهي أخرجتْهُ في قومِهِ إعلاناً غيرَ كِتمان، ومُصارحةً غيرَ مُخادعة، وهي جعلَتْ فيهِ أسديَّةَ الأسد، وهي ألقتْ في كلامِهِ تلكَ الشهْوةَ الروحيَّةَ التي تُذاقُ وتُحَبُّ، كالحلاوةِ في الحَلْوى.

هذا هو العالم الدينيّ: لا بدَّ أنْ يكونَ ابنَ القوّاتِ الروحيَّة، لا ابنَ الكُتبِ

---

(١) أعراق: أصول.

وحدَها، ولا بدَّ أنْ يَخرجَ بعملِهِ إلى ٱلدنيا، لا أنْ يُدخِلَ ٱلدنيا تحتَ سقفِ ٱلجامع...

وأنا فما ينقضي عجبي من هؤلاءِ ٱلعلماءِ ٱلذين هم بَقَايا تَتَضاءَلُ بجانبِ ٱلأصل؛ يبحثون في سُنَنِ ٱلنبيّ ﷺ: كيف كانَ يأكلُ ويشربُ ويلبسُ ويمشي ويتحدَّث؛ كأنَّهم مِنَ ٱلدنيا في قانونِ ٱلمائدة، وآدابِ ٱلولائم، ورُسوم ٱلمجتمعات؛ أمَّا تلك ٱلحقيقةُ ٱلكُبرى، وهي كيف كانَ ٱلنبيُّ ﷺ يُقاتلُ ويُحاربُ لِهدايةِ ٱلخلْق، وكيف كانَ يسمو على ٱلدنيا وشهواتِها؟ وكيف كانَ بِطِباعِهِ ٱلقوِّيةِ ٱلصريحةِ تعديلاً فعَّالاً في هذه ٱلإنسانيَّةِ لِلنواميسِ ٱلجائرة؟ وكيف كانَ يحملُ ٱلفقرَ لِيكْسِرَ بِهِ شِرَّةَ[1] ٱلنواميسِ ٱلاقتصاديَّةِ ٱلتي تَقضي بجعلِ ٱلأخلاقِ أثراً من آثارِ ٱلسَّعَةِ وٱلضيق، فتُخرجُ مِنَ ٱلغنيِّ مُتعففاً ومِنَ ٱلفقير لِصًّا؟ وكيفَ ٱستطَاعَ ﷺ بفقرِهِ ٱلسامي أنْ يُحوّلَ معنى ٱلغِنى في نفوسِ أصحابِه، فيجعلَهُ ما ٱستغنى عنهُ ٱلإنسانُ من شهواتِ ٱلدنيا وتَرَكَ، ما نالَ منها وجَمَعَ؟ أمَّا هذا ونحوُهُ من حقائقِ ٱلنبوَّةِ ٱلعاملةِ في تنظيمِ ٱلحياة، فقد أهملُوه، إذْ هو لا يُوجدُ في ٱلكُتبِ وشروحِها وحواشِيها[2]، ولكنْ في ٱلحياةِ وأثقالِها وأكدارِها؛ وبذلك أصبحَ شيوخُنا مِنَ ٱلأُمَّةِ في مواضعَ لم يضعْهم فيها ٱلدينُ ولكنْ وضعَتْهم فيها ٱلوظيفة.

ألا ليتَهُم يكتبونَ على أبوابِ ٱلأزهرِ هذه ٱلحِكمة: سُئلَ بعضُ ٱلعرب: بِمَ سادَ فلانٌ فيكم؟ قالوا: ٱحتجْنا إلى علمِهِ وٱستغنى عن دُنيانا...

---

(١) شرّة: شدّة وقسوة.

(٢) حواشيها، مفرده حاشية، وهي مكان يوجد في ذيل الصفحة، تكتب شروحات على ما غمض من المعاني في الصفحة.

الأخلاقُ المحاربة

وحدَّثني صاحبُ سرِّ (م) باشا بهذا ٱلحديثِ قال: كنَّا في ثورةِ سنةِ ١٩١٩ سنةِ ٱلهزاهِزِ[١] وٱلفِتَن، وقدْ تفاقمتِ[٢] ٱلثورةُ، وأخذَ ٱلشبابُ يعملُ ويُفكرُ فيما يستطيعُ أنْ يعملَ، وما يجبُ أنْ يعمل؛ وكانَ ٱلسَّخْطُ ٱلعامُّ هو ميراثَ ٱلوقت، فكانَتْ قلوبُ ٱلشعبِ تُلهَمُ واجباتِها إلهاماً، إذْ لم يكنْ في هذهِ ٱلقلوبِ كلِّها إلّا لذعةُ ٱلدم تُعيِّنُ ٱتجاهَ أعمالِها وتُحدِّدُه.

كانَتِ ٱلثورةُ زلزلةً وقعَتْ في ٱلتاريخ، فجاءَتْ تحتَ زمنٍ راكدٍ لا يتغيَّرُ إلّا بأنْ يُنْسَف، ولا ينسِفُهُ إلّا مادةٌ إلهيةٌ كٱلحركةِ ٱلكونيةِ ٱلتي تُخْرِجُ ٱليومَ ٱلجديدَ مِنَ ٱليومِ ٱلقديم؛ فكانَ ٱلقَدَرُ يعملُ بأيدي ٱلإنجليزِ عملاً مِصرياً، ويعملُ بأيدي ٱلمصريينَ عملاً آخر.

وتعلَّمَ ٱلشعبُ من دفْنِ شُهدائِهِ كيفَ يَستَنْبِتُ ٱلدمَ فيُنْبِتُ بِهِ ٱلحريَّة، وكيف يزرعُ ٱلدمعَ فيُخرِجُ منهُ ٱلعزم، وكيف يستثمِرُ ٱلحزْنَ فيُثمرُ لَهُ ٱلمجد.

وكانَ رصاصُ ٱلإنجليزِ يُصيبُ هَدَفينِ معاً: فيصرعُ شهداءَنا، ويقتلُ ٱلموتَ ٱلسياسيَّ ٱلذي ٱحتلَّ مَعهم هذه البلاد. وقد أنعموا على ٱلشعبِ بِٱلصدمةِ ٱلأولى، فنَشبَتِ ٱلمعركةُ ٱلتي تُقاتلُ فيها ٱلأخلاقُ ٱلقوميَّةُ لِتنتصِرَ؛ وشعرَتْ مصرُ في جِهادِهَا بأنّها مِصرُ، فٱلتمسَ رُوحُها ٱلتاريخيُّ رمزَهُ ٱلعظيمَ في ٱلأُمَّةِ لِيظهرَ فيهِ عاتياً جبَّاراً؛ فكانَ هذا ٱلرمزُ ٱلجليلُ ٱلعظيمُ هو سعد زغلول.

❊ ❊ ❊

قالَ صاحبُ ٱلسرِّ: وكانَ ٱلطلبةُ قد غَدَوْا من أولِ ٱلنهارِ يتظاهَرونَ، وقد جعلَتْهُمُ ٱلثورةُ كٱلأرواحِ تخلَّصَتْ مِنَ ٱلموتِ بِٱلموتِ فلا تخشاهُ ولا تُباليه، واستقلَّتْ عنِ ٱلعقلِ بتحوُّلِها إلى شعورٍ مَحْض، وخرجَتْ عنِ ٱلقوانينِ كُلِّها إلّا ٱلقانونَ ٱلخفيَّ ٱلذي لا يُعلَمُ ما هو.

---

(١) الهزاهز: الثورات وعدم الاستقرار السياسي. (٢) تفاقمت: امتدّت وعظمت.

كانوا في معاني قلوبِهِم لا في غيرِها، فلسْتَ تراهم إلَّا عظماءَ فِي عظمةِ ٱلمبدأ ٱلذي ينتصرون لَه، أقوياءَ في قوَّةِ ٱلإيمانِ ٱلذي يعملونَ بِه، أجِلّاءَ في جلالِ ٱلوطَنِ ٱلذي يحيَوْنَ ويموتونَ في سبيلِهِ.

وكانوا في ٱلشعبِ هم خيالَ ٱلأُمَّةِ ٱلعاملَ ٱلمُدرك، وشعورَها ٱلحيَّ ٱلمتوثِّب، وقُواها ٱلبارزةَ من أعماقِها، وأملَها ٱلزاحفَ لِيَقهرَ ٱلصُّعوبة.

يُفَادُونَ بأنفسِهِمُ ٱلغاليةِ ويُؤْثِرونَ عليها، وليسَ في أحدٍ منهم ذاتُهُ ولا أغراضُ شخصِه. فما أجلَّ وما أعظَم! وما أروعَ وما أسمى! أيَّتُها ٱلحياة! هل فيكِ أشرفُ من هذه ٱلحقيقةِ إلَّا حقيقةَ ٱلنبوَّة؟

* * *

قال: وكانَ أخي هو زعيمَ هؤلاءِ ٱلطلبةِ في مدينتِنا؛ قويٌّ على ٱلزَّعامةِ وفيٌّ بها؛ يحملُ قلباً كٱلجمرةِ ٱلملتهبة، وله صوتٌ بعيدٌ تحسبُ ٱلرعدَ يُقَعْقِعُ[1] بِه. إذا مشى في جِهادِهِ كانَ كلُّ ما على ٱلأرضِ تراباً تحتَ قدميه، فلا يمشي إلَّا مُحتقِراً هذه ٱلدنيا وما فيها، غيرَ مقدِّسٍ منها إلَّا دينَهُ ووطنَه؛ وسِلاحُهُ أنَّ كلَّ شيءٍ فيهِ هو سِلاحٌ على ٱلظلْمِ وضدُّ ٱلظلْم.

وكانَ في ذلك ٱليوم يقودُ «ٱلمُظاهرة»، وحولَهُ جماعةٌ من خالِصَتِهِ وصَفْوةِ إخوانِهِ، يمشون في ٱلطليعةِ تحتَ جوٍّ متَّقِدٍ كأنّ فيهِ غضبَ ٱلشباب، عنيفٌ كأنّما ٱمتزج بِهِ ٱلسخطُ ٱلذي يفورون به، رهيبٌ كأنّهُ مُتهيِّئٌ لِينفجر؛ فلمَّا بلغوا موضعاً مِنَ ٱلطريقِ ينعطِفون عندَهُ ٱنصبَّ عليهمُ ٱلمدفعُ ٱلرشَّاش...

قال: فإنِّي لَجالسٌ بعدَ ذلك في ٱلديوانِ إذْ دخلَ عَلَيَّ أخي هذا ينتفِضُ غضباً كأَنَّ ٱلمعانيَ تنبعِثُ من جسدِهِ لِتقاتل، ورأيْتُ لَهُ عينينِ ينظرُ ٱلناظرُ فيهما إلى ٱلنارِ التي في قلبِهِ؛ فخشيْتُ أنْ يكونَ ٱلقومُ أطلقوا عليهمُ ٱلجنونَ وٱلرصاصَ معاً.

وٱستنبأتُهُ[2] خبرَ أصحابِهِ فقال: إن الذين كانوا حَولَهُ وقعوا يتشَحَّطونَ[3] في دِمائِهم، فوقفَ هو شاخصاً إليهم كأنّهُ ميتٌ معهم، وقد أحسَّ كأنّما خَلَعَ عن جسمِهِ نواميسَ ٱلطبيعة، فلا يعرفُ ما هي ٱلحياةُ ولا ما هوَ ٱلموت؛ وكانَ ٱلرصاصُ يتطايرُ من حولِهِ كأنَّ أرواحَ ٱلشهداءِ تتلقَّاهُ وتُبعثِرُهُ لا ينالُهُ بِسوء. قال: وما أنْسى لا

---

(١) يقعقع: يصدر أصواتاً عنيفة راعدة.
(٢) استنبأته: سألته عن أصحابه.
(٣) يتشحطون: يتخبّطون بدمائهم.

أنسى ما رأيتُهُ في تلكَ ٱلساعةِ بينَ ٱلدنيا والآخرة؛ فلقد رأيْتُ بعيني رأسي ٱلدمَ المِصريَّ يُسلِّمُ على ٱلدمِ ٱلمِصرِيِّ، ويسعى إليهِ فيُعانقُهُ عِناقَ الأحباب.

ثُمَّ قال: أينَ هذا الباشا؟ وما بالُهُ لم يصنعْ شيئاً في ٱلاحتياطِ لِهذِهِ ٱلفَوْرة؟ يَكادُ ٱلخزيُ ـ وٱللّهِ ـ يكونُ في هذه ٱلوظائفِ على مِقدارِ ٱلمرتَّب...

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرِّ: ولم يُتمَّ كلمَتَه حتى خرجَ علينا ٱلباشا متكَسِّرَ ٱلوجهِ مِنَ ٱلحزنِ قد تغرغَرتْ عيناه، فأخذَ بيدِ أخي إلى غرفتِهِ وتبعْتُهما، ثُمَّ قال: هَوْناً ما يا بُنيَّ، إنَّ ٱلعِلَّةَ فيكم أنتم يا شبابَ ٱلأُمَّة، فكلُّ ما ٱبتُلينا أو نُبتلى بِهِ هو مِمَّا يستدعيهِ خمولُكم وتستوجبُهُ أخلاقُكمُ ٱلمتخاذِلة؛ إنّنا من غيرِكم كالْمدافعِ ٱلفارغةِ من ذَخيرتِها: لا تَصلُحُ إلّا شكلاً، وبهذِه ٱلعِلَّةِ كانَ عندَنا شكلُ ٱلحكومةِ لا ٱلحكومة.

أتدري يا فتى ما هي ٱلحكومةُ ٱلصحيحةُ في مثلِ حالتِنا؟ هي أنْ تحكموا أنتم في ٱلشعبِ حُكومةً أخلاقيَّةً نافِذةَ ٱلقانون، فتضْبِطوا أخلاقَ ٱلنساءِ وٱلرجال، وتردُّوها كلَّها أخلاقاً مُحاربةً لا تعرفُ إلّا ٱلجِدَّ وٱلكرامةَ وصرامةَ ٱلحقّ؛ وإلّا فكما تكونون يُولّى عليكم...

هذا وحدَهُ هوَ ٱلذي يُعيدُ ٱلأجانبَ إلى رُشدِهم وإلى ٱلحقيقة، فما أراهم يُعاملونَنا إلّا كأنَّنا ثيابٌ معلَّقةٌ ليسَ فيها لابسوها...

كيفَ يَتَصَعْلَكُ[1] ٱلمِصريُّ لِلأجنبيِّ لو أنَّ في ٱلمِصريِّ حقيقةَ ٱلقوَّةِ ٱلنفسيَّة؟ أترى بارجةً حربيَّةً تتصعلكُ لِزورقِ صيدٍ جاءَ يرتزق؟

إنَّ في بلادِنا ٱلمِسكينةِ ٱلأجانب، وأموالَ ٱلأجانب، وغطرسةَ[2] ٱلأجانب؛ لا لِأنَّ فيها ٱلاحتلال، كلا، بلْ لِأنَّ فيها ضعفَ أهلِها، وغفلةَ أهلِها، وكرمَ أهلِها... بعضُ هذا يا بُنيَّ شبيهٌ ببعض، وإلّا فما هو كَرمُ ٱلشاةِ ٱلضعيفةِ إلّا لَذَّةُ لَحمِها...؟

نُريدُ لِهذا ٱلشعبِ طبيعةً جِدِّيَّةً صارمةً، ينظرُ من خلالِها إلى ٱلحياةِ فيستشعرُ ذاتَهُ ٱلتاريخيَّةَ ٱلمجيدةَ فيعملُ في ٱلحياةِ بقوانينِها؛ وهذا شعورٌ لا تُحدثُهُ إلّا طبيعةُ ٱلأخلاقِ ٱلاجتماعيَّةِ ٱلقويَّةِ ٱلتي لا تتساهلُ من ضعف، ولا تتسمَّحُ من كذب، ولا تترخَّصُ من غفلة. وٱلحقيقةُ في ٱلحياةِ كٱلحقيقةِ في ٱلمنطق: إذا لم يَصْدُقِ ٱلبرهانُ

---

(١) يتصعلك: يتصاغر.

(٢) غطرسة: تكبر وتجبر.

على كلِّ حالاتِها، لم يَصدُقْ على حالةٍ من حالاتِها؛ فإذا كنَّا ضعفاءَ كُرماء، أعِزَّاء، سادةً على ٱلتاريخِ ٱلقديم، فنحن ضعفاءُ فقط...

إنَّ ٱلكبراءَ في ٱلشرقِ كلِّه لا يصلحونَ إلَّا لِلرأي، فلا تَسُوموهم غيرَ هذا، فهم قد تلقَّوا ٱلدرسَ من أغلاطِهمُ ٱلكثيرة، وبهذا لَنْ تُفلحَ حُكومةٌ سِياسيَّةٌ في ٱلشرقِ ٱلناهضِ ما لم يكنْ شبابُها حُكومةً أخلاقيَّةً يُمِدُّها من نفسِهِ ومنَ ٱلشعبِ في كلِّ حادثةٍ بالأخلاقِ ٱلمحارِبة.

يا بُنيَّ، إنَّ القويَّ لوِ ٱتفقَ معَ ٱلضعيفِ على كلمةٍ واحدةٍ لا تتغيَّر، لَكانَ معناها لِلأقوى أكثرَ مِمَّا هو لِلأَضعف؛ فإنَّ هذا ٱلقويَّ ٱلذي يعملُ مَعَ ٱلضعيفِ يكونُ فيهِ دائماً شخصٌ آخرُ مختف، هوَ ٱلقويُّ ٱلذي يعملُ معَ نفسِه.

هكذا هِيَ ٱلسياسة؛ أمَّا في ٱلإنسانيَّةِ فلا، إذْ يكونُ ٱلحقُّ دائماً بينَ ٱثنينِ أقوى مِنَ ٱلاثنين.

خضعَ يخضع . . .

وقالَ صاحبُ سرِّ (م) باشا فيما حدَّثني بِه: جاءَ ذاتَ يوم قنصلُ (الدولةِ الفلانيَّةِ) من هذه ٱلدولِ ٱلصغيرةِ؛ ٱلتي لو عَلِمَ ٱلذبابُ في بلَادِها أنَّ في مِصرَ ٱمتيازاتٍ أجنبيَّةً، لَطمِعَتْ كلُّ ذبابةٍ أنْ يكونَ لها في بلادِنَا ٱسمُ ٱلطيَّارةِ ٱلحربيَّة . . . .

ورأيْتُهُ قد دخلَ عليَّ شامِخاً باذِخاً متجبِّراً، كأنَّهُ قبلَ أنْ يجيءَ إلى هذا ٱلديوانِ لِمقابلةِ ٱلحاكمِ ٱلمِصريّ ـ قد تكلم في (التلفونِ) معَ إسرافيلَ يأمرُهُ أنْ يكونَ مستعِدًّا لِلنَّفْخِ في ٱلصُّور . . . .

جَنى صُعلوكٌ من رعَايا دولتِهِ على مِصريّ، فأُخِذَ كما يُؤخَذُ أمثالُه، وقضَى ساعةً أو ساعتينِ بينَ أيدي ٱلمحققينَ يسألونَهُ ٱلأسئلةَ ٱلهيِّنَةَ ٱللَّيِّنَةَ ٱلتي تُحيطُ بتعريفِهِ من ظاهرِه، ولا يُشْبِهُهَا في سَخافةِ ٱلمعنى إلَّا أنْ يسألوهُ عن ثيابِهِ من أيِّ مصنعٍ هي في أوربا . . . فزعمَ ٱلقنصلُ أنَّهُ كانَ يجبُ أنْ يكونَ حاضراً يشهدُ ٱلتحقيقَ، لِأنَّ جِنايةَ أجنبيٍّ على مِصريٍّ تقعُ أجنبيَّة . . . فَلَها شأنٌ ورِعايةٌ وٱمتياز، وٱدّعى أنَّ ٱلمُحققينَ ضايقوا ٱلمجرمَ وعاسروهُ وتجهَّمُوهُ بِٱلكلام، ولِهذا جاءَ يحتجّ.

ورأيتُهُ جلسَ متوقِّراً كأنَّما يشعرُ في نفسِهِ أنّه أثقلُ من مدفعٍ ضخْم، لِأنَّ في نفسِهِ وَهْمَ ٱلقوَّة؛ وخيَّلَ إليَّ أنَّهُ يرى موضِعَهُ بينَ ٱلسقفِ وٱلأرض؛ إذْ يحملُ في رأسِهِ فكرَةَ أنَّهُ ٱلأعلى، وكانَتْ لَهُ هيئةٌ صريحةٌ في أنَّ ٱلأجنبيَّ ٱلمُقيمَ هنا ليسَ هو كلَّ ٱلأجنبي، بلْ لا تزالُ منهُ بقيَّةٌ تُتَمِّمُها دولتُه، وفي ٱلجملةِ كانَ ٱلرجلُ كلمةً واضحةً مفسَّرةً تنطقُ بأنَّ لِلقانونِ ٱلمصريِّ قانوناً يحكمُهُ في بلادِهِ!

وأنا قد درسْتُ ٱلقانونَ ٱلدوليّ، وعرفْتُ ما هيَ ٱلامتيازاتُ وما أصلُها، وهي لا تعدو كرَمَ ٱلأرنبِ ٱلتي زعموا أنَّها كانَتْ تملكُ حماراً تركبُهُ وترتَفِقُ به، فسألَتْها أرنبٌ أخرى أنْ تُرْدِفَها خلفَها، فلمَّا ٱندفعَ بهما ٱلحمارُ ٱستوطَأتْه، فقالَتْ لِصاحبتِهِ: يا أختي، ما أفْرَهَ حِمارَك! ثُمَّ سكتَتْ مدةً وأعجبَها ٱلحمارُ فقالَتْ: يا أختي، ما أفرَهَ حمارَنا! . . .

وكنّا ـ نحن ٱلشرقيينَ ـ مِنَ ٱلضعفِ وٱلغفْلةِ؛ بحيثُ لم نبلغ مبلغَ ٱلأرنبِ في حِكمتِها وتدبيرِها وحذرِها، فإنَّها أسرَعتْ ودفَعتْ صاحبتَها وقالَتْ لها: اِنزلي ـ ويلكِ ـ قبلَ أنْ تقولي: ما أفرَهَ حِماري.

قال: غيرَ أنّي في تلك الساعةِ نسيْتُ ٱلقانونَ ٱلدوليَّ وكنْتُ في إلهام مِصريَّتي وحدَها، فظهَر لي ظهوراً بيِّناً أنْ لا شيءَ ٱسمُهُ ٱلقانونُ ٱلحقُّ في هذه ٱلدنيا؛ ولكنَّ هناك ٱتفاقاً بينَ كلِّ خضوعٍ وكلِّ تسلط، هو قانونُ هاتينِ ٱلحالتينِ بخصوصِهِما.

وأسرعْتُ إلى ٱلباشا فأَنبأْتُهُ، وأسرعَ ٱلباشا فغيَّرَ وجهَهُ، وتبسَّط، وتهلَّل، وتهيَّأَ بهذا لاستقبالِ ٱلقادمِ ٱلعزيز، كأنَّهُ أخصُّ محبيهِ يتطلَّعُ إلى مؤانَسَتِهِ، وقد جاءَ يزورُهُ في دارِه. ثُمَّ دخلَ ٱلقنصلُ، ولم أسمعْ مِمَّا دارَ بينَهما إلَّا الكلمةَ ٱلأولى، وهي قولُ ٱلباشاَ: لْنبدأْ يا سيدي مِنَ ٱلآخر...

* * *

وكانَتْ في ٱلباشا موهِبةٌ عجيبةٌ في ٱختلابِ[1] ٱلأجانبِ خاصَّة، يُديرُهم بلَبَاقةٍ كٱلخاتم في إصبعهِ؛ حتى قالَ لي أحدُهم: إنَّ لِهذا الباشا حاسَّةً زائدةً، لو سُمِّيَتْ حاسة ٱلإرضاءِ لَكانَ هذا ٱسمَها ٱلطبيعيَّ، وإنَّهُ يعملُ بِها كما يعملُ ٱلمُفكِّرُ بِتفكيرِهِ؛ فهو يبتكرُ ٱلأساليبَ ٱلغريبَّةَ ٱلتي يصعَدُ ويَهبِطُ بها ميزانُ ٱلحرارةِ ٱلنفسيَّةَ، وإنَّ جليسَهُ يكادُ يشعُر من مَهارتِهِ في ٱلتمثيلِ أنَّ في جوِّ ٱلمكانِ سِتاراً يُرفعُ وستاراً يُسْدَلُ بينَ ٱلفصول.

فما لبِثَ ٱلقنصلُ أنْ خرجَ بغيرِ ٱلوجهِ ٱلذي دخلَ بهِ، ولكنَّهُ عَبَسَ في وجهي أنا وتَكرَّهُ لي كأنَّهُ أصْغرَ شأني؛ فٱزدرتْني عينُه، فوثَبتْ إلى رأسِهِ فكرةُ ٱلأمتيازات.

وهذه ٱلقوةُ ٱلظالمةُ (الامتيازات)؛ لو أنَّها كانَتْ قوّةً قاهِرةً نافذة، وأُعينَ بها طُفيْليٌّ لِيقتحمَ دُورَ ٱلناسِ آمناً مطمئنًا ـ لاستحى هذا ٱلطفيْليُّ أنْ يأكلَ بها؛ إذْ تجمعُ عليهِ ٱلتطفلَ وٱلمَقْتَ[2] معاً، ولو قِيلَ لِحُسام بتّار: إنَّ لك ٱمتيازاً على بعضِ ٱلسيوفِ ألَّا تقارِعَك[3]، وإنَّكَ محميٌّ أنْ تنالَك سَطْوتُها إذا قارعْتَها[4] ـ لأنِفَ أنْ يسمَّى سيفاً بهذا أو بمثلِ هذا، فإنَّ ٱلقوَّةَ ٱلظالِمَةَ ٱلتي يُعِيرُونَهُ إيَّاها، ليسَتْ إلَّا مَهانةً لِشرفِ ٱلقوّةِ ٱلعادلةِ ٱلتي هي فيه.

---

(١) اختلاب: خداع.

(٢) المقت: الكراهة.

(٣) تقارعك: تقاتلك.

(٤) قارعتها: غالبتها.

قالَ صاحبُ ٱلسرِّ: ووصفْتُ لِلباشا هيئةَ ٱلقنصلِ ٱلتي ٱنصرفَ بها، وتقطيبَهُ في وجهي، وقلْتُ لَهُ: إنَّ ٱلذبابةَ وقعَتْ في صَحْفتيَ أنا من هذه ٱلوليمة... فضحكَ بملءِ فيه، ثُمَّ قال:

ستبطلُ هذهِ ٱلامتيازات، وليسَ بينَنا وبينَ نِهايتها إلَّا أنْ ينتهيَ ٱلشعبُ إلى حقيقتِهِ ٱلقوميَّة، فما تركُها في مكانَتِها إلَّا نزولُ ٱلشَّعْبِ عن مكانتِه، وتٱللَّهِ لَكأنَّ هؤلاءِ ٱلأجانبَ يسألوننا بهذِهِ ٱلامتيازات: أين مكانُكم في بلادِكم...؟

أتدري ما قالَهُ هذا ٱلقنصلُ حينَ تجَاذَبْنا الحديثَ[١] فيها، بعدَ أنْ وضعْتُ نفسي منه في موضعِ ٱلمحامي ٱلذي يخذلُهُ[٢] ٱلدليلُ، فيحاولُ أنْ يستنزلَ كرمَ ٱلقضاةِ بعَرْضِ بؤسِ ٱلمتَّهمِ على شفقتِهِم، لِيستعطِفَ ٱلقانونُ ٱلذي في أيديهم بِٱلقانونِ ٱلذي في أنفسِهم؟

إنَّهُ قال: لا يلومَنَّ ٱلشرقيونَ إلَّا أنفسَهم، فهم علَّموا ٱلأجانبَ أنَّ نتفَ ريشِ ٱلطيرِ أولُ أكلِه. وهذِه ٱلامتيازاتُ إنْ هيَ إلَّا مُعاملةٌ بينَنا وبينَ طبيعةِ ٱلخضوعِ في ٱلشعب. نعم إنَّها مَضرَّةٌ ومَعَرَّةٌ، وظلمٌ وقسوة؛ ولكنَّها على ذلك طبيعيَّةٌ في ٱلطبيعة؛ فما دامَ هذا ٱلشعبُ ليِّنَ ٱلمأخذِ، فإنَّ هذا يُوجدُ لَهُ من يأخذُه؛ وما دامتِ ٱلكلمةُ ٱلأولى في مُعْجَمِ لُغتِهِ ٱلسياسيَّةِ هي مادةَ (خَضَعَ يَخْضَع)، فهذه ٱلكلمةُ تحملُ في معناها ٱلواحدِ ألفَ معنًى، منها: ظَلَمَ يظلِم، ورَكِبَ يركَب، ومَلَكَ يملِك، وٱستبدَّ يستبِدُّ، ودجَّل يُدجِّل، وخَدَعَ يخدَع؛ فهل يكثُر أنْ يكونَ منها للأجانبِ ٱمتازٌ يمتاز؟

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرِّ: ثم زمَّ ٱلباشا فمَهُ وسكت: ففهمْتُ ٱلكلماتِ ٱلتي ٱنطبقَ فمُهُ عليها وإنْ لم يتكلَّمْ بها، ثُمَّ غلبَهُ ٱلضحكُ فقال: ـ واللَّهِ ـ يا بنيَّ لو أنَّ بَرْغوثاً طَمَرَ من ثوبِ صُعلوكٍ أجنبيٍّ، فوقعَ في ثوبِ صعلوكٍ وطنيّ، فتقاتَلَا فقُبِضَ عليهما، فأخِذا ـ لَمَا رضِيَ بُرغوثُ ٱلأجنبيِّ أنْ يُحاكَمَ إلَّا في ٱلمحاكِمِ ٱلمختلطة...

ثُمَّ سكَتَ ٱلباشا مرةً أخرى كأنَّهُ يقولُ كلاماً آخرَ لا يجوزُ نشرُهُ، ثُمَّ قال: يا بُنيَّ، إنَّ ٱلأجانبَ لا يضعونَ ٱلحِملَ إلَّا على مَنْ يحمل؛ فإذا نحن توخَّينا مُرادَهم

---

(١) تجاذبنا الحديث: تداولناه. (٢) يخذله: يعوزه.

أرادوا لِأنفسِهم لا لنا؛ وإذا وافَقْنا لهم غرضاً جعلوه كٱلدينارِ فيهِ مائةُ قرش، وأبَوْا إلّا أنْ نُصَارِفَهم عليهِ بمائة. هم ـ ويحَكَ ـ يمتازون في معامَلتِنا لا في سطورِ ٱلقوانينِ وٱلمعاهدات، فلْنُبْطِلْ هذه ٱلمعاملةَ يَبْطُلْ هذا ٱلامتياز.

إنَّ ٱلحقَّ يا بُنيَّ ٱستحقاقٌ لا دعوى؛ وهذا ٱلتنازعُ على ٱلحياةِ يجعلُ وسائلَهُ ٱلطبيعيَّةَ ٱلانتزاعَ وٱلمُطالبةَ وٱلتجرّدَ لَهُ وٱلدأبَ فيهِ وٱلإصرارَ عليه. وكلُّ ٱلأقوياءِ يعلمون أنَّ موضِعَ ٱلاعتدالِ بينَ غَصْبِ ٱلحقِّ وبينَ ٱستردادِهِ موضعٌ لا مكانَ لَهُ في ٱلطبيعة: وٱلأجنبيُّ يعتمدُ علينا نحن في جعلِهِ أكبرَ مِنّا وأوفرَ حُرمة؛ فإذا أسْقطَ ٱلشعبُ هذه ٱلامتيازاتِ من فكرِهِ، وروحِهِ وأعصابِه، وثارَتْ فيهِ كبرياءُ ٱلوطنيَّةِ فٱستنكَفَ مِنَ ٱلاستخذاء، ونفرَ مِنَ ٱلاختضاع، وأبى إلّا أن يُعلِنَ كرامته، وصرفَ ٱهتمامَهُ إلى حقوقِ هذه ٱلكرامة، وأصرَّ ألّا يُعامِلَ أجنبيًّا يرى لِنفسِهِ ٱمتيازاً على وطنيّ، وقرَر ذلك في نفسِه، ومكّنَهُ في رُوعِه، وأجمعَ عليهِ إجماعَهُ على ٱلدين ـ إذا جاءَتْ (إذا) هذه بشَرْطِها مِنَ ٱلشعب، جاءَ جوابُ ٱلشرْطِ مِنَ ٱلأجانبِ بنزولِهِم عنِ ٱلامتيازاتِ وٱنحلّتِ ٱلمشكلة. إنّنا يا بُنيَّ لا نملِكُ ضغطَ ٱلسياسة، ولكنّا نملكُ ما هو أقوى؛ نملكُ ضغطَ ٱلحياة.

لهُمُ ٱلامتيازُ بأنّهم أجانبُ عنّا، فلْيكُنْ لنا ٱلامتيازُ ٱلآخرُ بأنّنا أجانبُ عنهم في ٱلمعاملة، مِثْلاً بمِثْل، وما يَفُلُّ ٱلحديدَ إلّا ٱلحديد.

يقولون: النظامُ ٱلاقتصاديُّ وٱلمالُ ٱلأجنبيّ. ولكنْ أرأيْتَ ٱلمالَ في يدِ ٱلأجنبيِّ إلّا مالاً وتدبيراً وسُلْطةً وسِيادة، من أنَّهُ في يدِ ٱلوطنيِّ دَينٌ وإسرافٌ ورِقٌّ وذل؟

لم يظهرْ لي إلّا ٱلساعةَ أنَّ من حِكمةِ تحريمِ ٱلربا في شريعتِنا ٱلإسلاميَّة، وقايةَ ٱلأُمَّةِ كلِّها في ثروتِها وضياعِها ومُستغَلّاتِها، وحِمايةَ ٱلشعبِ وملوكِهِ مِنَ ٱلإسرافِ وٱلتخرُّقِ وٱلكرمِ ٱلكاذبِ، وردَّ ٱلاستعمارِ ٱلاقتصاديّ، وشلَّ ٱلنفوذِ ٱلأجنبيّ.

أمَا لو أنّنا كتبْنَا مِنَ ٱلأولِ على أبوابِ «البنك العقاري» وأبوابِ ذرّيتِه: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ فهلْ كانَتْ تُقرأُ هذهِ ٱلكلماتُ ٱلثلاثُ على أبوابِ تلك البنوكِ الأجنبيةِ إلا هكذا: «محالٌ خاليةٌ لِلإيجار». . . .؟

فلْنتعصبْ...!

وقالَ صاحبُ سرِّ (م) باشا: جاءَني يوماً صَحَفِيٌّ إنجليزيٌّ من هؤلاءِ ٱلكُتَّابِ ٱلمتعصّبينَ ٱلذين تُطلقُهم إنجلترا كما تُطلقَ مدافعَها؛ غيرَ أنَّ هذه لِلبارودِ وٱلرصاصِ وٱلقنابل وأولئك لِلكَذِبِ وٱلتُّهمِ وٱلمُغالطَات.

وهو أذُنٌ وعينٌ[1] ولِسانٌ وقَلمٌ لِجريدةٍ إنجليزيَّةٍ كبيرة، معروفةٍ بِثقَلِ وطأتِها على ٱلشرقِ وٱلإسلام؛ تُصْلِحُ بإفساد، وتُداوِي ٱلحُمَّى بِٱلطاعون، وتعملُ في نهضةِ ٱلشرقيِّينَ وٱستقلالِهم ما يُشْبِهُ قطعَ ثَدْيِ ٱلأمِّ وهو في شفتَيْ رضيعِها ٱلمسكين.

ودخلَ عليَّ هذا ٱلكاتبُ في ٱلساعةِ ٱلتي خرجَ فيها من غرفتي صاحبُ جريدةٍ أسبوعيَّةٍ في مدينتِنا؛ كانَ قد نفخَ ٱلضِّفْدعَ لِيجعلَها ثوْراً، فحوَّلَ صحيفتَهُ إلى جريدةٍ يوميَّة، وهو لا يجدُ مادتَها ولا يستطيعُ أسبابَها، إلَّا أنَّهُ كدأْبِ[2] ٱلناسِ عندَنا كانَ يحسبُ ٱلكذِبَ في ٱلعملِ سَهْلاً مَهْلاً[3] كٱلكذبِ في ٱلقوْل، فلمْ يَتَعاظمْهُ ٱلأمرُ ٱلعظيم، وٱقترضَ لِعملِهِ كلَّ ألفاظِ ٱلنجاحِ مِنَ اللغة...

وظنَّ عندَ نفسِهِ أنَّهُ سيُخَوِّفُ بجريدتِهِ ٱلكُبراءَ وٱلأعيانَ وٱلمياسيرَ حتى يَغْلبَ على جميعِهم، ويُشْرِكَ أصابعَهُ معَ أصابعِهم في ٱستخراجِ ما يحتاجُ إليهِ من جُيوبِهم؛ فلم تعِشْ جريدتُهُ إلَّا أيَّاماً وأتلفَ ما جمع، ورهنَ فيها دارَهُ ٱلتي لا يملِكُ غيرَها؛ وعَلِمَ آخراً أنَّ الذي يكذبُ فيسمِّي ٱلخروفَ جملاً، لا يُقبَلُ منه أنْ يكذبَ على ٱلكذبِ نفسِه، فيزعمَ أنَّ الناقةَ هي ٱلتي نَتَجَتْ هذا ٱلخروف...

ولمَّا ٱنقلبَتْ هذه ٱلجريدةُ يوميَّةً كانَ ٱلباشا هو ملجأَ ٱلرجلِ وَوَزَره، وكانَ لِكلِّ يوم في ٱلجريدةِ أخبارٌ عنِ ٱلباشا لا تقعُ في ٱلدنيا ولا تُجمعُ مِنَ ٱلحوادث، ولكنْ تقَعُ في ذِهْنِ ٱلكاتب، وتُجمعُ من صناديقِ ٱلحروف؛ حتى قالَ ليَ ٱلباشا مرة: إنَّ ٱسمي قد أصبحَ موظَّفاً في هذه ٱلجريدةِ لِجمعِ ٱلاشتراك...

---

(١) يقصد بذلك أنه جاسوس.

(٢) دأب، بسكون الهمزة: العادة.

(٣) هذا من الاتباع بلغة العرب.

وتحرَّى هذا الصحَفيُّ أنْ يستأذِنَ يوماً على ٱلباشا وفي مجلسِهِ حَشْدٌ عظيمٌ مِنَ ٱلسَّراةِ وٱلأعيانِ وٱلعُمَد، وكانَ جَمَعَهم لِأمر، فما هو إلَّا أنْ دخلَ ٱلصَحفيُّ حتى ٱبتدَرَهُ ٱلباشا بهذا السؤال: يا أستاذ، ما هي تلغرافاتُ أوربا عنِ ٱلحوادثِ ٱلتي ستقعُ غداً. . .؟

فضجَّ ٱلمجلسُ بٱلضحك، وفقدَ ٱلمسكينُ بهذِهِ ٱلنكتةِ أربعينَ ديناراً كانَ يؤَمِّلُ أنْ يخرجُ بها، وأعلنَ ٱلباشا في أظرفِ إعلانٍ وأبلغِهِ كذِبَ ٱلرجلِ ونِفاقَهُ وإسفافَه، وأنّه من رجالِ ٱلصحافةِ ٱلمدوَّرَةِ تدويرَ ٱلرغيف. . .

* * *

قال: ونظرْتُ إلى الصحفيِّ ٱلإنجليزيِّ نظرةً أكْشِفُهُ بها، فإذا أولُ ٱلفرقِ بينَه وبينَ أمثالِهِ عندَنا ـ شعورُهُ أنَّ بلادَهُ قد ربَّتْهُ (لِلخارج)، فهو عندَ نفسِهِ كأنَّهُ إنجليزيٌّ مرتين؛ ويأتي من ذلك إحساسُهُ بعِزَّةِ ٱلمالكِ وقوَّةِ ٱلمستعمِر، فلا يكونُ حيثُ يكونُ إلَّا في صراحةِ ٱلأمرِ ٱلنافذِ، أو غموضِ ٱلحيلةِ ٱلمبهَمة؛ ويستحكمُ بهذا وذاكَ طبعُهُ ٱلعمليُّ، فهو بغريزتِهِ مُقاتِلٌ من مقاتلةِ ٱلفكر، يلتمسُ مَيدَانَهُ بينَ القوى ٱلمتضاربةِ لا يُبالي أنْ يكونَ فيهِ ٱلموتُ ما دامَ فيهِ ٱلعمل؛ وبهذا كلِّهِ تراهُ نافذَ ٱلبصيرةِ قائماً على سَواءِ ٱلطريقِ، لِأنَّ ٱلإنجليزيَّ ٱلباطنَ فيهِ يُوجِّهُ ٱلإنجليزيَّ ٱلظاهرَ منهُ ويُسَانِدُهُ؛ وفي أعماقِ ٱلاثنينِ تجدُ إنجلترا، وليسَ غيرَ إنجلترا.

ثُمَّ تفرَّسْتُ في ٱلرجلِ أُريدُ كُنْهَهُ[1] وحقيقتَه، فإذا لَهُ نفسٌ مفتوحةٌ مقْفَلةٌ معاً، كغُرَفِ ٱلدار: ٱلواحدةِ يُفتحُ بعضُها لِمَا فيهِ كيما يُرى، ويُقْفَلُ بعضُها على ما فيهِ كيلا يُرى.

ولَهُ وجهٌ عمليٌّ يكادُ يُحاسِبُكَ على نظراتِكَ إليه؛ تدورُ في هذا ٱلوجهِ عينانِ قدِ ٱعتادتا وزْنَ ٱلأشياءِ وٱلمعاني؛ يتلألأ في هاتينِ ٱلعينينِ شُعاعُ ٱلنفسِ ٱلقويَّةِ ٱلممرَّنةِ، قد نَفَتِ ٱلثقةُ بها نصفَ همومِ ٱلحياةِ عن صاحبِها، تُمِدُّ هذه ٱلنفسَ طبيعةٌ مؤمنةٌ بأنَّ أكبرَ سرورِها في أعمالِها، فواجبُها في ٱلحياةِ أنْ تعملَ كلَّ ما يحسُنُ بها وكلَّ ما يحسُنُ منها.

لقد خُيِّل إلي، وأنا أنظرُ إلى نفسيَّةِ هذا ٱلإنجليزيِّ أنَّ كلمةَ ٱلخيْبَةِ عندَ هؤلاءِ ٱلإنجليزِ غيرُ كلمةِ ٱلخيبةِ عندَنا ـ نحن ٱلشرقيين ـ، فإنَّ خيبةَ ٱلنفسِ لا تَتِمُّ معانيها

(١) كنهه: سرّه وكونه.

أبداً في ٱلنفسِ ٱلعاملةِ ٱلدائبةِ، التي يُشعرُها ٱلواجبُ أنَّهُ شيءٌ إلهيٌّ لا يَخيب، وأنَّ ما يُرْفضُ على هذه ٱلأرضِ مِنَ ٱلعملِ ٱلطيّبِ لا يُرفضُ في ٱلسماء.

وكأنَّ ٱلرجلَ قد أدركَ غرضي بملَكَتِهِ ٱلصحافيَّةِ ٱلدقيقة، فأجابَني عنِ ٱلسؤالِ ٱلذي لم أسأله، وقالَ لي مبتدئاً: إنَّ أساسَنا ٱلشخصيَّةُ وحاسةُ ٱلواجب؛ وإنَّ فيكم أنتم كلَّ شيءٍ إلَّا هذين؛ فأخلاقُنا تَظهرُ دائماً في ٱلعمل، وأخلاقُكم تظهرُ دائماً في ٱلكلامِ ٱلفارغ؛ ونحن نطلبُ ٱلحقيقة، وأنتم تطلبونَ ٱلألفاظ، حتى إنَّهُ لو خَسِرَ ٱلمِصريُّ ألفَ دينار، ثُمَّ أعلنَ أنها مائةٌ فقط، وصدَّق ٱلناسُ أنَّها مائة؛ لَكانَ عندَ نفسِهِ كأنَّهُ ربحَ تسعَمائة...

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرّ: وٱستأذنْتُ لَهُ على ٱلباشا فسهَّلَ ورحَّب؛ ثُمَّ همَمْتُ بٱلانصرافِ عنهما، ولكنَّ ٱلإنجليزيَّ قال: يا باشا! إنَّهُ قد تمكنَ في رُوعي أنَّ صاحبَ سِرِّكَ هذا متعصبٌ دينيّ، وقد علمْتُ أنَّهُ ٱبنُ فلان ٱلقاضي ٱلشرعيّ، فطربوشُهُ ٱبنُ ٱلعِمامة؛ ولقد كانَ ينظرُ إليَّ، وكأنَّهُ يتأمّلُ من أين يذبحُني...

فضحِكَ ٱلباشا وقالَ لي: يا فلانُ إنَّ هذا ٱلكاتبَ مِنْ تلاميذِ برناردشو، فهو كأستاذِهِ يجعلُ لِكلِّ حقيقةٍ ذَنباً كذيلِ ٱلهرّ، ثُمَّ يُمسكُها منهُ فإذا هي تَعَضُّ وتتلوَّى...

وٱلتفتَ بعدَ ذلك إلى ٱلإنجليزيِّ ثُمَّ قالَ لَهُ: جاءَني كتابُك فإذا كنْتَ تُريدُ رأيي فيما تُسميهِ ٱلتعصبَ ٱلدينيَّ عندَ ٱلمسلمين، فعجيبٌ أنْ تضعوا أنتم ٱلغلطةَ ثُمَّ تسألونا نحن فيها! إنَّكَ لتعلمُ أنَّ هذا ٱلتعصبَ ٱلكذِبَ ٱلذي أكثرْتمُ ٱلكلامَ فيهِ، إنَّما هو لفظٌ مِنْ ألفاظِ ٱلسياسةِ الأوربيَّة، أرسلتُموهُ إلينا لِيقاتِلَ لفظَ ٱلتعصبِ ٱلحقيقيّ؛ ومن قبلِ هذا ٱخترَعتُم لفظة (الأقليَّات)، وأجريْتُموها في لُغتِكُمُ ٱلسياسية، لِتجعلوا بها لِتعصُّبِنا ٱلوطنيِّ شكلاً آخرَ غيرَ شكلِهِ فتُفسدوهُ علينا بهذه ٱلمادَّةِ ٱلمُفسدة؛ وبذلك تَضربون ٱليدَ ٱليمنى من غيرِ أنْ تلمسوها، إذْ تضربونَها بشلِّ ٱليدِ ٱليسرى.

إنَّ الإسلامَ في نفسِهِ عدوٌّ شديدٌ على التعصبِ ٱلذي تفهمونَه، فهو يقول لِأهلِهِ في كتابِهِ العزيز: ﴿كُونُوا قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

فإذا كانَ ٱلعدلُ في هذا الدينِ عدْلاً صارِماً، وحقًّا محْضاً لا يُميِّزُ بشيءٍ ٱلبتَّة،

لا ذاتَ ٱلنفسِ ٱلتي فيها ٱشتهاءُ ٱلدم، ولا أصلَها مِنَ ٱلأبوينِ ٱللذينِ جاءَتْ منهما وِراثةُ ٱلدم، ولا أطرافَها مِنَ الأقربينَ ٱلذين يلتفُّونَ حولَ نَسَبِ ٱلدمِ ـ إذا كان هذا، فأينَ في هذا ٱلعدلِ محلُّ ٱلظلْم؟

لعلَّكَ تُشيرُ إلى هذِهِ ٱلرُّعونةِ ٱلتي تعرفُها في ٱلأغمارِ وٱلأغفالِ مِنَ ٱلعامَّة، فهذِهِ ليسَتْ من أثرِ ٱلدين، بلْ هي أثرُ ٱلجهلِ بِٱلدين؛ إنَّ هذا ليسَ تعصُّباً، بلْ هو معنًى من معاني ٱلحَمِيَّةِ ٱلنفسيَّةِ ٱلخَرقاءِ لم تجدوا أنتم لَهُ لفظاً، وكانَ أقربَ ٱلألفاظِ إليهِ عندكم هوَ ٱلتعصبُ، فأطلقْتُموهُ عليهِ لِلمعنى الذي في نفسِهِ وٱلمعنى ٱلذي في أنفسِكم. ألا فٱعلمْ أنّ إسلامَ ٱلعامَّةِ ٱليومَ هو كٱلدعوى ٱلمقبولةِ شكلاً وٱلمرفوضةِ بعدَ ذلك.

قالَ ٱلإنجليزيُّ: ولكنَّ لِهؤلاءِ ٱلعامَّةِ علماءَ دينينَ يُدبّرونهم من ورائِهم. وهم عندَكم ورثَةُ النبيِّ ﷺ أي منبعُ ٱلفكرةِ وقوتُها.

قالَ ٱلباشا: غيرَ أنّ هؤلاءِ قد أصبحوا كلُّهم أو أكثرُهم لا يَنْدَسُّ[1] فيهم عِرْقٌ من تلك ٱلوراثة، وذلك هو ٱلذي بلغَ بنا ما ترى؛ فالقومُ إلّا قليلاً منهم كٱلأسلاكِ ٱلكهربائيَّةِ ٱلمعطَّلَة: لا فيها سَلْبٌ ولا إيجاب؛ ولو أنَّ هؤلاءِ ٱلعلماءَ كانَتْ فيهم كهرباءُ ٱلنُّبوّة، لَكَهْرَبوا ٱلأممَ ٱلإسلاميَّةَ في أقطارِها ٱلمختلِفة. إذن لَقامَ في وجهِ ٱلاستعمارِ ٱلأوربيِّ أربعمائةِ مليونِ مسلم جَلْدٍ[2] صارمٍ شديدٍ، متظاهرينَ متعاونينَ، قد أعدُّوا كلَّ ما ٱستطاعوا من قوةِ ٱلعِلْم، وقوةِ ٱلنفس، وهم لو قَذَفَ كلٌّ منهم بحجرينِ لَردموا ٱلبحرِ.

أتُريدُ معنى ٱلتعصُّبِ في ٱلإسلام؟ إنَّهُ بعينِهِ كتعصُّبِ كلِّ إنجليزيٍّ لِلأُسطولِ؛ فهو تَشابُكُ ٱلمسلمينَ في أرجاءِ ٱلأرضِ قاطبةً، وأخذُهم بأسبابِ ٱلقوَّةِ إلى آخرِ ٱلاستطاعة، لدفعِ ظُلْمِ ٱلقوَّةِ بآخرِ ما في ٱلاستطاعة.

وهو بذلك يعملُ عملين: ٱستكمالُ ٱلوجودِ ٱلإسلاميِّ، وٱلدفاعُ عن كمالِه.

وإذا أنت ترجمْتَ هذا إلى معناهُ ٱلسياسيّ، كانَ معناهُ إصرارَ جميعِ ٱلمسلمينَ على نوعِ ٱلحياةِ وكرامتِها، لا على ٱستمرارِ ٱلحياةِ ووجودِها فقط. وذلك هو مبدؤكُم أنتم أيُّها ٱلإنجليز: لا تقبلون إلّا حياةَ ٱلسيادةِ وٱلحكمِ وٱلحريَّةِ، فأنتم مسلمون في هذا ٱلمبدأ لو عَدَلْتم.

---

(١) يندسّ: يدخل في السرّ.

(٢) جلْد، بسكون اللام: صبور في القتال.

أليسَ مِنَ ٱلبلاءِ أنَّ ٱلمسلمين ٱليومَ لا يَدْرُسُ بعضُهم بلادَ بعضٍ إلَّا على ٱلخريطة... مَعَ أنَّ ٱلحجَّ لم يُشرَعْ في دينِهم إلَّا لِتعوديِهم دراسةَ ٱلأرضِ في ٱلأرضِ نفسِها لا في ٱلورق، ثُمَّ لِيكونَ من مبادئِهِمُ ٱلعمليَّةِ أنّ ٱلعالمَ مفتوحٌ لا مقفل؟

إنَّ ٱلتعصبَ في حقيقتِهِ هو إعلانُ ٱلأُمَّةِ أنَّها في طاعةِ ٱلشريعةِ ٱلكاملة، وأنَّ لَهَا ٱلروحَ ٱلحادَّةَ لا ٱلبليدة، وأنَّ أساسَها في ٱلسياسةِ ٱلاحترامُ ٱلذاتيُّ لا تقبَلُ غيرَهُ، وأنّ أفكارَها ٱلاجتماعيَّةَ حقائقُ ثابتةٌ لا أشكالٌ نظريَّة، وأنَّ مبدأَها هوَ ٱلحقُّ ولا شيءَ غيرُ ٱلحق، وأنَّ قاعدتَها «لا يَضُرُّكم مَنْ ضَلَّ إذا ٱهتَديتُم». فٱلهِدايةُ أولاً وٱلهِدايةُ آخِراً: الهِدايةُ في ٱلقوَّة، وٱلهِدايةُ في ٱلسياسة، وٱلهِدايةُ في ٱلاجتماع. فقلْ لي بحياتِك وحياةِ إنجلترا: أيُعابُ ذلك على ٱلمسلمينَ إلَّا بالألفاظِ ٱلتي يَعيبُ ٱللصُّ بها أهلَ ٱلدارِ لِأنَّهم يُحْكمونَ في وجهِهِ إقفالَ ٱلباب...؟

قالَ: فوَجَم ٱلإنجليزيُّ حتى ذُهِلَ عن نفسِهِ وصاح:

إذا كانَ هذا فلْنتعصَّبْ، فلْنتعصَّبْ.

وزنُ ٱلماضي

وقالَ صاحبُ سرِّ (م) باشا: إنِّي لَجالسٌ ذاتَ يوم وفي يدي كتابٌ لِبعضِ ٱلمتفلسفةِ من مَلاحِدَةِ أوربا الذين يُريدون أنْ يفهموا ما لا يُفهم؛ وكانَ ٱلباشا قد رآني مرةً أنظرُ فيهِ وأتدبَّرُ مسائلَهُ ٱلغامضة، فقالَ لي: يا بُنيَّ، إنَّ أحدَ ٱلكلابِ كانَ شاعراً فيلسوفاً، فنظرَ ليلةً في ٱلنجومِ فراعَتْهُ وحيَّرَته؛ فآلى أنْ يفهمَهَا بعقلِهِ وتفرَّغَ لِدرسِها مدةً طويلة، ثُمَّ وَضَعَ فيها كتاباً نفيساً ضخماً، كانَ أعظمَ كتبِ ٱلفلسفةِ وأشدَّها غموضاً عندَ ٱلكلاب، وكانَ ٱسمُه: العظامُ ٱلمبعْثَرةُ فوقَنا.

قال: فأنا جالسٌ أقرأُ هذا ٱلكلامَ ٱلذي لا صحيحَ فيهِ إلَّا أنَّهُ غيرُ صحيح. إذْ دخلَ عليَّ كاتبٌ متفلسِفٌ مُلْحِدٌ من هؤلاءِ ٱلمدخُولين في عقولِهم، ٱلمفتونين بأوربا ومذاهِبها وعُلْويَّاتِها وسُفْليَّاتها... وهو يكتبُ في ٱلصحفُ، ويُؤلِّفُ ٱلرسائل، وقد جاءَ يَسْتَصْرِخُ ٱلباشا على فلَّاح شاركَهُ في زراعةِ أرضِه، فزرعَهُ ٱلفلاحُ فيها وحَصَدَهُ، ودَهاهُ بكَيدِهِ، وٱبتلاهُ بغِلْظَتِه، وتهدَّدَهُ بٱلنِّقمة.

وكانَ هذا الفلاحُ ٱلساذَجُ ٱلغريرُ قد سبقَهُ إليَّ وعرَّفَهُ لي تعريفاً قاموسيًّا محيطاً من مادةِ كَفر يكْفُر... ثُمَّ قالَ بعد ذلك: إنَّهُ (بيَّاع كلام) يُصْدُق ويكْذِبُ حسبَ ٱلطلب.. وٱلذِّمةُ نفسُها ليسَتْ عندَهُ إلَّا (عمليةً حسابيَّة)؛ وهو في أقوى جهاتِهِ لا ينفعُ ٱلدنيا بما تنفعُها بِهِ ٱلبهيِّمةُ من أضعفِ جِهاتِها.

أمَّا ٱلكاتبُ فيقولُ عن هذا ٱلفلاح: إنَّهُ لا يدري أهو يُتمُّ بهائمَهُ أم بهائمُهُ هي ٱلتي تُتِمُّهُ، وإنَّ ٱلذي يرفعُ ٱلقضيَةَ على مثلِ هذا ٱلمخلوقِ إلى محكمةٍ لا يكونُ إلَّا كٱلذي يُقَعْقِعُ بٱلعصا على جُحْرٍ فيهِ ٱلحيَّةُ ٱلسامَّة.

ورأى ٱلمتفلسفُ ٱلكتابَ على يدي، فتهلَّلَ وٱستبشرَ وقالَ لي: هذا نَسَبٌ بينَنَا... فأدركْتُ من كلمتِهِ هذه جملتَهُ وتفصيلَه، وخُيِّلَ إليَّ أنِّي أرى فيهِ نفسَهُ ٱلشرقيَّةَ كٱلمرأةِ ٱلمطلَّقة... فقلْتُ لَه: أنا ٱشتريْتُ هذا ٱلكتابَ من أوربا، ولكنِّي لم أشترِ منها دِماغي.

وكلَّمْتُهُ أَستخرجُ ما عندَه؛ فإذا هو في قومِهِ وتاريخِ قومِهِ كٱلسائحِ في بلادٍ أجنبيَّة: يفتحُ لها عينَهُ ولا يفتحُ لها قلبَه.

* * *

وكانَ جريئاً في كلامِهِ مَع ٱلباشا: يَطْرُدُ ٱلقولَ حيثُ شاءَ حقًّا وباطلاً، ثُمَّ لاسِنادَ لِرأيِهِ ولا تثبيتَ لِحُجَّتِهِ إلَّا قولُ فُلانٍ ورأيُ فلان، كأنَّ في رأسِهِ عقلاً شحّاذاً. . . ثُمَّ ذكر آخرَ الأمرِ ما جاءَ لَه، فخجَّلَهُ ٱلباشا وقال: هذِهِ مسألةٌ ككلِّ مسائِلك: تحتاجُ إلى رأي فيلسوفٍ أوربي. . . وأعرضَ عنهُ ولم يدخُلْ في شيءٍ من أمرِه.

ولَمَّا ٱنصرفَ قالَ ٱلباشا: يحسبُ هذا نفسَهُ عالماً، وهو صُعلوكٌ عِلْميّ. . وإنَّما يكونُ دِماغُهُ وأدمغةُ أمثالِهِ عندَ ٱلفلاسفةِ وٱلعلماءِ ٱلذين يذكرونهم كما تكونُ سلَّةُ ٱلمهمَلاتِ عندَ ٱلصحافيين.

إنَّ هذا ٱلرجل يُتمُّ ضعفَ عقلِهِ في ٱلرأي بقوَّةِ عِنادٍ فيه، لِيجعلَ لهُ ثباتَ ٱلحقيقةِ فيظُنَّ حقيقة، كأنَّ خَضْخَضَةَ ٱلماءِ بٱليدِ في وعاءٍ صغيرٍ يَنقُلُ إلى هذا الوعاءِ طبيعةَ ٱلموْج؛ وعندَ أمثالِ هذا ٱلمفتونِ مِنَ ٱلصعاليكِ ٱلعلميّين، أنَّكَ إذا تناولْتَ مسألَةً فأخطأْتَ فيها خطأً جريئاً، فقدْ جعلْتَها بخطئِكَ ٱلجريءِ مسألةً مِنَ ٱلعِلْمِ. . . وأنَّكَ إذا عانَدْتَ فثبتَ ٱلخطأُ في وجهِ ٱلناقدين سنة، كانَ حقيقةَ مدَّةِ سنة. . .

هم مفتونون زائغون، ومن فِتنتِهِم أنَّهم يَروْنَ ٱلبعدَ بينَهم وبينَ أهلِ ٱلفضائلِ ٱلشرقيَّة، كٱلبعدِ بينَ ٱلعالِمِ وٱلجاهل؛ ولو حقَّقوا لَرأوْهُ بُعْداً في ٱلغرائزِ لا في ٱلعقلِ، أي كٱلبعدِ بينَ ٱلفجورِ وما أشبَه ٱلفُجورَ، وبينَ ٱلتقوى وما أشبَه ٱلتقوى.

زعمَ ٱلأحمقُ أنَّ خصمَهُ ٱلفلاحَ رجلٌ راسخٌ في ٱلماضي، كأنَّهُ باقٍ في أمسٍ لم ينتقلْ منه، مَعَ أنَّ أمسِ قدِ ٱنقطعَ مِنَ ٱلزمن، ثُمَّ خرجَ من ذلك إلى أنَّ ٱلأمَّةَ يجبُ أنْ تنبذَ ماضيَهَا، ثُمَّ أدَّعى أنَّ ٱلإسلامَ يتعصَّبُ لِلماضي. هذه ثلاثُ كلماتٍ تخرجُ منها ٱلرابعةُ ٱلتي سكَتَ عنها. . .

وأنا لو شِئتُ أنْ أسخَرَ من مثلِ هذا ٱلصُّعلوكِ ٱلعِلْميّ، لَمَا وجدْتُ في أساليبِ ٱلسخريةِ أبلغَ من أنْ أبعَثَ إليهِ بقارورةٍ فارغةٍ وأقولُ لَه: املأْها لي من آراءِ ٱلفلاسفة. .

يَغفُلُ هذا وأمثالُهُ عن أنَّ ٱلدينَ ٱلإسلاميَّ لا يعرفُ ٱلماضيَ بمعنى ما مضى على إطلاقِه؛ بل هو يشترطُ فيهِ ألَّا يُخالِفَ ٱلعقلَ ولا العلم، وألَّا يناقِضَ ٱلهداية؛ ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ وفي الآيةِ الأخرى: ﴿قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾؟ وفي ٱلثالثة: ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾؟ وفي الرابعة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾؟

فانظرْ كيف صَوَّرَ ما نُسميهِ ٱليومَ بٱلجمودِ في قولِه: (حسبُنا)، وكيف صَوَّرَ ما نُسميهِ بٱلرجعيَّةِ في قولِه (نتَّبع)، وتأملْ كيف رفضَ ٱلجمودَ وٱلرجعيَّةَ معاً في ٱلعِلْمِ وٱلعقلِ وٱلهداية، أي في آثارِها مِنَ ٱلعلومِ وٱلمخترعاتِ وٱلفضائلِ ٱلإنسانيَّة، وكيفَ أبطلَ في تلك ٱلثلاثِ ٱلاحتجاجَ بٱلماضي بهذا ٱلأسلوبِ ٱلدقيقِ ٱلعالي، وهو قولُهُ في كلِّ آيةٍ أوَلوْ، أوَلوْ. لم يغيِّرْها؛ بلْ كرَّرها بلفظِها أربعَ مرات.

فٱلمعجزُ هنا مجيءُ ٱلآياتِ بهذِهِ ٱلصورةِ ٱلمنطقيةِ لإسقاطِ حُجَّتِهم، ونفي معنى ٱلتقديسِ عنِ ٱلماضي فيهنَّ؛ إذْ كانَ ٱلعِلْمُ دائمَ ٱلتغيُّر، وكانَ ٱلعقلُ دائمَ ٱلتجديدِ وٱلإبداع، وكانَتِ ٱلهدايةُ شديدةً على ٱلطبيعةِ ٱلحيوانيَّةِ ٱلتي هي ماضي ٱلنفس؛ فكأنَّها جديدةٌ على ٱلنفسِ عندَ كلِّ شهوة.

إنَّ ٱلإنسانَ بماضيهِ وحاضرِهِ كأنَّهُ مقسومٌ قِسمين، يقولُ أحدُهما: أُريدُ أنْ أكونَ. ويقولُ الآخر: أنا قد كنتُ. فالإسلامُ بهذِهِ ٱلآياتِ قد أوجبَ وزنَ ٱلكلمتينِ في كلِّ زمنٍ بما هُوَ ٱلأصحُّ، وبِما هوَ ٱلأنفع، وبِمَا هو ٱلأهدى؛ وبِٱشتراطِهِ ٱلهدايةَ في جميعِها أشارَ إلى أنَّ ٱلكمالَ ٱلنفسيَّ لِلفردِ يجبُ أنْ يكونَ مرتبِطاً بٱلكمالِ ٱلإنسانيِّ لِلجنس.

وهذا معنًى عجيب، وأعجبُ منه ما ترى من أنَّ ٱلإسلامَ قدْ أصلحَ فكرةَ ٱلماضي؛ فنقَلها من معنى ٱلآباءِ وٱلأجدادِ لِلناس، إلى ٱلمعاني ٱلتي هي كٱلآباءِ وٱلأجدادِ لإنسانيَّة ٱلناس. وٱلأخذُ (بالأهدى) في ٱجتماعِ أُمَّةٍ مِنَ ٱلأمم، إنَّما هو بعينِهِ ناموسُ ٱلترقِّي وٱلتطوُّر.

ومن أدَقِّ ٱلأسرارِ قولُه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ فكلمة (أُمَّة) هذه لم يعرفْها أحدٌ على حقيقتِها، ولم تُفسِّرها إلَّا علومُ هذا الزمن، فهي ٱلمشاعرُ ٱلنفسيَّةِ

ٱلتي يتكوّنُ منها مِزاجُ ٱلشعب، وفيها يستقرُّ ٱلماضي؛ كأنَّ ٱلآيةَ قد عبَّرَتْ بآخرِ ما ٱنتهى إليهِ علماءُ ٱلنفس: من أنَّ ٱلإنسانَ ٱبْنُ أبويهِ وٱبنُ شعبِهِ أيضاً.

فٱلتعصبُ في ٱلإسلامِ هو لِلعلمِ ٱلنافع، ولِلمجدِ ٱلصحيح، ولِلهدايةِ ٱلباعثةِ على ٱلكمال؛ وتعصبُ ٱلجِيلِ لِمثلِ هٰذا في ماضيه، هو في ٱسمِهِ تعصُّب، غيرَ أنَّهُ في معناهُ إنَّما هوَ ٱلعملُ لِتسليمِ مجدِ ٱلأُمَّةِ إلى ٱلجيلِ ٱلتالي.

المعجمُ السياسيّ

وحدَّثني صاحبُ سرِّ (م) باشا قال: كنّا في سنة ١٩٢٠، وهي بنتُ سنة ١٩١٩؛ وقدِ ٱجتمعَتِ ٱلأمّةُ على مُقاطعةِ لجنة (ملنر) لا تُكلِّمُها، فجعلَتِ ٱلسكوتَ ثورة، وأعلنَ ٱلشعبُ أنَّ كلمتَهُ في لِسانِ ٱلوفدِ ينطقُ ٱلوفدُ بها نطقَ ٱلنبيِّ بِمَا يُوحَى إليه، فما يكونُ لِأحدٍ غيرِهِ أنْ يقولَها، ولا أنْ يقولَ أُوحيَ إليّ. وأبى اللورد ملنر أنْ يصدّقَ أنَّ لِلمصريينَ إجماعاً يُعْتَدُّ به، وأنّهم دخلوا في ٱلسياسةِ دخولاً ثابتاً فَرَسَخُوا[1] فيها، وأنَّهم أصبحوا مَعَ ٱلإنجليز كالإنجليزِ ٱلذينَ يقولون عن أنفسِهم في مثلِهمُ ٱلسائر: ينبغي أنْ نكونَ أحراراً مثلَ أعمالِنا.

وزعمَ ٱللورد لِنفسِه، أنَّ هذه الأحزابَ ٱلمصريَّةَ لا يتَّفقُ منها ٱثنانِ أبداً إلَّا كانَ بينهما ثالثٌ يختلفانِ عليه، وهوَ ٱلطمعُ في مناصبِ ٱلحكم؛ وٱستخرجَ من ذلك أنَّ ٱلمصريَّ وٱلمصريَّ كشقي ٱلمِقراض[2]: لا يتحركانِ في عملٍ إلَّا على تمزيقِ شيءٍ بينهما؛ فإنْ لم يكنْ بينَهما (الشيءُ) لم يكنْ منهما شيء.

وذهبَ ٱلرجلُ يَتَظَنّى ويَحْدِسُ على ما يُخيِّلُ لَهُ ٱلظنّ، وقد حسِبَ أنَّ إنجلترا يحقُّ لها أنْ تقولَ في ٱلمصريينَ ما يقولُ ٱللَّهُ في خَلقِهِ كما وردَ في الأثر: «إنما يتقلّبونَ في قبضتي». وكما تقول ٱليومَ لِأهْلِ فلسطينَ مِنَ ٱلعرب: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾... وكانَ ٱللوردُ هذا رجلاً مُمارِساً لِمشاكلِ ٱلسياسة، دَخَالاً فيها، دَاهيةً من دُهاةِ ٱلقوم، لهُ في قلبِهِ عينانِ وأذنانِ غيرَ ما في وجهِهِ كحذّاقِ ٱلسياسيّين؛ وهو يعرفُ أنَّ سياسةَ قومِهِ لا تدخلُ في شيءٍ إلَّا دخولَ ٱلإبرةِ بخيطِها في ٱلثوب، إنْ خرجَتْ هي تركَتِ ٱلخيطَ وقد جَمَعَ وشدّ... فأرادَ أنْ يمتحنَ مذهبَ ٱلمصريينَ في إجماعِهم على ٱلاستقلال، وقدَّرَ أنَّهُ واجدٌ مِنَ ٱلفلاحينَ عوْناً لهُ ومادةً لِمكرِهِ ٱلسياسيّ، وحسِبَ ٱلوفدَ صورةً جديدةً من طبقةِ (ٱلباشوات) ٱلقديمة، ينزلونَ مِنَ ٱلشعبِ منزلةَ ٱليدِ ٱلتي تُمْسِكُ ٱلقيدَ، مِنَ ٱلرِّجْلِ ٱلتي فيها

---

(١) رسخوا: استقرّوا.

(٢) المقراض: المقص.

ٱلقيد، ويضعونَ معنى كلمةِ ٱلحاجةِ في كلمةِ ٱلسياسة، ويقولون: ٱلوطنُ وهم يُريدونَ ٱلجاه، ويُقيمونَ ٱلشعبَ كالسُّلَّمِ ينتصبُ قائماً بأيديهم لِيحملَ أرجلَهُمُ ٱلصاعدةَ عليه.

فجاءَ ٱللورد إلى مصر، فوجدَ ٱلأُمَّةَ كلَّها قد حَذِرَت منه وتيقظَتْ لَه، حتى نصَحَهُ رشدي باشا بأنَّهُ لَنْ يجدَ في مصرَ هِرَّةً تُفاوضُه؛ ولكنَّه كانَ مستيقناً أنَّ أذُنَ ٱلسياسةِ ٱلإنجليزية (كالرديو) لصوتين: صوتِ ٱلدنانيرِ وصوتِ ٱلجماهير، فمرَّ في ٱلبلادِ يرسمُ على ٱلهواءِ علاماتِ ٱستفهام، وٱنْصَفَقَ[1] عنهُ ٱلناسُ وأهملُوه، وكانَ يسيرُ في دائرةِ ٱلصمتِ ٱلتي مركزُها أبو الهول، فبدأَ وظلَّ يبدأُ حتى ٱنتهى وما زالَ يبدأ... وساحَ في ٱلبلادِ سِياحةً طويلة، وكأنَّهُ لم يسافرْ إلَّا من شَفَةِ أبي ٱلهولِ ٱلسُّفلى إلى شَفتِهِ العُليا.

***

قالَ صاحبُ السرِّ: وجاءَ ٱلوردُ لِمقابلةِ الباشا، فمرَّ عليَّ مرورَ كتابٍ مقفَل: لا أعرفُ منه إلَّا ٱلعُنوان؛ غيرَ أنَّهُ رجلٌ بمِقدارِ ٱلرجلِ ٱلذي يُخالفُ أُمَّةً كاملةً تكادُ تحسبُهُ مطويًّا على زوبعة، وترى لَهُ قوّتينِ تُحِسُّ من أثرِهِما ٱلرهبةَ وٱلإعجاب، وإذا تأملْتَهُ قلْتَ إنَّ ٱللطفَ وٱلظَّرْفَ أضعفُ شمائلِه، وإنَّ ٱلدَّهاءَ وٱلحيلةَ أقوى مواهبِه.

فلمَّا لقيْتُ الباشا مِنَ ٱلغد، سألني: كيف رأيْتَ ٱللورد ملنر؟ فقلْت: وٱللَّهِ يا باشا إنَّهُ كٱلضرورة: ما يتمنَّاها أحدٌ ولكنَّها تجيء...

فضحكَ ٱلباشا وقال: يا ليْتَ لنا ـ نحن ٱلشرقيينَ ـ كلَّ يوم ضرورةً تصنعُ ما صنَعَ ٱللورد؛ إنَّهُ كشفَ لنا في ذاتِ أنفسِنا عن حقيقةٍ من أسمى ٱلحقائقِ ٱلسياسيَّة: وهي أنَّ ٱلشعبَ ٱلذي يُصِرُّ ولا يزالُ يُصِرُّ يجعلُ ٱلإغراءَ لا يُغري وٱلخوفَ لا يُخيف.

ويا ليْتَ ٱلأممَ ٱلشرقيَّةَ تتعلَّمُ هذا ٱلصمتَ ٱلسياسيَّ عن مجاوبَةِ ٱلكلمةِ ٱلاستعماريَّةِ أحياناً؛ فإنَّ صمْتَ ٱلأُمَّةِ ٱلمصريَّةِ عن جوابِ (ملنر) كانَ معناهُ أنَّ قدرةَ ٱلأُمَّةِ هِيَ ٱلمتكلمةُ كلامَها بذا ٱلصمت، تُعلِنُ لِلعالمِ أنَّ ٱلواجبَ ٱلشعبيَّ قد وضعَ قُفْلَهُ على كلِّ فم.

وقد فسَّرَ ٱللورد هذا السكوتَ بتفسيرِهِ ٱلسياسيّ، فأدركَ منه أنَّ في ٱلشعبِ

---

(١) انصفق عنه الناس: تفرّقوا.

أنَفَةً وحَميَّةً وقوَّة، وأنَّ حِسابَ ٱلضميرِ ٱلوطنيِّ أصبحَ لِهذِهِ ٱلأفئدةِ كٱلحسابِ ٱلإلهيِّ لِلنفوسِ ٱلمؤمنة: كِلاهما مُسْتعلِنٌ يُخافُ ويُتَّقى، وكِلاهما كلمةٌ محرَّمة.

أيةُ معجزةٍ هذه ٱلتي جعلَتْ كلمةَ ٱلأجنبيِّ تتَّخذُ في أذهانِ أُمَّةٍ كاملةٍ شَكْلَ قائلِها، فٱجتمَعَتْ لها ٱلبلادُ على معنى ٱلرفضِ، وأصبحَ كلُّ فردٍ يعرفُ محلَّهُ مِنَ ٱلكلِّ، وخضَعتِ ٱلطبائعُ بجملتِها لِقانونِ ٱلعزةِ ٱلقوميَّة، ٱلذي يُلزِمُها ألَّا تخضعَ لِلأجنبيِّ؟

إنَّ ٱلأُمَمَ بعضُ مسائلَ نفسيَّةٍ كهذِهِ ٱلمسألة؛ فلو أنَّ لنا خمسةَ دروسٍ سياسيةٍ مختلفةٍ كدروسِ (ملنر)، لَكانَتْ لنا في ٱلإيمانِ ٱلوطنيِّ كٱلصلواتِ ٱلخمس.

واالآنَ تعلمَتِ ٱلأُمَّةُ أنَّ ٱلشعبَ ٱلعزيزَ هوَ ٱلذي ينظرُ في فَضِّ مشاكلِهِ[1] إلى ٱلحلِّ وإلى طريقةِ ٱلحلِّ أيضاً، وقد كانَ (ملنر) هو أولَ أساتذَتِنا في تعليمِنا ٱلطريقة.

وهذا ٱلدرسُ يجبُ أنْ يكونَ درساً لِلشرقِ كلِّه، فإنَّ السياسةَ ٱلاستعماريَّة قائمةٌ فيهِ على خِداعِ ٱلطريقةِ في حلِّ مشاكلِهِ، فيحلونها ويُعقِّدُونَها في نصٍّ واحد؛ ويُثبتُ ٱلكلامُ ٱلذي يتَّفقون عليهِ أنَّ ٱلمُرادَ منه زوالُ ٱلخِلاف، ويُثبتُ ٱلعملُ بعدَ ذلك أنَّ ٱلمُرادَ كانَ زوالَ ٱلمقاومة.

وفي ٱلسياسةِ ٱلأوربيَّة موافقاتٌ دميمةٌ[2] كٱلنساءِ ٱلمشوَّهات، فإذا عرضوا واحدةً منها على مَنْ يُريدون أنْ يزوّجوه... فأباها وفتَح لها عينيهِ بكلِّ ما فيهما من قوةِ ٱلإبصار، أعفَوْهُ منها وقالوا له: سنأتيكَ بالجميلةِ، ثُمَّ يذهبونَ بها إلى معهدِ ٱلتجميلِ ٱللغوي، فيصقلونها ويصبغونها، ويضعونَ لها أحمرَ ٱلسياسةِ وأبيضَها، ثُمَّ يعرضونَها جديدةً على صاحبِهم ذاك، وما صنعوا ما بِهِ صارَتِ ٱلدميمةُ غيرَ دميمة، ولكنَّ ما بِهِ رجعَ غيرُ ٱلأعمى كٱلأعمى.

ولهم عقولٌ عجيبةٌ في ٱختراعِ ٱلألفاظ، حتى لَتكونُ شِدَّةُ ٱلوضوح في عِبارة، هي بعينِها ٱلطريقةَ لإخفاءِ ٱلغموضِ في عبارةٍ أخرى. وكثيراً ما يأتونَ بألفاظٍ منتفخةٍ تُحسَبُ جَزْلَةً بادنةً قد ملأها معناها، وهي في ٱلسياسةِ ألفاظٌ حُبالى، تَستكمِلُ حملَها مدةً ثُمَّ تلِد.

---

(1) فضّ مشاكله: حلّها.

(2) دميمة: بشعة.

ولهم من بعضِ ٱلكلماتِ ٱلسياسيَّة، كما لهم من بعضِ ٱلرجالِ ٱلسياسيِّين؛ فيكونُ ٱلرجلُ من دُهاتِهم رجلاً كٱلناس، وهو عندَهم مِسْمَارٌ دَقُّوهُ في أرضٍ كذا أو مملكةِ كذا، ويكونُ ٱللفظُ لفظاً كٱللغة، وهو مِسمارٌ دقّوهُ في وثيقةٍ أو مُعاهدة.

ثُمَّ ضحكَ ٱلباشا وقال: إنَّ أرضَنا تُخرِجُ ٱلقطن، وسياستَنا تُخرج ألفاظاً كٱلقطن: لا تُوضعُ في ٱلمِغزَل إلَّا مَدَّتْ وتحوَّلَتْ. وإذا ذهبْنَا نُخالفُهم في ٱلتأويلِ وٱلتفسير، لم نجدْ عندنا ٱلمعجمَ ٱلسياسيَّ ٱلذي يُملي ٱلنصّ. أتدري يا بُنيَّ ما هو ٱلمعجمُ ٱلسياسيّ؟

أمَا إنَّهُ لو كانَ كتاباً يتألفُ من مليونِ كلمة، لَذهبَتْ كلُّها عبثاً وباطلاً وهُراء، ولكنَّهُ ذلك ٱلمعجمُ ٱلحيُّ، ذلك ٱلمعجمُ ٱلذي يتألَّفُ من مليونِ جندي...

اللسانُ المُرقَّع

وقالَ صاحبُ سرِّ (م) باشا: جاءَ «حضرةُ صاحبِ ٱلسعادة» فلانٌ لِزيارةِ ٱلباشا؛ وهو رجلٌ مِصريٌّ وُلِدَ في بعضِ ٱلقُرى، ما نعلمُ أنَّ ٱللَّهَ (تعالى) ميَّزهُ بجوهرٍ غيرِ ٱلجوهر، ولا طَبْعٍ غيرِ ٱلطبْع، ولا تركيبٍ غيرِ ٱلتركيب، ولا زادَ في دمِهِ نقطةَ زهوٍ، ولا وضعَهُ موضِعَ ٱلوسطِ بينَ فنَّينِ مِنَ ٱلخليقة. غيرَ أنَّهُ زارَ فرنسا، وطافَ بإنجلترا، وساحَ في إيطاليا، وعاجَ على ألمانيا، ولوَّنَ نفسَهُ ألواناً، فهو مصريٌّ ملوَّن. ومن ثُمَّ كانَ لا يرى في بِلادِهِ وقومِهِ إلَّا ٱلفروقَ بين ما هنا وبين ما هناك. فما يظهرُ له دينُ قومِهِ إلَّا مُقابلاً لِشهواتٍ أحبَّها وغامرَ فيها، ولا لغةُ قومِهِ إلَّا مقرونةً بلغةٍ أخرى ودَّ لو كانَ من أهلِها، ولا تاريخُ قومِهِ إلا مغمًى عليه.. كالميتِ بينَ تواريخِ ٱلأُمَم.

هو كغيرِهِ من هؤلاءِ ٱلمترفينَ ٱلمنعَّمين: مصريُّ ٱلمالِ فقط، إذْ كانَتْ أسبابُهم ومستَغَلّاتُهم في مِصر؛ عربيُّ ٱلاسمِ لا غير، إذْ كانَتْ أسماؤُهم من جِنايةِ أهليهم بٱلطبيعة؛ مُسلمُ ما مضى دونَ ما هو حاضر، إذْ كانَ لا حِيلةَ في أنسابِهِمُ ٱلتي ٱنحدروا منها.

هو كغيرِهِ من هؤلاءِ ٱلمترفينَ ٱلمنعَّمينَ ٱلمفتونينَ بالمدنيَّةِ: لِكُلٍّ منهم جنسُهُ ٱلمِصريُّ ولِفكرِهِ جنسٌ آخر.

قال: وكان حضرةُ صاحبِ ٱلسعادةِ يُكلِّمُ ٱلباشا بِٱلعربيةِ ٱلتي تلعنُها ٱلعربية، مرتفِعاً بها عن لغةِ ٱلفصيحِ ٱرتفاعاً. منحطًّا... نازلاً بها عن لغةِ ٱلسُّوقةِ نزولاً عالياً... فكان يرتضِخُ لُكْنَةً أعجميةً[1]، بينَا هي في بعضِ ٱلألفاظِ جرسٌ عالٍ يطنُّ، إذا هي في لفظٍ آخرَ صوتُ مريضٍ يئنّ، إذا هي في كلمةٍ ثالثةٍ نغمٌ موسيقيٌّ يرنّ. ورأيْتُهُ يتكلَّفُ نسيانَ بعضِ ٱلجُمَلِ ٱلعربيَّةِ لِيلويَ لِسانَهُ بغيرِها مِنَ ٱلفرنسيَّة، لا تظرُّفاً ولا تملُّحاً ولا إظهاراً لِقدرةٍ أو عِلْم، ولكنِ ٱستجابةً لِلشعورِ ٱلأجنبيِّ ٱلخفيِّ

(١) يرتضخ لُكْنة أعجمية: يلهج لهجة أوروبية.

ٱلمتكنِ في نفسِه. فكانَتْ وطنيَّةُ عقلِهِ تأبى إلَّا أنْ تُكذِّبَ وطنيَّةَ لِسانِه، وهو بإحداهِما زائفٌ على قومِه، وبالأخرى زائفٌ على غيرِ قومِه.

* * *

فلمَّا ٱنصرفَ ٱلرجلُ قالَ الباشا: أفٍّ لِهذا وأمثالِ هذا! أفٍّ لهم ولِمَا يصنعون! إنَّ هذا ٱلكبيرَ يُلقِّبونَهُ «حضرة صاحب السعادة»، ولأَشرفُ منهُ ـ واللَّهِ ـ رجلٌ قَرويّ ساذجٌ يكونُ لقبُهُ «حضرة صاحب الجاموسة»... نعم إنَّ ٱلفلاحَ عندَنا جاهلُ عِلْم، ولكنَّ هذا أقبحُ منه جهلاً، فإنَّهُ جاهلُ وطنيَّة.

ثُمَّ إنَّ ٱلجاموسةَ وصاحبَها عاملانِ دائبانِ مخلصانِ لِلْوطن؛ فما هو عملُ حضرةِ (صاحبِ اللسانِ المرقَّع) هذا؟ إنَّ عملَهُ أنْ يُعلِنَ برطانتِهِ[1] الأجنبيَّةِ أنَّ لغةَ وطنِهِ ذليلةٌ مَهِينة، وأنَّهُ مُتجرِّدٌ مِنَ ٱلروحِ ٱلسياسيِّ لِلغةِ قومِهِ؛ إذْ لا يظهرُ ٱلروحُ ٱلسياسيُّ لِلغةٍ ما، إلَّا في ٱلحِرْصِ عليها وتقديمِها على سِواها.

كانَ ٱلواجبُ على مثلِ هذا أَلَّا يتكلَّمَ في بلادِهِ إلَّا بِلُغتِه، وكانَ ٱلذي هو أوجبُ أنْ يتعصَّبَ لها على كلِّ لُغةٍ تُزاحِمُها في أرضِها، فتركَ هذا وهذا وكانَ هو ٱلمزاحمَ بنفسِه؛ فهو على أنَّهُ «حضرة صاحب سعادة»، لا يُنزِلُ نفسَهُ مِنَ ٱللغةِ ٱلقوميةِ إلَّا مَنزِلةَ خادمٍ أجنبيٍّ في حانة.

أَتدري ما هو سِرُّ هؤلاءِ ٱلكُبراءِ وهؤلاءِ ٱلسَّراةِ ٱلذين يُطمْطِمون[2] إذا تكلموا فيما بينَهم؟ إنَّهُم عندَنا طبقات:

أمَّا واحدةٌ، فإنَّهم يصنعونَ هذا ٱلصنيعَ منجذبينَ إلى أصلٍ راسخ في طِباعِهِم، مِمَّا تركَهُ ٱلظلمُ وٱلاستبدادُ وٱلحمقُ في زمنِ ٱلحكمِ ٱلتركيّ؛ فهم يُبْدون جوهرَ نفوسِهِم لِأعينِهم وأعينِ ٱلناس، كأنَّ ٱللغةَ ٱلأجنبيَّةَ فيما بينَهم علامةُ ٱلحكمِ وٱلسلطةِ وٱحتقارِ ٱلشعبِ وٱستمرارِ ذلك ٱلحمقِ في ٱلدم... وهم بها يتنبَّلون[3].

وأمَّا طبقة، فإنَّهم يتكلَّفون هذا مِمَّا في نفوسِهِم من طِباعٍ أحدثَها ٱلنِّفاقُ وٱلخضوعُ وٱلذلُّ ٱلسياسيُّ في عهدِ ٱلاحتلالِ ٱلإنجليزي؛ فٱللغةُ الأجنَبيَّةُ بينَهم تشريفٌ وٱعتبار، كأنَّهم بها من غيرِ ٱلشعبِ ٱلمحكومِ ٱلذي فقدَ ٱلسلطة، وهم بها يتمجَّدون.

---

(١) رطانة: لهجة.

(٢) يطمطمون: يجعلون في ألسنتهم عجمة وكلمات منكرة.

(٣) يتنبلون: يرتفعون.

وأمَّا جماعة، فإنَّهم يتعمَّدون هذا يُريدُون بِهِ عيبَ ٱللغةِ ٱلعربيَّةِ وتهجينَها(١)، إذِ ٱتخذوا مِنْ عداوةِ هذه ٱللغةِ طريقةً ٱنتحلوها(٢) ومذهباً ٱنتسبوا إليه، وفيهمُ ٱلعالمُ بعلومِ أوربا، وٱلأديبُ بأدبِ أوربا؛ وذلك من عداوتِهم لِلدينِ ٱلإسلاميِّ، إذْ جعلَ هذه ٱللغةَ حكومةً باقيةً في بِلادِهم مَعَ كلِّ حكومةٍ وفوقَ كلِّ حكومة؛ وهم يزدرون هذا ٱلدينَ ويُسقطونَ عنْ أنفسِهم كلَّ واجباتِه. وهؤلاءِ قد خلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً، إذْ يُغلونَ في مِصريَّتِهم غلوًّا قبيحاً ينتهي بهم إلى سفهِ ٱلآراء، وخِفَّةِ ٱلأحلام، وطيشِ ٱلنزعات، فيما يتَّصِلُ بالدينِ ٱلإسلاميِّ وآدابِهِ ولُغتِه. وما أرى ٱلواحدَ منهم إلَّا قد غطَّى وصفَهُ من حيثُ هو رقيعٌ، على وصفِهِ من حيثُ هو عالمٌ أو أديبٌ أو ما شاء. إنَّ هذا لَمقتٌ ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

ومن أثرِ تلك ٱلفِئاتِ ٱلثلاثِ نشأَتْ فِئةٌ رابعة، تحوَّلَ فيهم ذلك ٱلخلْطُ مِنَ ٱلكلامِ إلى طريقةٍ نفسيَّةٍ في ٱلنفس؛ فهم يُقحِمونَ(٣) في كِتابتِهم وحديثِهمُ ٱلكلماتِ ٱلأجنبيَّة، ويحسبون عملَهُم هذا تظرُّفاً ومُعابثةً ومُجوناً، على أنَّهُ هو ٱلذي يُظهِرُ لِعينِ ٱلبصيرِ مواضِعَ ٱلقطعِ ٱلتاريخيِّ في نفوسِهم، وأماكنَ ٱلفسادِ ٱلقوميِّ في طبيعتِهم، وجِهاتِ ٱلتحلُّلِ ٱلدينيِّ في ٱعتقادِهم. هؤلاءِ يكتب أحدُهم: (النرفزة) وهو قادرٌ أنْ يقولَ ٱلغضب، (والفلير) وهو مستطيعٌ أنْ يجعلَ في مكانِها ٱلمُغازلة، (وسكالنس) وهو يعرفُ لفظةَ أنواعٍ وألوان، وهكذا وهكذا؛ ولا ـ واللَّهِ ـ أنْ تكونَ ٱلمسافةُ بينَ ٱللفظينِ إلَّا ٱلمسافةَ بعينِها بينَ قلوبِهم ورُشدِ قلوبهم.

وما برِحَ ٱلتقليدُ ٱلسخيفُ لا يَعرِفُ له باباً يَلِجُ منه إلى ٱلسُّخفاءِ إلَّا بابَ ٱلتهاونِ وٱلتسامح؛ ونحنُ قومٌ ٱبتُلِينَا بتزويرِ ٱلعُيوبِ على أنفسِنا وعدِّها في ٱلمحاسنِ وٱلفضائل، من قِلّةِ ما فينا مِنَ ٱلفضائل وٱلمحاسن. وبهذه ٱلطبيعةِ ٱلمعكوسةِ نُحاولُ أنْ نقتبسَ من مزايا الأوربيِّين، فلا نأخذُ أكثرَ ما نأخذُ إلَّا عيوبَهم، إذْ كانَتْ هيَ ٱلأسهلَ علينا، وهيَ ٱلأشكلُ بطبعِنا ٱلضعيفِ ٱلمتسامحِ ٱلمتهاون.

---

(١) تهجينها: تقبيحها.

(٢) انتحلوها: اتخذوها نِحلة وعملاً.

(٣) يقحمون: يدخلون بالقوّة.

ومن هذا تجدُ مشاكلَنا ٱلاجتماعيَّة ـ على أنَّها أهونُ وأيسرُ من مشاكلِ ٱلأوربيِّين، وعلى أنَّ في دينِنا وآدابِنا لِكلٍّ مُشكلةٍ حلّها ـ تجدُها هي علينا أصعبَ وأشدَّ، لِأنَّنا ضعفاءُ ومتخاذلون ومقلِّدون ومفتونون، وكلُّ ذلك من شيءٍ واحد: وهو أنَّ أكثرَ كُبرائِنا هم أكبرُ بلائِنا.

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرّ: ثُمَّ ضحكَ الباشا ضحكتَهُ ٱلساخرةَ وقال: كيف تصنعُ أُمَّةٌ يكونُ أكثرُ ٱلعاملين هم أكبرَ ٱلعاطلين، إذْ يعملون ولكنْ بروحٍ غيرِ عاملة..

سرُّ القُبَّعَة

وحدَّثني صاحبُ سرٍّ (م) باشا، قال: نَجَمَتْ[1] في مصرَ حركةٌ بِعقِبِ أيّام ٱلبِدعةِ ٱلتركيَّة، حينَ لم تبقَ لِشيءٍ هناك قاعدةٌ إلّا ٱلقاعدةَ ٱلواحدةَ ٱلتي تُقرِّرُهَا ٱلمشانق. . . فمَنْ أبى أنْ يخلعَ ٱلعِمامةَ عن رأسِهِ خلعوا رأسَه؛ ومَنْ قال (لا) أنقلبَتْ (لا) هذه مشنقةً فعُلِّقَ فيها.

وكانَتْ فكرةُ ٱتخاذِ ٱلقبَّعةِ في تركيا غِطاءً لِلرأس، قد جاءَتْ بعدَ نَزَعاتٍ من مثلِها كما يجيءُ ٱلحِذاءُ في آخرِ ما يلبسُ ٱللابس، فلم يشكَّ أحدٌ أنَّها ليسَتْ قبَّعةً على ٱلرأسِ أكثرَ مِمَّا هي طريقةٌ لِتربيةِ ٱلرأسِ ٱلمسلم تربيةً جديدةً، ليسَ فيها ركعةٌ ولا سَجْدة؛ وإلَّا فنحنُ نرى هذه ٱلقُبَّعةَ على رأسِ ٱلزنجيِّ وٱلهمَجيِّ، وعلى رأسِ ٱلأبلهِ وٱلمجنون، فما رأيْناها جعلَتِ ٱلأسودَ أبيض، ولا عرفْناها نقلَتْ همجياً عن طبعِه، ولا زعمَ أحدٌ أنَّها أكملَتِ ٱلعقلَ ٱلناقصَ أو ردَّتِ ٱلعقلَ ٱلذاهب، أوِ ٱنقلبَتْ آلةً لِحلِّ مُشكلاتِ ٱلرأسِ ٱلبليد، أو غَصَبَتِ ٱلطبيعةَ شيئاً وقالتْ: هذا لِحاملي دون حاملِ ٱلطربوشِ وٱلعِمامة.

وقدِ ٱحتجُّوا يومئذٍ لِصاحبِ تلك ٱلبِدعةِ أنَّهُ لا يرى ٱلوجهَ إلَّا ٱلمدنيَّة، ولا يعرفُ ٱلمدنيّةَ إلّا مدنيّةَ أوربا، فهو يمتثِلُها كما هي في حسناتِها وسيئاتِها، وما يَحِلُّ وما يَحْرُمُ وما يكونُ في حاجةٍ إليهِ وما يكونُ في غِنًى عنه؛ حتى لو أنَّ الأوربيّينَ كانوا عُوراً بٱلطبيعة، لَجعلَ هو قومَهُ عُوراً بِٱلصناعةِ لِيُشبهوا ٱلأوربيِّين. نعم إنَّها حُجَّةٌ تامَّةٌ لولا نقصٌ قليلٌ في ٱلبرهان، يُمكنُ تلافيهِ بإخراجِ طبعةٍ جديدةٍ من كتبِ ٱلفُتوحِ ٱلعثمانيَّة، يظهرُ فيها ٱلخُلفاءُ ٱلعِظامُ وٱلأبطالُ ٱلمغَاويرُ ٱلذين قهروا ٱلأروبيّين لابسينَ قُبَّعاتٍ، لِيُشبهوا ٱلأوربيِّين. . .

قالَ صاحبُ ٱلسرِّ: وتهوَّرَ في هذه ٱلضلالةِ رَهْطٌ من قومِنا، وأخذوا يدَّعون إلى التقبُّعِ في مصرَ ٱحتذاءً لِتركيّا، وذهبَ بعضُهم إلى سعدِ باشا (رحمه الله) يطلبُ

---

(١) نجمت: ظهرت.

رأيه، فكانَ رأيُهُ (لا) بمدِّ ٱلألف. . . وعهدَ إليَّ بعضُهم أن أسألْ الباشا، فقال:

ويْحَهُم! ألَا يخجلون أنْ نكونَ ـ نحن ٱلمصريين ـ مقلِّدين لِلتقليدِ نفسِه؟ إنَّ هذه بِدْعةٌ تنحطُّ عندَنا درجةً عنِ ٱلأصل، فكأنَّها بِدعتان. ثُمَّ ضحك ٱلباشا وقالَ: كانَ في ٱلقديم رجلٌ سمعَ أنَّ ٱلبصلَ بِٱلخلِّ نافعٌ لِلصفراء، فذهبَ إلى بُستانٍ يملكُهُ وقالَ لِوكيلِهِ: ازرعْ لي بصلاً بخلّ. . . هكذا يُريدون مِنَ ٱلقبعات: أنْ تُخَرِّجَ لهم تُركاً بأوربيّين.

ليسَتْ هذه ٱلقبعةُ في تركيا هيَ ٱلقبعة، بل هي كلمةُ سبٍّ لِلعربِ وردٌّ على ٱلأسلام. ضاقَتْ بِها كلُّ ٱلأساليبِ أنْ تُظهِرَها واضحةً بيِّنَة، فلم يَفِ بها إلَّا هذا ٱلأسلوبُ وحْدَهُ. وهي إعلانٌ سياسيٌّ بِٱلمناوأةِ وٱلمخالفةِ وٱلانحرافِ عنَّا وَٱطِّراحِنا. فإنَّ ٱلذي يخرجُ من أُمَّتِهِ لا يخرجُ منها وهو في ثِيابِها وشِعارِها؛ فبهذا انتفحَ لهم بابُ ٱلخروج في ٱلقبعةِ دون غيرِها مِمَّا يجري فيهِ ٱلتقليدُ أو يُبدِعُهُ ٱلابتكار؛ وإلَّا فأيُّ سرٍّ في هذه ٱلقبعات، ومتى كانتِ ٱلأُمَمُ تُقاسُ بمقاييسِ ٱلخياطين. . . .؟

هٰهنا سيفٌ أرادَ أنْ يكونَ مِقَصًّا فعملَ أولاً ما يعملُ ٱلحُسامُ ٱلبَتَّار، فأجادَ وأبدعَ وأَكبرَهُ ٱلناسُ وأعظموه؛ ثُمَّ صنعَ ما يصنعُ ٱلمِقصُّ، فماذا عساهُ يأتي بِهِ إلَّا ما يُنكِرُهُ ٱلأبطالُ وٱلخيَّاطونَ جميعاً؟

أَكُتِبَ علينا أنْ نظلَّ دهرَنا نبحثُ في ٱلتقليدِ الأَعمى، وألّا يَحيا ٱلشرقيُّ إلَّا مستعبَداً ينتظرُ في كلِّ أمورِهِ مَنْ يقولُ لَه: اِشْرَعْ لي. . .؟ إنْ بحثْنَا فلْنَبْحثْ في زيٍّ جديدٍ نتميَّزُ بِه، فتكونَ ٱلقُوى ٱلكامنةُ فينا وفي طبيعةِ أرضِنا وجوِّنا هيَ ٱلتي ٱخترعَتْ لِظاهرِها ما يجعلُهْ ظاهرَها. كما يُخرِجُ زَوْرُ ٱلأسدِ لِبُدَةَ ٱلأسد. غايةً في ٱلمنفعةِ وٱلجمالِ والمُلاءَمَة.

أنا ألبسُ ما شئْت، ولكنِّي عندَ ٱلسَّعةِ أَجِدُ حدًّا تقفُ إليهِ ذاتيَّتي ٱلفرديَّةُ، فلا أرى ثَمَّةَ موضعِ ٱنفرادٍ ولكنْ مَوضعَ مُشاكلة، ولا أعرفُ صِفةَ منفعةٍ لي بلْ صِفةَ حقيقةٍ مِنِّي، ويعترضُني من هناكَ ٱلمعنى ٱلذي يَصيرُ بِهِ ٱلنوعُ إلى ٱلجنسِ. وٱلواحدُ بلِ ٱلجماعةُ وما دمْتُ مسلِماً أُصلِّي وأركعُ وأسجد، فٱلقبعةُ نفسُها تقولُ لي: دعني فلسْتُ لك.

وهؤلاءِ ٱلرجالُ ٱلذين لبسوها في مصر، إنَّما ٱشتقُّوها مِنَ ٱلمصدرِ نفسِ

ٱلمصدرِ ٱلذي يَخرجُ منه ٱلهتكُ في ٱلنساء، وكِلاهما مَنزَعٌ مِنَ ٱلمُخالفة، وكِلاهما ضِدٌّ من صِفةٍ ٱجتماعيَّةٍ تقومُ بها فضيلةٌ شرقيَّةٌ عامة. وليسَ يَعدمُ قائلٌ وجهاً مِنَ القولِ في تزيينِ ٱلقبعة، ولا مذهباً مِنَ ٱلرأيِ في ٱلاحتجاجِ لها، غيرَ أنَّ ٱلمذاهبَ ٱلفلسفيَّةَ لا يُعجزُها أنْ تُقيمَ لك ٱلبرهانَ جَدَلًا[1] محضاً على أنَّ حياءَ ٱلمرأةِ وعفَّتَها إنْ هما إلَّا رذيلتانِ في ٱلفنّ. . . وإنْ هما إلَّا مرضٌ وضعف، وإنْ هما إلَّا كيتَ وكيت، ثُمَّ تنتهي ٱلفلسفةُ إلى عدِّهِما مِنَ ٱلبلاهةِ وٱلغفلة، وما ٱلغفلةُ وٱلبلاهةُ إلَّا أنْ تُريدَ فلسفةٌ من فلسفاتِ ٱلدنيا أنْ تُقْحِمَ في كتابِ ٱلصلاةِ مثلاً فصلاً في. . . في. . . في ٱلدَّعارة.

لا يهولنَّك[2] ما أُقرِّرُ لك: من أنَّ ٱلقُبَّعةَ ٱلأوربيَّةَ على رأسِ ٱلمسلم ٱلمصريّ، تهتُّكٌ أخلاقيٌّ أو سِياسيٌّ أو دِينيٌّ أو من هذه كلِّها معاً، فإنَّكَ لَتعلَمُ أنَّ ٱلذينَ لبسوها لم يلبسوها إلَّا منذُ قريب، بعدَ أنْ تهتَّكَتِ ٱلأخلاقُ ٱلشرقيَّةُ ٱلكريمةُ وتحلَّلَ أكثرُ عُقَدِها، وبعدَ أنْ قارَبتِ ٱلحريَّةُ ٱلعصريَّةُ بينَ ٱلنقائضِ حتى كادَتْ تختلِطُ ٱلحدودُ ٱللغويَّة؛ فحريَّةُ ٱلمنفعةِ مثلاً تجعلُ ٱلصادقَ وٱلكاذبَ بمعنًى واحد، فلا يُقال: إلَّا أنَّهُ وجدَ منفعتَهُ فصدق، ووجدَ منفعتَهُ فكذب؛ وعندَ ٱلحريَّةِ ٱلعصريَّةِ أنَّهُ ما فرَّق بينَ ٱللفظينِ وجعلَ لِكلٍّ منهما حدوداً إلَّا جهلُ ٱلقدماء، وفضيلةُ ٱلقدماء، ودينُ ٱلقدماء. وهذه ٱلثلاثة: ٱلجهلُ وٱلفضيلةُ وٱلدين، هي أيضاً في ٱلمعجمِ ٱللغويِّ ٱلفلسفيِّ ٱلجديدِ مُترادِفاتٌ لِمعنًى واحد، هوَ ٱلاستعبادُ أوِ ٱلوهمُ أو ٱلخرافة.

ومتى أُزيلتِ ٱلحدودُ بينَ ٱلمعاني، كانَ طبيعيًّا أنْ يلتبسَ شيءٌ بشيءٍ وأنْ يَحلَّ معنًى في موضعِ معنًى غيرِه، وأصبحَ ٱلباطلُ باطلاً بسببٍ وحقًّا بسببٍ آخر، فلا يحكمُ ٱلناسَ إلَّا مجموعةٌ مِنَ ٱلأخلاقِ ٱلمتنافرة، تجعلُ كلَّ حقيقةٍ في ٱلأرضِ شُبْهةً مزوَّرةً عندَ مَنْ لا تكونُ من أهوائِهِ ونزَعاتِهِ، فيحتاجُ ٱلناسُ بالضرورةِ إلى قوَّةٍ تفصِلُ بينَهم فَصْلاً مسلَّحاً، فيكْسِبون ٱلقانونَ بمدنيَّتِهم قوَّةً همجيَّةً تضطرُّهُ أنْ يُعِدَّ لِلوحشيَّةِ ٱلإنسانيَّة، وتدفعُ هذه ٱلوحشيَّةَ أنْ تُعِدَّ له.

ومِنِ ٱختلاطِ ٱلحدودِ تجيءُ ٱلقبعةُ على رأسِ ٱلمسلم، وما هي إلَّا حدٌّ يطمِسُ حدًّا، وفِكرةٌ تهزمُ فِكرة، ورذيلةٌ تقولُ لِفضيلة: هأنذي قد جِئْتُ فٱذهبي.

---

(١) جدلاً محضاً: نقاشاً خالصاً. (٢) لا يهولنك: لا يُرعبنك.

ما هو ٱلأكبرُ من شيئينِ لا حدَّ بينَهما لِتعيينِ ٱلصِّغر؛ وما هو ٱلأصغرُ من شيئينِ لا حدَّ بينَهما لِتعيين ٱلكِبَر؟ إنَّها ٱلفوضى كما ترى ما دامَ ٱلحدُّ لا موضعَ لَهُ في ٱلتمييِّزِ ولا مقرَّ لَهُ في ٱلعُرفِ ولا فصلَ بهِ في ٱلعادةِ؛ ومن هنا كانَ ٱلدينُ عندَ أقوامٍ أكبرَ كلماتِ ٱلإنسانيَّةِ في عامَّةِ لغاتِها وأملأَها بٱلمعنى، وكانَ عندَ آخرينَ أصغرَها وأفرغَها مِنَ ٱلمعنى؛ وما كَبُرَ عندَ أولئك إلَّا من أنَّهُ يسعُ ٱلاجتماعَ ٱلإنسانيَّ وهو محدودٌ بغاياتِهِ ٱلعُلْيا، وما صَغُرَ عندَ هؤلاءِ إلَّا بأنَّ ٱلاجتماعَ لا يسعُهُ فلا حدَّ لَه، وكأنَّهُ معنًى مُتوهَّمٌ لا وجودَ لَهُ إلَّا في أحرفِ كلمتِه.

فجماعةُ ٱلقبعةِ لا يَرَوْنَ لِأنفسِهم حدًّا يحدونها بِهِ من أخلاقِنا أو دينِنا أو شرقيَّتِنا، وقد مَرَقُوا من كلِّ ذلك وأصبحوا لا يَرَوْنَ في زِيِّنا ٱلوطنيِّ ما فيهِ من قوَّةِ ٱلسرِّ ٱلخفيِّ ٱلذي يُلهمُنا ما أودعَهُ ٱلتاريخُ من قوميتِنا ومعاني أسلافِنا.

وأنا أعرفُ أنَّ مِنَّا قوْماً يرى أحدُهم في ظنِّ نفسِهِ أنَّهُ قانونٌ من قوانينِ ٱلتطوّر؛ فهو فيما يُلابِسُهُ لا ينظرُ إلى أنَّهُ واحدٌ مِنَ ٱلناس، بلْ واحدٌ مِنَ ٱلنواميس... ومن هنا ٱلثِّقَلُ وٱلدعوى ٱلفارغةُ، وما هو أكبرُ مِنَ ٱلثقلِ وفراغ ٱلدعوى. وإنَّه لَحقٌّ أنْ يكونَ بعضُ ٱلناسِ أنبياء، ولكنْ أقبحُ ما في الباطلِ أنْ يظنَّ كلُّ إنسانٍ نفسَهُ نبيًّا.

وٱعلمْ أنَّ كثيراً مِمَّا يُزيِّنونهُ لِلشرقيِّ من رذائلِ ٱلمدنيَّةِ ٱلأوربيَّة، فترى كلاماً تَحتهُ معانٍ ومعانٍ لا يعدُّها غيرُ ٱلجائعِ إلَّا حماقةَ ساعتِها...

سعد زغلول

وقالَ صاحبُ سرِّ (م) باشا: أَلقى إليّ ٱلباشا ذاتَ يوم أنَّ (سعداً) مُصَبِّحُنا زائراً، وكانَتْ بينَ ٱلرجُلينِ خاصةٌ وأسبابٌ وطِيدةٌ[1]. ولِلباشا موقعٌ أعرفُهُ من نفسِ سعدٍ كما أعرفُ ٱلشُّعلةَ في بركانِها؛ أمَّا سعدٌ فكانَ قدِ ٱنتهى إلى ٱلنهايةِ ٱلتي جعلَتْهُ رجلاً في إحدى يديهِ ٱلسِّحرُ وفي ٱلأخرى ٱلمعجِزة، فهو من عُظماءِ هذهِ ٱلبلادِ كقاموسِ ٱللغةِ من كلماتِ ٱللغةِ: يُرَدُّ كلُّ مُفْرَدٍ إليهِ في تعريفِه، ولا تصحُّ ٱلكلمةُ عندَ أحدٍ إلَّا إذا كانَتْ فيهِ ٱلشهادةُ على صحتِها.

وجاءَنا سعدٌ غُدْوَةً، فأسرعْتُ إلى تقبيلِ يدِهِ قبلةً لا تُشبِهُها ٱلقُبلات، إذْ مُثِّلَتْ لي من فرحِها كأنَّها كانَتْ منفيَّةً ورجعَتْ إلى وطنِها ٱلعزيزِ حينَ وُضعَتْ على تلك ٱليد.

إنَّ ٱلرجلَ ٱلعظيمَ إذا كانَ بارًّا بأبيهِ عارفاً قدرَهُ مُدرِكاً عظمته، يشعرُ حينَ يُقبِّلُ يدَ أبيهِ كأنَّهُ يسجدُ بروحِهِ سجدةً لِلَّهِ على تلك ٱليدِ ٱلتي يُقبِّلُها، ويجدُ في نفسِهِ ٱتصالاً كهربائيًّا بين قلبِهِ وبينَ سرِّ وجودِه، ويَخُصُّهُ ٱلعالَمُ بلمسةٍ كأنَّ قُبلتَهُ نبضَتْ في ٱلكون: وكلُّ هذا قد أحسسْتُهُ أنا في تقبيلي يدَ سعد، وزِدْتُ عليهِ شعوري بمثلِ ٱلمعنى ٱلذي يكونُ في نفسِ ٱلبطلِ حينَ يُقبِّلُ سيفَهُ ٱلمنتصِر.

وضحكَ لي سعد باشا ضحكتَهُ ٱلمعروفة، ٱلتي يبدأُها فمُه، وتُتِمُّها عيناه، ويشرحُها وجهُهُ كلُّه، فتجِدُ جوابَها في روحِكَ كأنَّهُ في روحِكَ ألقاها.

وٱلرجلُ مِنَ الناسِ إذا نظرَ إلى سعدٍ وهو يبتسِم، رأى لَهُ ٱبتسامةً كأنَّها كمالٌ يتواضع، فيُحسُّ كأنَّ شيئاً غيرَ طبيعيٍّ يتَّصلُ منه بشيءٍ طبيعيّ، فينتعشُ ويَثِبُ في وجودِهِ ٱلروحيِّ وثبةً عاليةً تكونُ فرَحاً أو طرَباً أو إعجاباً أو خُشوعاً أو كلَّها معاً. غيرَ أنَّ ٱلرجلَ مِنَ ٱلحُكماءِ إذا تأملَ وجهَ سعدٍ، وهو يضحكُ ضحكتَهُ ٱلمطمئنَّةَ ٱلمتمكِّنةَ من معناها ٱلمقرِّ أوِ ٱلمنكِرِ أوِ ٱلساخِرِ أو أيِّ ٱلمعاني ـ حسِبَ نفسَهُ يرى

---

(١) أسباب وطيدة: علائق ووشائج قوية.

شكلاً مِنَ ٱلقولِ لا مِنَ ٱلضحك، وظهرَتْ لَهُ تلك ٱلابتسامةُ ٱلفلسفيَّةُ متكلِّمةً، كأنَّها مرةً تقول: هذا حقيقيّ. ومرّةً تقول: هذا غيرُ حقيقيّ.

إنَّ سعداً ٱلعظيمَ كانَ رجلاً ما نظرَ إليهِ وطنيٌّ بعينٍ فيها دلائلُ أحلامِها، كأنَّما هو شخصُ فكرةٍ لا شخصُ إنسان؛ فإذا أنت رأيتَهُ كانَ في فِكْرِك قبلَ أنْ يكونَ في نظرِك؛ فأنت تَشهدُهُ بنظرين: أحدهُما ٱلذي تُبصِرُ بِه، والآخرُ ذاك ٱلذي تُؤْمِنُ بِه.

عبقريٌّ كٱلجمرةِ ٱلملتهبةِ لا تحسبُهُ يعيشُ بلْ يحترقُ ويُحرق؛ ثائرٌ كٱلزلزلةِ فهو أبداً يرتجُّ وهو أبداً يَرُجُّ ما حولَه؛ صريحٌ كَصراحةِ ٱلرُّسُل، تلك ٱلتي معناها أنَّ ٱلأخلاقَ تقولُ كلمتَها.

رجلُ ٱلشعبِ ٱلذي يُحِسُّ كلُّ مِصريٍّ أنَّهُ يملكُ فيهِ مِلكاً مِنَ ٱلمجد. وقد بلغَ في بعضِ مواقفِهِ مبلغَ ٱلشريعة، فٱستطاعَ أنْ يقولَ لِلناس: ضعوا هذا ٱلمعنى في ٱلحياة، وٱنزِعوا هذا ٱلمعنى مِنَ ٱلحياة.

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرّ: وٱنقضتِ ٱلزيارةُ وخرجَ سعدٌ وٱلباشا إلى يسارِهِ، فلمَّا رجعَ من وداعِهِ قالَ لي: ـ واللهِ ـ يا بُنيَّ لكأنَّما زادَ هذا الرجلُ في ألقابِ ٱلدولةِ لقباً جديداً، ثُمَّ ضحكَ وقال: أتدري ما هو هذا ٱللقب؟ قلْت: فما هو يا باشا؟

قال: ـ واللهِ ـ يا بُنيَّ ما من (باشا) في هذه ٱلدولةِ يكونُ إلى جانبِ سعد، إلَّا وهو يشعرُ أنَّ رتبتَهُ (نصف باشا)...

هذا رجلٌ قد بلغَ مِنَ ٱلعظمةِ مبلغاً تَصاغرَ معهُ ٱلكبير، وتضاءَلَ ٱلعظيم، وتقاصَر ٱلشامخ؛ نعم وحتى تركَ أقواماً من خصومِهِ ٱلعظماء، كفلانٍ وفلان، وإنَّ ٱلواحدَ منهم لَيلوحُ لِلشعبِ من فراغِهِ وضعفِهِ وتَطَرُّحِهِ، كأنَّهُ ظِلُّ رجلٍ لا رجل.

وقد أصبحَ قوةً عاملةً لا بدَّ من فعلِها في كلِّ حيٍّ تحتَ هذا ٱلأفقِ، حتى كأنَّ معانيَ نفسِهِ ٱلكبيرةِ تنتشرُ في ٱلهواءِ على ٱلناس، فهو قوَّةٌ مرسَلةٌ لا تُمسَك، ماضيةٌ لا تُردّ، مقدورةٌ لا يُحتالُ لها بحيلة.

هذا وضْعٌ إلهيٌّ خاصٌّ لا يُشبهُهُ أحدٌ في هذه ٱلأمَّة، كمَيدانِ ٱلحربِ لا تُشبهُهُ ٱلأمكنةُ ٱلأخرى؛ فقد غامَرَ سعدٌ في ٱلثورةِ ٱلعُرابيَّةِ وخرجَ منها، ولكنَّها هي لم تخرجْ منه، بلْ بقيَتْ فيه؛ بقيَتْ فيه تتعلَّمُ ٱلقانونَ وٱلسياسةَ، وتُصلِحُ أغلاطَها، ثُمَّ ظَهرَتْ منه في شكلِها ٱلقانونيِّ ٱلدقيق. وبهذا تراهُ يَغْمُرُ ٱلرجالَ مهما كانوا أذكياء؛

لأنَّ فيهِ ماليسَ فيهم، وتراهم يظهرون إلى جانبِهِ أشياءَ ثابتةً في معانيها، أمّا هو فتراهُ من جميعِ نواحيهِ يتلاطمُ كالأمواجِ ٱلعاتية.

وتلك ٱلثورةُ هي ٱلتي تتكلمُ في فمِهِ أحياناً فتجعلُ لِبعضِ كلماتِهِ قوّةً كقوّةِ ٱلنصرِ، وشهرةً كشهرةِ موقعةٍ حربيَّةٍ مذكورة.

ولمّا كانَ هو ٱلمختارَ لِيكونَ أباً لِلثورة ـ حرمَتْهُ ٱلقدرةُ ٱلإلهيَّةُ ٱلنسلَ، وصرفَتْ نزعةَ ٱلأبوَّةِ فيهِ إلى أعمالِهِ ٱلتاريخيَّة، ففيها عِنايتُهُ وقلبُهُ وهمومُهُ، وهي نسلٌ حيٌّ من روحِهِ ٱلعظيمة، ويكادُ معها يكونُ أسداً يزأرُ حولَ أشبالِهِ. ولنْ يُذكَرَ ٱلسياسيُّون ٱلمِصريُّون مع سعد، ولنْ يُذكرَ سعدٌ نفسُهُ إذا ٱنقلبَ سِياسيًّا، فإنَّ ٱلمكانَ ٱلخاليَ في ٱلطبيعةِ ٱلآنَ هو مكانُ رجلِ ٱلمقاومةِ لا رجلِ ٱلسياسة، وهذا هو ٱلسببُ في أنَّ سعداً يُشْعِرُ ٱلأُمَّةَ بوجودِهِ لذةً كلذةِ ٱلفوْزِ وٱلانتصار، وإنْ لم يفزْ بشيءٍ ولم ينتصرْ على شيء؛ فٱطمئنانُ ٱلشعبِ إلى زعيمِ ٱلمقاومة، هو بطبيعتِهِ كٱطمئنانِ حاملِ ٱلسلاحِ إلى سِلاحِهِ.

وسعدٌ وحدَهُ هوَ ٱلذي أفلحَ في أنْ يكونَ أستاذَ ٱلمقاومةِ لِهذهِ ٱلأُمّة؛ فنسخَ قوانينَ، وأوجَد قوانين، وحملَ ٱلشعبَ على ٱلإعجابِ بأعمالِهِ ٱلعظيمة، فنبَّهَ فيهِ قوّةَ ٱلإحساسِ بالعظمةِ فجعلَهُ عظيماً، وصرفَهُ بٱلمعاني ٱلكبيرةِ عنِ ٱلصغائر، فدفَعهُ إلى طريقِ مستقبلِهِ يُبدعُ إبداعَهُ فيه.

إنَّ هذا ٱلشرقَ لا يحيا بِٱلسياسةِ ولكنْ بالمقاومةِ وما دامَ ذلك ٱلغربُ بإزائهِ؛ وٱلفريسةُ لا تتخلَّصُ مِنَ ٱلحلْقِ ٱلوحشيِّ إلّا بِٱعتراضِ عِظامها ٱلصلبةِ ٱلقويَّةِ في هذا ٱلحَلْق.

وكم في ٱلشرقِ من سياسيٍّ كبيرٍ يجعلونَهُ وزيراً، فتكونَ ٱلوظيفةُ هي الوزيرَ لا نفسُ ٱلوزير، حتى لو خلعوا ثِيابَهُ على خشبةٍ ونصَّبوها في كرسيه، لكانَتْ أكثرَ نفعاً منهُ لِلأُمَّة، بأنّها أقلُّ شرًّا منه...

يا بُنيّ، كلُّ ٱلناسِ يرضَونَ أنْ يتمتَّعوا بالمالِ وٱلجاهِ وٱلسيادةِ وٱلحكم، فليسَتْ هذه هي مسألةَ ٱلشرق، ولكنَّ ٱلمسألة: مَن هو ٱلنبيُّ ٱلسياسيُّ ٱلذي يرضى أنْ يُصْلَب...؟

حماسةُ ٱلشعب

وحدَّثَني صاحبُ سرِّ (م) باشا قال: لَمَّا رجعَ سعد باشا من أوربا في سنة ١٩٢١، كانَتِ ٱلأُمَّةُ في ٱستقبالِهِ كأنَّها طائرٌ مدَّ جناحيه، لا خِلافَ لِشيىءٍ منه على شيىءٍ منه، بلْ كلُّهُ هو كلّه؛ وكانَتِ ٱلمعارضَةُ في ٱلاستحالةِ يومئذٍ كٱستحالةِ وجودِ رُقعةٍ في ريشِ ٱلطائر.

على أنَّ ثوبَ ٱلسياسةِ ٱلمصريَّةِ كثيرُ ٱلرُّقع دائماً بٱلجديدِ وٱلخَلَقِ[1]، فرقعةٌ مِنَ ٱلمعارضين، وأخرى مِنَ ٱلمتعنّتين[2]، وثالثةٌ من ٱلمتخاذلينَ[3]، ورابعةٌ من ٱلمعادين، وخامسةٌ وسادسةٌ وسابعةٌ مِنَ ٱلحاسدينَ وٱلمنافسينَ وٱلمختلفين لِشهوةِ ٱلخِلاف؛ ورِقاعٌ بعدَ ذلِك مِمَّا نعلمُ وما لا نعلم، فإنَّ مِنَ ٱلعجيبِ أنَّ هذا ٱلجوَّ ٱلذي لا يتقلَّبُ إلّا بطيئاً، يتقلَّبُ أهلُهُ بِسُرْعَة؛ وهذهِ ٱلطبيعةُ ٱلتي لا تكادُ تختلف، لا يكادُ أهلُها يتَّفقون.

ولكنَّ سعداً (رحمَهُ ٱلله) رجعَ مِنَ أوربا رجعةَ ٱلكرامةِ لِأُمةٍ كاملة، ففازَ بأنَّهُ لم يخسرْ شيئاً مِنَ ٱلحق، وٱنتصرَ بأنَّهُ لم يُهزم، ودلَّ على ثباتِهِ بأنَّهُ لم يتزعزع، وذهبَ صَولةً ورجعَ صَولةً وعزيمة؛ فكانَ إيمانُ ٱلشعبِ هوَ ٱلذي يتلقَّاه، وكانَتِ ٱلثورةُ هيَ ٱلتي تحتفِلُ بِه، وبطلتِ ٱلعللُ كُلها فلم يجدِ ٱلاعتراضُ شيئاً يعترضُ عليه، وٱتَّفقتِ ٱلأسبابُ فٱجتمعتِ ٱلكلمة، وظهرَ سعدٌ كأنَّهُ روحُ ٱلأُمَّةِ متمثِّلاً في قُدْرة، حاكماً بقوَّة، متسلِّطاً بيقين.

نعمْ لم ينتصرِ ٱلبطلُ، ولكنَّ ٱلأُمَّةَ ٱحتفتْ بِهِ لأنَّهُ يمثِّلُ فيها كمالاً من نوع آخرَ هو سرُّ ٱلانتصار؛ فكانَتْ حماسةُ ٱلشعبِ في ذلك ٱليوم حماسةَ ٱلمبدإِ ٱلمتمكِّن: يُظهرُ شجاعَةَ ٱلحياة، وفَوْرةَ ٱلعزائم، وفضيلةَ ٱلإخلاص، وشدَّةَ ٱلصوْلة، وعِنادَ ٱلتصميم؛ ويُثبتُ بقوَّةِ ظاهرِهِ قوةَ باطنِهِ، وكانَ فرحُ ٱلأُمَّةِ عِناداً

---

(١) الخلق، بالفتح: البالي.
(٢) المتعنتين: المتشددين.
(٣) المتخاذلين: المنهزمين.

سياسيًّا يفرحُ بأنَّهُ لا يزالُ قويًّا لم يَضعف، وكانَ ٱبتهاجُها مجداً يُشعرُ بأنَّهُ لا يزالُ وافراً لم يُنْتَقَص، وكانَ ٱلإجتماعُ ردًّا على ٱليأس، وكَانَتِ ٱلحماسةُ ردًّا على ٱلضعف.

إنبعَثتْ صولةُ ٱلحياةِ في ٱلشعبِ كلِّه، وٱبتدأَ ٱلمستقبلُ من يومئِذ، فلو نزلَتِ ٱلملائكةُ مِنَ ٱلسماءِ في سحابةٍ مُجلْجِلةٍ[1] يسمَعُ تسبيحَهُمْ لِيُؤيِّدوا سعداً ـ لَماَ زادوه شيئاً؛ فقد كانَ محلُّهُ مِنَ ٱلقلوبِ كأنَّهُ ٱلعقيدة، وكانَ ٱلتصديقُ مبذولاً لَهُ كأنَّهُ ٱلكلمةُ ٱلأخيرة، وكانَتِ ٱلطاعةُ موقوفةً عليهِ كأنَّهُ ٱلباعثُ ٱلطبيعيّ، وكانَ ٱلبطلُ في كلِّ ذلك يُشبهُ نبيًّا من قِبَلِ أنَّ كلًّا منهما صورةٌ كاملةٌ لِلسموِّ في أفكارِ أُمَّة.

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرّ: ورجعَ ٱلباشا مِنَ ٱلقاهرةِ وقد رأى ما رأى من مسامحةِ ٱلنفوس، وصِحَّةِ ٱلعهْد، وٱجتماعِ ٱلكلمة، وإعدادِ ٱلشعبِ لِلمِراسِ وٱلمُعاناة، فقال:

تَاللهِ لقد أَثبتَ (سعدٌ) لِلدنيا كلِّها أنَّ مِصرَ ٱلجبارَةَ متى شاءَتْ بَنتِ ٱلرجالَ على طريقةِ ٱلهرمِ ٱلأكبرِ في ٱلعظمةِ وٱلشهرةِ وٱلمنزلةِ وٱلقوَّة. ولقد صنعَ هذا ٱلرجلُ ٱلعظيمُ ما تَصنَعُ حربٌ كبيرة، فجمعَ ٱلأُمَّةَ كلَّها على معنًى واحدٍ لا يتناقض، ودفَعَها بروحٍ قوميَّةٍ واحدةٍ لا تختلف، وجعلَ عِرْقَ ٱلسياسةِ يفورُ كما يفورُ ٱلعِرْقُ ٱلمجروحُ بٱلدم.

إنَّ هذه ٱلأُمَّةَ بينَ شيئينِ لا ثالثَ بينهما: إمَّا ٱلحزْمُ إلى ٱلآخرِ وإمَّا ٱلإضاعة. ولا حزْمَ إلَّا أنْ يبقى ٱلشعبُ كما ظهرَ ٱليوم: طُوفاناً حيًّا، مُسْتَويَ ٱلطبيعة، مندفعَ ٱلحركةِ، غامِراً كلَّ ما يعترضُه، إلى أنْ يُقضَى ٱلأمرُ ويقولَ أعداؤُنا: يا سماءُ أقلعي.

هكذا يعملُ ٱلوطنُ معَ أهلِهِ كأنَّهُ شخصٌ حيٌّ بينَهم، حينَ يستوي ٱلجميعُ في ٱلثقة، ويتآزرُ ٱلجميعُ في ٱلأمل، ويشترِكُ ٱلجميعُ في ٱلعطفِ ٱلروحيِّ، ولا يبقى لِجماعةٍ منهم حظٌّ في رغبةٍ غيرِ ٱلرغبةِ ٱلواحدةِ لِلجميع؛ وهكذا يعملُ ٱلوطنُ بأهلِهِ حينَ يعملُ معَ أهلِه.

كانَ أعداؤُنا يحسبوننا ذُباباً سياسيًّا لا شأنَ لَهُ إلَّا بفضَلاتِ ٱلسياسة، ولا عملَ

---

(١) مجلجلة: مدوِّية.

لهُ في أزهارِها وأثمارِها وعِطْرِها وحَلواها؛ فأسمعَهُمُ ٱلشعبُ ٱليومَ طنينَ ٱلنحل، وأراهم إبَرَ ٱلنحل، لِيعلموا أنَّ ٱلأزهارَ وٱلأثمارَ وٱلعِطْرَ وٱلحلوى هي لَهُ بالطبيعة.

وكانوا يتخرّصون[1] أنَّ مذهبَنا في ٱلحياةِ لِمصلحةِ ٱلمعاشِ فقط، وأنَّ ٱلمِصريَّ، حاكماً أو محكوماً، لا يَمدُّ آمالَهُ ٱلوطنيَّةَ إلى أبعدَ من مدَّةِ عمرِهِ سبعينَ أو ثمانينَ سنة، فإذا أطلقوا أيدِيَنا في حاضرِ ٱلأُمَّةِ أطلقْنا أيديَهم في مستقبلِها. ومن ثَمَّ طمِعوا أنْ يكونَ ٱلحقُّ ٱلناقصُ في نفسِهِ حقًّا تامًّا في أنفسِنا لِهذه ٱلعِلَّة؛ وحسِبُوا أنَّ ٱلسياسيَّ ٱلمصريَّ لا يتجرأُ أنْ يقولَ ما يقولُهُ ٱلسياسيُّ ٱلأوربيُّ: من أنَّهُ لا يخشى ٱلموتَ ولكنَّهُ يخشى ٱلعَارَ. فإنَّهُ إذا ماتَ وحدَهُ، وإذا جلبَ ٱلعارَ جلبَهُ على نفسِهِ وعلى أمتِهِ وعلى تاريخِ أُمَّتِهِ، بيْدَ أنَّ سعداً قالَها؛ وفي مثلِ هذا يكونُ قولُ (لا) معركة.

وها هي ذي معركةُ ٱليومِ ٱلتاريخيَّة، فإنَّ ٱلذرَّاتِ ٱلحيَّةَ ٱلتي تُخلَقُ من دِمائِنا ـ نحن ٱلمصريينَ ـ قد ثارَتْ في هذه ٱلدماء، في هذا ٱلنهار، تُعلِنُ أنَّها لا ترضى أنْ تولَدَ مقيَّدةً بقيود.

أتدري ماذا عرضوا على سعد؟ إنَّهم عرضوا عليهِ ما يُشبهُ في ٱلسخريةِ طاحونةً تامَّةَ ٱلأدواتِ وٱلآلاتِ من آخرِ طراز، ثُمَّ لا تُقدِّمُ لها إلَّا حبةُ قمحٍ واحدةٍ لِتطحنَها.... نتيجةٌ تسخرُ من أسبابِها، وأسبابٌ تهزأُ بِٱلنتيجة.

إنَّ أوربا لا تحترمُ إلا مَنْ يحملُها على ٱحترامِه، فما أرى لِلسياسيينَ في هذا ٱلشرْقِ عملاً أفضلَ ولا أقوى ولا أردَّ بِٱلفائدةِ من إحياءِ ٱلحماسةِ ٱلدائمةِ ٱلقويَّةِ ٱلبصيرةِ، هي قوةُ ٱلرفضِ لِمَا يجبُ أنْ يُرفَض، وقوةُ ٱلتأييدِ، لِمَا يجبُ أنْ يُقبلَ، وهي بعدَ ذلكَ وسيلةُ جمعِ ٱلأمرِ، وإحكامِ ٱلشأن، وإقرارِ ٱلعزيمةِ في ٱلأَخلاق، وتربيةِ ٱلثقةِ بِٱلنفس، وبها يكونُ إذكاءُ ٱلحِسِّ وتعويدُهُ إدراكَ ٱلأعمالِ ٱلعظيمة، وٱلتحمسَ لها، وٱلبذلَ فيها.

وما عِلَّةُ ٱلعِلَلِ فينا إلَّا ضعفُ ٱلحماسةِ ٱلشعبيَّةِ في ٱلشرق، وسوءُ تدبيرِها، وقبحُ سياستِها؛ وإنَّا لَنَأخُذُ عنِ ٱلأوربيِّينَ من نِظامِهم وأساليبِهم وسياستِهم وعلومِهم وفنونِهم؛ فنأخذُ كلَّ ذلكَ بروحِنا ٱلفاترةِ في خمولٍ وإهمالٍ وتواكُلٍ وتَفرُّدٍ بِٱلمصلحةِ وٱستبدادٍ بِٱلرأي، فإذا دينارُهم في أيدينا درهم، وإذا نحن وإيَّاهم في ٱلشيءِ الواحدِ كَٱلنحلةِ وٱلذبابةِ على زهرة...

---

(١) يتخرّصون: يتقوّلون.

ليسَتْ لِنا حماسةُ ٱلحياة، وبهذا تختلفُ أعمالُنا وأعمالُهم، وذلك هوَ ٱلسرُّ أيضاً في أنْ أكثرَ حماستِنا كلاميةٌ مَحْضةٌ؛ إذْ يكونُ ٱلصُّراخُ وٱلصِّياحُ وٱلتَّشدُّقُ[1] ونحوُها من هذه ٱلمظاهرِ ٱلفارغة ـ تنقيحاً لِلطبيعةِ ٱلساكنةِ فينا، وتنويعاً منها بغيرِ أنْ نَجهدَ في ٱلتنقيحِ وٱلتنويع. ومن هذا كانَتْ لنا أنواعٌ مِنَ ٱلكلام ينطلِقُ ٱللسانُ فيها لِلخروجِ مِنَ ٱلصمتِ لا غير... ومنه كثيرٌ من هذا ٱلهُراءِ ٱلسياسيِّ ٱلذي يدورُ في ٱلمجالسِ وٱلأحزابِ وٱلصحف.

إنَّ حماسةَ ٱلشعبِ لا تكونُ على أعدائِهِ فقط؛ بل على معايبِهِ أيضاً، وعلى ضَعفِهِ بخاصَّة، وٱلشعبُ ٱلفاترُ في حماستِهِ لو نالَ حقينِ مغصوبين لَعادَ فخَسِرَ أحدَهما أو كليهما، أمَّا ٱلشعبُ ٱلمتحمسُ ٱلقويُّ في حماستِه، فلو غُصِبَ حقينِ ونالَ أحدَهما لَعادَ فٱبْتزَّ[2] الآخر.

(١) التشدُّق: التصنُّع في الكلام والتقعر فيه. (٢) ابتزّ: استحوذ: وأخذ بقوّة.

الجمهور

وقالَ صاحبُ سرّ (م) باشا: كانَ من بعضِ عملي في ٱلحكومةِ سنة ١٩٢٢ أنْ أُراقِبَ ٱلحركاتِ وٱلسكناتِ، وأبثَّ ٱلعيونَ وٱلأرْصادَ، وأعرِفَ ٱلمضطَرَب وٱلمنقلبَ في أيّامِ ٱلفتنِ ونوازِلِ ٱلمِحْنةِ، محافظةً على ٱلأمن، ومُبادَرةً لِمَا يُتوقّع؛ فكنْتُ كٱلمرصَدِ ٱلمهيَّإِ بآلاتِهِ لِتدوينِ حركاتِ ٱلزلازل.

وٱنتهى إلينا يوماً أنْ راجفةً منَ هذه ٱلزلازلِ سترجُفُ بفلانٍ من أهلِ ٱلرأيِ ٱلحرّ؛ ٱلذي يَستقِلُّ ولا يُتابعُ، وينتقِدُ ولا يُحابي، ويُصرِّحُ ولَا يُجَمْجِمُ[1]، وأنَّ قوْماً ثوَّروا عليهِ ٱلغُبَارَ الآدميَّ مِنَ ٱلعَامَّة، وأنّهم يتحيَّنون ٱلوقتَ لِتوجيهِ ٱلمكيدةِ لَهُ في شكلِها ٱلمفترسِ من هذا ٱلجمهورِ ٱلناقم.

أمَّا فلانٌ هذا فرجلٌ سِياسيٌّ عنيدٌ أضاعَ ٱلحقَّ كلَّهُ لأنَّهُ لا يرضى بنصفِ ٱلحقِ... وكلمتُهُ في ٱلسياسةِ كأنَّما تُلقَى على لِسانِهِ مِنَ ٱلغيب؛ فلا يتحوَّلُ عنها ولا يملكُ أنْ يتكلَّمَ إلَّا بما يتكلَّم؛ وقد ذهبَ بصوتِهِ أنَّهُ في قوم لا يسمعون إلَّا ما أرادوا، فهو بينَهم كَٱلحقِّ ٱلمغلوبِ: لا يموتُ لأنَّهُ غيرُ باطل، ثُمَّ لا يحيا لِأنَّهُ لا ينتصر. وقد كانَ رجلاً كٱلمِصباحِ ٱلوهَّاج[2] فألقَوْا عليهِ ٱلغِطاء، فإذا هو في طبيعتِهِ ويبدو لِلناس بغيرِ طبيعتِه، وتركَهُ رأيُهُ ٱلحرُّ ٱلصريحُ كٱلنبيِّ ٱلمكذَّبِ يَرُدُّ صِدقَه؛ لا لِأنَّهُ غيرُ صِدْق، ولكنْ لأنَّهُ غيرُ مستطاعٍ، أو غيرُ ملائم.

ومن آفاتِنا ـ نحن ٱلشرقيين ـ أنّنا نستمرِئُ ٱلعداوَة، وننقادُ لِأسبابها، ونتطَاوعُ لها تطاوُعَ ٱلصِّغارِ بأنفسِهم لِمَا في أنفسِهم؛ كأنَّ ٱلمستبدين ٱلذين كانوا في تاريخِنا قدِ ٱنتقلوا إلى طَبائِعنا؛ فَرَدُّ ٱلفكرِ على ٱلفكرِ في مناقشةٍ تَجري بينَنا ـ لا يكونُ من دَفْعِ ٱلحقيقةِ لِلحقيقة، ولكنْ من ردِّ ٱلاستبدادِ على ٱلاستبداد، ومن توثُّبِ ٱلطغيانِ على ٱلطغيان؛ فهوَ ٱلثَّلْبُ[3]؛ وٱلطعنُ وٱلتجريح، وهو ٱلجَفْوةُ وٱلخصومةُ

(١) يُجمجم: يتكلم في داخله بما لا يفْهم.

(٢) الوهّاج: الوضّاء.

(٣) الثلب: التجريح بسيّىء الكلام.

واللَّدَد، وهو المنازعةُ والعُنفُ والتَّحامل؛ وهو بهذه وتلك شرٌّ وفسادٌ وسقوط. والجِدالُ بينَ العُقلاءِ يبعثُ الفكرَ فينتهي إلى الحق، ولكنَّهُ فينا نحن يَهيجُ الخُلقُ فينتهي إلى الشرّ، والردُّ على عظيم منَّا كأنَّهُ يردُّ على منزلتِهِ في الرأي، وكشفُ الخطأ عندَنا تعييرٌ بالخطأ لا تبصيرٌ بالصواب، واسْتِلابُ[1] الحُجَّةِ من صاحبِها وإفسادُها عليهِ كاستلابِ الملكِ من مالكِهِ وطردِهِ منه... ومن ثَمَّ كان الدفاعُ بالمكابرةِ أصلاً من أصولِ الطبيعةِ فينا، وكانَ الاضطهادُ حُجَّةً لِلحُجةِ العاجزة، وكانَ الإعناتُ[2] دليلاً لِلدليلِ الذي لا ينهضُ بنفسِهِ،و ومتى اعتبَرَ كلُّ إنسانٍ نفسَهُ إمبراطوراً على الحق... فلا جَرَمَ لا تَردُ كلمةٌ على كلمةٍ إلَّا بحرب.

***

قالَ صاحبُ السرّ: وكَبُرَ الأمرُ على الباشا، فجمعَ رُؤُوسَ المؤتمرينَ بذلك الرجلِ الحرّ، وأخذَ يقلِّبُهم تقليبَهُ بينَ التودُّدِ والملاطفة، وقالَ لهم فيما قال: إنَّ فضيلةَ الجمهورِ هي التي تضمنُ تربيةَ الفضيلةِ وحفظَها وغَلَبَتَها على الرذائل، وإنَّ كلَّ صحيحٍ يكونُ فاسداً إذا لم يكنِ الجمهورُ صحيحاً، وإنَّ غيرَ العقلاءِ هُمُ الذين يقبلون الحقيقةَ في يوم ثم يرفضونَها هي ذاتَها في يوم آخر، فإنْ ذَهَبْتَ تُجادِلُهم وتحتجُّ عليهم بأنَّهم قبلُوها ـ قالوا: هذا كانَ أمسِ... فكأنَّما الفاصلُ بين زمنينِ يجعلُ الشيءَ الواحدَ ضِدَّين.

ثُمَّ سألَهم: ما هو ذنبُ الرجل؟ فقالَ منهم قائل: إنَّهُ خارجٌ علينا في الرأي. فقالَ الباشا: إنَّ المعنى في أنَّهُ يُخالِفُكم هو أنَّكم أنتم تُخالفونه؛ فقد تكافأتِ الناحيتان، وخلافٌ بخلاف؛ فما الذي جعلَ حقَّ ردِّهِ عنِ الرأي دونَ أنْ يكونَ لَهُ مثلُ هذا الحقِّ في رَدِّكُمْ أنتم؟

قالوا: إنَّنا الكثرة. قالَ الباشا: يا أصدقائي، إنَّ خوفَ الكثرةِ من رأيِ فرْدٍ أو أفرادٍ هو أسوأُ المعنَيَينِ في تفسيرِ رأيِها هي؛ وعشرةُ جنيهاتٍ لا تعبأُ بالجنيهِ الواحد، فإنَّها تستغرِقُهُ؛ بَيْدَ أنَّ هذه ليسَتْ حالَ عشرةِ قروشٍ يا أصدقائي...

نعمْ إنَّ قطْعَ الخِلافِ ضرورةٌ من ضروراتِ الوطنيَّة، ولكنْ إذا كانَ الأمرُ في ظَاهرِهِ وباطنِهِ كالخِلافِ في أيّهما أطولُ: العَصا أوِ المئذنة...؟ فذلك جِدالٌ محسومٌ من نفسِهِ بِلا جدالَ.

---

(١) استلاب: سرقة. (٢) الإعنات: الاتعاب.

إنَّ أساسَ ٱنخذالِنا[(١)] ـ نحن ٱلشرقيين ـ في قلوبِنا، إذْ لا نعتبرُ ٱلمعانيَ ٱلعامَّةَ إلَّا من جِهةِ أنَّها قائمةٌ بٱلرجال، ثُمَّ نعتبرُ ٱلرجالَ إلَّا من ناحيةِ ما في أنفسِنا منهم، ثُمَّ لا نعتبرُ أنفسَنا إلَّا من جِهةِ ما يُرضينا أو يُغضبُنا، وقد لا يُغضبُنا إلَّا ٱلحقُّ وٱلجِدُّ، وقد لا يُرضينا إلَّا ٱلباطلُ وٱلتهاون، ولكنَّا لا نُبالي إلَّا ما نَرضى وما نغضَب.

لسْتُم أحراراً في أنْ تجعلوا غيرَكم غيرَ حرّ، فإنْ يكُنِ ٱلرأيُ الذي يُعارضُكم رأيًا حقًّا وتركتُم مُنَابذَتَهُ[(٢)] فقد نصرتُمُ ٱلحقّ؛ وإنْ يكنْ باطلاً فإظهارُهُ باطِلاً هو بُرهانُ ٱلحقِّ ٱلذي أنتم عليه؛ ولن تُجرِّدوا[(٣)] أحداً من ٱختيارِ ٱلرأيِ إلَّا إذا تَجرَّدتُمْ أنتم منِ ٱختيار ٱلعدل، فإنْ فعلتُمْ فهذه كبرياءُ ظالمةٌ، تدَّعي أنَّها ٱلحقّ، ثُمَّ تَدَّعي لِنفسِها حُكْمَهُ، فقد كذَبَتْ مرتين.

إسمعوا أيُّها ٱلسادة: قامَتْ بين ٱثنينِ من فلاسفةِ ٱلرأي مناظرةٌ في صحيفةٍ مِنَ ٱلصحف، وتسَاجَلا[(٤)] في مقالاتٍ عِدّة، فلمَّا عجزَ أضعفُهما حُجَّةً وكَعَمَهُ[(٥)] ٱلجدال، كتبَ مقالتَهُ ٱلأخيرةَ فجاءَتْ سقيمةً، فلم تُرضِهِ فبيَّتَها ونامَ عنها على أنْ يَرسلَها مِنَ ٱلغَداةِ بعدَ أنْ يُردِّدَ نظرَهُ فيها ويُصحِّحَ آراءَهُ بِٱلحُجَجِ ٱلتي يُفتحُ بها عليه. قالوا: فلمَّا نامَ تمثَّلَتْ لَهُ ٱلمقالةُ في أحلامِهِ جِسْماً حيًّا موهوناً مترضِضاً[(٦)]، مخلوعاً من هنا مكسوراً من هناك، مجروحاً مِمَّا بينهما؛ ثُمَّ كلَّمَتْهُ فقالَتْ له: ويحكَ أيُّها ٱلأبله! إنْ أردْتَ أنْ تغلبَ صاحبَكَ وتُسكِتَهُ عنك، فٱحِملْ مقالَتَكَ إلى رأسهِ في ٱلعصا لا في ٱلجريدة. . .

* * *

قالَ صاحبُ ٱلسرِّ: وضحكَ ٱلقومُ جميعاً، وأذعنوا[(٧)] وٱنصرفوا مقتنعين، قد خَلُصَتْ دِخلتُهُمْ لِذلكَ ٱلرجلِ ٱلحرِّ وتنصَّلوا[(٨)] من جريمةٍ كانَتْ في أيديهم، وما

---

(١) انخذالنا: انهزامنا.

(٢) منابذته: مخالفته ومجادلته.

(٣) تجرّدوا: تعرّوا.

(٤) تساجلا: تحاورا وتجادلا وتارة يربح هذا وتارة أخرى يربح ذاك.

(٥) كعم: شدّ فاه لئلا يعضّ أو يأكل وهو يقصد أسكته.

(٦) مترضضاً: مصاباً بالرضوض في جسمه.

(٧) أذعنوا: خضعوا.

(٨) تنصّلوا: تبرّأوا.

جاءَ ٱلباشا بمُعْجزٍ مِنَ ٱلقول، ولكنَّ تصويرَهُ لِلمسألةِ كانَ حلّاً لها في نفوسِهم. فلمّا أدبروا[1] تنفَّسَ ٱلباشا كأنَّما خرجَ مِنَ ٱلبحرِ وكانَ يتعاطى إنقاذَ غريقٍ ويُعاني فيهِ حتى نجا؛ ثُمَّ قالَ لي: إنَّ هذا كانَ جواباً عن شيءٍ في أنفسِهم، ولكنَّه هو سؤالٌ عن شيءٍ في أنفسِنا: ما ٱلذي يجعلُ ٱلناسَ عندنا يخشَوْنَ ٱلمُعارضةَ في ٱلرأي ٱلوطنيِّ حتى إنَّهم لَيُجازُون عليها بهذه ٱلعقوبةِ ٱلشعبيّةِ ٱلمنكرة؟ وما بالُهم لا يُعطون ٱلرأيَ حُكْمَهُ وحقيقتَه، بل يُعطونَهُ من حُكْمِ أنفسِهم وحقائِقِها وشهواتِها ٱلمتقلِّبة، حتى لَترجعُ ٱلفروقُ ٱلضعيفةُ ٱلمتجانِسةُ في أبناءِ ٱلوطنِ ٱلواحدِ وكأنَّها مِنَ ٱلخِلافِ وٱلمبايَنَة فروقٌ جنسيَّةٌ كٱلتي تكونُ بين إنسانٍ من أُمَّة، وإنسانٍ من أُمَّةٍ أخرى تُعاديها.

قلْت: إنَّ رأيَ ٱلكثرةِ قانونٌ يا باشا.

قال: هذا صحيح، ولكنْ بشرطينِ لا بشرطٍ واحد: الأولُ ألّا يخرجَ ٱلرأيُ على ٱلقانون، وٱلثاني ألّا تكونَ ٱلحقيقةُ في ٱلرأي ٱلذي يُناقِضُهُ؛ ومُحاولةُ إكراهِ ٱلمعارضةِ نقضٌ لِلشرطينِ معاً؛ ثُمَّ إنَّ أساسَ ٱلوطنيَّةِ سلامةُ ٱلقلوبِ وصفاءُ ٱلنيّات، وٱستواءُ ٱلمُوافقِ وٱلمُخالِفِ في هذا ٱلحكم، ومتى وقعَ ٱلخِلافُ بينَ ٱثنينِ وكانتِ ٱلنيةُ صادقةً مُخْلِصَة، لم يكنِ ٱختلافُهما إلّا من تنوُّعِ ٱلرأي، وٱنتهيا إلى ٱلاتفاق بغلبةِ أقوى ٱلرأْيين، وما من ذلك بُدّ.

الحقيقةُ يا بُنيَّ أنَّ ٱلجماهيرَ ٱلشرقيَّةَ ليسَتْ في تربيتِها مِنَ ٱلجماهيرِ ٱلسياسيةِ ٱلتي يُعتدُّ بها، إذْ لا تزالُ في أولِ عمرِها ٱلسياسيّ، وبهذا ٱلسببِ وحدَهُ كانَ ٱختلافُ ٱلكُبراءِ في ٱلسياسةِ لا يُشبهُهُ إلّا نِزاعُ ٱلخصمينِ بغيرِ شهودٍ ولا قاضٍ نافذِ ٱلحكم، فهو نزاعُ قوَّةٍ تفورُ بوسائِلِها، لا نِزاعُ حقٍّ يَسْتعْلي بأدلتِه.

وهذه ٱلمجالسُ ٱلنيابيَّةُ ٱلشرقيةُ كلُّها صُورُ ممثَّلةٌ جافَّةَ، منقطعةُ ٱلسماءِ من أسبابِها، كٱلفرعِ ٱلمقطوعِ مِنَ ٱلشجرة، وإنَّما يتنضَّرُ ٱلفَرْعُ ويُثمِرُ أثمارَهُ إذا قامَ بشجرتِهِ لا بنفسِهِ، وما شجرةُ ٱلفرْعِ ٱلسياسيِّ إلّا ٱلجمهورُ ٱلسياسيّ.

فسبيلُ ٱلإصلاحِ في كلِّ مملكةٍ شرقيَّةٍ أنْ ينهضَ أهلُ ٱلرأي من كلِّ مدينةٍ فيها بينَ عالمٍ وأديبٍ ومُحامٍ وسَريّ، ومَنْ كانَ بسبيلٍ مِنْ هؤلاء، فيجعلوا لِمدينتِهم دارَ ندْوةٍ لِلاجتماعِ وٱلبحثِ وٱلمشورة، وقولُ (نعم) بِٱلحُجَّةِ وقولُ (لا) بِٱلحُجَّة. ثُمَّ

---

(١) أدبروا: تراجعوا إلى الوراء.

يُعلنون ذلك في جمهورِهم وينزلونَ منه منزلَةَ ٱلأستاذِ وٱلأبِ وٱلصديقِ في تعليمِهِ وهِدايتهِ وإِرشادِه؛ وتتَّصِلُ هذه ٱلدورُ في كلِّ مملكةٍ بعضُها بِبعض، وتنتهي بٱلمجالسِ ٱلنيابيَّة. وبغيرِ ذلك لا يُملأُ ٱلفراغُ ٱلذي نراهُ خاوياً[1] بينَ ٱلشعبِ وٱلحكومة، وبينَ ٱلكُبراءِ وٱلجماهير، وإنَّما أكثرُ مصائِبنا من هذا ٱلفراغ؛ فهو ٱلذي يَضيعُ فيهِ ما يضيعُ فيه، ويختفي ما يختفي.

مِنّا قومٌ موظفونَ في ٱلحكومة؛ لكنْ أين ٱلقومُ ٱلذين تكونُ ٱلحكومةُ نفسُها موظفةً عندَهم؟

* * *

(اعتذار): بهذا ٱلمقالِ ٱنتهتْ أحاديثُ ٱلباشا؛ فقد أنبأَنا صاحبُ السرِّ أنَّه سيكتمُ ٱلسرّ. . .

---

(١) خاوياً: فارغاً.

المجنون

١

جاءَ يمشي هادئاً يتخيَّلُ في مشْيتِهِ، يَرْجُفُ بينَ ٱلخطوةِ وٱلخطوةِ كأنَّهُ من كِبرِهِ يُشعِرُك أنَّ ٱلأرضَ مُدرِكةٌ[1] أنَّهُ يُمشي فوقَها. . . ولا ينقلُ قدمَهُ إذا خَطَا حتى ينْهضَ برأسِهِ يُحرِّكُهُ إلى أعلى، فما تدري أهو يُريدُ أنْ يطمئنَّ إلى أنَّ رأسَهُ معه. . . أم يُخَيَّلُ إليهِ أنَّ هذا ٱلرأسَ ٱلعظيمَ قد وُضعَ على جسمِهِ في موضعِ رايةِ ٱلدولة، فهو يَهزُّهُ هزَّ ٱلرايةِ. . . .

وأخذتْهُ عيني وليسَ بيني وبينَهُ إلَّا طولُ غرفةٍ وعرضُها ـ فإذا هو زائغُ ٱلبصرِ كأنَّما وقعَ في صحراءَ يُقلِّبُ عينَهُ في جهاتِها متحيِّراً متردِّداً، ثُمَّ كأنَّما رُفِعَ لَهُ في أقصاها جبلٌ فأخذَ إلى ناحيتِه. . .

ورحَّبْتُ به، وأجلسْتُهُ إلى جانبي، فأخذَ يَسْتَعْرِفُ إليَّ[2] بذكرِ ٱسمِهِ وجماعتِهِ وبلدِهِ، لا يزيدُ على ذلك شيئاً، كأنَّهُ عنترةُ بني عَبْسٍ: لِأرضِهِ من طبيعتِها جغرافيا، ومنِ ٱسمِهِ جغرافيا على حِدَة. . . فلمَّا رآني لا أُثْبِتُهُ مَعْرِفةً قال: إنَّ بك نِسياناً.

قلْتَ: وكثيراً ما أنسى غيرَ أنَّ ٱسمَك ليسَ من هذه ٱلأسماءِ ٱلتي تُذكَرُ بتاريخ.

قال: هذه غلطةُ ٱلجرائد. . ومهما تنسَ من شيءٍ فلا تنسَ أنَّكَ أستاذُ «نابغة القرن العشرين». . .

فسرَّحْتُ فيهِ نظري[3]، فإذا أنا بمجنونٍ ظريفٍ أمردَ أهيفَ، يكادُ برخاوتِهِ وتفكّكِهِ لا يكونُ رجلاً، ويكادُ يبدو ٱمرأةً بجمالِ عينيهِ وفتورِهما.

وتوَسَّمْتُ فإذا وجهٌ ساكنٌ منبسِطُ ٱلأساريرِ ممسوحُ ٱلمعاني، يُنبيءُ بٱنقطاعِ صاحبِهِ مِمَّا حولَه، كأنَّ دنياهُ ليسَتْ دنيا ٱلناس، ولكنَّها دنيا رأسِهِ. . .

---

(١) مدركة: عارفة.

(٢) يستعرف إليّ: يقدم نفسه.

(٣) أي نظرت إليه ملياً أتأمله.

وتأمّلتُ فإذا طفولةٌ متلبّدةٌ قد ثبتَتْ في هذا ٱلوجهِ لِتُخرجَ من بينَ ٱلرجلِ وٱلطفلِ مجنوناً لا هو طفلٌ ولا رجل.

وتفرّسْتُ[1] فإذا آثارُ معركةٍ باديةٍ في هذه ٱلصَّفحة، قَتْلاها أفكارُ ٱلمسكينِ وعواطفُهُ.

وتبيَّنْتُ فإذا رجلٌ مُسْتَرْخٍ، مُتَفتِّرُ ٱلبدن[2]، حائرُ ٱلنفس، كأنَّهُ قائمٌ لِتَوِّهِ مِنَ ٱلنومِ فلا تزالُ في عينِهِ سِنَةٌ، وكأنَّهُ يتكلَّمُ من بقايا حُلُم كانَ يراه...

وخُيِّلَ إليَّ من هذا ٱلخُمولِ في هذا ٱلشاب، أنَّ عليهِ جوًّا من تثاؤبِه، وأنَّ ٱلمكانَ كلَّهُ يتثاءبُ، فتثاءَبْتُ....

* * *

فلمّا رأى ذلك منّي ضحكَ وقال: إن «نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين» رجلٌ مغناطيسيٌّ عظيم؛ فها هو ذا قد ألقى عليكَ ٱلنوم.. وحسبُكَ فخراً أنْ تكونَ أستاذَهُ وأخاهُ وثِقَته، «فليسَ على ظهرِها ٱليومَ أديبٌ غيري وغيرُك...».

قُلْتُ في نفسي: إنّا لِلَّه، ما يعتقدُ الرجلُ أنَّ على ظهرِها مجنوناً غيرَهُ وغيري، وكأنَّما ألمَّ بذلك فقال: لسْتُ مجنوناً؛ ولكنِّي كنْتُ في ٱلبيمارستان...

قلت: أهو ٱلبيمارستانُ ٱلذي يسمَّى مستشفى ٱلمجاذيب؟

قال: لا؛ إنَّ هذا الذي تُسميهِ أنت، هو هو مستشفى ٱلمجاذيبِ؛ أمَّا ٱلذي سميْتُهُ أنا فهو مستشفًى فقط...

وذكرْتُ عندئذٍ أنَّ مِنَ ٱلمجانينِ قوماً ظُرفاءَ يَدْخُلُهمُ ٱلفسادُ في عقولِهم من ناحيةِ فكرةٍ ملازمةٍ لا تَبْرَحُ، فلا يكونُ جنونُهم جنوناً إلَّا من هذا ٱلوجه، وسائرُ أحوالِهم كأحوالِ ٱلعُقلاء، غيرَ أنَّهم بذلك طيَّاشون[3] متقلِّبون، إذا ٱزْدُهِيَ لم يُطِقْهُ ٱلناسُ من زَهْوِهِ وكبريائِهِ وتنطّعِه، كأنَّهُ واحدُ ٱلدنيا في هذه ٱلفكرة، وكأنَّ بينَهُ وبينَ ٱللَّهِ أسراراً؛ ويظنُّ عندَ نفسِهِ أنَّهُ أعقلُ ٱلناسِ في أرقى طبقاتِ عقلِه، وما جنونُهُ إلَّا في هذه ٱلطبقةِ وحدَها.

ومَثلُ هذا لا بدَّ لَهُ ممَنْ يستجيبُ لهذيانه كيما يُحرِّكَ فيه خِفتَهُ وطَيشَهُ وزهوَه، وليكونَ عندَهُ ٱلشاهدَ على هذا ٱلوجودِ ٱلخياليِّ ٱلمُبدَعِ ٱلذي لا يُوجدُ إلَّا في عقلِهِ ٱلمختلّ. فإذا هو ظفِرَ بمَنْ يُحاسِنُهُ، أو يُصانِعُهُ، أو يُجاريه، حَسبهُ مُذْعِناً[4] مؤمِناً

---

(1) تفرّس: نظر بإمعان.
(2) منفتّر البدن: كسول.
(3) طيّاشون: لا يتصرفون بوعي.
(4) مذعناً: خاضعاً، مستلماً.

مصدِّقاً، فلا يَدَعُهُ من بعدِها ويتعلَّقُ بِهِ أشدَّ ٱلتعلُّق، ويراهُ كأنَّه في ملكِهِ. . فيتخذُهُ صفيًّا وهو يعتقدُ أنَّهُ رقيق، وقد يَزعُمُهُ أستاذَهُ لِيفهمَهُ من ذلك بحسابِ عقلِه. . . أنَّهُ تلميذُه.

وخشيْتُ أنْ يكونَ (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين) لم يُسمِّني أستاذَهُ إلَّا بِحِسابٍ من هذا ٱلحِساب، فهو سيُعطي ٱلأُستاذيَةَ حقَّها، ولكنْ كما هو حقُّها في لغةِ جنونِه. . . فأُصبحُ في رأيِهِ تلميذَهُ وصنيعتَه، ومحدِّثَ هذيانِه، وثِقتَهُ وملجأَه، والمحاميَ من ورائِه.

قلْتُ في نفسي: إذا أنا تركْتُهُ جالساً كانَ هذا ٱلمجلسُ مَثَابَتَهُ[1] من بَعدُ، فلا يعرفُ لَهُ محلّاً غيرهُ، ويُصبحُ كما يُقالُ في تعبيرِ ٱلقانونِ «محله المختار»، فَيَتَطرَّأُ إليَّ لِسببٍ ولِغير سبب، ويقعُ في أوقاتي وقوعَ ٱلسهوِ لا حِسابَ عليه، ويَضيعُ فيهِ ما يضيعَ. فأجمعْتُ أنْ أصرفَهُ راضياً بِٱليأس؛ وقدِ ٱنتهَتْ نفسُهُ من معرفتي، وٱنتهى عقلُهُ إلى ٱلرأيِ أنِّي لا أَصْلُحُ لهُ أستاذاً، لا بِحسابِهِ هو ولا بِحِسابِ ٱلناس.

فقلْتُ له: ظنِّي بك أنَّكَ أُستاذُ نفسِك، ولا يَحسنُ بنابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ أنْ يكونَ لَهُ في ٱلقرنِ ٱلعشرينَ أستاذ؛ وأراكَ قد فرغْتَ لِلأدب، أمَّا أنا فمشغولٌ بأعمالِ وظيفتي، وقد جاءَ مِنَ ٱلعملِ ما تراه، وتكادُ لا تفي بِهِ ٱلساعاتُ ٱلباقيةُ مِنَ ٱلوقت و. . .

فقطعَ عليَّ وقال: إنَّ ٱلوقتَ ليسَ في ٱلساعة؛ وٱلدليلُ أني أعطِّلُها فيتعطَّلُ ٱلوقت، ولا يكونُ فيها يومٌ ولا ساعةٌ ولا ثانيةٌ ولا دقيقة.

فقلْتُ: ولكنَّكَ إذا عطلْتَها لم تتعطلِ ٱلشمسُ ٱلتي تُعيِّنُ منازِلَ ٱلنهار، فسيَمُرُّ ٱلظهرُ ويَحينُ ٱلعصر و. . .

قال: ويأتي غد، وإنَّما أنا معكَ ٱليومَ فقط. . . ويجبُ أنْ تغتبطَ[2] بأنَّكَ أستاذُ (نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين)، فقد قرأْتُ ٱلكثيرَ في ٱلأدبِ وقرأْتُك، فما كانَ لي رأيٌ إلَّا رأيْتُهُ لك. . . ولا صحَّتْ عندي نظريَّةٌ إلَّا رأيْتُكَ قد أبديْتَها، وأنا لا أعتقد أدباً في مِصرَ إلَّا ما تُوافَيْنا عليهِ معاً «ولا أسلّمُ جدَلاً، ولا جدَلاً أسلّمُ أنَّ في مصرَ أدباءَ ينالون منِّي شيئاً، فهو أنا وأنا هو»، ولَئِنْ لم يُذعِنوا (لنابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين) فلِيعلَمُنَّ أنَّهم «وقعوا منِّي موقعَ نملةٍ على صخرة. . . هذا من جِهة، ومن جهةٍ أُريدُ سجائرَ وليسَ معي ثمنُها». . .

---

(١) مثابته: ملجأه. (٢) تغتبط: تُسرّ.

فتهلَّلتُ وٱستبشرْتُ، وقلتُ لَه: هذا قرشٌ فهلُمّ فٱشترِ بِهِ دخائنَك، وفي رعايةِ ٱلله، ثُمَّ ٱستويتُ لِلقيام، ولكنَّه لم يقم؛ بل تمكَّنَ في مجلِسِه...

* * *

وكَرِهْتُ أنْ أتغيرَ لهُ وما أشكُّ أنَّهُ في هذا صحيحُ ٱلتمييز؛ فما أسرعَ ما قال: إنَّ «نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين» فَتًى قويُّ ٱلإرادة؛ فإذا هو لم يصبرْ عنِ ٱلتدخينِ ساعاتٍ فما هو بصبور.... وإذا لم يُثْبِتْ لك هذا ٱلأمرَ عن مُعاينَة... فما أعطيْتَهُ حقَّه.

فقلْتُ في نفسي: لقد غرسْتُ ٱلرجلَ من حيثُ أردْتُ ٱقتلاعَه، وأيقنْتُ أنَّهُ من عُقلاءِ ٱلمجانينِ ٱلذين تتغيَّرُ فيهمُ ٱلعاطفةُ أحياناً فُتلهُمهم آياتٍ مِنَ ٱلذكاءِ لا يتَّفقُ مثلُها إلَّا لِنوابغِ ٱلمنطق؛ وذكرْتُ (بهلول) ٱلمجنونَ ٱلذي حكوْا عنه أنَّ إبراهيمَ ٱلشيبانيَّ مرَّ بهِ وهو يأكلُ خَبيصاً[1] فقالَ لَه: أطعمْني. قال: ليسَ هو لي، إنَّما هو لِعاتِكةَ بنتِ ٱلخليفةِ بعثَتْهُ إليَّ لِآكلَهُ لها...

وقالوا: إنَّه مرّ بسوقِ ٱلبزَّازين فرأى قوماً مجتمعينَ على بابٍ وكانَ قد نُقِب، فنظرَ فيهِ وقال: أتعلمونَ مَنْ عملَ هذا؟ قالوا: لا. قال: فأنا أعلم.

فقالوا: هذا مجنونٌ يراهم بٱلليلِ ولا يتحاشَونه[2]، فألْطفُوا[3] بِهِ لَعلَّهُ يُخبرُكم. ثُمَّ قالوا: أخبِرْنا. قال: أنا جائع. فجاءُوهُ بطعامٍ سَنِيٍّ وحلواء؛ فلمَّا شبعَ قامَ فنظرَ في ٱلنقْبِ وقال: هذا عملُ ٱللصوص...

وكانَتْ مجلةُ (الرسالة) في يدِ (نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين)، فوصلَ ٱلكلامَ بها وقال: إنَّهُ يقرأُ كلَّ مقالاتي، وإنَّهُ وإنَّهُ، وإنَّها وإنَّها. قلْت: فما ٱستحسنْتَ منها؟ قال: (مقالة السيما)...

فقلْت: متى كانَ آخرُ عهدِكَ برؤيةِ السيما؟ قال: أمس.

قلْت: فأنا لم أكتبْ مقالاً عنِ ٱلسيما، ولكنَّكَ أعجبْتَ بما رأيْتَ أمسِ فتحوَّلَ ما رأيْتَهُ حُلُماً في مقالة.

فأعجبَهُ هذا ٱلتأويلُ وقال: بمثلِ هذا أنا (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين)، فأقرأُ مقالتَكَ في ٱلغيبِ من قبلِ أنْ تكتبَها....

---

(١) الخبيص: ضرب من الأطعمة يصنع من التمر والسمن.

(٢) يتحاشونه: يتجنّبونه.

(٣) ألطفوا: تلطّفوا وأحسنوا معاملته.

قلْت: إنَّك تُكثرُ أنْ تقولَ عن نفسِك (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين)، وهذا يَحصرُ نبوغَكَ في قرنٍ بعينِهِ؛ فلو قطعْتَ ٱلكلمَةَ وقلْت: (نابغة القرن)، لَصحَّ أنْ تكونَ نابغةَ ٱلقرنِ ٱلتاسعَ عشرَ وٱلثامنَ عشر، وما قبلَهما وما بعدَهما.

فرأيْتُ به شَدْهَةً[١] كأنَّهُ يُفكرُ في جنونِه، ثُمَّ أفاقَ وقال: لا. لا؛ وإنَّ هاهنا موضِعَ نظر، فلو رضيْتُ بنابغةِ ٱلقرنِ فقط، لَجاءَ مَنْ يقول: إني نابغةُ قرنِ خروف...

* * *

فقلْتُ في نفسي: حَمأَة مُدَّتْ بماء، وإنَّ هذه ٱلوساوسَ لا تنفكُّ تَعرو[٢] هذا المسكينَ ما وجدَ من يُكلِّمُه؛ وٱلأفكارُ في ذهنِهِ مجتمعةٌ مختلِطةٌ مسترسلِةٌ كأنَّها ثورةٌ مِنَ الكلامِ لا نظَامَ لها، فَلأَسكُتْ عنه ولْأَتشاغلْ بما بينَ يديّ.

وسكَتُّ وأعرضْتُ عنه؛ فجعلَ طائفُهُ يعتريه، وكأنَّ ٱلسكوتَ قد سلَّطَ أفكارَه عليه، وكأنَّها أخذَتْ تصيحُ بِهِ في رأسِهِ كما يصيحُ غِلمانُ ٱلطرقِ بٱلمجنون، لا يزالونَ بِهِ حتى يُحْرِدُوهُ[٣] ويُفقدُوهُ ٱلبقيَّةَ من صبرِهِ وعقلِهِ معاً. فغضبَ (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين) ونقلَهُ ٱلغضبُ إلى حالةٍ زَمْهَرَتْ فيها عيناه[٤]، وكَلَحَ وجهُهُ[٥] حتى خِفْتُ أنْ يثورَ بِهِ ٱلجنون، فأقبلْتُ عليهِ وتعلَّلْتُ بسؤالِهِ: أَلَكَ إخوة؟ ألَمْ ينبغْ فيهم نابغة...؟

قال: إنَّ له أخاً يُعذِّبُه، ويُوقِعُ بِهِ ضرباً، ويغُلُّهُ بٱلسلاسل، ويشدُّهُ «بأمراسِ كَتَّانٍ إلى صُمِّ جَندل»، وأنَّهُ أنزلَ بِهِ ٱلعذابِ ما لو أنزَلَهُ بحجرٍ لَتألَّم.

قلْت: فأنت في حاجةٍ إلى راحةٍ، ويحسنُ بك أنْ تأويَ إلى مكانٍ تتمدَّدُ فيه.

قال: إنِّي منصرفٌ وسأجلسُ في نَدِيّ[٦] كذا «هذا من جهة، ومن جهةٍ ليسَ معي ثمنُ ٱلقهوة».

قلْت: فهذا قرشٌ تدفعُهُ ثمناً لها، فأذهبْ فٱستمتعْ بها وبٱلتدخينِ وبٱلراحةِ في ذلك ٱلنديِّ، فٱلمكانُ ها هنا كثيرُ ٱلضجيجِ وٱلحركة. وٱستوفزْتُ لِلقيام[٧]؛ ولكنَّهُ لم يَتَحَلْحَلْ من مجلسِه.

---

(١) شدهة: اندهاشاً واستغراباً.

(٢) تعرو: تصيب.

(٣) يحرّدوه: يشجّعوه على فعل ما يستهجن.

(٤) زمهرت عيناه: لمعت غضباً.

(٥) كلح وجهه: تغيّر لونه حتى بدا كالحاً.

(٦) نديّ: مقهى.

(٧) استوفزت للقيام: تحفّزت.

ثم قال: أراك ٱلآن مستبصراً أنّي (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين) بعينِه.

قلْت: بل بعينيهِ اليمنى وٱليسرى معاً...

قال: لا. لا؛ إنَّك نسيْتَ أنَّ ٱلعربَ تقولُ في ٱلتوكيد: عينُهُ ونفسُهُ وذاتُهُ. «أي أنا نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين بعينهِ ونفسهِ وذاتهِ، فليسَ غيري نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين».

وكادَتْ نفسي تخرجُ غيظاً، ولكنّي رأيْتُ ٱلحِلْمَ على مثلِ هذا يجري مجرى ٱلصَّدَقة؛ وقلْت: إنَّ أدباءَ ٱلمجانين كثيراً ما يتَّفقُ لهُم ٱلإبداعُ ٱلطريفُ(١) إذا علَّلوا شيئاً، كذلك ٱلقاصُ ٱلذي كانَ يقصُّ على ٱلعامَّةِ سيرةَ يوسفَ ـ عليهِ ٱلسلام ـ، فقالَ لهم فيما قال: إنَّ ٱلذئبَ ٱلذي أكلَ يوسفَ كانَ ٱسمه كذا، فردُّوا عليه: إنَّ يوسفَ لم يأكلْهُ ٱلذئب. قال: فهذا هوَ ٱسمُ ٱلذئبِ ٱلذي لم يأكلْ يوسف.

فقلْتُ لِلمجنون: فما ٱلعِلَّةُ عندَكَ في أنَّ ٱلعربَ لم يقولوا في ٱلتوكيد: عينُهُ وأُذنُهُ وأنفُهُ وفمُهُ ويدُهُ ورجلُه؟

فنظرَ نظرةً في ٱلفضاءِ ثُمَّ قال: ليسوا مجانينَ فيخلِطوا هذا ٱلخلط، وإلا وجبَ أنْ يقولوا مع ذلك: وعِمامتُهُ وثوبُهُ ونعلُهُ وبعيرُهُ وشاتُهُ ودارهمُهُ. «هذا من جِهة، ومن جهةٍ ليسَ معي أجرةُ ٱلسيارةِ إلى بلدي وهي قرشان».

قلْت: هذه هي أجرةُ ٱلسيارةِ وصَحِبتْكَ ٱلسلامة، ونهضْتُ واقفاً؛ ولكنَّهُ لم يتحرَّك.

* * *

ثُمَّ قال: إنَّك لم تعرفْ بعدُ «أنِّي أقولُ ٱلشعرَ في ٱلغزلِ وٱلنسيبِ وٱلمدحِ وٱلهجاءِ وٱلفخر؛ وأنِّي في ٱلخطابةِ قُسُّ بْنُ ساعِدَةَ أو أكثمُ بْنُ صَيفي، وأنِّي صخرٌ لا ينفجر... يابسٌ لا ينعصر، لسْتُ كَٱلحجَّاجِ بلْ كعمر».

قلْت: هذا شيءٌ يطولُ بينَنا ولا حاجةَ لك بهذِهِ ٱلبراهينِ كلِّها، فقدْ آمنْتُ أنَّكَ نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ في ٱلأدبِ وٱلشعرِ وٱلخطَابةِ وٱلترسُّل.

قال: وٱلفلسفة؟

قلْت: وٱلفلسفةِ وكلِّ معقولٍ ومنقول؛ وقدِ ٱنتهينَا على ذلك.

قال: ولكنَّكَ تحسبُني مجنوناً أو ممروراً «كما حسبتْني ٱلجرائِدُ ٱلتي زعمَتْ

---

(١) الطريف: الجديد.

أنَّ ٱختفائي في ٱلبيمارستانِ كانَ لِجنوني ٱلفكريِّ أو لِذكائي ٱلطبيعيِّ وهوَ الأصحّ... فبيِّنْ لِهذه ٱلجرائِدِ أنّي خرجت، وأني سأطبعُ ٱلأدبَ بطابعٍ جديد».

قلْت: ولكنّي لسْتُ مراسَل جرائد. وقال: «فٱجعلْني رسالةً وراسِلْها عنّي أو أكتبُ لك أنا ما تُرسلُه، وما جئتُك إلّا لِهذا؛ ويجبُ أنْ تُلحقني بجريدةٍ كبيرة، وهذه ٱلجرائدُ تعرفُني كلُّها، وقد تناولَتْني من جميعِ ٱلنواحي ٱلأدبيَّة؛ فضلاً عن أني كاتبٌ فَذٌّ، وخطيبٌ فَذّ، وشاعرٌ فَذّ، وهذا قليلٌ من كثير، فهل أعوِّلُ عليكَ في صِلَتي بٱلجرائدِ أولا؟».

قلْت: إنَّك تعرفُهُم ويعرفونك، وقد بلَوْتَهم[1] وبَلَوْا منك، فلسْتَ في حاجةٍ إليَّ عندَهم.

قال: إنهم يخشون بأسي، وقد حسبوني مجنوناً ٱستهوتْهُ ٱلشياطين؛ وما عَلِموا أنَّ شيطانَ الشعرِ هو ٱلذي ٱستهواني، كما أنَّ شيطانَ ٱلحُبِّ هو ٱلذي ٱستهواك... هذا من جِهة، ومن جِهةٍ ليسَ معي ثمنُ ٱلغداء، ولا أكلِّفُكَ شيئاً...».

قلْت: فهذا قرشٌ لِلغداءِ في مطعمِ ٱلشعب. وهمُ ٱلآنَ يتغدَّون ويُوشِكُ إذا أبطأتَ أن تُوافِقَهم وقدِ استنفدوا ٱلطعامَ، وأنت لا تجهلُ أنَّ ٱلقرشَ في مطعمِ ٱلشعبِ هو قرشانِ في ٱلقيمة.

قال: صدقْت؛ يُوشِكُ أنْ أوافقَهُم وقد فرغوا من طعامِهِم وغسلوا ٱلآنية. فلأُبْقِ هذا لِلعَشاءِ وسأطوي[2] إلى الليل...

قلْت: فمعكَ ٱلآن ثمنُ ٱلدخان، وٱلقهوة، وٱلغداء، وأجرةُ ٱلسيارةِ إلى بلدِك. وقد كانَ نابغةُ ٱلقرنِ ٱلثالثِ لِلهجرةِ وٱسمه (طاقُ ٱلبصلِ)[3] يُغنِّي بقيراطٍ ولا يسكتُ إلّا بدانق. هذا من جِهة، ومن جِهةٍ فخذْ هذا القِرشَ ثمناً لِسكوتِكَ وٱنصرِف.

* * *

فشقَّ ذلِك عليهِ وقامَ مُغْضَباً وتنفسْتُ بعدَهُ ٱلصُّعَداءَ ٱلطويلة... وفتحْتُ ٱلنافذةَ وٱستقبلْتُ ٱلهواءَ ٱلنقيَّ وأخذْتُ في رِياضةِ ٱلتنفسِ ٱلعميق، ثُمَّ زاغَتْ عيني إلى ٱلبابِ؛ فإذا (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين) مقبلٌ معَ نابغةِ قرنٍ آخر......

---

(١) بلوْتهم: اختبرتهم.

(٢) أطوي: أنام بلا عشاء.

(٣) هذا أحد مجانين القرن الثالث في الكوفة.

المجنون

٢

رأيْتُ ٱلمجنونينِ يدخلانِ معاً، فكأنَّما سَدَّا ٱلبابَ وسَوَّياهُ بِٱلبِناءِ وتركا ٱلغُرفَةَ حائِطاً مُصْمَتاً لا بابَ فيه، مِمَّا ٱعتراني[1] مِنَ ٱلضيقِ وٱلحرَجِ؛ وقلْتُ في نفسي: إنَّهُ لا مذهبَ لِلعقلِ بينَ هذينِ إلَّا أنْ يُعينَ كِلاهما على صاحبِه، فأرى أنْ أدَعَهما وأكونَ أنا أُصرِّفُهما؛ ويا ربّما جاءَ مِنَ ٱلنوادرِ في ٱجتماعِ مجنونينِ مالا يأتي مثلُهُ من عقلينِ يجتمعانِ على ٱبتكارِهِ؛ غيرَ أنّي خشيْتُ أنْ أكونَ أنا ٱلمجنونَ بينهما، ثُمَّ لا آمنُ أن يَثِبَ أحدهُما بالآخرِ إذا خطَرَتْ بِهِ ٱلخطْرةُ[2] من شيطانِه، فرأيْتُ أنْ يكونَ لي ظهيرٌ عليهما، إنْ لم يحقَّ بِهِ ٱلعَوْنُ فلا أقلَّ من أنْ يطولَ بِهِ ٱلصبر... وكانَ إلى قريبٍ منّي ٱلصديقُ (ا. ش) فأرسلْتُ في طلبِهِ.

أمَّا هذا ٱلمجنونُ الثاني الذي جاءَ به (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين) فقدْ رأيتُهُ من قبل، وهو كاْلكِتابِ ٱلذي خُلِطَتْ صُحُفُهُ بعضُها في بعضٍ فتداخَلَتْ وفسدَ ترتيبُها، وٱنقلبَ بذلك ٱلعلمُ ٱلذي كانَ فيها جَهْلاً وتخليطاً، يَثِبُ ٱلكلامُ بعدَ كلِّ صفحةٍ إلى صفحةٍ غريبةٍ لا صِلَةَ لَهَا بِمَا قبلَها ولا ما بعدَها.

وهو طالبٌ أزهريٌّ كانَ أكبرَ همِّهِ أنْ يصيرَ حافظاً كاْلحفّاظ ٱلأقدمينَ مِنَ ٱلرواةِ وٱلفُقهاء، فجعلَ يستظهِرُ كتاباً بعدَ كتابٍ ومتْناً بعدَ متن؛ وكانَتْ لَهُ أُذُنٌ واعيةٌ، فكلُّ ما أُفرِغَ فيها من درسٍ أو حديثٍ أو خَبر، نزلَ منها كالنقْرِ على آلةٍ كاتبة، فينطبعُ في ذِهنِهِ ٱنطباعَ ٱلكِتابة: لا تُمحى ولا تُنسى.

ثُمَّ ٱلْتاثَ هذه ٱللُّوثَةَ وهو يحفظُ متناً في فقهِ ٱلشافعيِّ (رضيَ ٱللهُ عنه)، فغبرَ سنينَ يتحفَّظُه، كلَّما ٱنتهى إلى آخرِهِ نَسِيَهُ من أولِه؛ فيعودُ في حفظِهِ وربَّما هذا دأبَهُ

---

(١) اعتراني: أصابني وداخلني.

(٢) الخطرة: الفكرة.

لا يملُّ ولا يجدُ لِهذا ٱلعَنَاءِ معنًى، ولا يزالُ مقبلاً على ٱلكتابِ يَجمعُه، ثُمَّ لا يزالُ ٱلكتابُ يتبدَّدُ في ذاكرتِه.

وتركَ ٱلمعهدَ ٱلذي هو فيهِ وتخلَّى في دارِهِ[1] لِلْحفظ، وأجمعَ ألّا يدعَ هذا ٱلمتنَ أو يحفظَه، وكأنَّ فيه ٱلموضعَ ٱلذي فارَقهُ عقلُهُ عندَه، وبذلك رجعَ ٱلمِسكينُ آلةَ حِفْظٍ ليسَ لَهَا مِساكٌ[2]؛ وأصبحَ كٱلذي يرفعُ ٱلماءَ مِنَ ٱلبحر، ثُمَّ يُلقيهِ في ٱلبحر، لِينْزح ٱلبحر...

* * *

وجاءَ (ا. ش) فقلْتُ له، وأومأْتُ إلى ٱلمجنونِ ٱلأول: هذا نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين.

قال: وهلِ ٱنتهى ٱلقرنُ ٱلعشرونَ فيُعرفَ مَنْ نابغتُه؟

فقلْتُ لِلمجنون: أجبْهُ أنت. فسأَلَه: وهلْ بدأ ٱلقرنُ ٱلواحدُ وٱلعشرون؟ قال: لا.

قال: فإِنَّ هذا الذي إلى جانبي نابغةُ ٱلقرنِ ٱلواحدِ وٱلعشرين.....فكما جاز أنْ يكونَ هو نابغةَ قرنٍ لم يبدأ، جازَ أنْ أكونَ أنا نابغةَ قرنٍ لم ينته.

قلْتُ: ولكنَّك زِدْتَ ٱلمشكلةَ تعقيداً من حيثُ توهَّمْتَ حلَّها؛ فكيف يكونُ معك في آنٍ وبينَك وبينَهُ خمسٌ وستون سنة؟

فنظَر نظرةً في ٱلفضاء، وهو كلَّما أرادَ شيئاً عسيراً نظَرَ إلى ٱللاشيء..

ثُمَّ قال: هذه الأمورُ لا تَشتبهُ إلَّا على غيرِ ٱلعاقل... وكيف لا يكونُ بيني وبينَهُ خمسٌ وستون سنةً وأنا أتقدَّمُه؛ النبوغ بأكثَرَ من علمِ ٱلعلماءِ في خمسٍ وستين سنة..؟

قلْتُ لِلآخر: أكذلك؟

قال: مِمَّا حفظناهُ عنِ ٱلحسَن: أدركْنا قوماً لو رأيْتُموهم لَقلْتم: مجانين. ولو أدركوكم لَقالوا: شياطين...

فضحكَ ٱلأولُ وقال: إنَّهُ تلميذي.

قالَ ٱلثاني: لقد صدقَ فهو أُستاذي، ولكنَّه حين ينسى لا يذكِّرُهُ غيري...

قُلْت: لا غَرْوَ «فمما حفظناه» عنِ ٱلزُّهريّ: إذا أنكرْتَ عقلَك فٱقدَحْه بِعاقل...

فغضبَ نابغةُ القرنِ ٱلعشرينَ وقال: ويحٌ لِهذا ٱلجاهل، ٱلأحمق، ٱلجاحدِ لِلفضل،

---

(١) تخلّى في داره: انزوى وانعزل.

(٢) مِساك: بقية حفظ.

ومع جنونِهِ وخَبَله. أيُذكِّرُني وهو منذُ كذا وكذا سنةً يحفظُ متناً واحداً لا يُمسكُهُ عقلُه إلّا كما يُمسِكُ ٱلماءَ ٱلغرابيل؟ صدقَ ـ واللهِ ـ مَنْ قال: عدوٌّ عاقلٌ خيرٌ؛ خير. فقال ٱلثاني: خيرٌ من صديقٍ جاهل، هأنذا قد ذكَّرتُكَ من نِسيان، وهأنت ذا رأيْت.

فضحكَ ٱلنابغةُ وقال: ولكنِّي لم أُرِدْ أنْ أقولَ هذا، بلْ أُرِيدُ أنْ أؤلفَ كلاماً آخر.... عدوٌّ عاقلٌ خيرٌ، خيرٌ؛ خير من مجنونٍ جاهل........

* * *

ورأيْتُ أنَّ ٱلتقاءِ مجنونينِ شيءٌ طريفٌ غيرُ جنونِهِما، وصحَّ عندي أنَّ ٱلمجنونَ ٱلواحدَ هوَ ٱلمجنون؛ أمَّا ٱلاثنانِ فقد يكونُ مِنِ ٱجتماعِهِما وتحاورِهِما فنٌّ ظريفٌ مِنَ ٱلتمثيل، إذا وَجدا مَنْ يُصرِّفُهما في ٱلحديثَ، ويستخرجُ ما عندَهُما، ويستكشِفُ منهما قِصتَهما ٱلعقليَّة........

ولم أكنْ أعرفُ أنَّ (نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ) مِنَ ٱلمجانينِ ٱلذين لهم أُذُنٌ في غيرِ ٱلأذُن، وعينٌ في غيرِ ٱلعين، وأنفٌ بغيرِ ٱلأنف؛ إذْ تتلقى أدمغتُهم أصواتاً وأشباحاً وروائحَ من ذاتِ نفسِها لا منَ ٱلوجود، وتُدرِكُها بِٱلتوهُّم لا بالحاسَّة، فَتَتَخلَّقُ[1] هواجسُهُم خَلْقاً بعدَ خَلْق، وتخطرُ ٱلكلمةُ مِنَ ٱلكلام في ذِهْنِ أحدِهم فيخرجُ منها معناها يتكلَّمُ في دِماغِهِ أو يمشي أو يُلاطفُهُ أو يُؤْذيهِ أو يفعلُ أفعالاً أخرى.

وبينا أنا أُديرُ ٱلرأيَ في إخراج فصلٍ مِنَ ٱلحِوارِ بينَ هذينِ ٱلمجنونين، إذْ قالَ (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ): صَهْ، إنَّ جرسَ «التلفون» يدقّ.

قال(ا. ش): لا أسمعُ صوتاً، وليسَ هٰهنا «تلفون».

فٱغتاظَ ٱلمجنونُ ٱلآخرُ وقال: إنَّك تَتَقَحَّمُ[2] على ٱلنوابغِ ولسْتَ من قدرِهِم، وما عملُكَ إلّا أنْ تُنكِر؛ والإنكارُ، ويلك، أيسرُ شيءٍ على ٱلمجانينِ وأشباهِ ٱلمجانين، وٱلعامَّةِ وأشباهِ ٱلعامَّة؛ وقد أنكرْتَ نبوغَهُ آنفاً، وأراكَ ٱلآنَ تُنكِرُ «تلفونه»...

قال (ا. ش): وأين «التفلون» وهذه هي ٱلغرفةُ بأعينِنا؟ فضحِك (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين) وقال: صَهْ ـ ويْحكَ ـ لقد خلَّطْتَ عَلَيّ؛ إنَّ ٱلجرسَ يدقُّ مرةً أخرى، وأنا لا أُريدُ أنْ أُكملِّمَها حتى يطولَ ٱنتظارُها، وحتى تدقَّ ثلاثَ مرات، وأخشى أنْ تكونَ قد دقَّتِ ٱلثالثةَ وذهبَ رنينُها في صوتِك ولَغَطِك...

---

(١) تتخلّف: تتشكّل.

(٢) تتقحّم: تحشر نفسك، تدسّها.

قالَ ٱلمجنونُ ٱلآخر: هي صاحبتُهُ ٱلتي يهواها وتهواه؛ وقدِ ٱستهامَها[1] وتيَّمها وحيَّرها وخبلَها، حتى لا صبرَ لها عنه، فوضعَتْ لَهُ تلفوناً في رأسِه. . . . . .

قالَ «النابغة»: وهذا ٱلتلفونُ لا يُسمعُني صوتَها فقط، بلْ هو يُنْشِقُني عِطرَها أيضاً. وقد تُكلِّمُني فيهِ ٱلملائكةُ أحياناً، وأنا ساخطٌ على هذه ٱلحبيبةِ فإنَّها غيورٌ تُخْشى سَطَواتُها على ٱللائي تَغار منهنّ، ولولا ذلك لَكَلَّمَتْني في هذا ٱلتلفونِ إحدى ٱلحُورِ ٱلعِينِ. . . .

قلْنا: أوَ تَغارُ مِنَ ٱلحُورِ ٱلعِينِ؟

قالَ ٱلمجنونُ ٱلثاني: بلِ ٱلأمرُ فوقَ ذلك، فإنَّ ٱلحُورَ ٱلعِينَ يشتمُنْها ويلعنَّها؛ «فممَّا حفِظْناهُ» هذا الحديث: لا تؤذي ٱمرأةٌ زوجَها في ٱلدنيا إلَّا قالَتْ زوجتُه مِنَ ٱلحُورِ ٱلعِين: لا تؤذيهِ قاتلكِ ٱللهُ؛ فإنَّما هو عندَكِ دَخيلٌ يُوشِكُ أنْ يفارِقَكِ إلينا.

قالَ (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين): ويْلي على ٱلمجنونِ إنَّهُ يُريدُ أنْ يخلوَ لَهُ موضعِي فهو يتمنّى هلاكي وٱنتقالي وَشيكاً من هذه الدنيا. وهو يقولُ بغيرِ عِلْمٍ لِأنَّهُ أحمقُ ليسَ لَهُ عُقدةٌ مِنَ ٱلعقلِ، فيزعمُ أنَّها تُؤذيني، ولو هي آذتْني لَغضِبَتْ قبلَ ذلك، ولو غضِبَتْ لَرفعَتِ ٱلتلفون. صَهْ إنَّ ٱلجرسَ يدقّ.

* * *

قال ا.ش: إنَّ لِلنوابغِ لَشأناً عجباً، ففي مديريَّةِ ٱلشرقيَّةِ رجلٌ نابغةٌ ماتَتْ زوجتُهُ وترَكَتْ لَهُ غلاماً، فتزوجَ أخرى وهو يعيشُ في دارِ أبيه. فلمَّا كانَ عيدُ ٱلأضحى سألَ أباهُ مالاً يبتاعُ بِهِ ٱلأضحيَّةَ فلم يُعطِه. وهو رجلٌ يحفظُ ٱلقرآن، فذكرَ إبراهيمَ (عليه السلام) ورؤياهُ في ٱلمنام أنَّهُ يذبحُ ٱبنَه، فخُيِّلَ إليهِ أنَّ هذا بابٌ إلى ٱلنبوَّة، وأنَّ ٱللَّهَ قد أوحى إليه، فأخَذَ ٱلغلامَ في صبيحةِ ٱلعيدِ وهمَّ بذبحِه، ولولا أنْ صرخَ ٱلغلامُ فأدركَهُ ٱلناسُ فٱستنقذوه. . . .

قالَ (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ): هذا مجنونٌ وليسَ بنابغة؛ بلْ هذا من جُهلاءِ ٱلمجانين؛ بلْ هو مجنونٌ على حِدَتِه. وقد رأيْتُهُ في ٱلبيمارستانِ في حينِ كنْتُ أنا في ٱلمستشفى. . . فكانَ يزعُمُ أنَّهُ ٱئتمرَ في ذبحِ غلامِهِ بإرادةِ ٱللهِ. ولو كانَتْ إرادةُ ٱللَّهِ لنفذَتْ بِٱلذبحِ، ولو كانَ ٱلأمرُ وحياً لَنزلَ عليهِ مِنَ ٱلسماءِ كبشٌ يذبحُه. . . وهكذا أنا في ٱلمنطقِ (نابغةُ القرنِ العشرين).

---

(١) استهامها: حملها على حبّه.

ثُمَّ إِنَّهُ أشارَ إلى المجنونِ ٱلثاني وقال: وأنا أتقدَّمُ هذا في ٱلنبوغِ بأكثر من عِلْمِ ٱلعلماءِ في خمسٍ وستينَ سنةً كاملة.

قلْتَ: ولكنَّك ذكرْتَ هذا من قبلُ فلِمَ عُدْتَ فيهِ ٱلآن؟

قال: إنَّ السببَ قد تَغيَّر فتغيرَ معنى ٱلكلام؛ وقد بدالي أنَّهُ يتمنَّى هلاكي ليكونَ هو نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين. فمعنى ٱلكلام الآن: أنَّهُ لو عاشَ خمساً وستينَ سنة «يحفظُ ٱلمتن» لَمَا بلغَ مبلغي مِنَ ٱلعِلْم. هذا رجلٌ نِصفُهُ ميتٌ جنوناً موتاً حقيقيًّا، ونصفُهُ الآخرُ ميتٌ جهلاً بِٱلموتِ ٱلمعنويّ.

قال ا. ش: حسبُهُ أنْ يقلِّدَكَ تقليدَ ٱلعاميِّ لإمامِهِ في ٱلصلاةِ وعسى ألَّا تستكثرَ عليهِ هذا فإنَّهُ تِلميذُك.

قالَ ٱلمجنونُ ٱلثاني «مِمَّا حفظْناه»: لو صُوِّرَ ٱلعقلُ لَأَضاءَ معهُ ٱلليل، ولو صُوِّرَ ٱلجهلُ لَأَظلمَ معهُ ٱلنهار... ونابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ هذا لا يعرفُ كيف يُصلِّي، فقد وقفَ منذُ أيَّام يُصلي بِٱلشعر... ولمَّا رأيتُهُ ناسياً فذكرْتُهُ ونبهْتُهُ أنَّ ٱلصلاةَ لا تجوزُ بِٱلشعر، اِلتَفتَ إليَّ وهو راكعٌ فسبَّني وشتمني وصرخَ فيَّ وقال: ما شأنُك بي؟ هلْ أنا أُصلي لك أنت...؟

فغضِبَ «ٱلنابغةُ» وقالَ: ـ واللهِ ـ إنْ تحسبوني إلَّا مجنوناً فتُريدونَ أنْ يقلدني هذا ٱلأحمقُ ٱلذي ليسَ لَهُ رأيٌ يُمسكُه. ولولا ذلك لَمَا ٱعتقدْتُم أنَّ تقليدي مِنَ ٱلسهلِ ٱلممكن، ولَعرفْتُم أنَّ نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ نفسَهُ لم يستطِعْ تقليدَ نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين.

قلْنا: هذا عجيب، وكيف كانَ ذلك؟

فضحِكَ وقال: لا أعدُّكم مِنَ ٱلأذكياءِ إلَّا إذا عقلْتُم كيف كانَ ذلك؟ قال ا.ش: هذا لم يُعْرَفْ مثلُهُ فكيف نعرفُه؟ ولم يتوهمْهُ أحد، فكيف نتوهمُه؟

قال: لو لم تكنْ أستاذَ نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ لَمَا عرفْتَها؛ وهذا نصفُ ٱلصواب؛ ومادُمْتَ أستاذي، فلو أنَّنا ٱختلفْنا في رأيٍ لَكانَ خِلافُك لي صواباً لأنَّهُ منك، وكانَ خِلافي لك صواباً لِأنَّهُ منّي؛ فأنت (غيرُ مخطىءٍ) وأنا مُصيب، وإذا أسقطْنا كلمةَ (غير) أظلُّ أنا مصيباً وتكونُ أنت مخطئاً...

أنا لم أرَ (نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين) في ٱلرؤيا، ولكنِّي رأيْتُهُ في ٱلمِرآةِ عندَ ٱلحلَّاق... ورأيتُهُ يُقلِّدُني في كلِّ شيءٍ حتى في ٱلإشارةِ وٱلقَوْمةِ وٱلقَعْدةِ ولكنِّي صرخْتُ فيهِ وسبَبْتُهُ ففتحَ فَمهُ، ثُمَّ خافني ولم يتكلَّم...

وأومأ إلى ٱلمجنونِ ٱلآخرِ وقال: وأنا أتقدمُ هذا في ٱلنبوغِ بأكثر من عِلْمِ ٱلعلماءِ في خمسٍ وستينَ سنة.

قال ا. ش: لقد قُلْتَها مرتينِ كِلتاهما بمعنًى واحد، فما معناكَ في هذه ٱلثالثة؟

قال: هذا ٱلغِرُّ يزعمُ أنّي لا أعرفُ كيفَ أُصلّي، ويستدلُّ لذلك بأنّي صليْتُ بٱلشعرِ وأنّي شتمْتُهُ وأنا راكع؛ ولو كانَ عاقِلاً لَعَلِمَ أنَّ شتمي إياه وأنا راكعٌ ثوابٌ لَه... ولو كانَ نابغةً لَعَلِمَ أنَّ الشعرَ كانَ في مدحِ دولةِ النحاسِ باشا وأُولي ٱلنُّهى.

قلْنا: ولكنَّ ٱلشعرَ على كلِّ حالٍ لا تجوزُ بِهِ ٱلصلاةُ ولو في مدحِ دولةِ ٱلنحاس باشا.

قالَ: لم أُصلِّ بِه، ولكنْ خطرَ لي وأنا أُصلّي أنّي نسيْتُ ٱلقصيدَة فأردْتُ أنْ أتحقّقَ أنّي لم أنسَها... فإذا أنا نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ في ٱلحفظ، وهي ستةُ أبيات. لا كهذا ٱلمعتوهِ ٱلذي صَبر على المتنِ صبرَ ٱلغريبِ على ٱلغُربةِ ٱلطويلة، ومعَ ذلك لم يحفظْه.

قال ا. ش: فأمْلِ علينا هذا ٱلشعر. فأملى عليه.

يـا حـلـيـفَ ٱلـسُّـهْـدِ قـلْ لـي ... أيـنَ مَـنْ فـي ٱلـدهـرِ خـالْ
إنْ تـكُـنْ تـهـوى غـزالا ... أكـحـلَ ٱلـعـيـنـيـنِ مـالْ
أنـا أهـواهـا ولـكـنْ ... لا سـبـيـلَ إلـى ٱلـوِصـالْ
مـنـذُ ولَّـتْ قُـلْـتُ مـهـلاً ... مـنـذُ غـابَـتْ فـي خـيـالْ
أنـا مـجـنـونٌ بـلـيـلـى ... لـيـلَ يـا لـيـلـى! تـعـالْ

قلْنا: ولكنْ ليس هذا مدحاً، فضحِكَ وقال: أردْتُ أنْ تعرفوا أنّي أقولُ في الغَزَل، أمّا المديح فهو:

شـغـفَ ٱلـورى[1] بـمـنـاصـبٍ وأمـانـي ... وشُـغِـفْـتَ يـا نـحـاسُ بِـٱلأوطـانِ
حـسـبـوا ٱلـحـيـاةَ تـفـاخـراً وتـنـعُّـمـاً ... وحـسـبْـتَـهـا لِـلَّـهِ وٱلأوطـانِ

ثم أُرْتِجَ[2] عليهِ فسكتَ. قالَ ٱلمجنونُ ٱلآخر: إنّها ستةُ أبيات، وقد نسيْتُ أربعة، ولسْتُ أُريدُ أنْ أذكِّرَك:

(١) شغف الورى: اشتدّ حبّ الناس. (٢) أرتج: أغلق.

فقالَ (النابغة): أظنُّهُ قد حانَ وقتُ ٱلصلاةِ وأُريدُ أنْ أُصلي... ونظرَ إلى اللاشيءِ في ٱلفضاء، ثُمَّ قال. وٱلبيتُ الأخير:

لا أبتغي في ٱلمدحِ غيرَ أولى ٱلنُّهى   أوِ صادقٍ أو شوقي أو مطرانِ

ثُمَّ أمر ا. ش. أنْ يقرأَ عليهِ ٱلشعرَ فقرأه، فقال: أحسنْت، انظرْ إلى فوق. فنظر، ثُمَّ قال: انظرْ إلى تحت. فنظرَ ثُمَّ سكت.

قال ا. ش: وبعدُ؟ قال: وبعدُ فإنَّ الناسَ ينظرون إمَّا إلى فوقُ وإما إلى تحت...

* * *

وكانَ الضجرُ قد نالَ مِنِّي، فرجوْتُ ا. ش. أنْ يلبثَ مَعهما وأذنْتُ لِنابغةِ القرنِ العشرين أنْ يلقاني في ٱلنّدي وٱنصرَفْت..

قال ا. ش. وهو يُنبِّئني: فما غبْتَ عنّا حتى أخذَ ٱلمجنونُ يشكو ويتوجَّعُ ويقول: لقد حاقَ بِيَ ٱلظُّلْم، وإنَّ (ٱلرافعيّ) رجلٌ عَسُوفٌ ظالم، لِأنّي أكتبُ لَهُ كلَّ مقالاتِهِ ٱلتي ينشرُها في (الرسالة)... وأجمعُ نفسي لَها، وأجهدُ في بَيانِها، وأُذيبُ عقلي فيها، وهو مستريحٌ وادعٌ، وليسَ إلَّا أنْ ينتحِلَها[1] ويضعَ توقيعَهُ عليها، ويَبعَثَ بها إلى ٱلمجلَّة، ثُمَّ هو يقبضُ فيها ٱلذهبَ وينالُ ٱلشهرة، ولا يدفعُ لي عن كلِّ مقالةٍ إلَّا قرشين...

قال ا. ش: فما يمنعُكَ أنْ تُرسلَ أنت هذه ٱلمقالاتِ إلى ٱلمجلةِ فتقبضَ فيها ٱلذهب؟ قال: إنَّ هناك أسراراً أنا مُحصِنُها وكاتمُها، ولا ينبغي أنْ يعلمَها أحدٌ فإنَّها أسرار... قالَ لَه: فدعِ (ٱلرافعيّ) وٱكتبْ لي أنا هذه ٱلمقالاتِ، وأنا أعطيكَ في كلِّ مقالةٍ ذهبينِ لا قرشين.

قالَ هذه أسرارٌ ولا أستطيعُ أنْ أكتبَ إلَّا للرافعيّ، لِأنَّ (نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ) لا يجوزُ أنْ يدَّعيَ كلامَهُ إلَّا أستاذُ نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين، ولوِ ٱدَّعاهُ غيرُهُ لَكانَ هذا حطًّا من قدرِ نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين، وهذا بعضُ ٱلأسرارِ لا كلُّ الأسرار..

قلْت: ثُمَّ جاءَ ٱلمجنونانِ في ٱلعشِيَّةِ إلى ٱلنديّ.

---

(١) ينتحلها: ينسبها لنفسه.

المجنون

٣

وكنّا في ٱلنَّديّ ثلاثةً: أنا، وا. ش. وس. ع؛ وقد هيَّأتُ تدبيراً تَوافَقْنا عليهِ لِتحريكِ هذينِ ٱلمجنونين، وتدوينِ ما يجيءُ منهما. فلَّما أقبلا تَحَفَّيْنا[١] بِهِما وألْطَفْنَاهُما، وقُمْنا ثلاثتُنا ببَسْطِهِما وإكرامِهِما، حتى حَسِبَا أنَّ في كلمةِ «مجنون» معنى كلمةِ أميرٍ أو أميرة. . ورأيْتُ في عيني «نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين» ـ وهو أعْيَنُ أنجَلُ[٢] ـ ما لو ترجمْتُهُ لَمَا كانَتِ ٱلعِبارةُ عنه إلّا أنَّهُ يعتقدُ أنَّ لَهُ نفساً أُنثى أعشقُها أنا. . فكانَ مُسَدَّداً[٣] فَكِهَ ٱللسانِ، تُسْتَمْلَحُ لَهُ ٱلنادرةُ، وتُسْتطْرَفُ منهُ ٱلحركة.

ولَمَّا تمكَّنَ منهُ ٱلغرورُ، وٱحتاجَ ٱلجنونُ كما يحتاجُ ٱلجمالُ إلى كِبريائِهِ إذا حاطتْهُ ٱلأعينُ ـ أدارَ بَصَرَهُ في ٱلمكان، ثُمَّ قال: أُفٍّ لكم ولِمَا تصبرونَ عليهِ من هذا النديّ في ضَوْضائِهِ ورُعاعِهِ وغوغائِهِ. إنْ هؤلاءِ إلّا أخلاطٌ وأوشابٌ وحُثالة. هذا ٱلجالسُ هناك. هذا ٱلواقفُ هنالك. هذا ٱلمسْتَوفِز. هذانِ ٱلمتقابلانِ. هؤلاءِ ٱلمجتمِّعون. هذا كلّهُ خيالُ حقيقةٍ في رأسي. ما هي؟ ما هي؟

هذا ٱلتصايُحُ ٱلمنكَر. هذا ٱلضَّرْبُ بحجارةِ ٱلنَّرد. هذه الزَّحمةُ ٱلتي ٱنغمَسنا فيها. هذا ٱلمكانُ ٱلهائجُ من حولِنا. هذا كلُّهُ خيالُ حقيقةٍ في رأسي. هي، هي، هي.

فٱنزعجَ ٱلمجنونُ الآخر، ووَقعَ في تهاويلِ خيالِه، ونظرَ إلينا تدورُ عيناه، وتَوجَّسَ[٤] شرًّا، ثُمَّ زاغَ بصرُهُ إلى ٱلباب، وٱسْتَوْفَزَ وجمعَ نفسَهُ لِلْقِيام؛ فلمَّا رأى صاحبُهُ ما نزلَ بِه، قَهقَهَ وأمْعَنَ في ٱلضحكِ وقال: إنَّما خوَّفتُهُ الصبيانَ وٱلضرْبَ لِيُثبتَ لكم أنَّهُ مجنون. .

---

(١) تحفنا: رحّبنا.
(٢) أعين أنجل: واسع العين أنجلها.
(٣) مسدّداً: موفقاً.
(٤) توجّس: احتسب الشرّ قبل وقوعه.

فحرِدَ الآخرُ وٱغتاظَ وجعلَ يُتمتِمُ بينَهُ وبينَ نفسِه.

قالَ «ٱلنابغةُ»: ما كلامٌ تَطِنّ بهِ طنينَ ٱلذبابةِ أيُّها ٱلخبيث؟

قال: «مِمَّا حفظْنَاهُ»: أنَّ من علاماتِ ٱلأحمقِ أنَّهُ إذا ٱستُنْطِقَ تَجلَّفَ، وإذا بكى خار، وإذا ضَحِكَ نَهقَ. كما فعلْتَ أنت ٱلساعةَ، تقول: هاءْ، هُوءْ، هِيءْ...

فتغيَّرَ وجهُ «ٱلنابغةِ»، ونظرَ إليهِ نظرةً منكرة، وهمَّ أنْ يقتَحِمَ عليه، وقال: أيُّها ٱلمجنون، لِماذا تُضطرُّني إلى أنْ أُجيبَكَ جوابَ مجنون... لا نجوْتُ إنْ نجوْتَ منّي!

فأسرع ا. ش، وأمسكَ بِهِ؛ وٱعترضَ مِنْ دونِهِ س. ع، وقالَ لَهُ: أنت بدأْتَهُ وٱلبادىءُ أظلم.

قال: ولكن ـ ويحَهُ ـ كيف قالَ هذا؟ كيفَ لم يقلْ إلَّا هذا؟ كيف لم يجدْ إلَّا هذا يقولُهُ؟ أنابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين أحمق، وقد أوْحدَهُ ٱللَّهُ في ٱلقرنِ ٱلعشرين؟ لَهَمَمْتُ ـ والله ـ أنْ أكسِرَ ٱلذي فيهِ عيناه؛ فما يقولُ إلَّا أنّي أحمقُ ٱلقرنِ ٱلعشرين...

* * *

قلْتُ: إنْ كانَ هذا هوَ ٱلذي أغضبَك منه؛ ففي ٱلحديثِ ٱلشريف: «ليسَ من أحدٍ إلَّا وفيهِ حَمْقَةٌ، فَبِها يعيش». وٱلحياةُ نفسُها حماقةٌ منظَّمةٌ تنظيماً عاقلاً؛ وما يُقبلُ ٱلإنسانُ على شيءٍ من لذاتِها إلَّا هو مقبلٌ على شيءٍ من حماقاتِه، وأمتعُ ٱللَّذةِ ما طاشَ فيهِ ٱلعقلُ وخرجَ من قانونِه؛ ولولا هذا ٱلحمقُ في طبيعةِ ٱلإنسانِ لما ٱحتملَ طبيعةَ ٱلحياة، أليسَ يُخيَّلُ إليكَ أنَّ أكثرَكَ غائبٌ عن ٱلدنيا وأقلَّكَ حاضرٌ فيها، وأنَّ يَقَظتَكَ ٱلحقيقةَ إنَّما هي في ٱلحُلُم وما يُشبهُ ٱلحُلُم، كأنَّكَ خُلِقْتَ في كوكبٍ وهبطْتَ منه إلى كوكبِنا هذا، فما فيك لِلأرضِ ولا فيها لك إلَّا ٱلقليلُ يلتئِمُ بعضُه ببعضِه، وأكثرُكما مُتَنَافِرٌ أو متناقِضٌ أو متراجِع؟

قال: بلَى.

قلْتُ: فهذا ٱلقليلُ هوَ ٱلحمقةُ ٱلتي بها تعيش، وهو أرضيَّةُ ٱلأرضِ فيك؛ أما سماويةُ ٱلسماءِ فبعيدةٌ لا تحتملُها طبيعةُ ٱلأرض؛ ولِهذا يعيشُ أهلُ ٱلحقيقةِ عيشَ ٱلمجانينِ في رأي المغرورينَ الذين غرَّتْهمُ ٱلحياةُ ٱلفانية، أوِ ٱلمخدوعين ٱلذين خدعَتْهُم ٱلظواهرُ ٱلكاذبة؛ فكلَّما أتَوْا عملاً مِنَ ٱلأعمالِ ٱلساميةِ ٱنتهى إلى ٱلحمْقَى

معكوساً أو مُحوَّلاً أو معدولاً بِه؛ ولعلَّ هذا أصحُّ تفسيرٍ لِلحديثِ ٱلشريف: «أكثرُ أهلِ ٱلجنةِ البُله».

قالَ ٱلمجنونُ ٱلآخر: «مِمَّا حفظْناه»: أكثرُ أهلِ ٱلجنةِ ٱلبُله.

فقالَ (ٱلنابغة): ٱلمصيبةُ فيك أنَّكَ أنت هو أنت؛ ألا فلْتعلمْ أنَّكَ من بُلَهاءِ ٱلبيمارستانِ لا من بُلْهِ ٱلجنة...

قلْتُ: ثمَّ إنَّ ٱلموتَ لا بدَّ آتٍ على ٱلناس جميعاً، فيسلبُهُم كلَّ ما نالوهُ مِنَ ٱلدنيا، ويُلْحِقُ مَنْ نالَ بِمَنْ لم ينل؛ فمَنْ ذا ٱلذي يُسَرُّ بأنْ ينالَ ما لا يبقى لَه، إلَّا أنْ يكونَ سرورُهُ من حماقتِه؟ ومَنْ ذا ٱلذي يحزَنُ على أنْ يفوتَهُ ما لا يبقى لَه، إلَّا أنْ يكونَ حُزنُهُ حماقةً أخرى؟ وأيُّ شيءٍ في ٱلحُبِّ بعدَ أنْ ينقضيَ ٱلحُبُّ إلَّا أنَّهُ كانَ حماقةً ضرَبَتْ في ٱلحواسِّ كلِّها ملأتِ ٱلنفس؛ ثُمَّ ملأتِ ٱلنفسَ حتى فاضَتْ على ٱلزمن؛ ثُمَّ فاضتْ على ٱلزمنِ حتى خبَّلتِ ٱلعاشِقَ تخبيلاً لذيذاً تصغُرُ فيهِ ٱلأشياءُ وتكبُر، ويجعلُ ٱلواقعَ في ٱلنفسِ غيرَ ٱلواقعِ في دنياها؟ يُشبِّهُ كلُّ عاشقٍ حبيبتَهُ بٱلقمر: فهَبِ ٱلقمرَ سمعَ هذا وفَهِمَهُ وعَنَاهُ أنْ يُجيبَ عنه، فماذا عساهُ يقولُ إلَّا أنْ يُعْجَبَ من هذا ٱلحمقِ في هذا ٱلتشبيه؟

* * *

فهدأ (ٱلنابغةُ) وسكنَ غضبُهُ وقال: صدقْت، ولِهذا أنا لا أشبِّهُ حبيبتي بٱلقمر.

قلْت: فبماذا تُشبّهها؟

قال: لا أقولُ لك حتى أعلَمَ بماذا تُشبِّهُ أنت حبيبتَك. قلْت: وأنا كذلك لا أشبهُها بٱلقمر.

قال: فبماذا تُشبهها؟ قلْت: حتى أعلمَ بماذا تُشبِّهُ أنت..

قال: هذا لا يُرضَى منك وأنت أستاذُ (نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين)، ولك حبائبُ كثيراتٌ عدَدَ كتبِك، وقد أعجبَتْني منهنَّ تلك ٱلتي في (أوراق الورد)، وأظنُّكَ أحبَبْتَها في شهرِ مايو من سنة.. من سنة..

قالَ ٱلمجنونُ الآخر: من سنة ١٩٣٥؛ هٰأنذاك قد نبْهتُك.

قال: يا ويلك! إنَّ (أوراقَ الوردِ) ظهرَتْ من بضعِ سنين، إنَّما أنت من بُلهاءِ ٱلبيمارستانِ لا من بُلْهِ أوراقِ ٱلورد.. ماذا كنْتُ أقولُ؟

قالَ ا. ش: كنْتَ تقول: هذا لا يُرضَى منك ولك حبائبُ كثيرات.

قال: نعم، لِأنَّكَ إذا شبَّهْتَ واحدةً منهنَّ بٱلقمر، انتهى ٱلقمرُ وفرغَ ٱلتشبيهُ فيظلُّ ٱلأخرياتُ بلا قمر.. ثُمَّ إنَّ كلمةَ ٱلقمرِ لا تُعجبُني، فلونُها أدكنُ[1] مُغْبَرٌّ يَضْرِبُ أحياناً إلى ٱلسواد... فإذا عشِقْتُ زَنجيَّةً فهٰهنا محلُّ ٱلتشبيهِ بالقمر.. أمَّا البيضُ ٱلرَّعابِيبُ فتشبيهُهُنَّ بالقمرِ من فسادِ ٱلذوق.

قال س. ع: ولِلألفاظِ ألوانٌ عندَك؟

قال: لو كنْتَ نابغةً لأَبصرْتَ في داخلِكَ أخْيلةً مِنَ ٱلجنَّة؛ ألَمْ يقلْ أستاذُنا آنفاً عن (نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين): إنَّهُ هبطَ من كوكبٍ إلى كوكب؟ ففي كوكبِنا ٱلأولِ يكونُ لنا سَمْعٌ ملوَّن؛ وحِسٌّ ملوَّنٌ نسمعُ قرعَ ٱلطبلِ أزرق، ونفْخَ ٱلبوقِ أحمر، وزينَ ٱلنغَمِ ٱلحُلوِ أخضر، وٱلوجودُ كلُّهُ صُوَرٌ ملَّونةٌ، سواءٌ منه ما يُرَى وما يُحَسّ، وما هو مُسْتَخْفٍ وما هو ظاهر.

ثُمَّ أومأَ إلى ٱلمجنونِ ٱلآخرِ وقال: وٱسمُ هذا ٱلأبلهِ كلفظِ الحِبر: لا أسمعُهُ إلَّا أسود..

* * *

وسكَتَ «ٱلنابغةُ» وسكتْنا؛ فقال له س. ع. مالَكَ لا تتكلَّم؟ قال: لِأنِّي أُريدُ ٱلسكوت. قال: فلِماذا تُريدُ ٱلسكوت؟ قال: لِأنِّي لا أُريدُ أنْ أتكلَّم..

وتحركَ في نفسِهِ ٱلغيظُ مِنَ ٱلمجنونِ ٱلآخر، فرمى بعينِهِ ٱلفضاءَ ينظرُ ٱللَّاشيءَ وقال: إذا أصبحَ كلُّ ٱلنساءِ ذواتِ لِحًى أصبحَ هذا عاقلاً.. فدقَّ الآخرُ برجلِهِ دقاتٍ معدودة؛ فثارَ (ٱلنابغةُ) وقال: مَن هذا يشتُمُني؟

قال: س. ع: لم يشتمْك أحد، هذا خَفْقُ رِجلٍ على الأرض.

قال: بلْ شتمَني هذا ٱلخبيثُ، وسَمْعي لا يَكْذِبُني أبداً، وأنا رجلٌ ظَنُونٌ، أُسيءُ ٱلظنَّ بكلِّ أحد، وعلامةُ ٱلحازم «العاقلِ» سوءُ ظنِّهُ بٱلناس. فهبْهُ كما قلْتَ قد خفَقَ بنعلِه، أو خبَطَ برجلِه؛ فهو ما يعني من ذلك، وأنا أسمعُ ما يعنيه. لقد طفحَ[2] ٱلشعرُ على قلبي فلا بدَّ لي من هجائه، ولا بدَّ لي أنْ أذبَحَهُ ولو بٱلكلام، فإنِّي إذا هجَوتُهُ رأيْتُ دمَهُ في كلماتي، وأُريدُ أنْ أجعلَهُ كٱلعَنْزِ ٱلتي كانَتْ عندَنا وذبحناها.

ثُمَّ ٱنتزعَ قلم س. ع، وقال: هذه هي السكيِّن. ولكنْ أسألُك يا أستاذي أنْ

(١) الدكنة: اللون ما بين الحمرة والسواد. (٢) طفح: فاض.

تذبحَهُ أنت بكلمتينِ وتصفَ لَهُ جنونَه، فقد عزَبَ[1] عنّي ٱلشعر... إنَّ خَفْقَةَ رِجْلٍ على ٱلأرض تستطيرُ ٱلأرانبَ فزَعاً؛ فيَنْفِرْنَ إلى أجْحَارِهِنَّ ويتَهَارَبْن، وما كانَتْ أبياتُ ٱلشعرِ في ذِهني إلّا أرانب..

أنتم لا تعرفون أنَّ مَنْ كانَ حَصِيفاً[2] ثَبِيتاً مثلي، كانَ دقيقَ ٱلحِسّ؛ ومَنْ كانَ فَدْماً[3] غبيًّا مثلَ هذا، كانَ بليدَ ٱلحِسِّ غليظاً كثيفاً؛ فإذا أنا ٱستشعرْتُ ٱلبردَ رأيْتَني قد سافرْتُ إلى ٱلقُطْبِ ٱلشِّمالي؛ أما هذا ٱلمجنونُ فهو إذا ٱستشعرَ برداً سافرَ إلى عباءتِهِ أو لِحافِه.. إذ هو لا يعرفُ جغرافيا، ولا يدري ما طَحَاها.

قلْت: هذا منك أظرفُ من نادرةِ أبي ٱلحارث. قال: وما نادرةُ أبي ٱلحارث؟ وهلْ هو نابغة؟

قلْت: جلسَ يتغدّى مَعَ ٱلرشيدِ وعيسى بنِ جعفر. فأُتِيَ بخِوانٍ[4] عليهِ ثلاثةُ أرغفة، فأكلَ أبو ٱلحارثِ رغيفَهُ قبلهما، وٱلرشيدُ ملكٌ عظيمٌ: لا يأكلُ أكلَ ٱلجائع، وإنّما هو ٱلتَّشعيبُ من هنا وهناك؛ فكانَ رغيفُهُ لا يزالُ باقياً؛ فصاحَ أبو ٱلحارث فجأةً: يا غلام، فَرَسي. ففزعَ ٱلرشيدُ وقال: ويلك ما لكَ؟ قال: أُريدُ أنْ أركبَ إلى هذا الرغيفِ ٱلذي بينَ يديك..

قال (النابغة): ولكنَّ فرقاً بين أبي ٱلحارثِ وبينَ (نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين)، فإنَّ منَ ٱلعجائبِ أنّي ربما نظرْتُ إلى ٱلرجلِ وهو يأكلُ فأجدُ ٱلشِّبَعَ، حتى كأنَّهُ يأكلُ ببطني لا ببطنِه، ولكن مِنَ ٱلعجائبِ أنَّ هذا لا يتَّفِقُ لي أبداً حينَ أكونُ جائعاً...

أمَّا هذا ٱلمجنونُ ٱلذي أمامَنا، فربَّما أبصرَ ٱلحِمارَ على ظهرِهِ ٱلحِمْلُ، فيشعرُ كأنَّ ٱلحِمْلَ على ظهرِهِ هو لا على ظهرِ ٱلحمار.

قالَ الآخر: «مِمَّا حفظناه»: أنَّه سُرِقَ لأعرابيّ حِمار، فقيلَ لَهُ أسُرِقَ حمارُك؟ قال: نعم، وأحمدُ ٱلله. فقيلَ لَه: على ماذا تحمدُه؟ قال: على أنّي لم أكنْ عليهِ حينَ سُرق.. فأنا إذا رأيْتُ حِماراً مثقَلَ ٱلظهرِ، حمدْتُ ٱللّهَ على أنَّ ٱلحِمْلَ لم يكنْ عليّ، لا كما يقولُ هذا. ثُمَّ دقّ برجلِهِ دقات..

فٱستشاطَ (ٱلنابغة) وقال) أسمعْتُم كيف يقولُ إنّي مجنون، ثُمَّ لا يكتفي بهذا بلْ يقولُ إنّي حِمارٌ على ظهرِهِ ٱلحِمل؟

---

(1) عزب: غرب.
(2) حصيفاً: عاقلاً رزيناً.
(3) فدماً: جباناً غبياً.
(4) خوان: مائدة الطعام.

قلْت: ينبغي أنْ تتكافآ، وهذا لا يَعيبُك منه ولا يعيبُهُ منك، فإنَّ من تواضُع «النوابغ» أنْ يشعروا ببؤسِ ٱلحيوان، فإذا شعروا ببؤسِهِ دخلتْهمُ ٱلرقةُ لَه، فإذا دخلْتهمُ ٱلرقةُ صارَ خيالُ ٱلحِملِ حِمْلاً على قلوبِهمُ ٱلرقيقة؛ وقد يصنعون أكثرَ من ذلك: حكى ٱلجاحظُ عن ثُمامةَ قال: كان (نابغةٌ) يأتي ساقيةً لنا سَحَراً؛ فلا يزالُ يمشي مع دابتِها ذاهباً وراجعاً في شِدّةِ ٱلحرِّ أيامَ ٱلحرّ، وفي ٱلبردِ أيامَ ٱلبرد، فإذا أمسى توضأَ وقال: اللهمّ ٱجعلْ لنا من هذا ٱلهمِّ فَرَجاً ومَخرجاً. فكانَ كذلك إلى أنْ مات!

قالَ ٱلمجنونُ ٱلآخر: «مِمَّا حفظْناه»: ثمرةُ ٱلدنيا ٱلسرورُ، ولا سرورَ لِلعقلاء، فلو لم يكنْ هذا أعقلَ ٱلعقلاءِ لَمَا مُحِقَ سرورُهُ في ٱلدنيا هذا المحْقَ إلى أنْ ماتَ غمًّا، رحمهُ ٱلله!

* * *

قال: س. ع: فٱعفُ ٱلآنَ عن صاحبِك ولا تذبحْهُ بِٱلهِجاء.

قال: لقد ذكَّرْتَني من نِسيان، وهذا ٱلمجنونُ يرى نِسياني من مرضٍ عقلي، وكانَ ٱلوجهُ ـ لو تَهَدَّى إلى ٱلحقيقة ـ أنْ يراهُ شذوذاً في ٱلعقل، أي نبوغاً عظيماً كنبوغِ ذلكَ ٱلفيلسوفِ ٱلذي أرادَ أنْ يَتَثَبَّتَ في كم مِنَ ٱلزمنِ تُسلقُ ٱلبيضة؛ فأخذَ بيدِهِ ٱلساعةَ وبيدِهِ ٱلأخرى بيضة، ثُمَّ نسِيَ نسيانَ ٱلنبوغ، فألقى ٱلساعةَ في ٱلماءِ على ٱلنار، وثَبتَتْ عينُهُ على ٱلبيضةِ ينظرُ فيها على أنَّها هي ٱلساعة. ولو قد رآهُ هذا ٱلأبلهُ لَزعمَهُ مجنوناً كما يزعمُني، فإنَّ ٱلمجانينَ يَرَوْنَ ٱلعُقلاَ مرضَى بمواهبِهِم وأعمالِهِمُ ٱلتي يعملونها.

وأنا فليسَ يُهيجُني شيءٌ ما تُهجيني كلماتٌ ثلاث: أنْ يقُالَ لي مجنون، أو أبله، أو أحمق. فمَنْ رغِبَ في صُحْبَتي فلْيتجنَّبْ هذه الثلاثَ كما يتجنَّبُ ٱلكُفْرَ وٱلكفرَ وٱلكفر...

قال ا. ش: فإذا قيل لَك مثلاً. مثلاً. أي على ٱلتمثيل: مغفَّل.

فحكَّ رأسَهُ قليلاً وقال: لا، هذه ليسَتْ من قدري..

قلْت: فبعضُ ٱلكلماتِ إذا قُطِعَتْ عندَك غيَّرتِ ٱلحقائق، كذلك ٱلقرن ٱلذي قُطعَ فَرَدّ ٱلبقرةَ فرساً؟

قال: وكيف كانَ ذلك؟

قلْت: زعموا أنَّ أعرابيًّا خرجَ إخوتُه يشترونَ خيلاً، فخرجَ معهم فجاءَ بعجلٍ يقودُه؛ فقيلَ لَه: ما هذا؟ قال: فرسٌ ٱشتريْتُه. قالوا: يا مائقُ[1] هذه بقرة، أَما ترى قرنيها؟

فرجعَ إلى منزلهِ فقطعَ قرنيها، ثُمَّ قادَها إليهم وقالَ لَهم: قد أعدْتُها فرساً كما تُريدون..

قالَ (ٱلنابغة): هذا غيرُ بعيد، فقدْ رأيْتُنا حينَ ذبحْنَا ٱلعنَزَ وكسرْنَا قرنيَها أعدناها كلبةً سوداء، فتقذَّرْتُها وعِفْتُ لحمَها ولم أطعمْ منها.

ثُمَّ أومأَ إلى ٱلآخرِ وقال: هذا لا يدري ما طَحَاها، وهو مثل العَنز: تحسبُ قرنيها لِلقتالِ والنِّطاحِ ومنهما تُمسَكُ لِلذبح؛ فقلْ في هذا يا أستاذَ (نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين).

قلْت لِلآخَر: أيُرضيكَ أنْ أقولَ في ٱلمعنى لا فيك أنت...؟ قال: نعم. فكتبْتُ هذه الأبياتَ على ما يُريدُ النابغة:

قُلْ لِعَنزٍ نَاطِحَاها ... لِقتالٍ سَلَّحَاها
ما لَها قد طَرَحَاها ... في يَدَينِ ذَبَحَاها؟

* * *

شِيمةٌ مِنِّي نَحاهَا ... عقلُ غِرٍّ[2] فَلَحَاهَا
ليسَ يدري ما طَحَاها[3] ... بلْ يَرى شمسَ ضُحَاها
حَجَراً مثلَ رَحَاهَا ... ويَرى ٱلليلَ مَحَاها
ظُلَماً طَالَتْ لِحَاها

* * *

وسُرّ (ٱلنابغةُ) وٱزدهى، وجعلَ يقول: طالَتْ لِحَاها، طالَتْ لِحَاها. وما كانَ هذا إلّا ٱلسرورَ ٱلأصغر؛ أمّا سرورُهُ ٱلأكبرُ فمجيءُ ساعي (ٱلبريدِ ٱلمستعجلِ) إلى ٱلنديّ، وفي يدِهِ رِسالةٌ عنوانُها: نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين فلان، بنديِّ كذا.

وجعلَ ٱلرجلُ يهتفُ بالعنوانِ يسألُ عن صاحبِه؛ فتطاولَتْ أعناقُ ٱلناس، ورفعوا أبصارَهم ينظرون إلى (نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين) وقد مدَّ يدَهُ يتناولُ ٱلرسالةَ

---

(١) مائق: أحمق.

(٢) طحاها: بسطها وسهلها ومدّها.

(٣) غرّ: أحمق، لا تجربة له.

وكأنَّهُ مِلكٌ مِنَ ٱلقدماءِ أُسْقِطَ لهُ كتابٌ بالفَتحِ ٱلعظيمِ وبضمٍّ دولةٍ إلى دولتهِ.

ثُمَّ تركَ ٱلرسالةَ بين أصابعِهِ يقلِّبُها ولا يُفضُّها[1] ونحن في دهشةٍ من أمره؛ فنظرَ فيها ٱلمجنونُ وقالَ لَه: هذا عجيبٌ يا أخي، كيف هذا؟ إنَّ هذا لا يُصدَّق؛ إنَّكَ لَمْ تُلقها في صندوقِ ٱلبريدِ إلَّا منذُ ساعة..

---

(١) يفضّها: يفتحها.

المجنون

٤

وضاقَ «نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين» بحُمقِ ٱلمجنونِ الآخر؛ ورآهُ داهيةَ دَوَاهٍ، كلَّما تَعَاقَلَ أو تَحاذَقَ[١] لم يأتِ لَهُ ذلك إلَّا بأنْ يكشِفَ عن جنونِهِ هو: فلا يبرَحُ يُجرِّعُهُ ٱلغيظَ مرةً بعدَ مرة، ولا يزالُ كأنَّهُ يَسُبُّهُ في عقلِه؛ فأرادَ أنْ يحتالَ لِصرفِهِ عنِ ٱلمجلس، فدفعَ إليهِ ٱلرسالةَ ٱلتي جاءَ بها (ٱلبريدُ ٱلمستعجَلُ) وقالَ له: خذْ هذه فٱذهبْ فألقِها في دارِ ٱلبريد، فسيجيءُ بها ٱلساعي مرةً أخرى، ثُمَّ تذهبُ ٱلثانيةَ فتُلقيها، ويعودُ فيجيءُ بها، وتكونُ أنت تذهبُ ويكونُ هو يجيء، فنضحكُ منه ويضحكون.

قال س. ع: ولكن كم يذهبُ هذا وكم يجيءُ ذاك؟

فغمزَهُ (ٱلنابغة) بعينِهِ أنِ ٱسكتْ؛ فتَغَافَلَ س. ع، وقال: كم تُريدُ أنْ يجيءَ ٱلساعي لِيهتفَ بنابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين؟

قالَ ٱلمجنونُ ٱلآخر: هذا هو ٱلرأي، فلسْتُ قائماً حتى أعرفَ كم مرةً أذهب؛ فإن ٱلساعيَ لا يجيءُ إلَّا راكباً، وأنا لا أذهبُ إلَّا راجلاً، وإنَّ لي رجلَيْ إنسانٍ لا رجلَيْ دابة..

قالَ (ٱلنابغة): سبحانَ ٱللهِ! بقليلٍ مِنَ ٱلجنونِ يخرُجُ مِنَ ٱلإنسانِ مجنونٌ كاملٌ مُسْتَلَبُ ٱلعقل. بَيْدَ أنَّهُ لا يأتي ٱلنابغةُ إلَّا من كثيرٍ وكثير، ومنَ ٱلنبوغ كلِّهِ بجميع وسائلِهِ وأسبابِهِ على تعدُّدِها وتفرّقِها وصعوبةِ ٱجتماعِها لإنسانٍ واحدٍ (كنابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين)، فهو ٱلذي توافَتْ إليهِ كلُّ هذه ٱلأسباب، وتوازَنَتْ فيهِ كلُّ تلكَ ٱلخِلال. إنَّهُ ليسَ ٱلشأنُ في ٱلعِلْمِ ولا في ٱلتعليم؛ ولكنَّما ٱلشأنُ في ٱلموهبَةِ ٱلتي تُبدِعُ

---

(١) تحاذق: تذاكى.

ٱلابتكارَ، كموهبةِ (نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين)، فبها تجيءُ أعمالُهُ منسَجِمَةً دالَّةً بنفسِها على نفسِها؛ ومتميِّزةً معَ كونِها منسجمةً دالةً بنفسِها على نفسِها؛ ومتلائمةً مع كونِها متميزةً دالةً بنفسِها على نفسِها. . .

هذا س. ع، كانَ ٱلأولَ بينَ خرِّيجي مدرسةِ دارِ ٱلعلومِ، مدرسةِ ٱلأدبِ وٱلعربية، وٱلمنطقِ وٱلتحذلُق، وبلاغةِ ٱللسانِ وصِحَّةِ ٱلنظر؛ وهو يعرفُ أنَّ ٱلكتابَ يُلقى في ٱلبريدِ وعليهِ طابعٌ واحد، فيصلُ إلى غايتِهِ بهذا ٱلطابع، ثم يَرى بعيني رأسِهِ أربعةَ طوابعَ على هذه ٱلرسالةِ ٱلمُعَنْوَنَةِ بٱسم (نابغة ٱلقرنِ العشرين)، فلا يُدرك بعقلِهِ أنَّ معنًى ذلك أنَّ من حقِّ هذه ٱلرسالةِ أنْ تصِلَ إليَّ أنا أربعَ مرات. .

فطرِبَ ٱلمجنونُ ٱلآخرُ، وٱهتزَّ في مجلسِهِ، وصفَّقَ بيديه، وقال: «مِمَّا حفظْناه» هذا الحديث: «يُحاسِبُ ٱللَّهُ الناسَ على قدرِ عقولِهم». فلا تؤاخذْ س. ع، فإنَّ مدرسةَ دارِ ٱلعلوم تعلِّمُهم: «فيها قولان»، وفيها ثلاثةُ أقوال، وفيها أربعةُ أوجه، ولكنَّها لا تعلِّمُهم فيها أربعةُ طوابع. .

ثُمَّ ٱلتفتَ إلى س. ع، وقالَ لَه: لا عليك، فأنا صاحبُهُ وخَلِيطُه، وحامِلُ عِلْمِهِ وروايةُ أدبِه، وأكبرُ دُعاتِهِ وثِقَاتِهِ، وما علمْتُ هذه ٱلحِكمةَ منه إلَّا في هذه الساعة.

قال ا. ش: فإذا كانَ هذا، فإنَّ لِقائلٍ أنْ يقول: لِماذا لم يضعْ على كتابِهِ عشرةً مِنَ ٱلطوابع، فيجيءَ بهِ ٱلساعي عشرَ مرات.

قالَ (ٱلنابغة): وهذا أيضاً. . .؟

وما شرُّ ٱلثلاثةِ أُمَّ عمرٍو بصاحبِك ٱلذي لا تصحبينَ»؛ إنَّ ٱلشمعةَ في يدِ ٱلعاقلِ تكونُ لِلضوءِ فقط، ولكنَّها في يدِ ٱلمجنونِ لِلضوءِ ولِإحراقِ أصابعِه. كمِ ٱلساعةُ الآن؟

قلْنا: هي ٱلتاسعة.

قال: ومتى ينصرفُ أهلُ هذا ٱلنديّ؟

قلْنا: لِتمامِ ٱلثانيةَ عشْرة.

قال: فإذا كانَ ٱلساعي يتردّدُ في كلِّ ساعةٍ مرة، فهي أربعُ مراتٍ إلى أن ينفضَّ ٱلمجتمعون[1] هنا، وبين ذلك ما يكونُ قد ذهبَ قومٌ عرفوا (نابغة ٱلقرنِ

---

(١) ينفضّ المجتمعون: يتفرّقون.

ٱلعشرين)، وجاء قومٌ غيرُهم فيعرفونه. وأمّا بعدَ ذلك فلا يجدُ ٱلساعي هنا أحداً؛ فلا تكونُ فائدةٌ من مجيئهِ.

فصفَّقَ ٱلمجنونُ ٱلآخرُ وقال: هذا وأبيكَ هو التَّهدِّي إلى وجهِ ٱلرأي وسَدادِه، وهذا هو ٱلكلامُ ٱلرصينُ ٱلذي يقومُ على أُصولِ ٱلحساب وٱلجغرافيا.. «ومِمّا حفظْناه» هذا الحديث: «لا مالَ أعْوَدُ مِنَ ٱلعقل». فأربعةُ طوابع، لِأربعِ مرات، في أربعِ ساعات؛ وما عدا هذا فإسرافٌ وتبذير؛ ولا مالَ أعودُ مِنَ ٱلعقل..

* * *

ورضِيَ (ٱلنابغةُ) عن صاحبِهِ وقالَ له: لَئِنْ كانَتْ فيك ضَعْفةٌ إنَّ فيك لَبقيَّةً تعقِلُ بها... ثُمَّ أخذَ منهُ ٱلرسالةَ ودسَّها في ثوبِه. قلْنا: ولكنْ ألا تَفُضُّها لِنعرفَ ما فيها؟

فضحكَ وقال: أئِنْ جارَيْتُكم في بابِ ٱلمُطايَبة وٱلنادرة، وجارَيْتُ هذا ٱلأبلهَ في بابِ جُنونِهِ وحُمقِهِ ـ تحسبون أنَّ الأمرَ على ذلك، وأنَّ ٱلرسالةَ فارغةٌ إلا من عنوانِها، وأنَّ نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين هو [من] أرسلها إلى نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين، كما قال سعد باشا: (جورج الخامس يُفاوضُ جورجَ الخامس)...؟ لَحَقٌّ ـ والله ـ أنَّ ٱلعقلَ ٱلكبيرَ ٱلذي يأبى ٱلصغائرَ، هو الذي تأتي منهُ ٱلصغائرُ أحياناً لُتثبتَ أنَّهُ عقلٌ كبير، وهكذا تَسخَرُ ٱلحقيقةُ من كِبارِ ٱلعقولِ (كنابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين)..

فغضبَ ٱلمجنونُ ٱلآخرُ وهمَّ أنْ يتكلَّم: فقالَ لَهُ (ٱلنابغة): أنت كاذِبٌ فيما ستقولُه.

قلْنا: ولكنَّهُ لم يقلْ شيئاً بعدُ، فكما يجوزُ أنْ يكونَ كاذباً يجوزُ أنْ يكونَ صادقاً.

قال: وسيُخطىءُ في رأيِهِ ٱلذي يُبديه..

قلْنا: ولم يُبدِ شيئاً من رأْيه..

قال: ولا يعرفُ ٱلحقيقةَ ٱلتي سيتكلَّمُ عنها.

قلْنا: ويحك، أدخَلْتَ في عقلِ ٱلرجلِ أم تَعْلَمُ ٱلغيب؟

قال: لا هذا ولا ذاك، ولكنَّهُ قِياسٌ منطقيٌ يُتوهَّمُ ٱطرادُه[1]. إنَّهُ سيقول: إنِّي مجنون..

---

(١) اطّراده: استمرار حدوثه.

فأخرجَ ٱلآخرُ لِسانَه.. قالَ: (ٱلنابغة): تباً لك، لقد رأيْتُ ٱلكلمةَ في لِسانِكَ كأنَّها مكتوبةٌ بحروفِ ٱلمطبعة. ويحكَ يا مَرْقَعان[1]، ألا تعرفُ أنَّ لك دِماغاً مخروقاً تسقطُ منه أفكارُك قبلَ أنْ تتكلَّمَ بها، ولولا أنَّهُ مخروقٌ لَحفظْتَ ٱلمتن! إنَّ كلَّ تخطئةٍ لي منك هي ٱعترافٌ لي منك بصواب.

فنظرَ الآخرُ إليهِ نظرةً كانَ تفسيرُها في حواجبه، إذْ مطَّ[2] حواجبَهُ ورقَّصَها. فقالَ (ٱلنابغة): ونظراتُهُ خبيثةٌ مِلْحَةُ ٱلطعم، مَزْعُوقَةٌ كَماءِ ٱلبحرِ ٱلمرِّ أُخِذَ مِنَ ٱلبحرِ وأُضيفَ إلى مِلْحِهِ ٱلطبيعيِّ مِلْح، أكادُ أتهوَّعُ[3] من هذه ٱلنظرةِ فأقيء.

الآنَ فهمتُ معنى قولِهِم: «مِلحةٌ في عينِ ٱلحسود». فإنَّ ٱلملحَ لا يغلبُهُ إلَّا المِلْح، كٱلحديدِ بالحديد يُفْلَحُ[4]. هاتوا كأساً من مُعتَّقةِ ٱلخمر، ثُمَّ لْينظرْ فيها ٱلخبيثُ هذه ٱلنظرة، فإنَّ ٱلخمرَ لا بدَّ مستحيلةٌ «شربة ملح إنجليزي»... هذا ٱلأبلهُ ثقيلُ ٱلدم كأنَّ دمَهُ مأخوذٌ من مستنقع... أهذا ٱلذي لا يستطيعُ أنْ يقولَ لِشيءٍ في ٱلدنيا: هُوَ لي، إلَّا ٱلفقرَ وٱلجنونَ وٱلخرافة ـ يُكذِّبُ ما في ٱلرسالةِ ٱلتي جاءَ بها ٱلبريدُ ٱلمستعجَلُ، ولا يُصدِّقُ أنها مرسَلةٌ إلى نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ من صاحبِ ٱلسموِّ ٱلأمير؟

هذا ٱلذاهبُ ٱلعقلِ هو كٱلجبانِ ٱلمنقطع في وَحْشةِ ٱلقَفْر، في ظلام ٱلليل: إذا تَوجَّسَ حركةً ضعيفةً ٱنقلبَتْ في وهمِهِ قصَّةَ جريمةٍ ماؤُها ٱلرعبُ وفيها ٱلقتلُ وٱلذبح؛ ولِهذا يخشى ما في ٱلرسالةِ ٱلتي جاءَتْ من صديقي صاحبِ ٱلسموّ. هاؤُمُ ٱقرءوا ٱلرسالة.

وفضضْنَا[5] ٱلغِلاف، فإذا ورقتانِ ممهورتانِ بتوقيعِ أميرٍ معروف، إحداهما صكٌ بألفِ جنيهٍ تُدفَع (لنابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين)، والثانيةُ أمرٌ بالقبضِ على ٱلمجنونِ ٱلآخر.. وإرسالِهِ إلى ٱلمارستان...

* * *

وذهبْتُ أُصْلِحُ بينهما صُلْحاً فقلْت: إنَّ في ٱلحديثِ ٱلشريف: «بينما رسولُ

---

(١) المرقع والمرقعان: هو الأحمق الذي يرتجّ عليه رأيه.
(٢) مط حواجبه: رفعها استغراباً واستفهاماً.
(٣) تهوّع القيء: تكلّفه.
(٤) يُفلح: يُشقّ.
(٥) فضضنا: فتحنا.

ٱللَّهِ ﷺ في أصحابِهِ إذْ مرَّ به رجلٌ، فقالَ بعضُ ٱلقوْمِ: هذا مجنون. فقالَ رسولُ ٱللَّهِ ﷺ: هذا مُصاب؛ إنَّما ٱلمجنونُ ٱلمقيمُ على معصيةِ ٱلله».

فقالَ صاحبُ ٱلمتن: «مِمَّا حفظناه» إنَّما ٱلمجنونُ ٱلمقيمُ على معصيةِ ٱلله.

قلْت: وليسَ فيكما مقيمٌ على معصيةِ ٱلله. . .

قالَ ٱلمجنون: «مِمَّا حفظْناه»: وليسَ فيكما مقيمٌ على معصيةِ ٱلله. . .

قلْت: هذا ليسَ مِنَ ٱلحديثِ ولكنَّه من كلامي. . .

قالَ (ٱلنابغة): أنبأْتُكم أنَّ هذا ٱلأبلهَ يَضِلُّ في دارِهِ كما يضلُّ ٱلأعرابيُّ في ٱلصحراء؛ وأنَّ ٱلأُسطولَ ٱلإنجليزيَّ لوِ ٱستقرَّ في ساقيةٍ يدورُ فيها ثَوْر، لكانَ ذلك أقربَ إلى ٱلتصديقِ مِن ٱستقرارِ ٱلعقلِ في رأس هذا ٱلأبله؟. . .

فٱحْتَدَمَ[1] ٱلآخرُ وهمَّ أنْ يقول: «مِمَّا حفظْناه»، ولكنِّي أسكتُّهُ وقلْتُ (لِلنابغة): إنَّك دائماً في دروةِ ٱلعالم، فلا غَرَوَ أنْ ترى ٱلمحيطَ ٱلأعظمَ ساقية. «والنوابغُ» هم في أنفسِهم نوابغ، ولكنَّهم في رأيِ ٱلناسِ مَرْضَى بمرضِ ٱلصعودِ ٱلخياليِّ إلى ذِروةِ ٱلعالم. ومن هذا يكونُ ٱلمجانينُ همُ ٱلمرضى بمرضِ ٱلنزولِ ٱلحقيقيِّ إلى حضيضِ ٱلآدميَّة؛ فهناك يعملون فتكونُ أفكارُهم من أعمالِهم، ثُمَّ تكونُ عقولُهُم من أفكارِهم، فيكونُ هذا هو ٱلجنونَ في عقولِهم، وذلك معنى ٱلحديث: «إنَّما ٱلمجنونُ ٱلمقيمُ على معصيةِ ٱلله».

قالَ (ٱلنابغة): لَعَمْرِي إنَّ هذا هو ٱلحقّ؛ فنبوغُ ٱلعقلِ مَرضٌ من أمراضِ ٱلسموِّ فيه؛ فٱلشاعرُ ٱلعظيمُ مجنونٌ بِٱلكونِ ٱلذي يتخيَّلُهُ في فكرِه، وٱلعاشقُ مجنونٌ بكونٍ آخرَ لَهُ عينانِ مكحولتان؛ والفيسلوفُ مجنونٌ بٱلكوْنِ ٱلذي يَدأبُ في معرفتِه؛ ونابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين مجنون. . . لا. لا. قد نسينا ا. ش، فهو مجنون، وس. ع فهو مجنون.

وكلُّ ٱلناسِ مجنونٌ بليلَى ... وليلى لا تُقِرُّ لهم بذاكَ

ومن حقِّ لَيلى ألّا تقرَّ لهم، إذْ هي لا تقرُّ إلَّا لِنابغة ٱلقرنِ ٱلعشرينَ وحدَه؛ وما أعجبَ سِحرَ ٱلمرأةِ في ٱلكونِ ٱلنفسانيِّ لِلرجال! أمَّا في ٱلكونِ ٱلحقيقيِّ فهي أنثى كإناثِ ٱلبهائمِ ليسَ غير. وأعقلُ ٱلرجالِ مَنْ كانَ كٱلحِمارِ أوِ ٱلثورِ أو غيرِهما

---

(١) احتدم: استشاط غضباً.

من ذكورِ ٱلبهائم. فٱلحِمارُ لا يعرفُ ٱلحِمارةَ إلّا أنها حِمارة، وٱلثورُ لا يعرفُ ٱلبقرةَ إلّا أنّها بقرة؛ ولا ينظمون شعراً، ولا يكتبون «أوراق الورد»... وإناثُ ٱلبهائم أُمّاتٌ[1] لا غير، ولكنَّ ٱلعجيبَ أنَّ ذكورتَها ليسَتْ آباءً؛ فهذه ٱلذكورةُ طُفَيليةٌ في ٱلدنيا، وٱلطفيليُّ لا يأكلُ إلّا بحيلةٍ يحتالُ بها، فيكونُ صاحبَ نوادرَ وأضاحِيكَ وأكاذيب. ولِهذا كانَ عِشْقُ ٱلرجالِ لِلنساءِ ضُروباً مِنَ ٱلخِداعِ وٱلأكاذيبِ وٱلأضاحيكِ وٱلحِيَلِ وٱلغَفْلَةِ وٱلبلاهة؛ وإذا نظرْنا إليهِ من أولِهِ فهو عِشْق، أمّا آخرُهُ فهو آخرُ ٱلحِيْلَةِ وٱلأُكذوبة، وهو قولُ ٱلطفَيليِّ: قد شبعْتُ وقد رَوِيت.. ويْحَكم، أين أولُ ٱلكلام؟

قلْنا: أولُهُ ما أعجبَ سِحرَ ٱلمرأةِ في ٱلكونِ ٱلنفسانيِّ للرجال!.

قال: نعم هذا هو. إنَّهُ سِحرٌ لا أعجبَ منه في هذا ٱلكونِ ٱلنفسانيِّ إلّا سحرُ ٱلذهب؛ فلو مُسِخَتِ ٱلمرأةُ ٱلجميلةُ شيئاً مِنَ ٱلأشياءِ لَكانَتْ سبيكةَ ذهبيةَ تلمع؛ ولِهذا يُوجِدُ ٱلذهبُ ٱللصوصَ في الدنيا، وتُوجِد ٱلمرأةُ الجميلةُ لصوصاً آخرين، فيجبُ أنْ يُصَانَ ٱلذهبُ وأنْ تُصانَ[2] ٱلمرأة.

قلْت: ولكنْ أليسَ مِنَ ٱلمالِ فِضَّةٌ، وهي تُوجِدُ ٱللصوصَ كٱلذهب؟

قال: نعم، وفي ٱلنساءِ كذلك فِضّةٌ، وفيهن ٱلنُّحاس؛ ولو أنتَ ألقيْتَ ريالاً في ٱلطريقِ لأحدثْتَ معركةً يختصِمُ فيها رجلان، ثُمَّ لا يذهبُ بٱلريالِ إلّا ٱلأقوى، ولو تركْتَ قِرشاً لتَضاربَ عليهِ طِفلان، ثُمَّ لا يفوزُ بِهِ إلّا مَنْ عَضَّ الآخر...

ولكنَّ (فُورد) ٱلغنيَّ ٱلأمريكيَّ ٱلعظيمَ ٱلذي يجمعُ يدَهُ على أربعمائةِ مليون جنيه، لا يتكلمُ عنِ ٱلقِرش؛ و(نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين) ٱلذي يملُك (ليلَى)، لا يتكلَّمُ عن غيرِها من قروشِ ٱلنساء...

قلْت: فإنّي أحسُبك أعلمْتَني أنّ ٱسمَها فاطمةُ لا ليلى.

قال: هل يستقيمُ ٱلشعرُ إذا قلْت: وكلُّ ٱلناسِ مجنونٌ بفاطمة، وفاطمُ لا تقرُ لهم؟ قلْت: لا.

قال: إذن فهي (ليلى) لِيستقيمَ الشعر... أمّا حين أقول: أفاطمُ مهلاً بعض هذا التدلّل، فهي فاطمة لِيصحَّ ٱلوزن.

---

(١) جمع يقال في غير العاقل، أمات، وفي العاقل: أمهات.

(٢) تصان: تحفظ.

قلت: يُشْبِهُ ـ والله ـ أَلّا يكونَ اسمُها ليلى ولا فاطمة؛ وإنَّما هي تسمى حَسَبَ الوزنِ والبحر، فاسمُها فَعُولُنْ أو مُفَاعَلَتنْ. . .

* * *

ثُمَّ قلْنا له: فما رأيُك في الحبّ، فإنَّهُ لَيُقال: إنَّكَ أعشقُ النّاسِ وأغزلُ النّاس؟

قال: إنَّ ذلك لَيقالُ (وهو الأصح)، ثُمَّ أطرقَ يفكِّر. وبدا عليهِ أنَّهُ مَدهوشٌ ذاهبُ العقل، كأنَّهُ من قلبِه على مسافةٍ أبعدَ مِنَ المسافةِ الّتي بينَهُ وبينَ عقلِه. وخُيلَ إليَّ أنَّ النساءَ قد حُشِرْنَ[1] جميعاً في رأسِه، ومرَّتْ كلُّ واحدة تعرضُ مفاتِنَها وغَزلَها، وتُلائِمُ هَذَيَانَهُ بهذيانٍ[2] من جمالِها، فهو يرى ويسمعُ ويَعْرِضُ ويَتخيَّرُ. ثُمَّ اضطربَ كالّذي يُحاولُ أن يُمسكَ بشيءٍ أفلتَ منه؛ فلم ينبِّهْهُ إلَّا قولُ المجنونِ الآخر: «مِمَّا حفظْناه» أنَّ أعرابيةً سئلَتْ عنِ العشقِ فقالَتْ: إنَّهُ داءٌ وجنون. . .

قال: اسكتْ يا ويلكَ لقد أطفأْتَ الأنوارَ بكلمتِكَ المجنونة. كانَ في رأسي مرقصٌ عظيمٌ تسطعُ الأنوارُ فيهِ بينَ الأحمرِ والأخضرِ والأبيض؛ وترقُصُ فيهِ الجميلاتُ مِنَ الطويلةِ والقصيرةِ والممشوقةِ والبادِنة، فجئْتَ بالداءِ والجنونِ ـ قَبحَك اللّهُ ـ فأخرجْتَني عنهنَّ إليك. أحسبُ أنّك لو انتحرْتَ لَصَلُحَ العالَمُ أو صلُحْتُ أنا على الأقل. . . فإذا أردْتَ أنْ تشنُقَ نفسَكَ فأنا آتيكَ بالحبلِ الّذي كنْتُ مقيَّداً فيهِ أي الحبلِ الّذي عندي في الدار. . على أنَّ رأسَك الفارغَ مشنوقٌ فيك وأنت لا تدري.

قالَ الآخر: ما أنت مُنذُ اليوم إلَّا في شنقي وتعذيبي أو في شنقِ عقلي (على الأصح). «ومِمَّا حفظْناه» قولُ الأحنفِ بْنِ قيس: إنِّي لأُجالِسُ الأحمقَ ساعةً فأتبَيَّنُ ذلك في «عقلي». . .

فلم يَرُعْنا إلَّا قِيامُ المجنونِ مُسَلَّحاً بحذائِهِ في يدِه. . . وهو حِذاءٌ عتيقٌ غليظٌ يقتلُ بضربةٍ واحدة؛ فحُلْنا بينَهما وأثبتْناهُ في مكانِه. وقُلْنا: هذا رجلٌ قد غُلِبَ على عقلِهِ فلا يدري ما يقول؛ فإذا هو دلَّ على أنَّهُ مجنون، أفلا تَدُلُّ أنت على أنَّكَ عاقل؟ ما سألْناكَ في انتحارِهِ وجنونِه، بلْ سألْناكَ رأيَكَ في الحبّ؛ وما نشُكُّ أنَّك قد أطلْتَ التفكيرَ لِيكونَ الجوابُ دقيقاً، فإنَّك (نابغةُ القرنِ العشرين)، فانظرْ أنْ يكونَ الجوابُ كذلك.

---

(١) حُشِرْن: جمعْن. (٢) الهذيان: الجنون.

قال: نعم إنْ ٱلعاقلَ إذا وَرَدَ عليهِ ٱلسؤالُ أطالَ ٱلفكرَ في ٱلجواب. فٱكتبْ يا فلان (س. ع):

(جلس نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ مجلسَ ٱلإملاءِ مُرتجِلاً فقال: قصةُ ٱلحبِّ هي قصةُ آدم، خلقَ ٱللَّهُ ٱلمرأةَ من ضِلْعِه. فأولُ علامات ٱلحُبِّ أنْ يشعرَ ٱلرجلُ بالألم كأنَّ ٱلمرأةَ ٱلتي أحبَّها كسَرَتْ لَهُ ضِلْعاً... وكلُّ قديم في ٱلحُبِّ هو قديمٌ بمعنًى غيرِ معقول، وكلُّ جديدٍ فيهِ هو جديدٌ، بمعنًى غيرِ مَفهوم؛ فغيرُ ٱلمعقولِ وغيرُ ٱلمفهوم هو ٱلحُبّ.

وٱلجمرةُ ٱلحمراءُ إذا قِيل إنَّها ٱنطفأَتْ وبقيَتْ جمرةً فذلك أقربُ إلى ٱلصدقِ من بقاءِ ٱلحُبِّ حيًّا بمعناهُ ٱلأولِ إذا انطفأَ أو بَرَدَ.

والعاشقُ مجنون. وجنونُهُ مجنونٌ أيضاً، فهو كٱلذي يرى ٱلجمرةَ منطفئةً، ويرى معَ ذلك أنَّها لا تزالُ حمراء، ثُمَّ يُمْعِنُ في خيالِهِ فيراها وردةً مِنَ ٱلورد... وإذا سألْتَهُ أنْ يصِفَ ٱلجمالَ ٱلذي يهواهُ كانَ في ذلك أيضاً مجنونَ ٱلجنونِ، كٱلذي يرى قمرَ ٱلسماءِ أنَّهُ قد تفتَّتَ وتناثَرَ ووقَعَ في ٱلروضةِ، فكانَ نِثارُهُ هو ٱلياسمينَ ٱلأبيضَ ٱلجميلَ ٱلذكي..

وٱلمجنونُ يرى ٱلدنيا بجنونِهِ وٱلعاقلُ يراها بعقلِه؛ ولكنَّ ٱلعاشقَ ٱلمخبولَ لا ينظرُ مَنْ يهواهُ إلَّا ببقيَّةٍ من هذا وبقيَّةٍ من ذلك، فلا يخلُصُ معَ حبيبِهِ إلى جنونٍ ولا عقل.

(وٱلمجهولُ) إذا أرادَ أنْ يَظهرَ في دِماغِ بشَريٍّ لم يسعْهُ إلَّا أحدُ رأسين: رأسِ ٱلمجنون ورأسِ ٱلعاشق...

ولا صعوبةَ في ٱلحكم على شيءٍ بأنَّهُ خيرٌ أو شرٌّ إلَّا حينَ يكونُ ٱلخيرُ وٱلشرُّ أمرأةً معشوقة. أمَّا أوصافُ ٱلشعراءِ وٱلكُتَّابِ لِلجمالِ وٱلحُبِّ فهي كلُّها تقليدٌ قد توسَّعوا فيه؛ وٱلأصلُ أن ثوْراً أحبَّ بقرةً فكانَ يقولُ لها: يا نجمةَ ٱلقُطْبِ ٱلتي نزلَتْ مِن ٱلسماءِ لِتدورَ في ٱلساقيةِ كما دارَتْ في ٱلفَلَك.

قالَ (ٱلنابغة): هذا رأيي في حبِّ ٱلعاشقين؛ أمَّا حُبِّي أنا (نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين) فيجمعُهُ قولُك: فلّ، ورد، زهر...

قلْنا ما هذه ٱلألغاز؟ وهلْ لِلحُبِّ مَتْنٌ كقولِهم: حروفُ ٱلقَلْقَلَةِ يجمعُها قولُك (قطْبُ جَدٍ)، وحروفُ الزيادةِ يجمعُها قولك (سألتمونيها)؟

فتضاحَكَ (النابغة)، وقال: تكاثَرَتِ ٱلظِّباءُ على خَراش، فلكيلا ننسى... إنَّ كلَّ حرفٍ هو بدءُ ٱسم، الفاء فاطمة، وٱللام ليلَى، وٱلواو وردة، وٱلراء رباب، وٱلدال دلال، وٱلزاي زكيَّة، وٱلهاء هِنْد، وٱلراء رَباب...

قلْنا: ربابُ قد مضَتْ في (ورد).

قال: كنَّا تَهاجَرْنا مدةً ثُمَّ ٱصطلَحْنَا بعَد هند...

* * *

قلْت: هكذا «ٱلنوابغ» فإنَّ رجلاً أديباً كانَتْ كُنيتُه (أبا العباس) فلما «نبغ» صَيَّرها (أبا العَيْر)[1] وفَتقَ لَهُ نبوغُهُ أنْ يجعلَها تاريخاً يَعرفُ منها عمرَه. قالوا فكان يزيدُ فيها كلَّ سنةٍ حرفاً حتى ماتَ وهي هكذا:

أبو العَيرِ طَآدْ طِيل طَلِيري بَك بَك بَك...

* * *

(١) العير: الحمار.

المجنون

٥

ثمَّ إنَّ (نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين) ٱستخفَّهُ ٱلطربُ لِذكرِ صواحبِهِ وجميلاتِهِ من فاطمةَ إلى رَباب؛ ومن طبعِ ٱلمجنونِ أنَّهُ إذا كَذَبَ صَدَّقَ نفسَه، فإنَّ قوَّةَ ٱلضبطِ في عقلِهِ إمَّا معدومةٌ وإما مختلَّة؛ وكلُّ وجهٍ تَخَيَّلُ منه خَيالا فهو وجهٌ من وجوهِ ٱلعِلْمِ عندَه، إذْ كانَ عالَمُهُ أكثرُهُ في داخلِهِ لا في ٱلعالَم، فإذا توهَّمَ أو أحسَّ أو شَعَرَ، فإنَّما يكونُ ذلك بطريقتِهِ هو لا بِطريقةِ ٱلناسِ ٱلعُقلاء؛ فليسَ يَحتملُ عقلُهُ إلَّا فِكْرةً واحدةً تمضي منفرِدَةً بنفسِها مستقلةً بمعناها كأنَّها قَدَرٌ غالبٌ على جميعِ أفكارِهِ ٱلأخرى، فلا شأنَ لها بٱلواقع، ولا شأنَ لِلواقعِ بها، وإنَّما هي تُحقِّقُ معناها كما تَخْطُرُ لَه، لا كما تتمثَّلُ فيها حولَه.

فبينَ كلِّ مجنونٍ وبينَ ما حولَهُ دِماغُهُ ٱلمُتَدجِّي[1] بالغُيومِ ٱلعقليَّة، لا تزالُ تَعْرِضُ لَهُ ٱلغيمةُ بعدَ ٱلغيمةِ مِنِ ٱختلالِ بعضِ ٱلمراكزِ ٱلعصبيَّةِ فيه، وفسادِ أعمالِها بهذا ٱلاختلال، وقِيامِ ٱلطبيعةِ فيها على هذا ٱلفساد.

ومن ذلك تنقلبُ ٱلكلمةُ مِنَ ٱلكلام، وإنَّها لَحادثةٌ تامَّةٌ في عقْلِ ٱلمجنونِ كٱلقصةِ ٱلواقعةِ لها زمانٌ ومكانٌ، وبَدْءٌ ونِهاية، لا يُخامِرُهُ فيها ٱلشَّكُّ، ولا يَعْتريها ٱلتكذيب؛ وكيف وهي قائمةٌ في ذِهنِهِ من وراءِ سمعِهِ وبصرِهِ قيامَ ٱلحقيقةِ في ٱلأبصارِ وٱلأسماع؟

ولِحواسِّ ٱلمجنونِ جِهتَانِ في ٱلعمل، لأنَّها بينَ كَوْنَينِ؛ أحدُهما ٱلكونُ ٱلخَربُ ٱلذي في دِماغِه؛ وفي هذا يقول (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين): إنَّ في داخلِ عينيهِ مِنظاراً يرى بِهِ ٱلأشياءَ في غيرِ حقائقِها، أي في حقائقِها..

وحدَّثنا ٱلدكتورُ محمدٌ ٱلرافعيُّ قال: إنَّ في دارِ ٱلمجانينِ بمدينةِ ليون بفرنسا

---

(١) المتدجّى: المظلم.

نابغةً كنابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين، ذُكِرَتْ أمامَهُ قيصرةُ روسيا وخَبَرُ مقتلِها، فأحفظَهُ[١] هذا وأرْمَضَهُ[٢] وقالَ يا ويْحَهم! كَذَبوا عليها وعليَّ. فسألهُ الدكتور: وكيف ذلك؟

قال: كانَ من خبر ٱلقيصرةِ أنَّها رأتْني فأحبَّتْني، وعَلِمَتْ من كلِّ وجهٍ يُمكنُ أنْ يُعْلَمَ منه قلبُها أنّي أنا رجلُها لا ٱلقيصر؛ فما زالَتْ بعدَها تُناكِدُ[٣] ٱلقيصرَ وتَلْتَوِي عليهِ ولا تصلُحُ لَهُ في شيءٍ حتى يَئِسَ منها فطلَّقها، فحملَتْ كنوزَها وحِلاها ولَجأَتْ إلى حبيبها، ثُمَّ تَبِعَتْها نفسُ ٱلقيصرِ ولم يُطِقِ ٱلعيشَ بعدَها فأنتحر. . . ثُمَّ طَلَبَها ٱلشيوعيون لِمَا معها من كنوزٍ، فأخفاها هو في مكانٍ حريزٍ[٤] لا يعلمُهُ إلَّا هو؛ ثُمَّ إنَّهُ هو لا يصلُ إلى هذا ٱلمكان ٱلذي أحرزَها فيهِ إلَّا إذا نام. . كيلا يراهُ أحدٌ مِنَ ٱلشيوعيِّين فيتعقَّبَهُ فيعلمَ مقرَّها؛ ولِهذا كانَ مِنَ ٱلحِكمةِ أنْ ينسى ٱلمكانَ إذا ٱستيقظ. . فقد يَزِلُّ مرةً فيُخبِرُ بهِ أو يغلبُهُ ٱلشوقُ مرةً على «عقلِه». . فيذهبُ إليه؛ فعسى أنْ يراهُ مَنْ يَنِمُّ بذلك، فتُفتَضَحَ ٱلحبيبةُ وتُؤخَذُ منه.

قال: وإنَّ ٱلقيصرةَ هي تحتاطُ أيضاً مثلَ ذلك فتُراسلُهُ كلَّ يوم باللاسلكيِّ رسائلَ تقعُ مِنَ ٱلجوِّ في دِماغِهِ فيقرؤُها وحدَه، وإنَّ أخوفَ ما يخافُهُ أنْ يغلبَها جنونُ ٱلحُبِّ يوماً فتطيشَ طيشَ ٱلمرأة، فتزورَهُ في هذا ٱلمارستان. . . فقد تُقتَلُ إذا رآها ٱلشيوعيون.

قالَ ٱلدكتور: وهاكَ (نابغةٌ) آخرُ ثبتَ في ذِهنِهِ أنَّ ٱمرأةً من أجملِ ٱلنساءِ قدِ ٱستهامَتْ[٥] بِهِ وأنَّها مُبتلاةٌ في حُبِّها إياهُ بجنونِ ٱلغَيْرة، وقد تَناهَتْ فيهِ حتى إنَّها لتقتلُ نفسَها إذا عَلِمَتْ أنَّ لِصاحِبِها هوًى في ٱمرأةٍ أخرى. وخبَّلَتْهُ هذه ٱلفكرةُ، فأعتقدَ أنَّ حبيبتَهُ من جنونِ غَيرتِها واقعةٌ بينَ ٱلسلامةِ وٱلتلفَ؛ ثُمَّ توهَّمَ ذاتَ يوم أنَّ واشياً قد أعلَمَها أنَّ النساء ٱفتُتِنَّ بِهِ؛ فطارَ صوابُها، فهي آتيةٌ إليهِ في ٱلمارستانِ لِتوبِّخَهُ وتشفِيَ غيظَها منه، ثُمَّ تنتحرَ أمامَ عينيه. . . وأدارَ (ٱلنابغةُ) ٱلفكرَ في إقناعِها لِتَعْلَمَ أنَّهُ لم يَخُنْها بٱلغيب. . فلم يهتدِ إلى مَقْنَع تَسْتَيْقِنُ بِهِ ٱلمرأةُ أنْ لا أرَبَ لِلنساءِ فيهِ إلَّا أنْ. . . فعلَ وَجَبَّ خِصْيَتيهِ بيدِهِ لِيقدِّمَهما بُرهاناً أنَّهُ لها وحدَها. . . .

* * *

(١) أحفظه: أغضبه.
(٢) أرمضه: ألهبه.
(٣) تناكد: تخاصم.
(٤) مكان حريز: مصون لا يصل إليه أحد.
(٥) استهامت: عشقت.

قلْنا: وطَرِبَ (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين) لِذكرِ صواحبِهِ وجميلاتِه، فجعلَ يترنَّمُ بهذا الشعر:

قالوا جُنِنْتَ بِمَنْ تهوَى فقلْتُ لهمْ　　ما لـذَّةُ ٱلـعيـشِ إلَّا لِـلْـمجانـيـن

فقالَ ٱلمجنونُ ٱلآخر: «مِمَّا حفظْناه»: ما لذَّةُ «الخبز» إلَّا لِلمجانين...

فضحكَ (ٱلنابغة): وقال: ما أسخَفَكَ مِنْ أحمق. إذا كانَ هذا هو ٱلمعنى فَقُلْ: ما لذَّةُ (ٱلكعكِ). ألم أقلْ لكم إنَّ هذا ٱلأبلهَ لو تَهَجَّأَ كلمةَ خبزٍ قالَ إنَّها ل. ح. م. ولو تهجأ كلمةَ لحم لقال ف. و. ل...

إنَّهُ طِفلٌ عُمرُهُ ثلاثونَ سنةً وفيهِ دائماً غضبُ ٱلطفلِ ونَزَقُهُ[1] وحماقتُه، وفيهِ كذلك سُرورُ ٱلطفلِ وطيشُهُ وأحلامُه؛ غيرَ أنَّهُ ليسَ فيهِ عقلُ ٱلطفل.. وهو مِنَ ٱلضعف، وشِدَّة ٱلحاجةِ إلى ٱلعِنايةِ في حياطتِهِ وسياستِهِ وٱلبِرِّ بهِ كطفلٍ صغير - بحيث يُخيَّلُ إليَّ أحياناً أنَّني أُمُّه..

قلْنا: وتنَسى في هذِهِ ٱلحالةِ أنَّك رجل؟

قال: وأنتم كذلك تتَّهمونني بٱلنسيان، وهو شَرْعاً جِهةٌ مُلزِمَةٌ لِلْحكم بٱلجنونِ فما ٱلنسيانُ إلَّا ٱلكلمةُ ٱلأخرى لِمعنى ضعفِ ٱلعقل؛ وضعفُ ٱلعقلِ هوَ ٱللفظُ ٱلآخرُ لِمعنى جنوني؛ وقد أعلمْتُكم ما أكرَهُ مِنَ ٱلكلام.

قلْتُ: لا، ٱلنسيانُ لا يكونُ منكَ نسياناً بمعناهُ في ٱلمجانين، بلْ بمعناهُ فيك أنت من تواثُبِ ٱلأفكارِ ٱلنابغةِ وتزاحُمِها في تَوارُدِها على ٱلعقل. فإذا تواثَبتْ وتزاحمَتْ كانَ أمرُها إلى أنْ يُنسيَ بعضُها بعضاً، فلا ينطلقُ منها إلَّا ٱلقويُّ ٱلنابغُ حقَّ نبوغِه، فيجيءُ كٱلمنقطعِ مِمَّا قبلَه؛ فيُحْسَبُ ذلك نِسياناً وما هو بِهِ. وقد تصطلِحُ ٱلأَفكارُ في هذه ٱلمعركةِ ٱلذهنيَّةِ إذا كانَ ٱلنابغةُ مسروراً مَحبوراً يرقصُ طرَباً.. فيكونُ أمرُها إلى أنْ تجيءَ كلُّها معاً على ٱختلافِ معانيها وتناقضِها؛ فيُحْسَبُ ذلك ضَرْباً مِنَ ٱلذهولِ عندَ مَنْ يجهلُ ٱلعِلَّةِ «النبوغيَّة»؛ وعذرُهُ جهلُ هذه ٱلعِلَّة، وهي في دلالةِ ٱلعقلِ ليسَتْ نِسياناً ولا ذُهولاً.

قال: فأَعْلِمْني كيف نِسيانُ ٱلمجانين، فقد خَفِيَ عليَّ أنْ أُدركَ هذا ٱلأمرَ ٱلعجيبَ فيهم، ولسْتُ أدري كيف يفوتُهم ما ٱستدنى لهم مِنَ ٱلفكرِ بعدَ أنْ يكونَ قدِ ٱستقرَّ وحَصَلَ في عقولِهم؟

---

(١) نزقة: طيشه.

قلْت: لا يكونُ ٱلنسيانُ تُهمةً بِٱلجنونِ إلّا في أحوالٍ ثلاثٍ، جاءَتْ بكلِّها ٱلروايةُ ٱلصحيحةُ ٱلمحفوظة:

فأمَّا ٱلأولى: فما يُروَى عن رجلٍ كان سَرِيًّا غنيًّا وعُمِّرَ حتى أدركَهُ ٱلخرَف؛ فجاءَهُ كاتبُهُ يوماً يستعينُهُ على تجهيز أمِّهِ وقد ماتت، فدفعَ إلى غلام لَهُ دنانيرَ يشتري بها كفناً، ودنانيرَ أخرى يتصدَّقُ بها على ٱلقبر، ثُمَّ قالَ لغلام آخَر؛ اِمضِ إلى صاحبِنا وغاسِلِ موتانا فلانٍ فٱدْعُهُ يغسِّلُها. قال ٱلكاتب: فٱستحييْتُ منه وقلْت: يا سيدي اِبعثْ خلفَ فلانةٍ وهي جارَةٌ لنا تغسِّلُها. قالَ: يا فلان: ما تدعُ عقلَكَ في حزْنٍ ولا فرح. كيف نُدخِلُ عليها مَنْ لا نعرفُه؟

قالَ ٱلكاتب: نعم تأذَنُ بذلك. قال: لا ـ واللّهِ ـ ما يغسلُها إلّا فلان.

فضاقَ ٱلكاتبُ بهذا ٱلحمقِ وقال: يا سيدي كيف يغسلُ رجلٌ ٱمرأة؟

قال: وإنّما أمُّك ٱمرأة؟. . ـ واللّهِ ـ لقد أُنسِيْت. .

وأمَّا ٱلحالةُ ٱلثانية: فما يُروى عن رجلٍ كان نائماً في ليلةٍ باردةٍ فخرجَتْ يدُهُ مِنَ ٱلفراش فبردَتْ، فأدناها إلى جسدِهِ وهو نائم فأحسَّ بردَها فأيقظتْه، فٱنتبهَ فَزِعاً فقبضَ عليها بيدِهِ ٱلأخرى وصاح: ٱللصوص. ٱللصوص.. هذا ٱللصُّ قد قبضْتُ عليه، أدركوني لِئلَّا تكونَ في يدِهِ حديدةٌ يضربُني بها، فجاءوا بِٱلسراجِ فوجدُوهُ قابضاً بيدِهِ على يدِهِ وقد نسيَ أنَّها يدُه. . .

وأمَّا الثالثةُ: فهي روايةٌ عن رجلٍ قد وَرِثَ نِصْفَ دار، ففكَّرَ طويلاً كيف تخلُصُ ٱلدارُ كلُّها لَهُ ثُمَّ ٱهتدى إلى الوَسيلة؛ فذهبَ إلى رجلٍ وقالَ لَه: أُريدُ أنْ أبيعَكَ حِصَّتي مِنَ ٱلدارِ وأشتريَ بثمنِها ٱلنصفَ ٱلباقي لِتصيرَ ٱلدارُ كلّها لي. . .

* * *

قالَ (ٱلنابغة): لَعَمْري إنَّ هذا لهو ٱلجنون، وما يُذْكَرُ معَ هؤلاءِ مجنونُ ٱلمتنِ ولا «غيرُه». . .

فقالَ ٱلآخر: «تاللَّهِ لولا أنَّ (نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين) يرفعُ نفسَهُ عنِ ٱلجنونِ لَجاءَ في ٱلجنونِ بِما يُذهِلُ «العقول». . .

ثُمّ نظرَ فإذا ٱلنابغةُ يتحفَّزُ[1] له. . . فأسرعَ يقول: «مِمَّا حفظْناهُ» كُنْ حذراً

(١) يتحفز: يستعدّ.

كأنَّك غِرٌّ، وكُنْ ذاكراً كأنَّكَ ناسٍ. فهذا هو نِسيانُ نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين، نِسيانُ حكماءَ لا نِسيانُ مجانين.

قالَ (ٱلنابغة): ولكنْ قدْ فسدَ قولُ ٱلشاعر: ما لذَّةُ ٱلعيشِ إلَّا لِلمجانين؛ فما بقيَتْ مَعَ ٱلجنون لذَّة.

قلْت: إنَّ ٱلشاعرَ لا يُريدُ ٱلمجانينَ ٱلذين هم مجانينُ بٱلمرض، وإنَّما يُريدُ ٱلعشاقَ ٱلمجانينَ بٱلجمال؛ وجنونُ ٱلعاشقِ في هذا ٱلبابِ كعيوبِ ٱلعظماءِ من أهلِ ٱلفنّ، وهي عيوبٌ تُدافِعُ عن نفسِها بحَسَنَاتِ ٱلعظمة، فليسَتْ كغيرِها مِنَ ٱلعيوب.

قال: فيجبُ أنْ أصنعَ بيتاً آخرَ يفسِّرُ ذلك ٱلشعرَ لِيستقيمَ ليَ ٱلتمثُّلُ بهِ، ثُمَّ فكَّرَ وهمْهمَ، ثُمَّ كتبَ في ورقةٍ ثُمَّ طواها وقال: اِصنعْ أنت أولُ، وسأئتمنُ س. ع. على عشري ودفعَ إليهِ ٱلورقة:

فنظرْتُ وقلْتُ: يجبُ أنْ يكونَ ٱلشعرُ هكذا:

قالوا: جُنِنْتُ بِمَنْ تهوى فقلْتُ لهم ... ما لذَّةُ ٱلعَيشِ إلَّا لِلْمجانينِ
العَقلُ إنْ حَكمَ ٱلعُشَّاقَ أثقلُ من ... فقرٍ تحكَّمَ في رِزْقِ ٱلمساكينِ

ونشر س. ع. ٱلورقةَ فإذا فيها:

قالوا: جننتَ بِمَنْ تهوى فقلْتُ لهم ... ما لذَّةُ ٱلعيشِ إلَّا لِلْمجانينِ
إنَّ ٱلعيوبَ عنِ ٱلمجنونِ دافعةٌ ... بأنَّهُ «نابغٌ في ٱلقرنِ ٱلعشرين»...

وضحكْنا جميعاً؛ فقالَ ٱلنابغة: أبعدَكَ ٱللَّهُ يا س. ع. إنَّ مَنِ ٱئتمنَ ٱلمجنونَ على سرٍّ وقالَ لَهُ ٱكتمْهُ فكأنما قال له: ٱنشرْه...

ثُمَّ قال: وَدِدْتُ ـ وٱللَّهِ ـ أنْ يكونَ س. ع. هذا «نابغة»، ولكنِّي سأجعلُهُ نابغة، فقد صارَ لَهُ عَلَيَّ حقُّ ٱلصديقِ وهو حقٌّ لا أُضيِّعُهُ ولا أُخِلُّ بهِ. فإذا ٱحتجْتَ يا س. ع. إلى خِطابٍ رنانٍ تُلقيهِ في حَفْلٍ عظيم، أو قصيدةٍ تمدحُ بها وزيرَ ٱلمعارف، فٱلجأْ إليَّ فإنِّي مَلْجأٌ لك. ومتى ٱنتحلْتَ شِعري كنْتَ عندَ ٱلناسِ ٱلمتنبي أوِ ٱلبحتري. أوِ ٱبْنَ ٱلرومي، فإنَّ هؤلاءِ ٱلقُدامى لم ينفعْهم إلَّا أنَّني لم أكنْ فيهم، ولمَّا لم أكنْ فيهم أعجبوا ٱلناس إذا أنَّني لم أكنْ فيهم...

قلْنا فما حُكمُك عليهم في ٱلأدب؟

قال: إذا حكمْتُ عليهم فقدْ جعلْتُ نفسي بينهم،. فمِنَ ٱلطبيعيِّ ألَّا يُعجبَني منهم أحد. إنَّ «نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين» لا يقولُ لِمعنًى هذا أحسنُ، فإنَّهُ هو فوقَ

ٱلأحسن، ولا يقولُ عن نابغةٍ هذا أشهر، فإنَّهُ هو فوقَ ٱلأشهر.

قلْت: كأنَّ ٱلدنيا تحتَ قدميك وأنت فيها ٱلزاهدُ ٱلعظيمُ ٱلذي لا يقولُ في حُسنِ هذا أحسنُ لِأنَّهُ فوقَ ٱلشهوة، ولا في نعيم هذا أطيبُ لِأنَّهُ فوقَ ٱلطمع، ولا في مالٍ هذا أكثرُ لِأنَّهُ فوقَ ٱلحِرْص. وأحسُبك لَو كنْتَ تَرعى غنماً لَكنْتَ ٱلحقيقَ في عصرِنا بقولِ تلك ٱلراعيةِ ٱلزاهدة: أصلحْتُ شأني بيني وبينَهُ فأصلَح بينَ ٱلذئبِ وٱلغنم.

قال: وكيف ذلك؟

قلْت: حُكِيَ عن بعضِ ٱلصالحينَ أنَّهُ فكَّرَ ذاتَ ليلةٍ فقالَ في نفسِه: يا ربّ. مَنْ زوجتي في ٱلجنَّة؟ فأُرِيَ في منامِهِ ثلاثَ ليالٍ أنَّها جاريةٌ سوداءُ في أرضٍ كذا. فجاءَ تلكَ ٱلأرضَ فسألَ عنِ ٱلجارية، فقالَ لهُ رجلٌ ما هذا؟ تسألُ عن جاريةٍ سوداءَ مجنونةٍ كانَتْ لي فأعتقْتُها؟ قالَ وماذا رأيْتُم من جنونِها؟ قال: كانَتْ تصومُ ٱلنهارَ فإذا أعطيْنَاها فَطُورَها تصدقَتْ بهِ، وكانَتْ لا تهدأُ ٱلليلَ ولا تنامَ فضجرْنا منها.

قال: فأين هي؟ قالَ ترعى غنماً لِلْقوْمِ في ٱلصحراء:

فذهبَ إلى ٱلصحراءِ فإذا هي قائمةٌ في صلاتِها، ونظرَ إلى ٱلغنم فإذا ذئبٌ يدلُّها على ٱلمرعى وذئبٌ يسوقُها. فلمَّا فرغَتْ من صلاتِها سلَّمَ عليها فأنبأتْهُ أنَّهُ زوجُها في ٱلجنَّةِ وأنبأَها أنَّهُ بُشِّرَ بها؛ ثُمَّ سألَها ما هذهِ ٱلذئابُ مَعَ ٱلأغنام؟ قالَت: نعمْ أصلحْتُ شأني بيني وبينَهُ فأصلحَ بينَ ٱلذئبِ وٱلغنم.

قالَ (ٱلنابغة): هذا كذبٌ لِأنَّهُ عجيب، وهو عجيبٌ لِأنَّهُ كُذب.

قلْت: وأيُّ عجيبٍ في هذا؟ إنَّ ٱلذئبَ وٱلشاةَ، وٱلأسدَ وٱلغزالَ، وٱلثعبانَ وٱلعُصفور، وكلَّ آكِلٍ ومأكولٍ مِنَ ٱلأحياء، لو هي دخلَتْ في دائرةِ ٱلصلاةِ ٱلحقيقيَّةِ لٱنتظمَتْ كلُّها صَفًّا واحداً يركَعُ ويسجد. فهذهِ ٱلجاريةُ نشرَتْ رُوحَ ٱلصلاةِ وٱلتقوى على كلِّ ما حولَها من قلبِها ٱلطاهرِ ٱلمطمئنِّ بٱلإيمانِ فوقعَ ٱلذئبُ منها في دائرةٍ مغناطيسيَّة، فسُلِبَ وحشيَّتَهُ ورجعَ مُسَخَراً لِفكرةِ ٱلصلاحِ وٱلخيرِ إذْ تجانَسَتْ فيهِ ٱلحياةُ بما حولَها، وٱنسجمَ ٱلنوعُ وٱلنوعُ في حركةٍ متجاوبةٍ ٱنسجامَ ٱلرجُلِ ٱلمغناطيسيِّ هو ومَنْ ينوِّمُهُ في إرادةٍ واحدةٍ وفكرةٍ واحدة.

قالَ (ٱلنابغة): فإذا دخلَ ٱلذئبُ مسجداً يَرْتجُ بٱلمصلِّين، أتُراهُ يَصُفُّ أربعتَهُ ويقفُ بينَهم لِلصلاة، أم يُصلِّي صلاتَهُ ٱلذئبيَّةَ في لحومِهِم؟

قلْت: وأين همُ ٱلذين يُصلُّون بحقيقةِ ٱلصلاة، فيخرجون بها مِنَ ٱلنفسِ إلى ٱلكوْن، ومِنَ ٱلزمنِ إلى ٱلأبد، ومِنَ ٱلأسبابِ إلى مُسبِّبِها، ومِمَّا في ٱلقلْبِ إلى ما فوقَ ٱلقلب؟ إنَّ هؤلاءِ جميعاً يُصلّون بجوارحِهِم وبينَهم وبينَ أرواحِهم طولُ ٱلدنيا وعرضُها؛ وما منهم إلّا مَنْ يتَّصِلُ فكرُهُ بما يَغلبُ عليه، كما يتَّصلُ فكرُ ٱللصِّ بيدِه، وفكرُ ٱلعاشقِ بعينِه، وفكرُ ٱلطفيْليِّ بمَعدتِهِ. فٱسمُها عندهُمُ ٱلصلاة، وحقيقتُها عندَ ٱللهِ كما ترى.

قالَ (ٱلنابغة): ولكنَّهُ ذئبٌ من طبيعتِهِ أنْ يأكلَ ٱلشاةَ لا أنْ يرعاها، فلا أفهمُ شيئاً.

وقالَ ٱلآخر: «مِمَّا حفظْناه» رتَعَ[1] ٱلذئبُ في ٱلغنم، ولم يقولوا صلَّى ٱلذئبُ في ٱلغنم، فلا أفهمُ شيئاً.

قلْت: سأزيدُكم عَدَمَ فهم... إنَّ قلبَ تلك ٱلمرأةِ ٱلعظيمةِ ٱلطاهرةِ ملتصقٌ بِٱلله، وليسَ فيهِ شيءٌ من طِباعِها ٱلإنسانيَّةِ ولا ظِلٌّ من ظِلالِ ٱلدنيا؛ وقد تجلَّى فيهِ سرُّ ٱلحياة، وهو ٱلسرُّ ٱلذي لا يطعمُ ولا يشربُ ولا يلبسُ ولا يشتهي ولا يَطمعُ في شيءٍ ولا يُحرزُ شيئاً، وإنَّما طبيعتُهُ أشواقُهُ ٱلكونيَّةُ، وٱتصالُهُ بنَفَحاتِ ٱلقوَّةِ ٱلأزليَّةِ ٱلمسخِّرةِ لِلوجودِ كلِّه. فٱنتشَرتْ هذه ٱلموجةُ ٱلكهربائيَّةُ ٱلأثيريَّةُ حولَ ٱلجاريةِ من قلبِها، وجاءَ ٱلذئبُ فَٱلتَجَّ فيها وغمرتْهُ ٱلروحانيَّةُ ٱلغالبةُ، فإذا هو يفتحُ عينَهُ على كونٍ غريبٍ قد تجلَّى ٱلسلامُ عليه، فليسَ فيهِ إلَّا قوةٌ آمرةٌ أمرَها بٱئتلافِ كلِّ شيءٍ معَ كلِّ شيء، وٱجتماعِ ٱلمتنافرَيْنَ في حالةٍ معروفةٍ لا في حالةِ إنكار. فصارَ ٱلذئبُ مستيقِظاً، ولكنَّهُ في رُوحِ ٱلنوم، وشُلَّتْ فيهِ ٱلذئبيَّةُ ٱلطبيعيَّةُ، فإذا هو يحملُ ٱلأنيابَ وٱلأظافرَ وقد أُنسيَ ٱستعمالَها؛ وبقيَتْ حركتُهُ ٱلحيوانيَّةُ، ولكنْ تعطَّلَتْ بواعثُها فبَطَلَ معناها.

ومن كلِّ ذلك ٱختفى ٱلذئبُ ٱلذي هو في ٱلذئب، وبقيَ ٱلحيوانُ حيًّا ككلِّ ٱلأحياء، فناسَبَ ٱلشاةَ وفزعَ إليها إذْ لم تكنِ ٱلعَلاقةُ بينهما علاقةَ جِسمِ ٱلآكلِ بجسمِ ٱلأكيلة، بلْ علاقةَ ٱلروحِ ٱلحيِّ بروحٍ حيٍّ مثلِه.

* * *

قالَ (ٱلنابغة): أمَّا أنا فقد فهمْتُ ولكنَّ هذا ٱلمجنونَ لم يفهم. أُكتُبْ يا س.

---

(١) رتع: أكل وشرب ما شاء في خصب.

ع: جلسَ نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرينَ مجلسَهُ لِلفلسفةِ على غيرِ إعدادٍ ولا تمكّن، وبدون كُتبٍ ألبتة... وكانَ هذا أجمعَ لِرأيهِ وأذهَنَ لَهُ وأدعى لِأنْ يتوفَّرَ على ٱلإملاءِ بكلِّ «مواهبِهِ ٱلعقليّة»؛ ولمَّا أنْ فكرَ ٱلنابغةُ أعطى ٱلنظرَ حقَّهُ وجمعَ في عقلِهِ ٱلفذِّ جَزالةَ ٱلرأيِ إلى قوّةِ ٱلتفنّنِ وٱلابتكار، قالَ مرتجِلاً: إنَّ فلسفةَ ٱلذئبِ وٱلشاةِ حينَ لم يأكلْها ولم تَنْطِحْه، هي بِٱلنصِّ وبِٱلحرفِ كما قالَ أستاذُ نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين.

(حاشية) وإنَّ مجنونَ ٱلمتنِ لم يفهمْ هذه ٱلفلسفة.

فٱمتعضَ ٱلآخرُ وقالَ «مِمَّا حفظناه»:

وباتَ يقدحُ[1] طولَ ٱلليلِ فِكْرَتَهُ وفسَّرَ ٱلماءَ بعدَ ٱلجُهْدِ بِٱلماءِ

فقالَ (ٱلنابغة): ويلكَ يا أبله! أمَا ـ واللَّهِ ـ لو كنْتَ نَفْطَوَيْهِ أو سيبوَيْهِ لَمَا كُنْتَ عندي إلَّا جَحْشَوَيْه أو بَغْلَوَيه...

لقد كنْتُ أرى ٱلكلامَ في تلك ٱلفلسفةِ طريقاً نَزِهاً جميلاً حفَّتْهُ ٱلأشجارُ وٱلأزهارُ عن جانبيه، وٱندفعَتْ في سَوَائِه (تُمبيلاتُ) ٱلأفكارِ خاطفةً كٱلبرق. فلمَّا تكلمْتَ أنت ٱنتهيْنا من سخافتِك إلى طريقٍ حجريّ تُقَعْقِعُ[2] فيهِ عرباتُ ٱلنقلِ تجرُّها ٱلبِغالُ ٱلبطيئة.

فقالَ: ٱلآخرُ وهو يعتذرُ إليه: ما أردْتُ ـ والله ـ مَسَاءَتَكَ[3] ولو أردْتُها لَقلْتُ وفسرَ ٱلماءَ بعدَ ٱلجهدِ بِٱلسبرتو... فهذا هو ٱلخطأ، أمّا تفسيرُ ٱلماءِ بعدَ ٱلجهدِ بِٱلماءِ فهو صحيح.

قالَ (النابغة): ولكنّهُ تفسيرٌ مُفْرطُ ٱلسقوطِ كتفسيرِ ٱلمجانين، فهو يقولُ إنّي مجنون.

قلْتُ: كلا، إنَّ تفسيرَ ٱلمجانينِ يكونُ على غيرِ هذا ٱلوجهِ، كٱلذي حكاهُ ٱلجاحظُ قال: سمعْتُ رجلاً يقول لِآخر: ضرْبنا ٱلساعةَ زِنديقاً. قالَ الآخر: وأيُّ شيءٍ ٱلزنديقاً؟ قالَ ٱلذي يُقَطِّعُ ٱلمزّيقاً. قال: وكيف عَلِمْتَ أنَّهُ يقطِّعُ ٱلمزّيقاً؟ قال: رأيْتُهُ يأكلُ ٱلتينَ بِٱلخلِّ...

* * *

(١) يقدح: يُشعل ويُعمل.

(٢) تقعقع: تصدر صوت القعقعة.

(٣) مساءتك: الإساءة إليك.

المجنون

٦

تتمة

وطالَ ٱلمجلسُ بنا وبٱلمجنونين، وٱلكلامُ على أنحائِهِ يندفعُ من وجهٍ إلى وجه، ويمرُّ في معنًى إلى معنى؛ فأردْتُ أنْ أبلغَ بِهِ إلى الغايةِ ٱلتي جمعْتُ من أجلِها بين هذينِ ٱلمجنونين، بعدَ ما ٱنطلَقْنا في ٱلقولِ وٱنفتحَ ٱلقُفلُ ٱلموضوعُ على عقلِ كلٍّ منهما.

وكانَ قدْ مرّ في ٱلنديّ بائعُ رواياتٍ مترجمةٍ «بوليسيَّةٍ وغراميَّةٍ ولصوصيَّة!» يحملُ ٱلرجلُ منها مَزْبَلَةَ أخلاقٍ أوربيَّةٍ كاملةٍ لِينفضَها في نفوسِ ٱلأحداثِ من فِتيانِنا وفِتياتنا، فقلْتُ (لِنابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين): أتقرأُ ٱلروايات؟ قال: لا، إلّا مرةً واحدةً ثُمَّ لم أُعاوِدْ، إذْ جعلَتْني ٱلروايةُ روايةً مثلَها.

قلْنا: هذا أعجبُ ما مرّ بنا منذُ ٱليوم، فكيف صِرْتَ رواية؟

قال: أنتم لا تعرفون طبيعةَ ٱلنوابغ، إذْ ليسَ لكم حِسُّهُمُ ٱلمرهَفُ، ولا طبعُهُمُ ٱلمستحْكِم، ولا خصائصُهُمُ ٱلغيبيَّة، ولا خواطرُهُمُ ٱلمتعلِّقةُ بما فوقَ ٱلطبيعة.

قلْت: نعم أعرفُ ذلك؛ وما من (نابغة) إلّا وهو بينَ عالمينِ على طرَفٍ مِمَّا هنا وطرفٍ مِمَّا هناك، فهو خرَّاجٌ ولَّاجٌ[1] بينَ ٱلعالمين؛ ولَهُ نفسٌ مركَّبةٌ تركيبَها على نواميسَ معروفةٍ وأخرى مجهولة؛ فهي تأخذُ مِنَ ٱلظاهرِ وٱلباطنِ معاً، ويحصرُها ٱلمكانُ مرةً ويُفْلِتُها مرة، وتكونُ أحياناً في زمانِ ٱلأرض، وأحياناً في زمنِ ٱلكواكبِ مِنَ ٱلقمرِ فصاعداً... ولكن...

فقطعَ عليَّ وقال: أضفْ إلى ذلك أنَّ هذه ٱلعقولَ ٱلتي تَحصرُ مَنْ يسمونَهُم

---

(١) ولّاج: دخّال.

ٱلعقلاَ في ٱلزمانِ وٱلمكان، لا تُوجِدُ أهلَها إلّا ٱلهمومَ وٱلأحزانَ، وٱلمطامعَ ٱلسافلة، وٱلأفعالَ ٱلدنيئة، فإنَّهم يعيشونَ فوقَ ٱلتراب.

قلْت: نعم، وإذا عاشوا فوقَ ٱلترابِ فبٱضطرارٍ أنْ تكونَ معاني ٱلترابِ فوقَهم وتحتَهم ومِنْ حولِهم وبينَ أيديهِم، فليسوا يقطعونَ على هذه ٱلأرضِ إلّا عمراً ترابيًّا في كلِّ معانيهِ ولكن. . .

قال: وزِدْ على ذلك أنَّهم مقيَّدون تقييدَ ٱلمجانين، غيرَ أنَّ حِبالَهُم وسلاسلَهُم عقليَّةٌ غيرُ منظورة؛ وبتَغليلِهِم تغليلَ ٱلمجانينِ يسمُّون أنفسَهُم عُقَلاء، وأعقلُهم أثقلُهُم قيوداً، وهذا مِنَ ٱلغرابةِ كما ترى.

قلْت: نعم، أمَّا العقلاءُ بحقيقةِ ٱلعقلِ، فهمُ ٱلذين يضحكونَ على هؤلاءِ ويسخَرونَ منهم، إذْ كانوا في حالٍ كحالِ ٱلمنطلِقِ مِنَ ٱلمقيَّد، وفي موضعٍ كموضعِ ٱلمعافَى مِنَ ٱلمُبتلَى ولكن. . .

قالَ: وفوقَ هذا وذاك، إنَّهم لا يملكونَ ٱلسعادةَ، إذْ ليسَ لهمُ ٱلعقلُ ٱلضاحكُ ٱلساخرُ ٱلعابثُ ٱلذي خُصَّ بِهِ ٱلنوابغُ وكانَ ٱلأوحدُ فيهِ (نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين).

قلْت: نعم، وإذا ملكوا ٱلسعادةَ لم يشعروا بها، أمَّا (ٱلنوابغُ) فقد لا يملكونها، ولكنْ لا يفوتُهمُ ٱلشعورُ بها أبداً فيجئُهُمُ ٱلفرحُ من أسبابِهِ ومن غيرِ أسبابِهِ ما دامَ لَهُمُ ٱلعقلُ ٱلضاحكُ ٱلساخرُ ٱلعابثُ ٱلذي دأبُهُ أبداً أنْ ينسى لِيضحك، ولا قانونَ لَهُ إلّا إرادةُ صاحبِه، على مشيئةِ صاحبِه، لِمنفعةِ صاحبَه. ولكن. . .

قالَ: وٱلذي هو أهمُّ من كلِّ ما سبق؛ أنَّ أعظمَ خصائصِ هذا ٱلعقلِ ٱلضاحكِ ٱلساخرِ ٱلعابثِ أنْ يطردَ عن صاحبِهِ ما لا يُحبُّ ويجنِّبَهُ أن يخسرَ شيئاً من نفسِه؛ فهو لِذلك يجعلُ حِسابَهُ معَ ٱلأشياءِ حِساباً يهوديًّا لا بدَّ فيهِ من ربحِ خمسينَ في ٱلمائة. .

قلْت: نعم، وهو دائماً كٱلطفل؛ وما أظرفَ بلاهةَ ٱلطفلِ وما أجداها عليه!، إذ يضعُ بلاهتَهُ دائماً في أرواحِ ٱلأشياءِ وأسرارِها فتخرجُ بلهاءَ مثلَه، وتنقلبُ لَهُ ٱلدنيا كأنَّها أمٌّ تُضاحِكُ ٱبنَها وتُلاعبُهُ ولكن. . .

قال: ولكن هذا مبلغٌ لا تبلغُهُ ٱلإنسانيَّةُ إلّا شذوذاً في أفرادِها من جبابرةِ ٱلعقولِ (كنابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين).

قلْت: نعم (ولكن) كيف صارَ (نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين) روايةً حينَ قرأَ ٱلرواية!

قال: هذه نكتةُ ٱلنبوغ؛ فلو أنَّ مؤلفَها كانَ نابغةً مثلَنا يتلقَّى في نفسِهِ وحيَ ٱلأثيرِ وإشاراتِ ٱلروح ٱلأعظم؛ لَعَلِمَ مِنَ ٱلغيبِ أن (نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين) سيقرأُ روايتَه، فكانَ يتحرَّى[1] معانيَ غيرَ معانيهِ ويتوخَّى بهذه ٱلقصةِ وضْعاً آخرَ لا تكونُ فيهِ حبيبةٌ خائنة، ولا لِصٌّ عارم، ولا قاتلٌ سَفَّاح، ولا سِجنٌ مظلم، ولا محكمةٌ تقولُ حيثُ وحيث...

قلْت: وما عليك من حبيبةٍ خائنةٍ في ٱلورقِ، ولِصٍّ بينَ ٱلحروفِ ٱلمطبعيَّة وقاتلٍ لا يقتلُ إلَّا كلاماً، وسجنٍ ومحكمةٍ على ٱلصحيفةِ لا على ٱلأرض؟

قال: هذه نكتةُ ٱلنبوغ، فما ٱستوعَبْتُ ٱلقصةَ حتى عمرَتْني أشخاصُها، وأُقْحِمْتُ[2] منها على هَوْلٍ هائل، فخانَتْني ٱلخائنةُ لعنَها ٱللهُ.. ولولا خوفُ ٱلسجنِ وٱلمحكمةِ لقَتلْتُها أشنعَ قِتْلة، ومثَّلْتُ بها أقبحَ تمثيل. ويْحَ ٱلخائنةِ كيف ٱستمالَها ذلك ٱلدميمُ ٱلطويلُ ٱلعِملاقُ ٱلمشبوحُ ٱلعِظامِ ٱلمفتولُ ٱلعضَل؟ ولكنّي لسْتُ عملاقاً ولا مَبْنيًّا بناءَ ٱلحائط، ثُمَّ كانَ مجنوناً بشهواتِهِ جنونَ ٱلفيلِ ٱلهائج، وكنْتُ في شهواتي عاقلاً عقلَ ٱلإنسان، ثُمَّ كان غنيًّا غِنَى ٱلجُهَّال، وكنْتُ فقيراً فقرَ ٱلعلماء. وٱلنساءُ؛ قبحَ ٱللَّهُ ٱلنساء. إنَّهُنَّ زينةٌ تطلبُ زينةً مثلَها وإنَّ ٱلمرأةَ لَتمنحُ وجهَها لِلقردِ يُقبِّلُهُ إذا كانَ ٱلذهبُ يتساقطُ من قُبلاتِه. أمَّا مَنْ كانَ مثلي، أموالُهُ ٱلشبابُ وٱلجمالُ وٱلعقلُ وٱلنبوغ، فهو مُفلِسٌ عندهُنَّ إفلاسَ ٱلقِرْدِ في ٱلغابة، فهو عندهُنَّ قِرْدٌ لِهذِهِ ٱلمُشابهة.

قلْت: هذا ليسَ عجيباً فإنَّ ٱللغويينَ يُجرون على ٱلشيءِ ٱسمَ ما يُقاربُهُ في ٱلمعنى.

قالَ ٱلمجنونُ ٱلآخر: «مِمَّا حفظْناه» أنَّ اللغويين يُجرونَ على ٱلشيءِ ٱسمَ ما يقاربُهُ في ٱلمعنى...

فتربَّدَ[3] وجهُ (النابغة) غضباً وقال: أبي يلعبُ هذا ٱلمجنون؟ إنَّهُ يزعمُ أنَّ ٱللغويين يسمونني قِرْداً، فهاتوا ٱلقواميسَ كلَّها وٱرجعوا إلى مادة (قَرَد) ومادة (نابغة)... سَوْأَةً عليك أيُّها ٱلصبيُّ ٱلمعمَّر.. ألَا فدعوني أؤدِّبْهُ أدبَ ٱلصِّبيانِ فإنَّ ٱللطمةَ ٱلقويَّةَ على وجهِ ٱلطفلِ ٱلمُكابرِ في حقيقةٍ تُلمِسُهُ ٱلحقيقةَ ٱلتي يُكابرُ فيها إذْ تُدخِلُها إلى عقلِهِ من أقربِ طريق..

---

(١) يتحرّى: يبحث. (٢) أقحمت: أدخلت. (٣) تربّد: تلبّد.

قال ا. ش: أنت قلت، لا هو. على أنَّكَ لستَ قِرْداً أبداً إلَّا عندَ ٱمرأةٍ جميلةٍ فاتنةٍ متخيّلةٍ متماجنةٍ، قد تضعُ ٱلبرذَعةَ على ظهرِ ٱلأميرِ وتجعلُهُ حِمارَها، فيُعْجَبُ ٱلأميرَ أنْ يكونَ حِمارَها. ولسْتُ قِرْداً معَ قَرَّادٍ إلى جانبِ عنزٍ وكلب.

قال: الآن علمْتُ ٱلسبب، فإنَّ ٱلخائنةَ كانَتْ متخيِّلةً مؤلِّفةً كُتبٍ وروايات، والمرأةُ ٱلتي تُؤلِّفُ ٱلكتب، غيرُ بعيدٍ أنْ تؤلفَ ٱلرجلَ أيضاً، وتجعلَهُ قصةً هو فيها قِرْد.. لا وهذا إنْ كانَتْ جميلةً كٱمرأةِ ٱلرواية. أمَّا إنْ كانَتْ دميمةً مجموعةً مِنَ ٱلمتناقضات، أو عجوزاً مجموعةً مِنَ ٱلسنين؛ فهذه وهذه كلُّ أيامِها كيومِ ٱلأحدِ عندَ ٱلنصارى... يومٌ لِلعُطلةِ لا بيعَ فيهِ ولا شراءَ ولا مساومة. هذه وهذه كِلتاهما تجعلُ ٱلرجلَ كٱلماءِ في سبيلِ ٱلتجمد.. لا يشتعل، فضلاً عَنْ أنْ يَسْتَعِر، فضلاً عن أنْ يحترق.

ومؤلفةُ ٱلكتبِ لا يكونُ وجهُها إلَّا إحدى وثيقتين: فإمَّا جميلةٌ، فوجهُها وثيقةٌ بأنَّ لها دُيوناً على ٱلرجال؛ وإمَّا غيرُ جميلة، فوجهُها (مُخالصةٌ) من كلِّ ٱلديون...

قلْنا: هذا في ٱلخائنة. فكيفَ سرقَكَ ٱللصُّ ولسْتَ غنيًّا؟

قال: هذه هي نكتةُ ٱلنبوغ؛ وفي ٱلنبوغِ أشياءُ لا ينكشفُ تفسيرُها، وليسَ في جهلِها مضرَّةٌ على أحد، وجهلٌ لا يضرُّ هو عِلْمٌ لا ينفع، لكنَّهُ عِلْم. وٱلبحثُ في بعضِ أعمالِ (ٱلنابغةِ) هو كٱلبحثِ عن سرِّ ٱلحياةِ فيه، إذْ يعملُ أعمالَهُ تلك بسرِّ ٱلحياةِ لا بسرِّ ٱلعقل، أي بٱلعقلِ ٱلنابغِ ٱلخاصِّ بِهِ وحدَهُ لا بٱلعطلِ ٱلطبيعيِّ ٱلمشتركِ بينَ ٱلناس.

* * *

قلْت: ومن عجائبكَ أنَّك لا تقرأُ ٱلروايات، ولكنَّكَ مع ذلك تُؤلِّفُها...

قال: إنَّ ذلك لَيكون، وإنْ لم أؤلِّفها أنا تألفَتْ هي لي. فإذا تقدَّمَ ٱلليلُ ونامَ ٱلناسُ جميعاً ٱنتبهْتُ أنا وحدي لِروايةِ ٱلعالمِ فأرى ما شِئْتُ أنْ أرى. وفي ضوءِ ٱلنهارِ أجدُ ٱلناسَ عقلاً ولكنِّي في ظلمةِ ٱلليلِ أُبصرُهم مجانين. فهذا الليلُ برهانُ ٱلطبيعةِ على جنونِ ٱلناسِ وضَعْفِ عُقولِهم إذْ هو يُثبتُ حاجةَ هذه ٱلعقولِ إلى ضَرْبٍ مِنَ ٱلنسيانِ ٱلأبلهِ ٱلتامِّ لولاهُ ما عقلَتْ في نَهارِها ولا ٱستقامَ لها أمر.

يُصْرَعُ ٱلناسُ في ٱلليلِ صَرْعَةَ ٱلمجانينِ فيُغمضونَ أعينَهم ولا يرونَ شيئاً. أمَّا أنا فأرى ٱلعالَمَ في ٱلليلِ مسرحاً هزليًّا يَضِجُّ بٱلضحكِ مِنَ ٱلإنسانِ ٱلأحمقِ ٱلذي

يقطعُ سَرَاةَ نهارِه، وهو معتقدٌ أنَّهُ قابضٌ على ٱلوجودِ بٱلأعينِ وٱلآذانِ وٱلآناف. . أئنْ رأيْتَ ٱلأسدَ بعينِكَ أيُّها ٱلأحمقُ وسمِعْتَ في أذنيك زئيرَه، ٱدّعيْتَ ٱلدَّعوى ٱلعريضة، وزعمْتَ أنَّك ملكتَهُ وقبضْتَ عليه، ولا تدري في هذا أنَّكَ كٱلمعتوهِ إذا قبضَ على ٱلظِّلِّ بيدِه، وصاحَ هاتوا ٱلحبلَ لِأُقيِّدَهُ لا يُفْلِت؟ . . .

قلْت: فإذا كانَ ٱلعالمُ كلُّهُ روايتَك فأخرجْ لنا فصلاً مِنَ ٱلرواية.

قال: أيُّما أحبُّ إليكم، أنْ أكتبَ أو أمثِّل؟

قلْنا: بلِ ٱلتمثيلُ أحبُّ إلينا. فنظرَ إلى ٱلمجنونِ ٱلآخرِ وقال: إنَّ ٱلمجنونَ في طبيعتِهِ ينبوعٌ مِنَ ٱلأشخاصِ يفيضُ حالاً بعد حال، كينبوعِ ٱلماءِ يَسُحُّ[1] ٱلدفعةَ بعدَ ٱلدفعة، فهنا ٱلمسرحُ، وٱلروايةُ ٱلآنَ روايةُ ٱلطبيبِ وٱلمجنون. . .

* * *

أنت يا س. ع. عمُّ هذا المجنون. فإذا قالَ لك يا عمّ. قلْ لَه: أنا لسْتُ عمَّكَ ولكني أخو أبيك. . . لِننظرْ أيتنبَّهُ على ٱلفرقِ بينَ ٱلصيغتينِ أم لا؛ فإنَّهُ فَرْقٌ عقليٌّ دقيقٌ تُمتحَنُ بِهِ ٱلعقول. .

تعالَ أيُّها ٱلمريضُ فإنِّي أرجو أنْ يكونَ شِفَاؤُك على يدي، وفي يدي هذه لمسةٌ من لمَسَاتِ ٱلمسبح، لأنَّ (نابغةَ ٱلقرنِ ٱلعشرين) هوَ ٱلآنَ طبيبُ ٱلقرنِ ٱلعشرين. . .

اِتَّقوا أنْ تغضبُوهُ أو تُخيفُوه، وأَقيموا لَهُ كلَّ ما يحتاجُ إليه، وتحرَّوا[2] مسرتَهُ دائماً، فإنَّ إدخالَ بعْضِ ٱلسرورِ إلى نفسِ ٱلمجنونِ هو إدخالُ بعضِ ٱلعقلِ إلى رأسِه.

متى أنكرْتَ يا س. ع عقلَ ٱبنِ أخيك وما كانَ ٱلسببُ؟ وكيف غُلبَ على عقلِه؟ وهل ا. ش. هو خالُه أو أخو أمِّه؟

لَطَف ٱللّٰهُ لك أيُّها ٱلمِسكين. قل لي: أتتذكرُ أمسِ؟ أتتذكرُ غداً؟ . . إنَّ الأمسَ وٱلغدَ ساقطانِ جميعاً من حسابِ ٱلمجانين؛ ومِنَ ٱلرحمةِ بهم أنَّ ٱلدنيا تبدأُ لهم كلَّ يومٍ فقدِ ٱستراحوا من ثُلُثَيْ همومِ ٱلزمنِ في ٱلعقلاء. وهم لا يصلحون أنْ ينفعوا ٱلناسَ كٱلعقلاء، غيرَ أنَّهم صالحون أكثرَ مِنَ ٱلعقلاءِ للانتفاعِ بأنفسِهم في ٱلضحكِ وٱلمرحِ وٱلطرب، وهذا حَسْبُهم مِنَ ٱلنعمةِ عليهم.

قلْ لي أيُّها ٱلمجنون: أتُحِسُّ أنَّ ٱلدنيا تَصنعُ لك نفسَك، أمْ نفسُك هي تصنعُ

(١) يسحّ: يسيل وينهمر.

(٢) تحرَّوا: فتّشوا واكتشفوا.

لك ٱلدنيا؟ إنَّ هذه مسألةٌ يحلّها كلُّ مجنونٍ على طريقتِهِ ٱلخاصَّةِ بِه، فما هي طريقتُك في حلِّها؟

مالَكَ لا تُجيبُ أيُّها ٱلأبلهُ؟ (هذا من جهةٍ ومن جهةٍ) أعطوهُ قِرشاً لِينطلِقَ لِسانُهُ، وآتُوا ٱلطبيبَ أجرَهُ وافياً وهو لا يَقِلُّ عن قِرشين. . .

ثُمَّ مالَ (ٱلنابغةُ) على مجنونِ ٱلمتنِ وسارَّهُ بشيء. فقلْنا ما أمرُ ٱلمالِ بسِرّ؛ هذا قِرشٌ لِلْمريضِ وهذان قِرشانِ لِلطبيب.

فقالَ ٱلمجنون: «مِمَّا حفظْناه» كفى بِٱلسلامة داءً.

قالَ «الطبيب»: هذا مريضٌ بنوعٍ مِنَ ٱلجنونِ ٱسمُهُ «مِمَّا حفظْناه» وهو جنونُ ٱلنسيانِ ٱلذي يضعُ في مكانِ ٱلعقلِ كلمةً ثابتةً لا يتذكَّرُ ٱلمجنونُ إلَّا بها؛ ومن أعراضِهِ جنونُ ٱلشَّكِّ فكلُّ ما حولَ ٱلمريضِ مشكوكٌ فيه، وقد يترامَى إلى جنونِ ٱللَّمْس، فلو لَمَسْتَهُ بإصبعِكَ توهَّمَها عقرباً فخافَ مِنَ ٱلإصبعِ تلمسُهُ خوفَهُ مِنَ ٱلعقربِ تلدغُه، ولكنْ بقيَتْ أشياءُ لا بُدَّ مِنَ ٱلتدقيقِ في فحصِها، فليسَ هذا من مجانينِ ٱلعبقريَّةِ ٱلتي ٱنحرفَتْ عن طريقِها أو شذّتْ في قوّتِها؛ ولا هو مِمَّنْ يَتَجانُّ[1] ويتحامقُ ٱلتماساً لِلرزقِ وٱلعَيْشِ كما قالَ بعضُهُم: حماقةٌ تَعولُني خيرٌ من عقلٍ أعولُه.

فقالَ ٱلمجنون: «مِمَّا حفظْناهُ» حماقةٌ تعولُني. .

فضحكَ (ٱلنابغةُ) وقال: هو كما بيَّنتُ لكم مصابٌ بجنونِ (مِمَّا حفظْناه) وهو أقلُّ ٱلجنونِ وأهونُه، وعِلاجُهُ ٱلبَسْطُ وٱلسرورُ وٱلقِرْش؛ وٱلضربُ أحياناً. . فإذا ثابرَ عليهِ ٱلداءُ تحوَّلَ إلى جنونِ (مِمَّا ضَربْناه). . فيعتدي ٱلمصابُ على كلِّ مَنْ يراهُ أو يُوقعُ بِهِ ضرْباً، وعلاجُهُ حينئذٍ ٱلقميصُ ٱلمرقومُ[2]؛ فإذا فَدَحَتِ[3] ٱلعِلَّةُ ٱنقلبَ ٱلمرضُ إلى جنونِ (مِمَّا قتلْناه). وعِلَاجُهُ يومئذٍ ٱلسلاسلُ وٱلأغلال.

وٱلحقَّ أقولُ لكم إنَّ آخرَ ما ٱنتهَتْ إليهِ فلسفةُ ٱلطِّبِّ في ٱلقرنِ ٱلعشرينَ أنَّ ٱلناسَ جميعاً مجانينُ ولكنَّ بعضَهم أوفرُ قِسْطاً[4] من بعض. كأنَّ سلْبَ ٱلعقلِ هو أيضاً حظوظٌ كحظوظِ موهبةِ ٱلعقل. وأهلُ ٱلمريخِ من أجلِ ذلك يسمونَ ٱلأرضَ بيمارستانَ ٱلفَلَك.

ولكنْ بقيَتْ أشياءُ لا بدَّ مِنَ ٱلتدقيقِ في فحصِها؛ وعندي في ٱلدارِ عاطُوسٌ

---

(١) يتجانّ: يصطنع الجنون.

(٢) القميص المرقوم هو قميص السجن يلبسه المسجون.

(٣) فدخت: عظمت المصيبة. (٤) قسطاً: قدراً، حظاً.

إذا أشممْتُهُ هذا ٱلمجنونَ عَطَسَ بِهِ عطسةً قويَّةً فخرجَ جنونُهُ من أنفِه. . . قلْ لي أيُّها المسكين: أتخافُ إذا سِرْتَ وحدَك في ميدانٍ واسعٍ كأنَّ ٱلميدانَ سيلتفُّ عليك؟ أتضطربُ إذا مشيْتَ في مَضيقٍ كأنَّ ٱلمكانَ سينطبِقُ عليك؟ وإذا كنْتَ في عربةِ ٱلقِطارِ فهل يُخيَّلُ إليكَ أنَّ ٱلبيمارستانَ قد جرَّهُ ٱلقِطارُ وٱنطلقَ بِهِ هارِباً؟ وهلْ شعرْتَ مرةً أنَّهُ أوحَى إليكَ أنْ تنتحِرِ؟

أرني هذا ٱلقِرشَ ٱلذي في يدِك. فمدّ إليهِ ٱلمجنونُ يَدَهُ بٱلقرش.

قال (النابغة): أنظرِ ٱلآنَ هل تُحدِّثُك نفسُكَ أنْ تَغْصِبَنِي هذا ٱلقِرشَ أو تسرِقَهُ منِّي؟ قال: نعم.

قالَ (ٱلنابغة): إذن يجبُ أنْ أُحرِزَهُ في جيبي. . وأسرعَ فأخفاهُ في جيبِه. . .

* * *

فصاحَ ٱلآخرُ وشَغَبَ[1]، وقالَ سلَبَني ونَهَبَني. قلْنا لا ينبغي أنْ يتَّصِلَ بينَكما شرٌّ في تمثيلِ ٱلروايةِ فهذا قِرشٌ آخر، ولكنْ أفي ٱلفلسفةِ عندَ (ٱلنابغةِ) إباحةُ ٱلسرقةِ وٱلغصْب؟

قال: فٱلروايةُ ٱلآنَ هي روايةُ الفيلسوفِ ٱلعظيمِ أفلاطونَ وتلميذِهِ أرسطو.

قلْ لي ويحَكَ يا أرسطو. أعلمْتَ أنَّ في ٱلمجانينِ أغنياءَ يسرقونَ ٱلشيءَ ٱلقليلَ لا قِيمةَ لَهُ وهم أغنياءُ وليسَتْ بهم حاجةٌ إليه. فما عِلَّةُ ذلك عندَك وما وجهُهُ في مَقُولَةِ ٱلجنون؟

أعجزْتَ عنِ ٱلجواب؟ إذن فٱعلمْ يا أرسطو أنَّ ٱلمُصابَ بهذا الضَّربِ مِنَ ٱلجنونِ إذا ٱشترى هذا ٱلشيءَ بدرهم كانَتْ قيمتُهُ مِنَ ٱلدرهم وحدَه، وهو غنيٌّ لا قِيمةَ لِلدرهم في مالِهِ فلا يَحفِلُ بٱلشِّراءِ بَيْدَ أنَّهُ إذا سرقَه كانَتْ قِيمتُهُ عندَهُ من عقلِهِ وحيلتِهِ فيجيئُهُ بلذةٍ لا تشتريها كلُّ أموالِهِ ولا كلُّ أموالِ ٱلدنيا. فهذا جنونٌ بٱللذَّةِ لا بٱلسرقة، وهو بذلك ضَربٌ مِنَ ٱلعِشقِ يجعلُ ٱلشيءَ إذا لم يُسرقْ كأنَّهُ ٱلمرأةُ ٱلمعشوقةُ ٱلممتنعةُ على عاشِقِها.

وٱلجِياعُ إذا سرقوا لِيأكلُوا ويُمسِكُوا ٱلرمقَ[2] على أنفسِهِم، لا يُقالُ في لغةِ ٱلفلسفةِ إنَّهم سرقوا بلْ أخذوا. . فبٱضطرارٍ جاعوا وبٱضطرارٍ مثلِهِ أكلوا، وٱلسارقُ هنا هو ٱلغنيُّ ٱلذي منعُهُمُ ٱلإحسانَ وٱلمعونة. .

---

(١) شخب: أحدث ضجة.

(٢) الرمق: بقية الحياة.

فٱلدنيا معكوسةٌ منقلبةٌ أوضاعُها يا أرسطو، ولوِ ٱستقامَتْ هذهِ ٱلأوضاعُ لوُجدَتِ ٱلسعادةُ في ٱلأرضِ لِأَهلِ ٱلأرضِ جميعاً. وكيف لك بٱلسعادةِ وٱلناسُ مخلوقون بِعيُوبِهِم؟ ويا لَيْتَهُم مخلوقون بعيوبِهِم فقط، ولكنَّ ٱلطامَّةَ ٱلكبرى أنَّ عيوبَهم تعملُ دائماً على أنْ ترى في ٱلآخرينَ عُيُوباً مثلَها.

كلُّ حِمارٍ فهو يُريدُ أنْ يملأَ جوفَهُ تِبْناً وفولاً وشعيراً، غيرَ أنّي لم أرَ حِماراً قطُّ يُريدُ أن يملأَ لِنفسِهِ الإصطبل؛ فإذا وُجِدَ حِمارٌ هذه هِمَّتُهُ وهذا عملُهُ فٱسمُهُ إنسانٌ لا حِمار.

يا أرسطو إنَّ مُعضِلةَ ٱلمعضلاتِ أنْ يُحاولَ إنسانٌ حلَّ مشكلةٍ داخليَّةٍ محضةٍ قائمةٍ في نفسِ حِمارٍ أو ثابتةٍ في ذِهنِهِ ٱلحِمَاريّ... ومثلُ هذا أنْ يُحاولَ حِمارٌ حلَّ مُشكلةٍ نفسيَّةٍ في ذِهْنِ إنسانٍ أو في قلبِه، فلا حلَّ لِمشاكلِ ٱلعالَمِ أبداً ما دامَ كلُّ إنسانٍ معَ غيرِهِ كحِمارٍ معَ إنسان...

وٱلمعضلاتُ(١) ٱلنفسيَّةُ من عملِ ٱلشياطين، فكانَ ينبغي أنْ تجيءَ ٱلملائكةُ لِتُحارِبَ ٱلشياطينَ بِٱلبرقِ وٱلرعدِ دِفاعاً عنِ ٱلإنسانيَّة؛ ولكنَّ ٱللَّهَ ـ تعالى ـ منعَها، وأرسلَ لِلإنسانِ ملائكةً أخرى إنْ شاءَ هذا ٱلإنسانُ عمِلَتْ، وإنْ شاءَ عجزَتْ؛ وهي فضائلُ ٱلأديانِ ٱلمنزَلَة. فإذا منحَها ٱلإنسانُ إرادتَهُ وقوَّتَه، فعملَتْ عملَها كانَ ٱلإنسانُ هوَ ٱلمَلَكَ بل فوقَ ٱلمَلَكِ، وإذا أضعفَها ومَحَقَها كانَ ٱلإنسانُ هو ٱلشيطانَ وأسفلَ مِنَ ٱلشيطان.

يا أرسطو: «هذا العالَمُ عندي كُتلةٌ مِنَ ٱلعدمِ ٱتَّفقَتْ على ٱلظهورِ وستختفي. وٱلعالَمُ عندي ضعفٌ رُكِّبَ وقوَّةٌ ركِّبَتْ. وٱلعالَمُ عندي لا شيء. وٱلعالمُ بَيْنُ بَيْن. وٱلعالَمُ قِسمان: منهمُ ٱلفلاحُ ٱلزراعيُّ وذلك أفضلُ فلسفةٍ طبيعيَّة. وٱلعالَمُ في حاجةٍ إلى ٱلموتِ وٱلموتُ في حاجةٍ إليه. وٱلأدبُ هو ٱلحياةُ ولا حياةَ بِلا أدب. وٱلأدبُ ضربانِ: أدبٌ نفسانيٌّ وأدبٌ مكتسَب، وقد يكون طبيعيًا كما هو عندَ نابغةِ ٱلقرنِ ٱلعشرين. ومَنْ هو نابغةُ ٱلقرنِ ٱلعشرين؟ هو شخصٌ ماتَ بلا موت، ويحيا بلا حياة».

أتُريدُ يا أرسطو أنْ تعرفَ سِرَّ تركيبِ ٱلعالَم؟ ٱلأمرُ يسيرٌ غيرُ عسير، فإنَّ سِرَّ تركيبِهِ كسِرِّ تركيبِ ٱلقِرْشِ ٱلذي في يدِكَ، فدعْني أظهرُكَ على هذه ٱلحقيقةِ ومُدَّ يدَكَ بِٱلقِرْشِ لأبيِّنَ لك سِرَّ ٱلتركيبِ فيه...

---

(١) المعضلات: المشاكل الصعبة الحلّ.

ولكنَّ ٱلمجنونَ الآخرَ أسرعَ فغيَّبَ ٱلقِرْشَ في جيبِه. فقالَ (ٱلنابغة): هذا سياسيٌّ داهيةٌ خبيث. وٱلروايةُ ٱلآنَ روايةُ سياسيِّ ٱلقرنِ ٱلعشرين.

ليسَ في حقيقةِ ٱلسياسةِ إلَّا الرَّذْلُ من أفعالِ ٱلسياسيِّين. وٱلألفاظُ ٱلسياسيَّةُ ٱلتي تحملُ أكثرَ من معنًى هي ٱلتي لا تحملُ معنًى. فلْيحذرِ ٱلشرقُ من كلِّ لفظٍ سياسيٍّ يحتملُ معنيين، أو معنًى ونصفَ معنًى، أو معنًى وشِبْهَ معنًى؛ فإنْ قالوا لنا (أحمر) قُلْنا لهمْ اكتبُوهُ بهذا ٱللفظ؛ فإذا كتبوُهُ قلْنا لهم: ٱرسموا إلى جانبِهِ معناهُ بٱللونِ ٱلأحمرِ لِتشهدَ ٱلطبيعةُ نفسُها على أنَّ معناهُ أحمرُ لا غير.. وعلى هذه الطريقةِ يجبُ أنْ تُكتَبَ ٱلمعاهداتُ ٱلسياسيَّةُ بين أوربا وٱلشرق...

إنَّهم يكتبون لَنَا جريدةً بأسماءِ ٱلأطعمةِ ثُمَّ يقولون: أكلْتُم وشبِعْتُم... ولقد رأيْتُ (مظاهراتٍ) كثيرةً ولا كٱلمظاهرةِ ٱلتي أتمنَّاها؛ فما أتمنَّى إلَّا أنْ يخرجَ كلُّ ٱلمجانينِ في مظاهرة..

وهذا ٱلأبلهُ ٱلذي أمامَنا ليسَ وطنيًّا ولا فيهِ ذرةٌ مِنَ ٱلوطنيَّة؛ فإنْ كانَ وطنيًّا أو زعمَ أنَّهُ وطنيٌّ، فلْيُخرجِ ٱلقِرْشَ ٱلذي في جيبِه... لِيكونَ فألاً حسناً لِخروجِ جيشِ ٱلاحتلالِ من مصر...

* * *

ولكنَّ ٱلمجنونَ لم يخرجِ ٱلقِرْشَ وتركَ جيشَ ٱلاحتلالِ في مكانِه.

فقالَ (ٱلنابغة): الروايةُ ٱلآنَ روايةُ ٱلشرقيِّ وٱللصّ. وبحقٍّ مِنَ ٱلقانونِ يكونُ لِلشرقيِّ أنْ يُفتِّشَ هذا ٱللصَّ لِيُخرجَ ٱلقِرْشَ من جيبِه...

* * *

غيرَ أنَّ ٱلمجنونَ ٱمتنعَ. فقالَ (ٱلنابغة): كلُّ ذلك لا يُجدِي[1] مَعَ هذا ٱلخبيث، فٱلروايةُ ٱلآنَ روايةُ هارونِ ٱلرشيدِ مَعَ ٱلبرامكة. ويجبُ أنْ يَنكُبَ ٱلرشيدُ هؤلاءِ ٱلبرامكةَ لِيَستَصْفيَ ٱلقرش..

* * *

بيدَ أنَّنا منعناهُ أنْ ينكُبَ «ٱلبرامكة» فقال: ٱلروايةُ ٱلآنَ روايةُ ٱلعاشقِ وٱلمعشوقة، . ونظرَ طويلاً في ٱلمجنونِ وصعَّدَ فيهِ عينَهُ وصوَّبَ فلم يرَ إلَّا ما يُذكِّرُ

(١) لا يجدي: لا ينفع.

بأنَّهُ رجل، فتهدَّى[1] إلى رأيٍ عجيب. فوقعَ على قدميهِ وتوهَّمَهُ ٱمرأةً في حذائها. . . وجعلَ يُناجي ٱلحِذاء بهذه ٱلمناجاة:

إنَّ سخافات ٱلحُبِّ هي أقوى ٱلدليل عندَ أهلِهِ على أنَّ ٱلحبَّ غيرُ سخيف؛ فكلُّ فكرةٍ في ٱلحُبِّ مهما كانَتْ سخيفةً، عليها جَلالُ ٱلحبّ؛ ولِلحذاءِ في قدميكِ يا حبيبتي جمالُ الصندوقِ ٱلمملوءِ ذهباً في نظرِ ٱلبخيل، وكلُّ شيءٍ منكِ أنتِ فيهِ سِرُّ جمالِكِ أنتِ. وٱلحذاءُ في قدميكِ ليسَ حذاءً، ولكنَّهُ بعضُ حُدودِ جسمِكِ ٱلجميل، فلا أكونُ كلَّ ٱلعاشقِ حتى أُحيطَ بكلِّ حُدودِكِ إلى الحذاء. .

إنَّ جسمَكِ يا حبيبتي كٱلماءِ ٱلجاري ٱلعذْب؛ في كلِّ موضعٍ منه روحُ ٱلماءِ كلِّه؛ وحيثما وقعتِ ٱلقُبلةُ من جِسمِكِ كانَ فيها روحُ شفتيكِ ٱلورديتين، هذه قُبلةٌ على قدميكِ يا حبيبتي؛ وهذه قُبلةٌ على ساقِكِ؛ وهذه قُبلةٌ على ثوبِكِ وهذه قُبلةٌ على جَيبِك. .

وكادَتْ يدُ (ٱلنابغة) تخرجُ بِٱلقِرْش؛ فعضَّهُ ٱلمجنونُ في كتفِهِ عضَّةً وحشيَّةً، فجأَهُ ٱلخوفُ منها فطارَ صوابُه؛ فصرخَ صرخةً عظيمةً دوَّى لها ٱلمكانُ وترددَتْ كصَرْصَرَةِ ٱلبازيَ[2] في ٱلجوّ، ثُمَّ ٱعتراهُ ٱلطَّيف، وأطبقَ عليهِ ٱلجنونُ فٱختلطَ وتخبَّطَ. .

(وٱلروايةُ الآن)؟. . . روايةُ عربةِ ٱلإسعاف. . .

---

(١) تهدّى: اهتدى وتوصّل.

(٢) صرصرة البازي: صوته.

فهرس المحتويات

الإشراقُ الإلهي وفلسفة الإسلام ٥
حقيقةُ المسلم ١٢
وحيُ الهجرة ١٧
فلسفةُ قصة ٢٣
فوقَ الآدمية الإسراءُ والمعراج ٢٩
الإنسانية العليا ٣٦
سمُوُّ الفقرِ في المصلحِ الاجتماعيِّ الأعظم ٤٤
سموُ الفقرِ في المصلحِ الاجتماعيِّ الأعظم ٥٠
درسٌ منَ النبوة ٥٧
شهرٌ لِلثورة فلسفة الصيام ٦٣
ثباتُ الأخلاق ٦٩
قُلْتُ لِنفسي وقالَتْ لي. ٧٥
الانتحار ١ .... ٨٢
الانتحار ٢ .... ٩١
الانتحار ٣ .... ٩٩
الانتحار ٤ .... ١٠٧
الانتحار ٥ .... ١١٤
الانتحار ٦ .... ١٢٣
تتمة ١٢٣
وحيُ القبور ١٣٢
عروسٌ تُزَفُّ إلى قبرِها ١٣٦
موتُ أمّ ١٤١
قصةُ أب ١٤٦

السَّمكة ١٥٢

الزاهدان ١٦١

إبليسُ يُعلِّم ١٦٧

الدنيا والدرهم ١٧٤

دُعابةُ إبليس ١٨٠

الشيطان. ١٨٧

تاريخٌ يتكلَّم. ١٩٧

المجلدُ الأول ٢٠٠

المجلدُ الثاني ٢٠١

المجلدُ الثالث ٢٠٢

المجلدُ الرابع ٢٠٢

المجلدُ الخامس ٢٠٣

المجلدُ السادس ٢٠٤

المجلدُ السابع ٢٠٤

المجلدُ الثامن ٢٠٥

المجلدُ التاسع ٢٠٥

المجلدُ العاشر ٢٠٥

كُفرُ الذُّبابة. ٢٠٧

يا شبابَ العرب! ٢١٥

لَـوْ. . .! ٢١٩

في محنةِ فلسطين ٢٢٥

أيُّها ٱلمسلمون! ٢٢٥

قصةُ ٱلأيدي ٱلمتوضِّئة. ٢٢٩

نجوى التمثال ٢٣٥

فاتحُ ٱلجوِّ ٱلمصريّ ٢٣٨

أجنحةُ ٱلمدافعِ ٱلمصرية ٢٤٢

أحاديث الباشا: ٢٤٦

الطماطمُ ٱلسياسي. ٢٤٦

البك والباشا ٢٥٠
ساكنو ٱلثياب ٢٥٤
الأخلاقُ المحاربة ٢٥٨
خضعَ يخضع ٢٦٢
فلْتتعصبْ . . . ! ٢٦٦
وزْنُ ٱلماضي ٢٧١
المعجمُ السياسيّ ٢٧٥
اللسانُ المُرَقَّع ٢٧٩
سرُّ القُبَّعَة ٢٨٣
سعد زغلول ٢٨٧
حماسةُ ٱلشعب ٢٩٠
الجمهور ٢٩٤
المجنون ١ .... ٢٩٩
المجنون ٢ .... ٣٠٦
المجنون ٣ .... ٣١٣
المجنون ٤ .... ٣٢١
المجنون ٥ .... ٣٣٠
المجنون ٦ .... ٣٣٨
تتمة ٣٣٨

المكتبة التجارية الكبرى - شارع محمد علي : مصر

وحي القلم

« بيانٌ كأنه تنزيلٌ من التنزيل ،
أو قبسٌ من نور الذكر الحكيم »
سعد زغلول

كتبه

مصطفى صادق الرافعي

ضبطه وصححه وعلق حواشيه

محمد سعيد العريان

الجزء الثالث

[حقوق الطبع محفوظة]

[الطبعة الأولى]

مطبعة الاستقامة

١٣٦٠ هـ - ١٩٤١ م

السمو الروحى الأعظم

والجمال الفنى فى البلاغة النبوية [1] (*)

لما أردت أن أكتب هذا الفصل وهممت به، عرضت لى مسألة نظرت فيها أطلب جوابها، ثم قدّرت أن يكون أبلغ فلاسفة البيان فى أوربا لعهدنا هذا رجلا يحسن العربية المبينة، وقد بلغ فيها مبلغ أئمتها علماً وذوقا، ودرس تاريخ النبي صلى الله عليه وسلم درس الروح لأعمال الروح، وتفقه فى شريعته فقه الحكمة لأسرار الحكمة، واستوعب أحاديثه واعتبرها بفن النقد البيانى الذى يبحث فى خصائص الكلام عن خصائص النفس؛ وتمثلت أنى لقيت هذا الرجل فسألته: ماهو الجمال الفنى عندك فى بلاغة محمد صلى الله عليه وسلم؟ وماذا تستخرج لك فلسفة البيان منه؟ وما سره الذى يجتمع فيه؟

ولم يكد يخطر لى ذلك حتى انكشف الخاطر عن وجه آخر، وذلك أن يكون معنى هذا السؤال بعينه قد وقع فى شىء من حديث النفس لأبلغ أولئك العرب الذين رأوا النبي صلى الله عليه وسلم، وآمنوا به، واتبعوا النور الذى أنزل معه، وقد صحبته فطالت صحبته، لايفوته من كلامه فى الملأ شىء، وخالطه حتى كان له فى الإحاطة بأحوال نفسه كبعض التاريخ،

---

(١) أنشأ المؤلف رحمه الله هذا البحث جواباً لرجاء جمعية الهداية الإسلامية فى بغداد سنة ١٣٥٢ هـ؛ وانظر كتابنا «حياة الرافعى» ص ١٧٥ - ١٧٦ و ١٧٨

(*) بسطنا الكلام فى كتابنا «إعجاز القرآن» عن بلاغة النبى صلى الله عليه وسلم من وجوه كثيرة، وبقى هذا المعنى الذى تراه، فهذه المقالة كالتكملة على ماهناك

فتدبر ماعسى أن يكون سر الجمال فى بلاغته صلى الله عليه وسلم ، وما مرجعه الذى يرد إليـه ؟

لو دار السؤال دورتيه فى هذه السليقة العربية المحكمة التى رجعت أن تـكون فلسفة تشعر وتحس ، وفى تلك الفلسفة البيانية الملهمة التى بلغت أن تـكون سليقة تدرس وتفكر — لمـا خلص من كلتيهما إلا برأى واحد تلتقى عليـه حقيقة البيان من طرفيها : وهو أن ذلك الجمال الفنى فى بلاغته صلى الله عليه وسلم إنمـا هو أثرُ على الكلام من روحه النبوية الجديدة على الدنيا وتاريخها .

وبعــد فأنا فى هذه الصفحات لا أصنع شيئاً غير تفصيل هذا الجواب وشرحه ، باستخراج معانيه ، واستنباط أدلته ، والكشف عن أسراره وحقائقه ؛ ولقد درست كلامه صلى الله عليه وسلم ، وقضيت فى ذلك أياماً أتتبع السر الذى وقع فى التاريخ القفر المجدب فأخصب به وأنبت الدنيا أزهاره الإنسانية الجميلة ، فكانوا ناساإن عِبتَهم بشىء لم تعِبْهم إلا أنهم دون الملائكة ؛ وكانوا ناساً دارت الكرة الأرضية فى عهدهم ثلاث دورات : واحدة حول الشمس ، وثانية حول نفسها ، وثالثة حول أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم .

ثم تركت الكلام النبوى يتكلم فى نفسى ويلهمنى ما أفصح به عنه ، فلكأنى به يقول فى صفـة نفسه : إنى أصنع أمة لهـا تاريخ الأرض من بعد ، فأنا أُقبل من هنا وهناك ، وأذهب هناك وهنا ، مع القلوب والأنفس والحقائق ، لامع الكلام والناس والوقت .

إن ههنا دنيا الصحراء ستلد الدنيا المتحضرة التى من ذريتها أوربا وأمريكا ؛ فالقرآن والحـديث يعملان فى حياة أهل الأرض بنور متمم لما يعمله نور الشمس والقمر .

وقد كان المسلمون يغزون الدنيا بأسلحة هى فى ظاهرها أسلحة المقاتلين ، ولكنها فى معانيها أسلحة الأطباء ؛ وكانوا يحملون الكتاب والسنة ، ثم مضوا إلى سبيلهم وبقى الكلام من بعدهم غازياً محارباً فى العالم كله حربَ تغيير وتحويل إلى أن يدخل الإسلام على مادخل عليه الليل (*) ...

هذا منطق الحديث فى نفسى ، وقد كنت أقرؤه وأنا أتمثله مرسلا بتلك الفصاحة العالية من فم النبي صلى الله عليه وسلم حيث يمر إعجاز الوحى أول مايخرج به الصوتُ البشرى إلى العالم ، فلا أرى ثَمَّ إلا أن شيئاً إلهياً عظيما متصلا بروح الكون كله اتصال بعض السر ببعض السر ، يتكلم بكلام إنسانى هو هذا الحديث الذى يجىء فى كلمات قوية رائعة ، فنها فى بلاغتها كالشباب الدائم .

كنت أتأمله قطعاً من البيان فأراه ينقلنى إلى مثل الحالة التى أتأمل فيها روضة تتنفس على القلب ، أو منظراً يهز جمالُه النفس ، أو عاطفة تزيد بها الحياة فى الدم ، على هدوء ورَوح وإحساس ولذة ؛ ثم يزيد على ذلك أنه يُصلح من الجهات الإنسانية فى نفسى ، ثم يرزق الله منه رزق النور فإذا أنا فى ذرق البيان كأنما أرى المتكلم صلى الله عليه وسلم وراء كلامه .

وأعجب من ذلك أنى كثيراً ما أقف عند الحديث الدقيق أتعرَّف أسراره ،

(*) فى الحديث الشريف : ليدخلن هذا الدين على مادخل عليه الليل . وكأن العبارة نص على أن الإسلام يعم حين تظلم الدنيا ظلامها الشعرى ... إذا طمست الإنسانية بلذاتها ، وأظلمت آفاقها الروحانية ؛ فيجىء الإسلام فى قوة أخلاقه كشباب الفجر ، يبعث حياة النور الإنسانى بعثاً جديداً ؛ وهذا هو رأينا فى مستقبل الإسلام : لابد من انحلال أوربا وأمريكا ، كما يصفر النهار ثم يختلط ، ثم يظلم ثم تطلب الطبيعة نورها الحى من بعد . .

فإذا هو يشرح لي ويهديني بهديه ؛ ثم أحسه كأنما يقول لي مايقول المعلم لتلميذه : أفهمت ؟

وقفت عند قوله صلى الله عليه وسلم : إن قوماً ركبوا في سفينة ، فاقتسموا ، فصار لكل رجل منهم موضع ، فنقر رجل منهم موضعه بفأس ، فقالوا له : ما تصنع ؟ قال : هو مكاني أصنع فيه ماشئت ! فإن أخذوا على يده نجا ونجوا ، وإن تركوه هلك وهلكوا (*) ؛ ،

فكان لهذا الحديث في نفسي كلام طويل عن هؤلاء الذين يخوضون معنا البحر ويسمّون أنفسهم بالمجددين ، وينتحلون ضروباً من الأوصاف : كحرية الفكر ، والغيرة ، والاصلاح ؛ ولا يزال أحدهم ينقر موضعه من سفينة ديننا وأخلاقنا وآدابنا بفأسه ، أي بقلمه ... زاعماً أنه موضعه من الحياة الاجتماعية يصنع فيه مايشاء ، ويتولاه كيف أراد ، موجّها لحماقته وجوها من المعاذير والحجج ، من المدنية والفلسفة ، جاهلا أن القانون في السفينة إنما هو قانون العاقبة دون غيرها ، فالحكم لايكون على العمل بعد

(*) روى البخاري هذا الحديث على وجه آخر ، وفيه زيادة من الجمال الفني ؛ قال : مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها : فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً

فهذا تمثيل لحالة طائفة في (الأسفل) تعمل لرحمة من هم في (الأعلى) : عاطفة شريفة ولكنها سافلة ، وحمية ملتهبة ولكنها باردة ، ورحمة خالصة ولكنها مهلكة ؛ ولن تجد كهذا التمثيل في تصوير البلادة الاجتماعية والغفلة الفلسفية لأناس هم عند أنفسهم أمثلة الجد والعمل والحكمة ، فكأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول لهؤلاء من ألف وثلثمائة سنة : أنتم المصلحون إصلاحاً مخروقاً ... !

وقوعه كما يُحكم على الأعمال الأخرى ؛ بل قبل وقوعه ؛ والعقاب لايكون على الجرم يقترفه المجرم كما يعاقب اللص والقاتل وغيرهما ، بل على الشروع فيه ، بل على توجه النية إليه ؛ فلا حرية هنا فى عمل يفسد خشب السفينة أو يمسه من قرب أو بعد مادامت ملجّجة فى بحرها ، سائرة إلى غايتها ؛ إذ كلمة (الخرق) لاتحمل فى السفينة معناها الأرضى ، وهناك لفظة (أصغر خرق) ليس لها إلا معنى واحد وهو (أوسع قبر) ...

ففكّر فى أعظم فلاسفة الدنيا مهما يكن من حريته وانطلاقه ، فهو ههنا محدود على رغم أنفه بحدود من الخشب والحديد تفسيرها فى لغة البحر حدود الحياة والمصلحة ، وكما أن لفظة (الخرق) يكون من معانيها فى البحر القبر والغرق والهلاك ، فكلمة (الفلسفة) يكون من بعض معانيها فى الاجتماع الحماقة والغفلة والبلاهة ، وكلمة الحرية يكون من معانيها الجناية والزيغ والفساد (*) وعلى هذا القياس اللغوى فالقلم فى أيدى بعض الكتاب من

(*) الزائغون فى التاريخ الإسلامى كله صنفان ليس لهما ثالث ، وقد وصفهما الحديث الذى رواه البخارى بسنده إلى حذيفة بن اليمان قال : كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى ، فقلت : يارسول الله ، إنا كنا فى جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد الخير من شر ؟ قال : نعم ، قلت : وهل بعد الشر من خير ؟ قال : نعم ، وفيه دخن . قلت : وما دخنه ؟ قال : « قوم يهدون بغير هديى ، تعرف منهم وتنكر » قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال: نعم ، « دعاة إلى أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها » قلت : يارسول الله ، صفهم لى . قال : هم من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا . قلت : يارسول الله ، فما تأمرنى إن أدركنى ذلك ؟ قال «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم » قلت: فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها «ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك » انتهى الحديث .

معانيه الفأس ، والكاتب من معانيه المخرِّب ، والكتابة من معانيها الخيانة ؛ قال لى الحديث : أفهمت ؟

هكذا يجب تأمل الجمال الفنى فى كلامه صلى الله عليه وسلم ، فهو كلام كلما زدته فكراً زادك معنى ، وتفسيره قريب قريب كالروح فى جسمها البشرى ، ولكنه بعيد بعيد كالروح فى سرها الإلهى ، فهو معك على قدر ما أنت معه ، إن وقفت على حد وقف ، وإن مددت مد ، وما أديت به تأدّى ، وليس فيه ، شىء مما تراه لكل بلغاء الدنيا من صناعة عبث القول ، وطريقة تأليف الكلام ، واستخراج وضع من وضع ، والقيام على الكلمة حتى تبيض كلمةً أخرى ... ، والرغبة فى تكثير سواد المعانى ، وترك اللسان يطيش طيشه اللغوى يتعلق بكل ماعرض له ، ويحذو الكلام على معانى ألفاظه ، ويجتاب له منها ويستكرهها على أغراضه ، ويطلب اصناعته من حيث أدرك وعجز ، ومن حيث كان ولم يكن ؛ إنما هو كلام قيل لتصير به

= فتأمل قوله « يهدون بغير هدى ، تعرف منهم وتنكر » ؛ فهؤلاء هم الذين يريدون الإصلاح للمسلمين لامن طريق الإسلام بل من طرق أخرى فيها معروفها ومنكرها ، وفيها علمها وجهلها ، وفيها عقلها وحماقتها . ولعل من هذا قولهم : المدنية الأوربية بحسناتها وسيئاتها ... وتأمل قوله « إلى أبواب جهنم » فليست الدعوة إلى باب واحد بل إلى أبواب مختلفة لعل آخر ما فتحوا منها باب الأدب المكشوف ...

ثم تأمل قوله صلى الله عليه وسلم « ولو أن تعض بأصل شجرة » فإن معناه الاستمساك بما بقى على الطبيعة السليمة مما لايستطيع أولئك أن يغيروه ولا أن يجددوه ، أى بالاستمساك ولو بأصل واحد من قديم الفضيلة والإيمان ، وعبارة العض بأصل شجرة تمثل أبدع وأبلغ وصف لمن يلزم أصول الفضائل فى هذا الزمن ، ومبلغ مايعانيه فى التمسك بفضيلته ، وهى وحدها فن كأجمل مايبدعه مصور عبقرى .

المعانى إلى حقائقها ، فهو من لسان وراءه قلب ، وراءه نور ، ووراءه الله جل جلاله؛ وهو كلام فى مجموعه كأنه دنيا أصدرها صلى الله عليه وسلم عن نفسه العظيمة، لاتبرح ماضيه فى طريقها السوى على دين الفطرة، فلا تتسع لخلاف ، ولا يقع بها التنافر ؛ والخلاف والتنافر إنما يكونان من الحيوانية المختلفة بطبيعتها ، لقيامها على قانون التنازع تعدو به وتجترم وتأثم ، فهى نازلة إلى الشر ، والشر بعضه أسفل من بعض ؛ أما روحانية الفطرة فمتسقة بطبيعتها ، لا تقبل فى ذاتها افتراقا ولا اختلافا ؛ إذ كان أولها العلوّ فوق الذاتية ، وقانونها التعاون على البر والتقوى ؛ فهى صاعدة إلى الخير ، والخير بعضه أعلى من بعض .

فكلامه صلى الله عليه وسلم يجرى مجرى عمله : كله دين وتقوى وتعليم ، وكله روحانية وقوة وحياة ؛ وإنه يخيَّل إلى وقد أخذت بطهره وجماله — أن من الفن العجيب أن يكون هذا الكلام صلاة وصياما فى الألفاظ .

أما أسلوبه صلى الله عليه وسلم فأجد له فى نفسى روح الشريعة ونظامها وعزيمتها ، فليس له إلا قوةٌ قوةَ أمر نافذ لايتخلف ، وإن له مع ذلك نسقاً هادئاً هدوء اليقين ، مبيناً بيان الحكمة ، خالصاً خلوص السر ، واقعاً من النفس المؤمنة موقع النعمة من شاكرها : وكيف لايكون كذلك وهو أمر الروح العظيمة الموجهة بكلمات ربها ووحيه ، ليتوجَّه بها العالم كأنه منه مكان المحور : دورته بنفسه هى دورته بنفسه وبما حوله ، روح نبي مصلح رحيم ، هو باصلاحه ورحمته فى الإنسانية ، وهو بالنبوة فوقها ، وهو بهذه وتلك فى شمائله وطباعه مجموع إنسانى عظيم لو شبِّه بشىء لقيل فيه : إنه كمجموع القارات الخمس لعمران الدنيا .

ومن درس تاريخه صلى الله عليه وسلم وأعطاه حقه من النظر والفكر

والتحقيق ، رأى نسقاً من التاريخ العجيب كنظام فَلك من الأفلاك موجَّه بالنور فى النور من حيث يبدأ إلى حيث ينتهى ، فليس يمترى عاقل مميز أن هذه الحياة الشريفة ، بذلك النظام الدقيق ، فى ذلك التوجُّه المحكم - لا يطيقها بشر من لحم ودم على ناموس الحياة إلا إذا كان فى لحمه ودمه معنى النور والكهرباء على ناموس أقوى من الحياة .

ولم يكن مثله صلى الله عليه وسلم فى الصبر والثبات واستقرار النفس واطمئنانها على زلازل الدنيا ، ولا فى الرحمة ورقة القلب والسمو فوق معانى البقاء الأرضى ؛ فهو قد خلق كذلك ليغلب الحوادث ويتسلط على المادة ؛ فلا يكون شأنه شأن غيره من الناس : تدينهم معانى التراب وهم أحياء فوق التراب ، أو يحدّهم الجسم الانسانى من جميع جهاتهم بحدود طباعه ونزعاته ؛ وبذلك فقد كان عليه الصلاة والسلام منبع تاريخ فى الإنسانية كلها دائما ، ولرأس الدنيا نظامُ أفكاره الصحيحة.

٭ ٭ ٭

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى أووا المبيتَ إلى غار فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا : إنه لا يُنجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم ! فقال رجل منهم : اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا (*) فنأى بى فى طلب شىء يوماً فلم أُرِحْ عليهما حتى ناما ، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلا أو مالا ، فلبثت والقدح على يدىّ أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر ، فاستيقظا فشربا غبوقهما اللهم

(*) أى لا يسقى الغبوق أحداً من أهله أو جماعته قبلهما

إن كنتُ فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنا مانحن فيه من هذه الصخرة ! فانفرجت شيئاً لايستطيعون الخروج .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : وقال الآخر : اللهم كانت لى بنت عم كانت أحبَّ الناس إلىّ ، فأردتها عن نفسها فامتنعت منى ، حتى ألمتْ بها سنةٌ من السنين (*) فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلِّى بينى وبين نفسها ! ففعلتْ ، حتى إذا قدرت عليها قالت : لاأُحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه ! فتحرَّجت من الوقوع عليها ، فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلىّ ، وتركت الذهب الذى أعطيتها . اللهم إن كنتُ فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا مانحن فيه ! فانفرجت الصخرة غير أنهم لايستطيعون الخروج منها .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : وقال الثالث : اللهم إنى استأجرت أُجَرَاءَ فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب ، فثمَّرت أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاءنى بعد حين فقال : ياعبد الله ، أدِّ إلىّ أجرى . فقلت له : كلُّ ماترى من أجرك ، من الإبل والبقر والغنم والرقيق ! فقال : ياعبد الله لاتستهزئ بى ! فقلت : إنى لاأستهزئ بك ! فأخذه كله فاستاقه فلم يترك شيئاً اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا مانحن فيه ! فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون . انتهى الحديث .

وأنا فلست أدرى ، أهذا هو النبي صلى الله عليه وسلم يتكلم فى الإنسانية وحقوقها بكلام بيِّن صريح لافلسفة فيه ، يحل مابين الإنسان والإنسان من النية هو مابين الإنسان وربه من الدين ؛ أم هى الإنسانية تنطق على لسانه بهذا البيان العالى ، فى شِعر من شعرها ضاربة فيه الأمثال ، مشيرة فيه إلى الرموز ، واضعة إنسانها بين شدة الطبيعة ورحمة الله ، محكمة عناصرَ روايتها

(*) سنة : جدب وفقر

الشعرية ، محقّقة فى بيانها المكشوف أغمضَ معانيها فى فلسفة الحاسة الإنسانية حين تتصل بأشيائها فتظهر الضرورة البشرية وتختفى الحكمة ، وفلسفة الروح حين تتصل بهذه الأشياء ذاتها فتظهر الحكمة وتختفى الضرورة — مبيّنة أثر هذه وتلك فى طبيعة الكون ، مقرّرة أن الحقيقة الإنسانية العالية لن تكون فيما ينال الإنسان من لذته ، ولا فيما ينجح من أغراضه ، ولا فيما يقنعه من منطقه ، ولا فيما يلوح من خياله ، ولا فيما ينتظم من قوانينه ؛ بل هى السمو على هذه الحقائق الكاذبة كلها ، وهى الرحمة التى تغلب على الأثرة فيسميها الناس بِرًّا ، والرحمة التى تغلب على الشهوة فيسميها الناس عِفّة ، والرحمة التى تغلب على الطمع فيسميها الناس أمانة ؛ وهى فى ضبط الروح لثلاث من الحواس : حاسة الدعة التى يقوم بها حظ الخمول ، وحاسة اللذة التى يقوم بها حظ الهوى ، وحاسة التملك التى يقوم بها حظ القوة .

وتزيد الإنسانية على ذلك فى نسق شعرها أنها تثبت أن البر من العفة والأمانة هو على إطلاقه كالأساس لهما : فمن نشأ على بر أبويه كان خليقاً أن يتحقق بالعفة والأمانة ، وأن العفة من الأمانة والبر هى مساكهما وجامعتهما فى النفس ، وأن الأمانة من البر والعفة هى كمال هذه الفضائل ، وكلهن درجات لحقيقة واحدة ، غير أن بعضها أسمى من بعض فى الشأن والمنزلة ، وبعضها طريق لبعض يجر سبب متناسباً منها ؛ وأن الرحمة الإنسانية التى هى وحدها الحقيقة الكبرى إنما هى هذا الحب ، بادئاً من الولد لأبويه ، وهو الحب الخاص ؛ ثم من المحب لحبيبته ، وهو الحب الأخص ، ثم من الإنسان للإنسانية ، وهو الحب مطلقاً بعمومه وبغير أسبابه الملجئة من الحاجة والغريزة ؛ وهى درجات كدرجات الحياة نفسها من طفولتها إلى شبابها إلى الشيخوخة ، ومن العاطفة إلى الرغبة إلى العقل .

ثم إنه مادام كمال الفضيلة هو الأمانة ، فما قبلها أنواع منها ؛ فبرّ الولد أمانةُ الطبع المتأدب ، وعفة المحب أمانة القلب الكريم ، والثالثة أمانة الخلق العالى ، وهى أسماهن ، لأنها لن تكون خلقاً ثابتاً إلا وقد خضع لقانونها الطبع والقلب ، ودخل فى أسبابها الأدب والكرم ؛ فالأمانة الكاملة فى هذه الفلسفة هى الأمانة الإنسانية العامة المتصلة بالمرء من أبعد جهاته ، دون الإنسانية الخاصة بكل شخص من أب ، أو أم ، أو قريب ؛ ودون التى هى أخص وهى إنسانية الحب.

ونرى فى لفظ الحديث أن كل رجل من هؤلاء الذين مثلوا رواية الإنسانية الفاضلة فى فصولها الثلاثة ، لا يقول إنه فعل مافعل من صالح أعماله إلا (ابتغاء وجه الله) ، وقد تطابقوا جميعاً على هذه الكلمة ، وهى من أدق ما فى فلسفة الإنسانية فى شعرها ذلك ، فإن معناها أن الرجل فى صالح عمله إنما كان مجاهداً نفسه ، يمنعها ماتحرص عليه من حظها أو لذتها أو منفعتها ، أى منخلعاً من طبيعتة الأرضية المنازعة لسواها ، المنفردة بذاتها ، متحققاً بالطبيعة السماوية التى لايرحم الله عبداً إلا بها ، وهى رحمة الإنسان غيره ، أى اندماجه باستطاعته وقوته ، وإعطاؤه من ذات نفسه ، ومعاونته كفَّ أذاه.

والحديث كالنص على أن هذه الرحمة فى النفس هى الدين عندالله ، لا يصلح دينٌ بغيرها ، ولا يقبل الله صرفاً ولا عدلا من نفس تخلو منها ؛ وإذا كانت بهذه المنزلة ، وكانت أساس ما يُفرض على الإنسان من الخير والحق ، فهى من ذلك فى معنى الحديث أساس ما يُصلح هذه الإنسانيةَ من الشر والباطل ؛ وبهذا كله تكون الغاية الفلسفية التى ينتهى إليها كلامه صلى الله عليه وسلم ، أن تنشئة الناس على البر والعفة والأمانة الإنسانية هى وحدها الطريقة العملية الممكنة لحل معضلة الشر والجريمة فى الاجتماع البشرى. وانظر كيف

جعل نهاية السمو في رحمة المال الذى يصفونه بأنه شقيق الروح ، فكأن الإنسان لايخرج فيها لغيره من بعض ماله ، بل ينخلع من بعض روحه ؛ وهـذا يقرر لك فلسفة أخرى : أن السعادة الانسانية الصحيحة فى العطاء دون الأخذ ، وأن الزائفة هى فى الأخذ دون العطاء ؛ وذلك آخر ماانتهت إليه فلسفة الأخلاق ؛ فما المرء إلا ثمرة تنضج بموادها ، حتى إذا نضجت واحْلَوْلَتْ كان مظهر كمالها ومنفعتها فى الوجود أن تهب حلاوتها ؛ فإذا هى أمسكت الحلاوة على نفسها لم يكن إلا هذه الحلاوةَ بعينها سببٌ فى عفنها وفسادها من بعد . أفهمت ؟ ...

ومادمنا قد وصفنا رحمة المال ، فإنا نتم الكلام فيها بهذا الحديث العجيب فى فن تمثيله وبلاغة فنه : عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جُبتان من حديد ، من ثديهما إلى تراقيهما : فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغتْ أو وَفَرَتْ على جلده حتى تُخفى بنانه وتعفو أثره ، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها ، فهو يوسعها فلا تتسع . انتهى

فأنت ترى ظاهر الحديث ، ولكن فنه العجيب فى هـذا الحديد الذى يراد به طبيعة الخير والرحمة فى الإنسان ، فهى من أشد الطبائع جموداً وصلابة واستعصاء متى اعترضتها حظوظُ النفس الحريصة وأهواؤها ، ومع ذلك فإن السخاء بالمال يبسط منها وينتهى فى الطبع إلى أن يجعلها لينة ، فلا تزال تمتد وتسبغ حتى يكون كمال طبع السخاء هو كمال طبع الخير فى النفس الكريمة ، فمن ألزم نفسه الجود والإنفاق راضها رياضة عملية كرياضة العضل بأثقال الحديد ومعاناة القوة فى الصراع ونحوه ؛ أما الشح فلا يناقض

تلك الطبيعة ولكنه يدعها جامدة مستعصية لاتلين ولا تستجيب ولا تتيسر .

وقد جعل الجبة من الثدى إلى التراقى ، وهذا من أبدع مافى الحديث ؛ لأن كل إنسان فهو منفق على ضروراته ، يستوى فى ذلك الكريم والبخيل ، فهما على قدر سواءٍ من هذه الناحية ؛ وإنما التفاوت فيما زاد وسبغ من وراء هذا الحد ، فههنا يبسط الكريم بسطه الإنسانى ، أما البخيل فهو « يريد » لأنه إنسان ، والإرادة عمل عقلى لاأكثر ، فإذا هو حاول تحقيق هذه الإرادة وقع من طبيعة نفسه الكزة فيما يعانيه من يوسع جبة من الحديد لزقت كلُّ حلقة من حلقاتها فى مكانها ، فهى مستعصية متماسكة ، فهو يوسعها فلا تتسع

ألا ترى كيف تتوجه الحجة ، وكيف تدق الفلسفة وهى فى أظهر البيان وأوضحه ؟ وهل تحسب طبيعة البخيل فى دقائقها النفسية لو هى نطقت — بالغةً من وصف نفسها هذا المبلغ من جمال الفن وإبداعه ؟ وهو بعدُ وصف لو نقل إلى كل لغات الأرض لزانها جميعاً ، ولكان فى جميعها كالإنسان نفسه : لايختلف تركيبه ، فلن يكون بثلاثة أعين ، لافى بلاد شكسبير ولا فى بلاد الزنوج .

إن كلام نبينا صلى الله عليه وسلم يجب أن يترجم بفلسفة عصرنا وآدابه ، فستراه حينئذ كأنما قيل مرة أخرى من فم النبوة ، وستراه فى شرحه الفلسفى كالأزهار الناضرة : حياتها بشاشتها فى النور ؛ وتعرفه إنسانية قائمة تصحّح بها أغلاطُ الزمن فى أهله ، وأغلاط الناس فى زمنهم ؛ وتجده يرف على البشرية المسكينة بحنان كحنان الأمّ على أطفالها ، والناس الآن كالأطفال غابت أمهم ، فهم فى تنافر صبيانى ... وما الأم بطبيعتها إلا الميزان لاستبدادهم ، والحكمة لطيشهم ، والائتلاف لتنافرهم ، والنظام لعبثهم ؛ وبالجملة فحنان قلبها الكبير

هو القانون لكل قضايا هذه القلوب الصغيرة

وقد كتبنا فى فلسفة الأدب وحقيقته ، ومعانيه الإنسانية ، وأن الأديب التام الأداة هو الإنسان الكونى ، وغيره هو الانسان فقط ، وأن علم الأديب هو النفس الانسانية بأسرارها المتجهة إلى الطبيعة ، والطبيعة بأسرارها المتجهة إلى النفس ؛ ولذلك فوضعه من الحياة موضع فكرة حدودها من كل نواحيها الأسرار — وأن الأديب مكلف تصحيح النفس الانسانية ونفى التزوير عنها ، وإخلاصها مما يلتبس بها على تتابع الضرورات ، ثم تصحيح الفكرة الإنسانية فى الوجود ، ونفى الوثنية عن هذه الفكرة ، والسمو بها إلى فوق ، ثم إلى فوق ، ودائما إلى فوق (*)

فإذا تدبرت هذا المقال ، واعتبرت كلام النبي صلى الله وسلم على مابيّنا وشرحنا ، وأخذته من عصره ومن العصر الذى نعيش فيه ، ونظرت إلى ألفاظه ومعانيه ، واستبرأت مابينها من خواص الفن بمثل مانبّهناك إليه من التأويل الذى مر بك ، وعلمت أن كل حقيقة فنية لا تكون كذلك إلا بخاصة فيها ، وأن سر جمالها فى خاصتها — إذا جمعت ذلك لم تر مذهباً عن الإقرار بأن النبي صلى الله عليه وسلم كما هو أعظم نبي وأعظم مصلح ، فهو أعظم أديب ؛ لأن فنه الأدبى أعظم فن يحقق للإنسانية حياةَ أخلاقها ، وهو بكل ذلك أعظم إنسان . صلى الله عليه وسلم

* * *

(*) نشر هذا المقال فى مقتطف شهر يوليو سنة ١٩٣٢ ، وأكثر ما فيه يعد متمما لفلسفة هذا الفصل ؛ وسنجمع كل مقالاتنا فى كتاب يصدر إن شاء الله فى آخر صيف هذا العام؟
قلت : وأحسبه كان يعنى كتابه « قول معروف » وقد استغنى عنه بهذا الكتاب « وحى القلم » وقد نشرنا هذه المقالة فى هذا الجزء وانظر ص ١٦٩ و ٢٣٤ « حياة الرافعى »

فالفن فى هذه البلاغة هو فى دقائقه أثرُ تلك الروح العليا بكل خصائصها العظيمة التى يحتاج إليها الوجود الروحانى على هـــذه الأرض ، ولذا ترى كلامه صلى الله عليه وسلم يخرج من حدود الزمان ، فكل عصر واجدٌ فيه ما يقال له ، وهو بذلك نبوَّة لا تنقضى ، وهو حى بالحياة ذاتها ، وكأنما هو لون على وجه منها كما ترى البياض مثلا هو اللون على وجه طائفة من الجنس البشرى ...

فإذا نظرت فى هذا الفن فانظره فى حديثه ، وفى عمله ، وفى الدنيا التى ألَّفها من التاريخ تأليف القطعة البليغة النادرة من الكلام ، وردَّ كل ما تدبرته من ذلك إلى تلك الروح الجديدة على تاريخ الأرض ؛ فلتعلمن حينئذ أن كل بليغ هو شمعة مضيئة صُنعت لها مادة النور نوراً وجمالا ، بجانب هذه الشمس التى خُلقت فيها مادة النور نوراً وجمالا وحياة وقوة ؛ هناك نور لذى عينين ، وهنا النور لكل ذى عينين ؛ وذاك يتخايل كالحلم ، وهذا يفصح كالحقيقة ؛ وذلك ضوء من حوله الظلمة دانية ، وهذا قد طرد الظلمة عن نصف الدنيا إلى نصف الدنيا ؛ والأول نور بلا روح ، والثانى هو روح النور .

تلك فى رأينا هى الطريقة التى كان يفهمه بها أصحابه صلى الله عليه وسلم ، كما يفهم الشاعر نورَ القمر فى ليلة صيف بمعان من الزمان والمكان ، ومن النفس والحالة ، ومن الهيئة والشكل ، ومن العين والفكر ، ومن السماء والأرض ؛ ففيه النور وزيادة ، أى الحقيقة وما ترتفع به على نفسها ؛ وبهذه الطريقة كانوا معه كأعظم فلاسفة الفن مع الفن إعجابا وحباً وانقياداً وطاعة حتى انخلعوا من عصرهم ودنياهم ، وخرجوا من أحوالهم وطبائعهم ، وانجذبوا إليه أشد انجذاب عرفه التاريخ ، وأصبحوا مصرَّفين معه تصريف الحوادث لا تصريف الأشخاص ، وعادت أنفسهم وكأن تأثير الأرض يلتقى فيها بتأثير

هو القانون لكل قضايا هذه القلوب الصغيرة

وقد كتبنا فى فلسفة الأدب وحقيقته ، ومعانيه الإنسانية ، وأن الأديب التام الأداةِ هو الإنسان الكونى ، وغيره هو الانسان فقط ، وأن علم الأديب هو النفس الانسانية بأسرارها المتجهة إلى الطبيعة ، والطبيعة بأسرارها المتجهة إلى النفس ؛ ولذلك فموضعه من الحياة موضع فكرة حدودها من كل نواحيها الأسرار — وأن الأديب مكلف تصحيح النفس الانسانية ونفى التزوير عنها ، وإخلاصها مما يلتبس بها على تتابع الضرورات ، ثم تصحيحَ الفكرة الإنسانية فى الوجود ، ونفى الوثنية عن هذه الفكرة ، والسمو بها إلى فوق ، ثم إلى فوق ، ودائما إلى فوق (*)

فإذا تدبرت هذا المقال ، واعتبرت كلام النبي صلى الله وسلم على ما بيَّنا وشرحنا ، وأخذته من عصره ومن العصر الذى نعيش فيه ، ونظرت إلى ألفاظه ومعانيه ، واستبرأت ما بينها من خواص الفن بمثل ما نبَّهناك إليه من التأويل الذى مر بك ، وعلمت أن كل حقيقة فنية لا تكون كذلك إلا بخاصة فيها ، وأن سر جمالها فى خاصتها — إذا جمعت ذلك لم تر مذهباً عن الإقرار بأن النبي صلى الله عليه وسلم كما هو أعظم نبي وأعظم مصلح ، فهو أعظم أديب ؛ لأن فنه الأدبى أعظم فن يحقق للإنسانية حياةَ أخلاقها ، وهو بكل ذلك أعظم إنسان . صلى الله عليه وسلم

* * *

(*) نشر هذا المقال فى مقتطف شهر يوليو سنة ١٩٣٢ ، وأكثر ما فيه يعد متمما لفلسفة هذا الفصل ؛ وسنجمع كل مقالاتنا فى كتاب يصدر إن شاء الله فى آخر صيف هذا العام؟

قلت : وأحسبه كان يعنى كتابه « قول معروف » وقد استغنى عنه بهذا الكتاب « وحى القلم » وقد نشرنا هذه المقالة فى هذا الجزء وانظر ص ١٦٩ و ٢٣٤ « حياة الرافعى »

فالفن فى هذه البلاغة هو فى دقائقه أثرُ تلك الروح العليا بكل خصائصها العظيمة التى يحتاج إليها الوجود الروحانى على هــذه الأرض ، ولذا ترى كلامه صلى الله عليه وسلم يخرج من حدود الزمان ، فـكل عصر واجدٌ فيه ما يقال له ، وهو بذلك نبوَّة لا تنقضى ، وهو حى بالحياة ذاتها ، وكأنما هو لون على وجه منها كما ترى البياض مثلا هو اللون على وجه طائفة من الجنس البشرى . . .

فإذا نظرت فى هذا الفن فانظره فى حديثه ، وفى عمله ، وفى الدنيا التى ألَّفها من التاريخ تأليف القطعة البليغة النادرة من الكلام ، وردَّ كل ما تدبرته من ذلك إلى تلك الروح الجديدة على تاريخ الأرض ؛ فلتعلمن حينئذ أن كل بليغ هو شمعة مضيئة صُنعت لها مادة النور نوراً وجمالا ، بجانب هذه الشمس التى خُلقت فيها مادة النور نوراً وجمالا وحياة وقوة ؛ هناك نور لذى عينين ، وهذا النور لكل ذى عينين ؛ وذاك يتخايل كالحلم . وهذا يفصح كالحقيقة ؛ وذلك ضوء من حوله الظلمة دانية ، وهذا قد طرد الظلمة عن نصف الدنيا إلى نصف الدنيا ؛ والأول نور بلا روح . والثانى هو روح النور .

تلك فى رأينا هى الطريقة التى كان يفهمه بها أصحابه صلى الله عليه وسلم ، كما يفهم الشاعر نورَ القمر فى ليلة صيف بمعان من الزمان والمكان ، ومن النفس والحالة ، ومن الهيئة والشكل ، ومن العين والفكر ، ومن السماء والأرض ؛ ففيه النور وزيادة ، أى الحقيقة وما ترتفع به على نفسها ؛ وبهذه الطريقة كانوا معه كأعظم فلاسفة الفن مع الفن إعجابا وحباً وانقياداً وطاعة حتى انخلعوا من عصرهم ودنياهم ، وخرجوا من أحوالهم وطبائعهم ، وانجذبوا إليه أشد انجذاب عرفه التاريخ ، وأصبحوا مصرَّفين معه تصريف الحوادث لا تصريف الأشخاص ، وعادت أنفسهم وكأن تأثير الأرض يلتق فيها بتأثير

السماء فيغسل فى سحب عالية فلا يكون فيها كما يريده الناس بل كما يريد الله ؛ ورجعت قلوبهم لا تلبس على دينها رأيا ولا هوى ، وكأنما وضع لها هذا الدين حرساً على كل سمع وعلى كل بصر ؛ وبالجملة فأولئك قوم كأنما تناولهم النبي صلى الله عليه وسلم وأفرغهم ثم ملأهم ، وما انتقلوا إلى منزلتهم العالية فى التاريخ إلا بعد أن نقلهم هو إلى منزلة من منازل نفسه الشريفة .

وناهيك من رجال يمثّل لهم بهذا المثل الذى يضربه لهم فى الإيمان ليبلغوه أو يقاربوه : فعن خباب بن الأرت رضى الله عنه قال : شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة ، فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو الله لنا ؟ قال : كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له فى الأرض فيُجعل فيه فيُجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنين وما يصده ذلك عن دينه ، ويُمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه !

فانظر ياهذا ، فإنه لو اجتمعت قوى الكون فجاءت يشد بعضها بعضاً فنزلت فى عبارة من الكلام لتملأ نفوس المؤمنين بقوتها لما وُضعت إلا هذا الوضع من هذا التمثيل بأمشاط المسامير وأسنان المنشار فى عظم الإنسان الحى ولحمه . وظاهر التمثيل على ما رأيت من العجب ، ولكن له باطنا أعجبَ من ظاهره ، وهو البلاغة كل البلاغة والبيان حق البيان ، فإنما يريد صلى الله عليه وسلم أن الحديد لا يأكل ولا يمزع من أولئك الأقوياء بإيمانهم عظما ولحما وعصبا ، بل هو حديد يأكل حديداً مثله أو أشدَّ منه ، فإن الروح المؤمنة المسلطة على جسمها قوةً تصنع هذه المعجزة ، فيمر الحديد فى العظم واللحم والعصب يسلبها الحياة ، ولكنها تسلبه شدته وجَلده وصبره !

✡ ✡ ✡

وكل ما جاء من التمثيل فى كلامه صلى الله عليه وسلم ينطوى فيه من إبداع الفن البيانى وإعجازه ما يفوت حدود البلغاء ، حتى لا تشك إذا أنت تدبرته بحقه من النظر والعلم أن بلاغته إنما هى شىء كبلاغة الحياة فى الحى : هى البلاغة ولكنها أبدع مما هى ، لأنها الحياة أيضاً .

وأنت خبير أن هذا النبى الكريم صلى الله عليه وسلم كانت تأخذه عند نزول الوحى عليه أحوالٌ وُصفت فى كتب الحديث : قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصَّد عرقا . وفى حديث آخر عنها قالت : فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء حتى إنه ليتحدر عنه مثل الجمان من العرق فى يوم شاتٍ . وفى حديث زيد بن ثابت : فأنزل الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفخذه على فخذى ، فثقلتْ علىَّ حتى خفت أن تُرض فخذى . وفى حديث يعلى بن أمية حين قال لعمر : أرنى النبى صلى الله عليه وسلم حين يوحى إليه : وأشار عمر إلى ، فجئت وعلى رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوب قد أُظل به فأدخلت رأسى ، وإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم محمر الوجه وهو يغط ، أى يردد نَفَسه من شدة ثقل الوحى . فهذه كلها أحوال تصف عمل الدماغ بكل ما فيه من جهد القوى العصبية : ليرتفع بالحياة إلى ما فوقها ويتركها لوعى الروح وحدها ، لا يشاركها فى هذا الوعى فكر ولا هاجس ، ولا يتصل به شىء من حياة الحى ، فيتحقق للنبى صلى الله عليه وسلم وجودٌ آخر غير وجوده المحدود بجسمه وطباعه ودنياه ؛ ويخرج بوعيه من هذه الجاذبية الأرضية إلى ما وراء حدود الطبيعة من قوى الغيب ؛ وبذلك يتلقى عن روح الكون ، ثم يفصم عنه وقد وعى ما أُوحى إليه . وما وصفه زيد بن ثابت من أن فخذه كادت ترض — برهان قاطع على أن روحه صلى الله عليه وسلم تنسرح من

جسمه ساعة الوحى فيثقل الجسم ، لأنه إنما يخف بالروح وتبقى وظائف الحياة عاملة أعمالها بعسر وبطء ، لاتصالها بشعاع من الروح دون الروح يحملها ؛ ولسنا هنا بصدد الكلام عن الوحى ، فله موضع إن شاء الله فى كتابنا (أسرار الإعجاز)[1] وإنما نريد أن ندل على أن هذه التهيئة الإلهية لذلك الجهاز العصبى لها أثرها العظيم فى فن بلاغته صلى الله عليه وسلم ، وبها امتاز عن كل بلغاء الدنيا ؛ فإن الملهم من أفذاذ العبقريين على هذه الأرض إنما يبلغ ما يبلغه ببعض هذا الذى رأيت ، وفى بعض هذا أبدع ما ورثت الدنيا من فنون البيان ، وكأن فى الدماغ مادة فى موضع منه يميز بها من تختارهم السماء لحكمتها وإلهامها ، وإذا كان فن العبقريين هو أسمى الكلام الإنسانى ، لما خُصُّوا به من هذه التهيئة ، فإن فنه صلى الله عليه وسلم يكون ولا جرم من باب الأكبر مما هو أكبر فى إلهام الإنسانية كلها .

ولهذه القوة النادرة كان بيانه قوياً على مزج معانيه بالنفس بما فيه من صنعة الحياة ، وإنما فلسفة البيان الفنى أن تمتد الحياة من النفس إلى اللفظ ، فتصنع فيه صنعتها ، فتفصل العبارة الفنية عن كاتبها أو قائلها وهى قطعة من كلامه ، لتستحيل عند قارئها أو سامعها قطعة من الحياة فى صورة من صور الإدراك ؛ فالبيان الفنى هو الوسيلة لحمل الوجود وبعثرته فى مواضع غير مواضعه ، وخلْقه خلقا آخر فى النفس الإنسانية ؛ وبذلك يؤول قوله صلى الله عليه وسلم : إن من البيان لسحراً . جعل نوعا من البيان هو السحر ، لا البيان كله ، فالحديث كالنص على ما تسميه الفلسفة الأوربية اليوم (بالبيان الفنى) ، كأنه قال : إن من البيان فنًّا هو سحر من عمل النفس فى اللغة تغيِّر به الأشياء ، وله عجب السحر وتأثيره وتصرُّفه ؛ وهذا معنى لم يتنبه إليه أحد ، ولا يُذكر معه

(١) انظر ص ٢٨٩ « حياة الرافعى »

كل ما قالوه فى تفسير الحديث ، وبذلك التأويل يكون هذا الحديث قد احتوى أسمى حقيقة فلسفية للفن .

ومن أثر تلك القوة أيضاً ما تراه من شدة الوضوح فى كلامه صلى الله عليه وسلم ، ولقد رأينا هذه البلاغة النبوية العجيبة قائمة على أن كل لفظ هو لفظ الحقيقة لا لفظ اللغة ، فالعناية فيها بالحقائق ، ثم الحقائق هى تختار ألفاظها اللغوية على منازلها ؛ وبذلك يأتى الكلام كأنه نطق للحقيقة المعبَّر عنها ، والكلمة الصادقة تنطق مرة واحدة : فصورتها اللغوية لا تكون إلا صريحة منكشفة عن معناها المضىء كأنما أُلقى فيها النور .

وهو معلوم أنه صلى الله عليه وسلم لا يتكلف ولا يتعمَّل ، ولم يكتب ولم يؤلف ، ومع هذا لا تجد فى بلاغته موضعاً يقبل التنقيح ، أو تعرف له رقة من الشأن كأنما بين الألفاظ ومعانيها فى كل بلاغته مقياس وميزان ، أو كأن هذه البلاغة تنبثق بالكلام على طبيعة عاملة فيه بقواها الدائبة الثابتة ، ففنُّها الجميل هو التركيب الذى تجىء فيه كما ترى الشجر مثلا كاسيا من ورقه وزهره ؛ فأنت منه بإزاء عمل جميل لأنك بإزاء حقيقة طبيعية قد انفردت فى ذاتها ، ومعنى انفرادها فى ذاتها أنها كذلك هى ، فليس فيها موضع لشىء غير ما هو فيها ؛ ثم لا تنسَ أنَّ النبوَّة أكبرُ السببِ فى ذلك الوضوح البيانىّ العجيب ؛ فإن الحياة لا تستغلق فى البلاغة بإنسان إلا وهى غنية عنه : ولعل غموض بعض الفلاسفة وبعض الشعراء هو من دليل الطبيعة على أنهم زائدون فى الطبيعة ... ألا ترى أن من أساليبهم الفلسفية والشعرية ما يجعل معنى الكلمة أحيانا هو نقض معناها (*) إذ يتصنعون للفكر ويستجلبون له ويشققون

(*) من ذلك قول جيته شاعر الألمان : إن الكل باطل، معناه أن الكل ليس بباطل . ولعل هذا فى « البديع الفكرى » من باب أكل النفى للاثبات ...

فيه كما يفعل أهل صناعة الألفاظ بالألفاظ ، فهذا البديع اللفظى ؛ وهناك « البديع الفكرى » ، ولا طائل وراءهما إلا صناعة وبهرجة .

ومتى كان النبي قسما من الحياة ، بل مادة لمعانيها الجديدة ، فلن يكون بيانه إلا على ما وصفنا لك جمالا ، ووضوحاً ومنفعة ودقة وسمواً بقدر ذلك كله .

⁂

وهنا معنى نريد أن ننبه إليه ونتكلم فى سره وحقيقته ، فانك تقرأ ما جُمع من الكلام النبوى فلا تصيب فيه ما تصيبه فى بلاغة أدباء العالم مما فنه الكلام فى المرأة ، والحب ، وجمال الطبيعة ، وهو فى بلاغة الناس كالقلب فى الجسم : لا تخلو منه ولا تقوم إلا به ، حتى تجد الكلام فى المرأة وحدها شطر الأدب الإنسانى ، كما أن المرأة هى شطر الإنسانية ، ولا يُعرف له صلى الله عليه وسلم فى هذه الأغراض إلا كلماتٌ بيانية جاءت بما يفوت الوصف من الجمال والدقة ، متناهية فى الحسن ، ظاهرة فى الدلالة ، يظهر فى وجه بلاغتها ما يظهر فى وجه العذراء من طبيعة الحياء والخفر : كقوله فى النساء : « رفقا بالقوارير » ، وقوله لأسامة بن زيد ، وقد كساه قُبطية (٥) فكساها امرأته « أخاف أن تصف حجم عظامها » . قال الشريف الرضى فى شرح هذه الكلمة : وهذه استعارة ، والمراد أن القُبطية برقتها تلصق بالجسم ، فتبين حجم الثديين ، والرادفتين ، وما يشتد من لحم العضدين والفخذين ، فيعرف الناظر إليها مقادير هذه الأعضاء ، حتى تكون كالظاهرة للحظه ، والممكنة لمسه ، فجعلها عليه الصلاة والسلام لهذه الحالّ كالواصفة لما خلفها ، والمخبرة عما استتر بها ؛ وهذه من أحسن العبارات عن هذا المعنى ، ولهذا الغرض رمى عمر بن الخطاب

---

(٥) بضم القاف ثوب من ثياب مصر رقيقة بيضاء ، وضموا قافه فرقا بينه وبين ما ينسب إلى القبط من غير الثياب

فى قوله : « إياكم ولبس القباطىّ ، فإنها إلا تشفّ تصف » . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عذرةِ هذا المعنى ، ومن تبعه فإنما سلك نهجه .

قلنا : وهذا كلام حسن ، ولكنّ فى عبارة الحديث سرا هو من معجزات البلاغة النبوية لم يهتد إليه الشريف ، على أنه هو حقيقة الفن فى هذه الكلمة بخاصتها ، ولا نظن أن بليغاً من بلغاء العالم يتأتى لمثله ، فإنه عليه الصلاة والسلام لم يقل : أخاف أن تصف حجم أعضائها ، بل قال : حجم عظامها ، مع أن المراد لحم الأعضاء فى حجمه وتكوينه ، وذلك منتهى السمو بالأدب ، إذ ذكر « أعضاء » المرأة فى هذا السياق ، وبهذا المعرض ، هو فى الأدب الكامل أشبه بالرفث ، ولفظه « الأعضاء » تحت الثوب الرقيق الأبيض تنبه إلى صور ذهنية كثيرة هى التى عدها الرضى فى شرحه ، وهى تومئ إلى صور أخرى من ورائها ، فتنزّه النبي صلى الله عليه وسلم عن كل ذلك ، وضرب الحجاب اللغوى على هذه المعانى السافرة ... وجاء بكلمة «العظام» ، لأنها اللفظة الطبيعية المبرّأة من كل نزغة ، لا تقبل أن تلتوى ، ولا تثير معنى ، ولا تحمل غرضا ؛ إذ تكون فى الحى والميت ، بل هى بهذا أخص ؛ وفى الجميل والقبيح ، بل هى هنا أليق ؛ وفى الشباب والهرم ، بل هى فى هذا أوضح . والأعضاء لا تقوم إلا بالعظام ، فالمجاز على ما ترى ، والحقيقة هى ما علمت

ومن كلماته فى الوصف الطبيعى قوله صلى الله عليه وسلم وهو يذكر أوقات الصلاة : : « العصر إذا كان ظل كل شيء مثله ، وكذلك مادامت الشمس حية ، والعشاء إذا غاب الشفق إلى أن تمضى كواهل الليل » وكواهل الليل : أوائله وفروعه المتقدمة منه ، كالذى يتقدم المطايا من أعناقها الممتدة بعض الامتداد ؛ وقوله وقد سأله رجل متى يصلى العشاء الآخرة ، فقال عليه الصلاة والسلام : «إذا

ملأ الليل بطن كل واد » ؛ وقوله : « إذا طلع حاجب الشمس فأخروا الصلاة حتى ترتفع » ؛ وقوله : « إن رجلا من أهل الجنة استأذن ربه فى الزرع ، فقال له : ألستَ فيما شئت ؟ قال : بلى ، ولكنى أحب أن أزرع . قال : فَبَذَر فبادر الطرفَ نباتُه واستواؤه واستحصاده فكان أمثال الجبال » . وقوله : « بينا رجل يمشى فاشتد عليه العطش ، فنزل بئراً ، فشرب منها ثم خرج ، فإذا بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال : لقد بلغ هذا مثل الذى بلغ بى ! فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ، ثم رَقِىَ فسقى الكلب فشكر الله له ، فغفر له . قالوا يارسول الله ، وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ قال : « فى كل كبد رطبة أجر »

فهذا ونحوه من الفن البديع النادر ، وهو مع ذلك لا يأتى فى كلامه صلى الله عليه وسلم إلا فى مثل مارأيت ، فلا يراد منه استجلاب العبارة ، ولا صناعة الخيال . فيظن من لا يميز ولا يحقق أن خلو البلاغة النبوية من فن وصف الطبيعة والجمال والحب ، دليل على ماينكره أو يستجفيه ، ويقول : بداوة وسذاجة ونحو ذلك مما تشبّهه الغفلة على جهلة المستشرقين ومن فى حكمهم من ضعاف أدبائنا وجهلة كتابنا ؛ وإنما انتفى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم لانتفاء الشعر عنه وكونه لا ينبغى له كما بسطناه فى موضعه (*) ؛ فعمله أن يهدى الإنسانية لاأن يزيّن لها ، وأن يدلها على مايجب فى العمل ، لا مايحسن فى صناعة الكلام ، وأن يهديها إلى ماتفعله لتسمو به ، لا إلى ماتتخيله لتلهو به . والخيال هو الشىء الحقيق عند النفس فى ساعة الانفعال والتأثر به فقط ، ومعنى هذا أنه لايكون أبداً حقيقة ثابتة ، فلا يكون إلا كذباً على الحقيقة .

ثم هو صلى الله عليه وسلم ليس كغيره من بلغاءِ الناس : يتصل بالطبيعة ليستملى منها ؛ بل هو نبي مرسل متصل بمصدرها الأزلى ليملى فيها ، وقد كانت

(*) كتابنا إعجاز القرآن .

آخر ابتسامة له فى الدنيا ابتسامته للصلاة (*) يتهلل لطهارة النفس المؤمنة وجمالها قائمة بين يدى خالقها ، منسكباً فى طهارتها روحُ النور ، وكل إنسان إنما يبدو الكون فى عينه على مايرى مما يشبه مافى نفسه ، فكل مارآه المصلى الخاشع فى صلاته (**) يبدو له كأنه يصلى فى ضرب من العبادة على نحو من الدين ، وكل مارآه السكران فى سكره يكاد يراه متخبطاً يعربد مايتماسك !

ثم إن الكلام فى وصف الطبيعة والجمال والحب على طريقة الأساليب البيانية ، إنما هو باب من الأحلام ؛ إذ لابد فيه من عينى شاعر ، أو نظرة عاشق ؛ وهنا نبي يوحَى إليه ، فلا موضع للخيال فى أمره ، إلا ما كان تمثيلا يراد به تقوية الشعور الإنسانى بحقيقة ما فى بعض ما يعرض من باب الإرشاد والموعظة ، كما مر بك من أمثلته ، وكقوله صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه ! » وهذا كلام أبلغ ما أنت واجدٌ من تفسيره تلك النفس المؤمنة بإحساسها الرقيق ، كأنه حاسة من النور رُكِّبت فى شعورها ، وتلك النفس الفاجرة بإحساسها الغليظ ، كأنه حاسة من التراب ...

ويكاد المؤمن الذى يسمع هذا الوصف يذكّره ذنوبَه ــ أن يحس بحركة

(*) عن أنس أن أبا بكر كان يصلى بهم فى وجع النبي صلى الله عليه وسلم الذى توفى فيه ، حتى إذا كان يوم الاثنين وهم صفوف فى الصلاة ، فكشف النبي صلى الله عليه وسلم ستر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف ، ثم تبسم يضحك ، فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبي صلى الله عليه وسلم ، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف ، وظن أن النبي صلى الله عليه وسلم خارج إلى الصلاة ، فأشار إلينا النبي صلى الله عليه وسلم أن أتموا صلاتكم ، وأرخى الستر ، فتوفى من يومه .

(**) من الكلمات الجميلة الدقيقة فى نحو هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام : لاتزالون فى صلاة ما انتظرتم الصلاة !

جبل يهم أن ينقلع فيميل عليه ، أما الفاجر فيسمعه يذكره ذنوبه فإذا هى فى خياله نقط سود تمر مرور الذباب ، ليس منه إلا الحس به ، كما يحس من يُضرب على أنفه برجل ذبابة ... وجعل الذباب يمر على أنفه دون عينه أو فمه ، وذلك منتهى الجمال فى التصوير ، لأن الذباب إذا وقع على الفم أو العين ثبت وألح ، فإذا وقع على قصبة الأنف لم يكد يقف ومر مروره .

الكون فى نظر النبي صلى الله عليه وسلم آية الحكمة لا آية الفن ، ومنظر المستَيْقِن لا منظر المتخيِّل ، ومادة العبودية لله لا مادة التأله للإنسان ، وبذلك حرَّم الإسلام أشياء وكره أشياء لا يكون الفن بغيرها فنا ، فى ضروب من الشعر والتصوير والموسيقا والحب ، لأنه إنما ينظر للإنسان واحداً وجمعاً ، وحاضراً وآتياً ؛ وواجباً ومنفعة ، ولذة وألما ؛ وهذه كلها لا إطلاق فيها إلا من أجل القيد ، على حين أن الفن لا قيد فيه إلا من أجل الإطلاق ؛ وأساس الدين حظ الجماعة وقيودها ، وأساس الفن حظ الفرد وحريته : وهذه الحياة لا تبدو فى حالة تركيب وانتظام إلا إذا كانت للكل . فإذا كانت لفرد ظهرت فى هيئة انحلال وانتقاض ، وأصبحت فى الكون كله كأنها عمر إنسان واحد .

ثم إن للفن ألواناً لا بد منها لتصويره الجميل الذى تعجب به النفس ، والشيطان هو اللون الأحمر فيها ... أى هو أشدها زهواً وإشراقاً وجمالا فى التصوير الفنى لكل ما فى المرأة والحب والجمال وشهوات النفس ، ولسنا ننكر أن الحياة القوية حين تمازجها هذه الفنون تكسب مرحا ونشاطاً ويكون لها رونق ، وفيها متاع ؛ ولكن الحياة لا تكون بها كذلك إلا من أنها تحتسى خمرَها ... فلها بعد من عاقبة هذه الفنون شبيه بما يكون للجسم القوى من عاقبة الخمر إذا تغلغلت الخمر فى شعاب كبده وأحالت رطبتها يابسة ،

كما وقع فى أطوار كثيرة من تاريخ الأمم ؛ فليس الاعتبار فى هذا التشبيه بما يعرض من تأثير الساعة الزائلة بأفراحها وفن حياتها ، بل الشأن للعاقبة المحتومة متى جاءت ساعتها الباقية بأحزانها وفن هلاكها ، فالإسلام فيما حرّم وكره من ذلك لم يزد على أن أراد للحياة أن تحيا ، لأنه لا يقر صورة من صور انتحارها .

ومَن كان أكبر عمله إنشاء الحقائق الإنسانية وتقريرُها شريعة وعاطفة وأعمالا ، فلاجرم كان فنه غير الذى أكبرُ عمله تمويهُ تلك الحقائق وزخرفتها ليقع الإحساس بها على غير وجهها ، فتخف بالواقع منها على النفس خفة الكذب فى ساعة تصديقه ؛ وهذا هو أكبر عمل الشعر

وههنا سر دقيق لا يتم كلامنا إلا بشرحه ، لنقطع القول فى هذا المعنى ، فيظهر حقه من باطله : قلنا آنفاً إن النبى صلى الله عليه وسلم ليس كغيره من بلغاء الناس : يتصل بالطبيعة يستملى منها ، بل هو نبى مرسل متصل بمصدرها الأزلى ليملى فيها . ومعنى هذا أنه لا يعرض له من زيغ النفس ما يعرض لغيره من الناس ، فأحكم حكماء الدنيا لا يستطيع أن يتبين جزءاً صغيراً من الكون على حقيقته ؛ إذ كانت حواس الجسم غير مهيأة لذلك ، ففهْم جزء من الكون فهماً صادقاً جزماً لا يتم إلا بفهم الكون بأجمعه ، فهو كله ذرة مكبرة إلى ما لا ينتهى ولا يحد ، وليست النبوة شيئاً غير الاتصال بالسر

والحاضر الذى يكون فى إنسان من الناس ، هو حاضر ليس غير ، لأنه يتحول ويفنى ، فهو من الزيغ الذى يعترى النفس ، ومنه كل أغراض الحياة البشرية الفانية ، ولهذا كان طابع الله على نبينا صلى الله عليه وسلم هو تجريده من زيغ الهوى وسرف الطبيعة ، فهو من الناس ولكنه متخلق بأخلاق الله سبحانه ، وله فى هذا الباب ما ليس لأحد ولا يطيقه أحد ، ويجب على من

يقرأ سيرته وشمائله وحديثه أن يبحث دائماً عن طابع الله فى كل شىء منها، فإنه سيرى حينئذ كأنه يدرسها مع الملائكة لا مع الناس، وسيظهر له من تفسيرها أن الدنيا لم تستطع تحقيق غايتها الأخلاقية العليا إلا فيها، وأنه صلى الله عليه وسلم كان إنساناً، وكان أيضاً حركة فى تقدم الإنسانية: وأن من معجزاته أنه أطاق فى تاريخه ماعجزت عنه البشرية فى تاريخها، وأن كل أموره صلى الله عليه وسلم موضوعة وضعاً إلهيا كأنها صفات كوَّنها الله وعلقها فى التاريخ لمعانى الحياة، تعليقَ الشمس فى السماء لمواد الحياة.

إن الشهوات والمصالح إنما هى حصر النفس فى جانب من الشعور محدود بلذات وهموم وأحاسيس تجعل غرض الإنسان فى الإنسان نفسه، فهو كما يملأ معدته ويتأنق فى الاختيار لها، يريد من كل ذلك أن يملأ شخصه على هذه الطريقة بعينها، طريقةِ إشباع معدته ... وبهذا تسخر منه حقائق الكون، لأنها لاتحد بشخص، ولا تنحصر فى أحد، وكل من كانت حدود الإنسانية جسمَه ولذات جسمه، فهو فى مقدار هذا الكون كالميت المحدود من الأرض كلها بقبر وتراب قبره؛ وإنه ليجد جسمه وأكاذيب الطبيعة عليه، ولكنه لن يجد الروح وحقائقها؛ وإذا لم يجد هذه فلن يعرف الكون وأسراره؛ وإذا فقد هذا فهو الحاضر الضيق المشوه المكذوب، ومن ثم ففنه شهوة إحساسه وإن كان مخدوعا، وشهوة نظرِه وإن كان ملبَّساً عليه، وشهوة خياله، وإن كان التمويه والزور. والحاضر الضيق المشوه المكذوب الخادع هو المسمى فى لغة القرآن والحديث «بالدنيا»؛ فإذا اتسع الإنسان لروحه وأدرك حقيقتها، ووعى مابينها وبين الكون؛ وأخذ يحقق هذه الروح السماوية فى أعماله، وتخطى حدود جسمه إلى فكرة الخلود؛ فهذا كله هو المسمى فى لغة القرآن والحديث «بالآخرة»؛ فهما كلمتان فى منتهى الإبداع من الفن والفلسفة؛ وعلى ذلك يؤوَّل قوله صلى الله عليه وسلم فى

خطبته : من كان همه الآخرة جمع الله شمله ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة ؛ ومن كان همه الدنيا فرق الله أمْرَه وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له .

وأنت إذا فسرت هذه الكلمات بما وصفنا لك ووجهتها على ذلك التأويل ، رأيت عجائب معانيها لا تنقضى ، وأدركت سر قوله صلى الله عليه وسلم : « إنى على علم من الله علّمَنيه » فاتساع الذات الإنسانية ومادّتها لحقائق الكون ، يجعل الإنسان كالكون نفسه ، مجتمعاً غير مفرق على هموم الحياة ؛ ويجعل الغنى معنى لا مادة ؛ ولو امتلك إنسان من الناس كل ما طلعت عليه الشمس ، وكان له كنز فى المشرق وكنز فى المغرب ، لما بلغ شيئاً قليلا من لذة هذا المعنى فى قلبه ؛ وفى هذه الحالة تصبح الدنيا العريضة التى يهلك الناس فى تحصيلها وليست إلا ضرورة صغيرة ، قد تكون فى ثوب ولقيمات ونحوها مما لا خطر له ، وهذا هو إرغامها وهى مالكة الملوك ، فإذا ضاق الإنسان عن روحه أصبحت النفس كالمنخل يوضع الدقيق الناعم فيه ليخرج منه فيمسكه كله ولا يمسك منه شيئاً ، ووُضع بين عينيها معنى الفقر ، فهى تعمل أبداً لتمتلئ ، ولا تمتلئ أبداً ؛ وإذا كان المنخل متخذاً على الطريقة التى صنع بها ، ففقره ولا جرم معلق عليه من ذات تركيبه . « أفهمت » ؟

ولما كان النبى صلى الله عليه وسلم متساوقا مع الحقيقة ، متصلا بها ، محدوداً بربه لا بنفسه ، كان لذلك خارجا من حاضر ما نحن فيه ، ممتدا بمعناه الإنسانى الكامل إلى المستقبل الذى وراء الحياة ، فما نحصره نحن بطبيعتنا فى بعض الأسماء ، لا يلتفت هو إليه بطبيعته ؛ ومن ذلك أوصاف الغنى والحلية والنعيم والمتاع والجمال والمطعم والمشرب ، وما داخل الطبيعة من مثل معانيها ، وما جرى هذا المجرى ، فهذا كله يراه الناس من جهة الحاجة إليه والمطمع فيه ؛ إذ كان ضعف إدراكهم وضيق وعيهم مما يبدع لهم أكاذيب الخيال ، فتجىء

من ذلك أوصافهم وفنون أوصافهم ؛ أما النبي صلى الله عليه وسلم فيرى ذلك من ناحية الغنى عنه والسمو عليه ؛ إذ كان لا ينظر بطبيعة روحه العظيمة إلا أعلى النظرَين وأطهرهما . فآخر إدراكنا للحقيقة والطبيعة أولُ إدراكه هو للطبيعة والحقيقة ، وما تعجز عنه الإنسانية تبدأ منه النبوة .

وعلى هذا فإن من أقوى البراهين على كماله صلى الله عليه وسلم ونبوته واتساع روحه ونفاذ إدراكه لحقائق الكون ـ أنه لم يتبسط في تلك الفنون كما يصنع البلغاء ، ولم يأخذ مأخذهم فيها ؛ إذ كانت كلها من أكاذيب القلب والفكر والعين .

وفي قانون الحقيقة أن الأشياء هي كل الأشياء وهي كما هي ، أما في قانون الكذب فالأشياء كلها هي ماتختاره أنت منها ، وكما تختاره .

بحَسْب الدنيا من جمال فنه صلى الله عليه وسلم مايضيف إلى الحياة عظمة الأشياء العظيمة ، ويدفع الإنسانية في طريقها الواحد الذي هو بين الأب والأم ، طريق الأخ إلى أخيه ، يكون في الدنيا بين الرجلين كما هو في الدَّم بين القلبين رحمة ومودة ؛ وبِحسبنا من جمال هذا الفن مايهدى الإنسان إلى حقيقة نفسه ؛ فيقره في الحقيق من وجوده الإنساني ؛ ويجعل الفضائل كلها تربية للقلب ؛ يكبر بها ثم يكبر ، ثم لايزال يكبر حتى يتسع لحقيقة هذه الكلمة الكبرى : الله أكبر

*

قرآن الفجر (١)

كنتُ فى العاشرة من سنّى وقد جمعتُ القرآنَ كلَّه حفظاً وجوَّدته بأحكام القراءة؛ ونحن يومئذ فى مدينة (دمنهور) عاصمة البحيرة؛ وكان أبى رحمه الله كبير القضاة الشرعيين فى هذا الإقليم، ومن عادته أنه كان يعتكفُ كل سنة فى أحد المساجد عشرة الأيام الأخيرة من شهر رمضان؛ يدخل المسجد فلا يَبرحهُ إلا ليلة عيد الفطر بعد انقضاء الصوم؛ فهناك يتأمل ويتعبد ويتصل بمعناه الحق، وينظر إلى الزائل بمعنى الخالد، ويُطل على الدنيا إطلال الواقف على الأيام السائرة، ويغير الحياة فى عمله وفكره، ويهجر تراب الأرض فلا يمشى عليه، وترابَ المعانى الأرضية فلا يتعرض له، ويدخل فى الزمن المتحرر من أكثر قيود النفس، ويستقر فى المكان المملوء للجميع بفكرة واحدة لاتتغير: ثم لايرى من الناس إلا هذا النوع المرطَّبَ الروح بالوضوء، المدعوَّ إلى دخول المسجد بدعوة القوة السامية، المنحنِيَ فى ركوعه ليخضع لغير المعانى الذليلة، الساجدَ بين يدى ربه ليدرك معنى الجلال الأعظم.

وما هى حكمة هذه الأمكنة التى تقام لعبادة الله؟ إنها أمكنة قائمة فى الحياة، تُشعر القلب البشرىَّ فى نزاع الدنيا أنه فى إنسان لا فى بهيمة ...

✡ ✡ ✡

وذهبتُ ليلةً فبتُّ عند أبى فى المسجد؛ فلما كنا فى جوف الليل الأخير أيقظنى للسَّحور، ثم أمرنى فتوضأت لصلاة الفجر وأقبل هو على قراءته؛

(١) أنشأها قبل موته بثلاثة أشهر، فاعجب له يذكر أوليته وهو على أبواب آخرته ... !

فلما كان السَّحَرُ الأعلى هتف بالدعاء المأثور : اللهم لك الحمد ؛ أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد ؛ أنت بهاءُ السموات والأرض ، ولك الحمد ؛ أنت زينُ السموات والأرض ، ولك الحمد ؛ أنت قيامُ السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن ؛ أنت الحق ومنك الحق ... إلى آخر الدعاء .

وأقبل الناس ينتابون المسجد ، فانحدرنا من تلك العِلْيَة التي يسمونها (الدِّكة) وجلسنا ننتظر الصلاة . وكانت المساجدُ في ذلك العهد تضاء بقناديل الزيت ، في كل قنديل ذبالة يرتعش النور فيها خافتاً ضئيلا يَبِص بصيصاً كأنه بعضُ معاني الضوء لا الضوءُ نفسهُ ؛ فكانت هذه القناديل والظلامُ يرتج حولها ، تلوح كأنها شُقوق مضيئة في الجو ، فلا تكشف الليلَ ولكن تكشف أسراره الجميلة ، وتبدو في الظلمة كأنها تفسيرٌ ضعيف لمعنى غامض يُومئ إليه ولا يُبَيِّنُه ، فما تشعر النفس إلا أن العين تمتد في ضوئها من المنظور إلى غير المنظور كأنها سِرٌّ يشف عن سر .

وكان لها منظر كمنظر النجومِ يُتم جمالَ الليل بإلقائه الشُّعَلَ في أطرافه العليا وإلباس الظلام زينتَه النورانية ؛ فكان الجالسُ في المسجد وقت السَّحَر يشعر بالحياة كأنها مخبوءة ، ويُحس في المكان بقايا أحلام ، ويسري حوله ذلك المجهول الذي سيخرج منه الغد ؛ وفي هذا الظلام النوراني تنكشف له أعماقه منسكباً فيها روحُ المسجد ، فتعتريه حالة روحانية يستكين فيها للقَدَر هادئاً وادعاً راجعاً إلى نفسه ، مجتمعاً في حواسه ، منفرداً بصفاته ، منعكساً عليه نورُ قلبه ؛ كأنه خرج من سلطان ما يضيء عليه النهار ، أو كأن تلك الظلمة قد طمست فيه على ألوان الأرض .

ثم يشعر بالفجر في ذلك الغَبَش عند اختلاط آخر الظلام بأول الضوء ، شعوراً نديًّا كأن الملائكة قد هبطت تحمل سحابة رقيقة تمسح بها على قلبه

ليتنضّرَ من يُبْس ، ويرقّ من غلظة . وكأنما جاءُوه مع الفجر ليتناول النهار من أيديهم مبدوءاً بالرحمة مفتتَحاً بالجمال ؛ فإذا كان شاعرَ النفس التقى فيه النورُ السماويّ بالنور الإنسانى فإذا هو يتلألأ فى روحه تحت الفجر .

✡ ✡ ✡

لا أنسى أبداً تلك الساعة ونحن فى جو المسجد ، والقناديل معلقة كالنجوم فى مناطها من الفلك ، وتلك السُّرج ترتعش فيها ارتعاش خواطر الحب ، والناس جالسون عليهم وقارُ أرواحهم ، ومن حول كل إنسان هدوءُ قلبه وقد استبهمت الأشياء فى نظر العين ليلبسها الاحساس الروحانى فى النفس ، فيكون لكل شيء معناه الذى هو منه ومعناه الذى ليس منه ، فيُخلق فيه الجمالُ الشعرى كما يخلق للنظر المتخيّل .

لا أنسى أبداً تلك الساعة وقد انبعث فى جو المسجد صوت غرِد رخيم ، يشقّ سُدْفةَ الليل فى مثل رنين الجرس تحت الأفق العالى وهو يرتل هذه الآيات من آخر سورة النحل :

« أُدْعُ إلى سبيل ربك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنَةِ وجادلْهم بالتى هى أحسنُ إن ربك هو أعلمُ بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلمُ بالمهتدين . وإن عاقبتم فعاقِبوا بمثل ماعُوقبتم به ؛ ولئن صبرتم لهُوَ خيرٌ للصابرين . واصبِرْ وما صبرُكَ إلا بالله ، ولا تحْزَنْ عليهم ، ولا تكُ فى ضَيْقٍ مما يَمْكرُون . إنَّ الله مع الذين اتقَوْا والذين هم مُحسنون »

✡ ✡ ✡

وكان هذا القارئ يملك صوته أتمَّ ما يملك ذو الصوت المطرب ؛ فكان يتصرَّف به أحلى مما يتصرَّف القمرى وهو ينوح فى أنغامه ، وبلغ فى التطريب كلَّ مبلغ يقدر عليه القادر ، حتى لا تفسِّر اللذة الموسيقية بأبدع مما فسرها

هذا الصوت ؛ وما كان إلا كالبلبل هزَّته الطبيعة بأسلوبها فى جمال القمر، فاهتزَّ يحاوبها بأسلوبه فى جمال التغريد .

كان صوته على ترتيب عجيب فى نغماته ؛ يجمع بين قوة الرقة وبين رقة القوة ، ويضطرب اضطرابا روحانياً كالحزن اعتراه الفرح على فجأة ؛ يصيح الصيحة تترجح فى الجو وفى النفس ، وتتردد فى المكان وفى القلب ، ويتحول بها الكلام الإلهى إلى شىء حقيق ، يلمس الروح فيَرْفضُّ عليها بمثل الندى ، فإذا هى ترِفُّ رفيفاً ، وإذا هى كالزهرة التى مسحها الطل .

وسمعنا القرآن غَضاً طرِياً كأولِ مانزل به الوحى ، فكان هذا الصوتُ الجميلُ يدور فى النفس كأنه بعضُ السِّر الذى يدور فى نظام العالم ؛ وكان القلب وهو يتلقى الآيات كقلب الشجرة يتناول الماء ويكسوها منه .

واهتز المكان والزمان كأنمـا تجلى المتكلم سبحانه وتعالى فى كلامه ، وبدا الفجر كأنه واقف يستأذن الله أن يضىء من هذا النور !

وكنا نسمع قرآن الفجر وكأنما محيت الدنيا التى فى الخارج من المسجد وبطل باطلُها ، فلم يبق على الأرض إلا الانسانية الطاهرة ومكان العبادة ؛ وهذه هى معجزة الروح متى كان الانسان فى لذة روحه مرتفعاً على طبيعته الأرضية

أما الطفل الذى كان فىَّ يومئذ فكأنمـا دُعِىَ بكل ذلك ليحمل هـذه الرسالة ويؤديها إلى الرجل الذى يجىء فيه من بعد ؛ فأنا فى كل حالة أخضع لهذا الصوت : ادعُ إلى سبيل ربك ؛ وأنا فى كل ضائقة أخشع لهذا الصوت : واصبر وما صبرك إلا بالله !

اللغة والدين والعادات [1]

باعتبارها من مقوّمات الاستقلال

ليست حقيقةُ الأمة في هذا الظاهرِ الذي يبدو من شعبٍ مجتمعٍ محكومٍ بقوانينه وأوضاعِه؛ ولكن تلك الحقيقة هي الكائنُ الروحيُّ المكْتَنُّ في الشعب، الخالِصُ له من طبيعته، المقصورُ عليه في تركيبه كعَصيرِ الشجرةِ: لا يُرى عمله والشجرةُ كلّها هي عمله.

وهذا الكائنُ الروحيُّ هو الصورةُ الكبرى للنَّسب في ذوي الوشيجةِ من الأفراد، بَيْدَ أنه يحقّق في الشعب قرابة الصفاتِ بعضِها من بعض؛ فيجعلُ للأمة شأنَ الأسرةِ، ويخلقُ في الوطنِ معنى الدار، ويُوجِد في الاختلاف نزعةَ التشابُه، ويَردُّ المتعدِّدَ إلى طبيعة الوحْدة، ويُبدِعُ للأمة شخصيتَها المتميزة، ويوجبُ لهذه الشخصيةِ بازاءِ غيرِها قانونَ التناصر والحميَّة، إذ يجعلُ الخواطرَ مشتركة، والدواعي مستوية، والنوازعَ متآزِرة: فتجتمعُ الأمة كلها على الرأي: تتساندَ له بقواها ويشدُّ بعضُها بعضاً فيه؛ وبهذا كلِّه يكون رُوح الأمة قد وضَع في كلمة الأمة معناها.

والخلقُ القويُّ الذي يُنشئه للأمة كائنُها الروحيُّ، هو المبادئُ المنتزعةُ من أثر الدين واللغة والعادات، وهو قانون نافذ يستمدُّ قوتَه من نفسه، إذ يعملُ في الحيِّز الباطنِ من وراء الشعور، متسلِّطًا على الفكر، مُصرِّفاً لبواعث النفس؛ فهو وحده الذي يملأ الحيَّ بنوع حياته، وهو طابَعُ الزمنِ

---

(1) أنشأها للمسابقة الأدبية العامة في عهد علي ماهر باشا سنة ١٩٣٦، وانظر ص ١٣١ «حياة الرافعي»

على الأمم ، وكأنه على التحقيق وَضْعُ الأجدادِ علامتَهم الخاصةَ على ذرِّيتهم .

* * *

أما اللغةُ فهى صورةُ وجودِ الأمة بأفكارِها ومعانيها وحقائقِ نفوسها ، وجوداً متميِّزاً قائماً بخصائصه ؛ فهى قوميةُ الفكر ، تتَّحدُ بها الأمةُ فى صُوَر التفكير وأساليبِ أخْذِ المعنى من المادة ؛ والدقةُ فى تركيب اللغة دليلٌ على دقةِ المَلَكات فى أهلها ، وعمقُها هو عُمقُ الروح ودليلُ الحِسِّ على ميل الأمة إلى التفكير والبحثِ فى الأسباب والعِلَل ، وكثرةُ مشتقَّاتِها برهانٌ على نَزْعةِ الحرية وطِماحِها ، فإن رُوح الاستعبادِ ضيِّق لا يتسع ، ودأبُه لزومُ الكلمةِ والكلماتِ القليلة .

وإذا كانت اللغة بهذه المنزلة ، وكانت أمتها حريصة عليها ، ناهضةً بها ، متسعةً فيها ، مكْبِرةً شأنها ، فما يأتى ذلك إلا من رُوح التسلُّط فى شعبها والمطابقةِ بين طبيعتِه وعمل طبيعتِه ، وكونِه سيدَ أمره ؛ ومحقِّقَ وجودِه ، ومستعمِلَ قوته ، والآخِذَ بحقه ؛ فأَما إذا كان منه التراخى والإهمالُ وتركُ اللغة للطبيعة السوقية ، وإصغارُ أمرِها ، وتهوينُ خَطَرِها ، وإيثارُ غيرِها بالحب والإكبار ؛ فهذا شعبٌ خادم لا مخدوم ، تابعٌ لا متبوع ، ضعيفٌ عن تكاليفِ السيادة ، لا يطيق أن يحمل عظَمة ميراثِه ، مُجْتزِئٌ ببعض حقه ، مكْتَفٍ بضرورات العيش ، يوضَع لحكمه القانونُ الذى أكثرُه للحِرمان وأقلُّه للفائدة التى هى كالحرمان .

لا جَرَمَ كانت لغةُ الأمة هى الهدَفَ الأول للمستعمِرين ؛ فلن يتحوَّلَ الشعبُ أوَّلَ ما يتحوَّلُ إلا من لغته ؛ إذ يكونَ منْشأُ التحوُّلِ من أفكاره وعواطِفه وآمالِه ، وهو إذا انقطع من نَسَب لغته انقطع من نَسبِ ماضيه ، ورجعت قوميتُه صورةً محفوظةً فى التاريخ ، لا صورةً محقَّقةً فى وجوده ؛ فليس

كاللغة نَسَبٌ للعاطفة والفكر ؛ حتى إن أبناءَ الأبِ الواحدِ لو اختلفت ألسنتُهم فنشأ منهم ناشئٌ على لغة ، ونشأَ الثانى على أخرى ، والثالثُ على لغةٍ ثالثة ، لكانوا فى العاطفة كأبناء ثلاثةِ آباء .

وما ذلَّتْ لغةُ شعبٍ إلا ذَلَّ ، ولا انحطتْ إلا كان أمرُه فى ذهاب وإدبار ؛ ومن هذا يفْرِضُ الأجنبيُّ المستعمِرُ لغتَه فرضاً على الأمة المستعمَرة ، ويركبهُم بها ، ويُشعِرُهم عظَمَته فيها ، ويَستَلْحِقُهُم من ناحيتها ؛ فيحكم عليهم أحكاماً ثلاثةً فى عملٍ واحد : أما الأولُ فحَبْسُ لغتهم فى لغته سِجْناً مؤبَّداً ؛ وأما الثانى فالحكم على ماضيهم بالقتل مَحواً ونسياناً ؛ وأما الثالثُ فتقييدُ مستقبلهم فى الأغلالِ التى يصنعُها ؛ فأَمرُهم من بعدِها لأمره تَبَع .

والذين يتعلَّقون اللغاتِ الأجنبية ينزِعون إلى أهلها بطبيعة هذا التعلق ، إن لم تكنْ عصبيتُهم للغتهم قويةً مُستَحكمةً من قِبَل الدين أو القومية ؛ فتراهم إذا وهنَتْ فيهم هذه العصبيةُ يخجلون من قوميتهم ، ويتبرأون من سَلَفهم ، وينسلخون من تاريخهم ، وتقومُ بأنفسهم الكراهةُ للغتهم وآدابِ لغتهم ولقومهم وأشياءِ قومهم ؛ فلا يستطيع وطنُهم أن يوحىَ إليهم أسرارَ روحه ؛ إذ لا يوافق منهم استجابة فى الطبيعة ، وينقادون بالحبّ لغيره ، فيتَجاوَزونه وهم فيه ، ويَرِثونَ دماءَهم من أهلهم ثم تكونُ العواطفُ فى هذه الدماءِ للأجنبي ؛ ومن ثَمَّ تُصْبح عندهم قيمةُ الأشياءِ بمصدرها لا بنفسها ، وبالخيالِ المتوَهَّم فيها لا بالحقيقةِ التى تحملها ؛ فيكونُ شيء الأجنبي فى مذهبهم أجملَ وأثمنَ ، لأن إليه الميلَ وفيه الإكبارُ والإعظام ؛ وقد يكون الوطنى مثله أو أجملَ منه ، بَيْدَ أنه فقَد الميل ، فضعفت صِلتُه بالنفس ، فعادت كلُّ مميزاتِه فضعفَت لا تميزُه .

وأعجبُ من هذا فى أمرهم ، أن أشياءَ الأجنبي لا تحمِلُ معانيَها الساحرة

فى نفوسهم إلا إذا بقيت حاملةً أسماءها الأجنبية ، فإن سُمِّى الأجنبىُّ بلغتهم القوميَّةِ نقَصَ معناه عندهم وتَصَاغَرَ وظهرت فيه ذِلة ... وما ذاك إلا صِغَرُ نفوسهم وذِلتُها ، إذْ لا يَنْتَخُون لقوميتهم فلا يُلهِمُهم الحرفُ من لغتهم ما يُلهِمُهم الحرفُ الأجنبى .

والشرق مبتلى بهذه العلة ، ومنها جاءت مَشَاكله أو أكثرها ؛ وليس فى العالم أمةٌ عزيزةُ الجانب تقدِّم لغةَ غيرها على لغة نفسها ، وبهذا لا يعرفون للأشياءِ الأجنبيةِ موضعاً إلا من وراءِ حُدود الأشياءِ الوطنية ؛ ولو أخذنا نحن الشرقيين بهذا ، لكان هذا وحده علاجاً حاسماً لأكثر مشاكلنا .

فاللغات تتنازَعُ القوميــةَ ، ولهِيَ واللهِ احتلالٌ عقليٌّ فى الشعوب التى ضعفت عصبيتُها ؛ وإذا هانت اللغة القومية على أهلها، أثرت اللغةُ الأجنبية فى الخلقِ القومى ما يؤثر الجوُّ الأجنبىُّ فى الجسم الذى انتقل إليه وأقام فيه .

أما إذا قويت العصبية ، وعزَّت اللغة ، وثارت لها الحميَّة : فلن تكونَ اللغاتُ الأجنبيةُ إلا خادمةً يُرتَفَقُ بها ، ويرجع شِبْرُ الأجنبى شبرا لا متراً... وتكون تلك العصبيةُ للغة القومية مادةً وعَوناً لكل ما هو قومى ؛ فيُصبح كلُّ شيء أجنبى قد خضع لقوة قاهرة غالبة ، هى قوة الإيمان بالمجد الوطنى واستقلالِ الوطن ؛ ومتى تعيَّنَ الأولُ أنه الأولُ ، فكل قوى الوجود لا تجعلُ الذى بعده شيئاً إلا أنه الثانى .

* * *

والدينُ هو حقيقةُ الخلقِ الاجتماعى فى الأمة ، وهو الذى يجعلُ القلوبَ كأنها طبقةٌ واحدةٌ على اختلافِ المظاهر الاجتماعية عاليةً ونازلةً وما بينهما ؛ فهو بذلك الضميرُ القانونى للشعب ، وبه لا بغيره ثَبَاتُ الأمة على فضائلها النفسية ، وفيه لا فى سواه معنى إنسانيةِ القلب .

ولهذا كان الدينُ من أقوى الوسائل التى يُعوَّلُ عليها فى إيقاظ ضميرِ الأمة ، وتنبيه رُوحها ، واهتياجِ خَيالها ؛ إذ فيه أعظمُ السلطة التى لها وحدها قوةُ الغلَبة على الماديات ؛ فسلطانُ الدين هو سلطانُ كل فرد على ذاته وطبيعته ؛ ومتى قوى هذا السلطانُ فى شعب ، كان حَمِياً أبِياً ، لا تُرغمه قوة ، ولا يعنُو للقَهْر .

ولولا التدين بالشريعة ؛ لما استقامت الطاعة للقانون فى النفس ؛ ولولا الطاعة النفسية للقوانين ؛ لما انتظمت أمة ؛ فليس عملُ الدين إلا تحديدَ مكانِ الحى فى فضائل الحياة ؛ وتعيينَ تَبِعَتِه فى حقوقها وواجباتها ، وجعْلَ ذلك كله نظاماً مستقراً فيه لا يتغير ، ودَفْعَ الإنسانِ بهذا النظام نحو الأكمل ، ودائماً نحو الأكمل .

وكل أمة ضعف الدينُ فيها اختلَّت هندستُها الاجتماعية وماجَ بعضُها فى بعض ؛ فإنَّ من دقيق الحكمة فى هذا الدين أنه لم يجعل الغاية الأخيرةَ من الحياة غاية فى هذه الأرض ، وذلك لتنتظمَ الغايات الأرضية فى الناس فلا يأكلُ بعضُهم بعضاً ؛ فيغتنى الغنىُّ وهو آمن ، ويفتقر الفقير وهو قانع ، ويكون ثوابُ الأعلَى فى أن يعودَ على الأسفل بالمبرَّة ، وثوابُ الأسفل فى أن يصبرَ على ترك الأعلى فى منزلته ؛ ثم ينصرف الجميع بفضائلهم إلى تحقيق الغاية الإلهية الواحدة ، التى لا يكبر عليها الكبير ؛ ولا يصغُر عنها الصغير ؛ وهى الحق ، والصلاح ، والخير ، والتعاون على البر والتقوى .

وما دام عمـلُ الدين هو تكوينَ الخُلق الثابتِ الدائبِ فى عمله ، المعتزِّ بقوته ، المطمئنّ إلى صبره ، النافرِ من الضعف ، الآبِىّ على الذل ، الكافِر بالاستعباد ، المؤمنِ بالموتِ فى المدافعةِ عن حَوْزَته ، المجْزِىّ بتساميه وبَذْلِه وعطفه وإيثاره ومُفاداتِه ، العاملِ فى مصلحة الجماعة ، المقيَّدِ فى منافعه بواجباته نحو

الناس — مادام عمـلُ الدينِ هو تكوينَ هـذا الخُلق ـ فيكون الدينُ فى حقيقته هو جعْلَ الحِسّ بالشريعة أقوى من الحس بالمادة ؛ ولَعمرى مايجدُ الاستقلالُ قوةً هى أقوى له وأردُّ عليه من هـذا المعنى إذا تقرَّر فى نفوس الأمة وانطبعت عليه

وهـذه الأمة الدينيةُ التى يكونُ واجبُها أن تَشرُف وتسودَ وتَعْـتزّ ، يكونُ واجبُ هذا الواجِب فيها ألّا تسقط ولا تخضع ولا تذلّ

وبتلك الأصولِ العظيمةِ التى يُنشِئها الدينُ الصحيحُ القوى فى النفس ، يتهيأ النجاحُ السياسىُّ للشعب الحافِظ عليه المنتصِرِ له ؛ إذ يكون من الخِلال الطبيعيةِ فى زُعمائه ورِجاله الثباتُ على النزعة السياسية ، والصلابة فى الحق ، والإيمانُ بمجد العمل ، وتغليبُ ذلك على الأحوال المادية التى تعترض ذا الرأيِ لتفتِنَه عن رأيِه ومذهبِه : من مالٍ ، أو جاه ، أو منصب ، أو موافقةِ الهوى ، أو خشيةِ النقمة ، أو خوفٍ لوعيد ، إلى غيرها من كل مايستميلُ به الباطلُ أو يُرْهِبُ به الظلم

ولا يذهبنَّ عنك أن الرجلَ المؤمنَ القويَّ الايمان الممتلئَ ثقةً ويقيناً ووفاءً وصدقاً وعزماً وإصراراً على فضيلته وثَباتاً على مايلقَى فى سبيلها — لايكونُ رجلا كالناس ، بل هو رجـلُ الاستقلالِ الذى واجبُه جزءٌ من طبيعته وغايتُه الساميةُ لاتنفصلُ عنه ، هو رجلُ صِدْقِ المبدإ ، وصدقِ الكلمة ، وصدقِ الأمل ، وصدقِ النَّزعة ؛ وهو الرجلُ الذى ينفجرُ فى التاريخ كلما احتاجت الحياة الوطنيةُ إلى إطلاق قنابلها للنصر

✡ ✡ ✡

والعاداتُ هى الماضى الذى يعيشُ فى الحاضر ، وهى وحْدةٌ تاريخيّةٌ فى الشعب ، تجمعُه كما يجمعُه الأصلُ الواحد ؛ ثم هى كالدين فى قيامها على أساس

أدبى فى النفس ؛ وفى اشتمالها على التحريم والتحليل ؛ وتكاد عاداتُ الشعب تكونُ ديناً ضيقاً خاصًّا به ، يَحصُرُه فى قَبِيلِه ووطنه ، ويحقق فى أفراده الأُلفة والتَّشابُك ، ويأخذُهم جميعاً بمذهبٍ واحد : هو إجلالُ الماضى

وإجلالُ الماضى فى كل شعب تاريخى هو الوسيلةُ الروحيةُ التى يَستوحى بها الشعبُ أبطالَه ، وفلاسفتَه ، وعلماءَه ، وأدباءَه ، وأهلَ الفنِّ منه ؛ فيُوحون إليه وَحْىَ عظائمهم التى لم يغلبها الموت ؛ وبهذا تكون صُوَرُهم العظيمةُ حيّةً فى تاريخه ، وحيّةً فى آماله وأعصابه

والعاداتُ هى وحدها التى تجعلُ الوطنَ شيئاً نفسياً حقيقياً ؛ حتى ليشعرُ الانسان أنَّ لأرضِه أُمومةَ الأمّ التى وَلَدَتْه ، ولقومِه أُبوةَ الأبِ الذى جاء به إلى الحياة ؛ وليس يَعرف هذا إلا من اغتربَ عن وطنه وخالَطَ غيرَ قومه ، واستَوْحشَ من غير عاداته ؛ فهناك ، هُناك يُثبتُ الوطنُ نفسَه بعظمةٍ وجَبَروتٍ كأنه وحدَه هو الدنيا

وهذه الطبيعةُ الناشئةُ فى النفس من أثر العادات هى التى تُدَبِّهُ فى الوطنى رُوحَ التميُّز عن الأجنبى ، وتُوحشُ نفسَه منه كأنها حاسّةُ الأرض تنبِّه أهلَها وتُنذِرُهم الخَطَر

ومتى صدقت الوطنيةُ فى النفس أقرَّت كلَّ شىء أجنبىٍّ فى حقيقته الأجنبية ؛ فكان هذا هو أولَ مظاهرِ الاستقلال ، وكان أقوى الذرائع إلى المجد الوطنى

☆ ☆ ☆

وباللغة والدين والعادات ، ينحصرُ الشعبُ فى ذاته السامية بخصائصها ومقوِّماتها ، فلا يَسْهُل انتزاعُه منها ولا انتسافُه من تاريخه ؛ وإذا أُلجِئَ إلى حالٍ من القهر لم يَنْخَذِلْ ولم يَتَضَعْضَع ، واستمر يعمل ماتعمله الشَّوكةُ الحادّة : إن لم تُترَكْ لنفسها ، لم تُعطِ من نفسِها إلا الوَخْزَ . . . .

تجديد الاسلام[1]

رسالة الأزهر فى القرن العشرين[*]

(الأزهر) ، هذه هى الكلمةُ التى لا يقابلُها فى خَيال الأمة المصرية إلا كلمةُ (الهَرَم) ؛ وفى كلتا اللفظتين يَكمُنُ سر خَفِىٌّ من أسرار التاريخ التى تجعلُ بعضَ الكلمات ميراثاً عقليّا للأمة ، يُنْسِى مادةَ اللغة فيها ولا يُبْقِى منها إلا مادةَ النفس ؛ إذ تكونُ هذه الكلماتُ تعبيراً عن شىء ثابتٍ ثباتَ الفكرة التى لا تتغير ، مستقِرٍّ فى الروح القوميةِ استقرارَه فى الزمن ، متجسِّمٍ من معناه كأن الطبيعةَ قد أفردتْه بمادته دونَ ما يشاركه فى هذه المادة ؛ فالحجرُ فى الهَرَم الأكبر يكاد يكونُ فى العقل زماناً لا حجَراً ، وفنّا لا جسما ؛ والمكان فى الأزهر يَغيبُ فيه معنى المكان وينقلبُ إلى قوةٍ عقلية ساحرة تُوجِدُ فى المنظور غيرَ المنظور

وعندى أن الأزهر فى زماننا هذا يكادُ يكونُ تفسيرًا جديدا للحديث : « مِصْرُ كِنانةُ اللهِ فى أرضه » ، فعلماؤه اليومَ أسهُمٌ نافذةٌ من أسهُمِ الله يَرمى بها من أراد دينَه بالسوء ، فيُمْسِكها للهَيْبة ويَرمى بها للنصر ؛ ويجبُ أن يكونَ هذا المعنى أولَ معانيهم فى هذا القرن العشرين الذى ابتُلى بمِلْءِ عشرين قرناً من الجُرأة على الأديان وإهمالِها والإلحادِ فيها

أولُ شىء فى رسالة الأزهر فى القرن العشرين ، أن يكونَ أهلُه قوةً إلٰهيّةً

---

(١) أنشأها للمسابقة الأدبية العامة

(*) لم نتكلم فى هذه المقالة عن اللغة والأدب وتفصيل علوم الأزهر : لأن هذه هى مادة الأزهر لارسالته الجديدة فى رأينا .

مُعَدَّةً للنصر ، مهيَّأَةً للنِّضال ، مسدَّدةً للإصابة ، مقدَّرةً فى طبيعتها أحسنَ تقدير ، تُشْعِر الناسَ بالاطمئنان إلى عملها ، وتُوحى إلى كل من يراها الإيمانَ الثابت بمعناها ؛ ولن يأتىَ لهم هذا إلا إذا انقلبوا إلى طبيعتهم الصحيحة ، فلا يكونُ العلمُ تحرُّفًا ولا مِهْنَةً ولا مَكْسَبة (٥) ، ولا يكون فى أوراق الكُتُب خيالُ (أوراق البنك) .... بل تظهرُ فيهم العَظَمة الروحانيةُ آمرةً ناهيةً فى المادة ، لا مأمورةً منهيةً بها ؛ ويرتفع كل منهم بنفسه ، فيكون مُقَرِّرَ خُلُقٍ فى الحياة قبل أن يكونَ معلِّم علم فى الحياة ، لينبثَّ منهم مغناطيسُ النبوَّة يجذبُ النفوسَ بهم أقوى مما تجذبُها ضَلالاتُ العصر ؛ فما يحتاج الناسُ فى هذا الزمن إلى العالِم — وإن الكُتُبَ والعلومَ لَتملأ الدنيا — وإنما يحتاجون إلى ضميرِ العالِم

وقد عجزت المدنية أن تُوجِدَ هذا الضمير ، مع أن الإسلامَ فى حقيقته ليس شيئًا إلا قانونَ هذا الضمير ، إذ هو دينٌ قائم على أن الله لا ينظرُ من الإنسان إلى صورته ولكن إلى عمله ؛ فأولُ ماينبغى أن يحملَه الأزهرُ من رسالته ، ضمائرُ أهلِه

والناسُ خاضعون للمادة بقانونِ حياتهم . وبقانونٍ آخرَ هو قانون القرن العشرين ... فهم من ثَمَّ فى أشدِّ الحاجة إلى أن يجدوا بينهم المتسلِّط على المادة بقانونِ حياته ؛ ليرَوْا بأعينهم القُوَى الدنيئةَ مغلوبة ، ثم ليجدوا فى هذا الانسانِ أساسَ القدوةِ والاحتذاءِ ، فيتَّصلوا منه بقوتين : قوةِ التعليم ، وقوةِ التحويل .

وهذا هو سِرُّ الاسلام الأول الذى نَفَذَ به من أمةٍ إلى أمةٍ ولم يقم له شىء يَصدُّه ، إذ كان ينفُذُ فى الطبيعةِ الانسانية نفسِها

---

(٥) أى احتراف العلم للتكسب به كما نراه اليوم

✡ ✡ ✡

ومن أخصّ واجباتِ الأزهر فى هذا القرن العشرين، أن يعملَ أولَ شىء لاقرار معنى الاسلام الصحيح فى المسلمين أنفسِهم، وإن أكثرهم اليومَ قد أصبحوا مسلمين بالنّسب لا غير ... وما منهم إلا من هو فى حاجة إلى تجديد إسلامِه.

والحكوماتُ الإسلاميةُ عاجزة فى هذا، بل هى من أسباب هذا الشر؛ لأن لها وجودًا سياسيا ووجودا مدنيًّا؛ أما الأزهر فهو وحدَه الذى يصلح لإتمام نقصِ الحكومة فى هذا الباب، وهو وحده الذى يَسَعُه ما تَعجز عنه؛ وأسبابُ نجاحه مُهيَّأة ثابتة إذ كان له بقوة التاريخ حكمُ الزّعامةِ الاسلامية، وكانت فيه عند المسلمين بقيةُ الوحى على الأرض، ثم كان هو صورةَ المزاج النفسىِّ الاسلامىِّ المحض؛ بَيْدَ أنه فرّط فى واجب هذه الزعامة، وفقد القوةَ التى كان يحكم بها، وهى قوةُ المثَل الأعلى التى كانت تجعلُ الرجلَ من علمائه كما قلنا مرة: إنسانًا تتخيَّره المعانى السياسية تَظهرُ فيه بأسلوب عملىّ، فيكونُ فى قومه ضَربا من التربية والتعلم بقاعدةٍ مُنتزَعة من مثالها، مشروحةٍ بهذا المثال نفسِه.

والعقيدةُ فى سواد الناس بغير هذا المثَلِ الأعلى هى أولُ مغلوبٍ فى صراع قُوى الحياة

لقد اعتاد المسلمون من قديم أن يجعلوا أبصارَهم إلى علماء الأزهر، فهم يتَّبعونهم، ويتأسَّوْنَ بهم، ويمنحونهم الطاعةَ، وينزلون على حكمهم، ويلتمسون فى سيرتهم التفسيرَ لمشكلات النفس، ويعرفون بهم معنى صِغَر الدنيا ومعنى كِبَر الأعمالِ العظيمة؛ وكان غنى العالِم الدينىّ شيئا غيرَ المال، بل شيئا أعظمَ من المال؛ إذ كان يجد حقيقة الغنى فى إجلال الناسِ لفقرِه

كأنه مُلكٌ لافقر ؛ وكان زُهدُه قوةً حاكمةً فيها الصلابةُ والشدةُ والهيبة والسموُّ، وفيها كلُّ سلطانِ الخيرِ والشر، لأن فيها كلَّ النزعات الاستقلالية ؛ ويكادُ الزهدُ الصحيحُ يكونُ هو وحده القوةَ التي تجعل علماءَ الدينِ حقائقَ وثَروةً عاملةً في حياة الناس أغنيائهم وفقرائهم، لاحقائقَ متروكةً لنفسها يُوحِش الناسَ منها أنها متروكةٌ لنفسها

✡ ✡ ✡

وعلماءُ الأزهر في الحقيقة هم قوانينُ نفسيَّةٌ نافذةٌ على الشَّعب، وعملُهم أردُّ على الناس من قوانينِ الحكومةِ، بل هم التصحيح لهذه القوانين إذا جَرَت الأمورُ على عِلَلِها وأسبابِها ؛ فيجب عليهم أن يحققوا وجودَهم، وأن يتناولوا الأمةَ من ناحيةِ قلوبها وأرواحِها، وأن يُعِدُّوا تلاميذَهم في الأزهر كما يُعِدُّون القوانينَ الدقيقةَ، لاطلاَّباً يرتزقون بالعلم

أين صوتُ الأزهرِ وعملُه في هذه الحياة المائجةِ بما في السَّطح وما في القاع ... وأين وحيُ هذه القوةِ التي مِيثاقُها أن تجعلَ النبوَّةَ كأنها شيء واقعٌ في الحياة العصرية لاخبرٌ تاريخيٌّ فيها ؟

لقد أصبح إيمانُ المسلمين كأنه عادةُ الإيمانِ لا الايمانَ نفسُه؛ ورجع الاسلامُ في كتُبه الفقهية وكأنه أديانٌ مختلفة متناقِضة لادينٌ واحد. فرسالةُ الأزهر أن يجددَ عملَ النبوة في الشعب، وأن ينَقّيَ عملَ التاريخ في الكتُب، وأن يُبطِلَ عملَ الوثنية في العادات، وأن يُعطي الأمةَ دينَها الواضحَ السمْحَ الميسَّرَ، وقانونَها العمليَّ الذي فيه سعادتُها وقُوَّتُها

ولا وسيلةَ إلى ذلك إلا أن يكونَ الأزهرُ جريئاً في قيادة الحركةِ الروحية الاسلامية، جريئاً في عمله لهذه القيادة، آخذًا بأسباب هذا العمل، مُلِحًّا في طلبِ هذه الأسباب، مُصِرًّا على هذا الطلب؛ وكلُّ هذا يكونُ عبثا إن لم يكن

رجالُ الأزهر وطلبته أمثلةً من الأمثلة القوية فى الدين والخُلق والصلابة ، لتبدأ الحالةُ النفسيةُ فيهم ، فإنها إن بدأت لا تقف ؛ والمثل الأعلى حاكمٌ بطبيعته على الانسانية ، مُطاعٌ بحكمه فيها ، محبوبٌ بطاعتها له

والمادةُ المطهِّرةُ للدين والأخلاق لاتجدُها الأمة إلا فى الأزهر . فعلى الأزهر أن يثبت أن فيه تلك المادة بإظهارِ عملِها لا بإلصاقِ الورقة المكتوبِ فيها الاسمُ على الزجاجة ...

ومن ثَمّ يكونُ واجبُ الأزهر أن يطلبَ الاشرافَ على التعليم الاسلامى فى المدارس ، وأن يدفعَ الحركةَ الدينيه دفعًا بوسائلَ مختلفة ، أولُها أن يحملَ وزارة المعارف على إقامة فرض الصلاة فى جميع مدارسها ، من مدرسة حرية الفكر ... فنازلاً : والأمة الاسلامية كلها تَنشُدُ رأى الأزهر فى هذا

وإذا نحن استخرجنا التفسيرَ العمليَّ لهذه الآية الكريمة : « ادعُ إلى سبيلِ ربك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة » ، دلَّتنا الآيةُ بنفسها على كل تلك الوسائل ، فما الحكمة هنا إلا السياسة الاجتماعية فى العمل ، وليست الموعظة الحسنة إلا الطريقة النفسية فى الدعوة .

العلماءُ ورثةُ الأنبياء ؛ وليس النبىُّ من الأنبياء إلا تاريخَ شدائدَ ومِحَن ، ومجاهدةٍ فى هداية الناس ، ومُراغمَة للوجود الفاسد ، ومكابَدةِ التصحيحِ للحالة النفسية للأمة ؛ فهذا كلّه هو الذى يُورَثُ عن الأنبياء لا العلمُ وتعليمُه فقط .

✡ ✿ ✡

وإذا قامت رسالة الأزهر على هذه الحقائق ، وأصبح وجودُه هو المعنى المتمِّمَ للحكومة ، المعاوِن لها فى ضبط الحياة النفسية للشعب وحياطتِها وأمنِها ورَفاهتها واستقرارِها — اتجهتْ طبيعتُه إلى أداء رسالته الكبرى للقرن العشرين ،

بعد أن يكونَ قد حقق الذرائعَ إلى هذه الرسالة ، من فتح باب الاجتهاد ، وتنقية التاريخ الفقْهى ، وتهذيب الروح الإسلامى والسموّ به عن المعانى الكلامية الجدَلية السخيفة ؛ ثم استخراج أسرار القرآن الكريم المكتنَّة فيه ، لهذه العصور العلمية الأخيرة ؛ وبعد أن يكون قد اجتمعت فيه القوةُ التى تُمسِك الإسلامَ على سمْته بين القديم والجديد ، لاينكره هذا ولا يغيره ذاك ؛ وبعد أن يكونَ الأزهر قد استفاض على العالَم العربى بكُتُبه ودُعاتِه ومبعوثيه من حاملى علمه ورُسُلِ إلهامه .

أما تلك الرسالةُ الكبرى فهى بثُّ الدعوة الاسلامية فى أوربا وأمريكا واليابان ، بلغات الأوربيين والأمريكيين واليابانيين ، فى ألسنةٍ أزهريةٍ مُرْهَفة مصقولةٍ ، لها بيانُ الأدب ، ودقةُ العلم ، وإحاطةُ الفلسفة ، وإلهامُ الشعر ، وبصيرةُ الحكمة ، وقدرة السياسة ؛ ألسنة أزهرية لايُوجَد الآن منها لسانٌ واحدٌ فى الأزهر ، ولكنها لن توجدَ إلا فى الأزهر ؛ ولا قيمةَ لرسالته فى القرن العشرين إذا هو لم يُوجدها فتكونَ المتكلمة عنه ، والحاملةَ لرسالته . وما هذه البعثات التى قرر الأزهر ابتعاثَها إلى أوروبا إلا أولُ تاريخ تلك الألسنة

إن الوسيلةَ التى نَشرت الاسلامَ من قبلُ لم تكن أجنحة الملائكة ، ولا كانت قوةً من جهنم ؛ ولا تزال هى هى التى تنشره ؛ فليس مستحيلا ولا متعذراً أن يغزوَ هذا الدينُ أوربا وأمريكا واليابان كما غزا العالَم القديم . ولم يكن السلاحُ من قبل إلا طريقة لايجاد إسلام فى الأمة الغريبة عنه ، حتى إذا وُجد تولَّى هو الدعوة لنفسه بقوة الناموس الطبيعى القائم على أن الأصلح هو الأبقى ، وانحازَتْ إليه الانسانية لأنه قانون طبيعتِها السليمة ، ودينُ فطرتها القوية ؛ وقد ظلَّ الإسلامُ ينتشر ولم يكن يحمُله إلا التاجر ،

كما كان ينتشرُ وحامله الجيش ؛ فليس علينا إلا تغييرُ السلاح في هذا العصر وجعله سلاحاً من فلسفة الدين وأسرار حكمته ؛ فهذا الدينُ كما قلنا في بعض كلامنا [1]: أعمالٌ مفصّلة على النفس أدقّ تفصيل وأوفاه بمصلحتها، فهو يُعطى الحياةَ في كل عصرٍ عقلها العَمَلى الثابتَ المستقر تُنظّم به أحوالَ النفس على مَيْزة وبصيرة ، ويَدَعُ للحياة عقلها العلميَّ المتجدِّد المتغير تنظّم به أحوالَ الطبيعه على قَصْد وهُدى ؛ وهذه هى حقيقه الإسلام فى أخصّ معانيه : لا يُغنى عنه فى ذلك دينٌ آخر، ولا يؤدّى تأديتَه فى هذه الحاجة أدبٌ ولا علم ولا فلسفة ، كأنما هو نَبْعٌ فى الأرض لمعانى النور ، بإزاءِ الشمسِ نبعِ النور فى السماء

ليس على الأزهر إلا أن يُوجِدَ من الإسلام فى تلك الأمم مايستمرّ ، ثم الاستمرارُ هو يُوجِدُ ما يَثبت ، والثباتُ يوجد مايدوم ؛ وكأن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قد أشار إلى هذا فى قوله : نَضّر الله امرأً سمع منى شيئاً فبلّغَه كما سمعه ، فربَّ مُبلَّغ أوعى له من سامع

أما والله إن هذا المبلَّغ الذى هو أوعى له من السامع لن يكونَ فى التاريخ بأدق المعنى إلا أوربا وأمريكا فى هذا الزمن العلمى إذا نحن عرفنا كيف نبلّغ

أنا مستيقنٌ أن فيلسوفَ الإسلام الذى سينتشر الدين على يده فى أوربا وأمريكا لن يخرجَ إلا من الأزهر ، وما كان الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله إلا أول التطور المنتهى إلى هذه الغاية ، وسيكون عمل فلاسفة الأزهر استخراج قانون السعادة لتلك الامم من آداب الإسلام وأعماله ؛ ثم مخاطبةَ الأمم بأفكارها وعواطفها ، والإفضاءَ من ذلك إلى

---

(١) انظر مقالة « الإشراق الإلهى » ص ٤ ج ٢ « وحى القلم »

ضميرِها الاجتماعى فإن أولَ الدين هناك أسلوبُه الذى يظهر به

✿ ✿ ✿

هذه هى رسالة الازهر فى القرن العشرين ، ويجب أن يتحقَّقَ بوسائلها من الآن ؛ ومن وسائلها أن يُعالِنَ بها لتكونَ مَوْثِقاً عليه . ويحسنُ بالأزهر فى سبيل ذلك أن يضمَّ إليه كلَّ مفكر إسلامى ذى إلهامٍ أو بحثٍ دقيق أو إحاطةٍ شاملة ؛ فتكون له ألقابٌ علميه يمنحهم إياها وإن لم يتخرجوا فيه ، ثم يستعينُ بعلمهم وإلهامِهم وآرائهم

وبهذه الألقاب يمتدّ الأزهر إلى حدود فكرية بعيدة ، ويصبح أوسعَ فى أثره على الحياة الإسلامية ، ويحقق لنفسه المعنى الجامعى

وفى تلك السبيلِ يجبُ على الأزهر أن يختارَ أياما فى كل سنة يجمعُ فيها من المسلمين (قرش الإسلام) : ليَجِدَ مادةَ النفقة الواسعة فى نشر دين الله ، وليس على الأرض مسلم ولا مسلمة لا يبسُط يده ، فما يحتاجُ هذا التدبيرُ لأكثرَ من إقراره وتنظيمِه وإعلانِه فى الأمم الإسلامية ومواسِمها الكبرى ، وخاصة موسم الحج

وهـذا العمل هو نفسُه وسيلةٌ من أقوى الوسائل فى تنبيه الشعور الإسلامى ، وتحقيقِ المعاونة فى نشر الدين وحياطته ؛ وعسى أن تكونَ له نتائج اجتماعية لاموضعَ لتفصيلها هنا ، وعسى أن يكون (قرش الإسلام) مادةً لأعمال إسلامية ذاتِ بال ، وهو على أى الأحوال صلةٌ روحيةٌ تجعلُ الأزهرَ كأنه مُعْطِيه لكلِّ مسلمٍ لا آخِذه

والخلاصة أن أول رسالة الأزهر فى القرن العشرين ، اهتداءُ الأزهر إلى حقيقة موضعِه فى القرن العشرين : « وجاءك فى هـذه الحقُّ وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين » .

الأســـــد

جلس أبو علي أحمد بن محمد الرُّوذَبَادي البغدادي (*) في مجلس وعظه بمصر بعد وفاة شيخه أبي الحسن بُنَان الحمال الزاهد الواسطي شيخ الديار المصرية (**) وكان يُضرب المثل بعبادته وزهده، وقد خرج أكثرُ أهل مصر في جنازته، فكان يومه يوماً كالبرهان من العالم الآخر لأهل هذه الدنيا؛ مابقي أحد إلا اقتنع أنه في شهوات الحياة وأباطيلها كالأعمى في سوء تمييزه بين لون التراب ولون الدقيق؛ إذ ينظر كل امرئ في مصالحه ومنافعه مثل هذه النظرة، باللمس لا بالبصر، وبالتوهم لا بالتحقيق، وعلى دليل نفسه في الشيء لا على دليل الشيء في نفسه، وبالإدراك من جهة واحدة دون الإدراك من كل جهة؛ ثم يأتي الموتُ فيكون كالماء صُبَّ على الدقيق والتراب جميعاً، فلا يرتاب مبصر ولا أعمى، ويبطل ماهو باطل ويحق الذي هو حق.

وتكلم أبو علي فقال: كنت ذات يوم عند شيخنا الجنيد (***) في بغداد، فجاءه كتاب من يوسف بن الحسن شيخ الريّ والجبال في وقته (****) يقول فيه: لاأذاقك الله طعمَ نفسك، فإنك إن ذقتها لم تذق بعدها خيراً

(*) توفي سنة ٣٢٢

(**) توفي سنة ٣١٦

(***) توفي سنة ٢٩٨

(****) كانت وفاته سنة ٣٠٤

أبداً ! قال : فجعلت أفكر فى طعم النفس ماهو ، وجاءنى مالم أرضه من الرأى ، حتى سمعت بخبر بُنان رحمه الله مع أحمد بن طولون أمير مصر ، فهو الذى كان سبب قدومى إلى هنا لأرى الشيخ وأصحبه وأنتفع به .

والبلد الذى ليس فيه شيخ من أهل الدين الصحيح والنفس الكاملة والأخلاق الإلهية ، هو فى الجهل كالبلد الذى ليس فيه كتاب من الكتب ألبتة وإن كان كل أهله علماء ، وإن كان فى كل محلة منه مدرسة ، وفى كل دار من دوره خزانة كتب ؛ فلا تغنى هذه الكتب عن الرجال ؛ فإنما هى صواب أو خطأ ينتهى إلى العقل ، ولكن الرجل الكامل صوابٌ ينتهى إلى الروح ، وهو فى تأثيره على الناس أقوى من العلم ، إذ هو تفسير الحقائق فى العمل الواقع وحياتها عاملةً مرئيةً داعيةً إلى نفسها ؛ ولو أقام الناس عشر سنين يتناظرون فى معانى الفضائل ووسائلها ، ووضعوا فى ذلك مائة كتاب ، ثم رأوا رجلا فاضلا بأصدق معانى الفضيلة ، وخالطوه وصحبوه ــ لكان الرجل وحده أكبر فائدةً من تلك المناظرة وأجدى على الناس منها وأدلَّ على الفضيلة من مائة كتاب ومن ألف كتاب ؛ ولهذا يرسل الله النبيَّ مع كل كتاب منزل ليعطى الكلمة قوة وجودِها ، ويخرج الحالة النفسية من المعنى المعقول ، وينشئ الفضائل الانسانية على طريقة النسل من إنسانها الكبير .

وما مثل الكتاب يتعلم المرءُ منه حقائقَ الأخلاق العالية ، إلا كوضع الانسان يدَه تحت إبطه ليرفع جسمه عن الأرض ؛ فقد أنشأ يعمل ولكنه لن يرتفع ؛ ومن ذلك كان شر الناس هم العلماءَ والمعلمين إذا لم تكن أخلاقهم دروساً أخرى تعمل عملا آخر غير الكلام ؛ فإن أحدهم ليجلس مجلس المعلم ثم تكون حوله رذائله تعلِّم تعليما آخر من حيث يدرى ولا يدرى ،

ويكون كتاب الله مع الانسان الظاهر منه، وكتابُ الشيطان مع الانسان الخفيّ فيه .

* * *

قال أبو علي : وقدمتُ إلى مصر لأرى أبا الحسن وآخذ عنه وأحقق ماسمعت من خبره مع ابن طولون ؛ فلما لقيته لقيت رجلا من تلاميذ شيخنا الجنيد ، يتلألأ فيه نوره ويعمل فيه سِرُّه ؛ وهما كالشمعة والشمعة فى الضوء وإن صغرت واحدة وكبرتْ واحدة ؛ وعلامة الرجل من هؤلاء أن يعمل وجودُه فيمن حوله أكثر مما يعمل هو بنفسه، كأن بين الأرواح وبينه نسباً شابكا ، فله معنى أبوة الأب فى أبنائه : لايراه من يراه منهم إلا أحسَّ أنه شخصه الأكبر : فهذا هو الذى تكون فيه التكملة الانسانية للناس ، وكأنه مخلوق خاصة لاثبات أن غير المستطاع مستطاع .

ومن عجيب حكمة الله أن الأمراض الشديدة تعمل بالعدوَى فيمن قارَبها أو لامسها ، وأن القُوى الشديدة تعمل كذلك بالعدوى فيمن اتصل بها أو صاحبها : ولهذا يخلق الله الصالحين ويجعل التقوى فيهم إصابة كاصابة المرض : تصرف عن شهوات الدنيا كما يصرف المرض عنها ، وتكسر النفس كما يكسرها ذاك ، وتُفقد الشيء ماهو به شيء ، فتتحول قيمتُه ، فلا يكون بما فيه من الوهم بل بما فيه من الحق .

وإذا عدِم الناس هذا الرجل الذى يعديهم بقوته العجيبة فقلّما يصلحون للقوة ، فكبار الصالحين وكبار الزعماء وكبار القواد وكبار الشجعان وكبار العلماء وأمثالهم – كل هؤلاء من باب واحد ؛ وكلهم فى الحكمة ككبار المرضى .

* * *

قال أبو على : وهممت مرة أن أسأل الشيخ عن خبره مع ابن طولون، فقطعتْنى هيبتُه ، فقلت : أحتال بسؤاله عن كلمة شيخ الرى : « لاأذاقك الله طعم نفسك » ؛ وبينما أهيئ فى نفسى كلاما أجرى فيه هـذه العبارة ، جاء رجل فقال للشيخ : لى على فلان مائة دينار ، وقد ذهبت الوثيقة التى كتب فيها الدين ، وأخشى أن ينكر إذا هو علم بضياعها ؛ فادع الله لى وله أن يُظفرنى بدينى وأن يثبته على الحق . فقال الشيخ : إنى رجل قد كبرت وأنا أحب الحلوى، فاذهب فاشتر رطلا منها وائتنى به حتى أدعو لك !

فذهب الرجل فاشترى الحلوى ووضعها له البائع فى ورقة فإذا هى الوثيقة الضائعة ، وجاء إلى الشيخ فأخبره ، فقال له : خذ الحلوى فأطعمها صبيانك لا أذاقنا الله طعمَ أنفسنا فيما نشتهى ! ثم إنه التفت إلىَّ وقال : لو أن شجرة اشتهت غير مابه صحتُها وجودها وكمالُ منفعتها فأُذيقت طعم نفسها لأكلت نفسها وذَوَتْ .

✡ ✡ ✡

قال أبو على : والمعجزات التى تحدث للأنبياء ، والكرامات التى تكون للأتقياء ، وما يخرق العادة ويخرج عن النسق — كل ذلك كقول القدرة عن الرجل الشاذ : هو هـذا . فلم تبق بى حاجة إلى سؤال الشيخ عن خبره مع ابن طولون ، وكنت كأنى أرى بعينى رأسى كل ماسمعت ، بيد أنى لم أنصرف حتى لقيت أبا جعفر القاضى أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّينورى (*) ذاك الذى يحدِّث بكتب أبيه كلها من حفظه وهى واحد وعشرون مصنفاً فيها الكبير والصغير ؛ فقال لى : لعلك اشتفيت من خبر بنان مع ابن طولون، فمن أجله زعمتَ جئت إلى مصر . قلت : إنه تواضع فلم يخبرنى وهِبْتُهُ فلم

(*) توفى سنة ٣٢٢

أسأله . قال : تعال أحدثك الحديث .

كان أحمد بن طولون (*) من جارية تركيـة ، وكان طولون أبوه مملوكا حمله نوح بن أسد عامل بخارى إلى المأمون فيما كان موظفاً عليـه من المـال والرقيق والبراذين وغيرِ ذلك ؛ فولد أحمد فى منصب ذلة تستظهر بالطغيان ، وكانت هاتان طبيعتيه إلى آخر عمره ، فذهب بهمته مذهباً بعيداً ؛ ونشأ من أول أمره على أن يُتم هذا النقص ويكون أكبرَ من أصله ، فطلب الفروسية والعلم والحديث ، وصحب الزهاد وأهل الورع ، وتميز على الأتراك وطمح إلى المعالى ، وظل يرمى بنفسه ، وهو فى ذلك يكبر ولا يزال يكبر ، كأنما يريد أن ينقطع من أصله ويلتحق بالأمراء ، فلما التحق بهم ظل يكبر ليلحق بالملوك ، فلما بلغ هؤلاء كانت نيته على مايعلم الله

قال : وكان عقله من أثر طبيعتيه كالعقلين لرجلين مختلفين فله يد مع الملائكة ويده الأخرى مع الشياطين ، فهو الذى بنى المـارستان وأنفق عليه وأقام فيه الأطباء ، وشرط إذجىء بالعليل أن تنزع ثيابه وتحفظ عند أمين المارستان ، ثم يلبس ثياباً ويفرش له ويُغدى عليه ويراح بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبرأ ، ولم يكن هـذا قبل إمارته ؛ وهو أول من نظر فى المظالم من أمراء مصر ؛ وهو صاحب يوم الصدقة : يكثر من صدقاته كلما كثرت نعمة الله عليه ، ومراتبه لذلك فى كل أسبوع ثلاثة آلاف دينار سوى مطابخه التى أقيمت فى كل يوم فى داره وغيرها ، يذبح فيها البقر والكباش ويغرف للناس ، ولـكل مسكين أربعة أرغفة يكون فى اثنين منها فالوذج (**) وفى الآخرين من القدور ، وينادى : من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر ! وتفتح الأبواب ويدخل الناس

(*) كانت إمارة ابن طولون نحو ٢٦ سنة ، وتوفى سنة ٢٧٠

(**) نوع من الحلوى ، وهو ما يسميه العامة (البالوظة)

وهو فى المجلس ينظر إلى المساكين ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون، فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته؛ وكان راتب مطبخه فى كل يوم ألف دينار؛ واقتدى به ابنه خمارويه، فأنشأ بعده مطبخ العامة (*) ينفق عليه ثلاثة وعشرين ألف دينار كل شهر.

وقد بلغ ما أرسله ابنُ طولون إلى فقراء بغداد وعلمائها فى مدة ولايته ألفى ألف ومائتى ألف دينار. (**) وكان كثير التلاوة للقرآن، وقد اتخذ حجرة بقربه فى القصر وضع فيها رجالا سماهم بالمكبّرين، يتعاقبون الليل نوباً يكبرون ويسبحون، ويحمدون ويهللون، ويقرءون القرآن تطريباً، وينشدون قصائد الزهد، ويؤذنون أوقات الأذان؛ وهو الذى فتح أنطاكية فى سنة خمس وستين ومائتين، ثم مضى إلى طرسوس كأنه يريد فتحها، فلما نابذه أهلها وقاتلهم أمر أصحابه أن ينهزموا عنها، ليبلغ ذلك طاغيةَ الروم فيعلم أن جيوش ابن طولون على كثرتها وشدتها لم تقم لأهل طرسوس، فيكون بهذا كأنه قاتله وصدّه عن بلد من بلاد الإسلام، ويجعل هذا الخبر كالجيش فى تلك الناحية!

ومع كل ذلك فإنه كان رجلا طائش السيف، يجور ويعسف، وقد أُحصى من قتلهم صبراً أو ماتوا فى سجنه فكانوا ثمانية عشر ألفا؛ وأمر بسجن قاضيه بكار بن قتيبة فى حادثة معروفة وقال له: غرَّك قول الناس ما فى الدنيا مثل بكار؟ أنت شيخ قد خرِفت! ثم حبسه وقيده وأخذ منه جميع عطاياه مدة ولايته القضاء، فكانت عشرة آلاف دينار، قيل إنها وجدت فى بيت بكار

(*) هذا هو الأصل فى مطعم الشعب

(**) الدينار نصف جنيه مصرى فعدة ذلك مليون ومائة ألف جنيه، صدقاته على بغداد وحدها رحمه الله.

بختمها لم يمسها زهداً وتورُّعاً .

ولما ذهب شيخك أبو الحسن يعنفه ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر ، طاش عقله فأمر بالقائه إلى الأسد ، وهو الخبر الذى طار فى الدنيا حتى بلغك فى بغداد ...

* * *

قال : وكنت حاضرَ أمرِهم ذلك اليوم ، فجيء بالأسد من قصر ابنه خمارويه وكان خمارويه هذا مشغوفاً بالصيد ، لا يكاد يسمع بسبع فى غيضة أو بطن واد إلا قصده ومعه رجال عليهم لبود ، فيدخلون إلى الأسد ويتناولونه بأيديهم من غابه عَنوة وهو سليم ، فيضعونه فى أقفاص من خشب محكمة الصنعة يسع الواحد منها السبُع وهو قائم .

وكان الأسد الذى اختاروه للشيخ أغلظ ما عندهم ، جسيما ، ضارياً ، عارم الوحشية ، متزيِّل العضل ، شديد عصب الخلق ، هراساً ، فراساً ، أهرت الشدق يلوح شدقه من سعته وروعته كفتحة القبر ينبئ أن جوفه مقبرة ، ويظهر وجهه خارجاً من لبدته ، يهم أن ينقذف على من يراه فيأكله !

وأجلسوا الشيخ فى قاعة وأشرفوا عليه ينظرون ، ثم فتحوا باب القفص من أعلاه فجذبوه فارتفع ؛ وهجهجوا بالأسد يزجرونه ، فانطلق يزمجر ويزأر زئيراً تنشق له المرائر ، ويتوهم من يسمعه أنه الرعد ووراءه الصاعقة !

ثم اجتمع الوحش فى نفسه واقشعرّ ، ثم تمطى كالمنجنيق يقذف الصخرة ، فما بقى من أجَلِ الشيخ إلا طرفة عين ؛ ورأيناه على ذلك ساكناً مطرِقاً لا ينظر إلى الأسد ولا يحفل به ، وما منا إلا من كاد ينهتك حجاب قلبه من الفزع والرعب والإشفاق على الرجل .

ولم يَرُعْنا إلا ذهول الأسد عن وحشيته ، فأقعى على ذنبه ، ثم لصق بالأرض

هنيهة يفترش ذراعيه ، ثم نهض نهضة أخرى كأنه غير الأسد ، فمشى مترفقاً ثقيل الخطو تُسمع لمفاصله تعقعة من شدته وجسامته ، وأقبل على الشيخ وطفق يحتك به ويلحظه ويشمه كما يصنع الكلب مع صاحبه الذى يأنس به ، وكأنه يعلن أن هذه ليست مصاولة بين الرجل التقى والأسد ، ولكنها مبارزة بين إرادة ابن طولون وإرادة الله !

وضربته روح الشيخ فلم يبق بينه وبين الآدمى عمل ، ولم يكن منه بازاء لحم ودم ، فلو أكل الضوء والهواء والحجر والحديد ، كان ذلك أقرب وأيسر من أن يأكل هذا الرجل المتمثل فى روحانيته لا يحس لصورة الأسد معنى من معانيها الفاتكة ، ولا يَرَى فيه إلا حياةً خاضعة مسخرة للقوة العظمى التى هو مؤمن بها ومتوكل عليها ، كحياة الدودة والنملة وما دونها من الهوام والذر !

وورد النور على هذا القلب المؤمن يكشف له عن قرب الحق سبحانه وتعالى ، فهو ليس بين يدى الأسد ولكنه هو والأسد بين يدى الله ، وكان مندمجاً فى يقين هذه الآية : « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا » !

ورأى الأسد رجلا هو خوف الله ، فخاف منه ، وكما خرج الشيخ من ذاته ومعانيها الناقصة ، خرج الوحش من ذاته ومعانيها الوحشية ؛ فليس فى الرجل خوف ولاهم ولاجزع ولا تعلق برغبة ، ومن ذلك ليس فى الأسد فتك ولا ضراوة ولا جوع ولا تعلق برغبة .

ونسى الشيخ نفسه فكأنما رآه الأسد ميتاً ولم يجد فيه (أنا) التى يأكلها ، ولو أن خطرة من هم الدنيا خطرت على قلبه فى تلك الساعة أو اختلجت فى نفسه خالجةٌ من الشك ، لفاحت رائحة لحمه فى خياشيم الأسد فتمزق فى أنيابه ومخالبه .

* * *

قال : وانصرفنا عن النظر فى السبع إلى النظر فى وجـه الشيخ ، فإذا هو ساهم مفـكر ، ثم رفعوه وجعل كل منا يظن ظناً فى تفـكيره ، فمن قائل إنه الخوف أذهله عن نفسه ، وقائل إنه الانصراف بعقله إلى الموت ، وثالث يقول إنه سكون الفـكرة لمنع الحركة عن الجسم فلا يضطرب ، وزعم جماعة أن هذه حالة من الاستغراق يسحر بها الأسد ؛ وأكثرنا فى ذلك وتجارينا فيه ، حتى سأله ابن طولون : ما الذى كان فى قلبك وفيم كنت تفـكر ؟

فقال الشيخ : لم يكن علىَّ بأس ، وإنما كنت أفكر فى لعاب الأسد ، أهو طاهر أم نجس ......

أمراء للبيع ...

قال الشيخ تاج الدين محمد بن على الملقَّب طُوير الليل ، أحد أئمة الفقهاء بالمدرسة الظاهرية بالقاهرة (*) :

كان شيخنا الإمامُ العظيم شيخُ الإسلام تقى الدين بن مجد الدين بن دقيق العيد (**) لايخاطب السلطان إلا بقوله : (يا إنسان) ! فما يخشاه ولا يتعبّد له ولا يَنْحَلُه ألقابَ الجبروت والعظمة ولا يُزينه بالنفاق ولا يُداجيه كما يصنع غيره من العلماء ؛ وكان هذا عجيباً : غير أن تمام العجب أن الشيخ لم يكن

(*) توفى سنة ٧١٧ هـ

(**) كانت وفاته سنة ٧٠٢

يخاطب أحدا قط من عامة الناس إلا بهذا اللفظ عينه (يا إنسان) ؛ فما يعلو بالسلطان والأمراء ولا ينزل بالضعفاء والمساكين ، ولا يرى أحسنَ ما فى هؤلاء وهؤلاء إلا الحقيقةَ الإنسانية !

ثم كان لا يعظّم فى الخطاب إلا أئمة الفقهاء ، فإذا خاطب منهم أحدا قال له : (يا فقيه) ؛ على أنه لم يكن يسمح بهذا إلا لمثل شيخ الاسلام نجم الدين ابن الرفعة (٥) ، ثم يخص علاء الدين بن الباجى وحده بقوله (يا إمام) ؛ إذ كان آية من آيات الله فى صناعة الحجة ، لا يكاد يقطعه أحد فى المناظرة والمباحثة ؛ فهو كالبرهان : إجلاله إجلالُ الحق ، لأن فيه المعنى وتثبيتَ المعنى .

وقلت له يوما : يا سيدى ، أراك تخاطب السلطان بخطاب العامة ؛ فإن علوت قلت (يا إنسان) وإن نزلت قلت يا إنسان ؛ أفلا يُسخطه هذا منك وقد تذوّق حلاوة ألفاظ الطاعة والخضوع ، وخصه النفاق بكلمات هى ظلُّ الكلمات التى يوصف الله بها ، ثم جعله المُلك إنسانا بذاته فى وجود ذاته ، حتى أصبح من غيره كالجبل والحصاة : يستويان فى العنصر ويتباينان فى القدر ، وأقله مهما قلَّ هو أكثرها مهما عظمت ، ووجوده شيءٌ ووجودها شيء آخر ؟

فتبسم الشيخ وقال : يا ولدى ، إيش هذا ؟ إننا نفوس لا ألفاظ ، والكلمة من قائلها هى بمعناها فى نفسه لا بمعناها فى نفسها : فما يحسن بحامل الشريعة أن ينطق بكلام يرده الشرع عليه ؛ ولو نافق الدين لبطل أن يكون ديناً ، ولو نافق العالم الدينى لكان كل منافق أشرف منه ؛ فلطخة فى الثوب الأبيض ليست كلطخة فى الثوب الأسود ، والمنافق رجل مغطًّى فى حياته ، ولكن عالم الدين رجل مكشوف فى حياته لا مغطى ؛ فهو للهداية لا للتلبيس ، وفيه معانى النور لا معانى الظلمة ؛ وذاك يتصل بالدين من ناحية العمل ، فإذا نافق فقد

---

(٥) توفى سنة ٧١٠

كذب ؛ والعالم يتصل بالدين من ناحية العمل وناحية التبيين، فإذا نافق فقد كذب وغش وخان .

وما معنى العلماء بالشرع إلا أنهم امتدادٌ لعمل النبوة فى الناس دهرا بعد دهر ، ينطقون بكلمتها، ويقومون بحجتها، ويأخذون من أخلاقها كما تأخذ المرآة النور : تحويه فى نفسها وتلقيه على غيرها، فهى أداة لإظهاره وإظهار جماله معاً .

أتدرى ياولدى ما الفرق بين علماء الحق وعلماء السوء وكلهم آخذ من نورٍ واحد لايختلف ؟ إن أولئك فى أخلاقهم كاللوح من البلور : يُظهر النور نفسه فيه ويظهر حقيقته البلورية ؛ وهؤلاء بأخلاقهم كاللوح من الخشب يظهر النور حقيقته الخشبية لاغير!

وعالم السوء يفكر فى كتب الشريعة وحدها ، فيسهل عليه أن يتأول ويحتال ويغيِّر ويبدل ويظهر ويخفى ؛ ولكن العالم الحق يفكر مع كتب الشريعة فى صاحب الشريعة ، فهو معه فى كل حالة يسأله ماذا تفعل وماذا تقول ؟

والرجل الدينى لا تتحول أخلاقه ولا تتفاوت ولا يجىء كلَّ يوم من حوادث اليوم ، فهو بأخلاقه كلها، لايكون مرة ببعضها ومرة ببعضها ، ولن تراه مع ذوى السلطان وأهل الحكم والنعمة كعالم السوء هذا الذى لو نطقتْ أفعاله لقالت لله بلسانه : هم يعطوننى الدراهم والدنانير فأين دراهمك أنت ودنانيرك ؟

إن الدينار ياولدى إذا كان صحيحاً فى أحد وجهيه دون الآخر، أو فى بعضه دون بعضه، فهو زائف كله : وأهل الحكم والجاه حين يتعاملون مع هؤلاء يتعاملون مع قوة الهضم فيهم ... فينزلون بذلك منزلة البهائم : تقدم أعمالها لتأخذ لبطونها :

والبطن الآكل فى العالم السوء يأكل دين العالم فيما يأكله ...

فإذا رأيت لعلماء السوء وقارا فهو البلادة ، أو رقة فسمها الضعف ، أو مُحَاسنة فقل إنهـا النفاق ، أو سكوتا عن الظلم فتلك رشوة يأكلون بهـا !

☆ ☆ ☆

قال الإمام : وما رأيت مثل شيخى سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام (٥) فلقد كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شيئاً تصنعه طبيعته كما يصنع جسمه الحياة ، فلا يبالى هلك فيه أو عاش ، إذ هو فى الدم كالقلب : لا تناله يد صاحبه ولا يد غيره ؛ ولم يتعلق بمـال ولا جاه ولا ترف ولا نعيم ، فكان تجرده من أوهام القوة لا تَغلب ؛ وانتزع خوف الدنيا من قلبه فعمرته الروح السماوية التى تخيف كل شىء ولا تخاف ؛ وكان بهـذه الروح كأنه تحويل وتبديل فى طباع الناس ، حتى قال الملك الظاهر بيبرس وقد رأى كثرة الخلق فى جنازته حين مرت تحت القلعة : الآن استقر أمرى فى الملك ، فلو أن هذا الشيخ دعا الناس إلى الخروج علىّ لانتزع منى المملكة !

وكان سلطانه فى دمشق الصالح إسماعيل ، فاستنجد بالافرنج على الملك نجم الدين أيوب سلطان مصر ؛ فغضب الشيخ وأسقط اسم الصالح من الخطبة وخرج مهاجرا ، فأتبعه الصالحُ بعضَ خواصه يتلطف به ويقول له : ما بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وأكثرَ ممـا كنت عليه إلا أن تتخشع للسلطان وتقبل يده . فقال له الشيخ : يامسكين ! أنا لا أرضى أن يقبل السلطان يدى ! أنتم فى واد وأنا واد !

ثم قدم إلى مصر فى سنة ٦٣٩ ، فأقبل عليه السلطان نجم الدين أيوب

(٥) هو الإمام العظيم شيخ الاسلام عبد العزيز بن عبد السلام بركة الدنيا فى عصره ، توفى سنة ٦٦٠

وتَحفّى به وولاه خطابة مصر وقضاءها ، وكان أيوب ملكا شديد البأس ، لا يجسر أحد أن يخاطبه إلا مجيباً ، ولا يتكلم أحد بحضرته ابتداء ؛ وقد جمع من المماليك الترك ما لم يجتمع مثله لغيره من أهل بيته ، حتى كان أكثر أمراء عسكره منهم ، وهم معروفون بالخشونة والبأس والفظاظة والاستهانة بكل أمر ؛ فلما كان يوم العيد صعد إليه الشيخ وهو يعرض الجند ويُظهر ملكه وسطوته والأمراء يقبلون الأرض بين يديه ؛ فناداه الشيخ بأعلى صوته ليسمع هذا الملأ العظيم : يا أيوب ! ثم أمره بإبطال منكر انتهى إلى علمه فى حانة تباع فيها الخمر ؛ فرسم السلطان لوقته بإبطال الحانة واعتذر إليه

فحدثنى الباجى قال : سألت الشيخ بعد رجوعه من القلعة وقد شاع الخبر ، فقلت : يا سيدى ، كيف كانت الحال ؟

قال : يابنى ، رأيته فى تلك العظمة فخشيت على نفسه أن يدخلها الغرور فتبطره فكان ما باديته به .

قلت : أما خِفته ؟

قال : يا بنى ، استحضرتُ هيبةَ الله تعالى فكان السلطان أمامى كالقط (*) .

ولو أن حاجة من الدنيا كانت فى نفسى لرأيته الدنيا كلّها ؛ بيد أنى نظرت بالآخرة فامتدت عينى فيه إلى غير المنظور للناس ، فلا عظمة ولا سلطان ولا بقاء ولا دنيا ، بل هو لا شىء فى صورة شىء .

نحن ياولدى مع هؤلاء كالمعنى الذى يصحح معنى آخر ، فإذا أمرناهم فالذى يأمرهم فينا هو الشرع لا الإنسان ؛ وهم قوم يرون لأنفسهم الحق فى إسكات الكلمة الصحيحة أو طمسها أو تحريفها ؛ فما بد أن يقابَلوا من العلماء والصالحين بمن يرون لأنفسهم الحق فى إنطاق هذه الكلمة وبيانها وتوضيحها ؛

(*) هذه كلمات الشيخ بحروفها .

فإذا كان ذلك فههنا المعنى بإزاء المعنى : فلا خوف ولا مبالاة ولا شأن للحياة والموت

وإنما الشر كل الشر أن يتقدم إليهم العالم لحظوظ نفسه ومنافعها ، فيكون باطلا مزوّراً فى صورة الحق ؛ وههنا تكون الذات مع الذات ، فيخشع الضعف أمام القوة ، ويذل الفقر بين يدى الغِنى ، وترجو الحياة لنفسها وتخشى على نفسها ؛ فإذا العالم من السلطان كالخشبة البالية النخرة حاولتْ أن تقارع السيف !

كلا ياولدى ! إن السلطان والحكام أدوات يجب تعيين عملها قبل إقامتها ، وإذا تفككت واحتاجت إلى مسامير دُقت فيها المسامير ؛ وإذا انفتق الثوب فمن أين للإبرة أن تسلك بالخيط الذى فيها إذا هى لم تخزْه ؟

إن العالم الحق كالمسمار : إذا أوجد المسمار لذاته دون عمله كفرتْ به كلُّ خشبة ...

* * *

قال الإمام تقى الدين : وطغى الأمراء من المماليك وثقلت وطأتهم على الناس ؛ وحيثما وُجدت القوة المسلطة المستبدة جعلت طغيانَها واستبدادها أدباً وشريعة ؛ إلا أن تقوم بإزائها قوة معنوية أقوى منها ؛ ففكّر شيخنا فى هؤلاء الأمراء وقال : إن خداع القوة الكاذبة لشعور الناس باب من الفساد ؛ إذ يحسبون كل حَسَن منها هو الحسَن ، وإن كان قبيحاً فى ذاته ولا أقبح منه ؛ ويرون كل قبيح عندها هو القبيح ، وإن كان حَسنا ولا أحسنَ منه

وقال : مامعنى الإمارة والأمراء ؟ وإنما قوة الكل الكبير هى عماد الفرد الكبير ، فلكل جزء من هذا الكل حقه وعمله ؛ وكان ينبغى أن

تكون هذه الإمارة أعمالا نافعة قد كبرت وعظمت فاستحقت هذا اللقب بطبيعة فيها كطبيعة أن العشرة أكثر من الواحد ، لا لأهواء وشهوات ورذائل ومفاسد تتخذ لقبها فى الضعفاء بطبيعةٍ كطبيعة أن الوحش مفترس

وفكر الشيخ فهداه تفكيره إلى أن هؤلاء الأمراء مماليك ، فحُكم الرق مُسْتَصْحَبٌ عليهم لبيت مال المسلمين ، ويجب شرعاً بيعهم كما يباع الرقيق !

وبلغهم ذلك فجزعوا له وعظم فيه الخطب عليهم ؛ ثم احتدم الأمر وأيقنوا أنهم بإزاء الشرع لا بإزاء القاضى ابن عبد السلام

وأفتى الشيخ أنه لا يصح لهم بيع ولا شراء ولا زواج ولا طلاق ولا معاملة ، وأنه لا يصحح لهم شيئاً من هذا حتى يباعوا ويحصل عتقهم بطريق شرعى !

ثم جعلوا يتسببون إلى رضاه ، ويتحملون عليه بالشفاعات ، وهو مصرّ لا يعبأ بجلالة أخطارهم ، ولا يخشى انتقامه بعداوتهم ، فرفعوا الأمر إلى السلطان ، فأرسل إليه فلم يتحول عن رأيه وحكمه

واستشنع السلطان فعله وحنق عليه وأنكر منه دخوله فيما لا يعنيه ، وقبح عمله وسياسته وما تطاول إليه ، وهو رجل ليس له إلا نفسه وما تكاد تصل يده إلى ما يقيمه ، وهم وافرون وفى أيديهم القوة ولهم الأمر والنهى

وانتهى ذلك إلى الشيخ الإمام فغضب ولم يبال بالسلطان ولا كبر عليه إعراضه ، وأزمع الهجرة من مصر ، فاكترى حميراً أركب أهله وولده عليها ومشى هو خلفهم يريد الخروج إلى الشام ؛ فلم يبعد إلا قليلا نحو نصف بريد حتى طار الخبر فى القاهرة ففزع الناس وتبعوه لا يتخلف منهم رجل ولا امرأة ولا صبي ؛ وصار فيهم العلماء والصلحاء والتجار والمحترفون

كأن خروجه خروج نبي من بين المؤمنين به ؛ واستعلنت قوة الشرع في مظهرها الحاكم الآمر من هذه الجماهير . فقيل للسلطان : إن ذهب هذا الرجل ذهب مُلكك !

فارتاع السلطان ، فركب بنفسه ولحق بالشيخ يترضّاه ويستدفع به غضب الأمة ، وأطاق له أن يأمر بما شاء ، وقد أيقن أنه ليس رجلَ الدينار والدرهم والعيش والجاه ولُبْسِ طيلسان العلماء كما يلصق الريش على حجر في صورة الطائر

ورجع الشيخ وأمر أن يعقد المجلس ويجمع الأمراء وينادى عليهم للمساومة في بيعهم ، وضرب لذلك أجلا بعد أن يكون الأمر قد تعالمه كلّ القاهرة ، ليتهيأ من يتهيأ للشراء والسَّوم في هذا الرقيق الغالي !

٭ ٭ ٭

وكان من الأمراء المماليك نائب السلطنة ، فبعث إلى الشيخ يلاطفه ويسترضيه ، فلم يعبأ الشيخ به ؛ فهاج هائجه وقال : كيف يبيعنا هذا الشيخ وينادى علينا وينزلنا منزلة العبيد ويفسد محلنا من الناس ويبتذل أقدارنا ونحن ملوك الأرض ؟ وما الذي يَفقد هذا الشيخ من الدنيا فيدرك ما نحن فيه ؟ إنه يفقد مالا يملك ، ويفقد غير الموجود ، فلا جَرَمَ لا يبالي ولا يرجع عن رأيه ما دام هذا الرأي لا يمر في منافعه ، ولا في شهواته ولا في أطماعه ، كالذين نراهم من علماء الدنيا ؛ أما والله لأضربنّه بسيفي هذا ، فما يموت رأيه وهو حي .

ثم ركب النائب في عسكره وجاء إلى دار الشيخ واستل سيفه وطرق الباب ، فخرج ابنه عبد اللطيف ورأى ما رأى ، فانقلب إلى أبيه وقال له : انج بنفسك ، إنه الموت ، وإنه السيف ، وإنه وإنه ...

فما اكترث الشيخ لذلك ولا جزع ولا تغير، بل قال له : ياولدى ! أبوك أقلُّ من أن يقتل فى سبيل الله !

وخرج لايعرف الحياة ولا الموت، فليس فيه الإنسانى بل الإلٰهى ؛ ونظر إلى نائب السلطنة وفى يده السيف ، فانطلقت أشعة عينيه فى أعصاب هذه اليد فيبست ووقع السيف منها

وتناوله بروحه القوية، فاضطرب الرجلُ وتزلزل وكأنما تكسر من أعصابه فهو يرعد ولا يستقر ولا يهدأ

وأخذ النائب يبكى ويسأل الشيخ أن يدعو له ؛ ثم قال : ياسيدى، ماتصنع بنا ؟

قال الشيخ : أنادى عليكم وأبيعكم !

— وفيم تصرف ثمننا ؟

— فى مصالح المسلمين

— ومن يقبضه ؟

— أنا .

وكان الشرع هو الذى يقول (أنا) ، فتم للشيخ ماأراد، ونادى على الأمراء واحداً واحدا، واشتط فى ثمنهم، لايبيع الواحد منهم حتى يبلغ الثمن آخر مايبلغ ؛ وكان كل أمير قد أعد من شيعته جماعة يستامونه ليشتروه ...

ودمغ الظلم والنفاق والطغيان والتكبر والاستطالة على الناس بهذه الكلمة التى أعلنها الشرع :

أمراء للبيع ! أمراء للبيع ...

*

العجوزان

قال محدّثى : التقى هـذان الشيخان بعد فراق أربعين سنة ، وكانت مَثابتهما (*) ذلك المكانَ القائم على شاطئ البحر فى اسكندرية فى جهة كذا ؛ وهما صديقان كانا فى صدر أيامهما - حين كانت لهما أيام ... - رَجُلى حكومة يعملان فى ديوان واحد ، وكانا فى عيشهما أخوَىْ جد وهزل ، وفضائل ورذائل ، يجتمعان دائماً اجتماع السؤال والجواب ، فلا تنقطع وسيلةُ أحدهما من الآخر ؛ وكأن بينهما فى الحياة قرابة الابتسامة من الابتسامة ، والدمعة من الدمعة .

ولبثا كذلك ماشاء الله ، ثم تبددا وأخذتهما الآفاق كدأب « الموظفين » : ينتظمون وينتثرون ، ولا يزال أحدهم ترفعه أرض وتخفضه أخرى ، وكأن «الموظف» من تفسير قوله تعالى : « وما تدرى نفسٌ بأى أرض تموت » !

وافترق الصديقان على مضض ، وكثيراً مايكون أمر الحكومة بنقل بعض « موظفيها » هو أمرها بتمزيق بعضهم من بعض ؛ ثم تصرَّفت بهما الدنيا فذهبا على طرفى طريق لايلتقيان ، وأصبح كلاهما من الآخر كيومه الذى مضى : يُحفظ ولا يُرى .

* * *

قال المحدِّث : وكنت مع الأستاذ (م) ، وهو رجل فى السبعين من عمره ، غير أنه يقول عن نفسه إنه شابٌ لم يبلغ من العمر إلا سبعين سنة ...

(*) أى المكان الذى اجتمعا فيه بعد التفرق

ويزعم أن فى جسمه الناموسَ الأخضر الذى يحي الشجرة حياة واحدةً إلى الآخِر .

رجل فارهٌ ، متأنق ، فاخر البزة ، جميلُ السَّمْت ، فارعُ الشَّطاط (*) كالمصبوب فى قالب لا عوج فيه ولا انحناء، مجتمع كله لم يذهب منه شىء ، قد حفظته أساليبُ القوة التى يعانيها فى رياضته اليومية ؛ وهو منذ كان فى آنِفَتِه وشبابه لا يمشى إلا مستأخِر الصدر (**) ، مشدود الظهر ، مرتفع العنق ، مسندا قفاه إلى طوقه ؛ وبذلك شب وشاب على استواء واحد ، وكلما سئل عن سر قامته وعوده لم يزد على قوله : إن هذا من عمل إسناد القفا (***)

وهو دائماً عَطِرٌ عبق ، ثم لا يمسّ إلا عِطرا واحدا لا يغيِّره ، يرى أن هذا الطيب يحفظ خيال الصبي ، وأنه يُبقى للأيام رائحتها .

وله فلسفة من حسّه لا من عقله ، ولفلسفته قواعد وأصول ثابتة لا تتغير ، ومن بعض قواعدها الزهر ، ومن بعضها الموسيقى ، ومن بعضها الصلاة أيضاً ؛ وكل تلك هى عنده قواعد لحفظ الشباب . ومن فلسفته أن مبادئ الشباب وعاداته إذا هى لم تتغير اتصل الشبابُ فيها واطَّرد فى الروح ، فتكون من ذلك قوة تحرس قوة اللحم والدم ، وتمسك على الجسم حالته النفسية الأولى

وهو يزيد فى حكمة الصلاة فكرةً رياضية عمليةً لم ينتبه إليها أحد ، هى

(*) ممتد الطول .

(**) يقال مستقدم الصدر ، للهرم المحنى الظهر ؛ فأخذنا منها مستأخر الصدر ، وذلك بروزه حين يكون مشدودا ، فيكون أعلاه إلى الوراء .

(***) هذه حقيقة رياضية ، ولها أقوى الأثر فى شد الجسم وانتصاب القامة إذا اعتادها الانسان ... والمراد بالطوق : البنيقة (الياقة)

رياضة البطن والأمعاء بالركوع والسجود والقيام ؛ ويقول إن ثروة الصلاة تُكْنَزُ فى صندوقين : أحدهما الروح لما بعد الموت ، والآخر البطن لما قبل الموت ؛ ويرى أن الإسلام لم يفرض صلاة الصبح قبل الشمس إلا ليجعل الفجر ينصبُّ فى الروح كل يوم

* * *

قال المحدِّث : وبينما نحن جالسان مرّ بنا شيخٌ أعجفُ مهزولٌ موهونٌ فى جسمه ، يَدْلُفُ متقاصِرَ الخطْو كأن حِمل السنين على ظهره ، مُرْعَشٌ من الكِبَر ، مستقدِمُ الصدر منحنٍ يتوكأ على عصاً ، ويدل انحناؤه على أن عمره قد اعوجَّ أيضاً ، وهو يبدو فى ضُعفه وهُزاله كأن ثيابه ملئت عظاماً لا إنساناً ، وكأنها ماخِيطت إلا لتمسك عظماً على عظم ...

قال : فحملق إليه (م) ثم صاح : رِينا ! رِينا فالتفت العجوز ، وما كاد يأخذنا بصره حتى انفتل إلينا وأقبل ضاحكا يقول : أوَّه ! رِيت ، رِيت !

ونهض (م) فاحتضنه وتلازما طويلا ، وجعل رأساهما يدوران ويتطوّحان ، وكلاهما يقبّل صاحبه قُبلاً ظامئة لاعهد لى بمثلها فى صديقين ، حتى لخيّل إلىّ أنهما لا يتعانقان ولا يتلاثمان ، ولكن بينهما فكرة يعتنقانها ويقبلانها معا ...

وقلت : ماهذا أيها العجوزان ؟

فضحك (م) وقال : هـذا صديقى القديم (ن) ، تركته منذ أربعين سنة معجزةً من معجزات الشباب ، فها هو ذا معجزة أخرى من معجزات الهرم ، ولم يبق منه كاملاً إلا اسمه ...

ثم التفت إليه وقال : كيف أنت يارِينا ؟

قال العجوز (ن) : لقد أصبحت كما ترى : زاد العمر فى رجلىّ رجلاً

من هذه العصا . ورجع مصدرُ الحياة فىَّ مصدراً للآلام والأوجاع ، ودخلت فى طبيعتى عادةٌ رابعة من تعاطى الدواء

فضحك (م) وقال : قبح الله هذه الدخيلة ، فما هى العادات الثلاث الأصلية ؟

قال العجوز : هى الأكل والشرب والنوم . . . ثم أنت ياريت كيف تقرأ الصحف الآن ؟

قال (م) : أقرؤها كما يقرؤها الناس ، فما سؤالك عن هذا ؟ وهل تقرأ الصحف يوما غير ما تقرأ فى يوم ؟

قال : آه ! إن أول شىء أقرأ فى الصحف أخبارُ الوَفَيات ، لأرى بقايا الدنيا ، ثم (إعلانات الأدوية) ... ولكن كيف أنت يا ريت ؟ إنى لأراك ما تزال من وراء أربعين سنةً فى ذلك العيش الرَّخِىّ ، وأراك تحمل شيخوختك بقوة كأن الدهر لم يَخْرُمْك من هنا ولا من هنا ، وكأنه يلمسك بأصابعه لا بمسامبره فهل أصبت معجزة من معجزات العلم الحديث ؟

قال : نعم

قال : ناشدتك الله ، أى معجزات العلم الحديث معجزةٌ لِعظمى ؟

قال (م) : ويحك يا رينا ! إنك على العهـــد لم تبرح كما كنتَ مزبلة أوكار . . . ماذا يصنع فيك العلم الحديث وأنت كما أرى بمنزلة بين العظم والخشب ... ؟

* * *

قال المحدِّث : وضحكنا جميعا ، ثم قلت للأستاذ (م) : ولكن ما (رينا وريت) ؟ وماهذه اللغة ؟ وفى أى معجم تفسيرُها ؟

قال : فتغامزَ الشيخان ، ثم قال (م) : يابنى ، هذه لغة ماتت معانيها وبقيت

ألفاظها، فهى كتلك الألفاظ الأثرية الباقية من الجاهلية الأولى

قلت: ولكن الجاهلية الأولى لم تنقض إلا فيكما ... ولا يزال كل شاب فى هذه الجاهلية الأولى، وما أحسب (رينا، وريت) فى لغتكما القديمة إلا بمعنى (سوسو، وزوزو) فى اللغة الحديثة؟

فقال (م): اسمع يابنى: إن رجلَ سنة ١٩٣٥ (*) متى سأل فىّ رجلَ سنةِ ١٨٩٥: مامعنى رينا وريت؟ فرد عليه: إن (رينا) معناها (كاترينا)؛ وكان (ن) بها صباً مغرماً، وكان مُقْتَتَلاً قتله حبها. أما (ريت) فهو لا يعرف معناها.

فامتعض العجوز (ن) وقال: سبحان الله! اسمع يابنى: إن رجل سنة ١٨٩٥ فىَّ يقول لك: إن (ريت) معناها (مرغريت)، وكانت الجوى الباطنَ، وكانت اللوعةَ والحريق الذى لا ينطفئ فى قلب الأستاذ (م)

قلت: فأنتما أيها العجوزان من عشاق سنة ١٨٩٥، فكيف تريان الحب الآن؟

قال العجوز (ن): يابنى، إن أواخر العمر كالمنفَى ... ونحن نتكلم بالألفاظ التى تتكلم بها أنت وأنتما وأنتم ... غير أن المعانى تختلف اختلافاً بعيداً

قلت: واضربْ لهم مثلاً.

قال: واضرب لهم مثلا كلمة (الأكل)، فلها عندنا ثلاثة معان: الأكل، وسوء الهضم، ووجع المعدة: وكلمة (المشى) فلها أيضاً ثلاثة معان: المشىُ، والتعب، وغمزاتُ العظم ... وكلمة (النسيم)، النسيم العليل يابنى: زِيدلنا فى معناها: تحرُّك (الروماتزم) ...

فضحك (م) وقال: يا «شيخ» ...

(*) كانت هذه القصة فى صيف سنة ١٩٣٥ فى اسكندرية

قال العجوز : وتلك الزيادة يابنى لاتجىء إلا من نقص ، فهنا بقيةٌ من يدَين ، و بقية من رجلين ، و بقية من بطن ، و بقية من ومن ومن ، ومجموع كل ذلك بقيةٌ من إنسان .

قال الاستاذ (م) : والبقية فى حياتك ...

قال (ن) : و بالجملة يابنى فإن حركة الحياة فى الرجل الهرم تكون حول ذاتها لاحول الأشياء ؛ وما أعجب أن تكون أقصر حركتَى الأرض حول نفسها كذلك ؛ وإذا قال الشاب فى مغامرته : ليمض الزمن ولتتصرَّم الأيام! فإن الأيام هى التى تتصرم والزمن هو الذى يمر ؛ أما الشيوخ فان يتمنَّوه أبداً ؛ فمن قال منهم : ليمض الزمن ، فكأنما قال : فلأمض أنا..

فصاح (م) : ياشيخ ياشيخ ...

ثم قال العجوز : واعلم يابنى أن العلم نفسه يهرم مع الرجل الهرم ، فيصبح مثله ضعيفاً لاغَناء عنده ولا حيلة له ؛ وكل مصانع لنكشير ، ومصانع بنك مصر واليابان والأمريكتين ، وما بقى من مصانع الدنيا ، لافائدة من جميعها : فهى عاجزة أن تكسوَ عظامى ...

* * *

قال المحدث : فقهقه الأستاذ (م) وقال : كدتُ والله أتخشَّب من هـذا الكلام ، وكادت معانى العظم تخرج من عظامى ؛ لقد كان المتوحشون حكماء فى أمر شيوخهم ، فإذا علَت السنُّ بجماعة منهم لم يتركوهم أحياءً إلا بامتحان ، فهم يجمعونهم ويلجئونهم إلى شجرة غضة لينة المهَزَّة ، فيكرهونهم أن يصعدوا فيها ثم يتدلَّوا منها وقد عَلِقَت أيديهم بأغصانها ؛ فإذا صاروا على هـذه الهيئة اجتمع الأشداء من فتيان القبيلة فيأخذون بجذع الشجرة يرجُّونها وينفضونها ساعة من نهار ؛ فمن ضعفت يداه من أولئك الشيوخ أو

كلّت حوامل ذراعيه فأفلت الغصنَ الذى يتعلق به فوقع ، أخذوه فأكلوه ؛ ومن استمسك أنزلوه فأمهلوه إلى حين !

فاقشعر العجوز (ن) وقال : أعوذ بالله ! هذه شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، ولعنها الله من حكمة ، فإنما يطبخونهم فى الشجرة قبل الأكل ؛ أو هم يجعلونهم كذلك ليتوهموهم طيوراً فيكون لحمهم أطيب وألذ ، ويتساقطون عليهم من الشجرة حمائمَ وعصافير

قال (م) : إن كان فى الوحشية منطق فليس فى هذا المنطق « بابُ لِمَ » ، ولا (باب كيف) ، ولو كان بهم أن يأكلوهم لأكلوهم ، غير أنها تربية الطبيعة لأهل الطبيعة ؛ فإن رؤية الرجل هذه الشجرةَ وهزَّها وعاقبتَها يُبعد عنه الضعف والتخاذل ، ويدفعه إلى معاناة القوة ، ويزيد نفسه انتشاراً على الحياة وطمعاً فيها وتنشطا لأسبابها ، فيكون ساعِدُه آخرَ شىء يهرم ، ولا يزال فى الحِدّة والنشاط والوَثَبان ؛ فلا يعجز قبل يومه الطبيعى ، ويكون المتوحشون بهذا قد احتالوا على الطبيعة البشرية فاضطروها إلى مجهودها ، وأكرهوها على أن تبذل من القوة آخرَ مايسع الجسم

قال (ن) : فنَعِم إذَنْ ، ولعن الله معانى الضعف : كدت والله أظن أنى لم أكن يوماً شاباً ، وما أراك إلا متوحشاً تخاف أن تؤكل ، فتظل شيخاً رجلا لاشيخاً طفلا ، وترى العمر كما يرى البخيل ذهبَه : مهما يبلغ فكثرته غير كثيرة

* * *

قال المحدث : وأضجرنى حوارهما ، إذ لم يعد فيه إلا أن جسم هذا يرد على جسم هذا ؛ وإنما الشيخ من أمثال هؤلاء زمان يتكلم ويقص ويعظ وينتقد ، وان يكون الشيخ معك فى حقيقته إن لم ترحل أنت فيه إلى دنيا قديمة ؛ فقلت لهما : أيها العجوزان ! أريد أن أسافر إلى سنة ١٨٩٥ ...

العجوزان (*)

٢

قال محدِّثى : ولما قلت لهما . أيها العجوزان ، أريد أن أسافر إلى سنة ١٨٩٥ : نظر إلىَّ العجوز الظريف (ن) وقال : يابنىَّ ، أحسبُ رؤيتك إياى قد دَنَتْ بك من الآخرة ... فتريد أن نلوذَ بأخبار شبابنا لتنظر إلينا وفينا روحُ الدنيا .

قال الأستاذ (م) : وكيف لا تريه الآخرة وأكثرك الآن فى «المجهول» ؟

قال : ويحك يا (م) ! لا تزال على وجهك مسحة من الشيطان هنا وهنا : كأن الشيطان هو الذى يُصلح فى داخلك ما اختلَّ من قوانين الطبيعة ، فلا

(*) الجمهور من أهل اللغة على أن (العجوز) وصف خاص بالمرأة إذا شاخت وهرمت ، ولكن جاء فى اللسان : « ويقال للرجل عجوز » ونقله صاحب التاج عن الصاغانى ، ونحن على هذا الرأى ، ولو لم يأت فيه نص عن العرب لابتدعناه وزدناه فى اللغة ؛ ووجهه عندنا أن الرجل والمرأة إذا بلغا الهرم فقدا خصائص الذكورة والأنوثة ، فلم يعودا رجلا وامرأة ، فاستويا فى العجز ، فكان الرجل قميناً أن يشارك المرأة فى وصفها ، فيقع اللفظ عليهما جميعاً !

وإنما امتنع العرب أن يقولوا للرجل (عجوز) وخصوا ذلك بالمرأة ، تعسفاً وظلماً وطغياناً ، كدأبهم مع النساء ، فإذا شاخت المرأة فقد بطلت أنوثتها عندهم وعجزت عن حاجة الرجل وعجزت فى كثير ، ونفتها الطبيعة وبرأت منها ؛ أما الرجل فبالخلاف ، لأنه رجل ؛ وإذا شاخ وبطل وعجز ولم يستطع أن يكابر فى المعنى ـ كابر فى اللفظ ... وأبى أن يقال إنه (عجوز) ، وزعم أن ذلك خاص بالمرأة ...

ألا إن هذا تزوير فى اللغة ، وإن كان للرجال عليهن درجة فذلك فى أوصاف القدرة لا فى أوصاف العجز !

تَسْتَبِينُ فيك السنُّ وقد نيّفتَ على السبعين ، وما أحسب الشيطان فى تنظيفك إلا كالذى يكنس بيته ...

قال (م) : فأنت أيها العجوز الصالح بيتٌ قد تركه الشيطان وعلّق عليه كلمة (للإيجار) ...

فضحك (ن) وقال : تالله إن الهرم لهو إعادة درس الدنيا ، وفهمُها مرة أخرى فهماً لاخطأ فيه ؛ إذ ينظر الشيخ بالعين الطاهرة ، ويسمع بالأذن الطاهرة ، ويلمس باليد الطاهرة ... وتالله إن الشيطان لامعنى له إلا أنه وقاحةُ الأعصاب .

قال (م) : فأنت أيها العجوز الصالح إنما أصبحت بلا شيطان لأن الهرم قد أدّب أعصابك ...

قال العجوز الظريف . وعند مَن غيرِنا نحن الشيوخَ تطاع الأوامرُ والنواهى الأدبية حقّ طاعتها ؟ عند من غير الشيوخ تقدّس مثلُ هذه الحكم العالية : لا تعتدِ على أحد ... لا تُفسد امرأةً على زوجها ...

❁ ❁ ❁

قال المحدث : وضحكنا جميعاً ، وكان العجوز (ن) من الآيات فى الظرف والنكتة ، فقال : تظنني يابنى فى السبعين ؟ فوالله ما أنا بجملتى فى السبعين ، والله والله .

قال (م) : لقد أُهتر الشيخ (*) يا بنى ، فإن هذا من خَرَفه فلا تصدقه .

قال (ن) : والله ما خَرفت وما قلت إلا حقاً . فههنا ماعمره خمس سنوات فقط ، وهو أسنانى ...

قلت : « ورينا وريت » وسنة ١٨٩٥ ؟

(*) أى أخطأ فى الرأى من تأثير الكبر

قال الأستاذ (م) : أنت يا بنى من المجددين ، فما هواك فى القديم وما شأنك به ؟

وما كاد العجوز (ن) يسمع هذا حتى طَرَّفَ بعينيه (*) وحدَّد بصره إلىّ وقال : أئنَّك لأنت هو ؟ لعمرى إن فى عينيك لضجيجاً وكذباً وجدالا واحتيالاً وزعماً ودعوى وكفرا وإلحاداً ؛ ولعمرى ...

فقطعت عليه وقلت : « لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون » ، لقد وقع التجديد فى كل شىء إلا فى الشيوخ أجساماً والشيوخ عقولاً : فهؤلاء وهؤلاء عند النهاية ، وغير مستنكَر من ضعفهم أن يدينوا بالماضى ، فإن حياتهم لا تلمس الحاضر إلا بضَعف !

قال العجوز : رحم الله الشيخ (ع) : كان هذا يا بنى رجلا ينسخ للعلماء فى زمننا القديم ، وكان يأخذ عشرة قروش أجراً على الكراسة الواحدة ، وهو ردىء الخط ، فإذا ورّق لأديب ولم يعجبه خطه فكلَّمه فى ذلك تعلَّق الشيخ به وطالبه بعشرين قرشاً عن الكراسة ؛ منها عشرة للكتابة ، وعشرة غرامة لإهانة الكتابة ...

نعم يا بنى ، إن للماضى فى قلوبنا مواقع ينزل فيها فيتمكن ، ولكن قاعدة (اثنان واثنان أربعة) لا تُعد فى الماضى ولا فى الحاضر ولا فى المستقبل ، والحقيقة بنفسها لا باسمها ؛ وليست تحتاج النار إلى ثوب المرأة إلا فى رأى المغفل .

قال الأستاذ (م) : وكيف ذلك ؟

قال العجوز : زعموا أن مغفلاً كان يرى امرأته تُضرم الحطب فتنفخ

(*) أى حرك أجفانهما

فيه حتى يشتعل ، فاحتاج يوماً فى بعض شأنه إلى نار، ولم تكن امرأته فى دارها فجاء بالحطب وأضرم فيه وجعل ينفخ ، وكان الحطب رطباً فدخّن ولم يشتعل ، ففكر المغفل قليلاً ثم ذهب فلَبِس ثوبَ امرأته وعاد إلى النار ، وكان الحطب قد جف ، فلم يكد ينفخ حتى اشتعل وتضرَّم ؛ فأيقن المغفل أن النار تخاف امرأته ... وأنها لا تتضرم إلا إذا رأت ثوبها !

✡ ✡ ✡

قال الأستاذ (م) : إن الكلام فى القديم والجديد أصبح عندنا كفنون الحرب : تُبدع ما تبدع لتغيير ما لا يتغير فى ذات نفسه ، وعلى ما بلغتْ وسائلُ الموت فى القديم والجديد فإنها لم تستطع أن تميت أحداً مرتين .

لقد قرأت يابنى كثيراً فلم أر إلى الآن من آثار المجددين عندنا شيئاً ذا قيمة ؛ ما كان من هُراء وتقليد زائف فهو من عندهم ، وما كان جيداً فهو كالنفائس فى ملك اللص : لها اعتباران ، إن كان أحدهما عند مقتنيها ... فالآخر عند القاضى (*)

كلا أيها اللص ، لن تسمَّى مالكاً بهذا الأسلوب ؛ إنما هى كلمة تسخر بها من الناس ومن الحق ومن نفسك .

يقولون : العلم والفن والغريزة والشهوة والعاطفة والمرأة وحرية الفكر واستقلال الرأى ونبذ التقاليد وكسر القيود ، إلى آخره وإلى آخرها ... فهذا كله حسن مقبول سائغ فى الورق إن كان فى مقالة أو قصة ، وهو سائغ كذلك حين ينحصر فى حدوده التى تصلح له من ثياب الممثلين أو من بعض

(*) فى كتابنا (تحت راية القرآن) كلام كثير عن التجديد والمجددين ، وما نراه من ذلك حقاً وما نراه باطلا

النفوس التي يمثل بها القدر فصوله الساخرة أو فصوله المبكية ، ولكنهم حين يخرجون هذا كله للحياة على أنه من قوتها الموجبة ، تردُّه الحياة عليهم بالقوة السالبة ، إذ لا تزال تخلق خلقها وتعمل أعمالها بهم وبغيرهم ، وإذا كان في الإنسانية هذا القانون الذي يجعل الفكر المريض حين يهدم من صاحبه — يهدم في الكون بصاحبه ؛ ففيها أيضاً القانون الآخر الذي يجعل الفكر الصحيح السامي حين يبني من أهله — يبني في الكون بأهله .

☆ ☆ ☆

قال العجوز (ن) : زعموا أن أحد سلكي الكهرباء كان فيلسوفاً مجدداً ، فقال للآخر : ما أراك إلا رجعياً ، إذ كنت لا تتبعني أبداً ولا تتصل بي ولا تجري في طريقي ؛ ولن تفلح أبدا إلا أن تأخذ مأخذي وتترك مذهبك إلى مذهبي . فقال له صاحبه : أيها الفيلسوف العظيم ، لو أني اتبعتك لبطلنا معاً فما أذهب فيك ولا تذهب فيّ ؛ وما عَلمْتُك تشتمني في رأيك إلا بما تمدحني به في رأيي .

قال العجوز : وهذا هو جوابنا إذا كنا رجعيين عندهم من أجل الدين أو الفضيلة أو الحياء أو العفة إلى آخرها وإلى آخره ؛ ونحن لا نرى هؤلاء المجددين عند التحقيق إلا ضرورات من مذاهب الحياة وشهواتها وحماقاتها تلبّست بعضَ العقول كما يتلبس أمثالُها بعضَ الطباع فتزيغ بها ؛ وللحياة في لغتها العملية مترادفاتٌ كالمترادفات اللفظية : تكون الكلمتان والكلمات بمعنى واحد . فالمخرِّب والمخرِّف والمجدِّد بمعنى !

كل مجدد يريد أن يضع في كل شيء قاعدةَ نفسه هو ، فلو أطعناهم لم تبق لشيء قاعدة .

قال الأستاذ (م) إن هذه الحياة الواحدة على هذه الأرض يجب أن

تكون على سنّتها وما تصلح به من الضبط والإحكام ، والجلب لها والدفع عنها والمحافظة عليها بوسائلها الدقيقة الموزونة المقدَّرة ، والسهلة فى عملها الصعبة فى تدبيرها ؛ فعلى نحوٍ مما كانت الحياة فى بطن الأم يجب أن نعيش فى بطن الكون بحدود مرسومة وقواعد مهيأة وحيّز معروف ؛ وإلا بقيت حركاتُ هذا الإنسان فى معناها كحركات الجنين ، يَرْتكضُ ليخرج عن قانونه ، فإن استمر عمله ألقى به مَسْخاً مشوَّهاً من جسد كان يعمل فى تنظيمه ، أو قَذَفَ به ميتاً من جسم كان كل ما فيه يعمل لحياته وصيانته .

هذا الجسم كله يَشرع للجنين ما دام فيه ، وهذا الاجتماع كله يشرع للفرد ما دام فيه ؛ فكيف يكون أمرٌ من أمرٍ إذا كان الجنينُ مجدّداً لا يعجبه مثلا وضعُ القلب ولا يرضيه عمل الدم ولا يريد أن يكون مقيداً لأنه حرّ

انظر إلى هذا الشرطى فى هذا الشارع يضرب مُقبلا ليُدبر ، ومدبراً ليقبل ، وقد ألبسته الحكومة ثياباً يتميز بها ، وهى تتكلم لغة غير لغة الثياب ، وكأنها تقول : أيها الناس ، إن ههنا الإنسان الذى هو قانون دائماً ، والذى هو قوة أبداً ، والذى هو سجنٌ حيناً ، والذى هو الموت إذا اقتضى الحال

أتحسب يابنى هذا الشرطى قائماً فى هذا الشارع بجدران هذه المنازل ؟ كلا يابنى ؛ إنه واقفٌ أيضا فى الإرادة الإنسانية وفى الحسّ البشرى وفى العاطفة الحية ؛ فكيف لا يمحوه المجددون مع أنه فى ذاته إرغامٌ بمعنى ، وإكراه بمعنى غيره ، وقيد فى حالة ، وبلاءٌ فى حالة أخرى ؟

لكنه إرغامٌ ليقع به التيسير ، وإكراه لتتطلّقَ به الرغبة ، وقيدٌ لتتمجد به الحرية : وكان هو نفسه بلاءً من ناحية ليكون هو نفسُه عِصمةً من الناحية التى تقابلها

يابنى ، كل دين صالح ، وكل فضيلة كريمة ، وكل خلق طيب — كل شىء من

ذلك إنما هو على طريق المصالح الانسانية كهذا الشرطى بعينه : فإما تخريبُ العالم أيها المجددون ؛ وإما تخريب مذهبكم . . .

٭ ٭ ٭

قال العجوز (ن) : أنبحث عما نتسلّط به أم نبحث عما يتسلط علينا ؟ وهل نريد أن تكون غرائزنا أقوى منا وأشد ؛ أو نكون نحن أشد منها وأقوى ؟ هذه هى المسئلة لامسئلة الجديد والقديم

فإن لم يكن هناك المثل الأعلى الذى يعظم بنا ونعظم به ، فسَدَ الحسُّ وفسدت الحياة ؛ وكل الأديان الصحيحة والأخلاق الفاضلة إن هى إلا وسائل هذا المثل الأعلى للسمو بالحياة فى آمالها وغاياتها عن الحياة نفسها فى وقائعها ومعانيها

٭ ٭ ٭

قال المحدِّث : ورأيتنى بين العجوزين كأنى بين نابَين ؛ ولم أكن مجددا على مذهب إبليس الذى ردَّ على الله والملائكة وظن لحمقه أن قوة المنطق تغيّر مالا يتغير ؛ فسكتُّ ، حتى إذا فرغا من هذه الفلسفة قلت : والرحلة إلى سنة ١٨٩٥ ؟

العجوزان

٣

قال المحدّث : وتبين فى العجوز (ن) أثرُ التعب ، فتوجع وأخذ يئن كأن بعضه قد مات لوقته ... أو وقع فيه اختلالٌ جديد ، أو نالته ضربةُ اليوم ؛ والشيخ متى دخل فى الهرم دخل فى المعركة الفاصلة بينه وبين أيامه

ثم تأفف وتململ وقال : إن أولَ مايظهر على من شاخ وهرم ، هو أن الطبيعة قد غيرت القانون الذى كانت تحكمه به

قال الأستاذ (م) : إن صاحبنا كان قاضياً يحكم فى المحاكم ، وأرى المحاكم قد حكمت عليه بهذه الشيخوخة (مُطَبّقةً فيها) بعضَ المواد من قانون العقوبات ، فما خرج من المحكمة إلا إلى الحبس الثالث

فضحك (ن) وقال : قد عرفنا « الحبس البسيط » و « الحبس مع الشغل » فما هو هذا الحبس الثالث ؟

قال : هو « الحبس مع المرض » ...

قال (ن) : صدقتَ لعمرى ، فإن آخر أجسامنا لايكون إلا بحساب من صنعة أعمالنا ؛ وكأن كرسى الوظيفة الحكومية قد عرف أنه كرسىُّ الحكومة ، فهو يضرب الضرائب على عظام الموظفين ... أتدرى معنى قوله تعالى : « ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذل العُمُر » ولِمَ سماه الأرذل ؟

قلنا : فلم سماه كذلك ؟

قال : لأنه خَلْط الإنسان بعضه ببعض ، ومسخُه من أوله إلى آخره ، فلا

هو رجلٌ ولا شاب ولا طفل ، فهو أردأ وأرذل ما فى البضاعة ...

فاستضحك الأستاذ (م) وقال : أما أنا فقد كنت شيخاً حين كنت فى الثلاثين من عمرى ، وهذا هو الذى جعلنى فتًى حين بلغت السبعين

قال (ن) : كأن الحياة تصحح نفسها فيك

قال : بل أنا أكرهتها أن تصحح نفسها ؛ فقد عرفتُ من قبل أن سَعَة الإنفاق فى الشباب هى ضائقة الإفلاس فى الهرم ، وأيقنتُ أن للطبيعة (عدَّاداً) لايخطئ الحساب ، فإذا أنا اقتصدت عدَّت لى ، وإذا أسرفتُ عدَّت علىَّ ؛ ولن تعطينى الدنيا بعد الشباب إلا بما فى جسمى ، إذ لا يعطى الكونُ حياً أراد أن ينتهى منه ، فكنت أجعل نفسى كالشيخ الذى تقول له الملذات الكثيرة : لستُ لك ؛ ومن ثَمّ كانت لذاتى كلها فى قيود الشريعتين : شريعة الدين وشريعة الحياة

قال : وعرفت أن مايسميه الناس وَهَنَ الشيخوخة لايكون من الشيخوخة ولكن من الشباب ؛ فما هو إلا عملُ الإنسان فى تسميم جسمه ثلاثين أو أربعين سنة بالطعام والشراب والإغفال والإرهاق والسرور والحزن واللذة والألم ؛ فكنت مع الجسم فى شبابه ليكون معى بعد شبابه ، ولم أبرح أتعاهدُه كما يتعاهد الرجلُ دارَه : يزيد محاسنها وينفى عيوبها ، ويحفظ قوّتها ويتّقى ضعفها ، ويجعلها دائماً باله وهمه ، وينظر فى يومها القريب لغدها البعيد ، ولا ينقطع حسابُ آخرِها وإن بَعُدَ هذا الآخر . ولا يزال أبداً يحتاط لما يخشى وقوعه وإن لم يقع

قال العجوز (ن) : صدقت والله ، فما أفلح إلا من اغتنم الإمكان ؛ وما نوع الشيخوخة إلا من نوع الشباب ؛ وهذا الجسم الإنسانى كالمدينة الكبيرة فيها (مجلسها البلدىُّ) القائم على صيانتها ونظامها وتقويتها ، ورئيسُ

هذا المجلس الإرادة، وقانونه كله واجبات ثقيلة ، وهو كغيره من القوانين: إذا لم ينفذ من الأول لم يُغن في الآخر

قال الأستاذ (م) : وكل جهاز في الجسم هو عضو من أعضاء ذلك (المجلس البلدي) ؛ فجهاز التنفس وجهاز الهضم والجهاز العضلي والجهاز العصبي والدورة الدموية ، هذه كلها يجب أن تترك على حريتها الطبيعية وأن تعان على سنّتها ، فلا يحال بينها وبين أعمالها برشوة من لذة ، أو مفسدة من زينة ، أو مطمعة في رفاهية ، أو دعوة إلى مدنية ، أو شيء مما يفسد حكمها أو يعطل عملها أو يضعف طبيعتها

والقاعدة في العمر أنه إذا كان الشباب هو الطفولة الثانية في براءته وطهارته ، كانت الشيخوخة هي الشباب الثاني في قوتها ونشاطها ؛ وما رأيت كالدين وسيلة تجعل الطفولة ممتدة بحقائقها إلى آخر العمر في هذا الإنسان ؛ فسرّ الطفولة إنما هو في قوتها على حذف الفضول والزوائد من هذه الحياة ، فلا يُطغيها الغنى ، ولا يكسرها الفقر ، ولا تذلها الشهوة ، ولا يُفزعها الطمع ، ولا يهولها الإخفاق ، ولا يتعاظمها الضر ، ولا يخيفها الموت ؛ ثم لا تملّ وهي الصابرة ، ولا تبالغ وهي الراضية ، ولا تشك وهي الموقنة ، ولا تسرف وهي القانعة ، ولا تقبل وهي العاملة ، ولا تجمد وهي المتحولة ؛ ثم هي لا تتكلف الإنسانية إلا العطف والحب والبشاشة وطبائع الخير التي يملكها كل قلب : ولا توجب شريعتها في المعاملة إلا قاعدة الرحمة ، ولا تقرر فلسفتها للحياة إلا طهارة النظر : ثم تتهكم بالدنيا أكثر مما تهتمّ لها ، وتستغني فيها أكثر مما تحتاج ، وتستخرج السعادة لنفسها دائماً مما أمكن ، قلّ أو كثر

وبكل هذا تعمل الطفولة في حراسة الحياة الغضة واستمرارها ونموها ، ولولا ذلك لما زها طفل ولا شبّ غلام ولا رأت العيون بين هموم

الدنيا ذلك الرُّواء وذلك المنظر على وجوه الأطفال يثبتان أن البراءة في النفس أقوى من الطبيعة.

وكل ذلك هو أيضاً من خصائص الدين وبه يعمل الدينُ في تهذيب الحياة واطرادها على أصولها القوية السليمة، ومتى قوى هذا الدين في إنسان لم تكن مفاسد الدنيا إلا من وراء حدوده، حتى كأنه في أرض وهي في أرضٍ أخرى، وأصبحت البراءة في نفسه أقوى من الطبيعة.

ثم قال: والعجيب أن اعتقاد المساواة بين الناس لا يتحقق أبداً بأحسن معانيه وأكملها إلا في قلبين: قلب الطفل لأنه طفل، وقلب المؤمن لأنه مؤمن.

فقال العجوز (ن): إنه لكما قلت. ولعنة الله على هذه الشهوات الآدمية الباطلة، فإن الشهوة الواحدة في ألف نفس لتجعل الحقيقة الواحدة كأنها ألف حقيقة متعادية متنازعة؛ والطامعان في امرأة واحدة قد تكون شهوة أحدهما هي الشهوة وهي القتل: ولعنة الله على الملحدين وإلحادهم، يُزْرُون على الأديان بأنها تكاليف وقيود وصناعة للحياة، ثم لا يعلمون أن كل ذلك لصناعة الآلة النفسية التي تستطيع أن تحرك المختلفين حركة واحدة، فما ابتُليت الإنسانية بشيء كما ابتليت بهذا الخلاف الذي يفتح من كل نفس على كل نفس أبواب التجني، ويجعل النُّفرةَ وسوء الظن أقرب إلى الطبيعة البشرية من الألفة والثقة.

لقد جاء العلم بالمعجزات، ولكن فيما بين الإنسان والطبيعة، وبين الإنسان ومنافعه، وبين الإنسان وشهواته؛ فهل غيرِ الدين يجيء بالمعجزات العملية فيما بين النفس والنفس، وبين النفس وهمومها، وبين ماهو حق وما هو واجب؟

* * *

قال المحدِّث : ثم نظر إلىَّ العجوز (ن) وقال : صِلْ عمك يابنى بالحديث الذى مضى ، فأين بلغْنا آنفاً من أمر التجديد والمجددين؟ وماذا قلنا وماذا قلت ؟ أما إن الحماقة الجديدة والرذيلة الجديدة والخطأ الجديد ، كل ذلك إن كان جديداً من صاحبه فهو قديم فى الدنيا ؛ وليس عندنا أبداً من جديد إلا إطلاق الحرية فى استعمال كل أديب حقَّه فى الوقاحة والجهل والخطأ والغرور والمكابرة .

قال الأستاذ (م) : وليس الظاهر بما يظهر لك منه ، ولكن بالباطن الذى هو فيه ، فمستشفى المجاذيب قصر من القصور فى ظاهره ، ولكن المجاذيب هم حقيقته لا البناء ، وكل مجدد عندنا يزعم لك أنه قصر عظيم ، وهو فى الحقيقة مستشفى مجانين ، غير أن المجانين فيه طباع وشهوات ونزوات ؛ وعلى هذا ما الذى يمنع الفجور المتوقح أن يسمى نفسه الأدب المكشوف ؟

قال (ن) : وإذا أنت ذهبت تعترض على هذه التسمية زعموا لك أن للفن وقاحة مقدسة ... وأن (لا أدبيةَ) رجلِ الفن هى (اللا أخلاقية العالية) ...

قال الأستاذ (م) : فوقاحة الشهوة إذا استعلنت بين أهل الحياء وأهل الفضيلة ودعت إلى مذهبها ، كانت تجديداً ما فى ذلك ريب ؛ ولكن هذا المذهب هو أقدم ما فى الأرض ، إذ هو بعينه مذهب كل زوجين اجتمعا من البهائم منذ خلَق الله البهائم ...

قال « ن » : وقل مثل ذلك فى متسخط على الله وعلى الناس يُخرج من كفره بين أهل الأديان أدباً جديدا ، وفى مغرور يتغفل الناس ، وفى لص آراء ، وفى مقلد تقليدا أعوَر — كل واحد من هؤلاء وأشباههم مبتلى بعلة ،

فمذهبه رسالة علته ؛ وأكثرهم لا يكون ثباته على الرأى الفاسد إلا من ثبات العلة فيه .

* * *

قال المحدِّث : وكنتُ من المجددين ، فأرمضنى ذلك وقلت للعجوزين : إن هذا نصف الصحيح ، أما النصف الآخر فهو فى كثير من هؤلاء الذين ينتحلون الدفاع عن الدين والفضيلة ؛ نعم إنهم لا يستعملون حقهم فى الوقاحة ، ولكن القروش تستعمل حقها ...

فضحك العجوز (ن) وقال : يابنى ، إن الجديد فى كل حمار هو أن يزعم أن نهيقه موسيقى ... فالحمار والنهيق والموسيقى كل ذلك لا جديد فيه ، ولكن التسمية وحدها هى الجديدة ؛ ولو كان البرهان فى حلق الحمار لصح هذا الجديد ، غير أن التصديق والتكذيب هنا فى آذان الموسيقيين لا فى حلق حمارنا المحترم ...

قال (م) وزعموا أن رجلا نصب فخاً لصيد العصافير ، فجاء عصفور فنظر من هذا الفخ إلى شىء جديد ، فقال : ياهذا ، مالك مطمورا فى التراب ؟ قال الفخ : ذلك من التواضع لخلق الله ! قال : فِمَّ كان انحناؤك ؟ قال الفخ : ذلك من طول عبادتى لله ! قال : فما هذه الحبة عندك ؟ قال الفخ : أعددتها لطيور الله الصائمين يفطرون عليها ! قال العصفور : فتُبيحها لى ؟ قال : نعم .

فتقدم المسكين إليها ، فلما التقطها وقع الفخ فى عنقه ، فقال وهو يختنق : إن كان العُبّاد يَخنقون مثل هذا الخنق فقد خُلق إبليس جديد ...

قال (ن) : فالحقيقة أن إبليس هو الذى تجدد ليَصْلح لزمن الآلات والمخترعات والعلوم والفنون وعصر السرعة والتحول ؛ وما دام الرقى مطردا وهذا العقل الإنسانى لا يقف عند غاية فى تسخير الطبيعة ، فسينتهى الأمر

بتسخير إبليس نفسه مع الطبيعة ... لاستخراج كل مافيه من الشر .

قال (م) : ولكن العجب من إبليس هذا : أتراه انقلب أوربيّاً للأوربيين ؟ وإلا فما باله يخرج فيهم مجددين من جبابرة العقل والخيال ، ثم لا يؤتينا نحن إلا مجددين من جبابرة التقليد والحماقة ؟

قال المحدث : فقلت لهما : أيها العجوزان القديمان ، سأنشر قولكما هذا ليقرأه المجددون .

قال الأستاذ (م) : وانشر يابنى أن الربيع صاحب الإمام الشافعى . مرّ يوماً فى أزقة مصر فنُثرت على رأسه إجانة (*) مملوءة رمادا ، فنزل عن دابته وأخذ ينفض ثيابه ورأسه ، فقيل له : ألا تزجرهم ؟ قال : من استحقّ النار وصولح بالرماد فليس له أن يغضب ... !

✡ ✡ ✡

ثم قال محدثنا : واستولى علىّ العجوزان ، ورأيت قولهما يعلو قولى ، وكنت فى السابعة والعشرين ، وهى سن الحِدّة العقلية ، فما حسبتُنى معهما إلا ثُلث عجوز ... مما أثّرا على ، وانقلبت لا أرى فى المجددين إلا كل سقيم فاسد ، واعتبرتُ كل واحد منهم بعلته ، فإذا القول ما قال الشيخان ، وإذا تحت كل رأيٍ مريض مرضٌ ، ووراء كل اتجاه إبرة مغناطيسية طرفها إلى الشيطان...

وفرغنا من هذا ، فقلت للشيخين : لقد حان وقت نزولكما من بين الغيوم أيها الفيلسوفان ، أما كنتما فى سنة ١٨٩٥ من الجنس البشرى ... ؟

(*) قصعة

العجوزان

٤

تتمـــة

قال محدّثنا: وكنتُ قد ضِقْتُ بهذه اللجاجة الفلسفية، ورأيتُنى مُضْطَغِناً على الشيخين معاً؛ فقلت للعجوز (ن): حدِّثني (رحمك الله) بشيء من قديمكما، فأنتما اختصارٌ لكل مامرّ من الحياة يُسْتَدَلُّ به على أصله المطوَّل إلا فى الحب ... وما زلتما فى جِدِّ الحديث تعبثان بى منذُ اليوم، فقد عَدَلتما بى إلى شأنكما ورأيكما فى القديم والجديد، وبقى أن أميلَ بكما مَيْلة إلى سنة ١٨٩٥، وقد والله كاد ينتحر قلبي يأساً من خبر (كارينا ومرغريت)؛ ولكأنك تخشى إذ أعلمتنى خبرَ صاحبتك هذه وهى من وراء أربعين سنة — ماتخافه من رجل سيفجؤك معها فى الخلوة على حالٍ من الريبة فيأخذك «متلبساً بالجريمة» كما تقولون فى لغة المحاكم ...

قال فضحك العجوزان وقال (ن): لا والله يابنى، ولكنى أقول ما قال ذلك الحكيم العربى لقومه وقد بلغ مائتى سنة: «قلبي مُضْغةٌ من جسدى، ولا أظنه إلا قد نحل كما نحل سائر جسدى» (*) واعلم يابنى أنه إذا ذهب الحبُّ عن الشيخ بقى منه الحنان يعمل مثل عمله: فيحب العجوز مكاناً أو شيئاً أو معنى أىّ ذلك كان، ليُعيده ذلك إلى الدنيا أو يُبقيه فيها (بقدر الإمكان) ...

(*) هو أكثم بن صيفى حكيم العرب، قالها لقومه فى سفرهم إلى النعمان بن المنذر كيلا يتكلوا عليه فى حيلة ولا منطق؛ ويقال إنه عاش ثلثمائة وثلاثين سنة، وفى معنى السنة عن العرب كلام ليس هذا موضعه.

فضحك الأستاذ (م) وقال : ولعل ثرثرة العجوز (ن) هي الآن معشوقة العجوز (ن).

ثم قال : وكل شيء يرقّ في قلب الرجل الهرم ويحوّل وجهه كأنه لا يطيق أن ينظر إلى معناه الغليظ ؛ ولا بد أن يخرج العجوز من معاني الدنيا قبل أن يخرج من الدنيا ؛ ولهـذا لا يهنأ الشيخ إلا إذا عاش بأفـكار جسمه الحاضر، وقدّر الأمور على ماهو فيه لا على ما كان فيه ؛ والفرق بين جسمه الحاضر وبين جسمه الماضي أن هذا الماضي كانت تحمله أعضاؤه، فهو مجتمع من أعمالها وشهواتها، ماضٍ في تحقيق وجودها ومعانيها ؛ أما الحاضر، أما الجسم الهرم، فهو يشعر أنه يحمل أعضاءه كلها وكأنهـا ملفوفة في ثيابه كمتاع المسافر قبل السفر ... وكأن بعضها يسلم على بعض سلام الوداع يقول : تفارقني وأفارقك (*)

فتململ الأستاذ (م) وقال : أفٍّ لك ولمـا تقول ! لا جرَم أن هذه لغة عظامك التي لا صلابة فيها ، فمن ذلك لا تجيء معانيك في الحياة إلا واهنة ناحلة فقدت أكثرها وبقي من كل شيء منها شيء عند النهاية : أليس في الهرم إلا أن يبقى الجسم ليـكون ظاهراً فقط كعُمْشُوش العنقود (**) بعد ذهاب الحب منه، يقول : كان هنا وكان هنا ؟

ألا فاعلم يا (ن) أن هذه الشيخوخة إنمـا هي غلبةُ روحانية الجسم على بشريته ، فهذا طورٌ من أطوار الحياة لا تدعه الحياة إلا وفيه لذته وسروره كما تصنع بسائر أطوارها ؛ غير أن لذاته بين الروح والجمال ، ومسراته بين العقل

(*) في الحديث الشريف : إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض ، تقول : عليك السلام، تفارقني وأفارقك إلى يوم القيامة

(**) هو ما يبقى من العنقود بعد أكل ما فيه من الحب

والطبيعة ، وكل ما نقص من العمر وجب أن يكون زيادة فى إدراك الروح وقوتها وشدتها ونورها ؛ وقد قيل لبعض أهل هذا الشأن وكان فى مرض موته : كيف تجد العلة ؟ فقال : سلوا العلة عنى كيف تجدنى ؟

وإنما تثقل الشيخوخة على صاحبها إذا هى انتكستْ فيه وكانت مراغمةً بينه وبين الحياة ، فيطمع الشيخ فيما مضى ولا يزال يتعلق به ويتسخط على ذهابه ويتصنع له ويتكلف أسبابه ، وقد نسى أن الحياة ردَّته طفلاً كالطفل ، أكبر سعادته فى التوفيق بين نفسه وبين الأشياء الصغيرة البريئة ، وأقوى لذته أن يتفق الجمال الذى فى خياله والجمال الذى فى الكون ، وإنه لكما قلت أنت : لا يهنأ الشيخ إلا إذا عاش بأفكار جسمه الحاضر .

وما أصدقَ وأحكم هذا الحديثَ الشريف : « إن الله تعالى بعدله وقسطه جعل الرَّوْحَ والفرحَ فى الرضى واليقين ، وجعل الهمَّ والحزنَ فى الشك والسخط » . فهذه هى قاعدة الحياة : لا تعاملك الحياة بما تملك من الدنيا ، ولكن بما تملك من نفسك ، وبذلك تكون السعادة فى أشياء حقيقية ممكنة موجودة ، بل تكون فى كل ما أمكن وكل ما وجد ؛ وإذا كان الرضى هو الاتفاق بين النفس وصاحبها ، وكان اليقين هو الاتفاق بين النفس وخالقها ، فقد أصبح قانون السعادة شيئاً معنوياً من فضيلة النفس وإيمانها وعقلها ، ومن الأسرار التى فيها ، لا شيئاً مادياً من أعضائها ومتاعها ودنياها والأخيلة المتقلبة عليها .

* * *

فأطرق العجوز (ن) قليلاً ثم قال : « ربِّ إنى وَهَنَ العظمُ منى » ، ألا ما أحكم هذه الآية ! فوالله إن قرأتُ ولا قرأ الناسُ فى تصوير الهرَم الفانى أبدعَ منها ولا أدق ولا أوفى : ألا تحس أن قائلها يكاد يسقط من عَجَفٍ

وهُزال وإعياء ، وأنه ليس قائمـا فى الحياة قيامَه فيها من قبل ، وأن تناقض هذه الحياة قد وقع فى جسمه فأخلّ به ، وأن معانى التراب قد تعلقت بهـذا الجسم تعمل فيه عملها ، فأخذ يتفتَّت كأنمـا لمس القبر عظامَه وهو حى ، وأنه بهذا كله أوشك أن ينـكسر انـكسار العظم بلغ المِبرد فيه آخرُ طبقاته ؟

قال محدثنا : فقلت له : تُرى لو أن نابغـةً من نوابغ التصوير فى زمننا هـذا تناول بفنِّه ذلك المعنى العجيبَ فـكتبه صورةً وألواناً ، لا أحرفاً وكلمات ، فـكيف تراه كان يصنع ؟

قال : كان يصنع هكذا : يرسم منظر الشتاء فى سماءٍ تَعلق سحائبُهـا كثيفاً متراكباً بعضُه على بعض يخيِّل أن السماء تدنو من الأرض ، وقد سدت السحبُ الآفاقَ وأظلم بها الجو ظلامه تحت النهار المغطَّى ، واستطارت بينها وشائعُ من البرق ، ثم يترك من الشمس جانبَ الأفق لُمعـةً كضوء الشمعة فى فَتْق من فُتوق السحاب ، ثم يرسل فى الصورة ريحاً باردةً هوجاءَ يدل عليها انحناءُ الشجر وتقلب النبات ، ثم يرسم رجالاً ونساءً يغلى الشباب فيهم غليانَه من قوة وعافية ، وحب وصبابة ، وتغلى فيهم أفـكار أخرى ... وهم جميعاً فى هيئة المسرعين إلى مرتص ؛ وهم جميعاً من المجددين ...

ثم يرسم يابنى فى آخرهم (على بُعد منهم) عمَّك العجوز (ن) ، يرسمه كما تراه ، منحلَّ القوة ، منحنى الصُّلب ، مُرْعَشاً مُتزلزلاً متضعضاً ؛ قد زعزعته الريح ، وضربه البرد ، وخنقته السحب ؛ وله وجه عليه ذبولُ الدنيا ، يُنبئ أن دمه قد وُضع من جسمه فى برّادة ، والـكونُ كله من حوله ومن فوقه أسباب روماتزم ...

ثم يصوره وقد وقف هناك ساهما كئيباً ، رافعاً رأسه ينظر إلى السماء .

✡ ✡ ✡

قال المحدِّث : وضحكنا جميعاً ، ثم قال الأستاذ (م) : لعمرى إن هذه الحياة الآدمية كالآلة صاحبُها مهندسها ؛ فإن صلحت واستقامت فمن علمه بها وحياطته لها ، وإن فسدت واختلت فمن عبثه فيها وإهماله إياها ، وليس على الطبيعة فى ذلك سبيلُ لائمة ؛ والشيخ الضعيف ليس فى هذه الدنيا إلا الصورة الهزلية لمفاسد شبابه وضعفه ولينه ودَعته ، تظهرها الدنيا ليسخر من يسخر ويتعظ من يتعظ .

قال (ن) : أكذلك هو ياأستاذ ؟

قال الأستاذ : بل هى الصورة الجدية من هذه الحياة الباطلة التى دأبُها ألا تصرح عن حقيقتها إلا فى الآخر ، فتظهرها الدنيا ليُجلّ الحقيقة من يجهلها ؛ وليس إلا بهذه الطريقة يُعرف من خراب الصورة خرابُ المعنى .

قال العجوز (ن) : آه من إجلال الشيخوخة واحترام الناس إياها ! إنهم يرونه احتراماً للشيخ والشيخ لا يراه إلا تعزية . وما الأشياخُ الهَرْمَى إلا جنازات قبل وقتها ، لا توحى إلى الناس شيئاً غير وحى الجنازة من مهابة وخشوع

قال الأستاذ : إنما أنت دائماً فى حديث نفسك مع نفسك ، ولو كنت نهراً يامُسْتنقع لما كان فى لغتك هذه الأحرف من البعوض .

قال العجوز الظريف : إن هذا ليس من كلام الفلاسفة التى نتنازعها بيننا ، تردُّ علىَّ وأرد عليك ، ولكنه كلام القانون الذى لك وحدك أن تتكلم به أيها القاضى .

قال (م) : صَرح وبيّن فما فهمنا شيئاً .

قال العجوز : هذا كلام قلته قديماً فى حادثة عجيبة ؛ فقد رُفعت إلىَّ ذات يوم قضية شيخ هرم كان قد سرق دجاجة ؛ وتوسمتُه فإذا هو من أذكى الناس ، وإذا هو يجل عن موضعه من التهمة ، ولكن صح عندى أنه قد سرق ،

وقامت البيّنة عليه ووجب الحكم ؛ فقلت له : أيها الشيخ ، ما تستحى وأنت شائب أن تكون لصا ؟

قال : ياسيدى القاضى ، كأنك تقول لى : ما تستحى أن تجوع ؟

فوَرَدَ علىّ من جوابه ما حيّرنى ، فقلت له : وإذا جعت أما تستحى أن تسرق ؟

قال : ياسيدى القاضى ، كأنك تقول لى : وإذا جعت أما تستحى أن تأكل ؟

فكانت هذه أشدَّ علىَّ ، فقلت له : وإذا أكلت أما تأكل إلا حراماً ؟

فقال : ياسيدى القاضى ، إنك إذا نظرت إلىّ محتاجاً لاأجد شيئاً ، لم ترنى سارقاً حين وجدت شيئاً

فألحمنى الرجل على جهله وسذاجته ، وقلت فى نفسى : لو سرق أفلاطون لكان مثل هذا ؟ فتركت الكلام بالفلسفة وتكلمت بالقانون الذى لا يملك الرجل معه قولا يراجعنى به ، فقلت : ولكنك جئت إلى هذه المحكمة بالسرقة ، فلا تذهب من هذه المحكمة إلا بالحبس سنتين

٭ ٭ ٭

قال محدثنا : وأرمضنى هذا العجوز الثرثار وملأ صدرى ، إذ مابرح يديرنى وأديره عن (كاترينا ومرغريت) ، ورأيت كل شىء قد هرم فيه إلا لسانه ، فحملنى الضجر والطيش على أن قلت له : وهب القضية كانت هى قضية (كاتريا) وقد رفعت إليك متهمة ، أفكنت قائلا لها : جئتِ إلى المحكمة بالسرقة فلا تذهبين من المحكمة إلا بالحبس سنتين ؟

وجرت الكلمةُ على لسانى وما ألقيت لها بالًا ولا عرفت لها خطراً ؛ فاكفهرَّ القاضى العجوز وتربّد وجهه غضباً ، وقال : يابغيض ! أحسبتنى كنت قائلا لها : جئت إلى المحكمة بالسرقة فلا تذهبين من المحكمة إلا بالقاضى ... ؟

وغضب الأستاذ (م) وقال : ويحك ! أهـذا من أدبكم الجديد الذى تأدبتم به على أساتذة منهم الفَجرة الذين يكذّبون الأنبياء ولا يؤمنون إلا بدين الغريزة ويسوّغونكم مذاهبَ الحمير والبغال فى حرية الدم ... ؟ أما إنى لأعلم أنكم نشأتم على حرية الرأى ، ولكن الكلمة بين اثنين لاتكون حرةً كلَّ الحرية إلا وهى أحياناً سفيهة كل السفاهة ، كهذه القولة التى نطقتَ بها

لقد كان الناس فى زمننا الماضى أناساً على حدة ، وكانت الآدابُ حالاتٍ عقليةً ثابتةً لاتتغير ولا يجوز أن تتغير ، وكان الأستاذ الكافر بينه وبين نفسه لا يكون مع تلاميذه إلا كالمومس : تجهد أن تربى بنتها على غير طريقتها !

قال الحدث : فجلجْت وذهبتُ أعتذر ، ولكن العجوز (ن) قطع علىَّ وأنشأ يقول وقد انفجر غيظه : لقد تمت فى هؤلاء صنعةُ حرية الفكر ، كما تمت من قبل فى ذلك الواعظ المعلم القديم الذى حدثوا عنه أنه كان يقصّ على الناس فى المسجد كل أربعاء (*) فيعلمهم أمورَ دينهم ويعظهم ويحذّرهم ويذكرهم اللهَ وجنته ونارَه ؛ قالوا : فاحتبس عليهم فى بعض الأيام وطال انتظارهم له ، فبينما هم كذلك إذ جاءهم رسوله فقال : يقول لكم أبو كعب : انصرفوا فإنى قد أصبحت مخمورا ......

هـذا القاصّ المخمور هو عنـد هؤلاء السخفاء إمام فى مذهب حرية الفكر ، وفضيلته عندهم أنه صريح غير منافق ... وكان يكون هذا قولًا فى إمام المسجد لولا أنه إمام المسجد ؛ غير أن حرية الفكر تبنى دائمًا فى كل ماتبنى على غير الأصل ، وعندها أن المنطق الذى موضوعه

(*) هو أبو كعب القاص ، ذكره الجاحظ فى الحيوان وقال إنه كان يقص كل أربعاء فى مسجد عتاب بالبصرة

مايجب ، ليس بالمنطق الصحيح ؛ إذ لا يجب شيء مادام مذهبها الإطلاق والحرية

كل مفتون من هؤلاء يتوهم أن العالم لابد أن يمر من تفكيره كما مرَّ من إرادة الخالق ، وأنه لابد له أن يحكم على الأشياء ولو بكلمة سخيفة تجعله يحكم ، ولابد أن يقول (كن) وإن لم يكن إلا جهله ؛ ومذهبه الأخلاقى : اطلب أنت القوة للمجموع ، أما أنا فألتمس لنفسى المنفعة واللذة ! ويحسبون أنهم يحملون المجتمع ؛ فإنهم ليحملونه ولكن على طريقة البراغيث فى جناح النسر

قال (م) : وكيف ذلك ؟

قال : زعموا أن طائفة من البراغيث اتصلت بجناح نسر عظيم واستمرأته ورَتَعَتْ فيه ، فصابرها النسر زمناً ، ثم تأذى بها وأراد أن يرميها عنه ، فطفق يخفق بجناحيه يريد نفضها ، فقالت له البراغيث : أيها النسر الأحمق ! أما تعلم أننا فى جناحيك لنحملك فى الجو ... ؟

أما أساتذة هذه الحرية الدينية الفكرية الأدبية ، فقد قال الحكماء : إن بَعْرةً من البَعْر كانت معلِّمة فى مدرسة

قال (م) : وكيف ذلك ؟

قال : زعموا أن بعرة كبش كانت معلمة فى مدرسه الحصى ، فألَّفت لتلاميذها كتابا أحكمته وأطالت له الفكرة ، وبلغت فيه جهدَ ما تقدر عليه لتظهر عبقريتها الجبارة ؛ فكان الباب الأكبر فيه أن الجبل خرافة من الخرافات ، لا يسوغ فى العقل الحر إلا هذا ، ولا يصح غير هذا فى المنطق ؛ قالت : والبرهانُ على ذلك أنهم يزعمون أن الجبل شيء عظيم ، يكون فى قدر الكبش الكبير ألفَ ألفِ مرة ؛ فإذا كان الجبل فى قدر الكبش ألف ألف مرة فكيف يمكن أن يَبْعَرَه الكبش ... ؟

قال الأستاذ (م) : هذا منطق جديد سديد لولا أنه منطق بعرة !

قال (ن) : وكل قديم له عندهم جديد ، فكلمة (رجل) قد تخنثت ، وكلمة (شاب) قد تأنثت ، وكلمة (عفيفة) قد تدنست ، وكلمة (حَياء) قد تنجّست ؛ والزمن الجديد ألا يعرف الطالب فى هذا العام ماذا تكون أخلاقه فى العام القادم ... والحياة الجديدة أن تتقن الغش أكثر مما تتقن العمل ... والذمة الجديدة أنَّ مال غيرك لا يسمى مالا إلا حين يصير فى يدك ... والصدق الجديد أن تكذب مائة مرة ، فعسى أن يصدّق الناس منها مرة ... ثم الإنسان الجديد ، والحب الجديد ، والمرأة الجديدة ، والأدب الجديد ، والدين الجديد ، والأب الجديد ، والابن الجديد ؛ وما أدرى وما لا أدرى

قالوا : (السوبرمان) ، وتنطّعوا فى إخراج المخلوق الكامل بغير دينه وأخلاقه ، فسخرت منهم الطبيعة فلم تخرج إلا الناقص أفحش النقص ، وتركتهم يعملون فى النظرية وعملت هى الحقيقة

☆ ☆ ☆

قال محدثنا : ونهض العجوز (ن) وهو يقول : تباركت وتعاليت يا خالق هذا الخلق ! لو فهموا عنك الحكمة فى أنك قد فتحت على العلم الجديد بالغازات السامة ...

قال : ولما انصرف العجوز ، قلت للأستاذ (م) : ولكن ما خبر (كاترينا) ومرغريت) وسنة ١٨٩٥ ؟

فقال : أيها الأبله ، أما أدركتَ بعدُ أن العجوزين قد سخرا منك بأسلوب جديد .... ؟

السطر الأخير من القصة[1]

رجعتُ إلى أوراقٍ لى قديمةٍ يبلغ عمرها ثلاثين سنةً أو لِواذَها، تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً، وجعلتُ أفلِي هذه الأوراقَ واحدةً واحدة، فإذا أنا على أطلال الأيام فى مدينةٍ قائمةٍ من تاريخى القديم، نائمةٍ تحت ظُلماتها التى كانت أنوارَ عهدٍ مَضَى: وإذاً أنا منها كالذى اغترب ثلاثين سنةً عن وطنه ثم آب إليه؛ فما يَرَى من شىءٍ كان له به عهدٌ فى أيام حِدْثانِه ونشاطه إلا اتّصلَ بينهما سِرّ: ومن طبيعةِ القلبِ العاشقِ فى حنينِه أن يَجْعلَ كلَّ شىءٍ يتّصل به كأنه ذو قلبٍ مثلِهِ له حنينٌ ونجْوى!

وذلك التّلاشِى المحفوظُ فى هذه الأوراق، يَحفظُ لى فيها وفيما تحتويه نفْساً وطبيعةً كانت نفسَ شاعرٍ وطبيعةَ روْضة، فى عهدٍ من الصّبي كنتُ فيه أتقدّم فى الشباب وفى الكونِ معاً كأنّ الأشياء تُخلَق فى خَلْقاً آخر: فإذا قَرَضْتُ شِعراً واستوى لى على ما أحب، أحسستُ إحساسَ الملك الذى يَضُم إلى مملكته مدينةً جديدة: وإذا تناولتُ طاقةً من الزهر وتأمّلتُها على ما أحب، شَعرْتُ بها كأجمل غانيةٍ من النساء تُوحِى إلىّ وحيَ الجمال كلّه: وإذا وقفتُ على شاطئ البحر، ترَجْرج البحرُ بأمواجه فى نفسى، فكنتُ معه أكبرَ من الأرض وأوسعَ من السماء. أما الحب... أما الحب فكانت له معانيه الصغيرة التى هى كضرورات الطفل للطفل: ليس فيها كبيرُ شىء، ولكنّ فيها أكبرَ السعادة، وفيها نَضْرَةُ القلب.

عهدٌ من الصّبي كانت فيه طريقةُ العقل من طريقة الحُلم: وكانت العاطفةُ

---

(١) انظر ص ٢١٩ - ٢٢٠ «حياة الرافعى»

هى عاطفةٌ فى النفس ، وهى فى وقتٍ معاً خُدْعَةٌ من الطبيعة ؛ وكان مايأتى يُنْسِى دائماً مامضى ولا يُذَكِّر به ؛ وكانت الأيامُ كالأطفال السعداء : لا ينام أحدُهم إلا على فكرةِ لَعب ولهو ، ولا يستيقظ إلا على فكرةِ لَهْوٍ ولعب : وكانت اللغةُ نفسُها كأنّ فيها ألفاظاً من الحلْوى ؛ وكانت الآلامُ ـ على قِلتها ـ كالمريض الذى معه دواؤهُ المجرَّب ؛ وكانت فلسفةُ الجمال تضحك من فيلسوفها الصغير ، الواضحِ كلَّ الوضوح ، المقتصر بكل لفظ على مايعرف من معناه ، المتفلْسِف فى تحقيق الرغبة أكثر مما يتفلسف فى تخيُّل الفِكرة !

هو العهدُ الذى من أخصّ خصائصه أن تعملَ ، فيكونَ العملُ فى نفسه عملاً ويكونَ فى نفسك لذة .

✡ ✡ ✡

فى أوراقى تلك بحثتُ عن قصّة عنوانها «الدّرس الأوّل فى علْبة كبريت» كتبتها فى سنة ١٩٠٥ ، وأنا لا أدرى يومئذ أنهــا قصةٌ يَسْبَح فى جوّها قَدَرٌ روائىٌّ عجيب ، سيأتى بعد ثلاثين سنة فيكتب فيها السطر الأخير الذى تم به فلسفة معناها .

وها أنذا أنشرها كما كتبتُها : وكان هذا القلمُ إذ ذاك غضّاً لم يَصْلُبْ ، وكان كالغصن تميل به النَّسمة ، على أن أساس بلاغته قد كان ولم يزل ، بلاغةَ فرحه أو بلاغةَ حزنه ؛ وهذه هى القصة :

«عبد الرحمن عبد الرحيم» غلامٌ فلاّح ، قد شهد من هذه الدنيا تسعةَ أعوام ، مرّت به كما يمرّ الزمنُ على ميتٍ : لا تزيده حياةُ الأحياء إلا إهمالا ، فنشأ مَنْشأَ أمثاله ممن فقدوا الوالدين وانتُزِعوا من شمْلِهم فتُرِكوا للطبيعة تَفْصِلهم وتَصلهم بالحياة ، وتضيّق لهم فيها وتوسّع .

وهيّأت الطبيعةُ منه إنساناً حيوانياً ، لا يبلغ أشُدَّه حتى يغالبَ على الرزق

بالحيلة أو الجريمة ، ويستخلصَ قوتَه كما يرتزق الوحْش بالمِخْلَب والنّاب ؛ ولن يكون بعدُ إلا بمجموعةً من الأخلاق الحيوانيَّــة الفاتكةِ الجريئة ، فإن الطبيعة متى ابتدأت عملهـا فى تحويل الإنسان عن إنسانيته ، نزلت به إلى العالَمِ الحيوانىّ ، ووصلَتْه بمـا فيه من الشر والدناءة ، ثم لا تترك عملها حتى يتحوّلَ هو إليها .

وألِفَ « عبـد الرحمن » فى بلده حانوتَ رجلٍ فقير ، يستغنى بالبيع عن التـكفّف وعن المسألة ؛ فكان الغلام يُـكْثر الوقوفَ عنده ، وكان يَطعم من صاحبه أحياناً كرزق الطير ، فُتَاتاً وبقايا ؛ إذ كان الغـلام شحّاذاً ، وكان صاحبُ الحانوت لا يرتفع عن الشّحاذة إلا بمنزلةٍ تجعـل الناس يتصدّقون عليه بالشراء من هَنَاتِهِ التى يسميها بضاعة : كالخيط ، والابرة ، والـكبريت والملْح ، وغزال للولد ، وكحْـل للصَّبَايا ، ونشوق للعجائز ، ونُسْخَةِ الشيخ الشَّعرانى ، وما لفَّ لفّها ممـا يصعد ثمنُه من كسور المليم ، إلى المليم وكسوره !

وتَغَفّـله الغلامُ مرّة وأهوى بيده إلى ذخائر الحانوت ، فالتقطتْ « علبة كبريت » كان الفَرْق كلُّ الفرق بين أن يسرقَها وأن يشتريها ـ نصفَ مّليم ؛ ولـكن مَنْ له « بالعشرين الُخرْدة » وهى عند مثله دينار من الذهب يرنّ رنيناً ويرقص على الظُّفر رقْصةً إنجليزية ؟

وماذا يصنع بالعلبة ؟ همّت نفسُه أن تجادله ولمـا تَسكُنْ رَعْشَةُ يده من هَوْل الإثم ، ولـكن الغلام كان طبيعياً ولم يكن فيلسوفاً ، ولذلك رأى أن يُحْرِز الحقيقة بعـد أن وقعتْ يدهُ عليها . وقد اصطلح الناس على أن مادّة السرقة هى « مدّ اليد » أخطأتْ أم أصابتْ ، وجاءت بالغالى أو جاءت بالرخيص ؛ فضم أصابعه على العلبة وانتزعها ، وترك فى مكانها فضيلةَ الأمانة التى لم يعرف له الناس قيمتها فهانت كذلك على نفسه وانطلق وهى تناديه :

أيها الغلام، أتدفع ثمن علبة الكبريت سنتين من عمرك؟ وهلا خلا الناس ممن يعرفون لعُمرك قيمة؟

وارتدَّ رجْعُ الصوت الخفيْ إلى قلبه من حيث لا يشعر، فَضَرَب قلبُه ضَربات من الخوف، ونزا نزْوةً مضطربة؛ فالتفتَ الغلامُ مرة أخرى، ثم أمْعنَ فى الفِرار وترك الأمانة تناديه:

أيها الغلام، إن لك فى الآخرة ناراً لا تُوقد بهذا الكبريت، ولك فى الدنيا سِجنٌ كهذه العلبة، فالْعب الْعَب مادام الناس قد أهملوك! العبْ بالثّقاب الذى فى يدك فسيمتدّ فيك معنى اللّهب حتى يجعل حياتك فى أعمار الناس دُخانا وناراً؛ وستكون أيامك أعوادا كهذا الكبريت: تشتعل فى الدنيا وتُحرق.

وكأن أذنابَ السياط كانت تُلهِب ظهرَ الغلام المسكين، ولكنه ما كاد يلتفت هذه المرة حتى كان فى قبضة صاحب الحانوت، وإذا هو بكلمةٍ من لغةِ كَفّه الغليظة، خيَّلتْ له فى شِعرها أن جداراً انقضّ عليه، وتلتْها جملةٌ من قوافى الصَّفْع جلْجلَتْ فى أذنيه كالرعد، وأعقب ذلك مثلُ الموج من جماعات الأطفال أحاط به فترك هذا الزَّورقَ الإنسانىَّ الصغير يتكفأ على صَدَمات الأيدى، فما أحسَّ الغلامُ التَّعِسُ إلا أن الكبريت الذى فى يده قد انقدح فى رأسه، وكانت أنامل صاحب الحانوت كأنما تحك أعواده فى جلد وجهِه الخشِن!

✡ ✡ ✡

وذهبوا به إلى (دَوّار) العمدة يقضى فيه الليل ثم يُصبح على رحْلةٍ إلى المركز والنيابة: وانطرح المسكينُ منتظراً حكم الصباح، مُؤملاً فى عقله الصغير ألا يُفصِح النهارُ حتى يكون « سيدنا عزرائيل » قد طمس الجريمة

وشهودَها ، ثم أغفى مطمئنا إلى ملك الموت وأنه قد أخذ فى عمله بجدّ ، وأيقن عند نفسه أنْ سيشحذُ فى الخميس مما يُوزع فى المقبرة صدقةً على أرواح العمدة ، وصاحب الحانوت ، والخفير الذى عهدوا إليه جَرَّه إلى المركز ...! وكيف يشك فى أن هذا واقعٌ بهم وهو قد توسل بالولىّ فلان ونَذَرَ له شمعةً يسرقها من حانوت آخر ...!

هكذا عرف الشرَّ قلبُ هذا الصبى ، وانتهى به عدلُ الناس إلى أفظعَ من ظُلم نفسه ، وكأنهم بذلك القانون الذى يُصلحونه به على زعمهم ، قد ناولوه سُبحةً ليظهر بها مظهرَ الصالحين ؛ ولم يُفهموه شيئا ففهم أنهم يقولون له : هذه الجريمةُ واحدة ، فعُدَّ جرائمك على هذه السبحة لتعرف كم تبلغ!!

كانت فى الحقيقة لعبة لا سرقة ، وكانت يدُ الغلام فيما فعلت مُستجيبةً لقانون المرح والنشاط والحركة ، كما تكون أعضاء الطفل لا كما تكون يدُ اللص ؛ وكان أشبهَ بالرضيع يمدّ يدَه لكلّ ما يراه ، لا يميز ضارّةً ولا نافعةً ، وإنما يريد أن يشعر ويحققَ طبيعته ؛ وكان كل ما فى الأمر وقُصارَى ما بلَغ — أن خيال هذا الغلام ألَف قصةً من قصص اللّهو ، وأن الكبارَ أخطئوا فى فهمها وتوجيهها ..! ليست سرقة الطفل سرقة ، ولكنها حقٌّ من حقوق ذكائه يريد أن يظهر .

٭ ٭ ٭

وانتهى « عبد الرحمن » إلى المحكمة ، فقضت بسجنه فى (إصلاحية الأحداث) مدة سنتين ، واستأنف له بعض أهل الخير فى بلده : صدقةً واحتساباً ... إذ لم يكلّف الاستئناف إلا كتابة ورقة ؛ فلما مَثَلَ الصغيرُ أمام رئيس المحكمة لم يكن معه لفقره محام يدفع عنه ، ولكن انطلق من داخله مُحامٍ شيطانىّ يتكلم

بكلام عجيب ، هو سخريةُ الجريمة من المحكمة ، وسخريةُ عملِ الشيطان من عَمَلِ القاضى . . . !

سأله الرئيس : « ما اسمك ؟ »

ـ : « اسمى عبده ، ولكن العمدة يسمينى : يابن الكلب ! »

ـ : « ما سِنُّك ؟ »

ـ : « أبُويا هُوَ اللّى كان سَنّان » (ه)

ـ : « عُمْرك إيه ؟ »

ـ : « عُمْرى ؟ عُمْرِى ما عَمَلت شَقَاوة ! »

النيابة للمحكمة : « ذكاءٌ مخيف يا حضرات القضاة ! عُمره تِسْع سنوات ! »

الرئيس : « صَنعتك إيهْ ؟ »

ـ « صَنعتى ألْعَب مع محمود ومريم ، وأضْرَب اللّى يِضْرَبْنى ! »

ـ : « تعيش فِينْ ؟ »

ـ : « فى البلد ! »

ـ : « تاْكل منين ؟ »

ـ : « آكل من الأكل ! »

النيابة للمحكمة : « ياحضرات القضاة ، مثلُ هذا لا يسرق علبة كبريت إلا ليُحرِق بها البلد . . . ! »

الرئيس : « ألَكَ أُمّ ؟ »

ـ : « أمى غِضْبتْ على آبويا ، وراحت قعدت فى التُرْبة ؛ مارِضْيِتْش تِرْجَع ! »

ـ : «وأبوك؟»

(ه) كان أبو الغلام سناناً ، ومثل هذا القدر من العامية فى القصة هو ملح القصة

ـ : « أبويا لاخَرْ غِضِبْ وراحْ لها »

الرئيس ضاحكا : « وأنتَ ؟ »

ـ : « والله يا افندى عاوز اغضَب ، مُش عارف أغضب ازاى ! »

ـ : « إنتَ سرقت علبة الكبريت ؟ »

ـ : « دِى هىَّ طارت من الدكان ، حسبتها عصفورة ومِسكْتها ... »

النيابة : « ولِيهْ ما طارتْشِ العلب اللّى مَعاها فى الدكان ؟ »

ـ : « أنا عارف ؟ يمكِن خافت منى ! »

النيابة للمحكمة : « جراءة مخيفة يا حضرات القضاة ، المتهم وهو فى هذه السن ، يشعر فى ذات نفسه أن الأشياء تخافه ! »

فصاح الغلام مسروراً من هذا الثناء . « والله يا افندى إنتَ راجل طيّب ! أديكْ عِرِفْتنى ، ربّنا يكفيك شر العمدة والغفير ! »

✡ ✡ ✡

وأُمضى الحُكْمُ فى الاستئناف ، وخرج الصغير مع رجال من المجرمين يسوقهم الجند ، ثم احتَبَسوا الجميعَ فترةً من الوقت عند كاتب المحكمة ، يستوفى أعماله الكتابية ؛ ثم يساقون من بعدُ إلى السجن .

وجلس « عبد الرحمن » على الأرض ، وقد اكتنفه عن جانبيه طائفة من المجرمين يتحادثون ويتغامزون ، وكلهم رجال ولكنه وحده الصغير بينهم ؛ فاطمأنَّ شيئاً قليلا ، إذ قدّر فى نفسه أنه لو كان هؤلاء قد أُرِيدَ بهم شرٌّ لما سكنوا هذا السكون ، وأن الذى يرادُ بهم لا يناله هو إلا أصغرُ منه ، كصفْعة أو صفعتين مثلاً ... وهو يسمع أن الرجال يَقتلون ويُحرّقون ويَسمُّون ويعتدُون وينهبون ؛ وما تكون (علبة الكبريت) فى جنب ذلك ؟ خاصةً بعد أن استردَّها صاحبُها ، وقد نال هو ما كفاه قبل الحكم !

وما لبث بعد هذا الخاطر الجميل أن ردَّ الاطمئنانُ فى عينيه دموعا كاد يُريقها الجزع ، غير أن القلق اعتاده ، فالتفتَ إلى كتّاب المحكمة مرّة وإلى الجند مرّة ، ثم لوى وجهه ولم يَستبِحْ لنفسه أن يتجرّأ على الفكر فيهم ، لأنه قابلَ مهابتهم بآلهةِ بلده : العمدة والمشايخ والخفراء : فأدركَ أن الجنود هم الحكومة القادرة ، واستدلَّ على ذلك بأزرارهم اللامعة ، وخناجرهم الصقيلة ؛ وتمشَّت فى قلبه رهبةُ هذه الخناجر ، فاضطرب خشيةَ أن يكونوا قد أسلموه إلى مَن يذبحه ، فنظر إلى الذى يليه من المجرمين وسأله : « راح ياخدُونى فينْ ؟ » فأجابته لكمةٌ خفيّة انطلق لها دمعُه ، حتى أسكتَهُ الذى يليه من الجانب الآخر ، وكان فى رأيه من الصالحين ؟

ثم اتصل الجزعُ بين قلبه وعينيه ، فهما تضطربان إلى الجهات الأربع ، وكأنما يُحاول أن يستشفّ من أيّها سيأتيه الموتُ ذبحا ؛ ولم يكن فَهِمَ معنى (الاصلاحية) ، وحَكَمَ القضاةُ عليه كأنه رجل يفهم كلَّ شىء ، ولم يرحموا هذه الطفولة بكلمة مُفسرة . وعَدْلُ التربية غيرُ عدل القانون ، فكان الواجب على القاضى الذى يحكم على الطفل ، أن يجعلَ حكْمهُ أشْبَهَ بصيغةِ القصة منه بصيغةِ الحكم ، وأن يَدعَ الجريمة تُطاقُ وتذهب فلا يقول لها أمكُثْ ...

وبقى للخناجر رهبتها فى نفس هذا المسكين ، فلو أنهم قادوه إلى حبل الشنّاقة لأفْهمه (الْحَبْلُ) معنى العقوبة ، أما وهو بين هذه الخناجر المغمدة — وفى الخناجر معنى الذبح — فإنما هو الذبح لا غيرُه .

وطرقتْ أذنيه قهقهة المجرم عن يمينه فاستنقذتْه من هذا الخاطر ، فثبّتَ عينَه فى الرجل ، فإذا هو يرى وجهاً متلألئاً ، وجسماً رابطَ الجأش ، وهُزُوًا وسخرية بهؤلاء الجنود وخناجرهم .

واستراح الغلام إلى صاحبه هذا ، وألحّ بنظره عليه ، وابتدأ يتعلم في وجهه الفلسفة ؛ وليست الفلسفةُ مقصورةً على الكتب ، بل إن لكل إنسان حالةً تشغله ، فنَظَرُهُ في اعتبار دقائقها وكشفِ مستورها هو الفلسفةُ بعينها .

وقال الغلام لنفسه : « هذا الرجل أقوى من كل قوة ؛ فهو محكوم عليه ولا يبالي ، بل يقهقه ضحكا ؛ فهذا الحكم إذن لا يخيف ؛ لا ، بل هو تعوّدَ الأحكام : إذن فمن تعود الأحكام لم يَخَفِ الأحكام ؛ إذن يا عبد الرحمن ستتعود ، فإن الخوف هذه المرة قد غطاك من (علبة الكبريت) في حريق مُستعِر ، وما قَدْرُ (علبة الكبريت) ؟ فلو كانت السرقة جاموسة ما لَقيتُ أكثر من ذلك ؛ ياليتني إذن ... ولكنى لا أزال صغيراً ، فمتى كبرْت ... آه متى كبرْت ... »

وبدأ القانونُ عمله في الغلام : فطرد منه الطفلَ وأقرّ فيه المجرم .

✡ ✡ ✡

وأطرقَ « عبد الرحمن » هادئاً ساكناً ، وقامت في نفسه محكمة من الأبالسة بقضاتها ونيابتها ، يجادل بعضهم بعضا ، ويتداولون بينهم أمر هذا الغلام على وجهٍ آخر .

وقال شيطان منهم : « ولكنا نخشى أمرين : أحدهما أن (الاصلاحية) ستُخرجه بعد سنتين شريفاً يحترف ؛ والثاني أن الناس ربما تولَّوه بالتربية والتعليم في المدارس رحمة وشفقة ؛ فيخرج شريفاً يحترف »

وما أسرع ما نفى الخوفَ عنهم قولُ الغلام نفسِه بلهجة فيها الحقد والغيظ وقد صفعهُ الجندى الذى يقوده إلى السجن - : « وِداكله على شانْ علبة كبريت ... ؟ »

... ...

... ...

فى سنة ١٩٣٤ قَضتْ محكمة الجنايات بالموت شنقاً على قاتلٍ مجرمٍ خبيث عيَّارٍ مُتَشطر : اسمهُ « عبد الرحمن عبد الرحيم » .

عاصفة القدر [1]

على شاطئ النيل فى إقليم (الغربية) من هذا البرّ قرية ليس فيها من جبل ، ولكن روح الجبل فى رجل من أهلها ، فإذا أنت اعتبرتهُ بالرجال قوةً وضعفاً رأيتهُ ينهض فيهم بمنكبيه نهضة الجبل فيما حوله ؛ وهو بطل القرية ولواءُ كلِّ معركة تنشب فيها بين فتيانها وبين فتيان القرى المتناثرة حولها ؛ ولا تزال هذه المعارك بين شبان القرى كأنَّها من حركة الدم الحر الفاتح المتوارَث فيهم من أجيال بعيدة ، ينحدر من جيل إلى جيل وفيه تلك القطرات الثائرة التى كانت تغلى وتفور ، وهى كعهدها لا تزال تفور وتغلى : ويلقبون هذا الرجل الشديد (بالجمل) ، لما يعرفونه من جسامة خلقه وصبره على الشدائد ، واحتماله فيها ، وكونهُ مع ذلك سَلِس القياد سليم الفطرة رقيق الطبع ؛ على أنه أبطش ذى يدين إن ثار ثائرُه ، وله إيمان قوى يستمسك به كما يتماسك الجبل بعنصره الصخرى ، إلا أنه يخلطه ببعض الخرافات ؛ إذ لابدله من بعض الجرائم الشريفة التى يحمل عليها فرطُ القوة والمروءة فى مثله مع مثله .

وليس فى تلك القرية من بحر ، غير أن فيها شاباً أعنف طيشاً وعتوًّا من الموجة على بحرها فى يوم ريح عاتية ، حلو المنظر لكنه مر الطعم ، صافى الوجه

---

(١) أنشأها للمقتطف سنة ١٩٢٥

لكن له غورا بعيدا من الدهاء والخبث، وهو ابن عمدة البلدة وواحد أبويه والوارث من دنياهما العريضة، يبسط يديه على خمسمائة فدان، وقد أفسدته النعمة وأهانته عزته على أهله؛ ولو اجتمعت حسنتان لتخرج منهما سيئة من السيئات بأسلوب من الأساليب، لما وسعها إلا أسلوب نشأته من أبويه الطيبين. تعلَّم وهو يعرف أنه لاحاجة بهِ إلى العلم، فجعلت تلفظهُ المدارس واحدةً بعد واحدة كأنه نواة ثمرة إنسانية فإذا قيل له فى ذلك قال: إن خمسمائة فدان لا تسعها مدرسة .... وذهب إلى فرنسا يطلب العلم الذى استعصى عليه فى مصر، فأرهف ذلك العلم .... خيالَه وصقل حسهُ، ورجع من باريس رقيق الحاشية خنثا متظرفا لا يصلح شرقيا ولا غربيا!

وليس فى تلك القرية غابة لكن فيها عذراء تلتفُّ من جسمها فى رداء الجمال الطبيعى الرائع، ولها نفسٌ أشدُّ وعورةً مما تنطوى الغابة عليهِ؛ ففى ظاهرها الرونقُ الذى يفتن فيجذبُ إليها، وفى باطنها القوة التى تلتوى فتدفع عنها؛ وهى ابنة عم (الجمل) واسمها (خضراء)، وكأن فيها زهوَ خضرة الربيع، ولم تكن تعشق إلاَّ القوة، فما يزيِّن لها من الرجال إلا ابن عمها، وهى شديدة الإعجاب به؛ وإنما إعجاب المرأة برجل من الرجال مفتاح من مفاتيح قلبها.

وكانت (خضراء) جاهلة كنساءِ القرى، بَيْدَ أنها تلميذة بارعة للطبيعة التى نشأت فيها وزاولت أعمالها؛ فهى بذلك أقوى نفسا وأشدُّ مراسا من الفتيات المتعلمات؛ إذ اتخذت شكلا ثابتًا من أشكال الحياة، والحياة هى صنعتْها هذه الصنعة أوقامتها على هذه الهيئة. على حين أن المتعلمات يُمضِين أيام النشأة وسنَّ الغريزة فى التلقى عن الألفاظ والكتب، وفى توهم الصور المختلفة للاجتماع دون مباشرتها، وفى توقى أعمال الحياة بدلاً من مخالطتها؛ فيئول ذلك منهن إلى

قوة فى التخيل قلما ترضى الحقيقة الإنسانية المؤلمة حين تصادمها يوماً ما؛ وتتم الواحدة منهن ولكن باعتبار أنها تمت تلميذة المدرسة لا امرأة للحياة بما فيها مما يعجب وما لا يعجب

وكانت خضراء أشبه بدورة النهار: تفتح أجفانها على أشعة الفجر كل يوم، ولا تزال نهارها فى دأب وعمل، فنفى ذلك عن أخلاقها ما يجلبه السكون من الخمول والميل إلى العبث والدُّعابة، وحصلت لها من الحياة حقيقة عرفت منها أن المرأة عامل من أكبر العوامل فى النظام الإنسانى؛ عليه أن يصبر على الكدّ والتعب إذا أراد أن يظهر بطبيعته الحقيقية لا بطبيعته المزوّرة المصنوعة؛ ورأت الرجل يستأثر بجلائل الأعمال ولا يترك للمرأة إلا كما يترك عقرب الساعات لعقرب الثوانى فى الرقعة التى تجمعهما؛ فهذا الصغير لا يبرح يضطرب فى «دائرته الضيقة» يهتز من جزء إلى جزء، حتى إذا أتم الدقيقة فى ستين هزة كاملة ذهب الأول بفضلها كلها وخطا بها خطوة واحدة؛ ثم يعود المستضعف المسكين إلى مثل عمله ولا يزال دأبهما وإن أكثرهما عملاً وتعباً هو أقلهما قيمةً وظهوراً؛ ولكن هذا الضعيف المغبون لم ينلهُ ما نالهُ إلا من كونه هو وحده الذى بُنِى فى هذا النظام على فضيلة الصبر والدقة، ليكون أساساً للآخر؛ فعرفت (خضراءُ) كيف تقيِّد طبيعتها من تلقاءِ نفسها، وتُقرها على الصبر والرضا والسكون إلى حظها الطبيعى والاغتباط به؛ إذ كان فضل الرجل على المرأة ليس فى كونهِ أكثر منها فضلاً أو أسبابَ فضل، بل فى كونها هى أكثر منه حبًّا وتسامحاً وصبرا وإيثارا؛ ففضائلها الحقيقية هى التى جعلته الأفضل، كما تجوع الأم لتطعم ابنها!

✡ ✡ ✡

ورآها (ابن العمدة) ولما تمضِ أيام على رجوعهِ من أوربا، وقد لبث

هناك بضع سنين ، وكان عهدُه بالفتاة صغيرة ، فوثبت إلى نفسه فى وثبةٍ واحدة ، ورأى شباباً وجمالاً وروعة زيدتها فى قلبه وسوّلت له مطمعا من المطامع ، وجعلته يرى ما يرى بمعنًى ويفهم منه ما يفهم بمعنى غيره

وكانت حين رآها واقفة على النيل تملأ جرتها مع نساء من قومها وهن يتعابثن ويتضاحكن ، كأن لخصب الأرض فى أرواحهن أثراً بادياً ، فإذا ما أقبلن على النهر لشأن من شئونهن تندّتْ روح الماء على ذلك الأثر فاهتزّ واهتزت المرأة به . فإن كانت ذات مسحة من جمال رأيت لها رفيفاً كرفيف الزهرة حين يمسحها الندى ، وذهبت تتموج فى جسمها وقد حسرت عن ذراعيها ولمس الماء دمها الجذاب فأرسل فيه تيارا من العافية والنشاط يتصل منها بقلب من يراها إن هو كان شاعرا يحسّ ؛ فإن كانت روح الرجل ظمأَى ورأى المرأة على هذه الهيئة ، فما أحسبُه إلا يشرب منها بعينيه شربا يجد له فى قلبهِ نشوة كنشوة الخمر ؛ وكذلك وقعت الفتاة من نفس هذا الفتى فزينها له الخبث الذى فيه أضعاف ما زينها له الجمالُ الذى فيها ، وقذفها القدر إلى قلبه ليخرج من هذا القلب تاريخ جريمة ؛ فوقف يتأملها بعينٍ أحدّ من آلة التصوير لا تفوتها حركة ، وسلّط عليها فكرهُ وذوقهُ ، وأيقظ لها فى نفسه المعانى الراقدة ، فنصبت فى قلبهِ عدة من تماثيل الجمال تجسّدت فى كل واحد منها على شكل كأنما أُفرغت فيه إفراغاً

* * *

وكانت نفس ابن العمدة من النفوس الخيالية المتوثبة ؛ إذ قامت من نشأتها على أن تطلب فتجاب ، وتأمر فتطاع ، وتشتهى فتجد ؛ وكأنهُ ما خلق إلا ليستعبد قلبي والديهِ ؛ وكانا ساذجين لا يعرفان من علم التربية إلا أن للحكومة مدارس للتربية ، وموسرين لا يفهمان من معنى الحاجة فى هذه الدنيا إلا أنها

الحاجة إلى المال، ومنقطعين من النسل إلا منه، فكأنه لم يولد لهما بل قد وُلدا له ... فله الأمر عليهما من كونه لا أمر لهما عليه؛ وبذلك أسرفا له من فضائل الرقة والحنان والإشفاق وما إليها، وهى فى نفسها فضائل، ولكن متى أسرف بها الآباء على أولادهم لم تُنشئ فى أولادهم إلا ما يكون من أضدادها، كالشجر تفرط عليه الرىّ فلا يحدث فيه إلا اليبس والذَّوى، وإنما أنت تسقيهِ الموت مادمت ترويهِ بمقدار من هواك لا بمقدار حاجتهِ

ونشأ الفتى فى أحوال اجتماعية مختلفة جعلت من أخصّ طباعهِ تمويه نفسِه على الناس، والتباهى بالغنى، والتنبُّل بالأصدقاءِ والحاشية من وزرائه وعمالهِ، والتهيؤ بالثياب والأزياء؛ فانصرف باطنهُ إلى تجميل ظاهرهِ، وردَّ ظاهرَه على باطنه بالشهوات والدنايا، وأعانهُ على ذلك أنه جميل فاتن كأنما خلقت صورتهُ «للصفحة الحساسة» من قلوب النساءِ؛ وذلك ملكٌ عظيم لم يكن أبوه الرجل الطيب منهُ إلا كما يكون وزير مالية الدولة ......

ولما أرسل إلى باريس وقع منها فى بلد عجيب كأنه خيال متخيل لا يؤمّه رجل فى الدنيا من كامل أو ناقص وعالم أو جاهل وشريف أو ساقط إلا رأى فيه ما يملأ كل مداخل نفسهِ ومخارجها، فلو قامت مدينة من أحلام النفوس الإنسانية فى خيرها وشرها وطُهرها وفجورها واختلالها ونظامها لكانت هى باريس؛ وانقطع الشاب هناك إلى نفسِه وإلى صور نفسهِ من أصدقاء السوء، فلا أهل فيلزموهُ الفضيلة، ولا إخوان فيردُّوه إلى الرأى، ولا خلُق متين فيعتصم به، ولا نفس مرَّة فيفىءَ إليها، ولا فقر ... فيحدَّ له حدوداً فى الشهوات يقف عندها؛ وما هو إلا خيال متوقد ومزاجٌ مشبوب وتربية مدلَّله وطبع جرىء ومالٌ يمرُّ فى إنفاقهِ، ومن ورائه أب غنى مخدوع كأنه فى يد ابنِه كرة الخيط: كلما جذب منها مدت له مدًّا، ثم ماهنالك من

فنون الجمال ومُتَع اللذات وأسباب اللهو ، مما يتناهى إليه فساد الفاسد ، وما هو فى ذاته كأنه عقوبة مستأصلة للأخلاق الطيبة ؛ فكان الشيطان الباريسى من هذا المسكين فى سمعه وبصره ورجله ويده ، يوجهه حيث شاء ؛ وبالجملة فقد ذهب ليدرس فدرس ماشاء ورجع أستاذاً فى كل علوم النفس المختلة الطائشة وفنونها ، وأضاف إلى هذه وتلك كلمات يلوى بها لسانهُ من علوم وأقاويل ليس فيها إلا مايدل الحاذق على أن هذا الشاب لم يفلح قط فى مدرسة

فلما وقعت (خضراء) منه ذلك الموقع وأخذت مأخذها فى نفسه ، اعتدها نزوة من نزواته ؛ فما بمثلهِ أن يحب مثلها ، ولا هى كفايتهُ فى شىء إلا أن تكون لهو ساعة من ساعاته ، أو حادثة تجرى فيها حال من أحواله الغرامية ؛ وحسبها امرأة ليس لقابها أبواب تمتنع على مثله ، فقدَّر أن غناه وفقرها يقتلعان باباً ، وعلمهُ وجهلها يحطمان باباً آخر ، وجماله وحدهُ يَضَعُ مابقىَ من الأقفال عما بقى من الأبواب ! وكان يحسب أن جمال المرأة من المرأة كالحلية من بائعها : فكل من ملك ثمنها فليس بينهُ وبينها إلا هذا الثمن ؛ ولكن الأيام جعلت تأتى وتمر وهو لايزيد على أن يعرض لها وهى ترميه من صدودها كل يوم بداعية من دواعى الهوى ؛ وكان لايجد بنفسه قوة أن يزيدها على النظر شيئاً ، وترك لوجههِ وثيابهِ ونظراتهِ وغناهُ أن تصل بين قلبهِ وقلبها بسبب ، فلم ينل طائلا ؛ وتمادى فى حبهِ ، واستولت عليه فكرة غمرتْهُ بهذه المرأة ؛ أما هى فأشعرتْها غريزتها بما فى قلبهِ منها ، وكانت مسمَّاة لابن عمها (٥) فكانت تتحاشى هذا الشاب وتحذره حذراً شديداً ، وتتوهم أن الناس يحصون عليها النظرة والالتفاتة ويحصون عليه من مثلهما ، ووقع فى نفسها أن لهذا الرجل شأناً غير شأن الرجال الآخرين ، فهم لايستطيعون معها حيلة وهو يستطيعها بغناهُ ومنزلته

(٥) معدة لخطبته ، أو كما يقولون : قرئت معأهلها الفاتحة

وكان للرجل خادم داهية قد تخرّج فى مجالس القضاءِ ... من كثرة ماحُكم عليه فى تزوير واحتيال وغش وادعاء وإنكار ونحوها، وقد استخلصهُ لنفسه واتخذه مؤانساً ورفيقاً؛ وجعلهُ دسيساً (*) إلى شهواتِه السافلة وكان يسميهِ فيما بينهما (إبليس)؛ فلما أراد أن يرميها بهِ قال: ياسيدى، هذه قضية احتيال عليها، فإذا دخل ابن عمها خصما فى الدعوى كانت قضيةَ احتيال على عمرى أنا! قال: ويحك أيها الأبله! فأين دهاؤك ومكرك؟ وإنما أرسلك إلى امرأة فقيرة عيشها كفافها، وأنت تعِدها وتمنّيها وتبذل لها ماشئت، ومتى أطمعتها فى المال فإن هذا المال سيوجد مايوجدهُ فى كل مكان، فيَشرى مالا يُشرى، ويبيع مالا يباع! قال (إبليس): نعم ياسيدى، وكذلك هو ولكن خوف العار يطرد حب المال! قال: فأنت إذن لاتقبل؟ قال: ولا أرفض... قال الشاب: قاتلك الله! لقد فهمت! سأشتريها منك بثمنين: أحدهما لك والآخر لها؛ ولكن أخبرنى كيف تصنع معها ومن أين تبلغ إليها؟ قال (إبليس): لما كنت فى السجن عرفت لصًّا فاتكا أعيَا قومهُ خبثاً وشرًّا؛ وهذا السجن يحسبُه الناس عقاباً وردعاً ومنهاةً عن الإثم، على أنه المدرسة التى تنشئها الحكومة بنفسها لتلقّى علوم الجريمة عن كبار أساتذتها؛ إذ لايمكن أن يجتمع كبارهم فى مكان من الأرض إلا فيهِ؛ فالسجن طريقة من طرق حلّ المشكلة الإنسانية، ولكنه هو نفسُه يحدث للإنسانية مشكلةً لاتحلّ! قال الفتى: ويحك! أينَ يُذهَب بك؟ إنما أرسلك إلى المرأة لاإلى السجن! قال: ترسلنى أنت إليها ولكن لايعلم إلا الله أين يرسلنى ابن عمها: إلى السجن أم إلى المستشفى...! فاسمع ياسيدى: كان من نصائح أستاذى فى ذلك السجن: أن الحيلة على رجل ينبغى لإحكامها أن يكون فى بعض أسبابها امرأة، والكيد لامرأة يجب

(*) جاسوساً وصاحب سر.

أن يكون فى بعض وسائلهِ رجل ... صَهْ ! انظر انظر ! فالتفت الشاب ، فإذا (الجمل) مقبل يتكفأُ فى مشيته ، وكان غليظاً ، فإذا خطا شدَّ على الأرض بقدميهِ وتكدّس بعضُه فى بعض ؛ وكان منطلقاً وقتئذٍ إلى بعض مذاهبِه ، فلما حاذاهما قال السلام عليكم ! فردّا جميعا ، ورمى ابن العمدة بنظرة ثم مضى لوجهِه فلم يجاوز غير بعيد حتى بلغهُ صوت الشاب يناديه : يافلان ! فانكفأ إليهِ ، فقال له الشاب : لقد بعُد عهدك بالقوة على ماأرى . قال : فما ذاك ؟ قال : أما بلغك أن فلاناً فى هذه القرية التى تجاورنا سيقترن بزوجتِه بعد أيام ، وأنت تعرف الموقعة التى كانت بين بلدنا وتلك البلدة يوم عرْس فلان فى السنة الماضية ، وكيف اندفعوا على أهل بلدنا وحطموا فيهم تلك الحطمة الشديدة ولولا أنت أدركتهم ورميتهم بنفسك حتى دفعتهم عن الناس وسقتهم أمامك سَوق النعاج ، لكانت بلدنا اليوم أذلَّ البلاد ، ولاستطالوا علينا بأنهم غلبونا ؛ ولقد حدثنى صاحبى هذا كيف تلقيت بهراوتك يومئذ خمسا وعشرين هراوة ، فأَطرْتها كلها فى جولتك ، وهزمت أصحابها بعد أن أحاطوا بك وتكالبّوا عليك ؛ فأنت فخر بلدنا وصاحب زعامتها ، وما أرى لك إلا أن تنتهز هذه الفرصة وتسرع الوثبة إليهم برجالك ، فتجزيهم فى أرضهم صنيعاً بصنيع مثلِه !

فهز الجمل كتفيهِ العريضتين وقال : بل سأنتظرهم فى يوم عرسى بابنة عمى ... ! قال الشاب : أبلغتَ ماأرى ؟ وإنك لتخافهم ! قال : لاأخافهم ، ولكن أخاف الحكومة أن تؤخر يوم زواجى .... سنةً أو سنتين ! قال الفتى : فإن عملك هذا لايشدُّ من نفوس رجالنا ، ولا بد أن أولئك سينتظرونكم ويُعدون لكم ، فإذا لم تناجزوهم فى بلدهم عدُّوها عليكم هزيمة من الهزائم ، وكأنهم ضربوكم بلا ضرب !

قال الجمل : هم لايعرفون معنى الضرب بلا ضرب ؛ لأنهم رجال ؛ والذى

يُضرب بلا ضرب لايكون رجلا ... والسلام عليكم ! ثم انطلق ، فلما أبعد قال الشاب : لقد بدأت الحرب ولا بد لى أن أحطم هذا الفلاح اللعين ! ولقد عرفت الآن من وجهِه أن عينَهُ علىَّ ، ولست أشك فى أن بنت عمهِ لاتمتنع بقوتها بل بقوته ، ولولا معرفتى أنه من انحطاط الغريزة كالوحش فى الدفاع عن أنثاه لـ ......

قال (إبليس) : لقد تأَملت القصة فرأيت أنه لاسبيل لك إلى الفتاة وهى بعدُ فتاة ، فإذا هو وصل إلى امرأته قطعت أنت بهذه الخطوة نصف الطريق إليها ... وستبلو هى من غلظتِه وخشونة طبعِه مايسهل لك أن تُعلمها قيمة ظرفك ورقتك ، وستجد من سوءِ معاملتِه وقبح تسلطِه مايفتح قلبها لمن يأتيها من قِبل الرفق واللين ، وستصيب عندهُ من ضيق المعيشة وقلتها ويبسها ما يُفهمها معنى ذلك العيش الحلو الخضِر الذى تعرضهُ عليها ؛ ثم إنه لابد مبتليها بغيرتِه العمياء بعد ماعرف من حبك إياها ، والغيرة منك هى توجدك بينهما دائمًا وتنبهُ المرأة إليك كلما كرهتْ من رجلها شيئًا لاترضاهُ

ولم تكن إلا مدة يسيرة حتى أهديت المرأة إلى زوجها ، وإنما تعجل الزفاف ليأتى له أن ينصب يدهُ القوية حجابا بينها وبين هذا المفتون ، وليكتسب من القانون حقًّا لم يكن له من قبل إذا هو مدَّ هذه اليد وعصر فى قبضتها تلك الرقبة التى تتطلع إلى امرأتِه ؛ ورأى الشاب أن هـذه الحال لاتعتدل به وبخصمِه معا ، وكانت الغيرة تأكل من قلبِه أكلاً ، وكان يعرض للمرأة كلما خرجت بمكتلها (٥) إلى السوق أو بجرتها إلى الماء لأنه حينئذٍ يكون فى الطريق الذى لايملكهُ أحد ... فكانت إذا رأتهُ لم تزد على مايكون منها

(٥) هو مايسمى الغلق

إذا هى أبصرت حماراً مد عينهُ إليها ! فعمد إلى امرأة مقيّنة تزفّ العرائس، وهى التى زفت (خضراءَ) فأكرمها وأتحفها وسألها أن تسعفهُ ببعض ماتحتال به، وأن تكون سبيله إلى المرأة ؛ وتحمّل عليها (بإبليسه) حتى استوثق منها، فكانت تتحدث عنه أمام (خضراء) ؛ تستجرُّ بذلك أن تلفتها إلى نعمتِه وجمالِه ، ولكن المرأة أغلظت لها وسبَّتها وحذَّرتها أن تعود إلى مثل كلامها، وقالت لها آخِر ماقالت : واعلمى أنى لو دُفعت إلى طريقين وكان لابد من أحدهما، ثم كان أحدهما حصاهُ الدنانير وهو طريق العار، والآخر حصباؤه الجمر ويفضى إلى الشرف، إذن لتنزَّهتُ أن أُدنّس نعلى بالذهب ولنثرت لحم قدمىَّ على الجمر نثرا

والحب لايبقى حبا أبداً، فإما فاز فبرد ورجع سلوًّا، وإما خاب فاضطرم وتحوّل إلى حقد ونقمة؛ وكذلك انفجر الشاب غيظا، ووجد على الخيبة موجدة شديدة، وأخذ يدير رأيهُ، ففتقت له الحيلة أن يقتل الرجل الشهم بشهامته ، والمرأة العفيفة بعفتها ؛ فواطأ إبليسهُ على أن يدفع إلى تلك المقيّنة منديلا من الحرير عقد طرفه على دينار من الذهب، تُلقيه فى صندوق (خضراء) وتدسهُ فى طى من أطواء ثيابها ؛ فذهبت المرأة، وما زالت بخضراء تستصلحها وتعتذر إليها حتى استلّتْ ضغينة قلبها، ثم سألتها أن تأتيها (بالعيش والملح) لتصيب كلتاهما منه وتتحرم بحرمته : فلما نهضت تأتيها أسرعت الخبيثة إلى الصندوق فدست المنديل فى أبعد مواضعهِ وأخفاها ؛ وكان مندّى بالعطر الينمّ على نفسِه إذا لم ينمّ أحدٌ عليه : ثم رجعت بما فعلت إلى الشاب، فأطلق خادمَه يهمس لبعض أصدقاء الجمل أنه رأى اليوم فى يد (خضراء) ديناراً ذهبا على ندرة الذهب وعزتِه : فجعل هذا الدينار يطير من نفس إلى نفس بقوة الذهب الذى فيه، والحبّ الذى أعطاهُ، والجمال

الذى أخذهُ ؛ ثم انتهى إلى الجمل ، فكأنما حملهُ وطار به إلى داره كالمجنون وقد حمى دمهُ الحرُّ ، وجاش جأشهُ العنيف ولم تكن امرأتهُ فى الدار ، فنثر مافى الصندوق ، وماكادت تفغمه رائحة العطر حتى نفخ الشيطان بها نفخة الغضب الكافر ، ثم عثر على المنديل ، ورأى بصيص الدينار ، فدارت به الأرض ، وأيقن أن العار قد طرق بابهُ ، وأن الباب قد فُتح له ؛ ثم ردَّ نفسهُ على مكروهها وردَّ معها كل شىء إلى موضعِه ، وتلفف رأيه على جريمتين ، وخرج وروحهُ تصرخ من ضربة بمنديل ، وهو الذى كانت تتهاوى عليه الضرباتُ القاتلة تهشم منه ولا يتأوه !

وذكر أن (حماته) أثنت من عهد قريب على ابن العمدة ووصفتهُ بالرقة والغنى ، فوجّه إليها أن تأتى فتبيت عند امرأتِه لأنه على سفر ، وكان كالأعمى فى ضلالتِه : لايرى الأشياء إلا كما يتخيلها فى نفسه دون ماهى فى نفسها ، فسألته زوجته : أين أزمعتَ وما تبغى من سفرك وكم تلبث عنا ؟ فكأنه سمعها تقول : ارحل إلى مكان بعيد وغب عنا زمنا طويلا ، فبِنا إلى غيابك حاجة شديدة ! وكاد يبطش بها ، ولكنهُ كاتمَ صدرهُ اللوعةَ وذكر اسم جهة بعيدة ومضى والانكسار يُعرف فيه !

* * *

فزع الناس بعد أيام فى جوف الليل ، فإذا بيتُ الجمل يحترق من أرضهِ وسمائه ، واقتحموهُ فإذا المرأة وأمها فحمتان ؛ وانطلقت أسرار الألسنة ، وقبض على الرجل فى بلد أخرى ، وتولى ابن العمدة توجيه البينة عليه ، وشهد الشهود على الدينار ، وشهد الدينار على النار ، وأنكر « الجمل » ولم يقصر فى إقامة الحجة ودافع عن امرأتِه وبالغ فى أمانتها وعفتها وشهد أنه لايعلم عليها من سوء ، وأنها أطهر النساء وأبرهنَّ ، ثم كان الحكم أن قضى عليه بالموت شنقا !

✡ ✡ ✡

فلما كان يوم إنفاذ الحكم سئل الرجل: هل من شيءٍ تريدُه؟ فطلب دخينة (*) فقدمها له قيّم السجن، فأشعلها ونفخ من دخانها نفخةً. ثم أخذ يتكلم وعمرُهُ يفنى مع الدخينة نفساً في نفس، وعاد هذا الدخان المتطاير كأنه سحاب يسبح فيه الوحي بين حدود الدنيا وحدود الآخرة؛ قال المسكين: لم أتعلم، ولو تعلمت ماوقفت هنا؛ ولكن ربما كنت خرجت نذلا كبعض المتعلمين الذين يعيشون أشرافا وفيهم أرواح القتلة واللصوص!

لم أُقرَّ لأحد بجريمتي خشية أن تُذكر كلمةُ العار مع اسمي، وآثرتُ أن أموت بالشنق على أن أحيا ويموت اسمي بالعار!

ولكني سأعترف الآن أمامكم وأنتم الساعة على قبري، فكونوا كالملائكة لا يشهدون بما عرفوا إلا عند الله وحدهُ

أعترف أني قتلت زوجتي وأمها؛ وقد تقولون إنه ليس من عمل الرجل أن يقتل امرأة فضلا عن اثنتين؛ إني رجل سأُشنق، أما النساءُ فلا يشنقن وإنما يرسِلْن الرجال إلى المشنقة ... لم أر أبي؛ إذ تركني طفلا، ولكن يقال إنه كان رجلا، فأنا رجل وابن رجل، ولم يذلني رجل قط، ولكن لوخلق الله قوةمائة جبَّار في جسم رجل واحد لأذلتهُ امرأة!

إنه ليس من شيمة الرجل أن يقتل النساء، ولكن المرأة تذل الرجل ذلاً يهون عليه قتل نفسه، فكيف لا يهوّن عليه قتلها؟

علّموا المتعلمين ليصيروا في الشرف والأمانة والعفة كرجل جاهل مثلي: لا يرى للحياة كلها قيمة إذا كان فيها معنى العار، ويقدم عنقهُ للمشنقة حتى لا ينكس رأسهُ للذل!

(*) وضعناها للسيجارة، وهي أليق الألفاظ بها

أصلحوا القانون الذى يحكم بالموت شنقا ويزهق الأرواح الكبيرة، فى حين تغلبهُ الأرواح الصغيرة بحيلها الدنيئة !

ومع ذلك سألقى الله وهو يعلم سريرتى إن كنت بريئا أو مجرما !

قيِّم السجن : ستلقاهُ طاهراً

السجين : أرأيتم منى خلُق سوء ؟ أتعتقد علىَّ ذنبا مدة سجنى ؟

القيم : كلنا راضون عنك

السجين : هذا مثل من أخلاقى، والحمد لله على أن آخر كلمة أسمعها من إنسان على الأرض — كلمة الرضا

... ...

أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله !

* * *

نظرتْ ريشة من زغب العصفور إلى النجوم فحسبتها ريشا متناثرا، فامتطت العاصفةَ وقالت : إلى السماء ! ودارت بها العاصفةُ ماشاءَ الله أن تدور، ثم رمت بها حيث وقعت لم تبال فى موضع نفع أم ضُرّ ؛ فأقبلت الريشة تتسخَّط وتزعم أنها فوضى ثائرةٌ لاحكمة فى خلقها، وأن الرياح بعثرةٌ فى نظام العالم... وكان إلى جانبها شجرة تهتزّ ولا تطير ... فلما وعت مقالتَها أقبلت عليها فقالت : أيتها الريشة ! إن الرياح لا تكون بعثرةً فى نظام العالم إلا إذا كان العالم ريشا كلُّهُ !

القلب المسكين [1]

أقبل عليَّ صاحبي الأديب وقال : اُنظر ، هذه هي ، وقد حلت بهـذا البلد ومالى عهدٌ بها منذ سنة . ومد إلىَّ يده فنظرتُ إلى صورة امرأة كأحسن النساء وجهاً وجسما ، تتأوَّد فى غلالة من اللاَّذ [*]

وكأن شعاعَ الضُّحى فى وجهها ، وكأنها القمرُ طالعاً من غيمة ، ويكاد صدرها يتنهـد وهى صورة ، وتبـدو هيئةُ فمها كأنها وعدٌ بقبلة ، وفى عينيها نظرةٌ كالسكوت بعد الكلمة التى قيلت همساً بينها وبين محبها ...

فقلت : هـذه صورة ما أراها قد رسمها إلا اثنان : المصوِّر وإبليس ؛ فمن هى ؟

قال : سَلْها ، أما تراها تكاد تَثِبُ من الورقة ؟ إنها إلاَّ تخبِرْك بشىء أخبرك عنها وجهها أنها أجمل النساء وأظرفهن وأحسنُ من شاهدتَ وجهاً وأعيناً ، وثغراً وجيدا والذى بعد ذلك ...

قلت : ويحك ، لقد شعرتَ بعدى ، إن هذا شعر موزون :

وأحسنُ من شاهدتَ وجهاً وأعيناً   وثغرا وجيدا والذى بعد ذلكا ...

قال : إن شيطان هذه لا يكون إلا شاعرا ؛ ألستَ تراه ناظما من فنونها على الرسم شعرا معجزا كلَّ شاعر ؟

قلت : وهذا أيضا شعر موزون :

ألستَ تراه ناظما من فنونها   على الرسم شعرا معجِزا كل شاعر

(١) انظر قصة صاحبة هذا القلب المسكين ص ٢٣٩ « حياة الرافعى » وهى هى صاحبة « الجمال البائس » .

(*) اللاذ : الحرير الصينى الرقيق ، والغلالة : مثل القميص الذى تحت الثياب

قال : بلى والله إنه الشيطان ، إنه شيطانها ، يريك لهذا الجسم روحا رشيقة ، تلين كلين الجسم بل هى أرشق .

قلت : وهذا أيضا ، والقافيةُ التى بعد هذا البيت : وبها شَقُوا ...

فضحك صاحبنا وقال : حرك الصورة فى يدك ، فإنك ستراها وما تشك أنها ترقص .

قلت : الآن انقطع شيطانك ، فهـذا ليس شعرا ولا يجىء منه وزن .

وتضاحكنا وضحك الشيطان ، وظهر الوجه الجميل فى الرسم كأنه يضحك .

☆ ☆ ☆

قال صاحبُ القلب المسكين : انظر إلى هاتين العينين ، إنهما من العيون التى تفتن الرجل وتسحره متى نظرت إليه ، وتعذبه وتضنيه متى غابت عنه ؛ إن فى شعاعهما قدرةً على وضع النور فى القلب السعيد ، كما أن فى سوادهما القدرة على وضع الظلمة فى القلب المهجور .

وانظر إلى هذا الفم ، إلى هذا الفم الذى تعجز كلُّ حدائق الأرض أن تُخرج وردةً حمراء تشبهه .

وانظر إلى هـذا الجيد تحته ذلك الصدر العارى ، فوقه ذلك الوجهُ المشرق ؛ تلك ثلاثة أنواع من الضوء : أما الوجه ففيه روحُ الشمس ، وأما الجيد ففيه روحُ النجم ، وأما الصدر ففيه روحُ القمر الضاحى .

انظر إلى هـذه المسافة البيضاء من أعلى جبينها إلى أسفل نهديها . تلك منطقة القُبُلات فى جغرافيا هذا الجمال ..

وانظر إلى الصدر يحمل ذينك الثديين الناهـدين ؛ إنه المعرِضُ الذى اختارته الطبيعة من جسم المرأة الجميلة للإعلان عن ثمار البستان ...

انظر إلى النهدين لِمَ بَرَزَا فى صدر المرأة إلا إذا كانا يتحدَّيان الصدرَ الآخر ... !

وانظر لهذا الخصر الدقيق وما فوقه وما تحته ، ألا تراه فتنةً متواضعة بين فتنتين متكبِّرتين ... ؟

انظر إليها كلِّها ، انظر إلى كل هذا الجمال ، وهذا السحر ، وهذا الإغراء ؛ ألا ترى الكنز الذى يحوِّل القلب إلى لص ... ؟

هذه مخلوقة مرتين : إحداهما من الله فى العالم ، والأخرى من حبى أنا فى نفسى أنا : فكلمة « جميلة » التى تصف المرأة التامة ، لا تصفها هى بعض الوصف ؛ ورسمها هذا الذى تراه إنما هو حدود لتلك الروح التى فيها قوة التسلط ، وهيهات يُظهر من تلك الروح إلا مايظهر من الجمرة المشتعلة رسمُ هذه الجمرة فى ورقة .

أشهد مانظرت مرة إلى هذا الرسم ثم نظرت إليها إلا وجدت الفرق بينها فى نفسها وبينها فى الصورة ، كأنه اعتذار ناطق من آلة التصوير بأنها ليست إلا أداة .

✡ ✡ ✡

قلت : اللهمَّ غفرا : ثم ماذا ياصديقى المجنون ؟

فأطرق الأديب مهموما ، وكانت أفكاره تنفجر فى دماغه انفجارا هنا وانفجارا هناك ؛ ثم رفع إلىَّ رأسه وقال :

هذه الغانيةُ قد حبست أفكارى كلها فى فكرة واحدة منها هى ؛ وأغلقت أبواب نفسى ومنافذها إلى الدنيا ، وألهبت فى دمى جمرة من جهنم فيها عذاب الإحراق وليس فيها الإحراق نفسه كيلا ينتهى منها العذاب !

وبيننا حبٌّ بغير طريقة الحب ، فإن طبيعتى الروحانية الكاملة تهوى فيها

طبيعتها البشرية الناقصة ، فأنا أمازجها بروحى فأتألم لهـا ، وأتجنبها بجسمى فأتألم بها .

حب عقيم مهما يكن من شىء فيه لايكن فيه شىء من الواقع ...

حب عجيب لاتنتهى منه آلامه ولا تكون فيه لذاته

حب معقد لايزال يلقى المسألة بعد المسألة ، ثم يرفض الحل الذى لاتحل المسألة إلا به

حب أحمق يعشق المرأة المبذولة للناس ، ولا يراها لنفسه إلا قديسة لامطمع فيها

حب أبله لايزال فى حقائق الدنيا كالمنتظر أن تقع على شفتيه قبلةٌ من الفم الذى فى الصورة

حب مجنون كالذى يرى الحسناءَ أمام مرآتها فيقول لها اذهبي أنت وستبقى لى هذه التى فى المرآة ...

* * *

قلت : اللهم رحمة ؛ ثم ماذا ياصاحبي المسكين ؟

قال : ثم هذه التى أحبها هى التى لا أريد الاستمتاع بها ولا أُطيقه ولا أجد فى طبيعتى جرأة عليه ، فكأنها الذهب وكأنى الفقير الذى لايريد أن يكون لصا ؛ يقول له شيطانُ المـال : تستطيع أن تطمع ؛ ويقول له شيطان الحاجة : وتستطيع أن تفعل ؛ ويقول هو لنفسه : لا أستطيع إلا الفضيلة !

إن عذاب هـذا بشيطانين لابشيطان واحد ، غير أن لذته فى انتصاره كلذة من يقهر بطلين كلاهما أقوى منه وأشد

* * *

قلت : اللهم عفواً ؛ ثم ماذا يا قاهر الشيطانين ؟

فأطرق مليًّا كالذي ينظر في أمر قد حيَّره لايتوجه له في أمره وجه ، ثم تنهد وقال : ياطول علة قلبي ! من أين أجيء لأحلامي بغير ماتجيء الأحلامُ به ، وإنما هي تحت النوم ووراء العقل وفوق الإرادة ؟ لقد بلغ بي هواها أن كل كلمة من كلام الحب في كتاب أو رواية أو شعر أو حديث — أراها موجّهة إليَّ أنا

ثم قال : انطلقْ بنا فتراها حتّى تعلم منها علما ، فهي في ذلك المسرح ، هي في ذلك الشر ، هي في تلك الظلمات ، هي كاللؤلؤة لاتتربىّ لؤلؤة إلا في أعماق بحر

* * *

وذهبنا إلى مسرح يقوم في حديقة غنَّاءَ مترامية الجهات بعيدة الأطراف ، تظهر تحت الليل من ظلماتها وأنوارها كأنها مُثْقَلةٌ بمعاني الهجر والعشق .

وتقدَّمنا نسير في الغَبَش ، فقال صاحبنا المحب : إني لأشعر أن الظلام هنا حتّى كأن فيه غوامض قلب كبير ، فما أرى فرقا بين أن أجلس فيه وبين الجلوس إلى فيلسوف عظيم مهمومٍ بهمّ اللانهاية ، فتعال نبرز إلى ذلك النور حول المسرح لنراها وهي مقبلة ، فإن رؤيتها سيدةً غير رؤيتها راقصة ، ولهذه جمالُ فن ولتلك فنُ جمال .

ولم نلبث إلا يسيرا حتى وافتْ ، ورأيتها تمشي مِشيَة الخفِرات كأنما تحترم أفكارَ الناس ، يزهوها على ذلك إحساسٌ نبيل كإحساس الملكة الشاعرة بمحبة شعبها ؛ وانتفض مجنوننا وأغمض عينيه كأنها تمر بين ذراعيه لافي طريقها ، وكأن لذة قربها منه هي الممكن الذي لايمكن غيره …

وكان عجباً من العجب أن تحرك الهواء في الحديقة واضطربت أشجارها ، فقال : أنت ترى ؛ فهذا احتجاج من راقصات الطبيعة على دخول هذه الراقصة !

قلت : آه يا صديق ! إن المرأة لا تكون امرأة بمعانيها إلا إذا وُجدت في جو قلب يعشقها .

ونفذنا إلى المسرح ، وتحرّى صاحبُنا موضعاً يكون فيه منظرَ العين من صاحبته ويكون مستخفياً منها ، ثم رُفع الستار عنها بين اثنتين يكتنفانها ، وقد لبسن ثلاثتهنّ أثواب الريفيات ، وظهرن كهيئتهن حين يجنين القطن .

وبرزت (تلك) في ثوب من الحرير الأسود ، وهي بيضاء بياضَ القمر حين يتمّ ، وقد شدّت وسطها بشَدةٍ من الحرير الأحمر ، فتحبّكتْ بها وظهرت شيئين : أعلى وأسفل ؛ ثم ألقت على شعرها الذهبي قَلَنْسوةً حمراء من ذلك الحرير أمالتْها جانبا فخبستْ شيئاً منه وأظهرتْ سائره ، وأخذت بيديها صفّاقتين (*) وأقبل الثلاث يرقصن ويغنّين نشيد الفلاحة .

لم أنظر إلى غيرها ، فقد كانت صاحبتاها دليلين على جمالها لا أكثر ولا أقل ، وما أحسب الحرير الأحمرَ كان معها أحمر ولا الأسودَ كان عليها أسود ، ولا لونَ الذهب في مِعْصمها كان لونَ الذهب ؛ كلاّ كلاّ ، هذه ألوان فوق الطبيعة ، لأن ذلك الوجهَ يُشرق عليها بالجمال والحياة ، وذلك الجسمَ يَفيضُ لها بالخفة والطرب ، وتلك الروح تبعث فيها المرح والنشوة : هـذا مزيج من خمر الألوان لا من الألوان نفسها .

وقال مجنوننا : إن أجمل الجمال في المرأة الفاتنة هو ذاك الذي يجعل لكل إنسان نوعَ شعوره بها ، وأنا أشعر الساعة أن قلبي نصفُ قلب فقط ، وأن نصفه الآخر في هذه وحدها : فما شعورك أنت ؟

قلت ، يا صديق ، إن الله رحيم ، ومن رحمته أنه أخفى القلبَ وأخفى بواعثه

(*) الصفاقات : هي التي يقال لها الساجات ، تكون في أصابع الراقصة ، والكلمة واردة في كتاب الأغاني

ليظلَّ كلُّ إنسان مخبوءاً عن كل إنسان ؛ فدعني مخبوءاً عنك !

قال : لا بد !

قلت : إن المصباح فى الموضع النجس لا يبعث النور نجسا ، وما أشعر إلا أن النور الذى فى قلبي قد امتزج بالنور الذى فى عينيها .

ثم كأنها أحسّت بأن إنساناً قد امتلأ بها ، فأدارت وجهها وهي ترقص ، فلمّحت صاحبنا ، وجعلتْ تُقطع الطَّرف بينها وبينه كأنها تعرفه وتجهله ، ثم تبيَّنت إلحاح نظره فضحكت لأنها تعرفه ولا تجهله !

أما هو ، أما المجنون ، أما صاحب القلب المسكين ... !

القلب المسكين

٢

... أما صاحب القلب المسكين فرأى الضحكة التى ألقت بها صاحبته وهي ترقص حين عرفته — غيرَ ما رأيتها أنا وغيرَ ما رأى الناس : كانت لنا نحن ابتساماً عذباً من فم جميل يتمّ جماله بهذه الصورة ، وكانت له هو لغةً من هذا الفم الجميل يُتم بها حديثاً قديماً كان بينهما ؛ واعترانا منها الطربُ واعتراه منها الفكر ، ووصفت لنا نوعا من الحسن ووصفت له نوعًا من الشوق ، ومرت علينا شعاعا فى الضوء ووقعت فى يده هو كبطاقة الزيارة عليها اسمٌ مكتوب ..

وقوى إحساسُ الراقصة الجميلة بعد ذلك فانبعث يدلُّ على نفسه ضروبا من الدلالة الخفية ، ورجعت بهذا الإحساس كالحقيقة الشعرية الغامضة المملوءة

بفنون الرمز والإيماء. وكأنها زادت بهذا الغموض زيادة ظاهرة ؛ وللمرأة لحظاتٌ تكون فيها بفكرين حينما يكون أحدُ الفكرين ماثلاً أمامها فى رجل تهواه ؛ فى هـذه الساعة تتحدثُ المرأة بكلام فيـه صمت يشرح ويفسِّر ، وتضطرب بحركة فيها استرخاءٌ يميـل ويعتنق ، وتنظر بألحاظ فيها انكسارٌ يأمر ويتوسل ؛ وكانت هى فى هذه الساعة ... فغلبت والله على صاحبها المسكين وتركت نفسه كأنها تتقطع فيه من أسفٍ وحسرة ؛ ثم كانت له كالزهرة العبقةِ : بينه وبينها جمالها وعطرُها وهواؤها والحاسةُ التى فيه

وجعل يستشِفُّها من خِلال أعضائها وهى ترقص ، ثم قال لى : انظر ويحك ! لكأن ثيابها تضمُّها وتلتصق بها ضمَّ ذى الهوى لمن يهوى

قلت : ماهى إلا كهاتين اللتين ترقصان معها : امرأة بين امرأتين وإن كانت أحسن الثلاث

قال : كلا ، هذه وحدها قصيدة من أروع الشعر ، تتحرك بدلا من أن تُقرأ ، وترى بدلاً من أن تُسمع ؛ قصيدة بلا ألفاظ ، ولكنَّ من شاء وضع لها ألفاظا من دمه إذا هو فهمها بحواسه وفكره وشعوره

قلت : والأُخرَيَان ؟

قال : كلا كلا ، هذا فن آخر ، فالواحدة من هؤلاء المسكينات إنما ترقص بمِعدتِها ... ترقص للخبز لا غير ؛ أما (تلك) فرقصها الطرب مصنوعاً على جسمها ومصنوعاً من جسمها ؛ إنها كالطاووس يتبختر فى أصباغه ، فى ريشه ، فى خُيلائه ، بخترةً يضاعفها الحسنُ ثلاثَ مرات ؛ ولو خلق الله جسمين أحدهما من الجواهر أحمرِها وأخضرِها وأصفرِها وأزرقها ، والآخر من الأزهار فى ألوانها ووشْيها ، ثم اختال الطاووس بينهما ناشراً ذيله فى كبرياء روحه الملوَّنة — لظهر فيه وحده اللونُ الملِكُ بين ألوانٍ هى رعيتُه الخاضعة .

✲ ✲ ✲

وانتهى رقص الحسناء الفاتنة وغابت وراء الستارة بعد أن أرسلت قُبلةً فى الهواء ... فقال صاحبنا : آه ! لو أن هذه الحسناء تصدقت بدرهم على فقير ، لجعلته لمسةُ يدها درهمًا وقُبلة ...

قلت : يا عدوَّ نفسه ! هذه قبلة مُحرَّرة مسددة وقد رأيتُها وقعتْ هنا ... ولكنك دائما فى خصام بين نفسك وبين حقائق الحياة : تعشق القبلة وتخاصم الفم الذى يلقيها ، وتبنى العُشَّ وتتركه فارغا من طيره ؛ إن امرأة تحبك لا بد منتهية إلى الجنون ما دامت معك فى غيرِ المفهوم وغير المعقول وغير الممكن .

ثم بدأ فصل آخر على المسرح ، وظهر رجال ونساء وقصة : وكان من هؤلاء الرجال شيخ يمثل فقيهًا ، وآخر يمثل شُرطيا ؛ فقال صاحبنا الفيلسوف : لقد جاءت هذه الثيابُ فارغة وكأنها الآن تنطق أن صحة أكثر الأشياء فى هذه الحياة صحةُ الظاهر فقط ، مادام الظاهر يُخلع ويُلبس بهذه السهولة ؛ فكم فى هذه الدنيا من شرفاء لو حققتَ أمرهم وبلوت الباطنَ منهم - إنما يشرِّفون الرذائل لأنهم يرتكبونها بشرف ظاهر ... وكم من أغنياء ليس بينهم وبين اللصوص إلا أنهم يسرقون بقانون ... وكم من فقهاء ليس بينهم وبين الفَجَرة إلا أنهم يفجرون بمنطق وحجة ... ليست الإنسانية بهذه السهولة التى يظنها من يظن ، وإلا ففيم كان تعبُ الأنبياء وشقاء الحكماء وجهادُ أهل النفوس ؟

العقدة السماوية فى هذه الأرض أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الإنسان إلا حيوانًا مُلَطَّفًا تلطيفا إنسانيا ، ثم أراه الخيرَ والشر وقال له اجعل نفسك بنفسك إنسانا وجئنى

قلت : يا عدوَّ نفسه ! فما تقول فى حبك هذه الراقصةَ وأنت حيوان

ملطف تلطيفاً إنسانيا ؟

قال : ويحك ! وهل العقدةُ إلا هنا ؟ فهذه مبذولةٌ ممكنة ، ثم هي لى كالضرورة القاهرة ، فلا يكون حبها إلا إغراءً بنَيلها ، ولا تكون سهولةَ نيلها إلا إغراءً لذلك الإغراء ؛ فأنا منها لستُ فى امرأة وحب ، ولكنى فى امتحانٍ شديد عَسِر : أغالب ناموسا من نواميس الكون ، وأدافع قانونًا من قوانين الغريزة ، وأظهر قوتى على قوة الضرورة الميَسَّرة بأسبابها ، وهى أشد الضرورات عنفًا وإلحاحا وقهرا للنفس ، من قِبَل أنها ضرورة لازمة ، وأنها مهيَّأة سهلة ؛ فلو أن هذه المرأة المحبوبة كانت ممنَّعة بعيدة المنال ، لما كانت لى فضيلة فى هذا الحب العنيف ، ولكنها دانيةٌ ميسرة على الشغف والهوى ؛ فهذا هو الامتحان لأصنع أنا بنفسى فضيلةَ نفسى !

☆ ☆ ☆

ومن الفصل الذى مثَّلوه وما نشعر منه بتمثيل ، فقد كان كالصورة العقلية المعترضة للعقل وهو يفكر فى غيرها ، وكانت (الحقيقة) فى شىء آخر غير هذا ؛ ومتى لم يتعلق الشعورُ بالفن لم يكن فيه فن ؛ وهذا هو سر كل امرأة محبوبة ، فهى وحدها التى تثير شعورَ المحب فى نفسه فيشعر من حسنها بحقيقة الحسن المطلق ، ويجد فى معانيها جواب معانيه ، وتأتيه كأنها صُنعت له وحده ، وتجعل له فى الزمان زمنًا قلبيا يحصر وجودَه فى وجودها

وليس فن الحب شيئًا إلا استطاعةَ الحبيب أن يجعل شهواتِ المحب شاعرة به عنايةً منه متعلقة عليه ، كأن به وحده ظهورَ جَسَدِيَّةِ هذا الجسد وروحانيةِ هذا الروح ؛ وكل مايتزين به المحبوب للمحب ، فإنما هو وسائل من المبالغة لإظهار تلك المعانى التى فيه ، كيما تكبر فيدركها المحب بدقة ، وتثور فيحسّها العاشق بعنف ، وتستبد فيخضع لها المسكين بقوة

والشهوات كالطبيعة الواحدة فى أعصاب الانسان ، وهى تتبع فكره وخياله ؛ ولا تَفاوُتَ بينهما إلا بالقوة والضعف ، أو التنبه والخمود ، أو الحدة والسكون ؛ غير أنها فى الحب تجد لها فكرا وخيالاً من المحبوب ، فتكون كأنها قد غيرت طبيعتها بسرٍ مجهول من أسرار الألوهية ؛ ومن هنا يتألَّه الحبيب وهو هو لم يزد ولم ينقص ولم يتغير ولم يتبدل ، وتراه فى وهم محبه يفرض فروضاً ويشرع شريعة من حيث لاقيمة لفروضه وشريعته إلا فى الشهوة المؤمنة به وحدها

ومن ثم لا عصمة على الحب إلا إذا وُجد بين إيمانين ، أقواهما الإيمان بالحلال والحرام ؛ وبين خوفين ، أشدهما الخوف من الله ؛ وبين رغبتين ، أعظمهما الرغبةُ فى السموّ

فإن لم يكن العاشق ذا دين وفضيلة فلا عصمة على الحب إلاأن يكون أقوى الايمانين الحرصَ على مكانة المحبوب فى الناس ، وأشد الخوفين الخوفَ من القانون ... وأعظم الرغبتين الرغبةَ فى نتيجة مشروعة كالزواج

فإن لم يكنْ شىء من هذا أو ذاك فقلما تجد الحب إلا وهو فى جراءة كفرين ، وحماقة جنونين ، وانحطاط سفالتين ؛ وبهذا لايكون فى الإنسانين إلا دون ما هو فى بهيمتين !

✡ ✡ ✡

ثم جاء الفصل الثالث وظهرت هى على المسرح ، ظهرت هذه المرة فى ثوب مركيزة أوربية تخاصر عشيقا لها ، فيرقصان فى أدب أوربى متمدن ... متمدن بنصف وقاحة ؛ متأدب ... متأدب بنصف تسفّل ؛ مشروع ... مشروع بنصف كفر ؛ هو على النصف فى كل شىء ، حتى ليجعل العذراء نصف عذراء ، والزوجة نصف زوجة ... !

وكان الذى يمثل دور العشيق فتاةً أخرى غلاميةً مُجَمَّمَةَ الشعر(*) ممسوخة بين المرأة والرجل ؛ فلما رآها صاحبنا قال : هذا أفضل . . . .

وهشَّت الحسناءُ وتبسَّمت وأخذت فى رقصها البديع ، فانفصل عنى الصديق وأهملنى وأقبل عليها بالنظرة بعد النظرة بعد النظرة ، كأنه يكرر غير المفهوم ليفهمه ؛ ورجع وإياها كأنه فى عالم من غير زمننا تُقدِّمه عن عالمنا ساعة أو تؤخره ساعة ؛ وكانت جملةُ حاله كأنها تقول لى : إن الدنيا الآن امرأة !
وكان من السرور كأنما نقله الحب إلى رتبة آدم ، ونقل صاحبته إلى رتبة حواء ، ونقل المسرح إلى رتبة الجنة !

والعجيب أن القمر طلع فى هذه الساعة وأفاض نوراً جديداً على المسرح المكشوف فى الحديقة ، فكأنه فعل هذا ليُتمَّ الحسنَ والحب ؛ وأخذ شعاع القمر السماوىّ يرقص حول هذا القمر الأرضى ، فكانت الصلة تامة وثيقة بين نفس صاحبنا وبين الأرض والسماء والقمَرين .

ما هذا الوجه لهذه المرأة ؟ إنه بين اللحظة واللحظة يعبر تعبيراً جديداً بقَسماته وملامحه الفتانة : كلُّ البياض الخاطف فى نجوم السماء يجول فى أديمه المشرق ، وكل السواد الذى فى عيون المهَا يجتمع فى عينيه ، وكل الحمرة التى فى الورد هى فى حمرة هاتين الشفتين .

ما هذا الجسم المتزن المتموجُ المفْرَغ كأنه يندفق هنا وهنا ؟ إنه جسم كامل الأنوثة ، إنه صارخ صارخ ، إنه عالَمُ جمالٍ كما تقول الفلسفة حين تصف العالم : فيه « جهةُ فوق » و « جهة تحت » ؛ لو امتدت له يد عاشقه

(*) المجممات : هن اللواتى يتخذن شعورهن جمة (بضم الجيم) أى يقصصنها ، كما يفعل نساء هذه الأيام تشبهاً بالرجال ؛ وقد كان ذلك مما تصنعه نساء العرب ونهى الإسلام عنه كراهة لهذا التشبه ؛ فقص الشعر (على المودة) هو التجميم

لجعل فى خمسِ أصابعِها خمسَ حواس ...

ما هذا ؟ ما هذا ؟ لقد خُتِم الرقصُ بقبلة ألقاها الخليل على شفتى الخليلة ، وكانت تركت خصرها فى يديه وانفلتتْ تميل بأعلاها راجعة برأسها إلى خَلف ، نازلةً به رُوَيداً رويدا إلى الأرض ، هاربة بشفتيها من الفم المطِل عليها وكان هذا الفم ينزل رُويداً رويدا ليدرك الهارب ...

وقبل أن تقع القبـلة التفتت لفتةً إلى ... ثم تلقَّت القبلة ، أما هو ، أما مجنوننا ، أما صاحب القلب المسكين ... ؟

القلب المسكين

٣

أما صاحب القلب المسكين فرمَقها وهى تلتفت إليه التفات الظبية بسواد عينيها : يجعل سوادُهما الجميلَ فى النظرة الواحدة نظرتين لعاشق الجمال ، تقول إحداهما : أنت ، وتقول الأخرى : أنا ؛ ثم رآها وقد كسرت أجفانهـا وتفترتْ فى يدى الممثل العشيق وأفصحَ منظرها ببلاغة ... ببلاغة جسم المرأة المحبوبة بين ذراعىْ من تحبه ؛ ثم اختَلجت وصوَّبتْ وجهها ، وأهدَفَت شفتيها ، وتلقَّت القبلة .

وكان به منها ما الله عليم به ، فانبعثت من صدره آهةٌ مُعْولةٌ تئن أنيناً ، غير أنها كلَّمته بعينيها أنها تقبِّله هو ؛ فلا ريب قد حملت إليه إحدى النسماتُ شيئاً جميلاً عن ذلك الفم ، لمستْ به النفسُ النفس ، والقبلةُ هى هى ولكن وقع خطأ فى طريقة إرسالها ...

وليس تحت الخيال شيء موجود ، ولكنَّ الخيال المتسرِّح بين الحبيبين

تكون فيه أشياء كثيرة واجبة الوجود ؛ إذ هو بطبيعته مجرى أحلام من فكر إلى فكر ، ومسرحُ شعور يصدر ويرد بين القلبين في حياة كاملة الإحساس متجاوبة المعاني ؛ وبهذا الخيال يكون مع القلبين المتحابَّين روحٌ طبيعي كأنه قلب ثالث ينقل للواحد عن الآخر ، ويصل السرَّ بالسر ، ويزيد في الأشياء وينقص منها ، ويَدخل في غير الحقيق فيجعله أكثر من الحقيق ؛ ومن هنا لم يكن فرح ولا حزن ، ولا أمل ولا يأس ، ولا سعادة ولا شقاء ، إلا وكل ذلك مضاعَف للمحب الصادق الحب بقدر قلبين ؛ والذين يعرفون قبلة الشغف والهوى ، يعرفون أن العاشق يقبِّل بلذة أربع شفاه

* * *

وانسدلت بعد هذه القبلة ستارة المسرح ، وغابت الجميلة المعشوقة غيبة التمثيل ؛ فقلت لصاحب القلب المسكين : إن روحيكما متزوجتان ... قال : آه ! ومدَّها من قلبه كأنه دَنِفٌ سقيم .

قلت : وماذا بعد آه ؟

قال : وماذا كان قبلها ؟ إنه الحب : فيه مثل ما في (عملية جراحية) من تنهدات الألم ولذعاته ، غير أنها مفرّقة على الأوقات والأسباب ، مبعثرة غير مجموعة ! « آه » : هذه هي الكلمة التي لا تفرغ منها القلوب الانسانية ، وهي تقال بلهفة واحدة في المصيبة الداهمة ، والألم البالغ ، والمرض المدنف ، والحب الشديد ؛ فحينما توشك النفس أن تختنق تتنفس « بآه » !

قلت : أما رأيتها مرة وقد أوشكت نفسُها أن تختنق ... ؟

قال : لقد هِجْت لي داءً قديماً ؛ إن لهذه الحبيبة ساعات مغروسة في زمني غرس الشجر ، فبين الحين والحين تثمر هذه الساعات مرَّها وحلوها في نفسي

كما يثمر الشجر المختلف ؛ ولقد رأيتها ذات مرة فى ساعة همها ! ثم ضحك وسكت .

قلت : ياعدوَّ نفسه ! ماذا رأيت منها ؟ وكيف أراك الوجدُ ما رأيتَ منها ؟

قال : أتصدّقنى ؟ قلت : نعم .

قال : رأيت الهمَّ على وجه هذه الجميلة كأنه همٌّ مؤنث يعشقه همٌّ مذكر ؛ فله جمال ودلال وفتنة وجاذبية ، وكأن وجهها يصنع من حزنها حزنين : أحدهما بمعنى الهم لقلبها ، والآخر بمعنى الثورة لقلبى !

قلت : ياعدو نفسه ! هذا كلام آخر ؛ فهذه امرأة ناعمةٌ بضّةٌ مطوىٌّ بعضُها على بعضها ، لفّاء من جهة هيفاء من جهة ، ثقيلةُ شىءٍ وخفيفة شىء ، جمعت الحسنَ والجسم وفنًّا بارعا فى هذا وفنًّا مُفردا فى ذاك ؛ وهى جميلةُ كلِّ ما تتأمل منها ، ساحرةُ كلِّ ما تتخيل فيها ، وهى مزّاحة دَحْدَاحةٌ (*) وهى تطالعك وتُطمِعُك ؛ وأنت امرُؤٌ عاشق ورجل قوى الرجولة ؛ فالجميلة والمرأة هما لك فى هذا الجسم الواحد ، إن ذهبتَ تفصلهما فى خيالك امتزجتا فى دمك ؛ ولو أمسكتْ آلةُ التصوير نظراتِك إليها لبانت فيها أطرافُ اللهب الأحمر بما فى نفسك منها ؛ ولعَمرى لو مرت عربة تَدْرُجُ فى الطريق ونظرتَ إليها نظرتك لهذه المرأة بهذه الغريزة المحتَبَسَة المكفوفة (**) لظننتك سترى العجلة الخلفيّة عاشقاً مهتاجاً يطارد العجلة الأمامية وهى تفر منه فرار العذراء !

(*) هذه كلمة استعملها بعض المولدين فى معنى الظريفة (المدردحة) ، وليس كذلك معناها فى اللغة ، ولكن الاستعمال صحيح عندنا واللغة لا تأباه

(**) يستعمل الكتاب فى هذا المعنى لفظ (المكبوتة) ، وهو تعبير ضعيف ، والأفصح ما ذكرنا هنا

* * *

فضحك وقال : لا ، لا ؛ إن نوع التصوير لإنسان هو نوع المعرفة لهذا الإنسان ، ومن كل حبيب وحبيبه تجتمع مقدمة ونتيجة بينهما تلازم فى المعنى ، والمقدمة عندى أن إبليس هنا فى غير إبليسيته ، فلا يمكن أن تكون النتيجةُ وضْعَه فى إبليسيته ؛ وما أتصور فى هـذه الجميلة إلا الفنَّ الذى أسبغه الجمال عليها ، فهى فى معرفتى وخيالى كالتمثال المبدَع إبداعهُ : لا يستطيع أن يعمل عملاً إلا إظهارَ شكله الجميل التام حافلاً بمعانيه .

وليست هذه المرأة هى الأولى ولا الثانية ولا الثالثة فيمن أحببت(١) ؛ إنها تكرار وإيضاح وتكملة لشىء لا يكمل أبداً ، وهو هذه المعانى النسوية الجميلة التى يزيد الشيطانُ فيها من عشق كل عاشق ؛ إن بطن المرأة يلد ، ووجه المرأة يلد !

قلت : هذا إن كان وجهها كوجه صاحبتك ، ولكن ما بال الدميمة ؟

قال : لا ، هذا وجهٌ عاقر ...

* * *

قلت : ولكن الخطأ فى فلسفتك هذه أنك تنظر إلى المرأة نظرةً عملية تريد أن تعمل ثم تمنعها أن تعمل ؛ فتأتى فلسفتك بعيدة من الفلسفة ، وكأنك تغذو المعدةَ الجائعة برائحة الخبز فقط .

قال : نعم هذا خطأ ، ولكنه الخطأ الذى يُخرج الحقائق الخيالية من هذا الجمال ؛ فإذا سخرتَ من الحقيقة المادية بأسلوب فبهذا الأسلوب عينه تُثبت الحقيقة نفسها فى شكل آخر قد يكون أجمل من شكلها الأول .

أتعلم كيف كانت نظرتى إلى نور القمر على هذه وإلى حسن هـذه على

---

(١) انظرْ فصل « الرافعى العاشق » ص ٧٣ - ١١٩ « حياة الرافعى »

القمر ؟ إن القمر كان يُنسيني بشريتَّها فأراها متممة له كأنه ينظر وجهه في مرآة ، فهي خيال وجهه ؛ وكانت هي تُنسيني مادِّية القمر فأراه متمماً لها كأنه خيال وجهها .

أتدرى ما نظرةُ الحب ؟ إن في هذا القلب الإنساني شرارةً كهربائية متى انقدحتْ زادت في العين ألحاظاً كشّافة ، وزادت في الحواس أضواءً مُدرِكة ؛ فينفذ العاشق بنظره وحواسه جميعاً في حقائق الأشياء ، فتكون له على الناس زيادةٌ في الرؤية وزيادة في الإدراك يعمل بها عملا فيما يراه ومايدركه ؛ وبهذه الزيادة الجديدة على النفس تكون الدنيا حالةٌ جديدة في هذه النفس ؛ ويأتي السرور جديداً ويأتي الحزن جديداً أيضاً ؛ فألفُ قبلة يتناولها ألف عاشق من ألف حبيب ، هي ألف نوع من اللذة ولو كانت كلها في صورة واحدة ؛ ولو بكى ألف عاشق من هجر ألف معشوق لكان في كل دمع نوعٌ من الحزن ليس في الآخر !

✡ ✡ ✡

قلت : فنوعُ تصوُّرك لهذه الراقصة التي تحبها ، أن إبليس هنا في غير إبليسيته !

قال : هكذا هي عندي ، وبهذا أسخر من الحقيقة الإبليسية

قلت : أو تسخر الحقيقة الإبليسية منك ، وهو الأصح وعليه الفتوى...

فضحك طويلا وقال : سأحدثك بغريبة : أنت تعرف أن هذه الغادة لا تظهر أبداً إلا في الحرير الأسود ؛ وهي رقيقة البشرة ناصعة اللون ، فيكون لها من سواد الحرير بياضُ البياض وجمال الجمال ؛ فلقد كنت أمس بعد العشاء في طريقي إلى هذا المكان لأراها ، وكان الليل مظلماً يتدجّى ، وقد لبس وتلبّس وغلب على مصابيح الطريق فحصر أنوارها حتى بين كل مصباحين ظلمةٌ قائمة كالرقيب بين الحبيبين يمنعهما أن يلتقيا ؛ فبينا أقلِّب عيني في النور والغَسق

وأنا فى مثل الحالة التى تكون فيها الأفكار المحزنة أشدَّ حزناً — إذ رفع لى من بعيد شبحٌ أسود يمشى مِشْيته متفتِّرا قصير الخَطْو يهتز ويتبختر ؛ فتبصرته فى هيئته فما شككت أنها هى ، وفُتحت الجنة التى فى خيالى وبرزت الحقائق الكثيرة تلتمس معانيها من لذة الحب ؛ وكان الطريق خالياً ، فأحسست به لنا وحدنا كالمسافة المحصورة بين ثغرين متعاشقين يدنو أحدهما من الآخر ، وأسرعت إسراع القلب إلى الفرصة حين تُمكن ؛ فلما صرت بحيث أتبين ذلك الشبح إذا هو ... إذا هو قسّيس ....

☆ ☆ ☆

فقلت : ياعجباً ! ما أظرفَ ما داعبك إبليس هذه المرة ! وكأنه يقول لك : إيه ياصاحب الفضيلة ...

وكان الممثلون يتناوبون المسرح ونحن عنهم فى شغل ؛ إذ لم تكن نوبتها قد جاءت بعد ؛ وألقى الشيطانُ على لسانى فقلت لصاحبنا : مايمنعك أن تبعث إليها فلاناً يستفتح كلامها ثم يدعوها ، فليس بينك وبينها إلا كلمة « تعالَىْ » أو تفضّلى ؟

قال : كلا ، يجب أن تنفصل عنى لأراها فى نفسى أشكالاً وأشكالاً ؛ ويجب أن تبتعد لألِمَسها لمساتٍ روحية ؛ ويجب أن أجهل منها أشياء لأحقق فيها عِلم قلبي ؛ ويجب أن تدعَ جسمها وأدعَ جسمى وهناك نلتقى رجلا وامرأة ولكن على فهم جديد وطبيعة جديدة . بهذا الفهم أنا أكتب ، وبهذه الطبيعة أنا أحب !

ما هو الجزء الذى يقتنى منها ؟ هو هذا الكل بجميع أجزائه .

وما هو هذا الكل ؟ هو الذى يفسِّر نفسَه فى قلبي بهذا الحب .

وما هو هذا الحب ؟ هو أنا وهى على هذه الحالة من اليأس .

نعم أنا بائس ، ولكن شعور البؤس هو نوع من الغنى فى الفن : لا يكون

هذا الغنى إلا من هذا الشعور المؤلم ، والحبيب الذى لاتناله هو وحده القادرُ قدرةَ الجمال والسحر ؛ يجعلك لا تدرى أين يختبئ منه جماله فيدعك تبحث عنه بلذة ؛ ولا تدرى أين يُسفِر جماله منه فيدعك تراه بلذة أخرى ؛ أنا أُنضج هذه الحلوى على نار مشبوبة ، على نار مشبوبة فى قلبي !

قلت : يا صديقى المسكين ! هذه مشكلة عرضتْ بها المصادفة وستحلها المصادفة أيضاً . وما كان أشد عجبي إذ لم أفرغ من الكلمة حتى رأينا (المشكلة) مقبلة علينا .

أما هو : أما صاحب القلب المسكين ... ؟

القلب المسكين

٤

أما صاحبُ القلب المسكين فما كاد يرى الحبيبة وهى مقْبلة تَتيممنا حتى بغَته ذلك ، فساوره القلق ، واعتراه مايعترى المحبَّ المهجور إذا فاجأه فى الطريق هاجرُه ؛ أرأيت مرة عاشقاً جفاه الحبيب وامتنع عليه دهراً لايراه ، وصارمه مدةً لايكلمه ، فنزع نومَه من ليله ، وراحته من نهاره ، ودنياه من يده ، وبلغ به مابلغ من السُّقم والضَّنى ، ثم بينا هو يمشى إذ باغتَهُ ذلك الحبيب منحدرا فى الطريق ؟

إنك لو أبصرت حينئذ قلب هذا المسكين لرأيته على زِلزلة من شدة الخفقان ، وكأنه فى ضرباته متلعْثمٌ يكرر كلمة واحدة : هى هى هى

ولو نفذتَ إلى حس هذا البائس لرأيته يشعر مثل شعور المحْتَضَر أن هذه الدنيا قد نفتْه منها !

ولو اطلعت على دمه فى عروقه لأبصرته مخذولا يتراجع كأن الدمَ الآخر يطرده

إنها لحظة يرى فيها المهجور بعينيه أن كل شهواته فى خيبة ، فيردُّ عليه الحبُّ مع كل شهوة نوعاً من الذل ، فيكون بإزاء الحبيب كالمنهزم مائة مرة أمام الذى هزمه مائة مرة

لحظة لا يشعر المسكين فيها من البغتة والتخاذل والاضطراب والخوف إلا أن روحه وثبتْ إلى رأسه ثم هوت فجأة إلى قدميه !

☆ ☆ ☆

غير أن صاحبنا نحن لم يكن مهجوراً من صاحبته ، ولكن من عجائب الحب أنه يعمل أحياناً عملا واحدا بالعاطفتين المختلفتين ، إذ كان دائماً على حدود الإسراف مادام حيا ، فكل شىء فيه قريبٌ من ضده ، والصدق فيه من ناحية مهيَّأ دائما لأن يقابَل بتهمة الكذب من الناحية الأخرى ، واليقين مُعَدٌّ له الشك بالطبيعة ؛ والحب نفسُه قضاء على العدل ، فإنه لا يخضع لقانون من القوانين ، والحبيب — مع أنه حبيب — يخافه عاشقه من أجل أنه حبيب !

وقد يصفرُّ العاشق لمباغتة اللقاء كما يصفر لمباغتة الهجر ، وهذه كانت حال صاحبنا عند مارآها مقبلةً عليه ؛ وكان مع ذلك يخشى إلمامتها به ، توَقِّياً على نفسه من ظنون الناس ؛ وأكثر مايحسنه الناس هو أن يسيئوا الظن ؛ وهو رجل ذو شأن ضخم ، ومقالة السوء إلى مثله سريعة إذا رُؤى مع مثلها ، وكأنها هى ألمَّت بكل هذا أو طالعها به وجهه المتوقِّر المتزمِّت ؛ فعدلت عن طريقها إلينا ووقفت على رئيس فرقة الموسيقى ، وما بيننا وبينها إلا خطوات ؛ ورأيتها قد هيأت فى عينيها نظرة غاضبتْنا بها ، ثم لم تلبث أن صالحتنا بأخرى !

وكأنها ألقت لرئيس الموسيقى أمراً ليتأهب أهبته لدورها، ثم همَّت أن ترجع، ثم عادت إليه بجملات تكلِّمه وعيناها إلينا: فقال صاحبنا وأعجبه ذلك من فعلها: إنها نبيلة حتى فى سقوطها!

ولا أدرى ماذا كانت تقول لرئيس الموسيقى؛ ولكن هذا الرجل لم يَظهر لى وقتئذ إلا كأنه تليفون معلَّق!

* * *

كانت عيناها إلى صاحبها لا تنزلان عنه ولا تتحولان إلى غيره، ولا تُسارقه النظر بل تغلبه عليه مغالبة؛ ورأيته كذلك قد ثبتت عيناه عليها فخيل إلى أن هذا الوجود قد انحصر جماله بين أربعة أعين عاشقة؛ وكانت تُطارحه ويطارحها كلاما مخبوءاً تحت هذه النظرات، وقد نسيا ما حولهما، وشعرا بما يشعر به كل حبيبين إذا التقيا فى بعض لحظات الروح السامية: أن هذا العالم العظيم لايعمل إلا لاثنين فقط: هو وهى

وكان فمها الجميل لا يزال يُساقط ألفاظَه لرئيس الموسيقى، وكأنها تسرُد له حكاية مرويةً، أو تعارض بحافظته كلاما تحفظه من كلام التمثيل أو الغناء؛ فهى تتحدث وعيناها مفكّرتان شاخصتان، فلم ينكر الرجل هيئتها هذه؛ ولكن كيف كانت عيناها؟

لقد أرادت فى البدء أن تجعل قوةَ نظراتها كلاماً، حتى لحسبت أن هذه النظرات الأولى تهتف من بعيد: أنتَ يا أنتَ!

ثم بدا فى عينيها فتور الظمأ، ظمأ الحب المتكبر المتمرد، لأنه حب المرأة المعشوقة، ولأن له لذتين، إحداهما فى أن يبقى ظمأ إلى حين ...

ثم أرسلت الألحاظ التى تتوهج أحياناً فوق كلام المرأة الجميلة فى بعض

حالاتها النفسية ، فتُضرم فى كلامها شرارةً من الروح تُظهر الكلام كأنه يُحرق ويحترق . . .

ثم توجعَت النظرات لأنها تصلها بالرجل الذى لا يشبه الرجالَ ، فلا يستوهب خضوعها ولا يشتريه ؛ والرجل كل الرجل عند مثل هذه المرأة هو الذى لا يشبه الباقين ممن تعرفهم ، فإذا أحبها فكأنما أحبها عذراء خَفِرةً لم تُمس ، وكأنه من ذلك يصِلها بماضيها وطهارتها وحياتها وما لا يمكن أن تتمثله إلا فى مثل حبه

ثم ذبلَتْ عيناها الجميلتان ، وما هو ذبول عينى امرأة تنظر إلى محبها ؛ إنه هو استسلام فكرها لفكره ، أو عنادُ معنى فيها لمعنى فيه ، أو توكيد خاطرة تحتاج إلى التوكيد ؛ ومرةً هو كقولها : لماذا ؟ وتارة هو كقولها : أفهمت ؟ وأحياناً ، وأحياناً هو انتهاء مقاومة

* * *

وتمت الحكاية المروية التى كانت تلقيها للتليفون . . . : فكرَّت راجعة إلى المسرح بعد أن صاحت نظراتُها مرة أخرى كما بدأت : أنت يا أنت . . .

فقلت لصاحبنا : ويحك ياعدو نفسه ! لو اختار الشيطان عينين ساحرتين ينظر بهما إليك نظر الفتنة ، لما اختار إلا عينيها ، فى وجهها ، فى هيئتها ، فى موقفها ؛ وأراك مع هذا كمنتظر مالا يوجد ولا يمكن أن يوجد ؛ وأراها معك فى حبها كالحيوان الأليف إذا طمع فى المستحيل

قال : وما هو المستحيل الذى يطمع فيه الحيوان الأليف ؟

قلت : ذلك حين يطمع فى أن تكون له حقوق على صاحبه فوق الألفة والمنفعة .

قال : لقد أغمضتَ فى العبارة فبينْ لى شيئاً من البيان

قلت : هب كلبةً تألف صاحبها وتحبه فهى له ذليلة مطواع ، ثم يبلغ بها الحب أن تطمع فى أن يكون لها تمام الشرف ، فلا يقول صاحبها عنها : هذه كلبتى ، بل يقول : هذه زوجتى ...

قال : ويْ منك ! ويْ منك ! (*) لقد ضربتَ على رأس المسمار كما يقولون . هذا هو المستحيل الذى بينى وبينها ، هذا هو المثل . يا لفظ الحلوى ! يا لفظ الحلوى ! لو كررتك بلسانى ألف مرة فهل تضع فى لسانى طعمها ... ؟

قلت : خفِّض عليك ياصاحب القلب المسكين ، فلست أكثر من عاشق

قال : بل أنا مع هذه أكثر من عاشق ؛ لأن فى العاشق راغبا وفىَّ أنا راهب ، وفيه الجرىء وفىَّ المنكمش ، ويغترف الغُرفة من الشلّال المتحدِّر فيحسوها فيرتوى ، وأغترف أنا الغرفة بيدى ، وأُبقيها فى يدى ، وأطمع أن تهْدِرَ فى يدى كالشلال . . . أنا أكثر من عاشق ؛ فإنه يعشق لينتهى من ألم الجمال ، وأعشق أنا لأستمر فى هذا الألم !

هذه هذه ؛ العجيب ياصديقى أن خيال الإنسان يلتقط صورا كثيرة من صور الجمال تجىء كما يتفق ، ولكنه يلتقط صورة واحدة بإتقان عجيب ، هى صورة الحب ؛ فهذه هذه

ألم أقل لك إن إبليس هنا فى غير حقيقته الإبليسية ولم تفهم عنى (**) ؟ فافهم الآن أننا إن كنا لا نرى الملائكة فإنه ليخيل إلينا أننا نراها فيمن نحبهم ؛ وما دام سر الحب يبدّل الزمنَ والنفسَ ويأتى بأشياء من خارج الحياة ، فكل حقائق هذا الحب فى غير حقيقتها

هذه هـذه ؛ لا أطلب فى غيرها امرأة أجملَ منها ، فهذا كالمستحيل ،

(*) أى عجب ، يتعجب من فطنته

(**) مر هذا المعنى فى المقالة الثالثة

ولكنى ألتمس فيها هى امرأةً أطهر منها ، وهذا كالمستحيل أيضا ؛ إنها أجمل جسم ، ولكن واأسفاه ! إنها أجمل جسم للمعانى التى يجب أن أبتعد عنها !

* * *

وسكت صاحبنا ، إذ رفعتْ ستارة المسرح وظهرت هى مرة أخرى ، ظهرت فى زينة لا غاية بعدها ، تمثل العروس ليلة جَلوتها ؛ ألا ما أمرَّها سخرية منكِ أيتها المسكينة ! عروس ولكن لمن ؟

كانت تبرُق على المسرح كأنها كوكب درى نوره نورٌ وجمال وعواطف شعر

وأقبلت تمايل بجسم رخصٍ لين مسترسل الأعطاف يتدفق الجمالُ والشباب فيه من أعلاه إلى أسفله

وأظهر وجهُها حسنا وأبدَى جسمها حسناً آخر، فتم الحسن بالحسن

واقفة كالنائمة ، فالجوُّ جوُّ الأحلام ، وكان الحب يحلم ، وكان السرور يحلم !

مهتزة كالموج فى الموج . هل خُلقت روح البحر فى جسمها المترجرج فشىء يعلو وشىء يهبط وشىء يثور ويضطرب ؟

ثم دقت الموسيقى بألحانها المتكلمة ، ودقت أعضاء هذا الجسم بألحانها المتحركة ، وأحسسنا كأن روح الحديقة جالسة بيننا تنظر إليها وتتعجب . تتعجب من قوامها للغصن الحى ، ومن بدنها للزهر الحى ، ومن عطرها للنسيم الحى

أما صاحب القلب المسكين ... ؟

القلب المسكين (*)

٥

أما صاحب القلب المسكين فتزعزعت كبده مما رأى ؛ وجعل ينظر إلى هذه الفتّانة تُمثّل زفاف العروس وقد أشرق فيها رونقها وسطعت ولمعتْ ، فبدتْ له مُفسرةً فى هذه الغلائل ، غلائل العُرْس ؛ وما غلائل العرس ؟

إنما تلك الثيابُ التى تكسو لابستَها إلى ساعة فقط ... ثيابٌ أجملُ مافيها أنها تقدمُ الجمال إلى الحب ؛ فأزهى ألوانها اللونُ المشرقُ من روح لابستها ، وأسطعُ الأنوار عليها النورُ المنبعث من فرح قلبين

تلك الثيابُ التى تكون سكباً من خالص الحرير ورفيع الخزّ ، وحين تلبسها مثلُ هذه الفاتنة تكاد تنطق أنها ليست من الحرير ، إذ تعلم أن الحرير ماتحتها...

ثم تنهد المسكين وقال : أفهمت ؟

قلت : فهمتُ ماذا ؟

قال . هذا هو انتقامُها

قلت : ياعجباً ! أتريدها فى ثيابِ راهبة مُكبكَبة فيها كما أُلقيت البضاعة

(*) نرجح أن يكون القراء قد أدركوا الغرض من كتابة هذه المقالات على هذا السرد الذى وصفته لنا إحدى الأديبات بأن «فيه أشياء مادية» ؛ فنحن نرمى إلى تصوير الغريزة ثائرة مهتاجة بكل أسباب الثورة والاهتياج ، ولكنها مكفوحة بأسباب أخرى من الدين والشرف والمروءة وفلسفة العقل...

فى غرارة ، بين سوادٍ هو شعارُ الحداد على الأنوثة الهالكة ، و بياضٍ هو شعار الكفن لهـذه الأنوثة ؟

قال : أنت لا تعرفها : إن الرواية التى تُمثَّل فيهـا بين الروح والجسم ، هى التى احتاجت إلى هـذا الفصل يقوَى به المعنى؛ وكل عاشقة فعشقُها هو الرواية التى تمثّل فيها ، يؤلفها هـذا المؤلفُ الذى اسمه الحب ، ولا تدرى هى ماذا يصنع وماذا يؤلف ، غير أنه لا يفتأ يؤلف ويصنع وينقّح كما تتنزَّل به الحالُ بعد الحال ، وكما تعرض به المصادفة بعـد المصادفة ؛ وعليها هى أن تمثـل ...

قلت : فهذا ؛ ولـكن كيف يكون هـذا انتقاما ؟

قال : إن الأفكار أشياء حقيقية ، ولو كُشف لك الجوّ هذه الساعةَ لرأيته مسطوراً عباراتٍ عباراتٍ كأنه مقالة جريدة

هـذا الفصل حوارٌ طويل فى الهموم والآلام ورقة الشوق وتهالك الصّبوة ، لو كُتب له عنوان لكان عنوانه هكذا : ما أشهاها وما أحظاها ! إن الهواء بين كل عاشقين متقابلين يأخذ ويعطِى ...

قلت : ياعدو ! نفسه ما أعجبَ ماتُدقّق ! لقـد أدركتُ الآن أن المرأة تتسلّح بما شاءت ، لا من أجل أن تدافع ، ولـكن لتزيد أسلحتها فى سلاح من تحبه ، فتزيده قوةً على قهرها وإخضاعها ...

✡ ✡ ✡

أما هـذه (العروس) فكانت أفكارها لا تجد ألفاظاً تحدُّها فهى تظهر كيفما اتفق ، مرسَلةً إرسالاً فى اللَّفتَة والحركة والهيئة والقَومة والقَعدة ؛ وهى من علمتَ : امرأةٌ تعيش للحقائق ، وبين الحقائق ، كـكل ذى صنعة فى صنعته فكانت فى تماديها خطراً أىَّ خطر على صاحب القلب المسكين ، تمثل شيئاً

لا أدرى أهو ظاهر بخفائه أم هو خافٍ بظهوره ؛ وقد وقع صاحبنا منها فيما لم يدخل فى حسابه ، فكانت الخبيثة الماجنة كأنها تُسكره بسكر حقيقى ، غير أنه من جسمها لا من زجاجة خمر

وكانت لذهنه المتخيِّل كالسحابة الممتلئة بالبرق ؛ تومِضُ كلَّ لحظة بأنوار بعد أنوار ، وبين الفترة والفترة ترمى الصاعقة

وظهرت كأنها امرأة مخلوقة من دم ولهب ؛ فلقد أيقنتُ حينئذ أن الحب إن هو إلا الغريزة البهيميَّةُ بعينها محاوِلةً أن تكون شيئاً له وجود فى إلى وجوده الطبيعى ، فهو مصيبتان فى واحدة ، وكل عمله أن يجعل اللذةَ ألذَّ ، والألم أشدَّ ، والقلةَ كثرة ، والكثرة أكثر ، وما هو نهاية كأنه لا نهاية ...

هذه (العروس) كانت قبل الآن واقفة على حدود صاحبها ، أما الآن فإنها تقتحم الحدودَ وتغزو غزوَها وتمتلك ...

يالَسحر الحب من سِحر ! كل ما فى الطبيعة من جمال تظهره الطبيعةُ لعاشقها فى إحدى صور الفهم ، أما الحبيب الجميل فهو وحده الذى يَظهر لعاشقه فى كل صور الفهم ، وبهذا يكون الوقت معه أوقاتاً مختلفة متناقضة ، ففى ساعة يكون العقل ، وفى ساعة يكون الجنون

يالسحر الحب ! لقد أرادت هذه المرأة أن تذهب بعقل صاحبها ، وأن تنقله إلى وحشية الإنسان الأول الكامن فيه ، وأن تقذف به إلى بعيدٍ بعيدٍ وراء فضائله وعصمته ؛ فسَنَحتْ له كما يسنح الصيد للصائد يحمل فى جسمه لحمه الشهى ... وتركت شعوره جائعاً إلى محاسنها بمثل جوع المعدة ... وبرزتْ له صريحةً كما هى ، ولِمَا هى ؛ ومن حيث أنها هى هى ، وكل ذلك حين ألبست جسمها ثياب الحقيقة المؤنثة

آه مِن (هى) إذا امتلأت الهاء والياء من قلب رجل يحب ! وآه من (هى)

إذا خرجت هذه الكلمة من لغة الناس إلى لغة رجل واحد !

إن في كل امرأة ... امرأةً يقال لها (هي) [1] باعتبار الضمير للتأنيث فقط ، كما يعتبر في الدابة والحشرة والأداة ونحوها من هـذه المؤنثات التي يرجع عليها هذا الضمير ؛ ولكن (هي) المفردة في الكون كله لاتوجد في النساء إلا حين يوجد لهـا (هو) ......

☼ ☼ ☼

أنا أنا الذي يقص للقراء هذه القصة ، قد كابدت من شدة الحب وإفراط الوجد ما يُفْعِم قلبين مسكينين لاقلباً واحداً ؛ وكانت لى (هى) من الْحِيَاتِ عانيت فيها الحبَّ والألم دهراً طويلا : وقـد ذهبتْ بي في هواها كل مذهب إلا مذهباً يُحلّ حراما ، أو مذهباً يُخلّ بمروءة ؛ ولقد علمت أن الشيء السامى في الحب هو ألا يخرج من العاشق بجرم

فالشأن كل الشأن أن يستطيع الرجلُ الفصلَ بين الحب من أجل جمال الأنثى يَظهر عليها ، وبين الحب من أجل الأنثى تظهر في جمالها ؛ فهو في الأولى يشهد الإلاهيةَ في إبداعها السامى الجميل ، وفي الأخرى لايرى غير البشرية في حيوانيتها المتجمِّلة ...

وقد أدركت من فلسفة الحب أن الحقيقة الكبرى لهذا الجمال الأزلى الذى يملأ العالم — قد جعلت حنين العشق في قلب الإنسان هو أول أمثلتها العملية في تعليمه الحنين إليها إن شاء أن يتعلم ، فكما يحب إنسان بروح الشهوة يحب إنسانٌ آخر بروح العبادة ؛ وهذا هو الذى يسميه الفلاسفة : (تلطيف السرّ) أي جعله مستعدا للتوجه إلى النور والحق والخير ، وقد عدُّوا فيما

---

(١) قلت : هنا رسالة إلى « فلانة » من تلك الرسائل التي كانت بينهما بعد القطيعة ... وانظر ص ٨٣ « حياة الرافعي »

يعين عليه ، الفكرَ الدقيق والعشق العنيف

وكذلك تبينتُ مما علمني الحب أن طرد آدم وحواء من الفردوس ، كان معناه ثقلَ معانى الفردوس وعرْضها لكل آدمٍ وحواء يمثلان الرواية ... فإذا « قطفا الثمرة » طُردا من معانى الجنة (*) ، وهبطا بعد ذلك من أخيلة السماء إلى حقائق الأرض .

نعم هو الحب شيء واحد فى كل عاشق لكل جميل ، غير أن الفرق بين أهله يكون فى جمال العمل أو قبح العمل : وهذه النفوس مصانع مختلفة لهذه المادة الواحدة ؛ فالحب فى بعضها يكون قوة وفى بعضها يكون ضعفا ؛ وفى نفس يكون الهوى حيوانيا يُراكِم الظلمة على الظلمة فى الحياة ، وفى أخرى يكون روحانياً يكشف الظلام عن الحياة .

والمعجزة فى هذا الإنسان الضعيف أن له مع طبيعة كل شيء طبيعةَ الإحساس به ، فهو مستطيعٌ أن يجد لذةَ نفسه فى الألم ، قادر على أن يأخذ هبة من معانى الحرمان ؛ وبهذه الطبيعة يسمو من يسمو ، وهى على أتمها وأقواها فى عظماء النفوس ؛ حتى لكأن الأشياء تأتى هؤلاء العظماء سائلةً : ماذا يريدون منها ؟

فمن أراد أن يسمو بالحب فليضعْه فى نفسه بين شيئين : الخلق الرفيع ، والحكمة الناضجة ؛ فإن لم يستطع فلا أقل من شيئين : الحلال ، والحرام (**)

* * *

أنا أنا الذى يقص للقراء هذه القصة ، أعرف هذا كله ، وبهذا كله فهمت قول صاحب القلب المسكين : إن ظهور صاحبته فى فصل العرس هو

(*) أى طردا كالطرد من الجنة

(**) بسطنا هذا المعنى فى المقالة الثانية من هذه المقالات على وجه آخر

انتقامها ، حاصرَتْ عيناها عينه ، وزحفت معانيها على معانيه ، وقاتلت قتال جسم المرأة المحبوبة فى معركة حبها ، وبكلمة واحدة : كأنما لبست هذه الثياب لتظهر له بلا ثياب ...

وأردت أن أعيبها بما صنعتْ نفسُها له ، وأن أعيبه هو بدخوله فيما لا يشبهه ، وقلت فى غير طائل ولا جدوى ، فما كنت إلا كالذى يعيب الورد بقوله : ياعطر الشذى ، ويا أحمر الخدين !

وقد أمسك عن جوابى ، وكانت محاسنها تجعل كلماتى شوهاء ، وكان وضوحها يجعل معانىَّ غامضة ، وكانت حلاوتها تجعل أقوالى مرة ، وكانت ثياب العروس وهى تزف تريه ألفاظى فى ثياب العجوز المطلّقة : وكلما غاضبتُه مع نفسه أوقعتْ هى الصلح بينه وبين نفسه

والعجيبُ العجيبُ فى هذا الحب أن فتح العينين على الجميل المحبوب هو نوع من تغميضهما للنوم ورؤيا الأحلام : ليس إلا هذا ، ولا يكون أبداً إلا هذا ؛ فمهما أُعطيتَ من جدل فإقناعك المحب المستهام كإقناعك النائم المستَثْقَل ؛ وكيف وله ألفاظ من عقله لا من عقلك ، وبينك وبينه نسيانه إياك ، وقد تركك على ظاهر الدنيا وغاص هو فى دنيا باطنه لا يملك فيها أخذاً ولا رداً إلا ما تعطى وما تمنع

* * *

ثم .. ثم غابت (العروس) بعد أن نظرت له وضحكت

ضحكت بحزنٍ حُزنَ الذى يسخر من حقيقة لأنه يتألم من حقيقة غيرها ؛ وكان منظرها الجميل المنكسر فلسفة تامة مصورة للخير الذى اعتدى عليه الشر فأحاله ، والإرادةِ التى أكرهها القدر فأخضعها ، والعفةِ المسكينة التى أذلتها ضرورة الحياة ، والفضيلة المغلوبة التى حيل بينها وبين أن تكون فضيلة !

ويا ما كان أجملها ناظرة بمعانى البكاء ضاحكة بغير معانى الضحك ؛ تتنهد ملامح وجهها وفمها يبتسم !

كان منظرها ناطقاً بأن قلبها الحزين يسأل سؤالا أبداه على وجهها بلطف ورقة ؛ كان يسأل إنساناً : ألا تحل هذه العقدة ... ؟

وانقضى التمثيل وتناهض الناس

أما صاحب القلب المسكين ... ؟

القلب المسكين

٦

أما صاحبُ القلب المسكين فقام ليخرجَ وقد تفارَطتْه الهمومُ وتسابقت إليه فانكسر وتفتّر ؛ وكأنما هو قد فارق صاحبته باكياً وباكيةً من حيث لا يَرى بكاءَه غيرُها ولا يرى بكاءَها غيرُه !

ورأيته ينظر إلى ما حوله كأنما تَغَشّى الدنيا لونُ نفسه الحزينة ؛ إذ كانت نفسُه ألقت ظِلّها على كل شيء يراه : وجعل يدلف ولا يمشى كأنه مثقلٌ بحمل يحمله على قلبه

إنه ليس أخفّ وزناً من الدمع ، ولكن النفوس المتألمة لا تحمل أثقل منه ، حتى ليلتثرُ على النفس أحياناً وكأنه وكأنها بناءٌ قائم يتهدَّم على جسم ؛ وبعضُ التنهدات على رقتها وخفتها ، قد تشعر بها النفس فى بعض همّها كأنها جبل من الأحزان أخذته الرَّجفةُ فمادت به ، فتقلقل ، فهو يتفلّق ويتهاوَى عليها

آه حين يتغير القلبُ فيتغير كل شيء فى رأى العين ! لقد كان صاحبنا منذ قليل وكأن كل سرور فى الدنيا يقول له : أنا لك ! فعاد الآن وما يقول له «أنا لك» إلا الهمُّ ؛ والتقى هو والظلام والعالم الصامت !

جعل يدلف ولا يمشى كأنه مثقل بحمل يحمله على قلبه ؛ ومتى وقع الطائر من الجو مكسورَ الجناح، انقلبت النواميس كُلُّها معطلة فيه ؛ وظهر الجو نفسُه مكسوراً فى عين الطائر المسكين ؛ وتنفصل روحُه عن السماء وأنوارها، حتى لو غمره النورُ وهو ملقىً فى التراب لأحسَّه على التراب وحده لا على جسمه ...

ثم خرجنا، فانتبه صاحبنا مما كان فيه ؛ وبهذه الانتباهة المؤلمة أدرك ما كان فيه على وجه آخر، فتعذَّب به عذابين : أما واحد فلأنه كان ولم يَدُمْ، وأما الآخر فلأنه زال ولم يُعدْ ؛ والسرورُ فى الحب شىء غير السرور الذى يعرفه الناس ؛ إذ هو فى الأول روحٌ تتضاعف به الروح ؛ فكلُّ ما سرك وانتهى شعرتَ أنه انتهى ؛ ولكن ما ينتهى من سرور العاشق المستهام يُشعره أنه مات، فله فى نفسه حزن الموت وهمُّ الثكل، وله فى نفسه همُّ الثكل وحزن الموت !

* * *

وينظر صاحبُ القلب المسكين فإذا الأنوار قد انطفأت فى الحديقة، وإذا القمر أيضاً كأنما كان فيه مسرح وأخذوا يطفئون أنواره .

كان وجهُ القمر فى مثل حزن وجهِ العاشق المبتعد عن حبيبته إلى أطراف الدنيا، فكان أبيضَ أصفرَ مُكمدا، تتخايلُ فيه معانى الدموع التى يُمسكها التجلدُ أن تتساقط .

كان فى وجه القمر وفى وجه صاحبنا معاً مظهرُ تأثير القدَر المفاجئ بالنكبة .

وبدت لنا الحياةُ تحت الظلمة مقفرة خاوية على أطلالها . فارغة كفراغ نصف الليل من كل ما كان مُشرقاً فى نصف النهار : يا لك من ساحر أيها الحبُّ ؛ إذ تجعل فى ليل العاشق ونهاره ظلاماً وضوءاً ليسا فى الأيام والليالى !

أما الحديقةُ فلبسها معنى الفراق : وما أسرعَ ما ظهرت كأنما يبست كلها لتوّها وساعتها ، وأنكرها النسيم فهرب منها فهى ساكنة ، وتحوّلت روحها خشبيةً جافة ، فلا نضرة فيها على النفس ؛ وبدت أشجارها فى الظلام قائمة فى سوادها كالنائحات يلطمن ويُولولن ، وتنكّر فيها مشهدُ الطبيعة كما يقع دائماً حين تنبتُّ الصلة بين المكان ونفس الكائن .

ماذا حدث ؟

لا شيء إلا ما حدث فى النفس ، فقد تغيرت طريقة الفهم ، وكان للحديقة معنى من نفسه فسُلب المعنى ، وكان لها فيض من قلبه فانحبس عنها الفيض ؛ وبهذا وهذا بدت فى السلب والعدم والتنكر ، فلم يبق إبداعٌ فى شيء مُبدَع ، ولا جمال فى منظر جميل .

أكذا يفعل الحب حين يضع فى النفس العاشقة معنى ضئيلا من معانى الفناء كهذا الفراق ؟

أكذا يترك الروحَ إذا فقدت شيئاً محبوباً ، تتوهم كأنها ماتت بمقدار هذا الشيء ؟

مسكين أنت أيها القلب العاشق ! مسكين أنت !

* * *

ومضينا فملنا إلى ندىٍّ نجلس فيه ، وأردتُ معابثة صاحبنا المتألم بالحب والمتألم بأنه متألم ، فقلت له : ما أراك إلا كأنك تزوجتها وطلقتها فتبعتها نفسُك !

قال : آه ! مَنْ أنا الآن ؟ وما بالُ ذلك الخيال الذى نسَّق لى الدنيا فى أجمل أشكالها قد عاد فبعثرها ؟ أتدرى أن العالم كان فىَّ ثم أُخذ منى فأنا الآن فضاء فضاء .

قلت : أعرف أن كل حبيب هو العالم الشخصى لمحبه .

قال : ولذلك يعيش المحب المهجور ، أو المفارق ، أو المنتظِر ، وكأنه فى أيام خلت ، وتراه كأنما يجىء إلى الدنيا كل يوم ويرجع .

قلت : إن من بعض ما يكون به الجمال جمالاً أنه ظالم قاهر عنيف ، كالملك يستبدّ ليتحقق من نفاذ أمره ؛ وكأن الجميل لا يتم جماله إلا إذا كان أحيانا غير جميل فى المعاملة !

قال : ولكن الأمر مع هذه الحبيبة بالخلاف ؛ فهى تطلبنى وأتنكبها ، وهى مقبلة لكنها مقبلة على امتناعى ؛ وكأنها طالب يعدو وراء مطلوب يفرّ ، فلا هذا يقف ولا ذلك يدرك .

قلت : فإن هـذه هى المشكلة ، ومتى كانت الحبيبة مثلها ، وكانَ المحب مثلك ، فقد جاءت العقدة بينهما معقودة من تلقاء نفسها فلا حل لها .

قال : كذلك هو ، فهل تعرف فى البؤس والهم كبؤس العاشق الذى لا يتدبر كيف يأخذ حبيبتَه ، ولكن كيف يتركها ؟ ما هى المسافة بينى وبينها ؟ خطوة ، خطوتان ؟ كلا ، كلا ؛ بل فضائل وفضائل تملأ الدنيا كلها ، إن مسافة ما بين الحلال والحرام متراخية ممتدة ذاهبة إلى غير نهاية ؛ وإذا كان الحب الفاسد لا يقبل من الحبيب إلا (نعم) بلا شرط ولا قيد لأنه فاسد ، فالحب الطاهر يقبل (لا) لأنه طاهر ؛ ثم هو لا يرضى (نعم) إلا بشرطها وقيدها من الأدب والشريعة وكرامة الإنسانية فى المرأة والرجل .

وإذا لم ينته الحب بالإثم والرذيلة ، فقد أثبت أنه حب ؛ وشرفه حينئذ

هو سر قوته وعنصر دوامه .

أتعرف أن بعض عشاق العرب تمنى لو كان جملاً وكانت حبيبته ناقة ... إنه بهذا يودُّ ألا يكون بينهما العقلُ والقانونُ وهـذا الحرمانُ الذى يسمى الشرف ، وألا يكون بينهما إلا قيدُ غريزتها الذى ينحلّ من تلقاء نفسه فى لحظةٍ ما ، وأن يُترك لقوته وتترك هى لضعفها : والقوة والضعف فى قانون الطبيعة هما ملك وتمليك واغتصابٌ وتسليم

قلت : وهذا ما يفعله كل عاشق لمثل هذه الراقصة إذا لم يكن فيه إلا الحيوان ؛ فإن بينهما قوةً وضعفاً من نوع آخر ، فمعه الثمن وبها الحاجة ، وهما فى قانون الضرورة ملك وتمليك .

قال : وهـذا مما يقطّع فى قلبي ؛ فلو أن للأمة ديناً وشرفاً لما بقى موضع الزوجة فارغا من رجل ، وإن هذه وأمثالها إنما ينزان فى تلك المواضع الخالية أولَ ماينزلن ، فكل بغى هى فى المعنى دينٌ متروك وشرف مبتذل فى الأمة

٭ ٭ ٭

قلت : فحدثنى عنك ماهذا الوجدُ بها وما هذا الاحتراق فيها ، وأنت قد كنت بين يديها خياليا محضا كأنما جمعتَها فى حواسك فأخذتها وتركتها فى وقت معا ، وحواسك هذه لاتزال كما هى ، بل هى قد زادت حِدة ، فكما صنعتْ لك من قرب تصنع لك من بُعد

قال : أنا فى محضرها أحبها كما رأيتَ بالقـدر الذى تقول هى فيه إنك لاتحبنى ، إذ كان بيننا آخر اسمه الخُلق ؛ ولـكنى فى غيابها أفقد هذا الميزان الذى يزن المقدار ويحدده ، وإذا كنتَ لم تعلم كيف يصنع العاشق فى غيبة المعشوق ، فاعلم أن كبرياءه حينئذ لاترى بإزائها ماتقاومه ، فتتخلى عنه وتخذله ؛

وفضيلته لاتجد ماتستَعْلِنُ فيه ، فتتوارى وتدعه ؛ وشخصيته لاتجد ماتبرز له ، فتختفي وتهمله ؛ فما يكون من كل ذلك إلا أن يظهر المسكين وحده بكل مافيه من الوهَن والنقص وحدّة الشوق ؛ وهنا ينتقم الحب بما زوّرتْ عليه الكبرياء والفضيلة والشخصية ، فيضرب بحقائقه ضربات مؤلمةً لاتقوم لها القوة ، ويجعل غياب الحبيب كأنه حضوره مستخفيا لرؤية الحقيقة التى كتمت عنه ؛ وكم من عاشقة متكبرة على من تهواه تصدّه وتباعده ، وهى فى خلوتها ساجدة على أقدام خياله تمرغ وجهها هنا وهنا على هذه القَدَم وعلى هذه القدم !

ألا إنه لابد فى الحب من تمثيل رواية الامتناع أو الصد أو التهاون أو أى الروايات من مثلها ؛ ولكن ثياب المسرح هى دائما ثياب استعارة مادام لابسها فى دوره من القصة

٭ ٭ ٭

ثم وضع المسكين يده على قلبه وقال : آه ! إن هذا القلب يغاضب الحياة كلها متى أراد أن يشعر صاحبه أنه غضبان

مَن مِن الناس لايعرف أحزانه ؟ ولكن من منهم الذى يعرف أسرار أحزانه وحكمتها ؟ أما إنه لو كشف السر لرأينا الأفراح والأحزان عملا فى النفس من أعمال تنازع البقاء ؛ فهذا الناموس يعمل فى إيجاد الأصلح والأقوى ، ثم يعمل كذلك لإيجاد الأفضل والأرقّ ، ومن ثم كانت آلام الحب قويةً قويةً حتى لكأنها فى الرجل والمرأة تهيئ أحد القلبين ليستحق القلب الآخر .

آه من هذه اللواعج ! إنها ما تكاد تضطرم حتى ترجع النفس وكأنها موقد يشتعل بالجمر ، وبذلك يُصْهَرُ المعدن الإنسانى ويُصنع صنعة جديدة ؛ وإلى

أن ينصهر ويتصفى ويصنع ، ماذا يكون الإنسان فى كل شىء من حبيبه ؟
يكون له فى كل شىء روحه النارى

✿ ✿ ✿

قلت : بَخٍ بَخ (*) ! هكذا فليكن الحب ؛ إنها حين تهيج فى نفسك الحنين إليها تعطيك ماهو أجمل من جمالها وما هو أبدع من جسمها ، إذ تعطيك أقوى الشعر وأحسن الحكمة .

قال : وأقوى الألم وأشدَّ اللوعة ! ياعجبا ! كأن الحياة لاتقدم فى عشق المحبوب إلا عشقها هى ؛ فإذا وقعت الجفوة ، أو حُمَّ البيْنُ ، أو اعترى اليأس ـ قدَّم الموت نفسه فكل ذلك شبه الموت

إن الحزن الذى يجىء من قِبل العدو يجىء معه بقوة تحمله وتتجلد له وتكابر فيه ؛ ولكن أين ذلك فى حزن مبعثُه الحبيب ؟ ومن أين القوة إذا ضعف القلب ؟

✿ ✿ ✿

قلت : لايصنع الله بك إلا خيراً ؛ فإذا كان غدٌ وانسلخ النهار من الليل جئنا إليها فرأيناها فى المسرح ، ولعل الأمر يصدر مصدراً آخر ، قال : أرجو ...

ولم يكد ينطق بهذه الرجيَّة حتى مر بنا سبعة رجال يقهقهون ، ثم تلاقينا وجئنا ؛ وياويلتنا على المسكين حين علم أنها رحلتْ ؛ لقد أدرك أن الشيطان كان يضحك بسبعة أفواه ... من قوله : أرجو

ولماذا رحلت ؟ لماذا . ؟

وأما هو ... ؟

(*) كلمة الإعجاب تقال عند الرضى والمدح ، ومثلها (زه) وهذه فارسية

القلب المسكين

٧

وأما صاحبُ القلب المسكين فما علم أنها قد رحلتْ عن ليلته حتى أظلم الظلامُ عليه، كأنها إذا كانت حاضرةً أضاء شيء لا يرى، فإذا غابت انطفأ هذا الضوء؛ ورأيتُه واجماً كاسفَ البال يَتنازعُهُ في نفسه ما لا أدرى، كأن غيابها وقع في نفسه إنذارَ حرب

لماذا كان الشعراء ينوحون على الأطلال ويلتاعون بها ويرتمضون منها وهى أحجارٌ وآثار وبقايا؟ وما الذى يتلقاهم به المكان بعد رحيل الأحبة؟ يتلقاهم بالفراغ القلبىّ الذى لا يملؤه من الوجود كله إلا وجودُ شخص واحد؛ وعند هذا الفراغ تقف الدنيا مليّا كأنها انتهت إلى نهاية فى النفس العاشقة، فتبطل حينئذ المبادلةُ بين معانى الحياة وبين شعور الحى؛ ويكون العاشق موجوداً فى موضعه ولا تجده المعانى التى تمرُّ به، فترجع منه كالحقائق تُلمّ بالفراغ العقلى من وعى سكران

يا أثر الحبيب حين يفارق الحبيب! ما الذى يجعل فيك تلك القدرة الساحرة؟ أهو فصلك بين زمن وزمن، أم جمعك الماضىَ فى لحظة؛ أم تحويلك الحياة إلى فكرة، أم تكبيرك الحقيقة إلى أضعاف حقيقتها، أم تصويرك روحية الدنيا فى المثال الذى تحسّه الروح، أم إشعارك النفس كالموت أن الحياة مبنيةٌ على الانقلاب، أم قدرتك على زيادة حالة جديدة للهم والحزن، أم رجوعك باللذة تُرى ولا تمكن، أم أنت كل ذلك لأن

القلب يفرغ ساعةً من الدنيا ويمتلئ بك وحدك ؟

يا أثر الحبيب حين يفارق الحبيب ! ما هذه القوة السحرية فيك تجتذبُ بها الصدرَ ليضمك ، وتستهوى بها الفم ليقبلك ، وتستدعى الدمعَ لينفرَ لك ، وتهتاج الحنين لينبعث فيك ؟ أكل ذلك لأنك أثر الحبيب ، أم لأن القلب يفرغ ساعة من الدنيا ولا يجد مايخفق عليه سواك ؟

❊ ❊ ❊

ووقف صاحبنا المسكين محزوناً كأن شيئاً يصله بكل هموم العالم ؛ وتلك هى طبيعة الألم الذى يفاجئ الإنسان من مكمن لذته وموضع سروره ، فيسلبه نوعاً من الحياة بطريقة سلب الحياة نفسها ، ويأخذ من قلبه شيئاً مات فيدفنه فى قبر الماضى ، يكون ألماً لأن فيه المضض ، وكآبةً لأن فيه الخيبة ، وذهولاً لأن فيه الحسرة ؛ وتتم هذه الثلاثةُ الهموم بالضيق الشديد فى النفس ، لاجتماع ثلاثتها على النفس ؛ فإذا المسكين مبغوت مبغوت كأن الآلام أطبقت عليه من الجهات الأربع ، فقلبُه منها صُدُوع صُدوع ...

وجعلتُ أعذلُ صاحبنا فلا يعتذل ، وكلما حاولت أن أُثبت له وجود الصبر كنت كأنما أثبت له أنه غير موجود ؛ ثم تنفس وهو يكاد ينشقُّ غيظاً وقال : لماذا رحلتْ ؟ لماذا ؟

قلت : أنت أذللت جمالها بهذا الأسلوب الذى ترى أنك تُعِزُّ جمالها به ، وقد اشتددت عليها وعلى نفسك ، وتعنَّتَّ على قلبك وقلبها ؛ كانت ظريفة المذهب فى عشقها وكنت خشناً فى حبك ، وسوَّغتك حقاً فرددته عليها ، وتمالكتْ وانقبضتَ أنت ، ورفعتْ قدرك عن نفسها تحببا وتودُّداً فخفضت قدرها عن نفسك من اطراح وجفاء ، واستفزعتْ

وسعها فى رضاك فتغاضبت ، ونَضَتْ عن محاسنها شيئا شيئا تسأل بكل شىء سؤالا فلم تكن أنت من جوابها فى شىء ...

ومن طبع المرأة أنها إذا أحبت امتنعتْ أن تكون البادئة ، فالتوتْ على صاحبها وهى عاشقة ، وجاحدَت وهى مُقرَّة ؛ إذ تريد فى الأوَّلة أن تتحقق أنها محبوبة ، وفى الثانية أن يُقدِّم لها البرهان على أنها تستحق المهاجمة ، وفى الثالثة هى تريد ألا تأخذها إلا قوةٌ قوية فتمتحن هذه القوة ، ومع هذه الثلاث تأبى طبيعة السرور فيها والاستمتاع بها إلا أن يكون لهذا السرور وهذا الإمتاع شأن وقيمة ، فتذيق صاحبها المرَّ قبل الحلو ليكبر هذا بهذا

غير أنها إذا غلبها الوجد وأكرهها الحب على أن تبتدئ صاحبها ، ثم ابتدأتْ ولم تجد الجواب منه ، أو لم يأت الأمر فيما بينها وبينه على ماتحب ، فإن الابتداء حينئذ يكون هو النهاية ، وينقلب الحب عدو الحب ؛ وأنا أعرف امرأة وضعتْها كبرياؤها فى مثل هذه الحالة وقالت لصاحبها : سأتألم ولكن لن أُغلب ، فكان الذى وقع وا أسفاه — أنها تألمت حتى جُنَّت ، ولكن لم تُغلب ... (١)

قال : فما بال هذه ؟ أما تراها تبتدئ كل يوم رجلا ؟

قالت : إنها تبتدئ متكسِّبةً لاعاشقة ، فإذا أحبت الحب الصحيح أرادتْ قيمتَها فيما هو قيمتها ؛ وأنا أحسبها تحب فيك هذا العنفَ وهذه القسوةَ وهذه الروحيةالجبارة ؛ فإنها لذّات جديدة للمرأةالتى لاتجد من يُخضِعها ؛ وفى طبيعة كل امرأة شىء لايجد تمامَه إلا فى عنف الرجل ، غير أنه العنف الذى أوله رقة وآخره رقة !

* * *

(١) انظر قصة هذه الحبيبة التى تألمت حتى جنت ص ٧٣ - ١٠١ « حياة الرافعى »

أما والله إن عجائب الحب أكثر من أن تكون عجيبة ؛ والشيء الغريب يسمى غريباً فيكفي ذلك بياناً في تعريفه ، غير أنه إذا وقع في الحب سمّي غريباً فلا تكفيه التسمية ، فيوصف مع التسمية بأنه غريب فلا يبلغ فيه الوصف ، فيقع التعجب مع الوصف والتسمية من أنه شيء غريب ، ثم تبقى وراء ذلك منزلة للإغراق في التعجب بين العاشق وبين نفسه ؛ وهكذا يشعرون

فكل أسرار الحب من أسرار الروح ومن عالم الغيب ؛ وكأن النبوة نبوتان : كبيرة وصغيرة ، وعامة وخاصة . فإحداهما بالنفس العظيمة في الأنبياء ، والأخرى بالقلب الرقيق في العشاق ؛ وفي هذه من هذه شَبَهٌ ، لوجود العظمة الروحية في كلتيهما غالبةً على المادة ، مجرِّدة من إنسان الطين إنساناً من النور ، محركةً هذه الطبيعة الآدميةَ حركةً جديدة في السموّ ، ذاهبةً بالمعرفة الإنسانية إلى ماهو الأحسن والأجمل ، واضعةً مبدأ التجديد في كل شيء يمر بالنفس ، منبعثةً بالأفراح من مصدرها العلوي السماوي

بيدَ أن في العشق أنبياءَ كذبة ؛ فإذا تسفَّل الحب في جلال ، واستعلنت البهيميةُ في عظمة ، وتجرد من إنسان الطين إنسانُ الحجر ، وتحركت الطبيعة الآدمية حركة جديدة في السقوط ، وذهبت المعرفة الإنسانية إلى ماهو الأقبح والأسوأ ، وتجدد لكل شيء في النفس معنى فاسد ، وانبعثت الأفراح من مصدرها السفلي — إذا وقع كل هذا من الحب فما عساه يكون ؟

لايكون إلا أن الشيطان يقلد النبوة الصغيرة في بعض العشاق ، كما يقلد النبوة الكبيرة في بعض الدجّالين

* * *

هكذا قال صاحب القلب المسكين وقد تكلم عن الحب ونحن جالسان

فى الحديقة ، وكنا دخلناها ليجدّد عهداً بمجلسه فلعله يسكّن بعض مابه ؛ واستفاض كلامنا فى وصف تلك العبهرَة (*) الفتانة التى أحلّته هـذا المحل وبلغت به مابلغت ، وكان فى رقة لارقة بعدها ، وفى حب لانهاية وراءه لمحب ؛ وخيل إلىّ أنه يرى الحديث عنها كأنه إحضارها بصورة ما !

وأنفع مافى حديث العاشق عن حبه وألمه أن الكلام يخرجه من حالة الفكر ، ويؤنس قلبه بالألفاظ ، ويخفف من حركة نفسه بحركة لسانه ، ويوجه حواسه إلى الظاهر المتحرك ؛ فتسلبه ألفاظُه أكثر معانيه الوهمية ، وتأتيه بالحقائق على قدرها فى اللغة لافى النفس ؛ وفى كل ذلك حيلة على النسيان ، وتعلل إلى ساعة ؛ وهو تدبير من الرحمة بالعاشقين فى هذا البلاء الذى يسمى الفراق أو الهجر

وكان من أعجب ماعجبتُ له أن صديقاً مرَّ بنا فدعاه صاحبنا وقال وهو يومئ إلىّ : أنا وفلان هذا مختلفان منذ اليوم : لاهو يقيم عذراً ولا أناأقيم حجة ، وأحسب أن عندك رأياً فاقض بيننا

ويسأله الصديق : ماالقضية ؟ فيقول وهو يشير إلىّ :

إن هذا قد تخرَّق قلبه من الحب فلا يدرى من أين يجىء لقلبه برقعة ... وأنه يعشق فلانة الراقصة التى كانت فى هـذا المسرح ، ويزعم لى ... أنهـا أجمل وأفتن وأحلى من طلعت عليـه الشمس ، وأنه ليس بين وجهها وبين القمر وجه امرأة أخرى فى كل مايضىء القمر عليه ، وأن عينيها ممـا لاينسى أبداً أبدا أبدا ... لأن ألحاظها تذوب فى الدم وتجرى فيه ، وأن الشيطان لوأراد مناجزَةَ العفة والزهد فى حرب حاسمة بينه وبين أزهد العباد لترك كل

(*) هى التى جمعت الحسن والجسم والامتلاء وجمال الخلقة من كل ناحية ، كهذه التى نحن فى وصفها منذ شهرين ...

حِيَله وأساليبِه وقدَّم جسمَها وفنها . . .

فيقول له المسئول : وما رأيك أنت ؟

فيجيبه : لوكان عنها صاحياً لقد صحا : إن المشكلة فى الحب أن كل عاشق له قلبُه الذى هو قلبُه ، وحسْبها أن مثل هـذا هو يصفُها ؛ وما يدرينا من تصاريف القَدَر بهذه المسكينة ماعليها مما لها ، فلعلها الجمالُ حُكم عليه أن يُعذَّب بقبح الناس ، ولعلها السرورُ قضى عليه أن يسجن فى أحزان !

✡ ✡ ✡

وقلت له : ياصديقى المسكين ! أوَ كلُّ هذا لها فى قلبك ؟ فما هذا القلب الذى تحمله وتتعذب به ؟

قال : إنه والله قلب طفل ، وما حبُّه إلا التماسُه الحنان الثانى من الحبيبة ، بعـد ذلك الحنان الأول من الأم ؛ وكل كلامى فى الحب إنما هو إملاء هذا القلب على فـكره كأنه يخلق به خلق تفـكيره

آه ياصديقى ! إن من السخرية بهذه الدنيا وما فيها أن القلب لايستمر طفلا بعـد زمن الطفولة إلا فى اثنين : من كان فيلسوفا عظيما ، ومن كان مغفلا عظيما !

✡ ✡ ✡

وافترقنا ؛ ثم أردت أن أتعرَّف خبره فلقيته من الغد ، وكان لى فى أحلامى تلك الليلة شأن عجيب ، وكان له شأن أعجب ؛ أما أنا فلا يعنى القراء شأنى وقصتى

وأماهو . . . ؟

القلب المسكين

٨

وأما هو فحدَّثني بهذا الحديث العجيب من لطائف إلهامه وفنّه، قال: انصرفت إلى داري وقد عزّ عليَّ أن يكون هذا منها وأن يكون هذا مني، وهي إن غابت أو حضرت فإنها لي كالشمس للدنيا: لا تظلم الدنيا في ناحيةٍ إلا من أنها تضيء في ناحية؛ فظلمتها من عمل نورها؛ وكانت ليلتي فارغةً من النوم فبتُّ أتململُ، وجعل القلب يدقُّ في جنبيَّ كأنه آلة في ساعة لا قلب إنسان؛ وكان في الدنيا من حولي صمت كصمت الذي سكت بعد خطبة طويلة، وفيَّ أنا صمت آخر كصمت الذي سكت بعد سؤال لا جواب عليه؛ وكان الهواء راكداً كالسكران الذي انطرح من ثقلة السكر بعد أن هذى طويلاً وعربد؛ والوجودُ كلّه يبدو كالمختنق، لأن معنى الاختناق في قلبي وأفكاري؛ ونظرتُ نظرةً في النجوم فإذا هي تتغوّرُ نجماً بعد نجم، كأن معنى الرحيل انتشر في الأرض والسماء إذ رحلت الحبيبة؛ وكأن كل وجهٍ مضيءٍ يقول لي كلمة: لا تنتظر!

فلما عسعسَ الليلُ رميت بنفسي فنمت والعقل يقظان، وصنعت الأحلامُ ما تصنع، فرأيتها هي في تلك الشُّفوف التي ظهرت فيها عروساً؛ وما أعجبَ كبرياءَ المرأة المحبوبة! إنها لتبدو لعيني محبها كالعارية وراء ستر رقيق يشفُّ عنها كالضوء، ثم تُدِلُّ بنفسها أن ترفعَ هذا الستر، فإن لم يتجرأ هو لم تتجرأ هي؛ وكأنها تقول له: قد رفعتُه بطريقتي فارفعه أنت بطريقتك...

وكانت مصوَّرة في الحلمِ تصويراً آخر؛ فلا ينسكب من جسمها معنى الحسن الذي أتأمله وأعقله، ولكن معنى السكر الذي يترك المرء بلا عقل؛ ولم

تكن غلائلها عليها كالثياب على المرأة ، ولكنها ظهرت لى كاللون على الوردة الزاهية : تظهر فتنةً وتُتم فتنة .

أيتها الأحلام ، ماذا تُبدعين إلا مخلوقات الدم الإنسانى ، ماذا تبدعين ؟

قلت : يا صديقى دع الآن هذه الفلسفة وخذ فى قصّ ما رأيت ، ثم ماذا بعد الوردة ولون الوردة ؟

قال : إنه القلبُ المسكينُ دائماً ، إنه القلب المسكين : لقد ضحكتْ لى وقالت : هأنذى قد جئت ! وأقبلتْ تراءينى بوجهها ، وتتغزل بعينيها ، وتتنهد بصدرها ، وألقت يدها فى يدى ، فأحسست اليدين تتعانقان ولا تتصافحان ؛ ثم تركناهما نائمتين إحداهما على الأخرى ، وسكتنا هُنيهةً وقد خُيِّل إلينا أننا إذا تكلمنا استيقظت يدانا !

أما صافحتْك امرأة تحبها وتحبك ؟ أما أحسست بيدها قد نامت فى يدك ولو لحظة ؟ أما رأيت بعينيك نعاس يدها وهو ينتقل إلى عينيها فإذا هما فاترتان ذابلتان ، وتحت أجفانهما حلمٌ قصير ؟

قلت : يا صديقى دع الفلسفة ؛ ثم كان ماذا بعد أن نامت يدٌ على يد ؟

قال : ثم كانت سخرية من الشيطان أقبح سخرية قط .

قلت : حسبى لكأنك شرحت لى ما بقى ...

فضحك طويلاً وقال : إن الشيطان يسخر الآن منك أيضاً ، وكأنى به يقول لك : وكان ما كان مما لست أذكره ... أفندرى ما الذى كان وما بقية الخبر ؟

لقد كنتُ مولعاً بامتحان قوّتى فى الضغط بيدى على أعواد منصوبة من الحديد ، أو على أيدى الرجال الأقوياء إذا سلمتُ عليهم[1] : فلما صافحتْنى لبثت

(١) انظر ص ٢٧٤ - ٢٧٥ « حياة الرافعى »

مدة من الزمن ثم شددتُ على يدها قليلاً قليلاً ، فتنبهتْ فيَّ هـذه العادة ، فسخت الحلمَ وانصرف وهى إلى أقبح صورةٍ وأشنعها وأبعدها مما أنا فيه من الحب ولذات الحب : فإذا بإزائى وجه ، وجهُ من ؟ وجهُ مصارع ألمانى كنتُ أعرفه من عشرين سنة وأضغط على يده ...

* * *

قلت : إنما هـذه كبرياؤك أو عفّتك تنبهتْ فى تلك الشَّدة من يدك ، ولا يزال أمرك عجيباً ؛ فهل معك أنت ملائكة ومع الناس شياطين ؟

قال : والذى هو أعجب أنى رأيت فى أضعاف أحلامى كأن قلبي المسكين يخاصمنى وأخاصمه ؛ وقد خرج من أحناء الضلوع كأنه مخلوق من الظل يُرى ولا يُرى إذ لا شكل له ؛ وسبَّنى وسببتُه ، وقلتُ له وقال لى ، وتغالظْنا كأننا عدوَّان ؛ فهو يرى أنى أنا أمنعه لذتَه ، وأرى أنه هو يمنعنى ، وأنه أشقى بى على ما أشقى ؛ وقلت له فيما قلت : لا قرارَ على جنايتك ، فاذهبْ عنى ولا تتسمَّ باسمى فإنه لا فلانَ لك (*) بعد اليوم ؛ ولولا أنك مخذول فى الحب لعلمتَ أن لمسة يد الرجل ليد المرأة الجميلة نوعٌ مخفَّف من التقبيل ، فإذا هى تركتْه يرتفع فى الدم انتهى يوماً إلى تقبيل فمه لفمها ؛ ولولا أنك مخذول فى الحب لعلمت أن هذا الضم بين اليدين نوع مخفف من العناق ، فإذا هى تركته يشتد فى الدم انتهى يوماً إلى ضم الصدر للصدر ؛ ولكنك مخذول فى الحب ، ولكنك مخذول !

وقال لى فيما قال : وأنت أيها الخائب ؟ أما علمتَ أن أناملها الرَّخصةَ هى أناملها ، لا أعوادُك من الحديد ؟ فكيف شددت عليها وبحك تلك الشَّدة التى أخرجَتْ لك وجهَ المصارع ؟ ولكنك خائب فى الحب ، ولكنك خائب !

(*) ذكر اسمه ، كما تقول مثلا : لا محمد لك .

قلت : فهذه قضيةٌ بينى وبينك أيها القلب العدوّ ؛ لقد تركتنى من الهموم كالشجرة المُنْخَرِبَةِ قد بليَتْ وصارت فيها التخاريب ؛ فلا حياتها بالحياة ولا موتها بالموت ، وكم علّقتَنى بفاتنة بعد فاتنة لا عنها إقصارٌ ينتهى ولا فيها مطمعٌ يبتدئ ؛ ما أنت فىَّ إلا وحشٌ أكبرُ لذته لطْعُ الدم !

* * *

واستدار الحلم فلم ألبث أن رأيتُنى فى محكمة الجنايات ، وكأنى شكوت قلبي إليها فهو جالس فى القفص الحديدىّ بين المجرمين ينتظر ما ينتظرون من الفصل فى أمرهم ؛ وقد ارتفع المستشارون الثلاثة إلى منصة الحكم ، وجلس النائب العامُّ فى مجاسه يتولى إقامةَ الدعوى وبين يديه أوراقه ينظر فيها ، ورأيت منها غلافا كتب على ظاهره : قضية القلب المسكين .

وتكلم رئيس المحكمة أولَ من تكلم فقال : ليس فى قضية القلب محامٍ ، فابغُوه من يدافع عنه ؛ ثم التفت إليه وقال : من عسى تختار الدفاع عنك ؟

قال القلب : أوَ هنا موضع للاختيار ياحضرة الرئيس ؟ إنه ليس تحت هذه ـ وأومأ إلى السماء ـ ولا فوق هذه ـ وأومأ إلى الأرض ـ إلا ...

فبَدَر النائب العام وقال : إلا الحبيبة ؟ أكذلك ؟ غير أنها أستاذة فى الرقص لا فى القانون !

ـ القلب : ولكننى لا أختار غيرها محكوما لى أو محكوماً علىّ ؛ أنا أريد أن أنظر فيها وانظروا أنتم فى القضية ...

ـ الرئيس : فليكن ؛ فهذه جريمة عواطف إيذَنْ لها أيها الآذن .

فنادى المحضِر (*) : الأستاذة ! الأستاذة !

وجاءتْ مبادرة ، ودخلت تمشى مشيتَها وقد افترَّ ثغرها عن النور الذى

(*) هو الموظف الذى يكون فى الجلسة للنداء على الخصوم .

يسطع فى النفس ؛ وأومَضَتْ بوجهها يميناً وشمالاً ، فصرفَ الناسُ جميعاً أبصارهم إليها وقد نظروا إلى فتنة من الفتن ؛ وثارت فى كل قلب نزعة ، وغلبت الحقيقةُ البشرية فانتقضت طباع الموجودين فى قاعة الجلسة ، وأبطل قانون جمالها قانونَ المحكمة ، فوقعت الضجة وعلت الأصواتُ واختلطت ؛ وتردَّدت بين جدران المكان صَدى فى صَدَّى كأن الجدران تتكلم مع المتكلمين .

أصوات أصوات : سبحان الله ! سبحان الله ! تبارك الله ! تبارك الله ! آه آه ! آه آه ! وسمع صوت يقول : اِتَّهِمُونى أنا أيضاً ... فنفَرت الكلمات : وأنا ، وأنا ، وأنا ! واختفت المحكمة وانبعث المسرح بدخول فاتنته الراقصة ؛ وكان المستشارون والنائب العام فى أعين الناس كأنهم صور معلقة على الحائط : لا يخشاها أحدٌ أن تنظر إلى ما يصنع !

فصاح الرئيس : هنا المحكمة ! هنا المحكمة ! سبحان الله ... المحكمة المحكمة !

ـ النائب العام : هذا بَدْءٌ لاترضاه النيابة ولا تقبل أن تنسحب عليه ، نعم إن هذا الوجه الجميل أبرعُ محام فى هذه القضية ، ونعم إن جسمها ... آه ماذا ؟ إنكم تأتون بالشهوة الغالبة القاهرة لتدافع عن المشتهى ... عن المتَّهم ، هذا وضع كوضع العذر إلى جانب الذنب ، وكأنكم يا حضرات المستشارين ...

فبَدَرت المحامية تقول فى نغمة دلال وفتور : وكأنكم يا حضرات المستشارين قد نسيتم أن النائب العام له قلب أيضاً ...

واشتــدَّ ذلك على النائب ، وتبين الغضب فى وجهه ؛ فقال : يا حضرة الرئيس ...

— الرئيس مبتسما : واحدة بواحدة ، وأرجو ألا تكون لها ثانية ، ومعنى هذا كما هو ظاهر ألا تكون لها ثالثة ... (ضحك)

* * *

قال صاحب القلب المسكين : وكنتُ بلا قلب ... فلم ألتفت للجمال ، بل راعنى ذكاءُ المحامية ونفاذُها وحسن اهتدائها إلى الحجة فى أول ضرباتها ، وتعجبت من ذلك أشد التعجب ، وأيقنت أن النائب العام سيقع فى لسانها ، لا كما يقع مثله فى لسان المحامى القدير ، ولكن كما يقع زوجٌ فى لسان زوجة معشوقة متدللة تجادله بحجج كثيرة بعضُها الكلام ... وقلت فى نفسى : يارحمة الله لا تجعلى من النساء الجميلات الفاتنات محاميات فى هذه المحاكم ، فلو ألبسوهن لِحًى مستعارة لكان الصوت الرخيم وحده من تلك الأفواه الجميلة العذبة ، نداءً قانونياً للقبلات ...

ونهضت المحامية العجيبة فسلطت عينيها الساحرتين على النائب ، ثم قالت تخاطب المحكمة : قبل النظر فى هذه القضية قضية الحب والجمال ، قضية قلبي المسكين ... أريد أن أتعرف الرأى القانونى فى اعتبار الجريمة أهى شخصية ، فتقصر على صاحبها ؛ أو خاصة ، فتضر غير جانيها ؛ أو عامة ، فيتناولها العمومُ المحدود لمن تجمعهم جامعة الحب ؛ أو هى أعم ، فيتناولها العمومُ المطلَق للهيئة الاجتماعية ؛ ماهى جريمة قلبي ... ؟

— الرئيس : مارأى النيابة ؟

النائب ضاحكا : (غزالتها رايقة) كما يقول الراقصات والممثلات ... أرى أنها جريمة آتية من ضرب الخاص فى العام . . (ضحك)

المحامية : جواب كجواب القائل : حب أبى بكر : كان ذلك الرجل يحب زوجته الجميلة ويخافها ، وكانت تقسو عليه قسوة عظيمة وتُغلظ له الكلام ، وهو يفْرَق منها ولا يخالفها ؛ فرآها يوما وقد طابت نفسها ، فأراد أن ينتهز الفرصة ويشكو قسوتها ؛ فقال : يافلانة قد والله أحرق قلبي ... ولم تدعه يُتم الكلمة ، فحددت نظرها إليه وقطبت وجهها وقالت : أحرق قلبَك ماذا ؟ فخاف

ولم يقدر أن يقول لها سوء أخلاقك . فقال : حب أبي بكر الصديق رضي الله عنه : . (ضحك) ورنت ضحكة المحامية فاضطربت لها القلوب ، ووقعت في كل دم ، وفي دم النائب أيضاً ؛ فانخزل ولم يزد على أن يقول : أحتج من كل قلبي ...

الرئيس : لندخل في الموضوع ولتكن المرافعة مطلقة ؛ فإن الحدود في جرائم القلب تُسدل وتُرفع كهذه الستائر في مسرح التمثيل . وعشرون ستارة قد تكون كلها لرواية واحدة

☆ ☆ ☆

— النائب العام : ياحضرات المستشارين ، لا يطول اتهامي ؛ فإن هذا القلب هو نفسه تهمة متكلمة

المحامية : ولكنه قلب

النائب : وأنا ياسيدتي لم أحرّف الكلمة ولم أقل إنه كلب . (ضحك) وتضرج وجه المحامية وخجلت (*)

— الرئيس : الموضوع الموضوع

النائب : ياحضرات المستشارين ، إن ألم هذه الجريمة إما أن يكون في شخص الجاني أو ماله ، أو صفته كأن يكون زوجا مثلا ، أو صيته الأدبي ؛ فأما الشخص فهذا ظاهر ، وأما المال فنعم إن القلب المسكين قرر لنفسه ولصاحبه ألا يبتاع أبداً تذكرة دخول إلى جهنم ... (ضحك)

(*) إذا كان كلبا فهو يتبع كلبة ... وهذه هي غمزة النائب المحامية ، ولا ينس القراء أن المحكمة في الرؤيا ؛ وفي الرؤيا علمنا أن هذا النائب كأكثر شبان العصر في هذه المدنية الفاسدة ، لا يتزوجون لأن المدنية جعلتهم بين الفتيان « أنصاف متزوجين » على وزن « أنصاف عذارى » بين الفتيات ... وفي الرؤيا علمنا أنه يخادن راقصة ، ويقال ممثلة ـ بينها وبين صاحب القلب المسكين منافسة ...

ـ المحامية : أستميح النائب عذراً إذا أنا ... إذا أنا فهمت من هذا التعبير أن حضرته يعرف على الأقل أين تباع هـذه « التذاكر » ... (ضحك) وتفرج وجهُ النائب العام وخجل .

ـ الرئيس : كنت رجوت ألا تكون للأولى ثانية ، وقلت : إن معنى هذا كما هو ظاهر ألا يكون لها ثالثة ؛ فهل أنا محتاج إلى القول بأن المعنى المنطقىَّ ألا يكون للثالثة رابعة ... ؟

ـ النائب : ياحضرات المستشارين ، وأما الصفة ، فهذا القلب المسكين قلبُ رجل متزوج ؛ ولا تغرنَّكم صوفيَّةُ هذا القلب ، ولا يخدعنكم تألّهه وزعمُه السموَّ . إنه على كل حال يعشق راقصة ، وهذا اعتداء فى ضمنه اعتداء ، على الزواج وعلى الشرف ؛ وهبُوه متصوفاً متألهاً ولم يتصل بالراقصة ، فهو على كل حال قد أخذها واتخذها ولكن بأسلوبه الخاص ... وبهذا اقترف الجريمة ؛ آه ! إن هذه القضية ناقصة ؛ وذلك نقص فيها أخشى أن يكون نقصاً فى الحكم أيضاً ، فأتِمُّوه أنتم . ياحضرات المستشارين ، إن النقص فيها أنها لاشهود فيها ؛ ولكن هذا عمل إلٰهى لا يظهر إلا يومَ تشهدُ عليهم ألسنتُهم وأيديهم وأرجلُهم بما كانوا يعملون

ـ المحامية : هذا تعبير أكبر من قدرة قائله ومن منزلته ووظيفته ، هذا تعبير جسور ! يا حضرة النائب ، من الذى لا يحمل شهوداً فى لسانه ويديه ورجليه ، بل ألفَ شاهد على ليلة واحدة ... يجب أن يكون مفهوماً بيننا يا حضرة النائب أن النون والباء فى لفظة (نائب) غير النون والباء فى لفظة (نبى)

ـ النائب : يا حضرات المستشارين . لاأرى مما يُحرجنى فى الاتهام أن أصرح لكم أن مما حيّرنى فى هذه الجريمة أنْ ليس فيها من أوصاف الجرائم

إلا ثلم الكرامة ، فلا قذف ولا سب ولا هتك عرض ولا فجور ، ولا أصغر من ذلك ، ولا كأس خمر للراقصة ...

ــ المحامية : لا أرى أمام حضرة النائب كأس ماء ، وسيجف حلقُه فى هذه القضية ؛ فلعل المحكمة تأمر لى بكأس ... (ضحك)

ــ النائب : ياحضرات المستشارين ، يعشق راقصة ؛ اسم فاعل من رقص يرقص ؛ امرأة لا تلبس ثياباً ، بل عُرياً فى شكل ثياب ... امرأة لا كالنساء ، كذبُها هو صدق من شفتيها ، لماذا ؟ لأنهما حمراوان رقيقتان عذبتان محبوبتان مطلوبتان ...

المحامية : تضحك ...

ــ النائب بعد أن تتعتع : امرأة لا كالنساء ، جعلتها الحرفة امرأة فى العمل ، ورجلا فى الكسب ...

ــ المحامية : ولكنك لا تدرى تحت أى حِمل سقطت[*] المسكينة ، وقد يكون فى الرذائل رذائل كبعض أصحاب الألقاب : ذاتُ عظمة ...

ــ النائب : يحب راقصة ، أى يضعها فى عقله الباطن ويشتهيها : نعم يشتهيها ، فمن عقله الباطن ، وبتعبير اللغة ، من واعيته ـ تخرج الجريمة أو على الأقل ، فكرة الجريمة

والصيت الأدبى ياحضرات المستشارين؟ هل من كرامة لِمَنْ يعشق راقصة ؟ لا بل هل من كرامة فى الحب ؟ ألم يقولوا إن كرامة الرجل تكون تحت قدمى المرأة المعشوقة كالمسحة الخشنة تمسح فيها نعليها !

الحب ؟ ما هو الحب ؟ إنه ليس فكرة ، بل هو شيطان يتلبس لجسم العاشق ليعمل أعماله بأداة حية ، وهذا التركيب الحيوانى للإنسان هو الذى

(*) هذه الكلمة لفكتور هيجو

يجئ من الحب مداخل ومخارج للشياطين في جسمه ؛ وهل رضى صاحب القلب المسكين بجناية قلبه عليه ، وعظيم ما انتهك من أخلاقه السامية ؟ هل رضى بعشقه راقصة ؟ إنه لم يرض الرضى الصحيح ، أو رَضِيَ بقدر ما ؛ فعلى كليهما يقوم فى نفسه مانع ؛ والمانع من الرضى هو الموجب للعقوبة

— المحامية : ولكن قدراً من الرضى ينزل بالجناية فيردها إلى جنحة كما فى القانون الانجليزى ، وقد قرر الشرّاح أنه ما دام الرضى غير مستتاب بكله ، فالجريمة غير واقعة بكلها

— النائب : جنحة كل قلب هى جناية من هذا القلب بخصوصه ، على طريقة « حسَنات الأبرار سيئات المقرَّبين » ؛ والعبرة هنا بالواقع لا بالصفة القانونية ، وقد قرر الشراح أن الواقع قد يكون أحياناً سبباً فى تشديد العقوبة ، فلا بد من تشديد العقوبة فى هذه القضية . لا أطلب الحكم بالمادة ٢٣٠ عقوبات بل بالمواد من ٢٣٠ إلى ٢٤١ ضربة واحدة

— المحامية : قد نسيتَ أن هذا قلب وعقوبته عقوبة لصاحبه البرىء

— النائب : إذن أطلب عقابه بحرمانه الجمال ؛ وهذا أشق عليه من العقاب باثنتى عشرة مادة وبعشرين وثلاثين

الرئيس : وما هى الطريقة لتنفيذ الحكم بهذا الحرمان ؟

النائب : تأمر المحكمة بالمراقص كلها فتغلق ، وبالمسارح كلها فتقفل ، وبالسينما فتبطل إلا ما لا جمال فيه منها ولا غزَل ولا حب ، ويحرم السفور على النساء إلا العجائز والدميمات ، ويمنع نشر صور الجمال فى الصحف والكتب ، و . . .

المحامية : قل فى كلمة واحدة : يجب إصلاح العالم كله لإصلاح القلب الإنسانى !

✡ ✡ ✡

وجلس النائب ، فالتفت الرئيس إلى المحامية وقال لها : وأما هو . . . ؟

القلب المسكين

تتمـــة

قال صاحب القلب المسكين : ووقفت المحاميةُ وكأنها بين الحراس تزدحم عليها من كل ناحية ، وقد ظهرت للموجودين ظهور الجمال للحب ، ونقلتهم فى الزمن إلى مثل الساعة المصوَّرة التى ينتظر فيها الأطفالُ سماع القصة العجيبة ؛ ساعة فيها كلُّ صور اللذة للقلب .

وكانت تدافع بكلامها ووجهها يدافع عن كلامها ، فلو نطقت غيا أو رشداً فلهذا صوابٌ ولهذا صوابٌ ، لأن أحد الصوابَين منظور بالأعين .

كان صوتُ النائب العام كلاماً يُسْمَعُ ويُفهم ؛ أما صوت المحامية الجميلة فكان يُسمع ويُفهم ويُحس ويُذاق ، تُلقيه هى من ناحية ما يُدْرَك ، وتتلقاه النفس من ناحية ما يُعشَق ؛ فهو متصل بحقيقتين من معناه ومعناها ، وهو كله حلاة لأنه من فمها الحلو .

✿ ✿ ✿

وبدأت فتناولت من أشيائها مرآة صغيرة فنظرت فيها .

ــ النائب العام : ما هذا ياأستاذة ؟

ــ المحامية : إنكم تزعمون أن هذه الجريمة تأليف عينىَّ ، فأنا أسأل عينىَّ قبل أن أتكلم !

ــ النائب : نعم يا سيدتى ؛ ولكنى أرجو ألا تُدخلى القضية فى سر المرآة وأخواتها ... إن النيابة تخشى على اتهامها إذا تكحلتْ لغةُ الدفاع !

فضحكت المحامية ضحكة كانت أولَ البلاغة المؤثرة ...

ـ النائب : من الوقار القانونى أن تكون المحامية الفتاة غير فتانة ولا جذَّابة أمام المحكمة .

ـ المحامية : تريد أن تجعلها عجوزاً بأمر النيابة ... ؟ (ضحك) .

ـ النائب : جمال حسناء ، فى ظرف غانية ، فى شمائل راقصة ، فى حماسة عاشقة ، فى ذكاء محامية ، فى قدرة حب ـ هذا كثير !

ـ المحامية : ياحضرات المستشارين ، لم تكن المرآة هفوة من طبيعة المرأة ، ولكنها الكلمة الأولى فى الدفاع ، كلمة كان الجواب عنها من النائب العام أنه أقر بتأثير الجمال وخطره ، حتى لقد خشى على اتهامه إذا تكحلت له لغنى

ـ القضاة يتبسمون

ـ النائب : لم أزد على أن طلبت الوقار القانونى ، الوقار ، نعم الوقار ؛ فإن المحامية أمام المحكمة ، هى متكلم لا متكلمة

ـ المحامية : متكلم بلحية مقدَّرة منع من ظهورها التعذُّر (ضحك)

كلا يا حضرة النائب : إن لهذه القضية قانوناً آخر تُنْتزَعُ منه شواهد وأدلة : قانون سحر المرأة للرجل ، فلو اقتضانى الدفاع أن أرقص لرقصت ، أو أغنى لغنَّيت ، أو أثبت سحر الجمال لأثبتُّه أول شىء فى النائب العام ...

ـ الرئيس : يا أستاذة !

ـ المحامية : لم أجاوز القانون ، فالنائب فى جريمتنا هو خصم القضية ، وهو أيضاً خصم الطبيعة النسوية

ـ النائب : لو حدث من هذا شىء لكان إيحاءً لعواطف المحكمة ... فأنا أحتجّ !

ـ المحامية : احتجَّ ماشئت ، ففى قضايا الحب يكون العدلُ عدلين : إذ كان الاضطرار قد حكم بقانونه قبل أن تحكم أنت بقانونك

ـ النائب : هذه العقدة ليست عقدة فى منديل يا سيدتى ، بل هى عقدة فى القانون

ـ المحامية : وهذه القضية ليست قضية إخلاء دار ياسيدى ، بل هى قضية إخلاء قلب !

ـ الرئيس : الموضوع ، الموضوع !

ـ المحامية : ياحضرات المستشارين ، إذا انتفى القصد الجنائى وجبت البراءة . هذا مبدأ لاخلاف عليه ؛ فما هو الفعل الوجودى فى جريمة قلبي المسكين ؟

ـ النائب : أوله حب راقصة

ـ المحامية : آه ! دائماً هذا الوصف ؟ هبوها فى معناها غير حديرة بأن يعرفها لأنه رجلٌ تقىّ ، أفليست فى حسنها جديرة بأن يحبها لأنه رجـــلٌ شاعر ؟ احكموا يا حضرات القضاة ؛ هذه راقصة ترتزق وترتفق ، ومعنى ذلك أنها رَهْنٌ بأسبابها ، ومعنى هذا أنها خاضعة للكلمة التى تَدفع ... فلمـاذا لم ينلها وهى متعرضة له ، وكلاهما من صاحبه على النهاية ، وفى آخر أوصاف الشوق ؟ أليس هذا حقيقاً بإعجابكم القانونى كما هو جدير بإعجاب الدين والعقل ؟ وإن لم يكن هذا الحب شهوةَ فكر ، فما الذى يحول دونها وما يمنعه أن يتزوجها ... ؟

ـ القضاة يتبسّمون

ـ النائب : نسيَت المحامية أنها محامية وانتقلت إلى شخصيتها الواقعة على النهـاية وفى آخر أوصاف الشوق ... فأرجو أن ترجع إلى الموضوع ، موضوع الراقصة

ـ المحامية : آه ! دائماً الراقصة ، مَن هى هذه المسكينة الأسيرة فى أيدى الجوع والحاجة والاضطرار ؟ أليست مجموعة فضائل مقهورة ؟ أليست هى الجائعة التى لاتجد من الماجرين إلا لحمَ الميتة ؟ نعم إنها زلّت ، إنها سقطت ،

ولكن بماذا ؟ بالفقر لا غير ، فقر الضمير والذمة فى رجل فاسد خدعها وتركها ، وفقرِ العدل والرحمة فى اجتماع فاسد خذلها وأهملها ! يا للرحمة لليتيمة من الأهل ، وأهلُها موجودون ! والمنقطعةِ من الناس ، والناسُ حولها !

تقولون : يجب ولا يجب ، ثم تدَعون الحياة الظالمة تعكس ماشاءت فتجعل مالا ينبغى هو الذى ينبغى ، وتقلب مايجب إلى مالا يجب ، فإذاضاع من يضيع فى هذا الاختلاط ، قلتم له : شأنك بنفسك ، ونفضتم أيديكم منه فأضعتموه مرة أخرى ، ويحكم يا قوم ! غيروا اتجاهَ الأسباب فى هذا الاجتماع الفاسد ، تُخرجْ لكم مسبّبات أخرى غير فاسدة

تأتى المرأةُ من أعمال الرجل لامن أعمال نفسها ، فهى تابعة وتظهر كأنها متبوعة ؛ وذلك هو ظلم الطبيعة للمسكينة ؛ ومن كونها تظهر كأنها متبوعة ، يظلمها الاجتماع ظلماً آخر فيأخذها وحدها بالجريمة ، ويقال سافلة ، وساقطة ؛ وما جاءت إلا من سافل وساقط !

لماذا أوجبت الشريعة الرجمَ بالحجارة على الفاسق المُحْصَن ؟ أهى تريد القتلَ والتعذيب والمُثلة ؟ كلا ؛ فإن القتل ممكن بغير هذا وبأشد من هذا ، ولكنها الحكمة السامية العجيبة : إن هذا الفاسق هَدَمَ بيتاً فهو يُرجم بحجارته !

ما أجلَّك وأسماكِ يا شريعة الطبيعة ! كل الأحجار يجب أن تنتقم لحجر دار الأسرة إذا انهدم

تستسقطون المسكينة ، ولو ذكرتم آلامها لوجدتم فى ألسنتكم كلمات الإصلاح والرحمة لا كلماتِ الذم والعار ؛ إنها تسعى برذيلتها إلى الرزق ؛ فهل معنى هذا إلا أنها تسعى إلى الرزق بأقوى قوّتها ؟ نعم إن ذلك معنى الفجور ، ولكن أليس هو نفسه معنى القوت أيها الناس ؟

ـ الرئيس وهو يمسح عينيه : الموضوع الموضوع !

ـ المحامية : ما هو الفعل الوجودى فى جريمة قلبي المسكين ؟ ما هو الواقع من جريمة يضرب صاحبها المثلَ بنفسه للشباب فى تسامى غريزته عن معناها إلى أطهر وأجمل من معناها ؟ لبئس القانونُ إن كان القانون يعاقب على أمر قد صار إلى عمل دينيٍ من أعمال الفضيلة !

ـ النائب : ألا يخجل من شعوره بأنه يحب راقصة ؟

ـ المحامية : ومم يخجل ؟ أمن جمال شعوره أم من فن شعوره ؟ أيخجل من عظمةٍ فى سموٍّ فى كمال ؟ أيخجل البطل من أعمال الحرب وهى نفسها أعمال النصر والمجد ؟

أتأذنون يا حضرات المستشارين أن أصف لكم جمال صاحبته وأن أُظهر شيئاً من سر فنها الذى هو سرُّ البيان فى فنه ؟

ـ النائب : إنها تهاجن علينا ياحضرات المستشارين ، فالذى يحاكم على السكر لا يدخل المحكمة ومعه الزجاجة ...

ـ الرئيس : لا حاجة إلى هذا النوع من ترجمة الكلام إلى أعمال يا حضرة الأستاذة .

ـ المحامية : كثيراً ما تكون الألفاظ مترجمة خطأً بنيَّات المتكلمين بها أو المصغين إليها ؛ فكلمة الحب مثلا قد تنتهى إلى فكر من الأفكار حاملة معنى الفجور ، وهى بعينها تبلغ إلى فكرٍ آخر حاملة إلى سموِّه من سموها ؛ وعلى نحو من هذا يختلف معنى كلمة الحجاب عند الشرقيين والأوربيين ؛ فالأصل فى مدنية هؤلاء إباحة المعانى الخفيفة من العفة ... وإكرام المرأة إكرام مغازلة ... يقولون إن رقم الواحد غير رقم العشرة ، فيضعونه فى حياة المرأة ، فما أسرع ما يجىء « الصِّفر » فإذا هو العشرة بعينها !

أما الشرقيون فالأصل فى مدنيتهم التزام العفة وإقرار المرأة فى حقيقتها ، لا جَرَم كان الحجاب هنا وهناك بالمعنيين المتناقضين : الاستبداد والعدل ، والقسوة والرحمة ، و ...

ـ النائب : وامرأة البيت وامرأة الشارع ...

ـ المحامية : وبصر القانون وعمى القانون ...

— الرئيس : وحسن الأدب وسوء الأدب .... الموضوع الموضوع

— المحامية : لا والذى شرّفكم بشرف الحكم ياحضرات المستشارين ؛ مايرى القلب المسكين فى حبيبته إلا تعبير الجمال ، فهو بفهمها فهم التعبير ككل موضوعات الفن ، وما بينه وبينها إلا أن حقيقة الجمال تعرفت إليه فيها ، أئن أحس الشاعر سراً من أسرار الطبيعة فى منظر من مناظرها ، قلتم أجرم وأثم ؟ ...

هذا قلبٌ ذو أفكار ، وسبيله أن يعان على مايتحقق به من هذا الفن . قد تقولون : إن فى الطبيعة جمالا غير جمال المرأة فليأخذ من الطبيعة وليعطِ منها ؛ ولكن ما الذى يحي الطبيعة إلا أخذَها من القلب ؟ وما هى طريقة أخذها من القلب إلا بالحب ؟ وقد تقولون : إنه يتألم ويتعذب ؛ ولكن سلوه : أهو يتألم بإدراكه الألم فى الحب ،أو بإدراكه قسوة الحقيقة وأسرار التعقيد فى الخير والشر ؟ ...

إن شعراء القلوب لايكونون دائماً إلا فى أحد الطرفين : هم أكبر من الهم ، وفرح أكثر من الفرح ؛ فإذا عشقوا تجاوزوا موضع الوسط الذى لايكون الحب المعتدل إلا فيه ؛ ومن هذا فليس لهم آلام معتدلة ولا أفراح معتدلة

هذا قلب مختار من القدرة الموحية إليه ، فالتى يحبها لاتكون إلا مختارة

من هذه القدرة اختيار ملك الوحى ، وهما بهذا قوتان فى يد الجمال لإبداع أثر عظيم ملء قدرتين كلتاهما عظيمة ...

فإن قلتم إن حب هذا القلب جريمة على نفسه ، قالت الحقيقة الفنية : بل امتناع هذه الجريمة جريمة

إن خمسين وخمسين تأتى منهما مائة ؛ فهذا بديهى ؛ ولكنه ليس أبين ولا أظهر ولا أوضح من قولنا : إن هذا العاشق وهذه المعشوقة يأتى منهما فن

* * *

قال صاحب القلب المسكين : وانصرف القضاة إلى غرفتهم ليتداولوا الرأى فيما يحكمون به ، وأومأتْ لى المحاميةُ الجميلة تدعونى إليها ، فنهضتُ أقوم فإذا أنا جالس وقد انتبهت من النوم

* * *

جائزة : [1] لمن يحسن كتابة الحكم فى هذه القضية خمس نسخ من كتاب (وحى القلم) ، وترسل المقالات (باسمنا إلى طنطا) ، والموعد (إلى آخر شهر يناير هذا) والشرط رضى المحكمين ، ومنهم صاحب القلب المسكين وصاحبته ...

(١) قلت : وردت إلى المؤلف مئات الرسائل بحكم أصحابها فى قضية (القلب المسكين) ، ولكن مسابقة الحكم فى هذه القضية لم يفصل فيها ، لأن قاضيها الأول ومتهمها الأول قد غاله الموت قبل أن يرى رأيه ويحكم حكمه !

انتصار الحب (*)

كل ما يُكتب عن حبيبين لا يُفهم منه بعض ما يفهم من رؤية وجه أحدهما ينظر إلى وجه الآخر

وما تعرفه العين من العين لا تعرفه بألفاظ ، ولكن بأسرار ...

والغليلُ المتسعِّرُ فى دم العاشق لجنون المجنون : يختصُّ برأسه وحده

وضمّةُ المحب لحبيبه إحساسٌ لا يُستعار من صدرٍ آخر ، كما لا يستعار المولودُ لبطنٍ لم يحمله

وكلمةُ القبلة التى معناها وضعُ الفم ، لن ينتقل إليها ما تذوقه الشفتان !

☼ ☼ ☼

ويومُ الحب يومٌ ممدود ، لا ينتهى فى الزمن إلا إذا بدأ يومُ السلو فى الزمن ...

فهل يستطيع الخلقُ أن يصنعوا حداً يفصل بين وقتين لينتهىَ أحدُهما ... ؟

وهبْهم صنعوا السُّلوانَ من مادة النصيحة والمنفعة ، ومن ألف برهان وبرهان ، فكيف لهم بالمستحيل ، وكيف لهم بوضع السلوان فى القلب العاشق ؟

(*) شغلتنا مقالات (القلب المسكين) عن الكتابة فى حادثة (القلب المسكين الأعظم) ، قلب الملك إدوارد عندما وقعت الحادثة

قلت : وحادثة تخلى الملك إدوارد عن عرش الامبراطورية البريطانية فى سنة ١٩٣٦ من أجل امرأة ـ ذائعة مشهورة

وإذا سالتِ النفسُ من رقة الحب ، فبأى مادة تُصنع فيها صلابةُ الحجر ؟ ...

✲ ✲ ✲

وما هو الحب إلا إظهارُ الجسم الجميل حاملا للجسم الآخر كلّ أسراره ، يفهمها وحده فيه وحده ؟

وما هو الحب إلا تعلق النفس بالنفس التى لا يملؤها غيرها بالإحساس ؟

وما هو الحب إلا إشراق النور الذى فيه قوة الحياة ، كنور الشمس من الشمس وحدها ؟

وهل فى ذهب الدنيا وملك الدنيا ما يشترى الأسرار ، والإحساس ، وذلك النور الحى ؟ ...

فما هو الحب إلا أنه هو الحب ؟

✲ ✲ ✲

ما هو هـــذا السرُّ فى الجمـال المعشوق ، إلا أن عاشقه يدركه كأنه عقلٌ للعقـل ؟

وما هو هـذا الإدراكُ إلا انحصار الشعور فى جمـال متسلطٍ كأنه قلبٌ للقلب ؟ .

وما هو الجمالُ المتسلطُ بإنسان على إنسان ، إلا ظهور المحبوب كأنه روحٌ للروح ؟

ولـكن ما هو السر فى حب المحبوب دون سواه ؟ ... هنا تقف المسألة وينقطع الجواب .

هنا سرّ خفى كسر الوحدانية ، لأنها وحدانية (أنا ، أنت) .

✲ ✲ ✲

ناقشوا الحب ؛ فقالوا أصبحت الدنيا دنيا المـادة ، والروحانيـة اليوم كالعظام الهرِمَة لاتـكتسى اللحمَ العاشق

وقال الحب : لابل المـادة لاقيمة لها فى الروح ؛ وهذا القلب لن يتحول إلى يد ولا إلى رِجْل

ناقشوا الحب ؛ فقالوا إن العصر عصر الآلات ، والعمل الروحى لاوجود له فى الآلة ولا مع الآلة

قال الحب : لا ، يصنع الإنسان ماشاء ، ويبقى القلب دائمـاً كما صنعه الخالق...

وقالوا : الضعيفان : الحب والدين ، والقويان : المـال والجاه ؛ فبماذا رد الحب ؟...

☆ ☆ ☆

جاء بآواوة روحانية فى (مسز سمبسون) ؛ ووضع إليها فى ميزان المـال والجاه أعظم تاج فى العـالم : تاج إدوارد الثامن « ملك بريطانيا العظمى وإرلندا والممتلكات البريطانية فيما وراء البحار وملك ـ إمبراطور الهند »

وتنافست الروحانية والمـادية ، فرجع التاج وما فيه إلا أضعف المعنيين من القلب

وأعلن الحب عن نفسه بأحدث اختراع فى الإعلان ، فهز العالم كله هزة صحافية :

الحب . الحب . الحب

☆ ☆ ☆

(مسز سمبسون) ، تلك الجميلة بنصف جمال ، المطلَّقة مرتين . هذا هو اختيار الحب !

ولكنها المعشوقة ؛ وكل معشوقة هي عذراءُ لحبيبها ولو تزوجت مرتين ؛ هذا هو سحر الحب !

ولكنها الفاتنة كلّ الفتنة ، والظريفة كلّ الظرف ، والمرأة كل المرأة ؛ هذا هو فعل الحب !

ولكنها العقل للأعصاب المجنونة ، والأنس للقلب المستوحش ، والنور في ظلمة الكآبة ؛ هذا هو حكم الحب !

ومن أجلها يقول ملك انجلترا للعالم : « لا أستطيع أن أعيش بدون المرأة التي أحبها » ؛ فهذا هو إعلان الحب ...

* * *

إذا أخذوها عنه أخذوها من دمه ، فذلك معنًى من الذبح .

وإذا انتزعوها انتزعوها من نفسه ، فذلك معنى من القتل

وهل في غيرها هي روحُ اللهفة التي في قلبه ، فيكون المذهب إلى غيرها ؟

لكأنهم يسألونه أن يموت موتاً فيه حياة

وكأنهم يريدون منه أن يُجنّ جنوناً بعقل ... هذا هو جبروت الحب !

* * *

وللسياسة حجج ، وعند (مسز سمبسون) حجج ، وعند الهوى ...

التاج ، الملكية ، امرأة مطلّقة ، امرأة من الشعب ؛ فهذا ما تقوله السياسة

ولكنها امرأةُ قلبه ، تزوجت مرتين ليكون له فيها إمتاعُ ثلاث زوجات ؛ وهذا ما يقوله الحب !

واللحظة الناعسة ، والابتسامة النائمة ، والاشارة الحالمة ، وكلمة (سيدى)(*) ؛

(*) لا تخاطب (مسز سمبسون) إدوارد إلا بكلمة (سيدى) ، ولا تتحدث عنه ولا تسميه إلا قالت (سيدى) . ولن يأمر الحب آمره بأبلغ ولا أرق من كلمة العبودية =

هذا مايقوله الجمال

وانتصر الحب على السياسة ، وأبى الملك أن يـكون كالأم الأرملة فى مِلك أولادها الـكبار ...

✡ ✡ ✡

العرش يقبل رجلا خَلفاً من رجل ، فيـكون الثانى كالأول

والحب لايقبل امرأة خلفاً من امرأة ، فلن تـكون الثانية كالأولى

وطارت فى العالم هذه الرسالة : « أنا إدوارد الثامن ... أتخلى عن العرش وذريتى من بعدى » !

« وأعلن الحب عن نفسه بأحدث اختراع فى الإعلان : فهز العالم كله هزةً صحافية . »

الحب . الحب . الحب

= اللطيفة هذه حين تنطق بها المرأة فى صوت قلبها وغريزتها ؛ وقد كان هذا أدب نساء الشرق مع أزواجهن ، أما اليوم ...

قنبلة بالبارود

لا بالماء المقطر (*) ...

حياكم الله ياشباب الجامعة المصرية ؛ لقد كتبتم الكلمات التى تصرخ منها الشياطين...

كلمات لو انتسبن لانتسبت كلٌّ واحدة منهن إلى آية مما نزل به الوحى فى كتاب الله .

فطلبُ تعليم الدين لشباب الجامعة ينتمى إلى هذه الآية : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس » .

وطلبُ الفصل بين الشبان والفتيات يرجع إلى هذه الآية : « ذلك أطهر لقلوبكم وقلوبهن »

وطلب إيجاد المثل الأخلاقى لهذه الأمة من شبابها المتعلم هو معنى الآية : « هذا بصائر للناس وهدى ورحمة »

(*) رفع طلبة الكليات فى الجامعة المصرية إلى مديرها وعمدائها وأساتذتها ـ طلبا يلتمسون فيه إدخال التعليم الدينى فى الجامعة والفصل بين الشبان والفتيات ، إذ « لا إصلاح إلا بعد إصلاح روح الشباب الناهض ، حتى يكون له من قوة روحه وسمو أخلاقه سلاح يحارب به الرذيلة وينصر به الفضيلة » . قالوا : « ولا شك أن الأمة بأسرها قد أحست بنقص الناحية الدينية فى المجتمع المصرى ، ونقص أخلاق الفرد ووطنيته تباعا »

قلت : وكان ذلك فى مارس سنة ١٩٣٧

— قوة الأخلاق ياشباب ، قوة الأخلاق ، إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا

☆ ☆ ☆

حياكم الله ياشباب الجامعة ؛ لقد كتبتم الكلمات التى يصفق لها العالم الإسلامى كله

كلمات ليس فيها شىء جديد على الإسلام ، ولكن كل جديد على المسلمين لايوجَد إلا فيها

كلمات القوة الروحية التى تريد أن تقود التاريخ مرة أخرى بقوى النصر لابعوامل الهزيمة

كلمات الشباب الطاهر الذى هو حركة الرقى فى الأمة كلها ، فسيكون منها المحرِّك للأمة كلها

كلمات ليست قوانين ، ولكنها ستكون هى السبب فى إصلاح القوانين

قوة الأخلاق ياشباب ، قوة الأخلاق ؛ إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا ...

☆ ☆ ☆

يريد الشباب مع حقيقة العلم حقيقة الدين ، فإن العلم لايعلِّم الصبر ولا الصدق ولا الذمة

يريدون قوة النفس مع قوة العقل ، فإن القانون الأدبى فى الشعب لايضعه العقل وحده ولا ينفذه وحده

يريدون قوة العقيدة ، حتى إذا لم ينفعهم فى بعض شدائد الحياة ماتعلموه نفعهم ما اعتقدوه

يريدون السمو الدينى ، لأن فكرة إدراك الشهوات بمعناها هى فكرة إدراك الواجبات بغير معناها

يريدون الشباب السامى الطاهر من الجنسين ، كى تولد الأمة الجديدة سامية طاهرة

قوة الأخلاق ياشباب ، قوة الأخلاق ؛ إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا ...

* * *

أحس الشباب أنهم يفقدون من قوة المناعة الروحية بقدر ما أهملوا من الدين

وما هى الفضائل إلا قوة المناعة من أضدادها ؟ فالصدق مناعة من الكذب والشرف مناعة من الخسة

والشبابُ المثقل بفروض القوة هو القوة نفسها ؛ وهل الدين إلا فروضُ القوة على النفس ؟

وشبابُ الشهوات شباب مفلس من رأس ماله الاجتماعى ، ينفق دائماً ولا يكسب أبداً !

والمدارس تخرج شبانها إلى الحياة ، فتسألهم الحياة : ماذا تعوَّدتم لاماذا تعلمتم !

قوة الأخلاق ياشبابُ ، قوة الأخلاق ؛ إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا .

* * *

وأَحسَّ الشبابُ معنى كثرة الفتيات فى الجامعة ، وأدركوا معنى هذه الرقة التى خلقتها الحكمة الخالقة

والمرأة أداة استمالة بالطبيعة ، تعمل بغير إرادة ما تعمله بالإرادة ، لأن رؤيتها أول عملها

نعم إن المغناطيس لايتحرك حين يَجذب ، ولـكن الحديد يتحرك له حين ينجـذب !

ومتى فهم أحدُ الجنسين الجنس الآخر ، فهمه بإدراكين لا بإدراك واحد !

وجمالُ المرأة إذا انتهى إلى قلب الرجل ، وجمالُ الرجل إذا استقر فى قلب المرأة ...

... هما حينئذ معنيان . ولـكنهما على رغم أنف العلم معنيان متزوجان ...

✡ ✡ ✡

لا ، لا ؛ يارجال الجامعة ، إن كان هناك شيء اسمه حرية الفـكر فليس هناك شيء اسمه حرية الأخلاق

وتقولون : أوربا وتقليد أوربا ! ونحن نريد الشباب الذين يعملون لاستقلالنا لالخضوعنا لأوربا

وتقولون : إن الجامعات ليست محل الدين ، ومن الذى يجهل أنها بهذا صارت محلا لفوضى الأخلاق

وتزعمون أن الشباب تعلموا مايكفى من الدين فى المدارس الابتدائيـة والثانوية فلا حاجة اليه فى الجامعة ،

أفترون الإسلام دروساً ابتدائية وثانوية فقط ؛ أم تريدونه شجرة تُغرس هناك لتُقلع عندكم ...

لا ، لا ؛ يارجال الجامعـة ، إن قنبلة الشباب المجاهـد تُملأ بالبارود لا بالمـاء المقطّر

✡ ✡ ✡

إن الشباب مخلوقون لغير زمنكم ، فلا تفسدوا عليهم الحاسة الاجتماعية التى يحسّون بها زمنهم

لاتجعلوهم عبيدَ آرائكم وهم شبابُ الاستقلال ؛ إنهم تلاميذكم ولكنهم أيضاً أساتذة الأمة

لقد تكلم باسانكم هذا البناء الصغير الذى يسمى الجامعة، وتكلم بألسنتهم هذا البناء الكبير الذى يسمى الوطن

أما بناؤكم فمحدود بالآراء والأحلام والأفكار ، وأما الوطن فمحدود بالمطامع والحوادث والحقائق

لا ، لا ؛ إن المسلمين الذين هَدَوا العالم ، قد هدَوه بالروح الدينية التى كانوا يعملون بها لا بأحلام الفلاسفة

لا ، لا ؛ إن الفضيلة فطرة لا علم ، وطبيعة لا قانون ، وعقيدة لا فكرة ؛ وأساسها أخلاق الدين لا آراء الكتب

☆ ☆ ☆

مَن هذا المتكلم يقول للأمة : « الجامعيون لن يقبلوا أن يدخل أحد فى شئونهم مهما يكن أمره » ؟

أهـذا صوتُ جرس المدرسة لأطفال المدرسة رِنْ رِنْ ... فيجتمعون وينصاعون ؟

كلا يارجل ! ليس فى الجامعة قالب يُصب فيه المسلمون على قياسك الذى تريد .

إن التعليم فى الجامعة بغير دين يعصم الشخصية ، هو تعليم الرذيلة تعليمها العالى . . .

« ويستنبئونك أحق هو ؟ قل إى وربى إنه لحقٌّ وما أنتم بمعجزين »

قوة الأخلاق ياشباب ، قوة الأخلاق ... ؛ إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا .

*

شيطان وشيطانة ...(1)

شَغَلَنى ماشَغَل الناسَ من حديث الجامعة المصرية وما أراده طلبتُها من وَرَعٍ يحجزهم عن محارم الله ، ودِينٍ يخلُص به الإيمانُ إلى قلوبهم ، فلا يكون لفظ المسلم على المسلم كأنه مكتوبٌ على ورقة ؛ ثم ماابتغَوْه من الفصل بين الشبان والفتيات ، تطهيراً للطباع ونوازع النفس ، واتقاءً لسوء المخالطة ، وبُعداً عن مَطِيَّة الإثم ، وتوفيراً لأسباب الرجولة على الرجل ولصفات الأنوثة على الأنثى

وقرأت كل مانشرته الصحف ، واستقصيتُ وبالغت ، ونظرتُ فى الألفاظ ومعانيها ومعانى معانيها ؛ وكنت قبل ذلك أتتبّع باب « فلان وفلانة » فى المجلات الأسبوعية التى تكتب عن حوادث الاختلاط فى الجامعة وتسمّى الأسماء وتصف الأوصاف وتذكر النوادر : فملأ كلُّ ذلك صدرى واجتمع الكلامُ يترجم نفسَه إلىّ فى رؤيا رأيتها وهأنذا أقصّها :

رأيتنى عند باب الجامعة وكأنى ذاهب لأقطع باليقين على الظن ، وقد علمتُ أن الظِنَّة تقوم فى حكمة التشريع مقام الحقيقة ، لخفائها وكثرة وجودها ؛ فإن كان فى اختلاط الجنسين ما يُخْشَى أن يقع فهو كالواقع ...

---

(1) لما كتب المؤلف (رحمه الله) مقاله السابق فى تحية شباب الجامعة ، راح يتتبع ماتنشر الصحف من حديث (فلان وفلانة) فى مناهضة دعوة الطلاب ؛ فوقع له من حديثهما ماأوحى إليه موضوع هذا المقال ، فكتبه يعرض بفلان وفلانة ويروى من خبرهما ويرد رده عليهما ، وبعث به إلى الرسالة ، ولكن صاحب الرسالة أبى عليه نشره ، حفاظا على مابينه وبين فلان من صلات الود ، وبقى المقال فى مكتب المؤلف حتى غالته منيته !

وانظر ص ١٣١ « حياة الرافعى »

... ثم رأيت شيطانة قد خرجت من الجامعة ومضت تَتْبع أنفها تَتَشَمَّم الهواءَ وتستَرْوِحُه كأن فيه شيئاً ، حتى مالت إلى خَمَرٍ هناك (*) من ذلك الشجر الملتفّ عن يمين الطريق ، فوقفتْ عنده تتنفَّس وتتنهّد ؛ ثم تَبَصَّرَتْ فإذا شيطانٌ مقبل إلى الجامعة إقبالَ المغير في غارته ، فأومأتْ له ، فعدل إليها وحيَّاها بتحية الشياطين ، ثم قال لها : ماوقوفُك هنا أيتها الخبيثة ؟ وكيف تركتِ صاحبتَك التي أنتِ موكَّلةٌ بها ؟ وما عسى أن يعمل الشيطان بين الجنسين إذا لم توازره الشيطانة ؟

قالت : إنما اجتذبتْنى إلى هنا رائحةُ عاشقَين كانا في هذا الظلّ يواريهما عن الأعين ، وما أراك إلا مزكوما ، أفكنتَ في الأزهر ... ؟

فجعل الشيطان يتضاحك وقال : أنا مرسَلٌ من مستشفى المجانين مدداً لشياطين الجامعة ؛ فقد احتاجوا إلى النجدة ... ولكنْ أنتِ كيف تركتِ صاحبتَك من أجل رائحة قُبلة على خمسمائة متر ؟ ماأحسبها الآن إلا جالسةً تكتب في منع اختلاط الجنسين ووجوبِ إدخال التعليم الدينيّ في الجامعة !

قالت الشيطانة : إن صاحبتى لأبرع منى في البراعة ، وأدقّ في الحيلة ، وأهدَى للمعاذير ، وأنفذُ إلى الغرض ، ومثلُها قليلٌ هنا ، ولكن قليل الشر ليس قليلا ، فإنه وُصْلَةٌ وطريق كما تعلم ؛ وما تجد الفتاةُ خيرا من هذا المكان ينفى عنها الريبة وهو يُدنيها منها بهذا الاختلاط مع الفتيان ، ويهيئ لعقلها أسباباً تكون فيها أسبابُ قلبِها ؛ وقد كنتَ أنتَ في أوربا ، أفما رأيتَ هناك شابا وشابة حول كتاب علم وكأنهما على زجاجة خمر ؟

إن هذا العلم شيء ومخالطةُ الشبان شيء آخر ؛ فذلك يطاق فكرَها يتجاوز الحدود ، والاختلاط يجعل فكرها يحصرها في حدود إحساسها ؛ وأحدهما

(*) الخمر (بفتح الميم) : ماواراك من شجر وغيره

يرهف ذهنَها لإدراك الأشياء ، والآخر يرهف عواطفَها لإدراك الرجل ؛ وقــد فرغ الله من خلقة الأنثى فما تُخلَق هنا مرة أخرى على غير الطبيعة المفطورة على الحب في صورة من صوره الممكنة ، والصورة هي الشابُّ هنا مادام الشاب هنا ؛ وأنا الشيطانة قد تعلمتُ في الجامعة أن قاعدة : « لا حياءَ في العلم » ، هي التي تقرر في بعض الأحيان قاعدة : « لا حياءَ في الحب ! »

قال الشيطان : أنت أدرَى بسلطان الطبيعة في المرأة ، ولكن الذى أعرفه أنا أن مفاسد أوربا تدخل إلى الشرق في أشياء كثيرة ، منها الخمر والنساء والعادات والقوانين والكتب ونظام المدارس !

قالت الشيطانة : وإن سلطان الطبيعة في المرأة يبحث دائماً عن رعيته مالم يُكبَح ويُرَدّ عن البحث : إذ هو لا يتحقق أنه سلطان إلا بنفاذ حكمه وجواز أمره ؛ ومن رعيته نظراتُ الإعجاب ، وكلمات الثناء ، وعبارات الإغراء ، وعواطف الميل ، ومعاني الخضوع ؛ ورُبَّ كلمةٍ من الرجل للمرأة لا يكون فيها شيء ويكون الرجلُ كلُّه فيها ذاهباً إلى قلبها متدسّساً إلى خيالها ؛ وكم من أمٍّ ترى ابنتها راجعةً إلى الدار وتحسُّ بالغريزة النسوية أن مع ابنتها خيالا من الجنس الآخر !

وممَّ ينبعث الحبُّ إلا من الألفة والمخالطة والمجاذبة والمنازعة التي يسمونها هنا منافسةً بين الجنسين ويعدُّونها حسنةً من حسنات الاختلاط ؟ نعم إنها مَشْحَذَة للأذهان وداعيةٌ إلى بلوغ الغاية من الاجتهاد ، وبها يرقُّ اللسان وتنحل عقدته ، ويصبح الشاب كما يقولون : « ابن نكتة ويفهم الطايره ... » وتعود الفتاة وهي تجتهد أن تكون حلاوةً تَذُوقها الروح ؛ ولكن الأعمال بالنيات والأمور بخواتيمها ؛ والطبيعة نفسها توازن العقل العلميَّ بالجهل الخلق ، ولعل أكثر الناس فنوناً في فسقه وفجوره لا يكون إلا عالما من

أهل الفن أو زنديقاً من أهل العلم ، ولا يصحّح هذه الموازنةَ إلا الدين ، فهو الذى يقرر القواعدَ الثابتةَ فى كلتا الناحيتين ، وهذا مايطلبه المجانين من شبان هذه الجامعة ويوشك أن يظفروا به ، لولا أن هذه الأمة مبتلاة فى كل حادثة من دينها بإجالة الرأى حتى يضيع الرأى

اسمع ويحك هذا الفتى الذى يقرأ ... وألقى الشيطانُ سمعه فإذا طالب يقرأ على جماعة كلاما فى صحيفة لإحدى خريجات الجامعة تقول فيـه : « ولهذا أصرح أن تجربة اشتراك الجنسين فى الجامعة نجحتْ إلى أبعد غاية ؛ ولم يحدث خلالها قط مايدعو إلى قلق القلِقين والمناداة بالفصل ؛ بل بالعكس حدث مايدعو إلى تشجيع الأخذ بالتجربة أكثر ممـا هى عليه اليوم »

فقهقه الشيطان وقال : « قلَق القلِقين » ... ما رأيتُ كلاما أغلظ ولا أجفَى من هذا : إنها لو دافعتْ عن الشيطان بهذه القافات لخسر القضية ...

ثم إنه لَهزَ الشيطانة لهزةً وقال لهـا : كذبتِ علىَّ أيتها الخبيثة ، فمـالك عمل فى الجامعة وأنت تخرجين لرائحة قبلة بين عاشقين على مسافة خمسمائة متر ؛ إن هذه القافات لهِىَ الدليلُ أقوَى الدليلِ على أن الفتاة هنا تُنظَر فتاةً حين تُرَى ، ولـكنها تُسمَع رجلاً حين تتـكلم !

قالت الشيطانة : ولـكن ألم تسمع قولهـا : « تشجيع التجربة أكثر ممـا هى عليه اليوم » ... ؟ ألا يرضيك هذا الذى لا بد أن يدعو « إلى قلَق القلقين » ؟ ثم إنى أنا فلانة الشيطانة قد كنت السبب فى حادثة وقعت وطرد فيها طالب من الجامعة ، أفلا يرضيك الإغراء والـكذب فى بضع كلمات ؟

قال الشيطان : كلَّ الرضى ، فهـذا فن آخر ؛ والعلم الذى ينـكر حادثة وقعت من تلميذه ولا يقر بأنها وقعت ، لا يكون إنـكاره إلا إجازة لوقوع مثلهـا !

قالت الشيطانة : وَهَب الحادثة لم تقع ، فكيف تعرف الجامعة ما يحدث في القلوب ؟ ومَن هـذا الذي يستطيع أن يقرأ قصة تؤلفها أربع أعين في وجهين ؟ وكيف تُكشف الحقيقةُ التي أولُ وجودها كتمانُ الكلام عنها ، وأولُ الكلام عنها الهمسُ بين اثنين دون غيرهما ؟ ومن ذا الذي في طاقته أن يمدَّ يده إلى قلبين أصبحا في تلقّي الرسائل كصندوقَي البريد ... ؟

اسمع اسمع هذا الآخر ... فاسترقَ الشيطانُ السمعَ فإذا طالبٌ يقرأ في صحيفة أخرى على جماعته :

« والذين يزعمون أن الاتصال بين الطالبات والطلبة خطر ، إنما يسيئون إلى أخلاقكم ... والحق أيها الأصدقاء أن الذي حملني على أن أغضب وأثور إنما هو الدفاع عن الكرامة الجامعية »

قال الشيطان : كلَّ الرضا كل الرضا ... هـذا كلام داهية أريب ، فلقد أحسن قائلهُ الله ! إنها عبارات جامعية محكمة السبك تقوم على أصولها من فن السياسة الخطابية ؛ وكل من أظنّوه بتهمة فلا يستطيع أن يُمَخْرِقَ على الناس بأحسن من هذا ولا بمثل هذا .

وليس لنا أقوى من هذا الطبع القوى الذي يشعر بالنقص فلا همَّ له إلا إثبات ذاته في كل ما يجادل فيه دون إثبات الصواب ولو كان الناس جميعاً في هذا الجانب وكان هو وحده في جانب الخطأ .

ولكن أف ! ماذا صنع هـذا القائل ؟ وأين التهمة التي لا تبدّل اسمها في اللغة ؟ وأين الذنب الذي يَرْضى أن توضع اليدُ عليه ؟ وهل إنكار المذنب إلا احتجاج من كرامته الزائفة وإظهار الغضب في بعض ألفاظ ؟ ...

إن هذا كغيره من الضعفاء حين يُمارون : ألا ما أكذب الكذب هنا ! فإن الفساد ليقع من اختلاط الجنسين في الجامعات الأوربية ثم لا يعد ذلك

عندهم إساءة إلى الأخلاق ، ولا غضا من الكرامة الجامعيّة ؛ وفى فرنسا يجتمع الشبان والفتيات من طلبة الجامعة ويحتسون الخمر و يتراقصون ويتواعدون ثم لا تقول لهم الأخلاق : أين أنتم ... ؟ وهناك فى الأندية الخاصة بالطلبة ينتخبون ملكة الجمال من بين الطالبات كل سنة ، ثم ينزعون بأيديهم ثيابها التى تسمى ثيابا ، ويطوفون بها غرف النادى كعروس واحدة مجلوّة على مائة زوج فى المعنى ، « و بالمُسوار » أيتها الكرامة الجامعية ...

والاختلاط هناك يقرب أن يكون ضربا من المذاهب الاشتراكية ، وكل ما بقى عندهم من لغة الحياء هو أن يتلطفوا فيقولوا : إن هذه الطالبة صديقة فلان الطالب ؛ يعبرون بلفظ الصداقة عن أول المعنى ويَدَعون سائر أحواله ؛ إذ لا يبالى أمرَهما أحدٌ لا من الطلبة ولا من الأستاذين ... وهناك يُعْتَذَر للشاب فى مثل هذا بأنه شاب ، فتقوم كلمة الشباب فى العرف بمعنى كلمة الضرورة فى الشرع !

وهم قد عرفوا أن الجامعة لحرية الفكر ، ومن حرية الفكر حرية النزعة ، ومن هذه حرية الميل الشخصى ، ومن حرية الميل حرية الحب ؛ وهل يعرف الحبُّ فى الجامعة أنه فى الجامعة فيستحى ويكون شيئاً آخر غير ما هو فى كل مكان ؟ أو ليس فى لغة الزواج عندهم عبارة « نسيان ماضى الفتاة » ...

ولكن اسمعى اسمعى ...

فأصاخت الشيطانة : فإذا طالب من الأزهر يقرأ لطالب من كلية الحقوق فى صحيفة من دفاع أحد خريجى الجامعة :

« وما بال إخواننا الأزهريين يسخطون على الجامعة واختلاط الجنسين فيها ، وفى مصر نواح أخرى هى أحق بحربهم وأولى باهتمامهم ؟ لعلهم قد

نسوا حالنا فى الصيف على شواطئ البحر ، والناس يمكثون هناك شهوراً عرايا أو كالعرايا »

فقالت الشيطانة : ماله ولهذا ؟ لقد أخزَى نفسه وأخزَى الجامعة ، وهل صنع شيئاً إلا أنه يقول للأزهريّين : إن أهون الفساد من هذا الاختلاط فى الجامعة ، وأكثرهُ فى شواطئ البحر : فما بالكم تدَعون أشدَّه وتأخذون على أهونه ؟

قال الشيطان : ويحه ! وهل يأخذون على أهونه فى الجامعة إلا لأنه فى الجامعة لا فى مكان آخر ؟ ولكن اسمعى ، ما هذا ؟ ...

فأَرْعَيا الصوتَ سمعهما ، فإذا طالب يقرأ فى مجلة : « ظهرت الآنسة فلانة وهى تلبس فستانا أحمر شفتشى بمبى كريبى مشجّر بيْنى وفيونكة أحمر على أبيض » ...

قالت الشيطانة : هذا هذا ، فهل هى إلا ألوان أفكار تحت ألوان ثياب ؟ وهل يظهر سلطان الطبيعة فى المرأة باحثا عن رعيته إلا فى ألوان جميلة هى أسئلة للعيون ؟ لقد مثّل سربٌ من الطالبات فى هذه الجامعة فصلا فى بعض الحفلات سموه « عرض الأزياء » والفتاة تعرض الثوب ، والثوب يعرض الجسم ، والجسم والثوب معاً يعرضان الفتاة ! وعرْض الأزياء فى الجامعة هو أمر من الجامعة بإهمال هذه الآية : « ولا يُبدين زينتهن » !

قال الشيطان : خبّرينى عن صاحبتك التى أنت موكلة بها ، أترينها كانت تأتى إلى هذه الجامعة لو ألبسوهن مثل ثوب الراهبة وخمّروهن بالخمار وأضاعوا مساحة الجسم فى مساحة الثوب وأجلسوهن فى آخر الصفوف كأنهن فى المسجد ؟ لقد فعلوا مثل هذا فى بعض جامعات أوربا ، فحرّموا صَبْغَ الشفاه على الفتيات ، ومنعوهن إبداء الزينة : فامتنعت الزينة والمتزيّنة معاً ، وهجرن

الجامعة ، وقلن فيما قلن : إن المرآة والأحمر والأبيض ونحوها هى الحقائق فى علم المرأة ، وهى من أساليب بحث كل فتاة عن رجُلها المخبوء بين الرجال فى الجامعة أو غير الجامعة ، والعلم وسيلة عيش ، والرجل وسيلة مثلها ، غير أنه هو أجدَى الوسيلتين على المرأة وأحقهما بالعناية ، إذ هى لا تتزوج الكيمياء ولا الطبيعة ولا القانون ، ومعنى هذا بغير اللغة التى هنا فى الجامعة المصرية أن وجود الفتاة مع الشبان للتعليم ، هو كذلك وجودها بينهم للاستمالة والمكر النسوى الجذاب .

اسمعى اسمعى : ماهذا الصوت المنكر الجافى الخشن ؟

فتسمَّعتْ ، فإذا الطالب الأزهرى يقول لصاحبه وهو يحاوره : قالوا : ويحرم على المرأة أن ترى شيئاً من الرجل ولو بلا مَيْل ولا خوفِ الفتنة ، وإذا هى اضطرت إلى مداواة أو أداء شهادة أو تعليم أو بيع أو نحو ذلك — جاز نظرها بقدر الضرورة .

فقالت الشيطانة : هذا كلامٌ رَحِمه الله ... لقد كان ذلك سائغا لو أن الشبان يتعلمون فى الجامعة ليحملوا معهم الحق كما يحملون معهم العلم ؛ وكيف لهم بهذا ومعانى الدين قد أصبحت منهم كأسماء البلاد البعيدة فى كتب الجغرافيا : لاهم رأوْها ولاهم حققوها ؟ إنهم يريدون تعليم الدين هنا ، فيقول لهم رؤساؤهم : ألم تعرفوا الصلاة وأنها الصلاة ، والصيام وأنه الصيام ، والزكاة وأنها الزكاة ، والحج وأنه الحج ؟ وهذا كلام يشبه درس مواقع البلاد على الخريطة ، فباريس كلمة ، ولندن كلمة ، لاغير ؛ أما الحقيقة العظيمة الهائلة فشىء غير هذا الكلام الجغرافى التعليمى : إذ ما هى كل فروض الدين إلا أعمال دقيقة ثابتة يجب فرضها على الجميع لتحقيق النفسية الواحدة فى الجميع ، وهى سر القوة والعظمة والنجاح ؛ فتعليم الدين فى الجامعة هو إقناع النفس بجمل

فروضه من قوانينها الثابتة ، لا بأداء هذه الفروض فقط ؛ وذلك لا يستقيم إلا بدرْسه كما تُدرس فلسفة القوانين والاقتصاد والتربية ، أى باعتبار دعلمَ فلسفة الروح العملية للأمـــة ، ثم بجعل المدرسين أولَ العاملين به ، ليتحقق معنى الإقناع ، فلا ينقلب الدرس هزءاً وسخرية ؛ وبذلك يخرج الشاب من الجامعة وفى روحه قوة ثابتة تعمل به العمل الصالح ، وتوجهه إلى الخير . وتحفظه بين أهواء الحياة وشدائدها ، وتجعله دائماً يشعر أنه فى موضعه السامى من الإنسانية وإن كان فى أقل مراتب المـال والجاه ، ومِن ثَمَّ يرجع الشبان فى الأمـة آلاتٍ قوةٍ منظمة عاملة ، وأيسر ماتعمله هذه الآلات ، إزالةُ المنكرات ، وصنع الشعب صنعة جديدة للسلم والحرب ، و ، و ، و ، و ...

قال الشيطان : وماذا أيتها الخبيثة ؟ لقد هوَّلتِ عليَّ !

قالت : وطَرْدُنا نحن الشياطينَ من الجامعة !

قال : اسكتى ويحك ! فما أُرسلتُ من مستشفى المجانين إلا لهذا : فلن يقع الفصل بين الجنسين ، ولن يدخل التعليم الدينى فى الجامعة ، وسيدافعون بأن هذا كله ضرب من الجنون... ... ...

نهضة الأقطار العربية[1]

لاريب فى أن النهضة واقعة فى الأقطار العربية ، مستطيرة فى أرجائها استطارة الشرر يضرم فى كل جهة ناراً حامية ، ويستمد من كل مايتصل به لعنصره الملتهب ؛ ولا ريب فى أن الشرق قد تفلّت من أوهام السياسة وخرافاتها ، وقد اختلف على الغرب بعد أن طابقه زمناً ، وتابعه مدة ، وعرفه بمقدار مابلاه ، وكذبه بقدر ماصدقه ، ونفر منه بقدر ما اطمأن إليه ؛ ولا ريب فى أن العقل الشرقى قد تطور وأدرك معنى نكث العهد ونقض الشرط فى السياسة الغربية . وعلم أن ذلك هو بعينه العهد والشرط فى هذه السياسة ما دامت المفاوضة والتعاقد بين الذئب والشاة ... ولا ريب أن الشرق يجاذب الآن مقاليده التى ألفاها ، ويضرب على سلاسله التى تقيد بها ، ويكابد الصعود والهبوط فى نهضته هذه ؛ وقد كان بلغ من إغضائه على الذل وقراره على الضيم ، وجهله وتجاهله ـ أن أوربا ربطت أقطاره كلها فى بضعة

---

(١) كتب هذا المقال جواباً للاستفتاء الآتى الذى وجهته إليه إحدى المجلات العربية :

ا ـ هل تعتقدون أن نهضة الأقطار العربية قائمة على أساس وطيد يضمن لها البقاء ، أم هى فوران وقتى لا يلبث أن يخمد ؟

ب ـ هل تعتقدون بإمكان تضامن هذه الأقطار وتآلفها ؟ ومتى ؟ وبأى العوامل ؟ وما شأن اللغة فى ذلك ؟

جـ ـ هل ينبغى لأهل الأقطار العربية اقتباس عناصر المدنية الغربية ؟ وبأى قدر ؟ وعند أى حد يجب أن يقف هذا الاقتباس ، فى النظامات السياسية الحديثة ، وفى الأدب والشعر ، وفى العادات الاجتماعية ، وفى التربية والتعليم ؟

أساطيل تجذبها جذب الكواكب للأرض

غير أنى مع هذا كله لا أسمى هذه النهضة نهضة إلا من باب المجاز والتوسع فى العبارة، والدلالةِ بما كان على ما يكون ؛ فإن أسباب النهضة الصحيحة التى تطّرد اطّراد الزمن، وتنمو نمو الشباب، وتندفع اندفاع العمر إلى أجل بعينه — لايزال بيننا وبينها مثل هذا الموت الذى يفصل بيننا وبين سلفنا وأوليتنا ؛ وإلا فأين الأخلاق الشرقية، وأين المزاج العقلى الصحيح لأمم الشرق، وما هذا الذى نحن فيه من روح لاشرقية ولا غربية ؟ ثم أين المصلحون الذين لا يساومون بملك ولا إمارة، ولا يطلبون بالإصلاح غرضاً من أغراض الدنيا أو باطلا من زخرفها ؟ ثم أين أولئك الذين تجعلهم مبادئهم العالية القوية أول ضحاياها، وتروى منهم عرق الثرى الذى يغتذى من بقايا الأجداد لينبت منه الأحفاد ؟

إن الجواب على نهضة أمة نهضة ثابتة لايكون من الكلام وفنونه، بل من مبدإ ثابت مستمر يعمل عمله فى نفوس أهلها : ولن يكون هذا المبدأ كذلك إلا إذا كان قائماً على أربعة أركان : إرادة قوية، وخلق عزيز، واستهانة بالحياة، وصبغة خاصة بالأمة

فأما الإرادة القوية فلا تنقص الشرقيين، وإنما الفضل فيها لساسة الغرب الذين بصّرونا بأنفسنا، إذ وضعونا مع الأمم الأخرى أمام مرآة واحدة وجعلوا يقولون مع ذلك إننا غير هؤلاء، وإن هذا الإنسان الذى فى المرآة غير هذا القرد الذى فيها ... ولكن أين الخلق وأين العزة القومية وأين العصبية الشرقية ؛ وهذه مفاسد أوربا كلها تنصبُّ فى أخلاق الشرقيين كما تنصب أقذار مدينة كبيرة فى نهر صغير عذب : فلا الدين بقى فينا أخلاقا، ولا الأخلاق بقيت فينا ديناً، وأصبحت الميزة الشرقية فاسدة من كل

وجوهها فى الروح والذوق ، ولم يعد لنا شىء يمكن أن يسمى المدنية الشرقية ، وأخذ الحق والضعفاء منا يحاولون فى إصلاحهم أن يؤلفوا الأمة على خلق جديد ينتزعونه من المدنية الغربية ، ولا يعلمون أن الخلق الطارئ لا يرسخ بمقدار ما يفسد من الأخلاق الراسخة ، وهم يغتبطون إذا قيل لهم مثلا : إن مصر قطعة من أوربا ؛ ولا يعلمون ما تحت هذه الكلمة من تعطيل المدنية الشرقية ، والذهاب بها ، وإفسادها ، وتعريضها للذم ، وتسليط البلاء عليها ، مما لا حاجة بنا إلى التبسط فى شرحه

لست أقول إن نهضة الشرق العربى لا أساس لها ؛ فإن لها أساساً من حمية الشباب ، وعلم المتعلمين ؛ ومن جهل أوربا الذى كشفته الحرب ؛ ولكن هذا كله على قوته وكفايته فى بعض الأحيان لإقامة الأحداث الكبرى واهتياج العواصف السياسية ـ لا يحمل ثقل الزمن الممتد ، ولا يكفى لأن يكون أساساً وطيداً يقوم عليه بناء عدة قرون من الحضارة الشرقية العالية ، بل ما أسرعه إلى الهدم والنقض لو صدمته الأساليب اللينة من الدهاء الأوربى على اختلافها ... إذا قُدر لأوربا أن تفوز بأسلوبها الجديد ، أسلوب استعباد الشرق بالصداقة ... على طريقة ادعاء الثعلب للدجاج أنه قد حج وتاب وجاء ليصلى بها ...

والذى أراه أن نهضة هذا الشرق العربى لا تعتبر قائمة على أساس وطيد إلا إذا نهض بها الركنان الخالدان : الدين الإسلامى ، واللغة العربية ؛ وما عداهما فعسى أن لا تكون له قيمة فى حكم الزمن الذى لا يقطع بحكمه على شىء إلا بشاهدين من المبدإ والنهاية

وظاهر أن أغلبية الشرق العربى ومادته العظمى هى التى تدين بالإسلام ، وما الإسلام فى حقيقته إلا مجموعة أخلاق قوية ترمى إلى شد المجموع من

كل جهة ، ولعمرى إنى لأحسب عظماء أمريكا كأنهم مساو التاريخ الحديث فى معظم أخلاقهم، لولا شىء من الفرق هو الذى لا يمنعهم أن ينحطوا إذا هم بلغوا القمة ؛ فإن من عجائب الدنيا أن قمة الحضارة الرفيعة هى بعينها مبدأ سقوط الأمم ، وهذا عندنا هو السر فى أن الدين الإسلامى يكره لأهله أنواع الترف والزينة والاسترخاء ، ولا يرى النحت والتصوير والموسيقى والمغالاة فيها وفى الشعر إلا من المكروهات ، بل قد يكون فيها مايحرم إن وجد سبب لتحريمه ، إذ كانت هذه الفنون فى الغالب وفى الطبيعة الإنسانية هى التى تؤدى فى نهايتها إلى سقوط أخلاق الأمة ؛ بما تستتبعه من أساليب الرفاهية والضعف المتفنن ، وما تحدثه للنفس من فنون اللذات والإغراق فيها والاستهتار بها ؛ وما سقطت الدولة الرومانية ولا الدولة العربية إلا إلا بكأس وامرأة ووتر ، وخيال شعرى يفتنّ فى هذه الثلاثة ويزينها

وإذا كان لابد للأمة فى نهضتها من أن تتغير ، فإن رجوعنا إلى الأخلاق الإسلامية الكريمة أعظم مايَصلح لنا من التغير وما نصلح به منه ؛ فلقد بعد مابيننا وبين بعضها ، وانقطع مابيننا وبين البعض الآخر ؛ وإذا نحن نبذنا الخمر ، والفجور ، والقمار ، والكذب ، والرياء ؛ وإذا أنفنا من التخنث ، والتبرج ، والاستهتار بالمنكرات ، والمبالغة فى المجون ، والسخف ، والرقاعة ؛ وإذا أخذنا فى أسباب القوة ، واصطنعنا الأخلاق المتينة : من الإرادة ، والإقدام ، والحميَّة ؛ وإذا جعلنا لنا صبغة خاصة تميزنا من سوانا ، وتدل على أننا أهل روح وخلق — إذا كان ذلك كله فلعمرى أى ضير فى ذلك كله ، وهل تلك إلا الأخلاق الاسلامية الصحيحة ، وهل فى الأرض نهضة ثابتة تقوم على غيرها ؟

إن من خصائص هذا الدين الأخلاقى أنه صلب فيما لابد للنفس الإنسانية

منه إذا أرادت الكمال الإنسانى ، ولكنه مرنٌ فيما لابد منه لأحوال الأزمنة المختلفة مما لا يأتى على أصول الأخلاق الكريمة . وليس يخفى أنه لا يغنى غَناءَ الدين شىء فى نهضة الأمم الشرقية خاصة ، فهو وحده الأصل الراسخ فى الدماء والأعصاب . ومتى نهض المسلمون وهم مادة الشرق ، نهض إخوانهم فى الوطن والمنفعة والعادة من أهل الملل الأخرى ، واضطروا أن يجانسوهم فى أغلب أخلاقهم الاجتماعية ، ولا حجر على حريتهم فى ذلك إلا كبعض الحجر على حرية المريض إذا أوجرْته الدواءَ المر

ولما كان المسلمون إخوة بنص دينهم ، وكانت مبادئهم واحدة ، ومنافعهم واحدة ، وكتابهم واحدا ؛ فلا جرم كان من السهل ـ لو رجعوا إلى أخلاق دينهم وانتبذوا مايصدهم عنها ـ أن يؤلفوا من الشرق كله دولا متحدة يحسب لها الغرب حساباً ذا أرقام لا تنتهى ...

إن هذا الشرق فى حاجة إلى المبادئ والأخلاق ، وهى مع ذلك كامنة فيه ، ومستقبله كامن فيها ؛ غير أنها لا تصلح فى الكتب ولا فى الفنون ، بل فى الرجال القائمين عليها . فالقلوب والأدمغة هى أساس النهضة الصحيحة الثابتة ، وإذا نحن تأملنا هذه النهضة الراهنة وجدنا أساسها خرِباً من جهات كثيرة ، ووجدنا المكان الذى لا يملؤه إلا القلب الكبير ليس فيه إلا خيال كاتب من الكتاب ، والموضع الذى لا يسده إلا الرأس العظيم قد سدَّته قطعة من صحيفة ...

ولقد تنبأ نبيُّ هذا الدين صلى الله عليه وسلم بهذه الحالة التى انتهى إليها الشرق العربى بإزاء الغرب ، فقال لأصحابه يوما : كيف بكم إذا اجتمع عليكم بنو الأصفر (*) اجتماعَ الأكلة على القصاع ؟ فقال عمر رضى الله عنه : أمن

(*) بنو الأصفر : هم الروم ومن إليهم من الأوربيين

قلة نحن يومئذ يارسول الله أم من كثرة ؟ قال : بل من كثرة ، ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل (*) قد أوهن قلوبكم حب الدنيا

فوهن القلوب بحب الدنيا — على ما ينطوى فى هذه العبارة من المعانى المختلفة — هو علة الشرق ، ولا دواء لهذه العلة غير الأخلاق ، ولا أخلاق بغير الدين الذى هو عمادها . ألا وإن أساس النهضة قد وُضع ، ولكن بقيت الصخرة الكبرى وستوضع يوماً ، وهذا ما أعتقده ؛ لأن الغرب يدفع معنا هذه الصخرة ليقرها فى موضعها من الأساس وهو يحسب أنه يدفعنا نحن إلى الحفرة ليدفننا فيها ... وهذا عمًى فى السياسة لا يكون إلا بخذلان من الله لأمرٍ قدره وقضاه

☆ ✿ ☆

وإنى أرى أنه لا ينبغى لأهل الأقطار العربية أن يقتبسوا من عناصر المدنية الغربية اقتباس التقليد ، بل اقتباس التحقيق ، بعد أن يعطوا كل شىء حقه من التمحيص ، ويقلبوه على حالتيه الشرقية والغربية ؛ فإن التقليد لا يكون طبيعة إلا فى الطبقات المنحطة ، وصناعة التقليد وصناعة المسخ فرعان من أصل واحد ، وما قلد المقلد بلا بحث ولا روية إلا أتى على شىء فى نفسه من ملكة الابتكار وذهب ببعض خاصيته العقلية ؛ على أننا لا نريد من ذلك أن لا نأخذ من القوم شيئاً ؛ فإن الفرق بعيد بين الأخذ فى المخترعات والعلوم ، وبين الأخذ من زخرف المدنية وأهواء النفس وفنون الخيال وزونق الخبيث والطيب ؛ إذ الفكر الإنسانى إنما ينتج الإنسانية كلها ، فليس هو ملكاً لأمة دون أخرى ؛ وما العقل القوى إلا جزء من قوة الطبيعة

(*) الغثاء : ما يحمله السيل من الهشيم ونحوه مما تحطم وتعفن ولا قيمة له ولا قوة فيه .

فإن نحن أخذنا من النظامات السياسية فلنأخذ مايتفق مع الأصل الراسخ في آدابنا من الشورى والحرية الاجتماعية عند الحد الذى لايجور على أخلاق الأمة ولا يفسد مزاجها ولا يضعف قوتها

وإذا نقلنا من الأدب والشعر فلندع خرافات القوم وسخافاتهم الروائية إلى لب الفكر وروائع الخيال وصميم الحكمة، ولنتقمع طريقتهم فى الاستقصاء والتحقيق، وأسلوبهم فى النقد والجدل، وتأتيهم إلى النفس الإنسانية بتلك الأساليب البيانية الجميلة التى هى الحكمة بعينها

وأما فى العادات الاجتماعية فلنذكر أن الشرق شرق والغرب غرب — وما أرى هذه الكلمة تصدق إلا فى هذا المعنى وحده — والقوم فى نصف الأرض ونحن فى نصفها الآخر، ولهم مزاج وإقليم وطبيعة وميراث من كل ذلك ولنا ما يتفق وما يختلف؛ وإن أول الأدلة على استقلالنا أن ننسلخ من عادات القوم، فإن هذا يؤدى بلا ريب إلى إبطال صفة التقليد فينا، ويحملنا على أن نتخذ لأنفسنا ما يلائم طبائعنا وينمى أذواقنا الخاصة بنا، ويطلق لنا الحرية فى الاستقلال الشخصى؛ ولقد كنا سادة الدنيا قبل أن كانت هذه العادات الغربية التى رأينا منها ومن أثرها فينا ما أفسد رجولة رجالنا وأنوثة نسائنا على السواء؛ وما هؤلاء الشبان المساكين الذين يدعون إلى بعض هذه العادات ويعملون على بثها فى طبقات الأمة إلا كالذى يحسب أن أوربا يمكن أن تدخل تحت طربوشه ...؛ ولقد غفلنا عن أننا ندعو الأوربيين إلى أنفسنا وإلى التسلط على بلادنا بانتحالنا عاداتهم الاجتماعية؛ لأنها نوع من المشاكلة بيننا وبينهم، ووجه من التقريب بين جنسين يعين على اندماج أضعفهما فى أقواهما ويضيق دائرة الخلاف بينهما، ثم هو من أين اعتبرته وجدته فى فائدته للأوربيين أشبه بتليين اللقمة الصلبة تحت الأسنان القاطعة؛ وهل

نسى الشرقيون أن لا حجة للغرب فى استعبادهم إلا أنه يريد تمدينهم ؟

وحيثما قلنا « الدين الإسلامى » فإنما نريد الأخلاق التى قام بها ، والقانون الذى يسيطر من هذه الأخلاق على النفس الشرقية ؛ وهذا فى رأينا هو كل شىء لأنه الأول والآخر [١]

لا تجنى الصحافة على الأدب [٢]

ولكن على فنيته

قالوا إن الأصمعى كان ينكر أن يقال فى لغة العرب (مالح) ، ويقول إنما هو مِلح ، وإن (مالح) هذه عامية ؛ فلما أنشدوه فى ذلك شعراً لذى الرمّة يحتجون به عليه قال : إن ذا الرمة قد بات فى حوانيت البقالين بالبصرة زمانا ...

يريد شيخنا هذا : أن (المالح) فى الأكثر الأعم يكون مما يبيعه البقالون ، ولغتهم عامية مُزالة عن سَنَنها الفصيح ، مصروفة إلى وجهها التجارى ؛ ولكن كيف بات ذو الرمة فى حوانيت البقالين زماناً حتى علقت الكلمة بمنطقه وجذبه إليها الطبع العامى ، ولم يخالط عربيته غيرُ هذه الكلمة وحدها ؟ لم يقل الأصمعى شيئاً ، ولكن روايته تخبر أن ذا الرمة انحدر من البادية إلى البصرة يلتمس ما يلتمسه الشعراء ، فلما كان بها استضاق فلم يُصب لجوفه

---

(١) حذفنا من هذا المقال بعض عبارات حذفها المؤلف بقلمه فى الأصل الذى تحت أيدينا .

(٢) بهذا المقال بدأ المؤلف عمله فى الرسالة ؛ وانظر ص ١٩١ « حياة الرافعى »

فإن نحن أخذنا من النظامات السياسية فلنأخذ ما يتفق مع الأصل الراسخ في آدابنا من الشورى والحرية الاجتماعية عند الحد الذي لا يجور على أخلاق الأمة ولا يفسد مزاجها ولا يضعف قوتها

وإذا نقلنا من الأدب والشعر فلندع خرافات القوم وسخافاتهم الروائية إلى لب الفكر وروائع الخيال وصميم الحكمة، ولنتقبع طريقتهم في الاستقصاء والتحقيق، وأسلوبهم في النقد والجدل، وتأتّيهم إلى النفس الإنسانية بتلك الأساليب البيانية الجميلة التي هي الحكمة بعينها

وأما في العادات الاجتماعية فلنذكر أن الشرق شرق والغرب غرب ـ وما أرى هذه الكلمة تصدق إلا في هذا المعنى وحده ـ والقوم في نصف الأرض ونحن في نصفها الآخر، ولهم مزاج وإقليم وطبيعة وميراث من كل ذلك ولنا ما يتفق وما يختلف؛ وإن أول الأدلة على استقلالنا أن ننسلخ من عادات القوم، فإن هذا يؤدي بلا ريب إلى إبطال صفة التقليد فينا، ويحملنا على أن نتخذ لأنفسنا ما يلائم طباعنا وينمي أذواقنا الخاصة بنا، ويطلق لنا الحرية في الاستقلال الشخصي؛ ولقد كنا سادة الدنيا قبل أن كانت هذه العادات الغربية التي رأينا منها ومن أثرها فينا ما أفسد رجولة رجالنا وأنوثة نسائنا على السواء؛ وما هؤلاء الشبان المساكين الذين يدْعون إلى بعض هذه العادات ويعملون على بثها في طبقات الأمة إلا كالذي يحسب أن أوربا يمكن أن تدخل تحت طربوشه ...؛ ولقد غفلنا عن أننا ندعو الأوربيين إلى أنفسنا وإلى التسلط على بلادنا بانتحالنا عاداتهم الاجتماعية؛ لأنها نوع من المشاكلة بيننا وبينهم، ووجه من التقريب بين جنسين يعين على اندماج أضعفهما في أقواهما ويضيق دائرة الخلاف بينهما، ثم هو من أين اعتبرته وجدته في فائدته للأوربيين أشبه بتليين اللقمة الصلبة تحت الأسنان القاطعة؛ وهل

نسى الشرقيون أن لا حجة للغرب فى استعبادهم إلا أنه يريد تمدينهم ؟

وحيثما قلنا « الدين الإسلامى » فإنما نريد الأخلاق التى قام بها ، والقانون الذى يسيطر من هذه الأخلاق على النفس الشرقية ؛ وهذا فى رأينا هو كل شيء لأنه الأول والآخر [١]

لا تجنِ الصحافة على الأدب [٢]

ولكن على فنيته

قالوا إن الأصمعى كان ينكر أن يقال فى لغة العرب (مالح) ، ويقول إنما هو مِلح ، وإن (مالح) هذه عامية ؛ فلما أنشدوه فى ذلك شعراً لذى الرمّة يحتجون به عليه قال : إن ذا الرمة قد بات فى حوانيت البقالين بالبصرة زمانا ...

يريد شيخنا هذا : أن (المالح) فى الأكثر الأعم يكون مما يبيعه البقالون ، ولغتهم عامية مُزالة عن سَنَنِها الفصيح ، مصروفة إلى وجهها التجارى ؛ ولكن كيف بات ذو الرمة فى حوانيت البقالين زماناً حتى علقت الكلمة بمنطقه وجذبه إليها الطبع العامى ، ولم يخالط عربيته غيرُ هذه الكلمة وحدها ؟ لم يقل الأصمعى شيئاً ، ولكن روايته تخبر أن ذا الرمة انحدر من البادية إلى البصرة يلتمس ما يلتمسه الشعراء ، فلما كان بها استضاق فلم يُصب لجوفه

---

(١) حذفنا من هذا المقال بعض عبارات حذفها المؤلف بقلمه فى الأصل الذى تحت أيدينا .

(٢) بهذا المقال بدأ المؤلف عمله فى الرسالة ؛ وانظر ص ١٩١ « حياة الرافعى »

غير الخبز، ولم يجد للخبز غير (المالح) يُسيغه به ليجد المسلك فى حلْقه، قالوا: فيأتى البقالين فيبتاع منهم السمكة (المالحة) والبقلة (المالحة)، ويعرفونه مُضيقاً إلى فرج، فيُنسِئون له فى الثمن إلى أجل حتى يمتدح وينال الجائزة؛ قالوا: ثم يمطره الممدوح ويلوى به ولا يرى فى تلفيق العيش رُخْصاً إلا فى (المالح)، فيتتابع فى الشراء ويمضون فى إسلافه إبقاءً عليه وحسنَ نظرٍ منهم لمنزلته وشعره، ويرى هو أن لاضمان للوفاء بما عليه إلا نفسه، فما بُدٌّ أن يتراءى لهم بين الساعة والساعة، فيخالطهم فيحدثهم فيسمع منهم، وهم على طبعهم وهو على سجيته؛ ثم لا يقتضونه ثمناً، ولا يزالون يمدون له، فلا يزال (المالح) أيسر منالاً عليه، كما هو إلى نفسه أشهى، وفى جوفه أمرأ، لمكان أعرابيته وخشونة عيشه؛ فيصيب عندهم مرتعة من هـذا (المالح). قالوا: ثم يرى البقالون أن لاضمان لما اجتمع عليه إلا أن يكون الشاعر معهم، فيُلزمونه الحوانيت بياض يومه، ويغلقونها عليه سواد ليلته، فهم يمسكونه بالنهار وتمسكه الحيطان والأبواب بالليل!

فلما عظم الدَّين وبلغ الجملةَ التى فاتت حساب الأيام إلى حساب الأهلَّة أُحضر الشاعرُ كربَه وهمَّه، ولم يعد (المالح) ينجع فيه، ولا يجد به غذاء بل حريقاً فى الدم، ورأى أنه قد امتحن بهذا (المالح) الخبيث وأشرط نفسه فيه وارتهنها به؛ فلا يزال من (المالح) همٌّ فى نفسه، ومغص فى جوفه، ولفظ على لسانه، ودين على ذمته؛ ولا يزال مهموماً به؛ إذ كان على طريق من طريقين: إما الوفاء ولا قدرة عليه من مفلس، وإما الحبس ولا طاقة به لشاعر؛ وحَبْس ذى الرمة فى ثمن (المالح) هو حبس عند الشرطة، ولكنه قتلٌ أو شر من القتل عند صاحبته (ميّة) إذا تراى إليها الخبر: والأعرابى الجلف الذى يُحبس فى ثمن (المالح) عند الوالى بعد أن بات زماناً رهناً به فى

حوانيت البقالين لا يصلح عاشقاً لىّ وهى مَن هى ، لها بشر مثل الحرير ومنطق رخيم الحواشى... » فلا (المالح) من غذائها ، ولا لفظ (المالح) من الكلام الذى يكون فى فمها العذب ، وأبعَد الله جاريتَها الزنجية إن لم تأنف لنفسها ومكانها من عشق هذا الأعرابى الغليظ الخشن الذى ألحقه (المالح) باللصوص والغارمين ، وأخزاها الله إن لم يكن عشق هـذا الأعرابى لها سواداً على سوادها فى الناس ، فكيف بىّ وهى أصفى من المرآة النقية ، وأبيض من الزهرة البيضاء ؟

قالوا : ويصنع الله لغَيلان المسكين ، فيمدح وينافق ويحتال ، ويعِـده الممدوح بالجائزة إذا غـدا عليه ، ويكون ذلك والشمس نازلة إلى خدرها ، فينكفئ الشاعر إلى حوانيت غرمائه من البقالين يبيت فيها أخرى لياليه ، ويغلقون عليه وقد سمّوه آكلاً وماطلاً ، وهان عليهم فلا يعتدُّونه إلا فأراً من فئران حوانيتهم غير أنه يأكل فيستوفى ، ولم يعد اسمه عندهم ذا الرمة ، بل ذا الغُمة ... فلم يعطوه لعشائه هـذه المرة إلا ما فسد وخبث من عتيق (المالح) ، فهو نتن يسمّى طعاما ، وداء يباع بثمن ، وهلاك يحمل عليه الاضطرار كما يحمل على أكل الجيفة ؛ وكانوا قد وضعوه فى آنية قذرة مُتاجّنة طال عهدها بالغسل والنظافة وفيها بقية من عفن قديم ، فلصق بها مالصق وتراكب عليها ما تراكب ، ووقع فيها ما وقع .

ثم يتهيأ الشاعر لصلاة العشاء يرجو أن تناله بَركتها ، فيستجيب الله له ويفرّج عنه ، وقد كان لديه قدح من الماء لوضوئه ، ولكن (المالح) الذى تغدى به كان قد أحرق جوفه وأضرم على أحشائه وهو فى صيف قائظ ، فما زال يطفئه بالشربة بعد الشربة ، والمصة بعد المصة ، حتى اشتفَّ القدح وأتى عليه ، فيكسل عن الصلاة ويلعن (المالح) وما جرَّ عليه : ثم يعضه الجوع

فيكسر خبزته ويسمّى ويغمس اللقمة ثم يرفعها فيجد لها رائحة منكرة ، فينظر فى الآنية وقد نفذ إليه الضوء من قنديل الحارس ، فإذا فى (المالح) خنفساء قد انفجرت شبعاً ، ويدقق النظرة فإذا دويبّة أخرى قد تفسخت وهرأها (المالح) وفعل بها وفعَل ! قالوا : وتثب نفسه إلى حلقه ، ولا يرى الطاعون والبلاء الأصفر والأحمر إلا هذا (المالح) ، فيتحول إلى كوة الحانوت يتنسم الهواء منها ويتطعّم الروح وهى مضبّبة بالحديد ، ولا يزال يراعى منها الليل ويقدره منزلة منزلة بحساب البادية ، وهو بين ذلك يلعن (المالح) عدد ما يسبّح العابد القائم فى جوف الليل ، ويطول ذلك عليه ، حتى إذا كاد ينشق لمع الفجر لعينه ، فلا يراه الشاعر إلا كالغدير يتفجر بالماء الصافى ويود لو انصب هذا الضوء فى جوفه ليغسله من (المالح) وأوضار (المالح) ؛ ثم يأتى الله بالفرج وبصاحب الحانوت فيفتح له ، ويغدو وذو الرمة على الممدوح فيقبض الجائزة ، وينقلب إلى حوانيت البقالين فيوفى أصحابها ما عليه ؛ ولا يبقى معه إلا دراهم معدودة ، فيخرج من البصرة على حمار اكتراه وقد فُتحت له آفاق الدنيا ، وكأنما فرّ من موتٍ غير الموت ، ليس اسمه البوار ولا الهلاك ولا القتل ، ولكن اسمه (المالح) !

قالوا : ويحرّكه الحمار للشعر كما كانت تحركه الناقة ، فيقول : أخزاك الله من حمار بصرى ، إنْ أنت فى المراكب إلا (كالمالح) فى الأطعمة ! ثم يغلبه الطبع وينزو به الطرب وتهزه الحياة ، فيهتاج للشعر ويذكر شوقه وحبه ودار مَىّ ، وفى (عقله الباطن) حوانيت وحوانيت من (المالح) ، فيأتى هذا (المالح) فى شعره ويدخل فى لغته ، فيقول الشعرَ الذى أهمل الأصمعىّ روايتَه لأن فيه (المالح) ؛ وما أدرى أنا ما هو ، ولكن لعله مثل قول الآخر :

ولو تفلتْ فى البحر والبحر (مالح)   لأصبح ماء البحر من ريقها عذبا

أو مثل قول القائل :

بصرية تزوّجتْ بصريا يطعمها (المالح) والطريا

✡ ✡ ✡

هـــذه هي الرواية التمثيلية التي تفسر كلام الأصمعي، ولا مذهب عنها في التعليل؛ إذ صار (المالح) كلمة نفسية في لغة ذي الرمة، على رغم أنف الأحمر والأسود والأصمعي وأبي عبيدة؛ فالرجل من الحجج في العربية إلا في كلمة (المالح)، فإنه هنا عامي بقال حوانيتي نزل بطبعه على حكم العيش، وغلبه ما لا بد أن يغلب من تسلُّط (واعيته الباطنة) (*)

والحكمة التي تخرج من هذه الرواية أن أبلغ الناس ينحرف بعمله كيف شاءت الحرفة، ولابد أن تقع المشابهة بين نفسه وعمله، فربمـا أراد بكلامه وجهاً وجاء به الهاجس على وجه آخر؛ وإذا كان في النفس موضع من مواضعها أفسده العمل - ظهر فساده في الذوق والإدراك فطمس على مواضع أخرى؛ فلا تنتظر من صحافي قد ارتهن نفسه بحرفة الكلام ألا يكون له في الأدب والبلاغة (مالح) كمالح ذي الرمة، وإن كان أبلغ الناس لا أبلغ كتاب الصحف وحدهم.

و (المالح) الذي رأيناه لكاتب بليغ من أصحابنا [1] أنه كتب في إحدى الصحف عن ديوانٍ هو في شعر هذه الأيام كالبعث بعد موت شوقي وحافظ رحمهما الله، فيأتي بالمجاز بعد الاستعارة بعد الكناية بمـا قاله الشاعر ثم يقول: هذا عجيب تصوُّره. لا أعرف ماذا يريد. البِلى للشعاع غير مقبول؛ ولا يزال يسحب على هذه الطريقة من النقد ثم يعقب على ذلك بقوله: « والأصل

(*) وضعنا هذه الكلمة لمـا يسمى (العقل الباطن)، وهي أدق في التعبير تستوفي كل معاني الكلمة، ولا معنى لأن يكون هناك عقل، ثم يكون باطناً غافلا؛ فإن هذا لا يسوغه الاشتقاق

(١) يعني المازني، وكان له نقد لديوان « الملاح التائه »

فى الكتابة أنها للإفهام ، أى نقل الخاطر أو الإحساس من ذهن إلى ذهن ومن نفس إلى نفس ؛ ولا سبيل إلى ذلك إذا كانت العبارة يتعاورها الضعف والابهام والركاكة وقلة العناية بدقة الأداء ، وإذا كنت تستعمل اللفظ فى غير موضعه ولغير ما أريد به ، فكيف تتوقع منى أن أفهم منك ؟ » .

لا ، لا ، هذا (مالح) من مالح الأدب ، فإذا كان الضعف والابهام والركاكة وسوء الإفهام وضعف الأداء ـ آتية فى رأى الكاتب من استعمال اللفظ فى غير موضعه ولغير ما أريدَ له — فإن محاسن البيان من التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية ليس لها مأتًى كذلك إلا استعمال اللفظ فى غير موضعه ولغير ما أريد له .

وعلى طريقة الكاتب كيف يصنع فى قوله تعالى : « وقدِمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورا » ؟

أتراه يقول : كيف قدِم الله ، وهل كان غائباً أو مسافراً ، وكيف قدم إلى عمل ، وهل العمل بيت أو مدينة ؟

ثم كيف يصنع فى هذه الآية : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك » ، أيسأل : وهل للأرض حلق تحرِّكه عضلاته للبلع ، وإذا كان لها حلق أفلا يجوز أن تُرْمَى فيه فتحتاج إلى غرغرة وعلاج وطب ؟

وماذا يقول فى حديث البخارى : « إنى لأسمع صوتاً كأنه صوت الدم ، أو صوتاً يقطر منه الدم ـ كما فى الأغانى ـ » أيوجِّه الاعتراض على الصوت وجرحه ودمه ، ويسأل : بماذا جرح ، وما لون هذا الدم ، وهل للصوت عروق فيجرى الدم فيها ؟

إن الإفهام ونقل الخاطر والإحساس ليست هى البلاغة وإن كانت منها ، وإلا فكتابة الصحف كلها آيات بينات فى الأدب ، إذ هى من هذه الناحية

لا يُقدح فيها ولا يُغض منها ، وما قصرت قط فى نقل خاطر ولا استغلقت دون إفهام

ههنا خوانٌ فى مطعم كمطعم (الحاتى) مثلا عليه الشواء والملح والفلفل والكواميخ أصنافاً مصنَّفة ، وآخر فى وليمة عرس فى قصر وعليه ألوانه وأزهاره ومن فوقه الأشعة ومن حوله الأشعة الأخرى من كل مضيئة فى القلب بنور وجهها الجميل ، أفترى السهولة كل السهولة إلا فى الأول ؟ وهل التعقيد كل التعقيد إلا فى الثانى ؟ ولكن أى تعقيد هو ؟ إنه تعقيد فنى ليس إلا ، به ينضاف الجمال إلى المنفعة ، فتجتمع الفائدة والاستمتاع وتزيّن المائدة والنفس معاً ؛ وهو كذلك تعقيد فنى لاءم بين إبداع الطبيعة وإبداع الفكر ، وجاء بروح الموسيقى التى يقوم عليها الكون الجميل فبثها فى هذه الأشياء التى تقوم بها المائدة الجميلة ، واستنزل سرّ الجاذبية فجعل للمائدة بما عليها شعوراً متصلا بالقلوب من حيث جعل للقلوب شعوراً متصلا بالمائدة .

وهذا التعقيد الذى صور فى الجماد دقة فى العاطفة ، هو بعينه فنّية السهولة وروحيّتها ؛ وتلك السذاجة التى فى المائدة الأخرى هى السهولة المادية بغير فن ولا روح ، وفرقُ بينهما أن إحداهما تحمل قصيدة رائعة من الطعام وما يتصل به ، والأخرى تحمل من الطعام وما يتصل به مقالة كمقالات الصحف !

والوجه فى الشوهاء وفى الجميلة واحد : لا يختلف بأعضائه ولا منافعه ، ولا فى تأديته معانى الحياة على أتمها وأكملها ؛ بيْد أن انسجام الجميل يأتى من إعجاز تركيبه وتقدير قسماته وتدقيق تناسبه ، وجعْله بكل ذلك يُظهر فنّه النفسى بسهولة منسجمة هى فنيّته وروحيته ؛ أما الآخر فلا يقبل هذا الفن ولا يُظهر منه شيئاً ؛ إذ كان قد فقد التدقيق الهندسى الذى هو تعقيد فن التناسب ، وجاء على المقاييس السهلة من طويل إلى قصير ، إلى ما يستدير وما يعرُض ، إلى ما يدنأ

من هنا وينخسف من هناك ، كالوجنة البارزة ، والشدق الغائر : فهذه السهولة المطلقة فى الوضع كما يتفق ، هى بعينها التعقيد المطلق عند الفن الذى لا محل فيه للفظة (كما يتفق)

والطريقة التى يكون بها الجمال جميلا هى بعينها الطريقة التى يكون بها البيان بليغاً . فالمرجع فى اثنيهما إلى تأثيرهما فى النفس ، وأنت فقل : إن هذا مفهوم وهذا غير مفهوم ، وذاك سهل والآخر معقد ، وواضح ومغلق ، ومستقيم على طريقته ومحوَّل عن طريقته ؛ إنك فى ذلك لا تدل على شىء تعيبه أو تمدحه فى الجمال أو البلاغه أكثر مما تدل على ما يُمدح أو يُعاب فى نفسك وذوقها وإدراكها

ومعانى الاختلاف لا تكون فى الشىء المختلَف فيه ، بل فى الأنفس المختلفة عليه ؛ فإن محالا أن تكون الجميلة م. وحةً مذمومةً لجمالها فى وقت معاً ، وإلا كانت قبيحة بما هى به حسناء ، وهذا أشد بعداً فى الاستحالة ، وحكمك على شىء هو عقلك أنت فى هذا الشىء

ومتى اتفق الناس على معنى يستحسنونه وجدتَ دواعى الاستحسان فى أنفسهم مختلفة ، وكذلك هم فى دواعى الذم إذا عابوا ؛ ولكن متى تعينت الوجوه التى بها يكون الحكم ، ورجع إليها المختلفون ، والتزموا الأصول التى رسمتها وتقررت بها الطريقة عندهم فى الذوق والفهم . فذلك ينفى أسباب الاختلاف لما يكون من معانى التكافؤ وخاصة المناسبة ، ولهذا كان الشرط فى نقد البيان أن يكون من كاتب مبدع فى بيانه لم تفسده نزعة أخرى ، وفى نقد الشعر أن يكون من شاعر علت مرتبته وطالت ممارسته لهذا الفن وليس له نزعة أخرى تفسده

وما المجازات والاستعارات والكنايات ونحوها من أساليب البلاغه إلا

أسلوب طبيعى لامذهب عنه للنفس الفنية ؛ إذ هى بطبيعتها تريد دائماً ماهو أعظم ، وما هو أجمل ، وما هو أدق ؛ وربما ظهر ذلك لغير هذه النفس تكلفاً وتعسفاً ووضعاً للأشياء فى غير مواضعها ، ويخرج من هذا أنه عمل فارغ وإساءة فى التأدية وتمحل لاعبرة به ، ولكن فنية النفس الشاعرة تأبى إلا زيادة معانيها ، فتصنع ألفاظها صناعة توليها من القوة ما ينفذ إلى النفس ويضاعف إحساسها ؛ فمن ثم لاتكون الزيادة فى صور الكلام وتقليب ألفاظه وإدارة معانيه إلا تهيئة لهذه الزيادة فى شعور النفس ؛ ومن ذلك يأتى الشعر دائماً زائداً بالصناعة البيانية ، لتخرجه هذه الصناعة من أن يكون طبيعياً فى الطبيعة إلى أن يكون روحانياً فى الإنسانية ، والشعور المهتاج المتفزز غير الساكن المتبلد ، والبيان فى صناعة اللغة يقابل هذا النحو ، فتجد من التعبير ماهو حى متحرك ، وما هو جامد مستلقٍ كالنائم أو كالميت : وبهذا لا تكون حقيقة المحسّنات البيانية شيئاً أكثر من أنها صناعة فنية لا بد منها لاحداث الاهتياج فى ألفاظ اللغة الحساسة كى تعطى الكلماتُ ماليس فى طاقة الكلمات أن تعطيه

لقد تكلموا أخيراً فى جناية الصحافة على الأدب ، والصحافة عندى لا تجنى على الأدب ، ولكن على فنيته : فلها من الأثر على سليقة البليغ وطبعه قريب مما كان لحوانيت البقالين فى البصرة على طبع ذى الرمة وسليقته ، وكلما قرب الصحافى من الصنعة وحقها على الجمهور ، بعد عن الفن وجماله وحقه على النفس ، وهذا واضح بلا كبير تأمل . بل هو واضح بغير تأمل . . .

صعاليك الصحافة ...

لما ظهر كتابى (وحى القلم)[1] حملت منه إلى فضلاء كتابنا فى دور الصحف والمجلات أهديه إليهم ليقرءُوه ويكتبوا عنه، وأنا رجل ليس فىَّ أكثر مما فىَّ، كالنجم يستحيل أن يكون فيه مستنقع؛ فما أعلم فى طبيعتى موضعاً للنفاق تتحول فيه البصلة إلى تفاحة، ولا مكاناً من الخوف تنقلب فيه التفاحة إلى بصلة، ولست أهدى من كتبي إلا إحدى هديتين: فإما التحيةُ لمن أثق بأدبهم وكفايتهم وسلامة قلوبهم، وإما إنذار حرب لغير هؤلاء!

والقرآن نفسه قد أثبت الله فيه أقوال من عابوه، ليدل بذلك على أن الحقيقة محتاجةٌ إلى من ينكرها ويردها، كحاجتها إلى من يقرّبها ويقبلها؛ فهى بأحدهما تثبت وجودها، وبالآخر تثبت قدرتها على الوجود والاستمرار

والشعور بالحق لا يخرس أبداً، فإذا كانت النفس قوية صريحة مرَّ من باطنها إلى ظاهرها فى الكلمة الخالصة، فإن قال لا أو نعم صدق فيهما؛ وإذا كانت النفس ملتويةً اعترضته الأغراض والدخائل، فمرَّ من باطن إلى باطن حتى يخلص إلى الظاهر فى الكلمة المقلوبة؛ إذ يكون شعوراً بالحق يغطيه غرض آخر كالحسد ونحوه، فإن قال لا أو نعم كذب فيهما جميعاً

✡ ✡ ✡

وكنت فى طوافى على دور الصحف والمجلات أحس فى كل منها سؤالا يسألني به المكان: لماذا لم تجئ؟ فإنى فى ابتداء أمرى كنت نزعت إلى العمل فى الصحافة، وأنا يومئذ متعلم ريِّض ومتأدب ناشئ، ولكن أبى رحمه

---

(١) يعنى الجزءين الأول والثانى فى طبعتهما الأولى

الله ردّنى عن ذلك ووجّهنى فى سبيلى هذه والحمد لله ، فلو أنى نشأت صحافياً لكنت الآن كبعض الحروف المكسورة فى الطبع ...

وللصحافة العربية شأن عجيب ، فهى كلما تمّت نقصت ، وكلما نقصت تمت ؛ إذ كان مدار الأمر فيها على اعتبار أكثر من يقرءونها أنصاف قراء أو أنصاف أميين ؛ وهى بهذا كالطريقة لتعليم القراءة الاجتماعية أو السياسية أو الأدبية ؛ فتمامُها بمراعاة قواعد النقص فى القارئ ... وما بدٌّ أن تتقيد بأوهام الجمهور أكثر مما تتقيد بحقيقة نفسها ؛ فهى معه كالزوجة التى لم تلد بعدُ لها من رُجلها من يأمرها ويجعلها فى حكمه وهواه ، وليس لها من أبنائها من تأمرهم وتجعلهم فى طاعتها ورأيها وأدبها ؛ ثم هى عمل الساعة واليوم ، فما أبعدها من حقيقة الأدب الصحيح ، إذ ينظر فيه إلى الوقت الدائم لا إلى الوقت الغابر ، ويراد به معنى الخلود لا معنى النسيان

ولا يقتل النبوغَ شىء كالعمل فى هذه الصحافة بطريقتها ؛ فإن أساس النبوغ (مايجب كما يجب) ؛ ودأبه العمق والتغلغل فى أسرار الأشياء وإخراج الثمرة الصغيرة من مثل الشجرة الكبيرة بعمل طويل دقيق ؛ أما هى فأساسها (مايمكن كما يمكن) ودأبها السرعة والتصفح والإلمام وصناعة كصناعة العنوان لاغير

فليس يحسن بالأديب أن يعمل فى هـذه الصحافة اليومية إلا إذا نضج وتم وأصبح كالدولة على « الخريطة » ، لا كالمدينة فى الدولة فى الخريطة ؛ فهو حينئذ لا يسهل محوه ولا تبديله ... ثم هو يمدها بالقوة ولا يستمد القوة منها ، ويكون تاجا من تيجانها لا خرزة من خرزاتها ، ويقوم فيها كالمنارة العظيمة تُلقى أشعتها من أعلى الجو إلى مدى بعيد من الآفاق ، لا كمصباح من مصابيح الشارع !

وحالة الجمهور عندنا تجعل الصحافة مكاناً طبيعياً لرجل السياسة قبل غيره ؛

إذ كان الرجل السياسى هو صوت الحوادث سائلا ومجيباً ، ثم يليه الرجل شبه العالم ، ثم الرجل شبه الممثل الهزلى ... والأديبُ العظيم فوق هؤلاء جميعا ، غير أنه عندنا فى الصحافة وراء هؤلاء جميعاً !

✡ ✡ ✡

ولما فرغت من طوافى على دور الصحف جاءت هى تطوف بى فى نومى ، فرأيتنى ذات ليلة أدخل إحداها لأهدى (وحى القلم) إلى الأديب المتخصص فيها للكتابة الأدبية ، ودلونى عليه فإذا رجل مربوع مشوّه الخلق صغير الرأس دقيق العنق جاحظ العينين ، تدوران فى مِحجريهما دورة وحشية كأنما رعبته الحياة مذ كان جنينا فى بطن أمه ، لأنه خلق للإحساس والوصف ، أو كأنما ركب فيه هذا النظر الساخر ليرى أكثر مما يرى غيره من أسرار السخرية فينبغ فى فنونها ، أو هو قد خلق بهاتين العينين الجاحظتين دلالة عليه من القدرة الالهية بأنه رجل فذ أُرسل لتدقيق النظر

وقال الذى عرَّفنى به : حضْرته عمرو افندى الجاحظ ... وهو أديب الجريدة

قلت : شيخنا أبو عثمان عمرو بن بحر ؟

فضحك الجاحظ وقال : وأديب الجريدة ، أى شحاذ الجريدة ، يكتب لها كما يقرأ القارئ على ضريح : بالرغيف والجبن والبيض والقرش ...

قلت : إنا لله ! فكيف انتهيت يا أبا عثمان إلى هذه النهاية وكنت من أعاجيب الدنيا ؟ وكيف خِبْتَ فى الصحافة وكنت رأساً فى الكلام ؟

قال : نجحتْ أخلاقى فخابت آمالى ، ولو جاء الوضع بالعكس لكان الأمر بالعكس ؛ والمصيبة فى هذه الصحف أن رجلا واحداً هو قانون كل رجل هنا

قلت : وذاك الرجل الواحد ماقانونه ؟

قال : له ثلاثة قوانين : الجهات العالية وما يستوحيه منها ، والجهات النازلة وما يوحيه إليها ، وقانون الصلة بين الجهتين وهو ...

قلت : وهو ماذا ؟

فحماق فيَّ وقال : ماهذه البلادة ؟ وهو الذى « هو » ... أما ترى الصحيفة كـكل شىء يباع ؟ وأنت تخبِّرنى ـ ولك الدولة والصولة عند القراء ـ ألم تر بعينيك أنك لو جئت تدفع ثمانمائة قرش ، لـكنت فى نفوسهم أعظم مما أنت وقد جئت تهدى ثمانمائة صفحة من البيان والأدب ؟

قلت : يا أبا عثمان ، فماذا تـكتب هنا ؟

قال : إن الـكتابة فى هذه الصحافة صورة من الرؤية ، فماذا ترى أنت فى ... وفى ... وفى ... ؟ لقد كنا نروى فى الحديث ، « يكون قومٌ يأكلون الدنيا بألسنتهم كما تلحس الأرضَ البقرةُ بلسانها » ؛ فلعلَّ من هذه الألسنة الطويلة لسان صاحب الجريدة ...

قلت : ولـكنك يا شيخنا قد نسيت القراء وحكمهم على الصحيفة

قال : القراء ماالقراء ، وما أدراك ماالقراء ! وهل أساس أكثرهم إلا بلادة المدارس ، وسخافة الحياة ، وضعف الأخلاق ، وكذب السياسة ؟ إن الإبداع كل الإبداع فى أكثر ماتـكتب هذه الصحف ، أن تجعل الـكذب يكذب بطريقة جديدة ... وما دام المبدأ هو الـكذب فالمظهر هو الهزل ؛ والناس فى حياة قد ماتت فيها المعانى الشديدة القوية السامية ، فهم يريدون الصحافة الرخيصة ، واللغة الرخيصة والقراءة الرخيصة ؛ وبهذا أصبح الجاحظ وأمثالهم (صعاليك الصحافة) .

* * *

ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير ، فنهض إليه ثم رجع بعينين لا يقال فيهما جاحظتان ، بل خارجتان ... وقال : أفّ ! « وحَبِط ما صنعوا فيها وباطلٌ ما كانوا يعملون » .

« كلاّ والذى حرَّم التزيُّدَ على العلماء ، وقبّح التكلف عند الحكماء ، وبَهْرَجَ الكذابين عند الفقهاء ، لا يظن هذا إلا من ضل سعيُه » . (*)

قلت : ماذا دهاك يا أبا عثمان ؟

قال : ويحها صحافة ! قل فى عملك ما قال المثل : جَحَظ إليه عمله . (**)

قلت : ولكن ما القصة ؟

قال : ويحها صحافة ! وقال الأحنف : أربعٌ من كنَّ فيه كان كاملا ، ومن تعلّق بخصلة منهن كان من صالحى قومه : دين يرشده ، أو عقل يسدده ، أو حسَبٌ يصونه ، أو حياء يقناه » . وقال : « المؤمن بين أربع : مؤمن يحسده ، ومنافق يبغضه ، وكافر يجاهده ، وشيطان يفتنه . وأربع ليس أقل منهن : اليقين ، والعدل ، ودرهم حلال ، وأخ فى الله » . وقال الحسن ابن على... (***)

قلت : ياشيخنا ، دعنا الآن من الرواية والحفظ والحسن والأحنف ؛ فماذا دهاك عند رئيس التحرير ؟

قال : لم أحسن المهاترة فى المقال الذى كتبته اليوم ... ويقول رئيس التحرير : إن نصف التمويه رذيلة ؟ فإن نصفه الآخر يدل على أنه تمويه . ويقول : إن سموَّ الكتابة انحطاط فصيح ، لأن القراء فى هذا العهد

(*) هذه الجملة من كلام الجاحظ

(**) يريدون أنه إذا نظر فى عمله رأى سوء ما صنع

(***) هذه طريقة الجاحظ ، يخلط الكلام دائما بالنقل

لايخرجون من حفظ القرآن والحديث ودراسة كتب العلماء والفصحاء، بل من الروايات والمجلات الهزلية . وحفظ القرآن والحديث وكلام العلماء يضع فى النفس قانون النفس ، ويجعل معانيها مهيَّأة بالطبيعة للاستجابة لتلك المعانى الكبيرة فى الدين والفضيلة والجِد والقوة ؛ ولكن ماذا تصنع الروايات والمجلات وصور الممثلات والمغنيات وخبر الطالب فلان والطالبة فلانة والمسارح والملاهى ؟

ويقول رئيس التحرير : إن الكاتب الذى لايسأل نفسه مايقال عنى فى التاريخ ، هو كاتب الصحافة الحقيق ، لأن القروش هى القروش والتاريخ هو التاريخ ؛ ومطبعة الصحيفة الناجحة هى بنت خالة مطبعة البنك الأهلى ؛ ولا يتحقق نَسبٌ مابينهما إلا فى إخراج الورق الذى يُصْرَف كله ولا يُرد منه شىء !

إنهم يريدون إظهار المخازى مكتوبة ، كحوادث الفجور والسرقة والقتل والعشق وغيرها ؛ يزعمون أنها أخبار تُروى وتقَص للحكاية أو العبرة ، والحقيقة أنها أخبارهم إلى أعصاب القراء ...

✡ ✡ ✡

ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير ...

صعاليك الصحافة ...

٢

وغاب شيخنا أبو عثمان عند رئيس التحرير بعضَ ساعةٍ، ثم رجع تدور عيناه في جِحَاظَيْهما وقد اكفهَرَّ وجهُه وعبَس كأنما يجرى فيه الدمُ الأسود لا الأحمر، وهو يكاد ينشقُّ من الغيظ، وبعضُه يَغلى فى بعضه كالماء على النار؛ فما جاس حتى جاءت ذبابتان فوقعتا على كَنَفَىْ أنفه تُتِمّان كآبةَ وجهه المشوَّه، فكان منظرهما من عينيه السّوداوين الجاحظتين منظرَ ذبابتين وُلدتا من ذبابتين ...

وتركهما الرجل لشأنهما وسكت عنهما؛ فقلت له: ياأباعثمان، هاتان ذبابتان، ويقال إن الذباب يحمل العدوَى

فضحك ضحكةَ المَغِيظ وقال: إن الذباب هنا يخرج من المطبعة لا من الطبيعة... فأكثر القول فى هذه الجرائد حشرات من الألفاظ: منها ما يُستقذَر، وما تنقلب له النفس، وما فيه العدوَى، وما فيه الضرر؛ وما بدٌّ أن يعتاد الكاتب الصحافى من الصبر على بعض القول مثلَما يعتاد الفقير من الصبر على بعض الحشرات فى ثيابه؛ وقد يريده صاحب الجريدة أو رئيس التحرير على أن يَكتب كلاماً لو أعفاه منه وأراده على أن يجمع القمل والبراغيث من أهدام الفقراء والصعاليك بقدر مايملأ مقالة... كان أخفَّ عليه وأهون، وكان ذلك أصرحَ فى معنى الطلب والتكليف (*).

(*) هذه طريقة الجاحظ فى الإغراق حين يتهكم

وكيفما دار الأمر فإن كثيراً من كلام الصحف لومسخه الله شيئاً غير الحروف المطبعية ؛ لطار كله ذبابا على وجوه القراء !

قلت : ولكنك ياأبا عثمان ذهبت منطلقاً إلى رئيس التحرير ورجعت متعقدا فما الذى أنكرت منه ؟

قال : « لوكان الأمر على مايشتهيه الغرير والجاهل بعواقب الأمور ، لبطل النظر وما يشحذ عليه وما يدعو إليه ، ولتعطلت الأرواح من معانيها والعقول من ثمارها ، ولعدمت الأشياء حظوظها وحقوقها » (*) .

هناك رجل من هؤلاء المعنيين بالسياسة فى هذا البلد ... يريد أن يخلق فى الحوادث غير معانيها ، ويربط بعضها إلى بعض بأسباب غير أسبابها ، ويخرج منها نتائج غير نتائجها ، ويلفق لها من المنطق رُقعاً كهذه الرقع فى الثوب المفتوق ؛ ثم لايرضى إلا أن تكون بذلك رداً على جماعة خصومه وهى رد عليه وعلى جماعته ، ولا يرضى مع الرد إلا أن يكون كالأعاصير تدفع مثل تيار البحر فى المستنقع الراكد

ثم لم يجد لها رئيس التحرير غير عمك أبى عثمان فى لطافة حسه وقوة طبعه وحسن بيانه واقتداره على المعنى وضده ، كأن أبا عثمان ليس عنده ممن يحاسبون أنفسهم ، ولا من المميزين فى الرأى ، ولا من المستدلين بالدليل ، ولا من الناظرين بالحجة ؛ وكأن أبا عثمان هذا رجل حروفى ... كحروف المطبعة : ترفع من طبقة وتوضع فى طبقة وتكون على ماشئت ، وأدنى حالاتها أن تمد إليها اليد فإذا هى فى يدك

وأنا امرؤ سيد فى نفسى ، وأنا رجل صدق ، ولست كهؤلاء الذين لايتأثمون ولا يتذممون : فإن خضتُ فى مثل هذا انتقض طبعى وضعفت

(*) هذه الجملة من كلام الجاحظ

استطاعتى وتبيَّن النقصُ فيما أكتب ، ونزلتُ فى الجهتين؛ فلا يطَّرد لى القول على ما ارجو ، ولا يستوى على ما أحب ؛ فذهبت أناقضه وأردّ عليه ؛ فبُهِتَ ينظر إلىّ ويقلب عينيه فى وجهى ، كأن الكاتب عنده خادمُ رأيه كخادم مطبخه وطعامه ، هذا من هذا!

ثم قال لى : ياأبا عثمان ، إنى لأستحى أن أعنفك ؛ وبهذا القول لم يستح أن يعنّف أبا عثمان ... ولهممتُ والله أن أنشده قول عباس بن مرداس :

أكُلَيب ... مالكَ كلَّ يوم ظالما والظلمُ أنكَدُ وجهُه ملعون ...

لولا أن ذكرتُ قول الآخر :

وما بين من لم يُعطِ سمعاً وطاعةً وبين تميمٍ غيرُ حَزِّ الغلاصمِ

وحزُّ الغلاصم « وقطعُ الدراهم » من قافية واحدة ... وقال سعيد بن أبى عرُوبة : « لأن يكونَ لى نصفُ وجه ونصف لسان على مافيهما من قبح المنظر وعجز المخبر — أحبُّ إلىّ من أن أكون ذا وجهين وذا لسانين وذا قولين مختلفين » . وقال أيوب السختيانى ...

وهمَّ شيخنا أن يمرَّ فى الحفظ والرواية على طريقته ، فقلت : وقال رئيس التحرير ... ؟

فضحك وقال : أما رئيس التحرير فيقول : إن الخلابة والمواربة وتقليب المنطق هى كل البلاغة فى الصحافة الحديثة ، وهى كقلب الأعيان فى معجزات الأنبياء صلوات الله عليهم ؛ فكما انقلبت العصا حيَّةً تسعى ، وهى عصا وهى من الخشب ، فكذلك تنقلب الحادثة فى معجزات الصحافة إذا تعاطاها الكاتب البليغ بالفطنة العجيبة والمنطق الملوَّن والمدرفة بأساليب السياسة ؛ فتكون للتهويل وهى فى ذاتها اطمئنان ، وللتهمة وهى فى نفسها براءة ، وللجناية وهى فى معناها سلامة ؛ ولو نَفخ الصحافى الحاذق فى قبضة من

التراب لاستطارت منها النار وارتفع لهبُها الأحمر فى دخانها الأسود. قال: وإن هذا المنطق الملوَّن فى السياسة إنما هو إتقانُ الحيلة على أن يصدقك الناس؛ فإن العامة وأشباه العامة لا يصدّقون الصدقَ لنفسه، ولكن للغرض الذى يساق له، إذ كان مدار الأمر فيهم على الإيمان والتقديس، فأذِقْهم حلاوة الإيمان بالكذب فلن يعرفوه إلا صدقا وفوق الصدق، وهم من ذات أنفسهم يقيمون البراهينَ العجيبة ويساعدون بها من يكذب عليهم متى أحكم الكذب، ليحقّقوا لأنفسهم أنهم بحثوا ونظروا ودقّقوا...

ثم قال أبو عثمان: ومعنى هذا كله أن بعض دُور الصحافة لو كتبت عبارة صريحة للإعلان لكانت العبارة هكذا: سياسة للبيع...

✡ ✡ ✡

قلت: ياشيخنا، فإنك هنا عندهم لتكتب كما يكتبون، ومقالات السياسة الكاذبة كرسائل الحب الكاذب: تُقرأ فيها معانٍ لا تكتب، ويكون فى عبارتها حياء وفى ضمنها طلبُ ما يُستَحى منه... والحوادث عندهم على حسب الأوقات، فالأبيض أسود فى الليل، والأسود أبيض فى النهار؛ ألم تر إلى فلان كيف يصنع وكيف لا يعجزه برهان وكيف يخرّج المعانى؟

قال: بلى، نِعم الشاهد هو وأمثاله! إنهم مصدَّقون حتى فى تاريخ حفر زمزم

قلت: وكيف ذلك؟

قال: شهد رجل عند بعض القضاة على رجل آخر، فأراد هذا أن يجرِّح شهادته، فقال للقاضى: أتقبل منه وهو رجل يملك عشرين ألف دينار ولم يحجَّ إلى بيت الله؟ فقال الشاهد: بلى قد حججت. قال الخصم: فاسأله أيها القاضى عن زمزم كيف هى؟ قال الشاهد: لقد حججتُ قبل أن

تحفر زمزم فلم أرها ...

قال أبو عثمان : فهذه هى طريقة بعضهم فيما يزكى به نفسه : ينزلون إلى مثل هذا المعنى وإن ارتفعوا عن مثل هذا التعبير ؛ إذ كانت الحياة السياسية جدلا فى الصحف لنفى المنفى وإثبات المثبَت ، لا عملا يعملونه بالنفى والإثبات ؛ ومتى استقلت هـذه الأمة وجب تغيير هـذه الصحافة وإكراهها على الصدق ، فلا يكون الشأن حينئذ فى إطلاق الكلمة الصحافية إلا من معناها الواقع .

والحياة المستقلة ذات قواعد وقوانين دقيقة لا يُترخّص فيها مادام أساسها إيجاد القوة وحياطة القوة وأعمال القوة ، وما دامت طبيعتها قائمة على جعل أخلاق الشعب حاكمة لا محكومة ؛ وقد كان العمل السياسى إلى الآن هو إيجاد الضعف وحياطة الضعف وبقاء الضعف ؛ فكانت قواعدنا فى الحياة مغلوطة ؛ ومن ثم كان الخلق القوى الصحيح هو الشاذ النادر يظهر فى الرجل بعد الرجل والفترة بعد الفترة ، وذلك هو السبب فى أن عندنا من الكلام المنافق أكثر من الحر ، ومن الكاذب أكثر من الصادق ، ومن الممارى أكثر من الصريح ؛ فلا جرم ارتفعت الألقاب فوق حقائقها ، وصارت نعوت المناصب وكلمات باشا وبك من الكلام المقدس صحافيا ...

ياَلعبادِ الله ! يأتيهم اسم الأديب العظيم فلا يجدون له موضعاً فى « محليات الجريدة » ؛ ويأتيهم اسم الباشا أو البك أو صاحب المنصب الكبير فبماذا تتشرف « المحليّات » إلا به ؟ وهذا طبيعى ، ولكن فى طبيعة النفاق ؛ وهذا واجب ، ولكن حين يكون الخضوع هو الواجب ؛ ولو أن للأديب وزناً فى ميزان الأمة لكان له مثل ذلك فى ميزان الصحافة ؛ فأنت

ترى أن الصحافة هنا هى صورة من عامية الشعب ليس غير . . . ومن ذا الذى يصحح معنى الشرف العامل لهذه الأمة وتاريخها وأكثر الألقاب عندنا هى أغلاط فى معنى الشرف . . . ؟

ثم ضحك أبو عثمان وقال : زعموا أن ذبابة وقعت فى بارجة (أميرال) إنجليزى أيام الحرب العظمى ؛ فرأت القائد العظيم وقد نشر بين يديه درْجا من الورق وهو يخطط فيه رسما من رسوم الحرب ؛ ونظرتْ فإذا هو يلقى النقطة بعد النقطة من المداد ويقول : هذه مدينة كذا ، وهذا حصن كذا ، وهذا ميدان كذا . قالوا فسخرت منه الذبابة وقالت : ما أيسر هذا العمل وما أخفّ وما أهون ! ثم وقعت على صفحة بيضاء وجعلت تلقى وَنِيمَها (*) هنا وهناك وتقول : هذه مدينة ، وهذا حصن ...

٭ ٭ ٭

والتفت الجاحظ كأنما توهم الجرس يدق ... فلما لم يسمع شيئاً قال :

لو أنى أصدرت صحيفة يومية لسميتها (الأكاذيب) ، فمهما أكذب على الناس فقد صدقت فى الاسم ، ومهما أخطئ فإن أخطئ فى وضع النفاق تحت عنوانه

قال : ثم أخط تحت اسم الجريدة ثلاثة أسطر بالخط الثلث هذا نصها :

ماهى عزة الأذلاء ؟ هى الكذب الهازل

ماهى قوة الضعفاء ؟ هى الكذب المكابر

ماهى فضيلة الكذابين ؟ هى استمرار الكذب

قال : ثم لا يحرر فى جريدتى إلا « صعاليك الصحافة » من أمثال الجاحظ ؛ ثم أكذب على أهل المال فأجد الفقراء العاملين ، وعلى رجال الشرف

(*) ونيم الذباب : هو ... أى هذه النقط السود التى يحدثها

فأعظم العمال المساكين ، وعلى أصحاب الألقاب فأقدم الأدباء والمؤلفين ، و ...
ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير ...

صعاليك الصحافة

٣

ولم يلبث أن رجع أبو عثمان فى هـذه المرة وكأنه لم يكن عند رئيس التحرير فى عملٍ وأدائهِ ، بل كان عند رئيس الشُّرطة فى جنايةٍ وعقابهـا ؛ فظهر منقلب السحنة انقلاباً دميماً شوَّه تشويهه وزاد فيـه زيادات ... ورأيته ممطوط الوجه مطّا شنيعاً بدت فيـه عيناه الجاحظتان كأنهما غير مستقرتين فى وجهه ، بل معلقتان على جبهته ...

وجعل يضرب إحدى يديه بالأخرى ويقول : هـذا باب على حِدَةٍ فى الامتحان والبلوى ، وما فيه إلا المئونة العظيمة والمشقة الشديدة ؛ والعملُ فى هذه الصحافة إنمـا هو امتحانك بالصبر على اثنين . على ضميرك ، وعلى رئيس التحرير ! « وسأل بعض أصحـابنا أبا لقمان الممرور عن الجزء الذى لايتجزأ ماهو ؟ فقال : الجزء الذى لايتجزأ على بنُ أبى طالب عليه السلام ! فقال له أبو العيناء محمـد : أفليس فى الأرض جزء لايتجزأ غيره ؟ قال : بلى ، حمزة جزء لايتجزأ ... قال : فمـا تقول فى أبى بكر وعمر ؟ قال : أبو بكر يتجزأ ... قال : فمـا تقول فى عثمان ؟ قال : يتجزأ مرتين ، والزبير يتجزأ مرتين ... قال : فأى شىء تقول فى معاوية ؟ قال . لايتجزأ » فقد فـكرنا فى تأويل أبى لقمان حين جعل الأنام أجزاءً لاتتجزأ إلى

أى شىء ذهب ؟ فلم نقع عليه إلا أن يكون أبو لقمان كان إذا سمع المتكلمين يذكرون الجزء الذى لا يتجزأ ، هاله ذلك وكبر فى صدره وتوهم أنه الباب الأكبر من علم الفلسفة ، وأن الشىء إذا عظم خطره سموه بالجزء الذى لا يتجزأ » (٥)

قلت : ورجع بنا القول إلى رئيس التحرير ...

فضحك حتى أسفر وجهه ثم قال : إن رئيس التحرير قد تلقى الساعة أمراً بأن الجزء الذى لا يتجزأ اليوم هو فلان ؛ وأن فلانا الآخر يتجزأ مرتين ... وأن المعنى الذى يبنى عليه رأى الصحيفة فى هذا النهار هو شأن كذا فى عمل كذا ؛ وأن هذا الخبر يجب أن يصوّر فى صيغة تلائم جوعَ الشعب فتجعله كالخبز الذى يَطعمه كل الناس ، وتثير له شهوة فى النفوس كشهوة الأكل وطبيعةً كطبيعة الهضم ... وقد رمى إلىّ رئيس التحرير بجملة الخبر ، وعلىّ أنا بعد ذلك أن أضرم النار وأن أجعل الترابَ دقيقاً أبيض يُعجن ويخبز ويؤكل ويَسوغ فى الحلق وتستمرئه المعدة ويسرى فى العروق .

وإذا أنا كتبت فى هـــذا احتجتُ من الترقيع والتمويه ، ومن التدليس والتغليط ، ومن الخِبّ والمكر ، ومن الكذب والبُهتان — إلى مثل ما يحتاج إليه الزنديقُ والدهرىُّ والمعطّل فى إقامــة البرهانات على صحة مذهبٍ عَرف الناس جميعاً أنه فاسدٌ بالضرورة إذ كان معلوماً من الدين بالضرورة ، أنه فاسد ؛ وأين ترى إلا فى تلك النِّحَل وفى هذه الصحافة أن ينكر المتكلم وهو عارف أنه منكِر ، وأن يجترئ وهو موقن أنه مجترئ ، ويكابر وهو واثق أنه يكابر ؟ فقد ظهر تقديرٌ من تقدير ، وعملٌ من عمل ، ومذهبٌ من مذهب ؛ والآفة أنهم لا يستعملون فى الإقناع والجدل والمغالطة إلا الحقائق المؤكَّدة ؛ يأخذونها

(٥) هذه الجملة من كلام الجاحظ

إذا وُجدت ويصنعونها إن لم توجد ، إذ كان التأثير لا يتم إلا بجعل القارئ كالحالم: يملكه الفكر ولا يملك هو منه شيئاً ، ويُلقَى إليه ولا يمتنع ، ويُعطى ولا يَرُد على من أعطاه .

قلت : ولكن ما هو الخبر الذى أرادوك على أن تجعل من ترابه دقيقاً أبيض ؟

قال : هو بعينه ذلك الشأن الذى كتبتُ فيه لهذه الصحيفة نفسها أنقضه وأسفّهه وأرد عليه ، وكان يومئذ جزءًا يتجزأ ... فإن صنعتُ اليوم بلاغتى فى تأييده وتزيينه والإشادة به ، ولم يكن هذا كاسراً لى ، ولا حائلا بينى وبين ذات نفسى - فلا أقل من أن يكون الجاحظ تكذيباً للجاحظ ، آه لو وُضع الرديو فى غرف رؤساء التحرير ليسمع الناس ...

قلت : يا أبا عثمان ، هـــذا كقولك : لو وضع الرديو فى غرف قواد الجيوش أو رؤساء الحكومات .

قال : ليس هذا من هذا ، فإن للجيش معنى غير الحذق فى تدبير المعاش والتكسب وجمع المال ؛ وفى أسراره أسرارُ قوة الأمة وعمل قوتها ؛ وللحكومة دخائل سياسية لا يحركها أن فلانا ارتفع وأن فلانا انخفض ، ولا تصرّفها العشرة أكثر من الخمسة ؛ وفى أسرارها أسرارُ وجود الأمة ونظام وجودها

قال أبو عثمان : وإنما نزل بصحافتنا دون منزلتها أنها لا تجد الشعب القارئ المميز الصحيح القراءة الصحيح التمييز ، ثم هى لا تريد أن تذهب أموالها فى إيجاده وتنشئته ؛ وعمل الصحافة من الشعب عمل التيار من السفن فى تحريكها وتيسير مجراها ، غير أن المضحك أن تيارنا يذهب مع سفينة ويرجع مع سفينة ... ولو أن الصحافة العربية وجدت الشعب قارئاً مدركا مميزاً معتبراً مستبصراً لما رمت بنفسها على الحكومات والأحزاب عجزا وضعفاً

وفسولة ، ولا خرجت عن النسق الطبيعى الذى وضعت له ، فإن الشعب تحكمه الحكومة ، وإن الحكومة تحكمها الصحافة ، فهى من ثم لسان الشعب ؛ وإنما يقرؤها القارئ ليرى كلمته مكتوبة ؛ وشعور الفرد أن له حقاً فى رقابة الحكومة وأنه جزء من حركة السياسة والاجتماع ، هو الذى يوجب عليه أن يبتاع كل يوم صحيفة اليوم

قال أبو عثمان : فالصحافة لاتقوى إلا حيث يكون كل إنسان قارئاً ، وحيث يكون كل قارئ للصحيفة كأنه محرر فيها ، فهو مشارك فى الرأى لأنه واحد ممن يدور عليهم الرأى ، متتبع للحوادث لأنه هو من مادتها أو هى من مادته ، وهو لذلك يريد من الصحيفة حكاية الوقت وتفسير الوقت ، وأن تكون له كما يكون التفكير الصحيح للمفكر ، فيُلزمها الصدق ويطالب منها القوة ويلتمس فيها الهداية ، وتأتى إليه فى مطلع كل يوم أومغربه كما يدخل إلى داره أحد أهله الساكنين فى داره

وفى قلة القراء عندنا آفتان : أما واحدة فهى القلة التى لا تغنى شيئاً ؛ وأما الأخرى فهم على قلتهم لاترى أكبر شأنهم إلا عبادة قوم لقوم ، وزراية أناس بآخرين ، وتعلق نفاق بنفاق ، وتصديق كذب لكذب ؛ وآفة ثالثة تخرج من اجتماع الاثنتين : وهى أن أكثرهم لايكونون فى قراءتهم الصحيفة إلا كالنظارة اجتمعوا ليشهدوا مايتلهَّون به ، أو كالفُراغ يلتمسون مايقطعون به الوقت ؛ فهم يأخذون السياسة مأخذ من لايشارك فيها ، ويتعاطون الجد تعاطى من يلهو به ، ويتلقون الأعمال بروح البطالة ، والعزائم بأسلوب عدم المبالاة ، والمباحثة بفكرة الإهمال ، والمعارضة بطبيعة الهزء والتحقير ؛ وهم كالمصلين فى المسجد ؛ فمثِّل لنفسك نوعا من المصلين إذا اصطفوا وراء الإمام تركوه يصلى عن نفسه وعنهم وانصرفوا . . .

قال أبو عثمان : بهذا ونحوه جاءت الصحف عندنا وأكثرها لاثبات له إلا فى الموضع الذى تكون فيه بين منافعه ووسائل منافعه ؛ ومن هذا ونحوه كان أقوى المادة عندنا أن تظهر الصحيفة مملوءة حكومة وسلطة وباشوات وبيكوات ... وكان من الطبيعى أن محل الباشا والبك والحوادث الحكومية التفهة لا يكون من الجريدة إلا فى موضع قلب الحى من الحى .

ثم استضحك شيخنا وقال : لقد كتبت ذات يوم مقالة أقترح فيها على الحكومة تصحيح هذه الألقاب ، وذلك بوضع لقب جديد يكون هو المفسر لجميعها ويكون هو اللقب الأكبر فيها ، وإذا أنعم به على إنسان كتبت الصحف هكذا : أنعمت الحكومة على فلان بلقب (ذو مال) .

ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير ...

* * *

فلم يلبث إلا يسيراً ثم عاد متهللا ضاحكا وقد طابت نفسه فليس له جحوظ العينين إلا بالقدر الطبيعى ، وجلس إلىّ وهو يقول :

بيد أن رئيس التحرير لم ينشر ذلك المقال ، ولم ير فيه استطرافاً ولا ابتكارا ولا نكتة ولا حجة صادقة ، بل قال : كأنك يا أبا عثمان تريد أن يأكل عدد اليوم عدد الغد ، فإذا نحن زهدنا فى الألقاب وأصغرْنا أمرها وتهكمنا بها وقلنا إنها أفسدت معنى التقدير الإنسانى وتركت من لم ينلها من ذوى الجاه والغنى يرى نفسه إلى جانب من نالها كالمرأة المطلقة بجانب المتزوجة . . . وقلنا إنها من ذلك تكاد تكون وسيلة من وسائل الدفع إلى التملق والخضوع والنفاق لمن بيدهم الأمر ، أو وسيلة إلى ما هو أحط من ذلك كما كان شأنها فى عهد الدولة العثمانية البائدة حين كان الوسام كالرقعة من جلد الدولة يُرقع بها الصدر الذى شقوه ، انتزعوا ضميره - إذا نحن قلنا هذا وفعلنا هذا ، لم نجد الشعب

الذى يحكم لنا ، ووجدنا ذوى المال والجاه والمناصب الذين يحكمون علينا ؛ فكنا كمن يتقدم فى التهمة بغير محام إلى قاض ضعيف

يا أبا عثمان ، إنما هى حياة ثلاثة أشياء : الصحيفة ، ثم الصحيفة ، ثم الحقيقة ... فالفكرة الأولى للصحيفة ، والفكرة الثانية هى للصحيفة أيضاً : ومتى جاء الشعب الذى يقول : لا ، بل هى الحقيقة ، ثم الحقيقة ، ثم الصحيفة — فيومئذ لا يقال فى الصحافة ماقيل لليهود فى كتاب موسى : تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ...

قلت : أراك يا أبا عثمان لم تنكر شيئاً من رئيس التحرير فى هذه المرة ، فشق عليك ألا تثلبه ، فغمزته بالكلام عن مرة سالفة

قال : أما هذه المرة فأنا الرئيس لاهو ، وفى مثل هذا لا يكون عمك أبو عثمان من (صعاليك الصحافة) : إن الرجل اشتبه فى كلمة : ماوجهها : أمرفوعة هى أم منصوبة ؟ وفى لفظة : ماهى : أعربية أم مولدة ؟ وفى تعبير أعجمى : ماالذى يؤديه من العربية الصحيحة ؟ وفى جملة : أهى فى نسقها أفصح أم يُبدلها ؟

إن المعجم هنا لا يفيدهم شيئاً إلا إذا نطق ...

ولقد ابتُليتْ هذه الأمة فى عهدها الأخير بحب السهولة مما أثَّر فيها الاحتلال وسياسته وتحمُّله الأعباء عنها واستهدائه دونها للخطر ، فشبه العامية فى لغة الصحف وفى أخبارها وفى طريقها إنما هو صورة من سهولة تلك الحياة ، وكأنه تثبيت للضعف والخور ، وأنت خبير أن كل شىء يتحول بما تُحدث له طبيعته عالياً أو نازلا ، فقد تحولت السهولة من شبه العامية إلى نصف العامية فى كتابة أكثر المجلات وفى رسائل طلبة المدارس ، حتى لتبدو المقالة فى ألفاظها ومعانيها كأنها القنفذ أراد أن يحمل مأكلة صغاره ، فقرض

عنقوداً من العنب ، وألقاه فى الأرض وأتربه وتمرغ فيه ، ثم مشى يحمل كل حبة مرضوضة فى عشرين إبرة من شوكه

* * *

ثم مد أبو عثمان يده فتناول مجلة مما أمامه وقعت يده عليها اتفاقاً ، ثم دفعها إلىّ وقال : اقرأ ولا تجاوز عنوان كل مقالة . فقرأت هذه العناوين :

« مسئولية طبيب عن فتاة عذراء » ، « مودة الراقصات الصينيات » ، « تخر مغشياً عليها لأنهم اكتشفوا صورة حبيبها » « هل يعتبر قبول الهدية دليلا على الحب ، وإذا كانت ملابس داخلية ... فهل تعتبر وعداً بالزواج ؟ » ، « هل يحق للأب أن يطالب صديق ابنته ... بتعويض إذا كانت ابنته غير شرعية » ، « بين خطيبتين لشاب واحد » ، « بعد أن قص على زوجته أخبار السهرة ... لماذا أطلقت عليه الرصاص ؟ » ، « عروس تأخذ (شبكة) من شابين ثم تطردهما » ، « زوجة الموظف أين ذهبت » ، « لماذا خُطفت العروس فى اليوم المحدد للزفاف ؟ » ، « فى الطريق : حب بالإكراه » ، « فلانون وفلانات ، زواج وطلاق ، وأخبار المراقص ، وحوادث أماكن الدعارة » الخ الخ .

فقال أبو عثمان : هذه هى حرية النشر ؛ ولئن كان هذا طبيعيا فى قانون الصحافة إنه لإثم كبير فى قانون التربية ؛ فإن الأحداث والضعفاء يجدونه عند أنفسهم كالتخيير بين الأخذ بالواجب وبين تركه ، ولا يفهمون من جواز نشره إلا هذا ... وباب آخر من هذا الشكل فبكُم أعظم حاجة إلى أن تعرفوه وتقفوا عنده ، وهو مايصنع الخبر ولا سيما إذا صادف من السامع قلة تجربة ، فإن قرن بين قلة التجربة وقلة التحفظ — دخل ذلك الخبر إلى مستقره من القلب دخولا سهلا ، وصادف موضعاً وطيئاً وطبيعة

قابلة ونفساً ساكنة ، ومتى صادف القلبَ كذلك رسخ رسوخا لاحيلة في إزالته

ومتى ألقى إلى الفتيان شيء من أمور الفتيات في وقت الغرارة وعند غلبة الطبيعة وشباب الشهوة وقلة التشاغل و . . » (*)

ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير ...

صعاليك الصحافة (**)

تتمـــة

وجاء أبو عثمان وفي بُروز عينيه مايجعلهما في وجهه شيئاً كعلامتى تعجُّب ألقتهما الطبيعة في هذا الوجه ، وقد كانوا يلقبونه (الْحَدَقى) فوق تلقيبه بالجاحظ ، كأن لقباً واحدا لايبيّن عن قبح هذا النتوء في عينيه إلا بمرادف ومساعد من اللغة ... وما تذكرت اللقبين إلا حين رأيت عينيه هذه المرة .

(*) هذه الجملة من كلام الجاحظ

(**) كتب الدكتور زكى مبارك مقالا في جريدة المصرى الغراء زعم فيه أننا قلنا « إن الصحافة لاتنجح إلا في أيدى الصعاليك » ولا ندرى كيف أحس هذا المعنى ، ثم تهددنا ! ! فقال : « مارأيك إذا وقف لك أحد الصحفيين (ولعله يعنى نفسه) في معركة فاصلة !! ورماك بحب التكلف والافتعال في عالم الانشاء والتأليف »؟ «مارأيك إذا حملك رجل منهم (ولعله يعنى نفسه) على عاتقه وألقى بك في هاوية التاريخ لتعيش مع صعصعة بن صوحان » ؟ ـ أبلغ خطباء العرب وأنطقهم .

وجوابنا لصاحبنا هذا : أن وزارة الداخلية اطلعت على مقاله فأمرت جميع المحال التى تبيع لعب الأطفال ، ألا يبيعوا « معركة فاصلة » ولا « هاوية تاريخ » . . .

وانحطّ فى مجلسه كأن بعضه يرمى بعضه من سخط وغيظ ، أو كأن من جسمه ما لا يريد أن يكون من هذا الخلق المشوه ، ثم نصب وجهه يتأمل ، فبدت عيناه فى خروجهما كأنما تهمّان بالفرار من هـذا الوجه الذى تحيا الكآبة فيــه كما يحيا الهمّ فى القلب ؛ ثم سكت عن الكلام لأن أفكاره كانت تكلمه .

فقطعتُ عليه الصمت وقلت : يا أبا عثمان ، رجعتَ من عند رئيس التحرير زائدا شيئاً أو ناقصاً شيئاً : فمـا هو يرحمك الله ؟

قال : رجعت زائداً أنى ناقص ، وههنا شىء لا أقوله ، ولو أن فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لوقفوا على عملك وأمثال عملك من كتاب الصحف يتعجبون لهذا النوع الجديد من الشهداء !

وقال ابن يحيى النديم : دعانى المتوكل ذات يوم وهو مخمور فقال : أنشدنى قول عمارة فى أهل بغداد . فأنشدته :

ومن يشترى منى ملوك مُخرّم   أبِعْ حسناً وابنىْ هشامٍ بدرهم
وأُعطى «رجاءً» بعد ذاك زيادة   وأمنحُ « ديناراً » بغير تندّم

قال أبو عثمان :

فإن طلبوا منى الزيادة زدتهُم   أبا دُلف والمستطيلَ بن أكثم

ويلى على هذا الشاعر ! اثنان بدرهم ، واثنان زيادة فوقهما لعظم الدرهم ، واثنان زيادة على الزيادة لجلالة الدرهم ؛ كأنه رئيس تحرير جريدة يرى الدنيا قد ملئت كتّابا ، ولـكن ههنا شيئا لا أقوله .

وزعموا أن كسرى أبرويز كان فى منزل امرأته شيرين ، فأتاه صياد بسمكة عظيمة ، فأعجب بهـا وأمر له بأربعـة آلاف درهم ، فقالت له شيرين : أمرت الصياد بأربعة آلاف درهم ، فإن أمرت بهـا لرجل من الوجوه

قال : إنمـا أمر لى بمثل ما أمر للصياد ! فقال كسرى : كيف أصنع ، وقد أمرت له ؟

قالت : إذا أتاك فقل له : أخبرنى عن السمكة ، أذكر هى أم أنثى ؟ فإن قال أنثى ، فقل له : لاتقع عينى عليك حتى تأتينى بقرينها . وإن قال غير ذلك فقل له مثل ذلك .

فلما غدا الصياد على الملك قال له : أخبرنى عن السمكة ، أذكر هى أم أنثى ؟ قال : بل أنثى ، قال الملك : فأتنى بقرينها . فقال الصياد : عمر الله الملك ، إنها كانت بكراً لم تتزوج بعد . .

قلت : يا أبا عثمان ، فهل وقعت فى مثل هذه المعضلة مع رئيس التحرير ؟

قال : لم ينفع عمك أن سمكته كانت بكراً ، فإنمـا يريدون إخراجه من الجريدة ؛ وما بلاغة أبى عثمان الجاحظ بجانب بلاغة التلغراف وبلاغة الخبر وبلاغة الأرقام وبلاغة الأصفر وبلاغة الأبيض ··· ولكن ههنا شيئاً لاأريد أن أقوله .

وسمكتى هـذه كانت مقالة جودتها وأحكمتها وبلغت بألفاظها ومعانيها أعلى منازل الشرف وأسنى رتب البيان ، وجعلتها فى البلاغة طبقـة وحدها ، وقبل أن يقول الأوربيون (صاحبة الجلالة الصحافة) قال المأمون : «الكتاب ملوك على الناس » ، فأراد عمك أبو عثمان أن يجعل نفسه ملكا بتلك المقالة فإذا هو بها من (صعاليك الصحافة)

لقـد كانت كالعروس فى زينتها ليلة الجلوة على محبها ، ماهى إلا الشمس الضاحية ، وما هى إلا أشواق ولذات ، وما هى إلا اكتشاف أسرار الحب ، وما هى إلا هى ؛ فإذا العروس عند رئيس التحرير هى المطلقة ، وإذا المعجب هو المضحك ، ويقول الرجل : أما نظرياً فنعم ، وأما عملياً فلا ؛ وهذا عصر

خفيف يريد الخفيف ، وزمن عامى يريد العامى ، وجمهور سهل يريد السهل ؛ والفصاحة هى إعراب الكلام لا سياسته بقوى البيان والفكر واللغة ، فهى اليوم قد خرجت من فنونها واستقرت فى علم النحو

وحسبُك من الفرق بينك وبين القارئ العامى : أنك أنت لا تلحن وهو يلحن

قال أبو عثمان : وهـذه أكرمك الله منزلة يقل فيها الخاصى ويكثر العامى فيوشك ألا يكون بعدها إلا غلبة العامية ، ويرجع الكلام الصحافى كله سوقياً بلدياً (حنشصياً) ، وينقلب النحو نفسه وما هو إلا التكلف والتوعر والتقعر كما يرون الآن فى الفصاحة ، والقليل من الواجبات ينتهى إلى الأقل ؛ والأقل ينتهى إلى العدم ، والانحدار سريع يبدأ بالخطوة الواحدة ثم لا تملك بعدها الخطى الكثيرة

لا جرم فسد الذوق وفسد الأدب وفسدت أشياء كثيرة كانت كلها صالحة ، وجاءت فنون من الكتابة ماهى إلا طبائع كتابها تعمل فيمن يقرؤها عمل الطباع الحية فيمن يخالطها ، ولو كان فى قانون الدولة تهمة إفساد الأدب أو إفساد اللغة ، لقبض على كثيرين لا يكتبون إلا صناعة لهو ومسلاة فراغ وفساداً وإفساداً ؛ والمصيبة فى هؤلاء مايزعمون لك من أنهم يستنشطون القراء ويلهونهم ، ونحن إنما نعمل فى هذه النهضة لمعالجة اللهو الذى جعل نصف وجودنا السياسى عدما : ثم لملء الفراغ الذى جعل نصف حياتنا الاجتماعية بطالة ؛ وهذا أيضاً مما جعل عمك أبا عثمان فى هذه الصحافة من (صعاليك الصحافة) ، وتركه فى المقابلة بينه وبين بعض الكتاب كأنه فى أمس وكأنهم فى غد

ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير ...

✲ ✲ ✲

فما شككت أنهم سيطردونه ، فإن الله لم يرزقه لساناً مطبعياً ثرثاراً يكون كالمتصل من دماغه بصندوق حروف ... ولم يجعله كهؤلاء السياسيين الذين يتم بهم النفاق ويتلوّن ، ولا كهؤلاء الأدباء الذين يتم بهم التضليل ويتشكل

ورجع شيخنا كالمخنوق أُرخى عنه وهو يقول : ويلى على الرجل ! ويلى من الكلام الظريف الذى يقال فى الوجه ليَدفع فى القفا ... كان ينبغى ألا يملك هــذه الصحافة اليومية إلا مجالس الأمة : فذلك هو إصلاح الأمة والصحافة والكتاب جميعاً ؛ أما فى هذه الصحف فالكاتب يخبز عيشه على نار تأكل منه قدر ما يأكل من عيشه ؛ ولو أن عمك فى خفض ورفاهية وسعة ، لكان فى استغنائه عنهم حاجتُهم إليه ؛ ولكن السيف الذى لايجد عملا للبطل ، تَفضُله الإبرة التى تعمل للخياط ، وماذا يملك عمك أبو عثمان ؟ يملك مالا ينزل عنه بدول الملوك ، ولا بالدنيا كلها ، ولا بالشمس والقمر ؛ إذ يملك عقله وبيانه ، على أنه مستأجَر هنا بعقله وبيانه ، يعقل ما شاءوا ويكتب ما شاءوا .

لك الله أن أصدقك القولَ فى هذه الحرفة اليومية : إن الكاتب حين يخرج من صحيفة إلى صحيفة ، تخرج كتابته من دين إلى دين ...

ورأيت شيخنا كأنما وضع له رئيس التحرير مثلَ البارود فى دماغه ثم أشعله ، فأردت أن أمازحه وأسرّى عنه ، فقلت : اسمع ياأبا عثمان ، جاءتنى بالأمس قضية يرفعها صاحبها إلى المحكمة ، وقد كتب فى عرض دعواه إن جار بيته غصَبه قطعة من أرض فِنائه الذى تركه حول البيت ، وبنى فى هذه الرقعة دارا ، وفتح لهذه الدار نافذات ، فهو يريد من القاضى أن يحكم برد الأرض المغصوبة ، وهدم هذه الدار المبنية فوقها ، و . . و . . وسد نافذاتها المفتوحة ... !

فضحك الجاحظ حتى أمسك بطنه بيده وقال : هذا أديب عظيم كبعض الذين يكتبون الأدب فى الصحافة : كثرت ألفاظه ونقص عقله ، « وسئل بعض الحكماء : متى يكون الأدب شراً من عدمه ؟ قال : إذا كثر الأدب ونقصت القريحة . وقد قال بعض الأولين : من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه ، كان حتفه فى أغلب خصال الخير عليه ؛ وهذا كله قريب بعضه من بعض » (*) والأدب وحده هو المتروك فى هذه الصحافة لمن يتولاه كيف يتولاه ؛ إذ كان أرخص ما فيها ، وإنما هو أدب لأن الأمم الحية لا بد أن يكون لها أدب ، ثم هو من بعد هذا الاسم العظيم ملء فراغ لا بد أن يملأ ، وصفحة الأدب وحدها هى التى تظهر فى الجريدة اليومية كبقعة الصدأ على الحديد : تأكل منه ولا تعطيه شيئاً .

ثم يأبى من تُترك له هذه الصفحة إلا أن يجعل نفسه (رئيس تحرير) على الأدباء ، فما يدع صفة من صفات النبوغ ولا نعتاً من نعوت العبقرية إلا نَحَلَه نفسه ووضعه تحت ثيابه ؛ وما أيسر العظمة وما أسهل منالها إذا كانت لا تكلفك إلا الجراءة والدعوى والزعم ، وتلفيق الكلام من أعراض الكتب وحواشى الأخبار .

وقد يكون الرجل فى كتابته كالعامة ، فإذا عبته بالركاكة والسخف والابتذال وفراغ ما يكتب ، قال : هذا ما يلائم القراء ، وقد يكون من أكذب الناس فيما يدَّعى لنفسه وما يهوّل به لتقوية شأنه وإصغار من عداه ، فإذا كذَّبه من يعرفه قال : هذا ما يلائمنى ، وهو واثق أنه فى نوع من القراء ليس عليه إلا أن يملأهم بهذه الدعاوى كما تملأ الساعة ، وإذا هم جميعاً يقولون : تك تك . . تك تك . . . . .

(*) هذه الجملة من كلام الجاحظ

فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل ، جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب والإغلاق والإبانة والملحون والمعرب ، كلَّه سواء وكله بياناً (*) وكان المكى طيبَ الحجج ، ظريفَ الحيل ، عجيب العلل ، وكان يدَّعى كل شىء على غاية الإحكام ولم يحكم شيئاً قط من الجليل ولا من الدقيق ؛ وإذ قد جرى ذكره فسأحدثك ببعض أحاديثه ، قلت له مرة : أعلمت أن الشارى حدثنى أن المخلوع (أى الأمين) بعث إلى المأمون بجراب فيه سمسم ، كأنه مخبره أن عنده من الجند بعدد ذلك ، وأن المأمون بعث له بديك أعور ، يريد أن طاهر بن الحسين يَقتل هؤلاء كلهم كما يلقط الديك الحب ؟

قال : فإن هذا الحديث أنا ولدته ، ولكن انظر كيف سار فى الآفاق ... (**)

ثم قال أبو عثمان : وقد زعم أحد أدبائكم أنه اكتشف فى تاريخ الأدب اكتشافاً أهمله المتقدمون وغفل عنه المتأخرون ، فنظر عمك فى هذا الذى ادعاه ، فإذا الرجل على التحقيق كالذى يزعم أنه اكتشف أمريكا فى كتاب من كتب الجغرافيا ... (١)

وما يزال البلهاء يصدقون الكلام المنشور فى الصحف ، لا بأنه صدق ، ولكن بأنه « مكتوب فى الجريدة » ... فلا عجب أن يظن كاتب صفحة الأدب ـ متى كان مغروراً ـ أنه إذا تهدد إنساناً فما هدده بصفحته ، بل بحكومته ...

نعم أيها الرجل إنها حكومة ودولة ؛ ولكن ويحك : إن ثلاث ذبابات ليست ثلاث قطع من أسطول انجلترا ...... !

* * *

وضحك أبو عثمان وضحكت ! فاستيقظت .

(*) و(**) هذا من كلام الجاحظ

(١) يعنى زكى مبارك فى دعوى معرفته أول من اخترع فن المقامات

أبو حنيفة ولكن بغير فقه[1] !

قد انتهينا فى الأدب إلى نهاية صحافية عجيبة ، فأصبح كل من يكتب ينشر له ، وكل من ينشر له يعد نفسه أديبا ، وكل من عد نفسه أديبا جاز له أن يكون صاحب مذهب وأن يقول فى مذهبه ويرد على مذهب غيره .

فعندنا اليوم كلمات ضخمة تدور فى الصحف بين الأدباء كما تدور أسماء المستعمرات بين السياسيين المتنازعين عليها ، يتعلق بها الطمع وتنبعث لها الفتنة وتكون فيها الخصومة والعداوة ، منها قولهم : أدب الشيوخ وأدب الشباب ؛ ودكتاتورية الأدب وديمقراطية الأدب ، وأدب الألفاظ وأدب الحياة ، والجمود والتحول ، والقديم والجديد ، ثم ماذا وراء ذلك من أصحاب هذه المذاهب ؟

وراء ذلك أن منهم أبا حنيفة ولكن بغير فقه ، والشافعى ولكن بغير اجتهاد ، ومالك ولكن بغير رواية ، وابن حنبل ولكن بغير حديث ؛ أسماء بينها وبين العمل أنها كذب عليه وأنه رد عليها .

وليس يكون الأدب أدباً إلا إذا ذهب يستحدث ويخترع على ما يصرّفه النوابغ من أهله حتى يؤرخ بهم فيقال أدب فلان وطريقة فلان ومذهب فلان ، إذ لا يجرى الأمر فيما علا وتوسط ونزل إلا على إبداع غيرَ تقليد ، وتقليدٍ غيرَ اتباع ، واتباع غيرَ تسليم : فلابد من الرأى ونبوغ الرأى واستقلال الرأى حتى يكون فى الكتابة إنسان جالس هو كاتبها ، كما أن الحىَّ الجالس فى كل حى هو مجموعه العصبى ، فيخرج ضرب من الآداب كأنه نوع من التحول فى الوجود الإنسانى يرجع بالحياة إلى ذات معانيها ، ثم يرسم من هذه المعانى

(١) وهذا فصل من المعركة الأخيرة بينه وبين زكى مبارك .

مثل ماأبدعت ذرّاتُ الخليقة فى تركيب من تركيب ، فلا يكون للأديب تعريف إلا أنه المقلّد الإلهى (*)

وإذا اعتبرنا هذا الأصل فهل يبدأ الأدب العربى فى عصرنا أو ينتهى ؛ وهل تراه يعلو أو ينزل ؛ وهل يستجمع أو ينفض ، وهل هو من قديمه الصريح بعيد من بعيد أو قريب من قريب أو هو فى مكان بينهما ؟

هذه معانٍ لو ذهبتُ أفصلها لاقتحمت تاريخاً طويلا أمرُّ فيه بعظام مبعثرة فى ثيابها لا فى قبورها ... ولكنى موجِز مقتصر على معنى هو جمهور هذه الأطراف كلها ، وإليه وحده يرجع مانحن فيه من التعادى بين الأذواق والإسفاف بمَنازع الرأى والخلط والاضطراب فى كل ذلك ؛ حتى أصبح أمر الأدب على أقبحه وهم يرونه على أحسنه ، وحتى قيل فى الأسلوب أسلوبٌ تلغرافى ، وفى الفصاحة فصاحة عامية ، وفى اللغة لغة الجرائد ، وفى الشعر شعر المقالة ؛ ونجمت الناجمة من كل علة ويُزيَّن لهم أنها القوة قد استحصفت واشتدت ، ونازع الأدب العربى إلى سخرية التقليد وإلى أن يكون لصيقاً دَعِيًّا فى آداب الأمم ، واستهلكه التضييعُ وسوءُ النظر له على حين يؤتَّى لهم أن كل ذلك من حفظه وصيانته وحسنِ الصنيع فيه ومن توفير المادة عليه

أين تصيب العلةَ إذا التمستها ؟ أفى الأدب من لغته وأساليب لغته ، ومعانيه وأغراض معانيه ؟ أم فى القائمين عليه فى مذاهبهم ومناحيهم وما يتفق من أسبابهم وجواذبهم ؟

إن تقُل إنها فى اللغة والأساليب والمعانى والأغراض ، فهذه كلها تصير إلى حيث يُراد بها ، وتتقلد البليَّةَ من كل من يعمل فيها ؛ وقد استوعبتْ

(*) استوفينا هذه المعانى فى مقالة « الأدب والأديب »

واتسعت ومادَّت العصورَ الكثيرة إلى عهدنا فلم توتَ من ضيق ولا جمود ولا ضعف : ثم هى مادة ولا عليها من لايحسن أن يضعَ يدَه منها حيث يملأ كفَّه أو حيث تقع يدُه على حاجته

وإن قلتَ إن العلة فى الأدباء ومذاهبهم ومناحيهم ودواعيهم وأسبابهم ، سألناك : ولمَ قصَّروا عن الغاية ، ولم وقعوا بالخلاف ، وكيف ذهبوا عن المصلحة ، وكيف اعتقمت الخواطر وفسدت الأذواق مع قيام الأدب الصحيح فى كتبه مقامَ أمة من أهله أعراباً وفصحاء وكتَّاباً وشعراء ، ومع انفساح الأفق العقلى فى هذا الدهر واجتماعه من أطرافه لمن شاء ، حتى لتجد عقول نوابغ القارّات الخمس تُحتقَب فى حقيبة من الكتب ، أو تُصندَق (*) فى صندوق من الأسفار

كيف ذهب الأدباء فى هذه العربية نشراً متبدِّدين تعلو بهم الدائرة وتهبط ، فكلٌّ أعلى وكل أسفل ؟ هذا فلان شاعر قد أحاط بالشعر عربيّه وغربيّه وهو ينظمه ويفتنّ فى أغراضه ويولّد ويسرق ويمسخ ويمسخ ، وهو عند نفسه الشاعر الذى فقدته كل أمة من تاريخها ووقع فى تاريخ العربية وحدها ابتلاءً ومحنة ؛ وهو ككل هؤلاء المغرورين يحسبون أنهم لو كانوا فى لغات غير العربية لظهروا نجوما ، ولكن العربية جعلت كلا منهم حصاة بين الحصى ، وتقرأ شعره فإذا هو شعر تتوهم من قراءته تقطيع ثيابك ، إذ تجاذب نفسك لتفر منه فراراً

وهذا فلان الكاتب الذى والذى ... والذى يرتفع إلى أقصى السموات على جناحَى ذبابة

(*) كلمة وضعناها على قياس تحتقب

وهذا فرعون الأدب الذى يقول : أنا ربكم الأعلى ! وهذا فلان وهذا فلان ...

أين يكون الزمام على هؤلاء وأمثالهم ليعرفوا ما هم فيه كما هم فيه ، وليضبطوا آراءهم وهواجسهم ، وليعلموا أن حسابهم عند الناس لا عند أنفسهم فالواحدة منهم واحدة وإن توهموها مائة وتوهمها بعضهم ألفاً أو ألفين ، ومتى قال الناس : غلطوا ، فقد غلطوا ، ومتى قالوا : سخفاء ، فهم سخفاء .

وأين الزمام عليهم وقد انطلقوا كأنهم مسخرون بالجبر على قانون من التدمير والتخريب ، فليس فيهم إلا طبيعة مكابرة لا إقرار منها ، باغية لا إنصاف معها ، نافرة لامساغ إليها ، متهمة لا ثقة بها ؛ طبيعة يتحول كل شىء فيها إلى أثر منها كما يتحول ماءُ الشجر فى العود الرطب المشتعل إلى دخان أسود !

☆ ☆ ☆

يرجع هذا الخلط فى رأيى إلى سبب واحد : هو خلو العصر من إمام بالمعنى الحقيقى يلتقى عليه الإجماع ويكون ملء الدهر فى حكمته وعقله ورأيه ولسانه ومناقبه وشمائله ؛ فإن مثل هذا الإمام يُخَصُّ دائماً بالإرادة التى ليس لها إلا النصر والغلَبة ، والتى تعطَى القوةَ على قتل الصغائر والسفاسف ؛ وهو إذا أُلقى فى الميزان عند اختلاف الرأى ، وُضع فيه بالجمهور الكبير من أنصاره والمعجبين بآدابه ، وبالسواد الغالب من كل الفاعليَّات المحيطة به والمنجذبة إليه ؛ ومن ثَمَّ تتهيأ قوة الترجيح ويتعيَّن اليقين والشك ؛ والميزان اليوم فارغ من هذه القوة فلا يرجِّح ولا يعيِّن

ومكانة هذا الإمام تحدُّ الأمكنة ، ومقداره يزنُ المقادير ، فيكون هو

المنطق الإنسانى فى أكثر الخلاف الإنسانى : تقوم به الحجة ، فتلزم وإن أنكرها المنكِر ، وتمضى وإن عاند فيها المعاند ، ويؤخذ بها وإن أصرَّ المِصرُّ على غيرها ، لأن بالإجماع على القياس يبين التطرفُ فى الزيادة أو التقصير ؛ والإجماع إذا ضَرَبَ ضرب المعصيةَ بالطاعة ، والزيغَ بالاستقامة ، والعنادَ بالتسليم ؛ فيخرج من يخرج وعليه وَسْمُه ، ويزيغ من يزيغ وفيه صفتُه ، ويصِرُّ المكابر واسمُه المكابر ليس غير ، وإن هو تكذّب وتأوَّل ، وإن زعم ما هو زاعم .

ولكل القواعد شواذّ ولكن القاعدة هى إمام بابها ؛ فما من شاذّ يحسب نفسَه منطلقاً مخلّى ، إلا هو محدود بها مردود إليها ، متصل من أوسع جهاته بأضيق جهاتها ؛ حتى ما يعرف أنه شاذّ إلا بما تعرف به أنها قاعدة ، فيكون شأنه فى نفسه بما تعيّن هى له على مَكْرَهته ومحبته .

والإمام يلبث فى آداب عصره فكراً ورأياً ، ويزيد فيها قوة وإبداعاً ، ويزين ماضيها بأنه فى نهايته ، ومستقبلها بأنه فى بدايته ، فيكون كالتعديل بين الأزمنة من جهة ، والانتقال فيها من جهة أخرى : لأن هذا الإمام إنما يُختار لإظهار قوة الوجود الانسانى من بعض وجوهها وإثبات شمولها وإحاطتها كأنه آية من آيات الجنس يأنَسُ الجنسُ فيها إلى كماله البعيد ، ويتلقى منه حكم التمام على النقص ، وحكم القوة على الضعف ، وحكم المأمول على الواقع ؛ ويجد فيه قومه كما يجدون فى الحقيقة التى لا يكابر عندها متنطع بتأويل ، وفى القوة التى لا يخالف عندها مبْطل بعناد ، وفى الشريعة التى لا يروغ منها متعسف بحيلة ؛ ولن يضل الناس فى حق عرفوا حده ، فإن ما وراء الحد هو التعدى ؛ ولن يخطئوا فى حكم أصابوا وجهه ، فإن ما عدا الوجه هو الخلاف والمراء .

وقد طبع الناس فى باب القدوة على غريزة لا تتحول ، فمن انفرد بالكمال

كان هو القـدوة ، ومن غلب كان هو السمْت ؛ ولابد لهم ممن يقتاسون به ويتوازنون فيه حتى يستقيموا على مراشدهم ومصالحهم ، فالامام كأنه ميزان من عقل ، فهو يتساط فى الحـكم على الناقص والوافى من كل ما هو بسبيله ، ثم لاخلاف عليه ، إذ كانت فيه أوزان القوى وزناً بعد وزن ، وكانت فيه منازل أحوالها منزلةً بعد منزلة .

هو إنسانٌ تتخير بعض المعانى السامية لتظهر فيه بأسلوب عملى ، فيكون فى قومه ضرباً من التربية والتعليم بقاعدة منتزعة من مثالها ، مشروحة بهـذا المثال نفسه ، فإليه يُرَدُّ الأمرُ فى ذلك وبتِلوه يُتلى وعلى سبيله يُنهج ، فما من شىء يتصل بالفن الذى هو إمام فيه ، إلا كان فيه شىء منه ، وهو من ذلك متصل بقوى النفوس كأنه هداية فيها ، لأنه بفنه حكم عليها ، فيكون قوة وتنبيهاً ، وتسهيلا وإيضاحاً ، وإبلاغاً وهداية ؛ ويكون رجلا وإنه لمعان كثيرة ، ويكون فى نفسه وإنه لفى الأنفس كلها ، ويعطَى من إجلال الناس مايكون به اسمه كأنه خَلْق من الحب طريقه على العقل لا على القلب .

ولعل ذلك من حكمة إقامة الخليفة فى الاسلام ووجوب ذلك على المسلمين ؛ فلابد على هذه الأرض من ضوء فى لحم ودم ، وبعض معانى الخليفة فى تنصيبه كبعض معانى « الشهيد المجهول » فى الأمم المحاربة المنتصرة المتمدنة : رمز التقديس ، ومعنى المفاداة ، وصمت يتكلم ، ومكان يوحِى ، وقوة تُستمد ، وانفراد بجمع ، وحكم الوطنية على أهلها بأحكام كثيرة فى شرف الحياة والموت ؛ بل الحرب مخبوءة فى حفرة ، والنصر مغطى بقبر ؛ بل المجهول الذى فيه كل ما ينبغى أن يُعلم :

✡ ✡ ✡

فعصرنا هـــذا مضطرب مختل إذ لا إمام فيه يجتمع الناس عليه ، وإذ

كل من يزعم نفسه إماما هو من بعض جهاته كأنه أبو حنيفة ولكن بغير فقه !

ولعمرى ما نشأ قولهم « الجديد والقديم » إلا لأن ههنا موضعا خاليا يُظهر خلاؤه مكانَ الفصل بين الناحيتين ويجعل جهة تمتاز من جهة ، فمنذ مات الامام الكبير الشيخ محمد عبده رحمه الله جرت أحداث ، ونتأت رءوس ، وزاغت طبائع ، وكأنه لم يمت رجل بل رُفع قرآن

الأدب والأديب (١)

إذا اعتبرتَ الخيالَ فى الذكاء الانسانى وأوْليته دِقّةَ النظر وحُسْنَ التمييز ، لم تجده فى الحقيقة إلا تقليداً من النفس الألوهيّة بوسائلَ عاجزةٍ منقطعة ، قادرةٍ على التصوُّر والوهم بمقدار عجزها عن الايجاد والتحقيق .

وهذه النفسُ البشريةُ الآتيةُ من المجهول فى أول حياتها ، والراجعةُ إليه آخرَ حياتها ، والمسدَّدَة فى طريقه مدةَ حياتها ، لا يمكن أن يتقررَ فى خيالها أن الشيء الموجود قد انتهى بوجوده ، ولا ترضى طبيعتها بما ينتهى فهى لا تتعاطى الموجودَ فيما بينها وبين خيالها على أنه قد فُرغ منه فما يُبْدَأ ، وتمَّ فما يُزاد ، وخلَدَ فلا يتحوّل ؛ بل لا تزال تَضرب ظنها وتُصرِّف وهمها فى كل ما تراه أو يتَاجْاج فى خاطرها ، فلا تبرح تتلمّحُ فى كل وجود غيبا ، وتكشف من الغامض وتزيد فى غموضه ، وتجرى دَأْباً على مجاريها

(١) انظر ص ٢٣٤ « حياة الرافعى »

الخيالية التى تُوثق صلتها بالمجهول ؛ فمن ثم لا بدّ فى أمرها مع الموجود بما لا وجود له ، تتعلّق به وتسكن إليه ؛ وعلى ذلك لا بد فى كل شىء ـ مع المعانى التى له فى الحق ـ من المعانى التى له فى الخيال ؛ وهاهنا موضعُ الأدب والبيان فى طبيعة النفس الإنسانية ، فكلاهما طبيعىٌّ فيها كما ترى .

وإذا قيل الأدب ، فاعلم أنه لا بد معه من البيان ؛ لأن النفس تخْلُق فتُصوِّر فتُحسِن الصورة ؛ وإنما يكونُ تمام التركيب فى مَعْرِضه وجمال صورته ودقَّةِ لمحاته ؛ بل يَنزلُ البيانُ من المعنى الذى يَلْبسه منزلةَ النضج من الثمرة الحلوة إذا كانت الثمرةُ وحدها قبل النضج شيئاً مُسمى أو متميزاً بنفسه فإن تكونَ بغير النضج شيئاً تاماً ولا صحيحاً ، ومابُدٌّ من أن تستوفى كمالَ عمرها الأخضر الذى هو بيانها وبلاغتها .

وهذه مسئلة كيفما تناولتها فهى هى حتى تمضيها على هذا الوجه الذى رأيتَ فى الثمرة ونضجها ؛ فإن البيانَ صناعةُ الجمال فى شىءٍ جمالُه هو من فائدته ، وفائدته من جماله ؛ فإذا خلا من هذه الصناعة التحق بغيره ، وعاد باباً من الاستعمال بعد أن كان باباً من التأثير ؛ وصار الفرقُ بين حالَيْه كالفرق بين الفاكهة إذْ هى بابٌ من النبات ، وبين الفاكهة إذْ هى بابٌ من الخمر ؛ ولهذا كان الأصلُ فى الأدب البيانَ والأسلوبَ فى جميع لغات الفكر الإنسانى ، لأنه كذلك فى طبيعة النفس الانسانية .

فالغرضُ الأول للأدب المبين أن يَخلق للنفس دنيا المعانى الملائمة لتلك النزعة الثابتة فيها إلى المجهول وإلى مجاز الحقيقة . وأن يُلْقِى الأسرارَ فى الأمور المكشوفة بما يتخيَّل فيها ، ويردَّ القليلَ من الحياة كثيراً وافياً بما يُضاعِفُ من معانيه ، ويتركَ الماضى منها ثابتاً قارًّا بما يخلِّد من وصفه ، ويجعلَ المؤلم منها لذيذاً خفيفاً بما يَبُث فيه من العاطفة ، والمملولَ ممتعاً حلواً بما

يكشف فيه من الجمال والحكمة ؛ ومَدارُ ذلك كلِّه على إيتاء النفس لذةَ المجهول التى هى فى نفسها لذةٌ مجهولة أيضاً ؛ وإن هذه النفس طُلَعةٌ متقلبة ، لا تبتغى مجهولاً صِرْفاً ولا معلوماً صرفاً ، كأنها مُدْركة بفطرتها أنْ ليس فى الكون صريحٌ مُطاقٌ ولا خفى مطاق ؛ وإنما تبتغى حالةً ملائمة بين هذين ، يثور فيها قَلَقٌ أو يسكن منها قلق .

وأشواقُ النفس هى مادّة الأدب ؛ فليس يكون أدباً إلا إذا وَضَعَ المعنى فى الحياة التى ليس لها معنى ، أو كان متّصلاً بسرّ هذه الحياة فيكشفُ عنه أو يومئ إليه من قريب ، أو غيَّر للنفس هذه الحياةَ تغييراً يجيء طباقاً لغرضها وأشواقها ؛ فإنه كما يَرْحَل الإنسانُ من جوٍّ إلى جوٍّ غيره ، ينقله الأدبُ من حياته التى لا تختلفُ إلى حياةٍ أخرى ، فيها شعورُها ولذّتها وإن لم يكن لها مكانٌ ولا زمان ؛ حياةٍ كمَلَتْ فيها أشواقُ النفس ، لأن فيها اللذاتِ والآلامَ بغير ضرورات ولا تكاليف ؛ ولعمرى ما جاءت الجنةُ والنارُ فى الأديان عَبثاً ؛ فإن خالق النفس بما ركّبه فيها من العجائب ، لا يحكم العقلُ أنه قد أتمّ خَلقها إلا بخلق الجنة والنار معها ؛ إذ هما الصورتان الدائمتان المتكافئتان لأشواقها الخالدةِ إن هى استقامت مُسدَّدَة أو انعكستْ حائلة .

وقد صحّ عندى أن النفس لا تتحقق من حريتها ولا تنطلق انطلاقتها الخالدة فتحسُّ وحدةَ الشعور ووحدةَ الكمال الأسمى — إلا فى ساعاتٍ وفترات تنسَلُّ فيها من زمنها وعيشها ونقائضها واضطرابها إلى (منطقة حياد) خارجةٍ وراء الزمان والمكان ؛ فإذا هبطتها النفس فكأنما انتقلتْ إلى الجنة واسترْوَحت الخلد ؛ وهذه المنطقة السحرية لا تكون إلا فى أربعة : حبيبٍ فاتنٍ معشوقٍ أُعطِىَ قوةَ سِحْر النفس ، فهى تنسى به ؛ وصديقٍ محبوب وفىٍّ أُوتِىَ قوةَ جَذب النفس ، فهى تنسى عنده ؛ وقطعةٍ أدبية آخِذة ، فهى ساحرةٌ

كالحبيب أو جاذبةٌ كالصديق ؛ ومنظرٍ فنيّ رائع ، ففيه من كل شيء شيء .

وهذه كلها تُنسِي المرء زمنَه مدةً تطول وتقصر ؛ وذلك فيها دليلٌ على أن النفس الانسانية تُصيب منها أساليبَ روحية لاتصالها هنيهةً بالروح الأزليّ فى لحظات من الشعور كأنها ليست من هذه الدنيا وكأنها من الأزلية ؛ ومن ثم نستطيع أن نقرر أن أساسَ الفنّ على الاطلاق هو ثورةُ الخالدِ فى الانسان على الفانى فيه ؛ وأن تصوير هـذه الثورة فى أوهامها وحقائقها بمثل اختلاجاتها فى الشعور والتأثير — هو معنى الأدب وأسلوبه .

ثم إن الاتساقَ والخيرَ والحقَّ والجمال — وهى التى تجعل للحياة الانسانية أسرارَها — أمورٌ غير طبيعيةٍ فى عالم يقوم على الاضطراب والأثرة والنزاع والشهوات ؛ فمن ذلك يأتى الشاعرُ والأديب وذو الفن علاجا من حكمة الحياة للحياة ، فيبدعون لتلك الصفات الإنسانية الجميلةِ عالمَها الذى تكون طبيعيةً فيه ، وهو عالَمٌ أركانه الاتساقُ فى المعانى التى يجرى فيها ، والجمالُ فى التعبير الذى يتأدّى به ، والحق فى الفكر الذى يقوم عليه ، والخيرُ فى الغرَض الذى يُساق له ؛ ويكون فى الأدب من النقص والكمال بحسب مايجتمع له من هـذه الأربعة ، ولا معيارَ أدقُّ منها إن ذهبتَ تعتبره بالنظر والرأى ؛ فى عمل الأديب تخرُجُ الحقيقة مضافاإليهاالفن ، ويجىءالتعبيرُمزيدا فيه الجمال ، وتتمثّل الطبيعةُ الجامدةُ خارجةً من نفس حيّة ، ويظهر الكلامُ وفيه رقّةُ حياةالقلب وحرارتُها وشعورُها وانتظامها ودَفْقها الموسيقىّ ؛ وتلبسُ الشهواتُ الإنسانيةُ شكلها المهذّب لتكون بسببٍ من تقرير المثَل الأعلى ، الذى هو السرُّ فى ثورة الخالدِ من الإنسان على الفانى ، والذى هو الغايةُ الأخيرة من الأدب والفنّ معاً ؛ وبهذا يهَبُ لك الأدب تلك القوةَ الغامضة التى تتسع بك حتى تشعرَ بالدنيا وأحداثها مارّةً من خلال نفسك ، وتحس الأشياء كأنها انتقلت إلى

ذاتك من ذواتها ؛ وذلك سر الأديب العبقريّ ؛ فإنه لا يرى الرأى بالاعتقاب (*) والاجتهاد كما يراه الناس ، وإنما يحسّ به ؛ فلا يقع له رأيه بالفكر ، بل يُلهَمه إلهاماً ؛ وليس يُوَاتيه الإلهام إلا من كون الأشياء تمرُّ فيه بمعانيها وتعبره كما تعبر السفن النهر ؛ فيحس أثرها فيه فيُلهَم ما يُلهم ، ويحسبه الناس نافذاً بفكره من خلال الكون ، على حين أن حقائق الكون هى النافذةُ من خلاله

ولو أردتَ أن تعرِّف الأديبَ من هو ، لما وجدت أجمع ولا أدقَّ فى معناه من أن تسميه الانسان الكونى ، وغيره هو الانسانُ فقط ؛ ومن ذلك ما يبلغ من عمق تأثُّره بجمال الأشياء ومعانيها ، ثم ما يقع من اتصال الموجودات به بآلامها وأفراحها ؛ إذ كانت فيه مع خاصية الإنسان خاصيةُ الكون الشامل ، فالطبيعة تثبت بجمال فنه البديع أنه منها ، وتدل السماء بما فى صناعته من الوحى والأسرار أنه كذلك منها ، وتبرهنُ الحياةُ بفلسفته وآرائه أنه هو أيضاً منها ؛ وهذا وذاك وذلك هو الشمول الذى لا حدّ له ، والاتساع الذى كلُّ آخر فيه لشىء ، أولٌ فيه لشىء .

وهو إنسان يُدَلِّه الجمالُ على نفسه ليدلّ غيرَه عليه ، وبذلك زيد على معناه معنى ، وأُضيفَ إليه فى إحساسه قوّةُ إنشاء الاحساس فى غيره : فأساس عمله دائماً أن يزيد على كل فكرةٍ صورةً لها ، ويزيد على كل صورةٍ فكرةً فيها ، فهو يُبدع المعانىَ للأشكال الجامدة فيوجد الحياة فيها ، ويبدع الأشكال للمعانى المجردةِ فيوجدها هى فى الحياة ، فكأنه خُلِقَ ليتلقى الحقيقةَ ويعطيها للناس ويزيدهم فيها الشعور بجمالها الفنى : وبالأدباء والعلماء تنمو معانى الحياة ، كأنما أوجدتهم الحكمة لتنتقلَ بهم الدنيا من حالة إلى حالة ؛ وكأن هذا الكون العظيم يمرُّ فى أدمغتهم ليحقّق نفسَه

(*) الاعتقاب : إطالة النظر وكد الفكر

ومشاركةُ العلماء للأدباء توجبُ أن يتميز الأديبُ بالأسلوب البيانى ، إذ هو كالطابع على العمل الفنى ، وكالشهادة من الحياة المعنوية لهـذا الانسان الموهوب الذى جاءت من طريقـه ، ثم لأن الأسلوب هو تخصيصٌ لنوع من الذوق وطريقة من الإدراك ، كأن الجمال يقولُ بالأسلوب : إن هذا هو عملُ فلان

وفصْلُ مابين العالم والأديب ، أن العالم فـكرة ، ولـكن الأديب فـكرةٌ وأسلوبها ؛ فالعلماءُ هم أعمالٌ متصلة متشابهةٌ يشارُ إليهم جملة واحدة ، على حين يقال فى كل أديب عبقرى : هذا هو ، هذا وحده ؛ وعلمُ الأديب هو النفسُ الانسانيةُ بأسرارها المتجهة إلى الطبيعة ، والطبيعة بأسرارها المتجهة إلى النفس ؛ ولذلك فوضع الأديب من الحياة موضع فـكرة حدودُها من كل نواحيها الأسرار

وإذا رأى الناس هـذه الانسانية تركيباً تاماً قائمـاً بحقائقه وأوصافه ، فالأديب العبقرىُّ لايراها إلا أجزاء ، كأنما هو يشهد خلقها وتركيبها . وكأنما أمرَّها فى (معمله) ، أو كأن الله — سبحانه — دعاه ليرى فيها رأيه ... وبذلك يجىء النابغُ من أدب العباقرة وبعضه كالمقترحات لتجميل الدنيا وتهذيب الانسانية ، وبعضه كالموافقة وإقرار الحكمة ؛ وأساسُه على كل هـذه الأحوال النقدُ ثم النقد ، ولاشىء غير النقد ؛ كأن القوة الأزليةَ تقول لهـذا الملهَم : أنت كلمتى فقُل كلمتَك ...

* ● *

وترى الجمالَ حيث أصبتَه شيئاً واحـداً لايكبر ولا يصغر ، ولـكن الحس به يكبر فى أناس ويصغر فى أناس ؛ وهاهنا يتألَّه الأدب ؛ فهو خالقُ الجمال فى الذهن ، والممكِّنُ للأسباب المعينة على إدراكه وتبين صفاته ومعانيه ،

وهو الذى يقدر لهذا العالم قيمته الانسانية بإضافة الصُّور الفكرية الجميلة إليه ، ومحاولته إظهار النظام المجهول فى متناقضات النفس البشرية ، والارتفاع بهذه النفس عن الواقع المنحط المجتمع من غشاوة الفِطرة وصَوْلةِ الغريزة وغرارةِ الطبع الحيوانى

وإذا كان الأمر فى الأدب على ذلك ، فباضطرارٍ أن تتهذّب فيه الحياةُ وتتأدب ، وأن يكون تَسلُّطه على بواعث النفس دُربةً لاصلاحها وإقامتها ، لا لإفسادها والانحراف بها إلى الزيغ والضلالة ؛ وباضطرارٍ أن يكون الأديبُ مكلفاً تصحيح النفس الانسانية ، ونَفْيَ التزوير عنها ، وإخلاصها مما يلتبس بها على تتابع الضرورات ؛ ثم تصحيح الفكرة الإنسانية فى الوجود ، ونفى الوثنية عن هذه الفكرة ، والسمو بها إلى فوق ، ثم إلى فوق ، ودائماً إلى فوق !

وإنما يكلَّف الأديبُ ذلك لأنه مستبصر من خصائصه التميزُ وتقدم النظر وتسقُّط الإلهام ، ولأن الأصل فى عمله الفنى ألا يبحث فى الشىء نفسِه ، ولكن فى البديع منه ؛ وألا ينظر إلى وجوده ، بل إلى سره ؛ ولا يُعنى بتركيبه ، بل بالجمال فى تركيبه ؛ ولأن مادة عمله أحوالُ الناس ، وأخلاقهم ، وألوان معايشهم ، وأحلامُهم ، ومذاهب أخيلتهم وأفكارهم فى معنى الفن ، وتفاوت إحساسهم به ، وأسباب مغاويهم ومراشدهم ؛ يُسدِّد على كل ذلك رأيه ، ويُجيل فيه نظره ، ويخالطه فى نفسه ، ويُنفِذُه من حواسه ، كأنما له فى السرائر القبضُ والبسط ، وكأنه ولى الحكم على الجزء الخفىّ فى الإنسان يقوم على سياسته وتدبيره ، ويَهديه إلى المثل الأعلى ؛ وهل يُخلق العبقرىُّ إلا كالبرهان من الله لعباده على أن فيهم من يقدر على الذى هو أكملُ والذى هو أبدع ، حتى لا ييأس العقل الإنسانى ولا ينخذل ، فيستمرَّ دائباً فى

طلب الكمال والابداع اللذين لانهاية لهما ؟

فالأديب يُشرِفُ على هــذه الدنيا من بصيرته فإذا وقائعُ الحياة فى حذوٍ واحد من النزاع والتناقض ، وإذا هى دائبةٌ فى مَحْق الشخصيةِ الانسانية ، تاركةٌ كلَّ حيٍ من الناس كأنه شخصٌ قائم من عمله وحوادثه وأسباب عيشه ؛ فإذا تلجلج ذلك فى نفس الأديب اتجهت هذه النفسُ العالية إلى أن تحفظ الدنيا حقائق الضمير والانسانية والايمان والفضيلة ، وقامت حارسةً على ماضيع الناس ، وسخِّرتْ فى ذلك تسخيراً لا تملك معــه أن تأبىَ منه ، ولا يستوى لها أن تغمض فيه ؛ وتُنقِات الانسانيةُ كلها ووُضعت على مجاز طريقها أين توجهتْ ، فتأكّد الأمر فيها ، ووُصِلَ بهــا ، وعلمت أنها من خالصةِ الله ، وأن رسالتها للعالم هى تقريرُ الحب المتعادين ، وبسطُ الرحمــة للمتنازعين ، وأن تجمعَ الكل على الجمال وهو لا يختلف فى لذته ، وتصلَ بينهم بالحقيقة وهى لا تتفرق فى موعظتها ، وتُشعرهم الحكمة وهى لاتتنازَع فى مناحيها : فالأدبُ من هذه الناحية يشبه الدين : كلاهما يُعينُ الانسانيةَ على الاستمرار فى عملها ، وكلاهما قريبٌ من قريب ؛ غــير أن الدين يعرض للحالات النفسية ليأمر وينهى ، والأدب يعرض لهــا ليجمع ويقابل ؛ والدين يوجه الانسان إلى ربه ، والأدب يوجهه إلى نفسه ؛ وذلك وحىُ الله إلى الملك إلى نبيٍ مختار ، وهــذا وحى الله إلى البصيرة إلى إنسانٍ مختار

فإن لم يكن للأديب مَثلٌ أعلى يجهد فى تحقيقه ويعمل فى سبيله ، فهو أديبُ حالةٍ من الحالات ، لا أديبُ عصر ولا أديبُ جيل ؛ وبذلك وحده كان أهل المثل الاعلى فى كل عصرٍ هم الأرقام الانسانية التى يُلقيها العصر فى آخر أيامه ليحسب ربحه وخسارته …

ولا يخدعنك عن هـذا أن ترى بعض العبقريين لا يُؤتَّى فى أدبه أو أكثره إلا إلى الرذائل، يتغلغل فيها، ويتمـلّأ بها، ويكون منها على ماليس عليه أحد إلا السِّفْلة والحشوة من طغام الناس ورعاعهم؛ فإن هذا وأضرابه مسخَّرون لخدمة الفضيلة وتحقيقها من جهة مافيها من النهى، ليكونوا مثلاً وسلفاً وعبرة؛ وكثيراً ما تكون الموعظةُ برذائلهم أقوى وأشـدَّ تأثيراً ممـا هى فى الفضائل؛ بل هم عندى كبعض الأحوال النفسية الدقيقة التى يأمر فيها النهىُ أقوى ممـا يأمر الأمر، على نحو ما يكون من قراءتك موعظة الفضيلة الأدبية التى تأمرك أن تكون عفيفاً طاهراً: ثم ما يكون من رؤيتك الفاجرَ المبتلَى المشوَّه المتحطِّم الذى ينهاك بصورته أن تكون مثله؛ ولهذه الحقيقة القوية فى أثرها — حقيقةِ الأمر بالنهى — يعمد النوابغ فى بعض أدبهم إلى صرف الطبيعة النفسية عن وجهها، بعكس نتيجة الموقف الذى يصورونه، أو الاحالةِ فى الحادثة التى يصفونها؛ فينتهى الراهب التقىُّ فى القصة ملحدا فاجرا، وترتدُّ المرأة البغىُّ قِدِّيسة، ويرجع الابن البر قاتلا مجنوناً جنون الدم؛ إلى كثير ممـا يجرى فى هذا النسق، كما تراه لأناطول فرانس وشكسبير وغيرهما، وما كان ذلك عن غفلة منهم ولا شر، ولكنه أسلوب من الفن، يقابله أسلوب من الخلق، ليبدع أسلوباً من التأثير؛ وكل ذلك شاذ معدود ينبغى أن ينحصر ولا يتعدى، لأنه وصفٌ لأحوال دقيقةٍ طارئةٍ على النفس، لا تعبير عن حقائق ثابتة مستقرةٍ فيها

والشرط فى العبقرى الذى تلك صفته وذلك أدبه، أن يعلو بالرذيلة ... فى أسلوبه ومعانيه، آخذا بغاية الصنعة، متناهياً فى حسن العبارة؛ حتى يصبح وكأن الرذائلَ هى اختارت منه مفسِّرها العبقريَّ الشاذَّ الذى يكون فى سمو فنه البيانى هو وحده الطرفَ المقابلَ لسموِّ العبارة عن الفضيلة،

فيصنع الالهامُ فى هذا وفى هـذا صنعه الفنىَّ بطريقةٍ بديعة التأثير ، أصلها فى أديب الفضيلة ما يريده ويجاهد فيـه ، وفى أديب الرذيلة ما يقوده ويندفع إليـه . كأن منهما إنسانا صار ملـكا يكتب ، وإنسانا عاد حيواناً يكتب ...

وإذا أنت ميَّلت بين رذيلة الأديب العبقرى فى فنه ، ورذيلة الأديب المسْل الذى يتشبه به — فى التأليف والرأى والمتابعةِ والمذهب — رأيت الواحدةَ من الأخرى كبكاء الرجل الشاعر من بكاء الرجل الغليظ الجلف : هذا دموعه ألمه ، وذاك دموعه ألمه وشعره ؛ وفى كتابة هذه الطبقة من العبقريين خاصةً يتحقق لك أن الأسلوب هو أساس الفن الأدبى ، وأن اللذة به هى علامة الحياة فيـه : إذ لا ترى غير قطعة أدبية فنية ، شاهـدُها من نفسها على أنها بأسـلوبها ليست فى الحقيقة إلا نـكتةً نفسـية لاهتياج البواعث فى نفوس قرائها ، وأنها على ذلك هى أيضا مسـئلةٌ من مسائل الانسانية مطروحةٌ للنظر والحل ، بما فيها من جمال الفن ودقائق التحليل

* * *

واللذةُ بالأدب غير التلهِّى به واتخاذِه للعَبَث والبَطالة فيجىء موضوعا على ذلك فيخرج إلى أن يكون مَلْهاة وسُخفا ومَضْيَعة : فإن اللذة به آتية من جمال أسلوبه وبلاغةِ معانيه وتناوُله الكون والحياة بالأساليب الشعرية التى فى النفس ، وهى الأصل فى جمال الأسلوب ؛ ثم هو بعد هـذه اللذة منفعةٌ كلّه كسائر ما ركب فى طبيعة الحى ، إذ يحس الذوقُ لَذَّةَ الطعام مثلاً على أن يكون من فعلها الطبيعىّ استمراءُ التغذية لبناء الجسم وحفظِ القوةِ وزيادتِها ؛ أما التلهى فيجىء من سخف الأدب ، وفراغ معانيه ، ومؤاتاتِه الشهواتِ الخسيسةَ ، والتماسه الجوانب الضيقة من الحياة ؛ وذلك حين لا يكون

أدبَ الشعب ولا الإنسانية ، بل أدبَ فئة بعينها وأحوالها ؛ فإن أديب صناعتِه أو أديبَ جماعته ، غيرُ أديب قومِه وأديبِ عصره : أحدهما إلى حدّ محدود من الحياة ، والآخر عملٌ جامع مستمرٌّ متفنّن ؛ لأن عمله الأدبى هو وجوده ، وكل شيء فى قومه لا يبرحُ يقول له : اكتبْ ...

ومن الأصول الاجتماعيةِ التى لا تتخلّف ، أنه إذا كانت الدولةُ للشعب ، كان الأدبُ أدبَ الشعب فى حياته وأفكاره ومطامحه وألوانِ عيشِه ، وزَخَر الأدب بذلك وتنَوَّع وافتَنَّ وبُنى على الحياة الاجتماعية ؛ فإن كانت الدولةُ لغير الشعب ، كان الأدبُ أدبَ الحاكمين وبُنى على النفاق والمداهنة والمبالغةِ الصناعيةِ والكَذِب والتدليس ، ونَضِبَ الأدب من ذلك وقلّ وتكرّر من صورةٍ واحدة ؛ وفى الأولى يتسع الأديب من الاحساس بالحياة وفنونها وأسرارِها فى كلِّ من حَوْله ، إلى الاحساس بالكون وتجاليه وأسراره فى كل ما حَوْله ؛ أما الثانية فلا يُحس فيها إلا أحوال نفسه وخَليطِه ، فيصبح أدبه أشبهَ بمسافةٍ محدودةٍ من الكون الواسع لا يزال يذهب فيها ويجيءُ حتى يملَّ ذهابَه ومجيئَه

والعَجَب الذى لم يتنبّه له أحدٌ إلى اليوم من كل من درسوا الأدبَ العربى قديماً وحديثاً ، أنك لا تجد تقريرَ المعنى الفلسفى الاجتماعىِّ للأدب فى أسمى معانيه إلا فى اللغة العربية وحدها ، ولم يغفل عنه مع ذلك إلا أهل هذه اللغة وحدهم !

فإذا أردتَ الأدب الذى يقرِّر الأسلوبَ شرطا فيه ، ويأتى بقوّة اللغة صورةً لقوة الطباع ، وبعظَمة الأداء صورة لعظمة الأخلاق ، وبرقّةِ البيان صورة لرقة النفس ، وبدقّته المتناهية فى العمق صورةً لدقّة النظرة إلى الحياة ؛ ويُريك أن الكلامَ أمةٌ من الألفاظ عاملةٌ فى حياة أمة من

الناس ، ضابطةً لها المقاييسَ التاريخية ، مُحكِمة لها الأوضاع الإنسانية مشترِطةً فيها المثلَ الأعلى ، حاملةً لها النور الالهىَّ على الأرض ...

... وإذا أردتَ الأدبَ الذى يُنشئ الأمة إنشاءً ساميا ، ويدفعها إلى المعالى دفعًا ، ويردُّها عن سَفَاسِف الحياة ، ويوجِّهها بدقَّة الابرة المغناطيسية إلى الآفاق الواسعة ، ويسدِّدها فى أغراضها التاريخية العاليةِ تسديدَ القنبلة خرجت من مدفعها الضخم المحرّر المحكم ، ويملأ سرائرها يقينا ونفوسَها حزما وأبصارَها نظراً وعقولَها حكمة ، ويَنفُذُ بها من مظاهر الكون إلى أسرار الألوهية ...

... إذا أردت الأدب على كل هذه الوجوه من الاعتبار — وجدت القرآنَ الحكيم قد وَضَعَ الأصلَ الحىَّ فى ذلك كله ، وأعجب مافيه أنه جعل هذا الأصل مقدَّسا ، وفَرَضَ هذا التقديس عقيدة ، واعْتَبَرَ هذه العقيدةَ ثابتةً لن تتغير ؛ ومع ذلك كله لم يتنبه له الأدباء ولم يَحْذُوا بالأدب حَذْوه ، وحسِبوه دينا فقط ، وذهبوا بأدبهم إلى العبث والمجون والنفاق ؛ كأنه ليس منهم إلا بقايا تاريخٍ محتَضِرٍ بالعلل القاتلة ، ذاهبٍ إلى الفناء الحتم !

والقرآن بأسلوبه ومعانيه وأغراضِه لا يُستخرج منه للأدب إلا تعريفٌ واحد هو هذا : إن الأدب هو السموُّ بضمير الأمة

ولا يستخرج منه للأديب إلا تعريفٌ واحد هو هذا : إن الأديب هو مَن كان لأمته وللُغتها فى مواهبِ قلمِه لقَبٌ من ألقاب التاريخ .

سر النبوغ فى الأدب (١)

لو ترجمنا الخاطرة التى تمرّ فى ذهن الحيوان الذكى حين ينقاد فى يد رجل ضعيف أبله يُصرِّفُهُ ويُديرُهُ على أغراضه، فنقلناها من فكر الحيوان إلى لغتنا، وأديناها بمعنًى مما بين الإنسان والحيوان - لكانت فى العبارة هكذا : ماأنت أيها الأبله فيما بينى وبين الحقيقة المدبِّرة للكون إلا نبىٌّ مرسل صلى الله عليك وسلم ... ؛ ذلك أن التركيب الذى يَبِينُ به الإنسان من الحيوان قد جعل دماغ هذا الحيوان خاتماً من الله دمغ به على خصائصِهِ فأفرغه الله فى جلده، ووضع فى رأسِهِ ذلك القفل الإلٰهى الذى حبسهُ فى باب الاضطرار من غرائزه البهيمية، وأقفل به على الدنيا العقلية المتّسعةِ بينه وبين الإنسان؛ فالكون عنده لغوٌ كلّه ليس فيه إلا حقائق يسيرة، ثم لاتفسير لهذه الحقائق إلامن طبيعتِهِ هو ، فجلِده أدق تفسير فلكى ... للشمس والنور والهواء وما يجىءُ منها، وجوفهُ أصح تعبير جغرافى ... للكرة الأرضية وما تحمل، وجوعُه وشبعهُ هما كل فلسفة الشر والخير فى العالم !

فأساس الذكاء عالياً ونازلا هو التركيب الطبيعى لاغيره : لوزادت فى الدماغ ذرة أو نقصت لزادت الدنيا صورة أو نقصت؛ فبالضرورة تكون هـذه هى القاعدةَ فيما نرى من تباين حدة الذكاء فى أفراد كل نوع من الحيوان، وما نشهد من ذلك فى أحوال الناس، من الفطنة إلى الذكاء (*) إلى

---

(١) المقتطف : يناير سنة ١٩٣٣

(*) عندنا أن الفطنة فى اللغة، دون الذكاء؛ تقابل ما عند الحيوان من التنبه ؛ والذكاء : والتوقد واللهيان

الألمعية إلى الجهبذة إلى النبوغ إلى العبقرية ؛ وهى طبقات من ألفاظ اللغة لأحوال قائمة من هذه المعانى ترجع إلى درجات ثابتة فى تركيب الدماغ

ومما يسجد له العقل الإنسانى سجدة طويلة إذا هو تأمل فى حكمة الله ومرَّ يتصفح من أسرار ما نحن بسبيله من الكلام على النبوغ — أن هذا الوجود الذى يحمل أسرار الألوهية هو كرة متقاذَفة فى الفضاء الأبدى ، وأن الأرض التى تحمل أسرار الإنسانية ، هى كُرة طائرة فيما مُدَّ لها من الوجود ، وأن كل حى فيها يحمل أسرار حياته فى كرة خاصة به هى رأسه ، وأن الوجود من كل حى هو بعد ذلك ليس شيئاً فى النظر ولا فى الحس ولا فى الفهم إلا كما يُرى ويحسُّ ويفهم فى هذا الرأس بعينه على طريقته وتركيبه ، فيصعد التدريج إلى الكبير إلى الأكبر ، وينزل إلى الصغير إلى الأصغر ؛ ثم لامعنى لما صعد إلا بما نزل . وبهذا ستكون آخرة جميع العلوم متى نفذ العلماء إلى السر الحقيق ، أن العقل الإنسانى فهم كل شىء ولم يفهم شيئاً ...

والناس يختلفون بتركيب أدمغتهم على شبيه من هذا التدريج ؛ فأما واحد فيكون دماغه باعتباره من سائر الناس فى الذكاء والعقل كالوجود المحيط ، وأما آخر فكالشمس ، ثم غيرهما كالأرض ، ثم الرابع كالانسان ، ثم يكون منهم كالحيوان ومنهم كالحشرة ؛ ولا علة لكل هذا إلا ماهيَّأت الأقدار « بأسبابها الكثيرة » لكل إنسان فى تركيب دماغه فى نوع المادة السنجابية من المخ ، وأحوالِ التركيب فى الملايين من الخلايا العصبية ، وما لايعد من فروع هذه الخلايا وشُعبها ؛ ثم مايكون من قِبل العلاقات بين هذه الفروع التى هى لكل رأس كرمْل الكرة الأرضية ، ثم اختلاف مقادير المواد الكيماوية التى تتخلَّق فى غدد الجسم وتنفثها الغدد فى الدم

فقد يكون العمل النابغ المتمرد على العقول آتياً من قطرة فى هذه الغدد ،

كما ينبعث العملاق المارد بعظامه الممتدة وألواحه المشبوحة من غدته النخامية لا غيرها

فالذكيّ من ذكيّ مثله إنما هو كالجيش من جيش بإزائه : يقع الاختلاف بينهما فيما اشتملا عليه من كثرة الجند ، وصفاتهم من القوة والضعف ، وأحوالهم من النظام والاختلال ، وقوة آلاتهم ومقدارها ونوع الاختراع فيها ، ثم طبيعة موضعهم وحسن توجيههم وقيادتهم ، وما اكتنفهم من صعب أو سهل ، وما تظاهر عليهم من الحوادث والأقدار ، ثم التوفيق الذى لا حيلة فيه إن وقع فى حصة أحدهما واستقر ، أو وقع هَونا وطار للآخر ؛ وبنحوٍ من هذا كله تكون المفاضلة إذا وازنتَ بين اثنين من النوابغ فى حقيقة نبوغهما

فالنابغة خَلْقٌ من خالقه ، يُصنع كما ترى بأقدار الله : إذ هو قَدَرٌ على قومه وعلى عصره . وهو من الناس كالورقة الرابحة من ورق السحب (اليانصيب) : سلّةُ يدٍ جعلتْها مالًا وتركت الباقيات ورقاً ، وأحدثتْ بينهما الفرقَ الذهبي ؛ وبهذا لا يستطيع العالم أن يزيد الدنيا نابغةً إلا إذا استطاع أن يزيد فى الكواكب نجما فيصنعُه : وهبْهُ صنعهُ من الكهرباء ، فيبقى أن يحمله ، وإذا حملهُ بقى أن يرفعهُ إلى السموات ؛ وهبْهُ قد رفعهُ فيبقى كل شىء . . . يبقى عليه أن يُقحِمَه فى النجوم ويرسله فيها يدور ويتفلَّك

وكما يُخلق النابغة بتركيبه ، تُخلق له الأحوال الملائمة لعمله الذى خص به فى أسرار التقدير عاملا نافعا ، وإن كانت لا تلائمه هو منتفعا ؛ فإنه هو غير مقصود إلا من حيث أنه وسيلة أو آلة تكابد ما تحتمل فى أعمالها ، ويؤتّى لها لتأخذ على طريقة وتعطى على طريقة ؛ وبذلك يرجع التقدير إلى أن يكون العقل النابغة دليلا للناس من الناس أنفسهم على الخالق الذى هو وحده أمرُه الأمر

وإذا كان الجمال يستعلن فى كلام هؤلاء النوابغ ، والخيال يظهر فى تعبيرهم ،

والحكمة تهبط إلى الدنيا فى تفكيرهم ، والمثل الأعلى هم الداعون إليه ، والأشواق النفسية هم موقظوها ، والعواطف هم المصورون لها ؛ وسرور الحياة هم الذين حوّلوه إلى الفن - إذا كان هذا كله فهذا كله إنما هو توكيد لاتصالهم بالقوة الأزلية المدبّرة ، وأنهم أدواتها فى هذه المعانى ؛ فما هى أعمالهم أكثر مما هى أعمالها ؛ وقد يظن الناس أن النابغة يلتمس القُوى المحيطة به ليبدع منها ، والحقيقة أنها هى تلتمسه لتُبدع به

وبعدُ فالنابغة كأنه إنسان من الفلك ، فهو يخزن الأشعة العقلية ويُريقها ، وفى يده الأنوار والظلال والألوان يعمل بها عمل الفجر كلما أظلمت على الناس معانى الحياة ؛ ولا تزال الحكمة تلقى إليه الفكرة الجميلة ليعطيها هو صورة فكرتها ، وتوحى إليه معنى الحق ليؤتيها هو معنى جمال الحق ؛ والطبيعة خلقها الله وحده ، ولكنها ليست معقولةً إلا بالعلم ، وليست جميلة إلا بالشعر ، وليست محبوبةً إلا بالفن ؛ فالنوابغ فى هذا كله هم شروح وتفاسير حول كلمات الله ، وكلهم يشعر بالوجود فنًّا كاملًا ويشعر بنفسه شرحا لأشياء من هذا الفن ، ويرى معانى الطبيعة كأنما تأتيه تلتمس فى كتابته وشعره حياة أكبر وأوسع عما هى فيه من حقائقها المحدودة ، وتتعرض له أحزان الانسانية تسأله أن يصحح الرأى فيها باستخراج معناها الخيالى الجميل ، فإنها وإن كانت آلاما وأحزانا إلا أن معناها الخيالى هو سرور تحمله للناس : إذ كان من طبيعة النفس البشرية أن تسكن إلى وصف آلامها وفلسفة حكمتها حين تبدو بصائرها حاملة أثرها الالهى ، كأن المؤلم ليس هو الألم ، وإنما هو جهل سره

وبالجملة فالكون يختار فى كل شيء مفسّره العبقرى ليكشف من غموضه ويزيد فيه أيضا ... ثم ليؤتى الناسُ المثل الأعلى من المعنى على يد المثل الأعلى من الفكر ؛ ولهذا تصيب الكلام الذى يكتبه النابغة الملهَم فى أوقات التجلى

عليه كأنه كلام صوّر نفسه وصاغها ، أو كأنه قطعة من الحس قد جَمَدَتْ فى أسطر ؛ ولا بد أن تُشعرك الجملة أنها قُذفت وحيا ، إذ لاتجدها إلا وكأن فى كلماتها روحا يرتعش ؛ ولقد يخطر لى وأنا أقرأ بعض المعانى الجميلة لذهنٍ من الأذهان الملهمة كشكسبير والمتنبى وغيرهما – حين أتأمل اختراع المعنى وإبداع سياقه وضُحى البيان عليه وإشراقَه فيه وما أُتيح له من جلال ظاهر فى شكل حى يلمح بسره فى النفس — يخيل إلىّ من ذلك أن سر الطبيعة القادر يعمل عمله أحيانا بذهن إنسانى ليخلق تعبيراً عن جلالِه فى مثل جلاله

وأنت فلو أخذت معنى من هـذه المعانى الآتية من الإلهام وأجريتَه فى كتابة كاتب أو شعر شاعرٍ من الذين ليس لهم إلا أذهانهم يكدّونها ، وكتبهم يجعلونها أذهانهم أحيانا . . . لرأيت الفرق بين شىء وشىء فى أحسن ماأنت واجدُه لهم على نحو ماترى بين زهرة حريرية جاءت من عمل الإنسان بالابرة والخيط ، وزهرةٍ أخرى قد انبثقت عطِرة ناضرة فى غصنها الأخضر من عمل الحياة بالسماء والأرض

والعبقرى هو أبداً وراء ما لا ينتهى من جمالٍ أوّلهُ فى نفسهِ وآخرُه فى الجمال الأقدس الذى تَمسح على هذه النفس الجميلة السامية ؛ فما دام فيه سر العبقرية فهو دائب يعمل ممزّقاً حياته فى سبحات النور تمزيقاً يجتمع منهُ أدبهُ ، وما أدبُه إلاّ صورة حياته ؛ وهو كلما أبدع شيئاً طلب الذى هو أبدعُ منه ، فلا يزال متألمًا إن عمل لأن طبيعته لا تقف عند غاية من عمله ، ومتألما إن لم يعمل لأن تلك الطبيعة بعينها لاتهدأ إلا فى عمل ، وهى طبيعة متمردة بذلك الجمال الأقدس تمرُّد العشق فى حامله ؛ إذ هما صورتان لأمر واحد كما سنشير إليه ؛ فكلُّ ما تجده فى نفس العاشق المتدلّه مما يترامى به إلى جنونهِ وهلاكه ، تجد شبهاً منه فى نفس العبقرى ؛ فكلاهما قانونهُ من طبيعته وحدها ؛ إذ قد اتخذت

حياته شكلها الفنى من ذوقه هو وحده ؛ فليس يتبع طريقةَ أحد ، بل هو طريقة نفسه (*) ، وكلاهما مسترسل أبداً إلى جمال مستفيض على روحه يتقلب فيها باللذة والألم يرجع إليه ويستمدُّ منه ، وكلاهما لايجد المعنى الجميل فى الطبيعة معنًى بل رسولا من الجمال أُرسل إليه وحده ، لا يزال يشعر فى كل وقت أن لهُ رسائل ورُسُـلا هو بعدُ فى انتظارها ، وكلاهما متى ظفر بشىءٍ من مصدر الجمال انتهى من شدة فرحه إلى الظن أنهُ ربح من الـكون ربحاً لم يـكن له من قبل ، وكلاهما متهالك بين قيود الحياة التى فى الحياة والواقع ، وبين حريتها التى فى خياله وأمله ، كأن عليه فى سبيل هذه الحرية أن يقطّعَ الليل والنهار لاقيداً من قيود الاجتماع أو العيش ؛ وكلاهما متصلٌ بقوة غيبية وراء ما يُرى ، وما يحسّ تجعل نظرته فى الأشياء خاضعةً لقانون النظرة العاشقة فى العينين

(*) لا وجه عندنا لما استعمله بعض الـكتاب فى الأدب من قولهم مدرسة امرئ القيس ومدرسة النابغة ونحو ذلك ، ترجمة حرفية لقول الأوربيين مدرسة فلان ومدرسة فلان ؛ فإن الأدب إن كان تقليداً فهو أدب منحط لا يجعل مدرسة يحتذى عليها ويتخرج بها ، وإن كان إبداعا فليس الإبداع مدرسة تكون بالتعليم والتلقين ويتخرج بها الواحد والمائة والألف على طراز لا يختلف ؛ إنما تطبق هذه الكلمة على المذاهب المستقرة فى الفنون التعليمية ، وفى هذا لا تطلق فى الأدب العربى إلا على فئتين فقط ، هما البصريون والـكوفيون ، على أن كلمة مذهب هى المستعملة فى هذا ، وهى أسدّ منها ؛ إذ يدل المذهب على منحى اختاره الرأى وذهب إليه ، فكأنه عن تحقيق فى صاحبه وتابعيه ؛ أما تسمية مجموعة الإلهامات التى سرت فى ذهن نابغة من النوابغ بالمدرسة ، فتسمية مضحكة باردة ؛ إذ الإلهام بصيرة محضة ، وما هو عما يقلد ، وقلما تشابه ذهنان على الأرض فى عناصر التكوين التى يأتى منها النبوغ ؛ وقد قال علماؤنا : طريقة فلان وطريقة فلان فالطريقة هى الكلمة الصحيحة لأن عليها ظاهر العمل وأسلوبه يتوجه بها من يتوجه ، ويقلد فيها من يقلد ، أما سر العمل فهو سر العامل أيضاً ، وهو شىء فى الروح والبصيرة ، وهو فى العبقرى أمر لا يستطيعه إنسان وشذ فى إنسان بخصوصه .

الساحرتين المعشوقتين ، فإذا مدَّ عينيه فى شىء جميل فهناك سؤال وجوابه ، ووحىٌ وترجمته ، ومرور من يقظة إلى حلم ، وانتقال من حقيقة إلى خيال !

غير أن طبيعة العبقرى تزيد على كل ذلك ألماً تنفرد به لا تستقرُّ معه على رضا ، ولا يَبْرَحُ يُسلِّط الإعنات عليها و يستغرقها بالهموم السامية ؛ وذلك ألم الكمال الفنى الذى لا يدرك العبقرى غايته عند نفسه ، وإن كان عند الناس قد أدرك غايات وغايات ؛ فطبيعة كل عبقرى تجهد جهدها فى العمل لتُخرج به عما يستطيعه الناس ، فإذا تأتَّى صاحبها لذلك وكابد فيه وأدرك منه وبلغ وأعجز ، اندفعت طبيعته إلى الخروج مما يستطيع هو ... كأنه خارجٌ عن الطبيعة وداخل فى الطبيعة فى وقت معاً ، وكأنه نفسه وفوق نفسه فى حال ، وهذا سرُّ حريته وسموه ، كما أنه سرُّ ألمه وحَيْرته

ومن أثر ذلك ما تحسُّهُ أنت إذا قرأت للأديب النابغ التامّ صاحب الفكر والأسلوب والذهن الملهَم ؛ فإنك تقف على المعنى من معانيه يملأ نفسك ويتمدَّد فيها ويهتزُّ بها طرباً وإعجاباً ، فتقول : لا أحسنَ من هذا ! ثم تؤمل مع ذلك أن تجد منهُ هو أحسن من هذا ... كأنهُ وإن تناهى إلى الغاية لا يزال عندك فوق الغاية ؛ وهذا غريبٌ ، ولكن لا دليل على العبقرية إلا الغرابة دائماً : فهى نظامٌ لا نظامَ فيه : لأنها طريقةٌ لا طريقة لها ؛ وبهذه الغرابة جاءت العبقرية كلها أمثلةً وليس فيها قواعد يُحتذى عليها ولا هدايةَ فيها إلاَّ من الروح ؛ وإذا كان الفنُّ قدرةً متصرفةً فى الجمال فالعبقرية قدرة متصرفةٌ فى الفن ، والنابغة كالمتكيّس (*) الذى معه قُوَى العقل ويريد أن يزداد على قدره منها ، ولكن العبقرىّ كالإلهى الذى معه قوى الروح ويريد أن يزيد الناس على قدرهم بها ؛ وذاك مرجعه الفكر الدقيق الباحث ، وهذا مناطه البصيرة

(*) من الكيس وهو العقل فيكون عاقلا ويريد أن يزداد على مقداره

الشفافة النافذة ، وهى أغرب الغرائب فى الانسان ؛ إذ هى الجهةُ المطلقة فى هذا المخلوق المقيَّد ، وبها تتسع النفس لادراك النطاق الظاهر من خلال الموجودات ، وفيها تتحول الأشياء من نظام الحاسَّة إلى نظام الروح ، فيُسمعُ المرئىُ ويُبصر المسموعُ ، وتخلع الأجسام أنغاما ، وتلبس الأصواتُ أشكالاً ، ويبدو عندها كل مخلوق وكأن فيه بقية زائدة على خَلقه تُركت ليعمل فيها الكاتب أو الشاعر المحدَّث (*) عمل فنه الزائدة على الطبيعة بالحاسة الزائدة على ذهنه ، وهى التى نسميها الإلهام .

وهذه الحاسة هى كذلك من بعض الغرابة ، تكون فى صاحبها الموهوب كما تكون حاسة الاتجاه فى الطيور التى تقطعُ فى جو السماء إلى غاياتها البعيدة من قطب الأرض إلى قطبها الآخر بغير دليل تحمله ، ولا رسم تنظر فيه ، ولا علم ترجع إليه ؛ وكما تكون حاسة التمييز فى النحل الذى يبنى عَسَلَتَهُ على هندسة ليست من كتاب ولا مدرسة ، وحاسةُ التدبير فى النمل الذى يدبّر مملكتهُ بغير علوم الممالك وسياستها ؛ وكثيراً ما يجىء الأديب الملهم من حقائق الفكر وبيانه وأسرار الطبائع وأوصافها بما يغطى على فلسفة الفلاسفة وعلم العلماء ، ومثل هذا العبقرى هو عندى فوق العلم . لا أقول بدرجة ، ولكن بحاسة .

وبالإلهام يكون لكل عبقرى ذهنهُ الذى معهُ وذهنهُ الذى ليس معهُ ؛ إذ

(*) هذه هى الكلمة القديمة التى تقابل ما نسميه العبقرى بلغة عصرنا ، كأن الأشياء تحدثه بأسرارها ، أو تحدثه بها قوة أعلى من القوى الإنسانية ؛ وإذا كان محدثاً فمعنى ذلك أنه ينطق عن سمع من الغيب ؛ ومن ذلك مازعم العرب من أن لكل شاعر شيطانا ينفث على لسانه ، وهو وصف دقيق للعبقرية إلا أنه باللغة الجاهلية ، وقد صححه النبى صلى الله عليه وسلم فقال لشاعره حسان : قل وروح القدس معك . وفى كلمة « روح القدس » تنطوى فلسفة العبقرية كلها

كانت له من وراء خياله قوةٌ غير منظورة ليست فيه، ومع ذلك تعمل كما تعمل الأعضاءُ في جسمه، هيّنةً منقادةً كأنها تتصرف على اطّراد العادة بلا فكر ولا روية ولا عسر ما دامت تنجلي عليه.

وليست تتصل هذه القوة إلاّ بتركيب عصبي تكون فيه الخصائص التي تصلح أن تتلقى عنها، وهي في العبقريين خصائص مَرَضية في الأعم الأغلب، بل لعلها كذلك دائمًا، ليتيسر بها العبقريُّ لحالة خفيفة من الموت ... يحمل بها كدّه وتعبه وما يعانيه من مضض الفكر وثقلته؛ ثم لتكون هذه الحالة كالتقريب بين عالم الشهادة فيه وبين عالم الغيب منهُ: فالتركيب العصبي في دماغ العبقري إنسانٌ على حياله مع إنسان آخر، أحدهما لما في الطبيعة والثاني لما وراء الطبيعة؛ ومن ثمّ كان الرجل من هذه الفئة كالمصباح: يتقد وينطفئ لأنهُ آلة نور تَعرض لها العلل فتذهب بقدرتها عليه، وتنضب مادة النور منها فكذلك لا تقدر عليه، وتكون مضيئة فتنطفئ بسبب ليس منها ولا من نورها، وهي على كل هذه الأحوال لا تملك منها حالة؛ فبينما العبقري الذي يملأ الدنيا من آثاره النابغة، تراه في حالة من أحواله يدأب لا يأتلي فيجدّ في العمل ويبذل الوسع فيه ويصبر على مطاولة التعب في إحكامه ويفيض به فيضاً وكأن في طبيعته الربيع المتفتح طول أيامه بالجمال - إذا هو في حالة أخرى يتلكأ ويتربص لا يعمل شيئاً كأنما دخل في قرّيحته الشتاء، وفي ثالثة يتباطأ ويتلبّث فلا يعنّ له جديد كأنما حُبس عنهُ فكره أو نبا طبعهُ أو هو في قيظ طبيعته وحرّها وضجرها؛ ثم لا تمضي على ذلك إلاّ تورةٌ وساعة فإذا على صيفه هواءُ نوفمبر وديسمبر ... وإذا هو منبعثٌ ملءَ القوة والنشاط؛ وربما يأخذ في غرض من الكتابة قد رَسم له المعنى وهيأ له المادة، فلا يكاد يمضي لنحوه منهُ حتى تتناسخ في ذهنه المعاني فإذاهو يكتب مالا يشبه ما كان

ابتدأ بهِ، ويأتيه غيرُ ما كان قد أراده، كأنما يُلقَى عليهِ فهو يستملي: وقد يبتدئ معنى ثم يُقطَع عنهُ بطارئٍ من عمل أو حديث، ثم يُعاودهُ فإذا معنى آخر وإذا جهةٌ من الفكر هي جهة الإبداع والاختراع في موضوعهِ، وإذا هو إنما كان يُجرُّ بذلك الصارف عن معناهُ الأول جرًّا ليدعهُ إلى الأكمل والأصح، وأيقن أنه لو كان استوفى على ما بدأ لأسفَّ وضعف وجاءَ بما غيرُه أقدرُ عليه؛ كأن هذه القوة الخفية التي تلهمه تنقّح لهُ أيضاً بأساليبها الغريبة؛ وقد يكون آخذاً في عمله ماضياً على طبعه مسترسلا إلى ما ينكشف له من أسرار المعاني ثَقِفاً من هنا لَقِفاً من هناك (*) ثم ينظر فإذا هو قد مُسح لوح خياله، ويطلب المعنى فلا يتاح له، ويتمادى فلا يزيد إلا كدًا وعسرا كأنما ذهب إلهامه في غَمضٍ من غُموض الأبدية (**)؛ وكل من ارتاض بصناعة الفكر واستحكمت له عادتها ومرَّ في درجاتها حتى بلغ المكانة التي يستشرف منها الإلهام ويتعرض فيها بروحه وبصيرته لنَبَضات الوحي وانكشافات الغيب، يعلم أن كل معنى بديع يأتي به في صناعته إنما يقع له إلهاماً من ذلك المعنى الحي المتمدد

(*) يقال: هو ثقف لقف: أي سريع الفهم لما يلقى إليه، ولكنا استعملناه كما ترى فجاء أشد تمكناً من أصله.

(**) قالوا: كان الفرزدق وهو فحل مضر في زمانه يقول: تمر عليّ الساعة وقلع ضرس من أضراسي أهون عليّ من عمل بيت من الشعر! وذكروا أنه كان من عمله إذا استصعب الشعر عليه أن يركب ناقته ويطوف وحده حالياً منفرداً في شعاب الجبال وبطون الأودية فينقاد له الكلام؛ وأخبارهم كثيرة في الطرق التي يستعان بها على الشعر ويجتلب بها نافره، والحقيقة أنها علل من النفس تعارض حالة الإلهام إلى أن تزول وتصفو النفس منها، أو أسباب تتفق ولا تلهم شيئاً إلى أن تتغير بأسباب ملهمة.

فى الكائنات كلها، ظاهراً فى شىء منها بالضوء، وفى أشياء بالألوان، وفى بعضها بالحركة، وفى بعضها بالانسجام، وفى بعضها بالروعة والفخامة، وفى غيرها بِنِصْبَة الهيئة: وظاهرا فى حالات كثيرة بأنه غير ظاهر؛ ويَعرف كذلك أن *هذا المعنى الشامل الذى لا يُحد هو الذى ينقل الوجود كله إلى نفوس* النوابغ [*] متى نبض فى هذه النفوس الرقيقة وأشعرَها سرَّه، وإذا همّ النابغة أن يتوضحه لايرى شيئاً، وإذا أراد حجة عليه لم يستطع الجلاءَ عن بيانه بكلمة، وإذا التمس التعريف به لم يُجد إلا مايشهد له إحساسه وقلبه؛ وهذا الذى ينقدح فى أذهان النوابغ أفكارا حين يفيضُ لكل منهم بسبب من قراءة أو مشاهدةٍ أو حالةٍ أو مِراس، هو هو بعينه الذى ينقدح عشقاً فى قلوب المحبين حين يتراءى لكل منهم فى معنى على وجه جميل؛ ومن ثم كان النابغة فى الأدب لايتم تمامهُ إلا إذا أحب وعشق، وكان الأدب نفسه فى تحصيل حقيقته الفلسفية ليس شيئاً سوى صناعة جمال الفكر...

وهذا العمل فى ذلك الجهاز العصبى الخاص به فى بعض الأدمغة هو الذى كان يسميه علماء الأدب العربى بالتوليد، وقد عرفوا أثره ولكنهم لم يتنبهوا إلى حقيقته ولا أدركوا من سره شيئاً؛ وأحسن ماقرأناه فيه قول ابن رشيق فى كتاب العمدة: «إنما سمى الشاعر شاعرا لأنه يشعر بما لايشعر به

(*) هناك فرق على بين مايسمى نبوغا وما يسمى عبقرية، ولكنا فى هذا الفصل أطلقنا الكلام وقيدنا فى مواضع بخصوصها، ويكاد الفرق بين النابغة والعبقرى فى جماع أمره أن يكون كالفرق بين التلغراف الذى طريقه مادة السلك وبين الآخر الذى طريقه روح الجو: فكلاهما هو الآخر ولكن أحدهما لابد له من طريق مسلوك والآخر طريقه كل الطرق، أى فوق أن يقيد بطريقة

غيره ؛ فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه ، أو استطراف لفظ وابتداعه ، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعانى ، أو نقص مما أطاله سواه من الألفاظ ، أو صرف معنى إلى وجه عن وجه آخر - كان اسم الشاعر عليه مجازا لا حقيقة ، ولم يكن له إلا فضل الوزن . » هذا كلام ابن رشيق ، وليس لهم أحسن منه ، وهو مع ذلك تخليط لا قيمة لهُ وليس فيه من موضوعنا إلا لفظ التوليد .

ومما لا انقضى منه عجبا فى تتبُّع فاسفة هذه اللغة العربية العجيبة ، أننا نرى أكثر ألفاظها كالتامة لا ينقصها شيء من دقائق المعنى فى أصل وضعها ، على حين لا يفهم علماؤها من هذه الألفاظ إلا بعض ما تدل عليه ، كأنها منزَّلة تنزيلا ممن يعلم السر ؛ وقد نبهنا إلى هذا فى كتابنا (تاريخ آداب العرب) وأفضنا فيه واستوفينا هناك من فلسفته ، وجاء القرآن الكريم من هذا بالعجائب التى تفوت العقل ، حتى إن أكثر ألفاظه لتكاد تكون مختومة نزلت كذلك لتفُضَّ العلومُ والفلسفة خواتمها فى عصور آتية لا ريب فيها (*) ؛ وكلمة التوليد التى لم يفهم منها العلماء إلا أخذ معنى من معنى غيره بطريقة من طرق الأخذ التى أشاروا إليها فى كتب الأدب — هى الكلمة التى لا يخرج عنها شيء من أسرار النبوغ ولا تجد ما يسدُّ فى ذلك مسدَّها أو يحيط إحاطتها ، ولا نظن فى لغة من اللغات ما يشبهها فى هذه الدلالة واستيعابها كلَّ أسرار المعنى ؛ إذ هى بلفظها نصٌّ على حياة الكون فى الذهن الانسانى ، وأنه يتخذه وسيلة لإبداع معانيه ، كما يتخذ سرُّ الحياة بطنَ الأم وسيلة لإبداع موجوداته : وأن المعانى تتلاقح فيلِدُ بعضها بعضا فى أسلوب من

(*) على هذا المعنى وكشف أسراره فى آيات القرآن سيبنى كتابنا الجديد «أسرار الاعجاز» قلت وانظر ص ٢٨٩ « حياة الرافعى »

الحياة ، وأن هـذه هى وحدها الطريقة لتطور الفكر وإخراج سُلالاتٍ من المعانى بعضُها أجمل من بعض ، كما يكون مثل ذلك فى النسل بوسائل التلقيح من الدماء المختلفة ، وأن النبوغ ليس شيئا إلا التركيب العصبى الخاص فى الذهن ، ثم نمو هذا التركيب مع الحياة فى طريقةٍ سواءٍ هى وطريقة الولادة الْمُحيِية التى مرجعها كذلك إلى تركيب خاص فى أحشاء الأنثى : ينمو ثم يدرك ثم يعمل عمَلَه المعجز ؛ وإذا كان من كل شىء فى الطبيعة زوجان ، فالكلمة نصٌّ على أن أذهان النوابغ أذهان مؤنثة فى طباعها التى بنيت عليها ؛ وهذا صحيح ، إذ هى أقوى الأذهان على الأرض فى الحسّ بالآلام والمسرات ، ومعانى الدموع والابتسام أسرع إليها من غيرها ، بل هى طبيعة فيها ؛ وهى وحدها المبدعة للجمال والمنشئة للذوق ؛ وعملها فى ذلك هو قانون وجودها ؛ ثم هى قائمة على الاحتمال والإعطاء والرضا بالحرمان فى سبيل ذلك وإدمان الصبر على التعب والدقة والاهتمام بالتفاصيل وأساسها الحبّ ؛ وكل ذلك من طباع الأنثى وهى النابغة فيه بل هى النابغة به

فسر النبوغ فى الأدب وفى غيره هو التوليد ، وسر التوليد فى نضج الذهن المهيأ بأدواته العصبية ، المتجه إلى المجهول ومعانيه كما تتجه كل آلات المرصد الفلكى إلى السماء وأجرامها ؛ وبذلك العنصر الذهنى يزيد النابغة على غيره ، كما يزيد الماس على الزجاج ، والجوهر على الحجر ، والفولاذ على الحديد ، والذهب على النحاس ؛ فهـذه كلها نبغت نبوغها بالتوليد فى سر تركيبها ؛ ويتفاوت النوابغ أنفسهم فى قوة هذه الملكة ، فبعضهم فيها أكمل من بعض ، وتمدُّ لهم فى الخلاف أحوالُ أزمانهم ومعايشهم وحوادثهم ونحوها ؛ وبهذه المباينة تجتمع لكل منهم شخصية وتتسق له طريقة ؛ وبذلك تتنوع الأساليب ، ويعاد الكلام غير ما كان فى نفسه ، وتتجدد الدنيا بمعانيها فى ذهن كل أديب يفهم

الدنيا وتتخذ الأشياء الجارية فى العادة غرابة ليست فى العادة ويرجع الحقيقىُّ أكثر من حقيقته

وقد سئل مصوِّر مبدع بماذا يمزج ألوانَه فتأتى ولها إشراقها وجمالها ونبوغ مبانيها وزهو الحياة بها فى الصورة فقال : إنما أمزجها بمخى . وهذا هذا فإن الألوان عند الناس جميعا ولكن مخه عنده وحده وله تركيبه الخاص به وحده وسر الصناعة فى توليد هذا الدماغ فكأن ألوانه فى صناعته جاءت منه بخصوصه ، وكذلك كل مايتناوله العبقرى فإنك لتجد الشعر فى وزن خاصٍ به يدل عليه ويتمم الغرض منه ويضيف إلى معانيه أنقا من الجمال وحسنه وإلى صوته نغما من الموسيقى وطربها . فما أشبه الجهاز العصبى فى دماغ كل نابغة أن يكون وزنًا شعريًّا لهذا النابغة بخاصته ألا ترى أنك لاتقرأ الأديب الحق إلا وجدتَ كل مايكتبُه يجىء فى وزن خاص به حتى لايخرج عنه مرة ، أو تزيد أنت فيه وتنقص إلا ظهر لك أنه مكسور ... ؟

والذهن العبقرىُّ لايتخذ المعانى موضوع بحث ونظر وتعقُّب يستخرج منها أو يتعلق عليها فهذا عمل الذهن الذكى وحده وهو غاية الغايات فيه يبحث وينظر ويتصفح ويجمع من هنا ويأخذ من ثم ويعترض ويصحح ويأتيك بالمقالة يحسب فيها كل شىء وما فيها إلا أشياؤه هو وأمثاله . أما الذهن العبقرى فليس له من المعانى إلا مادة عمل فلا تكاد تلابسه حتى تتحول فيه وتنمو وتتنوَّع وتتساقط له أشكالًا وصورا فى مثل خطرات البرق ، وربما غمر بالمعنى الواحد فى جماله وسموه وقوة تأثيره مقالاتٍ عدة لأولئك الأذكياء فنسخها نسخا وجعلها منه كالشموع الموقدة بإزاء الشمس . فإذا ذهبتَ توازن بين مثل هذا المعنى ومثل هذه المقالات فى الروعة والجلال ورأيت عربدة المقالة وغرورها لم تستطع

إلا أن تقول لها : ياحصاة الميزان فى إحدى كفتيه ألا يكفيك الجبل فى الكفة الأخرى . . . ؟

وقد عرف الأدباء جميعاً أن كاتب فرنسا العظيم أناتول فرانس كان يكتب الجملة ثم ينقحها ثم يهذبها ثم يعيدها ثم يرجع فيها، وهكذا خمس مرات إلى ثمان ويقدِّم ويؤخر من موضع إلى موضع ويحتسبون هذا تحكيكا وتهذيبا وما هو منها فى شىء ولا أحسب الأور بين أنفسهم تنبهوا إلى سر هذه الطريقة وإنما سرها من جهاز التوليد فى رأس ذلك الكاتب العظيم فإذا قرأ كتابة حوّلها فكره وأبدع له منها من غير أن يعمل فى ذلك أو يتكلّف له إلا مايتكلف من يهز إليه بجذع الشجرة اتساقط عليه ثمراً ناضجا حلوا جنيًّا . فكلما قرأ ولّد ذهنه فيثبت مايأتيه فلا تزال صورة تخرج من صورة حتى يجىء المعنى فى النهاية وإنه لأغرب الغرائب لايكاد العقل يهتدى إلى طريقته وسياق الفكر فيه إذ كان لم يأت إلا محولا عن وجهه مرات لامرة واحدة

فجهاز التوليد متى استمر واستحكم فى إنسان أصبح له بمقام ملك الوحى من النبي . هو عندنا دليل من أقوى الأدلة على صحة النبوة وحدوث الوحى وإمكانه إذ لاتتصرف به إلا قوة غيبية لاعمل للإنسان فيها بل هى تبدع إبداعها وتلقى عليه إلقاءً . وليس كل من تعرض لها أدرك منها ولا كل من أدرك منها بالغ بها بل لابدّ لها من الجهاز العصبى المحكم كجهاز اللاسلكى الدقيق المصنوع لتلق أبعد الأمواج الكهربائية وأقواها . وهذه القوة إن أرادت معانى الجمال أخرجت الشاعر وإن أرادت كشف السر عن الأشياء أخرجت الأديب وإن أرادت حقائق الوجود أخرجت الحكيم . وإن كان الأمر أكبر من هذا كله وكان أمر تغيير الحياة وصبّ أزمان جديدة

للإنسانية والوثوب بهذه الدنيا درجة أودرجات فى الرقى ـ فهنا تكون الوسيلة أكبر من البصيرة ، فليس لها من قوة الغيب إلا الوحى ، ويكون الغرض أكبر من الشاعر والأديب والحكيم ، فلا يختار إلا النبي ، ثم لا يوحى إليه إلا وهو فى حسٍّ لساعة الوحى وحدها ، وهى ساعة ليست من الزمن بل من الروح المنصرف عن الزمن وما فيه ليتلقى عن روح الخلد ؛ وقريبٌ من ذلك خلوة النابغة بنفسه فى ساعة التوليد : فسر النبوغ من سرّ الوحى ، لا ريب فى ذلك ، وما أسهل سرَّ الوحى وأيسر أمرَهُ ، ولكنْ فى الأنبياء وحدهم ، وهنا كل الصعوبة ... «أن نكون أو لا نكون : هذه هى المسألة»

نقد الشعر وفلسفته (١)

الشاعرُ فى رأينا هو ذاك الذى يرى الطبيعة كلها بعينين لهما عشقٌ خاصٌ وفيهما غزلٌ على حِدَةٍ ، وقد خُلقتا مُهيَّأتين بمجموعة النفس العصبية لرؤية السِّحر الذى لا يُرَى إلا بهما ، بل الذى لا وجود له فى الطبيعة الحية لولا عينا الشاعر ، كما لا وجود له فى الجمال الحىّ لولا عينا العاشق .

فإذا كان الشاعر العظيم أعمى كهوميروس وملتون وبشار والمعرّى وأضرابهم ، انبعثَ البصرُ الشعرىُّ من وراء كل حاسة فيه ، وأبصر من خواطره المنبثة فى كل معنى ، فأدّى بالنفس فى الوجود المظلم أكثر ماكان يؤدّيه بهذه النفس فى الوجود المضىء ، وقصّر عن المبصرين فى معانٍ وأربى عليهم فى معانٍ أخرى ، فيجتمع للشعر من هؤلاء وأولئك مَدُّ النفس الملْهَمَة مما بين أطراف

(١) مجلة أبولو : مايو سنة ١٩٣٢

النور إلى أغوار الظُّلمة .

والشعر فى أسرار الأشياء لافى الأشياء ذاتها ، ولهـذا تمتاز قريحةُ الشاعر بقدرتها على خلق الألوان النفسية التى تصبغُ كلَّ شىء وتلوّنه لإظهار حقائقه ودقائقه حتى يجرىَ مجراه فى النفس ويجوزَ مجَازَهُ فيها ؛ فكلُّ شىء تَعاوَرَهُ الناسُ من أشياء هذه الدنيا فهو إنمـا يُعطيهم مادته فى هيئته الصامتة ، حتى إذا انتهى إلى الشاعر أعطاه هـذه المـادة فى صورتها المتكلمة ، فأبانت عن نفسها فى شعره الجميل بخصائص ودقائق لم يـكن يراها الناسُ كأنها ليست فيها .

فبالشعر تتكلم الطبيعة فى النفس وتتكلم النفس للحقيقة وتأتى الحقيقةُ فى أظرف أشكالها وأجمل مَعَارضها ، أى فى البيان الذى تصنعه هذه النفس الملهمةُ حين تتألّق النور من كل ماحولها وتعكسُه فى صناعةٍ نورانية متموّجةٍ بالألوان فى المعانى والكلمات والأنغام

والإنسانُ من الناس يعيش فى عمر واحد ، ولـكن الشاعر يبدو كأنه فى أعمار كثيرة من عواطفه ، وكأنما ينطوى على نفوس مختلفة تجمع الانسانية من أطرافها ، وبذلك خُلق ليُفيضَ من هذه الحياة على الدنيا ، كأنما هو نبعٌ إنسانىٌّ للإحساس يغترفُ الناسُ منه ليزيدكلُّ إنسان معانىَ وجوده المحدود مادام هـذا الوجودُ لايزيد فى مدته ، ثم ليرهفَ الإنسانُ بذلك أعصابه فتدركَ شيئا مما فوق المحسوس ، وتـكتنه طرفا من أطراف الحقيقة الخالدة التى تتسع بالنفس وتخرُجها من حدود الضرورات الضيقة التى تعيشُ فيها لتصلها بلذات المعانى الحرة الجميلة الكاملة ؛ وكأن الشعر لم يجئ فى أوزان إلا ليحمل فيها نفس قارئه إلى تلك اللذات على اهتزازات النغم ؛ وما يُطرب الشعرُ إلا إذا أحسسته كأنما أخذ النفس لحظة وردَّها .

والشاعرُ الحقيقُ بهذا الاسم - أى الذى يَغلبُ على الشعر ويفتتح معانيه ويهتدى إلى أسراره ويأخذ بغاية الصنعة فيه — تراه يضع نفسه فى مكان مايعانيه من الأشياء وما يتعاطى وصفَه منها، ثم يفكر بعقله على أنه عقلُ هذا الشىء مضافاً إليه الإنسانيةُ العالية، وبهذا تنطوى نفسه على الوجود فتخرج الأشياءُ فى خلقة جميلة من معانيها، وتصبح هذه النفسُ خليقةً أخرى لكل معنى داخَلها أو اتصل بها؛ ومن ثم فلا ريب أن نفس الشاعر العظيم تكاد تكون حاسة من حواس الكون.

ولو سُئلتْ أزمانُ الدنيا كيف فهم أهلُها معانى الحياة السامية وكيف رأوها فى آثار الألوهية عليها، لقَدَّمَ كل جيل فى الجواب على ذلك معانى الدين ومعانى الشعر

وليست الفكرةُ شعرا إذا جاءت كما هى فى العلم والمعرفة، فهى فى ذلك علم وفلسفة، وإنما الشعر فى تصوير خصائص الجمال الكامنة فى هذه الفكرة على دقة ولطافة كما تتحول فى ذهن الشاعرالذى يلوّنها بعمل نفسه فيها ويتناولها من ناحية أسرارها

فالأفكار بما تُعانيه الأذهانُ كلها ويتواطأ فيه قلبُ كل إنسان ولسانه، بَيْدَ أن فنَّ الشاعر هو فنُّ خصائصها الجميلة المؤثرة، وكأن الخيال الشعرىَّ نحلة من النحل تُلمُّ بالأشياء لتُبدعَ فيها المادة الحلوة للذوق والشعور، والأشياءُ باقيةٌ بعدُ كما هى لم يغيرها الخيال، وجاء منها بما لاتحسبهُ منها؛ وهذه القوة وحدها هى الشاعرية.

فالشاعر العظيم لا يُرسل الفكرة لإيجاد العلم فى نفس قارئها حَسْبُ، وإنما هو يصنعها ويَحْذُو الكلام فيها بعضَه على بعض، ويتصرفُ بها ذلك التصرف ليوجد بها العلم والذوق معاً؛ وعبقريةُ الأدب لا تكون فى تقرير

الأفكار تقريراً علمياً بحتاً، ولكن فى إرسالها على وجهٍ من التسديد لا يكون بينه وبين أن يُقِرَّها فى مكانها من النفس الإنسانية حائلٌ . وكثيراً ما تكون الأفكار الأدبية العالية التى يُلْهَمُهَا أفذاذ الشعراء والكتاب هى أفكارَ عقل التاريخ الإنسانى ، فلا تَفْصِل عنهم الفكرةُ فى أسلوبها البيانى الجميل حتى تتخذ وضْعَها التاريخىَّ فى الدنيا ، وتقوم على أساسها فى أعمال الناس ، فتتحقق فى الوجود ويُعمل بها ؛ وهذا طَرَفٌ مما بين الأدب العالى وبين الأديان من المشابهة .

ومتى نُزِّلتْ الحقائقُ فى الشعر وجب أن تكون موزونة فى شكلها كوزنه ، فلا تأتى على سَرْدها ولا تؤخذ هَوْناً كالكلام بلا عمل ولا صناعة ، فإنها إن لم يجعل لها الشاعرُ جمالاً ونسقاً من البيان يكون لها شبيهاً بالوزن ، ويضع فيها روحاً موسيقية بحيث يجىء الشعر بها وله وزنان فى شكله وروحه — فتلك حقائق مكسورةٌ تلوح فى الذوق كالنظم الذى دخلته العلل فجاء مختلاً قد زاغ أو فسد .

والخيال هو الوزن الشعرى للحقيقة المرسلة ، وتخيُّل الشاعر إنما هو إلقاء النور فى طبيعة المعنى ليشِفَّ به ، فهو بهذا يرفع الطبيعة درجة إنسانية ، ويرفع الإنسانية درجة سماوية ؛ وكل بدائع العلماء والمخترعين هى منه بهذا المعنى ، فهو فى أصله ذكاءُ العلم ، ثم يسمو فيكون هو بصيرة الفلسفة ، ثم يزيد سموّه فيكون روح الشعر ؛ وإذا قلبتَ هذا النسق فانحدرت به نازلاً كما صعدتَ به ، حصل معك أن الخيال روحُ الشعر ، ثم ينحط شيئاً فيكون بصيرة الفلسفة ، ثم يزيد انحطاطاً فيكون ذكاءَ العلم ؛ فالشاعر كما ترى هو الأول إن ارتقت الدنيا ، وهو الأول إن انحطت الدنيا ؛ وكأنما إنسانية الإنسان تبدأ منه .

✡ ✡ ✡

إذا قررنا للشعر هذا المعنى وعرفنا أنه فنُّ النفس الكبيرة الحسَّاسة الملهمة حين تتناولُ الوجودَ من فوق وجوده فى لطف روحانى ظاهرٍ فى المعنى واللغة والأداء ـ وجب أن نعتبر نقد الشعر باعتبارِ ما قررناه، وأن نقيمه على هذه الأصول ؛ فإن النقد الأدبى فى أيامنا هذه ـ وخاصةً نقد الشعر ـ أصبح أكثره مما لاقيمة له، وساء التصرف به، ووقع الخلطُ فيه، وتناوله أكثر أهله بعلم ناقص، وطبع ضعيف، وذوق فاسد، وطمع فيه من لا يحصِّلُ مذهباً صحيحاً، ولا يتَّجهُ لرأى جيد، حتى جاء كلامهم وإنَّ فى اللغو والتخليط ما هو خير منه وأخفّ محملاً، فإنك من هذين فى حقيقة مكشوفة تعرفها تخليطاً ولغواً، ولكنك من نقد أولئك فى أدب مُزَوَّر ودعوى فارغة وزوائدَ من الفضول والتعسف يتزيَّدون بها للنفخ والصَّوْلة وإيهام الناس أن الكاتب لا يرى أحداً إلا هو تحت قدرته ... على أن جهد عمله إذا فتشته واعتبرت عليه ما يخلط فيه، أنه يكتب حيث يريد النقد أن يحقق، ويملأ فراغاً من الورق حيث يقتضيه البحث أن يملأ فراغاً من المعرفة.

وقد قلنا فى كتابنا (تحت راية القرآن) : إن أستاذ الآداب يجب أن يجمع إلى الاحاطة بتاريخها وتقصِّى موادها ـ ذوقًا فنيًا مهذَّبا مصقولا، وليس يمكن أن يأتى له هذا الذوق إلا من إبداع فى صناعتى الشعر والنثر، ثم يجمع إلى هذين (أى الإحاطة والذوق) تلك الموهبة الغريبة التى تلف بين العلم والفكر والمخيلة فتبدع من المؤرخ الفيلسوفِ الشاعرِ العالمِ شخصًا من هؤلاء جميعًا هو الذى نسميه الناقد الأدبى.

هـذه هى صفات الناقد فى رأينا : فانظر أين تجده بين هؤلاء الأساتذة

المختَصرين ... فى أدبهم ، المطوَّلين ... فى ألقابهم ، وإنهم ليتعاطَوْن النقد وليس لهم وسائله إلا ما كان ضعفةً وقلةً وإدباراً ، وقد فاتهم ما لا تحمله أقدارهم ولا تبلغه قوهم ، وجهلوا أن الناقد الأدبى إنما يلقى درساً عالياً لا يُدَلُّ فيه على العيوب الفنية إلا بإظهار المحاسن التى تقابلها فى أسمى ما انتهى إليه الفن من آثار تاريخه ، فيكون النقد تهذيباً وتخليصاً لفنون الأدب كلها ؛ وهو بهذه الطريقة يجلوها على الناس ويُبدع فيها ويزيد فى مادتها ويسهلها على القراء ويحصلها لهم تحصيلا لا يبلغونه بأنفسهم ، ويعطيهم من كل ضعيف ماهو قوى ، ومن كل قوى ماهو أقوى .

ورأيناهم فى نقد الشعر لايزيدون على أن يعلقوا على كلام الشاعر ، فيجىء عملهم فى الجملة كأنه تصنيفٌ من هذا الشعر وشرحٌ له وتَصفُّحٌ على بعض معانيه ؛ وبهذا يرجع الشاعر وإنه هو المتصرف فى ناقده يُدِيره كيف شاء ، ويجىء هذا الناقد زائداً متطفلا ، فتأتى كتابته وإنها لَضَرْبٌ من سخرية المنقود بناقده ، ويصبح وضعُ الكلام على العكس ، فالشاعر المنقود لم يتكلم ولكنه أبان قصورَ الناقد وجهله ، فهو الناقد وإن سكت ، وذاك هو المنقود وإن تكلم !

وهذا المتعلِّق على أخبار الشاعر وشعره كتعلق التلخيص على أصله المطوَّل والشرح على متنه الموجَز ، إنما هو كاتب يجد من ذلك مادة إنشائية فيتصرف بها ليكتب ؛ ولا يراد من النقد أن يكون الشاعر وشعره مادة إنشاء ، بل مادة حساب مقدَّر بحقائق معينة لابد منها ؛ فنقد الشعر هو فى الحقيقة علم حساب الشعر ، وقواعده الأربع التى تقابل الجمع والطرح والضرب والقسمة : هى الاطلاع والذوق والخيال والقريحة الملهَمة .

ثمَّ ضَربٌ آخر من تعلّق الضعفاء ، يتناولُ الشاعرَ باعتباره رجلا له

موضعه من الناس ومنزله من الحياة، ثم لا يعدو ذلك(*) وهو تزوير للمؤرخ بجَعْلِه ناقداً، وتزوير للناقد بِردِّه مؤرخا؛ على أن هذا لابد منه فى النقد الصحيح ولكنه لا يقوم بنفسه ولا تنفُذُ به بصيرةُ النقد، إذ الشاعر لم يكن شاعراً بأنه رجلٌ من الناس وحى فى الأحياء وعمرٌ من الحوادث المؤرخة، ولكن بموضوعه من أسرار الحياة وصلة نفسه بها وقدرة هذه النفس على أن تنفذ إلى حقائق الطبيعة فى كائناتها عامةً وفى إنسانها خاصة، ثم بقدرةٍ مثل هذه فى النفاذ إلى أسرار اللغة الشعرية التى هى الوجود المعنوى لكل ذلك، والتصرف بها على طبقات معانيه حتى لا تقصر عن الغاية ولا تقع دون القصد. فإن الشعر إن هو إلا ظهورُ عظمة النفس الشاعرة بمظهرها اللغوى، وإن كان فى نقد الشعر تاريخ لا يتم النقد إلا به، فهو تاريخ الشعر فى نفس قائله، ثم تاريخ هذه النفس فى معانى الشعر من عصرها، ثم أدب هذا الشاعر من الوجود الأدبى للغة التى نظم بها؛ وذلك لابد أن يقع فيه تاريخ الشاعر نفسه محصَّلا من نواحيه فى جهات الحياة، مُتعمَّقاً فيه بالاستقصاء، مُتغلغلاً إليه بالنقد...

❀ ❀ ❀

وإن لنا رأياً بسطناه مرارا، وهو أنه لا ينبغى أن يعرض لنقد الشاعر والكلام عنه إلا شاعر كبيرٌ يكون ذا طبيعة فى النقد، أو كاتب عظيم يكون ذا طبيعة فى الشعر: أى لابد من الأدب والشعر معاً لنقد الشعر وحده، فيأتى الكلامُ فيه من العلم والذوق والإحساس والالهام جميعا، فيتبينُ الناقدُ وجوهَ النقص الفنىّ، ويعرف بمَ نقصتْ

(*) لم نذكر فى هذه المقالة أمثلة ولم نعين أسماء حتى لا يمتد الكلام فتخرج المقالة إلى أن تكون كتابا، ولكنك إذا قرأت الشعر وما يكتب فى نقده، والمحاضرات التى تلقى عن الشعراء فقد وجدت الأمثلة والأسماء...

وماذا كان ينبغى لها وما وجه تمامها، ثم يعرف من الكمال الفنى مثل ذلك، ويُحس على الحالتين بالمعانى التى أحسَّها الشاعرُ حين انتزع شعرهُ منها، وما كان يَتَخالجُهُ وقتئذ من الفكر ويتمثلُ له من الصور المعنوية التى ألهمته إلهامَها؛ فإن المعانى المكتوبة هى شعر الشاعر، ولكن تلك المعانى المحسوسة هى شعر الشعر، وإنما يوقَفُ عليها بالتوهم والاسترسال إلى ماوراء الشعر من بواعثه، وما تموّجتْ به روحُ الشاعر عند عمله، وما عرَضتْ لهـا به طبائعُ المعانى؛ وهـذا كله لا يحسُّه الناقدُ إن لم يكن شاعرا فى قوة من ينقُدُه أو أقوى منه طبيعةَ شعرٍ

والنقد إنمـا هو إعطاءُ الكلام لسانا يتكلم به عن نفسه كلامَ متهم فى محكمة ليقيمَ حجةً أو يُزيحَ شبهةً أو يقررَ حقيقةً أو يبسط معنى أو يُوجِّهَ علةً أو يكشف خافيا أو يثبتَ نقيصةً أو يظهر إحساناً؛ وبالجملة فهو نَقْض السيئة والحسنة، ووقوع أدلة العلم والفن والذوق مواقعَها، وتكلُّمُ الكلام بذات نفسه ماتنكرُ منه وما تستجيد؛ والشاعر والناقد يلتقيان جميعاً فى القارئ فوجب من ثَمَّ أن يكون الناقدُ قوة تكشف قوة مثلها أو دونها ليُصحِّحَ فنٌّ فنًّا مثله أو يقرَّه أو يزيدَ عليه فضلَ بيان ومزيَّةَ فكرٍ؛ وبهذا يصبح القارئ كالسائح الذى معه "الدليلُ" وأمامه المنظر، أى معه التاريخُ الناطقُ وبإزائه التاريخ الصامت. وإذا كان الشاعر وشعره إنمـا هما النفسُ الممتازة وحوادثها وإلهامُها ومعانى الحياة فيها، فليس يتَّجهُ أن يكون الناقدُ تاماً إلا بنفس من نوعها فى دقة الحس ولطف النظر والاستشفاف وقوة التأثر بمعانى الحياة وسموِّ الإلهام والعبقرية؛ وبذلك يجىء النقد الصحيح بياناً خالصا منخولاً كأنه شرحُ نفس لنفس مثلها

وليس الأنفُ هو الذى ينقـد الوردة العطرة الفيَّاحةَ، وإنمـا تنقـدها

الحاسةُ التى فى الأنف ، وناقد الشعر إن لم يكن شاعراً فهو أنفٌ صحيح التركيب ، ولكن بالجلد والعظم دون تلك الحاسة التى هى روح العَصب المنبث فى هذا التركيب والمتصل بما وراءه من أعصاب الدماغ ، فهذا الأنف ... يستطيع أن يتناول الوردة ولكن بحِسّ غليظ مَحَقَتْه الآفة كما يتناول حجرا أو حديدا أو خشبا أيًّا كان ، فالوردة عنده شىء من الأشياء يمتاز باللين ويختصّ بالنعومة ويسطعُ بالرونق ويزهو باللون ، ويذهب يتكلم فى هذا كلِّه ، وهذا كلّه فى الوردة ولكنه ليس الوردة

ومتى كان البحثُ هو البحثَ فى السماء وأفلاكها وأجرامها فلا يستقلُّ به إلا الناظر المركَّب أى الذى معه عينُه وتلسكوبهُ وعلمُه جميعاً ، إن نقص من ذلك فبقدر نقصانه يكون ضعفه ، وإن تمّ فبقدر تمامه يكون وفاؤه ؛ ولو أمكن أن ينفصل الشاعر من شعره فيقطعَ ما بينه وبين المعانى من نسب نفسه ، ويبتعد عن الشعر ليراه جديداً عليه ويميزه من كل جهاته ــ لكان هو الناقد ؛ فناقد الشعر هو الشاعر نفسُه ولكن فى وضع أتم وأوفى ، وحالة أبين وأبصر ، أى كأنه الشاعر نفسه منقحاً تامًّا بغير ضعف ولا نقص .

ومن أجل ذلك ترى من آية النقد البديع المحكَمَ إذا قرأتَه ما يُخيِّل إليك أنَّ الشعر يعرض نفسه عليك عرضا ويُحصِّل لك أمره ويبين حالته فى ذهن شاعره ، وكيف توافَى وائتلف ، وكيف انتزعه الشاعر من الحياة ، وما وقع فيه من [illegible]ر الإلهام ، وما أصابه من تأثير الإنسان وما اتفق له من حظ الطبيعة والأشياء ؛ وبالجملة يُورد النقدُ عليك ما ترى معه كأن حركة الدم والأعصاب قد عادت مرة أخرى إلى الشعر

✲ ✲ ✲

ألا وإن شعرنا العربىّ الجميل قد أصبح اليوم فى أشد الحاجة إلى من يعلِّم

القارئ كيف يذوقه ويتبيَّنهُ ويخلُص إلى سر التأثير فيه ، ويخرجهُ مخرجا سَرِيًّا فى أنغامه وألحانه ، ويأتى به من نفس شاعره ومن نفسه جميعا ؛ فقوةُ التمييز فى هذا كله على تسديد وصواب هى التى يعطيها الناقد لقرائه ؛ والشعر فكر وقراءته فكر آخر ، فإن قصَّر هذا عن أن يبلغَ ذاك ليتصلَ به ويتغلغلَ فيه ، فلا بد للفكرين من صلة فكرية هى كتابة الناقد الذى هو من ناحية كمالٌ للطبيعة الناقصة ، ومن ناحية أخرى شرحٌ للطبيعة الكاملة ، ومن ناحية ثالثة هو بذوقه وفنه قانون الانتظام الدقيق الذى يبين به ما استقام فى الكلام وما اعْوَجَّ .

وطريقتنا نحن فى نقد الشعر تقوم على ركنين : البحث فى موهبة الشاعر ، وهذا يتناوَل نفسه وإلهامَه وحوادثه ؛ والبحث فى فنه البيانى ، وهو يتناول ألفاظه وسبكه وطريقته ، وسنقول فيهما معًا :

فأما الكلامُ فى فن الشعر ، فالمراد بالشعر — أى نظم الكلام — هو فى رأينا التأثير فى النفس لا غير ، والفن كله إنما هو هذا التأثير ، والاحتيال على رجّة النفس له واهتزازها بألفاظ الشعر ووزنه وإدارة معانيه وطريقة تأديتها إلى النفس ، وتأليف مادة الشعور من كل ذلك تأليفاً متلائماً مستوياً فى نسجه لا يقع فيه تفاوتٌ ولا اختلال ، ولا يُحمَلُ عليه تعسفٌ ولا استكراه ؛ فيأتى الشعر من دقته وتركيبه الحىّ ونسقِه الطبيعى كأنما يُقْرَعُ به على القلب الإنسانى ليفتح لمعانيه إلى الروح ؛ والشعر العربى إذا تمت له فى صناعته وسائل التأثير وأحكم من كل جهاته ، كان أسمى شعر إنسانى ؛ فتراه يطرد بألفاظه الجميلة السائغة وكأنه لا يحمل فيها معانى ، بل يحمل حركات عصبية ليس بينها وبين أن تنساب فى الدم حائل ، فما يكون إلا أن يَغْمُرَكَ بالطرب ويهزك من أعماق النفس ويورد عليك من نفحة الروح ما إن تدبرته فى

نفسك وأفصحتَ عنه شعورك رأيته فى حقيقته وجها من نسيان الحياة الأرضية والانتقال إلى حياة أخرى من السرور والاهتياج والألم والشجو يحياها الدمُ الثائرُ وحده غير مشارَك فيها إلا من القلب

والذين يجهلون ذلك من أمر الشعر العربى فى مزاجه الخاص ـ فلا يعتبرونه حيا ذا طباعٍ وخصائص لا بدّ من مراعاتها والنزول على حكمها وتلقّيها بما يوافقها كما لابدّ من أشباه ذلك لامرأة جميلة ـ تراهم يُخِلّون بقوانين صناعته البيانية وينزلون ألفاظه دون منازلها ويرسلون معانيه على غير طريقتها الشعرية ويبتلونه بفصول كثيرة هى كالآفات والأمراض ، فيأتون بنظم تقرؤه إذا قرأته وأنت تتلوى كأنما يقرَع على قلبك بقبضة يد أو يدق عليه بحجر... وقد فشا هذا النوع من الشعر فى هذه الأيام وأصبح مظهراً لما فسد من ذوق الأدب وما التاث من أمر اللغة وما اعوجّ من طرق الفلسفة وما عمَّت به البلوى من التقليد الأوربى ، وكثيراً ما رأيت القصيدة من هذا الشعر كامرأة سُلخ وجهها ووضعت لها جلدةُ وجه ميت ... والناظم من هؤلاء لا يُصرِّف الشعر على حدوده النفسية ولا يحكمه فيها ، بل تصرّفه الألفاظ كيف اتفقت له على وجوهها الملتوية ، وتسوسه المعانى سياسة عمياء فقدت باصرتيها معًا ، ويحسبون كلامهم من النور العقلى ولكنه النور فى قطعه ثمانين ألف ميل فى الثانية ، فلا يكاد يقال فى هذا العالم ، حتى يخرج منه ويلمس ويلحق باللانهاية ...

وهذا الضرب من الصناعة الفاسدة هو بعينه ذلك النوعُ الصناعى الذى أفسد الشعر منذ القرن الخامس ، غير أن القديم كان فساداً فى الألفاظ يجعلها كلها أو أكثرها مُحالاً من الصنعة ، والحديث جاء فساداً فى المعانى يجعلها كلها أو أكثرها مُحالا من البيان .

ويزعم أصحابُ هذا الشعر أنهم فلاسفة ، ولكنهم كذلك فى سرقة الفلاسفة لاغير ... ولو علموا لعلموا أن ألفاظ الشعر هى ألفاظ من الكلام يضع الشعر فيها الكلامَ والموسيقى معًا ، فتخرج بذلك من طبيعة اللغة العامة القائمة على تأدية المعنى بالدلالة وحدها إلى طبيعة لغة خاصة أرق منها تؤدى المعنى بالدلالة والنغم والذوق ، فكل كلمة فى الشعر تُجْتَلَبُ لمعناها من تركيبه ، ثم لموضعها من نسقه ، ثم لَجْرسها فى ألحانه ؛ وذلك كله هو الذى يجعل للكلمة لونها المعنوى فى جملة التصوير بالشعر ؛ وما يمرُّ الشاعر العظيم بلفظة من اللغة إلا وهى كأنها تكلمه تقول : دعنى أو خذنى .

وكما أنه لابد للأزهار من جو الأشعة ، كذلك لابد للمعانى الشعرية من جو اللغة البيانية ، فالبيان إنما هو أشعة معانى القصيدة ؛ وقد يحسبون أن الصناعة البيانيـة صناعة متكلفة لا شأن لها فى جمال الشعر ودقة التعبير ، وما ننكر أن من البيان الجيل أشياء متكلفة ، ولكنها تنزل من أساليب البلاغة العالية منزلة كمنزلة الظرف والدّل والخلاعة فى الحبيبة الجميلة .

إن هذه الفنون ليست من جمال الخلقة والتركيب فى المرأة ، ولكنها متى ظهرت فى الجمال الفاتن أصبح بدونها — وهو جميل دائمًا — كأنه غير جميل أحيانًا .

هنا صناعة هى روح الحسن فى الحياة ، وصناعة مثلها هى روح الحسن أحيانًا فى البلاغة (*) ، وما التراكيب البيانية فى مواضعها من الشعر الحى إلا كالملامح والتقاسيم فى مواضعها من الجمال الحى ؛ وكثيراً ما يخيَّل إلىَّ حين أتأمل بلاغة اللفظ الرشيق إلى جانب لفظ جميل فى شعر محكم السبك ، أن هذه

(*) لنا كلام طويل فى فلسفة الأسلوب البيانى سنذكره إن شاء الله فى كتابنا الجديد (أسرار الاعجاز)

[قلت : واقرأ حديثنا عن (أسرار الإعجاز) فى كتاب (حياة الرافعى) ص ٢٨٩]

الكلمة من هذه الكلمة كحب رجل متأنّق يتقرب من حب امرأة جميلة ، وعطف أمومة على طفولة ، وحنين عاطفة لعاطفة ، إلى أشباه ونظائر من هذا النسق الرقيق الحساس ؛ فإذا قرأتَ فى شعر أصحابنا أولئك رأيت من لفظ كالشرطى أخذ بتلابيب لفظ كالمجرم ... إلى كلمتين هما معاً كالضارب والمضروب ... إلى همج ورعاع وهرج ومرج وهيج وفتنة ؛ أما القافية فكثيراً ما تكون فى شعرهم لفظاً ملاكماً ... ليس أمامه إلا رأس القارئ .

وكما يهملون اختيار اللفظ والقافية يتسهلون فى اختيار الوزن الملائم لموسيقية الموضوع فإن من الأوزان ما يستمِرُّ فى غرض من المعانى ولا يستمرّ فى غيره ؛ كما أن من القوافى ما يطرد فى موضوع ولا يطرد فى سواه ، وإنما الوزن من الكلام كزيادة اللحن على الصوت : يراد منه إضافة صناعة من طرب النفس إلى صناعة من طرب الفكر ، فالذين يهملون كل ذلك لا يدركون شيئاً من فلسفة الشعر ولا يعلمون أنهم إنما يفسدون أقوى الطبيعتين فى صناعته ؛ إذ المعنى قد يأتى نثراً فلا ينقصه ذلك عن الشعر من حيث هو معنى ، بل ربما زاده النثر إحكاماً وتفصيلاً وقوة بما يتهيأ فيه من البسط والشرح والتسلسل ، ولكنه فى الشعر يأتى غناء ، وهذا ما لا يستطيعه النثر بحال من الأحوال .

فإذا لم يستطع الشاعر أن يأتى فى نظمه بالروىّ المونَق والنَّسج المتلائم والحبك المستوى والمعانى الجيدة التى تخاص إلى النفس خلوص طبيعة إلى طبيعة تمازجها ، ورأيته يأتى بالشعر الجافى الغليظ والألفاظ المستوخمة الرديئة والقافية القلقة النافرة والمجازات المتفاوتة المضطربة والاستعارات البعيدة الممسوخة ـ فاعلم أنه رجل قد باعده الله من الشعر وابتلاه مع ذلك بزيغ الطبيعة وسرف التقليد ، فما يجىء الشعر على لسانه فى بيت إلا بعد أن يجىء اللغو على لسانه فى مائة بيت أو أكثر أو أقل .

ذلك قولنا فى فن الشاعر ، أما الكلامُ فى موهبته التى بها صار شاعراً وعلى مقدارها يكون مقدارهُ واتصالُ أسبابه أو انقطاعُها من الشعر ، فذلك بابٌ لا يمكن بسط المعنى فيه ولا تحصيلُ دقائقه إلا إذا صُوِّرت روح الشاعر فى تركيبها الدقيق المعجز ووُزنت فى ميزانها الإلهى وعُرف نقصُها إن نقصتْ وتمامُها إن تمت ، وأمكن تتَبُّع مواقعها من أسرار الأشياء ومساقطها من منازل الالهام ؛ وهذا ما لا سبيلَ إليه إلا بالتوهم النفسىِّ ، فإن الأرواح القوية يلمح بعضها بعضاً ، وقد تكون لمحةُ الروح الشاعرة لروح مثلها هى تَدَبُّرَهَا ووزنها وإدراك ما تنطوى عليه كما ترى من وضع النور بإزاء النور ، فإن هذا الوضع هو نفسُه وزنٌ لكليهما فى ميزان البصر دون أن يكون ثمةَ موازنة إلا فى التألق والشعاع ؛ فهما فى هذه الحالة نوران يضيئان ولكنهما أيضًا كلمتان يبينان عما فيهما من الأكثر والأقل .

لهذا قلنا إن الشاعر لا يتسع لنقده ولا يحيط به إلا من كانت له روحٌ شعرية تكافئهُ فى وزنها أو تربى على مقداره ؛ فإن هناك قُوى روحيةً لإدراك الجمال وخلقه فى الأشياء خلقًا هو روحُ الشعر وروحُ فنه ، وقوًى أخرى لصلة العواطف بالفكر صلة هى سرُّ الشعر وسرُّ فَنه ، وقوًى غير هذه وتلك لتحويل ما يخالجُ النفسَ الشاعرةَ تحويلَ المبالغة التى هى قوة الشعر وقوة فنه ؛ وبمجموع هذه القُوى كلِّها تمتاز روحُ الشاعر من غير الشاعر ؛ أما ما تمتاز به هذه الروحُ من روح شاعرة مثلها فهو ما يكون من تَفاوت المقادير التى يهبها الله وحده ، فيخص شاعراً بالزيادة وآخر بالنقص ، ويهبُ أسبابها التى تكون عنها فيوسع لواحد ويضيق على الآخر ؛ وإذا تمت تلك القوى واستحكمت تهيأ منها للشاعر جهاز عصبى خالص هو جهاز التوليد لا يمرُّ به معنى إلا تجسَّدَ فيه بصورة غير صورته .

وقد استوفينا الكلام على ذلك فى مقالنا «سر النبوغ فى الأدب»، وهو لاغيره سر العبقرية .

فأمثلُ الطرق فى نقد موهبة الشاعر إدراكها بالروح الشعرية القوية من ناحية إحساسها والنفاذ إلى بصيرتها، واكتناه مقادير الإلهام فيها، وتأمل آثارها فى الجمال، وتدبُّر طبيعتها الموسيقية فى الحس والفهم والتعبير، وتبيُّن قدرتها على الفرح والحزن بأشجى وأرق ماتهتاج فى النفس الحساسة، ومعرفة قوة التحويل فى عواطفها للمعانى الإنسانية والطبيعية تحويلا يجعل القوة أقوى مما تبلغ، والحقيقة أكبر مما تظهر، وتأتى بكل شىء ومعه شىء؛ وليس ينتهى الناقد إلى ذلك إلا بالبحث فى الأغراض أى «المواضيع» التى نظم فيها الشاعر وما يصله بها من أمور عيشه وأحوال زمنه وكيف تناولها من ناحيته ومن ناحيتها وماذا أبدع، ثم فى أى المنازل يقع شعره من شعر غيره فى تاريخ لغته وآدابها، ثم نظرته الفلسفية إلى الحياة ومسائلها واتساعه لأفراحها وآلامها وقوة أمواجه الروحية فى هذا البحر الإنسانى الرجّاف المتضرِّب الذى يبلغ فى نفوس بعض الشعراء أن يكون كالأقيانوس وفى بعضها أن يكون كالمستنقع ... ثم دقة فهمه عن وحى الطبيعة والإشراف على جلية معناها بالهمسة واللمسة، وتسقُّط إلهام الغيب منها بالإيماءة واللحظة؛ وهذا كله لايستوسق للناقد العظيم إلا إذا كان مع روحه الشعرية التى اختص بها محيطا بآثار الشعراء فى لغته، بصيرا بمآخذها، مُحْكِما لأسباب الموازنة بينها، متصرفا مع ذلك بأداة قوية من صناعة اللغة والبيان وفنون الأدب .

وإذا كان من نقد الشعر علمٌ فهو علم تشريح الأفكار، وإذا كان منه فن فهو فنٌّ درس العاطفة، وإذا كان منه صناعة فهى صناعة إظهار الجمال البيانى فى اللغة ...

فيلسوف وفلاسفة ... [1]

أتأمّل الآن هذا القلم في يدي — وأنا أفكر فيما سأكتبه للزهراء — فأرى نِصاب القلم أضلاعا حُمْرا في لون المرجان ، تنسرحُ قليلا ، ثم تستديرُ ، ثم تستدقّ ، ثم تخرج منها قادمةٌ سوداء كأنها قصبةُ ريشة من جناح ، وقد خُيّل إلىّ أن هذا اللون الأحمر المزْهُوّ يقول للأسود : إنما أنت غلطةُ الذى صنعنى ، فكيف أُلهِمَ فىّ هذا الإلهام فوسَمَنى بهذا الميسم من حُسْن ولون وتركيب ، ثم اعترضتْه الغفلة فيك فأخطأ ، وأدركه العجز فلم يميِّز ، ودخل على رأيه الوَهَنُ فإذا هو يصلك بى كالسيئة بعد الحسنة ، وينزلك منى منزلة القبح من الجمال ! فأين كانت صحةُ رأيه التى بلغ بها فى أحسن ماوفق إليه حين بلغ فيك أسوأ مايمكن أن يصنع ؟ فيقول الأسود : إنما فيك أنت غلطة الصانع وبك أخطأ جهة الفن ، فلم يزنْ منك ما كان وزَنَ منى ، ولا قدّر لك مثل ماقدّر لى ، وجئت غليظا غير مقدود ، وكنت إلى العرض ولم تكن إلى الطول ، وكنت أحمر ولم تكن أسود ؛ وما أراك إلا فاسد الحس ، متغير الذوق ، وما أراك صنعك هذا الرجل إلا فى ساعة همٍّ قاربتْ بين نفسه ورأيه ، فما زجتْ بين رأيه وعمله ، فجمعتْ بين عمله وغلطه

ذلك منطق اللونين فيما أدركتُ منهما ، وكلاهما مخطئ فى جهة ما هو مستدل به أو متنظِّر فيه ؛ والحقيقة من ورائهما ، إذ الحكمة ليست فى أحدهما لحمرة أو سواد ، بل هى فى اثنيهما جميعاً لا ئتلافهما جميعا ، فلا تنقسم

(١) مجلة الزهراء سنة ١٩٢٥

عليهما قسمة ما : لأنها آتية منهما بالمقابلة بين اثنيهما ، وما لايخرج أبدا إلا من اثنين فهو أبدا واحد لانصف له : كالطفل من أبويه : لن تعرف شطره من أمه لأنك لن تعرف شطره من أبيه

أفى الأرض كلها من يستطيع أن يقسم طفلا واحدا فيجعله طفلين تعتدلُ بهما الحياة وتمدُّهما بروحين من روح واحـدة ؟ إنك لن تجد هذا الخالق الأرضى ... إلا فى طائفتين : الأولى قوم من ذاهبى العقول يخلقون كل شىء لأنهم لايخلقون شيئا ؛ والثانية قوم من جبابرة العقول ... عندنا تعرف لهم من الخلط وسخف الرأى ما يريدون أن يعلوا به على الناس ، إذ كان الناس لايجاوزون الحقائق ، فظن هؤلاء أنهم إن جاوزوها وعَدَوْا عليها خرجوا إلى طبقة فوق العقل الإنسانى . وللجنون طرفان : أحـدهما ألا يعقل المجنون عن الناس ، والآخر ألا يعقل الناس عن العاقل ؛ فذلك ذلك وهذا هذا ؛ وكأن فى رأس كل منهما مُضْمَرَةً من قوة الخلق تنطوى على محجوبة إلهية ، فكل منهما يزيد فى الخلق ما يشاء ، وكل منهما فوق الطبيعة لأنه من ذوى الأسرار المجهولة التى لا نستبين عندنا من خفائها ، ثم لاتخفى عندهم من استبانتها . .

يضحكنى من جبابرة العقول هؤلاء أنهم يرون الدين مرة عادة ، وتارة اختراعا ، وحينا خرافة ، وطورا استعبادا ؛ وكل ذلك لهم رأى ، وكل ذلك كانوا يعقدونه بالحجة ويشدُّونه بالدليل ؛ فلما جاء تاغور الشاعر الهندى المتصوف إلى مصر ، وجلسوا إليه وسمعوه ، خرجوا يتكلمون كأنما كانوا فى معبد ، وكأنما تنزلت عليهم حقيقته الالهية ، وكأنما اتضعت هذه الدنيا عن المكان الذى جلس فيه الرجل ، فلا يعرفونه من الأرض ، ولا من هـذا العالم : بل كانوا فى غشية قد فروا لهـا وسكنوا إليها ، وما أراهم صُرفوا

عن عقولهم ولا صُرفت عقولهم عنهم ؛ ولكن تاغور شاعر فيلسوف ، وهم يعرفون أنفسهم من لصوص كتُبه وآرائه ، ويقعون منه موقع السفسطة الفارغة من البرهان القائم ، وإذا قيسوا إليه كانوا كالذباب تزعم أنفسها نسور المزابل ، ولكنها لا تكابر فى أن من الهزؤ بها قياسها بنسور الجوّ

لقد ضربهم تاغور ، لا بأنه لمسهم ، بل بأنهم لمسوه ... وفضحهم فضيحة اللؤلؤة للزجاج المدّعى أنه لؤلؤ ، وأظهر لنا تجمُّلهم العقلى كهذه الأصباغ فى وجه الشوهاء : تذهب تتصنع ولا تدرى أنه إن كان فى أدْهانها وأصباغها روحُ النقاش ففى وجهها هى معنى الحائط !

لقد قرأتُ كلَّ ما كتبوا عن تاغور ألتمس فيه هذه الحقيقة لأرى كيف يكون جبابرة العقول حين تنكشف عنهم المعاذير وتنزاح العلل وتنهتك الأستار ، فإذا هم فى كل ما كتبوه لا يحسون إلا هذه الحقيقة ، ولا يصفون إلا هذا الحسّ ، فلم يُخزهم عندنا إلا هذا الوصف ؛ لا جرم فكل ما أثنوا به على الشاعر الفيلسوف قرأناه ذمًّا لهم ، وعرفناه قدْحا فيهم ، وأخذناه تهمة عليهم ، وكل ما أعظموا من أمره صغَّر من أمرهم ، ولقد جعلوه إنسانًا كأنما تنتهى قمة هذه الدنيا عند قدمه ، وتبدأ قدمه من قمة الدنيا ، فما عرفنا من ذلك قياساً لسموّ تاغور وارتفاع نفسه ، بل قياسا لانحطاط أنفسهم وهَوان أمرهم وقلة خطرهم ؛ فإن الرجل المقلد المخدوع لا يزال يطول فى تقليده ، ولا يزال يتوعَّر فى الرأى الذى يراه ويعتسف طرق العلم اعتسافا : حتى يرميه الله بأصل من هذه الأصول الإنسانية التى يقلدها ؛ فإذا هو مُفْحَم يتقاصر من طول ، ويتسهّل من وعر ، ويهتدى من تعسف . وينحط إلى الوهدة بعد أن كان على الجبل ، ويسلّم فى نفسه ، ويُذعن برأيه ، وينقاد من حيث يأبى ومن حيث لا يأبى ، ويصبح وقد غمرته تلك النفس أشبهَ بالظل مما يرميه

ويفىء به ؛ فهو مسخ فى تمثيله الصورة ، وهو كذب عليها بما يطول ويقصر ، وهو على كل أحواله إبهام سخيف مظلم لحقيقة شريفة نيّرة

وأنت أفلا ترى هذا من جبابرة العقول كتلك الشيمة فى أخلاق العامة ، إذ لايصلحون أبدا إلا أن يكونوا تبعاً ، ولا علم لهم إلا مايربط فى صدورهم من فلان وفلان ، ثم يعلمون بلا تحقيق ، ويحملون بلا تمييز ، ثم لا تكون تهمة أنفسهم مع الرجل العالم — إذا اجتمعوا به — إلا فى التسليم له ، واتقاء حقائقه ، والنزول عن آرائهم إلى رأيه ، والخروج من أنفسهم إلى نفسه !

لقد قلنا من قبل إن جبابرة العقول هؤلاء الذين يأبون إلا أن يكونوا علماءنا وسادتنا ليصرّفوا عقولنا ويغيروا عقائدنا ويصلحوا آدابنا ويدخلونا فى مَساخط الله ويهجموا بنا على محارمه ويركبونا معاصيه — إنْ هم فى أنفسهم إلا عامة وجهلة وحمقى إذا وُزنوا بعلماء الأمم وقيسوا إلى حكماء الدنيا ، ومايكتبون للأمة فى نصيحتها وتعليمها إلا مايتحوّل من كلمات وجمل فى الصحف والكتب إلى أن يصيروا فى الواقع فساقاً وفجرة وملحدين وساخرين ومفسدين ؛ فالمصيبة فيهم من ناحية العلم الناقص فى وزن المصيبة بهم من ناحية الخلق الفاسد ، وهاتان معاً فى وزن المصيبة الكبرى التى يجنون بها على الأمة لتهديمها فيما يعملون ، وتجديدها فيما يزعمون ...

لم أنخدع قط فى هؤلاء من فلاسفة أو دكاترة أو جبابرة ، ولست أضع أمرهم إلا على حقه ، فإنى لأعرف أن الهر من قبيلة الأسد ، ولكن أسديّته على الفأرية وحدها ... ولعل عاقبة الجهل خير للأمة من عواقب علمهم وتخبطهم وحماقاتهم : فإنهم قوم مقلدون ، ولهم طباع معتلّة زائغة ، وعقول لا إمساك لها من دين أو ضمير ؛ فما يجنحون إلا إلى بدعة سيئة ، أو آفة محذورة ، أو فكرة متّهمة ؛ ولا يعملون إلا مايشبه الظن بهم ، والرأى فيهم : من تمدين الأخلاق

السافلة وإلحاقها بالعلم أو الفلسفة ، مع بقاء العقل ناضجاً صحيحا يحكم على هذا الخبيث كما كان يحكم على ذلك الطيب ؛ وليس من سبيل إلى هـذا إلا من جهة تحويل الأخلاق ، فإن هى استمسكتْ ولم تتحول فها هنا موضع النزاع ومحل الخلاف ، ولابد من حرب منا كحرب الاستقلال ، ثم حرب منهم كحرب الاستعمار ...

فالذى بيننا وبينهم ليس القديم والجديد ، ولا التأخر والتقدم ، ولا الجمود والتحوّل ؛ ولكن أخلاقنا وتجرّدهم منها ، ودِيننا وإلحادهم فيه ، وكمالنا ونقصهم ، وتوثقنا وانحلالهم ، واعتصامنا بما يمكننا وتراخيهم تراخى الحبل لايجد مايشدُّه

والآن أنظُرُ إلى قلبى فأرى شطره الأسود ماجُعل كذلك إلا ليزيد فى جمال حُمْرته وبريقها ، ويكسبها لمعة لاتأتيها إلا من السواد خاصة ؛ والشَّر خير إذا بقى محصورا فى موضعه ولم يتجاوزه ؛ فإذا تنبهت الأمة لجبابرة العقول هؤلاء ، قلنا لابأس بالسواد المظلم إذا كانت حكمته حمراء ......

شيطانى وشيطان طاغور ... [1]

طاغور هذا شاعر الهند، مر بعصر مرور شمس الشتاء باليوم المطير: لا يقع نورها إلا فى القلوب مما تستخف وتستهوى، ومما تمتنع وتتأبى، ومما ترق وتلطف؛ وتنقدح بين السحب الهامية فإذا لها من الجمال والسحر والعجب مايكون لجمرة تخرجها السماء معجزة للناس فيرونها ترسل الشعاع مرة وتمطر الماء مرة

لم ألق طاغور ولكنى أنفذت إليه شيطانى وقلت أوصيه قبل أن يخرج لوجهه: قد علمتَ أن هذا الرجل هندى، ولكنه إنسان، فما أرض أولى به من أرض: وأنه شاعر، ولكنه مخلوق، فما طبيعة أغلب عليه من طبيعة: وأنه حكيم، ولكنه تركيب ماجبلت له طينة غير الطينة: وأنه سماوى، غير أنه سماوى كعلماء الفلك: سماؤه فى منظار وكتاب وقلم وحبر... فاذهب إليه فداخلْ شيطانه، فإنك واجد له من ذلك مالكل الشعراء، وربما عرفت شيطانه من ذوى قرابتك أو خالصة أهلك، ثم ائتنى بكلامه على جهة ماهو مفكر فيه، لا على جهة ما هو متكلم به؛ وخذ مايهجس على قلبه، ودع مايجرى فى لسانه؛ فان هذا سيأتى به إخوانك من «مندوبى الصحف»... واعلم أن كل حكيم مهيِّئ لمسائل من حوله كلاماً، غير أن معانى من حوله مهيِّئة له مسائل أخرى يفكر فى كل جواب عليها ولا ينطق بجواب عليها

---

(١) البلاغ الأسبوعى سنة ١٩٢٦

* * *

فحدّثنى شيطانى بعد رجوعه قال: حدثنى شيطان طاغور قال: لما هبط طاغور هـذا الوادى نظر نظرة فى الشمس ثم قال: أنتِ هنا وأنت هناك، تقربين بأثر وتبعدين بأثر، وتطلعين بجو وتغربين بجو، فلا تختلفين وتختلف بك الأقاليم، ثم تتغير بالأقاليم الأمم، ثم تتغير بالأمم الأفكار والمنازع، ثم تتغير بالأفكار والمنازع أغراضها ومصالحها، ثم تتغير بمصالحها وأغراضها الحقائق الانسانية؛ وإنما الباطل والحق فيما تستقبل هذه الحقائق أو تستدبر، وقد غلبت السياسة على كل شىء حتى أصبحت هذه الحقائق الانسانية جغرافية، لها شعوب ولها مستعمرات، فالإخاء فى الغرب سيادة فى الشرق، والمساواة هناك امتياز هنا، والحرية فى مملكة استعباد لمملكة، والتحية فى موضع صفعة فى موضع، والضيافة فى مكان استئكال فى مكان: «ولا يزالون مختلفين إلا مَن رَحِمَ ربُّك ولذلك خلقهم»، فلن يتصل الناس بالروح الأعلى إلا من الجهة الواحدة التى لم تتغير ولن تتغير فيهم، جهةِ الدموع التى لا تختلف فى أسود ولا أحمر، والتى لا تنبعث إلا من الرقة والوجد والأحزان والآلام، وهى بذلك نسب كل قلب إلى كل قلب، فلو غمر العالم كلَّه بلاءٌ واحد لا تحرز منه أرضٌ أهلها ولا تتحاجز الأمم فيه، لاستلب مطامع الناس بعضهم فى بعض، وأرجع الإنسانية الزائغة إلى مستقرها، فتجردوا من الدنيا وهم فى الدنيا، فاتصلوا باللانهاية وهم فى النهاية؛ فإن لم يكن بلاء عام ففكر عام فى بلاء يميت الشهوات المتطلعة ويكون كالداء تلبَّس بالجنس الانسانى كالذى تصفه الأديان من جهنم والمصير إليها والحساب عندها والجزاء على الشر بها، حتى لا تبقى نفس إلا وهى فى وثاق من حلالها وحرامها، ولا يبقى شر يتخيل أو يشتهى إلا وهو كالمتاع النفيس بين أربعة جدران تتساقط وتحترق لا يجد

فى كل اللصوص لصا ، فإن لم يكن هذا ولا ذاك فالحب العام حتى لا يبقى جيش ولا سلاح ولا سياسة ولا دول ، ولا تكون الممالك إلا بيوتا إنسانية بين الواحدة والكل من الشابكة واللحمة مابين الكل والواحدة ، وحتى تقول مصر لانجلترا يابنت عمى ... فإن استحال كل هذا فالحرية العامة على أن تكون محدودة من كل جهاتها بالشعر ، وعلى أن يكون الشعر محدودا بالطبيعة ، والطبيعة محدودة بالله ، فينتزع النوم من الأرض لتتصل اليقظة بالحلم ... من طريق غير النوم

قال شيطان طاغور : ثم ابتأس طاغور وقال : كل ذلك مستحيل أو كالمستحيل ، ولكنه فى الأمل ممكن أو كالممكن ؛ وللفظ معنيان : أحدهما مايكون ، والثانى مايحسن أن يكون ؛ ذلك لابد له منا لأنه جانب النظام الإلهى ، وهذا لابد لنا منه لأنه جانب الخيال الإنسانى ؛ ذلك من الطبيعة التى تعمل ولا تتكلم ، وهذا من الشعر الذى يتكلم ولا يعمل . آه آه ! إنما السلام العام أن يكون الوجود شركة إلهية إنسانية برضا واتفاق بين الطرفين ... ولعمرى إن كل المستحيلات ممكنة بالإضافة إلى هذا المستحيل . ثم تبسم طاغور إذ خطر له أنه شاعر عليه أن يصف الوردة ويقول فيها مايجعلها بيت شعر فى كتاب الطبيعة له وزن ونغم ، ولكن على الطبيعة قبل ذلك أن تنبتها ناضرة عطرة جميله تتميز من غيرها برائحة ولون وشكل .

قال شيطانه : ولما انتهى من تأمله إلى هذه الخاطرة قدّمت له سيدة هندية عقود الزهر ، وبينا هى تقلده إياها قال فى نفسه : إن هذه الأزهار من معانى الماء العذب ؛ فإذا انطلقنا فى أوهامنا وراء الحب العام والسلام العام فلن تكون معانى الماء الملح وهو ثلاثة أرباع الأرض ومن أزهاره الأسطول الإنجليزى ...

* * *

حدثنى شيطانى قال: حدثنى شيطان طاغور قال: ولما استقر طاغور فى قصر شوقى بك ورآه فى مثل حسن الدينار ونقشه ونفاسته، قال: لاجرم هذه أمة أغنت شاعرها، فما أخطئ التقدير، وإن أخطأته فلا أبعد عن المقاربة إذا حسبت أن هذا الشاعر يطبع لهذه الأمة نصف مليون نسخة من كل ديوان شعر أو دفتر حكمة أو كتاب قصة، وليتنى أعرف العربية لأعرف كيف يبدع هذا الشعب فلسفته فى أغانيه المتصلة بنجوم السماء المتكلم بأحسن وأطهر مايمكن أن يكون ترجمة للحقيقة الخالدة التى يتوارثها شعب خالد.

الشعر فكرة الوجود فى الإنسان، وفكرة الإنسان فى الوجود، ولا يكفى أن يخلق هذا الإنسان مرة واحدة من لحم ودم، بل لا بد أن يخلق مرة أخرى من معان وألفاظ، وإلا خرج حيوانا أعجم؛ فالشاعر يبدع أمة كاملة، إن لم يخلقها فإنه يخلق أفكارها الجميلة وحكمتها الخالدة وآدابها العالية وسياستها الموفقة، وما أحسب النهضة المصرية إلا بالأغانى والأناشيد، فتأتى من انجلترا جنود وتخرج لها من دور الغناء والتمثيل جنود أخرى؛ لقد كنت ملهماً حين قلت مرة «إن الله يخاطب الناس عن طريق الموسيقى»(*).

نعم عن طريق الموسيقى، فكل شىء هو موسيقى فى نفسه حتى حين يتطاحن الناس ويذبح بعضهم بعضاً، فإن صلصلة الأسلحة ودوى القنابل وأزيز الرصاص وتصايح الجند - كل ذلك لحن أعده الله جلت قدرته «وموسيقاه»... لجنازات الأمم.

* * *

(*) هذه العبارة من كلام طاغور فى محاضرته مما ترجمته جريدة السياسة.

حدثنى شيطانى قال : حدثنى شيطان طاغور قال : ولما رأى طاغور الأستاذ الفاضل مدير الجامعة المصرية ـ وهى التى دعته إلى إلقاء محاضرته ـ قال : نعم وحباً وكرامة ، إنه لا يستقيم فى العقل أن تدعو هذه الجامعة شاعراً روحانياً مثلى إلا وهى فلك نيّر يعده الله من نجومه ، وما أحسب أستاذ آدابها العربية إلا تلك الذّرة اللؤلؤية التى كانت تجاورنى فى طينة الخلق الأزلية ، فلو أن الذرات الثمان التى كانت حولنا خلقت فى عصرنا هـذا وتوزعت على الأمم الفلسفية لـكنا وإياها كوصايا الله العشر فى هذا العصر المادى ... ولملأنا طياتها إيمانا بالله ، ولصار لله تعالى فى أرضه عشر آلات سماوية لا سلـكية بينه وبين الخلق ، تباهى الجامعة المصرية بأن فيها إحداها ... لقد نغص علىّ هـذه الشيخوخةَ أنى لم أتعلم العربية ، وكيف لى بأن أرتل أناشيد أستاذ الآداب فى الجامعة المصرية وأستمتع بألحانه السماوية فى شعره وأغانيه ، وأسمع الملائـكة من هذه المئذنة الإنسانية فى الجامعة تهتف بكلمة الإسلام الرهيبة صارخة بحقيقة الوجود فى الوجود : الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ...

قال شيطانى : وكان شيطان الدكتور طه حسين أستاذ الجامعة حاضراً معنا ، فلما ألم بمـا فى نفس طاغور قال لى : حقا إن من الخير أن لا يعرف هـذا الهندى اللغة العربية ، لأنه لو عرف اللغة العربية لمـا أرضته اللغة العربية ولا آداب اللغة العربية ولا أستاذ آداب اللغة العربية ! فقلت : اسكت ويحك ودع الرجل فى أحلامه ، ولا تـكن غيمة سمائه المشرقة ؛ أما تراه يحلم ، أما سمعته يقول : « والحقيقة من حيث هى جمال ليس يعدله جمال ؛ ألست ترى إلى صورة هذه المرأة العجوز أبدعها فنان ماهر ، إنك تنظر إلى الصورة فتقر بجمالهـا ، ولـكن المرأة العجوز التى فيها ليست على شىء من الجمال ؛ لـكنها

جمال الصورة أنها تمثل هذه المرأة العجوز على حقيقتها »(*) فهذه كلمات فى سبحات النور، وهى من لغة السماء ذات الكواكب لا من لغة النفس ذات العواطف؛ وإلا فهل يصح فى العقل أن تصوير العجوز التى اضطرب ميزان الخلق فيها حتى لا يزن منها إلا بقايا الخلقة وأنقاض العمر وخرائب المرأة... يكون بما يظهر من شوهتها وتهدمها وتشنن جلدها وموت ظاهرها — جمالا فى الصورة لأنه قبيح فى الأصل؟ أفليس لو كان ذلك صحيحاً لملئت المتاحف والقصور بألواح العجائز، ولما بقيت على الأرض عجوز إلا ذهبت لأحد المصورين تقول له اخلقنى...!

* * *

حدثنى شيطانى قال: حدثنى شيطان طاغور قال: وكان طاغور رطب اللسان فى محاضرته كأن غابة من غابات الهند أمدته بكل ما اعتصرته الشمس فيها ماءً وحياة ونضرة، فهو فى كلامه ومعانيه ورق وزهر ونسيم وظل وحفيف وتغريد، يسحر الناظر إليه إذ لا يرى الناظر شكله الانسانى فيه بل يراه شيئاً من خياله كأنما انفصل منه فتمثل بشراسويا؛ ولو أنك اطلعت يوما فى المرآة فإذا خيالك فيها يكلمك ويستأنسك ويلاطفك لك، لما أدهشك من ذلك ولا أطربك ولا استخرج من عجبك وذهولك إلا كالذى يعترى نفسك حين يكلمك طاغور؛ وتراه يستخلص آراءه المتصرفة بكلامه من روح النواميس الإلهية المدبرة للكون، فتحسبه يضيف إليك زيادة ليست فيك؛ فما كبرت به

(*) هذه العبارة مما ترجمه السياسة من محاضرة طاغور، وإذا قيل إن الصناعة فى نقل الصورة محكمة فليس معنى ذلك أن الصورة جميلة، والمعنى الذى يرمى اليه الشاعر معروف وقد كتبناه فى (السحاب الأحمر) ولكنه أخطأ فى العبارة عنه أو أخطأت الترجمة

تصغر نفسك عندك بين يديه ؛ ثم هو يتصل بروحك مرة فى جلال حب الأب لطفله ، ومرة فى رقة فرح الطفل بأبيه ؛ فإذا أنت منه بموقف عجيب من معجزة إنسانية تروعك بطفل شيخ قد اجتمع فيه طرفا العمر وجاء كأنه مظهر روحه التى لا عمر لها .

إنسان كهربائى يحاول أن يزيد فى تركيب الناس عظْمة من حديد أو عصباً من سلك ، لتصل بهم جميعا تلك الشعلة الطائفة ، فإذا هم خلق آخر كأهل الجنة يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ؛ ولكنه بصر وهو خارج من المسرح بإعلان السيما التى تجاوره وما عليه من التصاوير والتهاويل ، فقال فى نفسه : بعد قليل تجىء إلى هنا لندن وباريس ونيويورك وغيرها من أرض الله بناسها وحيوانها ونباتها ، يراها الجالسون رأى العين ويتصلون بها اتصالا بعيداً لا يجعلهم فيها ولكنه لا يخليهم منها ؛ ويجب لعمران هـذه الأرض أن يبقى أهل مصر فى مصر فلا يدعوها جميعاً ليتصلوا جميعاً بما تشتاقه أنفسهم من باريس أو غير باريس من حقائق العالم الكبرى ، ولا يحسن هذا الاتصال إلا إذا خص ولم يعم ، فيقوم به الواحد والاثنان والجماعة وتبقى الأمة بما هى وكما هى لأنها بذلك وحده أمة ، كما أن الناس بطبائعهم ناس ، والكون باختلافه كون ، فهيهات هيهات الحب العام والسلام العام والاتصال العام بالحقيقة الروحية العليا . ثم تبسم وقال : ما أشبهنى بهذه السيما ، غير أن شريطى لا يرى فيه الناس رواية من لندن وباريس ، بل رواية وقعت حوادثها فى جنة الخلد ...

فلسفة القصة

ولماذا لا أكتب فيها..؟ (*)

لم أكتب فى القصة إلا قليلا ، إذا أنت أردت الطريقة الكتابية المصطلح على تسميتها بهذا الاسم ، ولكنى مع ذلك لا أرانى وضعت كل كتبي ومقالاتى إلا فى قصة بعينها ، هى قصة هذا العقل الذى فى رأسى ، وهذا القلب الذى بين جنبي ......

أنا لا أعبأ بالمظاهر والأغراض التى يأتى بها يوم وينسخها يوم آخر ، والقبلة التى أتجه إليها فى الأدب إنما هى النفس الشرقية فى دينها وفضائلها ، فلا أكتب إلا مايبعثها حية ويزيد فى حياتها وسمو غايتها ؛ ويمكّن لفضائلها وخصائصها فى الحياة ؛ ولذا لا أمس من الآداب كلها إلا نواحيها العليا : ثم إنه يخيل إلىّ دائماً أنى رسول لغوى بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه ، فأنا أبداً فى موقف الجيش (تحت السلاح) : له مايعانيه وما يكلّفه ومايحاوله ويفى به ، وما يتحاماه ويتحفظ فيه ، وتاريخ نصره وهزيمته فى أعماله دون سواها ؛ وكيف اعترضت الجيش رأيته فنّ نفسه ، لا فنك أنت ولا فن سواك ؛ إذ هو لطريقته وغايته وما يتأدى به للحياة والتاريخ

ألا ترى أن تلك الروايات توضع قصصاً ، ثم تقرأ فتبقى قصصا ؟ وإن هى صنعت شيئا فى قرائها لم تزد على ما تفعل المخدرات : تكون مسكنات

(*) وجه إلينا سؤال : لماذا لاتكتب فى القصة ؟ وكان هذا قبل أن نكتب مقالاتنا فى مجلة الرسالة ، فرددنا بهذا الرد

[قلت : وانظر ص ١٨٩ من « حياة الرافعى »]

عصبية إلى حين ، ثم تنقلب هى بنفسها بعد قليل إلى مهيجات عصبية ؟

وأنا لا أنكر أن فى القصة أدباً عاليا ، ولكن هذا الأدب العالى فى رأيى لا يكون إلا بأخذ الحوادث وتربيتها فى الرواية كما يربّى الأطفال على أسلوب سوادٍ فى العلم والفضيلة ؛ فالقصة من هذه الناحية مدرسة لها قانون مسنون ، وطريقة ممحصة ، وغاية معينة ؛ ولا ينبغى أن يتناولها غير الأفذاذ من فلاسفة الفكر الذين تنصبهم مواهبهم لإلقاء الكلمة الحاسمة فى المشكلة التى تثير الحياة أو تثيرها الحياة ؛ والأعلام من فلاسفة البيان الذين رزقوا من أدبهم قوة الترجمة عما بين النفس الإنسانية والحياة ، وما بين الحياة وموادها النفسية فى هؤلاء وهؤلاء ، تتخيل الحياة فتبدع أجمل شعرها ، وتتأمل فتخرج أسمى حكمتها ، وتشرع فتضع أصح قوانينها .

وأما من عداهم ممن يحترفون كتابة القصص ، فهم فى الأدب رعاع وهمج ، كان من أثر قصصهم مايتخبط فيه العالم اليوم من فوضى الغرائز ، هذه الفوضى الممقوتة التى لوحققتها فى النفوس لما رأيتها إلا عامية روحانية منحطة تتسكع فيها النفس مشردة فى طرق رذائلها

إذا قرأت الرواية الزائفة أحسست فى نفسك بأشياء بدأت تسفل ، وإذا قرأت الرواية الصحيحة أدركت من نفسك أشياء بدأت تعلو ؛ تنتهى الأولى فيك بأثرها السيئ ، وتبدأ الثانية منك بأثرها الطيب ؛ وهذا عندى هو فرق مابين فن القصة ، وفن التلفيق القصصى ! !

شعر صبري (*)

فى الحادى والعشرين من شهر مارس من سنتنا[1] هذه نزع الشعر العربى عن رأسه عمامة المشيخة ونشرها للموت ، فكانت الكفن الذى طُوى فيه بقيةُ شيوخ الأدب . المرحوم اسماعيل باشا صبرى

كان رحمه الله من الرجال الذين نشئوا فى تاريخ لا يُنشئ رجلا ، وجاءوا فى غير زمنهم ليجىء بهم زمنُهم بعد ؛ وهؤلاء إن لم يكن فيهم قوة أكبر من القوة ، فهم أقدار وأحداث تولد وتنشأ وتنمو فى أسلوب إنسانى ليتم بها شىء كان نقصا ، ويحسن شيئاً كان هجنةً ، ويوجد أمراً كان عدماً ؛ ثم ليكون للزمن منها حدود يبدأ عند الواحد منها فيتغير فيه ويتحول به ويخرج معه فى بعض معانيه زمنا جديدا فى رجل جديد

كذلك كان صبرى فى مَنْحًى من مناحى الشعر ، وكان البارودى - رحمهما الله - فى منحى آخر ؛ فهما طرفا المحور الذى استدار عليه هذا الفلك ليبدأ بعد تاريخه الميت تاريخا حيًّا ، وليخرج من الجوّ القاتم فى أعراض الأرض إلى الفضاء المشرق بمعانى السماء ، ثم لينفض عنه فى مهب الرياح العلوية مالصق به من طباع أهله وأخلاقهم ، ويُغلق بها مافتح الزمن عليهم من أبواب هذه الحرفة ، فكان الشعر فى حاجة إلى رجل كالملك ، فأصاب رجلين ؛ وعلم الله مارأيت فى كل من رأيتهم من الشعراء نفسا تعدُّ معهما ، ولا خُلُقًا يجرى فى أخلاقهما ، ولا ظرفا ولا رقة ولا أدبا ولا شيئا يصلح أن يكون شرحا منهما أو توكيدا لشىء فيهما أو تقوية لمعنى من معانيهما ، كأنما وجدا ليكون أحدهما مبدأ

(*) هو اسماعيل باشا صبرى ، توفى رحمه الله فى شهر مارس سنة ۱۹۲۳ م

(۱) المقتطف : مايو سنة ۱۹۲۳

والآخر نهاية، ولينفردا انفراد الطرفين من المسافة بالغةً مابلغت

كان الشعر لعهدهما بقية رثّة فى معرض خَلق مما كان يسميه أدباءُ الأندلس بالأغراض المشرقية وطريقة المشارقة، وهم يعنون بذلك الصناعة والتكلف للبديع والانصراف إلى اللفظ واستكراهه على الوجه الذى أرادوا، إلى ما يتشعب من ذلك ويخرج أو يدخل فى بابه؛ وقد كان هذا ومثله مما يُساغ ويحتمل فى القرن الثامن وأكثر التاسع للهجرة، ثم فى أيام بعدذلك؛ غير أنه بلى وتهتك فى مصر خاصة ولم يبق منه إلى منتصف القرن الثالث عشر إلا رقع وخيوط فى قصائد ومقاطيع

ثم كان أكثر الشعراء يومئذ إنما يحترفون فن الأدب صناعة كسائر المهن والصناعات التى بها قوام العيش لهؤلاء المستأكلين والمتكسبين من السوقة والمرتزقة

☆ ☆ ☆

ظهر البارودى ونبغ فى شعرهِ قبل أن يقول صبرى الشعر بسنوات، ولكن الأدب الفارسى والجزالة العربية هما اللذان تحولا فيه؛ ثم نبغ صبرى بعد ذلك بزمن، فتحول فيه الأدب الأفرنجى والرقة العربية؛ وهذا موضع التفاوت فى شعر الرجلين اللذين اقتنصا الخيال الشعرى من طرفى الأرض، وكلاهما يذهب مذهبا ويرجع إلى طبع ويروض شعرهُ على وجه؛ فالبارودى يستجزل ويجمع إلى سبكه الجيد قوة الفخامة وشدة الجزالة، ثم يعترض الخيال من حيث يهبط على النفس فى ممر الوحى؛ وصبرى يسترق ويضيف إلى صفاء لفظهِ جمال التخير وحلاوة الرقة، ويعارض الفكر من حيث يتصل بالقلب؛ والبارودى لايرى إلا ميزان اللسان يقيم عليه حروفه وكلماته، وصبرى لايرى إلا ميزان الذوق الذى هو من وراء اللسان؛ وقد

يسرت لكليهما أسباب ناحيته فى أحسن مايتصرف فيه : فجاء البارودى حافظا كأنه مجموعة من دواوين العرب والمولدين ، وجاء صبرى مفكرا كأنه مجموعة أذواق وأفكار ؛ وهما يشتركان معاً فى التلوُّم على صنعة الشعر والتأنى فى عمله وتقليبه على وجوه من التصفح ، وتمحيصه بالنقد والابتلاء لفظاً لفظاً وجملة جملة ، ثم مطاولة معانيه ومصابرتها كأنما ينتزعان محاسنها من أيدى الملائكة ؛ وأنا أعرف ذلك فيهما ؛ وقال لى صبرى باشا مرة وقد جاريته فى بعض هذا المعنى : أنه يعلم هذا من البارودى ومن نفسه . قلت : أفيبلغ به ذلك أن يمحو بياض اليوم فى سواد بيت واحد ؟ قال : وفى سواد شطرة أحياناً ! وليس ينقصهما هذا الأمر شيئا ، فإن خبر زهير فى حوليّاته معروف ، وقد عمل سبع قصائد فى سبع سنين : يحوك القصيدة منها فى سنة .

ونقلوا عن مروان بن أبى حفصة أنه قال : كنت أعمل القصيدة فى أربعة أشهر ، وأحككها فى أربعة أشهر ، وأعرضها فى أربعة أشهر ، ثم أخرج بها إلى الناس ؛ فقيل هذا هو الحولىّ المنقَّح

كان مرجع البارودى إلى الحفظ ، فنبغ فى وثبات قليلة ؛ أما صبرى فاحتاج إلى زمن حتى استحكمت ناحيته وآتته أسبابه على الإجادة ، لأن مرجعهُ إلى الذوق ، وهذا يكتسب بالمران وينضج عند نضوج الفكر ولا يأتى بالماء والرونق حتى تأتى له أسباب كثيرة ؛ وأنت تعرف ذلك فى الرجلين من أوائل شعرهما ، فقد رثى البارودى أباه فى سن العشرين بأبياته الدالية الشهيرة التى مطلعها :

لا فارس اليوم يحمى السرح بالوادى طاح الردى بشهاب الحى والنادى

وهى ثمانية عشر بيتاً ، وجيدها جيد ، وكأنها خرجت من لسان أعرابى ؛ وإنما جاءته من صنعة الحفظ ، كالذى اتفق للشريف الرضىّ فى أبياتهِ الخائية

التى كتب بها إلى أبيه وعمرهُ أربع عشرة سنة ، وكان أبوهُ معتقلا بقلعة شيراز ومطلعها

أبلغا عنى الحسين ألوكاً   إن ذا الطود بعد بعدك ساخا
والشهاب الذى اصطليت لظاهُ   عكست ضوءهُ الخطوبُ فباخا

هذا على أن البداية كما يقال مزلّة ؛ وقد وفقنا إلى الوقوف على أول ما نشر من شعر صبرى باشا ، وذلك قصيدتان نشرتا فى مجلة روضة المدارس فى مدح اسماعيل باشا ، فنشرت الأولى فى العدد الصادر فى غاية شوال سنة ١٢٨٧ للهجرة ـ ١٨٧٠ للميلاد ؛ ونشرت الثانية فى عدد شهر ربيع الآخر من سنة ١٢٨٨ هـ ـ ١٨٧١ م ؛ وبينهما خمسة أشهر ، كانت وثبتهُ فيها ضعيفة متقاصرة ، مما يدل على بطء نضجه بطبيعة الأسباب التى تسبب بها إلى الشعر ؛ وكانت الروضة يومئذ تنشر لطائفة من فحول دهرهم : كالسيد صالح مجدى ، ورفاعة بك رافع ، ومحمد افندى قدرى « ونابغة الزمان محمد افندى رضوان » ، وغيرهم . وكانت تستقبل قصائدهم بسجعات داوية مفرقعة ، هى لذلك العهد أشبه الأشياء بطلقات مدافع التحية للملوك والأمراء ؛ فلما نشرت لصبرى قالت فى القصيدة الأولى « تهنئة بالعيد الأكبر للخديوى الأعظم بقلم إسماعيل صبرى افندى » . وقالت فى الثانية « قصيدة رائية فى مدح الحضرة الخديوية من نظم الشاب النجيب إسماعيل صبرى افندى من تلامذة مدرسة الإدارة » . ومطلع القصيدة الأولى :

سفرتْ فلاح لنا هلالُ سعودِ   ونما الغرام بقلبيَ المعمود

ولا شىء فيها أكثر من حروف المطبعة ... ومطلع الثانية

أغُرّتكَ الغراء أم طلعة البدر   وقامتك الهيفاء أم عادل السُّمر

وفى هذه القصيدة بيت وقفت عنده أرى صبرى باشا فى صبرى افندى كأنهُ خيالٌ مولود يَسْتَهِلّ ، وذلك قوله :

فطوِّلْ من الهجران علَّ وقوفنا يطول معاً - يافاتلى - ساعةَ الحشر

ويكاد هذا البيت يكون أول انقلابٍ للفكرة فيه : وهو غريب ، والتأمل فيه أغرب ، ولكنه يدل على خيال سيثب يوماً على أقطار السموات

وفى ذلك الزمن عينه كان البارودى شهاباً يتلهب ، وكان قد بلغ مبلغه واستجمع أسباب نهايتهِ ، بل هو نظم قبل ذلك بست سنوات قصيدته الشهيرة :

أخذ الكرى بمعاقد الأجفان وهفا السُّرى بأعنّة الفرسان

فلم يكن ليذهب وجه الشعر عن صبرى ، ولم يكن ليغضى عن احتذاء هذه الصنعة البارعة ويأخذ فى غيرها لولا أن فيه طبعاً مستقلا يذهب إلى كمالهِ فى أسلوب آخر كأسلوب كل زهرة فى غصنها ؛ وأخص أحوال صبرى أنه لم يرد أن يكون شاعراً فجاء أكبر من شاعر ، وكان السبب الذى صرفه من ناحية هو نفسه الذى جاء به من ناحية أخرى

✡ ✡ ✡

ينبغ الشاعر بأربعة أشياء لابد منها : طريقة الدرس التى عالج بها الشعر ، وكتب هذه الطريقة ، والرجال الذين هم أمثلتها فى نفسه . ثم ... ويالله من ثم هذه ، فهى اللمحة السماوية التى تشرق على فؤاد الشاعر من وجه جميل ، والثلاث الأولى تنشئ نبوغا معروفاً فى نوعه ومقداره ، ولكن الأخيرة هى طريق القدر التى لا يعرف آخرها ؛ وإذا تجددت فى حياة الشاعر أو اتصلت تجدد بها نبوغهُ أو اتصل ، فعلى قدر ما يحب تحبوهُ السماءُ من أسرار الجمال ، وهى نفسها أجمل أسباب الشعر وأجمل معانيه وأجمل غاياته ، فهى هى المادة التى تؤلف بين نفس الشاعر وبين معنى الجمال الشعرى فى هذا الكون كله ؛ وإذا أنت نزعت النظرة والابتسامة — وهما عنصرا تلك المادة — من حياة الشاعر ، نزعت الحياة نفسها من شعره فما يبقى منه إلا أنه مقبرة للألفاظ

والمعانى، ونسمع شعرهُ فلا تجزيه بهِ أحسن من قولك: يرحمك الله ... وصبرى لم يدرس الشعر فى الكتب أكثر مما درسهُ فى الوجوه والعيون، وقد عالج هذا الشعر فى بدايته ليتأتى إليه من طرقهِ البعيدة؛ أما الرجال الذين كانوا أمثلتهُ فكانوا رجال الظرف والرقة والنكتة المصرية الشهيرة التى انفرد بها الطبع المصرى ونص عليها علماء البلاغة، كالسكاكى وغيره؛ بل كان عصرهُ كله عصر هذه النكتة، فتحولت فى طبعه الرقيق المبتكر تحوُّلا رقيقا مبتكراً أرجعها إلى الظرف المحض الذى اجتمعت فيه كل طباعه كما يجتمع السحاب من الماء.

ولقد كان فى شعرهِ أحق الناس بقول ابن سعيد المغربى:

أسُكان مصر جاور النيل أرضكم فأكسبكم تلك الحلاوة فى الشِّعْر

وكان بتلك الأرض سحرٌ فما بقى سوى أثر يبدو على النظم والنثر

وإنى أعلم أنه كان دائم الحب: يمزج ذكرى ماضيهِ بحاضرهِ فيخرج منهما حبًّا جديداً؛ وكان الرجل كأنه مجروح القلب، فلا يزال يئن حتى فى بعض أنفاسِه، إذ يرسل النفس الطويل بين هنيهة وأخرى كأنه يريد أن يطمئن أن نفسه فيه، أو أن شيئاً باقياً فى نفسه؛ وتلك همهمة لا تكون فى شاعر من الشعراء بغير معنى

كانت النظرة والابتسامة تتمثل له حيث شاء وتعترضه حيث أراد أن يراها، فيجد فى كل شىء روح من الشعر، ويقرأ لحاتها متى التمت، وكان يعيش فى ذات نفسه كأنه معنى فى قصيدة هو أمير أبياتها

فشاعرنا هذا أخرجهُ اثنان: الظرف والجمال؛ وهذا سر إبائه أن يُعدَّ من الشعراء لأنه أرفع من أن يدخل بينهم فى هذه المحنة والبلوى التى ابتلوا بها ...

ولقد همَّ صبرى فى أواخر عمرِه بمحو شعرِه لوأنه كان فى منال يده، على أنه محا منه بإهمالِه أكثر مما أثبت ؛ وعلمت منه أنه لم يدوّن شيئاً، وأنه ينسى مايقولُه، فكأنه يوجد بسبب واحد ويمحق بسببين ؛ وقديما كان كبار العلماء متى انتهوا إلى التحقيق رأوا عمرهم كله بداية ورأوا مافعلوا باطلا فغسلوا كتبهم أو أحرقوها، ولكنا لم نعرف هذه الطبيعة فى شاعر بعد عصر الكتابة والتدوين، وإن كان بعضهم يأنف لنفسه أن يعد من الشعراء وهو مع ذلك يجمع يدهُ على شعرِهِ ، كالشريف الرضى الذى يقول :

.. ... مالك ترضى أن تعد شاعراً   بُعداً لها من عدد الفضائل

ويقول فى مدح أبيه :

إنى لأَرضَى أنْ أراكَ ممدَّحا   وعلاكَ لاترضى بأنى شاعرُ

ومثلهُ أبو طالب المأمونى وآخرون يدَّعون ذلك دعوى وفى ألسنتهم مالبس فى قلوبهم

ولإفراط صبرى فى الظرف والجمال وقيام شعرِه على هذين الركنين ، جاء مقلاً من أصحاب القصار ، وزاد إقلاله فى قيمة شعرِه ، فخرجت مقاطيعهُ مخرج الشىء الطريف الذى يتعجب منه فى وجودِه أكثر مما يتعجب منه لقلة وجودِه ؛ وبذلك ربح تعب المكثرين والمطيلين ، إذ كان لايقول إلا فيما تواتيهِ السجية وينزع له الطبع ، فيدنو مأخذهُ ويكثر بقليلِه ويرمى منه بمثل الحجة والبرهان ، فيطمس بهما على كلام طويل وجدل عريض

ولا يعيب المقلّ أنه مقل إذا كثرت حسناتُه ، بل ذلك أعون له على القلوب والنفوس إذا أصابت فى شعرِه مايغريها بطلب المزيد منه ؛ وقد عدُّوا بين المقلين فى الجاهلية : طرفة بن العبد ، وعبيد بن الأبرص ، وعلقمة الفحل ، وعديًّا ابن زيد ، وسلامة بن جندل ، وحصينا بن الحمام ، والمتلمس ، والحارث بن حلزة ،

وابن كلثوم ، وغيرهم أتينا على أسمائهم فى الجزء الثالث من (تاريخ آداب العرب) ؛ ومن أولئك من يعرف بالقصيدة الواحدة : كطرفة ، ومنهم من يعرف بثلاث قصائد : كعلقمة ، أو بأربع : كعدى بن زيد ؛ ومنهم من يعرف بالأبيات المتفرقة ، ولا عبرة بما ينسب إليهم عند غير المصححين وأهل التحقيق ، فإن الحمل على شعراء الجاهلية كثير ؛ وقد يعرفون الشاعر بالبيت الفرد ، لأن العرب إنما يعتبرون الشعر بمقدار مايحرك من ميزانه الطبيعى الذى هو القلب ، لا بالطول ولا بالقصر ، وقد قالوا فى بيت النابغة :

ولستَ بمستبقٍ أخا لا تلمُّه ... على شعث ، أى الرجال المهذَّب ؟

إنه لا نظير له فى كلام العرب ؛ وما ذلك إلا على الاعتبار الذى أشرنا إليه . وكانوا يسمون البيت الواحد : يتيما ، فإذا بلغ البيتين والثلاثة فهى نتفة ، وإلى العشرة تسمى قطعة ، وإذا بلغ العشرين استحق أن يسمى قصيداً

وكان من الشعراء من يعتمد أن لا يجىء فى شعره الجيد بغير البيتين والثلاثة إلى القطع الصغيرة ، كشاعرنا صبرى باشا ؛ ومنهم عقيل بن عُلَّفة : كان يقصر هجاءَهُ ويقول : يكفيك من القلادة ماأحاط بالعنق . ومنهم أبو المهوّس ، وكان يحتج لذلك بأنه لم يجد المثل النادر إلا بيتا واحداً ، ولم يجد الشعر السائر إلا بيتا واحداً ؛ ومنهم الجماز : قال له بعضهم وقد أنشده بيتين : ماتزيد على البيت والبيتين ؟ فقال : أردت أن أنشدك مُذارعةً ؟ ؟ ؟ وابن لنكك المصرى ، وابن فارس ، ومنصور الفقيه الذى كان يقال فيه : إذا رمح بزوجيه قتل . ولا نستقصى فى هذا فلندعه فإن له موضعا

غير أن صبرى كان له مع جودة المقاطيع جودة القصيد إذا قصَّد ، كقوم عرفوا بذلك فى التاريخ ، منهم العباس بن الأحنف وسواهُ ؛ وكان من أسباب إقلالِه ماأعلمنى به من أن طريقته فى أكثر ماينظم معارضةمعنى يقف عليه ، أو

تضمين حكمة ، أو ضرب مثل على طريقة النظر والملاحظة ، أو تدوين خطرة عرضت له ، أو لمحة أوحيت إليه ؛ وهو ينزل فى ذلك على النصفة والمعدلة فلا ينتحل شيئا ليس له ، بل يدلك بنفسه على الأصل الذى منه أخذ أو المثال الذى عليه احتذى

قال لى مرة إن البستانى عقد حكمة فارسية فى قوله :

قضيتَ إلٰهى بالعذاب فيا تُرى ... بأى مكانٍ بالعذاب تدينُ
وليس عذابٌ حيثما أنت كائن ... وأىُّ مكان لست فيه تكون ؟

ثم قال : فأخذت من هذا المعنى وقلت :

يا ربّ أينَ تُرى تقام جهنم ... للظالمينَ غداً وللأشرار
لم يُبق عفوُك فى السموات العلى ... والأرض شبراً خالياً للنار
يا ربِّ أهّلنى لفضلك وآكفنى ... شطط العقول وفتنة الأفكار
ومُرِ الوجود يشفّ عنك لكى أرى ... غضبَ اللطيف ورحمة الجبّار
يا عالِم الأسرار حسبىَ محنةً ... عِلمى بأنك عالم الأسرار

والفرق بين الشعرين أن البستانى جاءَ بكلامهِ على طريقة المتصوفة التى يسمونها طريقة أهل التحقيق ، كابن العربى والششترى ؛ وأما صبرى فانظر كيف استوفى وكيف لاءَم وكيف امتلأت أعطاف شعره

وقد يأخذ المأخذ الدقيق الذى لاينتبه له إلا المطلع الحاذق بصناعة الكلام ، كقولِه :

إذا ماصديقٌ عَقّنى بعداوة ... وفوّقت يوماً فى مقاتله سهمى
تعرض طيفُ الوُدِّ بينى وبينه ... فكسر سهمى فانثنيت ولم أرمِ

فهذا ينظر إلى قول الحارث بن وعلة :

قومى همُ قتلوا أميم أخى ... فإذا رميت يصيبنى سهمى

ولكنه ليس بذاك؛ فإن أساس المعنى قوله: «تعرض طيف الود بيني وبينه» وهو من قول العباس بن الأحنف:

وإذا مامدَدْت طَرفى إلى غيـ ـرك مُثِّلتَ دونهُ فأَراكا

فتأمل كيف أبدع فى انتزاع المعنى وكيف جعل له معرضاً جديدا وكيف أداهُ أحسن تأدية فى ألطف وجه كأنه شيء مخترع

ومن شعرِه السائر قوله فى العناق وتلازم الحبيبين:

ولما التقَيْنا قَرّب الشوق جهدَهُ شجيّـين فاضا لوعةً وعتابا

كأنّ صديقاً فى خِلال صديقِه تسرَّب أثناء العناق وغابا

وهذا المعنى على إبداعِه فيه متداول، وأصله لبشار — أظن — فى قولِه (١):

وبتنا جميعاً لو تُراق زجاجة من الخمر فيما بيننا لم تَسرَّبِ

فأبدع صبرى فى أخذِه وجعل من هذه الزجاجة المنصدعة جوهرة تتألق؛ على أنى لاأستحسن قوله «كأن صديقاً...» فما هذا بعناق الأصدقاء، ولو كان الصديق راجعاً من سفر الآخرة؛ وإذا غاب واحد فى الآخر فالآخر حامل به ... وقد أخذت أنا هذا المعنى منه، ولولاه مااهتديت إليه، فقلت فى ذلك:

ولمَّا التقَينا ضمَّنا الحب ضمةً بها كل مافى مهجتَينا من الحب

---

(١) البيت لعلى بن الجهم، وقبله:

ألا رُبَّ ليل ضمّنا بعد هجمةٍ وأدْنَى فؤادا من فؤادٍ معذَّبِ

أخذه من قول بشار:

ومُرتجةِ الأعطافِ مهضومةِ الحَشا تمُورُ بسحر عينُهـا وتدور

إذا نظرتْ صبّتْ عليك صبابة وكادتْ قلوبُ العاشقين تطير

خلَوْتُ بهـا لا يَخلُصُ المـاء بيننا إلى الصبح دونى حاجبٌ وستورُ

وشدَّ الهوى صدراً لصدرٍ كأنما ... يريدُ الهوى إنفاذ قلب إلى قلبِ

٭ ٭ ٭

وأحسن ماتجد شعر صبرى فى الغزل والنسيب والوصف والحكمة، فهى عناصر قلبِه وذوقِه، ولا يتصرف معه أقوى مايتصرّف إلا فى هذه الأغراض، ولعله إن جاوزها قصر معه شيئاًما وضعفت أداتُه ضعفاًما، لأنه يكون شاعر الصنعة وهو يأباها ويكره أن يكون شاعراً من أجلها؛ وقلما يجاريه أحد فى تلك الأغراض، وهو الذى فتح أبوابها؛ وحسبك أنه المثال الذى احتذى عليه شوقى بك؛ وقد ينقسم المعنى الواحد فى رجلين حين يقدر، فإذا لم يوجد أحدهما لم يوجد الآخر، وأنا أرى وأعلم أنه لولا صبرى لما نبغ شوقى، وكان هذا يختلف إليه يعرض عليه شعره ويرجع بآثار ذوقِه فيه، وكذلك كان يفعل خليفة البارودى حافظ بك إبراهيم؛ واسترفد شوقى من صبرى باشا هذا البيت السائر:

صونى جمالك عنا إننا بشرٌ ... من التراب وهذا الحسن روحانى

فهو لصبرى باشا، والمرافدة سنَّة معروفة من قديم. وهى غير الانتحال وغير السرقة وما يسمى إغارةً وغصباً؛ وقد استرفد النابغة زهيراً فأمر ابنَه كعباً فرفدهُ، والحكاية فى ذلك مشهورة عنه وعن سواه

ولم يكن فى مصر ممن يحسن ذوق البيان وتمييز أقدار الألفاظ بعضها من بعض وألوان دلالتها كالبارودى وصبرى وإبراهيم المويلحى والشيخ محمد عبده، رحمهم الله جميعاً؛ والبارودى يذوق بالسليقة، وصبرى بالعاطفة، والمويلحى بالظرف، والشيخ بالبصيرة النفاذة؛ وذلك شىء ركّبه الله فى طبيعة صبرى لم يحصّله بالدرس أكثر مما حصله بالحس، ومن أجله كان يفضل البحترى على غيره، وهو بلا نزاع بحترى مصر، كما لقبوا ابن زيدون

بحتريّ المغرب ؛ وإنك لتجد بعض الألفاظ فى شعر الرجل كأنها شعر مع الشعر ، فتقف على العبارة منها وقلبك يتنفس عليها كأنها إنما وُضعت لقلبك خاصة ، فهى تغمز عليه غمزاً وكأنها نفثة ملك من الملائكة جاءتك فى نفَس من أنفاس الجنة

ويمتاز نسيبه بأنه يكاد يكون فى طهارتِه وعفتِه ضوءاً من جمال الشمس والقمر ، وهو عندى أنسب من العباس بن الأحنف الذى صرف كل شعرِه إلى هذا المعنى ؛ ولو أن عصره كان عصر أدب صحيح لأخمل كلَّ شعراء هذا الباب ، من ابن أبى ربيعة إلى طبقة عشاق العرب إلى أئمة الطريقة الغرامية لآخر القرن السابع

ومن غزلِه البديع قوله :

يامَن أقامَ فؤادى إذ تملَّكهُ ... مابين نارين من شوق ومن شجن
تَفديك أعينُ قومٍ حولَك ازدحمت ... عطشَى إلى نهلةٍ من وجهك الحسن
جرَّدت كل مليحٍ من ملاحتِه ... لم تتّقِ الله فى ظبىٍ ولا غُصنِ

وقوله :

أقصر فؤادى فما الذكرى بنافعة ... ولا بشافعــة فى ردّ ماكانا
سلا الفؤاد الذى شاطرَتهُ زمناً ... خفق الصبابة فاخفق وحدك الآنا

ويارحمة الله للقلب الذى يفهم هذا البيت ، فإنه ليجن به من يكون فيه استعداد لهذا النوع من الجنون

ومن قلائدِه الغرامية قوله :

ياآبِيَ الحيّ هل فتّشتَ فى كبدى ... وهــل تبيّنت داءً فى زَواياها
أواهُ من حرق أودت بمعظمها ... ولم تزل تتمشّى فى بقاياها
ياشوق رفقاً بأضلاعٍ عصفتَ بها ... فالقلب يخفق ذعرا فى حناياها

وله قصيدة (تمثال جمال) وقد نظمها لتنقل إلى الفرنسوية ، ومن عيونها قوله :

وابسمى ، مَن كان هذا ثغرُه ... يملأُ الدنيا ابتساماً وازدهاءْ
لاتخافى شططاً من أنفس ... تعثر الصبوة فيها بالحياء
راضت النخوة من أخلاقنا ... وارتضى آدابنا حسن الولاء
فلو امتدَّت أمانينا إلى ... ملك ماكدرت ذاك الصفاء

والشعراء من أول تاريخ الأدب إلى اليوم يقولون فى معنى قوله « لاتخافى شططاً» الأبيات ، ومامنهم من وفق إلى مثل هذا البيت الأخير ، وإن كان بعضهم بلغ الغاية ، كابن نباتة السعدى والسرى الرفاء وغيرهما

ومن أبدع مااتفق له فى الوصف أبيات فى الدواة تخلص فى آخرها إلى مدح النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو تخلص ليس فى الشعر العربى كله مثله فى الإبداع وحسن الاختراع ، يقول فيها :

أكرمى العلم وامنحى خادميه ... ماءك الغالى النفيس الثمينا
وابذلى الصافى المطهَّرَ منه ... لهداةِ السرائرِ المُرشدينا
وإذا الظلم والظلامُ استعانا ... يوم نحس بأجهل الجاهلينا
واستمدّا من الشرورِ مداداً ... فاجعليهِ من قسمة الظالمينا
واقذفى النقطة التى باتَ فيها ... غضبُ القاهر المذلّ كمينا
ليراع امرئٍ إذا خطّ سطرا ... نبذَ الحق وارتضى المَيْن دينا
وإذا كان فيك نقطة سوء ... كوّنتْ من خباثة تكوينا
فاجعليها قسطَ الذين استباحوا ... فى السياسات حُرمة الأضعفينا
وإذاخفت أن يكون من الصخـ ... ـرِ جلاميد ترجم السامعينا
فابخلى بالمدادِ بخلا وإن أعطيـ ... ـتِ فيهِ المثين ثم المئينا
فإذا أعوز المداد طبيباً ... يصف الداء دائبا مستعينا

فامنحيهِ المراد مَنا وعُرفاً   واستطيبي معونة المحسنينا
وإذا مهجة الحمائم أسدت   نقطة سرَّها الزكىّ المصونا
فاجعليها على المودّات وقفاً   وهبيها رسائل الشّيّقينا
فإذا لم يكن بقلبك إلا   ماأعدَّ الإخلاص للمخاصينا
فاجعليهِ حظى لأكتب منه   شرح حالى لسيد المرسلينا

هذا والله هو الشعر ، وما وفق إلى مثلِه أحد كائناً من كان فى هذا العصر

* * *

ولا نطيل بالنقل من شعرهِ وتتبع أغراضهِ ، فهو كالألماس فى الشمس : يشع من كل جهة ، ولا يختلف ضوءُه إلا فى بعض اللون مما يكون الأجمل فيما كله جمال ، ويمجُّ من الشعاع مالا تجد حسنَه فى الشعاع نفسه ، وأحياناً يرق كبعض البلور فيمتص حرارة الشمس ويستوقد بها فى ذاتِه ليضرم ماوراء قلبِه ، وماوراءهُ إلا قلوبنا الحزينة عليه رحمه الله !

حافظ إبراهيم (١)

فرغتُ الآن من قراءة شعر حافظ بعد أن لم يَعُدْ حافظ بيننا إلا شعرَه ونثرَهُ ، فبالله أحلفُ مانظرتُ فى صفحة مما بين يدىّ إلا وأحسست أن ذلك الشاعر العظيم يقول فى بيانه الرائع وصناعته البديعة : أنا هُنا !

ولغةُ هذا الشعر المتدفّقة بالحياة كأن كلماتها القويةَ عروقٌ فى جسم حىّ متوثب — لم تخرج عن أن تكون هى العربية المبينة فى جزالتها ونصاعتها ودقة تركيبها البيانى ، ومع ذلك فليس فى هذا العصر كله من يكابر أو يمارى فى أنها هى لغة حافظ وحده ، كأنه أرغم التاريخ أن يحتفظ به فى أجمل آثاره

وأنا أعرف فى شعره مواضع من الاضطراب والضعف والنقص سأشير إلى بعضها ، ولكنى على ما أعرفه أجد هذا الشعر كالتيَّار يعُبُّ عُبابه لا يبالى ما تناثر منه وما ركد وما وقع فى غير موقعه ، إذ كانت عظمته فى اجتماع مادته لا فى أجزاء منها ، وفى السر الذى يدفعها فى كل موضع لا فى المظهر الذى تكون به فى موضع دون موضع ؛ فهو أبدا يقول لمن يتصفّح عليه أو ينتقده : انظر لما بقى

* * *

ترجع صداقتى لحافظ رحمه الله إلى سنة ١٩٠٠ ، أول عهدى بالأدب وطلبه ، وقد شهدتُ من يومئذ بناءه الأدبى عاليا فعالياً إلى الذروة التى انتهى إليها ، وأخلص لى ثقته وأصفانى مودته ، وكان هَمَّك من أخ كريم ، وله فى نفسى مكان لم ينكره مذ عرفته ، ولم يضق بصحبته منذ اتسع لها . وكنت وإياه يرى أحدنا

---

(١) المقتطف : أكتوبر ١٩٣٢

الآخر من هذه اللغة كالجانبين لصورة واحدة : لا يتهيأ فى الطبيعة أن يختلفا والصورة بعدُ قائمة ، ولا أن يضطرب ما بينهما والصورة منهما على وزن وتقدير .

ولكن هذا لا يمنعنى أن أقرر أنه كان عندى أكبر من شعره — ولعله كذلك عند كل من خالطوه بأنفسهم — فإنه يتعاظمك بنفسه القوية وبالمعنى الذى تحسُّهُ فى العبقرى ولا تدرى ماهو ؛ وذلك من سحر العبقريين وأثرهم فى نفس من يتصل بهم ، فيتسقُ لهم أمران من أمر واحد ، وحظّان بحظ ، ونصيبان بنصيب ؛ لأن مع الإعجاب بآثارهم إعجاباً آخر بالقوة التى أبدعت هذه الآثار : ففى ذواتهم المحبوبة يستمر الإعجاب كالسائر على طريق لا موقف عليه ، وفى آثارهم يكونون الإعجاب فى موقف قد انتهت الطريق به فوقف على حد إن [illegible] وإن [illegible] ترب

[illegible] كان شاعرنا عبقرياً عجيب الصنعة قوى الإلهام بليغ الأثر فى عصره ، يشبه تحولاً وقع فى صورة من صور التاريخ ، ولكنه كذلك فى مذاهب من الشعر دون غيرها ، فلم يكن معه من التمام فى فنون الشعر مايكون به الشاعرُ التام أو الأديب الكامل الأداة ؛ وكم من مرة كلمتُه فى ذلك ونبهتهُ إلى أنه كالنمط الواحد ، وأنه يجب أن يترسّل شعرُهُ بين النفوس الإنسانية وأغراضها الكثيرة المختلفة ، فإذا كانت السياسة من الحياة فليست الحياة هى السياسة ، ولا ينبغى أن يكون شعره كله كشمس الصيف ، فإن للربيع شمساً أجمل منها وأحبَّ كأنها مجتمعة [illegible] أزهاره وعطره ونسيمه

[illegible] كان يفخر بأنه (الشاعر الاجتماعى) ، وهذا لقب ميزهُ به صديقنا [illegible] معى حافظ على أيام كان فى مصر قديماً ، فتعلق به حافظ ورآه تعبيراً [illegible] فى نفسه والملكة التى اختصَّ بها ، قال لى يوما فى سنة ١٩٠٣ : أنا

لا أعد شاعراً إلا من كان ينظم فى الاجتماعيات . فقلت له : ومالك لا تقول بالعبارة المكشوفة : إنك لا تعد الشاعر إلا من ينظم مقالات الجرائد...

ولا بد لى أن أبسط هذا المعنى فى هذا الفصل ، فإنه كان يخيَّل إلىَّ دائماً أن شاعرنا (حافظ) خلق للتاريخ فى أصل طبيعته ، ثم زيدت فيه موهبة الشعر ليكون مؤرخا حىّ الوصف بليغ التأثير قوى التصرف ؛ ومن ثم جاء أكثر مانظمه وأساسه التاريخ والسياسة ، وصحّ له بهذا الاعتبار أن يقول إنه الشاعر الاجتماعى ، ولكن مادة الشعر غير روح الشعر ، فإذا كان فى المـاد ... اعى وسياسى فليس فى الروح إلا الشاعر على إطلاقه ؛ والاجتماعيات ليست ... حقائق الحياة ، وهى بعد ذلك معان خاصة محصورة فى زمنها ومكانها ؛ ... الحقائق ليست هى الشعر ، وإنما الشعر تصويرها والإحساس بـ... كل حىّ تلبسهُ الحقيقة من النفس ، فالشاعر الاجتماعى شاعر فى حـيِّز ... من وجوه الشعر ومذاهبه ، وإذا كان الاجتماع كل شعره فلا يسمى ... نيًّا ، إذ كان الفن إنسانيا وكان شاملا عامًّا ؛ والمقاييس التى يطَّرد عليها الف الأدبى لا تكون فى الزمن ولا فى الموضع ، بل فى النفس الإنسانية التى لا تخص بوقت ولا مكان ، فإذا لم يكن الشعر إنسانيا عاما يولد كل جيـل من الـ... فيجده كأنما وضع له وارتهن بأغراضه وحقائقه ، فهو شعر (كالأخبار الحلية) ، وهذا وجه الشبه بينه وبين ما أشرت إليه آنفا من نظم مقالات الجرائد.

فمقالات الجرائد هذه لا تأتينا بالأشياء التى نحن منها فى الإنسانية والطبيعة والجمال وحقائق الحياة والموت ، بل التى يـكون منها يومنا المرقوم بأنه يوم كذا من شهر كذا من سـنة كذا ... فإذا مات اليوم ماتت الحـ...ـة ، ثم تولد ثم تموت ؛ وقد أدرك المتنبي سرَّ الشعر وأنه قائم على ... ـعور الإنسانى إلى معرفة إنسانية ، فخلد شعره ، فلا يمكن أن يمحى من العربية ...

وهذا على ما يقدح من وجوه الاعتراض والنقص ، وعلى أن المتنبي كان ضعيفاً في ناحية الجمال والحب ضعفا ظاهراً كضعف شاعرنا حافظ فى هذا المعنى ، ولكن حكمته الإنسانية ودقة أوصافه وإقامته الفضائل والرذائل فى كمالها الفنى مقام تماثيل بارعة من الجمال ، كل ذلك ترك شعره مستمراً باستمرار الحياة وباستمرار الإنسانية وباستمرار الذوق

إن هذا الكون مبنى فى نفسه مما يعلم العلم تركيبه ولا يعلم سر تركيبه إلا الله وحده ، ولكنه مبنى فى أنفسنا من عمل الحواس ، ثم من التعليل والتفسير ؛ أما الحواس ففى كل حىّ ، لا تُخلق بصناعة ولا عمل ، وأما التعليل والتفسير فهما من صناعة الشاعر والأديب ، فكلاهما يُخلق لإتمام الخلق فى الحقيقة ، وهى منزلة لا أدرى كيف يمكن أن تمسخ حتى تقتصر على معنى الشاعر الاجتماعى أو السياسى ، فترجع به نمطاً ، واحداً مع أن الآثار الأدبية وفى جملتها الشعر - إن هى إلا قوى الفكر وإلهام النفس وبصيرة الروح مسجلةً كلها فى بواعثها وأسبابها من نفس عالية ممتازة ؛ وهذه القوى كثيرة التحول ، فيه ب ضرورة أن تكون آثارها كثيرة التنوع ، وتنوع الصور الفكرية فى آثار أو الأديب ومجيئها متوافرةً متتابعة هو معيار أدبه وقياس نبوغه عالياً . لا ، ومتّبعا أو مبتكراً ، وفيما يضىء من نواحيه ومايطفئ

ن شاعرنا الاجتماعى (كما كان يحب أن يوصف رحمه الله) وإن كان ذ خ فى روح الشعب أنفاسا إلهية ، وأحسن فى وصف حوادثه وآلامه وعيو ، وأبلغ البيان فى كل ذلك - فإنه نزل فى هذه المرتبة عن وضعه الصحيح ، فكان نزلته بمكان الشرطى فى الطريق : يقف للجرائم والحوادث ، على حين أن م ى من الشعب مقام المعلم فى مدرسته : يجلس للطباع والأخلاق .

ليس ب ان توجد فى شعر الشاعر حوادث عصره أكثرها أو أقلها ، فإن

فوق هذه منزلة أعلى منها، وهى أن توجد حوادث النهضة بشعر الشاعر، وأن يكون فى شعره العنصر النارىّ من اللغة الشعبية

على أن (حافظ) رحمه الله أدرك كل هذا فى آخر عهده، فكان يريد أن يميت ديوانه ويستخرج منه جزءا صغيراً يختار فيه ألف بيت ويسقط ماعداها وإن ... وإن كان فيه شعر اجتماعى ...... ومع هـذا النقص الذى بعثتْ عليه طبيعة الزمن وطبيعة الشاعر معا، فإن تمام حافظ فى مـذهبه الاجتماعى الذى نبغ فيه جاء من وراء القوة وفوق الطاقة، لا يجاريه فيه شاعر آخر، بحيث دلَّ على أن النابغـة قدَرٌ إلٰهى لا ينقص من عظمتِه أن يكون حادثة واحـ تدوى دويها فى الدنيا؛ فهو مُيَسَّرٌ منذ نشأته لما خُلق له من ذلك، فأحكـ المدرسة الحربية، ثم قيَّده ُالجيش، ثم تقاذفه السودان، ثم قذف به الظلم، ثم تو إمام عصره الشيخ محمد عبده، وهو كذلك فى غاياته الوعرة ومقاصده العمراني ومعاناته للإصلاح ـ مدرسـة حربية وجيش وفـلاة، فلم يكن حافظ إلا الصوت الإنسانى الذى أُعِدَّ بخصائصِه للتعبير عن حوادث أمته وخصا وكأنه فى نقلته من السودان إلى مصر قد انتقـل من جيش يحارب الـ الأعداء لأمته، إلى جيش آخر يحارب المعانى الأعداء لأمته .

* * *

ولد حافظ إبراهيم سنة ١٨٧١، وكان الكتاب الأول الذى هذ الأدب العربى وأرهف ذوقه وأحكم طبيعته، هو كتاب الوسـ للشيخ حسين المرصفى، المطبوع فى مصر لخمس وخمسين سنة: ففى هذا الـ قرأ حافظ خلاصة مختارة محققة من فنون الأدب العربى فى عصـ ودرس ذوق البلاغة فى أسمى مايبلغ بها الذوق، ووقف ـ وعرف منه الطريقة التى نبغ بها البارودى، وهى قراءته دواوين فحول

من العرب ومَن بعدهم ، وحفظه الكثير منها : فبنى شاعرنا من يومئذ قريحته على الحفظ ، ولم يزل يحفظ إلى آخر عمره ؛ إذ كانت قريحته كآلة التصوير : لا تَدَعُ لشيء إلا علقتهُ وهـذا سبب من أسباب ضعف خياله ولكنه ردَّ عليه من القوة فى اللغة ماتناهى فيه إلى الغاية .

واتفق لذلك العهد أن طبعت لزوميات المعرى فى مصر ، فتناولها حافظ واستظهر أكثرها ، فكانت باعث ميله ونزعته إلى الشعر الاجتماعى ؛ والفرق بين حافظ وبين المعرى فى الموهبة الفلسفية هو الذى نفذ بالمعرى إلى أسرار كثيرة ووقف بحافظ عند الظاهر وماحوله ، يطير هناك ويقع

. قد كان صاحبنا ضعيفاً من هذه الناحية ، فاستصعبت عليه أسرار واستغلقت أخرى من أسرار الخير والشر فى الحياة ، والجمال والحسن فى الخليقة ، والجلال والإبداع فى الكون ، والإقرار والشك فى كل ذلك ؛ وقد بلغ المعرى من هذا مبلغاً لابأس به ، إلا أنه لم يُصفَّ كما تصفَّى الأشياء فى عين مبصرة ؛ ك... نط ، ووضع من أغراض نفسه المريضة على الصحيح والمريض جميعاً .

فيه ... حافظ فى طريقة أخرى سنشير إليها بعد

آثار ... شاعرنا بمـا قرأ فى « الوسـيلة » من شعر البارودى ، فأصـبح من عالياً ... ه ، وسار على نهجه فى قوة اللفظ وجزالة السبك ومتانة الصنعة وجودة ... نغم الألفاظ وأجراس الحروف ، ولكنه لم يدرك شأو البارودى كان ... ن هذا جمع من دواوين الشعراء وكتب الأدب مالم يتفق لغيره فى وعيو... ، وأدخـل فى شعره أحسن ماصنعت الدنيا فى ألف سنة من تاريخ فكا... ة ؛ ولذا انتقل عنه حافظ إلى طريقة مسلم بن الوليد فى التصنيع أن ... دته

ليس ... دا يعالج الشعر فى السودان وينظم فى جلس ماهو بسبيله من وصف

لا أعد شاعراً إلا من كان ينظم فى الاجتماعيات . فقلت له : ومالك لا تقول بالعبارة المكشوفة : إنك لا تعد الشاعر إلا من ينظم مقالات الجرائد...

ولا بد لى أن أبسط هذا المعنى فى هذا الفصل ، فإنه كان يخيّل إلىّ دائماً أن شاعرنا (حافظ) خلق للتاريخ فى أصل طبيعته ، ثم زيدت فيه موهبة الشعر ليكون مؤرخا حىّ الوصف بليغ التأثير قوى التصرف ؛ ومن ثم جاء أكثر ما نظمه وأساسه التاريخ والسياسة ، وصحّ له بهذا الاعتبار أن يقول إنه الشاعر الاجتماعى ، ولكن مادة الشعر غير روح الشعر ، فإذا كان فى المادة اجتماعى وسياسى فليس فى الروح إلا الشاعر على إطلاقه ؛ والاجتماعيات ليست حقائق الحياة ، وهى بعد ذلك معان خاصة محصورة فى زمنها ومكانها ؛ ١٠ الحقائق ليست هى الشعر ، وإنما الشعر تصويرها والإحساس بهـ حىّ تلبسهُ الحقيقة من النفس ، فالشاعر الاجتماعى شاعر فى حـيّز وجوه الشعر ومذاهبه ، وإذا كان الاجتماع كل شعره فلا يسمى إذ كان الفن إنسانيا وكان شاملا عامًّا ؛ والمقاييس التى يطّرد عليها الف لا تكون فى الزمن ولا فى الموضع ، بل فى النفس الإنسانية التى لا تخض ولا مكان ، فإذا لم يكن الشعر إنسانيا عاما يولد كل جيـل من النا كأنما وضع له وارتهن بأغراضه وحقائقه ، فهو شعر (كالأخبار المحد وجه الشبه بينه وبين ما أشرت إليه آنفا من نظم مقالات الجرائ

فمقالات الجرائد هذه لا تأتينا بالأشياء التى نحن منها فى الإنساني والجمال وحقائق الحياة والموت ، بل التى يـكون منها يومنا المرقوم كذا من شهر كذا من سـنة كذا ... فإذا مات اليوم ماتت الحـ تولد ثم تموت ؛ وقد أدرك المتنبي سرّ الشعر وأنه قائم عى الإنسانى إلى معرفة إنسانية ، فخلد شعره ، فلا يمكن أن يمحى من العربيه مـ .

والفلسفة الشعرية كلها أن يحل فى الشاعر الملهَم ذلك السرُّ الجميل الجاذبُ والمنجذب معاً ، المستقر والمتحول جميعاً ، الباطن والظاهر فى وقت ؛ فيسكنته الشاعر مالا يدركه غيره ، فيقف على الجمال والحسن والرقة ، ويلهم الحكمة والبصيرة ، ويتناول الأغراض بالتحليل والتركيب ، ويؤتى التعبيرَ عن كل ذلك فى طريقة خاصة به هى أسلوبه ، وهذا لم يتفق على أتمّه وأحسنه فى حافظ ، فقصّر به فى توليد المعانى المبتكرة ، ونزل به فى الغزل ووصف الجمال ؛ بيد أنه اتفق له مثل هذا الجلال بعينه فى (الجانب المتألم من شعره) ، أى الرثاء والشكوى ووصف الفجيعة ؛ ولو ذهبت تستعرض المراثى فى الشعر العربى ، ومثّلت بينها وبين رثاء حافظ للعظماء الذين خالطهم ، كالأستاذ الإمام ، والبارودى ، ومصطفى كامل ، وثروت ، لراعك أنك واجدٌ للشعراء ماهو أسمى من معانيه وأقوى من خياله ، ولكنك لا تجد ألبتة ماهو أنفخم وأدق مما جاءَ به فى هذا الباب ، كأنه منفرد فى العربية بهذه الخاصة

وهذا المعرى يقول :

ولولا قولُك الخلّاق ربّى لكان لنا بطلعتك افتتان

ويقول فى شعر آخر :

أسهب فى وصفه علاك لنا حتى خشينا النفوس تعبدها

وهذان البيتان تراهما صعلوكين إذا قستهما بقول حافظ فى رثاء الشيخ محمد عبده :

فلا تنصبوا للناس تمثال (عبده) وإن كان ذكرى حكمة وثباتِ

فإنى لأَخشَى أن يضلُّوا فيُومئوا إلى نور هذا الوجه بالسَّجَداتِ

مع أن معنى حافظ مأخوذ منهما ، ولكن انظر كيف جاء به ؟ ويقول المعرى فى رثاء أبيه :

حافظ إبراهيم (1)

فرغتُ الآن من قراءة شعر حافظ بعد أن لم يَعُدْ حافظ بيننا إلا شعرَه ونثرَهُ ، فبالله أحلفُ ما نظرتُ في صفحة مما بين يديّ إلا وأحسست أن ذلك الشاعر العظيم يقول في بيانه الرائع وصناعته البديعة : أنا هُنا !

ولغةُ هذا الشعر المتدفّقة بالحياة كأن كلماتها القويةَ عروقٌ في جسم حيّ ... — لم تخرج عن أن تكون هي العربية المبينة في جزالتها ونصاعتها ودقة تركيبها البياني ، ومع ذلك فليس في هذا العصر كله من يكابر أو يماري في أنها هي لغة حافظ وحده ، كأنه أرغم التاريخ أن يحتفظ به في أجمل آثاره

وأنا أعرف في شعره مواضع من الاضطراب والضعف والنقص سأشير إلى بعضها ، ولكني على ما أعرفه أجد هذا الشعر كالتيّار يَعُبُّ عُبابه لا يبالي ما تناثر منه وما ركد وما وقع في غير موقعه ، إذ كانت عظمته في اجتماع مادته لا في أجزاء منها ، وفي السر الذي يدفعها في كل موضع لا في المظهر الذي تكون به في موضع دون موضع ؛ فهو أبداً يقول لمن يتـ... عليه أو ينتقده : انظر لما بقي

* * *

ترجع صداقتي لحافظ رحمه الله إلى سنة ١٩٠٠ ، أول عهدي بالأدب وطلبه ، وقد شهدتُ من يومئذ بناءه الأدبي عاليا فعالياً إلى الذروة التي انتهى إليها ، وأخلص لي ثقته وأصفاني مودته ، وكان هَمَّك من أخ كريم ، وله في نفسي مكان لم ينكره مذ عرفه . ولم يضق بمحبته منذ اتسع لها . وكنت وإياه يرى أحدنا

---

(١) المقتطف : أكتوبر ١٩٣٢

وما تمهّل يوماً فى ندًى وردًى　　إلا قضيتُ لِلَمْح البرق بالكسل

غير أن حافظ نقل المعنى إلى حقهِ، ومكّن له أحسن تمكين فى صدر كلامهِ، وأتمّ جماله فى قوله (حين خاتم)، فاقتطع المعنى وانفرد به، وعاد معنى السعدى كالصعلوك على باب بيته ؛ وكانت هذه المقابلة فى المقتطف آخر عهدى بحافظ، فلم أرهُ من بعدها ؛ رحمه الله !

وما مرّ بك إنما كان من صناعة الشاعر فى غير الجزء الأول من ديوانه بعد أن استفحل وتخرج فى مدرسة الإمام، أما فى الجزء الأول فله هو صعاليك ... كقوله فى الخمر :

خمرة قيل إنهم عصروها　　من خدود الملاح فى يوم عُرسٍ

فهذا البيت صعلوك عند قول ابن الجهم :

مُشَعْشَعَةٌ من كف ظبيٍ كأنما　　تناوَلها من خده فأدارها

وقول حافظ (عصروها من خدود الملاح) كلامُ مَن لم ينضج فى البيان ولا الذوق، لا يكاد يُتوهّم معه إلا أن فى خدود الملاح (خراجات) عُصرت ... وعلى ضد هذا قول ابن الجهم (تناولها من خده)، فهى كلمة أكثر نعومة من ذلك الخد وأجمل نضرة

وقول حافظ فى مدح الخديو :

يامن تَنافَسُ فى أوصافه كلمى　　تنافُسَ العرب الأمجاد فى النسب

فهو صعلوك على بيت أبى تمام :

تَغايَرَ الشعر فيه إذ سهرتُ له　　حتى ظننتُ قوافيه ستقْتَتِلُ

— ولا نطيل الاستقصاء، فإنما نريد التمثيل حسْبُ

وكان الشاعر أول نشأته يأخذ فى طريقة المعرى الذى عمى عن الطبيعة فجعل يخلقها من فكره ومحفوظه بمبالغات كاذبة يُغرق فيها يحسب أنه بذلك

يعظم الحقائق فتخرج له الأخيلة الكبيرة، وما يدرى أنه بهذا الغلوّ لايجى
إلا بالأباطيل الكبيرة ... ولكن حافظ فى مزاجه وتركيبه ونشأته كان
رجلا مبنيًّا على الوضوح والقصد، فلم يفلح فى طريقة المعرى؛ ووضوحه
كذلك باعَدَهُ من الفلسفة وإبهامها، ومن الطبيعة وألغازها، ومن الغزل
ووساوسه؛ وهو الذى أداه إلى الشغف بالحقيقة واستخلاصها فى كل
أغراضه التى أجاد فيها؛ ومن ثم خلا شعره أو كأنه خلا ..... من
أوصاف الطبيعة فى جمالها بلغة الفكر المتأمل، ومن أوصاف الجمال فى سحره
بلغة القلب العاشق

* * *

وأنت فلا تحسبنّ الشاعر يجيد فى الغزل والنسيب من أنه شاعر يحسن
الصنعة ويجيد الأسلوب، فيكون غرض من الشعر سبيلا إلى غرض، وفن
عوناً على فنّ، وتكون رقة الألفاظ وهَلْهَلَةُ النسج، وقلبى، وكبدى، وياليلةً
وياقمرا، وياغزالا .... وأشباه ذلك غزلا ونسيباً؛ كلاّ ثم كلاّ، والثالثة
كلاّ أيضاً ....

إن الغزل وأوصاف الجمال موهبة فى الشاعر أو الكاتب تُسْخَر لها قوّى
هى أشبه فى معجزاتها بما سخّر لسليمان من قوى الجن والريح، غير أنها قوى
آلام ولذات ووساوس: تلك عظمة فى بعض النفوس الشاعرة كعظمة
الملوك والأبطال، غير أنها لاتكمل إلا خائبة أو مغلوبة، فإذا انتصرت سقطت
فلا بد لها من تاريخ وحوادث ومزاج عصبى يُهيِّأ لها بروحانية شديدة الحسّ
شديدة الفَوْرة ثائرة أبدا لاتهدأ إلا على توليد معنى بديع فى جمال من تحب
أو بجماله؛ ثم إذا هدأتْ بذلك آثارها أنها هدأت، فتعود إلى التوليد، ولا تزال
تبتدع وتصف كأنها آلة تعبير تدور بقلب وعصب؛ هنالك قوتان: إحداهما

تؤتى الحب كما يصلح غراما وعشقاً، والأخرى فوق هذه تؤتى الحب كما يصلح فكرا وتعبيرا : والأولى تجعل صاحبها عاشقاً يحب ويدرك ليس غير ، والثانية تجعله محبًّا عمله أن ينقل من لغة مافى نفسه إلى ماحوله ، ومن لغة ماحوله إلى مافى نفسه : فهو مترجم النفس إلى الطبيعة ، ومترجم الطبيعة إلى النفس ؛ والذى أعرفُه أن حافظ لم يرزق لاهذه ولا تلك ، فلا طبيعة فيه للغزل وفلسفة الجمال ؛ ثم إن التاريخ حصره فى (الشاعر الاجتماعى) الذى اختار أن يمتاز به ، فهو فى أكثر شعره كان ليس فيه شخص ، بل فيه شعب مأسور غفل عن الجمال وعن الطبيعة وعن النشوة بهما ؛ إذ يعيش فى معاناة الحرية لا فى التأمل الجميل ، وفى أسباب القوة لا فى أسباب الرقة ، ويريد أن يعمل ليوجِد حقيقته قبل أن يعمل ليُبدع خيالَه

ومع ذلك فقد جاء فى ديوان حافظ غزل قليل كان كله متابعة وتقليدا فى فن يحسن التقليد إلا فيه خاصة ؛ عمل صدرا لقصيدة مدح بها الخديو مطلعها :

كم تحتَ أذيال الظلام مُتيمُ دامى الفؤاد وليله لا يعلمُ ...

وقلد ابن أبى ربيعة فى حكاية حب لفّقها تلفيقاً ظاهرا ، ثم زعم أن الحبيبة قالت له فى آخرها :

فاذهَب بِسحرِك قد عرفتُك واقتصد ... فيما تزيّن للحسان وتُوهمُ

وكلمة صاحبة ابن أبى ربيعة :

أهذا سحرك النسوا ن قد عرّفتنى الخبرا

— أهذا سحرك النسوان ... ؟ هذه كلمة لا تخرج إلا من فم حبيبته آية فى الظرف ، فيها تجاهلها وعرفانها وابتسامها وإشراق وجنتيها ، وأكاد والله أرى فيها تلك الجميلة وهى تدق بيدها على صدرها دقة الاستفهام المتدلل المتظاهر بالدهشة

ليتنهد فيه الكلام والمتكلم معاً ، أما قول حبيبة حافظ الخشبية ، أو الحجرية . . . اذهب ... قد عرفتك واقتصد . . . . فهذا خليق أن يكون من قاض وهو ينصح المتهم بعد الأمر بالإفراج عنه ... أو مأمور قسم عند ضبط الحادثة !

أكبر ظنى أن روح حافظ نفسه هى التى أوحت إلىّ الآن هذه (النكتة) ، فإنه رحمه الله كان آية فى هذا الباب ، وله من النوادر محفوظة ومخترعة مالا يلحق فيه ؛ ولو كان كاتباً على قدر ما كان شاعرا ، وزاول النقد واستظهر للكتابة فيه بتلك الملكة المبدعة فى التندر والتهكم ، مع ماأوتى من القوة فى اللغة والبيان — لكانت النعمة قد تمت به على الأدب العربى ، واقلنا فى شعره وكتابته وأدبه ماقال هو فى الأستاذ الإمام : فأطلعتَ نورا من ثلاث جهات

وما دمنا قد ذكرنا النقد فمن الوفاء للتاريخ الأدبى أن نذكر مذهب شاعرنا فيه : فلم يكن عنده منه إلا ذوق الكلام وإدراك النَّفْرة والنُّبُوة فى الحرف ، والغلَظ والجَسْأة فى اللفظ ، والضعف والتهافت فى التركيب ، ثم مايجيش فى الخاطر أو يتلجلج فى الفكر من ذوق المعنى وإدراك كنهه والنفاذ إلى آثار النفس الحية فيه ؛ فكأن النقد هو الحسُّ بالكلام كما تلمس الحار والبارد وما بينهما ؛ ووصف لى مرة إسماعيل صبرى باشا وأراد أن يبالغ فى دقة تمييزه وحسن بصره بالشعر وإدراكه دقائق المعانى ، فقال : « ذوّاق يا مصطفى » ولم يزد

ومذهب الحسّ بالكلام هذا وإن صلح أن يكون من بعض معا[نى] النقد ، فلا يتهيأ أن يكون هو النقد بمعناه الفلسفى أو الأدبى ، وهو فى جـ[ملة] أمره كقولك حسن حسن ؛ ورديء رديء ، أما كيف كان حسناً أو رديئاً ، وبماذا ولماذا ، فذلك مالا سبيل إليه من مذهب (ذوّاق) ... ولا وسيلة له

إلا العلم المستفيض ، والاطلاع الواسع ، والحسّ المرهف ، والقدرة المتمكنة ، مضافة كلها إلى الأدب البارع وفلسفته الدقيقة ؛ ولا نعرف لحافظ كتابة في النقد ألبتة ، وقد كان حاول شيئاً من هذا في مقدمة كتابه (ليالي سطيح) ، فتناول بعض خصومه بكلمات رأى هو أن يمحوها بعد أن طبعت الكراسة الأولى ، فأسقطها وأعاد كتابة المقدمة وطبعها مرة ثانية ، وكانت عندي النسخة التي محاها ، وهذا ما لا أظنّ أحدا يعرفهُ الآن؛ رحم الله شاعراً كان أصفى من الغمام ، وكان شعره كأنه البرق والرعد ...

كلمات عن حافظ (١)(*)

ذهبتُ بقلبي إلى كل مكان فوجدت أمكِنَةَ الأشياءِ ولم أجدْ مكانَ قلبي : أيها القلبُ المِسكينُ ، أين أذهب بك ؟

هذا ما أجبتُ به (حافظ) حين سألني مرةً : مالك لا ترضى ولا تهدأ ولا تستقرّ ؟ وكان يُخيَّل إليّ أنه هو راض مستقر هادئ ، كأنما قضى من الحياة نَهْمَتَه ولم يبق في نفسه ما تقول نفسُه ليت ذلك لي ! وكنت أعجبُ لهذا الخُلُق فيه ولا أدري ما تعليله إلا أن يكونَ قد خُلق مطبوعا بطابَع اليُتم فلم يعرف منذ أدرك إلا أنه ابنُ القَدَر : تأتيه الأفراح والأحزانُ من يدٍ واحدة مقبَّلة كما تنالُ الصبيَّ ألطافُ أبيه ولَطَماتُ أبيه ......

وقد قلتُ له مرة : كأنك يا حافظ تنام بلا أحلام ! فضحك وقال : أو كأنني أحلم بغير نوم ....

---

(١) كتبها في الذكرى الثالثة لوفاته

(*) لما توفي حافظ رحمه الله كتبنا فصلا طويلا عن أدبه للمقتطف ، فلم نعرض في كلماتنا هذه لشيء من أدب الرجل وإنما هي ذكرى وبقايا من الأيام

ولقد عرفته منذ سنة ١٩٠٠ إلى أن لَحِق بربه فى سنة ١٩٣٢ ، فما كنتُ أراه على كل أحواله إلا كاليتيم : محكوماً بروح القبر ، وفى القبر أولهُ ؛ ولما أزْمَعَ السفرَ إلى اليونان قلتُ له : ألا تخشى أن تموت هنـاك فتموت يونانيا ..... فقـال : أو ترانى لم أمتْ بعد فى مصر ... ؟ إن الذى بقِىَ هيِّن !

☆ ☆ ☆

ومن عجائب هذا اليتيم الحزين أنه كان قوىَّ الملَكة فى فن الضحك ، كأن القَدَر عوَّضـه به ليُوجِدَهُ فى الناس عطفَ الآباء ومحبةَ الإخوة . ولم يَخْلُ مع فقره من ذريعة قوية إلى الجاه ، ووسيلة مؤكدة إلى ماهو خيرٌ من الغنى ؛ فكانت أسبابُه إلى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، ثم حشمت باشا ، ثم سعد باشا زغلول ؛ وهذا نظامٌ عجيبٌ فى زمن (حافظ) يقابل الاختلالَ العجيبَ فى نفس حافظ ؛ فالرجلُ كالسفينة المتكَفِّئَةِ : تميلُ بها موجةٌ وتَعْدِلها موجة ، وهى بهذه وبهذه تمرُّ وتسير

وأولئك الرؤساءُ العظماءُ الذين جعلهم القَدَر نظاماً فى زمن حافظ ، كانوا من أفقر الناس إلى الفكاهة والنادرة ، فكان لهم كالثروة فى هذا الباب ، ووقع إصلاحا فى عيشهم وكانوا إصلاحا فى عيشه ؛ ولو أن الأقدارَ تُشبَّه بالمدارس المختلفة ، لقلنا إن (حافظ) تخرّج منها فى مدرسة التجارة العليا ... فهو كان أبرعَ من يتاجر بالنادرة

☆ ☆ ☆

وهذه النوادر كأنها هى أيضاً صنعت (حافظ) فى شكل نادرة ؛ فكان فقيراً ، ومع هذا كان للمال عنده مُتَمّم ، هو إنفاقُه وإخراجُه من يده ؛ وكان يتيما ، ولكنه دائماً متودِّد ؛ وكان حزيناً ، ولكنه أنيسُ الطَّلْعة ؛ وكان بائساً ،

ولكنه سليمُ الصدر ، وكان فى ضيق ، ولكنه واسعُ الخُلق ؛ وتمامُ النادرة فيه أنه كان طوالَ عمره مُتَبَسِّطا مهتزا كأن له زمناً وحدَه غير زمن الناس ، فتتراكم عليه الهموم وهو مُسْتَنِيمٌ إلى الراحة ، ويعتريه من الجوع مثلُ مَكْسَلةِ الشِّبَع ، ويَسْتَرسلُ إلى البَطالة وكأنه مُشَمِّرٌ للجد ، ويستمكنُ الحزنُ منه فى ساعة فيتهَدَّد حزنه بالساعة التالية ....

رأيته فى أحد أيام بؤسه الأولى قبل أن يتصل عيشه ، وكان يَعُدُّ قروشاً فى يده ، فقلت : ما أمْر هذه القروش ؟

قال : كنت أقامرُ الساعة فأضعت ثلاثين قرشا ولم يبق لى غير هذه القروش الملعونة ، فهلمّ نتعشّ . ودخل إلى مطعم كان وراء حديقة الأزبكية ، فزعمت له أنى تعشّيت ... فأكل هو ودفع ثمن طعامه ثلاثة قروش ؛ وكنت أطالعُ فى وجهه وهو يأكل ، فما أتذكره الآن إلا كما طالعتُه بعد عشرين سنةً من ذلك التاريخ حين دعانى (حافظ) إلى مطعم بار اللواء وقد فاضت أنامله ذهبا وفضة ، وكان رحمه الله قد أصدر الجزء الثانى من (البؤساء) ورآنى فى القاهرة فأمسك بى حتى قرأتُ معه الكتابَ كلَّه فيما بين الظهر والمغرب ؛ وركبنا فى الأصيل عربة وخرجنا نتنزّه ، أى خرجنا نقرأ ...

* * *

وكان على وجه (حافظ) لونٌ من الرضى لا يتغير فى بؤس ولا نعيم ، كبياض الأبيض وسواد الأسود ؛ وهذا من عجائب الرجل الذى كان فى ذات نفسه فنا من الفَوْضى الإنسانية ، حتى لكأنه حُلمٌ شعرىٌّ بَدَأ من أبويه ثم انقطع وتُرِكَ لتُتَمِّمَه الطبيعة !

ومن نظر إلى (حافظ) على اعتبار أنه فن من الفوضى الإنسانية رآه جميلا جمالَ الأشياء الطبيعية لا جمالَ الناس ؛ ففيه من الصحراء والجبال

والصخور والغياض والبرق والرعد وأشباهها ؛ وكنت أنا أراه بهذه العين فأستجمله ، ويبدو لى جزلاً مُطهّماً ، وأرى فى شكله هندسةً كهندسة الكون : تتمم محاسنَها بمقابحها ؛ وكم قلت له : إنك ياحافظ أجمل من القَمر ......

أما هو فكان يرى نفسه دَميما شنيعَ المرْآةِ متَفاوتَ الخلق كأنه إنسان مغلوطٌ فى تركيبه ...

وقد سألته مرة : هل أحب ؟

فقال : النساءُ اثنتان : فإما جميلةٌ تنفر من قبحى ، وإما دميمةٌ أنفر من قبحها ! ولهذا لم يُفلح فى الغزل والنسيب ، ولم يُحسن من هذا الباب شيئاً يسمى شيئا ؛ وبقى شاعرا غير تام ، فإن المرآة للشاعر كحواء لآدم : هى وحدها التى تعطيه بحبها عالما جديدا لم يكن فيه ، وكل شرها أنها تتخطى به السموات نازلا ...

✡ ✡ ✡

وتهدّم حافظ فى أواخر أيامه من أثر المرض والشيخوخة ، وكان آخر العهد به أن جاء إلى إدارة (المقتطف) وأنا هناك ، فلم يرنى حتى بادرنى بقوله : ماذا ترى فى هذا البيت فى وصف الأمريكان :

وتخــِذتُمْ مَوْج الأثير بَرِيدًا   حين خِلتُم أن البرُوق كُسالى (*)

فنظرتُ إلى وجهه المعروق المتغضّن وقلت له : لو كان فيك موضعُ قُبلة لقبَّلتك لهذا البيت ! فضحك وأدار لى خدّه ؛ ولكن بقى خده بلا تقبيل ...

✡ ✡ ✡

(*) هذا البيت من قصيدة نظمها حافظ يخاطب فيها الأمريكيين ، وقد أشرنا فى مقالنا فى المقتطف إلى أن معناه مسروق .

وشهرة هذا الأديب العظيم بنوادره ومحفوظاته من هـذا الفن أمر مُجمع عليه ؛ وكان يتقصَّص النوادرَ والفكاهات ومُطارحاتِ السَّمَر من مظانِّها في الكتب ورجال الأدب وأهل المجون ، فإذا قصها على من يجالسه زاد في أسلوبها أسلوبَه هو ، وجعل يقلّبها ويتصرف فيها ويُبينُ عنها أحسن الإبانة بمنطقه ووجهه ونبراتٍ في لسانه ونبراتٍ في يده

وهو أصمعيُّ هذا الباب خاصة ، يروى منه رواية عريضة ، فإذا استهلَّ سحَّ بالنوادر سحا كأنها قوافي قصيدة تدعو الواحدةُ منها أختها التي بعدها

وقد أذكرتني (القوافي) مجلساً حَضرتُه قديما في سنة ١٩٠١ أو ١٩٠٠ ، وكان (مصباح الشرق) قد نشر قصيدة رائية لابن الرومي ، فتعجب المرحوم الشيخ محمد المهدي من بسطة ابن الرومي في قوافيه ، فقال له (حافظ) : هلم نتساجلْ في هذا الوزن حتى ينقطع أحدُنا ؛ وكانت القافية من وزن : قدَّرَها ، أحمرها ، أخضرها ... الخ ، وجعلتُ أنا أُحصي عليهما ؛ فلما ضاق الكلام كان الشيخ المهدي يفكر طويلا ثم ينطق باللفظ ، ولا يكاد يفعل حتى يرميَه حافظ على البديهة ، فيعود الرجل إلى الإطراق والتفكير ؛ ثم انقطع أخيرا وبقي حافظ يسرُدُ له من حفظه الغريب

أما في النوادر فالعجيبةُ التي اتفقت له في هذا الباب أنه جاء إلى طنطا في سنة ١٩١٢ ومديرها يومئذ المرحوم « محمد محب باشا » ، وكان داهيــة ذكيا وظريفاً لبقاً ، وكنتُ أخالطُه وأتصلُ به ، فدعا (حافظ) إلى العشاء في داره ؛ فلما مُدت الأيدي قال الباشا : لي عليك شرط ياحافظ . قال وما هو ؟ قال : كل لقمة بنادرة !

فتهلل حافظ وقال : نعم ، لك عليَّ ذلك . ثم أخذ يقصُّ ويأكل ، والعشاءُ حافلٌ ، وحافظ كان نهما ، فما انقطع ولا أخلَّ حتى وفَّى بالشرط ؛ وهذا لا يمنع

أن الباشا كان يتغافل ويتغاضى ويتشاغل بالضحك، فيسرع حافظ ويغالط بفمه ......

* * *

ولكن هذه المضحكات أضحكت من (حافظ) مرة كما أضحكت به؛ فلما كان يترجم (مكبث) لشكسبير – وهى كأعماله الناقصة دائما – دعوه لإلقاء (محاضرة) فى نادى المدارس العليا، والنادى يومئذ يجمع خير الشباب حميةً وعلمًا، وكان صاحب السرّ فيه (السكرتير) زينة شباب الوطنية المرحوم أمين بك الرافعى؛ فقام حافظ فأنشدهم بعض ما ترجمه نظما عن شكسبير، ومثّله تمثيلا أفرغ فيه جهده، فأطرب وأعجب؛ ثم سألوه (المحاضرة) فأخذ يلقى عليهم من نوادره، وبدأ كلامه بهذه النادرة: عُرضت على المعتصم جارية يشتريها، فسألها: أنت بكرٌ أم ثيِّب؟ فقالت: كثرت الفُتوح على عهد المعتصم ...

ونظر حافظ إلى وجوه القوم فأنكرها ... وبقيت هذه الوجوه إلى آخر المحاضرة كأنها تقول له: إنك لم تُفلح!

ولقد كان هذا من أقوى الأسباب فى تنبُّه (حافظ) إلى ما يجب للشباب عليه إن أراد أن يكون شاعره، فأقبل على القصائد السياسية التى كسبهم بها من بعد؛ ونادرة المعتصم كالعورة المكشوفة؛ ولست أدرى أكان حافظ يعرف النادرة البديعة الأخرى أم لا؛ فقد عُرضت جارية أديبة ظريفة على الرشيد فسألها: أنت بكر أم إيش؟

فقالت: أنا (أم إيش) يا أمير المؤمنين ...

* * *

وفن (الشعر الاجتماعى) الذى عُرف به حافظ، لم يكن فنَّه من قبل، ولا كان هو قد تنبَّه له أو تحراه فى طريقته: فلما جاءت إلى مصر الامبراطورة

(أوحينى) نظم قصيدته النونية التى يقول فيها :

فاعذُرينا على القصور ، كلانا غيَّرته طوارئ الحدثان

ولقيتُه بعدها فسألنى رأيى فى هذه القصيدة ، وكان بها مُدلا مُعجباً ، شأنه فى كل شعره ؛ فانتقدتُ منها أشياء فى ألفاظها ومعانيها ، وأشرت إلى الطريقة التى كان يحسن أن تخاطب بها الامبراطورة ؛ فكأننى أغضبتُه ؛ فقال : إن الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين ـ أجمعوا على أن هذا النمط هو خير الشعر ، وقالوا لى : إذا نظمتَ فانظم مثل هذا « الشعر الاجتماعى » ، ثم كأنه تنبَّه إلى أنها طريقة يستطيع أن ينفرد بها ، فقال : إن كل قصائد شوقى الآن غزل ومدح ، ولا أثر فيها لهذا الشعر ، على أنه هو الشعر

وتتابعت قصائده الاجتماعية ، فلقينى بعدها مرة أخرى فقال لى : إن الشاعر الذى لا ينظم فى الاجتماعيات ليس عندى بشاعر . وأردت أن أغيظه فقلت له : وما هى الاجتماعيات إلا جعل مقالات الصحف قصائد ... ؟

فالأستاذ الإمام وسعد زغلول وقاسم أمين : أحدُ هؤلاء أو جميعُهم أصل هذا المذهب الذى ذهب إليه حافظ ، وهو كثيرا ما كان يقتبس من الأفكار التى تعرض فى مجلس الشيخ محمد عبده ، من حديثه أو حديث غيره ، فيبنى عليها أو يُدخلها فى شعره ، وهو أحياناً ردىء الأخذ جدا حين يكون المعنى فلسفيا ؛ إذ كانت ملكة الفلسفة فيه كالمعطَّلة ، وإنما هى فى الشاعر من ملكة الحب ، وإنما أولها وأصلها دخول المرأة فى عالم الكلام بإبهامها وثرثرتها ...

✿ ✿ ✿

وكنت أولَ عهدى بالشعر نظمت قصيدة مدحتُ فيها الأستاذ الإمام وأنفذتها إليه ، ثم قابلت حافظ بعدها فقال لى إنه هو تلاها على الإمام ،

وإنه استحسنها ؛ قلت : فماذا كانت كلمته فيها ؟ قال : إنه قال : لا بأس بها ...

فاضطرب شيطانى من الغضب ، وقلت له : إن الشيخ ليس بشاعر ، فليس لرأيه فى الشعر كبير معنى ! قال : ويحك ! إن هذا مَبْلغ الاستحسان عنده

قلت : وماذا يقول لك أنت حين تنشده ؟ قال : أعلى من ذلك قليلا ...

فأرضانى والله أن يكون بينى وبين حافظ (قليل) ، وطمعت من يومئذ

وأنا أرى أن « حافظ إبراهيم » إنْ هو إلا ديوان « الشيخ محمد عبده » : لولا أن هذا هذا ، لما كان ذلك ذلك

ومن أثر الشيخ فى حافظ أنه كان دائماً فى حاجة إلى مَن يَسمعه ، فكان إذا عمل أبياتاً ركب إلى إسماعيل باشا صبرى فى القصر العينى ، وطاف على القهوات والأندية يُسمع الناس بالقوة ... إذ كانت أُذُن الإمام هى التى ربَّت الملكةَ فيه ؛ وقد بيَّنا هذا فى مقالنا فى (المقتطف)

وكان تمام الشعر الحافظىّ أن يُنشده حافظ نفسه ؛ وما سمعت فى الإنشاد أعربَ عربيةً من البارودى ، ولا أعذب عذوبةً من الكاظمى ، ولا أفخم فخامةً من حافظ ؛ رحمهم الله جميعاً

وكان أديبنا يُجلّ البارودى إجلالا عظيما ، ولما قال فى مدحه :

فمُرْ كلَّ معنى فارسىّ بطاعتى وكلَّ نفور منه أن يتودّدا

قلت له : مامعنى هذا ؟ وكيف يأمر البارودى كل معنى فارسىّ وما هو بفارسى ؟

قال : إنه يعرف الفارسية ، وقد نظم فيها ، وعنده مجموعة جمع فيها كل المعانى الفارسية البديعة التى وقف عليها ؛ قلت : فكان الوجه أن تقول له : أعِرنى المجموعة التى عندك ...

أما الكاظمى فكان حافظ يُجافيه ويُباعدُه ، حتى قال لى مرة وقد ذكَّرته به : « عَقَقْناه يامصطفى ! »

وما أنس لاأنس فرَحَ حافظ حين أعلمته أن الكاظمى يحفظ قصيدة من قصائده ، وذلك أنهم فى سنة ١٩٠١ — على ماأذكر — أعلنوا عن جوائز يمنحونها من يجيد فى مدح الخديو ، وجعلوا الحكم فى ذلك إلى البارودى وصبرى والكاظمى ، ثم تخلى البارودى وصبرى ، وحكم الكاظمى وحده ؛ فنال حافظ المدالية الذهبية ، ونال مثلها السيد توفيق البكرى

ولما زرتُ الكاظمى وكنت يومئذ مبتدئاً فى الشعر ولا أزال فى الغَرْزَمَة (*) قال : لماذا لم تدخل فى هذه المباراة ؟ قلت : وأين أنا من شوقى وحافظ وفلان وفلان ؟ فقال : « لِيهْ تِخَلِّى هِمِّتَكْ ضعيفة ؟ » ثم أسمعنى قصيدة حافظ وكان معجبا بها ، فنقلتُ ذلك إلى حافظ ، فكاد يطير عن كرسيه فى القهوة

☆ ☆ ☆

وكان تعنُّت حافظ على الكاظمى لأنه غير مصرى ، فى سنة ١٩٠٣ كانت تصدر فى القاهرة مجلة اسمها (الثريا) ، فظهر فى أحد أعدادها (١) مقال عن الشعراء بهذا التوقيع (☆) ، وانفجر هذا المقالُ انفجار البركان ، وقام به الشعراء وقعدوا ، وكان له فى الغارة عليهم كزفيف الجيش وقَعْقَعَةِ السلاح ، وتناولتْه الصحف اليومية ، واستمرت رجفته الأدبية نحو الشهر ؛ وانتهى إلى الخديو ؛ وتكلم عنه الأستاذ الإمام فى مجلسه ، واجتمع له جماعة من كبار أساتذة العصر السوريين ، كالعلامة سليمان البستانى ، وأديب عصره الشيخ إبراهيم

(*) الغرزمة : أول قول الشعر ، حين يكثر الردى فيه . يقال : فلان يغرزم

(١) عدد يناير سنة ١٩٠٥ ، وانظر ص ٣٨ - ٤٣ « حياة الرافعى »

اليازجى ، والمؤرخ الكبير جورجى زيدان — إذ كان صاحب المجلة سوريًّا — وجعلوا ينفذون إلى صاحب المجلة دسيسا بعد دسيس ليعلموا من هو كاتب المقال

وشاع يومئذ أنى أنا الكاتب له ؛ وكان الكاظمى على رأس الشعراء فيه ؛ فغضب حافظ لذلك غضبا شديداً ، وما كاد يرانى فى القاهرة حتى ابتدرنى بقوله : وربِّ الكعبة أنت كاتب المقال ، وذِمة الإسلام أنت صاحبُه !

ثم دخلنا إلى « قهوة الشيشة » ، فقال فى كلامه : إن الذى يغيظنى أن يأتى كاتب المقال بشاعر من غير مصر فيضعه على رءوسنا نحن المصريين ! فقلت : ولعل هذا قد غاظك بقدر ماسرَّك ألا يكون الذى على رأسك هو شوقى ...

وغضب السيد توفيق البكرى غضبا من نوع آخر ، فاستعان بالمرحوم السيد مصطفى المنفلوطى استعانة ذهبية ... وشمّر المنفلوطى فكتب مقالا فى (مجلة سركيس) يعارض به مقال (الثريا) ، وجعل فيه البكرى على رأس الشعراء... ومدحه مدحا يَرِنُّ رنينا

أما أنا فتناولنى بما استطاع من الذم ، وجرّدنى من الألفاظ والمعانى جميعا ، وعدّنى فى الشعراء ليقول إنى لست بشاعر ... فكان هذا ردَّ نفسه على نفسه (*)

وتعلّق مقالُ المنفلوطى على المقال الأول فاشتهر به لا بالمنفلوطى ؛ وغضب حافظ مرة ثانية ، فكتب إلىّ كتابا يذكر فيه تعسُّف هذا الكاتب وتحامله ،

(*) نشر المرحوم المنفلوطى مقاله هذا فى الطبعة الأولى من كتابه (النظرات) بعدأن هذبه ؛ ثم حذفه من الطبعات الأخرى ، لأنه هو كان يعلم أن النائحة المستأجرة لايسمى بكاؤها بكاء ....

ويقول : قد وكّلْتُ إليك أمر تأديبه[1]

فكتبت مقالا فى جريدة (المنبر)، وكان يصدرها الأستاذان محمد مسعود وحافظ عوض ، ووضعت كلمة المنفلوطى التى ذمّنى بهـا فى صدر مقالى أفاخر بها ... وقلت : إنى كذلك الفيلسوف الذى أرادوه أن يشفع إلى مَلِكِهِ، فأكبّ على قدم الملك حتى شفّعه ؛ فلما عابوه بأنه أذال حرمةَ الفلسفة بانحنائه على قدم الملك وبسجوده له ، قال : ويحكم ! فكيف أصنع إذا كان الملك قد جعل أُذُنيه فى رِجليه ...

٭ ٭ ٭

ولم يكن مضى لى فى معالجة الشعر غير سنتين حين ظهر مقال (الثريا)، ومع ذلك أصبح كل شاعر يريد أن يعرف رأيى فيـه ؛ فررت ذات يوم (بحافظ) وهو فى جماعة لا أعرفهم ، فلما اطمأن بى المجلس قال حافظ : ما رأيك فى شعر اليازجى ؟ فأجبتهُ ، قال : فالبستانى ؟ فنجيب الحداد ؟ ففلان ؟ ففلان ؟ فداود عمون ؟ قلت : هذا لم أقرأ له إلا قليلا لا يَسُوغ معه الحكم على شعره . قال : فماذا قرأتَ له ؟ قلت : ردَّه على قصيدتك إليه :

٭ شَجَتْنَا مطالعُ أقمارِها ٭

قال : فما رأيك فى قصيدته هذه ؟ قلت : هى من الشعر الوسط الذى لا يعلو ولا ينزل

فما راعنى إلا رجل فى المجلس يقول : أنصفتَ والله ! فقال حافظ : أقدّم لك داود بك عمون ! ...

رحم الله تلك الأيام !

---

(١) انظر ص ١٢١ « حياة الرافعى »

شـــــوقى [1]

هذا هو الرجلُ الذى يُخيَّلُ إلىّ أن مصر اختارته دون أهلها جميعا لتضعَ فيه رُوحها المتكلم، فأوجبتْ له مالم توجب لغيره، وأعانته بما لم يتفق لسواه، ووهبته من القدرة والتمكين وأسباب الرياسة وخصائصها على قدر أمّة تريد أن تكون شاعرةً، لا على قدر رجل فى نفسِه؛ وبه وحده استطاعت مصر أن تقول للتاريخ: شعرى وأدبى!

شوقى: هذا هو الاسم الذى كان فى الأدب كالشمس من المشرق: متى طلعت فى موضع فقد طلعت فى كل موضع، ومتى ذُكر فى بلد من بلاد العالم العربى اتسع معنى اسمه فدلَّ على مصر كلها كأنما قيل النيل أو الهرم أو القاهرة؛ مترادفات لا فى وضع اللغة ولكن فى جلال اللغة

رجل عاش حتى تمَّ، وذلك برهان التاريخ على اصطفائه لمصر، ودليلُ العبقرية على أن فيه السرَّ المتحرك الذى لا يقف ولا يكلّ ولا يقطع نظامَ عمله، كأن فيه حاسّةَ نحلة فى حديقة؛ ويكبر شعره كلما كبر الزمن، فلم يتخلّف عن دهره، ولم يقع دون أبعد غاياته، وكأنه مع الدهر على سياقٍ واحد، وكأن شعره تاريخٌ من الكلام يتطورُ أطواره فى النمّو فلم يجمدْ ولم يرتكسْ، وبقى خيالُ صاحبه إلى آخر عمره فى تدبير السماء كعَرّاضِ الغمامة، سحابُه كثـير البرق مِتلاعٌ ممطرٌ ينصبُّ من ناحية ويمتلئ من ناحية

والناس يُكتبُ عليهم الشباب والكهولة والهرم، ولكن الأديب الحقَّ يُكتب عليه شبابٌ وكهولةٌ وشباب: إذ كانت فى قلبه الغاياتُ الحية الشاعرة، ماتنفكُّ يلدُ بعضُها بعضا إلى ما لا انقطاع له، فإنها ليست من حياة الشاعر التى

---

(1) المقتطف: نوفمبر سنة ١٩٣٢، وانظر ص ١٥٦ - ١٥٧ «حياة الرافعى»

خلقت فى قلبه ، ولـكنها من حياة المعانى فى هذا القلب

☆ ☆ ☆

أقرر هذا فى شوقى رحمه الله ، وأنا من أعرف الناس بعيوبه وأماكن الغميزة فى أدبه وشعره ؛ ولكن هذا الرجل انْفَلَتَ من تاريخ الأدب لمصر وحدها كانفلات المطْرة من سحابها المتساير فى الجوّ ، فأصبحت مصر به سيدة العالم العربى فى الشعر ، وهى لم تُذكر قديماً فى الأدب إلاَّ بالنكتة والرقة وصناعات بديعية ملفقة ، ولم يَسْتَفِضْ لها ذكر بنابغة ولا عبقرى ، وكانت كالمستجدية من تاريخ الحواضر فى العالم ، حتى إن أبا محمد الملقب بولى الدولة صاحب ديوان الإنشاء فى مصر للظاهر بن المستنصر (وقد توفى سنة ٤٣١ هـ) ، وكان رزقه ثلاثة آلاف دينار فى السنة غير رسوم يستوفيها على كل ما يكتبه — سلَّم لرسول التجار إلى مصر من بغداد جزءين من شعره ورسائله يحملهما إلى بغداد ليعرضهما على الشريف المرتضى وغيره من أدبائها ، فيستشيرهم فى تخليد هذا الأدب المصرى بدار العلم إن استجادوه وارتضوه ، كأن حفظ ديوان من شعر مصر ونثرها فى مكتبة بغداد قديماً يشبه فى حوادث دهرنا استقلال مصر وقبولها فى عصبة الأمم ...

وهذا أحمد بن على الأسوانى إمام من أئمة الأدب فى مصر (توفى سنة ٥٦٢) ، وكان كاتباً شاعراً يجمع إلى علوم الأدب الفقهَ والمنطق والهندسة والطب والموسيقى والفلك ـ أراد أن يدوِّن شعر المصريين ، فجمع من شعرهم (وشعر من طرأ عليهم) أربع مجلدات ، كأن الشعر المصرى وحده إلى آخر القرن السادس للهجرة ، فى العهد الذى لم يكن ضاع فيه شىء من الكتب والدواوين لا يملأ أربع مجلدات ... على اختلافهم فى مقدار المجلدة ، فقد تكون جزءاً لطيف الحجم ؛ والأسوانى نفسه يبلغ ديوانه نحو مئة ورقة

وأخوه الحسن المعروف بالمهذب (الأسوانى المتوفى سنة ٥٦١) قال العماد الكاتب إنه لم يكن بمصر فى زمنه أشعر منه، وسارت له فى الناس قصيدة سموها النواحة، وصف فيها حنينه إلى أخيه وقد رحل إلى مكة وطالت غيبته بها وخِيفَ عليه؛ فالرجل أشعر أهل مصر فى زمنه، وحادثة النواحة تجعله فى هذا المعنى أشعر من نفسه، على أنه مع هذا لم يقل إلا من هذا:

يا ربعُ أين ترى الأحبة يمَّموا   هل أنجدوا من بعدنا أم أتهموا
رحلوا وفى القلب المعنَّى بعدهم   وجدٌ على مرِّ الزمان مخيِّمُ
وتعوّضتْ بالأنس نفسى وحشةً   لا أوحش الله المنازلَ منهمُ ...

ولولا ابن الفارض والبهاء زهير وابن قلاقس الاسكندرى وأمثالهم، وكلهم أصحاب دواوين صغيرة، وليس فى شعرهم إلا طابع النيل، أى الرقة والحلاوة. لولا هؤلاء فى المتقدمين لأجدب تاريخ الشعر فى مصر؛ ولولا البارودى وصبرى وحافظ فى المتأخرين، وكلهم كذلك أصحاب دواوين صغيرة، لما ذُكرت مصر بشعرها فى العالم العربى؛ على أن كل هؤلاء وكل أولئك لم يستطيعوا أن يضعوا تاج الشعر على مفرق مصر، ووضعه شوقى وحده!

والعجب أن دواوين المجيدين من شعراء المصريين لا تكون إلا صغيرة كأن طبيعة النيل تأخذ فى المعانى كأخذها فى المادة، فلا فيض ولا خصب إلا فى وقت بعد أوقات، وفى ثلاثة أشهر من كل اثنى عشر شهرا؛ ومن جمال الفراشة أن تكون صغيرة، وحسبها عند نفسها أن أجنحتها منقّطة بالذهب، وأنها هى نكتة من بديع الطبيعة!

على أنك واجد فى تاريخ الأدب المصرى عجيبة من عجائب الدنيا لا تذكر معها الالياذة ولا الانيادة ولا الشاهنامة ولا غيرها، ولكنها عجيبة ملأتها روح الصحراء إن كانت تلك الدواوين الصغيرة من روح النيل؛ وهى

قصيدة نظمها أبو رجاء الأسوانى المتوفى سنة ٣٣٥ هـ، وكان شاعرا فقيها أديبا عالما كما قالوا، وزعموا أنه اقتصَّ فى نظمه أخبار العالم وقصص الأنبياء واحدا بعد واحد، قالوا وسئل قبل موته كم بلغت قصيدتك؟ فقال: ثلاثين ومائة ألف بيت ... وما أشك أن هذا الرجل وقع له تاريخ الطبرى وكتب السير وقصص الإسرائيليات فنظمها متونا متونا ... وأفنى عمره فى ١٣٠ ألف بيت حوَّلها التاريخ إلى خبر مهمل فى ثلاثة أسطر! [1]

✡ ✡ ✡

كل شاعر مصرى هو عندى جزء من جزء، ولكن شوقى جزء من كل؛ والفرق بين الجزءين أن الأخير فى قوتِه وعظمته وتمكنه واتساع شِعره جزء عظيم كأنه بنفسه الكل؛ ولم يترك شاعر فى مصر قديماً وحديثاً ماترك شوقى، وقد اجتمع له مالم يجتمع لسواه؛ وذلك من الأدلة على أنه هو المختار لبلاده، فساوى الممتازين من شعراء دهرِه وارتفع عليهم بأمور كثيرة هى رزق تاريخه من القوة المدبِّرة التى لاحيلة لأحد أن يأخذ منها مالا تعطى، أو يزيد ماتنقص، أو ينقص ماتزيد؛ وقد حاولوا إسقاط شوقى مراراً فأراهم غباره ومضى متقدماً، ورجع من رجع منهم ليغسل عينيه ... ويرى بهما أن شوقى من النفس المصرية بمنزلة المجد المكتوب لها فى التاريخ بحرب ونصر، وماهو بمنزلة شاعر وشعره

ولد شاعرنا سنة ١٨٦٨ فى نعمة الخديو إسماعيل باشا، ونثر له الخديو الذهب وهو رضيع فى قصة ذكرها شوقى فى مقدمة ديوانه القديم، ثم كفَّله الخديو توفيق باشا وعلمه وأنفق عليه من سَعَة، وأنزل نفسه منه منزلة أبٍ غنى كما يقول شوقى فى مقدمتِه، ثم تولاه الخديو عباس باشا وجعله شاعره وتركه يقول:

---

(١) انظر خبر (مصر الشاعرة) ص ١٤٦ - ١٤٧ «حياة الرافعى»

شاعرُ العزيز وما بالقليل ذا اللقبُ

وإذا أنت فسَّرت لقب شاعر الأمير هذا بالأمير نفسه فى ذلك العهد، خرج لك من التفسير: شاعر مُرْهَفٌ مُعانٌ بأسباب كثيرة، ليكون أداة سياسية فى الشعب المصرى، تعمل لإحياء التاريخ فى النفس المصرية، وتبصيرها بعظمتها، وإقحامها فى معارك زمنها، وتهيئتها للمدافعة، وتَصلُ الشعر بالسياسة الدينية التى توجَّهت لها الخلافة يومئذ لتضرب فكرة أوروبا فى تقسيم الدولة بفكرة الجامعة الإسلامية؛ ولا يخرج لك شوقى من هذا التفسير على أنه رجل فى قدر نفسه، بل فى قدر أميره ذلك؛ وكان مناثاً شباباً يغلى غلياناً، ومُعدًا يومئذٍ لمطامحَ بعيدة ملففَة حشوُها الديناميت السياسى ...

كنت ذات مرة أكلم صديقى الكاتب العميق فرح أنطون صاحب (الجامعة)، وكان معجباً بشوقى إعجابا شديداً، فقال لى: إن شوقى الآن فى أفق الملوك لا فى أفق الشعراء! قلت: كأنك نفيته من الملوك والشعراء معًا؛ إذ لو خرج من هؤلاء لم يكن شيئا، ولو نفذ إلى أولئك لم يعدَّ شيئا؛ إنما الرجل فى السياسة الملتوية التى تصله بالأمير، هو مرة كوزير الحربية، ومرة كوزير المعارف

وهذه السياسة التى ارتاض بها شوقى ولابسها من أول عهده، واتجه شِعره فى مذاهبها، من الوطنية المصرية، إلى النزعة الفرعونية، إلى الجامعة الإسلامية، فكانت بهذا سبب نبوغه ومادة مجده الشعرى — هى بعينها مادة نقائصه: فلقد ابتلته بحب نفسه وحب الثناء عليها، وتسخير الناس فى ذلك بما وسعته قوته، إلى غيرة أشد من غيرة الحسناء تقشعرُّ كلُّ شعرة منها إذا جاءها الحسن بثانية، وهى غيرة وإن كانت مذمومة فى صلته بالأدباء الذين لدَّعوه بالجمر ... ونحن منهم، غير أنها ممدوحة فى موضعها من طبيعته هو؛ إذ جعلته كالجواد العتيق الكريم ينافس حتى ظِله، فعارض المتقدمين بشعره كأنهم

معه ، ونافس المعاصرين ليجعلهم كأنهم ليسوا معه ، ونافس ذاته أيضاً ليجعل شوقى أشعر من شوقى ؛ وعندى أن كل مافى هـذا الرجل من المتناقضات فمرجعه إلى آثار تلك السياسة الملتوية التى رُدَّت بطبيعة القوة عن وجوهها الصريحة ، فجعلت تضطرب فى وجوه من الحيل والأسباب مدبرةً مقبلةً ، مُتَهَدِّية فى كل مجاهلها بإبرة مغناطيسية عجيبة لا يشبهها فى الطبيعة إلا أنف الثعلب المتجه دائمـاً إلى رائحة الدجاج ...

ومؤرخ الأدب الذى يريد أن يكتب عن شوقى لايصنع شيئاً إن هو لم يذكر أن هذا الشاعر العظيم كان هدية الخديو توفيق والخديو عباس لمصر ، كالدلتا بين فرعى النيل ؛ وما أصابه المتنبي من سيف الدولة مما ابتعث قريحتَه وراش أجنحته السماوية وأضفى ريشها وانْتزَى بهـا على الغايات البعيدة فى تاريخ الأدب — أصاب شوقى من سمو الخديو عباس أكثر منه ، فكان حقيقاً أن يساوى المتنبي أو يتقدمه ، ولكنه لم يبلغ منزلته ، لأن الخديو لم يكن كسيف الدولة فى معرفتِه بالأدب العربى ورغبته فيـه ؛ وسر المتنبي كان فى ثلاثة أشياء : فى جهازه العصبي العجيب الذى لايقل فى رأيي عما فى دماغ شكسبير ، وفى ممدوحِه الأديب الملك الذى ينزل من هذا الجهاز منزلة المهندس الكهربائى من آلة عظيمة يديرها بعـلم ويقوم عليها بتدبير ويحوطها بعناية ، ثم فى أفق عصره المتألق بنجوم الأدب التى لايمكن أن يظهر بينها إلا ماهو فى قدرها ، ولا يتميز فيها إلا ماهو أكبر منها ، ولا يتركها كالمنطفئة إلا شمس كشمس المتنبي تتفجّر على الدنيا بمعجزاتها النورانية

ولقد والله كان هذا المتنبي كأنه يوزع الشرف على الملوك والرؤساء ؛ وهل أدل على ذلك من أن أبا إسحاق الصابئ شيخ الكتاب فى عصره يراسله أن يمدحه بقصيدتين ويعطيه خمسة آلاف درهم ، فيرسل إليـه المتنبي : مارأيت

بالعراق من يستحق المدح غيرك، ولكنى إن مدحتك تنكّر لك الوزير (يعنى المهلَّبي) لأنى لم أمدحه، فإن كنت لا تبالى هذا الحال فأنا أجيبك ولا أريد منك مالًا ولا من شِعرى عوضا ! فأين فى دهرنا من تُشعره عزّة الأدب مثل هذا الشعور ليأتى بالشعر من نفس مستيقنة أن الدنيا فى انتظار كلمتها ؟

على أن شوقى لم يكن ينقصه باعتبار زمنه إلا (الجمهور الشعرى)، وكل بلاءِ الشعر العربى أنه لا يجد هذا الجمهور، فالشاعر بذلك منصرف إلى معانٍ فردية من ممدوح عظيم أو حبيب عظيم أو سقوط عظيم ...! حتى الطبيعة تظهر فى الشعر العربى كأنها قطع مبتورة من الكون داخلةٌ فى الحدود لابسة الثياب؛ ومن ذلك ينبغ الشاعر وليس فيه من الإحساس إلا قدر نفسه لا قدر جمهوره، وإلا ملءَ حاجاته لا ملءَ الطبيعة؛ فلا جرم يقع بعيداً عن المعنى الشامل المتصل بالمجهول، ويسقط بشِعره على صور فردية ضيقة الحدود، فلا تجد فى طبعه قوة الإحاطة والتبسُّط والشمول والتدقيق، ولا تواتيه طبيعته أن يستوعب كل صورة شعرية بخصائصها، فإذا هو على الخاطر العارض يأخذ من عَفوِه ولا يحسن أن يوغِل فيه، وإذا هو على نزوات ضعيفة من التفكير لا يطول لها بحثُهُ ولا يتقدم فيها نظره، وإذا نفسه تمرُّ على الكون مرًّا سريعا، وإذا شعره مقطع قطعا، وإذا آلامهُ وأفراحه أوصاف لا شعور، وكلمات لا حقائق، وظلٌّ طامس ملقى على الأرض إذا قابلتَهُ بتفاصيل الجسم الحى السائر على الأرض

واجتمع لشوقى فى ميراث دمه ومجارى أعراقِه عنصر عربى، وآخر تركى، وثالث يونانى، ورابع شركسى؛ وهذه كثرة إنسانية لا يأتى منها شاعر إلا كان خليقا أن يكون دولةً من دول الشعر، وإلى هذا ولد شاعرنا باختلاله العصبي فى عينيه، كأن هذا دليل طبيعى على أن وراءهما عينين للمعانى تراجمان

عينى البصر ؛ ومالم يكن التركيب العصبى فى الشاعر مهيّأً للنبوغ ، فاعلم أنه وقع من تقاسيم الدنيا فى غير الشعر ، وليس فى الطبيعة ولا فى الصناعة قوة تجعل حنجرة البلبل فى غير البلبل ؛ ومع كل ماتقدم فقد أُعين شوقى على الشعر بفراغه له أربعاً وأربعين سنة ، غير مشترك العمل ، ولا متقسم الخاطر ، على سعة فى الرزق وبسطةٍ فى الجاه وعلو فى المنزلة ، وبين يديه دواوين الشعر العربى والأوروبى والتركى والفارسى ؛ وإن تنس فلا تنس أن شاعرنا هذا خص بنشاط الحياة ، وهو روح الشعر لاروح للشعر بدونه ، فسافر ورحل وتقلب فى الأرض وخالط الشعوب واستعرض الطبيعة يتخللها ببصره مابين الأندلس والاستانة ، وظهيرُه على ذلك ماله وفراغهُ ؛ وإنما قوة الشعر فى مساقط الجو ، ففى كل جوّ جديد روح للشاعر جديدة ؛ والطبيعة كالناس : هى فى مكان بيضاء وفى مكان سوداء ، وهى فى موضع نائمة تحلم وفى موضع قائمة تعمل ، وفى بلد هى كالأنثى الجميلة وفى بلد هى كالرجل المصارع ؛ ولن يجتمع لك روح الجهاز العصبى على أقواه وأشدّه إلا إذا أطعمته مع صنوف الأطعمة اللذيذة المفيدة ، ألوانَ الهواء اللذيذ المفيد

وعندى أنه لاأمل أن ينشأ لمصر شاعر عظيم فى طبقة الفحول من شعراء العالم ، إلا إذا أعيد تاريخ شوقى مهذباً منقحا فى رجل وهبه الله مواهبه ثم تهبهُ الحكومة المصرية مواهبها

❊ ❊ ❊

والكتاب الأول الذى راض خيال شوقى وصقل طبعَه وصحح نشأته الأدبية ، هو بعينِه الذى كانت منه بصيرة حافظ وذكرناه فى مقالنا عنه ، أى كتاب الوسيلة الأدبية للمرصفى ؛ وليس السر فى هذا الكتاب مافيه من فنون البلاغة ومختارات الشعر والكتابة ، فهذا كله كان فى مصر قديما ولم يغن

شيئاً ولم يخرج لها شاعراً كشوقى ، ولكن السر مافى الكتاب من شعر البارودى لأنه معاصر ، والمعاصرة اقتداء ومتابعة على صواب إن كان الصواب ، وعلى خطإٍ إن كان الخطأ ؛ وقد تصرَّمت القرون الكثيرة والشعراء يتناقلون ديوان المتنبي وغيره ، ثم لايجيئون إلا بشعر الصناعة والتكلف ، ولا يُخلِدُ الجيلُ منهم إلا لما رأى فى عصره ، ولا يستفتح غير الباب الذى فُتح له ، إلى أن كان البارودى ، وكان جاهلا بفنون العربية وعلوم البلاغة ، لايحسن منها شيئا ، وجهله هذا هو كلُّ العلم الذى حوّل الشعر من بعد ؛ فيالها عجيبةً من الحكمة ! وهى دليل على أن أعمال الناس ليست إلا خضوعا لقوانين نافذة على الناس . وأكبَّ البارودى على ماأطاقه ، وهو الحفظ من شعر الفحول ؛ إذ لايحتاج الحفظ إلى غير القراءة ، ثم المعاناة والمزاولة ؛ وكانت فيه سليقة ، فخرجت مخرج مثلها فى شعراء الجاهلية والصدر الأول من الحفظ والرواية ، وجاءت بذلك الشعر الجزل الذى نقله المرصفى بإلهام من الله تعالى ليخرج به للعربية حافظ وشوقى وغيرهما ، فكل مافى الكتاب أنه ينقل روح المعاصرة إلى روح الأديب الناشئ ، فتبعثهُ هذه الروح على التمييز وصحة الاقتداء ، فإذا هو على ميزةٍ وبصيرة ، وإذا هو على الطريق التى تنتهى به إلى مافى قوة نفسه مادام فيه ذكاء وطبع ؛ وبهذا ابتدأ شوقى وحافظ من موضع واحد ، وانتهى كلاهما إلى طريقة غير طريقة الآخر ، والطريقتان معاً غير طريقة البارودى

تحول شوقى بهذا الشِّعر لاإلى طريقة البارودى ، فإنه لايطيقها ولا تتهيَّأ فى أسبابه ، وخاصة فى أول عهده ، وكأن لغة البارودى فيها من لقبه ، أى فيها البارود ... ولكنّ تحوُّل نابغتنا كان عن طريقة معاصريه من أمثال الليثى وأبى النصر وغيرهما ، فترك الأحياء وانطلق وراء الموتى فى دواوينهم التى كان

من سعادته أن طبع الكثير منها فى ذلك العهد : كالمتنبي وأبي تمام والبحترى والمعرى ؛ ثم أهل الرقة أصحاب الطريقة الغرامية : كابن الأحنف والبهاء زهير والشاب الظريف والتلَّعْفُرى والحاجرى ، ثم مشاهير المتأخرين : كابن النحاس والأمير منجك والشرقاوى . وقد حاول شوقى فى أول أمره أن يجمع بين هذا كله ، فظهر فى شعره تقليده وعمله فى محاولة الابتكار والإبداع وإحكام التوليد ، مع السهولة والرقة وتكلف الغزل بالطبع المتدفق لا بالحب الصحيح

وأنا حين أكتب عن شاعر لا يكون أكبر همى إلا البحث فى طريقة ابتداعه لمعانيه ، وكيف ألمّ وكيف لَحَظ ، وكيف كان المعنى مَنْبَهَةً له ، وهل أبدع أم قلَّد ، وهل هو شَعر بالمعنى شعورا خالط نفسه وجاء منها ، أم نقله نقلًا فجاء من الكتب ؛ وهل يتسع فى الفكرة الفلسفية لمعانيه ، ويدقق النظرة فى أسرار الأشياء ، ويحسن أن يَسْتَشِفَّ هذه الغيوم التى يسبح فيها المجهول الشعرى ويتصل بها ويستصحب للناس من وحيها ؛ أم فكره استرسالٌ وترجيمٌ فى الخيال وأخذٌ للموجود كما هو موجود فى الواقع ؟ وبالجملة هل هو ذاتية تمرُّ فيها مخلوقاتُ معانيه لتُخلق فتكون لها مع الحياة فى نفسها حياةٌ من نفسه ، أم هو تَبَعيَّةٌ كالسمسار بين طرفين : يكون بينهما وليس منهما ولا من أحدهما ؟ فى هذه الطريقة من البحث تاريخ موهبة الشاعر ، ولا يؤديك إلى هذا التاريخ إلا ذلك المذهب إليه إن أطقته ، أما تاريخ الشاعر نفسه فما أسهله ؛ إذ هو صورة أيامه وصلته بعصره ، وليس فى تأريخ ما كان إلا نقله كما كان

وإذا عرضنا شوقى بتلك الطريقة رأيناه نابغة من أول أمره ، ففيه تلك الموهبة التى أسميها حاسة الجو : إذ يتلمح بها النوابغ معانى ما وراء المنظور ، ويستنزلون بها من كل معنًى معنًى غيره

انظر أبياته التى نظمها فى أول شبابه وسنُّه يومئذٍ ٢٣ سنة على ماأظن ، وهى من شعره السائر :

خَدعوها بقولهم حسناءُ والغوانى يغرُّهنّ الثناءُ
ماتراها تناست اسمىَ لمّا كثرتْ فى غرامها الأسماءُ
إن رأتنى تميلُ عنى كأن لم تكُ بينى وبينها أشياءُ
نظرةٌ فابتسامةٌ فسلامٌ فكلامٌ فموعدٌ فلقاءُ

دع غلطته فى قوله (تميل عنى)[1] ، فإن صوابها : تَمِلْ ؛ إذ هى جواب إن الشرطية ؛ ولكن تأمل كيف استخرج معانيه : وأنا كنت دائماً وما أزال معجباً بالبيتين الثانى والرابع ، لا إكبارا لمعناهما ، فهما لاشىء عندى ، ولكن إعجابا بموهبة شوقى فى التوليد ، فإنه أخذ البيت الثانى من قول أبى تمام :

أتيتُ فؤادها أشكو إليهِ فلم أخلص إليه من الزحام

فمرَّ المعنى فى ذهن شوقى كما يمرّ الهواء فى روضه ، وجاءَ نسيما يترقرق بعد ما كان كالريح السافية بترابها ؛ لأن الزحام فى بيت أبى تمام حقيق بسوق قائمة للبيع والشراء ، لا بقلب امرأة يحبها ، بل هو يجعل قلب المرأة شيئاً غريبا كأنه ليس عضوا فى جسمها ، بل غرفة فى بيتها ··· وقد سبق شاعرنا أبا تمام بمراحل فى إبداعه وذوقه ورقته

والبيت الرابع من قول الشاعر الظريف :

قِفْ واستمع سيرةَ الصبِّ الذى قتلوا فمات فى حبهم لم يبلغ الغرضَا
رأى فحبَّ فسامَ الوصلَ فامتنعوا فرامَ صبرا فأعيا نيله فقضى

وهذه « فاءات » تجرّ إلى القبر ونعوذ بالله منها ... ومما كنت أعيبه على شوقى ضعفهُ فى فنون الأدب ، فإن المويلحى الكاتب الشهير انتقد فى جريدته مصباح الشرق أبيات (خدعوها) عند ظهور الشوقيات فى سنة ١٨٩٩ ،

(١) انظر المساجلات بين الرافعى والعقاد فى هذه القولة بالمقتطف

فارتاع شوقى وتحمّل عليه ليمسك عن النقد ، مع أن كلام المويلحى لايسقط ذبابة من ارتفاع نصف متر ... ومن مصيبة الأدب عندنا ، بل من أكبر أسرار ضعفه ، أن شعراءنا لاطاقة لهم بالنقد ، وأنهم يفرون منه فرارًا ويعملون على تفاديه ، وأنهم لايحسنون غير الشعر ؛ فلا البارودى ولا صبرى ولاحافظ ولا شوقى كان يُحسن واحد منهم أن يدفع عن نفسه أو يكتب فصلا فى النقد الأدبى ، أو يحقق مسئلة فى تاريخ الأدب

ومن معانى شوقى السائرة :

لكَ نصحى وما عليك جدالى　　　آفة النصح أن يكون جدالا

وكرره فى قصيدة أخرى فقال :

آفة النصح أن يكون جدالا　　　وأذى النصح أن يكون جهارا

والبيتان من شعر صباه أيضا ، وهما من قول ابن الرومى :

وفى النصح خيرٌ من نصيح مُوادعٍ　　　ولا خير فيه من نصيح مواثب

فصحح شوقى المعنى وأبدل المواثبة بالجدال ، وذلك هو الذى عجز عنه ابن الرومى ؛ ومن إبداعه فى قصيدته (صدى الحرب) يصف هزيمة اليونان :

يكادون من ذُعرٍ تفرُّ ديارُهم　　　وتنجو الرواسى لو حواهن مَشْعَبُ

يكاد الثرى من تحتهم يلج الثرى　　　ويقضم بعضُ الأرض بعضا ويقضب

وهذا خيال بديع فى الغاية ، جعل هزيمتهم كأنها ليست من هول الترك ، بل من هول القيامة ؛ وهو مع ذلك مولّد من قول أبى تمام فى وصف كرم ممدوحه أبى دلف :

تكاد مَغانيــه تهشّ عِراصُها　　　فتركبُ من شوقٍ إلى كل راكب

فقاس شاعرنا على ذلك ؛ وإذا كادت الدار تركب إلى الراكب إليها من فرحها ، فهى تكاد تفرُّ مع المنهزم من ذعرها ؛ ولكن شوقى بنى فأحكم وسما على

أبى تمام بالزيادة التى جاء بها فى البيت الثانى

ومن أحسن شعره فى الغزل :

حَوَت الجمال فلو ذهبتَ تزيدها   فى الوهم حسناً مااستطعت مزيدا

وهو من قول القائل :

ذاتُ حسن لو استزادت من الحسـن إليها لما أصابت مزيدا

غير أن شوقى قال : لو ذهبت تزيدها فى الوهم ... والشاعر قال : لو استزادت هى ؛ فلو خلا بيت شوقى من كلمة (فى الوهم) لما كان شيئاً ، ولكن هذه الكلمة حققت فيه المعنى الذى تقوم عليه كل فلسفة الجمال ؛ فإن جمال الحبيب ليس شيئاً إلا المعانى التى هى فى وهم محبه ؛ فالزيادة تكون من الوهم ، وهو بطبيعته لاينتهى ؛ فإذا لم تبق فيه زيادة فى الحسن فما بعد ذلك حسن . وقد بسطنا هذا المعنى فى صور كثيرة فى كتبنا : رسائل الأحزان ، والسحاب الأحمر ، وأوراق الورد ؛ فانظره فيها

ومما يتمم ذلك البيتَ قولُ شوقى فى قصيدة النفس :

يادميةً لايستزاد جمالها   زيديه حسن المحسن المتبرع

وهذا المعنى يقع من نفسى موقعاً وله من إعجابى محل ؛ فهذه الزيادة التى فيه كزيادة العمر لو أمكنتْ ، وهى فى موضعها كما ينقطع الحظ ثم يتصل ، وكما يستحيل الأمل ثم يتفق ويسهل ؛ وقد علمت مأخذ الشطر الأول ، أما الثانى فهو من قول ابن الرومى :

ياحسَنَ الوجه لقد شِنتَهُ   فاضمم إلى حسنك إحسانا

وفى القصيدة التى رثى بها ثروت باشا وهى من أحسن شعره تجد من أبياتها هذا البيت النادر :

وقد يموت كثير لاتحسّهمو   كأنهم من هوان الخطب ماوُجدوا

وشوقى يعارض بهذه القصيدة أبا خالد ابن محمد المهلبي فى داليّته التى رثى بها المتوكل ، وكان المهلبي حاضراً قتله هو والبحترى ، فرثاه كل منهما بقصيدة قالوا إنها من أجود ماقيل فى معناها ؛ وبيت شوقى مأخوذ من قول المهلبي :

إنّا فقدناك حتى لااصطبار لنا   ومات قبلك أقوامٌ فما فُقدوا

أى لم يحسّ موتهم أحد ؛ ولكن البيت غير مستقيم ، لأن الذى يموت فلا يفقد هو الخالد الذى كأنه لم يمُتْ ؛ فاستخرج شوقى المعنى الصحيح وجعل العدم الذى هو آخر الوجود فى الناس ، أولَ الوجود ووسطه وآخره فى هؤلاء الذين هانوا على الحياة فوُجدوا وماتوا كأنهم ماتوا وما وُجدوا

✡ ✡ ✡

وإلى ماعلمتَ من قوة هذه الشاعرية ، ودقتها فيما تتأتى له ، ومجيئها بالمعانى النادرة مستخرجةً استخراج الذهب ، مصقولة صقل الجوهر ، معدَّلة بالفكر ، موزونةً بالمنطق — تجد لها تهافتاً كتهافت الضعفاء ، وغرّةً كغرة الأحداث ؛ حتى لتحسب أن طفولة شوقى كثيراً ماتنبعث فى شعره لاعبةً هازلة ، أو كأن للرجل شخصيتين كما يقول الأطباء ، فهما تتعاوران شعره كمالًا ونقصاً ، وعلوّاً ونزولًا ، أو قل هى العربية واليونانية فى ناحية من نفسه ، والتركية والشركسية فى ناحية أخرى : لتلك الابتكارُ والبلاغة والمنطق ، ولهذه التهويلُ والمبالغة والخلط ؛ وشوقى هو هما جميعاً : تفتنُه القوية منهما فيعجب بها إعجاب القوة ، وتخدعه الضعيفة فيعجب بها إعجاب الرقة ؛ كما أعجب ببيته الذى قالهُ فى الحنين إلى الوطن من قصيدتِه الأندلسية الشهيرة :

وطَنى لو شُغلت بالخُلد عنه   نازعَتْنى إليه فى الخلد نفسى

وهذا البيت مما يتمثل به الشبان وكتاب الصحافة ، ولم يفطن أحد إلى فساده وسخافة معناه ؛ فإن الخُلد لا يكون خُلداً إلا بعد فناء الفانى من الإنسان

وطبائعه الأرضية، وبعد أن لا تكون أرض ولا وطن ولا حنين ولا عصبية؛ فكأن شوقي يقول: لو شغلت عن الوطن حين لا أرض ولا وطن ولا دول ولا أمم ولا حنين إلى شيء من ذلك – فإني على ذلك أحنّ إلى الوطن الذي لا وجود له في نفسي ولا في نفسه... وهذا كله لغو... والمعنى بعْدُ من قول ابن الرومي:

وحَبَّب أوطانَ الرجال إليهمو مآربُ قضَّاها الشبابُ هنالكا
إذا ذَكروا أوطانهم ذكَّرتْهمو عهودَ الصِّبى فيها فحنُّوا لذلكا

ومنازعة النفس هي الحنين، ومعنى ابن الرومي وإن كان صحيحاً غير أنه لا يصلح لفلسفة الوطنية في زمننا

وإن في شوقي عيبين يذهبان بكثير من حسناته: أحدهما المبالغات التركية الفارسية مما تنزعه إليه تركيتُه ولا مبالغة في الدنيا تقاربها، كقول بعض شعرائهم أن النملة بزفرتها جففت الأبحر السبعة ... وهو إغراق سخيف لا يأتي بخيال عجيب كما يتوهَّمون، بل يأتي بهذيان عجيب؛ وإذا كان الصدق يأنف من الكذب، فإن الكذب نفسه يأنف من هذا الإغراق؛ ومن هذه التركية في شوقي إضافات وهمية، هي من تلك المبالغات كذيل الحمار من الحمار: قطعة فيه ودليل عليه وآخر لأوله ولا محل لها في ذوق البلاغة العربية، كقوله:

(عيسى الشعورِ) إذا مشى ردّ الشعوبَ إلى الحياة

وقوله في سعد باشا في حادثة الاعتداء عليه:

ولو زُلْتَ غُيِّب (عمرُو الأمورِ) وأخلى المنابرَ سَحبانُها

ويدخل في جنايات هذه التركية على شعره تكرارُه الأسماء المقدَّسة والأعلام التاريخية: كيوشع وعيسى وموسى وخالد وبدر وسيناء وحاتم وكعب وغيرها مما هو شائع في نظمه ولا تجده أكثر ما تجده إلا ثقيلا

مملولًا: ولهذه الألفاظ عندنا فاسفة لامحل لها الآن، فهى أحياناً تكون السحر كله والبلاغةَ كلها، على شرط أن يكون القلب هو الذى وضعها فى موضعها، وأن لا يضعها إلا على هيئة قلبية، فيكون كأنه وضع نفسه فى الشعر ليخفق خفقانه الحىّ فى بضعة ألفاظ، وهذا مالم يحسنه شوقى ـ والعيب الثانى أن ألفاظ شاعرنا لا يثبت أكثرها على النقد؛ لضعفه فى الصناعة البيانية، ثم لضعف الموهبة الفلسفية فيه واعتباره التهويل شعراً والمبالغة بلاغة وإن فسدت بهما البلاغة والشعر؛ انظر إلى قوله من قصيدته الشهيرة ٢٨ فبراير:

قالوا الحمايةُ زالت قلتُ لا عجبٌ ... قد كان باطلها فيكم هو العجبا

رأس الحماية مقطوع فلا عدمت ... كنانةُ الله حزماً يقطع الذنَبا

قلنا: فإذا قطع (رأس الحماية) وبقيت منها بقيّةٌ ما ذنب أو يد أو رِجل؛ فإن هذه البقية فى لغة السياسة التى تنقد الألفاظ وحروفها ونقط حروفها ... لن تكون ذنباً ولا يدا ولا رِجلا، بل هى (رأس الحماية) بعينه ... على أن شوقى إنما عكس قول الشاعر:

لا تقطعنْ ذنب الأفعى وتُرسلها ... إن كنت شهماً فأتبِعْ رأسَها الذنَبا

وهذا كلام على سياقه من العقل، فما غناء قطع ذنب الأفعى إذا بقى رأسها، وإنما الأفعى كلها هى هذا الرأس

ولقد ظهر لى من درس شوقى فى ديوانه أمر عجبت له؛ فإنى رأيتُه يأخذ من أبى تمام والبحترى والمعرى وابن الرومى وغيرهم؛ فربما ساواهم وربما زاد عليهم، حتى إذا جاء إلى المتنبى وقع فى البحر وأدركه الغرق. لأنه نشأ على رهبةٍ منه كما تشير إليه عبارته فى مقدمة ديوانه الأول؛ وقد وصف خيل الترك فى قصيدة أنقره بقوله:

والصبر فيها وفى فرسانها خُلقٌ ... توارثوهُ أباً فى الروع بعد أب

كما وُلدتم على أعرافها وُلدت · في ساحة الحرب لا في باحة الرحَبِ

وشعره هذا كأنه يرتعد أمام قول المتنبي :

أَقْبلتَها غُررَ الجياد كأنما · أيدى بنى عمرانَ فى جبهاتها

الثابتين فروسةً كجلودها · فى ظهرها ، والطعنُ فى لبَّاتها

فكأنها نُتجتْ قياماً تحتهم · وكأنهم وُلدوا على صَهواتها

فانظر أين صناعة من صناعة وأين شعرٌ من شعر ؟ وقال فى (صدى الحرب) يصف مدافع الدردنيل :

قذائفُ تخشى مهجةُ الشمس كلما · علَتْ مصعِدات أنها لا تصوَّبُ

إذا هبَّ حاميها على السفُن انثنتْ · وغانِمُها الناجى فكيف المخيَّبُ

وهذا الاستفهام (فكيف المخيب) استفهام مضحك ؛ لأنه إذا كان الناجى غانماً فالمخيب خاسر بلا سؤال ولا فلسفة ؛ والكلمة الشعرية فى هذا كله هى قوله (وغانمها الناجى) ، وهى كالهاربة تتوارى خوفاً من بيت أبى الطيب :

أغــرُّ أعداؤه إذا سلموا · بالهرب استكبروا الذى فعلوا

فهذا هو الشعر لا ذاك ؛ على أنى أشهد أن فى قصيدة (صدى الحرب) أبياتاً هى من أسمى الشعر ، وكأن شوقى رحمهُ الله كان ينظم هذه القصيدة من إيمانِه ومن دمِه ومن كل مطامع دنياه وآخرته ، يبتغى بها الشهرة الخالدة فى الناس ، والمنزلة السامية عند الخديو ، ونباهة الشأن عند الخليفة ، والثواب عند الله تعالى ؛ ولو هو فى أثناء عملها أسقط نصفها أو أكثر لجاءت فريدة فى الشعر العربى ، غير أن الحرص كان يغترُّه ، وكان طول عمره مفتوناً بشعرِه ؛ فجاء فى هــذا الشعر بالطم والرّم كما يقولون ؛ وله كثير من الكلام الرذل الساقط بضعفه وتهافته ؛ ولولا تلك التركية الفارسية وضعفه البيانىّ ، لما رضى أن يكون ذلك فى شعره ؛ وليت شِعرى كيف غاب عن مثله أن التهويل

والإغراق والإحالة مما يهجن الشعر ويذهب بأثره فى النفس ويحيله إلى صناعة هى شرٌّ من الصناعة البديعية؛ لأن هذه تكون فى الألفاظ. والألفاظ تحتمل العبث البديعى ويخرج بها الأمر إلى أن تكون ضربا من الرياضة كمعاناة بعض المسائل فى الجبر والهندسة تركيباً وحلا؛ ولكن المعانى لاتحتمل ذلك؛ إذ هى تفكير لايلتوى إلا فسد، والمعانى التى يأتى بها الشاعر يجب أن تكون فيها مزية بخاصَّتها من الجمال والبيان، وأن تكون أخيلتها هى الحقائق التى أول مواضعها فوق حقائق البشر

وهناك ضربٌ آخر من المبالغة يجىء من سقوط الخيال؛ لأن فى الأسفل مبالغة كما فى الأعلى، وإن كانت مبالغة الأسفل زيادة فى السخرية منه والهزء به؛ وهذه المبالغة تأتى من جمع أشتات مختلفة وإدماجها كلها فى معنى واحد، كهذا الذى حاول أن يدمج الطبيعة كلها فى حبيبته فزعم أن فيها من كل شىء، ونسى أن كل قبيح وكل بغيض هو من كل شىء...[1]

إن الخيال الشعرى يزيغ بالحقيقة فى منطق الشاعر لاليقلبها عن وضعها ويجىء بها ممسوخة مشوهة ولكن ليعتدل بها فى أفهام الناس ويجعلها تامةً فى تأثيرها؛ وتلك من معجزاته؛ إذ كانت فيه قوة فوق القوة عملُها أن تزيد الموجود وجوداً بوضوحه مرة وبغموضه أخرى

ولعلماء الأدب العربى كلمة ماأراهم فهموها على حقها ولا نفذوا إلى سرها؛ قالوا: أعذب الشعر أكذبُه! يعنون أن قوام الشعر المبالغة والخيال؛ ولاينفذون إلى ماوراء ذلك، وما وراءهُ إلا الحقيقة رائعة بصدقها وجلالها: وفلسفة ذلك أن الطبيعة كلها كذبٌ على الحواس الإنسانية، وأن أبصارنا وأسماعنا وحواسنا هى عمل شعرىٌّ فى الحقيقة؛ إذ تنقل الشىء على غير ماهو فى نفسه

---

(١) يعنى قول العقاد فى وحى الأربعين:

فبك منى ومن الناس ومن ... كل موجود وموعود تؤام

ليكون شيئاً فى نفوسنا، فيؤثر فيها أثرة جمالا وقبحاً وما بينهما؛ وما هى خمرة الشعر مثلا؟ هى رضاب الحبيبة؛ ولكن العاشق لو رأى هذا الرضاب تحت المجهر لرأى ... لرأى مستنقعاً صغيراً ... ولو كان هذا المجهر أضعاف الأضعاف مما يجهر به لرأيت ذلك الرضاب يعجّ عجيجاً بالهوام والحشرات التى لا تخفى بنفسها ولكن أخفاها التدبير الإلٰهى بأن جعل رتبتها فى الوجود وراء النظر الإنسانى، رحمةً من الله بالناس؛ فأعذب الشعر ما عمل فى تجميل الطبيعة كما تعمل الحواس الحية بسرّ الحياة؛ ولهذا المعنى كان الشعراء النوابغ فى كل مجتمع هم كالحواس لهذا المجتمع

ومن سخيف الإغراق فى شعر شوقى قوله فى رثاء مصطفى باشا كامل، وهى أبيات يظن هو أنه أوقع كلامه فيها موقعاً بديعا من الإغراب:

فلو أنّ أوطانا تُصوَّر هيكلا دفنوك بين جوانح الأوطان
أو كان يُحمل فى الجوارح ميت حملوك فى الأسماع والأجفان
أو كان للذكر الحكيم بقيّةٌ لم تأت بعدُ رُثيتَ فى القرآن

فهذه فروض فوق المستحيل بأربع درجات ... وتصور أنت ميتا يحمل فى الجوارح فيترمم فيها ويبلى ... وما زال الشاعر فى أبياته يخرج من طامّة إلى طامة، حتى قال: رثيت فى القرآن، ولو سئلتُ أنا إعراب (لو) فى هذه الأبيات لقلت إنها حرف نقص وتلفيق وعجز ... وكيف يسوغ فى الفرض أن تكون للقرآن بقية لم تنزل، والله تعالى يقول فيه: «اليوم أكملت لكم دينكم»؛ والأمر أمر دين قد تمّ، وكتاب مقدّس ختم، ونبوّة انقضت؛ والشاعر ماض فى غفلته لم يتنبه لشيء ولم يدر أنه يفرض فرضاً يهدم الإسلام كله، بل حسب أنه جاء بخيال وبلاغة فارسية؛ وشوقى فى الحقيقة كامل كناقص، وإن من معجزات هذا الشاعر أن يكون ناقصا هذا النقص كله ويكمل

وفى الشوقيات صفحات تكاد تغرّد تغريداً، وفيها صفحات أخرى تنقّ نقيق الضفادع؛ وفى هذا الديوان عيوب لانريد أن نقتصها؛ فإن ذلك يحتاج إلى كتاب برأسه إذا ذهبنا نأتى بها ونشرح العلة فيها ونخرج الشواهد عليها، ولكن من عيوبه فى التكرار أن له بيتاً يدور فى قصائده دوران الحمار فى الساقية، وهو هذا البيت :

وإنما الأمم الأخلاق مابقيت — فإن هُمُو ذهبَت أخلاقُهم ذهبوا

بل هذا البيت :

وإنما الأمم الأخلاق مابقيت — فإن تولّت مضوا على آثارها قُدُما

بل هو هذا :

كذا الناس بالأخلاق يبقى صلاحهم — ويذهب عنهم أمرهم حين تذهب

بل هو هذا البيت :

ولا المصائب إذ يرمى الرجال بها — بقاتلات إذا الأخلاق لم تصب

وقد تكرر (فيما قرأتُه من ديوانه) ثلاث عشرة مرة، فعاد المعنى كطيلسان ابن حرب الذى جعل الشاعرُ يرقّعهُ ثم يرقّعه حتى ذهب الطيلسان وبقيت الرُّقع... والبيت الأول من العَيْن النادر، ولكن أفسده فى الباقى سوء ملكة الحرص فى شوقى، أو ضعف الحس البيانى، أو ابتذاله الشعرَ فى غير موضعه، أو وهن فكرتِهِ الفلسفية من جوانب كثيرة؛ وهذه الأربعة هى الأبواب التى يقتحم منها النقد على شعر صاحبنا، ولو هو كان قد حصَّنها بأضدادها لكان شاعر العربية من الجاهلية إلى اليوم، ولكان عسى أن ينقل الشعر إلى طور جديد فى التاريخ؛ ولكن الفوضى وقعت فى شوقى من أول أمره؛ فأرسل إلى أوربا لدرس الحقوق وكان الوجه أن يرسل لدرس الآداب والفلسفة، وغامر فى سياسة الأرض وكان الحق أن يشتغل بسياسة السماء، وتهالك فى مادة

الدنيا وكان الصواب أن يتهالك فى معانيها

إن الفوضى ذاهبة بنـا مذاهبها فى الأدب والشعر ، فكل شاعر عندنا كمؤلف يضع رواية ثم يمثلها وحده وعليـه أن يمثلها وحده، فهو يخرج على النظارة فى ثياب الملك فيلاق كلاماً ملكيًّا، ثم ينفتل فيجىءُ فى ثوب القائد فيلاق كلاماً حربيًّا، ثم ينقلب فيعود فى هيئة التاجر فيلاق كلاماً سوقيا ثم يروغ فيرجع فى مباذل الخادم ثم ... ثم ... ثم يتوارى فيظهر فى جلدة بربرى ... وهذه الفوضى التى أهملتها الحكومة وأهملها الأمراء والكبراء هى حقيقة مؤلمة ، ولكن هى الحقيقة !

٭ ٭ ٭

وشوقى على كل هذا هو شوقى : أول من احتفى بتاريخ مصر من الشعراءِ، وأول من توسع فى نظم الرواية الشعرية فوضع منها ست روايات، وهو صاحب الآيات البديعة فى الوصف، وهذه الناحية هى أقوى نواحيه ، ولقد ألهمتنى قراءة البارع من شعره فى أغراضه وفنونِه المختلفة أن الله تعالى ينعم على الآداب الجميلة بأفراد ممتازين فى جمال أرواحهم وقوتها، تجد الآدابُ لذَّتها فيهم وسموَّها بهم ، كأن الأمر قياسٌ على ما يقع من عشق الناس لبعض المعانى، فيكون فى المعانى ما يعشقُ بعض الناس ، ومتى بلغ عشق المعنى لإنسان مبلغَ الاختصاص والوجد ظهر الفن أبدعَ ما يُرى ، كأن المعنى الأدبىّ يتجمل ويتحبَّب ليستميل هذا الإنسان الحاكم عليه حكمَ الحب

فيامصر ، لقد مات شاعِرُكِ الذى كان يحاول أن يخرج بالجيل الحاضر إلى الزمن الذى لم يأت بعد ، فإذا جاء هـذا الزمن الزاخر بفنونه وآدابهِ العالية ، وذكرتِ بجدَ شِعرِك الماضى ، فليقُل أساتذتك يومئذ : كان هذا الماضى شاعراً اسمهُ شوقى !

بعد شوقي (*)

كان يتوجَّه الظن على شوقي رحمه الله، فيزعمُ الزاعمُ أن شوقي هو يُحيي شعرَه، وهو يرفع منه، وهو يُشيعُ حوله قوةَ الجذب من مغناطيس الثروة والمكانة، وأن الرجل ماأوفى على الشعراء جميعاً لأنه أفضلهم، بل لأنه أغناهم؛ ولا من أنه أقواهم قوةً، بل لأنه أقواهم حيلة؛ وأن الشاعر لو جاء يومه لبطل السحرُ والساحر، فترجع العصا وهي عصاً بعد أن انقلبت حية، ويئول هذا الشعرُ إلى حقيقته، وتقسم الحقيقة بِسِمتها؛ كأن شوقي كان يعملُ لشعره بقوة السموات والأرض لا بقوة رجل من الناس

فقد ذهب الرجلُ إلى ربه، وخلا مكانُه، وبطلت كلُّ وسائله، ونام عن شعره نومةَ الأبدية، وتركه لما فيه يحفظه أو يضيعه إن كان فيه حق من الشعر أو باطل، وأصبح الشاعرُ هو وماله وجاهُه وشعرُه في حكم الكلمة التي يقولها الزمن، ولم تعد هذه الكلمةُ في حكمه؛ فهل أثبتَه الزمن أو نفاه، وهل سلّم له أو كابره، وهل ردَّه في أغمار الشعراء أو جعل الشعراء بعده أدلة من أدلتــه ؟

* * *

أول ما ظهر لي أن الزمن بعد شوقي أصبح أقوى في الدلالة عليه وأصدقَ في الشهادة له، كما تكون الظلمة بعد غياب القمر شرحا طويلا لمعنى ذلك الضياء، وإن سطعت فيها الكواكبُ وتوقّد منها شيء وتلألأ

(*) لما توفي شوقي كتبنا لشيخ مجلاتنا (المقتطف) فصلا طويلا عنه وعن شعره ومنزلة شعره؛ فلم نعرض لشيء من ذلك هنا

[قلت: وقد نشرناه قبل هذا الفصل]

شيء ؛ فقد دلَّ الزمنُ على أن ذلك الشأن لم يكن لشاعرٍ كالشعراء يقال في وصفه إنه مفتنٌّ مجيدٌ مبدع ؛ ولكنه للذي يقال فيه إنه صوتُ بلاده وصيحةُ قومه .

كانت تحدُثُ الحادثةُ ، أو يتخالجُ الناسَ معنًى من الهمّ الذى يعمُّهم ، أو يستطيرهم فرحٌ من أفراح الوطن ، أو يزولُ عظيمٌ من العظماء فيزيد صفحةً في التاريخ ، أو ينشأ كونٌ صغير من أكوان الحضارة في الشرق كبنك مصر ، أو ترتجُّ زلزلة في الحياة العربية أينما ارتجَّت ، فإذا كلُّ ذلك قد وقع في الدنيا بهيئتين إحداهما في ذهن شوقي ، فيرسلُ قصيدتَه الشرودَ السائرَةَ داويةً مجلجلة ، فلا تكاد تظهر في مصر حتى تلتقي حولها الأفكارُ في العالم العربي كله ، فتكون شعراً من أسرى الشعر وأحسنِه ، ثم تجاوزُه فإذا هي صلةٌ من أقوى الصّلات الذهنية بين أدباء العربية وأوثقها ، ثم تجاوزها فإذا هي عاطفةٌ تجمع القلوبَ على معناها ، ثم تسمو فوق هذا كله فإذا هي ... هذا كله زعامةُ مصر على الشعر العربي

واليوم يقع مثلُ ذلك فتتطاير بعض الفقاقيع الشعرية من هنا وثمَّ ملونة منتفخةً ماضية على قانون الفقاقيع في الطبيعة : من أن لحظةَ وجودها هي لحظةُ فنائها ، وأن ظهورها يكون لتظهر فقط لا لتنفع

ولست أمارى في أن بيننا شعراءَ قليلين يجيدون الشعر ، ولهم فكرٌ وبيان ومذهبٌ وطريقة ؛ ولكن ما منهم أحد إلا وهو يشعر من ذات نفسه أن الحوادث لم تختره كما اختارت شوقي ، وأنه في الحياة كالواقف على باب ديوان ينتظر أن يُعهد إليه ، وأن يخرج له التقليد ؛ فهو ينتظر وسينتظر ...

وهذا عجيبٌ حتى كأنه سِحرٌ من سحر الزمن حين تفصل الدنيا بين العبقريّ الفذّ وبين من يشبهونه أو ينافسونه — بضروب خفيةٍ من الصَّرْفة

والعوائق، لا هي كلّها من قوة العبقريّ، ولا هي كلها من عجز الآخرين

وأعجبُ من ذا أن (شوقى) كان فى العالم العربى كأنه عملٌ تاريخيٌّ متميزٌ من أعمال مصر، غير أنه مسمًّى باسم رجل؛ وكان على الحقيقة لا على المجاز — كأن فيه شيئاً من هذه الروح التاريخية المتغلّبة التى تَخْلدُ بأسماء الآثار الفنية وتكسِبُها العظَمةَ فى الوجودَين: من محالها ومن نفس الإنسان

وأعجبُ من هذا وذلك أنى لم أر شعراً عربيا يحسُنُ فى وصف الآثار المصرية ما يَحْسُن فى وصفها شعرُ شوقى، حتى لأسأل نفسى: هل تختار بعضُ الأشياء العظيمة وصفَها ومفسّر عظمتها، كما تختار المرأةُ الجميلةُ عاشقها ومُسْتَجلى حسنها؟

✡ ✡ ✡

وما بانَ شوقى على غيره إلا بأنه رجل أفرغَ فى رأسه الذهنُ الشعريُّ الكبير، فكان فى رأسه مَصْنعٌ عمّاله الأعصاب، ومادته المعانى، ومهندسُه الإلهام؛ والدنيا تُرسل إليه وتأخذ منه؛ وعلامةُ ذلك من كل شاعر عظيم أن تَضَعَ دنياه على اسمه شهادتها له؛ ولهذا ما يكون بعضُ الشعراء كأن اسمه فى وزن اسم مملكة، فإذا قلتَ شكسبير وانجلترا، فهما فى العظمة النفسية من وزن واحد، وكذلك المتنبي والعالم العربى، وكذلك شوقى ومصر

قالوا: كان الفرزدق ينقح الشعر، وكان جرير يَخْشُب (أى يُرسل شعره كما يجىء فلا يتنوَّق فيه ولا ينقحه)؛ وكان خَشْبُ جرير خيراً من تنقيح الفرزدق؛ ولم يتنبه أحد إلى السر فى ذلك؛ وما هو إلا السر الذى كان فى شوقى بعينه، سرُّ الامتلاء الروحىّ قد أُمدَّ بالطبع، وأُعين بالذوق، وأوتى القوةَ أن يتحول بآثاره فى الكلام؛ فكل ما كان منه فهو منه: يجىء دائماً قريبا بعضُه من بعضه، ولا يكاد ينفذ إلى شعور إلا اتحد به

وقد كان عمرُ بن ذَرّ الواعظ البليغ (٥) إذا تكلم فى مجلسه نشر حوله جوا من روحه، فيجعل كلَّ ما حوله يتموّج بأمواج نفسية ؛ فكان كلامه يعصف بالناس عصفَ الهواء بالبحر يقومُ به ويقعد، وكان من الوعاظ من يقلده ويحكيه ولا يدرى أنه بذلك يعرض الغلطةَ على ردّها وصوابها، فقال بعضُ من جالسه وجالسهم : ما سمعتُ عمر بن ذرّ يتكلم إلا ذكرتُ النفخَ فى الصُّور، وما سمعت أحداً يحكيه إلا تمنيتُ أن يجلد ثمانين ...

فالفرق روحانى طبيعىّ كما ترى، لا عمل فيه لأحد ولا لصاحبه. وهو يشبه الفرق بين عاصفة من الهواء وبين نسيم من الريح يرسَلان على جهتين فى البحر ؛ ففى ناحية يلتجّ الماء ويثب ويتضرّب ويقصف قصف الرعد، وفى الأخرى يترجرج ويتزحف ويقشعرّ ويهمس كوسواس الحلى

والشأن كل الشأن للكمّيّة الوجدانية فى النفس الشاعرة أو الممتازة : فهى التى تعيّن لهذه النفس عملَها على وجهٍ ما، وتهيّئها لما يراد منها بقدرٍ ما، وتقيمها على دأبها إلى زمن ما، وتخصّها بخصائصها لغرضٍ ما ؛ وإذا أنت حققتَ لم تجد الفروقَ بين النوابغ بعضهم من بعض إلا فروقاً فى هذه الكمية ذاتها مقداراً من مقدار ؛ ولولا ذلك لكان أصغر العلماء أعظمَ من أكبر الشعراء ؛ فقد يكون الشاعر العظيم كأنه تلميذ فى العلم، ثم يكون العلمُ كأنه تلميذ لقلب هذا الشاعر وعواطفه ؛ ولئن عجز النقدُ العلمىُّ أن ينال من الشاعر العبقرىّ، لقديماً عجز فى كل أمة

وقد كان فيمن حاولوا إسقاط شوقى مَن هو أوسع منه اطلاعاً على آداب الأمم، وأبصرُ بأغراض الشعر وحقيقته، وكان مع ذلك حاسدا شانئاً قد نَقَبَ فى قلبه الحِقد ؛ والحاسدُ المبغضُ هو فى اتساع الكلام وطُغيان

(٥) هو عمر بن ذرّ الهمذانى الكوفى المتوفى سنة ١٥٦ للهجرة وكان من أبلغ المتكلمين

العبارة أخو المحب العاشق ؛ فكلاهما يدور الدمُ فى كبده معانىَ ووساوس ، وكلاهما يجرى كلامه على أصلٍ مما فى سريرته ، فلا تجد أحدهما إلا عالياً عالياً بمن يحب ، ولا تجد الآخر إلا نازلا نازلا بمن يبغض : وكان هـذا الناقد شاعرا ، فانضاف شعره إلى حسده ، إلى بغضه ، إلى ذكائه ، إلى اطلاعه ، إلى جهده ، إلى طول الوقت وتراخى الزمن ؛ وهذه كلها مفَرقعات نفسية . . . . بعضها أشدُّ من بعض كالبارود ، إلى الديناميت ، إلى الميلينيت ؛ ولكن شوقى كان فى مرتقىً لم يبلغه الناقد ، فانقلب جهدُ هذا عجزاً ، وأصبح البارود والتراب فى يده بمعنى واحد ...[1]

✲ ✲ ✲

ومن أعجب ماعجبت له من أمر هذا الناقد ، أنى رأيته يقرر للناس صوابَ الحقيقة بزعمه ، فإذا هو يقرر غلطه وجهله وتعسفه ؛ وهو فى كل ما يكتب عن شوقى يكون كالذى يرى الماءَ العذبَ وعملَه فى إنبات الروض وتَوْشِيَتِه وتلوينه ، فيذهب يَعيبُه للناس بأنه ليس هو البنزين ... الذى يحرك السيارات والطيارات !

تناول شوقى بعد موته تجرده من الشخصية ، أى من حاسة الشعر ، ومن إدراك السر الذى لا يُخلَقُ الشاعرُ الحقُّ إلا لإدراكه والكشف عن حقائقه ؛ وكان فيما استدل به على ذلك أن شوقى لايحسن وصف الربيع بمثل ماوصفه ابن الرومى فى قوله :

تجدُ الوحوشُ به كفايتَها والطيرُ فيه عتيدةُ الطُّعْمِ
فظباؤه تُضحى بمُنْتَطَحٍ وحمامه يضحى بمختصَمِ

وزعم أن ابن الرومى قد وُلد بحاسة لم يولد بها شوقى ، ولهذه الحاسة

---

(١) أحسبه يعنى العقاد

اندمج فى الطبيعة فأدرك سر الربيع ، وأنه غلَيانُ الحياة فى الأحياء ، فالظباءُ تنتطح من الأَشَر الخ الخ وبنى على ذلك ناطحة سحاب ...... لا ناطحة ظباء (*)

أما شوقى الشاعر الضعيف العاجز الذى لم يولد بمثل تلك الحاسة ، فلو أنه شهد ألفَ ربيع لما أحسَّ هذا الإحساس ، ولا استطاع أن يجيء بمثل هذا القول المعجز ؛ وكل ذلك من هذا الناقد جهلٌ فى جهل فى جهل ، وأعاليل بأضاليل بأباطيل ؛ فابنُ الرومى فى هـذا المعنى لصٌّ لا أكثر ولا أقل ، فلم يحسَّ شيئاً ولا ابتدع ولا اخترع

قال الجاحظ : يقال فى الخصب (أى الربيع) : نفَشَتْ العـنز لأختها ؛ وخلَّفتُ أرضاً تَظَالَمُ مِعْزاها (أى تتظالم) ؛ قال : لأنها تنفش شعرها وتَنْصِبُ رُوقَيْها فى أحد شِقَّيها فتنتطح أختها ، وإنما ذاك من الأشر ، (أى حين سمنت وأخصبت وأعجبتها نفسُها)

فأنت ترى أن ابن الرومى لم يصنع شيئاً إلا أنه سرق المعنى واللفظ جميعاً ، ثم جاء للقافية بهذه الزيادة السخيفة التى قاس فيها الحمام على الظباء والمعزى ... فاستكرَه الحمام على أن يختصم فى زمن بعينه وهو يختصم فى كل يوم ؛ وإنمـا شرط الزيادة فى السرقة الشعرية أن تضاف إلى المعنى فتجعله كالمنفرد بنفسه أو كالمخترَع

ولعمرى لو كان للطبيعة مائة صورة فى الخيال الشعرى ، ثم قدّم شوقى للناس تسعاً وتسعين منها ، لقال ذلك الناقد المتعنت : لا ، إلا الصورة التى لم يقدّمها ...

* * *

(*) لا يحضرنى كلام الكاتب بنصه ، ولكن هذا بعض معناه ، وكله تهويل

وكان شعر شوقى فى جزالته وسلاسته كأنما يحمل العصا لبعض الشعراء يردّهم بها عن السفسفة والتخليط والاضطراب فى اللفظ والتركيب ؛ فكثر الاختلالُ فى الناشئين من بعده ، وجاءوا بالكلام المخلَّط الذى تبعث عليه رخاوة الطبع وضعف السليقة ، فتراه مكشوفاً سهلا ولكن سهولته أقبحُ فى الذوق من جَفْوة الأعراب على كلامهم الوحشىّ المتروك

والآفة أن أصحاب هذا المذهب يفرضون مذهبَهم فرضاً على الشعر العربى ، كأنهم يقولون للناس : دعوا اللغة وخذونا نحن ! وليس فى أذهانهم إلا ما اختلط عليهم من تقليد الأدب الأوربى ، فكل منهم عابد الحياة ، مندمج فى وحدة الكون ، يأخذ الطبيعة من يد الله ، ويجارى اللانهاية ، وَيَفْنَى فى اللذة ، ويعانق الفضاء ، ويغنِّى على قيثارته للنجوم ؛ وبالاختصار : فكل منهم مجنون لُغَوى ...

وأنا فلست أرى أكثر هذا الشعر إلا كالجِيَف ، غير أنهم يقولون إن الجيفة لا تعدُّ كذلك فى الوجود الأعظم ، بل هى فيه عمل تحليلى علمىّ دقيق ؛ لقد صدقوا ؛ ولكن هل يكذب من يقول : إن الجيفة هى فسادٌ ونتن وقَذَر فى اعتبار وجودنا الشخصى ، وجود النظر والشم ، والانقباض والانبساط ، وسلامة الذوق وفساد الذوق !

❊ ❊ ❊

وكان حاسدو شوقى يحسبون أنه إذا أزيح من طريقهم ظهر تقدمُهم ؛ فلما أزيح من الطريق ظهر تأخرهم ...... وهذه وحدها من عجائبه رحمه الله !

وقد كان هذا الشاعر العظيم هبةَ ثلاثة ملوك للشعب ، فهيهات ينبغ مثله إلا إذا عمل الشعب فى خدمة الشعر والأدب عمل ثلاثة ملوك ......

وهيهات !

الشعر العربي

في خمسين سنة (١)

إذا اعتبرتَ الشعر العربي قبل خمسين سنة خَلَتْ (أي قبل إنشاء المقتطف) وتأملتَ حليته ومعرضه ، ونظرت في منهاجهِ وطريقتهِ ، وتصفحتَ معانيه وأغراضه — لم تر منه إلا شبيها بما تراه من بقايا الورق الأخضر في شجرة ثقل عليها الظل فهو جامد مُسْتَوْخَم ، وحُجب ظلها شعاع الشمس فهو بارد يرتعد ، فالحياة فيها ضعيفة متهالكة ، لاهي تموت كالموت ولا هي تحيا كالحياة ، وما ثمَّ إلاَّ ماءٌ ناشف ورونق عليل ومنظر من الشجرة الواهنة كأنه جسم الربيع المعتل بدت عروقه وعظامه .

كان ذلك الشعر فاسد السبك ، متخلف المنزلة ، قليل الطلاوة ، بين مديح قد أعيد كل معنى من معانيه في تاريخ هذه اللغة بما لا يحصيه إلا الملائكة الموكلون بإحصاء الكذب ، وبين هجاء ساقط هو بعض المواد التي تشتعل بها نار الله يوم تطّلع على الأفئدة ، وبين غزل مسروق من القلوب التي كانت تحب وتعشق ، وبين وصف لا عيب لموصوفه سواهُ ، وشكوى من الدهر يشكو الدهرُ منها ، وتحزُّن ويأس وندب تجعل ديوان الشاعر كما سمَّى أحد ظرفاءِ القرن الثاني عشر للهجرة ديوان أحد أصحابه « بالملْطمة ... » ، ورثاء كقراءة القراء في جنازات الموتى ، لا فيها عظة السكوت ولا فائدة النطق ، وتغمر كلَّ ذلك أنواع من الصناعة بيّنة التعسف ، ضعيفة التقليد ، لاترى المتأخرَ فيها مع المتقدم إلا قريبا مما يكون عملُ اللص في أخذ المال ، من عمل صاحب المال في جمعهِ ؛ والعجيب أنك إذا اعترضت الشعر من القرن العاشر للهجرة

---

(١) المقتطف : يناير سنة ١٩٢٦

إلى القرن الثالث عشر (السادس عشر الميلاد إلى التاسع عشر) رأيته نازلا من عصر إلى عصر بتدريج من الضعيف إلى الأضعف، حتى كأنما ينحط بقوة طبيعية كقوة الجذب، كلما هبطت شيئاً أسرعت شيئاً إلى أن تلصق بالأرض؛ وبعضهم يسمى هذه العصور بالعصور المظلمة، ولم يتنبه أحد إلى أن فى الأدب ناموساً كناموس رد الفعل، يُخرج أضعف الضعف من أقوى القوة، وأن انحطاط الشعر فى تلك العصور — على أنه لم يكن إلا صناعة بديعية — إنما سببه القوة الصناعية العجيبة التى كانت للشعر منذ القرن السادس إلى العاشر، بعد أن نشأ القاضى الفاضل المتوفى سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م)؛ وكان رجلا من الرجال الذين يخلقون حدوداً للحوادث تبدأ منها أزمنة وتنتهى عندها أزمنة؛ ففتن الناس بأدبه وصناعته، وصرف الشعر والكتابة إلى أساليب النكتة البديعية: وظهرت من بعده عصابته التى يسمونها العصابة الفاضلية، وما منهم إلا إمام فى الأدب وعلومه، فكان فى مصر القاضى ابن سناء الملك، وسراج الدين الوراق، وأبو الحسين الجزار، وأضرابهم؛ وكان فى الشام عبد العزيز الأنصارى، والأمير مجير الدين بن تميم، وبدر الدين يوسف ابن لؤلؤ الذهبى، وأمثالهم: فهذه العصابة هى التى تقابل فى تاريخ الأدب العربى عصابة البديع الأولى: كمسلم، وأبى تمام، وابن المعتز، وغيرهم؛ وكلتا الفئتين استبدت بالشعر وصرّفته زمناً، وأحدثت فيه انقلاباً تاريخيًّا متميزاً؛ بيد أن العصابة الفاضلية بلغت من الصنعة مبلغاً لامطمع فى مثله لأحد من بعدها، حتى كأنهم لم يدعوا كلمة فى اللغة يجرى فيها نوع من أنواع البديع إلا جاءوا بها وصنعوا فيها صنعة؛ وكان بعضهم يأخذ من بعض ويزيد عليه، إلى آخر المائة الثامنة، فلم يتركوا بابا لمن يأتى بعدهم إلا باب السرقة بأساليبها المعروفة عند علماء الأدب.

ولهذا لا نكاد تجد شعراً عربياً بعد القرن التاسع إلا أول النهضة الحديثة، إلا رأيته صورا ممسوخة مما قبله؛ وكل شعراء هذه القرون ليسوا من ورائهم إلا كالظل من الإنسان: لا وجود له من نفسه، وهو ممسوخ أبدا إلا فى الندرة حين يسطع فى مرآة صافية؛ ومتى كان الشعراء لا ينشئون إلا على فنون البلاغة وصناعاتها، وكانت هذه كلها قد فرغ منها المتقدمون: فما ثَمَّ جديد فى الأدب والفن إلا ولادة الشعراءِ وموتهم، وإلا تغير تواريخ السنين... وهذا إذا لم نعدّ من الأدب تلك الصناعات المستحدثة التى ابتدعها المتأخرون مما سنشير إلى بعضه: كالتاريخ الشعرى وغيرهِ

✡ ✡ ✡

إن الفكر الإنسانى لا يسيِّر التاريخ، ولا يقدِّر قَدَرًا فيه، ولا ينقله من رسم إلى رسم: لأنه هو نفسه كما خلق مصلحاً خُلق مفسدا وكما يستطيع أن يوجد يستطيع أن يفنى، وكما تطَّرد به سبيل تلتوى به سبيل أخرى؛ وما أشبه هذا الفكر فى روعته بقطار الحديد: يطير كالعاصفة ويحمل كالجبل ويُدهش كالمعجزة، وهو مع كل ذلك لاشىء لولا القضيبان الممتدان فى سبيله، يحرفانه كيف انحرفا، ويسيران به أين ارتميا، ويقفان به حيث انتهيا؛ ثم هو بجملته ينقلب لأوهى اختلال يقع فيهما.

لاجرم كانت العصور مرسومة معينة النمط ذاهبة إلى الكمال أو منحدرة إلى النقص، حسب الغايات المحتومة التى يسير بها الفكر فى طريق القدر الذى يقوده

فهذه علوم البلاغة التى أحدثت فناً طريفاً فى الأدب العربى، وأنشأت الذوق الأدبى نشأته الرابعة فى تاريخ هذه اللغة، بعد الذوق الجاهلى، والمحدث، والمولَّد ـ هى بعينها التى أضعفت الأدب وأفسدت الذوق وأصارتهُ إلى رأينا

فى شعر المتأخرين ، كأنما انقلبت عليهم علوماً من الجهل ، حتى صار النمط العالى من الشعر كأنه لاقيمة له : إذ لا رغبة فيه ، ولا حَفْل به : لمبايتِه لما ألفوا وخلوِّهِ من النكتة والصناعة ؛ وحتى كان فى أهل الأدب ومدرِّسِيه من لا يعرف ديوان المتنبي !

ولا يصف لك معنى الشعر فى رأى أدباء ذلك العهد كقول الشيخ ناصيف اليازجى المتوفى سنة ١٨٧١

مللتُ من القريض وقلت يكفى ... لأمرٍ شابَ قوَّتُه بضعف

أحاول نكتة فى كل بيت ... وذلكَ قد تقصَّر عنه كفى

أجلُّ الشعر مافى البيت منه ... غرابةُ نكتة أو نوع لطف

يريد النكتة البلاغية وأنواعَ البديع ، وذلك ماقصَّرت عنه كفُّه وكف غيرِهِ ، لأنه شيءٌ مفروغ منه ، حتى لايأتى المتأخر بمثال فيه إلا وجدتَهُ بعينهِ لمن تقدَّموه على صور مختلفة ينظر بعضها إلى بعض ، وما يأتى اختلافها إلا من ناحية الحِذق فى إخفاء السرقة بالزيادة والنقص ، والإلمام والملاحظة ، والتعريض والتصريح ، وغيرها مما يعرفُه أئمة الصناعة ، ولا يتسبب إليه بأقوى أسبابِهِ إلا مَن رُزق القوَّة على التوليد والاختراع

إذا عرفت ذلك السر فى سقوط الشعر واضطرابِهِ وسفسفتِه ، لم تر غريباً ماهو غريب فى نفسِه ، من أن بدء النهضة الشعرية الحديثة لم يكن العلمَ الذى يصحح الرأى ، ولا الاطلاع الذى يقوِّى الفكر ، ولا الحضارة التى تهذب الشعور ، ولا نظام الحكم الذى يحدث الأخلاق ؛ وإنما كان ضرباً من الجهل وقف حدًّا منيعاً بين زمن فنون البلاغة وبين زماننا ؛ وكان كالساحل لذلك الموج المتدفِّع الذى يتضرَّب على مدِّ ثمانمائة سنة من القرن السادس إلى الرابع عشر للهجرة ؛ ولله أسرار عجيبة فى تقليب الأمور وخلق الأحداث

ودفع الحياة الفكرية من نمط إلى نمط ، وإخراج العقل المبتدع من هيئة إلى هيئة ، وجعل بعض النفوس كالينابيع للتيار الإنسانى فى عصر واحد أو عصور متعاقبة ، وإقامة بعض الأشخاص حدوداً على الأزمنة والتواريخ ؛ فكان الذى أحدث الانقلاب الرابع فى تاريخ الشعر العربى ، وأنشأ الذوق نشأته الخامسة ، هو الشاعر الفحل محمود باشا البارودى ، الذى لم يكن يعرف شيئاً ألبتة من علوم العربية أو فنون البلاغة ؛ وإنما سمت به الهمة لأنه حادثة مرسلة للقلب والتغيير ، فأبعده الله من تلك العلوم ، وأخرجه لنا من دواوين العرب ، كما نشأ مثل ابن المقفع والجاحظ من فصحاء الأعراب ؛ ويسّر له من أسباب ذلك مالم يتفق لأحد غيره مما لامحل لبسطه هنا ، ولا تكاد تجد شعر أديب متأخر يستقيم له أن يُذكر فى شعر كل عصر من لدن زمننا إلى صدر الإسلام ثم لاتنحط مرتبتهُ ــ غير كلام البارودى هذا ؛ وهو وحده الذى يقابل القاضى الفاضل فى أدوار التاريخ الأدبى ، على بعد ما بينهما ؛ لأن شعرهُ هو الذى نسخ آية الصناعة ، ودار فى ألسنة الرواة ، وكان المثل المحتذى فى القوة والجزالة ودقة التصوير وتصحيح اللغة ؛ ولم يشأ الله أن يسبقه إلى ذلك أحد ؛ لأن النهضة الاجتماعية فى هذا الشرق العربى كانت فى علم الله مرهونة بأوقاتها وأسبابها ؛ ولولا ذلك لسبقهُ شاعر القرن الحادى عشر الأمير منجك المتوفى سنة ١٠٨٠ هـ (١٦٦٩ م) ؛ فقد اتفقت لهذا الأمير نشأة كنشأة البارودى ، فكان كثير الحفظ من دواوين العصور الأولى ، وكان يقلد أبا فراس الحمدانى ويحتذى على مثاله ؛ ولكن عصرهُ كان فى العصور الهالكة ، فخرج الشاعر ضعيفاً كما يخرج كل شىء فى غير وقته ولغير تمامه وبغير وسائله الطبيعية

ونشأت العصابة البارودية وفيها إسماعيل صبرى وشوقى وحافظ ومطران وغيرهم ، وأدركوا مالم يدركهُ البارودى وجاءوا بما لم يجئ به ، واتصل

الشعر بعضه ببعض ، وسارت به الصحف ، وتناقلتهُ الأفواه ، وأنسى ذكر البلاغة وفنونها بالنشأة المدرسية الحديثة التى جعلت من ترك البلاغة بلاغة ؛ لأنها صادفت أوائل الانقلاب ليس غير ؛ وبذلك بطل فى مصر عصر أبى النصر والليثى والساعاتى والنديم وطبقتهم ، وفى الشام عصر اليازجى والكستى والأنسى والأحدب وأضرابهم ، وفى العراق عهد الفاروقى والموصلى والبزّاز والتميمى وسواهم ؛ واستقلّ الشعر عربياً عصرياً وخرج كما يخرج الفكر المخترع ماضياً فى سبيل غير محدودة

✲ ✲ ✲

لاريب فى أن الطرق التى تتبع فى تربية الأمة وتكوين روحها العالمية لابد أن يكون لها أثر بيّن فى شعر شعرائها ؛ فإنما الشعر فكر ينبض وعاطفة تختلج ، وما أرى الشاعر الحق من أمته إلا كالزهرة الصغيرة من شجرتها : إن لم تكن خلاصة مافيها من القوة فهى خلاصة مافى الشجرة من معنى الجمال ولونِه وملمسِه ، ولا تعدم مع هذه الصفة أن تكون وحدها الكوكب الساطع فى هذا الأفق الأخضر كلهِ . ولقد اطّردت النهضة منذ خمسين سنة أو حولها ، فى الأدب والعلم ؛ وفى الفكر والفن والصناعة ؛ واستوى لنا من ذلك مالم يتفق لهذه الأمة فى عصر من عصورها ، حتى بلغنا من ذلك أن صرنا كأنما فتحنا أرضاً من أوروبا وتغلبنا عليها ، أو أنشأنا أوروبا عربية وما نزال نعمرها وننقل إليها العلوم والفنون والآداب ، ونستخرج لها الأمثلة والأساليب ؛ غير أن الشعر العربى مع هذا كله لم يوفّ قسطه ولم يبلغ مبلغهُ فى مجاراة هذه النهضة قوةَ ابتكار وسلامةَ اختراع وحسن تنوع ، لسببين : الأول أنه لايزال كما كان منذ فسدت اللغة العربية : شعرَ فئة لاشعر أمة ، فهو يوضع للخاصة لاللشعب ، ويدور مع الأغراض والحاجات لامع الطبائع

والأذواق ؛ وذلك لو تأملتَ هو من بعض الأسرار فى سمو هذا الشعر وقوة إحكامه وإبداع تنسيقه وجمال ترشيحه ، منذ الدولة العباسية إلى القرن الخامس ؛ ثم انحطاطه بعد ذلك وتدلّيه شيئاً فشيئاً حتى بلغ الدرك الأسفل فى العصور المتأخرة ؛ إذ كانت الفئة التى يوضع لها ويصف أهواءها وأغراضها وتتقبلهُ وتثيب عليه وتحسن وزنَهُ ونقدهُ ، هى فى الناحيتين كما ترى من طرفى المِنظار الذى يقرّب البعيد ، فهى بالنظر فى أولِه واضحة جلية مترامية إلى الجهات ، وبالنظر فى آخره ضئيلة ممسوخة لا تكاد تُعرف . وما أقضى العجب من غفلة بعض الكتاب فى هذا الزمن إذ يناهضون العربية ويزْرون على الفصاحة ويعملون على انكماش سوادها وتقليل أهلها ، وما يدرون أنهم بذلك يسقطون الشعر قبل الكتابة على خطأ أو عمد وقلما تجد واحداً من هؤلاء يحسن معالجة الشعر ، فإن أصبت له شعراً وجدته لا غناء فيه أو فى أكثره ، وأين وضعت يدك منه لم تخطئ أن تقع على مَثل مما يمثَّل به لعيب من عيوب البلاغة

وهذه النهضة التى نحن فى صدد الكلام عنها أوسع مدى وأوفر أسباباً من تلك التى كانت فى الدولة العباسية ، بما دخلها من أدب كل أمة ، وما اتصل بها من أساليب الفكر ؛ ولكن أين رجال الفصاحة المتمكنون منها ، المتعصبون لها العاملون على بثها فى الألسنة ، مع أن عصرهم أوسع من عصر الرواة ، بكثرة ما أخرجت المطابع من أمهات الكتب والدواوين ، حتى أغنت كلُّ مطبعة أدبية عن راوية من أئمة الرواة

والسبب الثانى الذى من أجله لا يزال الشعر متخلفاً عن منزلته الواجبة له - سقوط فن النقد الأدبى فى هذه النهضة : فإن من أقوى الأسباب التى سمت بالشعر فيما بعد القرن الثانى وجعلت أهله يبالغون فى تجويده وتهذيبه ، كثرةَ النقاد والحفاظ وتتبّعهم على الشعراء واعتبار أقوالهم وتدوين الكتب فى

نقدهم، كالذى كان فى دروس العلماء وحلقات الرواية ومجالس الأدب، وكالذى صنفهُ مهلهل بن يموت فى نقد أبى نواس وأحمد بن طاهر، وابن عمار فى أبى تمام، وبشر بن تميم فى البحترى، والآمدى فى الموازنة، والحاتمى فى رسالتِه، والجرجانى فى الوساطة، وما لا يحصى من مثل هذه الكتب والرسائل، وأنت من النقد فى هذه النهضة بين اثنين: صديق هو الصديق أو عدو هو العدو ... فإن ابتغيتَ لهما ثالثاً فكاتبٌ لا تتعادل وسائل النقد فيه فلا خير فى كلامِه؛ أما الناقد الذى استعرض علم العربية وآدابها، وكان شاعراً كاتباً قوى العارضة دقيق الحسّ ثاقب الذهن مستوى الرأى بصيرا بمذاهب الأدب متمكّناً من فلسفة النقد مبرّزاً فى ذلك كلّه — فهذا الخيال يذكرنى كلمةً قلتها يوما للبارودى إذ قلت له: إن الشاعر لا يكون لسان زمنِه حتى يوجَد معه الناقد الذى هو عقل زمنِه: فقال: ومَن ناقد الشعر فى رأيك؟ قلت: الكاتب وهو شاعر، والأديب وهو فيلسوف، والمصلح وهو موفَّق؛ فكأنما هوَّلت عليه حتى قال رحمه الله: «فين دا كلّه؟» قلت: فلعله لا ينشئ لنا هذا العقلَ الملتهب إلا العصر الذى يوجِد لنا أسطولا كأسطول انجلترا

* * *

وعلى ما نزل بالشعر العصرى من هذين السببين فقد استقلت طريقتُه وظهر فيه أثر التحول العلمى والانقلاب الفكرى، وعدل به أهله إلى صور الحياة بعد أن كان فى أكثره صورا من اللغة، وأضافوا به مادة حسنة إلى مجموعة الأفكار العربية، ونوعوا منه أنواعاً بعد أن كان كالشىء الواحد، واتسعت فيه دائرة الخيال بما نقلوا إليه من المعانى المترجمة من لغات مختلفة، وهو من هذه الناحية أوسع من شعر كل عصر فى تاريخ هذه اللغة: إذ كان الأولون إنما يأخذون من اليونانية والفارسية، ثم أخذ المتأخرون قليلا من

التركية ؛ أما فى العهد الأخير فيكاد العقل الإنسانى كله يكون مادة الشاعر العربى، لولا ضعف أكثر المُحْدَثين من النشء الجديد فى البيان وأساليبه وبُعدهم من ذوق اللغة واعتياص مرامها عليهم، حتى حسبوا أن الشعر معنى وفكر، وأن كل كلام أدّى المعنى فهو كلام، ولا عليهم من اللغة وصناعتها، والبيان وحقيقتِه؛ وحتى صرنا والله من بعض الغثاثة والركاكة والاختلال فى شرٍّ من توعّر نظم الجاهلية وجفاء ألفاظِه وكزازة معانيهِ؛ وهل ثَمَّ فرق بين أن تنفر النفس من الشعر لأنه وعر الألفاظ عسِرَ الاستخراج شديد التعسف، وبين أن تمجهُ لأنه ساقط اللفظ متسوّل المعنى مضطرب السياق؟ ثم تراهم يُجرون الشعر كله على اختلاف أغراضِه نمطاً واحدا من تسهيل اللفظ ونزولهِ، حتى كأن هذه اللغة لاتنوّع فى ألفاظها وأجراس ألفاظها، مع أن هذا التنوع من أحسن محاسنها وأخص خصائصها دون غيرها من اللغات، كما أن كل تنوع هو من أبدع أسباب الجمال والقوة فى كل فن؛ ولا يدرى أصحابنا أن كل ذلك من عملهم عبث فى عبث إذا هم لم يعطوا الشعر حقَّهُ من صناعة اللغة؛ وهذا شاعر الفرس الشهير مصلح الدين السعدى الشيرازى إمام من أئمة البلاغة فى قومِه لايدفع مكانه وشعرهُ مَثَل من أسمى الأمثلة فى جمال المنطق الروحى، وليس فى الناس إلا من يسلم له هذا المحل من النبوغ، وهو مع ذلك حين نظم الشعر لم تنفعه نافعة من حكمة أو خيال أو فكر، وذهب فى التعسف كل مذهب، وحمل على كلامه من العيوب ما لم يسلم معه إلا صحة الوزن، كقوله فى وصف نكبة بغداد وتخريبها

فقد ثكلت أم القُرى والكعبة ... مدامعُ فى الميزاب تسكب فى الحجر
على جُـدُر المستنصرية ندبة ... على العلماء الراسخين ذوى الحجر
نوائب دهر ليتنى مت قبلها ... ولم أر عدوان السفيه على الحبر

محابر تبكى بعدهم بسوادها وبعض قلوب الناس تألف بالغدر
لحى الله من تُسدى إليه بنعمة وعند هجوم اليأس أحلك من حبر

فانظر أى شعر هذا فى الركاكة والهذيان والسخف، وفى خمود الفكر وضعف الروح وذهاب الرونق، وتأمل كيف هوى به السعدى من مكانته التى بوّأه إياها أدُبه العالى، وكيف سقط إلى حيث ترى، مع أنه فى محراب الفكر إمام ووراءه صفوف من عصور البلاغة

ومن ههنا نشأ فى أيامنا ما يسمونه « الشعر المنثور »، وهى تسمية تدل على جهل واضعها ومن يرضاها لنفسه : فليس يضيق النثر بالمعانى الشعرية، ولا هو قد خلا منها فى تاريخ الأدب ؛ ولكن سر هذه التسمية أن الشعر العربى صناعة موسيقية دقيقة يظهر فيها الاختلال لِأوهى علة ولِأيسر سبب، ولا يوفق إلى سبك المعانى فيها إلا من أمده الله بأصح طبع وأسلم ذوق وأفصح بيان ؛ فمن أجل ذلك لا يحتمل شيئاً من سخف اللفظ أو فساد العبارة أو ضعف التأليف، ولا تستوى فيه أسمى المعانى مع شىء من هذه العلل وأشباهها، وتراه يلقِى بمثل (السعدى) من الفلك الأعلى إلى الحضيض، لا يقيم له وزناً ولا يرعى له محلا ولا يقبل فيه عذراً ولا رخصة ؛ غير أن النثر يحتمل كل أسلوب، وما من صورة فيه إلا ودونها صورة إلى أن تنتهى إلى العامى الساقط والسوقى البارد ؛ ومن شأنه أن ينبسط وينقبض على ماشئت منه، وما يتفق فيه من الحسن الشعرى فإنما هو كالذى يتفق فى صوت المطرب حين يتكلم لا حين يغنى ؛ فمن قال « الشعر المنثور » فاعلم أن معناه عجزُ الكاتب عن الشعر من ناحية وادّعاؤُه من ناحية أخرى

٭ ٭ ٭

والذى أراه جديداً فى الشعر العربى مما أبدعته هذه النهضة أشياء :

أولا : هذا النوع القصصى الذى توضع فيه القصائد الطوال، فإن الآداب العربية خالية منه؛ وكان العرب ومن بعدهم إذا ذكروا القصة ألمّوا بها اقتضاباً وجاءوا بها فى جملة السياق على أنها مثل مضروب أو حكمة مرسلة أو برهان قائم أو احتجاج أو تعليل وما جرى هذا المجرى مما لا ترد فيه القصة لذاتها ولا لتفصيل حوادثها، وهو كثير فى شعر الجاهليين والإسلاميين، والجيّد منه قليل حتى فى شعر الفحول؛ فإن طبيعة الشعر العربى تأباه: والذين جاءوا به من العصريين لا يجيدون منه إلا قطعاً تعرض فى القصيدة وأبياتاً تتفق فى بعض معانيها وأغراضها مما يجرى على أصله فى سائر الشعر طال أو قصر: والسبب فى ذلك أن القصة إنما يتم تمامها بالتبسط فى سردها وسياقة حوادثها وتسمية أشخاصها وذكر أوصافهم وحكاية أفعالهم وما يداخل ذلك أو يتصل به، وإنما بُنى الشعر العربى فى أوزانه وقوافيه على التأثير لا على السرد، وعلى الشعور لا على الحكاية؛ ولا يريدون منه حديث اللسان ولكن حديث النفس؛ فهو فى الحقيقة عندهم صناعة روحية يصنعون بها مقادير من الطرب والاهتزاز والفرح والحزن والغضب والحمية والفخر والاستطالة ونحوها من المعانى التى هى بسبب من أسباب الانفعال والنزعة؛ فلا جرم كان سبيلهم إلى ذلك هو التحديد لا الإطلاق، وضبط المقادير لا الإسراف منها؛ إذ كان من شأن هذه الأمور فى طبيعة النفس أن ما زاد منها عن مقداره تحوّل وانقلب فى تأثيره، وذلك هو السبب أيضاً فى أن هذا الشعر مالم يكن قائماً على اختيار اللفظ وصنعة العبارة وتصفيتها وتهذيبها واختيار الوزن للمعنى وإدارة الفكر على مايلفت النفس من ضروب المجاز والاستعارة ونحوها ـ سقط وركّ بمقدار ما ينقصه من ذلك؛ وليس الشأن فى إطالة القصيد: فمن الشعراء من نظم رويّاً واحداً فى أربعة آلاف

بيت ، ومنهم من نظم تفسير القرآن كله ؛ ولكن عيب مثل هذا الشعر فى العربية أنه شعر ... وما أخمل ابنَ الرومى على جلالة محله إلا طولُ قصائده وسياقة الكلام فيها مع ذلك على ما يشبه أسلوب الحكاية وخروجها مخرج المقالة يتحدث بها ، فلم تحىَ له إلا مقطعات وأبيات ومات سائر شعره وهو حى وميت على السواء ، حتى قال فيه صاحب الوساطة : « ونحن نستقرئ القصيدة من شعره وهى تناهز المائة أو تربى أو تضعف ، فلا نعثر فيها إلا بالبيت الذى يروق أو البيتين ، ثم قد تنسلخ قصائد منه وهى واقفة تحت ظلها جارية تحت رسلها لا يحصل منها السامع إلا على عدد القوافى ... »

والعجيب أن بعض الكتاب فى عصرنا ممن لا تحقيق لهم فى مثل هذه المسائل ، يعدّون أحسن محاسن ابن الرومى ما هو أقبح عيوبه ، وقاتل الله صناعة الكتابة ، فكما أنها لملء الفراغ هى كذلك لإفراغ الملآن ... (١)

ثانياً : صياغة بعض الشعر على أصل من أصول التفكير فى الإنجليزية أو الفرنسية أو غيرهما من لغات الأمم ، فيخرج الشعر عربياً وأسلوبه فى تأدية المعنى أجنبى ؛ وأكثر ما يأتى هذا النوع من أمريكا ، وأنا أعجب بكثير منه لما فيه من الغرابة والحسن .

ومازالت أجناس الأمم يضيق بعضها بأشياء ويتسع بعضها بأشياء فلسنا مقيدين بالفكر العربى ولا بطريقته ، وعلينا أن نضيف إلى محاسن لغتنا محاسن اللغات الأخرى ؛ ولكن من غير أن نفسدها أو نحيف عليها أو نبيعها بيع الوَكْس ؛ ومتى كان هذا النوع من الشعر رصيناً محكماً جيد السبك رشيق المعرض ، كان فى النهاية من الرقة والإبداع ؛ ولم يأت التجديد فى هذه اللغة إلا من هذه الناحية ، كالذى تراه فيما أخذ عبد الحميد وابن المقفع من نمط الأداء فى اللغة الفارسية

---

(١) انظر دراسة العقاد لابن الرومى

ثالثاً : الانصراف عن إفساد الشعر بصناعة المديح والرثاء ، وذلك بتأثير الحرية الشخصية فى هذا العصر ؛ والمدح إذا لم يكن باباً من التاريخ الصحيح لم يدل على سمو نفس الممدوح ، بل على سقوط نفس المادح ؛ وتراه مدحاً حين يتلى على سامعه ، ولكنه ذم حين يُعْزَى إلى قائله ! وماابتليت لغة من لغات الدنيا بالمديح والرثاء والهجاء ماابتليتْ هذه العربية : ولذلك أسباب لامحل لتفصيلها .

رابعاً : الإكثار من الوصف والإبداع فى بعض مناحيه والتفنن فى بعض أغراضه الحديثة ؛ وذلك من أسمى ضروب الشعر ، لاتتفق الإجادة فيه والإكثار منه إلا إذا كان الشعر حياً ، وكانت نزعة العصر إليه قوية ، وكان النظر فيه صحيحاً ؛ ولما وصف الشيخ أحمد الكردى (من شعراء القرن الثانى عشر) السفينة واستهل بهذا الوصف مدح الوزير راغب باشا ، عدُّوا ذلك حادثة من حوادث الأدب فى عصره ، فتأمل !

خامساً : إهمال الصناعات البديعية التى كان يُبنى عليها الشعر ، فيُنظم البيت ليكون جناساً أو طباقاً أو استخداماً أو تورية الخ ، أوضرباً آخر من صناعة العدد والحساب ، كالتاريخ الشعرى بأنواعه ؛ أو صناعة الحرف ، كالمقلوب والمهمل وغيرهما ؛ أو صناعة الفكر ، كاللغز والمعمّى ؛ أو صناعة الوضع كالتشجير والتطريز ، إلى مايلتحق بهذا الباب الذى ذهب أهله فلا يتيسر لأحد من بعدهم أن يجاريهم فيه ، وكانت لهم فى كل ذلك عجائب استقصيناها بالتدوين فى موضعها من (تاريخ آداب العرب) (١) : بيد أن إهمال صناعة البديع شىء وإهمال فن البديع نفسه شىء آخر ؛ ومن هنا جاء ما نراه فى بعض الشعر الحديث « والشعر المنثور » من الإغراق السخيف الذى لايقوم على أصل ، من التعدى فى ضروب

(١) انظر الجزء الثالث من (تاريخ آداب العرب) للرافعى

الاستعارة ، والبعد فى المجاز ، والإحالة فى الوضع ، ونحوها مما يرجع إلى الجهل بطبيعة البلاغة ، ومما لا نعدّه إلا ضرباً من الفساد يلتحق بما كان فى العصور الماضية وإن كان على الضد منه

سادساً : النظم فى الشئون الوطنية والحوادث الاجتماعية ، مما يجعل الشعر محيطاً بروح العصر وفكره وخياله ، وهو باب لا ينهض به إلا أفراد قلائل ، ولا يزال ضعيفاً لم يستحكم ؛ وقد قالوا إن للقاضى الفاضل اثنى عشر ألف بيت فى مدح الوطن والحنين إليه ، ولكن لا أحسب أن فيها مائة من نحو ما يُنظم فى هذا العصر مما أدى بالشعر إلى أن يدخل فى باب السياسة ويعدّ من وسائلها ، وفى طرق التربية ويعد من أسبابها

سابعاً : استخراج بعض أوزان جديدة من الفارسية والتركية ، وهو قليل ، جاء به شوقى فى قصيدتين ولم يتابعه أحد ، لإفراط ذلك الوزن فى الخفة حتى رجع إلى الثقل ... ثم نظم بعض الشعر من أوزان مختلفة قريبة التناسق على قاعدة الموشح ، ولكنه شعر لا توشيح ، كما ينظم بعض شعراء أمريكا وسوريا ؛ ولم يحدث مثل ذلك فى العربية ، فإن القصيدة كانت تنظم من بحر واحد ، وقد يخرج منه وزن آخر ؛ ولا نعرف فى تاريخ الأدب قصيدة تتألف من وزنين إلا الذى قالوا أن حسين بن عبد الصمد المتوفى سنة ٩٨٤ ﻫ (١٥٧٦ م) قد اخترعه ونظم فيه أبياته التى مطلعها :

فاح عرف الصبا وصاح الديكْ   وانثنى البان يشتكى التحريكْ
قم بنا نجتلى مشعشعة   تاه من وصفه بها النِّسيكْ

وعارضها ولده الإمام الشهير بهاء الدين العاملى صاحب الكشكول بأبيات قالوا إنها سارت فى عصره مسير المثل ، ونسج عليها شعراء ذلك العصر ، كالنابلسى وغيره ، ومطلعها :

ياندیمی بمهجتی أفدیكْ قم وهات الكئوس من هاتيكْ
خمرة إن ضللت ساحتها فسنا نور كأسها يهديكْ

على أن هذا الوزن بشطريه مستخرج من الخفيف، فليس باختراع كما زعموا، وإنما هو ابتداع فى التأليف الشعرى ؛ وقد اجتزأنا بما مرت الإشارة إليه ، فإنه كلٌّ ماتغير به الرسم فى هذه الصناعة ؛ وتركنا الأمثلة تفاديا من الإطالة

✡ ✡ ✡

وبعد فلا ريب أن النفس البشرية فى حاجة أبداً مع دينها الروحى إلى دين إنسانى يقوم فيها على الشعور والرغبة والتأثير ، فيفسر لها حقائق الحياة ، ويكون وسيلة من وسائل تغييرها : ليجعلها ألطف مما هى فى اللطف ، وأرق مما تكون فى الرقة ، وأبدع مما تتفق فى الإبداع ؛ ذلك الذى يصل بظهوره وإبهامه بين الواضح والغامض ، والخالد والفانى ؛ ذلك الذى لا يجمُل الجمال إلا به ، ولا تسكن النفس إلا إليه ؛ ذلك هو الشعر !

صروف اللغوي (*)

كان شيخنا هذا رجلا حصيفاً جيد المنزَعة حسن الرأى ، ممكّنا له فيما كان يعترضهُ من مسائل اللغة ، قوياً على الأحوال التى تجرى له من أوضاعها فيما يُعانيه من النقل ويزاوله من الترجمة على اختلاف مناحيها وكثرة فنونها ، وعلى أنها لاتزال كل يوم تنبعث من علم وتحتفل من رأىٍ وتمدُّ مدَّ السيل كأنها دنيا عقلية لايبرح عقلُ الإنسان دائباً يحلّق فيها ويبذها من معانى الكون وأسرارِه ، فلا الكون ينفد لتتم ، ولا هى تتم قبل أن ينفد الكون

وثبت شيخنا على ذلك عمرَ دولة من الدول فى خمسين سنة ونيف ، يضرب قلمهُ فى السهل والصعب ، وفى الممكن والممتنع ؛ وإنه ليمرُّ فى كل ذلك مراً لاينثنى ، ويحذو حذوا لايختلف ، كأن الصعب عنده نسقُ السهل ، والممتنع صَوْغُ الممكن ؛ فلو قلتُ إنه بُنِى فى أصل خلقِه وتركيبِه على أن يكون قوة من قوى التحويل لتحقيق المشابهة العقلية بين الشرق والغرب لما أبعدتُ ، ولو زعمتُ أن ذلك القلم الحى لم يكن إلا عِرقاً فى جسم الإنسانية لكان عسى ...

وانتهى شيخنا فى العهد الأخير إلى أن صار يُعدّ وحدهُ حجة اللغة العربية فى دهر من دهورها العاتية ، لافى الأصول والأقيسة والشواذّ وما يكون من جهة الحِفظ والضبط والإتقان ، بل فيما هو أبعد من ذلك وأردُّ بالمنفعة على اللغة وتاريخها وقومها ، بل فيما لاتنتهى إليه مَطمعة أحد من علمائها وكتابها وأدبائها ؛ إذ وقع الإجماع على أنه انفرد فى إقامة الدليل العملى

(*) هو العلامة الدكتور يعقوب صروف صاحب « المقتطف » ، وقد نشر هذا المقال فى مقتطف شهر يناير سنة ١٩٢٨

على سعة العربية وتصرفها وحسن انقيادها وكفايتها، وأنها تؤاتي كل ذي فن على فنّه، وتمادُّ كلّ عصر بمادتِه؛ وأنها من دقة التركيب ومطاوعتِه مع تمام الآلات والأدوات بحيث ينزل منها رجل واحد بجهدِه وعملِه منزلة الجماعات الكثيرة في اللغات الأخرى، كأنها آخر ماانتهت إليه الحضارة قبل أن تبدأ الحضارة

ولا يذهبنّ عنك الفرق بين رجل حافظ والكتابُ أحفظ منه، وهو من الكتاب خَرج وإلى الكتاب يرجع؛ وبين رجل يكون ترجماناً من تراجمة العقل الإنساني المعنيّ بتأويل الكون وتفسيره، والطائرِ بالألفاظ الإنسانية على أجنحة العلوم والفنون والمخترعات والمعاني؛ فإن ذاك ينقل عن الواضع ثم لايتعدى هذه المنزلة ولا يتجاوز مُتُونَ الألفاظ ، وأما هذا فلا يزال يضطرب مع الألفاظ ومعانيها يجاذبها ويدافعها، ثم لايزال يضع يده في النسيج اللغوي يسدّي ويلحم. فهو مدفوع إلى المسالك الدقيقة من مذاهب الوضع وطرقِه، وأساليب الأخذ والانتزاع؛ وهو مقيَّد أبداً بخاصّ المعنى وخاص اللفظ على التعيين والتحديد، لايجد فسحة من ضيقين؛ فإن لم يكن مثل هذا في منزلة الواضع فهو في المنزلة بعده ولا ريب

إنما اللغوي الأكبر عندي هو هذا الكون، وما العالم باللغة وفنونها إلا وسيلة لتهذيب الطريقة تهذيباً عقلياً، فيجب من ثمَّ أن يكون لِلغوي رأى وعلم وذكاء وبصر، ويجب أن يطابق النواميس، فلا يتعادى مابينه وبينها، لأنه وسيلة إنطاقها ليس غير؛ ومن ذلك أرى الدكتور صرُّوف في الغاية، فقد كان ينزع في مذهبِه اللغوي منازع علمية دقيقة تُوزَن وتقاس وتختبر، في حين لاتزيغ ولا تهنُ ولا تختلّ، وتراها تنطاق وهي مقيدة، وتتقيد وهي مطلقة؛ إذ كان لايعتــدُّ اللغة عربيةً للعرب، بل عربية للحياة؛ وما تهدمُه وتبنيه وما

تُحدثُهُ وتنسخهُ فهى على أصولها فيمن قبلنا ، ولـكن فروعها فينا نحن وفيمن يلينا وفيمن بعد هؤلاء ، فلنا أن نتولاها على تلك الأصول وعلى مايشبهها فى الطريقة حين تنتقل الحال ويتغير الرسم ، ولعلة إن وجبتْ ، والقياس إن جاز . والدكتور بهذا الاعتبار يشتد فى التمسك بالقواعد والضوابط ولا يترخص فى شيء منها غير أنه لا يكون كأقوام يرون الفروع من الجذوع قد خرجت ، فيحسبون الثمرات سبيلها من الجذوع أيضاً ... وإن لم تجئ منها فستجيء منها

عرض لى يوما أحد هؤلاء اللغويين فانتقد فى المقطم قصيدة من القصائد التى رفعتها إلى جلالة الملك فؤاد ، وتمحّل فى نقده ودلّل ببعض مانقلهُ من كتب اللغة ، فكان فيما تكلم فيه لفظا (الأزاهر والورود) ، فقال إنهما ليسا من اللغة ولم يجريا فى كتبها ؛ وكان من ردّى عليه أن قلت له إن العرب جمعوا الجمل ستة جموع ، وجمعوا الناقة سبعة لأنها أكرم عليهم منه ، وأن لكل حياة صورها الدائرة فى ألفاظها ، فالزهر والورد عند المولدين والمحدثين أكرم من الجمل والناقة عند العرب ، أو هذان كهذين ؛ ثم هما من خاص الألفاظ المولدة ، فلنا أن نجمعهما على كل صور الجمع التى يسوّغها القياس ، لأن ههنا العلة الموجبة التى لم تكن مع العرب فيهما ؛ فمن الصحيح أن نقول : زهور ، وأزهار ، وأزاهر ، وأزاهير الخ : فلما لقيت الدكتور بعد نشر هذا الرد هنأنى به ثم قال فيما قال : يحسبون أن العرب هم الجمل والناقة وليس غير ما استجمل وما استنوق ... أما هذا الدهر الطويل العريض فليس عندهم شيئاً ، وهم يستطيعون أن ينكروا على المولّدين ألف كلمة ، ولكن هل فى استطاعتهم أن ينكروا على التاريخ ألف سنة ؟ فذكرت له الأصل الذى قرره أبو على الفارسى فى العربى الصحيح نفسه : من أنه ليس كل مايجوز فى

القياس يجب أن يخرج به سماع ، فإذا أخذ إنسان على طريقة العرب وأمَّ مذهبهم فلا يُسأل ما دليلهُ وما سماعهُ وما روايتهُ ، ولا يجب عليه من ذلك شيء ، حتى قال أبو على : لوشاءَ شاعر أو متَّسع أن يبنى بإلحاق اللام (*) اسماً وفعلا وصفة لجاز له ، ولكان ذلك من كلام العرب ؛ وذلك نحو قولك : خَرْجَجَ أكثرُ من دخْلَل ، وضرْبَبَ زيد عمرا ، ومررْت برجل ضرْببٍ ، وكرْممٍ ، ونحو ذلك . قال تلميذه ابن جنى : فقلت له : أترتجل اللغة ارتجالا ؟ قال : ليس بارتجال لكنه مقيسٌ على كلامهم فهو إذاً من كلامهم

وسألنى مرة عن وجه الخلاف بين مايسمونهُ القديم والجديد ، فقلت له : إن الخلاف ليس على جديد ولا قديم ، ولكن على ضعف وقوة ؛ فإن قوماً يكتبون وينظمون ولكن لم تُقسَم الفصاحة والبلاغة على مقدار مايطيقونهُ من ذلك ، ولا يتسع الصحيح لآرائهم فى اللغة والأدب ، وقد أرادوا أن يسعوا كل ذلك من حيث ضاقوا ، ويطاولوه من حيث تقاصَروا ، وينالوه من حيث عجزوا : فظنوا بالأمر مايظن إنسان يمشى على الأرض ويعرف أنها تدور ، فيؤوّل ذلك بأنه هو يدير الأرض على محورها بحركة قدميهِ ... نحن نقول : أسلوب ركيك ، فيقولون : لا بل جديد ، ونقول : لغة سقيمة ، فيقولون : بل عصرية ، ونقول : وجه من الخطأ ، فيقولون : بل نوع من الصواب ، وهلمَّ جرًّا وسحْباً ... ثم قلت له : أفتجد أنت الركاكة واللحن والخطأ والغثاثة وإنَّ وأخواتها باباً جديداً أو أمراً مبتدَعا أو شيئاً يحتاج إلى اسم جديد غير اسمِهِ العربى ؟ قال : لا ، وأنا معك فى هذا ، وطريقتى فى المقتطف أن اللغة فى قواعدها عربية ، ولكن من قواعدها أن لكل مقام مقالا ، فنحن نكتب كتابة صحيحة ونريد بها أن ترفع العامة ولا تنزل بالخاصة ، فنخدم العربية من الجهتين

(*) زيادة حرف من جنس لام الكلمة وإلحاقه بها

ثم نشر بعد ذلك فى عدد شهر مايو سنة ١٩٢٧ مقالا جعل عنوانه (أسلوبنا فى الترجمة والتعريب) وابتدأه بهذه العبارة : « اللغة جسم حى نامٍ ، وشأن من يحاول منعها من النمو شأن الصينيين الذين يربطون أقدام بناتهم لكى لاتنمو وتبلغ حدها الطبيعى ، ولكن إذا كان النمو مشوّهاً فلا بد من تقييده وتهذيبه » : وكل مانقوله نحن هو التقييد والتهذيب واتقاء الشّوهة أن تُلم باللغة وأساليبها فتترادف على محاسنها بمعايبها ، وتطمس مقاتنها بمقابحها : فإن هذه المعايب والمقابح إذا هى استجمعت وانساغت فى لغة من اللغات لبستها بأشكالها فلا تزال تنكّر منها حتى لا تبقى لها وصفاً يعرف ، والحسن وحدهُ هو الذى يُحَد بالأوصاف والتعاريف ، وهو الذى يدقّق فيه ويبالغ فى قياسِه وتقديرِه ، فإن وقع فيه الفضول واختلطت الحدود وضعفت الملاءمة وجرى الوصف ناقصاً وزائدا فقد خرج إلى القبح ، وإن خرج إلى القبح لم يعد الناس يحدُّون له حدًّا أو يعبأُون له بقاعدة ، ووجدوا فيه كل الأوصاف الجميلة مقلوبة منكّرة ، لأنه هو جمال مقلوب ؛ (فتقييد التشويه وتهذيبهُ) كلمتان فيهما الكلام كله ، أو هما المصراعان لهذا الباب ؛ ومن أجل ذلك كنا نعد الدكتور من حجتنا على أصحاب الجديد ، لأنه أوسعهم إحاطة وأكثرهم علما وأمدّهم عملا ، ثم لن يدانيَهُ أحد منهم إلا إذا جمع لنفسِه عمرين ، وهل فى الجديد رجل ذو عمرين ... ؟

قلنا إن الشيخ كان فى المنزلة التى تلى منزلة الواضع ، وقد دفعتهُ العلوم إلى ذلك دفعا ، لأنه مقيد بخاص المعنى فى كل مايترجم أو يعرّب ، ثم بالخصائص العلمية الدقيقة التى لا تحتمل فى أدائها ماتحتمل المعانى الأدبية ؛ وقد تصدّر للكتابة والترجمة منذ شباب هذا العصر ، ومنذ بدأ الناس يقرأون العلوم الحادثة فى الشرق ؛ فلا جرم لم يكن لغويا كأبى عمرو وأبى زيد والخليل والأصمعى وأبى حاتم

وأبى عبيدة وأضرابهم ممن يحملون عن العرب ويؤدون ماحملوه ، ولا كان لغويا فى طريقة سيبويه والكسائى والزجّاج والأخفش واليزيدى وأشباههم ممن ينظرون فى اللغة وعللها وأقيستها وشواذها ؛ ولكنه لغوى فيما يعمر بين الشرق والغرب ، يحمل بلسان ويؤدى بلسانٍ غيرِهِ ويوافق بين المعانى الجديدة والألفاظ القديمة ، ويشابك بين خيوط التاريخ فى هذه وهذه ، ويأخذ اللغة للاستعمال لا للحفظ وللتعليم لا للتدوين والمنفعة لا للمباهاة وللفائدة لا للتنبُّل ؛ ويترجم وإن فى خيالِهِ العالَمَ الواسع الذى ينقل عنه بعلمائه وأدبائِهِ وكتبِهِ ومجلاتِهِ ومصطلحاتِهِ ، ويكتب وإن له تلك الملكة الدقيقة التى كونتها العلوم الرياضية والطبيعية والفلسفية وغيرها ؛ فلم يكن بدٌّ من أن يبتدع ، وأن تكون له طريقة يوافق فيها ويخالف ، وقد بسط هو القواعدَ التى أخذ بها وجرى عليها ، فكتب فيها مقالا فى مقتطف شهر يوليو لسنة ١٩٠٦ ، وأعاد نشرهُ فى عدد شهر مايو لسنة ١٩٢٧ ، وهو يوافق فيه أكثر العلماء ، وخاصةً الإمام الجاحظ ؛ مع أن قاعدة الجاحظ لم تكن يومئذٍ معروفة ، ولكن كلا الشيخين حصيف الرأى تامُّ الادارة فى عملِهِ ، قوى الحسبة والتدبير فيما يأخذ وما يدع ؛ وخلاصة رأى الدكتور أنه ينظر فى الكلمة الأعجمية ، فإن أصاب لها مرادفا فى العربية يحدّدها ويفى بهـا فذاك ، وإلا أمرَّها فى كتابتِهِ وهو مقيد بقاعدة القارئ وما هو أخف على قارئه فى المئونة وأبين له فى الدلالة ، فإن كانت اللفظة الأعجمية أوفى وأشيع فى الاستعمال عدل إليها ، قال : وغنىٌّ عن البيان أننا التزمنا أن نجارى العلماء فى المصطلحات العلمية التى تفقد دلالتها بتعريبها : كالحامض الكبريتوس والكبريتيك الخ ، فإن لكل من هذه الملحقات والزوائد التى فيها معنًى خاصا يدل على تركيب الحامض المراد كما يعلم دارسو الكيمياء ؛ قال : فمن يسمى الحامض الكبريتيك بالحامض الكبريتى كمن

يسمى الفرس حماراً لأن لكل منهما رأسا وذنبا ...

والجاحظ يقول فى مثل ذلك : إن رأيى فى هذا الضرب من هذا اللفظ أن أكون مادمت فى المعانى التى هى عبارتها والمادة فيها على أن ألفظ بالشىء العتيد الموجود (يعنى اللفظ العلمى الاصطلاحى) وأدع التكلف لما عسى ألا يسلس ولا يسهل إلا بعد الرياضة الطويلة ... ولكل صناعة ألفاظ قد جُعلت لأهلها بعد امتحان سواها ، فلم تلزق بصناعتهم إلا بعد أن كانت بينها وبين معانى تلك الصناعة مشاكلات

فأنت ترى الجاحظ لايمتنع من الألفاظ الأعجمية والعامية كما هى مادامت المعانى قائمة ، وقاعدته هى الأخف والأدل والأفهم والأشيع ، وهذا بعينه يقول الدكتور فيه : « يشترط فى حسن التعبير أن يؤدى المعنى المراد إلى ذهن السامع بأقل مايكون من الوقت والكلفة والإسراف فى القوة العصبية »

وقد كلمنى بعضهم فى خطأ الدكتور من ناحية الألفاظ الأعجمية وإقحامها فى كتابته ، وأنه يجنح إلى ذلك بأوهى سبب ؛ ولا أراه خطأً ، بل أنا أرد ذلك إلى مابينته آنفاً من أمر الناقل والواضع ولا يعجزنا أن نجد لصنيع الدكتور نصاً يقوم به وينهض بحجته ؛ فقد قال أبو على الفارسى : إن العرب إذا اشتقت من الأعجمى خلطت فيه ، فإذا كان هذا فى الاشتقاق وهو لايكون إلا من أصل ، فكيف بالتعريب ؟ على أنه لاخلط ولا اضطراب ، إنما هو سبيل الوضع وحكمة الدلالة وأن اللغة هكذا تجىء ، ثم يأتى بعد ذلك النحوى يقول لماذا ولأن ...

وقد أعجبنى حسن تقسيم الدكتور لقواعده التى بسطها فى مقاله المستفيض ، حتى إنى لأراه باباً جديداً فى التقسيم المعروف عند علماء البلاغة واللغة لابتذال الألفاظ وغرابتها ، إذ لم يبق عندنا غريب ومبتذل ولا بيننا عرب ومحدثون

بيد أن من تلك القواعد أن الأستاذ يترخص فى الألفاظ العامية وهو يجد فصيحها، ويقول فى ذلك: «إذا أسمعت الفلاح المصرى كلمة بذار مرة فى الأسبوع أو فى الشهر، سمع كلمة (تقاوى) مائة مرة وألف مرة، فرأينا أن محاولة تغيير لغة العامة فى هذه الكلمات وأمثالها ضرب من العبث وإضاعة للوقت وتضييع للفائدة، فجاريناهم فيما نكتبه لهم» وهذا ما كنت أجادله فيه ولا أسلم له بشىء منه، لأنه أغفل أصلا اجتماعياً عظيما؛ فإن عامتنا غير منقطعة من العربية الفصحى، ولا يزال فيهم ميراثها من القرآن والحديث وكلام العلماء فى أمور دينهم، وهذه هى وسائل مزجهم بالفصيح وردّهم إليه، ولا تزال هذه الوسائل تفعل ما تفعله النواميس المحتومة ولولاها لما بقى للفصحى بقية بعد.

وقد كان جاء إلى مصر من بضع سنين رجلٌ من أمريكا هو من تلاميذ الدكتور القدماء، فنزح إلى ذلك البر فاتجر فأثرى وفشت له نعمة عظيمة؛ ولما لقيته لقيت فى يده صحيفة وضع فيها مسائل فى اللغة والنحو، وكان أعدها ليسأل عنها؛ وفى أولها هذا السؤال: لماذا يقال فَصُح الرجل فصاحة فهو فصيح، ثم يقول: شعَر شعراً فهو شاعر؟ ألم يكن القياس أن يقال شعُر شَعارةً فهو شعيرٌ، والفصاحة والشعر من باب واحد؟

وهذا السؤال وإن كان فى ظاهر الرأى لغواً وعبثاً ولكنه دقيق فى تاريخ اللغة وأقيستها، ولا محل لبسط الكلام عليه فى هذا الموضع، غير أنى أنهيت الخبر للدكتور صَرّوف وقلت له: إن صاحبك هذا يضع قواعد اللغة فى الميزان الذى فى حانوته... وأنت كذلك تعالج بعض الألفاظ أحياناً ببعض الغازات والحوامض.

قلت هذا لأنى لم أسلِّم لهُ قط فيما كان يراه فى مثل البِذار والتقاوى، على

أنه قيّد الكلام بقوله (فيما نكتبه لهم) ، وهذا احتراس يدافع عنه بقوّة كما ترى .

ولا يمترى أحد فى أن هذه النهضة اللغوية التى أدركناها وعملنا فيها لم تكن سوى نموٍ طبيعى لعمل رجال أفذاذ نظن الدكتور صروف فى طليعتهم ، لأنه كان أطولهم جهاداً وأكثرهم عملا وأظهرهم أثراً ؛ وكان المقتطف يجىء لها كل شهر كأنه قطعة زمنية مسلَّطة بناموس كناموس النشوء ، حتى لألمَّ هذا المقتطف أن يكون عصراً من العصور قد خرج فى شكل الكتابة ؛ ولقد كاشفنى الدكتور فى آخر أيامه أنه كان يود لو خَتم عمله بوضع معجم فى اللغة يصلح أن يقال فيه إنه معجم الشعب ، وفصّل لى طريقته ، إذ كنت أكلمه فى كتاب لغوى افتتحت العمل فيه من زمن ولا يعرف أحد من أمره خبراً [1] فقال لى : خذ بين طريقتى وطريقتك ، وامضِ أنت فى هذا العمل ؛ فإنى لو وجدت فراغاً لما عدلت بهذا الأثر شيئاً ، وما كل سهل هو سهل

على أن شيخنا هذا لو قد كان تفرغ للغة وتوفر عليها واجتمع لها بذلك العمر وتلك العلوم والأدوات ، لكان فيها بأُمة من الأشياخ الماضين من لدُنْ أبى عمرو بن العلاء إلى الدكتور يعقوب صروف ، ولكن لعلّ الدهر أضيق من أن يتسع أو هو أوسع من أن يضيق ... لإمام آخر كأبى على الفارسى ، يفرغ سبعين سنة لفرع واحد من علوم اللغة هو علم القياس والاشتقاق والعلل الصرفية ويجعله همه وسدمه على ما قال تلميذه ابن جنى : « لا يعتاقه عنه ولد ، ولا يعارضه فيه متجر ، ولا يسوم به مطلباً ، ولا يخدم به رئيساً ؛ فكأنه إنما كان مخلوقاً له »

وكانت للدكتور طريقة جريئة فى رد الألفاظ العربية إلى أصولها والرجوع

---

(١) أحسبه يعنى المعجم الذى كان يعاون فيه صديقه المرحوم أحمد زكى باشا ، وانظر ص ٢٦٢ « حياة الرافعى »

بها إلى أسباب أخذها واشتقاقها وتصاريفها من لغة إلى لغة ، وأعانه على ذلك ثقوب فكره وسعة علمه ودقة تمييزه وميله الغالب عليه فى تحقيق ناموس النشوء وتبيُّن آثاره فى هذه المخلوقات المعنوية المسماة بالألفاظ ؛ وكان معجبا بكل ما جاءُ من هذا الباب ولو كان من خطإٍ ؛ لأنه إلى الرأى يقصد وللطريقة يمكن ومع الخاطر يجرى

وهذا باب يحتاج إلى التسمُّح والتساهل ؛ إذ لا يمكن تحقيقه ، ولا تتفق الحيطة فيه ، وليس إلا أن يتلوَّحَ شيء منه ويسنح شيء وتتلامح علةٌ ويعرض سبب ؛ ثم هو فى الدكتور من بعض الدلالة على استحكام ملكة الوضع فيه ، ونزوعه إلى أن يقتاس بقياسه ويستخرج من علله ؛ وقد تراه يبعد فى ذلك فينصب لك الدليل من وراء بضعة آلاف سنة ، وأنا الساعة أُعانُ ذاكرتى وأديرها من ههنا وههنا لأجد كلمة قال لى مرة فى تاريخها إن العرب أخذوها عن اليونان حين كانت مكة نفسها جارية فى حكمهم ، ولكنى أُنسيت هذه الكلمة ، إذ لم أرتبطها ، وإذ كنت لا أرى هذا المذهب ولا أحسن أن أقول فيه قولا ، وأعدُّ كل ما يقال فيه من باب تلفيق الأدلة ، كأنه ذَنَبُ ذلك الأعرابى الذى يريد أن يجعل فى الناس منه مثل غرائز الغنم ... فيقول « إلّا تَرَهْ تظنَّهْ »

والدكتور صروف رجل مالىٌّ فى المال وفى اللغة جميعاً ، فمذهبه القصد فى الدلالة والقصد فى الوقت والقصد فى القوة ؛ وقد صرفته ثلاثتها عن الشعر وعما كان فى حكمِهِ من تحبير النثر وتوشيَتِهِ ، على أنه يحسنهما لو أراد ولو سَخَتْ نفسه بالوقت ينفقه ولا يتعرَّف قدر مامضى منه فى هذه الساعات ، بل فى ساعة الكون الكبرى التى يتعاقب فيها عقربا النهار والليل ، كما كان ينفق البارودى يوماً فى بيت أو بيتين

وكان شيخنا فى آخر مجالسى معه قبل وفاته بشهر أو نحوه ، أطلعنى على

كل ما نشره فى مجلدات المقتطف من شعره ، فأعجبت بأشياء منه ، وأشرت على صديقنا الأستاذ فؤاد صروف أن يعيد نشر قصيدة الرفّاش التى ترجمها الدكتور عن الإنجليزية فى نسق سلس موشح القوافى ، والتى يقول فيها صاحبها يصف مخازى المدنية :

مخازٍ توالت فصالت وصارت   على اللحم دوداً وفى العظم سوسَا

وسألنى الدكتور بعد أن فرغت من شعره : فى أى طبقة تعدّنى من شعرائهم ؟ ففكرت قليلا ثم قلت له : فى طبقة الدكتور صروف ! فضحك لها كثيراً

وكانت له آراء فى الشعر العربى غيَّر بعضها فى آخر عهده ، ومما قاله لى مرة : إن الذى يريد أن يخلد ذكره فى هذا الشرق فلا يُنسى ، لا ينبغى له أن يطمع فى هذا إلا إذا بنى هرماً كهرم الجيزة ! وهى كلمة فلسفية كبيرة تنطوى على شرح طويل يعرفه من يعرفه

وقد كادت قاعدة القصد التى أومأت إليها تنتهى به فى آخر مدته إلى القول بإسقاط الإعراب بتةً ، وأظن ذلك خاطراً سنح له فأخذ بأوله وترك أن ينظر فى أعقابه ، فزرته مرة فى شهر يناير لسنة ١٩٢٧ ، وكان يصحح تسويدة جواب كتبه عن سؤال ورد عليه فى هل يمكن الرجوع إلى اللغة الفصحى فى القراءة والتكلم وما الفائدة من ذلك ؟ فلما أمرَّ الجوابَ على نظره دفعه إلىَّ فقرأته ، فإذا هو يرى أن كل حركة من حركات الإعراب والبناء يتهوّر فيها وقتٌ ما ؛ قال : فإذا قضينا على أبناء العربية ألا يتكلموا إلا كلاما معرباً نكون قد أضعنا عليهم ثلث الوقت الذى يقضونه فى التكلم من غير فائدة تجنَى

ولقد جادلته فى ذلك ولججت فى الخلاف معه ، وقلت له إن هذه قاعدة

مالية ، ثم إنك أغفلت أمر العـادة وما تيسّره ، وفى الكلام إيجاز يقوم مع الإعراب هذا المقام حين لا يكون من الإيجاز بدٌّ ، وفى اللهجات العامية من الحشـــو ومطّ الصوت وفساد التركيب ما يذهب بأكثر من ثلث الوقت ؛

فأحسبه اقتنع وإن كنت رأيته لم يقتنع

وإنه ليحضرنى بعـد هذا كلام كثير فى فضائل الدكتور وآدابه وشمائل نفسه الزكية ومنزعه فى الأخلاق الطيبة الكريمة ، ولو ذهبت أفصِّل لخرجت إلى الإفاضة فى فنون مختلفة، ولكنى أجترئ من كل ذلك بأنه كان يَظهر لى دائماً كأنه فى ظل من محبة الله .

الشيخ الخضرى[1]

تحوّل الكاتب إلى كتاب، ورجَع المفكّر إلى فكرة، وأصبح من كان يُدارسُ الناس وإذا هو درسٌ يُذكر أو يُنسى، وتناول التاريخ عالماً من علمائه، فجعله نبأ من أنبائه، وكان يبنيه فوضعه فى بنائه، وقيل مات الشيخ الخضرى !

آهٍ لو يرجع إنسان واحد من طريق الموت التى أولها هذه النقطة الصغيرة المسماة بالكرة الأرضية، وآخرها حيث تجد كلمة « الآخر » بلا معنى لامحدود ولا مظنون ! وآه لو استطعنا أن نتكلم عن الميت كأنه حىّ بيننا، ونحن كثيراً ما نتكلم عن الحىّ كأنه مات من زمن ! إنى لأكتب هذه الكلمات وكأنى أنظر إلى وجه أبى رحمهُ الله، وأشهد ذلك السمتَ العجيب، وذلك الوقار الذى يغمر النفس هيبةً وجلالا، وأستروِح ذلك الحب الذى هو أحد الطرق الثلاث المنتهية من الأرض إلى السماء، ومن المخلوق إلى الخالق، والمبتدئة من السماء إلى الأرض، ومن الخالق إلى المخلوق: طريق الأمّ، وطريق الأب، وطريق الإنسانية ؛ أكتب وكأن يداً من وراء المادة تمسح على قلبي فأجد ثقلةً وفترةً، وأستشعر حنيناً وشوقا، وأحسُّ هذا القلب ينازعنى إلى قوم ذهبوا بلا رجعة، وفارقوا بلا وداع، وغابوا عنا بلا خبر: دخلوا إلى أنفسنا ولا تحويهم، وخرجوا منها ولا تخلو منهم، فما دخلوا ولا خرجوا، وهذه هى الحيرة التى يتركها الميت العزيز للحى المتفجع كيما يعرف بأمواته ماهو الموت !

---

(١) المقتطف : مايو سنة ١٩٢٧

✡ ✡ ✡

كنا منذ بضع وثلاثين سنة فى مدينة المنصورة، وكان أبى يومئذ كبير قضاة الشرع فى ذلك الاقليم، فإنى لألعب ذات يوم فى بهو دارنا إذ طرق الباب، فذهبت أفتح فإذا أنا بشيخ لم يبلغ سنَّ العمامة (*) ولم أُميِّز من هيئته أهو طالب علم أو هو عالم، فكان حدثاً لكنه يتّسم بسمة الجد؛ ورأيتهُ لاتموج به الجبّة كالعلماءِ، غير أنها لاتمجهُ كالطلبة؛ وكان فى يده مجلد ضخم لو نطق لقال له: دعنى لمن هو أسنُّ منك! فما قدَّرته يزنُ عشرين مجلداً من مثلِه، ونظر إلىّ نظرة كأنى لاأزال أراها فى عينِه إلى الساعة، فسلمت عليه فقال: أين الشيخ؟ يعنى الوالد — قلت: خرج آنفاً؛ قال: فادفع إليه هذا الكتاب، وقل له جاءَ به الخضرى

ثم أغلقت الباب وانتحيت جانباً وفتحت المجلد، فإذا هو جزءٌ من التفسير الكبير للفخر الرازى، كان قد استعارهُ من مكتبتنا؛ وعرفت الشيخ من يومئذٍ، وكان أستاذاً للعربية فى مدرسة الصنائع، يضع كتاب النحو والصرف مع المطرقة والمنشار والقَدوم، فيذهب شىء فى شىء، وكأنه لايعلّم شيئاً؛ وقلما كنا نذكرهُ فى مدرستنا، إذ كان لنا شيخ فحل ثقة من رجال الأزهر، غير أن الخضرى كان له موضع فى كل مجلس، وكان يداخل قوما من الخاصة يعنون بالمسائل الاسلامية وفلسفتها وتقريبها من العامة والدهماء، وبإشارة من بعض هؤلاء وضع أول كتبه: «نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين»، ويكاد هذا الاسم يدل على وزن الأستاذ فى أول عهدهِ، وأنه لايزال وراء السجعة الآتية من القرون الأخيرة لم يمضِ على وجه ولم يُعرف بمذهب

✡ ✡ ✡

(*) كناية عن الحداثة وأنه شيخ بالمنظر لا بالسن

إن الذى يريد أن يقول قولا صحيحاً فى هذا الفقيه العالِم المؤرخ الأديب المربى ، يجب أن يرجع بتيارِه إلى منبعِه ليعرف مبلغ انبعاثِه وقوة جَرْيتِه ومدَّ عبابِه ؛ فما كان الخضرى شيئاً قبل أن يتعلق بمدار ذلك النجم الانسانى العظيم الذى أهدتهُ السماء إلى الأرض وسُمى فى أسمائها « محمد عبده » ، لقد أخرجته دار العلوم كما أخرجت الكثيرين ، ولكن دار علومِه الكبرى كانت أخلاق الأستاذ الامام وشمائلهُ وآراءَهُ وبلاغتهُ وهمة نفسِه . ألا إنه لابدّ من رجل واحد يكون هو الواحدَ الذى يبدأ منه العدد فى كل عصر ، وأنت فكيف تأملت الخضرى فاعلم أنك بإزاء معنى من معانى الشيخ محمد عبده ، على فرق مابين النفسين ، بل أنت من الخضرى كأنك ترى الشيخ سارياً فى مظهر من مظاهر الزمن

كان يحضر دروس الشيخ ، ويختلف إلى ناديه ، ويناقلهُ بعض الرأى ، ويعارض معه بعض الكتب التى كان يُرجع إلى الشيخ فى تصحيحها أو الإشراف على طبعها ؛ فنفذ الشيخ إلى نفسِه ووجد السبيل إلى الاستقرار فيها ، فهو من بعدُ حريصٌ على وقتِه ، مجد فى عملِه ، دائبٌ على طريقِه ، آخذ بالأخلاق الفاضلة ، مصلحٌ مُربٍّ غيور ؛ وكل ذلك فى سمت وهيبة ، وجزالة رأى ، وشرفِ همَّة ، وإخلاصِ حقِّ الاخلاص ؛ وما أرى فوضى عصرنا هذا وانحطاطهُ وإسفافهُ وسخافة قولهم جديد وقديم ، وجرىء ورجعى ، وحر وجامد — إلا من خلاء العصر وفراغِه من النفس الكبيرة ، وحاجتِه إلى إمام عظيم ؛ ومتى أصبحنا نضرب فى دائرة لامركز لها ، فهى المربع وهى المستطيل وهى كل شكل إلا أن تكون الدائرة ؛ والذين رأوا طاغور الشاعر الهندى المتصوف حين نزل بمصر ، ورأوا سحره وتحويله كل جديد مدةَ أيام إلى قديم ، وإخراسه هذه الألسنة عن نقدِهِ ومعارضتِه ، وعن معاندة الحق طيشاً ونزقاً وضلالا وتجديدا ... يستطيعون

أن يدركوا ما أومأنا إليه ، ويتبينوا السر فيما نحن فيه ، ويتمثلوا ما كان للشيخ محمد عبده فى عصره ، بل فى خلق عصره

٭ ٭ ٭

وانتهى الخضرى إلى مدرسة القضاء الشرعى ، فألف كتابهُ فى الأصول ، اختصر فيــه وهذّب وقارب ، فهو كتاب فى هذا العلم لا كتاب هذا العلم ، وأساتذة الأصول قوم آخرون لو أنت منهم مثل الشيخ الرافعى الكبير ، لرأيت البحر الذى يذهب فى ساحلهِ نصف طول الأرض ، وقد بَعث الخضرى على ذلك أن جماعة يومئذٍ كان منها صديقنا المرحوم حفنى ناصف ، والشيخ المهدى ، وغيرهما ، اجتمعوا على إبداع نهضة فى التأليف ، فذهب ثلاثة منهم بحصة الأدب ، وفرغ الخضرى للأصول ؛ أخبرنى بذلك حفنى بك رحمهُ الله ؛ ثم لمــا اختار القائمون على الجامعة المصرية القديمة صديقنا العلامة المؤرّخ جورجى زيدان لدرس التاريخ الاسلامى فيها ، طار الخبر فى الأمة بأنهم اختاروا القنبلة ... وشعر الناس بمعنى الهدم قبل أن يتهدم شىء ، فاضطرت الجامعة إلى أن تنحّيهُ ، وعهدت فى الدرس إلى الأستاذ الخضرى ، فألقى دروسه التى جمعها فى كتابه (تاريخ الأمم الاسلامية) ، وقال فى مقدمة هذا الكتاب : « أرجو أن أكون قد وفقت لتذليل صعوبة كبرى ، وهى صعوبة استفادة التاريخ العربى من كتبهِ » ؛ نقول : وعلى أن الشيخ أحسن فى كتابهِ ، وجاء بمادة غزيرة من فكره ورأيهِ ، وبسط واختصر ، وباعد وقرّب ، فإن كلمتهُ هذه إما أن تكون أكبر من التاريخ أو أكبر من كتابهِ

وردَّ فى السنة المــاضية على كتاب الشعر الجاهلى للدكتور طه حسين ، وكان ردُّه خطاباً أراد أن يحاضر به طلبة الجامعة ، لأنه أستاذ أستاذهم : فكأنه أراد جعل أستاذهم هذا تلميذا معهم ، وأبت عليه الجامعة ما أراد ، ولعلها فطنت إلى

هذا الغرض ؛ ولما علم أنى شرعت فى طبع ردّى على الدكتور طه[1] ، كلمنى فى استلحاق مقالِه وجعلِه ذيلا فى الكتاب ، وقدّرناه يومئذ فى نحو خمسين صفحة أو دونها ، وقد سألتهُ أن ينفى منه ما كان فى مقادير الرصاص ويقتصر على ما هو فى وزن القنابل ، فقال : « كله قنابل » ! ثم اتسع كتابى وجاوز مقدارُه إلى الضعف ، فوسّع هو ردّه وزاد فيه وطبعهُ فى قريب من ضعفِه على حدة

دع كتابهُ المشهور (مهذب الأغانى) ، فهذا لا يقال إن الشيخ ألفهُ ، بل ألفته خمس عشرة سنة ؛ وأظن كل ذلك لا يُذكر فى جنب الكتاب الذى كان يعمل فيه أخيراً ، وهو كتاب « الأدب المصرى » ، أخبرنى أنه فى جزءين ودعانى إلى دارِه لأرى (المكتبة الخضرية) ؛ ولأطلع على هذا الكتاب ، فوعدتهُ ولم يُقدر لى ؛ وقد حدثنى أنه معنىّ أشد العناية باستجماع الفروق التى يمتاز بها الأدب المصرى عن الأدب الحجازى والشامى والعراقى والأندلسى ، وأنه أصاب من ذلك أشياء متميزة منذ الدولة الطولونية ، يحق لمصر أن تقول فيها هذا أدبى ؛ وكان يكتم خبر هذا الكتاب ، حتى إن صديقنا الأستاذ حافظ بك عوض صاحب جريدة كوكب الشرق ، اقترح عليه أن يكتب فصلا فى الشعراء المصريين وأدبهم يعقدُه لكتاب حفلة تكريم شوقى بك ؛ ثم لقيهُ بعد ذلك فقال له الشيخ : إن البحث سائر على أحسن وجوهِه !

☼ ☼ ☼

كان الخضرى يفرح للقائى ويهش لى ، وكنت أتبين فى وجهه أشعة روحِه الصافية ، ولعله كان يرى بى فى نفسه ذلك الشيخ الذى أعطانى المجلد ، كما كنت أرى به فى نفسى ذلك التلميذ الذى أخذ المجلد منه ! على أن مرجع ذلك فى الحق إلى سعة صدرِه ، وفسحة رأيه ، وبسطة ذرعِه ، وسمو أدبه وإنصافِه ؛ فلا يحقد ولا يحسد ، ولا يتجاوز قدرهُ ، ولا ينزل بأحد عن قدرِه ، ولا يدعى مالا

(١) المعركة تحت راية القرآن .

يحسن ؛ وقد عرف قراء المقتطف مثلا من أخلاقِه هذه أو أكثرها حين انتقدهُ صديقنا الأستاذ عبد الرحيم بن محمود ، وتناول الجزء الأول من كتابه (مهذب الأغانى) وراح يتقلقل له كجلود صخر ... فوسِعهُ الشيخ وعنى به ورد عليه فى المقتطف ، ونعتهُ بالأستاذ الجهبذ وانتصف منه ، وأنصفهُ معاً .

ولقد اقترحت عليه مرة أن يضع كتاباً فى حكمة التشريع الإسلامى وفلسفتِه ، فقال لى : « مُشْ قَدَّهْ » يعنى أن العمل أكبر منه ، ولكن هذا نبههُ إلى وضع كتابِه فى تاريخ التشريع الاسلامى

ولما أصدرت الجزء الأول من (تاريخ آداب العرب) فى سنة ١٩١١ ، لم أهده إلى الشيخ ، فاشتراه وقرأهُ ، ثم لقيتهُ وسألته رأيهُ فيه ، فقال : (جدًّا كويس) فكان تقديم (جدّاً) تقريظاً ، و (كويس) تقريظاً آخر ؛ وهو يقول هذا على حين كان بعض إخوانِه الشيوخ يكاد يموت غمًّا بهذا الكتاب وما كتب عنه ، وعلى حين كلمنى بعضهم مرتين فى ترك هذا العمل ونفض يدى منه ، لأنه — زعم — عملٌ شاق بلا فائدة ...

وقد زرت الأستاذ الخضرى فى وزارة المعارف فى السنة الماضية ، فبعد أن جلست إلى جانبه نهض مرة ثانية وجعل يثبتنى بقوة فى الكرسى ، كأنه لم يطمئن بعد إلى أنى جلست ، ثم فاض بكلام كثير ، فكان فيما قاله : « أنا الآن أعيش فى غير زمنى ! » وكأنما كان ينعى إلىَّ نفسه بهذه الكلمة من حيث لا يدرى ولا أدرى ؛ وقال لى إنه يجلس إلى مكتبه فى كل يوم ست ساعات ، يقرأ أو يؤلف أو ينسخ ؛ لأن كل كتبه المخطوطة هو ناقلها وناسخها ومصححها ، وأنه يتلو كل يوم أربعة أجزاء من القرآن الكريم ، قال : ولا يعتريه البرد ولا مرض من أمراضه ، لما اعتاد من رياضة صدره بهذه التلاوة ، وقال : إن كل ما هو فيه إنما هو من بركة القرآن .

✡ ✡ ✡

ولنمسك عند هذا الحد؛ فإن للذكرى غمزاً على القلب؛ وبالجملة فقد كان رحمه الله عالماً كالكتّاب، وكاتبا كالعلماء؛ فهو من هؤلاء وأولئك يلف الطبقتين، وهو وحده منزلة بين المنزلتين؛ وبذلك تميَّز؛ وظهر، فإنه فى إحدى الجهتين عقل جرىء تمدُّهُ رواية واسعة فى علوم مختلفة، فتراه يبعث من عقله الحياة إلى الماضى حتى كأنه لم يمض، وهو فى الجهة الأخرى علم مستفيض لا يقف عند حد الصحيفة أو الكتاب، بل لايزال يلتمس له عقلا يخرجه ويتصرّف به، حتى يكبر عن أن يكون قديماً بحتاً فينتظم الحاضر إلى ماضيه ويطلقهما إطلاقاً واحدا. لم يكن الشيخ جديداً إلا بالقديم، ولا قديماً إلا بالجديد؛ فإننا لانعرف قديماً محضاً ولا جديداً صِرْفاً. ولا نقيم وزن أحدهما إلا بوزن من الآخر إذا أردنا بهما سنَّة الحياة: وأنت لن تجد حيًّا منقطعاً عما وراءهُ، بل أنت ترى الطبيعة قيدت كل حيٍّ جديد إلى أصلين من القديم لا أصل واحدٍ هما أبواهُ فمنهما يأتى ومنهما يستمد وهما أبدا فيه وإن كان على حدة: وبعد فلو جاريت السخافة العصرية المشهورة لقلت إن المذهب القديم... قد انهدّ ركن من أركانه، ونقص قنطار كتب من ميزانه؛ ولكن هذه السخافة فى رأيى كما ترى من جماعة ائتَلَوْا أن يطفئوا نجما فى السماء لأنه قديم، فاتفقوا على ذلك وأجمعوه بينهم وفرغوا من أمره، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون كيف يهيئون العربات والمضخات التى تحمل إلى السماء بضعة أبحر ليصبُّوها على النجم ...

رأي جديد

فى كتب الأدب القديمة [1]

أدبُ الكاتب لابن قُتيبة من الدواوين الأربعة التى قال ابن خلدون فيها من كلامه على حدّ علم الأدب : « وسمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أصولَ هذا الفن وأركانَه أربعةُ دواوين : وهى أدبُ الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرّد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى البغدادى ؛ وما سوى هذه الأربعة فتبعٌ لها وفروع عنها » .

وقد يظن أُدباءُ عصرنا أن كلمة ابن خلدون هذه كانت تصلح لزمنه وقومه ، وأنها تتوجّه على طريقة من قبلهم فى طبقة بعد طبقة إلى أصول هذه السلسلة التى يقولون فيها حدثنا فلان عن فلان إلى الأصمعى أو أبى عُبيدة أو أبى عمرو ابن العلاءِ وغيرهم من شيوخ الرواية ونَقَلَة اللغة ، ولكنها لا تستقيم فى آدابنا ولا تُعد من آلاتنا ولا تقع من معارفنا ؛ بل يكاد يذهب من يَتَغَرَّرُ منهم بالآراءِ الأوروبية التى يسميها عِلمَه ... ومن يَسْتَرسِلُ إلى التقليد الذى يسميه مذهبَهُ ... إلى أن تلك الكتب وما جرى فى طريقتها هى أمواتٌ من الكتب ، وهى قبورٌ من الأوراق ، وأنه يجب أن يكونَ بيننا وبينها من الإهمال أكثرُ مما بينها وبيننا من الزمن ، وأن بعث الكتاب منها وإحياءَه يُوشِك أن يكونَ كبعثِ الموتى : علامةً على خراب الدنيا ...

وأما أن يكونَ ذلك علامة على خراب الدنيا ، فهو صحيح إذا كانت الدنيا

---

(١) كتبت مقدمة لشرح الجواليقى على أدب الكاتب لابن قتيبة

هى محرر جريدة ... من أمثال أصحابنا هؤلاء ، وأما تلك الكتب فأنا أحسبها لم توضع إلا لزمننا هذا ولأدبائه وكتّابه خاصةً ، وكأن القدرَ هو أثبتَ ذلك القولَ فى مقدمة ابن خلدون لينتهى بنصّه إلينا فنستخرج منه ما يقيمنا على الطريقة فى هذا العصر الذى وقع أدباؤه فى متّسعٍ طويلٍ من فنونِ الأدب ومُضطرَبٍ عريضٍ من مذاهب الكتابةِ وأُفقٍ لا تستقرُّ حدودُه من العُلوم والفلسفة ... فإن هذه المادةَ الحافلةَ من المعانى تحيي آدابَ الأمم فى أوربا وأمريكا ، ولكنها تكاد تطمسُ آدابنا وتمحقنا محقاً تذهبُ فيه خصائصُنا ومقوّماتنا ، وتحيلنا عن أوضاعنا التاريخية ، وتفسد عقولَنا ونزعاتِنا ، وترمى بنا مرَامِيَها بين كل أمة وأمة ، حتى كأنْ ليست منّا أمة فى حيّزها الإنسانى المحدود من ناحيه بالتاريخ ومن ناحية بالصفات ومن ناحية بالعلوم ومن ناحيه بالآداب ؛ ومن ذلك ابتُلِيَ أكثر كُتابنا بالانحراف عن الأدب العربى أو العصبية عليه أو الزراية له ، ومنهم من تحسبه قد رُمِيَ فى عقلِهِ لِهَوَسه وحماقته ، ومنهم مَن كأنه فى حِقْدِهِ سُلِخ قلبُه ، ومنهم المُقلد لا يدْرى أعلى قَصْدٍ هو أم جَوْر ، ومنهم الحائر يذهب فى مذهب ويجىء من مذهب ولا يتجه لقصد ، ومنهم من هو منهم وكفى ...

وقلّما تَنَبَّه أحدٌ إلى السبب فى هذا ؛ والسببُ فى حقارته وضعفه «كالمكروب» : بذرةٌ طامِسة لا شأن لها ، ولكن متى تنبتْ تُنبتْ أوجاعاً وآلاماً وموتاً وأحزاناً ومصائبَ شتّى

السببُ أن أولئك الأدباء كلّهم ثم مَن يَتَشَيَّع لهم أو يأخذ برأيهم ، ليس منهم واحد تُرَى فى أساسه الأدبى تلك الأصول العربيةُ المحضَة القائمة على دراسة اللغة وجمعها وتصنيفها وبيان عِللها وتصاريفِها ومَطارح اللسان فيها ، والمتأَديةُ بذلك إلى تمكين الأديب الناشئ من أسرارِ هذه اللغة وتطويعها له ،

فيكون قَيِّما بها وتكون هيَ مُسْتجيبة لقلمه جارية في طبيعته مسَددَة في تَصرفه ، حتى إذا نشأ بها واستحكم فيها أحسَنَ العملَ لها وزاد في مادَّتِها وأخذَ لها من غيرها وكان خليقاً أن يَمدّ فيها ويحسِن الملاءمه بينها وبين الآداب الأخرى ويجعل ذلك نَسْجاً واحداً وبياناً بعْضه من بعضِه، فيَنْمو الأدب العربي في صَنِيعه كما تنمو الشجرةُ الحية : تأخذ من كل ماحولها لعُنْصُرِها وطبيعَتها وليس إلا عنصرُها وطبيعتُها حَسْب

إن أدب الكاتب وشرحه هذا الإمام الجواليق (*) وما صُنِّفَ من بابهما على طريقَة الجمع من اللغة والخبر وشعْر الشواهد والاستقصاءِ في ذلك والتبَسُّط في الوجوهِ والعِلَل النحوية والصرفية والامعانِ في التحقيق ، كلُّ ذلك عمل ينبغي أن يعرفَ على حقه في زَمَننا هذا؛ فهو ليس أدباً كما يُفْهم من المعنى الفلسفي لهذه الكلمة ، بل هو أبعد الأشياءِ عن هذا المعنى؛ فإنك لاتجد في كتاب من هذه الكتب إلا التأليف الذي بين يديك ، أما المؤلف فلا تجده ولا تعرفه منها إلا كالكلمة المحبوسة في قاعدة ... وكأنه لم يكن فيه روح إنسان بل روحُ مادَّة مُصْمَته، وكأنه لم ينْشأ ليعملَ في عصرِه بل ليعمَلَ عصرُه فيه ، وكأنْ ليس في الكتاب جهة إنسانية متعيِّنَة ، فثمَّ تأليف ولكن أين المؤلف ؟ وهذا كتابُ ابن قتيبة ولكن أين ابن قتيبة فيه ؟

وما أخطأ المتقَدمون في تسْمِيَتهم هذه الكتب أدبًا ؛ فذلك هو رسمُ الأدب في عصرِهم، غير أن هذا الرسم قد انتقَل في عصرنا نحن، فإنا نحن المخطئون اليوم في هذه التسمية، كما لو ذهبنا نسمي الجمل في البادية الاكسبريس ،

(*) الجواليق : جمع شاذ لجوالق ، وقد نسب هذا الإمام إلى عمل الجوالق وبيعها ؛ وهذا الجمع ليس بينه وبين واحده الا الحركة ، فالمفرد جوالق (بضم الجيم) والجمع بالفتح ؛ ومثله ألفاظ أحصوها: كلاحل ، وعدامل ، وخثارم ، وغيرها

والْهَوْدَج عربة بولمان .

ومن هذا الخطأ فى التسمية ظهر الأدب العربى لقصار النظر كأنه تكرار عصر واحد على امتداد الزمن، فإن زاد المتأخر لم يأخذ إلا من المتقدم؛ وصارت هذه الكتب كأنها فى جملتها قانون من قوانين الجنسية نافذٌ على الدهر، لا ينبغى لعصر يأتى إلا أن يكون من جنس القرن الأول .

هذه الكتب من هذه الناحية كالخلّ : يسمى لك عسلا ثم تذوقه فلا يجنى عليه عندك إلا الاسم الذى زوِّرَ له ؛ أما هو فكما هو فى نفسه وفى فائدته وفى طبيعته وفى الحاجة إليه، لا ينقص من ذلك ولا يتغير .

الحقيقة التى يعيِّنها الوضع الصحيح أن تلك المؤلفات إنما وُضعت لتكون أدباً، لا من معنى أدب الفكر وفنه وجماله وفلسفته، بل من معنى أدب النفس وتثقيفها وتربيتها وإقامتها، فهى كتب تربية لغوية قائمةٌ على أصول محكمة فى هذا الباب ، حتى ما يقرؤها أعجمى إلا خَرج منها عربيا أو فى هوَى العربية والميل إليها ؛ ومن أجل ذلك ُبنيت على أوضاع تجعل القارئ المتبصر كأنما يصاحب من الكتاب أعرابيا فصيحاً يسأله، فيجيبه ويستهديه فيرشده ؛ ويخرِّجه الكتاب تصفحاً وقراءة كما تخرّجه البادية سماعاً وتلقينا ؛ والقارئ فى كل ذلك مُسْتَدْرَجٌ إلى التعريب فى مَدْرجةٍ مدرجةٍ من هوى النفس ومحبتها، فتصنع به تلك الفصول فيما دُبِّرت له مثلما تصنع كتب التربية فى تكوين الخلُق بالأساليب التى أُديرت عليها والشواهدِ التى وضعت لها والمعالم النفسية التى فصِّلَتْ فيها .

ومن ثَم جاءت هذه الكتب العربية كلها على نَسق واحد لا يختلف فى الجملة ، فهى أخبار وأشعار ولغةٌ وعربية وجمع وتحقيق وتمحيص ، وإنما تتفاوت بالزيادة والنقص والاختصار والتبسُّط والتخفيف والتثقيل ونحو

ذلك مما هو فى الموضوع لا فى الوضع ، حتى ليخيل إليك أنّ هذه كتب جغرافية للغة وألفاظها وأخبارها ؛ إذ كانت مثل كتب الجغرافية : متطابقة كلها على وصف طبيعةٍ ثابتة لا تتغير معالمها ولا يخلق غيرَها إلا الخالقُ سبحانه وتعالى .

وإذا تدبرتَ هذا الذى بيّنّاه لم تعجب كما يعجب المتطفلون على الأدب العربى والمتخبطون فيه من أن يروا إيمان المؤلفين متصلا بكتبهم ظاهر الأثر فيها ، وأنهم جميعاً يقررون أنما يريدون بها المنزلة عند الله فى العمل لحياطة هذا اللسان الذى نزل به القرآن الكريم وتأديته فى هذه الكتب إلى قومهم كما تُؤَدَّى الأمانة إلى أهلها ، حتى لولا القرآن لما وُضع من ذلك شىء ألبتة .

وأنا أتلمَّح دائماً العاملَ الإلهى فى كل أطوار هذه اللغة ، وأراه يُديرها على حفظ القرآن الذى هو معجزتها الكبرى ، وأرى من أثره مجىء تلك الكتب على ذلك الوضع ، وتسخير تلك العقول الواسعة من الرواة والعلماء والحفاظ جيلا بعد جيل فى الجمع والشرح والتعليق بغير ابتكار ولا وضع ولا فلسفة ولا زيْغ عن تلك الحدود المرسومة التى أومأنا إلى حكمتها ؛ فلو أنه كان فيهم مجددون من طراز أصحابنا من أهل التخليط ، ثم تُرك لهم هذا الشأن يتولونه كما نرى بالنظر القصير والرأى المعاند والهوى المنحرف والكبرياء المصممة والقول على الهاجس والعلم على التوهم ومجادلة الأستاذ حيص للأستاذ بيص ... إذن لضرب بعضهم وجه بعض وجاءت كتبهم متدابرة ، ومُسخ التاريخ وضاعت العربية وفسد ذلك الشأن كله ، فلم يتسق منه شىء .

ومما تردُّه على قارئها تلك الكتب فى تربيته للعربية ، أنها تُمكِّن فيه

للصبر والمعاناة والتحقيق والتورُّك فى البحث والتدقيق فى التصفُّح ، وهى الصفات التى فقدها أُدَباءُ هذا الزمن ، فأصبحوا لا يتثبَّتون ولا يُحققون ، وطال عليهم أن ينظروا فى العربية ، وثَقل عليهم أن يستبطنوا كتبها ؛ ولو قد تربَّوا فى تلك الأسفار وبذلك الأسلوب العربى لتمَّت الملاءمة بين اللغة فى قوتها وجزالتها وبين ما عسى أن ينكره منها ذوقهم فى ضعفه وعاميته وكانوا أحقَّ بها وأهلها .

وذلك بعينه هو السر فى أن من لا يقرءون تلك الكتب أول نشأتهم ، لا تراهم يكتبون إلا بأسلوبٍ منحط ، ولا يجيئون إلا بكلام سقيم غثّ ، ولا يرون فى الأدب العربى إلا آراء مُلْتَوِيَة ؛ ثم هم لا يستطيعون أن يُقيموا على درس كتاب عربى ، فيُساهِلون أنفسهم ويحكمون على اللغة والأدب بما يشعرون به فى حالتهم تلك ، ويتورَّطون فى أقوال مضحكة ، وينسون أنه لا يجوز القطع على الشىء من ناحية الشعور مادام الشعور يختلف فى الناس باختلاف أسبابه وعوارضه ، ولا من ناحية يجوز أن يكون الخطأ فيها ؛ وهم أبداً فى إحدى الناحيتين أو فى كلتيهما .

✡ ✡ ✡

وهذا شرح الجواليقى من أمتع الكتب التى أشرنا إليها ، وصاحبه هو الإمام أبو منصور موهوب الجواليقى المولود فى سنة ٤٦٥ للهجرة ، والمتوفى سنة ٥٤٠ ، وهو من تلاميذ الإمام الشيخ أبى زكريا الخطيب التبريزى ؛ أول منَ درس الأدب فى المدرسة النظامية ببغداد (*) وقرأ الجواليقى على شيخه هذا سبع عشرة سنة ، استوفى فيها علوم الأدب من اللغة والشعر والخبر والعربية بفنونها ، ثم خلف شيخه على تدريس الأدب فى النظامية بعد على بن

(*) أنشأها نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقى المتوفى سنة ٤٨٥ هـ

أبي زيد المعروف بالفصيحي (*)

وما نشك أن هذا الشرح هو بعض دروسه فى تلك المدرسة ، فأنت من هذا الكتاب كأنك بإزاء كرسى التدريس فى ذلك العهد ، تسمع من رجل انتهت إليه إمامةُ اللغة فى عصره ، فهو مدقق محيط مبالغ فى الاستقصاء ، لا يَندُّ عنه شىء مما هو بسبيله من الشرح ، معنىّ بالتصريف ووجوهه مما انتهى إليه من أثر الامام ابن جنى فيلسوف هذا العلم فى تاريخ الأدب العربى ، فإن بين الجواليقى وبينه شيخين كما تعرف من إسناده فى هذا الشرح

وقد قالوا إن أبا منصور فى اللغة أمثلُ منه فى النحو ، على إمامتِه فيهما معاً ؛ إذ كان يذهب فى بعض علل النحو إلى آراء شاذة ينفرد بها ، وقد ساق منها عبدالرحمن الأنبارى مثلين فى كتابه نزهة الألبّاءِ ، ولكن هذا الشذوذ نفسه دليل على استقلال الفكر وسعته ومحاولته أن يكون فى الطبقة العليا من أئمة العربية (**) وهو على ذلك رجل ثقة صدوق كثير الضبط عجيب فى التحري والتدقيق ؛ حتى كان من أثر ذلك فى طباعه أن اعتاد التفكير وطولَ الصمت فلا يقول قولا إلا بعد تدبُّر وفكر طويل ، فان لم يهتد إلى شىء قال لا أدرى ، وكثيرا ما كان يُسأل فى المسئلة فلا يجيب إلا بعد أيام

وكان ورِعاً قوىّ الإيمان ، انتهى به إيمانه وعلمه وتقواه إلى أن صار

(*) لقب بذلك لكثرة إعادته كتاب الفصيح فى اللغة

(**) قال ياقوت فى ترجمة أبى على الفارسى من معجم الأدباء : قرأت بخط الشيخ أبى محمد الخشاب : كان شيخنا (يعنى الجواليقى) قلما يتنبل عنده ممارس للصناعة النحوية ولو طال فيها باعه ، مالم يتمكن من علم الرواية وما تشتمل عليه من ضروبها ، ولاسيما رواية الأشعار العربية وما يتعلق بمعرفتها من لغة وقصة ؛ ولهذا كان مقدما لابن سعيد السيرافى على أبى على الفارسى رحمهما الله ، ويقول : أبو سعيد أروى من أبى على ، وأكثر تحققا منه بالرواية وأثرى منه فيها

أستاذ الخليفة المقتفى لأمر الله ، فاختص بإمامته فى الصلوات ، وقرأ عليه المقتفى شيئاً من الكتب ، وانتفع بذلك وبان أثره فى توقيعاته كما قالوا .

والذى يتأمل هذا الشرح فضلَ تأمُّل يرى صاحبه كأنما خلقه الله رجلَ إحصاء فى اللغة ، لا يفوته شىء مما عرف إلى زمنه : وهو ولا ريب يجرى فى الطريقة الفكرية التى نهجها ابن جنى وشيخه أبو على الفارسى ؛ ومن أثر هذه الطريقة فيه أنه لا يتحجَّر ولا يمنع القياس فى اللغة ، ويُلحق ما وضعه المتأخرون بما سُمع من العرب ، ويروى ذلك جميعه ويحفظه ويلقيه على طلبته ؛ ومن أمتع ما جاء من ذلك فى شرحه قوله فى صفحة ٢٢٥ ، وهو باب لم يستوفه غيره ولا تجده إلا فى كتابه ، وهذه عبارته :

قولهم : يدى من ذلك فَعِلة : المسموع منهم فى ذلك ألفاظ قليلة ، وقد قاس قوم من أهل اللغة على ذلك فقالوا : يدى من الإهالة سَنِخَة ، ومن البيض زَهِمَة ، ومن التراب تَرِبَة ، ومن التين والعنب والفواكه كَتِنة وكمِدة ولَزِجة ، ومن العشب كَتِنة أيضاً ، ومن الجبن نَسِمَة ، ومن الجِصّ شَهِرة ، ومن الحديد والشَّبه والصُّفْر والرصاص سَهِكة وصدِئة أيضاً ، ومن الحمأة رَدِغَة ورَزِغَة ، ومن الخضاب رَدِعة ، ومن الحنطة والعجين والخبز نَسِغَة ، ومن الخل والنبيذ خَمِطَة ، ومن الدبس والعسل دَبِقة ولَزِقة أيضاً ، ومن الدم شَحِطَة وشَرِقَة ، ومن الدهن زَنِخَة ، ومن الرياحين ذَكِية ، ومن الزهر زهِرَة ، ومن الزيت قَنِمَة ، ومن السمك سَهِكة وصَمِرة ، ومن السمن دَسِمَة ونَسِمَة ونَمِسة ، ومن الشهد والطين لثِقَة ، ومن العِطْر عَطِرة ، ومن الغالية عَبِقَة ، ومن الغسلة والقِدر وحِرَة ، ومن الفرصاد قَنِئَة ، ومن اللبن وَضِرَة ، ومن اللحم والمرق غَمِرة ، ومن الماء بَلِلَة وسَبِرَة ، ومن المسك ذَفِرة وعبقة ، ومن النَّتن قَنِمَة ، ومن النفط جَعِدة . انتهى .

فالمسموع من هذه الألفاظ عن العرب لا يتجاوز سبعاً فيما نرى، والباقى كله أجراه علماء اللغةِ وأهل الأدب على القياس، فأبدع القياس منها أربعاً وثلاثين كلمة؛ ولو تدبرت كيفية استخراجها ورجعت إلى الأصول التى أخذت منها لأيقنت أن هذه العربية هى أوسع اللغات كافة، وأنها من أهلها كالنبوة الخالدة فى دينها القوى: تنتظر كلَّ جيل يأتى كما ودَّعت كل جيلٍ غَبَرَ لأنها الإنسانية، لهؤلاء وهؤلاءِ.

إن ظهور مثل هذا الشرح كالتوبيخ لأكثر كتاب هذا الزمن أنِ اقرءوا وادرسوا وخصوا لغتكم بشطر من عنايتكم، وتربَّوا لها بتربيتها فى مدارسكم ومعاهدكم، واصبروا على معاناتها صبر المحب على حبيبته. فإن ضعفتم فصبرَ البارِّ على من يلزمه حقُّه؛ فإن ضعفتم عن هذا فصبر المتكلفِ المتجمّل على الأقل!

أمير الشعر في العصر القديم (1)

الوجه في إفراد شاعر أو كاتب من الماضين بالتأليف ، أن تصنعَ كأنك تُعيده إلى الدنيا في كتاب وكان إنساناً ، وتُترجمُه درساً وكان عمراً ، وتردُّه حكاية وكان عملا ، وتنقلهُ بزمنه إلى زمنك ، وتعرضه بقومه على قومك ، حتى كأنه بعد أن خلقه الله خِلقة إيجادٍ يخلقه العقل خلقة تفكير

من أجل ذلك لابد أن يتقصَّى المؤلف في الجمع من آثار المترجم وأخباره ، وأن يحمل في ذلك من العنت مايحمله لوهو كان يجرى وراء مَلَكَيْ من يترجمه لقراءة كتاب أعماله في يديهما ... ولا بدَّ أن يبالغ في التمحيص والمقابلة ، ويدقق في الاستنباط والاستخراج ، ويضيف إلى عامة ماوجد من العلم والخبر خاصة ماعنده من الرأى والفكر ، ويعمل على أن ينقح ما انتهى إليه الماضى في أدبه وعلمه بما بلغ إليه الحاضر في فنّه وفلسفته ؛ وذلك من عمل العقل المتجدد أبدا والمترادف على هذه الحياة بمذاهبه المختلفة ، يشبه عمل الدهر المتجدد أبداً والمترادف بالليل والنهار على هذه الأرض ، كل نهار أو ليل هو آخر وهو أول ، وكذلك العقول كلها آخر من ناحية وأول من ناحية

والتجديد في الأدب إنما يكون من طريقتين : فأما واحدة فإبداع

---

(1) [المقتطف] : وضع الأديب محمد صالح سمك رسالة قيمة في امرئ القيس «أمير الشعر في العصر القديم» تقع في نحو مائتين وخمسين صفحة ، سلك فيها مسلكا طريفاً ، وحلاها بمقدمة بليغة للاستاذ الجليل مصطفى صادق الرافعى ، فخص المؤلف المقتطف بنشر المقدمة وبعض أبحاث الرسالة فيها طبقاً لرغبتنا

الأديب الحى فى آثار تفكيره بما يخلق من الصور الجديدة فى اللغة والبيان، وأما الأخرى فإبداع الحى فى آثار الميت بما يتناولها به من مذاهب النقد المستحدثة وأساليب الفن الجديدة؛ وفى الابداع الأول إيجاد مالم يوجد، وفى الثانى إتمام مالم يتم؛ فلا جرم كانت فيهما معاً حقيقة التجديد بكل معانيها، ولا تجديد إلا من ثمة، فلا جديد إلا مع القديم

وإذا تبينت هذا وحققته أدركت لماذا يتخبط منتحلو الجديد بيننا وأكثرهم يدّعيه سفاهاً ويتقلده زوراً، وجملة عملهم كوضع الزنجى الذّرور الأبيض (البودرة) على وجهه ثم يذهب يدعى أنه خرج أبيضَ من أمه لامن العلبة ...... فإن منهم من يصنع رسالة فى شاعر وهو لايفهم الشعر ولا يحسن تفسيره ولا يجده فى طبعه، ومنهم من يدرس الكاتب البليغ وقد باعده الله من البلاغة ومذاهبها وأسرارها، ومنهم من يجدد فى تاريخ الأدب ولكن بالتكذّب عليه والتقحّم فيه والذهاب فى مذهب المخالفة، يضرب وجه المقبل حتى يجىء مدبرا، ووجه المدبر حتى يعود مقبلاً، فإذا لكلّ طريق جديد، وينسى أن جديده بالصنعة لا بالطبيعة وبالزور لا بالحق

ألا إنّ كل من شاء استطاع أن يطبّ لكل مريض، لا يكلفهُ ذلك إلا قولًا يقوله وتلفيقاً يدبرهُ، ولكن أكذلك كل من وصف دواء استطاع أن يشفى به؟

وبعد فقد قرأت رسالة امرئ القيس التى وضعها الأديب السيد محمد صالح سمك، فرأيت كاتبها — مع أنه ناشئٌ بعد — قد أدرك حقيقة الفن فى هذا الوضع من تجديد الأدب، فاستقام على طريقة غير ملتوية، ومضى فى المنهج السديد ولم يدع التثبت وإنعام النظر وتقليب الفكر وتحصين الرأى، ولا قصّر فى التحصيل والاطلاع والاستقصاء، ولا أراهُ قد فاته إلا

مالابد أن يفوت غيرَه مما ذهب فى إهمال الرواة المتقدمين وأصبح الكلام فيه من بعدهم رجما بالغيب وحكما بالظن

فإن امرأ القيس فى رأيى إنما هو عقلٌ بيانى كبير من العقول المفردة التى خَلقت خلقَها فى هذه اللغة ، فوضع فى بيانها أوضاعا كان هو مبتدعَها والسابق إليها ، ونهجَ لمن بعده طريقتها فى الاحتذاء عليها والزيادة فيها والتوليد منها ؛ وتلك هى منقبته التى انفرد بها والتى هى سر خلودِه فى كل عصر إلى دهرنا هذا وإلى مابقيت اللغة ؛ فهو أصل من الأصول فى أبواب من البلاغة كالتشبيه والاستعارة وغيرهما ، حتى لكأنهُ مصنع من مصانع اللغة لارجل من رجالها ؛ وكما يقال فى زمننا فى أمم الصناعة : سيارة فورد وسيارة فيات ، يمكن أن يقال مثل ذلك فى بعض أنواع البلاغة العربية : استعارة امرئ القيس ، وتشبيه امرئ القيس

ولكن تحقيق هذا الباب وإحصاء ماانفرد به الشاعر وتأريخ كلماته البيانية مما لايستطيعه باحث وليس لنا فيه إلا الوقوف عند ماجاءَ به النص

ولقد نبهنا فى (إعجاز القرآن) إلى مثل هذا ؛ إذ نعتقد أن أكثر ماجاء فى القرآن الكريم كان جديداً فى اللغة ، لم يوضع من قبلهِ ذلك الوضع ولم يجر فى استعمال العرب كما أجراهُ ، فهو يصب اللغة صبًّا فى أوضاعه لأهلها لافى أوضاع أهلها ؛ وبذلك يحقق من نحو ألف وأربعمائة سنة مالا نظن فلسفة الفن قد بلغت إليه فى هذا العصر ؛ إذْ حقيقة الفن على مانرى أن تكون الأشياء كأنها ناقصة فى ذات أنفسها ليس فى تركيبها إلا القوة التى بنيت عليها ، فإذا تناولها الصَّنِعُ الحاذق الملهم أضاف إليها من تعبيره ما يُشعرك أنه خاق فيها الجمال العقلى ، فكأنها كانت فى الخلقة ناقصة حتى أتمها

وهذا المعنى الذى بيَّنّاه هو الذى كان يحوم عليه الرواة والعلماء بالشعر قديماً ،

يُحِسُّونه ولا يجدون بيانه وتأويله ، فترى الأصمعي مثلا يقول فى شعر لبيد : إنه طيلسان طَبَرِى . أى محكم متين ولكن لارونق له : أى فيه القوة وليس فيه الجمال : أى فيه التركيب وليس فيه الفن

والعقل البيانى كما قلنا فى غير هذه الكلمة ، هو ثروة اللغة ، وبه وبأمثاله تعامل التاريخ ، وهو الذى يحقق فيها فنَّ ألفاظها وصورها : فهو بذلك امتدادها الزمنى وانتقالها التاريخى وتخلُّقها مع أهلها إنسانيةً بعد إنسانية فى زمن بعد زمن ، ولا تجديد ولا تطور إلّا فى هذا التخلق متى جاء من أهله والجديرين به ؛ وهو العقل المخلوق للتفسير والتوليد وتلقِّى الوحى وأدائه واعتصار المعنى من كل مادة وإدارة الأسلوب على كل مايتصل به من المعانى والآراء ، فينقلها من خلقتها وصيغها العالمية إلى خَلاق إنسان بعينه ، هو هذا العبقرىّ الذى رُزق البيان

وللسبب الذى أومأنا إليه بقى امرؤ القيس كالميزان المنصوب فى الشعر العربى يبين به الناقص والوافى ؛ قال الباقلانى فى كتابه (الإعجاز) : وقد ترى الأدباء أولا يوازنون بشعره (يريد امرأ القيس) فلاناً وفلاناً ويضمون أشعارهم إلى شعره ، حتى ربما وازنوا بين شعر من لقيناه (توفى الباقلانى سنة ٤٠٣ للهجرة) وبين شعره فى أشياء لطيفة وأمور بديعة ، وربما فضلوهم عليه أو سوّوا بينهم وبينه أو قربوا موضع تقدمه عليهم وبروزه بين أيديهم . اه

ومعنى كلامه أن امرأ القيس أصل فى البلاغة ، قد مات ولا يزال يخلق ، وتطوّرت الدنيا ولايزال يجىء معها ، وبلغ الشعر العربى غايته ولا تزال عربية عند الغاية

وعرض الباقلانى فى كتابه طويلة امرئ القيس (*) فانتقد منها أبياتاً

(*) أى معلقته ، وهذه القصائد التى تسمى المعلقات لم تكتب ولم تعلق كما سنبينه فى تاريخ آداب العرب

[قلت : انظر الجزء الثالث]

كثيرة، ليدل بذلك على أن أجود شعر وأبدعه وأفصحه وما أجمعوا على تقدمه فى الصناعة والبيان، هو قبيل آخر غير نظم القرآن لايمتنع من آفات البشرية ونقصها وعوارها؛ فركب فى ذلك رأسه ورجليه معاً ... فأصاب وأخطأ، وتعسّف وتهدّى، وأنصف وتحامل؛ وكل ذلك لمكانة امرئ القيس فى ابتكاره البيانى الذى لايمكن أن يدفع عنه؛ ولما انتقد قوله:

وبيضة خدر لايرام خباؤها　　تمتعت من لهوٍ بها غيرَ معجَل

قال: « فقد قالوا عَنَى بذلك أنها كبيضة خدر فى صفائها ورقتها، وهذه كلمة حسنة ولكن لم يَسبق إليها بل هى دائرة فى أفواه العرب ». ألا ليت شعرى هل كان الباقلانى يسمع من أفواه العرب فى عصر امرئ القيس قبل أن يقول (وبيضة خدر)؟

على أن الكناية عن الحبيبة (ببيضة الخدر) من أبدع الكلام وأحسن مايؤتَى العقلُ الشعرى، ولو قالها اليوم شاعر فى لندن أو باريس بالمعنى الذى أراده امرؤ القيس — لابما فسرها به الباقلانى — لاستُبدعت من قائلها ولأصبحت مع القُبْلة على كل فم جميل؛ بل هم يمرون فى بعض بيانهم من طريق هذه الكلمة، فيكنون عن البيت الذى يتلاقى فيه الحبيبان (بالعُشّ)، وما يُتخذ العش إلا للبيضة. إنما عنى الشاعر العظيم أن حبيبته فى نعومتها وترفها ولين ماحولها، ثم فى مسّها وحرارة الشباب فيها، ثم فى رقتها وصفاء لونها وبَريقها، ثم فى قيام أهلها وذويها عليها ولزومهم إياها، ثم فى حذرهم وسهرهم، ثم فى انصرافهم بجملة الحياة إلى شأنها وبجملة القوة إلى حياطتها والمحاماة عنها — هى فى كل ذلك منهم ومن نفسها كبيضة الجارح فى عشه، إلا أنها بيضة خدر، ولذلك قال بعد هذا البيت:

تجاوزت أحراساً إليها ومعشراً　　علىّ حراصاً لويسرّون مقتلى

فتلك بعض معانى الكلمة وهى كما ترى، وكذلك ينبغى أن يفسر البيان .....

البؤســــــاء[1]

ترجم حافظ هذا الجزء الثانى من البؤساء فطوى به الأول، وكانوا يحسبون الأول قد عقمت بمثله البلاغة فلا ثانى له. وبين الجزءين زمن لو اتسع به أديب فى قراءة كتب الأدب لاستوعبها كلها ؛ فكأن ارتفاع السن بحافظ فى هذه المدة جعل منه فى قوة الأدب حافظَين يترجمان معاً

وما البؤساء فى ترجمته إلا فكر فيلسوف تعلق فى قلم شاعر فانعطفت عليه حواشى البيان من كل نواحيه، وجاء ماتدرى أشعراً من النثر أم نثراً من الشعر، وخرجت به الكتابة فى لون من الصفاء والإشراق كأنما تنحل عليه أشعة الضحى

ترجم حافظ فوضع اللغة بين فكره ولسانه، ووقف تحت سحابة من السحب التى خفق عليها جناح جبريل، فما تخلو كتابته من ظل يتنفس عليك برائحة الإعجاز : وتراه يتحدر مع الكلام ويتناول منه ويدع ، فما نزع به الكلام منزعاً إلا وجده متمكناً منه وأصابه حيث أصابه كالتيار جملة واحدة تلف أول النهر وآخره على مدّ مايجرى ؛ فهو حيث كان فى السهل وفى الصعب، غير أنه يستسر فى موضع ويستعلن فى موضع، ويجيش ويهدر ويترامى فى العمق فيدوى دوياً

ومن هنا يحسبهُ بعضهم يجنح إلى مايستجفى من الكلام ، وإلى استكراه بعض الألفاظ والتكلف لبعضها ؛ وإنما ذاك وضع من أوضاع اللغة ومذهب من مذاهب البلاغة، ولابد أن يشتد القول ويلين، وأن يكون فى أجراس الحروف مافى نغم الإيقاع : وما أشبه هندسة البيان بهندسة الطبيعة التى تغمز

(١) كتبها عن الجزء الثانى من البؤساء : وانظر مقالى المؤلف عن حافظ فى هذا الجزء

النهر وترمى بالبحر وتقذف بالجبل الأشم؛ وما الجبل لو حققت فى وجود التناسب الطبيعى إلا بحر قد تحجر فانتثرت أمواجه من صخوره، وكلا اثنيهما على مابين الصلابة واللين تعبير فى أساليب القوة عن القوة، وتوضيح لأقوى مالا يمكن أن يظهر، بأقوى مالا يمكن أن يخفى

يخطئ الضعاف من الكتاب وبخاصة فى أيامنا هذه ... إذا حسبوا الفصاحة العربية قبيلا واحداً من اللفظ الرقيق المأنوس؛ ولقد تجد بعض هؤلاء الضعفاء وإنه ليرى فى الكلام الجزل المتفصح مايرى فى جمجمة الأعاجم إذا نطقوا فلم يبينوا؛ وإنما هى العربية، وإنما فصاحتها فى مجموع مايطرد به القول؛ والفصاحة فى جملتها وتفصيلها إحكام التناسب بين الألفاظ والمعانى، والغرض الذى يتجه إليه كلاهما؛ فتى فصل الكلام على هذا الوجه وأُحكم على هذه الطريقة، رأيت جماله واضحاً بيناً فى كل لفظ تقوم به العبارة، من النسج المهلهل الرقيق، إلى الحبك المحكم الدقيق، إلى الأسلوب المندمج الموثق الذى يسرد فى قوة الحديد؛ إذ يكون كل حرف لموضعه، ويكون كل موضع لحرفه، ويكون كل ذلك بمقدار لايسرف، وقياس لايخطئ، ووزن لايختلف: وهذه هى طبيعة الفصاحة العربية دون سائر اللغات، وبها أمكن الإعجاز فى هذه اللغة ولم يمكن فى سواها

ومترجم البؤساء أحد الأفراد المعدودين الذين أحكموا هذه الطريقة ونفذوا إلى أسرارها، ففى كل موضع من كتابته موضع روعة، حتى ما تدرى أيكتب أم يصوغ أم يصور، وكأنه لاينقل من لسان إلى لسان بل من فكر إلى فكر، فترى أكثر جمله كأنها تضىء فيها المصابيح

ومن الخواص التى انفرد بها حافظ أنه ظاهر فى صنعة ألفاظه ظهور هيجو فى صنعة معانيه: إذ لاتجد غيره من المترجمين يتسع لهذا الأسلوب أو

يطيقه ؛ وأكثر الكتب المترجمة إلى العربية إنما تطمس على اسم المترجم قبل أن تكشف عن اسم المؤلف ، فلا يحيا الميت إلا بموت الحي ؛ وهم فى أكثر مايصنعون لايعدون أن يصححوا العامية أو يفصحوا بها قليلا ، فيستوى فى صنعة البيان أن يكون ناقل الكتاب هذا أو ذاك أو ذلك ، لأنهم سواسية ، ولا تؤتيك كتبهم أكثر مما يؤتيك الاسم المعلق على مسماه

غير أنك فى البؤساء ترى مع الترجمة صنعة غير الترجمة ، وكأنما ألف هيجو هذا الكتاب مرة وألّفهُ حافظ مرتين ، إذ ينقل عن الفرنسية ؛ ثم يفتنُّ فى التعبير عما ينقل ، ثم يُحكم الصنعة فيما يفتنّ ، ثم يبالغ فيما يُحكم ؛ فأنت من كتابه فى لغة الترجمة ، ثم فى بيان اللغة ، ثم فى قوة البيان ؛ وبهذا خرج الكتاب وإن مترجمه لأحق به فى العربية من مؤلفه ، وجاء وما يستطيع أحد أن ينسى أنه لحافظ دون سواه

وتلك طريقة فى الكتابة لايستعان عليها إلا بالأدب الغزير ، والذوق الناضج ، والبيان المطبوع ؛ ثم بالصبر على مطاولة التعب ومعاناة الكد فى تخير اللفظ وتجويد الأسلوب وتصفية العبارة ؛ فلقد ينفق الكاتب وقتاً فى عمر الليل ليخرج من آخره سطراً فى نور الفجر ، وبهذا الصنيع جاءت صفحات البؤساء على قلتها كشباب الهوى : لكل يوم منه فجره وشمسه ، ولكل ليلة قمرها ونجومها

✡ ✡ ✡

والذى نغتمزه فى هذه الترجمة أن الضجر يستبد أحياناً بصاحبنا فيستكرهه على غير طبعه ، ويرده إلى غير مألوفه ؛ ومن ثم يضطرب ذوقه وسليقته أو يذهب به عنهما ، فيعدل بالمعنى عن لفظه المعروف الذى استعمله الأدباء فيه ، كاستعماله قارن بين كذا وكذا ، وإنما يستعملون مثّل بينهما ، أو يخل بوزن الكلمة

فى ميزان الذوق، فترى العبارة اليابسة فى الجملة الخضراء التى ترف؛ وذلك ما لامطمع لأحد أن يسلم منه: لأنه أثر الضعف الإنسانى فيمن ارتهنوا أنفسهم بملابسة القوة العليا فى هذه الإنسانية

ولم يتنزه عنه كتاب إلا ذلك الكتاب العزيز الذى اهتزت له السموات السبع والأرض ومن فيهن

الملاح التائه (١)

إذا أردت أن أكتب عن شعر فقرأته، كان من دأبى أن أقرأه متثبتاً أتصفح عليه فى الحرف والكلمة، إلى البيت والقصيدة، إلى الطريقة والنهج، إلى ماوراء الكلام من بواعث النفس الشاعرة ودوافع الحياة فيها، وعن أى أحوال هذه النفس يصدر هذا الشاعر، وبأيها يتسبب إلى الإلهام، وفى أيها يتصل الإلهام به، وكيف يتصرف بمعانيه، وكيف يسترسل إلى طبعه، ومن أين المأتى فى رديئه وسقطه، وبماذا يسلك إلى تجويده وإبداعه

ثم كيف حدة قريحته وذكاء فكره والملكة النفسية البيانية فيه، وهل هى جبارة متعسفة تملك البيان من حدود اللغة فى اللفظ إلى حدود الإلهام فى المعنى، ملكة استقلال تنفذ بالأمر والنهى جميعاً، أوهى ضعيفة رخوة ليس معها إلا الاختلال والاضطراب، وليس لها إلاّ مايحمل الضعيف على طبعه المكدود كلما عنف به سقط به؟

أتبين كل هذا فيما أقرأ من الشعر، ثم أزيد عليه انتقاده بما كنت أصنعه

(١) ديوان الشاعر المهندس على محمود طه. وانظر «حياة الرافعى» ص١٧٦ - ١٧٨

أنا لو أنى عالجت هذا الغرض أو تناولت هذا المعنى، ثم أضيف إلى ذلك كله ما أثبته من أنواع الاهتزاز التى يحدثها الشعر فى نفسى؛ فإنى لأطرب للشعر الجيد الوثيق أنواعاً من الطرب لا نوعاً واحداً، وهى تشبه فى التفاوت ما بين قطرة الندى الصافية فى ورق الزنبقة وقطرة الشعاعة المتألقة فى جوهر الماسة وموجة النور المتألهة فى كوكب الزهرة

وأكثر الشعر الذى يُنظم فى أيامنا هذه لا يتصل بنفسى ولا يخف على طبعى، ولا أراه يقع من الشعر الصحيح إلاَّ من بعد، وهو منى أنا كالرجل يمر بى فى الطريق لا أعرفه: فلا ينظر إلىَّ ولا أنظر إليه، فما أبصر منه رجلاً وإنسانية وحياة أكثر مما أراه ثوباً وحذاء وطربوشاً! والعجيب أنه كلما ضعف الشاعر من هؤلاء قوِى على مقـدار ذلك فى الاحتجاج لضعفه، وأُلهم من الشواهد والحجج مالو أُلهم بعدده من المعانى والخواطر لكان عسى ...

فإذا نافرَت المعانى ألفاظها واختلفت الألفاظ على معانيها قال: إن هذا فى الفن ... هو الاستواء والاطراد والملاءمة وقوة الحبك؛ وإذا عوص وخانه اللفظ والمعنى جميعاً وأساء ليتكلف وتساقط ليتحذلق وجاءك بشعره وتفسير شعره والطريقة لفهم شعره قال: إنهُ أعلى من إدراك معاصريه، وإن عجرفة معانيه هذه آتية من أن شعره من وراء اللغة، من وراء الحالة النفسية، من وراء العصر، من وراء الغيب؛ كأن الموجود فى الدنيا بين الناس هو ظل شخصه لا شخصه، والظل بطبيعته مطموس مبهم لا يُبين إبانة الشخص. وإذا أهلك الشاعر الاستعارة وأمرض التشبيه وخنق المجاز بحبل ـ قال لك: إنهُ على الطريقة العصرية وإنما سدد وقارب وأصاب وأحكم. وإذا سمى المقالة قصيدة .... وخلط فيها خلطه وجاء بها فى أسوإ معرض وأقبحه وخرج إلى ما لا يطاق من الركاكة والغثاثة ـ قال لك: هـذه هى

وحدة القصيدة ، فهى كل واحد أفرغ إفراغ الجسم الحى : رأسه لا يكون إلاّ فى موضع رأسه ورجلاه لا تكون إلاّ فى موضع رجليه ...

تلك طبقات من الضعف تظاهرت الحجج من أصحابها على أنها طبقات من القوة ، غير أن مصداق الشهادة للأقوياء عظامهم المشبوحة ، وعضلاتهم المفتولة ، وقلوبهم الجريئة ، أما الألسنة فهى شهود الزور فى هذه القضية خاصة

* * *

هناك ميزان للشاعر الصحيح وللآخر المتشاعر : فالأول تأخذ من طريقته ومجموع شعره أنهُ ما نظم إلاّ ليثبت أنهُ قد وضع شعرا ، والثانى تأخذ من شعره وطريقته أنهُ إنما نظم ليثبت أنه قرأ شعراً ... وهـذا الثانى يشعرك بضعفه وتلفيقه أنه يخدم الشعر ليكون شاعراً ، ولـكن الأول يريك بقوته وعبقريته إلى الشعر نفسه يخدمه ليكون هو شاعرَه

أما فريق المتشاعرين فليمثل له القارئ بمن شاء وهو فى سعة ... وأما فريق الشعراء ففى أوائل أمثلته عندى الشاعر المهندس على محمود طه . أشهد : أنى أكتب عنه الآن بنوع من الإعجـاب الذى كتبت به فى المقتطف عن أصدقائى القدماء : محمود باشا البارودى ، وإسماعيل باشا صبرى ، وحافظ ، وشوقى ، رحمهم الله وأطال بقاء صاحبنا ؛ فهذا الشاب المهندس أوتى من هندسة البناء قوة التمييز ودقة المحاسبة ، ووهب ملكة الفصـل بين الحسن والقبح فى الأشكال بما علِمته من العلم وما علّمته من الذوق وهذا إلى جلاء الفطنة وصقال الطبع وتموج الخيال وانفساح الذاكرة وانتظام الأشياء فيها ؛ وبهذا كله استعان فى شعره وقد خان مهندساً شاعراً ، ومعنى هذا أنه خلق شاعراً مهندساً ؛ وكأن الله تعالى لم يقدر لهذا الشاعر الـكريم تعلم الهندسة ومزاولتها والمهارة فيها إلاّ لمـا سبق فى علمه أنه سينبغ نبوغه للعربية فى زمن الفوضى وعهد التقلل

وحين فساد الطريقة وتخلُّف الأذواق وتراجع الطبع ووقوع الغلط فى هذا المنطق لانعكاس القضية ، فيكون البرهانُ على أن هذا شاعر وذاك نابغة وذلك عبقرى — هو عينه البرهانَ على أن لا شعر ولا نبوغ ولا عبقرية ؛ وهذه فوضى تحتاج فى تنظيمها إلى (مصلحة تنظيم) بالهندسة وآلاتها والرياضة وأصولها والأشكال والرسوم وفنونها ، فجاء شاعرنا هذا وفيه الطب لما وصفنا ؛ فهو ينظم شعره بقريحة بيانية هندسية ، أساسها الاتزان والضبط ، وصواب الحسبة فيما يقدر المعنى ، وإبداع الشكل فيما ينشئ من اللفظ ، وألاَّ يترك البناء الشعرى قائماً ليقع إذ يكون واهناً فى أساسه من الصناعة ، بل ليَثبت إذ يكون أساسه من الصناعة فى رسوخ وعلى قدر

وديوان « الملاح التائه » الذى أخرجه هذا الشاعر لا ينزل بصاحبه من شعر العصر دون الموضع الذى أومأنا إليه : فما هو إلاَّ أن تقرأه وتعتبر ما فيه بشعر الآخرين حتى تجد الشاعر المهندس كأنه قادم للعصر محملاً بذهنه وعواطفه وآلاته ومقاييسه ليصلح ما فسد ، ويقيم ما تداعى ، ويرمم ما تخرَّب ، ويهدم ويبنى

* * *

ديوان الشاعر الحق هو إثبات شخصيته ببراهين من روحه ، وها هنا فى « الملاح التائه » روح قوية فلسفية بيانية ، تؤتيك الشعر الجيد الذى تقرؤه بالقلب والعقل والذوق ، وتراه كفاء أغراضه التى ينظم فيها ؛ فهو مكثر حين يكون الإكثار شعراً ، مقل حين يكون الشعر هو الاقلال ؛ ثم هو على ذلك متين رصين ، بارع الخيال ، واسع الإحاطة ، تراه كالدائرة : يصعد بك محيطها ويهبط لا من أنه نازل أو عال ، ولكن من أنه ملتف مندمج ، موزون مقدر ، وضع وضعه ذلك ليطوح بك

وهو شعر تعرف فيه فنية الحياة ، وليس بشاعر من لا ينقل لك عن الحياة نقلا فنيًّا شعرياً : فترى الشىء فى الطبيعة كأنه موجود بظاهره فقط ، وتراه فى الشعر بظاهره وباطنه معاً ؛ وليس بشعر ما إذا قرأتهُ ، واسترسلت إليه لم يكن عندك وجهاً من وجوه الفهم والتصوير للحياة والطبيعة فى نفسٍ ممتازة مدركة مصورة

ولهذا فليس من الشرط عندى أن يكون عصر الشاعر وبيئته فى شعره ، وإنما الشرط أن تكون هناك نفسه الشاعرة على طريقتها فى الفهم والتصوير ، وأنت تثبت هذه النفس بهذه الطريقة ان لها أن تقول كلمتها الجديدة ، وأنها مخولة له الحق فى أن تقولها ، إذ هى للعقول والأرواح أخت الكلمة القديمة : كلمة الشريعة التى جاءت بها النبوة من قبل

وليس فى شعر على طه من عصرياتنا غير القليل ، ولكن العجيب أنه لاينظم فى هذا القليل إلاَّ حين يخرج المعنى من عصره ويلتحق بالتاريخ ، كرثاء شوقى ، وحافظ ، وعدلى باشا ، وفوزى المعلوف ، والطيارين دوس وحجاج ، والملك العظيم فيصل ؛ فإن يكن هذا التدبير عن قصد وإرادة فهو عجيب ، وإن كان اتفاقاً ومصادفة فهو أعجب ؛ على أنه فى كل ذلك إنما يرمى إلى تمجيد الفن والبطولة فى مظاهرها ، متكلمة ، وسياسية ، ومغامرة ، ومالكة

أما سائر أغراضه فإنسانية عامة ، تتغنى النفس فى بعضها ، وتمرح فى بعضها ، وتصلى فى بعضها ؛ وليس فيها طيش ولا فجور ولا زندقة إلاَّ ... ظلالاً من الحيرة أو الشك ، كتلك التى فى قصيدة « الله والشاعر » ، وأظنه يتابع فيها المعرى ؛ ولست أدرى كم ينخدع الناس بالمعرى هذا ، وهو فى رأيى شاعر عظيم ، غير أن له بضاعة من التلفيق تعدل ماتخرجه « لانكشير » من بضائعها إلى أسواق الدنيا

ومما يعجبنى فى شعر على طه أنه فى مناحى فلسفته وجهات تفكيره يوافق رأيى الذى أراه دائماً ، وهو أن ثورة الروح الانسانية ومعركتها الكبرى مع الوجود — ليستا فى ظاهر الثورة ولا فى العراك مع الله كما صنع المعرى وأضرابه فى طيشهم وحماقتهم ، ولكنهما فى الهدوء الشعرى للروح المتأملة ، ذلك الهدوء الذى يجعل الطبيعة نفسها تبتسم بكلام الشاعر كما تبتسم بأزهارها ونجومها ، ويجعل الشاعر أداة طبيعية متخذة لكشف الحكمة وتغطيتها معاً ؛ فإن العجيب الذى ليس أعجب منه فى التدبير الإلهى للنفوس الحساسة — أن زخرفة الشعر وما يجرى مجراه فى الفن إنما هى ضرب من زخرف الطبيعة حين تبتدع الشكل الجميل لتتمم أغراضها من ورائه : ولو ثارت الأزهار — مثلاً — على الوجود وخالقه ثورة أولئك الشعراء لما صنعت شيئاً غير إفساد حكمتها هى وما يتصل بهذه الحكمة من المصالح والمنافع ، ولن تنتصر إلا ببقائها أزهاراً ، فذلك حربها وسلمها معا .

٭ ٭ ٭

وأسلوب شاعرنا أسلوب جزل ، أو إلى الجزالة ، تبدو اللغة فيه وعليها لون خاص من ألوان النفس الجميلة يزهو زهوه فيكثر منه فى النفس تأثيرها وجمالها ، وهذه هى لغة الشعر بخاصته ؛ ولا بد أن ننبه هنا إلى معنى غريب ، وذلك أنك تجد بعض النظامين يحسنون من اللغة وفنون الأدب ، فإذا نظموا وخلا نظمهم من روح الشعر — ظهرت الألفاظ فى أوزانهم وكأنها فقدت شيئاً من قيمتها ، كأن موضعها فى هذا النظم غير موضعها فى اللغة ، وما اختلف اللفظ ولا يعيبه [illegible] موضعه ثم هو الذى أعلن إفلاسه ، إذ أقامه مقام الذى يريد أن يعطى ثم هو إذا وقف لا يصنع شيئاً إلا أن يعتذر بأنه لم يجد ما يعطيه ... فهذا كان رجلا من الناس وكان فى ستر وعافية ، فلما وقف

موقفه انقلب مدلساً كاذباً مدَّعياً فاختلفت به الحال وهو هو لم يتغير

وما الأسلوب البيانى إلّا وسيلة فنية لمضاعفة التعبير ، فإن لم يكن هذا ما يعطيه كان وسيلة فنية أخرى لمضاعفة الخيبة : وهذا ما تحسه فى كثير من شعر النظامين أو البديعيين فى العصور الميتة ، وتحسه فى الشعر الميت الذى لا يزال ينشر بيننا

وعلى طه إذا حرص على أسلوبه وبالغ فى إتقانه واستمرَّ بجريه على طريقته الجيدة متقدماً فيها ، متعمقا فى أسرار الألفاظ وما وراء الألفاظ ، وهى تلك الروعة البيانية التى تكون وراء التعبير وليس لها اسم فى التعبير ، معتبراً اللغة الشعرية ـ كما هى فى الحقيقة ـ تأليفاً موسيقيا لا تأليفاً لغوياً ... فإنه ولاريب سيجدمن إسعاف طبعه القوى ، وعون فكره المشبوب ، وإلهام قريحته المولدة ـ ما يجمع له النبوغ من أطرافه ، بحيث يعده الوجود من كبار مصوريه ، وتتخذه الحياة من بلغاء المعبرين عنها فى العربية ؛ ومن ثم تنظمه العربية فى سمط جواهرها التاريخية الثمينة ، ويصله السلك بشوقى وحافظ والبارودى وصبرى ، إلى المتنبي والبحترى وابن الرومى وأبى تمام ، إلى ماوراء ذلك ، إلى الجوهرة الكبرى المسماة جبل النور البيانى ، إلى امرئ القيس

وليس هذا ببعيد على من يقول فى صفة القلب :

ياقلب عندك أى أسرار ... مازلن فى نشر وفى طى
يا ثورة مشبوبة النار ... أقلقت جسم الكائن الحى
حملته العبء الذى فرقت ... منه الجبال وأشفقت رهبا
وأثرت منه الروح فانطلقت ... تحسو الحميم وتأكل اللهبا
وعجبت منك ومن إبائك فى ... أسر الجمال وربقة الحب
وتلقّت المتكبر الصلف ... عن ذلة المقهور فى الحرب

ووهمت ناراً ذات إيماض فبسطت كفك نحوها فزعا
مرت بعينك لمحة الماضى فوثبت تمسك بارقاً لمعا
والأرض ضاق فضاؤها الرحب وخلت فلا أهل ولا سكن
حال الهوى وتفرق الصحب وبقيت وحدك أنت والزمن

ولو ذهبنا نختار من هذا الديوان لاخترنا أكثره ، فقصائده ومقاطيعه تتعاقب ، ولكنْ تعاقب الشمس على أيامها : تظهر جديدة الجمال فى كل صباح ، لأن وراء الصباح مادة الفجر ، وكذلك تأتى القصائد من نفس شاعرها

••••

المقتطف والمتنبى (١)

المقتطف شيخ مجلاتنا ؛ كأنهن أولادُه وأحفاده ؛ وهو كالجدّ الأكبر : زمنٌ يجتمع ، وتاريخ يتراكم ، وانفرادٌ لا يُلحق ، وعلم يزيد على العلم بأنه فى الذات التى تفرض إجلالها فرضاً وتجب لها الحرمة وجوباً ويتضاعف منها الاستحقاق فيتضاعف لها الحق

وهل الجد إلا أبوّة فيها أبوّة أخرى ، وهل هو إلا عرش حىّ درجاته الجيل تحت الجيل ، وهل هو إلا امتداد مسافاته العصر فوق العصر ؟

والمقتطف يكبر ولا يهرم ، ويتقدم فى الزمن تقدم المخترعات ماضيةً بالنواميس إلى النواميس ، مقيدةً بالمبدأ إلى الغاية ؛ وهو كالعقل المنفرد بعبقريته : واجبه الأول أن يكون دائماً الأول ؛ فلقد أُنشئ هذا المقتطف وما فى المجلات العربية مايغنى عنه ، ثم طوى فى الدهر سبعة وثمانين مجلداً أقامها سبعة

(١) كتاب « المتنبى » للصديق محمود محمد شاكر .

وثمانين دليلا على أن ليس مايغنى عنه ؛ ثم أسفَّت الدنيا حوله بأخلاقها وطباعها ، وتحولت مجلات كثيرة إلى مثل الراقصات والمغنيات والممثلات ... وبقى هو على وفائه لمبدئه العلمى والسمو فيه والسمو به ، كأنما أُخذ عليه فى العلم والأدب ميثاقٌ كميثاق النبيين فى الدين والفضيلة ؛ فبين يديه الواجبُ لا الغرض ، وهمُّه الإبداعُ بقُوى العقل لا الاحتيال بها ، وهَدْيُه الحقيقة الثابتة فى الدنيا لا الأحلام المتقلبة بهذه الدنيا ، وطريقه فى كل ذلك طريق الفيلسوف ، من هدوء نفسه لا من أحوال الدهر ، فهو ماضٍ على اليقين ، نافذ إلى الثقة ، متنقل فى منزلة منزلةٍ من يقينه إلى ثقته ، ومن ثقته إلى يقينه

وقد بدأ المقتطف مجلده الثامن والثمانين بعدد ضخم أفرده للمتنبي (١) . ولئن كانت الأندية والمجلات قد احتفلت بهذا الشاعر العظيم ، فما أحسب إلا أن روح الشاعر العظيم قد احتفلت بهذا العدد من المقتطف

ولست أغلو إذا قلت إن هذه الروح المتكبرة قد أظهرت كبرياءها مرة أخرى . فاعتزلت المشهورين من الكتاب والأدباء ، ولزمتْ صديقنا المتواضع الأستاذ محمود شاكر مدة كتابته هذا البحث النفيس الذى أخرجه المقتطف فى زهاء ستين ومائة صفحة ، تدلُّه فى تفكيره ، وتوحى إليه فى استنباطه ، وتنبهه فى شعوره ، وتبصِّره أشياء كانت خافية وكان الصدق فيها ، ليردَّ بها على أشياء كانت معروفة وكان فيها الكذب ؛ ثم تعينه بكل ذلك على أن يكتب الحياة التى جاءت من تلك النفس ذاتها ، لا الحياة التى جاءت من نفوس أعدائها وحسادها

ولقد كان أول ماخطر لى بعد أن مضيت فى قراءة هذا العدد — أن المؤلف جاء بما يصح القول فيه إنه كَتَب تاريخ المتنبي ولم ينقله ؛ ثم لم أكد أُمعن فى القراءة حتى خيل إلىَّ أنه قد وضع لشعر المتنبي بعد تفسير

(١) يناير سنة ١٩٣٦

الشرّاح المتقدمين والمتأخرين تفسيراً جديدا من المتنبي نفسه ؛ وما الكلمة الجديدة فى تاريخ هذا الشاعر الغامض إلا الكلمة التى نشرها المقتطف اليوم

إن هـذا المتنبي لايفرغ ولا ينتهى ؛ فإن الإعجاب بشعره لاينتهى ولا يفرغ : وقد كان نفساً عظيمة خلقها الله كما أراد ، وخلق لها مادتها العظيمة على غير ماأرادت ، فكأنما جعلها بذلك زمناً يمتد فى الزمن

وكان الرجل مطويا على سر ألقى الغموض فيه من أول تاريخه ، وهو سر نفسه ، وسر شعره ، وسر قوته ؛ وبهذا السر كان المتنبي كالملك المغصوب الذى يرى التاج والسيف ينتظران رأسه جميعاً ، فهو يتقى السيف بالحذر والتلفف والغموض ، ويطلب التاج بالكتمان والحيلة والأمل

ومن هذا السر بدأ كاتب المقتطف ، فجاء بحثه يتحدَّر فى نسق عجيب ، متسلسلا بالتاريخ كأنه ولادة ونموّ وشباب ؛ وعرض بين ذلك شعر أبى الطيب عرضاً خيل إلىّ أن هذا الشعر قد قيل مرة أخرى من فم شاعره على حوادث نفسه وأحوالها ؛ وبذلك انكشف السر الذى كان مادة التهويل فى ذلك الشعر المفخم ، إذ كانت فى واعية الرجل دولة أضخمُ دولة ، عجز عن خلقها وإيجادها فخلقها شعرا أضخم شعر ، وجاءت مبالغاته كأنها أكاذيب آماله البعيدة متحققة فى صورة من صور الإمكان اللغوى

ومن أعجب ما كشفه من أسرار المتنبي سرُّ حبه ، فقال : إنه كان يحب خولة أخت الأمير سيف الدولة ، وكتب فى ذلك خمس عشرة صفحة كبيرة ، وكأنها لم تُرضه فقال إنه كان يؤمل أن يكتب هذا الفصل فى خمسين وجها من المقتطف ؛ وهذا الباب من غرائب هـذا البحث ، فليس من أحد فى الدنيا المكتوبة (أى التاريخ) يعلم هذا السر أو يظنه ، والأدلة التى جاء بها المؤلف تقف الباحثَ المدقق بين الإثبات والنفى ؛ ومتى لم يستطع المرء نفياً ولا

إثباتا فى خبر جديد يكشفه الباحث ولم يهتد إليه غيره ، فهذا حسبك إعجاباً يُذكر ، وهذا حسبه فوزاً يُعدّ

ولعمرى لو كنت أنا فى مكان المتنبي من سيف الدولة لقلت إن المؤلف قد صدق ... فهنالك موضع لابد أن يبحث فى القلب الشاعر الذى وضعت فيه الدنيا حكمتها ، وطوت فيه القوة سرها ، وبث فيه الجمال وحيَه ؛ وأصغر هذه الثلاث أكبر من الملوك والممالك ، ولكن الحبيبة أكبر منها كلها ...

محمـــــــد (٥)

عملُ الأستاذ توفيق الحكيم فى تصنيف هذا الكتاب أشبهُ شيء بعمل « كريستوف كولمب » فى الكشف عن أمريكا وإظهارها من الدنيا للدنيا : لم يخلق وجودها ولكنه أوجدها فى التاريخ البشرى ، وذهب إليها فقيل جاء بها إلى العالم ، وكانت معجزته أنه رآها بالعين التى فى عقله ، ثم وضع بينه وبينها الصبرَ والمعاناةَ والحذق والعلم حتى انتهى إليها حقيقة ماثلة

قرأ الأستاذ كتب السيرة وما تناولها من كتب التاريخ والطبقات والحديث والشمائل ، بقريحة غير قريحة المؤرخ ، وفكرة غير فكرة الفقيه ، وطريقة غير طريقة المحدِّث ، وخيال غير خيال القاصّ ، وعقل غير عقل الزندقة ، وطبيعة غير طبيعة الرأى ، وقصد غير قصد الجدَل ؛ فخلص له الفن الجميل الذى فيها ، إذ قرأها بقريحته الفنية المشبوبة ، وأمرَّها على إحساسه الشاعر المتوثب ، واستلَّها من التاريخ بهذه القريحة وهذا الإحساس كما هى

(٥) كتاب توفيق الحكيم

فى طبيعتها السامية متجهةً إلى غرضها الإلٓهى محققةً عجائبها الروحانية المعجزة

وقد أمدته السيرة بكل ما أراد ، وتطاوعت له على ما اشتهى ، ولانت فى يده كما يلين الذهب فى يد صائغه ؛ فجاء بها من جوهرها وطبيعتها ليس له فيها خيال ولا رأى ولا تعبير ، وجاءت مع ذلك فى تصنيفه حافلة بأبدع الخيال ، وأسمى الرأى ، وأبلغ العبارة ؛ إذ أدرك بنظرته الفنية تلك الأحوال النفسية البليغة ، فنظمها على قانونها فى الحياة ، وجمع حوادثها المدوَّنة فصوَّرها فى هيئة وقوعها كما وقعت ، واستخرج القصص المرسَلة فأدارها حوارًا كما جاءت فى ألسنة أهلها ؛ وبهذه الطريقة أعاد التاريخ حيا يتكلم وفيه الفكرة وملائكتُها وشياطينُها ، وكشف ذلك الجمالَ الروحانى فكان هو الفن ، وجلا تلك النفوس العالية فكانت هى الفلسفة ، وأبقى على تلك البلاغة فكانت هى البيان . كانت السيرة كاللؤلؤة فى الصدفة ، فاستخرجها فجعلها اللؤلؤة وحدها

* * *

إن هذا الكتاب يفرض نفسه بهذه الطريقة الفنية البديعة ، فليس يمكن أن يقال إنه لاضرورة لوجوده ؛ إذ هو الضرورى من السيرة فى زمننا هذا ، ولا يُغْتَمَزُ فيه أنه تحريف وتزوير وتلفيق ؛ إذ ليس فيه حرف من ذلك ، ولا يردُّ بأنه آراء يخطئ المخطئ منها ويصيب المصيب ؛ إذ هو على نص التاريخ كما حفظته الأسانيد ، ولا يُرمى بالغثاثة والركاكة وضعف النسق ؛ إذ هو فصاحة العرب الفصحاء الخُلَّص كما رُويت بألفاظها ؛ فقد حصنه المؤلف تحصيناً لا يُقتحم ، وكان فى عمله مخلصاً أتم الإخلاص ، أمينًا بأوفى الأمانة ، دقيقا كل الدقة ، حذِرًا بغاية الحذر

ومن فوائد هذه الطريقة أنها هيأت السيرة للترجمة إلى اللغات الأخرى

فى شكل من أحسن أشكالها يرغم هـذا الزمن على أن يقرأ بالإعجاب تلك الحكاية المنفردة فى التاريخ الإنسانى ؛ كما أنها قرَّبت وسهلت فجعلت السيرة فى نصها العربى كتابًا مدرسيا بليغاً بلاغة القلب واللسان ، مربيا للروح ، مرهفًا للذوق ، مصححا الملكة البيانية

وحسبُ المؤلف أن يقال بعد اليوم فى تاريخ الآدب العربى : إن ابن هشام كان أول من هذَّب السيرة تهذيبًا تاريخيا على نظم التاريخ ، وأن توفيق الحكيم كان أول من هذبها تهذيباً فنيا على نسق الفن

ديوان الأعشاب (*)

أبو الوفا شاعر ملء نفسه ، مافى ذلك شك ؛ مذهبه الجمال فى المعنى يبدعه كأنما يزهر به ، والجمال فى الصورة يخرجها من بيانه كما تخرج الغصون والأوراق من شجرتها ، وله طبع وفيه رقة ، وهو يجرى من البيان على عرق ، وسليقته تجعله ألزم لعمود الشعر وأقرب إلى حقيقته ، حتى إنه ليعد أحد الذين يعتصم الشعر العربى بهم ، وهم قليل فى زمننا ، فإن الشعر منحدر فى هـذا العصر إلى العامية فى نسقه ومعانيه ، كما انحدر التمثيل ، وكما انحدرت أساليب الكتابة فى بعض الصحف والمجلات

وللعامية وجوه كثيرة تنقلب فيها الحياة ، ومرجعها إلى روح الإباحة الذى فشا بيننا ونشأ عليه النشء فى هذه المدنية التى تعمل فى الشرق غير

(*) للشاعر المجيد محمود أبو الوفا ، وهذا المقال كان حديثاً مع بعض الأصدقاء عن الديوان ونشر فى الرسالة الغراء [قلت : وانظر «حياة الرافعى» ص ١٨٩ - ١٩١]

عملها فى الغرب ، فهى هناك رخص وعزائم ، وهى هنا تسمّح وترخّص ، فى ظل ضعيف من العزيمة : وإهمالُ البلاغة العربية الجميلة كما هى فى قوانينها ليس إلا مظهرًا لتلك الروح تقابله المظاهر الأخرى ، من إهمال الخلق ، وسقوط الفضيلة ، وتخنث الرجولة ، وزيغ الأنوثة ، وفساد العقيدة ، واضطراب السياسة ، إلى ما يجرى هذا المجرى مما هو فى بلاغة الحياة المبينة كالمرذول والمطرح والسفساف فى بلاغة الكلام الفصيح : كل ذلك فى مواضعه تحلُّل من القيود وإباحة وتسمُّح وترخص ، وكل ذلك عامية بعضها من بعض ، وكل ذلك لحن فى البلاغه والخلق والفضيلة والرجولة والأنوثة والعقيدة والسياسة .

والشعر اليوم أكثره (شعر النشر) فى الجرائد ، على طبيعة الجرائد لا على طبيعة الشعر ؛ وهذه إباحة صحافية غمرت الصحف ، وأخضعت أذواق كتابها لقوانين التجارة ، فإنهم لينشرون بعض القصائد كما تنشر (الإعلانات) : لا يكون الحكم فى هذه ولا هذه لبيان أو تمييز أو منفعة ، بل على قدر الثمن أو ما فيه معنى الثمن !

ومن مادية هذا العصر وطغيان العامية عليه ، أننا نرى فى صدر بعض الجرائد أحياناً شعراً لا يكون فى صناعة الشعر ولا فى طبقات النظم أضعف ولا أبرد منه ، ولا أدل على فساد الذوق الشعرى ، ولكنه على ذلك الأصل الذى أومأنا إليه يعد كلاماً صالحاً للنشر ، وإن لم يكن صالحا للشعر

وهكذا أصبحت العامية فى تمكنها تجعل من الغفلة حذقا تجاريا ، ومن السقوط علوًّا فلسفيا ، ومن الركاكة بلاغة صحفية ، ومتى تغير معنى الحذق ، وداخلته الإباحة ، ووقع فيه التأويل ، وأحيط بالتمويه والشبه ـ فالريبة حينئذ أخت الثقة ، والعجز باب من الاستطاعة ، والضعف معنى من التمكين ، وكل

مالا يقوم فيه عذر صحيح كان هو بطبيعة التلفيق عذرَ نفسه .

وأكثر ما تنشره الصحف من الشعر هو فى رأيى صناعة احتطاب من الكلام ... وقد بطل التعب إلا تعب التقشش والحمل ، فلم تعد هناك صناعة نفسية فى وشى الكلام ، ولا طبع موسيقى فى نظم اللغة ، ولا طريقة فكرية فى سبك المعانى : وبهذه العامية الثقيلة أخذ الشعر يزول عن نهجه ، ويضل عن سبيله ، ووقع فيه التوعر السهل ... والاستكراه المحبوب ... وصرنا إلى ضرب حديث من الوحشية ، هو الطرف المقابل للشعر الوحشى فى أيام الجاهلية ؛ فما دام الكلام غريباً ، والنظم قلقا ، والمأتى بعيداً ، والمعنى مستهلكا ، والنسج لايستوى ، والطريقة لاتتشابه — فذلك كله مسخ وتشويه فى الجملة وإن اختلفت الأسباب فى التفصيل ، وإذا كان المسخ جاهليا بالغريب من الألفاظ ، والنافر من اللغات ، والوحشى من المعانى : وكان عصريا بالركيك من الألفاظ ، والنازل من التعبير ، والهجين من الأساليب ، والسخيف من المعانى : ثم بالسقط والخلط والاضطراب والتعقيد — فهل بعض ذلك إلا من بعضه ؟ وهل هو فى الشعر الجميل إلا كسلخ الإنسان الذى مسخه الله فسلخه من معان كان بها إنساناً ، ليضعه فى معان يصير بها قرداً أو خنزيراً ليس عليه إلا ظاهر الشبه ، وليس معه إلا بقية الأصل ؟

فالقردية الشعرية ، والخنزيرية الشعرية ، متحققتان فى كثير من الشعر الذى ينشر بيننا ؛ ولكن أصحاب هذا الشعر لايرونهما إلا كمالًا فى تطور الفن والعلم والفلسفة ؛ وأنت متى ذهبت تحتج لزيغ الشعر من قبل الفلسفة ، وتدفع عن صرفه بحجة العلم ، وتعلل لتصحيح فساده بالفن — فذلك عينه هو دليلنا نحن على أن هذا الشعر قردى خنزيرى ، لم يستو فى تركيبه ، ولم يأت على طبعه ، ولم يخرج فى صورته ؛ وما يكون الدليل على الشعر من

رأى ناظمه وافتتانه به ودفاعه عنه ، ولكن من إحساس قارئه واهتزازه له وتأثره به .

* * *

والشاعر أبو الوفا جيد الطريقة ، حسن السبك ، يقول على فكر وقريحة ، ويرجع إلى طبع وسليقة ، ولكن نفسه قلقة فى موضعه الشعرى من الحياة ؛ وفى رأيى أن الشاعر لا يتم بأدبه ومواهبه حتى يكون تمامه بموضع نفسه الشعرى الذى تضعه الحياة فيه ؛ والكلام يطول فى صفة هذا الموضع ، ولكنه فى الجملة كمنبت الزهرة : لا تزكو زكاءها ولا تبلغ مبلغها إلا فى المكان الذى يصل عناصرها بعناصر الحياة وافية تامة ، فلا يقطعها عن شىء ولا يرد شيئاً عنها ؛ إذ هى بما فى تركيبها وتهيئتها إنما تتم بموضعها ذاك لتهيئته وتركيبه ، فإن كانت الزهرة على ما وصفنا ، وإلا فما بد من مرض اللون ، وهرم العطر ، وهزال النضرة ، وسقم الجمال .

ولولا أن الحكمة وفت الأستاذ أبا الوفا قسطه من الألم ، ووهبته نفسا متألمة حصرتها فى أسباب ألمها حصراً لا مفرّ منه — لفقدتْ زهرتُه عنصرَ تلوينها ، ولخرج شعره نظما حائلا مضطرباً منقطع الأسباب من الوحى ؛ غير أن جهة الألم فيه هى جهة السماء إليه ؛ ولو هو تكافأت جهاته المعنوية الأخرى ، وأعطيت كل جهة حقها ، وتخلصت مما يلابسها — لارتفع من مرتبة الألم إلى مرتبة الشعور بالغامض والمبهم ، ولكان عقلا من العقول الكبيرة المولدة التى يحيا فيها كل شىء حياة شعرية ذات حس .

ولكن مادامت الحياة قد وزنت له بمقدار ، وطففت مع ذلك وبخست ، فقد كان يحس به أن يقصر شعره على أبواب الزفرة والدمعة واللهفة ، لا يعدوها ، ولا يزاول من المعانى الأخرى ماضعفت أداته معه أن تتصرف ،

أو انقطعت وسيلته إليه أن تبلغ ؛ ويظهر لى أن أبا الوفا يحذو على حذو إسماعيل باشا صبرى ، وهو شبيه به فى أنه لم تفتح له على الكون إلا نافذة واحدة ؛ غير أن صبرى أقبل على نافذته ونظر ماوسعه النظر ، أما أبو الوفا فيحاول أن ينقب فى الحائط ليجعلهما نافذتين ....

أما أنه ليس من الشعر أن تنزل الحيرة الفلسفية عن منزلتها بين اليقين والعقل ، أو المشهود والمحجب ، أو الواقع والسبب ، أو الرسم والمعنى — فتنقلب حيرة معاشية تسم الأشكال والمعانى بسمتها المادية الترابية ، وتقع فى الشعر فتقحم بين شعر القلب العاشق ، وشعر الفكر المتأمل — شعرَ المعدة الجائمة ، وتضع بين أشواق الكون شوقها هى إلى الطعام والثياب والمال .....

على أنه كان الأمثل فى التدبير ، والأقرب إلى طريقة النفس الشاعرة أن يصرف أبو الوفا هذا الشعور المادى الذى يتلذع به ، فيحوله فيجعله باباً من حكمة السخر الشعرى بالدنيا وأهلها وحوادثها ، كما صرفه ابن الرومى من قبل فأخطأ فى تحويله ، فجعله مرة باباً من المدح والنفاق ، ومرة بابا من الهجاء والإقذاع .

ولو بذل الشاعر أبو الوفا مجهوده فى ذلك ، واتهم الدنيا ثم حاكمها ، ونص لها القانون ، وأجلس القاضى ، وافتتح المجلس ، ورفعها قضية ، ثم أخذها حكما حكما ، تارة فى نادرة بعد نادرة ، ومرة فى حكمة إلى حكمة ، وآونة فى سخرية مع سخرية — إذن لاهتدى هذا المتألم الرقيق إلى الجانب الآخر من سر الموهبة التى فى نفسه ، فأخرج مكنون هذه الناحية القوية منها ، فكان ولا ريب شاعرَ وقته فى هذا الباب ، وإمام عصره فى هذه الطريقة .

على أن فى صفحات ديوانه أشياء قليلة تومئ إلى هذه الملكة ، ولكنها مبثوثة فى تضاعيف شعره ، والوجه أن يكون وجهه فى تضاعيفها ؛ وإنه ليأتى بأسمى الكلام وأبدعه ، حين يعمد إلى ذلك الأصل الذى نبهنا إليه ، فيصرف لهفة نفسه إلى بعض وجوهها الشعرية ، كقوله فى «حلم العذارى» ، وهى من بدائعه ومحاسن شعره :

ها هما عيناك تغريـ ـنى على شتى الظنون
فيهما بحر وموج وسهول وحزون
ووضوح وغموض واضطراب وسكون
ومعان بينات ومعان لا تبين
وتهاويل فنون من رشاد وجنون
وأشعات حيارى من منى أومن حنين
ليت شعرى أى سر خلف هاتيك الجفون
آه إن السر أنبا عنه ذان الطائران
حينما مالا على غصـ ـنيهما يعتنقان ...

فهذه أبيات فى شعر الجمال كالمحراب ماؤه عابده ...

النجاح وكتاب سر النجاح (1)

ماخلق الله ذا عقل من بنى آدم إلا أودع فى تركيبه شيئين كالمقدمة والنتيجة ، وأعطاه بهما القدرة على الوسيلة والغاية، ليحيا من حىَّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة : ففى تركيب الإنسان قوة الرغبة فى النجاح وأن يتأتى إلى سره أو يبلغ منه أو يقاربه، وفى هذا التركيب عينه مايهتك به هذا الحجاب ويفضى منه إلى هذا السر ويجمع بك عليه ، وما أنكر أن النجاح قدر من الأقدار ، ولكنه قدر ذو رائحة قوية خاصة به يستروحها مَن تحت السماء وهو لايزال فى السماء وبينهُ وبين الأرض أمد ودهر وأسباب وأقدار كثيرة : ولولا أن هذه الخاصية فيه وفى الإنسان منه لما توفرت رغبة فى عمل ولا صح نشاط فى الرغبة ولا توجه عزم إلى النشاط ولا توثقت عقدة على العزم

غير أن فى الإنسان كذلك مايفسد هذه الخاصية أو يضعفها أو يعطلها تعطيلا ، فإذا هى تضل ولا تهدى وكانت تهدى ولا تضل ، وإذا هى زائغة عن الحق ملتوية عن القصد وكانت هى السبيل إلى الحق وهى الدليل على القصد ؛ ومايناك منها شىء إلا واحد من ثلاث : العجز ، وضعف الهمة ، واضطراب الرأى

فأما العجز فمنزلة تجعل الإنسان كالنبات يرتفع عن الأرض بعودِه ولكنه غائر فيها بأصول حياته ، وأما ضعف الهمة فمنزلة الحيوان الذى لاهم له إلا أن يوجد كيفما وجد وحيثما جاء موضعه من الوجود ، إذ هو يولد ويكدح ويكد ليكون لحماً وعظماً وصوفا ووبراً وشعرا أثاثا ومتاعا ، وكأنه ضرب

(1) المقطم : مايو سنة ١٩٢٣

آخر من النبات إلا أنه نوع آخر من المنفعة

وأما اضطراب الرأى فمنزلة بين المنزلتين ترجع إلى هـذه مرة وإلى هذه مرة وتقع من كلتيهما موقعها ، والعجز وضعف الهمة واضطراب الرأى فى لغة العقل معان ثلاثة لكلمة واحدة هى الخيبة ، وما أسرار النجاح إلا الثلاثة التى تقابلها وهى القوة والعزيمة والثبات

ولكنَّ فى هذا الإنسان طفولةً وشباباً ، وهما حالتان لابد منهما ، وهما من الضعف والنزق بطبيعتهما ، وفيهما يتثاقل الإنسان إلى أغراضه ، ويرتد عن صعابها ، وينخذل دون غاياتها ؛ وليس يأتى للطفل أن يدرك الرجلَ فى معانيه ، ولا للشاب أن يبلغ الحكيم فى كماله ؛ فكأن هذين ليس لهما أمل فى أسباب النجاح ، وكأن كليهما لايحسن أن يطوى فؤاده على شىء ولا أن يجمع رأيه على أمر ، غير أن من حكمة الله ورحمته أنه أرصد من نواميسه القوية لضعف الطفولة ونزق الشباب ماهو سناد يمنع ، وموئل يعصم ، وقوة تصلح ؛ وهو ناموس القدوة الذى يتمثل فى الأب والأم والصاحب والعشير والمعلم والكتاب ؛ لأن الله جلّت قدرته يَبُثُّ فى الخلق مايوجههم دائما إلى الاعتقاد ويحملهم عليه ويبصّرهم به ، حتى كأن الحياة كلها إنما هى ممارسة لفضيلة الإيمان به من حيث يدرى الإنسان أو لايدرى

وكتاب سر النجاح الذى ترجمه أستاذنا العلامة الدكتور يعقوب صروف فى سنة ١٨٨٠ وظهرت طبعته الرابعة فى هذه الأيام ، هو والله فى باب القدوة ناموس على حدة ، وما رأيت كتابا تلاءم نسجه واستوت أجزاؤه ووضع آخره على أوله وانصبّ كله إلى الغرض الذى كتب فيه وجاء مقطعا واحدا فى معناه وفائدته — كهذا الكتاب الذى يعلم الضعيف كيف يقوى ، والعاجز كيف يعتمد ، والمضطرب كيف يثبت ، والمحزون كيف يأمل ، واليائس كيف

يثق، والمنهزم فى الحياة كيف يقبل، والساقط كيف ينتهض؛ ويعلمك مع ذلك كيف تريح الكد بالكد، وكيف تسقط التعب بالتعب، وكيف تمضى عزيمتك وتعتقدها وتضرب كرة الأرض بقدميك وإن لم تكن ملكا ولا قائدا ولا فاتحا، وإن كنت من صميم السوقة، وإن كنت من فقرك وراء عتبة واحدة: لا أقول إن هذا الكتاب علم، فإن هذا القول يسقط به دون منزلته ولا يعدو فى وصفه أن يجعله مجموعا من الورق الصقيل على طبع جيد، مع أنه مجموع من الأرواح والعزائم وأعصاب القلوب؛ ولكنى أقول فى وصفه العلمى إن المدارس تخرج من الكتب تلاميذ... وهذا الكتاب يخرج من التلاميذ رجالا أقوياء أشداء معصوبين عصيب جذوع الشجر العاتى، من قوة النفس وصلابتها. وصحة العزيمة ومضائها، وتصميم الرأى ونفاذه؛ ومما يعطى من قوة الصبر والثبات ومطاولة التعب إلى أبعد حدود الطاقة الإنسانية

وما تقرؤه حق قراءته وتستوفيه على وجهه من التدبر والإمعان إلا خرجت منه وقد وضع فى نفسك شيئا أعظم من نفسك كائنا من كنت وكيف كنت، فإن تكن طفلا خرجت رجلا، وإن كنت رجلا خرجت حكيما، وإن كنت حكيما استحدث فى نفسك ما يجعلك بالحكمة فوق الدنيا وكنت بها فى الدنيا

قال الأستاذ المترجم فى مقدمته: «أشهد لأبناء وطنى أنى لم أنتفع بكتاب قدر ما انتفعت بهذا الكتاب». وهذه هى الكلمة التى لا يقول غيرها من يقرأ «سر النجاح»، ولا يمكن أن يقول غيرها؛ إذ هو مبنى فى وضع من فائدة النفس وما يرهف حدها ويبعث ملكاتها ويستنهض قواها ويستنفد وسائلها على ما يشبه القواعد التى لا تؤدى إلا إلى نتيجة واحدة من أين

اعتبرتها ، كاثنان واثنان أربعة ، وثلاثة وواحد أربعة ، وأربعة وحدات أربعة ، وهلمّ جرًّا

تلك شهادة المترجم ، أما أنا فأشهد لقد عرفت منذ زمن طالباً فى الأزهر ، فلما تعرّف إلىّ جعل يشكو ويتبرم وينفض لى نفسه ويقول : الأزهر وعلومه وفنونه ومسائله ومشاكله ، والمتون وما فيها ، والشروح وما إليها والحواشى وما يرد ويعترض ويجاب به ويقال فيه ، وكل كلمة بساعة من العمر ، وكل سطر بيوم ، وكل جزء بسنة ، وتركت ورائى كذا وكذا فداناً وأقبلت على كذا وكذا علماً ، فلا حصدت من هـذه ولا من تلك ! قلت : وما يمسكك والباب مفتوح ولا يسألك الأزهر إلى أين ولا تسألك الدنيا إذا خرجت إليها من أين ؟ قال : والله ماربطنى إلى هـذه الأعمدة خمس عشرة سنة كاملة على يأس ومضض إلا كتاب سر النجاح ؛ وما أمضيت نيتى مرة على وجه من وجوه العيش إلا رأيت هذا الكتاب قد ضرب وجه هذه النية فردها إلى هذا المكان وألقاها فى هـذا المستقر ، وما هممت بترك الأزهر إلا انتصب فى وجهى كل الأبطال الذين قرأت أخبارهم فيـه وأمسكونى ، لا من يدى ولا من رجلى ، ولـكن من اعتقادى وإيمانى وأملى !

قلت : فوالله لا يدعك حتى تنجح . وماربط الله على قلبك بهذا الكتاب وثبت فؤادك باليقين الذى فيه إلا وقد كتب لك الخير كله

أبو تمـام الشاعر

تحقيق مدّة إقامته بمصر (١)

لم يبق بُدٌّ من أن نبلغ بالكلام فى هذا المعنى إلى مقطع الحق فيه ، وأن ننفذ بتحقيقه إلى خاصته ، وننتهى من خاصته إلى برهانه ؛ فإن علماء الأدب قديماً وحديثا ألقوا خبر أبى تمام كلاماً مرسلا يجرى فى الرواية على طرقها المختلفة ، لا على التاريخ فى وجهه المتعين ، ويؤخذ على أنه خبر كالأخبار إن صدق فقد صدق وإن كذب فهو على مايجىء ، إذ لم يكن يعنيهم من الشاعر إلا شعره ، يحملونه عنه أو يأخذونه من رواته أو يجدونه فى ديوانه ؛ أما أخبار الشاعر فهى لا تتصل بالكتاب ولا بالسنة ، فتجتمع لهم كما تجتمع ، ويتناولونها كما اتفقت بما دخلها من الكذب والتزيد والتلفيق ، وما يكون فيها مما يظاهر بعضه بعضا أو ينقض بعضه على بعض ؛ والمحقق منهم من يروى الصدق والكذب معاً ليخرج من التبعة ، فلا بد من تبعة فى أحد النقيضين ؛ وليبرأ بصدق أحدهما من كذب أحدهما ، كما صنع ابن خلكان فى سياقة خبر أبى تمام وهذا نص عبارته :

كانت ولادة أبى تمام ... بجاسم وهى قرية بين دمشق وطبرية ، ونشأ بمصر ،

---

(١) لما أنشأ المؤلف مقاله عن شوقى (رحمه الله) غضب من غضب من أدباء مصر ، وزعموا أنه يقصد الغض من مكانة (مصر الشاعرة) ، ورماه من رماه فى وطنيته ، وحاول بعضهم أن يرد عليه رأيه فى الشعر المصرى بتعداد شعراء مصر العربية ، واستدعى شيء شيئا فجاء ذكر أبى تمام وما قالوا عن إقامته فى مصر ؛ فأنشأ المؤلف هذا المقال . وانظر ص ١٤٦ - ١٤٧ «حياة الرافعى »

قيل إنه كان يسق الماء بالجرة فى جامع مصر ، وقيل كان يخدم حائكا يعمل عنده بدمشق وكان أبوه خماراً بها .

والذين يعرفون طرق الرواية ومصطلحاتها يدركون من هذه العبارة أن ابن خلكان ينتفى من أن تكون عليه تبعة أحد الخبرين أو كليهما ؛ فإن الراوية متى افتتح الخبر (بقيل أو يقال) فقد دل على أن هذا الخبر غير مقطوع به ؛ إذ تسمى هذه الصيغة عندهم صيغة التمريض ، فهى لا تفيد الصحة ولا الجزم بها ؛ وظاهر أن أبا تمام لا يمكن أن يكون قد نشأ بمصر وبدمشق فى وقت معاً .

وابن خلكان قد وقف على الكتاب الذى عمله الصولى فى أخبار أبى تمام ونقل عنه ، وهو المرجع فى هذا الباب ؛ فلا بد أن يكون هذا الكتاب قد خلا من تحقيق هذه الرواية ، بل نحن نرجح أنه قد خلا منها بتة ، فلم يذكر أن نشأة أبى تمام كانت بمصر ؛ لأن صاحب الأغانى أغفلها ولم يشر إليها بحرف ، مع أنه ينقل عن الصولى نفسه ويقول فى كتابه (أخبرنى الصولى) ، وكذلك أهملها صاحب مروج الذهب ، وهو ينقل أيضاً عن الصولى ؛ وهذا يثبت لنا أن الخبر لم يكن معروفا يومئذ ، وإلا فما هو التاريخ عند أبى الفرج والمسعودى إن لم يكن هو هذا ؟

ولكنْ ذُكرت الرواية فى كتاب الأنبارى (طبقات الأدباء) ، واقتصر ناقلها على أن أبا تمام نشأ بمصر ، وأنه كان يسق الماء بها ، ولم يذكر رواية عمله بدمشق ؛ والأنبارى متأخر توفى سنة ٥٧٧ ، فهو بعد موت أبى تمام بثلاثة قرون ونصف ، فلا قيمة لروايته ، وشأنه شأن غيره من الناقلين ؛ ونحن نرى أن هذه الرواية قد صنعت فى مصر نفسها للغض من أبى تمام والزراية عليه ، وبقيت مروية فيها ثم حملت كما تحمل كل رواية لذاتها لا لتحقيقها ، سواء أكانت موجهة

على الحق أم معدولا بها عنه ؛ ولا أوضعَ فى المهنة من سقاية المـاء فى الجامع بالجرة ، ولعمرى ماذكرت (الجرة) هنا عبثاً ، والغلو فى التحقير هو بعينه الدليل على الـكذب فهذه الكلمة كأثر المجرم فى جريمته ...

وبعد فإنا نقرر أن هذا الشاعر العظيم لم ينشأ بمصر ، وأنه ولد وتأدب فى الشام ثم قدم إلى مصر شاعراً ناشئاً يتـكسب بأدبه كما قدم عليها غيره من الأندلس والمغرب والشـام والعراق ، وأنه لم يأت إلى مصر إلا فى ولاية عبد الله بن طاهر الأديب الشاعر القـائد العظيم ، وقد جُعلت له ولاية مصر والشام والجزيرة فى سـنة ٢١٠ أو ٢١١ على خلاف بين المؤرخين ، وكانت سن أبى تمـام يومئذ بين ٢١ و ٢٣ سنة ؛ وقـد كان ابن طاهر مغناطيسا للشعراء فى كل مكان ينزله ، حتى قال فيه بعضهم وعزم على الهجرة إلى مصر :

يقول رجال إن مصر بعيـدة ... وما بعدت مصر وفيها ابن طاهر
وأبعـد من مصر رجال تراهم ... بحضرتنا معروفهم غـير ظاهر
عن الخير موتى ماتبالى أزُرتَهم ... على طمع أم زرت أهل المقابر

وقد قصده أبو تمام إلى مصر ، كما قصده بعد ذلك إلى خراسان فى سنة ٢٢٠ ، وهى السـنة التى وضع فيها أبو تمـام أو فى التى تليها كتاب الحماسة كما حققناه ولا محل لذكره هنا .

ونحن نسوق أدلتنا على صحة ماذهبنا إليه فى نفى أن يـكون أبو تمام قد نشأ بمصر أو جاءها طفلا ، أو تـكون منها طبيعته فى الشعر ، أو يـكون لهـا أثر فى عبقريته :

١ ــ المجمع عليه بلا خلاف أن الشاعر ولد فى الشام ، وما دام كذا لقد قالت الطبيعة كلمتها فى أصل نبوغه وعبقريته ، فإن الأديب يولد ولا يُصنع كما يقول الانجليز ؛ وكل العلمـاء يعرفونه بالطائى ولا يطعن فى نسـبه إلا من

لايحقق، وهو نفسه يباهي بطائيته، وذلك كالشرح على كلمة الطبيعة فى أسباب نبوغه الوراثية ؛ وقد تنقل الرجل بين مصر والشام والعراق وخراسان وأرمينيا وغيرها، فما بلد أولى من بلد بأن يكون مثار عبقريته

٢ — إن الشاعر إنما يتكسب من شعره بمدح من يهتز له أو يعطى عليه، ولم يمدح أبو تمام أحداً من أهل مصر ؛ فإن كان مدح فيها عبد الله بن طاهر فإنما إليه قصد وله جاء ؛ وابن طاهر ليس مصريا، وقد جاء إلى مصر ورجع منها قبل أن يحول عليه الحول، فلو أن نشأة هذا الشاعر كانت بمصر وتأدبه كان فيها لأصبنا له مدحا كثيراً فى أعيانها وعلمائها ؛ إذ هو متى قال الشعر لا يتكسب إلا منه ؛ وفى ديوان الشاعر هجاء لابن الجلودى نظمه فى مصر، ولكن ابن الجلودى ليس مصرياً، بل هو قائد من قواد المأمون، ولاه محاربة الزط سنة ٢٠٥، ثم أقدم بعد ذلك مصر، ثم ولى عليها فى سنة ٢١٤ ؛ فكل المصرية فى شعر أبى تمام هى فى هجائه للشاعر المصرى يوسف السراج، ولعلها فى بعض مقاطيع أخرى من الغزل أو الوصف

٣ — ولد أبو تمام فى سنة ١٨٨ أو ١٩٠ ؛ ومن الثابت أنه كان بمصر فى سنة ٢١٤ حين نظم قصيدته الدالية والنونية فى رثاء عمير بن الوليد — وعمير هذا ليس مصريا، بل هو من خراسان، وكان بمصر عاملا لأبى إسحق المعتصم ابن الرشيد — فلو كان أبو تمام قد جاء إلى مصر طفلا كما يقال لكانت مدة قوله الشعر فيها لا تقل عن عشر سنوات، مع أن كل ما نظمه وهو فيها لا يبلغ عشر قصائد ؛ وهذا ديوانه بين أيدينا وإليه وحده المرجع فى الدلالة على صاحبه .

٤ — روى المرزبانى فى الموشح عن العباس بن خالد البرمكى قال : أول ما نبغ (أى قال الشعر) أبو تمام الطائى أتانى بدمشق يمدح محمد بن الجهم

فكلمته فيه فأذن له ؛ فدخل عليه وأنشده ، ثم خرج فأمر له بدراهم يسيرة ، ثم قال : إن عاش هذا ليخرجن شاعراً .

فهذا نصّ على أن الشاعر لم يكن يومئذ إلا فى ابتداء الشعر ، ولم يكن قد خرج شاعراً بعد وكان شعره من الطبقة التى يثاب عليها (بدراهم يسيرة) . وأبو تمام بعد ذلك هو نفسه الذى نثر عليه عبد الله بن طاهر ألف دينار فترفع أن يمسها وترك الخدم ينتهبونها ، وكان ذلك سبباً فى تغير ابن طاهر عليه .

٥ — نقل ابن خلكان فى ترجمة ديك الجن الشاعر الحمصى المشهور ، عن عبد الله بن محمد بن عبد الملك الزبيدى قال : كنت جالساً عند ديك الجن ، « يعنى بحمص » ، فدخل عليه حدث فأنشده شعراً عمله ، فأخرج ديك الجن من تحت مصلّاه درجا كبيراً فيه كثير من شعره ، فسلمه إليه وقال : يافتى تكسّب بهذا واستعن به على قولك . فلما خرج سألته عنه فقال : هذا فتى من أهل جاسم ، يذكر أنه من طيئ ، يكنى أبا تمام ، واسمه حبيب بن أوس ، وفيه أدب وذكاء وله قريحة وطبع . فهذا نص آخر على أن أبا تمام كان يومئذ حدثا ـ أى غلاما ـ وكان لايزال يطلب الأدب ، وقد أعانه أستاذه بنسخ من قصائده يتخرج بها ويحذو عليها ؛ فهو قد نشأ فى الشام وتأدب فيها

٦ — نظم أبو تمام قصيدته اللامية « أصب بحميا كأسها مقتل العذل » يصف تقتير الرزق عليه بمصر وخيبة أمله الذى أمله من المال ، وفى هذه القصيدة يحن إلى الشام ويستوق لها ويذكر أرض البقاعين وقرى الجولان التى نشأ فيها ؛ ولا يحن الشاعر لأرض إلا إذا كان فيها حبه أو شبابه وأدبه ، أما الطفولة فمنسية بآثارها ، إذلا آثار لها فى النفس متى شب المرء إلا بعيداً بعيداً ، وإنما الحنين لما تتعلق به الغريزة المميزة

٧ — فى هذه القصيدة يقول أبو تمام يخاطب أحبابه :

عدتنىَ عنكم مُكرهاغُربة النوى ... لها وطر فى أن تمرّ ولا تُحلى

والنوى فى لغة الشاعر هى رحيله للتكسب بشعره ؛ ولما رجع عوف بن محلم الشيبانى إلى وطنه بعد وفادته على عبد الله بن طاهر فى خراسان ؛ سئل عن حاله فقال : رجعت من عند عبد الله بالغنى (والراحة من النوى) ؛ ويؤيده قول أبى تمام فى قصيدته تلك :

نأيت فلا مالا حويت ولم أقم ... فأمتع، إذ فجعت بالمال والأهل

يعنى أنه اغترب مكرها يطلب الكسب لاغير ، ولا كسب للشاعر إلا من شعره ؛ فهو بنص كلامه عن نفسه قدم إلى مصر شاعراً يتكسب ويتعرض للغنى كما يصنع غيره

٨ — فى هذه القصيدة اللامية يقدم لنا أبو تمام رحمه الله دليلا يأكل الأدلة ، كأنما أُلهم من وحى الغيب أننا سنحتاج إلى هذا الدليل يوما لندفع به عنه : فهو يحن إلى حبيب له فى الشام ويقول إن غربة النوى التى وصفها :

أتت بعد هجر من حبيب تحركت ... صبابة ماأبقى الصدود من الوصل

أخمسة أحوال مضت لمغيبه ؟ ... وشهران بل يومان ثكل من الثكل !

يعنى أنه قال هذا الشعر وقد مضى على إقامته فى مصر خمس سنوات ، وكان قد جاء من الشام عاشقاً ذلك العشق الذى فيه (الصدود والوصل) ، والطفل لايحب مثل هذا الحب ولا يحن ذلك الحنين ؛ فإذا كان الشاعر قدم إلى مصر فى سنة ٢١٠ كما رجحناه، وسنه بين ٢١ و ٢٣ سنة ، فيكون قد نظم هذه القصيدة فى سنة ٢١٥ وعمره يومئذ بين ٢٦ و ٢٨ سنة ؛ فلو أن أبا تمام جاء من الشام طفلا صغيرا فكيف للطفل أن يقول مثل هذا

الشعر بعد خمس سنوات؟ وما هجر الحبيب « وصبابة ماأبقى الصدود من الوصل » ؟

٩ — مدح شاعرنا محمد بن حسان الضبي بقصيدة نونية يذكر فيها تنقله فى البلاد فقال منها :

بالشام أهلي ، وبغداد الهوى ، وأنا بالرقتين ، وبالفسطاط إخوانى
وما أظن النوى ترضى بما صنعت حتى تشافه بى أقصى خراسان !

فأنت ترى أنه جعل أهله بالشام ، وجعل أصدقاءه بمصر ؛ فلو أنه كان قد نشأ بها لجعل بها أهله ؛ إذ لاينشأ إلا مع أبيه وأمه ؛ والبيت الثانى دليل منه هو على أنه لم ينزل بمصر مقيما ولا متوطنا ، بل متنقلا كما نزل بغيرها

١٠ — تقول كتب الأدب فى مدارس الحكومة : إن أبا تمام نقل إلى مصر صغيرا فنشأ بها (وقد بيّنا فساد ذلك) ، ثم خرج إلى مقر الخلافة فمدح المعتصم ؛ وهذا غير صحيح ؛ فإن أبا تمام خرج من مصر قبل أن يدخلها المأمون فى سنة ٢١٦ حين جاءها وقتل بها عبدوس الفهرى ؛ فلو كان الشاعر يومئذ لمدح المأمون وذكر هذه الواقعة ؛ والمعتصم ولى الخلافة سنة ٢١٨ ، وديوان أبى تمام يثبت أنه فى سنة ٢١٧ كان بالعراق ، وقد مدح المأمون بقصيدته الميمية ، وذكر فى مدحه وقعة الروم ، وهذه كانت فى تلك السنة

يخلص من كل ماتقدم أن أبا تمام ولد فى الشام وتأدب فيها ، وقدم إلى مصر كبيرا يتكسب بالشعر ، فأقام بها بين خمس سنين وست ، ولم يجد له عيشاً بها بعد قتل عمير بن الوليد الذى قتل فى سنة ٢١٤ ؛ فإنه كان يعيش فى كنفه ، وقد صرح فى قصيدته النونية التى رثاه بها أنه يأمل من بعده فى ابنه محمد

فقدوم الشاعر إلى مصر كان فى سنة ٢١٠ أو حواليها ، وخروجه منها كان فى سنة ٢١٥ أوحواليها ، والله أعلم

القديم والجديد [1]

أقول للأستاذ الفاضل الدكتور طه حسين « فى رفق ولين » وفى مجلة أيضاً : إنى فى هذه الأيام ضنين بما أملك من وقتى أشد الضن ، أحسب السماء تتفجر من يومى فى ساعة كالفجر ، فلا يصرفنى عن تلك الساعة شىء ولا يصرفها عنى شىء ؛ إذ بين يدى كتاب فى الرسائل أعمل فيه وأستعين الله على الفراغ منه فى وقت معين ، وقد أظلّ أو كاد ؛ فلا يرين الأستاذ أنى أستطير هذه المرة كالطيرة الأولى ، فإن جناحى فى فضاء آخر ، وإن هذا الكتاب الذى أعالجه لا يجشمنى عرقا من القربة كما قالوا قديماً ، بل لعله فى ألمه أشبه « بعملية » تشريح فى القلب ، وستذهب الدقائق التى أكتب فيها هذه الكلمة مأسوفا عليها ، لأنها ذاهبة بصفحتين من كتابى .

وأما بعد فلا أرى من الإنصاف أن يعمد الدكتور إلى جمل يقتضبهن من مقالى فى مجلة الهلال ثم يهدفها للرد ، وكان عسى أن يدفع عنها شىء مما قبلها أو ما بعدها أو يشد منها بعض جهاتها أو يأتى بها فى سياق يبين عن معناها .

وزعم الأستاذ أنه لا يفهم من كلامى هذه الجملة « وأنت تعلم أن الذوق الأدبى فى شىء إنما هو فهمه ، وأن الحكم على شىء إنما هو أثر الذوق فيه ، وأن

---

(١) نشرها حين المعركة بينه وبين الدكتور طه حسين (بك) حول كتابيه : « رسائل الأحزان » ، و « السحاب الأحمر » ؛ وللدكتور طه فيهما وفى أسلوبهما رأى .

وانظر كتابى : « المعركة تحت راية القرآن » ، و « حياة الرافعى »

النقد إنما هو الذوق والفهم جميعاً . . . » ثم دار بهذه الكلمات دورة العاصفة وجعلها مسألة كمسألة الدور والتسلسل المشهورة ، بل جعلها من قبيل « قصة وقضية » ... فتراه يقول : ذوق هو الفهم ، وفهم هو الذوق ، وفهم ليس بالذوق ، وذوق ليس بالفهم ، وهلم صاعداً ونازلا ؛ وضرب لنا مثلا بالموسيقى فقال : « ما نظن أن الذين يذوقون الموسيقى ويطربون لها يفهمونها جميعاً » . وأنا أفسر كلامى بهذا المثل نفسه ، أقتصر عليه ولا أعدوه

نأتى الآن بأستاذ قد برع فى الموسيقى وخالطت أعصابه ولحمه ودمه ، وندفع إليه قطعة ملحنة ونقول له : اسمع وافهم واحكم وانتقد ؛ يسمعها مرة بعقله أو لعقله يتبين ما يكون فيها صواباً وما يكون خطأ ، ثم ما يعلو عن الصواب من الإجادة والإتقان ، وما ينحط عن الخطأ من الإساءة والتخليط : فهذا هو الفهم

ويسمعها مرة ثانية بحسه أو لحسه ، فيرى أثر ما فهم ، ويديرها فى ذوقه ليعرف كيف موقعها من الغرض الذى وضعت له ، فإنها لم توضع لتكون أصواتاً ، بل لتخلق من الأصوات شيئاً ؛ فهذا هو الذوق ، وهو كما تراه بعد الفهم وناشئ عنه . ومثل الأستاذ طه حسين لا يخفى عليه أن من يقول : إن الذوق فى شىء إنما هو فهمه ، أو إنما هو عن فهمه ، أو إنما ينشأ عن فهمه ، فالعبارة فى باب المجاز واحدة لا تختلف .

ثم إن أستاذ الموسيقى وقد سمع القطعة مرتين ، أو مرة كمرتين إن بلغ أن يكون له فى كل أذن واحدة أذنان ، يستفتى ذوقه الفنى ويحكم للقطعة أم عليها : فهذا هو أثر الذوق .

الآن قد حكم الأستاذ وانتقد وحزم برأيه ، فندب له فلان يقول : أخطأت وأسأت وجهلت وغفلت ، أو تعصبت وحططت فى هوى صاحب اللحن ؛ فمن أين جاء هذا الخلاف وكيف وقع هذا القول ؟

بل كيف ساغ للثانى أن يجهّل الأول ويرى غير رأيه ويحكم غير حكمه ، إلا إذا كان قد فهم غير فهمه فأنشأ له الفهم ذوقاً وأحدث له الذوق حكما وجاءت من هذه المقدمات تلك النتيجة التى نسميها النقد ، وما هى فى الحقيقة إلا الذوق والفهم جميعاً . فالذين يذوقون الموسيقى ويطربون لها ولا يفهمونها فقد فهموها على مقدار ما استقر فى نفوسهم من أساليب التطريب وما فيهم من المطاوعة لهذه العاطفة : أو لا تراهم يقولون فى أمثال هؤلاء إن لهم آذاناً موسيقية ؟ فهذه الأذن هى الفهم بعينه ، لأنها حاسة اجتمعت من مران طويل ، وقد تقوم فى بعض الناس على جهله بالموسيقى مقام عِلم برأسه

ويقول الأستاذ طه إنه قد يقرأ كلامى ويفهمه ولا يذوقه ولكن عدم الذوق هنا هو الذوق ؛ وليت شعرى ما معنى قول المتنبي : « ومن يك ذا فم مر ...... »

ولو كان الأستاذ وأمثاله هم فى هذا القياس المتر والكيلو متر ، لوجب ألا أجد من يذوق كلامى ويعجب به ويغالى فيه ويكون ذنباً من ذنوبى عند الله بإسرافه فى المغالاة ، وأنا واجد بكل واحد مثل الأستاذ طه عشرة ومائة من غيره ، ولو خرج هو إلى العالم لرأى وسمع ، وفيهم من هم أعلى منه كعباً وأمدّ عنقاً وأضخم هامة وأبدع بديعاً وأبلغ وأزكى وأعلم إلى عدد من هذه الواوات .

وعجبت للدكتور يريد أن لا يفهم من عبارتى كما يقول إلا أن « الذوق هو نفس الفهم ، فاللفظان يدلان على معنى واحد ، وإذن وإذن وإذن ... »

فهل يرى إذا قلت له : رأيت القمر وفلانة ليلة كذا فكانت إنما هى القمر — أنى أقصد بهما معنى واحدا فيقول لها : « وإذن » فليسا شيئين مختلفين وإنما هو شيء واحد ، وإذن فكيف صار لها وجه فى السماء ووجه فى الأرض وبقيت

مع ذلك امرأة من الإنس ؛ وإذن فهذا كلام لا يفهم ...

قال بعضهم إن « لو » تفتح عمل الشيطان ، يريد أنها أداة التمنى ، والمذهب الجديد سيضم « إذن » إلى « لو » ، ثم ماهى الكلمة الثالثة ياترى ؟

أنا مع إعجابى بالدكتور الفاضل أرى أنه مستهتر بأشياء ، وأن من خلقه أن مالا يرضى عنه وما لا يفهمه « ليسا شيئين مختلفين » . فإذا لم يكن من الفهم بد قال إنه لا يقتنع . فإذا ضايقته وضيقت عليه لم يبق إلا ما يقول النحاة فى « أىّ » التى حيرهم إعرابها وبناؤها : أى كذا خُلقت ...

وأنا وأمثالى إنما نحرص أشد الحرص على هذه اللغة لأنها أساس الأمة الإسلامية ، فلا نرضى إلا أن يكون هذا الأساس ثابتاً متيناً لا يزعزعه شىء ولا يثلمه شىء ولا يضعفه شىء : والدكتور وأمثاله لا يبالون أن تكون هذه الأمة كبيوت أمريكا المتحركة ...

لست أنكر التجديد ، بل لعل الدكتور يذكر مناقشتى إياه فى (الجريدة) وإصراره يومئذ أن ليس لأحد أن يُدخل فى اللغة كلمة ، وأن قول الناس تنزه ومتنزه ونزهة الخ كلها من الكلام العامى ، وتعلّقه بنص ابن سيده فى ذلك ، واستخراجى له نص ابن قتيبة وكلاما كثيراً من استعمال العلماء ، ثم قوله أحسنت ولكن لو جئتنى باللفظة فى كلام المبرد والجاحظ وفلان وفلان ما اقتنعت .

إنما أنكر شيئاً واحداً ، وهو أن يقال مذهب قديم ومذهب جديد ؛ فقد وسع الله على الناس فيما علموا وفيما جهلوا ، ولكن أصحابنا يريدون ألا نكتب إلا نمطاً بعينه ، ولا نذهب إلا مذهباً بعينه : لأن كل ذلك هو الجديد ؛ فأيهما خير لنا ولهم وللذين سيخرجون تاريخهم من قبورنا : أن نعتد اللغة والأدب كل ما اجتمع من قديم وجديد ونُحكم هذه اللغة ونحفظها وندفع

عنها ونجعل تجديدها كتجديد الحسناء في أثوابها وفي ألوانها دون تشوبه ولا مسخ ولا مس الجسم الجميل ، أم نقول : هذه الشفة وهذا الأنف وهذا الموضع الممتلئ الخدل وهذا الموضع الهضيم الناحل وتعال يادكتور هات المبضع والمشرط والمقص والمنشار والإبرة والخيط وإذن ...... ؟

لقد أذكر أني رأيت في بعض مقالات الأستاذ طه حسين أو في بعض مايقرظ به الكتب أنه قال إن القديم قد أثبت دائماً أنه أقوى وأمتن وأصح ، فهل رجل عن هذا الرأي أم ظهر له في الجديد ماهو أقوى وأمتن وأصح ؟ ثم ياأيها الملأ أفتوني ماهو هذا الجديد ؟ أهو ذاك الخيال الشارد المجنون ، أم تلك الشهوات المتوثِّبة المتلهفة ، أم ذلك الأسلوب الفج المستوخم ، أم العامية السقيمة الملحونة ؛ أم هو في الحقيقة بين رغبة في النبوغ قبل أن تتم الأداة وتستحكم الطريقة ، كما هو شأن فريق من الكتَّاب ، فيختصرون الطريق بكلمة واحدة هي المذهب الجديد ـ وبين رغبة في التعصب للآداب الأجنبية كما هو شأن فريق آخر ـ وبين رغبة في الحط من قيمة بعض الناس ورميهم بالجهل والسخف وأنه لا قيمة لما يجيئون به ، كل ذلك في تعبير علمي يصح أن يكون نظرية علمية ... وقبلهم قالها العرب في القرآن الكريم : « لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين » ! فقد شاءوا فلم يقولوا ؛ ولو أن المذهب الجديد فسر القرآن يوماً ... لقال في معنى أساطير الأولين إنهم أرادوا بها المذهب القديم ...

ويقول الدكتور طه إن هناك قوماً ينصرون المذهب الجديد وليس لهم من اللغات الأجنبية وآدابها حظ ، وحظهم من اللغة العربية وآدابها موفور ؛ ثم طلب رأيي في هؤلاء وماأصل مذهبهم الجديد ؛ فأقول : إني أعرف بعضهم ، وأعرف أن أدمغتهم لا يشبهها شيء إلا جلود بعض الكتب التي ليس فيها إلا

متن وشرح وحاشية : جلد مافوف على ورق، وورق ينطوى على قواعد محفوظة ، وهم أفقر الناس إلى الرأى ؛ وهذه علة حبهم للأساليب الجديدة القائمة على الترجمة ونقل الآراء من الغرب إلى الشرق ، وبالمعنى الصريح المكشوف : من الأدمغة المملوءة إلى الأدمغة الفارغة ؛ وفيهم بعض أذكياء ولكن ذكاءهم فى حواسهم ، فإن لم يكن هذا فليقولوا هم لماذا ؟

ولو أنك سألت العنكبوت : ماهى الظبية الحوراء العيناء التى تطمعين فيها وتنصبين لها كل هذه الأشراك والحبائل ؟ لقالت لك : مهلا حتى تقع فتراها ! فإذا وقعت رأيتها ثَمَّةَ ورأيتها ذبابة ...

ولكن ماذا يقول الدكتور فى الأستاذ الإمام الكبير الشيخ محمد عبده ؟ أكان يدعو إلى مذهب جديد فى اللغة والأدب ويفتتن بالروايات الغرامية وبأسلوب « إميل زولا » فى روايته المعروفة وبمثل رواية (الاجرسون)

إن كان الناس عند الدكتور من بعض الحجج فإن الشيخ وحده بأمة كاملة ممن يعنيهم

وأختتم هذه الكلمة بالشكر للأستاذ طه حسين والثناء عليه ، ثم إنى مسترسل فى عملى ، وهذا عذرى إليه

المرأة والميراث

قرأت فى المقطم كلمة الكاتب المعروف سلامة موسى فيما يزعمه إجابات مختصرة عن اعتراضات تهافت بها رأيه فى الدعوة إلى مساواة المرأة بالرجل فى الميراث ؛ وهو ينصح لمن يريد أن يناقشه أن يقرأ نص محاضرته فى السياسة الأسبوعية

وقد رجعت إلى نص المحاضرة فإذا الكاتب هو هو فى ضعف تفكيره وسوء تقليده ، يكاد لايميز بين الرأى الصحيح الثابت فى نفسه لأنه قائم على حكمته الباعثة عليه ، وبين الرأى المتغير فى كل نفس بحسبها لأنه قائم على منزع أو غفلة أو مرض فى النفس

ترى الكاتب لايدعو إلا إلى تقليد أوربا ، وتكاد عباراته فى ذلك لاتحصى ، ويقول إن « المصلح المثمر عندنا هو مقلد لأوربا لاغش فى تقليده » ، فليس إلا أوربا وتقاليدها وإذا لم يكن فى أوربا قرآن ولا إسلام فالإصلاح المثمر عند الكاتب ألا يبقى من ذلك شىء ...

« مقلد أوربا لاغش فى تقليده » ، وما هو الغش فى التقليد ؟ هو أن تستعمل رأيك وفكرك فتدع وتأخذ على بينة فى الحالين ، وأن تأبى أن تحمل على طبيعتك الشرقية مالا تصلح عليه ولا تقوم به ؛ وإذا انقلبت أوربا شيوعية أو إباحية وجب ألا نغش فى التقليد ... وإذا كانت الشمس لاتطلع ستة أشهر فى بعض جهات أوربا وتطلع فى مصر كل يوم وجب أن يكون المصرى أعمى ستة أشهر ...

والظاهر أن الكاتب يقول بالتقليد لأنه طبيعى فيه ... ورأيه فى الميراث

إنما هو ترجمة ... لعمل مصطفى كمال ؛ وإن كان مصطفى كمال قد أصلح الترك في سنوات كما يقولون فبرهان التاريخ لايخضع المشنقة ولا لمحاكم الاستقلال ولا يأتى إلا فى وقته الذى سيأتى فيه ، وسيرى الناس يومئذ مايكون وهما مما يكون حقيقة

ويرد الكاتب على رأى الأستاذ الأخلاقى رئيس تحرير المقطم فى خشيته أن يقتصر الإصلاح على القشور دون اللباب ، فيقول إنه « معتقد أن الأمة التى تشرع فى اتخاذ المدنية الحديثة يجب أن تبدأ بالقشور ... لأنها أسهل عليها من اللباب ، بل هى لاتستطيع غير ذلك » . أكذلك بدأت اليابان ؟ وهل كل الطباع كطبيعة بعض الناس ، تستطيع أن تعتاف قشور المدنية ... وتنصرف إلى مداقها وسفاسفها ؟

ولا ريب أن حضرته لايفهم الدين الإسلامى لأنه ليس من أهله ، فهو يقرنا على ذلك ، وهو بذلك يقرنا على أنه متطفل فى اقتراحه ؛ وإن الذى يقرأ فى محاضرته قوله : « إن الطبقة الغنية فى الأمة هى التى تقرر ديانة الأمة ... » يستيقن أنه لايفهم ديناً من الأديان ، وأنه قصير النظر فى أمور الاجتماع وأبواب السياسة ؛ وأن يمينه وشماله وأمامه ووراءه إن هى إلا جهات الزمام الذى ينقاد فيه ؛ فلاشخصية له ، وإنما يتابع وينقاد للآراء التى يترجم منها بلا نقد ولا تمييز

إن ميراث البنت فى الشريعة الإسلامية لم يقصد لذاته ، بل هو مرتب على نظام الزواج فيها ، وهو كعملية الطرح بعد عملية الجمع لإخراج نتيجة صحيحة من العملين معاً ، فإذا وجب المرأة أن تأخذ من ناحية وجب عليها أن تدع من ناحية تقابلها ؛ وهذا الدين يقوم فى أساسه على تربية أخلاقية عالية يُنشئ بها طباعا ويعدل بها طباعاً أخرى ، كما بيناه فى مقالنا المنشور فى مقتطف هذا

الشهر[1] — فهو يربأ بالرجل أن يطمع فى مال المرأة أو يكون عالة عليها ؛ فمن ثم أوجب عليه أن يمهرها وأن ينفق عليها وعلى أولادها ، وأن يدع لها رأيها وعملها فى أموالها ، لاتحد إرادتها بعمله ولا بأطماعه ولا بأهوائه ؛ وكل ذلك لايقصد منه إلا أن ينشأ الرجل عاملا كاسباً معتمداً على نفسه مشاركا فى محيطه الذى يعيش فيه ، قوياً فى أمانته ، منزهاً فى مطامعه ، متهيئاً لمعالى الأمور ؛ فإن الأخلاق كما هو مقرر يدعو بعضها إلى بعض ، ويعين شىء منها على شىء عاثله ، ويدفع قويها ضعيفها ، ويأنف عاليها من سافلها ؛ وقد قلنا مراراً إنه لايجوز لمتكلم أن يتكلم فى حكمة الدين الإسلامى إلا إذا كان قوى الخلق ، فإن من لايكون الشىء فى طبعه لايفهمه إلا فهم جدل لافهم اقتناع

للمرأة حق واجب فى مال زوجها ، وليس للرجل مثل هذا الحق فى مال زوجه ؛ والإسلام يحث على الزواج ، بل يفرضه ؛ فهو بهذا يضيف إلى المرأة رجلا ويعطيها به حقاً جديداً ، فإن هى ساوت أخاها فى الميراث مع هذه الميزة التى انفردت بها انعدمت المساواة فى الحقيقة ، فتزيد وينقص ؛ إذ لها حق الميراث وحق النفقة وليس له إلا مثل حقها فى الميراث إذا تساويا

فإن قلت كما يقول سلامة موسى إن فى الحق أن تنفق المرأة على الرجل وأن تدفع له المهر ثم تساويه فى الميراث ، قلنا : إذا تقرر هذا وأصبح أصلا يعمل عليه بطل زواج كل الفقيرات وهن سواد النسوة ، إذ لايملكن مايمهرن به ولا ماينفقن منه ؛ وهذا مايتحاماه الإسلام لأن فيه فساد الاجتماع وضياع الجنسين جميعاً : وهو مفض بطبيعته القاهرة إلى جعل الزواج للساعة ولليوم وللوقت المحدود ... ولإيجاد لقطاء الشوارع ، بدلا من أن يكون الزواج للعمر وللواجب وللتربية الرجل على احتمال المسؤولية الاجتماعية بإيجاد الأسرة وإنشائها والقيام عليها والسعى فى مصالحها

---

(١) ... ؟

من هنا وجب أن ينعكس القياس إذا أريد أن تستقيم النتيجة الاجتماعية التى هى فى الغاية لامن حق الرجل ولا من حق المرأة بل من حق الأمة ؛ وما نساء الشوارع ونساء المعامل فى أوربا إلا من نتائج ذلك النظام الذى جاء مقلوبا ، فهن غلطات البيوت المتخربة والمسئولية المتهدمة ؛ وهن الواجبات التى ألقاها الرجال عن أنفسهم فوقعت حيث وقعت !

وإذا انزاحت مسئولية المرأة عن الرجل انزاحت عنه مسئولية النسل ، فأصبح لنفسه لا لأمته ؛ ولو عم هذا لمسخ الاجتماع وأسرع فيه الهرم وأتى عليه الضعف ، وأصبحت الحكومات هى التى تستولد الناس على الطريقة التى تستنتج بها البهائم وقد بدأ بعض كتاب أوربا يدعون حكوماتهم إلى هذا الذى ابتلوا به ولا يدرون سببه ، وما سببه إلا ما بيَّنا آنفاً

ثم إن هنالك حكمة سامية ، وهى أن المرأة لا تدع نصف حقها فى الميراث لأخيها يفضلها به — بعد الأصل الذى نبهنا إليه — إلا لتعين بهذا العمل فى البناء الاجتماعى ؛ إذ تترك ما تركة على أنه لامرأة أخرى ؛ هى زوج أخيها ؛ فتكون قد أعانت أخاها على القيام بواجبه للأمة ، وأسدت للأمة عملا آخر أسمى منه بتيسير زواج امرأة من النساء

فأنت ترى أن مسئلة الميراث هذه متغلغلة فى مسائل كثيرة لا منفردة بنفسها ، وأنها أحكم الحكمة إذا أريدَ بالرجل رجلَ أمته وبالمرأة امرأة أمتها ، فأما إذا أريد رجلُ نفسه وامرأة نفسها ، وتقرر أن الاجتماع فى نفسه حماقة ، وأن الحكومة خرافة ، وأن الأمة ضلالة ، فحينئذ لا تنقلب آية الميراث وحدها بل تنقلب الحقيقة

ومما نعجب له أن سلامة موسى يتكلم فى محاضرته كأن كل الوالدين ذوو مال وعقار ، فنصف الأمة على هذا محروم نصفَ حقه وكأنه لا يعرف

أن السواد الأعظم من الناس لا يترك مايورث ، لا على الربع ولا على النصف ؛ وأن كثيراً ممن يموتون عن ميراث لايحيا ميراثهم إلا أياما من بعدهم ثم يذهب فى الديون ، إذ لاتركة مع دين ، وكثيرون لا يسمن ميراثهم ولا يغنى ، فلم تبق إلا فئات معينة من كل أمة لايجوز أن تنقلب من أجلها تلك الحكمة الاجتماعية التى هى من حظ الأمة كلها لقيام بعض الأخلاق عليها كما بسطناه

ومما تشمئز له النفوس الكريمة قول المترجم فى محاضرته : فلو كانت الفتيات يرثن مثل إخوتهن الذكور ، لكان (فى ثروتهن) إغراء للشبان على الزواج ...

إن الدين الإسلامى لايعرف مثل هذا الإسفاف فى الخلق ولا يقره ، بل هو يهدمه هدماً ويوجب على كل رجل أن يحمل قسطه من المسئولية مادام مطيقاً إن كره أو رضى ، ولعمرى إن تلك الكلمة وحدها من كاتبها لهى أدل من اسم المحل على بضاعة المحل ...

كلمة مؤمنة

فى ردّ كلمةٍ كافرة [1]

تلقيت كتابا هذه نسخته :

أكتب إليك متعجلا بعد أن قرأت « كلمة كافرة » فى كوكب الشرق الصادر مساء الجمعة ٢٧ من أكتوبر : كتبها متصدر من نوع قولهم : حبذا الإمارة ولو على الحجارة ... وسمى نفسه « السيد » ، فإن صدق فيما كتب صدق فى هـذه التسمية .

طعن القرآن وكفر بفصاحته ، وفضـل على آية من كلام الله جمـلة من أوضاع العرب ، فعقد فصله بعنوان « العثرات » على ذلك التفضيل ، كأن الآية عثرة من عثرات الـكتاب يصححها ويقول فيها قوله فى غلط الجرائد والناشئين فى الـكتابة ؛ وبرقع وجهه وجبن أن يستعلن ، فأعلن بزندقته أنه حديث فى الضلالة

غلى الدم فى رأسى حين رأيت الكاتب يلج فى تفضيل قول العرب : « القتل أنفى للقتل » على قول الله تعـالى فى كتابه الحـكيم : « ولـكم فى القصاص حياة » ، فذكرتُ هـذه الآية القائلة : « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم » وهذه الآية : « شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض » ؛ ثم هممت بالـكتابة فاعترضنى ذكرك ، فألقيت القلم لأتناوله بعد ذلك وأكتب به إليك .

---

(١) البلاغ : نوفمبر سنة ١٩٢٣ ، وانظر ص ١٧٢ - ١٧٤ «حياة الرافعى»

فى عنقك أمانة المسلمين جميعاً لتكتبين فى الرد على هذه الكلمة الكافرة لإظهار وجه الإعجاز فى الآية الكريمة ، وأين يكون موقع الكلمة الجاهلية منها ؛ فإن هذه زندقة إن تُركت تأخذ مأخذها فى الناس جعلت البر فاجرا ، وزادت الفاجر فجوراً « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة »

واعلم أنه لا عذر لك . أقولها مخلصاً ، يمليها علىّ الحق الذى أعلم إيمانك به ، وتفانيك فى إقراره والمدافعة عنه والذود عن آياته ؛ ثم أعلم أنك ملجأ يعتصم به المؤمنون حين تناوشهم ذئاب الزندقة الأدبية التى جعلت همها أن تلغ ولوغها فى البيان القرآنى .

ولست أزيدك ، فإن موقفى هذا موقف المطالب بحقه وحق أصحابه من المؤمنين ، واذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سُئل علماً علمه فكتمه جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار ! » أو كما قال

والسلام عليكم ورحمة الله　　　　　م . م . ش

* * *

قرأت هذا الكتاب فاقشعر جسمى لوعيد النبى صلى الله عليه وسلم ، وجعلت أردد الحديث الشريف أستكثر منه وأملأ نفسى بمعانيه ، وإنه ليكثر فى كل مرة ، فإذا هو أبلغ تهكم بالعلماء المتجاهلين ، والجهلاء المتعالمين ؛ وإذا هو يؤخذ من ظاهره أن العالم الذى يكتم علمه النافع عن الناس يجىء يوم القيامة ملجما ، ويؤخذ من باطنه أن الجاهل الذى يبث جهله الضار فى الناس يجىء يوم القيامة ملجما مبرذعاً ... أى : فهذا وهذا كلاهما من حمير جهنم !

والتمست عدد الكوكب الذى فيه المقال وقرأته ، ولم أكن أصدق أن فى العالم أديبا مميزاً يضع نفسه هذا الموضع من التصفح على كلام الله

وأساء الأدب فى وضع آية منه بين عثرات الكتاب ، فضلا عن أن يسمو لتفضيل كلمة من كلام العرب على الآية ، فضلا عن أن يلج فى هذا التفضيل ، فضلا عن أن يتهوس فى هذه اللجاجة ؛ ولكن هذا قد كان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

ولعمرى وعمر أبيك أيها القارئ ، لو أن كاتباً ذهب فأكل لخلط فتضلع فنام فاستثقل فحلم ... أنه يتكلم فى تفضيل كلمة العرب على تلك الآية ، واجتهد جهده وهو نائم ذاهب الوعى فلم يأل تخريفاً واستطالة ، وأخذ عقله الباطن يكنس دماغه ويخرج منه (الزبالة العقلية) ليلقيها فى طريق النسيان أو فى طريق الشيطان — لما جاء فى شأوه بأسخف ولا أبرد من مقالة « السيد » فسواء أوقع هذا التفضيل من جهة الهذيان والتخريف كما فعل كاتب النوم ، أم وقع من جهة الخلط والخبط كما فعل كاتب الكوكب — فهذا من هذا ، طباق سخافة بسخافة . .

نعم إن مقالة الكوكب أفضل من مقالة الكاتب الحالم ... ولكن قليل الزيت فى الزجاجة التى أهديت لجحا لا يعد زيتاً مادام هذا القليل يطفو على ملء الزجاجة من ... من البول !

ولقد تنبأ القاضى الباقلانى قبل مئات السنين بمقالة الكوكب هذه فأسفلها الرد بقوله :

« فإن اشتبه على متأدب أو متشاعر أو ناشئ أو مرمد فصاحة القرآن وموقع بلاغته وعجيب براعته فما عليك منه ، إنما يخبر عن نفسه ، ويدل على عجزه ، ويبين عن جهله ، ويصرح بسخافة فهمه وركاكة عقله » ما علينا ...

يقول كاتب الكوكب بالنص :

قالت العرب قديماً فى معنى القصاص : (القتل أنفى للقتل) ، ثم أقبل

القرآن الكريم على آثار العرب (هكذا) فقال : « ولكم فى القصاص حياةٌ يا أُولى الألباب لعلكم تتقون » وقد مضت سنةُ العلماء من أساطين البيان أن يعقدوا الموازنةَ بين مقاله العرب هذه وبين الآية الحكيمة أيتُهما أشبهُ بالفصاحة (هكذا)، ثم يخلصون منها إلى تقديم الآية والبيان القرآنى ... ثم قال : من رأى كاتب هذه الكلمة تقديمُ الكلمة العربية على الآية الغراء، (اللهم غفراً) على ثلج الصدر بإعجاز القرآن (كلمة للوقاية من النيابة ... وإلا فماذا بقى من الإعجاز وقد عجزت الآية ؟ زِهْ زِهْ يارجل ...)

ثم قال : إن فيما تُقَدَّم به الكلمةُ العربيةُ على الآية الحكيمة (اللهم غفراً) مزايا ثلاثاً : أُولى هذه المزايا الثلاث، هذا الايجازُ الساحر فيها ؛ ذلك أن « القتل أنفى للقتل » ثلاثُ كلمات لا أكثر، أما الآية فإنها سبعُ كلمات (كذا) : وعلى تلك فهى أقدم عهداً وأسبق ميلاداً من آية التنزيل (تأمل) حاشا كلام الله القديم، والايجازُ ميزةٌ أية ميزة ؛ الميزة الثانية للكلمة الاستقلالُ الكتابى وفقْد التعاقد بينها وبين شيء آخر سابق عليها، حتى إن المتمثل بها المستشهد يبتدئ بها حديثاً مستتما ويختتمه فى غير مزيد ولا فضل، فلا يتوقف ولا يستعين بغيرها ؛ أما الآية فإنها مسوقة مع ما قبلها بالواو، فهى متعاقدة مترابطة معه، لا يتمثل بهـا المتمثل حتى يستعين بشيء سواها، وليس الذى يعتمد على غيره فلا يستقل كالذى يعتمد على نفسه فيستقل ؛ الميزة الثالثة أن الكلمة ليست متصلة فى آخرتها بفضل من القول تغنى عنه، على حين تتصل الآية بمـا تغنى عنه من القول. ويعتد كالفصل، وهو كلمتا « ياأُولى الألباب » و « لعلكم تتقون »، وإن كان لا زيادة فى القرآن ولا فضول

ثم قال : إن مدرساً جاءه بالفصل الذى عقده الإمام السيوطى فى كتابه

الاتقان لتفضيل الآية على الكلمة وفيه قرابة خمسة وعشرين حجة ؛ قال إنها انحطت بعد أن رماها بنظره العالى إلى أربع « أما الباقيات فمن نسج الانتحال والتزيد » ؛ قال : وأولاها أن الآية أوجز لفظاً ، والكاتب يرى الآية « سبع كلمات فى تحديد ودقة » قال : « إذاً لقد بطلت حجة الإيجاز فى الآية » (اللهم غفراً) : قال : والثانية « أن فى الكلمة العربية تكراراً لكلمة القتل سلمت الآية منه » ورد الكاتب أن هذا التكرار « يتحلل طلاوة ويقطر رقة ، (قال) : وهذا فى فيه طعم العسل » (قلنا : وعليه الذباب ياسيدنا ...) والثالثة أن فى الآية ذكراً للقصاص بلفظه على حين لا تذكر الكلمة إلا القتل وحده ، وليس كل قتل قصاصاً ؛ ودفع الكاتب هذا بأن الكلمة انطوت على قتلين أحدهما ينفى صاحبه ، فذاك هو القصاص ؛ قال : « إذن فالكلمة والآية فى قصد القصاص يلتقيان فرسى رهان » ؛ والرابعة أن القصاص فى الآية أعم يشمل القتل وغيره ، وأقر الكاتب أن للآية فضلا على الكلمة من هذه الناحية ، ولكن الكلمة حكمة لاشريعة ، وهى من قضاء الجاهلية ، فليس عليها أن تبيّن مالم يعرفه العرب ، ولم يخلق بعد ، قال : « إذن فليست الكلمة مقصرة عن بيان ، متبلدة عن إحسان »

* * *

هذا كل مقاله بحروفه بعد تخليصه من الركاكة والحشو ومالا طائل تحته ، ونحن نستغفر الله ونستعينه ونقول قولنا ، ولكنا نقدم بين يدى ذلك مسئلة ، فمن أين للكاتب أن كلمة « القتل أنفى للقتل » مما صحت نسبته إلى عرب الجاهلية ، وكيف له أن يثبت إسنادها إليهم وأن يُوَثِّقَ هذا الإسناد حتى يستقيم قوله أن القرآن أقبل على آثار العرب ... ؟

أنا أقرر أن هذه الكلمة مولدة وضعت بعد نزول القرآن الكريم وأخذت

من الآية ، والتوليد بيّن فيها ، وأثر الصنعة ظاهر عليها ؛ فعلى الكاتب أن يدفع هذا بما يثبت أنها مما صح نقله عن الجاهلية ؛ ولقد جاء أبو تمام بأبدع وأبلغ من هذه الكلمة فى قوله :

وأخافَكُمْ كى تُغمِدوا أسيافكم إنَّ الدمَ المغْبرَّ يحرُسُهُ الدَّمُ

(الدم يحرسه الدم) ، هذه هى الصناعة وهذه هى البلاغة لا تلك ، ومع هذا فكلمة الشاعر مولَّدة من الآية ، يدل عليها البيت كله ؛ وكأن أبا تمام لم يكن سمع قولهم « القتل أنفى للقتل » وأنا مستيقنٌ أن الكلمة لم تكن وضعت إلى يومئذ . (*)

ولو أن متمثلا أراد أن يتمثل بقول أبى تمام فانتزع منه هذا المثل « الدم يحرسه الدم » ، أيكون حتما من الحتم أن يقال له : كلا ياهذا فإن البيت سبع كلمات ولا يصح انتزاع المثل منه ولا بد من قراءة البيت بمصراعيه كما يقول كاتب الكوكب فى الآية الكريمة ليزعم أنها لا تقابل الكلمة العربية فى الإيجاز ؟

إن الذى فى معانى الآية القرآنية مما ينظر إلى معنى قولهم القتل أنفى للقتل كلمتان ليس غير ، وهما « القصاص ، حياة » ؛ والمقابلة فى المعانى المتماثلة إنما تكون بالألفاظ التى تؤدى هذه المعانى دون ما تعلقت به أو تعلق بها مما يصل المعنى بغيره أو يصل غيره به ؛ إذ الموازنة بين معنيين لا تكون إلا فى صناعة تركيبهما ، ويخيل إلىّ أن الكاتب يريد أن يقول إن باقى الآية الكريمة لغوٌ وحشو ، فهو حيلة على الكلمتين : القصاص حياة ، يريد أن يقولها ولكنه غص بها ، وإلا فلماذا يلج فى أنه لابد فى التمثل ، أى لابد فى المقابلة ، من رد الآية بألفاظها جميعاً ؟

(*) سنثبت هذا بعد فى تعليق على هذه المقالة

فإذا قيل إنه لايجوز أن يتغير الإعراب فى الآية ، ويجب أن يكون المثل منتزعا منها على التلاوة ، قلنا : وإن مايقابل الكلمة منها حينئذ هو هذا . « فى القصاص حياة » ، وحملتها اثنا عشر حرفا مع ، أن الكلمة العربية أربعة عشر ؛ فالإيجاز عند المقابلة هو فى الآية دون الكلمة

وأما قوله تعالى : « ياأولى الألباب لعلكم تتقون » فلو كان الكاتب من أولى الألباب لفهمها وعرف موقعها وحكمتها وأن إعجاز الآية لايتم إلا بها ، إذ أريد أن تكون معجزة زمنية كما سنشير إليه ، ولكن أنّى له وهو من الفن البيانى على هذا البعد السحيق ، لايعلم أن آيات القرآن الكريم كالزمن فى نسقها : مافيه من شىء يظهره إلا ومن ورائه سر يحققه

ثم إن الإيجاز فى الكلمة العربية ليس من « الإيجاز الساحر » كما يصفه الكاتب ، بل هو عندنا من الإيجاز الساقط ؛ وليس من قبيل إيجاز الآية الكريمة ولا يتعلق به فضلا عن أن يشبهه ، إذ لابد فى فهم صيغة التفضيل من تقدير المفضل عليه ، فيكون المعنى « القتل أكثر نفياً للقتل من كذا » ، فما هو هذا « الكذا » أيها الكاتب المتعثر ؟

أليس تصور معنى العبارة وإحضارة فى الذهن قد أسقطها ونزل بها إلى الكلام السوقى المبتذل وأوقع فيها الاختلال ؟ وهل كانت إلا صناعة شعرية خيالية ملفقة كما أومأنا إلى ذلك آنفاً ، حتى إذا أجريتها على منهجها من العربية رأيتها فى طريقة هذا الكلام العربى الأمريكانى كقول القائل : « الفرح أعظم من الترح » ، « الحياة هى التى تعطى للحياة » ... ؟

بهذا الرد الموجز بطلت الميزات الثلاث التى زعمها الكاتب لتلك الكلمة ، وإن الكلمة نفسها لتبرأ إلى الله من أن تكون لها على الآية ميزة واحدة فضلا عن ثلاث

ولنفرض « فرضاً » أن الكلمة وثيقة الإسناد إلى عرب الجاهلية وأنها من بيانهم ، فما الذى فيها ؟

١ — إنها تشبه قول من يقول لك : إن قتلت خصمك لم يقتلك . وهل هذا إلا هذا ؟

وهل هو إلا بلاغة من الهذيان ؟

٢ — إنها تشبه أن تكون لغة قاطع طريق عارم يتوثب على الحلال والحرام ، لايخرج لشأنه إلا مقرراً فى نفسه أنه إما قاتل أو مقتول ، ولذلك تكرر فيها القتل على طرفيها ، فهو من أشنع التكرار وأفظعه .

٣ — إن فيها الجهل والظلم والهمجية ، إذ كان من شأن العرب ألا تُسلم القبيلة العزيزة قاتلا منها ، بل تحميه وتمنعه ، فتنقلب القبيلة كلها قاتلة بهذه العصبية ؛ فمن ثم لا يَنفى عارَ القتل عن قبيلة المقتول إلا الحرب والاستئصال قتلا قتلا وأكل الحياة للحياة ، فهذا من معانى الكلمة : أى القتل أنفى لعار القتل ، فلا قصاص ولا قضاء كما يزعم الكاتب

٤ — إن القتل فى هذه الكلمة لايمكن أن يخصص بمعنى القصاص إلا إذا خصصته الآية فيجىء مقترنا بها ، فهو مفتقر إليها فى هذا المعنى ؛ وهى تُلبسه الإنسانيةَ كما ترى ، ولن يدخله العقل إلا من معانيها ؛ وهذا وحده إعجاز فى الآية وعجز من الكلمة

✡ ✡ ✡

وقبل أن نبين وجوه الاعجاز فى الآية الكريمة ونستخرج أسرارها ، نقول لهذا الطفيلى : إنه ليس كل من استطاع أن يُطير فى الجو ورقة فى قصبة فى خيط — جاز له أن يقول فى تفضيل ورقته على منطاد زبلين ، وأن فيما تتقدم به على المنطاد الكريم ميزات ثلاثا : الذيل ، والورق الملون ، والخيط ...

يقول الله تعالى : « ولكم في القصاص حياة » .

١ — بدأ الآية بقوله (ولكم) ، وهذا قيد يجعل هذه الآية خاصة بالإنسانية المؤمنة التي تطلب كمالها في الإيمان ، وتلتمس في كمالها نظام النفس ، وتقرر نظام النفس بنظام الحياة ؛ فإذا لم يكن هذا متحققا في الناس فلا حياة في القصاص ، بل تصلح حينئذ كلمة الهمجية : القتل أنفى للقتل ، أي اقتلوا أعداءكم ولا تدعوا منهم أحداً ، فهذا هو الذي يبقيكم أحياء وينفي عنكم القتل ؛ فالآية الكريمة بدلالة كلمتها الأولى موجهة إلى الإنسانية العالية ، لتوجه هذه الإنسانية في بعض معانيها إلى حقيقة من حقائق الحياة

٢ ـ قال « في القصاص » ولم يقل في القتل ، وقيّده بهذه الصيغة التي تدل على أنه جزاء ومؤاخذة ، فلا يمكن أن يكون منه المبادأة بالعدوان ، ولا أن يكون منه مايخرج عن قدر المجازاة قلّ أو كثر

٣ ـ تفيد هذه الكلمة « القصاص » بصيغتها (صيغة المفاعلة) مايشعر بوجوب التحقيق وتمكين القاتل من المنازعة والدفاع ، وألا يكون قصاص إلا باستحقاق وعدل ؛ ولذا لم يأت بالكلمة من اقتص مع أنها أكثر استعمالا ، لأن الاقتصاص شريعة الفرد ، والقصاص شريعة المجتمع

٤ ـ من إعجاز لفظة القصاص هذه أن الله تعالى سمى بها قتل القاتل ، فلم يسمه قتلا كما فعلت الكلمة العربية ، لأن أحد القتلين هو جريمة واعتداء ، فنزه سبحانه العدلَ الشرعي حتى عن شَبهه بلفظ الجريمة : وهذا منتهى السمو الأدبي في التعبير

٥ ـ ومن إعجاز هذه اللفظة أنها باختيارها دون كلمة القتل تشير إلى أنه سيأتي في عصور الإنسانية العاملة المتحضرة عصر لايرى فيه قتل القاتل بجنايته إلا شراً من قتل المقتول ؛ لأن المقتول يهلك بأسباب كثيرة مختلفة ، على حين

أن أخذ القاتل لقتله ليس فيه إلا نية قتله ؛ فعبرت الآية باللغة التي تلائم هذا العصر القانوني الفلسفي ، وجاءت بالكلمة التي لن تجد في هذه اللغة مايجزئ عنها في الاتساع لكل مايراد بها من فلسفة العقوبة

٦ ـ ومن إعجاز اللفظة أنها كذلك تحمل كل ضروب القصاص من القتل فما دونه ، وعجيب أن تكون بهذا الاطلاق مع تقييدها بالقيود التي مرت بك ؛ فهي بذلك لغة شريعة إلهية على الحقيقة ، في حين أن كلمة القتل في المثل العربي تنطق في صراحة أنها لغة الغريزة البشرية بأقبح معانيها ؛ ولذلك كان تكرارها في المثل كتكرار الغلطة ؛ فالآية بلفظة (القصاص) تضعك أمام الألوهية بعدلها وكمالها ، والمثل بلفظة (القتل) يضعك أمام البشرية بنقصها وظلمها .

٧ ـ ولا تنس أن التعبير بالقصاص تعبير يدع الإنسانية محلها إذا هي تخلصت من وحشيتها الأولى وجاهليتها القديمة ، فيشمل القصاص أخذ الدية والعفو وغيرهما ؛ أما المثل فليس فيه إلا حالة واحدة بعينها كأنه وحش ليس من طبعه إلا أن يفترس .

٨ ـ جاءت لفظة القصاص معرَّفة بأداة التعريف ، لتدل على أنه مقيد بقيوده الكثيرة ؛ إذ هو في الحقيقة قوة من قوى التدمير الانسانية فلا تصلح الانسانية بغير تقييدها

٩ ـ جاءت كلمة (حياة) منوّنة ، لتدل على أن ههنا ليست حياة بعينها مقيدة باصطلاح معين : فقد يكون في القصاص حياة اجتماعية ، وقد يكون فيه حياة سياسية ، وقد تكون الحياة أدبية ، وقد تعظم في بعض الأحوال عن أن تكون حياة

١٠ ـ إن لفظ (حياة) هو في حقيقته الفلسفية أعم من التعبير (بنفي

القتل)، لأن نفى القتل إنما هو حياة واحدة ، أى ترك الروح فى الجسم ، فلا يحتمل شيئاً من المعانى السامية ، وليس فيه غير هذا المعنى الطبيعى الساذج ؛ وتعبير الكلمة العربية عن الحياة (بنفى القتل) تعبير غليظ عامى يدل على جهل مطبق لامحل فيه لعلم ولا تفكير ، كالذى يقول لك : إن الحرارة هى نفى البرودة

١١ — جعْل نتيجة القتل حياةً تعبيرٌ من أعجب ما فى الشعر يسمو إلى الغاية من الخيال ، ولكن أعجب ما فيه أنه ليس خيالا ، بل يتحول إلى تعبير علمى يسمو إلى الغاية من الدقة ، كأنه يقول بلسان العلم : فى نوعٍ من سلب الحياة نوعٌ من إيجاب الحياة .

١٢ — فإذا تأملت ما تقدم وأنعمت فيه تحققت أن الآية الكريمة لا يتم إعجازها إلا بما تمت به من قوله « يا أُولى الألباب » ، فهذا نداء عجيب يسجد له من يفهمه ، إذ هو موجَّه للعرب فى ظاهره على قدر ما بلغوا من معانى اللب ، ولكنه فى حقيقته موجه لإقامة البرهان على طائفة من فلاسفة القانون والاجتماع ، هم هؤلاء الذين يرون إجرام المجرم شذوذا فى التركيب العصبى ، أو وراثة محتومة ، أو حالة نفسية قاهرة ، إلى ما يجرى هذا المجرى ؛ فمن ثم يرون أن لا عقاب على جريمة ، لأن المجرم عندهم مريض له حكم المرضى ؛ وهذه فلسفة تحتملها الأدمغة والكتب ، وهى تحوِّل القلب إلى مصلحة الفرد وتصرفه عن مصلحة المجتمع ، فنبههم الله إلى ألبابهم دون عقولهم ، كأنه يقرر لهم أن حقيقة العلم ليست بالعقل والرأى ، بل هى قبل ذلك باللب والبصيرة ، وفلسفة اللب هذه هى آخر ما انتهت إليه فلسفة الدنيا

١٣ — وانتهت الآية بقوله تعالى « لعلكم تتقون » ، وهى كلمة من لغة كل زمن ، ومعناها فى زمننا نحن : يا أولى الألباب ، إنه برهان الحياة فى حكمة

القصاص تسوقه لكم ، لعلكم تتقون على الحياة الاجتماعية عاقبة خلافه ، فاجعلوا وجهتكم إلى وقاية المجتمع لا إلى وقاية الفرد .

✡ ✡ ✡

وبعد فإذا كان فى الآية الكريمة — على ما رأيت — ثلاثة عشر وجها من وجوه البيان المعجز ، فمعنى ذلك من ناحية أخرى أنها أسقطت الكلمة العربية ثلاث عشرة مرة .

القتل أنفى للقتل

ليست مترجمة

بعد أن نشرت مقالة (الكلمة المؤمنة) فى (البلاغ) ، كتب أديب فلسطين الأستاذ إسعاف النشاشيبى : إن هذه الكلمة مترجمة عن الفارسية ، وقد نقلها الثعالبى فى كتابه (الإيجاز والإعجاز) ، فنشرنا فى البلاغ هذا التعليق :

قال الأستاذ الكبير محمد إسعاف النشاشيبى فى كلمته للبلاغ أن عبارة « القتل أنفى للقتل » ليست بعربية ولا مولدة ، بل هى مترجمة ؛ أى فهى مطموسة الوجه من كونها أعجمية وقع الخطأ فى نقلها إلى العربية فكانت غلطة من جهتين

وإنه ليسرنى أن تكون فوق ذلك زنجية نقلت إلى المالطية ثم ترجمت إلى العربية ، فتكون غلطة من أربع جهات ، لا من جهتين فقط ... ولكن هذه

الكلمة لم يشر إلى أصلها غير (الثعالبي) ، وهو مع ذلك لم يقطع فيها برأى ، بل أشار إلى ترجمتها فى صيغة من صيغ التمريض المعروفة عند الرواة فقال : « يحكى أن فيما ترجم عن أزدشير ... » و (يحكى) هذه ليست نصاً فى باب الرواية ، وقد يكون هذا الامام اتقى الله فابتعد بالكلمة وطوح بها إلى ما وراء بلاد العرب ، أو تكون الكلمة ألقيت إليه على أنها مشتبه فى نسبتها ؛ ولوكانت العبارة مترجمة لتناقلها الأئمة معزوّة إلى قائلها أو لغتها التى قيلت فيها .

ولقد ذكرها العسكرى فى كتابه (الصناعتين) على أنها (من قولهم) ، أى العرب أو المولدين ؛ ونقلها الرازى فى تفسيره ، فقال : إن للعرب فى هذا المعنى كلمات ، منها « قتل البعض إحياء للجميع » ، وأحسنها « القتل أنفى للقتل » ؛ وكذلك جاء بها ابن الأثير فى كتاب « المثل السائر » ولم يَعْزُها ؛ وقال مفسر الأندلس أبو حيان فى تفسيره : إنها تروى برواية أخرى وهى : « القتل أوقى للقتل » ، وكل ذلك صريح فى أن خبر الترجمة قد انفرد به الثعالبى

ولا يقوم الدليل على ترجمتها إلا بظهور أصلها الفارسى ، فإن كان علم ذلك عند أحد فليتفضل به مشكوراً مأجوراً

(تنبيه) : نشرنا هذه الكلمة ومضت بعدها سنوات ولم يقف أحد على أن للعبارة أصلا فارسياً ، فلم يبق عندنا ريب أنها من صنيع بعض الزنادقة وقد ولّدها من الآية الكريمة ليُجريَها فى مجرى المعارضة ؛ وقد كتب الأستاذ الكبير عبد القادر حمزه صاحب جريدة (البلاغ) أن تلك العبارة حكمة مصرية قديمة ؛ ولا نمنع أن يكون هذا ، فإن بعض الحِكَم مما تَتَوارَدُ عليه العقول الانسانية النابغة ؛ إذ كانت الطبيعة البشرية كأنها تُمْلِيه ؛ غير أن العبارة ليست فى كلام الجاهلية القديمة ولا الحديثة ، وألفاظ المصرية غير ألفاظ العربية ؛ فلم يبق إلا توارد الخواطر ، والله أعلم .

القتل أنفى للقتل

ليست جاهلية

وبعد كلمتنا تلك عن الترجمة نشر أديب فى البلاغ أن الكلمة جاهلية ، فتعقبناه بهذا التعليق :

أثبت الأستاذ عبد العزيز الأزهرى فيما نشره فى البلاغ أن هذه الكلمة عربية فى دعواه ، واحتج لذلك بحجج ، أقواها زعمُه « أنها وردت بين ثنايا عهد القضاء الذى بعث به سيدنا عمر إلى أبى موسى الأشعرى » ؛ ولا ندرى أين وجد الكاتب كلمة « القتل » فضلا عن « القتل أنفى للقتل » ـ فى ذلك العهد المشهور المحفوظ ، وقد رواه الجاحظ فى البيان والتبيين ، وجاء به المبرد فى الكامل ؛ ونقله ابن قتيبة فى عيون الأخبار وأورده ابن عبدربه فى العقد الفريد ، وساقه القاضى الباقلانى فى الإعجاز ؛ وفى كل هـــذه الروايات الموثقة لم تأت الكلمة فى قول عمر ، بل لامحل لها فى سياقه ، وإنما جاء قوله « فإن أحضر بينة أخذت له بحقه وإلا وجهت عليه القضاء ، فإن ذلك أنفى للشك » .

أما سائر حجج الكاتب فلا وزن لها فى باب الرواية التاريخية وقد أصبح عاليها سافلها كما رأيت

والذى أنا واثق منه أن الكلمة لم تعرف فى العربية إلى أواخر القرن الثالث من الهجرة ، وهذا الامام الجاحظ يقول فى موضع من كتابه (البيان والتبيين) فى شرح قول على كرم الله وجهه « بقية السيف أنمى عدداً

أكثر ولداً » ما نصه : « ووجد الناس ذلك بالعيان للذى صار إليه ولده من نهك السيف وكثرة الذرء وكرم النجل ؛ قال الله تبارك وتعالى : « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب ، وقال بعض الحكماء : قتل البعض إحياء للجميع

ولم يزد الجاحظ على هذا ، ولو كانت الكلمة معروفة يومئذ لما فاتته كما هو صنيعه فى كتبه (*) ، خصوصاً وهى أوجز وأعذب مما نسبه لبعض الحكماء ؛ وهذه العبارة الأخيرة (قتل البعض ...) هى التى زعم الرازى فى تفسيره أنها للعرب ... فلا عبرة فى هذا الباب بكلام المفسرين ولا المتأخرين من علماء البلاغة ، وإنما الشأن للتحقيق التاريخى .

ونص الجاحظ فى كتاب « حجج النبوة » على أن قوماً منهم ابن أبى العوجاء ، وإسحاق بن طالوت ، والنعمان بن المنذر » وأشباههم من الأرجاس الذين استبدلوا بالعز ذلا ، وبالايمان كفراً ، وبالسعادة شقوة ، وبالحجة شبهة ، كانوا يصنعون الآثار ، ويولدون الأخبار ، ويبثونها فى الأمصار ، ويطعنون بها على القرآن » ؛ فهذا عندنا من ذاك

وإن لم ينهض الدليل القاطع على أن الكلمة مترجمة عن الفارسية بظهور أصلها فى تلك اللغة ورجوعه إلى ما قبل الاسلام ، فهى ولا ريب مما وضع على طريقة ابن الراوندى الزنديق الملحد الذى كان فى منتصف القرن الثالث

(*) أورد الجاحظ الآية الكريمة فى الجزء الثانى من كتابه (الحيوان) صفحة ٣١ ثم قال: إلى هذا المعنى رجع قول الحكيم الاول : بعض القتل إحياء للجميع . وهذا إلى ما تقدم هو نص على أن الجاحظ لم يسمع هذه الكلمة ولم يعرفها ، وقد توفى الجاحظ سنة ٢٥٥ للهجرة ، وألف كتابه (الحيوان) فى آخر عمره وهو مفلوج ، تكن الكلمة معروفة إلى ذلك العهد ، لا فى الرواية ولا فى الترجمة، مع انتهاء زمن الرواية واستبحار الترجمة عن الفارسية

وألّف فى الطعن على القرآن وقال فى كتابه « الزمردة » : « إنا نجد فى كلام أكثم بن صيفى شيئاً أحسن من ـ إنا أعطيناك الكوثر ـ » فكأن واضع الكلمة يقول على هذه الطريقة : « إنا نجد فى كلام العرب شيئاً أبلغ من ـ ولكم فى القصاص حياة ـ »

وهؤلاء المتطرفون على القرآن الكريم إنما يريدون بما يصنعونه من مثل هذه الكلمة أن يوجدوا للعامة وأشباههم من الأحداث والأغرار وأهل الزيغ والضعفاء فى العلم ـ سبيلا إلى القول فى نقض الإعجاز ، ومساغا إلى التهمة فى أن القرآن تنزيل ؛ والخطأ فى مثل هذا يتجاوز معنى الخطأ فى البيان إلى معنى الكفر فى الدين ، وذلك ما يرمون إليه ؛ وهذه بعينها هى طريقة المبشرين اليوم ، فكأن إبليس من عهد أولئك الزنادقة إلى عهد المبشرين لم يستطع أن يتغير ، ولا أن يكون ... أن يكون مجدِّداً ...

تم الجزء الثالث من وحى القلم

وبه تمّ الكتاب

فهرس الجزء الثالث من وحى القلم

صفحة

٣ السمو الروحى الأعظم

٣١ قرآن الفجر

٣٥ اللغة والدين والعادات

٥٠ الأسد

٥٨ أمراء للبيع

٦٧ العجوزان

٧٤ » (٢)

٨١ » (٣)

٨٨ » (تتمة)

٩٧ السطر الأخير من القصة

١٠٦ عاصفة القدر

١١٩ القلب المسكين

١٢٥ » » (٢)

١٣١ » » (٣)

١٣٧ » » (٤)

١٤٣ » » (٥)

١٤٩ » » (٦)

١٥٦ » » (٧)

١٦٢ » » (٨)

١٧٢ » » (تتمة)

١٧٩ انتصار الحب

١٨٤ قبلة بالبارود لا بالماء المقطر

١٨٩ شيطان وشيطانة

١٩٨ نهضة الأقطار العربية

٢٠٥ لاتجنى الصحافة على الأدب

صفحة

٢١٤ صعاليك الصحافة

٢٢٠ » » (٢)

٢٢٦ » » (٣)

٢٣٣ » » (تتمة)

٢٤٠ أبو حنيفة ولكن بغير فقه

٢٤٦ الأدب والأديب

٢٥٨ سر النبوغ فى الأدب

٢٧٣ نقد الشعر وفلسفته

٢٨٨ فيلسوف وفلاسفة

٢٩٣ شيطانى وشيطان طاغور

٣٠٠ فلسفة القصة

٣١٦ حافظ إبراهيم

٣٢٣ كلمات عن حافظ

٣٤٤ شوقى

٣٦٥ بعد شوقى

٣٨٧ صروف اللغوى

٣٩٩ الشيخ الخضرى

٤٠٦ رأى جديد فى كتب الأدب القديمة

٤١٥ أمير الشعر فى العصر القديم

٤٢٠ البؤساء

٤٢٣ الملاح التائه

٤٣٠ المقتطف والمتنبى

٤٣٣ محمد : لتوفيق الحكيم

٤٣٥ ديوان الأعشاب

صفحة

٤٤١ النجاح وكتاب سر النجاح
٤٤٥ أبو تمام الشاعر
٤٥٢ القديم والجديد
٤٥٨ المرأة والميراث

صفحة

٤٦٣ كلمة مؤمنة فى رد كلمة كافرة
٤٧٤ القتل أنفى للقتل ليست مترجمة
٤٧٦ القتل أنفى للقتل ليست جاهلية

تم الفهرس